تدبر
مركز تدبر للدراسات والاستشارات

تدبر سورة يوسف

تهذيب (آيات للسائلين)



أ.د. ناصر بن سليمان العمر

الطبعة الأولى
دار الحضارة للنشر والتوزيع

تدبر سورة يوسف

تهذيب (آيات للسائلين)

أ.د. ناصر بن سليمان العمر

تدبر

مركز تدبر للدراسات والاستشارات

تدبر سورة يوسف

تهذيب آيات للسائلين

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥

الرياض - الدائري الشرقي - مخرج ١٥

هاتف ٢٥٤٩٩٩٣ ٠١١ - تحويلة ٣٣٣

ناسوخ ٢٥٤٩٩٩٦ ٠١١

ص.ب.٩٣٤٠٤ الرمز: ١١٦٨٤

البريد الحاسوبي: tadabbor@tadabbor.com

www.tadabbor.com

. . . .

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العمر، ناصر بن سليمان

تدبر سورة يوسف (تهذيب آيات للسائلين).

/ ناصر بن سليمان العمر - ط١ - الرياض، ١٤٣٦هـ

١٢٨ص؛ ١٧ × ٢٢سم

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠١-٧٩٨٥-٥

١- قصص القرآن ٢- القرآن - سورة يوسف أ. العنوان

ديوي ٢٢٩,٥ ١٤٣٦/٤٤٣٥

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٤٤٣٥

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠١-٧٩٨٥-٥

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد فكنت قد رأيت أن أشرع في دروس أفسر فيها سورة يوسف؛ لما تضمنته من العبر التي تمس واقعنا، والبراهين التي تثبتها في نفوس المتسائلين، والهدى الذي ترشدهم إليه، والرحمة التي تنال من اهتدى بهداها منهم، كما قال ربنا عز وجل: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾ [يوسف: ٧]، ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝١١١﴾ [يوسف: ١١١]، فكانت سلسلة دروس بجامع خالد بن الوليد، بروضة الرياض، فرغت منها عام أربعة وعشرين وأربعمائة وألف، ثم شرعت بعد نحو عام في تسجيل حلقات بعنوان (آيات للسائلين)، بلغت بضعًا وخمسين حلقة، بثتها بعض الفضائيات في دول مختلفة والحمد لله، ثم بعد ذلك طلب عدد من الإخوة إخراج المادة في كتاب، ورأيت مناسبة ذلك، فحُرِّرت المادة بمعاونة المكتب العلمي، وأُضيف إليها وعدل فيها، وخرج الكتاب عام تسعة وعشرين وأربعمائة وألف، ولقي بحمد الله ثناء طيبًا من بعض أفاضل المتخصصين، إلاّ أني رأيت أن فيه طولًا واستطرادًا قد يعوق كثيرًا من الناس عن الانتفاع به، ولا سيما مع تفرُّق الهمِّ، وضعف الهِمم، وتوافر الصوراف في عصرنا هذا، فكان من همي تقريبه وتهذيبه بحيث لا يطول على عامة المسلمين، أو تقصر عنه أنفاس غير المتخصصين، أوطلاب العلم الجادين، وقد تيسر أخيرًا بتوفيق الله اختصاره

في هذا الكتاب، وقد كان المنهاج في تهذيبه الاقتصار على الفوائد التي تدعو إلى التدبر، وتنفع عامة الناس، ومن أهم ما جرى به العمل:

١- الاقتصار على القول الأقرب في أغلب المسائل التي عرضت فيها أقوال.

٢- حذف كثير من الاستطرادات الشعرية والتفصيلات اللغوية والشروح اكتفاء بخلاصتها.

٤- تقديم وتأخير بعض المواطن.

٥- الاقتصار على عبارات الأصل إلاّ في مواضع قليلة.

هذا والله أسأل أن يحقق المقاصد، ويصلح النيات، ويجزي من أسهم في هذا المشروع خير الجزاء، فقد تضافرت عليه همم وجهود، من مبدئه وحتى منتهاه، وكذلك الشكر موصول والدعاء بالخير حاصل لكل من أرسل بفائدة، أو نبه على شيء رأى التنبيه عليه.

وختامًا لكم معاشر قراء هذا الكتاب دعوة بأن يبارك الله فيكم، وأن يوفقنا وإياكم للعلم النافع والعمل الصالح، وأن يجعلنا من المقبلين على كتابه، المتدبرين لآياته، والحمد لله على آلائه، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وأصحابه.

وكتب: ناصر بن سليمان العمر
رئيس الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم

الجمعة ٠٥/ ٠٢/ ١٤٣٦هـ

naser@almoslim.net

أسباب اختيار السورة

لقد اخترت هذه السورة الكريمة لأسباب كثيرة، منها:

١- ما حوته آياتها من الاعتبار والاتعاظ والتذكر، ففيها الإكسير الذي يمكن أن يكون له عظيم الأثر في حياة الأمة؛ إذا أخذت به كما أخذ به محمد ﷺ، وإذا تأثرت به كما تأثر السلف، ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾ [يوسف: ١١١].

٢- ما حواه خبر يوسف عليه السلام مع صاحبي السجن من أصول منهج الدعوة، والدعاة في مشارق الأرض ومغاربها بحاجة إلى التذكير بذلك المنهج.

٣- ما فيها من التلازم الشديد بين الشدة والفرج من أول السورة إلى آخرها، ونحن بمسيس الحاجة إلى بث الأمل في الأمة، ففي السورة دعوة للتفاؤل وحسن الظن بالله تعالى، والناس بحاجة إلى من يبث تلك الروح في نفوس كَسَر بعضَها واقعُ كثير من المسلمين.

٤- معالجتها لثالوث خطير؛ كل واحد من أقطابه مهلكة، وقد منعت السورة بمجموعها من دخولها: التنازل، والاستعجال، واليأس.

٥- بيان الثبات في منهج يوسف عليه السلام واطراده وعدم تذبذبه، من أول حياته، حتى آخر لحظات عمره، والدعاة وطلاب العلم، بل الأمة كل الأمة مطالبة بالاستقامة والاطراد على المنهج الصحيح، ويتأكد ذلك في هذه الظروف التي تُقلّب فيها رياح الفتن القلوب وتصرِّفها.

٦- بيان السورة لأهمية القصة وأثرها على حياة الداعي والمدعو، والحاجة تدعو لاستخدام هذا الأسلوب القرآني من قبل الدعاة وطلاب العلم والمصلحين.

٧- ما حوته السورة من دروس سلوكية وأخلاقية وتربوية ونَفْسِيَّةٌ مهمة.

٨- ما حوته من قواعدَ وأصولٍ في السياسة الشرعية، التي نفتقر إليها كثيرًا في هذا العصر: في الشورى، في التخطيط، في بعد النظر، في التعامل مع الكافر، في العدل، الذي هو أساس قيام الدول... وغير ذلك.

٩- نجد في السورة أيضًا قواعد وأصولًا في معالجة الأزمات، بل إدارتها، على مستوى الفرد وعلى مستوى الأمة.

١٠- ما حوته السورة من بيان منهاج أهل الحق في الحكم على الرؤى.

١١- إشارة السورة الكريمة لمقومات النصر والتمكين، وأمتنا في أمس الحاجة لتأمُّلها والعمل بها؛ للخروج من هذه الهوة التي تردَّت فيها.

١٢- وأخيرًا، ما اشتملت عليه السورة من أغراض وموضوعات متعددة، وما تميزت به من خصائص ذكرها كثير من أهل العلم ويمكن الرجوع إليها في مصنفاتهم.

بين يدي السورة

اسم السورة ومناسبته:

اسمها سورة يوسف، ولا يعرف لها اسم خلافه، وبه سماها جماعة من الصحابة، وهذه السورة محورها قصة يوسف عليه السلام فهي أخص سور القرآن به، وهو أخص أنبياء الله بها، بل أخص مذكور فيها، فناسب أن تسمى باسمه.

عدد آياتها:

ذكر غير واحد أن سورة يوسف إحدى عشرة ومئة آية بلا خلاف[١].

وقت نزولها:

سورة يوسف مكية بالإجماع[٢]، نزلت بعد سورة هود عليه السلام وقد نزلت في فترة حرجة من تاريخ الدعوة في العهد المكي، بين عام الحزن وبيعة العقبة الأولى[٣]، حيث اشتد أذى قريش في هذه المدة على النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم،

(١) نقل ذلك ابن عبد الكافي في «عدد سور القرآن» (ق ٤٥/ب) عن موقع مخطوطات الأزهر، رقم المخطوط (٣٠٩٤٨٣)، وكذلك أبو عمرو الداني في «البيان في عدِّ آي القرآن» ص٦٧.

(٢) ينظر «زاد المسير» لابن الجوزي، أول السورة، ٤/ ١٧٦.

(٣) صحح الحاكم أثرًا تعقبه الذهبي فيه، ينظر «المستدرك» ٤/ ١٦٥ (٧٢٤١)، وفيه إقراء رسول الله ﷺ رفاعة بن رافع، ومعاذ بن عفراء سورة يوسف، وكان ذلك قبيل مجيء الستة النفر من الخزرج، الذين كانت على أثر لقياهم بيعة العقبة الأولى. وينظر في خبر الستة قبيل العقبة الأولى «الروض الأنف» ٢/ ٢٤٥.

حتى إن النبي ﷺ أذن لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة، فنزلت هذه السورة؛ تسليةً للنبي ﷺ ولصحابته، وتبشيرًا لهم بالفرج بعد الشدة، وبالتمكين بعد التضيق، كما حدث ليوسف عليه السلام.

سبب نزولها:

روى ابن حبان في «صحيحه»، عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه: قال: أنزل القرآن على رسول الله ﷺ فتلا عليهم زمانًا، فقالوا: يا رسول الله، لو قصصت علينا، فأنزل الله: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾[يوسف:١]، إلى قوله: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ [يوسف:٣][١]

فضلها:

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقرأ بها في الفجر(٢)، وفي حديث عبدالله بن شداد بن الهاد: قال: سمعت نشيج عمر بن الخطاب في صلاة الصبح وهو يقرأ من سورة يوسف وأنا في آخر الصفوف، يقرأ: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف:٨٦]، وتخصيصه رضي الله عنه لها في أطول الصلوات قراءةً، مُشعِرٌ بمزيد مزية لها عنده.

---

(١) «صحيح ابن حبان» ١٤/ ٩٢ (٦٢٠٩)، ورواه كذلك الحاكم في «المستدرك» ٢/ ٣٧٦ (٣٣١٩)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وقد حسَّنه جمع من أهل العلم، كشيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى» ١٧/ ٤٠، وابن حجر في «المطالب العالية» ٤/ ١٢٦، وجمع من المعاصرين.

(٢) ينظر «موطأ الإمام مالك» ١/ ٨٢ (١٨٣)، و«صحيح البخاري» ٣/ ١٣٥٣ (٣٤٩٧)، و«مصنف عبد الرزاق» ١/ ٥٧٠ (٢١٦٩).

الحكمة من سوقها في مقام واحد:

تعددت أقوال أهل العلم في ذلك، ولعل أبرز الأقوال:

١- أن سورة يوسف نزلت بسبب طلب الصحابة أن يقص عليهم، كما رواه الحاكم في «مستدركه»، فنزلت مبسوطة تامة؛ ليحصل لهم مقصود القصص: من استيعاب القصة، وترويح النفس بها، والإحاطة بطرفيها.

٢- وهو أقوى ما يجاب به: أن قصص الأنبياء إنما كررت؛ لأن المقصود بها إفادة إهلاك من كذبوا رسلهم، والحاجة داعية إلى ذلك لتكرير تكذيب الكفار للرسول ﷺ، فكلما كذبوا نزلت قصة منذرة بحلول العذاب، كما حل على المكذبين، وقصة يوسف لم يقصد منها ذلك.

وقفة مع القصة في الوحيين

القصة أسلوب تربوي مهم، أَولاه القرآن الكريم عناية خاصة، فحفلت الكثير من سوره بعدد من القصص، بل سُميت سورة كاملة فيه بسورة القَصَص، والسنة المطهرة فيها عشرات القصص التي تعالج قضايا اجتماعية؛ مثل: قصة أم زرع وأبي زرع[1]. بل يعلق النبي عليه الصلاة والسلام على قصة موسى والخضر في سورة الكهف، فيقول: «**وَدِدنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما**»[2]، أي: ودَّ النبي ﷺ أن موسى عليه السلام لم ينه الموضوع في المحاولة الثالثة لعجيب خبرهما.

وهذه دعوة للدعاة والمربين، ليُولوا هذا الجانب عناية خاصة، شريطة **الالتزام بالضوابط الشرعية للقصص**؛ فيتجنب ما علم كذبه، ويسوغ الإخبار بما حكي ولم يعلم كذبه؛ لأجل أخذ العبرة، أو التنويه بمقصد شرعي صحيح دلت عليه الأدلة، شريطة أن لا يُصَدَّقَ وتُرَتَّبَ عليه الأحكام، ويتجنب كذلك ما لا فائدة فيه، وإن كان حقًّا، ولهذا فقد أعرض الله تعالى عن ذكر بعض التفاصيل والأخبار في قصص القرآن، بل في سورة يوسف عليه السلام مع طولها؛ وذلك لعدم الفائدة، فالتفصيل والإسهاب بما لا فائدة فيه قد يكون لغوًا في أحسن أحواله، وما فيه من الحكمة البالغة والعبر المعتبرة جم غفير، فحري الاشتغال به عما سواه.

---

(١) «صحيح البخاري» ٥/ ١٩٩٠ (٥٢٧٤)، و«صحيح مسلم» ٤/ ١٩٠١ (٢٣٨٠).

(٢) «صحيح البخاري» ٤/ ١٧٥٧ (٤٧٢٥).

وفرع عن ذلك تجنب القصص التي يطنب فيها بعض أصحاب الأدب، وليست من الأدب في شيء؛ كقصص الغرام والحب، تلك الكلمة النبيلة التي شُوِّهت؛ إذ جعلوه شهوة وتعلقًا بصورة جسد. وربما يقحمون ما لا تعلق له بالموضوع إقحامًا! ويذكرون من التفاصيل ما لا فائدة فيه لمجرد المتعة، وإثارة الغرائز، وتأجيج الشهوات، بينما في سورة يوسف تنبيه على أسلوب ذكر ما يحسن ستره من حيث الأصل من تلك الأحوال فإن اقتضت الحاجة، نبه عليها بما لا يخدش الأدب، ولا يندى له جبين الحياء! كل ذلك في سياق أدبي عالي، وبيان رفيع بديع، تتقاصر عنه أقلام الثَّقَلَيْن! ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾[يوسف: ٢٤].

وقد جاء ذكر القصص في القرآن لأغراض، أهمها:

أولًا: تثبيت النبي ﷺ، وأصحابه رضي الله عنهم، ومَنْ بعدهم ممن اتبعوهم بإحسان إلى يوم الدين.

ثانيًا: التأسي بالخيِّرين فيما يشرع التأسي بهم فيه، وتجنب طريق الهالكين من المغضوب عليهم أو الضالين.

ثالثًا: تسلية المؤمنين المصدقين، والترويح عن النفوس المكدودة بذكر أخبار الأمم الماضية، وهذا الغرض من جملة ما يبين وسطية هذا الدين واعتداله؛ فكما أن في تشريعاته الأمر والنهي، وفي أخباره الوعد والوعيد، فإن فيه التسلية والمتعة، والثقافة والفائدة، والترويح الطاهر البريء.

فأي كتاب أحسن نظامًا من هذا الكتاب العزيز؟ وأي سِفْر أجل وأنبل معانيَ منه؟ وأي خطاب أرفع لغة من خطابه؟ فلماذا لا يتسلى به وبأخباره الأدباء الألباء؟ وكيف تشبع منه العلماء؟

مكانة العقل في الإسلام

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:٢].

والإنسان بدون العقل يفقد فضله، ويذهب تكليفه. قال بعض الحكماء: الإنسان صورة فيها عقل، فإن أخطأ العقل ولزمته الصورة، فليس بإنسان! قال المتنبي:

لولا العقولُ لكان أدنى ضَيْغَمٍ　　أدنى إلى شرفٍ من الإنسانِ

ولَمَا تفاضلتِ النفوسُ ودَبَّرت　　أَيدي الكُماةِ عَواليَ المُرّانِ

ولهذا عُني القرآن عناية كبرى بالعقل، فجاءت آيات كثيرة جدًا تحث على التعقل، سواء بلفظ العقل، أو بألفاظ مقاربة تدل عليه: كالتدبر أو التفكر وغيرهما، فكلها تشير إلى العقل مطابقة أو لزومًا أو ضمنًا.

ولا شك أن **العقل الممدوح** هو الذي يهدي صاحبه للعمل بمقتضى الحق الذي يعلم، وإلا فقد يكون الرجل ذكيًا وليس بعاقل، يعرف الحق ولكنه يركب هواه، وقد يكون الرجل عاقلًا وإن لم يكن ذكيًا متميزًا في القدرة على الاستنباط والاستخراج.

وقد سمي العقل عقلًا؛ لأنه يعقل صاحبه عن التصرفات غير المحمودة، وما أحوجَ الأمة اليوم إلى ذلك العقل، الذي يمنع من الاستعجال، كما يمنع من التلكّؤ في موضع العجلة، ويمنع من الإقدام على التصرفات غير المناسبة عمومًا، ويرشدها إلى سبيل استثمار طاقاتها الاستثمار الأمثل.

إن الموازنة بين العاطفة والعقل أمر مهم؛ فأمة بلا عاطفة أمة جامدة، لا تعرف قيم الحياة؛ ولكن الانسياق وراء العاطفة وحدها خطأ كبير جدًا، بل لا بد من توافق وتنسيق بين العاطفة والعقل والشرع؛ ويكون ذلك بإرجاع العاطفة إلى العقل، وإرجاع العقل إلى الشرع.

فمتى ما ضبط المرء عقله بلجام الشرع، صار العقل عقلًا شرعيًا محمودًا، يتجاوز حدود الدنيا القاصرة؛ لينطلق بصاحبه نحو الجنان.

أهم ما يُنمِّي العقل:

كما أن الجسم ينمو ويكبر؛ فكذلك العقل ينمو ويكبر حتى يبلغ الاستواء، ومن أهم ما ينمي قدرات الإنسان العقلية ما يلي:

أولًا: العلم: وهو من أكثر الوسائل فعالية في تطوير القدرات العقلية، ومن أهم ما ينمي العقل المكتسب بشقيه الإيماني الشرعي وكذلك الحياتي.

ثانيًا: التجارب: سواء التجارب الشخصية أو تجارب الآخرين، وهذه واحدة من الحكم التي لأجلها قصَّ الله علينا من أخبار الغابرين.

ثالثًا: الشورى: فالذي يستشير يضيف لعقله عقول الآخرين، ولو استغنى أحد عن الشورى، لاستغنى عنها محمد بن عبد الله ﷺ، ومع ذلك يقول له ربه جلَّ وعلا : ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران:١٥٩].

رابعًا: السن: والسن له أثره في تنمية العقلين: الغريزي والمكتسب، وخلقة الله اقتضت تدرج نمو العقل إلى أن يشتد كما يتدرج نمو البدن مع تقدم السن، وفي ذلك من الفوائد مناسبة العقل للبدن الذي يحمله!

أحسن القصص

يقول تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [يوسف:٣].

بيَّن الله تعالى في هذه الآية أن أحسن الأخبار أخبار القرآن، وقد تضمن ذلك القِصَص، فكان هذا استهلالًا بليغًا بديعًا بارعًا لموضوع السورة، وذكر هذه الآية في هذه السورة إشارة إلى أنها من أحسن القِصص، وليست كقصص الدنيا التي قد تشابهها من بعض الوجوه.

لماذا كانت قصة يوسف من أحسن القصص؟

قال بعض العلماء: لأنها وردت متكاملة من أولها إلى آخرها في السورة نفسها، وقال آخرون: لاشتمالها على موضوعات متعددة، وأغراض متنوعة؛ فقد عالجت مسائل إيمانية وشرعية وسياسية وتربوية واجتماعية ودعوية، وغير ذلك؛ ولهذا كانت فيها كما قال الله: ﴿ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ [يوسف:٧]، وذهب بعض أهل المعاني إلى أنها وصفت بذلك؛ لأن كل من ورد فيها كان مآله حسنًا وعاقبته طيبة(١).

ومن أسباب عدها من أحسن القصص: كونها من جملة قصص القرآن في سورة كسائر سور القرآن، لها تأثير في حياة الأمم؛ فمن عمل بما فيها من مقومات الفوز والنجاح، فاز وسعد، وآل أمره إلى خير.

(١) ينظر «تفسير القرطبي» للآية ٩/ ١٢٠.

وقال ابن سعدي رحمه الله مشيرًا إلى سبب من أسباب عدها في أحسن القصص: «وذلك لصدقها، وسلاسة عبارتها، ورونق معانيها»، ثم قال رحمه الله: «واعلم أن الله ذكر أنه يقص على رسوله أحسن القصص في هذا الكتاب، ثم ذكر هذه القصة وبسطها، وذكر ما جرى فيها، فعلم بذلك أنها قصة تامة كاملة حسنة؛ فمن أراد أن يكملها أو يحسنها -بما يذكر في الإسرائيليات، التي لا يعرف لها سند ولا ناقل، وأغلبها كذب- فهو مستدرك على الله، ومكمل لشيء يزعم أنه ناقص، وحسبك بأمر ينتهي إلى هذا الحد قبحًا»[1].

وإجمالًا: فإن قصص القرآن هي أحسن القصص؛ لصدق معانيها، وللحكم العظيمة المشتملة عليها، فضلًا عن التعقيبات القرآنية، والتوجيهات الربانية المصاحبة لها، فلا شك أن من أحسن القصص قصة يوسف، التي ناسب ذكر هذه الآية في صدرها.

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣٩٣-٣٩٤). ونحوٌ من هذا أشار إليه ابن كثير في «التفسير» ٢/ ٤٦٨.

المفسرون والإسرائيليات

قبل البدء في القصة، لا بد من وقفة مع الإسرائيليات، التي أسرف بعض المفسرين -رحمهم الله تعالى- في إيرادها في تفاسيرهم في سورة يوسف، وفي غيرها من سور الكتاب العزيز.

والأصل في هذه المسألة: أن **التشريعات والأحكام لا يجوز أخذها من غير آية محكمة، أو سنة قائمة**، أو ما تفرع عنهما مما دلَّا على حجيته. فالرجوع إلى الإسرائيليات، وأخذ حكم عقدي أو عملي منها، لا يجوز ولا ينبغي؛ وإنما أُذن لنا في التحديث عن بني إسرائيل دون أن نصدقهم أو نكذبهم، والتصديق والتكذيب يتعلق بما لم يصدقه شرعنا أو يكذبه، أما ما صدقه فنصدقه، وما كذبه فنكذبه، وفي الصحيح: «**بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمدًا، فليتبوأ مقعده من النار**»[1]، ولكن ليس المراد بالتحديث العمل بكتبهم؛ بل أخذ العبر والعظات، والاستفادة مما علمنا صدقه وصوابه، أو حله وجوازه في شرعنا، ولا يخفى أن أخبار الماضين وقصصهم قد تنطوي على فوائد، قد يحسن ذكرها في بعض الأحيان، شريطة ألا يتعدى ذلك إلى إحداث تشريع لم يرد في الكتاب أو السنة، شأنها شأن القصص التي تعرض في حياة الناس.

(١) البخاري ٣/ ١٢٧٥ رقم (٣٢٧٤).

الرؤى وأضغاث الأحلام

من مواضيع سورة يوسف عليه السلام موضوع الرؤيا، ونستطيع أن نقول: إن سورة يوسف هي سورة الرؤى، فقد ورد في القرآن ذكر سبع رؤى في ستة مواضع[1]: ثلاثة مواضع اشتملت على أربع رؤى جاءت في سورة يوسف، وهي قول الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف:٤]، ثم الموضع الثاني، وفيه رؤيتا صاحبي السجن اللذين ذكرا له ما رأيا، وكل واحد منهم رأى رؤيا غير التي رآها صاحبه، ثم جاءت الرؤيا الرابعة في الموضع الثالث من السورة، وهي رؤيا الملك.

والناس في موضوع **الرؤى بين إفراط وتفريط**، فهناك من بالغ في الاهتمام بالرؤى حتى بنى حياته عليها، وأخذ تشريعه منها، وهناك من قصر فيها فلم يلتفت إليها، والحق وسط بين الغالي فيه والجافي عنه، وما عليه المسلمون المؤمنون من أهل السنة والجماعة هو المنهج الوسط الحق.

وفي السنة المطهرة عشرات الأحاديث التي تتناول الرؤى، وتظهر العناية بها، فمن ذلك أن النبي ﷺ كان يسأل أصحابه: «**من رأى منكم رؤيا ...**»[2]، ومنها حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا اقترب الزمان**

(١) انظرها في الأصل «آيات للسائلين»، ص٦٧-٦٨، وفيه ذكر السبب في ترك عدِّ الرؤية التي في الإسراء.

(٢) كما في «صحيح البخاري» من حديث سمرة بن جندب ١/ ٤٦٥ (١٣٢٠)، ومسلم من حديث ابن عباس ٤/ ١٧٧٧ (٢٢٦٩).

لـم تكد رؤيا المسلم تكذب، وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثًا، ورؤيا المسلم جزء من خمسة وأربعين جزءًا من النبوة، والرؤيا ثلاثة: فالرؤيا الصالحة بشرى من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدِّث المرء نفسه، فإن رأى أحدكم ما يكره، فليقم فليصل، ولا يحدث بها أحدًا»[1].

وهذا الحديث أصل عظيم في موضوع الرؤيا، وإثباتها، وأنواعها، وأقسامها، وكيف نتعامل معها.

أما المنهج الشرعي في التعامل مع الرؤى، فيعتمد على الرؤيا، وهي ثلاثة أنواع كما مرَّ في حديث أبي هريرة:

* **الرؤيا الصالحة**: لا تحدث بها إلا من تحب، وذلك لأسباب منها: منع التحاسد وما ينتج عنه من تدابر.

* **حديث النفس**: ومن علاماته أن يفكر المرء في أمر ما، ثم يرى في نومه ما يتعلق به، والموقف منه الإعراض عنه وعدم الانشغال به.

* **رؤية ما يُحزِن**: وهذا من تهاويل الشيطان، وعلى الرائي:

أولًا: يتعوذ بالله من شر ما رأى ومن شر الشيطان.

ثانيًا: ينفث عن يساره ثلاثًا.

ثالثًا: ينقلب على جنبه الآخر.

رابعًا: يقوم فيتوضأ ثم يصلي ما شاء الله.

خامسًا: لا يحدث بها أحدًا.

ومن عمل بهذا فلن تضره -بإذن الله تعالى- ومن لم يتمكن من عمل هذه الخمس، فليعمل بعضها، كأن ينقلب على جنبه، وأن يستعيذ بالله من شرها ومن شر

---

(١) رواه مسلم ٤/ ١٧٧٣ (٢٢٦٣).

الشيطان، والمهم ألا يُحدِّث بها أحدًا، فإنه يُخشى إذا حدَّث بها أن يكون لها أثر، فقد ورد في حديث أبي رزين: «**أن الرؤيا على رِجْل طائر، فإذا عُبِّرت وقعت**»(١).

يقول أبو سلمة رضي الله عنه كما في «الصحيح»: كنت أرى الرؤيا فتمرضني. قال: حتى سمعت أبا قتادة يقول: وأنا كنت أرى الرؤيا تمرضني ؛ حتى سمعت النبي ﷺ يقول: «**الرؤيا الحسنة من الله، فإذا رأى أحدكم ما يحب فلا يُحدِّث به إلا من يحب، وإذا رأى ما يكره، فليتعوذ بالله من شرها، ومن شر الشيطان، وليتفل ثلاثًا، ولا يحدِّث بها أحدًا، فإنها لن تضره**»(٢).

إضاءات في الرؤى:

لا بد من مراعاة بعض الضوابط والمحاذير سواء عند رواية الرؤيا، أو طلب المعبر لها، أو تعبيرها، وفيما يلي تفصيلها:

أولًا: بالنسبة لقاصّ الرؤيا:

١- عدم اختلاق الرؤى لإضحاك الناس أو لفت الأنظار، فإن النبي ﷺ يقول: «**من تحلّم بحلم لم يره، كلف أن يعقد بين شعيرتين ولن يفعل**»(٣). كذلك الزيادة في ما رأى بغرض تهويل الأمر أو غير ذلك يدخل في هذا الباب.

---

(١) رواه الترمذي في «سننه» ٤/ ٥٣٦ (٢٢٧٨-٢٢٧٩)، وقال: حسن صحيح، ورواه كذلك أبو داود ٢/ ٧٢٣ (٥٠٢٠) وسكت عنه، وابن ماجه ٢/ ١٢٨٨ (٣٩١٤)، والدارمي ٢/ ١٦٩ (٢١٤٨)، والحديث في «مسند أحمد» ٤/ ١٠-١٤، و«صحيح ابن حبان» ١٣/ ٤١٣-٤١٥ (٦٠٤٩) وما بعده، و«مستدرك الحاكم» ٤/ ٤٣٢ (٨١٧٥) ووافقه الذهبي على تصحيحه، ورواه جمع غيرهم، وصحَّحه جم غفير من المتقدمين والمتأخرين.

(٢) متفق عليه، رواه البخاري ٦/ ٢٥٨٢ (٦٦٣٧)، ومسلم ٤/ ١٧٧١ (٢٢٦١).

(٣) رواه البخاري ٦/ ٢٥٨١ رقم٦٦٣٥.

٢- أن يعلم أنها قد تصيب وقد تخيب، وذلك لورود الاحتمال؛ ولهذا أوجُه تبيِّنه منها:

أولًا: احتمال عدم دقة رواية من رآها دون تعمد للكذب فيزيد أو ينقص، وقد ينسى وقد يتوهم، والمعبر يعبر حسب ما رُوي له، وهنا قد يقع الخطأ، وإن كان المعبر حاذقًا.

ثانيًا: قد يكون ما رؤي من حديث النفس أو وسواس الشيطان فاختلط الأمر على الرائي.

ثالثًا: قد تكون الرؤيا صالحة، والرائي صادق دقيق في روايته، ولكن المعبر ليس من أهل الحذق في التعبير أو ليس من أهل التعبير.

رابعًا: قد يكون المعبر من المعبرين الحذاق، ولكنه أخطأ في تعبير الرؤيا. والدليل على ذلك أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه، عندما عبر الرؤيا وسأل النبي ﷺ قال له النبي ﷺ: «**أصبت بعضًا وأخطأت بعضًا**»[1].

خامسًا: قد يكون التعبير صحيحًا، ولكن الخطأ في التنزيل على الواقع، وقد وقع بعض الصحابة رضي الله عنهم في هذا في رؤيا الفتح، فظنوا أنهم سيدخلون مكة في عام الحديبية، ثم اتضح لهم أنه لم يكن في ذلك العام، وإنما تحققت الرؤيا في عام بعده.

٣- عدم استعجال وقوع الرؤيا، فقد تقع بعد مدة تطول أو تقصر، ورؤيا يوسف عليه السلام ما تحققت إلّا بعد أمد بعيد، قدَّره بعض المفسرين بأربعين سنة، وقيل أقل من ذلك وهو أقرب.

٤- عدم عرض الرؤى إلا على من يحب وكذلك أهل التقى والصلاح والرأي الذين يلتمس عندهم تأويلها، دون غير هؤلاء ممن لا يعلم ما يكنون له،

---

(١) رواه البخاري٦/ ٢٥٨٢ (٦٦٣٩).

فضلًا عن الدجالين والمشعوذين الذين يستعينون بالشياطين في التأويل.

٥- على الرائي أن يعلم أن الرؤيا ليست من مصادر التشريع أو التلقي فلا تستحدث بها بدع، ولا تشرع بها أحكام؛ لأن الدين قد كمل، يقول تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ [المائدة:٣].

٦- ومما ينبغي أن يعلمه الرائي أن رؤيا النبي ﷺ في المنام حق، وتلك بشارة للرائي، فقد جاء في حديث أبي هريرة قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**من رآني في المنام، فسيراني في اليقظة أو لكأنما رآني في اليقظة، لا يتمثل الشيطان بي**»[(١)]. ولكن ليس كل من ادعى أنه رأى رسول الله ﷺ يكون مصيبًا وإن كان صادقًا، فقد يغرر به الشيطان، فيتمثل بغير صورة النبي ﷺ لأنه لا يستطيع أن يتمثل بصورته ﷺ ثم يزعم أنه النبي، ومن لا يعرف صفات النبي ﷺ تنطلي عليه الحيلة.

٧- ومما ينبغي أن يعلمه الرائي أيضًا أن أغلب الرؤى الصالحة تكون واضحة قصيرة جلية، كالرؤى التي في سورة يوسف: ﴿رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف:٤] تعبيرها: أحد عشر أخًا، والشمس والقمر أبوه وأمه، وهذا ما حدث، أما أن تتحول الرؤى إلى ألغاز وأسرار، ومسلسلات وحلقات، ففي النفس من صحة كونها رؤى شيء.

٨- **وأخيرًا**: لا مجال لمراجعة المعبر إذا عبر الرؤيا بخلاف الفتوى؛ لأن التعبير جله إلهام والاجتهاد فيه قليل، والمعبر لا يملك أن يغير التعبير، ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١]، أما الفتوى فقد يُراجع فيها المستفتَى إذا تبين أن المسألة لم تتضح له بشكل كاف، فيتغير الحكم تبعًا لذلك، والله أعلم.

ثانيًا: بالنسبة للمعبِّرين:

---

(١) رواه مسلم ٤/ ١٧٧٥ (٢٢٦٦).

١- عدم جعل تعبير الرؤى شغلًا شاغلًا، وكذلك عدم الإعراض عنه بالكلية، بل لابد من الاعتدال واستخدام مثل هذه الهبة الإلهية في الدعوة إلى الله تعالى كما كان يفعل يوسف عليه السلام.

٢- ألا يعبر للمسلم ما يحزنه إلا إذا كان في ذلك مصلحة راجحة، على أن يوجهه التوجيه المناسب.

٣- تعبير بعض الرؤى قد يكشف بعض الأسرار المتعلقة بالرائي، فلا يجوز للمعبر أن يحدث بها أحدًا إلا لمصلحة راجحة.

٤- هناك تلازم بين الرؤيا وتعبيرها وصاحبها، فتعبر بحسب حاله.

٥- التعبير باب من أبواب الفتنة؛ فليحذر المعبرون من استغلال ثقة الناس بهم فيسألونهم عن أسرار بيوتهم دون حاجة لذلك.

٦- تجنب التعبير في الإذاعات والصحف والإنترنت وسائر وسائل الإعلام؛ لما في ذلك من مفاسد ظاهرة.

٧- عدم الاستعجال في تنزيل الرؤى على الواقع.

دروس تربوية

* يوسف عليه السلام يرى رؤيا فيبادر بقصها على أبيه ولا يتردد ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ﴾ الآية، وهذا يشير إلى طبيعة العلاقة الحميمة بينهما.

المرجعية الأبوية والعلاقة الحميمة

* فأولاها الأب النبي -وحسبك بالنبوة شغلًا- ما تستحقه من الاهتمام، ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾﴾ فلا هو أهملها كما يفعل الكثيرون، ولا هو بالغ في الاهتمام بها والتحذير من عواقبها.

التفاعل مع هموم الصغير

*وفي تأكيد يعقوب على يوسف عليهما السلام على عدم قص الرؤيا على إخوته مصداق لما روي عن نبينا ﷺ وصححه بعض أهل العلم[1]: «**استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود**»، وإذا كان هذا قد يقع بين الإخوان، فوقوعه مع العامة أحرى، ومراعاته إذن أولى، ولاسيما إذا كانت الرؤيا متعلقة بآخرين حاضرين، والبعد عن أسباب الشر مطلوب، ولو بكتمان ما لا بأس فيه إن خشيت مضرته، وليس كل حق يصح أن يذاع ويعلن. وحري بنا أن نراعي أمورًا ربما كانت أجلَّ شأنًا من الرؤى.

ليس كل حق تجدر إذاعته في كل وقت

* تلحظ في الآية أمرين: أن النهي جاء معللًا، وأن التعليل تعليل حكيم، وهنا إشارة لواجب الآباء في السيطرة على مشاعر أبنائهم بحسن التوجيه؛ لئلا ينشأ بينهم التباغض والتحاسد، وتوجيه إلى أهمية النهي المعلل، وتوجيه إلى أن تكون العلة علة حقيقية من الحكمة أن تقال.

تعليل النهي للصغير بحيث تظهر له الحكمة منه

(١) ينظر «السلسلة الصحيحة» للعلامة الألباني ٣/ ٤٣٦ (١٤٥٣).

إن النمط الجبري في التربية: افعل «وبس»! لم يكن يعرفه أعظم المربين ﷺ ، هاهو ذا يوجه ابن عباس بكلمات تلحظ الشبه بينها وبين كلمات يعقوب عليهما السلام هذه فيقول: «يا غلام، إني أعلمك كلمات...»[1]، وينهى الآخر الذي طاشت يده في الصحفة بأسلوب أكثر بلاغة وإبداعًا، فيقول: «يا غلام! سمِّ الله، وكُلْ بيمينك، وكل مما يليك»[2]، فياالله أي معلم هذا! فلا غرو أن يقول ذلك الغلام بعد أن غدا شيخًا: «فما زالت تلك طعمتي بعد»[3]!

التوجيه بنداء يدعو للقبول

* استرعى يعقوب سمع ابنه يوسف عليهما السلام بعبارة حانية محببة يقول فيها: (يا بُنَيَّ) وقرأها شعبة رحمه الله (يا بُنَيِّ) بالترخيم الذي يزيد من حنوِّها ويضاعف وقعها في نفس الابن. وفرق بين أن تجذب انتباه من تريد توجيهه بعبارة تلفت انتباهه نحو ما تقول فيلتفت إليك بوجهه وعقله، وبين أن تجذب انتباهه بعبارة زاجرة تجعل جل همه التفكير فيما يخلصه من الصراخ أو الزجر أو التوبيخ، فيترك ما نهي عنه للحظة، ثم يعود بعد مدة؛ لأنه ما تنبه إلى الحِكَم والأسباب، وإنما كان همه التخلص من العبارة المرعدة المرعبة: يا ولد! أو يا ...!

وأنت تلحظ في هذا الأسلوب أمرين:

الأول: التصغير الدال على الشفقة والعناية وربما التعظيم، فالنداء بـ(يا بني) مشعر بنوع شفقة وحرص أبوي يناسب مقام النهي والتحذير، والسامع للعبارة يستشف منها معنى: أنت مني، ولذا أشفق عليك فلا تفعل.

والأمر الثاني: نسبته عليه السلام الابن إلى نفسه، وفي ذلك تنبيه الابن إلى معاني

---

(١) القرطبي: ٦/ ٣٩٨. الترمذي ح(٢٥١٦)،

(٢) رواه البخاري (٥٣٧٣)، ومسلم (٢٠٢٢).

(٣) ينظر: صحيح البخاري (٥٣٧٣).

الأبوة في الكلام المقبل على تلقيه، فهو يعلم أن ما سيأتي بعدها أمر أبوي نابع عن قلب أب يفيض حبًا لخير أبنائه، فلذات أكباده، ويكره كل ما يسوؤهم، وطاعة مثل هذا الأمر أقرب من عصيانه.

فطنة المربي إلى سلوك المتربين

* قول يعقوب: ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾ فيه دليل على فطنته إلى تصرفات وسلوك بنيه، فلم يكن يعقوب عليه السلام سيّئ الظن، ولكنها فراسة المؤمن ومن أسبابها يقظته وفطنته، فهو يعلم أحوال أبنائه من حوله، ويستشف من تصرفاتهم شيئًا ربما وُجد في نفوسهم، ويعمل جاهدًا على ألا يستفحل الأمر فيخرج إلى نطاق لا يمكن تداركه، فتراه يقطع كل سبيل ربما قاد إلى تفاقمه.

استثمار الفرص لبيان العدو الحقيقي وترك التشاغل بأصحاب العوارض الزائلة

*وقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ فيه استثمار المواطن المناسبة لبيان العدو الحقيقي، وتوطيد بغضه، وعبَّر بالمصدر (عدو) فهو عدو بغَضِّ النظر عن الزمان أو المكان، وليست عداوته عداوة خفية، بل هي عداوة بينة جلية.

المنع من الاستغراق في اللحظة الحاضرة

* ثم أراد يعقوب أن يخرج ابنه مما أسميه بالاستغراق في اللحظة الحاضرة إلى ما ينتظره من مستقبل مشرق، فقال له: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾[يوسف:٦]. هل يُتصور بعد ذلك أن يجلس يوسف عليه السلام يفكر في مكيدة إخوته أو ينتقل بفكره إلى هذا الخير المقبل عليه من اجتباء الله جلَّ وعلا له وإتمام نعمته عليه؟ فإذا رأيت إنسانًا شغله هم، أو ملأ صدره غم، فذكِّره بأن الله قريب لطيف مجيب، وقل له:

وراء مضيق الخوف متَّسع الأمنِ ... وأول مفروح به آخر الحزنِ
فلا تيأسن فالله ملَّك يوسفًا ... خزائنه بعد الخلاص من السجنِ

بث الأمل في النفوس المكروبة

ونبينا ﷺ كان يسلك هذا المسلك التربوي المهم؛ ففي الحديبية اشتد الأمر على الصحابة -رضوان الله تعالى عليهم- فلما رأوا سهيل بن عمرو قادمًا قال لهم ﷺ: «**قد سَهُلَ لكم من أمركم**»(١).

وفي الخندق لـمَّا زاغت أبصار الأصحاب من شدة الكرب، وبلغت قلوبهم الحناجر، وزلزلوا زلزالًا شديدًا كما وصفهم العليم الخبير في القرآن الكريم، في تلك الحال والعدو من فوقهم ومن أسفل منهم يضرب النبي ﷺ الصخرة الصَّلدة التي كسرت حديدهم واستعصت عليهم ويكبر تكبير فتح ثم يبشرهم بالظهور على كل القوى العالمية في ذلك الوقت: فارس والروم(٢).

من الفروق بين بث روح التفاؤل والتخدير بالأوهام غير الواقعية

ومن المقرر المعلوم أن النبي ﷺ لم يكن ينطق عن الهوى، ولم يكن يبشر الناس إلا بوحي يوحى. وليس مطلوبًا منا اليوم أن نرجم بالغيب ولا أن نبشر الناس بما لا علم لنا به، بل إن ذلك من جملة التخدير والتخذيل بالميل إلى الطرف الآخر، لكن المطلوب أن نبشر الناس بما ورد في السنة الصحيحة، والأخبار الثابتة التي ضعف إيمان بعض الناس بها، وكثير من الأمور يمكن التنبؤ بها -على تغليب الظن- من خلال قراءة الأحداث، فلنبشر الناس وحالنا ينطق باليقين بنصر الله ما نصرناه، كما أيقن محمد ﷺ.

احترام عقول الأطفال وشخصياتهم

* يعقوب عليه السلام كان يحترم عقول أبنائه فوجه هذا الخطاب لأحدهم بأسلوب فيه تقدير ظاهر لشخصه، وهنا قضية مهمة تتعلق بنظرة بعض الناس إلى الأطفال: إن كثيرًا من الفضلاء بلهَ عامة الناس يظنون أن الأطفال لا يفهمون فيعاملونهم بناء على هذا الظن الآثم، مع أنهم يعلمون من حوادث واقعهم أن

(١) كما في البخاري ٢/ ٩٧٤ (٢٥٨١)، وينظر «الفتح» ٥/ ٤٠٤.

(٢) ينظر: الطبري ٢١/ ١٣٤، وهو في مسند أحمد ٤/ ٣٠٣، وينظر دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٤٢١.

الواحد منهم قد يصف حدثًا وقع وهو ابن ثلاث سنين بتفاصيله، بينما إذا كبر فربما عجز عن تذكر ما حدث له بالأمس.

منهج النبي ﷺ في إكرام الأطفال وتقديرهم

وهكذا كان نبينا الكريم ﷺ، كان يكرم الأطفال ويقدر إمكاناتهم، فكان يكني بعضهم(١)، ويؤاكل بعضهم(٢)، ويسلم إن مر عليهم(٣)، ويواسي بعضهم لما مات عصفوره(٤)، ويردف بعضهم(٥)، بل يستأذن أحد الغلمان وكان يجلس عن يمينه في سقيا الأشياخ(٦)، فلما لم يؤثرهم على نفسه أعطاه القدح مباشرة؛ لأنه ﷺ لم يستأذنه استئذانًا باردًا من قبيل المراسيم العصرية، أو الإجراءات الدورية (الروتينية) وإنما استأذنه؛ لأنه يعلم أنه صاحب الحق في إيثار غيره أو عدم إيثارهم حتى ولو كان المستأذِن رسول الله ﷺ، ولو كان هؤلاء هم أشياخ الصحابة رضي الله عنهم ، وليعلِّم الناس كذلك كيف يعامَل الصغار، ثم هب أن هذا لم يحدث في المجلس فإن في مجرد جلوس الغلام إلى جانب رسول الله ﷺ في مجلس فيه أشياخ الصحابة أمر حري الوقوف عنده، والتأمل فيه.

* الشاهد أننا نخطئ في تقييمنا للأطفال، فلا نعاملهم معاملة تناسب عقولهم، بل يشعرهم البعض بأنهم لا وزن لهم، فتكون النتيجة تخريج نوعين من الشباب: شباب يعاني من هزيمة نفسية، يستصغر نفسه ويقلل من شأنها ويقيد

---

(١) حديث: «يا أبا عمير ما فعل النغير»، البخاري٥/ ٢٢٧٠(٥٧٧٨).

(٢) حديث: «يا غلام سمِّ الله»، البخاري٥/ ٢٠٥٦(٥٠٦١).

(٣) ينظر «صحيح البخاري» ٥/ ٢٣٠٦ (٥٨٩٣)، ومسلم ٤/ ١٧٠٨ (٢١٦٨).

(٤) حديث أبي عمير السابق.

(٥) «المستدرك على الصحيحين» ٣/ ٦٢٣ (٦٣٠٣).

(٦) البخاري٢/ ٨٣٤ (٢٢٣٧).

الثمرة المرّة لإهمال تقدير الأطفال

نفسه بحبال وهمية نسجها المجتمع من حوله، وشباب آخر متهور يحاول أن يتفلت من كل قيد ليثبت أنه رجل ولو بكل سبيل منحرف!

وبالمقابل من يقدر عقول أطفاله ويحترم قدراتهم ويخاطبهم خطاب الكبار فما أسرعهم إلى فهم كلامه والتزام توجيهه والتهيؤ لحمل المسؤولية في عمر الشباب، ومثل من حظوا بهذا المنهج في التربية قل أن تظهر فيهم أعراض الطفولة المتأخرة التي نشهدها في كثير من رجال عصرنا!

التربية على الأخذ بالأسباب مع الحذر

* نلحظ كذلك تنبيه يعقوب لابنه يوسف -عليهما السلام- للأخذ بالأسباب، فعدم رواية الرؤيا لإخوته مانع من أزّ الشيطان لهم فيكيدوا له، وبقية أحداث القصة تبين أن تربية يعقوب عليه السلام قد آتت أُكلها، فابنه قد أخذ بالأسباب في كل ما مر به من مواقف كما سنرى بإذن الله تعالى.

التربية على الاعتراف بالآلاء لمُوليها

* ومن فوائد يعقوب عليه السلام التربوية حرصه على تربية ابنه على رد الفضل لأهله، فقال له: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾[يوسف:٦] فالله هو الذي اجتباه، وهو الذي اصطفاه، وتلك نعمة من أعظم النعم تدفع حلاوتها كل سوء جاء به ابتلاء، وقد رُوي عنه ﷺ أنه قال عندما أصابه الهم المقيم المقعد: «**إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ...**»[١].

* ومنها حرصه على ربط ابنه بآبائه الصالحين، ﴿وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾[يوسف:٦]، والمعروف أن عمق الإحساس بالانتماء لمجتمع معين هو من دوافع الالتزام بعرف

(١) أثر مشهور ضعفه بعض أهل العلم، ينظر «السلسلة الضعيفة» للألباني ٦/ ٤٨٦ (٢٩٣٣).

ذلك المجتمع، ويبدو أن هذا الأسلوب كان من ديدن يعقوب عليه السلام مع كل أبنائه؛ ولذا لما حضرته الوفاة وسأل أبناءه: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٣]، فأكَّدوا التزامهم بالسير في طريق هؤلاء الآباء الصالحين، الذين طالما حثهم على اقتفاء أثرهم، وتوطين مواطن أقدامهم.

توثيق الصلة بين الابن وبين آبائه الصالحين

* ومن الفوائد التربوية قول يعقوب عليه السلام لابنه بعد أن بين له فضل الله عليه باصطفائه له، وتعليمه تأويل الأحاديث، وإتمام نعمته عليه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[يوسف:٦]، وفي هذا تعريف له ببعض أسماء الله تعالى وصفاته. وعندما تستقر هذه المعاني في نفس الصغير، فإنه سيتذكر عند كل ابتلاء أن الله تعالى الذي أحبه فاصطفاه هو الأعلم والأحكم، وأن ما يمسه من بلاء إنما هو بعلمه وحكمته تعالى، فتطمئن نفسه ولا يلتجئ لغير العليم الحكيم.

أثر تعريف الطفل بأسماء الله وصفاته

* ومن الفوائد التربوية تنشئة الأولاد على أن إساءة أحدهم قد لا تضره وحده بل قد تتعداه إلى بقية جسد الأسرة، كما أن إحسانه كذلك، فمن نزلت به النعمة تعدَّى أثرها لآله وذويه، وكذلك من حلت به النقمة؛ ولهذا قال: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [يوسف:٦]، وقد تمت النعمة ليوسف عليه السلام فتعدى أثرها آل يعقوب جميعًا، كما أن البلاء الذي نزل به تعدى أثره لذويه. وهذا التوجيه يشعر الطفل بالمسؤولية ويُنشِّئه على تحملها.

تنمية الشعور بالمسؤولية عن طريق التذكير بتعدي أثر العمل

نتائج المقدمات الفاسدة

المقدمات الفاسدة تؤدي إلى نتائج فاسدة

* **المقدمات الفاسدة تؤدي إلى نتائج فاسدة**، فإخوة يوسف افترضوا أن أباهم في ضلال مبين، وأنه يحب أخاهم أكثر منهم رغم أنهم عصبة، ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ثم تصرفوا بناء على هذا التصور ﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾، ولو فرضنا جدلًا خطأ يعقوب عليه السلام في حبه لأحد أبنائه حبًا يفوق حبه للآخرين، لم يكن ذلك ذنبًا للمحبوب أو مسوغًا لعقوبته، والنتيجة أنهم ندموا ندمًا عظيمًا، فلم يخلُ لهم وجه أبيهم كما افترضوا، ودفعوا نتيجة فعلتهم، والله ﴿..لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس:٨١].

خطورة الحسد والحذر منه

* لقد أساؤوا الظن فداخلهم شيء من **الحسد ذلك الداء العضال القتّال**، فالحسد نكد في الدنيا وخسارة في الآخرة؛ ولذا جاء النهي عنه صريحًا واضحًا: «**ولاتحاسدوا**»[(١)]، بل قال ﷺ: «**لا يجتمعان في قلب عبد: الإيمان والحسد**»[(٢)]، وفي الحديث الآخر قال ﷺ: «**دبَّ إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء، هي الحالقة، لا أقول: تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين، والذي نفسي بيده، لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابُّوا، أفلا**

(١) متفق عليه من حديث أنس، البخاري ٥/ ٢٢٥٣ (٥٧١٨)، ومسلم ٤/ ١٩٨٢ (٢٥٥٨)، وهو في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة أيضًا.

(٢) رواه النسائي في «سننه» من حديث أبي هريرة ٦/ ١٢ (٣١٠٩)، وابن حبان في «صحيحه» ١٠/ ٤٦٦ (٤٦٠٦)، ورواه غيرهم، وحسنه غير واحد من أهل العلم.

أنبئكم بما يثبت ذاكم لكم، أفشوا السلام بينكم»[1].

* لا جناح على المرء أن يحب أحد أبنائه أو إحدى زوجاته حبًا يفوق حبه لبقية أبنائه أو زوجاته ما لم يتسبب هذا الحب في ظلم الباقين. ويعقوب عليه السلام لم يظلم بقية أبنائه، وحاشاه، وهنا يحسن التنبيه إلى مسألة مهمة: إذا أحبّ أحدٌ ابنًا له حبًا خاصًا، فعليه أن يركز على أن سبب الحب هو الصفة التي تحلّى بها هذا الابن لا شخصه؛ حتى يتنافس الأبناء في تحقيق هذه الصفة، كأن يكون بارًا بوالديه، أو فيه صلاح أو تفوق أو غير ذلك، ومثل هذا الكلام يمكن أن يقال كذلك عند تعدد الزوجات، مع الحرص على العدل لوجوبه.

ضابط تقديم بعض الأهل في المحبة

ولكن على الآباء مراعاة مشاعرهم **فلا يظهروا حبًا جمًا زائدًا لأحد الأبناء دون البقية**، فإن الإخلال بذلك ولو عن غير قصد ربما ولَّد إحنًا ونجمت عنه عداوات، والصغار يلحظون من ذلك ما لا يلحظه الكبار، فلا تعزب عنهم البسمة، ولا تغيب النظرة، ولا يُغفِلون الكلمة، فضلًا عن المداعبة والقبلة.

خداع النفس بأذنب وأتوب

* وفي قوله تعالى خبرًا عن إخوة يوسف: ﴿وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ﴾، بيان أن إخوة يوسف قد علموا أن ما عزموا على فعله ذنب، وأنهم قد عقدوا العزم على التوبة منه بعدُ، فلم يكن ذلك مُسوِّغًا لفعلهم، فمن يقول: أعمل المعصية ثم أتوب، فقد أخطأ، وما يدريه أيعيش حتى يتوب أم تقبض روحه وهو على معصيته، وما يدريه هل ييسّر الله له أسباب التوبة وقبولها أو لا؟

(١) رواه الإمام أحمد في «مسنده» ١/ ١٦٤ (١٤١٢)، ١/ ١٦٧ (١٤٣٠)، والترمذي في «سننه» ٤/ ٦٦٤ (٢٥١٠)، وكذلك الطيالسي في «مسنده» ١/ ٢٧ (١٩٣)، وأبو يعلى ٢/ ٣٢ (٦٦٩)، ورواه غيرهم وقد حسنه بعض أهل العلم.

المقدمات الفاسدة
توقع في جملة أخطاء

* كان المقترح الأول التخلص من الأخ بالقتل، أو بالطرح في أرض فلاة، ثم: ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾، فما اقترحه هذا الأخ يشعر بفضله عليهم، ولا يرفع عنه نصيبه من الذم، فقال ما حاصله: إذا كنتم تريدون أن يخلو لكم وجه أبيكم، فلا يلزم أن تقتلوه ﴿وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾، فهو معهم في أصل المسألة مخالف لهم في وسيلتها، وذلك لا يرفع عنه الذم مطلقًا.

من شؤم الذنب تتابع الذنوب بعده

* ومن المعاصي التي وقعوا فيها بسبب مقدمتهم الفاسدة قولهم الذي قصه الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴾ [يوسف:١١]، ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [يوسف:١٢]، وفي هذا دليل على إصرارهم وإجماعهم الأمر على جعله في غيابة الجب، وتلك معصية تضمنت العزم على قصد السوء، والتناجي بالإثم والعدوان ومعصية النبي.

ثم لـمَّا شرعوا في تنفيذ المؤامرة عمدوا إلى وسيلة محرمة وهي الحيلة غير المشروعة، وقولهم: ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴾ ليس كذبًا مجردًا منهم، بل هو مبالغة في الكذب، وأكدوه بعد ذلك بمثله فقالوا: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾، وجعلوا بينهما كذبًا آخرَ وهو قولهم: ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ وإنما هو: يؤخذ ويُلقى.

ثم قالوا: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا﴾ فلو صح هذا

لكانت مخالفة لما نهاهم عنه أبوهم، ثم رتبوا على هذا الكذب كذبًا آخرَ فقالوا: ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾، افتراء حتى على الحيوان! وكذب بعده وهو قولهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ فهذا حاصله: وإنا لصادقون، فهو نوع من تأكيد دعواهم.

ثم كذب آخر ذكره الله تعالى فقال: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾، أي: مكذوب، ثم ذنب آخر، وهو ما اختلج في نفس يعقوب من ألم الحزن، المستوجب للصبر، وقد صرح بلازمه فقال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾، وقد ضرب به المثل فصار يقال: حزن كحزن يعقوب. فكل هذه ذنوب جر إليها سوء الظن المنبني على مقدمات فاسدة، ولعل هذه من النكت في جمعهم الذنوب بَعدُ: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف:٩٧].

فالحذر الحذر من شؤم الذنب، والبِدارَ البِدارَ بالتوبة منه، وإلّا فإن الذنب الواحد قد يستتبع أرسالًا من الذنوب ولا يقولن أحد: أذنبُ وأتوب.

مشروعية اللعب الخالي من المحرمات

* ومن الفوائد في قوله: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[يوسف:١٢]، وقد ثبت بأدلة شرعنا جواز اللعب المباح الخالي من المحرمات. أما كثير من الألعاب الموجودة اليوم وما يصاحبها من محرمات واختلاط، أو من ميسر وأشباه الميسر، من الأمور التي تربي الصغار على الميسر والقمار، فهذه لا تجوز. كما أن بعض الألعاب الحاسوبية[١] تزرع في عقول الأبناء عقائد باطلة مثل تناسخ الأرواح، وتعودهم على رؤية المناظر الخليعة، وتربيهم على الكسل والتعدي على الآخرين؛ لأن أبطال الألعاب يصلون إلى أهدافهم

(١) ما يسمى (Play Station) أي: محطة اللعب... وغيره.

عن طريق قدراتهم الخارقة دون بذل أي مجهود، وهي كذلك لص من لصوص الوقت المهرة، وكل سبب من هذه الأسباب ينبغي أن يكفي لدفع الآباء للتفكير مرارًا قبل أن يشتروها لأبنائهم الذين استرعاهم الله إياهم، ولا شك أن التفريط في مثل هذا غش للرعية، وفي الحديث: «**لا يسترعي الله عبدًا رعية يموت حين يموت وهو غاش لها إلا حرّم الله عليه الجنة**»(١).

الصبر الجميل على الأبناء

* ومن الفوائد تلك الكلمة العظيمة: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[يوسف:١٨] التي كانت شعارًا ليعقوب عليه السلام، فلما فقد ابنه يوسف عليه السلام قالها، ولـمّا فقد اثنين آخرين من أبنائه ما زاد عليها. لقد كان يعلم أن أنفُس أبنائه قد سوّلت لهم أمرًا، ومع ذلك لم تستغرقه اللحظة الحاضرة، فلم يشتمهم، أو يضربهم، أو يطردهم، بل صبر عليهم، واستعان بالله تعالى في معالجة الموقف وحل المشكلة وهو نعم المعين.

وهذا الموقف يجب أن يستحضره الآباء الذين يستعجلون في تشديد العقوبة على أبنائهم وطردهم لوقوعهم في خطأ ما، فيتلقفهم أصحاب السوء، والنتيجة انحراف الأبناء ووقوعهم في جرائم ربما ما كانت لتخطر على بال أحدهم لو بقي في بيت أبيه، يحوطه برعايته، ويسدده بتوجيهه.

---

(١) البخاري ٦/ ٢٦١٤ (٦٧٣٢)، ومسلم ١/ ١٢٥ (١٤٢) و٣/ ١٤٦٠.

من البئر إلى القصر

تتابع فضل الله وآلائه على يوسف

* من فضل الله على يوسف عليه السلام أن الذي اشتراه هو عزيز مصر، فلم يشتره رجل يهينه ويذله ويستخدمه ويبتذله للكسب ولم يجعله خادمًا في البيت، بل أوصى به زوجته خيرًا: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾.

* على نقيض العزيز الذي حباه الله فراسة توسَّم بها في يوسف النفعَ، كان أولئك الذين أخرجوه من البئر وباعوه بأبخس الأثمان.

تنبيه الآباء والمربين على أهمية التعرف على النجباء

ويحسن في هذا المقام تنبيه الآباء والمربين على أهمية التعرف على النجباء والمتميزين من أبنائهم وتلاميذهم، بل على معرفة صفات وقدرات كل واحد منهم، فيعاملونهم بما يناسب حالهم دون محاباة لهم، أو ظلم لغيرهم، فربما يكون منهم قائد، أو مجدد، أو عالم. وقد كان عمر يدعو ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لِـمَا يدعو له أهل بدر؛ لأنه توسّم فيه النجابة مع أن سنّه دونهم.

أنواع التمكين وتحصيل يوسف عليه السلام لها

* ولا يزال لطف الله بعبده يتتابع فقال سبحانه واصفًا ما بلغه: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾، والتمكين نوعان: تمكين خاص، وتمكين عام، وليتحصّلا ليوسف عليه السلام مكنه الله تعالى في أول الأمر من قلب العزيز، وفي الآية إشارة إلى أن دخوله بيت العزيز وما لقيه فيه من إكرام كان مبدأ تمكينه في أرض مصر، والتمكين العام بالولاية العامة عندما قال الملك: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ قال: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ ...﴾ [يوسف:٥٤-٥٦]، فأصبح هو عزيز مصر الآمر الناهي.

أهمية الثقة بالله وحسن الظن به

* ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾، وهذا هو سر المسألة، **أفلا يثق بالتيسير والتفريج،** أفلا يثق بالتمكين والتأييد، من كان هواه تبعًا لمراد الله الغالب على أمره، اللطيف بعباده، الناصر لأوليائه؟

إننا بحاجة لاستحضار هذه المعاني لنطرد اليأس والتشاؤم من القلوب بعدما تكاثرت جراحات الأمة. لقد تعرضت أمة الإسلام على مدار التاريخ لكيد الأعداء، وكان سبيل النصر في كل مرة من تلك المرات الاستمساك بحبل الله، والثقة بوعد الله، والتوكل على الله، والأخذ بأسباب الانتصار، وهذا هو السبيل الوحيد لأمتنا اليوم إن أرادت التغلب على عدوها، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ﴾ [الطلاق:٣].

قصة العفة

سمو أسلوب القرآن عند الحديث عن الفاحشة

* قصص القرآن تعالج ما يعايشه الناس وتذكِّر بأخبار من غبر حتى يأخذ من حضر العبر، فلا بأس إذًا من سرد أضرب قصة امرأة العزيز ولكن بمنهج القرآن، دون بذاء أو تفصيل ودون تعرض لِـمَا لا طائل من ورائه، ولا فائدة من ذكره، إلّا عند ذوي النفوس المريضة بفتن الشهوات، التي يطربها سماع القذع والفحش وأخبار التهتك والمجون وتعدي الحدود والحرمات.

* قال الله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ومما يلحظ هنا ابتدار المرأة المراودة التي: هي المطالبة برفق، وعلى الرغم من ذلك، وعلى الرغم مما ينبغي أن تكون عليه امرأة العزيز، إلّا أن يوسف استعصم مع داعي النفس والهم، وحري بمثل هذا أن يبدله الله خيرًا مما تركه له، وحري بغيره إذا دعاه داعي الهوى أو النفس والشيطان أن يتذكر موقفه عليه السلام.

ما يُروى من الإسرائيليات في همِّ يوسف

* ثم قال: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾، ومما يحسن التنبيه إليه في هذا الموضع هو ما انساق إليه بعض المفسرين من سوق أساطير بني إسرائيل في تفسير هذه الآيات وبيان تفاصيل أحداثٍ ما عاصروها، بل لو عاصروها ما شهدوها، وزعموا أن يوسف عليه السلام كاد أن يقع في المنكر لولا أن رأى برهان ربه، وكثير مما قالوه فِرى مردودة ظاهرة الرد؛ لأن الله تعالى قال: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَ﴾[يوسف: ٢٤]، والفحشاء الوقوع في

الفاحشة، والسوء دون ذلك، والله تعالى صرفهما عنه. وقوله: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ ...﴾[يوسف:٥٣]، فمن كلام امرأة العزيز كما يدل القرآن على ذلك دلالة بينة لا يرتاب فيها من تدبر القرآن.

ولأن الله وصفه بالإحسان والإخلاص، والذي يعبد الله كأنه يراه لا يقع فيما ذكروه، كما أنه ما من نبي ذُكر له ذنب في القرآن إلا وذكر استغفاره، ويوسف عليه السلام لم يذكر في القرآن أنه استغفر من ذنب، وهذا دليل على أنه همَّ بقلبه دون فعل إذ عناية الله سبقت فرأى برهان ربه، وهو برهان الإيمان الذي حصل في قلبه فصرفه الله به عما كان هم به، وهو غير مؤاخذ بذلك.

* يُستشفُّ مما جاء في القصة أن البيئة التي عاش فيها يوسف عليه السلام في بيت العزيز كان فيها من الميوعة والانحلال ما يجعل الرجل يرى امرأته تلاحق فتى في بيته ثم لا يفعل شيئًا غير تقرير أنها مخطئة، ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَاۚ وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾، ويجعل المرأة تجهر بمثل هذه الفعلة بل وتكررها في الملأ.

خطر الخلوة والاختلاط بالنساء

* ومن وسائل العفة التي تزرعها هذه الآيات في النفوس تعظيم خطر الخلوة والخلطة بالنساء الأجنبيات، فانظر إلى أي مدًى بلغ الحد بامرأة العزيز؟ وصدق من قال: إن الخلوة خطر يجب اتقاؤه؛ لأنها دعوة للشيطان وسبيل للغواية، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**ألا لا يخلونَّ رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان**»(١).

---

(١) «المستدرك على الصحيحين» ١/ ١٩٧ (٣٨٧)، وهو في «صحيح ابن حبان» ١٠/ ٤٣٦ (٤٥٧٦)، وغير موضع، والحديث رواه جماعة، قال ابن كثير: له طرق أخر، وهو حديث مشهور جدًا [إرشاد الفقيه ٢/ ٤٠١]، وصحح ابن حجر إسناده في «هداية الرواة» ٥/ ٣٨٨، وقد صححه جمع من أهل العلم، وكذا الألباني، انظر «السلسلة الصحيحة» ١/ ٢/ ٧٩٢ (٤٣٠).

والإسلام حرم الخلوة وشدد في ذلك؛ ليغلق منافذ الشر، فإن العبد وإن كان خيِّرًا لا يحدث نفسه بالحرام، عليه ألا يحوم حول الحِمى مخافة أن يرتع فيه، وألا يخالط الريبة مخافة أن يجسُر. وقد تساهل الناس في هذا الزمان في الخلوة بالأقارب، مع أن النبي ﷺ بالغ في التحذير من الخلوة بهم فقال: «**إياكم والدخولَ على النساء**» فقال رجل: أفرأيت الحَمْوَ؟ قال: «**الحَمْوُ الموتُ**»(١).

والأدهى من ذلك خلوة الخدم والسائقين بالأبناء والبنات، فالبعض يتعامل معهم كما لو كانوا آلات، لا عقول لهم، ولا رغبات، ولا نزوات، والنتيجة ما نسمعه من رجال المؤسسات الاجتماعية والهيئات.

الفرار من مواطن الريبة

* ومن وسائل العفة المذكورة في الآيات الفرار من مواطن التهمة ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ﴾، والفرار يقتضي تجنب أسباب الفتنة، فإن عرضت، فعلى المرء بذل جهده للنجاة منها.

الحب إذا تجاوز الحد أضر بالمحب والمحبوب

* وفي هذه القصة بيان أن الحب إذا تجاوز الحد أضر بالمُحِبِّ والمحبوب، فالحب إن زاد ولم يُداوَ دواءً شرعيًا بالزواج، أو قطع أسبابه، وشغل النفس بما هو أنفع، عاد ضررًا على صاحبه، وعلى محبه، وربما على غيرهما، وقد كان حب امرأة العزيز ليوسف من هذا القبيل.

الخلاص في الإخلاص

* ومن فوائد هذه الآيات بيان أن الإخلاص مما يُكسى به العبد ثوب العفة، وبه ينجَّى من الفتنة، وبهذا نجَّى الله تعالى عبده يوسف عليه السلام من هذه الفتنة العظيمة؛ لأنه كان عبدًا مخلَصًا، ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾[يوسف:٢٤] خلَّص قلبه من الشرك ومن اتباع الهوى، فخلَّصه الله تعالى بفضله من الفتن.

---

(١) البخاري: ٥/ ٢٠٠٥(٤٩٣٤) وغيره، ومسلم ٤/ ١٧١١ (٢١٧٢) من حديث عقبة ابن عامر رضي الله عنه.

فالإخلاص والتوحيد من أعظم أسباب العصمة من الفتن، والنجاة من الشهوات والشبهات، وتحقيقه كافل العفة، ضامن السلامة والعصمة. ومن كمال تحقيقه حفظ أوامر الله ونواهيه.

الإحسان سبب لفتح أبواب الخير للعبد

* ومن فوائد الآيات بيان أن الإحسان -الذي وصف به يوسف عليه السلام - سبب لأبواب خير تفتح على المحسن، كما أنه سبب من أسباب إيصاد أبواب شر قد تتهدد المرء، ولا يظنن ظانّ أن معنى الإحسان هو بذل المال لمن يحتاجه وحسب، كلا، بل هو معنى أوسع من ذلك وأشمل. ففي الحديث لـمَّا سأل جبريل النبي ﷺ أن يخبره عن الإحسان، قال له النبي ﷺ: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك**»(1). والذي يعبد الله كأنه يراه لا يُقدِم على أيّ تصرف مهما صغر حتى يعرف أين هو من مرضاة الله ثم يُقدم أو يحجم.

ويوسف عليه السلام كان محسنًا، بل لم يملك أحد ممن رآه وتعامل معه إلا أن يصفه بذلك: وُصف بالإحسان وهو بين جدران السجن، ووصف به وهو القيِّم على خزائن الأرض، المتحكم في بيت المال، فلم يكن الإحسان صفة عارضة تكلَّفها لضعفه أو حاجته، لكنه كان خلقًا ضرب بجذوره في أعماق قلبه فاصطبغت حياته كلها به، حتى عند قدرته على إخوته، لم يخرج عن عادته وسجيته، فقال: ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف:٩٢].

وفي هذا المقام من قصته كان إحجامه عن مطاوعة امرأة العزيز إحسانًا لنفسه بحفظها عن الموبقات، وإحسانًا للمرأة بعدم الاستجابة لها، وإحسانًا للعزيز بصيانة عرضه.

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة، البخاري ١/ ٢٧ (٥٠)، و٤/ ١٧٩٣ (٤٤٩٩)، ومسلم: ١/ ٣٦ (٩) وما بعده، وأخرجه كذلك مسلم عن عمر.

التراضي بين الطرفين على الفاحشة لا يحلها

* التراضي بين الطرفين عند فعل الفاحشة لا يخرجها من دائرة الحرمة، ولا ينفي عنها صفة الظلم مثلما يعتقد الناس في الغرب وفي البلاد التي لا تسترشد بنور الإسلام. فالظلم حاصل مع التراضي أولًا: لأن الذي خالفا أمره هو الله تعالى، وثانيًا: لإهلاك نفسيهما بالوقوع في الحرام، وثالثًا: لتعديه على آخر ولو برضاه، ورابعًا: لما ينجم عن هذه العلاقة من آثار اجتماعية سيئة بين الناس الموجودين، وقد تنسحب على من قد يوجد جراء تلك العلاقات لو فتح لها الباب! وكل ذلك ظلم لا يجوز.

* الذي يظهر أن يوسف عليه السلام أراد بقوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ [يوسف:٢٣] عزيز مصر الذي قال: ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾ [يوسف:٢١]، وإنما قال لها يوسف ذلك؛ ليبين لها شناعة فعلته لو استجاب لها، إذ كيف يتعدى على عرض من أحسن إليه، وهذا هو الدرس المقصود فإن الإحسان يُحفظ به الإنسان، ويُكافأ عليه ولو كان كافرًا في الدنيا.

* فالإحسان إلى الخدم ومن هم في حكمهم سبب في وفائهم وحسن أدائهم. وقد قال بعض أهل الأدب: لم تقل العرب قط بيتًا في الإحسان أصدق من قول الحطيئة:

من يفعلِ الخير لا يعدم جوازيَهُ لا يذهب العُرف بين الله والناسِ

* ومن دروس العفة في هذه القصة والتي ينبغي أن تُعَى هو أن يوسف عليه السلام لم يسعَ للفتنة كما يفعل بعضهم في زماننا هذا، بل هرب منها لـمَّا وقعت؛ لذلك كتب الله تعالى له النجاة منها.

وهروبه منها أخذٌ بالأسباب، ولأنه استعصم بالله تعالى وأخذ بما بين يديه من أسباب قيض الله تعالى له فرجًا عاجلًا، فلقيا العزيز عند الباب، فاضطرت

الاستعصام بالله والفرار من الفتنة سبب للنجاة

المرأة لأن تكفّ عن ملاحقته، ثم كانت ملاحقتها وقَدُّ قميصه سببًا في الفرج الآخر لـمَّا بَـهـتَـته، إذ تبين بالبرهان الدامغ أنه كان ضحية ولم يكن جانيًا رغم أن الرجل في مثل هذه المواقف يكون هو محل التهمة.

فعلى من يرجو رحمة الله بعصمته إياه من الفواحش ألّا يسعى إليها، فإن جاءته، فليبذل ما يجد من أسباب دفعها، وإلّا فعلى نفسه جنى الجاني.

قد يُرمى العفيف ولكن العاقبة له

* ومن الفوائد أيضًا أن العفيف -وإن بلغ الغاية في تمام العفة- قد يُرمى بالسوء ظلمًا، فإن كان ذلك فالله حسبه، وعليه أجره، ومن كان الله معه فأي كيد -مهما عظم- يضره؟ ولكن كما قال الله عن نبيه يوسف في غير هذا الموضع: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

من أسباب انحسار العفة

* ومن الدروس بيان أن من أسباب انحسار العفة تجرد النساء من ثوب الحياء، مع تسربل الرجال بثوب الخنوع والدياثة، فامرأة العزيز ما كانت لتتطاول وتكرر مراودتها ليوسف عليه السلام على الملأ لولا تساهل زوجها، وسماحه لها بالخلوة بالأجانب، وهو بذلك ـ قصد أو لم يقصد ـ أعانها على فعلتها.

إذا رعى القيم على المرأة أمانته، وقام بأداء واجبه، فقلَّ أن تفجر موليته

ومن هذا القبيل أولئك الذين يتسكعون في النوادي والأسواق، ويجوبون شوارع الريبة وطرقات الرذيلة، فعلى كل عزيز مصر أن يأخذ بأيديهم، وعلى الرجال أن يدركوا أن كل جريمة فاحشة تقع في بلاد المسلمين يتحمل بعض الرجال من وزرها شيئًا؛ فإذا رعى القيم على المرأة أمانته، وقام بأداء واجبه، فقلَّ أن تفجر موليته.

إذا فشت الفاحشة استمرئت

* قالت النسوة: ﴿ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾، ومن الملاحظ أنهن لم يقلن فتى العزيز راود سيدته، وفي هذه الآية طمأنة لأصحاب المبادئ الذين يتعرضون لتشويه السمعة عن طريق الإشاعات، إذ سرعان ما تنقشع سحابات الإشاعات وتتبدى مواقفهم ساطعة كالشمس، والعامة تقول: لا يصح إلا الصحيح، وصدقوا.

الشماتة بالعصاة والمذنبين من أسباب الوقوع في المعصية

* السامع لعبارة النسوة يلحظ لأول وهلة أنها تطفح بالشماتة والتنقص لامرأة العزيز، والذي يظهر هو أن النسوة أردن إظهار فضلهن عليها؛ ولهذا قال ﷺ في الحديث: «**إنكن صواحب يوسف**»[1]، فمراد النسوة مدخول، وسبيلهن خاطئ فقد قارفن الشماتة ووقعن في التندر بامرأة العزيز، وزكّين أنفسهن وما حسبن أنهن بجلستهن تلك يشعن فاحشةً ويتمادين في ضلالٍ؛ ولهذا جاء جزاؤهن من جنس عملهن.

من المكر التظاهر بالنصح واستنكار المنكر من أجل الشماتة أو إظهار الفضل

* التظاهر بالنصح واستنكار المنكر من أجل إظهار الفضل على الآخرين، أو الشماتة بهم، أو التنقص لهم ونشر أخبارهم، أمر شائع في زماننا هذا بين الرجال والنساء على حد سواء، وهو من الغيبة المحرمة التي تدل على ضعف التقوى.

---

(١) متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها، ينظر: البخاري: ١/ ٢٣٦ (٦٣٣)، ومسلم ١/ ٣١٣ (٤١٨).

سقوط الحياء من إتيان الفواحش المذاعة

* الفاحشة إذا فشا أمرها، سقط الحياء من إتيانها، وسهلت مقارفتها، بل ربما أصبحت مخالفتها منكرًا في العرف يترتب عليه السجن والعقاب؛ ولهذا جاءت تشريعات الإسلام مراعية هذا المعنى، حريصة على كبت قالة السوء ومنع فشو الرذيلة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[النور:١٩]، قال البخاري: تشيع: تظهر[1].

ومن مراعاة الإسلام للحد من ذلك تشريعه للحدود، ومراعاته في تشريعها منع ذيوع الفاحشة، ومن ذلك جعل الحد في الزنى على من شهد عليه أربعة شهود؛ لأنه إما مجاهر بالمعصية، أو سبب لإشاعتها برؤية الجم الغفير مع ترك الحد والنكير، أما المستتر فلا حد عليه ما لم يشهد على نفسه ويطلب التطهر من ذنبه.

التفريق في التربية بين المجاهر والمستتر

* وهذا المعنى ينبغي أن يستفيد منه الآباء والمعلمون والمربون، فيراعوا هذه القاعدة عند التعامل مع الأبناء والتلاميذ، فالذي يدخن سرًا مثلًا يُستر أمره، وتعالج مشكلته دون أن يشعر بها من حوله؛ لئلا يجسروا على الإقدام، بخلاف من يجاهر بذلك، فإن على صاحب الولاية أن يردعه بما يليق.

ولهذا لـمَّا اشتهر أمر امرأة العزيز ولم تجد الرادع تمادت، فبعد أن كانت تستتر منه، وتغلق الأبواب، وتعده فعلًا يستوجب العقوبة ويلزم الفرار منه ولو بالكذب والإنكار، إذا هي تبلغ في طلبه أقصى حدود الجرأة، حتى هددت يوسف عليه السلام أمام النسوة بالسجن والصَّغار ما لم يتدنس بالرذيلة.

---

(١) صحيح البخاري(٦/ ١٠٦).

هل تمنى يوسف البلاء؟

* ومن الفوائد المهمة ما نجده من فزع يوسف عليه السلام إلى ربه ومولاه سبحانه وتعالى، فقد ناداه باسم الربوبية، فقال: ﴿رَبِّ﴾ التي توحي باستحضار النعم وتذكر سالف العناية والرعاية، وأعظمها الحفظ من سبل الغواية، ثم قال: ﴿ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾ [يوسف:٣٣]، كأنه يعني أن السجن ابتلاء، والوقوع في المنكر ابتلاء، فهذا أحب إليه من مواقعة المنكرات والانضمام لركب الجاهلين.

فليس صحيحًا أنه تمنى البلاء أو دعا على نفسه، بل ليس في الآية دعاء أصلًا، وغاية ما في هذه الآيات أن يوسف عليه السلام سمع قول امرأة العزيز الآنف وعلم خيارَيْها اللذين لا ثالث لهما: الإجابة أو السجن، وأدرك أنه لا محيص عن أحد الأمرين، فصار السجن محبوبًا إليه باعتبار أنه يخلصه من الوقوع في الحرام، كمحبة من تهدده أسدٌ بالافتراس إن خرج من السجن أن لا يخرج.

مع الحكمة قد تكون المحنة منحة

الابتلاء سنة الله في عباده

* يقول تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ وهذا السجن من الابتلاء الذي هو سنة الله في عباده الصالحين، وفي الحديث: «**أشدُّ الناس بلاءً الأنبياءُ ثم الأمثل فالأمثل**»(١)، فلا تنقم إن نزلت بك نازلة في الله، واصبر لحكم مولاك، واعلم أن ما أصابك لم يكن لِيُخطِئَك فاحمد الله على أن جعل سببه خيرًا، واعلم أنه تجب عليك في تلك الحال عبادة من نوع آخر، فاشغل نفسك بها، وبعد التمحيص تكون العاقبة للتقوى.

* لا شك أن السجن ابتلاء ينبغي للعبد أن يسأل الله تعالى أن يعافيه منه، لكن المسجون ظلمًا وعدوانًا لا يزيده السجن إلا رفعة ما دام ثابتًا على الحق، فلا ينبغي للداعية الصادق المخلص أن يأسى أو يحزن على ما أصابه طالما كان سجنه ظلمًا وجورًا، فما الذي يريده المصلح بدعوته غير رفعة درجاته وتعظيم حسناته؟ وهذا ما يناله في حال سجنه ظلمًا وعدوانًا، يرفع الله درجته ويعلي منزلته، ويكون سجنه خلوة وميدانًا للعبادة والعلم ومراجعة النفس، وساحة للتربية ومعرفة الناس في الرخاء والشدة.

* فتح يوسف عليه السلام لنفسه آفاقًا رحبة داخل السجن، فلم ينزوِ في ركن زنزانة مظلم قصيٍّ مُحطَّمًا يلعن ظلام السجن وظلم السجّان، بل من فور دخوله بدأ في إشعال شموع الدعوة، والتعامل مع واقع السجن بحكمة دون استسلام

(١) حديث صحيح رواه ابن حبان في «صحيحه» ٧/ ١٦٠ (٢٩٠٠)، والحاكم في «مستدركه» ١/ ١٠٠ (١٢١)، ورواه غيرهم، وصححه غير إمام، قال الذهبي: على شرط مسلم، وله شواهد.

لذلك الواقع المكبل أو الإذن له في تكبيله، ودون استسلام لأصل الحكم الجائر الصادر عليه، فقد قاومه بما يطيق ومن ذلك قوله لأحد السجينين: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾، وبهذا صارت المحنة منحة، فقد حققت بعض مقصوده في الدعوة، وكانت سبيلًا لاعتلاء خزائن الأرض.

تحويل المحن إلى منح

***الذي يظهر أن يوسف عليه السلام كان داعية إلى الله تعالى بأخلاقه قبل أن يكون داعية بكلامه**؛ ولهذا علل السجينان اختياره من بين السجناء ليقصا عليه رؤياهما بقولهما: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، والناس يحبون المحسنين، كما أن رب الناس جلَّ وعلا يحب المحسنين، وكأن الآية تشير بفحواها إلى أن من أسباب تلك الموهبة الربانية -أعني صواب تأويل الرؤى- الإحسان.

الداعية إلى الله وحسن الخلق

* هنا تتجلى حكمة يوسف عليه السلام في استثماره فرصة تصلح للدعوة التي يعود نفعها على المدعو والداعي، وهذا كان ديدنه عليه السلام فطنًا لبيبًا يحسن الاستفادة من واقع الأحداث واستثمارها، وهذا ملاحظ في سورة يوسف، فلما جاءه السجينان يطلبان تأويل رؤياهما استثمر الفرصة ودعاهما إلى الله، ولـمَّا خرج الساقي من السجن، استثمر الفرصة وأخذ بالسبب للتخلص من السجن ظلمًا، فقال له: (اذكرني عند ربك)، ولـمَّا طلب منه الخروج من السجن، استثمر الفرصة؛ ليظهر براءته وقال للرسول: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ﴾ [يوسف: ٥٠]، ولـمَّا قابل الملك وقال له: إنك اليوم لدينا مكين أمين، استثمر الفرصة وقال له: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٥٥].

من الفطنة استثمار الفرص والاستفادة منها

* عرض كل من الفتيين رؤياه على يوسف ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ فاستثمر يوسف عليه السلام الفرصة السانحة لِـما يعود على السجينين بالنفع العميم، وحتى يتم له ذلك شرع يرسخ عندهما علمه بشيء من

استثمار يوسف الفرصة لدعوة السجينين

الغيب الذي أطلعه عليه ربه سبحانه وتعالى؛ ليعلما أولًا أن تأويل الرؤيا لن يقع جزافًا، فيحملاه محمل الجد، وليوطئ أمر دعوتهما للتوحيد، ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [يوسف:٣٧]، هو من براعة استهلال أمر الدعوة، فبدأ بما يتعلق بموضوعهما، وأخبرهما أنه ليس من عنده وإنما هو من قبيل الغيب الذي علمه إياه ربه: إما وحيًا وإما إلهامًا أو بهما.

* وفي قوله: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ﴾ [يوسف:٣٧] فائدة أخرى تتعلق

استهلال الدعوة بما يمهد لقبولها

بمنهج الدعوة، فقبل أن ينتقد يوسف عليه السلام دينهما ويقرر لهما بطلانه أشعرهما بأن الله تعالى الذي سيدعوهما للإيمان به منعم متفضل؛ ليفتح قلبيهما لِـمَا سيقول، لأن الإنسان بطبعه يحب المحسنين المتفضلين، فقال: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ﴾، وكلمة ﴿رَبِّىٓ﴾ فيها معنى الرعاية وتدبير الأمور. كما أنه لم يقل لهما: إنكما على دين باطل، بل قال: ﴿إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [يوسف:٣٧]، والداعية حينما يبين للناس الحق بالكلمة الهادئة المحكمة لا الاستفزاز وافتعال الخصومات فسيفهمون أن ما سواه هو الباطل؛ لأنه ليس بعد الحق إلا الضلال، صحيح أنه قد يحتاج لمواجهة الناس بباطلهم، بل ربما قتالهم إن أصروا واستكبروا لكن ليس هذا هو الأصل في كل مقام.

* ثم قال: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف:٣٨]، ويبدو أن يوسف عليه السلام ذكر آباءه لفائدة، إذ ربما يعرف السجينان طرفًا من أخبارهم، كيف لا وهم أعلام هدى ومصابيح دجى، وقد كان أبوهم إبراهيم عليه السلام أشهر من علم على رأسه نار، وكانت له مواقف مذكورة مع حاكم مصر.

وكل ذلك جارٍ على عادة الأنبياء في تعظيم الأمر بالتوحيد، والنهي عن الشرك، بخلاف من تنكَّب سبيلهم، تراه ثاني عطفه يظن أنه قد حقق التوحيد، فإذا أمر آمر به أو نهى عن ضده، فلا يظن أبدًا أن الكلام متوجه إليه، أو أنه مقصود مخاطب به، فاللهم رحماك رحماك، إياك نسأل أن ترزقنا تحقيق التوحيد، والعناية به، وخوف الشرك، والحذر منه، وأن تجنبنا وبنينا أن نعبد الأصنام، ربنا إنهن أضللن كثيرًا من الأذكياء، في الهند والسند، والشرق والغرب، بل وفي بعض ديار المسلمين، فلك الحمد على الهداية، ونسألك الثبات حتى نلقاك على التوحيد، أرجى ما به نلقاك.

عادة الأنبياء تعظيم الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك

* وبعد هذه المقدمة اليوسفية -على صاحبها السلام- أشعرهما أنه لم يُرد بذكر آبائه التفاخر وإن كانوا أنبياء، وإن كان أحدهم خليل الله، فذكر لهما أن ما به وبآبائه من نعمة فمن الله وحده، وهذه النعمة -أي: نعمة التوحيد- هي أسبغ النعم عليَّ وعلى آبائي وعلى الناس كافة كذلك، والفرق بيننا وبين الناس أن الناس لا يشكرونها، وشكر نعمة الهداية للتوحيد يكون بالقيام بحق كلمة التوحيد والعمل بمقتضاها، وما من شك أن الأنبياء هم أكثر الناس قيامًا بحقها، وعملًا بمقتضاها، وكل ذلك خرج على سبيل الترغيب لهم فيها، وتأكيد الدعوة بالفعل، فإن رده النعمة إلى مُوليها، والأفضال إلى مُسديها -سبحانه- من جملة توحيد الربوبية ومقتضاه.

ليس بمحظور إثبات الصحبة بالمعنى اللغوي لفاسق أو كافر

* ثم قال مخاطبًا لهما: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾! والمعنى: يا صاحبيَّ في شدتي، ومراده الصحبة في أصل اللغة، وهذه لا محظور في إثباتها، فقد يحبس المرء جورًا مع فاسق أو كافر فيصحبه في السجن، وليس في ذلك غضاضة عليه، وهكذا كل صحبة اقتضاها مقتضٍ صحيح، وبعد أن ناداهما بلفظ الصاحب الذي يشعر بالقرب الوجداني استخدم مهارة من مهارات الدعوة، فناقشهما نقاشًا عقليًا يؤكد لهما بطلان دينهما.

والمقصود أن يوسف عليه السلام **استثمر الفرصة السانحة في الدعوة، ومهّد لذلك بضرب من إلانة الكلام**، كما فعل موسى مع فرعون. ونبينا ﷺ كان كذلك، فربما ألان الكلام مع المشركين لأجل الدعوة، فتراه يكني الرجل منهم كما فعل مع عتبة بن ربيعة لـمَّا جاء يساومه ليتخلّى عن دعوته وأساء معه الأدب، ومع ذلك لم يعنِّفه النبي ﷺ ثأرًا لكرامته، أو انتصارًا لنفسه، لكنه استمع إليه حتى انتهى من كلامه ثم قال له: «**أفرغت يا أبا الوليد؟**»[(١)]، فقابل سوء الأدب بالأدب الجم، فكل إناء بما فيه ينضح، وهو يعلم أن ذلك لن يضيع عند ربه، وقد كان همه الأول إخراج الناس من الظلمات إلى النور، ولا يخفاه أن في الصبر على المكاره خيرًا كثيرًا[(٢)].

التلطف في الدعوة ليس هو الموالاة وقول الباطل

* ومع ذلك لم يكن حرص الأنبياء، ومنهم نبينا ﷺ على هداية الناس يدفعهم لاستعمال أية عبارة تدل على أدنى درجات الموالاة للكافرين، فقد عامل اليهود بالحسنى، وعقد معهم المواثيق، لكنه ما أشعرهم في يوم من الأيام بأنهم على حق، ولا سعى في يوم من الأيام للتقريب بينهم وبين المسلمين، عن طريق التنازل عن شيء من الدين، أو إيهامهم بأنهم غير كافرين أو ناجين، لا في زمان ضعف الدولة الإسلامية ولا في زمان قوتها، بل كان يقول لهم: «**أنا أحقُّ بموسى منكم**»[(٣)]، هكذا دون مواربة، فالحق أحق أن يقال.

---

(١) الأثر بهذا اللفظ رواه ابن إسحاق في «السيرة» ١/ ١٨٧، وعنه رواه جمع وسنده صحيح إلا أن فيه انقطاعًا، وله شواهد أخرى اختلف أهل العلم في تصحيحه بها.
وقد ثبت في «الصحيحين» تكنية النبي ﷺ لعبد الله بن أُبي ابن سلول، وفي الصحيح قال: «هذا قبر أبي رغال»، وكان أبو رغال كافرًا. والخلاف في تكنية الكافر منتصب بين أهل العلم، والصحيح عدم الجواز إلا لمقتضى تبدو مصلحته.

(٢) ينظر «تفسير ابن كثير» ٤/ ٩٢، أول سورة فصلت.

(٣) البخاري ٢/ ٧٠٤ (١٩٠٠).

* فأين ذلك مما يفعله بعض الناس محتجين بما ليس فيه حجة على الباطل؟ إن تسمية دول الكفر بالدول الصديقة أو الدول الشقيقة، وتهنئتهم بأعيادهم فيه إقرار بباطلهم، وإخفاء لواجب البراء منهم، بل فيه ركون إليهم، وإشعار لهم بعلو شأنهم، والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود:١١٣].

التفريق بين حسن المعاملة مع الكفار وبين الركون والإطراء

والواجب التفريق بين المعاملة بالحسنى وبين الركون، والإطراء والتعظيم، فيحسن إلى غير الحربيين، ويُقسط معهم، فلا ينتقص حقهم، ويوفى إليهم ما لهم، ولكن لا يعظمون ولا يوالون، ففرق بين إعطاء الحق الذي هو القسط على أكمل وجه وهو الإحسان وبين التعظيم والموالاة، ولا تنافي بين البر والقسط وبين البراءة من الكافرين، بل لا تنافي بين الإحسان والقتل: «**إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحدَّ أحدُكم شفرتَه فليُرِحْ ذبيحتَه**»[(١)]، أما التعظيم والمودة والموالاة فلا، فلا يقال للكافر: سيدٌ، ولا صاحب السعادة، أو الفخامة أو الجلالة، ونحوها من عبارات التبجيل والتفخيم، وفي الحديث: «**لا تقولوا للمنافق سيد، فإنه إن يك سيدًا، فقد أسخطتم ربكم عز وجل**»[(٢)].

وجماع ما تقدم أن موالاة المؤمنين والبراءة من الكافرين أوثق عرى الإسلام، والتساهل في ذلك قدح في التوحيد، والأنبياء من أبعد الناس عن هذا، وقد سلكوا في دعوة الكفار مسلك القسط والإحسان، دون تعظيم أو مودة.

---

(١) حديث شداد بن أوس في «صحيح مسلم» ٣/ ١٥٤٨ (١٩٥٥).

(٢) رواه أحمد في المسند ٥/ ٣٤٦، ح(٢٢٩٣٩)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٦٠)، وأبو داود في سننه (٤٩٧٧)، وابن أبي الدنيا في الصمت (٣٦٤)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٢٤٤)، وغيرهم وانظر السلسلة الصحيحة للألباني (٣٧١).

وكما أنه ينبغي التفريق بين الإحسان وبين الموالاة والتعظيم، فينبغي كذاك التفريق بين سب دينهم، وبين تبيان ما به من باطل بأسلوب هادئ رصين منضبط، لا يثير المدعو ولا يستفز حميته للجاهلية.

التفريق بين سب دين الكفار وبيان ما به من باطل

* وبعد أن ناداهما بذلك النداء، وعطف قلبيهما إليه بذلك الأسلوب، سألهما مقررًا ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ فأي الحالين خير: وجود أرباب متنوعة يستقل كل واحد منها بأثر، أم إله واحدٌ معبود بحق حبًا وتعظيمًا، فلا يستقل بالتأثير شيء دون الواحد القهار؟

تقرير يوسف عليه السلام للإلهية

وكأنه يشير إلى أن الخيار الأول يقتضي فساد نظام الكون، وعلو بعض الآلهة على بعض، وذهاب كل إله بما خلق، وهذا خلاف الواقع، ولو كانت أربابًا متفرقة لامتنع أن يكون أحدها مستقلًا بخلق العالم، إذ لو استقل لكان الرب واحدًا للعالم، وامتنع أيضًا أن يكون أحدهما مشاركًا للآخر معاونًا له؛ لأن ذلك يستلزم عجز كل منهما إلاّ بمعونة الآخر، والعاجز لا يكون ربًا ولا يستحق أن يكون إلهًا. وإذا تقرر أن وجود أرباب متفرقين ليس بخير، فلم يبق خير في المفروض إلّا وجود إله حق واحد متفرد بالقهر والتصرف، مستحق دون سواه للعبادة والتعظيم.

* ثم أكد ذلك ببرهان آخر وهو عدم الدليل على صحة دينهما، فقال: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[يوسف: ٤٠]، فهذه الآلهة التي تعبدون ما أنزل الله سبحانه وتعالى بعبادتها من سلطان، ولا حجة لكم في عبادتكم إياها، فلا برهان من أثر ولا نظر يفيد أنها آلهة حقًا، بل هي مجرد أسماء اخترعتموها ثم عبدتموها، وأيضًا فالحكم الشرعي والكوني لله وحده وليس لكم أن تثبتوا لما تعبدون شيئًا من أقسام الحكم، وإذا لم ينزل الله سلطانًا بعبادتها، فقد أنزل سلطانًا بعبادته وحده، فاعبدوا من له

الحكم وحده، الذي أمر أن لا تعبدوا غيره، ولا تتحاكموا إلى غير شرعه، وفي هذا تقريرُ أن تحكيم شرع الله دين يقترن بالتوحيد ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فالذين يحصرون الدين في إفراد الله بأداء الشعائر له وحده سبحانه، في توحيدهم نقص ما لم يتحاكموا إليه ويسلموا تسليمًا، بل ﴿مَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤]، فقد يكون ترك تحكيم شرع الله كفرًا وقد يكون دون ذلك كما بيَّن القرآن الكريم، فالدين الموصل لرضوان الله هو الدين الذي لا يعبد فيه إلّا الله ويكون الحكم فيه لله، فـ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ المستقيم الموصل إلى كل خير، وما سواه من الأديان غير مستقيم، معوج يوصل إلى الشر، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حقائق الأشياء، وإلا فإن الفرق بين عبادة الله وحده لا شريك له، وبين الشرك به، أظهر الأشياء وأبينها. ولكن لعدم العلم من أكثر الناس بذلك، حصل منهم ما حصل من الشرك.

* ثم بعد أن عبر لكل واحد منهما رؤياه: ﴿قَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾، والتعبير هنا بـ(ظن) مع أنه نبي مسدد، مشعر بأن على غيره من المعبرين ألا يقطع بصحة تعبيره؛ لأنه ربما أخطأ.

ينبغي للمعبر أن لا يقطع بتعبيره

* وطلبه من الذي ظن أنه ناج أن يذكره عند ربِّه -أي: سيِّده، وهو الملك- نوع من الأخذ بالأسباب، وبهذا يعلم أن يوسف عليه السلام، بذل ما في وسعه من الأسباب التي تجعل السجن تلك المحنة منحة تحمد عاقبتها، ومن كان هذا شأنه حري به أن يتم له مقصوده، وأن تكون العاقبة له، ولو بعد حين، وهذا ما كان ليوسف عليه السلام بعد أمد كانت مدته بضع سنين، والبضع: من ثلاث إلى تسع سنين، والتعبير بالسنة يُشعر بشدة تلك الأعوام.

بذل الوسع في الأخذ بالأسباب

* ولعل من مقاصد يوسف عليه السلام في حضه الفتى على ذكره، إبلاغ قضيته الملك؛ ليُشعره بأهمية العناية بحقوق السجناء، وبضرورة حرص ولاة الأمور على التعرف على أحوال المسجونين؛ لئلا يسجن أحد بغير جريرة، أو يسجن جانٍ فوق ما يجب، أو يضيَّع أي حق من حقوقه.

* قال تعالى: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾، ونسيان الساقي أن يُبلغ الملك وصية يوسف عليه السلام كان ابتلاءً آخر، لكنْ لعل ربه تعالى بعلمه وحكمته لم يشأ أن يجعل لعبد من عبيد الملك على عبد من عباده تعالى فضلًا، فلم يجعل فكاك هذا النبي الكريم من السجن بالتماس يُقدِّمه أحد السقاة للملك، كلا، لن يخرج صَفيّه عليه السلام إلا بالتماس من الملك نفسِه يُقدِّمه له بعد أن ينفذ كل شروطه، ثم يمكّنه من خزائن الأرض يفعل فيها ما يشاء وفق مقتضى حفظه وعلمه، ويمكنه من الأرض يتبوأ منها حيث يشاء، وتلك عاجل بشراه. أما في أخراه، فلا تدري نفس ما أخفي له من قرة أعين، جزاء إحسانه وتقواه.

اختيار الله للعبد خير من اختياره لنفسه

ولكأني أسمع هذه الآيات تنادي أمة غافلة أن هلمي إلى كتاب ربك، فلا هادي لك في ظلمات هذه الجاهلية سواه. ما لي أراك تتلفتين شرقًا وغربًا تلفُّت الحائر المغلوب؟ عمّ تبحثين؟ عن تجارب من تفوقوا عليك حضاريًا لتلحقي بركبهم؟ ألا ما أضلك وأشقاك! أنَّى لمثلك أن يُقلد أمثال هؤلاء الضُّلال الفاسقين؟ أَوَتتخذين ما حباك الله به من نعم وراءك ظِهريًا، ثم تُطوِّفين على موائد هؤلاء اللئام فيضِنّون عليك بما عندهم من رجس؟

أيتها الأمة المختارة! أتبحثين في هيئات القوم ومؤسساتهم عن ميثاق يعطيك بعض حقك، ويحميك من ظلم بعض المعتدين؟ ألا ما أتعسك وأغباك! متى سمعت في دنيا الحيوان عن نعجة تختبئ من القصَّاب في بيت الذئاب؟ أأنت أضل

من هذه البهيمة؟ أما وقعت عينك مرة واحدة ولو على سبيل الصدفة على ميثاق ربك: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾[النور:٥٥]؟ ربك جلَّ في علاه يصرّح بلفظ الوعد، ويقول لك: أخاطبك أنت، ويؤكد لك كل بنود الميثاق بكل ما تعرفين من أدوات التوكيد، ثم تفرين منه إلى هؤلاء العبيد؟ وهم على هوانهم يستكبرون عليك، وكلما ألحفتِ في سؤالهم واستجدائهم زادوا في احتقارك وازدرائك!

أيتها الأمة الغافلة اللاهية: لتمسحِنَّ عن عينيك ما علاهما من غشاوة، ولتزيلِنَّ عن أذنيك ما بهما من وقر، ولتُقبلِنَّ على كتاب ربك بعقل اللبيب المتدبر، وقلب المؤمن الصادق، أو فلْتأذني بخزي يُجلِّلُكِ ما امتدت بكِ الحياة، ولتعلمي أنك مردودة إلى أشد العذاب يوم يقوم الحساب.

أيتها الأمة الفارَّة من رحمة ربك الوهاب! بادري بالإياب، قبل أن يوصد دونك الباب، وابذلي الأسباب، متعلقةً بالقويِّ مسبب الأسباب، ومذلل الصعاب .. سبحانه ما أعزَّ شأنه.

رؤيا الملك

تعظيم شأن الرؤيا وتفخيمه لئلا يجترئ عليه أي أحد

* هذه الرؤيا خلّد الله تعالى ذكرها في كتابه العزيز وذكر تفاصيلها؛ لأنها من أعظم الرؤى التي عرفتها البشرية، فقد تعلقت بها حياة شعوب بأكملها، إذ رآها ملك مصر، فأهمته وأقلقته، وجمع الأعيان وأهل المشورة والرأي لتعبيرها، وقال: ﴿أَفْتُونِي﴾؛ ليفخم أمر الرؤيا ويعظم شأن الحديث فيها.

جهل البطانة وسوء تعبيرهم

* ورغم ذلك فلـمَّا قصها عليهم، قالوا: أضغاث أحلام! **فحسموا القضية -هكذا بالجهل-** بهذه السذاجة واللامبالاة على عظمها، وبتُّوا فيها بهذه السرعة رغم جهلهم الذي لم يخفوه! وكان حريًّا بهم إذ جهلوا أن يحيلوا على أهل العلم والاختصاص، أو يبينوا جهلهم، وأما الفتوى بغير علم، فقد تورد الناس المهالك، ولك أن تتوهم كيف يغدو أمر الدولة لو لم يدَّكر الساقي الذي أفاد من صحبته ليوسف عليه السلام في السجن؟ أتهلك أمة كاملة؛ لأن الملك لم يحسن اختيار مستشاريه، أو لأنهم لم يحسنوا النصح له؟ أيتضور الناس جوعًا سبع سنين حسومًا؛ لأن المستشارين لا علم لهم، ولا ضمير؟

إن عدم اختيار البطانة الصالحة التي تحسن سياسة أمور الدولة، وتحرص على مصالح الرعية من أضر الأخطار التي يمكن أن تتهدد البلاد، وهذه الحقيقة تتجلى للمتأمل في خبر ملكة سبأ لـمَّا جاءها كتاب سليمان عليه السلام فاستشارت الملأ، فأشاروا بالمواجهة بالقوة دون رويّةٍ ودراسة ونظر في العواقب، وتقديرًا لشأن من تحارب! ولو عملت بمشورتهم لَـمَا قامت لملكها قائمة، ولصار أعزة مملكتها أذلة حقًا.

أهمية التلطف مع الكبراء

* وفي قول الملأ: ﴿أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٍۖ﴾ ترك لنوع من التلطف في العبارة والأدب، ومثل هذا الأدب في التعامل مع الكبار والزعماء أمر مطلوب حتى ولو كان هذا الزعيم كافرًا، والنبي ﷺ لـمَّا راسل القادة إلى الدول المجاورة كان يراعي في خطابه لهم مكانتهم عند قومهم فكان يكتب مثلًا: «**من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم**»[1]، فلم يقل العظيم مطلقًا لكنه قيدها فقال: عظيم الروم، وهو عظيم عند قومه، وبخلاف الملأ كان الساقي أكثر أدبًا حيث قال: (فأرسلون) مخاطبًا الملك، خطاب الجماعة.

الأدب مع القادة والملوك من الحكمة في الدعوة

ولا شك أن الأدب مع القادة والملوك من الحكمة في الدعوة، وهو مطلوب مع الناس كافة، إلا أن النفاذ لقلوب الملوك بالكياسة وحسن الأدب فيه مصلحة للأمة كلها؛ لأن الرعية تصلح بصلاح راعيها، والأصل قول ربنا سبحانه: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ [النحل:١٢٥]، أما الزعيم المحارب الذي يصد عن دين الله، فلا بد من إظهار العزة بالإسلام عند الحديث معه أو مكاتبته، وقد روي أن هارون الرشيد أرسل لقائد الروم لـمَّا هم بقتال المسلمين: من هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم[2]، فلكل حالة ما يناسبها، ولكل شخص ما يليق به.

* هنا تذكر الساقي ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾، وهكذا ما بين يوم وليلة جعل الله تعالى رؤيا الملك سببًا في التمكين ليوسف عليه السلام، وللتعريف بكريم

---

(١) البخاري: ٤/ ١٦٥٨ (٤٢٧٨) وغيره.

(٢) «تاريخ الطبري» ٤/ ٦٦٩.

أخلاقه، ولإعلان براءته. فمن فضل الله جل وعلا على يوسف عليه السلام أن صاحب الرؤيا هو الملك، وأن رؤياه تعلقت برعيته وباستمرار ملكهم ورغد عيشهم، وأنه ما من أحد استطاع أن يعبرها غيره، فذلك وغيره كان سببًا في اهتمام الملك بأمره، وتقريبه منه، بل وتولِّيه وزارة مصر، وفي كل ذلك إيذان ببداية التمكين ليوسف عليه السلام ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦].

الداعية وتنقية الصحيفة والبعد عن الريبة

الداعية وتنقية الصحيفة والبعد عن الريبة

* لما جاء الرسولُ يوسفَ عليه السلام أبى أن يخرج من السجن حتى تثبت براءته، فلا يبقى في نفس أيِّ أحد أدنى ارتياب من أمره، والناس غالبًا ما يَـخِفُّون لمقابلة الكبار والملوك إذا سنحت لهم الفرصة، كما أن السجين لـمَّا يتلقى نبأ الإفراج عنه يستحوذ النبأ على كل مشاعره، فلا يكاد يفكر في شيء سوى الإسراع بالخروج، لكن يوسف عليه السلام **لم تستغرقه اللحظة الحاضرة**، بل كان يعي هدفه، وكان رشد عقله قادرًا على السيطرة على مشاعره، والتفكير في مآلات الأمور. وتبرئة النفس من أي تهمة لحقت بها أو ربما تلحق بها مطلب شرعي.

أهمية عفة اللسان

* ولهذا لـمَّا جاء الأمر من القيادة العليا للدولة إلى يوسف عليه السلام بالمجيء قال بملء فيه: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠]، كلمة حكيمة ليست رعناء ولا هوجاء، فلم يجب بما لا يناسب مقام المخاطب، ولم يقدح في المدّعى عليهن، بل عمد إلى تبرئة جنابه بأعفّ عبارة، فلم تكن عفة يوسف عليه السلام تقتصر على ابتعاده عن المنكرات، بل بلغت عفة لسانه حدًا يجعله لا يشير إلى المرأة التي حاولت فتنته، ثم سجنته هذا السجن الطويل، بل يذكر قرينة تشير إلى القضية دون أن يصرح باتهام أحد، والذي يتجنب الفحش في الكلام لا يمكن أن يقع في فاحش الأفعال.

الإحسان للمسئ من أسباب ندمه على إساءته

* ويبدو أن موقف يوسف وعفة لسانه مع امرأة العزيز الساجنة المراودة المسيئة، كانت عاقبته ندمها، وفواقها من غفلتها، واستشعار عظيم جنايتها في حقه، وتلك حال قد تعتري كثيرين ممن يسيئون للآخرين، فإذا قدر الآخرون ولم يكافؤوا الإساءة بالإساءة، بل أحسنوا إلى المسيء، كان لذلك عظيم الأثر على النفوس التي لم يتمكن اللؤم من أصحابها، ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [فصلت: ٣٤].

فيوسف خلاءٌ براء، انفسحت عنه التهمة، وسقطت عنه الظِّنَّة، وبان للملأ أنه بمنتزح عما رُمي به، وإذا نفى الشهود التهمة عن المتهم، وأكد الخصم براءة خصمه دون حضوره أو حضور هيئة دفاعه، كان في ذلك دليل قاطع على نقاء جيبه، وأمن مُغَيَّبته.

الولاية والتمكين

من السجن إلى قصر الحكم

* بعد أن حصحص الحق وظهر أمر الله، حصلت النقلة، فإذا بسجين الأمس، الذي لم يكن أحد من البشر قبيل يوم من تسارع الأحداث، يستطيع أن يخمّن موعد خروجه، إذا به بين عشية وضحاها يتوجه نحو القصر؛ ليكون شريكًا في الملك، ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾، فسبحان من بيده الملك، إذا قضى أمرًا فإنما يقول له: كن فيكون، أوَبعد ذلك يتطرق اليأس إلى قلوب عرفته؟ فما بال نفوس بعض المؤمنين امتلأت يأسًا؟ أليس الله أهلًا لحسن الظن؟ ألم تجر سنته بتداول الأيام بين الناس، وقد حكم أن العاقبة للتقوى؟ ألم يقل الله عز شأنه: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥]، أليست لنا في القصص عظة: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص:٥]،

طريق التمكين

فما أقرب النصر والتمكين لهذه الأمة المستضعفة المسلمة، إن نصرت ربها، وراجعت دينها، واستقامت على سنة نبيها ﷺ، ثم صبرت على التمحيص، عندها يخلق الأسباب خالق كل شيء، كما خلق ليوسف عليه السلام بين عشية وضحاها أسبابًا لم تكن في الحسبان، إنه على كل شيء وكيل.

والمتأمل في تلك الأسباب يجد علاقتها بالإيمان ظاهرة، فإحسان يوسف عليه السلام، وصبره على الطاعة وعن المعصية وعلى القضاء، وحسن تصرفه وعزته، كلها أسباب دعت الملك ليصدر قرار الاستخلاص من فوره.

*جاء يوسفُ عليه السلام إلى الملكِ فلما رآه وكلَّمه، ازداد إعجابًا به، فلم يملك إلا أن يقول: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾، مكين: ذو مكانة، وأمين: فعيل يدل على تمكن وصف الأمانة فيه.

اختيار المنصب المتناسب مع قدراته، ويستطيع من خلاله أن ينفذ إلى قلوب الناس

*ومما يدل على عقل يوسف عليه السلام ورشده **استثماره الفرصة** إذ طلب منه أن يوليه وزارة تتناسب مع قدراته، ويستطيع من خلالها أن ينفذ إلى قلوب الناس ويبلغ رسالة ربه، فالناس يستجيبون لمن يُعنى بمصالح دنياهم، كما يعنى بمصالح أخراهم، مع عفته عمّا في أيديهم، فإذا عرفوه ناصحًا في الدنيا -حيث يتنافس الناس عليها- استدلوا بذلك على نصحه لهم في شأن آخرتهم، حيث لا مصلحة له بغشهم، فراعى يوسف في طلبه ما فيه نفع الناس، مع علمه بصلاحه له، وراعى أيضًا في طلبه حاجة الناس إليه في ذلك المقام حيث علم من نفسه القدرة على الخروج بالدولة من الأزمة المقبلة، فقال له: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ ثم بيَّن للملك ـ الذي استقرت عنده مكانته وأمانته المقتضية صدقه ـ سبب اختياره لهذه الوزارة فقال: ﴿إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.

* ولعلك تلحظ في تعليل يوسف أحقيته بالمنصب أسبابًا خصّها دون غيرها، فلم يقل: إني حسيب كريم، فليس الحسب وكرم الأصل مؤهلًا للولاية إذًا، ولم يقل: إني مليح جميل، فليس ذلك معتبرًا هنا، ولم يقل: بما أنني صرت قريبًا منك، أو في حاشيتك لذلك عليك أن توليني، فليس ذلك مؤهلًا من مؤهلات ولاية العامة، ولم يقل كذلك: ولِّني لفصاحتي ولباقتي ونحو ذلك مما حباه الله إياه وفاق فيه

غيره؛ لأنه لا يناسب الطلب، بل ذكر الحفظ والعلم، وهنا مربط الفرس كما يقال.

*وإخباره عن نفسه بذلك ليس هو من التزكية المذمومة التي هي من باب العجب أو الغرور أو الفخر، فما نُـهي عنه هو قصد تزكية النفس، أما ذكر الكلام المنطوي على تزكية للنفس لغرض الإخبار بحق لحاجة أو ضرورة يتوصل بها إلى هدف مشروع هو المراد لا أصل التزكية، فلا حرج فيه، وقد يجوز تبعًا ما لا يسوغ استقلالًا.

حكم الكلام المنطوي على تزكية للنفس غير مقصودة

وهذا كثير في السنة، ومن ذلك قول النبي ﷺ: «**أنا النبيُّ لا كذب، أنا ابن عبد المطلب**»(١)، فهذا فيه إخبار ينطوي على شيء من مدح النفس، لكنه أراد بذلك الخبر الحض على الثبات، وقال: «**أنا سيِّد وَلَد آدم ولا فخر**»(٢)، فهذا خبر ينطوي على تزكية، لكنه أراد بذلك أن يبين حقيقة.

* إذا كان الأمر كذلك؛ فلا يسوغ لأحد أن يحرص على ولاية لا يحسن تدبير أمرها بحجة الإصلاح، فإن جهله بها أو عدم قدرته عليها من دواعي الإفساد وإن زعم إرادة الإصلاح، وحسن النية لا بد أن يصحبه صواب العمل.

* وهل يجوز طلب الولاية؟

حكم طلب الولاية

الطيبون من أهل الإسلام في هذه المسألة طرفان ووسط: ففريق يريد أن يعيش في هذه الحياة دون أن يثقل كاهلَه عبءُ مسؤولية يعرف أنه محاسب عليها، وفريق يرى أن في الولاية فرصة سانحة لنشر الدين وإظهار شعائره، فمن خلالها يكون الأمر بالمعروف، وبها يكون للنهي عن المنكر سلطان، والقول الوسط في

---

(١) متفق عليه من حديث البراء بن عازب، ينظر البخاري ٣/ ١٠٥١ (٢٧٠٩)، ومسلم ٣/ ١٤٠٠ (١٧٧٦)، وقد روياه في غير موضع.

(٢) رواه مسلم ٤/ ١٧٨٢ (٢٢٧٨).

المسألة: هو أن طلب الولاية إذا قامت دواعيه شُرِع، أما إذا كان طلب الولاية لحظ النفس كتحصيل مكسب يراه حلالًا، أو يشتمل على تقديم غير الكفء فلا يجوز، بل على الوالي إذا جاءه من يطلب الولاية وهو يعرف أن في البلد من هو مثله أو من هو أكثر كفاءة منه ألا يوليه؛ لأن طلبه للولاية نقص، ومخالفة لأمر النبي ﷺ وهديه.

حكم المشاركة في برلمانات الدول الكافرة

* وهنا يَرِدُ سؤال: هل ينسحب ذلك على وزارة الدول الكافرة أو الظالمة والمشاركة في برلمان الدولة الكافرة ؟

المختار أنه يجوز بشروط ، ودليله تولي يوسف عليه السلام وقد كان الملك كافرًا على القول الراجح، و أهم هذه الشروط:

أولًا: ألا يترتب على اشتراكه في هذه الولاية إقرار كفرٍ.

ثانيًا: ألّا تكون فيه مساعدة ظاهرة على الظلم فضلًا عن أن يقع في الكفر.

ثالثًا: أن تكون مصلحة المشاركة راجحة على المفسدة، بشرط عدم ارتكاب ناقض من نواقض الإسلام، كالقيام بتنفيذ دستور كفري، أو حمياته وصيانته.

أما القول بأن ذلك كفر بإطلاق، فلا يستقيم، ولعل فيه بُعدًا، فإن ما كان اليوم كفرًا لم يكن في شريعة نبي من الأنبياء برًا، فالكفر والشرك ليس من قبيل المسائل التي يدخلها النسخ، بل هو من قبيل الأخبار المحققة، أما من حكم بأنها كفر لواقع معين ماثل كالإلزام ـ على سبيل المثال ـ بالقسم على دستور كفري ثم التزامه ثم المؤاخذة به، فهذا شأن آخر، ومسألة الأفعال التي قد يكفر بها في هذا الصدد والتي لا يكفر تحتاج إلى بحث وتحرير، ليس هذا موضعه[1].

---

(١) انظر للمؤلف رسالة بعنوان: (جدل الديمقراطية والمشاركة السياسية)، حيث دُرس هذا الموضوع وبسط القول فيه، وفق الأصول الشرعية، والأصول المرعية في البحث.

* قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٥٦]، فلم يذكر عن الملك جوابًا، مع أنه أجابه لسؤاله وولّاه، وفي هذا نكتة وهي أن الوزارة أو الولاية ليست تمكينًا في حدِّ ذاتها، بل قد تكون وبالًا ونكالًا على صاحبها، فلا يتبوأ من الأرض إلّا ما حرس وحف وأُمِّنَ قبل قدومه، ومع ذلك ربما لم يأمن صاحبها، فلما كانت النعمة الحقيقة هي ما وضعه الله ليوسف في قلوب العباد من الحب والتعظيم، والسرعة إلى الطاعة والتبجيل بحيث يتبوأ من أرضهم حيث يشاء ذكرها، وأعرض عن ذكر تولية الملك؛ لأنّ توليته لم تكن إلا لمصلحته ومصلحة بلاده، وقد صرح الملك بهذا فقال: ﴿أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾.

الإحسان من أعظم أسباب التمكين

* وبعد أن ذكر التمكين نوَّه إلى أحد أعظم أسبابه ألا وهو الإحسان، فقال: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٥٦]، فالمُحسِن فائز بلا شك، وحتى لا يتوهم إنسان أنه بالإحسان استعاض الأجر في الدارين، قال: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا﴾ من سبقت له سابقة السعادة بمشيئة الله فليس في الوجود مُوجِبٌ ومُقتَضٍ إلا مشيئة الله وحده؛ فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، هذا عموم التوحيد الذي لا يقوم إلا به، وذلك فضل الله، يمنُّ به على من شاء، وتلك رحمته، يصيب بها من أراد، ومن رحمته أن كتب على نفسه الإحسان لأهل الإحسان، ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن:٦٠].

الترغيب والترهيب سياسة شرعية

ذكر اللباب وترك الفضول من سمات كلام الله تعالى

* ﴿وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ﴾ وهنا انتقلت القصة إلى ما فيه العبرة من مصير إخوة يوسف، فإخوته ما جاؤوا إلا بعد انقضاء سنوات الرخاء وبداية سِنِيّ الشدة[1]، وقصص القرآن الكريم جميعها تقتصر على مواطن العبر والعظات دون تعرض لفضول الأحداث، فذكر اللباب وترك الفضول من سمات كلام الله تعالى.

ولـمَّا كانت السنة وحيًا كان في كلام النبي ﷺ شيء من ذلك، فقد اختصر له ﷺ الكلام اختصارًا، وهذا مما فضل به نبينا على سائر الأنبياء[2].

* فلما دخل عليه إخوته عرفهم مباشرة؛ ولهذا عقّب بالفاء: ﴿فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ﴾، أما إخوته فلم يعرفوه كما قال تعالى: ﴿وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ لأنه لم يكن ليخطر ببالهم أن يكون العزيز أخاهم الذي ألقوه في البئر، ولأنه كان صغيرًا حينها، فلما كبر تغيرت ملامحه، ثم كأنه عليه السلام كان يتولى الإشراف والمتابعة في التمويل بنفسه؛ لأن التفريط في هذا الشأن وإسناده إلى غيره ربما ضيّع البلاد قبل تمام السنوات المحلات، ومن كان هذا شأنه، فمن الطبيعي أن تدور بينه وبين الوفود كلمات، وأخذٍ وردٍّ ومحاورات.

---

(١) ذكره الطاهر ابن عاشور في «التحرير والتنوير» عند هذه الآيات ١٢/ ٨٤.

(٢) كما في حديث أبي هريرة عند مسلم ١/ ٣٧١ (٥٢٣)، وأصله في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة بغير التفصيل في غير موضع.

الصرامة والحزم في تدبير أقوات الناس وخزينة الدولة

* ويظهر كذلك أن في بعض تلك المحاورات ذكروا أن لهم أخًا، وقد كان يفرض للرجل حِملَ بعير، كما قالوا لأبيهم لما قفلوا: ﴿وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖ﴾ [يوسف:٦٥]، فلعلهم أرادوا الاستزادة من الميرة بذكر أخيهم له وإخبارهم بشأنه لما رأوا إحسانه، فأبى وأظهر الصرامة والحزم في تدبير أقوات الناس وخزينة الدولة، وقال لهم بعد أن جهزهم بجهازهم: ﴿ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡ﴾، فإن كان لكم أخ كما تقولون فأتوا به، فلن أبخسه حقه، ولن أهين مقامه، ولو كنت أعطي الناس بدعواهم لذهبت خزائن الدولة، وفي هذا ترغيب مع حزم، ثم أتبعه ترهيب جادّ فقال لهم: ﴿فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ﴾ [يوسف:٦٠]، فلا كيل لكم ببضاعة أو بغير بضاعة، بل لا تقربون لأكيل لأخيكم أو أبيكم، وذلك لأن ترك الإتيان به على الرغم من حصول الترغيب مع عدم المانع، يُشعِر بكذب وتحايل لأخذ المزيد بغير حق، ومن استعجل أمرًا قبل أوانه، وطلبه بغير حقه كان جديرًا أن يعاقب بالحرمان في المرات القادمة.

واللطف والترغيب، مع الحزم والترهيب، من أركان القيادة الناجحة

* وفي هذا الأسلوب ترغيب ثم ترهيب، واللطف والترغيب، مع الحزم والترهيب، من أركان القيادة الناجحة؛ لأن القائد الناجح هو الذي يقدر على قيادة القلوب والأبدان، وقد فصل شيخ الإسلام في هذه المسألة في كتاب «السياسة الشرعية»، وبيّن أن المُلك لا يقوم إلا بهما معًا، بل حتى في البيوت لابد من الإحسان والرحمة والعطف واللطف مع الحزم والجرأة في الحق.

* قالوا: ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ﴾ وفي ذلك إشارة إلى أن المسألة تحتاج إلى أخذ ورد، وأن الأمر ليس إليهم، وأن لأبيه مسوغات قد لايستجيب لهم بسببها، غير أنهم أكدوا عزمهم على بذلهم قصارى جهدهم فقالوا: ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ [يوسف:٦١]، وفيه إشعار بأن ما في وسعهم سيبذلونه، فلا تؤاخذنا بما ليس في أيدينا، فإن ذلك مقتضى الإنصاف الذي أنت أهله.

* ويبدو أن يوسف عليه السلام خشي ألا يُجابوا فأراد أن يجعل لهم سبيلًا آخر للرجعة، فأشار من طرف خفي إلى فتيته بعد أن جهز القوم، بأن يردوا عليهم بضاعتهم في الأرحلة دون أن يشعروهم، فرد بضاعتهم إحسانًا، وليكون لديهم

ما يشترون به مرة أخرى، دون أن يتأخروا، ويظهر أنهم فهموا أن ذلك فضلًا منه وكرمًا؛ ولهذا قالوا: ﴿بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَا﴾ [يوسف:٦٥].

* وقد يرد هنا سؤال، لِمَ لم يطلب يوسف عليه السلام مجيء أبويه وأهله مع معرفته بمعاناتهم، ثم أليس في طلبه أخاه مزيد عناء يلحق أباه؟ ولعل من جواب ذلك إرجاع تصرفه للوحي، فقد أراد الله عز وجل أن يكتمل بلاء يعقوب عليه السلام رفعة لدرجته، وأراد أن يكون ذلك سببًا لكرامته وكرامة يوسف بعد إذ رد عليه بالقميص بصره، وسنة الله جارية على أن الفرج يأتي بعد أن تستحكم الحلقات، ويشتد الكرب، وتضيق الأمور، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ﴾ [يوسف: ١١٠]، وكل ذلك ابتلاء وتمحيص لينظر عز شأنه كيف يعمل عباده، وتأمل كم من عبرة لنا في هذا القَدَر الذي أجراه الحكيم الخبير!

مشروعية المقاطعة الاقتصادية لتحصيل غرض مشروع طالما أن المصلحة الشرعية اقتضتها

* المقاطعة الاقتصادية سلاح فعَّال بيد الحكومات والشعوب لردع الظالمين والمعتدين اليوم، وقد أذن رسول الله ﷺ في استخدام هذا الأسلوب لإرغام المشركين، ففي خبر ثمامة بن أثال لـمَّا أسلم و«قدم مكة قال له قائل: صبوت، قال: لا، ولكن أسلمت مع محمد رسول الله ﷺ، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبي ﷺ»[1]، فكان إقرار رسول الله ﷺ له مدة دليلًا على مشروعيتها، ثم لـمَّا اقتضت المصلحة رفعها وذلك بإذعان المشركين له واستجدائهم فضلَه أمر برفعها[2].

(١) متفق عليه؛ البخاري ٤/ ١٥٨٩(٤١١٤)، ومسلم ٣/ ١٣٨٦ (١٧٦٤).

(٢) انظر في ذلك المقاطعة الاقتصادية للدكتور خالد الشمراني.

رحلة بنيامين [1]
احتياط وأخذ بالأسباب

من شأن الأبناء البررة ابتدارهم والديهم قبل الأهل والذرية عند القدوم من السفر

* انتقلت الآيات تخبر عن حالهم في مضاربهم وأرض قومهم، ويبدو أن الإخوة أول ما رجعوا ابتدروا أباهم، قبل الأهل والذرية، يسلمون ويخبرون بما كان من أمرهم، وهذا من **شأن الأبناء البررة وذلك** مشعر بشيء من تحولهم، ولو نزلوا عند أهلهم أولًا، لأنزلوا رحالهم في بيوتهم وعرفوا ما فيها، وكان فيما أخبروا به أباهم ما وعدوا به العزيز وأكدوه فقالوا: ﴿مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾، والمعنى: حُكم علينا بالمنع من طلب الكيل بعد اليوم.

* ولما طلبوا مجيء أخيهم معه، أكدوا حفظهم له فقالوا: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾، إنها الكلمة نفسها التي قالوها يوم قالوا: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ [يوسف:١٢]، لقد أعادت الكلمة إلى ذهن الأب الرفيق الشفوق صورة ابنه الحبيب: يوسف وهيجت الأحزان.

المؤمن كيس فطن

عندها لم يتمالك يعقوب إلا أن: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ فليس التعويل عليكم، بل على الله أعوِّل، ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، وكلمات يعقوب هذه تشعر بأن المؤمن ينبغي أن يكون كيسًا فطنًا،

---

(١) ذكر كثير من المفسرين أن اسم الأخ الأصغر ليوسف عليه السلام هو بنيامين، وقد جاءت تسميته في آثار مرفوعة لا تثبت، وقد أُثبت اسمه هنا جريًا على ما ذكره أهل العلم والمفسرون، ولم أقف على اختلاف في تسميته.

فلا يلدغ من جحر مرتين، لقد تعامل معهم بناءً على تاريخهم، فكان جرمهم الأول سببًا في فقدان ثقة أبيهم بدل أن يكون سببًا في خلو وجه أبيهم لهم كما ظنوا.

الإذن لبنيامين في الرحيل بعد الاحتياط

* ﴿ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ﴾ فلما رجعوا إلى متاعهم، وتفقدوه وجدوا أن بضاعتهم رُدَّت إليهم، فلمسوا من ذلك كرم العزيز ورفقه بهم، فشحذ ذلك هممهم ورفع معنوياتهم، فرجعوا إلى أبيهم وقالوا: ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾، أي هذا ما نريد: الأثمان، وطلب الميرة بها لأهلهم، وحفظ أخيهم إن أرسل معهم ليزدادوا ميرة بعير. والـمِيرة: اسم للطعام المجلوب، فهم لـمَّا رأوا الأثمان عقدوا العزم على العَود، فلما وجد يعقوب عليه السلام أن بضاعتهم رُدت إليهم، تبين له صدقهم، وبدا له شيء من إحسان العزيز ومثله يؤتمن، فقرر أن يُرسل صغيره معهم بعد أن يُعطوه موثقًا من الله، ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾، فرغم حرصه عليه السلام على اتخاذ الأسباب لئلا يسوِّل الشيطان لأبنائه أن يكيدوا ببنيامين كما فعلوا بيوسف، إلا أنه ما نسي أن الأمر بيد الله تعالى أولًا وآخرًا.

حكمة الدخول من أبواب متفرقة

* خشي يعقوب عليه السلام على أبنائه من العين لكثرة عددهم فأمرهم ألا يدخلوا من باب واحد، ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ ولعل السبب الآخر هو أنه خشي أن يصابوا إصابة جماعية فنصحهم بالتفرق في الأبواب، وهذا هو التفسير المنقول عن السلف.

الاحتياط والأخذ بالأسباب

* ثم علَّم يعقوب عليه السلام أبناءه أن الاحتياط مطلوب، والأخذ بالأسباب لازم، لكنه لا يغني عن العبد من الله من شيء، ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾

* وأكّد الله تعالى هذا المعنى فقال: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ﴾ [يوسف:٦٨]، والحاجة هي أمره لهم بما أمرهم به من الدخول من أبواب متفرقة، الذي هو سبب للحفظ من العين بإذن الله، ثم ثنّى بالثناء على يعقوب تنبيهًا إلى أنَّ قوله: ﴿ مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾ والذي يتضمن ربط السبب بمسببه، لا يعني اطراح الأسباب وإهمالها، فقال: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾، فقد جرت سنة الله تعالى بالخلق بها، ومتى شاء الله تخلّف النتيجة عن سببها تخلّفت، فأهل الحق يبذلون الأسباب الصحيحة ويتوكلون على مسببها سبحانه وتعالى.

أهمية الاعتدال في مسألة العين

ويجب الاعتدال في مسألة (العين)، فلا يبالغ فيها حتى يعاد أي ضرر يحدث إليها، كما يفعل بعض الناس، ولا تنكر، فالعين حق، وقد ثبت عن النبي ﷺ قوله: «العين حق، ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين، وإذا استغسلتم فاغسلوا»[1]، ومع ذلك فقد جعل الله عز وجل أسبابًا تمنع منها، كأوراد الصباح والمساء، وجعل أسبابًا شرعية أخرى للشفاء منها إذا أصابت.

(١) صحيح مسلم (٢١٨٨).

حيل وتخطيط وكيد إسلامي

* يقول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ وفيه دليل على جواز التناجي للمصلحة، إن كان المجلس عامرًا بأكثر من ثلاثة، وقد كان غرض يوسف عليه السلام تهيئة أخيه لِـمَا سيحدث فيستعد لذلك نفسيًا، ولئلا يتأذّى بتوجيه التهمة له وهو يعلم أنه بريء، وكل ذلك دليل على لطف يوسف عليه السلام وحكمته، ﴿وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [البقرة:٢٦٩]، وذلك من فضل الله اللطيف بعباده يؤتي فضله من يشاء: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

جواز التناجي للمصلحة إن كان هناك أكثر من ثلاثة

* ويبدو أن يوسف عليه السلام لـمَّا جاؤوا بأخيهم، أوفى ما وعدهم فجهزهم بجهازهم، إلّا أنه دسَّ السقاية؛ ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ﴾ ويبدو أنها شيء يسقى به، وكان يستخدمها كذلك في كيل الطعام، أوفي تقدير مكاييل الدولة، وهذا هو الأليق بما يسقى به الملك؛ ولهذا قال القائل: ﴿نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ﴾ أي: صاع الملك.

* وتأمل لما كان أمر رد البضاعة إلى رحالهم أمر فتيانه ﴿وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ﴾ [يوسف: ٦٢]، لكن لما جاء شأن الصواع جعله هو في رحالهم، ولم يذكر في القرآن ما يشعر بأنه وكل به أحدًا؛ لأن الكتمان هنا مطلوب،

فلم يأمر بذلك أقرب الناس إليه، إذ لا حاجة، ولا مصلحة بل قد يضر ذلك بتدبيره، بخلاف وضع البضاعة في الرحال، فلكل حالة ما يناسبها.

* ويبدو أنه ما إن تمّ وضع السقاية حتى أعلم يوسف عليه السلام بعض جنده بفقد الصواع، وأمرهم بالبحث عنه، ويبدو أن قرائن الأحوال أشارت إلى أنه لا يمكن أن يكون الآخذ غير هذه العير، إما لعدم وجود غيرهم أو لأن يوسف أومأ إليهم، والحاصل أنه قام مناد يكرر النداء معلمًا: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾، وتأكيده للأمر يشعر بأنه لم يكن في المكان غيرهم، والمؤذن رغم اتهامه لهم -لِمَا احتفَّ بالموقف من قرائن- فإنه لم يحدد أحدًا بعينه وفي ذلك نوع من الحكمة.

من الأساليب المهمة في التربية وفي التعامل مع الناس إعطاءَ المخطئ فرصة ليعود عن خطئه

* وتلحظ في هذا الحوار من الأساليب المهمة في التربية وفي التعامل مع الناس إعطاءَ المخطئ فرصة ليعود عن خطئه، فيوسف عليه السلام لم يعدهم بالعفو فقط عن الجاني إذا ردّ الصواع، بل وعدهم بإعطائهم حمل بعير بدلًا منه، وأكد لهم الوعد، ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ وفي هذا دليل على أن الغرض ليس اعتراف الجاني، لكن المهم إصلاح ما أفسده وتشجيعه على التخلص من الذنب.

ولأهمية هذه اللفتة التربوية أضرب مثالًا: لو أخذ أحد الأبناء شيئًا من المال خفية، فحاول الأب دفعه للاعتراف فسيحاول الابن الإنكار ما أمكنه ذلك، فيجمع بين السرقة والكذب، بينما لو أشعره الأب بأن المهم بالنسبة له معالجة الخطأ، وأنه سيتجاوز عنه على ألا يعود، فسيستجيب الابن لطلب أبيه، وربما بين له الدافع لإقدامه على مثل هذا التصرف، وفي ذلك عون للأب على استئصال المشكلة من جذورها.

* ويبدو أن في شريعة أهل مصر كان المسروق يؤخذ ويعاقب السارق دون أخذه، أما في شريعة يعقوب عليه السلام وهي شريعة إلهية فكان يؤخذ السارق. ولو عمل

حكم السرقة في الشرائع الماضية

يوسف عليه السلام بشريعة أهل مصر لـما تم مراده وهو أخذ بنيامين؛ لذلك حاور إخوانه وأنزل السارق على حكمهم، توطئة لأخذه بإقراراهم، ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾.

* وكان من كيد الله ليوسف عليه السلام أن ألهم الناظر تأخير النظر في وعاء أخيهم الصغير ﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾، ولو بادر إلى وعاء أخيهم ثم استخرجه منه فربما أثار بعض الشك؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ﴾ التي تفيد التراخي والتعقيب ﴿ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾.

السكوت قد لا يكون إقرارًا

* سكت بنيامين ولم يدافع عن نفسه، ومن هنا ينبغي أن نلحظ أن المتهم قد يراعي بعض المصالح، أو يحاول دفع بعض المفاسد فيسكت ولا يدافع عن نفسه، لذلك ليس بالضرورة أن يكون كل من لم يبرئ نفسه مقرًا على نفسه بالتهمة ولو عظمت؛ لذا فإذا اتهم أحد معروف بحسن السيرة فينبغي عدم العجلة في الحكم عليه بأنه اقترف ما اتهم به فعلًا، فيسع المرء السكوت عن الإدلاء بحكم غير مكلف بالبت فيه، ولا مصلحة له من الخوض فيه، بل ربما ترتب على نطقه وتعنيه ما لا يعنيه خطل كان في غنى عنه.

إحكام العاطفة بعِقَال العقل، وتوجيه العقل بنور الوحي

* لم يعبأ يوسف عليه السلام -على إحسانه وكريم خلقه- بطلب إخوانه، ولم يستجب لرجائهم بأخذ أحدهم بدلًا من بنيامين مراعاة لحال أبيهم رغم أنه أشفق بأبيه منهم؛ لأنه لا مجال للعاطفة إذا قرر حكم العقل أنَّ المصلحة في خلافها، فإذا كان مع ذلك وحي أو أمر شرعي فلا خيرة إلاّ فيما قضى الله تعالى، والقاعدة التي ينبغي أن يُستمسك بها إحكام العاطفة بعِقَال العقل، وتوجيه العقل بنور الوحي.

* قال يوسف عليه السلام لإخوانه: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾، ولم يقل: من سرق؛ لأنه يعلم أن أخاه لم يسرق وإن وجد الصواع في

رحله، فكان دقيقًا في عبارته، فهو لم يتهم أخاه كما لم يثر الشكوك حول قضية السرقة، وإنما وصف الواقعة كما رآها الجميع.

من الظلم أخذ البريء بجريرة قريب

* إن أخذ الناس بجريرة غيرهم من أشنع الظلم، وهو تعدٍّ على حرمات الله، وهو دأب الظالمين في كل زمان؛ ففي صدر الإسلام قاطعت قريشٌ بني هاشم ثلاث سنين، مؤمنهم وكافرهم؛ لأن رسول الله ﷺ منهم، وفي زماننا هذا يعاقب اليهود ذوي المجاهدين فيهدمون بيوتهم، وربما أوسعوهم أسرًا وتقتيلًا.

والمؤسف أن مثل هذا يحدث في كثير من بلاد المسلمين، فإذا أجرم أحدٌ أخذوا بجريرته من تحدَّث معه، ومن أشار إليه فضلًا عن الأهل والإخوان، والله المستعان، وهو أمر متوقع؛ لأن من لم يحتكم لشرع الله تعالى، احتكم لشرعة الطواغيت والعياذ بالله.

رفع الدرجات وعلاقته بالعلم

* ثم ذُيل الكلام بقوله: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُ﴾ لأن في القصة رفع درجة يوسف عليه السلام في الحال بالتدبير الحكيم من وقت مناجاته أخاه إلى وقت استخراج السقاية من رحله، ورفع درجة أخيه في الحال بإلحاقه ليوسف عليه السلام في العيش الرفيه والكمال بتلقي الحكمة من فيه، ورفع درجات إخوته وأبيه في الاستقبال بسبب رفع درجة يوسف عليه السلام وحنوه عليهم، وقد عبر عنه بالفعل المضارع (نرفع)؛ ليفيد الحال والاستقبال إشعارًا بأن تلك سنة الله التي خلت في أوليائه، وهي السنة التي سيسلك بها من استمسك بشرعه إلى يوم الدين.

* ثم عقَّب التذييل الأول بتذييل ثان فقال: ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾؛ ليشعر بأن رفعة الدرجات متعلقة بالعلم، وليثبت أن أقصى رتبته لله الكبير المتعال؛ ولهذا عبّر بالفوقية ليشعر الظاهر بأن كل صاحب علم فوقه عليم

فضيلة العلم وأنه أفضل من الصورة الظاهرة

هو الله، كأنك تقول: الله فوق المخلوقات على تفاوتها، فكذلك علم الله فوق علم المخلوقات على تفاوتها.

وفي هذه الآية بيان فضيلة العلم: علم الأحكام والشرع، وعلم تعبير الرؤيا، وعلم التدبير والتربية؛ وأنه أفضل من الصورة الظاهرة، ولو بلغت في الحسن جمال يوسف، فإن يوسف ـ بسبب جماله ـ حصلت له تلك المحنة والسجن، وبسبب علمه حصل له العز والرفعة والتمكين في الأرض؛ فإن كل خير في الدنيا والآخرة من آثار العلم وموجباته.

كيد الله ليوسف

* قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ ﴾ وقد نسب الله سبحانه الكيد إلى نفسه، في قوله: ﴿ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا (١٥) وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ﴾ [الطارق: ١٥-١٦]، وكما دل عليه قوله سبحانه: ﴿ أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ ﴾ [الطور:٤٢]، ومثل ذلك قوله سبحانه: ﴿ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال:٣٠]، وقوله سبحانه في قصة صالح: ﴿ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾[النمل: ٥٠]، والمكر: إيصال الشيء إلى الغير بطريق خفي، وكذلك الكيد فإن كان ذلك الغير يستحق ذلك الشر كان مكرًا حسنًا، وإلا كان مكرًا سيئًا، بل إن كان ذلك الشر الواصل حقًا لمظلوم كان ذلك المكر واجبًا في الشرع على الخلق، وواجبًا من الله بحكم الوعد إن لم يعف المستحق، والله سبحانه إنما يمكر ويستهزئ بمن يستوجب ذلك فيأخذه من حيث لا يحتسب، كما فعل ذلك الظالم بالمؤمنين، والسيئة ما تسوء صاحبها وإن كان مستحقًا لها، والعقوبة ما عوقب به المرء من شر.

* يوسف الصديق عليه السلام كان قد كِيدَ غير مرةٍ: أولها: أن إخوته كادوا له كيدًا حيث احتالوا في التفريق بينه وبين أبيه كما دل عليه قوله: ﴿ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ

إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا ﴾[يوسف:٥]، ثم إن امرأة العزيز كادت له بأن أظهرت أنه راودها عن نفسها، وكانت هي المراودة كما دل عليه قوله: ﴿ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [يوسف:٢٨]، ثم كاد له النسوة حتى استجار بالله في قوله: ﴿ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ﴾ [يوسف:٣٤]، حتى إنه عليه السلام قال لـمّا جاءه رسول الملك يستخرجه من السجن: ﴿ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف:٥٠]، فكاد الله ليوسف بأن جمع بينه وبين أخيه، وأخرجه من أيدي إخوته بغير اختيارهم، كما أخرجوا يوسف من يد أبيه بغير اختياره.

المؤمن المتوكل على الله إذا كاده الخلق، فإن الله يكيد له وينتصر له بغير حول منه ولا قوة

* إذا كان المراد بالكيد فعلًا من الله سبحانه بأن ييسر لعبده المؤمن المظلوم المتوكل عليه أمورًا يحصل بها مقصوده بالانتقام من الظالم وغير ذلك، فإن هذا خارج عن الحيل الفقهية المحرمة، بل في قصة يوسف تنبيه على أن من كاد كيدًا محرمًا؛ فإن الله يكيده، وفيها تنبيه على أن المؤمن المتوكل على الله إذا كاده الخلق، فإن الله يكيد له وينتصر له بغير حول منه ولا قوة.

* من كيد الله لعبده أن يلهمه سبحانه أمرًا مباحًا أو مستحبًا أو واجبًا يوصله به إلى المقصود الحسن، فعلى هذا يكون إلهامه ليوسف أن يفعل ما فعل من كيده سبحانه أيضًا.

* فمن الكيد إذًا ما هو مشروع، لكن لا يجوز أن يراد به الكيد الذي تستحل به المحرمات أو تسقط به الواجبات، فإن هذا كيد لله، ودين الله هو المكيد في مثل هذا، فمحال أن يشرع الله أن يكاد دينه.

* وخلاصة ما سبق هو أن الحيلة الشرعية هي من نحو الكناية والتعريض وغيرها من المباحات ولو في بعض الأحوال شريطة أن يتوسل بها إلى قصد صواب، وأما المحرمة فقد يكون القصد فاسدًا، وقد تكون الوسيلة فاسدة، فهذه لا تجوز بحال اللهم إلّا إن كانت من باب الضرورة، أو من قبيل ارتكاب أخف الضررين لدفع أعلاهما؛ لِمَا تقرر من جواز دفع المفسدة الكبرى بالمفسدة الصغرى ولو كانت هذه المفسدة الصغرى أمرًا محرمًا لا يسوغ ابتداءً، وإن كان الناس قد توسعوا في ذلك حتى وقع كثير منهم في الحيل المحرمة.

تلخيص التفريق بين الحيلة الشرعية والمحرمة

* سمى الله تعالى سمى حكم الملك دينًا؛ لأن الدين هو كل ما دان به الإنسان وخضع له، حقًا كان أو باطلًا؛ لذلك جعل الله تعالى طاعة الأحبار والرهبان في التحليل والتحريم عبادة لهم، فقال: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣١]، فكذلك طاعة الملك في التحليل والتحريم ثم ترتيب الجزاء والحساب على ذلك دخول في دينه، وعبادة له، حاصلها ترك دين الله للدخول في دين الملك.

الحكم دين

* وإذا كان الأمر كذلك، فإن فرية فصل الدين عن الدولة التي جُعلت في عصرنا هذا دليلًا على الحرية واحترام المعتقدات خدعة ماكرة، وكذِب يُغرِّرون به السذّج، فإن ما يسمونه علمانية هو في حقيقته دين يتحاكمون إلى أسسه، ويحلِّلون ويحرمون بناء عليه، وهم بدعواهم هذه يريدون أن يُقصوا شريعة الله ودينه، ويُعبِّدوا الناس لهوى العلمانية؛ ليُحكموا العقول القاصرة في جوانب الحياة المختلفة.

فصل الدين عن الدولة خدعة ماكرة

من أخلاق الأنبياء السامية

الحلم عمن أساء

* ومن الدروس التنبيه على شيء من أخلاق الأنبياء السامية؛ لنتأسى بهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠]، فقد نيل من يوسف عليه السلام بغير بيّنة أو برهان، ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾ [يوسف: ٧٧]، وقد كان في مقام يسعه فيه العقاب بحجة السرقة، بل في مقدروه أن يأخذ ولو بغير حجة، لكنه حَلُم فلم يظهر مجرد تعليق خطر بباله، ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ﴾ [يوسف: ٧٧]، وهذا سمو في الأخلاق، وضرب من الإحسان، ومرتبة من مراتب الصبر والصفح.

التحذير من إطلاق اللسان

* ومن الدروس الإشارة إلى أن اللسان ما لم يحفظه صاحبه فقد يورده موارد الهلكة في الدنيا، وقد يكبّه في النار على وجهه يوم القيامة، فإخوة يوسف نالوا منه في هذا المقام وهم لا يشعرون، وحديثهم أذى وإساءة، فلا يقعن امرؤ في عِرض أحد من الناس عن ظن وتهمة فتلحقه الأذية في الدنيا، فإن سلم تعرض للوعيد بأن يمسه العذاب يوم يقوم الحساب.

مشهد المؤمنين حال الأسى

* يقول الله تعالى : ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾، ظاهر الآية يفيد بأن محاولات كثيرة بُذلت ومفاوضات متعددة حصلت في شأن بنيامين، ولعل آخرها ما قصه الله تعالى من قولهم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٧٨]، فحتى التكرم والتفضل والإحسان بأخذ آخرَ جُوبِهَ بالرفضِ التام. فلما وجدوا حزم يوسف عليه السلام ورفضه، يئسوا واليأس نقيض الرجاء، فهم قد انقطع رجاؤهم من العزيز في تلك الحال.

* وعندها انفردوا عن الناس متناجين، ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ﴾ [يوسف:٨٠]، ويبدو أنه كان أكثرهم غمًا بما حدث، وأكثرهم تأسفًا على التفريط في يوسف، لقد بلغ به الحرج حدًا جعله يستحيي من لقاء أبيه بعد الميثاق الذي آتوه إياه على الحفاظ على أخيهم، ولعل الجرم الأول أحدث أثرًا كبيرًا في نفس هذا الكبير، والأغلب أنه أكبرهم عقلًا، فلم يطق مع اجتماع هذا الأمر مراجعة أبيه.

* أوضحت الآيات شديد حرصهم على الوفاء بعهدهم مع أبيهم، حتى بلغ بهم الأمر سؤال العزيز أخذ أحدهم إحسانًا عوضًا، **وهذا مما يشعر القارئ بصدقهم في توبتهم**، فإن التلاوم والحرص على حفظ أخيهم، وذكرهم أمر يوسف

بلسان الندم ووصف التفريط، كل هذا يشعر بأن حالهم قد انصلح، ولا يلزم من انصلاح الحال بلوغ الكمال، ولكنها حال خير من حال، كيف لا وهم أبناء نبي كريم؟! وقد قال بعضهم: إنهم نُبِّئوا بعدُ، وليس على هذا دليل كما قال الحافظ ابن كثير[1].

من علامات صدق التوبة عند إخوة يوسف

* ويبدو أن الشورى كانت ديدن أبناء يعقوب عليه السلام، ففي المرة الأولى لـمَّا هموا بالتخلص من يوسف تشاوروا ثم اجتمعوا على رأي واحد، وتحملوا تبعاته مجتمعين، وفي هذه المرة أيضًا قلّبوا الأمر سويًا ثم استقروا على رأي واحد ونفّذوا ما اتفقوا عليه.

الشورى عند أبناء يعقوب وأهميتها

ولا شك أن أصحاب العقول السليمة، والنفوس السوية يميلون إلى التشاور مع غيرهم في كل أمر ذي بال؛ لأن الذي يصدر عن رأي واحد غير الذي يستفيد من قدرات عدد من العقول وتجارب عدد من الناس.

والسنة النبوية مليئة بالأمثلة الدالة على حرصه ﷺ على استشارة أصحابه وأزواجه في دقيق الأمور وجليلها، ورغم كل هذا الإرث النبوي الضخم الذي طولبنا بالتأسي به، فمجالس الشورى في جلّ البلاد الإسلامية صورية لا تستجلب آتيًا ولا تذهب مقضيًا. والأدهى من ذلك أن ظاهرة الاستبداد تعدّت لتقتحم الحركات الإسلامية، التي ربما عانى كثير من الحادبين عليها من الاستبداد وانفراد شرذمة بالرأي، وربما عدم قبول النصح والمشورة، وما ينبغي هو أن تكون الشورى ديدن كل مؤسسة تريد أن يُكتب لها النجاح، ابتداء من الأسرة وانتهاء بالدولة. إن العقلية الفرعونية: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر:٢٩] هي التي ضيعت

منهج النبي ﷺ في الشورى وواقع المسلمين

ينبغي أن تكون الشورى ديدن كل مؤسسة تريد أن يُكتب لها النجاح، ابتداء من الأسرة وانتهاء بالدولة

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم (٤/ ٣٧٢).

العباد، وأضلت الناس عن سبيل الرشاد.

* وقولهم لما رجعوا إلى أبيهم: ﴿إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ [يوسف:٨١]، مشعر بشيء من الحنق على أخيهم؛ ولهذا نسبوه إلى أبيهم ﴿ ٱبْنَكَ ﴾ ولم يقل قائلهم: (أخانا)، مع أنهم عندما طلبوا صحبته من أبيهم قالوا: (فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا) [يوسف: ٦٣]؛ ليشعروه بحرصهم عليه، ورعايتهم لموجب الإخوة، وقولهم: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴾ اعتذار، كأنهم قالوا: لو علمنا بشأنه لرعينا أمره وحفظناه إما بتركه أو بمنعه.

* وقولهم: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ أي: كل من حلَّ القرية، والقرية لفظ يتناول المحال (الأماكن) التي فيها، وكذلك الحال بتلك المحال بها من إنسان ونحوه، فأطلقوا اللفظ وأرادوا به الحالَّ لا المحالّ، كأنهم قالوا: اسأل كل شيء فيها ناطقًا أو غير ناطق فإنه يصدقنا، لاشتهار الخبر.

ولـمَّا كان سؤال القرية قد يشق أو يتأخر بإرسال الرسول، أردفوا بتوثيق آخر: ﴿وَٱلْعِيرَ﴾، وهو اسم للإبل التي تحمل الميرة، ولفظها مشتق من العير وأصله دال على مجيء وذهاب، وهذا لايكون بغير ربها، وعبروا بهذا اللفظ إيغالًا في التأكيد كسابقه، ثم أكدوا صِدقَهم ثالثة بـ(إنَّ)، ورابعة بالجملة الاسمية، وخامسة باللام، فقالوا: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾.

* ومع عظيم حرقة يعقوب عليه السلام لم يقاطع ولم يرفع صوتًا، بل انتظر فراغهم ثم قال كلمة هادئة تنمّ عن صبر جميل، وعقل رجيح، قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ [يوسف:٨٣]، أي: ليس الحق كما ذكرتم، ولا يلزم من ذلك رميهم بصريح كذب وتهمة، فلو كان ذلك كذلك لَـمَا أمرهم - وهم الكاذبون عنده، المتهمون بالجرم - أن يذهبوا ويتحسسوا من يوسف وأخيه، فلعل مراده: جانبتم الحقيقة وقد زيّنت

لكم أنفسكم حمل أخيكم نحو أرض مصر، أو صواب ما ذكرتم.

حقيقة الصبر الجميل

* ثم قال: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٌ﴾، والصبر الجميل هو الصبر الذي ليس معه تأفف ولا تشكٍّ، وبعد أن أخبرهم بأنه صابر محتسب أعرض عن اللوم والتقريع والعتاب، **وذلك من تمام عقله** عليه السلام، بل في كلتا المرتين ما قرّع أبناءه وما عاقبهم، بل وجَّههم لِمَا ينبغي فعله لحل المشكلة وتدارك الخطأ، فِعلَ الحكيم الحازم رغم المصاب العظيم الماثل.

حسن الظن بالحكيم العليم

* وقبل أن يقدم على التوجيه أعلن حسن ظنه بالله؛ ليقويه في نفوسهم، قال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًا﴾ أي: يوسف، وأخوه، وكبيرهم، فتلك عاقبة الصبر الجميل، والله تعالى عليم بالأمور على حقائقها، حكيم فيما يقضي ويقدّر على العباد.

الأسف والحزن لا ينافي الصبر الجميل

* ويبدو أن يعقوب عليه السلام كان صافيَ النفس، رقيق القلب، سريع الدمع، رجلًا أسيفًا، فلم يتمالك بعد تلك الكلمات عبرته، فانصرف عن جهتهم، وهو يقول وهم يسمعون: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف:٨٤]، وكأنه لـمَّا ذكر الثلاثة: الكبير والصغير ويوسف، خفف عنه أمرَ الأوّلين علمُه بمكانهما، أما يوسف فعلى عظيم حبه له لا يعرف عنه ما عرف عنهما، فناسب أن يعلن الأسف الصريح -وهو أشد الحزن- على أحقّهم به وأحبهم إليه، وقوله: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ﴾ لا ينافي الصبر الجميل الذي لا شكوى فيه؛ لأنه من باب الإخبار بما في النفس من قبيل قول نبينا ﷺ: **«وإنا بفراقك يا إبراهيم لـمحزونون»**[1].

* ثم أخبر الله تعالى عن تغيُّر بدني أصاب يعقوب جراء الأثر النفسي، فقال: ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ﴾ [يوسف:٨٤]، وهذا إخبار بفقد القدرة على

---

(١) «صحيح البخاري» ١/ ٤٣٩ (١٢٤١)، وغيره.

الإبصار، لا مجرد الضعف، وقوله تعالى: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾، أي: مكظوم، يعني: مُمسَك بصرُه محبوس عنه، وهذا متوجه، وبالأخص إذا روعي ما جاء قبيلها، أو يكون المعنى: مملوء همًّا وحزنًا لا يبث شكواه إلى بشر، وهو صحيح أيضًا.

الحزن شعور طبعي يعتري الإنسان السوي إن وجد سببه

* وإذا كان الله حكيمًا عليمًا فليس لنا إلّا الصبر والرضا والتسليم، ولا يعارض الحزن ذلك، فالحزن شعور لا بد أن يعتري الإنسان السوي إن وجد سببه، كالألم والغضب، بل كالجوع والعطش، ولـمّا كان الحزن من عوارض الطبع البشري، لم يكن يومًا من الدهر محرمًا في شريعة سماوية طالما كان مقتضيه صحيحًا؛ ولهذا قال الله تعالى عن أهل الجنة: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر:٣٤]، وقال لخير النبيين ﷺ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام:٣٣].

الحزن لا يختص بضعفاء الإيمان أو الفجار

فليس الحزن مختصًا بضعفاء الإيمان أو الفجار، بل هو مختص بمن ركِّب فيه الإحساس، فلا غضاضة في الحزن إذًا، فقد حزن الأنبياء وحزن الصِّدِّيقون وحزن الصالحون، قبل وبعد يعقوب عليه السلام.

التفصيل في حكم الحزن وحالاته.

إن الحزن عارض بشري، يعرض للتقي والفاجر، والمسلم والكافر، فإن كان منشأ الحزن أمرًا لا يد للمرء فيه، كقضاء كوني نزل فأصابه، أو كان منشؤه مشروعًا كجهاد قتل فيه ابنه، كان صبر المسلم خيرًا له، وكان حزنه سببًا في تكفير سيئاته، فعن صهيب قال: قال رسول الله ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن! إنَّ أمره كلَّه خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سرَّاءُ شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرَّاءُ صبر فكان خيرًا له**»[1].

(١) «صحيح مسلم» ٤/ ٢٢٩٥ (٢٩٩٩).

أما إن كان منشأ الحزن معصية فإنه إما أن يحزن على مقارفتها، أو على فوتها، فإن حزن على مقارفته لها فهذا من جنس الأول؛ لأنه متعلق بالندم على الذنب وهو أحد أركان التوبة، وأما إن كان الحزن على فوتها فذلك حزن محرم، وأثره المترتب عليه مؤاخَذٌ به العبد، والذي يحزن على فوت المعصية يشبه من عقد العزم على فعلها وليست عنده أسبابها.

إن الحزن مصيبة من جملة المصائب؛ ولهذا قال ﷺ كما في حديث أبي هريرة: «**ما يصيب المسلم من نصب، ولا وصب، ولا هم، ولا حزن، ولا أذى، ولا غم، حتى الشوكة يُشاكها، إلا كفَّر الله بها من خطاياه**»(١)، وإذا كان كذلك فإن على المسلم أن يدافعه -أيًا كان منشؤه- ما أطاق، أو يكظمه ما استطاع، كما إن عليه ألّا يخرج به الحزن -وإن كان منشؤه مباحًا أو محمودًا- عن حدود الشرع، فهذا ممنوع، فإن كان الذي يجوع لا يسوغ له أن يأكل لحم الخنزير، بل عليه أن يتخير من الحلال الطيب، مع أن لحم أكل الخنزير قد يكون سببًا للشبع، فكذلك المحزون ليس له أن يُذهِب حزنه بمحرم. ولئن قتل الجائع نفسًا بحجة الجوع، أو قارف جرمًا آخر ليس سببًا للشبع بحجة الجوع، كان ذلك من القبح بمكان أظهر. فكذلك الذي يحزن ليس له أن يتكلم بما لا يليق، وليس له أن يشق ثوبًا أو يلطم وجهًا، أو يفعل فعلًا يخرج به إلى حد التسخط والجزع، فتلك أفعال محرمة، ولا علاقة لها بدفع الحزن، كحال من يجوع فيقارف جرمًا ليس سببًا للشبع، بل تلك الأفعال مع الحزن أشد حرمة؛ لِمَا تضمنته من الحرمة ولِمَا اشتملت عليه من تسخط قدر الله.

لا يسوغ للمحزون وإن كان حزنه مباحاً أن يخرجه عن حدود الشرع

---

(١) «صحيح البخاري» ٥/ ٢١٣٧ (٥٣١٨)، ونحوه عند مسلم.

لـمَ حزن يعقوب كل هذا الحزن على يوسف؟

* ولعل سؤالًا يرد هنا: لِـمَ حزن يعقوب كل هذا الحزن وقد علم من رؤيا يوسف أنه يلقاه؟ وجوابه أن يوسف قد رأى الرؤيا وهو صغير، فربما أخطأ، وقد يُجاب: كان يرجو أن يكون يوسف له خير عضد من البشر ونصير؛ لما توسم فيه من الخير، فلما فقد تلك الطاقة وذلك العضد،تأسف على فقده وإن علم أنه في خير حال.

* وبرغم شدة حزنه فقد اجتمع في يعقوب عليه السلام إيمان راسخ، وقلب ثابت، وعقل راجح، وخلق ساجح، فلا تعجب إن قال في تلك الحال التي تتضعضع فيها الأركان، وتخور عندها القُوى، وتذهل من هوْل صدمتها العقول، لا تعجب إن قال بلسان الواثق في الله: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧].

ثقة يعقوب في الله وبثه الحزن إليه

* ولعل أبناء يعقوب عليه السلام أشفقوا على أبيهم وخافوا الحال التي بلغ أن تودي به، فقالوا: ﴿تَاللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ﴾ [يوسف:٨٥]، وغرضهم من هذا الكلام تنبيه عزيز عليهم وهم مشفقون عليه.

لكنه كان يعلم من الله ما لا يعلمون، فقال: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف:٨٦]، قصر وحصر فلا شكوى لمخلوق، بل حزني الذي يُشتكى فلله.

االدنيا دار بلاء ومن رأى مصاب غيره حمد القدر

* إن الدنيا دار بلاء، فالناس كلُّ الناس مُبتلَوْنَ فيها بالضراء أو السراء، وكلما نظر صاحب المصيبة إلى حال غيره من المصابين، هان عليه ما هو فيه، ورأى لطف الله تعالى به، والمؤمن أولى الناس بذلك، فإنه مهما كان المصاب، فهو على غنم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**عجبًا لأمر المؤمن! إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له**»[(١)]، بل مع الصبر على الضراء تراه يحمد الله أن جعل مصيبته في دنياه لا

(١) سبق تخريجه.

في دينه، بل ترى بعضهم يشهد في ذلك المقامِ المِنّةَ، فيعلم أنه وإن أعسر شهرًا فقد أيسر دهرًا.

الفرار إلى الله ببذل الأسباب لا ينافي الصبر

* ولاينافي الصبر والفرار إلى الله بذل الأسباب بل يقتضيها؛ فلذلك قال يعقوب بعدها: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧]، فكل عسير إذا يسره الله يهون، وإنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له: كن فيكون، لايقعدنكم اليأس، تحركوا وامضوا، فابحثوا عن أخبار من تلومونني في ذكره، وعن أخيه.

* إن يعقوب عليه السلام لقي من الإنكار ما لقي حتى من الأبناء، وربما رأى من لا يبصر بنور الوحي أن رأيهم هو الرأي، إلّا أن يقين يعقوب وصبره عكسا القضية، فإذا بالـمُنكِر المخالِف منذ قليل يتوجه إلى البحث عما أنكر لـما رأى الصبر واليقين ماثلَين أمامه، وإننا بحاجة في واقعنا المعاصر إلى أهل علم راسخين ينظرون بنور الله في الأمور، ويثبتون، فلا تصرفهم عن ذلك شناعة شنّعت، ثم يبصِّرون بنور الله أهل العمى عندها يجعل الله منهم أئمة وقادة لسفينة الحياة، وعندها يرسو الناس عند شاطئ السلامة وبر النجاة، بفضل اتباعهم الذين يعلمون من الله ما لا يعلمه كثير من الناس.

التحسس والفرق بينه وبين التجسس

* أمر يعقوب بنيه أن يذهبوا فيتحسسوا، والتحسس مبالغة في التطلب والتعرف، ومن الفروق بينه وبين التجسس ما قاله ابن كثير رحمه الله: «التجسس غالبًا يطلق في الشر، ومنه الجاسوس، وأما التحسس فيكون غالبًا في الخير كما قال عز وجل إخبارًا عن يعقوب أنه قال: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ﴾ [يوسف:٨٧]، وقد يستعمل كل منهما في الشر»[١].

---

(١) «تفسير ابن كثير» ٤/ ٢٧١.

التفاؤل يدفع الإنسان لتجاوز المحن ويحفزه للعمل ويورثه الطمأنينة وراحة البال

* والمقصود أن اليأس ما دَبَّ إلى نفس يعقوب قط رغم ما قيل له وما لقي مع طول المدة وبُعد العهد بيوسف، بل كان مع ذلك يستشرف الأمل ويبعثه في نفوس الناس، وليس هو أملًا مبنيًا على الأوهام والتخدير والقعود، بل أمل إيجابي يحض فيه على الحركة والعمل الدؤوب.

إن التفاؤل يدفع الإنسان لتجاوز المحن، ويحفزه للعمل، ويورثه طمأنينة النفس وراحة القلب. والمتفائل لا يبني من المصيبة سجنًا يحبس فيه نفسه، لكنه يتطلع للفرج الذي يعقب كلّ ضيق، ولليسر الذي يتبع كل عسر.

وقد كان نبينا ﷺ يبشر أصحابه بالظهور على الكافرين في جزيرة العرب وما جاورها في أوقات كان الواحد منهم لا يأمن على حياته وهو في بيته، فكانت النتيجة تسابُقهم لرفع راية الإسلام في كل البقاع، بنفوس منشرحة قوية واثقة في نصر الله.

إن سُمّ التشاؤم الذي يحاول المنافقون دسَّه للمنتمين لهذا الدين له ترياق جدير بإبطاله، ألا وهو تقوية اليقين بمعية الله تعالى وتوفيقه للمتوكلين الصادقين في صفوف المسلمين، وتعميق الإحساس بقدرة الله تعالى وعظمته في نفوسهم، وتبشيرهم ببوادر النصر التي تلوح في الأفق. ويكون ذلك بذكر حقائق الواقع الماثل، ففي فلسطين مثلًا، رغم تنكيل الصهاينة الغاصبين بالمجاهدين، ورغم تخاذل المسلمين عن نصرتهم، رغم ذلك ينطق تسلسل الأحداث بأن الغلبة لدين الله، وأن النصر لجند الله. فقبل ثلاثين سنة فقط لم تكن في ساحة المقاومة غالبًا راية تعرف سوى رايات الشيوعيين والعلمانيين ودعاة القومية العربية، وأشباههم مع بعض عملاء الصهيونية، أما اليوم فيشد أبناء فلسطين على أيدي المجاهدين ويقدمونهم لقيادة البلاد، ورعاية مصالح العباد.

وقبل أقل من عشرين سنة كانت الراية المرفوعة: هي الأرض مقابل السلام، وكان القادة يتسابقون للقاء الصهاينة ومحاورتهم، بل على الأصح تنفيذ شروطهم وإملاءاتهم، واليوم يلتف أبناء فلسطين حول المجاهدين الذين أعلنوا أن الجهاد ماض حتى تطهر أرض الإسراء كلها من كل الصهاينة المعتدين.

وقبل عشرين سنة فقط كان المظهر العام في فلسطين مثله مثل كثير من الدول العربية التي ابتليت بالتغريب والانحلال، واليوم يتجه الناس نحو الإسلام، بل صارت سجون الصهاينة كتاتيب ومعاهد يحفظ فيه الأسرى كتاب ربهم.

إذًا فالواقع يصدق الشرع ويقول: إن الدين منصور، ألا بعدًا لليأس والتشاؤم، فلنأخذ بأسباب النصر، ولنثق بأن الذي يخرج اللبن من بين الفرث والدم قادر على إخراج النصر من رحم البأساء والضراء. أما الذي يدَّعي أنه متفائل ويقعد عن العمل، فهو عاجز لا متفائل، وقد روي في الحديث: «**الكَيِّس مَن دان نفسه وعمل لِـمَا بعد الموت، والعاجز مَن أتبَعَ نفسَه هواها وتـمنَّى على الله**»(١).

---

(١) «سنن الترمذي» ٤/ ٦٣٨ (٢٤٥٩)، ورواه غيره، وهو حديث ضعيف، تنظر «السلسلة الضعيفة» للألباني ٥/ ١/ ٤٩٩-٥٠٠ (٥٣١٩).

ظهور عاقبة التقوى جهارًا

دلالات عودة الإخوة وطلب الصدقة

* وصّى يعقوب عليه السلام بنيه ألا ييأسوا من روح الله وأن يتحسسوا من أخويهم، فخرجوا من عنده وليس لهم ما يعتمدون عليه غير الله تعالى، وكفى بالله وكيلًا، فلما لقوا العزيز، استهلوا أمرهم بتقديم طلب، بدؤوه باسترحام، فقالوا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ﴾، وأرادوا أن يبينوا عظيم أثرها على خاصة أنفسهم ومن يليهم فعبروا بالضر المشعر بذهاب نفع وتلف لحق بعض الأنفس، ثم بعد هذا الاسترحام قدموا طلبًا حاصله: جئنا بعروض زهيدة قليلة - وهي المزجاة يرغب عنها فتدفع - فأتمّ لنا وأكمل المكيل المقابل لها، وزدنا فوق حقنا صدقة منك علينا.

هل يجزي الله المتصدِّق إن كان كافرًا؟

* قد يُقال: كيف طلب أبناء يعقوب عليه السلام من العزيز أن يتصدق عليهم بقولهم ﴿وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآ﴾ وحضُّوه على الصدقة بقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾، مع أنه من جملة أهل مصر وينبغي أن يكون دينه مغايرًا لدينهم، والكافر يجعل الله عملَه يوم القيامة هباءً منثورًا؟ والجواب: أن الله يجزي المتصدقين ويجزي المحسنين مسلمهم وكافرهم، أولئك في الدنيا والآخرة، وهؤلاء في الدنيا حيث يعجل الله لهم ثواب إحسانهم فيها.

* ولعل مما يظهر للمتأمل أن إخوة يوسف أرادوا مع مضمون هذا الكلام التوطئة والتهيئة بالاستعطاف للمساومة في غرض آخر، فهم ما خرجوا من ديارهم إلّا ليتحسَّسوا عن يوسف وأخيه أولًا، فكأنهم أظهروا الفاقة، وما

أصابهم من الضر وأهلَهم، وشدةَ الحاجة المحِلَّةِ طلبَ الصدقة؛ ليقولوا بعدها: إن هذا الذي نحن فيه أهون عندنا من أخذ أخينا، فإن كنت محسنًا وهذا دأبك فخذه ولكن أرجِع إلينا أخانا.

إيثار حق الله على حق النفس مع القدرة من اخلاق الأنبياء

* وكأني بيوسف عليه السلام لما رأى حالهم، وفهم مغزاهم، وسمع من أخبار أهلهم، رَقَّ لهم، فرأى أو أوحي إليه كشف الأمر، فنزع القناع وقال لهم: ﴿.. هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ [يوسف:٨٩]، وهذا على الأقرب تذكير وعتاب رقيق، فليس السياق سياق محاسبة وإنكار، فالعلم فيه حقيقة مرادة، والمعنى: هل علمتم عاقبة ما فعلتم بيوسف وأخيه؟ إلى أيِّ حال جرتكم؟ وأين ذهبت بأبيكم؟ قال الزمخشري: «كان كلامه شفقة عليهم وتنصحًا لهم في الدين لا معاتبة وتثريبًا؛ إيثارًا لحق الله على حق نفسه في ذلك المقام، الذي يتنفس فيه المكروب، وينفث المصدور، ويتشفى المغيظ المحنق، ويدرك ثأره الموتور، فلله أخلاق الأنبياء ما أوطأها وأسجحها، ولله حصا عقوهم ما أرزنها وأرجحها»(١)، ثم كأنه أردف ذلك بالاعتذار عنهم فقال: ﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾، وهذا مُشعِر بانصلاح حالهم، سمّاهم جاهلين أوان ذلك الفعل، أي: مذنبين.

* وفي قوله: ﴿بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ ما يشعر بأن الإخوة أساؤوا لأخيه وقد بث له بعض ما وجد، ولو لم يكن من أذاهم له إلّا حرمانهم له من شقيقه يوسف، وأخذهم له من أبيه وتجشيمه عناء السفر لأجل كيل بعير لكفى، غير أنك تستشف من كلمة يوسف، أخبار هموم وأشجان أخرى ضرب عنها الذكر صفحًا قد بثت إليه.

* ويبدو أن تلك الكلمات نزلت كالماء البارد على الحضور، فلا تسأل عن دهشة الحاشية والجمهور، فحق للإخوة أن ينطقوا متعجبين: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾! ولما تضمن قولهم سؤالًا تعجبيًا مؤكدًا بمؤكدين، أجابهم

(١) «الكشاف» للزمخشري ٢/ ٤٨١.

عليه السلام بجواب تضمن تأكيدين الأول قوله: ﴿أَنَا يُوسُفُ﴾ فلم يقل: نعم، بل صرح بالاسم المظهر، وعرفهم بأخيه (وَهَذَا أَخِي)، ثم قال: ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾.

تعريف الصبر شرعاً

* وهنا يرد السؤال الكبير: كيف ذلك، والعادة تقضي بموتك، أو بقائك في الرق عبدًا ذليلًا لا في الملك رأسًا عزيزًا، فكان الجواب الذي يرفع العجب ويوضح السبب وهو ملازمة التقوى وملازمة الصبر: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، وتقوى الله أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية، وهذا يقتضي اجتناب النهي، بجعل حائل بينك وبينه يمنع من التعرض له، والتزام الأمر من لازمه.

وأما الصبر فهو حبس النفس على أمر الله، وعن معصية الله، وعن الجزع عند قضاء الله؛ ولهذا ناسب أن يُوصَف محقِّقُ تلك التقوى وذلك الصبر بالإحسان: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، كتب ذلك على نفسه سبحانه رحمة منه وفضلًا فلا يذهب عنده جزاء العمل، ولا يفوت على المحسن عوض إحسانه.

تقديم التقوى على الصبر

وأما تقديم القرآن التقوى على الصبر هنا، خلافًا لمواضع قدم فيها تصبروا على تتقوا، فلعله لمناسبة حال نبي الله يوسف الذي اتخذ الوقاية، ثم صبر بعد أن جاءه أمر الله.

شمولية إيثار الله ليوسف خيرات الدنيا والآخرة

* قالوا: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾؛ آثره عليهم فجعله عزيز مصر ذا الجاه والسلطان، وآثره عليهم بما حَبَاه من كريم الأخلاق وحسن الخصال، وآثره عليهم بالتقوى والصبر، وآثره عليهم بالوحي والنبوة، فيشمل ذلك الإيثار في الدنيا بما أعطاه الله من نعم، والإيثار في الآخرة بما آتاه الله من النبوة، فها هنا قالوا مُقرِّين معترفين بالذنب مشيرين إلى حسن التوبة وصلاح الأمر: ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾، فعبّروا بالماضي وأكّدوه.

* قال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾، ومن كرمه أنه لم يحوجهم إلى التصريح بطلب العفو بل بادر به أول ما عرَّضوا، فإن قولهم: ﴿وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ تعريض بطلب العفو.

الكريم لا يحوج الناس إلى التصريح بطلب العفو بل يبادر به بمجرد التعريض

* **عفو يوسف عليه السلام في مثل هذا الموقف وحده درس من أعظم الدروس**، إنه عظة وعبرة لأصحاب الأنفس الموتورة، والأحقاد المستورة، وما نالهم من الأذى معشار ما نال يوسف عليه السلام، انظروا إلى العزيز في ساعة الاقتدار، ومن آذاه في موقف الانكسار، وفي إمكانه أن يأخذه بذنبه أخذ الجبابرة، فإذا به يعرض حتى عن اللوم والتوبيخ فـ﴿لَا تَثْرِيبَ﴾، تجاوز عن كل ما كابده بسببهم عشرات السنين؛ وفوق ذلك سأل الله لهم العفو عما كان، والستر في الدنيا والآخرة، فقال مرجيًا لهم في الله، دافعًا كل قنوط من رحمة الله؛ حتى لا تبقى في نفوسهم حسرة من فعلة الماضي: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾، لئن كان هذا الصفح مني مغفرة ورحمة، فالله عز وجل أرأف بعباده وأرحم.

عفو يوسف عن إخوته في هذا الموقف درس وعظة لذوي الأحقاد

* وإذا تأملت قوله: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وجدت تمام العفو، ولمست عظيم الكرم، فلم يقل ائتوني بأبي وأمي، بل ﴿بِأَهْلِكُمْ﴾ واسم الجمع إذا دخل على المعرفة، عم، وأكّد ذلك المعنى بقوله: ﴿أَجْمَعِينَ﴾ قاصيهم ودانيهم، لا تتركوا أحدًا.

* ولي مع قوله: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا﴾ وقفات:

- منها أن القميص كان له شأن مع يوسف في ثلاثة مواطن: يوم أن جاؤوا عليه بدم كذب ليشهد على أكل الذئب له، ومنها قميصه الذي قُدَّ من دُبُر وكان شاهدًا على أن المرأة كذبت وهو من الصادقين، وهذا هو القميص الثالث، ولعله لـمَّا كان في المرة الأولى قد جاء الخبر السيئ بقميص ﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف:١٨]، **ناسب أن يجيء الخبر الحسن بقميص**، فقميص مقابل

وقفات مع قميص يوسف

قميص، وقميص يزيل أثر قميص، وهذا أمر مشاهد، وهو من الأمور النفسية العظيمة، فقد يعلق في نفوس بعض الناس شيء سيئ، فيزال بمثله.

يحسن بالإنسان إذا أرسل احداً بأمر مهم ويخشى أن لا يصدق أن يرسل معه قرينة تصدقه

- ومن فوائد بعث القميص مع إخوته: بيان أنه **يحسن بالإنسان إذا أرسل أحدًا بأمر مهم ويخشى ألّا يصدق أن يرسل معه قرينة تصدقه**، كما فعل النبي ﷺ عندما قال لأبي هريرة رضي الله عنه: «**يا أبا هريرة ـ وأعطاه نعليه ـ قال: اذهب بنعلي هاتين فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنًا بها قلبه فبشره بالجنة**»(١)، فأعطاه النعلين آية مُصَدِّقَة.

- وفيه أن بعض الأشياء المحسوسة قد تؤثر في بعض النفوس دون بعض، وعلى العاقل أن يتعامل بواقعية مع تلك الأمور المؤثرة على النفس، فإذا علمت أن شيئًا له في نفس فلان أثر، فتجدر بك مراعاته أثناء التعامل معه وإن لم يكن لذلك الشيء في نفسك مثل ذلك الأثر.

* ومن فوائد هذه الآية إشعارها بحال يوسف وأن ما تولاه من الأعباء بعد الوزارة لم يكن يأذن له في كثير حركة، فالقيام بمصالح الرعية، أولى من أن يبحث عن مصلحته، ويتشاغل بها.

(١) «صحيح مسلم» ١/ ٥٩ (٣١).

أثر البشارة

* يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ إن هذا المشهد يطبع في النفس إحساسًا خاصًا تعجز كلماتي عن التعبير عنه، ولنحاول التقريب، فيا ترى ما سرُّ تلك الريح؟ قال الرازي: «التحقيق أن يُقال: إنه تعالى أوصل تلك الرائحة إليه على سبيل إظهار المعجزات؛ لأن وصول الرائحة إليه من هذه المسافة البعيدة أمر مناقض للعادة، فيكون معجزة، ولا بد من كونها معجزة لأحدهما، والأقرب أنها ليعقوب عليه السلام، حين أخبر عنه ونسبوه في هذا الكلام إلى ما لا ينبغي، فظهر أن الأمر كما ذكر، فكان معجزة له. قال أهل المعاني: إن الله تعالى أوصل إليه ريح يوسف عليه السلام عند انقضاء مدة المحنة ومجيء وقت الروح والفرح من المكان البعيد، ومنع من وصول خبره إليه مع قرب إحدى البلدتين من الأخرى في مدة ثمانين سنة[1]، وذلك يدل على أن كل سهل فهو في زمان المحنة صعب، وكل صعب فهو في زمان الإقبال سهل»[2].

كل سهل فهو في زمان المحنة صعب، وكل صعب فهو في زمان الإقبال سهل

فإذا أقبلت على أمر يحزب فقل بلسان المؤمن الموقن: اللهم لا سهل إلّا ما جعلته سهلًا، وأنت تجعل الحزن إذا شئت سهلًا.

(١) بنَوا تقدير المدة على بعض الأخبار ولم تثبت بها حجة، والأولى أن يقال مدة مديدة دون تعيين، والثمانون مدة طويلة جدًا، والله أعلم.

(٢) تفسير الرازي (١٨/ ٥٠٨).

* ثم قال: ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ أي: لو لا أن تنسبوني إلى الخرف، وبعض الناس تتمنى لو أنهم يكفُّون شرهم؛ فتلك صدقة على أنفسهم وعلينا، ولكنهم يثرِّبون ويتكلمون وهم لا يعلمون، ويعقوب عليه السلام في الوقت الذي يتطلع فيه إلى أيِّ خبر عن يوسف يتحسب ردة فعل هؤلاء الأبناء فهل أجدى التحسب شيئًا؟ ما إن انتهى من كلمته حتى قالوا متعجبين: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ [يوسف:٩٥]، عبارة فيها غلظة وخشونة ما كان لهم أن يوجهوها لأبيهم فضلًا عن نبي، وذلك من جملة بلاء يعقوب عليه السلام الذي قضاه الله له ليرفع به درجته، فإن ظلم وجهل القرابة وقعه في النفس شديد.

لقد قالوا كلمة شنيعة وأخطؤوا خطأ قبيحًا وجاؤوا أمرًا يدور بين الكفر والقول النكِر، والجهل عذر قديم، بيد أن ذلك طرف يصور شيئًا من بلاء الأنبياء وما لاقوه من عنَت وتكذيب.

إذا رأيت محزونًا فواسه وابعث الأمل في نفسه

* الذي ينبغي إذا رأيت محزونًا، إذا رأيت مصابًا، أن تواسيه، وإياك أن تضيف إلى مصيبته مصيبة، وإلى حزنه حزنًا، حاول أن تساعده، حاول أن تبث التفاؤل في نفسه، حاول أن ترفع من روحه المعنوية حتى تخفف من مصيبته، فإن لم تستطع فكف شرّك عنه، ... إن لم تكن لديك القدرة على مساعدته في محنته حسيًا أو معنويًا فاحبس أذاك عنه، كما قال النبي ﷺ في وصيته لأبي ذر لـمَّا قال له: يا رسول الله، أرأيت إن ضعفت عن بعض العمل؟ قال: «تكف شرَّك عن الناس، فإنها صدقة منك على نفسك»(١).

* وبعد زمن يسير وصل البشير يشتد متقدمًا العير، يلوّح بالقميص، وجاء اليقين، ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ

(١) «صحيح مسلم» ١/ ٨٩ (٨٤).

﴿أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف:٩٦]، ويبدو أن أولئك الأهل والأحفاد كانوا قريبين، أو أن جلبة البشير جمعتهم.

أهمية المقدمات للأخبار المفاجئة وتهيئة من حمل إليه خبر مفاجئ

* ومما تدل عليه هذه الآية **أهمية المقدمات للأخبار المفاجئة**، حيث كانت ريح القميص تمهيدًا ليعقوب عليه السلام فَشَمَّ الرائحةَ قبلَ وصولِ الخبر، وتلك من إرهاصاته؛ ولهذا كان من الأهمية بمكان تهيئة من حمل إليه خبر من هذا القبيل، فإن كان لا بد أن تلقي خبرًا ثقيلًا على أحد فاختر الحال المناسبة وهيِّئْهُ لاستقبال الخبر؛ حتى لا تكسر ظهره، وربما راعى بعض الناس هذا في الأخبار المحزنة وغفل عن مراعاته في الأخبار المسعدة، وكم وقعت بسبب خبر سار مفاجئ لم يتوقعه المرء من انعكاسات سلبية، وقد أثبت المؤرخون ورواة الأقاصيص خبر من فُجِئ بالخبر السعيد فمات، ومن فقد عقله بالكلية، ومن فقد صوابه في موقفه.

الإقرار بالذنب على وجه الخضوع ضرب من الاستغفار

* هنا لم يملك الأبناء والأحفاد إلّا أن ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ﴾، أي: سل الله أن يعفو ويستر جرائمنا، ﴿إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾، أتينا الخطأ عن عمد فصح إنزال وصف الخطأ علينا، والإقرار بالذنب على وجه الخضوع ضرب من الاستغفار.

إياك وما يُعتذر منه

* وهنا لك أن تقارن بين قولهم أول القصة: ﴿يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ﴾ [يوسف: ٩]، وبين مقامهم هذا المقام الذي تُقرع فيه سن الندم، وتُسكب في مثله عبرات التوبة، ويُعض فيه على الأصابع من الأسف،إنه موقف من أصعب المواقف، فما أشد لحظات الخضوع والاعتراف وما أقساها! فإياك إياك وما يُعتذر منه.

مدُّ الأيدي للعائدين المعتذرين

* وبالمقابل ما أشرفه من مقام! وأكرم بصاحبه وأنعم إذا وفقه من اختار سبيل الرشاد، ورأى الرجوع إلى الحق خيرًا من التمادي في الباطل! قد يعظم الذنب وقد يسودّ منه الوجه، بيد أن عبرات التوبة كفيلة بجلائه، ويعقوب عليه السلام

يدرك هذا، فكيف كان موقفه؟ هل طردهم؟ هل عاقبهم؟ هل عنَّفهم؟ هل بكَّتهم؟! بل ما ندت منه عبارة ولا تفلتت من بين شفتيه لفظة، ثم ها هو يصفح الصفح الجميل كما صبر الصبر الجميل، ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ .

أيها الآباء، أيتها الأمهات، أيها القادة، أيها المسؤولون، تعاملوا مع الناس بالشفقة، تعاملوا مع الناس بالرفق، تعاملوا مع الناس بالإحسان، تعاملوا مع الناس بالرحمة، ولْتكن لكم في الأنبياء أسوة.

* وقد ناسب الوعد بالتسويف ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ﴾ حال الآخرين الذين لا يسعه طلب عفوهم عن إخوتهم وأبنائهم إلّا بعد حين، فناسب ذلك أن يصرح باستغفاره الله لهم إذا جاء الأوان المناسب، ومع ذلك لم يدخل اليأس إلى نفوسهم، فعقّب قائلًا: ﴿..إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يوسف:٩٨].

* وفي هذا التسويف لفتة تربوية فكأنه أراد أن يشعرهم بعظم الجريرة وأنه لا يملك أن يقضي فيها عجِلًا، وهذا توجيه يناسب مقام الأب أو الجد، أما يوسف عليه السلام فقد قام مقام الأخ الأصغر، فما أن رأى إقرارهم بالذنب، حتى أسقط حقه واستغفر الله لهم: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف:٩٢].

طلب المغفرة وكل مهم ينبغي أن يتحرَّى له الوقت المناسب

* وقد كان إظهار التوبة وسؤال المغفرة في ذلك المقام من الأبناء من الحكمة، فهم بادروا لما بدت لهم الآيات فلم يتكبر أحدهم عن الرجوع إلى الحق الذي سطع برهانه، كما أن نفس أبيهم في ذلك المقام منشرحة وعينه قريرة فحري به أن يجيب، وهنا تنبيه للأبناء بأن يتحرى أحدهم الوقت المناسب عند طلبه مُهمًا من أبيه، والحال المناسب، فكم من ابن طلب من أبيه أمرًا فردَّه، ثم لـمَّا ناسب طلبه حالًا أو زمانًا أجابه.

فاختيارُ الوقت، والمكان، والشخص المناسب، مؤثّرٌ في إجابة الطلب من الأب أو الأم أو الزوج أو الزوجة، بل حتى من المسؤولين، فإذا كانت لك قضية وتريد أن تتقدم إلى المسؤول بطلب فيها، فكن لبقًا؛ أحسِن الأسلوب، وتخيّر الحال المناسبة وكذا الوقت والمقام المناسبين.

العبرة بكمال النهاية لا بنقص البداية

* ومن الفوائد بيان أن «العبرة في حال العبد بكمال النهاية، لا بنقص البداية، فإن أولاد يعقوب عليه السلام جرى منهم ما جرى في أول الأمر، مما هو أكبر أسباب النقص واللوم، ثم انتهى أمرهم إلى التوبة النصوح، والسماح التام من يوسف ومن أبيهم، والدعاء لهم بالمغفرة والرحمة، وإذا سمح العبد عن حقه، فالله خير الراحمين»[1].

* الإعراض عن ذكر غير يعقوب عليه السلام يُشعر بأن المواقف التي ينبغي أن تُخلَّد وتُذكَر، هي تلك المواقف التي يخرج بها أصحابها إلى حد غير مألوف من الإحسان، وأن العبرة الحقيقية ليست في بيان الأحداث التي تهز العاطفة فحسب، وإلّا لأخبرنا الله في القرآن عن بكاء أم يوسف، وعن كمدها على فراق أخيه، وغير ذلك من العوارض البشرية التي يقتضيها مقام الأمومة، ولكن كان الغرض بيان عاقبة الصبر والإحسان غير المألوفين فانحصر الحديث في محله، والله أعلم وهو المسؤول أن يهدينا لفقه الكتاب.

---

(١) تفسير السعدي (٧٠٤).

تحقق الرؤيا
وتمام المنة وما يستوجبه

* انتقل الكلام من بيت يعقوب إلى قصر يوسف بأرض مصر، على المعهود من اقتصار كلام الله تعالى على بيان موضع العِبرة. ولما كان الاستقبال لا يشغل المشغول بتدبير مصالح المسلمين مثل الترحال لأجل البحث عنهم أو الإتيان بهم؛ خرج يوسف عليه السلام إلى مشارف المدينة ليستقبل أبويه وأهله، حيث يشعر ظاهر قوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ﴾، بأنهم ما دخلوها بعد.

هل كان السجود ليوسف أو كان شكرًا لله ويوسف جهته؟

* قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗا﴾، أجمع أهل العلم على أن هذا السجود سجود تحية وإكرام، وسجود التحية من قبيل تقبيل اليد، غير أنه حُرِّمَ في شريعتنا؛ صيانة لجناب التوحيد، وسدًا لذريعة الشرك، فلم يكن عبادة مصروفة ليوسف عليه السلام، بل من جنس سجود الملائكة لآدم عليه السلام، ولم يكن سجود عبادة بالاتفاق.

وقد نُسخ سجود التحية في شرعنا ونُهي عنه فهو محرَّمٌ، ولو فعله أحد لأحد وهو يظنُّ أنه من ضرب التعظيم للمخلوق المشروع، فقد أتى بدعة منكرة، وطرق طريقًا في هاوية الشرك مردية، وأما إن فعله لـمقبور أو وثن أو شمس، فقد أتى كفرًا أكبر، فإن تـحية أولئك لا تعقل، فلم يبق إلّا سجود العبادة، فإن قيل: بعض الأموات أحياء في قبورهم يُرزقون، قيل: لو كان حيًا حياة دنيوية لَـمَا عُقل أن يسجد أحد لآخر محجوبًا عنه خلف غرفة سجود تحية، فلو رأى أحد أحدًا يسجد في سطح دار فهل يتصور أنه يسجد تحية لـمن بالطابق السفلي، ومن فيه محجوبٌ عنه لا يراه، بل لا يحس

به؟ ومن زعم أن الميت يراه وهو محجوب في قبره، ويعلم ما قام في نفسه من تعظيم له، ويعلم أن سجوده له تحية وتبجيل ليس بعبادة، وظن أنه يسمع ما يسره في سجوده، فقد اعتقد كفرًا، وجعل للميت في علم الغيب المختص بالله شركًا[1].

من بدائع التوافق بين مبتدأ القصة وخاتمتها

* وهنا قال يوسف عليه السلام معلقًا على حدث السجود: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ أي: هذه حقيقة رؤياي التي قصصتها عليك صغيرًا، قد صيّرها خالقي ومالكي ورازقي ومدبر أمري صِدقًا، مطابقة لهذا الواقع، وكأنه يُشعر أباه بأن النعمة بذلك بلغت تمامها، ويخبره بذُكْرِه لوصيته التي حفظها عنه وكان منها قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [يوسف:٦].

* وفي قوله: ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [يوسف:١٠٠] مواصلة لِـمَا شرع في ذكره من نعم الله عليه، فذكر إخراجه من السجن، وكذلك مجيء أهله من مضارب الشام، فإن له جملة أسباب تولّد عنها مجيئهم فناسب أن ينسب الفضل لـمُسبِّب الأسباب سبحانه لا لسبب لا يستقل بالتأثير في المجيء وحده.

(١) تنبيه: هذه مسألة غير المسألة المشهورة المتنازع عليها بين أهل السنة، أعني سماع الأموات، فمن قال بالسماع ـ وهو قول قوي ـ لم يقل بأن ذلك مطلق من كل مكان وعلى كل حال سواء كان سرًا أو جهرًا، والمقصود هنا جملة أفعال حاصلها الاعتقاد في الميت ما لا يليق إلّا بالله من السمع، ولا يليق أن يعتقد في بشر حيًا كان أوْ ميتًا إلّا على سبيل خرق العادة التي قام برهانها.

مراعاة مشاعر الإخوان

والملاحظ هنا أنه صرح بذكر الإخراج من السجن، ولم يصرح بالإخراج من الـجُبِّ، مع أن إلقاءه في قَعر مُظْلِمةٍ طفلًا صغيرًا أشد بلاءً من دخوله مكانًا مأهولًا شابًا أو كهلًا، والأظهر أنه ترك التصريح به مراعاة لإخوته، ولوعده بعدم التثريب، ولعفة لسانه وحيائه عليه السلام فلم يصرح واكتفى بإشارة نسب فيها شيئًا إلى نفسه بل قدمها فقال: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾، ثم قال:

معنى اسم الله اللطيف والآثار التربوية له

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ﴾ اسم يفيد كثرة وعظم رفقه سبحانه بعباده، وإيصاله الخير لهم من حيث لا يحتسبون ولا يشعرون، وذلك لكمال إحاطة علمه بالظواهر والسرائر والخفايا، والبواطن والدقائق والخبايا؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، دلالة على ما اختص به سبحانه من الحكمة التي لا يشركه فيها أحد، وعلى العلم الذي لم يحط به سواه سبحانه.

* وإذا كان الأمر كذلك والنعمة قد تمت، فكان من بديع النظم أن قال معقبًا: ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١]،

أهمية التوسل في الدعاء بما يناسب من الأسماء والصفات

فهي إشاراتٌ بين الابن وأبيه -عليهما السلام- ، وتذكيرٌ بما دار بينهما في الأيام الخاليات، بل تحدثٌ بالنعمة وتذكيرٌ بواجبها، وليست من الفخر أو الزهو بتحقق الرؤيا في شيء. وأيضًا فإنه لـمَّا رأى من واقع الحال أنه قد بلغ التمام، وعلم أن لكل مبتدأ ختام، توجه بالدعاء مبتهلًا لـمن دأبه الإحسان: ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١].

* وقوله: ﴿.. فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: خالقهما ومبدعهما، وقد ناسب أن يدعوه بما يتضمن صفة الفعل هذه، فالذي فطر السماوات والأرض، هو الذي

يدبر الأمر فيهما، يُبوِّئ من شاء ما شاء، ويختص بعض خلقه بما أراد، بعلمه وحكمته ورحمته.

* ثم قال: ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ﴾ لما أراد أن يظهر الشوق إلى لقائه بسؤاله الموت على الإسلام، قدم ما يناسبه فقال أنت وليي: ناصري القريب إلي، وهذا خبر أراد به الدعاء يدل عليه قوله: ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾، فالمعنى: كن وليي في الدنيا والآخرة، وكل ذلك تدرج بديع إلى السؤال الكبير: ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

أهمية سؤال الله تبارك وتعالى حسن الختام

* وقف معي عند قوله: ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا﴾، وتأمل في مناسبة هذا الدعاء، وانظر أيَّ مقام كان يقوم؟ ثم انظر أيَّ دعاء يقول؟! عَلِم عليه السلام أن بعد الكمال زوالًا؛ فسأل ربه إن جاءت منيته أن يموت على خير حال، وكأنك بنبي الله يوسف عليه السلام، وقد ذكَّره المقام شيئًا أحب إلى نفسه وآثر، فلم يجد بدًا بعد أن بلَّ شوقه بلقاء أبويه وذويه، من أن يبوح بما جاشت به نفسه من الشوق العظيم، إلى لقاء الجليل، فانطلق لسانه بتلك الدعوات يوم أن اخضرت الدنيا وأينعت ثمرتها: ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾. ولك أن تطابق بين قول يعقوب: ﴿وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ﴾ وبين قول يوسف: ﴿وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ لتعلم أي منزلة بعد تمام نعم الدنيا طلب.

حكم الدعاء على النفس بالموت وهل دعاء يوسف من قبيل ذلك؟

وقوله: ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا﴾ الأظهر فيه أنه ليس بتمن للموت، فالحال والوقت -وقت لقاء الأبوين- يبعدان هذا، وإنما هو سؤال لحسن الخاتمة والثبات حتى الممات.

* وتأمل حال يوسف عليه السلام، ضاقت به الدنيا فلم يقل: توفني! أُلقِيَ في الجُبِّ فلم يقل: توفَّني، وأقيم للبيع في سوق مَن يزيد ـ وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ـ فلم يقل: توفَّني، واتُّهم في شرفه وعرضه ولم يقل: توفني، وحُبِسَ في

السجن بضع سنين فلم يقل: توفَّني، ثم لـمَّا تمَّ له المُلْكُ، واستقام له الأمر، ولَقِيَ الإخوةَ سُجَّدًا، وألْفى أبويه على العرش عنده، وطابت الحياة له، قال: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾، فعُلِمَ أن حبه للقاء الله كان عنده أجلّ من النعمة التي حدثت له، فلله حب الأنبياء ما أنبله، وإيمانهم ما أعظمه.

* وتمني الموت لضر نزل لا يجوز، أما تمنيه لغير ضر بمقتض صحيح فجائز على الصحيح، وفي حديث أنس المتفق عليه: «لا يتمنين أحدكم الموت من ضرٍّ أصابه، فإن كان لا بد فاعلًا فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي»[1].

بهذا تنتهي القصة وقد اشتملت كما رأيت على دروس وآيات ما أكثرها، وأما ما بعدها من آيات ختمت بها السورة فقد جاءت بتعقيبات متناسبة مع مطلعها ومقصدها، كما سنرى.

وقد جاء خبر يوسف فيها آية دالة على نبوة محمد ﷺ إذ أخبر الناس، وعلم بني إسرائيل من أنباء من ينتسبون إليه؛ إسرائيل -وهو يعقوب عليه السلام- وبنيه ما لا يعلمون تفصيله، ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾[يوسف: ١٠٢]، ومع ذلك أعرض أكثرهم فهم لا يسمعون!

(١) ينظر «صحيح البخاري» ٥/ ٢١٤٦ (٥٣٤٧)، ومسلم ٤/ ٢٠٦٤ (٢٦٨٠). ورواه غيرهما.

عوارض في طريق الدعوة وعاقبة المعرضين

* قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾، وهذا تذييل متعلق بأحد أهم أغراض السورة وهو تسلية المؤمنين عما يجابهون به ويلاقونه من تكذيب المشركين وأذاهم، وفي هذا تزهيد له ﷺ من أن تذهب نفسه عليهم حسرات، أو تهلك على آثارهم حتى يؤمنوا، ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةً فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ﴾ [الشورى:٤٨].

تقسيم الحرص إلى محمود ومذموم

* ما يظنه بعضهم من أن الله ذم الحرص بإطلاق، ليس صحيحًا، بل الحرص منه المحمود ومنه المذموم، وفي «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: قال ﷺ: «احرص على ما ينفعك»[1]، وفي التنزيل: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة:١٢٨].

* الحرص المذموم هو ما كان على أمر دنيا لا نفع فيه، أو ضره أكبر من نفعه باعتبار المآلات، فمثل هذا الحرص جدير بأن يُذَم صاحبه، وقد نسبه الله لليهود في معرض التعريض فقال: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ﴾ [البقرة:٩٦].

---

(١) «صحيح مسلم» ٤/ ٢٠٥٢ (٢٦٦٤).

* من المفاهيم الخاطئة عدُّ الحرص على أمور الدعوة محمودًا بإطلاق، والحق أن الحرص -حتى على أمر الدين- نوعان: حرصٌ إيجابي، وحرصٌ سلبي، فالحرص الذي يؤدي إلى إجهاد النفس وإرهاقها بأنواع الضغوط النفسية فلا داعي له؛ لأن هداية البشر بيد الله جل وعلا، وقلوب البشر بين أصابع الرحمن جل وعلا، لا نملكها نحن البشر، وإنما نملك البلاغ، ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ..﴾ [الشورى:٤٨]، ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل:٣٥].

فالواجب التفريق بين الحرص على المبادرة وبذل الأسباب واستفراغ الوسع، وبين الحرص الذي يحطم النفس إن فات مقصودها، فذلك حرص على ما لم يجعله الله إلينا، وليس وراءه إلّا إثقال النفس بالهموم وإحراقها.

* ومن جملة التسلية قوله تعالى لنبيه ﷺ ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ وفيه تعريض بالمشركين، إذ أعرضوا عن اتباع من لا يريد منهم شيئًا من الأجر مقابل الخير العظيم الذي ساقه إليهم، فليتَهم رفضوه عن أجر ولو زهيد طلبه منهم، ولكن رفضوه بمحض الجهالة والسَّفه.

الفرق بين الدعوات المأجورة ودعوات الأنبياء

* كثيرة هي الدعوات المأجورات، أعني بها التي غرضها الأجر ولكن في الدنيا! والأجر هو كل منفعة دنيوية، مالًا، أو جاهًا، أو منصبًا، أو نحو ذلك، وهذه الدعوات في الغالب واضحة تتميز بالوفود من دول الغرب أو الشرق، أو تكون مبنية على أسس غربية أو شرقية، اغتر بها بعض منتسبي الإسلام وبنيه، وبعضها ربما اتكأ على أهواء متبعة وشبه محلية ليس للشرق أو الغرب فيها كبير يد، ويجمع سائرها ضعف في الإخلاص وخلل في الاتباع.

ومن الدعوات المأجورة نوع غير ظاهر وربما -للأسف- سقط في حباله فضلاء، وربما كانت دعوات للخير في مجملها، ومن أبرز علاماتها موافقة المستأجِر، فإن كان المستأجر هوى العامة، ألفيت دعواتهم تنسجم مع الموج، وإن كان هوى النفس وحب الشهرة والذكر، تلقى أولئك المأجورين على أحوال؛ فتارة يروجون لِمَا ينال استحسان الجموع، وتارة أخرى يركبون كل غريبة، ويحدثون الضوضاء العظيمة؛ لتلتفت إليهم الأنظار، ولخطورة الأمر جاءت النصوص الكثيرة في التنبيه على أهمية تمحيص قصد الدعوة، ونبذ أخذ الأجر على الدعوة، كما في هذه الآية: ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾.

وهذه الآية وما شابهها من نصوص رسالة إلى الدعاة وإلى العلماء وإلى طلاب العلم حاصلها: إياكم أن تطلبوا لأجل دعوة الناس وواجب البلاغ أجرًا: أي منفعة دنيوية، فالجاه أجر، والتصدّر والتسوّد أجرٍ، كما أن المال والأعراض أجور، والعمل لأجل ذلك كله يدخل في باب: (من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا).

الدعوة العالمية، حاجة الناس إليها ومسؤوليتنا تجاهها

* وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي هذا الذي لا تسألهم عليه أجر وهو القرآن الذي تقص عليهم أنباءه، وتنذرهم به، للجن والإنس، بل لكل من سوى الله تعالى، وفي هذا التعقيب تحذير من التفريط في القيام بواجب إبلاغ العالمين، فلنتساءل ماذا فعلنا تجاه هذه الأمم الضالة الحائرة في الشرق والغرب؟ هل بذلنا أسباب الدعوة التي تهيأت لنا؟ هل استنفدنا الوسائل الشرعية المتاحة لأجل إيصال الحق للعالمين؟ إن هذه الآية تحمِّلنا مسؤولية كبرى، أسأل الله أن يجعلنا أهلًا لها، قائمين بها.

* إن حاجة الأمم لِـمَا معنا من الذكر عظيمة، ولعل هذا من نكات تعقيب قوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾، بقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾؛ فإن الحاجة للشيء كلما ازدادت تأكّد أن تكون مشاعة بغير أجر، كالماء والهواء، وإذا تأملت في معين الوحي، وجدت حاجة البشرية له أعظم الحاجات، فما حياتها بغير روح تهدي؟ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢]، إنها الحياة الحيوانية، الحياة البهيمية التي لم يخلق الله الخليقة لأجلها، فقد قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

وإذا تبين هذا عُلم أنه لا يجوز لأحد أن يحجر تلك الدعوة العالمية، لا أن يمنع غيره من بلاغها، ولا أن يحبس في قلبه غيث الوحي الذي أنزله الله حتى يأسن فيه، فلا تنبعث به جوارحه، ولا يفيضه على غيره، وما أقبح صنعه إذا كان يحبسه يبتغي به أجرًا أي أجر كان.

عار عليك ترك الدعوة

* عار عليك -أيها الكريم- إن رأيت إنسانًا قد جهده العطش يستجديك شربة من نهر الله الذي أجراه بأرضك أن تمنعه، وبالمقابل ما أعظم أجرك إن سقيته، فقد صح عند مسلم أن امرأة بغيًا من بغايا بني إسرائيل رأت كلبًا في يوم حار يطيف ببئر قد أدلع لسانه من العطش فنزعت له بمُوقها فغفر لها[1]. وكذلك عار عليك أشد أن ترى ضالًا بإمكانك أن تهديه فتحجم ليضل ويشقى ويصلى النار الكبرى، هل هذه إنسانية؟ هل هذا موجَبُ الإيمان؟ هل هذه هي مكارم

(١) ينظر «صحيح البخاري» ٣/ ١٢٧٩ (٣٢٨٠)، ومسلم ٤/ ١٧٦١ (٢٢٤٥)، والموق: الخُف.

الأخلاق التي جاءت بها الرسل؟ سبحان الله! كيف تتحرك مشاعر الواحد منا من أجل سقاية إنسان، ولا تتحرك للحاجة الكبرى التي عاقبتها جنة أو نار؟

* ومن التسلية للنبي ﷺ كذلك قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف:١٠٥]، والمعنى: أن الصدود عما تجيء به ليس بدعًا في خُلُق القوم، بل إعراضهم عنك كديدنهم في الإعراض عن أيِّ علامة ودليل كوني يدل على صحة ما تدعوهم إليه من توحيد الله، يمضون عليه فلا يلتفتون إليه، متغافلين له متشاغلين عنه.

الإعراض عن التوحيد يكون بجعل الشركاء مع الله

* وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ تنبيه إلى ما دخلهم من شرك في أمر دلت الآيات العظيمة على استحقاق الله وحده له، فيا حسرة على البشرية في مشارق الأرض ومغاربها، يأتون الشرك وهم آمنون، ولا يعلمون أن فيمن أُرسِلَت لهم الرسل من يصلون ويتصدقون ويصومون ويحجون، وربما زعموا أنهم على آثار نبي من الأنبياء، ثم يفرِّق هؤلاء المتأخرون بينهم وبين أسلافهم المتقدمين بفرق ساذج فيزعمون أنهم يشهدون للرسول بالرسالة، وأولئك ما شهدوا له بها، وكأن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أرسلت عندهم لا لغرض! فهل أرسل رسول لغير الدعوة إلى إفراد الله بالعبادة: بالذبح والنذر والدعاء وغيرها؟ ألم يكن أبو طالب مُقرًّا بنبوة محمد ﷺ؟ فهل أغنى عنه ذلك من الخلود في النار شيئًا؟!

نعم هناك فرق ظاهر بين المتقدمين والمتأخرين من المشركين، فأولئك فهموا معنى الشهادة فلم يلفظوها، وهؤلاء جهلوا معناها فلهجوا بها وخالفوها.

* قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [يوسف:١٠٧] والغاشية التي تغشى أي: تغطي، والمقصود الإنكار عليهم إذ نبذوا الآيات، وخالفوا الرسل واستمرؤوا الإعراض عنهم، وكأن عندهم من الله عهدًا ألا يعذبهم بجنس من عذاب الدنيا والآخرة، كشأن من حق عليه ذلك في الأمم السالفة، أو كأنهم أمنوا الساعة أن تأتيهم فجأة دون إعلام. فإن من أمن عذاب الله في الدنيا والآخرة أو علم أن الساعة لا تأتيه حتى يُؤْذَن، فربما أعرض راكنًا إلى ما أمن، فهل أولئك كذلك؟ هل يعتقدون هذا حقًا؟ إن هذا الاعتقاد لا يكون إلّا مع عظيم الجهل والغفلة، ألم يكن حري بهم أن يفروا إلى ربهم؟ بلى، ولكن كما قال ربنا سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [يونس:٩٦].

منهج الدعوة وأس نجاحها

* يقول الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، جاءت هذه الآية موضحة الذي يجب علينا، مبينة أسسًا مهمة من أسس الدعوة، حاصلها: يا محمد؛ أعلنها صريحة مدوية بيّنة جلية لا خفاء فيها ولا غموض أن مسؤوليتك هي الدعوة والبلاغ، وقل هي طريقي الممتد الذي أسلكه وأثبت عليه، وهذا يدل على أهمية الاطراد وخطورة الاضطراب، وفيه بيان أن الدعوة محفوفة بالسماحة واليسر التي تلحظ في التعبير بالسبيل دون الطريق، وأما ما يعترضها من مشاق فبسبب أصحاب الأغراض والأهواء الذين يسوؤهم السير في ذلك الطريق، فلا بد أن يضعوا لسالكه الحسك والأشواك، ويحدثوا الحفر وأكوام التراب، وربما عرضوا له ليقطعوا عليه الطريق إن كانت لهم اليد والقدرة، ومع ذلك لا مناص من سلوك تلك السبيل؛ لأنها سبيل محمد ﷺ الذي أُمِرنا باتباعه.

طريق الدعوة وصفاته

* وفي هذه الآية دليل على مسألتين عظيمتين: الأولى: وجوب العلم (البصيرة)، والثانية: وجوب الدعوة إليه، وهاتان المسألتان تستلزمان العمل بالعلم، وإلّا فإلى ماذا يدعو الناس؟ وكذلك الصبر على الأذى فيه وذاك أمرٌ لازم لطريق الدعوة، فقد اقتضت سنة التدافع وجود أقوام يقعدون بكل صراط يوعدون ويصدون عن سبيل الله من آمن به يبغونها عوجًا.

وجوب العلم والعمل والدعوة والصبر

الدعوة إلى الله على بصيرة وواقع كثير من الدعوات

* وهنا وقفة مهمة أشار إليها قوله سبحانه: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ فإذا تأملت واقع الدعوة المعاصرة في العالم الإسلامي، وجدت كثيرًا من الدعاة الـمُبَرَّزين بل من قيادات العمل الإسلامي لم تكتمل لديهم البصيرة، بل ليست عندهم البصيرة الشرعية التي تؤهلهم للقيام بما هيئوا له، فهم لم تخصصوا في علم الشريعة، وليس لهم مجلس علماء أعلى يصدرون عنه ويأتمرون بأمره، كشأن كثير من أهل الاستبداد المتحكمين، نعم قد يكون ذلك الرجل متخصصًا في أمور أخرى، وهو على خير وهدى وصلاح، ولكن مثله ليس أهلًا لأن يقود العمل الإسلامي، أَوَيليق بطبيب حاذق أن يرأس فريقًا من المهندسين؟ وهل يناسب أن يرأس فريقًا من الجرَّاحين مهندس؟ ولعل هذا سبب من أهم أسباب تأخر العمل الإسلامي، بل ـ وللأسف ـ فشل العمل الإسلامي في كثيرٍ من بلاد المسلمين.

قد يقول قائل: ربما لم يجدوا إلا هذا، فليس عندهم عالم، وإن لم يكن إلا ذاك فلا شك أن من السياسة الشرعية تقديم الأكفأ فالأكفأ حسب الحاجة والطاقة والإمكان، فيقال لهؤلاء: ألا يمكنهم الظفر بمتخصص واحد في العلم الشرعي حقًا؟ لئن كان الجواب: لا يمكننا، فإن في تلك الدعوة لإشكالًا، ولو فرض جدلًا أنه ما بها بأس ولكنه اندراس العلم في بلادهم، أفلا يمكنهم أن يبعثوا نفرًا ليتفقهوا في الدين خلال خمس أو عشر سنوات ثم يجيئون لقيادة العمل؟ ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

وهذا الواقع في كثير من دعاة العالم الإسلامي لا يختلف عن واقع الرياسة، وما تأخرت أحوال المسلمين وتقهقروا إلى ما هم عليه الآن شيئًا فشيئًا إلّا بعد أن تولى أمرهم -في جل بلاد الله- رؤوس جهّال، أقصوا أمر العلماء شيئًا فشيئًا، وإلّا فالأصل أن يقدم العالم لقيادة الأمة إذا توافرت فيه بقية صفات القيادة، كما

قدم الخلفاء الراشدون على غيرهم، فإن تعذّر فلا أقل من أن يكون هناك مجلس شورى شرعي يكون هو الآمر الناهي في كل قضية شرعية، لا تنتقى لفضله أمور دون أخرى! إذا أردنا أن يكون الدين كله لله، هذا هو الأصل الذي لـمّا تخلَّف تخلَّف أهل الإسلام منذ عقود، بيد أن الولاية العامة لها أعمال ومهمات تختلف عن قيادة العمل الإسلامي، فإن من تحمل أعباء صياغة مجتمع صياغة إسلامية وتصدر لهذا، لزمه أن يعرف الإسلام حق المعرفة أولًا.

أتباع محمد ﷺ هم أهل البصيرة الذين يدعون إلى الله

* وقوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ قال ابن القيم رحمه الله: «أتباعه هم أهل البصيرة الذين يدعون إلى الله»[1]، فمن اجتمع فيه الوصفان، فهو من أتباعه، وكلما كمل العلم وكملت الدعوة كمل الاتباع، وكلّما ضعفا، ضعف.

* ثم قال الله تعالى: ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾، وهذا عطف على قوله: ﴿أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾، فسبيله ﷺ يتميز بسمتين: الأولى: الدعوة إلى الله، وأول ما يدخل في ذلك توحيده اللازم لمعنى الله؛ الإله المعبود حبًا وتعظيمًا، والثانية تسبيح الله: أي تنزيهه من أن يكون له شريك، ولا شك أن شهادة التوحيد هي أصل الدعوة، فالأمر بالتوحيد يدخل فيه كل أمر بطاعة ومعروف، والنهي عن الشرك يندرج فيه النهي عن كل معصية ومنكر يدعو إليها ما سوى الله.

سبيله ﷺ يتضمن الدعوة والتنزيه

وقد أخبر سبحانه وتعالى بأنه خلق الخليقة لتوحيده، وقَصَر الحكمة على ذلك، فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، فالمقصود من هذه الخليقة: أن يُعظَّم الله، وأن يُطاع في هذه الدار، وأن يعظم أمره ونهيه، وتحكَّم شريعته، وأن يعبد وحده سبحانه وتعالى بطاعة أوامره، وترك نواهيه، وقصده سبحانه في طلب الحاجات، وعند الملمات، ورفع الشكاوى إليه، وطلب الغوث منه، والاستعانة به في كل شيء، وفي كل أمر من أمور الدنيا والآخرة.

---

(١) «الصواعق المرسلة» ١/ ١٥٥.

* وقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، عطف آخر أشار فيه إلى مقتضى ما سبقه وهو البراءة من أهل الشرك، فسبيل محمد ﷺ، الذي أُمر أن يعلنه صريحًا: الدعوة إلى التوحيد، والتنزيه عن الشرك، والبراءة من المشركين أجمع، فالله المستعان وهو المسؤول أن يوفق لسلوك تلك السبيل.

من سبيله ﷺ البراءة من المشركين

* ولعل من نكت الجمع بين هذه الثلاث بيان أهمية التزامها جميعًا، فهي دعوة لكل دعوة بأن تراجع نفسها وتنظر في سيرها وسبيلها بناء على ضوء تلك الأصول، ومهما وجدت دعوة لم تعبأ بالتوحيد ولوازمه، ومهما رأيت دعاةً لا يعبؤون بتنزيه الله عن الشريك وعن كل ما يجب تنزيه الله عنه، ومهما أبصرت دعوة توالي أعداء الله وتقصي أولياء الله، فاعلم أنها على غير الجادة قد حادت عن سبيل المعصوم ﷺ، ومقياس القرب والبعد عن طريقه ﷺ هو درجة التزام الدعوة بتلك الأصول، ومدى قُربها وبُعدها عنها.

أصول الدعوة الثلاثة

* قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم﴾ [يوسف:١٠٩]، فالله أرسل رجالًا، لم يرسل ملائكة أنبياءَ ولا جنًا، فالمرسلون بشر خُلقوا مما منه خلقوا، رجال كسائر الرجال إلّا أنهم مسدَّدون بالوحي مؤيدون به، وفي هذه الآية إشارة إلى أن المؤهلين للاطلاع بشؤون الدعوة العامة هم الرجال، فما أرسل الله امرأة قط، وليس ذلك تنقُّصًا لها فالله ما أرسل ملكًا للدعوة ولا أرسل امرأة، ولعل الحكمة في ذلك ترجع للجِبِلَّة التي خلق عليها الرجل؛ فإنها تؤهله للقيام بواجب الدعوة العامة دون النساء.

الإشارة إلى أن المؤهلين للقيام بشؤون الدعوة العامة هم الرجال

ولا يعني هذا أن النساء لا ينبغي أن يكون لهن حظ في الدعوة، بل ينبغي أن يضربن فيها بحظ وافر، بل هن على ثغر لا يسد مسدَّهن فيه غيرهن، فالمرأة هي الظهير والردء والخليفة في شؤون الداعية التي تلزم بيته، فما أعظم مسؤوليتها إذا انضافت إليها دعوة بنات جنسها أو أقاربها، وما أجل مكانها في قلوب المؤمنين

أهمية دور المرأة في الدعوة

إن قامت بما يليها، غير أن الدعوة العامة التي تتطلب لقاء ومواجهة، وخطابًا ومناظرة، وجهدًا ورحلة، واتصالًا بعموم الناس وبروزًا لهم، لا تناسب طبيعة النساء، وتعترضها كثيرًا من المحرمات كالاختلاط والبروز في المجامع للعامة، وتليين الكلام معهم، إلى غير ذلك.

النظر في آثار الغابرين

* وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [يوسف:١٠٩] الاستفهام في قوله: ﴿أَفَلَمْ﴾ للتقريع والتوبيخ والإنكار، فهم قد ساروا وسمعوا الأخبار ورأوا الآثار، والضمير في ﴿يَسِيرُوا۟﴾ عائد على من أنكر إرسال الرسل من البشر، ومن عاند الرسول وأنكر رسالته، فقال: هلّا يسيرون في الأرض فيعلمون بالتواتر أخبار الرسل السابقة، ويرون مصارع الأمم المكذبة، فيعتبرون بذلك؟

* قال تعالى: ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وإذا كان المآل هو الانتقال عن هذه الدار، سواء حلت بالمكذبين المَثُلات التي نزلت بالأمم السابقة أو لم تحل بهم، فإن الدار الآخرة التي ليس بعدها دار خير للذين اتقوا الشرك ومخالفة الرسل في الدار الأولى، أفلا يعقل هذا المعنى فيُعْلَم ويُعْمَل به!

متى نصر الله؟

* ثم قال الله مخبرًا عن سنته الماضية في رسله، الباقية في أتباعهم: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف:١١٠]، فذكر الغاية التي يجيء بعدها النصر، فقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ والاستيئاس استفعال من اليأس؛ لم يذكر الله تعالى ما صاروا يائسين منه، بل أطلق وصفهم بالاستيئاس، والأقرب أن المراد: استيأسوا من إيمان مكذبيهم، فالسياق قبلها وبعدها يشعر به.

* وقوله: ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟﴾ قرئت بالتشديد والتخفيف، والمعنى ما قالته عائشة رضي الله عنها وطائفة من السلف؛ أي: خافوا تكذيب من معهم من المؤمنين لهم، وهو الذي يتعين في السياق.

نصر الله آت قريب ممن صبر

* ثم قال الله تعالى: ﴿جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾ [يوسف:١١٠]، بعد تلك الحال التي وصف، يجيء النصر، فإن مع العسر يسرًا، إن مع العسر يسرًا، وإذا كان الأمر كذلك فاصبر للبلايا فحينها يسير، وأثبت للرزايا فأجرها كثير، وأحسن قِرى ضَيفِ الهمِّ بالصبر الغزير، وتجلد على الظمأ فبين يديك ماءٌ غريرٌ، ولا تكن من الظانين بالله ظن السَّوْء فإن الله أولى بالجميل، ولا تكن من القانطين فإنه عز ذكره يفرج عما قليل.

رأيتُ العسرَ يتبعه يَسَارٌ ... وقيلُ اللهِ أصدقُ كلِّ قِيلِ

وهكذا إذا بلغت الحال بالرسل وأتباعهم أقصاها، جاءهم نصر الله، إما بظهور المؤمنين، أو بعذاب من عند الله يُهلِك به المكذبين، وأيًا ما كان، فحينها لن تجد لبأس العزيز الجبار معارض رادّ يدفعه عن مستحقيه، وهم المجرمون.

* وقوله: ﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ﴾ [يوسف:١١٠] إشعار بأن الله ينجّي من يشاء من عباده المؤمنين، فيجعل لهم الظفر، وقد يكتب الحسنى الأخرى لطائفة أخرى منهم، وأولئك لن يضيع الله أجرهم، بل ما أعظم غبطتهم بما يلقون، إما النصر وإما الشهادة.

الثبات هو الفوز الكبير

* إن الفوز الكبير في الآخرة منوط بالثبات على الطريق بعد ولوجها، وليس منوطًا بقطعها، فإن النية تبلغ ما لا يبلغ العمل، والمعول على التزام المرء أمر الله، لا على ترك غيره من الخليقة أمر ربه، ومن جملة التزام المرء أمر الله تبليغ الرسالة، وأما الهداية التوفيقية فليست إليه، والانتصار الحقيقي هو ثبات المرء على منهج الله، وذلك هو الفوز الكبير، وإن مات أو قتل! ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ۝٥ إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ۝٦ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ۝٧ وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن

﴿يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ
﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾
إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾
[البروج: ٤-١١] فهل رأيت في القرآن تعقيبًا يصف الله فيه الفوز بهذا الوصف إلّا في هذا المقام؟ فإذا فقهت هذا فلا تعجب إن رأيت رصاصة آثمة تخترق جمجمة مؤمن وهو يقول كلمة سلفه: «فزت ورب الكعبة» إي والله ذلك هو الفوز الكبير.

آثار تخلف الصبر في واقع الجماعات الدعوية

ولقد تأمَّلت في واقع الدعوة في عصورنا المتأخرة فوجدت أن الدعاة والجماعات والمؤسسات الدعوية على أحوال، فمنهم من رأى أن طريق الدعوة طريق طويل شاق، فاستعجل قطعه، فخرج عنه وحاد ذات اليمين ليختصره فضَلَّ، فأعلن بعضهم الجهاد قبل أوانه، بل في غير مكانه، مع مَنْ شأنهم أن يكونوا من أهل دعوتهم، فكيف كانت النتيجة؟

ومنهم طائفة أخرى قابلت هؤلاء، أولئك هم الفئة اليائسة البائسة، دعت ودعت ودعت فلم تـرَ استجابة، طولبت ببذر بذورٍ فظنت أن لها ثمرة مأكولة وأنها مكلفة بجلبها وفي الحال، وإن لم ينزل الله غيثًا من السماء، وإن لم يكن ثمة ماء، فلما لم ينجح المراد انقسموا إلى فريقين: فمنهم من قعد قانطًا متشائمًا آيسًا ترك الحرث والبذر والعمل المكلف به المتعاقد عليه بالأجر، المتوعد على التلكؤ فيه بالعقوبة، فتركوا السير والعمل، وركنوا إلى ظل زائل، وقد كفّوا خيرهم وشرهم، فهم على عجرهم وبجرهم خير من الفريق الثاني: الذين رأوا أنهم مكلفون بجني الثمار، وبأي سبيل، فلما مرت الأيام ولم يروا للبذر أثرًا، طفقوا يسرقون وينهبون ويستجدون ويأتون كل منكر لتحصيل ثمرة موهومة غير مرادة وليست بمأكولة! فتنازلوا وتساهلوا في دين الله وفرطوا باسم التيسير، وما كان التنازل عن شريعة

الله أو التفريط فيها تيسيرًا، بل إخراج للبشر من شريعة الله إلى عبادة البشر واتباع أهوائهم، وفي ذلك العسر في الدنيا والتيسير للعسرى يوم القيامة!

أمّا الفرقة الناجية والطائفة المنصورة فهي التي لم تزل على الحق ظاهرة، ملتزمة بمنهج الرسل، لا يضرها من خالفها ولا من خذلها، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك.

أهمية التفريق بين الثوابت والمتغيرات

ومن فقه هؤلاء أنهم يفرقون بين ما يلزم الثبوت عليه وما لا يلزم، يعرفون أن الوسائل أمرها واسع ما لم تخالف شرعًا، فكان هذا مما أَهَّلَهم للثبات على الثواب وأصول الدين. وقد يكون هؤلاء في أزمان هم الغرباء الأقلون القابضون على الجمر ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٤٠].

* ثم قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[يوسف:١١١]، المعنى: لقد كانت في أخبار يوسف وإخوته وأبيه وغيرهما من الأنبياء الذين ذكرهم في الآيتين قبلها عبرة أي: لقد كان في أخبارهم أصل ترد إليه النظائر، وتؤخذ منه العِظات، ولكن لا يوفق للانتفاع إلّا أولو الألباب أصحاب العقول الذين يقيسون ويعتبرون بالسابق على اللاحق، أما الذين عطّلوا عقولهم، معرضين عن دعوة الرسل، عمين عن الآيات التي يمرون عليها، فلا يعتبرون، وفي هذا تحذير لأولئك الذين يخوضون في قصص الأنبياء، ويأتون فيها بكل عجيبة من أنباء بني إسرائيل لأجل التسلية والإثارة، فالقرآن أنزل ليعتبر به، لا لـمجرد السَّمَر.

العبرة من خصائص أحسن القصص

* وفي قوله: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾ تنبيه إلى أحد أوجه قوله تعالى في أول السورة: ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف:٣] ، فقصص القرآن لا تضاهيها الأخبار المخترعة، كقِصص الخيال العلمي السمجة، وأحاديث الجن والغول، وترهات الأفهام والعقول، وسائر الخرافات الخارجة عن حد المعقول، إذ لا

اعتبار فيها ولا قياس تحصل به العظة، فغايتها هزّ عواطف الصغار وضعاف النفوس حينًا في غير جدوى، بل ربما أحدثت ضررًا، وبنت مفاهيم مغلوطة.

أما قصص القرآن فيحصل بها الاعتبار من الواقع الحاضر أو التاريخ الغابر، فالقرآن وما تضمنه من أخبار ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾: يقتطع من تلقاء النفس ويختلق، ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [يونس:٣٧]، أي: هو حق مصدِّق لما بين يديه من كتب الله التي أنزلها قبله على أنبيائه، كالتوراة والإنجيل والزبور، يصدِّق ذلك كله ويشهد أنّ جميعه حق من عند الله، كما أنه مبين للصادق منها، ومميز له عما زيد فيها وأسيء من تأويله.

من أوصاف القرآن الكريم

* وقوله: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، صفة ثالثة للقرآن، فأما الأولى: فكونه عِبرة، والثانية: ما كان حديثًا يفترى، والثالثة: أنه تفصيل كل شيء، فالقرآن ميَّز وبيَّن كل ما يصح أن يطلق عليه لفظ شيء، إما بخصوصه أو بعمومه، وقد لا يكون في كتاب الله تفصيله، لكن تفصيله فيما دل كتاب الله عليه، كما في كتاب الله من الأمر باتِّباع السنة واتباع سبيل المؤمنين، وفي ذلك تفصيل لكثير من الأشياء، فيكون تفصيلها في كتاب الله بهذا الاعتبار؛ لأن جامع الجامع جامع، ودليل الدليل دليل.

* ثم بيَّن سبحانه أن هذا الكتاب الذي فيه تفصيل كل شيء لن يوصل متبعه إلّا إلى كل خير، فوصفه بأنه هدى، يرشد من جهل الحق فعمي عنه، وإذا كان هدىً فلن يضل متبعه، ثم وصفه بأنه رحمة؛ ليبين أن متبعه كما أنه لن يضل فإنه لن يشقى، فليس تفصيل كل شيء وبيان حكمه ضرب من العنت بل هو هدى ورحمة، ولكن لقوم يؤمنون، يصدقون ويتبعون، ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾[فصلت:٤٤].

ضلال من التمس الهدى في خلاف الكتاب

* وإذا كان هذا القرآن فيه تفصيل كل شيء، وهو مع ذلك هدى ورحمة، فما بال أولئك الذين يطلبون الهدى في غير هذا الكتاب؟! ما بال أولئك الذين شرَّقوا وغرَّبوا يقتبسون من شرائع الغاب وقوانين الغرب؟! ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء:٦٠]، انظر إليهم في أقطار الأرض البعيدة إلى أيِّ درك تردَّوا؟ فعجبًا لمن رأى الضلال البعيد رشدًا، وعَمِي عن سبيل الهدى وطريق الرشاد وهو بين يديه! عجبًا لمن ظن الحضارة والترقي حياة بهيمية في حظائر عصرية! لقد تشابهت قلوبهم، وأظلمت نفوسهم، وخفت نور الإيمان عندهم، فلم يروا في الكتاب هدى ورحمة فذهبوا يقتبسون من نار الغرب المحرقة، ويتهافتون عليها تهافت الفَرُش مع أهلها، ويأبى الله أن يجعل أهل الإيمان من أهلها، ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥]، أَوَلا يجدر بهم أن يسلموا للكتاب العزيز الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فُصِّلت:٤٢]، أليس الذي أنزله هو الذي خلقهم؟! أَوَليس خالقهم هو الأعلم بالأمر الذي يصلحهم؟! ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤]. بلى والله فما أحوج الأمة إلى عودة صادقة إلى كتاب ربها لتعود إلى سابق عهدها، وتظفر بالهدى والرحمة.

خاتمة

وفي الختام حريٌّ بنا أن نتدبر العبر والآيات في هذه السورة، وما فيها من حسن عاقبة الصبر والتقوى، خلافًا لما يتوهمه المستعجلون الغالون أو المفرطون، فكم من موقف مر بيوسف عليه السلام لو عرض لبعض أهل التأويل والتساهل، لترخصوا بما لم يجعل الله لهم فيه عذرًا! وكم من موقف لو عرض على الغلاة لما اتسع له فقههم جهلًا.

على العالم أن يتدبر هذه السورة؛ ليزداد يقينًا، وتنشرح نفسه وإن خالفه الجاهلون، أو فنَّد رأيه المغترون بالظواهر، وأمور الدنيا.

على الداعية أن يتدبرها؛ ليعدل مساره، وفقًا للطريق الذي سار عليه أنبياء الله، والمنهاج الذي أرشدنا إليه الله عز وجل.

على الأمة أن تتدبرها؛ لينبعث في نفوس أبنائها التفاؤل، ولتعلم أنَّ بعد العسر يسرًا، وأن لله تدبير محكم، ولطف خفي، ومكر بأعدائه، وأنه منتصر لأوليائه.

على الناس أن يتدبروها؛ ليعلموا أهمية التوحيد، ومكان العقيدة الصحيحة في دعوة الرسل، ولا غرو إذ فيها النجاة وفيها السلامة.

علينا أن نقرؤها للامتثال والاقتداء معتقدين أن الخير كل الخير في كتاب ربنا، إذا أخذنا به صلح أمرنا، وإذا أعرضنا عنه خذلنا بذنوبنا.

هذا والله أسأل أن يجعلني وإياكم من أولي الألباب المعتبرين، التالين لكتابه المتدبرين لآياته، الذين لهم من الهدى والرحمة في الدارين أوفر نصيب، فقد قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص:٢٩]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء:٨٢]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ [محمد:٢٤].

والحمد لله أولًا وآخرًا، وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمد، وعلى الأنبياء والمرسلين، وعلى مَن سلك سبيلهم واتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

فهرس الموضوعات

تم بحمد الله

سلسلة إصدارات مؤسسة ديوان المسلم ١٦

تدبر سورة الكهف



ناصر بن سليمان العمر

رئيس الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم

والمشرف العام على مؤسسة ديوان المسلم

الطبعة الثانية

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العمر، ناصر بن سليمان
تدبر سورة الكهف/ ناصر بن سليمان العمر - الرياض، ١٤٣٥هـ
١٥٢ ص ؛ ١٧ × ٢٤سم
ردمك: ٦-٣٨١٦-٠١-٦٠٣-٩٧٨
١- القرآن - سورة الكهف - تفسير
أ- العنوان
ديوي: ٢٢٤,٦ ١٤٣٥/٢٩٠

رقم الإيداع: ١٤٣٥/٢٩٠
ردمك: ٦-٣٨١٦-٠١-٦٠٣-٩٧٨

مؤسسة ديوان المسلم
ص.ب ٩٣٤٠٤ الرياض ١١٦٨٤
هاتف: ٠١١٢٥٤٩٩٩٢ - فاكس: ٠١١٢٥٤٩٩٩٦

الطبعة الثانية
١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م
البريد الإلكتروني: nn@almoslim.net

بسم الله الرحمن الرحیم



المقدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا، والصلاة والسلام على الهادي البشير والسراج المنير نبينا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان... وبعد:

فقد أكرمني ربي بأن أعيش مع سورة الكهف عدة سنوات متدبراً لها، مفسراً لآياتها، واقفاً مع دلالاتها؛ إذ مكثتُ في ذلك ثلاث سنوات ألقي درساً أسبوعياً (**عدا أوقات الإجازات**)، وكذلك ألقيتها باختصار في العشر الأواخر من رمضان في إحدى السنوات، وسجلت فيها ثلاثين حلقة ضمن برنامج (ليدبروا آياته) الرمضاني حيث تم بثها في رمضان عام (١٤٣٢هـ)، بعد ذلك كله تم إخراج هذه الثروة العلمية في كتاب (إشراقات سورة الكهف) في مطلع هذا العام (١٤٣٤هـ)، وبعد أن خرج الكتاب في سفر كبير اقترح عليّ أحد الإخوة[1] أن أستخرج الدروس التدبرية في رسالة خاصة يسهل تداولها وقراءتها والإفادة منها، وبخاصة من لدن الشباب لحاجتهم الماسة لهذه الدروس في ظروف صعبة تمر بها الأمة اختلط فيها الحق بالباطل لدى كثير من الناس؛ نظراً لما في هذه الدروس من بيان للمنهج الحق.

---

(١) وهو أخي د/ محمد الربيعة الأستاذ في جامعة القصيم قسم القرآن الكريم.

وقد تم اختيار أحد الإخوة[1] الباحثين من طلاب العلم لهذه المهمة، فوافق مشكوراً.

فقرأ كتاب (إشراقات سورة الكهف) واستخرج هذه الفتوحات التدبرية، ثم راجعتُ ما تم انتقاؤه وأضفت إليه بعض ما سنح لي من دروس ووقفات، وأذنت للإخوة في مؤسسة ديوان المسلم (إدارة الإنتاج والنشر) بإخراجه في رسالة مناسبة ليعم النفع، ويستثمر الجهد.

وبعد: فأشكر كل من ساهم في إخراج الأصل (إشراقات سورة الكهف) أو هذا المختصر (تدبر سورة الكهف)، وأسأل الله أن ينفع بهما كاتبَهما وقارئهما وكل من ساهم في نشرهما.

وآمل مِن كل مَن وجد ملحظاً بدا له، أو إضافة مفيدة أن يكرمني بذلك؛ ليتدارك في الطبعات اللاحقة بإذن الله، وما كان فيهما من علم وخير ونفع فهو من الله وحده، فله الحمد والفضل والشكر والمنة، وما كان من خطأ ونقص فمن نفسي والشيطان وأنا راجع عنه، وأستغفر الله وأتوب إليه، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

وكتب

ناصر بن سليمان العمر

الرياض ١٠/٧/١٤٣٤

naser@almoslim.net

---

(١) هو الأخ/ يوسف البخيت.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا
لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ
ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ
كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ
بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا
جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا
لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ
وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟
رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ
ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ
أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ

ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى ﴿١٣﴾ وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ قَامُواْ
فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا
شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ
عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ﴿١٥﴾ وَإِذِ
ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن
رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ﴿١٦﴾ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت
تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي
فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ
فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ﴿١٧﴾ وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ
ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ
لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ
لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ
يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ
إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ

وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ
يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا
عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ
بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا
عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ
كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ
سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا
تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ
لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا
نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا فِي
كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ۖ لَهُ
غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن
وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ
رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ

مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ
عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا
وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن
وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن
يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ
مُرۡتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ
أَحۡسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا
مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا
عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا ﴿٣١﴾ ۞ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ
جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ﴿٣٢﴾
كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ﴿٣٣﴾
وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا
﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ﴿٣٥﴾
وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا

مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ
مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾
وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ
مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ
عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا
فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ
فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ
فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ
ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ
فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ
شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ
خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً
وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا
كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ

فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا
يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ
رَبُّكَ أَحَدٗا ﴿٤٩﴾ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ
ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ
لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ﴿٥١﴾ وَيَوۡمَ يَقُولُ
نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُم
مَّوۡبِقٗا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا
مَصۡرِفٗا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَكَانَ
ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ
ٱلۡهُدَىٰ وَيَسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّهُمۡ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ
قُبُلٗا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا ﴿٥٦﴾
وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ

قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن
يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا
كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا
﴿٥٨﴾ وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا
﴿٥٩﴾ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ
أَمۡضِيَ حُقُبٗا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي
ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا
هَٰذَا نَصَبٗا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ وَمَآ
أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ
مَا كُنَّا نَبۡغِۚ فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ
رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ
أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٦٧﴾
وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ
أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ

مِنۡهُ ذِكۡرٗا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ
أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا
﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا
حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا
نُّكۡرٗا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلۡتُكَ
عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ
أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن
يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي
وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ
لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ
غَصۡبٗا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا
وَكُفۡرٗا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا ﴿٨١﴾
وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ
أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ

مِن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾
وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا
لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ
ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن
تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ
رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ
وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ
وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا
لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا
قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى
ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى
خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ
بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾
فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ

فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا (٩٨) ۞ وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ
فِي بَعۡضٖۖ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا (٩٩) وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا
(١٠٠) ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا (١٠١)
أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ
نُزُلٗا (١٠٢) قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا (١٠٣) ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ
يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا (١٠٤) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ
فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا (١٠٥) ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ
وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (١٠٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ
ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا (١٠٧) خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا (١٠٨) قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا
لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا (١٠٩) قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠
بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا
صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا (١١٠) ﴾.

مقدمات بين يدي السورة

يحسن بنا قبل الشروع في تدبر السورة أن نذكر مقدمات تعين القارئ على التدبر والتفكر، مع ما فيها من فوائد عامة تتعلق بالقرآن.

أولاً- اسمها: ومناسبة تسميتها:

- هذه السورة، اشتهرت بسورة الكهف، وتسمى سورة أهل الكهف، وسورة أصحاب الكهف، ومرجعها جميعاً إلى أول قصة وردت فيها، قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ ﴾ [الكهف].
- قصة أصحاب الكهف قصة عجيبة جليلة تدل على كمال قدرة الله ﷻ وإرادته وقيوميته، وقد حوت كثيراً من العبر والدروس التي يحتاجها المؤمنون دائماً فناسب أن تسمى السورة بها.
- جاءت تسمية هذه السورة على لسان النبي ﷺ في غير ما حديث، كقوله في حديث الدجال الذي رواه النواس ابن سمعان رضي الله عنه: "فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف"[1].

ثانياً- لمحة عن الكهوف:

- الكهوف من جملة خلق الله، لم توجد عبثاً، بل خلقها الله بما شاء من الأسباب، لما يشاء من الحكم، وعلينا أن نتفكر فيها؛ وأن ننظر في عجائبها ونلتمس منافعها.

---

(١) صحيح مسلم ٤/ ٢٢٥٠ (٢٩٣٧).

- الكهف: هو الشق المتسع في جبل، فإن لم يكن متسعاً فهو غار، أشار إلى هذا الفرق الليث وغيره من علماء اللغة[1].
- الفرق بين الكهف والغار: من الفروق بين التعريف اللغوي وتعريف علماء الطبيعة:

أن ما يسع إنساناً واحداً أو اثنين ونحوه يسمى غاراً في اللغة ويشهد له قوله تعالى: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠]، ولا يسمى كهفاً إلّا إذا كان متسعاً. ومن أدلة ذلك أنه سمي ملجأ الفتية كهفاً وهم أقل من عشرة، بل بدأ الاحتمال بثلاثة.

- من مميزات الكهوف بالمعنى اللغوي أنها مأوٍ آمنة، يلجأ إليها الناس، لوعورة مسالكها وبعدها عن المدن والبنايات في العادة.
- اختلف الناس في تحديد الكهف المذكور في السورة وسبب الاضطراب هو كون الكهوف اتخذت ملاجئ على مدار التاريخ، وكثير ممن لم يحقق ذلك كلما وجد كهفاً فيه آثار حياة سابقة بعدد معين، حمله على قصة أصحاب الكهف، والصحيح أنه لا يعرف مكانه.

ثالثاً- العلاقة بين الكهوف وبين اسم السورة:

- إذا علمنا أن فرار الناس إلى الكهوف خوف اضطهاد ديني وقع في التاريخ مراراً، علمنا أن للكهف تعلقاً أكبر، وبعداً أوسع في

---

(١) ينظر المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده ٤/ ١٤٥، والعباب الزاخر للصاغاني ٢/ ١١، والقاموس وغيرها.

علاقته بهذه السورة.

- ذكرت هذه السورة أعظم الفتن التي تجتال البشرية عبر الزمن: الفتنة في الدين، والفتنة في المال والولد، والفتنة في العلم، والفتنة في السلطان.وفي وسط هذه الفتن الإشارة إلى الفتنة الأولى فتنة إبليس للأبوين عليهما السلام.
- قَدَّم الله سبحانه وتعالى لهذه الموضوعات في سورة الكهف وعقب بذكر أسباب الوقاية منها التي فيها العصمة وطرق معالجتها حين التعرض لها.
- سورة الكهف تضع للمؤمن كهوفاً تعصمه من أشد الفتن في حياته، ومن ثم فهي عاصمة من أعظم فتن الدنيا على الإطلاق؛ ومن أعظمها فتنة الدجال. فالذي لم تُفده سورة الكهف نجاةً في حياته من فتن الدنيا، فحري ألا تعصمه من فتنة الدجال!
- المتدبر لهذه السورة،بقدر استفادته منها وتدبره لمعانيها وتحققه بما فيها، تكون صفات كهفه الذي يفزع إليه حال الململة وأمام الفتن.

رابعاً- وقت نزولها:

- نزلت سورة الكهف في مكة قبل الهجرة، فهي مكية على كل حال[1]، وقد استُثنيت منها بعض الآيات، وما لم يثبت استثناؤه

---

(١) الناسخ والمنسوخ لابن سلامة ١/ ١٩.

فله حكم السورة العام، كما قال العلامة ابن عثيمين رحمه الله[1].

خامساً- سبب نزولها:

- سبب نزولها أن المشركين بعثوا رجلين منهم إلى أحبار اليهود بالمدينة، يسألونهم رأيهم في دعوة النبي ﷺ، فقال لهم أحبار اليهود: سلوه عن ثلاث، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم؟ وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وسلوه عن الروح ما هي؟ ثم جاءه جبريل عليه السلام بسورة الكهف، وفيها جوابهم عن الفتية وهم أهل الكهف، وعن الرجل الطواف وهو ذو القرنين[2].

-فائدة عظيمة جليلة:

- سبب النزول هذا دليل من الأدلة المتكاثرة على نبوة محمد ﷺ وصدقه؛ لأنه مبلغ ولا يأتي بشيء من عند نفسه.

سادساً- عدد آياتها: [3]

- قال الشهاب الدمياطي رحمه الله: (آيها مائة وخمس حِرْمِيٌّ، وست

---

(١) أول تفسيره لسورة الكهف؛ قال: (الأصل أن السُّوَر المكيَّة مكيَّةٌ كلها وأن المدنيَّة مدنيَّةٌ كُلُّها، فإذا رأيت استثناءً فلا بد من دليل).

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور ١٥/ ٢٤٣

(٣) اختلاف العلماء في عدّ الآيات لأجل اختلافهم في بعض الفواصل(والفاصلة: آخر كلمة في الآية وتسمى رأس الآية)، فمنهم من عدّها آية، ومنهم من لم يعدّها، والمسلمون متفقون على إثبات ألفاظ القرآن لا يختلفون في أنه لا يزاد فيها ولا ينقص منها.

شامي، وعشر كوفي، وإحدى عشرة بصري)[1].

- المقصود بقولهم حرمي: أي في عد قراء الحرمين المكي والمدني، وشامي في عد قراء الشام، وكوفي في عد قراء الكوفة، وبصري في عد قراء البصرة.

سابعاً- من مزاياها:

- أنها كلها محكمة، قال ابن سلامة ﷺ: (أجمع أهل العلم أن ليس فيها ناسخ ولا منسوخ)[2].
- أنها إحدى خمس سور افتتحت بالحمد،قال ابن عاشور: (موقع الافتتاح بهذا التحميد كموقع الخطبة يفتتح بها الكلام في الغرض المهم)[3].
- كل السور تضمنت من المعاني الجليلة، والموضوعات المهمة ما ينبغي أن يعتنى به، فتنوعت فواتح السور تنوعاً يلفت أنظار السامعين، بما يناسب موضوعاتها.
- ذُكر أنها نزلت كاملة ومعها سبعون ألفاً من الملائكة[4].
- أنها تشرع قراءتها كل جمعة، مما يدل على عظم ما تضمنته من موضوعات يحسن بالمسلم أن يستحضرها من الجمعة للجمعة فلا تغيب عن ذهنه.

---

(١) اتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر ١/ ٥١١.

(٢) الناسخ والمنسوخ لابن سلامة المقري ١/ ١٩.

(٣) التحرير والتنوير ٨/ ٣٢٥.

(٤) التحرير والتنوير ١٥/ ٢٤٢، ولم يثبت.

ثامناً- فضائلها:

- أن قراءتها سبب لتنزل السكينة، فعن البراء بن عازب ﵁ قال: "كان رجل[1] يقرأ سورة الكهف وعنده فرس مربوط بشطنين[2] فتغشته سحابة، فجعلت تدور وتدنو، وجعل فرسه ينفر منها، فلما أصبح أتى النبيَّ ﷺ فذكر ذلك له فقال: تلك السكينة تنزلت للقرآن"[3].
- أن قراءتها أو قراءة آيات منها تعصم من فتنة الدجال، فعن أبي الدرداء ﵁ أن النبي ﷺ قال: "من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال"[4].
- أن قراءتها تنير لصاحبها، فعن أبي سعيد الخدري ﵁ أن النبي ﷺ قال: "إن من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين"[5].

وضعف كثير من الحفاظ لفظ (الجمعة)، وقالوا إنها تقرأ في أي يوم من أيام الأسبوع، سواء الجمعة أو غيرها في النهار أو الليل.

قلت: ولا يثرب على من قرأها يوم الجمعة لتصحيح بعض المحدثين هذه اللفظة، ولأن الجمعة داخلة في عموم من لم يصححها، والأولى ألا يلتزم بذلك.

---

(١) قال الحافظ ابن كثير في التفسير ٥/ ١٣٣: وهذا الرجل الذي كان يتلوها هو أُسَيْدُ بن الحُضَيْر، كما تقدم في تفسير البقرة.

(٢) تثنية شَطَن، وهو الحبل، ينظر لسان العرب ١٣/ ٢٣٧ مادة (شطن).

(٣) صحيح البخاري ٤/ ١٩١٤ (٤٧٢٤)، صحيح مسلم ١/ ٥٤٧ (٧٩٥).

(٤) صحيح مسلم ١/ ٥٥٥ (٨٠٩).

(٥) المستدرك ٢/ ٣٩٩ (٣٣٩٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤٧٠).

فوائد متعلقة بفضائل السورة

الفائدة الأولى- في الآيات التي تقرأ على الدجال:

- عن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "ما من نبي إلا وقد أنذر أمته الأعور الكذاب، ألا إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، ومكتوب بين عينيه ك ف ر"[(١)]
- نظرًا لعظيم فتنة الدجال، ينبغي لكل مسلم أن يعرف الآيات التي تعصم منه بإذن الله.
- ورد أن العصمة تكون بقراءة الآيات من فواتح الكهف دون تحديد لعددها، وورد أنها في الثلاث الأول، وجاء أنها العشر الأواخر، وجاء أنها عشر آيات مطلقًا، وجاء أنها العشر الأوائل.
- الأَولى أن تحفظ السورة كلها، وتقرأ كلها على الدجال إن استطاع؛ فإن تضايق الوقت قرأ العشر من أولها والعشر من آخرها، فإن لم يسعه ذلك فليقرأ العشر الأول.

الفائدة الثانية- الأسباب الداعية لكون السورة عاصمة من الدجال:

- أجمل القرطبي ﷺ هذه الأسباب في المفهم فقال: (... فقيل لما في قصة أصحاب الكهف من العجائب والآيات، فمَن علمها لم يستغرب أمر الدجال، ولم يَهُلْه ذلك، فلا يفتتن به)[(٢)].

---

(١) صحيح البخاري ٦/ ٢٦٠٨ (٦٧١٢)، صحيح مسلم ٤/ ٢٢٤٨ (٢٩٣٣).

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ٧/ ٧١

- وقيل: لما في قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ إلى آخر السورة من المعاني المناسبة لحال الدجال.
- وقيل لقوله تعالى: ﴿قَيِّمٗا لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ﴾ تمسكاً بتخصيص البأس بالشدة واللدنية، وهو مناسب لما يكون من الدجال من دعوى الإلهية واستيلائه وعظيم فتنته.
- وقيل: إنما كان ذلك لقوله: ﴿قَيِّمٗا لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ﴾ فإنه يهون بأس الدجال.
- وقوله: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا ﴿٢﴾﴾ فإنه يهون الصبر على فتن الدجال بما يظهر من جنته وناره وتنعيمه وتعذيبه.
- وقيل: أن قصة أصحاب الكهف فيها عبرة تناسب العصمة من الفتن، وذلك أن الله تعالى حكى عنهم أنهم قالوا: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا ﴿١٠﴾﴾ فهؤلاء قوم ابتلوا فصبروا، وسألوا إصلاح أحوالهم، فأُصلِحت لهم.

الفائدة الثالثة- وقت قراءة السورة:

- يقرأها المسلم كل جمعة على قول من صحح (يوم الجمعة)، وسواء قرأها في يومها أو ليلتها فلا بأس والآثار قد جاءت بهذا وهذا، كما نقل المناوي عن الحافظ ابن حجر[1]، وشيخنا الإمام عبدالعزيز بن باز يرى أنها تُقرأ في نهار يوم الجمعة، والله أعلم.

---

(١) فيض القدير ٦/ ٢٥٨.

تاسعاً- أسرار ولطائف:

أ- في فواتح السورة:

- افتتحت السورة بالحمد على إنزال الكتاب: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا﴾ [الكهف: ١-٢] ولهذا لطائف، منها:
- **اللطيفة الأولى:** لما نزلت سورة الكهف -بعد انقطاع- بأجوبة أسئلة القوم التي ظنوها معجزة، ناسب أن تفتتح بالحمد لوجهين:
- الأول- أن نزولها كان رداً على تخرصات وبياناً لتمام إنعام الله على عبده.
- الثاني- أن الكفار كانوا يحبون مَساءة النبي ﷺ وأصحابه، فكأنهم وجدوا في تأخر الجواب بغيتهم، فنزلت السورة قاطعة لآمالهم ومبددة لأحلامهم.
- **اللطيفة الثانية:** الحمد يكون لسببين؛ أولهما صفات المحمود الذاتية، وثانيهما أفعاله التي يستحق الحمد عليها[1].
- فـ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، حمد لذاته العلية المتصفة بالصفات الكاملة الزكية، إذ المعنى: الحمد لله المستحق لجميع المحامد لا لشيء غير ذاته، الحائز لجميع الكمالات[2].

---

(١) شرح التلويح على التوضيح ١/ ٨.

(٢) نظم الدرر للبقاعي ١/ ١.

- موجب الحمد الثاني وهو جميل النعم، فقد خص بالذكر هنا نعمة الدين، وهي إنزال الكتاب المستقيم الذي لا اعوجاج فيه على خاتم رسله الموصوف بالعبودية تشريفاً وتعظيماً.
- **اللطيفة الثالثة:** سورة الكهف واحدة من خمس سور افتتحت بالحمد، وهي على ترتيب المصحف: الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ، وفاطر.
- ابتدئت الفاتحة بقوله ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢﴾، فوصف بأنه مالك جميع المخلوقين.
- وفي بقية السور ابتدئت بفرد من أفراد صفاته وهو خلق السموات والأرض والظلمات والنور في الأنعام، وإنزال الكتاب في الكهف، وملك ما في السموات وما في الأرض في سبأ، وخلقهما في فاطر.
- **اللطيفة الرابعة:** تعلق الحمد بقراءة فواتح السورة على الدجال والعصمة منه، فالله محمود على صفاته، والدجال معيب في صفته؛ أعور العين اليمنى كأنها عنبة طافية.
- استحق الله الحمد على ما أسبغه من فيض الإنعام، أما الدجال فلا يحمد على شيء البتة، فهو في ذاته وصفاته ناقص معيب قبيح الصورة، وأما ما يجري على يديه فليس راجعاً إلى ذاته، لكنها فتنة من الله ﷻ لمن أعرض عن الحق المبين.

ب- في موضع السورة من المصحف:

- قال ابن عاشور رحمه الله: (كرامة قرآنية: لوضع هذه السورة على هذا

الترتيب... قرابة نصف المصحف، وهي مفتتحة بالحمد حتى يكون افتتاح النصف الثاني من القرآن بـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ كما كان افتتاح النصف الأول بـ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾)"[1].

- وقال رحمه الله أيضاً: (سور خمس مفتتحة بـ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وهنّ كلها مكية وقد وضعت في ترتيب القرآن في أوله ووسطه، والربع الأخير، فكانت أرباع القرآن مفتتحة بالحمد لله؛ كان ذلك بتوفيق من الله أو توقيف)"[2].

ج- في المناسبات:

- تلمس بعض العلماء لطائف وأسرار ترتيب السور في المصحف واعتنوا بها، كما أشار السيوطي[3]، فمنها:

اللطيفة الأولى- مناسبتها لما قبلها:

- مناسبة وضعها بعد سورة الإسراء: افتتاح تلك بالتسبيح وهذه بالتحميد، وهما مقترنان في القرآن وسائر الكلام بحيث يسبق التسبيح التحميد.
- أن اليهود أمروا المشركين أن يسألوا النبي ﷺ عن ثلاثة أشياء: وقد ذكر جواب السؤال الأول في آخر سورة بني إسرائيل[4]،

---

(1) التحرير والتنوير ١٥/ ٢٤٥.

(2) التحرير والتنوير ٢٢/ ١٣٥، من تفسير سورة سبأ.

(3) الإتقان ٢: ص ٢٨٨.

(4) وهو من أسماء سورة الإسراء.

وهو السؤال عن الروح، فناسب اتصالها بالسورة التي اشتملت على جواب السؤالين الآخرين.

اللطيفة الثانية- مناسبتها لما بعدها:

- أن سورة الكهف اشتملت على عدة أعاجيب: قصة أصحاب الكهف... وقصة موسى مع الخضر... وقصة ذي القرنين. وهذه السورة فيها أعجوبتان قصة ولادة يحيى بن زكريا، وقصة ولادة عيسى، فناسب تتاليهما.
- قيل: إنهم من قوم عيسى، وإن قصتهم كانت في الفترة، فناسب توالي قصتهم وقصة نبيهم)[1].

اللطيفة الثالثة- مناسبة فاتحتها لخاتمة ما قبلها:

- قال البقاعي: (لما ختمت تلك بأمر الرسول ﷺ بالحمد عن التنزه عن صفات النقص لكونه أعلم الخلق بذلك، بدئت هذه بالإخبار باستحقاقه سبحانه الحمد على صفات الكمال التي منها البراءة عن كل نقص.

اللطيفة الرابعة- مناسبة خاتمتها لفاتحتها:

- لما افتتحت السورة بالتوحيد بحمد الله على كمال ذاته وصفاته وأفعاله كما تقدم، ناسب أن تختم بالتوحيد وذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠]

---

(١) أسرار ترتيب القرآن ص١٣.

● لما افتتحت بالثناء على الله ببيان كمال إنعامه على نبيه ﷺ بإنزال الكتاب القيم الذي لا عوج له والذي هو كلام الله وصفة من صفاته، ناسب أن تختتم بالثناء عليه سبحانه ببيان عظم هذه الصفة: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف].

د- في خواتم السورة:

● قال السيوطي رحمه الله: (هي أيضاً مثل الفواتح فى الحسن لأنها آخر ما يقرع الأسماع، فلهذا جاءت متضمنة للمعاني البديعة، مع إيذان السامع بانتهاء الكلام، حتى يبقى معه للنفوس تشوق إلى ما يذكر بعد)[1].

● بسط سبحانه في هذه السورة جواب سؤالين من أسئلة قريش[2] وأنهى ذلك بقصة ذي القرنين، ولما كان من المفترض أن يؤمنوا في الحال إذ جاءهم الجواب، فقد أتبع الله قصة ذي القرنين ببيان ما أعده للكافرين المكذبين، إنذاراً لمن أعرض عن الحق المبين الذي جاءهم في السورة.

● لما اشتملت هذه السورة على جواب أسئلة المتعنتين، وكان هذا الجواب بكلام الله ﷻ، جاءت الخاتمة بأن علم الله ﷻ لا نهاية له،

---

(١) الإتقان ٢: ص ٢٨٦.

(٢) أما جواب الثالث فجاء في سورة الإسراء في قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾[الإسراء].

وأنهم مهما تعنتوا في إيراد الأسئلة فلن يُعْجِزُوا الله أن يأتيهم بجوابها.

عاشراً- أغراض السورة:

لهذه السورة نوعين من الأغراض؛ نوع يتعلق بمقاصد السورة ومحاورها الرئيسة، والنوع الثاني جاء في أثناء السورة كتنبيهات أو إشارات عابرة.

١- مقاصد السورة ومحاورها الرئيسة:

- المحور الموضوعي للسورة هو تصحيح العقيدة، وتصحيح منهج النظر والفكر، وتصحيح القيم بميزان العقيدة.
- من أبرز قضايا الاعتقاد في السورة إثبات اليوم الآخر، وما فيه من النعيم للمؤمنين والعذاب للكافرين، وأدلة البعث، كما في معجزة أصحاب الكهف.
- تصحيح منهج الفكر بالنظر في حواراتها؛ حوار أهل الكهف مع قومهم من أهل الشرك، وحوارهم فيما بينهم، وحوار صاحب الجنتين مع صاحبه، وحوار موسى عليه السلام والخضر، وحوار ذي القرنين مع القوم بين السدين، إلى غير ذلك.
- من المقاصد الرئيسة أيضاً موضوع الفتن، إذ تناولت السورة كما أشرنا ما يتعلق بالفتنة في الدين، والمال، والعلم، والسلطان، وفي أثناء الكلام عنها دروس عظيمة، ومنهج للنجاة منها.

٢- الإشارات والتنبيهات:

- ضبط اللسان والارتقاء إلى ذرى سلوكية عالية في الخطاب.

● إرشاد أهل الفضل ممن هم في موضع القدوة للناس كالعلماء والدعاة وطلاب العلم إلى ضرورة التعفف عن المال وعما في أيدي الناس.

● بيان أهمية الرفقة الصالحة، كما في قصة أهل الكهف، وقصة الرجلين، وقصة موسى والخضر.

الحادي عشر - أسلوب السورة:

● قال في الظلال: (القصص هو العنصر الغالب في هذه السورة)[1].

● الغرض من قصص القرآن؛ الحكم والفوائد والمواعظ التي سيقت من أجلها.

● كان القرآن يتنزل على رسول الله ﷺ بقصص الأمم السابقة وحالهم مع إخوانه الأنبياء، تثبيتاً لقلبه، وتسلية له عما يصيبهم من غم تكذيب قومه له، فتزكي القصص نفوس أصحابه، وتثبتهم، وتبشرهم.

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٥٠.



التفسير

قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾ [الكهف].

مسائل تتعلق بقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾

● الحمد: وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم، فيقال: حمد فلان ربه، أي: وصفه بصفات الكمال مع محبته وتعظيمه[1].

● الفرق بين الحمد والمدح: أن الحمد إخبار عن محاسن المحمود مع حبه وإجلاله وتعظيمه، والمدح إخبار عن محاسن الغير مجردًا من حب وإرادة.

● الفرق بين الحمد والثناء: أن الخبر عن المحاسن إما متكرر أو غير متكرر، فإن تكرر فهو الثناء، وإن لم يتكرر فهو الحمد.

● الفرق بين الحمد والشكر: أن الحمد أعم من الشكر من حيث ما يقعان عليه؛ لأنه يكون على الصفات اللازمة والمتعدية وهو أخص لأنه لا يكون إلا بالقول، والشكر أعم من حيث ما يقعان به، لأنه يكون بالقول والعمل والنية، وهو أخص لأنه لا يكون إلا على الصفات المتعدية.

● (الألف واللام في ﴿ٱلْحَمْدُ﴾، لاستغراق جميع أجناس الحمد وصنوفه لله تعالى، كما جاء في الحديث: "اللهم لك الحمد كله،

---

(١) الشرح الممتع صفة الصلاة ٣/ ٧٤.

ولك الملك كله، وبيدك الخير كله، وإليك يرجع الأمر كله"[1] الحديث)[2]".

● ﴿لِلَّهِ﴾: اللام هنا للاستحقاق والاختصاص، قال العلامة ابن عثيمين رحمه الله: (فالمستحق للحمد المطلق هو الله، والمختص به هو الله.

● جعل الله تعالى الحمد متعلقاً باسمه (الله)، فكأن معنى الحمد لله: الوصف بجميع المحامد للإله المعبود بحق، إذ لا يليق تعليقها إلّا به.

● إسناد الحمد (لله) يجمع كل صفاته، فعبر باسمه الأخص في مسماه ومعناه، الذي لا يشاركه فيه أحد غيره، فهو حمد لذات الله عز وجل المتصفة بصفات الكمال الذاتية والاختيارية.

مسائل تتعلق بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ﴾

● في ذكر نعمة تنزيل القرآن امتنان على المؤمنين من هذه الأمة، أن خص الله نبيهم بهذا الكتاب، الذي لم يُؤت أحد من الأنبياء قبله مثله.

● وفيه امتنان على أمة الدعوة من الثقلين الذين بعث فيهم نبينا ﷺ على فترة من الرسل ليخرجهم من الظلمات إلى النور.

● تخصيص نعمة تنزيل القرآن في بداية السورة لأنه نعمة من أجلِّ

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ٥/ ٣٩٥ (٢٣٤٠٣)، وضعفه الأرناؤوط.

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ١٣١.

النعم، إذ فيه كل ما تحتاج إليه الأمة مما يتعلق بصلاح الدارين.

- تخصيص هذه النعمة بالذكر في أول السورة مناسب لما جاءت به من أجوبة على مسائل اليهود والمشركين.
- في الآية تشريف للنبي ﷺ من وجوه؛ أحدها أنه تعالى لم يقل: (الحمد لله الذي أنزل الكتاب)، بل قرن ذكره ﷺ بذكر نعمة إنزال الكتاب.
- والثاني أنه قدم ذكره على ذكر الكتاب، ليبين عظيم منزلته.
- والثالث أنه وصفه بالعبودية، إذ هي مقام عظيم، يشرف به العبد لانتسابه إلى جناب الله تعالى... وقد سمى الله رسوله بعبده في أشرف مقاماته فسماه عبدًا عند إنزاله عليه، وعند قيامه بالدعوة، وعند إسرائه به.
- في ذكر العبودية مقترنة بذكر نعمة إنزال الكتاب إشارة إلى أن مَنْ مَنَّ الله عليه بالعلم ينبغي أن يكون عبداً لله، فيا من شرفه الله ومنّ عليه ورفعه على ما سواه من الخلائق كن عبداً لله.
- من لوازم مقام العبودية تسليم العبد أموره كلها لربه، تسليماً مطلقاً مصحوباً بالإيمان الجازم، وبقدر ما يرتقي يرتقي في عبوديته، حتى يصل إلى تحقيق هذا المقام فترتفع مكانته عند الله ﷻ.
- تحقيق مقام العبودية يستلزم أن يجعل العبد الشريعة حاكمة في كل الحوادث والقضايا، ويجمع إلى ذلك سلامة الصدر من الحرج في ذلك، ثم الاستسلام والانقياد القلبي المطلق، فيجمع الإنسان

انقياد الظاهر والباطن لله ﷻ وشرعته.

- وصف المُنزَل -وهو القرآن - بالكتاب: فيه إشارة إلى وجوب كتابته وجمعه وجوباً كفائياً كما ذكر بعض أهل العلم.
- ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ﴾، في هذا رد على الأفاكين ممن زعم أن محمداً ﷺ قد تركه ربه، ومن زعم أنه من عند نفسه إلى غير ذلك من افتراءاتهم، فليس في إنزاله من الله ريب، وليس في تبليغ النبي ﷺ عيب بل هو التزام منه بالعبودية.
- **وصف الله كتابه في الآيات السابقة بعدد من الأوصاف** تغري بالتزامه والعمل به، وتحذر من تركه ومخالفة أمره.
- **وصف القرآن بأنه منزل من الله تعالى:** يدل على أن ما جاء من العلي العظيم، واجب الاحترام والتعظيم، كيف لا وقد نوه الله بمحامد نفسه قبل ذكر إنزاله الكتاب، فهو قد أنزل مِن عند مَن له المحامد كافة سبحانه.
- **وصف القرآن بأنه منزل على محمد ﷺ:** مُشعر بضرورة التأسي به في إجلال وتوقير هذا الكتاب، وبإقامة الحروف والحدود، لا تضييعها، فهو ﷺ قد دعا إليه وحض على التمسك به حياته كلها، وكان مثالاً يحتذى في ذلك.
- **وصفه بصفة تخلية وهي قوله:** ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴾: أي لا اعوجاج فيه البتة، لا من جهة الألفاظ، ولا من جهة المعاني. أخباره كلها صدق، وأحكامه عدل، سالم من جميع العيوب في ألفاظه

ومعانيه، وأخباره وأحكامه[1].

- في وصفه بهذه الصفة إبطال ما يرميه به المشركون من قولهم: افتراه، وأساطير الأولين، وقول كاهن، لأن تلك الأمور لا تخلو من عوج[2].
- **وصفه بأنه قيم:** قال الشنقيطي رحمه الله: (وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿قَيِّمًا﴾ أي مستقيماً لا ميل فيه ولا زيغ، فهو تأكيد في المعنى لقوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾، فجمع تعالى بين نفي العوج وإثبات الاستقامة.
- **فائدة:** المدح يكون بالنفي كما يكون بالإثبات، وقد مدح الله ﷻ القرآن هنا بالأمرين، لبيان منزلة هذا القرآن، فقال تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾ فهذا نفي، وقال: ﴿قَيِّمًا﴾ وهذا إثبات، ولهذا في القرآن نظائر عديدة.
- وصفه بأنه نذير بأس شديد من لدن الله تعالى فيه تخويف ووعيد عظيم، فإن العذاب إذا جاء من قوي شديد البأس كان عظيماً، فكيف إذا جاء ممن له كمال العظمة والبأس!
- اللام في قوله: ﴿لِّيُنذِرَ﴾ لام التعليل؛ أي أنزله لأجل أن ينذر الثقلين بأسه، فإنذارهم مراد من إنزال الكتاب، وإذا تقرر أن القرآن ينذر بأساً شديداً، فحق على كل عاقل أن يلتزم بكل ما فيه

---

(١) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٣/ ٢٦٩.

(٢) تفسير التحرير والتنوير ٨/ ٣٢٥.

اتقاء ذلك البأس.

- وصف بأنه يبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات فهو بشرى للذين استجابوا لله ووعوا النذارة أن عملهم ليس بالمجان! وأن عاقبتهم ليست هي مجرد النجاة، بل لهم على عملهم أجر، وليس أجراً زهيداً بل أجراً حسناً.
- جمعَت الآيات الكريمة وصف القرآن بالبشارة والنذارة، والجمع بينهما منهج قرآني، وفيه فائدة عظيمة للمربين وأولياء الأمور ليسلكوا هذه السبيل، فينذروا ويبشروا، إذ الإنسان يحتاج إلى هذين وفيهما صلاح أحواله.
- قوله: ﴿ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ ﴾، يعني أن الأجر دائم، وحرف الجر (في) يفيد أن الأجر هو الجنة دار الخلود التي فيها ما أعده الله للعاملين، والأجر الحسن درجات وأنواع، ولكل عامل من ذلك حظه بحسب الإيمان والعمل الصالح.
- القرآن، قيِّم على هذه الأمة، وقد بين الله فيه ما ينفعها في عاجلها وآجلها، فالإعراض عنه كلياً أو جزئياً قدح فيه، والله المستعان.

التمهيد للشروع في موضوعات السورة الرئيسة

قال تعالى: ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾ [الكهف].

- الذين قالوا اتخذ الله ولداً أصناف ثلاثة: المشركون، وهم المعنيون بالخطاب ابتداء، واليهود، وقد قالت بذلك طائفة منهم اندثرت اليوم، والنصارى، وهؤلاء يتناولهم عموم اللفظ، لاعتقاد عامتهم أن المسيح عليه السلام ابن الله.
- قوله تعالى: ﴿ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْۚ ﴾ [الكهف: ٥]، يصدق على الأصناف الثلاثة السابقة، وقوله: (به) نفى عنهم العلم بقولهم: (اتخذ الله ولداً)، وهذا لا يمنع أن يكون عندهم علم آخر.
- أثبت الله للكفار علماً فقال: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الروم:٧]، وهذا من تمام العدل، فتوخي الدقة في الكلام من دروس هذه السورة، في هذا الموضع وغيره.
- وقوله تعالى: ﴿ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ فيه تشنيع، واستعظام لما نسبوه إلى الله عز وجل من الولد.

- قوله: ﴿تَخۡرُجُ﴾ عبر بالمضارع المفيد للاستمرار، ليدل على استمرائهم لها وتكرارهم لقولها، وفيه استحضار صورة خروجها من أفواههم تخييلاً لفظاعتها.
- في الآية تنبيه على عظم أثر الكلمة وخطرها، فبعض الناس يطلق الكلام على عواهنه دون نظر في عواقبه، فيجر على نفسه ومن حوله الويلات، فلا بد من الحذر وكف اللسان، ففيه السلامة من العطب.
- في قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ﴾ تسلية للنبي ﷺ في حزنه على المشركين، لتركهم الإيمان وبعدهم عنه، فأمره بالإبلاغ فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات.
- قوله: ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ﴾ شبهه وإياهم حين تولوا عنه ولم يؤمنوا به، وما داخله من الوجد والأسف على توليهم، برجل فارقته أحبته وأعزته، فهو يتساقط حسرات على آثارهم، ويبخع نفسه وجداً عليهم، وتلهفاً على فراقهم! حيث كان النبي ﷺ حريصاً على إسلامهم؛ شفقةً ورحمة ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء].

خواطر تربوية نفسية

● من الدعاة من يأسف لأن من دعاه لم يستجب له، فيغضب لذاته، ومنهم من يأسف لأن من دعاه لم يستجب للحق الذي دعاه إليه، وشتان بين هذا وذاك، والثاني هو الممدوح، لأن الأول إنما يدعو لنفسه، والثاني إذا دعا فإنما يدعو إلى الله، وإلى الحق الذي معه.

● على الداعية أن يجاهد نفسه حتى يكون همه أن يوصل الحق للناس، وأن يكون حزنه إن ردوه لرد الحق لا لرد قوله، فإن فعل فيوشك أن يبلغ أعلى المقامات.

● من الدعاة من أسفه على عدم قبول الحق من المدعويين مشوب بالإشفاق على المدعويين كأسف نبينا محمد ﷺ، ومنهم من أسفه مشوب بالقوة والشدة عليهم كأسف موسى عليه السلام، فتلك منزلة وهذه منزلة، وقد بيّن شيخ الإسلام ذلك وفصّل فيه.

● **الحكمة في الدعوة** تقضي باستعمال اللين والرفق في موضعهما، واستعمال الشدة والقوة في موضعهما، إذ لكل مقام مقال، وهكذا كان الأنبياء عليهم السلام.

● عدم استجابة المدعويين قد ينعكس على الداعية سلباً، فيؤدي إلى شيء من الانحراف في مسيرته، ويمكن هنا أن نسجل نوعين رئيسين من الانحراف؛ الأول: الاستعجال في غير محله، والثاني: التأني في غير محله.

● **الاستعجال في غير موضعه** يوقع صاحبه في واحد من أمور ثلاثة:

التنازل، أو الغلو، أو القنوط.

- **التأني في غير موضعه** يضيع على صاحبه الفرص، وكثيرون يقعون في هذا الأمر بدعوى الحكمة وعدم الاستعجال، والأمر يحتاج إلى فقه وفهم وتقدير للأمور، وإلى حكمة حقيقية غير متوهمة، فالحكمة (فعل ما ينبغي كما ينبغي في الوقت الذي ينبغي) كما عرّفها ابن القيم في المدارج منزلة الحكمة ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩].

من قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الكهف].

- يُذَكِّر سبحانه عباده بالغاية من خلق الأرض وما عليها، وهي الاختبار الذي لابد من مفلح فيه وخاسر، وأن يبين مآلها وما عليها بعد هذا الاختبار، وأنها دار فناء لا دار بقاء، فلا ينبغي أن يغتر الإنسان بها.
- في الآية مشروعية التزين، فلا اعتبار لمن يحرم الزينة والتزين، بل من حرم شيئاً من ذلك من تلقاء نفسه فقد تشبه بكفار العرب.
- هنا نكتة لطيفة، إذ لم يقل: (أكثر عملاً)، فلم يعلق المدحَ بالكثرة ولكن علَّقه بالحُسن، وهذا المعنى تكرر في السورة، قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [الكهف]، وهو متكرر في القرآن في مواضع كما في (هود) و(المُلْك) وغيرهما.

- قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾ جرزاً: أي جرداء، كأن في هذا إشارة إلى تهيئتها ليوم البعث حيث يجمع الله الأولين والآخرين في أرض خالية.
- كل نعمة هي زينة يختبر الله العباد بما عملوا فيها هل شكروا لله نعمته أم كفروها.
- الجواب عن سؤال قريش عن الفتية لم يأت بسرد الأحداث سرداً مجرداً، بل جاء بتقرير قضايا العقيدة؛ كإثبات الألوهية لله وحده، والبراءة من المعبودات سواه ومن عابديها، وتضمن إثبات البعث، وعظيم قدرة الله عز وجل، إلى غير ذلك، ولهذا يحسن بالعالِم إذا سئل عن شيء أن يضيف إلى الجواب ما يحتاج إليه السائل ولو كان ليس من ضمن سؤاله.
- يقول الله لنبيه ﷺ: إن قصة أصحاب الكهف وإن استعظمها الناس وعجبوا منها، فليست شيئاً عجباً بالنسبة إلى قدرتنا وعظيم صنعنا.
- العجب في الآية ليس عجب شك وارتياب، لكنه عجب تعظيم وإجلال لقدرة الله، إذ ليس في خلق الله ما يصعب عليه سبحانه.
- يقول الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الكهف]، فإن كان هذا الخطاب لنبينا ﷺ،

أَيُمَكِّن الله بعض الناس في زماننا من رؤيتهم والاطلاع عليهم بكل هدوء واطمئنان؟ فمن ادعى ذلك فقد كذب.

- والمأوَى: مكانُ كلِّ شيءٍ يُأوى إليه ليلاً أو نهاراً، والفتية جمع قلة لفتى، ومدلوله من الثلاثة إلى العشرة، واختلف في دخول العشرة واتفق على أن ما بعدها كثير(١).
- في وصف أصحاب الكهف بالفتية ثناء عليهم بدلالة السياق، لأن الفتى يألف اللهو والباطل، فلما لم يصرفهم ذلك عن المعالي استحقوا التنويه، كإبراهيم عليه السلام ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ۝٦٠﴾ [الأنبياء].
- لما علم الفتية أنه لا ينبغي لأحد أن يأمن على نفسه من الفتنة أو يلقي بها في التهلكة فروا بدينهم، وما قالوا: نحن لا نخشى شيئاً ولا نبالي بما يفعله قومنا، فلا ينبغي لأحد أن يقدم على الفتنة راضياً مختاراً ما دام في سعة من ذلك، ولم يدخلوا في مغامرة غير محسوبة أو تهور عاقبته وخيمة، كما يفعل بعض الشباب هداهم الله.
- ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠﴾ هذا دعاء الراسخين في العلم، والآية تدل على أن من وسائل الثبات سؤال الله عز وجل الرحمة والرشاد، وأن من ثمار العزلة الشرعية نيل رحمة الله.

---

(١) انظر البحر المحيط للزركشي ٤/ ١٢٤.

● اعتنى الفتية بألفاظ الدعاء، فسألوا الله أن يؤتيهم من لدنه رحمة، وفي هذا أدب مع الله إذ تضمن إثبات الرحمة له وإفراده بذلك، من عنده لا من غيره.

● ينبغي أن يكون المسلم، ولا سيما الداعية الذي يتربص به الشانؤون؛ يلهج بسؤال الله الهداية إلى الرشاد في أمره كله، عسى الله أن يستجيب له فيصلح من أمره.

● ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ ﴾ بالنوم في الكهف؛ أي ألقينا عليهم النوم، والمعنى: أنمناهم إنامة ثقيلة لا تنبههم فيها الأصوات[1].

● ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ ﴾ في التعبير بالبعث دلالة عظيمة على البعث بعد الموت، وأنه من جنس البعث من النوم، وفيه مناسبة لخطاب منكري البعث.

● ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ لفظ النبأ يدل على عظم خبرهم وأنه ليس كسواه من الأخبار، لما جاء فيه من عجيب أمرهم،وفي هذا بيان لكون من خاض في شأنهم إنما خاض فيه بجهل وقال ما لا علم له به.

● في الآية بيان أن الحق وفصل الخطاب في الأمر إنما هو ما يقصه الله لا غيره، وأنه لا سبيل لهم إلى علمه إلا بواسطة النبي ﷺ تأكيداً على رسالته ونبوته.

● قص القصص من جملة الكلام، وفي هذا إثبات لكون الله تعالى

---

(١) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٣/ ٢٨٣.

يتكلم، وكلامه سبحانه لرسله صلى الله عليهم وسلم، قد يكون بلا واسطة، وقد يكون بواسطة ملك، وهو جبريل عليه السلام، وقد يكون من وراء حجاب.

- قول الله تعالى: ﴿ نَحْنُ ﴾ المراد بها التعظيم، وهي صيغة مستخدمة في كلام العرب للواحد العظيم الذي له مأمورون، سواء أكانوا أعواناً أم عبيداً أم خدماً يطيعونه.
- ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾ قال صاحب الأضواء: (ويفهم من هذه الآية الكريمة أن من آمن بربه وأطاعه زاده ربه هدى، لأن الطاعة سبب المزيد من الهدى والإيمان ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾[محمد]، ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ﴾ [يونس:٩]، وهو متكرر في القرآن.
- ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ ﴾ الربط على القلوب ضروري للنجاة من الفتن، وهو محض تأييد من الله لعباده، والربط على قلوبهم يتضمن الشد عليها بالصبر والتثبيت، وتقويتها وتأييدها بنور الإيمان ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴾ [القصص:١٠].
- المرء قد يربط على قلبه ويثبت، ثم يذهل عن الكلام لنصر الحق بالقول فيخذله التعبير، أما هؤلاء فقد ثبتهم الله وربط على قلوبهم ربطاً تاماً، فوُفِّقوا لحسن البيان.
- الثبات المستحق للإشادة هو المنضبط على الحق الظاهر، فهم قاموا فقالوا حقاً، أما الثبات على الباطل، فهو حري بالذم والتسفيه،

بل لم أجد في القرآن تسمية ذلك ثباتاً، ولا ربطاً، بل زيغاً وطمساً، والكفار عبروا عن ذلك بالصبر ﴿أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ [ص:٦]، ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان:٤٢].

● منهج الدعوة يجب البدء فيه بالأهم؛ وهو التوحيد، فمع أنه لا تكاد تخلو دولة من منكرات، إلا أنهم بدؤوا دعوتهم بالتوحيد ونبذ الشرك، ثم كانت المفارقة لأجله.

● سر هذا المنهج – البدء بالتوحيد- أن الإصلاح في أحد جوانب الحياة إذا لم يبدأ بالتوحيد فهو عسير أولاً، وغش للمدعوين ثانياً، وتأمل قصة يوسف عليه السلام في السجن ودعوته للتوحيد.

● فعلى الداعية أن يبدأ بما تمس الحاجة له، لا إلى ما يرتضيه المدعوون ويعجب به المستمعون، ولو كلفه ذلك المشقة أو العزلة والرحيل، وبعض الجماعات لا تهتم بالدعوة إلى التوحيد وقضايا العقيدة؛ خوفاً من خسارة المدعوين، فأي ربح بعد ذلك؟!

● يخبر الله تعالى أنه قد ربط على قلوب الفتية وثبتها، ومن علم أن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، فحري به أن يلهج بدعاء التثبيت.

● البعض يتنازل عن شيء من الدين، أو يحرف بعض الشرع لينزل إلى رغبات المخالفين، لأجل المصالح الدنيوية، والمكتسبات الآنية، التي يحسب أنه ينصر بها الدعوة، كتكثير جماعته، وهذا من أكبر مداخل الشيطان، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَمَآ

أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [يوسف]، ويقول عن نوح عليه السلام: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [هود].

- من أراد معرفة صفة القلة الموفقة الثابتة التي يختارها الله فيربط على قلوبها، فليتأمل وصف الفتية على ما مر، وليعلم أن الله لن يخذل عبداً كان ديدنه الدعاء والالتجاء إلى مولاه، مع سلامة المنهج وصحة القصد.
- للتثبيت أسباب كثيرة؛ منها الدعاء، ومنها الإيمان بالله، وتجريد التوحيد له سبحانه، والتعلق به وصدق الالتجاء إليه ﷻ، ومحبته وإيثاره على القوم والأوطان وعلى كل ما عداه، وبغض عدوه كائناً من كان، كما كان إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام، وهما أسوة وقدوة بنص القرآن.
- دلائل التثبيت وعلاماته بَعد نزول البلاء منها: الثبات على الدين والتوفيق إلى ما يحبه الله، وأما قَبْله فمن علاماته: أن يكره الزيغ كما يكره العذاب ومن كره الزيغ كراهيته العذاب لم يقارف المعصية إلَّا مُكرَهاً.
- قولهم: ﴿بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾ فيه إشارة إلى أن الشرع قد جعل للحجة الظاهرة سلطاناً يوجب الخضوع لها، وأن الباطل لا سلطان له، وأن العبادة لا بد لها من حجة ظاهرة، وأن من أحدث عبادة بغير برهان فقد افترى على الله كذباً.
- ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ الافتراء على الله من أعظم الموبقات، ولا أحد أظلم ممن افترى على الله الكذب بادعاء أن له

شريكاً كما افتراه عليه قوم أصحاب الكهف، وقد تكرر هذا في القرآن في مواضع عدة؛ لعظم الافتراء، وله صور قد يقع فيها البعض بحُسْن نية.

- القول على الله بلا علم ليس في المحرمات أعظم منه، ولا أشد إثماً، وهو أصل الشرك والكفر، وعليه أسست البدع، فكل بدعة مضلة أساسها القول على الله بلا علم، فإنه يتضمن الكذب على الله، وتغيير دينه وتبديله، ولهذا كان أعظمها كما في سورة الأعراف ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.
- في موقف الفتية من قومهم إعلان لعقيدة البراءة من الشرك ومن أهله، وإعلان العداء لهم، وكأنهم يقولون: وإن كانوا (قومنا) الذين تربطنا بهم صلة القومية؛ الذين ننسب إليهم والذين خرجنا من بينهم! وهكذا يجب أن يكون المؤمن.
- ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ هذا يدل على أن اعتزال المؤمن قومه الكفار ومعبوديهم من أسباب لطف الله به ورحمته، والعزلة لها أصولها وضوابطها ووقتها.
- من لجأ إلى الله حق الالتجاء كان له ناصراً ومعينا، وأحال عسر أمره يسرا، وجعل له من بعد الضيق فرجاً ومخرجاً ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الكهف].
- قول الفتية: ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ ما يشعر بقوة تعلقهم بالله تعالى، ويقينهم وهذا اليقين عبادة قلبية

عظيمة، وهذا اليقين لم يمنعهم من عبادة جليلة، هي الدعاء بطلب الرحمة وتهيئة الأمر عندما أووا إلى الكهف.

- ثقة الفتية بربهم دلت على عظيم إيمانهم، وتقديمهم التوحيد على زخرف الحياة الدنيا دل على أن حصول الرحمة وتهيئة الأمور يكون بأداء المشروع والمأمور.
- من يمتنع عن قول الحق وأداء ما أوجب الله عليه، أو الوقوف في وجه الباطل خشية السجن أو الفقر أو النفي وغير ذلك، فقد أخطأ وأساء الظن بربه، بل يجب عليه أن يعلم أن ربه سينشر له من رحمته إن قام بواجبه، بل أن يوقن بذلك كما أيقن الفتية (أنا عند ظن عبدي بي).
- العزلة إما أن تكون حسية؛ بأن يعتزل المرء الناس ولا يخالطهم، دون أن يعتزل ما هم عليه من باطل، وهذه عزلة شخصية لا شرعية.
- وإما أن تكون معنوية؛ بأن يبقى المرء بين قومه ولكن يعتزل ما هم عليه، كما يحصل في زماننا إذ تنتشر المخالفات في كثير من المجالات فيعتزلها المرء ويدعو إلى تركها لكنه يبقى في وطنه بين قومه وأهله، كما بقي موسى وهارون في التيه يدعون قومهم.
- وإما أن تكون حسية ومعنوية في آن؛ كما كان من الفتية إذ فارقوا قومهم بأبدانهم، وفارقوا عبادتهم غير الله ﷻ، فاعتزلوا المكان وذهبوا إلى الغار، واعتزلوا العبادة إلا عبادة الله، وكما اعتزل إبراهيم قومه وهاجر ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾[الصافات]،

﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [مريم:٤٩].

- الاعتزال في الكهوف والغيران ونحوها، إنما يصح بضوابطه في زمان الفتنة، مع تعذر الهجرة.
- يجوز للمرء أن يعتزل اعتزالاً جزئياً لمقصد صحيح؛ كأن يعتزل لطلب العلم ونحوه، شريطة أن يقوم بالخلطة الواجبة، مثل المحافظة على الجمعة والجماعة.
- لا بد للعبد من أوقات ينفرد فيها بنفسه؛ في دعائه وذكره وصلاته وتفكره ومحاسبة نفسه وإصلاح قلبه، وما يختص به من الأمور التي لا يشركه فيها غيره، فهذه يحتاج فيها إلى انفراده بنفسه، ومن أهمها وأقواها أثراً الاعتكاف، وبخاصة في العشر الأخيرة من رمضان؛ علماً أن الاعتكاف ليس خاصاً بها، فيشرع أي يوم في السنة.
- من العزلة السائغة: عزلة بعض الناس دون بعض، فيقتصر المرء في علاقته على من ينتفع به، ويزداد إيماناً بصحبته، وهذه تسوغ في حق من لم يستطع التأثير، ووجد نفسه يتأثر تأثراً سيئا بمن حوله، وقد يجب هذا أحيانًا.
- العزلة الواجبة تكون في زمن الفتنة، وهي التي قال فيها ﷺ كما في حديث أبي سعيد الخدري: "يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن"[1].

---

(١) صحيح البخاري ١/ ١٥ (١٩).

- من العزلة الواجبة: عزلة أهل الباطل ولاسيما إذا استطال شرهم، وعظمت سطوتهم بالذين آمنوا، فلا يستطيعون إقامة شعائرهم فضلاً عن الدعوة، فعندئذ إن لم تمكن الهجرة تجب العزلة، وهذا ضرب من البراء اللازم ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [يونس].
- التعايش مع أهل الكفر في حال قوة المسلمين لا يكون إلَّا بضرب الجزية، والتزامهم بأحكام أهل الذمة، أو العهود المؤقتة إلى أجل، بحسب أولويات دولة الإسلام.
- التعايش مع أهل الكفر في حال الضعف، إن كان على نطاق الفرد فالأصل أن لا يقيم المسلم في ديار الكافرين ولا يعيش بينهم، وقد يقيد هذا في واقعنا المعاصر بالأحكام التي يمكنه التزامها في بلاد الإسلام.
- الهجرة إلى دار الإسلام واجبة مع القدرة على من لم يتمكن من إظهار شعائر دينه، أو اعتزال الشرك وأهله، ولو في المناطق المهجورة، ولا يترك ذلك إلَّا عجزا، فلا يكلف الله نفساً إلَّا وسعها ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ﴾ [النساء:٩٧]، ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [العنكبوت].

قال تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الكهف].

- من عظيم لطف الله وعنايته بأصحاب الكهف أن هيأ لهم من الأسباب ما يحفظهم من الآفات! فكان في ذلك آية جديدة تدل على عظيم قدرة الله وبالغ حكمته سبحانه.
- ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ﴾ هؤلاء الفتية قد هُدوا هدايتين؛ الأولى إلى الإيمان والتوحيد، والثانية إلى الفرار بدينهم واللجوء إلى الكهف.
- ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾ فلا تجد من يتولاه ويدبره، على ما فيه صلاحه، ولا يرشده إلى الخير والفلاح، لأن الله قد حكم عليه بالضلال، ولا راد لحكمه[1].
- هؤلاء الفتية لم يروا رسولاً ولا أصحاب الرسل، ولم يجدوا أحداً من أتباع الرسل كما وجد الغلام الراهب فعلّمه الإسلام، إلا أنهم اهتدوا بفطرتهم للحق، وهذا النوع من الهداية محض فضل من الله، لا بد أن تطلب منه، ولعظم هذا الأمر يؤمر العبد أن

---

(١) تفسير السعدي ١/ ٤٧٢.

يسأل ربه الهداية كل صلاة، وربما كان هناك بقية يحملون الدين، لكن كانوا مختفين، أو لم يرد ذكرهم هنا، وربما ماتوا قبل أن يظهر الفتية، وهذا احتمال له وجه أقوى من الأول.

- الربط بين تسخير الآيات الكونية للفتية وبين الهداية في قوله: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾ [الكهف]، يشعر بأهمية التفكر في آيات الله والنظر والتمعن فيها، كوسيلة للاهتداء للحق.
- ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ نوم عامة الناس يكون بعيونهم وقلوبهم، فيغمضون عيونهم ولا تدري قلوبهم بما يدور حولهم، وأما نومة أهل الكهف فكانت بقلوبهم أما عيونهم فكانت مفتوحة على ما قيل.
- ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ قال ابن كثير: (ربض كلبهم على الباب كما جرت به عادة الكلاب،... وكان جلوسه خارج الباب؛ لأن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه كلب) [1]، وفيه مزيد رحمة ولطف من الله سبحانه بهم.
- ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ لما كان الله ألبسهم من الهيبة، كي لا يصل إليهم واصل، حتى يبلغ الكتاب أجله، ويوقظهم الله بقدرته وسلطانه في الوقت الذي أراد أن يجعلهم عبرة لمن شاء.

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٤٤.

● النوم نعمة في الأحوال العادية، وهو في حال الخوف والهلع أظهر لتسكن النفوس ويذهب ما بها من قلق واضطراب فتنعم ببرد الأمان ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾ [الأنفال: ١١].

● مَنْ صاحب الأخيار نال مِن خيرهم ومَنْ صاحب الأشرار نال مِن شرهم، قال ابن كثير ﷺ: (وشملت كلبَهم بركتُهم، فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال، وهذا فائدة صحبة الأخيار؛ فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن)[١].

● كما نفعت الكلب مصاحبة الفتية وليس منهم، فكذلك أهل الخير وإن لم تعمل بعملهم مما ليس واجباً، فإنه يصيبك من الخير الذي يصيبهم (هم القوم لا يشقى بهم جليسهم)، فما أوسع رحمة الله وما أعظمها!

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٤٤.

قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الكهف]

- ينقل القرآن السامع نقلة كبيرة جديدة، إذ يتجاوز كل ما يمكن أن يكون حدث بعد فرار الفتية، ليظهر لهم ولقومهم عجائب قدرته، وأنه وحده من بيده الإماتة والإحياء والبعث والنشور.
- ﴿قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾في قولهم هذا أدب عظيم مع الله في رد العلم إليه، ويتفرع منه رد كل علم إلى عالمه، ولو عمل الناس بهذا الأمر ورجعوا إلى العلماء المعتبرين، لهداهم الله ولأخذ بنواصيهم إلى الحق المبين.
- ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ﴾ فيه مشروعية حمل المال في الترحال، وهذا موافق للعقل والطبع السليم، كي لا يتعرض المرء للهلكة أو لذل السؤال.
- ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا ﴾ قولهم (أزكى) لا تعني التفضيل المطلق وإنما مطلق التفضيل، فليس المقصود البحث عن أزكى طعام على الإطلاق بل أرادوا طعاماً زكياً.
- ينبغي تحري المطعم الحلال، فإن الحرام لا يكون زكياً، وكثير من الناس لا يتحرى الحلال، وهذا من أسباب شقاء كثير من البيوت والمجتمعات، لأثر المال على سعادة الإنسان أو شقائه.

● ﴿وَلۡيَتَلَطَّفۡ﴾ أي: في خروجه وذهابه، وشرائه وإيابه، يقولون: وَلْيَتَخَفَّ كل ما يقدر عليه ﴿وَلَا يُشۡعِرَنَّ﴾ أي: ولا يعلمن بكم أحداً[1].

● ﴿يَرۡجُمُوكُمۡ﴾ يقتلوكم بالرجم، وهذه القتلة أخبث قتلة. وكان ذلك عادة لهم، ولهذا خصه من بين أنواع ما يقع به القتل[2].

● علق الفتية عدم الفلاح على العود في دين قومهم وما كانوا عليه من الشرك، لا على الرجم، لأنهم إن قتلوا في سبيل الله نالوا الشهادة وهذا من أعظم الفلاح في الدنيا والآخرة.

● لم ينكر عليهم طلب الطعام الطيب أو أطيب الطعام مع أنهم دعاة إلى الحق، يحملون هموماً عظاماً فلا حرج على أهل الفضل والصلاح وغيرهم في شيء من ذلك ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ﴾ [الأعراف:٣٢].

● في قوله تعالى: ﴿وَلۡيَتَلَطَّفۡ﴾ دليل على تجنب العنف ما أمكن في الدعوة، وهؤلاء الفتية كانوا شجعاناً اختاروا قرار الإيمان، وصدعوا به في وجه الملك الطاغية، ولكنهم لم يختاروا المواجهة لأنها اختيار غير حكيم في مثل حالهم.

● مجيء قوله تعالى ﴿وَلۡيَتَلَطَّفۡ﴾ في منتصف القرآن فيه لطيفة، فكلمة (وليتلطف) تتوسط القرآن والوسطية الحقة منهج رباني

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٤٥-١٤٦.

(٢) فتح القدير ٤/ ٣٧٧ بتصرف يسير.

وهي تقتضي كثيراً من التلطف.

- من أعظم الفوائد التي يحرص عليها المسلم: البعد عن أسباب الفتن، فهؤلاء الشباب أوصوا موفدهم بأن يتلطف، مخافة أن يُعثر عليه فيدل عليهم فيُفتنوا في دينهم، وهذا أصل عام في النأي عن الفتن عامة.
- البعد عن الفتن لا يعني أن يتخلى المؤمن عن دينه، فهذه أعظم فتنة يهرب منها!
- نلاحظ أنهم أرسلوا واحداً منهم فقط، وهذا من التلطف أيضاً، وفي هذا درس مهم للعاملين في مجال الدعوة، وهو تكليف العدد المناسب للمهمة، فإن الزيادة قد تفسد العمل، وفيها إهدار لطاقات يمكن توجيهها لعمل آخر مفيد.
- كان الفتية متساوون فيما بينهم، وهذا لم يمنعهم أن يقوموا بالتوجيه والندب فيما بينهم، لفعل ما فيه مصلحة، وعلى من وجه له الأمر أن يقبله بصدر رحب ولا تأخذه الأنفة وتمنعه من الاستجابة.
- من التلطف تعليل الأمر، وهو من الآداب المهمة في التوجيه، وهكذا ينبغي أن يكون الإخوة فيما بينهم، بل هكذا ينبغي أن يكون المربي أيضاً، فيعلل لتلامذته ويبين لهم وجه المصلحة فيما يرشدهم ويدلهم إليه ما وجد إلى ذلك سبيلاً، وهو منهج مطرد في القرآن والسنة ما عدا الأمور التعبدية، فقد تخفى علينا بعض الحِكم في تفصيلاتها لا في أصل مشروعيتها.

- الأصل في العمل لدين الله العلن، لكن حرص الفتية على ألا يشعر بهم أحد، يدل على أنهم قد انتهجوا نوعاً من العمل السري، وقد كانت الدعوة في مبدئها في مكة المكرمة سرية ولم يكن ذلك ضعفًا بل مراعاة للحال.
- إذا كان التلطف مع الأعداء مطلوباً لتحصيل منفعة دينية، فهو مطلوب مع المؤمنين من باب أولى، ومن التلطف أن يراعي المربي حال من معه من طلاب أو أتباع.
- الحياة لا تخلو من المشكلات، والوصول إلى حلول لهذه المشكلات لا بد له من تلطف وهدوء وتأن، وكلما كبرت المشكلة زادت الحاجة للهدوء والتروي ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ [يوسف:٨٧].
- للتوكل على الله ﷻ ركنان، ظاهر وباطن، أما الظاهر فهو السعي والأخذ بالأسباب لتحصيل المقصود، وأما الباطن فهو تعلق القلب بالله وحده، وترك الأسباب لا يسمى توكلاً بل تواكلاً، وهو قدح في التوحيد؛ لأن الله أمر بالأخذ بها.
- حمل الفتية الورِق مع دعائهم أن يهيئ الله لهم من أمرهم رشداً وثقتهم أنه سيهيئ لهم من أمرهم مرفقاً، كان تطبيقاً عملياً للتوكل كما ينبغي.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾ [الكهف]

- ﴿لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ الوعد الحق يشمل كل وعد الله، فيجب على كل المؤمنين اعتقاده، فكل ما وعد به ربنا واقع لا محالة؛ من نصرة الحق وأوليائه، ومن انتصار الإسلام، والتمكين لأهله على باقي الأمم.
- الاعتقاد بتحقق الوعد لا ينبغي أن يحول بين المرء والعمل لدين الله، ولا يركن لهذا الموعود ويترك العمل انتظاراً له، فهذا من العجز والتواكل المنهي عنه.
- ﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ إن التنازع بين أصحاب المنهج الواحد شر كله، ويزداد إن لم يحسم الخلاف لتعود اللحمة والألفة إلى الجسد الواحد، ويزداد الشر كذلك إن تم حسمه بقهر الطرف الأقوى للأضعف.
- اتخاذ المساجد على القبور، والصلاة فيها منهي عنه فلا يجوز، ولا تصح الصلاة في مسجد بني على قبر؛ لأن الصلاة في المقابر لا تصح، لأن ذلك ذريعة إلى عبادة صاحب القبر أو شبيهٌ بفعل من يعبدون صالحي مِلتهم"[1].

---

(1) التحرير والتنوير ٨/ ٣٥٣.

قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الكهف]

- في الآية رد العلم إلى عالمه: وقد كان النبي ﷺ -وهو أعلم الناس بدين الله- يُسأل فيسكت عما لم ينزل فيه عليه وحي حتى يأتيه الوحي.

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ﴿٢٥﴾ ﴾ [الكهف]

- فضل (إن شاء الله) عظيم، لأنها تدل على الثقة بالله ومحبته والاعتماد عليه جل وعلا. وقد قال الله هذه الكلمة في وعده للنبي ﷺ وصحابته دخول المسجد الحرام معتمرين: ﴿ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الفتح].
- قال ابن الجوزي: (فائدة الاستثناء أن يخرج الحالف من الكذب إذا لم يفعل ما حلف عليه، كقوله في قصة موسى: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا﴾ [الكهف: ٧٠]، ولم يصبر، فسَلِم من الكذب لوجود الاستثناء في حقه)[1].

---

(١) زاد المسير ٤/ ٢١٦.

● في الآية توجيه لما ينبغي أن يكون عليه العبد من أدب مع الله ﷻ باطناً وظاهراً، أما باطناً فباعتقاد أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وفي هذا وقوف عند حد العبودية، وأما ظاهراً فبضبط اللسان ليكون موافقاً ومعبراً عن اعتقاده.

● من الأخطاء التي شاعت بين الناس أن يستثنوا فيما مضى، فيقول أحدهم: تزوجت إن شاء الله، سافرت إن شاء الله، وهذا لا وجه له لغةً ولا شرعاً ولا عقلاً، فهو في الآية مقيد بما يكون في المستقبل.

● على المسلم أن لا يستثني في الدعاء، بل يعزم المسألة، قال ﷺ: "لاَ يَقُلْ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ، ارْزُقْنِي إِنْ شِئْتَ، وَلْيَعْزِمْ مَسْأَلَتَهُ، إِنَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، لاَ مُكْرِهَ لَهُ"[1].

● الذي يظهر لي أن الله سبحانه بين بالثلاثمائة مقدار لبثهم بحساب أهل الكتاب أي ثلاثمائة شمسية، ثم بين أنها بالقمرية ثلاثمائة وتسع، لأنه الحساب الذي ارتضاه سبحانه، وهو ما عليه جمهور المفسرين واختاره ابن كثير، ويؤكد ذلك أن الله أعقب ذكرها بقوله: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ ﴾ بعد أن ساق ذكر لبثهم بأسلوب الخبر ﴿ وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ﴾ ولم يسقه على سبيل الحكاية عن أهل الكتاب أو غيرهم كما ساق بقية أخبارهم.

---

(١) صحيح البخاري ٦/ ٢٧١٨ (٧٠٣٩)، صحيح مسلم ٤/ ٢٠٦٣ (٢٦٧٩).

قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الكهف]

- تدبر في قوله سبحانه: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ ﴾ بعد أن ذكر خبر لبثهم، لتأكيد المصدر الوحيد للتلقي وأنه الرسول ﷺ المبلِّغ عن الله سبحانه، وعدم الاعتداد بأي مصدر آخر، حيث إن ضلال البشرية كان بترك مصدر الوحي، والاعتماد على غيره.
- ﴿أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ ﴾ أي: إنه لبصير بهم سميع لهم، وذكر ابن الجوزي أن لهذه العبارة وجهين، الأول وهو ما سبق، قال: (والثاني: أنه في معنى الأمر، فالمعنى: أَبصِر بِدِين الله وأَسمِع، أي: بصّر بهدى الله وسمِّع.
- ﴿وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ﴾ قال ابن الجوزي: ولا يجوز أن يحكم حاكم بغير ما حكم الله به، وليس لأحد أن يحكم من ذات نفسه فيكون شريكاً لله ﷻ في حكمه[1].
- **خوارق العادات:** هي ما يحصل بخلاف العادة، ولا شك أن قصة الفتية منها، والخوارق تقع للأنبياء قبل بعثتهم، وتقع بعد البعثة وتكون معجزات دالة على صدق نبوتهم، وهناك خوارق تقع للصالحين فهذه كرامات.
- بعض خوارق العادات تقع للكفار والزنادقة وهي أحوال شيطانية لا رحمانية، كالتي تجري على أيدي بعض السحرة والدجالين.

---

(١) زاد المسير ٤/ ٢١٧.

- إذا وقعت الخوارق على يد رجل صالح مشهود له بالتقوى ولم ينتقد في دينه فهذه كرامة، وإن وقعت للسحرة والدجالين ومنحرفي العقيدة فهذه فتنة وبلاء واستدراج.
- في قصة أصحاب الكهف، تسلية لأهل الدعوة الذين يحملون هما، أن يتحلوا بطول النفَس ويجعلوا زادهم يقينهم أن العاقبة للتقوى، وأن الله تعالى ناصر دينه.
- علم الغيب: اختص الله تعالى به، فلا يعلمه ملك مقرب ولا نبي مرسل ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن].
- من تأمل قصة أصحاب الكهف وجد أن الله نصرهم على عدوهم بأنْ حال بينه وبينهم فلم يؤذهم، وأهلكه وأنشأ بعده قرناً مؤمنين، وحفظ لهم دينهم وهذا من أعظم النصر.
- هناك عدد من الأسباب المعنوية والمادية التي نال الفتية بها رعاية الله ونصره وتوفيقه، فينبغي للمؤمنين عامة ولشباب الأمة خاصة أن يتأملوا في هذه الأسباب ويتدارسوها ويسعوا لتحصيلها.
- من الأسباب التي نال الفتية بها رعاية الله ونصره، التوحيد، والحرص على الرفقة الصالحة، والثبات، والهجرة والاعتزال، وحسن الظن بالله، والدعاء، والشورى، واجتماع الكلمة، والأخذ بالأسباب، واتخاذ القرار العاقل.
- الفتنة والاختبار من تبعات الإيمان، فمن ادعى الإيمان ابتلاه الله ليتبين صدقه ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾

[العنكبوت]، وينبغي على المسلم أن يأخذ بأسباب الثبات في الفتن.

- **السّبب الأساسيُّ لثبات الفتية في الفتنة** أنهم آمنوا إيماناً خالصاً، فزادهم الله إيماناً، ولذا عندما حضرتهم الفتنة ربط الله على قلوبهم بنور الإيمان ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ [يونس:٩].
- من أسباب الثبات **العلم الصَّحيح الثَّابت والاعتصام بالكتاب والسنة**، ومن علمهم الراسخ ترك الخوض في المشتبهات ورد علمها إلى الله.
- من الأسباب **لزوم جماعة الحقِّ ولو كانت قليلة مستضعفة:** والحق لا يعرف بكثرة أو قلة، بل الكثرة أكثر ما تجيء في القرآن مذمومة.
- ومن أسباب الثبات **التّوجّه إلى الله بالدُّعاء وطلب التّثبيت:** وهو من أنفع الأدوية، وهو عدو البلاء، يدافعه ويعالجه، ويمنع نزوله، ويرفعه، أو يخففه إذا نزل، وهو سلاح المؤمن"[1].
- الخامس من أسباب الثبات **العمل، ومنه الفرار بالدّين واعتزال أهل الباطل:** وهذا هو المشروع عند وقوع الفتن، أن يفرَّ العبد خوفًا على دينه ففي هذه الحال تشرع العزلة، ولا تشرع فيما عداها، لما يفوت بها من ترك الجماعات والجمع"[2].

---

(١) الجواب الكافي: ص ١٠ بتصرف يسير.

(٢) تفسير ابن كثير: ٥/ ١٤٢ بتصرف يسير.

● ومن الأسباب كذلك **حسن تقدير الأمور وترتيبها**: فخروج هذه العصبة سبقه الإعداد والترتيب، فقد ذكر الله تعالى نقاشهم قبل خروجهم، وتعيينهم الكهف وإحضارهم الرقيم، وحوارهم بعد يقظتهم وحرصهم على التلطف.

قال تعالى: ﴿ وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ
مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ﴿٢٧﴾ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ
وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا
وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ
أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ
بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ
مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن
ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ
مُرۡتَفَقٗا ﴿٣١﴾ ﴾ [الكهف]

● أمر الله نبيه أن يبلغ ما أوحي إليه من قصة أصحاب الكهف وغيرها، ومن الدعوة للتوحيد والنهي عن الشرك وغير ذلك؛ وأمره أن يجهر به كله بين أظهر الكافرين.

● لما أخبر أنه تعالى له غيب السماوات والأرض، فليس لمخلوق إليها طريق، إلا التي يخبر بها عباده، وكان القرآن قد اشتمل على

كثير من أمور الغيب، أمر تعالى بالإقبال عليه فقال: ﴿ وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ ﴾..."[1].

- ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ تدل على أن أحداً من الخلق لا يقدر أن يغير شيئاً من هذا الكتاب لا بزيادة ولا بنقصان ولا بتحريف ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ⁽٩⁾ ﴾ [الحجر].
- ببيان أنه لا مبدل لكلمات الله قطع آمالهم أن يستجاب لهم في تبديل وتغيير ما لا يوافق أهواءهم من الوحي، فالله هو الذي يثبت وينسخ ما يشاء.
- ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا﴾ جعل الله للمسلم كهفاً معنوياً يأوي إليه ليقيه الفتن والمحن، هذا الكهف هو التوحيد والإيمان والتقرب إلى الله بما يرضيه، فإن من أوى إلى الله أوى إلى ركن شديد.
- إن كثيراً من أهل الابتلاء يعيشون عيشة راضية لا ينالها كثير من أهل العافية، والسر في ذلك أنهم أنسوا بالله فأزال عنهم وحشة الطريق.
- في الأمر بتلاوة كتاب الله والعمل به في مواجهة المكذبين دليل على ما لهذا من أثر في تثبيت القلوب وتزكيتها.
- في الآية إرشاد للتأسي بالنبي ﷺ في تبليغ القرآن للناس مع العمل به ليوافق الخبر الخبر فتؤتي دعوتهم أكلها بإذن الله.
- في الآية رد على المبدلين لشرع الله إذ تتعالى أصواتهم في هذا

---

(١) تفسير السعدي ١/ ٤٧٥ باختصار.

الزمان؛ وتحذير لهم وغيرهم إن فعلوا ذلك بأنهم لن يجدوا من عذاب الله ملجأ.

- في الآية تعظيم القرآن وتفخيم قدره، إذ لا يعلم كتاب حفظ من التبديل مع تطاول الزمان سوى كتاب الله، وفي هذا ترغيب في الإقبال عليه بالإيمان والقراءة والعمل.
- في الآية حماية لجناب التوحيد؛ (فإذا تعين أنه وحده الملجأ في كل الأمور، تعين أن يكون المرغوب إليه، في السراء والضراء، المفتقر إليه في كل الأحوال، المسؤول في جميع المطالب)[1].
- ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ سبب نزول الآية أن قومًا من قريش طلبوا من النبي ﷺ أن يطرد بعض أصحابه المساكين في نظرهم إن أراد أن يجلسوا إليه، فأمره جل وعلا ألا يلتفت لهم، وأن يحبس نفسه على أصحابه المؤمنين.
- ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ فلا يريدون منافع دنيوية من منزلة بين الخلق أو مكانة عالية، ولا جاهاً ولا سلطاناً ولا شيئا من حطام الدنيا الفاني، فمرادهم الوحيد هو تحصيل مرضاة الله ﷻ، بخلاف هؤلاء من كفار قريش، ممن يريدون الفخر والعلو على الناس، ويتكبرون على هؤلاء الضعفاء حتى بمجرد الجلوس معهم.
- أمر الله ﷻ نبيه ﷺ أن يحبس نفسه مع من يدعونه سبحانه من أهل الإيمان، وفي هذا (الأمر بصحبة الأخيار، ومجاهدة النفس

(١) تفسير السعدي ١/ ٤٧٥ بتصرف.

على ذلك، ومخالطتهم وإن كانوا فقراء فإن في صحبتهم من الفوائد، ما لا يحصى)"[1].

- الإنسان بحاجة لأعوان على الحق؛ بتعلمه والعمل به والدعوة إليه، والبعد عن الباطل ومحاربته، خاصة زمن الفتن والشبهات والشهوات.
- يخطئ من يثق في قدرته على حفظ دينه وسط فتن تموج موج البحر وهو بمعزل عن أهل الصلاح، فالذئب يأكل من الغنم القاصية، ويد الله مع الجماعة.
- الاجتماع على الخير لا بد له من ترتيب كي يستقيم الحال، فلكل فرد دوره المنوط به وبتكامل الأدوار وبحسن إدارة الأفراد وتنسيق جهودهم ترتقي الجماعة؛ أي جماعة بدءاً من العائلة الصغيرة وانتهاء بالدولة ومؤسساتها، بل والأمة جمعاء.
- في هذه الآية درس بليغ؛ فالمرء مهما بلغ من علو الشأن لا ينبغي أن يترفع عن أهل الخير، أو يعرض عنهم إن كانوا فقراء أو ضعفاء، فإن كانت هذه وصية الله لرسوله ﷺ، فكيف بمن هو دونه؟ فتفقّد قلبَك، واحذر أن تحتقر مسلماً لفقره أو ضعفه أو نسبه أو بلده.
- نبهت الآية أن من خالط أصحاب الجاه قد يميل إلى الدنيا، ولهذا نهى السلف عنه، لما عندهم من النعيم، وقد يدخل يريد النصح، ثم يجد من الإكرام ما يجعله يميل دون أن يشعر لمن يكرمه، ثم

---

(1) تفسير السعدي ١/ ٤٧٥ بتصرف يسير.

يكون سبباً في ضلاله إذا لم يكن مستقيماً.

- التحذير من الدخول على أصحاب الجاه والدنيا ليس صداً عن المناصحة، لكن لا بد من تصحيح النية، والتجرد والمراقبة والتضرع إلى الله بحفظ قلبه من الركون إليهم، فكم دخل من ناصح وخرج يحتاج إلى النصح.
- لطيفة: قال سبحانه: من أغفلنا قلبه، ولم يقل لسانه، فقد تجد رجلاً دائم الذكر، ولا تجد أثر هذا في دينه وخُلُقه ومعاملاته، بل قد تراه يقع في الحرام، والسبب أن هذا ذكر بلسانه لا بقلبه، ربما بحكم العادة أو الغفلة، فلا بد من تفقد حال القلب.
- جاء الإسلام بتحصيل المنافع ودرء المفاسد، الدينية والدنيوية، وعند تزاحم المفاسد يرتكب الأدنى دفعاً للأعلى، فالمفسدة الكبرى تدفع بالصغرى.
- الإسلام أغنى ما يكون عن المستكبرين الذين هم أهل النار، فليس في بقائهم على الكفر مفسدة تستحق أن يكون الثمن طرد أهل الإيمان من الضعفاء، كيف والفقراء والضعفاء هم أكثر أهل الإيمان عبر القرون.
- هذه الآية ترد على من يقدمون التنازلات لغير المسلمين، بدعوى الحرص على الدين والدعوة، وتقول لهم إن للدين رباً يحميه، وما عليكم إلا الاستقامة على منهج الله، ودعوتهم للإسلام، والله غالب على أمره، مع الحرص وبذل الجهد في هدايتهم دون تنازلات.

- هذا الإرشاد الرباني إشارة مهمة للعلماء والدعاة والمربين، كي يراعوا حال طلابهم وأتباعهم ويحفظوا عليهم قلوبهم ومشاعرهم، لا سيما من كان فقيراً أو رقيق الحال، فإنه يتأثر أكثر من غيره فلا ينبغي أن يكسر قلبه، لأمر ليس من كسبه، كنسبه وفقره ولونه وبلده.
- تضمنت الآية تصحيحاً لميزان القيم، فالميزان الصحيح، يقيس الإنسان بقيمته الحقيقية، وما في صدره من إيمان، وما يجيده من أعمال، لا بماله ونسبه وبلده ولونه.
- إن الله يصطفي للهداية من خلقه من يشاء، والضعفة والفقراء عندهم من لين القلوب ما ليس عند جل أهل المال والجاه، ولهذا كانوا جُلَّ أتباع الرسل، وفي بعض أهل المال خير عظيم وبذل وتضحية من أجل الدين.
- على المرء أن ينظر في قلبه فقد لا ينطق لسانه، لكنه في قرارة نفسه يقوِّم الناس ويفاضل بينهم بناء على مالهم أو جاههم أو قبيلتهم أو جنسيتهم، فليحذر الإنسان من ذلك.
- الصبر على طاعة الله أعلى أنواع الصبر، وبه تتم أنواعه: الصبر على المقدور، والصبر عن المعصية، والصبر على الطاعة، ولا ينجح داعية أو طالب علم إلا بالصبر الشامل.
- في الآية حث على إدامة طاعة الله آناء الليل وأطراف النهار، فلكل وقت طاعته وعبادته التي ينبغي اغتنامها.

- الغافل قد نهى الله عن طاعته، لأن طاعته تدعو إلى الاقتداء به، ولأنه لا يدعو إلا لما هو متصف به، ودلت الآية على أن الذي ينبغي أن يطاع ويكون إماماً للناس من امتلأ قلبه بمحبة الله، ودعا الناس إلى ما منَّ الله به عليه[1].
- كثير من الناس أمورهم فوضى، وأوقاتهم ضياع، ويزداد الألم إذا كان من أهل الخير والصلاح، والأشد إذا كان من أهل العلم والدعوة وحياته فرطاً، دون تنظيم لوقته، أو ترتيب لأولوياته فيمضي العمر دون استثمار له: (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ).
- التخيير بين الإيمان والكفر غير مراد على حقيقته، بل المراد التهديد والوعيد، فالمراد تخيير الناس بين الإيمان والكفر تهديداً لمن اختار الكفر، مع بيان غنى الله ﷻ عن العالمين.
- ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا﴾ في الآية تعريض بمن يضع الشيء في غير محله من التحاكم إلى موازين الجاهلية في تقويم الناس، وتحذير لهم.
- إضافة إعداد النار للجبار ﷻ فيها مزيد تهديد للظالمين، وبيان أنها نار عظيمة مهولة.
- ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ﴾ المراد أنه لا مخلص لهم ولا فرجة بالنظر إلى

(١) تفسير السعدي ١/ ٤٧٥ بتصرف يسير.

ما وراءها بل محيطة بهم من كل جانب[1]، والسرادق يكون في أهل الترف، فإثباته لدار العذاب استعارة تهكمية[2].

- ﴿وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾ في الآية ذم لحالة النار، أنها ساءت المحل الذي يرتفق به، فليس فيها ارتفاق[3]، وشأن المرتفَق أن يكون مكان استراحة، فإطلاقه على النار تهكم[4].
- الاستهزاء بالكفار والتهكم بهم عذاب معنوي يزيد في عذابهم؛ جزاء لهم من جنس استهزائهم بالصالحين، فعوقبوا بمثل ذلك جزاء وفاقاً ﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٣٦﴾ [المطففين].
- في الآية بيان لمنهج الداعية ومهمته التي ينبغي القيام بها؛ وهي تبليغ وحي الله ﷻ للخلق، كما قال ﷺ: "بلغوا عني ولو آية"[5].
- التقويم الحقيقي لنتائج المعركة بين الحق والباطل، لا يكون على أساس مدة من الزمن لا تلبث أن تمضي، بل التقويم الحقيقي على ما يدوم ويبقى، فالانتصار الحقيقي في الدنيا لقيم الحق ومبادئه، فتبقى ثابتة لا تزول.
- أعظم انتصار يتمثل في الثبات على الحق، وعلى هذا، فلا ينبغي

---

(1) تفسير مفاتيح الغيب للرازي ١٠/ ٢٠٢ بتصرف واختصار.

(2) التحرير والتنوير ٨/ ٣٦٥ بتصرف واختصار.

(3) تفسير السعدي ١/ ٤٧٦ بتصرف واختصار.

(4) التحرير والتنوير ٨/ ٣٦٦ بتصرف واختصار.

(5) صحيح البخاري ٣/ ١٢٧٥ (٣٢٧٤).

أبداً لأصحاب الدعوات أن يقدموا تنازلات في الثوابت، نتيجة ما يتعرضون له من ضغوط، أو رجاء أن يستجيب الناس لهم أو أن يقبلهم الغرب والشرق.

- رفقاء النار هم الكفار والشياطين، فبئس الرفقاء هؤلاء، وبئس موضع الترافق النار، كما أنه نعم الرفقاء أهل الجنة، ونعم موضع الرفقاء الجنة[1]، وفي هذا بيان شؤم مجالس الأشرار وبركة مجالس الأخيار.
- ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ ﴾ فالحق لا ينثني ولا ينحني، إنما يسير في طريقه قيماً لا عوج فيه، قوياً لا ضعف فيه، صريحاً لا مداورة فيه[2].
- ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ أي: جمعوا بين الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وعمل الصالحات من الواجبات والمستحبات[3].
- ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ في الكلام إضمار أي لا نضيع أجر من أحسن منهم عملاً، فأما من أحسن عملاً من غير المؤمنين فعمله محبط[4]؛ لأنه عند التأمل لم يحسن عملاً؛ لفقد شرطي صحة العمل.

---

(1) تفسير مفاتيح الغيب للرازي ١٠/ ٢٠٣.

(2) في ظلال القرآن ٥/ ٦٢ بتصرف واختصار.

(3) تفسير السعدي ١/ ٤٧٥.

(4) تفسير القرطبي ١٠/ ٣٤٣.

● **إحسان العمل:** أن يريدَ العبدُ العملَ لوجهِ الله، متبعاً في ذلك شرع الله، فهذا العمل لا يضيعه الله، ولا شيئاً منه، بل يحفظه للعاملين، ويوفيهم من الأجر، بحسب عملهم وفضله وإحسانه[١].

● **السندس:** صنف من الثياب، وهو ديباج رقيق يلبس مباشراً للجلد ليقيه غلظ الإستبرق. **والإستبرق:** الديباج الغليظ المنسوج بخيوط الذهب، يلبس فوق الثياب المباشرة للجلد[٢]، ومعنى الغلظ في ثياب الجنة: إحكامه[٣].

● قدمت التحلية على اللباس لأن الحلي في النفس أعظم، وفي القيمة أغلى، وفي العين أحلى، ويُلبسهم الحلي خدمُهم[٤].

● أسند اللبس إليهم لأن الإنسان يتعاطى ذلك بنفسه خصوصاً إذا كان فيه ستر العورة[٥].

● في الآية تسلية لضعفة المؤمنين الذين أراد مترفوا كفار قريش طردهم لما يجدونه من ريحهم ورثاثة ثيابهم، وفيه تعريض بأولئك المتكبرين المغترين بما هم فيه من نعيم زائل بما لا نسبة بينه وبين نعيم الجنة المقيم.

● ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ﴾ في اتكائهم على الأرائك، ما يدل على كمال

---

(١) تفسير السعدي ١/ ٤٧٥.

(٢) التحرير والتنوير ٨/ ٣٦٨ بتصرف واختصار.

(٣) تفسير معالم التنزيل للبغوي ٥/ ١٦٩.

(٤) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٢٤٧ بتصرف واختصار.

(٥) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٢٤٧.

الراحة، وزوال النصب والتعب، وكون الخدم يسعون عليهم بما يشتهون"[1].

- يتكرر كثيراً في كتاب الله ﷻ مبدأ التربية بالثواب والعقاب، فيندر أن نجد آية وعيد منفردة عن آية وعد أو العكس، وما ذلك إلا لما جبلت عليه النفوس من تطلع إلى المكافأة، ومن عدم الارتداع إلا بالتلويح بالمعاقبة حيناً، والتصريح بها حيناً.
- من الدروس في أسلوب الوعد والوعيد البدء بإبهام ما يترتب على الطاعة والمعصية، لأن الإبهام يجعل النفوس تشرئب وتتطلع لمعرفة ما لكل من الفريقين، فإذا حصل هذا الاهتمام والتطلع جاء البيان.

قال تعالى: ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ﴿٣٢﴾ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ﴿٣٣﴾ ﴾ [الكهف]

- انتقلت السورة بعد قصة الفتية إلى ذكر قصة هذين الرجلين رغم أن الكفار لم يسألوا عنها لحكم عظيمة اشتملت عليها كما سيأتي.
- من الحكم أن الكفار كانوا قد ألقوا أسماعهم لمعرفة جواب ما

(١) تفسير السعدي ١/ ٤٧٥.

سألوا عنه من شأن أصحاب الكهف، فكانت فرصة جيدة ليقرعها ما في هذه القصة من الحكم والمواعظ لعلهم يرجعون.

- في القصة تشبيه لحال المتكبرين الذين أرادوا طرد ضعفة المؤمنين بهذا الكافر المتكبر صاحب الجنتين، وتشبيه لحال ضعفة المؤمنين بحال صاحبه المؤمن ليعتبروا بما آلت إليه حال الكافر.
- في قصة الرجلين شبه بحال أصحاب الكهف مع قومهم، وكل هذا تأكيد أن العاقبة للمتقين.
- الأعناب من أشجار البلاد الباردة وتصبر على الحر، وهي فاكهة وقوت بالعنب والزبيب والخل وغيرها، والنخل من أشجار البلاد الحارة، وتصبر على البرد، وربما منعت عن الأعناب بعض أسباب العاهات، وثمرها فاكهة بالبسر والرطب وقوت بالتمر والخل، وفي هذا غاية البهجة والمنفعة[1].
- ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾ أي: لم تنقص من أكلها أدنى شيء، ومع ذلك، فالأنهار في جوانبهما سارحة، كثيرة غزيرة[2].
- دلت الآية على أن النقص ظلم؛ فنقص الرجل زوجه والعكس، ونقص الأب أولاده، والأولاد آباءهم، والمسؤول والمربي من ولاهما الله عليهم، كل هذا ظلم، ولو أن أي نقص وقع عددناه ظلماً فأصلحناه لتغيرت حالنا.

---

(١) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٤٤ بتصرف واختصار.

(٢) تفسير السعدي ١/ ٤٧٦ بتصرف واختصار.

- من حكم الأمثال في القرآن أنها تصور المعاني بصورة الأشخاص، وفائدتها جمة؛ منها تقرير المراد، وتقريبه للعقل، وتصويره بصورة المحسوس[1]، والتذكير، والوعظ، والحث، والزجر، والاعتبار، والتقرير[2].
- لا بد من الإكثار من ضرب الأمثال للكبار والصغار تأسياً بأسلوب القرآن الكريم، وإذا كان الكبار بحاجة إلى تقريب المعاني والمعقولات بصورة المحسوسات فلا شك أن الصغار أشد حاجة لذلك، وأرسخ في عقولهم.
- من اللافت في القرآن كثرة ذكر النخيل والأعناب معا، لأن هذين النوعين من الثمار كانا هما أعظم ثمار الحجاز وما قرب منها، فذكَّر القوم بما يعرفون من نعمة الله عليهم[3]، ولأن أكلهما لا يحتاج إلى عناية وإعداد كما تحتاج كثير من المأكولات.

---

(1) أبجد العلوم ٢/ ٤٩٢-٤٩٣.

(2) تفسير السعدي ١/ ٣٤ بتصرف واختصار.

(3) تفسير الطبري ١٩/ ٢١.

قال تعالى: ﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا (٣٥) وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦) ﴾ [الكهف]

- مع إيمان أحدهما وكفر الآخر وصف بالصاحب، فليست صحبة الإيمان، وإنما تعني المقارنة أو الاجتماع على أمر، ولا يلزم أن يرضى عن دين صاحبه، فلا ينبغي التسرع بتبديع من يصف المنحرفين بالأخوة، فربما أراد تأليف قلوبهم وأضمر ذلك، أو أخوة نسب أو بلد ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ ﴾، ﴿أَخُوهُمْ هُودٌ ﴾، ﴿أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ ﴾، وهكذا....
- يمتنع وصف الكفار بأخوة الإيمان، أو أنه لا فرق بيننا وبينهم، وغير ذلك مما يندى له الجبين من معان منتشرة اليوم، يروج لها العلمانيون والليبراليون وبعض المتنازلين والمفرطين بلا مسوغ من شرع صحيح أو عقل صريح.
- يفخر كثيرون بأموالهم وأولادهم وسلطانهم وجاههم، مع أن هذه الأمور ليست ذاتية بل خارجية، ويمكن أن تزول في طرفة عين، فلا ينبغي أن يفتخر بها المرء، وليست هي أسباب الرفعة والشرف.
- ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ قال الطبري: (وظُلْمُه نفسه: كفره بالبعث، وشكه في الساعة، ونسيانه المعاد، فأوجب له بذلك

سخط الله وأليم عقابه)[1].

- من أسباب الطغيان، كثرة المال وسعة الأرزاق، ولئن كان طغيان الكافر مفهوماً لأنه لا يؤمن أن نعيمه ابتلاء ولا يؤمن بيوم الحساب فإن ما لا يمكن فهمه أن يطغى المسلم الذي علم ذلك يقينا﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ ﴾ [العلق].
- إن المسلم العاقل المقبل على كتاب ربه وسنة نبيه تدبراً وفهماً، يدرك أن كل ما هو فيه من نعيم؛ من صحة وعافية، ومن سعة رزق وكثرة مال، بل حتى العلم والصلاح وغيره، إنما هو محض فضل من الله ﷻ، لا بفضله وعلمه، لذا كانت عاقبة قارون وخيمة عندما قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [القصص: ٧٨].
- العطاء اختبار وابتلاء كما قال: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ [الأنبياء]، وليس دليل إكرام وتفضيل كما قد يظن كثير من الجهال.
- إن مما يؤسف له أن نرى كثيراً ممن وسع الله عليهم يتطاولون على إخوانهم الفقراء، وقد يكون لبعضهم مكانة عند الله يتمنى أولئك عشر معشارها ولو أنفقوا كل أموالهم.

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٢٢.

قال تعالى: ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ ﴾ [الكهف]

- ﴿ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ أي خلقك مستوي الأجزاء، معتدل القامة والخلق، صحيح الأعضاء في أكمل صورة، وأحسن تقويم"[1].
- الأصل في الدعوة أن يبدأ الداعية باللين والنصح ولا ينتقل إلى غيره ما وجد إليه سبيلاً.
- ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ﴾ أي المتوحد بالكمال، فلا شريك له، وأفادت هذه الكلمة إثبات القوة لله وبراءة العبد منها، والتنبيه على أنه لا قدرة لأحد من الخلق إلا بتقديره، فلا يخاف من غيره"[2].
- قال بعض السلف: من أعجبه شيء من حاله أو ماله أو ولده، فليقل: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ﴾ وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة"[3].
- ﴿حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي عذابًا، وخصَّ السماء لأن ما جاء من

---

(١) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٣/ ٣٤٣.

(٢) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٤٦.

(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ١٥٨.

الأرض قد يدافع، فلو جاءت سيول جارفة أو نيران محرقة تسعى وتحرق ما أمامها، يمكن أن تُدافع، لكن ما نزل من السماء يصعب دفعه أو يتعذر"[1].

- فيه جواز أن يدعو المظلوم على الظالم، وقد أجاب الله دعوة الرجل هنا، لكن العفو والصفح أفضل لا سيما إن كان الظلم يقع على من يعفو ولا يتعداه، وأفضل من الدعاء عليه أن يدعو له بالهداية والمغفرة وترك الظلم، فإن كان ولا بد؛ فعليك بدعوة الغلام (اللهم اكفنيهم بما شئت) فهو من أجمع الدعاء.
- المتأمل لكتاب الله ﷻ يجده مليئاً بذكر حوارات أهل الحق من النبيين والمؤمنين لأهل الباطل، مما يدل على أن الحوار منهج رباني، بشرط أن تنضبط بالأصول الشرعية.
- إذا كان الحوار منهجاً ربانياً، فإنه كذلك ضرورة بشرية لا يستغني عنها مجتمع مهما صغر، بل إن الإنسان لا غنى له عن الحوار مع نفسه التي بين جنبيه!.
- لقد أرسى القرآن أسس الحوار ومبادئه مع كل أصناف البشر، سواء كانوا مسلمين أو مشركين أو أهل كتاب، قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل].
- من ضوابط الحوار الشرعية: تحديد الهدف الرئيس من الحوار،

---

(١) من تفسير سورة الكهف لابن عثيمين بتصرف واختصار.

وعدم تمييع الحق أو المزج بينه وبين الباطل، وضبط مدة الحوار لأنه عند أهل الحق ليس مطلوباً لذاته لكنه وسيلة لغاية.

- من الضوابط كذلك: إعلان نتيجة الحوار: فعندما لا يصل الحوار إلى الغاية المرجوة منه فلا بد من الوضوح والخروج بموقف قوي وبيان ظاهر لا يحتمل التأويل.
- ومن ضوابطه: اللين مع الصدع بالحق: لقد أرشد القرآن الكريم في غير آية إلى المجادلة بالتي هي أحسن، وإلى إلانة القول حتى مع أشد الناس كفراً وعتواً.
- على من يتصدى للحوار أن يحذر الوقوع في حبال التنازلات، فأعداء الأمة يسعون للحوار بزخم غير مسبوق، ليحصلوا في ميدان الحوار على ما عجزوا عنه في ميدان القتال.
- إن من أعظم ما بين الله في كتابه أصول الحوار، وأسلوبه، ومنهجه، فالدعوى التي يرددها البعض أن الإسلام لا يقبل الحوار دعوى فارغة لا تثبت، فالإسلام مع الحوار البناء، وليس مع تمييع المفاهيم وخلط الأوراق وإضاعة الحقيقة.

قال تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾ [الكهف]

- ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ أي أوقعت الإحاطة بالهلاك، بني للمفعول للدلالة على سهولته، فاستؤصل ما في السهل منه وما في الجبل، وما يصبر منه على البرد والحر وما لا يصبر[1].
- في الآيات درس عظيم وموعظة بليغة لمن آتاه الله شيئاً من النعم، ألّا تذهله عن موليها فينسى شكره، وألّا يركن إلى الأسباب المادية، فالأمر كله بيد الله، إن شاء أثمرت وآتت أكلها، وإن شاء عطلها فلم تغن عن صاحبها شيئاً.
- إن النفوس السوية قد جبلت على حب من يحسن إليها وعلى التعلق به، ولا أحد أكثر إحساناً وأشمل من الله ﷻ، فنعمه سبحانه وتعالى واصلة للخلق جميعاً، فكان لزاماً على المؤمنين أن يشكروا ربهم على ما أعطاهم.
- الشكر: يكون بالقلب خضوعاً واستكانة، وباللسان ثناء واعترافاً، وبالجوارح طاعة وانقياداً[2]، فمن أتى بهذه الثلاثة كان شاكراً ظاهراً وباطناً، فله بإذن الله دوام النعم وزيادتها ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى

---

(١) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٤٨ بتصرف واختصار.

(٢) مدارج السالكين ٢/ ٢٤٦.

لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ [إبراهيم].

- إننا أحوج ما نكون إلى شكر الله على نعمه، ليرضى عنا أولاً، وليحفظ لنا نعمه ثانياً، وأعظم هذه النعم وأجلها هي نعمة التوحيد، وتستوجب أعلى درجات الشكر.
- ينبغي أن نتعاون جميعاً في وقف كل ما يعرض هذه النعم للزوال، وذلك بالاستمرار في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والأخذ على أيدي السفهاء، وبتوعية الشباب ومناقشتهم وتوضيح الحقائق الشرعية بالأدلة والبراهين الساطعة.
- إن من أعظم المنكرات اليوم أن الذين يسبون الله ويتطاولون عليه أو يستهزؤون بشعائره، والذين يسبون الصحابة ويكفرونهم، صاروا في مأمن، فالتصدي لهؤلاء أكثر أهمية بلا ريب.
- ﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ فمن كان مؤمناً به تقياً، كان له ولياً، فأكرمه بأنواع الكرامات، ودفع عنه الشرور والمثلات، ومن لم يؤمن بربه ويتولاه، خسر دينه ودنياه[1].
- تعرض قصة الرجلين والجنّتين، **نموذجين واضحين للنفس المعتزّة بزينة الحياة، والنفس المعتزة بالله،** وكلاهما نموذجٌ إنساني لطائفة من الناس[2].
- كأن الله سبحانه يخبرنا في هذين النموذجين أن أموالنا وأولادنا

---

(١) تفسير السعدي ١/ ٤٧٨ بتصرف واختصار.

(٢) في ظلال القرآن: ٥/ ٦٤.

زينة الحياة الدنيا، ولكن إذا شغلتنا عن حب الله سبحانه وتعالى انقلبت إلى فتنة[١].

- الفتنة طريق ذو اتّجاهين، إما أن يقودك إلى الفوز والفلاح والعتق من النيران، إذا كان موقفك من النعمة المسداة إليك هو الشكر والعرفان، وإما أن يقودك إلى الخيبة والخسران إذا كان موقفك هو الجحود والنكران.
- إن أصل النجاح في إدارة فتنة زينة الحياة الدنيا في المال والولد أن تستخرج منها الباقيات الصالحات ولهذا تنتهي قصة الرجلين بقوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف].
- **من أسباب السقوط في فتنة المال والولد:** الانشغال به عن عبادة الله تبارك وتعالى، وذلك بأن يشغله ذلك عن الصلاة، أو يمنعه عن إخراج الزكاة، أو الاستئثار بالمال دون المساكين والسائلين.
- من الأسباب كذلك: التعلق الشديد بالمال، فلا يراعي في سبيل تحصيله أمر الله، ولا يتحرى الحلال، فيستكثر من المال ولو حراما، وينفقه في مخالفة أمره.
- من دوافع الدُّخول في هذه الفتنة، ما تتميّز به الحياة الاقتصادية والتجاريّة -لا سيما في زماننا- من بعض الأمور الدقيقة المشتبهة، التي قلّما ينجو من الوقوع فيها أحد.
- من أسباب الفتنة بالمال: **التفاخر به**، فالاستعلاء بالمال داء عضال

(١) حب الفتنة لنبيل عطوة:١ بتصرف يسير.

عاقبته وخيمة وصاحبه هذا المتعالي ما هو إلا جاهل مغرور وبعد غد ستتكشف له الأمور.

- من أسباب الفتنة كذلك: **الإشراك في محبة الله**، فالأموال والأولاد إن كانوا أَحَبَّ إلى العبد من الله، فقد أشرك في محبته سبحانه[1].
- **من أسباب الوقاية من فتنة المال والولد:** إخلاص التوحيد لله فيقدم حبه على كل محبوب، والتبصر في آيات الله ومننه على المرء، والدأب في الشكر، وأن يستحضر قدرة الله عليه، فالذي أعطاه قادر أن يمنعه.
- من الأسباب أيضًا: أن يعلم أن التوبة والندم بعد العقوبة قد لا ترفع أثر العقوبة في الدنيا وإن نجا في الآخرة بتوبته إن قبلها الله، وأن يتخذ المرء قريناً صالحاً، يستمع إليه، ويصدر عن توجيهه الشرعي، ويستأنس برأيه.
- من ذلك: أن يحقق الإيمان باليوم الآخر، ويعلم أن الدنيا أيام معدودة، ثم المرد إلى الله، والعاقبة للتقوى، والتذكير بالآخرة وأهوالها، لئلا يغتر بزينة الحياة الدنيا الزائلة عما قليل.
- في القصة اعتبار بحال الذي أنعم الله عليه نعماً دنيوية، فألهته عن آخرته وأطغته، وعصى الله فيها، أن مآلها الانقطاع والاضمحلال، وأنه وإن تمتع بها قليلاً فإنه يحرمها طويلاً.

---

(١) حب الفتنة لنبيل عطوة:٧.

- ينبغي للعبد -إذا أعجبه شيء من ماله أو ولده- أن يضيف النعمة إلى موليها ومسديها، وأن يقول: (ما شاء الله، لا قوة إلا بالله) ليكون شاكراً لله فيحفظ نعمته.
- في القصة: الإرشاد إلى التسلي عن لذات الدنيا وشهواتها، بما عند الله من الخير، وأن المال والولد لا ينفعان إن لم يعينا على طاعة الله.
- في القصة بيان بأن ولاية الله وعدمها إنما تتضح نتيجتها إذا انجلى الغبار وحق الجزاء، ووجد العاملون أجرهم[1].

قال تعالى: ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الكهف]

- بعد أن ذكر الله ﷻ مثل صاحب الجنتين عظة للكفار، ضرب للناس مثلاً عاماً يبين حقيقة الدنيا كي لا يغتر بها مغتر.
- قالت الحكماء: إنما شبه الدنيا بالماء لأن الماء لا يستقر ولا يبقى على حال واحدة، كذلك الدنيا لا تبقى على حال واحدة، والماء يذهب كذلك الدنيا تفنى.

---

(١) تفسير السعدي ١/ ٤٧٧، بتصرف يسير.

- ومن أوجه الشبه كذلك: أن الماء لا يقدر أحد أن يدخله ثم لا يبتل فيه كذلك الدنيا لا يسلم أحد دخلها من فتنتها وآفتها، والماء إذا كان بقدر كان نافعا، وإذا جاوز المقدار كان ضارا مهلكا، وكذلك الدنيا: الكفاف منها ينفع وفضولها يضر[1].
- هذا التشبيه يفيد أن المشبه والمشبه به، الدنيا والماء، إذا نزل وأثمر ثمرته، يمكث ما شاء الله، ثم يضمحل ويزول والعلم عند الله تعالى.
- في استعمال الفاء للدلالة على الترتيب والتعقيب، في عطف اختلاطَ نبات الأرض على إنزال الماء، نكتة لطيفة إذ يدل على سرعة انقضاء الدنيا ومراحلها، ونعيمها المسرع للزوال والاضمحلال.
- لا متاع في الدنيا يحقق سعادة البشر؛ لأن السعادة الحقيقية هي الدائمة التي لا زوال فيها ولا شقاء، وهذه تتحقق برضا الإنسان عن نفسه، وبطمأنينة النفس؛ وهذا لا يكون إلا في ظل الإيمان والإسلام.
- ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا﴾ ختمت الآية بذلك لبيان أثر الإيمان في عدم الانخداع بمظاهر الدنيا، وللإبقاء على صلة تلك النعم بالخالق دائمةً، وفاعلة؛ ليحصل الانتفاع بها، على وجوه الشرع، فيتحقق شكرُ الله المقتدر، فعلا مع القول.

---

(١) تفسير القرطبي ١٠/ ٤١٢ بتصرف يسير.

- ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ هذا ردٌّ على المشركين المفتخرين بالأموال والأولاد، فأخبر أن ذلك مما يُتزيَّن به في الدنيا، لا مما ينفع في الآخرة(١)، إلا إذا استعمل في طاعة الله.
- تقديم المال على البنين لأنه أسبق في الذهن، لأنه يرغَب فيه الجميع(٢)، ومن الأسباب أن أحداً لا ينازع ماله، لكنه قد ينازع ابنه، ومن الناس من يهمل أولاده لانشغاله بالمال، وكثير منهم يخاطر بحياته من أجل المال.
- التحقيق أن "الباقيات الصالحات" لفظ عام، يشمل الصلوات الخمس، وغير ذلك من الأعمال التي ترضي الله: لأنها باقية لصاحبها غير زائلة، ولأنها أيضاً صالحة لوقوعها على الوجه الذي يرضي الله(٣).
- ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ فالآمل في المال والبنين يأمل حصول أمر مشكوك فيه ومقصور على مدته. والآمل لثواب الأعمال الصالحة يأمل حصول أمر موعود به من صادق الوعد، وتحصل منه منفعة الدنيا والآخرة(٤).
- تبين بهذين المثلين(٥) وغيرهما أن الدنيا سريعة الزوال، وشيكة

---

(١) زاد المسير ٤/ ٢٢٨ بتصرف واختصار.

(٢) التحرير والتنوير ٨/ ٣٨١ بتصرف واختصار.

(٣) أضواء البيان ٣/ ٣٤٨. بتصرف.

(٤) التحرير والتنوير ٨/ ٣٨١.

(٥) الأول ما جاء في قصة صاحب الجنتين.

الارتحال، مع كثرة الأنكاد، ودوام الأكدار، فهي جديرة بالزهد فيها والرغبة عنها، وأن لا يفتخر بها عاقل فضلاً عن أن يكاثر بها غيره"[1].

- أعظم حائل بين المشركين وبين النظر في أدلة الإسلام انهماكهم في الحياة الزائلة ونعيمها، فحري بكل مسلم إذن أن يحذر ما حذر الله منه، فلا يجعل الدنيا أكبر همه ولا مبلغ علمه، كي لا يفوته العلم الحقيقي الذي ينفعه.
- خلق الله الإنسان ورَكَز فيه الغرائز والشهوات، كحب الدنيا وحب الشهوات من النساء والبنين والأموال والجاه والسلطان، والإنسان أمام الغرائز إما أن يستسلم لها وإما أن يكبتها وإما أن يهذبها.
- الاستسلام أمام الغرائز لا يليق بالنفوس السوية، وهو انحدار إلى الحيوانية، والصواب أن الإنسان يجب عليه أن يهذب غرائزه.
- تهذيب الغرائز يكون بتعرف الإنسان على غرائزه لأن الناس تتفاوت فيها بينهم فإذا تعرف على غرائزه حاول تنمية الإيجابية، والسيطرة على السلبية، وهذا يكون بالمران والصبر.

---

(١) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٤٩ بتصرف واختصار.

قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾
وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾
وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا
يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾

انتقل بالأسماع والأذهان إلى مشهد من مشاهد يوم القيامة، تذكيراً للمؤمن بما فيه من أهوال، مما يدفعه إلى مزيد من الأعمال الصالحات، وترهيباً لمن لا ينفعه خطاب العقل ويصر على الكبر والعناد.

- المتأمل في الخطاب القرآني فيما سبق يلاحظ تحولاً في الأسلوب من صيغة الغائب في قوله: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾، إلى صيغة المخاطب في قوله: ﴿جِئْتُمُونَا﴾، وهذا يرجح أن الخطاب في الأخيرة كلها للكفار.
- توجيه التوبيخ بضمير الخطاب أنسب للغرض، وأوقع في النفوس، وبه يزداد شعور المنكرين للبعث بالخزي، ويكون التوبيخ أكثر إيلاما.
- ﴿ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ لعل هذا من أشد المواقف على الكافرين والمجرمين قبل دخول النار، لما يترتب عليه من عذاب وخزي عظيم، فهم خائفون مما ينتظرهم، وقد كشفت أعمالهم، وأحصيت عليهم.
- ﴿يَٰوَيْلَتَنَا﴾ نداء لهلكتهم من بين الهلكات، فإن الويلة كالويل الهلاك، ففيه استعارة مكنية تخييلية، وفيه تقريع وإشارة إلى أنه لا صاحب لهم غير الهلاك وقد طلبوه ليهلكوا ولا يروا العذاب

الأليم[1].

●تقديم الصغيرة في الإحصاء للتعجب من إحصائها. وعطفت عليها الكبيرة لتعميم الإحصاء، لأن التعميم أيضاً يثير التعجب، فقد عجبوا من إحاطة الكتاب بجميع الأعمال[2].

●﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ فيه تذييل بديع للآية، فهذا الإحصاء وإن كان لا يغادر مما فعلوه صغيراً أو كبيراً إلا أنه لا يثبت عليهم شيئاً لم يفعلوه ولو كان مقدار ذرة، والحساب على ما اقترفته أيديهم لا ظلم فيه.

●يتهاون كثير من الناس في الصغائر تهاوناً عظيماً، والنبي ﷺ قد لفت أنظار أمته إلى أهمية صغائر الأعمال سواء منها الصالحات أوَ السيئات.

●في آية الكهف وما أشبهها، تنبيه وتحذير لكل مكلف أن لا يستصغر ذنباً فيتجرأ على محارم الله، قال القرطبي: (كان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية يقول: يا ويلتاه! ضجوا إلى الله تعالى من الصغائر قبل الكبائر)[3].

---

(١) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٢٧٤ بتصرف واختصار.

(٢) التحرير والتنوير ٨/ ٣٨٤.

(٣) تفسير القرطبي ١٠/ ٤١٩.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾ [الكهف]

- تنتقل الآيات من مشاهد القيامة، إلى مشهد موغل في القدم يوم خلق الله أبا هؤلاء البشر وأسجد له ملائكته، فيبين الله ﷻ مبدأ العداوة بين إبليس وذريته وآدم وذريته.
- المتأمل لهذه النقلة تظهر له نكتة بديعة، فما كان من صاحب الجنتين، وما كان من كل المجرمين المكذبين، كل هذا يبدو استجابة لعدو آدم وذريته إبليس، فجاءت الآيتان لتوقظا الغافلين عن هذه الحقيقة ولتذكرهم بأصل العداوة.
- نكتة أخرى، وهي المشابهة بين تكبر المشركين وصاحب الجنتين وتكبر إبليس، إذ أبى أن يسجد لآدم لما يراه لنفسه من فضل، وكذلك أولئك رأوا لأنفسهم فضلاً، فشابهوه في الفعل فناسب أن يذكرهم بما حصل في مبدأ الخلق.
- ﴿ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ بئس البدل للكافرين بالله اتخاذ إبليس وذريته أولياء من دون الله ، وهم لكم عدوّ من تركهم اتخاذ الله وليا باتباعهم أمره ونهيه، وهو المنعم عليهم وعلى أبيهم آدم من قبلهم، المتفضّل عليهم من الفواضل ما لا يحصى بدلا[1].

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٤٤ بتصرف واختصار.

- عصى إبليس أمر الله ﷻ وعصاه آدم عليه السلام، ولكن شتان بينهما، إن بينهم بعد ما بين السماوات والأرض.
- الفرق بين المعصيتين أن معصية آدم لم تكن عن عزم بل ضعف وذهول عن نهي الله، وأما إبليس فعن عزم وتصميم، وذلك لإصراره على المعصية بعد وقوعها، وتعليله لها، وعدم توبته.
- من الفروق أن معصية آدم كانت لشهوة إذ تطلعت نفسه للأكل من الشجرة التي منع، وكل ممنوع مرغوب، ومعصية إبليس لشبهة؛ فسهل على آدم عليه السلام أن ينزع ويستغفر، ولم يمكن إبليس هذا، فخطر الشبهات أعظم من الشهوات.
- من الفروق كذلك: أن آدم لم يكفر بذنبه، وكفر إبليس لأن في شبهته اعتراضاً على حكمة الله، وهذا قدح في أصل العبودية.
- ومنها: ما قاله ابن عباس رضي الله عنهما: (إذا كانت خطيئة الرجل في كِبْر فلا تَرْجُه، وإذا كانت خطيئته في معصية فارجه، وكانت خطيئة آدم في معصية، وخطيئة إبليس في كبر)[1].
- ومنها: أن معصية آدم عليه السلام كانت بوسوسة من إبليس، وكانت معصية إبليس ذاتية سولتها له نفسه الخبيثة.
- ومن الفروق: أن معصية آدم عليه السلام لم تكن عن خبث بل عن طيب نفس، لهذا انخدع بقسم إبليس، وأما معصية إبليس فعن خبث وفساد طبع.

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٤١.

- ومنها: أن معصية آدم عفوية لا ينفك عنها بنوه، قال ﷺ: "كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون"[1]، ومعصية إبليس قياس فاسد مقابل النص.
- بعد أن كان آدم عليه السلام في أعز جوار في جنة لا يجوع فيها ولا يعرى، ولا يظمأ فيها ولا يضحى، أهبط إلى الدنيا ليكد وينصب ويتعب، وفي هذا شؤم المعصية وخطرها.
- من فضل التوبة وبركتها أن الله فتح لخلقه أبواب الرحمة فوعدهم أن يعيدهم إلى الجنة إن هم وعوا درس المعصية الأولى واتخذوا ربهم ولياً وعدوه إبليس عدوا وشمروا عن ساعد الجد.
- معصية إبليس كفر، لأنها ردٌّ على الله، وهذا ناقض للإيمان القائم على ألوهية الله وحاكميته وحده، فليحذر الذين يتجرؤون على التخيُّر من أحكام الله، والانتقاء، فإنهم في الحقيقة يسيرون على خطى إبليس في الاستكبار.
- قيل إن طرد إبليس ولعنه إنما كان بسبب التأويل، فإنه عارض النص بالقياس وقدمه عليه، وفي هذا إغلاق باب التأويل الباطل والأقيسة الفاسدة.
- التفاضل يكون بالتقوى والعمل الصالح، وهذه حقيقة مقررة في الشرع، دلت عليها الآيات والأحاديث، فمن غفل عن هذه الحقيقة أو تغافل واتكأ على شرف أصله فلا يأمن أن يكله الله

---

(١) سنن الترمذي ٤/ ٦٥٩ (٢٤٩٩)، وحسنه الألباني.

إليه فتخونه أحوج ما يكون.

- أهمية الإخلاص، فإبليس كان مع الملائكة يوم أمروا بالسجود لآدم، وقد جاء أنه كان ذا علم وعمل وعبادة، لكنها لم تكن خالصة لله بل كانت ليصل بها إلى هذه المنزلة، ولو كان الأمر غير ذلك لانتفع بعلمه فلم يخالف الأمر الإلهي.
- أظهر الله فضل آدم عليه السلام، إذ خلقه بيده، وأسجد له ملائكته وأسكنه جنته، ولو شاء الله لما ذكر ذلك ولقصر الكلام على معصيته، لكنه نشر فضله وأذاع شرفه، فحري بالعبد أن يقابل هذا الفضل بالشكر، وهذا الشرف بالحمد.
- من أعظم الفوائد في الآيات إدراك أصل عداوة إبليس ومداها، ولذا تعددت في القرآن، ليعرف الإنسان عدوه فيحذره، ولا يستبدل ولاية عدوه، بولاية خالقه ومن أسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، ومن هو أرحم به من أمه وأبيه.
- من فقه المرء معرفة مداخل الشيطان، وأول هذه المداخل: الكفر والشرك ومعاداة الله ورسوله، والثاني: البدعة لأن ضررها في نفس الدين، وهو ضرر متعد، ولا يتاب منها.

والمدخل الثالث من مداخل إبليس: الكبائر، فهو أشد حرصا على أن يوقعه فيها، ولا سيما إن كان عالما متبوعا، لينفر الناس عنه، والرابع: الصغائر التي إذا اجتمعت فربما أهلكت صاحبها.

والمدخل الخامس: إشغاله بالمباحات التي لا ثواب فيها ولا عقاب، بل عاقبتها فوت الثواب، والسادس: أن يشغله بالعمل المفضول عما هو أفضل منه، ليزيح عنه الفضيلة ويفوته ثواب العمل الفاضل"[1].

- ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾ المعنى: إني لم أشاورهم في خلقهن؛ وفي هذا بيان للغناء عن الأعوان، وإظهار كمال القدرة"[2].
- المراد من نفي إشهادهم ذلك الإشعارُ بضآلة هؤلاء المضلين، الذين يُتَّخَذون من دون الله أولياء؛ فهم لم يشهدوا الخلق، فضلا أن يستشاروا أو يشاركوا فيها. وما داموا كذلك، فلا يستحقون الطاعة والخضوع.

قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ ﴾ [الكهف]

- أخبر الله أنه لا سبيل لهؤلاء المشركين، ولا وصول لهم إلى آلهتهم التي كانوا يزعمون، وأنه يفرق بينهم وبينها في الآخرة، فلا

(١) بدائع الفوائد ٢/ ٤٨٣-٤٨٥ بتصرف واختصار.

(٢) زاد المسير ٤/ ٢٣١.

خلاص لأحد منهم إلى الآخر"[1].

•لما عاين المشركون جهنم حين جيء بها تقاد بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك، تحققوا لا محالة أنهم مواقعوها، ليكون من باب تعجيل الهم والحزن لهم، فإن توقع العذاب قبل وقوعه، عذاب ناجز"[2].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾﴾ [الكهف]

•تقرر الآيتان حقيقةً في طبيعة الإنسان، وانطباقها على الكافر أوضح؛ وهي كثرة الجدل، وهي مذمومة إن كان الجدال بالباطل وتكون أجدر بالذم عندما تقف عائقاً أمام الإيمان وبراهينه القاطعة.

•في تصريف الآيات والأمثال والعبر في القرآن حياة للقلوب وهداية للبصائر كما أنّ في تصريف الرياح حياة للأرض، ولهذا لا بد من تصريف الدروس والمواعظ لما في ذلك من حياة للقلوب

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٧٠ بتصرف واختصار.

(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٧١ بتصرف واختصار.

بالإيمان.

- وصف الإنسان في الآية بأنه أكثر شيء جدلاً خرج مخرج الذم، إلا أن هذا لا يعني ذم الجدل بإطلاق، فقد ثبت الأمر بمجادلة المدعوين إن لزم الأمر، قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥].
- إن كان الجدال لإحقاق حق وإبطال باطل، أو لجلب مصلحة أو دفع مفسدة، فإنه ممدوح، وإن كان في المسائل التي تنفع الناس في دينهم ودنياهم، ما دام بعيداً عن النزعات والأهواء.
- على المسلم أن يكون حكيماً حصيفاً، فإن وجد أن الجدل سيُعرِّضُ ثوابتَ الدين، وواضح الأحكام للتنازع، أو سيكون لبعض الناس فتنة وربما تقع الشبهات في قلوبهم، أو خشي ألا يفهم الحاضرون، فالأولى ترك الجدل.
- ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّهُمۡ﴾ استخدم كلمة (الرب)؛ لأن الرب يرب العباد بالنعم، ويلزم منه أن يمتلئ القلب بمحبته والإقبال عليه، فكان في دعوتهم لاستغفاره صرف العبادة له وحده، وأن إيمانهم بالربوبية لا يكفي.
- كثير من المبطلين المكذبين، ليست معهم حجج بينة واضحة وإنما هي شبهات وتلبيسات، يلجأون إليها ليمتنعوا عن الإيمان.

قال تعالى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ ﴾ [الكهف]

- لا غاية من إرسال الرسل سوى إنقاذ الناس من الضلال، كلما ضلوا عن الفطرة وهي الإسلام؛ لكي يَحْيَوا حياة طيبة في الدنيا، وينجوا من عذاب الله في الآخرة؛ فينعم عليهم برضوانه وجناته.
- أهل الباطل يرومون إضعاف الحق وإزالته، وأنى لهم هذا، فليس للباطل طاقة على مقارعة الحجة بالحجة، إذ الحق واضح لا يمكن إزالته ولا إضعافه، وقصارى ما في وسع المبطلين التشويش عليه وصد أهله.
- ما يحصل اليوم في بعض وسائل الإعلام سعي حثيث لصد الناس عن الحق، فتراهم يكذبون ويفترون ويزينون الباطل، مع علمهم في قرارة أنفسهم ببطلان ما يفترون، ومهما فعلوا فإن الله ناصر دينه وممكن له في الأرض ولو بعد حين.
- على أهل الإيمان الثبات على الحق والعض عليه بالنواجذ، وعليهم بالصبر والمصابرة، والاجتهاد في الدعوة لهذا الدين والذب عنه، وأن يقارعوا أهل الباطل بالحجة والبرهان.
- شأن الكفرة المكابرين، حين يَعْجِزون عن مواجهة الحجج، تراهم يلوذون بأساليب أبعد ما تكون عن الاهتداء إلى الحقائق، من السخرية والاستهزاء؛ ليَخرجوا من جوِّ المحاجة إلى استثارة

النفوس نحو الهزْل والهُزء.

- ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ الظلم هو وضع الشيء في غير محله تعدياً، وهؤلاء قد وظَّفوا ما آتاهم الله من نِعَم الحواس والعقل في عكس ما خُلقتْ له؛ فلم يهتدوا بها للتسليم بما يذكرون به فيؤمنوا.
- ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ ليس المعنى أنهم لم يفهموه، ولم يسمعوه؛ ولكنهم لما عدلوا عنه، وصرفوا فكرهم عما عليهم في سوء العاقبة، كانوا بمنزلة من لم يعلم ولم يسمع[1].
- في شأن الكفار جاء الخطاب بأسلوبُ الغَيْبة: (ذُكِّرَ) و(أَعْرَضَ) و(نَسِيَ) و(قَدَّمَتْ يداه)؛ ليشيء ذلك بغيابهم عن المشهد، وإهمالهم، كما دلَّ الفعلُ الماضي على الوقوع المحقَّق والانقضاء.
- لما توجه الخطاب إلى الرسول محمد ﷺ خاطبَه بالفعل المضارع وبِتاء الخطاب؛ تكريما واحتفاءً: (وَإِن تَدْعُهُمْ).

(١) زاد المسير ٢/ ٣١٥، تفسير سورة الأنعام.

قال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ ﴾ [الكهف]

- جرى القرآن على عادته في تعقيب الترهيب بالترغيب والعكس، فلما رماهم بقوارع التهديد والوعيد، عطف على ذلك التعريض بالتذكير بالمغفرة لعلهم يتفكرون في مرضاته[١].
- في إضافة لفظ الربوبية "رَبُّ" إلى كاف الخطاب العائدة إلى النبي ﷺ -بأبي هو وأمي- تشريفٌ وتكريم له من وجهين؛ الأول: الإضافة، والثاني: التوُّجه له بالخطاب.
- ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ﴾ بين في هذه الآية: أنه لو يؤاخذ الناس بما كسبوا من الذنوب كالكفر والمعاصي لعجل لهم العذاب لشناعة ما يرتكبونه، ولكنه حليم لا يعجل بالعقوبة. فهو يمهل ولا يهمل[٢].
- ﴿ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴾ الموئل: المنجى، وهو الملجأ في المعنى، لأن المنجى ملجأٌ[٣].

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٥٦ بتصرف واختصار.

(٢) أضواء البيان ٣/ ٣٨٠ بتصرف واختصار.

(٣) زاد المسير ٤/ ٢٣٤.

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾ [الكهف]

- المقصود بالقرى أهلها لأن الظلم يقع منهم، فالإهلاك ناتج عن الظلم، ومُسبَّبٌ عنه، وهذا يدل على أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لئلا ينتشر الظلم فيعم العذاب، فيجب أن يطبّع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المجتمع حتى ينجو ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾[هود].
- من أنواع الظلم بطر النعم؛ قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ [القصص:٥٨] ونحن في بلدنا أنعم الله علينا بنعم كثيرة، وهذا يستلزم مزيداً من الشكر، لئلا نكون من أهل البطر فيحل علينا العذاب الأليم، وأعظم الشكر تحقيق التوحيد والقيام بأمر الله، وأداء حق المال.

تفسير الآيات من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٦٠-٨٢]

- ذكر قصة موسى والخضر عليهما السلام في هذا الموضع بين قصة أهل الكهف وقصة ذي القرنين مع أن كفار قريش لم يسألوا عنها له دلالات عديدة ومناسبات:
- في القصة دليل على البعث؛ إذ أحيى الله الحوت بعد موته.

●في القصة منهج الانقياد للحق عند ظهوره وبيانه، وإرشاد لمن استنكف أن يجالس فقراء المؤمنين[١].

●لما كان إمهال الله ﷻ للكفار قد يوهم أنه رحمة بهم كما يرحم أولياءه، لفت ﷻ إلى أن العواقب ليست كما يظهر، ومثَّل بقصص موسى مع الخضر عليهما السلام في رحلتهما.

●هذه القصة مناسبة لما سبق من قصة آدم وسجود الملائكة وامتناع إبليس، ووجه المناسبة المقابلة والتضاد، فبخلاف فعل إبليس فعل موسى عليه السلام عندما وجد أعلم منه، تبعه وتواضع له، وعرف له قدره، مع أن موسى كليم الله.

●في القصة مناسبة لقصة ذي القرنين بعدها لأنها تشبهها بما حوته من تطواف في الأرض لغرض صالح، فكانت كالمقدمة لها.

●في هذه القصة تعريض بأهل الكتاب بأن الأولى أن يَدُلُّوا الناس على أخبار أنبياء بني إسرائيل.

●الخضر: لقب لهذا العبد الصالح، والراجح أنه نبي، مع خلاف قوي بين أهل العلم، ولكن في هذه الآيات ما يؤكد نبوته ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ﴾، ﴿وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾، ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ كل هذا يؤكد أنه وحي وليس مجرد إلهام، والله أعلم، وذكر أهل العلم في اسمه أقوالاً لا يثبت منها شيء ولا فائدة لذكرها، وسبب التسمية جاء عن النبي ﷺ قال: "إنما سمي الخضر أنه جلس على

(١) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٦٣ بتصرف واختصار.

فروة بيضاء[١] فإذا هي تهتز من خلفه خضراء"[٢].

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ ﴾ سبب قول موسى عليه السلام لفتاه: أنه ذُكِر له أن عبدًا من عباد الله بمجمع البحرين، عنده من العلم ما لم يحط به موسى، فأحب الذهاب إليه، وقال لفتاه ذلك[٣].

- ﴿أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴾ مراد موسى عليه السلام بهذا القول إظهار عزمه على بلوغ مراده والاجتماع بالعبد الصالح فلا يشغله شاغل وإن أنفق في ذلك الوقت الطويل.
- **فائدة:** سعى موسى عليه السلام للقاء الخضر لأن الله زكى له علم الخضر، فينبغي لنا أن نطلب العلم المزكى النافع في الدنيا والآخرة، وعلم الشريعة هو الذي زكاه رب العزة وأمر نبيه أن يستزيد منه.
- لقد كان من شأن الحوت ما يعجب له الناظر وتقر به عين المؤمن، ففيه **دليل جديد على البعث والنشور**، وفي هذا نكتة لطيفة، فمرة أخرى تصدم السورة كفار قريش بما كانوا يكرهون سماعه من إثبات البعث.

---

(١) قال الحربي: الفروة من الأرض قطعة يابسة من حشيش... وعن ابن الأعرابي: الفروة أرض بيضاء ليس فيها نبات، وبهذا جزم الخطابي ومن تبعه. فتح الباري ٦/ ٤٣٣.

(٢) صحيح البخاري ٣/ ١٢٤٨ (٣٢٢١).

(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ١٧٣ بتصرف واختصار.

●قوله: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ فيه مسألة، وهو اتخاذ الزاد في الأسفار، رداً على الصوفية الجهلة، الذين يقتحمون المفاوز والقفار، زعما أن ذلك هو التوكل على الله الواحد القهار، هذا موسى نبي الله وكليمه من أهل الأرض قد اتخذ الزاد مع معرفته بربه، وتوكله على رب العباد)[1]، وأمر الله به عباده في الحج ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧].

●﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ العجب كان من موسى وفتاه لحال الحوت التي بينها يوشع ثم رأى موسى أثرها في الماء بعدُ، يدل عليه قول النبي ﷺ: "فاتخذ سبيله في البحر سرباً، وكان لموسى وفتاه عجبا"[2].

●**لطيفة:** فقد الحوت كان أمراً مكروهاً ليوشع عليه السلام لأن مهمته كانت الحفاظ عليه، لكنه علامة لقي العبد الصالح، فقد يكون فيما يكره الإنسان خيرًا كثيرًا فالإنسان لا يعلم. والله يعلم. المهم ألا يفرط فيما وكل إليه.

●العلم اللدنِّي هو ثمرة العبوديَّة والمتابعة والصدق والإِخلاص لله، وبذل الجهد في تلقِّى العلم من المشكاة المحمدية والكتاب المجيد، وكمال الانقياد له. فيُفتح له من فهم الكتاب والسنَّة أَمر يُخَصّ به " إِنَّهُ قَدْ كَانَ فِيمَا مَضَى قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ مُحَدَّثُونَ وَإِنَّهُ إِنْ

---

(١) تفسير القرطبي ١١/ ١٣ بتصرف يسير.

(٢) صحيح البخاري ١/ ٥٦ (١٢٢).

كَانَ فِي أُمَّتِي هَذِهِ مِنْهُمْ فَإِنَّهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ"[1].

- يشترط العمل اللدني الرباني ألا يخالف الكتاب والسنة، وأن يُعرف صاحبه بالصلاح وحسن السيرة، لا كما يدعي الدجالون المشعوذون، فيأتون بالمنكرات والأوابد ثم يقولون هذا العلم اللدني!! وليس فيه إضافة لشريعة الله، وإنما هو فهم واستنباط من أدلة الكتاب والسنة على أصول صحيحة.
- ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ هذا سؤال الملاطف والمخاطب المبالغ في حسن الأدب، والمعنى: هل يتفق لك ويخف عليك أن تأذن لي في مرافقتك[2].
- زاد موسى عليه السلام في التلطف بأنه لا يطلب جميع ما عنده ليطول عليه الزمان، بل جوامع منه يسترشد بها إلى باقيه فقال: ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ﴾.
- وبناء الفعل للمفعول لعلم المخاطبين أن الفاعل هو الله، وللإشارة إلى سهولة كل أمر على الله ﷻ.
- أتى عليه السلام بهذه الأنواع من الآداب والإبلاغ في التواضع لرسوخه في العلم، لأن كل من كانت إحاطته بالعلوم أكثر، كان علمه بما فيها من البهجة والسعادة أكثر، فكان طلبه لها أشد،

---

(١) صحيح البخاري: ج٣/ ص١٢٧٩ ح٣٢٨٢.

(٢) معاني القرآن ٤/ ٢٦٧.

فكان تعظيمه لأرباب العلوم أكمل[1].

- ﴿قَالَ﴾ الخضر لموسى: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ أي: لا تقدر أن تصاحبني لما ترى من الأفعال التي تخالف شريعتك؛ فكل منا مكلف بأمور من الله دون صاحبه، وأنت لا تقدر على صحبتي[2].
- ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ﴾ في الآية جواز أن يشترط العالم على تلميذه ما يشاء إن أراد مصاحبته بما ليس بمحرم، وكذلك كل رفقة في سفر أو غيره يجوز فيها الشرط على ما سبق.

قوله تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾﴾ [الكهف]

- الإمر بالكسر: العظيم المفظع، ومقام الأنبياء في تغيير المنكر مقام شدة وصراحة. ولم يجعله نُكراً كما في الآية بعدها لأن الذي عمله الخضر ذريعة للغرق، ولم يقع بالفعل[3].
- ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾ يظهر أن الضيافة كانت عليهم

---

(١) نظم الدرر ٥/ ١٦٩ بتصرف واختصار.

(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٨١ بتصرف واختصار.

(٣) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٧٥ بتصرف واختصار.

واجبة، وأن الخضر وموسى إنما سألا ما وجب لهما من الضيافة، وهذا هو الأليق بحال الأنبياء، ومنصب الفضلاء والأولياء[١].

- قوله تعالى: ﴿يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا﴾ أي: كل سفينة صالحة، قال الخضر: إنما خرقتها، لأن الملك إذا رآها منخرقة تركها ورقعها أهلُها فانتفعوا بها[٢]، فبين أن قصده بخرقها سلامتها لأهلها من أخذ ذلك الملك الغاصب.
- ﴿وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا﴾ قال قتادة: قد فرح به أبواه حين ولد، وحزنا عليه حين قتل، ولو بقي كان فيه هلاكهما، فليرض امرؤ بقضاء الله، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب[٣].
- لا شك أن قتل الغلام لم يكن بمحض رأي الخضر، بل كان بأمر الله، فالله ﷻ أراد موت الغلام، فقتل الخضر له، سبب أوجده الله لنفوذ مشيئته، وهذا يؤكد ترجيح نبوة الخضر.
- قال القرطبي: (يستفاد من الآية تهوين المصائب بفقد الأولاد وإن كانوا قِطَعاً من الأكباد، ومن سلم للقضاء أسفرت عاقبته عن اليد البيضاء)[٤].

---

(١) تفسير القرطبي ١١/ ٢٤ بتصرف واختصار.

(٢) زاد المسير ٤/ ٢٤٤ بتصرف يسير.

(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ١٨٥ بتصرف واختصار.

(٤) تفسير القرطبي ١١/ ٣٨.

- ﴿فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ لعل التعبير عنها بالمدينة هنا لإظهار نوع اعتداد بها[1]، فالكلام الأول كان في معرض الذم للؤم أهلها وبخلهم فاكتفي بتسميتها قرية، فلما ذكر الأب الصالح وروعي وجود ولديه فخمت وعبر عنها بالمدينة وهذا من لطائف التعبير.
- ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا﴾ دليل على حفظ الرجل الصالح في ذريته، وبركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة، بشفاعته فيهم، ورفع درجتهم في الجنة لتقر عينه بهم[2].
- بركة صلاح الآباء تظهر على الأبناء، فإقامة هذا الجدار للغلامين من شكر الله تعالى لأبيهما الصالح، إذ ساق عبده الخضر في مهمة خاصة ليتعهد ذريته بعد موته ويصلح شأنهما، فلا تخف على أبنائك من بعدك إذا قمت بأمر الله، فالله خيرٌ حافظاً وهو أرحم الراحمين.
- ذكر العلماء أن كل ما أنكره موسى وقع له مثله، ففي خرق السفينة مشابهة لإلقاء أمه له في اليم، وفي قتل الغلام مشابهة لقتله القبطي عندما استنصره رجل من قومه، وفي إقامة الجدار، مشابهة لسقي الغنم للفتاتين دون أجر[3].

---

(١) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٣٦٦.

(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٨٦-١٨٧ بتصرف واختصار.

(٣) العزف على أنوار الذكر لمحمود توفيق محمد سعد ص٦٧ بتصرف واختصار، والبحر المديد لابن عجيبة ٣/ ٤٢٦ بتصرف واختصار.

- ﴿فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا﴾ قال القرطبي: أضافه إلى نفسه رعاية للأدب، فلا يضاف إليه سبحانه من الألفاظ إلا ما يستحسن[1].
- أسند الخضر الإرادة في قصة الجدار إلى الله تعالى دون القصتين السابقتين لأن العمل فيهما كان من شأنه أن يسعى إليه كل من يقف على سره لأن فيهما دفع فساد عن الناس بخلاف قصة الجدار فتلك كرامة من الله لأبي الغلامين[2].
- **فتنة العلم هي الفتنة الرئيسة الثالثة في السورة**، والعلم يكون فتنة بواحد من أمرين أو بهما؛ أوّلهما أن يطغيه فيرى لنفسه فضلاً، وثانيهما أن يعمل بخلاف ما يعلم أو يحتال بعلمه ليصل لما يريد فيكون العلم حجة عليه ﴿فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة].
- أعظم وقاية من فتنة العلم هي الإخلاص، بأن يريد المرء بعلمه وجه الله ﷻ ورضاه.
- علم الخلائق ضعيف وقاصر وناقص، وعلم الله تعالى تام كامل، وقد بين الخضر هذه الحقيقة لموسى عليه السلام، وفي هذا درس بليغ لمن يغتر بعلمه أو يظن أنه أوتي علماً لم يؤته غيره ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء].
- يستحب للعالم أن يتخول الناس بالموعظة ويذكرهم بأيام الله

(١) تفسير القرطبي ١١/ ٣٩ بتصرف واختصار.

(٢) التحرير والتنوير ١٦/ ١٤. بتصرف.

ونعمه، كما في الحديث: "بينما موسى عليه السلام في قومه يذكرهم بأيام الله وأيام الله نعماؤه وبلاؤه"[1]، فكانت هذه الموعظة مبدأ القصة والرحلة العظيمة.

- للوعظ أهمية كبيرة في تذكير الغافلين ورد العصاة تائبين عابدين، فكم أحيا الله به من قلوب تخالها ماتت، ومن العجيب أن نرى بعض طلاب العلم يترفعون عن الوعظ، بل يتأففون من وصفهم بالوعاظ، مع أن أجل من وعظ هو رب العزة ﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ ﴾ [النور: ١٧]، ورسول الله واعظ: "وعظنا رسول الله"[2].
- حياة الإيمان لا تستقيم إلا بالوعظ وتحريك القلوب، وإنما ذم السلف القُصَّاص الذين زادوا وانتحلوا قصصاً مكذوبة، وأما الكتاب والسنة والقصص الواقعي الذي فيه عِبَر فهو محمود مطلوب وقد فعله الأنبياء والصالحون والعلماء.
- ينبغي للعالم أن يخفض جناحه لطلابه، فلا يُرى إلا متواضعًا ليبلغ إليه كل أحد، وإذا سئل عن علمه يرد الفضل إلى الله ولا يرى من نفسه أنه أعلم الناس.
- في القصة بيان لفضيلة العلم، والرحلة في طلبه، وأنه أهم الأمور، فإن موسى عليه السلام –وهو كليم الله ومن أولي العزم– عندما علم أن

---

(١) صحيح مسلم ٤/ ١٨٤٧ (٢٣٨٠).

(٢) أخرجه : أبو داود (٤٦٠٧) ، وابن ماجه (٤٣) ، والترمذي (٢٦٧٦)

من عباد الله من هو أعلم، بادر بطلب لُقِيِّه للاستفادة، فخلد ذكره في القرآن، ليكون منهجًا ربانيًا.

- من فوائد القصة التنبيه على البداءة بالأهم فالأهم، فإن زيادة العلم، أهم من ترك ذلك والاشتغال بالدعوة، والأكمل هو الجمع بين الأمرين.
- يستحب للمسافر في طلب العلم أو سفر طاعة أن يشد عزم رفيقه ويظهر له جلده في السفر وعزمه على بلوغ مقصوده، واحتمال المشقة مهما كانت، ويتضح هذا في قوله لغلامه: ﴿لَآ أَبۡرَحُ﴾.
- إذا عزم الإنسان على أمر وأخذ أهبته له فعليه أن يمضي إلى منتهاه ليحقق المرجو مهما طال الزمن وعظمت المصاعب، قال موسى عليه السلام: ﴿لَآ أَبۡرَحُ﴾، إلا إذا طرأ طارئ أو بدا له ما هو خير، أو حال دون ذلك حائل.
- إخفاق بعض المشاريع يرجع إلى هذه الآفة؛ قصر النفس وضعف الهمة وعدم المثابرة.
- المسافر لطلب علم أو جهاد أو نحوه، إذا اقتضت المصلحة الإخبار بمطلبه، وأين يريده، فإنه أكمل من كتمه، ففي إظهاره فوائد من الاستعداد، وإتيان الأمر على بصيرة، وإظهارًا لشرف هذه العبادة، دون أن يقصد رياءً أو سمعة.
- العلم الذي يعلمه الله لعباده نوعان: مكتسب يدركه العبد باجتهاده، ولدني، يهبه الله لمن يمن عليه لقوله: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾، وقد يكون وحياً أو إلهاماً.

- على العالم إن رأى في التغليظ ما يفيد نفعاً وإرشاداً إلى الخير كان عليه ذكره، فإن السكوت عنه يوقع المتعلم في الغرور، وذلك يمنعه من التعلم(١).
- التأدب مع المعلم، وخطابه ألطف خطاب، لقول موسى عليه السلام: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ مع أنه قطع مسافة طويلة ولقي مشقة كبيرة لصحبة الخضر.
- إضافة العلم وغيره من الفضائل لله تعالى، والإقرار بذلك، وشكر الله عليها لقوله: ﴿تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ أي: مما علمك الله تعالى.
- العلم النافع هو المرشد إلى الخير، فكل علم يهدي لطرق الخير، ويحذر من الشر، أو كان وسيلة لذلك، فإنه من العلم النافع، وما سوى ذلك، فإما ضار، أو ليس فيه فائدة لقوله: ﴿أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾.
- من ليس له صبر على صحبة العالم والعلم، والثبات على ذلك، يفوته كثير من العلم فمن لا صبر له لا يدرك العلم، ومن صبر أدرك، لقول الخضر يعتذر لموسى بذكر المانع في الأخذ عنه: إنه لا يصبر معه.
- أكبر سبب لحصول الصبر، إحاطة الإنسان علما وخبرة بالأمر الذي أمر بالصبر عليه، وإلا فما لا يدريه، أو لا يدري غايته، ولا فائدته وثمرته لا سبب عنده للصبر.

---

(١) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٦٩ بتصرف يسير.

- التأني والتثبت، وعدم المبادرة إلى الحكم على الشيء، حتى يعرف المقصود كي لا يقع في الخطأ.
- المعلم إذا رأى المصلحة في نصح المتعلم أن يترك السؤال عن بعض الأشياء، حتى يكون هو مَن يوقفه عليها، فإن المصلحة تتبع، كما إذا كان فهمه قاصراً، أو نهاه عن الدقيق من الأشياء التي غيرها أهم منها.
- الرفق بالعلماء، فالخضر طلب من موسى أن يصبر ولا يبادر باستشكاله، وكان الصحابة لا يلحون على النبيﷺ بالأسئلة إجلالاً ومهابة، وكي لا يشقوا عليه ولهذا كانوا يفرحون إذا جاء أعرابي يسأل.
- رفق العالم بتلاميذه ببذل العلم ولو لم يسألوه لأنهم إنما صحبوه لينهلوا من علمه، ولهذا بين الخضر لموسى علة ما فعل دون أن يسأله، حتى لا يفارقه وفي نفسه شيء قد يشغله.
- لما عرف أصحاب السفينة الخضر لم يأخذوا أجرة، ففيه إكرام أهل العلم والفضل والصلاح، وهكذا ينبغي أن يكون الناس، وفي قبول ذلك دليل على جوازه ما لم يكن عن سؤال أو تشوف، وما لم يكن فيه منة، وهو أشبه بالهدية.
- اعتذار المعلم عن تلميذه إذا بدر منه أمر لا يرضى عنه تطييباً لخاطره، وذلك قول الخضر: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف]، كأنه يقول إن مخالفته كانت لأمر قاهر لم يكن له رده.
- ما سبق من فوائد مع الإخلاص يعين العالم والمتعلم على النجاة

من فتنة العلم، إذ يتم بها ضبط الخطوات في طريق العلم، كي لا تزل قدم بعد ثبوتها، وكي لا تتفرق بالطالب السبل فيضل عن سبيل الله.

- في القصة استحباب كون خادم الإنسان ذكياً فطناً كيساً، ليتم له أمره الذي يريده، ولهذا انتقى موسى يوشع ليكون رفيقه، وأنعم به من رفيق.
- استحباب التواضع والرفق ورحمة الخدم، فموسى عليه السلام أكل مع فتاه، وعدَّه شريكاً له في كل شيء، فأخبره عن جهة المسير وقال: (آتنا غداءنا) (لقد لقينا) (ذلك ما كنا نبغ)، ولم يكلفه ما لا يطيق، بل حمله المكتل فقط.
- إضافة الشر وأسبابه إلى الشيطان، على وجه التسويل والتزيين، وإن كان بقضاء الله وقدره، لقول يوشع: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ﴾.
- المعونة تنزل على العبد بحسب قيامه بالمأمور، والموافق لأمر الله، يعان ما لا يعان غيره لقوله: ﴿لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا﴾ إشارة إلى السفر المجاوز لمجمع البحرين؛ وأما الأول، فلم يشتك منه التعب مع طوله، لأنه هو المأمور به.
- تعليق الأمور المستقبلية من أفعال العباد بالمشيئة، وأن لا يقول الإنسان للشيء: إني فاعل ذلك في المستقبل، إلا أن يقول {إِنْ شَاءَ الله}.
- "يدفع الشر الكبير بارتكاب الشر الصغير"، ويراعى أكبر

المصلحتين بتفويت أدناهما وهذه قاعدة جليلة، فإن قتل الغلام شر، ولكن بقاءه حتى يفتن أبويه عن دينهما، أعظم شراً.

- من القواعد الكبيرة أيضاً أن عمل الإنسان في مال غيره، على وجه المصلحة وإزالة المفسدة، يجوز ولو بلا إذن ولو ترتب عليه إتلاف بعضه، كما خرق الخضر السفينة لتعاب فتسلم من الغصب.
- استعمال الأدب مع الله في الألفاظ، فإن الخضر أضاف عيب السفينة لنفسه: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ وأضاف الخير لله في قصة الغلامين: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾.
- أنه ينبغي للصاحب أن لا يفارق صاحبه في حالة من الأحوال، ويترك صحبته، حتى يعتبه، ويعذر منه، كما فعل الخضر مع موسى.
- أن موافقة الصاحب لصاحبه، في غير الأمور المحذورة، مدعاة وسبب لبقاء الصحبة وتأكدها، كما أن عدم الموافقة سبب لقطع المرافقة.
- في الآيات أن المكلف بعمل لا يؤخره عن وقته، لأن في تأخيره تفويت مصلحة من توقيته غالبًا، فتأمل لو تأخر الخضر عن ركوب السفينة أو دخول القرية، لربما أخذ الملك السفينة، أو انقض الجدار وأخذ الكنز.
- يجب التسليم لله في دينه، ولرسوله في سنته وبيانه لكتاب ربه، واتهام العقول إذا قصرت عن إدراك الحكمة في ذلك، فإنه محنة

من الله لعباده، واختبار ليتم البلوى عليهم. ولمخالفة هذا ضل أهل البدع حين حكموا عقولهم[1]».

●المنكرات تتفاوت في درجاتها، وبحسب تفاوتها تتفاوت شدة الإنكار، فموسى عليه السلام وصف خرق السفينة بـ (إمرا)، ووصف قتل النفس بـ (نكرا)، والثاني أشد لأن القتل أشنع.

●الرفق بالصاحب واحتمال ما يصدر منه من أخطاء، فالخضر لم يفارق موسى عليه السلام من أول مرة، بل صبر مرتين وفارقه في الثالثة، بل إن موسى هو مَن بادَر بذلك حتى لا يحرجه ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾ [الكهف].

●تعليل الأحكام مبدأ عظيم له أثر كبير في النفوس، فإن موسى عليه السلام لم يصبر لأنه لم يعرف العلة، فلما علم اطمأنت نفسه وسلم، وكذلك ينبغي للقائد أو الزوج أو المربي أن يبين علة قراراته ما وجد سبيلا، فإنه أدعى للقبول.

●بركة الصلاح تنال صاحبها وتنال ذريته، فقد حفظ الله الوالدين بصلاحهما من شر ابنهما، وحفظ اليتيمين بصلاح والدهما.

●ما يقضيه الله على عبده المؤمن كوناً وشرعاً كله خير، فقتل الغلام آلم والديه وأحزنهما لكنه خير لهما، وما داما مؤمنين فسوف يتعاملان مع القدر الكوني بالقدر الشرعي وهو الصبر وهو خير.

●لم يجابه الخضر الملك الظالم ولم يحاول الإنكار عليه، وبدل ذلك

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال ١/ ٢٠٠ بتصرف واختصار.

خرق السفينة، وهذا يدل على أنه توجد حالات لا يمكن أن يزيل المؤمن فيها كل المنكر أو يغيره بيده، فيكتفي حينها بالأنسب والممكن، دون دخول في معركة لا تعرف نتيجتها.

- استحباب العناية بأولاد الصالحين كما أقام الخضر الجدار لليتيمين إكراماً لصلاح والدهما، فيستحب تفقدهم وحل مشاكلهم وإعانتهم لا سيما إن كانوا يتامى.
- أهمية العمل الاجتماعي، ومشاركتهم في شؤونهم، ومساعدتهم في حل مشكلاتهم، ودفع الأذى عنهم كما فعل الخضر.

تفسير الآيات من: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ إلى: ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾ [الكهف: ٨٣-٩٨].

- مناسبة الآيات لما قبلها أنه: لما فرغ من قصة طواف الأرض لطلب العلم، عقبها بقصة مَن طاف الأرض للجهاد، وقدَّم الأولى لعلو درجة العلم[١].
- جعل خبر ذي القرنين تلاوة وذكراً لأن المهم من أخباره ما فيه تذكير وما يصلح للتلاوة حسب شأن القرآن فإنه يتلى لأجل الذكر ولا يساق مساق القصص[٢]، فالجهاد تابع للعلم الشرعي، وإلا فقد يكون جهاداً في الباطل.

---

(١) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٧٨ بتصرف واختصار.

(٢) التحرير والتنوير ١٦/ ٢٣ بتصرف واختصار.

- الراجح من أقوال المفسرين: أن ذا القرنين لم يكن نبياً ولكن كان ملكاً صالحاً من أولياء الله، وهو اختيار شيخ الإسلام.
- المنهج القرآني يطوي في أحيان كثيرة ذكر الأشخاص، ويظهر الخصال والأوصاف التي يدعو إليها ويرغب فيها، أو العكس، فالتسمية وتركها والقصص وتركه بحسب الثمرة والعبرة، لذا قال: ﴿سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾ وليس كل ما سألوا عنه مما لا حاجة إليه.
- يستفاد من عدم ذكر الأسماء أن الأفعال هي التي تبقى بعد طي ذكرك وذهاب اسمك، وأنه لا تعلق بالأشخاص في الدين، لكن العبرة بالأفعال، فما وافق شرع الله ودينه أشيد به ودعي للأخذ به وما خالفه رد.
- ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ أمة عظيمة من بني آدم، ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ مكنه الله منهم وحكمه فيهم، وأظفره بهم وخيره: إن شاء قتل وسبى، وإن شاء منّ أو فدى. فعرف عدله وإيمانه فيما أبداه عدله وبيانه[1].
- كان عند ذي القرنين من السياسة الشرعية ما استحق به المدح، لتوفيق الله له لذلك، فقال: سأجعلهم قسمين... وهذا يدل على كونه من الملوك الصالحين، العادلين، حيث وافق مرضاة الله في معاملة كل أحد بما يليق بحاله[2].

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٩٣ بتصرف واختصار.

(٢) تفسير السعدي ١/ ٤٨٥. بتصرف

- ﴿لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا﴾ لأن أرضهم لا جبل فيها ولا شجر، ولا تحتمل بناء، فيسكنوا البيوت، وإنما يغورون في المياه، أو يسربون في الأسراب[1][2].
- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ﴾ هما جبلان متناوحان بينهما ثُغْرة يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك، فيعيثون فيهم فسادًا، ويهلكون الحرث والنسل[3].
- **فائدة:** الفقه يشمل العلم والفهم، وكثير من الناس عندهم علم ولكن لا فقه لهم، وإن علماً قليلاً بفقه وعمل، أفضل من كثير بلا فقه ولا عمل.
- يظهر من شكاية القوم من يأجوج ومأجوج أنهم تأذوا منهم أذىً شديداً لم يجدوا دفعاً له سوى بناء السد بينهم وبين يأجوج ومأجوج، فطلبوا ذلك من ذي القرنين.
- ﴿فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا﴾ عن ابن عباس: أجرًا عظيمًا، أرادوا أن يجمعوا له مالاً يعطونه إياه، حتى يجعل بينهم وبينهم سدًا. فقال ذو القرنين بعفة وديانة وصلاح وقصد للخير: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ﴾[4].

---

(١) جمع سرب، قال ابن منظور في لسان العرب ١/ ٤٦٢: حَفِير تحتَ الأَرض وقيل بَيْتٌ تحتَ الأَرضِ.

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٩٩ بتصرف واختصار.

(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ١٩٥.

(٤) تفسير ابن كثير ٥/ ١٩٦ بتصرف يسير.

● ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ الردم: حاجز الحائط والسدّ، إلا أنه أمنع وأشدّ[1]، وقيل: الردم أبلغ من السد، إذ السد كل ما يسد به، والردم وضع الشيء على الشيء من حجارة أو تراب أو نحوه، ليقوم منه حجاب منيع[2].

(١) تفسير الطبري ١٨/ ١١٣ بتصرف واختصار.

(٢) تفسير القرطبي ١١/ ٥٩ بتصرف واختصار.

لطائف قرآنية
في استخدام لفظ الاستطاعة

- نجد في قصة الخضر مرة (تستطع) وفي الثانية (تسطع)، وفي قصة ذي القرنين مرة (اسطاعوا) وفي الثانية (استطاعوا)، وقد استخرج العلماء من هذا التغاير عدداً من اللطائف الجديرة بالتأمل:
- لما فسر الخضر لموسى الأمر وأزال المشكل قال: ﴿مَا لَمْ تَسْطِع﴾ وقبل ذلك كان الإشكال ثقيلا فقال: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾ فقابل الأثقل بالأثقل، والأخف بالأخف.
- وفي قصة ذي القرنين قال: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ وهو الصعود إلى أعلاه، ﴿وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ [الكهف]، وهو أشق، فقابل كلا بما يناسبه لفظًا ومعنى"[1].
- في قصة الخضر، لما كان موسى محتاجاً لمزيد صبر على الإنصات للخضر لِيَعْلَم عِلَّة فِعْله أثبت التاء بقوله: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾ [الكهف]، ولما علم العلة حذفها.
- كذلك فإن الخضر بعد أن أنهى تعليل أفعاله كان يريد متابعة الانطلاق في رحلته بلا تأخر فناسب حذف التاء، وهذا كله متسق مع قاعدة "زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى"، والله أعلم.

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٨٨ بتصرف واختصار.

- ﴿وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا﴾ وكان وعد ربي الذي وعد خلقه في دكّ هذا الردم، وخروج هؤلاء القوم على الناس، وعيثهم فيه، وغير ذلك من وعده حقاً، لأنه لا يخلف الميعاد فلا يقع غير ما وعد أنه كائن(١).
- من الفوائد في قصة ذي القرنين: أن الأولى الاقتصار على ما جاء في القرآن والسنة لمعرفة حقيقة القصص المذكورة، لأن التأخير عن وقت البيان لا يجوز، فلو كان لذكرها حاجة لذكرها.
- أسلوب السؤال والجواب ورد لأغراض متعددة؛ فمنه ما يكون للتعلم، فهذا من أفضل وأنفع وسائل التعليم، ومنها ما يكون للإنكار، ومنه ما يكون للتحدي، فقبل النبي ﷺ التحدي، وهو أسلوب مهم لبيان صدق الداعية.
- في قوله: ﴿قُلۡ سَأَتۡلُواْ عَلَيۡكُم مِّنۡهُ ذِكۡرًا﴾ دليل على ضرورة العلم بالشيء قبل الدعوة إليه.
- أن الثناء على الحاكم لا يكون بمجرد شجاعة أو فتوح أو عمارة أو تمكين، فقد مكن الله ﷻ لكثير من الأمم ثم أخذهم بذنوبهم، فلا بد أن ينضم إلى ما سبق الإيمان بالله واليوم الآخر، وتحقيق العدل، وبخاصة أن القوة والملك قد تخرجان عن العدل وتدعوان للطغيان ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧﴾ [العلق].
- قصة ذي القرنين تشحذ همة المؤمن وتعلي منها، إذ سعى وجدّ

(١) تفسير الطبري ١٨/ ١٢٠ بتصرف يسير.

واجتهد حتى بلغ حيث انتهت طاقته، ولم يفرط في شيء مما أوتيه من أسباب، وأثّر بفكره ومبادئه على أهل الأرض، وصار ملجأً للمظلومين، ومأمناً للخائفين.

- لقد حجز ذو القرنين يأجوج ومأجوج خلف السد لإفسادهم في الأرض، وكذلك ينبغي لولاة الأمر أن يحجزوا المفسدين في الأرض، الذين يخربون على الناس دينهم بالشهوات والشبهات ويضيقوا عليهم، والحذر من الحجر على المصلحين والدعاة.
- بناء الردم نعمة عظيمة على القوم الذين طلبوا بناءه، ثم على كل من جاء بعدهم إلى يومنا هذا، إلى وقت خروج يأجوج ومأجوج، وهذه النعمة كغيرها تستحق شكر المنعم سبحانه، كما يستحق ذا القرنين الدعاء له من أجلها.
- عدم الركون إلى الحياة الدنيا وزينتها: إذ لما اكتمل بناء السد، ونظر ذو القرنين إلى دقته ومتانته، لم يصرفه ذلك عن الآخرة بل علم أن لهذا البنيان العظيم نهاية ككل شيء على الأرض، فذكر نفسه ومن حوله بذلك.
- إذا اخترنا عدم المواجهة مع العدو في معارك غير متكافئة، فلنا في هذا الملك أسوة، فإنه عمل ما يكف شرهم، والمدار على القدرة. لكن علينا في المقابل تقليل ضرر العدو، ببناء العقيدة والتوحيد وإعداد العدة المادية والمعنوية، وإشاعة العدل، وأداء الحقوق لأهلها، وعدم استغلال حاجات الناس، وفي ذي القرنين أسوة لعفة النفس والعدل.

- إن من أعظم أسباب النجاة من الفتن الملك الصالح الذي يحكم بالحق والعدل ويكف أيدي المفسدين والمضلين، ويحكم بشرع الله، فيحمي التوحيد ويحمي الناس من فتن الدنيا، فلهذا كان إقامة الحاكم الصالح من أوجب الواجبات.
- الحكم والسلطان والتمكين ينبغي أن يسخر لتنفيذ الشرع، وإقامة العدل، وتيسير الأمر على المؤمنين المحسنين، وتضييق الخناق على الظالمين المعتدين، ومنع الفساد والظلم، وإتاحة المجال للمصلحين، وحمايتهم ممن يكيد لهم أو يريد بهم سوءاً.
- إن من أهم نظريات قيام الحضارات ونهضة الأمم نظرية التحدي والاستجابة الإيجابية له، وهذا يتضح بجلاء في بناء السد الذي جاء استجابة لإغارة يأجوج ومأجوج.
- التمكين في الأرض بإرادة الله، يمتن به على عباده، لقوله: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، ومنَّة التمكين تستوجب من المؤمنين شكرها والسعي للحفاظ عليها، وألا يتواكلوا بالاعتماد على فضل الله فحسب.
- في القصة دليل على أهمية الأخذ بالأسباب، فقد أعطى الله ذا القرنين أسباب القوة والتمكين، فأتبعها بتسخيرها والاستفادة منها في تحقيق مراده.
- أسباب التمكين مادية ومعنوية، وأغلب الناس يهتمون بالمادية، فيجب أن لا نغفل المعنوية التي يحتاجها القائد لتكون الأسباب المادية فعالة، فلا بد من قيادة حكيمة عادلة قوية.

- **من الأسباب المادية لتمكين ذي القرنين:** استخدامه العلوم والمعارف الدنيوية المتاحة في عصره، فقد كان عالما بتقسيم الأرض وفجاجها وكان على علم بطبيعة المواد وعلى معرفة بخواصها.
- ومن الأسباب المادية: قيامه ببناء جيش قوي، قوامه رجال أشداء ومحاربون محترفون، ومدهم بأقوى الأسلحة، وهو ما يفسر خضوع المشرق والمغرب لحكمه.
- ومنها: تقوية الدفاعات: فإن من واجبات الحاكم الذي مكن الله له أن يحمي البيضة وأن يسعى لاستمرار التمكين، على أسس علميَّة وفق دراسة ميدانية صحيحة.
- **من الأسباب المعنوية للتمكين:** الإيمان بالله والتعلق به والدعوة إليه وإقامة شرعه: وهذا من أعظم أسباب التمكين.
- ومن الأسباب المعنوية: العدل: ويتجلى هذا في حكمه في أهل المغرب، إذ عامل كلا بما يستحق، فلم يظلم ولم يتعد.
- ومنها: استقامة ميزان التقويم: فالجزاء من جنس العمل، فالمحسن يثاب، والمسيء يعاقب، بغض النظر عن النسب والحسب والقيم الجاهلية، واختلال هذا من أسباب الهلاك وضياع التمكين.
- ومنها كذلك: الصبر لتحقيق المراد: فذو القرنين رجل طواف في الأرض ليقيم العدل والشرع ويفتح الممالك ويعبّد الخلق لربهم، فنجده صابرًا على المشاق وعلى بذل الوسع في التنظيم والتحرك والتأمين.
- ومنها: الشجاعة: كان ذو القرنين قويَّ القلب شجاعاً لم ترهبه

التبعات الضخمة والمسؤوليات العظيمة، والشجاعة الحقيقية لا تتمكن من القلب إلا إذا امتلأ بخوف الله ومراقبته ورجاء ما عنده.

- ومنها: الرحمة: لأنه لم يبادر إلى عقاب أهل المغرب ولكن دعاهم رغبة في نجاتهم، وأعان أهل المشرق ببناء سد يحميهم من يأجوج ومأجوج.
- ومن الأسباب المعنوية: مشاركة الحاكم رعيته في العمل: وليس المقصود أعمال القتال فهذا معهود في الحروب، لكن المقصود إشرافه على بناء السد، وهذا يعين القائد على التحقق من حسن العمل، وتجعله في تواصل مع رعيته.
- ومن ذلك: التوازن في الشخصية والاعتدال: فلم تعكر شجاعته على حكمته، ولم ينقص حزمه من رحمته، ولا حسمه من رفقه وعدالته.
- ومنها: التواضع: وظهر هذا بجلاء في رد ذي القرنين ما هو فيه من تمكين إلى الله ﷻ، وذلك قوله: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ [الكهف: ٩٥].
- ومنها: كثرة الشكر: لأنه كان صاحب قلب حيّ موصول بالله تعالى، فلم تُسكره نشوة النصر، وحلاوة الغلبة بعدما أذل كبرياء المفسدين، بل نسب الفضل إلى ربه، وقال: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ [الكهف: ٩٨].
- ونصرة المظلوم: وهذا ما قام به لما استجار به القوم بين السدين.
- العفة والترفع عن مالٍ لا يحتاجه: فإن القوم المستضعفين لما شكوا

إليه فساد المفسدين، عرضوا عليه الخرج؛ فلم يأخذه لعدم احتياجه، لكنه طلب مساعدتهم في العمل والبناء.

- الواقعية: كان واقعيًّا في تدبير الأمور؛ فقد قدّر حجم الخطر، وما يحتاجه من علاج، فلم يجعل السور من الحجارة، بل جعله من الحديد المقوى بالقطر، ولذا باءت محاولات المفسدين بالإخفاق عندما حاولوا التغلب عليه.
- ومن هذه الأسباب: عدم الاحتجاج بالقدر على ترك العمل: كان ذو القرنين فيما يبدو على علم بأخبار المستقبل مما ورد في الشرائع، فمع علمه بأن للردم أجلاً ينهدم فيه إلا أنه لم يتذرع بذلك للقعود والهوان؛ فبَنَى السد، وبذل فيه الجهد.
- إن وعد الله بالتمكين منصرف لمن آمن به ولم يصرف العبادة لغيره وعمل صالحا؛ وليس ذلك مقصوراً على العبادات أو الإحسان؛ بل يتعدى إلى الأخذ بأسباب التمكين دون أن يتعلق قلبه بها، بل يبقى متعلقاً بالله، وهذا عين التوكل.
- إذا أردنا التمكين فلا بد لنا كخطوة أولى من الرجوع إلى ديننا أفراداً وجماعات ودولاً، ثم لا بدَّ من أخذ الأسباب المشروعة لتحقيق نهضة شاملة تمتلك الأمة بها مفاتيح قوة العصر.
- إن ذا القرنين، كان عالِماً يمتلك العلم والقوّة المادية، وقويًّا غنيًّا، وعادلًا صالحًا، فاستحق تأييد الله وتمكينه، لأنه امتلك أسباب ذلك، فمكّنه الله وأيّده ونَصَرَه.
- إن قصة ذي القرنين تبعث على التفاؤل بمستقبل الأمة، فإنه لما

بلغ مغرب الشمس وجد قوماً محسنين وقوماً مسيئين، وعامل كلاً بما يستحق ووضع حداً للفساد.

- ولما بلغ بين السدين وجد الأمر أشد، فيأجوج ومأجوج فسادهم عظيم، فلم يواجههم، فاختار بذل وسعه لكف شرهم، وسعى لتقليل ضررهم ونجح في إيقافه حتى حين.
- مما يدعو للتفاؤل وجه الشبه بين أمتنا اليوم وبين من بنى السد، فبلاد المسلمين تعتبر متخلفة بالنسبة للعالم من الناحية المادية، وأصحاب السدَّيْن وُصفوا بأنهم ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾، ومع ذلك تمكنوا بفضل الله ثم بمساعدة ذي القرنين من دفع عدوهم، ومنع تعديه عليهم ونشر الفساد فيهم، وإقامة أعظم سد عُرف في التاريخ.
- الإسلام ينهانا أن نعوِّد الناس الكسل أو نعطيهم أجرًا بلا عمل؛ لقد قام ذو القرنين بمهمة الحاكم الممكَّن له، فقوَّى المستضعفين ونقلهم إلى ساحة الجد عاملين.
- كان فقه ذي القرنين في التعامل مع الشعوب المستضعفة هو السعي لنقلها من الجهل والتخلف والضعف إلى العلم والتقدم والقوة، وكان يدير العمل بروح الجماعة، ويشترك بنفسه مع غيره، لما في ذلك من تنشيط ورفع للمعنويات.
- لقد استطاع ذو القرنين أن يحول أمة كاملة من أمة تشتري سلامتها إلى أمة تصنعها وهذا يدل أن القيادة الحكيمة تستطيع أن تفجِّر طاقات المجتمع، وتوجِّهه لتحقيق الخير والغاية المنشودة.
- انتصر القوم الضعفاء على عدوّهم مع ضعفهم لأسبابٍ مهمةٍ

جداً، منها: أنهم سلّموا أمرهم لقيادةٍ حكيمةٍ قويةٍ واثقةٍ، تحكم بما أنزل الله.

- ومنها: أنهم فعلوا ما طُلِبَ منهم، وبذلوا ما عليهم من جهد، واتخذوا كل الأسباب الممكنة التي توافرت لهم.
- ومن ذلك: أنهم استمروا في البحث عن تحرير أنفسهم من سطوة عدوّهم، إلى أن وجدوا الحل الأمثل، من غير أن يقعوا في حبائل عدوٍ آخر، قد لا يقل عمن هربوا منه.
- في الطريق نحو التمكين لابد من ثقة بين القادة وباقي الأمة أو شريحة التغيير والبناء، فلابد للقائد أن يمنح الثقة لأفراد الأمة ويشعرهم بها ويذكي فيهم استغلال قدراتهم.
- **فتنة السلطان، هي الفتنة الرابعة التي تناولتها سورة الكهف،** وتتلخص في أن الناس مختلفون في رغباتهم؛ دينية ودنيوية، وهذا يؤدي إلى نوع تنافس، فإما أن يحسم بطريقة توافقية، وإما أن يحسم بنوع صدام يتسلط فيه الأقوى على الأضعف.
- النجاة من هذه الفتنة تكون بخضوع الحاكم والمحكوم للإرادة الشرعية، فيحكم الحاكم في الرعية بإرادة الله الشرعية، فلا اعتبار لأغلبية وأقلية، ولا اعتبار لأهواء الناس ورغباتهم، وإنما الاعتبار للحق والخير المطلق.
- عرضت سورة الكهف لثلاثة من أصحاب السلطات: فالأول- ملك كافر يحارب الدين ويصد عن سبيل الله؛ يدعو إلى عبادة غير الله وتحكيم غير شرع الله، وهو الذي فر منه الفتية.

- والثاني- ملك ظالم مغتصب لممتلكات الناس، ذكر في قصة الخضر مع موسى، وما أكثر الحكام الذين يتخوضون في أموال شعوبهم ومن يدخل تحت سلطانهم قديماً وحديثاً.
- والثالث- ملك عادل مقسط لم تفتنه السلطة مع سلطانه العظيم الذي بلغ مشرق الأرض ومغربها، وهو ذو القرنين، فكانت عاقبته نيل محبة الله ﷻ وتخليد ذكره في كتابه إلى يوم الدين.
- هذه النماذج الثلاثة تمثل النتائج الممكنة لفتنة السلطة، ولا يخرج أحد ممن ابتلي بها عنها، فمن تصرف فيها وفق شرع الله وأحسن القصد سلم، وإلا عاد السلطان والعزُّ وبالاً عليه في العاجل أو الآجل.
- **من سبل النجاة من فتنة السلطان:** الإيمان وتقوى الله: وهذا يبدو جلياً في قصة ذي القرنين، إذ دلت سيرته الحسنة على تمسكه بذلك فأثنى الله عليه وخلد ذكره دليلاً على نجاته من هذه الفتنة العظيمة.
- ومنها: عدم السعي لها، ومعرفة حقيقة السلطة وهي أنها تكليف لا تشريف، وتحديد الهدف: وهو أن يكون ملكاً صالحاً مصلحاً، وحسن اختيار البطانة والأعوان.
- ومن سبل النجاة كذلك: الرفق بالرعية، واستشعار خطر السلطة وأن الولاية مغرم ووظيفة شاقة.
- القيام بحقوق السلطة ومنها: الحكم بالشرع، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والعدل، والتعفف، وعدم المحاباة.

- هذه بعض الأسباب التي تعين على النجاة من فتنة السلطان، ومما ينبغي التنبه له أن هذه الفتنة ليست مختصة بالولايات العامة، بل كل من ولي أمراً من أمور المسلمين له حظ منها بحسبه.
- إن تغييب الشرع عن الحكم من مظاهر فتنة السلطان، ومن ضيع حق الله في تحكيم شرعه لا يبعد أن يضيع حقوق العباد، فيسير فيهم بسيرة سيئة.
- فتنة السلطة عظيمة، لأنها باب للشهوات، وهي فتنة لغير السلاطين كذلك لو كانوا من أهل الديانة! ولاسبيل لتخلص العامة منها إلاّ باعتزالها تارة كما فعل أصحاب الكهف، أو بالتحايل، كما صنع الخضر لأصحاب السفينة.
- هذه الفتنة لا يسلم منها أحد، إلا من عصمه الله وأيده وسدده، لا فرق في ذلك بين العامة والخاصة، ولا فرق بين أهل الدين وغيرهم. ولئن كان تنكب طريق النجاة من أهل الفسق مرذولاً فإنه من أهل الإيمان أشد، ولعظم الأمر عدَّ النبي ﷺ من السبعة الذين يظلهم الله في ظله (إمام عادل).

قال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾ [الكهف]

- قد يمر على الإنسان نوع بلاء في الدنيا ولا يمر عليه غيره، ولكن أحداث القيامة ستمر على الكل، والمؤسف أن كثيراً منا لا يتمثل أنه مخاطب بها، فانتقلت الآيات لمشهد من مشاهد يوم القيامة.
- كثر ذكر هذا اليوم العظيم إجمالا وتفصيلا في القرآن، وتنوعت صوره ومشاهده، لما في التكرار والتنوع من أثر عظيم على القلب، إذ تأخذ به إلى ربه جل وعلا مخبتاً منيباً مجيباً داعيه.
- ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ لأن خروج يأجوج ومأجوج من علامات الساعة[1]، وهذه العلامات إذا بدأت تتابعت مسرعة إلى نفخ في الصور.

(١) تفسير البغوي ٥/ ٢٠٩ بتصرف يسير.

قال تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الكهف]

- حذرت بداية السورة كل عاقل ومتبصر وكل حاذق ومتفطن، كي لا يصل لهذه المرحلة ولا تعرض عليه جهنم؛ بل ليكون نزله الفردوس، فناسب أن تختم السورة بتفصيل ما لكل فريق.
- ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ عرضها: إبرازها وإظهارها، ليروا العذاب والنكال قبل دخولها، ليكون أبلغ في تعجيل الهم والحزن.
- ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ أي: لا يقدرون على سمع آيات الله الموصلة للإيمان، لبغضهم القرآن والرسول، فإن المبغض لا يستطيع أن يلقي سمعه لمن أبغضه، فقد كفروا بالله وجحدوا آياته، وكذبوا رسله، فاستحقوا جهنم[1].
- الصمم في آذان الكفار حال بينهم وبين قبول الحق وإفراد الله ﷻ بالعبادة والوحدانية، فعموا وصموا واتخذوا من دونه أولياء شتى فتاهوا في الضلال.

---

(١) تفسير السعدي ١/ ٤٨٧ بتصرف يسير.

- الهمزة في قوله: ﴿أَفَحَسِبَ﴾ للإنكار والتوبيخ. وفي الآية حذف دل المقام عليه، قال بعضهم: تقدير المحذوف: أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء ولا أعاقبهم العقاب الشديد؟ كلا! بل سأعاقبهم[1].
- لا بد أن يبحث كل من كان له ولايةٌ في شأنه وأحواله هل ولايته مخالفة لولاية الله ﷻ، كانت لأمير أو وزير، أو زوجة أو أولاد، أو غير ذلك، فكل من اتخذ ولاية مخالفة لولاية الله سبحانه فهو داخل في الآية.
- ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ هذه الآية في كل من عبد الله على غير طريقة مرضية يحسب أنه مصيب، وأن عمله مقبول، وهو مخطئ، وعمله مردود[2].
- هؤلاء القوم لا يتحصل لهم من الأعمال -التي ظنوا أنها منجاة لهم- شيء؛ لأنها فقدت الشرط الشرعي، إما الإخلاص وإما المتابعة. فكل عمل لا يكون خالصاً وعلى الشريعة المرضية، فهو باطل[3].
- حال الزنادقة وكثير من العلمانيين والليبراليين في بلادنا وغيرها من البلاد، أنهم يخططون ويقومون بالمشاريع لتغريب الأمة

---

(١) أضواء البيان ٣/ ٤١٣ بتصرف واختصار.

(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ٢٠٢ بتصرف واختصار.

(٣) تفسير ابن كثير ٦/ ١٠٣ بتصرف واختصار.

وسلخها عن تراثها وثوابتها ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً، لكفرهم وإنكارهم البعث، أو لجهلهم وضلالهم، أو لاتباعهم الشهوات والشبهات.

- لا يقيم الله سبحانه للكفار وزناً يوم القيامة، فهم في الحساب أذلاء حقراء، ومن بعده في نار جهنم مهانون منسيون، مع أنهم في الدنيا كانوا يختالون ويتطاولون على عباد الله المؤمنين.
- إن كل خسارة في الدنيا يمكن أن تعوض أو يزول ضررها قريبا، أما إن أتت القيامة وقد كتبه الله من الخاسرين فأنى تعوض؟
- العبرة ليست بالصور الزائلة وإنما بالمعاني الباقية، والموازين عند الله غير موازين الدنيا، فإذا كان الكافر لا وزن له عند الله، فقدر المؤمن عنده على النقيض والعبرة بالخواتيم.
- إن الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بجوارحهم، وشمل هذا الوصف جميع الدين، عقائده وأعماله، أصوله وفروعه الظاهرة والباطنة، فهؤلاء -على اختلافهم في الإيمان والعمل الصالح- لهم جنات الفردوس"[1].
- في الإتيان بـ﴿كَانَتۡ﴾ في جزاء أهل الجنة لأن استحقاقهم الجنات مستقر من قبل، مهيأ لهم، وجيء بلام الاستحقاق تكريماً لهم بأنهم نالوا الجنة لإيمانهم وعملهم، وجمع الجنات إيماءً إلى سعة

---

(١) تفسير السعدي ص: ٤٨٨ بتصرف.

نعيمهم"[1].

- في الآية بيان أن إيمان القلب لا يكفي لدخول الجنة كما ادعت المرجئة، فلا بد من العمل الصالح، ومذهب أهل السنة أن الإيمان اعتقاد بالجنان وقول باللسان وعمل بالأركان.
- في قوله: ﴿لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾ تنبيه على رغبتهم فيها، وحبهم لها، مع أنه قد يتوهم فيمن هو مقيم في المكان دائمًا أنه يسأمه أو يمله كما في إقامات الدنيا، فأخبر أنهم مع هذا الخلود السرمدي، لا يختارون عن مقامهم ذلك متحولاً ولا انتقالاً ولا بدلاً"[2].

قال تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ﴿١٠٩﴾ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف]

- **لطيفة:** كما بدأ الله سبحانه السورة بتشريف نبينا محمد ﷺ بعبوديته المستلزمة لبشريته وبتشريفه بالوحي، أنهى السورة بمثله ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾، فمن تأمل ختام السورة وجدها عادت لتأكيد ما افتتحت به.

---

(١) التحرير والتنوير ١٦/ ٤٩ بتصرف واختصار.

(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ٢٠٤ بتصرف يسير.

- ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ أي: موافق لشرع الله، من واجب ومستحب، ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ أي: لا يرائي بعمله بل يعمله خالصاً لوجهه، فمن جمع بين الإخلاص والمتابعة ينال ما يرجو ويطلب[1].
- **فائدة:** تبين الآية أن النبي ﷺ يشترك مع بني آدم في أصل البشرية، ومن هذه الجهة لا فرق بينه وبينهم، ومع الاشتراك في البشرية إلا أنه فضل بالنبوة والرسالة، المنحة الإلهية التي تنال بمحض اصطفاء الله ﷻ.
- في التركيز على التوحيد في آخر كلمة من السورة، لفت إلى أهميته، فقد يعمل الإنسان صالحاً لكنه يخلطه بالشرك وبإرادة غير الله فيجعله الله كأن لم يكن.
- في اقتران التوحيد بالعمل الصالح لفت إلى الحرص على صلاح العمل، فقد يكون المرء موحداً ويأتي بأعمال صالحة لكنه يخلطها بسيئة قد تحبط عمله.

---

(١) تفسير السعدي ١/ ٤٨٩ بتصرف واختصار.

الخاتمة

وفيها سرد لمعالم رئيسة للخروج من الفتن ذكرت في مواضع متفرقة من السورة صراحاً أو تلميحاً

- جماع الخير كما أرشدت السورة التمسك بالكتاب القيم الذي لا عوج فيه القرآن، فمتى اعتصم العبد به أمن الفتنة.
- تذكر بأس الله وعذابه: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ [الكهف:٢]، ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾﴾، ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف:٢٩]، وغيرها من الآيات ولاسيما أواخر السورة.
- تذكر ثواب الآخرة وما أعده الله للمؤمنين: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾.
- النأي عن الخوض في الدين بغير علم: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾.
- الإيمان الصادق سبب للهداية ﴿ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف:١٣].
- سؤال الهداية والثبات لمن بيده هداية القلوب وإضلالها: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾.
- المجاهرة بالبراءة من الكفر من أسباب تثبيت الله للعبد على الحق، ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾.
- الابتعاد عن مواجهة الظلمة في حال عدم القدرة على تغيير المنكر

﴿فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ [الكهف:١٦]، ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾.

- الفرار من الفتن واعتزالها والبعد عن التصدر لها، ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الكهف: ١٦].
- صبر النفس مع الصحبة القانتة لربها تريد وجهه، لا تخطيهم لغيرهم: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف:٢٨].
- ذكر الله، والبُعد عن الغفلة، وعدم طاعة الغافلين عن ذكره: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾، وأضاع حياته ووقته في غير طاعة الله.
- التفكر في حقيقة البشرية ومبدأ أمرها ومصيرها ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾، ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ [الكهف: ٤٥].
- شكر النعم ونسبتها لمسديها جل وعلا ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩].
- تذكر المعاد وأهوال يوم البعث والنشور وما وراءه ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ إلى قوله: ﴿أَحَدًا﴾[الكهف: ٤٧].
- اتخاذ الشيطان عدواً والعلم بأنه عدو لنا ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].
- تدبر القرآن وما صرفه الله من الأمثال فيه ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الكهف: ٥٤].

- ترك المراء والجدال وقبول الحق والإذعان إليه متى بدا: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ [الكهف: ٥٦].
- الإقبال على آيات الله والحذر من الإعراض عنها عند التذكير بها: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [الكهف: ٥٧].
- الحذر من الظلم بأنواعه وأعظمها الشرك ومحاربة تفشيه في المجتمع: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾.
- التواضع للعلم وطلبه ولو كلف ذلك المرء عنتاً، فقد حرص عليه أكمل البشر في زمنه، المسدد بالوحي، موسى عليه السلام وسافر في طلبه، ﴿لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾ [الكهف: ٦٠].
- التَّروي في الأمور التي لم نحط بها من جهة واقعها أو أدلتها.
- الصلاح لأن نفعه يعود على الذرية: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ٨٢].
- التعامل مع الخليقة بالشرع لا الأهواء كما في قصة ذي القرنين.
- القيام بواجبات الولاية على وجهها، لأنها تقوم على إصلاح شؤون المولى عليهم وخدمتهم، مع إقامة دين الله وحكمه.
- العبادة والعمل على بصيرة لا بالأهواء، فقد أخبر الله عن أناس ضل سعيهم في الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.
- تحقيق التوحيد والنأي عن الشرك وأسبابه.

فهذه جملة أسباب معينة على الثبات وعاصمة بإذن الله من الفتن، أسأل الله أن يعصمني وعامة المسلمين من الفتن ما ظهر منها وما بطن، و ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾، وصلى الله وسلم على النبي المصطفى والرسول المجتبى، وعلى آله وصحبه الذين ارتضى.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * * * * *

* * * *

* * *

*

الفهرس

فهرس الآيات

الآيـــة	رقم الصفحة
ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾	٥٣
﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾	٥٦
﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾	٦٠
﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾	٦١
﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾	

الآيــــة	رقم الصفحة
وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَـٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ ﴾	٦١
﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾	٦٣
﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾	٦٦
﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَـٰبٍ وَحَفَفْنَـٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ ﴾	٧٦
﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَـٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا	

الآيــة	رقم الصفحة
(٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا (٣٥) وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦) ﴾	٧٩
﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا (٣٧) لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا (٣٨) وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا (٤١) ﴾	٨١
﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا (٤٢) وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا (٤٣) هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (٤٤) ﴾	٨٤
﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥) ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (٤٦) ﴾	٨٨
﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧) وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن	

الآيــــة	رقم الصفحة
نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾	٩٢
﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾	٩٤
﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ ﴾	٩٨
﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ ﴾	٩٩
﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟	

* * * * * *

* * * *

* * *

*

فهرس الموضوعات

* * * * * *

* * * *

* * *

*

سلسلة إصدارات مؤسسة ديوان المسلم (١٤)

إشراقات سورة الكهف

تفسير تدبري موضوعي لسورة الكهف

ناصر بن سليمان العمر
المشرف العام على مؤسسة ديوان المسلم
الأمين العام لرابطة علماء المسلمين

الطبعة الأولى

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العمر ، ناصر بن سليمان
إشراقات سورة الكهف: تفسير تدبري موضوعي لسورة الكهف /
ناصر بن سليمان العمر - الرياض. ١٤٣٤هـ.
٧٣٦ ص ؛ ١٧ × ٢٤سم
ردمك: ١-١٩٥٦-٠١-٦٠٣-٩٧٨
١- القرآن، سورة الكهف، تفسير ٢- القرآن، التفسير الحديث
أ- العنوان
ديوي: ٢٢٧.٦ ١٤٣٤/٣٥٩٥

رقم الإيداع: ١٤٣٤/٣٥٩٥
ردمك: ١-١٩٥٦-٠١-٦٠٣-٩٧٨

مؤسسة ديوان المسلم
ص.ب ٩٣٤٠٤ الرياض ١١٦٨٤
هاتف: ٢٥٤٩٩٩٣ فاكس: ٢٥٤٩٩٩٦

الطبعة الأولى
١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وبعد.

فبين يديك أيها القارئ الكريم كتاب نتناول فيه سورة الكهف بالشرح والتحليل، والتدبر والتفسير، وإنما اخترنا هذه السورة، لأن كثيراً من الناس يقرؤونها يوم الجمعة أو ليلتها طلباً للأجر، فالفائدة من تقريب معانيها للناس كبيرة، لأن منهم من قد يمر على بعض آياتها دون فهم، أو تنبه لأسرارها، أو إدراك لمقاصدها. ولما كان الأَولى أن تُقرأ بفهم وتدبر، ثم تعلم الأهلَ والأبناءَ والتلاميذَ للعمل، فقد رأيت أن أفردها بكتاب يعين على تدبرها على الوجه الذي ينتفع به، فإن الفائدة لتالي القرآن إنما تتحقق بتدبر آياته، وفهم المراد عن الله عز وجل، ثم العمل به، لا الاكتفاء بالتلاوة دون فهم وتدبر، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص]، وقد نعى الله عز وجل على من لا يتدبر القرآن فقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد]! فلا بد إذاً من القراءة بتدبر، وهو ما نرجوه من الكتاب.

إن التدبر منحة من الله يفتح بها على من يشاء، فيريهم من حكم وأسرار ولطائف الآيات ما لا يكاد يدرَك بغير تدبر، والأمر يحتاج إلى شيء من الدُّربة، وكثير من الصبر والرجوع إلى كلام أهل العلم ليستضاء به، كي لا يضل المرء برأيه عن سواء السبيل، وقبل كل ذلك فلا بد من الإخلاص وصدق التوجه إلى الله والتوكل عليه، إذ ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ [فاطر].

فإذا داوم المرء على التدبر صار له عادة وسجية في كل شؤون حياته،

فيعالج المشكلات العامة والخاصة، وهذا من بركة القرآن الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ٤٢﴾ [فصلت]. أسأل الله أن ينفع بهذا الكتاب كاتبه وقارئه، وأن يجعل ما فيه خالصاً لوجهه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

مقدمات بين يدي السورة

يحسن بنا قبل الشروع في التفسير أن نذكر مقدمات تعين القارئ على التدبر والتفكر، مع ما فيها من فوائد عامة تتعلق بالقرآن.

أولاً- اسمها:

سور القرآن تسمى بما له تعلق بشيء مما ذكر فيها، تنبيهاً على أهميته وصرفاً للأنظار للتأمل والتدبر فيه، فسورة البقرة مثلاً نسبة إلى قصة بقرة بني إسرائيل، وسورة المائدة نسبة للمائدة التي طلب الحواريون إنزالها، فكان في إنزالها آية عظيمة لهم ولمن جاء بعدهم، وسورة لقمان لورود ذكره فيها، لفتاً لما أجرى الله ﷻ من صنوف الحكمة على لسانه. فكذلك هذه السورة، فقد اشتهرت بسورة الكهف، وتسمى سورة أهل الكهف، وسورة أصحاب الكهف، ومرجعها جميعاً إلى أول قصة وردت فيها، قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ ﴾ [الكهف] ، وهي قصة عجيبة جليلة تدل على كمال قدرة الله ﷻ وإرادته وقيوميته، وقد حوت كثيرا من العبر والدروس التي يحتاجها المؤمنون دائما فناسب أن تسمى السورة بها.

وقد جاءت تسمية هذه السورة على لسان النبي ﷺ في غير ما حديث، كقوله في حديث الدجال الذي رواه النواس ابن سمعان رضي الله عنه: "فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف"(١)، وقوله في حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه: "وليقرأ فواتح سورة أصحاب الكهف"(٢)، قال المخللاتي: (وتسمى

---

(١) صحيح مسلم ٤/ ٢٢٥٠ (٢٩٣٧).

(٢) المستدرك ٤/ ٥٨٠ (٨٦٢٠)، قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

سورة أهل الكهف، وعن ابن عباس أنها تدعى في التوراة السورة الحائلة؛ لكونها حائلة بين قارئها والنار)[1]، وقد رُوي مرفوعا لكنه ضعيف[2].

ثانياً- لمحة عن الكهوف:

١) لابد أن نعلم أن لله تعالى حكما، علمها من علمها وجهلها من جهلها، وأكثر خَلْقِ الله مخلوق لِحِكَمٍ يجهلها أكثرُ الخلق، فقد نجهل حكمة خلق الدودة أو الحشرةَ أو الصخرةً أو الذرة، ولكن الله خلقها لحكمة ما خلقها باطلاً، وقد قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأنبياء]، وقال: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الدخان]، فكل هذا الكون مخلوق لحكمة ولم يخلق عبثاً. وقد أثنى الله على المتفكرين في المخلوقات فقال: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران]، وفي المقابل ذم آخرين فقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [ص].

والكهوف من جملة خلق الله، لم توجد عبثاً، بل خلقها الله بما شاء من الأسباب، لما يشاء من الحكم، وعلينا أن نتفكر فيها؛ وأن ننظر في عجائبها ونلتمس منافعها.

٢) الكهف: هو الشق المتسع في جبل، فإن لم يكن متسعاً فهو غار،

---

(١) شرح المخللاتي على ناظمة الزُّهر في عدِّ آيات المثاني للشاطبي ١/ ١٥٦.

(٢) انظر شعب الإيمان للبيهقي ٥/ ٤٥٧ (٢٣٤٨)، والسلسلة الضعيفة ٧/ ٢٥٦ (٣٢٥٩).

أشار إلى هذا الفرق الليث وغيره من علماء اللغة(١). وأما أهل العلوم الطبيعية المعاصرة فلا يفرقون بين الكهف والغار غالباً، ويعرف كثير منهم الكهف بأنه: تجويف طبيعي تحت سطح الأرض أو في الصخور يسمح بدخول الإنسان فيه، فهذا حد أصغره، وأما أكبر الكهوف المكتشفة الآن فيبلغ طول امتدادات أفرعه ٣٩٠ ميلاً (نحو ٦٢٧ كلم)، ويسمى كهف الماموث بولاية كنتاكي في أمريكا، بعده كهف آخر في أمريكا يبلغ طول أفرعه ١٥٠ ميلاً (نحو ٢٤٢كلم)، وهو قريب من طول كهف ثالث في أوكرانيا، يضاهيهما رابع في ماليزيا، وبعض الكهوف عميق، ينزل إلى الأسفل قرابة الكيلومتر وربما أكثر من ذلك، وبعضها يتدرج في الارتفاع، وعجائب الله في خلقها ومخلوقاتها وأشكال تجاويفها كثيرة ربما طالع بعضنا شيئاً يسيراً يشبهها في الصمّان أو غيرها.

ومن الفروق بين التعريف اللغوي وتعريف علماء الطبيعة:

• أن ما يسع إنساناً واحداً أو اثنين ونحوه يسمى غاراً في اللغة، ولا يسمى كهفاً إلَّا إذا كان متسعاً، ومن أدلة أن ما يسع اثنين يسمى غاراً قوله تعالى: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠]، ومن لوازم اتساع الكهف أن تكون له رهبة بسبب الظلمة وأصداء الأصوات وما قد يكون فيه من المخلوقات.

• أن الكهف في اللغة إذا أطلق يكون في الجبل لا غير، لا يكون في الأرض السهلة المنبسطة، أو الوهدة المنخفضة، بل الأرض الوعرة

(١) ينظر المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده ٤/ ١٤٥، والعباب الزاخر للصاغاني ٢/ ١١، والقاموس وغيرها.

المرتفعة، فإذا كان في غير الجبل قُيِّد فقيل كهف في البحر أو في كذا ليُمَيَّز.

٣) من مميزات الكهوف بالمعنى اللغوي أنها مآوٍ آمنة، يلجأ إليها الناس، لوعورة مسالكها وبعدها عن المدن والبنايات في العادة.

ولهذا فإن الباحث عن موضع أصحاب الكهف المذكورين في القرآن يجد عجباً من اختلاف الناس!

فمن قائل في القدس، ومن قائل في الأردن، ومن قائل في أفسس، ومن قائل في أبسس -وهي غير الأولى- ومن قائل بآسيا الصغرى (تركيا)، ومن قائل في أسكتلندا؛ قال ابن عاشور: (الأخبار الزائفة عن تعيينه ... كثيرة. وفي جنوب القطر التونسي موضع يدعى أنه الكهف، وفي مواضع أخرى من بادية القُطْر مشاهد يسمونها السبعة الرقود، اعتقاداً بأن أهل الكهف كانوا سبعة، وستعلم مثار هذه التوهمات)[1].

والمقصود: أن سبب هذا الاضطراب هو كون الكهوف اتخذت ملاجئ على مدار التاريخ، وكثير ممن لم يحقق كلما وجد كهفاً فيه آثار حياة سابقة بعدد معين، حمله على قصة أصحاب الكهف تخرصاً بالظن، بل الأطرف أن بعض الذين وجدوا كهوفاً فيها أموات حملوها على قصة أصحاب الكهف، وبنوا على عدد الجثث عدد أصحاب الكهف!

مع أن الدراسات التاريخية والإنسانية تفيد بأن الكهوف استخدمتها بعض الأمم عوضاً عن دفن الموتى قديماً! فلا يبعد أن يكون ذلك الكهف مجرد مقبرة! وفي الآثار الثمودية والنبطية قريباً من العلا مثلاً ما يشعر بأن القوم اتخذوا بعض الكهوف (ربما الطبيعية) مقابر، كما أخبر الله تعالى أنهم نحتوا من الجبال بيوتاً.

---

(١) التحرير والتنوير ٨/ ٣٣٥.

وقد أفادت الدراسات الإنسانية التاريخية بوجود حياة في بعض الكهوف بعضها يعود إلى ٤٠٠٠٠ سنة (أربعين ألف سنة) فيما زعموا، ذكروا ذلك عن كهوف (نياه) في ماليزيا، وذكروا عن كهوف أخرى في جنوب أفريقيا ما هو أبعد في التاريخ من ذلك. فالكهوف إذاً لجأ إليها الناس من قديم الزمان فراراً من الفتن أو الاضطهاد من عدو غاشم ونحوه.

٤) تختلف أنواع الكهوف في طبيعتها وتتفاوت تفاوتاً كبيراً، من حيث: امتدادها، وسعتها، وسفولها، وصعودها، وطريقة تكونها، ومادتها؛ فبعضها من الأحجار الجيرية، وبعضها يغلب على تكوينه الرخام، وبعضها الملح، وبعضها من أنواع أخرى من الصخور، وأكثرها من الأحجار الجيرية، التي تذوب وتتسع بفعل عوامل مختلفة. وبعضها قد تتصل به عيون، وبعضها قد يتجمد به الماء، وبعضها قد يحتوي كميات من مياه حمضية أو مياه عذبة أو غيرها.

٥) تختلف الكهوف في مدد تكونها، فقد يحدث بركان أو زلزال فيكَوِّن بعضَها فجأة، وقد تحدِث عوامل التعرية بعضَها على امتداد الأعوام والآجال البعيدة، وفي الظروف العادية لا تتشكل الكهوف بسرعة، بل تحتاج إلى مدد بعيدة وآجال طويلة جداً للتشكل، أما تحت الظروف غير الاعتيادية فيمكن أن تتشكل بسرعة.

٦) الناس لا تلجأ إلى العيش في الكهوف عادة إلَّا بسبب ظروف طارئة أو شدة نازلة، خوفاً من عدو في الغالب، فهم يحتاجون لسهول يرعون فيها، وأراض يحرثونها ويزرعونها، وتجرى فيها معاملاتهم. أما الكهوف فهي ملاجئ يفزع الناس إليها للضرورة غالباً، وللنزهة أحيانا.

ثالثاً - العلاقة بين الكهوف وبين اسم السورة:

إذا علمنا أن فرار الناس إلى الكهوف خوف اضطهاد ديني وقع في التاريخ مراراً، علمنا أن للكهف تعلقاً أكبر، وبعدا أوسع في علاقته بهذه السورة؛ فلقد ذكرت هذه السورة أعظم الفتن التي تجتال البشرية عبر الزمن: الفتنة في الدين، كما في قصة أصحاب الكهف، والفتنة في المال والولد، كما في قصة صاحب الجنتين، والفتنة في العلم، كما في قصة موسى والعبد الصالح عليهما السلام، والفتنة في السلطان، كما في قصة ذي القرنين، وفي وسطها الإشارة إلى الفتنة الأولى فتنة إبليس للأبوين عليهما السلام، وقد قدم لهذه الموضوعات وعقب بذكر أسباب الوقاية منها التي فيها العصمة وطرق معالجتها حين التعرض لها. فسورة الكهف تضع للمؤمن كهوفاً تعصمه من أشد الفتن في حياته، ومن ثم فهي عاصمة من أعظَم فتن الدنيا على الإطلاق؛ فتنة الدجال؛ فمن فزع إلى قراءتها فزع إلى ملجأ حصين وكهف واسع، يضيء له نوراً مبيناً يسترشد به في طريق سيره إلى الله. وإذا كانت السورة كالكهف تنحت في نفوس قارئيها كهوفاً تعصمهم وتكون كالملاجئ بالنسبة لهم، فقد تقدم ذكر الكهوف وبيان بعض أحوالها وتباينها في صفاتها، فمنها الكبير المتسع المهيب، ومنها دون ذلك، ومنها ما تكون مادته شريفة عزيزة ومنها دون ذلك، ومنها التي تتشكل في أوقات الأزمات بعد الزلزلة والشدة، ومنها ما تنحته القطرات على مرور الدهور والأعصار. وهكذا المتدبر لهذه السورة، فبقدر استفادته منها وتدبره لمعانيها وتحققه بما فيها، تكون صفات كهفه الذي يفزع إليه حال الملمة وأمام الفتن. والذي لم تُفده سورة الكهف نجاةً في حياته من فتن الدنيا، فحري ألا تعصمه من فتنة الدجال!

رابعاً - وقت نزولها:

الصحيح من أقوال أهل العلم أن المكِّيَّ ما نزل قبل الهجرة، والمدنِيَّ ما نزَل بعدها وإن نزل بغيرهما، كقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] نزلت بعرفة عام حجة الوداع، فهي داخلة في المدني على هذا التقسيم.

وقد نزلت سورة الكهف في مكة قبل الهجرة، فهي مكية على كل حال[١]، وقال ابن عطية والقرطبي: (مكية في قول جميع المفسرين، وروي عن فرقة أن أول السورة نزل بالمدينة إلى قوله: ﴿جُرُزًا﴾، والأول أصح)[٢]، وقد استُثنيت منها بعض الآيات، قال المخللاتي: (عن ابن عباس وقتادة استثناء آيات منها وهي قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾، إلى تمام القصة نزل بالمدينة، واستثنى بعضهم من أول السورة إلى ﴿جُرُزًا﴾، وآية ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾، و ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إلى آخر السورة)[٣]، وذكر الطبري عن عمرو بن قيس الكندي، أنه سمع معاوية بن أبي سفيان تلا هذه الآية: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ وقال: (إنها آخر آية نزلت من القرآن)[٤]، فإن ثبت ما نقل عن ابن عباس ومعاوية رضي الله عنهما، صح هذا الاستثناء، وأما ما لم يثبت استثناؤه فله حكم السورة العام، كما قال

(١) الناسخ والمنسوخ لابن سلامة ١/ ١٩.
(٢) تفسير ابن عطية ٣/ ٤٩٤، تفسير القرطبي ١٠/ ٣٠١.
(٣) شرح المخللاتي ١٥٦، وانظر الإتقان ١/ ٥٠.
(٤) تفسير الطبري ١٨/ ١٣٦.

العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)].

وقد يستدل بعض من قال بمدنية آية ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ بحديث رواه ابن ماجه في سننه عن خباب رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ ...إلى قوله... فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٢﴾ قال: "جاء الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري، فوجدوا رسول الله ﷺ مع صهيب وبلال وعمار وخباب، قاعداً في ناس من الضعفاء من المؤمنين. فلما رأوهم حول النبي ﷺ حقروهم، فأتوه فخلوا به وقالوا: إنا نريد أن تجعل لنا منك مجلساً تعرف لنا به العرب فضلنا، فإن وفود العرب تأتيك فنستحيي أن ترانا العرب مع هذه الأعبد، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنك، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت. قال: نعم. قالوا: فاكتب لنا عليك كتاباً، قال: فدعا بصحيفة، ودعا علياً ليكتب ونحن قعود في ناحية، فنزل جبرائيل عليه السلام فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٢﴾ [الأنعام] ثم ذكر الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ۝٥٣﴾ [الأنعام]. ثم قال: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ﴾ [الأنعام: ٥٤]. قال: فدنونا منه حتى وضعنا ركبنا على ركبته، وكان رسول الله ﷺ يجلس معنا، فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا فأنزل الله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ ولا تجالس الأشراف ﴿تُرِيدُ

---

(١) أول تفسيره لسورة الكهف؛ قال: (الأصل أن السُّوَر المكيَّة مكيَّةٌ كلها وأن المدنيَّة مدنيَّةٌ كُلُّها، فإذا رأيت استثناءً فلا بد من دليل).

﴿زِينَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ يعني عيينة والأقرع"[١]، إلا أن الحافظ ابن كثير رحمه الله قال بعد أن أورد طرفاً من هذا الحديث: (وهذا حديث غريب، فإن هذه الآية مكية، والأقرع بن حابس وعيينة إنما أسلما بعد الهجرة بدهر)[٢]، يريد رحمه الله بالآية آية الأنعام، وأيده الألباني[٣].

وعلى التنزل بحفظ قوله: (يعني الأقرع وعيينة)، فلا يلزم منه أن تكون الآية نزلت فيهما، قال ابن تيمية رحمه الله: (وقولهم نزلت هذه الآية فى كذا؛ يراد به تارة أنه سبب النزول، ويراد به تارة أن ذلك داخل فى الآية وإن لم يكن السبب، كما تقول عنى بهذه الآية كذا)[٤]، ثم على التنزل أنها نزلت فيهما؛ فيحتمل أن تكون نزلت مرتين؛ مرة في مكة والثانية في الأقرع وعيينة في المدينة، وبهذا يزول الإشكال، قال الزركشي: (قد يحدث سبب من سؤال أو حادثة تقتضي نزول آية وقد نزل قبل ذلك ما يتضمنها، فتؤدى تلك الآية بعينها إلى النبي ﷺ تذكيراً لهم بها وبأنها تتضمن هذه)[٥]، والله أعلم.

مميزات القرآن المكي:

- من أهم ما يميز المكي عن المدني: أن أغلب السور المكية يكون النداء فيها للناس: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ﴾، أما السور المدنية فغالبها يكون النداء فيه للمؤمنين: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، وقد يختلف هذا في بعض المواضع.

- قال الزركشي: (كل سورة فيها ﴿كَلَّا﴾ فهي مكية، وكل سورة

(١) سنن ابن ماجه ٢/ ١٣٨٢ (٤١٢٧)، وصححه الألباني.
(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٦٠.
(٣) السلسلة الصحيحة ٧/ ٨٧٥-٨٧٦ (٣٢٩٧).
(٤) مجموع الفتاوى ١٣/ ٣٣٩.
(٥) البرهان في علوم القرآن ١/ ٣١.

أولها حروف المعجم فهي مكية، إلا البقرة وآل عمران، وفي الرعد خلاف؛ وكل سورة فيها قصة آدم وإبليس فهي مكية سوى البقرة، وكل ما كان فيه ذكر القرون الماضية فهي مكية)[١].

- قال ابن تيمية: (السور المكية تضمنت الأصول التى اتفقت عليها رسل الله، إذ كان الخطاب فيها يتضمن الدعوة لمن لا يقر بأصل الرسالة، وأما السور المدنية ففيها الخطاب لمن يقر بأصل الرسالة؛ كأهل الكتاب الذين آمنوا ببعض وكفروا ببعض، وكالمؤمنين الذين آمنوا بكتب الله ورسله، ولهذا قرر فيها الشرائع التي أكمل الله بها الدين، كالقِبلة والحج والصيام والاعتكاف والجهاد وأحكام المناكح ونحوها، وأحكام الأموال، بالعدل: كالبيع، والإحسان: كالصدقة، والظلم: كالربا، وغير ذلك مما هو من تمام الدين)[٢].

- ومما يميز المكي أنه كما قال الزرقاني: (حمل حملة شعواء على الشرك والوثنية، وعلى الشبهات التي تَذَرَّع بها أهل مكة للإصرار على الشرك والوثنية، ودخل عليهم من كل باب، وأتاهم بكل دليل، وحاكمهم إلى الحس، وضرب لهم أبلغ الأمثال، حتى انتهى بهم إلى أن تلك الآلهة المزيفة لا تقدر أن تخلق مجتمعة أقل نوع من الذباب، بل لا تستطيع أن تدفع عن نفسها شر عادية الذباب)[٣].

- ومما يميزه كذلك أنه كما قال أيضاً: (سلك مع أهل مكة سبيل الإيجاز في خطابه، حتى جاءت السور المكية قصيرة الآيات صغيرة السور، لأنهم كانوا أهل فصاحة ولَسَن، صناعتهم الكلام، وهمتهم البيان،

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي ١/ ١٨٨.
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٥/ ١٦٠.
(٣) مناهل العرفان ١/ ١٤٢.

فيناسبهم الإيجاز والإقلال، دون الإسهاب والإطناب)[(١)].

وللتوسع في ذلك يرجع لكتب علوم القرآن.

خامساً- سبب نزولها:

قال ابن عاشور: (وسبب نزولها ما ذكره كثير من المفسرين وبسطه ابن إسحاق في سيرته بدون سند، وأسنده الطبري إلى ابن عباس بسند فيه رجل مجهول: أن المشركين لما أهمهم أمر النبي ﷺ وازدياد المسلمين معه، وكَثُر تساؤلُ الوافدين إلى مكة من قبائل العرب عن أمر دعوته، بعثوا النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة (يثرب)، يسألونهم رأيهم في دعوته، وهم يطمعون أن يجد لهم الأحبار ما لم يهتدوا إليه مما يوجهون به تكذيبهم إياه. قالوا: فإن اليهود أهل الكتاب الأول وعندهم من علم الأنبياء -أي صفاتهم وعلاماتهم- علم ليس عندنا، فقدم النضر وعقبة إلى المدينة، ووصفا لليهود دعوة النبي ﷺ وأخبراهم ببعض قوله. فقال لهم أحبار اليهود: سلوه عن ثلاث، فإن أخبركم بهن فهو نبيء، وإن لم يفعل فالرجل مُتَقَوِّل، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرهم؟ وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وسلوه عن الروح ما هي؟ فرجع النضر وعقبة فأخبرا قريشاً بما قاله أحبار اليهود، فجاء جمع من المشركين إلى رسول الله ﷺ فسألوه عن هذه الثلاثة، فقال لهم رسول الله ﷺ: أخبركم بما سألتم عنه غداً -وهو ينتظر وقت نزول الوحي عليه بحسب عادة يعلمها- ولم يقل: إن شاء الله. فمكث رسول الله ثلاثة أيام لا يُوحَى إليه، وقال ابن إسحاق: خمسة عشر

---

(١) مناهل العرفان ١/ ١٤٣.

يوماً، فأرجف أهل مكة وقالوا: وعدنا محمد غداً وقد أصبحنا اليوم عدة أيام لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه، حتى أحزن ذلك رسولَ الله ﷺ وشق عليه، ثم جاءه جبريل عليه السلام بسورة الكهف، وفيها جوابهم عن الفتية وهم أهل الكهف، وعن الرجل الطواف وهو ذو القرنين، وأُنزل عليه فيما سألوه من أمر الروح ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ من سورة الإسراء. قال السُّهيلي: وفي رواية عن ابن إسحاق من غير طريق البكائي -أي زياد بن عبد الله البَكّائي الذي يروي عنه ابن هشام- أنه قال: فناداهم رسول الله ﷺ: "هو -أي الروح- جبريل"، وهذا خلاف ما روى غيره أن يهود قالت لقريش: سلوه عن الروح فإن أخبركم به فليس بنبيء، وإن لم يخبركم به فهو نبيء ا.هـ وأقول: قد يجمع بين الروايتين بأن النبي ﷺ بعد أن أجابهم عن أمر الروح بقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ بحسب ما عنوه بالروح، عدل بهم إلى أمر أَولى، وهو الروح الذي تكرر في القرآن كقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ [الشعراء] وقوله: ﴿وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر: ٤] وهو من ألقاب جبريل، على طريقة الأسلوب الحكيم، مع ما فيه من الإغاظة لليهود لأنهم أعداء جبريل كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ [البقرة: ٩٧] الآية، ووضحه حديث ابن سلام في قوله للنبي ﷺ حين ذكر جبريل عليه السلام: "ذاك عدو اليهود من الملائكة"، فلم يترك النبي ﷺ لهم منفذاً قد يلقون منه التشكيك على قريش إلا سده عليهم.

وقد يعترضك هنا أن الآية التي نزلت في أمر الروح هي من سورة الإسراء، فلم تكن مقارِنة للآية النازلة في شأن الفتية وشأن الرجل الطواف، فماذا فرق بين الآيتين؟ وأن سورة الإسراء يُروى أنها نزلت قبل

سورة الكهف فإنها معدودة سادسة وخمسين في عداد نزول السور، وسورة الكهف معدودة ثامنة وستين في النزول.

وقد يجاب عن هذا بأن آية الروح قد تكون نزلت على أن تلحق بسورة الإسراء، فإنها نزلت في أسلوب سورة الإسراء وعلى مثل فواصلها، ولأن الجواب فيها جواب بتفويض العلم إلى الله وهو مقام يقتضي الإيجاز، بخلاف الجواب عن أهل الكهف وعن ذي القرنين فإنه يستدعي بسطاً وإطناباً ففرقت آية الروح عن القصتين، على أنه يجوز أن يكون نزول سورة الإسراء مستمراً إلى وقت نزول سورة الكهف فأُنزِل قرآنٌ موزعٌ عليها وعلى سورة الكهف)[1]، وبرغم أن في سند القصة مجهولاً إلا أن العلماء والمفسرين قد تتابعوا على ذكر هذا السبب مقرين له، والله أعلم.

-فائدة عظيمة جليلة:

وعلى سبب النزول هذا يكون دليلا من الأدلة المتكاثرة على نبوة محمد ﷺ وصدقه، لأنه مبلغ ولا يأتي بشيء من عند نفسه، ولو كان متقولاً لاخترع جواباً لما تأخر الوحي عنه، وهم قد طالبوه في غير هذا الموقف بمثل ذلك، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾ [الأعراف]، وهذا الذي طلبوه من جهلهم وخفة عقولهم، أو إمعاناً منهم في الكفر والتكذيب، قال الطبري رحمه الله: (يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل، يا محمد، للقائلين لك إذا لم تأتهم بآية: "هلا أحدثتها من قبل نفسك!": إن ذلك ليس لي، ولا يجوز لي فعله؛ لأن الله إنما أمرني باتباع ما يوحى إليّ من

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/ ٢٤٢-٢٤٤.

عنده، فإنما أتبع ما يوحى إليّ من ربي، لأني عبده، وإلى أمره أنتهي، وإياه أطيع)[1]. وجبريل ﷺ لم ينزل بالأجوبة إلا لما أمره الله بذلك، فكان هذا التأخر في نزول جبريل دليلاً على نبوة وصدق النبي ﷺ لو كانوا يعقلون.

سادساً- عدد آياتها:

قال الشهاب الدمياطي رحمه الله: (آيها مائة وخمس حِرْمِيٌّ، وست شامي، وعشر كوفي، وإحدى عشرة بصري)[2]، والمقصود بقولهم حرمي أي في عد قراء الحرمين المكي والمدني، وشامي في عد قراء الشام، وكوفي في عد قراء الكوفة، وبصري في عد قراء البصرة؛ ومرجع هذا الاختلاف إلى اختلافهم في بعض الآيات، إذ يعدها بعضهم آية واحدة ويقسمها آخرون إلى آيتين. وتظهر فائدة معرفة عدد الآيات في أمور؛ قال السيوطي رحمه الله: (يترتب على معرفة الآي وعدها وفواصلها أحكام فقهية منها: اعتبارها فيمن جهل الفاتحة، فإنه يجب عليه بدلها سبع آيات. ومنها: اعتبارها في الخطبة فإنه يجب فيها قراءة آية كاملة، ولا يكفي شطرها إن لم تكن طويلة، وكذا الطويلة على ما أطلقه الجمهور... ومنها: اعتبارها في السورة التي تقرأ في الصلاة أو ما يقوم مقامها، ففي الصحيح أنه ﷺ كان يقرأ في الصبح بالستين إلى المائة. ومنها: اعتبارها في قراءة قيام الليل. ففي أحاديث من قرأ بعشر آيات لم يكتب من الغافلين، ومن قرأ بخمسين آية في ليلة كتب من الحافظين، ومن قرأ بمائة آية كتب من القانتين، ومن قرأ بمائتي آية كتب من الفائزين، ومن قرأ بثلاثمائة آية كتب له قنطار من الأجر، ومن قرأ بخمسمائة وبسبعمائة وألف آية، أخرجها الدرامي في

---

(١) تفسير الطبري ١٣/ ٣٤٣.

(٢) اتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر ١/ ٥١١.

مسنده مفرقة. ومنها: اعتبارها في الوقف عليها)[١]، وإن كان في بعض ما ذكره نظر.

سابعاً- من مزاياها:

١) أنها كلها محكمة، قال ابن سلامة رحمه الله: (أجمع أهل العلم أن ليس فيها ناسخ ولا منسوخ إلا قول السدي إذ قال: فيها آية منسوخة، وهي قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ لأن عنده هذا تخيير، وعند جماعة: هذا تهديد ووعيد، نسخها عنده قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾)[٢]، وذكر مثله ابن حزم رحمه الله إلا أنه نسب القول بالنسخ للسدي وقتادة[٣]. ولا موجب هنا للقول بالنسخ على اصطلاح الأصوليين، لأن النسخ في لسان المتقدمين أعم منه عند المتأخرين، إذ يشمل التقييد والتخصيص كما أشار إلى هذا شيخ الإسلام ابن تيمية في غير موضع، وعليه يحمل كلام السدي وقتادة إن ثبت.

٢) أنها إحدى خمس سور افتتحت بالحمد، وهي: الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ، وفاطر، قال ابن عاشور: (موقع الافتتاح بهذا التحميد كموقع الخطبة يفتتح بها الكلام في الغرض المهم)[٤]، يشير إلى أهمية ما تضمنته من موضوعات، وكل السور تضمنت من المعاني الجليلة، والموضوعات المهمة ما ينبغي أن يعتنى به، فتنوعت فواتح السور تنوعاً يلفت أنظار السامعين، بما يناسب موضوعاتها.

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ١/ ٨٢.
(٢) الناسخ والمنسوخ لابن سلامة المقري ١/ ١٩.
(٣) الناسخ والنسوخ لابن حزم ص ٤٤.
(٤) التحرير والتنوير ٨/ ٣٢٥.

٣) ذُكر أنها نزلت كاملة ومعها سبعون ألفاً من الملائكة[١].

٤) أنها تشرع قراءتها كل جمعة، مما يدل على عظم ما تضمنته من موضوعات يحسن بالمسلم أن يستحضرها من الجمعة للجمعة فلا تغيب عن ذهنه.

ثامناً- فضائلها:

نص جمع من أهل العلم على فضلها في مصنفاتهم، فبوب البخاري رحمه الله (باب فضل سورة الكهف)، وأتى مسلم رحمه الله بأحاديث في فضلها في صحيحه، وبوب النووي[٢] رحمه الله (باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي)، وبوب الترمذي رحمه الله (باب ما جاء في فضل سورة الكهف)، فمن هذه الفضائل:

١.أن قراءتها سبب لتنزل السكينة، وإن كان ذلك عاما في القرآن إلا أنه ورد حديث يخصها؛ فعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: "كان رجل[٣] يقرأ سورة الكهف وعنده فرس مربوط بشطنين[٤] فتغشته سحابة، فجعلت تدور وتدنو، وجعل فرسه ينفر منها، فلما أصبح أتى النبيَّ ﷺ فذكر ذلك له فقال: تلك السكينة تنزلت للقرآن"[٥]، وهذا يدعونا للإقبال على تلاوة القرآن عامة وهذه السورة خاصة، إذ ما أحوجنا اليوم في كل شؤوننا إلى السكينة، فعواقبها محمودة، وتدل على الحكمة وبُعد النظر، وبغيرها يتخذ

(١) التحرير والتنوير ١٥/ ٢٤٢.

(٢) تراجم أبواب صحيح مسلم ليست من وضعه، وإنما وضعها من جاء بعده كالقرطبي في المفهم والنووي في نسخة الصحيح المنتشرة وغيرهما، رحم الله الجميع.

(٣) قال الحافظ ابن كثير في التفسير ٥/ ١٣٣: وهذا الرجل الذي كان يتلوها هو أُسَيْدُ بن الحُضَيْر، كما تقدم في تفسير البقرة.

(٤) تثنية شَطَن، وهو الحبل، ينظر لسان العرب ١٣/ ٢٣٧ مادة (شطن).

(٥) صحيح البخاري ٤/ ١٩١٤ (٤٧٢٤)، صحيح مسلم ١/ ٥٤٧ (٧٩٥).

الإنسان قرارات غير محمودة، وقد يتعلق الأمر بدينه فتعظم خسارته.

٢.أن قراءتها تنير لصاحبها، فعن أبي سعيد الخدري ﷺ أن النبي ﷺ قال: "إن من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين"(١)، وفي رواية عند البيهقي: "أضاء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق"(٢)، وقال ﷺ: "من قرأ سورة الكهف كما أنزلت، كانت له نوراً يوم القيامة من مقامه إلى مكة"(٣)، وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: "من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة، أضاء له من النور فيما بينه وبين البيت العتيق"(٤).

٣.أن قراءتها أو قراءة آيات منها تعصم من فتنة الدجال، فعن أبي الدرداء ﷺ أن النبي ﷺ قال: "من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال"(٥)، وعن النواس بن سمعان ﷺ أن النبي ﷺ قال: "فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف"(٦)، وفي لفظ بزيادة: "فإنها جواركم من فتنته"(٧)، وعن أبي الدرداء ﷺ أن النبي ﷺ قال: "من قرأ عشر آيات من آخر الكهف عصم من فتنة الدجال"(٨)، وعن

---

(١) المستدرك ٢/ ٣٩٩ (٣٣٩٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤٧٠).

(٢) سنن البيهق الكبرى ٣/ ٢٤٩ (٥٧٩٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤٧١).

(٣) المستدرك ٥/ ١٣٧ (٢٠٢٧)، وصححه الألباني في الصحيحة ٦/ ٣١٢ (٢٦٥١).

(٤) سنن الدارمي ٢/ ٥٤٦ (٣٤٠٧)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ١/ ١٨٠ (٧٣٦).

(٥) صحيح مسلم ١/ ٥٥٥ (٨٠٩).

(٦) صحيح مسلم ٤/ ٢٢٥٠ (٢٩٣٧).

(٧) سنن أبي داود ٢/ ٥٢٠ (٤٣٢١) وصححه الألباني.

(٨) مسند أحمد بن حنبل ٦/ ٤٤٦ (٢٧٥٥٦)، قال الأرناؤوط: إسناده صحيح.

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ موقوفاً قال: "من قرأ سورة الكهف كما أنزلت ثم خرج إلى الدجال لم يُسَلَّط عليه أو لم يكن له عليه سبيل"(١).

٤.ما سبق ذكره من الفضائل ثابت وصحيح، بيد أنه وردت لهذه السورة فضائل أخرى لا تصح، فمن ذلك ما ذكره الألوسي ﷺ في التفسير، قال: (وجاء في حديث أخرجه ابن مردويه عن عائشة ﷺ مرفوعاً: "إن من قرأ الخمس الأواخر منها عند نومه بعثه الله تعالى أي الليل شاء"(٢)، وقد جربتُ ذلك مراراً فليُحْفَظ، والله تعالى الموفق)(٣)، وقال وقال القرطبي: (وعن ابن عباس أنه قال له رجل: إني أضمر أن أقوم ساعة من الليل فيغلبني النوم، فقال: إذا أردت أن تقوم أي ساعة شئت من الليل فاقرأ إذا أخذت مضجعك: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي﴾ إلى آخر السورة فإن الله تعالى يوقظك متى شئت من الليل)(٤)، فهذا وأمثاله إن ثبت ثبت به الأثر يُصار إليه، وإلا فلا يزعم فضيلة أو خصيصة بغير برهان سوى تجربة من اتفقت له مرة أو مراراً، بل تنظر فيه العادة المطردة وإلَّا فلا تجعل خصيصة.

○ **تنبيه:** تذكر بعض كتب التفاسير وفضائل القرآن وغيرها لبعض الآيات خصائص، وما تمتاز به بعض السور والآيات من الخصائص أمر مسلم وثابت في الشريعة المطهرة، إلا أن ثبوتها لا يكون إلا بأحد أمرين:

▪ فإما أن تثبت بالنص كما في حديث قراءة آية الكرسي، إذ أقر النبي

---

(١) المستدرك ٤/ ٥٥٧ (٨٥٦٢)، قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي في التلخيص: صحيح.

(٢) قال الألباني في ضعيف الجامع (٢١٦٠): ضعيف جداً.

(٣)روح المعاني ١٥/ ٢٠٠.

(٤) تفسير القرطبي ١١/ ٧٢.

ﷺ قول من قال إن قارئها لن يزال عليه من الله حافظ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح[١]، فهذا لا إشكال فيه.

▪ وإما أن تثبت بالعادة المطردة الثابتة بنقل الثقات المتعلقة بأمر مشروع، كنحو ما ثبت من تأثير بعض الآيات دون بعض على المصروع والممسوس أو المعان.

ولكن يراعى فيما سبق أمور:

• فلا يصلح أن يردد المرء أسماء جن أو كلمات غير مفهومة بزعم أنها أسماء حراس أو خدام لآية ما أو غير ذلك، وإن ثبت أن بتكرارها يجيئه خادم من الجان يطيعه، فما يدريه ألا يكون في الكلام كفر وألا يكون من يأتيه شيطان! فيلزم ألا يكون في الأمر محظور مقطوع به أو مظنون.

• ولا يصلح أن نقرر حكماً عاماً يتعلق بالآية لمجرد حدث تكرر مرتين أو ثلاثة لشخص أو شخصين، فقد يكون حصل له من قبيل المصادفة، أو لسبب آخر غير ما ظنه سبباً، وقد يكون ذلك الحدث وإن تكرر من باب الكرامة لذلك الشخص دون غيره، ولعل من هذا القبيل ما ذكره الألوسي ﷺ آنفاً، ونقل مثله القاسم بن سلام ﷺ إذ قال: (حدثنا محمد بن كثير، عن الأوزاعي، عن عبدة بن أبي لبابة، قال: سمعت زر بن حبيش يقول: "من قرأ آخر سورة الكهف لساعة يريد أن يقومها من الليل قامها". قال: قال عبدة: فجربناه، فوجدناه كذلك. وقال ابن كثير: وقد جربناه أيضا في السرايا غير مرة، فأقوم في الساعة التي أريد. قال: وأبتدئ من قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ١٠٧ خَٰلِدِينَ...﴾ إلى

---

(١) أصله في صحيح البخاري ٢/ ٨١٢ (٢١٨٧).

آخرها)[١]، ولعل منه كذلك ما وقع لبعض المشايخ المعاصرين إذ كان في بلاد غريبة وخاف على نفسه من العدو فقرأ بعض الآيات فأعمى الله أبصارهم عنه، وقد ذكر القرطبي رحمه الله حوادث مماثلة وذكر قصة حصلت له[٢]، فمثل هذه الحوادث إن تكررت وثبت أن لها حكم العادة المطردة فيمكن أن تثبت بها فضيلة للآية، أما إن بقيت حوادث فردية فلا، وهذا ما يفهم من كلام القرطبي رحمه الله، إذ قال: (اتفق لي... مثل هذا)، فكأنه يشير إلى أن الأمر رغم تكرره لم يصل حد العادة المطردة فيكون خاصية للآية.

والخلاصة أن قراءة آية ما وتكرارها مشروع، للتداوي أو التوسل، إلا أنه لا يجوز أن يُعتَقَد لها خصوصية تقع لكل من قرأها بتلك النية، إلا إذا ثبت بالنص أو بالتجارب المتكررة المتتابعة، ومن ثم فلا يقال فعلت هذا فلم يحصل الأثر، فإن عدم تحققه في وقت ما لا يقدح في ثبوت الفضيلة، فقد يكون لمانع، كالوقوع في معصية؛ وأما ما ثبت بالعادة المطردة فإننا نرجوه ولا ننزله منزلة ما ثبت بالنص.

- ولا يصلح كذلك أن نحدث في صفة الآية أو عددها ما لم يرد بنص، فالعبادة توقيفية، وإحداث صفة أو التحديد بعدد لم يثبت بالنص بدعة، ولا يصلح أن نجعل لبدعة لم يأت بها الشرع خاصية بزعم أن العادة أفادت تأثيرها. فلا يصح أن نقول من قرأ سورة الفاتحة سبع مرات شفي من لدغة العقرب بدعوى أن هذا ثبت بالتجربة، وما يدرينا أن الشفاء لم يقع بعد المرة الأولى أو السادسة مثلاً! ولكن نقول: الرقية بالفاتحة فيها شفاء دون تقييد بعدد، بل الأمر على إطلاقه، والمطلق يصدق بمرة ولا

---

(١) فضائل القرآن للقاسم بن سلام ١/ ٤٢٧.
(٢) تفسير القرطبي ١٠/ ٢٣٤.

يختص بها كما يتوهم البعض، فلا يقيد بعدد معين بل قد يكرر الإنسان القراءة أو الذكر حتى يحصل المقصود.

فوائد متعلقة بفضائل السورة

الفائدة الأولى- في الآيات التي تقرأ على الدجال:

سبق أن قراءة هذه السورة تعصم من فتنة الدجال، ولكن قد اختلفت الروايات في عدد ما يقرأ عليه، فورد أنها عشر، أو خمس، أو ثلاث، وورد قراءة الكهف أو بعضها دون تحديد عدد؛ كما اختلفت الروايات في تحديد موضع ما يقرأ، فورد أنه من فواتحها وورد من خواتمها، وقد جاءت روايات بلفظ القراءة، وأخرى بلفظ الحفظ، فمن المهم إذاً أن يعرف المسلم ما ينبغي فعله إذا خرج الدجال في وقته، أعاذنا الله من فتنته.

ولكن قبل البحث في ذلك يحسن بنا أن نبين عظم خطر هذه الفتنة التي يتعوذ منها المؤمن كل صلاة امتثالاً لأمر النبي ﷺ إذ قال: "إذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله من أربع، يقول: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شر فتنة المسيح الدجال"(١). يبي

إن فتنة الدجال هي أعظم فتنة تمر على البشرية منذ خُلِق آدم عليه السلام إلى يوم القيامة، قال ﷺ: "ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة خلق أكبر من الدجال"(٢)، قال النووي رحمه الله في الشرح: (المراد أكبر فتنة وأعظم شوكة)(٣)، وقد حذر النبي ﷺ من فتنته، بل إن كل الأنبياء حذروا أقوامهم من فتنته، فعن أنس ابن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "ما من نبي إلا وقد أنذر أمته الأعور الكذاب، ألا إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور،

---

(١) صحيح مسلم ١/ ٤١٢ (٥٨٨).

(٢) صحيح مسلم ٤/ ٢٢٦٦ (٢٩٤٦).

(٣) شرح النووي على مسلم ١٨/ ٨٧.

ومكتوب بين عينيه ك ف ر"(١)، فإن كان الأنبياء يحذرون أقوامهم في تلك الأزمنة التي يعلم الله أن الدجال لن يخرج فيها ليتقوا فتنته، فكيف بنا ونحن آخر الأمم وهو خارج فينا لا محالة!

ولشدة حرص النبي ﷺ على أمته فقد حذر منه أشد تحذير، وفصَّل ما يكون من شأنه حين يخرج تفصيل المشفق على أمته من هول فتنته، فعن جنادة بن أبي أمية الأزدي قال: "ذهبت أنا ورجل من الأنصار إلى رجل من أصحاب النبي ﷺ فقلنا: حدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ يذكر في الدجال، ولا تحدثنا عن غيره وان كان مُصَدَّقاً. قال: خطبنا النبي ﷺ فقال: أنذرتكم الدجال ثلاثاً، فإنه لم يكن نبي قبلي إلا قد أنذره أمته، وإنه فيكم أيتها الأمة، وإنه جعد آدم ممسوح العين اليسرى، معه جنة ونار، فناره جنة وجنته نار، ومعه جبل من خبز ونهر من ماء، وإنه يمطر المطر ولا ينبت الشجر، وإنه يسلط على نفس فيقتلها ولا يسلط على غيرها، وإنه يمكث في الأرض أربعين صباحاً يبلغ فيها كل منهل، ولا يقرب أربعة مساجد؛ مسجد الحرام ومسجد المدينة ومسجد الطور ومسجد الأقصى، وما يُشبَّه عليكم؛ فإن ربكم ليس بأعور"(٢)، وعن النواس بن سمعان ﷺ قال: "ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع حتى ظنناه في طائفة النخل، فلما رحنا إليه عرف ذلك فينا فقال: ما شأنكم؟ قلنا: يا رسول الله، ذكرت الدجال غداة فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه في طائفة النخل. فقال: غيرَ الدجال أخوفني عليكم! إن يخرج وأنا فيكم فأنا

(١) صحيح البخاري ٦/ ٢٦٠٨ (٦٧١٢)، صحيح مسلم ٤/ ٢٢٤٨ (٢٩٣٣).
(٢) مسند أحمد بن حنبل ٥/ ٤٣٥ (٢٣٧٣٥)، قال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح.

حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم، إنه شاب قطط عينه طافئة كأني أشبهه بعبد العزى بن قطن، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف، إنه خارج خلة بين الشام والعراق فعاث يميناً وعاث شمالاً، يا عباد الله فاثبتوا! قلنا: يا رسول الله وما لبثه في الأرض؟ قال: أربعون يوماً، يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم. قلنا: يا رسول الله فذلك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: لا، اقدروا له قدره. قلنا: يا رسول الله وما إسراعه في الأرض؟ قال: كالغيث استدبرته الريح، فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت، فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرىً، وأسبغه ضروعاً، وأمده خواصر، ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله، فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم، ويمر بالخربة فيقول لها: أخرجي كنوزك، فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل، ثم يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض، ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه يضحك، فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين واضعاً كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ، فلا يحل لكافر يجد ريح نفَسه إلا مات، ونفَسه ينتهي حيث ينتهي طرفه، فيطلبه حتى يدركه بباب لد فيقتله، ثم يأتي عيسى ابن مريم قومٌ قد عصمهم الله منه، فيمسح عن وجوههم، ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة"(١).

وبرغم ما في قصة الدجال من فتنة عظيمة، إلا أن النبي ﷺ يقول كما

---

(١) صحيح مسلم ٤/ ٢٢٥٠ (٢٩٣٧).

في الحديث السابق: "غير الدجال أخوفني عليكم"، بمعنى أخاف عليكم منه، لكن أخاف عليكم من أمور أخرى أكثر منه، فإنه إن لم يخرج في زمانكم فهناك فتن أخرى يمكن أن تصيبكم وتصيب غيركم ممن يأتي بعدكم ولا يدركه، فحذرهم منها وحذر كل أمته منها؛ كفتنة الدنيا والمال والولد والنساء وفتنة الأئمة المضلين وغير ذلك، ثم بين لهم النبي ﷺ أن فتنته وإفساده سيعمان الأرض "فعاث يميناً وعاث شمالاً"، ثم أوصى ﷺ بوصية جامعة "يا عباد الله فاثبتوا"، وما أحوجنا اليوم إلى الثبات في وجه الفتن وقد كثرت، حتى وقع ما أخبر به من لا ينطق عن الهوى من وقوع التبديل والتغيير، وحيث صرنا نرى الرجل وقد أصبح مؤمناً ثم تميد به الشبهات فيمسي كافراً والعياذ بالله.

فلعظيم فتنة الدجال، ينبغي لكل مسلم أن يعرف الآيات التي تعصم منه بإذن الله، وقد ورد أن العصمة تكون بقراءة الآيات من فواتح الكهف دون تحديد لعددها كما في حديث النواس رضي الله عنه السابق "فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف"، كما ورد أنها الثلاث الأول، فعن أبي الدرداء أن النبي ﷺ قال: "من قرأ ثلاث آيات من أول الكهف عصم من فتنة الدجال"[1]، وجاء أنها العشر الأواخر، فعن أبي الدرداء عن النبي ﷺ

---

(١) سنن الترمذي ٥/ ١٦٢ (٢٨٨٦)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وقد نقل ابن كثير رحمه الله في التفسير تصحيح الترمذي ولم يتعقبه بشيء، قال الألباني رحمه الله في "السلسلة الضعيفة والموضوعة" (٣/ ٥٠٩): الحديث صحيح بغير هذا اللفظ، وأما هذا فشاذ. وقال: لم يتنبه الحافظ ابن كثير لشذوذ رواية الثلاث، فذكرها من رواية الترمذي وأقره على تصحيحها.

أنه قال: "من قرأ عشر آيات من آخر الكهف عصم من فتنة الدجال"[١]، وفي رواية "من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف"، وفي رواية النسائي: "من قرأ عشر آيات من الكهف عصم من فتنة الدجال"[٢]، كما جاءت أحاديث بلفظ الحفظ دون القراءة،؛فعن أبي الدرداء أن النبي ﷺ قال: "من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال"[٣]، وعند مسلم وأبي داود: "من آخر الكهف"[٤]، وفي رواية: "من خواتيم سورة الكهف"[٥].

فيتحصل من الروايات السابقة أن العصمة من الدجال تكون بما يلي:

= قراءة فواتح سورة الكهف دون تحديد.

= قراءة الآيات الثلاث الأول.

= قراءة العشر الأواخر.

= قراءة عشر آيات مطلقاً.

= حفظ الآيات العشر الأول.

= حفظ الآيات العشر الأواخر.

وقد ذهب بعض العلماء لبعض ما سبق دون بعض؛ فيفهم من صنيع ابن حبان رحمه الله في صحيحه أن القراءة تكون للعشر الأواخر[٦].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سنن النسائي الكبرى ٥/ ١٥، وإسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين خلا معدان وهو ابن أبي طلحة فمن رجال مسلم.

(٣) صحيح مسلم ١/ ٥٥٥ (٨٠٩)، سنن أبي داود ٤/ ١١٧ (٤٣٢١) وصححه الألباني.

(٤) صحيح مسلم ١/ ٥٥٦ (٨٠٩)، سنن أبي داود ٤/ ١١٧ (٤٣٢٣)، وصححه الألباني.

(٥) سنن أبي داود ٤/ ١١٧ (٤٣٢٣)، وصححه الألباني.

(٦) صحيح ابن حبان ٣/ ٦٦ (٧٨٦)، قال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح.

وصرح ابن القيم رحمه الله بأن الراجح هو العشر الأول[1]؛ وبمثل ذلك قال الألباني رحمه الله وحكم بالشذوذ على لفظ "من آخر الكهف" ورأى أن المحفوظ هو "من أول الكهف"، وأن هذا هو ترجيح مسلم رحمه الله[2].

وقد ذهب آخرون إلى القول بأن هذه الخاصية لكل من العشر الأول والأواخر، وهو ما قد يفهم من صنيع النووي رحمه الله[3]، والسيوطي كذلك[4]، وإلى هذا ذهب ابن كثير رحمه الله في تفسيره إذ أورد كثيراً من الأحاديث المتعلقة بالمسألة تحت: (ذكر ما ورد في فضلها، والعشر الآيات من أولها وآخرها، وأنها عصمة من الدجال) فأطلق القول في العشر من أولها وآخرها، وممن ذهب إلى ذلك المباركفوري[5]والعظيم آبادي[6]رحمهما الله.

وعلى فرض كون لفظ الثلاث محفوظاً كما ذهب إليه الترمذي وابن كثير وغيرهما، فقد جُمِع بينه وبين لفظ العشر بوجوه، قال القاري رحمه الله: (قيل وجه الجمع بين الثلاث وبين العشر أن حديث العشر متأخر ومن عمل بالعشر فقد عمل بالثلاث... وقيل حديث العشر في الحفظ وحديث

---

(١) جلاء الأفهام ١/ ٣٢٤.

(٢) السلسلة الصحيحة ٢/ ١٢٢ (٥٨٢)*.

* تنبيه: اختلف قول الألباني رحمه الله في هذه المسألة، حيث كان يرى شذوذ لفظ "من آخر الكهف"، ثم صححه لوجود شاهد يقويه ومن ثم صحح العمل بأيهما، ثم عاد للحكم عليه بالشذوذ لتبينه أن الشاهد من رواية شعبة وهو نفس راوي الحديث المشهود له، وخلاصة قوله في المسألة يظهر في الصحيحة ٦/ ٣١٢ (٢٦٥١).

(٣) شرح النووي على مسلم ٦/ ٩٣.

(٤) شرح السيوطي على مسلم ٢/ ٤٠٣.

(٥) تحفة الأحوذي ٨/ ١٥٨.

(٦) عون المعبود ١١/ ٣٠٤-٣٠٥.

الثلاث في القراءة، فمن حفظ العشر وقرأ الثلاث كفي وعصم من فتنة الدجال، وقيل من حفظ العشر عصم من لقيه ومن قرأ الثلاث عصم من فتنته إن لم يلقه)[1].

وجعل القرطبي[2] رَحِمَهُ اللَّهُ هذه الفضيلة للسورة كلها[3]، ويشهد لهذا القول رواية النسائي وفيها: "من قرأ عشر آيات من الكهف ..".

والأَولى أن تحفظ السورة كلها، وتقرأ كلها على الدجال إن استطاع؛ فإن تضايق الوقت قرأ العشر من أولها والعشر من آخرها، فإن لم يسعه ذلك فليقرأ العشر الأول إذ لم يقع -كما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ آنفاً- في الرواية بها عن النواس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اختلاف، كما لم يقع خلاف بين أهل العلم في صحتها.

ويؤيد قراءة السورة كلها ما جاء عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "من قرأ سورة الكهف كما أنزلت ثم خرج إلى الدجال لم يسلط عليه أو لم يكن له عليه سبيل"[4]، فإن كان هذا فهمه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما سمعه من النبي ﷺ فهو مقدم على فهم غيره، وإلا فهو مما لا يقال بالرأي، فيكون له حكم الرفع.

الفائدة الثانية - الأسباب الداعية لكون السورة عاصمة من الدجال:

من ذلك ما سبق نقله عن النووي رَحِمَهُ اللَّهُ، وتابعه عليه السيوطي، وقد أجمل القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ هذه الأسباب في المفهم فقال: (... فقيل لما في قصة أصحاب الكهف من العجائب والآيات، فمَن علمها لم يستغرب أمر

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للقاري ٦/ ٤٨٧.

(٢) الإمام الحافظ أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي (٥٧٨-٦٥٦هـ)، وهو شيخ الإمام القرطبي صاحب التفسير.

(٣) المفهم ٢/ ٤٣٩.

(٤) سبق تخريجه.

الدجال، ولم يَهُلْه ذلك، فلا يفتتن به. وقيل: لما في قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ﴾ إلى آخر السورة من المعاني المناسبة لحال الدجال، وهذا على رواية من روى: من آخر الكهف. وقيل لقوله تعالى: ﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ تمسكاً بتخصيص البأس بالشدة واللدنية، وهو مناسب لما يكون من الدجال من دعوى الإلهية واستيلائه وعظيم فتنته، ولذلك عظَّم ﷺ أمره وحذَّر منه وتعوذ من فتنته، فيكون معنى هذا الحديث أن من قرأ هذه الآيات وتدبرها ووقف على معناها حذِره فأمن من ذلك. وقيل ذلك من خصائص هذه السورة كلها ... وعلى هذا تجتمع رواية من روى "من أول سورة الكهف" ورواية من روى: "من آخرها" ويكون ذِكر العشر على جهة الاستدراج في حفظها كلها. وقيل: إنما كان ذلك لقوله: ﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ فإنه يهون بأس الدجال. وقوله: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾﴾ فإنه يهون الصبر على فتن الدجال بما يظهر من جنته وناره وتنعيمه وتعذيبه. ثم ذمُّه تعالى لمن اعتقد الولد، يُفهَم منه أن من ادعى الإلهية أولى بالذم، وهو الدجال. ثم قصة أصحاب الكهف فيها عبرة تناسب العصمة من الفتن، وذلك أن الله تعالى حكى عنهم أنهم قالوا: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ فهؤلاء قوم ابتلوا فصبروا، وسألوا إصلاح أحوالهم، فأُصلِحت لهم، وهذا تعليم لكل مدعو إلى الشرك، ومن روى: "من آخر الكهف"، فلما في قوله تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾ فإن فيه ما يُهَوِّن ما يظهره الدجال من ناره. وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى﴾ تنبيه على أحوال تابعي الدجال، إذ قد عموا عن ظهور الآيات التي تكذبه،

والله أعلم)[١].

ويقول د. عويض العطوي: (لقد اشتملت هذه السورة على قصص أربع رئيسة، تمثل كل واحدة منها فتنة مؤثرة في الإنسان وهي:

١ - الفتنة في الدين، ويمثل ذلك قصة أصحاب الكهف.

٢ - الفتنة في المال، ويمثل ذلك قصة صاحب الجنتين.

٣- الفتنة في العلم ويمثل ذلك قصة موسى والعبد الصالح عليهما السلام.

٤ - الفتنة في السلطان، ويمثل ذلك قصة ذي القرنين.

والدجال يأتي بفتن كبرى تشبه هذه الفتن، فهو يفتن الناس عن دينهم، ويفتنهم بالمال، والعلم، والسلطان.

فأما فتنة الدين فتظهر من قوله ﷺ: "فيمر بالحي فيدعوهم فيستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت، وتروح عليهم سارحتهم وهي أطول ما كانت ذرى، وأمده خواصر، وأسبغه ضروعاً، ويمر بالحي فيدعوهم فيردوا عليه قوله فتتبعه أموالهم فيصبحون ممحلين ليس لهم من أموالهم شيء، ويمر بالخربة فيقول لها أخرجي كنوزك فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل، قال: ويأمر برجل فيقتل فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض، ثم يدعوه فيقبل إليه يتهلل وجهه"[٢].

ومما يبين عظم تلك الفتنة، وعظم شأن العلم والبصيرة فيها قوله ﷺ: "يأتي الدجال وهو محرم عليه أن يدخل نقاب المدينة، فينزل بعض السباخ التي تلي المدينة، فيخرج إليه يومئذ رجل، وهو خير الناس أو من

---

(١) المفهم ٢/ ٤٣٩-٤٤٠.

(٢) مسند أحمد بن حنبل ٤/ ١٨١ (١٧٦٦٦)، قال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

خيار الناس، فيقول: أشهد أنك الدجال الذي حدثنا رسول الله ﷺ حديثه. فيقول الدجال: أرأيتم إن قتلت هذا ثم أحييته هل تشكون في الأمر؟ فيقولون: لا. فيقتله ثم يحييه فيقول: والله ما كنت فيك أشد بصيرة مني اليوم. فيريد الدجال أن يقتله فلا يسلط عليه "(١).

وأما فتنة المال فذلك ظاهر في النص السابق، مما يتعلق بإمطار السماء، وإنبات العشب، وما يتصل بالبهائم والكنوز، ونلحظ من ذلك كيف جمع بين فتنة أهل المدر (القرى والمدن) بالذهب والوَرِق، وأهل الوبر، أهل الشاء والنعم الذين يهمهم أمر المطر والكلأ.

وأما فتنة العلم، فقد ورد أنه يتصور للرجل شيطانان في صورة أبيه وأمه، ويدعوانه إلى الشرك بالله، ويخبر بأمور عظيمة يفتن بها الناس، وذلك من العلم الذي يجهله الناس فيفتنون عند سماعه، كما هو حال الخضر مع موسى عليه السلام، إذ أطلعه على عجائب لا يعرفها، ويظهر كل هذا في قوله ﷺ: "يا عباد الله! أيها الناس! فاثبتوا فإني سأصفه لكم صفة لم يصفها إياه قبلي نبي ... يقول: أنا ربكم، ولا ترون ربكم حتى تموتوا، وإنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، وإنه مكتوب بين عينيه: كافر، يقرؤه كل مؤمن، كاتب أو غير كاتب. وإن من فتنته أن معه جنة ونارا، فناره جنة، وجنته نار، فمن ابتلي بناره فليستغث بالله، وليقرأ فواتح الكهف ... وإن من فتنته أن يقول للأعرابي: أرأيت إن بعثت لك أباك وأمك، أتشهد أني ربك؟ فيقول: نعم، فيتمثل له شيطانان في صورة أبيه وأمه، فيقولان: يا بني اتبعه، فإنه ربك، وإن من فتنته أن يسلط على نفس واحدة فيقتلها،

---

(١) صحيح البخاري ٦/ ٢٦٠٨ (٦٧١٣).

ينشرها بالمنشار حتى تلقى شقين، ثم يقول: انظروا إلى عبدي هذا، فإني أبعثه، ثم يزعم أن له رباً غيري، فيبعثه الله، ويقول له الخبيث: من ربك؟ فيقول: ربي الله، وأنت عدو الله، أنت الدجال، والله ما كنت قط أشد بصيرة بك مني اليوم"(١).

وأما فتنة السلطان، فإنه يجوب الأرض كلها كما هو حال ذي القرنين، وقد حدّث عنه النبي ﷺ في ذلك بقوله: "ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال، إلا مكة والمدينة، ليس له من نقابها نقب إلا عليه الملائكة صافين يحرسونها، ثم ترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات، فيخرج الله كل كافر ومنافق"(٢).

فنعلم من هذا عظم التناسب بين قصص السورة، وعلاقة ذلك بالعصمة من فتنة الدجال) ا.هـ بتصرف.

الفائدة الثالثة - وقت قراءة السورة:

ذكرنا فيما سبق أن من فضائل هذه السورة أنها تضيء لقارئها، وقد ورد الأثر بهذا الفضل في قراءتها يوم الجمعة، وورد في بعض ألفاظه ليلة الجمعة، وورد مطلقاً من غير تقييد بالجمعة كما مر معنا في الفضائل، وقد ذهب بعض المعاصرين إلى ترجيح الأثر المطلق على المقيِّد بالجمعة من الناحية الحديثية، وهذا المطلق يقتضي أن من قرأها مرة كان له ذلك الفضل، ويحتمل أن يكون قرأها فيه بمعنى حفظها، ولو قرأها المرء كل جمعة خرج من الإشكال، وتحقق المقصود على ما جاء في الآثار المطلقة والمقيدة، لاسيما أن أثر قراءتها يوم الجمعة أو ليلة الجمعة قوي الإسناد،

---

(١) سنن ابن ماجه ٢/ ١٣٥٩ (٤٠٧٧) وفيه فقرات ضعيفة، وما ذكرناه صححه الألباني في صحيح الجامع (٧٨٧٥).

(٢) صحيح البخاري ٢/ ٦٦٥ (١٧٨٢)، صحيح مسلم ٤/ ٢٢٦٥ (٢٢٦٥).

وله شواهد محتملة في آثار أخرى، ولا خلاف بينه وبين المطلق فيقضي المقيَّدُ على المطلق.

والظاهر كذلك استواء آثار قراءتها ليلة الجمعة أو يومها، فالليل تابع للنهار، والآثار قد جاءت بهذا وهذا، كما نقل المناوي عن الحافظ ابن حجر[1]، وقد نص الشافعي رحمه الله عليه[2]، والله أعلم.

تاسعاً- أسرار ولطائف:

دأب كثير من أهل العلم على استنباط ما في القرآن من لطائف وأسرار، وهذا بحر لُجِّيٌّ، وباب واسع، يوفق الله له من يريد ﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ١٠٥﴾ [البقرة]، وفيما يلي نذكر شيئاً من لطائف هذه السورة وأسرارها:

أ- **في فواتح السورة:** لفاتحة الكلام أهمية كبيرة وأثر لا يخفى، قال السيوطي رحمه الله: (قال أهل البيان: من البلاغة حسن الابتداء؛ وهو أن يتأنق في أول الكلام لأنه أول ما يقرع السمع، فإن كان محرراً أقبل السامع على الكلام ووعاه، وإلا أعرض عنه ولو كان الباقي في نهاية الحسن... قالوا: وقد أتت جميع فواتح السور على أحسن الوجوه وأبلغها وأكملها؛ كالتحميدات، وحروف الهجاء، والنداء، وغير ذلك)[3]، وقال ابن عاشور: (الشأن في الخطاب بأمر مهم لم يسبِق للمخاطَب به خطابٌ من نوعه، أنْ يُسْتأْنَس له قبل إلقاء المقصود، وأن يهيَّأَ لتلقيه، وأن يشوَّق إلى سماع ذلك،

---

(١) فيض القدير ٦/ ٢٥٨.
(٢) الأم ١/ ٢٣٩.
(٣) الإتقان ٢/ ٢٨٣.

وتُراضَ نفسه على الاهتمام بالعمل به)[١].

وقد افتتحت السورة بالحمد على إنزال الكتاب: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ١ قَيِّمٗا﴾ [الكهف: ١-٢] ولهذا لطائف، منها:

• **اللطيفة الأولى:** سبق معنا أن الوحي لما تأخر بجواب أسئلة قريش، وجد الكفار فرصة للتشكيك والإرجاف، حتى قالوا: (إن محمداً قد تركه ربه الذي كان يأتيه من الجن، وقال بعضهم: قد عجز عن أكاذيبه، إلى غير ذلك)[٢]، فلما نزلت سورة الكهف بعد انقطاع، بأجوبة أسئلة القوم التي ظنوها معجزة، ناسب أن تفتتح بالحمد لوجهين:

الأول- أن نزولها كان رداً على تخرصات وبياناً لتمام إنعام الله على عبده ﷺ، قال ابن الزملكاني: (لما احتبس الوحي وأرجف الكفار بسبب ذلك، أنزلها الله رداً عليهم، وأنه لم يقطع نعمه عن نبيه ﷺ، بل أتم عليه بإنزال الكتاب، فناسب افتتاحها بالحمد على هذه النعمة)[٣].

والثاني- أن الكفار كانوا يحبون مَساءة النبي ﷺ وأصحابه، فكأنهم وجدوا في تأخر الجواب بغيتهم، فنزلت السورة قاطعة لآمالهم ومبددة لأحلامهم، ذكره ابن عطية[٤].

• **اللطيفة الثانية:** الحمد يكون لسببين؛ أولهما صفات المحمود الذاتية، وثانيهما أفعاله التي يستحق الحمد عليها[٥]، وقد اشتملت فاتحة الكهف على مُوجِبَي الحمد، فـ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾، حمد لذاته العلية المتصفة

---

(١) التحرير والتنوير ١/ ١٤.

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية ٤/ ٢٨٥.

(٣) نقله عنه الزركشي في البرهان في علوم القرآن ١/ ٣٩.

(٤) المحرر الوجيز لابن عطية ٤/ ٢٨٥.

(٥) شرح التلويح على التوضيح ١/ ٨.

بالصفات الكاملة الزكية، إذ المعنى: الحمد لله المستحق لجميع المحامد لا لشيء غير ذاته، الحائز لجميع الكمالات[1]، وأما موجب الحمد الثاني وهو جميل النعم، فقد خص بالذكر هنا نعمة الدين، وهي إنزال الكتاب المستقيم الذي لا اعوجاج فيه على خاتم رسله الموصوف بالعبودية تشريفاً وتعظيماً، وهذه النعمة من أعظم نعم الله ﷻ على العباد، يقول البقاعي رحمه الله: (فإن نظام العالم وبقاء النوع الإنساني يكون بالنبي والكتاب)[2].

• **اللطيفة الثالثة:** سورة الكهف واحدة من خمس سور افتتحت بالحمد، وهي على ترتيب المصحف: الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ، وفاطر؛ وقد اشتمل الحمد في فواتح السور الخمس على حمد الله جل وعلا لذاته العلية المتصفة بصفات الكمال الذي لا يعتريه نقص بحال، وحمده على ما أفاض به من نعمائه على خلقه.

أما حمده سبحانه لذاته المتصفة بصفات الكمال ففي قوله عز من قائل في كل منها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، قال السيوطي رحمه الله: (في تفسير الخويي ابتدئت الفاتحة بقوله الحمد لله رب العالمين، فوصف بأنه مالك جميع المخلوقين، وفي الأنعام والكهف وسبأ وفاطر لم يوصف بذلك بل بفرد من أفراد صفاته؛ وهو خلق السموات والأرض والظلمات والنور في الأنعام، وإنزال الكتاب في الكهف، وملك ما في السموات وما في الأرض في سبأ، وخلقهما في فاطر)[3].

وأما الحمد على النعم فقد قال الرازي رحمه الله: (نِعَمُ الله مع كثرتها

---

(١) نظم الدرر للبقاعي ١/ ١.

(٢) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١١٨.

(٣) الإتقان ٢/ ٣٠٢.

وعدم قدرتنا على إحصائها منحصرة في قسمين: نعمة الإيجاد ونعمة الإبقاء، فإن الله تعالى خلقنا أولاً برحمته، وخلق لنا ما نقوم به، وهذه النعمة توجد مرة أخرى بالإعادة؛ فإنه يخلقنا مرة أخرى، ويخلق لنا ما يدوم، فلنا حالتان الابتداء والإعادة، وفي كل حالة له تعالى علينا نعمتان؛ نعمة الإيجاد ونعمة الإبقاء)[1]، وقد اشتملت الفاتحة على حمده تعالى على الأحوال الأربع المذكورة في كلام الرازي، والتي يسميها البقاعي الإيجاد والإبقاء الأول، والإيجاد والإبقاء الثاني، فيقول رحمه الله: (أما الإيجاد الأول فبقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فإن الإخراج من العدم إلى الوجود أعظم تربية[2]، وأما الإبقاء الأول فبقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أي المنعم بجلائل النعم ودقائقها التي بها البقاء، وأما الإيجاد الثاني فبقوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ وهو ظاهر، وأما الإبقاء الثاني فبقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إلى آخرها، فإن منافع ذلك تعود إلى الآخرة)[3].

ثم جاء الحمد على النعم في السور الأربع الأخرى، على واحد من أنواع النعم التي جمعت في الفاتحة، يقول التفتازاني: (أشير في الفاتحة إلى الجميع، وفي الأنعام إلى الإيجاد وفي الكهف إلى الإبقاء أولاً، وفي سبأ إلى الإيجاد وفي الملائكة[4] إلى الإبقاء ثانياً)[5]، ونجد تفصيل ذلك عند الرازي إذ يقول: (﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾[الأنعام: ١]

---

(١) تفسير مفاتيح الغيب للرازي ١٢/ ٣٩٢.

(٢) يقول البيضاوي رحمه الله في تفسيره ١/ ٤: الرب في الأصل مصدر بمعنى التربية: وهي تبليغ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً... وقيل: هو نعت من رَبَّه يربه... ثم سمي به المالك لأنه يحفظ ما يملكه ويربيه.

(٣) نظم الدرر للبقاعي ١/ ٥.

(٤) أي سورة فاطر.

(٥) شرح التلويح على التوضيح ١: ص ٨.

إشارة إلى الشكر على نعمة الإيجاد ويدل عليه قوله تعالى... ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ [الأنعام: ٢] إشارة إلى الإيجاد الأول وقال في السورة الثانية وهي الكهف ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا﴾ [الكهف: ١، ٢] إشارة إلى الشكر على نعمة الإبقاء، فإن الشرائع بها البقاء، ولولا شرع ينقاد له الخلق لاتبع كل واحد هواه، ولوقعت المنازعات في المشتبهات وأدى إلى التقاتل والتفاني، ثم قال في هذه السورة[١] ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إشارة إلى نعمة الإيجاد الثاني ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾، وقال في الملائكة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إشارة إلى نعمة الإبقاء ويدل عليه قوله تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: ١] والملائكة بأجمعهم لا يكونون رسلاً إلا يوم القيامة يرسلهم الله مُسَلِّمِين كما قال تعالى: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] وقال تعالى عنهم: ﴿سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الزمر: ٧٣])[٢].

• **اللطيفة الرابعة:** تعلق الحمد بقراءة فواتح السورة على الدجال والعصمة منه، فالله محمود على صفاته، والدجال معيب في صفته؛ أعور العين اليمنى كأنها عنبة طافية، بل جاءت أخبار قال بموجبها بعض أهل العلم تفيد أن كلتا عينيه معيب[٣]، والله تعالى منزه عن ذلك؛ بل أجمع أهل السنة على أن له عينين تليقان به ﷻ، ولهذا الكمال استحق الحمد ابتداءً، ثم استحق الحمد على ما أسبغه من فيض الإنعام.

أما الدجال فلا يحمد على شيء البتة، فهو في ذاته وصفاته ناقص

---

(١) سورة سبأ.

(٢) تفسير مفاتيح الغيب للرازي ١٢/ ٣٩٢.

(٣) انظر بسط ذلك في فتح الباري لابن حجر ١٣/ ٩٧-٩٨.

معيب قبيح الصورة، وأما يجري على يديه فليس راجعاً إلى ذاته وإلا فأين هو الآن؟ لكنها فتنة من الله ﷻ لمن أعرض عن الحق المبين. كما أن النقص ملازم للدجال في عطائه وإنعامه، فهو يعطي من يتبعه ويمنع من كفر به، والله ﷻ يعطي الدنيا عبيده كلهم مؤمنهم وكافرهم ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء]؛ وعطاء الدجال عطاء كاذب بل هو عكس للحقيقة، فجنته نار وناره جنة، وعطاء الله حق كله، وعطاء الله لا ينفد والدجال عطاؤه مؤقت.

فلهذا كله كان في افتتاح السورة بالحمد وجعل فواتحها عصمة من الدجال، مناسبة عظيمة، فمن تأمل ذلك ثبت الله قلبه وأراه الحق حقاً، وعصمه من الانخداع ببهرجه ودجله وزيف دعواه.

ب- **في موضع السورة من المصحف:** قال ابن عاشور رحمه الله: (كرامة قرآنية: لوضع هذه السورة على هذا الترتيب ... قرابة نصف المصحف، وهي مفتتحة بالحمد حتى يكون افتتاح النصف الثاني من القرآن بـ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ كما كان افتتاح النصف الأول بـ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾)[1]، وقال رحمه الله أيضاً: (سور خمس مفتتحة بـ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وهنّ كلها مكية وقد وضعت في ترتيب القرآن في أوله ووسطه، والربع الأخير، فكانت أرباع القرآن مفتتحة بالحمد لله؛ كان ذلك بتوفيق من الله أو توقيف)[2].

ج- **في المناسبات:** والمراد بها بيان مناسبات ترتيب السور، وحكمة وضع كل سورة منها في موضعها من المصحف.

وقد تلمس بعض العلماء لطائف وأسرار ترتيب السور في المصحف

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/ ٢٤٥.

(٢) التحرير والتنوير ٢٢/ ١٣٥، من تفسير سورة سبأ.

واعتنوا بها، كما أشار السيوطي[١]، فمنها:

- **اللطيفة الأولى - مناسبتها لما قبلها:**

قال السيوطي: (قال بعضهم[٢]: مناسبة وضعها بعد سورة الإسراء: افتتاح تلك بالتسبيح وهذه بالتحميد، وهما مقترنان في القرآن وسائر الكلام بحيث يسبق التسبيح التحميد، نحو: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ وسبحان الله وبحمده. قلتُ: مع اختتام ما قبلها بالتحميد أيضاً، وذلك من وجوه المناسبة بتشابه الأطراف. ثم ظهر لي وجه آخر أحسن في الاتصال وذلك: أن اليهود أمروا المشركين أن يسألوا النبي ﷺ عن ثلاثة أشياء: عن الروح، وعن قصة أصحاب الكهف، وعن قصة ذي القرنين، وقد ذكر جواب السؤال الأول في آخر سورة بني إسرائيل[٣]، فناسب اتصالها بالسورة التي اشتملت على جواب السؤالين الآخرين. فإن قلتَ: هلا جمعت الثلاثة في سورة واحدة؟ قلتُ: لمَّا لم يقع الجواب عن الأول بالبيان[٤]، ناسب فصله في سورة. ثم ظهر لي وجه آخر: وهو أنه لما قال فيها: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ والخطاب لليهود، واستظهر على ذلك بقصة موسى في بني

---

(١) الإتقان ٢/ ٢٨٨.

(٢) ذكر الرازي (ت٦٠٦) هذه النكتة في تفسيره، وقال السيوطي في الإتقان ١/ ٣٦٤: "في تذكرة الشيخ تاج الدين السبكي ومن خطه نقلت: سئل الإمام ما الحكمة في افتتاح سورة الإسراء بالتسبيح والكهف بالتحميد؟ وأجاب بأن التسبيح حيث جاء يقدم على التحميد نحو فسبح بحمد ربك، سبحان الله والحمد لله"اهـ، وعنى بالإمام -والله أعلم- والده تقي الدين السبكي (ت٧٥٦).

(٣) وهو من أسماء سورة الإسراء.

(٤) لأن الجواب كان بتفويض العلم لله: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ [الإسراء:٨٥].

إسرائيل مع الخضر، التي كان سببها ذكر العلم والأعلم، وما دلت عليه من إحاطة معلومات الله ﷻ التي لا تحصى، فكانت هذه السورة كإقامة الدليل لما ذكر من الحكم، وقد ورد في الحديث أنه لما نزل: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ قال اليهود: قد أُوتينا التوراة، فيها علم كل شيء، فنزل: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾، فهذا وجه آخر في المناسبة وتكون السورة من هذه الجهة جواباً عن شبهة الخصوم فيما قُدِّر بتلك. وأيضاً فلما قال هناك: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾ شرح ذلك هنا وبسطه، بقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾ إلى ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾ فهذه وجوه عديدة في الاتصال)[1].

● **اللطيفة الثانية- مناسبتها لما بعدها:**

قال السيوطي عن سورة مريم: (ظهر لي في وجه مناسبتها لما قبلها أن سورة الكهف اشتملت على عدة أعاجيب: قصة أصحاب الكهف... وقصة موسى مع الخضر ... وقصة ذي القرنين. وهذه السورة فيها أعجوبتان قصة ولادة يحيى بن زكريا، وقصة ولادة عيسى، فناسب تتاليهما، وأيضاً فقد قيل: إن أصحاب الكهف يبعثون قبل قيام الساعة، ويحجون مع عيسى ابن مريم حين ينزل، ففي ذكر سورة مريم بعد سورة أصحاب الكهف ... ما لا يخفى من المناسبة، وقد قيل أيضاً: إنهم من قوم عيسى، وإن قصتهم كانت في الفترة، فناسب توالي قصتهم وقصة نبيهم)[2].

---

(١) أسرار ترتيب القرآن ص١٢-١٣.
(٢) أسرار ترتيب القرآن ص١٣.

- **اللطيفة الثالثة- مناسبة فاتحتها لخاتمة ما قبلها:**

قال البقاعي: (لما ختمت تلك بأمر الرسول ﷺ بالحمد عن التنزه عن صفات النقص لكونه أعلم الخلق بذلك، بدئت هذه بالإخبار باستحقاقه سبحانه الحمد على صفات الكمال التي منها البراءة عن كل نقص، منبهاً بذلك على وجوب حمده بما شرع من الدين ... فقال ملقناً لعباده حمده، معلماً لهم كيف يثنون عليه، مفقهاً لهم في اختلاف العبارات باختلاف المقامات: ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ أي الإحاطة بصفات الكمال ﴿لِلَّهِ﴾ أي المستحق لذلك لذاته)[1].

- **اللطيفة الرابعة- مناسبة خاتمتها لفاتحتها:** وتظهر من وجوه:

١- لما افتتحت السورة بالتوحيد بحمد الله على كمال ذاته وصفاته وأفعاله كما تقدم، ناسب أن تختم بالتوحيد وذلك قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ [الكهف:١١٠]، وقد اشتملت فاتحة السورة وخاتمتها على أنواع التوحيد الثلاثة، قال ابن القيم رحمه الله: (التوحيد نوعان: نوع في العلم والاعتقاد، ونوع في الإرادة والقصد ... وهذا الثاني أيضاً نوعان: توحيد في الربوبية، وتوحيد في الإلهية، فهذه ثلاثة أنواع)، إلى أن قال: (فأما توحيد العلم فمداره على إثبات صفات الكمال، وعلى نفي التشبيه والمثال، والتنزيه عن العيوب والنقائص، وقد دل على هذا شيئان: مجمل ومفصل؛ أما المجمل فإثبات الحمد له سبحانه)[2]، وهذا الحمد هو ما افتتحت به السورة وهو النوع الأول من التوحيد، أما النوعان الآخران

---

(١) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١١٨.

(٢) مدارج السالكين ١/ ٤٨.

فقد وردا في آخر السورة، فتوحيد الربوبية يستفاد من قوله تعالى: ﴿لِكَلِمَٰتِ رَبِّي﴾، ﴿لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾، وأما توحيد الألوهية ففي صريح قوله تعالى: ﴿وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ١١٠﴾.

٢- وكذلك لما افتتحت بالثناء على الله ببيان كمال إنعامه على نبيه ﷺ بإنزال الكتاب القيم الذي لا عوج له والذي هو كلام الله وصفة من صفاته، ناسب أن تختتم بالثناء عليه سبحانه ببيان عظم هذه الصفة: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ١٠٩﴾ [الكهف].

٣- قال ابن عاشور رحمه الله في تفسير ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ١٠٩﴾: (لما ابتدئت السورة بالتنويه بشأن القرآن ثم أفيض فيها من أفانين الإرشاد والإنذار والوعد والوعيد، وذكر فيها من أحسن القصص ما فيه عبرة، وما هو خفي من أحوال الأمم، حُوِّل الكلام إلى الإيذان بأن كل ذلك قليل من عظيم علم الله تعالى ... لأن المشركين لما سألوه عن أشياء يظنونها مفحمة للرسول وأن لا قبل له بعلمها علمه الله إياها، وأخبر عنها أصدق خبر ... أتبع ذلك بما يعلم منه سعة علم الله وسعة ما يجري على وفق علمه من الوحي إذا أراد إبلاغ أحد من رسله. وفي هذا رد عجز السورة على صدرها)[1].

د- في خواتم السورة: قال السيوطي رحمه الله: (هي أيضاً مثل الفواتح في الحسن لأنها آخر ما يقرع الأسماع، فلهذا جاءت متضمنة للمعاني البديعة، مع إيذان السامع بانتهاء الكلام، حتى يبقى معه للنفوس تشوق إلى ما يذكر بعد، لأنها بين أدعية، ووصايا، وفرائض، وتحميد، وتهليل،

---

(١) التحرير والتنوير ٨/ ٤٤١.

ومواعظ، ووعد ووعيد، إلى غير ذلك)[١].

وقد بسط سبحانه في هذه السورة جواب سؤالين من أسئلة قريش الثلاثة[٢] وأنهى ذلك بقصة ذي القرنين، ولما كان من المفترض أن يؤمنوا في الحال إذ جاءهم بجواب ما سألوه عنه، فقد أتبع الله قصة ذي القرنين ببيان ما أعده للكافرين المكذبين، إنذاراً لمن أعرض عن الحق المبين الذي جاءهم في السورة فقال: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾ إلى قوله: ﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الكهف: ٩٩-١٠٦]، ثم بشر من آمن فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الكهف]، والتعقيب بهذا البيان غاية في الإبداع، إذ جواب أسئلة المشركين ليس مقصوداً لذاته، لكن المراد أن يتحققوا من سعة علم الله وصدق رسوله ﷺ ليؤمنوا به ويتبعوه، فإن هم فعلوا فلهم البشرى، وإن لم يفعلوا بان كذبهم وعنادهم واتخاذهم آيات الله ورسله هزواً فحق عليهم العذاب.

ولما اشتملت هذه السورة على جواب أسئلة المتعنتين، وكان هذا الجواب بكلام الله ﷻ، جاءت الخاتمة وثيقة الصلة بذلك: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف]، إيذاناً بأن علم الله ﷻ لا نهاية له، وأنهم مهما تعنتوا في إيراد الأسئلة فلن يعجزوا الله أن يأتيهم بجوابها، وإعلاماً لهم بأن النبي ﷺ

(١) الإتقان ٢/ ٢٨٦.

(٢) أما جواب الثالث فجاء في سورة الإسراء في قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء].

ليس له من الأمر شيء، وأنه لا يجيبهم من تلقاء نفسه لأنه لا يعلم الغيب، وفي هذا الختام من الجمال والجلال ما لا يخفى.

عاشراً- أغراض السورة: لهذه السورة أغراض كثيرة جداً، وقد سرد ابن عاشور رحمه الله ما ظهر له منها حسب ترتيب ورودها فيها بقوله: (افتتحت بالتحميد على إنزال الكتاب للتنويه بالقرآن، تطاولاً من الله تعالى على المشركين وملقنيهم من أهل الكتاب.

وأدمج فيه إنذار المعاندين الذين نسبوا لله ولداً، وبشارة للمؤمنين، وتسلية رسول الله ﷺ عن أقوالهم حين تريث الوحي، لِما اقتضته سنة الله مع أوليائه من إظهار عتبه على الغفلة عن مراعاة الآداب الكاملة.

وذكر افتتان المشركين بالحياة الدنيا وزينتها وأنها لا تكسب النفوس تزكية.

وانتقل إلى خبر أصحاب الكهف المسؤول عنه.

وحذرهم من الشيطان وعداوته لبني آدم ليكونوا على حذر من كيده.

وقدم لقصة ذي القرنين قصة أهم منها وهي قصة موسى والخضر عليهما السلام لأن كلتا القصتين تشابهتا في السفر لغرض شريف، فذو القرنين خرج لبسط سلطانه على الأرض، وموسى عليه السلام خرج في طلب العلم، وفي ذكر قصة موسى تعريض بأحبار بني إسرائيل، إذ تهمموا بخبر ملك من غير قومهم ولا من أهل دينهم، ونسوا خبراً من سيرة نبيهم.

وتخلل ذلك مستطردات من إرشاد النبي ﷺ وتثبيته، وأن الحق فيما أخبر به، وأن أصحابه الملازمين له خير من صناديد المشركين، ومن الوعد والوعيد، وتمثيل المؤمن والكافر، وتمثيل الحياة الدنيا وانقضائها وما يعقبها من البعث والحشر، والتذكير بعواقب الأمم المكذبة للرسل، وما ختمت به من إبطال الشرك ووعيد أهله؛ ووعد المؤمنين بضدهم، والتمثيل لسعة علم الله تعالى.

وختمت بتقرير أن القرآن وحي من الله تعالى إلى رسوله ﷺ فكان في هذا الختام محسّن رد العجز على الصدر)[1].

ويمكن أن نقول إن لهذه السورة نوعين من الأغراض؛ نوع يتعلق بمقاصد السورة ومحاورها الرئيسة، والنوع الثاني جاء في أثناء السورة كتنبيهات أو إشارات عابرة، وبيان ذلك كما يلي:

١- مقاصد السورة ومحاورها الرئيسة:

يقرر صاحب الظلال أن المحور الموضوعي للسورة هو تصحيح العقيدة، وتصحيح منهج النظر والفكر، وتصحيح القيم بميزان العقيدة، وقد أطال في بيان ذلك، وهو كما قال فقضية التوحيد بأنواعه والإيمان بشكل عام ولا سيما باليوم الآخر حاضرة جداً في هذه السورة.

يقول رحمه الله: (فأما تصحيح العقيدة فيقرره بدؤها وختامها.

في البدء: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾.

وفي الختام: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ وهكذا يتساوق البدء والختام في إعلان الوحدانية وإنكار الشرك ... ويلمس سياق السورة هذا الموضوع مرات كثيرة في صور شتى)[2].

---

(١) التحرير والتنوير ١/ ٢٥١٣.

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٥٠.

ومن أبرز قضايا الاعتقاد في السورة إثبات اليوم الآخر، وما فيه من النعيم للمؤمنين والعذاب للكافرين، وأدلة البعث، كما في معجزة أصحاب الكهف، ولذا قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾، ونجده في قصة صاحب الجنتين، والتعقيب على من ظن خلود الدنيا، ونجده في التعقيب على قصة ذي القرنين وختامها، ونجده في التعقيب على قصة آدم عليه السلام وفيما بين ذلك.

وأما قضية تصحيح منهج الفكر والنظر، فقضية بالغة الأهمية، على مستوى الفرد أو المجتمع أو الأمة، وأمتنا في هذا الزمان في أمس الحاجة إلى هذا التصحيح، والمقصود به أن يتحرر العقل والفكر من قوالب التقليد الأعمى والتعصب؛ أما التعصب؛ سواء كان لعالم أو لجماعة أو لحزب أو لقبيلة أو لبلد، فهو من دعاوى الجاهلية المقيتة، التي قال عنها النبي ﷺ: "ما بال دعوى الجاهلية؟!... دعوها فإنها منتنة"(١).

وأما التقليد، وهو أخذ القول دون حجة، فمن خلال الواقع والخبرة والتجربة لا يشك الإنسان أنه أخر الأمة وعاق حركتها، فالتقليد يسوغ للعامي، بل هذا هو الواجب عليه كما قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل]، وبرغم ذلك فواجب عليه أن يجتهد، ويتحرى فيمن يستفتيه العلم والديانة؛ وأما العالم المتمكن من أداوت الاجتهاد فلا يجوز له التقليد بل يحرم عليه، وعلى القول الراجح بأن الاجتهاد يتجزأ فليس لمن له القدرة على الاجتهاد في مسألة أن يقلد فيها، ويلحق بالعالم في عدم التقليد طالب العلم الذي يتمكن من النظر في أدلة أهل العلم وحججهم والموازنة بينها، وهذه مرتبة الاتباع وسطا بين الاجتهاد والتقليد.

---

(١) صحيح البخاري ٤/ ١٨٦١ (٤٦٢٢)، صحيح مسلم ٤/ ١٩٩٨ (٢٥٨٤)

ونحن عندما ندعو لتحرير العقل من التقليد والتعصب، ندعو لتحرر منضبط بضوابط الشرع وقواعده وأصوله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب]، وكما قيل: إذا جاء نهر الله بطل نهر معقل؛ فما ضر الفلاسفةَ والمتكلمين من المعتزلة والأشاعرة وغيرهم، إلا أنهم حكموا عقولهم وانفلتوا من ضوابط الشرع، ما بين غال في ذلك ومتوسط، ولكن يجمعهم جميعاً هذا الخلل المنهجي.

وقد خلفهم اليوم من يسمون بالعقلانيين والتنويريين وأمثالهم، وهذا من تسمية الأشياء المستقبحة بأسماء لامعة محببة للنفوس فينخدع بها من حرم ثاقب النظر؛ فهؤلاء قد انفلتوا من النصوص وأطلقوا لعقولهم القاصرة العنان وجعلوها حاكمة على شرع الله! تجد أحدهم لا يعقل حديث الذبابة أو لا يعقل حديث لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة، فيبادر إلى رده وإبطاله بحجة أنه مما لا يعقل، ولا يمنعه من ذلك أن يكون الحديث صحيحاً بله في الصحيحين، ولا يعنيه أن تكون الأمة قد اتفقت على التسليم لهذا الحديث، فكل هذا لا قيمة له عنده.

وشر من ذلك أن يعمد أحدهم لما هو معلوم من الدين بالضرورة ككون ميراث المرأة على النصف من نصيب الرجل، فيرد ذلك بحجة أن العقل لا يعقله في زمان استقلت فيه المرأة بشخصيتها، وصارت تزاحم الرجل في ميادين العمل كلها، فيزيد بذلك ضغثاً على إبالة!

فالعقل مهم، وتحرير الفكر من القيود التي تعوق حركته مطلوب، وقد أحسن من قال: تحرير العقول أولى من تحرير الرقاب! لكن التوسط

واجب، فلا انفلات من ضوابط الشرع، ولا تقليد أو تعصب، وعند التدقيق والتحقيق فإن العقل الصريح الخالص لا يمكن بحال أن يخالف النقل الصحيح، فكلاهما من لدن حكيم خبير أتقن كل شيء، وقد ألف شيخ الإسلام رحمه الله سفراً حافلاً في عدة مجلدات بين فيه هذه الحقيقة الجلية، وهو الكتاب الموسوم بدرء تعارض العقل والنقل.

فهذه السورة تصحح منهج الفكر بالنظر في حواراتها؛ حوار أهل الكهف مع قومهم من أهل الشرك، وحوارهم فيما بينهم، وحوار صاحب الجنتين مع صاحبه، وحوار موسى عليه السلام والخضر، وحوار ذي القرنين مع القوم بين السدين، إلى غير ذلك مما نعرض له في حينه.

ومن هذه المقاصد الرئيسة أيضاً موضوع الفتن، إذ تناولت السورة كما أشرنا ما يتعلق بالفتنة في الدين، والمال، والعلم، والسلطان، وفي أثناء الكلام عنها دروس عظيمة، ومنهج للنجاة منها كما سيأتي إن شاء الله.

٢- **الإشارات والتنبيهات:** وفيما عدا ما سبق تأتي باقي أغراض السورة كإشارات وتنبيهات عابرة، كما ذكر ابن عاشور رحمه الله، ومنها:

= ضبط اللسان والارتقاء إلى ذرى سلوكية عالية في الخطاب، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [٢٣-٢٤]، وقول الخضر عن السفينة: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [٧٩]، وقوله عن والدي الغلام: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ﴾ [٨١]، وقوله عن الغلامين: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا ﴾ [٨٢]، مع أنه فعل كل ذلك بأمر الله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ﴾ [٨٢]، وسيأتي بيان ذلك في موضعه إن شاء الله.

= إرشاد أهل الفضل ممن هم في موضع القدوة للناس كالعلماء والدعاة وطلاب العلم إلى ضرورة التعفف عن المال وعما في أيدي الناس،

كما قال ذو القرنين: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ [٩٥].

= بيان أهمية الرفقة الصالحة، كما في قصة أهل الكهف، وقصة الرجلين، وقصة موسى والخضر.

إلى غير ذلك من الإشارات كما سيأتي في أثناء السورة.

حادي عشر - أسلوب السورة:

قال في الظلال: (القصص هو العنصر الغالب في هذه السورة. ففي أولها تجيء قصة أصحاب الكهف، وبعدها قصة الجنتين، ثم إشارة إلى قصة آدم وإبليس. وفي وسطها تجيء قصة موسى مع العبد الصالح. وفي نهايتها قصة ذي القرنين، ويستغرق هذا القصص معظم آيات السورة ...)(١).

وفي القرآن كثير من القصص توزعت على سوره، وهناك سورة كاملة اسمها القصص، كما أن سورة يوسف عليه السلام كلها تقريباً ليست سوى قصة هذا النبي الكريم مع أبيه وإخوته وأهل مصر، وقد قال بعض العلماء إن القرآن يشتمل على قصص وشرائع وصفات(٢)، فبهذا الاعتبار تمثل القصص ثلث القرآن، مما يدل على عناية كبيرة بهذا الأسلوب في الخطاب.

إن الغرض من قصص القرآن ليس سرداً مجرداً للأحداث، بل الحكم والفوائد والمواعظ التي سيقت من أجلها، وقد أخرج أهل العلم من هذه الفوائد لنا كنوزاً غالية، قال ابن القيم رحمه الله عن قصة يوسف عليه السلام: (وفي هذه القصة من العبر والفوائد والحكم ما يزيد على ألف فائدة)(٣)، وذكر الشيخ ابن سعدي رحمه الله في قصة الخضر أكثر من ثلاثين فائدة، وفي هذا

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٥٠.

(٢) انظر البرهان للزركشي ١/ ٤٤٥.

(٣) الجواب الكافي ١/ ١٤٩.

أهمية أسلوب القصص في الكلام والتوجيه والإرشاد، وقد كان القرآن يتنزل على رسول الله ﷺ بقصص الأمم السابقة وحالهم مع إخوانه الأنبياء، تثبيتاً لقلبه، وتسلية له عما يصيبهم من غم تكذيب قومه له، فتزكي القصص نفوس أصحابه، وتثبتهم، وتبشرهم، وتبين لهم مآل الأمم المكذبة، شحذا لهممهم وتقوية لعزائمهم وإنارة لبصائرهم.

إن الواقع يشهد أن للقصص أثراً كبيراً في التربية، وشعوب العالم تستخدم القصة كعامل رئيس في التربية، وكذلك اهتم القرآن بالقصص، فلا بد من اعتناء المربين بهذا، وبدلا من القصص الخيالية للحيوانات أو الحشرات، نلتفت لقصص القرآن والسنة، ونعرضها بأسلوب مبسط تتخلله الآيات والأحاديث المتعلقة بالقصة، والتجربة تشهد أن هذا الأسلوب محبب للأطفال.

التفسير

قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾ [الكهف].

مسائل تتعلق بقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾

ابتدأ سبحانه هذه السورة بحمد نفسه على إنزال الكتاب على عبده محمد ﷺ، وقد مر معنا آنفاً ما في استهلال السورة بالحمد من مناسبة للسورة السابقة وخاتمتها، وما فيه كذلك من مناسبة للحال المروية في سبب النزول، وما فيه من مناسبة لعصمة قارئ فواتحها على الدجال من فتنته، وفيما يلي نتناول الحمد بشيء من البسط والتفصيل.

أولاً- معنى الحمد:

قال ابن القيم رحمه الله: (الحمد: إخبار عن محاسن المحمود مع حبه وإجلاله وتعظيمه)(١)، وقال ابن عثيمين رحمه الله: (الحمد: وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم، فيقال: حمد فلان ربه، أي: وصفه بصفات الكمال مع محبته وتعظيمه)(٢)، وإنما قيد بالمحبة والتعظيم لأن الإنسان قد يصف غيره بما فيه من صفات الكمال، طمعاً فيما بين يديه أو خشية فوات إحسانه، دون أن يقوم في القلب حب أو إرادة، وليس حمد الله من هذا.

وقد قيل غير ذلك، ومن أشهر الأقوال أن الحمد هو: الثناء بالجميل

---

(١) بدائع الفوائد ٢/ ٣٢٥.

(٢) الشرح الممتع صفة الصلاة ٣/ ٧٤.

على الجميل، وهذا غير مسلم عند بعض العلماء، قالوا: لأن الثناء ليس حمداً مجرداً بل هو تكرار الحمد، قال ابن القيم رحمه الله: (الثناء مأخوذ من الثني، وهو العطف وردّ الشيء بعضه على بعض، ومنه ثنيت الثوب، ومنه التثنية في الاسم، فالمُثْني مكرر لمحاسن من يثني عليه مرة بعد مرة)[1]، رحمه الله: (ثم تأمل تنزيل قوله تعالى، فيما رواه عنه رسول الله، حين يقول العبد: الحمد لله رب العالمين، فيقول الله: حمدني عبدي، فإذا قال: الرحمن الرحيم، قال: أثنى علي عبدي، لأنه كرر حمده)[2]، وبمثله استدل ابن عثيمين رحمه الله في رده تعريف الحمد بالثناء[3].

وقيده بعض العلماء بقوله: هو الثناء على الجميل الاختياري، ليخرج الصفات اللازمة، لأنها مختصة عنده بالمدح، وهذا ليس بالجيد، فالصحيح أن الحمد يشمل الجميل الاختياري وغيره، فأصله اللغوي كما ذكر ابن فارس يدل على خلاف الذم[4]، وهذا عام في الصفات الذاتية والاختيارية، ولهذا ذكر الأعشى حمد النعمان مقروناً بصفاته الاختيارية وغيرها:

إليكَ أبيتَ اللَّعنَ كان كَلاَلُهَا ... إلى الماجد الفَرْعِ الجَوادِ المُحَمَّدِ

والمحمد الذي كثرت صفاته المحمودة.

وإلى ذلك أشار ابن عثيمين رحمه الله[5].

ثانياً- الفرق بين الحمد وكل من المدح والثناء والشكر:

١- الفرق بين الحمد والمدح: قال ابن القيم رحمه الله: (الصواب

---

(١) بدائع الفوائد ٢/ ٣٢٧.

(٢) السابق.

(٣) الشرح الممتع صفة الصلاة ٣/ ٧٤.

(٤) معجم مقاييس اللغة {حمد} ص٢٦٢.

(٥) الشرح الممتع صفة الصلاة ٣/ ٧٤.

في الفرق بين الحمد والمدح أن يقال: الإخبار عن محاسن الغير؛ إما أن يكون إخباراً مجرداً من حب وإرادة، أو مقروناً بحبه وإرادته، فإن كان الأول فهو المدح، وإن كان الثاني فهو الحمد.

فالحمد إخبار عن محاسن المحمود مع حبه وإجلاله وتعظيمه، ولهذا كان خبراً يتضمن الإنشاء، بخلاف المدح فإنه خبر مجرد، فالقائل إذا قال: الحمد لله، أو قال: ربنا لك الحمد، تضمن كلامه الخبر عن كل ما يحمد عليه تعالى باسم جامع محيط متضمن لكل فرد من أفراد الحمد المحققة والمقدرة، وذلك يستلزم إثبات كل كمال يحمد عليه الرب تعالى، ولهذا لا تصلح هذه اللفظة على هذا الوجه ولا ينبغي إلا لمن هذا شأنه، وهو الحميد المجيد... وتأمل الإنشاء الثابت في قولك: ربنا لك الحمد، وقولك: الحمد لله، كيف تجده تحت هذه الألفاظ، ولذلك لا يقال موضعَها: المدح لله تعالى، ولا ربنا لك المدح)[1].

٢- الفرق بين الحمد والثناء: قال رحمه الله: (من حيث اعتبار الخبر نفسه ينشأ التقسيم إلى الثناء والحمد، فإن الخبر عن المحاسن إما متكرر أو لا، فإن تكرر فهو الثناء، وإن لم يتكرر فهو الحمد ... فالمُثْنِي مكرر لمحاسن من يثني عليه مرة بعد مرة)[2].

٣- الفرق بين الحمد والشكر: ذكر ابن كثير رحمه الله أن بينهما عمومًا وخصوصًا ثم قال: (فالحمد أعم من الشكر من حيث ما يقعان عليه؛ لأنه يكون على الصفات اللازمة والمتعدية، تقول: حَمدته لفروسيته،

---

(١) بدائع الفوائد ٢/ ٣٢٥.

(٢) بدائع الفوائد ٢/ ٣٢٧.

وحمدته لكرمه. وهو أخص لأنه لا يكون إلا بالقول. والشكر أعم من حيث ما يقعان به، لأنه يكون بالقول والعمل والنية، كما تقدم، وهو أخص لأنه لا يكون إلا على الصفات المتعدية، لا يقال: شكرته لفروسيته، وتقول: شكرته على كرمه وإحسانه إليّ. هذا حاصل ما حرره بعض المتأخرين، والله أعلم)(١).

ثالثاً- فائدة تعريف الحمد باللام:

قال ابن كثير رحمه الله: (والألف واللام في ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ ، لاستغراق جميع أجناس الحمد وصنوفه لله تعالى، كما جاء في الحديث: "اللهم لك الحمد كله، ولك الملك كله، وبيدك الخير كله، وإليك يرجع الأمر كله"(٢) الحديث)(٣)، وهذا بخلاف (حمداً لله الذي أنزل الكتاب) مثلاً، فقد يفهم أنه على نعمة إنزال الكتاب خاصة، أو على صفة إنزال الكتاب دون غيرها.

رابعاً- المراد باللام في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ﴾: اللام هنا للاستحقاق والاختصاص، قال العلامة ابن عثيمين رحمه الله: (فالمستحق للحمد المطلق هو الله، والمختص به هو الله؛ ولهذا كان النبي ﷺ إذا أصابته السراء قال: "الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات"(٤)، وإن أصابته الضراء قال: "الحمد لله على كل حال"(٥)، أما غير الله فيحمد على أشياء خاصة)(٦).

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ١٢٨.
(٢) مسند أحمد بن حنبل ٥/ ٣٩٥ (٢٣٤٠٣)، وضعفه الأرناؤوط.
(٣) تفسير ابن كثير ١/ ١٣١.
(٤) سنن ابن ماجه ٢/ ١٢٥٠ (٣٨٠٣)، وحسنه الألباني.
(٥) السابق.
(٦) مقدمة الشرح الممتع ١/ ٣.

خامساً - لماذا يسند الحمد المُعَرَّف بالألف واللام للفظ الجلالة دائماً؟

لفظ الجلالة (الله) عَلَم على ذاته سبحانه؛ قيل جامد، وقيل مشتق، والصحيح أنه مشتق من الإله، ثم أدغمت اللام في اللام، وحذفت الهمزة تخفيفاً، وفخمت اللام فصارت الله. والإله فِعال بمعنى مفعول لأنه مألوه، أي معبود، والله هو الإله المعبود بحق، وما دونه فآلهة باطلة.

وقد جعل تعالى الحمد متعلقاً باسمه (الله)، فكأن معنى الحمد لله: الوصف بجميع المحامد للإله المعبود بحق، إذ لا يليق تعليقها إلَّا به، وفي جعل الحمد متعلقاً بهذا الاسم إشارة يُردُّ بها على من جعل متعلق الحمد الجميل الاختياري، فالله تعالى أسند الحمد لاسم أشهر علم على ذاته، وفي ذلك تنبيه على استحقاق ذاته العلية للحمد قبل أن يخلق الخلق.

وقد جاء الحمد في القرآن مسنداً إلى غير لفظ الجلالة في غير موضع، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ [البقرة: ٣٠]، وقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الحجر]، وغيرها، إلا أن الحمد المعرف بالألف واللام جاء في كل المواضع مسنداً إلى (الله) دون غيره، فلم يَرِد: الحمد للرحمن، أو الحمد للقادر، أو الحمد للغفور، ونحو ذلك.

والسبب في ذلك أن إسناد الحمد للرحمن أو القادر أو الغفور وغيرها من الأسماء الحسنى، قد يُشعر باختصاصه بتلك للصفة، فيكون الحمد على الرحمة أو على القدرة أو على المغفرة، فإسناد الحمد (لله) يجمع ذلك كله، فعبر باسمه الأخص في مسماه ومعناه، الذي لا يشاركه فيه أحد غيره، فهو حمد لذات الله ﷻ المتصفة بصفات الكمال الذاتية والاختيارية، والله أعلم.

فإن قيل: اسم الرحمن كذلك مما لا يشاركه فيه غيره، وتسمية غيره

كمسيلمة به من باب المكابرة والعناد والمضاهاة لاسم الله ﷻ، فيجاب بأن اسم الرحمن وإن كان مختصاً بالله جل وعلا، إلا أنه ليس أخص أسمائه، أما اسم الله فدال على الذات التي لها الأسماء الحسنى ومنها الرحمن، فيكون بذلك أخص أسمائه، وهذا محل اتفاق. وقد ذكر ابن القيم هذا المعنى(١).

مسائل تتعلق بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ﴾

أولاً- تخصيص نعمة إنزال الكتاب على عبده بالحمد:

لقد حمد الله نفسه في مقام ذكر إنزال الكتاب على عبده محمد ﷺ ليبين أنه نعمة عظيمة تستوجب حمدنا له سبحانه، كيف لا وقد هدانا بهذا الكتاب بعد الضلال، وأخرجنا به من الظلمات إلى النور، وأعزنا به من بعد الذل، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة]، والآية الأخرى في الحديد، وقال النبي ﷺ للأنصار: "ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟ وكنتم عالة فأغناكم الله بي؟"(٢)، ففي ذكر نعمة تنزيل القرآن امتنان على المؤمنين من هذه الأمة، أن خص الله نبيهم بهذا الكتاب، الذي لم يُؤت أحد من الأنبياء قبله مثله، وفيه أيضاً امتنان على أمة الدعوة من الثقلين الذين بعث فيهم نبينا ﷺ على فترة من الرسل ليخرجهم من الظلمات إلى النور.

إن لله ﷻ على العباد نعماً كثيرة تستوجب الحمد، وقد يخص الله بعضها بالذكر لشرفها، أو لمعنى اقتضى تخصيصها، وقد اجتمع السببان في ذكر إنزال الكتاب هنا، لأنه نعمة من أجلِّ النعم، إذ فيه كل ما تحتاج إليه

---

(١) مدارج السالكين ١/ ٣٢-٣٣.

(٢) صحيح البخاري ٤/ ١٥٧٤ (٤٠٧٥)، صحيح مسلم ٢/ ٧٣٨ (١٠٦١).

الأمة مما يتعلق بصلاح الدارين، كما أن تخصيص هذه النعمة بالذكر في أول السورة مناسب لما جاءت به من أجوبة على مسائل اليهود والمشركين.

ثانياً- تشريف النبي ﷺ: من وجوه؛ أحدها أنه تعالى لم يقل: (الحمد لله الذي أنزل الكتاب)، بل قرن ذكره ﷺ بذكر نعمة إنزال الكتاب، والثاني أنه قدم ذكره على ذكر الكتاب، ليبين عظيم منزلته، والثالث أنه وصفه بالعبودية، إذ هي مقام عظيم، (يشرف به العبد لانتسابه إلى جناب الله تعالى ... وقد سمى الله رسوله بعبده في أشرف مقاماته فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١]، ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]، ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]، فسماه عبدًا عند إنزاله عليه، وعند قيامه بالدعوة، وعند إسرائه به، وأرشده إلى القيام بالعبادة في أوقات يضيق صدره من تكذيب المخالفين ...)(١).

وفي ذكر العبودية مقترنة بذكر نعمة إنزال الكتاب إشارة إلى أن مَنْ مَنَّ الله عليه بالعلم ينبغي أن يكون عبداً لله، بل وفي كل النعم، ومَن مِن الخلق يخلو من ذلك؟! فيا من شرفه الله ومنّ عليه ورفعه على ما سواه من الخلائق كن عبداً لله.

وقد ناسب هنا أن يذكر الله تعالى نبيَّه ﷺ باسم العبودية من وجوه:

أحدها: أن انقطاع الوحي وتأخره عنه -على ما روي- لم يخرجه عن حد العبودية، فبرغم أنه قد شق عليه، إلا أنه صبر ورضي بقضاء الله.

ثانيها: أن وعده المشركين بالجواب لم يتجاوز به عتبات العبودية، لأنه إنما كان ينتظر الوحي ليأتيه بالجواب من رب البرية.

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ١٣٦.

ثالثها: أن الخطاب تذكير للنبي ﷺ بالتزام العبودية في كل أحواله.

رابعها: أنه أضاف وصفه بالعبودية إليه تشريفاً له: (عبده).

خامسها: إثبات شرف وصف العبودية له، فهو عبد قائمٌ بحق سيده ومولاه سبحانه وتعالى بشهادة الله له، فهو عبد يشرف بالنسبة.

سادسها: أن وصفه بالعبودية بعد حمده مشعر بقيامه بحق الحمد.

وإذا كان مقام العبودية عظيماً فله لوازم عظيمة، من أهمها تسليم العبد أموره كلها لربه، تسليماً مطلقاً مصحوباً بالإيمان الجازم، وبقدر ما يرتقي يرتقي في عبوديته، حتى يصل إلى تحقيق هذا المقام فترتفع مكانته عند الله ﷻ؛ كحال السيد مع ما ملكت يمينه -ولله المثل الأعلى- فإن مكانة العبد عند سيده ترتفع بمقدار ما يستجيب لأوامره دون تردد أو تكاسل أو مناقشة، فكيف في حق الله جل وعلا على خلقه!

فمن حاكَ في صدره شيء فيما يتعلق بحق الله والتسليم لشريعته، فلم يرتقِ كما ينبغي في مقام العبودية، قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء]، فأقسم بنفسه أن أحداً لا يؤمن حتى يجعل الشريعة حاكمة في كل الحوادث والقضايا، ويجمع إلى ذلك سلامة الصدر من الحرج في ذلك، ثم الاستسلام والانقياد القلبي المطلق، فيجمع الإنسان انقياد الظاهر والباطن لله ﷻ وشرعته، فإن فعل ذلك حقق مقام العبودية.

أما من ضعفت عبوديته، فيكون كالريشة في مهب الريح، تثور في قلبه شبهات فينساق معها يمنة ويسرة، ولو حقق العبودية لردها وما التفت إليها، أما من حقق مقام العبودية لله ﷻ كما ينبغي فإن قلبه ثابت كالجبال الرواسي لا تضره الفتن؛ ونظرة سريعة على ما كان يوم الإسراء تبين ذلك

وتجليه، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: "لما أسري بالنبي ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يتحدث الناس بذلك، فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه، وسعوا بذلك إلى أبي بكر رضي الله عنه، فقالوا: هل لك إلى صاحبك، يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس، قال: أوَقال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: أوَتصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟ قال: نعم، إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة، فلذلك سمي أبو بكر الصديق"(١)، فشتان بين موقف أبي بكر وموقف من ارتد، إذ سما هو بإيمانه على فتنة الشبهة، وحقق مقام العبودية، وسقط أولئك في حمأة الفتنة.

ولئن حقق النبي ﷺ العبودية حتى يشاد به في هذا المقام الشريف، فحري بالأمة أن تقتدي به فتشكر ربها على إنزال الكتاب، بتحقيق العبودية، وفقاً لما شرعه، لا بالآراء والأهواء، ومن جملة القيام بحق العبودية تحكيمه في جميع شؤون الحياة، مع التسليم المطلق كما سبق.

ثالثاً- وصف المُنزَل -وهو القرآن - بالكتاب: وفيه إشارة إلى وجوب كتابته وجمعه وجوباً كفائياً كما ذكر بعض أهل العلم، إذ المعنى: الحمد لله الذي أنزل كلامه المكتوب، فالكتاب فِعال بمعنى مفعول: أي مكتوب، فهو (إما مصدر كاتب المصوغ للمبالغة في الكتابة، فإن المصدر يجيء

---

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم ١٠/ ١٩٨ (٤٣٨١)، وصححه الحاكم، والألباني في الصحيحة ١/ ٥٥٢ (٣٠٦).

بمعنى المفعول كالخلق(١)، وإما فعال بمعنى مفعول كلباس بمعنى ملبوس وعماد بمعنى معمود به. واشتقاقه من كَتَبَ بمعنى جمع وضم، لأن الكتاب تجمع أوراقه وحروفه، فإن النبي ﷺ أمر بكتابة كل ما ينزل من الوحي وجعل للوحي كُتَّاباً، وتسمية القرآن كتاباً إشارة إلى وجوب كتابته لحفظه. وكتابة القرآن فرض كفاية على المسلمين)(٢)، وقد قام أبو بكر ﷺ بهذا الواجب في خلافته، ولم تتم هذه المهمة في حياة النبي ﷺ لأن القرآن كان يتنزل، وكلما نزل منه شيء أخبرهم ﷺ بموضعه من سورة كذا بعد آية كذا، فلا يتم الغرض من جمعه والوحي ما زال يتنزل.

- **فائدة:** الكتاب من أسماء القرآن كما علمت، وللقرآن أسماء أخرى كثيرة، أوصلها بعض أهل العلم في مصنف له إلى نيف وتسعين، وعد بعضهم للقرآن خمسةً وخمسين اسماً سردها الزركشي(٣)، وقال شيخ الإسلام ﷺ: (فصل أسْمَاء القُرآن: القرآن، الفرقان، الكتاب، الهدى، النور، الشفاء، البيان، الموعظة، الرحمة، بصائر، البلاغ، الكريم، المجيد، العزيز، المبارك، التنزيل، المنزل، الصراط المستقيم، حبل الله، الذكر، الذكرى، تذكرة: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ٤٨﴾ [الحاقة]، ﴿إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ٥٤ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ٥٥﴾ [المدثر]، ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [البقرة: ٧٩]، و[آل عمران: ٣]، و ﴿تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [يونس:٣٧]، [يوسف:١١١]، المهيمن عليه، ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [يوسف: ١١١]، ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، المتشابه، المثاني، الحكيم:

---

(١) الخلق يأتي بمعنى المخلوق، كما تقول: هذا الحيوان خلق من خلق الله أي من مخلوقاته، ويأتي معبراً عن المعنى المصدري الذي هو فعل الله تعالى، كما في قول القائل: خلق الله متقن.

(٢) التحرير والتنوير ١/ ٦٦.

(٣) ينظر البرهان في علوم القرآن ١/ ٢٧٣.

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ ﴾ [لقمان]، محكم، المفصل: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ﴾ [الأنعام: ١١٤]، البرهان:
﴿ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ ﴾ [النساء]، على أحد القولين، الحق: ﴿ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ [يونس: ١٠٨]، عربي مبين، أحسن الحديث، أحسن القصص على قول،كلام الله: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٦]، العلم: ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ [آل عمران: ٦١]، العلي الحكيم: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الزخرف: ٤]، القيم: ﴿ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ ﴾ [البينة]، ﴿ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا ﴾ [الكهف]، وَحْي في قوله: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [النجم]، حكمة في قوله: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ﴾ [القمر]، وحُكْماً في قوله: ﴿ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾ [الرعد: ٣٧]، ونبأ -على قول- في قوله: ﴿ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ﴾ [النبأ]، ونذير -على قول-: ﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ ﴾ [النجم]، في حديث أبي موسى شافعاً مشفعاً وشاهداً مصدقاً، وسماه النبي ﷺ: "حُجَّة لك أو عليك" وفي حديث الحارث عن علي: "عِصْمَة لمن استمسك به". وأما وصفه بأنه يقص وينطق ويحكم ويفتي ويبشر ويهدي فقال: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [النمل]، ﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ﴾ [الجاثية: ٢٩]، ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [النساء: ١٢٧]، أي: يفتيكم، أيضاً: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [الإسراء: ٩])[1]. وكأن الآيات شواهد على أوصاف له، فعدها بعضهم أسماء.

---

(١) مجموع الفتاوى ١٤/ ١٠٢.

- **فائدة ثانية:** كثيراً ما يجيء الكتاب في القرآن مراداً به القرآن نفسه، وقد يراد به غيره؛ كجنس ما أنزل الله على رسله كما في قوله: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وقد جاء هذا في مواضع، وقد يراد به اللوح المحفوظ كما في قوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقوله: ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [الواقعة]، وقوله: ﴿وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد]، وقد يراد به كتاب الأعمال: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ [الكهف: ٤٩]. وقد يراد به التوراة والإنجيل كما في قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ [الأنعام: ١٥٦]، وكثيراً ما يجيء جمع التوراة والإنجيل على أنهما كتاب، فالتوراة هي أصل تشريعهم والإنجيل متمم لها مخفف بعض أحكامها، ولهذا يقال لليهود والنصارى: ﴿أَهْلُ الْكِتَابِ﴾، وقد يراد به التوراة خاصة كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ [البقرة: ٥٣]، وهذا كثير، وقد يراد به الإنجيل خاصة كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾ [مريم]، وهذا لعله الموضع الوحيد.

رابعاً- إنزال الكتاب من الله، والتنزيل على محمد ﷺ: أما تنزيله من الله سبحانه فقد تظاهرت عليه أدلة الكتاب، والآيات في ذلك كثيرة جداً، وهو هنا واضح بيِّن ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ﴾، وفي هذا رد على أهل الإفك ممن زعم أن محمداً ﷺ قد تركه ربه، ومن زعم أنه من عند نفسه إلى غير ذلك من افتراءاتهم، فليس في إنزاله من الله ريب، وليس في تبليغ النبي ﷺ عيب بل هو التزام منه بالعبودية، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، وغير ذلك من الآيات.

فوائد تتعلق بأوصاف القرآن في هذه الآيات:

لقد وصف الله كتابه في الآيات السابقة بعدد من الأوصاف تغري بالتزامه والعمل به، وتحذر من تركه ومخالفة أمره، وهذه الأوصاف هي:

١- **وصفه بأنه منزل من الله تعالى:** فما جاء من العلي العظيم، واجب الاحترام والتعظيم، كيف لا وقد نوه الله بمحامد نفسه قبل ذكر إنزاله الكتاب، فهو قد أنزل من عند من له المحامد كافة سبحانه، ولو أن كتاباً جاء أحدَنا من ملِك أو مُعظَّم لالتزم به وعظَّمه، فكيف بكتاب جاءنا من ملك تام الملك، حكيم في أمره وتدبيره، له كل صفات الحمد! إله مستحق للعبادة لذاته، ونحن مع هذا عبيده لا يخرج أحد منا عن الخضوع لأمره وقدره الكوني، أفلا يجب علينا الخضوع لأمره الشرعي؟

٢- **وصفه بأنه منزل على محمد ﷺ:** وهذا مشعر بضرورة التأسي به في إجلال وتوقير هذا الكتاب، وبإقامة الحروف والحدود، لا تضييعها، فهو ﷺ قد دعا إليه وحض على التمسك به حياته كلها، وكان مثالاً يحتذى في ذلك، وأسوة حسنة، حتى قالت عائشة رضي الله عنها لما سئلت عن خلقه: "كان خلقه القرآن"[1]، فحري بأتباعه أن يكونوا كذلك، لا ممن شكاهم ﷺ بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِى ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورࣰا ٣٠﴾ [الفرقان].

فائدة- قال ابن القيم رحمه الله: (هجر القرآن أنواع؛ أحدها: هجر سماعه والإيمان به والإصغاء إليه، والثاني: هجر العمل به والوقوف عند

(١)مسند أحمد بن حنبل٦/ ١٦٣ (٢٥٣٤١)، قال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

حلاله وحرامه، وإن قرأه وآمن به، والثالث: هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه، واعتقاد أنه لا يفيد اليقين وأن أدلته لفظية لا تحصل العلم، والرابع: هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه، والخامس: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلب وأدوائها، فيطلب شفاء دائه من غيره ويهجر التداوي به؛ وكل هذا داخل في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ [الفرقان]، وإن كان بعض الهجر أهون من بعض)[١].

٣- **وصفه بصفة سلبية وهي قوله:** ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾: فنفى العوج عن الكتاب، والعوج (يدلُّ على مَيَلٍ في الشَّيء أو مَيْل[٢]، وفروعُه ترجع إليه)[٣]، فلا ميل ولا انحراف في الكتاب عن الصواب بحال، كما قال الشنقيطي رحمه الله: (لم يجعل في القرآن عوجاً. أي لا اعوجاج فيه البتة، لا من جهة الألفاظ، ولا من جهة المعاني. أخباره كلها صدق، وأحكامه عدل، سالم من جميع العيوب في ألفاظه ومعانيه، وأخباره وأحكامه. لأن قوله "عوجا" نكرة في سياق النفي، فهي تعم نفي جميع أنواع العوج ... بينه في مواضع أخر كثيرة كقوله: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزمر]، وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ [الأنعام]، فقوله "صدقاً" أي في الأخبار، وقوله "عدلاً" أي في

(١) الفوائد ١/ ٨٢.

(٢) الفرق بين المَيَل والمَيْل أن الأول يكون خلقة في الشيء، ينظر مقاييس اللغة ٥/ ٢٩٠ مادة (ميل).

(٣) مقاييس اللغة ٤/ ١٤٧.

الأحكام)[١]، وهذا من أجود ما قيل في معنى الكلمة هنا، وهو يتضمن نحو ما قاله ابن عاشور ويزيد، إذ قال: (... والمقصود من هذه الجملة المعترضة أو الحالية إبطال ما يرميه به المشركون من قولهم: افتراه، وأساطير الأولين، وقول كاهن، لأن تلك الأمور لا تخلو من عوج)[٢]، ثم قال رحمه الله: (فالمعنى: أنه متصف بكمال أوصاف الكتب؛ من صحة المعاني، والسلامة من الخطأ والاختلاف. وهذا وصف كمال للكتاب في ذاته، وهو مقتض أنه أهل للانتفاع به، فهذا كوصفه بأنه ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ في سورة البقرة)[٣].

٤- **وصفه بأنه قيم:** قال الشنقيطي: (وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿قَيِّمًا﴾ أي مستقيماً لا ميل فيه ولا زيغ... وهذا الذي فسرنا به قوله تعالى: ﴿قَيِّمًا﴾ هو قول الجمهور وهو الظاهر، وعليه فهو تأكيد في المعنى لقوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾، لأنه قد يكون الشيء مستقيماً في الظاهر وهو لا يخلو من اعوجاج في حقيقة الأمر، ولذا جمع تعالى بين نفي العوج وإثبات الاستقامة. وفي قوله "قيماً" وجهان آخران من التفسير:

الأول- أنه قيم على ما قبله من الكتب السماوية، أي مهيمن عليه، وعلى هذا التفسير فالآية كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٨٤] الآية ...

الثاني- أن معنى كونه "قيماً" أنه قيم بمصالح الخلق الدينية والدنيوية، وهذا الوجه في الحقيقة يستلزمه الوجه الأول)[٤].

---

(١) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٣/ ٢٦٩.
(٢) تفسير التحرير والتنوير ٨/ ٣٢٥.
(٣) السابق ٨/ ٣٢٦.
(٤) أضواء البيان ٣/ ٢٧٠-٢٧١.

و ﴿قَيِّمًا﴾ حال من الكتاب، أي أنزل الكتاب على عبده حال كونه قيماً، فهو قيم على هداية الأمة وصلاحها، وكل حاجات الأمة فيه، كما في قوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، على أن المراد هنا القرآن.

- **فائدة:** المدح يكون بالنفي كما يكون بالإثبات، وقد مدح الله ﷻ القرآن هنا بالأمرين، لبيان منزلة هذا القرآن، فقال تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾ فهذا نفي، وقال: ﴿قَيِّمًا﴾ وهذا إثبات، ولهذا في القرآن نظائر عديدة.

٥- **أنه نذير بأس شديد من لدن الله تعالى:** وذلك قوله: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾، قال ابن فارس: (النون والذال والراء كلمةٌ تدل على تخويف أو تخوُّف)[١]، قال ابن كثير: (أي: لمن خالفه وكذبه ولم يؤمن به، ينذره بأسًا شديدًا، عقوبة عاجلة في الدنيا، وآجلة في الآخرة، ﴿مِّن لَّدُنْهُ﴾ أي: من عند الله الذي لا يُعَذِّب عذابه أحد، ولا يوثق وثاقه أحد)[٢]، وفي هذا تخويف ووعيد عظيم، فإن العذاب إذا جاء من قوي شديد البأس كان عظيماً، فكيف إذا جاء ممن له كمال العظمة والبأس!

هذا العذاب مناسب لحال من أعرض عن الكتاب المنزل من الله سبحانه، ولم يجعل له عوجاً بل جعله قيماً، فيكون المعنى: الله أنزل الكتاب لينذر العباد بأساً، قال ابن جرير: (فإن قال قائل: فأين مفعول قوله: ﴿لِّيُنذِرَ﴾؟ فإن مفعوله محذوف، اكتفي بدلالة ما ظهر من الكلام عليه من ذكره، وهو مضمر متصل بينذر قبل البأس، كأنه قيل: لينذركم بأساً، كما قيل: ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، إنما هو: يخوّفكم أولياءه)[٣]،

(١) مقاييس اللغة ٥/ ٣٣١.
(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٣٥.
(٣) تفسير الطبري ١٧/ ٥٩٣

وقال البقاعي: (وقصره على المفعول الأول[1] ليعم كل من يصح قبوله الإنذار ولو تقديراً، وليفيد أن الغرض بيان المنذَر به لا المنذَر)[2].

واللام في قوله: ﴿لِّيُنذِرَ﴾ لام التعليل؛ أي أنزله لأجل أن ينذر الثقلين بأسه، فإنذارهم مراد من إنزال الكتاب.

وإذا تقرر أن القرآن ينذر بأساً شديداً، فحق على كل عاقل أن يلتزم بكل ما فيه اتقاء ذلك البأس.

٦- **أنه يبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات:** يبشرهم أي يفرحهم بأن لهم أجراً حسناً، فهو بشرى للذين استجابوا لله ووعوا النذارة أن عملهم ليس بالمجان! وأن عاقبتهم ليست هي مجرد النجاة من الوعيد، بل لهم على عملهم أجر، وليس أجراً زهيداً بل أجراً حسناً.

وقد جمعَت الآيات الكريمة وصف القرآن بالبشارة والنذارة، والجمع بينهما منهج قرآني، إذ تأتي الآيات التي يبين فيها الله ﷻ ما أعده لمن كفر به وعصى أمره من العذاب، لاحقة للآيات التي يبين فيها ما أعده لمن آمن به واستقام على أمره من الثواب، أو العكس، كقوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٩٨﴾ [المائدة]، وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٦﴾ [الرعد]، وهذا الأسلوب صادر من حكيم عليم، يعلم ما يصلح لعباده وما يصلحهم، وفيه فائدة عظيمة للمربين وأولياء الأمور ليسلكوا هذه السبيل، فينذروا ويبشروا، إذ الإنسان يحتاج إلى هذين وفيهما صلاح أحواله.

---

(١) يريد بذلك قوله تعالى: بأساً.

(٢) تفسير البقاعي ٥/ ١١٩.

وقوله: ﴿ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝٣ ﴾، يعني أن الأجر دائم، وحرف الجر (في) يفيد أن الأجر هو الجنة دار الخلود التي فيها ما أعده الله للعاملين، والأجر الحسن درجات وأنواع، ولكل عامل من ذلك حظه بحسب الإيمان والعمل الصالح، وهما شرطا الأجر الحسن. وقد وعد الله رجالاً فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٥٨ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ۝٥٩ ﴾ [الحج]، وليس هؤلاء كالذين جاؤوا من بعدهم.

وفي هذه الآية الكريمة ترغيب في الاستقامة على هدي الكتاب القيم الذي ليس فيه عوج، ببيان ما في ذلك من الأجر الحسن، بعد ما ذكر من الترهيب من البأس الشديد، لمن انحرف عن هديه، فهذه ستة أوصاف للكتاب تغري بالتزامه والعمل به، وتنذر تركه ومخالفة أمره، وفي كتاب الله غيرها كثير، قد مضت الإشارة في أسماء القرآن إلى بعضها(١).

ومن العجائب أن يختص الله هذه الأمة بهذا الكتاب الذي هذه أوصافه، ثم نرى فئاماً منها يتنكبون طريقه، ويلتمسون الهدى من غير سبيله، ويزيد العجب أن يتولى كبر ذلك نفر من المثقفين وأصحاب الشهادات، ممن يفترض أن يكونوا أول داع للتمسك به، والعجب يزول عندما نعلم أن كثيراً منهم ربوا على أعين الأعداء، وغُذُّوا بِلِبانهم، فأشربت قلوبهم الفتنة فلم تميز بين الحق والباطل، أو أشربت هواها، فأنى لأصحابها أن يروا الحق! قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٢٣ ﴾ [الجاثية].

إن واقع الأمة اليوم يبعث على الحزن والأسى، إذ ضلت ضلالاً بعيداً

---

(١) انظر ص٦٦.

في باب تحكيم القوانين الوضعية في كثير من نواحي الحياة، ومن تأمل دساتير كثير من البلاد العربية وجد الإسلام فيها مصدرا من مصادر التشريع، أو أنه المصدر الأول من مصادره، وهو ما قد ينخدع به بعض الناس ويسرون، لكن الحقيقة أن من وضعوا هذه الدساتير، أرادوا أن الإسلام مصدر، معه مصادر أخرى، كالقوانين الفرنسية أو الإنجليزية وغيرها، ولهذا قالوا مصدر (مِن) مصادر التشريع، ولم يقولوا مصدر التشريع، فليس هو المصدر الوحيد، وهذا باب شر عظيم كما لا يخفى.

وهذا لا يعني ألا نستفيد من الآخرين، بل لنا أن نستفيد من الشرق والغرب، ومن الدنيا كلها إن وجدنا عندهم ما يفيد، ولكن بضوابط القرآن والشرع المطهر، ودون تفريط في الثوابت.

إن هؤلاء الذين يعدلون بالقرآن غيره، إنما يقدحون في القرآن في حقيقة الأمر، فلو أن شخصاً له قيِّم، ثم ذهب إلى غيره لقضاء حوائجه، لكان هذا قدحاً فيه، واتهاماً له بالتقصير؛ فلو ذهب ذهب ابن لرجل ثري يقترض من بعض الناس، لا يرضى الأب بذلك لأنه قدح فيه. فكذلك القرآن، قيِّم على هذه الأمة، وقد بين الله فيه ما ينفعها في عاجلها وآجلها، فالإعراض عنه كلياً أو جزئياً قدح فيه، والله المستعان.

وغني عن البيان أن الأخذ بالقرآن يتضمن بالسنة، لقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧]، وقوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم]، وغيرها.

فيكون معنى الآيات السابقة: الوصف بالمحاسن التامة، مع المحبة والتعظيم والإجلال، لله الذي لا معبود بحق إلا هو، لذاته وأوصافه

وأفعاله، الذي أنعم على الناس بأعظم نعمة، كتابه العزيز الذي فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة، على نبيه القائم بحق العبودية على أكمل وجه، ليتأسى به أتباعه، وليخوف به من عصاه عذاباً شديداً لعلهم ينتهون، ويفرح عباده الذين آمنوا وأتبعوا إيمانهم بالأعمال الصالحة أن لهم فوق النجاة من العذاب مثوبة حسنة في الجنان خالدين فيها أبداً.

من فوائد الآيات الكريمة:

١- وصف الله بكل صفات الحمد اللائقة، ويستحق للحمد عليها.

٢- القرآن كلام الله منزل.

٣- العبودية لله شرف عظيم، للنبي ﷺ منه النصيب الأوفى.

٤- الإشارة إلى صفة العلو، فالله هو الذي أنزل القرآن وهو كلامه وصفة من صفاته منه بدأ وإليه يعود، فنزوله يدل على علو مُنزِله سبحانه.

٥- القرآن سالم من كل عيب في لفظه ومعناه.

٦- أفعال الله تعالى لها حِكَم تعلل بها.

٧- أنزل الله القرآن نذارة للمعرضين عنه وبشارة للمؤمنين به.

٨- الجنة دار المقامة لا تبيد ولا يحول نعيمها ﴿ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ ﴾

التمهيد للشروع في موضوعات السورة الرئيسة

قال تعالى: ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾ [الكهف].

لما حمد الله تعالى نفسه على إنزال الكتاب بشيراً ونذيراً كما فُصِّل، شرع في بيان ما أجمله، وخص بعضه بالذكر لاقتضاء المقام له، فذكر أن من جملة إنذار الله بالقرآن إنذاره الذين قالوا اتخذ الله ولداً، قال الرازي: (اعلم أن قوله تعالى: ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾ معطوف على قوله: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ ﴾ [الكهف: ٢] ... فالأول عام في حق كل من استحق العذاب، والثاني خاص بمن أثبت لله ولداً. وعادة القرآن جارية بأنه إذا ذكر قضية كلية عطف عليها بعض جزئياتها تنبيهاً على كونه أعظم جزئيات ذلك الكلي ... العطف يدل على أن أقبح أنواع الكفر والمعصية إثبات الولد لله تعالى)(١)، والذين قالوا اتخذ الله ولداً أصناف ثلاثة:

١- المشركون، وهم المعنيون بالخطاب ابتداء، إذ زعموا أن الملائكة بنات الله، كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [النحل]، وغيره.

٢- اليهود، وقد قالت بذلك طائفة منهم اندثرت اليوم، قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣٠]، قال البقاعي: (القائل لهذا

---

(١) تفسير الرازي ١٠/ ١٥٦.

القول منهم؛ روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنهم أربعة، وقيل: قائله واحد وأسند إلى الكل، كما يقال: فلان يركب الخيول، وقد لا يكون له إلا فرس واحد، وهو كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وقيل: كان فاشياً فيهم، فلما عابهم الله به تركوه، وهم الآن ينكرونه، والله تعالى أصدق حديثاً)[١]، وفي هذا جواز نسبة القول تقول به طائفة إلى الكل إذا لم يلق حقه من نكيرهم، ومن هنا تعرف غلط من يدافع عن مذاهبَ أو تياراتٍ منحرفة لأن قلة من أهلها لم تقل بقول الأكثرين، بل غلط من ينفي نسبتهم لباطل قال به بعضهم ولم يلق حقه من الإنكار عندهم.

واليهود وإن لم يدخلوا بالأصالة في الخطاب فهو يتناولهم تبعاً، وفيه مناسبة لسبب النزول من سؤال المشركين اليهودَ وإرسالِهم النضر بن الحارث وعقبةَ بنَ أبي معيط إلى المدينة يتقصيان شأن محمد ﷺ. فكأنه يقول للمشركين من قريش: هؤلاء الذين سألتم وإليهم رجعتم، داخلون في نذارة الكتاب؛ لافترائهم على الله، أو لسكوتهم، فصاروا وإياهم سواء.

٣- النصارى، وهؤلاء يتناولهم عموم اللفظ، وهم من أحق الناس به لاعتقاد عامتهم أن المسيح عليه السلام ابن الله، بل هذا أصل دينهم.

لطيفة- سبق أن المفعول في ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ حُذِف، وهو المنذَر، وأثبِت المنذَر به وهو (بأساً)، و هنا ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ٤﴾ حذف المنذَر به، وأثبت المنذَر الذين قالوا اتخذ الله ولداً، فما حذف في الأولى أثبت في الثانية، وما حذف في الثانية أثبت في الأولى، وقد استنبط أهل العلم لهذا الحذف والتغاير سبباً لطيفاً، قال البقاعي: (وقصره

---

(١) نظم الدرر للبقاعي ٣/ ٤٣٨.

على المفعول الأول[1] ليعم كل من يصح قبوله الإنذار ولو تقديراً، وليفيد أن الغرض بيان المنذَر به لا المنذَر)[2]، وفي الموضع الثاني قال: (واقتصر هنا على المفعول الأول[3] ليذهب الفكر في الثاني -الذي عبر عما يحتمل تقديره به فيما مضى بـ ﴿لَدُنْهُ﴾ - كل مذهب فيكون أهول)[4].

وقوله تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِأَبَآئِهِمْ﴾ [الكهف: ٥]، يصدق على الأصناف الثلاثة السابقة، وقوله: (به) نفى عنهم العلم بقولهم: (اتخذ الله ولداً)، وهذا لا يمنع أن يكون عندهم علم آخر، بل قد أثبت الله للكفار علماً فقال: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الروم: ٧]، وهذا من العدل، فتوخي الدقة في الكلام من دروس هذه السورة، في هذا الموضع وغيره.

يقول الشنقيطي ﷺ: (يعني أن ما نسبوه له جلَّ وعلا من اتخاذ الولد لا علم لهم به، لأنه مستحيل)[5]، قال ابن عاشور: (وعطف ﴿وَلَا لِأَبَآئِهِمْ﴾ لقطع حجتهم لأنهم كانوا يقولون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف]، فإذا لم يكن لآبائهم حجة على ما يقولون، فليسوا جديرين بأن يُقلدوهم)[6].

وقوله تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِأَبَآئِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ فيه تشنيع، واستعظام لما نسبوه إلى الله ﷻ من الولد، قال

---

(١) وهو هنا (بأساً).
(٢) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١١٩.
(٣) وهو هنا جملة (الذين قالوا اتخذ الله ولداً).
(٤) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٢٠.
(٥) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٣/ ٢٧٤.
(٦) التحرير والتنوير ٨/ ٣٢٨.

الألوسي: (أي عظمت مقالتهم هذه في الكفر والافتراء لما فيها من نسبته تعالى إلى ما لا يكاد يليق بكبريائه جل وعلا... و ﴿كَلِمَةً﴾ نصب على التمييز، وكأنه قيل: ما أكبرها كلمة! وقوله تعالى: ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ صفة ﴿كَلِمَةً﴾ ... فإن كثيراً مما يوسوس به الشيطان وتحدث به النفس لا يمكن أن يتفوه به، بل يصرف عنه الفكر، فكيف بمثل هذا المنكر!)(١).

والكلمة هي: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾، وسميت الجملة كلمة، لأن العرب تعبر بالكلمة عن الكلمة المفردة غير المركبة، والكلام الكثير، ولهذا سموا القصيدة كلمة.

وقوله: ﴿تَخْرُجُ﴾ عبر بالمضارع المفيد للاستمرار، ليدل على استمرائهم لها وتكرارهم لقولها، وفيه استحضار صورة خروجها من أفواههم تخييلاً لفظاعتها، قال الرازي: (قوله: ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ يدل على أن هذا الكلام مستكره جداً عند العقل ... فكأنه شيء يجري به لسانهم على سبيل التقليد، لأنهم مع أنها قولهم، عقولهم وفكرهم تأباها وتنفر عنها)(٢)، وفيه نكتة أخرى؛ قال ابن كثير: (أي: ليس لها مستند سوى قولهم، ولا دليل لهم عليها إلا كذبهم وافتراؤهم؛ ولهذا قال: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾)(٣)، فجاءت الجملة مشعرة بأن دعواهم مجرد زعم لا حقيقة له، ولذا قال: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾، ويدل على ذلك أن أحدهم لو أخبر أن راهباً مقدما عندهم تزوج وله ولد لاستعظم ذلك وأنكره، وكاد يبطش بقائله، ولكن تاهت العقول فنسبوا للرب ما نزهوا عنه بعض الخلق!

وقوله تعالى: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾: أي لا صفة لقولهم ذلك إلّا صفة

---

(١) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ١٤٩.
(٢) تفسير مفاتيح الغيب للرازي ١٠/ ١٥٧.
(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ١٣٦.

الكذب، قال ابن حبان: (وهذه لفظة مستعملة لأهل الحجاز إذا أخطأ أحدهم يقال له: كذب)[١]، وقال الحافظ: (وهو لغة أهل الحجاز، يطلقون الكذب على ما هو أعم من العمد والخطأ)[٢].

وفي الآية تنبيه على عظيم أثر الكلمة وخطرها، فبعض الناس يطلق الكلام على عواهنه دون نظر في عواقبه، فيجر على نفسه ومن حوله الويلات، وبعضهم يستمرئ الوقوع في الأعراض، ويقذفهم بعظائم الأمور بغير بينة، ولا يلقي لذلك بالاً، قال تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [النور]، وبعض الناس قد يطلق عبارات لا يلقي لها بالاً فتخرجه من الإسلام، وفي الحديث الصحيح: "وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم"[٣]، فلا بد من الحذر وكف اللسان، ففيه السلامة من العطب. وقد قال ﷺ لمعاذ رضي الله عنه: "ألا أخبرك برأس الأمر كله، وعموده، وذروته، وسنامه؟ قلت: بلى يا نبي الله! فأخذ بلسانه، قال: كُفَّ عليك هذا. فقلت: يا نبي الله، وإنا لمؤاخذون مما نتكلم به؟ فقال: ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكبُّ الناسَ في النار على وجوههم -أو على مناخرهم- إلا حصائد ألسنتهم!"[٤].

ثم قال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾

﴿بَٰخِعٌ﴾: أي مهلك نفسك بحزنك عليهم؛ ﴿بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ القرآن،

---

(١) صحيح ابن حبان ٥/ ٢٣.

(٢) فتح الباري ٢/ ٤٩٠.

(٣) صحيح البخاري ٥/ ٢٣٧٧ (٦١١٣).

(٤) سنن الترمذي ٥/ ١١ (٢٦١٦)، وصححه الألباني.

والفاء في قوله: فلعلك، يشعر بربط المعنى بما قبلها، فكأن شركهم وكذبهم هو سبب الأسف، وقوله: ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ﴾ يشعر بشدة نفرتهم وسرعة مفارقتهم حين تولوا عن إجابة النبي ﷺ، فلا يكاد يدرك غير آثارهم!

قال صاحب الأضواء: (اعلم أولاً أن لفظة "لعل" تكون للترجي في المحبوب، وللإشفاق في المحذور. واستظهر أبو حيان في البحر المحيط أن "لعل" في قوله هنا ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ﴾، للإشفاق عليه ﷺ أن يبخع نفسه لعدم إيمانهم به. وقال بعضهم إن "لعل" في الآية للنهي. وممن قال به العسكري، وهو معنى كلام ابن عطية كما نقله عنهما صاحب البحر المحيط. وعلى هذا فالمعنى: لا تبخع نفسك لعدم إيمانهم. وقيل: هي في الآية للاستفهام المضمن معنى الإنكار -إتيان لعل للاستفهام مذهب كوفي معروف- وأظهر هذه الأقوال عندي في معنى "لعل" أن المراد بها في الآية النهي عن الحزن عليهم، وإطلاق لعل مضمنة معنى النهي في مثل هذه الآية أسلوب عربي يدل عليه سياق الكلام. ومن الأدلة على أن المراد بها النهي عن ذلك، كثرة ورود النهي صريحاً عن ذلك، كقوله: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ [فاطر: ٨]، وكقوله: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الحجر: ٨٨]، وقوله: ﴿فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٨﴾ [المائدة]، إلى غير ذلك من الآيات، وخير ما يفسر به القرآن القرآن)(١).

أقول: والجمع ممكن، قال ابن كثير ﷺ: (يقول تعالى مسليًا رسوله ﷺ في حزنه على المشركين، لتركهم الإيمان وبعدهم عنه... لا تهلك نفسك أسفًا ... بل أبلغهم رسالة الله، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فإنما يضل

---

(١) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٣/ ٢٧٧.

عليها، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات)(١).

وقوله: ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ﴾، (قال القرطبي: آثارهم جمع أثر. ويقال إثر. والمعنى: على أثر توليهم وإعراضهم عنك. وقال أبو حيان في البحر: ومعنى "على آثارهم" من بعدهم، أي بعد يأسك من إيمانهم. أو بعد موتهم على الكفر. يقال: مات فلان على أثر فلان، أي بعده. وقال الزمخشري: شبهه وإياهم حين تولوا عنه ولم يؤمنوا به، وما داخله من الوجد والأسف على توليهم، برجل فارقته أحبته وأعزته، فهو يتساقط حسرات على آثارهم، ويبخع نفسه وجداً عليهم، وتلهفاً على فراقهم! والأسف هنا: شدة الحزن)(٢).

---

(١)تفسير ابن كثير ٥/ ١٣٧.

(٢)أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٣/ ٢٧٧.

خواطر تربوية نفسية

الأولى- تقسيم أسف الدعاة على عدم استجابة المدعوين:

مما لا شك فيه أن الداعية إلى الله يتمنى لو آمن له وأطاعه كل من يتوجه إليه بالدعوة، وبالتالي فإن عدم الاستجابة تولد لديه في كثير من الأحيان شعوراً بالأسى والأسف، إلا أن مبعث هذا الأسف يتفاوت بين الدعاة، فمنهم من يأسف لأن من دعاه لم يستجب له، ومنهم من يأسف لأن من دعاه لم يستجب للحق الذي دعاه إليه، وشتان بين هذا وذاك، وقد يكون مرجع هذا التفاوت إلى تفاوت في أصل النية، وقد يرجع إلى خلل في التصور وغفلة من الداعية، وقد يكون غير ذلك، قال الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله في تفسير الآية بعد أن بين أن وظيفة النبي ﷺ هي البلاغ: (وهكذا ورثته من بعده: العلماء، وظيفتهم البلاغ، وأما الهداية فبيد الله، ومن المعلوم أن الإنسان المؤمن يحزن إذا لم يستجبِ الناس للحق، لكنَّ الحازنَ إذا لم يقبل الناس الحق على نوعين:

١ - نوع يحزن لأنه لم يُقبَل.

٢ - ونوع يحزن لأن الحق لم يُقبَل.

والثاني هو الممدوح، لأن الأول إنما يدعو لنفسه، والثاني إذا دعا فإنما يدعو إلى الله، ولهذا قال تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ [النحل: ١٢٥].

لكن إذا قال الإنسان: أنا أحزن لأنه لم يُقبل قولي، لأنه الحق، ولذلك لو تبين لي الحق على خلاف قولي أخذت به، فهل يكون محموداً؟

الجواب: يكون محموداً، لكنه ليس كالآخر الذي ليس له همٌّ إلَّا قَبول

الحق، سَواء جاء من قِبَله، أو جاء من قِبَل غيره)[١].

قال أحد الفضلاء: إذا أردت أن تفرق بين أسفك لعدم قبول الناس للحق، وأسفك لعدم قبول الناس لكلامك، فانظر لأسفك إن بلغك أن أناساً لم يقبلوا الحق من شيخ ما، وتخيل نفسك مكانه ومدى أسفك عندها، فالفرق بين الأسف الأول والثاني هو حظ نفسك فاحذره!

فعلى الداعية أن يجاهد نفسه حتى يكون همه أن يوصل الحق للناس، وأن يكون حزنه إن ردوه لرد الحق لا لرد قوله، فإن فعل فيوشك أن يبلغ أعلى المقامات، وما أعظم كلام الشافعي ﵀ إذ قال: (ما ناظرت أحداً قط على الغلبة، وبودي أن جميع الخلق تعلموا هذا الكتاب على أن لا ينسب إلي منه شيء)[٢]، فلله دره من إمام، ما أعظم تجرده، وصدق قصده!

الثانية- نتائج أسف الدعاة على عدم استجابة المدعوين:

إذا أخلص الدعاة النية لله وجعلوا أسفهم -إن لم يُستجَب لدعوتهم- على عدم قبول الحق لا على رد كلامهم، فأسفهم محمود، وتتفاوت صورته بين الدعاة، فمنهم من أسفه مشوب بالإشفاق على المدعويين، ومنهم من أسفه مشوب بالقوة والشدة عليهم، ولكلٍّ سلف من الأنبياء؛ فأسف نبينا محمد ﷺ المذكور في آية الكهف على المشركين من قومه كاد يهلكه ويذهب بنفسه؛ ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣﴾ [الشعراء]، وقوله: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ [فاطر: ٨]، وهذا شبيه بأسف يعقوب على فراق يوسف، فكأن حرصه ﷺ على هداية قومه وسلامتهم

---

(١)من تفسيره ﵀ لسورة الكهف بتصرف يسير.

(٢)سير أعلام النبلاء ١٠/ ٧٦.

كحرص يعقوب عليه السلام أن يرجع إليه ولده ويسلم من كل مكروه. وفي المقابل نجد أسف موسى عليه السلام يوم عصته بنو إسرائيل واتخذت العجل، إذ رجع إليهم ﴿غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ﴾ [الأعراف: ١٥٠] و[طه:٨٦]، فهو أسف مصحوب بالغضب، حتى ألجأه الغضب إلى أن ألقى ألواح التوراة وأخذ برأس أخيه هارون يجره إليه وقال: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْۖ﴾ [الأعراف: ١٥٠]، فتلك منزلة وهذه منزلة.

هذا وإن الحكمة في الدعوة تقضي باستعمال اللين والرفق في موضعهما، واستعمال الشدة والقوة في موضعهما، إذ لكل مقام مقال، ومما لا شك فيه أن أحق الناس بمثل هذه الحكمة هم الأنبياء، ومن طالع سيرهم لمس تنوعاً في مواقفهم مع أقوامهم يدور بين اللين والشدة بحسب الحال، وحتى من اشتهر منهم بالشدة كنوح وموسى عليهما السلام، فإن هذا لا يعني أن دعوتهما كانت مصحوبة بالشدة طوال الوقت، وكذلك من اشتهر منهم باللين كنبينا محمد ﷺ، فإن هذا لا يعني أن دعوته لم يكن فيها شدة طوال الوقت، وبالمثال يتضح المقال:

فنوح عليه السلام دعا قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وصبر على أذاهم وإعراضهم واتهامهم له بشتى التهم، ولم يقابلهم إلا بالرفق واللين، وما استعمل عليه السلام الشدة معهم إلا لما علم بوحي الله أنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن، فلما سخروا منه اشتد وقابل إساءتهم بمثلها فقال: ﴿إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ [هود]، وكذلك كانت دعوته على أهل الأرض من الكفار: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ [نوح]، بعد أن أيقن أنهم لن يؤمنوا وأن بقاءهم شر محض ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾

[نوح]، وقد أجاب الله دعاءه فكانت هذه الشدة في محلها.

وهذا موسى ﷺ يأمره ربُّه ﷻ من اليوم الأول الذي يرسله فيه لفرعون - مع شدة كفره وبغيه- أن يقول له قولاً ليناً، لما يرجى من الاستجابة، فهو أول ما يُبدأ به وهو الأصل في الدعوة ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ٤٤﴾ [طه]، فيستجيب ﷺ ويقول له: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ٤٧﴾ [طه]، ثم يصبر على سخرية فرعون واستكباره، واتهامه له بالجنون والسحر، وهمه بقتله، ونقضه وعده إن كُشف عنهم الرجز؛ فخلال كل هذه الأحداث كان موسى ﷺ ليناً رفيقاً يصبر ويحتسب، ولم يمنعه ذلك من أن يوصل الحق ولو كان مراً ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ٤٨﴾ [طه]، فلما عاد فرعون لصب العذاب على بني إسرائيل ونقض وعوده أيس موسى ﷺ منه، وغلب على ظنه أنه لن يؤمن، وأن بقاءه شر محض لما فيه من الكفر وإضلال الخلق، وتأكد لموسى ﷺ ذلك لما قال: ﴿إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ١٠١﴾ [الإسراء]، فهنا ترك الرفق واللين ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ١٠٢﴾ [الإسراء]، ثم دعا عليه ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ٨٨﴾ [يونس]، فاستجاب الله ﷻ دعوته و ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: ٨٩]، استجابة تدل على أن هذه الشدة كانت في محلها.

وحتى عندما رجع موسى غضبان أسفاً، وأخذ برأس أخيه يجره إليه، فإنه ما لبث أن هدأ غضبه، ثم سأل الله ﷻ التوبة على قومه، فعن ابن

إسحاق: (سأل موسى ربه التوبة لبني إسرائيل من عبادة العجل، فقال: لا، إلا أن يقتلوا أنفسهم. قال: فبلغني أنهم قالوا لموسى: نصبر لأمر الله! فأمر موسى من لم يكن عبد العجل أن يقتل من عبده. فجلسوا بالأفنية، وأَصْلَتَ عليهم القوم السيوف، فجعلوا يقتلونهم. وبكى موسى)(١)، وعن السدي: (كثر القتل، حتى كادوا أن يهلكوا، حتى قتل بينهم سبعون ألفاً، وحتى دعا موسى وهارون: ربنا هلكت بنو إسرائيل! ربنا البقية البقية!)(٢)، فهذا مما يدل على شفقته ورحمته بقومه عليه السلام، وإن كان غضب منهم.

وفي المقابل فإن لين نبينا ﷺ ورفقه اللذين تميز بهما لم يحولا بينه وبين الشدة والقسوة في مواطن، فعن ابن مسعود رضي الله عنه "أن النبي ﷺ كان يصلي عند البيت وأبو جهل وأصحاب له جلوس، إذ قال بعضهم لبعض: أيكم يجيء بسلى جزور بني فلان، فيضعه على ظهر محمد إذا سجد؟ فانبعث أشقى القوم فجاء به، فنظر حتى سجد النبي ﷺ ووضعه على ظهره بين كتفيه، وأنا أنظر لا أغني شيئاً، لو كان لي منعة، قال: فجعلوا يضحكون، ويحيل بعضهم على بعض، ورسول الله ﷺ ساجد لا يرفع رأسه، حتى جاءته فاطمة فطرحت عن ظهره، فرفع رأسه ثم قال: اللهم عليك بقريش، ثلاث مرات، فشق عليهم إذ دعا عليهم، قال: وكانوا يرون أن الدعوة في ذلك البلد مستجابة، ثم سمَّى: اللهم عليك بأبي جهل، وعليك بعتبةَ بنِ ربيعة، وشيبةَ بنِ ربيعة، والوليدِ بنِ عتبة، وأميةَ بنِ خلف، وعقبةَ بنِ أبي معيط، وعد السابع فلم نحفظه، قال: فوالذي نفسي بيده، لقد

---

(١) تفسير الطبري ٢/ ٧٧.

(٢) تفسير الطبري ٢/ ٧٥.

رأيت الذين عد رسول الله ﷺ صرعى في القليب، قليب بدر"[١]، ومرة أخرى يجلس مشركو قريش عند الكعبة يتباحثون في أمر النبي ﷺ، يقول عمرو بن العاص ﷺ: "فبينما هم كذلك، إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ، فأقبل يمشي حتى استلم الركن، ثم مر بهم طائفاً بالبيت، فلما أن مر بهم غمزوه ببعض ما يقول، قال: فعرفت ذلك في وجهه، ثم مضى، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها، فعرفت ذلك في وجهه، ثم مضى، ثم مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها، فقال: تسمعون يا معشر قريش! أما والذي نفس محمد بيده، لقد جئتكم بالذبح. فأخذت القوم كلمته، حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع"[٢]، فهذا وأمثاله يشهد لما نقول.

وبرغم ما سبق فإننا نجد أحياناً أن أحد جانبي اللين والشدة يغلب على الفاضل في غير موضعه، فلا يكون ذلك ممدوحاً منه في هذا المقام، وقد وقع ذلك لنبينا ﷺ في بعض المواطن فلم يقره الله على بعض وعاتبه على بعض، فمن ذلك ما نزل من قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [آل عمران]، إذ دعا النبي ﷺ على أشخاص بأعيانهم وعلى قريش وعلى بعض أحياء العرب، فنزلت الآية لا تقره ﷺ على دعائه، لأن بعض هؤلاء قدر الله أن يسلموا، ففي حديث أنس ﷺ "أن رسول الله ﷺ كسرت رَباعيَته يوم أحد، وشج في رأسه، فجعل يسلت الدم عنه ويقول: كيف يفلح قوم شجوا نبيهم وشجوا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله؟ فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾"[٣]،

---

(١) صحيح البخاري ١/ ٩٤ (٢٣٧)، صحيح مسلم ٣/ ١٤١٨ (١٧٩٤).
(٢) مسند أحمد بن حنبل ٢/ ٢١٨ (٧٠٣٦)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح.
(٣) البخاري تعليقاً ٤/ ١٤٩٣، صحيح مسلم ٣/ ١٤١٧ (١٧٩١).

وقد أسلم منهم قبل الفتح رجال، ثم أسلم من بقي منهم بعده إلا قليلاً ممن قتل؛ وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما سمع رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الآخرة من الفجر يقول: "اللهم العن فلاناً وفلاناً وفلاناً، بعد ما يقول: سمع الله لمن حمده، ربنا لك الحمد. فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾"(١).

وقد وردت تسميتهم في رواية سالم قال: "كان رسول الله ﷺ يدعو على صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام. فنزلت ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾"(٢)، قال الحافظ: (هو مرسل، والثلاثة الذين سماهم قد أسلموا يوم الفتح، ولعل هذا هو السر في نزول قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾)(٣)، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان يقول في بعض صلاته في صلاة الفجر: "اللهم العن فلاناً وفلاناً -لأحياء من العرب(٤)- حتى أنزل الله(٥) ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ

---

(١) صحيح البخاري ٤/ ١٤٩٣ (٣٨٤٢).

(٢) السابق.

(٣) فتح الباري ٧/ ٣٦٦.

(٤) جاء التصريح عند مسلم أنها: لحيان ورعل وذكوان وعصية.

(٥) قال الحافظ رحمه الله في الفتح ٨/ ٢٢٧: قوله: حتى أنزل الله (ليس لك من الأمر شيء)، تقدم استشكاله في غزوة أحد، وأن قصة رعل وذكوان كانت بعد أحد، ونزول (ليس لك من الأمر شيء) كان في قصة أحد، فكيف يتأخر السبب عن النزول! ثم ظهر لي علة الخبر وأن فيه إدراجاً، وأن قوله: حتى أنزل الله، منقطع من رواية الزهري عمن بلغه، بين ذلك مسلم في رواية يونس المذكورة فقال هنا: (قال) يعني الزهري (ثم بلغنا أنه ترك ذلك لما نزلت)، وهذا البلاغ لا يصح لما ذكرته، وقد ورد في سبب نزول الآية شيء آخر، لكنه لا ينافي ما تقدم، بخلاف قصة رعل وذكوان، فعند أحمد ومسلم من حديث أنس أن النبي ﷺ كسرت رباعيته يوم أحد، وشج وجهه، حتى سال الدم على وجهه، فقال: كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم؟ فأنزل الله تعالى ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ﴾ الآية، وطريق الجمع بينه وبين حديث ابن عمر أنه ﷺ دعا على =

شَيۡءٌ ﴾. الآية"[١]، قال الطبري رحمه الله: (ليس إليك، يا محمد، من أمر خلقي إلا أن تُنفِذَ فيهم أمري، وتنتهيَ فيهم إلى طاعتي، وإنما أمرهم إليَّ، والقضاء فيهم بيدي دون غيري، أقضي فيهم وأحكمُ بالذي أشاء، من التوبة على من كفر بي وعصاني وخالف أمري، أو العذاب؛ إما في عاجل الدنيا بالقتل والنِّقَم المبيرة، وإما في آجل الآخرة بما أعددتُ لأهل الكفر بي)[٢].

وفي المقابل نجد الله عتب على نبيه عليه السلام في بعض المواطن لتغليبه اللين والرفق في غير موضعه، وطبيعة الإنسان تحدد ميله إلى أحد الجانبين، ونبينا ﷺ قد وصفه ربه بالرأفة والحرص على المؤمنين: ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ﴿ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨ ﴾ [التوبة]، فما يقع من ميل إلى الشدة في غير موضعه قليل إذا ووزن باللين، ومن ذلك:

١- قال في أبي طالب: "أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك"[٣].
٢- قصة أسارى بدر.
٣- صلاته على ابن أبي بن سلول وقيامه على قبره.
٤- إذنه للمنافقين المتخلفين في غزوة تبوك عن جيش العسرة.

=المذكورين بعد ذلك في صلاته فنزلت الآية في الأمرين معاً، فيما وقع له من الأمر المذكور، وفيما نشأ عنه من الدعاء عليهم، وذلك كله في أحد بخلاف قصة رعل وذكوان فإنها أجنبية، ويحتمل أن يقال إن قصتهم كانت عقب ذلك وتأخر نزول الآية عن سببها قليلاً ثم نزلت في جميع ذلك، والله أعلم.

(١) صحيح البخاري ٤/ ١٦٦١ (٤٢٨٤)، صحيح مسلم ١/ ٤٦٦ (٦٧٥).

(٢) تفسير الطبري ٧/ ١٩٤.

(٣) صحيح البخاري ١/ ٤٥٧ (١٢٩٤)، صحيح مسلم ١/ ٥٤ (٢٤).

وغيرها من القضايا التي نجد فيها أثر نفسه ﷺ السمحة، وتفصيل ذلك يطول، فنكتفي بقصة أسارى بدر، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أخبره أنهم لما أسروا الأسارى يوم بدر، قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: ما ترون في هؤلاء الأسارى؟ فقال أبو بكر: يا نبي الله! هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام. فقال رسول الله ﷺ: ما ترى يا ابن الخطاب؟ قلت: لا والله! ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم، فتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه، وتمكني من فلان -نسيباً لعمر- فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها. فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهوَ ما قلتُ، فلما كان من الغد جئتُ، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدَين يبكيان، قلت: يا رسول الله! أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما. فقال رسول الله ﷺ: أبكي للذي عرض على أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة -شجرة قريبة من نبي الله ﷺ- وأنزل الله ﷻ: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ -إلى قوله- ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ [الأنفال: ٦٧- ٦٩]، فأحل الله الغنيمة لهم[١]، وعن ابن مسعود رضي الله عنه بسياق أتم، وفيه: لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ: ما تقولون في هؤلاء الأسرى؟ فذكر نحوا من قول أبي بكر وعمر ثم قال: وقال ابن رواحة[٢]: يا رسول الله! انظر وادياً كثير الحطب فأدخلهم فيه ثم أضرم عليهم ناراً. قال: فقال

(١) صحيح مسلم ٣/ ١٣٨٣ (١٧٦٣).

(٢) صوب الطبراني في موضع أنه عبد الله بن حبش لا ابن رواحة انظر المعجم الكبير ١٠/ ١٤٤ (١٠٢٥٩).

العباس: قطعت رحمك! قال: فدخل رسول الله ﷺ ولم يرد عليهم شيئاً، قال: فقال ناس: يأخذ بقول أبي بكر، وقال ناس: يأخذ بقول عمر، وقال ناس: يأخذ بقول ابن رواحة. قال: فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: [إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة](١)، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم عليه السلام قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [إبراهيم]، ومثلك يا أبا بكر كمثل عيسى قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة]، وإن مثلك يا عمر كمثل نوح قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ [نوح]، وإن مثلك يا عمر كمثل موسى قال: ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [يونس]. أنتم عالة، فلا ينفلتن منهم أحد إلا بفداء أو ضربة عنق ... فأنزل الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنفال](٢).

وهذه حال كثير من أفاضل الدعاة اليوم؛ ربما حبى الله بعضهم نفوساً فيها رحمة عظيمة ورأفة، فتلك سجيتهم، منّ الله عليهم بها فسخروها في الخير؛ حريصين على هداية الخلق ونفعهم، ثم قد يغلب عليهم هذا الطبع في غير موضعه فيجنحون إلى تسامح لا يقرون عليه.

---

(١) ما بين المعكوفين [ ] زيادة عند أحمد.

(٢) مسند الإمام أحمد ١/ ٣٨٣ (٣٦٣٢)، والحاكم ٣/ ٢٤ (٤٣٠٤)، وصححه ووافقه الذهبي، وأعِل الأثر بالانقطاع غير أن أصل اختلاف أبي بكر وعمر في الأسرى ثابت كما في الحديث السابق، وانظر إرواء الغليل ٥/ ٤٤-٤٨.

ومنهم من فيهم غلظة وشدة وقوة عظيمة في الحق، سخروها في الخير أيضاً؛ حريصين على النكاية بأعداء الله وكبتهم، فيغلب عليهم ذلك الطبع في مواطن لا تناسبه فلا يقرون على شدتهم فيها، فالأمر كما قيل:

فوضْعُ النَّدى في موضِعِ السيفِ بالعُلا.. مُضِرٌّ كوضْعِ السيفِ في موضع النَّدى(١)

ومن الدعاة من ارْتَبكت نفسه فتركَّبَت من الخليطين، فتجد فيه من طبع الأول ومن طبع الثاني، فتأمل مَن تعرف سيرته تجد مصداق ذلك.

وذلك كله ليس عيباً أو نقصاً بالنسبة للبشر، فلكل جبلة جبله الله عليها، فمن جبل على اللين فهو يعمل بمقتضاه، ومن جبل على الشدة فهو يعمل بمقتضاها، ولم ينفك عن هذا الأنبياء عليهم السلام، قال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٤]، وقال ﷺ: "كل ميسر لما خلق له"(٢)؛ إلا أن هناك دائرة واسعة يدخل فيها الشديد واللَّيِّن ومن بينهما، لا ينبغي لأحد أن يتعداها؛ لا بمزيد شدة تخرجه إلى التضييق ولا بمزيد لين يخرجه إلى تتبع الرخص، وهذه هي دائرة الوسطية الحقة، لا المدعاة التي تضيع فيها الحدود، وتُتعدى المحارم بدعوى التيسير، قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧]، و﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩].

وعلى ما سبق، ينبغي للمربين أن يسعوا لاكتشاف طباع من ولاهم الله أمرهم، ليوجهوهم بما يتفق مع قدراتهم وطباعهم، كي يأخذوا دورهم الفعال متحركين داخل تلك الدائرة، وهذا أولى مما قد يلجأ إليه بعضهم من محاولة تغيير الطباع، فهذا لا يجدي في الغالب، إذ الطبع كما يقال يغلب

---

(١) البيت لأبي الطيب المتنبي وهو من البحر الطويل.

(٢) صحيح البخاري ٦/ ٢٧٤٥ (٧١١٢)، صحيح مسلم ٤/ ٢٠٤١ (٢٦٤٩).

التطبع، وفرق بين تغيير الطباع وتغيير الأخلاق الفاسدة فهذا مطلوب.

فاكتشاف الطباع والقدرات وتوجيهها للعمل داخل تلك الدائرة خير عميم للأفراد والمجتمع، فهذا للعلم أو للجهاد وذاك لقضاء الحوائج، وهكذا، وما أفقه الإمام مالكا رحمه الله، إذ كتب إليه عبد الله العمري يحضه على التفرغ للعبادة، فكتب إليه ما يكتب بماء الذهب: (إن الله قسم الأعمال كما قسم الأرزاق، فرُبَّ رجل فُتِح له في الصلاة، ولم يفتح له في الصوم، وآخر فتح له في الصدقة ولم يفتح له في الصوم، وآخر فتح له في الجهاد؛ فنشر العلم من أفضل أعمال البر، وقد رضيت بما فُتِح لي فيه، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خير وبر)[1].

أما ما يقع من خروج من جانبي اللين أو الشدة، كما سبق، فهو أمر لا مفر منه، ويدخل تحت قوله عليه السلام: "كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون"[2]، لكن الإشكال عندما يسترسل المخطئ مع الطبع فلا يرعوي عنه إن ذُكِّر بمقتضى الشرع في الواقعة المعينة، سواء حمله هواه إلى الجنوح نحو تأويلات بعيدة تتفق مع طبعه، أو أعرض عن الناصح المذكر.

الثالثة: آثار عدم استجابة الناس في الدعاة:

إذا كان الداعية يأسف لعدم استجابة الناس، وإذا كان الأسف ينقسم إلى محمود وغير محمود كما سبق، فإن عدم الاستجابة قد ينعكس على الداعية سلباً، فيؤدي إلى شيء من الانحراف في مسيرته، ويمكن هنا أن نسجل نوعين رئيسين من الانحراف؛ الأول: الاستعجال في غير محله،

---

(١) سير أعلام النبلاء ٨/ ١١٤.

(٢) سنن الترمذي ٤/ ٦٥٩ (٢٤٩٩)، وحسنه الألباني.

والثاني: التأني في غير محله، فهناك مواقف تستلزم التأني ويقبح فيها الاستعجال، ومواقف أخرى تستلزم الاستعجال ويقبح فيها التأني.

إن بعض الدعاة إذا رأى عدم استجابة الناس له ربما وقع في أحد الأمرين، ولكل منهما عواقبه الوخيمة؛ أما الاستعجال في غير موضعه فيوقع صاحبه في واحد من أمور ثلاثة؛ التنازل، أو الغلو، أو القنوط.

ومثال التنازل، ما يقوم به بعض الدعاة من تجاوزات شرعية فيما يتعلق بالاختلاط مثلاً أو سماع المعازف أو الحجاب، فتجده يرخص أو يترخص فيها، وقد ابتلي الناس بعدد من هؤلاء "الدعاة"، أتيحت لبعضهم مجالات واسعة في القنوات والفضائيات، فعم البلاء وطم، وحجة بعضهم في هذا تأليف قلوب الجمهور، ولو أنهم فقهوا قوله تعالى: ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ ﴾ [هود]، لما سولت لهم أنفسهم ذلك، ولو جمعوا إلى ذلك فقه قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [القصص]، لعلموا أن الذي عليهم هو الدعوة على بصيرة دون تعد لحدود الله، والنتائج ليست إليهم، والهداية ليست بأيديهم، فاطمأنوا، ولم يحملهم إعراض الناس على الجزع الباعث على الاستعجال المذموم.

ومثال الغلو، ما نراه عند بعض الحركات الإسلامية من الإياس من الناس، فيلجؤون إلى العنف لتغيير فساد الواقع، قد يكون عنفاً فكرياً، وقد يتجاوز حدود الفكر إلى العنف المادي، وذلك بمحاولة فرض الرؤى والأفكار بالقوة، وتغيير ما يرونه منكراً بالقوة كذلك، دون مراعاة للمصالح والمفاسد، ودون بحث كاف للمسألة أحيانا ليعلم ضوابط تغيير المنكر باليد، حتى يصل الأمر بالبعض إلى حمل السلاح، وإتلاف الأموال

وإزهاق الأرواح المحرمة، والواقع خير شاهد على وبال مثل هذا الاستعجال؛ على أصحابه، وعلى الدعوة، وعلى المجتمع.

ومثال القنوط، ما يحصل لكثير من الأفراد الصالحين، إذ تضيق عليهم الأرض لكثرة مخالفة الناس لهم وعدم استجابتهم للناصحين، فينغلقون على أنفسهم، ويفقدون الأمل في صلاح الناس، ولسان حالهم يقول: هلك الناس، ولا خير فيهم! وفي الصحيح، عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "إذا قال الرجل هلك الناس فهو أهلكهم"[1]، قال النووي رحمه الله: (رُوِي أهلكهم على وجهين مشهورين، رفع الكاف وفتحها، والرفع أشهر ... وأما رواية الفتح، فمعناها هو جعلهم هالكين، لا أنهم هلكوا في الحقيقة، واتفق العلماء على أن هذا الذم إنما هو فيمن قاله على سبيل الإزراء على الناس واحتقارهم، وتفضيل نفسه عليهم، وتقبيح أحوالهم، لأنه لا يعلم سر الله في خلقه، قالوا: فأما من قال ذلك تحزناً لما يرى في نفسه وفي الناس من النقص في أمر الدين، فلا بأس عليه)[2].

وكم رأينا من أناس كانوا في زمن الشباب يمتلؤون حماسة ونشاطاً في الدعوة إلى الله، لكن اندفاعهم غير المنضبط، أدى بهم إلى الشعور بالإحباط من عدم الاستجابة كما يرجون، فانزووا، حتى لا يكاد أهل مسجدهم يستفيدون منهم بشيء، ورأينا من إخوانهم من كان يحمل مثل حماستهم إلا أنهم استمعوا لنصح مشايخهم، فانضبط اندفاعهم، وسارت سفينة دعوتهم، ربما أبطأ، لكن بعمق ورسوخ ﴿ تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۢ بِإِذۡنِ

---

(١) صحيح مسلم ٤/ ٢٠٢٤ (٢٦٢٣).

(٢) شرح النووي على مسلم ١٦/ ١٧٥.

رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٥]، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وأما التأني في غير موضعه فيضيع على صاحبه الفرص، وكثير يقع في هذا الأمر بدعوى الحكمة وعدم الاستعجال، والأمر يحتاج إلى فقه وفهم وتقدير للأمور، إلى حكمة حقيقية غير متوهمة، قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]، وهذا النوع من الدعاة قد يدفعه ضياع الفرص إلى القنوط أو التنازل، كما قلنا عن الاستعجال.

والذين وفقوا للصواب بين هؤلاء وهؤلاء؛ فيستعجلون في محل يقتضي الاستعجال، ويتأنون في محل يقتضي الأناة، كما قال الشاعر:

قد يُدرِكُ المتأني بَعضَ حاجَتِهِ وقد يكونُ مع المُستَعجِلِ الزَّلَلُ

وربما فات قوماً جُلُّ أمرهم مع التأني وكان الرأي لو عَجِلوا![1]

وكثير من الناس يستشهد بالبيت الأول دون الثاني، مع أن البيتين مرويان لنفس الشاعر وفي نفس القصيدة!

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ٨﴾

فلما ذكر الله تعالى طائفة من المنذَرين وهم الذين قالوا اتخذ الله ولدا، وذكر حالهم وبين اتِّباعهم الجهل في زعمهم على ربهم، وعظّم افتراءهم عليه، ثم نهى النبي ﷺ عن الأسف عليهم، وذلك مناسب لعظم افترائهم، ناسب أن يُذَكِّر سبحانه عباده بالغاية من خلق الأرض وما عليها، وهي الاختبار الذي لابد من مفلح فيه وخاسر، وأن يبين مآلها وما عليها بعد هذا الاختبار، وأنها دار فناء لا دار بقاء، فلا ينبغي أن يغتر الإنسان بها وبما

---

(١) البيتان للقطامي التغلبي (ت١٣٠ هـ)، وهما من البحر البسيط.

عليها من الزينة الزائلة، وفي هذا البيان علة إرشاده ﷺ إلى الإعراض عن غير ما يقدر عليه من التبليغ للبشارة والنذارة، كالأسف والحزن عليهم، وهي أن الخلق لن يخرجوا عن مشيئته سبحانه التي قضت بخسارة بعضهم، لاستحقاقهم ذلك بإعراضهم عما جاءهم به ﷺ في هذا الكتاب من البشارة والنذارة، وأن الإيمان لا يقدر على إدخاله قلوبهم غيره سبحانه، وأن وراءهم يوم هول عظيم آت لا محالة[1]، فتجد فيه كل نفس ما عملت محضراً، فلا تأسف عليهم.

---

(١) وجدت بعض هذا المعنى عند البقاعي، ثم وجدت ابن عاشور رحمه الله يقول في التحرير والتنوير٨/ ٣٣١:

(مناسبة موقع هذه الآية هنا خفية جداً أعوز المفسرين بيانُها، فمنهم ساكت عنها، ومنهم محاول بيانها بما لا يزيد على السكوت. والذي يبدو: أنها تسلية للنبي ﷺ على إعراض المشركين، بأن الله أمهلهم وأعطاهم زينة الدنيا لعلهم يشكرونه، وأنهم بطروا النعمة، فإن الله يسلب عنهم النعمة فتصير بلادهم قاحلة. وهذا تعريض بأنه سيحل بهم قحط السنين السبع التي سأل رسولُ الله ربَّه أن يجعلها على المشركين كسنين يوسف عليه السلام.

ولهذا اتصال بقوله: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ [الكهف: ٢]. وموقع (إن) في صدر هذه الجملة موقع التعليل للتسلية التي تضمنها قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ [الكهف: ٦]، ويحصل من ذلك تذكير بعضهم قدرة الله تعالى، وخاصة ما كان منها إيجاداً للأشياء وأضدادها؛ من حياة الأرض وموتها، المماثل لحياة الناس وموتهم، والمماثل للحياة المعنوية والموت المعنوي من إيمان وكفر، ونعمة ونقمة، كلها عِبَر لمن يعتبر بالتغير، ويأخذ الأهبة إلى الانتقال من حال إلى حال، فلا يثق بقوته وبطشه، ليقيس الأشياء بأشباهها ويعرض نفسه على معيار الفضائل وحسنى العواقب. وأوثر الاستدلال بحال الأرض التي عليها الناس لأنها أقرب إلى حسهم وتعقلهم).

وعندي أن ما أثبت أليق، وأن الشيخ وقع فيما وصف! فالكلام جاء في صدد أسفه ﷺ عليهم، وحرصه على هدايتهم، فالحرص الباخع لم يكن سببه ما آتاه الله أهل الكفر، ولكن سببه عدم استجابتهم أغنياء كانوا أو فقراء، موسرين أو معدمين، فهو ﷺ حزين لما يخافه عليهم من مآل، ولم يكن حزنه تغيظاً عليهم، والله أعلم.

وفي الآية مشروعية التزين، فلا اعتبار لمن يحرم الزينة والتزين، بل من حرم شيئاً من ذلك من تلقاء نفسه فقد تشبه بكفار العرب الذين نزل فيهم قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، قال الطبري رحمه الله: (قل، يا محمد، لهؤلاء الجهلة من العرب الذين يتعرّون عند طوافهم بالبيت، ويحرمون على أنفسهم ما أحللتُ لهم من طيبات الرزق: من حرَّم، أيها القوم، عليكم زينة الله التي خلقها لعباده، أن تتزيَّنوا بها، وتتجملوا بلباسها، والحلال من رزق الله الذي رزق خلقه لمطاعمهم ومشاربهم)[1]، ثم ذكر إجماع أهل التأويل على أن هذا هو المراد بالزينة[2]، وفرق بين أن يتزين الإنسان أو يتخذ زينة مما أباحه الله باعتدال، وبين أن يفعل ذلك بتبذير أو سرف أو مفاخرة، وفي الحديث: "كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير إسراف ولا مَخِيلة"[3]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "كل ما شئت، والبَس واشرب ما شئت، ما أخطأتك اثنتان؛ سرف أو مخيلة"[4]، وفرق بين أن يتخذ المرء الزينة المباحة دون أن يتعلق بها قلبه، وبين أن تصبح أكبر همه وتملأ قلبه.

أما من ترك شيئاً من الزينة تورعاً وزهداً فليس له أن يحمل الناس أو يفتيهم بالورع، لكن الفتوى تكون بالتقوى، أي بالحلال والحرام، وأما الورع فيرشد إليه إرشاداً من باب طلب الكمال.

قال ابن عاشور: (لنبلوهم أيهم أحسن عملا، أي أفوَتَ في حسن

---

(١) تفسير الطبري ١٢/ ٣٩٥.
(٢) السابق ١٢/ ٣٩٦.
(٣) ذكره البخاري في أول كتاب اللباس من الصحيح تعليقاً ٥/ ٢١٨٠.
(٤) السابق تعليقاً، وقد ذكر الحافظ في الفتح من وصل هذا الأثر والحديث السابق، انظر الفتح ١٠/ ٢٥٣.

العمل؛ من عمل القلب الراجع إلى الإيمان والكفر، وعمل الجسد المتبدي في الامتثال للحق والحيدة عنه، فمجموع الناس متفاوتون في حسن العمل. ومن درجات التفاوت في هذا الحسن تعلم بطريق الفحوى درجة انعدام الحسن من أصله وهي حالة الكفر وسوء العمل)[1]، وقال الشنقيطي: (وهذه الحكمة التي ذكرها هنا لجعل ما على الأرض زينة لها وهي الابتلاء في إحسان العمل، بين في مواضع أخر أنها هي الحكمة في خلق الموت والحياة والسموات والأرض، قال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ [الملك]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ﴾ [هود: ٧]، وقد بين ﷺ الإحسان بقوله: "أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك"[2])[3].

وهنا نكتة لطيفة، إذ لم يقل: (أكثر عملاً)، فلم يعلق المدحَ بالكثرة ولكن علَّقه بالحُسن، وهذا المعنى تكرر في السورة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝٣٠﴾ [الكهف]، وجاء في غيرها من السور، فمنه ما قاله العلامة الشنقيطي قريباً، ومنه قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٢١﴾ [التوبة]، وقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [النحل]، وقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ [الأحقاف]، وغيرها.

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: (وعلى هذا، لو صلى الإنسان أربع

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/ ٢٥٧.

(٢) صحيح البخاري ١/ ٢٧ (٥٠)، صحيح مسلم ١/ ٣٦ (٨).

(٣) أضواء البيان ٣/ ٢٧٩.

ركعات لكنْ على يقين ضعيف، أو على إخلال باتباع الشرع، وصلى آخر ركعتين بيقين قوي ومتابعةٍ قوية، فأيهما أحسن؟ الثاني بلا شك أحسن وأفضل، لأن العبرة بإحسان العمل وإتقانه إخلاصاً ومتابعة)(١)، ثم ضرب مثلاً يبين أن الشرع قد يأتي بتفضيل العمل القليل على الكثير فقال: (في بعض العبادات الأفضل التخفيف؛ كركعتي الفجر مثلاً، لو قال إنسان: أنا أحب أن أطيل فيها، في قراءة القرآن، وفي الركوع، والسجود والقيام، وآخر قال: أنا أريد أن أخفف، فالثاني أفضل)(٢). وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: "سئل النبي ﷺ، أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال: أدومها وإن قل"(٣)، فالعمل الدائم القليل، أحسن وأحب إلى الله من المتقطع الكثير.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾

قال ابن إسحاق: (يعني الأرض، إن ما عليها لفان وبائد وإن المرجع لإلى الله، فلا تأس ولا يحزنك ما تسمع وترى)(٤). و(جرزاً) أي جرداء، كأن في هذا إشارة إلى تهيئتها ليوم البعث حيث يجمع الله الأولين والآخرين في أرض خالية، كما أثر عن سهل بن سعد رضي الله عنه في تفسير ﴿ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ ﴾ [النازعات] قال: (أرض بيضاء عفراء خالية كالخُبزَة النَّقِيّ)(٥).

والمعنى: (إنَّا جعلنا ما على وجه الأرض من المخلوقات جَمالاً لها، ومنفعة لأهلها؛ لنختبرهم: أيُّهم أحسن عملاً بطاعتنا، وأيهم أسوأ عملاً بالمعاصي، ونجزي كلاً بما يستحق، وإنَّا لجاعلون ما على الأرض من تلك

(١) من تفسيره رحمه الله لسورة الكهف.
(٢) السابق.
(٣) صحيح البخاري ٥/ ٢٣٧٣ (٦١٠٠)، صحيح مسلم ١/ ٥٤١ (٧٨٣).
(٤) تفسير ابن كثير ٥/ ١٣٧.
(٥) تفسير ابن كثير ٨/ ٣١٤.

الزينة عند انقضاء الدنيا ترابًا، لا نبات فيه)[1].

وقد اختلف في عموم ﴿مَا عَلَيْهَا﴾، هل كل ما على الأرض زينة لها، أم ما يصلح أن يكون زينة؟ فاستدل قوم بظاهر عموم الاسم الموصول، واستدل آخرون على أنه مخصوص بذكر البلاء والمبتلى، فناسب أن يكون المبتلى غير البلاء، وأن المقصود الزينة التي يحصل لهم بها الابتلاء.

والآية تشعر بعموم مخصوص وهو الزينة التي يصلح أن تكون ابتلاء، لا كل زينة، فضلاً عن كون كل ما على الأرض ظاهراً أو باطناً من جن وإنس ودواب وهوام ومنخفض ومرتفع زينةً لها، والله أعلم.

وهذه الزينة التي يكون بها الابتلاء أنواع، منها ما نص عليه في نحو قوله: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦]، وقوله: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: ٨]، وكذا كل نعمة هي زينة يختبر الله العباد بما عملوا فيها هل شكروا لله نعمته أم كفروها.

قال الشنقيطي: (وهذا ... فيه أكبر واعظ للناس، وأعظم زاجر عن اتباع الهوى، وإيثار الفاني على الباقي، ولذا قال ﷺ: "إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون. فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء"[2])[3].

ثم ضرب الله بعد ذلك مثلاً بفتية لم يغتروا بزخرف الدنيا، فلم يؤثروها على ما علموا من الحق، بخلاف هؤلاء المشركين السائلين عنهم، فكان في هذا تعريض بهؤلاء المشركين، الذين عميت بصائرهم عن الحكم

---

(١) التفسير الميسر مجمع الملك فهد ٥/ ١١٣.

(٢) صحيح مسلم ٤/ ٢٠٩٨ (٢٧٤٢).

(٣) أضواء البيان ٣/ ٢٧٩-٢٨٠.

العظيمة في قصة الفتية، وما فيها من إبطال ما هم عليه من إنكار البعث والنشور، وصحة ما يدعوهم إليه رسول الله ﷺ، لو كانوا يعقلون!

إجمال قصة أصحاب الكهف وغرضها

قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الكهف].

وهذا إجمال لخبر أصحاب الكهف الذين سأل عنهم كفار قريش، ولئن كان اليهود قد أشاروا على القوم بهذا السؤال وغيره ليختبروا صدق النبي ﷺ في دعوى الرسالة، فقد أراد الكفار من هذا السؤال تعجيزه ﷺ ليسوغوا لأنفسهم ما هم عليه من تكذيبه والكفر بما جاء به.

فجاء جواب القرآن على خلاف مرادهم من وجوه؛ **الأول** مجرد الرد أطاح بأحلامهم في انقطاع الوحي، **والثاني** موافقة الرد لما يعلمه اليهود من القصة، وإلا لاحتجوا بالمخالفة لما يعلمه أهل الكتاب، **والثالث** لم يأت الجواب بسرد الأحداث سرداً مجرداً، بل جاء أيضا بتقرير قضايا العقيدة؛ كإثبات الألوهية لله وحده، والبراءة من المعبودات سواه ومن عابديها، وتضمن إثبات البعث، وعظيم قدرة الله ﷻ، إلى غير ذلك.

وبالتأمل نجد أن الله قد قدم لهذا الجواب أيضاً بخلاف ما يتمنى القوم، فقد أكد أولاً أن هذا الكتاب القيِّم منزل من عنده سبحانه على عبده محمد ﷺ، إثباتاً لصدقه نبوته فقال: ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ ﴾ [النساء]، والآيات في ذلك كثيرة؛ وشهادته سبحانه أقوى في الدلالة على صدقه عليه السلام من نجاحه

في الاختبار الذي أشار به اليهود، فلا يبعد أن يكون علم اليهود بالقصة مخالفاً للحق الذي قصه الله على نبيه ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ۝٨٧﴾ [النساء]، ثم أنذر من يخالف أمره وبشر من يتبع ما في القرآن من الهدى، ثم خص من ينسب له الولد بغير علم -ومن سأل عن أهل الكهف منهم- بالنذارة، ونهى نبيه ﷺ عن الأسى والحزن على من أصر منهم على التكذيب، ثم بعد أن أكد الله صيرورة الأرض يوم القيامة صعيداً جرزاً، تمهيداً لإثبات البعث، ذكر الخبر الذي سأل عنه القوم.

التفسير التفصيلي

قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ ﴾

قال الشنقيطي رحمه الله: (﴿ أَمْ ﴾ ... هي المنقطعة على التحقيق، ومعناها عند الجمهور «بل والهمزة» وعند بعض العلماء بمعنى «بل» فقط، فعلى القول الأول فالمعنى: بل أحسبت، وعلى الثاني فالمعنى: بل حسبت، فهي على القول الأول جامعة بين الإضراب والإنكار، وعلى الثاني فهي للإضراب الانتقالي فقط)[1].

وهذا الإضراب كما قال ابن عاشور، إضراب انتقال من المقدمة إلى المقصود، قال: (هذا من المقاصد التي أنزلت السورة لبيانها ... هو كالانتقال من الديباجة والمقدمة إلى المقصود. على أن مناسبة الانتقال إليه تتصل بقوله تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾، إذ كان مما صرف المشركين عن الإيمان إحالتهم الإحياء بعد الموت، فكان ذكر أهل الكهف وبعثهم ... مثالاً لإمكان البعث)[2].

قال الشنقيطي: (وأظهر الأقوال في معنى الآية الكريمة: أن الله يقول لنبيه ﷺ: إن قصة أصحاب الكهف وإن استعظمها الناس وعجبوا منها، فليست شيئاً عجباً بالنسبة إلى قدرتنا وعظيم صنعنا)[3]، وقال ابن كثير رحمه الله: (أي: ليس أمرهم عجيباً في قدرتنا وسلطاننا، فإنَّ خلْق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر والكواكب،

---

(١) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٣/ ٢٨٠.

(٢) التحرير والتنوير ٨/ ٣٣٣.

(٣) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٣/ ٢٨٠.

وغير ذلك من الآيات العظيمة الدالة على قدرة الله تعالى، وأنه على ما يشاء قادر ولا يعجزه شيء، أعجب من أخبار أصحاب الكهف والرقيم، كما قال ابن جريج عن مجاهد: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾، يقول: قد كان من آياتنا ما هو أعجب من ذلك!)[1].

وهذا صحيح لا مرية فيه، إلا أن الناس لكثرة مشاهدة الآيات في الآفاق وفي أنفسهم وإلفهم لها، تصبح في نظرهم أشياء عادية لا تستوقف إلا من قال عنهم: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٩١﴾ [آل عمران]، فكأن معنى (أم حسبت): بل هناك ما هو أعجب.

وأيضاً، فقصة أصحاب الكهف تعجب منها الناس، فبين الله أنها ليست أعجب القصص! ولا أعجب أخبار القرآن، بل في نفس السورة أعجب منها، كقصة الخضر مع موسى عليهما السلام، وقصة ذي القرنين، فإن في هاتين عجائب لا نظير لها في سائر القرآن بخلاف قصة أصحاب الكهف فإن لها نظائر مثلها أو أعظم في القرآن، ومن ذلك خبر الذي أماته الله مائة عام، وخبر الألوف الذين خرجوا من ديارهم حذر الموت ونحوهما.

على أن العجب في الآية ليس عجب شك وارتياب، لكنه عجب تعظيم وإجلال لقدرة الله، إذ ليس في خلق الله ما يصعب عليه سبحانه، قال ﷻ: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٧٢ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ۝٧٣﴾ [هود].

وأصحاب الكهف هم الفتية الآتي ذكرهم، سموا بذلك نسبة إلى

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٣٨.

الكهف الذي أووا إليه، والكهف تقدم الكلام عليه، وهو كما قال ابن منظور: (كالمَغارة في الجبل إلا أَنه أَوسع منها، فإذا صغر فهو غار)[١]؛ وملخص قصتهم أنهم فتية آمنوا بالله وكانوا في زمن ملك ظالم يعذب كل من آمن بالله، فخافوا من التعذيب وخافوا أشد من ذلك الفتنة في الدين، ففروا بدينهم وأووا إلى هذا الكهف، فرقدوا رقدة طويلة ثم بعثهم الله بعد هلاك أهل زمانهم، ليكونوا للناس آية.

قال صاحب الأضواء رحمه الله: (اختلف العلماء في المراد بـ{الرقيم} في هذه الآية على أقوال كثيرة، قيل: الرقيم اسم كلبهم، وهو اعتقاد أمية بن أبي الصلت إذ يقول:

وَلَيسَ بِها إِلا الرَّقيمُ مُجاوراً وَصِيدَهُمُ وَالقومُ في الكَهفِ هُمَّدُ[٢]

وعن الضحاك أن الرقيم: بلدة بالروم، وقيل: اسم الجبل الذي فيه الكهف، وقيل: اسم للوادي الذي فيه الكهف، والأقوال فيه كثيرة. وعن ابن عباس أنه قال: لا أدري ما الرقيم؟ أكتاب أم بنيان؟

وأظهر الأقوال عندي ... أن الرقيم معناه: المرقوم، فهو فعيل بمعنى مفعول، من رقمت الكتاب إذا كتبته، ومنه قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ مَّرۡقُومٌ ۝٩﴾ [المطففين]، سواء قلنا: إن الرقيم كتاب كان عندهم فيه شرعهم الذي تمسكوا به، أو لوح من ذهب كتبت فيه أسماؤهم وأنسابهم وقصتهم وسبب خروجهم، أو صخرة نقشت فيها أسماؤهم)[٣].

وأصحاب الكهف وأصحاب الرقيم شيء واحد، قال الشنقيطي:

(١) لسان العرب ٩/ ٣١٠.
(٢) البيت من البحر الطويل، وأمية بن أبي الصلت ت (٥ هـ).
(٣) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٣/ ٢٨١.

(والظاهر أن أصحاب الكهف والرقيم طائفة واحدة أضيفت إلى شيئين أحدهما معطوف على الآخر، خلافاً لمن قال: إن أصحاب الكهف طائفة، وأصحاب الرقيم طائفة أخرى، وأن الله قص على نبيه في هذه السورة قصة أصحاب الكهف ولم يذكر له شيئاً عن أصحاب الرقيم؛ وخلافاً لمن زعم أن أصحاب الكهف هم الثلاثة الذين سقطت عليهم صخرة فسدت عليهم باب الكهف ... واعلم أن قصة أصحاب الكهف وأسماءهم، وفي أي محل من الأرض كانوا، كل ذلك لم يثبت فيه عن النَّبي ﷺ شيء زائد على ما في القرآن، وللمفسرين في ذلك أخبار كثيرة إسرائيلية أعرضنا عن ذكرها لعدم الثقة بها)[1].

أقول: ينبغي أن يُعلَمَ أن المقصود من قصص القرآن هو الاعتبار واستخلاص الدروس والفوائد مما ينفع الناس في دنياهم وأخراهم، وأما ما يشبه الكلام عن أسماء أصحاب الكهف وزمانهم ومكان كهفهم، مما لم يذكر في القرآن ولا في السنة، فلا فائدة ترجى من ذلك. إلا أن من طالع كتب التفسير وجد من ذكر ذلك شيئاً كثيراً حتى ذكر بعضهم اسم الكلب، وأنا أنصح بالبعد عن تتبع هذه الأشياء التي لا طائل من ورائها.

إن ما سكت الله عنه مما ينفع الناس عفو كما قال ﷺ: "ما أحل الله في كتابه فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عافية، فاقبلوا من الله العافية"[2]. فكيف بمثل هذه الأمور؟ وأي شيء سيفيد هذا الكلام! نعم، قد ثبت في الحديث: "حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج"[3]، لكن هذا فيما يفيد ولا يسبب خلافا لا طائل من ورائه.

(١) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٣/ ٢٨١.
(٢) المستدرك ٢/ ٤٠٦ (٣٤١٩)، وانظر السلسلة الصحيحة ٥/ ٣٢٥ (٢٢٥٦).
(٣) صحيح البخاري ٣/ ١٢٧٥ (٣٢٧٤).

قال ابن كثير ﷺ: (... وما كان من هذا الضرب منها فقد ترخص كثير من السلف في روايتها، وكثير من ذلك ما لا فائدة فيه، ولا حاصل له مما ينتفع به في الدين، ولو كانت فيه فائدة تعود على المكلفين في دينهم لبينته هذه الشريعة الكاملة الشاملة. والذي نسلكه في هذا التفسير الإعراض عن كثير من الأحاديث الإسرائيلية، لما فيها من تضييع الزمان، ولما اشتمل عليه كثير منها من الكذب المروج عليهم)[1].

ولا بد أن يتنبه طالب العلم إلى أن المطلوب تحصيله هو العلم النافع، وقد كان من دعاء النبي ﷺ: "اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَع"[2].

فائدة- من حماية جناب التوحيد اندثار آثار هؤلاء

إن المتأمل لحال كثير من الناس يلمس تعلقهم بالأوهام، ومن ذلك أوهام وتخيلات باطلة شاعت عن أصحاب الكهف، قال ابن عاشور ﷺ: (الأخبار الزائفة عن تعيينه في مواضع من بلدان المسلمين من أقطار الأرض كثيرة)[3]، وقال أيضا: (وقصة أهل الكهف لها اتصال بتاريخ طور كبير من أطوار ظهور الأديان الحق: وبخاصة طور انتشار النصرانية في الأرض، وللكهوف ذكر شائع في اللَّوْذ إليها والدفن بها، وقد كان المتنصرون يُضطهدون في البلاد، فكانوا يفرون من المدن والقرى إلى الكهوف يتخذونها مساكن، فإذا مات أحدهم دفن هنالك، وربما كانوا إذا قتلوهم وضعوهم في الكهوف التي كانوا يتعبدون فيها)[4]، فمن هنا -والله أعلم- وقع

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ٣٤٧-٣٤٨.

(٢) صحيح مسلم (٤/ ٢٠٨٨) ٢٧٢٢.

(٣) التحرير والتنوير ٨/ ٣٣٥.

(٤) التحرير والتنوير ٨/ ٣٣٦.

الاشتباه وثارت التوهمات.

وأياً كان مثارها فإنها ثارت في كثير من الأقطار، ومن أجرى بحثاً يسيراً على الشابكة العالمية عن موقع أصحاب الكهف وجد عجباً!

وإن كانت هذا يثير العجب، فالأعجب أن يأتي قوم زاعمين عثورهم على قبورهم، ثم يقومون بعمل برامج متلفزة يصورون فيها قبورهم وهياكلهم، ونُذَكِّر هؤلاء الزاعمين رؤيتهم، الواصفين قبورهم وقبر كلبهم وبقايا هياكلهم العظمية، بقول الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾ [الكهف]، فإن كان هذا الخطاب لنبينا ﷺ، أيمكن الله هؤلاء أو غيرهم من رؤيتهم والاطلاع عليهم بكل هدوء واطمئنان؟ والحقيقة أن بعض الناس يستخِفُّون بالعقول فيصورون هذه البرامج لأكل أموال الناس، وما بني على باطل فهو باطل، كما قال الشاعر:

وَهَل يُنبِتُ الخَطِّيَّ إِلّا وَشيجُهُ ... وَتُغرَسُ إِلّا في مَنابِتِها النَّخلُ(١)

وقد سبق في علم الله أن عادة الناس التعلق بالأوهام، فمنع مِن علم قبور الأنبياء الذين هم محل عناية متبوعيهم، ومحط رعاية وتعظيم يفوق تعظيم أصحاب الكهف، فكيف بقبور هؤلاء! قال شيخ الإسلام: (وليس في الأرض قبر اتفق الناس على أنه قبر نبي غير قبره، وقد اختلفوا في قبر الخليل وغيره)(٢)، وقال في موضع آخر: (وسبب اضطراب أهل العلم بأمر القبور أن ضبط ذلك ليس من الدين، فإن النبي قد نهى أن تتخذ القبور مساجد، فلما لم يكن معرفة ذلك من الدين لم يجب ضبطه)(٣).

وقد اتفق أئمة الإسلام على أنه لا يشرع بناء هذه المشاهد على القبور،

---

(١) البيت من البحر الطويل، وهو لزُهَير بن أبي سُلمَى (ت ١٣ ق. هـ).

(٢) مجموع الفتاوى ٢٧/ ١١٦.

(٣) السابق ٤/ ٥١٦.

ولا يشرع اتخاذها مساجد، ولا يشرع الصلاة عندها، ولا يشرع قصدها لأجل التعبد عندها بصلاة أو اعتكاف أو استغاثة أو ابتهال أو نحو ذلك، وكرهوا الصلاة عندها، ثم إن كثيراً منهم قال إن الصلاة عندها باطلة لأجل نهي النبي عنها)(١).

وقال: (ولم يكن على عهد الصحابة قبر نبي ظاهر يزار، لا بسفر ولا بغير سفر، لا قبر الخليل ولا غيره، ولما ظهر بتستر قبر دانيال -وكانوا يستسقون به- كتب فيه أبو موسى الأشعري إلى عمر بن الخطاب، فكتب إليه يأمره أن يحفر بالنهار ثلاثة عشر قبراً ويدفنه بالليل في واحد منها ويعفي القبور كلها لئلا يفتتن به الناس، وهذا قد ذكره غير واحد، وممن رواه يونس بن بكير في زيادات مغازي ابن إسحق عن أبي خلدة خالد بن دينار حدثنا أبو العالية قال: "لما فتحنا تستر وجدنا في بيت مال الهرمزان سريراً عليه رجل ميت عند رأسه مصحف له فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر بن الخطاب فدعا له كعباً فنسخه بالعربية فأنا أول رجل من العرب قرأه، قرأته مثلما قرأ القرآن هذا، فقلت لأبي العالية: ما كان فيه؟ قال: سيرتكم وأموركم ولحون كلامكم وما هو كائن بعد. قلت: فما صنعتم بالرجل؟ قال: حفرنا بالنهار ثلاثة عشر قبراً متفرقة، فلما كان بالليل دفناه وسوينا القبور كلها لنعميه على الناس لا ينبشونه، قلت: وما يرجون فيه؟ قال: كانت السماء إذا حبست عنهم برزوا بسريره فيمطرون، فقلت: من كنتم تظنون الرجل؟ قال: رجل يقال له دانيال. فقلت: منذ كم وجدتموه مات؟ قال: منذ ثلاثمائة سنة. قلت: ما كان تغير منه شيء؟ قال: لا إلا شعيرات من

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٧/ ٤٤٧-٤٤٨.

قفاه، إن لحوم الأنبياء لا تبليها الأرض ولا تأكلها السباع". ولم تدع الصحابة في الإسلام قبراً ظاهراً من قبور الأنبياء يفتتن به الناس، ولا يسافرون إليه ولا يدعونه ولا يتخذونه مسجداً، بل قبر نبينا حجبوه فى الحجرة ومنعوا الناس منه بحسب الإمكان، وغيره من القبور عفوه بحسب الإمكان إن كان الناس يفتتنون به، وإن كان لا يفتتنون به فلا يضر معرفة قبره)[1].

ومن هذا نعلم سبب ترك ذكر محل الكهف وأصحابه، ونعلم تخرص الذين عنَّوا أنفسهم بتعيينه، وليس في عملهم ما يحمد لهم، بل لو عرف فالواجب اعتزال الغيران والبوادي والمناطق المنقطعة عن الناس إلّا في زمن الفتنة.

أما قصد الصلاة والدعاء عند تلك الكهوف والغيران وما أشبهها فهو كما قال ابن تيمية: (من البدع المحدثة المنكرة في الإسلام ... بل هو من أسباب الشرك وذرائع الإفك)[2].

وسفر الناس إلى تلك الكهوف والغيران اعتقاداً لفضلها محرم بالإجماع، فإن (مِن الناس مَن يسافر إلى ما يعتقد فضله من الجبال والغيران، وإذا كان الطور الذي كلم الله عليه موسى وسماه البقعة المباركة والوداي المقدس لا يستحب السفر إليه، فغير ذلك من الجبال أولى أن لا يسافر إليه، وقولي بالإجماع أعني به إجماع السلف والأئمة، فإن الصحابة كابن عمر وأبي سعيد وأبي بصرة وغيرهم فهموا من قول النبي ﷺ: "لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد"[3] أن الطور الذي كلم الله عليه موسى وسماه الوادي المقدس

(١) السابق ٢٧/ ٢٧١.
(٢) الفتاوى ٢٧/ ١٤٥.
(٣) صحيح البخاري ١/ ٣٩٨ (١١٣٢)، صحيح مسلم ٢/ ١٠١٤ (١٣٩٧).

والبقعة المباركة داخل في النهي، ونهوا الناس عن السفر إليه، ولم يخصوا النهي بالمساجد، ولهذا لم يوجب أحد ذلك بالنذر، وما علمت في هذا نزاعاً قديماً)[1].

إذا علم ما سبق فإن من نعم أن منَّ علينا بهذين الإمامين؛ محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن سعود رحمهما الله، اللذين اتفقا على نشر عقيدة التوحيد الصافية بدل البدع والشركيات؛ إذ كان الناس لعشرات السنين إلى أول عهدهما -حتى في نجد- يذهبون إلى الشجر والحجر لقضاء حوائجهم، تأتي المرأة فتقول: يا فحل الفحول هب لي زوجاً قبل الحول!

لقد كانت جزيرة العرب أرض التوحيد من فجر الإسلام، ومع مرور الأيام دخلها شيء من العبادات الباطلة ثم عادت بفضل الله لعقيدة التوحيد.

واليوم يراد لهذه البلاد أن تعود من جديد إلى الأوهام والشركيات، ومن أخطر الأمور أن ينشط أهل البدع والأهواء، فمسجد البيعة عند الجمرات ما كنا نعرفه إلا أنهم أظهروه الآن، ورأى بعض العلماء الناس عنده يتمسحون به ويأخذون الصور، ولا ندري ماذا يحصل بعد ذلك، ويحاولون الآن إظهار قبر آمنة أم النبي ﷺ، وكذلك مسجد عمر الذي أمر بقطع الشجرة التي قيل إن البيعة تمت عندها خشية أن يفتتن الناس بها فتعبد أو تعمل عندها البدع، فلا بد من إلغاء كل باطل أو ما يؤدي إليه حماية لجناب التوحيد.

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٧/ ٢٥٠.

فائدة وتنبيه:

النهي عن السفر تعظيماً لبقعة ما، لا يشمل قصد التجارة أو النزهة أو نحو ذلك ما لم يتضمن محذوراً آخر، فمن ذهب لما يُزعم أنه الكهف في الأردن مثلاً بقصد الفرجة والسياحة فلا محذور في فعله، إلَّا إن ترتب عليه محذور آخر؛ كأن يكون من أهل العلم ويخشى فهم العامة أن زيارته قربة، أو أن تعظيمه مشروع ونحو ذلك.

فالمنهي عنه سفر التعظيم ولو لم يحدث فيها عبادة، فإن أحدث عبادة أو اعتقد فضل العبادة فيه كان أقبح، كأن يعتقد في غار حراء أو غار ثور ويحرص على الصلاة فيه.

فرع عن هذا: لما مات الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله أبى قوم السفر للصلاة عليه، وقالوا: "لا تشد الرحال..." الحديث، وهذا نظرٌ غير موفق، فالتاجر يشد رحله يبتغي من فضل الله، وطالب العلم يشد رحله في طلبه، وجرت عادة الناس بشد رحالهم لأغراض كثيرة، فجعل النهي في الحديث عاماً لكل ذلك خطأ ظاهر، فالمنهي عنه هو المتضمن تعظيم بقعة بعينها وقصدها لأجل ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾

قال ابن فارس رحمه الله: (أوي: الهمزة والواو والياء أصلان: أحدهما التجمُّع... قال الخليل: يقال أوَى الرّجلُ إلى منزله وآوَى غَيرَه أُوِيّاً وإيواءً. ويقال أوَى إواءً أيضاً. والأُوِيُّ أحسن. قال تعالى: ... ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠]. والمأوَى: مكانُ كلِّ شيءٍ يُأوى إليه ليلاً أو نهاراً. وأوَت

الإبلُ إلى أهلها تأوِي أُوِيّاً فهي آوِيةٌ. قال الخليل: التأوِّي التجمُّع)[1]، ولم يصب من جعله مجازاً، أصله الإرجاع، بل أصله ما قدم هنا. وتأمل هذا المعنى في قوله: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [يوسف]، وهكذا أوى هؤلاء الفتية إلى الكهف، كما أوى الصحابة بعدهم إلى ملك الحبشة، فنشر لهؤلاء وهؤلاء ربهم من رحمته الواسعة ما شاء!

والفتية جمع قلة لفتى، وجمع القلة يأتي على أوزان أربعة: أفعِلة كأرغفة، وأفعُل كأبحر، وأفعال كأحمال، وفِعْلة كفتية، ومدلوله من الثلاثة إلى العشرة، واختلف في دخول العشرة واتفق على أن ما بعدها كثير[2].

فدل ذلك على أن عددهم ينحصر فيما بين الاثنين والعشرة، مع احتمال دخول العشرة دون الاثنين، وهذا من الفوائد، ويبين مكانة هذه اللغة وكيف يكون لاختلاف الأوزان فيها دلالة على المعنى؛ فهم قلة لم يكن لهم عدد يتقوون به، ومع قلتهم كانوا فتية، والفتى يكون اسماً وصفة، ويقال في الأصل للشاب الحدث الطري، ويمتد من أول الشباب إلى أن يقوى ويشتد فيبلغ مداه في نحو الثلاثة والثلاثين، وقد تزيد بحسب اختلاف الناس، فما بين ذلك سن الفتوة، فهو في أصله تعبير عن مرحلة عمرية.

فائدة- جمع الألوسي كلام أهل العلم في ذكر **مراحل نمو الإنسان** فقال: (قد ذكر غير واحد أن ابن آدم ما دام في الرحم فهو جنين، فإذا ولد فهو وليد؛ ثم ما دام يرضع فهو رضيع، ثم إذا قطع اللبن فهو فطيم، ثم إذا دب

---

(١) مقاييس اللغة ١/ ١٥١.

(٢) انظر البحر المحيط للزركشي ٤/ ١٢٤.

ونما فهو دارج، فإذا بلغ خمسة أشبار فهو خماسي، فإذا سقطت رواضعه فهو مثغور، فإذا نبتت أسنانه فهو مثغر، بالتاء والثاء كما قال أبو عمرو، فإذا قارب عشر سنين أو جاوزها فهو مترعرع وناشىء؛ فإذا كان يبلغ الحلم أو بلغه فهو يافع ومراهق، فإذا احتلم واجتمعت قوته فهو حَزَوَّر، واسمه في جميع هذه الأحوال غلام؛ فإذا اخضر شاربه وأخذ عذاره يسيل قيل: قد بقل وجهه، فإذا صار ذا فتاء فهو فتى وشارخ، فإذا اجتمعت لحيته وبلغ غاية شبابه فهو مجتمع، ثم ما دام بين الثلاثين والأربعين فهو شاب، ثم كهل إلى أن يستوفي الستين -ويقال لمن لاحت فيه أمارات الكبر وخطه الشيب- ثم يقال شابَ، ثم شمط، ثم شاخ، ثم كبر، ثم هرم، ثم دلف، ثم خرف، ثم أهتر، ومحا ظله إذا مات. وهذا الترتيب إنما هو في الذكور، وأما في الإناث فيقال للأنثى ما دامت صغيرة: طفلة، ثم وليدة إذا تحركت، ثم كاعب إذا كعب ثديها، ثم ناهد، ثم معصر إذا أدركت، ثم عانس إذا ارتفعت عن حد الإعصار، ثم خود إذا توسطت الشباب، ثم مسلف إذا جاوزت الأربعين، ثم نصف إذا كانت بين الشباب والتعجيز، ثم شهلة كهلة إذا وجدت من الكبر وفيها بقية وجلد، ثم شهربة إذا عجزت وفيها تماسك، ثم حيزبون إذا صارت عالية السن ناقصة العقل، ثم قلعم ولطلط إذا انحنى قدّها وسقطت أسنانها)(١).

واسم الفتى بمجرده ليس بمدح ولا ذم، كاسم الشاب والحدث، ولهذا وصف به المتقين والكافرين، قال تعالى: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾ [يوسف: ٣٦]، ولكن الشاب ألين من الشيخ، فصار في طبعه بذل وسخاء وكرم لايوجد في الشيوخ، فصاروا يعبرون بالفتى عن السخي والكريم، ثم

---

(١) تفسير روح المعاني للألوسي ٣/ ٤٣.

استعمل بمعنى المتصرف بمكارم الأخلاق، ولذا نجد أكثر المجاهدين من الشباب؛ لأنهم يسخون بأنفسهم أكثر من غيرهم، وصغار الصحابة كانوا يأتون النبي ﷺ شاكين: أجزت فلاناً ولم تجزني! وهو يؤخرهم حتى يبلغوا.

وفي وصف أصحاب الكهف بالفتية ثناء عليهم بدلالة السياق، لأن الفتى يألف اللهو والباطل، فلما لم يصرفهم ذلك عن المعالي استحقوا التنويه.

فالشباب طاقة عظيمة وثروة كبيرة للأمة، والتغيير في الأمم إنما يكون بسواعد شبابها وتضحياتهم، وقد كان أبو بكر ﷺ في الثامنة والثلاثين عندما أسلم، قال ابن كثير رحمه الله: (وهم الشباب، وهم أقبل للحق وأهدى للسبيل من الشيوخ الذين قد عتوا وعَسَوا[1] في دين الباطل؛ ولهذا كان أكثر المستجيبين لله ولرسوله ﷺ شبابًا؛ وأما المشايخ من قريش، فعامتهم بَقوا على دينهم، ولم يسلم منهم إلا القليل)[2].

وهؤلاء الفتية مع صغر سنهم، المستلزم عادة قلة العلم والخبرة، أنعم الله عليهم بالعلم وألهمهم الصواب، فأحسنوا التصرف فنجوا بدينهم وأووا إلى الكهف؛ وقد أثنى الله ﷻ على إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝٥١﴾ [الأنبياء]، قال ابن كثير: (أي: من صغره ألهمه الحق والحجة على قومه)[3]، فليس بعزيز عليه سبحانه أن يمنَّ على أبناء خير الأمم بمثل ذلك، بل وقع هذا كثيراً، ومن تصفح كتب السير والتراجم وجد ذلك بين الفتية من الصحابة ومن جاء بعدهم، فمن

---

(١) عسوا: أي كبروا واشتدوا، انظر لسان العرب، مادة (عسا) ١٥/ ٥٤.
(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٤٠.
(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ٣٤٧.

ذلك ما ذكره الطرطوشي ﵀ قال: (لما ولي عمر بن عبد العزيز وفد عليه الوفود من كل بلد، فوفد عليه الحجازيون، فتقدم منهم غلام للكلام وكان حديث السن، فقال عمر: لينطق من هو أَسَنُّ منك. فقال الغلام: أصلحَ اللهُ أميرَ المؤمنين! إنما المرء بأصغرَيه: قلبِه ولسانِه، فإذا منح الله العبد لساناً لافظاً وقلباً حافظاً، فقد استحق الكلام، وعرف فضله من سمع خطابه، ولو أن الأمر يا أمير المؤمنين بالسن لكان في الأمة من هو أحق منك بمجلسك هذا. فقال عمر: صدقت! قل ما بدا لك)[1].

ونحن اليوم لدينا والحمد لله شباب عندهم من العقل والحكمة والرزانة ما يثلج القلوب، وبعضهم لم يبلغ العشرين، بل منهم من يشهد له أصدقاؤه بحكمته وعقله مذ كان صبياً في العاشرة أو قبلها، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء، إلا أن الإنسان كالغرسة، تحتاج من يتعاهدها كي تؤتي أكلها، لذا فإننا نحتاج لبث روح الحكمة في أولادنا منذ الصغر، لا سيما في هذه الأيام مع إطلاق الشباب للأحكام دون ترو، وما يتبع ذلك من تهورات، مع أنها قد تكون في بدافع الغيرة مع صدق النية، لكن الغيرة وحدها لا تكفي، لأنها بغير حكمة وتعقل تدفع للأخطاء، كما قال ابن مسعود ﵁: "وكم من مريد للخير لن يصيبه"[2]، وقد كان الشباب يضحون عبر التاريخ ويبذلون الغالي والرخيص، إلا أن التضحية قد تكون صحيحة ومفيدة وفي مكانها، وقد تكون غير ذلك.

والخبر يشعر **بوفور عقول** هؤلاء الفتية، إذ لم تدفعهم حمية الشباب، وفورة القوة النفسية في تلك المرحلة إلى تصرفات غير محسوبة، أو مواجهات

(١) سراج الملوك ١/ ٢٦.
(٢) سنن الدارمي ١/ ٧٩ (٢٠٤)، قال حسين سليم أسد: إسناده جيد.

مستعجلة، ولم يدخلوا في مغامرات كما يحصل من بعض الشباب هداهم الله، بل انسحبوا معتزلين في هدوء، وهذا من حكمتهم التي أوتوها مع صغر سنهم وقلة خبرتهم، فإنهم لما علموا أنه لا ينبغي لأحد أن يأمن على نفسه من الفتنة أو يلقي بها في التهلكة فروا بدينهم، وما قالوا: نحن لا نخشى شيئاً ولا نبالي بما يفعله قومنا! وهذا درس عظيم، فلا ينبغي لأحد أن يقدم على الفتنة راضياً مختاراً ما دام في سعة من ذلك، ولا أن يأمن على نفسه قائلاً: أنا إن ابتليت سأصبر. وما يدريه! بل ليسأل الله السلامة والثبات إن تعرض لها، وليتبرأ من حوله وقوته، وفي الحديث: "أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا"(١).

وكم رأينا ومر بنا أناس كانوا يقولون: لو ابتلينا لصبرنا ولفعلنا وفعلنا، وأعلنوا ذلك على الملأ! لكنهم لما ابتلوا فتنوا ولم يصبروا، نسأل الله العافية، فالفتنة شديدة، ولا ينبغي لأحد أن يذل نفسه ولا أن يعرضها للبلاء، فعن حذيفة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه. قالوا: وكيف يذل نفسه؟ قال: يتعرض من البلاء لما لا يطيق"(٢)، ومع بدء الصحوة المباركة طلب بعض الدعاة النصيحة من أحد كبار العلماء فنصحه ألا يدخل في الفتن وأن ينأى بنفسه عنها، قال: ولا تحدثك نفسك أنك ستدخل ثم تخرج سالماً، فإنك لو دخلت قد لا تستطيع أن تخرج، وقد تخرج وقد تلوثت بالفتنة، لكنك تستطيع ابتداء ألا تدخل!

وفرق بين أن يأتي البلاءُ المرءَ ولم يختره، فيصبر لقضاء الله وقدره، أو

---

(١) صحيح البخاري ٣/ ١٠٨٢ (٢٨٠٤)، صحيح مسلم ٣/ ١٣٦٢ (١٧٤٢).
(٢) سنن الترمذي ٤/ ٥٢٢ (٢٢٥٤)، وصححه الألباني.

يرضى، وبين أن يتعرض بنفسه للبلاء بلا داع، ونبي الله يوسف عليه السلام لما قالت امرأة العزيز: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ٣٢﴾ [يوسف] وجد نفسه بين ابتلاءين فاختار السجن في سبيل الله على أن يقع فيما حرم الله، لكنه لم يعرض نفسه لفتنة السجن قائلاً: اسجنوني! لكنه لما خير بين أمرين اختار السجن.

إن الابتلاء سنة ماضية، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ٣﴾ [العنكبوت]، وعن سعد رضي الله عنه قال: "قلت يا رسول الله: أي الناس أشد بلاء؟ قال الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، فيبتلى الرجل على حسب دينه"[1]، والأنبياء أحب الخلق إلى الله منهم من ضُرِب، ومن سُجِن، ومن أُخرِج من أرضه، بل ومن قُتِل، ثم على طريقهم سار الكُمَّل من أتباعهم.

لقد ضُرب الأئمة؛ أبو حنيفة ومالك وأحمد، وسجن الإمام أحمد والعز بن عبد السلام وابن تيمية وابن القيم وغيرهم، إلا أنهم لم يلقوا بأنفسهم في خضم الفتن، ولم يختاروا السجن والضرب طواعية، لكنهم لما خيروا بين قول الحق أو أداء ما عليهم وبين الضرب أو السجن اختاروا الثاني رضا بقضاء الله وقدره، فالمقصود: أن وقوع الابتلاء شيء، وتعريض النفس له شيء آخر.

دخل أولئك النفر الكهف وهم فتية، ومن كانت هذه سنه لم يكن غالبا من أهل المناصب، وهذا مما يبطل ما رُوي في تسميتهم، وأنهم كانوا مستشاري الملك، وفي تسميتهم أثر آخر عن ابن عباس وفيه نظر.

---

(١) سنن الترمذي ٤/ ٦٠١ (٢٣٩٨)، قال الألباني: حسن صحيح.

ومن الخرافات التي رتبت عليه أن لأسمائهم تلك خواص، وذكروا من خواصها أشياء كثيرة عجيبة؛ ككتابتها لإطفاء الحريق، وللهرب من الطالب، ولإسكات بكاء الصغير، ولأمراض مختلفة، وللغنى، وللجاه، وللدخول على السلاطين، إلى غير ذلك من الخصائص التي لم تكن في كتابة أسماء الله ﷻ الثابتة! ومع ذلك قال بها بعض أهل العلم وزعم أنها مجربة، ولو صح هذا لم يؤمَن أن تكون أسماء شياطين ورُقية أفاكين، إذ خرق العادة قد يكون لأولياء الشيطان استدراجاً، كما يكون لأولياء الرحمن إكراماً وامتحاناً.

وهؤلاء الفتية مع قلتهم وحداثة أسنانهم عرفوا الحق وانقادوا إليه، وذلك لأن **من سمات الحق أنه بيِّن واضح، لا يحتاج إلى فيلسوف أو متقعر في علم الكلام ليبينه**، ومع وضوح الحق لم يهتد إليه قومهم وفيهم من هم أسن وأشرف، بل توعدوا من آمن وهددوه، فليست الهداية للعبد ولا بكسبه وذكائه وعلو قدره، إنما هي محض فضل من الله لمن طهر قلبه، ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾ [الرعد].

ثم قال تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾

دعا الفتية بهذا الدعاء لما أووا إلى الكهف، وهذا دعاء الراسخين في العلم؛ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران]، مما يدل على أن من وسائل الثبات سؤال الله ﷻ الرحمة والرشاد؛ وكأني بالفتية لما صدقت قلوبهم تحركت جوارحهم فخرجوا بأبدانهم من أرض الكفر وأووا

إلى الكهف، وتحركت ألسنتهم لتوافق قلوبهم بطلب الرحمة والرشاد، مما يدل على أن من ثمار العزلة الشرعية نيل رحمة الله، فابتغى هؤلاء بعزلتهم رحمة ربهم، فدعوا بهذا الدعاء.

والرشد الذي سأله الفتية في الآية معنى جامع، قال فيه ابن القيم رحمه الله: (هو العلم بما ينفع والعمل به، والرشد والهدى إذا أفرد كل منهما تضمن الآخر، وإذا قرن أحدهما بالآخر فالهدى هو العلم بالحق، والرشد هو العمل به. وضدهما الغي واتباع الهوى، وقد يقابل الرشد بالضر والشر، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾﴾ [الجن]، وقال مؤمنو الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الجن]، فالرشد يقابل الغي كما في قوله: ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾، ويقابل الضر والشر كما تقدم، وذلك لأن الغي سبب لحصول الشر والضر ووقوعهما بصاحبه، فالضرر والشر غاية الغي وثمرته، كما أن الرحمة والفلاح غاية الهدى وثمرته)[١].

فالفتية لجؤوا إلى الكهف بأبدانهم وإلى الله بقلوبهم، فأووا إلى ركن شديد، ومما يدل على ذلك قوله تعالى: (إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا) فعبر بالفاء الدالة على التعقيب بلا تراخ، ومع ذلك اعتنى الفتية بألفاظ الدعاء، فسألوا الله أن يؤتيهم من لدنه رحمة، وفي هذا أدب مع الله إذ تضمن إثبات الرحمة له وإفراده بذلك، من عنده لا من غيره، ثم سألوه أن يحدث لهم من أمرهم رشداً. فأنت تراهم كما قال القشيري قد (أَخذُوا في التبرِّي مِنْ حَوْلِهِم وقُوَّتِهم، ورجعوا إلى الله بِصِدْق فَاقَتِهم، فاستجاب لهم دعوتَهم،

(١) إغاثة اللهفان ٢/ ١٦٨.

ودفع عنهم ضرورتهم، وبَوَّأهم في كنف الإيواء مقيلاً حسناً)[(١)].

ويظهر أن الفتية قد اتخذوا قرارهم بالفرار بدينهم على عجل، لأمر دهمهم وأشعرهم باقتراب الخطر منهم، مما استدعى ضرورة الخروج دون استعداد كاف، لأنهم حين أفاقوا أرسلوا من يحضر طعاماً إذ لم يكن معهم ما يكفي من الزاد، فلهذا دعوا بهذا الدعاء العظيم حين أووا إلى الكهف: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الكهف]، فكان طلب الفتية الرحمة والرشاد في تلك الحال من أحسن الدعاء، ويدل على رسوخ العلم واليقين لسببين؛ **الأول** أن خروجهم بغير زاد واكتمال استعداد لم يكن تفريطاً في الأخذ بالأسباب لكنه اضطرار، فكان سؤالهم التوفيق للرشد من تمام التوكل، قال البغوي: (﴿وَهَيِّئْ لَنَا﴾: يسر لنا ﴿مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ أي: ما يلتمس من رضاك وما فيه رشدنا)[(٢)]، فخروجهم على هذه الحال يشبه خروج موسى عليه السلام من مصر خوفاً من فرعون وجنوده، كما نقل البغوي[(٣)]، وفي هذا الشبه مناسبة على القول بأنهم كانوا على دين موسى عليه السلام.

وأما الثاني فلأنهم مطاردون مطلوبون لإيمانهم، يراودون على الشرك بالله ربهم، ومن كانت هذه حاله إن لم يرحمه الله ويثبته على الدين ويلهمه الرشاد فقد يزيغ قلبه، فتزل قدم بعد ثبوتها، وهذا حال كثير من المغترِّين.

فهكذا ينبغي أن يكون المسلم، ولا سيما الداعية الذي يتربص به الشانؤون؛ يلهج بسؤال الله الهداية إلى الرشاد في أمره كله، عسى الله أن

(١) تفسير القشيري ٤/ ٣٣٣.
(٢) تفسير معالم التنزيل للبغوي ٥/ ١٥٥.
(٣) تفسير معالم التنزيل للبغوي ٦/ ١٩٩.

يستجيب له فيصلح من أمره كما صنع بأصحاب الكهف؛ فقد استجاب لهم وهيَّأ لهم من أمرهم رشداً، فصرف أعداءهم، وهيَّأ لهم موضع الكهف، على جهة صالحة لبقاء أجسامهم سليمةً، وقلبهم ذات اليمين وذات الشمال لئلا تتأثر أجسامهم، وأنامهم نوماً طويلاً ليمضي عليهم الزمن الذي تتغير فيه أحوال المدينة، وحصل أعظم رَشَدهم في الدنيا بالثبات على الدين الحق ومشاهدته بعد بعثهم منصوراً متبَعاً، فحفظ الله أبدانهم وأديانهم، وجعلهم آية على صدق الدين وعلى قدرة الله التامة وعلى البعث، ونشر لهم من الثناء الحسن بين أصحاب الملل، وأنزل فيهم قرآناً يتلى إلى يوم القيامة يثبت لهم صريح الإيمان ومزيد الهداية، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ثم قال سبحانه: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ﴾

فذكر -بعد ما سبق- من لطيف صنعه لهم ما فيه آية، قال ابن جرير: (﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ ﴾ بالنوم في الكهف؛ أي ألقينا عليهم النوم، كما يقول القائل لآخر: ضربك الله بالفالج، بمعنى ابتلاه الله به، وأرسله عليه)(١)، قال الشنقيطي: (فضربُه جل وعلا على آذانهم في هذه الآية كناية عن كونه أنامهم، ومفعول «ضربنا» محذوف، أي ضربنا على آذانهم حجاباً مانعاً من السماع فلا يسمعون شيئاً يوقظهم. والمعنى: أنمناهم إنامة ثقيلة لا تنبههم فيها الأصوات)(٢)، وقال أبو حيان: (﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ ﴾ استعارة بديعة للإنامة المستثقلة التي لا يكاد يسمع معها، وعبر بالضرب ليدل على قوة المباشرة واللصوق واللزوم، ومنه ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ ﴾ [آل عمران: ١١٢]، وضرب الجزية، وضرب البعث. وقال الفرزدق(٣):

---

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٦١٣.

(٢) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٣/ ٢٨٣.

(٣) هو همام بن غالب بن صعصعة التميمي الدارمي، أبو فراس، (٣٨ - ١١٠ هـ).

ضَرَبَت عَلَيكَ العَنكَبوتُ بِنَسجِها ... وَقَضى عَلَيكَ بِهِ الكِتابُ المُنزَلُ[(١)]

وقال الأسود بن يعفر[(٢)]:

وَمن الحوادث لا أبالك أنني ... ضُربت عليَّ الأرضُ بالأسدادِ[(٣)]

وقال آخر[(٤)]:

إِنَّ المُروءَةَ والسَّماحَةَ وَالنَّدى ... في قُبَّةٍ ضُرِبَت عَلى ابنِ الحَشرَجِ[(٥)]

استعير للزوم هذه الأوصاف لهذا الممدوح. وذَكَر الجارحة التي هي الآذان، إذ هي يكون منها السمع، لأنه لا يستحكم نوم إلا مع تعطل السمع. وفي الحديث: «ذلك رجل بال الشيطان في أذنه»[(٦)] أي استثقل نومه جداً حتى لا يقوم بالليل)[(٧)].

وفي قوله (فضربنا على آذانهم) لطيفة، فمن أراد النوم الهادئ فليسد أذنيه، وهذه نظرية علمية صحيحة، ولكن لها محذور فقد لا يستيقظ للصلاة، فلا بد من التحرز من مثل ذلك بتوصية من يوقظه.

وقوله: ﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾، قال الطبري: (معدودة)[(٨)]، وقيل: ذوات عدد عدد على أنه مصدر وصف بالتأويل الشائع، وقيل: مصدر لفعل مقدر أي

---

(١) البيت من بحر الكامل.

(٢) الأسود بن يعفر النهشلي الدارمي التميمي، أبو نهشل، ت (٢٣ ق. هـ).

(٣) البيت من بحر الكامل.

(٤) هو زياد بن سليمان أو سليم الأعجم، أبو أمامة العبدي، مولى بني عبد القيس، ت (١٠٠ هـ).

(٥) البيت من البحر الكامل.

(٦) أصله في صحيح البخاري ١/ ٣٨٤ (١٠٩٣).

(٧) تفسير البحر المحيط لأبي حيان ٧/ ٤٢٠.

(٨) تفسير الطبري ١٧/ ٦١٣.

تعد عدداً.

وكلمة (عدداً) تستعمل في الكثرة والقلة، وانتقد بعضهم استخدامها في الكثرة، ولا وجه لهذا النقد، لقوله سبحانه: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ﴾، قال غير واحد من المفسرين: أي كثيرة، ولا شك أن تسعة وثلاثمائة عام كثيرة! ولكن لا يقتصر ذكرها على إرادة الكثير.

والحاصل أن الفتية لبثوا في الكهف سنين عدداً جاء تفسيرها في الآية الأخرى: ﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [الكهف].

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ ﴾

فقوله: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ ﴾ أي أثرناهم من رقدتهم، وأيقظناهم، قال القرطبي رحمه الله: (ويقال لمن أُحييَ أو أقيمَ من نومه: مبعوث، لأنه كان ممنوعاً من الانبعاث والتصرف)[1]، وللتعبير بالبعث دلالة عظيمة على البعث بعد الموت، وأنه من جنس البعث من النوم، وفيه مناسبة لخطاب منكري البعث، وهكذا كلما تقدم جواب سؤالهم آية بعد أخرى، يأتي بخلاف مقصودهم، ويعيدهم إلى القضايا الرئيسة التي ينبغي أن يبحثوا فيها، ويعملوا عقولهم، مَن خلقهم، ولماذا، وماذا بعد الموت؟

وقوله: {لنعلم} أي لنراه ونعلمه علم ظهور ووجود، والله تعالى يعلم ما سيكون من الأشياء قبل وقوعها، لا يخفى عليه شيء، فإذا وقعت علم وجودها، وهو علم غير الأول؛ وحجة الله على خلقه إنما تقوم بوقوع الفعل من المخلوقين، فهو لا يؤاخذهم بما علمه كائناً في المستقبل قبل أن يكون، وإنما يؤاخذهم بما قد كان منهم، اقتضى ذلك عدله ورحمته.

قال شيخ الإسلام: (فهذا هو العلم الذي يتعلق بالمعلوم بعد وجوده،

---

(١) تفسير القرطبي ١٠/ ٣٦٣.

وهو العلم الذي يترتب عليه المدح والذم، والثواب والعقاب؛ والأول هو العلم بأنه سيكون، ومجرد ذلك العلم لا يترتب عليه مدح ولا ذم، ولا ثواب ولا عقاب... وكذلك المفسرون قالوا: لنعلمه موجوداً بعد أن كنا نعلم أنه سيكون)[1].

قال الشنقيطي رحمه الله: قوله جل وعلا {ثم بعثناهم لنعلم} لا يدل على أنه لم يكن عالماً بذلك قبل بعثهم وإنما علم بعد بعثهم كما زعمه بعض الكفرة الملاحدة! بل هو جل وعلا عالم بكل ما سيكون قبل أن يكون، والآيات الدالة على ذلك لا تحصى، ومن أصرح الأدلة على ذلك قوله: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ [آل عمران]، فقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بعد ﴿وَلِيَبْتَلِيَ﴾ دليل واضح في ذلك. وإذا حققت ذلك فمعنى ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾ أي نعلم ذلك علماً يظهر الحقيقة للناس، فلا ينافي أنه كان عالماً به قبل ذلك دون خلقه[2].

قال الشيخ ابن عثيمين: (أما تحقق وقوع المعلوم بالنسبة لله، فلا فرق بين ما علم أنه يقع، وما علم أنه وقع، كلٌّ سواء، وأما بالنسبة لنا، صحيح أنَّا نعلم ما سيقع في خبر الصادق، لكن ليس علمنا بذلك كعلمنا به إذا شاهدناه بأعيننا، ولذلك جاء في الحديث الصحيح: "ليس الخبر كالمعاينة"[3])[4].

(١) مجموع الفتاوى ٨/ ٤٩٦.

(٢) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٣/ ٢٨٤-٢٨٥ بتصرف واختصار.

(٣) المستدرك ٢/ ٣٥١ (٣٢٥٠)، قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٤) تفسير القرآن للعثيمين، تفسير سورة الكهف، ٦/ ١٦.

وأما قوله: ﴿أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾، فقد قال القرطبي: (الحزبان: الفريقان، والظاهر من الآية أن الحزب الواحد هم الفتية إذ ظنوا لبثهم قليلاً، والحزب الثاني أهل المدينة الذين بعث الفتية على عهدهم، حين كان عندهم التاريخ لأمر الفتية، وهذا قول الجمهور من المفسرين، وقالت فرقة: هما حزبان من الكافرين، اختلفا في مدة أصحاب الكهف، وقيل: هما حزبان من المؤمنين، وقيل غير ذلك مما لا يرتبط بألفاظ الآية)(١).

وقال الألوسي: (﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾ أي منهم؛ وهم القائلون: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: ١٩]، والقائلون: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ [الكهف: ١٩]، وقيل أحد الحزبين الفتية الذين ظنوا قلة زمان لبثهم، والثاني أهل المدينة الذين بعث الفتية على عهدهم، وكان عندهم تاريخ غيبتهم، وزعم ابن عطية أن هذا قول جمهور المفسرين، وعن ابن عباس أن أحد الحزبين الفتية، والآخر الملوك الذين تداولوا ملك المدينة واحداً بعد واحد، وعن مجاهد: الحزبان قوم أهل الكهف؛ حزب منهم مؤمنون، وحزب كافرون، وقال الفراء: الحزبان مؤمنان كانوا في زمنهم، واختلفوا في مدة لبثهم، وقال السدي: الحزبان كافران، والمراد بهما اليهود والنصارى الذين علَّموا قريشاً سؤال رسول الله ﷺ عن أهل الكهف؛ وقال ابن حرب: الحزبان الله سبحانه وتعالى، والخلق كقوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠]، والظاهر هو الأول، لأن اللام للعهد ولا عهد لغير من سمعت)(٢)، وهذا الذي استظهره مال إليه الشيخ محمد بن عثيمين(٣)، وتعقب هذا المعنى ابن عاشور بقوله: (فقيل: هما فريقان من أهل الكهف أنفسهم، على أنه المشار

(١) تفسير القرطبي ١٠/ ٣٦٤.
(٢) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ١٦٢.
(٣) التفسير ٦/ ١٦.

إليه بقوله تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ [الكهف: ١٩]، وفي هذا بعد من لفظ حزب، إذ كان القائل واحداً والآخرون شاكين، وبعيد أيضاً من فعل ﴿أَحْصَىٰ﴾ لأن أهل الكهف ما قصدوا الإحصاء لمدة لبثهم عند إفاقتهم بل خالوها زمناً قليلاً. فالوجه: أن المراد بالحزبين حزبان من الناس -أهل بلدهم- اختلفت أقوالهم في مدة لبثهم بعد أن علموا انبعاثهم من نومتهم، أحد الفريقين مصيب والآخر مخطئ، والله يعلم المصيب منهم والمخطئ، فهما فريقان في جانبي صواب وخطأ كما دل عليه قوله: ﴿أَحْصَىٰ﴾)[1].

وقوله: ﴿أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا﴾، قال ابن جرير: (يقول: أصوب لقدر لبثهم فيه أمداً، ويعني بالأمد: الغاية)[2]، وعلى هذا فأحصى أفعل تفضيل منصرف إلى ما في معنى الإحصاء من الضبط والإصابة، وذهب آخرون إلى أن أحصى فعل ماض، قال الزمخشري: (﴿أَحْصَىٰ﴾ فعل ماض أي أيهم ضبط ﴿أَمَدًا﴾ لأوقات لبثهم. فإن قلت: فما تقول فيمن جعله من أفعل التفضيل؟ قلت: ليس بالوجه السديد، وذلك أن بناءه من غير الثلاثي المجرّد ليس بقياس)[3]، ويقوي هذا القول أن المخطئ من الحزبين لا يشترك مع الآخر في المعرفة، فاقتضى ذلك أن يكون التفضيل على خلاف أصله، والأمر محتمل. قال ابن عاشور: (و﴿أَحْصَىٰ﴾ يحتمل أن يكون فعلاً ماضياً، [و] أن يكون اسم تفضيل... فالوجه أن ﴿أَحْصَىٰ﴾ اسم تفضيل، والتفضيل منصرف إلى ما في معنى الإحصاء من الضبط والإصابة. والمعنى: لنعلم أي الحزبين أتقن إحصاءً، أي عداً بأن يكون هو الموافق للواقع ونفس الأمر،

---

(١) التحرير والتنوير ٨/ ٣٤٠.

(٢) تفسير الطبري ١٧/ ٦١٣.

(٣) الكشاف ٣/ ٤٩٧.

ويكون ما عداه تقريباً ورجماً بالغيب. وذلك هو ما فصله قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَـٰثَةٌ﴾ [الكهف: ٢٢] الآية)[1].

- **فائدة:** الحزب تطلق على المجموعة والفئة والطائفة، وفي القرآن لا يوصف أصحاب الحق إلا بالحزب الواحد فلم يوصفوا بالأحزاب، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة]، وقال: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة]، أما الكفار فوصفهم بالحزب كما في: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَـٰنِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَـٰنِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [المجادلة]، ووصفهم بالأحزاب ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧]، وقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم]، والآية تبين خطر التفرق والتحزب وتنهى عنه نهياً شديداً، ومثلها ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأنعام]، فكل من تحزب أو فرق الأمة بالوصف المتقدم فله من الوعيد نصيب، وأما تنوع الجماعات للتعاون على البر والتقوى، كجماعات حفظ القرآن أو الجماعات الدعوية أو الجمعيات الخيرية أو كهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما أشبه ذلك، فجائز ما دام الولاء لدين الإسلام وأهله، فإن تحول الولاء للجماعة عاد الذم لهذا لا للاجتماع على الخير.

إن بعض أعداء الله يتآلفون ويجتمعون ليحققوا مصالحهم، وبعض المسلمين والدعاة الذين تجمع بينهم كلمة التوحيد ويرجعون إلى نفس الأصول، يختلفون ويتنافرون، في أمور لا تستدعي كل ذلك، وكذلك من صور التفرق: التفرق القبلي أو المناطقي أو الطبقي، فكيف لنا أن نواجه الأعداء بهذا التفرق، وهم يتكالبون علينا تكالب الأكلة على قصعتها! فلا

---

(١) التحرير والتنوير ٨/ ٣٤١.

بد من التوحد وتذليل الصعاب وتجاوز الخلافات، أو وضعها في إطارها الصحيح الذي لا يوصل إلى التحزب المذموم والتنافر والتفرق والتشرذم.

قال تعالى: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الكهف].

هذا شروع في تفصيل القصة، وذكر مواطن العبرة فيها، وهي كثيرة.

فقوله سبحانه: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ ﴾

فيه تقديم الفاعل على الفعل، والمسند إليه وهو ضمير المخاطب، على المسند وهو النبأ، وكل هذا يفيد الاختصاص، والمعنى: نحن لا غيرنا، نقص عليك أنت دون سواك نبأهم بالحق، أي بالصدق، لأن الصدق من جملة الحق. وقوله: نبأهم أي خبرهم العظيم، لأن لفظ النبأ يدل على عظم خبرهم وأنه ليس كسواه من الأخبار، لما جاء فيه من عجيب أمرهم.

وفي هذا بيان لكون من خاض في شأنهم إنما خاض فيه بجهل وقال ما لا علم له به، أو خاض بدون صدق فزاد ونقص متبعاً في ذلك هواه، وفيه بيان أن الحق وفصل الخطاب في الأمر إنما هو ما يقصه الله لا غيره، وأنه لا سبيل لهم إلى علمه إلا بواسطة النبي ﷺ تأكيداً على رسالته ونبوته.

قال الشيخ محمد العثيمين: (كلام الله تبارك وتعالى متضمن للعلم والصدق والفصاحة والإرادة، أربعة أشياء. كلامه عن علم وكلامه أيضاً عن صدق، وكلامه في غاية الفصاحة، وإرادته في هذا الكلام خير إرادة، يريد بما يتكلم به أن يهدي عباده. ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ قصُّ الله أكمل

القصص وأحسن القصص؛ لأنه صادر عن:

١ -علم. ٢ -وصدق.

٣ - بأفصح عبارة وأبينها وأوضحها ولا كلامَ أوضح من كلام الله إلَّا عند من أضل الله قلبه، وقال: هذا أساطير الأولين.

٤ -وبأحسن إرادة، لم يرد الله تعالى بما يقص علينا أن نضل ولا بما حكم علينا أن نجور، بل أراد أن نهتدي ونقوم بالعدل)[1].

وقص القصص من جملة الكلام، وفي هذا إثبات لكون الله تعالى يتكلم، وكلامه سبحانه لرسله صلى الله عليهم وسلم، قد يكون بلا واسطة، وقد يكون بواسطة ملك، وهو جبريل عليه السلام، وقد يكون من وراء حجاب، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [الشورى].

وما قصه ربنا تبارك وتعالى في القرآن من قصص الأنبياء أو غيرهم كأصحاب الكهف أو الخضر أو ذي القرنين يغني عن كل ما في كتب السابقين عنهم، ويغني عن كل ما نقله عنهم كثير من المفسرين حتى ملؤوا كتبهم بالشطحات والغرائب المنكرة التي جاءت بها الإسرائيليات، وقد بين الله تعالى ذلك بما لا مزيد عليه فقال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ [يوسف: ٣].

فائدة- قول الله تعالى: ﴿نَحْنُ﴾، لا تعني التعدد كما يزعم بعض النصارى وغيرهم ممن يلقون الشبهات، وإنما المراد بها التعظيم، وهي صيغة مستخدمة في كلام العرب للواحد العظيم الذي له مأمورون، سواء أكانوا أعواناً أم عبيداً أم خدماً يطيعونه، كما يقول الملك: نحن فتحنا هذا

---

(١) تفسير القرآن للعثيمين ٦/ ١٧ بتصرف يسير.

البلد وهزمنا هذا الجيش ونحو ذلك، لأنه إنما يفعل بمأموريه. فالله تعالى جعل للملائكة أعمالاً ووظائف يقومون بها، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، وهو مع هذا ربهم وخالقهم وخالق أفعالهم وقدرتهم وهو غني عنهم، فليس هو كالملك الذي يفعل أعوانه بقدرة وحركة يستغنون بها عنه، فكان قوله "نحن فعلنا" أولى من قول بعض الملوك، وهذا يقال على كل ضمائر الجمع المنسوبة إلى الله تعالى في القرآن أو الحديث القدسي.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾

ونلاحظ هنا الربط بين الإيمان وزيادة الهدى، فلا يزيد الهدى إلا بالإيمان؛ ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ [النور: ٥٤]، ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١]، أي يثبته عند المصائب والفتن والمحن والشدائد، فمن لم يثبت قلبه عند الشدائد والفتن فهذا يدل على ضعف في إيمانه. أما هؤلاء الفتية فقد كان إيمانهم قوياً راسخاً فزادهم الله هدى وثبتهم في المحنة.

قال صاحب الأضواء: (ويفهم من هذه الآية الكريمة أن من آمن بربه وأطاعه زاده ربه هدى، لأن الطاعة سبب المزيد من الهدى والإيمان.

وهذا المفهوم من هذه الآية الكريمة جاء مبيناً في مواضع أخر، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد] ... وقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [التوبة]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤] الآية ... إلى غير ذلك ... وهذه الآيات المذكورة نصوص صريحة في أن الإيمان يزيد؛ مفهوم منها أنه ينقص أيضاً، كما استدل بها البخاري رحمه الله على ذلك)[1].

---

(١) أضواء البيان ٣/ ٢٨٨.

قال تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟﴾

وهذا الربط على القلوب ضروري للنجاة من الفتن، وهو محض تأييد من الله لعباده، كما فعل يوم بدر: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ [الأنفال: ١١]، وكما فعل بأم موسى ؏: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾ [القصص]، قال ابن القيم رحمه الله: (والربط على قلوبهم يتضمن الشد عليها بالصبر والتثبيت، وتقويتها وتأييدها بنور الإيمان، حتى صبروا على هجران دار قومهم ومفارقة ما كانوا فيه من خفض العيش وفروا بدينهم إلى الكهف. والربط على القلب عكس الخذلان، فالخذلان حله من رباط التوفيق، فيغفل عن ذكر ربه ويتبع هواه ويصير أمره فرطاً، والربط على القلب شده برباط التوفيق فيتصل بذكر ربه ويتبع مرضاته ويجتمع عليه شمله)(١).

قال الطبري رحمه الله: (يقول عز ذكره: وألهمناهم الصبر، وشددنا قلوبهم بنور الإيمان حتى عزفت أنفسهم عما كانوا عليه من خفض العيش)(٢)، قال ابن عاشور: (وإذ قاموا: ظرف للربط... أي كان ذلك الخاطر الذي قاموا به مقارناً لربط الله على قلوبهم، أي لولا ذلك لما أقدموا على مثل ذلك العمل وذلك القول)(٣)، وهذا القيام يحتمل خمسة معان، ذكر ثلاثة منها القرطبي فقال: (أحدها: أن يكون هذا وصف مقامهم بين يدي الملك الكافر... وهو مقام يحتاج إلى الربط على القلب إذ خالفوا دينه، ورفضوا في ذات الله هيبته. والمعنى الثاني فيما قيل: إنهم أولاد عظماء تلك المدينة، فخرجوا واجتمعوا وراء تلك المدينة من غير ميعاد، فقال أسنهم:

---

(١) مدارج السالكين ٣/ ٦٧-٦٨.
(٢) تفسير الطبري ١٧/ ٦١٥.
(٣) التحرير والتنوير ١٥/ ٢٧٢.

إني أجد في نفسي أن ربي رب السموات والأرض، فقالوا ونحن كذلك ... والمعنى الثالث: أن يعبر بالقيام عن انبعاثهم بالعزم إلى الهروب إلى الله تعالى ومنابذة الناس، كما تقول: قام فلان إلى أمر كذا إذا عزم عليه بغاية الجِد)[1].

والرابع: قيامهم لدعوة الناس سراً إلى الإيمان[2].

والخامس: قول نسب لعطاء ومقاتل: أنهم قالوا ذلك عند قيامهم من النوم، قال الرازي: (وهذا بعيد لأن الله استأنف قصتهم بقوله: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾)[3]، وقال الألوسي: (وليس بشيء)[4].

والأول هو الأظهر، وعليه أكثر المفسرين كما ذكر الشوكاني وصاحب الأضواء، ولا تعارض بينه وبين ما بعده، بل هو مقتضٍ للثلاثة بعده، دون تفاصيل الثاني، والأخير يُبَعِّدُه السياق، إذ لا يحتاج إلى ربط وتثبيت ينوَّه به، بخلاف المعنى الأول.

وعلى المعنى المختار فإن هؤلاء الفتية يكونون قد قاموا مقاماً عظيماً بين يدي الملك، وقد سئل رسول الله ﷺ عن أفضل الجهاد فقال: "كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ"[5].

وقول الله ﷻ: ﴿إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ﴾ فيه إشارة إلى أمرين:

---

(١) تفسير القرطبي ١٠/ ٣٦٥-٣٦٥.

(٢) تفسير البحر المحيط لأبي حيان ٧/ ٤٢٤.

(٣) تفسير مفاتيح الغيب للرازي ١٠/ ١٧٩.

(٤) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ١٧٠.

(٥) سنن النسائي ٧/ ١٦١ (٤٢٠٩)، وصححه الألباني.

الأول: أن الله ثبتهم وربط على قلوبهم ربطاً تاماً، فوُفِّقوا لحسن البيان، والمرء قد يربط على قلبه ويثبت، ثم يذهل عن الكلام ونصر الحق بالقول فيخذله التعبير، أما هؤلاء فقد قاموا صادعين بالحق الصريح.

الثاني: أن الثبات المستحق للإشادة هو المنضبط على الحق الظاهر، فهم قاموا فقالوا حقاً، أما الثبات على الباطل، فهو حري بالذم والتسفيه، بل لم أجد في القرآن تسمية ذلك ثباتاً، ولا ربطاً، بل زيغاً وطمساً.

وفي قولهم هذا إثبات الربوبية لله، والإقرار بها، واستدلالهم بالربوبية على وجوب توحيد الإلهية، وعلى قبح الشرك، وفوق ذلك الدعوة والإعلان بهذا كله، وقد يفهم من هذا أن القوم قد جمعوا بين شرك الألوهية وشرك الربوبية، على أحد القولين.

وهنا وقفتان:

الوقفة الأولى: إثبات ربوبية الله ﷻ ودلالته على توحيد الإلهية:

الله ﷻ كثيراً ما يقرر توحيد الربوبية ويؤيده بأدلة؛ منها ما ذكره الفتية هنا، وهو دليل الإحداث والاختراع، وإنما خصوا ذكر السماوات والأرض لمضي العصور قبلهم عليها، مع عظمها ودقة صنعها، وهذا يبطل أن تكون من خلق آلهتهم التي يزعمونها، لأنها حادثةٌ قريبةُ العهد، وبديع الصنع ودقيق النظام دلَّ على أن هذا الخالق رب عليم قادر مريد حكيم، وهو الله الذي يدعو الفتية إلى عبادته.

وإذا تقررت الربوبية لله دلت على وجوب إفراده بالعبادة دون سواه، وهذا معنى توحيد الله في إلهيته، قال صاحب الأضواء: (هذه الآية الكريمة تدل دلالة واضحة على أن من أشرك مع خالق السموات والأرض معبوداً آخر فقد جاء بأمر شطط بعيد عن الحق والصواب في

غاية الجور والتعدي؛ لأن الذي يستحق العبادة هو الذي يبرز الخلائق من العدم إلى الوجود، لأن الذي لا يقدر على خلق غيره مخلوق يحتاج إلى خالق يخلقه ويرزقه ويدبر شؤونه.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء مبيناً في آيات أخر كثيرة، كقوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [البقرة]، وقوله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [النحل]، وقوله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَـٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّـٰرُ ﴿١٦﴾ ﴾ [الرعد]، أي الواحد القهار الذي هو خالق كل شيء هو المستحق للعبادة وحده جل وعلا. وقوله جل وعلا: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ ﴾ [الأعراف]، وقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الفرقان] الآية، إلى غير ذلك من الآيات. وقوله جل وعلا في هذه الآية الكريمة: ﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ أي إذا دعونا من دونه إلهاً فقد قلنا شططاً)[1].

الوقفة الثانية: في منهج الدعوة إلى الله:

منهج الدعوة يظهر في بدئهم بالأهم؛ وهو التوحيد، فمع أنه لا تكاد تخلو دولة كافرة من منكرات، إلا أنهم بدؤوا دعوتهم بالتوحيد ونبذ الشرك، ثم كانت المفارقة لأجله، وأما بقية الجوانب فلم تذكر إلا فيما بينهم عندما قاموا فقالوا: ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ ﴾ [الكهف: ٢٠]، وهو يدل على ظلمهم

---

(١) أضواء البيان ٣/ ٢٩٠.

وتجبرهم. وسر هذا المنهج أن الإصلاح في أحد جوانب الحياة إذا لم يبدأ بالتوحيد فهو عسير أولاً، وغش للمدعوين ثانياً، أما عسره فلأن غير المؤمن لن يعمل إلا لمصلحته، وحتى إن وجدت قوانين وضعية تمنعه من التعدي فإن التحايل ممكن، أما الموحد فإنه يعلم أن الله يراه، وهذه هي ضمانة الإصلاح الحقيقي. وأما كونه غشاً للمدعوين فلأن ما بهم من الشرك سيرديهم في جهنم خالدين فيها أبداً، فأي فائدة في تهذيب أخلاقهم، إن كان المآل إلى النار؟

فعلى الداعية أن يبدأ بما تمس الحاجة له، لا إلى ما يرتضيه المدعوون ويعجب به المستمعون، ولو كلفه ذلك المشقة أو العزلة والرحيل.

أما قول الفتية: ﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾، فقد قال الطبري ﷺ: (يعني غالياً من الكذب، مجاوزاً مقداره في البطول والغلوّ)[1].

وفي ذلك تحريم الشطط في القول؛ لأن الشرك قبيح لا يوصف إلا بالقبيح، وهم وصفوا القول به بِعَدِّهِ شططاً، ولو لم يكن الشطط قبيحاً ما صح وصفه به، وقد أكدوا تجاوز المشركين وقبح الشرك بثلاثة مؤكدات: اللام وقد والقسم الذي دلت على حذفه اللام؛ وفيها دليل على أن الشرك الأكبر المخرج من الملة قد يقع بالقول، وفيها بيان ثبات أصحاب الكهف، إذ أعلنوا أنهم لن يقولوا الشرك، فضلاً عن أن يعتقدوه، وفيها ما يشعر أن تسلط أهل الباطل بلغ مبلغاً أرادوا معه إرغام الفتية على دعاء آلهتهم الباطلة؛ وفي هذا ما يدل على أن الدعوة كانت من الجانبين؛ من جانب أهل الحق وهم الفتية، ودعوتهم كانت دعوة التوحيد الخالص، ومن جانب قومهم كانت الدعوة للشرك بأن يدعو مع الله آلهة أخرى.

---

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٦١٦.

القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن

يخبر الله تعالى في هذه الآية الكريمة أنه قد ربط على قلوب الفتية وثبتها، ومن علم أن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، فحري به أن يلهج بدعاء التثبيت؛ فعن أنس ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: "يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك. فقلت: يا رسول الله! آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا؟ قال: نعم إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله يقلبها كما يشاء"[(١)]. فإذا كان أنس ﷺ، صاحب رسول الله ﷺ وخادمه؛ مَن شهد بدراً صغيراً، وكان يُستسقى بدعائه ﷺ شيخاً كبيراً؛ مَن دعا له رسول الله ﷺ بأن يكثر الله ماله وولده وأن يدخله الجنة فكان أنس يقول: قد رأيت اثنتين وأنا أرجو الثالثة! يقول له رسول الله ﷺ: "نعم"، جواباً لسؤاله: أتخاف علينا؟ ليشمل هذا كل من شهدوا الوحي وعاينوا التنزيل، فجدير بنا أن نشفق على أنفسنا! وأي غرور أحمق ذاك الذي يأمن صاحبه على نفسه بعد هؤلاء؟ فمن اعتد بعقله، وأعجب بدينه وفهمه فلم يلجأ إلى ربه، مسكينٌ، قلبه على شفا جرف يوشك أن ينقلب فيه منتكسا! (فنسأل الله ربنا ألا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ونسأله أن يهب لنا من لدنه رحمة، إنه هو الوهاب)[(٢)].

ومن تأمل الساحة اليوم يسمع بفلان، كان فيما مضى آية في تمسكه بالدين وصبره عليه، يتحمل أنواع الأذى، ثم تبدلت الحال، فصار ممن

(١) سنن الترمذي ٤/ ٤٤٨ (٢١٤٠)، وصححه الألباني.
(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ١٣.

تنكبوا الصراط، أو انتكسوا، لعِلة خفية كأن يكون معتداً بما هو فيه من الخير، فيأمن على نفسه، فقلَّ أن يسأل الله أن يرحمه ويثبته فلا يزيغ قلبه بعد إذ هداه؛ لا يسأل ربه ومولاه الرشاد، ولا تجد في دروسه وخطبه وكلماته شيئاً عن أهمية الثبات، وإن وجدت فلا تجد فيها التعويل على رحمة الله والاطِّراح بين يديه وسؤاله التثبيت، مع أنه يعلم أن هداية القلوب ليست إليه، وأن علمه قد علمته قبله أمم أضلهم الله على علم!

ولهذا كان سؤال الله الرحمة والثبات على الهداية سبيل الراسخين، ومن أعظمهم رسوخاً وإلحاحاً في الدعاء محمد ﷺ، كما مر.

لقد قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ [الإسراء]، فبين أن حفظه وتثبيته له هو الذي عصمه من الركون شيئاً قليلاً، فإذا كان هذا في حق المعصوم فكيف بحال باقي أمته؟

إن من اللطائف هنا أن بعض من يتنازل عن شيء من الدين، أو يحرف بعض الشرع لينزل إلى رغبات المخالفين، إنما يفعل ذلك عادة للمصالح الدنيوية، والمكتسبات الآنية، التي يحسب أنه ينصر بها الدعوة، وهذا من أكبر مداخل الشيطان، أعني الركون أو المداهنة لأجل أن تقوى دعوتهم، أو لا تستذل وتفقد مكتسباتها، وقد جاءت الآية التالية قاطعة لهذه الأمنيات موجهة المؤمن كي يلغي هذه الاعتبارات، بكلمات تحذيرية شديدة حتى لا تكون له شبهة في ركونه إلى الظالمين ولو شيئاً قليلاً، قال تعالى لأحب الخلق إليه: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء]، فقدم ضعف الحياة التي قد يركن إليها، وبدل المصلحة التي يرجوها، لن يحصل إلا على عذاب الدنيا والآخرة.

إن هذا الركون القليل لا يكاد ينجو منه أحد إلَّا من اعتصم بالله والتجأ إليه فعصمه، ولهذا كان من دعاء المؤمنين: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ۝٨﴾ [آل عمران]، وقد مَنَّ سبحانه برحمته على بعض أوليائه فربط على قلوبهم فتحققت نجاتهم، ومن ذلك قوله: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ۝١١﴾ [الأنفال]، وقال في شأن أم موسى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝١٠﴾ [القصص]، وقال هنا في شأن الفتية: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾. وما دام الأمر كذلك فحري بالمؤمن أن يلجأ إلى ربه ويسأله أن يربط على قلبه، وأن يناجيه قائلاً: "يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين"(١).

إن أحوج ما يكون المؤمن للتثبيت: زمن الفتن، وعند نزول البلاء، ولهذا قال تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا﴾ وذلك بين يدي الملك الجبار على قول أكثر المفسرين، فالقلوب تبين الفتن حقيقتها، وسنة الله في ابتلاء عباده ماضية من أجل التمحيص، فإذا جاء البلاء وامتحنهم الله بالبأساء والضراء، وتنمر الباطل واستطال أهله، فعندها يثبت الله من شاء بفضله فيربط على قلبه، وأما من كان يعبد الله في الرخاء فقط فحاله كما بين الله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ۝١١﴾ [الحج].

أما في أوقات الأمن والرخاء، فإن كانت دولة الكتاب والسنة ظاهرة

---

(١) المستدرك ١/ ٧٣٠ (٢٠٠٠)، وحسنه الألباني في "السلسلة الصحيحة" ١/ ٣٩٧.

فقد يُظهرُ الإيمانَ من لا يحمله قلبه، فإذا جاء البلاء ثبت بعض الصادقين، وحصل التمحيص، وإن لم تكن ظاهرة وكان الباطل منتفشاً فلا تثبت إلا القلة الصادقة والطائفة الموفقة.

وكما يبتلي الله عباده بالضراء والفتن، فإنه يبتليهم بالسراء والنعم، فينساق خلف الشهوات من ينساق منتكساً بعد أن كان مؤمناً، كما قال الله في حق أقوام: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [التوبة].

ومن أراد معرفة صفة القلة الموفقة الثابتة التي يختارها الله فيربط على قلوبها، فليتأمل وصف الفتية على ما مر، وليعلم أن الله لن يخذل عبداً كان ديدنه الدعاء والالتجاء إلى مولاه، وقد ذكر ربنا الرحمن في سورة الأنبياء جملة من أنبيائه مستهم النوائب، فقال: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء]، ثم قال بعد أن وصف إسماعيل وإدريس وذا الكفل بالصبر ومكافأتهم عليه: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ -أي نضيِّق- ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء]، ثم ذكر خبر زكريا، وعقب على جميع ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء]، ففي الخيرات هم سابقون، وفي الملأ الأعلى صوتهم معروف مسموع، وضجيجهم إلى ربهم لم يكن لأجل مصلحة آنية، بل ذلك شأنهم لكمال تعلقهم بمليكهم، ومن كانت تلك حاله، عامر

الصلة بربه فيرجى له أن يثبت ويجاب وينجى من الغم والحزن ويكشف عنه الضر والكرب.

ولتثبيت الله عبده وربطه على قلبه أسباب كثيرة؛ منها الدعاء وقد أشير إليه، ومنها ما كان من شأن الفتية؛ من الإيمان بالله، وتجريد التوحيد له سبحانه، والتعلق به وصدق الالتجاء إليه عز شأنه: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الكهف]، ومحبته وإيثاره على القوم والأوطان وعلى كل ما عداه، وبغض عدوه كائناً من كان، واعتزاله لما كان هذا الاعتزال غاية ما في وسعهم.

وأما دلائل التثبيت وعلاماته فظاهرة بالثبات على الدين والتوفيق إلى ما يحبه الله بعد نزول البلاء، وأما قبله فمن علاماته أن يكره الزيغ كما يكره العذاب، فعن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: "ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار"(١)، ومن كره الزيغ كراهيته العذاب لم يقع في المحظور مختارا، ولم يترك المأمور مستطيعاً، ولم يقارف المعصية إلّا معذورا.

وقوله تعالى مخبراً عن الفتية: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾ دليل على أنهم جابهوا دعوة قومهم لهم إلى الشرك بالرفض الجازم، وأنهم رموهم بالظلم وافتراء الكذب على الله، (هؤلاء قومنا اتخذوا من دون الله آلهة يعبدونها من دونه ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾ يقول: هلا يأتون على عبادتهم إياها

(١) صحيح البخاري ١/ ١٤ (١٦)، صحيح مسلم ١/ ٦٦ (٤٣).

بحجة بينة، وفي الكلام محذوف اجتزئ بما ظهر عما حذف، وذلك في قوله: ﴿لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ فالهاء والميم في عليهم من ذكر الآلهة، والآلهة لا يؤتى عليها بسلطان، ولا يسأل السلطان عليها، وإنما يسأل عابدوها السلطان على عبادتهموها، فمعلوم إذ كان الأمر كذلك، أن معنى الكلام: لولا يأتون على عبادتهموها، واتخاذهموها آلهة من دون الله بسلطان بيّن... ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۝١٥﴾؛ ومن أشدّ اعتداء وإشراكاً بالله، ممن اختلق، فتخرّص على الله كذباً، وأشرك مع الله في سلطانه شريكاً يعبده دونه، ويتخذه إلهاً)[1].

قال الشيخ ابن عثيمين ﷺ: (﴿لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ يعني هلّا ﴿يَأْتُونَ عَلَيْهِم﴾ أي على هذه الآلهة، أي: على كونها آلهة وكونهم يعبدونها. فالمطلوب منهم شيئان:

١ - أن يثبتوا أن هذه آلهة.

٢ - أن يثبتوا أن عبادتَهم لها حق، وكلا الأمرين مستحيل)[2].

وكل من الأمرين مقتضٍ للآخر، فلو أثبتوا أنها آلهة حقاً، لأثبتوا استحقاقها للعبادة، فهذا معنى كونها آلهة، ولو أثبتوا استحقاقها للعبادة لأثبتوا أنها آلهة حقاً، وكأن ابن جرير أراد بقوله: "والآلهة لا يؤتى عليها بسلطان، ولا يسأل السلطان عليها"، أن القوم قد اتخذوها آلهة بعبادتهم إياها، فهي آلهة معبودة واقعاً، ولكنهم لم يأتوا بسلطان يبين أن عبادتهم سائغة، وهذا يدل على أنها لم تتخذ آلهة بحق.

قال الشيخ محمد: (السلطان كلُّ ما للإنسان به سُلطة، قد يكون المراد

---

(١) تفسير الطبري ٧/ ٦١٧.
(٢) تفسير القرآن للعثيمين ٦/ ١٩.

به الدليل مثل قوله تعالى: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ﴾ [يونس: ٦٨]، وقد يكون المراد به القوة والغلبة مثل قوله تعالى عن الشيطان: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ١٠٠﴾ [النحل]، وقد يكون الحجة والبرهان كما في قوله تعالى: ﴿بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾ أي بحجة ظاهرة يكون لهم بها سُلطة)[1]، وقيدوا الحجة بكونها ظاهرة لأن المبطل قد يأتي بحجة على باطله لكنها تكون داحضة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ١٦﴾ [الشورى]، ومثالها حجة النمرود على ادعائه الألوهية إذ قال: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، قال ابن كثير: (قال قتادة ومحمد بن إسحاق والسدي وغير واحد: وذلك أني أوتى بالرجلين قد استحقا القتل فآمر بقتل أحدهما فيقتل، وبالعفو عن الآخر فلا يقتل. فذلك معنى الإحياء والإماتة)[2]، فهذه مكابرة إذ ما قاله يشركه فيه غيره من الملوك، وليس هو إحياء وإماتة على الحقيقة، فلهذا بهت وأخرس لما قال له إبراهيم عليه السلام: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾.

فقولهم: ﴿بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾ فيه إشارة إلى أن الشرع قد جعل للحجة الظاهرة سلطاناً يوجب الخضوع لها، وأن الباطل لا سلطان له، وأن العبادة لا بد لها من حجة ظاهرة، وإلَّا فهي مردودة، وأن من أحدث عبادة بغير برهان فقد افترى على الله كذباً، لأنه قد شرع ما لم يأذن به الله.

قال البقاعي: (شرعوا يستدلون على كونه شططاً بأنه لا دليل عليه،

---

(١) تفسير القرآن للعثيمين ٦/ ١٩.

(٢) تفسير ابن كثير ت سلامة ١/ ٦٨٦.

ويجوز أن يكونوا لما قالوا ذلك عرض لهم الشيطان بشبهة التقليد فقالوا مجيبين عنها: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾، وأن يكونوا[1] قالوا ذلك للملك إنقاذاً له من شرك الجهل، وبين المشار إليهم بقولهم: ﴿قَوۡمُنَا ﴾ أي وإن كانوا أَسَنَّ منا وأقوى وأجَلَّ في الدنيا ﴿ٱتَّخَذُواْ ﴾ أي مخالفين مع منهاج العقل داعي الفطرة الأولى ﴿مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ ﴾ أشركوهم معه لشبهة واهية استغواهم بها الشيطان؛ ثم استأنفوا على طريق التخصيص ما ينبه على أنهم من حين عبادتهم إلى الآن لم يأتوا على ذلك بدليل... ﴿لَّوۡلَا ﴾ أي هلا ﴿يَأۡتُونَ ﴾ الآن... ﴿بِسُلۡطَٰنِۢ ﴾ أي دليل قاهر ﴿بَيِّنٖ ﴾ مثل ما نأتي نحن على تفرد معبودنا بالأدلة الظاهرة، والبراهين الباهرة، فإن مثل هذا الأمر لا يُقنَعُ فيه بدون ذلك، وقد جمعنا الأدلة كلها في الاستدلال على تفرد الله باستحقاقه للعبادة بأنه تفرد بخلق الوجود. فتسبب عن عجزهم عن دليل أنهم أظلم الظالمين لافتعالهم الكذب عن ملك الملوك ومالك الملك، فلذلك قالوا: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ ﴾ أي تعمد ﴿عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أي الملك الأعظم ﴿كَذِبٗا ﴾)[2].

وقولهم: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ﴾، بيان أن هذا الافتراء من أعظم الموبقات، وقد جاء هذا النص في ثمانية مواضع من القرآن، أربعة عطفت بالفاء وأربعة بالواو، وجاءت آية تاسعة بالواو وبلفظ (الكذب) بدل (كذباً)، قال الشنقيطي: (أي لا أحد أظلم ممن افترى على الله الكذب بادعاء أن له شريكاً كما افتراه عليه قوم أصحاب الكهف، كما قال عنهم أصحاب الكهف: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ ﴾ [الكهف: ١٥] الآية... وهذا المعنى ... أن افتراء الكذب على الله بجعل الشركاء له هو

---

(١) أي ويجوز أن يكونوا قالوا ذلك.
(٢) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٢٧.

أعظم الظلم جاء مبيناً في آيات كثيرة، كقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ [الزمر: ٣٢] الآية. وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ۝١٨﴾ [هود])(١).

وفي موقف الفتية هذا إعلان لعقيدة البراءة من الشرك ومن أهله، وإعلان العداء لهم وإن كانوا (قومنا) الذين تربطنا بهم صلة القومية؛ الذين ننسب إليهم والذين خرجنا من بينهم! وهكذا يجب أن يكون المؤمن، وتأمل كلمة إبراهيم والذين معه: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝٤﴾ [الممتحنة]، تعلم أنه لا بد من البراءة من الشرك، وأهله، وإبداء العداوة والبغضاء لهم.

واعلم أن إبداء العداوة والبغضاء لكل شيء بحسبه، فإبداء العداوة للمعاهد والمستأمن والذمي، يكون بإظهار عدم الرضا عنه وعن معتقده، لا يوسع له في المجلس، ولا يقام له إن دخل، ولا يفسح له في الطريق، لكنه لا يؤذى بأن يضيق عليه لغير مقتض، أو تخفر ذمته دون جرم أحدثه، فإن بدر منه ما يقتضي مكافأته على جميل صنعه كوفئ عليه، بل لايمتنع مع ذلك بره إن قام مقتض للبر! واعتبره بتاجر منافستك معه معروفة أو عندك معه مشكلة، ومع ذلك تبايعه وتشتري منه، ولايمتنع أن تسامحه في القليل أو تمهله مثلاً جزاء ما أمهلك أو سامحك.

(١) أضواء البيان ٣/ ٢٩١.

بل قد يكون البر واجباً، فإن كان الكافر والداً فله من واجب البر ما يليق به من تلك الجهة، وهكذا كل ذي حق من جهة الحق الذي فرضه الله له، مع إبداء العداوة لدينه وعدم رضاه به، وإنكاره عليه ما اقتضى كفره.

وإبداء العداوة للحربي بالمقاتلة مع القدرة اللائقة ولا يجوز بره.

والمقصود أن البر لغير الحربي، لا ينافي واجب العداوة متى قام له مقتض صحيح من تألف له، أو مكافأة لحقه.

والفتية أصحاب الكهف بلغ بهم إبداء المخالفة مبلغاً قالوا معه: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾، وسبب هذه العداوة افتراء قومهم على الله الكذب، وجنس هذا الجرم من أعظم أجناس الذنوب، ثم هو درجات.

خطورة القول على الله بلا علم

هنا نكتة مهمة؛ فقد نهى الله ﷻ أن يقول المرء ما لا علم له به، قال: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ٣٦ ﴾ [الإسراء]، قال ابن كثير رحمه الله: (قال ابن أبي طلحة، عن ابن عباس: يقول: لا تقل. وقال العوفي عنه: لا تَرْم أحدًا بما ليس لك به علم. وقال ابن الحَنفية: يعني شهادة الزور. وقال قتادة: لا تقل: رأيتُ ولم تر، وسمعتُ ولم تسمع، وعلمتُ ولم تعلم؛ فإن الله سائلك عن ذلك كله. ومضمون ما ذكروه: أن الله نهى عن القول بالظن أي التوهم والخيال)(١)، إلا أن أعظم القول بلا علم القول على الله ﷻ، وقد خصه الله بالنهي، قال ابن تيمية رحمه الله: (إن الله حرم القول بلا علم عموماً، وحرم القول عليه بلا علم خصوصاً)(٢)، ومن ذلك قوله: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٣٣ ﴾ [الأعراف]، فقد جعله سبحانه شرا من الشرك، قال ابن القيم: (رتب المحرمات أربع مراتب وبدأ بأسهلها وهو الفواحش، ثم ثنَّى بما هو أشد تحريماً وهو الإثم والظلم، ثم ثلَّث بما هو أعظم وهو الشرك، ثم ربَّع بما هو أشد تحريماً من ذلك كله وهو القول عليه بلا علم، وهذا يعم القول عليه سبحانه بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله، وفي دينه وشرعه)(٣). وبين رحمه الله السبب في موضع آخر فقال: (فإنه يتضمن الكذب على الله، ونسبته

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ٧٥ بتصرف واختصار.

(٢) مجموع الفتاوى ٣/ ٣٤٦.

(٣) إعلام الموقعين ١/ ٣٨ بتصرف واختصار.

إلى ما لا يليق به، وتغيير دينه وتبديله، ونفي ما أثبته وإثبات ما نفاه، وتحقيق ما أبطله وإبطال ما حققه، وعداوة من والاه وموالاة من عاداه، وحب ما أبغضه وبغض ما أحبه، ووصفه بما لا يليق به في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله. فليس في المحرمات أعظم منه، ولا أشد إثماً، وهو أصل الشرك والكفر، وعليه أسست البدع، فكل بدعة مضلة أساسها القول على الله بلا علم) إلى أن قال: (وأصل الشرك والكفر هو القول على الله بلا علم، فإن المشرك يزعم أن من اتخذه معبوداً من دون الله يقربه إلى الله، ويشفع له عنده، ويقضي حاجته بواسطته، كالوسائط عند الملوك؛ فكل مشرك قائل على الله بلا علم دون العكس، إذ القول على الله بلا علم قد يتضمن التعطيل والابتداع، فهو أعم من الشرك، والشرك فرد من أفراده)[1].

أما القول على الله بلا علم في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فقد تولى كِبرَه مِن هذه الأمة مَن خاض في الفلسفة وعلم الكلام المذموم، إذ تلقوا هذه العلوم عن اليونان وغيرهم، وأدخلوها على المسلمين فاتحين باب الفتن، وخاضوا بغير علم، ثم جعلوا خوضهم أصل الدين، مخالفين من سبقهم من لدن النبي ﷺ وهم خير الأمة، واجترؤوا على أهل السنة فناصبوهم العداء، وسفهوهم، وامتحنوهم على بدعهم لما قُدِّر لهم أن تكون الدولة لهم.

قال ابن القيم رحمه الله: (وقد أنكر تعالى على من نسب إلى دينه تحليل شيء أو تحريمه بلا برهان فقال: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ الآية، فكيف بمن نسب إليه سبحانه

(١)مدارج السالكين ١/ ٣٧٢-٣٧٣ بتصرف واختصار.

وتعالى ما لم يصف به نفسه أو نفى عنه منها ما وصف به نفسه!)[1].

وأما القول في الشرع بلا علم فداء عضال؛ ترى الرجل لا يحسن اسمَه إذا ذكر الشرع تبوأ منصب الإفتاء، وصار له قول ورأي، فهذا حلال وهذا حرام، ومعنى الآية والحديث كذا! بل من طلبة العلم والعلماء من يفعل ذلك وهو يدري؛ لأن فتنة العالم أكبر، فالجاهل قد يقول لا أدري، أما العالم فقد يشق عليه أن يسأل فيقول لا أدري، فبدل أن يحفظه علمه من هذا الذنب العظيم، يكون سبباً في اجترائه على الله، وهذه هي الطامة!

وكم في الحياة من أناس يظن الواحد منهم أنه نال العلم وبلغ مرتبة الاجتهاد وسقط عنه طلب العلم والفقه في الدين، فلا ترد عليه مسألة إلا أعطاك جوابًا حاضرًا عليها من وحي الشيطان، فتسمع منه أقوالاً عجيبة غريبة، أتراه لا يفقه أن الله عتب على أعلم الناس وهم الأنبياء في أقل من ذلك بكثير؟ أم تراه لا يعلم أن موسى ﷺ سعى في طلب العلم من الخضر وهو كليم الله ومصطفاه وقد بلغ من العمر ما بلغ؟

ألم يسمع قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ [النحل]، ولو لم يكن في التحذير من الفتيا بغير علم سوى هذه الآية لكفت؟ لكنه التعالم الذي يقطع الخير عمن يصاب به، ويضل الناس عن سبيل الله.

قال ابن القيم رحمه الله: (قال بعض السلف: ليحذر أحدكم أن يقول: أحل الله كذا، وحرم الله كذا، فيقول الله: كذبت، لم أحل هذا، ولم أحرم

(١) مدارج السالكين ١/ ٣٧٢-٣٧٣ بتصرف يسير.

هذا. يعني بالرأي المجرد، بلا برهان من الله ورسوله)[١]، ورُوي أن رسول الله ﷺ قال: "أجرؤكم على الفتيا أجرؤكم على النار"[٢]، والحديث وإن كان ضعيفاً لكن معناه صحيح، واستحضار هذا يعصم المرء من هذه البلية.

ثم أي شيء في أن يقول المرء: لا أدري! فقد (صح عن أبي الدرداء أن: "لا أدري"، نصف العلم)[٣]، فمن كان يجد حرجاً من قول لا أدري فليتأمل هذه القصة ففيها عبرة؛ كان لإبراهيم بن طهمان[٤] رحمه الله جراية فاخرة من بيت المال، (فسئل مرة في مجلس الخليفة، فقال: لا أدري. قالوا له: تأخذ في كل شهر كذا وكذا، ولا تحسن مسألة؟ فقال: إنما آخذ على ما أحسن، ولو أخذت على ما لا أحسن، لفني بيت المال علي، ولا يفنى ما لا أحسن)[٥]، فلم يمنعه رحمه الله حضور خليفة المسلمين في المجلس أن يقول لا أدري، ولم يجد غضاضة في ذلك، فليرفق بنفسه من يلقي بها إلى التهلكة خشية أن يقول لا أدري في حضرة من هم دون الخليفة بكثير.

ولما كانت تبعات القول على الله بلا علم وخيمة، والمتجرئ عليه متهم في عقيدته، ومنسوب إلى البدعة، كان تحذير السلف منه متتابعًا، وخوفهم من الوقوع فيه دائماً، فكانت "لا أدري" تجري على ألسنتهم كأنها جزءٌ من أصول العلم الذي عندهم. لأنها علامةٌ على رسوخ القدم في

---

(١) السابق.

(٢) سنن الدارمي ١/ ٦٩ (١٥٧)، وضعفه الألباني لإعضاله في السلسلة الضعيفة ٤/ ٢٩٤ (١٨١٤).

(٣) سير أعلام النبلاء ٨/ ٧٧.

(٤) من كبار أتباع التابعين، قال الذهبي في السير: الإمام، عالم خراسان، ت (١٦٣هـ).

(٥) سير أعلام النبلاء ٧/ ٣٨٢.

العلم، وعلى الورع والتواضع والإخلاص، والقدوة في ذلك كله هو نبينا محمد ﷺ، فقد كان يُسأل عن الأمر فيسكت، ولا يجيب بشيء حتى يأتيه الوحي من الله بالجواب، وتدبر هذه السورة دليل على ذلك، فإن القوم لما سألوه ﷺ أسئلتهم الثلاثة، أرجأ جوابهم انتظاراً للوحي؛ ويوم جاءه جبريل عليه السلام وهو جالس بين أصحابه فسأله وقال: "متى الساعة؟ قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل"[(١)]، قال النووي: (فيه أنه ينبغي للعالم والمفتي وغيرهما إذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم، وأن ذلك لا ينقصه، بل يستدل به على ورعه وتقواه ووفور علمه)[(٢)]، وقال: (وإنما يمتنع مِن "لا أدري" من قلّ علمه وضعفت تقواه، لأنه يخاف لقصوره أن يسقط من أعين الحاضرين، وهو جهالة منه فإنه بإقدامه فيما لا يعلمه يبوء بالإثم العظيم، ولا يرفعه ذلك عما عرف من القصور بل يستدل به على قصوره، لأنا إذا رأينا المحققين يقولون لا أدري وهذا القاصر لا يقولها أبدا، علمنا أنهم يتورعون لعلمهم وتقواهم، وأنه يجازف لجهله وقلة دينه، فوقع فيما فر عنه واتصف بما احترز منه لفساد نيته وسوء طويته)[(٣)].

وإنّ الأنفسَ الضعيفة والقلوبَ المريضةَ تتوق إلى التشبُّع بالعلم، وتستنكف عن الظهور بمظهر الجهل؛ ومن هنا فإنه لا يقدر على هذه الكلمة إلا المخلصون المُوَفَّقُون. فلهذا سار العلماء الربانيون على طريقه ﷺ، إذ هو الأسوة الحسنة؛ ذكر ابن كثير رحمه الله في مقدمة التفسير طائفة من

(١) صحيح البخاري ١/ ٢٧ (٥٠)، صحيح مسلم ١/ ٣٩ (٩).
(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١/ ١٥٨.
(٣) المجموع شرح المهذب١/ ٣٤ بتصرف واختصار.

الآثار في ورع السلف وتَحَرُّجهم من القول على الله في القرآن بغير علم[1]، فهذا أبو بكر الصديق ﷺ يقول: (أيّ أرض تقلّني، وأي سماء تظلني، إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم!)، وهذا أنس يقول: (كنا عند عمر بن الخطاب ﷺ، وفي ظهر قميصه أربع رقاع، فقرأ: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ فقال: ما الأبّ؟ ثم قال: إن هذا لهو التكلف، فما عليك ألا تدريه!)، (وعن ابن أبي مُلَيْكَة أن ابن عباس سئل عن آية لو سئل عنها بعضكم لقال فيها، فأبى أن يقول فيها)، وعنه قال: (سأل رجل ابن عباس عن ﴿يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السجدة: ٥]، فقال له: فما ﴿يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ [المعارج]؟ فقال الرجل: إنما سألتك لتحدثني. فقال ابن عباس: هما يومان ذكرهما الله في كتابه، الله أعلم بهما. فكره أن يقول في كتاب الله ما لا يعلم)، (وعن سعيد بن المسيب أنه كان لا يتكلم إلا في المعلوم من القرآن).

قال ابن جماعة في ذكر أدب العالم في درسه: (وإذا سئل عن ما لا يعلمه قال: لا أعلمه، أو لا أدري، فمن العلم أن يقول: لا أعلم، واعلم أنّ قول المسؤول: لا أدري لا يضع من قدره كما يظن بعض الجهلة، بل يرفعه؛ لأنه دليل عظيم على عظم محله، وقوة دينه، وتقوى ربه، وطهارة قلبه، وكمال معرفته، وحسن تثبته)[2]، ثم ذكر قريبا من كلام النووي.

قال سفيان الثوري: (قل ما تعلم، ولا تقل ما لا تعلم)[3]، وقال ابن وهب، عن مالك، سمع عبد الله بن يزيد بن هُرْمُز يقول: (ينبغي للعالم أن يورث جلساءه من بعده لا أدري، حتى يكون ذلك أصلاً في أيديهم

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ١/ ١١ وما بعدها.
(٢) تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، لابن جماعة الكناني ص:٧٨.
(٣) سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٦٣.

يفزعون إليه، إذا سئل أحدهم عما لا يدري قَال: لا أدري)[١]، وكأن الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ قد التزم هذا أشد الالتزام، قال أبو نُعيم: (ما رأيت عالمًا أكثر قولًا "لا أدري" من مالك بن أنس)[٢]، وقال ابن وهب: (لو شئت أن أملأ ألواحي من قول مالك: "لا أدري" لفعلت!)[٣]، وقال أبو مصعب الزهري: (قال لنا المغيرة: تعالوا نجتمع ونستذكر كل ما بقي علينا ما نريد أن نسأل عنه مالكا. فمكثنا نجمع ذلك، وكتبناه في قنداق ووجه به المغيرة إليه، وسأله الجواب؛ فأجابه في بعضه وكتب في الكثير منه: لا أدري، فقال المغيرة: يا قوم! لا والله ما رفع الله هذا الرجل إلا بالتقوى من كان منكم يسأل عن هذا فيرضى أن يقول: لا أدري؟)[٤]، وقصة الأربعين سؤالاً التي سئلها مشهورة، قال الهيثم بن جميل: (سمعت مالكاً سئل عن ثمان وأربعين مسألة، فأجاب في اثنتين وثلاثين منها بلا أدري)[٥]، وعن خالد بن خداش، قال: (قدمت على مالك بأربعين مسألة، فما أجابني منها إلا في خمس مسائل)[٦]، وسئل يوماً عن مسألة فقال: (لا أدري. فقال له السائل: إنها مسألة خفيفة سهلة، وإنما أردت أن أعلم بها الأمير، وكان السائل ذا قَدر؛ فغضب مالك وقال: مسألة خفيفة سهلة! ليس في العلم شيء خفيف، أما سمعت قول الله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ [المزمل]؛

---

(١) المعرفة والتاريخ ١/ ٦٥٥، وسير أعلام النبلاء ٨/ ٧٧.

(٢) صفة الفتوى والمفتي والمستفتي، لأحمد بن حمدان النمري الحراني ص٩.

(٣) سير أعلام النبلاء ٨/ ١٠٨.

(٤) الموافقات ٥/ ٣٢٨.

(٥) سير أعلام النبلاء ٨/ ٧٧.

(٦) السابق.

فالعلم كله ثقيل، وبخاصة ما يسأل عنه يوم القيامة)[١]، وكان رحمه الله يقول: (جُنَّة العالم "لا أدري"، فإذا أغفلها أصيبت مقاتله)[٢].

وقد سئل الإمام أحمد عن حرف من غريب الحديث فقال: (سلوا أصحاب الغريب، فإني أكره أن أتكلم في قول رسول الله ﷺ بالظن فأخطئ)[٣]، وهذا الفقه الجليل لكلمة "لا أدري" لا يُدركه أهلُ المكرِ والغدرِ والجهل، فهو خصيصةُ أهلِ العلم والذِّكر؛ فكلما زاد المرءُ قربًا من الله عز وجل ومعرفةً بعلمه؛ زاد من قول: لا أدري؛ ورحم الله الشعبي وقد قيل له: (إنا لنستحي من كثرة ما تقول: لا أدري، فقال: لكن ملائكة الله المقربون لم يستحيوا إذ سئلوا عما لا يعلمون أن قالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ٣٢﴾ [البقرة])[٤]، وعن الصلت بن بهرام، قال: (ما بلغ أحد مبلغ الشعبي، أكثر منه يقول لا أدري)[٥]، وكان رحمه الله يقول: (لا أدري: نصف العلم)[٦]، وعن تميم بن عطية العبسي قال: (كثيراً ما كان مكحول يُسأل، فيقول: "ندانم" يعني: لا أدري)[٧]، قال أبو عمر الزاهد: كنت في مجلس أبي العباس ثعلب، فسأله سائل عن شيء فقال: لا أدري، فقال له: أتقول: لا أدري وإليك تضرب أكباد الإبل! وإليك الرحلة من كل بلد! فقال له ثعلب: لو كان لأمك بعدد لا أدري بعر لاستغنت[٨].

---

(١) انظر ترتيب المدارك وتقريب المسالك للقاضي عياض ١/ ٤٧، والموافقات٥/ ٣٢٨.
(٢) السابق.
(٣) مقدمة ابن الصلاح ص:١٥٩.
(٤) تاريخ دمشق ٢٥/ ٣٦٦ بتصرف واختصار.
(٥) سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٠٢.
(٦) سير أعلام النبلاء ٤/٣١٨.
(٧) سير أعلام النبلاء ٥/ ١٦١.
(٨) تاريخ بغداد ٥/ ٢٠٩.

وكان العلماء يقولون: تعلم لا أدري ولا تعلم أدري فإن قلت: أدري سألوك حتى لا تدري، وإن قلت: لا أدري علموك حتى تدري[١].

وهكذا كلما زاد علم الإنسان أكثر من قول لا أدري، لأنه كلما ازداد علماً أدرك كم كان ينقصه منه، وأن ما زال ينقصه أكثر مما حصله، والأمر كما قد قيل: لا يزال الرجل يتعلم حتى إذا ظن أنه علِم فقد بدأ يجهل.

وهذا الذي كان عليه السلف، وجدنا عليه كبار مشايخنا حفظ الله حيهم ورحم ميتهم، كان الشيخ ابن باز رحمه الله كثيراً ما يُسأل فيقول: لا أدري، هذه المسألة تحتاج إلى بحث، مع أن كثيراً من طلبة العلم لو سمعها لبادر بالجواب، لكنه لسعة علمه ظهر له فيها جانب خفي لم يتفطن له هؤلاء، فحالهم تشبه من وصفهم أبو حصين رحمه الله بقوله: (إن أحدهم ليفتي في المسألة، ولو وردت على عمر لجمع لها أهل بدر!)[٢]، وكان شيخنا شيخنا ابن عثيمين رحمه الله -وهو من هو في فقهه وعلمه- يميل لقول، ثم لا يجد من سبقه إليه فيقول: لولا أنني أخشى أن أكون أول من قال به لقلت به، فإن اطلعتم على هذا القول لأحد قبلي فأنا أقول به. وهذا درس عظيم لطالب العلم، فعليه أن يتحرى ولا يستعجل، ويتهم نفسه وعلمه.

فما يمنعك أن تقول: لا أدري حتى تعلم؟ وقد تبين لك خطر القول على الله بلا علم! وما يمنعك الاقتداء بهؤلاء الراسخين في العلم، وقد كانت "لا أدري" جوابهم في كثير مما كانوا يُسألون عنه!

ومع ما تقدم فقد دخل هذا الذنب العظيم والخطر الجسيم على

---

(١) الزهد لابن أبي عاصم ص:٥١.

(٢) سير أعلام النبلاء ٥/ ٤١٦.

طائفتين منتسبتين إلى الدين والصلاح: المشتغلين بالعبادة والمشتغلين بالعلم، وكل من الطائفتين يظن أنه في منأى عن هذه الكبيرة الموبقة وأن من يرتع حول حماها هم الطائفة الأخرى، والحق أن كلاً منهما على خطر ولا يؤمن عليه منها؛ فهذا قد يُحدِث في الدين ما لم يأذن به الله، وذاك قد يقول على الله ما لا يعلم، قال ابن القيم رحمه الله: (قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ [النحل]، فتقدم إليهم سبحانه بالوعيد على الكذب عليه في أحكامه، وقولهم لما لم يحرمه هذا حرام، ولما لم يحله هذا حلال، وهذا بيان أنه لا يجوز للعبد أن يقول ذلك إلا بما علم أن الله سبحانه أحله وحرمه، وقال بعض السلف: ليتق أحدكم أن يقول أحل الله كذا، وحرم كذا، فيقول الله له: كذبت، لم أحل كذا، ولم أحرم كذا، فلا ينبغي أن يقول لما لا يعلم ورود الوحي المبين بتحليله وتحريمه أحله الله وحرمه الله لمجرد التقليد أو بالتأويل)[1].

وأمام هذا النقل يجب أن يقف طالب العلم مليًّا:

- فقد رأينا من طلاب العلم من يفتي بالتقليد، فيقول الحكم في هذه المسألة كذا وكذا، مقلداً عالماً دون أن يعلم دليله، وقد كان يكفيه أن يقول: قد أفتى الشيخ فلان بكذا وكذا، فيكون ناقلاً للفتوى فيسلم.
- ورأينا من يُسأل فيفتي بالجهل مهابة أن يقول لا أدري.
- ورأينا من يُسأل فيفتي بالهوى مخافة أن ينعت بالتشدد والتعنت، أو مخافة أن ينعت بالتساهل والتحلل.
- ورأينا من يفتي تبعاً لما يظن المصلحة فيه وإن جهل تحرير النزاع.

---

(١) إعلام الموقعين ١/ ٣٨-٣٩ بتصرف يسير.

- ورأينا من يفتي بالأيسر في نظره دون أن يتحقق أهو إثم أم لا؟ وهل هو موضع اختيار أم لا؟

- ورأينا من يفتي في مسائل كبار دون أن يحررها التحرير الكافي.

وهذه من الآفات التي قد تجعل طالب العلم شراً ممن يقارف الآثام.

وإنك لتعجب عندما ترى بعض كبار مشايخنا لا يفتي في بعض المسائل، كمسائل طلاق الثلاث مثلاً، ثم تجد مِن طلاب العلم مَن يتقحم فيها دون تحرير راسخ بمجرد قراءته لقول فلان، ومثل هذا قد يدفعه الهوى الذي صادف قلباً خالياً للاختيار، وإلَّا فلو نظر في الخلاف وبحث وتأمل لوجد المسألة جديرة بالنظر والبحث قبل الصدور عن رأي، ومن تأمل وجد لهذه المسألة نظائر كثيرة والله المستعان.

قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾

وبهذه الكلمات يختصر كثير من الأحداث والمواقف التي حصلت، إذ وصل الفتية إلى مفترق طرق، فإما الاستجابة لدعوة قومهم، وإما مجابهتهم ومقاساة ما لا طاقة لهم به، وإما الفرار بدينهم؛ وقد اختاروا هذا الأخير، فلجؤوا إلى الكهف ابتغاء رحمة الله.

قال الشنقيطي: ("إذ" في قوله: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ للتعليل على التحقيق كما قاله ابن هشام، وعليه فالمعنى: ولأجل اعتزالكم قومكم الكفار وما يعبدونه من دون الله، فاتخذوا الكهف مأوى ومكان اعتصام، ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيىء لكم من أمركم مرفقاً، وهذا يدل على أن اعتزال المؤمن قومه الكفار ومعبوديهم من أسباب لطف الله به ورحمته)[1].

---

(١) أضواء البيان ٣/ ٢٩٢.

قال ابن عاشور: (فمعنى اعتزال القوم ترك مخالطتهم، ومعنى اعتزال ما يعبدون: التباعد عن عبادة الأصنام)(١).

قال ابن الجوزي: (﴿وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ فيه قولان؛ أحدهما: واعتزلتم ما يعبدون إلا الله، فإن القوم كانوا يعبدون الله ويعبدون معه آلهة، فاعتزل الفتية عبادة الآلهة، ولم يعتزلوا عبادة الله ...

والثاني: وما يعبدون غير الله؛ قال قتادة: هي في مصحف عبد الله: ﴿وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، وهذا تفسيرها)(٢)، قال الشنقيطي: (وقوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ قيل: هو استثناء متصل، بناء على أنهم كانوا يعبدون الله والأصنام. وقيل: هو استثناء منقطع. بناء على القول بأنهم كانوا لا يعبدون إلا الأصنام، ولا يعرفون الله ولا يعبدونه)(٣).

وقال ابن كثير: (﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي: وإذا فارقتموهم وخالفتموهم بأديانكم في عبادتهم غير الله، ففارقوهم أيضًا بأبدانكم ﴿فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾)(٤)، قال ابن عاشور: (والتعريف في ﴿ٱلۡكَهۡفِ﴾ يجوز أن يكون تعريف العهد، بأن كان الكهف معهوداً عندهم يتعبدون فيه من قبل. ويجوز أن يكون تعريف الحقيقة مثل ﴿وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ﴾ [يوسف: ١٣]، أي فأووا إلى كهف من الكهوف. وعلى هذا الاحتمال يكون إشارة منهم إلى سُنة النصارى التي ذكرناها في أول هذه الآيات، أو عادة المضطهدين من اليهود كما ارتأيناه هنالك)(٥). وأما الاحتمال الأول

---

(١) التحرير والتنوير ٨/ ٣٤٥.
(٢) زاد المسير ٤/ ٢١٠.
(٣) أضواء البيان ٣/ ٢٩٢.
(٤) تفسير ابن كثير ٥/ ١٤٢.
(٥) التحرير والتنوير ٨/ ٣٤٥.

بأن ذلك الكهف كان معهوداً معروفاً عندهم، فإنه يدل على أن الفتية كان بينهم تواصل ونوع اجتماع داخل المدينة وخارجها، ولا يحتج بما خالف ذلك من الإسرائيليات، ولأنها لا تمنع ما ذكر.

أما قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ١٦﴾

فقد قال الطبري: (يقول: يبسط لكم ربكم من رحمته بتيسيره لكم المخرج من الأمر الذي قد رُمِيتم به من الكافر دقينوس وطلبه إياكم لعرضكم على الفتنة... وقوله: ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ١٦﴾ يقول: وييسر لكم من أمركم الذي أنتم فيه من الغمّ والكرب خوفاً منكم على أنفسكم ودينكم مرفقاً، ويعني بالمرفق: ما ترتفقون به من شيء)[1].

لفتة- تأمل كيف أن هؤلاء الفتية حين قرروا اللجوء إلى الكهف وهو مظنة الوحشة والظلام وشظف العيش لم يقولوا فأووا إلى الكهف فلا يدرككم عدوكم، أو يكنكم من البرد أو الحر، بل قالوا ينشر لكم ربكم من رحمته، ليس فقط يرحمكم، بل ينشر لكم الرحمة، ثم يهيئ لكم مرفقا، وفي هذا إشارة إلى أن من لجأ إلى الله حق الالتجاء كان له ناصرا ومعينا، وأحال عسر أمره يسرا، وجعل له من بعد الضيق فرجا ومخرجا.

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٦١٧-٦١٨.

معية الله لعباده المؤمنين

في قول الفتية: ﴿يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾ ما يشعر بقوة تعلقهم بالله تعالى، وثقتهم به، فهم يخبرون بنشر الرحمة وتهيئة المرفق عن ثقة بربهم أنه لن يضيعهم، وهذا اليقين عبادة قلبية عظيمة، وهذا اليقين لم يمنعهم من عبادة جليلة، هي الدعاء بطلب الرحمة وتهيئة الأمر عندما أووا إلى الكهف: ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا﴾، فهم ينتقلون من عبادة لأخرى، وهذا يجعل العبد يثق بالودود الذي آوى هؤلاء الفتية، فيطرد القلق من نفسه ويذهب الخوف على المستقبل من قلبه، فإذا كان هذا صنع الله بمن آمن به وأقبل عليه واعتمد عليه فلا خوف ولا حزن، فما على العبد إلا أن يحقق أسباب ولاية الله ليحصل على معيته: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٦٤﴾ [يونس].

عن ابن عباس قال: "كنت خلفت رسول الله ﷺ يوما فقال يا غلام إني أعلمك كلمات؛ احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف"[1]، وقد علَّم النبي ﷺ كل مسلم أن يسأل الله تعالى أن

(١) سنن الترمذي ٤/ ٦٦٧ (٢٥١٦)، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني.

يحفظه بما يحفظ عباده الصالحين، فعن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: "إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفض فراشه بداخلة إزاره، فإنه لا يدري ما خلفه عليه، ثم يقول باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه إن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين"(١).

وكما دلت الآية على ثقة الفتية بربهم فقد دلت على عظيم إيمانهم، وهذا الإيمان هو الذي حبَّب إليهم الكهف وبغَّض إليهم قومهم وعيشهم، فالمعادلة عندهم واضحة، ونتيجتها محسومة: فكهف مع توحيد، لا مجال للمقارنة بينه وبين عيش وثير مع كفر؛ فحِمى الله أوسع وأرحب، ولو في كهف خشن ضيق. وقد كان الله عند حسن ظنهم به فآواهم ونشر لهم من رحمته وهيأ لهم من أمرهم رشداً ومرفقاً، وفي هذا درس عظيم لكل مؤمن أن حصول الرحمة وتهيئة الأمور يكون بأداء المشروع والمأمور.

فكذلك ينبغي لمن يمتنع من قول الحق وأداء ما أوجب الله عليه، أو الوقوف في وجه الباطل خشية السجن أو الفقر أو النفي وغير ذلك، ينبغي أن يعلم أن ربه سينشر له من رحمته إن قام بواجبه. وليستبشر، فإن قدر ووقع البلاء، فكم من أناس كان السجن لهم رحمة وسكينة وباباً من أبواب القرب إلى الله، وكم من أناس زادهم الفقر تذللاً إلى الله وقرباً منه، وهذا شيخ الإسلام رحمه الله يقول: (ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، إن رحت فهي معي لا تفارقني، إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة)(٢).

---

(١) صحيح البخاري ٥/ ٢٣٢٩ (٥٩٦١)، صحيح مسلم ٤/ ٢٠٨٤ (٢٧١٤).
(٢) الوابل الصيب من الكلم الطيب ص:٤٨.

وكم من أناس فك الله أسرهم وأبدلهم رفعة ومهابة بين الخلق، هذا مع أنه في كثير من الأحيان تكون هذه الخشية ليست في محلها وإنما هي محض أوهام من صاحبها ومن تخويف الشيطان ليصده عن فعل الخيرات.

قال صاحب الظلال: (وهنا ينكشف العجب في شأن القلوب المؤمنة؛ فهؤلاء الفتية الذين يعتزلون قومهم، ويهجرون ديارهم، ويفارقون أهلهم، ويتجردون من زينة الأرض ومتاع الحياة، وهؤلاء الذين يأوون إلى الكهف الضيق الخشن المظلم، هؤلاء يستروحون رحمة الله، ويحسون هذه الرحمة ظليلة فسيحة ممتدة ﴿يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾.

ولفظة ﴿يَنشُرۡ﴾ تلقي ظلال السعة والبحبوحة والانفساح، فإذا الكهف فضاء فسيح رحيب وسيع تنتشر فيه الرحمة وتتسع خيوطها وتمتد ظلالها، وتشملهم بالرفق واللين والرخاء.

إن الحدود الضيقة لتنزاح، وإن الجدران الصلدة لترق، وإن الوحشة الموغلة لتشف، فإذا الرحمة والرفق والراحة والارتفاق. إنه الإيمان!

وما قيمة الظواهر؟ وما قيمة القيم والأوضاع والمدلولات التي تعارف عليها الناس في حياتهم الأرضية؟ إن هنالك عالماً آخر في جنبات القلب المغمور بالإيمان، المأنوس بالرحمن. عالماً تظلله الرحمة والرفق والاطمئنان والرضوان. ويسدل الستار على هذا المشهد، ليرفع على مشهد آخر والفتية في الكهف وقد ضرب الله عليهم النعاس)(١).

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٥٦.

العزلة وأنواعها المحمودة

العزلة إما أن تكون حسية؛ بأن يعتزل المرء الناس ولا يخالطهم وإن بقي متمسكاً بما هم عليه من قيم وأعمال، وإما أن تكون معنوية؛ بأن يبقى المرء بين قومه ولكن يعتزل ما هم عليه، كما يحصل في زماننا إذ تنتشر المخالفات في كثير من المجالات فيعتزلها المرء ويدعو إلى تركها لكنه يبقى في وطنه بين قومه وأهله، وإما أن تكون حسية ومعنوية في آن؛ كما كان من الفتية إذ فارقوا قومهم بأبدانهم، وفارقوا عبادتهم غير الله ﷻ، فاعتزلوا المكان وذهبوا إلى الغار، واعتزلوا العبادة إلا عبادة الله.

والاعتزال في الكهوف والغيران ونحوها، إنما يصح بضوابطه في زمان الفتنة، مع تعذر الهجرة؛ فأهل الكهف لم يكونوا في مكان فيه جمعة ولا جماعة، ولا وُجِدوا حيث من يأمر بشرع نبي، بل كانوا مطاردين مطلوبين لسلطات طغاة قومهم وأجهزة أمنهم! فلهذا أووا إلى الكهف، فالظاهر من سياق الآيات أنهم فروا من بطش الطغاة يوم قل الناصر، وعجزوا عن إقامة دينهم، يدل على ذلك:

١- التعبير بلفظ (إذ أوى) والإيواء مشعر بأنهم لم يجدوا مأوى في دورهم وبين قومهم ففروا إلى الكهف، دلالة على أنه ليس لهم مكان غير هذا يأوون إليه، وليس هناك من يمنعهم من هذا الظالم، ونستشف من اللفظ معنى الالتجاء كما جاء في مثل: ﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٤٣]، ومثل: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ٨٠﴾ [هود].

٢- ومنها قولهم: ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَـٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ

أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ ﴾ [الكهف]، فما أرسلوه إلَّا لحاجة، مع أمره بالتخفي، وتأكيده بالنهي عن إشعار أحد، فالنكرة في سياق النفي تعم، وهذا يدل على خوفهم من الطالب والراصد، وأنهم لا يأمنون على أنفسهم حتى من أقرب الناس.

٣- ومنها تصريحهم: ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الكهف]، فهم قد علموا أنهم محكوم عليهم بالقتل شر قتلة إن لم يعودوا لملة الكفر، فاعتزلوا: ﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ وحق لهم ذلك، وقد **يجوز للمرء أن يعتزل لمقصد صحيح؛ كأن يعتزل لطلب العلم** ونحوه، شريطة أن يقوم بالخلطة الواجبة، قال شيخ الإسلام: (وإذا أراد الإنسان تحقيق علمٍ أو عمل فتخلى في بعض الأماكن مع محافظته على الجمعة والجماعة فهذا حق، كما في الصحيحين أن النبي سئل: أي الناس أفضل؟ قال: "رجل آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، كلما سمع هيعة طار إليها، يتتبع الموت مظانه، ورجل معتزل في شعب من الشعاب يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويدع الناس إلَّا من خير"(١)، وقوله: يقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، دليل على أن له مالاً يزكيه، وهو ساكن مع ناس يؤذن بينهم وتقام الصلاة فيهم، فقد قال ﷺ: "ما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة جماعة إلَّا وقد استحوذ عليهم الشيطان. وقال: عليكم

---

(١) هذا اللفظ في صحيح مسلم ٣/ ١٥٠٣ (١٨٨٩)، وليس في صحيح البخاري، والذي فيه: "مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله. قالوا ثم من؟ قال: مؤمن في شعب من الشعاب يتقي الله ويدع الناس من شره" ٣/ ١٠٢٦ (٢٦٣٤).

بالجماعة فإنما يأخذ الذئب القاصية من الغنم"[١])[٢].

وموطن آخر للعزلة ذكره رحمه الله فقال: (**ولا بد للعبد من أوقات ينفرد فيها بنفسه؛ في دعائه وذكره وصلاته وتفكره ومحاسبة نفسه** وإصلاح قلبه، وما يختص به من الأمور التي لا يشركه فيها غيره، فهذه يحتاج فيها إلى انفراده بنفسه، إما في بيته كما قال طاووس: نِعْمَ صومعة الرجل بيته، يكف فيها بصره ولسانه، وإما في غير بيته)[٣].

وقد نقل ابن القيم عن بعض قرابة الشيخ وهو تقي الدين بن شقير، أن الشيخ في عنفوان شبابه وبداية أمره كان يخرج أحياناً إلى الصحراء، منفرداً بنفسه عن الناس، قال ابن شقير: (فتبعته يوماً، فلما أصحر تنفس الصعداء، ثم جعل يتمثل بقول الشاعر من قصيدته الطويلة:

وَأَخرُجُ مِن بَينِ البُيوتِ لَعَلَّني ... أُحَدِّثُ عَنكِ النَفسَ بالسِرِّ خالِيا[٤]

قال ابن القيم: وصاحب هذه الحال إن لم يَرُدَّه الله سبحانه إلى الخلق بتثبيت وقوة، وإلا فإنه لا صبر له على مخالطتهم!)[٥].

وقال مرعي بن يوسف الكرمي عن ابن تيمية رحمهما الله: (وكان يتمثل كثيراً بقول القائل:

عَوى الذِئبُ فَاستَأنَستُ بِالذِئبِ إِذ عَوى ... وَصَوَّتَ إِنسانٌ فَكِدتُ أَطيرُ

---

(١) سنن أبي داود ١/ ٢٠٥ (٥٤٧) بلفظ: "ما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان فعليك بالجماعة فإنما يأكل الذئب القاصية"، وحسنه الألباني.

(٢) الفتاوى ١٠/ ٤٠٥.

(٣) الفتاوى ١٠/ ٤٢٦.

(٤) البيت من بحر الطويل.

(٥) مدارج السالكين ٣/ ٥٩-٦٠، وانظر روضة المحبين ١/ ٢٨١.

[1][2]

فهذان ضربان من العزلة سائغان.

وقسم ثالث من العزلة سائغ: وهو عزلة بعض الناس دون بعض، فيقتصر المرء في علاقته على من ينتفع به، ويزداد إيماناً بصحبته، وهذه تسوغ في حق من لم يستطع التأثير، ووجد نفسه يتأثر تأثراً سيئا بمن حوله، وقد يجب على بعض الناس هذا الضرب من العزلة.

وقسم رابع واجب: وهو العزلة في زمن الفتنة، وهي التي قال فيها ﷺ كما في حديث أبي سعيد الخدري: "يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن"[3]، ومن علامة الفتنة أن ترى بين المسلمين: شُحاً مطاعاً، وهوىً متبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، وهذا وإن كان موجوداً اليوم بين المسلمين إلَّا أنه ليس عاماً، فأهل الخير والإنصاف العاملون لأجل الدين المترفعون عن حظوظ النفس وشهواتها لا تزال فيهم بقايا والحمد لله.

ومن علامات الفتنة الاقتتال بين المتنازعين، فينقسم الناس لأجله فريقين، فقتالهم فتنة وإن كان الحق أرجح في كفة بعضهم، ومثله يُعتزل، إذ لا يسوّغ الحقُّ الذي فيه تلك الخصومةَ وما ينجم عنها من مفاسد، ومن ذلك ما حدث بين علي ومعاوية رضي الله عنهما، فاعتزله أكابر الصحابة رضي الله عنهم.

أقول: ومن هذا القبيل ما نشهده اليوم من خصومات بين فئام من أهل السنة، ناشئة عن اختلاف في اختيارات فقهية، أو اجتهادات فردية، أو مناهج دعوية، فيتدابر الإخوان جراءها؛ وإن لم يتخاصموا ويتنابذوا اعتزل

---

(١) البيت للأُحَيمِر السَعدي ت (١٧٠ هـ)، وهو من البحر الطويل.

(٢) الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية لابن مرعي الحنبلي ١/ ٣٥.

(٣) صحيح البخاري ١/ ١٥ (١٩).

كل منهم صاحبه، وأخذ منه ومن مشاريعه الدعوية موقفاً سلبياً، فلا يسهم معه، بل يُسْلِمه ويخذله، وقد يظلمه ظلماً صريحاً.

فإذا رأيت مثل هذا الخصام فاعتزله وإن كنت ترى أن إحدى الطائفتين أولى بالحق؛ وذلك لأن عاقبة الخصومة أضر؛ ولا يعني هذا أن تترك بيان الحق، بل بيانه قد يكون واجباً، فبينه بقوة ووضوح، لكن دون تعرض للأشخاص أو طعن في الذوات، أو إبداء ميل لهذا أو ذاك.

وقسم خامس من العزلة أوجب: وهو عزلة أهل الباطل ولاسيما إذا استطال شرهم، وعظمت سطوتهم بالذين آمنوا، فلا يكادون يستطيعون إقامة شعائرهم فضلاً عن الدعوة، فعندئذ إن لم تمكن الهجرة تجب العزلة، وهذا ضرب من البراء اللازم أسوة بإبراهيم: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾[مريم]، وهنا ينشر الله للمعتزلين الذين لم يجدوا بداً من عزلة الباطل وأهله من رحمته ما شاء: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾ [مريم].

فتلك خمسة أقسام للعزلة المحمودة، تكون جزئية وكلية، مؤقتة ومستمرة، بحسب الغرض والحال، وما سوى ذلك فالتعويل على قوله ﷺ: "المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أعظم أجراً من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم"[1].

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ٢/ ٤٣ (٥٠٢٢)، قال الأرناؤوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين.

العزلة وقضية التعايش:

من تأمل ما سبق علم أن التعايش مع الكافر أو الآخر المخالف ليس مشروعاً بإطلاق، لا لأمتنا ولا لمن قبلنا، بل مفهوم التعايش فيه إجمال، ويكتنفه حق وباطل، وضابط التعايش المشروع يختلف باختلاف حال المسلمين قوة وضعفاً، أما في حال القوة، فلا تعايش سلميا مع أهل الكفر إلَّا بضرب الجزية، والتزامهم بأحكام أهل الذمة، أو العهود المؤقتة إلى أجل، بحسب أولويات دولة الإسلام، وإلَّا فإن لم يكونوا من أهل الجزية أو كانوا من أهلها وامتنعوا من أدائها عن يد وهم صاغرون، فجهاد الكفار وطلبهم في دورهم واجب شرعي مع القدرة، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ [التوبة]، وقال ﷺ: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم، إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله"(١).

وهذا في حقيقة الأمر يؤول إلى نوع من التعايش السلمي الكريم، الذي يقوم به العدل بين الناس، فلا يُسَوَّى فيه بين المسلم والكافر، ولا يظلم فيه الكافر حبة خردل، إن التزم بما عليه من حقوق، والتزمت الدولة بما له من واجبات. فالحق أنه مع فرض جهاد الطلب، فإن للتعايش مجالاً.

لكن كيف التعايش؟ هذا ما ينكره الشانؤون الذين يريدون أن يجعلوا المسلمين كالمجرمين، وهو ما يراد اليوم من إطلاق الدعوة للتعايش وقبول الآخر، قال تعالى: ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [القلم].

---

(١) صحيح البخاري ١/ ١٧ (٢٥)، صحيح مسلم ١/ ٥٣ (٢٢).

وأما في حال الضعف، فعلى نطاق الفرد فالأصل أن لا يقيم المسلم في ديار الكافرين ولا يعيش بينهم، لقوله ﷺ: "أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين. قالوا: يارسول الله لم؟ قال: لا تَراءى ناراهما"[١]، ويسوغ ذلك للحاجة، على تفصيل عند أهل العلم، كمن أبقته مصلحة وأمكنه إقامة شعائر دينه، فقد ذهب جمع من المحققين إلى أن مثل هذا لا تلزمه الهجرة، وقد يقيد هذا في واقعنا المعاصر بالأحكام التي يمكنه التزامها في بلاد الإسلام، فإن كان المغترب في بلاد الكفر يمكنه الالتزام بأحكام الإسلام التي يمكنه الالتزام بها في ديار الإسلام، فلا حرج في بقائه بدار الكفر غير المحاربة، أما إن كانت محاربة فلعل الذي يتوجه القول بجواز البقاء المؤقت فيها لمصلحة كتجارة، وقد سافر عدد من الصحابة في حياة النبي ﷺ إلى أرض الشام -وكانت دار حرب- للتجارة، لكن ليس له الإطالة لغير حاجة، فمجرد المصلحة لا تسوغ ذلك، لعموم الأمر بالهجرة من دار الكفر. وتجب الهجرة إلى دار الإسلام مع القدرة على من لم يتمكن من إظهار شعائر دينه، أو اعتزال الشرك وأهله، ولو في المناطق المهجورة، ولا يترك ذلك إلَّا عجزا، فلا يكلف الله نفساً إلَّا وسعها.

وأما بخصوص الدول فإنها تكتفي حال الاستضعاف بالمواثيق والعهود ولو مطلقة، ولا يلزمهم شرط أجبروا عليه يخالف الشريعة، فكل شرط ليس في كتاب الله فباطل ولو مائة شرط، والكلام عن سياسة الدولة المسلمة حال الاستضعاف طويل يحتاج إلى بحث وتفصيل ليس هذا محله.

---

(١) سنن أبي داود ٢/ ٥٢ (٢٦٤٥)، وصححه الألباني.

رفقاً بعلمائنا!

في هذا الزمان الذي تكثر فيه النوازل والفتن، نجد اختلافاً كثيرا في الآراء والأفكار، منها ما يعرف وما ينكر، وصاحب ذلك كثرة في الرسائل والردود والبيانات والمواقف، وفي خضم هذا يعيب بعض الناس من يسكت من العلماء عن إنكار المنكرات التي حولنا، وقد يقع بعضهم في العلماء ويلقي التهم جزافاً، ولا شك أن الظرف الذي تمر به الأمة صعب، إلا أن الواجب أن يلتزم الجميع بشرع الله، في الشدة والرخاء، ومن الواجب في مثل هذه الأحوال أن نحسن الظن بالعلماء المعروفين بالعلم والتقوى، ذلك أنه مأمور بإحسان الظن بعامة المسلمين فكيف بورثة الأنبياء!

إن لإنكار المنكر درجاتٍ وأحكاماً تختلف باختلاف الحال؛ حال المنكَر والمنكَر عليه والمنكِر، وهو وإن تعين أحيانا إلا أن أصله فرض كفاية. ومع ذلك فقد يكون الساكت معذورا، ولنا في قصة الفتية عبرة، فقد اعتزلوا قومهم حفاظاً على أنفسهم وعقيدتهم، فأثنى الله عليهم، ولم يوجب أحد عليهم أن يواجهوا، فإذا اقتنع المرء دون هوى أنه لا يستطيع مقاومة الباطل وخشي على نفسه ودينه فنرجو أن يعذر عند الله.

لقد رخص الله سبحانه في التلفظ بالكفر للاضطرار ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾ [النحل]، أفلا يرخص له في اعتزال الناس وعدم إنكار المنكر ما دام هناك من يقوم بهذا الواجب؟

لقد ترخص عمار بن ياسر ﷺ ونال من النبي ﷺ بما أراد الكفار ليرفعوا عنه العذاب، فعذره النبي ﷺ، بل قال له: "كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟ قَالَ:

مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ قَالَ: إِنْ عَادُوا فَعُدْ"[1]، وترخص بعض العلماء في فتنة خلق القرآن فأجابوا المعتزلة لما أرادوا، وترخص غيرهم في مواطن أخرى، وكلهم معذور إن شاء الله.

نعم من أراد العزيمة ووجد من نفسه قوة فله ذلك حتى لو قتل وهو مأجور، ولكن لا ننكر على من ترخص، وكلا الأمرين مشروط بألا يؤدي ذلك إلى ضرر أكبر.

إن من فضل الله على أمتنا أنه لا يخلو زمان إلا وفيه قائم بحجة الله على خلقه، ومن تأمل فيما سبق من أزمات ومحن وجد مصداق ذلك، وهذا يجعلنا نحسن الظن بعلمائنا الذين يعتزلون. أما من تنكب هذا الصراط، واتبع هواه، وكال الاتهامات للعلماء يمنة ويسرة، فإنه يخشى عليه سوء المنقلب كما رأينا بأعيننا لبعض الناس، فإن "لحوم العلماء رحمة الله عليهم مسمومة وعادة الله في هتك أستار منتقصيهم معلومة"[2].

قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ١٧ وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ١٨﴾ [الكهف].

يبين الله في الآيتين حال الفتية خلال رقدتهم الطويلة، دلالة على عظيم لطفه وعنايته. إن مجرد حياتهم دليل على ذلك، فكيف وقد هيأ لهم

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم (٢/ ٣٨٩) (٣٣٦٢)، قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الأشعري ص:٢٩.

من الأسباب ما يحفظهم من الآفات! فكان في ذلك آية جديدة تدل على عظيم قدرة الله وبالغ حكمته سبحانه، كما أشار ابن عاشور[1].

فقوله: ﴿وَتَرَى﴾ يحتمل أن يكون الخطاب للنبي ﷺ كما قال الطبري ﵀: (يقول تعالى ذكره: (﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ﴾ يا محمد)[2]، ويحتمل أن يكون الخطاب لكل قارئ للقرآن، كما قال القرطبي ﵀: (أي ترى أيها المخاطب الشمس عند طلوعها تميل عن كهفهم. والمعنى: إنك لو رأيتهم لرأيتهم كذا، لا أن المخاطب رآهم على التحقيق)[3].

وقوله: ﴿تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ﴾ قال الطبري: (تعدل وتميل، من الزور: وهو الْعَوج والميل، يقال منه: في هذه الأرض زَوَر: إذا كان فيها اعوجاج، وفي فلان عن فلان ازورار، إذا كان فيه عنه إعراض... وقد اختلفت القرّاء في قراءة ذلك، فقرأته عامّة قرّاء المدينة ومكة والبصرة: "تزّاور" بتشديد الزاي، بمعنى: تتزاور بتاءين، ثم أدغم إحدى التاءين في الزاي، كما قيل: تظَّاهرون عليهم. وقرأ ذلك عامة قراء الكوفيين:(تَزَاوَرُ) بتخفيف التاء والزاي، كأنه عنى به تفاعل من الزور، ورُوي عن بعضهم: "تَزْوَرّ" ... وبعضهم: تَزْوَارّ: مثل تحمارّ.

والصواب أنهما قراءتان، أعني(تَزَاوَرُ) بتخفيف الزاي، و(تزَّاوَرُ) بتشديدها معروفتان، مستفيضة القراءة بكلّ واحدة منهما في قرّاء الأمصار، متقاربتا المعنى، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب الصواب. وأما القراءتان الأخريان فإنهما قراءتان لا أرى القراءة بهما، وإن كان لهما في العربية وجه

(١) التحرير والتنوير ٨/ ٣٤٦.
(٢) تفسير الطبري ١٧/ ٦١٩-٦٢٠.
(٣) تفسير القرطبي ١٠/ ٣٦٨.

مفهوم، لشذوذهما عما عليه قرأة الأمصار)[1].

وقوله: ﴿ذَاتَ﴾ هي في الموضعين بمعنى الجهة، قال ابن عاشور في الموضع الأول: بمعنى صاحبة، صفة لمحذوف، أي صاحبة اليمين[2].

وقوله: ﴿تَقْرِضُهُمْ﴾ أي تدعهم وتتركهم كما قال ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة وغيرهم[3]، قال الطبري: (قرضت موضع كذا: إذا قطعته فجاوزته ... وأصل القرض: القطع يقال منه: قرضت الثوب: إذا قطعته ومنه قيل للمقراض: مقراض لأنه يقطع)[4]، قال الألوسي: (وقال أبو علي: معنى تقرضهم تعطيهم من ضوئها شيئاً ثم تزول سريعاً وتسترد ضوءها، فهو كالقرض يسترده صاحبه، وحاصل الجملتين عنده أن الشمس تميل بالغدو عن كهفهم وتصيبهم بالعشي إصابة خفيفة، ورد بأنه لم يسمع للقرض بهذا المعنى فعل ثلاثي ليفتح حرف المضارعة، واختار بعضهم كون المراد ما ذكر إلا أنه جعل تقرضهم من القرض بمعنى القطع لا بالمعنى الذي ذكره أبو علي لما سمعت، وزعم أنه من باب الحذف والإيصال والأصل تقرض لهم وأن المعنى وإذا غربت تقطع لهم من ضوئها شيئاً، والسبب لاختياره ذلك توهمه أن الشمس لو لم تصب مكانهم أصلاً لفسد هواؤه وتعفن ما فيه فيصير ذلك سبباً لهلاكهم، وفيه ما فيه، وأكثر المفسرين على أنهم لم تصبهم الشمس أصلاً)[5].

---

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٦١٩-٦٢٠ بتصرف يسير.

(٢) التحرير والتنوير ٨/ ٣٤٦ باختصار.

(٣) ينظر تفسير الطبري ١٧/ ٦٢١.

(٤) السابق.

(٥) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ١٧٦-١٧٧.

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن الشمس لم تكن تدخل كهفهم البتة بناء على قوله تعالى: ﴿ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ ... ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾، قال ابن عاشور: (والتعريف في (اليمين والشمال) عوض عن المضاف إليه أي يمين الكهف وشماله فيدل على أن فم الكهف كان مفتوحا إلى الشمال الشرقي فالشمس إذا طلعت تطلع على جانب الكهف ولا تخترقه أشعتها، وإذا غربت كانت أشعتها أبعد عن فم الكهف منها حين طلوعها، وهذا وضع عجيب يسره الله لهم بحكمته ليكون داخل الكهف بحالة اعتدال فلا ينتاب البلى أجسادهم وذلك من آيات قدرة الله. والفجوة: المتسع من داخل الكهف بحيث لم يكونوا قريبين من فم الكهف. وفي تلك الفجوة عون على حفظ هذا الكهف كما هو)[1]، والذي يظهر من لفظ الآية خلاف ذلك، ففي الموضع الأول: (تزاور عن كهفهم) وفي الثاني (تقرضهم) ولم يقل: تقرض كهفهم، فدل على أن الشمس تدخل الكهف عند الغروب لكنها لا تمسهم، قال الطبري رحمه الله: (يقول تعالى ذكره: وإذا غربت الشمس تتركهم من ذات شمالهم. وإنما معنى الكلام: وترى الشمس إذا طلعت تعدل عن كهفهم، فتطلع عليه من ذات اليمين، لئلا تصيب الفتية، لأنها لو طلعت عليهم قبالهم لأحرقتهم وثيابهم، أو أشحبتهم، وإذا غربت تتركهم بذات الشمال، فلا تصيبهم)[2].

ومما تكلم فيه المفسرون موقع الغار، قال ابن كثير رحمه الله: (ولم يخبرنا بمكان هذا الكهف في أي البلاد من الأرض؛ إذ لا فائدة لنا فيه ولا قصد شرعي... ولو كان لنا فيه مصلحة دينية لأرشدنا الله ورسوله إليه...

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/ ٢٧٩.

(٢) تفسير الطبري ١٧/ ٦٢١.

فأعلمنا تعالى بصفته، ولم يعلمنا بمكانه)(١).

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ قال الطبري: (يقول: والفتية الذين أووا إليه في متسع منه)(٢)، وقال ابن كثير: (أي: في متسع منه داخلا بحيث لا تمسهم)(٣)، وقال الزمخشري: (وهم في متسع من الكهف. والمعنى أنهم في ظل نهارهم كله لا تصيبهم الشمس في طلوعها ولا غروبها، مع أنهم في مكان واسع منفتح معرّض لإصابة الشمس لولا أنّ الله يحجبها عنهم. وقيل: في متفسح من غارهم ينالهم فيه روح الهواء وبرد النسيم ولا يحسون كرب الغار)(٤).

واعلم أن من قالوا لم تصبهم الشمس وهم أكثر المفسرين اختلفوا في السبب، فقال بعضهم لاتجاه فتحة باب الكهف، قال الألوسي: (واختار جمع أنه لمحض حجب الله تعالى الشمس على خلاف ما جرت به العادة قالوا: والإشارة تؤيد ذلك أتم تأييد والاستبعاد مما لا يلتفت إليه لا سيما فيما نحن فيه فإن شأن أصحاب الكهف كله على خلاف العادة)(٥).

وقد مر معنا كلام ابن عاشور حول فتحة الكهف وأنها جهة الشمال الشرقي، كما جزم ابن كثير رحمه الله بأن الباب كان مفتوحاً جهة الشمال قال: (وهذا بيّن لمن تأمله وكان له علم بمعرفة الهيئة، وسير الشمس والقمر والكواكب، وبيانه أنه لو كان باب الغار من ناحية الشرق لما دخل إليه منها

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٤٣.
(٢) تفسير الطبري ١٧/ ٦٢٢.
(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ١٤٣.
(٤) الكشاف ٣/ ٥٠٠.
(٥) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ١٧٧.

شيء عند الغروب، ولو كان من ناحية القبلة لما دخل منها شيء عند الطلوع ولا عند الغروب، ولا تزاور الفيء يمينًا ولا شمالا ولو كان من جهة الغرب لما دخلته وقت الطلوع، بل بعد الزوال ولم تزل فيه إلى الغروب. فتعين ما ذكرناه ولله الحمد)(١)، وقال الألوسي: (ولعل ميل الباب إلى جانب المغرب كان أكثر ولذلك وقع التزاور على كهفهم والقرض على أنفسهم)(٢)، وهذا مبني على المقصود باليمين والشمال، قال البقاعي: (فتحرر بذلك أن باب الغار مقابل لبنات نعش، وأن الجبل الذي هم فيه شمالي مكة المشرفة، ويجوز أن يكون المراد يمين من يخرج من الكهف وشماله، فلا يلزم ذلك)(٣)، ولم يرضَ آخرون بذلك، قال الألوسي: (وقال الزجاج: ليس ذلك لما ذكر بل لمحض صرف الله الشمس بيد قدرته عن أن تصيبهم على خرق العادة كرامة لهم وجيء بقوله: ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾ حالاً مبينة لكون ما ذكر أمراً بديعاً كأنه قيل ترى الشمس تميل عنهم يميناً وشمالاً ولا تحوم حولهم مع كونهم في متسع من الكهف معرض لإصابتها لولا أن كفها عنهم)(٤).

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾

اختلف المفسرون في مرجع قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾، قال البقاعي: (لما شرح هذا الأمر الغريب، وصل به نتيجته فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي العظيم من هدايتهم، وما دبروا، وما دبر لهم من هذا الغار المستقبل للنسيم الطيب المصون عن كل مؤذ، وما حقق به رجاءهم مما لا يقدر عليه سواه ﴿مِنَ

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٤٣.
(٢) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ١٧٦.
(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ١٢/ ٢٥.
(٤) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ١٧٦ باختصار.

ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ﴾ أي الملك المحيط بكل شيء، وإن كان إذا قيس إلى القرآن وغيره مما خصت به هذه الأمة كان يسيراً)(١)، وقال الألوسي: (وبعض من ذهب إلى أن المنشأ [في عدم إصابة الشمس لهم] كون باب الكهف في مقابلة بنات نعش جعل ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة لإيوائهم لكهف هذا شأنه، وبعض جعله إشارة إلى حفظ الله إياهم في الكهف المدة الطويلة، وآخر جعله إشارة إلى إطلاعه سبحانه رسولَه ﷺ على أخبارهم. واعتُرِض على الأخيرين بأنه لا يساعدهما إيراد ذلك في تضاعيف القصة، وجعله بعضهم إشارة إلى هدايتهم إلى التوحيد ومخالفتهم قومهم وآباءهم وعدم الاكتراث بهم وبملكهم مع حداثتهم، وإيوائهم إلى كهف شأنه ذلك، ولا يخلو عن حسن، وإليه أميل)(٢).

وقال ابن عاشور: (الإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى المذكور من قوله: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ﴾)(٣)، وقال ابن الجوزي: (يشير إلى ما صنعه بهم من اللطف في هدايتهم، وصرف أذى الشمس عنهم، والرعب الذي ألقى عليهم حتى لم يقدر الملك الظالم ولا غيره على أذاهم. ﴿مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ﴾ أي: من دلائله على قدرته ولطفه)(٤)، وقال الطبري: (يقول عز ذكره: فِعلُنا هذا الذي فعلنا بهؤلاء الفتية من تصييرِناهم -إذ أردنا أن نضرب على آذانهم- بحيث تزاور الشمس عن مضاجعهم ذات اليمين إذا طلعت، وتقرضهم ذات الشمال إذا غَرَبت، مع كونهم في المتسع، بحيث لا تحرْقهم الشمس، ولا

(١) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٣١ باختصار.
(٢) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ١٧٧ بتصرف يسير.
(٣) التحرير والتنوير ٨/ ٣٤٦.
(٤) زاد المسير ٤/ ٢١٠.

تبلى على طول رقدتهم ثيابهم، من حجج الله وأدلته على خلقه، التي يستدل بها أولو الألباب على عظيم قدرته وسلطانه، وأنه لا يعجزه شيء أراده)(١)، قال الشنقيطي: (فالإشارة راجعة إلى ما ذكر من حديثهم. أي ذلك المذكور إلى هدايتهم إلى التوحيد وإخراجهم من بين عبدة الأوثان، وإيوائهم إلى ذلك الكهف، وحمايتهم من عدوهم إلى آخر حديثهم - من آيات الله)(٢).

وأولى الأقوال أن هذا يرجع إلى كل ما في قصتهم بدءاً من هدايتهم إلى الحق من قومهم مع حداثة أسنانهم بالنظر في ملكوت الله، مروراً بصدعهم بالحق وثباتهم عليه، إلى اعتزالهم في الكهف وطول رقدتهم ثم بعثهم.

وأما ما يتعلق بعدم مس الشمس لهم، فهو آية، على التقديرين في سبب ذلك، قال الزمخشري: (﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي ما صنعه الله بهم - من ازورار الشمس وقرضها طالعة وغاربة- آية من آياته، يعني: أنّ ما كان في ذلك السمت تصيبه الشمس ولا تصيبهم، اختصاصاً لهم بالكرامة. وقيل: باب الكهف شمالي مستقبل لبنات نعش، فهم في مقنأة أبداً)(٣)، فهو على الأول ظاهر، وأما على الثاني فإن إيجاد كهف هذه صفته وتوفيقهم إليه آية كذلك على عناية الله ولطفه بهم. قال القرطبي: (وعلى الجملة فالآية في ذلك أن الله تعالى آواهم إلى كهف هذه صفته لا إلى كهف آخر يتأذون فيه، والمقصود بيان حفظهم عن تطرق البلاء وتغير الأبدان والألوان إليهم، والتأذي بحر أو برد)(٤).

---

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٦٢٣ بتصرف يسير.
(٢) أضواء البيان ٣/ ٢٩٥-٢٩٦ بتصرف يسير.
(٣) الكشاف ٣/ ٥٠٠.
(٤) تفسير القرطبي ١٠/ ٣٦٩ بتصرف يسير.

وقوله: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾

قال البقاعي: (لما كان انفرادهم بالهدى عن أهل ذلك القرن كلهم عجباً، وصل به ما إذا تؤمل زال عجبه فقال: ﴿مَن يَهْدِ﴾ ولو أيسر هداية - ... ﴿فَهُوَ﴾ خاصة ﴿الْمُهْتَدِ﴾ في أي زمان كان، فلن تجد له مضلاً مغوياً)[١].

وهؤلاء الفتية قد هدوا هدايتين؛ الأولى إلى الإيمان والتوحيد، والثانية إلى الفرار بدينهم واللجوء إلى الكهف.

وقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾

قال البغوي: (أي: من يضلله الله ولم يرشده)[٢]، وقال السعدي: (أي: لا تجد من يتولاه ويدبره، على ما فيه صلاحه، ولا يرشده إلى الخير والفلاح، لأن الله قد حكم عليه بالضلال، ولا راد لحكمه)[٣]، وقال البقاعي: (فتجده يرى الآيات بعينه، ويحسها بجميع حواسه، ولا يعلم أنها آيات فضلاً عن أن يتدبرها وينتفع بها، فالآية من الاحتباك: ذكر الاهتداء أولاً دليلاً على حذف الضلال ثانياً، والمرشد ثانياً دليلاً على حذف المضل أولاً)[٤]، ويقول الألوسي: (﴿فَلَن تَجِدَ لَهُ﴾ وإن بالغت في الاستقصاء ﴿وَلِيًّا﴾ ناصراً ﴿مُّرْشِدًا﴾ يهديه للحق ويخلصه من الضلال لاستحالة وجوده في نفسه)[٥]. فيكون معنى الآية كما قال الطبري: (يقول ﷻ: من

(١) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٣١ بتصرف يسير.
(٢) تفسير معالم التنزيل للبغوي ٥/ ١٥٧.
(٣) تفسير السعدي ١/ ٤٧٢.
(٤) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٣١.
(٥) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ١٧٧ بتصرف يسير.

يوفقه الله للاهتداء بآياته التي جعلها أدلة عليه، فهو الذي قد أصاب سبيل الحقّ، ومن أضله الله عن أدلته، فلم يوفقه للاستدلال بها فلن تجد له يا محمد من يرشده لإصابتها، لأن التوفيق والخِذْلان بيد الله، فلا يَحْزُنْك إدبار من أدبر من قومك وتكذيبهم ، فإني لو شئت هديتهم، وبيدي الهداية والضلال)[1].

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٦٢٣ بتصرف.

أنواع الهداية

قال ابن القيم رحمه الله: (اعلم أن أنواع الهداية أربعة؛ أحدها: الهداية العامة المشتركة بين الخلق المذكورة في قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه]، أي أعطى كل شيء صورته التي لا يشتبه فيها بغيره ... ثم هداه إلى ما خلقه له من الأعمال ...

النوع الثاني: هداية البيان والدلالة والتعريف لنجدي الخير والشر، وطريقي النجاة والهلاك، وهذه الهداية لا تستلزم الهدى التام، فإنها سبب وشرط لا موجب، ولهذا [لا] ينبغي الهدى معها كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧] أي بينا لهم وأرشدناهم ودللناهم فلم يهتدوا، ومنها قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾ [الشورى].

النوع الثالث: هداية التوفيق والإلهام، وهي الهداية المستلزمة للاهتداء فلا يتخلف عنها، وهي المذكورة في قوله: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [فاطر: ٨]، وفي قوله: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧]، وفي قول النبي ﷺ: "من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له"، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]، فنفى عنه هذه الهداية وأثبت له هداية الدعوة والبيان في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾ [الشورى].

النوع الرابع: غاية هذه الهداية؛ وهي الهداية إلى الجنة والنار إذا سيق أهلهما إليهما ... وقال أهل الجنة فيها: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا﴾

[الأعراف: ٤٣]، وقال تعالى عن أهل النار: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾)"(١).

إن الهداية المذكورة هنا من النوع الثاني، هداية التوفيق والإلهام، وهؤلاء الفتية لم يروا رسولاً ولا أصحاب الرسل إلا أنهم اهتدوا بفطرتهم للحق، مثل من آمن قبل البعثة وكفر بالأصنام، كقس بن ساعدة الإيادي وزيد بن عمرو بن نفيل، وفي المقابل كفر كثير ممن أتتهم الرسل، مما يؤكد أن هذا النوع من الهداية محض فضل من الله، لا بد أن تطلب منه، ولعظم هذا الأمر يؤمر العبد أن يسأل ربه الهداية كل صلاة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ [الفاتحة]، وفي الحديث القدسي: "يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم"(٢)، وكان النبي ﷺ يدعو في الوتر فيقول: "اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ، وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ، إِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ، وَإِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ، وَلَا يَعِزُّ مَنْ عَادَيْتَ، تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ"(٣).

ولا بد أن نوقن أن وعد الله حق، فمن سأل الله الهدى بصدق هداه، وكم سمعنا عن أناس لم يسمعوا بالإسلام قط كانوا يعلمون بفطرهم أن ما وجدوا عليه آباءهم باطل، وأن لهذا الكون إلهاً لا شريك له، فكانوا يدعونه أن يدلهم عليه فهداهم وثبتهم على الحق، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

---

(١) بدائع الفوائد ٢/ ٢٧١-٢٧٣.

(٢) صحيح مسلم ٤/ ١٩٩٤ (٢٥٧٧).

(٣) سنن أبي داود ٢/ ٦٣ (١٤٢٥)، وصححه الألباني.

خلق أفعال العباد

قال الشنقيطي ﷺ: (بيّن جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن الهدى والإضلال بيده وحده جل وعلا ... وقد أوضح هذا المعنى في آيات كثيرة جداً، كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ﴾ [الإسراء: ٩٧] الآية ... ويؤخذ من هذه الآيات وأمثالها في القرآن بطلان مذهب القدرية: أن العبد مستقل بعمله من خير أو شر، وأن ذلك ليس بمشيئة الله بل بمشيئة العبد، سبحانه جل وعلا عن أن يقع في ملكه شيء بدون مشيئته! وتعالى عن ذلك علواً كبيراً!)[1]، وقد تكلم ﷺ عن مسألة خلق أفعال العباد في مكان آخر فقال: (هذه المسألة هي التي ضل فيها القدرية والجبرية، وأما القدرية فضلوا بالتفريط، إذ زعموا أن العبد يخلق عمل نفسه استقلالاً، عن غير تأثير لقدرة الله فيه. وأما الجبرية فضلوا بالإفراط حيث زعموا أن العبد لا عمل له أصلاً حتى يؤاخذ به. وأما أهل السنة والجماعة فلم يُفْرِطوا ولم يُفَرِّطوا فأثبتوا للعبد أفعالاً اختيارية -ومن الضروري عند جميع العقلاء أن الحركة الارتعاشية ليست كالحركة الاختيارية- وأثبتوا أن الله خالق كل شيء، فهو خالق العبد وخالق قدرته وإرادته، وتأثير قدرة العبد لا يكون إلا بمشيئة الله تعالى. فالعبد وجميع أفعاله بمشيئة الله تعالى، مع أن العبد يفعل اختياراً بالقدرة والإرادة اللتين خلقهما الله فيه فعلاً اختيارياً يثاب عليه ويعاقب. ولو أن جبرياً ناظر سنياً فقال: حجتي لربي

---

(١) أضواء البيان ٣/ ٢٩٦-٢٩٧.

أن أقول إني لست مستقلاً بعمل وإني لا بد أن تنفذ في مشيئته وإرادته على وفق العلم الأزلي فأنا مجبور فكيف يعاقبني على أمر لا قدرة لي أن أحيد عنه؟ فالسني يقول: الأسباب التي أعطاها للمهتدين أعطاها لك، جعل لك سمعاً وبصراً وعقلاً وأرسل لك رسولاً وجعل لك اختياراً وقدرة ولم يبق بعد إلا التوفيق وهو ملكه إن أعطاه ففضل وإن منعه فعدل: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ١٤٩﴾ [الأنعام]. ولما تناظر أبو إسحاق الإسفرائيني مع عبد الجبار المعتزلي؛ قال عبد الجبار: سبحان من تنزه عن الفحشاء، وقصده أن المعاصي بمشيئة العبد دون الله، لأن الله أجل من أن يشاء القبائح في زعمهم. فقال أبو إسحاق: كلمة حق أريد بها باطل، ثم قال: سبحان من لا يقع في ملكه إلا ما يشاء. فقال عبد الجبار: أتراه يخلقه ويعاقبني عليه؟ فقال أبو إسحاق: أتراك تفعله جبراً عليه؟ أأنت الرب وهو العبد؟ فقال عبد الجبار: أرأيت إن دعاني إلى الهدى وقضى علي بالرَّدى أتراه أحسن إلي أم أساء؟ فقال أبو إسحاق: إن كان الذي منعك لك فقد أساء، وإن كان له فإن أعطاك ففضل وإن منعك فعدل. فبهت عبد الجبار وقال الحاضرون: والله ما لهذا جواب. وجاء أعرابي إلى عمرو بن عبيد وقال له: ادع الله لي أن يرد علي حمارة سرقت مني. فقال: اللهم إن حمارته سرقت ولم ترد سرقتها فارددها عليه. فقال له الأعرابي: يا هذا كف عني من دعائك الخبيث، إن سرقت ولم يرد سرقتها فقد يريد ردها ولا ترد. وقد رفع الله إشكال هذه المسألة بقوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ فأثبت للعبد مشيئة وصرح بأنه لا مشيئة للعبد إلا بمشيئة الله. فكل شيء صادر من قدرته ومشيئته)[1].

---

(١) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب للشنقيطي ١/ ٨٩ بتصرف.

أدلة الإيمان بين آيات الكتاب المنظور والكتاب المسطور

إن لله ﷻ نوعين من الآيات الدالة على وجوده ووحدانيته وقدرته؛ آيات قرآنية وآيات كونية، فالأولى في كتاب الله ﷻ وهو الكتاب المسطور، والثانية في كتاب الأنفس والآفاق وهو الكتاب المنظور، يقول ابن القيم رحمه الله: (فالكون بجملة ما فيه آيات وشواهد وأدلة، لم يخلق الله فيه شيئاً تلبيساً ولا وَسَّطَه عبثاً ولا خلقه سدىً، فالأسباب والوسائط والعلل محل استذكار المتفكرين واعتبار الناظرين ومعارف المستدلين، إن في ذلك لآيات للمتوسمين، وكم في القرآن من الحث على النظر والاعتبار بها والتفكر فيها وذم من أعرض عنها والإخبار بأن النظر فيها والاستدلال يوجب العلم والمعرفة بصدق رسله، فهو آيات كونية مشاهدة تصدق الآيات القرآنية)[1]، وفي هذين النوعين يقول عبد الحميد بن باديس رحمه الله: (التصديق يقوى بالنظر في الآيات الكونية والتدبر في الآيات السمعية)[2].

إن الربط بين تسخير الآيات الكونية للفتية وبين الهداية في قوله: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾ [الكهف]، يشعر بأهمية التفكر في آيات الله والنظر والتمعن فيها، كوسيلة للاهتداء للحق، والآيات في هذا كثيرة، منها: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ

---

(١) مدارج السالكين ٣/ ٣٩٩.

(٢) العقائد الإسلامية ١/ ٤٧ بتصرف يسير.

وَٱلْأَرْضِ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [البقرة]، وقوله جل وعلا: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [النحل]، وقال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ ﴾ [ق].

وقد استخدم الأنبياء الآيات الكونية في إرشاد العقول لله وتليين القلوب لتخشع لذكر الله، قال نوح عليه السلام ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [نوح]

وقال تعالى مرشدا نبيه ﷺ أن يجعل من الآيات الكونية الباهرة مفاتيح لقلوب العباد: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن

جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ [النمل]، والدعوة بالآيات الكونية ناجعة مع الكافرين في هداية عقولهم، ومع الفساق في تخويفهم، فترعوي أفئدتهم.

فائدة- لا يجوز القسم إلا بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله، ويجوز القسم بآيات الله إن أريد بها أنها كلام الله فهو من صفاته، ولا يجوز القسم بالنوع الثاني من الآيات كالشمس أو القمر، هذا في حق المخلوقين، والله يقسم بما شاء من خلقه: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾﴾ [الشمس].

قوله: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾

المخاطب هنا على الخلاف السابق في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى﴾، قال ابن عاشور: (وهذا انتقال إلى ما في حالهم من العبرة لمن لو رآهم من الناس، مُدمَج فيه بيان كرامتهم وعظيم قدرة الله في شأنهم، وهو تعجيب من حالهم لمن لو رآه من الناس)(١)، وقال الشنقيطي: (أي تظنهم أيها المخاطب لو رأيتهم أيقاظاً والحال أنهم رقود)(٢)، وقال الطبري: (أي وتحسب يا محمد هؤلاء الفتية لو رأيتهم في حال ضربنا على آذانهم في كهفهم أيقاظا. جمع يَقِظ)(٣)، وقال ابن كثير: (ذكر بعض أهل العلم أنهم لما ضرب الله على آذانهم بالنوم، لم تنطبق أعينهم؛ لئلا يسرع إليها البلى، ولهذا قال: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾، وقد ذكر عن الذئب أنه ينام فيطبق عينًا

(١) التحرير والتنوير ٨/ ٣٤٨.

(٢) أضواء البيان ٣/ ٢٩٨.

(٣) تفسير الطبري ١٧/ ٦٢٣ بتصرف واختصار.

ويفتح عينًا، ثم يفتح هذه ويطبق هذه وهو راقد، كما قال الشاعر

يَنَامُ بإحْدَى مُقْلتَيه وَيَتَّقِي... بأُخْرَى الرزايا فَهْوَ يَقْظَانُ نَائِمُ)[١]

وقال ابن الجوزي: (أي: لو رأيتَهم لحسِبتَهم أيقاظاً. قال الزجاج: الأيقاظ: المتبهون، واحدهم: يَقِظ، ويَقْظان، والرقود: النيام، قال الفراء: واحد الأيقاظ: يَقُظ، ويَقِظ. قال ابن السائب: وإنما يُحسَبون أيقاظاً، لأن أعينهم مفتَّحة. وقيل: لتقلُّبهم يميناً وشمالاً. وذكر بعض أهل العلم: أن وجه الحكمة في فتح أعينهم، أنه لو دام طَبْقها لذابت)[٢].

لطيفة- نوم عامة الناس يكون بعيونهم وقلوبهم، فيغمضون عيونهم ولا تدري قلوبهم بما يدور حولهم، وأما نومة أهل الكهف فكانت بقلوبهم أما عيونهم فكانت مفتوحة على ما قيل، وكان نوم رسول الله ﷺ أشرف من ذلك تنام عينه ولا ينام قلبه، كما قال ﷺ: "تَنَامُ عَيْنِي وَلاَ يَنَامُ قَلْبِي"[٣]، وقال سفيان بن عيينة: "بلغنا أن النبي ﷺ تنام عيناه ولا ينام قلبه"[٤].

قوله: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾

قال الطبري: (مرّة للجنب الأيمن، ومرّة للجنب الأيسر)[٥]، قال القرطبي: (﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ قال ابن عباس: لئلا تأكل الارض لحومهم... وظاهر كلام المفسرين أن التقليب كان من فعل الله، ويجوز أن يكون من ملك بأمر الله، فيضاف إلى الله تعالى)[٦]، وقال

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٤٣ بتصرف واختصار.
(٢) زاد المسير ٤/ ٢١١ بتصرف يسير.
(٣) صحيح البخاري ٣/ ١٣٠٨ (٣٣٧٦).
(٤) صحيح مسلم ١/ ٥٢٥ (٧٦٣).
(٥) تفسير الطبري ١٧/ ٦٢٤.
(٦) تفسير القرطبي ١٠/ ٣٧٠.

الألوسي: (﴿وَنُقَلِّبُهُمْ﴾ في رقدتهم كثيراً ﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾ أي جهة تلي أيمانهم ﴿وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ أي جهة تلي شمائلهم كيلا تأكل الأرض أبدانهم ... وقيل يمكن أن يكون تقليبهم حفظاً لعادتهم في نومهم من التقلب يميناً وشمالاً اعتناء بشأنهم. وقيل: يحتمل أن يكون ذلك إظهاراً لعظيم قدرته في شأنهم إذ جمع فيهم الإنامة الثقيلة في قوله: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ [الكهف: ١١] والتقليب الكثير، ومما جرت به العادة أن النوم الثقيل لا يكون فيه تقلب كثير، ولا يخفى بعده)[1]، أقول: بل هو حسن، خلافاً لما قال رحمه الله.

ونقل الألوسي عن بعض الأئمة استبعاده أن يكون التقليب لحفظ أجسادهم وتعجبه من هذا القول[2]، ويجاب عن ذلك بأن الله عز وجل قادر أيضاً على حفظ أجسادهم وثيابهم من البلى وإن أصابتها الشمس طوال تلك السنين، قال السعدي: (... والله تعالى قادر على حفظهم من الأرض، من غير تقليب، ولكنه تعالى حكيم، أراد أن تجري سنته في الكون، ويربط الأسباب بمسبباتها)[3].

واعترض بما ذكر بعدُ من بسط كلبهم ذراعيه مما يقتضي عدم تقليبه، قال ابن عاشور: (هذا يدل على أن تقليبهم لليمين وللشمال كرامة لهم بمنحهم حالة الأحياء وعناية بهم، ولذلك لم يذكر التقليب لكلبهم بل استمر في مكانه باسطاً ذراعيه شأن جلسة الكلب ... وعدم تقليب الكلب عن يمينه وشماله يدل على أن تقليبهم ليس من أسباب سلامتهم من البلى وإلا لكان كلبهم مثلهم فيه بل هو كرامة لهم. وقد يقال: إنهم لم يفنوا وأما

---

(١) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ١٧٨ بتصرف يسير.
(٢) تفسير الألوسي ٨/ ٢١٤.
(٣) تفسير السعدي ١/ ٤٧٢.

كلبهم ففني وصار رِمة مبسوطةٌ عظامُ ذراعيه)[1]، والله أعلم.

قوله: ﴿وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ﴾

قال البغوي: (أكثر أهل التفسير على أنه كان من جنس الكلاب، وروي عن ابن جريج: أنه كان أسداً، وسمي الأسد كلباً فإن النبي ﷺ دعا على عتبة بن أبي لهب فقال: "اللهم سلط عليه كلبا من كلابك" فافترسه أسد، والأول أصح)[2]، وقال ابن كثير: (قيل: إنه كان كلب صيد لأحدهم، وهو الأشبه، وقيل: كان كلب طباخ الملك، وقد كان وافقهم على الدين فصحبه كلبه فالله أعلم)[3]، وقال ابن الجوزي: (وفي الوصيد أربعة أقوال: أحدها: أنه فِناء الكهف، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، والفراء... والثاني: أنه الباب، رواه عكرمة عن ابن عباس، وبه قال السدي. وقال ابن قتيبة: فيكون المعنى: وكلبهم باسط ذراعيه بالباب، قال الشاعر:

بِأَرْضٍ فَضَاءٍ لا يُسَدُّ وَصِيدُها... عليَّ ومَعْرُوفي بها غيرُ مُنْكَرِ

والثالث: أنه الصعيد، وهو التراب، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير، ومجاهد. والرابع: أنه عتبة الباب، قاله عطاء. قال ابن قتيبة: وهذا أعجب إليَّ، يقولون: أَوصِد بابك، أي: أَغلِقه، ومنه: ﴿إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ ٨﴾ [الهُمَزة]، أي: مُغْلَقة، وأصله أن تلصق الباب بالعتبة إِذا أغلقته، يوضح هذا أنك إِذا جعلت الكلب بالفِناء، كان خارجاً من الكهف، وإِن جعلته بعتبة الباب، أمكن أن يكون داخل الكهف، والكهفُ وإِن لم يكن له باب وعتبة، فانما أراد أن الكلب موضع العتبة من البيت،

---

(١) التحرير والتنوير ٨/ ٣٤٨.

(٢) تفسير معالم التنزيل للبغوي ٥/ ١٥٨.

(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ١٤٤.

فاستُعير)[١]، قال ابن كثير: (ربض كلبهم على الباب كما جرت به عادة الكلاب، قال ابن جريج: يحرس عليهم الباب. وهذا من سجيته وطبيعته، حيث يربض ببابهم كأنه يحرسهم، وكان جلوسه خارج الباب؛ لأن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه كلب)[٢]، وفيه مزيد رحمة ولطف من الله سبحانه بهم.

فائدة - حكم اقتناء الكلاب:

ورد في الحديث النهي عن اقتناء الكلاب، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "مَنِ اتَّخَذَ كَلْبًا إِلَّا كَلْبَ مَاشِيَةٍ، أَوْ صَيْدٍ، أَوْ زَرْعٍ، انْتَقَصَ مِنْ أَجْرِهِ كُلَّ يَوْمٍ قِيرَاطٌ"[٣]، وفي حديث ابن عمر "قِيرَاطَانِ"[٤]. وكلب الماشية هو الذي يتخذ لحراستها، فيلحق به الكلب الذي يتخذ لحراسة المرء من اللصوص، وكذلك الكلب الذي تتخذه الشرطة، فإن الرخصة إن كانت لأمور تدعو الحاجة إليها فما كان منها لضرورة فكذلك، لكنه لا يجوز بيعه ولا شراؤه على كل الأحوال، قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: (اقتناء الكلاب لا يجوز إلا في ما رخص فيه الشارع ... وعلى هذا فالمنزل الذي يكون في وسط البلد لا حاجة أن يتخذ الكلب لحراسته، فيكون اقتناء الكلب لهذا الغرض في مثل هذه الحال محرما لا يجوز وينتقص من أجور أصحابه كل يوم قيراط أو قيراطان، فعليهم أن يطردوا هذا الكلب وألا يقتنوه، أما لو كان هذا البيت في البر خاليا ليس حوله أحد فإنه يجوز

---

(١) زاد المسير ٤/ ٢١١ بتصرف يسير.

(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٤٤.

(٣) صحيح مسلم ٣/ ١٢٠٣ (١٥٧٥).

(٤) صحيح مسلم ٣/ ١٢٠٢ (١٥٧٤).

أن يقتنى الكلب لحراسة البيت ومن فيه، وحراسة أهل البيت أبلغ في الحفاظ من حراسة المواشي والحرث)[1].

قوله: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾

قال البقاعي: (ولما كان هذا [أي ما بُسِط من حالهم] مشوقاً إلى رؤيتهم، وصل به ما يكف عنه بقوله: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ على تلك الحال ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ حال وقوع بصرك عليهم ﴿وَلَمُلِئْتَ﴾ بأيسر أمر ﴿مِنْهُمْ رُعْبًا﴾)[2]، وقال الطبري: (لو اطلعت عليهم في رقدتهم، لأدبرت عنهم هاربا، ولملئت نفسُك من اطلاعك فَزَعا، لما كان الله ألبسهم من الهيبة، كي لا يصل إليهم واصل، حتى يبلغ الكتاب أجله، وتوقظهم قدرته وسلطانه في الوقت الذي أراد أن يجعلهم عبرة لمن شاء، وآية لمن أراد الاحتجاج عليه من عباده، ليعلموا أن وعد الله حق، وأنّ الساعة آتية لا ريب فيها)[3].

وقد ذكروا لهذا الرعب والفرار أسباباً أخرى: (قال القرطبي رحمه الله: (وقيل: لوحشة مكانهم، وكأنهم آواهم الله إلى المكان الوحش لينفر الناس عنهم. وقيل: كان الناس محجوبين عنهم بالرعب، لا يجسر أحد على الدنو إليهم. وقيل: لطول شعورهم وأظفارهم، وذكره المهدوي والنحاس والزجاج والقشيري. وهذا بعيد، لأنهم لما استيقظوا قالوا: لبثنا يوما أو بعض يوم، ودل هذا على أن شعورهم وأظفارهم كانت بحالها، إلا أن يقال: قالوا ذلك قبل أن ينظروا إليها. قال ابن عطية: والصحيح في أمرهم أن الله عز وجل حفظ لهم الحالة التى ناموا عليها لتكون لهم ولغيرهم فيهم آية،

(١) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين ١١/ ٢٤٦.
(٢) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٣٢ بتصرف يسير.
(٣) تفسير الطبري ١٧/ ٦٢٦ بتصرف واختصار.

فلم يبل لهم ثوب ولم تغير صفة، ولم ينكر الناهض إلى المدينة إلا معالم الأرض والبناء، ولو كانت في نفسه حالة ينكرها لكانت عليه أهم)(١).

فإن قيل كيف تفزعُ رسولَ الله ﷺ رؤيتهم وقد أراه الله أشد من ذلك، ليلة الإسراء والمعراج، ورأى جبريل عليه السلام في صورته مرتين؟ فالجواب أن الله قواه على ذلك، وإلا لما استطاع رؤية تلك العظائم، وكذا أهل الكهف لو لم يعنه الله تعالى عليها فسيفزع بطبيعته البشرية، والله تعالى أعلم.

---

(١) تفسير القرطبي ١٠/ ٣٧٣-٣٧٤ بتصرف واختصار.

النوم من نعم الله وآياته

سبق القول أن آيات الله ﷻ المبثوثة في الكون والدالة على وجوده وقدرته لا تعد ولا تحصى، كما قيل:

وللہ في كـل تحريـكة وتسكينة أبدا شاهد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

ولئن لم يظهر لبعض الناس كثير من هذه الأدلة والشواهد، فمرجع هذا لغفلتهم وإلفهم لما حولهم لا لخفاء هذه الأدلة وغموضها، وهذا ما يدفع كل منا لإنعام النظر والتأمل وعدم الغفلة عن هذه الآيات:

تأمل سطور الكائنات فإنها من الملك الأعلى إليك رسائل
وقد خط فيها لو تأملت خطها ألا كل شيء ما خلا الله باطل

ومن هذه الآيات التي يغفل عنها الناس، كما يغفلون عن شكرها النوم: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الروم]؛ فمن أهم ما أنعم الله به على الكائن الحي النوم، وهو دليل قاطع على وجود الله؛ فالنوم يتم دون تدخل الإنسان، ففي وقت معين تنقص قواه، وتعتريه حالة الاستعداد للنوم، ثم لابد أن ينام. وقد اتضح بالتجارب التي أجريت على الحيوان أن النوم أهم للحياة من الطعام والشراب، إذ لم تستطع الكلاب الحياة أكثر من خمسة أيام بلا نوم، وعاشت مثيلاتها التي تنام، عشرين يوماً بلا أكل.

و لم يمكن للعلماء أن يقرروا ماذا في الجسد أثناء النوم أكثر من أن النائم يتخلص من إجهاده الجسدي وإرهاقه الفكري، وأن استرخاء

عضلات الإنسان بنومه، تساعد على تنشيط وتنظيم الدورة الدموية، التي تطرد من الجسم ما قد يكون سببه الإجهاد من مواد ضارة. ومن دلائل وجود الله أن تشترك الكائنات الحية في النوم. وقد ثبت أن الحيوانات تحلم كذلك في منامها، وأن بعض الكلاب تنهض من نومها فزعة تتلفت لأنها كانت فريسة حلم مخيف، وتنام أيضاً الحيوانات الدنيا والأسماك والحشرات ولو أنه من الصعب تمييز حالتها بين اليقظة والنوم.

و قد أجريت تجارب بأن وضع بقرب الحشرات أو الحيوانات ليلاً ما يثيرها ويفزعها، فلم تتحرك حتى الفجر، وظهر عليها بعض الاختلاف في المظهر بعد الفجر، إذ تصرفت تصرف الخائفة الفزعة.

ومن آيات الله أن الطير ينام على غصنه فلا يقع، بالرغم من أن قبضة الطائر لابد أن تسترخي كباقي عضلاته حين يغلبه النعاس، إذ إن الأوتار التي تحدث البسط والقبض في مخلب الطائر تلتف حول مفصل ساقه، فحين ينام ويثني ثقل جسمه هذا المفصل تشد الأوتار مخلبه فيزيد تشبث قبضة الطائر على غصنه، ويتم ذلك دون أن يعيها أو يحسها الطائر.

وقد قرر علماء النبات، أنهم بدراسة الأزهار والتطورات التي تشملها في كل وقت، اتضح لهم أن النبات ينام كما ينام كل كائن حي.

مشاهد النوم تظهر واضحة في الأزهار، ولا دخل له بالشمس والضوء لأن الأزهار التي تختص بها فراشات الليل، تتفتح في الليل، وتكون في تمام تفتحها عند منتصف الليل سواء أكانت الليلة قمرية أم مظلمة، وهناك أزهار تقفل أوراقها وتستسلم للنوم العميق ظهراً، وأولاد الفلاحين في الجهات التي تنمو فيها هذه الأزهار يعرفون وقت غدائهم

من نومها[١].

ولئن كان النوم نعمة في الأحوال العادية، فإنه يختص بعضاً بهذه النعمة حال الخوف والهلع لتسكن نفوسهم ويذهب ما بهم من قلق واضطراب فينعموا ببرد الأمان، ومثال ذلك ما حصل لأصحاب رسول الله ﷺ في غزوة بدر: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾ [الأنفال: ١١]، وقال تعالى مخبراً عما أصاب المؤمنين يوم أحد من النعاس: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وعن أبي طلحة قال: "رفعت رأسي يوم أحد فجعلت أنظر وما منهم يومئذ أحد إلا يميد تحت حَجَفَتِه[٢] من النعاس فذلك قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا ﴾"[٣].

وما حصل لهؤلاء الفتية شبيه بذلك إذ خرجوا خائفين متوعدين، فألقى الله عليهم النوم، قال تعالى: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ ﴾ الآية.

---

(١) من مقالة آيات الله في تيسير الحياة للأحياء وحمايتها لعبد الرزاق نوفل، بتصرف يسير، موقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

(٢) قال ابن منظور، لسان العرب ٩/ ٣٩ مادة (حجف): هِيَ التُّرْس.

(٣) سنن الترمذي ٥/ ٢٢٩ (٣٠٠٧)، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

بركة صحبة الأخيار

من صاحب الأخيار نال من خيرهم ومن صاحب الأشرار نال من شرهم، قال ابن كثير رحمه الله: (وشملت كلبَهم بركتُهم، فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال، وهذا فائدة صحبة الأخيار؛ فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن)(١)، قال الشنقيطي رحمه الله معلقاً: (ويفهم من ذلك أن صحبة الأشرار فيها ضرر عظيم كما بينه الله تعالى في سورة الصافات في قوله: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾﴾ [الصافات] إلى قوله: ﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الصافات])(٢).

قال القرطبي رحمه الله: (قال بعضهم: من أحب أهل الخير نال من بركتهم؛ كلب أحب أهل فضل وصحبهم فذكره الله في محكم تنزيله. قلتُ(٣): إذا كان بعض الكلاب قد نال هذه الدرجة بصحبته ومخالطته الصلحاء والأولياء حتى أخبر الله بذلك في كتابه، فما ظنك بالمؤمنين المحبين للنبي ﷺ وآله خير آل! عن أنس بن مالك قال: بينا أنا ورسول الله ﷺ خارجان من المسجد فلقينا رجل عند سدة المسجد فقال: يا رسول الله متى الساعة؟ قال رسول الله ﷺ: ما أعددت لها؟ قال: فكأن الرجل استكان، ثم قال: يا رسول الله ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام ولا صدقة ولكني أحب الله ورسوله. قال: "فأنت مع من أحببت". في رواية قال أنس: فما فرحنا بعد الإسلام فرحا أشد من قول النبي ﷺ: "فأنت مع

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٤٤.
(٢) أضواء البيان ٣/ ٢٩٩.
(٣) أي القرطبي رحمه الله.

من أحببت". قال أنس: فأنا أحب الله ورسوله وأبا بكر وعمر فأرجو أن أكون معهم وإن لم أعمل بأعمالهم. قلتُ: وهذا الذي تمسك به أنس يشمل من المسلمين كل ذي نفس محبة لنبيها ﷺ، فكذلك تعلقت أطماعنا بذلك وإن كنا مقصرين. كلب أحب قوما فذكره الله معهم، فكيف بنا وعندنا عقد الإيمان وكلمة الإسلام وحب النبي ﷺ! ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ٧٠﴾ [الإسراء])[1].

وقد بين ذلك النبي ﷺ خير بيان، وحض على مصاحبة أهل الخير والصلاح، وحذر من مصاحبة أهل الشر والطلاح: "إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء، كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد ريحا خبيثة"[2]، وكما نفعت الكلب مصاحبة الفتية وليس منهم، فكذلك أهل الخير وإن لم تعمل بعملهم، قال النبي ﷺ: "إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تنادوا هلموا إلى حاجتكم. فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا فيسألهم ربهم وهو أعلم منهم ما يقول عبادي؟ قال: تقول يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك قال فيقول هل رأوني؟ قال: فيقولون لا والله ما رأوك قال: فيقول وكيف لو رأوني؟ قال: يقولون لو رأوك كانوا أشد لك عبادة وأشد لك تمجيدا وأكثر لك تسبيحا. قال: يقول فما يسألوني؟ قال يسألونك الجنة قال: يقول وهل رأوها؟ قال

---

(١) تفسير القرطبي ١٠/ ٣٧١ بتصرف واختصار.

(٢) صحيح البخاري ٢/ ٧٤١ (١٩٩٥)، صحيح مسلم ٤/ ٢٠٢٦ (٢٦٢٨).

يقولون لا والله يا رب ما رأوها قال يقول فكيف لو أنهم رأوها؟ قال يقولون لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصا وأشد لها طلبا وأعظم فيها رغبة قال فمم يتعوذون؟ قال يقولون من النار قال يقول وهل رأوها؟ قال يقولون لا والله يا رب ما رأوها قال يقول فكيف لو رأوها؟ قال يقولون لو رأوها كانوا أشد منها فرارا وأشد لها مخافة قال فيقول فأشهدكم أني قد غفرت لهم. قال يقول ملك من الملائكة فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة. قال هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم"[1]، وفي رواية مسلم: "قال فيقولون: رب فيهم فلانٌ، عبدٌ خطَّاء، إنما مر فجلس معهم! قال فيقول: وله غفرت، هم القوم لا يشقى بهم جليسهم"[2]، فما أوسع رحمة الله وما أعظمها!

قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الكهف]

ينقل القرآن السامع نقلة كبيرة جديدة، إذ يتجاوز كل ما يمكن أن يكون حدث بعد فرار الفتية؛ من بحث قومهم عنهم، وإخفاقهم، ويتجاوز ذكر شيء من خبر الملك وقومه إلى اللحظة التي أذن فيها الله

---

(١) صحيح البخاري ٥/ ٢٣٥٣ (٦٠٤٥)، صحيح مسلم ٤/ ٢٠٦٩ (٢٦٨٩).

(٢) صحيح مسلم ٤/ ٢٠٦٩ (٢٦٨٩).

لهؤلاء الفتية بالقيام من رقدتهم بعد طول السنين، ليظهر لهم ولقومهم عجائب قدرته، وأنه وحده من بيده الإماتة والإحياء والبعث والنشور.

فقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ ﴾

قال الألوسي: (أي كما أنمناهم هذه الإنامة الطويلة أيقظناهم، فالمشبه الإيقاظ والمشبه به الإنامة، ووجه الشبه كون كل منهما آية على كمال القدرة)(١). وقال ابن عاشور: (ويجوز أن يكون تشبيه البعث بنفسه للمبالغة في التعجيب كما في قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣])(٢).

قال الطبري رحمه الله: (يقول تعالى ذكره: كما أرقدنا هؤلاء الفتية في الكهف، فحفظناهم من وصول واصل إليهم، وعين ناظر أن ينظر إليهم، وحفظنا أجسامهم من البلاء على طول الزمان، وثيابهم من العفن على مرّ الأيام بقدرتنا، فكذلك بعثناهم، وأيقظناهم، لنعرّفهم عظيم سلطاننا، وعجيب فعلنا، وليزدادوا بصيرة من براءتهم من عبادة الآلهة، وإخلاصهم لعبادة الله، إذا تبيَّنوا طول الزمان عليهم، وهم بهيئتهم حين رقدوا)(٣).

وفي هذا تعريض بكفار قريش المنكرين البعث، قال البقاعي: (فليعلم ذلك من أنكر قدرتنا على البعث وسأل اليهود البغضاء عن نبيه الذي أتاهم بالآيات، وأراهم البينات، فإن كانوا يستنصحون اليهود فليسألوهم عما قصصنا من هذه القصة، فإن اعترفوا به لزمهم جميعاً الإيمان والرجوع عن الغي والعدوان، وإن لم يؤمنوا علم قطعاً أنه لا يؤمن إلا من أردنا هدايته بالآيات البينات كأهل الكهف وغيرهم، لا بإنزال الآيات

(١) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ١٨٥ بتصرف يسير.
(٢) التحرير والتنوير ٨/ ٣٥٠.
(٣) تفسير الطبري ١٧/ ٦٢٧ بتصرف واختصار.

المقترحات)[1].

وقوله: ﴿لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْ﴾

قال القرطبي: (واللام في قوله " ليتساءلوا " لام الصيرورة وهي لام العاقبة... فبعثهم لم يكن لأجل تساؤلهم)[2]، وهي نفس اللام في قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]، فهم لم يلتقطوه ليكون لهم عدواً وحزناً، بل كانت غايتهم عكس ذلك، كما قالت امرأة فرعون: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ﴾ [القصص: ٩]، وذهب قوم إلى أنها لام العلة، قال الرازي: (فإن قيل: هل يجوز أن يكون الغرض من بعثهم أن يتساءلوا ويتنازعوا؟ قلنا: لا يبعد ذلك، لأنهم إذا تساءلوا انكشف لهم من قدرة الله تعالى أمور عجيبة وأحوال غريبة، وذلك الانكشاف أمر مطلوب لذاته)[3]، والراجح الأول، وهو ما اختاره شيخنا ابن عثيمين رحمه الله.

وقوله: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ قال ابن الجوزي: (أي: كم مَرَّ علينا منذ دخلنا هذا الكهف؟ ﴿قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ وذلك أنهم دخلوا غُدوةً، وبعثهم الله في آخر النهار، فلذلك قالوا: ﴿يَوْمًا﴾، فلما رأوا الشمس قالوا: «أو بعض يوم»)[4]، قال ابن كثير: (﴿قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ أي: الله أعلم بأمركم، وكأنه

---

(١) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٣٢ بتصرف يسير.
(٢) تفسير القرطبي ١٠/ ٣٧٤.
(٣) تفسير الرازي ٢١/ ٤٤٥.
(٤) زاد المسير ٤/ ٢١٢.

حصل لهم نوع تَرَدّد في كثرة نومهم، فالله أعلم)[١]، وفي هذا جواز القول بغلبة الظن، واجتهاداتُ العلماء مبنية على غلبة الظن، والصحيح أنه يجوز القسم على غلبة الظن، وفي قولهم كذلك أدب عظيم مع الله في رد العلم إليه، ويتفرع منه رد كل علم إلى عالمه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣] و[الأنبياء: ٧]، ولو أن المسلمين في عصرنا هذا وبخاصة الشباب عملوا بهذا الأمر ورجعوا إلى العلماء المعتبرين، لهداهم الله ولأخذ بنواصيهم إلى الحق المبين، كما ذكر العلامة السعدي رحمه الله[٢]، وإذاً لسلموا وسلمت البلاد والعباد من بلاء عظيم، ولوفروا على أنفسهم وبلادهم مآسي كثيرة؛ دماءً أريقت، وحرماتٍ انتهكت، وأعماراً ضاعت، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

قال ابن عاشور: (وجملة ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ﴾ بيان لجملة ﴿لِيَتَسَاءَلُوا﴾... فالقائلون ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ يجوز أن يكون جميعهم وهو الظاهر. ويجوز أن يكون قول بعضهم فأسند إليهم ... وتفريع قولهم: {فابعثوا أحدكم} على قولهم: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ لأنه في معنى فدَعُوا الخوض في مدة اللبث فلا يعلمها إلا الله وخذوا في شيء آخر مما يهمكم ...)[٣].

وقوله: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ﴾

قال ابن كثير: (ثم عدلوا إلى الأهم في أمرهم إذ ذاك وهو احتياجهم

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٤٥.
(٢) تفسير السعدي ص: ٤٧٣.
(٣) التحرير والتنوير ٨/ ٣٥٠.

إلى الطعام والشراب، فقالوا: ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ﴾)[١]، قال ابن الجوزي: (قال ابن الأنباري: قال: «أحدَكم»، ولم يقل: واحدَكم، لئلا يلتبس البعض بالممدوح المعظَّم، فالعرب تقول: رأيت أحد القوم، ولا يقولون رأيت واحد القوم، إلا إذا أرادوا المعظَّم، فأراد بأحدهم: بعضَهم، لا شريفهم)[٢]، قال البغوي: (قرأ أبو عمرو وحمزة وأبو بكر: بورْقكم ساكنة الراء والباقون بكسرها ومعناهما واحد وهي الفضة، مضروبة كانت أو غير مضروبة)[٣].

قال ابن عاشور: (والمراد بالورق هنا القطعة المسكوكة من الفضة، وهي الدراهم ...)[٤]. وفيه مشروعية حمل المال في الترحال، وهذا موافق للعقل والطبع السليم، كي لا يتعرض المرء للهلكة أو لذل السؤال.

وقوله : ﴿إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ﴾ يعني مدينتهم التي خرجوا منها هِراباً[٥].

وقوله : ﴿فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا﴾

قال الطبري: (ذُكِر أنهم هبوا من رقدتهم جِياعاً، فلذلك طلبوا الطعام)[٦]، قال ابن عاشور: (و﴿أَيُّهَآ﴾ ماصَدَقُه أي مكان من المدينة، لأن المدينة كلٌّ له أجزاء كثيرة منها دكاكين الباعة، أي فلينظر أي مكان منها هو أزكى طعاماً، أي أزكى طعامُه من طعام غيره... والأزكى: الأطْيب

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٤٥.
(٢) زاد المسير ٤/ ٢١٢ بتصرف يسير.
(٣) تفسير معالم التنزيل للبغوي ٥/ ١٦٠.
(٤) التحرير والتنوير ٨/ ٣٥٠.
(٥) تفسير الطبري ١٧/ ٦٢٧.
(٦) تفسير الطبري ١٧/ ٦٢٧.

والأحسن، لأن الزّكْوَ الزيادة في الخير والنفع)(١)، وقال ابن الجوزي: (قال الزجاج: المعنى: أيُّ أهلها أزكى طعاماً. وللمفسرين في معناه ستة أقوال:

أحدها: أَحَلُّ ذبيحة؛ قاله ابن عباس، وعطاء، لأن عامة أهل بلدهم كانوا كفاراً، فكانوا يذبحون للطواغيت، وكان فيهم قوم يُخفون إيمانهم.

والثاني: أَحَلُّ طعاماً، قاله سعيد بن جبير؛ قال الضحاك: وكانت أكثر أموالهم غصوباً. وقال مجاهد: قالوا لصاحبهم لا تبتغْ طعاماً فيه ظلم ولا غصب. والثالث: أكثر، قاله عكرمة. والرابع: خير، أي: أجود، قاله قتادة.

والخامس: أطيب، قاله ابن السائب، ومقاتل.

والسادس: أرخص، قاله يمان بن رياب. قال ابن قتيبة: وأصل الزكاء: النماء والزيادة)(٢)، ولا تعارض بين الأقوال الخمسة الأولى، وكذا بالنسبة للسادس إن حمل على معنى رخص الثمن مع جودة النوع.

فائدتان من قولهم أزكى:

١- هذه الكلمة لا تعني التفضيل المطلق وإنما مطلق التفضيل، فليس المقصود البحث عن أزكى طعام على الإطلاق بل أرادوا طعاماً زكياً.

٢- وهي تفيد تحري المطعم الحلال، فإن الحرام لا يكون زكياً، وكثير من الناس لا يتحرى الحلال، قال ﷺ: "أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون] وَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢] ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ

(١) التحرير والتنوير ٨/ ٣٥٠.
(٢) زاد المسير ٤/ ٢١٢ بتصرف يسير.

أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟"(١)، وقال ﷺ: "لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ لَحْمٌ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ، النَّارُ أَوْلَى بِهِ"(٢).

قوله: ﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾﴾

قال ابن عاشور: (الرزق: القوت... والفاء لتفريع أمرهم مَن يبعثونه بأن يأتي بطعام زكي وبأن يتلطف)(٣). وقال ابن كثير: (وقوله: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ أي: في خروجه وذهابه، وشرائه وإيابه، يقولون: وَلْيَتَخَفَّ كل ما يقدر عليه ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ﴾ أي: ولا يعلمن بكم أحداً)(٤).

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾

قال الشوكاني: (علل ما سبق من الأمر والنهي فقال: {إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ} أي: يطلعوا عليكم، يعني: أهل المدينة، يرجموكم)(٥)، قال ابن عاشور: (والظهور أصله: البروز دون ساتر. ويطلق على الظفر بالشيء، وعلى الغلبة على الغير)(٦)، وهذا الأخير هو المراد، فمجرد علمهم بمكانهم لا يكفي، بل هو مقدمة للظفر بهم ومن ثم رجمهم أو إعادتهم في ملتهم.

أما الرجم في الآية فقد قال ابن الجوزي: (فيه ثلاثة أقوال: أحدها:

---

(١) صحيح مسلم ٢/ ٧٠٣ (١٠١٥).
(٢) مسند أحمد ٢٢/ ٣٣٢ (١٤٤٤١)، قال الأرناؤوط: إسناده قوي على شرط مسلم.
(٣) التحرير والتنوير ٨/ ٣٥٠.
(٤) تفسير ابن كثير ٥/ ١٤٥-١٤٦.
(٥) فتح القدير ٤/ ٣٧٧ بتصرف يسير.
(٦) التحرير والتنوير ٨/ ٣٥١.

يقتلوكم، قاله ابن عباس. وقال الزجاج: يقتلوكم بالرجم. والثاني: يرجموكم بأيديهم، استنكاراً لكم، قاله الحسن. والثالث: بألسنتهم شتماً لكم، قاله مجاهد، وابن جريج)(١)، والأولى أن يكون القتل بالرجم، لأن هذا هو ظاهر اللفظ ولا قرينة تصرف عنه، بل إن فرار الفتية من قومهم قرينة أكيدة على هذا المعنى، فلا يعقل أن يكونوا فروا من قومهم خوفاً من الشتم فحسب، ويبعد أن يكون الثاني، لأن من جهر بالحق بين يدي ذاك الملك الجبار يكون قد وطن نفسه على أذى أشد من هذا.

قال الشوكاني: (﴿ يَرْجُمُوكُمْ ﴾ يقتلوكم بالرجم، وهذه القتلة أخبث قتلة. وكان ذلك عادة لهم، ولهذا خصه من بين أنواع ما يقع به القتل)(٢).

قوله: ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾

قال ابن كثير: (يعنون أصحاب دقيانوس، يخافون منهم أن يطلعوا على مكانهم، فلا يزالون يعذبونهم بأنواع العذاب إلى أن يعيدوهم في ملتهم التي هم عليها أو يموتوا، وإن واتَوهم على العود في الدين فلا فلاح لهم في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا قال: ﴿ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾)(٣)، قال الشوكاني: (أي: يردّوكم إلى ملتهم التي كنتم عليها قبل أن يهديكم الله، أو المراد: الصيرورة، على تقدير أنهم لم يكونوا على ملتهم، وإيثار "في" على "إلى" للدلالة على الاستقرار. ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾ في (إذاً) معنى الشرط. كأنه قال: إن رجعتم إلى دينهم فلن تفلحوا إذاً أبداً، لا في الدنيا ولا في الآخرة)(٤)، وبهذا يعلم أنهم علقوا عدم الفلاح على العود في دينهم، لا على

---

(١) زاد المسير ٤/ ٢١٢.

(٢) فتح القدير ٤/ ٣٧٧ بتصرف يسير.

(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ١٤٥-١٤٦.

(٤) فتح القدير ٤/ ٣٧٧.

على الرجم لأنهم إن قتلوا في سبيل الله نالوا الشهادة وهذا من أعظم الفلاح في الدنيا والآخرة.

والذي أميل إليه أنهم لم يكونوا على ملة القوم وأن المقصود الصيرورة، كقوله: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ﴾ [الأعراف: ٨٨]، وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ﴾ [إبراهيم: ١٣]، فالأنبياء لم يكونوا على ملة الكفر على الراجح.

فإن قيل كيف يكون رجوعهم للكفر هلاكاً مع أنهم مكرهون؟ فالظاهر أن عدم المؤاخذة بالإكراه من خصائص هذه الأمة، لحديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: "إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه"(١)، قال القاري: "لم يتجاوز ذلك إلا عن هذه الأمة"(٢)، وعليه فإن من قبلنا كانوا غير معذورين بالإكراه، ولعل هذا سبب تحملهم العذاب وعدم النطق بالكفر، قال رسول الله ﷺ: "قد كان من قبلكم، يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد، ما دون لحمه وعظمه، فما يصده ذلك عن دينه"(٣)، وعليه فلم يكن لهم أن يتذرعوا بالإكراه فيرجعوا إلى دين قومهم.

أما إن قيل إن هذا الحكم غير مختص بهذه الأمة فيحمل قول الفتية على خشيتهم الفتنة، قال الرازي رحمه الله: (يحتمل أن يكون المراد أنهم لو

---

(١) سنن ابن ماجه ١/ ٦٥٩ (٢٠٤٥)، وصححه الألباني.

(٢) عمدة القاري ١٣/ ٨٧.

(٣) صحيح البخاري ٩/ ٢٠ (٦٩٤٣).

ردوا هؤلاء المسلمين إلى الكفر على سبيل الإكراه بقوا مظهرين لذلك الكفر مدة فإنه يميل قلبهم إلى ذلك الكفر ويصيرون كافرين في الحقيقة، فهذا الاحتمال قائم فكان خوفهم منه، والله أعلم)[1].

وهذا الخوف يدل على أن بشاشة الإيمان خالطت قلوبهم وذاقوا حلاوته، كما يدل على كراهيتهم العود في الكفر كرهاً شديداً، وفي الحديث: "ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار"[2]، وهذه حال أتباع الأنبياء على مر العصور ففي حديث هرقل أنه قال لأبي سفيان: "وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرتَ أن لا. وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب"[3].

---

(١) تفسير مفاتيح الغيب للرازي ١٠/ ١٨٥.

(٢) صحيح البخاري ١/ ١٤ (١٦)، صحيح مسلم ١/ ٦٦ (٤٣).

(٣) صحيح البخاري ١/ ٧ (٧).

لا تعارض بين طريق الإيمان وطيب العيش

سبق أن من معاني قوله تعالى: ﴿أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا﴾ أطيب طعاماً، فلم ينكر عليهم طلب الطعام الطيب أو أطيب الطعام مع أنهم دعاة إلى الحق، يحملون هموماً عظاماً وهم في قلب الصراع بين الحق والباطل، فلا مانع من أن يكون طعام أهل الصلاح طيباً، كما قال تعالى لبني إسرائيل: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا﴾ [البقرة: ٥٨]، قال ابن كثير: (رَغَدًا، أي: هنيئًا واسعًا طيبًا)[١]، فلا معنى لما يرمون به بعض أهل الحق من أباطيل إذا رأوا عليهم شيئاً من أثر النعمة، إذ يزعمون أن هذا مما لا ينبغي، بل جاء في الحديث: "إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده"[٢]، وعن أبي الأحوص عن أبيه قال: "أتيت النبي ﷺ في ثوب دُونٍ فقال: ألك مال؟ قال نعم. قال: من أي المال؟ قال: قد آتاني الله من الإبل والغنم والخيل والرقيق. قال: فإذا آتاك الله مالاً فلْيُرَ أثر نعمة الله عليك وكرامته"[٣]. وقد كان رسول الله ﷺ يأكل من طيب الطعام، وذهب يوماً إلى دار أحد الأنصار مع أبي بكر وعمر وكانوا جياعاً، قال أبو هريرة: "فَانْطَلَقَ، فَجَاءَهُمْ بِعِذْقٍ فِيهِ بُسْرٌ وَتَمْرٌ وَرُطَبٌ، فَقَالَ: كُلُوا مِنْ هَذِهِ، وَأَخَذَ الْمُدْيَةَ ... فَذَبَحَ لَهُمْ، فَأَكَلُوا مِنَ الشَّاةِ وَمِنْ ذَلِكَ الْعِذْقِ وَشَرِبُوا، فَلَمَّا أَنْ شَبِعُوا وَرَوُوا..."[٤] ، فانظر كيف ذبح لهم شاة ولم يكونوا سوى ثلاثة،

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٢٣٣.

(٢) سنن الترمذي ٥/ ١٢٣ (٢٨١٩)، قال الألباني: حسن صحيح.

(٣) سنن أبي داود ٢/ ٤٤٩ (٤٠٦٣).

(٤) صحيح مسلم ٣/ ١٦٠٩ (٢٠٣٨).

وانظر كيف أكلوا حتى شبعوا وشربوا حتى رووا، وهذا إبراهيم عليه السلام يأتيه أضيافه من الملائكة فيأتيهم بعجل سمين.

فلا حرج على أهل الفضل والصلاح وغيرهم في شيء من ذلك، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ١٧٢﴾ [البقرة]، لكن ما ينبغي التحرز منه هو الإسراف والتبذير، قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ٣١﴾ [الأعراف]، وقال: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ٢٦ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ٢٧﴾ [الإسراء]، وقال النبي ﷺ: "كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا ما لم يخالطه إسراف أو مَخِيلة[1]"[2].

وأما من يتباعد عن متاع الحياة الدنيا ويتقلل منها رجاء الخفة يوم الحساب، أو رجاء أن يتشبه به الناس إن كان متبوعاً فلا يتكالبوا على الدنيا، أو غير ذلك من المقاصد الحسنة، فلا حرج عليه ما دام لا يفعل ذلك تحريماً لما أحل الله، ولا يلزم غيره بمثل ذلك ولا يشق على من حوله من أهل وذرية، بل هو في فعله هذا مشكور محمود، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: "أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل"[3]، قال ابن بطال: (وهذا يدل على إيثار الزهد في الدنيا وأخذ البلغة منها والكفاف، فكما لا يحتاج المسافر إلى أكثر مما يبلغه إلى غاية سفره، فكذلك لا يحتاج المؤمن في الدنيا إلى أكثر مما يبلغه المحل)[4].

---

(١) المَخِيلة: الكبر، انظر لسان العرب مادة (خيل) ١١/ ٢٢٦.
(٢) سنن ابن ماجه ٢/ ١١٩٢ (٣٦٠٥)، وحسنه الألباني.
(٣) صحيح البخاري ٥/ ٢٣٥٨ (٦٠٥٣).
(٤) شرح ابن بطال ١٩/ ١٩٧.

فوائد من قوله تعالى: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾

الفائدة الأولى- لا تعارض بين الحكمة والشجاعة: في قوله تعالى: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ دليل على تجنب العنف ما أمكن في الدعوة، وهؤلاء الفتية كانوا شجعاناً اختاروا قرار الإيمان، وصدعوا به في وجه الملك الطاغية، ولكنهم لم يختاروا المواجهة لأنها اختيار غير حكيم في مثل حالهم، والصحابة كانوا يستخفون بدينهم، كما هاجر النبي ﷺ سرا من مكة إلى المدينة مع أنه أشجع الشجعان، ولكن الشجاعة بلا حكمة تهور مذموم.

فهؤلاء الفتية مع شجاعتهم وصدعهم بالحق، وربط الله على قلوبهم وثبتهم، إلا أنهم اختاروا البعد عن مواجهة السلطان، بالفرار منه أولاً، ثم بتوصيتهم لصاحبهم أن يتلطف ثانياً، هذا مع أن الحاكم كان كافراً لا يقر بالإسلام لا ظاهراً ولا باطناً، وفرق شاسع بين فعلهم هذا وبين من يثورون على حكام لم يخرجوا من الملة، أو على أقل تقدير لم تزل عنهم شبهة الإسلام.

إن المسلم الفطن ينظر إلى المآلات ويقدر العواقب ويحسب لكل خطوة حسابها، وهؤلاء مع أنهم كانوا فتية لم تعطهم السنون من حكمتها، إلا أن عقولهم كانت راجحة وأفهامهم كانت دقيقة، فاختاروا ألا يواجهوا في تلك الظروف التي تجعل عاقبة المواجهة محسومة لصالح عدوهم.

إن الداعية يوم يختار عدم المواجهة في مثل هذه المواقف لا يفعل ذلك ليسلم هو في نفسه، أو ينعم بالعيش الهادئ والحياة الرغدة البعيدة عن المشاكل، فلو كان الأمر كذلك، والهدف مجرد العيش الهادئ على هامش

التدين، لاختار أن يركب في سرج السلطان وأن يكون من علماء البلاط، ولا شك أن الحياة عندئذ أنعم وأرغد، لكن مشروعية المواجهة العنيفة أو عدمها من جهة، ثم الخوف على مستقبل الدعوة التي يحملها إن كانت المواجهة مشروعة من جهة أخرى، هو الذي يجعله يختار عدم المواجهة.

إن هؤلاء الفتية الذين تلطفوا ولم يبرزوا للسلطان مقاتلين لم يختاروا الحياة الرغدة، بل على العكس، إذ أووا إلى كهف لا يقارن بالمساكن التي كانوا يسكنون، ولا العيش فيه بالعيش الذي كانوا يعيشون، وإذا صح ما جاء من كونهم من أبناء علية القوم فلا شك أن الفرق بين العيشتين أكبر بكثير، فهذه تضحية كبيرة كانوا مستعدين لدفعها وتقديمها لأن بها صلاح دينهم، ولم يكونوا متهيئين لتضحية من نوع آخر، وهي حمل السلاح بأياد غضة وأسلحة متخلفة أمام جيش عرمرم وهم في قبضته، فإن ذلك ضرب من التهور المذموم وقطع الطريق أمام المجتمع ليرى الحقيقة كاملة؛ حقيقة ما عليه الملك من الضلال والغي، فإن العنف كان سيستغل من جانب الملك أسوأ استغلال، يستغل في تشويه الدعوة وتصويرها بالوحشية، فتختفي عندئذ عن الأعين ملامحها الحسنة وتبدو للناس وحشا مخيفاً.

إن من يشوه صورة الدعوة ليصد الناس عنها يتحمل وزراً عظيماً، ومن يعطي أعداء الدعوة الفرصة لمثل هذا التشويه بالتصرفات المتهورة، يتحمل جزءاً من المسؤولية وإن أراد الخير، لأنه لم يسلك طريق أهل العلم الراسخين، قال ابن مسعود ﷺ: "وكم من مريد للخير لن يصيبه"(١)، ويزداد الأمر خطورة عندما لا يلقي هذا المتهور بالاً لتحذير العلماء ونهيهم عن مثل هذا الصنيع، فلا شك أن المسؤولية هنا أكبر والإساءة أعظم.

---

(١) سنن الدارمي ١/ ٧٩ (٢٠٤)، قال حسين سليم أسد: إسناده جيد.

إن الصد عن سبيل الله بما يقع من أثر الأفعال المتفلتة من الضوابط الشرعية أمر شديد، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٩٤﴾ [النحل]، قال ابن كثير رحمه الله: (حذر تعالى عباده من اتخاذ الأيمان دخلاً أي خديعة ومكرًا، لئلا تَزِل قدم بعد ثبوتها؛ مثل لمن كان على الاستقامة فحاد عنها وزل عن طريق الهدى، بسبب الأيمان الحانثة المشتملة على الصد عن سبيل الله، لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده ثم غدر به، لم يبق له وثوق بالدين، فانصد بسببه عن الدخول في الإسلام؛ ولهذا قال: ﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٩٤﴾)[1]، فهل يرعوي هؤلاء الشباب، ويأخذوا حذرهم كي لا يكونوا كمن تكلمت عنهم الآية الكريمة، وهل يراجعون أنفسهم لينظروا مر الحصاد الذي يجنونه وتجنيه أمتهم بسببهم؟

وليس صحيحاً أن النبي ﷺ لم يواجه أهل مكة بسبب ضعف أصحابه فقط، فقد كانت معه منعة يوم العقبة حتى قَالَ لَهُ الْعَبَّاسُ بْنُ عُبَادَةَ بْنِ نَضْلَةَ: "وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَئِنْ شِئْتَ لَنَمِيلَنَّ عَلَى أَهْلِ مِنًى غَدًا بِأَسْيَافِنَا، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: لَمْ أُؤْمَرْ بِذَلِكَ"[2]، وسجل القرآن طلب بعض أصحابه قتال الكفار قبل الهجرة من مكة، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ...﴾ الآية [النساء: ٧٧]، قال ابن كثير رحمه الله: (كان المؤمنون في ابتداء الإسلام مأمورين بالصلاة والزكاة

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٦٠٠.

(٢) مسند أحمد ٢٥/ ٩٤ (١٥٧٩٨)، قال الأرناؤوط: حديث قوي.

وبالصفح والعفو عن المشركين والصبر إلى حين، وكانوا يتحرقون ويودون لو أمروا بالقتال ليشتفوا من أعدائهم... عن ابن عباس: أن عبدالرحمن بن عوف وأصحابا له أتوا النبي ﷺ بمكة، فقالوا: يا نبي الله، كنا في عز ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلة: قال: إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم)(١).

فهؤلاء عندهم استعداد للقتال، لكن الله لم يشرع ذلك يومها لأن الحكمة لم تكن في ذلك، فمكة بلد حرام من دخلها كان آمنا، وكان الرجل يرى قاتل والده في الطواف فلا يقتله لحرمة البيت، ولم يحل الله البيت لأحد، وإنما أحله للنبي ﷺ يوم فتح مكة ساعة من نهار، ولو قتل المسلمون المشركين لأنكرت العرب عليهم، وكان في هذا صد عن دين الله، وكذلك فقد كان المشركون يشنون حرباً إعلامية على الإسلام ونبيه ﷺ وأنه يفرق بين الرجل وأبيه وأهل بيته، ليُبَغِّضوا الدين إلى العرب، فكيف لو صار المسلمون يقتلون مشركي مكة وهم إخوتهم وبنو عمومتهم؟ وفي المقابل فإن كف اليد واحتمال الأذى، يظهر أن الكفار هم من يعذبون ويقتلون بني عمومتهم، وهذا من الحرب الإعلامية المضادة، فمن يقتل من المسلمين فهو شهيد، وهو في أعين الناس مظلوم، ومن طبيعة البشر الميل للمظلوم والتعاطف معه، وهذا باب يُفتح أمام المتعاطف ليعرف حقيقة هذا الدين الذي يعذب أهله ويقتلوا ويطردوا من ديارهم، وهذا نصر عظيم للدعوة.

ومن تأمل قصص الأنبياء علم يقينا أنه لم يقاتل نبي قومه في دارهم بين أظهرهم، وقتال النبي ﷺ أهل مكة كان بعد أن هاجر وصارت للإسلام دولة، وصارت مصلحة القتال غالبة، وبعد أن بدأهم المشركون

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٥٩ بتصرف واختصار.

بالقتال، وقد كان رسول الله ﷺ يستطيع يوم الحديبية أن يأخذ أهل مكة بالقوة لكنه أعرض لمصلحة، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفتح]، قال ابن كثير: (وقوله: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾ أي: بين أظهرهم ممن يكتم إيمانه خيفة على أنفسهم من قومهم، لكنا سلطناكم عليهم فقتلتموهم، ولكن بين أفنائهم من المؤمنين والمؤمنات أقوام لا تعرفونهم حالة القتل؛ ولهذا قال: ﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ﴾ أي: إثم وغرامة ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي: يؤخر عقوبتهم ليخلص من بين أظهرهم المؤمنين، وليرجع كثير منهم إلى الإسلام. ثم قال: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟﴾ أي: لو تميز الكفار من المؤمنين ﴿لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: لسلطناكم عليهم فلقتلتموهم)[1].

وفي المقابل ننظر للإخوة الذين لجؤوا للعنف في كثير من البلاد، ماذا كانت النتيجة؟ كم أزهق من أرواح وسال من دماء وأخرت الدعوة؟ وكلنا رأينا كيف قام عديد من هؤلاء الإخوة بعمل مراجعات فكرية وتراجعات عن منهجهم الذي كانوا عليه، بل إن بعض رؤوسهم أعلن اعتذارهم الصريح للشعب جراء ما أدت إليه بعض أفعالهم، غفر الله لنا ولهم.

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ٧/ ٣٤٤ بتصرف يسير.

الفائدة الثانية- التلطف منهج رباني: قال سلام أبو محمد الحماني: إن الحَجَّاج جمع القراء والحفاظ والكتاب فقال: أخبروني عن القرآن كله كم حرف هو؟ قال: فحسبنا فأجمعوا أنه ثلاثمائة ألف وأربعون ألف وسبعمائة وأربعون حرفا. قال: فأخبروني عن نصفه. فإذا هو إلى الفاء من قوله وليتلطف[١]، وهذه الموافقة كان ينبغي للحجاج أن يعتبر بها ويتلطف!

وفي مجيء هذه الكلمة في منتصف القرآن لطيفة، فكلمة (وليتلطف) تتوسط القرآن والوسطية الحقة منهج رباني وهي تقتضي كثيراً من التلطف، وقد بين النبي ﷺ فضل الرفق والتلطف فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: "دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا: السام عليكم. قالت عائشة: ففهمتها فقلت: وعليكم السام واللعنة. قالت: فقال رسول الله ﷺ: مهلاً يا عائشة إن الله يحب الرفق في الأمر كله. فقلت: يا رسول الله أو لم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله ﷺ: قد قلت وعليكم"[٢]، وقال ﷺ: "من يحرم الرفق يحرم الخير"[٣]، وقال: "إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي على ما سواه"[٤].

إن الرفق واللطف في موضعهما من صفات الوسطية، والخور والميوعة من صفات الجبناء المفرطين، تدفعهم لترك الحق والتنازل عنه دفعاً، كما أن الشدة والعنف في غير موضعهما من صفات الغلاة المتهورين، والنفس بطبعها جامحة إلى الاستعجال والانتقام الذي يؤدي في كثير من الأحيان إلى ما لا تحمد عقباه، ومتى ترك العبدُ اللُّطْفَ كان التطرف

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٩٩.

(٢) صحيح البخاري ٥/ ٢٢٤٢ (٥٦٧٨)، صحيح مسلم ٤/ ١٧٠٦ (٢١٦٥).

(٣) صحيح مسلم ٤/ ٢٠٠٣ (٢٥٩٢).

(٤) صحيح مسلم ٤/ ٢٠٠٣ (٢٥٩٣).

والعطب، كما هو مشاهد من حال جماعات وأفراد تنكبوا طريق الرفق فآل بهم المآل إلى ذلك.

الفائدة الثالثة- البعد عن أسباب الفتن: وهي من أعظم الفوائد التي يحرص عليها المسلم، فهؤلاء الشباب أوصوا موفدهم بأن يتلطف، مخافة أن يُعثر عليه فيدل عليهم فيُفتنوا في دينهم، وهذا أصل عام في النأي عن الفتن عامة، قال رسول الله ﷺ: "إن السعيد لَمَن جُنِّبَ الفتن، ثلاثا، ولَمَن ابتلي فصبر فواهاً"(١)، وقال: "أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا"(٢)، لأن القلوب ما لم يثبتها الله تتقلب، فإذا تعرضت للفتن كان الخطر أعظم، فالقلوب كما قيل ضعيفة والفتن خطافة، ولهذا كان النبي ﷺ كما قال أنس: "يكثر أن يقول يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك. فقلت: يا رسول الله آمنا وبك وبما جئت به فهل تخاف علينا؟ قال: نعم إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله يقلبهما كما يشاء"(٣).

وهنا ملمح مهم، فإن البعد عن الفتن لا يعني أن يتخلى المؤمن عن دينه، فهذه أعظم فتنة يهرب منها! وقد ثبت أن النبي ﷺ أبى أن يجيب المشركين، وتحمل في ذلك هو وأصحابه الكثير حتى حاصرتهم قريش في الشعب، ومنعوا عنهم المدد والبيع والشراء والنكاح وغير ذلك، فما رده ذلك عن دعوته، وعن الحسن مرسلا: "رَحِمَ اللهُ يُوسُفَ لَوْ أَنَا جَاءَنِي

---

(١) سنن أبي داود ٢/ ٥٠٣ (٤٢٦٣)، وصححه الألباني.
(٢) صحيح البخاري ٣/ ١٠٨٢ (٢٨٠٤)، صحيح مسلم ٣/ ١٣٦٢ (١٧٤٢).
(٣) سنن الترمذي ٤/ ٤٤٨ (٢١٤٠)، وصححه الألباني.

الرَّسُولُ بَعْدَ طُولِ السِّجْنِ لَأَسْرَعْتُ لِلْإِجَابَةِ"(١)، أي لخرج من أول مرة طلبه فيها الملك ولما قال: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٥٠]، والفرق بين الحالين جلي واضح، فما دامت الاستجابة لا تنال من دين المرء، فلا بأس، والسلامة لا يعدلها شيء، وأما إن مست شيئاً من ذلك فلا، وليقل: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣].

وقد عرض على بعض الدعاة الخروج من السجن مع الامتناع عن بعض الأمور أو القيام بأخرى مما لا يمس الدين والمنهج فأبى وفضل السجن، وبمرور الوقت عاد ليطلب ما كان رفضه فلم يُجب إلى ما أراد، فعلى المرء أن يرفق بنفسه ولا يحملها ما يشق بلا ضرورة شرعية، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران].

الفائدة الرابعة- الاستغلال الأمثل للطاقات: نلاحظ أنهم أرسلوا واحداً منهم فقط، وهذا من التلطف أيضاً، فإن الواحد أقل مدعاة للفت النظر والانتباه، بخلاف ما لو ذهب اثنان أو أكثر، وفي هذا درس مهم للعاملين في مجال الدعوة، وهو تكليف العدد المناسب للمهمة، فإن الزيادة قد تفسد العمل، وفيها إهدار لطاقات يمكن توجيهها لعمل آخر مفيد.

الفائدة الخامسة- من التلطف تعليل التوجيه: الفتية متساوون فيما بينهم، لا فضل لأحد منهم على أحد، وهذا لم يمنعهم أن يقوموا بالتوجيه والندب فيما بينهم، لفعل ما فيه مصلحة الفرد أو الجماعة، وعلى من وجه له التوجيه أن يقبله بصدر رحب ولا تأخذه الأنفة وتمنعه من الاستجابة، وهذا من ثمرات الشورى المطلوبة، وإلا فقدت الثمرة المرجوة منها.

---

(١) الزهد لأحمد بن حنبل ص:٦٨ (٤٢٠)، قال الألباني في الصحيحة ٤/ ٤٨٥ (١٨٦٨): سنده صحيح مرسلاً.

ونلاحظ هنا أدباً مهماً في التوجيه وهو ذكر العلة ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ [الكهف]، فالتلطف على ألا يشعر به أرجى للنجاة من بطش القوم، وهكذا ينبغي أن يكون الإخوة فيما بينهم، بل هكذا ينبغي أن يكون المربي أيضاً، فيعلل لتلامذته ويبين لهم وجه المصلحة فيما يرشدهم ويدلهم إليه ما وجد إلى ذلك سبيلاً.

الفائدة السادسة- العمل السري: تلطف صاحب الفتية وتخفيه، وحرص الفتية على ألا يشعر بهم أحد، يدل على أنهم قد انتهجوا نوعاً من العمل السري، ولا شك أن الأصل في العمل لدين الله العلن، ولكن قد تضطر ظروف القهر والملاحقة إلى السرية، وهذا قد حصل على مر الأزمان، وليس ببعيد عنا حال إخواننا المسلمين الذين حكمتهم الدول الشيوعية لعقود، وكذا ما كان في بعض البلاد التي حكمت بحكومات علمانية.

لقد كانت الدعوة في مبدئها في مكة المكرمة سرية، وهاجر النبي ﷺ إلى المدينة المنورة سراً، ولم يكن ذلك عن ضعف ولا عن جبن، فقد كان بأبي هو وأمي أشجع الشجعان كما يظهر ذلك لكل من قرأ سيرته، ويكفي كمثال على ذلك أن علياً - في شجاعته - قال: "كُنَّا إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ، وَلَقِيَ الْقَوْمُ الْقَوْمَ، اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ الله ﷺ، فَمَا يَكُونُ مِنَّا أَحَدٌ أَدْنَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْهُ"(١)، لكنه ﷺ يراعي حال ضعاف أمته، ويريد أن يرفع عن أمته الحرج، ويختار لها أيسر الأمور ما لم تكن إثماً. فما كان من سرية في مكة ليس قاصراً

(١) مسند أحمد ٢/ ٤٥٣ (١٣٤٧)، قال الأرناؤوط: إسناده صحيح.

على تلك الأيام، بل هو لمثلها على مر الزمان. وليس قاصراً على حال الضرورة، بل قد تدعو الحاجة لشيء من السرية، وقد كنا نجتمع بالشيخ ابن باز رحمه الله اجتماعاً خاصاً لا يحضره إلا مجموعة محددة ولا يسمح لغيرهم، فسأله أحد المشايخ أليس هذا اجتماعاً سرياً؟ فأجاب: هو اجتماع على البر والتقوى.

وفي كثير من البلاد لا يمكن أن تحافظ الجماعة المسلمة على دينها إلا بالعمل سراً، عن حُذَيْفَةَ قَالَ: "كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ: أَحْصُوا لِي كَمْ يَلْفِظُ الْإِسْلَامَ، قَالَ: فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ الله، أَتَخَافُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ مَا بَيْنَ السِّتِّمِائَةِ إِلَى السَّبْعِمِائةِ؟ قَالَ: إِنَّكُمْ لَا تَدْرُونَ لَعَلَّكُمْ أَنْ تُبْتَلَوْا، قَالَ: فَابْتُلِينَا حَتَّى جَعَلَ الرَّجُلُ مِنَّا لَا يُصَلِّي إِلَّا سِرًّا"(١)، وهذا كان في المدينة بعد الهجرة، فإن حذيفة رضي الله عنه أسلم فيها. وقد وقع هذا للأنبياء وأتباعهم، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٨٧﴾ [يونس]، أي: كانوا خائفين، فأمروا أن يصلوا في بيوتهم، قال ابن كثير: (كذا قال مجاهد، وأبو مالك، والربيع بن أنس، والضحاك، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وأبوه زيد بن أسلم)(٢). وقال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ [هود: ٨١]، وفي الحديث: "استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان"(٣)، وإن كان ضعيفا فهو صحيح المعنى، والعقل يشهد لذلك.

---

(١) صحيح مسلم ١/ ١٣١ (١٤٩).

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٨٩.

(٣) المعجم الأوسط للطبراني ٣/ ٥٥ (٢٤٥٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته ١/ ٢٢٣ (٩٤٣).

الفائدة السابعة- مراعاة حال الأتباع: إذا كان التلطف مع الأعداء مطلوباً لتحصيل منفعة دينية، فهو مطلوب مع المؤمنين من باب أولى، ومن التلطف أن يراعي المربي حال من معه من طلاب أو أتباع، وقد كان هذا ديدنه ﷺ مع أصحابه، فعن أبي مسعود رضي الله عنه قال: "أتى رجلٌ النبيَّ ﷺ فقال: إني لأتأخر عن صلاة الغداة، من أجل فلان مما يطيل بنا، قال: فما رأيت رسول الله ﷺ قط أشد غضبا في موعظة منه يومئذ، قال: فقال: يا أيها الناس، إن منكم منفرين، فأيكم ما صلى بالناس فليتجوز، فإن فيهم المريض والكبير وذا الحاجة"(١). ومن تلطفه أنه كان ينهاهم عن التشبه به فيما هو من خصوصياته، كالوصال في الصيام، فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: "نهى رسول الله ﷺ عن الوصال رحمة لهم. فقالوا: إنك تواصل، قال: إني لست كهيئتكم إني يطعمني ربي ويسقين"(٢)، ونهى عن التعمق في العبادة كما في حديث أنس رضي الله عنه قال: "جَاءَ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ؟ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلاَ أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ للهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي"(٣)، ونهى عن عبادة تفضي إلى المشقة فعنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رضي الله عنهما، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ

---

(١) صحيح البخاري ٨/ ٢٧ (٦١١٠)، صحيح مسلم ١/ ٣٤٠ (٤٦٦).

(٢) صحيح البخاري ٣/ ٣٧ (١٩٦٤)، صحيح مسلم ٢/ ٧٧٦ (١١٠٥).

(٣) صحيح البخاري ٥/ ١٩٤٩ (٤٧٧٦)، صحيح مسلم ٢/ ١٠٢٠ (١٤٠١).

خَرَجَ عَامَ الْفَتْحِ إِلَى مَكَّةَ فِي رَمَضَانَ فَصَامَ حَتَّى بَلَغَ كُرَاعَ الْغَمِيمِ، فَصَامَ النَّاسُ، ثُمَّ دَعَا بِقَدَحٍ مِنْ مَاءٍ فَرَفَعَهُ، حَتَّى نَظَرَ النَّاسُ إِلَيْهِ، ثُمَّ شَرِبَ، فَقِيلَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ: إِنَّ بَعْضَ النَّاسِ قَدْ صَامَ، فَقَالَ: أُولَئِكَ الْعُصَاةُ، أُولَئِكَ الْعُصَاةُ"(١)، وفي رواية عند مسلم أيضاً: " فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ النَّاسَ قَدْ شَقَّ عَلَيْهِمِ الصِّيَامُ، وَإِنَّمَا يَنْظُرُونَ فِيمَا فَعَلْتَ، فَدَعَا بِقَدَحٍ مِنْ مَاءٍ بَعْدَ الْعَصْرِ"(٢)، وعن جابر ﷺ أيضاً قال: "كَانَ رَسُولُ الله ﷺ فِي سَفَرٍ، فَرَأَى رَجُلًا قَدِ اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَيْهِ، وَقَدْ ظُلِّلَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: مَا لَهُ؟ قَالُوا: رَجُلٌ صَائِمٌ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تَصُومُوا فِي السَّفَرِ"(٣)، قال النووي رحمه الله: (معناه إذا شق عليكم وخفتم الضرر، وسياق الحديث يقتضي هذا التأويل، وهذه الرواية مبينة للروايات المطلقة ليس من البر الصيام في السفر، ومعنى الجميع فيمن تضرر بالصوم)(٤)، وهذا فهم سديد يدل عليه فعله ﷺ وأصحابه ﷺ، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: "لَا تَعِبْ عَلَى مَنْ صَامَ، وَلَا عَلَى مَنْ أَفْطَرَ، قَدْ صَامَ رَسُولُ الله ﷺ فِي السَّفَرِ وَأَفْطَرَ"(٥)، وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، وَجَابِرٍ ﷺ، قَالَا: "سَافَرْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ، فَيَصُومُ الصَّائِمُ، وَيُفْطِرُ الْمُفْطِرُ، فَلَا يَعِيبُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ"(٦).

ومن ذلك أنه كان يُسأل عن أفضل الأعمال وأحبها إلى الله فتختلف إجابته، وقد ذهب جمع من أهل العلم إلى أن مرجع ذلك إلى اختلاف

---

(١) صحيح مسلم ٢/ ٧٨٥ (١١١٤).
(٢) صحيح مسلم ٢/ ٧٨٦ (١١١٤).
(٣) صحيح مسلم ٢/ ٧٨٦ (١١١٥).
(٤) شرح النووي على مسلم ٧/ ٢٣٣.
(٥) صحيح مسلم ٢/ ٧٨٥ (١١١٣).
(٦) صحيح مسلم ٢/ ٧٨٧ (١١١٧).

أحوال السائلين. وهكذا ينبغي أن يراعي المربي حال طلابه، فالناس متفاوتون فيما بينهم من جهة القدرة ومن جهة الميل وطباع النفس، فمنهم من يجد نفسه في الصلاة أو في الصوم أو في نفع الناس بماله أو جاهه أو جهده ووقته وهكذا، وفي كل خير، فعن أبي هريرة ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهَّ ﷺ، قَالَ: "مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللهَّ، نُودِيَ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ: يَا عَبْدَ اللهَّ هَذَا خَيْرٌ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلاَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلاَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ"(١)، فلا ينبغي أن نحجر واسعاً ولا أن نحمل الناس على المشاق في النوافل فكل ميسر لما خلق له، وقد سئل ابن تيمية ﷺ عن أفضل الأعمال فقال: (يخْتَلف باخْتلَاف النَّاس فِيمَا يقدرُونَ عَلَيْهِ وَمَا يُنَاسب أوقاتهم فَلَا يُمكن فِيهِ جَوَاب جَامع مفصل لكل أحد)(٢)، وقد كان ابن مسعود ﷺ على جلالته لا يكثر من الصوم، فعَنْ سُفْيَانَ، قَالَ: قِيلَ لِعَبْدِ اللهَّ: إِنَّكَ تُقِلُّ الصَّوْمَ، فَقَالَ: "إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمْنَعَنِي مِنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، فَإِنَّ قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الصَّوْمِ"(٣)، وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ، قَالَ: "كَانَ عَبْدُ الله يُقِلُّ الصِّيَامَ، فَقُلْنَا لَهُ: إِنَّكَ تُقِلُّ الصَّوْمَ، قَالَ: إِنِّي إِذَا صُمْتُ ضَعُفْتُ عَنِ الصَّلَاةِ، وَالصَّلَاةُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الصِّيَامِ"(٤).

---

(١) صحيح البخاري ٢/ ٦٧١ (١٧٩٨)، صحيح مسلم ٢/ ٧١١ (١٠٢٧).

(٢) مجموع الفتاوى ١٠/ ٦٦٠.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة ٢/ ٢٧٤ (٨٩٠٩).

(٤) المعجم الكبير للطبراني ٩/ ١٧٥ (٨٨٧٠).

الفائدة الثامنة- التلطف منهج سليم في التعامل مع المشكلات: الحياة لا تخلو من المشكلات، في أي مجتمع مهما صغر، بدءاً من البيت، مروراً بالجوار فمواقع الدراسة والعمل، إلى مستوى الدولة، انتهاء بالعلاقات بين الدول. والوصول إلى حلول لهذه المشكلات لا بد له من تلطف وهدوء وتأن، وكلما كبرت المشكلة زادت الحاجة للهدوء والتروي.

من المشكلات ما يمكن حله في الحال، ومنها ما يحتاج لأيام أو أسابيع، وهناك مشكلات قد يستغرق علاجها سنوات، فلا بد من الحكمة وتقدير الأمور بقدرها، لأن مايحتاج لسنوات لا يمكن حله في دقائق، ولو أصررنا على ذلك فلن تحل وقد يقع المحذور من طلاق أو شقاق، أما التروي والتعامل بحكمة مع التحلي بالصبر فإنه كفيل بعد توفيق الله ﷻ بتذليل الصعاب. إن كثيراً من المشكلات الأسرية تستفحل وربما تصل إلى حد الطلاق لغياب الحكمة والروية، وإن إعمال هذه المفاهيم من أكثر ما يعيننا للتغلب على الواقع المرير. فالحكمة: فعل ما ينبغي كما ينبغي في الوقت الذي ينبغي، فعلى كل من الرجل والمرأة أن يتعاملا مع مشكلاتهما بتلطف وبعد نظر وعدم تعجل، وكذلك عليهما أن يفعلا مع أولادهما، وهذا كان سيغنينا عن كثير من المشكلات ويعين على حلها.

ومن التلطف ألا يشعر أحد من المحيطين بالمشكلة بلا داع، لا الأهل ولا الجيران ولا الأصدقاء. ومن التلطف أن يختار الإنسان الوقت المناسب للتباحث في المشكلة، فليس من المناسب النقاش حال غضب أحد الطرفين، بل هذا يستدعي المداراة لعدم الصدام الذي يورث العداوة والبغضاء وقد يوصل إلى القطيعة. فعن إبراهيم بن أدهم قال: قال أبو الدرداء لأم الدرداء: (إذا غضبت ترضيني، وإذا غضبت رضيتك، فمتى لم

يكن هكذا ما أسرع ما نفترق)(١)، وقال إبراهيم بن أدهم لبقية بن الوليد معقباً: (يا أخي، هكذا الإخوان، إن لم يكونوا كذا ما أسرع ما يفترقون!)(٢). فينبغي أن يختار المرء وقت الصفاء للحوار والنقاش، وينبغي أن يكون الهدف الوصول لحل مشروع يرضي الجميع، إذ ما من مشكلة إلا ولها حل، لأن المشكلات كالأمراض التي تحتاج إلى علاج، وقد قال النبي ﷺ: "إِنَّ اللهَ ﷻ لَمْ يُنْزِلْ دَاءً إِلَّا وَقَدْ أَنْزَلَ مَعَهُ دَوَاءً، جَهِلَهُ مِنْكُمْ مَنْ جَهِلَهُ، وَعَلِمَهُ مِنْكُمْ مَنْ عَلِمَهُ"(٣).

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ٧٠/ ١٥٢.

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر ٧٠/ ١٥١

(٣) مسند أحمد ٧/ ٣٠١ (٤٢٦٧)، وقال الأرناؤوط: صحيح لغيره.

بين التوكل والتواكل

التوكل على الله من أجل العبادات وأعظم القربات، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [هود]، وقد أمر الله ﷻ في كثير من آيات القرآن بالتوكل عليه، قال تعالى مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾﴾ [الشعراء]، وقال مخاطباً المؤمنين: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [آل عمران]، كما حض النبي ﷺ على التوكل فقال: "لو أنكم كنتم توكلون على الله حق توكله لرُزِقتم كما تُرزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً"(١).

وقال المناوي رحمه الله: (أي تغدو بكرة وهي جياع، وتروح عشاء وهي ممتلئة الأجواف، فالكسب ليس برازق بل الرازق هو الله، فأشار بذلك إلى أن التوكل ليس التبطل والتعطل بل لا بد فيه من التوصل بنوع من السبب، لأن الطير ترزق بالطلب والسعي، ولهذا قال أحمد: ليس في الحديث ما يدل على ترك الكسب بل فيه ما يدل على طلب الرزق، وإنما أراد لو توكلوا على الله في ذهابهم ومجيئهم وتصرفهم وعلموا أن الخير بيده، لم ينصرفوا إلا غانمين سالمين كالطير)(٢)، قال المباركفوري: ("حق توكله" بأن تعلموا يقينا أن لا فاعل إلا الله وأن لا معطي ولا مانع إلا هو ثم تسعون في الطلب بوجه جميل وتوكل... وقال الشيخ أبو حامد: وقد يظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن، وترك التدبير بالقلب، والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة أو كلحم على وضم، وهذا ظن الجهال فإن

---

(١) سنن الترمذي ٤/ ٥٧٣ (٢٣٤٤)، قال الشيخ الألباني: صحيح.

(٢) التيسير بشرح الجامع الصغير للمناوي ٢/ ٥٩٤.

ذلك حرام في الشرع، والشرع قد أثنى على المتوكلين ... إنما يظهر تأثير التوكل في حركة العبد وسعيه بعمله إلى مقاصده. وقال القشيري: اعلم أن التوكل محله القلب، وأما الحركة بالظاهر فلا تنافي التوكل بالقلب بعد ما يحقق العبد أن الرزق من قبل الله تعالى، فإن تعسر شيء فبتقديره وإن تيسر شيء فبتيسيره)[1].

إذا تقرر ذلك فللتوكل على الله ﷻ ركنان، ظاهر وباطن، أما الظاهر فهو السعي والأخذ بالأسباب لتحصيل المقصود، وأما الباطن فهو تعلق القلب بالله وحده، لا بغيره من هذه الأسباب أو غيرها، فترك الأسباب لا يسمى توكلاً بل تواكلاً، وهو قدح في الشرع وتعطيل له إذ أمر بالأخذ بها، والاعتماد على الأسباب قدح في التوحيد والاعتماد على الله دون سواه.

وقد كان حمل الفتية الورِق مع دعائهم أن يهيئ الله لهم من أمرهم رشداً وثقتهم أنه سيهيئ لهم من أمرهم مرفقاً، تطبيقاً عملياً للتوكل كما ينبغي، قال البقاعي رحمه الله: (وفي قصتهم دليل على أن حمل المسافر ما يصلحه من المنفعة رأي المتوكلين لا المتآكلين المتكلين على الإنفاقات)[2]، وهذا شبيه بما كان في قصة موسى عليه السلام مع فتاه كما سيأتي، إذ خرجا في سفرهما متزودين بما يحتاجانه من طعام، يدل على ذلك قوله عليه السلام لفتاه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾، قال القرطبي: (فيه مسألة واحدة، وهو اتخاذ الزاد في الأسفار، وهو رد على الصوفية الجهلة الأغمار، الذين يقتحمون المهامة والقفار، زعما منهم أن ذلك هو التوكل على الله الواحد القهار، هذا موسى

---

(١) تحفة الأحوذي ٧/ ٧ بتصرف.

(٢) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٣٢.

-نبي الله وكليمه من أهل الأرض- قد اتخذ الزاد مع معرفته بربه، وتوكله على رب العباد)[١].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: "كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون نحن المتوكلون فإذا قدموا مكة سألوا الناس فأنزل الله: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧]"[٢]. قال المهلب: وفيه أن التوكل لا يكون مع السؤال وإنما التوكل المحمود أن لا يستعين بأحد في شيء وقيل هو قطع النظر عن الأسباب بعد تهيئة الأسباب كما قال عليه السلام: اعقلها وتوكل[٣].

عثور الناس على الفتية:

ذكر أهل التفسير أنه بمضي القرون هلك الملك الظالم الذي فر الفتية منه وتوالت أجيال، فلما ذهب صاحب الفتية ودخل المدينة وجد معالمها متغيرة وأنكر وجوه أهلها، فلما دفع الورِق للبائع أنكرها وظن الناس أن الفتى قد عثر على كنز وفشا الأمر فحملوه إلى ملكهم وكان رجلاً صالحاً، فلما علم بالقصة سار مع قومه إلى الكهف ليطلعوا على هذه الآية العجيبة[٤].

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾

فقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾

---

(١) تفسير القرطبي ١١/ ١٣.
(٢) صحيح البخاري ٢/ ٥٥٤ (١٤٥١).
(٣) فتح الباري ٣/ ٣٨٤.
(٤) ينظر تفسير الطبري وغيره.

قال ابن كثير: (أي: أطلعنا عليهم الناس)[1]، وقال ابن الجوزي: (أي: وكما أنمناهم وبعثناهم، أطلعنا وأظهرنا عليهم. قال ابن قتيبة: وأصل هذا أن من عَثَر بشيء وهو غافل، نظر إليه حتى يعرفه، فاستعير العِثار مكان التبيين والظهور، ومنه قول الناس: ما عثرت على فلان بسوءٍ قط، أي: ما ظهرت على ذلك منه)[2]، والمقصود بـ (أعثرنا) أهل الزمان الذي بعثوا فيه.

وقوله: ﴿لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾

قال ابن الجوزي: (في المشار إليهم بهذا العلم قولان: أحدهما: أنهم أهل بلدهم حين اختصموا في البعث، فبعث الله أهل الكهف ليعلموا ﴿أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ بالبعث والجزاء ﴿حَقٌّ﴾ وأن القيامة لا شك فيها، هذا قول الأكثرين. والثاني: أنهم أهل الكهف، بعثناهم ليرَوْا بعد علمهم أن وعد الله حق، ذكره الماوردي)[3]، وقال ابن كثير: (ذكر غير واحد من السلف أنه كان قد حصل لأهل ذلك الزمان شك في البعث وفي أمر القيامة. وقال عكرمة: كان منهم طائفة قد قالوا: تبعث الأرواح ولا تبعث الأجساد. فبعث الله أهل الكهف حجة ودلالة وآية على ذلك)[4]، قال الطبري: (يقول تعالى ذكره: وكما بعثناهم بعد طول رقدتهم كهيئتهم ساعة رقدوا، ليتساءلوا بينهم، فيزدادوا بعظيم سلطان الله بصيرة، وبحسن دفاع الله عن أوليائه معرفة... كذلك أطلعنا عليهم الفريق الآخر الذين كانوا في

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٤٦.
(٢) زاد المسير ٤/ ٢١٣.
(٣) زاد المسير ٤/ ٢١٣.
(٤) تفسير ابن كثير ٥/ ١٤٦.

شكّ من قُدرة الله على إحياء الموتى، وفي مِرْية من إنشاء أجسام خلقه، كهيئتهم يوم قبضهم بعد البِلَى، فيعلموا أن وَعْد الله حق، ويُوقنوا أن الساعة آتية)(١).

قال الألوسي رحمه الله: (﴿أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي وعده سبحانه بالبعث... ويجوز أن يراد كل وعده أو كل موعوده سبحانه، ويدخل في ذلك ما ذُكِر دخولاً أولياً. ﴿حَقٌّ﴾ صادق لا خلف فيه، أو متحقق سيقع ولابد، قيل لأن نومهم الطويل المخالف للمعتاد وانتباههم، كالموت والبعث. ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ أي وقت بعث الخلائق جميعاً للحساب والجزاء، ﴿لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾ أي ينبغي أن لا يُرتابَ في وقوعها، لأنه لا يبقى بيد المرتابين بعد النظر سوى الاستناد إلى الاستبعاد، وعلمهم بوقوع ذلك الأمر الغريب والحال العجيب الذي لو سمعوه ولم يتحققوا وقوعه لاستبعدوه وارتابوا فيه ارتيابهم في ذلك، يكسر شوكة ذلك الاستبعاد ويهدم ذلك الاستناد، فينبغي حينئذٍ أن لا يرتابوا)(٢).

تنبيه- اعلم أن ما أشار إليه الألوسي رحمه الله من شمول الوعد الحق كل وعد الله وموعوده أمر يجب على كل المؤمنين اعتقاده، فكل ما وعد به ربنا واقع لا محالة؛ من نصرة الحق وأوليائه، ومن انتصار الإسلام وانتشاره في الأرض وعموم رسالته المشرق والمغرب، والتمكين لأهله على باقي الأمم، وما أحوجنا اليوم إلى تأكيد هذه المعاني وتذكير الناس بها، لشحذ الهمم وطرد اليأس من قلوب من تؤرقهم الفتن. لقد وعد ربنا على لسان نبيه ﷺ فقال: "لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ، فَيَقْتُلُهُمُ

---

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٦٣٩ بتصرف يسير.
(٢) روح المعاني: ١١/ ١٩٠ بتصرف واختصار يسير.

الْمُسْلِمُونَ حَتَّى يَخْتَبِئَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ، فَيَقُولُ الْحَجَرُ أَوِ الشَّجَرُ: يَا مُسْلِمُ يَا عَبْدَ الله هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي، فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ، إِلَّا الْغَرْقَدَ، فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ"(١)، فهذا حاصل لا محالة مهما تآمرت الأمم وأعانت علينا بني يهود، ومهما فعل اليهود من تهويد وسعي لهدم المسجد الأقصى وإقامة الهيكل المزعوم وطرد الفلسطينيين، كل ذلك لن يحول دون موعود الله ونصرنا عليهم، وكذلك وعد ربنا على لسان رسوله ﷺ بقوله: "لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ هَذَا الدِّينَ، بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللهُ بِهِ الْإِسْلَامَ، وَذُلًّا يُذِلُّ اللهُ بِهِ الْكُفْرَ"(٢)، فهذا حاصل مهما كاد أهل الكفر للإسلام وحاربوه بالسنان أو اللسان أو الخديعة وبث الفتن وإغراق أهل الإسلام بالشبهات والشهوات.

بيد أن هذا الاعتقاد لا ينبغي أن يحول بين المرء والعمل لدين الله، ولا يركن لهذا الموعود ويترك العمل انتظاراً له، فهذا من العجز والتواكل المنهي عنه، بل المطلوب هو أن يمتلئ القلب بالأمل والتفاؤل، وأن يبذل المرء كل ما في وسعه ليكون سبباً من أسباب تحقق موعود الله على أرض الواقع.

وقوله: ﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾

قال ابن الجوزي: (يعني: أهل ذلك الزمان. قال ابن الأنباري: إذ كانوا يتنازعون، ويجوز أن يكون: إذ تنازعوا. وفي ما تنازعوا فيه خمسة أقوال:

---

(١) صحيح مسلم ٤/ ٢٢٣٩ (٢٩٢٢).

(٢) مسند أحمد ٢٨/ ١٥٥ (١٦٩٥٧)، قال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

أحدها: أنهم تنازعوا في البنيان والمسجد. فقال المسلمون: مسجداً، لأنهم على ديننا؛ وقال المشركون: بنياناً، لأنهم من أهل سُنّتنا، قاله ابن عباس.

والثاني: أنهم تنازعوا في البعث، فقال المسلمون: تُبعث الأجساد والأرواح، وقال بعضهم: تُبعث الأرواح دون الأجساد، فأراهم الله تعالى بعث الأرواح والأجساد ببعثه أهل الكهف، قاله عكرمة.

والثالث: أنهم تنازعوا ما يصنعون بالفتية، قاله مقاتل. والرابع: أنهم تنازعوا في قدْر مكثهم. والخامس: تنازعوا في عددهم، ذكرهما الثعلبي)[١].

وقوله تعالى: ﴿فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَـٰنًا﴾

قال ابن الجوزي: (أي: استروهم من الناس بأن تجعلوهم وراء ذلك البنيان. وفي القائلين لهذا قولان: أحدهما: مشركو ذلك الزمان، عن ابن عباس. والثاني: الذين أسلموا حين رأوا أهل الكهف، قاله ابن السائب)[٢].

وقوله: ﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ قال ابن عاشور: (يجوز أن تكون من كلام الذين قالوا: ابنوا عليهم بنياناً والمعنى: ربهم أعلم بشؤونهم التي تنازعنا فيها، فهذا تنهية للتنازع في أمرهم. ويجوز أن تكون معترضة من كلام الله تعالى في أثناء حكاية التنازع، أي رب أهل الكهف أو رب المتنازعين أعلم منهم بواقع ما تنازعوا فيه)[٣].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾

قال ابن كثير: (الظاهر أن الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنفوذ. ولكن هل هم محمودون أم لا؟ فيه نظر؛ لأن النبي ﷺ قال: لعن

(١) زاد المسير ٤/ ٢١٣ بتصرف يسير.
(٢) زاد المسير ٤/ ٢١٣ بتصرف يسير.
(٣) التحرير والتنوير ٨/ ٣٥٢ بتصرف يسير.

الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، يحذر ما فعلوا)(١). قال ابن الجوزي: (قال ابن قتيبة: يعني المُطاعين والرؤساء... قال سعيد بن جبير: بنى عليهم الملك بيعة)(٢).

فائدة- أمر الله عباده المؤمنين بالاجتماع والاتفاق ونهاهم عن التنازع والشقاق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ١٠٢ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران]، وقال: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]. ومن تأمل حال أمتنا وأسباب ما يلحق بها من ضعف أيقن أن جزءاً كبيراً من ذلك هو بأيدينا فضلاً عما يكيده الأعداء، بسبب تنازعنا، انظروا ما يحصل اليوم في الصومال وما حصل من قبل في أفغانستان، وإلى الخلاف والتنازع بين طلاب العلم، وانظروا إلى نتيجة كل ذلك من التدابر والتقاتل ومن ثم الفشل وذهاب الريح، فهذا كله بأيدينا.

وقد كان الشيخ ابن باز رحمه الله يقول: إذا لم تستطع أن توحد الناس وتجمع بينهم فلا تكن سبباً في تفرقهم واختلافهم، وهي كلمة تكتب بماء الذهب، فما أحوجنا إلى مثل هذا الفهم الثاقب. إن التنازع بين أصحاب المنهج الواحد شر كله، ويزداد إن لم يحسم الخلاف لتعود اللحمة والألفة إلى الجسد الواحد، ويزداد الشر كذلك إن تم حسمه بقهر الطرف الأقوى للأضعف؛ تماماً كما حصل مع قوم أصحاب الكهف، فقد حسم التنازع من كانت له السلطة، ثم بنوا عليهم ما لم يؤمروا به فوقعوا في المحظور.

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٤٧.

(٢) زاد المسير ٤/ ٢١٣.

بناء المساجد على القبور

قال الألوسي رحمه الله: (استدل بالآية على جواز البناء على قبور الصلحاء واتخاذ مسجد عليها وجواز الصلاة في ذلك، وممن ذكر ذلك الشهاب الخفاجي في حواشيه على البيضاوي، وهو قول باطل عاطل فاسد كاسد)[1]، وما قاله الألوسي هو الصواب، فإن ما في الآية لا يعدو كونه حكاية حال، ولا يمكن حمله على التشريع، ولا حتى لمن كان قبلنا، قال الألوسي: (كون ما ذكر من شرائع من قبلنا ممنوع، وكيف يمكن ذلك مع ما سمعت من لعن اليهود والنصارى حيث اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)[2].

قال ابن عاشور: (اتخاذ المساجد على القبور، والصلاة فيها منهي عنه، لأن ذلك ذريعة إلى عبادة صاحب القبر أو شبيهٌ بفعل من يعبدون صالحي مِلتهم. وإنما كانت الذريعة مخصوصة بالأموات لأن ما يعرض لأصحابهم من الأسف على فقدانهم يبعثهم على الإفراط فيما يحسبون أنه إكرام لهم بعد موتهم، ثم يتناسى الأمر ويظن الناس أن ذلك لخاصية في ذلك الميّت)[3].

قال القرطبي رحمه الله: (فاتخاذ المساجد على القبور إلى غير ذلك مما تضمنته السنة من النهي عنه، لا يجوز، لما روى أبو داود والترمذي عن ابن عباس قال: لعن رسول الله ﷺ زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج. قال الترمذي: حديث حسن. وعن عائشة أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة فيها تصاوير لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله

(١) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ١٩٦.
(٢) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ١٩٩ بتصرف واختصار.
(٣) التحرير والتنوير ٨/ ٣٥٣.

ﷺ: "إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله تعالى يوم القيامة". قال علماؤنا: وهذا يحرم على المسلمين أن يتخذوا قبور الأنبياء والعلماء مساجد. وروى الأئمة عن أبي مرثد الغنوي قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: "لا تصلوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها"، أي لا تتخذوها قبلة فتصلوا عليها أو إليها كما فعل اليهود والنصارى، فيؤدي إلى عبادة من فيها كما كان السبب في عبادة الأصنام. فحذر النبي ﷺ عن مثل ذلك، وسد الذرائع المؤدية إلى ذلك فقال: "اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد". وعن عائشة وابن عباس قالا: لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه فقال وهو كذلك: "لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد" يحذر ما صنعوا. وروى مسلم عن جابر قال: نهى رسول الله ﷺ أن يجصص القبر وأن يقعد عليه وأن يبنى عليه. وخرجه أبو داود والترمذي أيضا عن جابر قال: نهى رسول الله ﷺ صلى أن تجصص القبور وأن يكتب عليها وأن يبنى عليها وأن توطأ. قال الترمذي: حسن صحيح)[1].

وقد استدل بعضهم ببناء مسجد الرسول ﷺ على مقبرة للمشركين، وهذا غلط؛ لأن القبور نبشت كما في حديث أنس ﷺ أن النبي ﷺ أمر بقبور المشركين فنبشت، وبالخرب فسويت.

وقد احتج البعض بوجود قبر النبي ﷺ في المسجد النبوي،

---

(١) تفسير القرطبي ١٠/ ٣٧٩-٣٨١ بتصرف واختصار.

والصواب أنه ليس بحجة لأن النبي ﷺ لم يدفن في مسجده بل في حجرة عائشة رضي الله عنها، وبقي في الحجرة بعد وفاته ﷺ وبعد دفن أبي بكر ومن ثم عمر فيها، ولم تكن الحجرة جزءاً من المسجد، وإنما أدخلت في المسجد في توسعة لاحقة لعهد الراشدين رضي الله عنهم. وعن عَائِشَةَ رضي الله عنها: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي مَرَضِهِ الَّذِي لَمْ يَقُمْ مِنْهُ: "لَعَنَ اللهُ اليَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، لَوْلاَ ذَلِكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ غَيْرَ أَنَّهُ خَشِيَ -أَوْ خُشِيَ- أَنَّ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا"(١).

ومن المؤسف أن بعض من يشار إليهم بالبنان ويتصدرون للفتيا يجيزون هذا البناء ويشنعون على من ينكره بحجة انتشار المساجد التي فيها قبور في بلاد المسلمين، ويزعم أن المنكرين يفسدون على الناس دينهم!

قال الألوسي: (وبالجملة لا ينبغي لمن له أدنى رشد أن يذهب إلى خلاف ما نطقت به الأخبار الصحيحة معولاً على الاستدلال بهذه الآية فإن ذلك في الغواية غاية، وفي قلة النُّهى نهاية، ولقد رأيتُ من يبيح ما يفعله الجهلة في قبور الصالحين من إشرافها وبنائها بالجص والآجر وتعليق القناديل عليها إلى غير ذلك محتجاً بهذه الآية وبما جاء في بعض روايات القصة من جعل الملك لهم في كل سنة عيدا وجعله إياهم في توابيت من ساج، وكل ذلك محادة لله ورسوله ﷺ، وإبداع دين لم يأذن به الله ﷻ)(٢).

مسألة- حكم المساجد التي فيها قبور: على نوعين؛ فإن كان القبر سابقاً، بأن بني المسجد عليه، فلا تجوز الصلاة فيه وهي باطلة، وإن كان المسجد سابقاً فينظر، إن كان القبر خلف المصلين فلا يصلى فيه وإن صلي

---

(١) صحيح البخاري ٢/ ١٠٢ (١٣٩٠)، صحيح مسلم ١/ ٣٧٦ (٥٢٩).
(٢) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ١٩٩ بتصرف واختصار.

فالصلاة صحيحة، أما إن كان القبر قِبَل المصلين بلا حاجز فبعض العلماء أبطل الصلاة، وبعضهم قال لا تبطل لكن لا تجوز، ومن كان جاهلاً فمعذور.

قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ ﴾

فقوله: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾

قال ابن الجوزي: (في هؤلاء القائلين قولان:

أحدهما: نصارى نجران، ناظروا رسول الله ﷺ في عِدّتهم، فقالت الملكيَّة: ثلاثة رابعهم كلبهم، وقالت اليعقوبية: خمسة سادسهم كلبهم، وقال النسطورية[1]: سبعة وثامنهم كلبهم، فنزلت، رواه الضحاك عن ابن عباس.

والثاني: أنهم أهل مدينتهم قبل ظهورهم عليهم، ذكره الماوردي)[2]، وذكر القرطبي هذا وغيره فقال: (الضمير في "سيقولون" يراد به أهل التوراة ومعاصرو محمد ﷺ، وذلك أنهم اختلفوا عدد أهل الكهف هذا الاختلاف المنصوص ... وقيل: هو إخبار عن اليهود الذين أمروا

---

(١) الملكية أو الملكانية، واليعقوبية والنسطورية من طوائف النصارى، بينهم كثير من الاختلافات العقدية، لكنهم متفقون في أصل الاعتقاد، قال ابن تيمية رحمه الله في الجواب الصحيح ٢/ ١٢: "هذه الطوائف كلها تقول بالأقانيم الثلاثة؛ الآب والابن وروح القدس فتقول عن الله ثالث ثلاثة وتقول عن المسيح إنه الله وتقول إنه ابن الله وهم متفقون على اتحاد اللاهوت والناسوت وأن المتحد هو الكلمة وهم متفقون على عقيدة إيمانهم التي تتضمن ذلك"، وأما اختلافاتهم فمذكورة في الملل والنحل للشهرستاني، والفصل في الملل والنحل لابن حزم وغيرهما.

(٢) زاد المسير ٤/ ٢١٤ بتصرف يسير.

المشركين بمسألة النبي ﷺ عن أصحاب الكهف)[١].

وقوله: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ قال الطبري: (قذفاً بالظنّ، غير يقين علم)[٢]، وقال ابن كثير: (أي: قولاً بلا علم، كمن يرمي إلى مكان لا يعرفه، فإنه لا يكاد يصيب، وإن أصاب فبلا قصد)[٣]، وقال البغوي: (أي: ظناً وحدساً من غير يقين)[٤].

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ﴾

قال ابن الجوزي: (فأما دخول الواو في قوله: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ ولم تدخل فيما قبل هذا، ففيه أربعة أقوال:

أحدها: أن دخولها وخروجها واحد، قاله الزجاج.

والثاني: أن ظهور الواو في الجملة الثالثة دلالة على أنها مرادة في الجملتين المتقدمتين، وإنما حذفت تخفيفاً، ذكره أبو نصر في شرح «اللمع».

والثالث: أن دخولها لانقطاع القصة، وتمام الكلام، ذكره الزجاج، وهو قول مقاتل بن سليمان، فإن الواو تدل على تمام الكلام؛ قال الثعلبي: فهذه واو الحكم والتحقيق، كأن الله حكى اختلافهم، فتم الكلام عند قوله: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ﴾، ثم حكم أن ثامنهم كلبهم. وجاء أن المسلمين قالوا عند اختلاف النصارى: هم سبعة، فحقّق الله قول المسلمين.

والرابع: أن العرب تعطف بالواو على السبعة، فيقولون: ستة، سبعة، وثمانية، لأن العقد عندهم سبعة، كقوله: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ ...﴾ إلى أن قال في الصفة الثامنة: ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ١١٢]،

---

(١) تفسير القرطبي ١٠/ ٣٨٢ بتصرف يسير.
(٢) تفسير الطبري ١٧/ ٦٤١.
(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ١٤٧.
(٤) تفسير معالم التنزيل للبغوي ٥/ ١٦١

وقوله في صفة الجنة: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣] وفي صفة النار: ﴿فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧١]، لأن أبواب النار سبعة، وأبواب الجنة ثمانية، ذكر هذا المعنى أبو إسحاق الثعلبي)[١]، وقد ضُعِّف القول الأخير، قال القرطبي: (قال القشيري أبو نصر: ومثل هذا الكلام تحكم، ومن أين السبعة نهاية عندهم؟ ثم هو منقوض بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣]، ولم يذكر الاسم الثامن بالواو)[٢].

وقوله: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾

قال الطبري: (قل يا محمد لقائلي هذه الأقوال في عدد الفتية رجما منهم بالغيب: رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ)[٣]، وقال ابن كثير: (إرشاد إلى أن الأحسن في مثل هذا المقام رد العلم إلى الله، إذ لا احتياج إلى الخوض في مثل ذلك بلا علم، لكن إذا أُطلِعنا على أمر قلنا به، وإلا وَقَفْنَا)[٤].

وقوله: ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾

ذكر الطبري رحمه الله عن قتادة أنه قال: قليل من الناس، وعن ابن عباس قال: يعني أهل الكتاب[٥]، وعن ابن عباس: (أنا من أولئك القليل الذين استثنى الله، كانوا سبعة وثامنهم كلبهم)[٦]، قال ابن كثير: (فهذه

---

(١) زاد المسير ٤/ ٢١٤ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير القرطبي ١٠/ ٣٨٣.
(٣) تفسير الطبري ١٧/ ٦٤١ بتصرف يسير.
(٤) تفسير ابن كثير ٩/ ١٢١.
(٥) ينظر في التفسير ١٧/ ٦٤٢.
(٦) تفسير الطبري ١٧/ ٦٤٢.

أسانيد صحيحة إلى ابن عباس: أنهم كانوا سبعة)(١).

وقوله: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾

الخطاب في الآية للنبي ﷺ وأمته تبع له في ذلك، قال الطبري: (يقول عز ذكره لنبيه محمد ﷺ: فلا تمار يا محمد: يقول: لا تجادل أهل الكتاب فيهم، يعني في عدة أهل الكهف، وحُذِفت العِدّة اكتفاء بذكرهم فيها لمعرفة السامعين بالمراد)(٢)، وقال ابن عاشور: (المراء الظاهر: هو الذي لا سبيل إلى إنكاره ولا يطول الخوض فيه)(٣).

قال ابن الجوزي: (قال ابن عباس، وقتادة: لا تُمارِ أحداً، حسبك ما قصصتُ عليكَ. وقال ابن زيد: لا تُمارِ في عِدَّتهم إلا مراءً ظاهراً أن تقول لهم: ليس كما تقولون. وقيل: «إلا مراءً ظاهراً» بحجة واضحة، حكاه الماوردي. والمراء في اللغة: الجدال. قال ابن الأنباري: لا تجادل إلا جدال متيقِّنٍ عالمٍ بحقيقة الخبر، إذ الله تعالى ألقى إليك مالا يشوبه باطل)(٤)، وقال وقال البغوي: (أي: لا تجادل ولا تقل في عددهم وشأنهم {إلا مِرَاءً ظَاهِرًا} إلا بظاهر ما قصصنا عليك يقول: حسبك ما قصصت عليك فلا تزد عليه)(٥).

وقال بعض العلماء: المراء الظاهر هو ما يكون باللسان ولا يصل إلى القلب فيؤدي إلى الخصومة، لذا فلا بد أن تكون المهارة والمجادلة بالحسنى، بل بالتي هي أحسن، قال تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٤٨.

(٢) تفسير الطبري ١٧/ ٦٤٢.

(٣) التحرير والتنوير ٨/ ٣٥٦.

(٤) زاد المسير ٤/ ٢١٥ باختصار.

(٥) تفسير معالم التنزيل للبغوي ٥/ ١٦٢.

[البقرة: ٨٣]، وقال: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٥٣]، وقال: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وقوله: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾

قال الطبري: (ولا تستفت في عدّة الفتية ﴿مِّنْهُمْ﴾ من أهل الكتاب أحداً، لأنهم لا يعلمون عدتهم، إنما يقولون رجماً بالغيب، لا يقينا)(١)، وقال ابن كثير: (أي: فإنهم لا علم لهم إلا رجما بالغيب، أي من غير استناد إلى كلام معصوم، وقد جاءك الله يا محمد بالحق الذي لا شك فيه، فهو المقدم الحاكم على كل ما تقدمه من الكتب والأقوال)(٢)، وقال ابن الجوزي: (قال ابن عباس: يعني: من أهل الكتاب. قال الفراء: أتاه فريقان من النصارى، نسطوري، ويعقوبي، فسألهم عددهم، فنُهي عن ذلك)(٣)، وفي الآية تحريم استفتاء الجاهل، وأن السؤال يكون لمن يعلم، فإن الجاهل فاقد للعلم فكيف يعطيه، ولذا قال: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣] و[الأنبياء: ٧]. فمن كان من أهل الفقه يسأل عنه لا عن الحديث والعكس، وهكذا في كل العلوم يسأل أهل كل فن في فنهم.

---

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٦٤٣ باختصار.

(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٤٨ بتصرف يسير.

(٣) زاد المسير ٤/ ٢١٥.

فائدتان من الآية

الأولى- تحقيق القول في عدة أصحاب الكهف:

وقع خلاف في زمن أصحاب الكهف، وأسمائهم واسم كلبهم، إلى غير ذلك، وهذا وأشباهه مما لا ينبغي أن يشتغل به إذ لو كان في معرفته فائدة لبينه الله جل وعلا، ولولا ذكر الله ﷻ أقوال المختلفين في عددهم لجزمنا أن معرفتها تابعة لما سبق، ولكن لما ذكر الله هذه الأقوال، وأنه (ما يعلمهم إلا قليل) وكان من عادة القرآن مدح القليل، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ١٣﴾ [سبأ]، لم نجد بأسا أن نتكلم في هذه المسألة، لا سيما مع ثبوت النقل عن ابن عباس رضي الله عنهما في ذلك.

قال ابن كثير رحمه الله عن الأقوال المختلفة في أهل الكتاب: (نَقْلُ الخلاف عنهم في ذلك جائز، كما قال تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ٢٢﴾ [الكهف]، فقد اشتملت هذه الآية على الأدب في هذا المقام .. فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال، ضعَّف القولين الأولين وسكت عن الثالث، فدل على صحته، ... ثم أرشد على أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته، فقال في مثل هذا: ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس ممن أطلعه الله عليه؛ فلهذا قال: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ أي: لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته، ولا تسألهم عن ذلك فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب. فهذا أحسن ما يكون في حكاية الخلاف: أن تستوعب الأقوال في

ذلك المقام، وأن تنبه على الصحيح منها وتبطل الباطل، وتذكر فائدة الخلاف وثمرته؛ لئلا يطول النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته، فتشتغل به عن الأهم فالأهم)[١]، فالفائدة في هذا أنه ليس معهم إلا الرجم بالغيب، مع أنهم من أهل ملتهم، والله يقص الحق. قال رحمه الله: (﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ أي: سهلا هينًا؛ فإن الأمر في معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي: فإنهم لا علم لهم بذلك .. من غير استناد إلى كلام معصوم، وقد جاءك الله يا محمد بالحق الذي لا شك فيه .. فهو المقدم الحاكم على كل ما تقدمه)[٢].

وأكثر العلماء تكلم في عددهم؛ قال ابن الجوزي: (اختلف العلماء في عددهم على قولين: أحدهما: أنهم كانوا سبعة، قاله ابن عباس.

والثاني: ثمانية، قاله ابن جريج، وابن إسحاق. وقال ابن الأنباري: وقيل: معنى قوله: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾: صاحب كلبهم، كما يقال: السخاء حاتم، والشِّعر زهير، أي: السخاء سخاء حاتم، والشِّعر شِعر زهير)[٣]، وذكر الرازي أن أكثر المفسرين على أنهم سبعة وثامنهم كلبهم[٤]، وبه جزم ابن عباس رضي الله عنهما، وقال: أنا من القليل الذي استثنى الله، عز وجل)[٥].

وكذلك رجحه شيخنا العلامة ابن عثيمين رحمه الله وقال: (... فإذا كان الله أعلم بعدتهم فالواجب أن نرجع إلى ما أعلمنا الله به، ونقول جازمين

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٩.

(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٤٨.

(٣) زاد المسير ٤/ ٢١٤.

(٤) تفسير مفاتيح الغيب للرازي ١٠/ ١٨٧.

(٥) تفسير ابن كثير ٥/ ١٤٨.

بأن عدتهم سبعة وثامنهم كلبهم)[١]، وهذا هو الصواب إن شاء الله.

وهنا فائدة: لو أن الله ﷻ لم يرشدنا إلى عددهم، لكان ينبغي لنا أن نتوقف، وفرق بين التوقف، وبين تكذيب الجميع فقد يكون أحدها حقا.

الثانية- رد العلم إلى عالمه:

سبق في أوائل السورة بيان خطورة القول على الله بغير علم، وفي هذه الآية يقول الله ﷻ: (قل ربي أعلم بعدتهم)، فأرشده إلى رد العلم إلى عالمه، وفي هذا تعريض بأهل الكتاب وأنهم يخوضون بلا بينة، كما قال ابن كثير[٢].

وقد كان النبي ﷺ -وهو أعلم الخلق بدين الله- يُسأل فيسكت عما لم ينزل فيه عليه وحي حتى يأتيه الوحي، ومن ذلك إجابات القرآن عن الأسئلة التي سكت عنها النبي ﷺ، مثل قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ الآية [البقرة: ١٨٩]، وقوله: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ الآية [البقرة: ٢١٥]، وقوله: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ ﴾ الآية [البقرة: ٢١٧.

ولما قال الله: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [البقرة] ردوا العلم إليه: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ ﴾ [البقرة].

وفي المستدرك عن جبير بن مطعم: أن رجلا أتى النبي ﷺ فقال: "يا رسول الله أي البلاد شر؟ فقال: لا أدري. فلما أتاه جبرئيل قال: يا جبرئيل أي البلدان شر؟ قال: لا أدري حتى أسأل ربي. فانطلق جبرئيل فمكث ما شاء الله أن يمكث ثم جاء فقال: يا محمد إنك سألتني أي البلاد شر وإني قلت لا أدري وإني سألت ربي فقلت: أي البلاد شر؟ فقال أسواقها"[٣]،

(١) تفسير العثيمين: الكهف ص: ٤٢-٤٣.
(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٩.
(٣) المستدرك ١/ ١٦٦ (٣٠٣)، قال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: حسن صحيح.

قال الحاكم رحمه الله عقبه: (هذا الحديث أصل في قول العالم لا أدري)، وقد كان هذا ديدن علمائنا من لدن أصحاب النبي ﷺ إلى يومنا هذا، كما سبق.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾

قال ابن الجوزي: (سبب نزولها أن قريشاً سألوا النبي ﷺ عن ذي القرنين، وعن الرُّوح، وعن أصحاب الكهف، فقال: غدًا أخبركم بذلك، ولم يقل: إن شاء الله، فأبطأ عليه جبريل خمسة عشر يوماً لتركه الاستثناء، فشقَّ ذلك عليه، ثم نزلت هذه الآية، قاله أبو صالح عن ابن عباس)[1].

قال ابن كثير: (هذا إرشاد من الله لرسوله ﷺ، إلى الأدب فيما إذا عزم على شيء .. أن يرد ذلك إلى مشيئة الله ﷻ علام الغيوب، الذي يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة، رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: قال سليمان بن داود عليهما السلام: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة ... تلد كل امرأة منهن غلامًا يقاتل في سبيل الله، فقيل له ... قل: إن شاء الله. فلم يقل فطاف بهن فلم يلد منهن إلا امرأة واحدة نصف إنسان"، فقال رسول الله ﷺ: "والذي نفسي بيده، لو قال: "إن شاء الله" لم يحنث، وكان دركا لحاجته)[2].

---

(١) زاد المسير ٤/ ٢١٥.

(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٤٨.

فوائد تتعلق بالاستثناء في الأفعال

١- فضل (إن شاء الله) عظيم، لأنها تدل على الثقة بالله ومحبته والاعتماد عليه جل وعلا. وقد قال الله هذه الكلمة في وعده للنبي ﷺ وصحابته دخول المسجد الحرام معتمرين: ﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفتح]، فكان الاستثناء هنا -في قول- لإرشاد المؤمنين إلى التزام هذا الأدب، قال ابن الجوزي: (استثناء من الله، وقد عَلِمه .. يكون المعنى أنه عَلِم أنهم سيدخُلونه، ولكن استثنى على ما أُمر الخَلْق به من الاستثناء)(١).

وقالها يوسف عليه السلام يوم دخل عليه أهله: ﴿وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يوسف]، وقالها موسى للخضر عليهما السلام يوم أراد صحبته: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾﴾ [الكهف]، وقالها العبد الصالح لموسى عليه السلام يوم أنكحه إحدى ابنتيه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [القصص]، وقالها إسماعيل لوالده إبراهيم عليهما السلام لما قال له: ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات] إلى غير ذلك.

ومع عظم هذه الكلمة إلا أن كثيرًا من المسلمين أساء إليها! فإن هذه الكلمة تقال عندما يعزم الإنسان على فعل شيء فيما استقبل من الزمن، فهو بها يتبرأ من كل حول وقوة إلا مالك الملك، فينزل حاجته به كي يوفقه لأداء ما عزم عليه، لكن المشاهد أن كثيراً من الناس يطلب منهم أداء عمل وفي قرارة أنفسهم لا يعزمون على فعله، فيتخذون من الاستثناء ذريعة

---

(١) زاد المسير ٥/ ٣٩٣.

للتحايل على عدم إنجاز المهام والتواكل وعدم الجد، حتى صار يُرد عليهم: لا تقل إن شاء الله، فكأن معنى هذه الكلمة صار: لن أفعل!

أسوأ من هذا أن يصبح الأمر ظاهرة ويتعامل به المسلمون مع غيرهم مما قد يكون سبباً في صد غير المسلمين عن الإسلام، وهذا شبيه بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾ [النحل]، قال ابن كثير: (حذر تعالى عباده عن اتخاذ الأيمان دخلا أي خديعة .. مثل لمن كان على الاستقامة فحاد عنها .. لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده ثم غدر به، لم يبق له وثوق بالدين، فانصد بسببه عن الدخول في الإسلام)[1].

٢- قال ابن الجوزي: (فائدة الاستثناء أن يخرج الحالف من الكذب إذا لم يفعل ما حلف عليه، كقوله في قصة موسى: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ [الكهف: ٧٠]، ولم يصبر، فسَلِم من الكذب لوجود الاستثناء في حقه)[2]، وفي المسند عن أَبِي هُرَيْرَةَ مرفوعًا "مَنْ حَلَفَ فَقَالَ: إِنْ شَاءَ اللهُ، لَمْ يَحْنَثْ"[3]، وكذلك حديث حَلِف سليمان السابق قريبا[4].

في هذا الإرشاد الرباني توجيه لما ينبغي أن يكون عليه العبد من أدب مع الله ﷻ باطنا وظاهرا، أما باطنا فباعتقاد أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، و ليس للعبد من أمره سوى الأخذ بالأسباب، وفي هذا وقوف عند حد العبودية. وأما ظاهرا فبضبط اللسان ليكون موافقاً لهذا ومعبراً عنه؛

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٦٠٠.

(٢) زاد المسير ٤/ ٢١٦.

(٣) مسند أحمد ١٣/ ٤٥٠ (٨٠٨٨)، قال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٤) صحيح ابن حبان ١٠/ ١٨٢ (٤٣٣٨)، قال الأرناؤوط: إسناده قوي.

وأدب المنطق باب عظيم ذكر القرآن الكريم طائفة منه في مواضع، منها ما سيأتي ذكره في قصة موسى والخضر عليهما السلام، ومنها ما كان في قصة يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [يوسف]، وكان حق (لي) في الثانية أن تتقدم كذلك إلا أنه أخرها عن لفظ الجلالة تأدباً مع الله؛ ومنها قول مؤمني الجن ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الجن]، فلم ينسبوا إرادة الشر لله عز وجل ونسبوا الخير له سبحانه، والخير والشر لا يكون إلا بقدر من الله عز وجل.

٣- الفرق بين التحقيق والتعليق في الاستثناء: أما تعليق الاستثناء فهو أن يعزم المرء على فعل في المستقبل، أو يخبر بخبر، أو يقسم بيمين عما هو كائن فيه مما لا علم له به فيستثني؛ وأما التحقيق فيه فهو أن يستثني المتكلم مع علمه بأن ما يقوله واقع لا محالة، فيكون الاستثناء لتحقيق الكلام وتوكيده، كقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح-٢٧]، كما قال ابن كثير(١)، ومن ذلك ما نقله ابن القيم عن شيخ الإسلام رحمه الله أنه أخبر الناس لما تحرك التتار وقصدوا الشام أن الهزيمة عليهم وأن الظفر والنصر للمسلمين وأقسم على ذلك أكثر من سبعين يمينا فيقال له: قل إن شاء الله فيقول: إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً(٢)، وقد ظفر المسلمون وانتصروا بالفعل، ولم يكن هذا منه رحمه الله رجماً بالغيب بل من فراسة شيخ الإسلام، قال ابن القيم: (وللفراسة سببان أحدهما: جودة ذهن المتفرس وحدة قلبه وحسن فطنته

---

(١) تفسير ابن كثير ٧/ ٣٥٦.

(٢) مدارج السالكين ٢/ ٤٨٩.

والثاني: ظهور العلامات والأدلة على المتفرس فيه)[١]، أما الأول فقد بلغ فيه شيخ الإسلام الغاية، وأما الثاني فلا شك أنه قد رأى من أسباب النصر الظاهرة والباطنة ما حمله على ذلك كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴿٧﴾ ﴾ [محمد]، ومن أصدق من الله حديثاً؟

ولهذا دليل من السنة، فقد قال رسول الله ﷺ يوم الحديبية: "إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري"[٢]، فلم يقل إن شاء الله ؛ لأن هذا النصر وعد من الله لرسوله ولا يخلف الله الميعاد.

٥- من الأخطاء التي شاعت بين الناس أن يستثنوا فيما مضى، فيقول أحدهم: تزوجت إن شاء الله، سافرت إن شاء الله، وهذا لا وجه له لغة ولا شرعا، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ ﴾، فقيده بما كان في المستقبل.

٦- كذلك لا يستثني في الدعاء، بل يعزم المسألة، قال ﷺ: "لاَ يَقُلْ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ، ارْزُقْنِي إِنْ شِئْتَ، وَلْيَعْزِمْ مَسْأَلَتَهُ، إِنَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، لاَ مُكْرِهَ لَهُ"[٣].

وقوله: ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾

قال ابن الأنباري: معناه: واذكر ربَّكَ بعد تقضِّي النسيان، كما تقول: اذكر لعبد الله إِذا صلّى حاجتك، أي: بعد انقضاء الصلاة. وللمفسرين في ذلك ثلاثة أقوال: أحدها: أن المعنى: إِذا نسيتَ الاستثناء ثم ذكرتَ، فقل:

---

(١) مدارج السالكين ٢/ ٤٨٩.

(٢) صحيح البخاري ٢/ ٩٧٤ (٢٥٨١).

(٣) صحيح البخاري ٦/ ٢٧١٨ (٧٠٣٩)، صحيح مسلم ٤/ ٢٠٦٣ (٢٦٧٩).

إِن شاء الله، ولو كان بعد يوم أو شهر أو سنة، قاله سعيد بن جبير، والجمهور. والثاني: أن المعنى إِذا غضبتَ، قاله عكرمة، قال ابن الأنباري: وليس ببعيد، لأن الغضب يُنتج النسيان. والثالث: إِذا نسيتَ الشيء فاذكر الله ليذكِّرك إِياه، حكاه الماوردي[١].

قال ابن كثير: (لأن النسيان منشؤه من الشيطان، كما قال فتى موسى: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ [الكهف: ٦٣] وذِكر الله تعالى يطرد الشيطان، ... فذِكر الله سبب للذكر؛ ولهذا قال: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾)[٢]، واختار الطبري (قول من قال: معناه: واذكر ربك إذا تركت ذكره، لأن أحد معاني النسيان في كلام العرب الترك)[٣].

وقوله: ﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَـٰذَا رَشَدًا﴾ قال ابن كثير: (أي: إذا سُئلت عن شيء لا تعلمه، فاسأل الله، وتوجه إليه أن يوفقك للصواب والرشد)[٤]. وقال ابن الجوزي: (في معنى الكلام قولان: أحدهما: عسى يعطيني ربِّي من الآيات والدلالات على النبوَّة ما يكون أقرب في الرّشد وأدلَّ من قصّة أصحاب الكهف هذا قول الزجاج. والثاني: أن قريشاً لما سألت عن خبر أصحاب الكهف، قال الله تعالى له: ﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى﴾ أي: عسى أن يعرِّفني جواب مسائلكم قبل الوقت الذي حدَّدتُه لكم، هذا قول ابن الأنباري)[٥]، وكأن المراد بهذا أنه تتمة لإرشاد النبي ﷺ، أي كان ينبغي لك أن تقول عسى أن يهديني ربي.

---

(١) زاد المسير ٤/ ٢١٥.
(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٥٠.
(٣) تفسير الطبري ١٧/ ٦٤٦.
(٤) تفسير ابن كثير ٥/ ١٥٠.
(٥) زاد المسير ٤/ ٢١٦ بتصرف واختصار.

وذهب بعض العلماء إلى أن من نسي شيئاً فامتثل هذا الأمر، فلربما لا يكون في الأول خير فيهديه للخير، أو يكون في الأول خير فيهديه لما هو أفضل، لأن عسى من الله إيجاب. ومن اللطائف أن بعض حفاظ القرآن يقول إنه لا يراجع إلا نادراً، وإذا نُسِّي آية يلجأ إلى الله ﷻ بصدق، ويبادر إلى هذه الآية ويقول: اللهم اهدني لأقرب من هذا رشدا، فأحياناً لا يكمل الآية حتى يذكر ما نسيه، ومن الناس من يجعل هذا ديدنه كلما نسي أمراً.

وقوله: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾

اختلف أهل العلم في المراد بالآية على قولين ذكرهما ابن كثير وبيَّن الصواب منهما، قال رحمه الله: (هذا خبَر من الله لرسوله ﷺ بمقدار ما لبث أصحاب الكهف في كهفهم وأنه ثلاثمائة سنة وتسع سنين بالهلالية، وثلاثمائة بالشمسية، فإن تفاوت ما بينهما كل مائة ثلاث سنين؛ فلهذا قال بعد الثلاثمائة: ﴿وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ وعليه غير واحد من علماء التفسير كمجاهد، وغير واحد من السلف والخلف. وقال قتادة في: ﴿وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ هذا قول أهل الكتاب وقد رده الله بقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ وفي هذا الذي زعمه قتادة نظر، فإن الذي بأيدي أهل الكتاب أنهم لبثوا ثلاثمائة سنة، ولو كان الله قد حكى قولهم لما قال: ﴿وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾)(١). وقال ابن عثيمين رحمه الله: (القول بأن "ثلاث مائة سنين" شمسية، "وازدادوا تسعاً" قمرية قول ضعيف)(٢). والذي أراه أن الله سبحانه بين بالثلاثمائة مقدار لبثهم بحساب أهل الكتاب أي ثلاثمائة شمسية، ثم بين أنها بالقمرية

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٥٠-١٥١ بتصرف واختصار.

(٢) تفسير العثيمين: الكهف ص: ٥٠.

ثلاثمائة وتسع، لأنه الحساب الذي ارتضاه سبحانه.

قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾

قوله: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾

قال ابن الجوزي: (ثم أعلمَ أنه أعلمُ بقدْر مدة لبثهم من أهل الكتاب المختلفين فيها، فقال: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ﴾. قال ابن السائب: قالت نصارى نجران: أما الثلاثمائة، فقد عرفناها، وأما التسع، فلا عِلْم لنا بها، فنزل قوله: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ﴾ وقيل: إن أهل الكتاب قالوا: إن للفتية منذ دخلوا الكهف إلى يومنا هذا ثلاثمائة وتسع سنين، فرد الله عليهم، وقال: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ﴾ بعد أن قبض أرواحهم إلى يومكم هذا، لا يعلم ذلك غيرُ الله)[1]، وقال الطبري: (لله علم غيب السماوات والأرض، لا يعزب عنه علم شيء، يقول: فسلموا له علم مبلغ ما لبثت الفتية في الكهف إلى يومكم هذا، فإن ذلك لا يعلمه سوى الذي يعلم غيب السماوات والأرض، وليس ذلك إلا الله الواحد القهار)[2]، قال البغوي: (فالغيب ما يغيب عن إدراك، والله ﷻ لا يغيب عن إدراكه شيء)[3].

وقوله: ﴿ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ﴾

قال ابن كثير: (أي: إنه لبصير بهم سميع لهم. قال ابن جرير: وذلك في معنى المبالغة في المدح، كأنه قيل: ما أبصره وأسمعه، وتأويل الكلام: ما

---

(١) زاد المسير ٤/ ٢١٧ بتصرف يسير.
(٢) تفسير الطبري ١٧/ ٦٥٠ بتصرف يسير.
(٣) تفسير معالم التنزيل للبغوي ٥/ ١٦٥.

أبصر الله لكل موجود، وأسمعه لكل مسموع، لا يخفى عليه من ذلك شيء. ثم روى عن قتادة في قوله: ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ فلا أحد أبصر من الله ولا أسمع. وقال ابن زيد: ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ يرى أعمالهم، ويسمع ذلك منهم سميعًا بصيرًا)(١)، ولا شك أن الله متصف بالسمع والبصر ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ١١﴾ [الشورى]، ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في أسمائه ولا في صفاته ولا في أفعاله، سميع لكل خلقه على اختلاف أصواتهم وتباين لغاتهم، لا يشغله شيء عن شيء، وهو جل وعلا يسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء ويرى مكانها، ولا يخفى عليه من عباده شيء في الأرض ولا في السماء.

وذكر ابن الجوزي أن لهذه العبارة وجهين، الأول وهو ما سبق، قال: (والثاني: أنه في معنى الأمر، فالمعنى: أَبصِر بِدِين الله وأَسمِع، أي: بصّر بهدى الله وسمِّع، فترجع الهاء إما على الهدى، وإما على الله ﷻ، ذكره ابن الأنباري)(٢)، وهو معنى تدبري لطيف، ولا تعارض بين المعنيين.

وقوله: ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ﴾

قال ابن الجوزي: (أي: ليس لأهل السموات والأرض من دون الله من ناصر)(٣)، وتفسير الولي بالناصر يحتمل معنيين: الأول: أنه لا ناصر للعباد على الله، والثاني: أنه لا ناصر للعباد على غيرهم من الخلق إلا الله. وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: (يعني ليس لأحد ولي من دون الله، حتى

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٥١.
(٢) زاد المسير ٤/ ٢١٧.
(٣) زاد المسير ٤/ ٢١٧.

الكفار؛ قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ٦١﴾ [الأنعام]، ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٦٢]. والله ولي كُلِّ أحد، وهي الولاية العامة. أليس الله يرزق الكافرين وينمي أجسامهم وييسر لهم ما في السموات والأرض، وسخر الشمس والقمر والنجوم والأمطار؟! هذه ولاية، ويتولى المؤمنين أيضاً بذلك؛ لكن هذه ولاية عامة.

أما الولاية الخاصة فللمؤمنين؛ قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وهي تستلزم عناية خاصة، بأن يسدد العبد فيفتح له أبواب العلم النافع والعمل الصالح، ولهذا قال: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾. يخرجهم بالعلم أولاً ويخرجهم ثانياً بالتوفيق)[1].

وقوله: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾

قال الطبري: (يقول: ولا يجعل الله في قضائه وحكمه في خلقه أحدا سواه شريكا، بل هو المنفرد بالحكم، وتدبيرهم وتصريفهم فيما شاء وأحبّ)[2]، وقال ابن الجوزي: (ولا يجوز أن يحكم حاكم بغير ما حكم به، وليس لأحد أن يحكم من ذات نفسه فيكون شريكاً لله عَجَلَكَ في حكمه. وقرأ ابن عامر: «ولا تُشرِكْ» جزماً بالتاء، والمعنى: لا تشرك أيها الإنسان)[3].

---

(١) تفسير القرآن للعثيمين ٦/ ٤١ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير الطبري ١٧/ ٦٥٠.
(٣) زاد المسير ٤/ ٢١٧.

وقفات مع الآية الكريمة

أولاً- خوارق العادات: وهي ما يحصل بخلاف العادة، ولا شك أن قصة الفتية منها، فأن يبقى الإنسان نائماً ثلاثمائة سنة وهو مفتوح العينين، لا يأكل ولا يشرب، ولا يهرم ولا تبلى ثيابه، إلى غير ذلك من عجائب مكثهم في الكهف، هذا كله من خوارق العادة.

والخوارق تقع للأنبياء قبل بعثتهم، كشق صدر النبي ﷺ، وتسليم الحجر عليه باسمه في مكة، وتقع بعد البعثة وتكون معجزات دالة على صدق نبوتهم، كحنين الجذع إليه وتفجر الماء من بين يديه الشريفتين ﷺ، وكانشقاق القمر، وكإحياء عيسى الموتى وشفاء المرضى، وكعصا موسى والآيات التسع التي جاء بها. وهناك خوارق تقع للصالحين فهذه كرامات، وهي كثيرة في الأمة بدءاً من عصر الصحابة ﷺ، إلى اليوم.

وهناك خوارق عادات تقع للكفار والزنادقة وهي أحوال شيطانية لا رحمانية، كالتي تجري على أيدي بعض السحرة والدجالين، وأشد هؤلاء وأعظمهم خوارقَ هو الدجال، وقد مر معنا شيء من خوارقه.

ولسائل أن يسأل كيف التفرقة بين الكرامة وبين الأحوال الشيطانية التي قد تكون فتنة لكثير من الناس فيتبعون هؤلاء الدجالين؟

والجواب: نفرق بينهما كما فرقنا بين مسجد أسس على التقوى ومسجد الضرار، فالفرق أن الأول أقامه النبي ﷺ وصحابته على تقوى من الله ورضوان، والثاني أسسه عبد الله بن أبي بن سلول رأس النفاق وأصحابه، تفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله. فإن وقع

الخارق على يد رجل صالح مشهود له بالتقوى ولم ينتقد في دينه فهذه كرامة، وإن وقع للسحرة والدجالين ومنحرفي العقيدة فهذه فتنة وبلاء واستدراج.

ثانياً- الهداية والتغيير يحتاجان لطول نفس: فارق الفتية ديارهم وأهليهم وتركوا قومهم على ملة الكفر، ومرت عليهم في الكهف قرون أفاقوا بعدها ليجدوا الأرض غير الأرض والناس غير الناس، فقد زالت دولة الكفر وأشرقت شمس الإيمان، فسبحان مغير الأحوال!

وفي هذا درس بليغ لأصحاب الدعوات، فالأمور بيد الله، وهو قادر على تصريفها كيف يشاء، وقادر على أن يبدل الأحوال ويجعل الناس يستجيبون للدعوة ويؤمنوا بمثل ما خيل لأصحاب الفتية أنه حصل في يوم أو بعض يوم، بل بقوله تعالى: (كن)، كما قال ﷻ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ﴾ [يونس:٩٩]، لكن الله سبحانه ذكر أن هداية قوم الفتية حصلت في قرون، وفي هذا لفتة إلى حاجة التغيير لطول نفس، فنوح عليه السلام بقي في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم على أرجح الأقوال، ونبينا ﷺ ظل يدعو قومه وسائر العرب وملوك الأرض ثلاثا وعشرين سنة حتى أتاه اليقين، ولم يستجب له عامة قومه إلا بعد الفتح قبل موته بقليل.

ففي قصة أصحاب الكهف، تسلية لأهل الدعوة الذين يحملون همها، أن يتحلوا بطول النفَس ويجعلوا زادهم يقينهم أن العاقبة للتقوى، وأن الله تعالى ناصر دينه، وأن دعوة الكفر والضلال مهما انتفشت فمصيرها أن تهوي يوما ويعلو الحق الذي له النصر والغلبة، قال الله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات].

ثالثاً- علم الغيب: اختص الله تعالى به ولم يطلع أحداً عليه؛ لا ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا ما استثناه بقوله: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الجن]، وليس هذا للجن الذين قال فيهم: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾ [سبأ]. فعجباً لمن يسمع كلام الله أنه قد استأثر بعلم الغيب ثم يأتي أقواماً يزعمون ذلك، وأعجب منه أن يسمع حديث "إن الملائكة تنزل في العنان وهو السحاب فتذكر الأمر قضي في السماء فتسترق الشياطين السمع فتسمعه فتوحيه إلى الكهان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم"[1]، فلا يدرك علة مصادفتهم للصواب، متناسياً كثرة ما يكذبون ويخبرون بغير الصواب، وأعجب منه أن يسمع "من أتى كاهناً، أو عرافاً، فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد"[2]، ثم لا ينزجر ولا يرعوي!

رابعاً- حكم الله: هو حكمان؛ قدري كوني، وهو ما يقدره على الخلائق ويقضيه، فلا شريك له فيه لا ملك مقرب ولا نبي مرسل. وحكم شرعي، شرعه لخلقه على ألسنة رسله وفي كتبه، ولا يشركه فيها أحد أيضا.

---

(١) صحيح البخاري ٣/ ١١٧٥ (٣٠٣٨).
(٢) مسند أحمد ١٥/ ٣٣١ (٩٥٣٦).

وفي هذه الآية دليل على وجوب تحكيم شرع الله ﷻ، وأن الحكم لا يكون إلا له، وأن من يحكم بغيره يكون منازعاً له في الحكم، قال: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [الشورى: ١٠]، وقال: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ [الأنعام: ٥٧]، [يوسف: ٦٧]، فالحكم من الدين بدليل قوله تعالى: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ [يوسف]، وسمى الحكم ديناً في قوله: ﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ ﴾ [يوسف: ٧٦].

ولا شك أن من حكم بغير ما أنزل الله فهو كافر، لأنه ينازع الله سبحانه في ملكه وفي خصائصه، وأيضاً لقوله: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة]، هذا هو الحكم العام، وقد يتخلف لعارض، كالإكراه والجهل والتأول، إلى غير ذلك. فهذا النجاشي رحمه الله، كان ملكاً على الحبشة، ومع إسلامه لم يستطع أن يطبق شرع الله، ومع ذلك صلى عليه النبي ﷺ، وفي قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ [النحل-١٠٦]، يقول ابن كثير: (روى العوفي عن ابن عباس: أن هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر، حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد ﷺ، فوافقهم على ذلك مكرهاً وجاء معتذراً)[1]، وقد قال رسول الله ﷺ: "لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا، قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٦٠٥.

رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ"(١)، فلم يكفر بهذه الكلمة التي لو قالها عامداً لكفر.

والأدلة في هذا كثيرة فلا ينبغي التسرع بالتكفير، والتفريق بين كفر النوع وكفر المعين، فنحكم على الفعل بالكفر لكن لا نحكم على من لابسه إلا بتوفر الشروط وانتفاء الموانع، والحكم بالكفر لا يكون إلا للقاضي وللعلماء الراسخين، أما أن يتصدى الآحاد فهذا باب شر عظيم، جر على أمتنا منذ ظهر الخوارج في عهد علي ﷺ إلى اليوم ويلات وويلات. والمرء لا بد أن يحتاط لدينه ويحذر من وعيد رسول الله ﷺ: "أَيُّمَا امْرِئٍ قَالَ لِأَخِيهِ: يَا كَافِرُ، فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا، إِنْ كَانَ كَمَا قَالَ، وَإِلَّا رَجَعَتْ عَلَيْهِ"(٢).

---

(١) صحيح مسلم ٤/ ٢١٠٤ (٢٧٤٧).

(٢) صحيح البخاري ٨/ ٢٦ (٦١٠٤)، صحيح مسلم ١/ ٧٩ (٦٠)، واللفظ له.

وقفة مع رعاية الله تعالى للفتية ونصرهم

أولاً- أنواع النصر:

نصرُ الله سبحانه للعباد نوعان: حسي ومعنوي، أما الحسي فهو الغلبة بالأبدان والسلاح والجيوش، وهذا نوعان:

أولهما: عام أجراه على السنن الكونية، فيتحقق إن تحققت ويتخلف إن تخلفت، فهذا يكون للمؤمنين وللكافرين، بل قد يكون للكافرين على المؤمنين إن فرطوا، عقوبة على معصيتهم، والتفريط في الشرع أوسع مما يظن بعض الناس، فضعف الإعداد وترك بعض الأسباب المادية تفريط كما قال: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾﴾ [النساء]، قال ابن كثير: (يأمر الله عباده المؤمنين بأخذ الحذر من عدوهم، وهذا يستلزم التأهب لهم بإعداد الأسلحة والعُدَد وتكثير العَدد بالنفير في سبيله)(١).

وثانيهما: خاص بالمؤمنين إن استقاموا على الشرع، فهنا ينصرهم الله ولا ينصر عليهم وإن تخلفت بعض الأسباب لعذر، شريطة أن يبذلوا ما بوسعهم لتحصيل أسباب النصر، بإعداد ما في الوسع من أسباب القوة المادية، وبحسن التوكل، قال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةَۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة]، وقال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [آل عمران]، ومن طالع التاريخ عبر

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٥٧.

العصور وجد مصداق ذلك في المعارك التي خاضها المسلمون مع عدوهم.

وأما النصر المعنوي فهو الظهور بالحجة والبرهان، ولا يكون إلا للحق وأهله، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾ [الشورى]، وقال: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الأنبياء]، وقال: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء].

فإذا علم الإنسان ذلك وفرق بين النصرين حق التفريق لم يشكل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر]، مع ما هو معلوم من قتل الكفار لبعض الأنبياء كما فعلت بنو إسرائيل، وقتل بعض المؤمنين، بل فناء أمة كاملة كما في قصة أصحاب الأخدود. ومع أنه لم يبق منهم أحد لا رجل ولا امرأة ولا كبير ولا صغير؛ لأنهم أحرقوا بالنار عن بكرة أبيهم، إلا أنها نار الدنيا التي عوضهم ربنا جل وعلا عنها بجنات تجري من تحتها الأنهار، ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾ [البروج]، الفوز بالنعيم والنجاة من العذاب، وهو ثمرة الثبات وحقيقة النصر.

فنصر المؤمنين في الدنيا إن أريد به الحسي فهو لبعضهم، وأما المعنوي فهو للجميع، ولهذا قال أبو العالية: ذلك في الحجة، يفتح الله حجتهم في الدنيا[1]، وقال ابن عباس: بالغلبة والقهر. وقال الضحاك: بالحجة، وفي الآخرة بالعذر. وقيل: بالانتقام من الأعداء في الدنيا والآخرة، وكل ذلك

---

(١) الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٧/ ٢٩٢.

قد كان للأنبياء والمؤمنين، فهم منصورون بالحجة على من خالفهم، وقد نصرهم الله بإهلاك أعدائهم، ونصرهم بعد أن قتلوا بالانتقام من أعدائهم"[١].

ومن تأمل قصة أصحاب الكهف وجد أن الله نصرهم على عدوهم بأنْ حال بينه وبينهم فلم يؤذهم، وأهلكه وأنشأ بعده قرناً مؤمنين، وحفظ لهم دينهم وهذا من أعظم النصر كما قيل أعظم كرامة الثبات على الاستقامة، فلم يضرهم أنهم خرجوا فارين، ولم ينتقص من نصرهم أن أحداً من قومهم لم يتبعهم، فليس النصر بكثرة الأتباع لكنه بصدق الإيمان وحُسن الاتباع.

ثانياً - أسباب نصرة الفتية ورعايتهم:

هناك عدد من الأسباب المعنوية والمادية التي نال الفتية بها رعاية الله ونصره وتوفيقه، فينبغي للمؤمنين عامة ولشباب الأمة خاصة أن يتأملوا في هذه الأسباب ويتدارسوها ويسعوا لتحصيلها، وهذه الأسباب هي:

١- **التوحيد**: فمن فضل التوحيد أن الله يدفع به النقم ويجلب به النعم، فإنهم لما وقفوا يعلنون التوحيد نصرهم الله ﷻ فربط على قلوبهم وزادهم هدى وهداهم الصراط المستقيم الموصل إلى رحمته في الآخرة وهداهم إلى الكهف الذي يأويهم ويحفظهم فيه من عدوهم وعدوه.

ومثل هذا حال إبراهيم ﵇ الذي حقق توحيد الله ﷻ وخاصم قومه فيه فكان جزاؤه الحسن في الدنيا والأخرى، قال الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [العنكبوت].

(١) تفسير معالم التنزيل للبغوي ٧/ ١٥٢.

فلا بد من تجريد التوحيد وصدق التوجه له تعالى، والتبري من كل حول وقوة سوى حوله وقوته، مع حسن التوكل عليه جل وعلا.

٢- **الحرص على الرفقة الصالحة:** فإن هؤلاء الفتية لما عرفوا الطريق إلى الله ﷻ اجتمعوا عليه، ولا يخفى ما للرفقة الصالحة من أثر حسن على المرء، فإن الصاحب ساحب كما يقولون، والمرء على دين خليله، فالصاحب الصالح يذكر صاحبه إن نسي، ويعينه إن ذكر، وينصحه إن أخطأ، ولهذا قال العالِم لمن قتل مائة نفس وأراد أن يتوب: "انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناساً يعبدون الله فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء"[1].

٣- **الثبات:** فهؤلاء الفتية لم يتراجعوا عن عقيدتهم مع ما أحاط بهم من مخاوف ألجأتهم للهرب والاعتزال، لكنهم ثبتوا في وجه الطاغية، وهو درس كبير للمتلونين والمتحولين ممن يبيعون دينهم بعرض من الدنيا قليل.

٤- **الهجرة أو الاعتزال:** وقد أوضحت كثير من الآيات أن الهجرة في سبيل الله من أسباب الرزق والنصر والرحمة؛ كقوله: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ١٠٠﴾ [النساء]، وفي إبراهيم: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ٤٨ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ٤٩ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ٥٠﴾ [مريم]. فربط الله بين إنعامه على إبراهيم عليه السلام بالذرية الصالحة والرحمة ولسان الصدق وبين اعتزاله للشرك والمشركين.

---

(١) صحيح البخاري ٣/ ١٢٨٠ (٣٢٨٣)، صحيح مسلم ٤/ ٢١١٨ (٢٧٦٦)، واللفظ له.

٥- **حسن الظن بالله:** هؤلاء الفتية قالوا: ﴿فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الكهف]، والظاهر أن الكهف ليس فيه أسباب الرحمة المادية، من طيب العيش وهناءته، لكنهم أحسنوا الظن بالله وجزموا بذلك فلم يقولوا: عسى أو لعل، فكان الله تعالى عند ظنهم، قال الله تعالى في الحديث القدسي: "أنا عند ظن عبدي بي"(١).

٦- **الدعاء:** هؤلاء الفتية دعوا الله: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الكهف]، فاستجاب لهم كما وعد عباده الصالحين: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال النبي ﷺ: "إن ربكم حيي كريم يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفرا"(٢).

٧- **أن أمرهم كان شورى بينهم:** قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ [الكهف: ١٦]، فلم يكن قرار الذهاب للكهف فرديا، بل نسب إلى الجميع لأنه خرج بعد تشاور، والله يحب الشورى ولذا أمر بها، فلما طبقها الفتية كان ذلك من أسباب توفيق الله تعالى لهم، وكما قيل ما ندم من استخار ولا خاب من استشار، فالعاقل لا يستبد برأيه دون رأي المجموع، بل يستمع للمشورة ويعمل بها ما دامت صالحة.

ومما ينبغي التنبه له أن طلب المشورة يكون قبل الفعل لا بعده، فكثير من الناس لا يستشير ثم إذا وقع في مشكلة جاء يستشير، وصدق بعض المشايخ حيث قال: إن هذا الآن لا يستشير، لكنه يستنجد ويستجير.

٨- **اجتماع الكلمة:** وهذا ظاهر من أول القصة لآخرها، إذ الكلام عن جماعة واحدة لا يفرق بينها اختلاف، كاختلافهم في مدة لبثهم، فمثل

---

(١) صحيح البخاري ٦/ ٢٦٩٤ (٦٩٧٠)، صحيح مسلم ٤/ ٢٠٦١ (٢٦٥٧).
(٢) سنن أبي داود ١/ ٤٦٨ (١٤٨٨)، وصححه الألباني.

ذلك من الخلاف السائغ لا يؤثر في وحدة المنهج، فليت شبابنا يعون هذا ويفرقون به بين السائغ وغيره، ثم يدركون أنه حتى غير سائغ ليس على درجة واحدة، فمنه ما يغتفر ومنه لا؛ أما التعصب في مسائل خلافية أو في فروع لها وجه، فهذا نذير شر، نسأل الله العافية.

٩- **الأخذ بالأسباب:** فإنهم لم يخرجوا عياناً ليراهم أعداؤهم فينقضوا عليهم وإنما خرجوا متخفين ليلاً على قول بعض أهل العلم[١]، وحملوا معهم ورِقاً يقضون به حوائجهم في عزلتهم، وكانوا أعدوا لهذا اليوم ولهذا وقع اختيارهم على هذا الكهف بعينه كما رجحنا، ثم أخيراً طلبوا الطعام خفية كي لا يشعر بهم عدوهم، والأخذ بالأسباب المادية من التوفيق الإلهي، قال تعالى في ذي القرنين: (فأتبع سببا)، والسيرة النبوية مليئة بذلك.

١٠- **اتخاذ القرار العاقل:** قد يرى بعض الشباب في قرار الفتية اعتزال قومهم هرباً وجبناً، و هو في الحقيقة قرار صائب أقره الله، لأنهم اتخذوا قرارهم بالعقل لا بالعاطفة التي تحرك بعض شبابنا، وتجعلهم يحكمون على الدعاة بل على كبار المشايخ، بالانهزامية والتفريط، ثم تمر عليهم السنون فيندمون، ويقولون ليت وليت، وتكون البصرة قد ضاعت.

---

(١) راجع تفسير القرطبي ١٠/ ٣١٢.

الفتنة في الدِّين من خلال قصَّة أصحاب الكهف

الفتنة والاختبار من تبعات الإيمان، فمن ادعى الإيمان ابتلاه ليتبين صدقه: ﴿الٓمٓ ١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣﴾ [العنكبوت] قال الطبري: "معناه: أظنَّ الذين خرجوا يا محمد من أصحابك من أذى المشركين، أن نتركهم بغير اختبار ولا ابتلاءٍ، بأن قالوا: آمنا بك فصدَّقناك فيما جئتنا به من عند الله، كلا لنختبرهم، ليتبيَّن الصادق منهم من الكاذب"(١)، وسبق معنا أن سورة الكهف تعرضت لأهم الفتن في حياة الناس؛ فتنة الدين والمال والعلم والسلطان. والقرآن حافلٌ بنماذج البلاء والفتنة في الدّين وبالتحذير من عاقبة الفتنة، كأصحاب العجل في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ٨٥﴾ [طه]، والتّرغيب والحثّ على اتّباع سبيل المؤمنين الّذين ثبتوا في الفتنة، كما في قصّة أصحاب الأخدود: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ١٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ١١﴾ [البروج].

ومن تلك النّماذج، أصحاب الكهف الّذي نقف وقفة متأمّلة، فهو نموذجٌ مبهر (للإيمان في النفوس المؤمنة، كيف تطمئنُّ به، وتؤثره على زينة الأرض ومتاعها، وتلجأ إلى الكهف حين يعزُّ عليها أن تعيشَ به مع النَّاس، وكيف يرعى اللهُ هذه النفوس المؤمنة، ويقيها الفتنة، ويشملَها بالرحمة)(٢).

---

(١) تفسير الطبري: ١٩/ ٧ بتصرف واختصار.

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٥٤.

هم فتية كما تقدم، والفتى بطبعه يألف اللهو والباطل، مما قد يدفعه لعدم العناية بما يخالف شهوات القلب وحظوظ النفس، وفي الحديث: "إِنَّ اللهَ لَيَعْجَبُ مِنَ الشَّابِّ لَيْسَتْ لَهُ صَبْوَةٌ"(١)، ولهذا استحق من يحافظ على دينه في الشباب أن يكون فيمن يظلهم الله، قال ﷺ: "سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الإِمَامُ العَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ..."(٢)، فلما كانوا فتية ولم يصرفهم ذلك عن المعالي استحقوا التنويه، واستحقوا الثناء عليهم بالجمع بين هذا الوصف وتحقق الإيمان وزيادة الهدى.

وما أحرانا أن نقف ملياً عند هذا الحدث الإيماني الكبير، لنتساءل عن الأسباب التي أعانتهم على الثّبات عند الفتنة، عسى أن نأخذ العبرة:

أولاً: السّبب الأساسيُّ لثبات الفتية في الفتنة: يتمثل في قوله سبحانه: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ آمنوا إيماناً خالصاً، فزادهم الله إيماناً، ولذا عندما حضرتهم الفتنة ربط الله على قلوبهم بنور الإيمان، يقول ابن جرير الطبري في قوله تعالى: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾: (يقول عز ذكره: وألهمناهم الصبر، وشددنا قلوبهم بنور الإيمان حتى عزفت أنفسُهم عما كانوا عليه من خفض العيش)(٣).

إذن: نورُ الإيمان في القلب، هو السبب الأساسيُّ للثبات عند الفتنة، ويؤيّدُه قول الرسول ﷺ، في الحديث الشريف: "تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ، عَلَى أَبْيَض

---

(١) مسند أحمد ٢٨/ ٦٠٠ (١٧٣٧٠)، قال الأرناؤوط: حسن لغيره.
(٢) صحيح البخاري ١/ ١٣٣ (٦٦٠)، صحيح مسلم ٢/ ٧١٥ (١٠٣١).
(٣) تفسير الطبري: ١٧/ ٦١٥.

مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ، مُجَخِّيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ"(١).

يقول ابن القيم: (فشبَّه عرضَ الفتن على القلوب شيئاً فشيئاً، كعرض عيدان الحصير شيئاً فشيئاً، وقسم القلوب عند عرضها عليها إلى قسمين:

قلبٍ إذا عُرضت عليه فتنة أشربها كما يشرب السفنج الماء، فتنكت فيه نكتة سوداء، فلا يزال يشرب كل فتنة تُعرض عليه حتى يسودَّ وينتكسَ وقلبٍ أبيض قد أشرق فيه نورُ الإيمان وأزهرَ فيه مصباحُه، فإذا عرضت عليه الفتنة أنكرها وردَّها فازداد نوره وإشراقه وقوته. والفتن التي تعرض على القلوب هي أسباب مرضها، وهي فتن الشهوات والشبهات، فتن الغي والضلال، فتن المعاصي والبدع، فتن الظلم والجهل، فالأولى توجبُ فساد القصد والإرادة، والثانية توجب فساد العلم والاعتقاد)(٢).

قَالَ الْقَاضِي عِيَاض رحمه الله: (لَيْسَ تَشْبِيهُه بِالصَّفَا بَيَانًا لِبَيَاضِهِ، لَكِنْ صِفَة أُخْرَى لِشِدَّتِهِ عَلَى عَقْد الْإِيمَان وَسَلَامَته مِنْ الْخَلَل، وَأَنَّ الْفِتَن لَمْ تَلْصَق بِهِ، وَلَمْ تُؤَثِّر فِيهِ كَالصَّفَا، وَهُوَ الْحَجَر الْأَمْلَس الَّذِي لَا يَعْلَق بِهِ شَيْء)(٣).

وَقَالَ صَاحِب التَّحْرِير: الْمَعْنَى أَنَّ الرَّجُل إِذَا تَبِعَ هَوَاهُ وَارْتَكَبَ الْمَعَاصِي دَخَلَ قَلْبه بِكُلِّ مَعْصِيَة ظُلْمَة، وَإِذَا صَارَ كَذَلِكَ افْتُتِنَ وَزَالَ عَنْهُ

---

(١) صحيح مسلم ١/ ١٢٨ (١٤٤).

(٢) إغاثة اللهفان: ١/ ١٢ بتصرف يسير.

(٣) شرح النووي على مسلم:١/ ٢٦٨.

نُور الْإِسْلَام، وَالْقَلْب كالْكُوز فَإِذَا اِنْكَبَّ اِنْصَبَّ مَا فِيهِ وَلَمْ يَدْخُلهُ شَيْء بَعْد[1].

إن الذي يتأمل الآيات يجد أنهم لم يفعلوا شيئاً يوجب لهم وصف الإيمان المؤكد وزيادة الهدى سوى أنهم:

١ - صححوا توحيدهم ونطقوا بالحق والتزموه: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾، فوحدوه بأفعاله وأنه هو ربهم وخالقهم ورب السموات والأرض وخالقها، ثم وحدوه بأفعالهم بإفراده بالعبادة التي لا يستحقها غيره، فانطلقوا من توحيد الربوبية إلى توحيد الألوهية.

٢ - تبرؤوا من باطل قومهم وأنكروه: ﴿هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾، وأنى لهم ذلك وآلهتهم بعد السماء والأرض فكيف تخلقها؟ وبذلك لفتوا أنظارهم إلى أن خالقهم وخالق آلهتم هو خالق السموات والأرض وحده.

٣- أعلنوا معتقدهم ودعوا قومهم، وهو أحد المعاني في تفسير قوله سبحانه: ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾، وهذا ما أوجب قولهم: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾.

٤ - اعتزلوا قومهم وفاصلوهم لمَّا لم تكن لهم عليهم قوة، ولم تكن لهم قدرة على البقاء معهم مظهرين لدينهم، ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾.

---

(١) شرح النووي على مسلم: ١/ ٢٦٨ بتصرف واختصار.

فسبحان من يقبل القليل ويعطي عليه الكثير؛ عملوا قليلا ثم رقدوا طويلا، فأثبت لهم الإيمان، وجعلهم مثلاً، وخلد ذكرهم أبداً.

وهكذا ينبغي أن يكون المسلم، فإن هو صحح معتقده، ونطق بالحق، ودعا إليه، فليس عليه بعد ذلك أن يحمِّل نفسه ما لا يطيق، فإن قوتل أو أوذي ولم يمكنه القيام بشعائر دينه ولا يقدر على القتال، اعتزل أو هاجر، فهذا ما يجب عليه، ويكون له من وصف الإيمان والهدى نصيب بحسبه.

أما إن حمَّل نفسه فوق طاقتها وألقى بها في الردى، وكان في ذلك مصلحة ظاهرة فقد أخذ بالعزيمة، وللمرء أن يأخذ بها كما فعل الغلام صاحب الكاهن، وكما فعل أصحاب الأخدود من بعده، ولكن ليس له أن يحمِل الناس على ذلك، ولا أن يجرَّ عليهم ما رضيه من البلاء؛ أما إذا لم يكن في ذلك مصلحة فليس له أن يتكلفها أو يكلفها غيره، وحسبه أن ينأى بنفسه ويعتزل ذلك العمل الذي قد يجر عليه من الفتن ما لا يطيق.

إن الإشكال في واقع الناس اليوم وعند كثير من فضلاء البشر إنما هو في الموازنة بين المصالح والمفاسد المتداخلة كثيرا، ولئن كان بعضها محل اجتهاد ونظر، بحيث لا يُثرَّب على من اجتهد، إلا أن كثيراً من صالحي الأمة اليوم يكلف نفسه ما ليس في وسعها، ويجر بذلك على الأمة عنتاً، فمثل هؤلاء ما أحسنوا صنعاً، بل أساؤوا من حيث أرادوا الإحسان، ذلك أنهم إما أن تتيسر لهم سبل الدعوة والجهاد بالقرآن، فذلك الواجب حينها كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ۝٥٢﴾ [الفرقان]، وإما أن لا يتيسر لهم ذلك، فلا مناص حينها من الهجرة أو العزلة، حتى ينشر الله لأهل الحق من رحمته ما شاء ويهيئ لهم من أمرهم مرفقاً.

ومهما كان من أمر، فإن اجتهاد الناس في هذه المواقف مهما اختلف لا ينبغي أن يكون مجالا للتنازل عن الثوابت وترك الدين أو التفريط فيه.

ثانيا: العلم الصّحيح الثّابت أو الاعتصام بالكتاب والسنة: هذا هو السبب الثاني من أسباب الثبات عند الفتن، ويدلُّ عليه قوله: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ ﴾. قال الشوكاني: (أي هلا يأتون بحجة ظاهرة تصلح للتمسك بها)[1]، قال صاحب الظلال: (فهذا هو طريقُ الاعتقاد: أن يكونَ للإنسان دليلٌ يستندُ إليه، وبرهانٌ له سلطان، وإلا فهو الكذب الشَّنيع، لأنه الكذبُ على الله: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾)[2]، ويدلّ على ذلك قوله ﷺ: "إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا: كِتَابَ اللهِ وَسُنَّتِي"[3]، ومن علمهم الراسخ ترك الخوض في المشتبهات ورد علمها إلى الله، وتأمل قول الله تعالى بعد بعثهم: ﴿ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم ﴾ الآية.

قال ابن تيمية رحمه الله: (مسائل النزاع التي تنازع فيها الأمة في الأصول والفروع إذا لم ترد إلى الله والرسول لم يتبين فيها الحق، بل يصير فيها المتنازعون على غير بينة من أمرهم، فإن رحمهم الله أقر بعضهم بعضا ولم يبغ بعضهم على بعض، كما كان الصحابة في خلافة عمر وعثمان بعضهم بعضا ولا يعتدي عليه، وإن لم يرحموا وقع بينهم الاختلاف المذموم، فبغى بعضهم على بعض؛ إما بالقول مثل تكفيره وتفسيقه، وإما بالفعل مثل

---

(١) فتح القدير: ٣/ ٣٩٠.

(٢) الظلال ٤/ ٢٢٦٢ بتصرف يسير.

(٣) المستدرك على الصحيحين للحاكم ١/ ١٧٢.

حبسه وضربه وقتله. وهذه حال أهل البدع والظلم)[1]، فأي فتنة أعظم من هذه الفتنة؟!

ثالثاً: لزوم جماعة الحقِّ ولو كانت قليلة مستضعفة: قال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾، والفتية جمع قلة لفتى، ومر معنا الدليل على أنهم كانوا سبعة، والفتى يكون اسماً وصفة، وهو في الأصل يقال للشاب الحدث الطري، وليس إطلاقه على سن معينة بل يمتد من أول طراوة الشباب إلى أن يقوى ويشتد الشباب فيبلغ مداه وذلك في نحو الثلاثة والثلاثين، وقد تزيد بحسب اختلاف الناس، فما بين ذلك سن الفتوة.

ولزوم الجماعة عند أصحاب الكهف تجاوز حد عدم الخروج عليها بالقول إلى الائتلاف والصحبة، والصحبة الصالحة لها أثرها العظيم، لأن السالك وحده قد يستوحش، وقد يكلُّ فينقطع، أما إذا كان معه آخرون، فإنه يأنس، وهم يشدون من أزر بعضهم إذا خار أحدهم، أو أدركه عارض من عوارض الفتور، ولهذا لمّا اعتزلوا اعتزلوا جماعة مع أن تفرقهم أدعى للحفاظ على بعضهم إن عثر على أحدهم، والناس تقول: لا تضع البيض كله في سلة واحدة، لكن كانت لهذا الاجتماع مصالحه فكان لابد منه.

إن القلة لا ينبغي أن تعوق أهل الحق عن نشره، ولا أن تصرفهم عن رسالتهم، فقد كان عدد الفتية قليلاً ولكنهم عزموا على المضي في الحق والدعوة إليه، ولو التفتوا إلى كثرة مخالفيهم وعلو شأنهم وتقدم سنهم؛ إذاً لارتدوا على أدبارهم، لكن التحقيق أن الحق لا يعرف بكثرة أو قلة، بل

---

(١) مجموع الفتاوى ١٧/ ٣١١ بتصرف يسير.

الكثرة أكثر ما تجيء في القرآن مذمومة، كما قال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ۝٤٩﴾ [المائدة]، وقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ۝٩٢﴾ [يونس]، وقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ۝٨﴾ [الروم]، وقال: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقال: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ۝١٠٣﴾ [يوسف]، وقال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ۝١٠٦﴾ [يوسف]، ومدح القلة في مواطن فقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣﴾ [سبأ]، وقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤]، وقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ۝١٤﴾ [الواقعة].

قال ابن القيم رحمه الله: (ولما كان طالب الصراط المستقيم طالب أمر أكثر الناس ناكبون عنه، مريدا لسلوك طريق مرافقه فيها في غاية القلة والعزة[1]، والنفوس مجبولة على وحشة التفرد، وعلى الأنس بالرفيق، نبه سبحانه على الرفيق في هذه الطريق وأنهم الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا، فأضاف الصراط إلى الرفيق السالكين له، الذين أنعم عليهم، ليزول عن الطالب للهداية وحشة تفرده عن أهل زمانه وبني جنسه، وليعلم أن رفيقه في هذا الصراط هم الذين أنعم الله عليهم، فلا يكترث بمخالفة الناكبين عنه، فإنهم هم الأقلون قدرا وإن كانوا الأكثرين عددا، كما قال بعض السلف: عليك بطريق الحق ولا تستوحش لقلة السالكين، وإياك وطريق الباطل ولا تغتر بكثرة الهالكين)[2].

---

(١) أي الندرة.

(٢) مدارج السالكين ١/ ٢١ بتصرف يسير.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: "قال رسول الله ﷺ ذات يوم ونحن عنده: طوبى للغرباء. فقيل: من الغرباء يا رسول الله؟ قال: أناس صالحون في أناس سوء كثير من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم"(١).

فإذا ظهر للمرء هذه الحقائق كان بما هو مقدم عليه أبصر ولما ينتظره من وحشة على الطريق أصبر، ثم ما هي إلا أيام قلائل، حتى يلقى من أنعم الله عليهم ويأنس بهم، ﴿وَحَسُنَ أُولَٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩﴾ [النساء].

رابعاً: التوجّه إلى الله ﷻ بالدُعاء وطلب التّثبيت: قال تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠﴾ وللدعاء أهمية عظيمة، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾ [غافر]، ومن أقوى الأسباب في دفع المكروه، وحصول المطلوب، قال ابن القيم: (وهو من أنفع الأدوية، وهو عدو البلاء، يدافعه ويعالجه، ويمنع نزوله، ويرفعه، أو يخففه إذا نزل، وهو سلاح المؤمن، وللدعاء مع البلاء ثلاث مقامات:

١- أن يكون الدعاء أقوى من البلاء فيدفعه.

٢- أن يكون أضعف فيقوى عليه البلاء فيصاب به العبد، ولكن يخففه وإن كان ضعيفاً. ٣- أن يتقاوما ويمنع كل واحد منهما صاحبه)(٢).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: "الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، فعليكم عبادَ الله بالدعاء"(٣)، وعن سلمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لا يردُّ القضاءَ إلا الدعاء، ولا يزيدُ في العُمرِ إلا البر"(١).

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ٢/ ١٧٧ (٦٦٥٠)، قال الأرناؤوط: حسن لغيره.

(٢) الجواب الكافي: ص ١٠ بتصرف يسير.

(٣) المستدرك على الصحيحين للحاكم ١/ ٦٧٠ (١٨١٥)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع ٣/ ١٥١ (٣٤٠٢).

خامساً: العمل، ومنه الفرار بالدّين واعتزال أهل الباطل: يقول ابن كثير: (وهذا هو المشروع عند وقوع الفتن، أن يفرَّ العبد خوفًا على دينه، كما جاء في الحديث: "يوشك أن يكون خيرُ مال أحدكم غنمًا يتبع بها شعف الجبال ومواقع القَطْر، يفر بدينه من الفتن"[1][2] ففي هذه الحال تشرع العزلة، ولا تشرع فيما عداها، لما يفوت بها من ترك الجماعات والجمع)[3].

ويدلّ على ذلك من قصة أصحاب الكهف قوله تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾، قال ابن كثير: (أي: وإذا فارقتموهم وخالفتموهم بأديانكم في عبادتهم غير الله، ففارقوهم أيضًا بأبدانكم)[4]. وقد نص في أول خبرهم على أنهم أووا إلى الكهف، فكان لهم مأوى من القوم الكافرين أن ينالوا من دينهم وإيمانهم. والإيواء أصل لغوي يتضمن معنى الجمع أو الإشفاق، وتأمل هذا المعنى في قول الله تعالى عن يوسف: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٦٩ ﴾، وهكذا هؤلاء أووا إلى الكهف، فنشر لهم ربهم من رحمته الواسعة ما شاء!

سادساً وأخيراً: حسن تقدير الأمور وترتيبها: مخطئ من ظن أن خروج هذه العصبة لم يسبقه أي ترتيب أو اتفاق منهم، وقد قص الله علينا نقاشهم فقال: ﴿إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا

---

(١) سنن الترمذي ٤/ ٤٤٨ (٢١٣٩)، وحسنه الألباني.

(٢) صحيح البخاري ١/ ١٣ (١٩).

(٣) تفسير ابن كثير: ٥/ ١٤٢ بتصرف يسير.

(٤) السابق.

شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾، وهذا القيام ليس من رقدتهم، بل هو قيام إفاقة من الغفلة، وعلى غفلة قومهم، فهذا النقاش كان أولاً وفيه دلالات ظاهرة على حسن ترتيبهم، قال ابن كثير: (ذكر غير واحد من المفسرين أنهم كانوا من أبناء ملوك الروم وسادتهم، وأنهم خرجوا يومًا في بعض أعياد قومهم، وكان لهم مجتمع يجتمعون فيه في ظاهر البلد، ويعبدون الأصنام والطواغيت، ويذبحون لها، وكان لهم ملك جبار يقال له: دقيانوس، وكان يأمر الناس بذلك. فلما خرج الناس، وخرج هؤلاء الفتية مع قومهم، ونظروا بعين بصيرتهم، عرفوا أن السجود لأصنامهم، لا ينبغي إلا للذي خلق السموات والأرض. فجعل كل واحد منهم يتخلص من قومه، وينحاز منهم ويتبرز عنهم)[1]، إلى آخر الخبر وهو مشهور.

ومن جملة ترتيبهم تعيينهم الكهف بأل التعريف وهذا لا يكون غالباً إلا باتفاق طُوي ذكره، وإحضارهم كلب الحراسة، وإتيانهم بالرقيم وهو على أظهر الأقوال لوح كتبت فيه شؤون تخصهم، كما سبق؛ فالمقصود أنهم كانوا على صغرهم وقلتهم عقلاء يحسنون التدبير، ولهذا دلائل في أثناء القصة، كحوارهم بعد يقظتهم، وحرصهم على التلطف في طلب الطعام.

فكان ما ذكر من ترتيبهم من جملة أمور وفقهم الله بها إلى النجاة من الفتنة في الدين وتسلط الظالمين.

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٤١ بتصرف واختصار.

قال تعالى: ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾

لما اكتمل بيان قصة أصحاب الكهف بما حوته من دروس وعبر بقوله مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الكهف]، انتقل لفقرة جديدة تابع فيها خطابه ﷺ موجهاً إياه لسلوك أقوم الطرق في الرد على تعنت الكافرين وتكذيبهم، وطلباتهم المتكررة لتعجيز النبي ﷺ، وصرفه عن الحق، فأمره أن يبلغ ما أوحي إليه من قصة أصحاب الكهف وغيرها، ومن الدعوة للتوحيد والنهي عن الشرك وغير ذلك؛ أمره أن يجهر به كله بين أظهر الكافرين ولا يلتفت إلى دعوتهم التبديل في قولهم: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ ﴾ [يونس: ١٥]، لأنه لا يقدر أحد على تبديل ما فيه سوى الله ﷻ، بل أن يقرأه عليهم ويداوم على تلاوته ويتبع ما جاءه فيه ويعمل به غير ملتفت لمن يطلب تبديله، لأنه إن لم يفعل لم يجد له من دون الله ملجأ. وأمره أن يلزم المؤمنين الذين يعبدون ربهم ليلاً ونهاراً

ابتغاء مرضاته، ولا يرغب عن مجالستهم رجاء إيمان أشراف الكفار، ونهاه عن طاعة الذين اتبعوا أهواءهم وغفلوا عن ذكر ربهم، ثم أمره أن يبين لهم أن ما جاءهم به حق وهو من خالقهم الذي لا ينفعه إيمانهم ولا يضره كفرهم، فمن آمن فلنفسه وله عند ربه نعيم مقيم، ومن كفر فعليها وله عند ربه عذاب أليم.

قوله: ﴿ وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ﴾

مناسبة الآية لما قبلها:

ذكر العلماء رحمهم الله عدداً من مناسبات هذه الآية لما قبلها، قال البقاعي: (ولما تقرر أنه لا شك في قوله، ولا يقدر أحد أن يأتي بما يماثله - فكيف بما ينافيه!- مع كونه مختصاً بتمام العلم وشمول القدرة، حسن تعقيبه بقوله -عطفاً على ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ ﴾ -: ﴿ وَٱتۡلُ ﴾ أي اقرأ على وجه الملازمة ﴿مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ ﴾ وبنى للمجهول لأن الخطاب مع النبي ﷺ، وهو على القطع بأن الموحي إليه هو الله سبحانه ﴿مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ ﴾ الذي أحسن تربيتك في قصة أهل الكهف وغيرها، على من رغب فيه -غير ملتفت إلى غيره واتبعوا ما فيه واثقين بوعده ووعيده وإثباته ونفيه- وعلى غيرهم)[1].

وقال الألوسي: (لما ذكر قصة أصحاب الكهف، وكانت من المغيبات ودل اشتمال القرآن عليها على أنه معجز من حيثية الاشتمال أمره جل شأنه بالمواظبة على درسه بقوله سبحانه: ﴿ وَٱتۡلُ ﴾... وقيل: وجه الربط أنه سبحانه لما نهاه عن المراء المتعمق فيه وعن الاستفتاء، أمره سبحانه بأن يتلو ما أوحي إليه فكأنه قيل: اقرأ ما أوحي إليك من أمرهم واستغن به ولا

---

(١) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٣٩ بتصرف يسير.

تتعرض لأكثر من ذلك، أو اتبع ذلك ولا تتعمق في جدالهم ولا تستفت أحداً منهم، فالكلام متعلق بما تقدم من النواهي)[١].

أما ابن عاشور فقد بين ذلك بقوله: (والمقصود الرد على المشركين، إذ كانوا أيامئذٍ لا يُبَيّن لهم شيء إلا وانتقلوا إلى طلب آخر؛ فسألوا عن أهل الكهف وعن ذي القرنين، وطلبوا أن يجعل بعض القرآن للثناء عليهم، ونحو ذلك فلما وعدهم الجواب عن الروح وعن أهل الكهف وأبرَّ اللهُ وعدَه إياهم قطعاً لمعذرتهم ببيان إحدى المسألتين، ذيل ذلك بأن أمر نبيئه أن يقرأ القرآن كما أنزل عليه وأنه لا مبدِّل لكلمات الله، ولكي لا يُطمعهم الإجابة عن بعض ما سألوه، بالطمع في أن يجيبهم عن كل ما طلبوه)[٢].

وقال العلامة السعدي: (لما أخبر أنه تعالى له غيب السماوات والأرض، فليس لمخلوق إليها طريق، إلا التي يخبر بها عباده، وكان القرآن قد اشتمل على كثير من الغيوب، أمر تعالى بالإقبال عليه فقال: ﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ٢٧﴾)[٣].

فقوله: ﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ﴾

قال ابن فارس رحمه الله: (التاء واللام والواو أصلٌ واحد، وهو الاتِّباع. يقال: تَلَوْتُه إذا تَبِعْتُه. ومنه تلاوةُ القُرآن، لأنّه يُتْبع آيةً بعد آية)[٤]، قال ابن

---

(١) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٢٢٦ باختصار.

(٢) التحرير والتنوير ٨/ ٣٦٢ باختصار.

(٣) تفسير السعدي ١/ ٤٧٥ باختصار.

(٤) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ١/ ٣٥١.

الجوزي رحمه الله: (في هذه التلاوة قولان. أحدهما: أنها بمعنى القراءة. والثاني: بمعنى الاتِّباع. فالمعنى على الأول: اقرأ القرآن، وعلى الثاني: اتَّبِعْه واعمل به)[١]، وإلى كل من القولين ذهب بعض أهل العلم، قال ابن كثير رحمه الله: (يقول تعالى آمرًا رسوله ﷺ بتلاوة كتابه وإبلاغه إلى الناس)[٢]، وقال السعدي رحمه الله: (أي: اتبع ما أوحى الله إليك بمعرفة معانيه وفهمها، وتصديق أخباره، وامتثال أوامره ونواهيه)[٣]؛ والأمر بالتلاوة يشمل القراءة والبلاغ والامتثال؛ قال الشنقيطي رحمه الله: (والأمر في قوله "واتل" شامل للتلاوة بمعنى القراءة، والتلو: بمعنى الاتباع)[٤]، وقال الطبري رحمه الله: (واتبع يا محمد ما أنزل إليك من كتاب ربك هذا، ولا تتركنّ تلاوته، واتباع ما فيه من أمر الله ونهيه، والعمل بحلاله وحرامه)[٥]. وهذا الأمر يشمل كل ما أوحاه الله ﷻ لنبيه ﷺ في هذا الكتاب، قال ابن عاشور رحمه الله: (فالأمر في قوله: ﴿وَٱتۡلُ﴾ كناية عن الاستمرار. و ﴿مَآ أُوحِيَ﴾ مفيد للعموم، أي كل ما أوحي إليك. ومفهوم الموصول أن ما لم يوح إليه لا يتلوه، وهو ما اقترحوا أن يقوله في الثناء عليهم وإعطائهم شطراً من التصويب)[٦].

وأما قوله تعالى: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾

(١) زاد المسير ٤/ ٢١٨ باختصار.
(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٥١ باختصار.
(٣) تفسير السعدي ١/ ٤٧٥.
(٤) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٣/ ٣٣٠.
(٥) تفسير الطبري ١٧/ ٦٥١.
(٦) التحرير والتنوير ٨/ ٣٦٢.

فقد اشتملت مع قصر العبارة على جليل المعاني؛ فمنها: أن أحداً من الخلق لا يقدر أن يغير شيئاً من هذا الكتاب لا بزيادة ولا بنقصان ولا بتحريف، قال ابن كثير رحمه الله: (أي: لا مغير لها ولا محرف ولا مؤوِّل)[1]، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر]، فكل من رام تغيير شيء منه ذهب سعيه أدراج الرياح وكان صبيان الكتاتيب - فضلاً عن غيرهم- له بالمرصاد؛ وأما من رام تبديل معانيه بالتأويل الباطل وتحريف الكلم عن مواضعه، فقد قيض الله عز وجل لهذا القرآن عبر القرون علماء ربانيين ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين.

ومنها: أن الله وحده يقدر على ذلك، قال الشنقيطي رحمه الله: (بين أنه لا مبدل لكلماته. أي لأن أخبارها صدق: وأحكامها عدل، فلا يقدر أحد أن يبدل صدقها كذباً، ولا أن يبدل عدلها جوراً. وهذا جاء مبيناً في مواضع أخر، كقوله تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ ﴾ [الأنعام]. فقوله: «صدقاً» يعني في الأخبار. وقوله «عدلاً» أي في الأحكام. وكقوله: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأنعام]. وقد بيَّن تعالى في مواضع أخر، أنه يبدل ما شاء من الآيات مكان ما شاء. كقوله: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ [النحل: ١٠١]. وقوله: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾ [البقرة: ١٠٦] ، وقوله: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٥١.

لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ ﴾ [يونس: ١٥])(١).

وقد تمسك من ينكر وقوع النسخ بهذه الآية، ولا متمسك لهم لما سبق من الآيات الدالة على وقوعه، قال أبو حيان رحمه الله: (﴿ لَا مُبَدِّلَ ﴾ عام و ﴿ لِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ عام أيضاً فالتخصيص إما في {لا مبدل} أي لا مبدل له سواه، ألا ترى إلى قوله: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ﴾، وإما في كلماته؛ أي لكلماته المتضمنة الخبر، لأن ما تضمن غير الخبر وقع النسخ في بعضه)(٢).

ومنها: أنه ببيان أنه لا مبدل لكلمات الله قطع آمالهم أن يستجاب لهم في تبديل وتغيير ما لا يوافق أهواءهم من الوحي، قال الزمخشري: (كانوا يقولون له: ائت بقرآن غير هذا أو بدله، فقيل له: ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ ﴾ من القرآن ولا تسمع لما يهذون به، فلا مبدل لكلمات ربك، أي: لا يقدر أحد على تبديلها، غيره ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ﴾ [النحل: ١٠١])(٣).

أما قوله تعالى: ﴿ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾

فالملتحد كما قال الطبري رحمه الله: (مفتعل من اللحد، يقال: لحدت إلى كذا إذا ملت إليه، ومنه: اللحد، لأنه في ناحية من القبر، وليس بالشق الذي في وسطه، ومنه الإلحاد في الدين، وهو المعاندة بالعدول والترك)(٤)،

---

(١) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٣/ ٣٣٠-٣٣١ باختصار.
(٢) تفسير البحر المحيط لأبي حيان ٧/ ٤٣٩.
(٣) الكشاف ٤/ ٨ بتصرف واختصار.
(٤) تفسير الطبري ١٧/ ٦٥٢ بتصرف.

والمراد به في الآية كما قال مجاهد وقتادة: الملجأ[1]، وقال ابن عاشور: (وجاء بصيغة الافتعال لأن أصله تكلف الميل. ويفهم أنه مفر من مكروه يتكلف الخائف أن يأوي إليه، فلذلك كان بمعنى الملجأ. والمعنى: لن تجد شيئاً يُنجيك من عقابه. والمقصود من هذا تأييسهم مما طمعوا فيه)[2]. يريد أنه عليه السلام لا يمكن أن يستجيب للكفار فيما طلبوه من تبديل هذا القرآن أو الإتيان بغيره.

---

(١) السابق ١٧/ ٦٥١.

(٢) التحرير والتنوير ٨/ ٣٦٢ بتصرف.

ففروا إلى الله

الدنيا دار ابتلاء وامتحان، يبتلى فيها المرء بالسراء والضراء، يبتلى بالغنى والصحة والجاه، كما يبتلى بالفقر والمرض ورقة الحال، ولا تخلو حياة أي إنسان من الشدائد والمحن، سواء في دينه أو في دنياه.

وإذا كان الناس من قديم الزمان يلجؤون إلى الكهوف والغيران الحسية فراراً من عدو متربص أو هرباً من وحش كاسر أو ليقوا أنفسهم من حر الصيف أو برد الشتاء، فإن الله سبحانه قد جعل للمرء كهفاً معنوياً يأوي إليه ليقيه الفتن والمحن و يحميه من أعدائه الذين يقطعون طريقه إلى الجنة، ويسعون في خراب دينه ودنياه. هو كهف واحد، وما سواه مما قد يخيل للبعض أنه منجاة لا يعدو كونه سراباً. هذا الكهف هو التوحيد والإيمان والتقرب إلى الله بما يرضيه، فإن من أوى إلى الله أوى إلى ركن شديد. وقد بين سبحانه هذه الحقيقة أجلى بيان لمن تدبر قوله: {ولن تجد من دونه ملتحدا}، وتأمل التقارب في المعنى بين الملتحد وهو الملجأ وبين الكهف، تجد رابطاً قوياً يدل أن المطلوب التبرؤ من الحول والقوة، ونبذ كل ما قد يظنه المرء من أسباب النجاة إن كان على غير مراد الله، لأن النجاة الأكيدة لا تكون إلا فيما شرع الله، مهما كان الثمن في سبيلها؛ قد يكون هذا الثمن الهجرة ومفارقة الخلان، قد يكون ترك الوظائف أو التضحية بالمال والجاه، قد يكون التعرض للأذى الحسي أو المعنوي، لكن من سار في هذا الطريق راضياً موقناً ملأ الله قلبه بالسكينة، كما فعل لأصحاب الكهف ونشر له من رحمته كما نشر لهم، وأبدله من بعد العسر يسراً.

إن كثيراً من أهل الابتلاء يعيشون عيشة راضية لا ينالها كثير من أهل العافية، فكم سمعنا عن أغنياء من أصحاب المناصب، أعطاهم الله الزوجات الحسان وطيب المعايش، ومع ذلك لا يشعرون بالسعادة، بل كثيراً ما يقدمون على الانتحار، وفي المقابل نجد أقواماً حالهم رقيقة وعندهم فقر ومرض، لكن السعادة تغمر قلوبهم. والسر في ذلك أنهم أنسوا بالله فأزال عنهم وحشة الطريق، وأولئك ركنوا إلى ما بين أيديهم من النعيم ونسوا الله فأنساهم أنفسهم. فواجب المؤمن أن يصوغ حياته وفق منهج الله، ويتعامل مع قدر الله الكوني بقدره الشرعي، فكل الفتن التي نراها من تبدل الأحوال وتغير المفاهيم، وسعي كثيرين للحصول على تنازلات من أهل العلم، بالترغيب تارة وبالترهيب أخرى، كل هذا من قدر الله الكوني، ولا نجاة منه إلا بالقدر الشرعي؛ بالاعتصام بحبل الله والعمل بآياته والدعوة إليها مع صدق اللجوء والضراعة إليه سبحانه.

فوائد:

١- في هذه الآية تأكيد أن ما جاء في قصة أصحاب الكهف وحي من الله وأنه هو الحق فيما وقع فيها من خلاف، وهذا يتضمن صحة نبوة النبي ﷺ، وهو الأمر الذي أنكره المشركون وأرادوا بزعمهم التأكد منه بسؤالهم عن هذه القصة.

٢- في الأمر بتلاوة كتاب الله والعمل به في مواجهة المكذبين دليل على ما لهذا من أثر في تثبيت القلوب وتزكيتها، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ١٧﴾ [محمد]، ولهذه التلاوة فوائد أخرى، قال الشنقيطي رحمه الله: (وقد بين في مواضع

أخر النتائج التي تحصل بسبب تلاوة القرآن واتباعه؛ كقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ٢٩ ﴾ [فاطر]، وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٢١ ﴾ [البقرة]، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب)[1].

٣- وفيها دليل على أن القرآن كلام الله وأنه بحروف لقوله (لكلماته)، وهو مذهب أهل السنة خلافاً لمن زعم غير ذلك.

٤- فيها إرشاد للتأسي بالنبي ﷺ في تبليغ القرآن للناس مع العمل به ليوافق الخبر الخبر فتؤتي دعوتهم أكلها بإذن الله.

٥- في الآية رد على المبدلين لشرع الله إذ تتعالى أصواتهم في هذا الزمان؛ تارة بحجة الضغوط من دول الكفر، وتارة بزعم مصلحة الدعوة، وتارة بزعم الحرص على الوسطية، مع أن دين الإسلام هو الوسطية فأي تغيير فيه يخرج عنها، ففي الآية تحذير لهؤلاء وغيرهم إن فعلوا ذلك بأنهم لن يجدوا من عذاب الله ملجأ.

٦- في الآية تعظيم القرآن وتفخيم قدره، إذ لا يعلم كتاب حفظ من التبديل مع تطاول الزمان سوى كتاب الله، وفي هذا ترغيب في الإقبال عليه بالإيمان والقراءة والعمل.

---

(١) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٣/ ٣٣٠.

٧- في الآية حماية لجناب التوحيد؛ (فإذا تعين أنه وحده الملجأ في كل الأمور، تعين أن يكون المرغوب إليه، في السراء والضراء، المفتقر إليه في كل الأحوال، المسؤول في جميع المطالب)[١].

ثم قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾

سبب نزول الآية:

سبق الكلام على سبب نزولها وارتباطه بآية: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنعام]، فعن سعد رضي الله عنه: "فيَّ نزلت ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ قال: نزلت في ستة أنا وابن مسعود منهم، وكان المشركون قالوا له: تدني هؤلاء!"[٢]، وفي رواية قال: "كنا مع النبي ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء لا يجترؤون علينا، قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدث نفسه فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾"[٣].

(١) تفسير السعدي ١/ ٤٧٥ بتصرف.
(٢) صحيح مسلم ٤/ ١٨٧٨ (٢٤١٣).
(٣) السابق.

وقد اتفق المفسرون على أن هذا هو سبب النزول؛ إلا أنهم اختلفوا في تحديد أعيان من طلبوا ذلك؛ فقيل إنهم من كفار قريش، وذكروا منهم: أمية بن خلف، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، ومطعم بن عديّ، والحارث بن نوفل، وقرظة بن عبد عمرو بن نوفل، في أشراف من بني عبد مناف من الكفار؛ وقيل من المؤلفة قلوبهم، وذكروا منهم الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري، وأما الضعفاء من أصحاب النبي ﷺ فقد ذُكر في الروايات منهم: سلمان وبلال، وصهيب، وخباب، وسعد، وعمارُ بن ياسر، وسالم مولى أبي حذيفة، وصبيح مولى أسيد، ومن الحلفاء: ابن مسعود، والمقداد بن عمرو، وواقد بن عبد الله الحنظلي، وغيرهم رضي الله عنهم.

قال الطبري رحمه الله: أتى النبي ﷺ قوم من عظماء أهل الشرك، أو من عظماء قبائل العرب ممن لا بصيرة لهم بالإسلام، فرأوه جالساً مع خباب وصهيب وبلال، فسألوه أن يقيمهم عنه إذا حضروا، فهمّ رسول الله ﷺ، فأنزل عليه: {وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ}، ثم كان يقوم ويتركهم قعوداً، فأنزل الله عليه: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ الآيَةَ)[١]، وعن ابن زيد قال: (قال القوم للنبيّ ﷺ: إنا نستحيي أن نجالسهم، فجانبهم يا محمد، وجالس أشراف العرب، فنزل القرآن ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ الآية، ولا تحقرهم، قال: قد أمروني بذلك، قال: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[٢].

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٦.

(٢) السابق بتصرف.

فلما كان النبي ﷺ شديد الحرص على هداية قومه، ويكاد لأسفه على كفرهم يهلك نفسه، ولما كان من طلباتهم طرد ضعفاء المسلمين وفقرائهم لأنفتهم من مجالستهم، مما قد يجعله يركن لطلبهم رجاء أن يؤمنوا، أمره جل وعلا ألا يلتفت لهم، وأن يحبس نفسه على أصحابه المؤمنين، ولا يستبدل بهم أحداً. وقد وقع منه عليه السلام مثل ذلك مع ابن أم مكتوم رضي الله عنه، لما أتاه وهو يدعو نفراً من أشراف قريش، فجاءه يسأله عن آية فأعرض عنه وعبس في وجهه وأقبل على القوم، فنزل قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾﴾ [عبس].

وعلى كل حال، فهذا كله يدل على عظيم حرصه عليه السلام على إيمان القوم، لشدة أسفه على كفرهم وتكذيبهم حتى كاد الأسف يهلكه، ولأن إيمان السادة سبب لإيمان أتباعهم غالبا، وكفرهم يصد أتباعهم عن الإيمان، وهذا مشاهد عند الناس عبر الزمان حتى قالوا: الناس على دين ملوكهم، وقد قال عليه السلام لهرقل يوم دعاه: (فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين)(١).

فقوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ﴾ قال ابن عاشور رحمه الله: (أي احبسها معهم حبس ملازمة. والصبر: الشد بالمكان بحيث لا يفارقه. ومنه سميت المَصْبورة وهي الدابة تشد لتُجعل غَرضاً للرمي)(٢).

وقوله: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾

---

(١) صحيح البخاري ١/ ٧ (٧)، صحيح مسلم ٣/ ١٣٩٣ (١٧٧٣).
(٢) التحرير والتنوير ٨/ ٣٦٣.

المراد بهم ابتداء أصحاب النبي ﷺ الضعفاء الفقراء كما وصفت الآية من ملازمة الدعاء وإرادة وجه الله، لأنهم هم من طلب المشركون طردهم، ولا يعني هذا أن الملازمين للعبادة من الأغنياء غير داخلين فيها، قال ابن كثير: (سواء كانوا فقراء أو أغنياء أو أقوياء أو ضعفاء)(١). أما الدعاء المذكور فقد ذكر الطبري رحمه الله أقوال العلماء فيه، فقيل: المراد المكتوبة، وقيل: الصبح والعصر، وقيل: ذكر الله، وقيل: تعلم القرآن وتلاوته، وقيل: عبادة الله ﷻ، ثم قال: (الدعاء لله، يكون بذكره وتمجيده والثناء عليه قولاً وكلامًا، وقد يكون بالعمل له بالجوارح وقد يجوز أن يكون القوم كانوا جامعين هذه المعاني كلها، فوصفهم الله بذلك بأنهم يدعونه بالغداة والعشي، لأن الله سمى العبادةَ دعاءً، فقال: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [غافر]. وقد يجوز أن يكون ذلك على خاصّ من الدعاء. ولا قول أولى بذلك من وصف القوم بما وصفهم الله به: من أنهم كانوا يدعون ربهم بالغداة والعشي، فيعمُّون بالصفة التي وصفهم بها، ولا يخصُّون منها بشيء دون شيء)(٢)، وقال ابن عاشور: (والتعبير بالموصول للإيماء إلى تعليل الأمر بملازمتهم، أي لأنهم أحرياء بذلك لإقبالهم على الله فهم الأجدر بالمصاحبة)(٣).

وقوله: ﴿بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٥٢.
(٢) تفسير الطبري ١١/ ٣٨٧ بتصرف واختصار.
(٣) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٠٥ باختصار.

قال الشنقيطي ﷺ: (الغداة: أول النهار، والعشي: آخره)[١]، وقال الرازي: (في قوله: ﴿بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ وجوه: الأول: المراد كونهم مواظبين على هذا العمل في كل الأوقات، كقول القائل: ليس لفلان عمل بالغداة والعشي إلا شتم الناس. الثاني: أن المراد صلاة الفجر والعصر. الثالث: المراد أن الغداة هي الوقت الذي ينتقل الإنسان فيه من النوم إلى اليقظة، وهذا الانتقال شبيه بالانتقال من الموت إلى الحياة؛ والعشي هو الوقت الذي ينتقل الإنسان فيه من اليقظة إلى النوم، ومن الحياة إلى الموت، والإنسان العاقل يكون في هذين الوقتين كثير الذكر لله عظيم الشكر لآلاء الله ونعمائه)[٢]، وأولى الأقوال بالصواب الأول الدال على المواظبة، فهو المناسب لحالهم ويشمل القولين الآخرين، قال البقاعي: (وكنى عن المداومة بما يدل على البعث الذي كانت القصة دليلاً عليه فقال: ﴿بِٱلْغَدَوٰةِ﴾ أي التي الانتقال فيها من النوم إلى اليقظة، كالانتقال من الموت إلى الحياة، ﴿وَٱلْعَشِيِّ﴾ أي التي الانتقال فيها من اليقظة إلى النوم كالانتقال من الحياة إلى الموت)[٣].

وقوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾

قال الطبري: (يلتمسون القربة إلى الله، والدنوّ من رضاه)[٤]، وقال الشنقيطي: (مخلصين له، لا يريدون بدعائهم إلا رضاه)[٥]، فلا يريدون

---

(١) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٣/ ٣٣٢.
(٢) تفسير مفاتيح الغيب للرازي ١٠/ ١٩٧.
(٣) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٤٠ بتصرف يسير.
(٤) تفسير الطبري ١١/ ٣٨٨ بتصرف يسير.
(٥) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٣/ ٣٣٢ بتصرف يسير.

منافع دنيوية من منزلة بين الخلق أو مكانة عالية، ولا جاهاً ولا سلطاناً ولا شيئا من حطام الدنيا الفاني، فمرادهم الوحيد هو تحصيل مرضاة الله ﷻ.

قال ابن عثيمين رحمه الله: (وفي الآية إثبات الوجه لله، قال الله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ٢٧﴾ [الرحمن]. وقال النبي ﷺ: "أعوذ بوجهك"، وأجمع سلف الأمة وأئمتُها على ثبوت الوجه لله. ولكن هل يكون مماثلاً لأوجه المخلوقين؟ الجواب: لا يمكن أن يكون مماثلاً لأوجه المخلوقين لقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ١١﴾ [الشورى])[1].

وقوله: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾

قال الألوسي: (أي لا تصرف عيناك النظر عنهم إلى أبناء الدنيا، والمراد النهي عن احتقارهم لرثاثة حالهم إلى غيرهم)[2]، وقال ابن عاشور: (وظاهر ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ نَهْي العينين أن تَعْدُوَا عنهم، أي تبعُدَا. والمقصود: الإعراض، ولذلك ضُمِّن فعل العَدْو معنى الإعراض، فعدي بـ(عن) وكان حقه أن يتعدى بنفسه يقال: عداه، إذا جاوزه. ومعنى نهي العينين نهي صاحبهما، أي: ولا تُعَدِّ عينيك عنهم. وهو إيجاز بديع)[3].

وقوله: ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾

قال ابن عاشور رحمه الله: (وهذا الكلام تعريض بحماقة سادة المشركين الذين جعلوا عنايتهم بالأمور الظاهرة، وأهملوا الاعتبار بالحقائق والمكارم النفسية فاستكبروا عن مجالسة أهل الفضل، وجعلوا همّهم

---

(١) تفسير سورة الكهف بتصرف واختصار.

(٢) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٢٣٤ بتصرف يسير.

(٣) التحرير والتنوير ٨/ ٣٦٣ بتصرف واختصار.

الصور الظاهرة)(١). وأما زينة الحياة الدنيا فقال البغوي رحمه الله: (طلب مجالسة الأغنياء والأشراف وصحبة أهل الدنيا)(٢)، ولم يكن النبي ﷺ يطلب مجالستهم لينال مما في أيديهم -حاشاه- لكنه عليه السلام كان يرغب في مجالستهم أكثر من الضعفاء طمعاً في إيمانهم وأتباعهم، فسمى الله عز وجل ذلك من زينة الحياة الدنيا، قال ابن الجوزي رحمه الله: (وكان عليه السلام حريصاً على إيمان الرؤساء ليؤمن أتباعهم، ولم يكن مريداً لزينة الدنيا قطُّ، فأُمر أن يجعل إقباله على فقراء المؤمنين)(٣)، وذهب جمع من أهل العلم إلى غير ذلك، قال الطبري رحمه الله: (لا تعدُ عيناك ... إلى أشراف المشركين، تبغي بمجالستهم الشرف والفخر)(٤)، وقال الرازي رحمه الله: (والمقصود النهى أن يزدري فقراء المؤمنين وأن تنبو عيناه عنهم لأجل رغبته في مجالسة الأغنياء وحسن صورتهم، وقوله: ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ نصب في موضع الحال. يعني إن فعلت لم يكن إقدامك عليه إلا لرغبتك في زينة الدنيا)(٥)، وهذا خطأ ظاهر، لأنه لا يليق بحال النبي ﷺ، وقد تواتر تباعده عن زينة الحياة الدنيا ومتاعها، وزهده فيما في أيدي الناس. أما القرطبي رحمه الله فقد نفى إرادة مجالسة القوم فقال: (أي تتزين بمجالسة هؤلاء الرؤساء الذين اقترحوا إبعاد الفقراء من مجلسك، ولم يرد النبي ﷺ أن يفعل، ولكن الله

---

(١) التحرير والتنوير ٨/ ٣٦٣ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير معالم التنزيل للبغوي ٥/ ١٦٦.
(٣) زاد المسير ٤/ ٢١٨ بتصرف واختصار.
(٤) تفسير الطبري ١٨/ ٦.
(٥) تفسير مفاتيح الغيب للرازي ١٠/ ١٩٧ بتصرف واختصار.

نهاه، وليس هذا بأكثر من قوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر] وإن كان الله أعاذه من الشرك)(١). والصواب ما ذكره ابن الجوزي رحمه الله لموافقته سبب النزول من ميل النبي ﷺ وهمه من جهة، ولأنه اللائق بحاله من جهة أخرى.

قوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ نهي من الله لنبيه عليه السلام أن ينقاد مع الكفار فيما يطلبونه، ويجوز أن يشمل طلبهم تبديل القرآن، وطرد ضعفة المؤمنين، وغير ذلك مما يخالف الوحي، وإن كان الثاني ألصق بالسياق. قال ابن عاشور رحمه الله: (والمراد بإغفال القلب جعله غافلاً عن الوحدانية حتى راج فيه الإشراك، فإن ذلك ناشئ عن عقول ضيقة التبصر مسوقة بالهوى. وأصل الإغفال: إيجاد الغفلة، وهي الذهول عن التذكر الشيء، وهي غفلة خاصة، مستفادة من جعل الإغفال من الله كناية عن كونه في خِلقة تلك القلوب، وما بالطبع لا يتخلف)(٢)، وقد قرئ: (من أغفلَنا قلبُه)، قال الألوسي: (هو على هذه القراءة من أغفلَه إذا وجده غافلاً، والمراد: ظنَّنا غافلين عن صنيعه بالمؤاخذة، بجعل ذكر الله كناية عن مجازاته)(٣).

وقوله: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾

قال الطبري: (ترك اتباع أمر الله ونهيه، وآثر هوى نفسه)(٤)، وقال ابن الجوزي: (واتبع هواه في الشّرك)(٥)، وقال السعدي: (حيث ما اشتهت

---

(١) تفسير القرطبي ١٠/ ٣٣٩ بتصرف واختصار.
(٢) التحرير والتنوير ٨/ ٣٦٤ بتصرف واختصار.
(٣) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٢٣٧ بتصرف واختصار.
(٤) تفسير الطبري ١٨/ ٨.
(٥) زاد المسير ٤/ ٢١٨.

نفسه فعله، وسعى في إدراكه، ولو كان فيه هلاكه وخسرانه، فهو قد اتخذ إلهه هواه، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ الآية)[١].

قوله : ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ قال قتادة ومجاهد: ضياعاً، وقيل: معناه ضيع أمره وعطل أيامه، وقيل: ندماً. وقال مقاتل بن حيان: سرفاً. وقال الفراء: متروكاً. وقيل باطلاً. وقيل: مخالفاً للحق. وقال الأخفش: مجاوزاً للحد[٢]، ولا تعارض بين هذه الأقوال، لأن من طلب طرد المؤمنين العابدين الذاكرين تكبراً وترفعاً عن مجالستهم تنطبق عليه كل هذه الأوصاف.

فيكون معنى الآية: اجلس يا نبي الله مع عباده الذين يذكرونه ويعبدونه بأنواع العبادات ويسألونه آناء الليل والنهار، واحبس نفسك عليهم وإن كانوا فقراء أو ضعفاء، ولا تطلب بدلهم أصحاب الشرف ممن ليست هذه حالهم، ولا تطع من شغل عن عبادة ربه بالدنيا، وكان متبعاً لهواه وكانت أعماله سفهاً وضياعاً، فلا تكن مطيعًا له ولا محبًا لطريقته، ولا تغبطه بما هو فيه[٣]. قال ابن عاشور رحمه الله : (هذا نهي جامع عن ملابسة شيء مما يأمره به المشركون. والمقصود تأسيس قاعدة لأعمال الرسول والمسلمين تُجاه رغائب المشركين، وتأييسهم من نوال شيء مما رغبوه من النبي ﷺ)[٤].

---

(١) تفسير السعدي ١/ ٤٧٥.
(٢) تفسير معالم التنزيل للبغوي ٥/ ١٦٧.
(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ١٥٢-١٥٥ بتصرف واختصار.
(٤) التحرير والتنوير ٨/ ٣٦٣ بتصرف واختصار.

وقفات مع الآية الكريمة

الوقفة الأولى- أهمية الرفقة الصالحة:

أمر الله ﷻ نبيه عليه السلام أن يحبس نفسه مع من يدعونه سبحانه من أهل الإيمان، وأمته تبع له ما لم يقم دليل على الخصوصية، وقد روى الطبري رحمه الله عن عبد الرحمن بن سهل بن حنيف -وفي صحبته نظر- (أن هذه الآية نزلت على النبي ﷺ وهو في بعض أبياته ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ فخرج يلتمس، فوجد قوماً يذكرون الله، منهم ثائر الرأس، وجافّ الجلد، وذو الثوب الواحد، فلما رآهم جلس معهم، فقال: "الحَمْدُ لله الَّذِي جَعَلَ لي فِي أُمَّتِي مَنْ أمرني أنْ أصبِرَ نَفْسي مَعَهُ")[1]، وفي هذا إشارةَ لطيفة إلى أهمية صحبة أهل الإيمان، قال الشيخ السعدي رحمه الله: (فيها الأمر بصحبة الأخيار، ومجاهدة النفس على ذلك، ومخالطتهم وإن كانوا فقراء فإن في صحبتهم من الفوائد، ما لا يحصى)[2]، وصدق رحمه الله، وهذا مشاهد، فمن صاحب الأخيار تخلق بأخلاقهم، والعكس، فإن كثيراً من الشباب عرفوا الحق والتزموا به بتوفيق الله أولاً، ثم بالرفقة الصالحة التي تعينهم على الخير وتثبتهم عليه، وكذلك كثير من الشباب الذين سلكوا طريق الانحراف كتعاطي المخدرات أو الخمور أو مقارفة الفاحشة والعياذ بالله فإن مبدأ كل هذا يكون غالباً رفقة السوء، لذا فإن من أراد أن يعرف أخلاق شخص ما سأل عن أصدقائه ورفقائه، وقد قال النبي ﷺ: "الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ"[3].

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٦ بتصرف واختصار.

(٢) تفسير السعدي ١/ ٤٧٥ بتصرف يسير.

(٣) سنن الترمذي ٤/ ٥٨٩ (٢٣٧٨)، وحسنه الألباني.

إن الإنسان بحاجة لأعوان على الحق؛ بتعلمه والعمل به والدعوة إليه، والبعد عن الباطل ومحاربته، خاصة زمن الفتن والشبهات والشهوات، يصبح المرء مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً. ويخطئ من يثق في حفظ دينه وسط فتن تموج موج البحر وهو بمعزل عن أهل الصلاح، فالذئب يأكل من الغنم القاصية، قال رسول الله ﷺ: "إن الشيطان ذئب الإنسان، كذئب الغنم يأخذ الشاة القاصية والناحية، فإياكم والشعاب، وعليكم بالجماعة والعامة والمسجد"[1].

لطيفة- تكرر الكلام في هذه السورة عن الرفقة الصالحة، فقصة الكهف التي سميت بها تدور على الرفقة الصالحة للفتية، بل إن كلبهم نال شرف ذكره في القرآن الكريم بسبب رفقته لهم، والآية التي بين أيدينا تؤكد ذلك، وصاحب الجنتين -الذي آمن على الراجح- استفاد من رفقة صاحبه الصالح، وقصة موسى فيها إشارة إلى أهمية صحبة الأخيار.

الوقفة الثانية- الفرق بين الاجتماع على الخير والتحزب:

أمر الله ﷻ نبيه ﷺ بالاجتماع مع أصحابه على الطاعة وهو أمر للأمة من بعده، ومثل هذا الاجتماع لا بد له من ترتيب كي يستقيم الحال، فلكل فرد دوره المنوط به وبتكامل الأدوار وبحسن إدارة الأفراد وتنسيق جهودهم ترتقي الجماعة؛ أي جماعة بدءاً من العائلة الصغيرة وانتهاء بالدولة ومؤسساتها، فلا بد من وجود قيادة وتنظيم وترتيب، كما قيل:

لا يَصلُحُ الناسُ فَوضى لا سَراةَ لَهُم ... وَلا سَراةَ إِذا جُهّالُهُم سادوا[2]

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ٥/ ٢٣٢ (٢٢٠٨٢)، قال الأرناؤوط: حسن لغيره.

(٢) البيت للأفوه الأودي (ت ٥٤ ق.ه)، وهو من البحر البسيط.

وفرق بين الاجتماع على الخير، وما فيه من تنظيم وتوزيع للمهام، وبين التعصب والتحزب المذموم، حيث يكون الولاء للجماعة أخطأت أو أصابت، ويكون الولاء والبراء على اسمها والانتماء إليها، فالأول محمود وليس من التعصب، والثاني مذموم، وبهذا أفتى شيخنا ابن باز .

ومن تأمل سورة العصر وجد عجباً، قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر]، فجاء بلفظ الإنسان مفرداً ثم لم يقل (إلا الذي آمن)، بل أتى بصيغة الجمع (الذين آمنوا وعملوا... وتواصوا)، وجعل من شروط الفوز والفلاح تواصي الجماعة المؤمنة بالحق والصبر.

وقد كانت أعمال النبي ﷺ منظمة مرتبة، لم تكن خبط عشواء، وكان ﷺ يوزع الأدوار على أصحابه، فقد قال: "خذوا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود فبدأ به، وسالم مولى أبي حذيفة، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب"[(١)]، وقال: "أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ، وَأَشَدُّهُمْ فِي دِينِ اللَّهِ عُمَرُ، وَأَصْدَقُهُمْ حَيَاءً عُثْمَانُ، وَأَقْضَاهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَأَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، وَأَعْلَمُهُمْ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأَفْرَضُهُمْ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينًا، وَأَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ"[(٢)]، وقال: "خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ"[(٣)]، إلى غير ذلك.

(١) صحيح البخاري ٥/ ٣٦ (٣٨٠٨)، صحيح مسلم ٤/ ١٩١٣ (٢٤٦٤).
(٢) سنن ابن ماجه ١/ ٥٥ (١٥٤)، وصححه الألباني.
(٣) سنن الترمذي ت شاكر ٥/ ٦٨٨ (٣٨٤٦)، وصححه الألباني.

الوقفة الثالثة- لا تترفع على أهل الخير:

في هذه الآية درس بليغ؛ فالمرء مهما بلغ من علو الشأن لا ينبغي أن يترفع عن أهل الخير، أو يعرض عنهم إن كانوا فقراء أو ضعفاء، فإن كانت هذه وصية الله لرسوله ﷺ، فكيف بمن هو دونه؟

إن مما يؤسف له أن نجد عند بعض من يتوسم فيهم الخير شيئاً من ذلك، فلربما رأيت الواحد منهم يعرض عن البسطاء والفقراء حتى يكاد لا يرد عليهم السلام إذا سلموا! فإذا جاءه صاحب منصب أو جاه أو مكانة أقبل عليه بكليته وأكرمه، وهذا بخلاف ما أرشدت إليه الآية، وبخلاف قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان: ١٨]، قال ابن كثير: (يقول: لا تعرض بوجهك عن الناس إذا كلمتهم أو كلموك، احتقارا منك لهم واستكبارا عليهم، ولكن ألن جانبك، وابسط وجهك إليهم)[١].

والعجيب أن المعرَض عنهم هم أكثر أتباع الأنبياء، قال تعالى عن قوم نوح: ﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الشعراء]، ولما أراد هرقل أن يستوثق من نبوة محمد ﷺ سأل أبا سفيان فقال: "وَسَأَلْتُكَ أَشْرَافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ، فَذَكَرْتَ أَنَّ ضُعَفَاءَهُمُ اتَّبَعُوهُ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ"[٢]، ولذلك فهم أكثر أهل الجنة، قال ﷺ: "اطَّلَعْتُ فِي الجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الفُقَرَاءَ"[٣]، وقال: "قُمْتُ عَلَى بَابُ الجَنَّةِ، فَكَانَ عَامَّةَ مَنْ دَخَلَهَا المَسَاكِينُ"[٤]، وقال: "تَحَاجَّتِ الجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ

---

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٣٣٨.

(٢) صحيح البخاري ١/ ٧ (٧)، صحيح مسلم ٣/ ١٣٩٣ (١٧٧٣).

(٣) صحيح البخاري ٣/ ١١٨٤ (٣٠٦٩)، صحيح مسلم ٤/ ٢٠٩٦ (٢٧٣٧).

(٤) صحيح البخاري ٥/ ١٩٩٤ (٤٩٠٠)، صحيح مسلم ٤/ ٢٠٩٦ (٢٧٣٦).

بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتِ الجَنَّةُ: مَا لِي لاَ يَدْخُلُنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ"(١)، ولربما يكون أحدهم بملء الأرض من صاحب الجاه، فعن سَهْل بْن سَعْدٍ قَالَ: "مَرَّ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ لرَجُلٍ عِنْدَهُ جَالِسٍ: «مَا رَأْيُكَ فِي هَذَا» فَقَالَ: رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِ النَّاسِ، هَذَا وَاللهِ حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ، فَسَكَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثُمَّ مَرَّ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا رَأْيُكَ فِي هَذَا» فَقَالَ: هَذَا رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ، هَذَا حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لاَ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لاَ يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لاَ يُسْمَعَ لِقَوْلِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الأَرْضِ مِثْلَ هَذَا"(٢)، بل ربما أفضل من طالب العلم فعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال:"رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ تَنْبُو عَنْهُ أَعْيَنُ النَّاسِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ"(٣).

الوقفة الرابعة- الحذر من زينة الدنيا:

نبهت الآية أن من خالط أصحاب الجاه قد يميل إلى الدنيا، ولهذا نهى السلف عنه، لما عندهم من النعيم، وقد يدخل يريد النصح، ثم يجد من الإكرام ما يجعله يميل دون أن يشعر لمن يكرمه، ولربما حدثته نفسه أن يؤجل النصح حتى تتوثق علاقته بمن دخل عليه، ثم لا يلبث شيئاً فشيئاً أن تميل نفسه النعيم فيضعف وازع الخير فيه، وقد يمالئ صاحب الجاه ويسكت عن خطئه ثم قد يصل إلى أن يزين له سوء عمله والعياذ بالله.

وليس ما سبق صداً عن المناصحة، لكن لا بد من تصحيح النية، والتجرد والمراقبة والتضرع إلى الله بحفظ قلبه. بعض المشايخ كان يقضي

---

(١) صحيح البخاري ٤/ ١٨٣٦ (٤٥٦٩)، صحيح مسلم ٤/ ٢١٨٦ (٢٨٤٦).
(٢) صحيح البخاري ٥/ ٢٣٦٩ (٦٠٨٢).
(٣) المستدرك على الصحيحين للحاكم ٤/ ٣٦٤ (٧٩٣٢)، وصححه الذهبي.

الليل كله في تضرع لله إن أراد مناصحة هؤلاء. فإن وجد الناصح شيئاً من الركون، أو تقديم تنازلات فعليه الفرار بدينه، فالسلامة لا يعدلها شيء.

الوقفة الخامسة- ذكر اللسان وذكر القلب:

لطيفة: قال سبحانه: من أغفلنا قلبه، ولم يقل لسانه، فقد تجد رجلاً دائم الذكر وقراءة القرآن والأوراد، ولا تجد أثر هذا في معاملاته، بل قد تراه يقع في الحرام؛ من كذب ونميمة وغش وأكل أموال الناس، والسبب أن هذا ذكر بلسانه لا بقلبه، ربما بحكم العادة أو غفلة عن أن غاية الذكر تصفية القلب وربطه بالله ﷻ، فلا بد من تفقد حال القلب.

الوقفة السادسة- لا إفراط ولا تفريط:

يلزم أن نقف وقفة في ضوء الآية لنراجع ما مضى من العمر، فنعرف كم منه كان ضائعاً بلا هدف. فالعمر رأس مال المرء، فلا بد أن يحافظ عليه، ولا يقولن سأحافظ على وقتي في المستقبل، فإن من شب على شيء شاب عليه، فلا بد من مراجعة النفس ومحاسبتها على الدقائق منذ الصغر.

والكلام عن التفريط يجر إلى الكلام عن نقيضه وهو الإفراط، قال ابن القيم رحمه الله: (ما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزعتان: إما إلى تفريط وإضاعة، وإما إلى إفراط وغلو. ودين الله وسط بين الجافي عنه والغالي فيه فكما أن الجافي عن الأمر مضيع له، فالغالي فيه مضيع له؛ هذا بتقصيره عن الحد، وهذا بتجاوزه الحد)[1]. وطباع الناس تختلف، فمنهم المتساهل والمتشدد، وكثير من الخلق يجمع بين الأمرين، فيكون مقصراً مفَرِّطاً في جانب، غالياً مفْرِطاً في جانب، إلا من هداه الله. إن كثيراً ممن انتكس كان

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/ ٤٦٤ بتصرف واختصار.

عنده نوع تشدد، وغالبا ما يؤدي للانتكاس، قال ﷺ: "لَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ"(١)، وقال: "إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ، فَأَوْغِلُوا فِيهِ بِرِفْقٍ"(٢).

فلا بد من الاعتدال والتوسط في الأمور كلها، وعلى المرء أن يكون فقيهاً بنفسه، ويأخذها بالرفق كي لا تنفلت منه، وأما التشدد والتنطع فلا يأتي بخير أبداً، قال ﷺ: "هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ. قَالَهَا ثَلَاثًا"(٣)، وقال: "إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ شِرَّةً وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةً، فَإِنْ كَانَ صَاحِبُهَا سَدَّدَ وَقَارَبَ فَارْجُوهُ، وَإِنْ أُشِيرَ إِلَيْهِ بِالأَصَابِعِ فَلَا تَعُدُّوهُ"(٤)، قال المباركفوري: ("شرة" أي حرصا على الشيء ونشاطا ورغبة في الخير أو الشر (ولكل شرة فترة) أي وهنا وضعفا وسكونا (فإن صاحبها سدد وقارب) أي جعل صاحب الشرة عمله متوسطا وتجنب إفراط الشرة وتفريط الفترة (فارجوه) أي ارجوا الفلاح منه، فإنه يمكنه الدوام على الوسط وأحب الأعمال إلى الله أدومها (وإن أشير إليه بالأصابع) أي اجتهد وبالغ في العمل ليصير مشهورا (فلا تعدوه) أي لا تعتدوا به ولا تحسبوه من الصالحين لكونه مرائيا ولم يقل فلا ترجوه إشارة إلى أنه قد سقط ولم يمكنه تدارك ما فرط)(٥).

الوقفة السابعة- موازنة المصالح والمفاسد، بين الحقيقة والوهم:

جاء الإسلام بتحصيل المنافع ودرء المفاسد، الدينية والدنيوية، وعند تزاحم المفاسد يرتكب الأدنى دفعاً للأعلى، قال الألوسي رحمه الله: (واستشكل النهي عن إطاعة أولئك الغافلين في طرد المؤمنين، بأنه ورد

---

(١) صحيح البخاري ١/ ٢٣ (٣٩).
(٢) مسند أحمد ٢٠/ ٣٤٦ (١٣٠٥٢)، قال الأرناؤوط: حسن بشواهده.
(٣) صحيح مسلم ٤/ ٢٠٥٥ (٢٦٧٠).
(٤) سنن الترمذي ٤/ ٦٣٥ (٢٤٥٣)، وحسنه الألباني.
(٥) تحفة الأحوذي ٧/ ١٢٦ بتصرف واختصار.

أنهم أرادوا طردهم ليؤمنوا فكان ينبغي تحصيل إيمانهم بذلك وفي عدم طردهم لزم ضرر عظيم وهو بقاء أولئك الكفرة على كفرهم على نفع قليل، ومن قواعد الشرع: تُدفع المفسدة الكبرى بالمفسدة الصغرى. وأجيب بأنه سبحانه علم أن أولئك الكفرة لا يؤمنون إيماناً حقيقياً، ومثله لا يرتكب له إسقاط حرمة أولئك الفقراء الأبرار فلذا جاء النهي عن الإطاعة. ويحتمل أن الله علم أن طرد أولئك الفقراء السابقين إلى الإيمان المنقطعين لعبادة الرحمن، يوجب نفرة القلوب وإساءة الظن برسوله ﷺ، فربما يرتد من هو قريب عهد بإسلام، ويقل الداخلون في دينه، وذلك ضرر عظيم فوق ضرر بقاء شرذمة من الكفار على الكفر، فلذا نهى عن إطاعة من أغفل قلبه واتبع هواه ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾)[1]، والأول بعيد لأنه يكاد يجعل دلالة الآية منحصرة في أولئك القوم، لأن غيرهم قد تكون حالهم مختلفة، وأما الثاني فقريب، لكن أولى منه أن يقال: إن الإسلام يقرر مبادئ عامة، ويصلح ميزان القيم في المجتمع، فالتفاضل لا يكون بناء على الغنى والرياسة، بل بالتقوى، والإسلام دين كامل لا يعتريه نقص، يدل بنفسه على صدقه وكونه الدين الحق، وهؤلاء الذين طلبوا من النبي ﷺ ما طلبوا قد علموا ما يدعوهم إليه عليه السلام من قبل وأعرضوا عن الإيمان، فهم ما طلبوا ذلك إلا استكباراً وعلواً، والإسلام عزيز لا يتملق أحداً، فليس بحاجة لإسلام هؤلاء ولا غيرهم، ولهذا قال بعدُ: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩]، فالناس جميعاً مفتقرون للإسلام، وليس

---

(١) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٢٣٧ بتصرف واختصار.

إسلام أي أحد منة منه، قال تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الحجرات].

إن الإسلام أغنى ما يكون عن هؤلاء المستكبرين الذين هم في الحقيقة أهل النار، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "تحاجت الجنة والنار فقالت النار أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين"(١)، فليس في بقائهم على الكفر مفسدة تستحق أن تدفع بطرد أهل الإيمان من الضعفاء، كيف وهم أكثر أهل الإيمان عبر التاريخ؟ وهم أهل الجنة كما في تتمة الحديث: "وقالت الجنة ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم"، بل هم من تقوم الدعوات الصادقة على أكتافهم، قال صاحب الظلال رحمه الله: (ففيهم الخير، وعلى مثلهم تقوم الدعوات. فالدعوات لا تقوم على من يعتنقونها لأنها غالبة؛ ومن يعتنقونها ليقودوا بها الأتباع؛ ومن يعتنقونها ليحققوا بها الأطماع، وليتجروا بها في سوق الدعوات تشترى منهم وتباع! إنما تقوم الدعوات بهذه القلوب التي تتجه إلى الله خالصة له، لا تبغي جاهاً ولا متاعاً ولا انتفاعاً، إنما تبتغي وجهه وترجو رضاه)(٢)، وفي هذا درس بليغ للدعاة الذين تلمس من كتاباتهم ميلاً لأهل الكفر والباطل، وممالأة على أهل الإيمان بالغلظة والإعراض، أو على الأقل لا يذبون عن إخوانهم بهتان أولئك، بدعوى الحرص على مصلحة للدعوة، فهذه الآية ترد على من يقدمون التنازلات لغير المسلمين، بدعوى الحرص على الدين والدعوة، وتقول لهم إن للدين رباً يحميه، وما عليكم إلا الاستقامة على

---

(١) صحيح البخاري ٤/ ١٨٣٦ (٤٥٦٩)، صحيح مسلم ٤/ ٢١٨٦ (٢٨٤٦).
(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٦١.

منهج الله، والله غالب على أمره. وهذا لا يعني عدم الرفق بالمخالفين، فهذا مطلوب، لكن الأمور تقدر بقدرها، واللين والرفق بضوابط الشرع.

هذا الإرشاد الرباني إشارة مهمة للعلماء والدعاة والمربين، كي يراعوا حال طلابهم وأتباعهم ويحفظوا عليهم قلوبهم ومشاعرهم، فرب رجل ترك الالتزام وهام في الضلالة بسبب طالب علم أهانه، أو جرح مشاعره بتصرفه أو إعراضه عنه. فلا بد من مراعاة أحوال الناس لا سيما من كان فقيراً أو رقيق الحال، فإنه يتأثر أكثر من غيره فلا ينبغي أن يكسر قلبه.

وفي سيرة الشيخ ابن باز رحمه الله ما يقر عيون محبيه، لالتزامه بالفهم الصحيح عن الله ورسوله؛ ففي مجلسه الخاص مع المشايخ والدعاة لم يكن يأذن لأحد بالدخول، ولو أتى غيرهم يشاور من معه في السماح له، وأما الاجتماعات المفتوحة، في العزيزية مثلا أيام الحج، فمع أن الحملة تكون مجهزة لعدد محدد، لم يكن يمنع أحداً من الفقراء من الدخول، فكان بعض من حوله يعترض لضيق المكان أو قلة الطعام، فلا يستجيب لهم، حتى إذا أكثروا عليه قال: هذه طريقتي، فمن شاء فليبق وإلا فهو بالخيار.

الوقفة الثامنة- معالجة الآية لميزان القيم المختل:

تضمنت الآية تصحيحاً لميزان القيم، وهو ميزان مختل قديماً وحديثاً؛ فميزان القوم جاهلي، لا يقيس الإنسان بقيمته الحقيقية، وهي ما في صدره من إيمان، وما يجيده من أعمال، بل يصنف الناس حسب بلدانهم أو أنسابهم، وما أشبه ذلك، وهي أقدار لا حيلة للمرء فيها، فلا يصح عند العقلاء أن تكون ميزاناً. وقد سبقهم إليه أهل الكفر وجعلوه مانعاً من إيمانهم، بل جعلوه حجة يصدون بها عن سبيل الله، فقوم نوح عليه السلام

يقولون له: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١﴾ [الشعراء]، وفرعون يعقد موازنة جاهلية بينه وبين موسى عليه السلام: ﴿وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٥١ أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ٥٢﴾ [الزخرف]، وكفار قريش يقولون عن أتباع النبي ﷺ: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾ [الأنعام: ٥٣]، وإمامهم في ذلك إبليس القائل: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعراف: ١٢].

من تأمل حال المنافقين وجدهم يلمزون المؤمنين بقلة المال والجاه، ويفترون عليهم أن التزامهم تعويض عن فقره، أو هرب من مشكلاتهم، بل يزعم بعضهم أن دعوة النبي ﷺ انقلاب طبقي من الضعفاء على السادة! وكذبوا؛ فقد كان في الصحابة أغنياء، وفي الكفار فقراء، لكن المنافقين يرون لأنفسهم فضلاً وجاها على المؤمنين، فلسان حالهم كما قال كفار قريش: ﴿لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ﴾ [الأحقاف: ١١]، تشابهت قلوبهم!

إن الله يصطفي للهداية من خلقه من يشاء، والضعفة والفقراء عندهم من لين القلوب ما ليس عند جل أهل المال والجاه، ولهذا كانوا جُلَّ أتباع الرسل، وقد مر قريباً قول هرقل لأبي سفيان: "وسألتك عن أتباعه؛ أضعفاؤهم أم أشرافهم؟ فقلتَ: ضعفاؤهم. وهم أتباع الرسل"(١).

وإذا كان هذا حال الكفار والمنافقين، فإننا نأسف إذ نرى مثل هذه الموازين الجاهلية منصوبة في بعض المجتمعات اليوم، والنبي ﷺ بين الميزان الصحيح، ووضع دعاوى الجاهلية تحت قدميه، فعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم الفتح: "يا أيها الناس، إن الله

---

(١) سبق تخريجه.

قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وتعاظمها بآبائها، فالناس رجلان؛ بر تقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله، والناس بنو آدم، وخلق الله آدم من تراب، قال الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣ ﴾"(١).

يقول صاحب الظلال رحمه الله: (لقد جاء الإسلام ليسوي بين الرؤوس أمام الله. فلا تفاضل بينها بمال ولا نسب ولا جاه. فهذه قيم زائفة ... إنما التفاضل بمكانها عند الله. ومكانها عند الله يوزن بقدر اتجاهها إليه وتجردها له. وما عدا هذا فهو الهوى والسفه والبطلان)(٢).

وعليه، فليس للمرء أن يفاضل من تلقاء نفسه، بل الميزان الحقيقي إنما هو التقوى، كما قال ﷺ في خطبته أيام التشريق: "يا أيها الناس! ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى. أبلغت؟ قالوا: بلغ رسول الله ﷺ"(٣). ولا يستثنى من ذلك إلا ما جاء به النص، كقوله ﷺ: "إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم"(٤)، مع فهمه فهما صحيحا بما لا يضرب بعض النصوص ببعض، فهذا من الوصف والثناء بما فضل الله به بعض الناس، كما نقول آل فلان آل الجود والكرم، أو أهل الشجاعة، فلا ينبغي أن نتجاوز هذا إلى التفاخر

---

(١) سنن الترمذي ٥/ ٣٨٩ (٣٢٧٠)، وصححه الألباني.

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٦٢.

(٣) مسند أحمد بن حنبل ٥/ ٤١١ (٢٣٥٣٦)، وقال الأرناؤوط: صحيح.

(٤) صحيح مسلم ٤/ ١٧٨٢ (٢٢٧٦).

الجاهلي والاستطالة على عباد الله، وهذا الثناء ليس مطلقاً، فبلال الحبشي خير من أبي لهب الهاشمي القرشي، بل خير من أبي طالب مع ما جمعه إلى شرف نسبه من نصرة النبي ﷺ والذب عنه، فاصطفاه الله عليهما، وما ذاك إلا لإيمان بلال وكفرهما، واتباعه النبي ﷺ وإعراضهما، فنفعه إيمانه واتباعه مع لونه ورقة حاله، ولم ينفعهما نسبهما وشرفهما مع كفرهما.

إن الناظر إلى واقعنا يلحظ انتشار المفاهيم الجاهلية، فالتمييز على أساس القبيلة أو البلد، والتفريق القبلي والخضيري، والتفاخر بالأحساب والأنساب، كل هذا من دعوى الجاهلية، وقد قال ﷺ منكراً ومحذراً: "أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، لَا يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ فِي الْأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ..."[1] الحديث، إن الانتماء لقبيلة ولون الإنسان وجنسيته وما أشبه ذلك، لا دخل للمرء فيه، بل هي قدر الله، لم تكن بكسبه حتى يفاخر بها، وكم من أناس وجوههم بيضاء وقلوبهم أسود من الليل والعكس، فليست العبرة بالأمر المقدور، وإنما العبرة بما تكسبه الأيدي وتكنه الصدور.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات]، وهذا يعني أن كل إنسان ينتمي لشعب أو قبيلة، وأن له نسباً وإن جهله لسبب من الأسباب، كهرب من حرب أو كوارث وما أشبه ذلك، ومهما يكن من أمر فإن أصل الناس كلهم واحد! قال ﷺ: "إِنَّ اللهَ ﷻ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَفَخْرَهَا بِالْآبَاءِ؛ مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ، أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ،

---

(١) صحيح مسلم ٢/ ٦٤٤ (٩٣٤).

لَيَدَعَنَّ رِجَالٌ فَخْرَهُمْ بِأَقْوَامٍ، إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ مِنْ فَحْمِ جَهَنَّمَ، أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللهِ مِنَ الْجِعْلَانِ الَّتِي تَدْفَعُ بِأَنْفِهَا النَّتِنَ"(١).

إن هذا المنطق المعوج موجود حتى عند بعض أهل الخير، حتى دب الداء إلى بعض أهل العلم، ووصل الأمر ببعضهم إلى أن العقيدة لا تؤخذ إلا عن أهل هذه البلاد، وهناك فتوى منشورة بذلك، وهذا غير صحيح، فعمن أخذ أهل العلم قديماً علمهم؟ إن من أعظم الكتب التي اعتمد عليها مشايخنا وما زلنا نعتمد عليها كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله، وليسا من هذه البلاد. وهل كان إمام أهل السنة أحمد بن حنبل من أهل بلادنا؟ ثم إن هذه الحدود وضعها الاستعمار، والأرض المقدسة لا تقدس أحداً، وبلادنا فيها شيعة وفرق صوفية منحرفة وفيها مبدلون محرفون يبيعون دينهم، وكون أهل بلادنا والحمد لله في الغالب على العقيدة الصحيحة لا يعني أن غيرها من البلاد تخلو من ذلك.

ختاماً، فإن على المرء أن ينظر في قلبه فإنه لربما لا ينطق، لكنه في قرارة نفسه يقوِّم الناس ويفاضل بينهم بناء على مالهم أو جاههم أو قبيلتهم أو جنسيتهم، فليحذر الإنسان من ذلك ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾ [الطارق]، وقال: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝١٠﴾ [العاديات]، وقال النبي ﷺ: "لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ"(٢).

تنبيه- يأبى بعض الناس أن يزوجوا من غير قبيلتهم، أو ليس قريباً من حالهم، وهذا وأمثاله ينظر فيه؛ فإن كان كبراً وأنفة فهو مذموم، وإن

---

(١) سنن أبي داود ٤/ ٣٣١ (٥١١٦)، وحسنه الألباني.
(٢) سنن الترمذي ٤/ ٣٦١ (١٩٩٩)، وصححه الألباني.

كان نظراً في مصلحة كدوام العشرة واستقرار الزواج فلا حرج، لأن الزواج يراعى فيه ذلك، فاختلاف المستوى الاجتماعي قد يكون من أسباب انهيار الزواج؛ وارتفاع مستوى الزوج مثلاً قد يكون سبباً في فتنة الفتاة عن دينها، وانخفاضه كذلك، إذ قد لا تصبر على عادات وطباع لم تعتدها، وقد يخشى على الفتاة إن كانت من أسرة أكثر شرفاً أن تقع في إثم التعالي، فلا شك أن السلامة أولى. وهناك عائلات لا يزوجون فيما بينهم خشية تفرق الأسرة وتقوض ائتلافها. فالنية هي المعول عليه، فإن كان ترفعا فلا يجوز، وإن كان مراعاة لمصلحة معتبرة فلا ضير.

فوائد أخرى:

١- الصبر على طاعة الله أعلى أنواع الصبر، وبه تتم أنواعه: الصبر على المقدور، والصبر عن المعصية، والصبر على الطاعة، ولا ينجح داعية أو طالب علم إلا بالصبر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران].

٢- الحث على إدامة طاعة الله آناء الليل وأطراف النهار، فلكل وقت طاعته وعبادته التي ينبغي اغتنامها.

٣- أهمية الإخلاص الذي لا تقبل أعمال كالجبال إلا به.

٤- النهي عن التطلع إلى زينة الحياة الدنيا، قال السعدي رحمه الله: (فإن هذا ضار غير نافع، وقاطع عن المصالح الدينية، فإنه يوجب تعلق القلب بالدنيا، فتصير الأفكار والهواجس فيها، وتزول من القلب الرغبة في الآخرة، فإن زينة الدنيا تروق للناظر، وتسحر العقل، فيغفل القلب عن الذكر، ويقبل على الشهوات، فيضيع وقته،

وينفرط أمره، فيخسر الخسارة الأبدية)[1]. فكيف يكون داعية وهو يتوسع في المباحات ثم يواقع الشبهات إلى أن يقع في المحرمات؟

٥- أن الغافل عن ذكر الله لا يطاع أو يقدم بل يقدم ويطاع أهل الإيمان، قال السعدي رحمه الله: (فالغافل قد نهى الله عن طاعته، لأن طاعته تدعو إلى الاقتداء به، ولأنه لا يدعو إلا لما هو متصف به، ودلت الآية على أن الذي ينبغي أن يطاع ويكون إماماً للناس من امتلأ قلبه بمحبة الله، وفاض ذلك على لسانه، فلهج بذكر الله، واتبع مراضي ربه، فقدمها على هواه، فحفظ وقته، وصلحت أحواله، واستقامت أفعاله، ودعا الناس إلى ما منَّ الله به عليه، فحقيق أن يُتَّبَع ويجعل إماماً)[2]. ومن المؤسف أننا نرى بعض الدعاة وطلبة العلم يغفلون عن الذكر، وربما نجد منهم من لا يتم الأذكار بعد المكتوبة، وفي العوام من يحرص على كثرة الذكر بالليل والنهار. وقد وصف الله المنافقين بأنهم لا يذكرون الله إلا قليلاً، فلا يكون الطالب مثلهم، قال تعالى: ﴿... وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب].

---

(١) تفسير السعدي ١/ ٤٧٥ بتصرف واختصار.

(٢) السابق بتصرف يسير.

٦- قال الشنقيطي رحمه الله: (قوله: ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ﴾ يدل على أن ما يعرض للعبد من غفلة ومعصية، إنما هو بمشيئة الله تعالى. إذ لا يقع شيء البتة كائناً ما كان إلا بمشيئة [الله] الكونية القدرية جل وعلا)[١].

ثم قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾

مناسبة الآية لما قبلها:

قال البقاعي: (لما رغبه في أوليائه، وزهده في أعدائه، ترضية بقدره بعد أن قص الحق من قصة أهل الكهف للمتعنتين، علمه ما يقول لهم على وجه يعمهم وغيرهم ويعم القصة وغيرها فقال مهدداً: ﴿وَقُلِ﴾ لهم ولغيرهم: هذا الذي جئتكم به من الوحي العري عن العوج، الظاهر الإعجاز، الباهر الحجج ﴿ٱلْحَقُّ﴾ كائناً ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ المحسن إليكم في أمر أهل الكهف وغيرهم؛ مِن صبر نفسي مع المؤمنين، والإعراض عن سواهم، لا ما قلتموه)[٢]، وقال ابن عاشور: (بعد أن أمر الله نبيه ﷺ بما فيه نقضُ مقترحاتهم وتعريضٌ بتأييسهم أمره أن يصارحهم بأنه لا يعدل عن الحق الذي جاءه، وأنه مبلغه بدون هوادة، وأنه لا يرغب في إيمانهم ببعضه دون بعض، ولا يتنازل إلى مشاطرتهم في رغباتهم بشطر الحق الذي جاء به، وأن إيمانهم وكفرهم موكول إلى أنفسهم، لا يحسبون أنهم بوعد

(١) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٣/ ٣٣٣.
(٢) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٤٢ بتصرف يسير.

الإيمان يستنزلون النبي ﷺ عن بعض ما أوحي إليه. و﴿ٱلۡحَقُّ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هذا الحق. والتعبير بـ﴿رَبِّكُمۡ﴾ للتذكير بوجوب توحيده)(١).

أما قوله تعالى: ﴿وَقُلِ﴾ فهو أمر للنبي ﷺ أن يخاطب الناس بصفة عامة، وهؤلاء المتكبرين الذين طلبوا طرد ضعفة المؤمنين بصفة خاصة.

وقوله: ﴿ٱلۡحَقُّ﴾

في إعرابه وجهان؛ الأول خبر مبتدأ محذوف، والمعنى: هذا هو الحق الذي لا مرية فيه، وهذا يشمل قصة أهل الكهف ويشمل غيرها، والثاني أن يكون مبتدأ والجار والمجرور خبره، أي: الحق هو ما جاء من ربكم، واختار الزمخشري الأول، وعلله صاحب "الكشف"(٢)بقوله: (المعنى عليه أتم التئاماً لأنه لما أمره سبحانه بالمداومة على تلاوة هذا الكتاب العظيم في جملة التالين حق التلاوة، المريدين وجهه، غير ملتفت إلى زخارف الدنيا ذيَّله لإزاحة الأعذار والعلل بقوله: ﴿وَقُلِ﴾ الخ أي هذا الذي أوحي هو الحق فمن شاء فليدخل في الفائزين بهذه السعادة، ومن شاء فليكن في الهالكين في الضلالة، أما لو جعل [أي الحق] مبتدأ فالتعريف إن كان للعهد رجع إلى الأول مع فوات المبالغة، وإن كان للجنس على معنى جميع الحق من ربكم -ويشمل الكتاب شمولاً أولياً- لم يطبِّق المفصلَ إذ ليس ما سيق له الكلام كونه منه تعالى لا غير، بل كونه حقاً لازم الاتباع. قال الألوسي: وهو كلام يلوح عليه مخايل التحقيق(٣).

---

(١) التحرير والتنوير ٨/ ٣٦٥ بتصرف يسير.

(٢) عمر بن عبد الرحمن الفارسي القزويني (ت ٧٤٥)، والكشف اسم حاشيته على الكشاف.

(٣) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٢٣٨ بتصرف واختصار.

وقوله: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾

يحتمل أن تكون الفاء للترتيب فيكون من تمام القول، أي: قل الحق من ربكم، وقل: من شاء فليؤمن، ويحتمل أن تكون الفاء لترتيب ما بعدها على نفس الأمر، فيكون الكلام من الله، وهذا أرجح، قال الألوسي: (أي قل لهم [الحق من ربكم]، وبعد ذلك فمن شاء أن يؤمن به أو أن يصدقك فليفعل، ومن شاء أن يكفر به أو أن يكذبك فليفعل)(١).

وقد اتفق المفسرون على أن التخيير غير مراد، ثم ذكروا في المراد أقوالاً ثلاثة، قال ابن الجوزي رحمه الله: (أحدها: فمن شاء الله فليؤمن، روي عن ابن عباس. والثاني: أنه وعيد وإنذار، وليس بأمر، قاله الزجاج. والثالث: أن معناه: لا تنفعون الله بإيمانكم، ولا تضرُونه بكفركم، قاله الماوردي. وقال بعضهم: هذا إظهار للغنى، لا إطلاق في الكفر)(٢)، واختار الجمهور أن المراد التهديد والوعيد؛ ولا تعارض بين الثلاثة، لأن المراد تخيير الناس بين الإيمان والكفر تهديدا لمن اختار الكفر، مع بيان غنى الله عز وجل عن العالمين، لا ينفعه إيمانهم جميعاً، ولا يضره كفرهم جميعاً، فمن شاء من العباد أن يؤمن فله ذلك، ومن شاء أن يكفر فله ذلك، ولا يخرج واحد منهما عن مشيئة الله عز وجل. وما روي عن ابن عباس لا يعني نفي المشيئة عن العباد، قال الألوسي: (الرواية عن الحبر أخرجها ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات فإذا صحت يحتمل أن يكون لبيان أن من شاء الإيمان هو من شاء الله له الإيمان، ومن شاء الكفر هو من شاء الله له ذلك، لا لبيان مدلول الآية)(٣)، وهذا واضح

---

(١) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٢٣٨ بتصرف واختصار.

(٢) زاد المسير ٤/ ٢١٩.

(٣) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٢٣٩-٢٤٠ بتصرف يسير.

من رواية الطبري، فقد ذكر قوله: (من شاء الله له الإيمان آمن، ومن شاء الله له الكفر كفر، وهو قوله:(وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)[1].

قال الشنقيطي رحمه الله: (ظاهر الآية بحسب الوضع اللغوي التخيير بين الكفر والإيمان ولكن المراد التهديد والتخويف. والتهديد بمثل هذه الصيغة من أساليب اللغة العربية. والدليل على أن المراد التهديد أنه أتبع ذلك بقوله: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِي ٱلْوُجُوهَۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ٢٩﴾ [الكهف]، هذا أصرح دليل على أن المراد التخويف. إذ لو كان التخيير على بابه لما توعد المخير بينهما بهذا العذاب)[2]، وليس مراده رحمه الله أن العبد مجبر، لكن مراده أن الأمرين لا يستويان عند الله بحيث يرضى واحداً منهما، قال السعدي رحمه الله: (أي: لم يبق إلا سلوك أحد الطريقين، بحسب توفيق العبد، وعدم توفيقه، وقد أعطاه الله مشيئة بها يقدر على الإيمان والكفر، والخير والشر، فمن آمن وفق للصواب، ومن كفر قامت عليه الحجة، وليس بمُكرَه على الإيمان، كما قال: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ﴾ وليس في قوله: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْۚ﴾ إذن في كلا الأمرين، وإنما ذلك وعيد لمن اختار الكفر بعد البيان التام، كما ليس فيها ترك قتال الكافرين)[3].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا﴾

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ١٠.

(٢) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٣/ ٣٣٥ بتصرف واختصار.

(٣) تفسير السعدي ١/ ٤٧٥ بتصرف يسير.

قال البقاعي: (لما هدد السامعين بما حاصله: ليختر كل امرئ لنفسه ما يجده غداً عند الله تعالى، أتبع هذا التهديد تفصيلاً لما أعد للفريقين من الوعد والوعيد لفاً ونشراً مشوشاً[1] بما يليق بهذا الأسلوب)[2].

ومعنى (أعتدنا) أعددنا وهيأنا، قال الألوسي: (﴿أَعۡتَدۡنَا﴾ من العتاد وهو ادخار الشيء قبل الحاجة، وقيل: أصله أعددنا والمعنى واحد أي هيأنا)[3]، قال ابن الجوزي: (الظالمون، قال المفسرون: الكافرون)[4]، وإطلاق الظلم على الكفر في القرآن كثير، قال الشنقيطي: (والمراد بالظالمين هنا: الكفار؛ لقوله قبله: ﴿وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ وقد قدمنا كثرة إطلاق الظلم على الكفر في القرآن؛ كقوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان]، وقوله: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٥٤﴾ [البقرة] وقدمنا أن الظلم في اللغة: وضع الشيء في غير محله، ومن أعظم ذلك وضع العبادة في مخلوق)[5]، أقول: ومن وضع الشيء في غير محله ما سبق الكلام عنه من التحاكم إلى موازين الجاهلية في تقويم الناس، ففي الآية تعريض بمن

---

(١) اللف والنشر أسلوب من أساليب البلاغة، والمراد باللف ذكر بعض الأمور المتعددة، والمراد بالنشر ذكر أمور متعددة لاحقة يرجع كل واحد منها إلى واحد من الأولى، فإذا كان النشر مرتباً على ترتيب اللف سمي اللف والنشر مرتباً، وإن لم يكن على ترتيبه سمي مشوشاً، كما في الآية الكريمة، فقوله (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) لف، ثم ذِكر ما لكل من الفريقين نشر، لكنه جاء على غير ترتيب اللف حيث جاء أولاً بالوعيد للكافرين، ثم جاء بالوعد للمؤمنين، فلهذا سماه لفاً ونشراً مشوشاً.

(٢) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٤٢.

(٣) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٢٣٩ بتصرف يسير.

(٤) زاد المسير ٤/ ٢١٩ بتصرف واختصار.

(٥) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٣/ ٣٣٥ بتصرف واختصار.

يفعل ذلك. وفي إضافة إعداد النار للجبار ﷻ مزيد تهديد للظالمين، وبيان أنها نار عظيمة مهولة.

قال ابن عاشور: (وجملة ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً لأن ما دل عليه الكلام من إيكال الإيمان والكفر إلى أنفسهم وما يفيده من الوعيد كلاهما يثير في النفوس أن يقول قائل: فماذا يلاقي من شاء فاستمر على الكفر؟ فيجاب بأن الكفر وخيم العاقبة عليهم)(١).

وقوله: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾

أي أحدق بهم من كل جانب، والسرادق: (الذِي يُمَد فَوْقَ صحْنِ البَيْتِ، وقالَ ابنُ الأثِيرِ: هو كلُّ ما أحاطَ بشَيء: من حائِط أو مَضْرِب أو خباء، قالَ الجَوالِيقِي: هُو مُعَرَّبُ "سَرادار" أَوْ "سراطاق")(٢). قال الشنقيطي: (وأما المراد بالسرادق في الآية ففيه للعلماء أقوال مرجعها إلى شيء واحد: وهو إحداق النار بهم من كل جانب، فمن العلماء من يقول «سرادقها»: سورها، قاله ابن الأعرابي وغيره. ومن يقول: سور من نار، وهو مروي عن ابن عباس. ومن يقول: عنق يخرج من النار فيحيط بالكفار كالحظيرة، قاله الكلبي. ومن يقول: هو دخان يحيط بهم. وهو المذكور في قوله: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾﴾ [المرسلات]، وقوله: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الواقعة]. ومنهم من يقول: هو البحر المحيط بالدنيا. وروى يعلى بن أمية عن النَّبي

---

(١) التحرير والتنوير ٨/ ٣٦٥.

(٢) تاج العروس ١/ ٦٣٧٣.

ﷺ: «البحر هو جهنم» ثم تلا (ناراً أحاط بهم سرادقها)، ثم قال: "والله لا أدخلها أبداً ما دمت حياً ولا تصيبني منها قطرة")(١).

ولهذا التعبير معنى جليل لمن كان له قلب، قال الرازي: (المراد أنه لا مخلص لهم ولا فرجة بالنظر إلى ما وراءها بل محيطة بهم من كل جانب)(٢)، وقال ابن عاشور: (وأثبت لها سُرادق مبالغة في إحاطة العذاب بهم، والسرادق يكون في أهل الترف، فإثباته لدار العذاب استعارة تهكمية)(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى﴾

فيه مزيد تهديد لمن يكفر وبيان ما لأهل النار من العذاب والإذلال، إذ خرج الكلام مخرج الاستهزاء، قال ابن عاشور: (والاستغاثة: طلب الغوث وهو الإنقاذ. وشمل ﴿يَسْتَغِيثُوا۟﴾ الاستغاثة من حر النار، يطلبون شيئاً يُبرد عليهم، كما في ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ [الأعراف: ٥٠]، والاستغاثة من شدة العطش فيسألون الشراب. وأومأ إلى شمول الأمرين ذكر وصفين للماء بقوله: يشوي الوجوه، بئس الشراب. والإغاثة مستعارة للزيادة مما استغيث مِن أجله على سبيل التهكم، وهو من تأكيد الشيء بما يشبه ضده)(٤). قال البقاعي: (وشاكل استغاثتهم تهكماً بهم فقال: {يغاثوا بماء} ليس كالماء الذي قدمنا الإشارة إلى أنا نحيي به الأرض بعد صيرورتها صعيداً جرزاً، بل ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾)(٥).

---

(١) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٣/ ٣٣٦-٣٣٧ بتصرف واختصار، والحديث رواه أحمد والحاكم وصححه، وضعفه الألباني وشعيب الأرناؤوط.

(٢) تفسير مفاتيح الغيب للرازي ١٠/ ٢٠٢ بتصرف واختصار.

(٣) التحرير والتنوير ٨/ ٣٦٥ بتصرف واختصار.

(٤) التحرير والتنوير ٨/ ٣٦٥ بتصرف واختصار.

(٥) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٤٢.

والمهل، قال ابن كثير: (قال ابن عباس: "المهل": ماء غليظ مثل دُرْدي الزيت [ما يركد في أسفله]. وقال مجاهد: كالدم والقيح. وقال عكرمة: الشيء الذي انتهى حَرُّه، وقال آخرون: كل شيء أذيب. وقال قتادة: أذاب ابنُ مسعود شيئًا من الذهب، فلما انماع وأزبد قال: هذا أشبه شيء بالمهل. وقال الضحاك: ماء جهنم أسود، وهي سوداء وأهلها سود. وهذه الأقوال ليس شيء منها ينفي الآخر، فإن المهل يجمع هذه الأوصاف الرذيلة كلها، فهو أسود منتن غليظ حار؛ ولهذا قال: ﴿يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ أي: من حره، إذا أراد الكافر أن يشربه وقرّبه شواه حتى يسقط جلد وجهه)[1].

قال السعدي في قوله: ﴿يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾: (أي: فكيف بالأمعاء والبطون، كما قال تعالى: ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ۝٢٠ وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ۝٢١﴾ [الحج])[2]، قال الشنقيطي: (وإذا كانوا لا يغاثون إلا بماء كالمهل، علم من ذلك أنهم لا إغاثة لهم البتة)[3]، أعاذنا الله والمسلمين.

وقوله: ﴿بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾

قال ابن كثير: (قال تعالى بعد وصفه هذا الشراب بهذه الصفات القبيحة: ﴿بِئْسَ الشَّرَابُ﴾ أي: بئس هذا الشراب كما قال: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ۝١٥﴾ [محمد] وقال: ﴿تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ۝٥﴾ [الغاشية] أي: حارَّة ﴿وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي: وساءت منزلاً ومَقِيلاً وموضعًا للارتفاق كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝٦٦﴾ [الفرقان])[4].

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٥٤ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير السعدي ١/ ٤٧٦.
(٣) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٣/ ٣٣٦.
(٤) تفسير ابن كثير ٥/ ١٥٤ بتصرف واختصار.

قال ابن الجوزي: (﴿مُرْتَفَقًا﴾ وفيه خمسة أقوال. أحدها: منزلاً، قاله ابن عباس. والثاني: مجتمعاً، قاله مجاهد. والثالث: متَّكأً، قاله أبو عبيدة، وأنشد لأبي ذؤيب:

إِني أرِقْت فبِتُّ اللَّيْلَ مُرْتَفِقاً ... كأنَّ عَيْنِيَ فِيها الصَّابُ مَذْبُوحُ

وذبحه: انفجاره؛ قال الزجاج: «مرتفقاً» منصوب على التمييز؛ ومعنى مرتفقاً: متَّكأً على المِرفق. والرابع: ساءت مجلساً؛ قاله ابن قتيبة. والخامس: ساءت مطلباً للرفق، لأن من طلب رِفقاً من جهتها عَدِمه، ذكره ابن الأنباري. ومعاني هذه الأقوال تتقارب)[1]، قال الشنقيطي: (وحاصل معنى الأقوال أن النار بئس المستقر، وبئس المقام. ويدل لهذا قوله: ﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ ﴾ [الفرقان]، وكون أصل الارتفاق هو الاتكاء على المرفق معروف في كلام العرب)[2]، وقال السعدي: (﴿وَسَآءَتْ﴾ النار ﴿مُرْتَفَقًا﴾ ذم لحالة النار، أنها ساءت المحل الذي يرتفق به، فليس فيها ارتفاق، وإنما فيها العذاب الشاق، الذي لا يفتر عنهم، وهم فيه مبلسون قد أيسوا من كل خير، ونسيهم الرحيم كما نسوه)[3]. وقال ابن عاشور: (وشأن المرتفَق أن يكون مكان استراحة، فإطلاقه على النار تهكم، كما أطلق على ما يزاد به عذابهم الإغاثة، وعلى مكانهم السرادق)[4]، وهذا الاستهزاء بالكفار عذاب معنوي يزيد في عذابهم؛ جزاء لهم من جنس استهزائهم بالصالحين، فعوقبوا بمثل ذلك جزاء وفاقاً.

---

(١) زاد المسير ٤/ ٢١٩.
(٢) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٣/ ٣٣٨.
(٣) تفسير السعدي ١/ ٤٧٦ بتصرف واختصار.
(٤) التحرير والتنوير ٨/ ٣٦٦ بتصرف واختصار.

وقفات مع الآية الكريمة

الوقفة الأولى- مهمة الداعية وحقيقة الانتصار:

في الآية بيان لمنهج الداعية ومهمته التي ينبغي القيام بها؛ وهي تبليغ وحي الله ﷻ للخلق، كما قال ﷺ: "بلغوا عني ولو آية"(١)، وقال: "نضر الله امرأ سمع منا شيئاً فبلغه كما سمع فرب مبلغ أوعى من سامع"(٢)، فمهمة الداعية تبليغ الوحي صافياً خالياً من الشوائب، دون زيادة أو نقصان، إذ الوحي من الله أكمله ﷻ قبل موته ﷺ، كما قال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وكل زيادة فيه بدعة مردودة، قال ﷺ: "من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد"(٣)، لأنها اتهام للنبي ﷺ بالتقصير في البلاغ، أو رد لشهادة الله بإكمال الدين، وإن لم يقصد صاحبها وأتى بها عن حسن قصد، فكم من مريد للخير لا يبلغه!

وكل نقص في البلاغ بغير عذر متوعد بقوله ﷺ: "من كتم علماً ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار"(٤)، وقد يكون أمره أشد إن نقص من البلاغ ابتغاء مصالح متوهمة، ولا يؤمن عليه أن يدخل في قوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ

---

(١) صحيح البخاري ٣/ ١٢٧٥ (٣٢٧٤).

(٢) سنن الترمذي ٥/ ٣٤ (٢٦٥٧)، وصححه الألباني.

(٣) صحيح البخاري ٢/ ٩٥٩ (٢٥٥٠)، صحيح مسلم ٣/ ١٣٤٣ (١٧١٨).

(٤) المستدرك ١/ ١٨٢ (٣٤٦)، قال الحاكم: على شرط الشيخين وليس له علة، ووافقه الذهبي.

﴿ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية]، فإن قام الداعية بذلك فقد أدى ما عليه وأبرأ الذمة، وهذا هو النجاح الحقيقي، وما وراء ذلك من النتائج وهداية الخلق، فليست وظيفته، ونجاحه لا يتوقف على الاستجابة، ودليل ذلك أن كل الأنبياء قد أدوا ما عليهم من واجب البلاغ، إلا أن منهم من يأتي يوم القيامة ومعه القليل، ومنهم من يأتي ولم يؤمن له أحد كما قال ﷺ: "عرضت علي الأمم فرأيت النبي ومعه الرهيط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي ليس معه أحد"(١)، فقد أدى هذا النبي ما عليه من البلاغ فكذبه قومه جميعاً وما نقص ذلك من واجبه، فإذا قام الداعية فليعلنها واضحة ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾، ولا يضره أن يكثر أتباعه أو يقلوا.

نعم، المرء يفرح إن رأى ثمرة دعوته في كثرة الأتباع، ولا شيء في ذلك ما دام فرحا بفضل الله لا اغتراراً بنفسه، ففي الحديث: "عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ بِالْمُوْسِمِ، فَرَأَيْتُ أُمَّتِي، فَأَعْجَبَتْنِي كَثْرَتُهُمْ وَهَيْئَتُهُمْ قَدْ مَلَؤُوا السَّهْلَ وَالْجَبَلَ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَرَضِيتَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ"(٢)، ولكن إن لم يكثر أتباعه أو لم يتبعه أحد أصلاً فهذا لا ينقص من انتصاره بثباته على الحق والدعوة إليه.

ونحن اليوم حيث كثرت المناهج واختلطت الدعوات، في أمس الحاجة لمثل هذا الداعية الذي يدعو للحق الصافي، ثم يلقيها بين أظهر المستهزئين -وما أكثرهم- من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، فإن فعل لم يضره كيدهم شيئاً، إلا كما قال الله ﷻ في أهل الكتاب: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا

---

(١) صحيح البخاري ٥/ ٢١٧٠ (٥٤٢٠)، صحيح مسلم ١/ ١٩٩ (٢٢٠).
(٢) صحيح ابن حبان ١٣/ ٤٤٨ (٦٠٨٤)، وحسنه شعيب الأرناؤوط.

أَذَىٗ﴾ [آل عمران]، أي بالتكذيب والاستهزاء. ولئن كثر أذاهم وعلت أصواتهم بما يملكون من وسائل إعلام يلبسون بها الحق بالباطل ويلبسون على الناس، فليس هذا دليلاً على انتصارهم وغلبتهم، لأن العبرة بالعاقبة، والعاقبة كما قال ربنا للمتقين، وعاقبة هؤلاء كما قال ﷻ: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا﴾، وقال: ﴿فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨٢﴾ [التوبة].

إن التقويم الحقيقي لنتائج المعركة بين الحق والباطل، لا يمكن أن يكون على أساس مدة من الزمن لا تلبث أن تمضي، والأمر فيها بين الناس دُوَل، بل التقويم الحقيقي على ما يدوم ويبقى، فالانتصار الحقيقي في الدنيا لقيم الحق ومبادئه وإن هلك أصحابها، فلا تزول بخلاف الباطل وقيمه، كما قال: ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ١٧﴾ [الرعد]، وأما الآخرة فالانتصار لمن نصر الحق ومبادئه، قال تعالى: ﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠﴾ [الحشر]، فهذه حقيقة الانتصار التي قد تغيب عن كثيرين.

ومن لم يفهم حقيقة الانتصار وظن أن النصر فقط في التمكين وإقامة الدولة، قد يستبطئ النصر فيقع في واحدة من ثلاث بلايا؛ الغلو أو الاستسلام أو التنازل، وقد سبق معنا في قصة أصحاب الكهف بيان نوعي الانتصار؛ الحسي والمعنوي، وأن الأول دوَل بين أهل الحق وأهل الباطل وفق السنن الكونية، وأن الثاني لا يكون إلا للمؤمنين، في الدنيا والآخرة، فأعظم انتصار يتمثل في الثبات على الحق دون زيادة أو نقصان،

وعلى هذا، فلا ينبغي أبداً لأصحاب الدعوات أن يقدموا تنازلات في بالثوابت -كما نرى اليوم- لما يتعرضون له من ضغوط داخلية أو خارجية، أو رجاء أن يستجيب الناس لهم أو أن يقبلهم الغرب والشرق، بل واجب الإنسان أن يلقي كلمة الحق ويمضي، والهداية من الله. والمرء لا يتنازل عن متاع الدنيا القليل، فكيف يتنازل عن دين الله بتأولات باطلة وقياسات فاسدة!

إن الذين زين لهم الشيطان هذه المصالح المزعومة بالتنازلات قد يفقدون دينهم، ويفتنون بعض الناس، ويسنون سنة سيئة عليهم وزرها ووزر من عمل بها، وربما لا يعذرون إن عرفوا كلام الأئمة والعلماء وأعرضوا عنه واتبعوا كلام المغمورين حديثي الأسنان. إن الساحة تمر بفتن من هذا النوع؛ مسألة حكمها مستقر، فيخرج من يشكك أو يقدم تنازلات ثم تقوم حملة تسانده، ويصدع العلماء بالحق فيأتي من يقول التبس الأمر علي. سبحان الله! وهل كنت تعرف هؤلاء من قبل بالعلم حتى يلتبس عليك؟ أفتترك قول العلماء الربانيين لقول من لا يعرف إلا بالغرائب ؟ وحتى لو كان المتنازِل عنده شيء من علم، فالموازنة مع الكثرة من كبار المشايخ لا تستقيم. ولا يقال هنا اعرف الحق تعرف أهله، ولا يقال نحن مطالبون باتباع الدليل، لأن هذا للعالم، وأما العامي فيقلد العالم التقي.

الوقفة الثانية- شؤم مجالس الأشرار وبركة مجالس الأخيار:

قال الرازي: (قال قائلون: ساءت النار منزلاً ومجتمعاً للرفقة لأن أهل النار يجتمعون رفقاء، [قال:] وأما رفقاء النار فهم الكفار والشياطين، والمعنى: بئس الرفقاء هؤلاء، وبئس موضع الترافق النار، كما أنه نعم

الرفقاء أهل الجنة، ونعم موضع الرفقاء الجنة)[١]، وهذا كما أنه في الآخرة فمثله في الدنيا، فكل المجالس التي تؤدي إلى النار فساءت مرتفقاً، بل هذه المجالس في الدنيا هي سبب اجتماعهم المشؤوم في النار والعياذ بالله!

وليس هذا خاصاً بأهل الكفر والنفاق، بل كل مجلس يؤدي إلى النار وإن لم يخلدوا فيها فساء مجلساً ومرتفقاً؛ فمجالس الغيبة والنميمة، ومجالس الكذب والبهتان، ومجالس اللهو المحرم، وغيرها فكلها ساءت مرتفقاً، بل يشمل مجالس الغفلة عن الذكر وإن خلت من الباطل، قال ﷺ: "ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم ترة فإن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم"[٢]، ومعنى ترة: أي حسرة وندامة.

ومما يزيد من شؤمها أن اجتماع أصحابها في النار لا يخفف عذابها، كما يخفف الاجتماع مصيبة الدنيا، قال ابن كثير رحمه الله في قوله: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الزخرف]: (أي: لا يغني عنكم اجتماعكم في النار واشتراككم في العذاب. ولما كان الاشتراك في المصيبة في الدنيا يحصل به تسلية لمن شاركه في مصيبته، كما قالت الخنساء تبكي أخاها:

وَلَوْلا كثرةُ الباكين حَوْلي ... عَلَى قَتْلاهم لقتلتُ نَفْسي
وما يَبْكُون مثلَ أخي ولكن ... أُسَلِّي النفسَ عنه بالتأسِّي

---

(١) تفسير مفاتيح الغيب للرازي ١٠/ ٢٠٣.

(٢) سنن الترمذي ٥/ ٤٦١ (٣٣٨٠)، وصححه الألباني.

قطع الله بذلك بين أهل النار، فلا يحصل لهم تسلية ولا تخفيف)[١].

أما صحبة الأخيار فقد سبق أن من بركتها أنها لا تنقضي بانقضاء الدنيا، بل تجمع أهل الإيمان في مستقر رحمة الله وإن تفاوتت منازلهم، كما قال النبي ﷺ: "المرء مع من أحب"[٢]، قال النووي : (فيه فضل حب الله ورسوله ﷺ وأهل الخير الأحياء والأموات)[٣]، ولئن كان المرء يأنس في الدنيا بأهل الفضل، فكيف بالنبيين والصديقين والشهداء والصالحين في أعلى عليين؟ ﴿وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء].

الوقفة الثالثة- عزة الحق:

قال في الظلال: (﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾، بهذه العزة، والصراحة، والصرامة، فالحق لا ينثني ولا ينحني، إنما يسير في طريقه قيماً لا عوج فيه، قوياً لا ضعف فيه، صريحاً لا مداورة فيه. فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. ومن لم يعجبه الحق فليذهب، ومن لم يجعل هواه تبعاً لما جاء من عند الله فلا مجاملة على حساب العقيدة؛ ومن لم يحن هامته ويطامن من كبريائه أمام جلال الله فلا حاجة بالعقيدة إليه.

العقيدة لا تعتز ولا تنتصر بمن لا يريدونها لذاتها خالصة، ولا يأخذونها كما هي بلا تحوير. والذي يترفع عن المؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه لا يرجى منه خير للإسلام ولا المسلمين)[٤].

---

(١) تفسير ابن كثير ٧/ ٢٢٨ بتصرف يسير.

(٢) صحيح البخاري ٥/ ٢٢٨٣ (٥٨١٦)، صحيح مسلم ٤/ ٢٠٣٤ (٢٦٤٠).

(٣) شرح النووي على مسلم ١٦/ ١٨٦. بتصرف يسير

(٤) في ظلال القرآن ٥/ ٦٢ بتصرف واختصار.

ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾

مناسبة الآيتين لما سبق:

قال البقاعي: (فكأنه قيل: فما لمن آمن؟ فقال: {إن الذين ءامنوا} ولما كان الإيمان هو الإذعان للأوامر، عطف عليه ما يحقق ذلك فقال: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ثم عظم جزاءهم بقوله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ مشيراً بإظهار ضميرهم إلى أنهم استحقوا الوصفَ بالإحسان، فكأنه قيل: فما لهم؟ فقال مفصلاً لما أجمل من وعدهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي العالو الرتبة ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ أي إقامة، فكأنه قيل: ما لهم؟ فقيل: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ﴾ أي تحت منازلهم ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ فكأنه قيل: ثم ماذا؟ فقيل: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ وبنى الفعل للمجهول لأن القصد وجود التحلية، وهي لعزتها إنما يؤتى بها من الغيب فضلاً من الله. ولما كان الله أعظم من كل شيء، فكانت نعمه لا يحصى نوع منها، قال مبعضاً: ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ جمع أسورة جمع سوار، كما يلبس ذلك ملوك الدنيا ولما كان لمقصودها نظر إلى التفضيل والفعل بالاختيار على الإطلاق، وقع الترغيب في طاعته بما هو أعلى من الفضة فقال مبعضاً أيضاً: ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ أي هو في غاية العظمة. ولما كان اللباس جزاء العمل وكان موجوداً عندهم، أسند الفعل إليهم فقال: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا﴾ ثم وصفها بقوله: ﴿مِّن سُندُسٍ﴾ ما رقّ من الديباج ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ ما غلظ منه؛ ثم استأنف الوصف عن حال جلوسهم بأنه جلوس الملوك المتمكنين من النعيم فقال: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ أي لأنهم في غاية الراحة ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ أي

الأسرة عليها الحجل، ثم مدح هذا فقال: ﴿نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ﴾ لو لم يكن لها وصف غير ما سمعتم، فكيف ولها من الأوصاف ما لا يعلمه حق علمه إلا الله! وإلى ذلك أشار بقوله: ﴿وَحَسُنَتۡ﴾ أي الجنة كلها، وميز ذلك بقوله: ﴿مُرۡتَفَقًا﴾)[١].

فقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ قال السعدي: (أي: جمعوا بين الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وعمل الصالحات من الواجبات والمستحبات)[٢].

وقوله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا﴾

قال القرطبي: (وفي الكلام إضمار أي لا نضيع أجر من أحسن منهم عملاً، فأما من أحسن عملاً من غير المؤمنين فعمله محبط)[٣]. قال ابن عاشور: (الإضاعة: جعل الشيء ضائعاً. وحقيقة الضيعة: تلف الشيء من مظنة وجوده. وتطلق مجازاً على انعدام الانتفاع بموجود فكأنه قد ضاع وتلف، قال تعالى: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم﴾آل عمران (١٩٥)، وقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡ﴾ البقرة (١٤٣). ويطلق على منع التمكين والانتفاع تشبيهاً للممنوع بالضائع في اليأس كما في الآية، أي أنا لا نَحْرِم من أحسن عملاً أجرَه. ومنه قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٢٠﴾ [التوبة])[٤]. قال السعدي: (وإحسان العمل: أن يريد العبد العمل لوجه الله، متبعاً في ذلك شرع الله، فهذا العمل لا يضيعه الله، ولا شيئاً منه، بل يحفظه للعاملين، ويوفيهم من الأجر، بحسب عملهم وفضله

---

(١) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٤٣ بتصرف واختصار.

(٢) تفسير السعدي ١/ ٤٧٥.

(٣) تفسير القرطبي ١٠/ ٣٤٣.

(٤) التحرير والتنوير ٨/ ٣٦٧ بتصرف واختصار.

وإحسانه)(١)، فأعظم الضيعة من ضيع آخرته ويحسب أنه يحسن صنعا ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف].

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي الذين آمنوا وعملوا الصالحات، قال ابن عاشور: (وافتتاح الجملة باسم الإشارة تنبيه على أن المشار إليهم جديرون لما بعده لأجل الأوصاف المذكورة قبله، بأن آمنوا وعملوا الصالحات)(٢).

وقوله: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ أي بساتين إقامة في الآخرة؛ عدن: أي إقامة.

وقوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾

أي تجري من دونهم وبين أيديهم، أو تجري تحت غرفهم ومنازلهم، وقال ابن عثيمين رحمه الله: (الأنهار جمع نهر، وهي أربعة أنواع ذكرها الله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ [محمد])(٣). فأنهار الجنة مما لذ وطاب في الدنيا، غير أن لها سرورا محضا لا شائبة فيه، وليس لها أخاديد كالدنيا وهذا من مزيد جمالها، وخمرها خالية من الآفات ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الصافات]، قال ابن كثير: (كما قال: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الواقعة] فنزه الله خمر الآخرة عن آفات خمر الدنيا، من صداع الرأس ووجع البطن وذهابها

---

(١) تفسير السعدي ١/ ٤٧٥.

(٢) التحرير والتنوير ٨/ ٣٦٨ بتصرف واختصار.

(٣) تفسير سورة الكهف بتصرف يسير.

بالعقل جملة)[١]، قال ابن عاشور: (فاجتمع في هذا الخبر عدة مقررات لمضمونه: التأكيد مرتين [إن الذين، إنا]، واسم الإشارة [أولئك]. ولام الملك [لهم]، وجر اسم الجهة بـ(مِن) وإضافته إلى ضميرهم [مِن تحتهم]، والمقصود من ذلك: التعريض بإغاظة المشركين لتتقرر بشارة المؤمنين أتَمّ تقرر)[٢].

وقوله: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾

التحلية هي التزيين، والأساور (قال الزجاج: جمع أَسْوِرَة، وأَسْوِرَة جمع سِوَار، يقال: سِوار اليد، بالكسر، وقد حكي: سُوار. قال المفسرون: لما كانت الملوك تلبَس الأساور في اليد والتيجان على الرؤوس، جعل الله ذلك لأهل الجنة)[٣]. قال ابن عاشور: (فصيغة جَمع الجمع للإشارة إلى اختلاف أشكال ما يحلون به منها، فإن الحلية تكون مرصعة بأصناف اليواقيت)[٤]، وقال الألوسي: (ونكرت [أي أساور] لتعظيم حسنها من الإحاطة)[٥].

وقال ابن عاشور: (اللِباس: ستر البدن بقميص أو إزار أو رداء، للوقاية من الحر والبرد وللتجمل. والثياب: جمع ثوب، الشقة من النسيج. واللون الأخضر أعدل الألوان، وكان من شعار الملوك. قال النابغة:

يصونون أجساداً قديماً نعيمُها بخالصة الأردان خُضْرِ المناكب

---

(١) تفسير ابن كثير ٧/ ١٣ بتصرف واختصار.
(٢) التحرير والتنوير ٨/ ٣٦٨ بتصرف واختصار.
(٣) زاد المسير ٤/ ٢٢٠ بتصرف واختصار.
(٤) التحرير والتنوير ٨/ ٣٦٨.
(٥) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٢٤٤.

والسندس: صنف من الثياب، وهو ديباج رقيق يلبس مباشراً للجلد ليقيه غلظ الإستبرق. والإستبرق: الديباج الغليظ المنسوج بخيوط الذهب، يلبس فوق الثياب المباشرة للجلد، وكلا اللفظين معرب)(١)، قال البغوي رحمه الله: (معنى الغلظ في ثياب الجنة: إحكامه)(٢). قال الألوسي: (والظاهر أن لباسهم غير منحصر فيما ذكر، إذ لهم فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين وقيل: يحتمل الانحصار، ولهم فيها ما تشتهي الأنفس لا يأباه، لجواز أنهم لا يشتهون سوى ذلك، والتنكير لأنها لا يكاد يوصف حسنها)(٣).

لطائف:

١- قال الألوسي رحمه الله: (وفي الجمع بين السندس والإستبرق إشعار بأن لأولئك القوم في الجنة ما يشتهون، ونكرا لتعظيم شأنهما، وكيف لا وهما وراء ما يشاهد من الدنيا، بل وما يتخيل من ذلك)(٤).

٢- وقال: (وقدمت التحلية على اللباس لأن الحلي في النفس أعظم، وفي القيمة أغلى، وفي العين أحلى، وبني فعله للمفعول إشعاراً بأنهم لا يتعاطون ذلك بأنفسهم وإنما يفعله الخدم كما قال الشاعر:

غرائز في كن وصون ونعمة ... يحلين ياقوتاً وشذراً مفقراً

وكذلك سائر الملوك في الدنيا يُلبسهم التيجان ونحوها خدمُهم)(٥).

---

(١) التحرير والتنوير ٨/ ٣٦٨ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير معالم التنزيل للبغوي ٥/ ١٦٩.
(٣) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٢٤٥ بتصرف واختصار.
(٤) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٢٤٧ بتصرف واختصار.
(٥) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٢٤٧ بتصرف واختصار.

٣- وقال: (وأسند اللبس إليهم لأن الإنسان يتعاطى ذلك بنفسه خصوصاً إذا كان فيه ستر العورة، وقيل: بني الأول للمفعول والثاني للفاعل إشارة إلى أن التحلية تفضل من الله تعالى واللبس استحقاقهم)(١).

٤- قال الرازي عن لباس أهل الدنيا: (إما لباس التحلي، وإما لباس التستر، أما لباس التحلي فقال في صفته: {يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ} والمعنى أنه يحليهم ذلك أو تحليهم الملائكة وأما لباس التستر فقوله: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ والمراد: من سندس الآخرة وإستبرق الآخرة)(٢)، وفي هذا تسلية لضعفة المؤمنين الذين أراد مترفو كفار قريش طردهم لما يجدونه من ريحهم ورثاثة ثيابهم، وفيه تعريض بأولئك المتكبرين المغترين بما هم فيه من نعيم زائل بما لا نسبة بينه وبين نعيم الجنة المقيم.

قال السعدي: (ودلت الآية وما أشبهها، على أن الحلية، عامة للذكور والإناث، كما ورد في الأحاديث لأنه أطلقها في قوله: ﴿ يُحَلَّوْنَ ﴾ وكذلك الحرير ونحوه)(٣)، قال الألوسي: (والسؤال بأن لبس الرجال الأساور عيب في الدنيا، فكيف يحلونها في الآخرة؟ مندفع بأن كونه عيباً إنما هو بين قوم لم يعتادوه، لا مطلقاً والشيء قد يكون عيباً بين قوم دون آخرين، وليس فيما نحن فيه أمر عقلي يحكم بكونه عيباً كل وقت وكل مكان وبين كل قوم)(٤).

---

(١) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٢٤٧.
(٢) تفسير الرازي ٢١/ ٤٦١ بتصرف واختصار.
(٣) تفسير السعدي ١/ ٤٧٥ بتصرف واختصار.
(٤) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٢٤٤ بتصرف واختصار.

٥- من القواعد أن من تعجل شيئاً قبل أوانه عوقب بحرمانه، وقد نهى النبي ﷺ عن شرب الخمر، ولبس الحرير للرجال، فمن عصى حرم هذا النعيم في الآخرة، قال ﷺ: "مَنْ شَرِبَ الخَمْرَ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ لَمْ يَتُبْ مِنْهَا، حُرِمَهَا فِي الآخِرَةِ"(١)، و"مَنْ لَبِسَ الحَرِيرَ فِي الدُّنْيَا فَلَنْ يَلْبَسَهُ فِي الآخِرَةِ"(٢).

وقوله: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ﴾

قال ابن الجوزي: (الاتّكاء: التحامل على الشيء. قال أبو عبيدة: الأرائك: الفُرُش في الحِجَال، ولا تكون الأريكة إلا بحَجَلة وسرير، وقال ابن قتيبة: السُّرُر في الحِجال. وقال ثعلب: لا تكون إلا سريراً في قُبَّة عليه متاعه. وقيل: إنها الفُرُش، وقيل: الأسِرَّة، وهي على الحقيقة: الفُرُش كانت في حِجال لهم)(٣)، وقال ابن كثير: (الاتكاء قيل: الاضطجاع وقيل التربع في الجلوس، قال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَرُ، عن قتادة: ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ قال: هي الحجال. قال معمر: وقال غيره: السّرُر في الحجال)(٤)، و الحجال جمع حَجَلَة، (بيت كالقُبَّة يستر بالثياب ويكون له أَزرار كبار)(٥). قال الزمخشري: (وخص الاتكاء، لأنه هيئة المنعمين والملوك)(٦)، وقال

(١) صحيح البخاري ٥/ ٢١١٩ (٥٢٥٣)، صحيح مسلم ٣/ ١٥٨٨ (٢٠٠٣).
(٢) صحيح البخاري ٥/ ٢١٩٤ (٥٤٩٤)، صحيح مسلم (٣/ ١٦٤٥ (٢٠٧٣).
(٣) زاد المسير ٤/ ٢٢٠ بتصرف واختصار.
(٤) تفسير ابن كثير ٥/ ١٥٦ بتصرف واختصار.
(٥) لسان العرب ١١/ ١٤٣.
(٦) الكشاف ٤/ ١١.

السعدي: (وفي اتكائهم على الأرائك، ما يدل على كمال الراحة، وزوال النصب والتعب، وكون الخدم يسعون عليهم بما يشتهون)[١].

وقوله: ﴿نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا﴾

قال الطبري: (نعم الثواب جنات عدن، وما جعل لهؤلاء الذين آمنوا، وحسنت هذه الأرائك في هذه الجنان متكأ)[٢]، وقال ابن كثير: (حسنت منزلاً ومقيلاً ومقامًا، كما قال في النار: ﴿بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ٢٩﴾ [الكهف]، وهكذا قابل بينهما في قوله: ﴿إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ٦٦﴾ [الفرقان])[٣]. قال السعدي: (فهذه الدار الجليلة ﴿نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ﴾ للعاملين ﴿وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا﴾ يرتفقون بها، ويتمتعون بما فيها، مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، من الفرح الدائم، واللذات المتواترة، والنعم المتوافرة، وأي مرتفق أحسن من دار، أدنى أهلها يسير في ملكه وقصوره وبساتينه ألفي سنة، ولا يرى فوق ما هو فيه من النعيم، قد أعطي جميع أمانيه، وزيد ما قصرت عنه الأماني، ومع ذلك فنعيمهم متزايد في أوصافه وحسنه، فنسأل الله أن لا يحرمنا خير ما عنده من الإحسان، بشرِّ ما عندنا من التقصير والعصيان)[٤].

---

(١) تفسير السعدي ١/ ٤٧٥.
(٢) تفسير الطبري ١٨/ ١٨ بتصرف واختصار.
(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ١٥٦ بتصرف واختصار.
(٤) تفسير السعدي ١/ ٤٧٥ بتصرف واختصار.

وقفتان

الأولى- شبهة حول عربية القرآن وجوابها:

سرادق وسندس وإستبرق معربة، ويوجد في القرآن كلمات أخرى قيل إنها معربة، فيثير بعض الناس الشكوك؛ إذ كيف يقال ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء]، وفيه كلمات غير عربية؟

وللجواب عن هذه الشبهة لا بد أن نبين أن هذه المسألة قد وقع فيها خلاف بين أهل العلم قديماً، قال السيوطي: (فالأكثرون ومنهم الإمام الشافعي وابن جرير وأبو عبيدة والقاضي أبو بكر وابن فارس على عدم وقوعه فيه لقوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ﴾ وقد شدد الشافعي النكير على القائل بذلك)[1]، وهذا يعني أن كل الكلمات التي وردت في القرآن وقيل إنها غير عربية فالصواب عكس ذلك وأن أصلها عربي، وقد أرجعوا ما جاء عن ابن عباس ﷺ وغيره من القول بأعجمية بعض الكلمات إلى اتساع اللغة جداً بحيث يمكن أن يخفى بعضها عن الأجلة، حتى (قال الشافعي في الرسالة: لا يحيط باللغة إلا نبي)[2]، قال السيوطي: (وذهب آخرون إلى وقوعه فيه وأجابوا عن قوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ بأن الكلمات اليسيرة بغير العربية لا تخرجه عن كونه عربياً، والقصيدة الفارسية لا تخرج عنها بلفظة فيها عربية. وعن قوله تعالى: ﴿ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ بأن المعنى من السياق

---

(١) الإتقان ١/ ٣٩٣.

(٢) الإتقان ١/ ٣٩٤.

أكلام أعجمي ومخاطَب عربي؟)[١]، قال: (وأقوى ما رأيته للوقوع -وهو اختياري- ما أخرجه ابن جرير بسند صحيح عن أبي ميسرة التابعي الجليل قال: في القرآن من كل لسان، وروي مثله عن سعيد بن جبير ووهب بن منبه)[٢]، قال: (وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: والصواب عندي مذهب فيه تصديق القولين جميعاً، وذلك أن هذه الأحرف أصولها أعجمية كما قال الفقهاء، لكنها وقعت للعرب فعربتها بألسنتها وحولتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها فصارت عربية، ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب، فمن قال إنها عربية فهو صادق، ومن قال أعجمية فصادق، ومال إلى هذا القول الجواليقي وابن الجوزي وآخرون)[٣].

وبهذا تندفع هذه الشبهة؛ أما على قول الأكثرين فلا إشكال ابتداء، وأما على قول من قال بالوقوع فهذا إنما كان في كلمات صارت عربية باستعمال العرب لها كما تقدم عن أبي عبيد.

فإذا سأل سائل عن سبب ذلك ولماذا لم يُستغنَ بكلمات أصولها عربية، فقد نقل السيوطي عن الخويي كلاماً نفيساً في الرد عليه عند الكلام على لفظة (إستبرق)، قال ﷺ: (إن قيل إن إستبرق ليس بعربي وغير العربي من الألفاظ دون العربي في الفصاحة والبلاغة، فنقول: لو اجتمع فصحاء العالم ليأتوا بلفظ يقوم مقامها في الفصاحة لعجزوا عن ذلك، لأن الله إذا حث عباده على الطاعة فإن لم يرغبهم بالوعد الجميل ويخوفهم بالعذاب الوبيل لا يكون حثه على وجه الحكمة، فالوعد

(١) الإتقان١/ ٣٩٤.
(٢) الإتقان١/ ٣٩٤.
(٣) الإتقان١/ ٣٩٥-٣٩٦.

والوعيد نظراً إلى الفصاحة واجب، ثم إن الوعد بما يرغب فيه العقلاء، وذلك منحصر في أمور الأماكن الطيبة، ثم المآكل الشهية ، ثم المشارب الهنية، ثم الملابس الرفيعة، ثم المناكح اللذيذة ثم ما بعده مما يختلف فيه الطباع... وكان ينبغي أن يذكر من الملابس ما هو أرفعها، وأرفع الملابس في الدنيا الحرير، وأما الذهب فليس مما ينسج منه ثوب، ثم إن الثوب الذي من غير الحرير لا يعتبر فيه الوزن والثقل، وربما يكون الصفيق الخفيف أرفع من الثقيل الوزن، وأما الحرير فكلما كان ثوبه أثقل كان أرفع، فحينئذ وجب على الفصيح أن يذكر الأثقل والأثخن ولا يتركه في الوعد لئلا يقصر في الحث والدعاء، ثم هذا الواجب الذكر إما أن يذكر بلفظ واحد موضوع له صريح أو لا يذكر بمثل هذا، ولا شك أن الذكر باللفظ الواحد الصريح أولى لأنه أوجز وأظهر في الإفادة وذلك إستبرق، فإن أراد الفصيح أن يترك هذا اللفظ ويأتي بلفظ آخر لم يمكنه لأن ما يقوم مقامه إما لفظ واحد أو ألفاظ متعددة، ولا يجد العربي لفظاً واحداً يدل عليه لأن الثياب من الحرير عرفها العرب من الفرس ولم يكن لهم بها عهد، ولا وضع في اللغة العربية للديباج الثخين اسم، وإنما عربوا ما سمعوا من العجم واستغنوا به عن الوضع لقلة وجوده عندهم وندرة تلفظهم به، وأما إن ذكره بلفظين فأكثر فإنه يكون قد أخل بالبلاغة لأن ذكر لفظين لمعنى يمكن ذكره بلفظ تطويل، فعلم بهذا أن لفظ إستبرق يجب على كل فصيح أن يتكلم به في موضعه، ولا يجد ما يقوم مقامه، وأي فصاحة أبلغ من أن لا يوجد غيره مثله)[1].

---

(١) الإتقان ١/ ٣٩٧.

الثانية- التربية بالثواب والعقاب:

وهو مبدأ يتكرر كثيراً في كتاب الله ﷻ، فيندر أن نجد آية وعيد منفردة عن آية وعد أو العكس، وما ذلك إلا لما جبلت عليه النفوس من تطلع إلى المكافأة، ومن عدم الارتداع إلا بالتلويح بالمعاقبة عليها، وقد ذهب بعض العلماء إلى أن هذا الاقتران من لوازم الحكمة والفصاحة، كما تقدم في قول الخويي وذلك قوله: (الله تعالى إذا حث عباده على الطاعة فإن لم يرغبهم بالوعد الجميل ويخوفهم بالعذاب الوبيل لا يكون حثه على وجه الحكمة، فالوعد والوعيد نظراً إلى الفصاحة واجب)[1].

وهذا يعطي دافعاً قوياً للمربين؛ إلى ضرورة الاهتمام بهذا الجانب وعدم إغفاله، لأن هذا الأسلوب كما هو ضروري لتربية الكبار وسوقهم للالتزام بالشرع، مع ما فيه من مصالح ظاهرة تحمل بذاتها دافعاً كبيراً لالتزامه، فمن باب أولى أن يكون ضرورياً في تربية الصغار الذين قد لا تدرك عقولهم مصالح ذلك، فيأتي مبدأ الثواب والعقاب معيناً لهم ومحفزاً على التزام تلك الأوامر والنواهي. ولا بد في هذا الباب من التوازن - ويحتاج إلى ميزان دقيق وحكمة- كي لا يطغى جانب على آخر.

ومن الدروس في أسلوب الوعد والوعيد البدء بإبهام ما يترتب على الطاعة والمعصية، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾، هذا الإبهام الذي يجعل النفوس تشرئب وتتطلع لمعرفة ما لكل من الفريقين، فإذا حصل هذا الاهتمام والتطلع جاء البيان.

ومن الدروس البدء بإجمال الثواب والعقاب ثم تفصيل ذلك، فهو يزيد من تهيئة القلوب لوعي ما يقال على وجهه، وقد جاءت الآيات بهذا

---

(١) الإتقان ١/ ٣٩٥.

الأسلوب في باب الثواب، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ فهذا إجمال، ثم قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ...﴾ الآية، فهذا تفصيل.

*****

تفسير الآيات من قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ إلى قوله: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾

مناسبة الآيات لما قبلها:

انتقل القرآن الكريم في هذه الآيات إلى ذكر قصة هذين الرجلين رغم أن الكفار لم يسألوا عنها لحكم عظيمة اشتملت عليها، فمن ذلك:

١ - أن الكفار كانوا قد ألقوا أسماعهم لمعرفة جواب ما سألوا عنه من شأن أصحاب الكهف، فكانت فرصة جيدة ليقرعها ما في هذه القصة من الحكم والمواعظ لعلهم يرجعون. قال الرازي: (المقصود أن الكفار افتخروا بأموالهم وأنصارهم على فقراء المسلمين فبين الله أن ذلك لا يوجب الافتخار لاحتمال أن يصير الفقير غنياً والغني فقيراً، أما حصول المفاخرة فبطاعة الله وعبادته وهي حاصلة لفقراء المؤمنين وبين ذلك بضرب المثل)[1]. وقال القرطبي: (هذا مثل لمن يتعزز بالدنيا ويستنكف عن مجالسة المؤمنين، وهو متصل بقوله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾)[2]، وبين ابن عاشور أن في القصة مثلاً للفريقين فقال: (ليظهر للفريقين ما يجره الغرور والإعجاب والجبروت إلى صاحبه من الأرزاء، وما يلقاه المؤمن المتواضع

---

(١) تفسير مفاتيح الغيب للرازي ١٠/ ٢٠٥ بتصرف واختصار.

(٢) تفسير القرطبي ١٠/ ٣٤٦.

العارف بسُنن الله من التذكير والتدبر في العواقب فيكون معرضاً للصلاح والنجاح)[1]، وفي هذا وعيد للمتكبرين، وتسلية لضعفاء المؤمنين.

٢- أن اليهود عرفوا بحب المال وجمعه، بل يكادون يعبدون المال، فلا يبالون من أين يجمعونه، فشنع عليهم بقوله: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [المائدة]، وقال: ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ﴾ [النساء: ١٦١]. ووصل اعتدادهم بالمال أن قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران]، تعالى الله عما يقولون، ورغم حبهم للمال لم يسألوا عنه مع أنه من الفتن العظيمة وهم متلبسون بها، فكان في ذكر هذه القصة نوع تعريض بهم من جهتين؛ الأولى عاقبة من يسقط في هذه الفتنة، والثانية عدم اهتمامهم وسؤالهم عنها.

وملخص القصة أن الله أنعم على رجل ببستانين من أعناب وزروع يحيط بهما النخيل وجعل له خلالهما نهراً، وأكرمه بنتاج وفير، فكفر هذه النعمة عوضاً عن الشكر واستكبر بما آتاه الله من مال وولد على صاحبه المؤمن، ثم ازداد علواً وظن أن ذلك لا يزول أبداً، وأنه إن كان يوم القيامة حقاً فإن الله سينعم عليه في الآخرة كما أنعم عليه في الدنيا، فوعظه صاحبه موعظة بليغة ونهاه عن الكفر والشرك، وتبرأ منهما، وبين له أنه كان خيراً له أن يشكر الله على نعمه لأنه قادر على أن يسلبه إياها، وألا يتكبر لأن الله قادر على أن يعطيه خيراً مما أعطاه، فوقع ما حذره منه؛ فخربت ثمار البستانين ولم يكن له من يدفع عنه أمر الله، فكان من النادمين.

ففي القصة تشبيه لحال المتكبرين الذين أرادوا طرد ضعفة المؤمنين بهذا الكافر المتكبر صاحب الجنتين، وتشبيه لحال ضعفة المؤمنين بحال

---

(١) التحرير والتنوير ٨/ ٣٧٠.

صاحبه المؤمن ليعتبروا بما آلت إليه حال الكافر، وفي قصة الرجلين شبه بحال أصحاب الكهف مع قومهم، وكل هذا تأكيد أن العاقبة للمتقين.

ويمكن تقسيم القصة إلى ثلاث مقاطع: وصف حال الكافر وجنتيه وما أنعم الله عليه فيهما، والحوار الذي دار بين الرجلين، والمآل والعاقبة.

الفقرة الأولى- وصف حال الكافر وجنتيه:

قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾﴾

فقوله: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا﴾

هذا أمر للنبي ﷺ أن يقص عليهم من أمر الرجلين ليعتبروا، والمعنى إما: قص عليهم قصة الرجلين، أو قص عليهم حال الرجلين التي تشبه حالهم، قال ابن عاشور: (واللام في قوله: ﴿لَهُم﴾ يجوز أن يتعلق بفعل ﴿وَاضْرِبْ﴾ كقوله: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [الروم]. ويجوز أن يتعلق بقوله: ﴿مَّثَلًا﴾ تعلق الحال بصاحبها، أي شبهاً للفريقين كما في قوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]، والوجهُ أن يكون متنازعاً فيه بين ضَرب، ومثَلاً. والضمير في: ﴿لَهُم﴾ يعود إلى المشركين من أهل مكة على الوجه الأول ولم يتقدم لهم ذكر، ويعود إلى جماعة الكافرين والمؤمنين على الوجه الثاني)(١). فالمراد على الأول كما قال السعدي رحمه الله: (اضرب للناس مثل هذين الرجلين، الشاكر لنعمة الله، والكافر لها، وما صدر من كل منهما، من الأقوال والأفعال، وما حصل بسبب ذلك من العقاب العاجل

---

(١) التحرير والتنوير ٨/ ٣٧٠ بتصرف واختصار.

والآجل، والثواب، ليعتبروا بحالهما)[1]، والمراد على الثاني: ضربهما مثلاً للفريقين المؤمنين والكافرين من حيث عصيان الكفرة مع تقلبهم في نعم الله وطاعة المؤمنين مع مشاق الفقر، وعاقبة كليهما ليعتبر أولو الأبصار.

وقوله: ﴿رَّجُلَيْنِ﴾

اختلف المفسرون هل هما محققان أم مقدران، واختلف أصحاب القول الأول في تعيينهما، فقيل: هما رجلان من أهل مكة من بني مخزوم، أحدهما كافر وهو الأسود بن عبد الأشد بن عبد ياليل، والآخر مسلم وهو أخوه أبو سلمة عبد الله بن عبد الأشد بن عبد ياليل، وكان زوجَ أم سلمة قبل أن يتزوجها رسول الله ﷺ. وقيل: إنهما أخوان من بني إسرائيل مات أبوهما وترك لهما مالاً فاشترى أحدهما أرضاً وجعل فيها جنتين، وتصدق الآخر بماله، وكان مصيرهما في الآخرة كما في سورة الصافات: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٥٠ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۝٥١ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ۝٥٢﴾ [الصافات] الآيات[2]، قال السعدي رحمه الله: (وليس معرفة أعيان الرجلين، وفي أي زمان أو مكان هما، فائدة، فالنتيجة تحصل من قصتهما فقط)[3]. والقول أنهما مقدران ممنوع لما في القصة من قول كل منهما ورده على صاحبه، فحكاية القرآن ذلك دليل على وقوعه، والله أعلم.

وقوله: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ﴾

المراد بأحدهما الكافر كما يظهر من السياق، أي آتيناه بستانين من الكروم وجعلنا النخيل يحيط بهما، قال البغوي رحمه الله: (والحفاف: الجانب وجمعه أحفة، يقال: حف به القوم أي: طافوا بجوانبه... أي: جعلنا حول

---

(١) تفسير السعدي ١/ ٤٧٦.
(٢) ينظر التحرير والتنوير لابن عاشور ٨/ ٣٧٠.
(٣) تفسير السعدي ١/ ٤٧٦ بتصرف واختصار.

الأعناب النخيل)[1]، قال البقاعي: (أي بستانين يستر ما فيهما من الأشجار من يدخلهما على أي وضع من الأوضاع كانتا ﴿مِنْ أَعْنَٰبٍ﴾ لأنها من أشجار البلاد الباردة وتصبر على الحر، وهي فاكهة وقوت بالعنب والزبيب والخل وغيرها ﴿بِنَخْلٍ﴾ لأنها من أشجار البلاد الحارة، وتصبر على البرد، وربما منعت عن الأعناب بعض أسباب العاهات، وثمرها فاكهة بالبسر والرطب وقوت بالتمر والخل فكأن النخل كالإكليل من وراء العنب، وهو مما يؤثره الدهاقين[2] لأنه في غاية البهجة والمنفعة)[3].

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾

قال البقاعي: (﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا﴾ الجنتين ﴿زَرْعًا﴾ لبعد الآفة، لأن زمان الزرع ومكانه غير زمان الإثمار ومكانه، وذلك العمدة في القوت، فكانت الجنتان أرضاً جامعة لخير الفواكه والأقوات، وعمارتهما متواصلة لم يتوسطها ما يقطعها، مع سعة الأطراف، وتباعد الأكناف، وحسن الأوصاف)[4].

وقوله: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾﴾

قال الطبري: (كلا البستانين أطعم ثمره وما فيه من الغروس من النخل والكرم وصنوف الزرع ولم تنقص من الأُكُل شيئاً، بل آتت ذلك تاماً، ومنه قولهم: ظلم فلان فلاناً حقَّه: إذا نقصه، وسيَّلنا خلال البستانين

---

(١) تفسير معالم التنزيل للبغوي ٥/ ١٧٠-١٧١.

(٢) قال ابن منظور في لسان العرب ١٣/ ١٦٣: "الدِّهقان: التاجر، فارسي معرَّب".

(٣) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٤٤ بتصرف واختصار.

(٤) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٤٤ بتصرف واختصار.

نهراً، يعني بينهما وبين أشجارهما نهراً. وقيل: (وَفَجَّرْنَا) فثقل الجيم منه، لأن التفجير في النهر كله، وذلك أنه يميد ماء فيُسَيِّل بعضُه بعضاً)[١].

يقول السعدي رحمه الله واصفاً الجنتين: (أي: في هاتين الجنتين من كل الثمرات، وخصوصا أشرف الأشجار، العنب والنخل، فالعنب في وسطها، والنخل حف بذلك ودار به، فحصل فيه من حسن المنظر وبهائه، وبروز الشجر والنخل للشمس والرياح، التي تكمل بها الثمار وتنضج، ومع ذلك جعل بين الأشجار زرعاً، فلم يبق عليهما إلا أن يقال: كيف ثمار هاتين الجنتين؟ وهل لهما ماء يكفيهما؟ فأخبر أن كلاً من الجنتين آتت أكلها، أي: ثمرها وزرعها {و} أنها {لم تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا} أي: لم تنقص من أكلها أدنى شيء، ومع ذلك، فالأنهار في جوانبهما سارحة، كثيرة غزيرة)[٢].

لطيفة- دلت الآية على أن النقص ظلم؛ فنقص الرجل زوجه والعكس، ونقص الأب أولاده، والمسؤول والمربي من ولاهما الله عليهم، كل هذا ظلم، ولو أن أي نقص وقع عددناه ظلما لتغيرت حالنا.

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ١٩-٢٠ بتصرف واختصار.

(٢) تفسير السعدي ١/ ٤٧٦ بتصرف واختصار.

وقفتان مع الآية الكريمة

الأولى- التربية بضرب المثل:

في الآيات يضرب الله ﷻ مثلاً لحال الكافرين المترفين المتكبرين وحال ضعفة المؤمنين، بحال الكافر والمؤمن، وضرب الأمثال أسلوب متبع في القرآن، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر]. قال ابن تيمية رحمه الله على ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾: (لا خلاف بين المسلمين أن في القرآن أمثالاً بل يقال فيه أكثر من أربعين مثلاً)[1]، ولأهمية الأمثال عُني المفسرون بما ضربه الله ﷻ منها، كما أفرده بعض العلماء بمؤلفات؛ كالجنيد (ت ٢٩٨)، وأبي عبد الرحمن السلمي (ت ٤٠٦)، والماوردي (ت ٤٥٠)، وابن القيم (ت ٧٥١) رحمهم الله.

والأمثال التي ضربها الله ﷻ في القرآن إنما ضربها لحكم جليلة وفوائد عظيمة، يقول القنوجي: (والمثل يصور المعاني بصورة الأشخاص، وفائدته جمة؛ منها تقرير المراد، وتقريبه للعقل، وتصويره بصورة المحسوس، إلى غير ذلك. قال الماوردي: من أعظم علم القرآن علم أمثاله، والناس في غفلة عنه)[2]، ويقول السعدي رحمه الله: (يستفاد من المثل أمور: التذكير، والوعظ، والحث، والزجر، والاعتبار، والتقرير، وتقريب المراد للعقل، وتصويره في صورة المحسوس، بحيث يكون نسبته للعقل كنسبة المحسوس إلى الحس. وتأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت

---

(١) بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية ١/ ٣١٤ بتصرف واختصار.

(٢) أبجد العلوم ٢/ ٤٩٢-٤٩٣.

الأجر، وعلى المدح والذم، وعلى الثواب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر، وإبطال أمر)(١). وبضرب المثل: (يتبين المعنى الذي أراده الله غاية البيان، ويتضح غاية الوضوح، من رحمته وحسن تعليمه)(٢).

وهذا يجعلنا نولي ضرب الأمثال في التربية اهتماماً متزايداً، لأنه لا يأخذ حقه، فلا بد من الإكثار من ضرب الأمثال للكبار والصغار تأسياً بأسلوب القرآن الكريم، وإذا كان الكبار بحاجة إلى تقريب المعاني والمعقولات بصورة المحسوسات فلا شك أن الصغار أشد حاجة لذلك.

الثانية- في ذكر النخيل والأعناب: من اللافت في القرآن كثرة ذكر النخيل والأعناب معا، فمن ذلك: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ [البقرة: ٢٦٦]، وقوله: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾ [الرعد: ٤]، وقوله: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَـٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل]، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ٣٤﴾ [يس]، وغيرها كثير. ومن أسباب ذلك:

١ = قال الطبري: (لأن هذين النوعين من الثمار كانا هما أعظم ثمار الحجاز وما قرب منها، فكانت النخيل لأهل المدينة، والأعناب لأهل الطائف، فذكَّر القوم بما يعرفون من نعمة الله عليهم)(٣).

٢ = وقال ابن الجوزي: (لأنهما من أنفس ما يكون في البساتين)(٤).

٣ = وقال الرازي: (قدم النخل على سائر الفواكه لأن التمر يجري مجرى الغذاء عند العرب وذكر العنب عقيبه لأنه أشرف أنواع الفواكه،

---

(١) تفسير السعدي ١/ ٣٤ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير السعدي ١/ ٤٢٥ بتصرف يسير.
(٣) تفسير الطبري ١٩/ ٢١.
(٤) زاد المسير في علم التفسير ١/ ٢٤٠.

لأنه من أول ما يظهر يصير منتفعا به إلى آخر الحال، فأول ما يظهر يظهر خيوط خضر لذيذة المطعم ثم بعده الحصرم، وهو طعام شريف للأصحاء والمرضى، وقد يتخذ الحصرم أشربة لطيفة المذاق نافعة لأصحاب الصفراء، وقد يتخذ الطبيخ منه، فكأنه ألذ الطبائخ الحامضة. ثم إذا تم العنب فهو ألذ الفواكه، ويمكن ادخاره سنة، وهو ألذ الفواكه المدخرة)(١).

٤= وقال ابن عادل الحنبلي: (وإنما ذكر النخيل والأعناب لكثرة منافعهما فإنهما يقومان مقام الطعام والإدام والفاكهة رطباً ويابساً)(٢).

٥= أن ثمارهما طيبة الطعم وأنها تجنى وتؤكل بدون عناية زائدة.

٦= أن حفظهما سهل فالرطب يصبح تمراً والعنب يصبح زبيبا.

٧= أنهما من أقل الأشجار تعرضا للمرض، والله أعلم.

*****

الفقرة الثانية - الحوار:

أولاً - مقالة الكافر للمؤمن:

قال تعالى: ﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ٣٤ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ٣٦ ﴾

والكلام موصول عن صاحب الجنتين، فبعد أن بين ما آتاه من النعيم مما قل أن يوجد عند كثير من أهلها ابتلاء واختباراً، ذكر مقالته لصاحبه المؤمن وهو يحاوره، تلك المقالة المملوءة غروراً وتعالياً وتكبراً وجحوداً.

---

(١) تفسير الرازي ١٣/ ٨٦ بتصرف واختصار.

(٢) اللباب في علوم الكتاب ١٤/ ١٨٨.

فقوله تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾

قال السعدي: (﴿ثَمَرٌ﴾ أي: عظيم كما يفيده التنكير، أي: قد استكملت جنتاه ثمارهما، وارجحنت[1] أشجارهما، ولم تعرض لهما آفة، فهذا غاية منتهى زينة الدنيا في الحرث، ولهذا اغتر بهما، وتبجح وافتخر، ونسي آخرته)[2]، وقال ابن كثير: ({وَكَانَ لَهُ ثُمُرٌ} [بضم الثاء والميم] قيل: المراد به: المال؛ رُوي عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. وقيل: الثمار وهو أظهر هاهنا، ويؤيده القراءة الأخرى: {وكان له ثُمْر} بضم الثاء وتسكين الميم، فيكون جمع ثَمَرَة، كَخَشَبَة وخُشْب، وقرأ آخرون: {ثَمَرٌ} بفتح الثاء والميم)[3]، وقال الطبري: (وكان له منهما " ثُمُرٌ " بمعنى من جنتيه أنواع من الثمار وقد بين ذلك قولُه: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾﴾ ثم قال: وكان له من هذه الكروم والنخل والزرع ثمر)[4].

وقوله: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾

الفاء تدل أن ما هجر به الكافر من قول وهو يخاطب المؤمن تفريع على ما سبق بيانه من النعم، فبدل أن تكون النعم سبباً كي يشكر المنعم ولا يتكبر على عباده المؤمنين، كانت سبباً للجحود ولاستمراء الكفر والطغيان، قال ابن عاشور: (لأن ما تضمنته الجمل السابقة من شأنه أن ينشأ عنه غرور بالنفس يَنطق ربه عن مثل ذلك القول [قال:] وجملة ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ حال من ضمير ﴿فَقَالَ﴾)[5]، أي الكافر لصاحبه المؤمن حال كونه

---

(١) أي مالت بها ثمارها لتمامها وكثرتها، ينظر لسان العرب ١٣/ ١٧٦، مادة (رجحن).

(٢) تفسير السعدي ١/ ٤٧٦-٤٧٧ بتصرف يسير.

(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ١٥٧.

(٤) تفسير الطبري ١٨/ ٢٢-٢٣، بتصرف يسير.

(٥) التحرير والتنوير ٨/ ٣٧٢ بتصرف واختصار.

يحاوره. قال ابن الجوزي رحمه الله: (﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥ﴾ أي: يراجعه الكلام ويجاوبه. وفيما تحاورا فيه قولان؛ أحدهما: أنه الإيمان والكفر. والثاني: طلب الدنيا، وطلب الآخرة)(١)، أقول: الصواب من ذلك أن حوارهما قد جمع ذلك كله كما بينت الآيات التالية، وأن كلاً منهما ربط أمر طلب الدنيا والآخرة، بأمر الكفر والإيمان، وإن كان البون بينهما شاسعا.

فائدة- مع إيمان أحدهما وكفر الآخر وصف بالصاحب، فليست صحبة الإيمان، وإنما تعني المقارنة أو الاجتماع على أمر، ولا يلزم أن يرضى عن دين صاحبه، بل إن القرآن قد استعمل لفظ الأخوة ولم يرد منها الإيمان، فلفظ الصحبة أولى، قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الشعراء]، ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [الشعراء]، ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [الشعراء]، ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ ﴾ [الشعراء]، ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ [الأعراف: ٨٥].

والمقصود بالأخوة هنا الانتماء إلى عائلة أو قبيلة أو قوم، يدل على ذلك أن شعيباً عليه السلام لما دعا أصحاب الأيكة قال تعالى: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [الشعراء]، ذلك أنهم لم يكونوا من قومه أهل مدين، قال ابن عاشور: (والذي يشهد لذلك أن القرآن لما ذكر القصة لأهل مدين وصف شعيباً بأنه أخوهم، ولما ذكرها لأصحاب ليكة لم يصفه بأنه أخوهم إذ لم يكن نسيبا ولا صهرا لهم، وهذا إيماء دقيق إلى هذه النكتة)(٢). فلا ينبغي التسرع بتبديع من يصف المنحرفين بالأخوة،

---

(١) زاد المسير ٤/ ٢٢٢.

(٢) التحرير والتنوير ١٩/ ١٨٤ بتصرف واختصار.

فربما أراد تأليف قلوبهم وأضمر ذلك، وكذلك من وصف غير المسلمين بالأخوة في الإنسانية مثلاً، مع أن الأولى خلاف ذلك إلا أن هذا القيد يمنع إرادة معان باطلة يذوب معها الولاء والبراء، فإذا أمنت مفسدة تمييع الفروق بين الكفر والإيمان، ورجي تحقيق مصالح معتبرة شرعاً ففي الأمر سعة، والله أعلم. ولكن لا شك أن الممتنع هو وصفهم بأخوة الإيمان، أو أنه لا فرق بيننا وبينهم، وغير ذلك مما يندى له الجبين من معان منتشرة اليوم، يروج لها العلمانيون والليبراليون ويسايرهم فيها والعياذ بالله بعض المتنازلين والمفرطين بلا مسوغ من شرع صحيح أو عقل صريح.

وقوله: ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾

قال البغوي: (أي: عشيرة ورهطاً. وقال قتادة: خدماً وحشماً. وقال مقاتل: ولداً تصديقه: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا﴾)[1]، أقول: الاستدلال بالآية على اعتزاز الكافر بولده صحيح، لكنه لا ينفي استطالة الكافر على المؤمن بكثرة الرهط والخدم فهذه لوازم لكثرة المال، فأراد أن يستطيل بكل ما يراه سبباً لذلك، قال البقاعي: (أي ناساً يقومون معي في المهمات، وينفرون عند الضرورات، لأن ذلك لازم لكثرة المال)[2]، وجمع ابن كثير رحمه الله فقال: (أكثر خدمًا وولدًا. قال قتادة: تلك أمنية الفاجر: كثرة المال وعزة النفر)[3]. قال السعدي رحمه الله: (فخر بكثرة ماله، وعزة أنصاره، وهذا جهل، وإلا فأي افتخار بأمر خارجي ليس فيه فضيلة

(١) تفسير معالم التنزيل للبغوي ٥/ ١٧١ بتصرف واختصار.
(٢) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٤٤.
(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ١٥٧ بتصرف واختصار.

نفسية، ولا صفة معنوية، وإنما هو بمنزلة فخر الصبي بالأماني، التي لا حقائق تحتها!)[1].

وهذا الكلام خرج منه على عادة أهل الترف من الكفار، من التعالي على المؤمنين الفقراء والضعفاء، خاصة إن كان بينهم سابق معرفة واختار كل منهم طريقاً؛ فلقي الكافر نعيماً مع كفره، ولقي المؤمن شدة ومشقة مع إيمانه، فهو يريد أن يوصل لصاحبه رسالة مفادها: ما نفعك إيمانك؟ ألم أقل لك إنها أوهام وأساطير؟ انظر إلى حالي وحالك! إن كان ما تقوله حقاً، فلماذا يحرمك ربك ويعطيني؟... إلخ. فهذه الأسئلة وأمثالها تأتي الإجابة عنها في خاتمة القصة ببيان عاقبة كل من الرجلين.

فائدة: يفخر كثيرون بأموالهم وأولادهم وسلطانهم وجاههم، مع أن هذه الأمور ليست ذاتية بل خاجية، ويمكن أن تزول في طرفة عين، فكم من غني بات فقيراً معدما بل مديناً، وكم من صاحب أولاد فقدهم فجأة، وكذلك الجاه والسلطان ما أسرع تحولها وزوالها، فهذه عند التحقيق أمور لا ينبغي أن يفتخر بها المرء، وليست هي أسباب الرفعة والشرف على الحقيقة فضلاً عن كونها سببا للتطاول على الخلق. أما الصفات الذاتية فهذه هي التي يمكن للمرء أن يشرف بها، كالعلم والأدب والشجاعة والحلم والحكمة، إلى غير ذلك من الفضائل والمكارم.

وقوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾

قال الشوكاني: (أخذ بيد أخيه المسلم، فأدخله جنته يطوف به فيها، ويريه عجائبها، وإفراد الجنة هنا يحتمل كونه لم يدخل أخاه إلا واحدة

---

(١) تفسير السعدي ١/ ٤٧٦ بتصرف واختصار.

منهما، أو لكونهما لما اتصلا كانا كواحدة، أو لأنه أدخله في واحدة، ثم واحدة أو لعدم تعلق الغرض بذكرهما)[1]، وقال البقاعي: (﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ ﴾ وحَّد لإرادة الجنس ودلالة على أنهما لاتصالهما كالجنة الواحدة، وإشارة إلى أنه لا جنة له غيرها لأنه لا حظ له في الآخرة)[2]، أقول: هذا على القول بأن الكافر بقي على كفره، وفي المسألة قول ثان يأتي في محله إن شاء الله.

قال الطبري: (وظُلمُه نفسه: كفره بالبعث، وشكه في الساعة، ونسيانه المعاد، فأوجب له بذلك سخط الله وأليم عقابه)[3]، وقال ابن كثير نحوه[4]، قال القرطبي: (ومن أدخل نفسه النار بكفره فهو ظالم لنفسه)[5]، وقال الرازي: (المراد التنبيه على أنه لما اعتز بالنعم وتوسل بها إلى الكفر، وجحود البعث، كان واضعاً تلك النعم في غير موضعها)[6]، لأن الظلم وضع الشيء في غير محله كما تقدم. قال الشوكاني: (وجملة: ﴿ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ في محل نصب حال أي: وذلك الكافر ظالم لنفسه بكفره)[7].

وقوله : ﴿ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴾

قال ابن عاشور: (والظن بمعنى: الاعتقاد، وإذا انتفى الظن بذلك ثبت الظن بضده)[8]، قال الطبري: (قال -لما عاين جنته: ما أظنّ أن تبيد

---

(١) فتح القدير ٤/ ٣٩١ بتصرف واختصار.
(٢) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٤٤ بتصرف واختصار.
(٣) تفسير الطبري ١٨/ ٢٢.
(٤) تفسير ابن كثير ٥/ ١٥٧.
(٥) تفسير القرطبي ١٠/ ٣٥٠.
(٦) تفسير مفاتيح الغيب للرازي ١٠/ ٢٠٦ بتصرف واختصار.
(٧) فتح القدير ٤/ ٣٩١ بتصرف يسير.
(٨) التحرير والتنوير ٨/ ٣٧٣.

هذه الجنة أبداً، ولا تفنى ولا تَخْرب، وما أظنّ الساعة التي وعد الله خلقه الحشر فيها تقوم)[١]، قال ابن كثير: (وذلك اغترار منه، لما رأى فيها من الزروع والثمار والأشجار والأنهار المطردة في جوانبها وأرجائها، ظن أنها لا تفنى ولا تفرغ وذلك لقلة عقله، وضعف يقينه بالله، وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها، وكفره بالآخرة)[٢]، وقال الألوسي: (﴿هَٰذِهِۦٓ﴾ أي الجنة ﴿أَبَدًا﴾ أي طول الحياة فالمراد بالتأبيد طول المكث لا المتبادر، وقيل: ما قصد إلا أن هذه الجنة المشاهدة بشخصها لا تفنى على ما يقوله الفلاسفة في الأفلاك أنفسها، وكأن حب الدنيا والعجب بها غشي على عقله فقال ذلك، وإلا فهو مما لا يقوله عاقل ولا يرتضيه فاضل، وقيل: ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾ إشارة إلى الأجرام العلوية والأجسام السفلية من السموات والأرض وأنواع المخلوقات، أو إلى الدنيا، والمآل واحد، والظاهر ما تقدم)[٣].

وقوله: ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾

قال ابن كثير: (أي: كائنة)[٤]، وقال الشوكاني: (أنكر البعث بعد إنكاره لفناء جنته. قال الزجاج: أخبر أخاه بكفره بفناء الدنيا وقيام الساعة)[٥]، أما ابن الجوزي رحمه الله فقال: (وهذا شك منه في البعث)[٦]، وحتى على هذا التقدير فهو كفر، قال رحمه الله: (فلما شَكَّ في البعث كان

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٢٢ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٥٧ بتصرف واختصار.
(٣) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٢٥١ بتصرف واختصار.
(٤) تفسير ابن كثير ٥/ ١٥٧.
(٥) فتح القدير ٤/ ٣٩١.
(٦) زاد المسير ٤/ ٢٢٣.

كافراً)[١]، واستدل الشنقيطي رحمه الله بقوله: (وصرح بذلك في أول الرعد: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾﴾)[٢].

وهنا يعرض سؤال: هل كان هذا الرجل كافراً ابتداء أم أن الكفر عرض له بمقالته لاغتراره بزهرة الحياة الدنيا؟ خلاف، والأمر محتمل، قال الشوكاني رحمه الله عندما ذكر إنكار المؤمن عليه بقوله: (أكفرت)؟ قال: (بقولك: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾... وقيل: يحتمل أنه كان كافراً بالله فأنكر عليه ما هو عليه، ولم يقصد أن الكفر حدث له بسبب هذه المقالة)[٣].

وقوله: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾

قال ابن عطية: (قاس الآخرة على الدنيا، وظن أنه لم يُمْلَ له في دنياه إلا لكرامة يستوجبها، قال: فإن كان ثم رجوع كما يزعم صاحبه فستكون حالي كذا وكذا)[٤]، وقال الطبري: (ثم تمنى أمنية أخرى على شكّ منه، فقال: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى﴾ فرجعت إليه وهو غير موقن لأجدنّ خيراً من جنتي هذه يقول: لم يعطني الجنة في الدنيا إلا ولي عنده أفضل في المعاد إن رددت إليه)[٥]، وقال الزمخشري: (إقسام منه على أنه إن ردَّ إلى ربه على سبيل الفرض كما يزعم صاحبه ليجدنّ في الآخرة خيراً من جنته في الدنيا، تمنياً على الله، وادّعاء لكرامته عليه، وأنه ما أولاه الجنتين إلا لاستحقاقه،

---

(١) زاد المسير ٤/ ٢٢٤.
(٢) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٣/ ٣٤٣.
(٣) فتح القدير ٤/ ٣٩١.
(٤) المحرر الوجيز لابن عطية ٤/ ٣١١ بتصرف واختصار.
(٥) تفسير الطبري ١٨/ ٢٢ بتصرف واختصار.

وأنّ معه هذا الاستحقاق أينما توجه، كقوله: ﴿إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠]، ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۝٧٧﴾ [مريم] ... ﴿مُنقَلَبًا﴾ مرجعاً وعاقبة. وانتصابه على التمييز، أي: منقلب تلك، خير من منقلب هذه، لأنها فانية وتلك باقية)[١].

قال السعدي: (﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى﴾ على ضرب المثل ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ أي ليعطيني خيراً من الجنتين، وهذا لا يخلو: إما أن يكون عالماً بحقيقة الحال، فيكون على وجه التهكم فيكون زيادة كفر، وإما أن يكون ظنه، فيكون من أجهل الناس، وأبخسهم عقلا، فأي تلازم بين عطاء الدنيا والآخرة، حتى يظن أن من أعطي في الدنيا أعطي في الآخرة! بل الغالب أن الله يزوي الدنيا عن أصفيائه، ويوسعها على أعدائه الذين ليس لهم في الآخرة نصيب، والظاهر أنه يعلم، ولكنه قال هذا على وجه التهكم والاستهزاء، لقوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ فإثبات الظلم في حال دخوله، الذي جرى منه، من القول ما جرى، يدل على تمرده وعناده)[٢]، أقول: بل الثاني أولى، وهو المناسب لحاله وأمثاله ممن يظن عطاء الدنيا دليل إكرام، وأما ظلمه فلا يلزم منه أن يكون متهكماً وإن كان محتملا.

---

(١) الكشاف ٤/ ١٣ بتصرف واختصار.

(٢) تفسير السعدي ١/ ٤٧٧ بتصرف واختصار.

إن الإنسان ليطغى

في الآيات صورة واضحة للطغيان نراها تتكرر مرارا، ولئن كانت للطغيان أسباب عديدة، فمن أشيعها كثرة المال وسعة الأرزاق، وما يتبع ذلك من كثرة الجاه والخدم والحشم، ولئن كان طغيان الكافر مفهوماً معقولاً -لأنه لا يؤمن أن نعيمه ابتلاء وإن شاء سلبه إياه، ولا يؤمن بيوم الحساب- فإن ما لا يمكن فهمه أن يطغى المسلم الذي علم ذلك يقينا.

إننا عندما نصف من طغى من الكفار لماله وجاهه بالجهل والغباء فلأنه عطل عقله عن الحقيقة الكبرى؛ أن الكون لا يمكن أن يكون وجد من غير موجد، ومن ثم لم يرجع نعمته إلى موجد الكون بل أرجعها إلى نفسه وجهده، وهو ما يظهر بطلانه بأدنى تأمل لما هو مشاهد من تخلف المسبَّبات في كثير من الأحيان، ولما نجده في أنفسنا من عجز وافتقار.

وأما المسلم، فبأي شيء نصف طغيان من طغى من المسلمين اغتراراً بماله أو جاهه وغير ذلك، مع وضوح الحقائق أمام ناظريه!

إن المسلم العاقل المقبل على كتاب ربه وسنة نبيه تدبراً وفهماً، يدرك أن كل ما هو فيه من نعيم؛ من صحة وعافية، ومن سعة رزق وكثرة مال، ومن كثرة العشيرة والولد، بل حتى العلم والصلاح وغيره، إنما هو محض فضل من الله ﷻ، وأن شيئاً من ذلك كله ليس للعبد، كما قال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ٩٦﴾ [الصافات]، وأنه كما أراد فأعطى قد يريد فيسلب، فالعطاء اختبار وابتلاء كما قال: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗ﴾ [الأنبياء]، وليس دليل إكرام وتفضيل كما قد يظن كثير من الجهال، وإلا فهل يتصور مسلم عاقل أن عطاء الله لعاد وثمود، أو عطاءه لفرعون وقارون وهامان،

أو عطاءه لكثير من الكفار في الماضي والحاضر دليل إكرام وتفضيل؟ اللهم لا!

ومصداق ذلك في كتاب الله: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾[الفجر]، قال ابن كثير رحمه الله: (يقول تعالى منكرًا على الإنسان في اعتقاده إذا وسع الله عليه في الرزق ليختبره، فيعتقد أنه إكرام وليس كذلك، بل ابتلاء كما قال: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون] وكذلك في الجانب الآخر إذا ابتلاه وامتحنه وضَيَّق عليه في الرزق، يعتقد أن ذلك من الله إهانة له. قال الله: ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر كما زعم، لا في هذا ولا في هذا، فإن الله يعطي المال من يحب ومن لا يحب، ويضيق على من يحب ومن لا يحب، وإنما المدار في ذلك على طاعة الله في كل من الحالين، إذا كان غنياً بأن يشكر الله على ذلك، وإذا كان فقيرًا بأن يصبر)(١).

إن مما يؤسف عليه أن نرى كثيراً ممن وسع الله عليهم يتطاولون على إخوانهم الفقراء، وقد يكون لبعضهم مكانة عند الله يتمنى أولئك عشر معشارها ولو أنفقوا كل أموالهم، كما في الحديث: "رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره"(٢)، فكم سمعنا عن جنازات فقراء، قد يكون واحدهم وافداً ليس من هذه البلاد فيترفع البعض عن اتباع جنازته أو الصلاة عليه، ثم يحدِّث من دفنوه أنهم وجدوا له ريحاً كريح المسك.

---

(١) تفسير ابن كثير ٨/ ٣٩٨ بتصرف واختصار.
(٢) صحيح مسلم ٤/ ٢٠٢٤ (٢٦٢٢).

قال النبي ﷺ معلماً وموجهاً: "وبينا صبي يرضع من أمه فمر رجل راكب على دابة فارهة وشارة حسنة فقالت أمه: اللهم اجعل ابني مثله هذا. فترك الثدي وأقبل إليه فقال: اللهم لا تجعلني مثله. ثم أقبل على ثديه، ومروا بجارية يضربونها ويقولون: زنيتِ سرقتِ. وتقول: حسبي الله ونعم الوكيل. فقالت أمه: اللهم لا تجعل ابني مثلها. فترك الرضاع ونظر إليها فقال: اللهم اجعلني مثلها. فهناك تراجعا الحديث فقالت: حلقَى! مر رجل حسن الهيئة فقلتُ: اللهم اجعل ابني مثله، فقلتَ: اللهم لا تجعلني مثله؛ ومروا بهذه الأمَة وهم يضربونها ويقولون: زنيتِ سرقتِ، فقلت: اللهم لا تجعل ابني مثلها، فقلتَ: اللهم اجعلني مثلها! قال: إن ذاك الرجل كان جباراً فقلتُ: اللهم لا تجعلني مثله، وإن هذه يقولون لها زنيتِ ولم تزن، وسرقتِ ولم تسرق، فقلتُ: اللهم اجعلني مثلها"[1].

إن تطاول الأغنياء وتكبرهم على الفقراء داء قديم، قال الزمخشري في: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾: (وترى أكثر الأغنياء من المسلمين وإن لم يطلقوا بنحو هذا ألسنتهم، فإن ألسنة أحوالهم ناطقة به)[2]، أقول: وهذه مبالغة، صحيح أن هذه حال كثير من أغنياء المسلمين، لكن القول أنها حال أكثرهم يحتاج إلى استقراء تام، وهو بدون ذلك مخالف لطلب السلامة.

ولو تأمل المرء في كل صور الطغيان لوجد أن مرجعها جميعاً إلى خلل التصور وفساد العقل، فمن لم يعرف قدر ربه، ولم يعرف قدر نفسه وافتقارها إلى خالقها، غره ما يجده من استغناء في الظاهر فيوقعه سوء

(١) صحيح مسلم ٤/ ١٩٧٦ (٢٥٥٠) بتصرف يسير.
(٢) الكشاف ٤/ ١٣.

فكره في الطغيان كما قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ ﴾ [العلق]، فلو ترك المرء نفسه لهواها ولم يرجع عن غيه وطغيانه فإن عاقبة الطغيان وخيمة، قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النازعات]، فلهذا لم يتأخر العلاج الرباني في سورة العلق بل جاء مذكراً ومنبهاً ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ ﴾ [العلق]، لأنه كما قال الحسن رحمه الله: من علم أنه إلى الله راجع علم أنه موقوف مسؤول فليعد لكل سؤال جواباً. وفي قصة الرجلين وغيرها من قصص الطغيان في القرآن الكريم موعظة بليغة لكل من طغى وتكبر ليعتبر بحال من سبقه من الطغاة وكيف كانت عاقبتهم في الدنيا وخيمة، فضلاً عما أعده الله في الآخرة لمن لم يرجع منهم عن غيه.

*****

ثانياً- مقالة المؤمن للكافر:

قال تعالى: ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ ﴾}

في هذه الآيات ينتقل الخطاب القرآني إلى الشق الثاني من الحوار ليبين رد المؤمن على الكافر، ليبصره بحقائق الأمور، ويزيل عن عينيه غشاوة اغتراره بنعيم الدنيا الزائل الذي أعماه عن رؤية المنعم سبحانه.

قوله: ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾ قال البقاعي: (فكأنه قيل: إن هذا لفي عداد البهائم حيث قصر النظر على الجزئيات، ولم يُجَوِّز أن يكون التمويل استدراجا)(١)، قال ابن كثير: (يقول تعالى مخبرًا عما أجابه صاحبه المؤمن، واعظًا له وزاجرًا عما هو فيه من الكفر والاغترار: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾؟ وهذا إنكار وتعظيم لما وقع فيه من جحود ربه، الذي خلقه من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، كما قال: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٨٠] أي: كيف تجحَدُون ربكم، ودلالته عليكم ظاهرة، كل أحد يعلمها، فما من أحد إلا ويعلم أنه كان معدومًا ثم وجد، وليس وجوده من نفسه ولا من المخلوقات لأنه بمثابته، فعلم إسناد إيجاده إلى خالقه، وهو الله، خالق كل شيء)(٢)، وقال الطبري: (يقول: أكفرت بمن فعل بك هذا أن يعيدك خلقاً جديداً بعدما تصير رفاتاً)(٣)، ولكفره بهذا القول وجه آخر؛ قال البقاعي: (ونَسبَته إلى العبث الذي لا يرضاه عاقل، إذ جعلت غاية الخلق البديع في هذا التطوير العظيم: الموت، الذي لو كان غاية كما زعمت لفوّت على المطيع الثواب، وعلى العاصي العقاب)(٤). وفي هذا تعريض بجهل الكافر، قال ابن عاشور: (ثم إن العلم بالخلق الأول يصرف الإنسان عن إنكار الخلق الثاني، كما قال تعالى: ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [ق]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ

---

(١) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٤٥.

(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٥٨ بتصرف واختصار.

(٣) تفسير الطبري ١٨/ ٢٣.

(٤) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٤٥ بتصرف واختصار.

أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، فكان مضمون الصلة تعريضاً بجهل المخاطب)[١]. قال أبو بكر بن الأنباري: الخَلْقُ في كلام العرب على ضربين، أحدهما: الإنشاء على مثال أبدعه، والآخر: التقدير[٢]، ويجوز حمله في الآية على المعنيين، بخلاف قوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون]، وقول عيسى عليه السلام: ﴿أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ [آل عمران: ٤٩]، وما أشبهه، فلا يحمل إلا على التقدير وما في معناه.

أما قوله: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾، فقد قال الشنقيطي: (أي خلقك مستوي الأجزاء، معتدل القامة والخلق، صحيح الأعضاء في أكمل صورة، وأحسن تقويم)[٣]، وقال أبو حيان في البحر: (ويقال للغلام إذا تمّ شبابه قد استوى. وقيل: ذكره بنعمة الله عليه في كونه رجلاً ولم يخلقه أنثى)[٤].

وقوله: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾

قال الشنقيطي: (﴿لَّٰكِنَّا۠﴾ أصله «لكن أنا» فحذفت همزة «أنا» وأدغمت نون «لكن» في نون «أنا» بعد حذف الهمزة)[٥]، قال الطبري: (يقول: أما أنا فلا أكفر بربي، ولكن أنا: معناه أنا أقول: هو الله ربي)[٦]، ويقول ابن كثير: (أي: أنا لا أقول بمقالتك، بل أعترف لله بالربوبية والوحدانية ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ أي: بل هو الله المعبود وحده لا شريك

---

(١) التحرير والتنوير ٨/ ٣٧٤ بتصرف واختصار.
(٢) تهذيب اللغة ٢/ ٤٠٩.
(٣) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٣/ ٣٤٣.
(٤) تفسير البحر المحيط لأبي حيان ٧/ ٤٥٠.
(٥) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٣/ ٣٤٤.
(٦) تفسير الطبري ١٨/ ٢٣ بتصرف واختصار.

له)(١)، قال الزمخشري: (فإن قلتَ: هو استدراك لماذا؟ قلتُ: لقوله: ﴿أَكَفَرْتَ﴾ قال لأخيه: أنت كافر بالله، لكني مؤمن موحد، كما تقول: زيد غائب، لكن عمراً حاضر)(٢)، وقال البقاعي: (﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيٓ﴾ المحسن إليَّ، في عبادتي ﴿أَحَدًا﴾ كما لم يشاركه في إحسانه إليَّ أحد، فإن الكل خلقه وعبيده، وأنَّى يكون العبد شريكاً للرب! فإني لا أرى الغنى والفقر إلا منه، وأنت -لما اعتمدت على مالك- كنت مشركاً به)(٣).

وقوله: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾

قد اختلف المفسرون في مخرج مقال المؤمن هنا؛ فحمله بعضهم على التوبيخ، وآخرون على التوجيه، قال ابن الجوزي ﷺ: (أي: وهلاّ؛ ومعنى الكلام التوبيخ)(٤)، أما البقاعي فقال: (ولما كان المؤمنون على طريق الأنبياء في إرادة الخير والإرشاد إلى سبيل النجاة وعدم الحقد على أحد بِشَرٍّ أسلَفَه وجهلٍ قدَّمَه، قال له مصرحاً بالتعليم بعد أن لوح له به فيما ذكره عن نفسه مما يجب عليه: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ ﴾ أي وهلا)، ولكل من القولين وجه، الأول على تقدير أن المؤمن أراد كسر غرور صاحبه لتماديه في غيه، من باب: ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣]، و[التحريم: ٩]، والثاني على الطمع في رجوع الكافر إلى الحق بلين الكلام. والأصل في الدعوة أن يبدأ الداعية باللين والنصح ولا ينتقل إلى غيره ما وجد إليه سبيلاً، وقد أرسل الله سبحانه موسى وهارون إلى فرعون وقد ادعى الألوهية وقال لهما: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه]، وما أيس منه موسى إلا

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٥٨.
(٢) الكشاف ٤/ ١٥.
(٣) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٤٦.
(٤) زاد المسير ٤/ ٢٢٤.

بعد أن أراه كل الآيات وأيقن بصدقه لكنه استكبر وقال: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا ﴿١٠١﴾﴾ [الإسراء]، فهنا قال له: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسراء]، فهذا إنما قاله في آخر المطاف.

قال البقاعي: (أي وهلا حين ﴿دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ﴾ ما يدل على تفويضك الأمر فيها وفي غيرها إلى الله تعالى كما تقدم الإرشاد إليه في آية ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ﴾ [الكهف: ٢٣] تاركاً للافتخار بها، ومستحضراً لأن الذي وهبكها قادر على سلبك إياها، ليقودك ذلك إلى التوحيد وعدم الشرك، فلا تفرح بها ولا بغيرها مما يفنى لأنه لا ينبغي الفرح إلا بما يؤمن عليه الزوال. ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي الذي له الأمر كله (كان)، سواء كان حاضراً أو ماضياً أو مستقبلاً، ولذلك أعراها عن الجواب، لا ما يشاؤه غيره ولا يشاؤه هو سبحانه؛ ثم علل ذلك بقوله تعالى: ﴿لَا قُوَّةَ﴾ أي لأحد على بستان وغيره ﴿إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي المتوحد بالكمال، فلا شريك له، وأفادت هذه الكلمة إثبات القوة لله وبراءة العبد منها، والتنبيه على أنه لا قدرة لأحد من الخلق إلا بتقديره، فلا يخاف من غيره، والتنبيه على فساد قول الفلاسفة في الطبائع من أنها مؤثرة بنفسها)[1]، وقال ابن كثير: (هذا تحضيض وحث على ذلك، أي: هلا إذا أعجبتك حين دخلتها حمدت الله على ما أنعم به عليك، وأعطاك من المال والولد ما لم يعطه غيرك، وقلت: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾؛ ولهذا قال بعض السلف: من أعجبه شيء من

---

(١) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٤٦.

حاله أو ماله أو ولده، فليقل: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة)[1].

وقوله: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ قال البغوي: (معناه: إن ترني أقل منك مالا وولدا فتكبرت وتعظمت علي ﴿فَعَسَىٰ رَبِّىٓ﴾ فلعل ربي ﴿أَن يُؤْتِيَنِ﴾ يعطيني في الآخرة خيراً من جنتك)[2]، وقال الشوكاني رحمه الله: (لما علمه الإيمان وتفويض الأمور إلى الله سبحانه أجابه على افتخاره بالمال والنفر فقال: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ جواب الشرط، أي: إن ترني أفقر منك، فأنا أرجو أن يرزقني الله جنة خيراً من جنتك في الدنيا أو الآخرة أو فيهما)[3]، قال الزمخشري: (والمعنى إن ترني أفقر منك فأنا أتوقع من صنع الله أن يقلب ما بي وما بك من الفقر والغنى، فيرزقني لإيماني جنة ﴿خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ ويسلبك لكفرك نعمته ويخرّب بستانك)[4]، وقال ابن عاشور: (جملة ابتدائية رَجع بها إلى مجاوبة صاحبه عن قوله: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الكهف]، وعظه فيها بأنه لا يدري أن تصير كثرة ماله إلى قلة، وأن يصير القليلُ مالُه ذا مال كثير و(عسى) للرجاء، وهو طلب الأمر القريب الحصول. ولعله أراد به الدعاء لنفسه وعلى صاحبه)[5]. وعليه يحتمل أن يكون كلام المؤمن خرج مخرج التوقع أو الدعاء، ويتعلق قوله: (خيراً من جنتك) بالدنيا أو الآخرة أو بهما. وليس

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٥٨.

(٢) تفسير معالم التنزيل للبغوي ٥/ ١٧٢.

(٣) فتح القدير ٤/ ٣٩٢ بتصرف واختصار.

(٤) الكشاف ٤/ ١٦.

(٥) التحرير والتنوير ٨/ ٣٧٥-٣٧٦ بتصرف واختصار.

دعاؤه بخراب جنته حسداً من نفسه، بدليل نصحه أن يقول عند دخولها (ما شاء الله...) الآية.

وقوله: ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾ قال ابن كثير: (على جنتك التي ظننت أنها لا تبيد)[1].

وقوله: ﴿حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾

قال ابن الجوزي: (فيه أربعة أقوال؛ أحدها: العذاب، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال قتادة والضحاك. وقال أبو صالح عن ابن عباس: ناراً من السماء. والثاني: قضاءً من الله يقضيه، قاله ابن زيد. والثالث: مراميَ من السماء، واحدها: حسبانة، قاله أبو عبيدة وابن قتيبة. قال النَّضْر ابن شُمَيل: الحُسبان: سهام يرمي بها الرجل في جوف قصبة تُنزع في القوس، ثم يرمي بعشرين منها دفعة، فعلى هذا القول يكون المعنى: ويرسل عليها مراميَ من عذابه، إما حجارة أو بَرَداً أو غيرهما مما يشاء من أنواع العذاب. والرابع: أن الحسبان: الحساب، كقوله: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥﴾ [الرحمن] أي: بحساب، فيكون المعنى: ويرسل عليها عذابَ حسابِ ما كسبت يداه، هذا قول الزجاج)[2]، ولا تعارض بينها فكلها تدور حول نزول عذاب الله ﷻ على هذا الكافر بتخريب جنته، أما تحديد نوع هذا العذاب، فالله أعلم به.

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٥٩ بتصرف واختصار.

(٢) زاد المسير ٤/ ٢٢٤-٢٢٥ بتصرف واختصار.

قال ابن عثيمين رحمه الله: (خصَّ السماء لأن ما جاء من الأرض قد يدافع، فلو جاءت أمطار وسيول جارفة أو نيران محرقة تسعى وتحرق ما أمامها، يمكن أن تُدافع، لكن ما نزل من السماء يصعب دفعه أو يتعذر)(١).

وهنا سؤال: هل يجوز أن تدعو على من ظلمك بخسارة المال؟

الجواب أنه يجوز أن يدعو المظلوم على الظالم، والأدلة كثيرة، قال تعالى حاكياً عن موسى وهارون عليهما السلام: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [يونس: ٨٨]، قال: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: ٨٩]، وأجاب الله دعوة الرجل هنا. لكن العفو والصفح أفضل لا سيما إن كان الظلم يقع على من يعفو ولا يتعداه، إلا إن كان يخشى أن يعم ظلمه أو يفتن الناس أو ينشر الكفر، أو كان يرجو من الدعاء عليه صلاح حاله وارتداعه، فإن من الناس من تصلح حاله إذا نزلت به العقوبة في الدنيا، فيرعوي ويرجع عن غيه وظلمه، يقول العلامة ابن عثيمين عن دعاء المؤمن على صاحب الجنتين: (دعا أن يؤتيه الله خيراً من جنته وأن ينْزل عليها حسباناً من السماء؛ لأنه احتقره واستذله فدعا عليه بمثل ما فعل به من الظلم، ولا حرج على الإنسان أن يَدعوَ على ظالمه بمثل ما ظلمه، ويحتمل أنه دعا عليه من أجل أن يعرف هذا المفتخر ربه ويدعَ الإعجاب بالمال، وهذا من مصلحته. فكأنه دعا أن يؤتيه الله ما يستأثر به عليه، وأن يتلف هذه الجنة حتى يعرف هذا الذي افتخر بجنته وعزة نفره أن الأمر

---

(١) تفسير سورة الكهف بتصرف واختصار.

أمر الله، فكأنه دعا عليه بما يضره لمصلحة هي أعظم. فكون الإنسان يعرف نفسه ويرجع إلى ربه خير له من أن يفخر بماله ويعتز به)[١].

وأفضل من الدعاء عليه أن يدعو له بالهداية والمغفرة وترك الظلم، فإن لم يستطع فليقل اللهم اكفنيه بما شئت.

وقوله: ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾

قال ابن عاشور: (الصعيد: وجه الأرض)[٢]. قال البقاعي: (لما كانت المصابحة بالمصيبة أنكى ما يكون، قال تعالى: ﴿فَتُصْبِحَ﴾ بعد كونها قرة للعين بما تهتز به من الأشجار والزروع ﴿صَعِيدًا زَلَقًا﴾ أي أرضاً يزلق عليها لملاستها باستئصال نباتها، فلا ينبت فيها نبات، ولا يثبت فيها قدم)[٣]، قال الطبري: (يقول: فتصبح جنتك أرضاً ملساء لا شيء فيها، قد ذهب كل ما فيها من غَرْس ونبت، وعادت خراباً بلاقع، زَلَقاً، لا يثبت في أرضها قدم لإملِساسِها، ودروس ما كان نابتاً فيها... قال ابن عباس: مثل الجُرُز قال ابن زيد: صعيداً زلقاً وصعيداً جُرُزاً واحد: ليس فيها شيء من النبات)[٤].

وقوله: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾

قال البغوي: (أي: غائراً منقطعاً ذاهباً لا تناله الأيدي ولا الدلاء، و"الغور": مصدر وضع موضع الاسم كـ: زور وعدل)[٥]، وقال الشوكاني: (وصف الماء بالمصدر مبالغة، والمعنى: أنها تصير عادمة للماء

---

(١) تفسير سورة الكهف.

(٢) التحرير والتنوير ٨/ ٣٧٦.

(٣) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٤٧.

(٤) تفسير الطبري ١٨/ ٢٥-٢٦ بتصرف واختصار.

(٥) تفسير معالم التنزيل للبغوي ٥/ ١٧٣ بتصرف واختصار.

بعد أن كانت واجدة له، وكان خلالها ذلك النهر يسقيها دائماً)[1]، وقال ابن كثير: (وهو ضد النابع الذي يطلب وجه الأرض، فالغائر يطلب أسفلها كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ۝٣٠﴾ [الملك] أي: جار وسائح)[2].

وقوله: ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾

قال البغوي: (يعني: إن طلبته لم تجده)[3]، وقال الشوكاني: (أي: لن تستطيع طلب الماء الغائر فضلاً عن وجوده وردّه ولا تقدر عليه بحيلة من الحيل، وقيل: المعنى: فلن تستطيع طلب غيره عوضاً عنه)[4]. وبهذه العبارات التي قالها المؤمن لصاحبه الكافر ينتهي نقل القرآن الكريم للحوار بينهما، ولا يبعد أن يكون الحوار قد انقطع هاهنا ورجع كل من الرجلين على الحال التي بدأ بها الحوار، فبقي الكافر على كفره واغتراره بماله ورهطه، وبقي المؤمن على توحيده واعتزازه بإيمانه ويقينه، وقيل إن الكافر ندم وراجع إسلامه لقوله: (ياليتني لم أشرك)، وله وجه يأتي.

---

(١) فتح القدير ٤/ ٣٩٣.
(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٥٩.
(٣) تفسير معالم التنزيل للبغوي ٥/ ١٧٣.
(٤) فتح القدير ٤/ ٣٩٣.

الحوار بين إظهار الحق والتفريط فيه

في الآيات الكريمة نموذج للحوار بين أهل الإيمان وأهل الكفر والطغيان، والمتأمل لكتاب الله ﷻ يجده مليئاً بذكر حوارات أهل الحق من النبيين والمؤمنين لأهل الباطل، مما يدل على أن الحوار منهج رباني.

لقد وقع هذا النوع من الحوار منذ أرسل الله ﷻ أول رسله إلى بني آدم بعد أن غيروا الملة الأولى ووقعوا في الشرك، حيث بعث إليهم نوحاً عليه السلام فحاورهم ألف سنة إلاّ خمسين عاماً، ولكثرة ما حاورهم قالوا له: ﴿يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [هود]، وعلى دربه سار هود وصالح ولوط وشعيب وغيرهم من الأنبياء، أما إبراهيم فقد حاور أباه وقومه والنمرود وحاور ابنه إسماعيل عليه السلام، وموسى ﷺ حاور فرعون وحاور قومه، وحاور عيسى عليه السلام بني إسرائيل وحاور الحواريين، أما نبينا محمد ﷺ فسيرته مليئة بحوار المشركين وأهل الكتاب والمنافقين، بل مع الصحابة وأهل بيته الكرام، وكله في القرآن مسطور.

وإذا كان الحوار منهجاً ربانياً، فإنه كذلك ضرورة بشرية لا يستغني عنها مجتمع مهما صغر، فالرجل وزوجه يتحاوران، والأب مع ابنه يتحاوران، بل إن الإنسان لا غنى له عن الحوار مع نفسه التي بين جنبيه!

لقد أرسى القرآن أسس الحوار ومبادئه مع كل أصناف البشر، سواء كانوا مسلمين أو مشركين أو أهل كتاب، قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل].

وإذا كان الحوار مع أصناف المخالفين لدعوة الأنبياء منهجاً ربانياً، فإنه منضبط بضوابط ربانية لا يحق لأتباع الأنبياء الخروج عنها إن كانوا صادقين في دعوى الاتباع، ومن هذه الضوابط:

١ - تحديد الهدف الرئيس من الحوار: وهو أول هذه الضوابط وأهمها على الإطلاق، ولا أجل عند أهل الحق من الاجتماع على توحيد الحق كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران]. ثم يأتي بعد ذلك مبدأ

٢- عدم تمييع الحق أو المزج بينه وبين الباطل: كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [البقرة]، وقال: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾ [آل عمران]، ولهذا أمر الله نبيه أن يعلنها في حواره مع الكافرين: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون]، وذلك في مواجهة رغبة الكافرين في التمييع ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾ [القلم].

٣- ضبط مدة الحوار: فهذا الحوار لا يكون أبد الدهر مع المخالف المعين، لأنه عند أهل الحق ليس مطلوباً لذاته لكنه وسيلة لغاية، وهذا واضح في قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، فإن تولوا فهاهنا تكون المفاصلة، فنحن مسلمون، لسنا خليطاً من مسلمين ونصارى ويهود وبوذيين ومجوس، فلهؤلاء دينهم ولنا دين، ولئن جمعتنا البشرية والبلدان

فقد فرقتنا العقائد والأديان، فنعطي لما جمعنا حقه، ونعطي لما فرقنا حقه كذلك، ومن أعظم ما يرسم معالم ذلك سورة الفرقان.

٤- إعلان نتيجة الحوار: فعندما لا يصل الحوار إلى الغاية المرجوة منه فلا بد من الوضوح والخروج بموقف قوي وبيان ظاهر لا يحتمل التأويل كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ [آل عمران]، وأيضاً: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [آل عمران]، ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [آل عمران]، وهذا عين ما فعله المؤمن في حواره مع صاحب الجنتين، قال السعدي: (لما رأى صاحبُه المؤمن حالَه واستمراره على كفره، قال مخبراً عن نفسه، على وجه الشكر لربه، والإعلان بدينه، عند ورود المجادَلات والشبه: ﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿٣٨﴾ ﴾ فأقر بربوبيته لربه، وانفراده فيها، والتزم طاعته وعبادته، وأنه لا يشرك به أحداً من المخلوقين، ثم أخبره أن نعمة الله عليه بالإيمان، ولو مع قلة ماله وولده، هي النعمة الحقيقية، وما عداها معرض للزوال والعقوبة والنكال، فقال: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ﴿٤١﴾ ﴾ أي: قال للكافر صاحبُه المؤمن: أنت - وإن فخرت بكثرة مالك وولدك، ورأيتني أقل منك مالاً وولداً- فإن ما

عند الله خير وأبقى، وما يرجى من خيره وإحسانه أفضل من جميع الدنيا التي يتنافس فيها المتنافسون)[١].

٥- اللين مع الصدع بالحق: لقد أرشد القرآن الكريم في غير آية إلى المجادلة بالتي هي أحسن، وإلى إلانة القول حتى مع أشد الناس كفراً وعتواً؛ كفرعون الذي نازع الله ﷻ الربوبية، فقال لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه]، مع أنه سبق في علمه أنه لن يتذكر ولن يخشى لكنه سبحانه يرشد المؤمنين إلى المنهج الرباني، ومع هذا الإرشاد فإلانة القول لم تمنع من الصدع بالحق وإن كان مُرّاً قاسياً على فرعون: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾ [طه]، ثم لمّا ظهر لهما عناده وتكذيبه لم يعد هناك وجه لإلانة القول: ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسراء] فهو يقول لفرعون: أنت تكذب في دعواك وأنا على يقين من هلاكك لعتوك وطغيانك. وهي سنة كونية لكل طاغ متكبر، ومن كان كذلك فلا حوار معه بالحسنى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

ومع تقرير ما سبق من كون الحوار منهجاً ربانياً، إلا أن من أخطر ما تواجهه الأمة في موضوع الحوار أن يُفرض عليها ثم يتصدى له من أبنائها من يشعر بالضعف والهلع، فيدخل الحوار على خلفية ضعف الأمة وقلة حيلتها متلبساً بهزيمة نفسية، وقد وطن نفسه على قبول ما يجود به المحاور، أو على التنازل؛ بدعوى المصلحة، أو الوسطية؛ ويغيب عن هؤلاء البون الشاسع بين استعلاء فرعون وطغيانه، وضعف قوم موسى

---

(١) تفسير السعدي ١/ ٤٧٧ بتصرف واختصار.

وقلة حيلتهم، ومع ذلك قال الله ﷻ لموسى وهارون: ﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [القصص]، قال الطبري رحمه الله: "أي بحُجَّتِنا"، وهذه هي حقيقة الانتصار، انتصار المبادئ، لا بقاء الأبدان مع الذل والهوان.

فعلى أهل الحق أن يعتزوا به ويعلموا أنهم يأوون إلى ركن شديد، وأن ما يظهر من ضعف في الأمة مما يغري أعداءها بالحصول على تنازلات في جوانب شتى، لا يعني أن الأمة لا تملك من عناصر القوة ما تقوم به في وجه عدوها ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران]، وهذا ما أدركه أعداؤها في ميادين الجهاد، مما جعلهم يسعون للحوار بزخم غير مسبوق، ليحصلوا في ميدان الحوار على ما عجزوا عنه في ميدان القتال. فعلى من يتصدى للحوار أن يحذر الوقوع في حبال التنازلات، وليتذكر ما روي عن الإمام أحمد رحمه الله يوم نصحه ناصح أن يقول بخلق القرآن مداراة، بحجة أن الله ﷻ يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، فأشار الإمام إلى الجموع الغفيرة التي تحمل الصحف والأقلام لتكتب عنه ما يقول ثم قال: أأضل هؤلاء كلهم؟!

وما دام الأمر كذلك: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور]، وليجعلوا نصب أعينهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّـٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَـٰبِ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [البقرة]، نعم، فقد حمَّل الله ﷻ العلماء أمانة عظيمة: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا﴾ [آل عمران: ١٨٧].

إن من أعظم ما بين الله في كتابه أصول الحوار، وأسلوبه، ومنهجه، فالدعوى التي يرددها البعض أن الإسلام لا يقبل الحوار دعوى فارغة لا

تثبت، ولكن عندما تخلط الأوراق، ويلبس على الناس بجعل الحوار غاية ومرادفاً لقبول الآخر مهما كان فالأمر مختلف، فالإسلام مع الحوار البناء، وليس مع تمييع المفاهيم وخلط الأوراق وتضييع معالم الولاء البراء، فليس شيء من ذلك من الإسلام في شيء، رضي من رضي وأبى من أبى.

الفقرة الثالثة - العاقبة والمآل:

قال تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾

قوله: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾

قال ابن عاشور: (الإحاطة: الأخذ من كل جانب، مأخوذة من إحاطة العدو بالقوم إذا غزاهم)[(١)]، قال ابن كثير: ([أي] بأمواله، أو بثماره على القول الآخر. والمقصود أنه وقع بهذا الكافر ما كان يحذر، مما خَوَّفه به المؤمن من إرسال الحسبان على جنته، التي اغتر بها وألهته عن الله ﷻ)[(٢)]، قال البقاعي: (ولما كان من المعلوم أن هذا المؤمن المخلص بعين الرضى، كان من المعلوم أن التقدير: فاستجيب لهذا المؤمن، أو: فحقق له ما توقعه فخيب ظن المشرك، فعطف عليه: ﴿وَأُحِيطَ﴾ أي أوقعت الإحاطة بالهلاك، بني للمفعول لأن الفكر في إحاطة الهلاك من غير نظر إلى فاعل، وللدلالة على سهولته ﴿بِثَمَرِهِۦ﴾ أي المشرك، كله فاستؤصل ما في السهل منه وما في الجبل، وما يصبر منه على البرد والحر وما لا يصبر)[(٣)]، وقال السعدي: (الإحاطة بالثمر يستلزم تلف جميع أشجاره، وثماره، وزرعه)[(٤)].

---

(١) التحرير والتنوير ٨/ ٣٧٧.
(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٦٠.
(٣) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٤٨ بتصرف واختصار.
(٤) تفسير السعدي ١/ ٤٧٧.

قال ابن عاشور: (وإنما لم تعطف جملة ﴿وَأُحِيطَ﴾ بفاء التفريع على رجاء صاحبه المؤمن إذ لم يتعلق المقام بالإشارة إلى المؤمن، وإنما المهم التنبيه على أن ذلك حادث حل بالكافر عقاباً له على كفره، ليعلم السامعون أن ذلك جزاء أمثاله، وأن ليس بخصوصية لدعوة المؤمن)(١).

وقوله: ﴿فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ﴾ قال ابن الجوزي: (أي: يضرب بيد على يد، وهذا فعل النادم)(٢)، قال الشوكاني: (أي: يضرب إحدى يديه على الأخرى وهو كناية عن الندم، كأنه قيل: فأصبح يندم)(٣).

وقوله: ﴿عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ قال ابن الجوزي: (أي: في جنته، و«في» هاهنا بمعنى «على»)(٤)، وقال الشوكاني: (أي: في عمارتها وإصلاحها من الأموال)(٥)، وقال السعدي: (أي على كثرة نفقاته الدنيوية عليها، حيث اضمحلت وتلاشت، فلم يبق لها عوض)(٦).

قوله: ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾

قال ابن الجوزي: (﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ أي: خالية ساقطة ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ والعُروش: السقوف، والمعنى: أن حيطانها قائمة والسقوف قد تهدَّمت فصارت في قرارها، فصارت الحيطان كأنها على السقوف)(٧)، قال البقاعي: (أي ساقطة مع الخلو ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي دعائمها التي كانت

---

(١) التحرير والتنوير ٨/ ٣٧٧ بتصرف واختصار.
(٢) زاد المسير ٤/ ٢٢٦.
(٣) فتح القدير ٤/ ٣٩٣.
(٤) زاد المسير ٤/ ٢٢٦.
(٥) فتح القدير ٤/ ٣٩٣.
(٦) تفسير السعدي ١/ ٤٧٧.
(٧) زاد المسير ٤/ ٢٢٦.

تحملها فسقطت على الأرض وسقطت هي فوقها)(١)، قال الشوكاني: (قيل: وتخصيص ماله عروش بالذكر دون النخل والزرع لأنه الأصل، وأيضاً إهلاكها مغن عن ذكر إهلاك الباقي)(٢)، قال ابن عاشور: (وهذا التركيب أرسله القرآن مثلاً للخرَاب التام الذي هو سقوط سقوف البناء وجدرانه. وتقدم في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [سورة البقرة:٢٥٩]... ثم جعل ذلك مثلاً لكل هلاك تام لا تبقى معه بقية من الشيء الهالك)(٣).

قوله: ﴿وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ اتفق العلماء على أن ذلك خرج من الكافر تحسرا وندما، لكن اختلفوا، هل كان في الدنيا أم الآخرة، وإن كان في الدنيا فهل كان توبة تنفع صاحبها، أم ندم على ضياع المال فحسب.

قال الطبري: (يتمنى هذا الكافر بعد ما أصيب بجنته أن لم يشرك بربه أحداً، يعني: هذا الكافر إذا هلك وزالت عنه دنياه، ودّ أنه لم يكن كفر بالله ولا أشرك به شيئاً)(٤)، فهو يذهب إلى أن الندم كان بعد موته أي مات على كفره، أما البقاعي فذهب إلى أنه كان في الدنيا لكنه لم يكن توبة؛ قال: (﴿وَيَقُولُ﴾ تمنياً لرد ما فات لحيرته وذهول عقله ودهشته: ﴿يَٰلَيْتَنِى﴾ تمنياً لاعتماده على الله من غير إشراك بالاعتماد على الفاني ﴿لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ كما قال له صاحبه، فندم حيث لم ينفعه الندم على ما فرط في الماضي لأجل ما فاته من الدنيا، لا حرصاً على الإيمان لحصول الفوز في العقبى، لقصور

---

(١) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٤٨.
(٢) فتح القدير ٤/ ٣٩٣.
(٣) التحرير والتنوير ٨/ ٣٧٧.
(٤) تفسير الطبري ١٨/ ٢٧ بتصرف واختصار.

عقله ووقوفه مع المحسوسات)(١). أما ابن عاشور فيرى أن الندم كان توبة في الدنيا جاءت متأخرة فلم تمنعه من العذاب الدنيوي إلا أنها أنجته من الشرك، قال: (وجملة ﴿وَيَقُولُ﴾ حكاية لتندمه على ما فرط منه حين لا ينفعه الندم بعد حلول العذاب. والمضارع للدلالة على تكرر ذلك منه. وحرف النداء للتلهف. و(ليتني) تمنٍ مراد به التندم وهذا ندم على الإشراك فيما مضى، وهو يؤذن بأنه آمن حينئذٍ)(٢)، قال السعدي رحمه الله: (ولا يستبعد من رحمة الله ولطفه، أن صاحب هذه الجنة تحسنت حاله، ورزقه الله الإنابة وراجع رشده، وذهب طغيانه، بدليل أنه أظهر الندم على شركه، وأن الله أذهب عنه ما يطغيه، وعاقبه في الدنيا، وإذا أراد الله بعبد خيراً عجل له العقوبة في الدنيا. وفضل الله لا تحيط به الأوهام والعقول، ولا ينكره إلا ظالم جهول)(٣). وقد توقف بعض المفسرين في الأمر، قال الزمخشري: (تذكر موعظة أخيه فعلم أنه أُتي من جهة شركه وطغيانه، فتمنى لو لم يكن مشركاً حتى لا يهلك الله بستانه. ويجوز أن يكون توبة من الشرك، وندماً، ودخولاً في الإيمان)(٤)، وقال الشوكاني: (تمنى عند مشاهدته لهلاك جنته بأنه لم يشرك بالله لتسلم جنته، أو كان هذا منه على حقيقته لا لما فاته من الغرض الدنيوي، بل لقصد التوبة من الشرك والندم على ما فرط منه)(٥)، والذي أميل إليه قول الشيخ ابن سعدي رحمه الله.

(١) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٤٨ بتصرف واختصار.
(٢) التحرير والتنوير ٨/ ٣٧٧ بتصرف واختصار.
(٣) تفسير السعدي ١/ ٤٧٧ بتصرف واختصار.
(٤) الكشاف ٤/ ١٧ بتصرف واختصار.
(٥) فتح القدير ٤/ ٣٩٣ بتصرف واختصار.

بالشكر تدوم النعم

في الآيات درس عظيم وموعظة بليغة لمن آتاه الله شيئاً من النعم، ألا تذهله عن موليها فينسى شكره، وألا يركن إلى الأسباب المادية فيحسب أنها تؤديه إلى ما يريد لا محالة، فالأمر كله بيد الله، إن شاء أثمرت الأسباب وآتت أكلها، وإن شاء عطلها فلم تغن عن صاحبها شيئاً.

إن النفوس السوية قد جبلت على حب من يحسن إليها وعلى التعلق به، ولا أحد أكثر إحساناً وأشمل من الله ﷻ، فنعمه سبحانه وتعالى واصلة للخلق جميعاً، فكان لزاماً على المؤمنين أن يشكروا ربهم على ما أعطاهم، لأن النفوس الكريمة تقابل من يحسن إليها بالشكر.

وإذا كان شكر الله سبحانه وتعالى على ما أنعم فرض لازم، فإن نفع هذا الشكر يعود على الشاكرين، إذ الله ﷻ غني عن الخلق وعن شكرهم وعبادتهم، قال تعالى: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ١٢﴾ [لقمان]، ثم إنه سبحانه وتعالى يجازي على الشكر بالمزيد، قال ﷻ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ٧﴾ [إبراهيم]، وهذا أيضاً من النعم! فلهذا قيل: كيف نشكره وشكره يستوجب منا الشكر؟ أي أننا مهما قمنا بالشكر فلن نشكره سبحانه حق شكره. وكونه سبحانه يزيد الشاكرين، يعني أن الشكر يحفظ النعم ويبقيها، لذا قيل: الشكر قيد النعم الموجودة، وصيد النعم المفقودة.

قال ابن القيم عن الشكر: (يكون بالقلب خضوعاً واستكانة، وباللسان ثناء واعترافاً، وبالجوارح طاعة وانقياداً)[1]، فمن أتى بهذه

---

(١) مدارج السالكين ٢/ ٢٤٦.

الثلاثة كان شاكراً ظاهراً وباطناً، فله بإذن الله دوام النعم وزيادتها، ومن أخل بواحد منها كان أمره بين النفاق وبين ترك واجب الشكر، فلا يؤمن عليه استلاب النعم. إن كفران النعم قد يكون بعدم مشاهدتها ابتداء، فلا يرى العبد ما أنعم الله عليه من نعمة الإيجاد، ومن نعمة الإمداد؛ بالصحة والعافية، والمال والولد، والمنزل والمركب، وغير ذلك، بل يسخط ما هو فيه ويتطلع دوماً وأبداً لمن هو فوقه في الدنيا. وقد يكون بعدم مشاهدة المنعِم كما كانت حال صاحب الجنتين، وكما هي حال غيره من الكفار، وكل هذا مؤذن بزوال النعم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَٰزِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ [سبأ].

إننا في هذه البلاد أحوج ما نكون إلى شكر الله على نعمه، ليرضى عنا أولاً، وليحفظ لنا نعمه ثانياً، وأعظم هذه النعم وأجلها هي نعمة التوحيد، فبعد أن كان الناس في هذه الجزيرة يعبدون الحجارة والأشجار والجن وغيرها، بعث الله محمداً ﷺ فاتبعوه، فأخرجهم الله من الظلمات إلى النور، ومن رجس الشرك إلى طهارة التوحيد، ثم تطاول الزمان على فئام منهم فرجعوا إلى جاهلية ظلماء، فتعلق بعضهم بالقبور، وآخرون بالأشجار، وغيرهم بالجن، وعم الجهل وطم، حتى أذن الله بظهور دعوة الإمام المجدد رحمه الله لينقذ سبحانه الناس ثانية من الشرك والجهل بنور التوحيد والعلم، فهذا من أعظم النعم ويستوجب أعلى درجات الشكر، لأن الشكر كما قال ابن القيم شكران: (شكر العامة؛ على المطعم والمشرب

والملبس وقوت الأبدان، وشكر الخاصة؛ على التوحيد والإيمان وقوت القلوب)[1].

ومن نعم الله علينا وجود الحرمين في بلادنا، وما أفاء علينا من الأرزاق والأموال، فكل هذا مما يحتاج إلى شكر الله ﷻ، لأنه فرض عين كما أسلفنا، ولكي يحفظ علينا نعمه من الزوال، وإلا فليس لأحد عند الله كرامة ألا يسلبه ما وهبه إن هو أعرض عن ذكره وشكره.

ومن النعم العظيمة ما أكرمنا به من الأمان، ولهذا ينبغي أن نتعاون جميعاً في وقف كل ما يعرض هذه النعمة للزوال، ليس فقط باستخدام القوة في وجه من يفجر ويعتدي، فهذا الحل ينبغي أن يكون كالكي؛ آخر الطب، وإنما بالاستمرار في برامج المناصحة وبتوعية الشباب ومناقشتهم وتوضيح الحقائق الشرعية بالأدلة والبراهين الساطعة.

هذا، والأمن لا يقتصر على الأجساد، بل ربما كان أعظم منه أمن العقول والقلوب، فإذا كان ضياع الأول يتلف الأجساد ويزهق الأرواح أو يدمر الأبنية فإن أثره ينحصر في الدنيا، وأما ضياع الثاني فإنه مؤذن بخراب البلاد في الدنيا بفساد الأخلاق وضياع الدين الذي يحفظ المجتمعات، ثم هو مؤذن بخراب الآخرة كذلك، وهذا هو الخسران المبين.

إن من أعظم المنكرات اليوم أن الذين يسبون الله ويتطاولون عليه أو يستهزؤون بشعائره، والذين يسبون الصحابة ويكفرونهم، صاروا في مأمن، ويقدمون على أفعالهم دون وجل أو خجل لأنه لا رقيب عليهم،

---

(١) مدارج السالكين ٢/ ٢٤٥.

وهؤلاء يخربون على الناس دينهم فهم أخطر من أصحاب التفجيرات الذين يخربون على الناس دنياهم، فالتصدي لهؤلاء أكثر أهمية بلا ريب.

فهذه النعم تحتاج إلى شكر حقيقي، أما أن نركن إلى كلمات نرددها بألسنتنا؛ نحن أهل التوحيد، نحن أهل الحرمين، نحن ونحن، دون استكمال أنواع الشكر، فهذا استدراج مؤذن بتغير الحال والعياذ بالله.

إن من تأمل الأحوال ليوازن بين ما كانت عليه قبل عشرين سنة وما هي عليه اليوم يهوله ما يجد من وتغيرات، فما كان بالأمس من أشد المحظورات، وما كان خطوطاً حمراء لا يمكن الاقتراب منها فضلاً عن تجاوزها، صار اليوم كلأ مباحاً للعلمانيين والليبراليين وأشباههم ليطعنوا فيه ويشككوا، وما كنا نشتكي منه في تلك الأيام ونحاربه من صور المنكرات، أصبح شيئاً يسيراً وهيناً بالنظر لما يتفشى يوماً بعد يوم.

فينبغي لنا جميعاً أن نراجع أنفسنا لنعرف لم سلبنا بعض تلك النعم، ولا نحمل غيرنا مسؤولية ذلك، قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥﴾ [آل عمران]، فلا بد من المراجعة والمصارحة والإصلاح والتصحيح، وإلا فنخشى أن يحل بنا ما حل بصاحب القريتين، وما كان منتصرا.

قوله: ﴿وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ٤٣﴾

قال ابن كثير في معنى (فئة): (أي: عشيرة أو ولد، كما افتخر بهم واستعز)(١)، وقال الشوكاني: (﴿مُنتَصِرًا﴾ أي: ممتنعاً بقوته عن إهلاك الله

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٦٠.

لجنته، وانتقامه منه)[١]، وقال البغوي في (منتصراً): (قيل: لا يقدر على رد ما ذهب عنه)[٢]. قال السعدي: (أي: لما نزل العذاب بجنته، ذهب عنه ما كان يفتخر به من قوله لصاحبه: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ فلم يدفعوا عنه من العذاب شيئاً، أشد ما كان إليهم حاجة، وما كان بنفسه منتصراً، وكيف ينتصر، أي: يكون له أنصار على قضاء الله وقدره الذي إذا أمضاه لو اجتمع أهل السماء والأرض على إزالة شيء منه، لم يقدروا؟!)[٣].

وقوله: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَـٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾

قال الشنقيطي رحمه الله: (﴿هُنَالِكَ﴾ قال بعض العلماء: هو متعلق بما بعده وقال بعضهم: هو متعلق بما قبله، فعلى القول الأول أي الولاية كائنة هنالك، وعلى الثاني أي لم يكن انتصاره واقعاً هنالك)[٤]. وقد اختلفوا في المراد ب (هنالك) على قولين؛ الأول: في الآخرة، والثاني: في الحال التي وقع فيها الإهلاك، وقرئ (الوَلاية) بفتح الواو، وكسرها، كما قرئ (الحق) بكسر القاف ورفعها. فعلى قراءة (الوَلاية) بالفتح، وعلى كون المراد بـ (هنالك) هو الثاني قال الألوسي: (أي النصرة له تعالى وحده لا يقدر عليها أحد، فالجملة تقرير لقوله: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ﴾ [الكهف: ٤٣] إلخ، أو ينصر فيها أولياءه المؤمنين على الكفرة، كما نصر سبحانه بما فعل بالكافر أخاه المؤمن، فالولاية بمعنى النصرة على الوجهين، إلا أنها على الأول مطلقة أو مقيدة بالمضطر ومن وقع به الهلاك، وعلى هذا مقيدة

---

(١) فتح القدير ٤/ ٣٩٤.

(٢) تفسير معالم التنزيل للبغوي ٥/ ١٧٣.

(٣) تفسير السعدي ١/ ٤٧٧ بتصرف يسير.

(٤) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٣/ ٣٤٦ بتصرف واختصار.

بغير المضطر وهم المؤمنون، ويعضد ذلك قوله: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي عاقبه لأوليائه، ووجهه أن الآية ختمت بحال الأولياء فيناسب أن يكون ابتداؤها كذلك)(١)، واختار الشنقيطي أن الولاية بالفتح: الموالاة والصلة ويكون في معنى الآية وجهان، قال: (الأول: أن ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ﴾ أي في ذلك المقام، وتلك الحال تكون الولاية من كل أحد لله، لأن الكافر إذا رأى العذاب رجع إلى الله. وعلى هذا المعنى فالآية كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [غافر]، وقوله في فرعون: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس] ونحوها. الوجه الثاني: أن الولاية في مثل ذلك المقام وتلك الحال لله وحده، فيوالي فيه المسلمين ولاية رحمة، كما في قوله: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧] الآية، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ [محمد]. وله على الكافرين ولاية الملك والقهر)(٢). وهذا الأخير قريب مما ذكره الألوسي من نصر المؤمنين على الكافرين، وأما الوجه الأول فمنتقض بحال كثير من الكفرة ممن يحل بهم العذاب ولا يرجعون بل يتمادون في غيهم، وهذا مشاهد، كقوله تعالى عن قوم فرعون: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾[الأعراف].

أما أبو حيان فقال: (والحقيقة في هنالك أن يكون ظرف مكان للبعد، فالظاهر أنه أشير به لدار الآخرة، أي في تلك الدار الولاية لله كقوله:

---

(١) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٢٦٥ بتصرف واختصار.
(٢) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٣/ ٣٤٦ بتصرف واختصار.

﴿لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ قيل: لما نفى عنه الفئة الناصرة في الدنيا نفى عنه أن ينتصر في الآخرة، فقال: ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ۝ هُنَالِكَ﴾ أي في الدار الآخرة، فيكون ﴿هُنَالِكَ﴾ معمولاً لقوله: ﴿مُنتَصِرًا﴾)(١).

وأما على قراءة الكسر وعلى كون هنالك تعني في ذلك المقام فقد قال الألوسي: (الولاية بكسر الواو، وهي الولاية بالفتح بمعنى واحد عند بعض أهل اللغة، كالوِكالة والوَكالة والوِصاية والوَصاية، وقال الزمخشري: هي بالفتح النصرة والتولي، وبالكسر السلطان والملك؛ أي هنالك السلطان له ﷻ، لا يُغلَب ولا يُمتَنع منه ولا يُعبَد غيره كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، فتكون الجملة تنبيهاً على أن قوله: ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ﴾ [الكهف: ٤٢] إلخ كان عن اضطرار وجزع عما دهاه، ولم يكن عن ندم وتوبة)(٢)، أما قوله ولا يعبد غيره فشبيه بالوجه الأول في كلام الشنقيطي وسبقت مناقشته.

أما الطبري رحمه الله فقال: (﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ﴾: ثَمَّ وذلك حين حلّ عذاب الله بصاحب الجنتين في القيامة. واختلفت القرّاء في (الولاية) وأولى القراءتين بكسر الواو، وذلك أن الله عقب ذلك خبره عن مُلكه وسلطانه، وأن من أحلّ به نقمته يوم القيامة فلا ناصر له يومئذ، فإتباع ذلك الخبر عن انفراده بالسلطان أولى من الخبر عن الموالاة التي لم يجر لها ذكر)(٣).

قال الطبري: (واختلفوا أيضا في قراءة قوله (الحقّ) فقرأ ذلك عامّة القرّاء خفضاً، على أنه من نعت الله، والمعنى: هنالك الولاية لله الحقِّ

---

(١) تفسير البحر المحيط لأبي حيان ٧/ ٤٥٤.
(٢) تفسير الألوسي ١١/ ٢٦٥.
(٣) تفسير الطبري ١٨/ ٢٩ بتصرف واختصار.

ألوهته، لا الباطل بطول ألوهة آلهة المشركين، وقرأ بعض أهل البصرة ومتأخري الكوفيين (لله الحَقُّ) برفع الحقّ على أنه من نعت الولاية، ومعناه: هنالك الولاية اَلحقُّ -لا الباطل- لله وحده لا شريك له. وأولى القراءتين قراءة من قرأه خفضاً على أنه من نعت الله، وأن معناه ما وصفت)[١]. قال ابن الجوزي: (فإن قيل: لم نُعتت الولاية وهي مؤنثة بالحقِّ وهو مصدر؟ فعنه جوابان ذكرهما ابن الأنباري. أحدهما: أن تأنيثها ليس حقيقياً، فحُملت على معنى النصر؛ والتقدير: هنالك النصر لله الحقُّ ... والثاني: أن الحقَّ مصدر يستوي في لفظه المذكَّر والمؤنث والاثنان والجمع، فيقال: قولك حق، وكلمتك حق، وأقوالكم حق. ويجوز ارتفاع الحق على المدح للولاية، وعلى المدح لله تعالى بإضمار «هو»)[٢].

وقوله: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾

قال ابن عاشور: (﴿خَيْرٌ﴾ يجوز أن يكون بمعنى أخْيَر، فيكون التفضيل في الخيرية على ثواب غيره وعُقب غيره، فإن ما يأتي من ثواب غيره إما زائف مفضٍ إلى ضر وإما زائل، وثواب الله خالصٌ دائم وكذلك عقباه. ويجوز أن يكون ﴿خَيْرٌ﴾ اسماً ضد الشر، أي هو الذي ثوابه وعُقبه خير وما سواه فهو شر فكان ما ناله ذلك المشرك الجبار من عطاء إنما ناله بمساع وأسباب ظاهرية ولم ينله بعناية من الله تعالى وكرامة فلم يكن خيراً وكانت عاقبته شراً عليه)[٣]، وقال ابن الجوزي: (﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ أي: هو أفضل ثواباً ممن يُرجى ثوابه، وهذا على تقدير أنه لو كان غيره يثيب لكان

---

(١) تفسير الطبري ١٥/ ٢٧١ بتصرف واختصار.

(٢) زاد المسير ٤/ ٢٢٦.

(٣) التحرير والتنوير ٨/ ٣٧٩ بتصرف واختصار.

ثوابه أفضل)[1]، وقال الطبري: (خير للمنيبين في العاجل والآجل ثواباً)[2].

قال السعدي رحمه الله: (﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ في تلك الحال التي أجرى الله فيها العقوبة على من طغى وآثر الدنيا، والكرامة لمن آمن وعمل صالحاً وشكر ودعا غيره، تبين وتوضح أن الولاية لله الحق، فمن كان مؤمناً به تقياً، كان له ولياً، فأكرمه بأنواع الكرامات، ودفع عنه الشرور والمثلات، ومن لم يؤمن بربه ويتولاه، خسر دينه ودنياه)[3].

---

(١) زاد المسير ٤/ ٢٢٦.

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٢٩.

(٣) تفسير السعدي ١/ ٤٧٨ بتصرف واختصار.

الفتنة في المال والولد من خلال قصة صاحب الجنتين

تعرضت الآيات السابقة لثاني الفتن التي تناولتها السورة، فتنة المال والولد، والإنسان بفطرته يُحبُّ المالَ، لأنه عصب الحياة، لا ينال رغائبها إلا عبره، ويحب عياله فلذات الأكباد، وذلك ما قرّره سبحانه في نحو قوله: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾، وكذا في قوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران]، ونلحظ أنّ الآيتين بعد بيان الحقيقة وأن هذا من طبع البشر، ختمتا بتنبيه أنّ ذلك متاع الحياة الدنيا وزينتها، وأن على الإنسان أن يطمح ببصره إلى الآخرة!

ولكن ما الحدُّ الفاصل بين الأمرين؟

تعرض قصة الرجلين والجنّتين، إجابةً من خلال عرض (**نموذجين واضحين للنفس المعتزّة بزينة الحياة، والنفس المعتزة بالله**، وكلاهما نموذجٌ إنساني لطائفة من الناس: صاحب الجنتين نموذج للرجل الثري، الذي تذهله الثروة، وتبطره النعمة، فينسى القوة الكبرى[1] التي تسيطر على أقدار الناس والحياة، ويحسب هذه النعمة خالدة لا تفنى، فلن تخذله القوة ولا الجاه، وصاحبه نموذج للرجل المؤمن المعتز بإيمانه، الذاكر لربه، يرى النعمة دليلاً على المنعم، موجبة لحمده وذكره، لا لجحوده وكفره)[2].

---

(١) هذا التعبير ونحوه كثيراً ما يذكره كناية عن الله، وهو تعبير غير شرعي، ولو استخدم الألفاظ الشرعية لوجد فيها غنية، والرجل أديب يتوسع في بعض الألفاظ فليتنبه لهذا.
(٢) في ظلال القرآن: ٥/ ٦٤.

والفارق بين النموذجين، هو الفاصل بين ذينك الحدّين!

(وكأن الله سبحانه يخبرنا أن أموالنا وأولادنا زينة الحياة الدنيا، ولكن إذا شغلتنا عن حب الله سبحانه وتعالى انقلبت إلى فتنة)(١).

والفتنة طريق ذو اتّجاهين، إما قادك إلى الفوز والفلاح والعتق من النيران، إذا كان موقفك من النعمة المسداة إليك هو الشكر والعرفان، وإما قادك إلى الخيبة والخسران إذا كان موقفك هو الجحود والنكران!

صاحب الجنّتين المثمرتين من الكروم، المحفوفتين بسياجٍ من النخيل، تتوسطهما الزروع ويتفجر بينهما نهرٌ، ثم كان له من الولد ما يفخر بكثرته: أنا أكثر منك مالاً وولداً، وقد أُعطي هذا العطاء، ما كان موقفه؟ تملكه الغرور، وظنّ مثل ما ظنَّ قارون أنّه إنّما أوتيها بسبب ما عنده من مكانةٍ وجاهٍ، فحذّره المؤمن وأنذره عقاب الآخرة، فلم يرعوِ، وظنَّ أنّه إذا كان ثمّة آخرة، فإنّ مكانته ستظلّ محفوظةً!

فصاحب الجنّتين لا يعرف البلاء والاختبار، كطالبٍ في الامتحان، عنده معلومات لم يكتبها في الإجابة، لأنّه لم يعلم بوجود اختبار أصلاً، فلا شكّ أنّه من الخاسرين! وبالمقابل فإن صاحبه يرسم نموذجاً إيجابيّاً للنّفس المؤمنة التي لا تبالي بالمال والنّفر، بل تقتبس من إيمانها صبراً على المشقة والحاجة، وتستمدّ منه قوّة على الاعتزاز بالنّفس في وجه الكافر بالنعمة، والاستعلاء عليه بنعمة الإيمان، فيحذره وينذره مكر الله وسوء العاقبة.

---

(١) حب الفتنة لنبيل عطوة: ١ بتصرف يسير.

ولا يكاد ينجو أحد من فتنة المال، أعطاه الله أو قدر عليه رزقه، لأنه في محلّ اختبار، ولذا قال ابن مسعود: "لا يقولنَّ أحدُكم: اللهم اعصمني من الفتنة، فإنه ليس أحد منكم يرجع إلى مال وأهل وولد، إلا وهو مشتملٌ على فتنة، ولكن ليقل: اللهم إنِّي أعوذ بك من مُضلات الفتن"(١).

وحتى لا يستهين أحد مهما كان إيمانه بفتنة الولد، ذكر الله جل وعلا في قصة الخضر فتنة الغلام الذي قُتِل لأنه قد يتسبب في فتنة أبويه المؤمنين، فكان من رحمة الله أن خلصهما منه وأبدلهما خيراً منه ليكون عونًا لهما على البر، ولذا كان دعاء زكريا عليه السلام أن يرزق ولدا وليا من أولياء الله.

إن أصل النجاح في إدارة فتنة زينة الحياة الدنيا في المال والولد أن تستخرج منها الباقيات الصالحات، ولعلها تدخل في حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ"(٢).

ولهذا تنتهي قصة الرجلين والجنتين، ويُختم ما فيها من دروس وعبر، بقوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف]، قال سيد قطب رحمه الله: (المال والبنون زينة الحياة، والإسلام لا ينهى عن الزينة في حدود الطيبات، ولكنه يعطيهما القيمة التي تستحقُّها الزينة في ميزان الخلود ولا يزيد، إنهما زينة وليسا قيمة. فما يجوز أن يوزن بهما الناس ولا أن يُقدَّروا على أساسهما في الحياة، إنما القيمة الحقَّة للباقيات الصالحات من الأعمال والأقوال والعبادات)(٣).

---

(١) حب الفتنة لنبيل عطوة:٢.

(٢) صحيح مسلم ٣/ ١٢٥٥ (١٦٣١).

(٣) في ظلال القرآن: ٥/ ٦٦ بتصرف يسير.

أسباب السقوط في فتنة المال والولد: لعل من أهم هذه الأسباب:

(أولاً- الانشغال به عن عبادة الله تبارك وتعالى:

١- بأن يشغله جمع المال والصفقات التجارية عن الصلاة.

٢- بأن يدفعه حبه للمال إلى الامتناع عن إخراج الزكاة.

٣- بأن يجعل كل ماله لأهله، دون المساكين والسائلين.

وهذه الأسباب، تجيء مصداقاً لقول الحق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩﴾ [المنافقون])[1]. قال الشربيني رحمه الله: (ربما رام الإنسان صلاح ماله وولده فبالغ فأفسد نفسه، ولا يُصلح ذلك ماله ولا ولده، روى أبو نعيم في الحلية عن سفيان الثوري رضي الله عنه أنه قال: يؤتى برجل يوم القيامة فيُقال: أكل عيالُه حسناته، وعن بعض السلف: العيالُ سوس الطاعات)[2].

وصاحب الجنتين هذا لم يشتغل عن العبادة والشكر فحسب بل شك في المعاد فكان ما آتاه الله من مال وأولاد فتنة ضل بها.

ثانياً- التعلق الشديد بالمال:

فلا يراعي في سبيل تحصيله أمر الله، ولا يتحرى الحلال، قال رسول الله ﷺ: "لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ، لاَ يُبَالِي المَرْءُ بِمَا أَخَذَ المَالَ، أَمِنْ حَلاَلٍ

---

(١) عن حب الفتنة لنبيل عطوة: بتصرّف.

(٢) تفسير السراج المنير ٤/ ٢٢٠ بتصرف يسير.

أَمْ مِنْ حَرَامٍ"(١)، فيستكثر من المال ولو حراما، وينفقه في مخالفة أمره، وكثيراً ما كان المال الوفير وبالاً على أصحابه لهذا الداء العضال، وقد وردت الإشارة إلى أهمية تحري الحلال في قول النبي ﷺ: (لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، **وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ**، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ)(٢). وصاحب الجنتين وقع في هذا كما تشعر الآيات، وانظر حاله عند هلاك جنتيه يظهر لك الأمر: (فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها)، لشدة تعلقه بها فأعمى بصيرته عن حق الله في شكر النعمة.

ومن دوافع الدُّخول في هذه الفتنة، ما تتميّز به الحياة الاقتصادية والتجاريّة -لا سيما في زماننا- من بعض الأمور الدقيقة المشتبهة، التي قلّما ينجو من الوقوع فيها أحد، ولذلك ورد قوله ﷺ: "التاجرُ الأمينُ الصدوقُ المسلمُ مع النبيّين والصّديقين والشُّهداء يومَ القيامة"(٣).

ثالثاً: التفاخر بالمال:

وذلك مثلُ ما وقع لصاحب الجنّتين، المزهوِّ بما في ملكه، المختالِ كالطاووس، مفتخراً متعالياً على صاحبه الفقير، قائلاً له: {أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً} . يقول الله: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ٧﴾ [العلق]، يقول ابن جرير: (إنَّ الإنسان ليتجاوز حدّه، ويستكبرُ على ربه، فيكفر به، لأنْ رأى نفسه استغنت)(٤)، وعليه وعلى أمثاله يصدق قول ربنا: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ١٦﴾ [الإسراء]،

(١) صحيح البخاري ٢/ ٧٣٣ (١٩٧٧).
(٢) سنن الترمذي ٤/ ٦١٢ (٢٤١٧)، وصححه الألباني.
(٣) سنن ابن ماجه ٢/ ٧٢٤ (٢١٣٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٤٥٣).
(٤) تفسير الطبري: ٢٤/ ٥٢٢.

وصاحب الجنة أداه الغنى إلى الظلم ثم كُفرِ الشك، ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾﴾ [الكهف]؛ رأى الخضرة مد بصره فافتتن بها، فأنى لهاتين الجنتين الواسعتين الممتدتين على ضفاف النهر أن تبيدا! فكانت عاقبته الذل والصغار في الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى.

إن مجرد الاستعلاء بالمال داء عضال عاقبته وخيمة وصاحبه هذا المتعالي ما هو إلاّ جاهل مغرور وبعد غد ستتكشف له الأمور!

فمن آتاه الله مالاً يقضي به حوائجه، قد يصيبه الغرور فيظن أنه يقدر على كل شيء ويقتني أيَّ شيء، فيتكبّر، ويتفاخر، فحذرنا الله جل وعلا من ذلك: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد].

يقول سيد قطب رحمه الله: (إنه الغرور يُخيِّل لذوي الجاه والسلطان والمتاع والثراء، أن القيم التي يعاملهم بها أهل هذه الدنيا الفانية تظل محفوظة لهم حتى في الملأ الأعلى! فما داموا يستطيلون على أهل هذه الأرض فلا بد أن يكون لهم عند السماء مكان ملحوظ!)(١).

أما ميزان الشريعة فمختلف تماماً، قال الله تعالى: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١]، والعبد المؤمن لا يملك مالا، وما يملكه لسيده، والمشرك قد يكون أغنى أغنياء العالم!

(١) في ظلال القرآن: ٥/ ٦٤.

رابعاً: الإشراك في محبة الله:

وذلك ما اعترف به صاحب الجنّتين لما هلكتا: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾ [الكهف]. قال سيد قطب ﷺ: (يقلب كفيه حزناً على ماله الضائع وجهده الذاهب، نادما على شركه، يعترف الآن بربوبيته ووحدانيته، ومع أنّه لم يصرح بكلمة الشرك، إلا أن اعتزازه بقيمة أرضيَّة غير قيمة الإيمان، كان شركاً يُنكره الآن، ويندم عليه ويستعيذ منه بعد فوات الأوان)(١).

(واعلم أنَّ حبَّ الأموال والأولاد -وهم نعمةٌ من الله- إن كانوا أَحَبَّ إلى العبد من الله، فقد أشرك في محبته سبحانه،كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾)(٢).

وقد ورد في ذلك قوله ﷺ: "تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ الخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلاَ انْتَقَشَ"(٣)، قال ابن بطال: ((تعس عبد الدينار والدرهم) يعنى: إن طلب ذلك، وقد استعبده، وصار كلُّه فى طلب الدينار والدرهم، كالعبادة لهما فصح أَنَّه عبدٌ فى طلبهما، فوجب الدعاءُ عليه بالتعس؛ لأنه أوقف عمله على متاع الدُّنيا الفاني، وترك العملَ لنعيمِ الآخرة الباقي)(٤).

---

(١) في ظلال القرآن: ٥/ ٦٥ بتصرف واختصار.

(٢) حب الفتنة لنبيل عطوة:٧.

(٣) صحيح البخاري ٣/ ١٠٥٧ (٢٧٣٠).

(٤) شرح صحيح البخارى لابن بطال: ٥/ ٨٣ بتصرف واختصار.

من أسباب الوقاية من فتنة المال والولد:

١- إخلاص التوحيد لله فيقدم حبه على كل محبوب، ويوقن بأن ما به من نعمة فمن الله، بمشيئته وفضله كانت، وبقوته وقدرته بلغت ما بلغت، لا بمجرد كده وجهده.

٢- التبصر في آيات الله ومننه على المرء منذ ولادته، إلى حين اشتداده رجلاً سوياً قادراً على الكد والكسب وأنواع الأعمال، فإن الذي يستحضر فضل الله ونعمه عليه، يستحيي من كفرانه، ويدأب في الشكر، وغاية اللؤم أن تنكر جميل من أحسن إليك وتتمرد عليه، وإذا كان كفران الخلق سبباً لدخول النار كما في الحديث: "رأَيْتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ"، والعلة: "تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ، وَتَكْفُرْنَ العَشِيرَ"(١)، فكيف بكفران أعظم منعم متفضل؟!

٣- أن يستحضر قدرة الله عليه، فالذي أعطاه قادر أن يمنعه، والذي منحه قادر على أن يحرمه، ولهذا وعظه المؤمن بقوله: ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ ﴾.

٤- أن يعلم أن التوبة والندم بعد العقوبة قد لا ترفع أثر العقوبة في الدنيا وإن نجا في الآخرة بتوبته إن قبلها الله، وهذه كانت حال صاحب الجنتين كما سبق، وكذلك أصحاب الجنة

(١) صحيح البخاري ١/ ١١٦ (٢٩٨).

المذكورين في قوله: ﴿ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [سورة القلم].

٥- أن يتخذ المرء قريناً صالحاً، يستمع إليه، ويصدر عن توجيهه الشرعي، ويستأنس برأيه، ولا يجعله مجرد مستشار يسوغ به أفعاله أو يأنس به ويوسع صدره! وتأمل لو انتفع صاحب الجنة بموعظة صاحبه الذي حاوره أتكون تلك حاله؟ لذا على أرباب الأموال أن يتقوا فتنته مستعينين برفقة صالحة عالمة ناصحة ترشدهم إلى حق الله، والواجب عليهم إزاء تلك النعم؛ يذكرونهم إن رأوا منهم تقصيراً، ويرشدونهم إن أبصروا تأولاً أو خطأ، أما تكوين لجان شرعية مع محاولة الالتفاف عليها كما فعل صاحب الجنة، بجعلها مجرد صور لأغراض مختلفة، فلا تبشر بعاقبة حميدة لا في الدنيا ولا في الآخرة.

٦- أن يحقق الإيمان باليوم الآخر، ويعلم أن الدنيا أيام معدودة، ثم المرد إلى الله، والعاقبة للتقوى. كما في خاتمة القصة: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ ثم التذكير بالآخرة وأهوالها، لئلا يغتر بزينة الحياة الدنيا الزائلة عما قليل.

فوائد من قصة الرجلين

ذكرنا شيئاً من الفوائد والعبر في قصة الرجلين، وفيما يلي نمر مروراً سريعاً على المزيد منها، قال السعدي رحمه الله: (في هذه القصة العظيمة:

١. اعتبار بحال الذي أنعم الله عليه نعماً دنيوية، فألهته عن آخرته وأطغته، وعصى الله فيها، أن مآلها الانقطاع والاضمحلال.

٢. وأنه وإن تمتع بها قليلاً فإنه يحرمها طويلاً.

٣. وأن العبد ينبغي له -إذا أعجبه شيء من ماله أو ولده- أن يضيف النعمة إلى موليها ومسديها.

٤. وأن يقول: (ما شاء الله، لا قوة إلا بالله) ليكون شاكراً لله فيحفظ نعمته، لقوله: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾

٥. وفيها: الإرشاد إلى التسلي عن لذات الدنيا وشهواتها، بما عند الله من الخير لقوله: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ﴾.

٦. وفيها أن المال والولد لا ينفعان إن لم يعينا على طاعة الله، لقوله: ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾.

٧. وفيها الدعاء بتلف مال من كان ماله سبب طغيانه وكفره وخسرانه، خصوصاً إن فضل نفسه على المؤمنين، وفخر عليهم.

٨. وفيها أن ولاية الله وعدمها إنما تتضح نتيجتها إذا انجلى الغبار وحق الجزاء، ووجد العاملون أجرهم)[١]، والله أعلم.

قال تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾

مناسبة الآيتين لما سبق:

بعد أن ذكر الله ﷻ مثل صاحب الجنتين عظة للكفار، ضرب للناس مثلاً عاماً يبين حقيقة الدنيا كي لا يغتر بها مغتر، قال البقاعي رحمه الله: (ولما أتم المثل لدنياهم الخاصة بهم التي أبطرتهم، فكانت سبب إشقائهم وهم يحسبون أنها عين إسعادهم ضرب [مثلاً][٢] لدار الدنيا العامة لجميع الناس في قلة بقائها وسرعة فنائها، وأن من تكبر بها كان أخس منها)[٣].

فقوله: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم ﴾ قال ابن كثير: (وَاضْرِبْ يا محمد للناس)[٤]، ويحتمل أن يكون خاصا بالمخاطبين، قال الطبري: (أي: واضرب لحياة هؤلاء المستكبرين الدنيا منهم مثلا يقول: شبهاً)[٥]، قال ابن عاشور: (وضمير ﴿ لَهُم ﴾ عائد إلى المشركين كما دل عليه تناسق الضمائر في قوله: ﴿ وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ

---

(١) تفسير السعدي ١/ ٤٧٧، بتصرف يسير.
(٢) أضفتها ليستقيم الكلام.
(٣) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٤٩.
(٤) تفسير ابن كثير ٥/ ١٦١.
(٥) تفسير الطبري ١٨/ ٣٠ بتصرف واختصار.

بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [الكهف]، والأول أولى لتشمل الفائدة عامة الناس، وهؤلاء يدخلون في الخطاب دخولاً أولياً)[1].

وقوله: ﴿مَثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾

قال ابن كثير: (في زوالها وفنائها وانقضائها)[2]، وقال ابن الجوزي: (في تصرُّف أحوالها، إذ مع كلِّ فرحة تَرْحة)[3]. قال ابن عاشور: (والحياة الدنيا: تطلق على مدة بقاء الأنواع الحية على الأرض وبقاء الأرض على حالتها وهذا المثل منطبق على الحياة الدنيا بإطلاقيها، فهما مرادان منه)[4].

قال ابن القيم رحمه الله: (ذكر ابن أبي الدنيا أن الحسن كتب إلى عمر بن عبد العزيز أما بعد: فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار إقامة إنما أنزل إليها آدم عليه السلام عقوبة فاحذرها؛ فإن الزاد منها تركها والغنى فيها فقرها، فكن أسر ما تكون فيها أحذر ما تكون لها، فإن صاحب الدنيا كلما اطمأن منها إلى سرور أشخصته إلى مكروه، وصل الرخاء منها بالبلاء، وجعل البقاء فيها إلى فناء، سرورها مشوب بالحزن، أمانيها كاذبة وآمالها باطلة، وصفوها كدر وعيشها نكد، فلو كان ربنا لم يخبر عنها خبرا ولم يضرب لها مثلا لكانت قد أيقظت النائم ونبهت الغافل، فكيف وقد جاء من الله فيها واعظ وعنها زاجر فما لها عند الله قدر ولا وزن)[5].

وقوله: ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٣١ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٦١.
(٣) زاد المسير ٤/ ٢٢٧.
(٤) التحرير والتنوير ٨/ ٣٨٠ بتصرف واختصار.
(٥) إغاثة اللهفان ١/ ٣٧-٣٨ بتصرف واختصار.

يعني الغيث وهو ظاهر، والسماء هنا السحاب، قال الرازي: (وسمى الله تعالى السحاب سماء، لأن العرب تسمي كل ما فوقك سماء كسماء البيت)(١)، قال القرطبي: (قالت الحكماء: إنما شبه الدنيا بالماء لأن الماء لا يستقر، كذلك الدنيا لا تبقى على واحد، والماء لا يستقيم على حالة واحدة كذلك الدنيا، والماء لا يبقى ويذهب كذلك الدنيا تفنى، والماء لا يقدر أحد أن يدخله ولا يبتل كذلك الدنيا لا يسلم أحد دخلها من فتنتها وآفتها، والماء إذا كان بقدر كان نافعا منبتا، وإذا جاوز المقدار كان ضارا مهلكا، وكذلك الدنيا: الكفاف منها ينفع وفضولها يضر)(٢). وهناك أوجه شبه أخرى؛ قيل: الماء إن أمسكته تغير ونتن وكذلك الدنيا لمن أمسكها بلية، والماء يأتي قطرة قطرة ويذهب دفعة واحدة وكذلك الدنيا، والماء طبعه النقصان وكذلك الدنيا، والماء يكون في موضع كثيرا وفى موضع قليلا وكذلك الدنيا، ولأن لا أحد يقدر أن يرد المطر كذلك لا يقدر أحد أن يرد الرزق، وقيل: الماء قليله ري للعطشان وكثيره داء، كذلك الدنيا، وقيل: الزرع يفسد بالماء الكثير كذلك القلب يفسد بالمال الكثير، وقيل: الماء لا يكون كله صافيا كذلك المال فيه الحلال والحرام والشبهة، وقيل: الماء يطهر النجاسات كذلك المال الطيب الحلال يطهر دنس الآثام، قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]. وعلى الجملة فإن هذا التشبيه يفيد أن المشبه والمشبه به، الدنيا والماء، إذا نزل وأثمر ثمرته، يمكث ما شاء الله، ثم يضمحل ويزول والعلم عند الله تعالى.

---

(١) تفسير مفاتيح الغيب للرازي ٦/ ٣٩٩.

(٢) تفسير القرطبي ١٠/ ٤١٢ بتصرف يسير.

وقوله: ﴿فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾ قال ابن كثير: (أي: ما فيها من الحَبّ، فشب وحسن، وعلاه الزهر والنور والنضرة)[1].

وقوله: ﴿فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ﴾

قال ابن الجوزي: (قال الفراء: الهشيم: كل شيء كان رطباً فيبس. وقال الزجاج: الهشيم: النبات الجافّ. وقال ابن قتيبة: الهشيم من النبت: المتفتِّت، وأصله من هشمتُ الشيء: إذا كسرته، ومنه سمِّي الرجل هاشماً. و ﴿تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ﴾ تنسفه)[2]، وقال ابن كثير: ﴿تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ﴾ أي: تفرقه وتطرحه ذات اليمين وذات الشمال)[3].

وفي استعمال الفاء للدلالة على الترتيب والتعقيب، في عطف اختلاطَ نبات الأرض على إنزال الماء، ثم في عطف صيرورة ذلك الماء المختلط بنبات الأرض هشيما على ما سبقه بالفاء أيضاً؛ نكتة لطيفة إذ يدل على سرعة انقضاء الدنيا ومراحلها، ونعيمها المسرع للزوال والاضمحلال.

وعلى هذا فلا متاع في الدنيا يحقق سعادة البشر؛ لأن السعادة الحقيقية هي الدائمة التي لا زوال فيها ولا وشقاء، فالسعادة الحقيقية إنما تتحقق برضا الإنسان عن نفسه، وبطمأنينة النفس؛ وهذا لا يكون إلا حين تجد ما يوافق فطرتَها من الدين، وهذا لا يكون إلا في ظل الإيمان والإسلام، فتكون العاقبة سعادة أبدية لا تكدرها الأكدار.

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٦١.

(٢) زاد المسير ٤/ ٢٢٧.

(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ١٦١.

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾

قال ابن الجوزي: (قال المفسرون: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الإنشاء والإفناء ﴿مُّقْتَدِرًا﴾)[1]، وقال الطبري (يقول: وكان الله على تخريب جنة هذا القائل حين دخل جنته: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾، وإهلاك أموال ذي الأَمْوَالِ الباخلين بها عن حقوقها، وإزالة دنيا الكافرين به عنهم، وغير ذلك مما يشاء قادر، لا يعجزه شيء أراده، ولا يُعْييه أمر أراده)[2]، قال الزجاج: (المقتدر مبالغة في الوصف بالقدرة والأصل في العربية أن زيادة اللفظ زيادة المعنى)[3]، وقال ابن عاشور: (جملة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ جملة معترضة في آخر الكلام، موقعها التذكير بقدرة الله على خلق الأشياء وأضدادها، وجعل أوائلها مفضية إلى أواخرها، وترتيبه أسباب الفناء على أسباب البقاء، وذلك اقتدار عجيب. وقد أفيد ذلك على أكمل وجه بالعموم الذي في قوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾)[4].

وختمت الآية بذلك لبيان أثر الإيمان في عدم الانخداع بمظاهر الدنيا، وللإبقاء على صلة تلك النعم بالخالق دائمةً، وفاعلة؛ ليحصل الانتفاع بها، على وجوه الشرع، فيتحقق شكرُ الله المقتدر، فعلا مع القول؛ فتزداد تلك النعم، وتغدو مَعْبَرا لتحصيل الثواب، والرضوان.

وقوله: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾

قال ابن عاشور: (اعتراض أريد به الموعظة والعبرة للمؤمنين بأن ما فيه المشركون من النعمة من مال وبنين ما هو إلا زينة الحياة الدنيا التي

(١) زاد المسير ٤/ ٢٢٧.

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٣٠

(٣) تفسير أسماء الله الحسنى ١/ ٥٩.

(٤) التحرير والتنوير ٨/ ٣٨٠ بتصرف يسير.

علمتم أنها إلى زوال، كقوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ﴾ [آل عمران]، وأن ما أعد الله للمؤمنين خير عند الله وخير أملاً. والاغتباط بالمال والبنين شنشنة معروفة في العرب، قال طرفة:

فلو شاء ربي كنت قيس بن عاصم ... ولو شاء ربي كنت عمرو بن مرثد

فأصبحت ذا مال كثير وطاف بي ... بنون كرام سادة لمسوّد)(١)

قال ابن الجوزي: (هذا ردٌّ على المشركين المفتخرين بالأموال والأولاد، فأخبر أن ذلك مما يُتزيَّن به في الدنيا، لا مما ينفع في الآخرة)(٢)، وقال البغوي: (قال علي ﷺ: المال والبنون حرث الدنيا والأعمال الصالحة حرث الآخرة وقد يجمعها الله لأقوام)(٣)، وقال البقاعي: (﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ﴾ الفانيان الفاسدان وهما أجلّ ما في هذه الدار من متاعها ﴿زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ التي لو عاش الإنسان جميع أيامها لكان حقيقاً -لصيرورتها إلى زوال- بالإعراض عنها والبغض لها، مع ما في تحصيلهما من التعب، وما لهما بعد الحصول من سرعة العطب، ومع ذلك قد يكونان خيراً إن عمل فيهما بما يرضي الله، وقد يكونان شراً ويخيب الأمل فيهما، وقد يكون كل منهما سبب هلاك صاحبه وكدره، وسوء حياته وضرره)(٤).

نكتة- قال ابن عاشور: (تقديم المال على البنين لأنه أسبق في الذهن، لأنه يرغَب فيه الجميع، ولذلك أيضاً قدم في بيت طرفة المذكور آنفاً)(٥)،

---

(١) التحرير والتنوير ٨/ ٣٨١.

(٢) زاد المسير ٤/ ٢٢٨ بتصرف واختصار.

(٣) تفسير معالم التنزيل للبغوي ٥/ ١٧٤ بتصرف يسير.

(٤) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٤٩ بتصرف واختصار.

(٥) التحرير والتنوير ٨/ ٣٨١ بتصرف واختصار.

ومن الأسباب أن أحداً لا ينازع ماله، لكنه قد ينازع ابنه، وقد يقع التنازع بسبب المال، ومن الناس من يهمل أولاده لانشغاله بالمال، وكثير منهم يخاطر بحياته من أجل المال، وفي الحديث: "لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَحْسِرَ الْفُرَاتُ عَنْ جَبَلٍ مِنْ ذَهَبٍ، يَقْتَتِلُ النَّاسُ عَلَيْهِ، فَيُقْتَلُ مِنْ كُلِّ مِائَةٍ، تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ، وَيَقُولُ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ: لَعَلِّي أَكُونُ أَنَا الَّذِي أَنْجُو"(١)، وفي القرآن تقديم ذكر المال على النفس في كل المواضع إلا قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١]، لأن النفس أغلى من المال، فناسب تقديمها في الشراء، ولأن المشتري هو العظيم جل جلاله، وأما بقية الآيات كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ [الأنفال: ٧٢]، وقوله: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ﴾ [التوبة: ٤١]، وغيرها، فقدم ذكر المال لأن بذله أهون من بذل النفس، ومن يجاهد بنفسه لا بد له من مال فناسب تقديم الحث على بذل المال، كما أن كثيراً من الناس يجاهد بماله، والأقل من يجاهد بنفسه، والله أعلم.

قوله: ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾

قال ابن كثير: (وقوله: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ كقوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤﴾ [آل عمران]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٥﴾ [التغابن] أي: الإقبال عليه والتفرغ لعبادته، خير لكم من

(١) صحيح مسلم ٤/ ٢٢١٩ (٢٨٩٤).

اشتغالكم بهم والجمع لهم، والشفقة المفرطة عليهم؛ ولهذا قال: ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ۝﴾)[1].

قال ابن الجوزي: (فيها خمسة أقوال:

أحدها: أنها "سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر"؛ روى أبو هريرة مرفوعا: "إن عجزتم عن الليل أن تكابدوه، وعن العدوِّ أن تجاهدوه، فلا تعجِزوا عن قول: "سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، فقولوها، فإنَّهن الباقيات الصالحات"، وهذا قول ابن عباس، وبه قال مجاهد، وعطاء، وعكرمة، والضحاك. وسئل عثمان ﷺ عنها فقال هذه الكلمات، وزاد: "ولا حول ولا قوَّة إلا بالله". وقال سعيد بن المسيب، ومحمد بن كعب القرظي مثله سواء. والثاني: "أنها لا إله إلا الله، والله أكبر، والحمد لله، ولا قوة إلا بالله"، رواه علي ﷺ عن رسول الله ﷺ. والثالث: أنها الصلوات الخمس، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس، وبه قال ابن مسعود، ومسروق، وإبراهيم. والرابع: الكلام الطيِّب، رواه العوفي عن ابن عباس. والخامس: هي جميع أعمال الحسنات، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال قتادة، وابن زيد)[2].

ولا تعارض بين هذه الأقوال، فكن في مثل هذه المواضع على ذُكر مما قاله ابن تيمية رحمه الله في مقدمة التفسير فإنه نفيس، قال: (الخلاف بين السلف في التفسير قليل، وخلافهم في الأحكام أكثر، وغالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد وذلك

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٦١.

(٢) زاد المسير ٤/ ٢٢٨ بتصرف واختصار.

صنفان... الثاني أن يذكر كل منهم من الاسم العام بعض أنواعه للتمثيل وتنبيه المستمع على النوع، لا على سبيل الحد المطابق، كسائل أعجمي عن مسمى الخبز فأُري رغيفاً وقيل له: هذا، فالإشارة إلى النوع لا إلى الرغيف وحده، مثاله في قوله: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ ﴾ [فاطر: ٣٢]، فمعلوم أن الظالم لنفسه يتناول المضيع للواجبات والمنتهك للمحرمات، والمقتصد يتناول فاعل الواجبات وتارك المحرمات، والسابق يدخل فيه من سبق فتقرب بالحسنات مع الواجبات، فالمقتصدون هم أصحاب اليمين، والسابقون السابقون أولئك المقربون، ثم إن كلاً منهم يذكر نوعا من أنواع الطاعات كقوله: السابق الذي يصلي في أول الوقت والمقتصد الذي يصلي في أثنائه والظالم لنفسه الذي يؤخر العصر إلى الاصفرار، ويقول الآخر: السابق والمقتصد والظالم قد ذكرهم في آخر سورة البقرة، فإنه ذكر المحسن بالصدقة، والظالم بأكل الربا، والعادل بالبيع، والناس في الأموال إما محسن وإما عادل وإما ظالم، فالسابق المحسن بأداء المستحبات مع الواجبات، والظالم آكل الربا أو مانع الزكاة، والمقتصد الذي يؤدي الزكاة المفروضة ولا يأكل الربا، وأمثال هذه الأقاويل. فكل قول فيه ذِكرُ نوعٍ داخل في الآية، ذُكِر لتعريف المستمع بتناول الآية له وتنبيهه على نظيره، فإن التعريف بالمثال قد يسهل أكثر من الحد المطلق، والعقل السليم يتفطن للنوع كما يتفطن إذا أشير إلى رغيف فقيل هو الخبز)[1].

والخامس هو أشملها فهو أولاها، قال الشنقيطي ﷺ: (التحقيق أن "الباقيات الصالحات" لفظ عام، يشمل الصلوات الخمس، والكلمات

(١) مجموع الفتاوى ١٣/ ٣٣٣-٣٣٨ بتصرف واختصار.

الخمس المذكورة، وغير ذلك من الأعمال التي ترضي الله: لأنها باقية لصاحبها غير زائلة. ولا فانية كزينة الحياة الدنيا، ولأنها أيضاً صالحة لوقوعها على الوجه الذي يرضي الله)[١]، وقال الطبري: (فإن ظنّ ظانّ أن ذلك مخصوص بالخبر عن النبي ﷺ، فإن ذلك بخلاف ما ظن، وذلك أن الخبر عن رسول الله ﷺ إنما ورد بأن قول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، هنّ من الباقيات الصالحات، ولم يقل: هنّ جميع الباقيات الصالحات، ولا كلّ الباقيات الصالحات، وجائز أن تكون هذه باقيات صالحات، وغيرها من أعمال البرّ أيضاً باقيات صالحات)[٢].

وقوله: ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾

قال السعدي رحمه الله: (فثوابها يبقى، ويتضاعف على الآباد، ويؤمل أجرها ونفعها عند الحاجة، فهذه التي ينبغي أن يتنافس بها المتنافسون، ويجد في تحصيلها المجتهدون، وتأمل كيف لما ضرب الله مثل الدنيا واضمحلالها ذكر أن الذي فيها نوعان: نوع من زينتها، يتمتع به قليلا بلا فائدة لصاحبه، بل ربما لحقته مضرته وهو المال والبنون، ونوع يبقى وينفع على الدوام، وهي الباقيات الصالحات)[٣]، قال الشنقيطي رحمه الله: (﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ أي الذي يؤمل من عواقب الباقيات الصالحات، خير مما يؤمله أهل الدنيا من زينة حياتهم الدنيا وأصل الأمل: طمع الإنسان بحصول ما يرجوه في المستقبل)[٤]، وبين ابن عاشور السبب فقال: (الآمل في المال

(١) أضواء البيان ٣/ ٣٤٨.
(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٣٦.
(٣) تفسير السعدي ١/ ٤٧٩ بتصرف واختصار.
(٤) أضواء البيان ٣/ ٣٤٨.

والبنين يأمل حصول أمر مشكوك فيه ومقصور على مدته. والآمل لثواب الأعمال الصالحة يأمل حصول أمر موعود به من صادق الوعد، وتحصل منه منفعة الدنيا والآخرة كما قال: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل] فلا جرم كان قوله: ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ بالتحقق والعموم تذييلاً لما قبله)[1].

لطيفة- لبيان فضل الأعمال الصالحة على زينة الحياة الدنيا، تعلق بديع بقوله تعالى فيما سبق: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ ﴾، فما على الأرض من زينة لا ينبغي أن يكون مراداً للعبد لذاته لأنه ليس سوى ابتلاء واختبار للعباد وعون لهم في سيرهم إلى الله، فمن أدرك هذه الحقيقة أحسن التعامل مع هذه الزينة واستعان بها في إحسان العمل فكان هذا خيراً له من تلك الزينة وأعظم نفعاً.

---

(١) التحرير والتنوير ٨/ ٣٨١.

وقفة مع مثل الحياة الدنيا

يُكثر القرآن الحديث عن الدنيا محذراً من الاغترار بنعيمها الزائل، ولا غرابة في ذلك، فالدنيا ليست دار قرار، والإنسان فيها كراكب استظل في ظل شجرة يوشك أن يرحل عنها. ومع أن هذه حقيقتها إلا أن ما فيها من نعيم قد يفتن المرء فيصرفه عن الغاية التي خلق لأجلها، فهو خلق للعبادة ووجهته ينبغي أن تكون للجنة لا غير:

فحي على جنات عدن فإنها منازلك الأولى وفيها المخيم[1]

وقد ضرب لها القرآن المثل هنا بالماء الذي ينزل من السماء؛ فيختلط به نبات الأرض؛ فيصبح هشيما تذروه الرياح، قال ابن كثير: (وكثيرًا ما يضرب الله مثل الحياة الدنيا بهذا المثل كما في: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ﴾ الآية [يونس: ٢٤]، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾ [الزمر]، وقال: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد]. وفي الحديث الصحيح: "الدنيا حلوة خضرة")[2]، والغرض واضح من ضرب هذا المثل وتكراره،

---

(١) مدارج السالكين ١/ ١٢٣.

(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٦١ بتصرف يسير.

قال البقاعي: (ولما تبين بهذين المثلين[١] وغيرهما أن الدنيا سريعة الزوال، وشيكة الارتحال، مع كثرة الأنكاد، ودوام الأكدار، من الكد والتعب، والخوف والنصب؛ كالزرع سواء، تُقبِل أولاً في غاية النضرة، تتزايد شيئاً فشيئاً، ثم تأخذ في الانتقاص إلى الفناء، فهي جديرة بالزهد فيها والرغبة عنها، وأن لا يفتخر بها عاقل فضلاً عن أن يكاثر بها غيره)[٢]، وقال الطبري: (فلا يفخر ذو الأموال بكثرة أمواله، ولا يستكبر على غيره بها، ولا يغترنّ أهل الدنيا بدنياهم، فإنما مَثَلُها مثل هذا النبات الذي حَسُن استواؤه بالمطر، فلم يكن إلا رَيْثَ[٣] أن انقطع عنه الماء، فتناهى نهايته، عاد يابساً تذروه الرياح، فاسداً تنبو عنه أعين الناظرين، ولكن ليعمل للباقي الذي لا يفنى، والدائم الذي لا يبيد ولا يتغير)[٤].

فالآية تكشف عن حقيقة الدنيا ومآلها؛ لأثر ذلك في تحقيق العبودية لله وتصحيح السير إليه؛ لأن حبها والافتتان بها، مركوز في الطباع، وقد يحول دون الإيمان إذا صار غطاء يحجب الأدلةَ والآيات عن العقل، ويطمس على الأفئدة، أو قد يحول دون رجاء ما عند الله إخلاداً إلى الدنيا واطمئناناً بها، وهو ما حذر منه بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾ [يونس]، وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾﴾ [فاطر]، وبين عاقبة من لا يستجيب فقال: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ

---

(١) الأول ما جاء في قصة صاحب الجنتين.

(٢) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٤٩ بتصرف واختصار.

(٣) أي إلاّ قَدْرَ ذلك، ينظر لسان العرب ٢/ ١٥٧ مادة (ريث).

(٤) تفسير الطبري ١٨/ ٣٠

قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الأعراف]. وقد كان أعظم حائل بين المشركين وبين النظر في أدلة الإسلام انهماكهم في الحياة الزائلة ونعيمها، واستهزاؤهم بالمؤمنين: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ ﴾ [البقرة].

فحري بكل مسلم إذاً أن يحذر ما حذر الله منه، فلا يجعل الدنيا أكبر همه ولا مبلغ علمه، كي لا يفوته العلم الحقيقي الذي ينفعه: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [الروم].

إن مصيبة الأمة أنها وقعت فيما حذر الله منه وفتنت بالدنيا، فسلط عليها الذل بأيدي أعدائها، بسبب ذنوبها ومعاصيها وبعدها عن منهج الله، وما هذا بتخلي الله ﷻ عن أوليائه وأمة حبيبه ﷺ، حاشا وكلا، فهي أمة مرحومة كما قال ﷺ، لكنه استعتاب لهم عسى أن يرجعوا ويؤوبوا.

وقد شخص رسول الله ﷺ الداء فقال: "يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن الله في قلوبكم الوهن. فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت"(١).

فيمكننا بلا ريب أن نرد الضعف الذي حل بالأمة اليوم إلى هذه العلة، حب الدنيا، وإيثارها على الآخرة، والواقع في هذا الأمر من أبناء

---

(١) سنن أبي داود ٢/ ٥١٤ (٤٢٩٧)، وصححه الألباني.

الأمة على ضربين، إما مقصر مع إقراره بالدين وأحكامه، وإما متنكب للدين، متشبع بمفاهيم وأفكار تناقضه صراحة، كالعَلْمانية، والليبرالية، وغيرها، وهو في الحقيقة إنما يتبع هواه كما تقدم، ويؤثر دنياه، على آخرته!

إن الخروج من هذا الذل والبرء من هذا الداء لا يكون إلا بما بينه النبي ﷺ بقوله: "إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم"[1]، فالداء هنا هو هو في الحديث الأول، والدواء هو بالرجوع إلى الدين.

---

(١) سنن أبي داود ٢/ ٢٩٦ (٣٤٦٢).

تهذيب الغرائز

خلق الله الإنسان وركز فيه الغرائز والشهوات، كحب الدنيا وحب الشهوات من النساء والبنين والأموال والجاه والسلطان: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ﴾ [آل عمران]، والإنسان أمام الغرائز إما أن يستسلم لها وإما أن يكبتها وإما أن يهذبها. فالاستسلام لا يليق بالنفوس السوية، وهو انحدار إلى الحيوانية، فالبهائم تستسلم للغرائز، فإذا اشتهت الطعام أكلت، أو الجماع جامعت، وهكذا. وهناك من يكبت غرائزه كالرهبان وبعض الصوفية، وقد يكون هدفهم نبيلاً للوصول لدرجة من الطهر، وهو ما أراده بعض الصحابة فنهاهم النبي ﷺ، والصواب أن الإنسان ليس له أن يلغي غرائزه ولا أن يكبتها، وليس له أن يطلقها بلا ضابط، بل الواجب تهذيبها، وأول خطوة أن يتعرف غرائزه لأن الناس تتفاوت فيما بينهم، نعم هناك غرائز مشتركة، ولكنها تتفاوت من شخص لآخر، وهناك غرائز قد توجد في شخص دون غيره. فإذا تعرف غرائزه حاول تنمية الإيجابية، والسيطرة على السلبية، وهذا يكون بالمرانة والصبر، قال ﷺ: "إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَإِنَّمَا الْحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ، وَمَنْ يَتَحَرَّ الْخَيْرَ يُعْطَهُ، وَمَنْ يَتَوَقَّ الشَّرَّ يُوقَهُ"(١).

---

(١) تاريخ بغداد ١٠/ ١٨٤ (٤٦٩٧)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٣٤٢).

ولا ينبغي الاستسلام، إذ لا صحة لمن يقول الطباع لا تتغير، لكن لا بد من الصبر والمجاهدة فإذا الشدة تنقلب رحمة، والبخل كرما، والغضب حلماً، وهذا ملاحظ، فبعض الناس إذا تزوج تغيرت طباعه للخير أو الشر، وكذلك من التزم بعد أن أسرف على نفسه تتحسن طباعه وتتهذب أخلاقه، فالمرء قابل للتغيير وعليه أن يغير أخلاقه للأحسن.

*****

قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾

مناسبة الآيات لما قبلها:

بعد أن ذكر الله ﷻ حال صاحب الجنتين المكذب بالبعث وما حل به من عقاب في الدنيا، وبعد أن لفت بحجة عقلية بينة أنظار الناس عامة، والكفار المكذبين لنبينا ﷺ خاصة إلى حقيقة الحياة الدنيا وفرق ما بينها وبين الآخرة، كان من المناسب أن ينتقل بالأسماع والأذهان إلى مشهد جليل من مشاهد يوم القيامة يجسد صفة الاقتدار التي سبق ذكرها، تذكيراً للمؤمنين بما في هذا اليوم العصيب من أهوال ليستحضر كل منهم مآله ويتفكر في مصيره، مما يدفعه إلى مزيد من الأعمال الصالحات وإحسان العمل، وترهيباً لمن لا ينفعه خطاب العقل ويصر على الكبر والعناد، قال ابن عاشور: (فبعد أن وعظهم بأن ما هم فيه إلى زوال، أعقبه بالتذكير بما

بعد ذلك الزوال بتصوير حال البعث وما يترقبهم فيه من العقاب على كفرهم به، وذلك مقابلة لضده في قوله: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ﴾)[1].

فقوله: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾.

قال ابن عاشور: (عطف على ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٥]. فـ(يومَ) منصوب بتقدير: اذكر، كما في أمثاله)[2]، وقال ابن كثير: (يخبر تعالى عن أهوال يوم القيامة، وما يكون فيه من الأمور العظام، كما قال: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠﴾ [الطور] أي: تذهب من أماكنها وتزول، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾)[3]

وقوله: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾.

الخطاب لغير معين قال ابن عاشور: (أي: يَرى الرائي، كقول طرفة:

ترى جُثْوَتَيْن من تراب عليهما ... صفائحُ صمٌّ من صَفيح مُنَضد)[4]

قال ابن الجوزي: (وفي معنى "بارزة" قولان. أحدهما: ظاهرة فليس عليها جبل أو شجر أو بناء، قاله الأكثرون. والثاني: بارزاً أهلها من بطنها، قاله الفراء)[5]، قال الشنقيطي: (البروز: الظهور. أي ترى الأرض منكشفة لذهاب الآكام والشجر والعمارات التي عليها. وهذا المعنى بينه في غيره كقوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝١٠٧﴾ [طه]. وأقوال العلماء في معنى ذلك راجعة إلى أنها

---

(١) التحرير والتنوير ٨/ ٣٨٢ بتصرف واختصار.
(٢) التحرير والتنوير ٨/ ٣٨٢ بتصرف واختصار.
(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ١٦٤-١٦٥ بتصرف يسير.
(٤) التحرير والتنوير ٨/ ٣٨٢ بتصرف يسير.
(٥) زاد المسير ٤/ ٢٢٩ بتصرف واختصار.

أرض مستوية لا نبات فيها، ولا بناء ولا ارتفاع ولا انحدار. وقول من قال: ﴿بَارِزَةً﴾ أي بارزاً ما كان في بطنها من الأموات والكنوز - بعيد جداً كما ترى. وبروز ما في بطنها دلت عليه آيات أخر؛ كقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾﴾ [الانشقاق]، وقوله: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾﴾ [العاديات]، وقوله: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾﴾ [الزلزلة]، وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾﴾ [الانفطار])(١).

وقوله: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾

قال الشنقيطي: (﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ أي جمعناهم للحساب والجزاء، وجاء ذلك في آيات أخر، كقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة]، وقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [النساء: ٨٧] الآية، وقوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [هود]. وقوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ [الأنعام: ٢٢]، إلى غير ذلك من الآيات. وبين في مواضع آخر أن الحشر المذكور شامل للعقلاء وغيرهم، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام])(٢)، وقال القرطبي: (﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ أي إلى الموقف، ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي لم نترك، غادرت كذا أي تركته، قال عنترة:

غادرته متعفراً أوصاله   والقوم بين مجرح ومجدل

---

(١) أضواء البيان ٣/ ٣٤٩ بتصرف واختصار.

(٢) أضواء البيان ٣/ ٣٥٠ بتصرف واختصار.

ومنه الغدر لأنه ترك الوفاء، وسمي الغدير لأن الماء تركه، ومنه غدائر المرأة لأنها تجعلها خلفها. أي: حشرنا برهم وفاجرهم وجنهم وإنسهم)(١)، وقال ابن كثير: (وجمعناهم، الأولين منهم والآخرين، فلم نترك منهم أحدًا، كما قال: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة]، وقال: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [هود])(٢).

وقوله: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ هذا هو عرض الخلائق على الله يوم القيامة لفصل القضاء، وفيه من الرهبة ما لا يخفى.

قال ابن الجوزي: (وفي معنى قوله: ﴿صَفًّا﴾ أربعة أقوال.

أحدها: أنه بمعنى: جميعاً، كقوله: ﴿ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا﴾ [طه: ٦٤]، قاله مقاتل.

والثاني: أن المعنى: وعُرضوا على ربِّك مصفوفين، هذا مذهب البَصريين.

والثالث: أن المعنى: وعُرضوا على ربِّك صفوفاً، فناب الواحد عن الجميع، كقوله: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج: ٥].

والرابع: أنه لم يَغِبْ عن الله منهم أحد، فكانوا كالصف الذي تسهل الإحاطة بجملته، ذكر الأقوال ابن الأنباري. وقيل: كلّ أمة صفٌّ)(٣).

وقوله: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾

قال القرطبي: (أي يقال لهم: لقد جئتمونا حفاة عراة، لا مال معكم ولا ولد. وقيل فرادى، لقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وقال الزجاج: أي بعثناكم كما خلقناكم)(٤)، ويشهد للأول قوله ﷺ: "يا أيها

(١) تفسير القرطبي ١٠/ ٤١٧ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٦٥.
(٣) زاد المسير ٤/ ٢٢٩ بتصرف واختصار.
(٤) تفسير القرطبي ١٠/ ٤١٧ بتصرف واختصار.

الناس إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلا، ثم قال: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٠٤﴾"(١) فالأولان لبيان حال مجيئهم، والأخير لبيان أنه لا فرق في قدرة الله ﷻ بين الخلق أول مرة وبين البعث، قال: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٥١] قال ابن الجوزي: (وفي المخاطبين بهذا قولان؛ أحدهما: أنهم الكُلّ، والثاني: الكُفار، فيكون اللفظ عامّاً، والمعنى خاصّاً)(٢)، فعلى الأول يكون فيه إظهار لقدرة الله وصدق وعده بجمع الناس لهذا اليوم، كما قال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ٨٧﴾ [النساء]، وفيه تبكيت وإذلال لمن كان مكذباً، وعلى الثاني فما فيه من التقريع والتبكيت ظاهر.

وقوله: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾

قال ابن الجوزي: (﴿زَعَمْتُمْ﴾ خطاب الكفار خاصة، والمعنى: زعمتم في الدنيا ﴿أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ للبعث والجزاء)(٣)، ونحوه عند القرطبي(٤).

---

(١) صحيح البخاري ٤/ ١٦٩١ (٤٣٤٩)، صحيح مسلم ٤/ ٢١٩٤ (٢٨٦٠).
(٢) زاد المسير ٤/ ٢٢٩.
(٣) زاد المسير ٤/ ٢٢٩.
(٤) تفسير القرطبي ١٠/ ٤١٧.

فائدتان من تباين الأسلوب القرآني

• المتأمل في الخطاب القرآني فيما سبق يلاحظ تحولاً في الأسلوب من صيغة الغائب في قوله: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾، ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ﴾، ﴿وَعُرِضُوا۟﴾ إلى صيغة المخاطب في قوله: ﴿جِئْتُمُونَا﴾، ﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾، ﴿زَعَمْتُمْ﴾، وهذا يرجح أن الخطاب في الأخيرة كلها للكفار، بخلاف الأولى حيث كان عاماً، لأن توجيه التوبيخ بضمير الخطاب أنسب للغرض، وأوقع في النفوس، وبه يزداد شعور المنكرين للبعث بالخزي، ويكون التوبيخ أكثر إيلاما.

قال ابن كثير رحمه الله: (﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ تقريع للمنكرين للمعاد، وتوبيخ لهم على رؤوس الأشهاد، ولهذا قال: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ أي ما كان ظنكم أن هذا واقع بكم، ولا أن هذا كائن)[1].

• كما نلحظ التباين في الأسلوب، بين المضارع في: ﴿نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾، ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ والماضي مع المنكرين: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾، ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ﴾، ﴿وَعُرِضُوا۟﴾، ﴿جِئْتُمُونَا﴾، ﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾، ﴿زَعَمْتُمْ﴾؛ فناسب المضارعُ استحضار تلك الأحداث المستقبلية في الذهن كأنها تحدث الآن، أما المنكرون للبعث فقد تأكدتْ الأحداثُ المتعلقةُ بهم بالماضي ليفيد اليقين، وكأنها لِيَقينيَّتِها وقعت؛ إمعانا في إبطال إنكارهم، وترهيبهم من موقف لا محالةَ طائلهم.

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٦٥ بتصرف يسير.

قال ابن الجوزي رحمه الله: (قوله: ﴿ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا ﴾، إن قيل: هذا مستقبل، فكيف عُبِّر عنه بالماضي؟ فالجواب: أن ما قد علم الله وقوعه، يجري مجرى المعايَن)(١)، فما سبق في علم الله أن يقع لا بد أن يقع، لأن علمه سبحانه تام محيط بالأمور، فمحال أن يقع شيء بخلاف علمه، ومحال ألا يقع ما يعلم وقوعه، فاستوى في علمه الإخبار عن الوقوع بصيغة الماضي والمستقبل، ومن تأمل القرآن وجد من هذا شيئاً كثير، كقوله: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾، وقوله: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ﴾، ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ ﴾، ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾، ﴿ وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ ﴾، ﴿ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ ﴾.

وقوله: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾

هذا انتقال إلى مشهد جديد في يوم القيامة وهو بدء الحساب، وبدأت الآية بالماضي المبني للمفعول (وُضِع)، فالمُضيّ أفاد التقرير، والبناء للمفعول أفاد تربية المهابة لله، إذ هو فاعل الوضع سبحانه، قال الطبري: (يقول: ووضع الله يومئذ كتاب أعمال عباده في أيديهم، فأخذ واحد بيمينه وأخذ واحد بشماله)(٢)، قال ابن الجوزي: (فيه ثلاثة أقوال؛ أحدها: أنه الكتاب الذي سُطِر فيه ما تعمل الخلائق قبل وجودهم، قاله ابن عباس. والثاني: أنه الحساب، قاله ابن السائب. والثالث: كتاب الأعمال، قاله مقاتل وابن جرير، الكتاب اسم جنس)(٣)، والثالث أظهر بدليل الآيات الأخر، قال الشنقيطي: (وهذا المعنى جاء موضحاً في مواضع أخر؛ كقوله: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ

---

(١) زاد المسير ٤/ ٢٢٩ بتصرف يسير.
(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٣٨ بتصرف يسير.
(٣) زاد المسير ٤/ ٢٢٩ بتصرف واختصار.

كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الإسراء] وبين أن بعضهم يؤتى كتابه بيمينه، وبعضهم يؤتاه بشماله، وبعضهم يؤتاه وراء ظهره؛ قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحاقة] الآية، وقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الانشقاق])[1].

أما قوله: ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾

فلعل هذا من أشد المواقف على الكافرين والمجرمين قبل دخول النار، لما يترتب عليه من عذاب وخزي عظيم، فهم خائفون مما ينتظرهم، وقد كشفت أعمالهم، وأحصيت عليهم، وعدت، صغيرها وكبيرها.

قال الشنقيطي: (المجرمون: جمع المجرم، اسم فاعل الإجرام وهو: ارتكاب الجريمة، وهي الذنب العظيم يستحق صاحبة عليه النكال)[2]، وقال ابن عاشور: (الإشفاق: الخوف من أمر يحصل في المستقبل)[3]. قال الطبري: (يقول: فترى المجرمين المشركين بالله مشفقين، يقول: خائفين مما فيه من أعمالهم السيئة التي عملوها في الدنيا أن يؤاخذوا بها)[4].

أما قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا﴾

---

(١) أضواء البيان ٣/ ٣٥٤.

(٢) أضواء البيان ٣/ ٣٥٤ بتصرف واختصار.

(٣) التحرير والتنوير ٨/ ٣٨٤ بتصرف واختصار.

(٤) تفسير الطبري ١٨/ ٣٨ بتصرف واختصار.

فنلاحظ عودة الخطاب للمضارع مرة أخرى، قال ابن عاشور: (والتعبير بالمضارع لاستحضار الحالة الفظيعة، أو لإفادة تكرر قولهم شأن الفزعين الخائفين)(١)، فعلى التقديرين يصور عظم الخطب وهول الموقف.

قال ابن كثير: (أي: يا حسرتنا وويلنا على ما فرطنا في أعمارنا)(٢)، وقال ابن جرير: (نادوا بالويل حين أيقنوا بعذاب الله، وضجوا مما قد عرفوا من أفعالهم الخبيثة التي قد أحصاها كتابهم، ولم يقدروا أن ينكروا صحتها)(٣)، قال ابن عاشور: (تأنيث الويل للمبالغة، وهو سوء الحال والهلاكُ. كما أُنثت الدارُ على دَارة، للدلالة على سعة المكان)(٤)، وقال الألوسي: (﴿يَٰوَيۡلَتَنَا﴾ نداء لهلكتهم من بين الهلكات، فإن الويلة كالويل الهلاك، ونداؤها كأنه قيل يا هلاك أقبل فهذا أوانك، ففيه استعارة مكنية تخييلية، وفيه تقريع وإشارة إلى أنه لا صاحب لهم غير الهلاك وقد طلبوه ليهلكوا ولا يروا العذاب الأليم. وقيل: المراد نداء من بحضرتهم كأنه قيل: يا من بحضرتنا انظروا هلكتنا، وفيه تقدير يفوت به تلك النكتة)(٥).

وقوله: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ﴾ قال ابن عاشور: (استفهام للتعجب)(٦)، والمعنى (ما شأن هذا الكتاب)(٧).

---

(١) التحرير والتنوير ٨/ ٣٨٤ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٦٥.
(٣) تفسير الطبري ١٨/ ٣٨.
(٤) التحرير والتنوير ٨/ ٣٨٤.
(٥) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٢٧٤ بتصرف واختصار.
(٦) التحرير والتنوير ٨/ ٣٨٤ بتصرف واختصار.
(٧) تفسير الطبري ١٨/ ٣٩.

لطيفة- قال القاسمي رحمه الله: (قال البقاعي إن لام الجر رسمت مفصولة إشارة إلى أنهم لشدة الكرب يقفون على بعض الكلمة)[1]، وهذا على فرض صحته معنى بديع، كحال أهل الدنيا إذا بلغ الخوف بشخص مبلغه وعقدت الدهشة لسانه تقطع كلامه حتى لا يكاد يبين.

وقوله: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾

أي لا يترك؛ كما سبق في: (فلم نغادر)، قال ابن عاشور: (وجملة ﴿لَا يُغَادِرُ﴾ في موضع الحال، هي مثار التعجب، وقد جرى الاستعمال بملازمة الحال لنحو "ما لك" فيقال: ما لك لا تفعل)[2]، والتعجب لأن الكتاب بخلاف ما ألفوه، فهو لا يترك شيئاً مما كان منهم إلا ذكره بدقة تامة.

وقال ابن الجوزي في بيان الصغيرة والكبيرة: (هذا على ظاهره في صغير الأمور وكبيرها؛ وقد روى عكرمة عن ابن عباس، قال: الصغيرة: التبسم، والكبيرة: القهقهة. وقد يُتوهَّم أن المراد صغائر الذنوب وكبائرها، وإنما المراد أن التبسم من صغار الأفعال، والضحك فعل كبير، وقد روى الضحاك عن ابن عباس، قال: الصغيرة: التبسم والاستهزاء بالمؤمنين، والكبيرة: القهقهة بذلك؛ فعلى هذا يكون ذنباً من الذنوب لمقصود فاعله، لا لنفسه)[3]، وهذا هو الصواب والذنوب داخلة فيه، بخلاف من قصره على الذنوب، لعموم قوله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ١٨﴾ [ق].

---

(١) تفسير القاسمي ٧/ ٤١ بتصرف واختصار.

(٢) التحرير والتنوير ٨/ ٣٨٤ بتصرف واختصار.

(٣) زاد المسير ٤/ ٢٣٠ بتصرف واختصار.

قال ابن عاشور: (وتقديم الصغيرة للتعجب من إحصائها. وعطفت عليها الكبيرة لتعميم الإحصاء، لأن التعميم أيضاً يثير التعجب، فقد عجبوا من إحاطة الكتاب بجميع الأعمال)(١).

وقوله: ﴿إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾

قال البغوي: (عدها، قال السدي: كتبها وأثبتها، قال مقاتل بن حيان: حفظها)(٢)، وهي معان متقاربة لإحصاء الأعمال، وفي الحديث القدسي: "يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه"(٣).

وهذا الإحصاء هو الذي لم يصبر عليه المجرمون واشتكَوْا منه، قال قتادة ﵀: (اشتكى القوم كما تسمعون الإحصاء، ولم يشتك أحد ظلماً، فإياكم والمحقَّرات من الذنوب، فإنها تجتمع على صاحبها حتى تهلكه)(٤).

قوله: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ﴾ قال ابن كثير: (أي: من خير أو شر كما قال: ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ﴾ [آل عمران: ٣٠])(٥)، وقال ابن الجوزي: (أي: مكتوباً مُثْبَتاً في الكتاب، وقيل: رأوا جزاءه حاضراً)(٦).

وقوله: ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾

(١) التحرير والتنوير ٨/ ٣٨٤.
(٢) تفسير معالم التنزيل للبغوي ٥/ ١٧٧.
(٣) صحيح مسلم ٤/ ١٩٩٤ (٢٥٧٧).
(٤) تفسير الطبري ١٨/ ٣٨
(٥) تفسير ابن كثير ٥/ ١٦٦.
(٦) زاد المسير ٤/ ٢٣٠.

تذييل بديع للآية، فهذا الإحصاء وإن كان لا يغادر مما فعلوه صغيراً أو كبيراً إلا أنه لا يثبت عليهم شيئاً لم يفعلوه ولو كان مقدار ذرة، والحساب على ما اقترفته أيديهم لا ظلم فيه، فلا يجزي الله بالإحسان إلا إحساناً وإن جازى السيئة بمثلها، فلا يجزي من لم تبلغه الرسالة كما قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء]، وكل رسول قد بين لقومه أوضح بيان ما يجب فعله وما يجب تركه، فانقطعت الأعذار وثبتت الحجة وانتفى الظلم إن عوقبوا، ومقادير الثواب والعقاب على ميزان العدل فلا ظلم البتة، بل لا ظلم في أفعال الله أبداً لا في الدنيا ولا في الآخرة، لا عن عجز بل لأن الله أوجب العدل على نفسه وحرم عليها الظلم كما في الحديث الذي كان أبو إدريس الخولاني رحمه الله إذا حدث به جثا على ركبتيه: "يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تَظالموا... يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه"(١). قال الشنقيطي: (ذكر جل وعلا في الآية أنه لا يظلم أحداً، فلا ينقص من حسنات محسن، ولا يزيد من سيئات مسيء، ولا يعاقب على غير ذنب. وأوضح هذا في مواضع أخر، كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [يونس]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء]، وقوله: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء]، وقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت] وقوله: ﴿وَمَا

---

(١) صحيح مسلم ٤/ ١٩٩٤ (٢٥٧٧).

ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [النحل]، وقوله: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [النحل] والآيات بمثل ذلك كثيرة)[1].

(١) أضواء البيان ٣/ ٣٥٥ بتصرف يسير.

وقفة مع صغائر الأعمال

ثبت في الآية أن الله يحصي على العباد أعمالهم، دقيقها وجليلها، صغيرها وكبيرها، كما ثبت أنه يحاسب على الأعمال وإن صغرت: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾ [الزلزلة]، قال القرطبي: (قال مقاتل: نزلت في رجلين، وذلك أنه لما نزل ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ [الإنسان: ٨] كان أحدهم يأتيه السائل، فيستقل أن يعطيه التمرة والكسرة، والآخر يتهاون بالذنب اليسير، كالكذبة والغيبة والنظرة، ويقول: إنما أوعد الله النار على الكبائر، فنزلت ترغبهم في القليل أن يعطوه، فيوشك أن يكثر، ويحذرهم اليسير، فيوشك أن يكثر)[١].

يتهاون كثير من الناس في هذا تهاوناً عظيماً، كحال الرجلين في كلام مقاتل وسعيد بن جبير، ولئن كان هذا سائغاً قبل نزول الزلزلة فليس بسائغ بعدها، والسورة من أوائل ما يحفظه المسلم، والنبي ﷺ قد لفت أنظار أمته إلى أهمية صغائر الأعمال سواء منها الصالحات أو السيئات.

أما السيئات فقد قال عليه السلام: "إياكم ومحقرات الذنوب فإنما مثل محقرات الذنوب كقوم نزلوا في بطن واد، فجاء ذا بعود، وجاء ذا بعود حتى أنضجوا خبزتهم، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه"[٢]، وقال لأم المؤمنين رضي الله عنها: "يا عائشة، إياك ومحقرات الذنوب،

---

(١) تفسير القرطبي ٢٠/ ١٥١ بتصرف يسير.

(٢) مسند أحمد ٣٧/ ٤٦٧ (٢٢٨٠٩)، قال الأرناؤوط: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين.

فإن لها من الله ﷻ طالباً"(١) وقال: "عُذِّبَتِ امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت فدخلت فيها النار لا هي أطعمتها ولا سقتها إذ حبستها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض"(٢)، وقال أنس ﷺ: "إنكم لتعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر إن كنا لنعدها على عهد النبي ﷺ من الموبقات. قال أبو عبد الله(٣) يعني بذلك المهلكات"(٤)، قال الحافظ ﷺ: (قال ابن بطال: المحقرات إذا كثرت صارت كباراً مع الإصرار، وقد أخرج أسد بن موسى في الزهد عن أبي أيوب الأنصاري قال: إن الرجل ليعمل الحسنة فيثق بها وينسى المحقرات فيلقى الله وقد أحاطت به، وإن الرجل ليعمل السيئة فلا يزال منها مشفقاً حتى يلقى الله آمناً)(٥).

إن المعاصي صغرت أم كبرت بريد الكفر كما قال بعض السلف، وقد قيل لحذيفة ﷺ: "في يوم واحد تركت بنو إسرائيل دينهم؟ قال: لا، ولكنهم كانوا إذا أُمِروا بشيء تركوه، وإذا نُهوا عن شيء ركبوه، حتى انسلخوا من دينهم كما ينسلخ الرجل من قميصه"(٦)، وقال ابن عباس ﷺ: (يا صاحب الذنب لا تأمنن من سوء عاقبته، ولَمَا يتبع الذنب أعظم من الذنب إذا عملته؛ فإن قلة حيائك ممن على اليمين وعلى الشمال وأنت على الذنب أعظم من الذنب الذي عملته، وضحكك وأنت لا تدري ما الله صانع بك أعظم من الذنب، وفرحك بالذنب إذا ظفرت به أعظم من

---

(١) مسند أحمد ٤٢/ ٩٦ (٢٥١٧٦)، وقال: إسناده حسن.
(٢) صحيح البخاري ٣/ ١٢٨٤ (٣٢٩٥)، صحيح مسلم ٤/ ٢٠٢١ (٢٢٤٢).
(٣) هو الإمام البخاري نفسه ﷺ.
(٤) صحيح البخاري ٥/ ٢٣٨١ (٦١٢٧).
(٥) فتح الباري ١١/ ٣٣٠.
(٦) حلية الأولياء ١/ ٢٧٩.

الذنب، وحزنك على الذنب إذا فاتك أعظم من الذنب إذا ظفرت به، وخوفك من الريح إذا حركت ستر بابك وأنت على الذنب ولا يضطرب فؤادك من نظر الله إليك أعظم من الذنب إذا عملته)(١).

وفي آية الكهف وما أشبهها، تنبيه وتحذير لكل مكلف أن لا يستصغر ذنباً فيتجرأ على محارم الله، قال القرطبي: (كان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية يقول: يا ويلتاه! ضجوا إلى الله تعالى من الصغائر قبل الكبائر)(٢).

فما أحوج الأمة اليوم إلى هذا المعنى الإيماني، ومراقبة الله في السر والعلن، وفي كل شأن، في العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات.

وأما الحسنات فقد قال نبي الله ﷺ: "لا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق"(٣)، وقال: "لا تحقرن من المعروف شيئا، ولو أن تعطي صلة الحبل، ولو أن تعطي شسع النعل، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي، ولو أن تنحي الشيء من طريق الناس يؤذيهم، ولو أن تلقى أخاك، ووجهك إليه منطلق، ولو أن تلقى أخاك فتسلم عليه، ولو أن تؤنس الوحشان في الأرض، وإن سبك رجل بشيء يعلمه فيك، وأنت تعلم فيه نحوه، فلا تسبه فيكون أجره لك ووزره عليه، وما سر أذنك أن تسمعه فاعمل به، وما ساء أذنك أن تسمعه فاجتنبه"(٤)، وقال: "اتقوا النار

---

(١) حلية الأولياء ١/ ٣٢٤.

(٢) تفسير القرطبي ١٠/ ٤١٩.

(٣) صحيح مسلم ٤/ ٢٠٢٦ (٢٦٢٦).

(٤) مسند أحمد ٢٥/ ٣١٠ (١٥٩٥٥)، قال الأرناؤوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح.

النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد فبكلمة طيبة"[١]، وقال ﷺ: "بينما كلب يُطيف برَكِيَّة كاد يقتله العطش إذ رأته بغي من بغايا بني إسرائيل فنزعت مُوقها فسقته فغفر لها به"[٢]، قال الحافظ: (قوله "يُطيف" بضم أوله من أطاف، يقال أطفت بالشيء إذا أدمت المرور حوله، قوله (بركية) بفتح الراء وكسر الكاف وتشديد التحتانية البئر... قوله (موقها) بضم الميم وسكون الواو بعدها قاف هو الخف وقيل ما يلبس فوق الخف)[٣].

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾

مناسبة الآيات لما قبلها:

تنتقل الآيات من مشاهد القيامة، حيث يرى الناس أعمالهم وينالون جزاءها إما في الجنة وإما في النار، إلى مشهد موغل في القدم يوم خلق الله أبا هؤلاء البشر وأسجد له ملائكته، فيبين الله ﷻ مبدأ العداوة بين إبليس وذريته وآدم وذريته. والمتأمل لهذه النقلة تظهر له نكتة بديعة، فما كان من صاحب الجنتين، وما كان من كفار قريش المتكبرين من طلب طرد ضعفة وفقراء المؤمنين، وما كان من كل المجرمين المكذبين، مما نتج عنه تلك الوقفة الذليلة يوم عرض الكتب، كل هذا يبدو استجابة لعدو آدم وذريته إبليس، فجاءت الآيتان لتوقظا الغافلين عن هذه الحقيقة ولتذكرهم بأصل العداوة، ولتبصرهم بالولي الحقيقي الذي ينبغي لهم أن يتولوه وهو الله جل

(١) صحيح البخاري ٥/ ٢٤٠٠ (٦١٩٥)، صحيح مسلم ٢/ ٧٠٣ (١٠١٦).
(٢) صحيح البخاري ٣/ ١٢٧٩ (٣٢٨٠)، صحيح مسلم ٤/ ١٧٦١ (٢٢٤٥).
(٣) فتح الباري ٦/ ٥١٦.

وعلا، وتنعى عليهم استبدال هذه الولاية الحقة بولاية أشد الخلق عداوة لهم، وتلك لعمر الله خفة عقل وغباوة منقطعة النظير.

ونكتة أخرى، وهي المشابهة بين تكبر المشركين وصاحب الجنتين وتكبر إبليس، إذ أبى أن يسجد لآدم لما يراه لنفسه من فضل وشرف الأصل وهو النار ومن ضعة لآدم لأنه من طين، وكذلك أولئك رأوا لأنفسهم فضلاً لشرف الأصل ولكثرة المال والولد وغير ذلك من المتاع، فشابهوه في الفعل فناسب أن يذكرهم بما حصل في مبدأ الخلق.

قال البقاعي: (لما ذكر البعث وختمه بإحسانه بالعدل المثمر لإعطاء كل أحد ما يستحقه، أتبعه -بما له من الفضل- بابتداء الخلق الذي هو دليله، في سياق مذكر بولايته الموجبة للإقبال عليه، وعداوة الشيطان الموجبة للإدبار عنه، مبين لما قابلوا به عدله فيهم وفي عدوهم من الظلم كما تكبر على آدم ﷺ بأصله، فتكبروا على فقراء المؤمنين بأصلهم وأموالهم وعشائرهم، فكان فعلهم فعله سواء، فكان قدوتهم وهو عدوهم)[1].

قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾

أي (واذكر يا محمد)[2]، قال ابن الجوزي: (أمر نبيَّه ﷺ أن يذكِّر هؤلاء المتكبِّرين عن مجالسة الفقراء قصةَ إبليس وما أورثه الكِبْر، فقال: {وإذ قلنا} أي: اذكر ذلك)[3]، وقال ابن كثير: (يقول تعالى منبهًا بني آدم على عداوة إبليس لهم ولأبيهم، ومقرعًا لمن اتبعه وخالف خالقه الذي أنشأه، وبألطاف رزقه غذاه، ثم بعد هذا والى إبليس وعادى الله، فقال: ﴿

(١) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٥٢ بتصرف واختصار.

(٢) تفسير معالم التنزيل للبغوي ٥/ ١٧٨.

(٣) زاد المسير ٤/ ٢٣٠ بتصرف واختصار.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ أي: لجميع الملائكة ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ سجود تشريف وتعظيم)[١].

والملائكة في عقيدة أهل السنة (خلقوا من نور وخِلْقتهم عظيمة، منهم مَن له جناحان، ومَن له ثلاثة، ومن له أَربعة، ومَن لهُ أَكثر، وهم ذوات محسوسة، وليسوا أُمورا معنوية، ولا قوى خفية، يسكنون السَّماء، وهم جند من جنود الله، قادرون على التشكُل بأَشكال جسمانية ؛ حسبما يأذن الله، وهم مقربون من الله ومكرَّمون، لا يوصفون بالذكورة والأنوثة، ولا يتناسلون، ولا يأكلون ولا يشربون، طعامهم التسبيح والتهليل، ولا يملون، ولا يتعبون، ويتصفون بالحسن، والجمال، والحياء، والنظام.

ويختلفون عن البشر بأَنَّهم جُبلُوا على الطاعة، خلقهم الله لعبادته وتنفيذ أَوامره، يسبحون الله ليلا ونهارا، ويطوفون بالبيت المعمور في السماء، ويخشون الله تعالى، وهم أَصناف كثيرة موكلة بأعمال مختلفة، ولا يعلم عددهم إِلَّا الله ﷻ، قد حجبهم عنّا؛ فلا نراهم في صورهم، ولكن كشفهم لبعض عباده، كما رأى النبي ﷺ جبريل على صورته مرتين)[٢].

وآدم عليه السلام أبو البشر، خلقه الله ﷻ من طين بيده تشريفاً، ونفخ فيه من روحه، وأسكنه جنته، وأسجد له ملائكته، وخلق منه زوجه، وهو نبي، سأل رجل النبي ﷺ فقال: "يا رسول الله أنبي كان آدم؟ قال: نعم معلَّم مكلَّم"[٣].

وقوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٦٧ بتصرف واختصار.

(٢) الوجيز في عقيدة السلف الصالح أهل السنة والجماعة ١/ ٥٣ - ٥٧، بتصرف.

(٣) المستدرك على الصحيحين للحاكم (٢/ ٢٨٨)، قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

أما الملائكة فاستجابوا كلهم لأمر الله ﷻ وسجدوا في الحال بلا تردد، لأن طاعة ربهم جل وعلا من صفاتهم التي فطرهم عليها، قال تعالى: ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ [الحجر: ٣٠] و[ص: ٧٣]، وأما إبليس فأبى السجود ظلماً وعدواناً، فكان بهذا من الكافرين.

قال ابن كثير رحمه الله عند قوله: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ﴾: (خانه أصله؛ فإنه خلق من مارج من نار؛ وأصل خلق الملائكة من نور، فعند الحاجة نضح كل وعاء بما فيه، وخانه الطبع، وذلك أنه كان قد تَوَسَّم بأفعال الملائكة وتشبه بهم، وتعبد وتنسك، فلهذا دخل في خطابهم، وعصى بالمخالفة)(١).

قال القرطبي: (وإبليس وزنه إفعيل، من الإبلاس وهو اليأس من رحمة الله، ولم ينصرف لأنه معرفة ولا نظير له فشبه بالأعجمية، قاله أبو عبيدة، وقيل: أعجمي فلم ينصرف للعجمة والتعريف، قاله الزجاج)(٢).

وقوله : ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾

قال ابن منظور: (جَنَّ الشيءَ يَجُنُّه جَنّاً سَتَره وبه سمي الجِنُّ لاسْتِتارِهم)(٣)، فهم يروننا ولا نراهم، قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ [الأعراف: ٢٧]، قال الحسن البصري: (ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط، وإنه لأصل الجنّ، كما أن آدم عليه السلام أصل الإنس)(٤).

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٦٧ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير القرطبي ١/ ٢٩٥ بتصرف واختصار.
(٣) لسان العرب ١٣/ ٩٢.
(٤) تفسير الطبري ١٨/ ٤١.

قال الشنقيطي: (وقوله: ﴿كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۚ﴾ ظاهر في أن فسقه لكونه من الجن، وقد تقرر في الأصول أن الفاء تدل على التعليل، كقولهم: سرق فقطعت يده، أي لسرقته، وسها فسجد، أي لسهوه، ومن هذا: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨] أي لعلة سرقتهما، وكذلك قوله: ﴿كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ﴾ أي لعلة كينونته من الجن، لأن هذا الوصف فرق بينه وبين الملائكة، لأنهم امتثلوا الأمر وعصى هو)[1].

قال الطبري: (وقوله: ﴿فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۚ﴾ يقول: فخرج عن أمر ربه، وعدل عنه ومال، كما قال رؤبة:

يَهْوِينَ فِي نَجْدٍ وغَوْرًا غائرًا   فَوَاسقا عَنْ قَصْدِها جَوَائرًا

يعني بالفواسق: الإبل المنعدلة عن قصد نجد، وكذلك الفسق في الدين هو الانعدال عن القصد، والميل عن الاستقامة، ويُحكى عن العرب سماعا: فسقت الرطبة من قشرها: إذا خرجت، وفسقت الفأرة: خرجت من جحرها، وكان بعض أهل العربية من البصرة يقول: إنما قيل: ﴿فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۚ﴾ لأنه مراد به: ففسق عن ردّه أمر الله، كما تقول العرب: أتخمت عن الطعام، بمعنى: أتخمت لما أكلته. معناه: عدل وجار عن أمر الله، وخرج عنه. وقال بعض أهل العلم: معنى الفسق: الاتساع. وزعم أن العرب تقول: فسق في النفقة: بمعنى اتسع فيها. قال: وإنما سمي الفاسق فاسقا، لاتساعه في محارم الله)[2]. **تنبيه**- الفسوق أكبر وأصغر، فالأكبر كفر، والأصغر من جنس المعاصي، والمراد هنا هو الأكبر أي الكفر.

---

(١) أضواء البيان ٣/ ٣٥٦ بتصرف واختصار.

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٤٢-٤٣ بتصرف واختصار.

وقوله : ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾

تقريع وتوبيخ لمن اتبعه وأطاعه، قال الطبري: (يقول: أفتوالون يا بني آدم من استكبر على أبيكم وحسده، وكفر نعمتي، وغره حتى أخرجه من الجنة إلى الأرض، وتطيعونه وذريّته من دون الله مع عدواته لكم قديما وحديثا، وتتركون طاعة ربكم الذي أسجد لوالدكم ملائكته، وأسكنه جناته، وآتاكم من فواضل نعمه ما لا يحصى؟ وذرّية إبليس: الشياطين يغرّون بني آدم)[1]، (قتادة: يتوالدون كبني آدم، وهم لكم عدوّ)[2].

وقوله : ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ قال ابن الجوزي: (فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: بئس الاتخاذ للظالمين بدلاً. والثاني: بئس الشيطان.

والثالث: بئس الشيطان والذرِّيَّة، ذكرهنَّ ابن الأنباري)[3].قال الطبري: (بئس البدل للكافرين اتخاذ إبليس وذريته أولياء من دون الله وهم لكم عدوّ، من تركهم اتخاذ الله وليا باتباع أمره ونهيه، وهو المنعم عليهم وعلى أبيهم، المتفضّل عليهم من الفواضل ما لا يحصى؛ بدلا)[4].

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٤٣ بتصرف واختصار.

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٤٤ بتصرف واختصار.

(٣) زاد المسير ٤/ ٢٣١.

(٤) تفسير الطبري ١٨/ ٤٤ بتصرف واختصار.

فوائد من قصة إبليس

ما ذكرته الآية من قصة السجود تكرر في القرآن بدءاً من البقرة، وقد حوت القصة فوائد وعبراً ودروساً لا ينبغي أن يغفل عنها المؤمن السالك إلى الله ﷻ، لأن نجاة الإنسان بسلام إلى جنة عرضها السماوات والأرض يتوقف في كثير منه على فهم القصة واستحضار دروسها.

الفائدة الأولى- هل إبليس من الملائكة؟

قد يبدو السؤال غريباً لما هو مستقر في الأذهان أنه من الجن، إلا أن هذه المسألة فيها خلاف مشهور بين أهل العلم، قال الشنقيطي رحمه الله: (والخلاف في إبليس هل هو ملك في الأصل ومسخه الله شيطاناً، أو ليس بملك، وشمله لفظ الملائكة لتعبده معهم مشهور عند أهل العلم)[1].

قال الشنقيطي: (وحجة من قال: ليس من الملائكة أمران: أحدهما عصمة الملائكة من الكفر الذي ارتكبه. كما قال: ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم]، وقال: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنبياء]. والثاني: التصريح في الآية بأنه من الجن، والجن غير الملائكة. قالوا: وهو نص في محل النزاع. واحتج من قال: إنه ملك في الأصل بما تكرر في الآيات من قوله: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الحجر] قالوا: فأخرجه بالاستثناء من الملائكة، فدل على أنه منهم. وقال بعضهم: والظواهر إذا كثرت صارت كالنص. ومن المعلوم أن الأصل في الاستثناء الاتصال لا الانقطاع. قالوا: ولا حجة لمن خالفنا في قوله: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ لأن الجن قبيلة من الملائكة،

---

(١) أضواء البيان ٣/ ٣٥٧ بتصرف واختصار.

خلقوا من بينهم من نار السموم كما روي عن ابن عباس. والعرب تعرف في لغتها إطلاق الجن على الملائكة. ومنه قول الأعشى في سليمان:

وسخر من جن الملائك تسعة قياماً لديه يعملون بلا أجر

قالوا: ومن إطلاق الجن على الملائكة قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات: ١٥٨] عند من يقول: بأن المراد بذلك قولهم: الملائكة بنات الله. سبحانه وتعالى عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله علواً كبيراً)[١].

وعلى أن الاستثناء متصل لا يلزم كونه من الملائكة، قال الزمخشري: (﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ استثناء متصل، لأنه كان جنّياً واحداً بين ألوف الملائكة، فغلبوا عليه في قوله: ﴿فَسَجَدُوا﴾ ثم استثني منهم استثناء واحد منهم)[٢]، وقال الأزهري: (قال أبو إسحاق: في سياق الآية دليل على أن إبليس أُمر بالسجود مع الملائكة، وأكثر التفسير أن إبليس من غيرهم كما قال الله: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ فإن قيل: كيف استثني وليس منهم؟ فالجواب أنه أُمِرَ معهم بالسجود، فاستُثني من أنه لم يسجد، كما تقول: أمرت عبدي وإخوتي فأطاعوني إلا عبدي، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ فربّ العالمين ليس من الأول، لا معنى للكلام غير هذا)[٣].

فالصحيح أنه ليس من الملائكة، لصريح دلالة ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾، قال الشوكاني: (مستأنفة لبيان سبب عصيانه وأنه كان من الجنّ ولم يكن من الملائكة فلهذا عصى)[٤]، وفيما سبق رد كاف على من قال إنه من الملائكة.

---

(١) أضواء البيان ٣/ ٣٥٧ بتصرف واختصار.
(٢) الكشاف ١/ ٨١، تفسير سورة البقرة، باختصار وتصرف.
(٣) تهذيب اللغة ٣/ ٤٤١ بتصرف واختصار.
(٤) فتح القدير ٤/ ٣٩٩.

أما ما روي عن ابن عباس من قوله: إن الجن قبيلة من الملائكة خلقوا من نار، فغريب، وإن ثبت فقد يكون أخذه من أهل الكتاب، وإلا فإنه مخالف لما ثبت عن النبي ﷺ: "خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم"(١)، فلو كان كما قالوا لقال بعض الملائكة، لا سيما وأن لابن عباس في المسألة قولاً آخر كما سبق.

قال القرطبي: (قال ابن زيد والحسن وقتادة أيضاً: إبليس أبو الجن كما أن آدم أبو البشر ولم يكن ملكاً، وروي نحوه عن ابن عباس وقال: اسمه الحارث)(٢)، وأما قول القرطبي: (كان من الملائكة على قول الجمهور: ابن عباس وابن مسعود وابن جريج وابن المسيب وقتادة وغيرهم، وهو اختيار الشيخ أبي الحسن، ورجحه الطبري)(٣)، فقد قال ابن كثير في هذا المقام كلاماً رائقاً: (وقد رُوي في هذا آثار كثيرة عن السلف، وغالبها من الإسرائيليات التي تنقل لينظر فيها، والله أعلم بحال كثير منها. ومنها ما قد يقطع بكذبه لمخالفته للحق بأيدينا، وفي القرآن غُنْيَةٌ عما عداه من الأخبار المتقدمة؛ لأنها لا تكاد تخلو من تبديل، وقد وضع فيها أشياء كثيرة، وليس لهم من الحفاظ المتقنين الذين يَنْفُون عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين، كما لهذه الأمة من الأئمة والعلماء، والنجباء من الجهابذة النقاد، والحفاظ الذين دونوا الحديث وحرروه، وبينوا صحيحه من ضعيفه، من منكره وموضوعه، ومتروكه ومكذوبه، وعرفوا

---

(١) صحيح مسلم ٤/ ٢٢٩٤ (٢٩٩٦).
(٢) تفسير القرطبي ١/ ٢٩٤.
(٣) تفسير القرطبي ١/ ٢٩٤.

الوضاعين والمجهولين، وغير ذلك من أصناف الرجال، كل ذلك صيانة للجناب النبوي، خاتم الرسل، أن ينسب إليه كذب، أو يحدث عنه بما ليس منه، فرضي الله عنهم، وجعل جنات الفردوس مأواهم، وقد فعل)[1].

الفائدة الثانية- الفرق بين معصية آدم عليه السلام ومعصية إبليس لعنه الله:

عصى إبليس أمر الله عز وجل وعصاه آدم عليه السلام، ولكن شتان بينهما، إن بينهم بعد ما بين السماوات والأرض، والفرق بين المعصيتين من وجوه:

الأول- معصية آدم لم تكن عن عزم بل ضعف وذهول عن نهي الله، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ١١٥﴾ [طه]، وأما إبليس فعن عزم وتصميم، وذلك لإصراره على المعصية بعد وقوعها، وتعليله لها، وعدم توبته، وطلب النظرة إلى يوم القيامة.

الثاني- معصية آدم كانت لشهوة إذ تطلعت نفسه للأكل من الشجرة التي منع، وكل ممنوع مرغوب، ومعصية إبليس لشبهة؛ قال (أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين)، فسهل على آدم عليه السلام أن ينزع ويستغفر، ولم يمكن إبليس هذا، فخطر الشبهات أعظم من الشهوات.

الثالث- وهو مبني على ما سبق، أن آدم لم يكفر بذنبه، وكفر إبليس لأن في شبهته اعتراضاً على حكمة الله، وهذا قدح في أصل العبودية، قال ابن القيم رحمه الله: (لما سلم لآدم أصل العبودية لم يقدح فيه الذنب)[2].

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٦٨ بتصرف واختصار.

(٢) الفوائد ١/ ٦٦.

الرابع- ما قاله ابن عباس رضي الله عنهما: (إذا كانت خطيئة الرجل في كِبْر فلا تَرْجُه، وإذا كانت خطيئته في معصية فارجه، وكانت خطيئة آدم في معصية، وخطيئة إبليس في كبر)(١).

الخامس- أن معصية آدم عليه السلام كانت بوسوسة من إبليس، وكانت معصية إبليس ذاتية سولتها له نفسه الخبيثة.

السادس- معصية آدم عليه السلام لم تكن عن خبث بل عن طيب نفس، لهذا انخدع بقسم إبليس، ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الأعراف]، قال قتادة: (فحلف لهما حتى خدعهما، وقد يُخْدع المؤمن بالله، فقال: إني خلقت قبلكما، وأنا أعلم منكما، فاتبعاني أرشدكما. كما قيل: "من خادَعنا بالله خُدِعْنا)(٢)"، وأما معصية إبليس فعن خبث وفساد طبع.

السابع- معصية آدم عفوية لا ينفك عنها بنوه، قال عليه السلام: "كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون"(٣)، ومعصية إبليس قياس فاسد مقابل النص.

فهذه الفروق وغيرها، جعلت توبة آدم عليه السلام قريبة هينة على نفسه، على عكس عدو الله الذي كان منتهى أمله أن يؤخِّر عذابه ليوم القيامة ليوقع في شباكه من بني آدم ليشتركوا معه في الخلود في نار جهنم.

الفائدة الثالثة- شؤم المعصية وخطرها وفضل التوبة وبركتها: فبعد أن كان آدم عليه السلام في أعز جوار في جنة لا يجوع فيها ولا يعرى، ولا يظمأ فيها ولا يشقى، أهبط إلى الدنيا ليكد وينصب ويتعب، تتناوشه فيها سهام الأعداء بعد أن كان في عز ومنعة، وكل هذا بأكلة أكلها من شجرة واحدة حرمها الله عليه في الجنة بعد أن متعه فيها بكل ما سواها: ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٤١.

(٢) تفسير الطبري ١٢/ ٣٥١ بتصرف يسير.

(٣) سنن الترمذي ٤/ ٦٥٩ (٢٤٩٩)، وحسنه الألباني.

أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [البقرة]، إلا أن الله ﷻ لا يقنط عباده من رحمته، فلما تاب تاب الله عليه: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف]، ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة].

وهذا الذي كان من آدم عليه السلام ما كان لينجو منه بنوه لو كانوا مكانه، فوجودهم على الأرض يشبه أن يكون بكسب أيديهم لو أنهم مروا بما مر به عليه السلام، وكثرة وقوعهم في المعاصي دليل واضح على ذلك، ثم إن الله سبحانه فتح لخلقه أبواب الرحمة فوعدهم أن يعيدهم إلى الجنة إن هم وعوا درس المعصية الأولى واتخذوا ربهم ولياً وعدوه إبليس عدوا وشمروا عن ساعد الجد، ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة]، فإن فعلوا رجعوا إلى منازلهم الأولى:

فحي على جنات عدن فإنها　　منازلك الأولى وفيها المخَيَّمُ
ولكننا سبي العدو فهل ترى　　نعـود إلى أوطاننا ونُسَّلَـمُ

ولئن كان هذا شؤم معصية آدم عليه السلام، فشؤم معصية إبليس أشد وأنكى، لأن معصيته كفر، لأنها ردٌّ على الله، وهذا ناقض للإيمان القائم على ألوهية الله وحاكميته وحده، ومن هنا كانت معصية إبليس مكفِّرة، ثم إنه أتبعها بالإصرار والاستكبار فحرم نفسه التوبة. فليحذر الذين يتجرؤون على التخيِّر من أحكام الله، والانتقاء، فإنهم في الحقيقة يسيرون على خطى إبليس في الاستكبار، وجعل عقولهم القاصرة، وأهوائهم المتباينة مرجعا للمدح والذم، فليقلعوا ويرجعوا ويتوبوا قبل أن يأتي يوم

لا مرد له من الله، ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الروم].

الفائدة الرابعة- إغلاق باب التأويل الباطل والأقيسة الفاسدة: قال جعفر بن محمد بن الحنفية لرجل: (اتق الله ولا تَقِس الدين برأيك، فإن أول من قاس إبليس؛ إذ أمره الله بالسجود لآدم، فقال: ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾)(١)، وقال ابن القيم رحمه الله: (قد قيل إن طرد إبليس ولعنه إنما كان بسبب التأويل، فإنه عارض النص بالقياس وقدمه عليه وتأول لنفسه أن هذا القياس العقلي مقدم على نص الأمر بالسجود فإنه قال: ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ [الأعراف: ١٢]، وهذا دليل قد حذفت إحدى مقدمتيه وهي أن الفاضل لا يخضع للمفضول وطوى ذكر هذه المقدمة كأنها مقررة وقرر المقدمة الأولى بقوله: ﴿ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأعراف]، فكان نتيجة المقدمتين امتناعه من السجود وظن أن هذه الشبهة العقلية تنفعه في تأويله فجرى ما جرى وصار إماماً لكل من عارض نصوص الوحي بتأويله الباطل إلى يوم القيامة، فكم لهذا الإمام اللعين من أتباع من العالمين، وأنت إذا تأملت عامة شبه المتأولين التي تأولوا لأجلها النصوص وعطلوها رأيتها من جنس شبهته. والقائل: إذا تعارض العقل والنقل قدمنا العقل، من هاهنا اشتق هذه القاعدة وجعلها أصلا لرد نصوص الوحي التي يزعم أن العقل يخالفها، كما زعم إمامه أن دليل العقل يخالف نص الأمر بالسجود حين قدمه عليه، وعرضت لعدو الله هذه الشبهة من ناحية كبره الذي منعه من الانقياد المحض لنص الوحي، وهكذا تجد كل مجادل في نصوص الوحي بالباطل إنما يحمله على ذلك كبر في صدره ﴿ إِنَّ

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ٣٤٩.

ﭐلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ [غافر])(1).

فلو صح أن النار خير من الطين وأن الفاضل لا يخضع للمفضول، لما جاز أن يرد أمر الله ﷻ بهذه الحجة، فالله سبحانه لا يسأل عما يفعل، ولئن صح فليس بالضرورة أن يكون هذا هو عامل التفاضل الوحيد، وقد غاب عنه أنه تعالى خلق آدم بيده وكفى بهذا تشريفاً وتكريماً.

على أن النكتة في أن مقدمة (النار خير من الطين) ليست صحيحة!

قال ابن كثير رحمه الله: (أخطأ قَبَّحه الله في قياسه ودعواه أن النار أشرف من الطين، فإن الطين من شأنه الرزانة والأناة والتثبت، والطين محل النبات والزيادة والإصلاح. والنار من شأنها الإحراق والطيش والسرعة؛ فخان إبليسَ عنصرُه، ونفع آدمَ عنصرُه في الرجوع والإنابة والاستكانة والانقياد والاستسلام لأمر الله، والاعتراف وطلب التوبة والمغفرة)(2).

وإن مما يحز في النفس أن تجد اليوم من نشأ في السنة وتربى عليها ثم تستفزه شياطين الإنس والجن فيسير في ركب المحرفين للنصوص، أو المضعفين لما ثبت منها مجاراة للعلمانيين وأضرابهم، أو رضوخاً لضغوط الداخل والخارج، ويكون عوناً لهؤلاء على أهل الخير والصلاح بزعم التجديد أو المصلحة، فيلجأ إلى الأقيسة الفاسدة، ويعرض النصوص على عقله القاصر فيردها أو يحرفها، نسأل الله السلامة والعافية.

---

(١) الصواعق المرسلة ١/ ٣٧٠-٣٧٢ بتصرف واختصار.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٩٢ بتصرف واختصار.

الفائدة الخامسة- التفاضل يكون بالتقوى والعمل الصالح:

وهذه حقيقة مقررة في الشرع، دلت عليها الآيات والأحاديث، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[الحجرات: ١٣]، وقال ﷺ: "من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه"[١]، وعن عامر بن واثلة أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر فقال: "من استعملت على أهل الوادي؟ فقال: ابن أبزى. قال: ومن ابن أبزى؟ قال: مولى من موالينا. قال: فاستخلفت عليهم مولى؟ قال: إنه قارئ لكتاب الله ﷻ عالم بالفرائض. قال عمر: إن نبيكم ﷺ قال: إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما ويضع به آخرين"[٢].

فمن غفل عن هذه الحقيقة أو تغافل واتكأ على شرف أصله فلا يأمن أن يكله الله إليه فتخونه أحوج ما يكون، كما خان إبليسَ أصلُه في أحلك المواقف، فأورده المهالك، على فرض شرف أصله وعلوه على الطين.

الفائدة السادسة- أهمية الإخلاص: سواء كان إبليس من الملائكة أو من الجن، فقد كان في درجة عالية ومنزلة سامية إذ كان مع الملائكة يوم أمروا بالسجود لآدم، وقد كثرت الروايات أنه كان ذا علم وعمل وعبادة؛ لكن الأحداث التالية منذ جاء الأمر الإلهي بالسجود تشي أن علمه وعمله وعبادته لم تكن خالصة لله بل كانت ليصل بها إلى هذه المنزلة من الرفعة والمكانة بين الملائكة، فرضا نفسه هو مطلوبه لا رضا ربه وخالقه جل وعلا، ولو كان الأمر غير ذلك لانتفع بعلمه فلم يخالف الأمر الإلهي.

إن أمر الإخلاص عظيم، فبدونه يصبح العلم حجة على صاحبه وتصبح الأعمال الصالحة كأن لم تكن، بل تصبح نقمة على المرء، فعن شُفَيٍّ

---

(١) صحيح مسلم ٤/ ٢٠٧٤ (٢٦٩٩).
(٢) صحيح مسلم ١/ ٥٥٩ (٨١٧).

الأصبحي عن أبي هريرة، قال: حدثني رسول الله ﷺ أن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم وكل أمة جاثية، فأول من يدعو به رجل جمع القرآن ورجل يقتتل في سبيل الله ورجل كثير المال، فيقول الله للقارئ: ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي؟ قال: بلى يا رب. قال: فماذا عملت فيما علمت؟ قال: كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار. فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله: بل أردت أن يقال إن فلاناً قارئ، فقد قيل ذاك. ويؤتى بصاحب المال فيقول الله له: ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال: بلى يا رب. قال: فماذا عملت فيما آتيتك؟ قال: كنت أصل الرحم وأتصدق. فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله تعالى: بل أردت أن يقال فلان جواد، فقد قيل ذاك. ويؤتى بالذي قتل في سبيل الله فيقول الله له: في ماذا قتلت؟ فيقول: أمرت بالجهاد في سبيلك فقاتلت حتى قتلت. فيقول الله تعالى له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله: بل أردت أن يقال فلان جريء، فقد قيل ذاك. ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي فقال: يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة! وقال الوليد أبو عثمان فأخبرني عقبة بن مسلم أن شُفَيّاً هو الذي دخل على معاوية فأخبره بهذا، قال أبو عثمان وحدثني العلاء بن أبي حكيم أنه كان سيافاً لمعاوية فدخل عليه رجل فأخبره بهذا عن أبي هريرة فقال معاوية: قد فُعِل بهؤلاء هذا فكيف بمن بقي من الناس؟ ثم بكى معاوية بكاءً شديداً حتى ظننا أنه هالك، وقلنا: قد جاءنا هذا الرجل بِشرّ. ثم أفاق معاوية ومسح عن وجهه وقال صدق الله ورسوله ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا

نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾"(١).

الفائدة السابعة- رؤية فضل الله على بني آدم بالتكريم والتشريف:

فبهذه القصة وبما كان من عناد إبليس، أظهر الله فضل آدم عليه السلام، إذ خلقه بيده، وأسجد له ملائكته وأسكنه جنته، ولو شاء الله لما ذكر ذلك ولقصر الكلام على معصيته، لكنه نشر فضله وأذاع شرفه، فحري بالعبد أن يقابل هذا الفضل بالشكر، وهذا الشرف بالحمد، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾ [إبراهيم].

الفائدة الثامنة- إدراك أصل عداوة إبليس ومداها: وهذه أعظم فائدة يجنيها المؤمن من القصة، ولذا تعددت في القرآن، ليعرف عدوه فيحذره، ولا يستبدل ولاية عدوه الممتلئ بغضاً وحسداً وعداوة، بولاية خالقه ومن أسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، ومن هو أرحم به من أمه وأبيه.

وهذه العداوة التي أظهرها إبليس باقية ملازمة، ولم تقف عند آدم بل عداها إلى بنيه فقال: ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الإسراء]، وقال: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [ص]، ونقلها لذريته؛ قال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾ [الكهف: ٥٠].

وينبغي أن تعرف أن كيد إبليس لا يهدأ ولا يفتر: ﴿ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأعراف]، فمن كانت

---

(١) سنن الترمذي ٤/ ٥٩١ (٢٣٨٢)، وصححه الألباني.

هذه حاله وحال ذريته فحري بالعاقل أن يتخذه عدواً، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦﴾ [فاطر].

ومن فقه المرء معرفة مداخل الشيطان، فإن من عرف عدوه وخططه سهل عليه إبطالها والتصدي لها، بخلاف من عرف عدوه ولم يعرف ما ينصبه من شراك، ناهيك عمن لا يعرف عدوه، فضلاً عمن اتخذه ولياً!

قال ابن القيم رحمه الله في بيان شرور الشيطان: (ولا يمكن حصر أجناس شره فضلا عن آحادها، إذ كل شر في العالم فهو السبب فيه، ولكن ينحصر في ستة أجناس لا يزال بابن آدم حتى ينال واحداً منها؛ الأول: شر الكفر والشرك ومعاداة الله ورسوله وهو أول ما يريد من العبد، فلا يزال به حتى يناله منه، فإذا ناله صيره من جنده، واستنابه على أمثاله، فصار من دعاة إبليس ونوابه، فإذا يئس من ذلك وكان ممن سبق له الإسلام في بطن أمه نقله إلى: المرتبة الثانية من الشر: البدعة، وهي أحب إليه من المعاصي لأن ضررها في نفس الدين، وهو ضرر متعد، ولا يتاب منها، وهي مخالفة لدعوة الرسل ودعاء إلى خلاف ما جاؤوا به، وهي باب الكفر، فإذا نال منه البدعة بقي أيضا داعيا من دعاته، فإن أعجزه من هذه المرتبة وكان العبد ممن سبقت له من الله موهبة السنة نقله إلى: المرتبة الثالثة من الشر: وهي الكبائر، فهو أشد حرصا على أن يوقعه فيها، ولا سيما إن كان عالما متبوعا، لينفر الناس عنه، ثم يشيع من ذنوبه في الناس، ويستنيب من يشيعها، تدينا وتقربا بزعمه وهو نائب إبليس ولا يشعر، فإن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم، فكيف إذا تولوا هم

إشاعتها؟ لا نصيحة منهم ولكن طاعة لإبليس ونيابة عنه، كل ذلك لينفر الناس عنه وعن الانتفاع به، وذنوب هذا ولو بلغت عنان السماء أهون من ذنوب هؤلاء، فإنها ظلم منه لنفسه إذا استغفر الله وتاب إليه قبل الله توبته وبدل سيئاته حسنات، وأما ذنوب أولئك فظلم للمؤمنين وتتبع لعورتهم وقصد لفضيحتهم، فإن عجز الشيطان عن هذه المرتبة نقله إلى: المرتبة الرابعة: وهي الصغائر التي إذا اجتمعت فربما أهلكت صاحبها، كما قال النبي: إياكم ومحقرات الذنوب، فإن مثل ذلك مثل قوم نزلوا بفلاة من الأرض، وذكر حديثا معناه أن كل واحد جاء بعود حتى أوقدوا نارا عظيمة فطبخوا واشتووا، ولا يزال يسهل عليه الصغائر حتى يستهين بها فيكون صاحب الكبيرة الخائف أحسن حالا منه، فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة نقله إلى: المرتبة الخامسة: وهي إشغاله بالمباحات التي لا ثواب فيها ولا عقاب، بل عاقبتها فوت الثواب الذي ضاع عليه باشتغاله بها، فإن أعجزه من هذه المرتبة وكان حافظا لوقته، نقله إلى: المرتبة السادسة: وهو أن يشغله بالعمل المفضول عما هو أفضل منه، ليزيح عنه الفضيلة ويفوته ثواب العمل الفاضل، فيأمره بفعل المفضول ويحضه عليه إذا تضمن ترك ما هو أفضل، وقل من يتنبه لهذا، فإنه إذا رأى داعيا إلى نوع من الطاعة لا يكاد يقول إن هذا الداعي من الشيطان، فإنه لا يأمر بخير، ويرى أن هذا خير فيقول هذا الداعي من الله، وهو معذور ولم يصل علمه إلى أن الشيطان يأمر بسبعين بابا من الخير ليتوصل بها إلى باب من الشر أو ليفوت بها خيرا أعظم، وهذا لا يتوصل إلى معرفته إلا بنور من الله يقذفه في قلب العبد يكون سببه تجريد متابعة الرسول وشدة عنايته بمراتب الأعمال عند الله وأحبها إليه وأرضاها له وأنفعها للعبد وأعمها نصيحة لله

تعالى ولرسوله ولكتابه ولعباده المؤمنين خاصتهم وعامتهم، ولا يعرف هذا إلا من كان من ورثة الرسول، وأكثر الخلق محجوبون عن ذلك فلا يخطر بقلوبهم والله تعالى يمن بفضله على من يشاء من عباده)[١].

وما دامت العلاقة بين بني آدم وإبليس وذريته عدائية لهذا الحد؛ فَحُقَّ للعاقل العجب من اتخاذه وذريتِه أولياء، وأن يتوَجَّهَ إليهم التوبيخ: (كيف تصنعون هذا الصنع وتستبدلون بمن خلقكم وأنعم عليكم بجميع ما أنتم فيه من النعم؟ من لم يكن لكم منه منفعة قط، بل هو عدوّ لكم يترقب حصول ما يضركم في كل وقت)[٢]. لكن الشيطان، وقد فَسَق وأَبْلَسَ من رحمة الله، وطُرِد منها؛ لا ينفك يستعين على الإنسان بهواه، ويستحوذ عليه بمقدار ضعف إيمانه، وغفلته عن ذكر الله، وإلا فإن كيده كان ضعيفاً.

وقوله: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ﴾

قال البغوي: (﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ﴾ ما أحضرتهم وقرأ أبو جعفر "ما أشهدناهم" بالنون والألف على التعظيم)[٣]، وقال ابن الجوزي: (في المشار إليهم أربعة أقوال؛ أحدها: إبليس وذريته، والثاني: الملائكة، والثالث: جميع الكفار، والرابع: جميع الخلق؛ والمعنى: إني لم أشاورهم في خلقهن؛ وفي هذا بيان للغَناء عن الأعوان، وإظهار كمال القدرة)[٤]، والأنسب لسياق الآيات وسباقها أن يكون المقصود إبليس وذريته الذين اتخذهم الظالمون أولياء، قال الطبري: (يقول عزّ ذكره: ما أحضرتهم ذلك فأستعين

---

(١) بدائع الفوائد ٢/ ٤٨٣-٤٨٥ بتصرف واختصار.

(٢) فتح القدير ٤/ ٣٩٩.

(٣) تفسير معالم التنزيل للبغوي ٥/ ١٨٠.

(٤) زاد المسير ٤/ ٢٣١.

بهم على خلقها، ولا أشهدت بعضهم أيضا خلق بعض، فأستعين به على خلقه، بل تفرّدت بخلق جميع ذلك بغير معين ولا ظهير، يقول: فكيف اتخذوا عدوّهم أولياء من دوني، وهم خلق أمثالهم، وتركوا عبادتي وأنا المنعم عليهم، وخالقهم وخالق من يوالونه من غير معين ولا ظهير)(١)، وقال ابن كثير: (يقول تعالى: هؤلاء الذين اتخذتموهم أولياء من دوني عبيد أمثالكم، لا يملكون شيئًا، ولا أشهدتهم خلقي للسموات والأرض، ولا كانوا إذ ذاك موجودين، فأنا المستقل بخلق الأشياء كلها، ومدبرها ومقدرها وَحْدي، ليس معي في ذلك شريك ولا وزير، كما قال: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ الآية [سبأ]؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ قال مالك: أعوانًا)(٢).

وقوله: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾

قال الطبري: (يقول: وما كنت متخذ من لا يهدي إلى الحقِّ أعواناً وأنصاراً، من قولهم: فلان يعضد فلاناً أي يقوّيه ويعينه يعني أن إبليس وذرّيته يضلون بني آدم عن الحقّ، ولا يهدونهم للرشد)(٣)، قال ابن عطية: (الضمير في ﴿أَشْهَدتُّهُمْ﴾ للكفار، والناس بالجملة، فتتضمن الآية الرد على المنجمين، وأهل الطبائع، والمتحكمين من الأطباء وسواهم من كل من يتخوض في هذه الأشياء، والمقصود أولاً بالآية إبليس وذريته، وبهذا يتجه الرد على الطوائف المذكورة وعلى الكهان والمصدقين لهم والمعظمين للجن حين يقولون: أعوذ بعزيز هذا الوادي، إذ الجميع متعلقون بإبليس وذريته،

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٤٤ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٦٩ بتصرف واختصار.
(٣) تفسير الطبري ١٨/ ٤٥ بتصرف واختصار.

وهم أضلوا الجميع، فهم المراد الأول بـ {المضلين}، وتندرج الطوائف في معناهم)[1]، وفي الانتقال من الضمير في (أشهدتهم) (أنفسهم) إلى الظاهر في (المضلين) نكتة لطيفة، قال الألوسي: (وإنما وضع ذلك موضع ضميرهم ذماً وتسجيلاً بالإضلال وتأكيداً لإنكار اتخاذهم أولياء)[2].

قال ابن عاشور: (والعضد: العظم بين المرفق والكتف)[3]، قال ابن الجوزي: (والعَضُد يستعمل بمعنى العون، لأنه قِوام اليد، قال الزجاج: والاعتضاد؛ التقوِّي وطلب المعونة؛ اعتضدت بفلان: استعنت به. وفي نفى اتخاذهم عضداً قولان؛ أحدهما: الولايات، أي: ما كنت لأولي المضلِّين، قاله مجاهد، والثاني: خَلْق السموات والأرض، قاله مقاتل)[4]، قال الألوسي: (ولكونه نكرة في سياق النفي عم وفسر بالجمع؛ والإفراد لرؤوس الآي، وقيل: لم يجمع لأن الجمع في حكم الواحد في عدم الاعتضاد)[5].

فالمراد من نفي إشهادهم ذلك الإشعارُ بضآلة هؤلاء المضلين، الذين يُتَّخَذون من دون الله أولياء؛ فهم لم يشهدوا الخلق، فضلا أن يستشاروا أو يشاركوا فيها. وما داموا كذلك، فلا يستحقون الطاعة والخضوع؛ لأن الإنسان مفطور على طلب معبود كامل لا يعجزه شيء ولا يحتاج لمعين؛ ليعبده ويلجأ إليه لتحقيق الأمن، والاستغناء به عمن سواه؛ وهؤلاء

---

(١) الوجيز لابن عطية ٤/ ٣١٨ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٢٨١ بتصرف واختصار.
(٣) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٤٤.
(٤) زاد المسير ٤/ ٢٣١ بتصرف واختصار.
(٥) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٢٨١ بتصرف واختصار.

الأولياء ليس أحد منهم كذلك، فليس ذلك إلا لواجب الوجود سبحانه وتعالى، وهذا دليل على وجوب اتخاذه ولياً من دون أولئك المضلين.

فائدة- الله سبحانه منزه عن اتخاذ الناصر والعضد والمعين، لأن هذا نقص ينافي كماله جل وعلا، قال تعالى: (﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾ [الكهف]، أما الإنسان فإنه يحتاج لمن يعينه ويشد من أزره، قال موسى عليه السلام: ﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص]، ولابد لمن أراد الإصلاح أن يتخذ من هو أهل، وابنة شعيب تقول بعد أن رأت حال موسى عليه السلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ [القصص]، ولما أراد ملك مصر أن يستعين بيوسف عليه السلام دله على المهمة التي ينفعه فيها وعلل ذلك بصفاته ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ [يوسف]، فلا يصح أن نتخذ المفرطين عضدا فنمكنهم من المناصب الإعلامية أو الدينية، بل نتخذ أهل الصلاح المتسلحين بالإيمان والمعارف المطلوبة.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾

مناسبة الآيتين لما قبلهما:

في هذا الخطاب عود إلى مشهد يوم القيامة، وفيه بيانُ أن ما ثبت عقلاً من فساد اتخاذ إبليس وذريته أولياء، من واقعهم المنبئ عن العجز والافتقار، ثابت كذلك من جهة المآل لمن أشرك مع الله أحداً في عبادته، إذ إنهم لن ينفعوهم يوم القيامة ولن يردوا عنهم من عذاب الله شيئاً.

قوله: ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾

قال ابن عاشور: (عطف على ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾[الكهف: ٥٠] أي: واذكر يوم ذلك، أو على ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الكهف: ٥١]، فالتقدير: ولا أشهدت شركاءهم جميعاً، ولا تنفعهم شركاؤهم يوم الحشر، فهو انتقال من إبطال معبودية الشيطان والجن إلى إبطال إلهية جميع الآلهة التي عبدها دهماء المشركين مع بيان ما يعتريهم من الخيبة واليأس يومئذٍ)[١]، وقال ابن كثير: (يقول تعالى مخبرًا عما يُخاطب به المشركين يوم القيامة على رؤوس الأشهاد تقريعًا وتوبيخًا: ﴿نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾ أي: في دار الدنيا. ادعوهم اليوم، ينقذونكم مما أنتم فيه)[٢].

وعن قوله: ﴿شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾ قال ابن عاشور: (زعمتموهم شركائي. وقدم وصفهم بالشركاء قبل الزعم تهكماً بالمخاطبين وتوبيخاً لهم، ثم أردف بما يدل على كذبهم بفعل الزعم الدال على اعتقاد باطل)[٣].

فائدة- الزعم لغة يكون حقا وباطلا بخلاف ما يظن بعضهم، فمن الأخطاء الشائعة قصر الزعم على الكاذب، وهذا قد يؤدي إلى فهم خاطئ لمراد المتكلم فتبنى عليه أحكام. قال ابن منظور: (قيل هو القول يكون حقّاً ويكون باطلاً وأَنشد ابن الأَعرابي لأُمَيّةَ في الزَّعْم الذي هو حق:

وإِني أَذينٌ لكم أَنه   سَيُنجِزُكم ربُّكم ما زَعَمْ)[٤].

وقوله: ﴿ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ ﴾

---

(١) التحرير والتنوير ٨/ ٣٨٩ بتصرف يسير.

(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٦٩ بتصرف يسير.

(٣) التحرير والتنوير ٨/ ٣٨٩ بتصرف واختصار.

(٤) لسان العرب ١٢/ ٢٦٤.

قال الطبري: (يقول: فاستغاثوا بهم فلم يغيثوهم)[1]، وقال الشوكاني: (﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ أي: فعلوا ما أمرهم الله به من دعاء الشركاء ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ إذ ذاك، أي: لم يقع منهم مجرد استجابة، فضلاً عن أن ينفعوهم أو يدفعوا عنهم)[2]، وقال القاسمي رحمه الله: (وفي إيراده، مع ظهوره، تهكم بهم وإيذان بأنهم في الحماقة بحيث لا يفهمونه إلا بالتصريح به)[3]. وهذا كقوله: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾ [الرعد]، فبئس للظالمين بدلاً!

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ قال ابن الجوزي: (في المشار إليهم قولان؛ أحدهما: المشركون والشركاء، والثاني: أهل الهدى وأهل الضلالة.

وفي معنى ﴿مَّوْبِقًا﴾ ستة أقوال؛أحدها: مَهْلِكاً، قاله ابن عباس، وقتادة، والضحاك. وقال ابن قتيبة: مَهْلِكاً بينهم وبين آلهتهم في جهنم، ومنه يقال: أَوبَقَتْه ذنوبُه، أي: أهلكتْه. قال الزجاج: جعلنا بينهم من العذاب ما يوبقهم، وقال الفراء: جعلنا تواصُلهم في الدنيا مَوْبِقاً، أي: مَهْلِكاً لهم في الآخرة، فالبَيْن، على هذا بمعنى التواصل، كقوله: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤] على قراءة من ضمَّ النون. والثاني: أن المَوْبِق: وادٍ عميق يُفرَّق به بين أهل الضلالة وأهل الهدى، قاله عبد الله بن عمرو.

والثالث: أنه وادٍ في جهنم، قاله أنس بن مالك، ومجاهد.

والرابع: أن المَوْبِق: العدواة، قاله الحسن. والخامس: أنه المَحْبِس، قاله الربيع بن أنس. والسادس: أنه الموْعِد، قاله أبو عبيدة)[4].

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٤٥.

(٢) فتح القدير ٤/ ٤٠٠ بتصرف يسير.

(٣) تفسير القاسمي، ٧/ ٤٣.

(٤) زاد المسير ٤/ ٢٣٢ بتصرف واختصار.

قال ابن كثير: (والظاهر أنه المهلك، ويجوز أن يكون واديًا في جهنم أو غيره، إلا أن الله أخبر أنه لا سبيل لهؤلاء المشركين، ولا وصول لهم إلى آلهتهم التي كانوا يزعمون، وأنه يفرق بينهم وبينها في الآخرة، فلا خلاص لأحد منهم إلى الآخر، بل بينهما مهلك وهول عظيم وأمر كبير. وإن جعل الضمير في قوله: ﴿بَيْنَهُم﴾ عائدًا إلى المؤمنين والكافرين، كما قال عبد الله ابن عمرو: إنه يفرق بين أهل الهدى والضلالة به؛ فهو كقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الروم]، وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾﴾)[1].

قوله: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾

قال الشنقيطي: (مِن رأى البصَرية، فهي تتعدى لمفعول واحد، والتعبير بالماضي لتحققه، كالواقع بالفعل)[2]، قال ابن الجوزي: (﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾ أي: عاينوها وهي تتغيَّظ حنقاً عليهم. والمراد بالمجرمين: الكفار. ﴿فَظَنُّوٓاْ﴾ أي: أيقنوا ﴿أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ أي: داخلوها. ومعنى المواقعة: ملابسة الشيء بشدَّة)[3]، قال الألوسي: (وضع المظهر في مقام المضمر تصريحاً بإجرامهم وذماً لهم بذلك، والرؤية بصرية)[4]، وقال ابن كثير: (أي لما عاينوا جهنم حين جيء بها تقاد بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك، تحققوا لا محالة أنهم مواقعوها، ليكون من باب تعجيل الهم والحزن لهم، فإن توقع العذاب قبل وقوعه، عذاب ناجز)[5].

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٧٠ بتصرف واختصار.

(٢) أضواء البيان ٣/ ٣٦٤ بتصرف واختصار.

(٣) زاد المسير ٤/ ٢٣٢ بتصرف واختصار.

(٤) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٢٨٦.

(٥) تفسير ابن كثير ٥/ ١٧١ بتصرف واختصار.

قال القرطبي: (فظنوا بمعنى اليقين والعلم، قال ابن عباس: أيقنوا أنهم مواقعوها، وقيل: رأوها من بعيد فتوهموا أنهم مواقعوها، وظنوا أنها تأخذهم في الحال)(١)، وأغلب المفسرين على أن الظنَّ هنا اليقين والعلم. وممن رجحه الطبريُّ، والقرطبيُّ، وابنُ كثيرٍ، والزمخشريُّ، والنَّسفيُّ، والمحليُّ، والشوكانيُّ، والألوسيُّ(٢)، وهو صحيح في اللغة؛ قال دريد(٣):

وَقُلتُ لِعارِضٍ وَأَصحابِ عارِضٍ ... وَرَهطِ بَني السَوداءِ وَالقَومُ شُهَّدي

عَلانِيَةً ظُنّوا بِأَلفَي مُدَجَّجٍ ... سَراتُهُمُ في الفارِسيِّ المُسَرَّدِ

والظن في القرآن بمعنى اليقين كثير كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ٤٦﴾ [البقرة] و﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٢٤٩﴾ [البقرة]، و﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ٢٨﴾ [القيامة]، و﴿وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ﴾ [يونس: ٢٤].

والحال والسياق يرجحان أن المشركين قد أيقنوا أنهم مواقعو النار، والعياذ بالله! قال الألوسي: (وهو الظاهر من حالهم بعد قول الله تعالى ذلك واستغاثتهم بشركائهم وعدم استجابتهم لهم وجعل الموبق بينهم)(٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفٗا﴾

قال ابن عاشور: (في الكلام إيجاز، تقديره: وحاولوا الانقلاب أو الانصراف فلم يجدوا عنها مصرفاً، أي مخلصاً)(١)، وقال ابن الجوزي: (أي:

---

(١) تفسير القرطبي ١١/ ٣ بتصرف واختصار.

(٢) انظر: تفسير الطبري ١٥/ ١٧٣، وتفسير القرطبي ١١/ ٣، وتفسير الجلالين ٢٨٣، وروح المعاني ٨/ ٧٧٤، وتفسير القرآن العظيم ٣/ ٩٠، وفتح القدير ٣/ ٢٩٤، والكشاف ٣/ ٧٢.

(٣) دُرَيد بن الصِمّة الجشمي البكري، من هوازن (ت ٨ هـ)، والبيتان من الطويل.

(٤) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٢٨٦.

(أي: مَعْدِلاً؛ والمَصْرِف: الموضع الذي يُصْرَف إليه، وذلك أنها أحاطت بهم من كل جانب، فلم يقدروا على الهَرَب)[٢]، وقال الطبري: (يقول: ولم يجدوا عن النار التي رأوا معدلا يعدلون عنها إليه. يقول: لم يجدوا من مواقعتها بدّا، لأن الله قد حتم عليهم ذلك، ومنه قول أبي كبير الهذليّ:

أزُهَيْرُ هَلْ عَنْ شَيْبَةٍ مِنْ مَصْرِف أمْ لا خُلُودَ لباذِلٍ مُتَكَلِّفِ)[٣].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾﴾

تقرر الآيتان حقيقةً في طبيعة الإنسان، وانطباقها على الكافر أوضح؛ وهي كثرة الجدل، وهي مذمومة إن كان الجدال بالباطل وتكون أجدر بالذم عندما تقف عائقاً أمام الإيمان وبراهينه القاطعة.

فقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ﴾

قال ابن منظور: (صَرَّفْنا الآياتِ أي بيَّنّاها وتَصْريفُ الآيات تَبْيينُها... الليث: تَصْريفُ الرِّياحِ صَرْفُها من جهة إلى جهة)[٤]، وذلك من أسباب استمرار الحياة، لأن الرياح لو كانت من جهة واحدة أضرت، ولهذا كان في تصريف الآيات والأمثال والعبر في القرآن حياة للقلوب

(١) التحرير والتنوير ٨/ ٣٩٠.
(٢) زاد المسير ٤/ ٢٣٢.
(٣) تفسير الطبري ١٨/ ٤٨ بتصرف يسير.
(٤) لسان العرب ٩/ ١٨٩.

وهداية للبصائر كما كان في تصريف الرياح حياة للأرض، ولهذا لا بد من تصريف الدروس والمواعظ لما في ذلك من حياة للقلوب بالإيمان.

والمراد بالمثل قال القرطبي: (يحتمل وجهين: أحدهما ما ذكره لهم من العبر والقرون الخالية. الثاني ما أوضحه لهم من دلائل الربوبية وقد تقدم في "سبحان"(١)، فهو على الوجه الأول زجر، وعلى الثاني بيان)(٢)، وقال ابن عاشور: (عطف على الجمل التي ضربت فيها أمثال كقوله: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ﴾ [الكهف: ٣٢] وقوله: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [الكهف: ٤٥]، ولما كان في ذلك مقنع وما لهم منه مدفع عاد إلى التنويه بهدي القرآن ناظرا إلى قوله: ﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ﴾ [الكهف: ٢٧] وقوله: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ [الكهف: ٢٩]، فأشار أن هذه الأمثال التي قرعت أسماعهم من جملة هدي القرآن الذي تبرموا منه)(٣).

قال الطبري: (يقول: ولقد مثلنا في هذا القرآن للناس من كلّ مثل، ووعظناهم فيه من كلّ عظة، واحتججنا عليهم فيه بكل حجة ليتذكَّروا فينيبوا، ويعتبروا فيتعظوا، وينزجروا عن الشرك وعبادة الأوثان)(٤)، وقال ابن كثير: (يقول تعالى: ولقد بينا للناس في هذا القرآن، ووضحنا لهم الأمور، وفصلناها، كيلا يضلوا عن الحق، ويخرجوا عن طريق الهدى. ومع هذا البيان وهذا الفرقان، الإنسان كثير المجادلة والمخاصمة والمعارضة للحق بالباطل، إلا من هدى الله وبصره لطريق النجاة)(٥).

---

(١) أي سورة الإسراء.
(٢) تفسير القرطبي ١١/ ٥.
(٣) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٤٦ بتصرف واختصار.
(٤) تفسير الطبري ١٨/ ٤٨ بتصرف واختصار.
(٥) تفسير ابن كثير ٥/ ١٧١

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾

قال الطبري: (يقول: وكان الإنسان أكثر شيء مراء وخصومة، لا ينيب لحقّ، ولا ينزجر لموعظة)(١)، قال البغوي: (قال ابن عباس: أراد النضر بن الحارث وجداله في القرآن، قال الكلبي: أراد به أبي بن خلف الجمحي، وقيل: المراد الكفار، لقوله: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ [الكهف:٥٦]، وقيل: هي على العموم، وهذا أصح)(٢)، قال الشوكاني: (الظاهر العموم وأن هذا النوع أكثر الأشياء التي يتأتى منها الجدال، ويؤيد هذا ما ثبت عن عليّ: أن النبيّ ﷺ طرقه وفاطمة ليلاً، فقال: "ألا تصليان؟ فقلت: يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله إن شاء أن يبعثنا بعثنا، فانصرف حين قلت ذلك ولم يرجع إليّ شيئاً، ثم سمعته يضرب فخذه ويقول: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾"(٣)، وانتصاب جدلاً على التمييز)(٤)، وقد بين الزجاج هذا المعنى بقوله: (كل ما يعقل من الملائكة والجن يجادل، والإنسان أكثر هذه الأشياء جدلاً)(٥)، واعترض ابن عاشور فقال: (ولا يحسن أن يحمل التفضيل على بابه بأن الإنسان أكثر جدلاً من الشياطين والجن؛ لأنه محمل لا يراد مثله في مثل هذا)(٦)، وذهب إلى أن المراد: (وكان

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٤٨.
(٢) تفسير معالم التنزيل للبغوي ٥/ ١٨١.
(٣) صحيح مسلم ١/ ٥٣٧، (٧٧٥).
(٤) فتح القدير ٤/ ٤٠٣.
(٥) زاد المسير ٤/ ٢٣٣.
(٦) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٤٨ بتصرف واختصار.

الإنسان كثيرا من جهة الجدل، أي كثيرا جدله)[1]، ولا تعارض بين القولين، فيكون الإنسان أكثر نوع جدلاً، وأكثر ما يميزه كثرة الجدل، والله أعلم.

ولا شك أن هذه الصفة أكثر ما تنطبق على الكافر المجادل بالباطل، ومِثْلُ هذا الإنسان الذي تتضح له الحججُ الحسيةُ والعقلية والسمعية؛ فيجحدها، ويطمسها، لا ينفع معه نقاشٌ، ولا يفيده جدل، فهذا وأمثاله في الحقيقة كما كشف الله -سبحانه- إنما يتبعون أهواءهم.

لطيفة:

قال تعالى في الإسراء: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ ﴾ [الإسراء]، وقال هنا: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ ﴾ [الكهف]، فقدم في الإسراء ذكر الناس، وقدم هنا ذكر القرآن، مع التشابه الكبير بين الآيتين.

ولا شك أن القرآن الكريم أهم من الناس لأنه كلام الله الذي هو صفة من صفاته، فناسب البدء بذكره والتنويه به، فجاءت سورة الكهف على هذا الأصل، إذ لا سبب للعدول عنه، لا سيما وأن السورة الكريمة افتتحت بالتنويه به وبذكر فضله وأن الله لم يجعل له عوجاً، وأما في سورة الإسراء فقد عدل عن هذا الأصل لسبب، قال ابن عاشور: (وجه تقديم أحد المتعلقين بفعل صرفنا على الآخر: أن ذكر الناس أهم في هذا المقام لكون الكلام مسوقا لتحديهم؛ وإن كان ذكر القرآن أهم بالأصالة، إلا أن

(١) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٤٨.

الاعتبارات الطارئة تقدم في الكلام البليغ على الاعتبارات الأصلية، لأن الأصلية لتقررها في النفوس متعارفة فتكون الطارئة أعز منالا)[1].

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/ ٢٠٤ بتصرف واختصار.

الجدل بين الذم والمدح

وصف الإنسان في الآية بأنه أكثر شيء جدلاً خرج مخرج الذم، إلا أن هذا لا يعني ذم الجدل بإطلاق، فمن أجال طرفه في القرآن وجد كثيراً من الآيات ترد على المشركين حججهم وتخاطب عقولهم بالحجج البينات والآيات الباهرات، وهذا نوع من الجدال؛ وقد ثبت الأمر بمجادلة المدعوين إن لزم الأمر، قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وأمته تبع له في توجه الأمر لها، وقال: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦]؛ كما ثبتت مجادلة الأنبياء لأقوامهم، ونقل الله قول قوم نوح عليه السلام: ﴿يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ [هود: ٣٢]، كما سمع الله ﷻ لمن جاءت تشتكي إلى الله وتجادل في زوجها: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: ١].

إن الهدف من جدال المخالف ينبغي أن يكون تجلية الحق منزهاً عن الشوائب، ليهتدي للحق، وهو من الجهاد، كما قال الله لنبيه ﷺ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [الفرقان]، أي بالقرآن. وليس الهدف ما نسمعه في هذا العصر من حوارات في وسائل الإعلام يعلم الناظر بأدنى تأمل أن استخراج غضب الخصم من أهم دوافع المتحاورين فيها وغاياتهم، ولا شك أن هذا مذموم، فأي خير في هذا الأسلوب؟

إن الطرف الثاني في مثل هذا الجدال إن كان كافراً فلن يحبب إليه الإيمان بل ربما يزيده نفوراً، وإن كان مسلماً فلن يهتدي إلى خطئه وصواب ما عند مجادله، بل يوغر صدور المسلمين فيما بينهم ويملؤها بالغل والحقد، وماذا يريد الشيطان أفضل من ذلك؟ قال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ

أَحْسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾ [الإسراء]، وعن جابر ﷺ قال: "سمعت النبي ﷺ يقول: إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ولكن في التحريش بينهم"(١).

فليس الجدل مذموماً ولا ممدوحاً بإطلاق، بل منه مذموم وممدوح، ولكن لما كان الإنسان أكثر الكائنات جدلاً، والجدل من أكثر صفاته كما في الآية، وأكثر الناس بعيدين عن منهج الله إما بكفر أو معصية وفسوق، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام]، وقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ]، كان أكثر مجادلة الناس بالباطل، ولهذا كان أكثر ذكر الجدل في القرآن في معرض الذم، كما في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام]، وقوله: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [غافر: ٤]، وقوله: ﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ [غافر: ٥]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [غافر]، وغير ذلك من الآيات.

أما إن كان الجدال لإحقاق حق وإبطال باطل، أو لجلب مصلحة أو دفع مفسدة، فإنه ممدوح بإطلاق، أو في مسائل فيها خلاف في وجهات النظر ليظهر كل حجته، فإنه يكون ممدوحاً إن كانت المسائل تنفع الناس في دينهم ودنياهم، ما دام بعيداً عن النزعات والأهواء، وما لم يخرج عن الجدل بالحسنى أو يصير هدفاً بحد ذاته. فإن حول الخصم الجدال عن هذا

---

(١) صحيح مسلم ٤/ ٢١٦٦ (٢٨١٢).

الهدف ولم يعد بلوغه ممكناً، فالاستمرار فيه مذموم، ولهذا قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ [الكهف: ٢٢]، فعلى المسلم أن يكون حكيماً حصيفاً، فإن وجد أن الجدل سيُعرِّض ثوابتَ الدين، وواضح الأحكام للتنازع، أو سيكون لبعض الناس فتنة وربما تقع الشبهات في قلوبهم ولا تنفع الأدلة في استلالها، أو خشي ألا يفهم الحاضرون، فالأولى عندها ترك الجدل، قال علي رضي الله عنه: "حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله"(١)، وعن ابن مسعود قال: "ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة"(٢)، ففي مثل هذه الحالات تكون المصلحة ترك الجدل وإن كان حقاً وفي ذلك أجر عظيم، قال النبي ﷺ: "أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه"(٣). ومن القصص المشهورة عن شيخنا ابن باز رحمه الله أن رجلاً من أهل البدع مقدماً في قومه أراد أن يناظره في مسألة الرؤية، فأبى الشيخ رحمه الله، قال: لعله يكون ألحن بحجته فيغتر به من يسمعه ولا يكون في ردي ما يشفي غليله فيضل، ولكن إن شاء فليأت إلي ونتباحث.

قال الغزالي: (حد المراء الاعتراض على كلام الغير بإظهار خلل فيه؛ لفظاً أو معنىً، أو في قصد المتكلم؛ وترك المراء بترك الاعتراض والإنكار، فكل كلام سمعتَه؛ فإن كان حقاً فصدِّق به، وإن كان باطلاً ولم يتعلق بأمور الدين فاسكت عنه)(٤)، أي وإن كان باطلاً ومتعلقاً بالدين فبيِّن

---

(١) صحيح البخارى ١/ ٥٩ (١٢٧).
(٢) مقدمة صحيح مسلم ١/ ١٠ (٥).
(٣) سنن أبي داود ٢/ ٦٦٨ (٤٨٠٠)، حسنه الألباني.
(٤) تحفة الأحوذي ٦/ ١١٠ بتصرف واختصار.

بطلانه، هذا الأصل. وكذا تُذَمُّ مجادلةُ كلٍّ من أصرَّ على ضلاله وإضلاله، مع وضوح الأدلة وقيام الحجج، كان من الكفار أو من أهل البدع.

إن الجدال إن خرج عن الاعتدال يزيد صاحبه جفاءً، وإن كان في مسائل شرعية، وقد يعرضه لصفات قبيحة، كطلب المغالبة، والتعصب المذموم، والبذاءة في القول، وهو ما نراه كثيراً هذه الأيام بين بعض طلبة العلم، فينبغي الحذر منه لقول رسول الله ﷺ: "ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل، ثم تلا هذه الآية ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ﴾"(١).

فالإسلام يوجه المسلمَ، بعد أن يُحقق معاني الإيمان، للتسليم والعمل، لا للخلاف والجدل، ولا يخفى ما يتركه الجدل إذا زاد عن حده، من تغيير لطبيعة المؤمن، بل الإنسان وفطرته؛ فينصرف عن الإنتاج إلى النزاع، ويَصْرف طاقته، أو يُحوِّلُها من البناء والعطاء النافع، إلى الدوران في دوامة من الفرضيات التي لا تفضي إلا إلى مزيد من الشكوك والضلالات.

ومن المجادلة بالباطل تولي بعض المحامين قضايا يعلمون أنها باطلة، ويستغلون ثغرات القوانين، بقدراتهم اللغوية وجلدهم على الجدال، ولعل أحدهم يكون لحناً بحجته، فيقلب الباطل حقاً والحق باطلا، ونسي قول النبي ﷺ: "إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَقْضِيَ لَهُ عَلَى نَحْوٍ مِمَّا أَسْمَعُ مِنْهُ، فَمَنْ قَطَعْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا، فَلَا يَأْخُذْهُ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ بِهِ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ"(٢).

---

(١) سنن ابن ماجه ١/ ١٩ (٤٨)، وحسنه الألباني.

(٢) صحيح البخاري ٦/ ٢٦٢٢ (٦٧٤٨)، صحيح مسلم ٣/ ١٣٣٧ (١٧١٣).

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ ﴾ (قال المفسرون: أهل مكة. ﴿إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ وهو: محمد ﷺ، والقرآن، والإسلام)[١].

وقوله: ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّهُمۡ﴾ قال الألوسي: (بالتوبة عما فرط منهم من أنواع الذنوب التي من جملتها مجادلتهم الحق بالباطل، وفائدة ذكر هذا بعد الإيمان التعميم على ما قيل، وقال بعضهم: لا شك أن الإيمان مع الاستغفار أكمل منه وحده فذكر معه ليفيد ما منعهم من الاتصاف بأكمل ما يراد منهم، وقيل ذكر الاستغفار بعد الإيمان لتأكيد أن المراد إيمان لا يشوبه نفاق فكأنه قيل ما منعهم أن يؤمنوا إيماناً حقيقياً)[٢].

وقد يقال: في هذا التعبير دعوة للإقبال على الله، فمن لوازم الاستغفار رقة القلب ومشاهدة عظمة الرب وشنيع فعل العبد بالبعد عنه، وقد يكون هذا هو السر في قوله: (ربهم) بالإضافة من جهة، وباستخدام كلمة (الرب) من جهة، لأن الرب يرب العباد بالنعم، ويلزم منه أن يمتلئ القلب بمحبته والإقبال عليه، وهم مؤمنون بربوبية الله وأنه خالقهم ورازقهم ومدبر أمرهم، وإنما أتوا من إشراك غيره في العبادة، فكان في دعوتهم لاستغفاره صرف العبادة له وحده، وأن إيمانهم بالربوبية لا يكفي وليس وحده المراد من قوله: (أن يؤمنوا)، فلا بد أن يجمعوا إليه إيماناً بألوهيته ﷻ، وهذا من لوازم الإيمان بالربوبية لو كانوا يعقلون!

وقوله: ﴿إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا﴾

---

(١) زاد المسير ٤/ ٢٣٣.

(٢) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٢٨٨ بتصرف واختصار.

قال الألوسي: (إضافة السنة إليهم قيل لكونها جارية عليهم وهي في الحقيقة سنة الله فيهم)[١]، وقال ابن الجوزي: (وهو: أنهم إذا لم يؤمنوا عذِّبوا. وفي معنى الكلام ثلاثة أقوال؛ أحدها: ما منعهم من الإيمان إلا طلب أن تأتيهم سُنَّة الأولين، قاله الزجاج، والثاني: وما منع الشيطانُ الناس أن يؤمنوا إلا لأَن تأتيهم سُنَّة الأولين، أي: منعهم رُشْدَهُم ... ذكره ابن الأنباري، والثالث: ما منعهم إلا أنِّي قد قدَّرت عليهم العذاب. وهذه الآية فيمن قُتل ببدر وأُحُد من المشركين، قاله الواحدي)[٢].

وقوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ قال ابن الجوزي: (ذكر ابن الأنباري في "أو" هاهنا ثلاثة أقوال؛ أحدها: بمعنى الواو، والثاني: أنها لوقوع أحد الشيئين، والثالث أنها للتبعيض، أي: أن بعضهم يقع به هذا)[٣].

وقوله: ﴿قُبُلًا﴾

قال القرطبي: (نصب على الحال، ومعناه عِياناً، قاله ابن عباس. وقال الكلبي: هو السيف يوم بدر. وقال مقاتل: فجأة)[٤]، وقال الشوكاني: (قال الفراء: إن قبلاً جمع قبيل، أي: متفرقاً يتلو بعضه بعضاً، وقيل: عياناً، وقيل: فجأة. ويناسب ما قاله الفراء قراءة أبي جعفر وعاصم والأعمش وحمزة والكسائي ويحيى بن وثاب وخلف ﴿قُبُلًا﴾ بضمتين فإنه جمع قبيل، نحو سبيل وسبل، والمراد: أصناف العذاب، ويناسب التفسير الثاني، أي: عياناً، قراءة الباقين بكسر القاف وفتح الباء أي: مقابلة ومعاينة، وقرئ

(١) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٢٨٨.
(٢) زاد المسير ٤/ ٢٣٣.
(٣) زاد المسير ٤/ ٢٣٣ بتصرف واختصار.
(٤) تفسير القرطبي ١١/ ٦.

بفتحتين على معنى: مستقبلاً، وانتصابه على الحال. فحاصل معنى الآية أنهم لا يؤمنون ولا يستغفرون إلا عند نزول عذاب الدنيا المستأصل لهم، أو عند إتيان أصناف عذاب الآخرة أو معاينته)[١].

قال ابن الجوزي: (فإن قيل: إذا كان المراد بسُنَّة الأولين العذاب، فما فائدة التكرار بقوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾؟ فالجواب: أن سُنَّة الأولين أفادت عذاباً مبهماً يمكن أن يتراخى وقته، وتختلف أنواعه، وإتيان العذاب قُبُلاً أفاد القتل يوم بدر. قال مقاتل: "سُنَّة الأولين": عذاب الأمم السالفة؛ "أو يأتيَهم العذاب قِبَلاً"، أي: عِياناً قتلاً بالسيف يوم بدر)[٢].

اختيار ابن كثير: قال رحمه الله: (يخبر تعالى عن تمرد الكفرة في القديم والحديث، وتكذيبهم بالحق البين مع مشاهدتهم الآيات، وأنه ما منعهم من الإيمان إلا طلبهم العذاب عِيانًا، كما قالوا لنبيهم: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الشعراء]، وآخرون قالوا: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [العنكبوت]، وقالت قريش: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال]، ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾﴾ [الحجر] إلى غير ذلك من الآيات)[٣].

وهذا من الخذلان لأنهم ما أرادوا الحق ولا طلبوه في مظانه، وإلا فإن كل التوفيق أن يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه، لكنه العناد والاستكبار، أشبهوا حال من قال فيهم: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]. والآية تدل على أنه لا توجد لديهم حجة

---

(١) فتح القدير ٤/ ٤٠٣ بتصرف واختصار.
(٢) زاد المسير ٤/ ٢٣٣.
(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ١٧٢ بتصرف واختصار.

تمنعهم من الإيمان، وإلا لجاؤوا بها، وهذه حال كثير من المبطلين المكذبين اليوم، فليست معهم حجج بينة واضحة وإنما هي شبهات وتلبيسات.

قال تعالى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ ﴾

قوله: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾

قال الطبري: (وما نرسل رسلنا إلا ليبشروا أهل الإيمان والتصديق بالله بجزيل ثوابه في الآخرة، ولينذروا أهل الكفر به والتكذيب، عظيم عقابه، فينتهوا عن الشرك، وينزجروا عن معاصيه)(١). فالنفي والاستثناء للحصر والقصر، أي لا غاية من إرسال الرسل سوى إنقاذ الناس من الضلال، كلما ضلوا عن الفطرة وهي الإسلام؛ لكي يَحْيَوا حياة طيبة في الدنيا، وينجوا من عذاب الله في الآخرة؛ فينعم عليهم برضوانه وجناته.

وقوله: ﴿ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ﴾

قال الطبري: (يقول: ويخاصم الذين كذّبوا بالله ورسوله بالباطل، ذلك كقولهم للنبيّ ﷺ: أخبرنا عن حديث فتية ذهبوا في أوّل الدهر لم يدر ما شأنهم، وعن الرجل الذي بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وعن الروح، وما أشبه ذلك مما كانوا يخاصمونه به، يبتغون إسقاطه، تعنيتاً له ﷺ، فقال الله لهم: إنا لسنا نبعث إليكم رسلنا للجدال والخصومات، وإنما نبعثهم مبشرين أهل الإيمان بالجنة، ومنذرين أهل الكفر بالنار، وأنتم تجادلونهم

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٥٠ بتصرف واختصار.

بالباطل طلبا منكم بذلك أن تبطلوا الحقّ الذي جاءكم به رسولي، وعنى بقوله: ﴿لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾ ليبطلوا به الحقّ ويزيلوه ويذهبوا به. يقال منه: دحض الشيء: إذا زال وذهب، ويقال: هذا مكان دَحْض: أي مُزِلٌّ مُزْلِق لا يثبت فيه خفّ ولا حافر ولا قدم، ومنه قوله الشاعر:

رَدِيتُ ونجَّى اليَشْكُرِيَّ حِذَارُهُ وحادَ كما حادَ البَعيرُ عَن الدَّحْضِ

ويروى: ونحَّى، وأدحضته أنا: إذا أذهبته وأبطلته)[1].

قال القرطبي: (قيل: نزلت في المقتسمين؛ كانوا يجادلون في الرسول ﷺ فيقولون: ساحر ومجنون وشاعر وكاهن)[2]، وتنطبق على الكافرين إذ يجادلون في آيات الله بعد ما جاءتهم، قال ابن كثير: (﴿لِيُدۡحِضُواْ بِهِ﴾ أي: ليضعفوا به ﴿ٱلۡحَقَّ﴾ الذي جاءتهم به الرسل، وليس ذلك بحاصل لهم)[3].

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٥٠.

(٢) تفسير القرطبي ١١/ ٦ بتصرف واختصار.

(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ١٧٢.

معركة الحق والباطل

أهل الباطل يرومون إضعاف الحق وإزالته، وأنى لهم هذا وليس معهم سوى الباطل، وقد قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ١٨﴾ [الأنبياء]، فليس للباطل طاقة على مقارعة الحجة بالحجة، إذ الحق واضح مستقر كالشمس والنجوم والقمر، وإذا جاءت الغيوم أو الرمال فإنها تحجبها عن الرؤية لكنها باقية في مكانها.

فالحق لا يمكن إزالته ولا إضعافه، وقصارى ما في وسع المبطلين التشويش عليه وصد أهله، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ٢٦﴾ [فصلت]، قال ابن الجوزي: (أي: عارِضوه باللَّغو، وهو الكلام الخالي عن فائدة. وكان الكفَّار يوصي بعضُهم بعضاً: إذا سمعتم القرآن فارفعوا أصواتكم حتى تُلبِّسوا عليهم)(١)، وقال: ﴿كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ٩٠ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ٩١﴾ [الحجر]، أي جعلوه مقطعاً، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض، أو قطعوا أقوالهم فيهم وعددوها، فقالوا سحر وقالوا كهانة وقالوا أساطير الأولين، وهو منهج أهل الباطل اليوم في التشكيك بهذا الدين. فالحرب بين الحق والباطل ماضيةإلى يوم القيامة، وحرب اليوم إعلامية شرسة، فكثير مما يجري في الإعلام من تشكيك وطعن من الليبراليين والعلمانيين وغيرهم، لم يأت صدفة، لكنه حصيلة دراسات ومؤتمرات، في مراكز البحوث الأمريكية كراند وغيره، فالتخطيط هناك والتنفيذ هنا، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ

(١) زاد المسير في علم التفسير ٤/ ٥٠ بتصرف واختصار.

لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الحشر].

وفي الغرب منذ مدة حملة على الهيئة والقضاء والعلماء في بلادنا، وعلى الارتباط بين الأمراء والعلماء، مع أن البلاد إنما قامت على هذا الارتباط، منذ الإمام محمد بن عبد الوهاب والإمام محمد بن سعود رحمهما الله إلى اليوم، ونحن نرى منذ سنوات أن الحملة قد انتقلت إلى إعلامنا، فبعد أن كانت وسائل الإعلام لا تجرؤ على التعرض بسوء للمشايخ والعلماء، صرنا نرى ونسمع حملات التشهير ضد العلماء والدعاة والهيئة، وبعد أن كان من يتجرأ على ذلك يوقف عند حده ويرد عليه بكل قوة، صرنا نرى كل الأبواب والمجالات تفتح لهؤلاء ويمنع أهل الدين من الرد، وذلك يبين زيف ما يدعونه من حرصهم على حرية الفكر والتعبير.

التشكيك في الثوابت، والبحث عن غرائب الفتاوى، منهج متبع، وللأسف أننا نجد بعض من يحسب على طلبة العلم يسايرهم في مسعاهم هذا؛ فهناك مثلاً من يشكك في النقاب ويدعي أنه ليس من الإسلام في شيء، وأنه من مخلفات عصور الجهل والظلام، وأنه من باب العادات، وأن الغرب لا تثريب عليه إن منعه، فيجد من طلاب العلم ومن يشار إليهم بالبنان من ينصر قوله ويدافع عنه وعن الغرب ومنهج الغرب وحضارة الغرب ويزينها للناس!

الطعن في أهل العلم وطلابه وتشويه صورتهم، وهمزهم ولمزهم، هذا منهج متبع كذلك، لتنفير الناس وصرفهم عن أهل الحق ليسهل التأثير عليهم وإضلالهم، وللأسف فهناك من ينساق خلف هؤلاء المبطلين، ويعمد إلى الاستهزاء بالصالحين والعلماء والملتزمين، وهذا

الاستهزاء إن كان لدينهم فإنه يكون استهزاء بآيات الله، قال تعالى في قوم وصفوا أصحاب النبي ﷺ بقولهم: (أرغبنا بطونا، وأكذبنا ألسنة، وأجبننا عند اللقاء)، قال: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ [التوبة]، مع أنهم ما تعرضوا لله وآياته ورسوله، ولكن دل هذا على أن استهزاءهم بالصحابة ﷺاستهزاء بما هم عليه من الدين والإيمان، فكذلك كل من استهزأ بأحد من أمته لاتباعه شعيرة من شعائر الدين مهما صغرت في أعين الناس فإنه مخاطب بهذه الآية.

ما يحصل اليوم في وسائل الإعلام سعي حثيث لصد الناس عن الحق، فتراهم يكذبون ويفترون ويزينون الباطل وينفقون أموالهم وجهدهم وأوقاتهم ليصرفوا الناس عن الحق، مع علمهم في قرارة أنفسهم ببطلان ما يفترون، ومهما فعلوا فإن الله ناصر دينه وممكن له في الأرض ولو بعد حين، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ [الرعد]، وسيصبح الذين ظلموا على ما فعلوا نادمين، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنفال].

فعلى أهل الإيمان الثبات على الحق والعض عليه بالنواجذ، عليهم بالصبر والمصابرة، والاجتهاد في الدعوة لهذا الدين والذب عنه، وأن

يقارعوا أهل الباطل بالحجة والبرهان، باللسان والقلم دون اليد التي هي من اختصاص ولي الأمر. عليهم أن يبصروا الناس بحقائق المضلين وعوار ما يدعون إليه وأنهم ﴿يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾ [البقرة]، وعليهم أيضا أن يرحموهم ويسعوا في هدايتهم ولا ييأسوا من روح الله، فالقلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن. عليهم أن يبشروا الناس بما أعده الله لهم إن آمنوا وعملوا الصالحات، وينذروهم مخالفة سواء السبيل، فهم أتباع من قال الله فيهم: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ وما داموا كذلك فلا بد أن يلقوا ما في تتمة الآية ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾ [الكهف]، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

قوله: ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾

قال ابن كثير: (أي: اتخذوا الحجج والبراهين والخوارق التي بعث بها الرسل وما أنذروهم وخوفوهم به من العذاب ﴿هُزُوًا﴾ أي: سخروا منهم في ذلك، وهو أشد التكذيب)[1]، قال الزمخشري: (﴿وَمَا أُنذِرُوا﴾ يجوز أن تكون (مَا) موصولة، ويكون الراجع من الصلة محذوفاً، أي: وما أنذروه من العذاب. أو مصدرية بمعنى: وإنذارهم)[2]، قال ابن الجوزي: (﴿هُزُوًا﴾ أي: مهزوءاً به)[3]، وقال الشنقيطي: (أي سخرية واستخفافاً، والمصدر بمعنى المفعول، أي اتخذوها مهزوءاً بها)[4]، قال القرطبي: (قيل: هو قول أبي جهل في الزبد والتمر: هو الزقوم، وقيل: هو قولهم في القرآن: سحر

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٧٢.
(٢) الكشاف ٤/ ٢٧.
(٣) زاد المسير ٤/ ٢٣٤.
(٤) أضواء البيان ٣/ ٣٧٣ بتصرف واختصار.

وأضغاث أحلام وأساطير الأولين، وقالوا للرسول: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣]، ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ٣١﴾ [الزخرف] ﴿وماذَآ أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ [المدثر: ٣١])(١). وهكذا شأن الكفرة المكابرين في كل عصر، حين يَعْجِزون عن مواجهة الحجج بمثلها، تراهم يلوذون بأساليب أبعد ما تكون عن الاهتداء إلى الحقائق، من السخرية والاستهزاء؛ ليَخرجوا من جوِّ المحاجة والمحاكمة العقلية إلى استثارة النفوس نحو الهزْل والهزُء، وأنَّى لهم ذلك؟! فما في الدين إلا ما يطابق الواقع، وما ذلك إلا لإفلاسهم، ومدعاة إلى الإشفاق على حالهم.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾

قال ابن عاشور: ("من" استفهام مستعمل في الإنكار، أي لا أحد أظلم من هؤلاء المتحدث عنهم)(٢)، قال ابن كثير: (يقول تعالى: وأي عباد الله أظلم ممن ذكر بآيات الله فأعرض عنها، أي: تناساها وأعرض عنها، ولم يصغ لها، ولا ألقى إليها بالا ﴿وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي: من الأعمال السيئة والأفعال القبيحة)(٣)، وقال الشنقيطي: (مع أن الله لم ينسه بل هو محصيه عليه ومجازيه... وقيل في قوله: ﴿وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾: أي تركه عمداً ولم يتب منه)(٤)، وإلا فإن النسيان غير العمد لا يؤاخذ عليه الإنسان لحديث: "إِنَّ اللهَّ قَدْ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ، وَالنِّسْيَانَ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ"(٥).

---

(١) تفسير القرطبي ١١/ ٧.
(٢) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٥٥.
(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ١٧٢.
(٤) أضواء البيان ٣/ ٣٧٤ بتصرف يسير.
(٥) سنن ابن ماجه ١/ ٦٥٩ (٢٠٤٣)، وصححه الألباني.

لأن الظلم هو وضع الشيء في غير محله تعدياً، وهؤلاء قد وظَّفوا ما آتاهم الله من نِعَم الحواس والعقل في عكس ما خُلقتْ له؛ فلم يهتدوا بها للتسليم بما يذكرون به فيؤمنوا، بل تعمدوا الإعراض عن الأدلة، وتناسوا حاجتهم الماسة إليها، وزادوا على ذلك الاستهزاء والسخرية. وفي استعمال صيغة المبني للمجهول (ذُكِّرَ) ترتيب للحكم على التذكير من أية جهة كان؛ لأن هذا ما ينبغي أن يَهُمَّ المعنيَّ بالاهتداء وينفعه، بغض النظر عن فاعله، رسولا كان أو نبيا أو عالما أو داعية أو عاميا.

وآيات الله: قال الشوكاني: (التنزيلية أو التكوينية أو مجموعهما)[1].

قال الشنقيطي في قوله: ﴿مَاقَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ﴾: (ونسبة التقديم إلى خصوص اليد لأن اليد أكثر مزاولة للأعمال من غيرها من الأعضاء، فنسبت الأعمال إليها على عادة العرب، وإن كانت الأعمال منها ما باللسان والقلب، وغير ذلك من الأعمال التي لا تزاول باليد كالزنى)[2].

فائدة- في الجمع بين قوله تعالى هنا: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: ٢١]، وما شابههما.

بين الشنقيطي ﷺ أوجه الجمع فقال: (وأشهر أوجه الجمع في ذلك وجهان: أحدهما أن كل من قال الله فيه: ومن أظلم ممن فعل كذا، لا أحد أظلم من واحد منهم. وإذاً فهم متساوون في الظلم لا يفوق بعضهم فيه بعضاً، فلا إشكال في كون كل واحد منهم لا أحد أظلم منه. والثاني أن صلة الموصول تعين كل واحد في محله. وعليه فالمعنى في قوله: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا﴾. لا أحد[3] ممن ذكر فأعرض، أظلم ممن ذكر

(١) فتح القدير ٤/ ٤٠٤.
(٢) أضواء البيان ٣/ ٣٧٥ بتصرف واختصار.
(٣) في المطبوع: لا أحد أظلم ممن.

بآيات ربه فأعرض عنها. وفي قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: ٢١]، لا أحد من المفترين أظلم ممن افترى على الله كذباً، وهكذا. والأول أولى. لأنه جار على ظاهر القرآن ولا إشكال فيه)[١]، أقول: ولا إشكال في الجمع بين القولين كما يظهر، فيكون أولى، والله أعلم.

قال ابن عاشور: (لما بين حالهم من مجادلة الرسل لسوء نية، ومن استهزائهم بالإنذار، وعرَّض بحماقتهم، أتبع ذلك بأنه أشد الظلم. ذلك لأنه ظلم المرء نفسه وهو أعجب الظلم... وعطف إعراضهم عن الذكر على التذكير بفاء التعقيب إشارة إلى أنهم سارعوا بالإعراض ولم يتركوا لأنفسهم مهلة النظر والتأمل. ومعنى نسيان ما قدمت يداه أنه لم يعرض حاله وأعماله على النظر والفكر ليعلم: أهي صالحة لا تخشى عواقبها أم هي سيئة من شأنها أن لا يسلم مقترفها من مؤاخذة)[٢].

وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾

قال الشنقيطي: (ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه جعل على قلوب الظالمين المعرضين عن آيات الله إذا ذكروا بها أكنة، أي أغطية تغطي قلوبهم فتمنعها من إدراك ما ينفعهم مما ذكروا به. وواحد الأكنة كنان، وهو الغطاء. وأنه جعل في آذانهم وقراً، أي ثقلاً يمنعها من سماع ما ينفعهم من الآيات التي ذكروا بها)[٣]. قال ابن الجوزي: (وليس المعنى أنهم

(١) أضواء البيان ٣/ ٣٧٥، وينظر دفع الإيهام ١/ ٧.
(٢) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٥٤.
(٣) أضواء البيان ٣/ ٣٧٥.

لم يفهموه، ولم يسمعوه؛ ولكنهم لما عدلوا عنه، وصرفوا فكرهم عما عليهم في سوء العاقبة، كانوا بمنزلة من لم يعلم ولم يسمع)(١).

قال الشنقيطي: (وقوله: ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ فيه وفيما يشابهه وجهان معروفان لعلماء التفسير: أحدهما: جعلنا على قلوبهم أكنة لئلا يفقهوه. وعليه فلا النافية محذوفة دل المقام عليها. وعلى هذا القول اقتصر ابن جرير. والثاني: جعلنا على قلوبهم أكنة كراهة أن يفقهوه، على تقدير مضاف، وأمثال هذه الآية كثيرة، وللعلماء في كلها الوجهان المذكوران كقوله: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا﴾ [النساء: ١٧٦] أي لئلا تضلوا، أو كراهة أن تضلوا. وقوله: ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾ [الحجرات: ٦] أي لئلا تصيبوا، أو كراهة أن تصيبوا، وأمثال ذلك)(٢).

قوله: ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾

قال الطبري: (وَإِنْ تَدْعُ يا مُحَمَّد هؤلاء المعرضين إلى الاستقامة على محجة الحق والإيمان بالله، وما جئتهم به من عند ربك ﴿فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ يقول: فلن يستقيموا إذا أبدا على الحقّ، ولن يؤمنوا بما دعوتهم إليه، لأن الله قد طبع على قلوبهم، وسمعهم وأبصارهم)(٣)، قال الشنقيطي رحمه الله: (هذه الآية وأمثالها في القرآن فيها وجهان معروفان عند العلماء: أحدهما: أنها في الذين سبق لهم في علم الله أنهم أشقياء، عياذاً بالله تعالى. والثاني: أن المراد أنهم كذلك ما داموا متلبسين بالكفر. فإن هداهم الله إلى الإيمان وأنابوا زال ذلك المانع، والأول أظهر والعلم عند الله تعالى)(٤).

---

(١) زاد المسير ٢/ ٣١٥، تفسير سورة الأنعام.
(٢) أضواء البيان ٣/ ٣٧٧ بتصرف واختصار.
(٣) تفسير الطبري ١٨/ ٥٢ بتصرف واختصار.
(٤) أضواء البيان ٣/ ٣٧٨.

تنبيه- قال الشنقيطي ﷺ: (وقوله في هذه الآية الكريمة "إذاً" جزاء وجواب. فدل على انتفاء اهتدائهم لدعوة الرسول ﷺ، بمعنى أنهم جعلوا ما يجب أن يكون سبباً للاهتداء سبباً لانتفائه. لأن المعنى: فلن يهتدوا إذا دعوتهم. ذكر هذا المعنى الزمخشري، وتبعه أبو حيان في البحر. وهذا المعنى قد غلطا فيه، وغلط فيه خلق لا يحصى كثرة من البلاغيين وغيرهم)[1]. ثم بين ﷺ الصواب في ذلك، فقال: (لأن هذه القضية الشرطية في هذه الآية الكريمة ليست شرطية لزومية، حتى يكون بين شرطها وجزائها ارتباط، بل هي شرطية اتفاقية، والشرطية الاتفاقية لا ارتباط أصلاً بين طرفيها، فليس أحدهما سبباً في الآخر، ولا ملزوماً ولا لازماً له، كما لو قلت: إن كان الإنسان ناطقاً فالفرس صاهل - فلا ربط بين الطرفين، لأن الجزاء في الاتفاقية له سبب آخر غير مذكور... وكذلك قوله هنا: ﴿فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ سببه الحقيقي غير مذكور معه فليس هو قوله: "وإن تدعهم" كما ظنه الزمخشري وأبو حيان وغيرهما. بل سببه هو إرادة الله جل وعلا انتفاء اهتدائهم على وفق ما سبق في علمه أزلاً)[2].

(١) أضواء البيان ٣/ ٣٧٨.

(٢) أضواء البيان ٣/ ٣٧٩.

لطيفتان في النظم القرآني

• نلاحظ استعمال الإفراد في (ذُكِّر)، (ربه)، (فأعرض)، (ونسي)، (يداه)، ثم الجمع في: (قلوبهم)، (يفقهوه)، (آذانهم)، (تدعهم)، (يهتدوا)، مع أن المرجع إلى الموصول في قوله: (ممن ذكر بآيات ربه)، وهذا جار على مراعاة اللفظ تارة، ومراعاة المعنى تارة أخرى، وهو أسلوب معروف في الكلام الفصيح، فالإفراد باعتبار لفظة (مَن)، والجمع باعتبار معناها لأنه يرجع إلى جنس هؤلاء المكذبين المعاندين.

• كما تباين النَّظم ما بين الحديث عن الكفار، وخطاب الرسول؛ ففي شأن الكفار جاء أسلوبُ الغَيْبة: (ذُكِّرَ) و(أَعْرَضَ) و(نَسِيَ) و(قَدَّمَتْ يداه)؛ ليشي ذلك بغيابهم عن المشهد، وإهمالهم، كما دلَّ الفعلُ الماضي على الوقوع المحقَّق والانقضاء. ولما توجه إلى الرسول محمد ﷺ خاطبَه بالفعل المضارع وبِناء الخطاب؛ تكريما واحتفاءً: (وَإِن تَدْعُهُمْ).

فائدة- في الرد على الجبرية:

قال الشنقيطي رحمه الله: (فإن قيل: إذا كانوا لا يستطيعون السمع ولا يبصرون ولا يفقهون، لأن الله جعل الأكنة على قلوبهم، والوقر في آذانهم؛ فهم مجبورون. فما وجه تعذيبهم على شيء لا يستطيعون العدول عنه؟! فالجواب أن الله بين في آيات كثيرة أن تلك الموانع إنما جعلها عليهم جزاء وفاقاً لما بادروا إليه من الكفر وتكذيب الرسل باختيارهم، فأزاغ الله قلوبهم جزاء على كفرهم، فمن الآيات قوله: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥] أي بسبب كفرهم، وهو نص صريح في أن كفرهم السابق

هو سبب الطبع على قلوبهم، وقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ﴾ [الصف: ٥]، وهو دليل أيضاً واضح على أن إزاغة الله قلوبهم لزيغهم السابق. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [المنافقون: ٣] وقوله: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ﴾ [البقرة: ١٠]، وقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ١١٠﴾ [الأنعام] وقوله: ﴿كَلَّاۖ بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ١٤﴾ [المطففين]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الطبع على القلوب، ومنعها من فهم ما ينفع، عقاب من الله على الكفر السابق. وهذا الذي ذكرنا هو وجه رد شبه الجبرية التي يتمسكون بها في هذه الآيات المذكورة وأمثالها في القرآن العظيم)[1].

قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ٥٨﴾

قال ابن عاشور: (جرى القرآن على عادته في تعقيب الترهيب بالترغيب والعكس، فلما رماهم بقوارع التهديد والوعيد، عطف على ذلك التعريض بالتذكير بالمغفرة لعلهم يتفكرون في مرضاته، ثم التذكير بأنه يشمل الخلق برحمته عند الوعيد فيؤخره إلى حد معلوم، إمهالا للناس لعلهم يرجعون، ويتدبرون ما هم فيه من النعم لعلهم يشكرون)[2].

فقوله: ﴿وَرَبُّكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، وفي إضافة لفظ الربوبية "رَبُّ" إلى كاف الخطاب العائدة إليه -بأبي هو وأمي- تشريفٌ وتكريم له

(١) أضواء البيان ٣/ ٣٧٧ بتصرف واختصار.

(٢) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٥٦ بتصرف واختصار.

من وجهين؛ الأول: الإضافة، والثاني: التوُّجه له بالخطاب.

وقوله: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾

قال القرطبي: ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ (أي للذنوب، وهذا يختص به أهل الإيمان لقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾ [النساء: ٤٨]. ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾ فيه أربع تأويلات: أحدها- ذو العفو. الثاني- ذو الثواب، وهو على هذين مختص بأهل الإيمان. الثالث- ذو النعمة. الرابع- ذو الهدى، وهو على هذين يعم أهل الإيمان والكفر، لأنه ينعم في الدنيا على الكافر، كالمؤمن. وقد أوضح هداه للكافر كما أوضحه للمؤمن، وإن اهتدى به المؤمن دون الكافر)[1].

وقال: الغفور ذو الرحمة، ولم يقل: الغفور الرحيم، لأن أثر اسم الرحيم مختص بالمؤمنين كما قال تعالى: ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾، فهو سبحانه يرحمهم في الدنيا بأنواع اللطف والإنعام، وفي الآخرة بالجنة، وأما الكافرون فليس لهم في رحمة الآخرة نصيب، وإنما نصيبهم من رحمة الدنيا، وأما الغفور فيتعلق بمغفرة الذنوب وهو نوع من الرحمة كذلك، وقد نالهم شيء منها بتأخيرها إلى الآخرة، فإن تابوا وأنابوا دخلوا في الرحمة كاملة وإن أصروا نالهم العذاب يوم القيامة ولم تنلهم رحمة الله، والله أعلم.

وقوله: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ﴾

قال الألوسي: (﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم ﴾ أي لو يريد مؤاخذتهم ﴿بِمَا كَسَبُوا۟ ﴾ أي فعلوا، وما إما مصدرية أي بكسبهم، وإما موصولة أي بالذي كسبوه من المعاصي ومنها ما حكى عنهم من مجادلتهم بالباطل وإعراضهم عن آيات ربهم وعدم المبالاة بالموبقات ﴿لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ﴾ لاستيجاب أعمالهم

(١) تفسير القرطبي ١١/ ٧ بتصرف واختصار.

لذلك)[١]، قال القرطبي: (﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾ أي من الكفر والمعاصي. ﴿لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ ولكنه يمهل)[٢]، وقال الشنقيطي: (بين في هذه الآية: أنه لو يؤاخذ الناس بما كسبوا من الذنوب كالكفر والمعاصي لعجل لهم العذاب لشناعة ما يرتكبونه، ولكنه حليم لا يعجل بالعقوبة. فهو يمهل ولا يهمل)[٣]، وقال ابن عاشور: (المعنى: أنهم فيما كسبوه من الشرك والعناد أحرياء بتعجيل العقوبة، لكن الله يمهلهم إلى أمد مقدر. وفي ذلك رحمة بالناس بتمكين بعضهم من التدارك وإعادة النظر)[٤].

فائدة- أخبر الله عن نفسه أنه (الغَفُورُ) و(ذُو الرَّحْمَةِ) بالجملة الاسمية المفيدة للثبوت، وقد جاء الخبر الأول بصيغة المبالغة، أي كثير المغفرة، والثاني بالإضافة، أي المتصف بالرحمة، فما دلالة هذا التباين؟

قال الألوسي: (نكتة التفرقة بينهما ههنا -على ما قاله الخفاجي- أن المذكور بعدُ، عدم مؤاخذتهم على الجرم العظيم، وهو مغفرة عظيمة، وترك التعجيل، رحمة منه سابقة على غضبه، لكنه لم يرد إتمام رحمته عليهم وبلوغها الغاية، إذ لو أراد ذلك لهداهم وسلمهم من العذاب رأساً)[٥].

فالله سبحانه حين يمهلهم، ولا يعجل لهم العذاب؛ بكفرهم، وذنوبهم المهلكة، إنما ينعم عليهم بفسحة عزيزة، عسى أن يتوبوا؛ فإن تابوا فالله عظيم المغفرة؛ حين يغفر لهم كل ما سلف. وإن لم يتوبوا؛ فقد رحمهم

(١) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٢٩٥ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير القرطبي ١١/ ٧ بتصرف واختصار.
(٣) أضواء البيان ٣/ ٣٨٠ بتصرف واختصار.
(٤) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٥٧ بتصرف واختصار.
(٥) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٢٩٤ بتصرف واختصار.

بالإمهال، ولكنهم حُرِموا الرحمةَ الواسعة التامة، وهي الإسلام.

قال ابن الجوزي: (فإن قيل: ظاهر الآية يقتضي أن تأخير العذاب عن الكفار برحمة الله، ومعلوم أنه لا نصيب لهم في رحمته. فعنه جوابان: أحدهما: أن الرحمة هاهنا بمعنى النعمة، ونعمة الله لا يخلو منها مؤمن ولا كافر. فأما الرحمة التي هي الغفران والرضى، فليس للكافر فيها نصيب. والثاني: أن رحمة الله محظورة على الكفار يوم القيامة، فأما في الدنيا، فإنهم ينالون منها العافية والرزق)(١)، والثاني أنسب لتتمة الآية، والله أعلم.

قوله: ﴿بَل لَّهُم مَّوۡعِدٌ﴾

قال ابن الجوزي: (للبعث والجزاء)(٢)، وقال ابن كثير: (ثم أخبر أنه يحلم ويستر ويغفر، وربما هدى بعضهم إلى الرشاد، ومن استمر منهم فله يوم يشيب فيه الوليد، وتضع كل ذات حمل حملها)(٣)، وذهب الطبري رحمه الله أن المراد يوم بدر، قال: (﴿بَل لَّهُم مَّوۡعِدٌ﴾، وذلك ميقات محلّ عذابهم، وهو يوم بدر)(٤)، وجمع القرطبي رحمه الله بين الاثنين فقال: (أي أجل مقدر يؤخرون إليه، نظيره: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞ﴾ [الأنعام: ٦٧]، ﴿لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ﴾ [الرعد: ٣٨]، أي إذا حل لم يتأخر عنهم إما في الدنيا وإما في الآخرة)(٥)، وقال القاسمي: (والموعد المذكور هو يوم بدر، أو الفتح المشار إليه في كثير من الآيات، أو يوم القيامة، والكل لاحق بهم)(٦)، وقال أبو حيان:

---

(١) زاد المسير ٤/ ٢٣٤ بتصرف واختصار.
(٢) زاد المسير ٤/ ٢٣٤.
(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ١٧٣ بتصرف واختصار.
(٤) تفسير الطبري ١٨/ ٥٢ بتصرف واختصار.
(٥) تفسير القرطبي ١١/ ٧.
(٦) تفسير القاسمي ٧/ ٤٦.

(والموعد أجل الموت، أو عذاب الآخرة، أو يوم بدر، أو يوم أحد، وأيام النصر أو العذاب إما في الدنيا وإما في الآخرة، أقوال)[1]، ولا تعارض بين هذه الأقوال، فكل عذاب يصيبهم في الدنيا والآخرة بأجل لا يتقدم ولا يتأخر، والإمهال تأخير إلى الموعد المضروب، والله أعلم.

وقوله: ﴿لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾

(قال الفراء: الموئل: المنجى، وهو الملجأ في المعنى، لأن المنجى ملجأ)[2].

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾

لما بين الله ﷻ للسامعين وبخاصة المعاندين أنهم يعيشون مهلة امتن بها عليهم ليتوبوا، وإن لم يفعلوا لقوا من عذاب الدنيا والآخرة، نقلهم إلى الواقع ليعلموا أن الأمر جد، وأن وعد الله حق ولا يخلف الله الميعاد.

فقوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ﴾

قال البقاعي: (عطفا على قوله "لهم موعد" مروعاً بالإشارة إلى ديارهم ودمارهم: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ الماضية من عاد وثمود وأشكالهم ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ أي حكمنا بإهلاكهم بما لنا من العظمة ﴿لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ أي أول ما ظلموا، أو أهلكناهم بالفعل حين ظلمهم لكن لا في أوله، بل أمهلناهم إلى حين تناهيه وبلوغه الغاية، فليحذر هؤلاء مثل ذلك)[3]. قال الشنقيطي: (والإشارة في: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ لأنهم يمرون عليها في أسفارهم، كقوله: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ١٣٧﴾ [الصافات]، وقوله: ﴿

(١) تفسير البحر المحيط لأبي حيان ٧/ ٤٦٦.
(٢) زاد المسير ٤/ ٢٣٤.
(٣) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٦٣ بتصرف واختصار.

وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ [الحجر]، وقوله: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الحجر] ونحو ذلك)[1].

والمقصود بالقرى أهلها لأن الظلم يقع منهم، كما قال: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الحج]، وقال: ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ﴾ [النمل: ٥٢]، وأيما قرية أهلكت بمن فيها فهم المقصودون بالإهلاك ابتداء.

فالإهلاك ناتج عن الظلم، ومُسبَّبٌ عنه، وفي آيات أخرى علاقة السببية بين ظلم العباد والعقوبة من الله، قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾ [الأنعام]، وقال: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ ﴾ [النساء]، قال ابن تيمية رحمه الله: (الناس لم يتنازعوا في أن عاقبة الظلم وخيمة وعاقبة العدل كريمة ولهذا يروى: الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة)[2]، وهذا يدل على أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لئلا ينتشر الظلم فيعم العذاب، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنعام]، وقال: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [الأعراف]، فابدأ بنفسك ومن حولك قدر الاستطاعة حتى إذا نزل العذاب نجوت.

ولا يخفى أن الشرك أعظم الظلم ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان]، فلا أمْنَ معه، ولا هداية، ويؤكد هذا قول ابن مسعود رضي الله عنه: "لما

---

(١) أضواء البيان ٣/ ٣٨٢ بتصرف واختصار.

(٢) الحسبة لابن تيمية ص: ١٧٨.

نزلت ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا أينا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال رسول الله ﷺ: إنه ليس بذلك ألا تسمعون إلى قول لقمان ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾"(١).

ومن تأمل مصارع الكفار والقرى التي أهلكها الله وجد أن ظلمها لم يكن قاصراً على الكفر، فعاد عرفوا بالبطش والتجبر، وثمود كانوا يتخذون البيوت في الجبال أشرا وبطرا وعبثا، وقوم شعيب عرفوا بتطفيف الميزان، وقوم لوط بإتيان الذكران، وهكذا نجد لمن قص الله علينا مصارعهم ذنباً آخر مع الشرك يدل على ظلمهم الذي استحقوا به الهلاك، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [القصص].

ومن أنواع الظلم بطر النعم؛ قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [القصص]، ونحن في بلدنا أنعم الله علينا بنعم كثيرة، فإليه تجبى النعم من كل مكان طوال العام، وهذا يستلزم مزيداً من الشكر، لكننا نخشى أن نكون من أهل البطر ولا نكون من الشاكرين فنسلب هذه النعم أو يحل بنا عذاب أليم فليس بيننا وبين الله نسب، وقد دعا إبراهيم عليه السلام لمكة وأهلها فقال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾ [البقرة].

وهاهنا شبهة وهي أن الغرب فيه كفر ولم يصب أهله بالمآسي! وهذا خطأ؛ فإن الله ابتلاهم وما زال بصنوف العذاب، فخلال ثلاثين سنة تقريباً وقعت حربان عالميتان راح ضحيتها الملايين، وبين الفينة والأخرى

---

(١) صحيح البخاري ٦/ ٢٥٣٥ (٦٥٢٠)، صحيح مسلم ١/ ١١٤ (١٢٤).

يبتليهم بالزلازل والبراكين والأعاصير، وغيرها من البلايا، وقد يكون أعظم من ذلك ما نراه من تفكك أسري، وارتفاع معدلات الاكتئاب والأمراض النفسية، والانتحار، وارتفاع معدلات الجريمة وعدم الأمن، وغير ذلك مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾ [الرعد].

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ قال الطبري: (ميقاتا وأجلا حين بلغوه جاءهم عذاب فأهلكناهم به، يقول: فكذلك جعلنا لهؤلاء المشركين من قومك يا محمد الذين لا يؤمنون بك أبدا موعدا، إذا جاءهم أهلكناهم؛ سنتنا في الذين خلوا من قبل)(١)، وقال الشنقيطي: (أي وجعلنا لوقت هلاكهم موعداً والموعد: الوقت المحدد لوقوع ذلك فيه)(٢).

تفسير الآيات من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾

مناسبة الآيات لما قبلها وما بعدها:

حوت الآيات تفاصيل قصة موسى مع الخضر عليهما السلام، مع أن كفار قريش لم يسألوا عنها، ولذكر القصة في هذا الموضع بين قصة أهل الكهف وقصة ذي القرنين دلالات عديدة ومناسبات، فمنها:

١ = قال البقاعي رحمه الله: (لما قدم الكلام على البعث، واستدل عليه بابتداء الخلق، ثم ذكر بعض أحواله، ثم عقبه بما ضرب من الأمثال، ووجوه الاستدلال، وختم ذلك بأنه يمهل عند المساءة، عقب ذلك بأنه

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٥٣ بتصرف واختصار.

(٢) أضواء البيان ٣/ ٣٨٢ بتصرف واختصار.

كذلك يفعل عند المسرة، فلكل شيء عنده كتاب، وكل قضاء بقدر وحساب، فذكر قصة موسى مع الخضر عليهما السلام وما اتفق له في طلبه، وجعله سبحانه له الحوت آية وموعداً للقائه، ولو أراد سبحانه لقرّب المدى ولم يحوج إلى عناء، مع ما فيها من الخارق الدال على البعث، ومن الدليل على أن من ثبت فضله وعلمه لا يعترض عليه إلا من كان على ثقة من ربه ولا يمتحن، ومن ذم الجدل بغير علم، ووجوب الانقياد للحق عند بيانه، ومن إرشاد من استنكف أن يجالس فقراء المؤمنين بما اتفق لموسى عليه السلام من أنه -وهو كليم الله- اتبع الخضر عليه السلام ليقتبس من علمه، ومن تبكيت اليهود بقولهم الموهم للعرب أن من شرط النبي أن لا يخفى عليه شيء، مع ما يعلمون من أن موسى عليه السلام خفي عليه جميع ما فعله الخضر عليه السلام، وإلى نحو هذا أشار بقوله إذ وقع العصفور على حرف السفينة ونقر من البحر نقرة أو نقرتين "ما نقص علمي وعلمك يا موسى من علم الله إلا كما نقص هذا العصفور من البحر"، وبإعلامهم بما يعلمونه من أن موسى عليه السلام جعل نفسه تابعاً للخضر عليه السلام، تكذيباً لهم في ادعائهم أنه ليس أحد أعلى من موسى عليه السلام، وأنه لا ينبغي لأحد اتباع غيره، ومن جوابهم عما لعلهم يقولون للعرب بهتاً وحسداً "لو كان نبياً ما قال: أخبركم غداً، وتأخر" بما اتفق لموسى في وعده الخضر عليهما السلام بالصبر، وبما خفي عليه مما اطلع عليه الخضر عليهما السلام)[1].

٢= لما كان إمهال الله عز وجل للكفار وقوله: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾﴾،

---

(١) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٦٣ بتصرف واختصار.

قد يوهم أنه رحمة بهم كما يرحم أولياءه، لفت ﷻ إلى أن العواقب ليست كما يظهر، ومثَّل بقصص موسى مع الخضر عليهما السلام في رحلتهما. قال الطبري: (وهذه القصص التي أخبر الله ﷻ نبيه محمدًا ﷺ بها عن موسى وصاحبه، تأديبٌ منه له، وتقدّمٌ إليه بترك الاستعجال بعقوبة المشركين الذين كذّبوه واستهزؤوا به وبكتابه، وإعلام منه له أن أفعاله بهم وإن جرت في الأعين بما يجري أحيانا لأوليائه، فإن تأويله صائر إلى أحوال أعدائه، كما كانت أفعال صاحب موسى واقعة بخلاف الصحة عند موسى، إذ لم يكن عالما بعواقبها، وهي على الصحة في الحقيقة، ينبئ عن صحة ذلك قوله: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ ﴾ [الكهف]. ثم عقب ذلك بقصة موسى وصاحبه، يُعلم نبيَّه أن تركه تعجيل العذاب للمشركين، بغير نظر منه لهم -وإن كان ذلك فيما يحسب من لا علم له بما الله مدبر فيهم نظرًا منه لهم- لأن تأويل ذلك صائر إلى هلاكهم وبوارهم بالسيف في الدنيا، واستحقاقهم من الله في الآخرة الخزي الدائم)(١).

٣= هذه القصة مناسبة لما سبق من قصة آدم وسجود الملائكة وامتناع إبليس، ووجه المناسبة المقابلة والتضاد، إذ بالضد تتبين الأشياء، فبخلاف فعل إبليس فعل موسى عليه السلام عندما وجد أعلم منه، تبعه وتواضع له كالتلميذ لأستاذه، وعرف له قدره، مع أنه كليم الله ومن أولي العزم.

قال ابن عاشور: (لما جرى ذكر آدم وأمر الملائكة بالسجود، وما عرض للشيطان من الكبر جهلاً بأسباب الفضائل وحسداً في الشرف والفضل، فضرب بذلك مثلاً لأهل الكبر والحسد، أعقبَ تلك القصة

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٩١ بتصرف واختصار.

بقصة هي مَثل في ضدها لأن في تطلب ذي الفضل للازدياد منهما، وسعيه للظفر بمن يبلغه الكمال، اعترافاً للفاضل بفضله. وفي ذلك المقابلة بين الخُلُقين وإقامة الحجة على المماثلة والمخالفة بين الفريقين؛ المؤمنين والكافرين، وفي ذلك تعليم وتنويه بشأن العلم والهدى، وتربية للمتقين)[١].

٤= وهذه القصة مناسبة لقصة ذي القرنين بعدها لأنها تشبهها بما حوته من تطواف في الأرض لغرض صالح، فكانت كالمقدمة لها.

قال ابن عاشور: (لأن السورة نزلت لما سأل المشركون وأهل الكتاب عن قصتين؛ أصحاب الكهف وذي القرنين، وقد تقضّى جواب الأولى، وآن أن ينتقل للثانية فتختم بذلك السورة التي أنزلت لبيان القصتين، قدمت لهذه القصة الثانية قصة لها شبه بها في أنها تَطواف في الأرض لطلب نفع صالح، وهي قصة سفر موسى عليه السلام لطلب لقاء من هو على علم لا يعلمه موسى)[٢].

٥= قال د. عبد الكريم الخطيب: (مناسبة الآيات لما قبلها، أن الآيات نعت على المشركين عنادهم وضلالهم، وقد جاءهم عفوا دون جهد، وكان جديرا أن يطلبوا الهدى لأنفسهم، ويبذلوا الجهد والمال، فلم يفعلوا، سفهًا وغفلة، فإذا جاءهم ثم زهدوا فيه وردوه كان ذلك سفها وغفلة فوق غفلة. وهذا نبي كريم هو موسى عليه السلام كلمه ربه، وأنزل عليه آياته، ومع هذا يطلب العلم، ويجدّ في تحصيله، وفي هذا مدى ما ركب سفهاء قريش

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٥٩ بتصرف واختصار.

(٢) السابق بتصرف واختصار.

وحمقاها من جهل فاضح، وكبر صبياني، إذ يرون أنهم لا يحتاجون إلى علم، حتى وإن كان يطرق أبوابهم، ويدخل بيوتهم)[١].

٦= أن اليهود عرفوا بالعلم، وكانوا يرون لأنفسهم فضلاً بعلمهم الكتاب، وكانت قريش تقر لهم فحداها ذلك لسؤالهم عن النبي ﷺ وصدقه، لكن علمهم لم ينفعهم، وكان حجة عليهم لأنهم عملوا بخلافه، وكان حرياً أن يسألوا عن نبيهم موسى عليه السلام وعن علمه، وما كان من قصته مع الخضر عليه السلام، فلم يفعلوا، فكان في قصته قبل جوابهم عن ذي القرنين تعريض بهم، لا لتركهم الأهم فحسب، بل للانشغال عن الأهم بما هو أقل، قال ابن عاشور رحمه الله: (وفي سوق هذه القصة تعريض بأهل الكتاب بأن الأولى أن يدُلوا الناس على أخبار أنبياء إسرائيل وعلى سفر لأجل تحصيل العلم والحكمة لا سفر لأجل بسط الملك والسلطان)[٢].

---

(١) التفسير القرآني للقرآن، للدكتور عبد الكريم الخطيب٨/ ٦٤٥ بتصرف واختصار.
(٢) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٥٩.

مهمات تتعلق بالخضر ﵇

علمنا أن العبد المذكور هو الخضر، عند الجمهور الذي لا يعتد بمن خالفه، حتى عدَّه الشنقيطي إجماعاً، فيحسن التعرض لبعض المسائل المتعلقة به:

الأولى- سبب تسميته: قال النووي ﵀: (هو بفتح الخاء وكسر الضاد، ويجوز إسكان الضاد مع كسر الخاء وفتحها كما في نظائره)(١)، وهو لقب هذا العبد الصالح لا اسمه، وذكر أهل العلم في اسمه أقوالاً لا يثبت منها شيء ولا فائدة لذكرها. واختلفوا كذلك في سبب تسميته، قال ابن الجوزي: (فيه قولان؛ أحدهما: أنه جلس في فروة بيضاء فاخضرَّت، رواه أبو هريرة مرفوعا. والفروة: الأرض اليابسة، والثاني: أنه كان إذا جلس اخضرَّ ما حوله، قاله عكرمة. وقال مجاهد: كان إذا صلى اخضرَّ ما حوله)(٢)، والصواب الأول فعن أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ قال: "إنما سمي الخضر أنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز من خلفه خضراء"(٣)، قال النووي: (فهذا نص صحيح صريح)(٤)، قال الحافظ: (قال الحربي: الفروة من الأرض قطعة يابسة من حشيش... وعن ابن الأعرابي: الفروة أرض بيضاء ليس فيها نبات، وبهذا جزم الخطابي ومن تبعه)(٥).

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات ١/ ١٧٦.
(٢) زاد المسير ٤/ ٢٣٨ بتصرف واختصار.
(٣) صحيح البخاري ٣/ ١٢٤٨ (٣٢٢١).
(٤) تهذيب الأسماء واللغات للنووي ١/ ٢٣٨.
(٥) فتح الباري ٦/ ٤٣٣.

الثانية- حقيقة الخضر عليه السلام:

وقع خلاف في الخضر، هل هو نبي أم رسول أم ولي أم مَلَك، قال النووي في المجموع: (واختلفوا في حاله؛ فقال كثيرون: كان نبياً لا رسولاً، وقال آخرون: كان نبياً رسولاً، وقال آخرون: كان ولياً، وقيل: كان ملكاً من الملائكة وهذا غلط)(١)، ولا يشك ببطلان الأخير لمخالفته الكتاب والأحاديث الصحيحة، فإن كونه من البشر هو الظاهر من سياق قصته مع موسى عليه السلام، فإنه لما سئل عمن هو أعلم منه ونفى ذلك فالسؤال عن الإنس كما هو المعهود في مثله، وفي الحديث: "رجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة فإذا رجل مسجى بثوب"(٢)، ومن العلماء من توقف، قال الحافظ رحمه الله: (قال أبو الخطاب بن دحية: لا ندري هو ملك أو نبي أو عبد صالح)(٣). لكن الخلاف المشهور إنما هو بين نبوته وولايته، قال ابن الجوزي: (وهل كان الخضر نبياً أم لا؟ قولان، ذكرهما ابن الأنباري، وقال: كثير من الناس يذهب إلى أنه كان نبيّاً، وبعضهم يقول: كان عبداً صالحاً)(٤). ومن العجيب أن ينسب كل من هذين القولين للأكثر وللجمهور، قال البغوي رحمه الله: (لم يكن الخضر نبياً عند أكثر أهل العلم)(٥)، وقال ابن تيمية: (أكثر العلماء على أنه لم يكن نبياً)(٦)، وقال البعلي البعلي في التسهيل نقلاً عنه: (والجمهور على أنه ليس بنبي)(٧)، بينما قال

(١) المجموع ٥/ ٣٠٥.
(٢) صحيح البخاري ٣/ ١٢٤٦ (٣٢٢٠).
(٣) الزهر النضر في أخبار الخضر ص٦٩.
(٤) زاد المسير ٤/ ٢٣٨ بتصرف يسير.
(٥) تفسير البغوي ٥/ ١٨٨.
(٦) مجموع الفتاوى ٤/ ٣٣٨.
(٧) التسهيل أو مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية ٢/ ٢٣.

القرطبي: (الخضر نبي عند الجمهور)(١)، وقال الرازي: (قال الأكثرون إن ذلك العبد كان نبياً)(٢)، وبمثله قال أبو حيان: (الجمهور على أن الخضر نبي)(٣)، وقال الألوسي: (الجمهور على أنه عليه السلام نبي وليس برسول)(٤).

- **القائلون بولاية الخضر** عليه السلام: قال الحافظ: (ذهب إلى أنه كان ولياً جماعة من الصوفية، وقال به ابن أبي موسى من الحنابلة، وابن الأنباري في الزاهر بعد أن حكى القولين، وقال القشيري في رسالته: لم يكن نبياً وإنما كان ولياً)(٥)، وقال ابن كثير: (ذهب كثيرون إلى أنه لم يكن نبيًا، بل وليًا)(٦)، وليًا)(٦)، ومنهم شيخ الإسلام، فقد سئل رحمه الله: (هل كان الخضر عليه السلام نبياً أو ولياً؟ فأجاب: اختلف في نبوته، وأكثر العلماء على أنه لم يكن نبياً، مع أن نبوة من قبلنا يقرب كثير منها من الكرامة)(٧)، وقال: (وغاية الخضر أن يكون عنده من الكشف ما هو جزء من أجزاء النبوة فكيف يكون أفضل من نبي؟ فكيف بالرسول؟ فكيف بأولى العزم؟)(٨)، ويظهر من صنيع الطبري أنه يعده عالماً لا نبياً، قال رحمه الله: (فلقيا رجلا عالما يقال له الخَضِر)(٩)، وقال في موضع آخر: (قال العالم: إنك لن تطيق الصبر

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١١/ ١٦.

(٢) تفسير مفاتيح الغيب للرازي ١٠/ ٢٣٠.

(٣) تفسير البحر المحيط لأبي حيان ٧/ ٤٧٤.

(٤) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٣١٦.

(٥) الزهر النضر في أخبار الخضر ص٦٩ بتصرف واختصار.

(٦) تفسير ابن كثير ٥/ ١٨٧ بتصرف واختصار.

(٧) مجموع الفتاوى ٤/ ٣٣٨ بتصرف واختصار.

(٨) مختصر الفتاوي المصرية لابن تيمية ٢/ ٢٤.

(٩) تفسير الطبري ١٨/ ٧٠.

معي)[١]، وممن نفى كونه نبياً السعدي رحمه الله قال: (ذلك العبد الذي لقياه، ليس نبيا، بل عبدا صالحا)[٢]، ومنهم ابن عثيمين رحمه الله، قال: (النصوص تدل على أنه ليس برسول ولا نبي، إنما هو عبد صالح أعطاه الله تعالى كرامات)[٣].

- **القائلون أنه كان نبياً:** منهم الثعلبي[٤] قال: (الخضر نبي معمر على جميع الأقوال)[٥]، ومنهم الحيري المفسر، قال النووي: (قال الحبري[٦] المفسر المفسر وأبو عمرو: هو نبي)[٧]، وأبو عمرو هو ابن الصلاح رحمه الله، وقد نقل نقل النووي من فتاواه قوله: (وهو نبي، واختلفوا في كونه مرسلاً. وكذا قاله بهذه الحروف غير الشيخ من المتقدمين)[٨]، ومنهم القرطبي المفسر، قال: (والخضر نبي عند الجمهور. وقيل: هو عبد صالح، والآية تشهد بنبوته لأن بواطن أفعاله لا تكون إلا بوحي، والأول الصحيح)[٩]، ومنهم ابن كثير قال: (وقوله (رحمة من ربك) دليل على أنه كان نبيا وأنه ما فعل شيئا من تلقاء نفسه بل بأمر ربه فهو نبي، وقصارى الخضر عليه السلام أن يكون

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٧١.
(٢) تفسير السعدي ١/ ٤٨٢.
(٣) تفسير القرآن للعثيمين ٦/ ٩٠.
(٤) أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي (ت ٤٢٧).
(٥) شرح النووي على مسلم ٨/ ١١٤.
(٦) كذا في المطبوعة، ولم أجد له ترجمة، ولعلها مصحفة من "الحيري"، قال الذهبي في السير ١٧/ ٥٣٩: "العلامة المفسر، أبو عبد الرحمن، إسماعيل بن أحمد، النيسابوري، الحيري، الضرير الزاهد، أحد الأعلام... مات سنة ثلاثين وأربع مئة"ا.هـ
(٧) شرح النووي على مسلم ٨/ ١١٤.
(٨) تهذيب الأسماء واللغات للنووي ١/ ٢٣٩.
(٩) تفسير القرطبي ١١/ ١٦ بتصرف واختصار.

نبيا، وهو الحق)[١]، ومنهم الحافظ ابن حجر، قال: (والذي لا يتوقف فيه الجزم بنبوته)[٢]، ومن المتأخرين الألوسي وابن عاشور وغيرهما.

- **المتوقفون في المسألة:** ممن صرح بالتوقف ابن دحية كما مر، ومن العلماء من لم يصرح لكن يفهم توقفه من ترك الترجيح، كالنووي قال: (قال الماوردي: قيل: ولي، وقيل: نبي، وقيل: من الملائكة)، قال النووي: (والثالث غريب ضعيف أو باطل)[٣]، فغلَّط الأخير ولم يرجح بين الأولين، الأولين، ورجح في مسألة حياته وموته كما سيأتي، وهو كصنيعه في التهذيب.

أدلة القائلين بنبوته:

قال الشنقيطي ﷺ في تفسير قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [الكهف]: (وهذه الرحمة والعلم اللدني اللذان ذكر الله امتنانه عليه بهما لم يبين هنا هل هما رحمة النبوة وعلمها، أو رحمة الولاية وعلمها. والعلماء مختلفون في الخضر: هل هو نبي، أو رسول أو ولي، ولكنه يفهم من بعض الآيات أن الرحمة المذكورة رحمة نبوة. وأن هذا العلم اللدني علم وحي، وفي الاستدلال بها على ذلك مناقشات معروفة عند العلماء. اعلم أولاً أن الرحمة تكرر إطلاقها على النبوة في القرآن. وكذلك العلم من الله تكرر إطلاقه على الوحي. فمن إطلاق الرحمة على النبوة قوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف]، وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ

(١) البداية والنهاية لابن كثير ١/ ٣٤٩.
(٢) الزهر النضر في أخبار الخضر ص١٦٢.
(٣) تهذيب الأسماء واللغات للنووي ١/ ٢٣٩ بتصرف واختصار.

ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ [القصص]. ومن إطلاق العلم على النبوة قوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ١١٣﴾ [النساء]، وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ [يوسف: ٦٨] ، إلى غير ذلك. ومعلوم أن الرحمة وإيتاء العلم اللدني أعم من النبوة وغيرها. ووجود الأعم لا يستلزم وجود الأخص كما هو معروف. ومن أظهر الأدلة في أن الرحمة والعلم على الخضر عن طريق النبوة والوحي قوله عنه: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [الكهف] أي وإنما فعلته عن أمر الله جل وعلا. وأمر الله إنما يتحقق عن طريق الوحي، إذ لا طريق تعرف بها أوامر الله ونواهيه إلا الوحي. ولا سيما قتل الأنفس البريئة في ظاهر الأمر، وتعييب سفن الناس بخرقها. لأن العدوان على أنفس الناس وأموالهم لا يصح إلا عن طريق الوحي. فإن قيل: قد يكون عن طريق الإلهام. فالجواب أن المقرر في الأصول أن إلهام الأولياء لا يجوز الاستدلال به، وما يزعمه بعض المتصوفة من جواز العمل بالإلهام في حق الملهَم دون غيره، وما يزعمه بعض الجبرية أيضاً من الاحتجاج بالإلهام في حق الملهَم وغيره جاعلين الإلهام كالوحي المسموع مستدلين بظاهر قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وبخبر «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» كله باطل لا يعول عليه، لعدم اعتضاده بدليل. وغير معصوم لا ثقة بخواطره، لأنه لا يأمن دسيسة الشيطان. وقد ضمنت الهداية في اتباع الشرع، ولم تضمن في اتباع الخواطر والإلهامات. والإلهام في الاصطلاح: إيقاع شيء في القلب يثلج له الصدر من غير وحي ولا حجة عقلية، يختص الله به من يشاء من خلقه. أما ما يلهمه الأنبياء فليس كإلهام غيرهم، لأنهم معصومون. وبالجملة، فلا يخفى على من له إلمام بمعرفة دين

الإسلام أنه لا طريق تعرف بها أوامر الله ونواهيه، إلا عن طريق الوحي. فمن ادعى أنه غني في الوصول إلى ما يرضي ربه عن الرسل ولو في مسألة واحدة فلا شك في زندقته، والأدلة على هذا لا تحصى، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء] ولم يقل حتى نلقي في القلوب إلهاماً. وقال: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]. قال: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ [طه: ١٣٤]. والآيات والأحاديث بمثل هذا كثيرة جداً، وبذلك تعلم أن ما يدعيه كثير من جهلة التصوف من أن لهم ولأشياخهم طريقاً باطنة توافق الحق ولو كانت مخالفة لظاهر الشرع، كما فعله الخضر لظاهر العلم عند موسى: زندقة، وذريعة إلى الانحلال من دين الإسلام، بدعوى أن الحق في باطن يخالف الظاهر. وما يستدل به بعض جهلة التصوف على الإلهام من ظواهر النصوص كـ « استفت قلبك وإن أفتاك الناس وأفتوك » لا دليل فيه البتة على اعتبار الإلهام؛ لأنه لم يقل أحد ممن يعتد به أن الذي تتلقى الأحكام الشرعية من قبله القلب، بل الحديث للتحذير من الشبه، لأن الحرام والحلال بين، وبينهما أمور مشتبهة لا يعملها كل الناس. فقد يفتيك المفتي بحِلِّية شيء وأنت تعلم أنه يحتمل أن يكون حراماً، باستناد إلى الشرع، فإن قلب المؤمن لا يطمئن لما فيه الشبهة، ومما يدل على ذلك من كلام الصوفية المشهود لهم بالخير قول أبي القاسم الجنيد رحمه الله: (مذهبنا هذا مقيد بالكتاب والسنة)، نقله عنه غير واحد ممن ترجمه رحمه الله، كابن كثير وابن خلكان وغيرهما. ولا شك أن كلامه المذكور هو الحق، فلا أمر ولا نهي إلا على ألسنة الرسل. وبهذا كله

تعلم أن قتل الخضر للغلام وخرقه للسفينة وقوله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [الكهف٨٢] دليل ظاهر على نبوته. وعزا الفخر الرازي القول بنبوته للأكثرين، وما يستأنس به للقول بنبوته تواضع موسى عليه السلام له في قوله: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ [الكهف]، وقوله: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾﴾ الكهف] مع قول الخضر له: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الكهف])(١).

قال الحافظ: (ومن أوضح ما يستدل به على نبوة الخضر قوله: وما فعلته عن أمري، وينبغي اعتقاد كونه نبياً لئلا يتذرع بذلك أهل الباطل في دعواهم أن الولي أفضل من النبي حاشا وكلا)(٢)، ومع ذلك فقد قال الرازي: (دليل ضعيف، وضعفه ظاهر)(٣)، ولم يبين وجه هذا الضعف!

ويدل على نبوته أيضا قوله عن الغلام: (فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا) وهذا إخبار بالغيب، وقد قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن]، فالراجح أنه نبي، والله أعلم.

الثالثة- هل الولي أفضل أم النبي؟

لقد زلت في هذه المسألة أقدام كثير من منحرفي الصوفية، إذ فضلوا الولي على النبي، وكان لهم في قصة الخضر عليه السلام مرتع خصب لتقرير هذا ومن ثم التحلل من أحكام الشرع، بحجة أن للدين ظاهراً وباطناً، وأن الأنبياء والعلماء يقفون عند حدود الظاهر محجوبين عن الحقائق، أما الأولياء فقد خرقوا تلك الحجب ووقفوا على الحقائق، لذا فالأحكام والتكاليف مختصة بالأولين الواقفين مع الظواهر، وقد استغنى عنها

(١) أضواء البيان ٣/ ٣٨٧-٣٩٠ بتصرف واختصار.
(٢) فتح الباري ١/ ٢٢٠.
(٣) تفسير مفاتيح الغيب للرازي ١٠/ ٢٣٠.

أولئك الزنادقة الباطنية، وهذا ما جرأهم على تمثل قول ابن عربي:

مقام النبوة في برزخ فويق الرسول ودون الولي

قال القرطبي رحمه الله: (ذهب قوم من زنادقة الباطنية إلى سلوك طريق يلزم منه هَدُّ الأحكام الشرعية، فقالوا: هذه الأحكام يحكم بها على الأنبياء[1] والعامة، وأما الأولياء وأهل الخصوص فلا يحتاجون إلى ذلك، بل: إنما يراد منهم ما يقع في قلوبهم، ويحكم عليهم بخواطرهم؛ لصفاء قلوبهم عن الأكدار، وخلوّها عن الأغيار، فتتجلى لهم العلوم الإلهية، والحقائق الربانية، فيقفون على أسرار الكائنات، ويعلمون أحكام الجزئيات، فيستغنون بها عن أحكام الشرائع، كما اتَّفق للخضر؛ فإنَّه استغنى بذلك عما كان عند موسى. وقد جاء فيما ينقلون: استفت قلبك وإن أفتاك المفتون. قلت: وهذا القول زندقة وكفر يُقتل قائله، ولا يستتاب[2]؛ لأنَّه إنكار ما علم من الشرائع، فإنَّ الله قد أجرى سُنَّته، بأنَّ أحكامه لا تعلم إلا برسله، وهم المبلغون عنه، المبينون شرائعه، اختارهم لذلك وخصَّهم به، كما قال: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ وقال: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾، وقال: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾، وأمر بطاعتهم في كل ما جاؤوا به، وأخبر: أن الهدى في طاعتهم والاقتداء بهم، في قوله: ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ﴾، وقوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا

---

(١) في المطبوع (الأغنياء) ولعله تصحيف، وفي بعض نسخ تفسير القرطبي مثله، وفي بعضها (الأنبياء) وفي أخرى (الأغبياء)، وكلاهما محتمل، وفي الفتح الثاني، والأول أقرب لسياق الكلام.

(٢) وهذا أحد الأقوال؛ أعني عدم الاستتابة.

لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، وقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾، وقال: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾، وقال ﷺ: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما، كتاب الله، وسُنَّة نبيه». ومثل هذا لا يُحصى كثرة. فقد حصل العلم القطعي، واليقين وإجماع السَّلف والخلف: على ألا طريق لمعرفة أحكام الله إلا من جهة الرسل. فمن قال: إن هناك طريقًا آخر غير الرسل فهو كافر، يقتل ولا يستتاب، ثم هو قول بإثبات أنبياء بعد نبينا ﷺ الذي قد جعله الله خاتما، لأن من قال: يأخذ عن قلبه، ويعمل بمقتضاه، ولا يحتاج إلى كتاب ولا سنة، قد أثبت لنفسه النبوة، فإنَّ هذا نحو مما قاله رسول الله ﷺ: «إن روح القدس نفث في روعي»، ولقد سمعنا عن بعض الممخرقين المتظاهرين بالدِّين أنه قال: أنا لا آخذ عن الموتى؛ وإنَّما آخذ عن الحي الذي لا يموت، وإنما أروي عن قلبي عن ربي! ومثل هذا كثير، فنسأل الله الهداية والعصمة، وسلوك طريق سلف هذه الأمَّة)(١).

وضرر هؤلاء الزنادقة على الإسلام أشد من ضرر الكفار، قال ابن تيمية: (وصرح الغزالي بأن قتل من ادعى أن رتبة الولاية أعلى من رتبة النبوة أحب إليه من قتل مائة كافر لأن ضرر هذا في الدين أعظم)(٢).

قال أبو حيان: (وفي كتاب التحرير والتحبير(٣) ما نصه: "تعلق بعض الجهال بما جرى لموسى مع الخضر عليهما السلام على أن الخضر أفضل وطردوا الحكم، وقالوا: بعض الأولياء أفضل من آحاد الأنبياء، واستدلوا بقول أبي يزيد: خضت بحراً وقف الأنبياء بساحله، وهذا كله من ثمرات

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ٦/ ٢١٨ بتصرف واختصار.

(٢) مجموع الفتاوى ٤/ ١٧٣.

(٣) التحرير والتحبير لأقوال أئمة التفسير في معاني كلام السميع البصير، لابن النقيب المقدسي الحنفي (ت ٦٩٨).

الرعونة والظنة بالنفس" انتهى. وسمعنا من يحكي هذه المقالة عن بعض الضالين وهو ابن العربي صاحب الفتوح المكية، فكان ينبغي أن يسمى بالقبوح الهلكية، وأنه زعم أن الولي خير من النبيّ لأن الولي يأخذ عن الله بغير واسطة، والنبيّ يأخذ بواسطة، ولأن الولي قاعد في الحضرة الإلهية والنبيّ مرسل إلى قوم، ومن كان في الحضرة أفضل ممن يرسله صاحب الحضرة. إلى أشياء من هذه الكفريات، وقد كثر معظِّمو هذا الرجل في هذا الزمان من غلاة الزنادقة القائلة بالوحدة، نسأل الله السلام)[1].

وهؤلاء الزنادقة بنوا مقالتهم على مقدمتين: الأولى أن الخضر ولي، والثانية أنه أفضل من موسى، فينتج أن الولي أفضل من النبي، فإذا ثبت بالدليل أن موسى عليه السلام أفضل من الخضر بطلت النتيجة.

وقد استدل القائلون بأفضلية الخضر بأدلة، منها:

١ -أن الله ﷻ أعلم موسى عليه السلام أن الخضر أعلم منه:

قال القرطبي: (قوله: (هو أعلم منك) أي بأحكام وقائع مفصلة، ونوازل معينة لا مطلقاً، بدليل قوله: إنك على علم علمكه الله لا أعلمه أنا، وأنا على علم علمنيه لا تعلمه أنت، وعلى هذا فيصدق على كل واحد منهما أنه أعلم من الآخر من وجه)[2]. وقال ابن عاشور في تفسير: ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٣٣ ﴾ [البقرة]: (والآية تقتضي مزية عظمى لهذا النوع في هذا الباب وفي فضل العلم، ولكنها لا تدل على أفضلية النوع

---

(١) تفسير البحر المحيط لأبي حيان ٧/ ٤٨٥ بتصرف واختصار.

(٢) تفسير القرطبي ١١/ ١٠ بتصرف واختصار.

البشري على الملائكة، إذ المزية لا تقتضي الأفضلية كما بينه القرافي في الفرق الحادي والتسعين، فهذه فضيلة من ناحية واحدة، وإنما يعتمد التفضيل المطلق مجموعَ الفضائل، كما دل عليه حديث موسى والخضر)[1]، يريد أنه أثبت للخضر علماً ليس لموسى لكن هذا لم يجعله أفضل، كما قال: (ومعنى كون هذا العبد أعلم من موسى عليه السلام أنه يعلم علوما من معاملة الناس لم يعلمها الله لموسى. فالتفاوت في العلم في هذا المقام تفاوت بفنون العلوم، وهو تفاوت نسبي)[2]، فهذه ميزة لكن مجموع حالهما يدل على أفضلية موسى كما سيأتي. وقد نقل البعلي عن ابن تيمية قوله: (الجمهور على أنه ليس بنبي بل أنبياء بني إسرائيل كداود وسليمان أفضل من الخضر، بل على قول الجمهور أنه ليس بنبي فأبو بكر وعمر رضي الله عنهما أفضل منه، وكونه يعلم مسائل لا يعلمها موسى لا يوجب أن يكون أفضل مطلقاً، كما أن الهدهد قال: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾ لم يكن أفضل من سليمان، وكما أن الذين كانوا يلقحون النخل كانوا أعلم بتلقيحه ولم يجب أن يكونوا أفضل منه ﷺ، وقد قال: "أنتم أعلم بأمر دنياكم"، وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم كانوا يتعلمون ممن دونهم، وقد قال ﷺ: لم يبق بعدي من النبوة إلا الرؤيا الصالحة، ومعلوم أن ذريتهم في العلم أفضل ممن حصلت له الرؤيا، وغاية الخضر أن يكون عنده من الكشف جزء من أجزاء النبوة، فكيف يكون أفضل من نبي ﷺ؟ فكيف بالرسول؟ فكيف بأولي العزم)[3].

٢-أن موسى عليه السلام لما علم بذلك سعى للقائه واتباعه ليتعلم منه:

والمعلم أفضل من المتعلم، والتابع أفضل من المتبوع، قال الألوسي:

(١) التحرير والتنوير ١/ ٤١٩ بتصرف يسير.
(٢) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٦٣.
(٣) مختصر الفتاوي المصرية لابن تيمية ٢/ ٢٤ بتصرف واختصار.

(لا يبعد عقلاً تعلم الأفضل الأعلم ممن هو دونه في الفضل والعلم. ومن الأمثال قد يوجد في الأسقاط[1] ما لا يوجد في الأسفاط[2]، وقالوا: قد يوجد في المفضول ما لا يوجد في الفاضل)[3]، وقال ابن عاشور: (والعلم الذي سأله موسى من العلم النافع الذي لا يتعلق بالتشريع للأمة الإسرائيلية، فإن موسى مستغن في التشريع إلا من وحي الله، لأنه لذلك أرسله وما عدا ذلك لا تقتضي الرسالة علمه وإنما رام موسى أن يعلم من العلم الذي خص الله به الخضر؛ لأن الازدياد من العلوم النافعة من الخير. وقد قال الله تعالى تعليما لنبيه: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه])[4]، وقال القرطبي: (فلما سمع موسى هذا تشوقت نفسه الفاضلة، وهمته العالية، لتحصيل علم ما لم يعلم، وللقاء من قيل فيه: إنه أعلم منك)[5]، فيكون في اتباع موسى الخضر -مع أنه أفضل- تواضع منه وحرص على العلم وفيه زيادة فضل له عليه السلام. قال الشوكاني: (وليس في ذلك أن الخضر أفضل، فقد يأخذ الفاضل عن المفضول إذا اختص بعلم، فعلم موسى الأحكام الشرعية وعلم الخضر بعض الغيب ومعرفة البواطن)[6].

٣-أن الله قد أعطاه علماً لدنياً، وسبق الكلام عنه فلا تعلق لهم به.

والصواب الذي لا ريب فيه البتة أن موسى أفضل من الخضر عليهما

---

(١) جمع سقط المتاع وهو رديئه، انظر لسان العرب ٧/ ٣١٦، مادة (سقط).

(٢) جمع سفط، وهو ما يعبأ فيه الطيب وما أشبهه من أدوات النساء، انظر لسان العرب ٧/ ٣١٥، مادة (سفط).

(٣) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٣٠٢ بتصرف واختصار.

(٤) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٧٠ بتصرف واختصار.

(٥) تفسير القرطبي ١١/ ١٠.

(٦) فتح القدير ٤/ ٤٠٨ بتصرف واختصار.

السلام، وقد دل على ذلك الكتاب والسنة والآثار والإجماع.

أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى﴾ [الأعراف: ١٤٤]، قال القرطبي: (الاصطفاء: الاجتباء، أي فضلتك)(١)، وقال الطبري: ("وبكلامي": كلمتك وناجيتك دون غيرك من خلقي)(٢)، وقال ابن كثير: (يذكر تعالى أنه خاطب موسى عليه السلام بأنه اصطفاه على عالمي زمانه برسالاته وبكلامه)(٣). والخضر من أهل زمانه فيدخل في العموم، ولا يخرج منه إلا بدليل صريح ولا دليل. وقوله تعالى: ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء]، قال الرازي: (أفضل الخلق هم الأنبياء، وبعدهم الصديقون، وبعدهم من ليس له إلا محض درجة الشهادة، وبعدهم من ليس له إلا محض درجة الصلاح)(٤)، وقال القرطبي: (الفضل لمن فضله الله، فالخضر إن كان وليا فموسى أفضل لأنه نبي ﷺ، والنبي أفضل من الولي، وإن كان نبياً فموسى فضله بالرسالة)(٥). فعلى القول بولاية الخضر الذي يتعلق به الزنادقة يكون موسى عليه السلام أفضل، وعلى القول بأنه نبي، فموسى رسول ومن أولي العزم، والرسول النبي أفضل من النبي فقط، بل موسى عليه السلام أفضل الرسل بعد نبينا وبعد إبراهيم عليهم الصلاة والسلام.

وأما السنة فقد سئل النبي ﷺ: (أي الناس أشد بلاء؟ قال: الأنبياء

---

(١) تفسير القرطبي ٧/ ٢٨٠.
(٢) تفسير الطبري ١٣/ ١٠٥.
(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٧٣.
(٤) تفسير مفاتيح الغيب للرازي ٥/ ٢٧٧ بتصرف واختصار.
(٥) تفسير القرطبي ١١/ ١٧ بتصرف واختصار.

ثم الأمثل فالأمثل)[١]، وترجم البخاري: (باب أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأول فالأول)، قال الحافظ: (المراد الأولية في الفضل، والأمثل أفعل من المثالة والجمع أماثل وهم الفضلاء)[٢]، فدل هذا على أفضلية الأنبياء على من سواهم، والكلام هنا على القول بنبوة الخضر أو ولايته على ما سبق.

وأما الآثار فقد ذكر الطبري عن ابن عباس أن موسى عليه السلام خطب قومه، قال: (فذكر ما آتاهم الله من الخير والنعمة وذكرهم إذ أنجاهم الله من آل فرعون وذكرهم هلاك عدوهم وما استخلفهم في الأرض فقال: وكلم الله موسى نبيكم تكليما واصطفاني لنفسه وأنزل علي محبة منه وآتاكم من كل ما سألتموه فنبيكم أفضل أهل الأرض وأنتم تقرؤون التوراة. فلم يترك نعمة أنعمها الله عليهم إلا ذكرها وعرفها إياهم فقال له رجل من بني إسرائيل: هو كذلك يا نبي الله، فهل على الأرض أحد أعلم منك؟ قال: لا. فبعث الله عز وجل جبرائيل عليه السلام إلى موسى عليه السلام فقال: إن الله يقول: وما يدريك أين أضع علمي؟)[٣]، فعتب عليه في قوله: لا أحد أعلم منه، ولم يعتب عليه في إنه أفضل أهل الأرض، وهذا إقرار له بذلك.

وأما الإجماع فقد نقل البعلي عن ابن تيمية رحمه الله قوله: (أجمع المسلمون على أن موسى أفضل من الخضر، فمن قال إن الخضر أفضل فقد كفر، وسواء قيل إن الخضر نبي أو ولي)[٤].

شبهة أخرى- أقررنا أن موسى أفضل من الخضر عليهما السلام، لكن

---

(١) سنن الترمذي ٤/ ٦٠١ (٦٠١)، قال الألباني: حسن صحيح.

(٢) فتح الباري ١٠/ ١١١ بتصرف واختصار.

(٣) تفسير الطبري ١٨/ ٦٧ بتصرف واختصار.

(٤) مختصر الفتاوي المصرية لابن تيمية ٢/ ٢٤.

القصة تدل على أن للولي أن يخالف الشرع بما يقع له من إلهام؟

فالجواب: أولاً إن الخضر كان نبياً لا مجرد ولي، فتسقط الشبهة؛ وعلى التسليم بأنه ولي فقد قال ابن تيمية رحمه الله: (من ظن أن لأحد من أولياء الله طريقاً إلى الله غير متابعة محمد ﷺ باطناً وظاهراً، فلم يتابعه باطناً وظاهراً فهو كافر، ومن احتج بقصة موسى مع الخضر كان غالطاً من وجهين:

أحدهما- أن موسى لم يكن مبعوثاً إلى الخضر، ولا كان على الخضر اتباعه، فإن موسى كان مبعوثا إلى بني إسرائيل، وأما محمد فرسالته عامة لجميع الثقلين الجن والإنس، ولو أدركه من هو أفضل من الخضر كإبراهيم وموسى وعيسى وجب عليهم اتباعه، فكيف بالخضر سواء كان نبياً أو ولياً؟ ولهذا قال الخضر لموسى: أنا على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه، وليس لأحد من الثقلين الذين بلغتهم رسالة محمد ﷺ أن يقول مثل هذا.

الثاني- أن ما فعله الخضر لم يكن مخالفاً لشريعة موسى عليه السلام، وموسى لم يكن علم الأسباب التي تبيح ذلك فلما بينها له وافقه)(١).

قال ابن القيم رحمه الله: (وأما قصة موسى مع الخضر عليهما السلام: فالتعلق بها في تجويز الاستغناء عن الوحي بالعلم اللدني إلحاد وكفر مخرج عن الإسلام موجب لإراقة الدم ... فمن ادعى أنه مع محمد كالخضر مع موسى أو جوز ذلك لأحد من الأمة: فليجدد إسلامه وليتشهد شهادة الحق فإنه بذلك مفارق لدين الإسلام فضلا عن أن يكون من خاصة أولياء الله وإنما هو من أولياء الشيطان وخلفائه ونوابه. وهذا الموضع

---

(١) مجموع الفتاوى ١١/ ٢٦٣ بتصرف يسير.

مقطع ومفرق بين زنادقة القوم وبين أهل الاستقامة منهم، فحرِّك ترَه)[1]!

قال القرطبي: (وقع لبعض الجهَّال: أن الخضر أفضل من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ متمسِّكًا بهذه القصة، وهذا إنما يصدر ممن قصر نظره على هذه القصة، ولم ينظر في شيء من أحوال موسى ﷺ، ولا فيما خصَّه الله تعالى به من الرسالة، وسماع كلام الله، وإعطائه التوراة التي فيها علم كل شيء، وأن أنبياء بني إسرائيل تحت شريعته، حتى عيسى ﷺ، ألا ترى أن الله قال: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ ﴾، والإنجيل وإن كان هدى فليس فيه من الأحكام إلا قليل، ولم يجئ عيسى ﷺ ناسخًا للتوراة، بل معلمًا ومبيِّنًا أحكامها، كما قال تعالى: ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ ﴾. وعليه فهو أَمَامَهم وإمامهم وأعلمهم وأفضلهم. ويكفي من ذلك قوله: ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى﴾، وأن موسى من أولي العزم، وأن أول من ينشق عنه القبر نبينا ﷺ، فيجد موسى ﷺ متعلقًا بساق العرش، وأنه ليس في محشر يوم القيامة أكثر من أمَّته بعد أمَّة نبينا ﷺ، إلى غير ذلك من فضائله. فأما الخضر ﷺ فلم يُتَّفق على أنَّه نبي، فإنَّ كان نبيًا فليس برسول بالاتفاق؛ إذ لم يقل أحدٌ إن الخضر ﷺ أرسل إلى أمَّة، والرَّسول أفضل. وإن تنزلنا على أنه رسول؛ فرسالة موسى أعظم، وأمَّته أكثر، فهو أفضل. وإن قلنا: إن الخضر كان وليًا؛ فلا إشكال أن النبي أفضل من الولي. وهذا أمرٌ مقطوع به عقلاً ونقلاً، ومخالفه كافر، فإنَّه أمرٌ معلوم من الشرائع بالضرورة؛ ولأنه واحد من أمَّة موسى، أو غيره من الأنبياء، ونبي كل أمَّة أفضل منها قطعًا،

---

(١) مدارج السالكين ٢/ ٤٧٦ بتصرف يسير.

آحادًا وجمعًا؛ وإنَّما كانت قصة موسى مع الخضر امتحانًا لموسى ليتأدَّب ويعتبر، كما قد ابتلي غيره من الأنبياء بأنواع من المحن والبلاء)(١).

الرابعة- هل هو حي أم ميت؟

اختُلِف في حياة الخضر وموته، كما اختلف في نبوته وولايته، قال ابن الجوزي: (على قولين حكاهما الماوردي، وكان الحسن يذهب إلى أنه مات، وكذلك كان ابن المنادي من أصحابنا يقول، ويقبِّح قول من يرى بقاءه، ويقول: لا يثبت حديث في بقائه. وروى النقاش أن البخاري سئل عن الخضر وإلياس: هل هما في الأحياء؟ فقال: كيف ذلك وقد قال النبي ﷺ: "لا يبقى على رأس مائة سنة ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد؟!")(٢).

وكما اختلفوا في قول الجمهور في النبوة والولاية اختلفوا في هذه المسألة، قال القرطبي -وهو يقول بحياته-: (ذهب الجمهور إلى أن الخضر مات)(٣)، وقال النووي: (قال الأكثرون: هو حي موجود بين أظهرنا، وذلك متفق عليه عند الصوفية، وحكاياتهم في رؤيته والاجتماع به والأخذ عنه، وسؤاله وجوابه، ووجوده في المواضع الشريفة ومواطن الخير أكثر من أن تحصر، وأشهر من أن تذكر. قال ابن الصلاح في فتاويه: هو حي عند جماهير العلماء والصالحين، والعامة معهم في ذلك)(٤).

لكن ما يميز الخلاف هنا إنكار كل فريق على الآخر، إنكاراً لا يخلو أحيانا من شدة، فقد نقل النووي عن ابن الصلاح قوله: (وإنما شذ بإنكاره

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ٦/ ٣٠٨ بتصرف واختصار.
(٢) زاد المسير ٤/ ٢٣٨ بتصرف واختصار.
(٣) تفسير القرطبي ١١/ ٤١ بتصرف واختصار.
(٤) تهذيب الأسماء واللغات للنووي ١/ ٢٣٩ بتصرف واختصار.

بعض المحدثين)[١]، ودعوى الشذوذ لا تصح، وقد نقل الحافظ عن السهيلي قوله: (وقال البخاري وطائفة من أهل الحديث: مات الخضر قبل انقضاء مائة سنة من الهجرة)[٢]، وما زال هذا قول كثير من أهل العلم، حتى قال ابن الجوزي إنه إجماع المحققين، وقال: (والدليل على أن الخضر ليس بباق أربعة أشياء؛ القرآن، والسنة، وإجماع المحققين من العلماء، والمعقول)[٣].

قال ابن القيم: (وأما إجماع المحققين فقد ذكره [ابن الجوزي] عن البخاري وعلي الرضا أن الخضر مات، قال: وممن قال إن الخضر مات الحربي وابن المنادي وهما إمامان، وكان ابن المنادي يقبح قول من يقول إنه حي، وحكى القاضي أبو يعلى موته عن بعض أصحاب أحمد، وذكر عن بعض أهل العلم أنه احتج بأنه لو كان حياً لوجب عليه أن يأتي إلى النبي)[٤]، قال ابن القيم: (سئل إبراهيم الحربي عن تعمير الخضر وأنه باق فقال: من أحال على غائب لم يُنتَصَف منه وما ألقى هذا بين الناس إلا شيطان، وسئل البخاري عن الخضر وإلياس هل هما أحياء؟ فقال: كيف يكون هذا وقد قال النبي ﷺ: "لا يبقى على رأس مئة سنة ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد"؟ وسئل عن ذلك غيرهما من الأئمة فقالوا: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾)[٥]. وقال ابن تيمية رحمه الله:

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات للنووي ١/ ٢٣٩.
(٢) الزهر النضر في أخبار الخضر لابن حجر ١/ ٤١.
(٣) المنار المنيف ١/ ٦٨ بتصرف واختصار.
(٤) المنار المنيف ١/ ٧٢ بتصرف واختصار.
(٥) المنار المنيف ١/ ٦٧ بتصرف واختصار.

(سأل الحربي أحمد عن تعمير الخضر وإلياس وأنهما باقيان يريان ويروى عنهما فقال: من أحال على غائب لم ينصف منه وما ألقى هذا إلا شيطان)[١]، قال القرطبي: (واختاره ابن العربي، والصحيح القول الثاني وهو أنه حي على ما نذكره)[٢]، وممن قال بموته أيضاً: ابن الغباري، وابن الجوزي، وأبو الفضل بن ناصر، وابن العربي، والنقاش[٣]، وابن عطية[٤]، وأبو الفضل المرسي[٥]، وابن تيمية، وابن القيم، وابن كثير[٦]، وابن حجر وغيرهم.

أما القائلون بحياته فمنهم: الثعلبي، وأبو القاسم القشيري، وابن الصلاح، والقرطبي، والنووي، وابن دقيق العيد[٧]، وغيرهم.

تنبيه- قال ابن تيمية رحمه الله: (والصواب الذي عليه المحققون أنه ميت وأنه لم يدرك الإسلام ولو كان موجودا في زمن النبي ﷺ لوجب عليه أن يؤمن به ويجاهد معه)[٨]، ونقل عنه ذلك ابن القيم وزاد: (وقد قال قال النبي يوم بدر: اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض وكانوا ثلاث مئة وثلاثة عشر رجلا معروفين بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم فأين كان الخضر حينئذ؟)[٩]، فهذا قوله في المسألة، وأما قوله في مجموع

---

(١) مجموع الفتاوى ٤/ ٣٣٧ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير القرطبي ١١/ ٤١.
(٣) ينظر فيمن سبق الزهر النضر في أخبار الخضر لابن حجر.
(٤) المحرر الوجيز لابن عطية ٤/ ٣٣٤.
(٥) تفسير البحر المحيط لأبي حيان ٧/ ٤٧٤.
(٦) ينظر البداية والنهاية ١/ ٣٤٩.
(٧) ذكره أبو حيان في التفسير والحافظ في الزهر.
(٨) زيارة القبور ١/ ٧٠.
(٩) المنار المنيف ١/ ٦٨.

الفتاوى: (وأما حياته: فهو حي)[1]واحتجاجه بها في مسند الشافعي ورده حجج القائلين بموته، فيحمل على تبدل قوله، وأن آخر قوليه القول بوفاته كما أثبت ذلك ابن القيم رحمه الله، وابن عبد الهادي رحمه الله إذ قال: (و[له] جواب في الخضر هل مات أو هو حي، واختار أنه مات)[2].

وأما ما نقله الشيخ عزير شمس الحق أنه (استشهد به أحد علماء اليمن، فردَّ عليه قطب الدين الخيضري (ت ٨٩٤) في كتابه "افتراض دفع الاعتراض"، وقال: "هذا الذي نقله عن ابن تيمية ليس هو اعتقاده في مسألة الخضر، وإنما نقله عن الطائفة القائلين بحياته")[3]، فغير صحيح كما يظهر بجلاء لمن طالع الفتوى، والصحيح أن قوله تغير، والله أعلم.

واستدل القائلون بموته بقوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ ﴾ وأجيب بأنه يموت قبل يوم القيامة، كحال عيسى عليه السلام، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [آل عمران]، (قال ابن عباس: ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق: لئن بُعِث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ على أمته الميثاق، لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به وينصرنه، ذكره البخاري عنه)[4]، قال الحافظ: (واستدل ابن الجوزي بما أخرجه أحمد عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله قال: "والذي

---

(١) مجموع الفتاوى ٤/ ٣٣٨ وما بعدها.
(٢) العقود الدرية ١/ ٧٠.
(٣) جامع المسائل لابن تيمية ٥/ ٩.
(٤) البداية والنهاية لابن كثير ١/ ٣٩٠.

نفسي بيده لو أن موسى كان حيًا ما وسعه إلا أن يتبعني". قال: فإذا كان هذا في حق موسى فكيف لم يتبعه الخضر لو كان حيًا، فيصلي معه الجمعة والجماعة، ويجاهد تحت رايته، كما ثبت أن عيسى يصلي خلف إمام هذه الأمة)[١]؟ وأجيب عن الآية والحديث بأنه لا مانع أن يكون حضر ونصر النبي ﷺ وصلى خلفه دون أن يُرى، ومر معنا قول الثعلبي: إنه نبي معمر محجوب عن الأبصار، قال ابن كثير: (الجواب أن الأصل عدم هذا الاحتمال البعيد الذي يلزم منه تخصيص العمومات بمجرد التوهمات)[٢].

وأقوى الأدلة النقلية على موته ما احتج به البخاري رحمه الله من حديث ابن عمر: "أرأيتكم ليلتكم هذه؟ فإن رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو على الأرض أحد!"[٣]، وفسر ذلك فقال: (يريد بذلك أن ينخرم ذلك القرن)[٤]، وعن جابر عن النبي ﷺ أنه قال قبل موته بشهر أو نحوه: "ما من نفس منفوسة اليوم تأتي عليها مائة سنة وهي حية يومئذ"[٥].

وقد نقل القرطبي عن بعض العلماء رده على هذا الاستدلال فقال[٦]: (ولا حجة لمن استدل به على بطلان قول من يقول إن الخضر حي لعموم قوله: (ما من نفس منفوسة)؛ لأن العموم وإن كان مؤكَّد الاستغراق فليس نصاً فيه، بل هو قابل للتخصيص. فكما لم يتناول عيسى عليه السلام، فإنه لم يمت ولم يقتل فهو حي بنص القرآن ومعناه، ولا يتناول الدجال مع أنه

---

(١) انظر الزهر النضر في أخبار الخضر ص٨٦، وما بعدها بتصرف يسير.
(٢) البداية والنهاية لابن كثير ١/ ٣٩١.
(٣) صحيح البخاري ١/ ٥٥ (١١٦)، صحيح مسلم ٤/ ١٩٦٥ (٢٥٣٧).
(٤) السابق، صحيح مسلم.
(٥) صحيح مسلم ٤/ ١٩٦٦ (٢٥٣٨).
(٦) أصل الكلام لشيخه أبي العباس القرطبي في المفهم ٦/ ٤٩٠.

حي بدليل حديث الجساسة، فكذلك لم يتناول الخضر ﷺ وليس مشاهداً للناس، ولا ممن يخالطهم حتى يخطر ببالهم حالة مخاطبة بعضهم بعضاً، فمثل هذا العموم لا يتناوله، والألف واللام في قوله: (على الأرض) للعهد لا للجنس وهي أرض العرب، بدليل تصرفهم فيها وإليها غالباً دون أرض يأجوج ومأجوج، وأقاصي جزر الهند والسند مما لا يقرع السمع اسمه، ولا يعلم علمه، ولا جواب عن الدجال)[1]، وبنحو هذا أجاب ابن تيمية رحمه الله في فتواه بحياته، وكذلك النووي قال: (وقد احتج بهذه الأحاديث من شذ من المحدثين فقال الخضر ﷺ ميت، والجمهور على حياته كما سبق في فضائله، ويتأولون الأحاديث على أنه كان على البحر لا الأرض أو أنها عام مخصوص)[2]. وهذا بعيد جداً، فالتعبير بـ(وجه الأرض) ظاهر في أن المراد جنس الأرض أي كل الأرض لا جزيرة العرب فحسب، وأما الدجال فقد أخرج بمخصص صحيح هو حديث تميم الداري رضي الله عنه، فبقي الخضر داخلاً في عموم الحديث، وقد أجاب الشنقيطي رحمه الله عن كلام القرطبي جواباً قوياً فليراجعه من شاء مبسوطاً في تفسيره ٣/ ٣٩٧ وما بعدها. كما استدل القائلون بموته بأدلة من المعقول يمكن النظر فيها في كتب شيخ الإسلام، والمنار المنيف لابن القيم، والبداية والنهاية لابن كثير، والزهر النضر لابن حجر وغيرها.

وأما القائلون بحياته فقد استدلوا بأحاديث وآثار، كما استدلوا بقصص وحكايات يذكرها المشايخ والعوام وفيها اجتماعهم بالخضر.

---

(١) تفسير القرطبي ١١/ ٤٢-٤٤.

(٢) شرح النووي على مسلم ١٦/ ٩٠ بتصرف واختصار.

أما الأحاديث والآثار فلا يصح منها شيء، قال الحافظ: (قال [ابن دحية]: وجميع ما ورد في حياته لا يصح منها شيء باتفاق أهل النقل، وإنما يذكر ذلك من يروي الخبر ولا يذكر علته إما لكونه لا يعرفها، وإما لوضوحها عند أهل الحديث. قال: وأما ما جاء عن المشايخ فهو مما يتعجب منه، كيف يجوز لعاقل أن يلقى شخصاً لا يعرفه فيقول له أنا فلان فيصدقه!)(١)، وقال ابن كثير: (تصدى ابن الجوزي رحمه الله في كتابه: "عجالة المنتظر في شرح حالة الخضر" للأحاديث في ذلك فبين أنها موضوعة، ومن الآثار عن الصحابة والتابعين فمن بعدهم فبين ضعف أسانيدها، وقد أجاد في ذلك وأحسن الانتقاد)(٢)، وقال ابن القيم: (الأحاديث التي يذكر فيها الخضر وحياته كلها كذب ولا يصح في حياته حديث واحد)(٣). قال الحافظ: (وقال ابن المنادي: بحثت عن تعمير الخضر وهل هو باق أم لا فإذا أكثر المغفلين مغترون بأنه باق من أجل ما روي في ذلك، والأحاديث المرفوعة في ذلك واهية والسند إلى أهل الكتاب ساقط لعدم ثقتهم، وخبر مسلمة بن مصلقة كالخرافة، وخبر رياح كالريح، وما عدا ذلك من الأخبار واهية الصدور والأعجاز لا يخلو حالها: إما أنها أدخلت على الثقات استغفالاً أو يكون بعضهم تعمد ذلك)(٤).

قال الحافظ: (والذي تميل إليه النفس من حيث الأدلة القوية خلاف ما يعتقده العوام من استمرار حياته، ولكن ربما عرضت شبهة من جهة كثرة الناقلين للأخبار الدالة على استمراره فيقال: هب أن أسانيدها واهية

---

(١) الزهر النضر ٨١.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ١/ ٣٩٠ بتصرف واختصار.

(٣) المنار المنيف ١/ ٦٧.

(٤) الزهر النضر ٨٢ بتصرف واختصار.

إذ كل طريق منها لا يسلم من سبب يقتضي تضعيفها فماذا يصنع في المجموع؟ فإنه على هذه الصورة قد يلتحق بالتواتر المعنوي) ثم قال رحمه الله في رد هذه الشبهة: (وأقوى الأدلة على عدم بقائه عدم مجيئه إلى رسول الله ﷺ وانفراده بالتعمير من بين أهل الأعصار المتقدمة بغير دليل شرعي)(١).

قال ابن كثير: (وحكى [النووي] في كونه باقيًا إلى الآن ثم إلى يوم القيامة قولين، ومال هو وابن الصلاح إلى بقائه، وذكروا في ذلك حكايات وآثارًا عن السلف وغيرهم وجاء ذكره في بعض الأحاديث ولا يصح شيء من ذلك، وأشهرها أحاديث التعزية وإسناده ضعيف. ورجح آخرون خلافه، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: ٣٤] وبقول النبي ﷺ: "اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض"، وبأنه لم ينقل أنه جاء إلى رسول الله ﷺ، ولا قاتل معه. ولو كان حيا لكان من أتباع النبي ﷺ وأصحابه؛ لأنه عليه السلام كان مبعوثًا إلى جميع الثقلين: الجنّ والإنس، وقد قال: "لو كان موسى وعيسى حَيَّيْن ما وسعهما إلا اتباعي" وأخبر قبل موته بقليل: أنه لا يبقى ممن هو على وجه الأرض إلى مائة سنة من ليلته تلك عين تَطْرِفُ، إلى غير ذلك من الدلائل)(٢).

والحق في هذه المسألة أنه قد مات، ومجرد إمكان الوقوع لا يكفي دليلاً على بقاء الخضر أو غيره، فلا بد من قيام دليل صريح صحيح، لأن بقاءه طوال هذه الآماد بخلاف المعتاد، لا سيما وأن في الأدلة ما يقوي قول من قال بموته، وبعضها لا يمكن رده إلا بشيء من التكلف كما مر.

---

(١) الزهر ١٦٢.

(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٨٧ بتصرف واختصار.

الخامسة- كونوا على حذر ممن يقول: حدثني الخضر!

قال ابن عاشور: (واعلم أن قصة موسى والخضر قد اتخذتها طوائف من أهل النحل الإسلامية أصلاً بنوا عليه قواعد موهومة. فأول ما أسسوه منها أنّ الخضر لم يكن نبياً وإنما كان عبداً صالحاً، وأن العِلم الذي أوتيه ليس وحياً ولكنه إلهام، وأن تصرفه الذي تصرفه في الموجودات أصل لإثبات العلوم الباطنية، وأن الخضر منحهُ الله البقاء إلى انتهاء مدة الدنيا ليكون مرجعاً لتلقي العلوم الباطنية، وأنه يظهر لأهل المراتب العليا من الأولياء فيفيدهم من علمه ما هم أهل لتلقّيه. وبَنوا على ذلك أن الإلهام من ضروب الوحي، وسموه الوحي الإلهامي، وأنه يجيء على لسان ملك الإلهام، وقد انتصب علماء الكلام والأصول لإبطال أن يكون ما يسمى بالإلهام حجّة، لعدم الثقة بخواطر من ليس معصوماً، ولتفاوت مراتب الكشف، ولا يقام التشريع على أصول موهومة لا تنضبط. والأظهر أن الخضر نبي عليه السلام وأنه كان موحًى إليه بما أوحي، لقوله: "وما فعلته عن أمري"، وأنه قد انقضى خبره بعد تلك الأحوال التي قصّت في هذه السورة، وأنه قد لحقه الموت الذي يلحق البشر في أقصى غاية من الأجل يمكن أن تفرض، وأن يحمل ما يعْزى إليه من بعض الصوفية الموسومين بالصدق أنه محوك على نسج الرمز المعتاد لديهم، أو على غشاوة الخيال التي قد تخيم عليهم، فكونوا على حذر ممن يقول: أخبرني الخَضر)[1].

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴾ تنتقل الآيات الكريمة بالأسماع نقلة بديعة مفاجئة، وتبدأ بلا

(١) التحرير والتنوير ١٦/ ١٥، بتصرف واختصار.

مقدمات في ذكر تلك القصة العجيبة التي حوت كثيراً من الفوائد والعبر والدروس، والتي دارت أحداثها بين موسى والخضر عليهما السلام.

قال ابن عاشور: (فجملة ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ ﴾ معطوفة على ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ [الكهف: ٥٠] عطف القصة على القصة. والتقدير: واذكر إذ قال، أي اذكر ذلك الزمن وما فيه. وناسبها تقدير "اذكر" لأن في القصة موعظة وذكرى كقصة آدم)(١). قال: (وحُذف الغرض الذي سار له موسى عليه السلام لذكره بعدُ، إيجاز وتشويق، فله موقع عظيم في القصة، لإخراجها عن مطروق القصص إلى بديع الحِكم والأمثال قضاء لِحق بلاغة الإعجاز)(٢).

فقوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ ﴾

قال الطبري رحمه الله: (أي واذكر يا محمد إذ قال موسى بن عمران لفتاه يوشع)(٣)، قال النبي ﷺ: "فقال لفتاه: لا أكلفك إلا أن تخبرني بحيث يفارقك الحوت. قال ما كلفت كثيراً. فذلك قوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ ﴾"(٤). قال ابن عطية: (﴿مُوسَىٰ ﴾ هو موسى بن عمران بمقتضى الأحاديث والتواريخ وبظاهر القرآن، إذ ليس في القرآن موسى غير واحد، وهو ابن عمران، ولو كان غيره لبينه)(٥)، وقال القرطبي رحمه الله: (الجمهور من العلماء وأهل التاريخ أنه موسى بن عمران، وقالت فرقة منها نوف البكالي: إنه

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٥٩ بتصرف واختصار.
(٢) التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور ١٥/ ٣٦٠ بتصرف واختصار.
(٣) تفسير الطبري ١٨/ ٥٥ بتصرف واختصار.
(٤) صحيح البخاري ٤/ ١٧٥٤ (٤٤٤٩).
(٥) المحرر الوجيز لابن عطية ٤/ ٣٢١ بتصرف واختصار.

موسى بن منشا بن يوسف بن يعقوب وكان نبيا قبل موسى بن عمران)[١].

والحق الذي لا ريب فيه أنه موسى بن عمران كليم الله، وأن فتاه هو يوشع بن نون النبي عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام، قد ثبت هذا عن النبي ﷺ في الصحيحين وغيرهما، فعن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: "إن نوفا البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى صاحب بني إسرائيل. فقال ابن عباس: كذب عدو الله[٢]"، حدثني أبي بن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: إن موسى قام خطيبا في بني إسرائيل فسئل أي الناس أعلم؟ فقال: أنا. فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه فأوحى الله إليه إن لي عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك. قال موسى: يا رب فكيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتا فتجعله في مِكْتَل، فحيثما فقدت الحوت فهو ثَمَّ. فأخذ حوتا فجعله في مكتل ثم انطلق وانطلق معه بفتاه يوشع بن نون)[٣]"، فهذا نص لا يحتمل التأويل، ولو لم يكن سوى رد ابن عباس على نَوْف لكفى، فكيف وفيها تصريح النبي ﷺ!

وأما وصف يوشع بأنه فتاه، فقد قال القرطبي: (للعلماء فيه ثلاثة أقوال: أحدها- أنه كان يخدمه والفتى في كلام العرب الشاب ولما كان الخَدَمة غالبا فتيانا قيل للخادم: فتى على جهة الأدب وندبت الشريعة إلى ذلك في قول النبي ﷺ: (لا يقل أحدكم عبدي ولا أمتي وليقل فتاي وفتاتي) تواضعا، والفتى في الآية الخادم وهو يوشع بن نون بن إفرائيم بن

---

(١) تفسير القرطبي ١١/ ٩ بتصرف واختصار.

(٢) قال الحافظ في الفتح ١/ ٢١٩: قال ابن التين لم يرد ابن عباس إخراج نوف عن ولاية الله ولكن قلوب العلماء تنفر إذا سمعت غير الحق فيطلقون أمثال هذا الكلام لقصد الزجر والتحذير منه وحقيقته غير مرادة.

(٣) صحيح البخاري ٤/ ١٧٥٢ (٤٤٤٨)، صحيح مسلم ٤/ ١٨٤٧ (٢٣٨٠).

يوسف عليه السلام. ويقال: ابن أخت موسى عليه السلام. وقيل: سمي فتى موسى لأنه لزمه ليتعلم وإن كان حرا، وهذا معنى الأول. وقيل: سماه فتى لأنه قام مقام الفتى وهو العبد؛ قال: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ﴾، وقال: ﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ قال ابن العربي: فظاهر القرآن يقتضي أنه عبد وفي الحديث: أنه كان يوشع. وفي (التفسير) أنه ابن أخته وهذا كله مما لا يقطع به والتوقف أسلم)[1]، وأنكره ابن حجر فقال: (وزعم ابن العربي أن ظاهر القرآن أن الفتى ليس يوشع وكأنه أخذه من لفظ الفتى أو أنه خاص بالرقيق وليس بجيد لأن الفتى من الفتي وهو الشباب وأطلق على من يخدم سواء كان شابا أو شيخا لأن الأغلب أن الخدم تكون شبانا)[2].

وقال النووي رحمه الله: (هو يوشع بن نون، [و]معنى فتاه صاحبه، ونون مصروف كنوح، وهذا الحديث يرد قول من قال من المفسرين إن فتاه عبد له وغير ذلك من الأقوال الباطلة)[3]، يشير إلى كون الحرية شرطاً من شروط النبوة فلا يصح أن يكون عبداً، وأما أن يكون يخدم موسى عليه السلام فلا يمتنع وليس قولاً باطلاً، بل الباء في قوله عليه السلام: "وانطلق معه بفتاه يوشع" مما يشعر به، وأوضح منه قوله: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾.

ويوشع عليه السلام هو الذي قاد بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام وفتح بيت المقدس على يديه بعد التيه، قال ﷺ: "إِنَّ الشَّمْسَ لَمْ تُحْبَسْ عَلَى بَشَرٍ إِلَّا لِيُوشَعَ لَيَالِيَ سَارَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ"[4]، ولما غزا قال لقومه: "لاَ يَتْبَعْنِي رَجُلٌ

---

(١) تفسير القرطبي ١١/ ١١ بتصرف واختصار.

(٢) فتح الباري ٨/ ٤١٥ بتصرف واختصار.

(٣) شرح النووي على مسلم ١٥/ ١٣٨.

(٤) مسند أحمد ١٤/ ٦٥، (٨٣١٤)، قال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط البخاري.

مَلَكَ بُضْعَ امْرَأَةٍ وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَبْنِيَ بِهَا وَلَمَّا يَبْنِ بِهَا، وَلاَ أَحَدٌ بَنَى بُيُوتًا وَلَمْ يَرْفَعْ سُقُوفَهَا، وَلاَ أَحَدٌ اشْتَرَى غَنَمًا أَوْ خَلِفَاتٍ وَهُوَ يَنْتَظِرُ وِلاَدَهَا، فَغَزَا فَدَنَا مِنَ القَرْيَةِ صَلاَةَ العَصْرِ أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ لِلشَّمْسِ: إِنَّكِ مَأْمُورَةٌ وَأَنَا مَأْمُورٌ اللَّهُمَّ احْبِسْهَا عَلَيْنَا، فَحُبِسَتْ حَتَّى فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ"(١).

وقوله: ﴿لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ﴾ قال الفراء: (يريد: لا أزال، لم يرد: لا أبرح مكاني)(٢)، قال الطبري: (لا أزال أسير ﴿حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾)(٣)، وهذا يدل على عزم موسى عليه السلام على بلوغ مقصوده والاجتماع بالعبد الصالح، إذ إنه قد أُوحِي إليه أنه يلقاه عند ملتقى البحرين كما في حديث أُبي. قال الزمخشري: (فإن قلت: ﴿لَآ أَبۡرَحُ﴾ إن كان بمعنى لا أزول -من برح المكان- فقد دلّ على الإقامة لا على السفر. وإن كان بمعنى: لا أزال، فلا بدّ من الخبر، قلت: هو بمعنى لا أزال، وقد حذف الخبر؛ لأنّ الحال والكلام معاً يدلان عليه. أمّا الحال فلأنها كانت حال سفر. وأمّا الكلام فقوله: ﴿حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ غاية مضروبة وتستدعي غاية، فالمعنى: لا أبرح أسير حتى أبلغ مجمع البحرين)(٤). فالمراد أنه لن يكف عن سيره مع بعد الشقة والمشقة، حتى يصل إلى مجمع البحرين. وبما سبق نعلم مبدأ القصة، قال ابن كثير: (سبب قول موسى عليه السلام لفتاه: أنه ذُكِر له أن عبدًا من عباد الله بمجمع البحرين، عنده من العلم ما لم يحط به موسى، فأحب الذهاب إليه، وقال لفتاه ذلك: ﴿لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ أي لا أزال سائرًا حتى أبلغ هذا المكان الذي فيه

---

(١) صحيح البخاري ٣/ ١١٣٦ (٢٩٥٦)، صحيح مسلم ٣/ ١٣٦٦ (١٧٤٧).

(٢) معاني القرآن لأبي زكريا الفراء ٢/ ١٣٥ بتصرف واختصار.

(٣) تفسير الطبري ١٨/ ٥٥.

(٤) الكشاف ٤/ ٣١ بتصرف واختصار.

مجمع البحرين)(١).

وقوله: ﴿مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (ملتقى البحرين)(٢)، وقال الشنقيطي: (والمجمع: اسم مكان، أي مكان اجتماعهما)(٣)، قال ابن كثير: (قال قتادة وغير واحد: وهما بحر فارس مما يلي المشرق، وبحر الروم مما يلي المغرب، وقال محمد بن كعب القُرظي: مجمع البحرين عند طنجة، يعني في أقصى بلاد المغرب)(٤)، وتحديد البحرين لا ينبغي الاشتغال به لعدم الفائدة وإلا لأشير إليه، لكن ما ينبغي الجزم به أن الارتحال من موسى وفتاه عليهما السلام قد كان يقيناً، قال الشنقيطي: (وزعْمُ بعض الملاحدة المعاصرين أن موسى لم يسافر إلى مجمع البحرين، بدعوى أنه لم يعرف ذلك في تاريخه، زعم في غاية والبطلان. ويكفي في القطع أنه مناقض لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا﴾ مع التصريح بأنه سفر فيه مشقة وتعب، وذلك لا يكون إلا في بعيد السفر، ولذا قال عن موسى: ﴿لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا ٦٢﴾ [الكهف]. ومعلوم أن ما ناقض القرآن باطل، لأن نقيض الحق باطل بإجماع العقلاء لاستحالة صدق النقيضين معاً)(٥).

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٧٣ بتصرف واختصار.
(٢) الدر المنثور ٦/ ٣٧٨.
(٣) أضواء البيان ٣/ ٣٨٥ بتصرف يسير.
(٤) تفسير ابن كثير ٥/ ١٧٤.
(٥) أضواء البيان ٣/ ٣٨٥ بتصرف واختصار.

لطيفة- قال الحافظ: (نقل القرطبي عن ابن عباس: المراد بمجمع البحرين اجتماع موسى والخضر لأنهما بحرا علم. وهذا غير ثابت ولا يقتضيه اللفظ وإنما يحسن أن يذكر في مناسبة اجتماعهما كما قال السهيلي اجتمع البحران بمجمع البحرين)[1]، وقال البقاعي: (ما أنسب التوقيت بمجمع بحري الماء، بمجمع بحري العلم. وتزودهما بالنون الذي قرنه الله بالقلم وما يسطرون، وعين الحياة لأن العلم حياة القلوب)[2].

قوله: ﴿أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾

قال النحاس: (الحقب والحقبة زمان من الدهر مبهم، كما أن قوما ورهطا مبهم، والحُقُب جمعه أحقاب، وحُقُب جمع حُقْبة)[3]، وقال الطبري: (يقول: أو أسير زمانا ودهرا، وهو واحد)[4]، فمراده إظهار عزمه على بلوغ مراده والاجتماع بالعبد الصالح فلا يشغله شاغل وإن أنفق في ذلك الوقت الطويل. قال ابن عاشور: (المعنى: لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين بسير قريب أو أزمانا طويلة فإني بالغه لا محالة، وكأنه أراد بهذا تأييس فتاه من محاولة رجوعهما، كما دل عليه قوله بعد ﴿لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا ٦٢﴾ [الكهف]، أو أراد شحذ عزيمة فتاه حتى يكونا على عزم متحد)[5].

- **فائدة**: سعى موسى عليه السلام للقي الخضر لأن الله زكى له علم الخضر، فينبغي لنا أن نطلب العلم المزكى النافع في الدنيا والآخرة، فكم من أناس تركوا ديارهم وسافروا إلى ما وراء البحار طلبا لعلم لا ينفع، أو نفعه قليل

(١) فتح الباري ٨/ ٤٠٨ بتصرف يسير.
(٢) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٦٤.
(٣) معاني القرآن ٤/ ٢٦٤-٢٦٥ بتصرف واختصار.
(٤) تفسير الطبري ١٨/ ٥٦.
(٥) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٦٥ بتصرف واختصار.

إذا ووزن بغيره، وعلم الشريعة هو الذي زكاه رب العزة وأمر نبيه أن يستزيد منه ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه]. وهذا لا يعني إهمال بقية العلوم أو عدم طلبها في الغرب للحاجة، ولكن ليس مع إهمال الكتاب والسنة فضلا عن معارضتهما، فيجب ضبط هذه العلوم بالشرع وعدم تجاوزه.

قال ابن تيمية رحمه الله: (في الصحيح عن النبي ﷺ أنه كان يقول في خطبته: {خير الكلام كلام الله وخير الهدي هدي محمد وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة}، وإذا كان كذلك، فكل من كان إليه أقرب وهو به أشبه كان إلى الكمال أقرب وهو به أحق، ومن كان عنه أبعد وشبهه به أضعف كان عن الكمال أبعد وبالباطل أحق. والكامل هو من كان لله أطوع وعلى ما يصيبه أصبر، فكلما كان أتبع لما يأمر الله به ورسوله وأعظم موافقة لله فيما يحبه ويرضاه وصبرا على ما قدره وقضاه كان أكمل وأفضل، وكل من نقص عن هذين كان فيه من النقص بحسب ذلك)(١).

وقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾

قال الطبري: (يعني: فلما بلغ موسى وفتاه مجمع البحرين ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ يعني تركا، عن مجاهد، قال: أضلاه)(٢)، والحُوت السمكة، وقيل ما عظم من السَّمَك(٣)، وقد كانت زادهما، وجعل فقدانها علامة على مكان الخضر كما سبق. وقد نُسِب النسيان في الآية لموسى وفتاه عليهما السلام مع أن يوشع هو من كان يحمل الحوت، بدليل قول موسى عليه السلام لاحقاً: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾، وللعلماء في ذلك قولان، قال الطبري: (قال بعض أهل العربية:

(١) مجموع الفتاوى ١٠/ ٦٧٥ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٥٧ بتصرف يسير.
(٣) ينظر لسان العرب ٢/ ٢٦ مادة (حوت).

إن الحوت كان مع يوشع، وهو الذي نسيه، فأضيف النسيان إليهما، كما قال: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾، وإنما يخرج من الملح دون العذب. وجاز أن يقال: ﴿نَسِيَا﴾ لأنهما جميعا تزوّداه، فكان حمل أحدهما مضافاً إليهما، كما يقال: خرج القوم وحملوا كذا من الزاد، وإنما حمله أحدهم ولكنه لما كان ذلك عن رأيهم وأمرهم أضيف إلى جميعهم، فكذلك إذا نسيه حامله قيل: نسي القوم زادهم، فأضيف إلى الجميع بنسيان حامله، فيجرى الكلام على الجميع، والفعل من واحد، فكذلك في قوله: ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ لأن الله عزّ ذكره خاطب العرب بلغتها، وما يتعارفونه بينهم من الكلام)[1].

وذهب بعض العلماء إلى أن النسيان كان منهما حقيقة؛ أما نسيان موسى فلم يتعاهد أمر الحوت، مع أهمية هذا لما يطلب، وأما نسيان يوشع عليه السلام فلا خلاف فيه، وقد صح أن موسى عليه السلام قال: "أي رب اجعل لي علما أعلم ذلك به، قال: خذ نونا ميتا حيث ينفخ فيه الروح فأخذ حوتا فجعله في مكتل فقال لفتاه: لا أكلفك إلا أن تخبرني بحيث يفارقك الحوت. قال: ما كلفت كثيرا، فذلك قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ يوشع، فبينما هو في ظل صخرة في مكان ثَرْيان إذ تَضَرَّب الحوت وموسى نائم فقال فتاه لا أوقظه، حتى إذا استيقظ نسي أن يخبره. وتضرب الحوت حتى دخل البحر"[2]. قال الحافظ رحمه الله: (قوله "في مكان ثَرْيان" أي مبلول، قوله "إذ تَضَرَّب الحوت" تفعل من الضرب في الأرض وهو السير، وفي رواية سفيان: واضطرب الحوت في المكتل، وفي رواية أبي إسحاق عند مسلم فاضطرب الحوت في الماء، ولا مغايرة بينهما لأنه اضطرب أولاً في المكتل، فلما سقط في الماء اضطرب

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٥٨ بتصرف واختصار.
(٢) صحيح البخاري ٤/ ١٧٥٤ (٤٤٤٩).

أيضاً، فاضطرابه الأول في مبدأ ما حيي، والثاني في سيره في البحر)[1].

قوله: ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾

قال الطبري: (اتخذ طريقه الذي سلكه في البحر سربا، والسرب: المسلك والمذهب، يسرب: يذهب فيه. ثم اختلف في صفته، فقال بعضهم: صار طريقه الذي يسلك فيه كالجُحْر، وقال آخرون: بل صار ماء جامداً، وقال آخرون: بل صار حجَراً، وقال آخرون: بل اتخذ سبيله في البرِّ إلى الماء، حتى وصل إليه لا في البحر، والصواب أن يقال كما قال الله ﷻ: واتخذ طريقه في البحر سربا. وجائز أن يكون بانجياب عن الأرض، أو غير ذلك. وأصح الأقوال فيه ما رُوي الخبر به)[2]، يشير إلى قوله ﵇: "فاتخذ سبيله في البحر سربا وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق"[3]، وفي رواية: "فجعل لا يلتئم عليه صار مثل الكوة"[4].

---

(١) فتح الباري ٨/ ٤١٥ بتصرف واختصار.

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٥٨ بتصرف واختصار.

(٣) صحيح البخاري ٤/ ١٧٥٢ (٤٤٤٨)، صحيح مسلم ٤/ ١٨٤٧ (٢٣٨٠).

(٤) صحيح مسلم ٤/ ١٨٤٧ (٢٣٨٠).

قصة الحوت دليل جديد على البعث والنشور

لقد كان من شأن الحوت ما يعجب له الناظر وتقر به عين المؤمن، ففي الحديث: "فأوحى الله إليه إن عبداً من عبادي بمجمع البحرين هو أعلم منك"(١)، وكأن المجمع كان ممتداً فجعلت له علامة تحدد مكان اللقاء، والعلامة أن يفقد الحوت الذي أُمِر أن يحمله معه وكان يتزود منه وفتاه في سفرهما، فإنه عليه السلام "سأل السبيل إلى لقيه فجعل الله له الحوت آية، وقيل له: إذا فقدت الحوت فارجع فإنك ستلقاه"(٢)، والعادة أن مثل هذا الفقد يكون بنسيان الحوت وتركه، لكن الله جعل كيفية الفقد آية جديدة وعلامة باهرة على الإحياء بعد الموت ومن ثم البعث والنشور، ففي الحديث أن موسى وفتاه نزلا عند صخرة "وفي أصل الصخرة عين يقال لها الحياة لا يصيب من مائها شيء إلا حيي فأصاب الحوت من ماء تلك العين قال فتحرك وانسل من المكتل فدخل البحر"(٣)، وفي هذا نكتة لطيفة، فمرة أخرى تصدم السورة كفار قريش بما كانوا يكرهون سماعه من إثبات البعث، قال البقاعي رحمه الله: (وفي هذا قاصمة للسائلين، إذ المراد أن هذا الأمر وقع لنبي هؤلاء المضلِّين، فمُر قريشاً أن يسألوهم عن هذه القصة، فإن أخبروهم عنها بمثل ما أخبرتهم فصدقوهم، لزمهم أن يؤمنوا بالبعث لأمر هذا الحوت الذي أحياه الله بعد أن كان مشوياً وصار كثير منه في البطون، وإن لم يصدقوهم في هذا وصدقوهم في غيره فهو تحكم، وإن

(١) صحيح البخاري ١/ ٥٦ (١٢٢).
(٢) صحيح البخاري ١/ ٤١ (٧٨).
(٣) صحيح البخاري ٤/ ١٧٥٧ (٤٤٥٠).

كانوا يتهمونهم في كل أمر كان سؤالهم عبثاً، ليس من أفعال من يعقل)[١].

قوله : ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾

قال البغوي: (﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ ذلك الموضع وهو مجمع البحرين ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾)[٢]، وقال ابن الجوزي: (﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ ذلك المكان الذي ذهب فيه الحوت، أصابهما النَّصَب، فدعا موسى بالطعام، فقال: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ وهو طعام الغداة)[٣]، وقال البقاعي: (فلما جاع وتعب ﴿قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا﴾ أي أحضر لنا ﴿غَدَآءَنَا﴾ لنتقوى به على الإعياء)[٤].

وقد يقال: ما الذي حمل موسى عليه السلام على مجاوزة مجمع البحرين وهو غايته التي يقصدها من هذا السفر؟ قال البقاعي: (كأن المجمع كان ممتداً، فظن موسى عليه السلام أن المطلوب أمامه، أو ظن أن المراد مجمع آخر فسار)[٥].

قال القرطبي: (قوله: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ فيه مسألة، وهو اتخاذ الزاد في الأسفار، ردا على الصوفية الجهلة، الذين يقتحمون المهامة والقفار، زعما أن ذلك هو التوكل على الله الواحد القهار، هذا موسى نبي الله وكليمه من أهل الأرض قد اتخذ الزاد مع معرفته بربه، وتوكله على رب العباد)[٦].

وقوله : ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾

---

(١) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٦٨.
(٢) تفسير البغوي ٥/ ١٨٦.
(٣) زاد المسير ٤/ ٢٣٧ بتصرف واختصار.
(٤) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٦٤ بتصرف واختصار.
(٥) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٦٤.
(٦) تفسير القرطبي ١١/ ١٣ بتصرف يسير.

قال الطبري: (يقول: لقد لقينا عناء وتعبا، وقال ذلك بعد ما جاوز الصخرة، حين ألقي عليه الجوع ليتذكر الحوت، ويرجع إلى موضعه)[1]، وقال القرطبي: (النصب: التعب والمشقة. وقيل: الجوع، وفيه دليل على جواز الإخبار بالألم والأمراض، وأن ذلك لا يقدح في الرضا، ولا في التسليم للقضاء لكن إذا لم يصدر ذلك عن ضجر ولا سخط)[2]. قال النبي ﷺ: "ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به"[3].

لطيفة- قال ابن عطية: (قال أبي ﷺ سمعت أبا الفضل الجوهري يقول في وعظه: مشى موسى إلى المناجاة فبقي أربعين يوماً لم يحتج إلى طعام، ولما مشى إلى بشر لحقه الجوع في بعض يوم)[4].

قوله: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾

قال الطبري: (قال فتى موسى له حين قال: آتنا غداءنا: أرأيت إذا أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت هنالك)[5]، وقال ابن الجوزي: (﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ فيه قولان؛ أحدهما: نسيتُ أن أخبرك. والثاني: نسيت حمل الحوت)[6]، والصواب الأول لما في الحديث أنه رأى ذهاب الحوت في البحر، قال البغوي: (﴿قَالَ﴾ له فتاه وتذكر)، أي ما حصل من الحوت، قال: (قيل في الآية إضمار معناه: نسيت أن أذكر لك أمر الحوت)[7].

قوله: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٦٠ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير القرطبي ١١/ ١٤ بتصرف واختصار.
(٣) صحيح البخاري ٣/ ١١٩٤ (٣١٠٤)، صحيح مسلم ٤/ ١٨٤٧ (٢٣٨٠).
(٤) المحرر الوجيز لابن عطية ٤/ ٣٢٣.
(٥) تفسير الطبري ١٨/ ٦٠.
(٦) زاد المسير ٤/ ٢٣٧ بتصرف واختصار.
(٧) تفسير البغوي ٥/ ١٨٧.

قال البقاعي: (﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ﴾ مع كونه عجيباً ﴿إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ بوساوسه، ﴿أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ﴾ لك فإنه عاش فانساب من المكتل في البحر)[1]، قال البغوي: (﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ﴾ أي: وما أنسانيه أن أذكر لك أمر الحوت إلا الشيطان، وقيل معناه أنسانيه لئلا أذكره)[2]. قال ابن عاشور: (وحصره إسناد الإنساء للشيطان، أنه ليس من شأنه أن يقع في زمن قريب مع شدة الاهتمام، والعناية بإخبار نبيه به، ومع كون المنسي أعجوبة لا تنسى، يتعين أن الشيطان ألهاه أن يتذكر، وعلم يوشع أن الشيطان يَسوؤه التقاء العبدين الصالحين، وما له من الأثر في بث العلوم الصالحة، فهو يصرف عنها ولو بتأخير وقوعها طمعاً في حدوث العوائق)[3].

قال البقاعي: (وذكره له الآن مانع من أن يكون للشيطان عليه سلطان، على أن هذا الإنساء ليس مفوتاً لطاعة، بل فيه ترقية لهما في معارج المقامات لوجدان التعب بعد المكان الذي فيه البغية، وحفظ الماء منجاباً على طول الزمان وغير ذلك، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ﴾ [النحل: ١٠٠] مبين أن السلطان الحمل على المعاصي)[4].

وقد يقال: كيف ينسى يوشع أن يخبر بما رآه مع ما فيه من آية عجيبة، مع علمه بحرص موسى عليه السلام عليه؟ فيجاب عن الأول بأنه على غرابته ليس نادراً فقد رأى بنو إسرائيل مع موسى عليه السلام عجائب؛ كضرب الحجر بعصاه وانفجار الماء، وفرق البحر وعبور البحر، ونتق الجبل وصعقهم

(١) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٦٥.
(٢) تفسير البغوي ٥/ ١٨٧.
(٣) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٦٧ بتصرف يسير.
(٤) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٦٥ بتصرف يسير.

وبعثهم بعد الموت وغيرها من الآيات، ويجاب عنه وعن الثاني بما أجاب به يوشع عليه السلام إذ قال: (وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره)، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾

قال ابن الجوزي: (الهاء في السبيل ترجع إلى الحوت. وفي المُتَّخِذ قولان؛ أحدهما: أنه الحوت، ثم في المخبِر عنه قولان؛

=أحدهما: أنه الله عز وجل، ثم في معنى الكلام ثلاثة أقوال:

أحدها: فاتخذ سبيله في البحر يُري عجباً، ويُحدث عجباً، والثاني: أنه لما قال: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ﴾، قال: اعجبوا لذلك عجباً، وتنَّبهوا لهذه الآية، والثالث: أن إخبار الله تعالى انقطع عند قوله: "في البحر" فقال موسى: عجباً، لِما شوهد من الحوت. ذكر هذه الأقوال ابن الأنباري.

= والثاني: أن المُخْبِر يوشع، وصف لموسى ما فعل الحوت.

-والقول الثاني: أن المتخِذ موسى، اتخذ سبيل الحوت في البحر عجباً، فدخل في المكان الذي مَرَّ فيه الحوت، فرأى الخَضِر. وروى عطية عن ابن عباس قال: رجع موسى إلى الصخرة فوجد الحوت، فجعل الحوت يضرب في البحر، ويتبعه موسى، حتى انتهى به إلى جزيرة من جزائر البحر، فلقي الخضر)[1]، والقول الأول أولى أن المتخِّذ هو الحوت، لقول موسى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ أي العلامة، والظاهر من السياق أن الكلام كله ليوشع عليه السلام، ولا موجب للعدول عنه.

وأما العجب فمن موسى وفتاه لحال الحوت التي بينها يوشع ثم رآى موسى أثرها في الماء بعدُ، يدل عليه قول النبي ﷺ: "فاتخذ سبيله في البحر

---

(١) زاد المسير ٤/ ٢٣٧.

سرباً، وكان لموسى وفتاه عجبا"[١]، قال الحافظ: (ولابن أبي حاتم من طريق قتادة قال: عجب موسى أن تسرب حوت مملح في مكتل)[٢]، وقال: (وروى ابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس قال: فرجع موسى حتى أتى الصخرة فوجد الحوت فجعل موسى يقدم عصاه يفرج بها عنه الماء ويتبع الحوت وجعل الحوت لا يمس شيئا من البحر إلا يبس حتى يصير صخرة فجعل موسى يعجب من ذلك)[٣]. ونقل الطبري عن ابن زيد قوله: (أيّ شيء أعجب من حوت كان دهراً من الدهور يؤكل منه، ثم صار حياً حتى حشر في البحر، عن ابن عباس ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ قال: يعني كان سرب الحوت في البحر لموسى عجبا)[٤].

لطيفة- فقد الحوت كان أمراً مكروهاً ليوشع ﷺ لأن مهمته كانت الحفاظ عليه، لكنه علامة لقي العبد الصالح، قال سيد قطب ﷺ: (كل إنسان في تجاربه يستطيع أن يجد في حياته مكروهات كان من ورائها الخير، ولذات كثيرة كان من ورائها الشر، وكم من مطلوب كاد يذهب حسرات على فوته؛ ثم تبين له أنه كان إنقاذاً من الله أن فوته عليه، وكم من محنة تجرعها الإنسان لاهثاً يكاد يتقطع لفظاعتها، ثم ينظر فإذا هي تنشئ له في حياته من الخير ما لم ينشئه الرخاء الطويل. إن الإنسان لا يعلم. والله يعلم. فماذا على الإنسان لو يستسلم؟ هذا هو المنهج التربوي الذي يأخذ القرآن به النفس لتؤمن وتسلم في أمر الغيب، بعد أن تعمل ما تستطيع في محيط السعي

---

(١) صحيح البخاري ١/ ٥٦ (١٢٢).
(٢) فتح الباري ٨/ ٤١٦.
(٣) فتح الباري ٨/ ٤١٧ بتصرف يسير.
(٤) تفسير الطبري ١٨/ ٦١.

المكشوف. إنه منهج في التربية عجيب. عميق بسيط. يعرف طريقه إلى مسارب النفس الإنسانية بالحق وبالصدق لا بالإيحاء الكاذب. فهو حق أن تكره النفس أمراً ويكون فيه كل الخير. وهو حق أن تحب النفس أمراً وفيه كل الشر. وهو الحق أن الله يعلم والناس لا يعلمون! وماذا يعلم الناس من أمر العواقب؟ ومما وراء الستر المسدل؟ ومن الحقائق التي لا تخضع للهوى والجهل والقصور؟! إنه الدخول في السلم من بابه الواسع، فما تستشعر النفس حقيقة السلم إلا حين تستيقن أن الخيرة فيما اختاره الله وأن الخير في طاعة الله دون أن تجرب ربها وأن تطلب منه البرهان! إن الإذعان الواثق والرجاء الهادئ والسعي المطمئن هي أبواب السلم الذي يدعو الله عباده ليدخلوا فيه كافة وهو يقودهم إليه بهذا المنهج العميق. في يسر. يقودهم بهذا المنهج إلى السلم حتى وهو يكلفهم فريضة القتال. فالسلم الحقيقي هو سلم الروح والضمير حتى في ساحة القتال)[1].

وقوله: ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾ قال الطبري: (فـ(قال) موسى لفتاه (ذلك) يعني: نسيانك الحوت (مَا كُنَّا نَبْغِ) يقول: الذي كنا نلتمس ونطلب)[2]، وقال القرطبي: (أي قال موسى لفتاه: أمر الحوت وفقده هو الذي كنا نطلب، فإن الرجل الذي جئنا له ثمَّ)[3]، وقال ابن عاشور: (والإشارة بذلك إلى ما تضمنه خبر الفتى من فقد الحوت. ومعنى كونه المبتغى أنه وسيلة. والمبتغى لقاء العبد الصالح، والنون نون المتكلم المشارك، أي ما أبغيه أنا وأنت، وكلاهما يبغي ملاقاة العبد الصالح)[4].

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٢٢٣ بتصرف يسير.
(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٦١.
(٣) تفسير القرطبي ١١/ ١٥.
(٤) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٦٨ بتصرف يسير.

قوله : ﴿فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا﴾

قال ابن كثير: (﴿فَٱرۡتَدَّا﴾ أي: رجعا ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا﴾ أي: طريقهما ﴿قَصَصٗا﴾ أي: يقصان أثر مشيهما، ويقفوان أثرهما)(١)، قال ابن عاشور: (والقصص: مصدر قص الأثر، إذا توخى متابعته كيلا يخطئا الطريق)(٢).

قوله : ﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ﴾

قال القرطبي: (العبد هو الخضر عليه السلام في قول الجمهور، وبمقتضى الأحاديث الثابتة. وخالف من لا يعتد بقوله، فقال: ليس صاحب موسى بالخضر بل هو عالم آخر. وحكى أيضاً هذا القول القشيري، قال: وقال قوم هو عبد صالح، والصحيح أنه كان الخضر، بذلك ورد الخبر عن النبي ﷺ)(٣)، وقد ثبت هذا في غير حديث، فعن ابن عباس "أنه تمارى هو والحر بن قيس بن حصن الفزاري(٤) في صاحب موسى، قال ابن عباس: هو خضر. فمر بهما أبي بن كعب فدعاه ابن عباس فقال: إني تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأل موسى السبيل إلى لقيه هل سمعت النبي ﷺ يذكر شأنه؟ قال: نعم سمعت رسول الله ﷺ يقول: بينما موسى في ملأ من بني إسرائيل جاءه رجل فقال هل تعلم أحداً أعلم منك؟ قال موسى لا فأوحى الله إلى موسى بلى عبدنا خضر"(٥)، وهذا

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٧٥.
(٢) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٦٩.
(٣) تفسير القرطبي ١١/ ١٦.
(٤) قال الحافظ في الفتح ١/ ١٦٩: هو بضم الحاء وتشديد الراء المهملتين وهو صحابي مشهور ذكره ابن السكن وغيره.
(٥) صحيح البخاري ١/ ٤٠ (٧٤)، صحيح مسلم ٤/ ١٨٤٧ (٢٣٨٠).

الذي كان من الحر ﷺ كان قبل أن يسمع حديث النبي ﷺ، لأنه لم يتابع مراء ابن عباس، فكان فيما قاله أُبيٌّ فصل الخطاب، ﷺ وعن الصحابة جميعاً.

قال ابن عاشور: (والمراد بالعبد: الخضر، ووصف بأنه من عباد الله تشريفا، كما تقدم عند: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، وعدل عن الإضافة إلى التنكير والصفة لأنه لم يسبق ما يقتضي تعريفه، وإشارة إلى أن هذا الحال الغريب كحال عباد كثيرين لله، وما منهم إلا له مقام معلوم)(١).

وقد اختُلف هل وجد موسى الخضر في ذلك الموضع على البحر كما هو الظاهر، أو دخل الكوة متبعًا أثر الحوت حتى وجد الخضر، قال القرطبي: (وجمهور المفسرين أن الحوت بقي موضع سلوكه فارغاً، وأن موسى مشى عليه متبعاً للحوت، حتى أفضى إلى جزيرة، وفيها وجد الخضر. وظاهر الكتاب أنه وجده في ضفة البحر)(٢)، ومسلك ابن حجر رحمه الله الجمع بين الأمرين؛ قال: (وفي رواية سفيان "حتى انتهيا إلى الصخرة فإذا رجل"، وزعم الداودي أنها وهم وأنهما وجداه في جزيرة البحر. قلتُ: ولا مغايرة بينهما، فإنهما لما انتهيا إلى الصخرة تتبعاه فوجداه في الجزيرة. ووقع عند مسلم: "فأراه مكان الحوت فقال: هاهنا وصف لي، فذهب يلتمس فإذا هو بالخضر"، وروى ابن أبي حاتم من طريق الربيع بن أنس قال: انجاب الماء عن مسلك الحوت فصار كوة فدخلها موسى على أثر الحوت فإذا هو بالخضر، وروى ابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس قال فرجع موسى حتى أتى الصخرة فوجد الحوت فجعل موسى

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٦٩.
(٢) تفسير القرطبي ١١/ ١٢ بتصرف واختصار.

يقدم عصاه يفرج بها عنه الماء ويتبع الحوت وجعل الحوت لا يمس شيئا من البحر إلا يبس حتى يصير صخرة فجعل موسى يعجب من ذلك حتى انتهى إلى جزيرة في البحر فلقي الخضر)[1]، والله أعلم.

وقوله: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾

قال الطبري: (يقول: وهبنا له رحمة من عندنا ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾ يقول: وعلمناه من عندنا أيضاً علماً)[2]، وقال ابن عاشور: (و ﴿مِن﴾ ابتدائية، أي آتيناه رحمة صدرت من مكان القرب، أي الشرف وهو قرب تشريف بالانتساب إلى الله، وعلماً صدر منه أيضاً)[3].

قال ابن الجوزي: (في هذه الرحمة ثلاثة أقوال؛ أحدها: النبوَّة، قاله مقاتل، والثاني: الرِّقة والحُنُوُّ على من يستحقه، ذكره ابن الأنباري، والثالث: النِّعمة، قاله أبو سليمان الدمشقي. قوله: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا﴾ أي: من عندنا ﴿عِلۡمٗا﴾ قال ابن عباس: أعطاه عِلْماً من عِلْم الغيب)[4]، قال ابن عطية: (كان علم الخضر معرفة بواطن قد أوحيت إليه)[5].

قال الألوسي: (﴿ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا﴾ قيل المراد بها الرزق الحلال والعيش الرغد، وقيل العزلة عن الناس وعدم الاحتياج إليهم، وقيل طول الحياة مع سلامة البنية، والجمهور على أنها الوحي والنبوة وقد أطلقت على ذلك في مواضع من القرآن، وأخرج ذلك ابن أبي حاتم عن ابن عباس،

---

(١) فتح الباري ٨/ ٤١٧ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٦٢.
(٣) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٦٩.
(٤) زاد المسير ٤/ ٢٣٨ بتصرف يسير.
(٥) المحرر الوجيز لابن عطية ٤/ ٣٢٥.

وهذا قول من يقول بنبوته الطَّيْلا)[١].

قال ابن عاشور: (و(عند) و(لدن) اسم مكان قريب، ويستعملان مجازاً في اختصاص المضاف إليه بموصوفها، والمخالفة بين ﴿مِّنْ عِندِنَا﴾ و﴿مِن لَّدُنَّا﴾ للتفنن تفادياً من إعادة الكلمة)[٢]، والأصوب ما قاله الراغب: (لدن أخص من (عند) ؛ لأنه يدل على ابتداء نهاية. نحو أقمت عنده من لدن طلوع الشمس إلى غروبها، فيوضع موضع نهاية الفعل. وقد يوضع موضع (عند). يقال: أصبت عنده مالا، ولدنه مالا. قال بعضهم: لدن أبلغ من عند وأخص)[٣]، قال الألوسي: (وذكر ﴿لَّدُنَّا﴾ قيل لأن العلم من أخص صفاته الذاتية وقد قالوا: القدرة لا تتعلق بشيء ما لم تتعلق الإرادة وهي لا تتعلق ما لم يتعلق العلم فالشيء يعلم أولا فيراد فتتعلق به القدرة فيوجد. ويفهم من فحوى ﴿مِن لَّدُنَّا﴾ أو من تقديمه على ﴿عِلْمًا﴾ اختصاص ذلك بالله كأنه قيل علماً يختص بنا ولا يعلم إلا بتوقيفنا)[٤].

---

(١) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٣١٦.

(٢) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٦٩ بتصرف واختصار.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن ٢/ ٣٣٦ بتصرف واختصار.

(٤) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٣٣٠ بتصرف واختصار.

حقيقة العلم اللدني

قال الفيروزابادي: (العِلْم اللدنِّ: ما يحصل للعبد بغير واسطة، بل إلهام من الله؛ كما حصل للخضِر عليه السلام بغير واسطة؛ قال تعالى: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ إذْ لم يكن نيلهما على يد بشر. وكان من لدنْه أخصّ وأقرب ممَّا عنده، ولهذا قال: ﴿رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ فالسلطان النصير الذي من لدنه أَخصّ من الذي عنده وأَقرب. وهو نَصْره الذي أَيَّده به، والذي عنده نصره بالمؤمنين، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. والعلم اللدنِّ ثمرة العبوديَّة والمتابعة والصدق والإخلاص له، وبذل الجهد في تلقِّى العلم من المشكاة المحمدية والكتاب المجيد، وكمال الانقياد له. فيُفتح له من فهم الكتاب والسنَّة أمر يُخَصّ به، كما قال عليٌّ وقد سئل: هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء دون الناس؟ فقال: لا والذي فَلَقَ الحبَّة، وبَرَأَ النَسَمة إلاَّ فَهما يؤتيه الله عبدا في كتابه. فهذا هو العِلم اللدُنِّيّ الحق، وأَمّا علم مَن أَعرض عن الكتاب والسنَّة فهو من لدن النفس والشيطان. فهو لدنيّ ولكن من لدن من؟ وإنما يعرف كون العلم لدنيّا روحانياً[1] بموافقته ما جاءَ به الرسول ﷺ عن ربّه عز وجل. فالعلم اللَّدُنيّ نوعان: لدنِّيّ رحمانيّ، ولدنيّ شيطانيّ)[2].

ومن ذلك حديث النبي ﷺ: "لقد كان فيما كان قبلكم من الأمم ناس مُحَدَّثُون، فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر"[3]، ولهذا وافق حكم الله عز وجل

---

(١) يريد رحمانياً.

(٢) بصائر ذوى التمييز ١/ ١٣٦٣ بتصرف واختصار.

(٣) صحيح البخاري ٣/ ١٣٤٩ (٣٤٨٦).

مرات، قال ﷺ: (وَافَقْتُ رَبِّي فِي ثَلَاثٍ، فِي مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ، وَفِي الْحِجَابِ، وَفِي أُسَارَى بَدْرٍ)[١]، وقال: (وَاجْتَمَعَ نِسَاءُ النَّبِيِّ ﷺ فِي الغَيْرَةِ عَلَيْهِ، فَقُلْتُ لَهُنَّ: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ)[٢].

وهذا الباب فيه خطورة إذ دخل منه المحرفون من الصوفية وغيرهم، والدجالون المشعوذون، فيأتون بالمنكرات والأوابد ثم يقولون هذا العلم اللدني في كتاب الله، وكذبوا بل من الشيطان، إذ يشترط في الأول ألا يخالف الكتاب و السنة، وأن يعرف صاحبه بالصلاح وحسن السيرة.

فائدة- في مناسبة طلب موسى لقاء الخضر، قال الطبري: (وكان سبب سفر موسى ﷺ أن موسى سئل: هل في الأرض، أعلم منك؟ فقال: لا، أو حدّثته نفسه بذلك، فكره ذلك له، فأراد الله تعريفه أن من عباده في الأرض من هو أعلم منه، وأنه لم يكن له أن يحتم على ما لا علم له به، وكان ينبغي أن يكل ذلك إلى عالمه)[٣]. فكأن المعنى: مع أن موسى رسولنا الذي اصطفيناه برسالاتنا وكلامنا إلا أننا برحمتنا أعطينا الخضر من العلم ما لم نعط موسى عليه السلام، ففي الآية أن الله عز وجل يختص برحمته من يشاء، وأن أحداً لا ينبغي أن يجزم من تلقاء نفسه أن أحداً لا يبلغ مقامه عند الله، فقد فضل الله بعض النبيين على بعض، وفضل نبينا ﷺ على سائر ولد آدم؛ لقوله عليه السلام: "أنا سيد ولد آدم يوم القيامة"[٤]، ومع ذلك يقول: "إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علي فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشرا ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي

---

(١) صحيح مسلم ٤/ ١٨٦٥ (٢٣٩٩).

(٢) صحيح البخاري ١/ ٨٩ (٤٠٢).

(٣) تفسير الطبري ١٨/ ٦٢ بتصرف واختصار.

(٤) صحيح مسلم ٤/ ١٧٨٢ (٢٢٧٨).

إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة"(١)، قال المباركفوري: (أبهمه تواضعاً)(٢)، وقال المناوي: ("وأرجو" أي أؤمل "أن أكون أنا هو" أي ذلك العبد، على طريق الترجي تأدباً وتشريعاً، لأنه إذا كان أفضل الأنام فلمن يكون ذلك المقام)(٣).

قوله: ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ﴾

قال أبو جعفر النحاس: (هذا سؤال الملاطف والمخاطب المبالغ في حسن الأدب، والمعنى: هل يتفق لك ويخف عليك أن تأذن لي في مرافقتك)(٤)، وقال ابن عاشور: (والاستفهام في: "هل أتبعك" للعَرْض بقرينة أنه استفهام عن عمل نَفس المستفهِم)(٥). قال ابن كثير: (سؤال بتلطف، لا على وجه الإلزام. وهكذا ينبغي سؤال المتعلم. وقوله: ﴿أَتَّبِعُكَ﴾ أي: أصحبك وأرافقك، ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ﴾ أي: مما علمك الله، شيئًا أسترشد به في أمري، من علم نافع وعمل صالح)(٦)، وقال البقاعي: (﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ ﴾ طالباً على سبيل التأدب والتلطف في قالب الاستئذان: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ﴾ أي: حيث توجهت. والاتباع: الإتيان بمثل فعل الغير لمجرد كونه آتياً به؛ وبيَّن أنه لا يطلب منه غير العلم بقوله: ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ ﴾ وزاد في التلطف بأنه لا يطلب جميع ما عنده ليطول عليه الزمان،

---

(١) صحيح مسلم ١/ ٢٨٨ (٣٨٤).
(٢) تحفة الأحوذي ١٠/ ٥٨.
(٣) فيض القدير ١/ ٣٨٤ بتصرف واختصار.
(٤) معاني القرآن ٤/ ٢٦٧.
(٥) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٦٩ بتصرف واختصار.
(٦) تفسير ابن كثير ٥/ ١٨١ بتصرف واختصار.

بل جوامع منه يسترشد بها إلى باقيه فقال: ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ وبناه للمفعول لعلم المخاطبين أن الفاعل هو الله، وللإشارة إلى سهولة كل أمر على الله ﷻ ﴿رُشْدًا﴾ أي يرشدني إلى الصواب فيما أقصد وأتى ﷺ بهذه الأنواع من الآداب والإبلاغ في التواضع لرسوخه في العلم، لأن كل من كانت إحاطته بالعلوم أكثر، كان علمه بما فيها من البهجة والسعادة أكثر، فكان طلبه لها أشد، فكان تعظيمه لأرباب العلوم أكمل)[١].

فائدة- قال الفيروزابادي: الاتباع: (ورد في التَّنزيل على سبعة أَوجه:

الأَوّل: بمعنى الصّحبة: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾ أي أَصحَبُك، ﴿وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ أي صَحِبك.

الثاني: بمعنى الاقتداءِ: ﴿اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا﴾: اقتدوا به.

الثَّالث: بمعنى الثبات: ﴿اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي دُم واثْبتْ عليها.

الرّابع: بمعنى الاختيار والموافقة: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

الخامس: بمعنى العمل: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾.

السّادس: بمعنى التَّوجُّه إِلى الكعبة، أَو إِلى بيت المقدس في الصّلاة ﴿مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ۚ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾.

السّابع: بمعنى الطاعة ﴿لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لأَطعتم)[٢].

قوله: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾

قال ابن كثير: (﴿قَالَ﴾ الخضر لموسى: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ أي: لا تقدر أن تصاحبني لما ترى من الأفعال التي تخالف شريعتك؛ فكل منا

---

(١) نظم الدرر ٥/ ١٦٩ بتصرف واختصار.

(٢) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ١/ ٤٣٩ بتصرف واختصار.

مكلف بأمور من الله دون صاحبه، وأنت لا تقدر على صحبتي)[1]، قال البغوي: (وإنما قال ذلك لأنه علم أنه يرى أمورا منكرة ولا يجوز للأنبياء أن يصبروا على المنكرات)[2]، وقال ابن الجوزي: (وفي هذا الصبر وجهان؛ أحدهما: على الإنكار، والثاني: عن السؤال)[3]. ولعلم الخضر بما في صحبة موسى له من مشقة لما سيراه مما ينكره أكد له عدم قدرته على الصبر بمؤكدات، قال ابن عاشور: (وأكد الجملة بحرف (إن) وبحرف (لن) تحقيقاً لمضمونها من توقع ضيق ذرع موسى عن قبول ما يبديه إليه، لأنه علم أنه تصدر منه أفعال ظاهرها المنكر وباطنها المعروف، وزادها تأكيدا عموم الصبر المنفي، لوقوعه نكرة في سياق النفي، وأن المنفي استطاعته الصبر، المفيد أنه لو تجشم أن يصبر لم يستطع ذلك، فأفاد هذا التركيب نفي حصول الصبر منه في المستقبل على آكد وجه. وزيادة "معي" إيماء إلى أنه يجد من أعماله ما لا يجد مثله مع غيره فانتفاء الصبر على أعماله أجدر)[4].

قال ابن عاشور: (وهذا تحذير منه لموسى وتنبيه على ما يستقبله منه حتى يقدم على متابعته على بصيرة وعلى غير اغترار، وليس المقصود الإخبار. فمناط التأكيدات في إنك لن تستطيع معي صبرا، هو تحقيق خطورة أعماله وغرابتها بحيث لا تتحمل، ولو كان خبرا على أصله لم يقبل

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٨١ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير البغوي ٥/ ١٨٩.
(٣) زاد المسير ٤/ ٢٣٩.
(٤) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٧١ بتصرف واختصار.

فيه المراجعة، ولم يجبه موسى بقوله: ستجدني إن شاء الله صابراً)(١).

قوله: ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾

قال الطبري: (وكيف تصبر يا موسى على ما ترى مني من الأفعال التي لا علم لك بوجوه صوابها، وتقيم معي عليها، وأنت إنما تحكم على صواب المصيب وخطأ المخطئ بالظاهر الذي عندك، وبمبلغ علمك، وأفعالي تقع بغير دليل ظاهر لرأي عينك على صوابها، لأنها تبتدئ لأسباب تحدث آجلة غير عاجلة، لا علم لك بالحادث عنها، لأنها غيب، ولا تحيط بعلم الغيب ﴿خُبْرًا﴾ يقول علماً)(٢)، وقد بين له مرجع ذلك فقال: "إنك لن تستطيع معي صبراً يا موسى، إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه"(٣)، قال القرطبي: (والأنبياء لا يقِرُّون على منكر، لا يجوز لهم التقرير. أي لا يسعك السكوت جرياً على عادتك وحكمك)(٤). قال ابن عاشور: (و{كيف} للاستفهام الإنكاري في معنى النفي، أي لا تصبر على ما لم تحط به خبراً، والإحاطة: مجاز في التمكن، تشبيها لقوة تمكن الاتصاف، بتمكن الجسم المحيط)(٥). قال البقاعي: (والمعنى أنك لا تستطيع الصبر الذي أريده لأنك لا تعرف فعلي على ما هو عليه فتراه فاسداً)(٦).

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٧١ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٧١.
(٣) صحيح البخاري ٤/ ١٧٥٢ (٤٤٤٨).
(٤) تفسير القرطبي ١١/ ١٧.
(٥) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٧٢ بتصرف واختصار.
(٦) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٧٠.

قال الطبري: (﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ على ما أرى منك، وإن كان خلافاً لما هو عندي صواب، ﴿وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرًا﴾ يقول: وأنتهي إلى ما تأمرني، وإن لم يكن موافقاً هواي)(١)، وقال القرطبي: (أي سأصبر بمشيئة الله... وقد اختلف في الاستثناء، هل هو يشمل قوله: ﴿وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرًا﴾ أم لا؟ فقيل: يشمله... وقيل: استثنى في الصبر فصبر، وما استثنى في قوله: ﴿وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرًا﴾ فاعترض وسأل، قال علماؤنا: إنما كان ذلك منه، لأن الصبر أمر مستقبل ولا يدرى كيف يكون حاله فيه، ونفي المعصية معزوم عليه حاصل في الحال، فالاستثناء فيه ينافي العزم عليه)(٢).

قال البقاعي: (﴿قَالَ﴾ أي موسى عليه السلام، آتياً بنهاية التواضع لمن هو أعلم منه، إرشاداً لما ينبغي في طلب العلم رجاء تسهيل الله له والنفع به: ﴿سَتَجِدُنِيٓ﴾ فأكد الوعد بالسين؛ ثم قوّى تأكيده بالتبرك بذكر الله تعالى لعلمه بصعوبة الأمر، على ما تقدم في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ﴾ الآية، ليُعلَم أنه منهاج الأنبياء وسبيل الرسل، فقال تعالى: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي الذي له صفات الكمال ﴿صَابِرًا﴾ على ما يجوز الصبر عليه)(٣).

قال ابن عاشور: (وقوله: ستجدني أبلغ من نحو: سأصبر، لأنه يدل على حصول صبر ظاهر لمتبوعه. وظاهر أن متعلق الصبر ما من شأنه أن يثير الجزع أو الضجر؛ من تعب المتابعة، ومشاهدة ما لا يتحمله إدراكه، ومن ترقب بيان الأسباب والعلل والمقاصد. ولما كان هذا الصبر الكامل يقتضي طاعة الآمر عطف عليه ما يفيد الطاعة إبلاغا في الاتسام بأكمل

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٧١.

(٢) تفسير القرطبي ١١/ ١٧.

(٣) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٧٠ بتصرف واختصار.

أحوال طالب العلم، فجملة ولا أعصي معطوفة على جملة ستجدني، لأن أهم ما يتسم به طالب العلم الصبر والطاعة للمعلم)[1].

لطيفة- ذكر ابن عاشور رحمه الله فرقاً لطيفاً بين طالب العلم المبتدئ، والمتقدم فقال: (وفي تأكيده ذلك [أي الصبر وعدم معصية أمر الخضر] بالتعليق على مشيئة الله -استعانة به وحرصا على تقدم التيسير تأدبا مع الله- إيذان بأن الصبر والطاعة من المتعلم الذي له شيء من العلم أعسر من صبر وطاعة المتعلم الساذج، لأن خلو ذهنه من العلم لا يحرجه من مشاهدة الغرائب، إذ ليس في ذهنه من المعارف ما يعارض قبولها، فالمتعلم الذي له نصيب من العلم وجاء طالبا كمال علومه إذا بدا من أستاذه ما يخالف علمه يبادر إلى الاعتراض. وذلك قد يثير النفرة بينه وبين أستاذه، فلتجنب ذلك خشي الخضر أن يلقى من موسى هذه المعاملة فقال: إنك لن تستطيع معي صبرا إلخ، فأكد له موسى أنه يصبر ويطيع أمره إذا أمره، والتزام موسى ذلك مبني على ثقته به لأن الله أخبره بأنه آتاه علما)[2].

قوله: ﴿ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾

قال القرطبي: (وهذا تأديب وإرشاد لما يقتضي دوام الصحبة، فلو صبر لرأى العجب، لكنه أكثر من الاعتراض فتعين الفراق والإعراض)[3].

قال ابن عطية: (قَرَّب له موسى الأمر بوعده أنه سيجده، ثم استثنى حين حكم على نفسه بأمر، فقوَّى الخضر وصاته وأمره بالإمساك عن

(١) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٧٢ بتصرف واختصار.
(٢) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٧٢ بتصرف واختصار.
(٣) تفسير القرطبي ١١/ ١٨ بتصرف واختصار.

السؤال والإكنان لما يراه حتى يبتدئه الخضر لشرح ما يجب شرحه)[1]، قال ابن كثير: (فعند ذلك [أي وعد موسى بالصبر وعدم المعصية] شارطه الخضر ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ﴾ أي: ابتداءً ﴿حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ أي: حتى أبدأك أنا به قبل أن تسألني)[2]، قال البغوي: (﴿فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي﴾ فإن صحبتني، ولم يقل: اتبعني، ولكن جعل الاختيار إليه، إلا أنه شرط عليه شرطا فقال: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ﴾ أعمله مما تنكر، ولا تعترض ﴿حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ حتى أبين لك شأنه)[3]، قال ابن عاشور: (والذكر هنا: ذكر اللسان. وإحداث الذكر: إنشاؤه وإبرازه)[4]، قال النحاس: (أي إن إنكرته فلا تعجل بالمسألة، إلى أن أبين لك الوجه فيه، وحتى أفسره لك. شرط عليه قبل بدء الرحلة ألا يسأله ولا يستفسر عن شيء حتى يكشف له عن سرها، فقبل موسى شرطه رعاية لأدب المتعلم مع العالم)[5].

وفي الآية جواز أن يشترط العالم على تلميذه ما يشاء إن أراد مصاحبته بما ليس بمحرم، وكذلك كل رفقة في سفر أو غيره يجوز فيها الشرط على ما سبق.

قوله: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ يبين الله ﷻ أنهما بادرا للمسير حال انتهائهما من الاتفاق، ولهذا جاء بالفاء، قال ابن عاشور: (أي فعقب تلك المحاورة أنهما انطلقا. والانطلاق: الذهاب والمشي، مشتق من الإطلاق ضد التقييد، لأن الدابة

---

(١) المحرر الوجيز لابن عطية ٤/ ٣٢٦.
(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٨١.
(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ١٨١ بتصرف واختصار.
(٤) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٧٣.
(٥) معاني القرآن ٤/ ٢٦٩ بتصرف واختصار.

إذا حل عقالها مشت. فأصله مطاوع أطلقه. و(حتى) غاية للانطلاق، أي إلى أن ركبا السفينة، وتعريف السفينة للعهد الذهني، كقوله: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٣]. وإذا ظرف مان ماض هنا، ولا تتضمن معنى الشرط. وهذا التوقيت يؤذن بخرقه السفينة حين ركوبها، وبني نظم الكلام على تقديم الظرف على عامله لأن الخرق وقع بمجرد الركوب في السفينة، والخرق: الثقب والشق، ضد الالتئام، والاستفهام في أخرقتها للإنكار، وعلله بقوله: لتغرق أهلها، لأن العلة ملازمة للفعل المستفهم عنه. ولذلك توجه أن يغير موسى عليه السلام هذا المنكر في ظاهر الأمر، وتأكيد إنكاره بقوله: لقد جئت شيئا إمرا)[١]، قال القرطبي: (ولم يقل لتغرقني، لأن الذي غلب عليه في الحال فرط الشفقة عليهم، ومراعاة حقهم)[٢].

قال النبي ﷺ: "فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت بهما سفينة فكلماهم أن يحملوهما فعرفوا الخضر فحملوهما بغير نول"[٣]، وفي رواية: "عرفوه فقالوا: عبد الله الصالح لا نحمله بأجر"[٤]، فكان في إكرام القوم لهما ما زاد من فظاعة فعل الخضر، ولذا قال موسى عليه السلام: "قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها؟ لقد جئت شيئا إمراً!"[٥].

قال الطبري: (الإمر في كلام العرب: الداهية، ومنه قول الراجز:

قَدْ لَقِيَ الأَقْرَانُ مِنِّي نُكْرَا دَاهِيَةً دَهْيَاءَ إِدًّا إِمْرَا

وكان بعض أهل العلم يقول: أصله: كل شيء شديد كثير، ويقول:

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٧٤ بتصرف واختصار.

(٢) تفسير القرطبي ١١/ ١٩

(٣) صحيح البخاري ١/ ٥٦ (١٢٢)، صحيح مسلم ٤/ ١٨٤٧ (٢٣٨٠).

(٤) صحيح البخاري ٤/ ١٧٥٤ (٤٤٤٩).

(٥) صحيح البخاري ٦/ ٩٢ (٤٧٢٧)، صحيح مسلم ٤/ ١٨٤٩ (٢٣٨٠).

منه قيل للقوم: قد أَمِروا إذا كثروا واشتدّ أمرهم، قال: والمصدر منه: الأمَرَ، والاسم: الإمْر)(١)، وقال ابن الجوزي: (﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ وفيه ثلاثة أقوال؛ أحدها: منكراً، قاله مجاهد، وقال الزجاج: عظيماً من المنكر، والثاني: عجباً، قاله قتادة، وابن قتيبة، والثالث: داهية، قاله أبو عبيدة)(٢).

قال ابن عاشور: (الإمر بالكسر: العظيم المفظع، أَمِر كفَرِح إِمراً، إذا كثر في نوعه. ولذلك فسره الراغب بالمنكر، لأن المقام دال على شيء ضارّ. ومقام الأنبياء في تغيير المنكر مقام شدة وصراحة. ولم يجعله نُكراً كما في الآية بعدها لأن الذي عمله الخضر ذريعة للغرق، ولم يقع بالفعل)(٣).

قوله: ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾

قال ابن كثير: (فعندها قال له الخضر مذكراً بما تقدم من الشرط: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾، يعني وهذا الصنيع فعلتُه قصدًا، وهو من الأمور التي اشترطت ألا تنكر عليّ فيها، إذ لم تحط بها خبرًا، ولها مصلحة ولم تعلمها أنت)(٤)، وقال ابن عاشور: (استفهام تقرير وتعريض باللوم على عدم الوفاء بما التزم، أي أتقر أني قلت ذلك؟ و"معي" ظرف متعلق بـ"تستطيع"، فاستطاعة الصبر المنفية هي التي تكون في صحبته لأنه يرى أمورا عجيبة لا يدرك تأويلها، وحذف متعلق القول تنزيلاً له منزلة

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٧٢ بتصرف واختصار.

(٢) زاد المسير ٤/ ٢٤٠.

(٣) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٧٥ بتصرف واختصار.

(٤) تفسير ابن كثير ٥/ ١٨٢ بتصرف واختصار.

اللازم، أي ألم يقع مني قول فيه خطابك بعدم الاستطاعة؟)[1].

وقوله: ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾

قال ابن كثير: (﴿ قَالَ ﴾ أي موسى: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ أي: لا تضيق عليَّ وتُشدد عليَّ)[2]، قال ابن سيده: (أخذه بذنبه: عاقبهُ، وفي التنزيل: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِۦ ﴾... وآخذه: كأخذه، وفي التنزيل: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ ﴾)[3]. قال ابن عاشور: (المؤاخذة: مفاعلة من الأخذ، وهي هنا للمبالغة لأنها من جانب واحد كقوله: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم ﴾ [النحل: ٦١]، و(ما) مصدرية، أي بنسياني. والإرهاق: تعدية رهق، إذا غشي ولحق، أي لا تُغشني عسرا والعسر: الشدة وضد اليسر. والمراد: عسر المعاملة، أي عدم التسامح فيما فعله فهو يسأله الصفح. والأمر: الشأن. و (مِن) إما ابتدائية، فيكون المراد بأمره نسيانه، أي لا تجعل نسياني منشئا لإرهاقي عسرا. وإما بيانية فيكون المراد بأمره شأنه معه، أي لا تجعل شأني إرهاقك إياي عسرا)[4].

قال ابن الجوزي: (في هذا النسيان ثلاثة أقوال؛ أحدها: أنه على حقيقته، روى ابن عباس عن رسول الله ﷺ "أن الأولى كانت نسياناً من موسى". والثاني: أنه من معاريض الكلام، قاله أُبيّ وابن عباس. والثالث: بمعنى التَّرك، فالمعنى: لا تؤاخذني بما تركته مما عاهدتك عليه، ذكره ابن الأنباري)[5]. قال الزمخشري: (﴿بِمَا نَسِيتُ ﴾ : بالذي نسيته، أو بشيء

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٧٦ بتصرف واختصار.

(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٨٣.

(٣) المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده ٢/ ٣٤٨.

(٤) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٧٦ بتصرف واختصار.

(٥) زاد المسير ٤/ ٢٤٠ بتصرف واختصار.

نسيته، أو بنسياني: أراد أنه نسي وصيته ولا مؤاخذة على الناسي. أو أخرج الكلام في معرض النهي عن المؤاخذة بالنسيان؛ ليبسط عذره في الإنكار، وهو من المعاريض التي يُتَقى بها الكذب مع التوصل إلى الغرض، كقول إبراهيم: هذه أختي، وإني سقيم. أو أراد الترك، أي: لا تؤاخذني بما تركت من وصيتك أول مرّة)[1]، وقال القرطبي: (في معناه قولان: الآخر أنه نسي فاعتذر، ففيه أن النسيان لا يقتضي المؤاخذة، ولا يدخل تحت التكليف، ولا يتعلق به حكم طلاق ولا غيره، ولو نسي في الثانية لاعتذر)[2].

قال أبو حيان: (الظاهر حمل النسيان على وضعه. وقد قال ﷺ: «كانت الأولى من موسى نسياناً» وهذا قول الجمهور، ولا يعتمد إلاّ قول الرسول)[3]، يعني قوله ﷺ: "كانت الأولى نسياناً والوسطى شرطاً والثالثة عمداً"[4]، وهو الصواب، قال الحافظ: (وروى الفراء عن أبي قال: لم ينس موسى ولكنه من المعاريض، وإسناده ضعيف والأول المعتمد، ولو كان هذا ثابتا لاعتذر موسى عن الثانية والثالثة بنحو ذلك)[5]، وهذا واضح فلمّا لم يعتذر بالنسيان من الثانية والثالثة دل على أنه في الأولى حقيقي. قال الحافظ: (فإن قيل: ترك مؤاخذته بالنسيان متجه وكيف واخذه؟ قلنا: بعموم شرطه الذي التزمه، فلما اعتذر بالنسيان علم أنه خارج بحكم الشرع من

---

(١) الكشاف ٤/ ٣٩ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير القرطبي ١١/ ٢٠ بتصرف واختصار.
(٣) تفسير البحر المحيط لأبي حيان ٧/ ٤٧٧ بتصرف واختصار.
(٤) صحيح البخاري ٢/ ٩٧٢ (٢٥٧٨).
(٥) فتح الباري ٨/ ٤١٩ بتصرف واختصار.

عمومه)[١].

قال ابن عاشور: (النهي مستعمل في التعطف والتماس عدم المؤاخذة، لأنه قد يؤاخذه مؤاخذة من لا يصلح للمصاحبة لما ينشأ عن النسيان من خطر، فالحَزامة الاحتراز من صحبته، ولذلك بني كلام موسى على طلب عدم المؤاخذة بالنسيان ولم يبن على الاعتذار بالنسيان، كأنه رأى نفسه محقوقاً بالمؤاخذة، فكان كلاما بديع النسيج في الاعتذار)[٢].

وقوله: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ قال ابن عاشور: (يدل تفريع قوله: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا﴾ عن اعتذار موسى، على أن الخضر قبل عذره وانطلقا، وقوله: فقتله تعقيب لفعل لقيا تأكيدا للمبادرة المفهومة من تقديم الظرف، فكان ذلك أسرع من المبادرة بخرق السفينة. وكلام موسى في الإنكار جرى على نسق كلامه في خرق السفينة سوى أنه وصف هذا بأنه نكر، وهو الذي تنكره العقول وتستقبحه، فهو أشد من الإمر، لأنه فساد حاصل والآخر ذريعة فساد)[٣].

قال ابن كثير: (يقول تعالى: ﴿فَانطَلَقَا﴾ أي: بعد ذلك، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ﴾، فروي أنه احتز رأسه، وقيل: رضخه بحجر. وفي رواية: اقتطفه بيده)[٤]، قال القرطبي: (ولا اختلاف بين هذه الثلاثة، فإنه يحتمل أن يكون دمغه أولاً بالحجر، ثم أضجعه فذبحه، ثم اقتلع رأسه)[٥].

قال ابن كثير: (فلما شاهد موسى، عليه السلام، هذا أنكره أشد من الأول،

---

(١) فتح الباري ١١/ ٥٥٤.

(٢) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٧٦ بتصرف واختصار.

(٣) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٧٧ بتصرف واختصار.

(٤) تفسير ابن كثير ٥/ ١٨٣ بتصرف واختصار.

(٥) تفسير القرطبي ١١/ ٢١ بتصرف واختصار.

وبادر فقال: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ أي صغيرة لم تعمل الحنث، فقتلته ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي: بغير مستند لقتله؟! ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ أي: ظاهر النكارة)[1].

قال ابن الجوزي: (قرأ الكوفيون وابن عامر: «زكيّة» بغير ألف، وقرأ الباقون بالألف من غير تشديد. قال الكسائي: هما لغتان بمعنى، وهما بمنزلة القاسية والقَسيّة. وللمفسرين فيها ستة أقوال:

أحدها: التائبة، روي عن ابن عباس وبه قال الضحاك.

والثاني: المُسلِمة، روي عن ابن عباس أيضاً.

والثالث: التي لم تبلغ الخطايا، قاله سعيد بن جبير.

والرابع: النامية، قاله قتادة. وقال ابن الأنباري: القويمة في تركيبها.

والخامس: المطهرة، قاله أبو عبيدة.

والسادس: البريئة التي لم يظهر ما يوجب قتلها، قاله الزجاج.

وقد فَرَّق بعضهم بين الزاكية والزكيَّة، فروي عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال: الزاكية: التي لم تذنب قطُّ، والزكية: التي أذنبت ثم تابت. وروي عن أبي عبيدة أنه قال: الزاكية في البدن، والزكية في الدِّين)[2].

قال الطبري: (وقوله: ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ يقول: بغير قصاص بنفس قتلت، فلزمها القتل قودا بها، وقوله: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ يقول: لقد جئت بشيء منكر، وفعلت فعلا غير معروف)[3]. قال البغوي: (قال قتادة: النكر أعظم من الإمر لأنه حقيقة الهلاك وفي خرق السفينة كان خوف الهلاك، وقيل:

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٨٣ بتصرف واختصار.

(٢) زاد المسير ٤/ ٢٤٠ بتصرف واختصار.

(٣) تفسير الطبري ١٨/ ٧٥.

الإمر أعظم لأنه كان فيه تغريق جمع كثير)[1].

قال ابن عطية: (واختلف أيهما أبلغ قوله: ﴿إِمۡرٗا﴾ أو ﴿نُّكۡرٗا﴾ فقالت فرقة هذا قتل بين وهناك مترقب فـ ﴿نُّكۡرٗا﴾ أبلغ وقالت فرقة هذا قتل واحد وذلك قتل جماعة فـ﴿إِمۡرٗا﴾ أبلغ وعندي أنهما لمعنيَيْن فـ﴿إِمۡرٗا﴾ أفظع وأهول من حيث هو متوقع عظيم، و ﴿نُّكۡرٗا﴾ أبين في الفساد لأن مكروهه قد وقع)[2]، وقال الزمخشري: (وقيل: معناه جئت شيئاً أنكر من الأوّل، لأن ذلك كان خرقاً يمكن تداركه بالسدّ، وهذا لا سبيل إلى تداركه)[3].

مسألة- هل كان الغلام بالغاً؟

قال القرطبي: (اختلف في الغلام أكان بالغاً أم لا؟ قال الكلبي: كان بالغاً يقطع الطريق بين قريتين، وأبوه من عظماء إحداهما، وأمه من عظماء الأخرى، فأخذه الخضر فصرعه، ونزع رأسه، وقال الجمهور: لم يكن بالغاً، ولذلك قال موسى زاكية لم تذنب، وهو الذي يقتضيه لفظ الغلام، فإنه يقال لمن لم يبلغ. وقتله الخضر لما علم من سَيرِه، وأنه طُبع كافراً كما في الحديث، وأنه لو أدرك لأرهق أبويه كفراً. وقتل الصغير غير مستحيل إذا أذن الله، فإنه الفعال لما يريد، القادر على ما يشاء، واحتج أهل القول الأول بأن العرب تبقي على الشاب اسم الغلام، ومنه قول ليلى الأخيلية:

شفاها من الداء العضال الذي بها ... غلام إذا هز القناة سقاها

وقال صفوان لحسان:

تلق ذباب السيف عني فإنني ... غلام إذا هُوجِيتُ لست بشاعر

وفي الخبر: إن هذا الغلام كان يفسد في الأرض، ويقسم لأبويه أنه ما

---

(١) تفسير البغوي ٥/ ١٩١.

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية ٤/ ٣٢٨ بتصرف واختصار.

(٣) الكشاف ٤/ ٤٠.

فعل، فيقسمان على قسمه ويحميانه، قالوا وقوله: ﴿بِغَيۡرِ نَفۡسٖ﴾ يقتضي أنه لو كان بنفس لم يكن به بأس، وهذا يدل على كبره، وإلا فلو لم يحتلم لم يجب قتله، وإنما جاز لأنه كان بالغا. قال ابن عباس: كان شابا يقطع الطريق. وذهب ابن جبير إلى أنه بلغ التكليف لقراءة أبي وابن عباس "وأما الغلام فكان كافرا" والكفر والإيمان لا يطلق على غير مكلف إلا بالتبعية لأبويه، وأبواه كانا مؤمنين بالنص فلا يصدق عليه الكافر إلا بالبلوغ، فتعين أن يصار إليه، والغلام من الاغتلام وهو شدة الشبق)[1].

والصواب أنه لم يكن بالغاً لقوله ﷺ: "فَلَوْ أَنَّهُ أَدْرَكَ أَرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا"[2]، وهو الأكثر في استخدام لفظ الغلام، وهو الموافق لظاهر القرآن وقول موسى عليه السلام "نفسا زكية"، والموافق لظاهر الحديث: "فلما خرجا من البحر مروا بغلام يلعب مع الصبيان فأخذ الخضر برأسه فقلعه بيده"[3]، فلو كان بالغاً ومفسداً في الأرض لبعد أن يلعب مع الصبيان، والله أعلم.

وقوله: ﴿قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾

قال ابن الجوزي: (إن قيل: لم ذكر «لك» هاهنا، واختزله من الموضع الذي قبله؟ فالجواب: أن إثباته للتوكيد، واختزاله لوضوح المعنى، وكلاهما معروف عند الفصحاء. تقول العرب: قد قلت لك: اتق الله. وقد قلت لك: يا فلان اتق الله، وأنشد ثعلب:

قد كنتُ حَذَّرْتُكَ آلَ المصْطَلِقْ   وقلتُ: يا هَذا أَطِعْنِي وَانْطَلِقْ

فقوله: يا هذا، توكيد لا يختل الكلام بسقوطه. وسمعت الشيخ أبا

(١) تفسير القرطبي ١١/ ٢١ بتصرف واختصار.

(٢) صحيح مسلم ٤/ ١٨٥١ (٢٣٨٠).

(٣) صحيح البخاري ٣/ ١٢٤٦ (٣٢٢٠)، صحيح مسلم ٤/ ١٨٤٧ (٢٣٨٠).

محمد الخشاب يقول: وقَّره في الأول، فلم يواجهه بكاف الخطاب، فلما خالف في الثاني، واجهه بها)[1]، وقال الزمخشري: (فإن قلت: ما معنى زيادة ﴿لَّكَ﴾؟ قلت: زيادة المكافحة بالعتاب على رفض الوصية، والوسم بقلة الصبر عند الكرة الثانية)[2]، وقال ابن عيينة: (وهذا أوكد)[3].

قال الطبري[4]: (يقول تعالى ذكره: قال العالم لموسى: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ على ما ترى من أفعالي التي لم تحط بها خبراً، قال موسى له: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾ يقول: بعد هذه المرة ﴿فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ يقول: ففارقني، فلا تكن لي مصاحبا ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ يقول: قد بلغت العذر في شأني) ثم ذكر بسنده عن داود بن أبي هند (في قول الله ﷻ: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ قال: قال رسول الله ﷺ: "اسْتَحْيا فِي الله مُوسَى عِنْدَها")، وبسنده عن أبيّ بن كعب قال: (كان النبي ﷺ إذا ذكر أحَداً فدعا له بدأ بنفسه، فقال ذات يوم: "رَحْمَةُ الله عَلَيْنا وَعلى مُوسَى، لَوْ لَبِثَ مَعَ صَاحِبِهِ لأبْصَرَ العَجَبَ وَلكنَّه قالَ: إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا"[5]).

قوله: ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾

عندها لم يجد موسى عليه السلام بداً من قول ما قال، قال النحاس: (أي إن أنكرت عليك بعدُ واعترضتُ فلا تصحبني، فقد أعذرتَ إلي ونبهتني على

---

(١) زاد المسير ٤/ ٢٤١.
(٢) الكشاف ٤/ ٤٠.
(٣) صحيح البخاري ١/ ٥٦ (١٢٢).
(٤) تفسير الطبري ١٨/ ٧٦ وما بعدها.
(٥) صحيح مسلم ٤/ ١٨٤٧ (٢٣٨٠).

مخالفتي الشرط فأنت معذور)[1]، وقال الزمخشري: (﴿فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ﴾ فلا تقاربني، وإن طلبت صحبتك فلا تتابعني على ذلك. وقرئ: «فلا تَصْحَبني» فلا تكن صاحبي. وقرئ: «فلا تُصحِبني» أي فلا تجعلني صاحبك)[2]، وقال الطبري: (ففارقني، فلا تكن لي مصاحبا ﴿قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا﴾ قد بلغت العذر في شأني)[3]، قال البغوي: (قال ابن عباس: أي قد أعذرت فيما بيني وبينك، وقيل: حذرتني أني لا أستطيع معك صبرا. وقيل: اتضح لك العذر في مفارقتي)[4]، وقال النووي: (معناه: قد بلغت إلى الغاية التي تعذر بسببها في فراقي)[5]. قال ابن عاشور: (وهنا لم يعتذر موسى بالنسيان: إما لأنه لم ينس لكن رجح تغيير المنكر قتل النفس بدون موجب، على واجب الالتزام، وإما لأنه نسي وأعرض عن الاعتذار لسماجة تكرره، وعلى الاحتمالين فقد اشترط ما يطمئن إليه صاحبه بأنه إن عاد فقد جعل له أن لا يصاحبه بعده، وفي الحديث عن النبي ﷺ: «كانت الأولى من موسى نسيانا، والثانية شرطا»، فاحتمل الاحتمالين. وأنصف موسى إذ جعل له العذر في ترك مصاحبته في الثالثة تجنبا لإحراجه)[6].

قولــــه: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا﴾

---

(١) معاني القرآن ٤/ ٢٧٢ بتصرف واختصار.
(٢) الكشاف ٤/ ٤١ بتصرف واختصار.
(٣) تفسير الطبري ١٨/ ٧٦ بتصرف واختصار.
(٤) تفسير البغوي ٥/ ١٩٢.
(٥) شرح النووي على مسلم ١٥/ ١٤١.
(٦) التحرير والتنوير ١٦/ ٦ بتصرف واختصار.

قال ابن كثير: (انطلقا بعد المرتين الأوليين ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ﴾... وفي الحديث: "حتى إذا أتيا أهل قرية لئاما"(١) أي: بخلاء ﴿فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾، إسناد الإرادة للجدار استعارة، فالإرادة في المحدثات هي الميل. والانقضاض: السقوط)(٢)، قال ابن عاشور: (وإظهار لفظ أهلها دون ضميرهم بأن يقال: استطعماهم، لزيادة التصريح، تشنيعا بهم في لؤمهم، إذ أبوا أن يضيفوهما؛ لأن الضيافة كانت شائعة من عهد إبراهيم عليه السلام وهي من المواساة المتبعة عند الناس، ويقوم بها من ينتدب إليها ممن يمر عليهم عابر السبيل ويسألهم الضيافة، أو من أعد نفسه لذلك من كرام القبيلة، فإباية أهل قرية كلهم منها لؤم لتلك القرية)(٣).

وقال الطبري: (﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا﴾ من الطعام فلم يطعموهما، واستضافاهم ﴿فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ حائطا يريد أن يسقط، يقال: انقضت الدار: إذا انهدمت وسقطت، ومنه انقضاض الكوكب، سقوطه وزواله عن مكانه، ومنه قول ذي الرُّمة:

فانْقَضَّ كالكَوْكَبِ الدُّرّي مُنْصَلِتا

وقوله: ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ عن ابن عباس: هدمه ثم قعد يبنيه، وعن سعيد بن جبير: رفع الجدار بيده فاستقام. والصواب أن الله عزّ ذكره أخبر أنهما وجدا جدارًا يريد أن ينقضّ فأقامه صاحب موسى، بمعنى: عَدَل ميله حتى عاد مستويا. وجائز أن يكون ذلك بإصلاح بعد هدم، أو برفع منه له بيده، فاستوى بقدرة الله، وزال عنه مَيْلُه بلطفه، ولا دلالة من كتاب الله

(١) صحيح مسلم ٤/ ١٨٤٧ (٢٣٨٠).
(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٨٣ بتصرف واختصار.
(٣) التحرير والتنوير ١٦/ ٧ بتصرف واختصار.

ولا خبر للعذر قاطع بأي ذلك كان من أيّ)[١].

قال القرطبي: (الاستطعام: سؤال الطعام، والمراد الضيافة، بدليل: "فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُما" فاستحقوا لذلك أن يذموا وينسبوا إلى البخل، كما وصفهم نبينا ﷺ. قال قتادة: شر القرى التي لا تضيف الضيف ولا تعرف لابن السبيل حقه. ويظهر من ذلك أن الضيافة كانت عليهم واجبة، وأن الخضر وموسى إنما سألا ما وجب لهما من الضيافة، وهذا هو الأليق بحال الأنبياء، ومنصب الفضلاء والأولياء)[٢].

قال ابن الجوزي: (﴿لَتَّخَذْتَ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو: «لَتَخِذْتَ» بكسر الخاء، غير أن أبا عمرو كان يدغم الذال، وابن كثير يظهرها. وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: «لاتَّخَذْتَ» وكلُّهم أدغموا، إلا حفصاً عن عاصم، فإنه لم يدغم كابن كثير. قال الزجاج: تَخِذ يَتْخَذُ في معنى: اتَّخَذَ يتَّخِذُ. وإنما قال هذا، لأنهم لم يضيِّفوهما)[٣]، قال الطبري: (قال موسى لصاحبه: لو شئت لم تقم لهم جدارهم حتى يعطوك أجرا، فقال بعضهم: إنما عَنَى بالأجر القِرى، وقال آخرون: بل عنى العِوَض والجزاء على إقامته الحائط المائل)[٤]. قال القرطبي: (وهذه صدرت من موسى سؤالاً على جهة العرض لا الاعتراض)[٥]، وفيما قاله رحمه الله نظر، إذ لو كان كذلك لما فارقه الخضر، ولما أقر له موسى، والصواب ما قاله ابن عطية:

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٧٧ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير القرطبي ١١/ ٢٤ بتصرف واختصار.
(٣) زاد المسير ٤/ ٢٤٣ بتصرف واختصار.
(٤) تفسير الطبري ١٨/ ٨١ بتصرف واختصار.
(٥) تفسير القرطبي ١١/ ٣٣.

(اشترط الخضر، وأعطاه موسى أن لا يقع سؤال عن شيء، والسؤال أقل وجوه الاعتراض، فالإنكار والتخطئة أعظم، وقوله: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ وإن لم يكن سؤالاً ففي ضمنه الإنكار وتصويب أخذ الأجر، وفي ذلك تخطئة ترك الأجر)[1]، وقال ابن عاشور: (قول موسى: لو شئت لاتخذت عليه أجراً لومٌ، أي كان في مكنتك أن تجعل لنفسك أجراً تأخذه ممن يملكه لأنهم لم يقوموا بحق الضيافة ونحن بحاجة إلى ما ننفق، وفيه إشارة إلى أن نفقة الأتباع على المتبوع. وهذا اللوم يتضمن سؤالا عن سبب ترك المشارطة على إقامة الجدار عند الحاجة إلى الأجر، وليس هو لوما على مجرد إقامته مجانا، لأن ذلك من فعل الخير وهو غير ملوم)[2]، وبهذا يجاب عما قاله ابن التين ووافقه الحافظ رحمهما الله، قال: (فإن قيل فهل كانت الثالثة عمداً أو نسياناً قلنا يظهر أنها كانت نسياناً وإنما واخذه بشرطه الذي شرطه من المفارقة في الثالثة وبذا جزم ابن التين ولم يقل إنها عمد استبعاداً لأن يقع من موسى عليه السلام إنكار مشروع وهو الإحسان لمن أساء)[3]، فليس هذا مجرداً هو وجه إنكار موسى عليه السلام، وإنما مع كونهما بحاجة للأجر أو الطعام، وكيف تكون الثالثة نسياناً، والنبي ﷺ يقول: "كانت الأولى نسياناً والوسطى شرطاً والثالثة عمداً"[4]؟ فالظاهر أن موسى عليه السلام يصبر على ما يراه من صاحبه، لقول النبي ﷺ: "يرحم الله موسى لوددت أنه كان صبر حتى يقص علينا من أخبارهما"[5]، فلهذا أنكر الثالثة عامداً.

---

(١) المحرر الوجيز لابن عطية ٤/ ٣٣٠ بتصرف واختصار.
(٢) التحرير والتنوير ١٦/ ٩ بتصرف واختصار.
(٣) فتح الباري ١١/ ٥٥٤ بتصرف واختصار.
(٤) صحيح البخاري ٢/ ٩٧٢ (٢٥٧٨).
(٥) صحيح البخاري ١/ ٥٦ (١٢٢)، صحيح مسلم ٤/ ١٨٤٧ (٢٣٨٠).

لطيفة- قال القرطبي: (كان موسى عليه السلام حين سقى لبنتي شعيب أحوج منه حين أتى القرية مع الخضر، ولم يسأل قوتا بل سقى ابتداء، وفي القرية سألا القوت، وفي ذلك للعلماء انفصالات كثيرة، منها أن موسى كان في مدين منفرداً وفي قصة الخضر تبعا لغيره. قلت: وعلى هذا يتمشى قوله لفتاه "آتِنا غَداءَنا لَقَدْ لَقِينا مِنْ سَفَرِنا هذا نَصَباً" فأصابه الجوع مراعاة ليوشع، والله أعلم. وقيل: لما كان هذا سفر تأديب وكل إلى تكلف المشقة، وكان ذلك سفر هجرة فوكل إلى العون والنصرة والقوة)[1].

---

(١) تفسير القرطبي ١١/ ٢٤ بتصرف واختصار.

وقفة مع المجاز في القرآن الكريم

قال القرطبي: (قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ أي قرب أن يسقط، وهذا مجاز وتوسع وقد فسره في الحديث بقوله: (مائل) فكان فيه دليل على وجود المجاز في القرآن، وهو مذهب الجمهور. وجميع الأفعال التي حقها أن تكون للحي الناطق متى أسندت إلى جماد أو بهيمة فإنما هي استعارة، أي لو كان مكانهما إنسان لكان ممتثلا لذلك الفعل، وهذا في كلام العرب وأشعارها كثير... قال حسان بن ثابت:

لو ان اللؤم ينسب كان عبدا قبيح الوجه أعور من ثقيف

وقال عنترة:

فازور من وقع القنا بلبانه وشكا إلي بعبرة وتحمحم

وقد فسر هذا المعنى بقوله:

لو كان يدري ما المحاورة اشتكى

وهذا في هذا المعنى كثير جدا. ومنه قول الناس: إن داري تنظر إلى دار فلان. وفي الحديث: (اشتكت النار إلى ربها).

وذهب قوم إلى منع المجاز في القرآن، منهم أبو إسحاق الإسفراييني وأبو بكر محمد بن داود الأصبهاني وغيرهما، فإن كلام الله ﷻ ورسوله حمله على الحقيقة أولى، لأنه يقص الحق. ومما احتجوا به أن الله لو خاطبنا بالمجاز للزم وصفه بأنه متجوز، فإن العدول إلى المجاز يقتضي العجز عن الحقيقة، وهو على الله محال، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٢٤﴾ [النور] وقال: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ۝٣٠﴾ [ق] وقال: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ۝١٢﴾ [الفرقان] وقال: ﴿تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ

١٧﴾ [المعارج] و(اشتكت النار إلى ربها) (واحتجت النار والجنة) وما كان مثلها حقيقة، وأن خالقها الذي أنطق كل شي أنطقها. وفي صحيح مسلم من حديث أنس عن النبي ﷺ: (فيختم على فيه ويقال لفخذه انطقي فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله وذلك ليعذر من نفسه وذلك المنافق وذلك الذي يسخط الله عليه). هذا في الآخرة. وأما في الدنيا، ففي الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: (والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى تكلم السباع الإنس وحتى تكلم الرجل عذبة سوطه وشراك نعله وتخبره فخذه بما أحدث أهله من بعده) قال أبو عيسى: وفي الباب عن أبي هريرة، وهذا حديث حسن غريب)[1]ا.هـ

قال الشنقيطي ؒ: (هذه الآية من أكبر الأدلة التي يستدل بها القائلون بالمجاز في القرآن. زاعمين أن إرادة الجدار لا يمكن أن تكون حقيقة. وقد دلت آيات أنه لا مانع من كون إرادة الجدار حقيقة، لأن الله يعلم للجمادات إرادات لا يدركها الخلق كما صرح بأنه يعلم من ذلك ما لا يعلمه خلقه في قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] فصرح بأننا لا نفقه تسبيحهم وتسبيحهم واقع عن إرادة لهم يعلمها هو ونحن لا نعلمها. وأمثال ذلك كثيرة في القرآن والسنة. فمن الآيات الدالة على ذلك: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤] الآية. فتصريحه تعالى بأن بعض الحجارة يهبط من خشية الله دليل واضح في ذلك. لأن تلك الخشية بإدراك

(١) تفسير القرطبي ١١/ ٢٥ بتصرف واختصار.

يعلمه الله ولا نعلمه. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ [الأحزاب: ٧٢] الآية. فتصريحه بأن السماء والأرض والجبال أبت وأشفقت أي خافت دليل عن أن ذلك واقع بإرادة وإدراك يعلمه ونحن لا نعلمه. ومن الأحاديث الدالة على ذلك ما ثبت في صحيح مسلم: أن النَّبي ﷺ قال: «إني لأعرف حجراً كان يسلم علي بمكة» وما ثبت في صحيح البخاري من حنين الجذع الذي كان يخطب عليه ﷺ جزعاً لفراقه فتسليم ذلك الحجر، وحنين ذلك الجذع كلاهما بإرادة وإدراك يعلمه الله ونحن لا نعلمه، كما صرح بمثله في قوله: ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء: ٤٤]. وزعم من لا علم عنده أنه هذه الأمور هي ضرب أمثال، زعم باطل، لأن نصوص الكتاب والسنة لا يجوز صرفها عن معناها المتبادر إلا بدليل. وأمثال هذا كثيرة جداً. وبذلك تعلم أنه لا مانع من إبقاء إرادة الجدار على حقيقتها لإمكان أن يكون الله علم منه إرادة الانقضاض، وإن لم يعلم خلقه تلك الإرادة. وهذا واضح كما ترى. مع أنه من الأساليب العربية إطلاق الإرادة على المقاربة والميل إلى الشيء، وقد بينا في رسالتنا المسماه (منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز) أن جميع الآيات التي يزعمون أنها مجاز أن ذلك لا يتعين في شيء منها. وبينا أدلة ذلك)(١). وفي الحقيقة فإن إنكار أن يكون للجمادات إرادات لا دليل عليه من العقل سوى الاستبعاد وعدم العلم، ومعلوم أن عدم العلم بالشيء لا يعني العلم بعدمه، ومخالفة هذه القاعدة تدخل تحت قوله تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ ﴾ [يونس: ٣٩].

---

(١) أضواء البيان ٣/ ٤٠٣ بتصرف واختصار.

وقوله: ﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾

قال ابن عاشور: (المشار إليه بلفظ "هذا" مقدر في الذهن من اشتراط موسى أنه إن سأله عن شيء بعد سؤاله الثاني فقد انقطعت الصحبة بينهما، أي هذا الذي حصل هو فراق بيننا، كما يقال: الشرط أملك عليك أم لك)[1]، وقال البغوي: (﴿ قَالَ ﴾ الخضر: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ يعني هذا وقت فراق بيني وبينك وقيل: هذا الإنكار على ترك الأجر هو المفرق بيننا. وقال الزجاج: معناه هذا فراق بيننا أي فراق اتصالنا)[2]، والجمع بين القولين ممكن فإنما تعين هذا الوقت للفراق بسبب هذا الإنكار، قال ابن كثير: (أي: لأنك شرطت عند قتل الغلام أنك إن سألتني عن شيء بعدها فلا تصاحبني، فهو فراق بيني وبينك، ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ﴾ أي: بتفسير ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾)[3]، قال الطبري: (يقول: بما يؤول إليه عاقبة أفعالي، فلم تستطع على تَرك المسألة عنها، وعن النكير علي فيها صبرا، والله أعلم)[4].

قال ابن عاشور: (جملة سأنبئك استئناف بياني، جوابا لسؤال يهجس في خاطر موسى عليه السلام عن سبب ما فعل الخضر عليه السلام وسأله عنه فإنه وعده أن يحدث له ذكرا. والتأويل: تفسير لشيء غير واضح، مشتق من الأَوْل وهو الرجوع. شُبِّه تحصيل المعنى على تكلّفٍ بالرجوع إلى المكان بعد السير إليه، وفي صلة الموصول من قوله: ما لم تستطع عليه صبرا تعريض باللوم

---

(١) التحرير والتنوير ١٦/ ١٠ بتصرف واختصار.

(٢) تفسير البغوي ٥/ ١٩٣.

(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ١٨٤.

(٤) تفسير الطبري ١٨/ ٨٢.

على الاستعجال وعدم الصبر إلى أن يأتيه إحداث الذكر حسبما وعده)[١].

قولــه: ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾

هذا من الخضر ﷺ شروع في (تفسير ما أشكل أمره على موسى، ﷺ، وما كان أنكر ظاهره وقد أظهر الله الخضر، ﷺ، على باطنه)[٢]، قال الماوردي: (في تسميتهم مساكين أربعة أوجه؛ أحدها: لفقرهم وحاجتهم، الثاني: لشدة ما يعانونه في البحر، كما يقال لمن عانى شدة: قد لقي المسكين جهداً، الثالث: لزمانة كانت بهم وعلل، الرابع: لقلة حيلتهم وعجزهم عن الدفع عن أنفسهم، كما قال النبي ﷺ "مِسْكِينٌ رَجُلٌ لاَ امرأة له"[٣] فسماه مسكيناً لقلة حيلته وعجزه عن القيام بنفسه لا لفقره ومسكنته)[٤].

قال ابن الجوزي: (﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أي: أجعلها ذات عيب، يعني بخرقها، ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم﴾ فيه قولان: أحدهما: أمامهم، قاله ابن عباس، وقتادة، وأبو عبيدة، وابن قتيبة. وقرأ أُبيٌّ وابن مسعود: «وكان أمامَهم».

والثاني: خلفهم؛ قال الزجاج: وهو أجود الوجهين. فيجوز أن يكون رجوعهم كان عليه، ولم يعلموا بخبره، فأعلم الله الخضرَ خَبَرَه)[٥].

قال الماوردي: (اختُلِف في استعمال وراء موضع أمام على أقوال:

أحدها: يجوز استعماله بكل حال وفي كل مكان وهو من الأضداد،

---

(١) التحرير والتنوير ١٦/ ١١ بتصرف واختصار.

(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٨٤.

(٣) قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ٤٦٤: رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات إلا إن أبا نجيح لا صحبة له.

(٤) النكت والعيون للماوردي ٢/ ٤٩٤ بتصرف واختصار.

(٥) زاد المسير ٤/ ٢٤٤ بتصرف واختصار.

قال تعالى: ﴿مِن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُ﴾ [الجاثية: ١٠] أي من أمامهم؛ قال الشاعر:

أيرجو بنو مروان سمعي وطاعتي وقومي تميم والفلاة ورائيا

الثاني: أن وراء يجوز أن يستعمل في موضع أمام في المواقيت والأزمان لأن الإنسان قد يجوزها فتصير وراءه ولا يجوز في غيرها.

الثالث: أنه يجوز في الأجسام التي لا وجه لها كحجرين متقابلين كل واحد منهما وراء الآخر، ولا يجوز في غيره قاله ابن عيسى)[١].

قال ابن الجوزي: (قوله تعالى: ﴿يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبًا﴾ أي: كل سفينة صالحة. وفي قراءة أُبيٍّ: «كلَّ سفينة صحيحة». قال الخضر: إنما خرقتها، لأن الملك إذا رآها منخرقة تركها ورقعها أهلُها فانتفعوا بها)[٢]، قال الأزهري: (قال الليث: الغصب أخذ الشيء ظلماً وقهراً)[٣]، قال الشنقيطي: (ظاهر الآية أن ذلك الملك يأخذ كل سفينة، صحيحة كانت أو معيبة. ولكنه يفهم من آية أخرى[٤] أنه لا يأخذ المعيبة، وهي قوله: ﴿فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩] أي لئلا يأخذها، وذلك هو الحكمة في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ [الكهف: ٧١] ثم بين أن قصده بخرقها سلامتها لأهلها من أخذ ذلك الملك الغاصب. لأن عيبها يزهده فيها)[٥].

قال ابن عاشور: (جملة "فأردت أن أعيبها" متفرعة على جملتي: فكانت لمساكين، وكان وراءهم ملك، فكان حقها التأخير بحسب الظاهر،

---

(١) النكت والعيون للماوردي ٢/ ٤٩٤ بتصرف واختصار.
(٢) زاد المسير ٤/ ٢٤٤ بتصرف يسير.
(٣) تهذيب اللغة ٣/ ٥١.
(٤) هكذا في المطبوع، وهي نفس الآية.
(٥) أضواء البيان ٣/ ٤٠٤ بتصرف واختصار.

ولكنها قدمت لقصد الاهتمام بإعابة السفينة، حيث كان عملا ظاهره الإنكار وحقيقته الصلاح زيادة في تشويق موسى إلى تأويله، لأن كون السفينة لمساكين مما يزيد السامع تعجبا في خرقها. والمعنى: فأردت أن أعيبها وقد فعلت. ولم يقل: فعبتها، لأن فعله وقع عن قصد وتأمل)(١).

قوله: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾

قال ابن الجوزي: (روي عن ابن عباس أنه كان يقرأ: «وأما الغلام فكان كافراً». وروى أُبيّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: "إن الغلام الذي قتله الخضر طُبع كافراً، ولو عاش لأرهق أبويه طغياناً وكفراً "، وقوله: ﴿فَخَشِينَا﴾ فيه قولان: أحدهما: الله ﷻ. ثم في معنى الخشية قولان. أحدهما: العلم. قاله الفراء. وقال ابن عقيل: المعنى: فعلنا فعل الخاشي. والثاني: الكراهة، قاله الأخفش، والزجاج. والثاني: أنه الخضر، فتكون الخشية بمعنى الخوف للأمر المتوهم، قاله ابن الأنباري)(٢).

والراجح أنه من كلام الخضر، لأن السياق في تعليله أفعاله لموسى عليه السلام، قال القرطبي رحمه الله: (قيل: هو من كلام الخضر عليه السلام، وهو الذي يشهد له السياق، وهو قول كثير من المفسرين، أي خفنا ﴿أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾، وكان الله أباح له الاجتهاد في القتل على هذه الجهة. وقيل: من كلام الله وعنه عبر الخضر. قال الطبري: معناه فعلمنا، وكذا قال ابن عباس، كما كنى عن العلم بالخوف في قوله: ﴿إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. وحكى أن أبيا قرأ: "فعلم ربك" وقيل: الخشية بمعنى الكراهة، فرقت بينهما خشية أن يقتتلا، أي كراهة ذلك، و﴿يُرْهِقَهُمَا﴾

---

(١) التحرير والتنوير ١٦/ ١٢ بتصرف واختصار.
(٢) زاد المسير ٤/ ٢٤٤.

يجشمهما ويكلفهما، والمعنى أن يلقيهما حبه في اتباعه فيضلا ويتدينا بدينه)[١]، قال ابن كثير: (يحملهما حبه على متابعته على الكفر، قال قتادة: قد فرح به أبواه حين ولد،وحزنا عليه حين قتل، ولو بقي كان فيه هلاكهما، فليرض امرؤ بقضاء الله، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب. وصح في الحديث: "لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرًا له". وقال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦])[٢].

---

(١) تفسير القرطبي ١١/ ٣٧ بتصرف واختصار.

(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٨٥ بتصرف واختصار.

تخريج قتل الغلام على الاختلاف في بلوغه

لم يذكر القرآن سبب قتل الغلام سوى خشية أن يرهق والديه طغياناً وكفراً، وقد يشكل هذا قيل ببلوغه أو لا، قال الشوكاني: (وقد استشكل بعض أهل العلم قتل الخضر لهذا الغلام بهذه العلة، فقيل: إنه كان بالغاً وقد استحق ذلك بكفره؛ وقيل: كان يقطع الطريق فاستحق القتل لذلك، ويكون معنى ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا﴾: أن الخضر خاف على الأبوين أن يذبا عنه ويتعصبا له فيقعا في المعصية، وقد يؤدّي ذلك إلى الكفر، والحاصل أنه لا إشكال في قتل الخضر له إذا كان بالغاً كافراً[1] أو قاطعاً للطريق فيما تقتضيه الشريعة الإسلامية، ويمكن أن يكون للخضر شريعة تسوّغ له ذلك، وأما إذا كان الغلام غير بالغ، فقيل: إن الخضر علم بإعلام الله له أنه لو صار بالغاً لكان كافراً يتسبب عن كفره إضلال أبويه وكفرهما، وهذا وإن كان ظاهر الشريعة يأباه، فإن قتل من لا ذنب له ولا جرى عليه التكليف لخشية أن يقع منه بعد بلوغه ما يجوز به قتله لا يحلّ في الشريعة المحمدية، ولكنه حلّ في شريعة أخرى، فلا إشكال)[2].

أقول: يحل الإشكال على كل تقدير باستحضار قول الخضر: ﴿وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ﴾، سواء كان ذلك بإذن الله له بالاجتهاد كما في كلام القرطبي، أو كان بأمر من الله خاص بهذا الغلام كما قال ابن عاشور: (تصرف بوحي من الله جار على قطع فساد خاص علمه الله وأعلم به الخضر بالوحي)[3].

فلا شك أن قتل الغلام لم يكن بمحض رأي الخضر، بل كان بأمر الله،

---

(١) لأن كفره ردة.

(٢) فتح القدير ٤/ ٤١٤ بتصرف واختصار.

(٣) التحرير والتنوير ١٦/ ١٣ بتصرف يسير.

فالله ﷻ أراد موت الغلام، ولا فرق بين أن يميته بـ(كن) أو بدابة، أو بغرق أو غير ذلك؛ فقتل الخضر له، سبب أوجده الله لنفوذ مشيئته، وإنما يتوجه الإشكال لو كان القتل عقوبة على ما سيفعله في المستقبل، وليس في قصته ما يشير إلى أن قتله كان عقوبة؛ وقد أشار القرطبي إلى هذا المعنى[1].

أما قوله: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾

فسياق الكلام يشعر أن القائل هو الخضر كما سبق، قال البغوي: (﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا﴾ قرأ أبو جعفر ونافع وأبو عمرو: بالتشديد هاهنا وفي سورة "التحريم" و"القلم" وقرأ الآخرون بالتخفيف وهما لغتان، وفرَّق بعضهم فقال: "التبديل": تغيير الشيء أو تغيير حاله وعين الشيء قائم و"الإبدال": رفع الشيء ووضع شيء آخر مكانه)[2]. قال ابن عاشور: (والزكاة: الطهارة، مراعاة لقول موسى أقتلت نفسا زكية)[3]، وقال ابن الجوزي: (قوله: ﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾ فيه ثلاثة أقوال؛ أحدها: ديناً، قاله ابن عباس، والثاني: عملاً، قاله مقاتل، والثالث: صلاحاً، قاله الفراء. وقوله: ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ فيه قولان؛ أحدهما: أوصل للرحم وأبرّ للوالدين، قاله ابن عباس، وقتادة. وقال الزجاج: أقرب عطفاً، وأمسّ بالقرابة. ومعنى الرُّحْم والرُّحُم في اللغة: العطف والرحمة، قال الشاعر:

وكيف بظلم جَاريةٍ ومنها اللِّينُ والرُّحُم

والثاني: أقرب أن يُرحَما به، قاله الفراء. وفيما بُدِّلا به قولان. أحدهما:

---

(١) تفسير القرطبي ١١/ ٢١.

(٢) تفسير البغوي ٥/ ١٩٥.

(٣) التحرير والتنوير ١٦/ ١٣.

جارية، قاله الأكثرون، والثاني: غلام مسلم، قاله ابن جريج)(١).

قال القرطبي: (ويستفاد من الآية تهوين المصائب بفقد الأولاد وإن كانوا قِطَعاً من الأكباد، ومن سلم للقضاء أسفرت عاقبته عن اليد البيضاء)(٢).

لطيفة- قال ابن عاشور: (وضميرا الجماعة في قوله: ﴿فَخَشِينَآ﴾ وقوله: ﴿فَأَرَدْنَآ﴾ عائدان إلى واحد بإظهار أنه مشارك لغيره في الفعل. وهذا الاستعمال من التواضع لا من التعاظم لأن المقام مقام الإعلام بأن الله أطلعه على ذلك وأمره فناسبه التواضع فقال: فخشينا فأردنا)(٣).

قولــــه: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾

قال الشوكاني: (﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ﴾ يعني: الذي أصلحه ﴿فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ فيه جواز إطلاق اسم المدينة على القرية لغة)(٤)، قال الألوسي: (ولعل التعبير عنها بالمدينة هنا لإظهار نوع اعتداد بها باعتداد ما فيها من اليتيمين وما هو من أهلها وهو أبوهما الصالح. ولما كان سوق الكلام السابق على غير هذا المساق عبر بالقرية فيه)(٥)، أي أن الكلام الأول كان في معرض الذم للؤم أهلها وبخلهم فاكتفي بتسميتها قرية، فلما ذكر الأب الصالح وروعي وجود ولديه فيها فخمت وعبر عنها بالمدينة.

---

(١) زاد المسير ٤/ ٢٤٥ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير القرطبي ١١/ ٣٨.
(٣) التحرير والتنوير ١٦/ ١٣ بتصرف واختصار.
(٤) فتح القدير ٤/ ٤١٥ بتصرف يسير.
(٥) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٣٦٦.

قال ابن عطية: (هذان الغلامان صغيران، بقرينة وصفهما باليتم، وقد قال ﷺ: «لا يتم بعد بلوغ» هذا الظاهر، وقد يحتمل أن يبقى عليهما اسم اليتم بعد البلوغ أي كانا يتيمين على معنى التشفق عليهما)[١]، قال الألوسي: (ولا يخفى أنه بعيد جداً)[٢]، قال ابن كثير: (معنى الآية: أن هذا الجدار إنما أصلحه لأنه كان لغلامين يتيمين وكان تحته كنز. قال عكرمة، وقتادة، وغير واحد: كان تحته مال مدفون لهما. وهذا ظاهر السياق، واختيار ابن جرير، رحمه الله. وقال العوفي عن ابن عباس: كان تحته كنز علمٍ. وكذا قال سعيد بن جبير)[٣]. قال الطبري: (وأولى التأولين القول الذي قاله عكرمة، لأن المعروف من كلام العرب أن الكنز لما يكنز من مال، وأن كلّ ما كنز وقع عليه اسم كنز، والتأويل[٤]مصروف إلى الأغلب من استعمال المخاطبين بالتنزيل، ما لم يأت دليل يصرفه إلى غيره، لعلل بيَّناها في غير موضع)[٥].

قال ابن كثير: (وقوله: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ دليل على حفظ الرجل الصالح في ذريته، وبركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة، بشفاعته فيهم، ورفع درجتهم في الجنة لتقر عينه بهم، كما في القرآن والسنة. قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: حفظا بصلاح أبيهما، ولم يذكر لهما صلاح)[٦].

---

(١) المحرر الوجيز لابن عطية ٤/ ٣٣٣.
(٢) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٣٦٦.
(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ١٨٥ بتصرف واختصار.
(٤) أي التفسير، وليس المقصود ما اصطلح عليه المتأخرون من صرف اللفظ عن ظاهره بقرينة، وهذا واضح جلي من بقية كلامه. وفي الكلام فائدة عزيزة من هذا الإمام.
(٥) تفسير الطبري ١٨/ ٩٠ بتصرف واختصار.
(٦) تفسير ابن كثير ٥/ ١٨٦-١٨٧ بتصرف واختصار.

فإقامة هذا الجدار للغلامين من شكر الله تعالى لأبيهما الصالح، إذ ساق عبده الخضر في مهمة خاصة ليتعهد ذريته بعد موته ويصلح شأنهما، ويطبق المفسرون على الاستشهاد بـ ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ على حفظ الذرية بصلاح الآباء، وأن بركة صلاح الآباء تظهر على الأبناء، وتجلى هذا في قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ٩﴾ [النساء]، قال الهيتمي: (فإن كان لك خوفٌ على صغارك وأولادك المساكين، فاتق الله في أعمالك كُلها لا سيما في أولاد غيرك، فإن الله يحفظك في ذريتك وييسر لهم من الحفظ والخير ببركة تقواك، ما تقر به عينك، وأما إذا لم تتق الله في أولاد الناس ولا في حُرَمهم، فاعلم أنك مُؤاخذ في نفسك وذريتك، وأن ما فعلته كله يفعل بهم)[1].

تنبيه- ذكر بعض العلماء أن صاحب الكنز هو الجد السابع لليتيمين وفيه نظر، إذ لا يصح صرف الأمر عن ظاهره إلا بقرينة، ولا قرينة.

وقوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾

فالأشد يأتي على ثلاثة معان؛ أولها الإدراك والبلوغ كما في: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، الثاني وقت اجتماع الأمر والقوة حيث تنتهي مرحلة الشباب وتبدأ مرحلة الكهولة وهذا بين ٢٨-٣٣ سنة وبعضهم أوصلها إلى الأربعين، ومنه: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [القصص: ١٤]، والثالث أقصى بلوغ الأشد ومنه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف: ١٥]، وهو ما بلغه النبي ﷺ لما بعث. والمراد في الآية البلوغ والإدراك؛ قال الطبري: (فأراد ربك أن يدركا ويبلغا قوتهما وشدّتهما، ويستخرجا حينئذ المكنوز تحت الجدار الذي أقمته،

(١) الزواجر عن اقتراف الكبائر ص٢٣ بتصرف واختصار.

يقول: فعلت هذا بالجدار، رحمة من ربك لليتيمين، وقوله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ يقول: وما فعلت يا موسى جميع الذي رأيتني فعلته عن رأيي، ومن تلقاء نفسي، وإنما فعلته عن أمر الله إياي به)(١)، فجعل رَحِمَهُ اللَّهُ الرحمة متعلقة برفع الجدار، والأمر من الله متعلقاً بجميع الأفعال، وخالفه في ذلك ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ فجعل الرحمة والأمر متعلقة بالأفعال كلها، قال ابن كثير: (وقوله: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ أي: الذي فعلته في هذه الأحوال الثلاثة، من رحمة الله بأصحاب السفينة، ووالدي الغلام، وولدي الرجل الصالح، ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ لكني أمرت به ووقفت عليه)(٢).

فائدة- قال ابن تيمية: (ما فعله الخضر لم يكن مخالفاً لشريعة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وموسى لم يعلم الأسباب التي تبيح ذلك فلما بينها له وافقه عليها؛ فإن خرقَ السفينة ثم ترقيعَها لمصلحة أهلها خوفاً من الظالم إحسانٌ إليهم وذلك جائز، وقتل الصائل جائز وإن كان صغيراً، ومن كان تكفيره لأبويه لا يندفع إلا بقتله جاز قتله؛ قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لنجدة الحروري لما سأله عن قتل الغلمان: إن كنت علمت منهم ما علمه الخضر من الغلام فاقتلهم وإلا فلا. رواه البخاري، وأما الإحسان إلى اليتيم بلا عوض والصبر على الجوع فهذا من صالح الأعمال فلم يكن في ذلك شيء مخالفاً شرع الله)(٣).

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾

قال الطبري: (يقول: هذا الذي ذكرت من الأسباب التي لأجلها فعلت ما استنكرته مني، ﴿تَأْوِيلُ﴾ ما تؤول إليه وترجع الأفعال التي لم

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٩٠ بتصرف واختصار.

(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٨٧.

(٣) مجموع الفتاوى ١١/ ٢٦٣ بتصرف واختصار.

تسطع على ترك مسألتك عنها، وإنكارك لها صبراً)[١]. وقد ظهرت صحة فراسة الخضر ﷺ أن موسى لن يطيق صبراً على صحبته، كما ظهر بتعليلات الخضر لأفعاله ما آتاه الله سبحانه من علم لم يؤته موسى ﷺ.

لطيفة نبوية- لما قص النبي ﷺ على أصحابه خبر موسى والخضر ووصل إلى قول الخضر ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ قال: "يرحم الله موسى، لوددت أنه كان صبر حتى يقص علينا من أخبارهما"[٢].

لطيفة: مع أن قصة موسى ﷺ الحافلة بالعجائب -منذ ألقته أمه في اليم- ثنيت وبسطت في القرآن، إلا أن قصته العجيبة مع الخضر لم تذكر في غير هذه السورة، ومن تأمل القصة وما حوته من دروس وعبر، ظهر له اتصال بينها وبين قصته في بقية السور، يقول بعض أهل البلاغة: (إذا تأملت الأحداث الثلاثة من العبد الصالح، وما كان من موسى ﷺ في الاستفهام، وتأملت حال موسى ﷺ من قبل لرأيته وهو رضيع كمثل حال خرق السفينة: ألا ترى أنّ أمه ألقته في اليم لينجو؟ أيكون ذلك بمنطق العقل البشري نجاة؟ أتلحظ معنى ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾. وكان منه قتل القبطيّ كما كان من العبد الصالح قتل الغلام. وكان منه سقي الغنم للفتاتين دون أجر، مع افتقاره، وهذا كمثل ما كان من بناء الجدار في قرية استطعما أهلها، فأبوا أن يضيفوهما. وهي قد نسقت في السورة كمثل ما نسقت نظائرها وقوعًا في حياة موسى ﷺ: الأول فالأول. تأمل هذا التقارب، وما فيه من لطائف الإشارات)[٣].

قال ابن عجيبة: (قيل: كل ما أنكر موسى ﷺ على الخضر جرى له

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٩٠ بتصرف يسير.
(٢) صحيح البخاري ٣/ ١٢٤٦ (٣٢٢٠)، صحيح مسلم ٤/ ١٨٤٧ (٢٣٨٠).
(٣) العزف على أنوار الذكر لمحمود توفيق محمد سعد ص٦٧ بتصرف واختصار.

مثله، ففي هذه الأمثلة حجة عليه، وذلك أنه لما أنكر خرق السفينة، نودي: يا موسى أين كان هذا وأنت في اليم؟ فلما أنكر قتل الغلام قيل له: أين إنكارك من وكْزك القبطي وقضائك عليه؟ فلما أنكر إقامة الجدار، نودي: أين هذا من رفعك الحجر لبنات شعيب دون أجر؟)[١].

فأين يوشع عليه السلام؟

تقدم أن فتى موسى يوشع بن نون، إلا أن الآيات لم تذكر عنه شيئاً منذ التقى بالخضر، مما يثير التساؤل، قال ابن كثير رحمه الله: (الجواب: أن المقصود بالسياق هو قصة موسى والخضر وما بينهما، وفتى موسى تبع)[٢]. ونقل القرطبي عن شيخه: (يحتمل أنه اكتفى بذكر المتبوع عن التابع)[٣]، وعليه فإغفاله لأن الفائدة معرفة ما بين موسى والخضر، ولو بقي ليوشع ذكر لاحتيج كل مرة أن يقال: قال موسى، قال الفتى، قال الخضر.

---

(١) البحر المديد لابن عجيبة ٣/ ٤٢٦ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٨٨ بتصرف واختصار.
(٣) تفسير القرطبي ١١/ ٣٩.

لطائف قرآنية في استخدام لفظ الإرادة

حكى القرآن أن الخضر عليه السلام قال في السفينة: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩]، وعن والدي الغلام: ﴿فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾ [الكهف]، وعن اليتيمين: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف: ٨٢]، فنلاحظ تبايناً في إسناد الإرادة، مع أنه أرجع كل ما فعله لأمر الله عز وجل فقال: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾، فحاول أهل العلم تلمس ما في هذه المغايرة من دقائق ولطائف، فمن ذلك:

١- قال ابن عاشور: (أسند الإرادة في قصة الجدار إلى الله تعالى دون القصتين السابقتين لأن العمل فيهما كان من شأنه أن يسعى إليه كل من يقف على سره لأن فيهما دفع فساد عن الناس بخلاف قصة الجدار فتلك كرامة من الله لأبي الغلامين)(١).

٢- قال ابن كثير: (وقوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ أسند الإرادة إلى الله؛ لأن بلوغهما لا يقدر عليه إلا الله)(٢)، ويرده أن إبدال الأبوين غلاما مثله، لكنه قال: ﴿فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا﴾، والجواب قول القرطبي: (فكأنه أضاف القتل لنفسه، والتبديل لله)(٣)، لأن الخضر مشارك في إرادته وفعله بما يتعلق بقتل الغلام، أما إرادة الإبدال وإيقاعه فلله عز وجل وحده، قال البقاعي: (ولما كان التعويض عن هذا الولد لله وحده، أسند الفعل إليه في: ﴿أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا﴾)(٤).

---

(١) التحرير والتنوير ١٦/ ١٤.

(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٨٦-١٨٧ بتصرف واختصار.

(٣) تفسير القرطبي ١١/ ٣٩ بتصرف واختصار.

(٤) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٧٥ بتصرف واختصار.

٣- قوله: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ قال القرطبي: (أضافه إلى نفسه رعاية للأدب، كما تأدب إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠﴾ [الشعراء] فأسند الفعل قبل وبعد إلى الله، وأسند إلى نفسه المرض، إذ هو معنى نقص، فلا يضاف إليه سبحانه من الألفاظ إلا ما يستحسن، كما قال: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦] واقتصر عليه فلم ينسب الشر إليه، وإن كان بيده الجميع، إذ هو على كل شي قدير، وهو بكل شي خبير)[١]، وهذا الأدب مع الله ﷻ تكرر في مواضع من القرآن، وسبق شيء منه عند قوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾.

٤- ورأى بعض العلماء أن نكتة هذا موافقة عادة العرب في سبك الكلام واستعذابه، قال ابن الجوزي: (قال ابن الأنباري: لما كان كل من: «فأردتُ» و«وأردنا» يصلح أن يكون خبراً عن الله ﷻ وعن الخضر، أتبعهما بما يحصر الإرادة عليه، ويزيلها عن غيره، ويكشف البُغية منهما. وإنما قال: «فأردتُ» «فأردنا» «فأراد ربُّك»، لأن العرب تؤثر اختلاف الكلام على اتِّفاقه مع تساوي المعاني، لأنه أعذب على الألسن، وأحسن في الأسماع، فيقول الرجل: قال لي فلان كذا، وأنبأني بما كان، وخبَّرني بما نال)[٢].

---

(١) تفسير القرطبي ١١/ ٣٩ بتصرف واختصار.
(٢) زاد المسير ٤/ ٢٤٥.

فتنة العلم في قصة موسى والخضر عليهما السلام

هذه الفتنة الرئيسة الثالثة في السورة، والعلم يكون فتنة بواحد من أمرين أو بهما؛ أولهما أن يطغيه فيرى لنفسه فضلاً، وثانيهما أن يعمل بخلاف ما يعلم أو يحتال بعلمه ليصل لما يريد فيكون العلم حجة عليه. وقد مر حديث أبي هريرة ﷺ أن من أول من تسعر بهم النار عالم؛ فبدل أن يكون في أعلى عليين، إذا به يكون وقوداً للنار، وما نال هذا المصير إلا لفساد نيته، فأعظم وقاية من فتنة العلم هي الإخلاص، بأن يريد المرء بعلمه وجه الله ﷻ ورضاه. لقد حوت الآيات كثيراً من الكهوف التي تقي الإنسان، عالماً أو متعلماً من هذه الفتنة، وتميزت قصة موسى مع الخضر بجملة من الفوائد واللطائف والعبر، وأكثر أهل العلم وخاصة المفسرين والشراح من استخراجها، وتفنّنوا في استنباطها والاستدلال بها على المسائل، وكل ما ذكروه له قيمة علمية في أبواب مختلفة، ولو أُفرِدت هذه الفوائد في مصنف، لكان عجبًا للناظرين في كتاب الله والباحثين عن أسراره. وقد جمع السعدي رحمه الله في تفسيره عدداً كبيراً منها(١)، فذكرت كثيراً منها، وأضفت إليها عدداً آخر، فمن شاء التوسع فليرجع إلى مصنفات أهل العلم، كتب التفسير وشروح الحديث، فمنها:

١- في عصر يقال له عصر العلم، قد يلعب الغرور بعقول بعض الناس ويظنون أن ما بلغته علومهم لم يبلغه أحد ممن سبق، وأنهم قد ملكوا نواصي العلم وحازوا أقطاره، فيطغيهم ويحملهم على ظلم أنفسهم بإنزالها وإنزال علومهم منزلة ليست لها. لقد بين الله للناس في غير آية حقيقة ما

---

(١) ينظر تفسيره ١/ ٤٨٢ وما بعدها.

عندهم من علم كي لا يغتروا به، فقال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء]، ومع ذلك فمنهم من يفرح بهذا العلم القليل ويرد علم الرسل من علام الغيوب ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [غافر]، وهؤلاء قصروا هممهم وأنظارهم على الدنيا ولم يتأملوا فيما وراءها فخسروا أنفسهم ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [النجم]. وقد بين سبحانه فرق ما بين علم الخلائق وعلمه ﷻ فقال: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فعلم الخلائق ضعيف وقاصر وناقص، وعلمه تام كامل، وقد بين الخضر هذه الحقيقة لموسى عليه السلام يوم ركبا في السفينة فـ"وقع عصفور على حرف السفينة فغمس منقاره في البحر، فقال الخضر لموسى: ما علمك وعلمي وعلم الخلائق في علم الله إلا مقدار ما غمس هذا العصفور منقاره"(١)، قال ابن القيم رحمه الله: (كتب الله وكلام الرسول ﷺ مملوءة بإثبات عموم علمه الذي لا يشاركه فيه خلقه ولا يحيطون بشيء منه إلا بما شاء. وما أخفاه عنهم لا نسبة لما عرفوه إليه إلا دون قطرة إلى البحار، كما قال الخضر لموسى وهما أعلم أهل الأرض حينئذ، ويكفي أن ما كلامه من علمه لو قدر أن البحر يمده سبعة أبحر، وأشجار الأرض من أول الدهر أقلام لنفدت البحار وفنيت الأقلام ولم تنفد كلماته، فنسبة علوم الخلائق إلى علمه كنسبة قدرتهم لقدرته، وغناهم لغناه، وحكمتهم لحكمته)(٢). وهذا مصداق لقول الخضر لموسى: "إنك

(١) صحيح البخاري ٤/ ١٧٥٧ (٤٤٥٠).
(٢) شفاء العليل ١/ ١٨٧ بتصرف واختصار.

لن تستطيع معي صبراً يا موسى، إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه"(١)، وفي هذا درس بليغ لمن يغتر بعلمه أو يظن أنه أوتي علما لم يؤته غيره.

قال ابن تيمية رحمه الله على قول الخضر: (من المعلوم أن علم الله القائم بنفسه لا يزول منه شيء بتعلم العباد وإنما المقصود أن نسبة علمي وعلمك إلى علم الله كنسبة ما علق بمنقار العصفور إلى البحر)(٢)، قال القرطبي: (وهذا من الخضر تمثيل، أي معلوماتي ومعلوماتك لا أثر لها في علم الله، كما أن ما أخذ هذا العصفور من هذا البحر لا أثر له بالنسبة إلى ماء البحر، وإطلاق لفظ النقص هنا تجوز قصد به التمثيل، إذ لا نقص في علم الله، ولا نهاية لمعلوماته. وقد أوضح هذا البخاري فقال: والله ما علمي وما علمك في جنب علم الله إلا كما أخذ هذا الطير بمنقاره من البحر)(٣).

٢- يستحب للعالم أن يتخول الناس بالموعظة ويذكرهم بأيام الله ونعمه، كما في الحديث: "بينما موسى عليه السلام في قومه يذكرهم بأيام الله وأيام الله نعماؤه وبلاؤه"(٤)، فكانت هذه الموعظة مبدأ القصة والرحلة العظيمة.

وللوعظ أهمية كبيرة في تذكير الغافلين ورد العصاة تائبين عابدين، فكم أحيا الله به من قلوب تخالها ماتت، وكم أنار به من بصائر تحسبها طمست. ومن العجيب أن نرى بعض طلاب العلم يترفعون عن الوعظ، بل يتأففون من وصفهم بالوعاظ، مع أن أجل واعظ هو رب العزة ، قال: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا﴾ [النور: ١٧]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم

---

(١) صحيح البخاري ٤/ ١٧٥٢ (٤٤٤٨).
(٢) الفتاوى الكبرى ١/ ١١٧ بتصرف يسير.
(٣) تفسير القرطبي ١١/ ١٩ بتصرف واختصار.
(٤) صحيح مسلم ٤/ ١٨٤٧ (٢٣٨٠).

مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [يونس: ٥٧]، وأمر نبيه ﷺ بهذه المهمة فقال: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ ﴾ [النساء: ٦٣]، وهو باب عظيم من أبواب الدعوة، قال: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥]، وكان هذا من هديه ﷺ فعن ابن مسعود ﷺ قال: "كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَخَوَّلُنَا بِالْمَوْعِظَةِ فِي الأَيَّامِ، كَرَاهَةَ السَّآمَةِ عَلَيْنَا"(١). فحياة الإيمان لا تستقيم إلا بالوعظ وتحريك القلوب، وإنما ذم السلف القصاص الذين زادوا وانتحلوا قصصا مكذوبة ليعظوا بها، وأما الكتاب والسنة والقصص الواقعي الذي فيه عبر فهو محمود مطلوب وقد فعله الأنبياء والصالحون والعلماء.

٣- ينبغي للعالم أن يخفض جناحه لطلابه، فلا يُرى إلا متواضعًا ليبلغ إليه كل أحد، وإذا سئل عن علمه يرد الفضل إلى الله ولا يرى من نفسه أنه أعلم الناس، وفي رواية البخاري: "فسئل أي الناس أعلم؟ فقال: أنا أعلم. فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه"(٢)، قال البخاري: (باب ما يستحب للعالم إذا سئل أي الناس أعلم؟ فيكل العلم إلى الله)، وقال ابن بطال: (كان ينبغي أن يقول: الله أَعْلَمُ أي الناس أعلم، لأنه لم يُحِط علمًا بكل عالم في الدنيا، وقالت الملائكة: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ﴾ [البقرة:٣٢]، وسئل رسول الله ﷺ عن الروح وغيره، فقال: لا أدرى حتى أسأل الله)(٣).

٤- في القصة فضل موسى ﷺ وتعريض ببني إسرائيل المتباهين على العرب بما عندهم من علم الكتاب، فلما عرفوا أن ما جاء به النبي ﷺ حق، وأن معه علما ليس معهم أبوا أن يذعنوا، بخلاف نبيهم موسى ﷺ، فقد

---

(١) صحيح البخاري ١/ ٣٨ (٦٨)، صحيح مسلم ٤/ ٢١٧٢ (٢٨٢١).

(٢) صحيح البخاري ١/ ٥٦ (١٢٢).

(٣) شرح ابن بطال ١/ ٢٠٩ بتصرف واختصار.

كان يرى نفسه أعلم الناس، فلما علم أن هناك من هو أعلم تواضع لله وراح لطلب ما عنده من العلم، وهذا درس بليغ لطلاب العلم.

٥- في القصة بيان لفضيلة العلم، والرحلة في طلبه، وأنه أهم الأمور، فإن موسى عليه السلام -وهو كليم الله ومن أولي العزم- عندما علم أن من عباد الله من هو أعلم، بادر بطلب لُقِيِّه للاستفادة، ففي الحديث: "فأوحى الله إليه إن لي عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك. قال موسى: يا رب فكيف لي به؟"(١). فترك بني إسرائيل، واختار السفر لزيادة العلم، فرحل في طلبه مسافة طويلة، وتجشم المشاق والمتاعب، ثم أثنى ربنا على ذلك، وخلد ذكره في القرآن، ليكون منهجًا ربانيًا. وقد بوّب البخاري: (باب ما ذكر في ذهاب موسى في البحر إلى الخضر)، قال ابن حجر: (هذا الباب معقود للترغيب في احتمال المشقة في طلب العلم، لأن ما يغتبط به تحتمل المشقة فيه، ولأن موسى لم يمنعه بلوغه من السيادة المحل الأعلى من طلب العلم وركوب البر والبحر لأجله)(٢)، قال النووي: (واستدل العلماء بفعل موسى ﷺ على استحباب الاستكثار منه وأنه يستحب للعالم وإن كان من العلم بمحل عظيم أن يأخذه ممن هو أعلم منه، ويسعى إليه في تحصيله)(٣).

٦- البداءة بالأهم فالأهم، فإن التعلم وزيادة العلم، أهم من ترك ذلك والاشتغال، والأكمل هو الجمع بين الأمرين.

٧- يستحب للمسافر في طلب العلم أو سفر طاعة أن يشد عزم رفيقه ويظهر له جلده في السفر وعزمه على بلوغ مقصوده، واحتمال المشقة مهما كانت، ولن يرجع إلا ظافرا بمراده ليقوي عزيمته، كما سبق قول ابن

(١) صحيح البخاري ٤/ ١٧٥٢ (٤٤٤٨)، صحيح مسلم ٤/ ١٨٤٧ (٢٣٨٠).
(٢) فتح الباري ١/ ١٦٨ بتصرف يسير.
(٣) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٥/ ١٣٧ بتصرف واختصار.

عاشور على: ﴿لَآ أَبۡرَحُ﴾: (وكأنه أراد تأييس فتاه من محاولة رجوعهما أو أراد شحذ عزيمة فتاه ليساويه في العزم حتى يكونا على عزم متحد)[1].

٨- سعى موسى عليه السلام للقي الخضر لأن الله زكى له علم الخضر، فينبغي أن نطلب العلم المزكى النافع دنيا وأخرى، وهو علم الشريعة الذي زكاه رب العزة وأمر نبيه أن يستزيد منه ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي﴾.

٩- إذا عزم الإنسان على أمر وأخذ أهبته له فعليه أن يمضي إلى منتهاه ليحقق المرجو مهما طال الزمن وعظمت المصاعب، قال موسى عليه السلام: ﴿لَآ أَبۡرَحُ﴾، إلا إذا طرأ طارئ أو بدا له ما هو خير. فإخفاق المشاريع يرجع إلى هذه الآفة؛ قصر النفس وضعف الهمة وعدم المثابرة، وفي التنزيل أن الملائكة لما أرشدوا لوطا عليه السلام للخروج من القرية قالوا: ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٞ وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ ٦٥﴾ [الحجر].

١٠- المسافر لطلب علم أو جهاد أو نحوه، إذا اقتضت المصلحة الإخبار بمطلبه، وأين يريده، فإنه أكمل من كتمه، ففي إظهاره فوائد من الاستعداد، وإتيان الأمر على بصيرة، وإظهارًا لشرف هذه العبادة، كما قال موسى: ﴿لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾، وكما أخبر النبي ﷺ أصحابه حين غزا تبوك بوجهه، مع أن عادته التورية، تبعا للمصلحة.

١١- العلم الذي يعلمه الله لعباده نوعان: مكتسب يدركه العبد باجتهاده، ولدني، يهبه الله لمن يمن عليه لقوله: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾.

١٢- قال البقاعي: (لا يلزم من العلم اللدني كان صاحبه نبياً أو ولياً معرفة

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٦٥ بتصرف واختصار.

كل شيء كما يدعي بعض الصوفية، لأن الخضر سأل موسى: من أنت؟)[١].

١٣- قال ابن عاشور: (وفي هذا [لن تستطيع معي صبرا] أصل من أصول التعليم؛ أن ينبه المعلم المتعلم بعوارض موضوعات العلوم الملقنة، لا سيما إذا كانت في معالجتها مشقة)[٢]، وقال البقاعي: (ويؤخذ منه أن العالم إن رأى في التغليظ ما يفيد نفعاً وإرشاداً إلى الخير كان عليه ذكره، فإن السكوت عنه يوقع المتعلم في الغرور، وذلك يمنعه من التعلم)[٣].

١٤- التأدب مع المعلم، وخطابه ألطف خطاب، لقول موسى عليه السلام: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ مع أنه قطع مسافة طويلة ولقي مشقة كبيرة لصحبة الخضر، لكنه لم يقل مثلاً: أريد أن أتبعك، بل أخرجه بصورة الملاطفة والمشاورة، هل تأذن لي أم لا؟ وإقراره أنه يتعلم منه، بخلاف أهل الجفاء والكبر، الذين لا يظهر أحدهم للمعلم افتقاره، بل يدعي أنه يتعاون وإياه، بل ربما ظن أنه يعلم معلمه، وهو جاهل، فالذل للمعلم، وإظهار الحاجة لتعليمه، من أنفع شيء للمتعلم.

١٥- تواضع الفاضل لمن دونه في التعلم، فموسى أفضل من الخضر.

١٦- تعلم العالم الفاضل للعلم الذي لم يتمهر فيه، ممن مهر فيه، وإن كان دونه في العلم، فإن موسى عليه السلام من أولي العزم من الرسل، الذين أعطاهم من العلم ما لم يعط سواهم، ولكن في هذا العلم الخاص كان عند الخضر ما ليس عنده، فلهذا حرص على التعلم منه. فعلى هذا، لا ينبغي للفقيه المحدث، إذا كان قاصرا في علم النحو، أو الصرف، أو نحوه من العلوم، أن لا يتعلمه ممن مهر فيه، وإن لم يكن محدثا ولا فقيها.

---

(١) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٧٧ بتصرف واختصار.

(٢) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٧٢.

(٣) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٦٩ بتصرف يسير.

١٧- إضافة العلم وغيره من الفضائل لله تعالى، والإقرار بذلك، وشكر الله عليها لقوله: ﴿تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ أي: مما علمك الله تعالى.

١٨- العلم النافع هو المرشد إلى الخير، فكل علم يهدي لطرق الخير، ويحذر من الشر، أو كان وسيلة لذلك، فإنه من العلم النافع، وما سوى ذلك، فإما ضار، أو ليس فيه فائدة لقوله: ﴿أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾.

١٩- من ليس له صبر على صحبة العالم والعلم، والثبات على ذلك، يفوته كثير من العلم فمن لا صبر له لا يدرك العلم، ومن صبر أدرك، لقول الخضر يعتذر لموسى بذكر المانع في الأخذ عنه: إنه لا يصبر معه.

٢٠- أكبر سبب لحصول الصبر، إحاطة الإنسان علما وخبرة بالأمر الذي أمر بالصبر عليه، وإلا فما لا يدريه، أو لا يدري غايته، ولا فائدته وثمرته لا سبب عنده للصبر لقوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾، فجعل الموجب لعدم صبره، عدم إحاطته خبرا بالأمر.

٢١- التأني والتثبت، وعدم المبادرة إلى الحكم على الشيء، حتى يعرف المقصود كي لا يقع في الخطأ، قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ٦﴾ [الحجرات]، وقال ﷺ: "رَحْمَةُ الله عَلَيْنا وَعلى مُوسَى، لَوْ لَبِثَ مَعَ صَاحِبِهِ لأَبْصَرَ العَجَبَ"(١).

٢٢- المعَلم إذا رأى المصلحة في نصح المتعلم أن يترك السؤال عن بعض الأشياء، حتى يكون هو يوقفه عليها، فإن المصلحة تتبع، كما إذا كان فهمه قاصرا، أو نهاه عن الدقيق من الأشياء التي غيرها أهم منها، أو لا يدركها ذهنه، أو يسأل سؤالا لا يتعلق بموضع البحث.

---

(١) صحيح مسلم ٤/ ١٨٤٧ (٢٣٨٠).

٢٣- الرفق بالعلماء، فالخضر طلب من موسى أن يصبر ولا يبادر باستشكاله، وكان الصحابة لا يلحون على النبي ﷺ بالأسئلة إجلالاً ومهابة، وكي لا يشقوا عليه ولهذا كانوا يفرحون إذا جاء أعرابي يسأل.

٢٤- رفق العالم بتلاميذه ببذل العلم ولو لم يسألوه لأنهم إنما صحبوه لينهلوا من علمه، ولهذا بين الخضر لموسى علة ما فعل دون أن يسأله.

٢٥- لما عرف أصحاب السفينة الخضر لم يأخذوا أجرة، ففيه إكرام أهل العلم والفضل والصلاح، وهكذا ينبغي أن يكون الناس، وفي قبول ذلك دليل على جوازه ما لم يكن عن سؤال أو تشوف، أو على حساب الدين، وما لم يكن فيه منة، فقد نص أهل العلم أنه إن كان في صحراء وأراد الوضوء فلم يجد الماء وجاءه من يعرض عليه ماء ليتوضأ وغلب على ظنه أنه سيمن عليه بذلك فيجوز له أن يرفض الماء ويتيمم.

٢٦- اعتذار المعلم عن تلميذه إذا بدر منه أمر لا يرضى عنه تطييباً لخاطره، وذلك قول الخضر: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف]، كأنه يقول إن مخالفته كانت لأمر قاهر لم يكن له رده.

إن ما سبق من فوائد مع الإخلاص يعين العالم والمتعلم على النجاة من فتنة العلم، إذ يتم بها ضبط الخطوات في طريق العلم، كي لا تزل قدم بعد ثبوتها، وكي لا تتفرق بالطالب السبل فيضل عن سبيل الله.

فوائد متفرقة من القصة

١ - جواز أخذ الخادم حضرا وسفرا للمؤن والراحة، كما فعل موسى.

٢- استحباب كون خادم الإنسان، ذكيا فطناً كيساً، ليتم له أمره الذي يريده، ولهذا انتقى موسى يوشع ليكون رفيقه، كما انتقى نبينا ﷺ الصديق في هجرته الخالدة، فكان كل منهما نعم الصاحب والرفيق لنبيه.

٣- استحباب التواضع والرفق ورحمة الخدم، فموسى عليه السلام أكل مع فتاه، وعده شريكا له في كل شيء، فأخبره عن جهة المسير وقال: (آتنا غداءنا) (لقد لقينا) (ذلك ما كنا نبغ)، ولم يكلفه ما لا يطيق، بل حمله المكتل فقط. فمن المؤسف ما نراه من سوء معاملة الخدم، معاملة لا تليق بالبشر أحيانا، فيعرضونهم للإهانة والقسوة والغلظة وربما الضرب، وهم بذلك عاصون لرسول الله ﷺ إذ يقول: "إِنَّ إِخْوَانَكُمْ خَوَلُكُمْ جَعَلَهُمُ اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلاَ تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ فَأَعِينُوهُمْ"[1].

٤- إضافة الشر وأسبابه إلى الشيطان، على وجه التسويل والتزيين، وإن كان بقضاء الله وقدره، لقول يوشع: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾.

٥- جواز إخبار الإنسان عما هو من مقتضى طبيعة النفس، من نصب أو جوع، أو عطش، إذا لم يكن على وجه التسخط وكان صدقا، لقول موسى: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾.

٦- المعونة تنزل على العبد بحسب قيامه بالمأمور، والموافق لأمر الله،

---

(١) صحيح البخاري ٣/ ١٤٩ (٢٥٤٥)، صحيح مسلم ٣/ ١٢٨٢ (١٦٦١).

يعان ما لا يعان غيره لقوله: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ إشارة إلى السفر المجاوز لمجمع البحرين؛ وأما الأول، فلم يشتك منه التعب مع طوله، لأنه هو المأمور به، وفي الحديث: "ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به"(١)، وبهذا يعلم أن من جاوز الشرع ناله من النصب بقدر ذلك، ولا يعترض بأن ما وقع كان بغير عمد، لأن الكلام ليس عن المؤاخذة وإنما عن التعب، إذ الفلاح وطيب العيش باتباع الشرع، وكل مجاوزة له ولو عن غير عمد فيها عنت ومشقة على صاحبها، والله أعلم.

٧- تعليق الأمور المستقبلية من أفعال العباد بالمشيئة، وأن لا يقول الإنسان للشيء: إني فاعل ذلك في المستقبل، إلا أن يقول {إِنْ شَاءَ اللَّهُ}.

٨- أن العزم على فعل الشيء، ليس بمنزلة فعله، فإن موسى قال: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾، فوطن نفسه على الصبر ولم يفعل.

٩- جواز ركوب البحر، في غير الحالة التي يخاف منها.

١٠- أن الناسي غير مؤاخذ بنسيانه لا في حق الله، ولا في حقوق العباد لقوله: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾.

١١- أنه ينبغي للإنسان أن يأخذ من أخلاق الناس ومعاملاتهم، العفو منها، وما سمحت به أنفسهم، ولا ينبغي له أن يكلفهم ما لا يطيقون، أو يشق عليهم ويرهقهم، فإن هذا مدعاة إلى النفور منه والسآمة، بل يأخذ المتيسر ليتيسر له الأمر، وهذا كقول موسى عليه السلام: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾.

١٢- أن الأمور تجري على ظاهرها، وتعلق بها الأحكام، فموسى عليه السلام أنكر على الخضر خرق السفينة والقتل، لأن ظاهرها منكر، ولا يسعه السكوت عنها في غير هذه الحال، فاستعجل وبادر إلى الحكم في حالتها

(١) صحيح البخاري ٣/ ١١٩٤ (٣١٠٤).

العامة، ولم يلتفت إلى العارض الذي يوجب عليه الصبر، وعدم الإنكار.

١٣- القاعدة الجليلة "يدفع الشر الكبير بارتكاب الشر الصغير"، ويراعى أكبر المصلحتين بتفويت أدناهما، فإن قتل الغلام شر، ولكن بقاءه حتى يفتن أبويه عن دينهما، أعظم شرا، وإن كان يظن أنه خير، فالخير ببقاء دين أبويه وإيمانهما أهم، فلذا قتله الخضر، وتحت هذه القاعدة من الفروع والفوائد ما لا يدخل تحت الحصر، فتزاحم المصالح والمفاسد كله داخل فيه. قال ابن حجر: (وأما من استدل به [أي فعل الخضر] على جواز دفع أغلظ الضررين بأخفهما، والإغضاء على بعض المنكرات مخافة أن يتولد منه ما هو أشد، فصحيح، لكن فيما لا يعارض منصوص الشرع، فلا يسوغ الإقدام على قتل النفس ممن يتوقع منه أن يقتل أنفساً كثيرة قبل أن يتعاطى شيئا من ذلك، وإنما فعل الخضر ذلك لإطلاع الله تعالى عليه)(١).

١٤- القاعدة الكبيرة أيضاً أن عمل الإنسان في مال غيره، على وجه المصلحة وإزالة المفسدة، يجوز ولو بلا إذن ولو ترتب عليه إتلاف بعضه، كما خرق الخضر السفينة لتعاب فتسلم من الغصب. وعليه لو وقع حرق أو غرق أو نحوهما، في مال إنسان، وكان إتلاف بعضه فيه سلامة للباقي، جاز ذلك، حفظا لمال الغير، وكذلك لو أراد ظالم أخذ مال الغير، ودفع إليه إنسان بعض المال افتداء للباقي جاز، ولو من غير إذن.

١٥- أن العمل يجوز في البحر، كما يجوز في البر لقوله: {يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ} ولم ينكر عليهم عملهم.

١٦- أن المسكين قد يكون له مال لا يبلغ كفايته، ولا يخرج بذلك

---

(١) فتح الباري ٨/ ٤٢٢.

عن اسم المسكنة، لأن الله أخبر أن هؤلاء المساكين، لهم سفينة.

١٧- أن القتل من أكبر الذنوب لقوله: {لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا}.

١٨- أن القتل قصاصا غير منكر لقوله: ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾.

١٩- أن العبد الصالح يحفظه الله في نفسه، وفي ذريته.

٢٠- أن خدمة الصالحين، أو من يتعلق بهم، أفضل من غيرها، لأنه علل استخراج كنزهما، وإقامة جدارهما، أن أباهما صالح.

٢١- استعمال الأدب مع الله في الألفاظ، فإن الخضر أضاف عيب السفينة لنفسه: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ وأضاف الخير لله: {فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا}، وقال إبراهيم ﷺ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ وقالت الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾، والكل بقضاء الله.

٢٢- أنه ينبغي للصاحب أن لا يفارق صاحبه في حالة من الأحوال، ويترك صحبته، حتى يعتبه، ويعذر منه، كما فعل الخضر مع موسى.

٢٣- أن موافقة الصاحب لصاحبه، في غير الأمور المحذورة، مدعاة وسبب لبقاء الصحبة وتأكدها، كما أن عدم الموافقة سبب لقطع المرافقة.

٢٤- أن هذه القضايا التي أجراها الخضر، هي قدر محض جعله الله على يده، ليستدل العباد بها على ألطافه، وأنه يقدر على العبد أمورا يكرهها وهي صلاح دينه، كما في قضية الغلام، أو صلاح دنياه كما في قضية السفينة، فأراهم نموذجا من لطفه وكرمه، ليرضوا غاية الرضا بأقداره.

٢٥- مشروعية التزود في السفر، فقد أرشد الله موسى ﷺ أن يتخذ زاداً له حوتاً مملحاً، كما في الحديث. قال ابن الجوزي: (لا خلاف بين الفقهاء أنه لا يجوز دخول البادية بغير زاد، وأن من فعل ذلك فمات بالجوع فإنه عاص مستحق لدخول النار، وكذلك إذا تعرض بما غالبه العطب،

فإن الله جعل النفوس وديعة عندنا، فقال: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [النساء: ٢٩])(١)، وقال القرطبي: (في آية ﴿ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا﴾ دليل على سؤال القوت، وأن من جاع وجب عليه طلب ما يرد جوعه خلافًا لجهال المتصوفة)(٢).

٢٦- إثبات حق الضيافة لعابر السبيل إذا نزل بأحد من الحي أو القرية، فعن أبي شريح العدوي قال: "سمعت أذناي وأبصرت عيناي حين تكلم النبي ﷺ فقال: ... ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته. قال: وما جائزته؟ قال: يوم وليلة، والضيافة ثلاثة أيام فما كان وراء ذلك فهو صدقة عليه"(٣)، وعن عقبة بن عامر: "قلنا للنبي ﷺ: إنك تبعثنا فننزل بقوم لا يقْرونا فما ترى فيه؟ فقال: إن نزلتم بقوم فأمروا لكم بما ينبغي للضيف فاقبلوا فإن لم يفعلوا فخذوا منهم حق الضيف"(٤).

قال الحافظ: (وظاهر هذا الحديث أن قرى الضيف واجب، وأن المنزول عليه لو امتنع من الضيافة أخذت منه قهرًا، وقال به الليث مطلقًا، وخصه أحمد بأهل البوادي دون القرى، وقال الجمهور: الضيافة سنة مؤكدة وأجابوا عن حديث الباب بأجوبة أحدها حمله على المضطرين)(٥).

٢٧- وفي الآيات أن المكلف بعمل لا يؤخره عن وقته، لأن في تأخيره تفويت مصلحة من توقيته غالبًا، فتأمل لو تأخر الخضر عن ركوب السفينة أو دخول القرية، لربما أخذ الملك السفينة، أو انقض الجدار وأخذ

---

(١) تلبيس إبليس ص٢٦٦ بتصرف يسير.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١١/ ٢٤ بتصرف يسير.
(٣) صحيح البخاري ٥/ ٢٢٤٠ (٥٦٧٣)، صحيح مسلم ٣/ ١٣٥٢ (٤٨).
(٤) صحيح البخاري ٢/ ٨٦٨ (٢٣٢٩)، صحيح مسلم ٣/ ١٣٥٣ (١٧٢٧).
(٥) فتح الباري ٥/ ١٠٨.

الكنز، فهذه الصلاة وهي أعظم عبادة بعد الشهادتين وصفها بقوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ١٠٣﴾ [النساء]، فتأخير الصلاة عن وقتها تفويت لمصلحة أرادها الشارع، وباقي العبادات كذلك.

٢٨- قال ابن بطال: (في قصة الخضر أصل عظيم من أصول الدين، أن ما تعبَّدَ الله به خلقه من شريعته، يجب أن يكون حجة على العقول، ولا تكون العقول حجةً عليه، ألا ترى أن إنكار موسى على الخضر خرق السفينة وقتل الغلام، كان صوابًا في الظاهر، وكان موسى غير ملوم في ذلك، فلما بَيَّنَ الخضر وجه ذلك ومعناه، صار قول موسى خطأ، وفعل الخضر صوابًا، وهذا حجةٌ قاطعة في أنه يجب التسليم لله في دينه، ولرسوله في سنته وبيانه لكتاب ربه، واتهام العقول إذا قصرت عن إدراك الحكمة في ذلك، فإنه محنة من الله لعباده، واختبار ليتم البلوى عليهم. ولمخالفة هذا ضل أهل البدع حين حكموا عقولهم وَرَدُّوا إليها ما جهلوه من معاني القدر وشبهه، وهذا خطأ، لأن عقول العباد لها نهاية، وعلم الله لا نهاية له، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فما أخفاه عنهم فهو سِرُّ الله الذي استأثر به، فلا يحل تعاطيه، ولا يُكلَّف طلبه، فإن المصلحة للعباد في إخفائه، والحكمة في طَيِّه، والله هو الحكيم العليم)(١).

وهذا كلام متين في الجملة، إلا أن الحافظ اعترض عليه بقوله: (واستدلاله به على أنه لا يجوز الاعتراض بالعقل على الشرع، خطأ؛ لأن موسى إنما اعترض بظاهر الشرع لا بالعقل المجرد، ففيه حجة على صحة الاعتراض بالشرع على ما لا يسوغ فيه، ولو كان مستقيما في باطن

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال ١/ ٢٠٠ بتصرف واختصار.

الأمر)[1]، ولا شك أن ابن بطال لو أراد ذلك لتوجه الاعتراض، ولكن يمكن حمل كلامه على التمثيل لمن يعترض على الشرع بعقله المجرد، لأن الصورة في الظاهر واحدة، لا أنه أراد أنه عليه السلام اعترض بالعقل المجرد، والله أعلم.

٢٩- وفيها أن موسى عليه السلام لم يعتمد على منزلته وأنه كليم الله ليلزم الخضر بمصاحبته، بل سأله الصحبة بتلطف، وفي هذا مزيد أدب ورفع للحرج عن الخضر، بخلاف فعل كثير من الثقلاء إذ يغشون المجالس والمنتديات وغيرها ويفرضون أنفسهم على أصحابها لمكانتهم أو صفتهم، فعلى المرء أن يتلطف ولا يكون ثقيلا على أحد ولا حتى أهل بيته، بل ولا على نفسه؛ بأن يكرهها على بعض المباحات أو المستحبات، ويستثنى من ذلك ما دعت إليه الضرورة أو الحاجة، والأمور تقدر بقدرها.

٣٠- وعد موسى بالصبر ولم يصبر، لأنه كان بين: الوفاء بالشرط والسكوت عما يراه مخالفا للشرع أو الإنكار، مع أنه اعتل بالنسيان، إلا أن الآية دليل أن الأصل أن ينكر المنكر، لأنه لا معصوم بعد الأنبياء، فلا قيمة لمثل هذا الشرط إلا مع معصوم. بل إن هذا النسيان لم يعتره إلا لأنه رأى منكرا أذهله عن الشرط الذي هو أصل تحقق الرفقة التي سعى لها.

٣١- الحذر من الاستغراق في اللحظة الحاضرة، فإن موسى عليه السلام قد علم ابتداء أنه سيرى من الخضر ما لا يمكن قبوله بادي الرأي وقبل الصحبة بشرط عدم السؤال، لكنه حين رأى ما أنكر استغرقه الحدث عما سواه فنسي الشرط فخسر صحبة العبد الصالح، ولهذا قال النبي ﷺ:

---

(١) فتح الباري ١/ ٢٢٠.

"يرحم الله موسى لوددت أنه كان صبر حتى يقص علينا من أخبارهما"(١).

٣٢- المنكرات تتفاوت في درجاتها، وبحسب تفاوتها تتفاوت شدة الإنكار، فموسى عليه السلام وصف قتل النفس بـ (نكرا)، ووصف خرق السفينة بـ (إمرا)، والأول أشد لأن القتل أشنع، فأمر القتل والدماء أعظم من إتلاف المال، بل أول ما يسأل عنه يوم القيامة من حقوق العباد الدماء، فليتق الله أقوام يستهينون بالدماء، لا سيما وهم يسفكونها باسم الجهاد.

٣٣- الرفق بالصاحب واحتمال ما يصدر منه من أخطاء، فالخضر لم يفارق موسى عليه السلام من أول مرة، بل صبر مرتين وفارقه في الثالثة، وقد ذكره موسى عليه السلام بالرفق: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ٧٣﴾ [الكهف]، ولما اشتد في الثانية استعطفه ووعده أن الثالثة هي الفاصلة، فعلى المرء أن يترفق بمن حوله ولا يتشدد من أول الأمر، وليتخلق بأخلاق النبي ﷺ الذي: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ١٢٨﴾ [التوبة]، بخلاف كثير من الناس تجدهم عذابا على من حولهم من زوج أو طلاب أو موظفين.

٣٤- يحسن بمن يقومون بعمل مشترك وضع نظام للدخول والخروج، فالخضر عليه السلام اشترط على موسى ألا يسأله، فكان معذورا في قطع الصحبة، ولم يكن لموسى عليه السلام إلا أن يعذره مع دوام الود والاحترام، بخلاف ما نجده بين كثير من الشركاء إذ يتفق على البدء، ولا يتفق على الخروج وطريقته، مما قد يفتح بابا للحرج وربما المشكلات. إن الاتفاق على نظام للخروج من أنواع الرحمة، وانظر إلى حال كثير من النصارى الذين لا يقع الاتفاق بينهم وبين أزواجهم، وانظر إلى معاناة كثير منهم في الطلاق وما قد يتبع ذلك من وقوع في الرذيلة واتخاذ الأخدان.

---

(١) صحيح البخاري ١/ ٥٦ (١٢٢)، صحيح مسلم ٤/ ١٨٤٧ (٢٣٨٠).

٣٥- تعليل الأحكام مبدأ عظيم له أثر كبير في النفوس، فإن موسى عليه السلام لم يصبر لأنه لم يعرف العلة، فلما علم اطمأنت نفسه وسلم، وكذلك ينبغي للقائد أو الزوج أو المربي أن يبين علة قراراته ما وجد سبيلا، فإنه أدعى للقبول. بل حتى الخدم، لا ينبغي أن يعاملهم كأنهم همل، بل يتواضع ولا بأس أن يبين لهم. وفي الحديث: "أَخَذَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ تَمْرَةً مِنْ تَمْرِ الصَّدَقَةِ، فَجَعَلَهَا فِي فِيهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: كِخْ كِخْ، ارْمِ بِهَا، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّا لَا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ؟"[1]، فلم يكتف بنهيه بل بين له العلة.

٣٦- سبق أن أصحاب السفينة لما رأوا الخضر عرفوه ووصفوه بالعبد الصالح ولم يأخذوا منه أجرة، ولم ينقل أنهم اعترضوا على خرق السفينة كما اعترض موسى، وفي هذا إشارة إلى أن العامة إذا وثقوا في شخص قبلوا أعماله وإن كانت في الظاهر خاطئة، وهو سلاح ذو حدين، فإن كان صالحاً وجههم لفعل الخيرات، وإلا كانوا أداة بيده للإفساد.

٣٧- بركة الصلاح تنال صاحبها وتنال ذريته، فقد حفظ الله الوالدين بصلاحهما من شر ابنهما، وحفظ اليتيمين بصلاح والدهما، قال النبي ﷺ: "احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ"[2]، في نفسك وفي أولادك؛ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ﴾ [الطور: ٢١].

٣٨- ما يقضيه الله على عبده المؤمن كونا وشرعا كله خير، فقتل الغلام آلم والديه وأحزنهما لكنه خير لهما، وما داما مؤمنين فسوف يتعاملان مع القدر الكوني بالقدر الشرعي وهو الصبر وهو خير، قال ﷺ: "عَجَبًا

---

(١) صحيح البخاري ٤/ ٧٤ (٣٠٧٢)، صحيح مسلم ٢/ ٧٥١ (١٠٦٩).

(٢) سنن الترمذي ٤/ ٦٦٧ (٢٥١٦)، وصححه الألباني.

لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ"[1].

٣٩- يجوز دفن المال إذا دعت الحاجة ولم يخش التلف مع وضع علامة.

٤٠- قال ابن عثيمين: (يؤخذ من ذلك قتل الكافر خوفاً من نشر كفره في الناس)[2]، فكيف بمن ينشره بالفعل؟ فلولي الأمر قتله تعزيراً.

٤١- حكم الخضر على موسى أنه لن يستطيع معه صبراً مع أنه لم يبل صبره من قبل ولا اجتمع به، وإنما حكم بما جرت عليه عادة الناس وأنهم لا يطيقون صبراً على مثل هذه الأمور، فهذا أصل في الحكم بالعادة.

٤٢- لم يجابه الخضر الملك الظالم ولم يحاول الإنكار عليه، وبدل ذلك خرق السفينة، وهذا يدل على أنه توجد حالات لا يمكن أن يزيل المؤمن فيها كل المنكر أو يغيره بيده، فيكتفي حينها بالأنسب والممكن، وقد وقع هذا للأنبياء، بل لنبينا ﷺ، فقد طاف بالكعبة والأنصاب حولها ولا يكسرها ولا يأمر أحداً بكسرها، ويقول لآل ياسر: صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة، ولم يكلف أحداً أن يقتل من يعذبهم خفية مثلاً.

٤٣- استحباب العناية بأولاد الصالحين كما أقام الخضر الجدار لليتيمين إكراما لصلاح والدهما، فيستحب تفقدهم وحل مشاكلهم وإعانتهم لا سيما إن كانوا يتامى.

---

(١) صحيح مسلم ٤/ ٢٢٩٥ (٢٩٩٩).

(٢) تفسير العثيمين لسورة الكهف ص: ١٢٣ بتصرف واختصار.

تفسير الآيات من: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ إلى: ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾.

مناسبة الآيات لما قبلها:

جاءت قصة ذي القرنين جواباً عن السؤال الثالث من أسئلة كفار قريش بإيعاز من اليهود، وأجيب عن سؤال الروح في الإسراء، وعن أهل الكهف وذي القرنين هنا، وتظهر مناسبة قصته بعد موسى والخضر بما قاله البقاعي رحمه الله: (لما فرغ من قصة هي طواف الأرض لطلب العلم، عقبها بقصة من طاف الأرض للجهاد، وقدم الأولى لعلو درجة العلم، فقال عاطفاً على ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [الكهف: ٥٦]: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن﴾ الصالح المجاهد ﴿ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾، وصدّرها بسؤالهم لأنهم لم يسألوا عما قبلها على ما فيها من لطائف وأسرار ومعارف، تبكيتاً لليهود في إغفال السؤال عنها إن كان مقصودهم الحق، وإن لم يكن مقصوداً كانوا بالتبكيت أجدر، أو تكون معطوفة على مسألتهم الأولى وهي الروح، وصدرها بالإخبار بالسؤال لطول الفصل، لأن ذلك كله مرتبط بجوابهم)[1].

قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾

قال ابن كثير: (﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ يا محمد ﴿عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ عن خبره)[2]، فهذا الرجل الطوّاف هو ذو القرنين. قال ابن عاشور: (فالسائلون: قريش لا محالة، والمسؤول عنه: من عظماء العالم عرف بذي القرنين، كانت أخبار سيرته خفية مجملة، فسألوا النبيء عن تحقيقها وتفصيلها، وأذن له الله أن يبين منها موضع

---

(١) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٧٨ بتصرف واختصار.

(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٨٩ بتصرف يسير.

العبرة للناس في الصلاح والعدل، وفي عجيب صنع الله في اختلاف الخلق، فكان اليهود منفردين بمعرفة إجمالية عن المسائل الثلاث، فلذلك جربوا بها نبوءة محمد ﷺ)(١)، قال الألوسي: (أكثر الآثار على أن الآية نزلت بعد سؤالهم فالتعبير بالاستقبال لاستحضار الماضي لما في سؤالهم مع ما شاهدوا نوع غرابة، وقيل: لاستمرارهم على السؤال إلى ورود الجواب)(٢).

قال ابن عاشور: (والمراد بالسؤال عن ذي القرنين السؤال عن خبره، فحذف المضاف إيجازاً، وكذلك في قوله: ﴿مِّنْهُ﴾ أي من خبره و(من) تبعيضية، والذكر: التذكر والتفكر، أي سأتلو عليكم ما به التذكر، فجعل المتلو نفسه ذكراً مبالغة بالوصف بالمصدر)(٣).

قال ابن عاشور: (والأمر في: ﴿قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم﴾ إذن من الله لرسوله بأن يَعِد بالجواب عن سؤالهم عملا بقوله: {ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله} على أحد تأويلين. والسين في: ﴿سَأَتْلُواْ﴾ لتحقيق الوعد كما في قوله: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ في يوسف [٩٨]. وجعل خبر ذي القرنين تلاوة وذكرا لأن المهم من أخباره ما فيه تذكير وما يصلح للتلاوة حسب شأن القرآن فإنه يتلى لأجل الذكر ولا يساق مساق القصص. وقوله: ﴿مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ تنبيه على أن أخباره كثيرة وإنما يهمهم بعضها لتفيد ذكرا وعظة. ولذا لم يقل عن أهل الكهف: نحن نقص عليك من نبئهم، لأن قصتهم منحصرة فيما ذكر، وأحوال ذي القرنين غير منحصرة فيما هنا)(٤).

---

(١) التحرير والتنوير ١٦/ ١٧ بتصرف يسير.
(٢) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٣٨٢.
(٣) التحرير والتنوير ١٦/ ١٨ بتصرف واختصار.
(٤) التحرير والتنوير ١٦/ ٢٣ بتصرف واختصار.

مسائل تتعلق بذي القرنين

أولاً- سبب التسمية: قال ابن الجوزي: (وفي علَّة تسميته عشرة أقوال:

أحدها: أنه دعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه فهلك، فغبر زماناً، ثم بعثه الله، فدعاهم فضربوه على قرنه الآخر فهلك، فذانك قرناه، قاله علي.

والثاني: أنه سار إلى مغرب الشمس وإلى مطلعها، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثالث: لأن صفحتي رأسه كانتا من نحاس.

والرابع: لأنه رأى في المنام كأنه امتد من السماء إلى الأرض وأخذ بقرني الشمس، فقصَّ ذلك على قومه، فسمِّي بذي القرنين.

والخامس: لأنه مَلَك الروم وفارس. والسادس: لأنه كان في رأسه شبه القرنين، رويت هذه الأقوال الأربعة عن وهب بن منبِّه.

والسابع: لأنه كانت له غديرتان من شعر، قاله الحسن. قال ابن الأنباري: والعرب تسمي الضفيرتين من الشعر غديرتين، وجميرتين، وقرنين؛ قال: ومن قال: سمي بذلك لأنه ملك فارس والروم، قال: لأنهما عاليان على جانبين من الأرض يقال لهما: قرنان.

والثامن: لأنه كان كريم الطرفين من أهل بيت ذوي شرف.

والتاسع: لأنه انقرض في زمانه قرنان من الناس، وهو حيّ.

والعاشر: لأنه سلك الظلمة والنور، ذكر الأقوال الثلاثة الثعلبي)[1].

والذي يظهر لي والله أعلم أن تسميته بذي القرنين ينبغي أن يكون وصفاً مختصاً به لا يشركه فيه غيره، إما في كل الأزمنة أو في زمنه خاصة،

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ٣/ ١٠٥ بتصرف واختصار.

وأشبه الأقوال بذلك وألصقها بسياق القصة هو الثاني، أي لأنه سار إِلى مغرب الشمس وإِلى مطلعها، وهذا يتضمن ملك فارس والروم، ولا يتعارض مع كونه ذا ذؤابتين إن صح، فعن مجاهد قال: (ملك الأرض مشرقها ومغربها أربعة نفر: مؤمنان وكافران، فالمؤمنان: سليمان وذو القرنين، والكافران: بختنصر ونمرود بن كنعان، لم يملكها غيرهما)(١).

ثانياً- حقيقة ذي القرنين:

جاء في بعض الآثار عن عمر وعلي رضي الله عنهما ما يشعر أن ذا القرنين كان ملَكاً، وهذا بعيد ولعله لم يصح، وعن علي ﷺ نفي كونه ملكاً كما يأتي. وكما وقع خلاف في نبوة الخضر وقع في نبوة ذي القرنين، إلا أن خلافهم في ذي القرنين لم يكن بقوته؛ لأن أفعاله لم يكن في ظاهرها ما يخالف الشرع بخلاف أفعال الخضر، فهان الأمر، وقد قال بكل قول بعض أصحاب النبي ﷺ، قال البغوي رحمه الله: (قال أبو الطفيل: سئل علي ﷺ عن ذي القرنين؟ قال: لم يكن نبياً ولا ملَكاً، ولكن كان عبداً أحب الله وأحبه الله، ناصح الله فناصحه الله. والأكثرون على أنه كان ملِكاً عادلاً صالحاً)(٢)، وقال الشوكاني: (وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عمرو قال: ذو القرنين نبيّ)(٣)، وبكل من القولين قال بعض أهل العلم، قال الألوسي: (وإلى أنه ليس بنبي ذهب الجمهور وتوقف بعضهم)(٤).

أما القائلون بنبوته فاستدلوا بأدلة، قال الرازي: (الأول: قوله: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ والأولى حمله على التمكين في الدين والتمكين الكامل في

---

(١) تفسير الطبري ٥/ ٤٣٣ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير البغوي ٥/ ١٩٧ بتصرف واختصار.
(٣) فتح القدير ٤/ ٤٢٣.
(٤) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٣٩١.

الدين هو النبوة. والثاني: قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾، ومن جملة الأشياء النبوة فمقتضى العموم أنه تعالى آتاه في النبوة سبباً. الثالث: قوله: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ والذي يتكلم الله معه لا بد وأن يكون نبياً)[1]، ولا يخفى ضعف الأول والثاني؛ أما الأول فقد (قال الله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور:٥٥]، فالتمكين في الدين يكون للأنبياء وأتباعهم الصالحين، فلا يصلح هذا دليلا على نبوة ذي القرنين)[2]. وأما الثاني فلأن العموم هنا معناه أنه أوتي من كل شيء أوتيه مثله من الملوك كأسباب القوة والتمكين، كما قال تعالى عن بلقيس: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣]، وليست نبية باتفاق.

وأما قوله: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ فلعله أقوى الأدلة، قال ابن الجوزي: (فمن قال: إنه نبيّ، قال: هذا وحي؛ ومن قال: ليس بنبي، قال: إلهام)[3]، قال الألوسي: (واستدل بالآية من قال بنبوته، والقول عند بعضهم بواسطة ملَك وعند آخرين كفاحاً، ومن لم يقل بنبوته قال: كان بواسطة نبي، أو إلهاماً لا وحياً بعد أن كان التخيير موافقاً لشريعة ذلك النبي)[4].

ولا يلزم من الآية أن يكون الكلام مخاطبة من الله لذي القرنين، فقد قال تعالى عن بني إسرائيل: ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُواْ فِي ٱلسَّبْتِ﴾ [النساء:١٥٤]. ولم يقل أحد: إن هذا كان مواجهة لهم، وإنما قاله الله لبني

---

(١) تفسير مفاتيح الغيب للرازي ١٠/ ٢٤٦ بتصرف واختصار.
(٢) قصة ذي القرنين ويأجوج ومأجوج للدكتور عبدالعظيم بدوي بتصرف.
(٣) زاد المسير ٤/ ٢٤٧ بتصرف واختصار.
(٤) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٣٩٦.

إسرائيل عن طريق موسى كليمه ورسوله عليه الصلاة والسلام.

وأعلى ما يقال في قوله: ﴿قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ إن لم يكن بواسطة نبي ذلك الزمان، فيكون بواسطة إلهام ألهمه الله. والإلهام لا ينتهض دليلاً؛ فإن الله سمى الإلهام الذي ألهمه أم موسى وحياً ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ﴾ [القصص:٧]. فهذا الوحي لم يكن وحي نبوة وإنما كان وحي إلهام، ولم يقل أحد إن أم موسى نبية.

وقد رجح بعض المعاصرين التوقف إذ لا يوجد نقل عن معصوم يرجح أحد القولين، وكلاهما محتمل، ويؤيد ذلك قول النبي ﷺ: "ما أدري تبع ألعيناً[1] كان أم لا، وما أدري ذا القرنين أنبياً كان أم لا، وما أدري الحدود كفارات لأهلها أم لا؟"[2]، وفي هذا نظر، لأن الحديث ضعفه بعض أهل العلم، وفيه اضطراب في موضع الشاهد على فرض حسنه في الجملة؛ فقد روي بلفظ: "وما أدري ذا الكفل كان نبيا أم لا". وإثبات النبوة يحتاج إلى دليل والأصل عدمه فالراجح من أقوال المفسرين: أن ذا القرنين لم يكن نبياً ولكن كان ملكاً صالحاً من أولياء الله، وهو اختيار شيخ الإسلام، قال رحمه الله: (وقد اختلف في نبوَّته والصحيح أنه لم يكن نبياً)[3].

---

(١) قال الألباني في السلسلة الصحيحة ٥/ ٢١٦: تنبيه: وقع في " المستدرك " في الموضع الأول منه " تبع أنبيا "، وأظنه خطأً من بعض نساخ " المستدرك " أو الطابع، والصواب ما أثبتناه، وهو رواية البيهقي عن الحاكم، وكذلك هو في رواية الآخرين عن عبد الرزاق، وفي رواية آدم بن أبي إياس أيضاً. ا.هـ

(٢) المستدرك ١/ ٩٢ (١٠٤)، قال الحاكم: حديث صحيح على شرط الشيخين ولا أعلم له علة ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وقال الألباني في الصحيحة ٥/ ٢١٦: هو كما قالا.

(٣) الرد على البكري ١/ ١٥٧.

ثالثاً- من هو ذو القرنين؟

اختلف أهل العلم في ذي القرنين، من هو؟ ونحن على عادتنا لا نعول على الأقوال التي لم يرد فيها خبر عن معصوم، إذ لا فائدة في ما طوي الله عنا علمه ولم يكلفنا به. ولم يرد في القرآن ولا السنة تحديده، ومع ذلك اجتهد بعضهم في تحديد هويته، فيرى الزحيلي وأبو الكلام آزاد أنه الملك قورش الفارسي في القرن السادس ق.م، ويرى شبلي النعماني أنه دارا الكبير ملك الفرس في القرن الخامس ق.م، ويذهب صلاح الدين عرفة إلى أنه سليمان عليه السلام، ويذهب أحدهم إلى أنه (أمنحوتب الرابع) الذي ملك مصر بعد غرق أبيه فرعون الذي طارد بني إسرائيل، وكل هذه الأقوال بلا برهان بل القرائن تحكم ببطلانها جميعاً، فالله أعلم به.

يقول د. علي الصلّابي: (عندما طالعت الكتب عن ذي القرنين خرجت بنتيجة هي: لا يمكننا الجزم بشخصيته ولا رحلاته الثلاث التي أشار إليها القرآن، ولا تحديد السد الذي بناه على الأرض. فالقرآن والسنة لم يتعرضا لتلك التفصيلات، وبما أنهما سكتا عن التفصيل، فلا دلالة يقينية عليها؛ ولذلك يكون كلام المفسرين وأهل التاريخ والعلماء عنها من باب الظن[1]. لقد قالوا: إن ذا القرنين هو الإسكندر المقدوني؛ لأن البلاد التي استولى عليها امتدت لمشارق الأرض ومغاربها. وقيل: قورش الإخميني؛ لإجماع المؤرخين على عدالته وحسن سيرته. وقيل: أبو كرب شمر بن عمرو الحميري. لقد ناقش الأستاذ محمد خير يوسف الأقوال السابقة، وخرج بنتيجة أنه لم يكن واحدًا من هؤلاء، ونقد الآراء السابقة نقدًا علميًا

---

(١) انظر: صلاح الخالدي- مع قصص السابقين في القرآن ٦/ ٢٥٤، ٢٥٥ بتصرف.

متينًا، وقال: "ذو القرنين القرآني الذي ذكره الله في كتابه، وأثنى عليه بالإيمان والعدل، في سورة قرآنية عظيمة، وآيات إعجازية جليلة، وقصة تاريخية نادرة، مليئة بالدروس والعبر، والعظات والمبادئ والحكم. إنه علم قرآني بارز، خلّد الله ذكره، فاستحق أن ينال لقب "القرآني" وكفى! ولم أشأ أن أقول غير هذا؛ لأنني لم أرَ من أعطى شخصيته حظًّا في التاريخ مثلما أعطى الله في كتابه العظيم، إنه الرجل الطوّاف في الأرض، الصالح العادل، الخاشع لربه، والمنفذ لأمره، والقائم بين الناس بالإصلاح، والذي ملك أقاصي الدنيا وأطرافها، فلم يغره مال ولا منصب ولا جاه ولا قوة ولا سلطان، بل بقي ذاكرًا لفضل ربه ورحمته، متأهبًا لليوم الآخر، ليلقى جزاءه العادل عند ربه."(١) ا.هـ من بحث الصلابي.

وهنا **فائدة في المنهج القرآني الذي يطوي في أحيان كثيرة ذكر الأشخاص**، ويظهر الخصال والأوصاف التي يدعو إليها ويرغب فيها، أو العكس.

فالله تعالى ما سمى لنا كثيراً من أنبيائه، ولا قص أخبارهم علينا، كما قال: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ [النساء: ١٦٤]، فالتسمية وتركها والقص وتركه بحسب الثمرة والعبرة، وإلا فلا نشك أن الرسل الذين لم يقص علينا خير من ذي القرنين، وأنباؤهم خير من أنباء كثير من الصالحين، وإنما قص لعبرة، وطوى اكتفاء بأخبار من ذكر من الأنبياء، ومع ذلك فقد يشيد الله بتسمية بعض الصالحين والملائكة والمرسلين، ولا يحفل بذكر الطغاة؛ ولا أعلم اسم كافر مصرح به غير أربعة؛ آزر وجالوت وقارون وهامان أما فرعون فلقب، والسامري نسبة،

---

(١) محمد خير رمضان: ذو القرنين القائد الفاتح والحاكم الصالح ٢٤٧-٢٤٩ بتصرف.

وأبو لهب كنية، ذكر بكنيته سخرية منه واستهزاء. والعبرة مما سبق:

١ - أن الأفعال هي التي تبقى بعد أن طي ذكرك وذهاب اسمك.

إن ملوك الدنيا إلى زوال، وقد يجيء يوم تمحى فيه أسماؤهم من التاريخ، ويبقى الذخر والذكر في الآخرة لهم بحسب أعمالهم.

٢ - لا تعلق بالأشخاص في الدين، لكن العبرة بالأفعال، فما وافق شرع الله ودينه أشيد به ودعي للأخذ به وما خالفه رد.

قال ابن عاشور: (ولم يتجاوز القرآن ذكر هذا الرجل بأكثر من لقبه المشتهر به إلى تعيين اسمه وبلاده وقومه، لأن ذلك من شؤون أهل التاريخ والقصص وليس من أغراض القرآن، فكان منه الاقتصار على ما يفيد الأمة من هذه القصة عبرة حكمية أو خلقية)[1].

رابعاً- هل هو الإسكندر المقدوني؟

ذهب الرازي وغيره إلى أن ذا القرنين المذكور هو الإسكندر المقدوني نفسه، وربما هذا أشهر ما يتداوله العامة، فلزم التنبيه، إذ على فرض أن اسمه الإسكندر، وأن المقدوني يلقب بذي القرنين، فقد قام بعض أهل العلم بتفنيد كون ذي القرنين في الآيات هو المقدوني، وفي هذا ما يستحق الوقوف؛ قال شيخ الإسلام: (والجهال يظنون أن هذا الإسكندر [المقدوني] هو ذو القرنين المذكور في القرآن، ويعظمون أرسطو ويظنون أنه كان وزيره، وهذا من جهلهم، فإن الذي كان وزيره أرسطو، هو ابن فيلبس المقدوني، الذي يؤرخ له اليهود والنصارى، وكان قبل المسيح بنحو ثلاث مئة عام، وهو الذي قهر الفرس [وذهب إلى أرض القدس]، ولم

(١) التحرير والتنوير ١٦/ ١٨.

يصل إلى سد يأجوج ومأجوج. [وكان مشركا يعبد الأصنام وكذلك أرسطو وقومه]. وأما ذو القرنين المذكور في القرآن فهو من أهل الإيمان والتوحيد، [وكان متقدماً على هذا (بمدة عظيمة) ومن يسميه الإسكندر يقول هو الإسكندر بن دارا]، وقد اختلف في نبوَّته والصحيح أنه لم يكن نبياً، وقد كان قبل هذا بمئين من السنين، وهو الذي بنى سد يأجوج ومأجوج، وكان الله قد مَكَّن له في الأرض، و آتاه من كل شيء سبباً، فقهر الجبابرة و أذلَّهم، وسار بالعدل فيما آتاه الله)(١).

وذهب ابن كثير رحمه الله إلى أن ذا القرنين لقب الاثنين؛ قال رحمه الله : (فأما ذو القرنين الثاني فهو إسكندر بن فيلبس المقدوني باني إسكندرية الذي يؤرخ بأيامه الروم، وكان متأخراً عن الأول بدهر كان هذا قبل المسيح بنحو ثلاثمائة سنة وكان أرسطاطاليس وزيره وإنما نبهنا عليه لأن كثيرا من الناس يعتقد أنهما واحد، فيقع بسببه خطأ كبير وفساد عريض، فإن الأول كان مؤمنا وملكا عادلا وكان وزيره الخضر، وقد كان نبياً(٢) على ما قررناه، وأما الثاني فكان مشركا ووزيره فيلسوفا وبين زمانيهما أزيد من ألفي سنة. فأين هذا من هذا؟ لا يستويان)(٣)، قال الشوكاني: (والذي يستفاد من كتب التاريخ أنهما اثنان، كما ذكره السهيلي والأزرقي وغيرهم لا كما ذكر الرازي وادّعى أنه الذي تشهد به كتب التواريخ)(٤). قال ابن عاشور رحمه الله : (ولما ظن كثير من الناس أن ذا القرنين المذكور هو إسكندر بن فيليبوس

---

(١) الرد على البكري ١/ ١٥٧، وما بين الأقواس في الرد على المنطقيين ص١٨٦،١٨٢، ٢٨٣ بتصرف واختصار.

(٢) يعني بذلك الخضر.

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ٢/ ١٢٥ بتصرف واختصار.

(٤) فتح القدير ٤/ ٤١٩ بتصرف يسير.

نحلوه بناء السد وزعموه من صنعه كما نحلوه لقب ذي القرنين. وكل ذلك أوهام على أوهام ولا علاقة لإسكندر المقدوني بقصة ذي القرنين)[١].

خامساً- هل السد هو سور الصين العظيم: استظهر ابن عاشور رحمه الله قولاً غريباً ذاع وانتشر بين المعاصرين، وهو أن الردم الذي بناه ذو القرنين هو سور الصين العظيم، قال رحمه الله: (فالذي يظهر لي أن ذا القرنين كان من ملوك الصين لوجوه: أحدها: أن الصين اشتهر أهلها منذ القدم بأنهم أهل تدبير وصنائع. الثاني: أن معظم ملوكهم كانوا أهل عدل وتدبير. الثالث: أن من سماتهم تطويل الشعر وجعله ضفيرتين فيظهر وجه تعريفه بذي القرنين. الرابع: أن سدا وردما عظيما لا نظير في العالم موجود بين الصين والمغول، مشهور في الجغرافيا والتاريخ بالسور الأعظم، وسيرد وصفه. الخامس: ما روت أم حبيبة عن زينب بنت جحش رضي الله عنهما، أن النبيء ﷺ خرج ليلة فقال: «ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم ياجوج وماجوج هكذا»، وأشار بعقد تسعين (أعني بوضع طرف السبابة على طرف الإبهام). وقد كان زوال عظمة سلطان العرب على يد المغول في بغداد، فتعين أن ياجوج وماجوج هم المغول، وأن الردم هو الفاصل بين المغول والصين، وبانيه من ملوكهم، وأن وصفه بذي القرنين توصيف لا تلقيب، مثل التعبير عن شاول ملك إسرائيل باسم طالوت. وهذا الملك هو الذي بنى السد بين الصين ومنغوليا. واسم هذا الملك (تسينشي هوانفتي) أو (تسين شي هوانق تي). وكان موجودا سنة سبع وأربعين ومائتين قبل ميلاد المسيح فهو متأخر عن المقدوني بنحو قرن.

---

(١) التحرير والتنوير ١٦/ ٢٣ بتصرف واختصار.

وبلاد الصين في ذلك العصر كانت متدينة بدين (كنفيشيوس) المشرع المصلح، فلا جرم أن يكون أهل شريعته صالحين)[١].

وهذا الذي ذكره رحمه الله باطل من وجوه؛ أولها: أن اشتهار أهل الصين بالصنائع لا يمنع أن غيرهم اشتهر بها، وثانيها: أن اشتهار ملوكها بالعدل لا يلزم أن يكون هذا فيهم جميعاً، وقد كان في غيرهم ملوك عادلون كذلك، وثالثها: أن تطويل شعورهم لا يمنع أن يطيلها غيرهم، رابعها: أن الثالث مبني على الجزم بسبب تسميته بذي القرنين بلا دليل قاطع، خامسها: أنه إن صح فلا وجه لتخصيصه من قومه بهذا اللقب إن كان من سماتهم! سادسها: أن عدم وجود بنية تشبه سور الصين لا يلزم منه أن يكون هو ردم ذي القرنين، سابعها: وهو ظاهر جداً، أن السور مبني من الحجارة والطين كأمثاله، لا من الحديد والنحاس، وليس على الصفة العجيبة التي جاء بها القرآن من القوة والملاسة، ثامنها: -وهو أظهرها في إبطال مقالته- أن الشرع يُبطِل استدلاله بحديث أم سلمة على كون المغول هم يأجوج ومأجوج، فمعلوم أن خروجهم في آخر الزمان بعد نزول عيسى عليه السلام، وأن الله يهلكهم بدود يبعثه عليهم وأن عيسى والمسلمين معه لا يقاتلونهم، وهذا مخالف لأمر المغول، وقوله عليه السلام: "ويل للعرب من شر قد اقترب" بسبب ما فتح من ردم يأجوج ومأجوج لا يعني قرب ظهور المغول، بل هو أشبه بأحاديث قرب الساعة لا سيما وأن خروج يأجوج ومأجوج يكون قريباً منها، وكون ظهور المغول على المسلمين شراً لا يلزم منه أن يكون الشر المعني في كلام النبي ﷺ، والله أعلم.

---

(١) التحرير والتنوير ١٦/ ٢٢ بتصرف واختصار.

أما قوله: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا﴾

فقد قال ابن كثير: (أي: أعطيناه ملكًا عظيمًا متمكنًا، فيه له من جميع ما يؤتى الملوك، من التمكين والجنود، وآلات الحرب؛ ولهذا ملك المشارق والمغارب، ودانت له البلاد، وخضعت له الملوك، وخدمته الأمم؛ ولهذا ذكر أنه سمي ذا القرنين؛ لأنه بلغ قرني الشمس مشرقها ومغربها)(١).

قال ابن عاشور: (التمكين: جعل الشيء متمكناً، أي راسخاً، وهو تمثيل لقوة التصرف بحيث لا يزعزع قوته أحد. وحق فعل (مكنا) التعدية بنفسه، فيقال: مكناه في الأرض كقوله: ﴿مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ﴾ [الأنعام: ٦]، فاللام في: مكنا له للتوكيد كاللام في قولهم: شكرت له، ونصحت له، فمعناه إعطاء المقدرة على التصرف، والسبب: حقيقته الحبل، وأطلق هنا على ما يتوسل به من علم أو مقدرة أو آلات استعارة)(٢).

قال ابن كثير: (وقوله: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، والسدي، وقتادة، والضحاك، وغيرهم: يعني علمًا. وقال قتادة: منازل الأرض وأعلامها. وقال عبد الرحمن بن زيد: تعليم الألسنة، كان لا يغزو قومًا إلا كلمهم بلسانهم. وقد قال الله في حق بلقيس: ﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [النمل: ٢٣] أي: مما يؤتى مثلها من الملوك، وهكذا ذو القرنين يسر الله له الأسباب، أي: الطرق والوسائل إلى فتح الأقاليم والبلاد وكسر الأعداء، وكبت الملوك، وإذلال أهل الشرك. قد أوتي من كل شيء مما يحتاج إليه مثله سببًا، والله أعلم)(٣).

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٨٩ بتصرف واختصار.
(٢) التحرير والتنوير ١٦/ ٢٣ بتصرف واختصار.
(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ١٨٩ بتصرف واختصار.

وقوله : ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾

قال ابن كثير: (قال ابن عباس: يعني: بالسبب المنزل، وقال مجاهد: منزلا وطريقًا ما بين المشرق والمغرب، وفي رواية عن مجاهد: طريقا في الأرض، وقال قتادة: أي أتبع منازل الأرض ومعالمها، وقال الضحاك: أي: المنازل، وقال سعيد بن جبير: علمًا. وهكذا قال عكرمة وعبيد بن يعلى، والسدي، وقال مطر: معالم وآثار كانت قبل ذلك)[1].

وقوله : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾

قال ابن كثير: (أي: فسلك طريقًا حتى وصل لأقصى الأرض ناحية المغرب. وأما مغرب الشمس من السماء فمتعذر، وما يذكره أصحاب الأخبار أنه سار في الأرض مدّة والشمس من ورائه فلا حقيقة له، وأكثره من خرافات أهل الكتاب. وقوله: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ أي: رأى الشمس في منظره تغرب في البحر المحيط، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله، وهي لا تفارق الفلَك الذي هي مثبتة فيه. والحمئة مشتقة على إحدى القراءتين من "الحمأة" وهو الطين، كما قال: ﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٨﴾ [الحجر] أي: طين أملس، وعن ابن عباس: "في عين حامية" يعني: حارة. وكذا قال الحسن. وقال ابن جرير: هما قراءتان مشهورتان وأيهما قرأ القارئ فهو مصيب. قلت: ولا منافاة بين معنييهما، إذ قد تكون حارة لمجاورتها وَهْج الشمس وملاقاتها الشعاع بلا حائل و﴿حَمِئَةٍ﴾ في ماء وطين أسود، كما قال كعب الأحبار وغيره)[2]. وقال

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٩١ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٩٢ بتصرف واختصار.

القرطبي: (قال القتبي[١]: ويجوز أن تكون العين من البحر، ويجوز أن تكون الشمس تغيب وراءها أو معها أو عندها، فيقام حرف الصفة مقام صاحبه)[٢]، وقال الألوسي: (المراد بالعين الحمئة إما عين في البحر أو البحر نفسه، وتسميته عيناً لا بأس به وهو بالنسبة لعظمة الله كقطرة وإن عظم عندنا)[٣].

قال ابن كثير: (﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ أمة عظيمة من بني آدم، ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ مكنه الله منهم وحكمه فيهم، وأظفره بهم وخيره: إن شاء قتل وسبى، وإن شاء منّ أو فدى. فعرف عدله وإيمانه فيما أبداه عدله وبيانه)[٤]، قال الطبري: (يقول: إما أن تقتلهم إن لم يدخلوا في الإقرار بتوحيد الله، ويذعنوا بما تدعوهم إليه من طاعة ربهم ﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ وإما أن تأسرهم فتعلمهم الهدى وتبصرهم الرشاد)[٥].

وقال السعدي: (أي: إما أن تعذبهم بقتل، أو ضرب، أو أسر ونحوه، وإما أن تحسن إليهم، فخير بين الأمرين، لأن الظاهر أنهم كفار أو فساق، أو فيهم شيء من ذلك، لأنهم لو كانوا مؤمنين، لم يرخص في تعذيبهم)[٦].

(١) هو خطيب أهل السنة، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦) رحمه الله.
(٢) تفسير القرطبي ١١/ ٥٠ بتصرف واختصار.
(٣) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٣٩٤ بتصرف واختصار.
(٤) تفسير ابن كثير ٥/ ١٩٣ بتصرف واختصار.
(٥) تفسير الطبري ١٨/ ٩٧ بتصرف واختصار.
(٦) تفسير السعدي ١/ ٤٨٥ بتصرف يسير.

شبهة وجوابها

يزعم بعض الملاحدة أن قوله: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ خرافة، لأن الشمس لا تغرب في الأرض حقيقة، وإنما ساد هذا في الماضي لمعارفهم القاصرة، مما يدل على أن القرآن ليس من عند الله ﷻ، وأنه اختلاق النبي ﷺ! وهذا يذكرنا بقول سلفهم: إن هذا إلا أساطير الأولين، ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨]، ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٣٠﴾ [التوبة]، ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾ [الكهف].

الجواب: مع أن أهل العلم قديماً لم تعرض لهم هذه الشبهة، ولم يخطر ببالهم أن تتفتق الأذهان عن عبقرية هؤلاء الملاحدة، إلا أن كلامهم حوى جواباً لها، قال ابن كثير رحمه الله: (﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ رأى الشمس في منظره تغرب في البحر المحيط، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله، يراها كأنها تغرب فيه، وهي لا تفارق الفلَك[1] الرابع الذي هي مثبتة فيه لا تفارقه)[2]، قال ابن الجوزي: (وربما توهَّم متوهِّم أن الشمس على عِظَمها تغوص في عين ماءٍ، وليس كذلك. فإنها أكبر من الدنيا مراراً، فكيف تَسَعُها عين ماء؟!. وإنما وجدها تغرب في العين كما يرى راكب البحر أن الشمس تغيب في الماء، وذلك لأن ذا القرنين انتهى إلى آخر البنيان فوجد عيناً حَمِئة ليس بعدها أحد)[3]، وقال ابن عاشور: (والمراد بمغرب الشمس مكان مغربها من حيث يلوح الغروب من جهات المعمور من طريق

---

(١) الفلك هو بتعبير المعاصرين المدار أو المسار الذي تسير فيه الكواكب والنجوم.

(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٩١ بتصرف واختصار.

(٣) زاد المسير ٤/ ٢٤٧ بتصرف واختصار.

غزوته. حيث يلوح أنه لا أرض وراءه بحيث يبدو الأفق من جهة مستبحرة، إذ ليس للشمس مغرب حقيقي إلا فيما يلوح للتخيل)[١].

وقوله: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾

قال الطبري: (يقول: أما من كفر فسنقتله ثم يرجع إلى الله، فيعذبه عذاب النكر، جهنم، وأما من صدق الله ووحَّده، وعمل بطاعته، فله الحسنى، الجنة، ﴿جَزَاءً﴾ يعني ثوابا على إيمانه وطاعته، وسنعلمه في الدنيا ما تيسر تعليمه ما يقرّبه إلى الله ونلين له القول)[٢]، قال ابن عاشور: (الظلم: الشرك، بقرينة قسيمه في قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾، واجتلاب سوف في: ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ لأنه سيدعوه للإيمان فإن أصر على الكفر عذبه، وصرح بهذا في قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي بعد كفره، وليس المراد المؤمن الآن، لأن التخيير بين تعذيبهم والإمهال يمنع أن يكون فيهم مؤمنون حين التخيير. والمعنى: فسوف نعذبه عذاب الدنيا ولذلك أسنده إلى ضميره ثم قال: ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ وذلك عذاب الآخرة)[٣].

وعذاب الآخرة حق وهو حسي ومعنوي؛ أما الحسي فما يلاقونه من نارها وحرها، طعامهم الزقوم وشرابهم يغلي في البطون، سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار، لا يخفف عنهم العذاب لحظة، ويتمنون الموت فلا يجدونه، فهم في شر مقيم. والمعنوي تتعدد صوره من وقت البعث إذ يعاينون ما جحدوا، ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ

---

(١) التحرير والتنوير ١٦/ ٢٥ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٩٩ بتصرف واختصار.
(٣) التحرير والتنوير ١٦/ ٢٧ بتصرف واختصار.

﴿وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [يس]، ثم يبدأ العذاب من الذلة والمهانة، ثم تتقطع أكبادهم إذ يرون الموت يذبح، ثم تنقطع آمالهم في تخفيف يوم من العذاب، ثم يتلاومون ويتلاعنون ويتبرأ بعضهم من بعض، وغير ذلك.

وأما قوله تعالى: ﴿فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾، فقد قال الطبري: (اختلفت القراء في ذلك، فقرأته عامَّة قرّاء أهل المدينة وبعض أهل البصرة والكوفة (فَلَهُ جَزَاءُ الحُسْنَى) برفع الجزاء وإضافته إلى الحسنى. وله وجهان من التأويل:

أحدهما: الحسنى إيمانه وأعماله الصالحة، فيكون المعنى: وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاؤها، يعني جزاء هذه الأفعال الحسنة.

والوجه الثاني: الحسنى: الجنة، وأضيف الجزاء إليها، كما قيل ﴿وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ والدار: هي الآخرة، وكما قال: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾.

وقرأ آخرون: ﴿فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ بمعنى: فله الجنة جزاء فيكون منصوبا على المصدر، بمعنى: يجازيهم جزاء الجنة)(١).

قال السعدي: (فكان عند ذي القرنين من السياسة الشرعية ما استحق به المدح والثناء، لتوفيق الله له لذلك، فقال: سأجعلهم قسمين... وهذا يدل على كونه من الملوك الصالحين الأولياء، العادلين العالمين، حيث وافق مرضاة الله في معاملة كل أحد بما يليق بحاله)(٢).

وقوله: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ قال ابن كثير: (ثم سلك طريقًا فسار من مغرب الشمس إلى مطلعها)(٣)، وقال الطبري: (وجد الشمس تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا، لأن أرضهم لا جبل فيها ولا شجر، ولا تحتمل بناء، فيسكنوا

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٩٩ بتصرف واختصار.

(٢) تفسير السعدي ١/ ٤٨٥.

(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ١٩٣.

البيوت، وإنما يغورون في المياه، أو يسربون في الأسراب[1])[2].

قال القرطبي: ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ أي حجابا يستترون منها عند طلوعها)[3].

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾

قال ابن الجوزي: (﴿كَذَٰلِكَ﴾ فيه أربعة أقوال؛ أحدها: كما بلغ مَغْرِب الشمس بلغ مطلعها، والثاني: أتبع سبباً كما أتبع سبباً، والثالث: كما وجد أولئك عند مَغْرِب الشمس وحكم فيهم، كذلك وجد هؤلاء عند مطلعها وحكم فيهم، والرابع: أن المعنى: كذلك أمْرُهم كما قصصنا عليك)[4].

قال الطبري: (﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ وقد أحطنا بما عند مطلع الشمس علما لا يخفى علينا ما هنالك من الخلق وأحوالهم، ولا من غيرهم شيء)[5]، وقال ابن كثير: (قال مجاهد والسدي: علمًا، أي: نحن مطلعون على جميع أحواله وأحوال جيشه، لا يخفى علينا منها شيء، وإن تفرقت أممهم وتقطعت بهم الأرض)[6]، وقال ابن عاشور: (الخُبْر: العلم والإحاطة بالخَبَر، كناية عن كون المعلوم عظيماً لا يحيط به علماً إلا علام الغيوب)[7].

---

(١) جمع سرب، قال ابن منظور في لسان العرب ١/ ٤٦٢: حَفِير تحتَ الأَرض وقيل بَيْتٌ تحتَ الأَرضِ.
(٢) تفسير الطبري ١٨/ ٩٩ بتصرف واختصار.
(٣) تفسير القرطبي ١١/ ٥٣.
(٤) زاد المسير ٤/ ٢٤٩.
(٥) تفسير الطبري ١٨/ ١٠١ بتصرف يسير.
(٦) تفسير ابن كثير ٥/ ١٩٤.
(٧) التحرير والتنوير ١٦/ ٣٠ بتصرف واختصار.

وقوله: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ قال ابن كثير: (أي: ثم سلك طريقًا من مشارق الأرض. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ وهما جبلان متناوحان بينهما ثُغْرة يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك، فيعيثون فيهم فسادًا، ويهلكون الحرث والنسل)(١)، أما قوله هنا (بين السدين) وقوله في الآية التالية (سداً) فقد قال ابن عاشور: (السد- بضم السين وفتحها-: الجبل. ويطلق على الجدار الفاصل، لأنه يسد به الفضاء، وقيل: الضم في الجبل والفتح في الحاجز، والمراد بالسدين الجبلان، وبالسد الجدار الفاصل، والقرينة هي التي عينت المراد من هذا اللفظ المشترك. وتعريف السدين للجنس، أي اتبع طريقا آخر في غزوه حتى بلغ بين جبلين معلومين)(٢).

قال ابن كثير: (﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ لاستعجام كلامهم وبعدهم عن الناس)(٣)، وقال ابن الجوزي: (﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا﴾ يعني: أمام السدين ﴿قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: «يَفْقَهُون» بفتح الياء، أي: لا يكادون يفهمونه. قال ابن الأنباري: معناه يفهمون بعد إبطاءٍ، كقوله: ﴿وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾ [البقرة]. قال المفسرون: كانوا كذلك لأنهم لا يعرفون غير لغتهم. وقرأ حمزة، والكسائي: «يُفْقِهُون» بالضم، أي: يُفْهِمُون غيرهم)(٤).
غيرهم)(٤).

قال ابن عاشور: (والمعنى لا يعرفون شيئا من قول غيرهم فلغتهم

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٩٥.
(٢) التحرير والتنوير ١٦/ ٣٠ بتصرف واختصار.
(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ١٩٥.
(٤) زاد المسير ٤/ ٢٥٠ بتصرف واختصار.

مخالفة للغات الأمم المعروفة لا يعرفها تراجمة ذي القرنين لأن شأن الملوك أن يتخذوا تراجمة للأمم الذين يحتاجون إلى مخاطبتهم، فهؤلاء القوم كانوا يتكلمون بلغة غريبة لانقطاع أصقاعهم عن الأصقاع المعروفة فلا يوجد من يستطيع إفهامهم ولا هم يستطيعون الإفهام، ويجوز أن يكون المعنى أنهم متوغلون في البداوة والبلاهة فلا يفهمون ما يقصده من يخاطبهم)(١).

فائدة- الفقه يشمل العلم والفهم، وكثير من الناس عندهم علم ولكن لا فقه لهم، فقد يحفظ أحدهم الكتاب وكثيراً من الأحاديث، ولا يكون معه شيء من الفقه، وفي الحديث: "رُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ"(٢)، وقد أثنى النبي ﷺ على من رزق العلم والفهم فقال: "مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ"(٣).

إن علماً قليلاً بفقه وعمل، أفضل من كثير بلا فقه ولا عمل، وقد ذكِر معروف الكرخي رحمه الله وهو من كبار الزهاد والصالحين في مجلس الإمام أحمد (فقال بعض من حضر: هو قصير العلم، فقال أَحْمَد: أمسك، عافاك الله، وهل يُراد من العلم إلا ما وصل إليه معروف)(٤)، يريد بذلك الخشية، قال عبد الله بن أَحْمَد: (قلت لأبي: هل كان مع معروف الكرخي شيء من العلم؟ فقال لي: يا بني، كان معه رأس العلم، خشية الله)(٥).

وقد ضرب الله عز وجل أسوأ مثلين لمن يحمل العلم ولا يعمل به: ﴿ وَاتْلُ

---

(١) التحرير والتنوير ١٦/ ٣١ بتصرف واختصار.
(٢) سنن أبي داود ٣/ ٣٢٢ (٣٦٦٠)، وصححه الألباني.
(٣) صحيح البخاري ١/ ٣٩ (٧١)، صحيح مسلم ٢/ ٧١٩ (١٠٣٧).
(٤) تاريخ بغداد ١٥/ ٢٦٣.
(٥) السابق.

عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ ءَاتَيْنَهُ ءَايَتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَنُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَنهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف]، وقال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَنةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥].

وقوله: ﴿قَالُوا يَذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾

قال البغوي: (فإن قيل: كيف قالوا ذلك وهم لا يفقهون؟ قيل: كلم عنهم مترجم، دليله: قراءة ابن مسعود: (لا يكادون يفقهون قولا، قال الذين من دونهم يا ذا القرنين)[١]، والأولى أن يحمل على أنهم فعلوا ذلك بعد لأي وإبطاء، كان ذلك لإيغالهم في البلاهة أو لغرابة منطقهم ولسانهم.

أما يأجوج ومأجوج فقال الطبري: (هم أمتان من وراء السدّ)[٢]، قال البغوي: (﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ قرأهما عاصم بهمزتين وكذلك في الأنبياء، والآخرون بغير همز في السورتين وهما لغتان أصلهما من أجيج النار وهو ضوؤها وشررها شبهوا به لكثرتهم وشدتهم، وقيل: بالهمزة من أجيج النار وبتركه أعجميان كهاروت وماروت)[٣]، وقال ابن عاشور: (اختلف المفسرون في أنه عربي أو معرب، وغالب ظني أنه اسم وضعه القرآن حاكى به معناه في لغة تلك الأمة المناسب لحالهم فاشتق لهما من مادة الأج، وهو الخلط، إذ قد علمت أن تلك الأمة كانت أخلاطا من أصناف)[٤].

---

(١) تفسير البغوي ٥/ ٢٠١ بتصرف يسير.
(٢) تفسير الطبري ١٨/ ١٠٣.
(٣) تفسير البغوي ٥/ ٢٠١ بتصرف واختصار.
(٤) التحرير والتنوير ١٦/ ٣٤.

قال ابن الجوزي: (﴿مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ في هذا الفساد أربعة أقوال: أحدها: أنهم كانوا يفعلون فِعْل قوم لوط، قاله وهب بن منبِّه.

والثاني: أنهم كانوا يأكلون الناس، قاله سعيد بن عبد العزيز.

والثالث: يُخرِجون إلى الأرض الذين شَكَوْا منهم أيام الربيع، فلا يَدَعون شيئاً أخضر إلا أكلوه، ولا يابساً إلا احتملوه إلى أرضهم، قاله ابن السائب. والرابع: كانوا يقتلون الناس، قاله مقاتل)[1]، وفي الجملة يظهر من شكاية القوم أنهم تأذوا منهم أذىً شديداً لم يجدوا دفعاً له سوى بناء السد بينهم وبين يأجوج ومأجوج، فطلبوا ذلك من ذي القرنين.

قال ابن عاشور: (والاستفهام في قوله: ﴿فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا﴾ للعرض، والخَرْج: المال يدفع للملك. ويقال فيه الخراج بألف بعد الراء، وكذلك قرأه حمزة، والكسائي، وخلف)[2]. قال ابن الجوزي: (وهل بينهما فرق؟ فيه قولان؛ أحدهما: أنهما لغتان بمعنى، قاله أبو عبيدة، والليث. والثاني: أن الخَرْجَ: ما تبرعت به، والخراج: ما لزمك أداؤه، قاله أبو عمرو بن العلاء. قال المفسرون: المعنى: هل نُخرج إليك من أموالنا شيئاً كالجُعل لك؟)[3].

قال ابن كثير: (﴿فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا﴾ عن ابن عباس: أجرًا عظيمًا، أرادوا أن يجمعوا له مالاً يعطونه إياه، حتى يجعل بينهم وبينهم سدًا. فقال ذو القرنين بعفة وديانة وصلاح وقصد للخير: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ﴾)[4].

أما قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا﴾

---

(١) زاد المسير ٤/ ٢٥١.

(٢) التحرير والتنوير ١٦/ ٣٤ بتصرف واختصار.

(٣) زاد المسير ٤/ ٢٥١ بتصرف يسير.

(٤) تفسير ابن كثير ٥/ ١٩٦ بتصرف يسير.

فقال ابن كثير: (ما أعطاني الله من الملك والتمكين خير مما تجمعونه، كما قال سليمان عليه السلام: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ٣٦﴾ [النمل] قال ذو القرنين: ما أنا فيه خير مما تبذلون، لكن ساعدوني ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي: بعملكم وآلات البناء)[1]، قال الطبري: (وقوله: ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ أجعل بينكم وبين يأجوج ومأجوج. والردم: حاجز الحائط والسدّ، إلا أنه أمنع وأشدّ، يقال منه: قد ردم فلان موضع كذا يَردِمه رَدْما ورُدَاما ويقال: رَدَّم ثوبه يردمه، وهو ثوب مُرَدّم: كثير الرقاع)[2]، وقال القرطبي: (قيل: الردم أبلغ من السد، إذ السد كل ما يسد به، والردم وضع الشيء على الشيء من حجارة أو تراب أو نحوه، ليقوم منه حجاب منيع)[3].

وقوله: ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ قال الطبري: (قال ذو القرنين: (آتُونِي) جيئوني بِزُبَرِ الحديد، جمع زُبْرة، القطعة من الحديد)[4]، وقال القرطبي: (وأصلها الاجتماع، ومنه زبرة الأسد لما اجتمع من الشعر على كاهله. وزبرت الكتاب أي كتبته وجمعت حروفه)[5]. قال ابن عاشور: (﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ أشعرت "حتى" بشيء مُغَيًّا قبلها، وهو محذوف تقديره: فآتوه زبر الحديد فنضدها وبناها حتى إذا جعل ما بين الصدفين مساويا لعلوهما. وهذا من إيجاز الحذف. والمساواة: جعل الأشياء متساوية، أي متماثلة في

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٩٦ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير الطبري ١٨/ ١١٣ بتصرف واختصار.
(٣) تفسير القرطبي ١١/ ٥٩ بتصرف واختصار.
(٤) تفسير الطبري ١٨/ ١١٤ بتصرف واختصار.
(٥) تفسير القرطبي ١١/ ٦١.

مقدار أو وصف)[1]، قال ابن كثير: (وضع بعضه على بعض من الأساس حتى حاذى به رؤوس الجبلين طولاً وعرضًا)[2]، قال القرطبي: (﴿بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ قال أبو عبيدة: جانبا الجبل، وسميا بذلك لتصادفهما أي لتلاقيهما)[3].

قال الطبري: (﴿قَالَ انفُخُواْ﴾) قال للفَعَلة: انفخوا النار على الزبر من الحديد، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا﴾ والتقدير: فنفخوا، حتى إذا جعل ما بين الصدفين من الحديد ناراً ﴿قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾)[4]، قال ابن عاشور: (حذف متعلق انفخوا لظهوره من كون العمل في صنع الحديد. والتقدير: انفخوا في الكيران أي المصفوفة، على ما بين الصدفين من زبر الحديد)[5].

قال القرطبي: ("حَتَّى إِذا جَعَلَهُ ناراً" أي كالنار. ومعنى: ﴿ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ أعطوني قطرا أفرغ عليه، بالتقديم والتأخير. ومن قرأ:" ائتوني" فالمعنى تعالوا أفرغ عليه)[6]. قال ابن الجوزي: (وفي القِطْر أربعة أقوال: أحدها: النحاس، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والفراء والزجاج. والثاني: الحديد الذائب، قاله أبو عبيدة. والثالث: الصُّفْر المُذاب، قاله مقاتل. والرابع: الرصاص، حكاه ابن الأنباري. قال المفسرون: أذاب القِطْر ثم صبَّه عليه، فاختلط والتصق حتى صار جبلاً صلداً من حديد

---

(١) التحرير والتنوير ١٦/ ٣٧ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٩٦.
(٣) تفسير القرطبي ١١/ ٦١.
(٤) تفسير الطبري ١٨/ ١١٦ بتصرف واختصار.
(٥) التحرير والتنوير ١٦/ ٣٧ بتصرف واختصار.
(٦) تفسير القرطبي ١١/ ٦٢.

وقِطْر. قال قتادة: فهو كالبُرد المحبر، طريقة سوداء وطريقة حمراء)[1].

لطيفة- في بناء الردم على هذا الوصف رحمة الله بعباده وقدرته، قال أبو السعود: (لأن تلك الزُبَرَ الكثيرةَ إذا أثرت فيها حرارةُ النار لا يقدر الحيوانُ على أن يحوم حولها فضلاً عن النفخ فيها إلى أن تكون كالنار، أو عن إفراغ القِطر عليها، فكأنه سبحانه صرف تأثيرَ الحرارةِ العظيمة عن أبدان أولئك المباشرين للأعمال فكان ما كان، والله على كل شيء قدير)[2].

وقوله: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾

قال ابن منظور: (الاستطاعة القدرة على الشيء)[3]، قال الطبري: (فما اسطاع يأجوج ومأجوج أن يعلوا الردم، فيصيروا فوقه وينزلوا إلى الناس. يقال: ظهر فوق البيت: إذا علاه، ومنه قولهم: ظهر فلان على فلان: قهره وعلاه ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ ولم يستطيعوا نقبه من أسفل)[4]، وقال القرطبي: (ما استطاع يأجوج ومأجوج أن يعلوه ويصعدوا فيه، لأنه أملس مستو مع الجبل والجبل عال، ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ لبعد عرضه وقوته)[5]، وقال الشوكاني: (نقبت الحائط: خرقت فيه خرقا فخلص لما وراءه)[6].

---

(١) زاد المسير ٤/ ٢٥٢ بتصرف واختصار.

(٢) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٨٩.

(٣) لسان العرب ٨/ ٢٤٢

(٤) تفسير الطبري ١٨/ ١١٧ بتصرف واختصار.

(٥) تفسير القرطبي ١١/ ٦٢ بتصرف واختصار.

(٦) فتح القدير ٣/ ٣٧٠ بتصرف واختصار.

لطائف قرآنية في استخدام لفظ الاستطاعة

قال تعالى عن الخضر: ﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ٧٨ ﴾ [الكهف]، وقال عنه: ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ٨٢ ﴾ [الكهف]، وفي قصة ذي القرنين: ﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ٩٧ ﴾ [الكهف]، فنجد في قصة الخضر مرة (تستطع) وفي الثانية (تسطع)، وفي قصة ذي القرنين مرة (اسطاعوا) وفي الثانية (استطاعوا)، وقد استخرج العلماء من هذا التغاير عدداً من اللطائف الجديرة بالتأمل، ولكن قبل ذكر ذلك نذكر الفروق بينها من جهة اللغة.

قال ابن الجوزي: («استطاع» و«اسطاع» بمعنى واحد)[1]، وقال ابن الجوزي: (﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ ﴾ أصله: فما «استطاعوا» فلما كانت التاء والطاء من مخرج واحد أحبُّوا التخفيف فحذفوا. قال ابن الأنباري: تقول العرب: اسطاع، تخفيفاً، كما قالوا: سوف يقوم وسيقوم، فأسقطوا الفاء)[2]، ووافقه ابن عاشور فقال: ("تَسْطِعْ" مضارع اسطاع بمعنى استطاع. حذف تاء الاستفعال تخفيفاً لقربها من مخرج الطاء)[3]، وقال القرطبي: (﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ ﴾ بتخفيف الطاء على قراءة الجمهور. وقيل: هي لغة بمعنى استطاعوا. وقيل: بل استطاعوا بعينه كثر في كلام العرب حتى حذف بعضهم منه التاء فقالوا: اسطاعوا. وحذف بعضهم منه الطاء فقال: استاع يستيع بمعنى استطاع يستطيع، وهي لغة مشهورة)[4].

---

(١) زاد المسير ٤/ ٢٤٥.
(٢) زاد المسير ٤/ ٢٥٢ بتصرف يسير.
(٣) التحرير والتنوير ١٦/ ٧.
(٤) تفسير القرطبي ١١/ ٦٣ بتصرف يسير.

فإذا كان لا يوجد فرق في المعنى فلم حصل التغاير؟

قال ابن كثير رحمه الله: (قوله: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ أي: هذا تفسير ما ضقت به ذرعًا، ولم تصبر حتى أخبرك به، ولما فسره له وأزال المشكل قال: ﴿مَا لَمْ تَسْطِع﴾ وقبل ذلك كان الإشكال ثقيلا فقال: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ فقابل الأثقل بالأثقل، والأخف بالأخف، كما قال: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ﴾ وهو الصعود إلى أعلاه، ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ٩٧﴾ [الكهف]، وهو أشق، فقابل كلا بما يناسبه لفظًا ومعنى)[1]، وقال: (لما كان الظهور عليه أسهل من نقبه قابل كلا بما يناسبه، وهذا دليل على أنهم لم يقدروا على نقبه، ولا على شيء منه)[2]. وقال ابن عاشور رحمه الله: (استطاعة نقب السد أقوى من استطاعة تسلقه، فهذا من مواضع دلالة زيادة المبنى على زيادة في المعنى)[3]، وعلى هذا جرى نظم القرآن في قصة الخضر، فإن موسى كان محتاجا لمزيد صبر على الإنصات للخضر ليعلم علة فعله فأثبت التاء بقوله: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ٧٨﴾ [الكهف]، ولما علم العلة حذفها: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ٨٢﴾ [الكهف]؛ وكذلك فإن الخضر بعد أن أنهى تعليل أفعاله كان يريد متابعة الانطلاق في رحلته بلا تأخر فناسب حذف التاء، وهذا كله متسق مع قاعدة زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، والله أعلم.

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٨٨ بتصرف واختصار.

(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٩٧ بتصرف واختصار.

(٣) التحرير والتنوير ١٦/ ٣٨.

تنبيه- يرد في كلام المفسرين واللغويين وصف شيء في القرآن بأنه زائد، وهذا يوهم أن المعنى لا يتغير بحذفه، وأنه لا فائدة منه، فهذا باطل ولا يصح مطلقاً، فمن هذه الجهة لا يوجد شيء زائد في القرآن البتة ولا حرف واحد، وقد رأينا آنفاً أن زيادة التاء أو حذفها في اسطاعوا واستطاعوا تفيد من جهة المعنى، وأما إن أريد بباب الزيادة في النحو فلا بأس، ولا مشاحة في الاصطلاح فإن العرب لم تكن تعرف النحو ولا أبوابه. وكذلك ما كان من تكرار لبعض الجمل مثل: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾، ليست زائدة من جهة المعنى بحيث لا يؤثر حذفها، بل يمكن أن يستنبط منها فوائد كثيرة، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء، وأقل ما يقال هنا هو الفائدة المعنوية والأثر النفسي الذي يتركه تكرار الجملة، وقد كان النبي ﷺ يكرر الكلام ثلاثاً ليقرع سمع السامع فيفهمه ويقر في قلبه. وقد صنف في تكرار القرآن جماعة كالكرماني وابن عطاء وابن جماعة.

وقوله : ﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴾

قال الطبري: (فلما رأى ذو القرنين أن يأجوج ومأجوج لا يستطيعون أن يظهروا الردم، ولا يقدرون على نقبه، قال: هذا الذي بنيته رحمة من ربي رحم بها من دون الردم من الناس، فأعانني حتى بنيته وسوّيته ليكفّ غائلة هذه الأمة عنهم. وقوله: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ﴾ يقول: فإذا جاء وعد ربي الذي جعله ميقاتا لظهور هذه الأمة وخروجها من وراء الردم. جعله دكاء، يقول: سواه بالأرض، فألزقه بها، من قولهم: ناقة دكاء:

مستوية الظهر لا سنام لها. والمعنى: جعله مدكوكا، فقيل: دكاء)[١].

وقال ابن الجوزي: (لمّا فرغ ذو القرنين من بنيانه قال هذا. وفيما أشار إليه قولان. أحدهما: أنه الرَّدم، قاله مقاتل؛ والمعنى: هذا نِعْمة من ربِّي على المسلمين لئلا يخرجوا إليهم، والثاني: أنه التمكين الذي أدرك به عمل السد، قاله الزجاج. وقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ فيه قولان؛ أحدهما: القيامة. والثاني: وعده لخروج يأجوج ومأجوج)[٢].

ولا مانع من الجمع بينهما، فالله وعد بيوم القيامة وبخروج يأجوج ومأجوج عند اقترابها، وخروجهم من علامات الساعة، فعن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: "اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر فقال ما تذاكرون؟ قالوا نذكر الساعة. قال إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات فذكر الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى ويأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم"[٣]، فالمعنى: إذا اقتربت الساعة التي وعد الله الخلق وفتح ردم يأجوج ومأجوج وسواه الله بالأرض خرجوا على الناس كما وعد الله سبحانه، ويبينه قوله ﷻ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنبياء].

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ١١٨ بتصرف واختصار.
(٢) زاد المسير ٤/ ٢٥٢ بتصرف يسير.
(٣) صحيح مسلم ٤/ ٢٢٢٥ (٢٩٠١).

قال الطبري: (﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ وكان وعد ربي الذي وعد خلقه في دكّ هذا الردم، وخروج هؤلاء القوم على الناس، وعيثهم فيه، وغير ذلك من وعده حقاً، لأنه لا يخلف الميعاد فلا يقع غير ما وعد أنه كائن)[1].

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ١٢٠ بتصرف يسير.

فوائد ودروس وعبر من قصة ذي القرنين[1]

اشتملت القصة على فوائد كثيرة جديرة بالتأمل والإذاعة فمن ذلك:

١- أن القرآن ليس كتاب تاريخ ولا سير، وما يقصه يؤتى به للاعتبار، ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾، ولذا لما ذكر سؤالهم عن ذي القرنين لم يقل سأتلو قصته، وإنما بعض ما في قصته من الذكر والموعظة النافعة.

٢- أن الأولى الاقتصار على ما جاء في القرآن والسنة لمعرفة حقيقة القصص المذكورة، لأن التأخير عن وقت البيان لا يجوز، فلو كان لذكرها حاجة لذكرها، فلا داعي لحشو الكتب بالإسرائيليات. ومن بركة هذا أن الاقتصار عليه يعين على التدبر والتفكر، وهما مقصدان مهمان، وإلا فإن كثرة الحشو والتفريع والإسرائيليات تذهب روح التدبر.

٣- أسلوب السؤال والجواب ورد في مواضع عدة من القرآن، وورد لأغراض متعددة؛ فمنه ما يكون للتعلم، كما وقع من الصحابة بقولهم: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ أو ﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾، فيأتيهم الجواب من الله ﷻ بواسطة رسوله ﷺ: ﴿قُلْ﴾ أو ﴿فَقُلْ﴾. فهذا من أفضل وأنفع وسائل التعليم، لأنه يقوم على التفاعل بين المعلم والتلميذ، فيجعل المعلومات أكثر رسوخاً في ذهنه.

ومنها ما يكون للإنكار كما كان من المشركين حيث أنكروا قتل بعض

---

(١) كثير من هذه الفوائد المذكورة هنا تجده في مقالات وأبحاث عدد من الفضلاء وهم: د.عثمان قدري مكانسي "تأملات تربوية في قصة ذي القرنين"، الأستاذ عمر جمال النشيواتي "ذو القرنين وعمارة الأرض وقفات"، الشيخ ناصر الأحمد "خطبة منشورة على الإنترنت"، مدونة الدكتور أبو مروان "إضاءات نهضوية في قصة ذي القرنين"، الدكتور محمد بسام يوسف "التمكين في الرؤية الإسلامية من خلال قصة ذي القرنين"، د. علي الصلابي "فقه التمكين عند ذي القرنين".

أصحاب النبي ﷺ واحداً من المشركين خطأ في الأشهر الحرم، قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، فأجابهم بقوله: ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ...﴾ الآية [البقرة: ٢١٧]. ومنه ما يكون للتحدي، كقوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ [الإسراء: ٨٥]، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ [الكهف: ٨٣]، فقبل النبي ﷺ التحدي، وهو أسلوب مهم لبيان صدق الداعية وإفحام المشككين والمجادلين بالباطل، ومن كان على حق، وكان على ثغرة يدعو إلى الإسلام وينافح عنه قد لا يسعه غير ذلك، ولكن لا ينبغي أن يتصدى إلا صاحب الحجة وقوة العارضة لأن إخفاقه يؤثر على من خلفه، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣].

٤- في قوله: ﴿قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ دليل على ضرورة العلم بالشيء قبل الدعوة إليه.

٥- قوله تعالى: سأتلو "عليكم" بدل "لكم" دليل التمكن والاستعلاء، والمؤمن هكذا ينبغي أن يكون دائماً، معتزاً بما معه من الحق.

٦- أنها بينت شيئاً من ملامح منهج الحوار الصحيح مع المخالفين، فالحوار مع المسلمين أو غير المسلمين لا بد أن ينضبط بمنهج عملي واضح يوصل إلى المقصود، وهو بيان الحق والدلالة عليه، وتمييزه من الباطل والتنفير منه، وقد سبق بسط هذا، ومما بينته الآيات من هذه الملامح:

١) الاقتصار على ما يفيد دون ذكر تفاصيل لا فائدة فيها وإن كان المخالف ينشغل به ويتطلع له، وذلك في قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾، فهذه البعضية في "منه" توضح

أن على الإنسان أن يقتصر في حديثه على ما يفي بالغرض، أي لن أذكر إلا ما فيه عبرة وعظة، وهو ما جاء في سياق القصة، بخلاف ما طوي ذكره كاسمه وسبب تسميته وزمنه وبلده، إلى غير ذلك.

٢) استعمال أسلوب الإجمال قبل التفصيل، وهو ما كان في بداية عرض قصة ذي القرنين في قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾، ثم شرع في تفاصيل التمكين بوصوله إلى مشارق الأرض ومغاربها، وبناء الردم على تلك الصفة العجيبة، فهذا الأسلوب يؤكد الفكرة ويثبتها في أذهان المستمعين.

٣) الإيجاز والإطناب: وهذه البلاغة بعينها، فقد جاء الإيجاز في مكانه، والإطناب في مكانه. فلا داعي لذكر التفاصيل في التمكين بأنه يكون في كثرة العدد والعُدّة، والمال الوفير والعدل وبذل الجهد، واستفراغ الهمة والتحضير لكل أمر، ويكفي أن يقول: "مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً"، ليدل على عظمة أمره، وسعة استعداده. كذلك جاء الإيجاز في "مطلع الشمس" بعد الإطناب في مغربها لأن التكرار ممل فيما ليس له لزوم.

وجاء الإطناب في وصف أهل مغرب الشمس الذين كانوا قسمين حين دعاهم ذو القرنين إلى الإسلام، فمنهم من آمن ومنهم من كفر، فأكرم المؤمنين وعنّف الكافرين، وهددهم بعذاب الآخرة. وجاء كذلك في وصف الضعفاء من أهل السد أبناء يأجوج ومأجوج يسلبونهم أموالهم ويقتلون أبناءهم ويسومونهم الخسف كلما جاؤوهم، فسألوه أن يبني سدّاً يقيهم أذاهم ويدفع عنهم غائلتهم، ولو اختصر القرآن حديثهم ما فهمنا المراد. فالبلاغة إذاً مراعاة مقتضى الحال؛ فالاختصار حين يكون

الاختصار مفيداً، والإسهاب حين يكون التفصيل لازماً، وهذا ما ينبغي للمعلم أن ينتبه إليه. وهذه كانت حال النبي ﷺ الذي أوتي جوامع الكلم، فيأتي بكلمات قليلة تحوي معاني كثيرة كما في أحاديثه، فيقول له قائل: "يَا رَسُولَ الله، قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ. قَالَ: قُلْ: آمَنْتُ بِاللهَ، فَاسْتَقِمْ"[1]، ويقول له آخر: أَوْصِنِي، قَالَ: "لاَ تَغْضَبْ. فَرَدَّدَ مِرَارًا، قَالَ: لاَ تَغْضَبْ"[2]. ومع ذلك كان يطيل أحياناً إذا دعت الحاجة، فعن عَمْرو بْنَ أَخْطَبَ، قَالَ: "صَلَّى بِنَا رَسُولُ الله ﷺ الْفَجْرَ، وَصَعِدَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الظُّهْرُ، فَنَزَلَ فَصَلَّى، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ، فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الْعَصْرُ، ثُمَّ نَزَلَ فَصَلَّى، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ، فَخَطَبَنَا حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ، فَأَخْبَرَنَا بِمَا كَانَ وَبِمَا هُوَ كَائِنٌ. فَأَعْلَمُنَا أَحْفَظُنَا"[3].

٧- أن الثناء على الحاكم لا يكون بمجرد شجاعة أو فتوح أو عمارة أو تمكين، فقد مكن الله ﷻ لكثير من الأمم ثم أخذهم بذنوبهم، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الأنعام]. فلا بد أن ينضم إلى ما سبق الإيمان بالله واليوم الآخر؛ لأن هناك حكامًا كثيرين كانت لهم من الإصلاحات الدنيوية ما يعدهم الناس من أجلها عظماء، ومع ذلك لم يورد القرآن لهم ذكرًا، بل جاء في القرآن ذم حكام عمروا في الدنيا كثيرًا، ولكنهم خربوا أديان الناس وأفسدوا عليهم آخرتهم، مثل فرعون وهامان والنمرود ونحوهم.

---

(١) صحيح مسلم ١/ ٦٥ (٣٨).

(٢) صحيح البخاري ٥/ ٢٢٦٧ (٥٧٦٥).

(٣) صحيح مسلم ٤/ ٢٢١٧ (٢٨٩٢).

٨- قصة ذي القرنين تشحذ همة المؤمن وتعلي منها، إذ سعى وجدّ واجتهد حتى بلغ حيث انتهت طاقته و قدرته، ولم يفرط في شيء مما أوتيه من أسباب، ولم يرض بمنزلةٍ دون منزلة أحد من أهل زمانه، ولم يقف عند حد، بل سعى في الأرض حتى بلغ مغرب الشمس ثم سار بجيوشه حتى بلغ مشرقها ثم أتبع سببا حتى بلغ بين السدين، وتملّك تلك المناطق كلها حتى حكم فيها، وأثّر بفكره ومبادئه على أهلها وسيطر عليها وغدا شرطياً أعلى للعالم وحارساً لأهل الأرض، وملجأ للمظلومين، ومأمنا للخائفين.

٩- قرر العلماء جواز إعانة المسلمين غيرهم في صد عدو مشترك، بدلالة تعاون ذي القرنين مع القوم -ولم يكونوا مسلمين على الأغلب- ضد يأجوج ومأجوج في بناء الردم، وهذا الأمر فيه تفصيل، فإذا كانوا غير محاربين ويرجى أن يعملوا بالعدل فيجوز إعانتهم في رد الظلم عنهم.

وقال بعض العلماء: فيه دليل على الاستعانة بالكفار إذا لم يترتب عليه مفسدة، وفي هذا نظر، لأن القوم هم استعانوا بذي القرنين فاستخدمهم في تحقيق مرادهم. فدولة مسلمة وجارتها كافرة ليست محاربة وبينهما سلم، ووقع عليها ظلم أو بغي أو عدوان يجوز إعانتها، ولكن هل يجوز للدولة المسلمة الاستعانة بالكافرة؟ خلاف، ومن أجازه أجازه بضوابط، والراجح المنع لقوله في الحديث: "إِنَّا لَا نَسْتَعِينُ بِمُشْرِكٍ"(١).

١٠- قال القاسمي: (فمن فوائدها: الاعتبار برفع الله بعض الناس درجات على بعض، ورزقه من يشاء بغير حساب ملكا ومالا، لما له من خفيّ الحكم وباهر القدرة، فلا إله سواه)(٢).

---

(١) سنن أبي داود ٣/ ٧٥ (٢٧٣٢)، وصححه الألباني.

(٢) محاسن التأويل ٧/ ٦٧.

١١- جواز حصار الأعداء وسجن المفسدين، بدليل بناء الردم، قال القرطبي: (في الآية دليل على اتخاذ السجون، وحبس أهل الفساد، ومنعهم من التصرف، ولا يتركون وما هم عليه، بل يوجعون ضربا ويحبسون أو يُكفلون ويطلقون كما فعل عمر ﷺ)(١). والإفساد نوعان: حسي ومعنوي؛ فالحسي يشبه ما في القصة، والمعنوي يمارسه من يدعون للشهوات ويروجون للشبهات فهؤلاء أخطر، وأشدهم خطراً فضائيات ومواقع وصحف وغيرها من وسائل الإعلام التي تبث السموم وتنشر الفساد. لقد حجز ذو القرنين يأجوج ومأجوج خلف السد لإفسادهم في الأرض، وكذلك ينبغي لولاة الأمر أن يحجزوا المفسدين في الأرض، الذين يخربون على الناس دينهم بالشهوات الشبهات ويضيقوا عليهم، ويجعلوا بينهم وبين الناس سداً وردماً حسياً إن استحقوا الحبس، ومعنوياً بمنعهم من التصدر، كي لا ينشروا سمومهم ويعيثوا في الأرض الفساد، ويتركوا المجال رحباً أمام أهل الخير من الدعاة والمصلحين لينشروا الحق في أرجاء الدنيا. لكن المؤسف أننا إذا تلفتنا يمنة ويسرة وأجلنا طرفنا في بلاد المسلمين وجدنا العكس، فكثير من البلاد مكن حكامها لأهل الفساد وقربوهم وأطلقوا لهم العنان ليفسدوا البلاد والعباد، بل إن هؤلاء الحكام أنفسهم كانوا رؤوساً في الفساد، الفساد المالي والديني والأخلاقي، وكثير منهم كان حرباً على الدين، ولهذا قامت الثورات لرفع الظلم والفساد.

١٢- أن بناء الردم نعمة عظيمة على القوم الذين طلبوا بناءه ابتداء، ثم على كل من جاء بعدهم إلى يومنا هذا، إلى وقت خروج يأجوج

---

(١) تفسير القرطبي ١١/ ٥٩ بتصرف يسير.

ومأجوج الذين يقتلون أهل الأرض، وهذه النعمة كغيرها تستحق شكر المنعم سبحانه، كما يستحق ذا القرنين الدعاء له من أجلها.

١٣- وجوب المساعدة: لما بلغ ذو القرنين بين السدين وجد قوما اجتمع عليهم الظلم والجهل وهاتان الصفتان إن اجتمعتا في أمة -وهما غالباً ما تجتمعان- أصابتهم نوائب الدهر وعصفت بهم حدَثانه، فنالهم الذل وطوّح بهم الفساد فلما طلبوا مساعدته لبى في الحال.

١٤- عدم الركون إلى الحياة الدنيا وزينتها: إذ لما اكتمل بناء السد، ونظر ذو القرنين إلى دقته ومتانته، لم يصرفه ذلك عن الآخرة بل علم أن لهذا البنيان العظيم نهاية ككل شيء على الأرض، فذكر نفسه ومن حوله بذلك، قال: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ٩٨﴾ [الكهف].

١٥- بعث التفاؤل: إذا اخترنا عدم المواجهة مع العدو في معارك غير متكافئة، فلنا في هذا الملك أسوة، إذ لم يواجه يأجوج ومأجوج، وإنما عمل ما يكف شرهم، والمدار على القدرة. لكن علينا في المقابل تقليل ضرر العدو، ببناء العقيدة والتوحيد وإعداد العدة المادية والمعنوية، والعاقبة للمتقين.

١٦- الملك الصالح يعصم من الفتن: إن من أعظم أسباب النجاة من الفتن الملك الصالح الذي يحكم بالحق والعدل ويكف أيدي المفسدين والمضلين، قال ﷺ في غير حديث: "الإِمَامُ جُنَّةٌ"(١)، قال الحافظ رحمه الله: (أي سترة؛ لأنه يمنع العدو من أذى المسلمين ويكف أذى بعضهم عن بعض)(٢)، وقال السيوطي رحمه الله: (كالجنة وهِي الترس الَّذِي يستر من وَرَاءه وَيمْنَع من وُصُول الْمَكْرُوه إِلَيْهِ)(٣). إن الأفراد قد ينجون من الفتن

(١) صحيح البخاري ٣/ ١٠٨٠ (٢٧٩٧)، صحيح مسلم ٣/ ١٤٧١ (١٨٤١).
(٢) فتح الباري لابن حجر ٦/ ١١٦.
(٣) شرح السيوطي على مسلم ٢/ ١٤٢.

كما نجا أصحاب الكهف من الفتنة في الدين، وكما نجا صاحب الجنتين من الفتنة بما لدى صاحبه من مال وولد، وكما نجا موسى عليه السلام من فتنة العلم بتواضعه للخضر، ولكن من أعظم أسباب نجاة المجتمع كله أو أغلبه من الفتن وجود الحاكم القوي الصالح الذي يحكم بشرع الله، فيحمي التوحيد ويحمي الناس من فتن الدنيا كالمال وغيره من الشهوات، ويضبط شؤون الفتيا وطلب العلم وبذله، ويضبط شؤون الحكم والملك فلا يطغى ولاته وعماله، فلهذا كان إقامة الحاكم الصالح من أوجب الواجبات.

١٧- الحكم والسلطان والتمكين ينبغي أن يسخر لتنفيذ الشرع، وإقامة العدل، وتيسير الأمر على المؤمنين المحسنين، وتضييق الخناق على الظالمين المعتدين، ومنع الفساد والظلم، وحماية الضعفاء من المفسدين.

١٨- الاستجابة للتحديات: وهذا يتضح بجلاء في بناء السد الذي جاء استجابة لإغارة يأجوج ومأجوج، وإن من أهم نظريات قيام الحضارات ونهضة الأمم نظرية التحدي والاستجابة الإيجابية له. فالبشر على مستوى الأفراد والجماعات والأمم يتعرضون في الحياة لصنوف من التحديات، فمن وقف أمامها عاجزا جرفته وقضت عليه، ومن تصدى لها وتعامل بإيجابية تغلب عليها بفضل الله، كما كان من ذي القرنين.

١٩- قال القاسمي: (ومن فوائد القصة: الاعتبار بتخليد جميل الثناء، وجليل الآثار، فإن من أمعن النظر فيما قُص عنه في هذه الآيات الكريمة، يتضح له جليا حُسن سجاياه، وسموّ مزاياه، من الشجاعة وعلو الهمة والعفة والعدل، ودأَبه على توطيد الأمن وإثابة المحسنين، وتأديبه للظالمين،

والإحسان إلى النوع البشري)[1]، ومن دعاء نبي الله إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾ [الشعراء]، فتأمل كيف قرن بين الدعوتين. ومن جيد شعر الحكمة قول ابن دريد:

وَإِنَّما المَرءُ حَديثٌ بَعدَهُ　　　فَكُن حَديثاً حَسَناً لِمَن وَعى

٢٠- من أعظم دروس القصة وأهمها وأغزرها ما يتعلق بالتمكين، ومنه:

١) التمكين في الأرض بإرادة الله، يمتن به على عباده، لقوله: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، ويشبه قوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأعراف]، وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [يوسف].

٢) أن منة التمكين تستوجب من المؤمنين شكرها والسعي للحفاظ عليها، وألا يتواكلوا بالاعتماد على فضل الله فحسب، وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾، وهو شبيه بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج].

٣) في القصة دليل على أهمية الأخذ بالأسباب، فقد أعطى الله ذا القرنين أسباب القوة والتمكين، فأتبعها بتسخيرها والاستفادة منها في تحقيق مراده، ونرى من الناس من يؤتيه الله علماً أو مالاً أو جاهاً أو ذكاءً أو غير ذلك من أسباب القوة والتمكين، فلا يرفع بها رأساً بل يهملها ولا ينتفع بها، سواء فعل ذلك فيما يخصه، أو فيما يخص مجتمعه وأمته.

٤) أسباب التمكين مادية ومعنوية، وأغلب الناس يهتمون بالمادية، فيجب أن لا نغفل المعنوية التي يحتاجها القائد لتكون الأسباب المادية

---

(١) محاسن التأويل ٧/ ٦٩.

فعالة. فالقيادة إذا سلمت لظالم أو سفيه صارت وبالا على من يطيعونه، قال الله عن فرعون: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الزخرف]، وكم من قادة عبر التاريخ أوردوا قومهم المهالك! فلا بد من قيادة حكيمة عادلة قوية.

فمن الأسباب المادية لتمكين ذي القرنين ما يلي:

أ= استخدامه العلوم والمعارف الدنيوية المتاحة في عصره، فمثلاً:

-كان عالما بتقسيم الأرض وفجاجها، ووديانها وجبالها وسهولها؛ لذا استطاع أن يوظِّف هذا في حركته مع جيوشه شرقًا وغربًا، وشمالاً وجنوبًا، ولا يبعد أن يكون في جيشه من هو متخصص في هذا.

- كان على علم بطبيعة المواد وعلى معرفة بخواصها، فقد استعمل المعادن على أحسن ما خلقت له، ووظف ما أتيح له: ﴿ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ ﴾ [الكهف]، أمرهم أن يأتوه بقطع الحديد الضخمة، فأخذ يبني حتى جعل ما بين الجبلين من البنيان مساويًا لهما في العلو، ثم قال: (انفخوا بالكير في قطع الحديد بين الصدفين). فلما تم ذلك وصارت النار عظيمة، قال للذين يتولون أمر النحاس: آتوني نحاسًا مذابًا أفرغه عليه فيصير مُضاعَف القوة والصلابة، وهي طريقة استخدمت حديثًا في تقوية الحديد، فوجد أن إضافة نسبة من النحاس إليه تضاعف مقاومته وصلابته.

ب= قيامه ببناء جيش قوي، قوامه رجال أشداء ومحاربون محترفون، ومدهم بأقوى الأسلحة، وهو ما يفسر خضوع المشرق والمغرب لحكمه.

ج= بذله أقصى الجهد لتحقيق المراد مستفيداً بما سبق من أسباب، كما

يدل سياق الآيات، إذ توحي أنه لم يقر له قرار، فكلما فتح أرضاً في جهة وعبد أهلها لله ﷻ وأقام حكمه انطلق إلى غيرها، منتقلا بين الأقطار.

د= تقوية الدفاعات: فإن من واجبات الحاكم الذي مكن الله له أن يحمي البيضة وأن يسعى لاستمرار التمكين، على أسس علميَّة وفق دراسة ميدانية صحيحة؛ لتنتفع به الأجيال على مر العصور، وهذا ما فعله ذو القرنين، وما زالت البشرية تجني ثمرته بكف شر يأجوج ومأجوج.

ومن الأسباب المعنوية لتمكينه:

أ- الإيمان بالله والتعلق به والدعوة إليه وإقامة شرعه: وهذا من أعظم أسباب التمكين، وسيرة ذي القرنين كما قصها القرآن تبين عظم إيمانه إذ يرجع كل نعمه إلى رب العزة، ويكفي أن نلحظ تعلقه بالله من كلامه؛ فانظر كم كرر لفظة (رب) في هذه الآيات: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ [الكهف: ٨٧]، ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ [الكهف]، ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾ [الكهف].

وسبق معنا أنه خير بين تعذيب أهل المغرب وأن يتخذ فيهم حسنا، فاختار أن يدعوهم ويقيم عليهم الحجة، قال ابن تيمية: (فالمقصود الواجب بالولايات: إصلاح دين الخلق الذي متى فاتهم خسروا خسرانا مبينا ولم ينفعهم ما نعموا به في الدنيا؛ وإصلاح ما لا يقوم الدين إلا به من أمر دنياهم)[1]، ثم حكم فيهم الشرع، فأحسن للمحسن وعذب المسيء.

ب- العدل: ويتجلى هذا في حكمه في أهل المغرب، إذ عامل كلا بما يستحق، فلم يظلم ولم يتعد، ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾

(١) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٢٦٢.

[الكهف]، فالعدل أساس الملك، قال ابن تيمية ﷺ: (أمور الناس تستقيم في الدنيا مع العدل الذي فيه الاشتراك في أنواع الإثم، أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق وإن لم تشترك في إثم؛ ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة؛ ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة. ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر ولا تدوم مع الظلم والإسلام)(١).

ج- استقامة ميزان التقويم: فالجزاء من جنس العمل، فالمحسن يثاب، والمسيء يعاقب، بغض النظر عن النسب والحسب والقيم الجاهلية، واختلال هذا من أسباب الهلاك وضياع التمكين، قال ﷺ: "إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِم الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِم الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَايْمُ الله لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا"(٢).

د- الصبر لتحقيق المراد: فذو القرنين رجل طواف في الأرض ليقيم العدل والشرع ويفتح الممالك ويعبّد الخلق لربهم، فنجده صابرًا على المشاق وعلى بذل الوسع في التنظيم والتحرك والتأمين، وشاركه في هذا الصبر من معه من قادة وجنود مخلصين. والصبر عمل إيجابي خلاف ما يظن كثير من الناس، إذ السلبي هو العجز المصحوب بالاستسلام، أما الصبر فمقترن بالسعي والعمل، كما قال يعقوب ﷺ: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ﴾ [يوسف: ٨٣]، ثم قال لبنيه: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧﴾ [يوسف]. ومن هنا نعرف خطأ بعض الشباب المتحمس الذي يسمع الحث على

(١) مجموع الفتاوى ٢٨/ ١٤٦.

(٢) صحيح البخاري ٣/ ١٢٨٢ (٣٢٨٨)، صحيح مسلم ٣/ ١٣١٥ (١٦٨٨)، واللفظ له.

الصبر فيظنه دعوة للاستسلام والعجز، وليس كذلك، فكم جر عدم الصبر إلى الاستعجال ثم الندم ولات حين مندم. ولأهمية "الصبر" ذكر في القرآن أكثر من تسعين مرة، ومن تأمل صبر النمل والنحل على العمل بجد ونظام مبهر، ثم رأى نتائج هذا أخذ درساً وعبرة.

وهذا نيلسون مانديلا يصبر في السجن بجنوب إفريقيا سبعاً وعشرين سنة، ثم ينال حريته ويصبح أول رئيس أسود للبلد، ويقول: قد تكون قدرات الإنسان محدودة فلا يكون عنده كثير من المواهب، من ذكاء أو قوة وغيرها، لكنه يعوض ذلك بالصبر والمثابرة لتحقيق الأهداف.

ه- الشجاعة: كان ذو القرنين قويَّ القلب شجاعاً لم ترهبه التبعات الضخمة والمسؤوليات العظيمة، يدل على ذلك فتحه المشرق والمغرب، وبناء الردم، الذي كان عملاً عظيمًا، إذ كان يمكن أن يوجِّه يأجوج ومأجوج إفسادهم إليه وإلى جنوده، لكنه أقدم غير متأخر ولا مُدبِر. وفرق بين الشجاعة والتهور، فهو أوتي من كل شيء سببا، فاستجمع الشجاعة والصبر وانطلق، ولو لم تكن عنده أسباب السياحة فسياحته حينئذ تهور قد يهلكه ويهلك من معه أو يسلط عليهم عدوهم فيستبيح بيضتهم. والشجاعة الحقيقية لا تتمكن من القلب إلا إذا امتلأ بخوف الله ومراقبته ورجاء ما عنده.

و- الرحمة: لأنه لم يبادر إلى عقاب أهل المغرب ولكن دعاهم رغبة في نجاتهم، وأعان القوم ببناء سد يحميهم من يأجوج ومأجوج.

ز- التوازن في الشخصية والاعتدال: فلم تعكر شجاعته على حكمته، ولم ينقص حزمه من رحمته، ولا حسمه من رفقه وعدالته.

ح- مشاركة الحاكم رعيته في العمل: وليس المقصود أعمال القتال فهذا معهود في الحروب، لكن المقصود إشرافه على بناء السد، وهذا يعين

القائد على التحقق من حسن العمل، وتجعله في تواصل مع رعيته لا أن يكون في برج عاجي يحال فيه بينه وبينهم، كما أنها تنشط هممهم وتدفعهم لمزيد من البذل بلا كلل أو ملل. وقد فعل هذا سيد ولد آدم ﷺ، فعَنِ البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، قَالَ: "رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَوْمَ الخَنْدَقِ يَنْقُلُ مَعَنَا التُّرَابَ"(١).

ط- التواضع: وظهر هذا بجلاء في رد ذي القرنين ما هو فيه من تمكين إلى الله ﷻ، وذلك قوله: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ [الكهف: ٩٥]؛ فالرجال الأشداء ذوو الخبرات العسكرية والعمرانية والاقتصادية، الذين كانوا طوع بنانه، وكذلك خضوع الأقاليم له، وفتح الخزائن أمامه، وتقديم خراج الشعوب له، كل ذلك لم يُدخِل في نفسه الغرورَ، بل بقي مثال الرجل المؤمن العفيف المترفِّع عن زينة الدنيا، فلم تكن الدنيا كلها كافية لثنيه عن تواضعه، وهذا تنبيه للرؤساء؛ حكاماً أو مديرين أو معلمين أو أزواجاً كي يتواضعوا لمن ولاهم الله شؤونهم ولا يتكبروا عليهم.

ي- كثرة الشكر: لأنه كان صاحب قلب حيّ موصول بالله تعالى، فلم تُسكره نشوة النصر، وحلاوة الغلبة بعدما أذل كبرياء المفسدين، بل نسب الفضل إلى ربه، وقال: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ [الكهف: ٩٨].

ك- نصرة المظلوم: وهذا ما قام به لما استجار به القوم بين السدين.

ل- العفة والترفع عن مالٍ لا يحتاجه: فإن القوم المستضعفين لما شكوا إليه فساد المفسدين، عرضوا عليه الخرج؛ فلم يأخذه لعدم احتياجه، لكنه طلب مساعدتهم في العمل والبناء. بخلاف ما نراه اليوم من دول غنية تأخذ ضرائب من مواطنيها. وهي المكوس وهي من الكبائر، فلا ينبغي

---

(١) صحيح البخاري ٦/ ٢٤٤١ (٦٢٤٦)، صحيح مسلم ٣/ ١٤٣٠ (١٨٠٣).

إثقال الرعية بالمكوس والضرائب فهو نوع من الظلم.

م- الواقعية: كان واقعيًّا في تدبير الأمور؛ فقد قدّر حجم الخطر، وما يحتاجه من علاج، فلم يجعل السور من الحجارة، أو الطين واللبن، حتى ينهار لأدنى عارض، أو هجوم؛ بل جعله من الحديد المقوى بالقطر، ولذا باءت محاولات المفسدين بالإخفاق عندما حاولوا التغلب عليه.

ن- مهارة القيادة: ومن ملامحها الفتوح العظيمة التي تحتاج كثيرا من المقاتلين، وما يتبع ذلك من خطط وتوزيع مهام وأدوار، واختيار القادة المحنكين، ومن ملامحها قيادته مهمة بناء السد بنجاح، فقام بتشكيل فرق عمل ووزع الأدوار وفق مراحل العمل ونسق بينهم حتى اكتمل البناء.

ومن ملامحها كذلك فن التعامل مع صنوف مختلفة من البشر، فقد ورد في قصة ذي القرنين أنه ذهب إلى عدة بقاع من الأرض مما يعني أنه تعامل مع جنسيات مختلفة بأعراف ومفاهيم وقيم وعقائد مختلفة.

س- عدم الاحتجاج بالقدر على ترك العمل: كان ذو القرنين فيما يبدو على علمٍ بأخبار الغيب في الشرائع، فمع علمه بأن للردم أجلاً ينهدم فيه إلا أنه لم يتذرع بذلك للقعود والهوان؛ فبَنَى السد، وبذل فيه الجهد.

التمكين في الرؤية الإسلامية من خلال قصة ذي القرنين(١)

إن أعظم غاية ينبغي أن يسعى لها المسلم في الدنيا إخلاص العبودية لله، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات]، ومن لوازمها أن يقوم بالدعوة: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ ﴾ [يوسف: ١٠٨]. والقيام بها على الوجه الأكمل لا يتم إلا بالتمكين، ولهذا شرع جهاد الطلب لإزالة كل عائق يحول دون معرفة الحق، وهذا ما فهمه سلفنا الصالح منذ الصحابة، فهذا ربعي بن عامر ﷺ يحاور رستم قائد الفرس يوم القادسية فيقول: (مَا جَاءَ بِكُمْ؟ قَالَ: اللهُ ابْتَعَثَنَا، وَاللهُ جَاءَ بِنَا لِنُخْرِجَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ، وَمِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا إِلَى سِعَتِهَا، وَمِنْ جَوْرِ الأَدْيَانِ إِلَى عَدْلِ الإِسْلامِ، فَأَرْسَلَنَا بِدِينِهِ إِلَى خَلْقِهِ لِنَدْعُوَهُمْ إِلَيْهِ، فَمَنْ قَبِلَ مِنَّا ذَلِكَ قَبِلْنَا ذَلِكَ مِنْهُ وَرَجَعْنَا عَنْهُ، وَتَرَكْنَاهُ وَأَرْضَهُ يَلِيهَا دُونَنَا، وَمَنْ أَبَى قَاتَلْنَاهُ أَبَدًا، حَتَّى نُفْضِيَ إِلَى مَوْعُودِ اللهِ. قَالَ: وَمَا مَوْعُودُ اللهِ؟ قَالَ: الْجَنَّةُ لِمَنْ مَاتَ عَلَى قِتَالِ مَنْ أَبَى، وَالظَّفَرِ لِمَنْ بَقِيَ)(٢).

إن تحقق هذا التمكين مشروط بتحقق شرطه، قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ

---

(١) أصل الموضوع مقالات وبحوث فضلاء هم: د.عثمان قدري مكانسي "تأملات تربوية في قصة ذي القرنين"، الأستاذ عمر جمال النشيواتي "ذو القرنين وعمارة الأرض.. وقفات"، الشيخ ناصر الأحمد "خطبة منشورة على الإنترنت"، مدونة د. أبو مروان "إضاءات نهضوية في قصة ذي القرنين"، د.محمد بسام يوسف "التمكين في الرؤية الإسلامية من خلال قصة ذي القرنين"، د. علي الصلابي "فقه التمكين عند ذي القرنين".

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٥٢٠.

وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [النور]، وهذا مثل قوله ﷻ: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾ [الحج: ٤٠]، وقوله: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾ [محمد: ٧]، فوعد الله حق وصدق، والله لا يخلف الميعاد، فمتى تأخر النصر أو التمكين فليعلم المرء أنه أتي من قبل نفسه وتفريطه، وفي أسباب التمكين التي تقدم ذكر طائفة منها. نعم إن ذلك قد يأتي مع التقصير في بعض أسبابه، لكن هذا يكون محض فضل من الله، ويكون أمراً زائداً عن وعد الله سبحانه.

إن وعد الله بالتمكين منصرف لمن آمن به ولم يصرف العبادة لغيره وعمل صالحا؛ وليس ذلك مقصوراً على العبادات أو الإحسان والمعروف؛ بل يتعدى إلى الأخذ بكل أسباب التمكين دون أن يتعلق قلبه بها، بل يبقى متعلقاً بالله وحده، وهذا عين التوكل. أما ترك الأسباب فيقدح في التشريع ولا يكون قد عمل من الصالحات ما يحقق شرط التمكين.

إن التمكين لهذه الأمة وعلوها على باقي الأمم آت لا محالة، لوعد رسول الله ﷺ: "إِنَّ اللهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا "(١)، وقال: "لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ هَذَا الدِّينَ، بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللهُ بِهِ الْإِسْلَامَ، وَذُلًّا يُذِلُّ اللهُ بِهِ الْكُفْرَ"(٢)؛ فليست المسألة هل سيمكن للأمة أم لا، لكن هل نحن أهل للتمكين؟!

إن مشكلة الأمة اليوم أنها أوتيت أسباب النصر والتمكين المادية

---

(١) صحيح مسلم ٤/ ٢٢١٥ (٢٨٨٩).

(٢) مسند أحمد ٢٨/ ١٥٥ (١٦٩٥٧)، قال الأرناؤوط: إسناده صحيح.

والمعنوية لكنها لم تتبعها؛ أما الإيمان بالله والعمل بشرعه، فمن قلب ناظريه في بلاد المسلمين وجد كثيراً منهم يدعون مع الله ﷻ غيره، من الأولياء وأصحاب القبور، ويذبحون وينذرون لهم، ووجد حياة كثيرين أبعد ما تكون عن الإسلام؛ فتضييع الصلوات وانتشار العري والسفور، وشيوع المظالم، وانتشار الفاحشة والغش والكذب، إلى غير ذلك، كل هذا يسري في الأمة، ولولا رحمة الله وبقية من أهل الخير لا يخلو منهم مصر من الأمصار لاستحقت الأمة ما حاق بالأمم السابقة، نسأل الله العافية.

وأما الأسباب المادية فبلادنا غنية بالثروات، لكنها غير مسخرة، أو منهوبة؛ في مصر غاز طبيعي يصدر لإسرائيل بأقل من التكلفة! والسودان به من المراعي والأنعام والأنهار ما يكفي غذاء العالم العربي، لكن الحال ليست كذلك، بل جوع وشدة وانقطاع المياه في أحيان كثيرة، والنفط العربي ينبغي أن يغني عائده لا أقول العالم العربي بل الإسلامي والحال كما ترون! فلا إنفاذ لإرادة الله الشرعية في جل البلدان العربية ولا اتباع للأسباب التي أوتينا. وأما مصالح العباد فكثير من الساسة لا يعبأ بها، بل يسخر الأسباب ليحصل لنفسه ومصلحته الشخصية ما حباه الله البلاد.

وبناء على ما سبق فإننا إذا أردنا التمكين فلا بد لنا كخطوة أولى من الرجوع إلى ديننا أفراداً وجماعات ودولاً، فقد قال رسول الله ﷺ: "إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ، سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ"(١).

ثم كخطوة تالية لا بد من أخذ الأسباب المشروعة لتحقيق نهضة

---

(١) سنن أبي داود ٣/ ٢٧٤ (٣٤٦٢)، وصححه الألباني.

شاملة تمتلك الأمة بها مفاتيح قوة العصر؛ إن أمتنا غنية بالطاقات في كل المجالات؛ في ساحات الفكر والمال والتخطيط والتنظيم والقوى المادية، إنها مليئة بالمواهب والطاقات المعطلة، والأموال المهدرة، والأوقات المبدَّدة، والشباب الحيارى، تنتظر قيادتها الواعية لكي تأخذ بقاعدة ذي القرنين في الجمع والتنسيق ومحاربة الجهل والكسل والتخلف ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ [الكهف: ٩٥]. وهنا تأتي القيادة الربانية لتربط الخيوط والخطوط، وتنسق المواهب والطاقات، وتتجه بها نحو خير الأمة ورفعتها.

إن قصة ذي القرنين تعطي ملامح خطة محددة للنهوض بالأمة، قوامها:

١ - تمكين الله ﷻ، ومَدّ عباده المجاهدين بالقوّة والتأييد والدعم.

٢ - استحقاق المسلم لتمكين الله ﷻ له، وهذا لا يحصل إلا بالعمل واتخاذ الأسباب الممكنة لعمارة الأرض، وبالسعي لتحكيم منهج الله سبحانه وتعالى في هذه الأرض، لتحقيق سعادة الإنسان ورخائه.

فلننظر إلى الكلام الدقيق في قصة ذي القرنين إذ يختصر ذلك بأسلوبٍ قرآنيٍ رائع: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي أيّدناه ومددناه بالتمكين والعلوّ في الأرض، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ أي منحناه أسباب الظهور والعلوّ.

ولكي لا يظن أن الله منح ذا القرنين التمكين دون تعبٍ ولا نصبٍ ولا بحثٍ عن أسباب القوّة، نقول: معنى الشق الثاني من الآية: أن ذا القرنين، كان عالِماً يمتلك العلم والقوّة المادية، وقويًّا غنيًّا، وعادلًا صالحًا، فاستحق تأييد الله وتمكينه، لأنه امتلك أسباب ذلك، فمكّنه الله وأيّده ونَصَرَه، فحكم بالعدل والقسط، وبمنهج الله الواحد الأحد.

تمكين الأمة بين الضعف البادي والأمل الحادي

الضعف الذي تعانيه الأمة اليوم لا يخفى، لكن لا ينبغي أن نفقد الأمل، فالأيام دوَل، وكم من أمة مرت بأوقات عصيبة، ثم عاودت الوقوف، مع أن منها أمما كافرة لا تتبع الحق، فكيف بأمتنا التي ارتضى الله ﷻ أن تحمل مشعل الهداية منذ أربعة عشر قرناً إلى أن يرث الله الأرض!

إن قصة ذي القرنين تبعث على التفاؤل بمستقبل الأمة، فإنه لما بلغ مغرب الشمس وجد قوما محسنين وقوما مسيئين، وعامل كلا بما يستحق ووضع حدا للفساد. لكنه لما بلغ بين السدين وجد الأمر أشد، فيأجوج ومأجوج فسادهم عظيم، فلم يواجههم، ولم يضم أرضهم، وقد يكون هذا لعلمه بشيء من الغيب كقول الله ﷻ لعيسى عند خروجهم آخر الزمان "لا يدان لأحد بقتالهم"(١)، أو لأنه قدر أنه مع قوته لن يستطيع مقاومتهم، أو على أقل تقدير ستكون باهظة والأولى عدم المواجهة، فاختار بذل وسعه لكف شرهم، وسعى لتقليل ضررهم ونجح في إيقافه حتى حين.

ومبعث التفاؤل أمران؛ أولهما أننا إذا اخترنا اليوم عدم المواجهة في معارك غير متكافئة فلنا أسوة، ولكن علينا تقليل وإيقاف ضرر أعدائنا، ببناء العقيدة والتوحيد وإعداد العدة المادية والمعنوية، والعاقبة للمتقين.

إن الفساد في بلاد المسلمين يمكن إيقافه إذا وجدت الإرادة؛ بمعاقبة المسيء، وكفه عن إساءته عبر القنوات والمؤسسات وغير ذلك. أما الفساد الخارجي فقد لا نستطيع إيقافه، كالذي يأتينا من إيران أو الغرب، فلا

---

(١) صحيح مسلم ٤/ ٢٢٥٠ (٢٩٣٧).

سلطان لنا عليهم، لكننا نستطيع أن نحد آثاره بتحصين الناس من الأفكار الرافضية، والتغريبية المدمرة، وفي المقابل ببث عقيدة أهل السنة وتثبيتها. إننا لا نستطيع في عصر الفضائيات والشابكة أن نبني سداً يحول بين الناس وبينها، لكننا نستطيع أن نبني لكل فرد سداً داخليا ذاتيا بالتعليم والتوعية وتقوية داعي الخير والصلاح في النفوس، وهذه هي المعركة الكبرى.

والأمر الثاني الباعث على التفاؤل وجه الشبه بين أمتنا اليوم والقوم بين السدين، فنلحظ تكاسلا وضعفا من أبناء أمتنا في عمارة الدنيا، بل يُتهم عالي الهمة بأنه يلهث وراءها وأنه باع آخرته بدنياه، وبهذا رضينا لأنفسنا الهوان، إذ ذلت أمتنا فمدت يدها لعدوها لتأكل وتشرب وتعيش، وازدادت مع بُعدها عن دينها وكتاب ربها ظلمة على ظلمة، وتأخر بهذا قطار أمتنا وتجاهَلَنا العالم وغَدونا لا نُهاب ولا يُعبأ بنا، وصارت بلادنا تعد متخلفة بعد أن كنا قادة الدنيا، وبعد أن كنا نبتكر في سائر العلوم وينهل الغرب من حضارتنا، صارت بلادنا من أعلى معدلات الأمية، وما أشبه هذه الحال بحال القوم بين السدين: ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾! فالشبه موجود، بل ربما كانت حالهم أسوأ، ومع ذلك تمكنوا بفضل الله ثم بمساعدة ذي القرنين من دفع عدوهم، ومنع تعديه عليهم ونشر الفساد فيهم.

لقد وصل ذو القرنين بين السدّين، ليجد قوماً ضعفاء متخلّفين، يعانون عدوان يأجوج ومأجوج وفسادهم، فيطلبون منه أن يجدَ لهم الحل الأمثل لمنع عدوانهم، وكان قراره ألا يدخل في معركة معهم، لكنه طلب من هؤلاء أن يعينوه ليساعدهم على حماية أنفسهم، ويتعلموا فنون الحماية، ويكتسبوا خبرات تنفعهم، ويتدربوا على العمل الجاد المثمر الذي يجعلهم يبنون السد بأيديهم؛ وهذا أدعى للحفاظ عليه وإصلاحه إن أصابه شيء.

إن ذا القرنين رفض أن يكون هؤلاء المستضعفون عاطلين، فلم يستعن بجيشه ولا بآخرين، إنما استعان بهؤلاء أنفسهم، وطلب منهم أن يأتوا بالحديد ثم يقوموا ببناء السد بإشرافه بحيث وصل به إلى قمة الجبليْن، ثم صهر الحديد، وأفرغ عليه القطر، ليكون في غاية المتانة والقوة.

إذن فهو قوَّى هؤلاء الضعفاء الذين كان يهاجمهم يأجوج ومأجوج، بأن علّمهم كيف يعينون أنفسهم، وكيف يبنون السد، وجعلهم يشتركون في البناء ويقيمونه، وأعانهم بخبرته وعلمه فقط؛ ليأخذوا الثقة بأنهم يستطيعون حماية أنفسهم، وليتعلموا ما يعينهم ويحميهم.

الإسلام ينهانا أن نعوِّد الناس الكسل أو نعطيهم أجرًا بلا عمل؛ لأن ذلك يفسد المجتمع، فالإنسان متى تقاضى أجرًا بلا عمل لا يمكن أن يعمل بعد ذلك. لقد قام ذو القرنين بمهمة الحاكم الممكَّن له، فقوَّى المستضعف، وجعله قادرًا على حماية نفسه ولا يعتمد على حماية أحد، ولم يترك الناس في مقاعد المتفرِّجين، بل نقلهم إلى ساحة الجد عاملين.

كان فقه ذي القرنين في التعامل مع الشعوب المستضعفة هو السعي لنقلها من الجهل والتخلف والضعف إلى العلم والتقدم والقوة، وكان يدير العمل بروح الجماعة، ويشترك بنفسه مع غيره، لما في ذلك من تنشيط ورفع للمعنويات، يدل على ذلك ضمير المتكلم الذي يتقابل مع ضمير المخاطب في القرآن؛ مما يشير إلى روح الحماسة والتعاون المشترك، ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾﴾ [الكهف].

من هنا يظهر أن القيادة الحكيمة تستطيع أن تفجِّر طاقات المجتمع،

وتوجِّهه لتحقيق الخير والغاية المنشودة. لقد استطاع ذو القرنين أن يحول أمة كاملة من أمة تشتري سلامتها إلى أمة تصنعها، من شعب متكاسل إلى فرق عمل متعاونة، تسعى بجد لتحقيق أمنها من خلال إنجاز مشروعها الضخم، فأكسبهم ذلك قيماً جديدة تمثلت في حب العمل واكتساب المهارات وتقدير الوقت والكشف عن ثرواتهم وبث التعاون بينهم.

ويحسن بنا هنا أن نلاحظ أمراً في غاية الأهمية، هو أنّ هؤلاء القوم الضعفاء، انتصروا على عدوّهم مع ضعفهم لأسبابٍ مهمةٍ جداً، أهمها:

١ - أنهم سلّموا أمرهم لقيادةٍ حكيمةٍ قويةٍ واثقةٍ، تحكم بما أنزل الله.

٢- أنهم فعلوا ما طُلِبَ منهم، وبذلوا ما عليهم من جهد، واتخذوا كل الأسباب الممكنة التي توافرت لهم -على تواضعها- لرد العدوان عن ديارهم ووطنهم، ولصدّ الجبّارين في الأرض ودحرهم وإسقاطهم.

٣- أنهم استمروا في البحث عن تحرير أنفسهم من سطوة عدوّهم، إلى أن وجدوا الحل الأمثل، من غير أن يقعوا في حبائل عدوٍ آخر.

ففي الطريق نحو التمكين لابد من ثقة بين القادة وباقي الأمة أو شريحة التغيير والبناء، فلابد للقائد أن يمنح الثقة لأفراد الأمة ويشعرهم بها ويذكي فيهم استغلال قدراتهم. وقد أعلن ذو القرنين ذلك بقوله: "فأعينوني بقوة"، كأنه يقول: ليس بالخراج تشترون أمنكم لكن بقوة أبدانكم وفكركم، فنجح أن يحولهم لطاقات بشرية هائلة نفذت أكبر ردم، وبهذا يقدِّم لكل مسؤول أو قائد منهجًا أساسيًّا، وطريقة عملية لتربية الشعوب على الاستقامة، والسعي نحو العمل لتحقيق العبودية الكاملة لله.

فتنة السلطان من خلال سورة الكهف

هذه هي الفتنة الكبيرة الرابعة التي تناولتها سورة الكهف، وبرغم أن الكلام عن هذه الفتنة مهم وضروري في كل وقت وحين، إلا أنه في هذه الأيام صار أكثر أهمية وإلحاحا بسبب ما شهده عام (١٤٣٢) من أحداث هزت وما زالت تهز العالم العربي فيما يعرف بالربيع العربي، إذ سقط حكام ومنهم من ينتظر، ورأينا وما زلنا نرى صوراً بشعة من صور التمسك بالسلطة ولو على حساب الأشلاء والدماء ومئات الجثث بل آلافها!

تلخيص فتنة السلطة وطريق الخلاص منها:

تتلخص فتنة السلطة في أن الناس مختلفون في رغباتهم وأهوائهم؛ دينية ودنيوية، وهذا يؤدي إلى نوع تنافس وصراع، فكل فرد أو مجموعة يسعى لتحقيق مصالحه وفق رغباته. فإما أن يحسم بطريقة توافقية، وإما أن يحسم بنوع صدام يتسلط فيه الأقوى على الأضعف.

والمانع من وقوع الصدام قانون أو عقد اجتماعي مقبول من جميع الأطراف ينظم العلاقة بينها، وفي غيابه تكون الغلبة للأقوى، كما في النظم الاستبدادية، إذ يحاول المستبد إخضاع الضعفاء لمراده أو التوسع في دنياه على حسابهم ليتمتع برغد العيش وبممارسة التسلط والتحكم في رقاب العباد. وقد تستقر مثل هذه الحال في المجتمع بحيث تشكل نوعاً من العقد الاجتماعي ينقسم فيه المجتمع إلى طبقتين؛ طبقة الحكام وطبقة المحكومين، وقد تتطور الأمور إلى تقديس الطبقة الأولى أو تأليهها كما كان حاصلاً في الحضارات القديمة في فارس ومصر والصين وغيرها.

وإذا لم تستقر هذه الحال فإن احتمال انقلاب المستضعف على جلاده تكون قائمة، وفي اللحظة التي يكتشف فيها المستضعفون قوتهم ويعيدون اكتشاف ذواتهم ويرفضون رق مستعبديهم ويجدون من أنفسهم رغبة وقدرة على التضحية تبدأ الخطوة الأولى للانعتاق من نير الاستبداد.

في زماننا يبرز النظام الديمقراطي كأشهر نظام ينظم مسألة السلطة، وفي النظم الديمقراطية تعطى السلطة للأكثرية على حساب الأقلية عن طريق الانتخابات، فتخضِع الأكثرية الأقليات لرغباتها ومصالحها. ولا يخلو تسلط الأكثرية من خطر عدم تمثيل رغبات الناس بصورة عادلة؛ فلو قدر أن فريقاً حصل على نسبة ٥١٪ وحصل الآخر على نسبة ٤٩٪، فإن للأول أن يحكم ويقر القوانين ويتصرف في شؤون الدولة بخلاف رغبة ٤٩٪ من الناس، أي النصف تقريباً، ولا شك أن هذا لا يبدو عادلاً ولا ممثلاً حقيقياً لرغبات الناس، ولا يخلو من نوع تسلط فج وإن كان برضا الأطراف، حيث يقدرون أن هذا النظام أخف ضرراً من غيره.

والنجاة من هذه الفتنة تكون بخضوع الحاكم والمحكوم للإرادة الشرعية، فيحكم الحاكم في الرعية بإرادة الله الشرعية، التي يجب أن يقوم العقد -في المجتمع المملوك حاكمه ومحكومه لرب العالمين- عليها، فلا اعتبار لأغلبية وأقلية، ولا اعتبار لأهواء الناس ورغباتهم التي تجمع بين الخير والشر، وإنما الاعتبار للحق والخير المطلق الذي جاء من لدن حكيم عليم، يعلم ما يُصلح خلقه وما يَصلح لهم، قال تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [المائدة].

وقد عرضت سورة الكهف لثلاثة من أصحاب السلطات:

الأول- ملك كافر يحارب الدين ويصد عن سبيل الله؛ يدعو إلى

عبادة غير الله وتحكيم غير شرع الله وهو المسمى عند المفسرين دقيانوس، وقد ذكروا له عجائب في أَطْر الناس على الكفر، وحسبك ما ذكره الله تعالى عن أعوانه في القرآن: ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴾، وهو الذي فر منه الفتية، وله نظائر في بلاد الله؛ انتقم الله منهم في بعض بلاد الشرق الشيوعية، ومنهم نسخ مصغرة في عالمنا الإسلامي رأينا ونرى عاقبة أمرهم، والحمد لله رب العالمين.

والثاني- ملك ظالم مغتصب لممتلكات الناس، ذكر في قصة الخضر مع موسى: ﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾، وما أكثر الحكام الذين يتخوضون في أموال شعوبهم ومن يدخل تحت سلطانهم قديما وحديثا، وقد رزئت الأمة منذ فقد الخلافة ، بفتنة السلطة المتوسعة في المال العام، وجعل أهل العلم من الفروق بين الخليفة والملك توسع الأخير في المال، وتعفف الأول، ولذا عدوا عمر بن عبدالعزيز خامس الخلفاء الراشدين.

والثالث- ملك عادل مقسط لم تفتنه السلطة مع سلطانه العظيم الذي بلغ مشرق الأرض ومغربها، وهو ذو القرنين.

هذه النماذج الثلاثة تمثل النتائج الممكنة لفتنة السلطة، ولا يخرج أحد ممن ابتلي بها عنها، فمن تصرف فيها وفق شرع الله وأحسن القصد سلم، وإلا عاد السلطان والعزُّ وبالاً عليه في العاجل أو الآجل.

فأما دقيانوس الملك في عهد أصحاب الكهف، فاستغل قوته لفرض أهوائه على الناس، وصدهم عن الحق، وسام من خالفه سوء العذاب ظلما وعدوانا، وأما الذي كان يأخذ كل سفينة غصباً فقد استغل قوته للتوسع في شهوته المالية على حساب الضعفاء، فعم شره وطم إذ لم يكن أحد ينجو

من شره، ولا شك أن كلا منهما سقط في فتنة السلطة، وعليه من الإثم ويلحقه من العذاب بحسب سوء صنيعه ومخالفته للشرع؛ فأما من كفر ففي النار ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ١٦٢﴾ [البقرة]، وأما من ظلم فإن لم يكفر، فيناله العذاب بقدر إساءته ما لم يتب.

وأما ذو القرنين فسار بسيرة مختلفة؛ لقد مكن الله له في الأرض فعمل بالأسباب، حتى ظهر على الناس فحكم بموجب إرادة الله الشرعية لا بأهوائه ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ٨٧ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ٨٨﴾ [الكهف]، ثم لم يأل جهداً في القيام بمصالح العباد، فلما شكا له القوم ظلم يأجوج ومأجوج وإفسادهم وعرضوا عليه خرجاً ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ٩٨﴾ [الكهف]. فكانت عاقبته نيل محبة الله ﷻ إذ يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ٤٢﴾ [المائدة]، وكانت عاقبته أن خلد الله ذكره في كتابه إلى يوم الدين، وجعل له في قلوب المؤمنين محبة، وعلى ألسنتهم ذكرا حسنا ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ٨٠﴾ [الصافات]، قال ابن كثير: (أي: هكذا نجزي من أحسن من العباد في طاعة الله، نجعل له لسان صدق يذكر به بعده بحسب مرتبته)(١)، هذا في الدنيا، وأما في الآخرة فيبدأ الإنعام من أول ساعات يوم القيامة؛ قال النبي ﷺ: "سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ"(٢)، ثم "إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ ﷻ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا"(٣)، وتتوالى النعم حتى يستقر في الجنة ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ

---

(١) تفسير ابن كثير ٧/ ٢٣.

(٢) صحيح البخاري ٦/ ٢٤٩٦ (٦٤٢١)، صحيح مسلم ٢/ ٧١٥ (١٠٣١).

(٣) صحيح مسلم ٣/ ١٤٥٨ (١٨٢٧).

ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾ [النساء].

سبيل النجاة من فتنة السلطان:

إن الله سبحانه يختبر عباده ويبتليهم بما شاء على وفق حكمته وعلمه، لكن رحمته بعباده اقتضت ألا يتركهم هملا نهبا للفتن، بل بين لهم على ألسنة رسله وفي كتبه المنزلة سبل النجاة وطرق الهداية، وللنجاة من فتنة السلطان أسباب متعددة بينها كتاب الله ﷻ وسنة نبيه ﷺ، وليس هذا مقام حصرها، لكننا نمر على شيء منها باختصار، فمن ذلك:

١ - الإيمان وتقوى الله: وهذا يبدو جلياً في قصة ذي القرنين، إذ دلت سيرته الحسنة على تمسكه بذلك فأثنى الله عليه وخلد ذكره دليلاً على نجاته من هذه الفتنة العظيمة، بخلاف ملك الفتية وملك قصة الخضر، فالأول كافر، والثاني لو كان موحداً لم تحجزه تقوى الله عن ظلم عباد الله وأخذ أموالهم بغير حق، ولكل منهما من العذاب وسوء المآل بحسبه.

٢ - عدم السعي لها: فعن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ، قَالَ: "قَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ: يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سَمُرَةَ، لَا تَسْأَلِ الْإِمَارَةَ، فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا"(١).

٣ - السلطة تكليف لا تشريف: قال رسول الله ﷺ: "أَلَا كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالْأَمِيرُ رَاعٍ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ"(٢).

٤ - تحديد الهدف: أن يكون ملكا صالحا مصلحا، وتجد هذا في سيرة ذي القرنين الذي نشر الدين والعدل في جميع الجهات؛ قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ

(١) صحيح البخاري ٩/ ٦٣ (٧١٤٧)، صحيح مسلم ٣/ ١٢٧٣ (١٦٥٢).
(٢) صحيح البخاري ٣/ ١٥٠ (٢٥٥٤)، صحيح مسلم ٣/ ١٤٥٩ (١٨٢٩).

سَبَبًا ﴾، فمن حدد هدفه وحمل الهم وسعى وفق، وإلا كان كلا على أمته.

٥- حسن اختيار البطانة والأعوان: قال ﷺ: "مَا اسْتُخْلِفَ خَلِيفَةٌ إِلَّا لَهُ بِطَانَتَانِ: بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالخَيْرِ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، وَبِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، وَالمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَ اللهُ"(١)، فالحاكم المصلح لا بد أن يقرب من يعينه على الصلاح من أهل المعرفة، ويبعد أهل الفساد والضلال، وشاهد ذلك في القرآن: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١١٨].

٦- الرفق بالرعية: قال ﷺ: "اللهُمَّ، مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ، فَاشْقُقْ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ، فَارْفُقْ بِهِ"(٢)، ورفق الله به يلزم منه الوقاية من الفتنة، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء.

٧- استشعار خطر السلطة: فعَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: "قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي؟ قَالَ: فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي، ثُمَّ قَالَ: يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَة، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا، وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا"(٣)، ولو استحضر كل مسؤول أن الولاية مغرم ووظيفة شاقة لا مغنم فيها إلا الأجر، لقامت دولة الخلافة الراشدة!

إن السلامة لا يعدلها شيء، فمن علم من نفسه ضعفاً فلينأ بنفسه عن الولايات، ومن وجد في نفسه قدرة على حملها فبحقها. ومن حقها:

أ= الحكم بالشرع؛ قال: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾.

ب= الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ

(١) صحيح البخاري ٦/ ٢٤٣٨ (٦٢٣٧).
(٢) صحيح مسلم ٣/ ١٤٥٨ (١٨٢٨).
(٣) صحيح مسلم ٣/ ١٤٥٧ (١٨٢٥).

ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾ [الحج].

ج= العدل: قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [المائدة]، وقال جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ [النساء: ٥٨].

د= التعفف: عن المال المباح إذا لم تكن له حاجة كما فعل ذو القرنين عندما عرضوا عليه خرجاً، ناهيك عن أكل أموال الناس بالباطل كملك الخضر ؏.

هـ= عدم المحاباة: فينبغي أن يكون كل الناس أمام الحاكم سواء، فلا يميز أحداً لقرابة أو صداقة أو شرف أو غير ذلك، وقد قال رسول الله ﷺ: "إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ، وَايْمُ اللهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا"(١)، ويمكن تلمس هذا في حكم ذي القرنين في أهل المغرب فإنه رتب الثواب والعقاب على أفعالهم لا على منازلهم.

وبعد، فهذه بعض الأسباب التي تعين على النجاة من فتنة السلطان، ومما ينبغي التنبه له أن هذه الفتنة ليست مختصة بالولايات العامة، بل كل من ولي أمرا من أمور المسلمين له حظ منها بحسبه، فالزوج، والوالدان والمعلم والمربي وصاحب العمل، وغيرهم، معرضون لهذه الفتنة، وينبغي لكل منهم أن يتخير من أسباب النجاة ما يناسبه.

---

(١) صحيح البخاري ٣/ ١٢٨٢ (٣٢٨٨)، صحيح مسلم ٣/ ١٣١٥ (١٦٨٨).

فتنة السلطان وواقع الأمة اليوم

حال الأمة اليوم لا يخفى على أحد، فالأمة ممزقة إلى دول متعددة لا يجمعها جامع، ولكل من دولها حاكم يستقل بدولته، وبعد أن كنا أمة واحدة بحاكم واحد، صرنا دولا ممزقة متفرقة، والأنكى أن هذه الدول نفسها تتمزق إلى دويلات أو يراد بها ذلك. وبعد أن كان الحكم في الأمة لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وبعد أن كان الحكام يحكمون بشرع الله على شيء من التقصير، صار الحكم في جل البلاد الإسلامية للقوانين الوضعية، واتخذ كثير من الحكام شرع ربنا جل وعلا ظهريا، فزاد البلاء.

إن تغييب الشرع عن الحكم من مظاهر فتنة السلطان، ومن ضيع حق الله في تحكيم شرعه لا يبعد أن يضيع حقوق العباد، فيسير فيهم بسيرة سيئة، يأخذ أموالهم، وينهب ثرواتهم ويحكمهم بالحديد والنار، ويملأ السجون بالأبرياء ويسومهم سوء العذاب، ويعادي أولياء الله، ويواد أعداءه، ويضيع الأمانة ويتحالف مع أعداء الأمة! وهذا أو بعضه واقع في كثير من بلاد المسلمين منذ أمد، ولكن دوام الحال من الحال، وشدة الضغط تؤدي إلى الانفجار، فرأينا جميعاً انفجار غضب عدد من الشعوب في وجه جلاديها الذين حكموها فلم يعدلوا في حكمهم، وتولوا الأمانة فضيعوها، وأعطوا المهلة تلو المهلة من الله فظنوها إهمالا!

إن ما نراه اليوم في عالمنا العربي من آثار فتنة السلطان، فلو أن الحكام تنبهوا لهذه الفتنة وأخذوا بأسباب النجاة ما حصل ذلك، بل لساد الود والوئام بين الحكام والرعية إن ساروا فيهم بسيرة سوية. وليس هذا وقت (ليت) ولا البكاء على الأطلال، فما شاء الله كان، وقدر الله وما شاء فعل.

الوقت الآن لتصحيح الأخطاء لمن في فسحة من أمره، وقت الاعتبار بحال من مضى إلى مصيره البائس، يستوي في هذا من على كرسيه في بلاد المسلمين ومن يستعد لاعتلاء كراسي تركها أصحابها غير مأسوف عليهم. فهل يجد هؤلاء الحكام ناصحين مخلصين يرشدونهم ويأخذون بأيديهم إلى مرضاة ربهم وسعادتهم وسعادة شعوبهم في الدنيا والآخرة؟ اللهَ ندعو أن يوفق حكام بلاد العرب والمسلمين ومحكوميهم إلى ما يحب ويرضى.

العامة وفتنة السلطة

فتنة السلطة عظيمة، لأنها باب لالشهوات من زينة الدنيا وملذاتها، ولئن كانت فتنة لمن واقعها، فإنها فتنة لغيرهم ممن يقتربون منهم ولو كانوا من أهل الديانة! ولا سبيل لتخلص العامة منها إلاّ باعتزالها تارة كما فعل أصحاب الكهف، حتى لا يدخلوا في أهواء القائمين عليها، وتارة يكون الخلاص من شرها بالتحايل، كما صنع الخضر لأصحاب السفينة.

أما الاعتزال فقد لا يتأتى في عصرنا دائماً، وقد يكون خوض غمارها والاحتكاك بأصحابها لابد منه لبعض الناس، فليحذر المخالط حينها وليتق الله ربه فقد زلت في طريقه أقدام كثيرة كانت راسخة ثابتة!

يقول الأستاذ فتحي يكن رحمه الله في مقال بعنوان فتنة السلطة: (ويحضرني في هذا المقام ما أورده ابن الجوزي في صيد الخاطر عن تجربته في مقاربة الحكام قال: (كنت في بداية الصبوة قد ألهمت سلوك طريق الزهاد، بإدامة الصوم والصلاة، وحببت إلي الخلوة، فكنت أجد قلبًا طيبًا، وكانت عين بصيرتي قوية الحدة، تتأسف على لحظة تمضي في غير طاعة، وتبادر الوقت في اغتنام الطاعات، ولي نوع أنس، وحلاوة مناجاة، فانتهى الأمر

أن صار بعض الولاة يستحسن كلامي، فأمالني إليه، فمال الطبع، ففقدت الحلاوة. ثم استمالني آخر، فكنت أتقي مخالطته خوف الشبهات، وحالتي قريبة، ثم جاء التأويل، فانبسطت فيما يباح، فعدم ما كنت أجد من استنارة، وصارت المخالطة توجب ظلمة القلب، إلى أن عدم النور كله، فكان حنيني إلى ما ضاع يوجب انزعاج المجلس، فيتوبون ويصلحون، وأخرج مفلسًا فيما بيني وبين حالي! وكثر ضجيجي من مرضي، وعجزت عن طلب نفسي، فلجأت إلى قبول الصالحين، وتوسلت في صلاحي، فاجتذبني لطف مولاي بي إلى الخلوة على كراهة، ورد قلبي علي بعد نفور، وأراني عيب ما كنت أوثره، فأفقت من مرض غفلتي)[1].

هذه الحالة تصيب من يسترسل في المخالطة خوفاً أو طمعاً وانجذاباً وراء حظوظ النفوس التي تهفو للوجاهة، فضلاً عن المصالح الشخصية والمآرب الدنيوية. فكم من (إسلامي) التقمته حيتان السلطة وابتلعته قصور السلاطين، وكم من (داعية) لحق بالحكام وترك دعوته وخان الأمانة، ونكث العهد وطعن إخوانه. لا أقول هذا تجنياً، ولا أتحدث عن ذلك افتياتاً أو افتراضاً، وإنما أتكلم عن أحداث جرت في عدد من الأقطار سمعتها بأذني، ورأيتها بعيني، وعانيت الكثير من آثارها وعواقبها.

- في مصر، وفي الخمسينات، التهمت السلطة من الدعاة والعلماء من التهمت، وكان أحدهم عضواً في مكتب الإرشاد.

- وفي العراق باع بعض مبادئه بعرض زائل وأصبح مطية لطاغوت البلد ومن زبانيته، وأصبح بأسه على إخوانه الذين سبقوه بالإيمان شديداً.

- وأذكر أن آذناً في مسجد تعهدته الحركة الإسلامية في الأردن فتعلم

---

(١) صيد الخاطر ص:٩٣ بتصرف واختصار.

وتعمم، ثم رشحته لعضوية المجلس النيابي ونجح، فما أحس بحلاوة الموقع حتى انقلب عدواً لحركته وجماعته وما يزال على ذلك حتى اليوم.

- ومن الجديد مما وقع على هذا الصعيد، أن أحدهم استماله السلطان، فاستمرأ مجالسته مع إنكار جماعته لسياسته، وحجبها الثقة عن حكومته، فيتذرع بأنه يتابع أحوال الرعية من خلال الراعي، ويقضي حاجات الناس من خلال الحاكم، وكانت النتيجة أنه لم يتمكن من إنجاز قضية! وسقى جماعته المنية في الانتخابات النيابية.

الجانب الآخر: هذا الجانب المظلم والمعتم يقابله الجانب المضيء الوضيء، الذي نرى فيه أرتالاً من الدعاة يصدعون بالحق ولا يخشون في الله لومة لائم). انتهى المقصود من كلام الأستاذ بتصرف.

ولئن كان القرب من السلطة فتنة، فكيف بالصراع الذي تزهق فيه الأرواح من أجلها؟! وقد وقع كثيرا من أفاضل على مر التاريخ!

تأمل حال أفغانستان بعد الشيوعية، والحال في الجزائر في أثناء التسعينيات، والوضع في الصومال، والوضع في اليمن، وتأمل وتأمل وسل ربك السلامة والعافية!

والخلاصة أن هذه الفتنة لا يسلم منها أحد، إلا من عصمه الله وأيده وسدده، لا فرق في ذلك بين العامة والخاصة، ولا فرق بين أهل الدين وغيرهم. ولئن كان تنكب طريق النجاة من أهل الفسق مرذولا فإنه من أهل الإيمان أشد، ولئن لم يستيقظ من فتن بالسلطة من أهل الإيمان من سكرتها فإن العاقبة عليهم وعلى من معهم ومن يثق بهم وخيمة، فنسأل الله ﷻ أن يهدي قلوب عباده الذين ولاهم أمر المسلمين في مشارق الأرض

ومغاربها ويأخذ بنواصيهم إليه، عسى أن يبدل ما نحن فيه ويرفع عن هذه الأمة ما نزل بها من عنت وجور من القريب والبعيد.

****

قال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾

تنتقل الآيات لمشهد من مشاهد يوم القيامة، لا سيما وأن هذه المشاهد ستمر على الجميع بالمواقعة أو بمشاهدة من يواقعها، فليس المخاطب بها فردا دون آخر أو فئة دون أخرى.

الأمر في الدنيا مختلف فقد يمر على الإنسان نوع بلاء ولا يمر عليه غيره، ولكن أحداث القيامة ستمر على الكل، والمؤسف أن كثيرا منا لا يتمثل أنه مخاطب بها وما فيها من مشاهد وكأنها لقوم آخرين، فينبغي أن يعرف كل واحد أنه سيندم يومها؛ لو كان مسيئاً لإساءته، ولو كان محسناً لأنه لم يزد في إحسانه، فيدفعه ذلك لمزيد من العمل وتعويض ما فات.

وقد كثر ذكر هذا اليوم العظيم إجمالا وتفصيلا في القرآن، وتنوعت صوره ومشاهده، لما في التكرار والتنوع من أثر عظيم على القلب، إذ تأخذ به إلى ربه جل وعلا مخبتا منيبا مجيبا داعيه، ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأحقاف].

فقوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾

قال ابن الجوزي: (في المشار إليهم ثلاثة أقوال.

أحدها: أنهم يأجوج ومأجوج. ثم في المراد ب «يومئذ» قولان.

أحدهما: أنه يوم انقضى أمر السدِّ، تُركوا يموج بعضهم في بعض من ورائه مختلطين لكثرتهم؛ وقيل: ماجوا متعجبين من السدِّ، والثاني: أنه يوم يخرجون من السدِّ تُركوا يموج بعضهم في بعض.

والثاني: أنهم الكفار. والثالث: أنهم جميع الخلائق. الجن والإنس يموجون حيارى. فعلى هذين القولين، المراد باليوم يوم القيامة)[١]، ولعل الأقرب والأنسب للسياق القول الثالث وهو ما اختاره ابن كثير قال: (وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ أي: الناس يومئذ، أي: يوم يُدكُّ هذا السد ويخرج هؤلاء فيموجون ويفسدون ويتلفون، وهكذا قال السدي في قوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ قال: ذاك حين يخرجون على الناس. وهذا قبل يوم القيامة وبعد الدجال، كما سيأتي بيانه عند قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ [الأنبياء] وهكذا قال هنا: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ قال ابن زيد في قوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾: هذا أول يوم القيامة، ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ على أثر ذلك ﴿فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾)[٢].

قال ابن عاشور: (والجملة عطف على التي قبلها ابتداء من قوله حتى إذا بلغ بين السدين، فهذه الجملة -لذكر صنع الله في هذه القصة الثالثة من قصص ذي القرنين إذ ألهمه دفع فساد ياجوج وماجوج- بمنزلة جملة ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾ في القصة الأولى، وجملة ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾، فجاء أسلوب حكاية هذه القصص الثلاث على نسق واحد)[٣].

وقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾

قال البغوي: (﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ لأن خروج يأجوج ومأجوج من

---

(١) زاد المسير ٤/ ٢٥٣ بتصرف يسير.

(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٩٩ بتصرف واختصار.

(٣) التحرير والتنوير ١٦/ ٤٠.

علامات الساعة)[١]، وهذه العلامات إذا بدأت تتابعت مسرعة إلى نفخ في الصور، قال ابن الجوزي: (﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ نفخة البعث)[٢]، ذلك أنه ينفخ فيه نفختان كما دل الكتاب والسنة، خلافاً لمن قال ثلاث، فإن هذا لم يأت إلا في حديث منكر كما قال العلامة أحمد شاكر رحمه الله[٣]، قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر]، وعن أبي هريرة: قال رسول الله ﷺ: "ما بين النفختين أربعون. قالوا أربعون يوماً؟ قال أبيت، قالوا أربعون شهراً؟ قال أبيت، قالوا أربعون سنة؟ قال أبيت"[٤]، فالنفخة الأولى نفخة الصعق تميت الخلائق إلا من استثنى الله ﷻ بقوله: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾، والنفخة الثانية نفخة البعث والنشور، وهي المقصودة هنا بدليل قوله: ﴿فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾.

قال ابن الجوزي: (في «الصور» قولان؛ أحدهما: أنه قرن ينفخ فيه؛ روى عبد الله بن عمرو أنه سأل رسول الله ﷺ عن الصور، فقال: "هو قرن ينفخ فيه"[٥] وقال مجاهد: الصور كهيئة البوق. وحكى ابن قتيبة: أن الصور: القرن، في لغة قوم من أهل اليمن... وهذا اختيارُ الجمهور.

والثاني: أن الصور جمع صورة؛ يقال: صورة وصور، بمنزلة سورة وسور، كسورة البناء؛ والمراد نفخ الأرواح في صُوَرِ الناس، قاله قتادة: وأبو عبيدة. وكذلك قرأ الحسن، ومعاذ القارىء، وأبو مِجْلَز، وأبو المتوكل «في الصُّوَر» بفتح الواو. قال ثعلب: الأجود أن يكون الصور: القرن، لأنه

---

(١) تفسير البغوي ٥/ ٢٠٩ بتصرف يسير.
(٢) زاد المسير ٤/ ٢٥٣ بتصرف يسير.
(٣) ينظر زاد المسير ٣/ ٦٩، حاشية ٢.
(٤) صحيح مسلم ٤/ ٢٢٧٠ (٢٩٥٥).
(٥) سنن الترمذي ٤/ ٦٢٠ (٢٤٣٠)، وصححه الألباني، والسائل فيه أعرابي.

قال ﷻ: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾؛ ولو كان الصُّوَر، كان: ثم نُفخ فيها أو فيهن؛ وهذا يدل على أنه واحد؛ وظاهر القرآن يشهد أنه يُنفخ فيه مرتين)(١).

والصواب ما عليه الجمهور كما دل ظاهر القرآن، وجاء مصرحاً في حديث "الصُّورُ قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ"(٢)، وعن أبي سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ: "كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن القرن وحنى جبهته وأصغى سمعه ينتظر أن يؤمر أن ينفخ فينفخ! قال المسلمون: فكيف نقول يا رسول الله؟ قال: قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل، توكلنا على الله ربنا"(٣).

وقوله: ﴿فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾

قال القرطبي: (﴿فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ يعني الجن والانس في عرصات القيامة)(٤)، وقال ابن كثير: (﴿فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ أي: أحضرنا الجميع للحساب ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة]، ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾ [الكهف: ٤٧])(٥)، قال البغوي: (في صعيد واحد)(٦)، وهذا إيذان ببدء حساب الخلائق.

---

(١) زاد المسير ٢/ ٣٦١ بتصرف واختصار.
(٢) سنن أبي داود ٤/ ٢٣٦ (٤٧٤٢).
(٣) سنن الترمذي ٥/ ٣٧٢ (٣٢٤٣)، وصححه الألباني.
(٤) تفسير القرطبي ١١/ ٦٥.
(٥) تفسير ابن كثير ٥/ ٢٠٠.
(٦) تفسير البغوي ٥/ ٢٠٩.

حديث يأجوج ومأجوج

أولاً- حقيقتهم: سبق معنا أن يأجوج ومأجوج أمتان مفسدتان في الأرض ضرب ذو القرنين عليهم ردماً كي لا يخرجوا ويعيثوا في الأرض الفساد، فضلاً من الله ورحمة بالعباد، وذكرا في موضعين من القرآن؛ في سورة الكهف كما مر، وفي سورة الأنبياء: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ٩٦ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٩٧ ﴾ [الأنبياء]، كما ورد ذكرهم في عدد من الأحاديث بينت شأنهم قبل فتح الردم، وبعده من فساد عريض وعيث في الأرض لا يكفه عن أهلها إلا الله ﷻ.

و في أصلهم وصفاتهم كثير من الأقوال التي لا يصح منها شيء، قال الرازي: (من الناس من وصفهم بقصر القامة وصغر الجثة بكون طول أحدهم شبراً ومنهم من وصفهم بطول القامة وكبر الجثة وأثبتوا لهم مخالب في الأظفار وأضراساً كأضراس السباع)[1]، وقال ابن كثير: (حكى النووي، رحمه الله عن بعض الناس: أن يأجوج ومأجوج خلقوا من مني خرج من آدم فاختلط بالتراب، فعلى هذا يكونون مخلوقين من آدم، وليسوا من حواء. وهذا قول غريب جدًا، لا دليل عليه لا من عقل ولا نقل، ولا يجوز الاعتماد على ما يحكيه بعض أهل الكتاب، لما عندهم من الأحاديث المفتعلة. وفي مسند أحمد عن سَمُرَة؛ أن رسول الله ﷺ قال: "وَلَدُ نوح ثلاثة: سام أبو العرب، وحام أبو السودان، ويافث أبو الترك". قال بعض العلماء: هؤلاء من نسل يافث أبي الترك، قال: إنما سموا هؤلاء تركًا؛ لأنهم

(١) تفسير مفاتيح الغيب للرازي ١٠/ ٢٥١.

تركوا من وراء السد، وإلا فهم أقرباء أولئك، ولكن كان في أولئك بغي وفساد. وذكر ابن جرير عن وهب بن منبه أثرًا طويلا عجيبًا في سير ذي القرنين، وبنائه السد، وكيفية ما جرى له، وفيه طول وغرابة ونكارة في أشكالهم وصفاتهم، وطولهم وقصر بعضهم، وآذانهم. وروى ابن أبي حاتم أحاديث غريبة في ذلك لا تصح أسانيدها)[1].

والتحقيق أنهم من ذرية آدم عليه السلام، لقوله ﷺ: "يقول الله عز وجل يوم القيامة: يا آدم. يقول: لبيك ربنا وسعديك. فينادى بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثا إلى النار. قال: يا رب وما بعث النار؟ قال: من كل ألف -أراه قال[2]- تسعمائة وتسعة وتسعين فحينئذ تضع الحامل حملها ويشيب الوليد وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد. فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم. فقال النبي ﷺ: من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعين ومنكم واحد"[3]، وما داموا كذلك فالأصل أنهم كغيرهم من بني آدم، فلا يعدل عن هذا إلا بدليل.

ثانياً- حالهم بعد بناء الردم: سبق بيان عجز يأجوج ومأجوج عن تسلق الردم أو نقبه، لكنهم لم يستسلموا، ففي الحديث أنهم مذ حبسوا خلف الردم يسعون لنقبه والخروج من محبسهم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "إن يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غدا، فيعودون إليه كأشد ما كان، حتى إذا بلغت مدتهم، وأراد الله أن يبعثهم

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٩٥ بتصرف واختصار.

(٢) الشك من حفص بن غياث راوي الحديث عن الأعمش، ينظر فتح الباري ٨/ ٤٤٢.

(٣) صحيح البخاري ٤/ ١٧٦٧ (٤٤٦٤).

على الناس، حفروا، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غدا، إن شاء الله، ويستثني، فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه، فيحفرونه ويخرجون على الناس"[١]، قال ابن كثير رحمه الله: (وهذا إسناده قوي، ولكن في رفعه نكارة؛ لأن ظاهر الآية يقتضي أنهم لم يتمكنوا من ارتقائه ولا من نقبه، لإحكام بنائه وصلابته وشدته. ولكن هذا قد روي عن كعب الأحبار: أنهم قبل خروجهم يأتونه فيلحسونه حتى لا يبقى منه إلا القليل، فيقولون: غدًا نفتحه. فيأتون من الغد وقد عاد كما كان، فيلحسونه حتى لا يبقى منه إلا القليل، فيقولون كذلك، ويصبحون وهو كما كان، فيلحسونه ويقولون: غدًا نفتحه. ويلهمون أن يقولوا: "إن شاء الله"، فيصبحون وهو كما فارقوه، فيفتحونه. وهذا مُتَّجه، ولعل أبا هريرة تلقاه من كعب. فإنه كثيرًا ما كان يجالسه، فحدث به فتوهم بعض الرواة أنه مرفوع، فرفعه. ويؤكد ما قلناه -من أنهم لم يتمكنوا من نقبه ولا نقب شيء منه، ومن نكارة هذا المرفوع- قول الإمام أحمد)[٢] ثم ذكر رحمه الله حديث زينب رضي الله عنها قالت: "استيقظ النبي صلى الله عليه وسلم من النوم محمراً وجهه يقول: لا إله إلا الله. ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه. -وعقد سفيان[٣] تسعين أو مائة- قيل: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث"[٤].

ولا تعارض لأن الآية تصف حالهم عند بناء الردم وأنهم عجزوا عن

---

(١) مسند الإمام أحمد ١٦/ ٣٦٩ (١٠٦٣١)، قال الأرناؤوط: صحيح على شرط الشيخين، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٢٧٦).

(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ١٩٨.

(٣) هو سفيان بن عيينة رحمه الله.

(٤) صحيح البخاري ٦/ ٢٥٨٩ (٦٦٥٠)، صحيح مسلم ٤/ ٢٢٠٧ (٢٨٨٠).

نقبه، وليس فيها ما يدل على استمرار هذه الحال وبقائها ولا ما يدل على إعراضهم عن المحاولة، بل إن الحديث الأخير ليدل على أنهم أخذوا وقتاً طويلاً حتى أمكنهم فتح هذه الفتحة الصغيرة، وهذا يعني أن ما دلت عليه الآية من عدم استطاعتهم بقي دهراً طويلاً، والله أعلم.

ثالثاً- هل خرج يأجوج ومأجوج؟

ذهب بعض المعاصرين إلى أن الردم فتح من زمن وأن يأجوج ومأجوج هم الروس، وهذا مخالف لما دلت عليه آيتا الكهف والأنبياء من اقتراب فتح الردم من يوم القيامة، إلا أن القائلين به ردوا على الاستدلال بالآيتين بما ذكره الشنقيطي رحمه الله وهو قولهم: (إنما تدل الآيات المذكورة في الكهف والأنبياء على مطلق اقتراب يوم القيامة من دك السد. واقترابه من يوم القيامة لا ينافي كونه قد وقع بالفعل، كما قال: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾ [الأنبياء: ١]. وقال: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ١﴾ [القمر]، وقال النبي ﷺ: « ويل للعرب، من شر قد اقترب، فتح من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلق بأصبعيه الإبهام والتي تليها»، وقد قدمناه في المائدة. فدل القرآن والسنة على أن اقتراب ما ذكر لا يستلزم اقترانه به، بل يصح اقترابه مع مهلة، وإذًا فلا ينافي دك السد الماضي المزعوم الاقتراب من يوم القيامة، فلا يكون في الآيات دليل على أنه لم يدك السد إلى الآن. فالجواب ما قدمنا أن البيان بالآيات ليس وافياً بتمام الإيضاح إلا بضميمة السنة، ولذا ذكرنا أننا نتمم مثله من السنة لأنها مبينة للقرآن)[1]، ثم ذكر رحمه الله الحديث وفيه: "ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فيمر أوائلهم

---

(١) أضواء البيان ٣/ ٤٠٧ بتصرف واختصار.

على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها ويمر آخرهم فيقولون لقد كان بهذه مرة ماء ويُحصَر نبي الله عيسى وأصحابه"[1] ثم قال: (وهذا الحديث الصحيح قد رأيت فيه تصريح النَّبي ﷺ: بأن الله يوحي إلى عيسى خروج يأجوج ومأجوج بعد قتله الدجال. فمن يدعي أنهم روسية وأن السد قد اندك منذ زمان فهو مخالف لما أخبر به النَّبي ﷺ مخالفة صريحة لا وجه لها. ولا شك أن كل خبر ناقض خبر الصادق المصدوق ﷺ فهو باطل لأن نقيض الصادق كاذب ضرورة كما هو معلوم. ولم يثبت في الكتاب ولا السنة شيء يعارض هذا الحديث الذي رأيت صحة سنده، ووضوح دلالته على المقصود. والعمدة في الحقيقة لمن ادعى أن يأجوج ومأجوج هو روسية، ومن ادعى من الملحدين أنهم لا وجود لهم أصلاً - هي حجة عقلية في زعم صاحبها؛ يقول: لو كان يأجوج ومأجوج وراء السد إلى الآن، لاطلع عليهم الناس لتطور طرق الموصلات، لكنهم لم يطلع عليهم أحد ينتج: فهم ليسوا وراء السد إلى الآن، هذا عمدة حجة المنكرين وجودهم إلى الآن وراء السد، [قال:] فقولكم: لو كانوا موجودين وراء السد إلى الآن لاطلع عليهم الناس غير صحيح. لإمكان أن يكونوا موجودين والله يخفي مكانهم على عامة الناس حتى يأتي الوقت المحدد لإخراجهم، ومما يؤيد إمكان هذا ما ذكره في المائدة من جعل بني إسرائيل يتيهون في الأرض أربعين سنة في قوله: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [المائدة]، وهم في فراسخ قليلة، يمشون ليلهم ونهارهم ولم يطلع عليهم الناس حتى انتهى أمد التيه، لأنهم لو اجتمعوا بالناس لبينوا لهم الطريق. وعلى كل حال، فربك فعال لما يريد،

---

(١) صحيح مسلم ٤/ ٢٢٥٠ (٢٩٣٧).

وأخبار رسوله ﷺ الثابتة عنه صادقة)[1].

شبهة أخرى: يشكك بعض المعاصرين في وجود يأجوج ومأجوج اليوم لأن الأقمار الصناعية لم تترك بقعة إلا مسحتها بالأجهزة الحديثة وصورتها فكيف لم يكتشف هؤلاء القوم وأعدادهم هائلة كما نعلم؟

فيقال: إضافة لما قاله الشنيطي رحمه الله إنه قد ورد في الحديث أنهم يحفرون "حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غدا" وهذا مشعر بأنهم في مكان كالغار أو في غابة كثيفة ملتفة الأشجار بحيث لا يصل إليهم شعاع الشمس، ووجود مثل هذا المكان وبخاصة الغار بحيث يكون في منطقة وعرة لا يصل إليها البشر ولا تتمكن الأقمار الصناعية من رؤية ما بداخله ممكن لا يحيله العقل.

تنبيه- يظن بعض الناس أن المقصود بيأجوج ومأجوج المغول أو التتر، وهذا القول أوجه من القول بأنهم الروس لاشتباه حال الأولين بيأجوج ومأجوج، في كثرة عددهم وسرعة انتشارهم في الأرض وعظيم الفساد الذي خلفوه في كل مكان حلوا فيه، وعظم مصاب أمة الإسلام بهم، ما يجعل اشتباههم بيأجوج ومأجوج وجيهاً، لكن الحق الذي لا مراء فيه أنهم ليسوا هم، وأنهم لم يخرجوا بعد بدلالة حديث مسلم السابق وغيره مما سنذكر طرفاً منه إن شاء الله، لكن العجيب أن يقول بهذا بعض أهل العلم، مع الدلالة الصريحة لتلك الأحاديث على أنهم لا يخرجون إلا بعد نزول المسيح عليه السلام، وممن قال بهذا ابن عاشور في تفسيره لآيتي الكهف والأنبياء كما مر، قال رحمه الله: (وبناء على هذا التفسير تكون هذه الآية

---

(١) أضواء البيان ٣/ ٤٠٨ بتصرف واختصار.

وصفت انتشار ياجوج وماجوج وصفا بديعا قبل خروجهم بخمسة قرون فعددنا هذه الآية من معجزات القرآن العلمية والغيبية. ولعل تخصيص هذا الحادث بالتوقيت دون غيره من علامات قرب الساعة قصد منه مع التوقيت الإنذار للعرب المخاطبين ليكون ذلك نصب أعينهم تحذيرا لذرياتهم من كوارث ظهور هذين الفريقين فقد كان زوال ملك العرب وتدهور حضارتهم على أيدي ياجوج وماجوج وهم المغول والتتار كما بين ذلك الإنذار النبوي في ساعة من ساعات الوحي. فقد روت زينب بنت جحش أن النبيء ﷺ دخل عليها فزعا يقول: «لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم ياجوج وماجوج هكذا» وحلق بإصبعه الإبهام والتي تليها. والاقتراب على هذا نسبي على نسبة ما بقي من الدنيا بما مضى منه كقوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ١﴾ [القمر])[1]، وبطلان هذا القول في ضوء الأحاديث الصحيحة المصرحة بأن خروجهم بعد نزول المسيح عليه السلام لا يخفى، فلزم التنبيه كي لا يغتر أحد بهذا الكلام، وأما زوال ملك العرب على يد المغول فقد كان مؤقتاً، وليس هو المقصود، بل المقصود أعظم وأشد، وهو ما بينته الأحاديث مما يكون من يأجوج ومأجوج عند خروجهم، والله المستعان.

رابعاً- حالهم بعد الخروج: سبق أن الله سبحانه جعل لهذا الردم ولمحبس يأجوج ومأجوج خلفه أجلاً، حتى إذا انقضى تحقق وعد الله بفتح الردم وخروجهم، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ٩٦ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٩٧﴾ [الأنبياء] قال

---

(١) التحرير والتنوير ١٤٨/١٧ بتصرف واختصار.

الشوكاني: (والمراد بفتح يأجوج ومأجوج فتح السدّ)[1]، وقال ابن كثير: (أي: يسرعون في المشي إلى الفساد، والحَدَب: المرتفع من الأرض، قاله ابن عباس، وعكرمة، وأبو صالح، والثوري وغيرهم، وهذه صفتهم حال خروجهم، كأن السامع مشاهد، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر]: هذا إخبار عالم ما كان وما يكون، يعلم غيب السموات والأرض)[2].

وقد جاءت الأحاديث بصفة خروجهم وما يكون منهم من العجائب، فمن ذلك حديث النواس بن سمعان ﷺ، وفيه يقول النبي ﷺ بعد ذكر الدجال وما يكون منه: "فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين[3] واضعا كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ فلا يحل لكافر يجد ريح نفَسِه إلا مات. ونفَسُه ينتهي حيث ينتهي طرفه فيطلبه حتى يدركه بباب لُد فيقتله ثم يأتي عيسى ابنَ مريم قومٌ قد عصمهم الله منه فيمسح عن وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى إني قد أخرجت عباداً لي لا يدان لأحد بقتالهم فحرز عبادي إلى الطور ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها ويمر آخرهم فيقولون لقد كان بهذه مرة ماء ويُحصَر نبي الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرا من مائة دينار لأحدكم اليوم فيرغب

---

(١) فتح القدير ٥/ ٨١.

(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ٣٧٢ بتصرف واختصار.

(٣) قال النووي في شرح مسلم ١٨/ ٦٧: ومعناه لابس مهرودتين أى ثوبين مصبوغين بورس ثم بزعفران وقيل هما شقتان والشقة نصف الملاءة.

نبي الله عيسى وأصحابه فيرسل الله عليهم النغف(١) في رقابهم فيصبحون فرسى(٢) كموت نفس واحدة ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم ونتنهم(٣) فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله فيرسل الله طيرا كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله ثم يرسل الله مطرا لا يكن منه بيت مدر ولا وبر فيغسل الأرض حتى يتركها كالزَّلَفة(٤) ثم يقال للأرض أنبتي ثمرك وردي بركتك فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقِحفها(٥) ويبارك في الرِّسل(٦) حتى إن اللِّقحة(٧) من الإبل لتكفي الفئام(٨) من الناس واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس واللقحة من الغنم لتكفي الفخْذ من الناس فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحا طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر(٩) فعليهم تقوم الساعة"(١٠).

ومنه حديث أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "يفتح يأجوج ومأجوج، يخرجون على الناس، كما قال الله ﷻ: ﴿مِّن كُلِّ

---

(١) دود يكون في أنوف الإبل والغنم.
(٢) أي قتلى.
(٣) أي دسمهم ورائحتهم الكريهة.
(٤) أي كالمرآة.
(٥) هو مقعر قشرها.
(٦) اللبن.
(٧) هي القريبة العهد بالولادة.
(٨) الجماعة الكثيرة.
(٩) أي يجامع الرجال النساء بحضرة الناس كما تفعل الحمر ولا يكترثون لذلك.
(١٠) صحيح مسلم ٤/ ٢٢٥٠ (٢٩٣٧).

حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ [الأنبياء]، فيغشون الأرض، وينحاز المسلمون عنهم إلى مدائنهم وحصونهم، ويضمون إليهم مواشيهم، ويشربون مياه الأرض، حتى إن بعضهم ليمر بالنهر فيشربون ما فيه، حتى يتركوه يبسا، حتى إن من بعدهم ليمر بذلك النهر فيقول: قد كان هاهنا ماء مرة، حتى إذا لم يبق من الناس إلا أحد في حصن أو مدينة قال قائلهم: هؤلاء أهل الأرض، قد فرغنا منهم، بقي أهل السماء"، قال: "ثم يهز أحدهم حربته ثم يرمي بها إلى السماء، فترجع إليه مختضبة دما، للبلاء والفتنة، فبينا هم على ذلك، بعث الله دودا في أعناقهم، كنغف الجراد الذي يخرج في أعناقهم، فيصبحون موتى لا يسمع لهم حسا، فيقول المسلمون: ألا رجل يشري لنا نفسه فينظر ما فعل هذا العدو". قال: "فيتجرد رجل منهم لذلك محتسبا لنفسه قد أظنها على أنه مقتول، فينزل، فيجدهم موتى بعضهم على بعض، فينادي: يا معشر المسلمين، ألا أبشروا، فإن الله قد كفاكم عدوكم. فيخرجون من مدائنهم، وحصونهم، ويسرحون مواشيهم، فما يكون لها رعي إلا لحومهم، فتشكر عنه كأحسن ما تشكر عن شيء من النبات أصابته قط"[1].

قال ابن كثير: (والأحاديث في هذا كثيرة، والآثار عن السلف كذلك، وقد روى ابن جرير وابن أبي حاتم، من حديث مَعْمَر، عن غير واحد، عن حميد بن هلال، عن أبي الصَّيف قال: قال كعب: إذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج، حفروا حتى يسمع الذين يلونهم قرع فؤوسهم، فإذا كان الليل قالوا: نجيء غدا فنخرج، فيعيده الله كما كان. فيجيئون من

(١) مسند أحمد ١٨/ ٢٥٧ (١١٧٣١)، قال الأرناؤوط: إسناده حسن.

الغد فيجدونه قد أعاده الله كما كان، فيحفرونه حتى يسمع الذين يلونهم قرع فؤوسهم، فإذا كان الليل ألقى الله على لسان رجل منهم يقول: نجيء غدا فنخرج إن شاء الله. فيجيئون من الغد فيجدونه كما تركوه، فيحفرون حتى يخرجوا. فتمر الزمرة الأولى بالبحيرة، فيشربون ماءها، ثم تمر الزمرة الثانية فيلحسون طينها، ثم تمر الزمرة الثالثة فيقولون: قد كان هاهنا مرة ماء، ويفر الناس منهم، فلا يقوم لهم شيء. ثم يرمون بسهامهم إلى السماء فترجع إليهم مُخَضَّبة بالدماء فيقولون: غلبنا أهل الأرض وأهل السماء. فيدعو عليهم عيسى ابن مريم، عليه السلام، فيقول: "اللهم، لا طاقة ولا يَدَين لنا بهم، فاكفناهم بما شئت"، فيسلط الله عليهم دودا يقال له: النغف، فيفرس رقابهم، ويبعث الله عليهم طيرا تأخذهم بمناقيرها فتلقيهم في البحر، ويبعث الله عينا يقال لها: "الحياة" يطهر الله الأرض وينبتها، حتى إن الرمانة ليشبع منها السَّكْن". قيل: وما السَّكن يا كعب؟ قال: أهل البيت -قال: "فبينما الناس كذلك إذ أتاهم الصَّريخ أن ذا السُّويقَتَين يريده. قال: فيبعث عيسى ابن مريم طليعة سبعمائة، أو بين السبعمائة والثمانمائة، حتى إذا كانوا ببعض الطريق بعث الله ريحا يمانية طيبة، فيقبض فيها روح كل مؤمن، ثم يبقى عَجَاج الناس، فيتسافدون كما تَسَافَدُ البهائم، فَمَثل الساعة كمثل رجل يطيف حول فرسه ينتظرها متى تضع؟ قال كعب: فمن تكلف بعد قولي -أو بعد علمي- هذا شيئا فهو المتكلف. هذا من أحسن سياقات كعب، لما شهد له من صحيح الأخبار)[1].

فهذا هو ما صح من خبر يأجوج ومأجوج وما يكون منهم من فساد

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ٣٧٦ بتصرف يسير.

وإفساد في المستقبل، كما كان منهم في زمن ذي القرنين، وأما ما سوى ذلك من القصص والحكايات فمحض وهم وخرافة، سواء كان من الإسرائيليات أو من اختراع القصاص، والله أعلم.

قال تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾

مناسبة الآيات لما قبلها:

لما انتهت الآيات إلى وقت نفخ الصور إيذاناً بالحساب، ناسب أن يأتي تفصيل ما أعد الله من جزاء للفريقين اللذين لا ثالث لهما؛ من آمنوا به وبرسله، ومن كفروا به وكذبوا الرسل، وهنا يأتي المشهد الأول للحساب ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾، وقد حذرت بداية السورة كل عاقل ومتبصر وكل حاذق ومتفطن، كي لا يصل لهذه المرحلة ولا تعرض عليه جهنم؛ بل ليكون نزله الفردوس، فقال الله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾ [الكهف]، ثم بين لنا بعض هذه الزينة في سياق هذه السورة كفتنة المال والجاه والولد، وفتنة السلطان، وفتنة القوة والعدد، كي يحصل البلاء ويجري على البشر الاختبار، وهم على بينة من أمرهم. وبعد أن مضى الحديث عن أصحاب الكهف، وصاحب الجنتين، وعن

الدنيا وزينتها، وبعد قصة موسى والخضر عليهما السلام، وقصة ذي القرنين وما تخلل ذلك من تحذير وإنذار ووعد ووعيد وترغيب وترهيب، أردف الله ﷻ ببيان ما للفريقين، فكأن النهاية هنا نتيجة المقدمة هناك، وحاصل سياق السورة وما فيها من الفتن والابتلاء.

فقوله: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾

قال ابن كثير: (يقول تعالى عما يفعله بالكفار يوم القيامة: إنه يعرض عليهم جهنم، أي: يبرزها ويظهرها، ليروا العذاب والنكال قبل دخولها، ليكون أبلغ في تعجيل الهم والحزن. وفي مسلم عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: "يؤتى بجهنم تقاد يوم القيامة بسبعين ألف زِمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها")[1]، وقال الشنقيطي: (وقال بعض العلماء: اللام في «للكافرين» بمعنى على، وهذا يشهد له القرآن؛ لأن العرض في القرآن يتعدى بعلى؛ كقوله: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ [الأحقاف: ٢٠]، وقوله: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦]، وقوله: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ [الكهف: ٤٨]، ونظيره في كلام العرب البيت الذي قدمناه في سورة هود، وهو قوله:

هتكت له بالرمح جيب قميصه ... فخر صريعاً لليدين وللفم

أي خر صريعاً على اليدين.

وقد علم من الآيات: أن النار تعرض عليهم ويعرضون عليها؛ لأنها تقرب إليهم ويقربون إليها. كما قال في عرضها عليهم: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾، وقال في عرضهم عليها: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ الآية،

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ٢٠١ بتصرف يسير.

ونحوها)[١]، ولا تعارض بين المعنيين، فإن جهنم تبرز للكافرين يوم القيامة ويرونها من مكان بعيد كما قال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الفرقان]، ثم تقرب منهم تجرها الملائكة، ويقربون منها تسوقهم الملائكة لتلقيهم فيها، قال ابن عاشور: (وعرض جهنم مستعمل في إبرازها حين يشرفون عليها وقد سيقوا إليها فيعلمون أنها المهيئة لهم)[٢]، وفي هذا من عذاب النفس وألمها ما الله به عليم، نسأل الله العافية.

قال ابن عاشور: (وتأكيد فِعلَي فجمعناهم وعرضنا بمصدريهما لتحقق أنه جمع وعرض حقيقي لا مجاز، وفي تنكيرهما تهويل)[٣]، قال ابن عثيمين رحمه الله: (ولذلك نُكِّر، يعني عرضاً عظيماً تتساقط منه القلوب، ومن الحِكَم في الإخبار الله عز وجل بذلك أن يصلح الإنسان ما بينه وبين الله، وأن يخاف هذا اليوم، ويستعد له، ويصور نفسه كأنه تحت قدميه، كما قال الصِّديق:

كُلُّ امْرِئٍ مُصَبَّحٌ فِي أَهْلِهِ   وَالْمَوْتُ أَدْنَى من شِرَاكِ نَعْلِهِ

فتصور هذا وأنه ليس بينك وبينه إلَّا أن تخرج الروح ثم ينتهي كل شيء)[٤].

وقوله: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾

قال ابن عاشور: (ونعت الكافرين بـ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ﴾ تنبيه أن مضمون الصلة هو سبب عرض جهنم لهم، أي الذين عرفوا بذلك في الدنيا، والغطاء: مستعار لعدم الانتفاع بدلالة البصر على تفرد الله بالإلهية،

---

(١) أضواء البيان ٣/ ٤١١ بتصرف واختصار.

(٢) التحرير والتنوير ١٦/ ٤٢ بتصرف يسير.

(٣) التحرير والتنوير ١٦/ ٤٢ بتصرف واختصار.

(٤) تفسير القرآن للعثيمين ٦/ ١١٢ بتصرف يسير.

وحرف (في[1]) للظرفية المجازية، وهي تمكن الغطاء من أعينهم كأنها محوية للغطاء، و(عن) للمجاوزة، أي عن النظر فيما يحصل به ذكري)[2]. قال ابن كثير: (أي: تعاموا وتغافلوا وتصامُّوا عن قبول الهدى، كما قال: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف] وقال هاهنا: ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ أي: لا يعقلون عن الله أمره ونهيه)[3]، وقال السعدي رحمه الله: (لا يقدرون على سمع آيات الله الموصلة للإيمان، لبغضهم القرآن والرسول، فإن المبغض لا يستطيع أن يلقي سمعه لمن أبغضه، فإذا انحجبت عنهم طرق العلم والخير، فليس لهم سمع ولا بصر ولا عقل نافع، فقد كفروا بالله وجحدوا آياته، وكذبوا رسله، فاستحقوا جهنم)[4].

فالمنفي ليس الإبصار والسمع الحقيقي، إذ لهم أعين يرون بها وآذان يسمعون بها، لكنهم كما قال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف]، قال ابن كثير: (أي: ليس ينتفعون بالجوارح التي جعلها الله سببا للهداية كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأحقاف] وقال: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ [البقرة] هذا في حق المنافقين، وقال في حق الكافرين: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة] ولم يكونوا كذلك إلا عن الهدى، كما قال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾

(١) في المطبوع (من).
(٢) التحرير والتنوير ١٦/ ٤٢ بتصرف يسير.
(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ٢٠١ بتصرف يسير.
(٤) تفسير السعدي ١/ ٤٨٧ بتصرف يسير.

[الأنفال]، وقال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ۝٤٦﴾ [الحج]، وقال: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝٣٦ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۝٣٧﴾ [الزخرف]. وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي: الذين لا يسمعون الحق ولا يبصرون الهدى، كالأنعام التي لا تنتفع بالحواس إلا في الذي يعيشها من ظاهر الحياة كما قال: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [البقرة: ١٧١] أي: ومثلهم في دعائهم إلى الإيمان كمثل الأنعام إذا دعاها راعيها لا تسمع إلا صوته، ولا تفقه ما يقول؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ أي: من الدواب؛ لأنها تستجيب لراعيها إذا أَبَسَّ بها[1]، وإن لم تفقه كلامه، بخلاف هؤلاء؛ ولأن الدواب تفقه ما خلقت له إما بطبعها وإما بتسخيرها، بخلاف الكافر فإنه خلق ليعبد الله فكفر؛ ولهذا من أطاع الله من البشر كان أشرف من مثله من الملائكة في معاده، ومن كفر به من البشر، كانت الدواب أتم منه؛ ولذا قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾)[2].

وهذه حال كثير من العلمانيين والليبراليين في بلادنا، فالذي يقرأ ما يكتبون في وسائل الإعلام يعجب لحالهم، فكأنهم ما ولدوا في هذه البلاد ولا عاشوا ولا درسوا ولا تعلموا فيها أصول الإيمان والعقيدة، ومن دخل على مواقعهم على الشابكة قفَّ شعر رأسه مما يراه من كفر بواح وتكذيب بآيات الله وإعراض عن منهجه، وسخرية واستهزاء بالله ورسوله؛ كل هذا وأكثر بزعم حرية الرأي والتعبير، ولا تجد فيهم من ينكر! وأمثلهم طريقة

---

(١) أبس بالناقة دعاها للحلب، وهو أن يقول لها: بِسْ بِسْ وهو ضرب من زجر الإبل (لسان العرب: ب س س).

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٥١٣ بتصرف واختصار.

قد يرد على صاحبه ويخالفه رأيه مع احترامه في اختيار ما يريد!

هذه هي الحرية المزعومة التي جعلوها صنماً يعبد من دون الله، وما هي إلا زندقة وفتنة صماء وردة صلعاء، هذه هي الحرية التي يبشرون بها ويريدون نشرها في بلادنا، لا بلغهم الله ما يريدون.

قال ابن عاشور: (﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾﴾ تَخَلُّصٌ من أغراض الاعتبار بما في القصة من إقامة مصالح الدنيا على أيدي أوليائه، إلى غرض التذكير بالموعظة بأحوال الآخرة، وهو تخلص يؤذن بتشبيه تموجهم بتموج الناس في المحشر، تذكيرا للسامع بالحشر وتقريبا بحصوله في خيال المشركين. فإن القادر على جمع أمة كاملة وراء هذا السد، بفعل من يسره لذلك من خلقه، أقدر على جمع الأمم في الحشر بقدرته، لأن متعلقات القدرة في الآخرة أعجب. وقد تقدم أن من أهم أغراض السورة إثبات البعث، واستعمل الماضي موضع المضارع لتحقيق وقوعه)[1].

وقوله: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾

قال ابن الجوزي: (أي: أَفَظَنَّ المشركون ﴿أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى﴾ فيهم ثلاثة أقوال؛ أحدها: الشياطين، قاله ابن عباس، والثاني: الأصنام، قاله مقاتل، والثالث: الملائكة والمسيح وعزير وسائر المعبودات من دونه، قاله أبو سليمان الدمشقي)[2]، قال الشنقيطي: (والأظهر المتبادر من الإضافة في "عبادي" أن المراد نحو الملائكة وعيسى وعزيز، لا الشياطين ونحوهم،

---

(١) التحرير والتنوير ١٦/ ٤١ بتصرف واختصار.

(٢) زاد المسير ٤/ ٢٥٤ بتصرف يسير.

لأن هذه الإضافة للتشريف غالباً)[1]، ويجاب بأنه إن كان الغالب فلا يلزم أن يراد في كل موضع، فالمراد أشمل لأن الآية لا تخص الذين عبدوا الصالحين من الملائكة والأنبياء وغيرهم، بل عامة في الذين اتخذوا من دون الله أولياء، ولا شك أن أولاهم بالخطاب قوم النبي ﷺ وقد كان أكثر ما يعبدون الأصنام، وليست كلها لصالحين، كما كانوا يعبدون الشياطين، كما قالت الملائكة يوم سألهم الله: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ۝٤٠ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ۝٤١﴾ [سبأ]، قال ابن كثير: (﴿بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ﴾ يعنون: الشياطين؛ لأنهم هم الذين يزينون لهم عبادة الأوثان ويضلونهم)[2]، وينفصل عن هذا بأنه لا تعارض بين الأقوال، فمن قال الملائكة أو الشياطين أو الأصنام كان يمثل بأفراد من جنس الأولياء المتخَذين، والقول الأخير شامل لها جميعاً فيصار إليه.

قال الشنقيطي: (الهمزة في قوله: ﴿أَفَحَسِبَ﴾ للإنكار والتوبيخ. وفي الآية حذف دل المقام عليه، قال بعضهم: تقدير المحذوف: أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء ولا أعاقبهم العقاب الشديد؟ كلا! بل سأعاقبهم. بدليل قوله بعده: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا﴾، وقال بعض العلماء: تقديره: أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء وأن ذلك ينفعهم؟ كلا! بل يضرهم. ويدل لهذا قوله عنهم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وقوله عنهم: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٨]. ثم إنه تعالى بين بطلان ذلك بقوله:

---

(١) أضواء البيان ٣/ ٤١٣ بتصرف يسير.

(٢) تفسير ابن كثير ٦/ ٥٢٤.

﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس]، وما أنكره عليهم هنا من ظنهم أنهم يتخذون من دونه أولياء ولا يعاقبهم، أو أن ذلك ينفعهم، جاء مبيناً في مواضع، كقوله في الأعراف: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [الأعراف: ٣]. فقد نهاهم عن اتباع الأولياء من دونه في هذه الآية، لأنه يضرهم ولا ينفعهم، وأمثال ذلك كثيرة في القرآن، كقوله: ﴿وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ﴾ [الكهف: ٢٦]، وقوله: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [هود]، وقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ﴾ [الشورى: ٤٤]، وقوله: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ﴾ [الأنعام: ٥١]، وقوله: ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ﴾ [الأنعام: ٧٠]، ونحوه من الآيات)[1].

وانظر لحال الحكام الذين اتخذوا أمريكا والغرب أولياء ينتصرون بهم، هل نفعوهم؟ كانت أمريكا تناصرهم وتؤزهم على الشر أزاً، ولكنها تخلت عنهم أحوج ما يكونون، بل ذهبت أبعد من ذلك ووقفت ضدهم.

وهؤلاء سيتبرأ بعضهم من بعض: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة]، وهذا التبرؤ من العذاب النفسي الذي قد يكون أشد من الجسدي.

وهنا لا بد أن يبحث في شأنه وأحواله هل ولايته مخالفة لولاية الله ﷻ، كانت لأمير أو وزير، أو زوجة أو أولاد، أو غير ذلك، فكل من اتخذ ولاية مخالفة لولاية الله سبحانه فهو داخل في الآية.

---

(١) أضواء البيان ٣/ ٤١٣ بتصرف واختصار.

ومعنى (أعتدنا) أعددنا وهيأنا وأرصدنا، قال الألوسي: (من العتاد وهو ادخار الشيء قبل الحاجة، وقيل: أصله أعددنا فأبدل من إحدى الدالين تاء والمعنى واحد أي هيأنا)[1]، قال البغوي: (﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾ أي: منزلاً، قال ابن عباس: هي مثواهم. وقيل: النزل ما يهيأ للضيف؛ يريد هي معدة لهم عندنا كالنزل للضيف)[2]، وعلى الثاني يجري الكلام مجرى الاستهزاء والتهكم، لأن من حق الضيف أن يكرم نزله، وبما أنهم عطلوا عقولهم واستهزؤوا بآيات الله وتعامَوا عن الحق؛ استهزأ الله بهم وجعل لهم جهنم منزلا، كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣﴾ [التوبة]، قال ابن عاشور: (وحقيقة التبشير: الإخبار بما يظهر سرور المخبر (بفتح الباء) وهو هنا مستعمل في ضد حقيقته، إذ أريد به الإخبار بالعذاب، وهو موجب لحزن المخبَرين، وهذا معدود عند علماء البيان استعارة، ويسمونها تهكمية لأن تشبيه الضد بضده لا يروج في عقل أحد إلا على معنى التهكم، أو التمليح)[3]. قال ابن عاشور: (وإظهار الذين كفروا دون أن يقال: أفحسبوا، بإعادة الضمير إلى الكافرين في الآية قبلها، لقصد استقلال الجملة بدلالتها، وزيادة في إظهار التوبيخ لها. وجملة إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا مقررة لإنكار انتفاعهم بأوليائهم فأكد بأن جهنم أعدت لهم نزلا فلا محيص لهم عنها ولذلك أكد بحرف "إن")[4].

---

(١) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٢٣٩ بتصرف واختصار.
(٢) تفسير البغوي ٥/ ٢١٠.
(٣) التحرير والتنوير ٣/ ٢٠٧ بتصرف واختصار.
(٤) التحرير والتنوير ١٦/ ٤٤.

ومع تأكيد هذا المعنى في الكتاب والسنة؛ إلا أن الصمم في آذان الكفار حال بينهم وبين قبول الحق وإفراد الله ﷻ بالعبادة والوحدانية، فعموا وصموا واتخذوا من دونه أولياء شتى فتاهوا في الضلال.

وما أكثر ألوان الشرك عند أهله، فمنهم من عبد البشر كعيسى وعزير عليهما السلام، ومنهم من عبد الملائكة، ومنهم من عبد الأصنام والجن، والشمس، والقمر، والأحجار، والأشجار، نسأل الله العافية.

ومهما اتخذ الإنسان من أولياء وعبدهم من دون الله فلن ينفعه ذلك ولن يأتيه بخير كما قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ ﴾ [الرعد: ١٦]، وقال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ ﴾ [الفرقان]، ثم إن كل هذه المعبودات تتبرأ ممن عبدها يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الفرقان].

وقوله: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴾

قال الشنقيطي: (المعنى: قل لهم يا نبي الله: هل نخبركم بالأخسرين الذين هم أخسر الناس أعمالاً وأضيعها. فالأخسر صيغة تفضيل من الخسران وأصله نقص مال التاجر)[١]، وقال الألوسي: (﴿أَعْمَٰلًا﴾ تمييز، وجمع -مع أن الأصل في التمييز الإفراد، والمصدر شامل للقليل والكثير- للإيذان بتنوع أعمالهم وقصد شمول الخسران لجميعها)[٢].

---

(١) أضواء البيان ٣/ ٤١٤ بتصرف يسير.

(٢) تفسير روح المعاني للألوسي ١١/ ٤٢١ بتصرف يسير.

قال الطبري: (﴿هَلْ نُنَبِّئُكُم﴾ أيها القوم ﴿بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾ الذين أتعبوا أنفسهم في عمل يبتغون به ربحاً فنالوا به عَطَبا وهلاكا ولم يدركوا طلبا، كالمشتري سلعة يرجو ربحا، فخاب رجاؤه ووكس، عنى بقوله: ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾ كلّ عامل عملا يحسبه فيه مصيبا، وأنه لله مطيع، وهو لله مسخط، وعن طريق أهل الإيمان جائر؛ كالرهابنة والشمامسة وأمثالهم من أهل الاجتهاد في ضلالتهم، وهم مع ذلك بالله كفرة، من أهل أيّ دين كانوا)[1]، قال ابن القيم: (﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾﴾ [الكهف]، هم الذين عنى بقوله: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان]، وبقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة])[2].

قال البغوي: (واختلفوا فيهم: قال ابن عباس وسعد: هم اليهود والنصارى. وقيل: هم الرهبان ﴿ٱلَّذِينَ﴾ حبسوا أنفسهم في الصوامع. وقال علي: هم أهل حروراء)[3]، وهذا ليس خلافاً على التحقيق، فهذه الأقوال ليست عن سبب نزول الآية وفيمن نزلت، قال ابن كثير: (ومعنى هذا عن علي رضي الله عنه: أن الآية تشمل الحرورية كما تشمل اليهود والنصارى وغيرهم، لا أنها نزلت فيهم على الخصوص بل هي أعم؛ فإن الآية مكية قبل خطاب اليهود والنصارى وقبل وجود الخوارج، وإنما هي عامة في كل من عبد الله على غير طريقة مرضية يحسب أنه مصيب، وأن عمله مقبول، وهو مخطئ، وعمله مردود، كما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ

(١) تفسير الطبري ١٨/ ١٢٦ بتصرف واختصار.
(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ١/ ٩ بتصرف يسير.
(٣) تفسير البغوي ٥/ ٢١١ بتصرف يسير.

﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾﴾ [الغاشية] وقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان] وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور: ٣٩]. وقال في هذه الآية: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم﴾ أي: نخبركم ﴿بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾؟ ثم فسرهم: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: عملوا أعمالا باطلة غير مشروعة ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ يعتقدون أنهم على شيء، وأنهم مقبولون محبوبون)(١).

وذهب ابن عطية إلى أن الاستفهام لا ينتهي عند: ﴿أَعْمَٰلًا﴾ بل عند: ﴿صُنْعًا﴾، قال: (المعنى: قل لهؤلاء الكفرة توبيخا: هل نخبركم بالذين خسروا عملهم وضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم مع ذلك يظنون أنهم يحسنون فيما يصنعونه؟ فإذا طلبوا ذلك فقل لهم: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ﴾، وهذه صفة المخاطبين من كفار العرب المكذبين بالبعث)(٢)، وهو قول له وجاهته، إلا أنه ضعف بقية الأقوال بقوله: (ويضعف هذا كله قوله بعد ذلك ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ﴾ وليس من هذه الطوائف من يكفر بلقاء الله، وإنما هذه صفة مشركي عبدة الأوثان، فاتجه بهذا ما قلناه أولاً، وعلي وسعد رضي الله عنهما ذكرا أقواماً أخذوا بحظهم من صدر الآية)(٣)، ويجاب عن ذلك بأجوبة: منها أن هذه الأقوال لا تحدد من نزلت فيهم الآية كما سبق، ومنها أن هؤلاء يظنون أنهم إن لقوا الله ﷻ أكرمهم، وظنهم باطل، فهم كافرون بلقاء يعذبهم الله فيه، فأنزلوا منزلة من يكفر بلقاء الله مطلقاً، وهذا يشبه قول ابن الجوزي: (جحدوا دلائل توحيده، وكفروا بالبعث والجزاء، وذلك أنهم بكفرهم برسول الله ﷺ

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ٢٠٢ بتصرف واختصار.
(٢) المحرر الوجيز لابن عطية ٤/ ٣٤٤ بتصرف واختصار.
(٣) السابق.

والقرآن، صاروا كافرين بهذه الأشياء)[١]، ويجاب كذلك بأن كل من كفر بآيات الله ولقائه فهو من الخاسرين، لكن منهم من يعلم أن عمله في ضلال كإبليس، وكمن وصفهم الله ﷻ بقوله: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، وكرؤوس الكفر من أصحاب الملل العالمين بضلال ما هم عليه، ولا يمنعهم من الإيمان إلا رئاستهم، ولسان حالهم ومقالهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]، فليس هؤلاء هم المعنيون وإن كانوا خاسرين، بل المعنيون من يظنون أنهم على شيء، ويحسبون أنهم إن لقوا الله أثابهم، كصاحب الجنتين الذي قال: ﴿وَمَآ أَظُنُّ السَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف].

وهذه حال كثير من كفار قريش كالعاص بن وائل الذي نزل فيه: ﴿أَفَرَءَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ [مريم]، قال صاحب الجلالين: (﴿وَقَالَ﴾ لخباب بن الأرت القائل له تُبْعَثُ بعد الموت والمطالِب له بمال ﴿لَأُوتَيَنَّ﴾ على تقدير البعث ﴿مَالًا وَوَلَدًا﴾ فأقضيك)[٢]، وكأبي جهل الذي روي أنه قال يوم بدر: (اللهم أولانا بالحق فانصره)[٣]، وكالجهال من أتباع رؤوس الكفر الذين تابعوهم تقليداً.

وأما إدخال الخوارج في الآية فقد قال الشنقيطي رحمه الله: (معناه أنهم يكون فيهم من معنى الآية بقدر ما فعلوا، لأنهم يرتكبون أموراً شنيعة من الضلال، ويعتقدون أنها هي معنى الكتاب والسنة، فقد ضل سعيهم وهم

(١) زاد المسير ٤/ ٢٥٥.
(٢) تفسير الجلالين ٥/ ٣٢٦.
(٣) الخصائص الكبرى للسيوطي ١/ ٣٤٥.

يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، وإن كانوا أقل من الكفار المجاهرين)[1].

وما قاله ﷺ صحيح، وهذه حال كل من أعرض عن الكتاب والسنة وطلب الهدى في غيرهما، كالخوارج والرافضة وضلال الصوفية، الذين حدث عنهم رسول الله ﷺ بقوله: "افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، فواحدة في الجنة وسبعون في النار، وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة، فإحدى وسبعون في النار وواحدة في الجنة، والذي نفس محمد بيده لتفترقن أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، واحدة في الجنة وسبعون في النار. قيل يا رسول الله من هم؟ قال: الجماعة"[2].

وهذه حال الزنادقة وكثير من العلمانيين والليبراليين في بلادنا وغيرها من البلاد، فهم يخططون ويقومون بالمشاريع لتغريب الأمة وسلخها عن تراثها وثوابتها ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً، لكفرهم وإنكارهم البعث والنشور فهم يرون أن الشريعة ليست ربانية أصلاً، أو لجهلهم وضلالهم وظنهم أن ذلك لا يعارض مراد الله، وهذا من تزيين الشياطين لهم.

وإن المرء ليعجب من جلد صبرهم على باطلهم وجهادهم في سبيله بالمال والجهد والوقت، فمنهم من يحاول نشر الفساد من عشرين سنة وأكثر، ثم هو يقمع ويمنع المرة بعد المرة، حتى تغيرت الأحوال ونال ما أراد، ومع ذلك فواهِمٌ من يظن أنهم يحصلون سعادة الدنيا لاستمتاعهم بالشهوات والملذات، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾

(١) أضواء البيان ٣/ ٤١٥ بتصرف واختصار.

(٢) سنن ابن ماجه ٢/ ١٣٢٢ (٣٩٩٢)، وصححه الألباني.

[النور]، قال القاسمي ﵀: (﴿فِي الدُّنْيا﴾: أي من الحدّ وغيره، مما يتفق من البلايا الدنيوية)(١)، وقال السعدي ﵀: (﴿أَلِيمٌ﴾، أي: موجع للقلب والبدن، لغشه لإخوانه المسلمين، ومحبة الشر لهم، وجراءته على أعراضهم)(٢).

وفي مقابل هؤلاء يعجب المرء ويتألم من عجز بعض المؤمنين وضعف مواقفهم، بل بعضهم لا تجد له موقفا، وأشد منه من له موقف سلبي يحاول أن يعوق الآخرين عن العمل وعن مدافعة الأولين بحجج واهية، ولمثل هذا كان عمر يقول: (أشكو إليك جلد الفاجر وعجز الثقة)(٣).

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾

قال ابن كثير: (أي: جحدوا آيات الله في الدنيا، وبراهينه التي أقام على وحدانيته، وصدق رسله، وكذبوا بالدار الآخرة)(٤)، وهذا يدخل فيه المشركون المكذبون بالبعث والنشور أصالة، وغيرهم من أهل الكتاب دخولهم فيه يبينه قول ابن الجوزي: (ذلك أنهم بكفرهم برسول الله ﷺ والقرآن، صاروا كافرين بهذه الأشياء)(٥)، قال ابن عثيمين ﵀: (قوله تعالى: ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾، الكونية أو الشرعية؟ الظاهر كلتاهما، لكن الذين كذبوا الرسول ﷺ،كذبوا الشرعية، ولم يكذبوا الكونية، والدليل أن الله أخبر أنهم إذا سُئلوا: من خلق السموات والأرض؟ يقولون: الله ﷻ، ولا

---

(١) محاسن التأويل ٧/ ٣٤٠.
(٢) تيسير الكريم الرحمن ص: ٥٦٤ بتصرف يسير.
(٣) الحسبة لابن تيمية ص: ١٨٥.
(٤) تفسير ابن كثير ٥/ ٢٠٢.
(٥) زاد المسير ٤/ ٢٥٥.

أحد منهم يدعي أن هنالك خالقاً مع الله، لكنهم كذبوا بالآيات الشرعية، كذبوا الرسول ﷺ؛ كذبوا بما جاء به، فهم داخلون في الآية)[1].

وأما حبوط عملهم فمعناه بطلانه وعدم قبوله، كما قال: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ٢٣﴾ [الفرقان]، قال ابن كثير: (وهذا يوم القيامة، حين يحاسب العباد على ما عملوا من خير وشر، فأخبر أنه لا يتحصل لهم من الأعمال -التي ظنوا أنها منجاة لهم- شيء؛ لأنها فقدت الشرط الشرعي، إما الإخلاص وإما المتابعة. فكل عمل لا يكون خالصاً وعلى الشريعة المرضية، فهو باطل. فأعمال الكفار لا تخلو من هذين، وقد تجمعهما، فتكون أبعد من القبول، لأنهم عملوا أعمالا اعتقدوا أنها شيء، فلما عرضت على الحكيم العدل، إذا إنها لا شيء بالكلية)[2].

لطيفة- قال سيد قطب رحمه الله: (وأصل الحبوط انتفاخ بطن الدابة حين تتغذى بنوع سام من الكلأ ثم تموت، وهو أنسب شيء لوصف الأعمال؛ تنتفخ وأصحابها يظنونها صالحة رابحة ثم تنتهي إلى البوار!)[3]، وهذا معنى لطيف تشهد له اللغة، قال ابن فارس رحمه الله: (الحاء والباء والطاء أصلٌ واحدٌ يدلُّ على بطلانٍ أو ألَمٍ. يقال: أحبط اللهُ عملَ الكافر، أي أبطله. وأمّا الألَمُ فالحَبَط: أن تأكل الدَّابةُ حَتَّى تُنْفَخ لذلك بطنُها)[4].

قال ابن الجوزي: (﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾... في معناه ثلاثة أقوال.

أحدها: أنه الميزان يثقل بالطاعة، والكافر لا طاعة له.

والثاني: أن المعنى: لا نُقيم لهم قَدْراً. قال ابن الأعرابي: يقال: ما

---

(١) تفسير القرآن للعثيمين ٦/ ١١٤ بتصرف واختصار.

(٢) تفسير ابن كثير ٦/ ١٠٣ بتصرف واختصار.

(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٨٣ بتصرف يسير.

(٤) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٢/ ١٢٩.

لفلان عندنا وزن، أي: قَدْر، لخسَّته. فالمعنى: لا يُعتدُّ بهم، ولا يكون لهم عند الله قدر ولا منزلة، والثالث: أنه قال: "فلا نقيم لهم" لأن الوزن عليهم لا لهم، ذكره ابن الأنباري)[1]، وكل الأقوال واقعة بهؤلاء المكذبين.

---

(١) زاد المسير ٤/ ٢٥٥.

قدْر المؤمن وقدْر الكافر عند الله

الله سبحانه لا يقيم للكفار وزناً يوم القيامة، فهم في الحساب أذلاء حقراء، ومن بعده في نار جهنم مهانون منسيون، مع أنهم في الدنيا كانوا يختالون ويتطاولون على عباد الله المؤمنين، ولربما كان لهم من الأجسام والأموال والهيئات والشارات ما يلفت الأنظار ويثير الدهشة والإعجاب، لكن العبرة بالخواتيم، قال تعالى في المنافقين منهم: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾﴾ [المنافقون]، قال تعالى مرشداً نبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [التوبة]، وقال: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [التوبة]، وقال هنا في الكهف: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾.

وعن أبي هريرة ﷺ مرفوعا: "إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة. اقرؤوا إن شئتم ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾"(١).

وعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: "بينا صبي يرضع من أمه فمر رجل راكب على دابة فارهة وشارة حسنة فقالت أمه اللهم اجعل ابني مثل هذا فترك الثدي وأقبل إليه فنظر إليه فقال اللهم لا تجعلني مثله ثم أقبل على ثديه فجعل يرتضع -قال فكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ وهو يحكي

---

(١) صحيح البخاري ٤/ ١٧٥٩ (٤٤٥٢)، صحيح مسلم ٤/ ٢١٤٧ (٢٧٨٥).

ارتضاعه بإصبعه السبابة في فمه فجعل يمصها[١]- قال: ومروا بجارية وهم يضربونها ويقولون: زنيت سرقت وهي تقول: حسبي الله ونعم الوكيل فقالت أمه اللهم لا تجعل ابني مثلها فترك الرضاع ونظر إليها فقال اللهم اجعلني مثلها فهناك تراجعا الحديث فقالت حلقى مر رجل حسن الهيئة فقلت اللهم اجعل ابني مثله فقلت اللهم لا تجعلني مثله ومروا بهذه الأمة وهم يضربونها ويقولون زنيت سرقت فقلت اللهم لا تجعل ابني مثلها فقلت اللهم اجعلني مثلها قال إن ذاك الرجل كان جبارا فقلت اللهم لا تجعلني مثله وإن هذه يقولون لها زنيت ولم تزن وسرقت ولم تسرق فقلت اللهم اجعلني مثلها"[٢]، وعند البخاري: "أما الراكب فإنه كافر وأما المرأة فإنهم يقولون لها تزني وتقول حسبي الله ويقولون تسرق وتقول حسبي الله"[٣].

فالعبرة ليست بالصور الزائلة وإنما بالمعاني الباقية، والموازين عند الله غير موازين الدنيا، فعن سهل بن سعد الساعدي قال: "مر رجل على رسول الله ﷺ فقال لرجل عنده جالس: ما رأيك في هذا؟ فقال: رجل من أشراف الناس، هذا والله حري إن خطب أن ينكح وإن شفع أن يشفع. قال: فسكت رسول الله ﷺ. ثم مر رجل فقال له رسول الله ﷺ: ما رأيك في هذا؟ فقال: يا رسول الله، هذا رجل من فقراء المسلمين، هذا حري إن خطب أن لا ينكح، وإن شفع أن لا يشفع، وإن قال أن لا يسمع لقوله. فقال رسول الله ﷺ: هذا خير من ملء الأرض مثل هذا"[٤]، ويصدقه قول

---

(١) القائل هو أبو هريرة رضي الله عنه.
(٢) صحيح البخاري ٣/ ١٢٦٨ (٣٢٥٣)، صحيح مسلم ٤/ ١٩٧٦ (٢٥٥٠).
(٣) صحيح البخاري ٣/ ١٢٧٩ (٣٢٧٩).
(٤) صحيح البخاري ٥/ ٢٣٦٩ (٦٠٨٢).

النبي ﷺ: "رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره"[١]، قال النووي رحمه الله: (مدفوع بالأبواب أي لا قدر له عند الناس فهم يدفعونه عن أبوابهم ويطردونه عنهم احتقارا له لو أقسم على الله لأبره أي لو حلف على وقوع شيء أوقعه الله إكراما له بإجابة سؤاله وصيانته من الحنث في يمينه وهذا لعظم منزلته عند الله تعالى وإن كان حقيراً عند الناس وقيل معنى القسم هنا الدعاء وإبراره إجابته، والله أعلم)[٢].

فإذا كان الكافر لا وزن له عند الله، فقدر المؤمن عنده على النقيض، قال النبي ﷺ: "رأيت قبيل الفجر كأني أعطيت المقاليد والموازين، فأما المقاليد: فهذه المفاتيح، وأما الموازين: فهذه التي تزنون بها، فوضعتُ في كفة، ووضعت أمتي في كفة، فوزِنتُ بهم فرجحتُ، ثم جيء بأبي بكر فوُزِن بهم فوزَن، ثم جيء بعمر فوزن فوزن، ثم جيء بعثمان فوزن بهم ثم رفعت"[٣]، وعن علي رضي الله عنه قال: "أمر النبي ﷺ ابن مسعود فصعد على شجرة أمره أن يأتيه منها بشيء، فنظر أصحابه إلى ساق ابن مسعود حين صعد الشجرة، فضحكوا من حموشة[٤] ساقيه، فقال رسول الله ﷺ: ما تضحكون؟ لَرِجل عبد الله أثقل في الميزان يوم القيامة من أُحُد"[٥]، ومن تأمل الحديثين لم يتمالك نفسه من الدهشة والعجب، فرجلا ابن مسعود على دقتهما في ميزان البشر أثقل عند الله من جبل أحد، لما حواه قلبه من إيمان، فإذا كان هذا وزن رجليه، فكم وزنه هو رضي الله عنه عند الله؟

---

(١) صحيح مسلم ٤/ ٢٠٢٤ (٢٦٢٢).

(٢) شرح النووي على مسلم ١٦/ ١٧٤.

(٣) مسند أحمد (٩/ ٣٣٨)، قال الأرناؤوط: إسناده ضعيف.

(٤) الحموشة: الدقة، انظر لسان العرب ٦/ ٢٨٨ مادة (حمش).

(٥) مسند أحمد ٢/ ٢٤٣، قال الأرناؤوط: صحيح لغيره.

ثم إن ابن مسعود الذي هذا وزنه عند الله ليس سوى واحد من أمة محمد الذين وزن بهم عثمان فوزن، وعثمان واحد من الأمة ووزن بهم عمر فوزن، وعمر واحد من الأمة ووزن بهم أبو بكر فوزن!

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾

قال ابن كثير: (أي: إنما جزيناهم جهنم لكفرهم واتخاذهم آيات الله ورسله هزوًا؛ استهزؤوا بهم، وكذبوهم أشد التكذيب)(١)، قال الرازي: (﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الذي ذكرناه وفصلناه من الوعيد جزاؤهم على أعمالهم الباطلة، وقوله: ﴿جَهَنَّمُ﴾ عطف بيان لقوله: ﴿جَزَآؤُهُمۡ﴾ ثم بين تعالى أن ذلك الجزاء على مجموع أمرين: كفرهم وأنهم أضافوا إلى الكفر أن اتخذوا آيات الله ورسله هزواً، فلم يقتصروا على الرد والتكذيب حتى استهزؤوا بهم)(٢).

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا﴾

قال ابن عاشور: (هذا مقابل قوله: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾ على عادة القرآن في البشارة بعد الإنذار، وتأكيد الجملة للاهتمام لأنها في مقابلة ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾، لكي لا يظن أن جزاء المؤمنين غير مهتم بتأكيده مع ما في التأكيدين من تقوية الإنذار والبشارة، وجعل المسند إليه الموصول بصلة الإيمان وعمل الصالحات للاهتمام بشأن أعمالهم، فلذلك خولف نظم الجملة فلم يقل: جزاؤهم الجنة. وقد تقدم نظير هذا في المخالفة بين وصف الجزاءين عند قوله: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ﴾ [الكهف: ٢٩]

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ٢٠٣ بتصرف واختصار.

(٢) تفسير مفاتيح الغيب للرازي ١٠/ ٢٥٥ بتصرف واختصار.

وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [الكهف]، وفي الإتيان بـ﴿كَانَتْ﴾ لأن استحقاقهم الجنات مستقر من قبلُ، مهيأ لهم، وجيء بلام الاستحقاق تكريما لهم بأنهم نالوا الجنة لإيمانهم وعملهم، كما قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الزخرف]، وجمع الجنات إيماء إلى سعة نعيمهم، وأنها كثيرة كما في الحديث: "إنها جنان كثيرة")[1]، وقال ابن الجوزي: (﴿كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ﴾ قال ابن الأنباري: كانت لهم في علم الله قبل أن يُخلَقوا)[2].

قال الطبري: (يقول تعالى ذكره: إن الذين صدقوا بالله ورسوله، وأقرّوا بتوحيد الله وما أنزل من كتبه وعملوا بطاعته، كانت لهم بساتين الفردوس، والفردوس: معظم الجنة، كما قال أمية:

كانَتْ مَنازِلُهُمْ إذْ ذاكَ ظاهِرَةً　　　فِيها الفَراديسُ والفُومانُ والبَصَلُ

واختلف في معنى الفردوس ؛ فقيل: أفضل الجنة وأوسطها، وقال آخرون: البستان بالرومية، وقال آخرون: البستان فيه الأعناب، والصواب في ذلك ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ)[3]. فمنها حديث أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ قال: "من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة وصام رمضان كان حقا على الله أن يدخله الجنة هاجر في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها. قالوا: يا رسول الله أفلا ننبئ الناس بذلك؟ قال: إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله كل درجتين ما بينهما كما بين السماء والأرض فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس فإنه أوسط الجنة

---

(١) التحرير والتنوير ١٦/ ٤٩ بتصرف واختصار.

(٢) زاد المسير ٤/ ٢٥٦.

(٣) تفسير الطبري ١٨/ ١٣٠ بتصرف واختصار.

وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة"[١]، وعن أنس ﷺ قال: "أصيب الحارثة يوم بدر وهو غلام فجاءت أمه إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله قد عرفت منزلة حارثة مني فإن يكن في الجنة أصبر وأحتسب وإن تكن الأخرى تر ما أصنع. فقال: ويحكِ أو هُبِلتِ! أوَجنة واحدة هي؟ إنها جنان كثيرة وإنه في جنة الفردوس"[٢].

قال السعدي رحمه الله: (أي: إن الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بجوارحهم، وشمل هذا الوصف جميع الدين، عقائده وأعماله، أصوله وفروعه الظاهرة والباطنة، فهؤلاء -على اختلافهم في الإيمان والعمل الصالح- لهم جنات الفردوس. يحتمل أن المراد أعلى الجنة، وأوسطها، وأفضلها، وأن الثواب لمن كمل فيه الإيمان والعمل الصالح، كالأنبياء والمقربين. ويحتمل أن يراد جميع منازل الجنان، فيشمل جميع طبقات أهل الإيمان، من المقربين والأبرار والمقتصدين، كل بحسب حاله، وهذا أولى المعنيين؛ لعمومه ولذكر الجنة بلفظ الجمع المضاف إلى الفردوس، ولأن الفردوس البستان المحتوي على الكرم، أو الأشجار الملتفة، وهذا صادق على جميع الجنة، فجنة الفردوس نزل وضيافة لأهل الإيمان والعمل الصالح، وأي ضيافة أجل وأعظم منها، محتوية على كل نعيم، للقلوب والأرواح والأبدان، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، من المنازل الأنيقة، والرياض الناضرة، والأشجار المثمرة، والطيور المغردة المشجية، والمآكل اللذيذة، والمشارب الشهية، والنساء الحسان، والخدم،

---

(١) صحيح البخاري ٦/ ٢٧٠٠ (٦٩٨٧).

(٢) صحيح البخاري ٤/ ١٤٦٢ (٣٧٦١).

والولدان، والأنهار السارحة، والمناظر الرائقة، والجمال الحسي والمعنوي، والنعمة الدائمة، وأعلى ذلك وأفضله التنعم بقرب الرحمن ونيل رضاه الذي هو أكبر نعيم الجنان، والتمتع برؤية وجهه الكريم، وسماع كلام الرءوف الرحيم، فلله تلك الضيافة، ما أجلها وأجملها، وأدومها وأكملها، وهي أعظم من أن يحيط بها وصف، أو تخطر على القلوب، فلو علم العباد بعض ذلك النعيم علما حقيقيا يصل إلى قلوبهم، لطارت إليها قلوبهم بالأشواق، ولتقطعت أرواحهم من ألم الفراق، ولساروا إليها زرافات ووحدانا، ولم يؤثروا عليها دنيا فانية، ولذات منغصة متلاشية، ولم يفوتوا أوقاتا تذهب ضائعة خاسرة، يقابل كل لحظة منها من نعيم الحقب آلاف مؤلفة، ولكن الغفلة شملت، والإيمان ضعف، والعلم قل، والإرادة نفذت، فكان ما كان، فلا حول ولا قوة إلا بالله)[1].

وفي الآية أن إيمان القلب لا يكفي لدخول الجنة كما ادعت المرجئة، فلا بد من العمل الصالح، ومذهب أهل السنة أن الإيمان اعتقاد بالجنان وقول باللسان وعمل بالأركان. وتظاهرت آي القرآن على الربط بين الإيمان والعمل الصالح، قال الشنقيطي: (ذكر الله في الآية أن الأعمال الصالحة والإيمان سبب في نيل الفردوس. والآيات الموضحة لكون العمل الصالح سبباً لدخول الجنة كثيرة جداً. كقوله تعالى: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾ [الكهف]، وقوله: ﴿أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأعراف] أي بسببه، وقوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزخرف]. وقوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ

(١) تفسير السعدي ص: ٤٨٨ بتصرف.

عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ﴾ [مريم]، إلى غيرها من الآيات.

تنبيه- فإن قيل هذه الآيات فيها الدلالة على أن طاعة الله بالإيمان والعمل الصالح سبب في دخول الجنة. وقوله ﷺ: « لن يدخل أحدكم عمله الجنة » قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: « ولا أنا إلا يتغمدني الله برحمة منه وفضل » يرد بسببه إشكال على ذلك. فالجواب: أن العمل ليس سبباً لدخول الجنة إلا إذا تقبله الله، وتقبله فضل منه، فسبب دخول الجنة هو ما تقبله الله بفضله، وغيره لا يكون سبباً لدخولها. وللجمع أوجه أخر، هذا أظهرها. والعلم عند الله تعالى)[1].

أما النزل فقد تقدم الكلام عنه؛ فإما أن يكون من المنزل أو من مكافأة الضيف، وهو على الثاني على حقيقته هنا، بخلاف الكفار فللتهكم والاستهزاء، فشتان بين مهان ومكرم. فهذه الجنان العظيمة هي مكافأة عباد الله الصالحين إذا نزلوا ضيوفاً على رب العزة، وفي مقابلة هذا النزل بذاك يظهر فضل الله أكثر وأكثر، فبضدها تتبين الأشياء. قال ابن كثير: (﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أي: مقيمين ساكنين فيها، لا يظعنون عنها أبدًا، ﴿ لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ أي: لا يختارون غيرها، ولا يحبون سواها، كما قال الشاعر:

فَحَلَّتْ سُوَيدا القَلْبِ لا أَنَا بَاغِيًا سواها ولا عَنْ حُبّها أَتَحَوّلُ)[2].

قال البقاعي: (تعريض بالكفرة في أنهم يصطرخون في النار ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا ﴾ [المؤمنون: ١٠٧] عكس ما كان في الدنيا من ركونهم إليها، ومحبتهم طول البقاء فيها، وعزوف المؤمنين عنها، وشوقهم إلى ربهم بمفارقتها)[3].

---

(١) أضواء البيان ٣/ ٤١٨ بتصرف واختصار.

(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ٢٠٤.

(٣) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٨٦.

لطيفة- قال ابن كثير رحمه الله: (في قوله: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ تنبيه على رغبتهم فيها، وحبهم لها، مع أنه قد يتوهم فيمن هو مقيم في المكان دائمًا أنه يسأمه أو يمله، فأخبر أنهم مع هذا الخلود السرمدي، لا يختارون عن مقامهم ذلك متحولا ولا انتقالا ولا ظعنًا ولا رحلة ولا بدلا)(١).

فأنى لهم السأم وأنى لهم التحول وهم في جنة ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، أم أنى لهم السأم وأنى لهم التحول عن هذا المنزل الذي لم ولن يروا إكراماً وضيافة في غيره يقارب أو يشبه ما لقوه.

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ٢٠٤ بتصرف يسير.

المفهوم الصحيح للربح والخسارة

جُبل الإنسان على حب تحصيل المنافع ودفع المفاسد، وما من إنسان يحب أن يكون خاسراً في أي مجال أو درب يسلكه، بل إنه يحب أن يحقق المكاسب والأرباح دوماً، وقد راعى القرآن هذا فخاطب بما يوافقه في كثير من الآيات، يدعو لتحقيق الفوز والربح والبعد عما فيه خسران مبين.

ولئن كان كثير من الناس لا يعرف من الربح والخسارة إلا ما تعلق بالأموال والمتاع الفاني، فالإسلام يدعو للربح الحقيقي الباقي ويحذر من خسارة ليس وراءها خسارة؛ يدعو لجنة عرضها السماوات والأرض فيها ما لا عين رأيت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، الجار أحمد والرحمن بانيها، لا تعب فيها ولا مرض، لا هم فيها ولا حزن، باقية إلى الأبد؛ ويحذرهم ناراً تلظى لا تبقي ولا تذر، يلقى الكفار فيها مكاناً ضيقاً مقرنين، في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً مهانين، طعامهم الزقوم والغسلين، لا يسمن ولا يغني من جوع، وشرابهم حميم يشوي الوجوه، النار طعامهم وشرابهم وفراشهم، وهي على ذلك باقية إلى الأبد.

إن كل خسارة في الدنيا يمكن أن تعوض أو يزول ضررها قريبا، أما إن أتت القيامة وقد كتبه الله من الخاسرين فأنى تعوض؟ بل الأمر كما بين ربنا جل وعز: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [المؤمنون].

فمن العجيب أن تجد الرجل الطويل العريض حريصاً ذكياً في أمور دنياه حاذقاً في شؤونه من تجارة وزراعة وصناعة، ثم تجده في أمور آخرته

بليداً مفرطاً! وما أجمل وأجمع ما قال ابن القيم ﷺ في وصفه: (وأعظم الخلق غروراً من اغتر بالدنيا وعاجِلِها، فآثرها على الآخرة، ورضي بها من الآخرة؛ حتى يقول: الدنيا نقد والآخرة نسيئة، والنقد أنفع. ويقول بعضهم: ذرة منقودة ولا درة موعودة. ويقول آخر: لذات الدنيا متيقنة ولذات الآخرة مشكوك فيها، ولا أدع اليقين للشك. وهذا من أعظم تلبيس الشيطان وتسويله، والبهائم أعقل منهم، فإن البهيمة إذا خافت مضرة شيء لم تقدم عليه ولو ضُرِبت، وهذا يقدم على ما فيه عطبه وهو ينظر بين مصدق ومكذب، فهذا الضرب إن آمن فهو من أعظم الناس حسرة لأنه أقدم على علم، وإن لم يؤمن فأبعد له. وقول القائل: النقد خير من النسيئة، فجوابه أنه إذا تساوى النقد والنسيئة فالنقد خير، وإن تفاوتا وكانت النسيئة أكبر وأفضل فهي خير، فكيف والدنيا كلها كنفس واحد من أنفاس الآخرة كما في حديث المستورد بن شداد قال: قال رسول الله: "ما الدنيا في الآخرة إلا كما يدخل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بم يرجع"[1]. فإيثار النقد على هذه النسيئة من أعظم الغبن وأقبح الجهل، وإذا كان هذا نسبة الدنيا بمجموعها إلى الآخرة، فما مقدار عمر الإنسان بالنسبة إلى الآخرة؟ فأيما أولى بالعاقل: إيثار العاجل في هذه المدة اليسيرة وحرمان الخير الدائم في الآخرة؟ أم ترك شيء حقير صغير منقطع عن قرب ليأخذ ما لا قيمة له[2] ولانهاية لعدده ولا غاية لأمده! وأما قول الآخر: لا أترك متيقنا لمشكوك فيه، فيقال له: إما أن تكون على شك من وعد الله ووعيده أو تكون على اليقين، فإن كنت على اليقين فما تركت إلا

---

(١) سنن الترمذي ٤/ ٥٦١ (٢٣٢٣)، وصححه الألباني.
(٢) أي لا يقدر بقيمة.

ذرة منقطعة فانية عن قرب لأنه متيقن لا شك فيه ولا انقطاع له، وإن كنت على شك فتأمل آيات الرب الدالة على وجوده وقدرته ووحدانيته وصدق رسله وتجرد وقم لله ناظراً أو مناظراً حتى يتبين لك أن ما جاءت به الرسل عن الله لا شك فيه وأن خالق هذا العالم رب السموات والأرض يتعالى ويتقدس عن خلاف ما أخبرت به رسله ومن نسبه إلى غير ذلك فقد شتمه وكذبه وأنكر ربوبيته وملكه)(١).

وضرب رحمه الله مثالاً للدنيا والآخرة وما جعل الله من فرق بينهما، وما أراده من العباد فيها فقال: (ملك خط مدينة في أصح المواضع وأحسنها هواء وأكثرها مياها وشق أنهارها وغرس أشجارها وقال لرعيته تسابقوا إلى أحسن الأماكن فيها فمن سبق إلى مكان فهو له ومن تخلف سبقه الناس إلى المدينة فأخذوا منازلهم وتبوؤوا مساكنهم فيها وبقي من أصحاب الحسرات. ونصب لهم ميدان السباق وجعل على الميدان شجرة كبيرة لها ظل مديد وتحتها مياه جارية وفي الشجرة من كل أنواع الفواكه وعليها طيور عجيبة الأصوات وقال لهم لا تغتروا بهذه الشجرة وظلها فعن قليل تجتث من أصلها ويذهب ظلها وينقطع ثمرها وتموت أطيارها وأما مدينة الملك فأكلها دائم وظلها مديد ونعيمها سرمدي وفيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فسمع الناس بها فخرجوا في طلبها على وجوههم فمروا بتلك الشجرة على أثر تعب ونصب وحر وظمأ فنزلوا كلهم تحتها واستظلوا بظلها وذاقوا حلاوة ثمرها وسمعوا نغمات أطيارها فقيل لهم إنما نزلتم تحتها لتحموا أنفسكم وتضمروا مراكبكم

---

(١) الجواب الكافي ١/ ٢٢ بتصرف واختصار.

للسباق فتهيؤوا للركوب وكونوا على أهبة فإذا صاح النفير استدركتم حلبة السباق فقال الأكثرون كيف ندع الظل الظليل والماء السلسبيل والفاكهة النضجة والراحة ونقتحم الحلبة في الحر والغبار والتعب والسفر البعيد والمفاوز المعطشة التي تنقطع فيها الأمعاء وكيف نبيع النقد الحاضر بالنسيئة الغائبة إلى الأجل البعيد ونترك ما نراه إلى ما لا نراه وذرة منقودة في اليد أولى من درة موعودة بعد غد، خذ ما تراه ودع شيئا سمعت به، ونحن بنو اليوم وهذا عيش حاضر كيف نتركه لغائب في بلد بعيد لا ندري متى نصل إليه. ونهض من كل ألف واحد وقالوا والله ما مقامنا هذا في ظل زائل تحت شجرة قد دنا قلعها وانقطاع ثمرها وموت أطيارها ونترك المسابقة إلى الظل الظليل الذي لا يزول والعيش الهنيء الذي لا ينقطع إلا مِن أعجز العجز وهل يليق بالمسافر إذا استراح تحت ظل أن يضرب خباءه عليه ويتخذ وطنه خشية التأذي بالحر وبالبرد وهل هذا إلا أسفه السفه فالسباق السباق والبدار البدار

حُكْمُ المَنِيَّة في البرية جاري   ما هذه الدنيا بدار قَرَار
اقضوا مآربكم سِراعاً إنَّما   أعماركم سَفَرٌ من الأسفار
وتراكضوا خيل الشباب وبادروا   أن تُسْتَرَدَّ فإنَّهن عواري
ودعوا الإقامة تحت ظل زائل   أنتم على سفر بهذي الدار
من يرج طيب العيش فيها إنما   يبني الرجاء على شفير هار
والعيش كل العيش بعد فراقها   في دار أهل السبق أكرم دار

فاقتحموا حلقة السباق ولم يستوحشوا من قلة الرفاق وساروا في ظهور العزائم ولم تأخذهم لومة لائم والمتخلف في ظل الشجرة نائم فوالله ما كان إلا قليل حتى ذوت أغصان الشجرة وتساقطت أوراقها وانقطع

ثمرها ويبست فروعها فقلعها قيمها من أصلها فأصبح أهلها في حر السموم يتقلبون وعلى ما فاتهم من العيش يتحسرون أحرقها قيمها فصارت هي وما حولها نارا تلظى وأحاطت النار بمن تحتها فلم يستطع أحد الخروج فقالوا أين الركب الذين استظلوا معنا تحت ظلها ثم راحوا وتركوه؟ فقيل لهم ارفعوا أبصاركم تروا منازلهم فرأوهم من البعد في قصور مدينة الملك وغرفها يتمتعون بأنواع اللذات فتضاعفت عليهم الحسرات ألا يكونوا معهم وزاد تضاعفها بأن حيل بينهم وبين ما يشتهون وقيل هذا جزاء المتخلفين وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون)[1].

قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾

المناسبة لما قبلها:

قال البقاعي: (لما تم الجواب عن أسئلتهم على أحسن الوجوه مخللاً بما تراه من الحجج البينة الملزمة لهم بفصل النزاع، وأتبع ذلك بقص الأمر الذي بإغفاله تجرؤوا على الكفر، وهو أمر البعث إلى أن ختمه بما يقتضي أن معلوماته لا تحد، لأن مقدوراته في تنعيم أهل الجنة لا آخر لها فلا تعد، وكان اليهود اعترضوا على قوله ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء] بأنهم أوتوا التوراة، وكان لكل ما سألوا عنه من الفصول أمور تهول، وربما قال قائل: ما له لا يزيد ذلك شرحاً؟ قال تعالى آمراً بالجواب، معلماً لهم

(١) عدة الصابرين ١/ ٢٠٥.

بأنهم لا يمكنهم الوقوف على تمام شرح معلوماته، وآخر مقدوراته، قطعاً لهم عن السؤال، وتقريباً إلى أفهامهم بضرب من المثال: ﴿قُل﴾)[1] الآية.

لطيفة- كما بدأ الله سبحانه السورة بتشريف نبينا محمد ﷺ بعبوديته المستلزمة لبشريته وبتشريفه بالوحي: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾﴾ [الكهف]، أنهى السورة بمثله ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾، فمن تأمل ختام السورة وجدها عادت لتأكيد ما افتتحت به، عن نبوة النبي ﷺ وعبوديته وما تفضل الله ﷻ عليه من نعمة إيتاء الكتاب، فكان ختاماً بديعاً، ونعيد هنا ما سبق نقله لفائدته، قال ابن عاشور: (لما ابتدئت السورة بالتنويه بشأن القرآن ثم أفيض فيها من أفانين الإرشاد والإنذار والوعد والوعيد، وذكر فيها من أحسن القصص ما فيه عبرة وموعظة، وما هو خفي من أحوال الأمم، حول الكلام إلى الإيذان بأن كل ذلك قليل من عظيم علم الله. فهذا استئناف ابتدائي وانتقال إلى التنويه بعلم الله؛ مفيض العلم على رسوله ﷺ، لأن المشركين لما سألوه عن أشياء يظنونها مفحمة وأن لا قبل له بعلمها علّمه الله إياها، وأخبر عنها أصدق خبر، وبينها بأقصى ما تقبله أفهامهم، وبما يقصر عنه علم الذين أغروا المشركين بالسؤال، وكان آخرها خبر ذي القرنين، أتبع ذلك بما يعلم منه سعة علم الله وسعة ما يجري على وفق علمه من الوحي إذا أراد إبلاغ بعض علمه إلى أحد رسله، وفي هذا رد عجز السورة على صدرها)[2].

سبب النزول:

قال ابن عاشور: (قيل: نزلت لأجل قول اليهود للرسول كيف تقول

---

(١) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ١٨٦ بتصرف واختصار.

(٢) التحرير والتنوير ١٦/ ٥١ بتصرف واختصار.

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ وقد أوتينا التوراة، ومن أوتيها فقد أوتي خيرا كثيرا، وعن ابن عباس: قال حيي بن أخطب: في كتابكم ﴿وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ﴾ [البقرة: ٢٦٩] ثم تقرؤون: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ ؟! فنزل قوله تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي﴾ الآية)[1].

التفسير:

قال ابن كثير: (قل يا محمد: لو كان ماء البحر مدادًا للقلم الذي تكتب به كلمات ربي وآياته الدالة عليه ﴿لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ﴾ أي: لفرغ قبل أن يفرغ من كتابة ذلك ﴿وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾ أي: بمثل البحر آخر، ثم آخر، وهلم جرا، لما نفدت كلمات الله، كما قال: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٧﴾ [لقمان] يقول: لو كان البحر مداداً لكلمات الله، والشجر كله أقلام، لانكسرت الأقلام وفني البحر، وبقيت كلمات الله قائمة لا يفنيها شيء؛ لأن أحدًا لا يستطيع أن يقدر قدره، إن ربنا كما يقول وفوق ما نقول. قال الربيع بن أنس: إن مثل علم العباد كلهم في علم الله كقطرة من ماء البحور، وقد أنزل الله: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾)[2]، وما أشبه ما قاله الربيع بقول الخضر لموسى: "ما علمك وعلمي وعلم الخلائق في علم الله إلا مقدار ما غمس هذا العصفور منقاره"[3].

يقول صاحب الظلال: (البحر أوسع وأغزر ما يعرفه البشر، والبشر يكتبون بالمداد كل ما يكتبون؛ وما يسجلون به علمهم الذي يعتقدون أنه

---

(١) التحرير والتنوير ١٦/ ٥١ بتصرف واختصار.

(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ٢٠٤ بتصرف واختصار.

(٣) صحيح البخاري ٤/ ١٧٥٧ (٤٤٥٠).

غزير! فالسياق يعرض لهم البحر بسعته وغزارته في صورة مداد يكتبون به كلمات الله الدالة على علمه؛ فإذا البحر ينفد وكلمات الله لا تنفد. ثم إذا هو يمدهم ببحر آخر، ثم إذا الآخر ينفد وكلمات الله تنتظر المداد! وبهذا التصوير المحسوس والحركة المجسمة يقرب إلى التصور البشري المحدود معنى غير المحدود، ونسبة المحدود إليه مهما عظم واتسع. والمعنى الكلي المجرد يظل حائراً في التصور البشري حتى يتمثل في صورة محسوسة. ومهما أوتي العقل من القدرة على التجريد يظل في حاجة إلى تمثل المعنى في صور وأشكال ونماذج، ذلك شأنه مع المعاني المجردة للمحدود، فكيف بغير المحدود؟ لذلك يضرب القرآن الأمثال للناس؛ ويقرب إلى حسهم معانيه الكبرى بوضعها في صور ومشاهد، ومحسوسات ذات خصائص وأشكال على هذا المثال. والبحر في هذا المثال يمثل علم الإنسان الذي يظنه واسعاً غزيراً. وهو محدود. وكلمات الله تمثل العلم الإلهي الذي لا حدود له، ولا يدرك البشر نهايته؛ بل لا يستطيعون تلقيه فضلاً على محاكاته. ولقد يدرك البشر الغرور بما يكشفونه من أسرار في أنفسهم وفي الآفاق، فتأخذهم نشوة الظفر العلمي، فيحسبون أنهم علموا كل شيء، أو أنهم في الطريق! ولكن المجهول يواجههم بآفاقه المترامية التي لا حد لها، فإذا هم على خطوات من الشاطئ، والخضم أبعد من الأفق الذي تدركه أبصارهم! إن ما يطيق الإنسان تلقيه من علم ضئيل قليل، لأنه يمثل نسبة المحدود إلى غير المحدود. فليعلم الإنسان ما يعلم؛ وليكشف من أسرار الوجود ما يكشف ولكن ليطامن من غروره العلمي، فسيظل أقصى ما يبلغه علمه أن يكون البحر مداداً في يده. وسينفد البحر وكلمات الله لم

تنفد؛ ولو أمده الله ببحر مثله فسينتهي وكلمات الله ليست إلى نفاد)[١].

وقولـــه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾

قال الطبري: (قل لهؤلاء المشركين يا محمد: أنا بشر مثلكم من بني آدم لا علم لي إلا ما علمني الله، والله يوحي إليّ أن الذي يجب أن تعبدوه ولا تشركوا به واحد لا ثاني له ولا شريك ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ فمن يخاف ربه يوم لقائه ويراقبه ويرجو ثوابه ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ فليخلص له العبادة، وليفرد له الربوبية ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ ولا يجعل له شريكًا في عبادته، وذلك إذا راءى بعمله الذي ظاهره أنه لله وهو مريد به غيره)[٢].

وقال ابن كثير: (﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المشركين المكذبين: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ فمن زعم أني كاذب، فليأت بمثل ما جئت به، فإني لا أعلم الغيب فيما أخبرتكم به، عما سألتم من قصة أصحاب الكهف، وخبر ذي القرنين، مما هو مطابق في نفس الأمر، لولا ما أطلعني الله، وأنا أخبركم ﴿أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ﴾ الذي أدعوكم إلى عبادته، ﴿إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ لا شريك له، ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ أي: ثوابه وجزاءه الصالح، ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ موافقًا لشرع الله ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ يراد به وجه الله وحده لا شريك له، وهذان ركنا العمل المتقبل. لا بد أن يكون خالصًا لله، صوابا على شريعة رسول الله ﷺ)[٣].

وقال السعدي: (﴿قُلْ﴾ يا محمد للكفار وغيرهم: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ لست بإله، ولا لي شركة في الملك، ولا علم بالغيب، ولا عندي خزائن الله،

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٨٥ بتصرف واختصار.

(٢) تفسير الطبري ١٨/ ١٣٥ بتصرف واختصار.

(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ٢٠٥ بتصرف واختصار.

﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ عبد من عبيد ربي ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ فضلت عليكم بالوحي، الذي يوحيه الله إلي، الذي أَجَلُّه الإخبار لكم: أنما إلهكم إله واحد، أي: لا شريك له، ولا أحد يستحق من العبادة مثقال ذرة غيره، وأدعوكم إلى العمل الذي ينيلكم ثوابه، ويدفع عنكم عقابه. ولهذا قال: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ موافق لشرع الله، من واجب ومستحب، ﴿وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ أي: لا يرائي بعمله بل يعمله خالصا لوجهه، فمن جمع بين الإخلاص والمتابعة ينال ما يرجو ويطلب، ومن عدا ذلك خاسر في دنياه وأخراه، قد فاته القرب من مولاه، ونيل رضاه)(١).

فائدة: تبين الآية أن النبي ﷺ يشترك مع بني آدم في أصل البشرية، ومن هذه الجهة لا فرق بينه وبينهم، قال ابن عثيمين رحمه الله: (ولذلك كان يغضب كما يغضب الناس، ويمرض كما يمرض الناس، ويجوع كما يجوع الناس، ويعطش كما يعطش الناس، ويتوقى الحر كما يتوقاه الناس، ويتوقى سهام القتال كما يتوقاها الناس، وينسى كما ينسى الناس، كل الطبيعة البشرية ثابتة للرسول ﷺ وكان له ظِلٌّ كما يكون للناس)(٢).

ومع الاشتراك في البشرية إلا أنه ﷺ -كباقي الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم- فضل بالنبوة والرسالة، المنحة الإلهية التي لا تنال بكسب ولا برياضة وإنما بمحض اصطفاء الله ﷻ، وأهم معالمها الوحي، ثم المعجزات التي يجريها الله ﷻ على أيدي أنبيائه، ثم ما قد يطلعهم عليه من الغيب، كما قال: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ [الجن]. وفي التركيز على التوحيد في آخر كلمة من السورة، لفت

---

(١) تفسير السعدي ١/ ٤٨٩ بتصرف واختصار.

(٢) تفسير القرآن للعثيمين ٦/ ١٢١ بتصرف واختصار.

إلى أهميته، فقد يعمل الإنسان صالحا لكنه يخلطه بالشرك وبإرادة غير الله فيجعله الله كأن لم يكن، كما قال: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ٢٣ ﴾ [الفرقان]، وفي اقترانه بالعمل الصالح لفت إلى الحرص على صلاح العمل، فقد يكون المرء موحداً ويأتي بأعمال صالحة لكنه يخلطها بسيئة قد تحبط عمله، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ٢ ﴾ [الحجرات]، وعَنْ ثَوْبَانَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: "لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا، فَيَجْعَلُهَا اللهُ ﷻ هَبَاءً مَنْثُورًا، قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ اللهِ صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ، وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ، قَالَ: أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللهِ انْتَهَكُوهَا"(١).

فمن أتى بالتوحيد الخالص وكان عمله صالحاً، ولم يقع بما يحبط العمل، فأولئك الذين أراد الله، ولذا نقول لمن يتحير في الحكم على الرجال أو الجماعات ولا يدري الصواب: انظر في عمل كل، ومن يدعو إلى التوحيد وإخلاص العبادة لله وتولي أوليائه والتبرؤ من أعدائه، فإذا عرفت فالزم!

(١) سنن ابن ماجه ٢/ ١٤١٨ (٤٢٤٥)، وصححه الألباني.

الخاتمة

وفيها سرد لمعالم رئيسة للخروج من الفتن ذكرت في مواضع متفرقة من السورة صراحاً أو تلميحاً

قمنا عبر الصفحات الماضية بسياحة علمية تربوية روحية، تنقلنا فيها بين آي السورة، نلتقط دررها، ونكشف أسرارها، رجاء أن ينفعنا الله بما أودع فيها من الفوائد والدروس، ولئن كان الكمال من المحال لما يلازم البشر من العجز، فإنني أدعو الله أن نكون قد وفقنا لنيل ما نتمنى، وما كان من حق وصواب فمن الله وحده، والحمد لله على توفيقه، وما كان من خطأ وزلل فمني ومن الشيطان، وأنا عائد عنه وأستغفر الله منه.

وفي الختام أعرض لمعالم رئيسة للخروج من الفتن أرشدت إليها السورة الكريمة عبر آياتها:

١- جماع الخير كما أرشدت السورة التمسك بالكتاب القيم الذي لا عوج فيه القرآن، فمتى اعتصم العبد به أمن الفتنة.

٢- تذكر بأس الله وعذابه: (لينذر بأساً شديداً من لدنه)، (وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً)، (إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها)، وغيرها من الآيات ولاسيما أواخر السورة.

٣- تذكر ثواب الآخرة وما أعده الله للمؤمنين: (ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً ماكثين فيه أبداً).

٤- النأي عن الخوض في الدين بغير علم: (ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً).

٥- الإيمان الصادق سبب للهداية (آمنوا بربهم وزدناهم هدى).

٦- سؤال الهداية والثبات من بيده هداية القلوب وإضلالها: (من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشدا).
٧- المجاهرة بالبراءة من الكفر من أسباب تثبيت الله للعبد على الحق، (وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذاً شططاً).
٨- الابتعاد عن مواجهة الظلمة في حال عدم القدرة على تغيير المنكر (فأووا إلى الكهف)، (إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذاً أبداً).
٩- الفرار من الفتن واعتزالها والبعد عن التصدر لها، (وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله).
١٠- صبر النفس مع الصحبة القانتة لربها تريد وجهه، لا تخطيهم لغيرهم: (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا).
١١- ذكر الله والبعد عن الغفلة، وعدم طاعة الغافلين عن ذكره: (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا).
١٢- التفكر في حقيقة البشرية ومبدأ أمرها ومصيرها (أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً)، (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض).
١٣- شكر النعم ونسبتها لمسديها جل وعلا، (ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا الله).
١٤- تذكر المعاد وأهوال يوم البعث والنشور وما وراءه (ويوم نسير

الجبال) إلى قوله: (أحدا).

١٥- اتخاذ الشيطان عدوا والعلم بأنه عدو لنا (أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً).

١٦- تدبر القرآن وما صرفه الله من الأمثال فيه، (ولقد صرفنا في هذا القرءان للناس من كل مثل).

١٧- ترك المراء والجدال وقبول الحق والإذعان إليه متى بدا: (ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق).

١٨- الإقبال على آيات الله والحذر من الإعراض عنها عند التذكير بها: (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسيت ما قدمت يداه إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا).

١٩- الحذر من الظلم بأنواعه وأعظمها الشرك ومحاربة تفشيه في المجتمع: (وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا).

٢٠- التواضع للعلم وطلبه ولو كلف ذلك المرء عنتاً، فقد حرص عليه أكمل الخلق المسدد بالوحي في زمانه موسى عليه السلام وسافر في طلبه، (لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقبا).

٢١- التَّروي في الأمور التي لم نحط بها من جهة واقعها أو أدلتها.

٢٢- الصلاح لأن نفعه يعود على الذرية: (وكان أبوهما صالحاً).

٢٣- التعامل مع الخليقة بالشرع لا الأهواء كما في قصة ذي القرنين.

٢٤- القيام بواجبات الولاية على وجهها، لأنها تقوم على إصلاح شؤون المولى عليهم وخدمتهم، مع إقامة دين الله وحكمه.

٢٥- العبادة والعمل على بصيرة لا بالأهواء، فقد أخبر الله عن أناس ضل سعيهم في الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

٢٦- تحقيق التوحيد والنأي عن الشرك وأسبابه.

فهذه جملة أسباب معينة على الثبات وعاصمة بإذن الله من الفتن، أسأل الله أن يعصمني وعامة المسلمين من الفتن ما ظهر منها وما بطن، و(الحمد لله الذي أنزل الكتاب على عبده ولم يجعل له عوجاً)، وصلى الله وسلم على النبي المصطفى والرسول المجتبى، وعلى آله وصحبه الذين ارتضى.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

فهرس الموضوعات

مركز تدبر للدراسات والاستشارات تدبر

تدبر سورة القصص

ناصر بن سليمان العمر

رئيس الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم

تدبر

تدبر سورة القصص

الحضارة

الطبعة الأولى

تدبر سورة القصص

تدبر

مركز تدبر للدراسات والاستشارات

تدبر سورة القصص

الطبعة الأولى

١٤٣٨هـ/ ٢٠١٧

الرياض ـ الدائري الشرقي ـ مخرج ١٥

هاتف ٢٥٤٩٩٩٣ ٠١١ ـ تحويلة ٣٣٣

ناسوخ ٢٥٤٩٩٩٦ ٠١١

ص.ب. ٩٣٤٠٤ الرمز: ١١٦٨٤

البريد الحاسوبي: tadabbor@tadabbor.com

@tadabbor .... www.tadabbor.com

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العمر، ناصر بن سليمان

تدبر سورة القصص / ناصر بن سليمان العمر - ط١ - الرياض، ١٤٣٨هـ

١٠٠ ص؛ ١٧ × ٢٢ سم

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٥٠٦-٤٠٣-٣

١- القرآن - سورة القصص - تفسير أ. العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٣٨ / ١٠٤٣

رقم الإيداع: ١٤٣٨ / ١٠٤٣

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٥٠٦-٤٠٣-٣

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيِّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [آل عمران]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [النساء]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب].

أمَّا بعدُ، فإنَّ خير الكلام كتاب الله، وجدير بخير الكلام أن يُتدبَّر: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [ص]، حتَّى لا نقعَ فيما وقع فيه المنافقون فعاتبهم الله أشدَّ العتاب: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤﴾ [محمد].

وإنَّ من خيرة أنبياء الله - الَّذين بعثهم ونصَّ على كثير من أخبارهم في القرآن - نبيَّ الله موسى ﷺ، وهو الثَّالث من أولي العزم، وفي أخباره من العِبَر والعِظات ما اقتضى ذكره، بحيث لم تُذكر أخبار نبيٍّ مثله عليه الصَّلاة والسَّلام.

ومن أكثر المواضع بسطًا لأخباره الشَّريفة **سورة القَصَص**، وموضوعها من حيث تعلُّقه به أشرف من ذكر أخباره في مواضع أخرى؛ لكونها تعرَّضت- مع دعوته- إلى نشأته وشخصيَّته ﷺ، وكذلك حاله مع العلية من الأقوام، الملأ أرباب النُّفوذ سلطانًا أو مالًا، وحالهم مع دعوته.

ولأجل ما سبق فقد كانت لي دروسٌ في هذه السورة بمسجد خالد بن الوليد، ثمَّ يسَّر الله بعد تمامها استلال عِبَر منها، وتقديمها في ثلاثين حَلْقةً من حَلَقات برنامج ليدَّبَّروا آياته، الذي ألقيه عبر قناة المجد، في شهر رمضان من كلِّ عام، وقد كانت هذه الحَلَقات في سورة القصص عام ١٤٣٥هـ.

ثمَّ رأيت إخراجها على نحو ما ألقيتُه في القناة، بلغةٍ سهلة تناسب أكثر النَّاس، وتُقرِّب إليهم المراد، على طريقة ذكر فوائدَ مقتضَبة من الآيات، بعيدًا عن التَّطويل، وقد أغفلت كثيرًا من النَّقل، والكلام في دقائق المعاني، والنِّكات التي تناسب بعض طلَّاب العلم والمتخصِّصين، لكونها ربَّما ثقُلت على جمهور النَّاس.

وعلى ضوء هذه الرُّؤية قام المكتب العلميُّ باختصار الحَلَقات بعد تفريغها واقتناص فوائدها، مع تعديل ما لا بدَّ منه في الكتاب، ممَّا قد يُتسامح فيه أثناء الارتجال، إضافةً إلى توثيق ما لا بدَّ منه من النُّصوص الشَّرعيَّة.

ثمَّ وضعنا للكتاب هذه المقدِّمة وخاتمة.

ولا يفوتني التَّنبيه على أنَّ موضوع هذا الكتاب ليس تفسيرَ سورة القصص، وإنَّما هي فوائدُ ووقَفات وتنبيهات على أمور يحتاج إليها المسلم، ولاسيَّما الدَّاعية في حياته، أسمِّيها: وَقَفات تدبُّريَّة، وأيًّا ما كان اسمها فالمقصود هو أخذ العِبرة، وظهور الأثر، أمَّا التَّفسير فمبسوط في كتب أهل العلم، على مراتبَ ودرجاتٍ تناسب الخاصَّة والعامَّة.

ولا يفوتني هنا أن أشكرَ المكتب العلميَّ بمؤسَّسة ديوان المسلم الذي قام بإعداده، ومركز تدبُّر للدِّراسات الذي تولَّى مراجعته وإخراجه، وآمُل من كلِّ من وقف على ملحوظة أن يرسلها على بريد المؤلِّف، من أجل تلافيها مستقبلًا بإذن الله؛ ليكونَ شريكًا لنا في الأجر والثَّواب.

هذا، والله أسأل أن ينفعَنا بالقرآن، وأن يجعلَه حجَّة لنا لا علينا، وأن يوفِّقَنا لتدبُّره والدَّعوة إليه، وأن يرزقنا الصَّبر على ذلك، فهو المستعان وهو خير مسؤول، ولا حولَ ولا قوَّة إلَّا بالله.

وكتب

ناصر بن سليمان العمر

يوم الاثنين ١٩/١١/١٤٣٧هـ

البريد الإلكتروني: naser@almoslim.net

مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ●
وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا
مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ● إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ
ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ
● وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ
وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ● وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ
سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ●

سُورَةُ القَصَصِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓمٓ ● تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ● نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ
مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ● إِنَّ
فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ
طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ
مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ● وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ
فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ●

وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا
مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ● وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ
أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي
وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ●
فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ
فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ●
وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ
عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ●
وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا
أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ● وَقَالَتْ
لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
● * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ
عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ
● فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ
أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ●

حزب

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى
ٱلْمُحْسِنِينَ ● وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا
فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ
فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ
مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ
مُّبِينٌ ● قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ
هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ● قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ
ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ● فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا
ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ
مُّبِينٌ ● فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ
يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ
إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ
● وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ
يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ●
فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ●

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ
ٱلسَّبِيلِ ● وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ
ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ
مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا
شَيْخٌ كَبِيرٌ ● فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ
رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ● فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا
تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ
أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ
لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ● قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا
يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ
● قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن
تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ
وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ● قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ
قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ●

* فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ
ٱلطُّورِ نَارًاۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم
مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ●
فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ
ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ● وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا
جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْۖ
إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ● ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ
بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِۖ
فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمْ
كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ● قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا
فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ● وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا
فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ●
قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا
يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ●

فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ
مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ●
وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن
تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ●
وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ
غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ
أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ●
وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ
أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ● فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ
فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ●
وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ
لَا يُنصَرُونَ ● وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ
وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ● وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا
مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ
بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ●

وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ وَمَا كُنتَ
مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ● وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ
ٱلۡعُمُرُۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ
ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ● وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ
ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا
مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ●
وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَيَقُولُواْ
رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ
مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ● فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ
لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ
مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ
● قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ أَتَّبِعۡهُ
إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ● فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ
أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ
هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ●

۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ● ٱلَّذِينَ
ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ● وَإِذَا يُتْلَىٰ
عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ
مُسْلِمِينَ ● أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ
بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ● وَإِذَا سَمِعُوا۟
ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ
عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ● إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ●
وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ
نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا
مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ● وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن
قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ
بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ● وَمَا كَانَ رَبُّكَ
مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ
ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ●

وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ
ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ● أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا
فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ● وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ
ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ● قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا
هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَاۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَۖ
مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ● وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ
فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ
● وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ●
فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ● فَأَمَّا
مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ
● وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُۚ سُبْحَٰنَ
ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ● وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ
صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ● وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ
ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ●

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ
ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ
● قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ
يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ
فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ● وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ
وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ● وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ
كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ● وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا
هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم
مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ● ۞ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ
فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ
بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ
لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ● وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ
وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ
وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ●

قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ
مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ
وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ● فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ
فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا
مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ● وَقَالَ ٱلَّذِينَ
أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ
صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ● فَخَسَفۡنَا بِهِۦ
وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ
ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ● وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ
مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن
يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ
وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ● تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا
لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ
● مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا
يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ●

إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ قُل رَّبِّىٓ
أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ● وَمَا كُنتَ
تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا
تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ● وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ
ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
ٱلْمُشْرِكِينَ ● وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ
كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ●

تدبر سورة القصص

بين يدي السُّورة

يحسُن بنا قبل الشُّروع في تدبُّر سورة القَصَص أن نذكر مقدِّمة لها، تعرِّف بها، وتعين القارئ على التَّفكُّر فيها، فأقول وبالله التَّوفيق:

أوَّلًا: اسمها، ووجه التَّسمية:

اشتَهَرت تسمية هذه السُّورة بـ«سورة القَصَص»، وعُرفت بها في المصاحف وكتب التَّفسير، ولم يصحَّ لها اسم آخر[1].

وقد رُويت هذه التَّسمية عن ابن عبَّاس وابن الزبير ﵃؛ قال ابن عبَّاس ﵄: «نزلت سورة القَصَص بمكَّة»[2]، وقال ابن الزبير ﵄: «أُنزلت سورة القَصَص بمكَّة»[3].

وقد سُمِّيت سورة القصص بذلك؛ لاشتمالها عليه في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥﴾ [القصص].

قال ابن عاشور: «فالقصص الَّذي أُضيفت إليه السُّورة هو قصص موسى الَّذي قصَّه على شعيب عليهما السلام فيما لقيه في مصرَ قبل خروجه منها، فلمَّا حُكي في السُّورة ما قصَّه موسى كانت هاته السُّورة ذات قَصص لحكاية قصص،

---

(١) ينظر: «الدر المنثور» ٤٢١/١١، تفسير «التحرير والتنوير» ٦١/٢٠.

(٢) «فضائل القرآن» لابن الضريس ص١٧-١٨، «فضائل القرآن» للنحاس ص١١٦، «دلائل النبوة» للبيهقي، ١٤٢/٢-١٤٤.

(٣) أورده السيوطي في «الدر المنثور» ٣٨٩/٦، وعزاه لابن مردويه.

فكان القصص متوغِّلًا فيها، وجاء لفظ «القصص» في سورة يوسف، ولكن سورة يوسف نزلت بعد هذه السُّورة»[1].

عدد آياتها:

«هي ثمان وثمانون آيةً في جميع العدد، اختلافها آيتان: ﴿طسٓمٓ ①﴾ [القصص]، عدَّها الكوفيُّ ولم يعدَّها الباقون، ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ﴾ [القصص:٢٣]، لم يعدَّها الكوفيُّ وعدَّها الباقون، وليس فيها شيء ممَّا يشبه الفواصل»[2].

وقت نزولها:

سورة القصص من السُّور المكِّيَّة كما نُقل عن ابن عبَّاس ﷺ[3]، وتابعه المفسِّرون[4]، ويظهر ذلك أيضًا من موضوعاتها، ولكن اختُلف في آيات منها؛ فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖ﴾ [القصص:٨٥]، «قيل: نزلت على النبيِّ ﷺ في الجُحْفَة في طريقه إلى المدينة للهجرة؛ تسليةً له على مفارقة بلده. وهذا لا يناكد أنَّها مكِّيَّة؛ لأنَّ المراد بالمكِّيِّ ما نزل قبل حلول النَّبيِّ ﷺ بالمدينة، كما أنَّ المراد بالمدنيِّ ما نزل بعد ذلك ولو كان نزوله بمكَّة.

وعن مقاتل وابن عبَّاس أنَّ قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٢﴾ إلى قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٢- ٥٥] نزل بالمدينة»[5].

---

(١) تفسير «التحرير والتنوير» ٦١/٢٠. والآية التي في سورة يوسف هي: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ۝٣﴾.

(٢) «البيان في عدِّ آي القرآن» ص٢٠١.

(٣) سبق تخريجه في تسمية السورة.

(٤) ينظر: «تفسير ابن كثير» ٢٢٠/٦، «زاد المسير» لابن الجوزي ٢٠٠/٦، «الدر المنثور» ٦١/٢٠.

(٥) تفسير «التحرير والتنوير» ٦١/٢٠.

والمشهور: أنَّ هذه الآيات نزلت بمكَّة في النَّجاشيِّ ورجال من القسِّيسين بعث بهم إلى مكَّة، لمَّا جاءته المهاجرة الأولى، قال ابنُ إسحاق: «قَدِمَ على رسول الله ﷺ وهو بمكَّة عشرون رجلًا أو قريبٌ من ذلك، من النَّصارى، حين بلغهم خبره من الحبشة، فوجدوه في المسجد، فجلسوا إليه وكلَّموه وساءلوه، ورجالٌ من قريش في أنديتهم حول الكعبة، فلمَّا فرغوا من مساءلة رسول الله عمَّا أرادوا، دعاهم إلى الله وتلا عليهم القرآن، فلمَّا سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدَّمع، ثمَّ استجابوا لله وآمنوا به وصدَّقوه، وعرفوا منه ما كان يوصَف لهم في كتابهم من أمره، فلمَّا قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفرٍ من قريش، فقالوا لهم: خَيَّبَكُم الله مِن رَكب! بعثكم مَن وراءكم مِن أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرَّجل، فلم تطمئنَّ مجالسكم عنده حتَّى فارقتم دينكم وصدَّقتموه فيما قال؛ ما نعلم ركبًا أحمقَ منكم! أو كما قالوا لهم، فقالوا لهم: سلامٌ عليكم لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه، لم نَألُ أنفسَنا خيرًا»(١).

وقد قال الزُّهريُّ: «ما زلت أسمع علماءنا يقولون: نزلت في النَّجاشيِّ وأصحابه»(٢).

مقصد السُّورة وأهدافها:

سورة القصص جاءت - كما يُنبئ عنه اسمها - بقصص؛ أي: أخبار، لأخذ العِبرة منها، وقد قامت على قصَّة موسى ﷺ مع فرعونَ من حين ولادة موسى إلى أن أغرق الله فرعون وجندَه في اليمِّ، ثمَّ خُتمت بقصَّة قارون - وهو من قوم موسى - وهلاكه، وإنَّما فُصِّل خبره في آخر السُّورة لإتمام العِظة بالقصَّة الَّتي جرت أحداثها أوَّلًا،

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٦/٢٤٥، وهو في «سيرة ابن إسحاق» ٤/٢٠٠.

(٢) السَّابق.

ولكون أخبارها أشرفَ في الجملة، فذُكرت أخبار قارون بعد أن استوفت الآيات القصَّة الأولى وعظاتها، وقد آتى الله تعالى قارون من الأموال ما إنَّ مفاتح خزائنها وحدها ليشقُّ على الجماعة القويَّة حملُها! وبين كيف كانت عاقبته لمَّا بغى وأفسد، وذلك كلُّه لبيان عاقبة الظَّالمين الباغين، وأنَّه لا فرق بين نسيبٍ قريب أو فرعون بعيد، متى طغى وبغى حقَّت عليه النَّقمة! يستوي في ذلك أصحاب الرِّئاسات والسِّياسات المتبوعين، كفرعونَ وهامان، وأصحاب الأموال والدُّثور كقارون. وإنَّ في السُّورة بشارات للمؤمنين المستضعَفين في الأرض، فلا غروَ أن كانت تلك السُّورة المكِّيَّة تثبيتًا للجماعة المؤمنة الَّذين تجهَّمهم القريب والغريب، وتقريرًا لحقائق التَّوحيد في قلوبهم، وتسليةً لهم فيما يجبَهون، مع كونها بشارةً لهم بمآلات عزٍّ وتمكين لهذا الدِّين.

والله تعالى كثيرًا ما يذكر «في السُّور المكِّيَّة من تثبيت أمر الرُّسل، وآياتهم، وبراهينهم، وحسن عاقبتهم، ومن ضلال مخالفيهم، وجهلهم، وغيِّهم، وخِذلانهم، وسوء عاقبتهم ما فيه عبرة»(١).

فلا عجبَ أن نجد في ختام السُّورة - الآيات (٨٥-٨٨) - وعدَ رسول الله ﷺ بالعودة إلى مكَّة فاتحًا منتصرًا، «ينشر الهدى، ويقيم الحقَّ والعدل، ولكن العجب أنَّ هذا الوعد بالنَّصر جاءه وهو مُخرَج من بلده، مطارَد من قومه، مهاجرًا إلى المدينة ولم يبلغها بعد! فقد كان بالجُحْفَة قريبًا من مكَّة، قريبًا من الخطر، يتعلَّق قلبه وبصره ببلده الَّذي يحبُّه، ويقول عند فراقه مخاطبًا مكَّة: «إنَّكِ لَأَحبُّ أرضِ اللهِ إلى الله، ولولا أنَّ قومي أخرجُوني منكِ ما خرَجتُ»(٢). ويَعِده الله بالرُّجوع إلى مكَّة فيقول:

---

(١) «الجواب الصحيح» ٦/٥١٨.

(٢) أخرجه البزار في مسنده «البحر الزَّخَّار» ١١/١٧ وقال: «لا نعلمه يُروى بإسناد أحسن من هذا الإسناد».

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖۚ﴾ [القصص:٨٥]، ويبيِّن سبحانه أنَّ كلَّ ما دون الحقِّ فهو عُرضة للفناء، وأنَّ زِمام الحكم بيده تعالى.

وتُختم السُّورة بهذه الآية إثباتًا للوحدانيَّة، ولإجلال القدرة الإلهيَّة: ﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٨٨﴾ [القصص]»[١].

وفي السُّورة أيضًا ما في السُّور المكِّيَّة؛ من التَّمهيد لأصول الدِّين الكلِّيَّة الَّتي اتَّفقت عليها الشَّرائع، من أمر التَّوحيد، واتِّباع الرُّسل، وأمر المعاد، والنَّهي عن الشِّرك، وتثبيت العقيدة في النُّفوس، ومن ذلك «إثبات قدرة الله تعالى ورعايته للمؤمنين، فهو سبحانه الواحد الأحد، الفرد الصمد، المتفرِّد بالحكم والقضاء، فقد آزر موسى وحيدًا فريدًا طريدًا، ونجَّاه من بطش فرعون، وأهلك فرعون وجنوده كما أهلك قارون وشيعته.

ولهذا تجد بين الخبرين - خبر فرعون، وخبر قارون - من التَّعقيبات ما فيه تقرير التَّوحيد وأمر الرِّسالة، وتعرض عليهم دلائل الصِّدق فيما جاءهم به رسولهم ﷺ، وكيف يتلقَّاه فريقٌ من أهل الكتاب بالإيمان واليقين، بينما هم يتلقَّونه بالكفران والجحود، وهو رحمة لهم من العذاب لو كانوا يتذكَّرون!

مع مناقشة العوائق والاعتذارات السَّخيفة من نحو قولهم: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ﴾ [القصص: ٥٧]! وتبيِّن الآيات أين يكون الأمن وأين تكون المخافة، وتجول مع المشركين الَّذين يواجهون دعوة الإسلام بالشِّرك والإنكار والمعاذير، تجول معهم جولات في شتَّى مشاهد الكون،

---

(١) «أهداف كل سورة ومقاصدها» د.عبد الله شحاتة ص٢٨١-٢٨٢.

وفي مشهد الحشر، وفيما هم فيه من الأمر، وفي أواخر ذلك يختم بأهمِّ سؤالين يتوجَّهان لكلِّ مكلَّف: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [القصص]، وهو سؤال: لا إله إلَّا الله، ثمَّ يتبعه بالسُّؤال الثَّاني: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [القصص]، وهو سؤال: محمَّد رسول الله، «وكان الله قد أخذ له ميثاقًا على كلِّ نبيٍّ بعثه قبله بالإيمان به، والتصديق له، والنصر له على من خالفه، وأخذ عليهم أن يؤدُّوا ذلك إلى من آمن بهم وصدَّقهم، فأدَّوا من ذلك ما كان عليهم من الحقِّ فيه، يقول الله تبارك وتعالى لمحمَّد ﷺ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾ [آل عمران: ٨١]، إلى آخر الآية، فأخذ الله ميثاق النَّبيِّين جميعًا بالتَّصديق له، والنَّصر له على من خالفه، فأدَّوا ذلك إلى من آمن بهم وصدَّقهم»(١).

فخلاصة مقصد هذه السُّورة هو:

١- تثبيت أمر الرُّسل، وآياتهم وبراهينهم، وحُسن عاقبتهم، وبيان ضلال مخالفيهم وسوء عاقبتهم.

٢- تثبيت أتباعهم، وتسليتهم بذلك.

٣- تقرير التَّوحيد والتَّنفير من الشِّرك. وهذا المقصد من أجلِّ مقاصد القرآن الكريم.

وجلُّها يدور على المعنى الأوَّل، والله أعلم.

---

(١) «سيرة ابن إسحاق» ٢/١٠٩.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الآيتان (١) و (٢)

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢﴾

• ابتدأ الله تعالى السُّورة بالحروف المقطَّعة الدَّالَّة على إعجاز القرآن الكريم، ثمَّ أشار إلى آياته للاهتداء بها، فهو كتابٌ من الله تعالى، بيِّنة آياتُه، مبيَّن لمن طلب هداه، فحقُّه صُراح، وسبيله واضحة، لا لبس ولا غموض فيه لمن تدبَّره قاصدًا الهدى.

ومن المطَّرد أنَّ أيَّ سورة بدأت بالأحرف المقطَّعة ففيها إشارة أو حديث عن القرآن.

الآية (٣)

﴿ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ ﴾

• الله تعالى يتلو من أنباء ما قد سبق ما فيه عظةٌ وعبرة وبيان، ومن ذلك نبأ موسى وفرعون، قصَّ الله مواضعَ العبر فيه، وسكت عن أشياء، وكان ما قصَّه صدقًا محضًا لا يختلط بباطل، وخصَّ النَّبيَّ ﷺ ومِن ورائه أتباعه المؤمنين بتلك التِّلاوة؛ إذ غرض تثبيتهم وبيان حُسن عاقبتهم هو المقدَّم في السُّورة، ولأنَّهم أَولى النَّاس بالانتفاع من ذلك المتلوِّ.

• في توجيه الخطاب إلى النَّبيِّ ﷺ في قوله:﴿ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ ﴾ مزيد عناية بالخبر، وبشارة للنَّبيِّ ﷺ بهلاك الظَّالمين وتمكين المؤمنين، وفيه إشارة إلى أنَّ في الحقِّ الَّذي جاء به محمَّد ﷺ من ذلك ما لم يُسبَق إليه، أو يُنمى إلى علم الأمم الكتابيَّة.

• قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ لانتشار أخبار أهل الكتاب الَّتي اختلط فيها الصِّدق بغيره، فجاء القرآن بالحقِّ الَّذي لا مِريةَ فيه، والَّذي يجب الإيمان به.

الآية (٤)

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤)﴾

• صدَّرَ تعالى القصَّة ببيان فساد فرعون؛ حيث علا في الأرض، وفرَّق أهلها، مستضعفًا طائفة منهم بأنواع الاعتساف الَّذي بلغ تذبيح أبنائهم والإبقاء على نسائهم للخدمة، ولذلك قال الله تعالى فيه: ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤)﴾، فقد صار الفساد منهاجًا له وسِمة.

• في الآية تأكيدٌ لتجاوز فرعون، وبيانٌ لمظاهرَ من فساده، منها الكِبْر والعلوُّ حتَّى بطر الحقَّ، وغمط النَّاسَ، وادَّعى الرُّبوبيَّة.

• بعض النَّاس يستعلي على المؤمنين؛ لأنَّ الله تعالى أنعم عليه بسُلطة، أو منصب، أو مال، أو جاه، ونحوه، وهذا فيه من صفات فرعونَ أو حاشيته الَّتي استحقُّوا عليها العقوبة.

• للكِبْر آثارٌ وَخيمة؛ منها: عدم قَبول الحقِّ، والاستعلاء على النَّاس، وسوء معاشرتهم، والاعتداء على حقوقهم. والله لا يحبُّ المتكبِّرين، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣)﴾. [النحل] و«لا يدخُل الجنَّة مَن كان في قلبه مِثقالُ ذَرَّةٍ من كِبْر»[1].

---

(١) رواه مسلم (٩١).

- في قوله: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ بيانٌ لخطر بثّ الفرقة بين الأمَّة الواحدة، وذمٌّ لأصحاب تلك المسالك.

- تصنيف النَّاس وتفريقهم بتُهَم باطلة، أو دَعاوى غير ثابتة، من عمل الطُّغاة المتكبِّرين في الأرض بغير الحقِّ.

- مَن فرَّق بين المسلمين، واستضعف طوائفَ منهم بغير جَريرةٍ ارتكبوها؛ ففيه شبهٌ من فرعون.

- على كلِّ أمَّة الحذر من الفساد في الأرض؛ فإنَّه ما حلَّ بأمَّة إلَّا كانت عاقبتها وَخيمة، كعاقبة فرعونَ وجنوده؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [يونس].

الآيتان ﴿٥﴾ و ﴿٦﴾

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾

- لمَّا بيَّن تعالى فساد فرعون، عطف عليه نتيجته؛ وهو إهلاك المفسدين الظَّالمين، وتمكين المؤمنين المستضعَفين، وقدَّم هذه لتعلُّق مقصد السُّورة الأعظم بها، وإن كان توريثهم الأرضَ يقتضي إهلاكَ المفسدين أوَّلًا.

- التَّعبير بالمضارع في الآية له دلالتان:

١- استحضار الحال الَّذي وقع فيه، وإن كان في الماضي؛ للاعتبار.

٢- الدَّلالة على التَّجدُّد؛ فكلَّما وُجد السَّبب وُجد المسبَّب، فإذا وُجد الفساد أعقبه التَّمكين لأهل الخير الصَّابرين، ولذلك لم يعيِّن الطَّائفة الَّتي استضعفها فرعون، بل عمَّم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ للدَّلالة على أنَّها سنَّة ماضية، فمتى حدث استضعافُ طائفة مؤمنة مستعينة بالله صابرة، من طائفة باغية متجبِّرة؛ جاء التَّمكين لأهل الإيمان والصَّلاح، والسُّنن لا تتخلَّف، ومشيئته تعالى نافذة.

• في هذه الآية بشارةٌ من الله تعالى للمستضعَفين المظلومين بالتَّمكين لهم في الأرض، وجعلهم أئمَّة ووارثين، بعد أن كانوا مستذَلِّين مضطهَدين.

• وفيها أيضًا شفاءُ صدور المظلومين، حيث يُريهم الله تعالى زوال الظَّالمين، وكسر الطُّغاة المتجبِّرين.

• إن الأُمَّة المستضعَفة وإن بلغت من الضَّعف ما بلغت، لا ينبغي أن يستوليَ عليها اليأس، ولا أن تُخلدَ إلى الكسل؛ فقد نجَّى الله تعالى بني إسرائيل مع ضعفهم، من أسر فرعونَ وجبروته، ومكَّن لهم في الأرض.

• وطريق ذلك يبدأ بالموعظة والمطالبة بالكلمة اللَّيِّنة، ولا بدَّ من ذلك، فالأُمَّة ما دامت ذليلةً مقهورة لا تطالب بحقِّها ولا تتكلَّم به، لا يقوم لها أمرُ دينها ودنياها، ولا تكون لها إمامة.

• متى أخذت الأمَّة بالأسباب نُصرت ومُكِّنت، فإنَّ وعد الله تعالى لعباده لا يتخلَّف، ولكن عليهم الأخذ بالأسباب الشَّرعيَّة والدُّنيويَّة لتحقيقه.

• وقد تحقَّقت هذه الآية في زمن النَّبيِّ ﷺ؛ حيث كانت كذلك عاقبة كفَّار قريش، وفرعونها أبي جهل، فكان زوالهم على أيدي المستضعَفين من المؤمنين الَّذين منَّ الله عليهم، ومكَّن لهم في الأرض.

• والمهمُّ أن نعرفَ كيف نتعامل مع القوى الظَّالمة؛ كما فعل النَّبيُّ ﷺ، مصاحبين حُسن الظَّنِّ بالله تعالى، والفأل الحسن، دائبين على العمل الصَّادق المدروس بحكمة وعلى بصيرة: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف].

الآية ﴿٧﴾

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾

• عطف تعالى هذه الآيةَ على بشارته للمستضعَفين، وفيه إشارةٌ إلى عدم استعجال تحقُّق وعد الله، فالله تعالى لطيفٌ، يُهيِّئ الأسباب، ويزيل الموانع، ويقدِّر بحكمته الأمر في وقته، والمهمُّ الثِّقة في موعود الله تعالى.

• أوحى الله تعالى إلى أمِّ موسى ﷺ، والمراد بالوحي هنا: الإلهام، وهو واردٌ تُرى فيه المصلحة، وينشرح له الصَّدر، بل قد لا يستطيع المرء دفعه. وللإلهام الحقِّ دلائلُ وعلامات، منها: معرفة صاحبه بالصِّدق والاستقامة، وموافقة الملهَم به للشَّريعة، فلا يكون تشريعًا جديدًا، وهو كرامةٌ من الله تعالى لمَن شاء من عباده الصَّادقين، وهو يختلف عن دَعاوى السَّحَرة والكهَّان.

• في الآية خبران، وأمران، ونهيان، وبشارتان؛ فالخبران: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ ﴾، ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ ﴾، والأمران: ﴿ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾، ﴿ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ ﴾، والنهيان: ﴿ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ﴾، والبشارتان: ﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾، فحوَت هذه الآية القصيرة ذلك كلَّه، ممَّا يدلُّ على أنَّه كلام الله تعالى المعجِز في بلاغته عن الإتيان بمثله.

• يُستفاد من الآية: دفع الضَّرر المحقَّق بالضَّرر المشكوك فيه؛ فأمُّ موسى ﷺ حين خافت عليه من قتل فرعونَ له جعلته في تابوتٍ وألقته في اليمِّ.

• لطف الله تعالى بأمِّ موسى ﷺ، وتهوين المصيبة عليها بالبِشارة، وهذا يدلُّ على أهمِّيَّة بثِّ التَّفاؤل الإيجابيِّ فيما يعتري الأمَّة، وكذلك أن نبثَّ التَّفاؤل والبِشارة عند كلِّ مُصاب تسليةً وتخفيفًا عليه.

• البشارة لا تعني عدم البلاء، فقد بشَّر الله تعالى أمَّ موسى ﷺ ولم يتوقَّف البلاء.

• قد يقدِّر الله تعالى على العبد بعض المشاقِّ؛ من أجل أن يُنيلَه سرورًا أعظم، أو يدفعَ عنه شرًّا أكبر.

• القرآن الكريم كثيرًا ما يصل الأخبار المحزنة بالأخبار المفرحة، فبعد أن أمرها بالأمر الصَّعب - وهو إلقاء موسى ﷺ في البحر - طمأنها وبشَّرها، فعلينا موافقةُ منهاجه في أخبارنا، ولاسيَّما فيمَن عظُمت مصيبته؛ لأنَّ النَّفس البشريَّة ضعيفة.

الآية (٨)

﴿ فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ۝٨ ﴾

• ترتَّب على إلقاء موسى ﷺ في اليمِّ أنِ التقطه آل عدوِّه فرعون، ولكن جعل الله تعالى ذلك سببًا ليكون لهم عدوًّا وحَزَنًا، فالخوف ليس عليه وإنَّما عليهم، وقد بيَّن تعالى سببه بأنَّهم كانوا خاطئين، واللَّام هنا في «ليكون» لام الصَّيرورة والعاقبة والمآل، لا لام التَّعليل.

• نفاذ إرادة الله تعالى بالتقاط آل فرعون موسى؛ ليتحقَّق مرادُه سبحانه في هلاكهم على يديه، لا تظهر حكمته البالغة أوَّل الأمر للنَّاس، وهكذا لا يلزم لإثبات حكمته تعالى في نافذ أقداره سبحانه أن نعلمَ وجهها في حينها أو في حياتنا، وحسبنا أن نؤمن بأنَّه تعالى حكيم عليم.

• لم يُبرِّئ تعالى حاشية فرعون وجنوده من فعائله، بل عطفهم عليه، وأشركهم معه في الخطيئات، فلا عُذرَ لهم؛ إذ إنَّه لم يظلم ولم يتمكَّن ملكه وفساده إلَّا بهم.

• التَّعبير بـ﴿خَٰطِـِٔينَ﴾ يدلُّ على أنَّهم غير معذورين؛ يقال: الخاطئ في العمد، والمخطئ في غيره.

الآية ﴿٩﴾

﴿ وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾

• هيَّأ الله تعالى امرأة فرعونَ لإقناع فرعون، فكانت سببًا لبقاء موسى الَّذي لم يكن في الحسبان! وهذا يستدعي اليقين بصدق وعد الله تعالى وإن لم نبصر أسبابه؛ فإنَّ كثيرًا من النَّاس يتعاملون مع الأسباب ويُغفِلون المسبِّب سبحانه، ونحن مطالبون بعمل الأسباب والتَّوكُّل على الله، فالله يُجري منها ما يشاء وييسِّره.

• خاطبت امرأةُ فرعونَ زوجها بأسلوب حسن، فاستمالت قلبه أوَّلًا بقولها: ﴿ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ ﴾، ثمَّ رفعت حاجتها بقولها: ﴿ لَا تَقۡتُلُوهُ ﴾، ثمَّ خاطبته بأسلوب العقل فقالت: ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا ﴾ وقد تحقَّق لها ما أرادت بهذا الأسلوب الحكيم.

• أهمِّيَّة دعوة النَّاس بالأسلوب المناسب، فالنَّاس فيهم من يؤثِّر فيه الخير والأسلوب الحسن، ومَن لم ينفع معه الأسلوب الرَّقيق قد ينفع معه أسلوب العقل الحكيم، وعلى الدَّاعي التَّدرُّج في الأسلوب بحسب المدعوِّ وحاله، وإن لم يستجب له فقد يتقِّي بالأسلوب الحسن شرَّه.

• تُظهر الآية حاجة الأمَّة للمتفرِّسين فيمَن ينفعها؛ كفِراسة امرأة فرعون في موسى ﷺ، والعزيز في يوسف ﷺ، وبنت صاحب مَدين في موسى ﷺ، وبَحيرى الرَّاهب في نبيِّنا ﷺ، وهذه مسؤوليَّة المعلِّمين والمربِّين، فعليهم أن يتفرَّسوا في النَّاس من يصلح لأن يتأهَّل فينفع الأمَّة ويوجِّهها.

• إيواء من كانت به حاجة، كمَن ليس له أب يُعرف أو أمٌّ ونحوه، والإحسان إليه، من كريم الأخلاق، ومن التَّكافل الاجتماعيِّ الَّذي جاء به الشَّرع، وهو جار في النَّاس كافرهم ومسلمهم كما أشارت إليه هذه الآية.

• أهمِّيَّة الحكمة في الوصول إلى المراد، فاستخدام الحكمة مع العاطفة والعقل يحقِّق النَّتائج بإذن الله تعالى، والأمَّة بحاجة إلى الجمع بين الشَّرع والعقل والعاطفة حتَّى تدركَ مقاصدها، والعقل الصَّريح الخالي من شوائب التَّأثُّر الفكريِّ الفاسد لا يعارض النَّقل الصَّحيح من الكتاب والسُّنَّة.

• علينا أن نعلم أنَّ الأسباب المادِّيَّة لا تمنع من نفاذ إرادة الله تعالى، فمع حرص آل فرعونَ على قتل بني إسرائيل؛ كانت نهاية حكمهم على أيديهم.

• كثيرٌ من كيد الكافرين يعود تدميرًا عليهم، وعلى أممهم ومجتمعاتهم، يظنُّون أنَّ انتفاعهم إنَّما يكون بذلك التَّدبير وتلك النُّظُم، وفيها عطبهم! وهكذا كانت تربية موسى ﷺ في بيت فرعون؛ كان يرجو نفعه، فكان سببَ إهلاكه: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾.

الآية (١٠)

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٠) ﴾

• بعد أن ألقت أمُّ موسى ﷺ ابنها في اليمِّ، أصبح فؤادها فارغًا من كلِّ شيء إلَّا منه ﷺ، وهذا طبع النَّفس البشريَّة، ولولا أنَّ الله ثبَّتها وربط على قلبها لتكون من المؤمنين بوعده، لأبدت ولهها على ابنها وصرَّحت بمكانه.

• عند لحظة طارئة قد تضيع الفكرة وتستغرق بعضهم اللَّحظة، فيتصرَّف تصرُّفًا خاليًا من النَّظر في عاقبته وآثاره، فتزيد المشكلة ويضيق المخرَج، والواجب الاستعانة بالله تعالى، ولحظ الحكمة، والأناة في التَّصرُّف.

• من عناية الله تعالى بعباده المؤمنين تثبيتُهم عند المصائب، والرَّبط على قلوبهم.

الآية (١١)

﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١) ﴾

• بعد أن ربط الله تعالى على قلبها هدأت وزادت يقينًا بوعد الله تعالى، ولكنَّها لم تترك الأخذ بالأسباب، فأمرت أخته بتتبُّع خبره.

• «بصُرَت به عن جُنُب»؛ أي: أبصرته عن بُعد، فلم تقربه، وكأنَّها لا تعرفه، ولذلك قال: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١)﴾ ويؤخذ منه: جواز المراقبة للمصلحة ودفع الضَّرر، وأمَّا التَّجسُّس وهتك السِّتر وتتبُّع العورات فلا يجوز.

الآية ﴿١٢﴾

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾﴾

• قدَّر الله تعالى في نفس الطِّفل الامتناعَ عن المراضع؛ ليُضطرَّ آل فرعونَ إلى البحث عن مُرضعة له، وهذا من حكمته سبحانه ورأفته بأمِّه.

• اتَّبعت أخته سبيل التَّلطُّف والتَّعريض للوصول إلى المراد، فقالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ وكأنَّها تستأذن في النَّفع ولا تطلبه، وقالت: ﴿عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ﴾ بتنكيرهم، مع أنَّها تقصد أمَّهما، وقالت: ﴿يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾؛ أي لأجلكم، ولم تقل: يُرضعونه أو يكفلونه دون نسبة ذلك لمصلحتهم؛ حتَّى لا تُثير ريبتهم، ﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾؛ لأنَّه منكم، أو لأن النُّصح من سجاياهم، وقيل: قالت: (وهم له)؛ عَنيتُ لفرعون؛ إبعادًا للتهمة، وهذا دليلٌ على حكمتها وعقلها وبُعد نظرها.

• لا بدَّ لك من الإيمان بالله تعالى، والثِّقة بوعده، وحسن الظَّنِّ به، والتَّسليم لحكمته، وتأمَّل: وُلد موسى ﷺ في السَّنة الَّتي يُقتل فيها أبناء بني إسرائيل، خلافًا لأخيه هارون، ومع ذلك تركوه، بل دأبوا يبحثون له عن مُرضعة! فتركوه لأهله يربُّونه في بيتهم وهم لهم ممتنُّون! ثمَّ كان هلاك فرعونَ وزوال ملكه على يديه.

الآية (١٣)

﴿ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

- ردَّ الله تعالى موسى ﷺ إلى أمِّه إقرارًا لعينها، وإذهابًا لحزنها، ولتثقَ بوعد الله تعالى.

- وعدُ الله تعالى لهذه الأمَّة كائنٌ لا محالة، فإذا توافرت الأسباب وزالت الموانع جاء نصره، وعلينا - إن لم نبصر طلائعه - ألَّا نيئسَ من وعد الله تعالى، بل نعمل على إزالة الموانع لأسباب نصره سبحانه، ثمَّ هو قادمٌ من حيث أبصرنا أو لم نبصر.

- حكمة الله تعالى في أفعاله بالغة، ومع ذلك فالمبصرون لها قد يكونون قلَّة، وقد يكون الأمر في ظاهره كريهًا، لكنَّ عاقبته محمودة: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١٦]، ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾ [النساء].

الآية (١٤)

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٤﴾

• في الآية إشارةٌ إلى أنَّ النُّضج العضويَّ والعقليَّ من مهمَّات التهيئة لمصاعب التَّكليف، ولاسيَّما فيمَن سيكون متبوعًا.

• جمع تعالى بين إيتائه العلم والحكمة، وتلك نعمةٌ قد كانت له ﷺ قبل النُّبوَّة، وهذا ممَّا يدلُّك على فضل موسى ﷺ، فقد أثنى الله على أنبياء كثيرين بالحكم والعلم كداود وسليمان ولوط ويوسف عليهم السلام، ولكنَّ سياق الآيات كان في حالهم بعد النُّبوَّة، وهم لم يخلوا منهما قبلها، إلَّا أنَّ موسى بلغ منزلة في ذلك رفيعة، لذا نصَّ عليها.

• قدَّم الحُكم على العلم في عامَّة المواضع؛ وذلك لأنَّ العلم بلا حكمة لا يفيد، ولهذا قالوا: الحكيم الَّذي يعمل بما يوجبه العلم، ولأنَّ الإصابة في الحكم والعمل هي مقصود العلم، فقدَّم المقصود تنويهًا به.

• من النَّاس من قد يكون عالمًا ولا يكون حكيمًا، فلا تصدُر عن رأيه، أو تحفِل به كثيرًا.

• الحكمة مستلزمة للعلم عند القدرة عليه، وهذا يُظهر أهمِّيَّة العناية بالعلم والحكمة.

• الإحسان يقود إلى كلِّ خير، فإحسان موسى ﷺ كان سببًا في إعطاء الله تعالى إيَّاه العلم والحكمة، وكذلك النُّبوَّة، فالخير كلُّ الخير في الإحسان: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن].

• على الدُّعاة وأهل العلم الاجتهاد في الإحسان؛ فإنَّ هذا منهج قدواتهم من الأنبياء عليهم السلام، وهو ظاهرٌ في نبيِّنا محمَّد ﷺ قبل بعثته؛ كما في قصَّة خديجة رضي الله عنها لمَّا قالت: «والله لا يُخزيكَ الله أبدًا»... الحديث.

الآية (١٥)

﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (١٥) ﴾:

• الحكيم العالم قد يزلُّ، وقد يخطئ في التَّقدير، فالمعصوم من عصمه الله، لكنَّ الفرق بينه وبين غيره: أنَّه يتدارك.

• يحسُن اغتنام فرصة غفلة النَّاس - كمنتصف النَّهار - لقضاء الحوائج بيُسر، وهو يختلف من زمنٍ إلى آخر، ومن بلدٍ إلى غيره.

• دخول موسى ﷺ المدينةَ متوجِّسًا يُفهم منه أنَّه بدأ يُعرف بمنهج يخالف فرعون، وهو لازم كونه من المحسنين؛ ولذلك استعان به الإسرائيليُّ، ولو كان لا يعرف إلَّا أنَّه من بيت فرعون ما استعان به.

• موسى ﷺ فارق فرعون لمَّا رآه على ظلم وبغي ومخالفة للحقِّ، وتخلَّى عن امتيازاته الَّتي وجدها في قصره وملكه؛ ولذلك وصفه تعالى بأنَّه من المحسنين، والمحسن لا يرضى بالظُّلم ولا يقرُّه أو يسكت عنه، فضلًا عن أن يكون متمتِّعًا بامتيازات الظَّالمين، أو مشاركًا لهم في ظلمهم، أو مدافعًا عنهم.

• الانتباه إلى خطورة العصبيَّة، فقد تجرُّ إلى أمر محرَّم إذا لم تُضبط بالشَّرع والعقل؛ ولذلك تكـرَّر قوله: ﴿مِن شِيعَتِهِۦ﴾ ﴿مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾، فحميَّة موسى ﷺ لهذا الرَّجل وقهر الظُّلم الَّذي يراه جعله يقع في هذا الخطأ الَّذي تاب إلى الله ﷻ منه.

• إذا انتشر الظُّلم ورسَخ أصبحت لدى المظلومين قابليَّة للاستفزاز وردِّ الفعل وإن تجاوزه خطأ.

• الظَّالم المعروف بالظُّلم المشتهر به يقف ضدَّه محبُّ العدالة، بل قد يستعجل بعضهم فينصر عليه ظالمًا له، بسبب الخلفيَّة التَّاريخيَّة الَّتي رسخت أنَّ هذا ظالم مستبدٌّ، وأنَّ هؤلاء ضعفاءُ مستضعَفون.

• قتل النَّفس المعصومة مستقبَح دينًا وعقلًا، وإنَّ حفظ الدِّين والنَّفس والعقل والعِرض والمال ممَّا أجمعت عليه الشَّرائع السَّماويَّة.

• لم يسوِّغ موسى ﷺ قتلَه القِبطيَّ مع كونه مشركًا، بل تاب منه، ومنه تعلَمُ ضلال الَّذين يسوِّغون قتل النُّفوس المسلمة بالتَّأويلات الباطلة.

• قتل الكافر الَّذي له عهدٌ لا يجوز، ومن جنسه الكافر الآمن الَّذي دخلتَ بلده بتأمينه وعلمه، وإن كان فيه جَورٌ، فإنَّ موسى ﷺ عدَّ قتله الكافر ذنبًا واستغفر الله منه، ويعتذر عن الشَّفاعة الكبرى يوم القيامة بسببه، ويقول: «إنِّي قد قتَلتُ نَفْسًا لم أُومَرْ بقَتلِها»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٤٧١٢).

- وجوب التَّقيُّد بضوابط الشَّريعة، والبعد عن الانسياق مع العاطفة دون مراعاة للشَّرع، ففي حُكم العاطفة: يستأهل القِبطيُّ الضرب، وما فعله موسى ﷺ مع هذا القِبطيِّ الظَّالم لا ذنبَ له فيه، ولاسيَّما أنَّه لم يُرد قتله وإنَّما دفعه.

- أهمِّيَّة تجديد الاجتهاد وإعادة النَّظر في النَّوازل، دون اكتفاء بالخلفيَّة السَّابقة والنَّظرة الأولى.

الآيتان: ﴿١٦﴾ و ﴿١٧﴾

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾

• سرعة الأوبة من صفات الصَّالحين، تأمَّل كم بين قوله: ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ وقوله: ﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾! كأنَّه حذف أداة العطف إيذانًا بشدَّة القرب، وقرن ذلك بالاستغفار والتوبة.

• لا يجوز لأحدٍ أن يكون ظهيرًا للظَّالمين وللمجرمين حسًّا أو معنًى، بالقول أو الفعل أو السُّكوت، فموسى تبرَّأ من ذلك كلِّه، بدلالة النَّكرة المنفيَّة، والسِّياق يبيِّن أنَّ ذلك من واجب شكر النِّعمة.

• جعل جمهور السَّلف هذه الآية حجَّةً على منع معاونة أهل الجور في شيء من أعمالهم.

• من مظاهرة الظَّالمين: الدِّفاع عنهم، والبحث لهم عمَّا يسوِّغ أفعالهم دون مستند شرعيٍّ صحيح قد رعاه الظَّالمون أو التفتوا إليه.

• إذا كانت هذه الآية تقتضي منع مظاهرة الظَّالمين؛ فإنَّ أوَّل من يدخل فيهم الكافرون، فلا ظلم أعظم من الشِّرك، والَّذين يظاهرونهم على المؤمنين على خطر عظيم.

الآيتان: ﴿١٨﴾ و ﴿١٩﴾

﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ۚ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

- الَّذي يقع في محظور من الأنقياء - وإن وقع منه خطأ لا عمدًا - لا يقرُّ له قرار، بخلاف من استمرأ المعصية وأُشرب الفساد.

- وقوع الخوف الجِبِلِّيِّ من موسى ﷺ لا يُؤاخَذ عليه، ما دام لم يقدِّمه على مقتضى الإيمان، والخوف المحرَّم من المخلوق هو الَّذي يخرج به إلى تعظيمه وإنزاله منزلة الرَّبوبيَّة كخوف السِّرِّ، وكذلك خوفه الخوف الَّذي يقدَّم على مقتضى أمر الله ونهيه، فهذا قد نُهي عنه المؤمنون؛ كما في قوله: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ [آل عمران].

- ذمُّ من يُكثر المشكلات والتَّشكِّي، ويتسبَّب في أعمالٍ كان الأولى به تجنُّبها؛ لعدم قدرته على تحمُّل عواقبها.

- لا تعني توبة موسى ﷺ من القتل عدمَ انتصاره للمظلوم؛ فهو أراد البطش بظالمه لدفعه، ولم يُرد قتلَه أو التسبُّب فيه.

• يجدُر بالمصلح الاتِّصاف بالرِّفق واللِّين والتَّثبُّت، وألَّا يتدخَّل لطرف دون آخر، إلَّا لدفع ظلم ظهر له، ويسعى ما استطاع في التَّوفيق وإزالة أسباب الاختلاف.

• على من يحمل همَّ الدَّعوة والإصلاح أن يكون حذرًا، وينتبه لأفعاله، ولا يتصرَّف بما لا يليق به؛ فإنَّ هذا يؤثِّر في دعوته وفي قَبول النَّاس له.

• الَّذي يقتل النُّفوس المعصومة بغير حقٍّ يعدُّ من الجبَّارين الَّذين يفسدون في الأرض إذا كان متعمِّدًا، وإن زعم أنَّه يريد الإصلاح فإنَّه كاذب وهو مفسد.

الآيتان: ﴿٢٠﴾ و ﴿٢١﴾

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ
فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾

• الرُّجولة أدعى لصفات الكمال من نحو: النَّجدة، والكرم، ورفض الظُّلم، وتقديم المصلحة العامَّة على المصلحة الخاصَّة.

• بمقدور كلِّ إنسان أن يتَّصف بمقتضى صفات الرُّجولة، وأن يتحلَّى بها، فيأخذَ بزِمام المبادرة والجِدِّ، والتَّحمُّل لبُعد الشُّقَّة.

• قوله: ﴿يَسْعَىٰ﴾؛ لأنَّ تأخُّره قد يؤدِّي إلى القبض على موسى ﷺ وقتله، فيتحمَّل شيئًا من إثم التَّقصير في واجب نجدته، وفيه دليل على أهمِّيَّة المبادرة، ولاسيَّما في الأعمال الَّتي يفوِّت التَّأخُّر فيها المصلحة.

• مبادرة هذا الرَّجل لإخبار موسى ﷺ بما قد يضرُّه أنقذته من القتل، ومن قبلها مبادرة امرأة فرعونَ في النَّهي عن قتله، وهذا يدلُّ على أهمِّيَّة المبادرة بالخير في جميع نواحي الحياة.

• لا يجوز لمسلم أن يكتم خبرًا يؤدِّي كتمُه إلى إلحاق الضَّرر بالآخرين، ولاسيَّما فيما يتعلَّق بالعلماء والدُّعاة والمصلحين، بل يجب عليه أن يبادرَ إلى تبليغهم بأيِّ طريقة ممكنة، ولا يحتجُّ بخوف الضَّرر على نفسه، فلن يَعدَمَ وسيلة يمنع أو يخفِّف بها الظُّلم عن المظلوم دون إلحاق ضررٍ بنفسه، ومن قصد وجه الله تعالى في ذلك حماه.

• إذا خاف الإنسان على نفسه القتل فإنَّه لا يسلِّمها ويسعى في أسباب النَّجاة، فإن تزاحمت مفسدتان ارتكب الأخفَّ منهما، فموسى ﷺ فرَّ من التَّهلكة المتحقِّقة وهي القتل، إلى تهلكة محتملة وهي جهله بالطَّريق.

• من يتأمَّل ما يفعله الملأ المتكبِّرون، والحاشية في بيوت الطُّغاة والظَّالمين، يجد الشَّبه والتَّناسب بين ما هم عليه وما عليه أسيادُهم المتكبِّرون الطُّغاة.

• من اشتَهر بالإصلاح ضاق به الملأ: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ فالمصلح يضيق به الظَّالم وعِلية القوم معه. وفي حالة موسى ﷺ تحيَّنوا فرصة، ولو كان موسى ﷺ رجلًا عاديًا لما احتاج الأمر إلى مؤامرة؛ ففِرعونُ كان يقتل بني إسرائيل قتلًا جماعيًّا دون حاجةٍ إلى تدبير واختفاء، لكنَّ لموسى شأنًا وحُظوة سابقة، وله مع ذلك دعوةٌ ومدعوُّون، وقتل موسى ﷺ دون سبب ظاهر مدعاة للإيمان بما يدعو إليه، كما حدث في خبر أصحاب الأُخدود، تزيد عناية النَّاس به ويتساءلون عنه وعن دعوته ويتعاطفون معه، وهذا انتصارٌ للمصلح.

• على الدَّاعية أن يكون حذرًا من أن يرتكب عملًا يكون مسوِّغًا مقنعًا للنَّاس بصواب القضاء عليه، ثمَّ على دعوته.

• الظَّلمة الطُّغاة كثيرًا ما يقدِّمون مسوِّغات لجرائمهم، ويكون السَّبب الحقيقيُّ عند الظَّالم ليس ما سوَّغ به جُرمه، لكنَّه يريد ضرب الإصلاح الَّذي يهدِّد مصالحه! وأمَّا الذَّريعة الَّتي تذرَّع بها فتعلم أنَّها غير صالحة عندما تجدها منتشرةً في مجتمعه وهو لا يحرِّك ساكنًا! ولكن يلتفت إليها فقط إذا باشرها مَن يمثِّل خطرًا على أوضاع الظَّالمين، فعندئذٍ يتذرَّع بكلِّ وسيلة!

• لم يكتفِ الرَّجل - الَّذي أخبر موسى ﷺ - بالإخبار، بل دلَّه كيف ينجو، وأظهر له النُّصح، وذلك من حكمته؛ لأنَّ الإنسان إذا أُعطي خبرًا مفاجئًا مفجعًا فقد يتصرَّف تصرُّفًا خاطئًا وتستغرقه اللَّحظة الحاضرة، والمرء كما أنَّه يحتاج إلى الخبر المحذِّر له ممَّا قد يلحقه، فإنَّه يحتاج أيضًا إلى الدَّلالة على المخرَج السَّليم منه.

• أهمِّيَّة المبادرة إلى نصيحة من يغلب على الظَّنِّ لَحاق ضرر به، وبذل المشورة له، فقد أشار الرَّجل على موسى ﷺ بالخروج من المدينة لخوف الضَّرر عليه دون أن يطلب منه، وقد أخذ بمشورته موسى ﷺ.

• تخلُّق الدَّاعية بالأخلاق الحسنة، وحسن معاملته للنَّاس؛ يترك أثرًا في قلوبهم، فاتِّصاف موسى ﷺ بذلك جعل له من يؤيِّده ويدافع عنه برغم نشأته في بيت فرعون.

• إذا خاف مظلومٌ على نفسه، وتأكَّد لديه لَحاق الضَّرر به، ولاسيَّما فيما يتعلَّق بالقتل؛ فإنَّه يُشرع له الهرب، فقد خرج موسى ﷺ ومن بعده نبيُّنا ﷺ لمَّا تآمروا على قتله، وخرج إبراهيم وخرج غيرهم عليهم الصَّلاة والسَّلام.

• كما أنَّ على الدَّاعية السَّعي في الإصلاح والدَّعوة إلى ما ينفع النَّاس، فإنَّ عليه أيضًا أخذ الحذر من أعدائه؛ كما في قوله: ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ﴾ [المائدة:٤٩]، ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤].

• هناك فرقٌ بين الخوف والحذر، فقد نهى تعالى عن الخوف القلبيِّ من الخلق وما يسبِّبه ذلك من ترك الواجب؛ فقال: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وتجاوز عن الخوف الجِبِلِّيِّ كخوف موسى ﷺ من القتل، وأمر بالحذر من العدوِّ؛ فقال: ﴿وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ١٠٢]، والحذر هو: توقِّي الضَّرر المظنون أو المتيقَّن، أمَّا الخوف فهو: توقُّع نزول الضَّرر المشكوك فيه.

• يجب على الدَّاعية تعليق قلبه بالله تعالى في السَّرَّاء والضَّرَّاء، والالتجاء إليه دائمًا، وهذا ينفعه لمَّا يواجهه الأعداء، وتنزل عليه المصائب، فيجد النَّجاة عند المِحَن، وفي الحديث: «تعَرَّفْ إليهِ في الرَّخاء؛ يَعرِفْكَ في الشِّدَّة»(١).

(١) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» ٥/١٨ حديث رقم (٢٨٠٣).

الآيات: (٢٢) - (٢٨)

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ
مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ
تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ
﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ
﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ
مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ
ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ
حِجَجٍۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَۚ سَتَجِدُنِيٓ
إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ
فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

• دعا موسى ﷺ ربَّه أن يهديَه، فهداه الله تعالى سواء السَّبيل حسًّا ومعنًى، وإذا علم الله تعالى صدق الإنسان وبذله جهده دلَّه وهداه إلى ما ينفعه ويُنجيه، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [العنكبوت].

• على من يتكلَّم في العلم وينظر فيه أن يستهديَ ربَّه تعالى، ويسأله بلوغ الصَّواب بعد أن يقصد بقلبه الحقَّ ويبحث عنه؛ فإنَّ الله تعالى لا يخيِّب مَن هذه حاله.

• الأصل في المرأة القرار في البيت وعدم الخروج إلَّا للحاجة، فإن خرجت فلا يكون تعاملها مع الرِّجال إلَّا بقدر الحاجة، ووفق الضَّوابط الشَّرعيَّة، ويدلُّ على ذلك من قصَّة موسى مع المرأتين ما يأتي:

١- أنَّ موسى ﷺ لمَّا رأى المرأتين قال:﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ فكأنَّه استغرب وجودهما واقفتين ناحية من النَّاس.

٢- وقوفهما بعيدًا عن الرِّجال كما في قوله:﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾، وهذا دليلٌ على منع الاختلاط، فالوقوف في الشَّمس، مع رعاية الغنم، وانتظار فراغ النَّاس، مشقَّة لا يلتزمها إلَّا مضطرٌّ إليها.

٣- قوله:﴿تَذُودَانِ﴾ وذلك منهما قطع لأيِّ سبب يؤدِّي إلى الاختلاط، فإنَّهما تحوطان غنمهما حتَّى لا تختلط بغنم الآخرين، فتحصل الحاجة إلى القرب من الرِّجال.

٤- الإجمال في الحديث، والاقتصار على قدر الحاجة، فلم يجرِ بين موسى ﷺ وبينهما سوى قوله:﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾، وقد أجملتا الحديث ببيان العلَّة؛ وهي الامتناع عن السَّقي حتَّى ينتهي الرِّجال، وأنَّه ما أخرجهما إلَّا كبَر والدهما وضعفه.

٥- سقى لهما موسى ﷺ على ما أصابه من الرَّهَق جرَّاء السَّير الحثيث في السَّفر المخوف؛ تقديرًا لموقفهما، ثمَّ لم ينتظر أجرًا منهما، وإنَّما تولَّى إلى الظِّلِّ يسأل ربَّه من فضله.

٦- جاءته إحدى الفتاتين وهي تمشي على استحياء، ولم تأتيا معًا كما كان من شأنهما في السَّقي، وإحاطة الغنم، وهذا يدلُّ على أنَّ خروجهما بحسب الحاجة.

٧- نسبت الدَّعوة لأبيها، وبيَّنت السَّبب قطعًا لسُبل الرِّيبة وخواطر النُّفوس، ومشى معها موسى ﷺ دون كثير كلام وأخذ وعطاء.

٨- بخلاف شأنه مع المرأة أفاض موسى ﷺ مع أبيها في الكلام، وقصَّ عليه كلَّ القصص، وقد قال له مستوعبًا حديثه: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥﴾، وفي هذا إشارة إلى أنَّ التَّوسُّع في الحديث يكون مع الرِّجال، وأمَّا النِّساء فالكلام على قدر الحاجة، فموسى ﷺ لم يتكلَّم معهما إلَّا بكلام يسير من نحو قوله: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾.

٩- عرضت إحدى الفتاتين على أبيها استئجار موسى ﷺ ولم تحدِّد نوع الأجرة، واقتراحها استئجار موسى ﷺ جاء متَّسقًا مع الحرص على عدم الخروج من البيت واختلاطهنَّ بالرِّجال، ولكونها تفرَّست من أحوال موسى ﷺ قوَّته وأمانته.

١٠- عرض والد الفتاتين على موسى ﷺ تزويجه إحدى بنتيه عِوضًا عن أجرته، ولم يسمِّ له أجرةً من الغنم؛ وإنَّما عرض عليه الزَّواج حتَّى يصير من أهل البيت، وليعفَّ ابنته، ولأنَّ الرَّجل القويَّ الأمين الصَّالح مَغنمٌ عند العقلاء وإن ضاقت به الحال وقتًا ما.

- في الآيات استحبابُ المبادرة إلى عمل الخير، فهو سببٌ للخير في الدُّنيا والآخرة؛ كما في مبادرة موسى ﷺ إلى سقي غنم المرأتين.

• وفيها الرَّحمة بالخلق، وأنَّ الإحسان إلى من يعرف ومن لا يعرف من صفات الأنبياء عليهم السلام.

• من تمام الإحسان ألَّا تطلب أجرًا على فعل الخيرات وإن كنت محتاجًا، فقد شكا موسى ﷺ حاله إلى ربِّه تعالى، ولم يطلب جزاء سقيه برغم حاجته، ولم يسأل النَّاس شيئًا، وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيميَّة أنَّ من أحسن إلى أحدٍ ثمَّ طلب منه الدُّعاء فقد استوفى أجره.

• في الآيات إشارةٌ إلى أنَّ دعاء العبادة أعظم من دعاء المسألة، فموسى ﷺ أظهر فقره إلى ربِّه ولم يصرِّح بحاجته؛ فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ وما أقربَ إجابةَ الله تعالى له! ﴿فَجَآءَتْهُ﴾ والفاء تُشعر بقرب ما بين الدَّعوة ومجيئها، وقد حصل له الأمن، وحصل له أيضًا الشِّبع والإيواء والزَّواج، وذلك أعظم ما يُطلب.

• على المسلم أن يستشعرَ افتقاره إلى ربِّه وحدَه، ويستغنيَ بذلك عن سؤال ما في أيدي النَّاس، وعلى ذلك بايع النَّبيُّ ﷺ صحابته؛ كما في حديث جابر رضي الله عنه.

• في الآيات استحبابُ مكافأة صاحب المعروف عليه، ولاسيَّما إن استفرغ جهده؛ كما في قوله: ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾.

• يحسُن بالمرء تسكين رُوع من نزل به الضُّرُّ أو أُخيف؛ كما في قوله: ﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

• استحباب تقديم المشورة والرَّأي الرَّشيد لمن يحتاج إليهما؛ كما في قوله: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾.

• على المرء أن يكون نبيهًا، فيأخذَ من الجزئيَّات ما يدلُّه على الكلِّيَّات، كما أخذت المرأة من سقي موسى ﷺ لهما، عفَّته واتِّصافه بالقوَّة والأمانة.

• ما أحوجَ القدواتِ والمربِّين إلى دقَّة الملاحظة مع أبنائهم وتلاميذهم في معاشرتهم؛ لاستغلال مكامنهم وتوجيههم إلى ما ينفعهم: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الحجر].

• صاحب مَديَن ليس هو شعيبًا نبيَّ الله تعالى على الرَّاجح؛ لأنَّ الله تعالى قد أهلك من كفر من قومه، وأنجى المؤمنين به، ولا يليق بهم أن يسقوا أغنامهم ويدَعوا بناتِ نبيِّهم ينتظرنَ فراغهم، ولكون نبيِّ الله شعيبٍ قريبَ العهد بنبيِّ الله لوط، وذلك قبل موسى بمُدَد؛ فقد قال: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾ [هود].

• في الآيات جوازُ خروج المرأة عند الحاجة، إذا أُمنت الفتنة؛ كما خرجت المرأتان لسقي الغنم عند تعذُّر قيام أبيهما به.

• وفيها جوازُ محادثة المرأة للرَّجل في الحاجة إذا أُمنت الفتنة.

• وفيها جوازُ عمل المرأة خارج بيتها، إذا وُجدت الحاجة، وانضبط عملها بالضَّوابط الشَّرعيَّة.

• وفيها مشروعيَّةُ عرض الوليِّ موليَّته على من يتزوَّجها إذا كان كفُؤًا.

• وفيها جوازُ أن يكون الصَّداق عملًا، ولا يُشترط أن يكون عينًا، وجواز تأخيره أو تقسيطه إذا كان ذلك برضا الطَّرفين.

• وفيها جوازُ أخذ العِوَض على العمل ولو لم يقصده الإنسان؛ فموسى ﷺ عندما سقى لهما لم يكن يريد الأجر، وإنَّما الإحسان إليهما.

• وفيها أنَّ معيار الأهليَّة للولايات القوَّة والأمانة، ويتفاوت ذلك بحسَب الولايات، وأنَّ من لم تكن له قوَّة على العمل أو لم يكن مؤتمَنًا، فليس بأهل لأن يتولَّاه.

• وفيها إشارةٌ إلى اشتراط الوليِّ في النِّكاح، وليس للمرأة إنكاحُ نفسها؛ لقوله: ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ ﴾.

• وفيها جوازُ اجتماع الإجارة والنِّكاح في عقدٍ واحد؛ لقوله: ﴿أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ﴾.

• وفيها جوازُ عقد الإجارة إذا حُدِّد الوقت ولم يحدَّد العمل؛ لقوله: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ ﴾ ولم يقل: أن ترعى الغنم ثمانيَ حِجَج، لكن لا بدَّ من العلم بأحدهما، فإذا بُيِّن أحدهما فلا حرَج، ولا يلزم أن يبيَّنا جميعًا.

• هيَّأ الله تعالى لموسى ﷺ رعي الغنم؛ ليتهيَّأ لمهمَّة الرِّسالة وقيادة بني إسرائيل، وما من نبيٍّ إلا رعى الغنم؛ كما في الحديث.

• على صاحب العمل أن يقتديَ بالصَّالحين فيكونَ رفيقًا بالأجير، ولا يشقَّ عليه لقوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٢٧﴾.

• وعلى العامل أن يوفِّيَ العمل حسب العقد، ويُندب له أن يزيدَ على العقد إذا لم يشقَّ عليه.

• في الآيات مشروعيَّةُ استظهار العقود والإشهاد عليها؛ كما في قوله: ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ۝٢٨﴾.

الآيات: ﴿٢٩﴾ - ﴿٣٥﴾

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ
ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ
تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ
مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ
فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ
ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ
جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ
كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾
وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن
يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ
إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

• لمَّا أنهى موسى ﷺ قضاء الأجل الَّذي اتَّفق عليه مع صاحب مَدين، وهو عشر سنين يأجره ويرعى الغنم، وجاء وقته الَّذي قدَّره الله له، سار بأهله يقصد موطنه، وقد هيَّأه الله تعالى لما اختاره له، وذلك لأنَّ مواجهة البلاء والقيام بأعباء الرِّسالة يحتاج إلى صلابة وتهيئة على التَّحمُّل والصَّبر، فالبلاء لا تدفعه التَّصرُّفات العجلة، وأمر بني إسرائيل وفرعون قبلهم يتطلَّب مواجهةً بعلم وحكمة وصبر.

• على الأمَّة استلهام العِبَر؛ لإعداد أفرادها للمرحلة الحاسمة، فهي تحتاج إلى رجال قد تحلَّوا بالعلم والحكمة والصَّبر، لا الجهل والطَّيش واستعجال قطف الثَّمرة قبل أوانها.

• صناعة الرِّجال الَّذين يصلحون لقيادة الأمَّة إلى برِّ الأمان ليست بالأمر الهيِّن، فما أراده الله تعالى لموسى ﷺ من مواجهة فرعون، وتخليص بني إسرائيل منه، ثمَّ سياستهم وقيادتهم نحو الأرض المقدَّسة، تطلَّب مدَّة طويلة من الإعداد والتَّهيئة. فقد عاش موسى ﷺ في بيت فرعونَ يرفض الظُّلم، ويأبى حياة المضطهَدين من بني إسرائيل الَّذين ألِفَ أكثرهم الذُّلَّ، ثمَّ خرج إلى مَديَن عشر سنين متحمِّلًا الغربة، رعى فيها الغنم، وصبر على العمل، وفي ذلك إعدادٌ لمرحلة قادمة أرادها الله تعالى. وفي هذا تنبيهٌ إلى مجازفة الَّذين يريدون قيادة الأمَّة وأعمارهم لا تزال غضَّة، وتجارِبهم قليلة، عليهم أن يعلموا أنَّ ذلك لم يكن لأنبياء الله تعالى، فعامَّتهم أُرسلوا إلى النَّاس وهم في سنِّ الأربعين، فهم مع وفرة عقولهم قد مرُّوا بتجارِبَ كثيرةٍ صقلتهم، فتهيَّؤوا للبَعثة.

• ما أحوجَنا إلى فقه التَّدرُّج! مع التَّأمُّل فيما يحتاج إليه الفرد والجماعة للعطاء والكمال، فقد أعدَّ الله تعالى موسى ﷺ أربعين سنةً منذ ولادته: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ۝٤١﴾ [طه] لمواجهة الظَّالمين وتمكين المستضعَفين: ﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ۝٤٢﴾ [طه]، وبعضهم يريد اختصار الإعداد إلى سنة أو بضعة أشهر!

• مع التَّريُّث في الإعداد والتَّدرُّج في العمل، على الدَّاعية أن يكون مستعدًّا للتَّضحية، والتَّخلِّي عن جميع امتيازات الدُّنيا من أجل عقيدته ومبدئه، ولتكن أسوته في ذلك أنبياء الله ورسله، فقد ترك موسى ﷺ حياة المترفين في قصر فرعون، وخرج إلى مَديَن فارًّا متحمِّلًا حياة الغربة ورعي الغنم.

• إنَّ قيادة الأمَّة مسؤوليَّة تحتاج إلى خبرة وممارسة، فقد تعلَّم موسى ﷺ - ومن بعده نبيُّنا ﷺ، وكذلك الأنبياء - من رعي الغنم كيف يصبرون على سياسة النَّاس، حانين عليهم، يدفعون عنهم ما يضرُّهم، مستشعرين مسؤوليَّتهم نحوهم.

• ما أحوجَ الأمَّةَ إلى رجال قد تربَّوا، وأوتوا من العلم والحكمة ما يُقيم الله تعالى بهم مصالحها، ويدفع عنها الفساد.

• وليتحقَّق ذلك فعلى الأمَّة الاقتداء بهدي السَّابقين، ممَّن اصطفاهم الله تعالى وجعلهم للنَّاس أئمَّة.

• إنَّ إعداد الدَّاعية إلى الله ﷻ لا بدَّ فيه من صبر على البلاء، وعمل ووقت، وكلَّما كان الإعداد أكثر إتقانًا، كان الدَّاعية أقوى على تحمُّل المشاقِّ، وقد مكث موسى ﷺ قبل مواجهة فرعونَ وتخليص بني إسرائيل وقتًا طويلًا، وما أضرَّ الأمَّةَ مثل المستعجلين، ومَن استعجل شيئًا قبل أوانه عوقب بحرمانه.

• لقد واجه موسى ﷺ فرعون بالحجَّة والبرهان، وصابر بني إسرائيل من بعده، ولو لم يكن إعداده ملائمًا لَمَا صبر على تعنُّتهم وإيذائهم، ربَّما طاوعهم فهلكوا! أو تركهم فهلكوا! لكنَّه عالجهم أشدَّ المعالجة.

• وهذا يبيِّن حاجة الأمَّة إلى مثل هؤلاء القادة، ذوي الإيمان والعلم والحكمة والأناة والصَّبر، وإنَّما داؤها من أولئك الَّذين يُوردونها المهالك باستعجالهم وسوء تصرُّفهم، وأولئك المنهزمين الَّذين يطاوعون أعداءها، ويقدِّمون التَّنازلات بدعوى الواقعيَّة، وأيضًا أولئك اليائسين الَّذين يقنَطون من رحمة الله، ويتخلَّون عن أمَّتهم عند أوَّل محنة تواجههم: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الروم].

• إنَّ بعثة موسى ﷺ تشابه بعثة نبيِّنا ﷺ، وهما من أولي العزم من الرُّسل، فقد بعثا في سنِّ الأربعين، وكانت الرِّسالة مفاجئة لهما، فقد نزل الوحي على النَّبيِّ ﷺ وهو يتعبَّد بغار حراء، وأُرسل موسى ﷺ إلى فرعونَ في أثناء عودته من مَديَن، وانتابهما شيءٌ من الخوف عند البعثة، لكن حدث لهما التَّثبيت بعد ذلك.

• في الآيات إشارةٌ إلى أهمِّيَّة أن تكون الدَّعوات الإصلاحيَّة من داخل البلدة ومن أهلها؛ فلذلك أثرٌ أعمق في الاستجابة، فقد أُرسل موسى ﷺ إلى فرعون، ولم يُبعث إلى من يجهله، فموسى ﷺ قد تربَّى في بيته، ثمَّ هو من بني إسرائيل، وقد عُرف بالإصلاح، وهذا ممَّا يدعو إلى التَّأثُّر بدعوته والاستجابة له؛ قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم: ٤]، والآية الَّتي بعدها: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾ [إبراهيم].

• في الآيات من الفوائد: أنَّ الرَّجل قوَّام على أهله، يتعرَّض دونهم لما يُخشى ولا يعرِّضهم له، يذهب ويبتغي لهم، ولهذا قال موسى ﷺ لأهله: ﴿امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾، فليس من شأن المرأة السَّعيُ للكسب خارج المنزل، وليس لها مخالطة الرِّجال، ولا يليق أن تُعرَّض للخطر، فأبقاها في مكان آمن حتَّى يرجع.

• في الآية إشارةٌ إلى أنَّ موسى هو موسى ﷺ، لم يَفْتُر أو يتغيَّر! فموسى الَّذي استغرب وقوف المرأتين دون الرِّجال تذودان الغنم، هو موسى الَّذي يصون زوجه، ويحثُّها على المكوث ثمَّ يذهب يبتغي لها ما تتدفَّأ به.

• ذهب موسى تجاه ما حسبه نارًا، يطلب شيئًا منها لحاجتهم أو يلتمس مَن يدلُّه على طريقه، فوجد أكمل الهدى وأعظم دلالة في الحياة، ونورًا أضاء له ولأهله ولقومه ولمن بعده، فأحسن الظَّنَّ بالله تجد ما لا يخطر لك على بال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [العنكبوت].

• في الآيات عِظَمُ منزلة موسى ﷺ؛ فقد اصطفاه الله تعالى وكلَّمه وأعطاه من آياته المعجزة جملةً جليلة فيها من آيات ربِّه الكبرى.

• في قوله: ﴿وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا﴾ إيذانٌ بأنَّ المسؤوليَّات الضَّخمة قد تنتاب الإنسانَ نحوها رهبة، لكنَّ الموفَّق يثبُت لها بعد ذلك.

• لا حرجَ على الإنسان فيما يعتريه من الخوف الجِبِلِّيِّ، كخوف موسى ﷺ من انقلاب العصا حيَّة.

• في قول الله تعالى لموسى ﷺ: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾ بِشارة له تدلُّ على حفظه، وحصول الأمن له.

• في قوله: ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ﴾ ما يفيد أنَّ وضع اليد على الصَّدر في موضع القلب قد يسكِّن من الخوف ويطمئن، وكثيرًا ما يفزع المرء إلى ذلك جِبِلَّة عندما ينتابه خوف.

• في الآيات دلالةٌ على أهمِّيَّة وضوح الهدف ومعرفة المقصد، وذلك في بيان علَّة إرسال موسى ﷺ إلى فرعون وقومه، وهو كونهم خارجين عن طاعة الله تعالى ليردَّهم إليه، وهذا هو مقصد الرُّسل وأتباعهم.

• مع وضوح المقصد، ومع علم موسى بتكاليفه وما يقتضيه قبل الرِّسالة قام بالصَّدع بالحقِّ وأداء تكاليف الرِّسالة، وكثير من الدُّعاة والمصلحين يعتذر عن قول الحقِّ وأداء الأمانة لأسباب موهومة لا ينبغي أن تعلوَ على تبليغها.

• قد تكون ثمَّة إشكالات، ومن هنا تنبع أهمِّيَّة معالجة الإشكال، والاستفسار عمَّا قد يعترض الدَّاعية أو يشكل عليه، فقد قبل موسى ﷺ أمر ربِّه، ولكنَّه شكا إليه ما يعترضه من عقبات، وطرح الحلول الَّتي يراها، فأيَّده الله تعالى وأزال ما في نفسه، قال تعالى: ﴿ وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [القصص].

• إذا أقدم المرء على مشروع فعليه أن ينتبهَ لقدراته وإمكاناته، وما قد يعترضه من عقَبات، وليكن صريحًا في طلب ما يتصوَّره من حلول ممكنة أو معينات قبل وقوعها؛ لأنَّه بعد وقوعها يصعب حلُّها، وربَّما صرفته عن مهمَّته.

• كثيرًا ما تبدأ مشاريع دعويَّة وخيريَّة ثمَّ تخفق؛ لأنَّ أصحابها لم يخطِّطوا لها، ولم يفكِّروا في العواقب الَّتي ستنشأ بعد بدئهم العمل، حتَّى أصبحوا مضرب المثل في الإخفاق.

• على الدَّاعية إذا بدأ بمشروع فرديٍّ أو جماعيٍّ، عامٍّ أو خاصٍّ، أن يتوقَّع ما قد يواجهه من عقَبات، وأن يكون المشروع واقعيًّا، ويتصوَّر الحلول؛ لئلَّا يُفاجأ، وإلَّا فقد يخفق ويكون الخطأ والخسران ليس عليه فقط بل على الأمَّة ومن معه.

• استجاب الله تعالى لموسى ﷺ؛ فقال: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ وأعطاه الزيادة فضلًا وكرامة له؛ فقال: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ وبشارة بحماية الله تعالى لهما ومنعته وتأييده، ثمَّ قال له ولأتباعه: ﴿بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ وفي هذا بشارة لهم بالنَّصر، وقد كان، فعلى المؤمنين الثِّقة بالله تعالى، وفي موعوده، فوعده حقٌّ لا يتخلَّف.

• الانتصار في الظَّاهر: الغلبة، لكنَّ أعظم منها التَّحقُّق بالإيمان، والثَّبات عليه ولو هلكوا جميعًا كما في قصَّة أصحاب الأُخدود؛ وكما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾﴾ [الصف] الآيات، ثمَّ قال مكمِّلًا: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾[الصف]. وقد كانت غلبة موسى وأتباعه ثباتهم على الدِّين، وتحقُّق غرضهم في الهجرة، وإهلاك عدوِّهم وجنده.

• قد جمع الله تعالى لموسى ﷺ الغلبة الحسِّيَّة والمعنويَّة، فأيَّده بالحجَّة، ونصره على السَّحرة، وأغرق فرعون وجنده، وأنجى موسى ومن معه.

• إنَّ على النُّفوس أن تطمئنَّ لوعد الله تعالى، وتثق به، فلو ظهر بعض المبطلين فإنَّه إلى حين، وأمره إلى زوال، وذلك لحكمة يريدها الله تعالى هي ابتلاء المؤمنين، وليس أغيرَ منه سبحانه على دينه وعباده.

• المهمُّ أن يجتهد الدَّاعية في تحصيل أسباب الاستجابة لدعوته؛ من الفصاحة والحجَّة، والاستعانة بالأنصار، وبذل الأسباب، والاعتماد على الله تعالى، والتَّوكُّل عليه في شأنه كلِّه.

الآيات: (٣٦) - (٤٢)

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا
بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ (٣٦) وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ
عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٣٧) وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي
صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ (٣٨) وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ
وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ (٣٩) فَأَخَذۡنَٰهُ
وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ (٤٠)
وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ (٤١)
وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ (٤٢)﴾

• جاء موسى ﷺ إلى فرعونَ وقومه بآيات بيِّنات، لكنَّهم استكبروا وردُّوا الآيات بزعمهم أنَّها سحر، مع التَّعذُّر بتقليد الآباء.

• رميُ الآيات البيِّنات بأنَّها سحر، والتَّعذُّر باتِّباع الآباء جواب تواطأ عليه المكذِّبون لرسل الله تعالى وآياته، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ (٥٣)﴾ [الذاريات]، ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ (٢٣)﴾ [الزخرف].

• الاحتجاج بما كان عليه الآباء في مقابلة الحقِّ حيلةٌ يلجأ إليها أهل الباطل عند عجزهم عن مواجهة الحقِّ، غرضها استثارة الحميَّة.

• ليس كلُّ ما يُنسَب للآباء يكون صحيحًا، فقد يكون باطلًا توارثوه، وعلى الدَّاعية معالجة ما درج عليه النَّاس بحكمة وتدرُّج، حتَّى لا يستثيرَ حميَّة النَّاس، فكثيرًا ما تبدأ المناقشة لبيان الحقِّ، وتنتهي بخصومة شخصيَّة؛ بسبب الاستجابة للاستفزاز جرَّاء الطَّعن والسَّبِّ.

• لمَّا ناقش موسى ﷺ فرعونَ وملأه جاءهم بالآيات البيِّنات - وهو المؤيَّد من الله تعالى - ولم يهاجمهم أو يسفِّههم، بل لم ينفعل بطعنهم فيه ورميهم له بالسِّحر، وإنَّما قال لهم بأسلوبٍ مقنع لعلَّهم يتفكَّرون: ﴿رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٣٧﴾.

• على المناظر المجادلة بالَّتي هي أحسن، والنُّصح لمُناظِره، والبعد عن الفجور في الخصومة، حتَّى يصيبَ الغرض الَّذي من أجله قامت المناظرة.

• ليحذَر المجادل من أن يُزيَّن له سوءُ عمله لسوء قصده، فيصدَّه ذلك عن اتِّباع الحقِّ؛ فإنَّ في اتِّباع الحقِّ الفلاحَ والنَّجاح وحُسن العاقبة والتَّمكين. أمَّا الظَّالمون فإنَّما يكتبون بإعراضهم عن الحقِّ ومخالفتهم له زوالهم؛ فإنَّ الباطل كان زهوقًا.

• على العاقل إذا رأى الآياتِ القاطعةَ أن يسلِّم لها، ولا يرجِّحَ الظَّنَّ أو يعترض به عليها، فإنَّ الحقَّ أحقُّ أن يُتَّبع.

• لقد أقام فرعون الظَّنَّ مقابل ما رأى من الآيات البيِّنات؛ فقال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، واتِّباع الظُّنون في مقابلة الآيات عادةُ المبطلين عند عجزهم عن إجابة الحجَّة، وعاقبتها وخيمة.

• ممَّا يدلُّ على علوِّ الله تعالى وأنه فوق خلقه، تمويهُ فرعون ببناء ذلك الصَّرح، وليس علوُّ الله تعالى اعتقادًا فرعونيًّا! ففرعونُ يجحد الإله، يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، ولكنَّه يريد إكذابَ موسى فيما أخبر به من علوِّ الله تعالى، بتشغيبه هذا؛ استخفافًا لقومه.

• في الآيات بيانٌ لسوء عاقبة الظَّالمين، وعَودُ بغيهم على أنفسهم؛ حيث يُهلكهم الله تعالى ويُقبِّحهم في الدُّنيا والآخرة.

• جعل الله تعالى فرعون وملأه أئمَّةً في الشَّرِّ، ودعاة على أبواب جهنَّم؛ فقال: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾، وجعل بني إسرائيل أئمَّةً في الخير؛ فقال: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾﴾. فليختَر الإنسان طريقه، إمَّا التسليم إلى الحقِّ والانقياد له، وإمَّا الاستكبار والعناد، ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾ [المدثر].

• العاقل يتقدَّم فينصاع للحقِّ، ولا تغرُّه مكانته، فالتَّعالي على الحقِّ إنَّما هو إثباتٌ للنَّفس في قائمة أئمَّة الضَّلالة والباطل ودعاته، فليحذر المرء من أن تسوِّل له نفسه الباطل وتزيِّنه له، فيكون إمامًا في الشَّرِّ أو داعيًا إليه.

• إذا عُرف الإنسان بالشَّرِّ واشتَهَر به صعُب عليه الرُّجوع إلى الحقِّ، إلَّا من وفَّقه الله وسدَّده وأراد به خيرًا؛ ولذلك كان من مأثور الدُّعاء: «اللهُمَّ أرِنا الحقَّ حقًّا، وارزُقنا اتِّباعَه، وأرِنا الباطِلَ باطِلًا، وارزُقنا اجتِنابَه»[1].

• إنَّ على أئمَّة الباطل إثمًا عظيمًا، فهم دعاة جهنَّم! فعليهم وِزرُهم ومن أوزار الَّذين يضلُّونهم، وإنَّ لأئمَّة الهدى والحقِّ أجورًا مضاعفة، يرفعهم الله تعالى في الدُّنيا والآخرة، ويكتب لهم من أجور من اتَّبعهم ما شاء.

• ما أحوجَ الأمَّةَ إلى أئمَّة الهدى، إلى أئمَّةٍ في الخير؛ يقودونها إلى طريقه، ويبصِّرونها بما ينجِّيها، ولاسيَّما حين تعظُم الفتن ويخفِت صوت المصلحين.

---

(١) عزاه البهوتي في «شرحه» على المنتهى لعمرَ بن الخطَّاب ٣/٤٩٧، وأورده الحافظ ابن كثير في «تفسيره» ١/٤٤٤، وذكر العراقي في «تخريج الإحياء» أنه لم يقف لأوَّله على أصل.

الآيات: ﴿٤٣﴾ - ﴿٥٠﴾

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ
لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ
إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ
ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا
مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ
لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن
تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا
فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟
لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟
سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ
أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا
يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا
يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾

- يرسل الله تعالى رسله بالآيات إلى عباده تبصرةً لهم وهدايةً ورحمة، لعلَّهم يتذكَّرون معادهم وحسابهم.

• يذكر الله ﷻ من أخبار الرُّسل وأحوال الأمم السَّابقة ما فيه معتبَر، نستفيد منه في الأيَّام الحاضرة والقادمة.

• من أعظم أسباب الهداية الرُّجوع إلى كتاب الله تعالى، والنَّظر فيما يتعلَّق بالأمم الماضية، وذلك يتفاوت ويتفاضل، وقد كُرِّرت قصَّة موسى ﷺ لحاجة الأمَّة إليها.

• في ذكر الماضي معتبَر في الحاضر، ودلالةٌ مقنعة للعقلاء الَّذين يقيسون الأشياء بأمثالها، ويُلحقون الأشباه بعضَها ببعض.

• كما حدثت فترةٌ قبل رسالة موسى ﷺ، فكذلك قبل إرسال نبيِّنا ﷺ، ووجود فترة يندرس فيها العلم والهدى من مقتضَيات إرسال الرُّسل؛ ليتذكَّر النَّاس ويؤوبوا إلى منهاج ربِّهم.

• في الآيات من دلائل نبوَّة نبيِّنا ﷺ ما أنزله الله تعالى عليه من قصَّة موسى ﷺ، فذلك من علم الغيب الَّذي لا يحيط بتفاصيلِ كثيرٍ منه أهلُ الكتاب أنفسُهم.

• بيان قصَّة موسى ﷺ وما فيها، رحمةٌ من الله تعالى لأمَّة النَّبيِّ ﷺ، حريٌّ بهم أن يهتدوا بما فيها، ويأخذوا منها العِبرة والعِظة.

• قوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ يقتضي أنَّ أسباب المصائب هي الذُّنوب والمعاصي، وأنَّ البعد عنها سببُ حلول الخير والبركات بإذن الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

• القول بأنَّ الذُّنوب والمعاصيَ لا تَسَبُّب لها في المصائب مخالفٌ لكتاب الله تعالى، وهدي نبيِّه ﷺ، وصريح العقل.

• فشوُّ الفساد والظُّلم يجلب المصائبَ والعقوباتِ الإلهيَّةَ في الدُّنيا قبل الآخرة، وهذا يقتضي وجوبَ الإصلاح، وإزالة الظُّلم، حتَّى لا تحلَّ العقوبة: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود].

• ما أحوجَ النَّاسَ إلى التَّوبة لله ﷻ، وإلى استغفاره ممَّا كسَبَت أيديهم؛ فإنَّ الله تعالى لا يعذِّب المستغفرين: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال].

• بيَّن الله تعالى حال كفَّار قريش عندما دعاهم نبيُّنا ﷺ إلى الله تعالى، وقد جاءهم بالآيات كما جاء موسى ﵇ إلى من قبلهم بآيات الله تعالى، لكنَّهم كفروا ولم يؤمنوا بها مع ظهور حجَّة الله عليهم، وهكذا حال من يطلب الآيات معاندًا، يطلبها وقلبه غير متوجِّه للإيمان، فهذا لا يهتدي بها ولا تزيده إلَّا خسارة.

• في الآيات دليلٌ على جواز التَّنزُّل مع الخصم في المناقشة لبيان الحقِّ وإقامة الحجَّة والتَّحدي؛ كما في قوله: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

• لئن كان أصحاب الباطل لا يبحثون عن الحقِّ؛ إنَّ الحقَّ أبلج، ولكنَّهم يتَّبعون أهواءهم، فيضطربون في مناقشتهم، ويستدلُّون بما هو دليلٌ على بطلان كلامهم، كما ذكر شيخ الإسلام أنَّ كثيرًا من حُجَج أهل الباطل حجَّة عليهم.

• إنَّ من الحكمة أن ينظرَ المرء قبل أن يناقش أحدًا: هلِ هو طالب حقٍّ أو صاحب هوى؟ فإن كان صاحبَ هوى فليبتعد عن مناقشته؛ إلَّا بالقدر الَّذي يدفع به تشويشه ويقيم به الحجَّة على أتباعه؛ لأنَّه لا يريد الوصول إلى الحقِّ.

• في الآيات تنبيهٌ على أنَّ من يتَّبع هواه بغير اهتداء بكتاب الله تعالى يضلُّ عن الحقِّ ويتناقض في أقواله؛ لأنَّ مُنطَلقه أهواءٌ تذهب به يَمنةً تارة ويَسرةً أخرى!

• وفيها ترويعٌ من عاقبة اتِّباع الهوى! إذ يُخشى على صاحب الهوى خاتمة السُّوء؛ لأنَّ الله تعالى لا يهدي القوم الظَّالمين.

• إذا سمع الإنسان آيات الله تعالى ولم يستجب لها بداعي الهوى، ولم يتَّبع ما جاء به رسول الهدى؛ فإنَّه قد يُحال بينه وبين الهداية؛ لأنَّه قد فُتحت له سُبل الهداية فرفض سلوكها وحاد عنها وراغ، واتَّبع هواه فابتعد به عن الجادَّة، وحال بينه وبين الحقِّ، فلا يتوصَّل إليه بسبب إعراضه عنه مرَّات ومرَّات، راكضًا خلف هواه؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٤﴾ [الأنفال].

الآيات: ﴿٥١﴾ - ﴿٥٥﴾

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾

• ذكر سبحانه وتعالى أنَّه بيَّن القول وفصَّله على لسان نبيِّه ﷺ، لعلَّهم يتذكَّرون ويتَّعظون؛ كشأن من اعتبر واتَّعظ بآيات موسى فآمن به.

• ثمَّ لمَّا بيَّن الله تعالى حال أهل الأهواء وعاقبتهم، أعقبه ببيان حال أهل الإيمان من أهل الكتاب الَّذين آمنوا بموسى وعيسى ثمَّ بمحمَّد عليهم الصلاة والسلام، وبيان جزائهم؛ لأنَّ أصل الرِّسالات واحد وهو التَّوحيد، والإيمان بنبيٍّ يستلزم الإيمانَ بجميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

• ذكر الله تعالى صفات المؤمنين من أهل الكتاب بنبيِّنا ﷺ وما استحقُّوا عليه الأجر مرَّتين، فنوَّه بصبرهم، وذلك لما تعرَّضوا له من المِحَن والبلاء في سبيل الثَّبات على الدِّين الأوَّل ثمَّ الدِّين الخاتم، ثمَّ كان من صفتهم ما ارتفعوا به عن درجة الصَّابرين، فهم ما اكتفَوا بالصَّبر ولا بالعفو، وإنَّما يدرؤون بالحسنة السَّيِّئة،

ويُحسنون بالإنفاق على المستحقِّين، ويعرضون عن اللَّغو وعمل الجاهلين، وهذه فضائل استحقُّوا بها الأجر مرَّتين.

• في هذه الآيات بيانٌ لمنهاجٍ في التَّعامل مع بعض المخالفين المجادلين في الله ورسله وآياته بغير علم ولا هدًى؛ وهو المتاركة، وهو ضربٌ من الإعراض عن الجاهلين المتسلِّطين المستكبرين الَّذين يجادلون بالباطل، ويكثرون اللَّغو، ويلجُّون في الخصومة.

الآيات: ﴿٥٦﴾ - ﴿٦١﴾

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ
﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا
يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ
أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا
قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا
رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ
﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ
هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ ﴾

- يبيِّن الله تعالى أنَّ مقاليد الأمور وقلوب العباد بيده، فأبو طالب عمُّ النَّبيِّ ﷺ كان يحوطه ويمنعه، وكان وجوده عونًا له على الدَّعوة إلى الله تعالى، وقد اجتهد النَّبيُّ ﷺ في دعوته، لكنَّه لم يتمكَّن من هدايته هداية التَّوفيق، مع ما بذله من جهد في هداية الدَّلالة.

- في الآيات تنبيهٌ على مسؤوليَّة الأنبياء وأتباعهم في هداية الإرشاد والبيان، مع أنَّ هداية التَّوفيق والإلهام بيد الله تعالى وحده.

• وفيها إشارةٌ إلى أنَّ المؤمن يفرح بهداية الضَّالِّ، ويحزن لانتهاك محارم الله، لكن عليه أن يعتدل في ذلك، ويعلم أنَّ الأمور بيد الله تعالى وحده، وهذا يقتضي الصَّبر في الدَّعوة، والتَّسليم إلى الله فيما يجريه من نتائجَ وأقدار.

• في سبب نزول قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ ما يبيِّن أنَّ محبَّة أبي طالب للنَّبيِّ ﷺ كانت طَبْعِيَّة وعن عصبيَّة له، ولم تكن محبَّةً إيمانيَّة؛ ولذلك لم يوفَّق للهدى.

• وأنَّ محبَّة النَّبيِّ ﷺ لأبي طالب هي محبَّة الهداية له على الرَّاجح، على تقدير: «من أحببت هدايته».

• في عدم استجابة أبي طالب للنَّبيِّ ﷺ دليلٌ على تفرُّد الله تعالى بأمر القلوب؛ فأعظم هادٍ من البشر ﷺ، يحاول مع رجلٍ له من العقل والحصافة وحسن النَّظر ما له، ومع ذلك لم يستجب له! ولو كان شيء من هداية القلوب بيد النَّبيِّ ﷺ لهدى عمَّه الَّذي كان يدافع عنه ويعظِّمه، وبينهما من أواصر القربى والنُّصرة ما هو معلوم، ولكنَّ الأمر ليس بيده، وإنَّما بيد الله وحده.

• وأنبِّه هنا إلى أنَّ اعتذار بعضهم لقعوده عن الاجتهاد في الدَّعوة إلى الله تعالى بقوله: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ اعتذار باطل، فالنَّبيُّ ﷺ اجتهد في هداية عمِّه إلى آخر لحظة من عمره! وثمَّة فرقٌ بين الاجتهاد في الدَّعوة وهداية المدعوِّين، فهذه قد تحصُل بغير كبير اجتهاد، وقد لا تحصُل مع الاجتهاد.

• على المرء أن يجتهد في الدَّعوة إلى الله تعالى بحكمة وبصيرة، ويعلم أنَّ الأمر ليس بيده: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ [الشورى: ٤٨].

• في الآيات الرَّدُّ على المشركين وأتباعهم اليوم، الَّذين اعتذروا - ولا يزال أتباعهم يعتذرون - عن الاستجابة للنَّبيِّ ﷺ بخشية أعدائهم! وحاصل الرَّدِّ: هو أنَّ الله تعالى الَّذي أمَّنهم ورزقهم، أولى بالخشية. ومنطِق المشركين الأوَّلين هو نفسه منطق من تعذَّروا بالبعد عن كتاب الله تعالى وسنَّة نبيِّه ﷺ وخالفوا أمره مع فضله عليهم، خشيةً من أضرار غير محقَّقة، فتركوا أمره دون إكراه أو إلجاء خوفَ النَّاس!

• في الآيات أنَّ اتِّباع كتاب الله تعالى وسنَّة نبيِّه ﷺ، فيه النَّجاة وحلول الأمن والرِّزق، وأمَّا البعد عنهما فهو سبب البلاء والهلاك.

• كثيرًا ما يجتمع في القرآن ذكر الأمن والرِّزق، كما في هذه الآية، للارتباط الوثيق بينهما، ولا يدومان إلَّا لأهل الشُّكر والإيمان؛ قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنفال].

• على من أُعطي الأمن والرِّزق حفظُهما بالشُّكر والإيمان بالله تعالى، حتَّى لا يُسلبَهُما، وله في الأمم الَّتي تتخطَّفها المصائب من حوله معتبَر!

• في الآيات إشارةٌ إلى أنَّ المحافظة على الأمن وأسبابه، والأخذ على أيدي السُّفهاء واجبٌ على ولاة الأمر وأهل الإصلاح، حتَّى لا يعمَّهم عقاب الله تعالى.

• وفيها أنَّ سبب هلاك القرى، وعموم المصائب، هو كفر إنعام الله بالبَطَر، مع انتشار الظُّلم والبعد عن كتاب الله تعالى وسنَّة نبيِّه ﷺ.

• التَّرف والأمن إذا خلَوَا من طاعة الله تعالى فليسا بنعمة، بل هما نقمة، وقد يكونان إملاءً واستدراجًا: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف، والقلم: ٤٤، ٤٥].

• على من أُمهل ومتِّع ومُدَّ له في هذه الحياة، ألَّا يغترَّ فيطغى ويبتعدَ عن منهاج الله تعالى! بل عليه أن يعمل بموجبها وهو الشُّكر، وأن يستحضر أنَّ حصول هذه النِّعم ليس دليلًا على رضا الله ﷻ كما يظنُّه الجاهلون، بل هو متاعٌ قليل، وظلٌّ زائل يتبعه حساب عسير. ولهذا لمَّا امتنَّ الله تعالى على قريش بالأمن والرِّزق أُلحق ذلك ببيان أنَّه ما هو إلَّا زُخرُف الحياة الدُّنيا؛ ليعمل العاملون للباقية.

• قوله تعالى في ختام ذلك: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ حضٌّ على التَّعقُّل، وتقديم مقتضى النَّظر على داعي الشَّهوة، فالآخرة خيرٌ وأبقى.

• لقد مُتِّع في هذه الحياة من أصحاب الأموال مَن لم يقُم بحقِّ الله تعالى فيها، لكن كيف كانت خاتمتهم؟ على حين المؤمنُ وإن كان ماله قليلًا فهو يستمتع بما آتاه الله تعالى وَفق ما يرضيه، ويرجو ما عند الله تعالى في الآخرة.

• ختامًا، على الإنسان التَّفريق بين المقاصد والوسائل، والغايات والنَّتائج، فيشغل نفسه بالغاية والمقصِد، فإن حصلت النَّتيجة المحمودة فالحمد لله، وإلَّا فهو مأجورٌ على اشتغاله بالمقاصد المكلَّف بها. ففرقٌ بين مَن قام بطاعة الله تعالى وطلب رضاه أداءً لحقِّه، فنتج له عن ذلك فضلُه من الأمن والرِّزق ونحوه، ومَن أطاع الله تعالى ابتغاء الأمن والرِّزق، فيعرف ربَّه حال الشِّدَّة، وإن أصابه خيرٌ نسيَه.

الآيات: ﴿٦٢﴾ - ﴿٧٥﴾

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ
عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا
يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ
كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ
ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ
أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ
لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ
صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ
وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ
يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن
جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم
بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ
لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ
شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا
هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾

• السُّؤال الأوَّل يوم القيامة سؤال التَّوحيد، فليكن همُّك تحقيقه في الدُّنيا، لتتجاوز شرَّ يوم عظيم، لا يغني عنك فيه متبوعٌ أو صاحب أو تابع!

• بئس الاتِّباع وبئست الصَّداقة إذا كانت نهايتهما يوم القيامة تبرُّؤ بعضهم من بعض، وذلك مآل كلِّ اتِّباع وصداقة لم تؤسَّس على تقوى من الله ورضوان، ستنتهي بل تنقلب عداوةً ولا يبقى إلَّا ما كان لله تعالى.

• في قوله: ﴿أَغْوَيْنَـٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ إشارةٌ إلى حرص أصحاب الباطل والأهواء على إغواء النَّاس، وتضحيتهم من أجل ذلك، فهم يدأبون لغواية غيرهم كدأبهم أنفسهم في الغواية! وعجبًا لنفوس خبيثة لا تنشرح إلَّا بإغواء الآخرين، وحريٌّ بها أن تحار جوابًا إذا أُوقفت بين يدي ربِّ العالمين.

• وفيه تحذيرٌ من أن يفرحَ الإنسان بوقوع النَّاس في الباطل والمعصية لوقوعه هو فيها؛ فإنَّ هذا من سبيل أئمَّة الضَّلال.

• في القطيعة بين الأتباع والمتبوعين يوم القيامة، وما يكون ثمَّة من التَّبرُّؤ والتَّنكُّر ما يستدعي اعتبار العاقل في كلِّ أمر يوجَّه إليه، وكلِّ فعل يبذله لأجل فلانٍ من الكُبَراء.

• كما أنَّه في يوم القيامة يسهُل على المعبودين من دون الله تعالى، والمتبوعين في غير رضاه سبحانه، التَّخلِّي عن متَّبعيهم، فهم كذلك في الدُّنيا، وهذا مشاهَد؛ ولذلك على المؤمن إخلاصُ العبادة والعمل لله تعالى، وتقديمُ طاعته على طاعة مَن سواه.

• لو تخلَّى الأتباع عن المتبوعين ولم يصرفوا لهم شيئًا من حقِّ الله تعالى لما وُجد هذا الباطل؛ لذلك جُوزوا على ذلك بتخلِّي المتبوعين عنهم يوم القيامة، مع صحبتهم لهم في الخزي والنَّدامة، ولاتَ ساعةَ مَندَم! ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [غافر].

• في قوله: ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ فتحٌ لباب التَّوبة أمام الأتباع وأعوان الظَّلمة، فلا يقنِّطنَّهم الشَّيطان، ولا يسُدَّنَّ أمامهم سبيل الرَّجعة بكثرة ما تسبَّبوا فيه من ظلم وأعانوا عليه من باطل، فالله يقبل ممَّن تاب وآمن وأصلح.

• وفيه إشارةٌ إلى قَبول من رجع عن إعانة الطُّغاة الظَّالمين، وصفوف الكافرين المعتدين، فلا يؤاخَذ بما سبق منه، ويدخل في سواد الصَّالحين.

• في التَّعقيب على هذه الآية بقوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ المنَّ بالتَّوبة والتَّفضيل مَردُّه إليه سبحانه وحده، فهو الَّذي يختار أهله بعلمه وقدرته.

• قوله: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ يدلُّ على أنَّه تعالى مستحقٌّ للحمد في خلقه واختياره، وأمره ونهيه، وأنَّ مَن لا إله إلَّا هو لا يكون الحكم إلَّا له؛ وذلك من مقتضيات توحيده وعبادته، وسوف يحاسِب من حكم بغير شريعته.

• إذا كان الله تعالى هو الَّذي خلق هذا الكون، وأحكمه بدقَّة متناهية، فجعل فيه ليلًا يسكن الناس فيه، ثمَّ يعقبه نهارٌ ينتشرون فيه، قد تفرَّد بتدبير ذلكم، وأنعم على العباد به، وهو قادرٌ على أن يجريَ الكون على نمط تتعسَّر به حياتهم، أفلا يكون قضاؤه للبشر حكمًا يرجعون إليه ليُنظِّموا تعاملاتهم؟!

• إنَّ الَّذي نَظَّم هذا الكون بدقَّة متناهية يستحيل أن يقاربها البشر كيف تُترك أحكامه؟ وكيف يُفصَل بين حكمه الكونيِّ والشَّرعيِّ، فيسلَّم لهذا ويُعرَض عن ذاك؟! فكما أنَّه لا يملك أحدٌ أن يعترض على تصريفه للكون، ولا يطعن أحدٌ في حسن تدبيره له، وما هيَّأه للبشريَّة فيه، فكذلك لا يحقُّ لأحد أن يعترض على حكمه الشَّرعيِّ أو يؤخِّره، والَّذي أحكم كونه وما بثَّ فيه قد أحكم شرعه وما أنزله، والتَّفريقُ بين إحكامه للكون وإحكامه للشَّرع تناقضٌ ونقص في العقل.

• لقد ضرب الله تعالى هذا المثل المشاهَد بجعله اللَّيلَ سكنًا والنَّهار معاشًا؛ ليعلم النَّاس أنَّ في حكم الله تعالى الطُّمَأنينةَ والخير؛ فإنَّ من يحاول أن يخالفَ نظامه الكونيَّ لا تستقرُّ حياته، ويعيش في حَيرة واضطراب، وكذلك من يخالف حكمه الشَّرعيَّ، وهو أمرٌ مشاهَد محسوس: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه: ١٢٤]؛ لأنَّ ذلك كلَّه أمر من عنده تعالى.

• ثمَّ إنَّ الَّذي يشرك به غيره في فعله أو أمره ليست له حجَّة، ولا على فعله برهان، ولهذا بيَّن الله تعالى حالَ من أشرك معه أحدًا في العبادة أو التَّشريع أو الرُّبوبيَّة عندما يطالبهم ببيان برهانهم الَّذي صرفوا لأجله حقَّه وحده، فقال: ﴿فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾، فمن تعامى عن الآيات اليوم وأعرض عن الكتاب هوًى أو استكبارًا، فسوف يعلمون غدًا أن لا برهانَ لهم، وأنَّهم قد افترَوا على الله تعالى، وخاب سعيهم، وفي هذا عِبرةٌ لمن يعتبر قبل ألَّا ينفع النَّدم.

الآيات: ﴿٧٦﴾ - ﴿٨٣﴾

﴿ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ
لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾
وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن
كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾
قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ
مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ
عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ
قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ
ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ
وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ
﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ
لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ
ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ
وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

• لمَّا بيَّن الله تعالى عاقبة فرعونَ وجنده عندما طغَوا في البلاد، وعقَّب ذلك بعاقبة المتبوعين والأتباع يوم القيامة، ثمَّ بيَّن التَّوحيد المنجِّي، عاد فشرع في بيان عاقبة قارونَ أحد أكابر المجرمين أعوان الطُّغاة، فذكر نسبه النَّسيب في بني إسرائيل، وأنَّه لم ينفعه ولم يجعله من النَّاجين، بسبب بغيه لمَّا أعطاه الله تعالى الأموال؛ ليكون للنَّاس عبرةً تذكِّرهم بنهاية المستعلين في الأرض بأموالهم، كما كان فرعون عبرةً للمستعلين بسلطانهم، وإن أُوتوا من ذلك ما أوتوا، وأنَّ العاقبة للمتَّقين.

• صاحب الملك والسُّلطان، وصاحب الجاه والمال، كلاهما قد انتهى أمره في لحظة! هذا بالخسف، وذاك بالغرق، وفي ذلك موعظةٌ وعبرة! إنَّه لا دوام لأصحاب النُّفوذ والقوى مهما بلغت قوَّتهم إذا حلَّ سخط الله، ونزل قدره بمَن حادَّ رسله واستكبر عن الإيمان به سبحانه وتعالى.

• أمَّا إذا وُجدت قوَّة المُلك مع الإيمان بالله تعالى والتَّقوى؛ فإنَّه يحفظها ويثبِّتها، وكذلك قوَّة المال إذا وُجدت مع الإيمان والتَّقوى؛ فإنَّه يُزكِّيها ويحفظها، وإذا خلتا من ذلك زالتا؛ لأنَّ الله هو الممدُّ المنعم، فمتى استُعملت نعمه في محادَّته مُحقت، فلا بقاء لقوَّة مهما كانت أمام قوَّة الله تعالى.

• في قوله: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه قد كان من بني إسرائيل، فحريٌّ به أن يتَّبع منهاج موسى ﷺ، وأن يسلكَ منهج قومه الَّذين آمنوا بموسى، ولكن قد غلبت عليه شهوة المال والرِّياسة حتَّى أصبح من أصحاب فرعونَ وعلى نهجه، فكانت عاقبته من جنس عاقبتهم.

• إنَّ مخالفة الإنسان لما عليه أهله وعشيرته من الحقِّ أشدُّ قبحًا من مخالفة مَن لم يكن منهم، ولا عهد له بهدى، أو لقبيله بصلاح.

• ويشير قوله: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أيضًا إلى أهمِّيَّة انتباه الأخيار إلى تصرُّفاتهم حتَّى لا يُسيئوا إلى أنفسهم أو إلى إخوانهم وأقاربهم وعشيرتهم.

• على من آتاه الله تعالى المال الاعتبارُ بحال قارون، والحذر من عاقبته، فقد أُوتيَ قارون مالًا عظيمًا، حتَّى إنَّ مفاتيح كنوزه ليثقُل حملها على الجماعة الأقوياء، لكنَّه قد اتَّصف بصفات محقَت ذلك، وهي: الفرح وبطَر نعمة الله تعالى، وجحد حقِّ الله تعالى فيما آتاه، وترك الإحسان إلى الخلق، والإفساد في الأرض، وإنكار فضل الله تعالى عليه.

• من شابهَ قارون في شيء من صفاته؛ فإنَّه يُخشى عليه من عاقبةٍ كعاقبته؛ لأنَّ سنَّة الله تعالى لا تتبدَّل: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب].

• على العاقل أن يُقرَّ بنعمة الله تعالى عليه، وأن يحذر من أن ينسُبَ شيئًا من النِّعم إلى استحقاقه، فقد يكون ذلك سببًا في هلاكه، كما هلك قارون لمَّا قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾، وقد لا يقولها نصًّا لكن يقول معناها، فيُخشى أن يُسلب النِّعمة من الله تعالى.

• على من أُوتيَ المال أن يحذر من استخدام فضل الله تعالى عليه في معصيته، كإنشاء البنوك الرِّبويَّة، وإشاعة الفاحشة، والإفساد بأنواع المحرَّمات، وإلَّا فإنَّه يُخشى عليه من عاقبة قارون، فسنَّة الله تعالى في الظَّالمين لا تتغيَّر.

• العاقل لا يغترُّ بما آتاه الله تعالى من فضله، كما اغترَّ قارون بجاهه وماله، فلم يقبل النَّصيحة، ولم تكن قوَّته شيئًا أمام قوَّة الله تعالى الَّذي خسف به الأرض وقال: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾، وفي هذا عبرةٌ لمن يعتبر.

• في نصيحة قوم قارونَ له يتجلَّى حِلمُ الله تعالى وإمهاله، مع رحمته وحكمته تعالى؛ إذ أوجد من يبيِّن الحقَّ وينصح للنَّاس في كلِّ زمان ومكان، حتَّى لا تعيشَ البشريَّة في ضلال، فإذا قامت حجَّته سبحانه على عبده، وذكَّره فلم يتذكَّر، ووعظه فلم يتَّعظ، استحقَّ العقوبة وباء بالخسران.

• في قول النَّاصحين لقارون: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ إشارةٌ إلى أنَّ مكان الدُّنيا اللَّائق بها منَّا أن نكونَ في حاجةٍ إلى من يذكِّرنا بها وكأنَّنا نسيناها! لا أن ننشغلَ بها حتَّى تُنسيَنا ذكر الله تعالى والدَّار الآخرة.

• في قوله: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ ما يدلُّ على أنَّ الفساد إذا شاع، وجريمة المجرمين قد ظهرت وانتشرت، فإنَّ الهلاك قد وجب، وقد يأتي بغتةً كما حدث لفرعونَ وقارون.

• حادثة قارونَ تكرَّرت قديمًا ولا تزال تتكرَّر لكثير من المجرمين، وإن لم تكن خسفًا! فهناك مَن ابتلاه الله تعالى بالنَّكد، والبلاء، والخسائر المتلاحقة، وقد تكون عقوبة الله تعالى حريقًا أو غرقًا أو جائحة أخرى.

• في الآيات تنبيهٌ على أنَّ مقاييس أهل الدُّنيا الشَّائعةَ هي ما حكاه الله تعالى ممَّا حدث من النَّاس تجاه قارون: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾، فصاحب الحظِّ عندهم هو صاحب المال وإن عدم الإيمان! وذلك مقياسٌ فاسد، لكنَّ حبَّ الدُّنيا يطغى على صوت الواعظين فلا تسمعه قلوب المفتونين بها.

• على طالب العلم أن يكون بعيدًا عن الافتتان بزهرة الدُّنيا، وإذا سعى إليها فبالضَّوابط الشَّرعيَّة، بحيث تكون الدُّنيا في يده لا في قلبه، وأن يكون لسان حاله في تعامله مع المفتونين ما قاله العالمون من قوم قارون: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

• على طالب العلم النُّصح والإصلاح لأهل الدُّنيا؛ فإنَّ هذا واجبه تجاههم، وهو من جملة شكر الله على إكرامه تعالى له بالعلم النَّافع.

• في الآيات إشارةٌ إلى أنَّه كلَّما ازداد الإنسان تعلُّقًا بالدُّنيا، نقصَ من إيمانه وحبِّه لله تعالى، وإذا ضعُف تعلُّقه بالدُّنيا، ازداد إيمانه وحبُّه لله تعالى. والتَّعلُّق غير الطَّلب، فقد يطلبها المرء ليستغنيَ بفضل الله تعالى ويُحسن إلى خلقه، وهذا أمر حسن لا بدَّ منه، لكن من مزالقه الانحراف بصاحبه إلى التَّعلُّق بها إلا من عصم الله، ومن أسباب العصمة أنَّه كلَّما زاد ماله زاد إنفاقُه في سبيل الله.

• في الآيات إشارةٌ إلى أنَّ الاستقامة تقتضي طلبَ ما عند الله تعالى، فهو خيرٌ وأبقى، ومتى تعارض ذلك مع الدُّنيا فهي مقتضية العزوفَ عنها، وتقديم مرضاة الله تعالى، وذلك لا يكون إلَّا مع مجاهدةٍ ومصابرة؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

• كما أنَّ الآخرة خير وأبقى للمؤمنين، ففيها شرٌّ مدَّخَر للكافرين المعرضين، وما حدث لقارونَ من الخسف إنَّما هو نوعٌ من العقوبة العاجلة، وأعظم منها العقوبة الآجلة على البغي والفساد وهضم حقوق النَّاس، وعذاب الدُّنيا هيِّن عند عقوبة الآخرة.

• في قوله: ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ ما يمنع العاقلَ من الاغترار أو الرُّكون إلى أيِّ قوَّة في الأرض، إذا لم تكن على منهج الله ومقتضى كتابه.

• ما أحوجَنا إلى استحضار هذه الآية، ولاسيَّما في هذه الأزمان الَّتي ضعُف فيها الإيمان بالله وحسن الظَّنِّ به، وأصبح النَّاس يتعلَّقون بالقوى المادِّيَّة، والأسباب الظَّاهرة.

• قد اعتبر الَّذين تمنَّوا ما لقارونَ بما حدث له، وأيقنوا أنَّ الله تعالى هو الَّذي يبسط الرِّزق لمن يشاء ويقدر على سلبه ممَّن يشاء، واعترفوا بفضل الله تعالى ومنَّته عليهم؛ إذ لم يستجب لهم ويجعلهم مثلَ قارون؛ إذ القضيَّة ليست شخصيَّة متعلِّقة بشخص قارون، بل بكلِّ من كانت حاله كحاله.

• قد يدعو الإنسان ربَّه تعالى بشيء، ويكون الخير في ألَّا يعطاه؛ لذلك عليه أن يرضى ويسلِّم لحكم الله تعالى، فقد يكون ما ادَّخره له خيرًا، أو ما كفَّه من الشَّرِّ عنه أعظم، لو بدا له اغتبط بمنَّة الله عليه! كما قال تعالى مخبرًا عمَّن تمنَّى مثل ما لقارونَ بعد الخسف: ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾، فعلى المرء أن يسلِّم لحكمة الله تعالى في قضائه، ويعترفَ بضعف علمه وإدراكه،

وقد رُوي عن النبيِّ ﷺ عن جبريل ﷺ عن ربِّه تبارك وتعالى: «وإنَّ من عبادي المؤمنين مَن لا يصلحُ له إلا الغنى، ولو أفقَرتُه أفسده ذلك، وإنَّ من عبادي المؤمنين مَن لا يصلحُ له إلا الفقر، ولو بسَطتُ له أفسده ذلك» الحديث[1].

• في الآيات بيانٌ لهوان الدُّنيا، وتأمَّل سرعة تحوُّل نظر النَّاس وشغفهم بالدُّنيا! فبالأمس تمنَّوا مكان قارون، واليوم صاروا يحمَدون الله تعالى أن لم يكونوا مثله.

• وفيها أيضًا أنَّ السَّلامة لا يعدلها شيء؛ فمَن عاش معافًى في سِتر وكَفاف، خير ممَّن رُزق من زهرة الدُّنيا ما شاء الله، ثمَّ ابتُلي بلاءً يُحوجه إلى رحمة النَّاس!

• لله كم ممَّن جُمعت له الدُّنيا، تمنَّى أن يعيشَ كأحد خدمه هانئًا مستقرًّا؛ لما رآه من البلاء والهمِّ والعناء، وإن كان النَّاس يرَونه في الظَّاهر بخلاف ذلك. وعلى خلافهم العالِمُون الصالحون؛ يقول أحد الزُّهَّاد ممَّن لا يملك من الدُّنيا شيئًا: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسُّيوف!

• في ختام القصَّة نوَّه الله تعالى بصفتين يجب أن يتحلَّى بهما من أراد الدَّار الآخرة، وهما: السَّلامة من إرادة الإنسان بعمله العلوَّ في الأرض، والسَّلامة من الفساد فيها، ولا يعصم من ذلك إلا التَّقوى.

---

(١) رواه البيهقيُّ في «الأسماء والصِّفات» (٢٣١)، والبغويُّ في «شرح السنَّة» ٥/٢٢ وغيرهما من حديث أنس، وجاء من حديث عمر رضي الله عنه، وضعَّفه الألباني، انظر «السلسلة الضعيفة» (١٧٧٤).

• من إرادة العلوِّ طلب الثَّناء، وحبُّ الظُّهور، والافتتان بتقبيل الرَّأس واليد واتِّباع النَّاس له في المسير، وهذا ليس خاصًّا بأهل المال، فقد يكون في بعض أهل العلم أو السُّلطان وغيرهم، وفي الحديث قال رسول الله ﷺ «ما ذئبانِ جائعانِ أُرسِلا في غنَمٍ بأفسدَ لها من حِرصِ المرءِ على المالِ والشَّرفِ لدينه»[1].

• وعلى كلِّ عاقل أن يتفقَّد نفسه ليتحقَّق استقامتها وسلامتها من الآفات المهلكة؛ حتَّى ينال رضا الله تعالى، والدَّار الآخرة، وحتَّى تكون له العاقبة في الدَّارين.

• وفي قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ طرد لليأس من نفوس اليائسين، واستدعاء للثِّقة بالله ربِّ العالمين، ودعوة إلى حسن الظَّنِّ به، ودفع اليأس والتَّشاؤم، وفي أحداث القرون الخالية والتَّالية عِبَر! فهذا ختام قصَّة قارون من بعد فرعون؛ وقد أوتوا من القوَّة والقدر والدُّنيا ما أوتوا، ومع ذلك كانت العاقبة عليهم، أزالهم القويُّ سبحانه ومكَّن للمستضعفين في الأرض.

---

(١) رواه الإمام أحمد في «مسنده» ٣/٤٥٦، والترمذيُّ في «سننه» (٢٣٧٦)، وابن حبَّان في «صحيحه» (٣٢٢٨)، وصحَّحه الألباني في «التعليقات الحسان» ٥/١٦٩.

الآيات: ﴿٨٤﴾ - ﴿٨٨﴾

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾

• في هذه الآيات دلالةٌ على عظيم فضل الله تعالى ورحمته وعدله؛ حيث جازى على الحسنة بخير منها، وأمَّا السَّيِّئة فجزاؤها سيِّئة مثلها؛ كما قال:﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، وهذا يبعث في نفوس المؤمنين عظيم الرَّجاء، ويملأ جوانحهم حسنَ ظنٍّ بالله تعالى، يعتلج في أثنائه خوفُ المجازاة على السَّيِّئات.

• وعد الله تعالى نبيَّه ﷺ في هذه السُّورة بتمكينه وإعادته إلى البلد الأمين الَّذي أُخرج منه وصُدَّ عنه، وهذا يتضمَّن بشارته بكسر الكافرين ونصرة المؤمنين، وفي ذلك مناسبةٌ لموضوع السُّورة، فكما أهلك الله تعالى فرعونَ وقومه ونصر موسى ومن معه، ومكَّن للمستضعَفين في الأرض، فإنَّه سبحانه سيمكِّن لأتباع خير المرسَلين وينصرهم بعد حين.

• ذَكَّر الله تعالى بعظيم فضله وسابغ منَّته بإنزاله الوحيَ على نبيِّه ﷺ دون أن يترقَّبه؛ ونبَّه على أنَّ تلك المنَّة تقتضي شكرًا لها، ومن شكرها ألَّا يكون ظهيرًا للكافرين، وألَّا يواليَهم ويعينَهم ويرفدَهم، وألَّا يصدُّوه عن تبليغ آياته، وألَّا يداهنَهم، وَلْيَدْعُ النَّاس إلى ربِّهم ﷻ، وهذا ما ينبغي لأتباعه ﷺ.

• على المسلم أن يُعرِضَ عن كلِّ ما يصدُّ عن ذكر الله تعالى، واتِّباع آياته، ويحذَره حتَّى لا يُسلبَ النِّعمة، وتحلَّ به النِّقمة.

• خُتمت السُّورة بتقرير أعظم مطلوبٍ بُعث لأجله الرُّسل ونازعهم فيه الطُّغاة المكذِّبون، ناهيةً عن أعظم الذُّنوب وهو الشِّرك، داعيةً إلى توحيد الله تعالى وإفراده بالألوهيَّة، فكلُّ ما سواه من المعبودات باطل، وكلُّ قويٍّ غيره زائل، لا حكم لأحدٍ مع حكمه.

فليمضِ أصحاب الدَّعوات في طريقهم على هدًى وثقة وطُمَأنينة بنصر الله تعالى وتمكينه، ونيل فضله ورحمته، وليحذر الظَّالم مآل الظَّالمين قبله! كفرعونَ وهامانَ وقارون، وليعلَم أنَّ بعد الجدَث حدثًا، وبعد الموت بعثًا ونشرًا، وجزاء فثوابًا أو عقابًا.

والحمد لله ربِّ العالمين.

خاتمة

الحمد لله أوَّلًا وأخيرا، وصلَّى الله على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرا، أمَّا بعدُ، فمن خلال الوقَفات المقتضَبة مع السُّورة تبيَّن أنَّها كنزٌ من الدُّروس والعِظات والعِبَر، حريٌّ بنا أن نلتزمَ توجيهاتها في واقعنا؛ ليتحقَّق لنا خير الدُّنيا ونعيم الآخرة.

إنَّ سورة القَصَص - كما رأينا - قد فصَّلت كثيرًا من أخبار موسى أحد المقَدَّمين من أُولي العزم من الرُّسل، وقد ثَنَّى الله ذكره، وفرَّق أخباره في القرآن كثيرًا، حتَّى قال بعض السَّلف: «كاد القرآن أن يكونَ كلُّه لموسى»[1]. وقد بُسطت أخبارُه في مواضعَ أكثرها تفصيلًا ما جاء في ثلاث سور؛ سورة الأعراف، وسورة طه، وسورة القَصَص. أمَّا سورة الأعراف فهي أوفى بأحواله مع عامَّة النَّاس؛ أهل مصر، وقومه من بني إسرائيل، فقد كان لهم من الذِّكر والذَّمِّ حظٌّ وافر. وأمَّا سورة القَصَص فأوفى بنشأته وحاله مع فرعونَ وملئه المتكبِّرين. وأمَّا سورة طه فتوسَّطت بينهما، فذكرت طرفًا هنا وطرفًا هنالك.

والمقصود: أنَّ سورة القَصَص من أوفى تلك المواضع الَّتي بسطَت خبره؛ إذ فيها ذكرُ عصره ومِصره وواقعه السِّياسيِّ، ثمَّ خبره ﷺ منذ ولادته،

(١) انظر: «الإتقان» للسيوطي ١/١٥٧.

وظروف تلك السَّاعة، مع شيء من أحواله الاجتماعيَّة، إلى خبر شبيبته وبعض مجرياتها التَّامَّة عن شخصيَّته، والمبيِّنة لما اقتضَته بعد ذلك من سفرٍ وإقامة في بلاد مَدين، فُصِّل المهمُّ منها، ثمَّ خبر عودته وتفاصيل بعثته، والوصف الدَّقيق لها من مبدئها، وكأنَّ النَّاظر إليه يراه يغادر أهله، فيتَّجه صاعدًا صوب النَّار جنوبًا، يمينَ شاطئ وادٍ منحدِر من جبل الطُّور غربيَّ الوادي، قاصدًا شجرةً في أصله، حولها الضَّوء السَّاطع؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾، ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

ثمَّ تمضي الآيات في وصف بعثته، ثمَّ محاجَّته فرعون، وما جبَهَه به هو وجنده ووزيره، وكيف كانت عاقبتهم، وذكر في أثناء ذلك ما يقيم الحجَّة على نبوَّة محمَّد ﷺ، من إخباره بالغيب الَّذي لا يعلم تفصيله إلَّا نبيٌّ، ولا حجَّة للمعرِض من أهل الكتاب أو المشركين بعدها إلَّا اتِّباع الهوى لا الهدى!

وفي سياق ذلك لم يغمِط المؤمنين الأوَّلين حقَّهم، فذكرهم وأشاد بهم، وذكر من طريقتهم وحالهم ما فيه عبرةٌ للمؤمنين من هذه الأمَّة، أوَّلهم قبل الهجرة بمكَّة، وآخرهم إلى قيام السَّاعة: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

ثمَّ عاد السِّياق إلى تسلية النَّبيِّ ﷺ في صدود من صدَّ عنه، أو لم يؤمن به من الملأ الآخَرين؛ أعني عِليةَ قريش قريبهم وبعيدهم، وفنَّد ما يتحجَّج به بعضهم: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ﴾، وبيَّن أنَّ العطب في اتِّباع الهوى لا الهدى! مع التَّذكير بيوم المعاد، وعود الزَّعامة الصَّادَّة عن الإيمان فيه إلى ندامة يتبرَّأ أصحابُها من أتباعهم.

ثمَّ ختم الموعظة بامتنانه سبحانه على عباده بشيءٍ من نعمه الموجبة لحمده والإذعان له حبًّا وطمعًا، وكذلك خوفًا ورهبًا أن يسلبَها العباد.

ثمَّ ختم بقصَّة قارونَ الذي كان من قوم موسى؛ لِما فيها من العِبَر المتعلِّقة بسياق أخبار الملأ مع موسى ﷺ، ولِما فيها من المناسبة لحال نبيِّنا ﷺ، فقد كان في قرابته ﷺ من الملأ مخالفون له، إمَّا مكذِّبون معاندون: ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ ﴾ [المسد]، أو آخَرون يحبُّ هدايتهم وهم معرضون ضنًّا بملَّة الآباء!

وفي ذيلها جاء التَّنويه بأهمِّ ما سيقت له القصص، وما ينبني عليه من المراد الواجب التزامه، وهو أنَّ نصر الله آتٍ، فلئن أُخرجت اليوم لتعودَنَّ غدًا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ ظاهرًا منتصرًا، فاحذر أمورًا، وافعل مأمورًا: ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ۝٨٦ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٨٧ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٨٨ ﴾.

إنَّ العدوَّ الكافر الَّذي أخرجك من دارك لا يكون لك نصيرًا، فلا تكن له ظهيرًا، ولا يصدُّونك مجتمعين عن آيات الله الشَّرعيَّة الَّتي أنزلها إليك، بلِّغها واعمل بمقتضاها، مجانبًا المشركين وشركهم.

فهذا سبيل الفلاح مختصرًا، وتلك العاقبة لمن التزمه، فمَن طال به العمر أدرك الوعد، ومن اقتطع عمره على الإيمان أدرك المنى! فالكلُّ راجع إلى الحكَم العدل الَّذي يجازي المحسن على إحسانه، ويضاعف الأجر لأهل رضوانه.

أسأل الله أن يقرَّ أعيننا بظهور دينه، ونصرة كتابه، وعلوِّ سنَّة نبيِّه ﷺ، وأن يستعملنا في ذلك، إنَّه وليُّ ذلك والقادر عليه، وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحابته أجمعين.

الفِهرس

سورة الحجرات

دراسة تحليلية وموضوعية

د. ناصر بن سليمان العمر

دار الوطن

ســـورة الحجـــرات

دراسة تحليلية وموضوعية

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعـــة الثانيـــة

١٤١٤هـــ

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه، وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا.

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلّا وأنتم مسلمون﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٠٢].

﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبًا﴾ [سورة النساء، الآية: ١].

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديدًا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزًا عظيمًا﴾ [سورة الأحزاب، الآيتان: ٧٠، ٧١].

أما بعد:

فإن خير الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد، صلى الله عليه وسلم،.

وبهذين الأصلين اهتدت الأمة قديمًا، وهما سبيل نجاتها في سائر الأزمان والأحوال. من تمسك بهما رشد واستقام، ومن ضلّ عنهما غوى وهوى.

ويزداد يقيني يومًا بعد يوم أنه لا خلاص لهذه الأمة من هذا الواقع الذي تعيشه، والبؤس الذي تحياه، لتعود كما كانت خير أمة أخرجت للناس، إلا بأن تجعل القرآن الكريم سبيل نجاتها، وحبل خلاصها، وهاديها من

حيرتهـا، ومنقـذهـا من رقدتها، به تحيا، وفي ضوئه تسير، وعلى منهاجه تموت، ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ [سورة الحشر، الآية: ٧]. .

وانسجامًا مع هذه القناعة، وتفاعلاً مع هذا اليقين طفقت أعيش مع كتاب الله، أفسر آياته، وأبينّ دلالاته، وأشير إلى هداياته.

ومن ذلك أنني وقفت منذ زمن بعيد مع سورة الحجرات، أتأملها عندما أقرأها، وأبحث في تفسيرها ومقاصدها، ثم تحول هذا التأمل إلى دروس ألقيهـا عنـد كل آية من آياتهـا، وأخـيرًا رأيت أن أخرج هذه التأملات والدروس والمباحث في كتاب يستفيد منه العامة والخاصة، لينهلوا مما نهلت منه، ويشربوا مما منه شربت.

ذلك أن سورة الحجرات مدرسة متكاملة، تربّى في ضوئها أصحاب محمد، صلى الله عليه وسلم، فإنها مع قصرها، وقلة عدد آياتها جاءت شاملة لأحكام وآداب وأوامر ونواهٍ لا تجدها مجتمعة في سورة سواها.

إن سورة الحجـرات مدرسـة متكاملة، جاءت لتربي الأمة على سمو الأخلاق، وفضائل الأعمال وعلوّ الهمم.

إنها مدرسـة عقيدية وتشريعية وتـربوية، ولذلك فلا عجب أن نرى أخلاق الجيل الأول هي أخلاق القرآن، التي هي أخلاق إمامنا وإمام ذلك الجيل محمد، صلى الله عليه وسلم، الذي كان خلقه القرآن. ولذلك قادوا الدنيا بأسرها. لا بسيوفهم ولا بأموالهم، ولكن بأخلاقهم المستمدة من دينهم، ومثلهم المأخوذة من كتاب ربهم وسنّة نبيهم، صلى الله عليه وسلم.

وأمتنا اليوم أحوج ما تكون إلى منقذ لها مما هي فيه جائعة والزاد بين يديها، عطشى والماء فوق ظهورها محمول.

ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، وما صلح أولها إلا بالكتاب والسنة، «**تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدًا، كتاب الله وسنتي**».

وهذه السورة ـ سورة الحجرات ـ تعالج قضايا وأمورًا تسهم في حلّ كثير من المعضلات التي تواجهها الأمة اليوم. ولكل ما سبق عزمت على المضي قدمًا في إخراج بعض كنوز هذه السورة، حيث لم أر ـ حسب اطلاعي ـ تفسيرًا شاملاً لهذه السورة، يقف مع آياتها محلّلا ومفسرًا، ومع موضوعاتها دارسًا ومبينًا ومحققًا.

فجاءت دراستي لهذه السورة في قسمين:

القسم الأول: تناولت فيه دراسة الآيات وتفسيرها تفسيرًا تحليليًّا.

والقسم الثاني: تناولت فيه دراسة السورة دراسة موضوعية شاملة.

ولا أدّعي أنني أتيت فيما يتعلق بالتفسير التحليلي بما لم تأت به الأوائل من العلماء والمفسرين، وإنما هو الجمع والانتقاء والاختصار والتعليق والترجيح حسب ما يقتضيه المقام، وأنا عالة عليهم ـ رحمهم الله وأحسن مثوبتهم ـ.

أمّا القسم الثاني: فقد كان الجهد فيه أوضح، والعمل أشمل، وبخاصة أنني تطرقت إلى موضوعات اقتضت مني مزيدًا من البحث والاستقصاء، والسهر والعناء، والتفكير في ضوء ما كتبه الأئمة والعلماء، مستهديًا بالكتاب والسنّة، وفقه سلف الأمة.

فجاء هذا الكتاب مشتملاً على نوعي التفسير ـ التحليلي والموضوعي ـ:

وقد تناولت في القسم الأولى ما يلي:

١ ـ أسباب نزول آياتها، وقد ذكرت أهمّ أسباب النزول ورجحت ما أراه

عند كل آية إذا تعددت أسباب نزولها.

٢ ـ القراءات الواردة في السورة، واقتصرت على القراءات المتواترة، سوى مواضع قليلة، مع بيان حجة القراءة عند الحاجة.

٣ ـ بعض أحكام التجويد، وبخاصة التي اختلف بعض القراء في نطقها، وهي أخصّ من القراءة، ولذلك أفردتها.

٤ ـ الوقف والابتداء، وهذا المبحث ينسجم مع الشمول الذي التزمته في دراستي لهذه السورة، وبخاصة أن هناك من يخطىء كثيرًا في هذا الباب، فيقف في موضع حقه الوصل، ويصل في موضع حقه الوقف.

٥ ـ اللغة والإعراب، وقد تناولت فيه ما يتعلق بمعاني الآيات وتفسيرها، مع الوقوف عند إعراب بعض الآيات مما يستدعيه المقام، ويحتاج إليه طالب العلم.

٦ ـ وقفات بلاغية، وقد اقتصرت فيه على ثمان وقفات بلاغية، تسهم في فهم المعنى وبيان المراد.

٧ ـ ما ورد في السورة من أحكام.

وهناك من يتصور أن الأحكام التشريعية في هذه السورة قليلة، وهذا غير صحيح، بل فيها جملة من الأحكام والأوامر والنواهي، بيّنتها في هذا المبحث.

هذه هي المباحث التي تناولتها في القسم الأول، وهو الدراسة التحليلية، وقد ركزت في هذا القسم على أن تكون منطلقًا للدراسة الموضوعية، حيث إنه يصعب فهم القسم الثاني دون استيعاب القسم الأول، بل إنهما أشبه بالقاعدة والمثال، يصعب فصل أحدهما عن الآخر.

أمّا القسم الثاني وهو الدراسة الموضوعية، فقد استغرق أغلب الدراسة

وأكثر ما ورد في الكتاب، تطرّقت في هذا القسم إلى موضوعات استمددتها من آيات هذه السورة وهداياتها.

وقد بذلت فيها وسعي وأفرغت طاقتي في ضوء ما يعيشه المرء من ظروف وأوضاع، في عالم مضطرب هائج، لا يستطيع المرء أن ينزع نفسه منه، وقد تكون هذه الأوضاع مما ساهم في شمول هذه الدراسة، والمعالجة الواقعية عند تناول هذه الموضوعات، دون غلو أو جفاء.

وفي هذا القسم بينت أن السورة قد اشتملت على عدة موضوعات ووقفات، كل موضوع منها يحتاج إلى دراسة مستقلة، فمنها الموضوعات العقيدية، ومنها التشريعية، وأخرى في السلوك والأخلاق.

والموضوعات والوقفات التي تناولتها في هذه السورة هي:

أولاً: الوحدة الموضوعية للسورة.

ثانيًا: وقفات مع سورة الحجرات، وفي هذا المبحث وقفت ثلاث وقفات:

١ ـ منهج للدعاة.

٢ ـ مع أسماء الله وصفاته.

٣ ـ اللسان في ضوء سورة الحجرات.

ثالثًا: موضوعات سورة الحجرات، وهذا أهم مباحث السورة، بل هو صلب البحث وجوهره، وما عداه مكمل له ومتمم، وقد تناولت فيه ستة موضوعات:

١ ـ التقدم بين يدي الله ورسوله.

٢ ـ الأدب مع العلماء.

٣ ـ التقوى وامتحان القلوب.

٤ ـ التثبت في الأخبار.

٥ ـ الأخوة.

٦ ـ الإسلام والإيمان.

ثم ختمت بخاتمة مختصرة مناسبة، مع ذكر ثبت للمصادر والمراجع، ثم فهرس الموضوعات.

هذا وأسأل الله ـ جل وعلا ـ أن يجعل هذه الدراسة نافعة، ومحققة للأهداف التي كتبت من أجلها، وأن يجعلها خالصة لوجهه الكريم.

وهذا جهد المقلّ، فما في هذا الكتاب من خير وصواب فمن الله وحده ﴿وعلّمك ما لم تكن تعلم﴾ [سورة النساء، الآية: ١١٣]، ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلاّ بما شاء﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢٥٥].

وما فيه من خطأ وتقصير فمن نفسي والشيطان﴿قل هو من عند أنفسكم﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٦٥] ﴿وكان الشيطان للإنسان خذولاً﴾ [سورة الفرقان، الآية: ٢٩].

ولا يسعني إلاّ أن أتقدم بالشكر ـ بعد شكر الله ـ لكل من ساهم في إنجاز هذه الدراسة واستكمالها، سواءً أكانت مساهمة حسية أو معنوية، وأخص بالشكر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، حيث كان تفريغها لي سنة كاملة مساعدًا في إنجاز هذا البحث.

وكذلك أخص أساتذتي ومشايخي وزملائي الذين ساهموا في علمهم وآرائهم وكتبهم، فلهم جميعًا جزيل الشكر وجميل العرفان. رب اغفر لي ولوالدي، ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إمامًا، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه.

الرياض: ٢٩/ ٧/ ١٤١٣هـ

الدراسة التحليلية

بسم الله الرحمن الرحيم

اسم السورة: سورة الحجرات.
مكان نزولها: المدينة، وقد ذكر ابن كثير أنَّها في السنة التاسعة من الهجرة، **فهي** مدنيَّة[١].
عدد آياتها: ثمانية عشر آية.

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٤/٢٠٧.

أسباب نزول آياتها:

هناك عدة أسباب لنزول هذه السورة، حيث إن بعض الآيات ورد فيها أكثر من سبب من أسباب النزول.

أسباب النزول:

وجمعًا بين الاختصار والشمول، وتحاشيًا للسرد والتطويل، فسأذكر مجمل الأسباب التي وردت في كل آية إن كان لها سبب نزول[١] ومتعدّد، ثم أذكر أرجحها كاملًا حسب ما يظهر لي، مع التّنبيه إلى ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية، حيث قال: قولهم: نزلت الآية في كذا، يُراد به تارة سبب النزول ويُراد به تارة أن ذلك داخل في الآية، وإن لم يكن السبب كما تقول: عني بهذه الآية كذا.

وقال القاسمي تعقيبًا على كلام شيخ الإسلام: وبه يجاب عما يرويه كثير من تعدد سبب النزول، فاحفظه فإنه من المضنون به على غير أهله. والله أعلم.

وقال أيضًا: قولهم: نزلت الآية في كذا، قد يكون المراد به الاستشهاد على أن مثله مما تتناوله الآية، لا أنه سبب نزولها[٢].

وعندما أرجح أن هذا هو سبب النزول فإني أعني به السبب المباشر لنزولها، لا ما تشمله الآية، وكذلك عندما أضعِّف بعض الأقوال فإني

---

(١) كل آية في القرآن لها سبب نزول، ولكن السبب إما أن يكون عامًا أو خاصًا، والمراد هنا السبب الخاص.

(٢) انظر: تفسير القاسمي ١٥/١١٤.

أقصد أنه ليس هو السبب المباشر، لا أن الآية لا تشمله، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

قولـه ـ تعـالى ـ: ﴿يـا أيهـا الـذين آمنوا لا تقدّموا بين يدي الله ورسوله﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١].

ورد في سبب نزولها أربعة أقوال:

١ ـ أنها نزلت في أبي بكر وعمر عند قدوم وفد بني تميم[١].

وهذا القول فيه نظر؛ لأن الذي نزل في أبي بكر وعمر الآية التي بعدها.

ولكن يمكن حمل هذا القول على أن هذه الآيات نزلت جميعًا، فكان من أسباب نزولها جملة قصة أبي بكر وعمر، وهو ما يفهم من حديث البخاري في الصحيح كما سيأتي.

٢ ـ أن قومًا ذبحوا قبل أن يصلي رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يوم النحر، فأمرهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أن يعيدوا الذبح، فنزلت هذه الآية، قاله الحسن[٢].

٣ ـ أنها نزلت في قوم كانوا يقولون: لو أنزل الله فيَّ كذا وكذا، فكره الله ذلك، وقدم فيه، قاله قتادة[٣].

---

(١) انظر: زاد المسير ٧/٤٥٤، وذكر فيه أثرًا عن ابن الزبير، وهو من رواية ابن مردويه عنه.

(٢) انظر: تفسير الطبري ٢٦/١١٧، وزاد المسير ٧/٤٥٤.

(٣) انظر: تفسير الطبري ٢٦/١١٧، وزاد المسير ٧/٤٥٤، وتفسير ابن كثير ٤/٢٠٥.

٤ ـ **أنها نزلت في عمرو بن أميَّة الضمري**، وكان قد قتل رجلين من بني سليم قبل أن يستأذن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قاله ابن السائب(١).

ويصعب الجزم بأحد الأقوال، إلا أن قول قتادة قوي، وكذلك القول الأول حسب التوجيه الذي ذكرت، مع أنني ألمس ضعفًا في القولين الثاني والرابع.

قوله ـ تعالى ـ: ﴿**يا أيّها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتَكُم فوق صوتِ النبي**﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٢].

ورد في سبب نزولها قولان:

١ ـ **أنها نزلت في أبي بكر وعمر** ـ رضي الله عنهما ـ في قصة بني تميم(٢).

٢ ـ **أنها نزلت في ثابت بن قيس بن شماس**، وكان جهوري الصوت، فخشي أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، كان يتأذّى بصوته، فأنزل الله فيه الآية. قاله مقاتل وغيره(٣).

والقول الثاني ضعيف، لأن ثابت بن قيس ظنَّ أن الآية فيه، فاستدعاه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأزال عنه هذا الظن، بل بشَّره بالجنة، وفي بعض الروايات بشَّره بالشهادة، ولذا فإن ثابتًا ـ رضي الله

---

(١) انظر: زاد المسير ٧/٤٥٥.

(٢) انظر: تفسير الطبري ٢٦/١١٩، وزاد المسير ٧/٤٥٦، وتفسير ابن كثير ٤/٢٠٦،

(٣) انظر: تفسير الطبري ٢٦/١١٨، وتفسير ابن كثير ٤/٢٠٦.

عنه ـ وإن خاف أن الآية نزلت فيه، فإنه أيقن بعد ذلك أنه ليس هو المراد، وأيضًا فإن جهورية صوته خلقة لا تعمدًا.

والقول الصحيح أنها نزلت في أبي بكر وعمر، للآثار الصحيحة الواردة في ذلك.

قال البخاري: حدثنا بسرة بن صفوان اللخمي، حدثنا نافع بن عمر عن ابن أبي مليكة قال: كاد الخَيِّران أن يهلكا أبو بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ رفعا أصواتهما عند النبي، صلى الله عليه وسلم، حين قدم عليه ركب بني تميم فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس ـ رضي الله عنه ـ أخي بني مجاشع، وأشار الآخر برجل آخر، قال نافع: لا أحفظ اسمه، فقال أبو بكر لعمر ـ رضي الله عنهما ـ: ما أردت إلّا خلافي، قال: ما أردت خلافك، فارتفعت أصواتهما في ذلك فأنزل الله ـ تعالى ـ: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾**. [سورة الحجرات، الآية: ٢].

قال ابن الزبير ـ رضي الله عنه ـ: فما كان عمر ـ رضي الله عنه ـ يسمع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بعد هذه الآية حتى يستفهمه ولم يذكر ذلك عن أبيه ـ يعني أبا بكر رضي الله عنه ـ قال ابن كثير: انفرد به البخاري(١).

وفي رواية أخرى للبخاري قال: حدثنا حسن بن محمد، حدثنا حجاج، عن ابن جريج، حدثني ابن أبي مليكة أن عبدالله بن الزبير ـ رضي الله عنهما ـ أخبره أنه قدم ركب من بني تميم على النبي، صلى الله

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٤٦) كتاب التفسير. وانظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٢٠٦).

عليه وسلم، فقال أبو بكر - رضي الله عنه -: أمّر القعقاع بن معبد، وقال عمر - رضي الله عنه -: بل أمّر الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر - رضي الله عنه - ما أردت إلا خلافي، فقال عمر - رضي الله عنه -: ما أردت خلافك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزلت في ذلك: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدِّموا بين يدي الله ورسوله﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١]. حتى انقضت الآية: ﴿ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٥]. قال ابن كثير: وهكذا رواه ههنا منفردًا به أيضًا(١).

وبهذين الحديثين يتضح أن سبب النزول قصة أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما -.

٣ - قوله - تعالى -: ﴿إن الذين يغضّون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتَّقوى﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٣].

قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: لما نزل قوله: ﴿لا ترفعوا أصواتكم﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٢]. تألّى(٢) أبو بكر ألّا يكلم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إلّا كأخي السرار، فأنزل الله في أبي بكر: ﴿إن الذين يغضّون أصواتهم﴾(٣). [سورة الحجرات، الآية: ٣].

---

(١) صحيح البخاري (٦/٤٧) كتاب التفسير، وانظر: تفسير ابن كثير (٤/٢٠٦).
(٢) أي آلى على نفسه، أي حلف عليها.
(٣) انظر: زاد المسير ٧/٤٥٧، وقد ذكره الواحدي في أسباب النزول ٢١٩ بغير سنده، وقال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف: وأخرجه البزار وابن مردويه من طريق طارق بن شهاب عن أبي بكر قال: لما نزل ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم﴾. الآية قلت: يا رسول الله! آليت ألا أكلمك إلا كأخي السرار حتى =

قوله ـ تعالى ـ: ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٤]. في سبب نزولها ثلاثة أقوال:

الأول: أن بني تميم جاءوا إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فنادوا على الباب: يا محمد اخرج إلينا، فإن مدحنا زَيْن، وإن ذمَّنا شَيْنْ، فخرج وهو يقول: «إنما ذلكم الله» فقالوا: نحن ناس من بني تميم جئنا بشاعرنا وخطيبنا نشاعرك ونفاخرك. فقال: «ما بالشعر بعثت ولا بالفخار أمرت، ولكن هاتوا». فقال الزبرقان بن بدر لشاب منهم: قم فاذكر فضلك وفضل قومك فقام فذكر ذلك، فأمر رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ثابت بن قيس فأجابه، وقام شاعرهم، فأجابه حسان، فقال الأقرع بن حابس: والله ما أدري ما هذا الأمر، تكلم خطيبُنا فكان خطيبهم أحسن قولاً، وتكلم شاعرُنا، فكان شاعرهم أشعر، ثم دنا فأسلم، فأعطاهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وكساهم، وارتفعت الأصوات، وكثر اللغط عند رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فنزلت الآية.

= ألقى الله، قال: وأخرجه الحاكم والبيهقي في المدخل من حديث أبي هريرة قال: لما نزلت: ﴿الذين يغضون﴾. الآية، قال أبو بكر: والذين أنزل عليك الكتاب يا رسول الله لا أكلمك إلاّ كأخي السرار حتى ألقى الله عز وجل، وقال: صحيح على شرط مسلم.

انظر: تخريج أحاديث الكشاف، تفسير سورة الحجرات (٣٥٢/٤)، والمستدرك (٤٦٢/٢)، ومجمع الزوائد (١١١/٧)، قال الهيثمي عن إسناد البزار: وفيه حصين بن عمر الأحمسي وهو متروك، وقد وثقه العجلي، وبقية رجاله رجال الصحيح. اهـ.

هذا قول جابر بن عبدالله وآخرين[١].

وقال ابن إسحاق: نزلت في جفاة بني تميم، وكان فيهم الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن، والزبرقان بن بدر، وقيس بن عاصم المنقري وغيرهم[٢].

وقال ابن كثير: ذكر أنها نزلت في الأقرع بن حابس التميمي - رضي الله عنه - فيما أورده غير واحد، فقد روى الإمام أحمد بسنده عن الأقرع بن حابس أنه نادى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال: يا محمد يا محمد، وفي رواية يا رسول الله فلم يجبه، فقال: يا رسول الله إن حمدي لزين وإن ذمّي لشين، فقال: «**ذاك الله عز وجل**»[٣].

الثاني: أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بعث سرية إلى بني العنبر، وأمَّر عليهم عيينة بن حصن الفزاري، فلما علموا بذلك هربوا

---

(١) رواه الواحدي في أسباب النزول ص ٢٢٠ مطولاً، من رواية معلّى بن عبدالرحمن عن عبدالحميد بن جعفر عن عمر بن الحكم عن جابر، وفي سنده معلّى الواسطي ضعفه الدارقطني وغيره، وانظر: زاد المسير ٧/٤٥٨. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/٩٠) وعزاه لابن إسحاق، وابن مردويه عن ابن عباس.

(٢) انظر: زاد المسير ٧/٤٥٨ وأسباب النزول ٢١٩ فقد ذكره عن ابن إسحاق بدون سند.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٤/٢٠٧) ومسند الإمام أحمد (٣/٤٨٨). قال الهيثمي في المجمع (٧/١١١): رواه أحمد والطبراني، وأحد إسنادي أحمد رجاله رجال الصحيح، إن كان أبو سلمة سمع من الأقرع، وإلا فهو مرسل كإسناد أحمد الآخر. قال السيوطي في الدر المنثور (٦/٨٩): أخرجه أحمد وابن جرير، وأبو القاسم البغوي وابن مردويه والطبراني بسند صحيح.

وتركوا عيالهم، فسباهم عيينة، فجاء رجالهم يفدون الذراري، فقدموا وقت الظهيرة ورسول الله، صلى الله عليه وسلم، قائل، فجعلوا ينادون: يا محمد اخرج إلينا، حتى أيقظوه، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس[(١)].

الثالث: أن ناسًا من العرب قال بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى هذا الرجل، إن يكن نبيًّا نكن أسعد الناس به، وإن يكن ملكًا نعش في جناحه، فجاءوا فجعلوا ينادون: يا محمد، يا محمد، فنزلت هذه الآية.

قاله زيد بن أرقم[(٢)].

والذي يترجَّح لديَّ أن السبب الأول هو الصحيح، أي أنها نزلت في وفد بني تميم، ومناداتهم للرسول، صلى الله عليه وسلم، من وراء الحجرات.

أمّا القول الثاني فهو ضعيف.

أما الثالث: فلعله يمكن حمله على بني تميم، فتتحد القصة مع تعدد الروايات.

قوله ـ تعالى ـ: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بنبأ فتبيَّنوا﴾.
[سورة الحجرات، الآية: ٦].

---

(١) انظر زاد المسير (٧/ ٤٥٩). قال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف (٤/ ٣٥٨): أخرجه ابن مردويه من رواية ابن إسحاق عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس اهـ. وهذا إسناد تالف والكلبي متهم.

(٢) انظر: تفسير الطبري ٢٦/ ١٢١، وذكره السيوطي في الدر (٦/ ٨٩) وحسنه وزاد نسبته لابن راهويه ومسدد وأبي يعلى والطبراني وابن أبي حاتم عن زيد بن أرقم ـ رضي الله عنه ـ وانظر زاد المسير ٧/ ٤٥٩.

هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط كما قال جمهور المفسرين.

وقد ورد في ذلك عدَّة آثار من طرق مختلفة من أحسنها ـ كما قال ابن كثير ـ: ما رواه الإمام أحمد في مسنده من رواية ملك بني المصطلق، وهو الحارث بن ضرار بن أبي ضرار، والد ميمونة بنت الحارث أمّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبي سابق، حدثنا عيسى بن دينار، حدثني أبي أنه سمع الحارث بن ضرار الخزاعي ـ رضي الله عنه ـ يقول: قدمت على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فدعاني إلى الإسلام، فدخلت فيه وأقررت به، ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها، فقلت: يا رسول الله، أرجع إليهم فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة، فمن استجاب لي دفعت زكاته، وترسل إليَّ يا رسول الله إبّان كذا وكذا ليأتيك بما جمعتُ من الزكاة، فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له وبلغ الإبّان الذي أراد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أن يبعث إليه احتبس عليه الرسول، ولم يأته، وظنّ الحارث أنه قد حدث فيه سخطة من الله ـ تعالى ـ ورسوله، فدعا بسروات قومه، فقال لهم: إن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كان وقَّت لي وقتًا يرسل إليَّ رسوله ليقبض ما كان عندي من الزكاة، وليس من رسول الله، صلى الله عليه وسلم، الخلف، ولا أرى حبس رسوله إلّا من سخطة، فانطلقوا بنا نأتي رسول الله، صلى الله عليه وسلم. وبعث رسول الله، صلى الله عليه وسلم، الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده، مما جمع من الزكاة، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرق ـ أي خاف ـ فرجع حتى أتى رسول الله، صلى الله

عليه وسلم، فقال: يا رسول الله! إن الحارث قد منعني الزكاة وأراد قتلي، فغضب رسـول الله، ﷺ، وبعث البعث إلى الحارث ـ رضي الله عنه ـ وأقبـل الحارث بأصحابه، حتى إذا استقبل البعث، وفصل عن المدينة لقيهم الحـارث، فقالوا هذا الحارث، فلما غشيهم قال: إلى من بعثتم؟ قالوا: إليك، قال: ولم؟ قالوا: إن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بعث إليك الوليد بن عقبة فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قلته، قال ـ رضي الله عنه ـ: لا والذي بعث محمدًا، صلى الله عليه وسلم، بالحق ما رأيته بتّة، ولا أتاني، فلما دخل الحارث على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: «منعت الزكاة وأردت قتل رسولي»؟ قال: لا والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا أتـاني، وما أقبلت إلّا حين احتبس عليَّ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، خشيت أن يكون كانت سخطة من الله ـ تعالى ـ ورسوله، قال: فنـزلت الحجرات: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٦]. إلى قوله: ﴿حكيم﴾[1]. [سورة الحجرات، الآية: ٨].

قال ابن كثير بعد أن ساق هذا الحديث: وذكر بعده عدة روايات.

وكذا ذكر غير واحد من السلف منهم ابن أبي ليلى ويزيد بن رومان، والضحاك، ومقاتل بن حيان وغيرهم في هذه الآية أنها نزلت في الوليد بن عقبة، والله أعلم[2].

---

(١) المسند (٤/ ٢٧٩). وانظر تفسير ابن كثير (٤/ ٢٠٨) قال السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٩١): أخرجه أحمد وابن أبي حاتم والطبراني وابن منده وابن مردويه بسند جيد. وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ١١٢): ورجال أحمد ثقات.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٢١٠)، وتفسير الطبري (٢٦/ ١٢٣)، وأسباب النزول =

قوله ـ تعالى ـ: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٩].

في سبب نزول هذه الآية قولان:

الأول: في قصة ذهاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لعبدالله بن أبيّ، فقد روى البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قيل لرسول الله، صلى الله عليه وسلم: لو أتيت عبدالله بن أبي، فركب حمارًا وانطلق معه المسلمون يمشون، فلما أتاه النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: إليك عنّي، فوالله لقد آذاني نتن حمارك، فقال رجل من الأنصار: والله لحمار رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أطيب ريحًا منك، فغضب لعبدالله رجل من قومه، وغضب لكل واحد منهما أصحابه، فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال، فبلغنا أنها نزلت فيهم: ﴿وإن طائفتان﴾(١). [سورة الحجرات، الآية: ٩].

وقد وردت رواية أخرى عن أسامة بن زيد وهي قريبة من هذه(٢).

القول الثاني: أنها نزلت في رجلين من الأنصار كان بينهما مماراة في

= (٢٢٢)، وزاد المسير (٧/ ٤٦٠).

(١) رواه البخاري (٣/ ١٦٦) كتاب الصلح، ومسلم (٣/ ١٤٢٤) كتاب الجهاد رقم (١٧٩٩)، وأحمد في المسند (٣/ ١٥٧، ٢١٩) وابن جرير الطبري في تفسيره ٢٦/ ١٢٨ وانظر زاد المسير ٧/ ٤٦٢، والدر المنثور ٦/ ٩٠ ونسبه السيوطي لابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في سننه عن أنس ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) وهي عند البخاري (٧/ ١٢٠) كتاب الأدب ومسلم (٣/ ١٤٢٢) كتاب الجهاد، رقم (١٧٩٨).

حقٌّ بينهما، فقال أحدهما: لآخُذَنَّ حقي عنوة، وذلك لكثرة عشيرته، ودعاه الآخر ليحاكمه إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فلم يزل الأمر بينهما حتى تناول بعضهم بعضًا بالأيدي والنعال.

وهذا القول لقتادة(١).

والقول الأول هو الأظهر والأرجح لثبوته في الصحيحين وغيرهما.

أما الثاني فقد قال قتادة: ذكر لنا، ثم ساقه كما هو في الدر المنثور.

قوله - تعالى -: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا يسخَرْ قومٌ من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم**﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١١]. وقد ذكر العلماء لنزولها سببين:

الأول: أن ثابت بن قيس بن شماس جاء يومًا يريد الدنو من رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وكان به صَمَمٌ، فقال لرجل بين يديه: أفسح، فقال له الرجل: قد أصبت مجلسًا، فجلس مغضبًا، ثم قال للرجل: من أنت، قال: أنا فلان، فقال ثابت: أنت ابن فلانة، فذكر أمًّا له كان يعيّر بها في الجاهلية، فأغضى الرجل ونكس رأسه، ونزل قوله - تعالى -: ﴿**لا يسخر قوم من قوم**﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١١]. قاله أبو صالح عن ابن عباس(٢).

---

(١) انظر: زاد المسير ٧/٤٦٣ وذكره السيوطي في الدر ٦/٩٥ من رواية عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة.

(٢) انظر زاد المسير ٧/٤٦٥ وقد ذكره الواحدي في أسباب النزول (٢٢٣) بغير سند ولم يعزه لأحد، وقال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف: ذكره الثعلبي ومن تبعه عن ابن عباس بغير سند. انظر: تخريج أحاديث الكشاف، سورة الحجرات (٤/٣٧٠).

والثاني: أن وفد تميم استهزءوا بفقراء أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لما رأوا رثاثة حالهم، فنزلت هذه الآية، قاله الضحاك ومقاتل(١).

وهذان السببان ضعيفان، وسأرجح ما أراه في آخر هذه الآية.

قوله ـ تعالى ـ: ﴿**ولا نساءٌ من نساءٍ**﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١١].

ذكر بعض المفسرين ثلاثة أقوال في سبب نزولها:

الأول: أن نساء رسول الله، صلى الله عليه وسلم، عيَّرن أمَّ سلمة بالقِصَر، فنزلت هذه الآية، قاله أنس بن مالك(٢).

الثاني: وهو قريب من الأول وفي معناه(٣).

الثالث: أن صفية بنت حُيَيّ بن أخطب أتت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقالت: إن النساء يعيِّرنني ويقلن: يا يهوديَّة بنت يهوديَّين، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «**هلّا قلت: إن أبي هارون، وإن عمي موسى، وإن زوجي محمد**» فنزلت هذه الآية، رواه عكرمة عن ابن عباس(٤).

وهذه الأسباب ضعيفة، لضعف أسانيدها.

---

(١) ذكره البغوي والخازن عن الضحاك بغير سند، وأورده السيوطي في الدر ٦/٩٧ من رواية ابن أبي حاتم عن مقاتل، وانظر: زاد المسير ٧/٤٦٥.

(٢) ذكره البغوي والواحدي والخازن بغير إسناد، وانظر: زاد المسير ٧/٤٦٦.

(٣) انظر: زاد المسير ٧/٤٦٦ وقد ذكره بعض المفسرين بلا إسناد.

(٤) ذكره الواحدي في أسباب النزول والبغوي في تفسيره عن عكرمة عن ابن عباس بلا إسناد، وانظر: زاد المسير ٧/٤٦٦.

قوله ـ تعالى ـ: ﴿ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١١].

في نزولها ثلاثة أقوال:

الأول: أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قدم المدينة ولهم ألقاب يدعون بها، فجعل الرجل يدعو الرجل بلقبه، فقيل له يا رسول الله! إنهم يكرهون هذا فنزل قوله ـ تعالى ـ: ﴿ولا تنابزوا بالألقاب﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١١]. قاله أبو جبيرة بن الضحاك(١).

الثاني: أن أبا ذر كان بينه وبين رجل منازعة، فقال له الرجل: يا ابن اليهودية فنزلت، قاله الحسن(٢).

الثالث: أن كعب بن مالك الأنصاري كان بينه وبين أبي عبدالله بن أبي حدرد الأسلمي كلام، فقال له: يا أعرابي، فقال له عبدالله يا يهودي، فنزلت فيهما الآية، قاله مقاتل(٣).

قوله ـ تعالى ـ: ﴿يا أيها الناس إنَّا خلقناكم من ذكر وأنثى

---

(١) أخرجه أحمد (٤/٦٩)، (٥/٣٨٠). وأبو داود (٤/٢٩٠، ٢٩١) كتاب الأدب رقم (٤٩٦٢). وابن ماجه (٢/١٢٣١) كتاب الأدب رقم (٣٧٤١). والترمذي (٥/٣٦٢) كتاب التفسير، رقم (٣٢٦٨)، قال الترمذي: حسن صحيح. والحاكم (٢/٤٦٣)، وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. وانظر: تفسير الطبري (٢٦/١٣٢)، والدر المنثور (٦/٩٧)، وزاد المسير (٧/٤٦٧)، وتفسير ابن كثير (٤/٢١٢).

(٢) انظر: زاد المسير (٧/٤٦٧).

(٣) انظر: زاد المسير (٧/٤٦٧).

وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١٣]. في نزولها ثلاثة أقوال:

الأول: أنها نزلت في ثابت بن قيس وفي الرجل الذي لم يفسح له، حيث قال ثابت: أنت ابن فلانة[١].

الثاني: أنها نزلت في قوم تكلموا في بلال وعيّروه عندما أذّن يوم الفتح فوق ظهر الكعبة. قاله مقاتل وابن أبي مليكة[٢].

الثالث: أن عبدًا أسود مرض فعاده رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ثم قبض فتولى غسله وتكفينه ودفنه، فأثر ذلك عند الصحابة، فنزلت هذه الآية، قاله يزيد بن شجرة[٣].

وكلُّ هذه الآثار ضعيفة، فلا يجزم بأيّ واحد منها.

قوله ـ تعالى ـ: ﴿قالتِ الأعرابُ آمنَّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١٤].

جمهور المفسرين على أن هذه الآية نزلت في أعراب بني أسد، حين قدموا المدينة، وامتنّوا بإسلامهم وقالوا آمنا. وكانوا يمنّون على رسول الله،

---

(١) قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف (٤/ ٣٧٠): «ذكره الثعلبي من تبعه عن ابن عباس بدون إسناد»، وكذلك ذكره غير واحد بدون إسناد، وانظر: زاد المسير ٧/٤٧٣.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/١٠٧) وعزاه: لابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن ابن أبي مليكة. انظر: دلائل النبوة للبيهقي (٤/٣٢٨)، وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٧/٤٧٣)، والواحدي في أسباب النزول (٢٢٤) عن مقاتل.

(٣) قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف (٤/ ٣٧٥): ذكره الثعلبي والواحدي بغير سند. وانظر: زاد المسير (٧/٤٧٣).

صلى الله عليه وسلم، ويقولون: أتيناك بالأنفال والعيال ولم نقاتلك، فنزلت الآية كما قال مجاهد وغيره(١).

وقال السدي: نزلت في أعراب مُزينة، وجُهينة، وأسلم، وأشجع، وغِفار، حيث كانوا يدّعون الإيمان ولما استنفرهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في الحديبية تخلّفوا فنزلت(٢).

والراجح هو الأول. قال ابن كثير: والصحيح الأول(٣).

---

(١) أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد. انظر: تفسير الطبري ١٤١/٢٦، وزاد المسير ٤٧٦/٧، وتفسير ابن كثير ٢١٩/٤، والدر المنثور (١١١/٦).

(٢) انظر: زاد المسير ٤٧٦/٧، وذكره البغوي والخازن عن السدي بغير إسناد. انظر: معالم التنزيل للبغوي (٢١٨/٤).

(٣) تفسير ابن كثير ٢١٩/٤.

* القراءات
* بعض أحكام التجويد
* الوقف والابتداء

القراءات:

وردت عدة قراءات سبعيَّة في بعض آيات سورة الحجرات، ولأهمية بيانها ولعلاقتها بالتفسير مما يساعد على فهم المعنى فسأذكر هذه القراءات ومن قرأ بها، مع بيان علة القراءة عند الحاجة، وقد أشير إلى بعض القراءات غير السبعية وهو قليل.

١ - قوله - تعالى -: ﴿إن جاءكم فاسق بنبأ فتبيَّنوا﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٦].

قرأ حمزة والكسائي «فتثبتوا» بثاء مثلثة بعدها باء موحدة، بعدها تاء مثناة فوقية، من التثبت.

وقرأ الباقون «فتبينوا» بباء موحدة وياء مثناة تحتية بعدها نون، من التبين[1].

٢ - قوله - تعالى -: ﴿حتى تفيء إلى أمر الله﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٩].

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمر بتسهيل الهمزة الثانية، بين بين، وقرأ الباقون بتحقيقها[2].

٣ - قوله - تعالى -: ﴿فأصلحوا بين أخويكم﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١٠].

---

(١) انظر: التبصرة لمكي ص ٦٨١، والإشارات الجلية لمحمد سالم محيسن ص ٤٣٩.
(٢) انظر: الإرشادات الجلية لمحيسن ص ٤٣٩.

قرأ ابن عامر وحده: «بين إخوتكم» على تاء الجماعة[1].

وقرأ الباقون: ﴿بين أخويكم﴾ على اثنين.

فالحجة لمن قرأه بالياء أنه ردّه على اللفظ لا على المعنى، والحجة لمن قرأه بالتاء أنه رده على المعنى لا على اللفظ، وحجته أن الطائفة جمع وإن كان واحدًا في اللفظ، كما قال: ﴿خَصْمانِ اختصموا﴾. [سورة الحج، الآية: ١٩]. وقال ههنا قبلها: ﴿وإن طائفتانِ من المؤمنين اقتتلوا﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٩]. على المعنى لا على اللفظ.

أما قراءة التثنية ـ بالياء ـ تثنية أخ، لأن كل طائفة جنس واحد فردوه على اللفظ دون المعنى[2].

٤ ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿ولا تنابزوا بالألقاب﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١١].

قرأ البزي وصلاً بتشديد التاء، مع المدّ المشبع للساكن، وقرأ الباقون بالتخفيف مع القصر[3].

٥ ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿بئس الاسمُ الفسوقُ﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١١].

---

(١) قال ابن مجاهد: وروى هشام بن عمار عن سويد عن أيوب عن يحيى عن ابن عامر: ﴿بين أخويكم﴾ مثل الناس. انظر: كتاب السبعة في القراءات ص ٦٠٦.

(٢) انظر: كتاب السبعة ص ٦٠٦ وحجة القراءات لابن زنجله ص ٦٧٥، والحجة في القراءات السبع لابن خالويه ص ٣٣٠.

(٣) انظر: الإرشادات الجلية ص ٤٣٩، والكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي ٢/٢٨٤.

قرأ ورش والسوسي بإبدال همزة بئس في الحالين. وكذا حمزة عند الوقف، ولو ابتدأت بـ«الاسم» فلجميع القراء وجهان:

الأول: الابتداء بهمزة الوصل مفتوحة.

والثاني: الابتداء باللام مكسورة[1].

٦ - قوله - تعالى -: ﴿**ولا تجسَّسوا**﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١٢].

قرأ البزي وصلاً بتشديد التاء، مع المدّ المشبع للساكن، وقرأ الباقون بالتخفيف مع القصر[2].

٧ - قوله - تعالى -: ﴿**أيحبُّ أحدُكم أن يأكُلَ لحمَ أخيه ميْتًا فكرِهتموه**﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١٢].

قرأ نافع وحده: «**ميِّتًا**» بالتشديد.

وقرأ الباقون: «**ميْتًا**» ساكنة الياء.

وهما لغتان، الأصل التشديد، ومن خفَّف استثقل التشديد فحذف الياء، قال الشاعر:

ليس من مات فاستراح بميْتٍ
إنما الميْتُ ميِّتُ الأحياء

فجمع بين اللغتين[3].

---

(١) انظر: الإرشادات الجلية ص ٤٣٩.

(٢) انظر: الإرشادات الجلية ص ٤٣٩، والكشف عن وجوه القراءات السبع ٢/ ٢٨٤.

(٣) انظر: كتاب السبعة ص ٦٠٦ وحجة القراءات لابن زنجلة ص ٦٧٧، والحجة في القراءات السبع ص ٣٣١.

٨ ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١٣].

قرأ البزي بتشديد التاء وصلاً، وقرأ الباقون بتخفيفها(١).

٩ ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿وإن تطيعوا الله ورسولَه لا يَلِتْكُم من أعمالكم شيئًا﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١٤].

قرأ أبو عمرو: «لا يألتكم» بهمزة ساكنة بين الياء واللام، ويبدل منها ألفًا إذا سهل كل همزة ساكنة.

وقرأ الباقون: «لا يلتكم» بغير همز، وبعد الياء لام مكسورة.

وهما لغتان، يقال لاتَ يَليت، ككال يكيل. وألت يألت، فمن همز أخذه من ألت يألِت، ومن ترك الهمز أخذه من لات يليت، ومعناهما لا ينقصكم(٢).

وقال ابن زنجلة: وحجته ـ أي أبي عمرو ـ إجماع الجميع على قوله: ﴿وما أَلَتْنَاهم من عَمَلِهم﴾. [سورة الطور، الآية: ٢١]. فرد ما اختلف فيه إلى ما أجمع عليه أولى.

وحجة الباقين: اتباع مرسوم المصاحف، وذلك أنها مكتوبة بغير الألف(٣).

---

(١) انظر: الإرشادات الجلية ص ٤٣٩، والكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي ٢/ ٢٨٤.

(٢) انظر: كتاب السبعة ص ٦٠٦، والحجة لابن خالويه ص ٣١، والكشف عن وجوه القراءات السبع ٢/ ٢٨٤، والإقناع في القراءات السبع ٢/ ٧٧٠.

(٣) انظر: حجة القراءات لابن زنجلة ص ٦٧٦.

١٠ ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿والله بصير بما تعملون﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١٨].

قرأ ورش بترقيق الراء في «بصير» وقرأ الباقون بتفخيمها[(١)].

وقرأ ابن كثير وأبّان عن عاصم: «بما يعملون» بالياء.

وقرأ الباقون: ﴿بما تعملون﴾ بالتاء.

وحجة ابن كثير قوله قبلها: ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١٥]. أي: والله بصير بما يعمل المؤمنون.

وحجة الباقين: قوله قبلها: ﴿لا تمنّوا عليَّ إسلامكم﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١٧]. فخاطبهم ثم قال: ﴿والله بصير بما تعملون﴾[(٢)]. [سورة الحجرات، الآية: ١٨].

---

(١) انظر: الإرشادات الجلية ص ٤٤٠.

(٢) انظر: كتاب السبعة ص ٦٠٦، وحجة القراءات لابن زنجلة ص ٦٧٧، والتبصرة لمكي ص ٦٨١.

بعض أحكام التجويد:

ورد في هذه السورة بعض أحكام التجويد المهمة التي اختلف القراء في نطق بعض آياتها، ولأهميتها، وللمنهج الذي التزمته في تفسير هذه السورة، وهو الشمول مع الإيجاز فسأذكر أهمّ ما ورد في ذلك موجزًا:

أولا: المقلل والممال[1]:

قوله - تعالى -: ﴿للتقوى﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٣]. ﴿إحداهما﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٩]. ﴿أنثى﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٢].

قرأ حمزة والكسائي بالإمالة.

وقرأ ورش بالفتح والتقليل.

وقرأ أبو عمرو بالتقليل.

قوله - تعالى -: ﴿الأخرى﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٩]. قرأ أبو عمرو بالإمالة وكذلك حمزة والكسائي.

وقرأ ورش بالتقليل.

قوله - تعالى -: ﴿جاءكم﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٦]. قرأ حمزة وابن ذكوان بالإمالة.

قوله - تعالى -: ﴿عسى﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١١].

---

(١) انظر: الإرشادات الجلية ص ٤٣٩ - ٤٤٠.

﴿أتقاكم﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١٣]. ﴿هداكم﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١٧].

قرأ حمزة والكسائي بالإمالة.

وقرأ ورش بالفتح والتقليل.

ثانيا: المدغم[1]:

الصغير: قوله - تعالى -: ﴿يتب فأولئك﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١١]. بالإدغام لأبي عمرو والكسائي.

وبالإظهار والإدغام لخلاد.

وبالإظهار للباقين.

الكبير: قوله - تعالى -: ﴿الأمر لعنتم﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٧]. وقوله: ﴿بالألقاب بئس﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١١]. وقوله: ﴿يأكل لحم﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١٢]. وقوله: ﴿وقبائل لتعارفوا﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١٣]. بالإدغام للسوسي، وله الاختلاس في قوله: ﴿الأمر لعنتم﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٧].

---

(١) الإرشادات الجلية ص ٤٣٩.

الوقف والابتداء:

لأهمية الوقف والابتداء، ولأثره على فهم المعنى المراد، فكم وقف على غير مكان الوقف، أو ابتدىء فيما لا يبتدأ به، فقلب المعنى إلى ضده.

ولأن أكثر كتب التفسير لا تذكر الوقف والابتداء، من أجل ذلك كله بحثت عن كتاب جامع مختصر، مع الأصالة والدقة، فوقفت على كتاب الأشموني منار الهدى في بيان الوقف والابتداء.

وسأذكر ما في كتاب الأشموني مقارنًا بما ذكره أبو يحيى زكريا الأنصاري في كتابه المقتصد لتلخيص ما في المرشد في الوقف والابتداء.

وحسبك بهذين العلمين كفاية وعلمًا.

وسأجعل كلام الأشموني أصلاً، والأنصاري سأذكر ما خالف فيه الأشموني، وما لم أذكره فإنه دليل الاتفاق بينهما.

ولعل من المناسب أن أبيّن بعض أنواع الوقف، حتى يتضح المراد عند ذكر الوقوف في سورة الحجرات.

فالوقف ينقسم إلى اضطراري واختباري، واختياري:

فالاضطراري هو الذي يعرض للقارىء ضرورة لسبب من الأسباب كالعطاس، والنوم، والنسيان، وضيق النفس ونحو ذلك من الأسباب فيقف مضطرًّا على الكلمة التي كان يتلوها حال حدوث السبب.

ثم يبتدىء القراءة عند زوال السبب من الكلمة التي وقف قبلها، إن كان يَصْلح الابتداء بها، أو من قبلها مما يَصْلح الابتداء به.

والاختباري: هو الذي يؤمر القارىء بالوقوف عليه، لبيان

المقطوع، والموصول، والمجرور، والمربوط، والمحذوف، والثابت للاختبار.

أما الاختياري - وهو المعنيّ هنا - فينقسم إلى:

تام، وكاف، وحسن، وقبيح.

فالوقف التام: هو الذي لم يتعلّق ما بعده به لا معنًى ولا لفظًا، كالوقف على قوله - تعالى - في سورة البقرة: ﴿**وأولئك هم المفلحون**﴾. [سورة البقرة، الآية: ٥]. فالآية التي بعدها في وصف الكافرين، وغالبًا ما يكون في رؤوس الآيات ونهاية القصص.

والوقف الكافي: هو ما تعلق ما بعده به معنى لا لفظًا، كالوقف على قوله - تعالى -: ﴿**أم لم تنذرهم لا يؤمنون**﴾. [سورة يس، الآية: ١٠]. لأن الآية التي بعدها في وصف الكافرين، وهي متعلقة بها معنى لا لفظًا، فيوقف عليها ويبتدأ بها بعدها.

الوقف الحسن: هو ما تعلق ما بعده به معنى ولفظًا، فيحسن الوقف عليه، ولا يبتدأ بها بعده، لارتباط ما بعده به من ناحية المعنى والإعراب، كأن يكون في الجملة الثانية صفة لموصوف، أو مستثنى لمستثنى منه، أو جواب لشرط أو لطلب، مثل قوله - تعالى -: ﴿**ومن يقتل مؤمنًا متعمدًا**﴾. [سورة النساء، الآية: ٩٣]. وكقوله: ﴿**الحمد لله**﴾. [سورة الفاتحة، الآية: ٢].

والوقف القبيح: هو أن يقف القارىء على كلمة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بما بعدها، بحيث لو ابتدأت بها بعده أفاد معنى فاسدًا وغير مقصود كالوقف على قوله: ﴿**لقد كفر الذين قالوا**﴾. [سورة المائدة، الآية: ١٧].

وأقبح منه الابتداء بما بعده كأن يبتدأ بقوله: ﴿إن الله هو المسيح ابن مريم﴾. [سورة المائدة، الآية: ١٧]. و﴿المسيح ابن الله﴾. [سورة التوبة، الآية: ٣٠]. ونحوهما.

والآن نأتى إلى ما ورد في السورة من وقف وابتداء.

﴿ورسوله﴾[سورة الحجرات، الآية: ١]. وعند الأنصاري كاف.

﴿واتقوا الله﴾. أحسن منه.

﴿عليم﴾. تام.

﴿فوق صوت النبي﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٢]. ليس بوقف لعطف ما بعده على ما قبله، ومثله لعدم الوقف ﴿لبعض﴾. لأن قوله: ﴿أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون﴾. موضعه موضع نصب مفعول به، أي لخشية حبوطها.

﴿لا تشعرون﴾. تام.

﴿عند رسول الله﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٣]. ليس بوقف، لأن خبر إنَّ، لم يأتِ بعد.

﴿للتقوى﴾. كاف.

﴿عظيم﴾. تام

﴿لا يعقلون﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٤]. كاف، قال الأنصاري: وكذا ﴿خيراً لهم﴾.

﴿حتى تخرج إليهم﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٥]. ليس بوقف؛ لأن جواب لو، لم يأت بعد، وهو ﴿لكان خيراً لهم﴾. وهو كاف.

﴿رحيم﴾. تام.

﴿فتبينوا﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٦]. ليس بوقف، لأن قوله: ﴿أن تصيبوا﴾. موضعه نصب بما قبله، ومثله في عدم الوقف ﴿بجهالة﴾. لأن ﴿فتصبحوا﴾. موضعه نصب بالعطف على ﴿أن تصيبوا﴾.

﴿نادمين﴾. حسن.

﴿لعنتم﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٧]. وصله أولى لأداة الاستدراك بعده، قال الأنصاري: ﴿لعنتم﴾. صالح.

﴿في قلوبكم﴾ حسن.

﴿والعصيان﴾ كاف.

﴿الراشدون﴾ حسن، إن نصب ﴿فضلاً﴾ [سورة الحجرات، الآية: ٨]. بفعل مقدّر تقديره: فعل الله بكم هذا فضلاً ونعمة، وليس بوقف إن نصب ﴿فضلاً﴾ مفعولاً من أجله، والعامل فيه ﴿حبّب﴾، [سورة الحجرات، الآية: ٧]. وعليه: فلا يوقف على شيء من ﴿حبّب﴾ إلى هذا الموضع، وربما جاز مع اختلاف الفاعل؛ لأن فاعل الرشد غير فاعل الفضل.

﴿ونعمة﴾ [سورة الحجرات، الآية: ٨]. كاف.

﴿حكيم﴾ تام.

﴿بينهما﴾ [سورة الحجرات، الآية: ٩]. كاف، ومثله ﴿إلى أمر الله﴾. قال الأنصاري: صالح.

﴿بالعدل﴾ حسن، قال الأنصاري: كاف، ولك الوقف على ﴿وأقسطوا﴾.

﴿وأقسطوا﴾ أحسن مما قبله.

﴿والمقسطين﴾ تام.

﴿بين أخويكم﴾ [سورة الحجرات، الآية: ١٠]. كاف.

﴿ترحمون﴾ تام.

﴿عسى أن يكونوا خيراً منهم﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١١]. ليس بوقف، لأن قوله: ﴿ولا نساء﴾ مرفوع بالعطف على ﴿قوم﴾ كأنه قال: ولا يسخر نساء من نساء، وهو من باب عطف المفردات.

﴿خيراً منهن﴾. حسن، قال الأنصاري: كاف.

قال الأشموني: ومثله ﴿أنفسكم﴾ وكذا ﴿بالألقاب﴾. ﴿بعد الإيمان﴾ كاف عند أبي حاتم للابتداء بالشرط، وقال الأنصاري حسن.

﴿الظالمون﴾ تام.

﴿من الظن﴾ [سورة الحجرات، الآية: ١٢]. حسن، قال الأنصاري: صالح.

﴿إثم﴾ أحسن مما قبله، قال الأنصاري: كاف.

﴿ولا تجسسوا﴾ كاف.

﴿بعضًا﴾ تام، على استئناف الاستفهام، وليس بوقف إن جعل ما بعده متصلاً بما قبله ومتعلقًا به.

﴿فكرهتموه﴾ حسن.

﴿واتقوا الله﴾ كاف، وقال الأنصاري: صالح.

﴿رحيم﴾ تام.

﴿وأنثى﴾ [سورة الحجرات، الآية: ١٣]. جائز.

﴿لتعارفوا﴾ كاف، ومثله ﴿أتقاكم﴾. وقال الأنصاري:

﴿لتعارفوا﴾ تام، و﴿أتقاكم﴾ حسن.

﴿خبير﴾ تام.

﴿آمنا﴾ [سورة الحجرات، الآية: ١٤]. حسن.

﴿أسلمنا﴾ أحسن مما قبله.

﴿في قلوبكم﴾ كاف عند أبي حاتم للابتداء بالشرط، ومثله ﴿شيئًا﴾.

﴿رحيم﴾ تام.

﴿ثم لم يرتابوا﴾ [سورة الحجرات، الآية: ١٥]. حسن.

﴿في سبيل الله﴾ جائز، وقال الأنصاري: صالح، والمعنى واحد.

﴿الصادقون﴾ تام، إن جعل الذين خبر ﴿المؤمنون﴾ فإن جعل نعتًا لم يوقف على شيء إلى ﴿الصادقون﴾ لأن ﴿أولئك﴾ يكون خبر ﴿المؤمنون﴾.

﴿بدينكم﴾ [سورة الحجرات، الآية: ١٦]. حسن.

﴿وما في الأرض﴾ كاف.

﴿عليم﴾ تام، على استئناف ما بعده، وجائز إن جعل متصلاً بما قبله.

﴿أن أسلموا﴾ [سورة الحجرات، الآية: ١٧]. كاف، ومثله ﴿إسلامكم﴾.

﴿للإيمان﴾ ليس بوقف، لأن الشرط الذي بعده جوابه ما قبله.

﴿صادقين﴾ تام.

﴿والأرض﴾ [سورة الحجرات، الآية: ١٨]. كاف.

آخر السورة: تام(١). والله أعلم.

---

(١) انظر: منار الهدى للأشموني ص ٣٦٦ سورة الحجرات، والمقصد لتلخيص ما في المرشد في الوقف والابتداء، لزكريا الأنصاري على حاشية منار الهدى ص ٣٦٦.

* اللغة والإعراب
* وقفات بلاغية

اللغة والإعراب:

سأقف مع بعض الكلمات التي وردت في السورة مبينًا معناها، ومع بعض الجمل موضحًا موقعها من الإعراب، مع الالتزام بالمنهج الذي أشرت إليه سابقًا.

قوله ـ تعالى ـ: ﴿لا تقدّموا﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١]. أي: لا تتقدموا، والتقدم قد يكون حسيًّا، وقد يكون معنويًّا.

وقال أبو عبيدة: تقول العرب: فلان يقدّم بين يدي الإمام وبين يدي أبيه: يعجل بالأمر والنهي دونه[١].

وقال أبو حيان: كانت عادة العرب الاشتراك في الآراء، وأن يتكلم كلٌّ بما شاء، ويفعل ما أحب فجرى من بعض من لم يتمرن على آداب الشريعة بعض ذلك.

قال ابن عباس: نُهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه، وتقول العرب: تقدمت في كذا وكذا، وقدمت فيه إذا قلت فيه[٢].

قوله ـ تعالى ـ: ﴿لا ترفعوا أصواتكم﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٢].
قال الزجاج: أمرهم الله ـ عز وجل ـ أن يخاطبوه بالسكينة والوقار، وأن يفضّلوه في المخاطبة، وذلك مما كانوا يفعلونه في تعظيم ساداتهم وكبرائهم[٣].

---

(١) انظر: مجاز القرآن ٢/٢١٩.
(٢) انظر: البحر المحيط ٨/١٠٥.
(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٢/٣٢.

قوله - تعالى -: ﴿كجهر بعضكم لبعض﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٢]. الكاف في موضع نصب نعت لمصدر محذوف، تقديره: جهرًا كجهر.

قوله - تعالى -: ﴿أن تحبط أعمالكم﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٢]. أن في موضع نصب على حذف الجار تقديره، لأن تحبط، مثل: ﴿ربَّنا ليُضِلُّوا عن سبيلك﴾. [سورة يونس، الآية: ٨٨]. ومعناه: لا تفعلوا ذلك فتحبط أعمالكم، والمعنى لئلا تحبط أعمالكم، فالمعنى معنى اللام في إن، وهذه اللام لام الصيرورة، وهي كاللام في قوله: ﴿فالتقطه آل فرعونَ ليكونَ لهم عدوًّا وحزنًا﴾. [سورة القصص، الآية: ٨]. والمعنى فالتقطه آل فرعون ليصير أمرهم إلى ذلك، لا أنهم قصدوا أن يصير إلى ذلك، وكذلك: ﴿لا ترفعوا أصواتكم﴾ فيكون ذلك سببًا لأن تحبط أعمالكم[1].

وقال الطبري: ﴿أن تحبط أعمالكم﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٢]. يقول: ألّا تحبط أعمالكم فتذهب باطلة لا ثواب لكم عليها، ولا جزاء برفعكم أصواتكم فوق صوت نبيكم، وجهركم له بالقول كجهر بعضكم لبعض.

وقد اختلف أهل العربية في معنى ذلك، فقال بعض نحويِّي الكوفة: معناه: لا تحبط أعمالكم، قال: وفيه الجزم والرفع إذا وضعت «لا» مكان «إن» قال: وهي قراءة عبدالله ﴿فتحبط أعمالكم﴾ وهو دليل على جواز الجزم.

---

(١) انظر: مشكل إعراب القرآن لمكي ٢/٣١٥ ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج ٢/٣٢.

وقال بعض نحويّي البصرة: قال: ﴿أن تحبط أعمالكم﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٢]. أي مخافة أن تحبط أعمالكم، وقد يقال: أسنِد الحائطَ أن يميل[١].

قوله ـ تعالى ـ: ﴿وأنتم لا تشعرون﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٢]. يقول: وأنتم لا تعلمون ولا تدرون.

قوله ـ تعالى ـ: ﴿إن الذين يغضون أصواتهم﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٣]. الغضّ هو: خفض الصوت، حيث آلى أبو بكر على نفسه أن يكلمه كأخي السرار. وخبر «إن» ﴿أولئك الذين﴾ وقيل هو نعت للذين، والخبر: ﴿لهم مغفرةٌ وأجرٌ عظيم﴾. وهو ابتداء وخبر في موضع خبر «إن»[٢].

قوله ـ تعالى ـ: ﴿أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٣]. أي: أخلص قلوبهم، و«هم» يخرج على تفسير حقيقة اللغة، والمعنى: اختبر الله قلوبهم فوجدهم مخلصين، كما تقول: قد امتحنت هذا الذهب وهذه الفضة، تأويله: قد اختبرتها بأن أذبتها حتى خلصت الذهب والفضة، فعلمت حقيقة كل واحد منهما.

وقال أبو حيان: ﴿امتحن الله قلوبهم للتقوى﴾ أي جُرّبت ودُرّبت للتقوى، فهي مضطلعة بها[٣].

---

(١) انظر: تفسير الطبري ٢٦/٢٢٠.

(٢) انظر: مشكل إعراب القرآن ٢/٣١٥.

(٣) انظر: البحر المحيط ٨/١٠٦، ومعاني القرآن للزجاج ٢/٣٢، ومعاني القرآن للفراء ٣/٧٠.

أو المراد: أخلصها للتقوى، أي جعلها خالصة لأجل التقوى، أو أخلصها لها، فلم يبق لغير التقوى فيها حق، كأن القلوب خلصت ملكًا للتقوى، وهذا أبلغ، وهو استعارة من امتحان الذهب وإذابته ليخلص إبريزُه من خبثه فينقى[١].

قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ الذين ينادونك من وَرَاءِ الحجراتِ﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٤]. خبر «إن» ﴿أكثرهم لا يعقلون﴾. وهو ابتداء وخبر في موضع خبر «إن»: ويجوز في الكلام نصب «أكثرهم» على البدل من «الذين» وهو بدل الشيء من الشيء، والثاني بعضه.

قال الفراء: وجه الكلام أن تضم الحاء والجيم من «الحجرات» وبعض العرب يقول: الحجَرات ـ بفتح الجيم ـ وكل جمع كأن يقال في ثلاثة إلى عشرة غرف وحجر، فإذا جمعته بالتاء نصبت ثانية، فالرفع أجود من ذلك.

قال الزجاج: ويجوز في اللغة: الحجْرات ـ بتسكين الجيم ـ ولا أعلم أحدًا قرأ بالتسكين.

وواحد الحجرات حجرة، ويجوز أن تكون الحجرات جمع حُجَر وحُجرات، والأجود أن تكون الحجرات جمع حجرة.

والحجرة: الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوط عليها، وحظيرة الإبل تسمى حجرة، وهي فعيلة بمعنى مفعولة، كالغرفة والقبضة[٢].

---

(١) انظر: روح المعاني للألوسي ٢٦/١٣٨.

(٢) انظر: معاني القرآن للزجاج ٢/٣٣ ومعاني القرآن للفراء ٣/٧٠، ومشكل إعراب القرآن لمكي ٢/٣١٥، والبحر المحيط ٨/١٠٨.

قال الزمخشري: والمراد حجرات نساء النبي، صلى الله عليه وسلم، وكانت لكل واحدة منهن حجرة.

ومناداتهم من ورائها يحتمل أنهم قد تفرقوا على الحجرات، متطلبين له، فناداه بعض من وراء هذه، وبعض من وراء تلك، وأنهم قد أتوها حجرة حجرة، فنادوه من ورائها، أو أنهم نادوه من وراء الحجرة التي كان فيها، ولكنها جمعت إجلالاً لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، ولمكان حرمته.

والفعل - وإن كان مسندًا إلى جميعهم - فإنه يجوز أن يتولاه بعضهم، وكان الباقون راضين، فكأنهم تولوه جميعًا(١).

قوله - تعالى -: ﴿**أكثرهم لا يعقلون**﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٤].

قال أبو حيان: انتفاء العقل عن أكثرهم دليل على أن فيهم عقلاء، وليس كما ذكر الزمخشري من احتمال نفي العقل عنهم جميعًا، حيث قال: ويحتمل أن يكون الحكم بقلة العقلاء فيهم قصدًا إلى نفي أن يكون فيهم من يعقل، فإن القلة تقع موقع النفي في كلامهم.

قال أبو حيان في ردّه عليه: وليس في الآية الحكم بقلة العقل منطوقًا به فيحتمل النفي، وإنما هو مفهوم من قوله: ﴿**أكثرهم لا يعقلون**﴾ والنفي المحض المستفاد إنما هو من صريح لفظ التقليل لا من المفهوم، فلا يحمل قوله: ﴿**ولكن أكثر الناس لا يشكرون**﴾. [سورة البقرة،

---

(١) انظر: الكشاف ٣/٥٥٨، وتفسير القاسمي ١٥/١١٢.

الآية: ٢٤٣]. النفي المحض للشكر، لأن النفي لم يستفد من صريح التقليل[١].

قوله ـ تعالى ـ: ﴿ولو أنهم صبروا حتى تخرُجَ إليهم لكان خيراً لهم﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٥].

قال الزمخشري: ﴿أنهم صبروا﴾ في موضع الرفع على الفاعلية، لأن المعنى: لو ثبت صبرهم.

قال أبو حيان ـ معقبًا على كلام الزمخشري ـ: وهذا ليس مذهب سيبويه؛ لأن «أن» وما بعدها بعد «لو» في موضع مبتدأ لا في موضع فاعل، ومذهب المبرد أنها في موضع فاعل بفعل محذوف كما زعم الزمخشري، واسم كان ضمير يعود على المصدر المفهوم من صبروا، أي: لكان هو، أي صبرهم خيراً لهم[٢].

قوله: ﴿لكان خيراً لهم﴾. قال الزمخشري: في كان إمّا ضمير فاعل الفعل المضمر بعد «لو»، وإمّا ضمير مصدر «صبروا»، كقولهم: من كذب كان شرًّا له[٣].

قوله ـ تعالى ـ: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبيَّنوا﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٦]. **الفسق**: هو الخروج[٤] عن الطاعة إلى المعصية

---

(١) انظر: البحر الميط ٨/١٠٨، والكشاف ٣/٥٥٨.

(٢) انظر: البحر الميحط ٨/١٠٩، والكشاف ٣/٥٥٩.

(٣) الكشاف ٣/٥٥٩.

(٤) قال النسفي: الفسوق الخروج من الشيء، يقال: فسقت الرطبة عن قشرها، ومن مقلوبه: فقست البيضة إذا كسرتها وأخرجت ما فيها، ثم استعمل في الخروج عن =

بما لا يصل إلى الكفر، وقد يطلق الفسق ويراد به الكفر، ولكنه ليس مرادًا هنا.

والتبيّن: طلب البيان والتعرف حتى يتضح الحال.

والتثبّت: هو طلب الثبات والتأنّي حتى يتضح الحال.

والنبأ: الخبر، وقال الراغب: لا يقال للخبر في الأصل نبأ حتى يكون ذا فائدة عظيمة، يحصل به علم أو غلبة ظن.

وتنكير «فاسق» و«نبأ» للتعميم، لأنه نكرة في سياق الشرط، وهي كالنكرة في سياق النفي تفيد العموم، كما هو مقرر[١].

قوله: ﴿**أن تصيبوا قومًا**﴾ أن في موضع نصب لأنه مفعول من أجله، و﴿**فتصبحوا**﴾ عطف عليه.

قوله: ﴿**فتصبحوا على ما فعلتم نادمين**﴾. الندم: ضرب من الغمّ، وهو أن تغتم على ما وقع منك تتمنى أنه لم يقع، وهو غمّ يصحب الإنسان صحبة لها دوام[٢].

قوله ـ تعالى ـ: ﴿**واعلموا أن فيكم رسولَ الله لو يُطيعكم في كثيرٍ من الأمر لعنتُّم**﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٧]. العنت: هو المشقة والجهد. ﴿**لعنتم**﴾ أي: لشق عليكم، وقال مقاتل: لأثمتم.

والجملة المصدرة بلو لا تكون كلامًا مستأنفًا، لأدائه إلى تنافر

= القصد بركوب الكبائر. انظر تفسير النسفي ٤/١٦٣.

(١) انظر روح المعاني ٢٦/١٤٥.

(٢) انظر: تفسير النسفي ٤/١٦٣.

النظم، ولكن متصلاً بما قبله حالاً من أحد الضميرين في ﴿فيكم﴾ المستتر المرفوع أو الجار والمجرور، وكلاهما مذهب سيبويه[١].

قوله: ﴿وزيّنه في قلوبكم﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٧]. أي حسَّنه في قلوبكم فآمنتم.

قوله: ﴿وكرَّه إليكم الكفرَ والفسوقَ والعصيانَ﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٧]. **الفسوق**: قال الطبري: الكذب، **والعصيان** قال: يعني ركوب ما نهى الله عنه في خلاف أمر رسوله، صلى الله عليه وسلم، وتضييع ما أمر الله به.

قوله: ﴿أولئك هم الراشدون﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٧]. السالكون طريق الحق[٢].

قوله ـ تعالى ـ: ﴿فضلاً من الله ونعمة﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٨]. «فضلاً» و«نعمة» منصوب مفعول له، المعنى: فعل الله ذلك بكم فضلاً من الله ونعمة، أي: للفضل والنعمة.

قال الزجاج: ولو كان في غير القرآن لجاز: فضل ـ بالرفع ـ من الله ونعمة، المعنى: ذلك فضل من الله ونعمة[٣].

قوله ـ تعالى ـ: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٩].

---

(١) انظر: البحر المحيط ٨/١١٠.

(٢) انظر: تفسير الطبري ٢٦/١٢٦.

(٣) انظر: معاني القرآن للزجاج ٢/٣٥، والبحر المحيط ٨/١١٠.

الطائفة: هي الجماعة من الناس، وتطلق على غير الناس. .

وقال ابن العربي: الطائفة: كلمة تطلق في اللغة على الواحد من العدد، وعلى ما لا يحصره عدد[١]. وارتفع ﴿**طائفتان**﴾ بإضمار فعل، والتقدير: وإن اقتتل طائفتان، أو إن كان طائفتان، لأن إن للشرط، والشرط لا يكون إلا بفعل، فلم يكن بدّ من إضمار فعل، وهو مثل: ﴿**وإن أحد من المشركين**﴾. [سورة التوبة، الآية: ٦]. ولا يجوز حذف الفعل من شيء مع حروف الشرط العاملة إلا مع «إنّ» وحدها، وذلك لقوتها، وأنها أصل حروف الشرط[٢].

﴿**اقتتلوا فأصلحوا بينهما**﴾ العدول إلى ضمير الجمع ـ بدل التثنية ـ لرعاية المعنى، فإن كل طائفة من الطائفتين جماعة، فقد روعي في الطائفين معناهما أولاً ولفظهما ثانيًا، على عكس المشهور في الاستعمال.

ومما قيل في ذلك: أنهم أولاً في حال الاقتتال مختلطون فلذا جمع أولاً ضميرهم، وفي حال الصلح متميزون متفارقون فلذا ثنّى الضمير[٣].

قوله ـ تعالى ـ: ﴿**فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله**﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٩].

فإن بغت: تعدَّت وطلبت العلو بغير حق، والبغي هو الاستطالة والظلم ورفض الصلح.

---

(١) انظر أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٧١٧.

(٢) انظر: مشكل إعراب القرآن ٢/٣١٦.

(٣) انظر: روح المعاني ٢٦/١٤٩.

تفي: ترجع، والفي الرجوع، وقد سمى به الظل والغنيمة لأن الظل يرجع بعد نسخ الشمس، والغنيمة ما يرجع من أموال الكفار .

قوله - تعالى -: ﴿فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٩].

العدل: الإنصاف.

وأقسطوا: اعدلوا، والقسط: يستعمل في الجور وفي العدل(٢).

قوله - تعالى -: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١٠]. مستأنفة مقررة لما قبلها من الأمر بالإصلاح، و«ما» كافة تكف «إن» عن العمل، ولولا ذلك لقيل: إنما المؤمنين إخوة - بنصب المؤمنين -(٣).

قال الشهاب: وتسمية المشاركة في الإيمان أخوة تشبيه بليغ، أو استعارة، شبّه المشاركة فيه بالمشاركة في أصل التوالد؛ لأن كلاً منهما أصل للبقاء، إذ التوالد منشأ الحياة، والإيمان منشأ البقاء الأبدي في الجنان(٤).

﴿فأصلحوا بين أخويكم﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١٠]. وضع الظاهر موضع المضمر مضافاً إلى المأمورين، للمبالغة في التقرير والتخصيص، وتخصيص الاثنين بالذكر دون الجمع؛ لأن أقل ما يقع بينهم الشقاق اثنان، فإذا لزمت المصالحة بين الأقل، كانت بين الأكثر ألزم(٥).

---

(١) انظر: تفسير الألوسي روح المعاني ٢٦/١٥٠، وتفسير النسفي ٤/١٦٤.
(٢) انظر: تفسير القاسمي ١٥/١٢٣.
(٣) انظر: تفسير الرازي ٢٧/١٣٠.
(٤) انظر: تفسير القاسمي ١٥/١٢٣.
(٥) انظر: الكشاف ٣/٥٦٥، وتفسير القاسمي ١٥/١٢٤.

قوله ـ تعالى ـ: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قومٌ من قوم﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١١].

السخرية: الاستهزاء، وحكى أبو زيد: سخرت به، وضحكت به، وهزأت به.

وقال الأخفش: سخرت منه، وسخرت به، وضحكت منه، وضحكت به.

والاسم: السخرية والسخرى.

قال المراغي: السخرية الاحتقار وذكر العيوب والنقائص على وجه يضحك منه(١).

قوله ـ تعالى ـ: ﴿ولا تلمزوا أنفسكم﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١١].

اللمز: العيب، ويكون بالقول وبالإشارة باليد أو العين.

قوله ـ تعالى ـ: ﴿ولا تنابزوا بالألقاب﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١١].

التنابز: التعيير، أي لا يعير أحدكم أخاه، ويلقبه بلقب يكره أن يقال فيه(٢).

قال في البحر: التنابز بالألقاب: التداعي بها، تفاعل من نبزه، وبنو فلان يتنابزون، والنبز: لقب السوء، واللقب ما يدعى به الشخص من لفظ غير اسمه وغير كنيته، وهو قسمان: قبيح، وهو ما يكرهه الشخص،

---

(١) انظر: فتح القدير للشوكاني ٥/٦٤، وتفسير المراغي ٢٥/١٣٣.

(٢) انظر: تفسير السعدي ٧/١٣٦، وتفسير المراغي ٢٥/١٣٣.

لكونه تقصيراً به وذمًا له. وحسن، وهو بخلاف ذلك، كالصديق لأبي بكر، والفاروق لعمر(١).

قوله - تعالى -: ﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١٢].

الظن: هو الأمر بين الشك واليقين، يبنى لا على قرينة ولا دليل، وقد يبنى على قرينة ضعيفة، أو ما يتوهم أنه دليل وليس كذلك.

قال الشوكاني: الظن هنا: هو مجرد التهمة التي لا سبب لها(٢).

قال ابن العربي: حقيقة الظن، قال علماؤنا: إن حقيقة الظن؛ تجويز أمرين في النفس لأحدهما ترجيح على الآخر، والشك عبارة عن استوائهما، والعلم: هو حذف أحدهما وتعيين الآخر(٣).

قوله: ﴿ولا تجسسوا﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١٢].

التجسس: هو تتبع عورات المسلمين وإفشائها.

قال الأخفش: التجسس - بالجيم - البحث عمّا يكتم عنك، **والتحسس** - بالحاء -: طلب الأخبار والبحث عنها.

وقال ثعلب: بالحاء: فيما يطلبه الإنسان لنفسه، وبالجيم: أن يكون رسولاً لغيره(٤).

---

(١) انظر: البحر المحيط ٨/١٠٤.

(٢) فتح القدير ٥/٦٤.

(٣) انظر: أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٧٢٤.

(٤) انظر: فتح القدير ٥/٦٥.

قوله - تعالى -: ﴿ولا يغتب بعضكم بعضًا﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١٢].

الغيبة: أن تذكر الرجل بما يكرهه.

قوله: ﴿ميتًا فكرهتموه﴾ انتصب ميتًا على الحال من لحم.

الفاء في قوله: ﴿فكرهتموه﴾ تقتضي وجود تعلق، فما ذلك قال الرازي: نقول فيه وجوه:

أحدها: أن يكون ذلك تقدير جواب كلام، كأنه - تعالى - لما قال: ﴿أيحب﴾ قيل في جوابه ذلك.

وثانيها: أن يكون الاستفهام في قوله: ﴿أيحب﴾ للإنكار، كأنه قال: لا يحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتًا فكرهتموه إذًا، ولا يحتاج إلى إضمار.

وثالثها: أن يكون ذلك التعلق هو تعلق المسبب بالسبب، وترتبه عليه كما تقول: جاء فلان ماشيًا فتعب، لأن المشي يورث التعب فكذا قوله ﴿ميتًا﴾ لأن الموت يورث النفرة، فكيف يقربه ليأكل منه، ففيه إذًا كراهة شديدة(١).

قوله - تعالى -: ﴿وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١٣].

الشعب: قال أبو حيان: الشعب: الطبقة الأولى من الطبقات الست التي عليها العرب وهي: الشعب، والقبيلة، والعمارة، والبطن، والفخذ، والفصيلة.

(١) انظر: تفسير الرازي ٢٧/ ١٣٥.

فالشعب يجمع القبائل، والقبيلة تجمع العمائر، والعمارة تجمع البطون، والبطن يجمع الأفخاذ، والفخذ يجمع الفصائل.

مثال: خزيمة: شعب، وكنانة: قبيلة، وقريش: عمارة، وقصي: بطن، وهاشم: فخذ، والعباس: فصيلة.

وسميت الشعوب لأن القبائل تشعَّبت منها.

قال الشاعر معبِّرًا عن هذا المعنى(١):

اقصد الشعب فهو أكثر حي ... عددًا في الحواء ثم القبيلة
ثم يتلوها العمارة ثم الـ ... بطن والفخذ بعدها والفصيلة
ثم بعدها العشيرةُ لكن ... هي في جنبِ ما ذكرنا قليلة

وقد قيل: الشعوب في العجم والقبائل في العرب، والأسباط في بني إسرائيل، وهذا القول وأمثاله تحكم لا دليل عليه.

وسموا شعوبًا: لتشعبهم واجتماعهم، والشعب من أسماء الأضداد(٢).

قوله ـ تعالى ـ: ﴿قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا﴾. [سورة

---

(١) انظر: تفسير القاسمي ١٥/١٣٦.

(٢) انظر: البحر المحيط ٨/١٠٤، ١١٦، وفتح القدير ٥/٦٧، وهذا القول للزبير بن بكار كما قال الشيخ ابن بري، انظر تفسير القاسمي ١٥/١٣٦.

الحجرات، الآية: ١٤]. قال مكي: إنما أتت «لم» ولم تأت «لن» لأنه نفي لماضي، و«لن» إنما هي نفي لمستقبل، فالقوم إنما أخبروا عن أنفسهم بإيمان قد مضى، فنفى الله - تعالى - قولهم بـ: «لم» ولو أخبروا عن أنفسهم بإيمان سيكون لكان النفي بـ «لن»، ألا ترى إلى قوله: ﴿فاستأذنوك للخروج﴾. [سورة التوبة، الآية: ٨٣]. فقال: ﴿فقل لن تخرجوا معي أبدًا﴾. [سورة التوبة، الآية: ٨٣]. لأنهم إنما قالوا: نخرج معك يا محمد، مستأذنين في خروج مؤتنف، فلذلك نفى بـ «لن» ولم ينف بـ «لم»[١].

قوله ﴿لا يلتكم﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١٤]. أي: لا ينقصكم، يقال: لات يلت إذا نقص، ولاته يليته ويلوته إذا نقصه[٢].

قوله: ﴿ثم لم يرتابوا﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١٥]. الريب: هو الشك، وهو ضد اليقين.

قال أبو حيان: ثم تقتضي التراخي، وانتفاء الريبة يجب أن يقارن الإيمان، فقيل من ترتيب الكلام لا من ترتيب الزمان، أي: ثم أقول لم يرتابوا. وقيل: قد يخلص الإيمان ثم يعترضه ما يثلم إخلاصه فنفى ذلك فحصل التراخي[٣].

أو أريد انتفاء الريبة في الأزمان المتراخية المتطاولة فحاله في ذلك كحاله في الزمان الأول الذي آمن فيه[٤].

---

(١) انظر: مشكل إعراب القرآن ٢/٣١٦.
(٢) انظر: فتح القدير ٥/٦٨.
(٣) انظر: البحر المحيط ٨/١١٧.
(٤) انظر: البحر المحيط ٨/١١٧.

قوله - تعالى -: ﴿يَمُنّون عليك أن أسلموا قل لا تمنّوا عليَّ إسلامكم﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١٧].

المن: هو ذكر المعروف والإحسان.

﴿أن أسلموا﴾ في موضع المفعول، ولذلك تعدى إليه في قوله: ﴿قل لا تمنّوا عليَّ إسلامكم﴾.

ويجوز أن يكون ﴿أسلموا﴾ مفعولاً من أجله، أي: يتفضلون عليك بإسلامهم.

قوله: ﴿أن هداكم للإيمان﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١٧]. إعرابها مثل ﴿أن أسلموا﴾ فإن فيها الوجهين[1].

---

(١) انظر: البحر المحيط ٨/١١٧، وفتح القدير ٥/٦٩.

وقفات بلاغية:

ورد في هذه السورة من أنواع البلاغة ما يحسن الوقوف عند بعضه تجلية للفظ وإيضاحًا للمعنى، وقد ذكرت بعض الأوجه البلاغية فيما مضى وأذكر ما لم أذكره هناك:

١ ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿لا تقدموا بين يدي الله ورسوله﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١].

قال القاسمي: في الآية تجوّزان:

أحدهما(١): في «بين اليدين» فإن حقيقته ما بين العضوين، فتجوز بهما عن الجهتين المقابلتين لليمين والشمال، قريبًا منه بإطلاق اليدين على ما يجاورهما ويحاذيهما، فهو من المجاز المرسل.

ثم استعيرت الجملة استعارة تمثيلية للقطع بالحكم بلا اقتداء، ومتابعة لمن يلزم متابعته، تصويرًا لهجنته وشناعته، بصورة المحسوس كتقدم الخادم بين يدي سيده في مسيره، فنقلت العبارة الأولى بما فيها من المجاز إلى ما ذكر، على ما عرف في أمثاله(٢).

٢ ـ قال الزمخشري: ورود الآية على النمط الذي وردت عليه فيه ما لا يخفى على الناظر من بينات إكبار محل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وإجلاله:

---

(١) لم يذكر إلا الأول.

(٢) انظر: تفسير القاسمي ١٥/١٠٦، والكشاف ٣/٥٥٢.

* **منها**: مجيئها على النظم المسجل به، بالسفه، والجهل لما أقدموا عليه.

* **ومنها**: لفظ «الحجرات» وإيقاعها، كناية عن موضع خلوته ومقيله مع بعض نسائه.

* **ومنها**: المرور على لفظها بالاقتصار على القدر الذي تبين به ما استنكر عليهم.

* **ومنها**: التعريف باللام دون الإضافة[1].

٣ ـ في قوله: ﴿**فتصبحوا على ما فعلتم نادمين**﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٦]. فائدتان:

إحداهما: تقرير التحذير وتأكيده، ووجهه أنه ـ تعالى ـ لما قال: ﴿**أن تُصيبوا قومًا بجهالة**﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٦]. قال بعده: وليس ذلك مما لا يلتفت إليه، ولا يجوز للعاقل أن يقول: هب أنّي أصبت قومًا، فماذا عليَّ؟

بل عليكم منه الهمّ الدائم، والحزن المقيم، ومثل هذا الشيء واجب الاحتراز منه.

والثانية: مدح المؤمنين، أي لستم ممن إذا فعلوا سيئة لا يلتفتون إليها، بل تصبحون نادمين عليها[2].

٤ ـ قال أبو السعود في قوله ـ تعالى ـ: ﴿**لا يسخر قوم من قوم**﴾.

---

(١) انظر: الكشاف ٣/٥٥٨، وتفسير القاسمي ١٥/١١٢.

(٢) انظر: تفسير الرازي ٢٧/١٢١، وتفسير القاسمي ١٥/١١٧.

[سورة الحجرات، الآية: ١١]. القوم مختص بالرجال لأنهم القوَّام على النساء، وهو في الأصل إما جمع قائم، كصوم وزَوْر في جمع صائم وزائر، أو مصدر نعت به فشاع في الجمع.

وأما تعميمه للفريقين في مثل قوم عاد وقوم فرعون، فإمّا للتغليب، أو لأنهن توابع.

واختيار الجمع لغلبة وقوع السخرية في المجامع.

والتنكير: إما للتعميم، أو للقصد إلى نهي بعضهم عن سخرية بعض، لما أنها يجري بين بعض وبعض[1].

٥ ـ قوله: **﴿ولا تلمزوا أنفسكم﴾**. [سورة الحجرات، الآية: ١١].

قال الشهاب:

و**﴿أنفسكم﴾** على ظاهره، والتجوز في قوله: **﴿تلمزوا﴾** فهو مجاز ذكر فيه المسبب، وأريد السبب، والمراد: لا ترتكبوا أمرًا تعابون به. قال القاسمي: وضعّف بأنه بعيد عن السياق، وغير مناسب لقوله: **﴿ولا تنابزوا﴾** وكونه من التجوز في الإسناد، إذا أسند فيه ما للمسبب إلى السبب، تكلف ظاهر، وكذا كونه كالتعليل للنهي السابق لا يدفع كونه مخالفًا للظاهر.

وكذا كون المراد به لا تتسببوا في الطعن فيكم، بالطعن على غيركم كما في الحديث: «**من الكبائر أن يشتم الرجل والديه**»[2]. إذا فسّر بأنه إذا

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود ٥/١٧٧، وتفسير القاسمي ١٥/١٢٧.

(٢) أخرجه مسلم (١/٩٢) رقم (٩٠).

شتم والدي غيره، شتم الغير والديه ـ أيضًا ـ[1].

٦ ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿أيحبُّ أحدُكم أن يأكلَ لحم أخيه ميتًا﴾.

[سورة الحجرات، الآية: ١٢]. قال ابن الأثير في (المثل السائر) في بحث الكناية: فمن ذلك قوله ـ تعالى ـ: **﴿أيحبّ أحدُكم﴾** فإنه كنى عن الغيبة بأكل الإنسان لحم إنسان آخر مثله، ثم لم يقتصر على ذلك حتى جعله كلحم الأخ، ثم لم يقتصر على ذلك حتى جعله ميتًا، ثم جعل ما هو الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة.

فهذه أربع دلالات واقعة على ما قصدت له، مطابقة للمعنى الذي وردت من أجله.

فأما جعل الغيبة كأكل لحم الإنسان لحم إنسان آخر مثله فشديد المناسبة جدًّا، لأن الغيبة إنما هي ذكر مثالب الناس، وتمزيق أعراضهم، وتمزيق العرض مماثل لأكل الإنسان لحم من يغتابه، لأن أكل اللحم تمزيق على الحقيقة.

وأمّا جعله كلحم الأخ فلما في الغيبة من الكراهة، لأن العقل والشرع مجتمعان على استكراهها، آمران بتركها، والبعد عنها، ولما كانت كذلك كانت بمنزلة لحم الأخ في كراهته.

ومن المعلوم أن لحم الإنسان مستكره عند إنسان آخر، إلا أنه لا يكون في مثل كراهة لحم أخيه، فهذا القول مبالغة في استكراه الغيبة.

---

(١) انظر: تفسير القاسمي ١٥/١٢٨.

وأما(١) جعله ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة فلما جُبلت عليه النفوس من الميل إلى الغيبة، والشهوة لها، مع العلم بقبحها.

فانظر أيها المتأمل إلى هذه الكناية تجدها من أشد الكنايات شبهًا، لأنـك إذا نظرت إلى كل واحدة من الدلالات الأربع التي أشرنا إليها، وجدتها مناسبة لما قصدت له(٢).

قوله ـ تعالى ـ: ﴿وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمَكم عند الله أتقاكم﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١٣].

ما الحكمة في اختيار النَّسَبِ من جملة أسباب التفاخر؟

ولم يذكر المال.

قال الـرازي: نقول: الأمور التي يفتخر بها في الدنيا وإن كانت كثـيرة، لكن النسب أعلاها، لأن المال قد يحصل للفقير فيبطل افتخار المفتخر به ـ وقد يفتقر الغني فيبطل افتخاره ـ والحسن والسن، وذلك غير ثابت ولا دائم، والنسب ثابت مستمر غير مقدور التحصيل لمن ليس له، فاختاره الله للذكر، وأبطل اعتباره بالنسبة إلى التقوى، ليعلم منه بطلان غيره بالطريق الأولى، لأنه إذا سقط اعتبار الأعلى فسقوط اعتبار الأدنى أولى وهذا فيه من البلاغة ما فيه(٣).

---

(١) يبدو أنه سقط من الطباعة ما يتعلق بالكناية عن لحم الميت، ولكنه واضح مما قبله وبعده.

(٢) انظر: تفسير القاسمي ١٥/١٣٤.

(٣) انظر: تفسير الرازي ٢٧/١٣٧.

قوله ـ تعالى ـ: ﴿قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١٤]. قيل: مقتضى الظاهر أن يقول: قل لا تقولوا آمنّا ولكن قولوا أسلمنا، أو: لم تؤمنوا ولكن أسلمتم، فعدل عنه إلى هذا النظم احترازًا من النهي عن القول بالإيمان، والجزم بإسلامهم، وقد فقد شرط اعتباره شرعًا.

وقيل: إنه من الاحتباك، وأصله: لم تؤمنوا فلا تقولوا آمنا، ولكن أسلمتم، فقولوا: أسلمنا، فحذف من كل منهما نظير ما أثبت في الآخر.

والأول أبلغ، لأنهم ادّعوا الإيمان فنفى عنهم، ثم استدرك عليه فقال: دعوا ادعاء الإيمان، وادّعوا الإسلام، فإنه الذي ينبغي أن يصدر عنكم على ما فيه، فنفى الإيمان، وأثبت لهم قول الإسلام، دون الاتصاف به(١)، وهو أبلغ مما ذكر من الاحتباك، مع سلامته من الحذف بلا قرينة(٢).

(١) القول بأنهم لم يتصفوا به فيه نظر، فما دام قال لهم قولوا أسلمنا، فقد أثبته لهم، لكنه ليس هو الإيمان.

(٢) ذكره القاسمي في تفسيره ١٥/ ١٤٠، وقال: هذا ما في القاضي وحواشيه.

ما ورد في السورة من أحكام

ما ورد في السورة من أحكام:

ورد في السورة بعض الأحكام الشرعية، وقد اختلف منهج المفسرين الذين تناولوا الأحكام التي وردت في هذه السورة، فمنهم من تناول الأحكام بتوسّع، حتى جاء ببعض الأحكام التي لم ترد في السورة، وآخرون اقتصروا على ما ورد فيها مع الاختصار في عرضها وبيانها.

وانسجامًا مع المنهج الذي ذكرته في المقدمة، فسأذكر أهم الأحكام التي وردت في السورة، أو تمّت الإشارة إلى أصل موضوعها.

مع أن ما سأذكره لا يغني عن الرجوع إلى كتب الأحكام لمن أراد مزيدًا من التوسع والتفصيل.

قوله ـ تعالى ـ: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدّموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١].

١ ـ قال ابن العربي: هذه الآية أصل في ترك التعرض لأقوال النبي، صلى الله عليه وسلم، وإيجاب اتباعه، والاقتداء به، ولذلك قال النبي، صلى الله عليه وسلم، في مرضه: **مروا أبا بكر فليصل بالناس**، فقالت عائشة لحفصة: قولي له: إن أبا بكر رجل أسيف[1]، وإنه متى يقم مقامك لا يسمع الناس من البكاء، فمر عليًا ـ وفي مسلم فمر عمر ـ فليصل بالناس، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: «**إنكن لأنتنّ**

(١) أسيف: حزين، وقيل: سريع الحزن والبكاء.

صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصل بالناس»[١]. قال ابن العربي: يعني بقوله: صواحب يوسف: الفتنة، بالرد عن الجائز إلى غير الجائز[٢].

٢ - وجوب تقوى الله في السر والعلن[٣]، وأمر بالتقوى هنا، لأن التقدم بين يدي الله ورسوله إمّا حسيٌّ أو معنوي، ولا يعصم من ذلك إلا التقوى، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

قوله - تعالى -: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٢].

١ - حرمة النبي، صلى الله عليه وسلم، ميتًا كحرمته حيًّا.

٢ - ذكر بعض العلماء أن كلامه المأثور - بعد وفاته - صلى الله عليه وسلم، مثل كلامه المسموع من لفظه، من حيث وجوب الإنصات، وعدم جواز رفع الصوت عند من يتلو كلامه، كما لا يجوز الإعراض عنه.

واستدل هؤلاء بهذه الآية، وبقوله - تعالى -: ﴿وإذا قُرِىءَ القرآنُ فاستمعوا له وأنصتوا﴾. [سورة الأعراف، الآية: ٢٠٤]. وكلام الرسول، صلى الله عليه وسلم، من الوحي، وله من الحرمة مثل ما للقرآن إلاّ معاني مستثناة، وبيانها كتب الفقه[٤]. وهذا القول فيه نظر، فإن لشخص

---

(١) رواه البخاري (٤/١٢٢) كتاب الأنبياء، ومسلم (١/٣١٣، ٣١٤) كتاب الصلاة رقم (٤١٨).

(٢) انظر: أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٧١٣.

(٣) سيأتي الحديث عن التقوى في القسم الموضوعي إن شاءالله.

(٤) ممن قال بذلك ابن العربي، وذكره القرطبي ولم يعلق عليه، انظر أحكام القرآن لابن =

الرسول، صلى الله عليه وسلم، من الحرمة ما ليس لكلامه.

ولا يعني هذا أنه ليس لكلامه حرمة، كلا، ولكنه ليس كمنزلة الرسول، صلى الله عليه وسلم، وحرمة شخصه.

ثم إن هناك فرقًا بين حرمة القرآن وقدسيته، وبين ما للسنة فمن الفروق بينهما:

أ ـ أن القرآن يتعبد بتلاوته، بخلاف السنة.

ب ـ أنه لا يجوز مسّ المصحف إلا طاهرًا[(١)]، بخلاف كتب الصحاح.

جـ ـ أن الجنب لا يتلو القرآن بخلاف قراءة الأحاديث.

د ـ أنه تجوز رواية الأحاديث بالمعنى بخلاف القرآن.

إذا علم هذا علمنا أن الاستدلال بالآيتين على ما ذكر لا يسلّم، مع أن للسنة مكانتها وحرمتها ووجوب العمل بها، وعدم جواز ردّ أي شيء منها، أو الاستهزاء بها.

٣ ـ قال بعض العلماء: إن معنى قوله: ﴿ولا تجهرا له بالقول﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٢]. أي لا تخاطبوه: يا محمد، يا أحمد، ولكن يا نبي الله، ويا رسول الله، توقيرًا له وتعظيمًا[(٢)]، وما ذكره العلماء هو في حياة الرسول، صلى الله عليه وسلم، أما بعد وفاته فلا يجوز دعاءه، صلى الله

= العربي ١٧١٥/٤، وتفسير القرطبي ٣٠٧/١٥.

(١) المسألة خلافية كما هو معروف، ولكن لا يختلف في وجوب الطهارة من الحدث الأكبر بالنسبة لمسّ المصحف.

(٢) انظر: تفسير القرطبي ٣٠٦/١٥.

عليه وسلم، كما يفعل المبتدعة والمشركون، وبخاصة عند قبره، صلى الله عليه وسلم.

ولكن يستفاد مما ذكره العلماء، أنّه لا يليق ذكر اسمه مجردًا عن وصفه بالنبوة أو الرسالة، أو الصلاة عليه، صلى الله عليه وسلم، حيث إنَّ ذلك من الجفاء وسوء الأدب، مما يكون له تأثيره السيىء في نفوس السامعين، أو القراء، بينما يجب أن نربّي الناس على حبه، وتعظيمه، وتوقيره، واحترامه مما يليق بمكانته الرفيعة، صلى الله عليه وسلم وآله.

٤ ـ ليس الغرض برفع الصوت ولا الجهر ما يقصد به الاستخفاف والاستهانة به، صلى الله عليه وسلم، لأن ذلك كفر، والمخاطبون مؤمنون.

كما أن رفع الصوت بحضرته، صلى الله عليه وسلم، لحاجة تدعو إلى ذلك، وليس فيه أذى لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، فإنه جائز، بل قد يكون صاحبه مأجورًا، كالأذان، وأثناء الحرب لإخافة العدو، أو نداء المجاهدين من الصحابة، فقد ورد أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أمر العباس يوم حنين ـ عندما انهزم المسلمون ـ أمره أن ينادي في الناس، وفي بعض الروايات «اصرخ بالناس» وكان العباس أجهر الناس صوتًا، فنادى بأهل الشجرة ـ رضي الله عنه ـ[1].

٥ ـ كره بعض العلماء رفع الصوت عند قبره، صلى الله عليه

(١) انظر: تفسير القرطبي ١٥/٣٠٧، والحديث أخرجه مسلم في الصحيح (١٣٩٨/٣) كتاب الجهاد رقم (١٧٧٥)، وعبدالرزاق في المصنف (٣٧٩/٥، ٣٨٠) وابن عساكر كما في كنزل العمال (٥٤٥/١٠).

وسلم، احترامًا لمكانته وإجلالاً له، صلى الله عليه وسلم[١].

قال ابن كثير: قال العلماء: يكره رفع الصوت عند قبره، صلى الله عليه وسلم، كما كان يكره في حياته، لأنه محترم حيًا وفي قبره، صلى الله عليه وسلم، وقد روينا عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه سمع صوت رجلين في مسجد النبي، صلى الله عليه وسلم، قد ارتفعت أصواتهما، فجاء فقال: أتدريان أين أنتما؟ ثم قال: من أين أنتما؟ قالا: من أهل الطائف، قال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضربًا[٢].

قوله ـ تعالى ـ: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بنبأٍ فتبيَّنوا﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٦].

١ ـ قال ابن العربي: من ثبت فسقه بطل قوله في الأخبار إجماعًا؛ لأن الخبر أمانة، والفسق قرينة تبطلها[٣]، فأما في الإنسان على نفسه فلا يبطل إجماعًا[٤].

٢ ـ اختلف العلماء في ولاية الفاسق في النكاح ـ وليس هذا مكان بحث ذلك ـ ولكن الراجح ثبوت ولايته، وأن الفسق لا يسقطها[٥].

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٥/٣٠٧).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٤/٢٠٧، وتفسير القاسمي (١٥/١١٣)، وهذا الأثر أخرجه البخاري في الصحيح (١/١٢١) كتاب الصلاة.

(٣) استثنى من ذلك بعض المسائل مما يتعلق بالدعوى والجحود، وإثبات حق مقصور على الغير، ونحو ذلك. انظر: تفسير القرطبي ١٥/٣١٢.

(٤) انظر: أحكام القرآن ٤/١٧١٥.

(٥) انظر: أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٧١٥، وتفسير القرطبي ١٥/٣١٢.

٣ ـ إمامة الفاسق فيها تفصيل يطول، وخلاف بين العلماء، والراجح جواز إمامته، وصحة الصلاة خلفه، ولكن الأولى والأفضل عدم الصلاة خلفه إذا وجد غيره(٤).

٤ ـ في هذه الآية دليل على قبول خبر الواحد إذا كان عدلاً، لأنه إنما أمر بالتثبت عند نقل خبر الفاسق، وهذا دليل على قبول خبره ـ بدون تثبت ـ إذا كان عدلاً.

ولا فرق في ذلك بين ما كان في العقائد وغيرها، وهذا منهج أهل السنة والجماعة، ولا يلتفت إلى قول غيرهم(١).

أمّا الحدود والجنايات وبعض الأحكام كخروج رمضان ـ على الراجح ـ فإن النص قد حدد في كل مسألة ما تحتاج إليه من شهود.

٥ ـ **قال ابن العربي**: أما أحكامه إن كان حاكمًا واليًا فينفذ منها ما وافق الحق ويرد ما خالفه، ولا ينقض حكمه الذي أمضاه بحال، ولا تلتفتوا إلى غير هذا القول، من رواية تؤثر أو قول يحكى، فإن الكلام كثير والحق ظاهر(٣).

٦ ـ وقال أيضًا: لا خلاف أنه يصح أن يكون رسولاً عن غيره في قول يبلغه، أو شيء يوصله، أو أذن يعلمه، إذا لم يخرج عن حق المرسل والمبلغ، فإن تعلق به حق لغيرهما لم يقبل قوله، وهذا جائز للضرورة(٤)

---

(١) انظر: أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٧١٦.

(٢) انظر: تفسير القرطبي ١٥/٣١٢، وسنذكر بعض المصادر الخاصة.

(٣) انظر: أحكام القرآن ٤/١٧١٦ وتفسير القرطبي ١٥/٣١٢.

(٤) أي الضرورة العامة، لأنه قد يوجد من العدول، فلا يبطل الحكم.

الداعية إليه، فإنه لو لم يتصرف بين الخلق في هذه المعاني إلا العدول لم يحصل منها شيء لعدمهم[١] في ذلك[٢].

٧ - **قال الجصّاص**: واتفق أهل العلم على جواز قبول خبر الفاسق في أشياء، فمنها أمور المعاملات يقبل فيها خبر الفاسق، وذلك نحو الهدية، إذا قال إن فلانًا أهدى إليك هذا، يجوز له قبوله وقبضه، ونحو قوله: وكلني فلان ببيع عبده هذا فيجوز شراؤه منه، ونحو الإذن في الدخول إذا قال له قائل: ادخل، لا تعتبر فيه العدالة، وكذلك جميع أخبار المعاملات[٣]. وهذا القول قريب مما ذكره ابن العربي في الفقرة السابقة ذكرته إيضاحًا وتأكيدًا، وبخاصة أن أحدهما حكى الاتفاق والآخر نفى الخلاف.

قوله - تعالى -: **﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بَغَتْ إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي﴾**. [سورة الحجرات، الآية: ٩].

١ - **قال أبو بكر بن العربي**: هذه الآية هي الأصل في قتال المسلمين[٤]، والعمدة في حرب المتأولين، وعليها عوّل الصحابة، وإليها لجأ الأعيان من أهل الملة، وإياها عنى النبي، صلى الله عليه وسلم، بقوله: **«يقتل عمارًا الفئة الباغية»**[٥].

---

(١) الأولى: لقلتهم.

(٢) انظر: أحكام القرآن لابن العربي ١٧١٦/٤.

(٣) انظر: أحكام القرآن للجصاص ٣٩٩/٣.

(٤) أي من البغاة ونحوهم، لأنهم مسلمون، ووجوب قتالهم لا يخرجهم من الإسلام.

(٥) أخرجه مسلم (٢٢٣٦/٤) كتاب الفتن رقم (٢٩١٦).

وقد أفاض الجصاص في الاستدلال على جواز قتال الفئة الباغية، وذكر الأدلة وردّ الشبهة في كل دليل ذكره المخالفون، وهو كلام نفيس بجملته، ولولا طوله والتزامي بعدم التفصيل لذكرته[1].

٢ ـ **قتال البغاة له أحكام كثيرة**، ذكرها الفقهاء والمفسرون، وفصّلوا فيها، كبيان متى يكون قتالهم؟ وكيف، وحكم القتال مع الإمام وهل هو فرض كفاية أو عين، وحكم غنائمهم، وهل يؤخذ منهم أسرى؟

إلى غير ذلك من الأحكام التي يحتاج إليها في مثل هذه الأحوال، كفانا الله شر المحيج إليها.

٣ ـ في هذه الآية والتي بعدها: ﴿**إنما المؤمنون إخوةٌ فأصلحوا بين أَخَوَيْكم**﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١٠]. دليل على أن البغي لا يزيل اسم الإيمان، لأن الله ـ تعالى ـ سماهم أخوة مؤمنين مع كونهم باغين، قال الحارث الأعور: سئل علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وهو الحجة والقدوة، سئل عن قتال أهل البغي: أمشركون هم؟ قال: لا، من الشرك فرّوا، [وفي رواية: من الكفر فرّوا].

فقيل: أمنافقون؟ قال: لا، لأن المنافقين لا يذكرون الله إلاّ قليلاً.

قيل له: فما حالهم؟ قال: إخواننا بغوا علينا[2].

٤ ـ لعل من المناسب أن أختم الحديث عن أحكام هذه الآية بكلام نفيس ذكره القرطبي في تفسيره فقال: لا يجوز أن ينسب إلى أحد

---

(١) انظر: أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٧١٧، وأحكام القرآن للجصاص ٣/٤٠٠.

(٢) انظر: تفسير القرطبي ١٥/٣٢٣.

من الصحابة خطأ مقطوع به[١] إذ كانوا كلهم اجتهدوا فيما فعلوه وأرادوا الله ـ عز وجل ـ، وهم كلهم لنا أئمة، وقد تعبدنا بالكفّ عمّا شجر بينهم، وألا نذكرهم إلّا بأحسن الذكر، لحرمة الصحبةِ، ولنهي النبي، صلى الله عليه وسلم، عن سبّهم، وأن الله غفر لهم، وأخبر بالرضا عنهم[٢].

هذا مع ما قد ورد من الأخبار من طرق مختلفة أن طلحة شهيد، ومما يدل على ذلك ما صح وانتشر من إخبار علي بأن قاتل الزبير في النار.

وإذا كان كذلك لم يوجب ذلك لعنهم والبراءة منهم وتفسيقهم، وإبطال فضائلهم، وجهادهم، وعظيم غنائهم في الدين ـ رضي الله عنهم ـ.

وقد سئل بعضهم عن الدماء التي أريقت فيما بينهم فقال: ﴿**تلك أمةٌ قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تُسألون عما كانوا يعملون**﴾. [سورة البقرة، الآية: ١٣٤].

وسئل بعضهم عنها ـ أيضًا ـ فقال: **تلك دماء قد طَهّر الله منها يدي، فلا أخضب بها لساني**، يعني من التحرز من الوقوع في خطأ، والحكم على بعضهم بما لا يكون مصيبًا فيه.

قال ابن فورك: ومن أصحابنا من قال: إن سبيل ما جرى بين

---

(١) أي لا نقطع بالخطأ في مكان الاجتهاد، أما إذا كان فعله خطأ مما ورد النص به فيجوز، لأن الصحابة ليسوا معصومين بآحادهم، وقد وقع بعضهم في أخطاء وأقيم على بعضهم الحدود.

(٢) وهم أهل بدر وأهل بيعة الرضوان لا جميعهم.

الصحابة من المنازعات كسبيل ما جرى بين أخوة يوسف مع يوسف، ثم إنهم لم يخرجوا بذلك عن حدّ الولاية والنبوة، فكذلك الأمر فيما جرى بين الصحابة.

وقد سئل الحسن البصري عن قتالهم فقال: قتال شهده أصحاب محمد، صلى الله عليه وسلم، وغبنا، وعلموا وجهلنا، واجتمعوا فاتبعنا، واختلفوا فوقفنا، قال المحاسبي: فنحن نقول كما قال الحسن، ونعلم أن القوم كانوا أعلم بما دخلوا فيه منّا، ونتبع ما اجتمعوا عليه، ونقف عند ما اختلفوا فيه، ولا نبتدع رأيًا منّا، ونعلم أنهم اجتهدوا وأرادوا الله ـ عز وجل ـ إذ كانوا غير متهمين في الدين، ونسأل الله التوفيق(١).

قوله ـ تعالى ـ: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١١].

١ ـ حرمة السخرية بالمسلم، بل وغيره مما لا تجوز السخرية به، قال الجصاص: نهى الله بهذه الآية عن عيب من لا يستحق أن يعاب على وجه الاحتقار له، لأن ذلك هو معنى السخرية، فإن كان معيبًا فاجرًا فعيبه بما فيه جائز.

روي أنه لما مات الحجاج قال الحسن: اللهم أنت أمتّه فاقطع عنا سنته، فإنه أتانا أخيفش أعيمش، يمد بيد قصيرة البنان، والله ما عرق

---

(١) انظر: تفسير القرطبي ١٥/٣٢١، وقد نقلت هذا الكلام لأهميته، ولأننا نسمع من يتكلم في صحابة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ويقول: هم رجال ونحن رجال، نعوذ بالله مما يفعله السفهاء منا.

فيها عنان في سبيل الله، يرجّل جمته، ويخطر في مشيته، ويصعد المنبر فيهذر حتى تفوته الصلاة، لا من الله يتقي، ولا من الناس يستحي، فوقه الله، وتحته مائة ألف أو يزيدون، لا يقول له قائل: الصلاة أيها الرجل، ثم قال الحسن: هيهات والله(١)، حال دون ذلك السيف والسوط(٢).

قال القاسمي: وكل هذا يرجع إلى استحقار الغير، والضحك عليه، والاستهانة به، والاستصغار له، وعليه نبه بقوله ـ تعالى ـ: ﴿عسى أن يكونوا خيراً منهم﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١١]. أي: لا تستحقره استصغارًا، فلعله خير منك، وهذا إنما يحرم في حق من يتأذى به، فأما من جعل نفسه مسخرة، وربما فرح من أن يسخر به، كانت السخرية في حقه من جملة المزح، ومنه ما يذم(٣) وما يمدح.

وإنما المحرم استصغار يتأذى به المستهزَأ به، لما فيه من التحقير والتهاون، وذلك تارة بأن يضحك على كلامه إذا تخبط فيه، ولم ينتظم، أو على أفعاله إذا كانت مشوشة، كالضحك على حفظه، وعلى صنعته، أو على صورته وخلقته، إذا كان قصيرًا أو ناقصًا، لعيب من العيوب، فالضحك من جميع ذلك داخل في السخرية المنهي عنها(٤).

٢ ـ حرمة التنابز بالألقاب، وهو التداعي بما يكره منها، فإن

---

(١) أي هيهات أن يجرؤ أحد على أن يقول له ذلك، كأنه يعتذر للناس في زمان الحجاج لسكوتهم عن الإنكار.

(٢) انظر: أحكام القرآن للجصاص ٣/٤٠٤.

(٣) هذه نفيسة فالزمها.

(٤) انظر: تفسير القاسمي ١٥/١٢٦.

الألقاب على ثلاثة أنواع:

١ - **قسم يكرهه الإنسان ويبغضه**، وهو ما يعيّر به، فهذا يحرم التسمية به أو النداء. بل إن الرسول، صلى الله عليه وسلم، غيّر ألقاب بعض أصحابه وأسماءهم، فسمى العاص: عبدالله، وشهابًا: هشامًا، وسمى حربًا سلمًا.

وهذا هو المراد بالآية: **﴿ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان﴾**. [سورة الحجرات، الآية: ١١].

٢ - **قسم يحبه صاحبه** كأبي تراب لعلي بن أبي طالب - رضي الله عنه - حيث لقبه الرسول، صلى الله عليه وسلم، به.

قال سهل بن سعد: ما كان اسم أحبَّ إلى عليّ أن يدعى به من أبي تراب. فهذا لا يكره.

٣ - **وقسم غلب عليه الاستعمال**، كالأعرج والأحدب، ولم يكن لصاحبه فيه كسب يجد في نفسه منه عليه، قال ابن العربي: فجوزته الأمة، واتفق على قوله أهل الملة.

قلت: بشرط ألا يقصد قائله التعيير واللمز ونحوه، قال ابن العربي: والذي يضبط هذا كله ما قدمناه من الكراهة لأجل الأذية(١).

قال القرطبي: وعلى هذا المعنى ترجم البخاري - رحمه الله - في كتاب الأدب من الجامع الصحيح في (باب ما يجوز من ذكر الناس نحو قولهم: الطويل والقصير لا يُراد به شين الرجل) قال: وقال النبي، صلى

(١) انظر: أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٤٠٥، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٢٣.

الله عليه وسلم: «**ما يقول ذو اليدين**»(١). قال أبو عبدالله بن خويز منداد، تضمنت الآية المنع من تلقيب الإنسان بما يكره، ويجوز تلقيبه بما يحب، ألا ترى أن النبي، صلى الله عليه وسلم، لقّب عمر بالفاروق، وأبا بكر بالصديق، وعثمان بذي النورين، وخزيمة بذي الشهادتين، وأبا هريرة بذي الشمالين، وبذي اليدين، في أشباه ذلك.

قال الزمخشري: ولهذا كانت التكنية من السنة والأدب الحسن، قال عمر ـ رضي الله عنه ـ: أشيعوا الكنى فإنها منبهة.

ولقد لقب أبو بكر بالعتيق والصديق، وعمر بالفاروق، وحمزة بأسد الله، وخالد بسيف الله، وقلّ من المشاهير في الجاهلية والإسلام من ليس له لقب، ولم تزل هذه الألقاب الحسنة في الأمم كلها ـ من العرب والعجم ـ تجري في مخاطباتهم ومكاتباتهم من غير نكير.

قال الماوردي: فأما مستحب الألقاب ومستحسنها فلا يكره، وقد وصف رسول الله، صلى الله عليه وسلم، عددًا من أصحابه بأوصاف صارت لهم من أجلّ الألقاب. قال القرطبي: فأما ما يكون ظاهرها الكراهة إذا أريد بها الصفة لا العيب فذلك كثير.

وقد سئل عبدالله بن المبارك عن الرجل يقول: حميد الطويل، وسليمان الأعمش، وحميد الأعرج، ومروان الأصغر، فقال: إذا أردت صفة ولم ترد عيبة فلا بأس به.

وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن سرجس قال: رأيت الأصلع

---

(١) انظر: صحيح البخاري (٧/ ٨٥) كتاب الأدب.

- يعني عمر - يقبّل الحجر، وفي رواية: الأصيلع(١).

قوله - تعالى -: ﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظنّ إن بعض الظنّ إثم ولا تجسَّسوا ولا يغتب بعضكم بعضًا﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١٢].

١ - الظن على أربعة أضرب: محظور، ومأمور به، ومندوب إليه، ومباح.

فأما الظن المحظور فهو سوء الظن بالله، روى جابر - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قبل موته بثلاث يقول: «**لا يموتنَّ أحدُكم إلا وهو يحسن الظنّ بالله عز وجل**»(٢).

وكذلك من الظن المحظور سوء الظن بالمسلمين الذين ظاهرهم العدالة، وهذا هو المراد بالآية، وكذلك ما يشمله حديث رسول الله، صلى الله عليه وسلم، الثابت في الصحيحين، عن أبي هريرة أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: «**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث**»(٣).

قال الجصاص: وكل ظن فيما له سبيل إلى معرفته، مما تعبد بعلمه فهو محظور، لأنه لما كان متعبدًا تعبد بعلمه ونصب له الدليل عليه فلم يتبع

(١) صحيح مسلم (٢/٩٢٥) كتاب الحج رقم (١٢٧٠)، وانظر: تفسير القرطبي ١٥/٣٢٩.

(٢) أخرجه مسلم (٤/٢٢٠٥) كتاب الجنة رقم (٢٨٧٧)، وأبو داود (٣/١٨٩) كتاب الجنائز، رقم (٣١١٣).

(٣) أخرجه البخاري (٧/٨٨، ٨٩) كتاب الأدب. ومسلم (٤/١٩٨٥) كتاب البر والصلة، رقم (٢٥٦٣). والترمذي (٤/٣١٣) كتاب البر والصلة، رقم (١٩٨٨).

الدليل وحصل على الظن كان تاركًا للمأمور به (١).

وأما المأمور به: هو ما لم ينصب له عليه دليل يوصله إلى العلم اليقيني به، وقد تعبد بتنفيذ الحكم فيه، فالاقتصار على غالب الظن وإجراء الحكم عليه واجب، وذلك نحو ما تعبدنا به من قبول شهادة العدول، وتحري القبلة، وتقويم المستهلكات، وأرش الجنايات التي لم يرد بمقاديرها توقيف، فهذه وما كان من نظائرها قد تعبدنا فيها بتنفيذ أحكام غالب الظن (٢).

وأما الظن المندوب إليه فهو حسن الظن بالأخ المسلم، فإن قيل: إذا كان سوء الظن محظورًا فواجب أن يكون حسن الظن واجبًا، قيل له: لا يجب ذلك لأن بينهما واسطة، وهو أن لا يظن به شيئًا، فإذا أحسن الظن به فقد فعل مندوبًا إليه (٣).

وأما الظن المباح فالشَّكَّاك في الصلاة يجوز له أن يعمل بما غلب على ظنّه، ويجوز له أن يبني على اليقين (٤).

٢ - حرمة التجَسُّس وتتبع العورات، وهذه الآية نص في ذلك، وقد ورد في الصحيح من حديث أبي هريرة قال: قال صلى الله عليه وسلم: «**ولا تحَسَّسوا ولا تجسَّسوا**» (٥). والتحسس والتجسس معناهما متقارب

---

(١) انظر: أحكام القرآن للجصاص (٣/٤٠٦).
(٢) انظر: أحكام القرآن للجصاص ٣/٤٠٦.
(٣) انظر: أحكام القرآن للجصاص ٣/٤٠٦.
(٤) هكذا قال الجصاص ٣/٤٠٧، والمسألة فيها تفصيل ليس هذا مكانه.
(٥) هو تكملة الحديث السابق «إياكم والظن» أخرجه البخاري (٧/٨٨، ٨٩)، كتاب =

وحكمها واحد، وقد قرىء في الشواذ «ولا تحسسوا» بالحاء وممن قرأ بذلك: أبو رجاء والحسن وغيرهما.

ومعنى الآية: خذوا ما ظهر ولا تتبعوا عورات المسلمين، أي: لا يبحث أحدكم عن عيب أخيه حتى يطلع عليه بعد أن ستره الله[1].

٣ ـ حرمة الغيبة، وقد ثبت تحديدها في الحديث الصحيح الذي رواه أبو هريرة عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال لأصحابه: **أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ذكرك أخاك بما يكره، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول، قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته**»[2].

٤ ـ ذهب قوم إلى أن الغيبة لا تكون إلاّ في الدين، ولا تكون في الخلقة والحسب، وقالوا: ذلك فعل الله به. وذهب آخرون إلى عكس ذلك فقالوا: لا تكون الغيبة إلا في الخَلْق والخُلُق والحسب، والغيبة في الخلْق أشد، لأن من عاب صنعة فإنما عيّب صانعها.

قال القرطبي: وهذا كله مردود.

أما الأول: فيرده حديث عائشة حيث قالت في صفية: إنها امرأة

= الأدب، ومسلم (٤/ ١٩٨٥) كتاب البر والصلة رقم (٢٥٦٣).

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٥/ ٣٣٢).

(٢) تفسير القرطبي (١٥/ ٣٣٤) وسيأتي مزيد بيان لذلك إن شاءالله. والحديث أخرجه مسلم في الصحيح (٤/ ٢٠٠١) كتاب البر والصلة، رقم (٢٥٨٩). وأبو داود (٤/ ٢٦٩) كتاب الأدب، رقم (٤٨٧٤). والترمذي (٤/ ٢٩٠) كتاب البر والصلة، رقم (١٩٣٤). وأحمد في المسند (٢/ ٢٣٠، ٣٨٤، ٣٨٦، ٤٥٨).

قصيرة، فقال لها النبي، صلى الله عليه وسلم: «لقد قلت كلمة لو مزج بها البحر لمزجته»[١].

وقد أجمع العلماء على أن ذلك غيبة إن أريد به العيب.

وأما الثاني فمردود - أيضًا - عند جميع العلماء، لأن العلماء من أول الدهر من أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، والتابعين بعدهم لم تكن الغيبة عندهم في شيء أعظم من الغيبة في الدين، ولأن عيب الدين أعظم العيب، وكل مؤمن يكره أن يذكر في دينه أشد مما يكره في بدنه[٢].

٥ - لا خلاف أن الغيبة من الكبائر، وأن من اغتاب أحدًا فعليه أن يتوب إلى الله - عز وجل -.

وهل يستحل المغتاب؟ اختلف في ذلك:

فقالت فرقة ليس عليه استحلاله، وإنما هي خطيئة بينه وبين ربه، واحتجت ببعض الحجج الضعيفة، وليس فيها دليل من كتاب أو سنة.

وقالت فرقة: هي مَظْلمة، وكفارتها الاستغفار لصاحبها الذي اغتابه، واحتجت بحديث يروى عن الحسن، قال: «كفارة الغيبة أن تستغفر لمن اغتبته»، وهذا ليس بحديث وإنما هو قول للحسن.

وقالت فرقة: هي مَظْلمة وعليه الاستحلال منها، واحتجت بقول

---

(١) أخرجه أبو داود (٤/ ٢٦٩) كتاب الأدب رقم (٤٨٧٥). والترمذي (٤/ ٥٧٠) كتاب صفة القيامة، رقم (٢٥٠٢). وأحمد في المسند (٦/ ١٨٩)، وصححه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (٥١٤٠).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٥/ ٣٣٧) فقد توسع في ذلك ودلل عليه.

النبي ، صلى الله عليه وسلم : «من كانت لأخيه عنده مظلمة في عرض أو مال فليتحلّله منه من قبل أن يأتي يوم ليس هناك دينار ولا درهم» الحديث(١) .

والقولان الأولان ضعيفان، والثالث هو الصحيح ، ولكن استثنى بعض العلماء ما إذا خشي حدوث مفسدة من إخباره بأنه اغتابه ، أو مات قبل تحلّله ، فإنه يدعو له ويذكره بخير، ويستغفر له ، ويكون كفارة له ، وهذا هو الراجح ، والله أعلم(٢) .

٦ ـ قال العلماء : ليس من هذا الباب غيبة الفاسق المعلن به المجاهر، وقد ورد في ذلك بعض الأحاديث وروى عن الحسن أنه قال : ثلاثة ليس لهم حرمة : صاحب الهوى ، والفاسق المعلن ، والإمام الجائر. وقد سبق ذكر كلام الحسن في الحجاج بعد موته .

وروى الربيع بن صبيح عن الحسن قال : ليس لأهل البدع غيبة(٣) .

٧ ـ ومما تجوز فيه الغيبة : ذكر من ظلمك لمن ترجو أن ينصفك ، أو لنفي التهمة عنك قال ـ سبحانه ـ : ﴿لا يحبّ الله الجهرَ بالسوءِ من القول إلا من ظُلم﴾ . وقال صلى الله عليه وسلم : «ليُّ الواجد يحلّ عرضه

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٥/٣٣٧) . والحديث أخرجه البخاري في الصحيح (٣/٩٩) كتاب المظالم. وأحمد في المسند (٢/٥٠٦) .

(٢) انظر: آفات اللسان للقحطاني ص (٤٢) .

(٣) انظر: تفسير القرطبي (١٥/٣٣٩) .

وعقـوبتـه»[١]، وقالت هند لرسول الله، صلى الله عليه وسلم: «إنَّ أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني أنا وولدي» الحديث[٢].

٨ - ومما تجوز فيه الغيبة إذا كان ما تذكره من سوء فيه مصلحة غالبة أو ضرورة، كمن يسأل عن رجل ليأتمنه على مال أو عرض أو نحوه.

وكمن يريد تزويج إنسان أو يتزوج منه لقوله، صلى الله عليه وسلم: «**أمَّا معاوية فصعلوك لا مال له، وأما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه**»[٣].

---

(١) هذا الحديث علّقه البخاري في الصحيح بصيغة التمريض فقال: ويذكر عن النبي، صلى الله عليه وسلم، فذكـره. انـظر: صحيح البخـاري (٣/٨٥)، كتـاب الاستقراض. قال الحافظ في الفتح (٥/٧٦): وصله أحمد وإسحاق في مسنديهما وأبو داود والنسائي من حديث عمرو بن الشريد بن أوس الثقفي عن أبيه بلفظه، وإسناده حسن.
انظر: سنن أبي داود (٣/٣١٣) كتاب الأقضية، رقم (٣٦٢٨).
سنن النسائي (٧/٣١٦) كتاب البيوع، رقم (٤٦٨٩، ٤٦٩٠).
سنن ابن ماجه (٢/٨١١) كتاب الصدقات، رقم (٢٤٢٧).
مسند الإمام أحمد (٤/٢٢٢، ٣٨٨، ٣٨٩) والحديث حسنه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (٥٤٨٧).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٥/٣٣٩). والحديث أخرجه البخاري (٦/١٩٣، ١٩٤) كتـاب النفقات. ومسلم (٣/١٣٣٨) كتاب الأقضية، رقم (١٧١٤). وأبو داود (٣/٢٨٩) كتـاب البيوع، رقم (٣٥٣٢). والنسـائي (٨/٢٤٦)، كتـاب آداب القضاة، رقم (٥٤٢٠). وأحمد في المسند (٦/٣٩، ٥٠).

(٣) انـظر: تفسـير القـرطبي (١٥/٣٣٩). والحـديث أخـرجـه مسلم في الصحيح (٢/١١١٤) كتـاب الـطلاق رقم (١٤٨٠). وأبو داود (٢/٢٨٥، ٢٨٦) كتاب =

ولكن يجب ألّا يزيد السائل أو المتظلم عن مقدار الحاجة التي دعت لذكر هذا الأمر، ولا يجوز التوسّع فيه، وليحذر من مداخل الشيطان فإنه شيطان. والله يعصمنا من الزلل(١). وكذلك منهج أهل الحديث في ذكر الرواة. وقد جمع بعض العلماء الأمور التي تجوز فيها الغيبة بهذين البيتين(٢):

القـدح ليس بغيـبـة في ستـة
متـظلم ومـعـرّف ومحـذّر
ومجـاهـر فسـقًـا ومسـتـفت ومن
طلب الإعـانـة في إزالـة منـكـر

قولـه ـ تعـالى ـ: ﴿**قالت الأعراب آمنّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم**﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١٤].

١ ـ قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ:

استفيد من هذه الآية الكريمة أن الإيمان أخص من الإسلام، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، ويدل عليه حديث جبريل ـ عليه

= الطلاق، رقم (٢٢٨٤). والترمذي (٣/٤٤١، ٤٤٢) كتاب النكاح، رقم (١١٣٥).

(١) انظر: آفات اللسان للقحطاني ص (٤٨).

(٢) وقد خصص النووي بابًا في «رياض الصالحين» ذكر فيه الأمور التي تباح فيها الغيبة وجعلها ستة، ورد الشوكاني بعضها في كتابه «رفع الريبة عما يجوز وما لا يجوز من الغيبة» فراجعه فإنه نفيس. انظر: رياض الصالحين ص (٥٧٥ ـ ٥٧٧)، آفات اللسان للقحطاني ص (٤٢).

السلام ـ حين سأل عن الإسلام ثم عن الإيمان ثم عن الإحسان(١)، فترقى من الأعم إلى الأخص، ثم للأخص منه.

وروى الإمام أحمد والطبري بسنديهما عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه ـ رضي الله عنهما ـ قال: أعطى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، رجالاً ولم يعط رجلاً منهم شيئًا، فقال سعد: يا رسول الله، أعطيت فلانًا وفلانًا وفلانًا، ولم تعط فلانًا شيئًا وهو مؤمن، فقال صلى الله عليه وسلم: أو مسلم، حتى أعادها سعد ثلاثًا، والنبي، صلى الله عليه وسلم، يقول: أو مسلم، ثم قال النبي، صلى الله عليه وسلم: «**إني لأعطي رجالاً وأدع من هو أحبّ إليّ منهم، فلم أعطه شيئًا مخافة أن يكبوا في النار على وجوههم**». قال ابن كثير: أخرجاه في الصحيحين من حديث الزهري به(٢).

قال ابن كثير: فقد فرَّق النبي، صلى الله عليه وسلم، بين المؤمن والمسلم، فدل على أن الإيمان أخصّ من الإسلام.

قال القاسمي: ومن اللطائف أن يقال في الإيمان والإسلام ما قالوه في الفقير والمسكين: إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا(٣).

---

(١) أخرجه مسلم (١/٣٦، ٣٧) كتاب الإيمان، رقم (٨). والترمذي (٥/٨) كتاب الإيمان، رقم (٢٦١٠)، وأبو داود (٤/٢٢٣) كتاب السنة، رقم (٤٦٩٥) وغيرهم.

(٢) صحيح البخاري (١/١٢) كتاب الإيمان، وصحيح مسلم (١/١٣٢) كتاب الإيمان، رقم (١٥٠) وانظر: تفسير الطبري ٢٦/١٤١.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير ٤/٢١٩، وتفسير القاسمي ١٥/١٤٠.

ويعني بذلك أنه إذا أطلق لفظ الإيمان وحده فإنه يشمل الإيمان والإسلام مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿يا أيها الذين آمَنوا آمِنوا﴾. فيشمل الإيمان والإسلام.

وإذا أطلق لفظ الإسلام وحده فإنه يشمل الإسلام والإيمان مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿ولا تموتنَّ إلا وأنتم مسلمون﴾. [سورة آل عمران، الآية: ١٠٢]. أي مسلمون مؤمنون.

وإذا اجتمعا افترقا، أي أنه إذا جاء الإسلام والإيمان في جملة واحدة فإن لكل واحد معناه الذي يخصه، فالإسلام: الانقياد في الظاهر، والاستسلام لحكم الإسلام. والإيمان: هو التصديق بالقلب.

ولا يكون الإنسان مؤمنًا إلا إذا كان مسلمًا، فيجتمع فيه عمل القلب ـ وهو الإيمان ـ وعمل الجوارح وهو الإسلام، أو كما قال العلماء: القول باللسان، والتصديق بالجنان، وعمل الجوارح والأركان.

قال في الإكليل: في الآية دليل على أن الأعمال من الإيمان، وقدمنا أنّ هذا ما لا خلاف فيه بين السلف(١).

٢ ـ قال القاسمي: قال في الإكليل: في الآية رد على الكَرَّامية في قولهم إن الإيمان هو الإقرار باللسان دون عقد القلب، وهو ظاهر، وقد استوفى الرد عليهم ابن حزم في الفصل(٢).

---

(١) انظر: تفسير القاسمي ١٥/١٤٢.
من أراد مزيد بيان فليرجع إلى كتب العقيدة، كشرح الطحاوية ص ٢/٤٥٩، والإيمان لابن تيمية ص ٢٢٥.
(٢) انظر: تفسير القاسمي ١٥/١٤٠.

٣ ـ قال ابن كثير: دلَّ هذا ـ أي ما في الآية ـ على أن هؤلاء الأعراب المذكورين في الآية ليسوا بمنافقين، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم، فادعوا لأنفسهم مقامًا أعلى مما وصلوا إليه، فأدّبوا في ذلك.

ولو كانوا منافقين ـ كما ذكر بعض العلماء كالبخاري ـ لعنّفوا وفضحوا كما ذكر المنافقين في سورة براءة[1].

٤ ـ وجوب استحضار منّة الله على العبد أن وفقه لطاعته[2]، وخطورة تسرّب شيء من الشعور بمنة العبد على الله، وهذا محبط للعمل ومذهب للإيمان.

وقد يكون الشعور بالمنة على الله ـ نعوذ بالله من ذلك ـ إما بالقول أو العمل، وأخطره ما كان بالقلب لصعوبة الإحساس به ودقته وخفائه فهو أخطر من الرياء.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٤/ ٢١٩.

(٢) ذكر ابن القيم أن من شروط قبول العمل شهود المنة، أي منة الله على العبد، فلولا فضله ومنته ما كان هذا العمل، وشهود المنة يكون قبل العمل وأثناء العمل وبعده.

الدراسة
الموضوعية

الدراسة الموضوعية

تناولت في القسم الأول دراسة السورة دراسة تحليلية، شملت أسباب النزول والقراءات، وبعض أحكام التجويد، مع بيان بعض المعاني اللغوية، وإعراب بعض الآيات، وذكر بعض الأوجه البلاغية، ثم ختمت ذلك بأهم الأحكام التي وردت في السورة.

وبهذا تكون السورة قد وضّحت مدلولات آياتها ـ ولم تكن غامضة من قبل ـ وفهمت معانيها.

وبهذا أصبح الانتقال إلى دراسة السورة دراسة موضوعية مناسبًا، والفرصة مواتية.

والدراسة الموضوعية على جانب كبير من الأهمية، بل لا أعدو الحقيقة إذا قلت: إن القسم الأول ـ وهو الدراسة التحليلية ـ وسيلة لفهم الدراسة الموضوعية، وكأنه الأساس لما يأتي بعده، وبخاصة في ضوء المنهج الذي سلكته في تلك الدراسة.

وقد اشتملت السورة على عدة موضوعات، ووقفات، كل موضوع منها يحتاج إلى دراسة مستقلة، فمنها الموضوعات العقدية، ومنها التشريعات، وأخرى في السلوك والأخلاق.

وسيكون منهجي في تناول كل موضوع مرتبطًا بطبيعة ذلك الموضوع، فمنها ما سأتناوله باختصار، ومنها ما سأحاول التفصيل فيه بما يتناسب مع المقام.

مع أنني سأتحاشى الإطناب الممل والإيجاز المخل في كلا الأمرين.

وأهم الموضوعات والوقفات التي تناولتها السورة، ومن ثم سأقف معها دارسًا ومجلّيًا هي:

١ - الوحدة الموضوعية للسورة.

٢ - وقفات مع سورة الحجرات، وفي هذا المبحث سأقف ثلاث وقفات:

الوقفة الأولى: منهج للدعاة.

الوقفة الثانية: مع أسماء الله وصفاته.

الوقفة الثالثة: اللسان في ضوء سورة الحجرات.

٣ - موضوعات سورة الحجرات، وهذا أهم مباحث السورة، بل إن هذا صلب البحث وجوهره، وما عداه مكمل له ومتمّ، وقد تناولت في هذا القسم ستة موضوعات وهي:

الموضوع الأول: التقدم بين يدي الله ورسوله.

الموضوع الثاني: الأدب مع العلماء.

الموضوع الثالث: التقوى وامتحان القلوب.

الموضوع الرابع: التثبت في الأخبار.

الموضوع الخامس: الأخوة.

الموضوع السادس: الإسلام والإيمان.

ثم ختمت بخاتمة مناسبة.

الوحدة

الموضوعية

للسورة

الوحدة الموضوعية للسورة:

النظرة العجلى في السورة قد توحي لصاحبها أن هذه السورة قد اشتملت على عدة موضوعات متفرقة، ولكن النظرة المتأنية الواعية تصل بصاحبها إلى أن السورة تتناول موضوعًا واحدًا، تتفرع عنه عدة موضوعات مترابطة، حيث تجد التجانس والتلاحم يجمع بين أولها وآخرها ويؤكد ذلك وسطها.

إننا نلمس الوحدة الموضوعية للسورة من خلال معالجتها لقضايا أساسية في المجتمع المسلم، وفي مقدمتها موضوع الإيمان، الذي هو الأساس الذي جاءت من أجله السورة، ومن ثم جاءت الموضوعات الأخرى متفرعة عنه وموصلة إليه، وبيان ذلك كما يلي:

أولا: بناء الإيمان، وتصحيح المفهوم الخاطىء حوله عند بعض المسلمين، وخلطهم بين الإسلام والإيمان.

وهذه القضية تبرز في أول السورة كما في آخرها، بل في كل آية من آياتها وكل مقطع من مقاطعها.

إن الإسلام قد اتضحت معالمه، ودخل الناس في دين الله أفواجًا.

أما الإيمان بمفهومه الدقيق، ومستلزماته العملية فإنه لا يزال بحاجة إلى مزيد بيان وجلاء، ولولا ذلك لما قالت الأعراب ما قالت، ولا غرو في ذلك[1]، فإن الدين لم يكتمل إلا في حجة الوداع.

---

(١) أي لا غرو في عدم اكتماله لا في ما حدث من الأعراب.

وتبرز هذه الحقيقة إذا علمنا أن السورة نزلت متأخرة، بل في آخر العهد المدني، وقبل حجة الوداع. وإنني ألمس هذا الجانب في أول كلمة في السورة، عندما يناديهم الله - جل وعلا - بـ ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾. وقد تكرر هذا النداء عدة مرات، حيث أجد أنه في كل آية بدأت بهذا النداء ينبه إلى خصلة تنافي الإيمان، ولا يليق أن تقع من المؤمن، وكأنه يقول إنكم مؤمنون ولكن ما يقع منكم يؤثر في إيمانكم، بل قد يكون سببًا لذهاب الإيمان ﴿أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون﴾. وقد تكرر هذا النداء خمس مرات في هذه السورة.

ففي المرة الأولى ينهاهم عن التقدم بين يدي الله ورسوله، والتقدم قد يكون محبطًا للعمل، ومذهبًا للإيمان.

وفي الثانية: ينهى عن رفع الصوت فوق صوت النبي، صلى الله عليه وسلم، ويبين أن هذا خطير على إيمان صاحبه ﴿أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٢].

وفي الثالثة: يأمر بالتثبت، فإن العجلة تضعف الإيمان وتؤثر فيه ﴿فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٦]. ﴿لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٧].

وفي الرابعة والخامسة ينهى عن بعض الخصال التي لا يليق أن تصدر من المؤمن ﴿بئس الاسم الفسوقُ بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١١]. ﴿أيحبُّ أحدُكم أن يأكل لحم أخيه ميتًا فكرهتموه﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١٢]. وهل يجتمع كمال الإيمان، وأكل لحم الميتة - إلا في الضرورة - فكيف إذا كان هذا الميت

إنسانًا، وأبشع من ذلك أنه أخوه.

أرأيتم كيف جاء النداء باسم الإيمان وسيلة لتصحيح مساره، وتقويم اعوجاجه، وإكمال نقصه في نفوس بعض أولئك الذين ناداهم باسم الإيمان، وكأنه يقول: يا مؤمنون هل هذا من الإيمان؟

وبناء الإيمان في هذه السورة يأتي بأسلوب آخر - أيضًا - بل بأساليب أخر فمن ذلك:

١ - **أنه لما دعاهم** باسم الإيمان إلى التثبت ونهى عن العجلة، بين لهم مكانة وأثر رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فيهم ﴿**لو يطيعُكم في كثيرٍ من الأمر لعنتّم**﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٧]. بعد ذلك كله يلفت لفتة إيمانية عجيبة ﴿**ولكنَّ الله حبَّب إليكم الإيمان وزيَّنه في قلوبكم**﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٧]. أيُّ دعوة للإيمان أقوى من هذه الدعوة، أرأيتم كيف يعرض الإيمان مزيّنًا محبّبًا، هل يستطيع مؤمن أن يقاوم هذا الإغراء، وينصرف عن هذا التحبّب.

وفجأة ينقلنا نقلة أخرى عميقة في مدلولها، مجلجلة في إيقاعها ﴿**وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان**﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٧]. ثم يشير إشارة - باسم الإشارة للبعيد - ﴿**أولئك هم الراشدون**﴾. والراشدون هم المؤمنون.

والإشارة للبعيد لها مغزاها وأثرها في النفس، وخلجات الضمير، وكأنّه يعرض لنا الإيمان بالسهل الممتنع، وكأنّه قريب بعيد.

٢ - **ويستمر في عرض الإيمان** وبنائه بالأساليب المتعددة المؤثرة، فبعد أن ذكر ما يجب في حال اقتتال طائفتين من المؤمنين، استأنف فقال:

﴿إنما المؤمنون إخوة﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١٠]. وهل يليق بالمؤمن أن يقاتل أخاه، بل هل يليق بالمؤمن أن يرى اقتتال إخوته ويقف موقفًا سلبيًا ﴿فأصلحوا بين أخويكم﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١٠]. وإنني أرى في هذه الآية ليس مجرد الدعوة للقيام بالصلح، بل وتصحيح لمسار الإيمان ومفهومه عند كثير من المسلمين، وكأن السلبية والإيمان لا يجتمعان، فتأمل.

٣ ـ ويأتي ختام هذه السورة، مصرحًا بالحقيقة التي بدأها، بل ومحددًا لهذا المفهوم، ومستنكرًا وضع الأمور في غير مواضعها، وتسمية الأشياء بغير مسمياتها ﴿قالت الأعراب آمنًا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١٣٤]. ثم يحسم القضية حسمًا لا جدال بعده ولا لبس فيه: ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١٥]. حصر وتأكيد ثم إزالة لأي لبس أو تشكيك ﴿أولئك هم الصادقون﴾. فهم الصادقون وحدهم.

٤ ـ وأجد من المناسب أن أشير إلى أن لفظ الإيمان بتصاريفه المتعددة قد ورد في هذه السورة خمس عشرة مرة مع أن آياتها لا تتجاوز ثمان عشرة آية، فعلام يدل ذلك؟ وحاشا لله أن يأتي حرف في كتابه عبثًا أو حشوًا.

٥ ـ وأخيراً فإن آخر آية ورد فيها لفظ الإيمان، وهي الآية قبل الأخيرة من هذه السورة جاءت بدلالة مؤثرة ﴿بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١٧]. أليست هذه السورة من

أولها إلى آخرها هداية للإيمان، بل إن ختام السورة ﴿**إن الله يعلم غيب السماوات والأرض والله بصير بما تعملون**﴾. ومن حقيقة الإيمان أن نعلم ونؤمن ونوقن أن الله يعلم غيب السماوات والأرض، وأنه بصير بما نعلم وما نعمل، أليس من الإيمان أن نؤمن بالله..؟ أليس من الإيمان بالله أن نؤمن بالغيب؟ ومن الإيمان بالغيب أن نؤمن أن الله يعلم غيب السماوات والأرض، وأنه بصير بعملنا وما تخفي سرائرنا، وأنه لا تخفى عليه خافية. ألم أقل إن كل آية في هذه السورة تضع لبنة في بناء الإيمان في قلب المسلم، وهنالك يصبح مسلمًا مؤمنًا، بل ومحسنًا تقيًّا.

ثانيا: ومن معالم الوحدة الموضوعية في هذه السورة أنها جاءت لمعالجة كثير من الأخطاء التي يقع فيها المجتمع المسلم، بل تكاد أن تكون متخصصة في ذلك.

فما من مقطع من مقاطعها إلا وهو يعالج قضية من تلك القضايا، وخطأ من هذه الأخطاء.

ولا أعلم سورة من سور القرآن جاءت مستقلة في هذا الشأن، نعم جاءت آيات في كثير من السور تعالج بعض الظواهر في المجتمع المسلم، لكنها ضمن آيات أخر لموضوعات أخرى.

أما هذه السورة فكل مقاطعها في هذا الشأن ابتداء وانتهاء.

بل لم يأت أي مقطع لبيان حكم تشريعي ابتداء، كحكم الصيام أو الصلاة أو الحج، أو غيرها مما هو موجود في آيات وسور كثيرة. ونظرة إلى أسباب النزول التي سبق ذكرها تجلي هذه الحقيقة.

وإتمامًا للفائدة وإيضاحًا لهذا الأمر نقف مع آياتها ومقاطعها:

فالآية الأولى في النهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله، وقد وقع.

والآيتان (٢، ٣) في قضية رفع الصوت فوق صوت النبي، صلى الله عليه وسلم، وقد حدث من الخيِّرَيْن.

والآيتان (٤، ٥) في موضوع مناداة الرسول، صلى الله عليه وسلم، من وراء الحجرات، وعدم الانتظار حتى يخرج، وهو ما حدث من جفاة بني تميم كما سبق.

أما الآيات (٦ ـ ٨) فإنها تتناول قضية التثبت والعجلة، وسبب نزولها معروف.

والآيتان (٩، ١٠) جاءتا لمعالجة ما وقع من فتنة الاقتتال بين بعض الصحابة، وما يجب تجاه ذلك.

والآيات (١١ ـ ١٣) تناولت أمورًا مهمة حدثت من بعض أفراد المجتمع المؤمن كالسخرية، واللمز والتنابز، وسوء الظن، والتجسس، والغيبة، والتفاخر بالأنساب.

وآخر المقاطع يشتمل على الآيات (١٤ ـ ١٧) فهي في قضية الإيمان والإسلام وأعراب بني أسد.

أما الآية (١٨) فإنها الضمانة لتلافي كلّ ما حدث، وما قد يحدث، فالإيمان بعلم الله وإحاطته، ورؤيته لعباده وما يعملون، كفيلٌ بأن يجعل بين المؤمن وبين هذه الأمور التي سبق النهي عنها سياجًا واقيًا وحصنًا مانعًا.

ثالثا: من دلائل الوحدة الموضوعية في هذه السورة، ما ذكره الأستاذ سيد قطب ـ رحمه الله ـ في مقدمة تفسير السورة حيث قال:

وأول ما يبرز للنظرة عند مطالعة السورة، هو أنها تكاد تستقل بوضع

معالم كاملة، لعالم رفيع كريم نظيف سليم، متضمنة القواعد، والأصول، والمبادىء، والمناهج التي يقوم عليها هذا العالم، والتي تكفل قيامه أولاً، وصيانته أخيرًا.

عالم يصدر عن الله، ويتجه إلى الله، ويليق أن ينتسب إلى الله.

عالم نقي القلب نظيف المشاعر، عفّ اللسان، وقبل ذلك عفّ السريرة.

عالم له أدب مع الله، وأدب مع رسوله، وأدب مع نفسه، وأدب مع غيره، أدب في هواجس ضميره، وفي حركات جوارحه، وفي الوقت ذاته له شرائعه المنظمة لأوضاعه، وله نظمه التي تكفل صياغته، وهي شرائع ونظم تقوم على ذلك الأدب، وتنبثق منه، وتتسق معه، فيتوافى باطن هذا العالم وظاهره، وتتلاقى شرائعه ومشاعره، وتتوازن دوافعه وزواجره، وتتناسق أحاسيسه وخطاه، وهو يتجه ويتحرك إلى الله(١).

رابعا: إن من ملامح الوحدة الموضوعية في هذه السورة حديثها عن القلب، بل بناؤها للقلب العامر بالتقوى والإيمان، والتقوى درجة أعلى من الإيمان، لأن التقوى هي الإحسان، والإحسان كما في حديث جبريل غير الإيمان وأخصّ منه.

وهذه السورة يبرز فيها هذا الجانب من أول آية فيها حيث قال: **﴿واتقوا الله﴾** إلى آخر آية فيها، وهي قوله ـ تعالى ـ: **﴿إن الله يعلم غيب السماوات والأرض والله بصير بما تعملون﴾**. [سورة الحجرات، الآية: ١٨].

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٣٥.

والإحسان كما في حديث جبريل: «**أن تعبد الله كأنَّك تراه فإن لم تكن تراه فإنـه يراك**»[١]. وهذه حقيقة التقوى، ومكانها القلب «**التقوى ههنا**»[٢] ويشير إلى صدره، صلى الله عليه وسلم.

وبـين أوّل السـورة وآخـرهـا جاءت الآيات في عدة مواضع آمرة بالتقوى تصريحًا وتلميحًا، ومعتنية في بناء هذا القلب بناء لا تزعزعه المحن والأحداث.

كما جاءت الآيات لإزالـة جميع العـوائق التي تحول بين صفـاء القلوب، ونقائها، كالسخرية واللمز، والتنابز، والغيبة، والتجسس.

بل جاءت آمرة بتخليص القلوب مما قد يشوبها في داخلها فيفسد تقواها، كسوء الظن، والتفاخر، والمنة على الله، وكفى بها مفسدة للقلوب ومدمّرة لها.

خامسا: ممن أشار إلى الوحدة الموضوعية للسورة من المفسرين قديمًا الرازي[٣] حيث قال: هذه السورة فيها إرشاد المؤمنين إلى مكارم الأخلاق، وهي إما مع الله ـ تعالى ـ أو مع الرسول، صلى الله عليه وسلم، أو مع غيرهما من أبناء الجنس، وهم على صنفين، لأنهم إمّا أن يكونوا على طريقة

---

(١) أخرجه مسلم (١/٣٦، ٣٧) كتاب الإيمان، رقم (٨)، والترمذي (٥/٨)، كتاب الإيمان، رقم (٢٦١٠). وأبو داود (٤/٢٢٣) كتاب السنة، رقم (٤٦٩٥) وغيرهم.

(٢) أخرجه مسلم (٤/١٩٨٦) كتاب البر والصلة رقم (٥٦٤). والترمذي (٤/٢٨٦، ٢٨٧) كتاب البر والصلة، رقم (١٩٢٧).

(٣) ونقله عنه القاسمي في تفسيره ١٥/١٤٦، وانظر: تفسـير الرازي سورة الحجرات ٢٧/١١٨.

المؤمنين وداخلين في رتبة الطاعة أو خارجًا عنها، وهو الفاسق.

والداخل في طائفتهم، السالك لطريقتهم، إما أن يكون حاضرًا عندهم أو غائبًا عنهم، فهذه خمسة أقسام.

أحدها: يتعلق بجانب الله ـ جل وعلا ـ.

ثانيها: يتعلق بجانب الرسول، صلى الله عليه وسلم.

ثالثها: بجانب الفسَّاق.

رابعها: بالمؤمن الحاضر.

خامسها: بالمؤمن الغائب.

فذكرهم الله ـ تعالى في هذه السورة خمس مرات: ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾ وأرشدهم في كل مرة إلى مكرمة، مع قسم من الأقسام الخمسة فقال أولاً: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تقدّموا بين يدي الله ورسوله**﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١]. وذكر الرسول، صلى الله عليه وسلم، كان لبيان طاعة الله، لأنها لا تعلم إلا بقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم. وقال ثانيًا: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي**﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٢]. لبيان وجوب احترام النبي، صلى الله عليه وسلم.

وقال **ثالثًا**: ﴿**يا أيّها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ**﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٦]. لبيان وجوب الاحتراز عن الاعتماد على أقوالهم، فإنهم يريدون إلقاء الفتنة بينكم، وبيّن ذلك عند تفسير قوله: ﴿**وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا**﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٩].

وقال **رابعًا**: ﴿**يا أيّها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم**﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١١]. وقال: ﴿**ولا تنابزوا**﴾. لبيان وجوب ترك إيذاء

المؤمنين في حضورهم، والازدراء بحالهم ومنصبهم.

وقال خامسًا: ﴿يا أيّها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظنّ إن بعض الظنّ إثم﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١٢]. وقال: ﴿ولا تجسَّسوا﴾. وقال: ﴿ولا يغتب بعضُكم بعضًا﴾. لبيان وجوب الاحتراز عن إهانة جانب المؤمن حال غيبته، وذكر ما لو كان حاضر التأذّي. وهو في غاية الحسن من الترتيب.

فإن قيل: لِمَ لَمْ يذكر المؤمن قبل الفاسق[١]؟ لتكون المراتب متدرجة، الابتداء بالله ورسوله، ثم بالمؤمن الحاضر، ثم بالمؤمن الغائب، ثم بالفاسق؟

نقول: قدّم الله ما هو الأهم على ما دونه، فذكر جنب الله، ثم ذكر جانب الرسول، صلى الله عليه وسلم، ثم ذكر ما يفضي إلى الاقتتال بين طوائف المسلمين بسبب الإصغاء إلى كلام الفاسق، والاعتماد عليه، فإنه يذكر كل ما كان أشدّ نفارًا للصدور.

وأما المؤمن[٢] الحاضر أو الغائب فلا يؤذي المؤمن إلى حدّ يفضي إلى القتل، ألا ترى أن الله ـ تعالى ـ ذكر عقيب نبأ الفاسق آية الاقتتال، فقال: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٩][٣].

---

(١) ليس من باب الاعتراض أو الاقتراح ـ حاشا ـ ولكنه تساؤل قد يطرأ على بعض الأذهان، أو تستحسنه بعض الأفهام. فأجاب عنه.

(٢) لعلها: وأما ذكر المؤمن.

(٣) انظر: تفسير الرازي ٢٧/١١٨، وتفسير القاسمي ١٥/١٤٦.

هذه أبرز ملامح الوحدة الموضوعية في هذه السورة، وهذا التصور للوحدة الموضوعية فيها يسهل علينا فهمها وتناول موضوعاتها، ضمن سياق متناسق متجانس، يكمل بعضه بعضًا.

ومن هذا المنطلق سأتناول موضوعات هذه السورة ـ كما أسلفت ـ.

ولكنني سأتناولها وأنا أنظر إليها وكأنها نزلت هذا اليوم، تعالج قضايانا، وتعايشنا في شؤوننا وشجوننا، وتهدي أمتنا الحائرة، وتعيدها إلى رشدها وسبيل نجاتها.

ولن أستطيع أن أحقق ذلك إلا بالالتزام بأمرين:

أحدهما: أن أنطلق في تفسيرها من منطلق سلفنا الصالح ـ رضوان الله عليهم ـ في فهم آياتها، وبيان معانيها، وإدراك مدلولاتها، وعدم تحميل الآيات ما لا تحتمل.

وأحسب أن القسم التحليلي أصل في تحقيق هذا الجانب.

ثانيهما: ربط الواقع الذي نعيشه بمدلولاتها، وتنزيل الأحوال في مواضعها، وتقويم اعوجاج حاضرنا في ضوء هداياتها وأنوارها، وأن ندرك أن الترقيع لا يفيد، فقد اتسع الخرق على الراقع، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، ولم يصلح أولها إلا في الالتزام بكتاب الله وسنة رسوله، صلى الله عليه وسلم، بدءًا وانتهاء، وهو ما سأحاول تجليته وبيانه، ليكون منهجًا للسائرين، ونبراسًا للحائرين، وحجة على المخالفين والمعاندين، والله يتولى الصالحين.

وقفات مع سورة الحجرات

- منهج الدعـاة
- مع أسمـاء الله وصفاتـه
- اللسان في ضوء سورة الحجرات

الوقفة الأولى: منهج للدعاة:

هذه السورة تشتمل على كثير من الأوامر والنواهي، وقد استوقفني فيها بدؤها بـ ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾. بل وتكرار ذلك عدة مرات حيث بلغت خمسًا.

إنـه النـداء المحبَّب إلى النفوس، النداء من الخالق للمخلوقين، النداء من فاطر السماوات والأرض يخاطب عباده بأحبِّ الأسماء إليهم، إنه اسم الإيمان.

إنه ـ سبحانه ـ وهو يعاتبهم، ويأمرهم وينهاهم، يناديهم نداءً يفتح القلوب المغلقة، والنفوس المعرضة، حتى لا تملك إلا أن تستجيب طائعة مختارة.

إنهم وهم يتقدمون بين يديه ـ سبحانه ـ وبين يدي رسوله، صلى الله عليه وسلم، وكفى به معصية، وحسبك به جرمًا، ومع ذلك ﴿يا أيّها الذين آمنوا لا تقدّموا بين يدي الله ورسوله﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١].

وحين ترتفع الأصوات عند الحبيب محمد، صلى الله عليه وسلم، ويتأذى بذلك يناديهم ربهم ﴿يا أيّها الذين آمنوا﴾.

وعندما تأخذ العجلة بعض النفوس المتحمسة لهذا الدين ويقترحون على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أمورًا قد تكون عواقبها وخيمة، ونتائجها مخيفة، يعاتبهم خالقهم ويوجههم بـ ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾.

وهم يسخرون ويلمزون ويتنابزون بالألقاب يؤدبهم ربهم بـ ﴿يا أيّها الذين آمنوا﴾.

كذلك والظن السيىء يغشى بعض القلوب الضعيفة، والتجسس يقع من بعض العيون والآذان المريضة، والغيبة تنطق بها ألسنة ساهية، يبين لهم حكم هذه المثالب مصدّرًا ذلك بـ ﴿يا أيّها الذين آمنوا﴾ علام يدلّ ذلك، إنه يرسم منهجًا للدعاة، ويضع أسسًا للآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر.

إننا لن نسع الناس بأموالنا، ولكننا قد ننقذ الناس بأخلاقنا.

أين كثير من الدعاة عن هذا الأسلوب القرآني، والتوجيه الرباني؟

الخالق الرازق الغني عنّا وعن غيرنا، مالك الملك شديد العقاب، ذي الطول، ينادينا ليقوّم اعوجاجنا ويقيلنا من عثراتنا، ويهذّب سلوكنا، ويكون ذلك بأحب الأوصاف والألقاب إلينا.

وبعض الغيورين على دينهم - والله أغير منهم - يخاطبون الناس بالغلظة والجفاء، وينادونهم بما تشمئز منه نفوسهم، وتأباه آذانهم.

والذي نفسُه بغير جمالٍ لا يرى في الوجودِ شيئًا جميلاً

أنت فينا النصوحُ فارفق جزاك الله خيراً فالرفقُ أهدى سبيلاً[1]

أين هؤلاء من المنهج الرباني، الذي نراه بارزًا في الكتاب والسنة مما يعدو على الحصر ويعلو على القصر، ولكن أشير إليه إشارة توقظ النائمين، وتنبه الغافلين، وتكون دليلاً للدعاة الصادقين:

---

(١) آداب النصيحة للقرني ص ٨.

١ ـ أرسل الله موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ إلى أفجر الناس في زمانه، من ادَّعى الألوهية، وأجبر الناس على عبادته، وقال: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾. [سورة النازعات، الآية: ٢٤]. فبماذا أمر الله موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ؟

هل أمرهما بإطلاق النار عليه وإردائه قتيلاً؟

أو أمرهما بتعنيفه وتغليظ القول له تهديدًا ووعيدًا؟

لا هذا ولا ذاك، وإنما قال لهما ـ سبحانه ـ: ﴿اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولاً ليِّنًا لعله يتذكر أو يخشى﴾. [سورة طه، الآيتان: ٤٣، ٤٤]. ثم ماذا؟ ﴿فأتياه فقولا إنَّا رسولا ربِّك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذِّبهم قد جئناك بآيةٍ من ربِّك والسلامُ على من اتَّبع الهدى﴾. [سورة طه، الآية: ٤٧].

وماذا بعد ذلك؟

﴿إنا قد أُوحي إلينا أنّ العذابَ على من كذَّب وتولى﴾. [سورة طه، الآية: ٤٨].

أرأيتم هذا الخطاب وهذه المخاطبة؟ أي لين بعد هذا اللين؟

﴿إنّا رسولا ربك﴾. [سورة طه، الآية: ٤٧]. ﴿جئناك بآية من ربك﴾. ﴿والسلام على من اتَّبع الهدى﴾. ﴿أن العذاب على من كذَّب وتولَّى﴾. ولم يقولا: إنَّ العذاب عليك إن كذَّبت وتولَّيت؟

إنه أسلوب يأخذ بالألباب، ولذلك لم يجد فرعون ـ الطاغية، ومدّعي الألوهية، ومقتّل بني إسرائيل ـ لم يجد أمام هذا الأسلوب الرائع إلا أسلوب الحوار، والمجادلة بالتي هي أحسن، وإن كان لم يؤمن، لكنه

استسلم وأنصف من نفسه في حواره ولو ظاهرًا ﴿فمن ربّكما يا موسى﴾. [سورة طه، الآية: ٤٩]. إلى آخر الآيات كما في سورة طه.

إذا كان هذا الأسلوب أثّر في فرعون، ومن هو فرعون، ولا أقصد تأثير الإيمان، ولكن في أسلوب الرد عليهما ومحاورتهما ومنازلة موسى بعد ذلك، ولم يستخدم جبروته وطغيانه، كما هو منهجه في حياته، وهو ما سلكه بعد ذلك، بعد أن قامت الحجة عليه.

ولقد جاء رجل واعظ ودخل على المأمون(١) الخليفة العباسي، فقال له الواعظ: يا أمير المؤمنين إني واعظك لكني مشدد عليك.

فقال له المأمون: والله لا أسمع لك، فقد أرسل الله من هو خير منك إلى من هو شرّ مني فقال لهما: ﴿اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولاً ليّنًا لعلّه يتذكّر أو يخشى﴾(٢). [سورة طه، الآيتان: ٤٣، ٤٤].

٢ ـ **وصالح ـ عليه السلام ـ** يخاطب قومه قائلاً: ﴿ونصحتُ لكم ولكن لا تحبون الناصحين﴾. [سورة الأعراف، الآية: ٧٩].

٣ ـ **ورسول الله، صلى الله عليه وسلم**، يثن عليه ربه فيقول: ﴿فبما رحمة من الله لِنْتَ لهم ولو كنتَ فظًّا غليظَ القلب لانفضّوا من حولك

---

(١) وقيل أن القصة مع عبدالملك بن مروان.

(٢) انظر: آداب النصيحة ص ٣١، وأشير إلى أن موسى عليه السلام، عندما استخدم جميع الوسائل والأساليب مع فرعون، ولم تجد معه شيئًا، ثم أساء فرعون بقوله: ﴿إني لأظنك يا موسى مسحورًا﴾ رد عليه موسى ردًّا يناسبه: ﴿وإني لأظنك يا فرعون مثبورًا﴾. ولكل مقام مقال فليعلم.

فاعفُ عنهم واستغفر لهم وشاوِرْهم في الأمر﴾. [سورة آل عمران، الآية: ١٥٩].

ويقول ـ سبحانه ـ: ﴿وإنك لعلى خُلُقٍ عظيم﴾. [سورة القلم، الآية: ٤]. ويقول: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيزٌ عليه ما عنتّم حريصٌ عليكم بالمؤمنين رؤوفٌ رحيم﴾. [سورة التوبة، الآية: ١٢٨].

٤ ـ وقال ـ سبحانه ـ: ﴿ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾. [سورة النحل، الآية: ١٢٥].

٥ ـ ويأمرنا الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن نردّ على من أساء إلينا بالتي هي أحسن ﴿ادفع بالتي هي أحسن﴾. [سورة فصلت، الآية: ٣٤]. وماذا تكون النتيجة؟ ﴿فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنَّه وليٌّ حميم﴾. [سورة فصلت، الآية: ٣٤]. إذا كان هذا هو أمثل أسلوب في مواجهة من أساء إلينا، فماذا يكون الأسلوب في مخاطبة من نريد أن نحسن إليه وندعوه إلى دين ربه، وننقذه مما هو فيه؟

ولكن صدق الله العظيم ﴿وما يلقَّاها إلاّ الذين صبروا وما يُلقَّاها إلا ذو حظٍّ عظيم﴾. [سورة فصلت، الآية: ٣٥].

٦ ـ قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «إنما بعثتم ميسِّرين ولم تبعثوا معسِّرين»[١].

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٢/٧) كتاب الأدب. وأبو داود (١٠٣/١) كتاب الطهارة رقم (٣٨٠). والترمذي (٢٧٥/١، ٢٧٦) كتاب الطهارة، رقم (١٤٧). وأحمد (٢٣٩/٢، ٢٨٢).

وقال صلى الله عليه وسلم: «يسِّرا ولا تُعسِّرا، وبشِّرا ولا تنفِّرا» (١).

وقال صلى الله عليه وسلم: «ما وجد الرفق في شيء إلا زانه، وما نُزع من شيء إلا شانه» (٢).

والأحاديث في هذا كثيرة جدًّا.

ومن هنا فإن على الدعاة أن يستحضروا المنهج الرباني في دعوتهم ومخاطبتهم للناس.

أليسوا مبلّغين عن الله؟

ماذا يريدون؟ أيريدون هداية الناس أم تنفيرهم؟ كيف يكون التاجر أقدر منا على تسويق بضاعته، تأملوا في أخلاقه وأسلوبه ومعاملته للناس. ولا حجة لمن يقول إن الناس أساؤا إليّ، إننا لا ننتظر ممن أساء إلى ربه أن يحسن إلينا، بل إن الناس لا يقبلون الإساءة من الداعية ولو أساؤا إليه.

إن منهج سورة الحجرات لا يدع مجالاً لمتأوّل أو مكابر.

فليس أسلوب النداء باسم الإيمان هو الأسلوب الوحيد في هذه السورة، فها هو عندما دعاهم إلى التثبت عند خبر الفاسق، ولفت نظرهم

---

(١) أخرجه البخاري (٤/٢٦) كتاب الجهاد. ومسلم (٣/١٣٥٩) كتاب الجهاد، رقم (١٧٣٣).

(٢) أخرجه مسلم (٤/٢٢٠٤) كتاب البر والصلة، رقم (٢٥٩٤) وأبو داود (٤/٢٥٥) كتاب الأدب، رقم (٤٨٠٨).

إلى وجـود الـرسول، صلى الله عليه وسلم، بينهم، وهي نعمة تستحق الشكر والعرفان، يقول لهم: ﴿ولكنّ الله حبّب إليكم الإيمان وزيّنه في قلوبكم﴾. إنه أسلوب يأخذ بمجامع القلوب ويفتح مغاليقها ﴿حبّب﴾ ﴿زيّن﴾ وأين ﴿في قلوبكم﴾، ثم ماذا ﴿وكـرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان﴾. ومن لم يؤثر فيه الأسلوب الأول فسيؤثر فيه الأسلوب الثاني ﴿ومن يُضْلِلِ الله فما له من هاد﴾. [سورة الرعد، الآية: ٣٣]. وهل انتهت هذه الأساليب الجميلة في معالجة قضية واحدة؟ لا، بل ﴿فضلاً من الله ونعمة﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٨]. وهذا له دلالته ومراميه.

وأختم هذه الوقفة بما ثبت عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ عندما سئلت عن خُلق رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فأجابت: «كان خلقه القرآن»(١).

فهذا القرآن بين أيدينا فلنتخلّق بأخلاق القرآن، فإبراهيم ـ عليه السلام ـ نادى أبـاه ـ وهـو مشرك ـ يدعوه فيه إلى الإيمان: ﴿يا أبت﴾ وكرّرها عدة مرات مما يلين الصخر ويفلق الحجر.

ولقـمان يقـول لابنه وهو يعظه: ﴿يا بني﴾ مرات عديدة، وبينهما فلتكن دعـوتنا، وبمثل هذا الأسلوب نبلغ رسالتنا: ﴿وأنا لكم ناصح أمين﴾. [سورة الأعراف، الآية: ٦٨].

---

(١) أخرجه مسلم (١/٥١٣) كتاب صلاة المسافرين، رقم (٧٤٦) وأبو داود (٢/٤٠) كتاب الصلاة، رقم (١٣٤٢). والنسائي (٣/١٩٩) كتاب قيام الليل، رقم (١٦٠١).

الوقفة الثانية: مع أسماء الله:

أغلب سور القرآن الكريم، نجد في ختام كثير من آياتها بعض أسماء الله ـ تعالى ـ كقوله: ﴿والله سميع عليم﴾. ﴿إن الله غفور حليم﴾. ﴿إن الله غفور رحيم﴾. ﴿ذلك تقدير العزيز العليم﴾. ﴿إن الله كان سميعًا بصيراً﴾. ﴿إن الله كان عزيزًا حكيمًا﴾. ﴿إن ربك حكيم عليم﴾. إلى غير ذلك من أسماء الله ـ تعالى ـ.

وفي هذه السورة ختمت بعض الآيات ببعض أسماء الله الحسنى وهي: ﴿إن الله سميع عليم﴾. في الآية الأولى ﴿وهو غفور رحيم﴾. في الآية الخامسة، وفي الآية الثامنة ﴿والله عليم حكيم﴾. و﴿إن الله تواب رحيم﴾ في الآية الثانية عشرة، و﴿إن الله عليم خبير﴾ في الآية الثالثة عشرة، وفي الآية الرابعة عشرة: ﴿إن الله غفور رحيم﴾. أما الآية السادسة عشرة فجاءت هكذا ﴿والله بكل شيء عليم﴾. وختمت السورة بـ ﴿والله بصير بما تعملون﴾.

ومن الملحوظ أن كثيرًا من الناس يقرأ هذه الآيات في كتاب الله، ولا يقف عند سرّ ختامها بهذه الأسماء الحسنى.

بل إن الكثير ممن يقرأ القرآن، قد يخلط في هذه الأسماء ـ بدون عمد ـ فيضع «الرحيم» بدل «الحليم» أو «البصير» بدل «الخبير»، ويقرأ ﴿وكفى بالله شهيدًا﴾ مكان ﴿وكفى بالله عليمًا﴾. وهكذا، والسبب في ذلك عدم فهم مدلولات هذه الأسماء، وعلاقة ذلك بالآيات التي ختمت بها، مما يسمّيه العلماء «سر تذييل الآية» حتى إن الشيطان قد يوسوس

للبعض بأن ختام هذه الآية بهذه الأسماء أو تلك لا يغيّر من الأمر شيئًا، وكأنها جاءت مصادفة، حاشا لله من ذلك، وتعالى الله عما يوسوس الشيطان علوًّا كبيرًا.

ولأهمية هذه القضية أحببت أن أقف هذه الوقفة وبخاصة أن قرابة نصف آيات هذه السورة ختمت بأسماء الله الحسنى، وقد بلغت ثمانية أسماء، كرِّر بعضها عدة مرات، ومجموعها (١٤) اسمًا.

وسأجعل هذه الوقفة ضمن عناصر متسلسلة ليسهل تحقيق المراد، والوصول إلى الغاية.

١ - قال الله - تعالى -: ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذرُوا الذين يُلحِدون في أسمائه سيُجْزَوْن ما كانوا يعملون﴾. [سورة الأعراف، الآية: ١٨].

إن توحيد الأسماء والصفات، أحد أقسام التوحيد المعروفة، وله شأن عظيم في عقيدة المسلم وإيمانه، ولذلك تهدد الله أولئك الذين يلحدون في أسمائه، بالجزاء في الآخرة، وجزاؤهم جهنّم وساءت مصيرًا، ولذلك لما قال المشركون وما الرحمن، إنّه يدعو إلـهين ردّ الله عليهم فأنزل: **﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيًّا ما تدعوا فله الأسماءُ الحسنى﴾**. [سورة الإسراء، الآية: ١١٠]. فكلها أسماؤه - جل وعلا - ولذلك ثبت عن المصطفى، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: **«إن لله تسعة وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة»**(١).

---

(١) أخرجه البخاري (١٦٩/٨) كتاب التوحيد. والترمذي (٤٩٦/٥) كتاب الدعوات، رقم (٣٥٠٧).

٢ - إن أسماء الله - جل وعلا - كلها لمسمى واحد، هو الله سبحانه، ولكن كل اسم منها يدل على صفة من صفاته تنزه وتقدس، فالسميع يدل على السمع، والبصير يدل على البصر، والعليم يدل على العلم، والحليم يدل على الحلم، والغفور يدل على المغفرة، والكريم يدل على اتصافه بالكرم - سبحانه وتعالى - وهكذا بقية الأسماء له سبحانه.

٣ - إن الإيمان بأسماء الله - عز وجل - وصفاته لا يتم على الوجه الصحيح إلا أن ينبني الفهم فيها على أسس مهمة ذكرها الشيخ الشنقيطي - رحمه الله - حيث قال: نوصيكم وأنفسنا بتقوى الله، وأن تلتزموا بثلاث آيات من كتاب الله:

الأولى: ﴿ليس كمثله شيء﴾. [سورة الشورى، الآية: ١١]. فنزِّهوا ربّ السماوات والأرض عن مشابهة الخلق.

الثانية: ﴿وهو السميع البصير﴾. [سورة الشورى، الآية: ١١]. فتؤمنوا بصفات الجلال والكمال الثابتة بالكتاب والسنة على أساس التنزيه كما جاء ﴿وهو السميع البصير﴾. بعد قوله: ﴿ليس كمثله شيء﴾.

الثالثة: أن تقطعوا أطماعكم عن إدراك حقيقة الكيفية، لأن إدراك حقيقة الكيفية مستحيل، وهذا نص الله عليه في سورة طه حيث قال - تعالى -: ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علمًا﴾[1]. [سورة طه، الآية: ١١].

إن ما ذكره العلامة الشنقيطي أصل وقاعدة وأساس لفهم أسماء الله

(١) انظر: رسالة «إن ربك حكيم عليم» للشيخ عبدالعزيز الجليل ص ٧.

وصفاته، ومن ثم تحول هذا الفهم إلى إيمان وعمل.

٤ - إن من أعظم ثمار معرفة أسماء الله - جل وعلا - والإيمان بها هو الفهم الصحيح لمدلولاتها، والتجاوب مع هذا الإيمان وهذا الفهم، بحيث لا تصبح مجرد فهوم ذهنية لا رصيد لها في واقع الحياة على الفرد والأمة.

إن معرفة الاسم، ومن ثم معرفة الصفة تجعل المسلم يتجاوب مع تلك الحقائق ويتأثر بها، إنه لابد من العلم الذهني، والإيمان القلبي، والتفاعل الواقعي، ماذا يفيد معرفة إن الله هو الرزاق، وهو يطلب الرزق من غيره، ويعلم أنه العزيز القوي الجبار، ويطلب العزة من سواه، ويدرك أنه السميع البصير العليم، ولا يستحي منه - جل وعلا - في صغيرة ولا كبيرة، ويقول إنه الواحد وصفته الوحدانية، ويشرك معه في الطاعة والعبادة، وغير ذلك من أنواع الشرك من الأحياء والأموات.

ولذلك يقول ابن القيم - رحمه الله -:

والأسماء الحسنى والصفات العلى مقتضية لآثارها من العبودية والأمر، اقتضاءها لآثارها من الخلق والتكوين، فلكل صفة عبودية خاصة، هي من موجباتها ومقتضياتها، أعني من موجبات العلم بها والتحقق بمعرفتها.

وهذا مطرد بجميع أنواع العبودية التي على القلب والجوارح، فعلم العبد بتفرد الرب - تعالى - بالضر والنفع، والعطاء، والمنع، والخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة، يثمر له عبودية التوكل عليه باطنًا، ولوازم التوكل وثمراته ظاهرًا.

وعلمه بسمعه - تعالى - وبصره، وعلمه أنه لا يخفى عليه مثقال ذرة

في السماوات ولا في الأرض، وأنه يعلم السرّ وأخفى، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، يثمر له حفظ لسانه وجوارحه وخطرات قلبه عن كل ما لا يرضي الله، وأن يجعل تعلق هذه الأعضاء بما يحبه الله ويرضاه، فيثمر له ذلك الحياة باطنًا، ويثمر له الحياة اجتناب المحرمات والقبائح.

ومعـرفته بغناه وجوده وكرمه وبرّه وإحسانه ورحمته توجب له سعة الرجاء، ويثمر له ذلك من أنواع العبودية الظاهرة والباطنة بحسب معرفته وعلمه.

وكـذلـك معـرفتـه بجـلال الله وعـظمتـه وعـزّه تثمر له الخضوع والاستكـانـة والمحبة، وتثمر له تلك الأحوال الباطنة أنواعًا من العبودية الظاهرة هي من موجباتها.

وكـذلـك علمه بكماله وجماله وصفاته العلى يوجب له محبة خاصة بمنزلة أنواع العبودية.

فرجعت العبودية كلها إلى مقتضى الأسماء والصفات، وارتبطت بها ارتباط الخلق بها، فخلقه - سبحانه - وأمره هو موجب أسمائه وصفاته في العالم وآثارها ومقتضاها[١].

وهـذا البيـان من العلامة ابن القيم يدل على أهمية تأمّل الأسماء والصفات والإيمان بها بعد العلم بها، ومن ثم يتحول الإيمان والعلم بها إلى قوة مؤثرة في حياة المسلم، فهي قوة مانعة ودافعة، دافعة إلى الخير والعمل الصالح، ومانعة من الشر ومهاوي الردى.

---

(١) انظر: مفتاح دار السعادة ص ٤٢٤، ورسالة: «إن ربك حكيم عليم» للجليل ص ٩.

٥ ـ من المؤسف أن تحول هذا النوع من أنواع التوحيد إلى جدل كلامي، وبحوث فلسفية.

فأصبحت أكثر المؤلفات التي تتناول الأسماء والصفات مليئة بالمناقشات الكلامية، مع الأشاعرة والمعتزلة والجهمية، دون أن تجد وقوفًا إيمانيًا وتربويًا حول مدلولاتها وآثارها، إلا في النزر اليسير.

ومن ثم انتقل هذا الأسلوب إلى الذين يدرّسوه ويدرّسون أنواع التوحيد، مع أنهم يتلقّونها في ضوء منهج أهل السنة والجماعة.

إنني لا أقلل من أهمية تناول الأسماء والصفات كما تناولها كثير من السلف، بل إن ذلك من أهم الواجبات، وكيف نجد آثارها قبل إثباتها، إننا يجب أن نثبت لله ما أثبته لنفسه، من الأسماء والصفات، وما أثبته له رسوله، صلى الله عليه وسلم، وننفي عنه ما نفاه عن نفسه وما نفاه عنه رسوله، صلى الله عليه وسلم، وقد يقتضي ذلك الوقوف مع أهل البدع الذين خرجوا عن منهج السلف، وأوّلوا في أسماء الله وصفاته، وأن نردّ على شبههم وما أحدثوه فيها وحولها.

ولست مع الذين يطالبون بإلغاء دراسة الفرق المخالفة لأهل السنة والجماعة، فإن معرفة الشرّ وسيلة لاتقائه، فحذيفة ـ رضي الله عنه ـ كان يسأل رسول الله، صلى الله عليه وسلم. عن الشر مخافة الوقوع فيه[1]، وروي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: لا يعرف الإسلام من لا يعرف الجاهلية. ولكنني أرى

---

(١) أخرجه البخاري (٨/٩٣) كتاب الفتن. ومسلم (٣/١٤٧٥) كتاب الإمارة، رقم (١٨٤٧).

أن الإغراق في هذا الأمر يخرج عن الهدف الذي دخل فيه من أجله.

وكذلك لابد من تناول الجانب الإيماني في الأسماء والصفات، والجانب العملي لها، بعد إثباتها لله كما أثبتها لنفسه وأثبتها له رسوله، صلى الله عليه وسلم.

ولذلك نجد أن منهج الأسماء والصفات في القرآن هو الإثبات المفصل والنفي المجمل ـ كما قال شيخ الإسلام ـ ولم يأت النفي المفصل إلا في مواضع قليلة لها أسبابها. ومن هنا فإن منهج السلف كان في ضوء ذلك، وأغلب الذين ألّفوا منهم سلكوا هذا المنهج، كالإمام أحمد بن حنبل، وابن أبي عاصم، واللالكائي وغيرهم من الأعلام.

وأما ما سلكه شيخ الإسلام(١) ـ رحمه الله ـ فله أسبابه ودواعيه(٢)، ولقد أثرى المكتبة الإسلامية بما لم يأت به أحد قبله ولا بعده إلى يومنا الحاضر، فهو ممن حرر منهج أهل السنة تحريرًا كاملًا، وبينه وبسطه بما لا ينكره إلا مكابر، ولا يجحده إلا معاند.

وهذه قضية آمل أن يصرف لها العلماء اهتمامهم وعنايتهم، ويفردوها بالتأليف والبحث كما أفرد غيرها.

---

(١) أي في بعض مؤلفاته لا كلها، بل له عدد من الرسائل والكتب في تأصيل منهج أهل السنة والجماعة، وبيان أنواع التوحيد.

(٢) من ذلك انتشار المدارس الكلامية في زمانه، وتأثيرها على الناس، وكذلك فأغلب ما كتب في هذا الجانب كان إجابة لسؤال، أو معالجة لقضية واقعة، ولم يسلك هذا المنهج ابتداء بدون سبب فرحمه الله وجزاه عنا وعن الإسلام خير الجزاء.

وكذلك فإن على المربّين والمعلمين والدعاء مسئولية خاصة في إبراز هذا الجانب وتأصيله(١).

٦ - **إن دراسة توحيد الأسماء والصفات**، في ضوء منهج السلف الصالح ينقلنا إلى الأفق الواسع، والميدان الرحب لمفهوم أهل السنة والجماعة، ويعطينا الأبعاد الحقيقية لمعنى (السلفية).

إن مفهوم (السلفية) قد ضاق في أذهان كثير من المنتسبين إليها، ومن ثم تشوشت عقول وأفهام كثير ممن لا يعرفونها، ولا ينتسبون إليها حق الانتساب.

إن المفهوم الواعي لمعنى السلفية هو ما يعبر عنه الشيخ عبدالعزيز الجليل عندما يقول:

إن السلفية الحقة لا تقبل أن تستهدف الدعوة في بعض المواقع تحرير العقائد من شرك الأموات والتمائم، وتضرب صفحًا عن شرك الأحياء والأوضاع والنظم، والتي لا تقلّ خطرًا عن شرك الأصنام، وكلا الشركين خطير.

كما لا تقبل السلفية الحقة أن تحارب التشبيه والتعطيل في صفات الله - عز وجل - وتقف عند ذلك، ولا تعلن الحرب على تعطيل الشريعة وتحكيم القوانين الوضعية، وفصل الدين عن الدولة.

وإننا بهذا المنهج الشامل والسلفية (الواعية) نسلم وتسلم عقيدتنا الثابتة من أي خلط أو اهتزاز، كما هو الحاصل في هذه الأيام، ولكنها

---

(١) انظر: رسالة: «إن ربك حكيم عليم» ص ١١ ولقد أجاد وأفاد وفقه الله.

الفتن، نعوذ بالله منها، ما ظهر منها وما بطن[1].

بل قد وصل الأمر في تضييق مفهوم (السلفية) وتحجيم (منهجها) أي منهج أهل السنة والجماعة، إلى أن يُرمى من يريد عرض منهج السلف في ضوء الكتاب والسنة، وأن يقرر التوحيد بأنواعه الثلاثة، ويدعو الناس إلى ألّا يفرّقوا بين توحيد وتوحيد، فكلها من لوازم الإيمان، والخروج عن أي واحد منها من نواقض الإسلام، ومع ذلك تجد من يصم من يسلك هذا المنهج السلفي الحق بالخروج عن السلفية، ويرميه بالبدعة وعظائم الأمور، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

٧ ـ ونتيجة لعدم إدراك ما لأسماء الله وصفاته من أثر في حياة الأفراد والجماعات، نشأت مظاهر مؤسفة، أبعدت كثيرًا من المسلمين عن حقيقة الإسلام وأهدافه ومثله العليا، وأصبحت بعض حقائق التوحيد نظريات لا رصيد لها في الواقع، ولا أثر لها في الوجود عند بعض المسلمين، ويعبر عن ذلك الأستاذ المربي محمد قطب حيث يقول:

يقول الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿إن الله هو الرزَّاقُ ذو القوة المتين﴾. [سورة الذاريات، الآية: ٥٨]. ولو أنك سألت أي إنسان في الطريق من الذي يرزقك لقال لك على البديهة: «الله». ولكن انظر إلى هذا الإنسان إذا ضُيّق عليه في الرزق يقول: فلان يريد قطع رزقي، فما دلالة هذه الكلمة؟

دلالتها: أن تلك البديهة التي نطق بها لم تكن يقينًا قلبيًّا، إنما كانت بديهة ذهنية فحسب، وبديهة تستقر في وقت السلم والأمن، ولكنها تهتز

---

(١) انظر: رسالة: «إن ربك حكيم عليم» ص ٤٣.

إذا تعرضت للشدة، لأنها ليست عميقة الجذور[١].

وصدق حفظه الله، فقد كنت في دولة عربية وذهبت للصلاة في أحد مساجدها، فرأيت أن الإمام - أو أحد المأمومين - يقرأ آية الكرسي بعد الصلاة مباشرة، وبصوت مسموع[٢]، ولحظت أكثر من مرة أن الإمام وهو يقرأ آية الكرسي - وهي أعظم آية في كتاب الله - وفيها من أسماء الله وصفاته ما لا يوجد في آية غيرها، وفي أثناء قراءته لها، يسلم على هذا، ويبتسم لذاك، ويعاتب ثالثًا وينظر إلى رابع، كل ذلك إما بيده أو رأسه أو عينه أو شفتيه.

أين الخشوع لكلام الله ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا وعلى ربهم يتوكلون﴾ [سورة الأنفال، الآية: ٢]. ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعًا متصدعًا من خشية الله﴾ [سورة الحشر، الآية: ٢١].

أين التفكر والتدبر ﴿وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون﴾ [سورة الأعراف، الآية: ٢٠٤].

وليست هذه حالة فردية، بل وجدت مثل هذه الحالة أو قريبًا منها في أكثر من مسجد في ذلك البلد.

ولذلك فلا غرو ألّا نرى أثر الإيمان بأسماء الله وصفاته في حياة كثير من المسلمين؛ لأن الإيمان على وجهه الشرعي لم يتم حقيقة، فكيف نرى أثره.

---

(١) انظر: واقعنا المعاصر ص ٤٨٦، ورسالة: «إن ربك حكيم عليم» ص ٤٤.

(٢) قراءة آية الكرسي بشكل جماعي من البدع المنتشرة في كثير من البلاد.

وهل ينبت الخطي إلا وشيجه
وتُغرس إلا في منابتها النخل

* * *

من يزرع الحنظلَ لا يرتجي
أن يجتني السكر من غرسته

٨ ـ وأخيراً فإذا استقر هذا الأمر في عقولنا وأفهامنا، استطعنا أن ندرك بعض مدلولات ورود هذه الأسماء في سورة الحجرات وغيرها.

فقد ورد في هذه السورة ـ كما سبق ـ اسم ﴿السميع﴾، و﴿العليم﴾، و﴿الغفور﴾، و﴿الرحيم﴾، و﴿الحكيم﴾، و﴿التواب﴾، و﴿الخبير﴾، و﴿البصير﴾.

وهذه الأسماء بعضها جاء مرة واحدة، وبعضها مرتين، وبعضها ثلاث مرات، وبعضها أربعًا.

وهنا يعيش المسلم مع هذه الأسماء المستلزمة للصفات، وبذلك يحقق أهداف هذه السورة ومراميها، فإذا أيقن أن الله سميع بصير عليم خبير، هل يرفع صوته، أو ينال من عرض أخيه المسلم همزًا أو لمزًا؟

وهل يتجسَّس على عورات المسلمين والله يسمعه ويراه وهو قد نهاه.

وإذا آمن حقيقة بأن الله حكيم خبير هل يتقدم بين يدي الله ورسوله؟ وهل يقترح على الله ورسوله؟ كلا وحاشا.

وإذا نظر إلى ذنوبه وأخطائه، بسبب ما وقع فيه من هذه الآثام التي ذكرتها سورة الحجرات، وكاد اليأس أن يوصله إلى الهاوية أو الإصرار، فتذكر من خلال هذه السورة أن الله ﴿غفور رحيم﴾ وأنه ﴿تواب رحيم﴾

انفتحت له الأبواب، وعاد عن ذنوبه ينشد الرحمة والغفران.

وقل مثل ذلك في كل موضوعات السورة، وبهذا تتحقق أهداف السورة لإصلاح المجتمع وتقويم اعوجاجه وتنقيته من الشوائب والمثالب.

وبهذه الأسماء والصفات يبنى الإيمان الذي جاءت السورة لتحقيقه وغرسه في نفوس الأجيال.

وبهذا نتفاعل مع هذه الأسماء والصفات عقيدة وعبادة وعملاً، تصورًا وسلوكًا وخلقًا.

الوقفة الثالثة: اللسان في ضوء سورة الحجرات:

مما لفت نظري أثناء معايشتي لسورة الحجرات أن هذه السورة عالجت موضوع اللسان معالجة شاملة، حيث إن كل موضوعاتها لها ارتباط مباشر ووثيق باللسان من أول قضية إلى آخر موضوع، وهو موضوع الأعراب.

ذلك أن كل قضية وردت في هذه السورة فاللسان طرف أساس فيها، فعند معالجتنا لهذه القضايا لابد من مراعاة هذا الجانب المهم، فإن الغفلة عنه قصور في النظر والمعالجة.

ولنأخذ موضوعات هذه السورة ونبيّن صلة اللسان بكل قضية منها، ليتضح ما أشرت إليه آنفًا:

١ - موضوع التقدم بين يدي الله ورسوله، صلى الله عليه وسلم، صوره متعددة، ومن ذلك التقدم بالكلام، يبين ذلك ما يلي:

قال ابن عباس: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة[١]، والقول يكون باللسان غالبًا[٢].

وفي رواية أخرى عن ابن عباس: نهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه[٣].

---

(١) انظر: تفسير الطبري ٢٦/١١٦.

(٢) لأنه قد يكون كتابة ونحوها.

(٣) انظر: تفسير الطبري ٢٦/١١٦.

وهذا صريح في علاقة اللسان بذلك.

وقال قتادة: ذكر لنا أن ناسًا كانوا يقولون: لو أنزل في كذا لو وضع كذا وكذا. وهذا من القول وهو باللسان(١).

ومن خلال ما سبق يتضح أثر اللسان في التقدم المنهي عنه.

٢ - أما الموضوع الثاني فهو في رفع الصوت فوق صوت النبي، صلى الله عليه وسلم، والجهر له بالقول: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض**﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٢].

وهذه الآية صريحة في الدلالة على أن اللسان هو أداة ذلك، وذلك لأن رفع الصوت والجهر به أداته اللسان فحسب، دون بقية الجوارح.

٣ - أما القضية الثالثة فهو مناداة الرسول، صلى الله عليه وسلم، من وراء الحجرات: ﴿**إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون**﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٤]. والنداء، وبخاصة إذا كان من وراء حجاب فإن آلته هي اللسان.

٤ - والآية السادسة جاءت تعالج موضوع الأنباء والأخبار، ووجوب التبين والتثبت فيها: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بنبأ فتبيَّنوا**﴾. والأخبار والأنباء من وسائل إيصالها ونقلها وتبليغها هو اللسان، وقصة الوليد بن عقبة بن أبي معيط الذي نزلت الآية بسببه وما فعله مع بني المصطلق كان نبؤه باللسان فلم يرسل رسالة ولا رسولاً، بل جاء للرسول،

---

(١) انظر: تفسير الطبري ٢٦/١١٧.

صلى الله عليه وسلم، وذكر له ما ادّعاه على بني المصطلق، وحدّثه ذلك بلسانه فكان اللسان طرفًا أساسًا في ذلك.

٥ - **أما القضية الخامسة التي جاءت في ثنايا السورة فهي قضية** اقتتال طائفتين من المؤمنين ووجوب الصلح بينهما.

والقتال الذي حدث ليس باللسان، وإنما كان ضربًا بالنعال والعصي ونحوهما دون سلاح[1].

ولكن عندما ندرس سبب هذا الاقتتال والخلاف، نجد أنه ابتدأ بالكلام باللسان ثم تطور حتى وصل إلى الاشتباك بالأيدي ونحوها.

فلو لم يحدث الكلام من ابن أبيّ لم تصل الأمور إلى ما وصلت إليه.

حيث قال عبدالله بن أبيّ لرسول الله، صلى الله عليه وسلم: والله لقد آذاني نتن حمارك، فرد عليه رجل من الأنصار: والله لنتن حمار رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أطيب ريحًا منك[2]، ثم جاءت كلمة من هنا و كلمة من هناك حتى وصلت الأمور إلى الاقتتال بالأيدي والجريد والنعال.

٦ - **ثم جاءت الآيات بعد ذلك تعالج موضوع السخرية واللمز** والتنابز بالألقاب.

وكذلك سوء الظن والتجسس والغيبة.

ومما يسلك فيما مضى التفاخر بالأنساب ونحوها.

(١) انظر: تفسير الطبري ١٦/ ١٢٨.

(٢) انظر: تفسير الطبري ١٦/ ١٢٨ وقد تقدم تخريج هذه الحادثة.

وإذا تأملنـا ذلـك وجـدنا أنّ اللسان قطب الرحى في كل هذا، وبخاصة الغيبة والتنابز والتفاخر، وكذلك السخرية واللمز، فاللسان له من ذلـك أوفى نصيب، أما التجسس وسوء الظن فإن أصل ذلك ليس باللسـان، ولكن يشـترك اللسـان في النتيجـة، فغالبًا ما يخبر عن نتيجة التجسس، أو الحديث عن سوء ظنه بأخيه، ولولا مساهمة اللسان لكان أثر التجسس وسوء الظن محدودًا في الغالب الأعمّ.

٧ ـ أمـا الموضوع الأخير وهو إسلام الأعراب فيكفي أن نتأمل الآيات التي نزلت في هذه القضية لنرى دور اللسان في هذا الأمر، ﴿قالت الأعـراب آمنّـا قل لم تؤمنـوا ولكن قولـوا أسلمنـا﴾. [سـورة الحجـرات، الآية: ١٤]. فانظر إلى لفظة: ﴿قالت﴾ و﴿قل﴾ و﴿قولوا﴾ وهل القول إلاّ باللسـان، فكـأن القضية قول في قول، ولذلك قال ـ سبحانه ـ: ﴿ولمّا يدخل الإيمانُ في قلوبكم﴾.

قال الـطبري: وأولى الأقـوال بالصواب: أن الله تقدم إلى هؤلاء الأعراب الذين دخلوا في الملة إقرارًا منهم بالقول، ولم يحققوا قولهم بعملهم أن يقولوا بالإطلاق آمنّا. إلخ(١).

وبعد:

فمن خلال هذا الاستعـراض لموضـوعـات السـورة وبيان مكانة اللسـان من ذلـك، يجدر بنـا أن نقف وقفـة مناسبة للحديث عن هذا اللسان، وبيان منزلته، وأثره في الخير والشر، وما يجب تجاهه.

---

(١) انظر: تفسير الطبري ٢٦/١٤٢.

مكانة اللسان:

للسان مكانة عظيمة جدًّا، فهو نعمة عظمى وهبة من الله لعباده المؤمنين، وتتضح مكانة اللسان من خلال ما يلي:

١ - أنه به ينطق بأعظم كلمة، وهي كلمة التوحيد: «لا إلـه إلا الله، محمد رسول الله».

٢ - يقـول - سبحـانه - ممتنًّا على عباده: ﴿**ألم نجعل له عينين. ولسانًا وشفتين**﴾. [سورة البلد، الآيتان: ٨، ٩]

قال قتادة في تفسير الآية: نعم من الله متظاهرة، يقررك بها كيما تشكره[١].

وقال ابن كثير في تفسيره: ﴿**ولسانًا**﴾ أي: ينطق به فيعبر عمَّا في ضميره[٢].

٣ - ومما يدل على مكانة هذه الجارحة ما ذكره الله عن موسى - عليه السلام - عندما نادى ربّه: ﴿**واحلُل عقدةً من لساني. يفقهوا قولي**﴾. [سورة طه، الآيتان: ٢٧، ٢٨]. وقال في موضع آخر: ﴿**ولا ينطلقُ لساني**﴾. [سورة الشعراء، الآية: ١٣]. وعندما طلب من ربه أن يجعل معه وزيرًا من أهله وهو هارون - عليه السلام - قال في ثنايا طلبه: ﴿**وأخي هارون هو أفصحُ مني لسانًا فأرسِلْه معيَ رِدُءًا يصدّقني**﴾. [سورة القصص، الآية: ٣٤].

---

(١) انظر تفسير الطبري ٣٠/١٩٩.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٤/٥١٢.

٤ ـ أنه بها[1] نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر وندعو إلى الله ـ جل وعلا ـ، ونذكر الله علانية وجهرًا.

٥ ـ بهذه الآلة الصغيرة نقضي جُلّ حوائجنا، ونعبّر عما في نفوسنا، ولذلك قال ابن كثير في تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿**ولسانًا وشفتين**﴾. [سورة البلد، الآية: ٩]. أي: ينطق به فيعبر عما في ضميره.

٦ ـ ومن الأدلة المحسوسة على مكانة هذه الآلة وعظم نعمة الله علينا بها عندما نتأمل في حال المحروم منها وهو «الأبكم» فإننا ندرك عظم هذه المنّة الإلـهية: هل يستطيع الأبكم أن يعبّر عمّا في نفسه؟

إنه عندما يريد التعبير عن شيء فإنه يستخدم كثيرًا من أعضائه: اليدين، والفم، والشفتين، والرأس، بل وحركة جسمه أحيانًا، ومع ذلك لا يستطيع أن يعبر كما يريد، وقد يجلس فترة ليعبر فيها عن معنى يعبر عنه السليم بكلمة واحدة أو كلمتين.

وقد يعبّر عن مراده ولكن بشق الأنفس من الأبكم ومن يريد أن يعبر له.

وكم من مرة ذهب الأبكم حزينًا كئيبًا لأنه لم يستطع أن يعبر عما في نفسه، ويزداد الأمر سوءًا إن فُهم منه غير ما يريد.

ومما سبق يتضح لنا قيمة هذه النعمة، ومكانة هذه الجارحة ﴿**وإن تَعُدُّوا نعمةَ الله لا تحصوها**﴾.

---

(١) أي بهذه الجارحة، وهي اللسان.

خطورة هذه الجارحة:

هذه الآلـة نعمـة من الله لمن استخدمها في الخير وحافظ عليها، ولـذلـك جاء قوله ـ تعالى ـ: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديدًا﴾. وجاء في الحديث الصحيح: «إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله ـ عز وجل ـ له بها رضوانه إلى يوم يلقاه»(١). الحديث.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً يرفع الله بها درجات»(٢). الحديث.

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: «إن الرجل يصدق حتى يكتب صدِّيقًا»(٣). وفي رواية عنه قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكون صدِّيقًا»(٤). الحديث.

---

(١) أخرجه الترمذي (٤/٤٨٤) كتاب الزهد، رقم (٢٣١٩) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (٢/١٣١٣) كتاب الفتن، رقم (٣٩٦٩).

(٢) أخرجه البخاري (٧/١٨٥) كتاب الرقاق. وأخرجه مالك في الموطأ موقوفًا على أبي هريرة (٢/٩٨٥) كتاب الكلام، رقم (٦).

(٣) أخرجه مسلم (٤/٢٠١٢) كتاب البر والصلة رقم (٢٦٠٦).

(٤) أخرجه البخاري (٧/٩٥) كتاب الأدب، ومسلم (٤/٢٠١٢)، كتاب البر والصلة، رقم (٢٦٠٧).

فإذا استخدم في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله، وقراءة القرآن، والذكر، والاستغفار، ونصرة المظلوم، والدعاء ونحو ذلك، كان من خير النعم على العبد.

أما إذا استخدم بضد ذلك فإنه نقمة عظيمة على صاحبه، وقد جاءت الآيات والأحاديث تبين خطورة اللسان إذا لم يضبط بضابط الشرع، قال ـ سبحانه ـ: ﴿إذ تَلَقَّونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيِّنًا وهو عند الله عظيم﴾. [سورة النور، الآية: ١٥].

وقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون. كبر مقتًا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾. [سورة الصف، الآيتان: ٢، ٣].

وقال عن المنافقين: ﴿فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد﴾. [سورة الأحزاب، الآية: ١٩]. وقال: ﴿يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم﴾. [سورة الفتح، الآية: ١١]. وقال: ﴿وتصف ألسنتُهم الكذبَ أن لهم الحسنى لا جَرَمَ أن لهم النار وأنهم مفرطون﴾. [سورة النحل، الآية: ٦٢].

وقال ـ تعالى ـ مبيِّنًا خطورة ما نتكلم به: ﴿ما يلفِظُ من قولٍ إلاّ لديه رقيبٌ عتيد﴾. [سورة ق، الآية: ١٨].

وقال ناهيًا عن رمي الناس بالباطل: ﴿ولا تقفُ ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً﴾. [سورة الإسراء، الآية: ٣٦].

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذبًا﴾. [سورة

الأعراف، الآية: ٣٧]. وقال: ﴿همَّازٍ مشَّاءٍ بنميم﴾. [سورة القلم، الآية: ١١]. وقال: ﴿ولا تقولوا لما تصفُ ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام﴾. [سورة النحل، الآية: ١١٦]. وقال: ﴿ومن الناس من يجادلُ في الله بغير علم﴾. [سورة الحج، الآية: ٣]. وقال: ﴿والشعراء يَتَّبعهم الغاوون. ألم تر أنهم في كل واد يهيمون. وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾. [سورة الشعراء، الآيات: ٢٢٤-٢٢٦]. وقال: ﴿ويلٌ لكل هُمَزة لمزة﴾. [سورة الهمزة، الآية:]. وقال: ﴿لا يحبّ الله الجهر بالسوءِ من القول إلا من ظُلم﴾. [سورة النساء، الآية: ١٤٨]. وقال: ﴿يا أيّها الذين آمنوا لا يَسْخَرْ قومٌ من قوم﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١١]. والآيات في هذا الباب كثيرة جدًّا.

أما الأحاديث فيصعُب حصرها، ولكن أذكر بعضًا منها مما يبين خطورة هذا اللسان إذا لم يستخدم في طاعة الله.

ومن أعظم الأحاديث التي وردت في ذلك الحديث الذي رواه الترمذي عندما سأل معاذ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قائلاً: وهل نحن مؤاخذون بما نتكلم به يا رسول الله، أجابه، صلى الله عليه وسلم قائلاً: «ثَكِلتك أمُّك يا معاذ، وهل يكبُّ الناس في النار على وجوههم إلاّ حصائِدُ ألسنتهم»(١).

وقال صلى الله عليه وسلم: «إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط

---

(١) أخرجه الترمذي (١٣/٥) كتاب الإيمان، رقم (٢٦١٦)، وابن ماجه (١٣١٥/٢) كتاب الفتن، رقم (٣٩٧٣). وأحمد (٢٣١/٥، ٢٣٧). وصححه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (١٥٣٦).

الله ما يظنُّ أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه»[(١)].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: «إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها، يزلّ بها في النار أبعد ما بين المشرق»[(٢)].

وفي رواية لمسلم: «إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها، يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب»[(٣)]. وقال صلى الله عليه وسلم: «لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نُحاس، يخمشون وجوهَهم وصدورَهم، فقلت من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم»[(٤)].

وفي حديث ابن مسعود عنه، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: «وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذَّابًا»[(٥)].

---

(١) أخرجه الترمذي (٤/ ٤٨٤) كتاب الزهد، رقم (٢٣١٩)، وقال الترمذي: حسن صحيح، وابن ماجه (٢/ ١٣١٣) كتاب الفتن، رقم (٣٩٦٩).

(٢) أخرجه البخاري واللفظ له (٧/ ١٨٤) كتاب الرقاق، ومسلم بلفظ: «يزل بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب» (٤/ ٢٢٩٠) كتاب الزهد، رقم (٢٩٨٨).

(٣) صحيح مسلم (٤/ ٢٢٩٠) كتاب الزهد، رقم (٢٩٨٨).

(٤) أخرجه أبو داود (٤/ ٢٦٩) كتاب الأدب، رقم (٤٨٧٨). وأحمد (٣/ ٢٢٤). وصححه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (٥٢١٣).

(٥) أخرجه البخاري (٧/ ٩٥) كتاب الأدب. ومسلم (٤/ ٢٠١٢). كتاب البر والصلة، رقم (٢٦٠٧). وأبو داود (٤/ ٢٩٧) كتاب الأدب، رقم (٤٩٨٩).

وفي حديث سمرة الطويل - الذي رواه البخاري -: في رؤيا الرسول، صلى الله عليه وسلم، وفي آخره: قال صلى الله عليه وسلم: «**قلت طوفتماني الليلة فأخبراني عما رأيت قالا: «نعم»: أما الذي رأيته يشق شدقه فكذاب يحدث بالكذبة فتحمل عنه حتى تبلغ الآفاق، فيصنع به ما رأيت إلى يوم القيامة**»(١).

وفي رواية للبخاري أنه قيل للنبي، صلى الله عليه وسلم: «**وأما الرجل الذي أتيت عليه يشرشر شدقه إلى قفاه، ومنخره إلى قفاه، وعينه إلى قفاه، فإنه الرجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق**»(٢).

وقال صلى الله عليه وسلم: «**ويل للذي يحدث بالحديث ليضحك به القوم فيكذب، ويل له، ويل له**»(٣).

وأخيراً أختم بهذه الأحاديث:

عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «**لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله تعالى قسوة للقلب، وإن أبعد الناس من الله تعالى القلب القاسي**»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (٧/٩٥) كتاب الأدب.

(٢) أخرجه البخاري (٨/٨٦) كتاب التعبير. وأحمد (٥/٨، ٩).

(٣) أخرجه أبو داود (٤/٢٩٧، ٢٩٨) كتاب الأدب، رقم (٤٩٩٠)، والترمذي (٤/٤٨٣) كتاب الزهد، رقم (٢٣١٥) وقال: حديث حسن، وأحمد (٥/٥)، وحسنه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (٧١٣٦).

(٤) أخرجه الترمذي (٤/٥٢٥) كتاب الزهد رقم (٢٤١١) قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث إبراهيم بن عبدالله بن حاطب. =

وقال صلى الله عليه وسلم: «من يضمن لي ما بين لحييه وما بين فخذيه أضمن له الجنة»[١].

وقال صلى الله عليه وسلم: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»[٢].

وخير ختام وصية رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لعقبة بن عامر عندما سأل رسول الله، صلى الله عليه وسلم: ما النجاة، فقال له: «أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتُك، وابكِ على خطيئتك»[٣].

هذه بعض الأحاديث التي تبين خطورة هذا اللسان وما يجب تجاهه، وكما ذكرت سابقًا فإن الأحاديث التي وردت في ذلك تعدو على الحصر، ولكن اخترت منها بعض ما رأيته مناسبًا للمقام، والله المستعان[٤].

= قلت: وقد اختلف العلماء في تصحيح هذا الحديث لاختلافهم في إبراهيم هذا. فاعتمد الشيخ أحمد شاكر توثيق ابن حبان له، ومن ثم صحح هذا الحديث كما في عمدة التفسير (١/١٦٨) أما الألباني فقد ضعف هذا الحديث معتمدًا على قول ابن القطان فيه «لا يعرف حاله». انظر: ضعيف الجامع رقم (٦٢٦٥)، السلسلة الضعيفة رقم (٩٢٠).

(١) أخرجه البخاري (٧/١٨٤) كتاب الرقاق، وأخرجه الترمذي (٤/٥٢٤) كتاب الزهد، رقم (٢٤٠٨، ٢٤٠٩). وأحمد (٥/٣٦٢) بألفاظ متقاربة.

(٢) أخرجه البخاري (١/٨) كتاب الإيمان، ومسلم (١/٦٥)، كتاب الإيمان، رقم (٤١)، والترمذي (٥/١٨) كتاب الإيمان، رقم (٢٦٢٧)، وأبو داود (٣/٤) كتاب الجهاد، رقم (٢٤٨١).

(٣) أخرجه الترمذي (٤/٥٢٣) كتاب الزهد، رقم (٢٤٠٦) وقال: حديث حسن، وصححه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (١٣٩٢).

(٤) من أراد التوسع فليرجع إلى كتب آفات اللسان ومنها كتاب آفات اللسان لسعيد بن علي بن وهف القحطاني، فإنه قيّم في بابه جزى الله مؤلفه خيرًا.

أقوال السلف في اللسان:

للعلماء أقوال في اللسان، تدلّ على أهمية وخطورة هذه الجارحة، وسأذكر بعض أقوال هؤلاء العلماء من السلف ومن بعدهم، لتكون هذه الأقوال إضاءة تنير للمسلم الطريق في حفظ لسانه وكيف يتقي شرّه ويستثمر خيره(١).

كان ابن مسعود - رضي الله عنه - يحلف بالله الذي لا إله إلا هو ما على الأرض شيء أحوج إلى طول سجن من لسان(٢).

وقال ابن بريده: رأيت ابن عباس - رضي الله عنهما - آخذ بلسانه وهو يقول: ويحك، قل خيرًا تغنم، أو أسكت عن سوء تسلم، وإلّا فاعلم أنك ستندم. فقيل له: يا ابن عباس لم تقول هذا؟ قال: إنه بلغني أن الإنسان أراه قال: ليس على شيء من جسده أشد حنقًا وغيظًا يوم القيامة منه على لسانه إلّا من قال خيرًا، أو أملى به خيرًا(٣).

وعن عمر - رضي الله عنه - أنه دخل على أبي بكر - رضي الله عنه - وهو يجبذ لسانه، فقال له عمر: مه غفر الله لك، فقال أبو بكر: إن هذا أوردني الموارد(٤).

وقال عمر - رضي الله عنه -: بحسب المرء من الكذب أن يحدث

---

(١) انظر: آفات اللسان لسعيد القحطاني ص ١٦١ وما بعدها، فقد أفدت منه.

(٢) جامع العلوم والحكم ص ٢٤٢.

(٣) جامع العلوم والحكم ص ٢٤١.

(٤) انظر: موطأ الإمام مالك ٢/ ٩٨٨.

بكل ما سمع [١].

وقال ابن وهب: قال لي مالك: اعلم أنه ليس يسلم رجل حدث بكل ما سمع، ولا يكون إمامًا أبدًا وهو يحدث بكل ما سمع [٢].

وقال عبدالرحمن بن مهدي: لا يكون الرجل إمامًا يقتدى به حتى يمسك عن بعض ما سمع [٣].

وقال يحيى بن معاذ: القلوب كالقدور تغلي بما فيها، وألسنتها مغارفها، فانظر إلى الرجل حين يتكلم، فإن لسانه يغترف لك مما في قلبه، حلو وحامض وعذب وأجاج، وغير ذلك، ويبين لك طعم قلبه اغتراف لسانه [٤].

وقال ابن القيم: وكم ترى من رجل متورع عن الفواحش والظلم، ولسانه يغري في الأحياء والأموات ولا يبالي ما يقول [٥].

وقال يونس بن عبيد: ما رأيت أحدًا لسانه منه على بال إلاّ رأيت ذلك في سائر عمله، ولا فسد منطق رجل قط إلا عرفت ذلك في سائر عمله [٦].

---

(١) انظر: مقدمة مسلم ١/١١.
(٢) مقدمة صحيح مسلم ١/١١.
(٣) مقدمة صحيح مسلم ١/١١.
(٤) انظر: حلية الأولياء ١٠/٦٣.
(٥) انظر: الجواب الكافي ص ٢٧٧.
(٦) انظر: جامع العلوم والحكم ص ٢٤٢.

وقد كان السلف يحاسب أحدهم نفسه في قوله: يوم حار، ويوم بارد[١].

وقال الإمام النووي ـ رحمه الله ـ: اعلم أنه ينبغي لكل مكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام، إلا كلامًا تظهر المصلحة فيه، ومتى استوى الكلام وتركه في المصلحة فالسنةُ الإمساك عنه، لأنه قد ينجرُّ الكلام المباح إلى حرام، أو مكروه، بل هذا كثير أو غالب في العادة، والسلامة لا يعدلها شيء[٢].

هذه بعض أقوال السلف ومن تبعهم بإحسان حول مكانة اللسان وخطورته ووجوب المحافظة عليه، وهي تعبّر عن تجربة عملية لهؤلاء الأعلام أتحفونا بثمرة علمهم وتجاربهم، فهل من معتبر أو متذكر؟

---

(١) انظر: آفات اللسان لسعيد القحطاني ص ١٦٠.

(٢) انظر: الأذكار للنووي ص ٢٨٤، وآفات اللسان ص ١٥٧.

اللسان والشعر:

اهتم كثير من الشعراء باللسان، فجاءت كثير من الأبيات حكمًا ناطقة، حول ما يجب أن تحيط به ألسنتنا، خوفًا من المزالق والنكبات وسأختار بعض الأبيات التي تدل على هذه الحقيقة وترشد إليها[1].

قال الشاعر:

يصاب الفتى من عثرة بلسانه
وليس يصاب المرء من عثرة الرجل
فعثرته بالقول تذهب رأسه
وعثرته بالرجل تبرأ على مهل

وقال الآخر:

احفظ لسانك أيها الإنسان
لا يلدغنَّك إنه ثعبانُ
كم في المقابر من قتيل لسانه
كانت تهاب لقاءه الشجعانُ

وقال ثالث:

الصمتُ زين والسكوتُ سلامة
فإذا نطقتَ فلا تكن مِكْثَارًا
فإذا ندمت على سكوتك مرة
فلتَنْدَمنَّ على الكلامِ مرارًا

(١) انظر هذه الأبيات في جواهر الأدب للهاشمي ٢ / ٤٨٤.

وقال رابع:

إن القليلَ من الكلام بأهله
حسنٌ وإن كثيره ممقوتُ
ما زلّ ذو صمتٍ وما من مكثر
إلا يزل وما يعابُ صموتُ
إن كان ينطق ناطق من فضة
فالصمتُ درٌّ زانه الياقوتُ

وقال آخر:

احفظ لسانك واستعذ من شرّه
إن اللسان هو العدوُّ الكاشح
وزنِ الكلام إذا نطقتَ بمجلس
فإذا استوى فهناك حلمك راجح

وقال سادس:

عود لسانك قول الخير تنج به
من زلة اللفظ أو من زلة القدم
واحذر لسانَك من خلٍّ تنادمه
إن النديم لمشتقٌّ من الندم

وقال آخر محذرًا من الكذب(١):

إذا عرف الإنسان بالكِذْب لم يزل
لدى الناس كذّابًا ولو كان صادقًا

(١) انظر لهذا البيت وما بعده جواهر الأدب ٢/ ٤٧٩.

فإن قال لم تُصغ له جلساؤه
ولم يسمعوا منه ولو كان ناطقًا

وقال آخر:

لا يكذب المرء إلا من مهانته
أو فعله السوء أو من قلة الأدب

وقال ثالث موصيًا بالصدق ومحذرًا من الكذب:

الصدق عز فلا تعدل عن الصدق
واحذر من الكذب المذموم في الخلق

وصدق رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «إن من الشعر حكمة»[(١)].

وبعد:

فأختم الحديث عن اللسان ببيان أن اللسان فيه آفتان عظيمتان:

١ ـ **آفة الكلام بالباطل** وقد انصبّ جلّ الحديث فيما مضى عن هذه الآفة.

٢ ـ **آفة السكوت عن الحق**، فإن الساكت عن الحق شيطان أخرس، عاص لله، مراء، مداهن، إلا إذا خاف على نفسه القتل، ونحو ذلك من إكراه وغيره.

والمتكلم بالباطل شيطان ناطق، عاص لله، وأكثر البشر منحرف في كلامه وسكوته بين هذين النوعين، وأهل الوسط كفوا ألسنتهم عن

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٧/٧) كتاب الأدب. وأبو داود (٣٠٣/٤) كتاب الأدب، رقم (٥٠١٠). والترمذي (١٢٦/٥) كتاب الأدب، رقم (٢٨٤٤).

الباطل، وأطلقوها فيما يعود عليهم نفعه[١].

ولذلك فإن على المسلم أن يعرف متى يكون السكوت ومتى يكون الكلام، ثم كيف يكون السكوت، ويكون الكلام، وبهذا نفهم حديث رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**»[٢].

(١) انظر الجواب الكافي لابن القيم ص ٢٨١، وآفات اللسان للقحطاني ص ٥.

(٢) أخرجه الترمذي (٤/٤٨٣) كتاب الزهد، رقم (٢٣١٧). وقال: حديث غريب. وابن ماجه (٢/١٣١٥، ١٣١٦)، كتاب الفتن، رقم (٣٩٧٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه. وأخرجه أحمد (١/٢٠١)، ومالك في الموطأ (٢/٩٠٣) كتاب حسن الخلق، رقم (٣) كلاهما عن علي بن حسين بن علي بن أبي طالب مرسلاً. وصححه الألباني كما في تخريج أحاديث المشكاة رقم (٤٨٣٩، ٤٨٤٠).

موضوعات السورة

- التقدم بين يدي الله ورسوله
- الأدب مع العلماء
- التقوى وامتحان القلوب
- التثبت في الأخبار
- الأخــوة
- الإســلام والإيمــان
- الخاتمــة

التقدم بين يدي الله ورسوله

الموضوع الأول:

التقدم بين يدي الله ورسوله:

قال ـ تعالى ـ: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدّموا بين يدي الله ورسوله﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١].

قال حبر الأمة وترجمان القرآن عبدالله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ كما روى الطبري عنه في معنى هذه الآية: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة.

وقال مجاهد: لا تفتاتوا على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بشيء حتى يقضيه الله على لسانه.

وقال ابن زيد: لا تقطعوا الأمر دون الله ورسوله.

وقال سفيان الثوري: لا تقضوا أمرًا دون رسول الله.

وقال الضحاك: لا تقضوا أمرًا دون الله ورسوله من شرائع دينكم.

قال إمام المفسرين ابن جرير الطبري موضحًا هذه المعاني: لا تعجلوا بقضاء أمر في حروبكم أو دينكم، قبل أن يقضي الله لكم ورسوله، فتقضوا بخلاف أمر الله وأمر رسوله.

وبمثل ذلك قال ابن الجوزي وغيره[1].

هذه خلاصة لأقوال أئمة التفسير في معنى هذه الآية، وصور التقدم

---

(١) انظر: لكل ما سبق تفسير الطبري ١١٦/٢٦ وزاد المسير ٤٥٥/٧ وتفسير ابن كثير ٢٠٥/٤.

بين يدي الله ورسوله كثيرة جدًّا، ولست في سبيل حصرها، والتفصيل فيها.

ولكنني سأقف مع صورة واحدة من هذه الصور وهي **التحاكم إلى غير شرع الله**.

وهـذه القضية مرادة أصـلًا في هذه الآية، ألم يقل ابن عباس إن معناها: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة؟ وقال سفيان: بقول أو فعل.

ألم يقل الضحاك في معناها: لا تقضوا أمرًا دون الله ورسوله من شرائع دينكم؟

وجميع ما مضى من أقوال المفسرين شامل لهذا المعنى.

ومن أقوى ما ذكره المفسرون من دلالة هذه الآية على أن الحكم بغير ما أنزل الله من التقدم بين يدي الله ورسوله ما يلي:

١ - ما ذكرته من تفسير حبر الأمة ابن عباس، وغيره من الأعلام كمجاهد وابن زيد والضحاك وسفيان.

٢ - تفسير الطبري، وهو إمام المفسرين.

٣ - تفسير ابن كثير حيث قال: لا تسرعوا في الأشياء بين يديه، أي: قبله، بل كونوا تبعًا له في جميع الأمور، حتى يدخل في ذلك الأدب الشرعي حديث معاذ، ثم قال: والغرض منه أنه أخر رأيه واجتهاده ونظره إلى ما بعـد الكتاب والسنة، ولو قدمه قبل البحث عنهما لكان من باب التقديم بين يدي الله ورسوله.

فانظر إلى قوله: بل كونوا تبعًا له في جميع الأمور، وقوله: ولو قدمه قبل البحث عنهما إلخ.. كلامه.

٤ ـ أن ابن كثير أكَّد تفسيره لهذه الآية بحديث معاذ المشهور، حيث سأله الرسول، صلى الله عليه وسلم: «بم تحكم»؟ الحديث(١)،

(١) هذا حديث مشهور ذكره الفقهاء في كتبهم واعتمدوه لصحة معناه وإن كان إسناده ليس بذاك، فقد أخرجه الترمذي (٦١٦/٣) كتاب الأحكام، رقم (١٢٢٧) قال الترمذي: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وليس إسناده عندي بمتصل.
وأخرجه أبو داود (٣٠٣/٣) كتاب الأقضية، رقم (٣٥٩٢، ٣٥٩٣). والنسائي (٢٣١/٨) كتاب آداب القضاة، رقم (٥٣٩٩)، وأحمد (٥/ ٢٣٠، ٢٣٦، ٢٤٢).
ومدار هذا الحديث على الحارث بن عمرو عن ناس من أصحاب معاذ عن معاذ.
قال البخاري في تاريخه: الحارث بن عمرو عن أصحاب معاذ، وعنه أبو عون لا يصح ولا يعرف إلا بهذا.
وقال الدارقطني في العلل: رواه شعبة عن أبي عون هكذا، وأرسله ابن مهدي وجماعات عنه، والمرسل أصح.
وقال ابن حزم: لا يصح لأن الحارث مجهول وشيوخه لا يعرفون، قال: وادعى بعضهم فيه التواتر، وهذا كذب بل هو ضد التواتر؛ لأنه ما رواه أحد غير أبي عون عن الحارث فكيف يكون متواترًا؟! وقال عبدالحق: لا يسند، ولا يوجد من وجه صحيح. وقال ابن الجوزي في العلل المتناهية: لا يصح وإن كان الفقهاء كلهم يذكرونه في كتبهم ويعتمدون عليه، وإن كان معناه صحيحًا. وقال ابن طاهر في تصنيف له مفرد: اعلم أنني فحصت عن هذا الحديث في المسانيد الكبار والصغار، وسألت عنه من لقيته من أهل العلم بالنقل، فلم أجد له غير طريقين، وكلاهما لا يصح. وقد أخطأ إمام الحرمين فزعم أن هذا الحديث مدون في الصحاح متفق على صحته لا يتطرق إليه التأويل.
قال الحافظ ابن حجر: وقد استند أبو العباس ابن القاص في صحته إلى تلقي أئمة الفقه والاجتهاد له بالقبول، قال: وهذا القدر مغنٍ عن مجرد الرواية. انظر لكل ما سبق: تلخيص الحبير (٢٠١/٤، ٢٠٢).

فجعل هذا الحديث داخلاً في الآية، والحديث نص في وجوب الحكم بما أنزل الله[١].

٥ ـ وحتى الذين فسروا الآية بجزئية من الجزئيات كالذبح قبل الصلاة، أو قول من قال: لو أنزل كذا في كذا، فإن التحاكم لغير شرع الله والإعراض عن كتاب الله وسنة رسوله، صلى الله عليه وسلم، يدخل من باب الأولى، فلا يليق أن تقول لرجل: لا تأخذ درهمًا واحدًا، فيأخذ مليون دينار، ويقول لك إنّك نهيتني عن درهم واحد، وأنا أخذت من الدنانير ولم آخذ من الدراهم، وأخذت مليونًا ولم آخذ واحدًا. هذا لا يقوله عاقل ولا مجنون ـ أيضًا ـ.

إذا كان الأمر كذلك، وحيث إن قضية التحاكم إلى غير شرع الله من أخطر أنواع التقدم بين يدي الله ورسوله.

قال النسفي: وفي هذه العبارة ضرب من المجاز الذي يسمى تمثيلاً، وفيه فائدة جليلة، وهي تصوير الهجنة والشناعة فيما نهوا عنه من الإقدام على أمر من الأمور دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة[٢].

وللواقع المرّ الذي تعيشه الأمة الإسلامية اليوم حيث ابتعد كثير من حكامها عن تحكيم الكتاب والسنة، وطبّقوا القوانين الوضعية، والدساتير الأرضية، وتقدموا بين يدي الله ورسوله، بل نبذوا كتاب الله ورسوله، وجعلوه خلفهم ظهريًا.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٤/٢٠٥.

(٢) انظر: تفسير النسفي ٤/١٦١.

ولأن هذه المسألة تخفى على كثير من المسلمين، حيث تصوروا أن الأمر مجرد وقوع معصية من المعاصي، أو كبيرة من الكبائر، ولخطورة هذا الأمر وأثره في الدنيا والآخرة فسألقي الضوء على هذه المسألة، في ضوء الكتاب والسنة ملتزمًا بتفسير السلف لهذه الآيات، مع أنني سأختصر كثيرًا، لطول الموضوع وتشعبه، وأنبه إلى أنني لا أريد بحث هذه المسألة من جميع جوانبها لأن موضوع **(الحكم بما أنزل الله والتحاكم إليه)** ليس هذا مكانه، ولأنه يحتاج إلى بحث مستقل يتم فيه استقصاء الآيات والأحاديث وما قاله العلماء في ذلك، وهو موضوع عويص ومتشعب.

ولكنني أردت عرض هذه القضية ضمن المنهج الذي التزمت به، بما يتناسب مع تفسيري لسورة الحجرات تفسيرًا موضوعيًا.

وسأتناول الموضوع ضمن عناصر رئيسية حتى يسهل تحقيقه وفهمه[١].

---

(١) أفدت كثيرًا من بحث كتبه الدكتور/عبدالرحمن المحمود الأستاذ بقسم العقيدة حول هذا الموضوع.

أولا: علاقة التحاكم إلى الكتاب والسنة بالعقيدة:

يتصور بعض المسلمين أن تحكيم الشريعة من الأمور العملية، وكل ما يتعلق بها من قبيل المعاصي التي لا تخرج صاحبها عن الإسلام ما دام يقرّ[١] بالشهادتين وينطق بهما.

وليس الأمر كذلك، والأمر أخطر مما يتصوره كثير من الناس، ولنقف على بعض ما قاله العلماء في ذلك:

١ - يقول الطبري في تفسير قوله - تعالى -: ﴿**بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن**﴾. [سورة البقرة، الآية: ١١٢]. يعني بإسلام الوجه التذلل لطاعته، والإذعان لأمره، وأصل الإسلام الاستسلام، لأنه من استسلمت لأمره، وهو الخضوع، وإنما سمي المسلم مسلمًا بخضوع جوارحه لطاعة ربه[٢].

وعند تفسيره لقوله - تعالى -: ﴿**واجعلنا مسلمين لك**﴾. [سورة البقرة، الآية: ١٢٨]. قال: يعنيان بذلك: واجعلنا مستسلمين لأمرك، خاضعين لطاعتك، لا نشرك معك في الطاعة أحدًا سواك، ولا في العبادة غيرك[٣].

وقال في موضع آخر عند قوله - تعالى -: ﴿**يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة**﴾. [سورة البقرة، الآية: ٢٠٨]. فإن قيل: فما وجه دعاء

---

(١) الإقرار الحقيقي يستلزم العمل.

(٢) انظر: تفسير الطبري ٢/٥١٠ ط شاكر.

(٣) انظر: تفسير الطبري ٦/٢٧٣.

المؤمنين بمحمد، صلى الله عليه وسلم، وما جاء به إلى الإسلام؟[١]

قيل: وجه دعائه إلى ذلك، الأمر له بالعمل بجميع شرائعه، وإقامة جميع أحكامه وحدوده، دون تضييع بعضه والعمل ببعض.

وإذا كان ذلك معناه كان قوله: ﴿كافة﴾ من صفة ﴿السِّلْم﴾ ويكون تأويله: ادخلوا في العمل بجميع معاني السلم، ولا تضيّعوا شيئًا منه، يا أهل الإيمان بمحمد وما جاء به.

ثم قال: فقد صرح عكرمة بمعنى ما قلنا في ذلك، من أن تأويل ذلك دعاء المؤمنين إلى رفض جميع المعاني التي ليست من حكم الإسلام، والعمل بجميع شرائع الإسلام، والنهي عن تضييع شيءٍ من حدوده[٢].

٢ ـ وقال الإمام محمد بن نصر المروزي معلقًا على حديث جبريل المشهور في الإيمان والإسلام[٣]:

أما قوله: «**الإيمان أن تؤمن بالله**» أن توحّده وتصدق به بالقلب واللسان، وتخضع له ولأمره، بإعطاء العزم للأداء لما أمر، مجانبًا للاستنكاب والاستكبار والمعاندة، فإذا فعلت ذلك، لزمت محابّه واجتنبت سخطه.

ثم يقول: أما قوله «ورسله» فأن تؤمن بمن سمّى الله من رسله. وتؤمن بمحمد، صلى الله عليه وسلم، وإيمانك به غير إيمانك بسائر

(١) يعني كيف يدعون إلى الإسلام وهم مؤمنون مسلمون؟

(٢) انظر: تفسير الطبري ٤/٢٥٥ ـ ٢٥٦، شاكر.

(٣) تقدم تخريجه.

الرسل، إيمانك بسائر الرسل: إقرارك بهم، وإيمانك بمحمد، صلى الله عليه وسلم، إقرارك به، وتصديقك إياه، واتباعك ما جاء به، فإذا اتبعت ما جاء به، أدّيت الفرائض، وأحللت الحلال، وحرَّمت الحرام، ووقفت عند الشبهات، وسارعت في الخيرات[1]، فقد فسّر الإيمان بالتصديق بالقلب واللسان والخضوع لأمر الله تعالى.

٣ ـ وقال شيخ الإسلام ابن تيمية:

فالإسلام يتضمن الاستسلام لله وحده، فمن استسلم له ولغيره كان مشركًا، ومن لم يستسلم له كان مستكبرًا عن عبادته، والمشرك به والمستكبر عن عبادته كافر.

والاستسلام له وحده يتضمن عبادته وحده، وطاعته وحده، وهذا دين الإسلام الذي لا يقبل الله غيره، وذلك إنما يكون بأن يطاع في كل وقت، بفعل ما أمر به في ذلك الوقت[2].

وقال في موضع آخر عند قوله ـ تعالى ـ: ﴿إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم﴾. [سورة يوسف، الآية: ٤٠]. فالحكم لله وحده، ورسلُه يبلغون عنه، فحكمُهم حكمه، وأمرهم أمره، وطاعتهم طاعته، فما حكم به الرسول، وأمرهم به، وشرعه من الدين وجب على جميع الخلائق اتباعه وطاعته، فإن ذلك هو حكم الله على خلقه[3].

---

(١) انظر: تعظيم قدر الصلاة ١/٣٩٢ ـ ٣٩٣.

(٢) انظر: التدمرية ص ١٦٩ تحقيق د. محمد السعوي.

(٣) انظر: الفتاوى ٣٥/٣٦١ وما بعدها.

وقال في موضع آخر في موضع بيانه أنه كما أن الكفر ببعض الرسل كفر ببقيتهم، فكذلك المؤمن ببعض الرسالة دون بعض كافر أيضًا، ثم قال في آخر كلامه: وكما ذم المدعين الإيمان بالكتب كلها، وهم يتركون التحاكم إلى الكتاب والسنة، ويتحاكمون إلى بعض الطواغيت المعظمة من دون الله، كما يصيب ذلك كثير ممن يدعي الإسلام وينتحله في تحاكمهم إلى مقالات الصابئة الفلاسفة أو غيرهم، أو إلى سياسة بعض الملوك الخارجين عن شريعة الإسلام من ملوك الترك وغيرهم، وإذا قيل لهم تعالوا إلى كتاب الله وسنة رسوله أعرضوا عن ذلك إعراضًا[1].

وعلاقة ما ذكره شيخ الإسلام بالعقيدة واضح جدًّا، حيث إن من مقتضى العقيدة التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله، صلى الله عليه وسلم.

ويتضح هذا من خلال ما قاله شيخ الإسلام في موضع آخر حيث قال:

والشهادة بأن محمدًا رسول الله، تتضمن تصديقه في كل ما أخبر، وطاعته في كل ما أمر، فما أثبته وجب إثباته، وما نفاه وجب نفيه، كما يجب على الخلق أن يثبتوا لله ما أثبته من الأسماء والصفات[2]، وينفوا عنه ما نفاه عنه من مماثلة المخلوقات، فيخلصون من التعطيل والتمثيل، ويكونون في إثبات بلا تشبيه، وتنزيه بلا تعطيل، وعليهم أن يفعلوا ما أمر به وأن ينتهوا

---

(١) انظر: الفتاوى ١٢/ ٣٣٩.

(٢) انظر إلى ربطه بين هذه الأمور، وأنها شيء واحد لا يتجزأ.

عما نهى عنه، فيحللوا ما حلله، ويحرّموا ما حرمه، فلا حرام إلا ما حرمه الله ورسوله، ولا دين إلا ما شرعه الله ورسوله، ولهذا ذم المشركين في سورة الأنعام والأعراف وغيرهما، لكونهم حرموا ما لم يحرمه الله، ولكونهم شرعوا دينًا لم يأذن به الله كقوله: **﴿وجعلوا لله مما ذَرَأ من الحَرْثِ والأنعام نصيبًا﴾**. [سورة الأنعام، الآية: ١٣٦]. وفي سورة الشورى: **﴿أم لهم شركاءُ شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله﴾**(١). [سورة الشورى، الآية: ٢١].

٤ ـ أما ابن القيم فيربط بين العقيدة والتحاكم في مواضع عدة من كتبه، ومن ذلك ما قاله شرحًا لحديث **«ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولاً»**(٢) حيث قال بعد كلام طويل: وأما الرضى بنبيه رسولاً، فيتضمن كمال الانقياد له والتسليم المطلق إليه، بحيث يكون أولى به من نفسه، فلا يتلقى الهدى إلا من مواقع كلماته، ولا يحاكم إلا إليه، ولا يحكم عليه غيره، ولا يرضى بحكم غيره البته.

ثم قال: وأما الرضى بدينه، فإذا قال أو حكم أو أمر أو نهى رضي كل الرضى، ولم يبق في قلبه حرج من حكمه، وسلم له تسليمًا(٣).

وتأمل قوله: (كمال الانقياد) وقوله (التسليم المطلق) وقوله (وسلم له تسليمًا) يتضح لك المراد.

٥ ـ أما شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب، فقد عقد لها بابًا

---

(١) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم ٢/ ٨٣٤ وقد أطال شيخ الإسلام في بيان ذلك.

(٢) أخرجه مسلم (١/ ٦٢) كتاب الإيمان، رقم (٣٤)، وأحمد (١/ ٢٠٨).

(٣) انظر: مدارج السالكين ٢/ ١٧٢.

مستقلاً في كتاب التوحيد بعنوان: باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله فقد اتخذهم أربابًا من دون الله(١).

وعقد بابًا آخر بعنوان: باب قوله تعالى ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به﴾(٢). [سورة النساء، الآية: ٦٠].

٦ - ونختم أقوال العلماء حول هذه القضية بما قاله العلامة الشيخ عبدالعزيز ابن باز حيث قال: وأما شهادة أن محمدًا رسول الله فكثير من الناس لا يفهمها على حقيقتها، وحكموا القوانين الوضعية، وأعرضوا عن شريعة الله، ولم يبالوا بها، جهلاً بها، وتجاهلاً لها.

إن شهادة أن محمدًا رسول الله تقتضي الإيمان برسول الله، صلى الله عليه وسلم، وطاعته في أوامره، واجتناب نواهيه، وتصديق أخباره، وألا يعبد الله إلا بالشريعة التي جاء بها - عليه الصلاة والسلام - كما قال - عز وجلّ -: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم﴾. [سورة آل عمران، الآية: ٣١]. وقال سبحانه: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾. [سورة الحشر، الآية: ٧]. فالواجب على المسلمين وعلى جميع الثقلين أن يعبدوا الله وحده، وأن يحكموا نبيه محمدًا، - عليه الصلاة والسلام - كما قال - سبحانه -: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجًا مما

---

(١) انظر: كتاب التوحيد ص ١٠٢.

(٢) انظر: كتاب التوحيد ص ١٠٤، طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

قضيتَ ويسلّموا تسليمًا﴾(١). [سورة النساء، الآية: ٦٥].

ويقول في كتاب وجوب تحكيم شرع الله: والعبودية لله وحده، والبراءة من عبادة الطاغوت، والتحاكم إليه من مقتضى شهادة ألا إلـه إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، فالله سبحانه هو رب الناس وإلـههم، وهو الذي خلقهم، وهو الذي يأمرهم وينهاهم، ويُحييهم ويُميتهم، ويُحاسبهم ويُجازيهم، وهو المستحق للعبادة، دون كل ما سواه، قال تعالى ـ: ﴿ألا له الخلق والأمر﴾. [سورة الأعراف، الآية: ٥٤]. فكما أنه الخالق وحده، فهو الآمر سبحانه، والواجب طاعة أمره(٢).

قال الدكتور/ عبدالرحمن المحمود ـ أستاذ العقيدة بجامعة الإمام بالرياض ـ قال معقبًا على بعض أقوال العلماء في هذه القضية ممن نقلنا كلامهم وغيرهم:

والمهم هنا إدراك أن الكلام في هذه المسألة ليس تضخيمًا لقضية جزئية، كما قد يدعي البعض، وإنما هو كلام مؤصل مبني على الدليل.

وإذا كان الذي لا يشرب الخمر، لأنه يرى أنها منقصة لشاربها، وأنها تذهب العقل، ومع ذلك يرى أنها غير محرمة، خارجًا عن دائرة الإسلام بالاتفاق(٣)، لأن الأمر تحول إلى جانب عقدي، فيه إنكار ما علم

(١) انظر: فتاوى الشيخ ابن باز ٢/ ٣٣٧ جمع الدكتور محمد الشويعر.

(٢) انظر رسالة وجوب تحكيم شريعة الله ص ٧.

(٣) بشرط ألا يكون جاهلاً أو متأولاً كما تأول الصحابي قدامة بن عبدالله شرب الخمر، فإن كان جاهلاً أو متأولاً علّم وأزيل اللبس فإن أصرّ على ذلك فهو كافر. انظر: مصنف عبدالرزاق ٩/ ٢٤٠ ومصنف ابن أبي شيبة ١٠/ ٣٩.

تحريمه من الدين بالضرورة، أو فيه استحلال لما حرم الله، فكذلك القضية الكبرى، قضية التحاكم إلى شرع الله لا إلى غيره، بل هي أولى.

ولا أدلّ على ذلك من تسليم العلماء بهذا الأمر ممن نقلنا أقوالهم، ومن غيرهم[1].

ومن خلال ما سبق يتضح ارتباط الحكم بما أنزل الله في قضية العقيدة، وأنها ليست مسألة عملية فقط لا دخل للعقيدة فيها.

وأنتقل الآن إلى الجانب الثاني من هذا الموضوع، للتحقيق في قضية أخرى من قضايا تحكيم شرع الله في شئون الحياة كلها، وأن من أعرض عن ذلك فقد تقدم بين يدي الله ورسوله.

---

(١) انظر: مبحث تحكيم الشريعة وصلته بالعقيدة ص ١٢ مخطوط.

ثانيا: الأدلة على وجوب التحاكم إلى الله ورسوله:

وردت آيات كثيرة جدًّا في وجوب التحاكم إلى شرع الله، ونهت عن اتباع ما سواه، وفي بعضها حكم على من خالف ذلك كنفي الإيمان، أو الكفر، أو اتخاذ الأرباب من دون الله ونحو ذلك.

وسأذكر بعض هذه الآيات دون تعليق عليها، ثم أقف مع آية منها مفصلاً وموضّحًا، وما سأذكره حولها يغني عن ذكر ما قيل في غيرها في مثل هذا البحث الموجز، ومن رغب في المزيد وأراد التوسع فسيجد ذلك في مظانه .

١ - **بعض الآيات الدالة** على وجوب التحاكم إلى شرع الله واتباع رسوله، صلى الله عليه وسلم:

(أ) قوله - تعالى -: **﴿فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾**. [سورة البقرة، الآية: ٢٥٦].

(ب) قوله - تعالى -: **﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم. قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين﴾**. [سورة آل عمران، الآيتان: ٣١، ٣٢].

(جـ) قوله - تعالى -: **﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحقّ لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيمًا﴾**. [سورة النساء، الآية: ١٠٥].

(د) قوله - سبحانه -: **﴿أفغير الله أبتغي حكمًا﴾**. [سورة الأنعام، الآية: ١١٤].

(هـ) وقال ـ تعالى ـ: ﴿ألا له الخلقُ والأمر﴾. [سورة الأعراف، الآية: ٥٤].

(و) قوله: ﴿ألا له الحكمُ وهو أسرع الحاسبين﴾. [سورة الأنعام، الآية: ٦٢].

(ز) قولـه: ﴿إنِ الحكم إلا لله أمـر ألا تعبدوا إلا إياه﴾. [سورة يوسف، الآية: ٤٠]. إلى غير ذلك من الآيات.

٢ ـ بعض الآيات التي بينت حكم من لم يحكم بما أنزل الله، أو لم يتحاكم إلى شرع الله، وما جاء عن رسوله:

(أ) قال ـ سبحانه ـ: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب يُدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريقٌ منهم وهم معرضون﴾. [سورة آل عمران، الآية: ٢٣].

(ب) وقال ـ تعالى ـ: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً﴾. [سورة النساء، الآية: ٥١].

(جـ) قولـه: ﴿اتخـذوا أحبـارهم ورهبـانهم أربابًا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلـهًا واحدًا لا إلـه إلا هو سبحانه عما يشركون﴾. [سورة التوبة، الآية: ٣١].

(د) قال ـ تعالى ـ في سورة المائدة: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾. [سورة المائدة، الآية: ٤٤].

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾. [سورة المائدة، الآية: ٤٥].

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾. [سورة المائدة، الآية: ٤٧].

(هـ) وقال في سورة النساء: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسولَ وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيءٍ فردّوه إلى الله والرسولِ إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خيرٌ وأحسنُ تأويلاً. ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوتِ وقد أُمروا أن يكفروا به ويُريدُ الشيطانُ أن يضلّهم ضلالاً بعيدًا. وإذا قيل لهم تعالَوْا إلى ما أنزل الله وإلى الرسولِ رأيتَ المنافقين يصدّون عنك صدودًا. فكيف إذا أصابتهم مصيبةٌ بما قدّمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانًا وتوفيقًا. أولئك الذين يعلمُ الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعِظْهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغًا. وما أرسلنا من رسولٍ إلا ليطاعَ بإذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسَهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسولُ لوجدوا الله توّابًا رحيمًا. فلا وربِّك لا يؤمنون حتى يحكِّموك فيما شجرَ بينهم ثم لا يجدوا في أنفسِهم حرجًا مما قضيتَ ويسلّموا تسليمًا﴾. [سورة النساء، الآيات: ٥٩-٦٥].

٣ - والآن نقف مع إحدى الآيات التي سبق ذكرها ليتضح المراد وتنقطع الحجة.

وقد اخترت قوله - تعالى -: ﴿فلا وربِّك لا يؤمنون حتى يحكِّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليمًا﴾. [النساء، الآية: ٦٥]. لأن تفسير العلماء لها لا يدع مجالاً لتأويل أو تحريف.

ورد في سبب نزول هذه الآية قولان:

الأول: أورد البخاري وغيره قصة الزبير مع رجل من الأنصار، حيث روى عروة بن الزبير أن رجلاً من الأنصار خاصم الزبير في سراج من الحرة ليسقي به النخل، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: **اسق يا زبير، ثم أرسل الماء إلى جارك**، فقال الأنصاري: أن كان ابن عمتك، فتلوّن وجه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ثم قال: **اسق ثم احبس حتى يرجع الماء إلى الجدر واستوعي له حقه**. فقال الزبير: والله إن هذه الآية أنزلت في ذلك: ﴿**فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم**﴾[١].

وفي رواية أن الزبير قال: فأحسب هذه الآية نزلت في ذلك[٢].

الثاني: أنها نزلت في المنافق واليهودي الذي نزل فيهم قوله تعالى: ﴿**ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت**﴾. [سورة النساء، الآية: ٦٠]. وهذا قول مجاهد.

روى إسحاق بن راهويه في تفسيره ـ بإسناد صحيح كما قال ابن حجر ـ روى عن الشعبي قال: كان بين رجل من اليهود ورجل من المنافقين خصومة، فدعى اليهوديّ المنافق إلى النبي، صلى الله عليه

---

(١) أخرجه البخاري في المساقاة (٣/٧٦، ٧٧)، وفي الصلح (٣/١٧١)، وفي التفسير (٥/١٨٠، ١٨١). ومسلم (٤/١٨٢٩) كتاب الفضائل رقم (٢٣٥٧). وأبو داود (٣/٣١٥) كتاب الأقضية، رقم (٣٦٣٧) وغيرهم.

(٢) البخاري (٣/١٧١) كتاب الصلح. ومسلم (٤/١٨٣٠) كتاب الفضائل رقم (٢٣٥٧).

وسلم، لأنه علم أنّه لا يقبل الرشوة، ودعى المنافق اليهودي إلى حكامهم لأنه علم أنهم يأخذونها، فأنزل الله هذه الآيات إلى قوله: ﴿ويسلموا تسليمًا﴾[١].

وقد رجَّح الطبري ـ رحمه الله ـ القول الثاني حيث قال: وهذا القول أولى بالصواب، ولا يمنع أن تكون قصة الزبير وقعت أثناء ذلك فيتناولها عموم الآية[٢].

وقد مال ابن حجر إلى ترجيح ما رجحه الطبري[٣] أي أن سبب النزول كان في قصة اليهودي والمنافق.

ومعنى هذه الآية واضح جدًّا، حيث نفى الله الإيمان عمن صدر منه شيء من ذلك، فهي عامة في كل من أبى أن يتحاكم إلى الكتاب والسنة، وأن الإيمان لا يتم إلا بتحكيم الرسول، صلى الله عليه وسلم، والتسليم له.

ولبيان هذا الأمر، وتحقيق هذه المسألة أنقل ما ورد عن بعض المفسرين في هذه الآية، وكذلك ما ذكره بعض العلماء من غير المفسرين.

١ ـ يقول شيخ المفسرين الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ: يعني جل ثناؤه بقوله ﴿فلا﴾ فليس الأمر كما يزعمون أنهم يؤمنون بما أنزل إليك،

---

(١) فتح الباري ٥/٣٧.
(٢) انظر: تفسير الطبري ٨/٥٢٤.
(٣) انظر: فتح الباري ٥/٣٨ حيث رجح أن الزبير لا يجزم بذلك.

وهم يتحاكمون إلى الطاغوت، ويصدون عنك إذا دُعوا إليك يا محمد، واستأنف القسم جل ذكره فقال: ﴿وربك﴾ يا محمد ﴿لا يؤمنون﴾. أي لا يصدقون بي وبك، وبما أنزل إليك ﴿حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾. يقول: حتى يجعلوك حكمًا بينهم، فيما اختلط بينهم من أمورهم فالتبس عليهم حكمه[١].

٢ ـ وقال الجصاص ـ رحمه الله ـ: وفي هذه الآية دلالة على أن من ردّ شيئًا من أوامر الله ـ تعالى ـ أو أوامر رسوله، صلى الله عليه وسلم، فهو خارج من الإسلام، سواء رده من جهة الشك فيه، أو من جهة ترك القبول، والامتناع من التسليم[٢].

٣ ـ أما ابن القيم ـ رحمه الله ـ فيقول:

وفرض تحكيمه لم يسقط بموته، بل ثابت بعد موته، كما كان ثابتًا في حياته، وليس تحكيمه خاصًا بالعمليات دون العلميات، كما يقوله أهل الزيغ والإلحاد.

وقد افتتح ـ سبحانه ـ هذا الخبر بالقسم المؤكد بالنفي قبله، وأقسم على انتفاء الإيمان منهم حتى يحكموا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في جميع ما تنازعوا فيه، من دقيق الدين وجليله، وفروعه وأصوله، ثم لم يكتف منهم بهذا التحكيم حتى ينتفي الحرج وهو الضيق مما حكم به، فتنشرح صدورهم لقبول حكمه انشراحًا لا يبقى معه حرج ويسلّموا تسليمًا[٣].

---

(١) انظر: تفسير الطبري ٨/ ٥١٨.

(٢) انظر: أحكام القرآن للجصاص ١/ ٢١٣.

(٣) انظر: مختصر الصواعق المرسلة ٢/ ٣٥٢، وأعلام الموقعين ١/ ٥٤.

٤ ـ وقال العلامة أحمد شاكر ـ رحمه الله ـ في عمدة التفسير تعليقًا على تفسير ابن كثير ـ رحمه الله ـ لهذه الآية:

ثم يقسم ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بنفسه الكريمة المقدسة أن الناس لا يكونون مؤمنين حتى يحتكموا في شأنهم كله إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وحتى يرضوا بحكمه طائعين خاضعين لا يجدون في حكمه حرجًا في أنفسهم ـ إلى أن قال ـ وأنهم إن لم يفعلوا ذلك لم يكونوا مؤمنين قط، بل دخلوا في عداد الكافرين المنافقين.

ثم ذكر القوانين الوضعية المطبقة في كثير من بلاد المسلمين، حيث أصبحت فقهًا وتشريعًا، بل أصبحت عند أصحابها دينًا جديدًا بديلاً عن دين الإسلام، ثم قال:

وصار هذا الدين الجديد هو القواعد الأساسية التي يتحاكم إليها المسلمون في أكثر بلاد الإسلام، ويحكمون بها، سواء منها ما وافق في بعض أحكامه شيئًا من أحكام الشريعة وما خالفها، وكله باطل وخروج، لأن ما وافق الشريعة إنما وافقها مصادفة، لا اتباعًا لها، ولا طاعة لأمر الله وأمر رسوله، فالموافق والمخالف كلاهما مرتكس في حمأة الضلالة، يقود صاحبه إلى النار، لا يجوز لمسلم أن يخضع له أو يرضى به[1].

٥ ـ ونختم أقوال العلماء والمفسرين حول هذه الآية بما قاله مفتي الديار السعودية العلامة الشيخ محمد بن إبراهيم ـ رحمه الله ـ: وقد نفى الله ـ سبحانه ـ الإيمان عمن لم يحكموا النبي، صلى الله عليه وسلم، فيما

---

(١) انظر: عمدة التفسير ٣/ ٢١٤ ـ ٢١٥.

شجر بينهم، نفيًا مؤكدًا بتكرار أداة النفي، وبالقسم فقال ـ تعالى ـ: ﴿**فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليمًا**﴾. [سورة النساء، الآية: ٦٥].

ولم يكتف ـ تعالى وتقدس ـ منهم بمجرد التحاكم للرسول، صلى الله عليه وسلم، حتى يضيفوا إلى ذلك عدم وجود شيء من الحرج في نفوسهم بقوله ـ سبحانه ـ: ﴿**ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجًا مما قضيت**﴾. ثم يقول: ولم يكتف ـ تعالى ـ أيضًا هنا بهذين الأمرين حتى يضموا إليهما التسليم، وهو كمال الانقياد لحكمه، صلى الله عليه وسلم، بحيث يتخلون ههنا من أي تعلق للنفس بهذا الشيء، ويسلموا ذلك إلى الحكم الحق أتم تسليم، ولهذا أكثر بالمصدر المؤكد، وهو قوله جل شأنه ﴿**تسليمًا**﴾. المبين أنه لا يكتفي ههنا بالتسليم، بل لابد من التسليم المطلق. ثم يقول: وتأمل أيضًا ما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿**فيما شجر بينهم**﴾. فإن اسم الموصول مع صلته من صيغ العموم عند الأصوليين وغيرهم، وذلك العموم والشمول هو من ناحية الأجناس والأنواع، كما أنه من ناحية القَدْر، فلا فرق ههنا بين نوع ونوع، كما لا فرق بين القليل والكثير(١).

ومن خلال ما سبق اتضح لنا حكم من أعرض عن تحكيم شرع الله، أو عن التحاكم إليه، بل حتى لو حكم أو تحاكم ما لم يرض بذلك ويسلم تسليمًا فإنه لا ينفعه ذلك أبدًا.

ثالثًا: الحكم بغير ما أنزل الله ينقسم إلى قسمين:

١ ـ كفر أكبر يخرج عن الملة.

(١) انظر: رسالة تحكيم القوانين ص ١.

٢ - كفر أصغر لا يخرج عن الملة.

وسأذكر الأنواع والأحوال الداخلة تحت كلا القسمين السابقين، مع التأكيد على ما يلي:

١ - أنني لن أفصل في بيان هذه الأنواع والأحوال وإنما سأذكرها بإجمال، وفق المنهج الذي أكدته مرارًا، ولكن سأذكر بعض المراجع لمن رغب في التفصيل والتوسع.

٢ - أن موضوع التكفير موضوع خطير، والناس اليوم فيه بين إفراط وتفريط، فهناك من توسع في إطلاق التكفير حتى كفر بعض المسلمين لبعض الكبائر التي ارتكبوها، ومن ثم وقع هؤلاء في عقيدة الخوارج وهم لا يعلمون، بل ويحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

وآخرون أصيبوا بحساسية مفرطة من كلمة التكفير، وميّعوا قضايا العقيدة، وأبطلوا أحكام الإسلام، حتى وصلت الحال ببعض أبناء المسلمين إلى أن يشككوا، أو يتشككوا في كفر اليهود والنصارى(١)، ولذلك سادت عقيدة الإرجاء في هذا العصر، وبلغت مكانة لم تبلغها من قبل في عصر من العصور.

والمنهج الحق، منهج أهل السنة والجماعة؛ أنه لا يجوز إطلاق التكفير إلا ضمن ضوابط شرعية محددة، مما عندنا فيه من الله برهان، ومن لم يكفر الكافر مع علمه بكفره فهو كافر، ومن قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما.

---

(١) قرأت مقالة لكاتب مشهور وأستاذ جامعي، يقول فيها ما معناه: وقد يكون هؤلاء على الحق كما أننا على الحق!!

٣ ـ أن هناك فرقًا بين أن نقول إن هذا العمل كفر، أو إن من عمله فهو كافر، وبين تكفير المعين. فهذا باب خطير والولوج فيه لا يطيقه إلا من يملك العدة لذلك بضوابطه وشروطه، وهذا لا يقدر عليه إلا جهابذة العلماء.

٤ ـ ولكل ما سبق، فإنني أنصح طلاب العلم والدعاة ـ فضلاً عن العامة ـ أن يحتاطوا لهذا الأمر، وأن يرجعوا إلى العلماء عند اشتباه الأمور والتباس الحق بالباطل، فإن الفتنة بابها خطير، وآثارها لا يعلم مداها إلا الله، وليسعنا ما وسع غيرنا، إلا بشيء عندنا فيه من الله برهان، فإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل.

٥ ـ وأخيرًا أقول: لقد ترددت كثيرًا في ذكر ما سأذكره، خوفًا من تعجل متعجل، أو فهم سقيم، مما قد يحمل فيه كلامي على غير محمله، ولكنني عزمت وتوكلت على الله، مع تأكيدي وإعذاري أن ما سأذكره ليس قولاً فصلاً، وإنما هو تنبيه وتحذير، لأن قضية التحاكم إلى غير شرع الله أصبحت لدى كثير من المسلمين لا تستحق البحث والعناء، بل وقع في ذلك بعض طلاب العلم والدعاة، حتى رأينا أن الاهتمام بشرك الأموات عند البعض أكبر من اهتمامه بشرك الأحياء.

بعد ذلك أقول:

أولا: ذكر العلماء عدة حالات يكون صاحبها داخلاً في الكفر الأكبر، أجملها بما يلي[1]:

---

(١) انظر لذلك: فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٢٠/٩٠، ٢٧/٥٨، ومنهاج السنة لابن تيمية ٥/١٣٠.

=

١ ـ أن يجحد الحاكم بغير ما أنزل الله أحقية حكم الله ورسوله، وهذا لا نزاع فيه بين أهل العلم[١].

٢ ـ ألا يجحد الحاكم بغير ما أنزل الله كون حكم الله ورسوله حقًا، لكن اعتقد أن حكم غير الرسول، صلى الله عليه وسلم، أحسن من حكمه وأتم وأشمل لما يحتاجه الناس من الحكم بينهم عند التنازع، إما مطلقًا، وإما بالنسبة لما استجد من الحوادث التي نشأت عن تطور الزمان، وتغير الأحوال.

وهذا لا ريب في كفره، لتفضيله أحكام المخلوقين التي هي محض زبالة الأذهان، وصِرف حثالة الأفكار على حكم الحكيم الحميد[٢].

٣ ـ ألا يعتقد كونه أحسن من حكم الله ورسوله، لكن اعتقد أنه مثله، فهذا كالنوعين اللذين قبله[٣].

= ورسالة تحكيم القوانين للشيخ محمد بن إبراهيم، ومدارج السالكين لابن القيم ١/٣٣٦.

والمغني لابن قدامة ١٢/١٧٦، والفروق للقرافي ٤/١١٥.

ومجموع فتاوى ابن باز ٤/٤١٦ و١/١٣٧ و٢٧٥.

والفصل لابن حزم ٣/٢٤٥، والاعتصام للشاطبي ١/٣٢٨، وتفسير ابن كثير ٣/١٢٢، والبداية والنهاية لابن كثير ١٣/١١٩، والدرر السنية ٨/٢٤١، وأضواء البيان في مواضع متفرقة ٣/٤٣٩ و٤/٩١ و٧/١٦٢ ـ ١٧٠، وعمدة التفسير لأحمد شاكر ٣/١٢٥ و٤/١٤٦ إلى ١٦٨، والمجموع الثمين لابن عثيمين ١/٣٦

(١) انظر: تحكيم القوانين ص ٥، وتفسير الطبري ١٠/٣٥٧، ٣٥٨.

(٢) انظر: تحكيم القوانين ص ٥، والفتاوى ٢٧/٥٨.

(٣) انظر: تحكيم القوانين ص ٥.

٤ ـ ألا يعتقد كون حكم الحاكم بغير ما أنزل الله مماثلاً لحكم الله ورسوله، فضلاً عن أن يعتقد كونه أحسن منه، لكن اعتقد جواز الحكم بما يخالف حكم الله.

فهذا كالذي قبله يصدق عليه ما يصدق عليه، لاعتقاده جواز ما علم بالنصوص الصحيحة الصريحة القاطعة تحريمه[١].

٥ ـ من اعتقد أن نظام الإسلام لا يصلح تطبيقه في العصر الحاضر فهو كافر خارج من الإسلام[٢].

٦ ـ من اعتقد أن تطبيق الإسلام سبب لتخلف المسلمين، فهو كالذي قبله[٣].

٧ ـ من اعتقد أن الإسلام ينحصر في علاقة المسلم بربه، دون أن يكون له علاقة ببقية شئون الحياة الأخرى فهو كافر أيضًا[٤].

٨ ـ من يعتقد ويرى أن إنفاذ حكم الله في قطع يد السارق، أو رجم الزاني المحصن، لا يناسب العصر الحاضر، فهو كافر أيضًا[٥].

٩ ـ من استحل الحكم بغير شريعة الله، فهو كافر بإجماع المسلمين[٦].

---

(١) انظر: تحكيم القوانين ص ٦، ومجموع فتاوى ابن باز ٤/٤١٦.
(٢) انظر: فتاوى ابن باز ١/١٣٧.
(٣) انظر: فتاوى ابن باز ١/١٣٧.
(٤) انظر: فتاوى ابن باز ١/١٣٧.
(٥) انظر: فتاوى ابن باز ١/١٣٧.
(٦) انظر: فتاوى ابن باز ١/١٣٧.

١٠ ـ من اعتقد أنه يجوز الحكم بغير ما أنزل الله في المعاملات، كالبيع والشراء والبنوك ونحوها، فهو كافر(١).

١١ ـ من جعل لنفسه حق التشريع والتحليل والتحريم، من دون الله تعالى، سواء كان فردًا أو مجموعة أو هيئة برلمانية أو غيرها، بحيث يصبح هؤلاء يسنون القوانين العامة المخالفة لشرع الله، ويفرضونها على الناس، ويأبون عليهم التحاكم إلى شرع الله(٢).

١٢ ـ ومثل ذلك من وضع نظامًا أو قانونًا مخالفًا لشرع الله، وجعل هذا القانون هو الحاكم بين الناس، وأوجب عليهم أن يتحاكموا إليه(٣).

١٣ ـ عوائد القبائل (سلومهم) التي اعتادوها وتوارثوها إذا كانت مخالفة لشرع الله، وعلموا بحكم الله فيها فأعرضوا عنه، وأبوا إلا أن يتحاكموا إلى ما اعتادوه، مما هو مخالف لحكم الله وحكم رسوله، صلى الله عليه وسلم(٤).

---

(١) انظر: فتاوى ابن باز ١/١٣٧، وانظر لبعض ما سبق أيضًا الفتاوى لابن تيمية ٢٧/٥٨.

(٢ ـ ٤) انظر: في ذلك الفصل لابن حزم ٣/٢٤٥، والاعتصام ٢/٣٧، ٢/٦١، ٢/٢٠١. وفتاوى شيخ الإسلام ٣/٢٦٧، ٣٥/٣٨٨، ٢٨/٤٦٨، وتفسير ابن كثير ٣/١٢٢، والبداية والنهاية ١٣/١١٩، والدرر السنية ٨/٢٤١، ٨/٢٧١، وتحكيم القوانين ص٦، وفتاوى ابن باز ١/٢٧٥، ١/٣٠٩، وأضواء البيان للشنقيطي ٤/٩١، ٣/٤٣٩، ٧/١٦٢، ١٧٣، وحواشي عمدة التفسير ٣/١٢٥، ٤/١٤٦ ـ ١٦٨، وفتاوى ابن عثيمين ١/٣٦ ـ ٣٩.

١٤ - الذين يطيعون المبدّلين لشرع الله، مع علمهم أنهم خالفوا شريعة الله وحكمه، ولكن لا يكفرون إلا بشروط أهمها:

(أ) أن يعلموا أن الحكام الحاكمين بغير شرع الله مبدّلون ومغيرون لشرع الله، فيتبعوهم على هذا التبديل والتغيير، مع علمهم بحكم من لم يحكم بما أنزل الله.

(ب) وجود ما يدلُّ على الرضاء والقبول منهم، بحيث يشاركون المشرعين من دون الله في اعتقاد التحليل والتحريم اتباعًا لهم، أما إذا لم يوجد ما يدل على رضاهم فلا[1].

ثانيا: أما الحالات التي يحكم فيها بغير شرع الله ولا تعتبر كفرًا أكبر، وإنما هي من الكفر الأصغر، فهي حالات فردية، مقيدة بالقيود التالية:

١ - أن تكون السيادة لحكم الله ورسوله، وأصل التحاكم مبني على الكتاب والسنة، والحاكم أو القاضي معترف بذلك قابل له، غير جاحد ولا منكر ولا مستحل، سواء في هذه القضية التي قضى بها مخالفًا لحكم الله، أو في غيرها ولو لم يقض بما يخالف الشرع.

٢ - أن تكون في حوادث الأعيان لا في الأمور العامة التي تفرض على جميع الناس، بحيث تصبح تشريعًا عامًّا.

٣ - أن يقرّ بأن حكم الله هو الحكم الحق، وأنه لا يجوز التحاكم

---

(١) لخطورة هذه المسألة ووقوع الخلط فيها، يحسن الرجوع إلى كتاب الإيمان لشيخ الإسلام ص ٦٧، والمجموع الثمين في فتاوى ابن عثيمين ٢/ ١٢٩، حيث فصلا في ذلك وأبانا فجزاهما الله عنا وعن الإسلام خيرًا.

إلى غيره، ولكنه يعلم أنه وقع في معصيته لهوى أو غيره.

وهذه القيود مأخوذة من كلام العلماء، في الحالات التي ذكروها(١).

فإذا توافرت هذه الضوابط، فإن صاحبها لا يكفر كفرًا أكبر، وإنما هي كبيرة من الكبائر.

ولكن مع أنها كفر أصغر فإنها أعظم من الزنا والسرقة وشرب الخمر وأكل الربا، لأن ما سمّاه الله كفرًا، وإن لم يكن كفرًا أكبر، فإنه أعظم مما لم يسمّه الله كفرًا، كبقية الكبائر.

وأخيرا:

فأؤكد على ما سبق أن ذكرته سابقًا من خطورة هذا الباب - باب التكفير - ومن وجوب الرجوع إلى العلماء الراسخين قبل تنزيل الكلام على الأعيان، حتى لا تزلّ قدم بعد ثبوتها، وألّا يتعدى في هذا البحث الهدف الذي جيء به من أجله.

وأذكر في هذا المقام ما قاله العلامة الشيخ محمد بن عثيمين وهو يتحدث في هذا الموضوع: حيث قال:

«وهذه المسألة - أعني مسألة الحكم بغير ما أنزل الله - من المسائل الكبرى التي ابتلي بها حكام هذا الزمان، فعلى المرء ألا يتسرع في الحكم

---

(١) انظر: بحث الدكتور عبدالرحمن المحمود ص ٩.
والفتاوى لشيخ الإسلام ٣٥/٣٨٨، ومنهاج السنة ٥/١٣٠، والمجموع الثمين من فتاوى ابن عثيمين ١/٣٦ - ٣٩، و٢/١٢٩ - ١٣٠، وكذلك كلام المفسرين عند تفسيرهم لآيات المائدة، ونقلهم لكلام ابن عباس «هو كفر دون كفر».

عليهم بما لا يستحقونه حتى يتبين له الحق، لأن المسألة خطيرة، نسأل الله أن يصلح للمسلمين ولاة أمورهم وبطانتهم»[١].

وبعد:

فقد اتضح لنا مما سبق خطورة الحكم بغير ما أنزل الله، وأنه أشد أنواع التقدم بين يدي الله ورسوله، فإذا كان الاقتراح على الله ورسوله يعتبر تقدمًا، فكيف بالتشريع من دون الله.

وبهذا تتضح لنا دلالة سورة الحجرات على هذا النوع من أنواع التقدم بين يدي الله ورسوله.

(١) انظر: المجموع الثمين في فتاوى ابن عثيمين ١/ ٣٩.

الأدب مع العلماء

الموضوع الثاني:

الأدب مع العلماء:

عندما نزل قوله ـ تعالى ـ: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجَهْرِ بعضِكم لبعضٍ أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٢]. تأثر الصديق أبو بكر والفاروق عمر ـ رضي الله عنهما ـ والتزما ألّا يكلما رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إلا سرًّا أو همسًا، كما سبق بيانه وتفصيله.

وكذلك فعل ثابت بن قيس بن شماس عندما تصور أن هذه الآية نزلت فيه، لأنه كان جهوريَّ الصوت، حيث لزم بيته حتى استدعاه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وبشَّره بالجنة(١).

ومن ثم نزل قوله ـ تعالى ـ: ﴿إن الذين يغضّون أصواتهم عند رسولِ الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٣].

بل إن الأدب مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، التزم به الصحابة ومن بعدهم حتى بعد وفاته، حيث كرهوا رفع الصوت عند قبره كما ذكر ذلك كثير من المفسرين كابن كثير وغيره، حيث أورد قصة عمر ـ رضي الله عنه ـ مع الرجلين من أهل الطائف(٢).

---

(١) راجع أسباب نزول الآيات في أول البحث.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٤/٢٠٧، وقد تقدم تخريج هذا الأثر.

وذكر بعض المفسرين أن هذا الأدب قد وعاه السلف حيث تجاوزوا به شخص رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إلى كل شيخ وعالم من العلماء، احترامًا لهم، حيث إنهم يحملون ميراث رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وهو سنته، حتى عندما نزلت آية الحجرات، أفاد منها من جاء من العلماء بعد ذلك، فكان ابن عباس - رضي الله عنهما - يذهب إلى الصحابي ليروي عنه الحديث، فيجلس عند بابه حتى يخرج تأدبًا مع من يحمل حديث رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وتأثرًا بقوله - تعالى -: ﴿ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٥]. وهي وإن كانت خاصة برسول الله، صلى الله عليه وسلم، فإن من الأدب وحسن الخلق التعامل مع العلماء بمثل ذلك. قال أبو عبيد: ما دققت بابًا على عالم قط حتى يخرج في وقت خروجه[1].

إننا من خلال ما سبق من آيات في هذه السورة نجد عظمة هذا الدين في بناء الفرد المسلم على الأدب الجم، الأدب مع الله - جل وعلا - والأدب مع رسوله، صلى الله عليه وسلم، ومن ثم الأدب مع من يحمل كتاب الله ويرث سنة رسوله، صلى الله عليه وسلم، فالعلماء ورثة الأنبياء، فإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا وإنما ورثوا العلم. كما جاء في الحديث عن المصطفى، صلى الله عليه وسلم[2].

---

(١) انظر: في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٤٠.

(٢) أخرجه أبو داود (٣/٣١٧) كتاب العلم، رقم (٣٦٤١). والترمذي (٥/٤٧) كتاب العلم، رقم (٢٦٨٢). قال الترمذي: ولا نعرف هذا الحديث إلا من حديث عاصم بن رجاء بن حيوة وليس هو عندي بمتصل. وابن ماجه (١/ ٨١) في المقدمة، =

ومن هذا المنطلق جاءت أقوال السلف ـ رحمهم الله ـ ومن سار على نهجهم واقتفى أثرهم، وقد ذكرت قصة ابن عباس، وأبي عبيد، وتأدبهما مع العلماء.

وورد عن ابن عباس ـ أيضًا ـ قوله: من آذى فقيهًا فقد آذى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ومن آذى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقد آذى الله ـ عز وجل ـ.

وروى الخطيب البغدادي عن أبي حنيفة والشافعي أنهما قالا: إن لم يكن الفقهاء أولياء الله فليس لله ولي[١].

وكما ورد في الحديث الصحيح عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال الله ـ عز وجل ـ في الحديث القدسي: «**من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب**»[٢]. ومن خلال هذه النصوص نعلم أن الأدب مع العلماء أدب مع الله، وأدب مع رسوله، صلى الله عليه وسلم، وندرك أن قوله ـ تعالى ـ: ﴿**لا تقدّموا بين يدي الله ورسوله**﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١]. وقوله: ﴿**لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض**﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٢]. وقوله: ﴿**إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون**﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٤]. ليست لمجرد التلاوة فقط، بعد وفاة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بل هي ترسم منهجًا

= رقم (٢٢٣). وصحح هذا الحديث الألباني كما في صحيح الجامع رقم (٦٢٩٧).

(١) انظر رسالة: لحوم العلماء مسمومة للمؤلف.

(٢) أخرجه البخاري (٧/ ١٩٠) كتاب الرقاق.

للمسلم في تأدبه مع الله، - والله حي لا يموت - والتأدب مع الله يستلزم التأدب مع شرعه، والتأدب مع كتابه، والتأدب مع سنة رسوله، صلى الله عليه وسلم، ﴿إن هو إلا وحيٌ يوحى﴾. [سورة النجم، الآية: ٤]. وكذلك التأدب مع العلماء والدعاة إلى الله، الذين هم أولياء الله - جل وعلا - وهم الذين يحملون الكتاب والسنة، ومن أساء الأدب معهم فقد أساء الأدب مع الله ومع رسوله، لأن ذلك لن يقف عند أشخاصهم بل سيتعدى إلى ما يحملونه من علم الكتاب والسنة[١].

ومن هذا المنطلق، ولما نراه من هجوم على كثير من العلماء؛ من تتبع لمثالبهم وانتقاصهم، والتشهير بهم، ولم يقتصر الأمر على الأحياء، بل تعدى إلى الأموات من سلف هذه الأمة وقدوتها، ولما لهذا الأمر من خطورة قد لا يدركها كثير من هؤلاء الذين يقعون في علمائهم، فضلاً عن غيرهم من العامة، وتبعًا للمنهج الذي ذكرته من ربط الواقع الذي نعيشه بهذه السورة، ومن ثم معالجة ما في واقعنا في ضوء هذه الآيات الكريمات التي نحن بصدد الحديث عنها[٢]. فسأقف وقفة مناسبة لبيان هذه القضية وعلاجها[٣].

---

(١) سيأتي تفصيل ذلك في الآثار المترتبة على الوقيعة في العلماء، انظر ثالثًا.

(٢) مع الإشارة إلى أن المفسرين قد ربطوا بين هذه الآيات ومكانة العلماء، كالقرطبي حيث قال: وكره بعض العلماء رفع الصوت في مجالس العلماء، تشريفًا لهم، إذ هم ورثة الأنبياء، وكسيد قطب حيث قال: وقد وعي المسلمون هذا الأدب الرفيع وتجاوزوا به شخص رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إلى كل أستاذ وعالم. انظر: تفسير القرطبي ١٦/٣٠٧، وفي ظلال القرآن ٦/٣٣٤٠.

(٣) انظر: رسالة أدب الخلاف للدكتور: صالح بن عبدالله بن حميد ورسالة لحوم العلماء مسمومة للمؤلف.

أولاً: مكانة العلماء وفضلهم:

قال الله - تعالى -: ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾. [سورة الزمر، الآية: ٩]. ويقول - سبحانه -: ﴿إنما يخشى الله من عبادهِ العلماءُ﴾. [سورة فاطر، الآية: ٢٨]. ويقول - جل وعلا -: ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾. [سورة النساء، الآية: ٥٩]. وأولو الأمر - كما يقول أهل العلم -: هم العلماء. وقال بعض المفسرين: أولو الأمر: الأمراء والعلماء.

ويقول الله - عز وجل -: ﴿يرفعِ الله الذين آمنوا منكم والذين أُوتوا العلمَ درجات﴾. [سورة المجادلة، الآية: ١١].

وروى البخاري عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: «من يرد الله به خيراً يُفقِّهه في الدين»(١)، قال ابن المنير - كما يذكر ابن حجر -: «من لم يفقهه الله في الدين فلم يرد به خيراً».

وروى أبو الدرداء عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: «فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ليلة البدر. العلماءُ هم وَرَثةُ الأنبياء. إن الأنبياء لم يورِّثوا دينارًا ولا درهمًا، إنما ورَّثوا العلم، فمن أخذ به فقد أخذ بحظٍّ وافر»(٢).

---

(١) صحيح البخاري (١/٢٥، ٢٦) كتاب العلم. وأخرجه مسلم (٣/١٥٢٤) كتاب الإمارة، رقم (١٠٣٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٥/٤٧) كتاب العلم، رقم (٢٦٨٢). وأبو داود (٣/٣١٧) كتاب العلم، رقم (٣٦٤١)، وابن ماجه (١/٨١) في المقدمة، رقم (٢٢٣). والدارمي (١/١١٠) في المقدمة، رقم (٣٤٢). وصححه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (٦٢٩٧).

ومن عقيدة أهل السنة والجماعة ـ كما يقول الشيخ عبدالرحمن بن سعدي ـ رحمه الله ـ: «أنهم يدينون الله باحترام العلماء الهداة»، أي أن أهل السنة والجماعة يتقربون إلى الله ـ تعالى ـ بتوقير العلماء، وتعظيم حُرمتهم.

قال الحسن: «كانوا يقولون: موت العالم ثُلْمة في الإسلام لا يسدها شيء ما اختلف الليلُ والنهار».

وقال الأوزاعي: «الناس عندنا أهلُ العلم. ومَنْ سواهم فلا شيء».

وقال سفيان الثوري: «لو أن فقيهًا على رأس جبل؛ لكان هو الجماعة».

وحول هذه المعاني يقول الشاعر:

الناس من جهة التمثال أكفاءُ ... أبوهُمُ آدم والأُمُّ حوّاء
فإن يكنْ لهم في أصلهم نسبٌ ... يفاخِرون به فالطينُ والماءُ
ما الفضل إلا لأهل العلمِ إنهمُ ... على الهُدى لمن استهدى أدلّاءُ
وقدْرُ كلِّ امرىءٍ ما كان يُحسنه ... والجاهلون لأهل العلم أعداء

مِنْ هذه النصوص الكريمة، ثم من هذه الأقوال المحفوظة؛ تتبين لنا المكانة العظيمة، والدرجة العالية، التي يتمتع بها علماء الأمة؛ ومن هنا وَجَبَ أن يوفيهم الناسُ حقَّهم من التعظيم والتقدير، والإجلال وحفظ الحرمات، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ومن يُعظِّم حُرماتِ الله فهو خيرٌ له عند ربه﴾. [سورة الحج، الآية: ٣٠]. ويقول ـ جل وعلا ـ: ﴿ومن يعظِّم شعائر الله فإنها من تَقْوى القلوب﴾. [سورة الحج، الآية: ٣٢]. والشعيرة ـ كما قال

العلماء ـ: كلُّ ما أذنَ الله وأشعَرَ بفضله وتعظيمه. والعلماء ـ بلا ريب ـ يدخلون دخولاً أوَّليًا فيما أذن الله وأشعر بفضله وتعظيمه، بدلالة النصوص الكريمة السالفة الإيراد.

إذن، فالنَّيلُ من العلماء وإيذاؤهم يُعَدُّ إعراضًا أو تقصيرًا في تعظيم شعيرة من شعائر الله. وما أبلغ قول بعض العلماء: «**أعراض العلماء على حفرة من حُفَرِ جهنم**».

وإن مما يدل على خطورة إيذاء مصابيح الأمة (العلماء)، ما رواه البخاري عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: **قال الله ـ عزّ وجلّ ـ في الحديث القدسي**: «**مَنْ عادى لي وليًّا فقد آذنْتُهُ بالحرب**»[١].

أخي القارىء الكريم كلنا يُدرك أنّ مَنْ أكل الربا فقد آذنه الله بالحرب، إن لم ينته ويتبْ عن ذلك الجرم العظيم، كلنا يدرك هذا؛ ولكن هل نحن ندرك ـ أيضًا ـ أن من آذى أولياء الله فقد حارب الله ـ جلّ وعلا ـ كما تبين من الحديث السابق!؟ هل نحن نستحضر هذا الوعيد الشديد، عندما نهمّ بالحديث في عالم من العلماء؟!

روى الخطيب البغدادي عن أبي حنيفة والشافعي ـ رحمهما الله ـ أنهما قالا: «إن لم يكن الفقهاءُ أولياءَ الله، فليس لله ولي». قال الشافعي: «الفقهاء العاملون»: أي أن المراد: **هم العلماء العاملون**.

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «من آذى فقيهًا فقد آذى رسول

---

(١) تقدم تخريجه قريبًا.

الله ، صلى الله عليه وسلم ، ومن آذى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقد آذى الله ـ عز وجل ـ» .

لعل في هذه النصوص تبيينًا لفضل العلماء ، وتذكيرًا ببعض ما يجب لهم علينا من الحقوق .

ثانيا: أسباب أكل لحوم العلماء:

١ - الغَيْرة والغِيرة:

أما الغَيرة - بالفتح - فهي محمودة، وهي أن يغار المرء وينفعل من أجل دين الله، وحرمات الله - جلّ وعلا - لكنها قد تجرّ صاحبها - إن لم يتحرّز - شيئًا فشيئًا، حتى يقع في لحوم العلماء من حيث لا يشعر.

وأما الغِيرة - بالكسر - فهي مذمومة، وهي قرينة الحسد، والمقصود بها هو: كلام العلماء بعضهم في بعض (الأقران). قال سعيد بن جبير: «استمعوا لعلم العلماء، ولا تُصدّقوا بعضهم على بعض، فوالذي نفسي بيده لهم أشدُّ تغايرًا من التيوس في ضِرابها». أي: استفيدوا من علم العلماء، ولكن لا تُصدّقوا كلام بعضهم على بعض، من الأقران. ولذلك قال الذهبي: «كلام الأقران بعضهم في بعض لا يُعْبَأ به، لا سيما إذا كان لحسدٍ أو مذهب أو هوى».

٢ - الحسد:

والحسد يُعْمي ويُصِم، ومنه التنافس للحصول على جاه أو مال، فقد يطغى بعض الأقران على بعض، ويطعن بعضهم في بعض، من أجل القرب من سلطان، أو الحصول على جاه أو مال.

٣ - الهوى:

إن بعض الذين يأكلون لحوم العلماء لم يتجردوا لله - تعالى - وإنما دفعهم الهوى، للوقوع في أعراض علماء الأمة. واتباع الهوى لا يؤدي إلى خير، قال - تعالى -: ﴿**ولا تتبع الهوى فيضلَّك عن سبيل الله**﴾. [سورة ص، الآية: ٢٦]. وقال - سبحانه -: ﴿**فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما**

يتّبعون أهواءهم﴾. [سورة القصص، الآية: ٥٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «صاحب الهوى يُعْميه الهوى ويُصِمُّه». وكان السلف يقولون: «احذروا من الناس صنفين: صاحبَ هوى قد فَتَنَهُ هواه، وصاحب دنيا أعمته دنياه».

٤ ـ التقليد:

لقد نعى الله ـ تعالى ـ على المشركين تقليدهم آباءَهم على الضلال: ﴿إنّا وجدنا آباءنا على أمة وإنّا على آثارهم مُقْتدُون﴾. [سورة الزخرف، الآية: ٢٢].

والتقليد ليس كله مذمومًا، بل فيه تفصيل ذكره العلماء، ولكنني في هذا المقام أحذِّر من التقليد الذي يؤدي إلى نهش لحوم العلماء، فإنك ـ أحيانًا ـ تسمع بعض الناس يقع في عرض عالم، فتسأله: هل استمعت إلى هذا العالم؟ فيقول: لا والله. فتقول: إذن كيف علمت من حاله وأقواله كذا وكذا؟! فيقول: قاله لي فلان(١). هكذا يطعن في العالم تقليدًا لفلان، بهذه السهولة، غير مراعٍ حُرمة العالم.

قال ابن مسعود: «ألا لا يقلّدنَّ أحدُكم دينَه رجلًا، إنْ آمنَ آمنَ، وإنْ كفر كفر، فإنه لا أُسوةَ في الشرّ». وقال أبو حنيفة: «لا يحلّ لمن يُفتي من كُتُبي أن يُفتي حتى يعلم من أين قلتُ». وقال الإمام أحمد: «من قِلّة علم الرجل أن يقلّدَ دينه الرجال».

---

(١) وليس المراد أن فلانًا نقل له كلامه ـ فهذا هو السند وهو مصدر صحيح إذا كان الناقل ثقة، ولكن المراد أن فلانًا سبّه وقدح فيه، فسبه تبعًا له دون تبين.

٥ ـ التعصب:

من خلال سَبْري لأقوال الذين يتحدثون في العلماء ـ وبخاصة طلاب العلم والدعاة ـ تبين لي أن التعصب من أبرز أسباب ذلك.

والباعث على التعصب هو الحزبية، الحزبية لمذهب أو جماعة أو قبيلة أو بلد، الحزبية الضيقة التي فرَّقت المسلمين شيعًا، حتى صَدقَ على بعضهم قول الشاعر:

وهل أنا إلا من غُزَيَّة إن غَوَتْ
غويتُ، وإن ترشُدْ غزيةُ أرشُدِ

سمعت أن بعض طلاب العلم يتكلمون في بعض العلماء، وفجأة تغير موقفهم، وصاروا يثنون عليه؛ لأنهم سمعوا أن فلانًا يثني عليه؛ فأثنوا عليه، وسبحان الله مغير الأحوال.

إذا ضلّ من يتعصبون له، ضلّوا معه، وإذا اهتدى للصواب، اهتدوا معه. لقد سلم بعض الطلاب والدعاة عقولهم لغيرهم، وقلّدوا في دينهم الرجال.

ولقد رأينا قريبًا مَنْ ينتصر لعلماء بلده، ويقدح في علماء البلاد الأخرى، سبحان الله! أليست بلاد المسلمين واحدة! أليس هذا من التعصب المذموم! أليس من الشطط أن يتعصب أهل الشرق لعلماء الشرق، وأهل الغرب لعلماء الغرب، وأهل الوسط لعلماء الوسط!

إن هذا التعصب مخالف للمنهج الصحيح، الذي يدعونا إلى أن نأخذ بالحق مهما كان قائله، ولهذا قال أبو حامد الغزالي في ذم التعصب: «وهذه عادةُ ضعفاءِ العقول، يعرفون الحق بالرجال، لا الرجالَ بالحق».

٦ - التعالم:

لقد كثر المتعالمون في عصرنا، وأصبحت تجد شابًا حَدَثًا يتصدّر لنقد العلماء، ولتفنيد آرائهم وتقوية قوله، وهذا أمر خطير؛ فإن مِنْ أجهل الناس مَنْ يجهل قدر نفسه، ويتعدى حدوده.

٧ - النفاق وكره الحق:

قال الله - تعالى - عن المنافقين: ﴿في قلوبهم مرضٌ فزادهم الله مرضًا﴾. [سورة البقرة، الآية: ١٠]. ﴿وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنُؤْمِن كما آمن السفهاءُ ألا إنهم هم السفهاءُ ولكنْ لا يعلمون﴾. [سورة البقرة، الآية: ١٣]. ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنًا وإذا خَلَوْا إلى شياطينهم قالوا إنَّا معكم إنما نحن مُستهزئون﴾. [سورة البقرة، الآية: ١٤].

إن المنافقين الكارهين للحق؛ من العَلمانيين، والحداثيين، والقوميين، وأمثالهم، من أقوى أسباب أكل لحوم العلماء؛ لما في قلوبهم من المرض والبغض للحق وأهله.

ومن المؤسف الممضّ أنني استمعت في مجلس من المجالس إلى أحد هؤلاء المنافقين، يستطيل في أعراض العلماء، فقلّده بعض الطيبين من حيث لا يشعر، ووافقه على ما يقول، حتى رُدَّ عليه في ذلك المجلس.

إن العَلمانيين الآن يتحدثون في علمائنا بكلام بذيء، يعفُّ القلم عن تسطيره، مما يدُلّ على ما في قلوبهم من الدَّغل، ومعاداة وَرَثةِ الأنبياء، وما يحملونه من الحق.

٨ ـ تمرير مخططات الأعداء، كالعلمنة ونحوها:

أدرك العَلمانيون ـ أخزاهم الله ـ أنه لا يمكن أن تقوم لهم قائمة، والعلماء لهم شأن وهيئة وهيبة في البلد، فأخذوا في النَّيل من العلماء، وشرعوا في تشويه صورة العلماء، وتحطيم قيمتهم، بالدَّسِّ واللَّمز، والافتراء والاختلاف. لا أقول هذا جُزافًا ولا رَجْمًا بالغيب، ولكن ذلك هو ما نقله إلينا الثقات عن العلمانيين، من كلام في العلماء لا يقبله عقل العاميّ، فضلاً عن طالب العلم.

ثالثا: الآثار المترتبة على الوقيعة في العلماء:

إنّ هناك عواقب وخيمة، ونتائج خطيرة، وآثارًا سلبية، تترتب على أكل لحوم العلماء؛ والوقوع في أعراضهم. يدرك تلك الآثار مَنْ تأمّل في الواقع، ووسع أفقه، وأبعد نظره، وإليك أهمها:

١ - أن جرح العالم سبب في رد ما يقوله من الحق:

إن جرح العالم ليس جرحًا شخصيًّا، كأي جرح في رجل عاميّ، ولكنه جرح بليغ الأثر، يتعدى الحدود الشخصية، إلى ردّ ما يحمله العالم من الحق. ولذلك استغل المشركون من قريش هذا الأمر، فلم يطعنوا في الإسلام أولاً، بل طعنوا في شخص الرسول، صلى الله عليه وسلم، لأنهم يعلمون - يقينًا - أنهم إن استطاعوا أن يشوّهوا صورة الرسول، صلى الله عليه وسلم، في أذهان الناس، فلن يقبلوا ما يقوله من الحق. قالوا: إنه ساحر، كاهن، مجنون.. ولكنهم فشلوا - ولله الحمد - في ذلك. وقد كانوا قبل بعثته يصفونه بالأمين، الصادق، الحكم، الثقة. فما الذي تغيّر بعد بعثته؟ ما الذي حوَّله إلى كاهن، مجنون، ساحر؟ إنهم لا يقصدون شخص محمد بن عبدالله، فهم يعلمون أنه هُوَ هُوَ، ولكنهم يقصدونه بصفته رسولاً يحمل منهجًا هم يحاربونه، فعلموا أنهم إن استطاعوا تشويه صورته في نفوس الناس؛ فقد نجحوا في صدهم عنه، وعما معه من الحق. وهذا هو أسلوب المنافقين اليوم.

٢ - أن جرح العالم جرح للعلم الذي معه، وهو ميراث النبي، صلى الله عليه وسلم، إذ العلماء ورثةُ الأنبياء، فجرح العالم جرح للنبي، عليه الصلاة والسلام، وهذا هو معنى قول ابن عباس: «من آذى فقيهًا فقد

آذى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ومن آذى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقد آذى الله ـ جلّ وعلا ـ».

إذن، فالذي يجرح العالم يجرح العلم الذي معه.

ومن جَرَحَ هذا العلم؛ فقد جَرح إرث النبي، صلى الله عليه وسلم، وعلى ذلك فهو يطعن في الإسلام من حيث لا يشعر.

٣ ـ أن جرح العلماء سيؤدي إلى بعد طلاب العلم عن علماء الأمة. وحيئنذ يسير الطلاب في طريقهم بدون مرشدين، فيتعرضون للآخطار والأخطاء، ويقعون في الشطط والزلل، وهذا ما نخشاه على شبابنا اليوم.

٤ ـ أن تجريح العلماء تقليل لهم في نظر العامة. وذهاب لهيبتهم، وقيمتهم في صدورهم، وهذا يَسُرُّ أعداءَ الله، ويُفرحهم، يقول أحد الزعماء الهالكين في دولة عربية بعد أن سلّط إعلامَهُ على العلماء، مستهترًا مستهزئًا بهم ـ: «عالم.. شيخ.. أعطه فرختين؛ فيفتي لك بالفتوى التي تريد».

لقد سقطت قيمة العلماء عند العامة في كثير من الدول الإسلامية. ذهبتُ إلى بعض تلك الدول، وسألتُ عن العلماء، فما وجدت الناس يعرفون العلماء، ولا يأبهون للعلماء؛ لأن العلمنة سلّطت سهامها عليهم، فشوهت صورتهم، ولطّخت سمعتهم؛ فأصبحوا من سقطِ المتاع، في نظر كثير من الناس.

رابعًا: ما يجب علينا تجاه العلماء:

١ - أن نحفظ للعلماء مكانتهم، وفاعليتهم في قيادة الأمة، وأن نتأدب معهم:

إنّ في معاملة السلف لعلمائهم لقدوةً لنا، يجب الاقتداء بها، وإنّ فيما سطّروه من بيان لآداب طالب العلم لنورًا، ينبغي لِشُداةِ العلم أن يستنيروا به في طريق الطلب.

قال العراقي: «لا ينبغي للمحدِّث أن يحدّث بحضرة مَنْ هو أولى منه بذلك. وكان إبراهيم والشعبي إذا اجتمعا لم يتكلم إبراهيم بشيء».

وقال ابن الشافعي: «ما سمعتُ أبي ناظر أحدًا قط فرفع صوته».

وقال يحيى بن معين: «الذي يحدِّث بالبلد وفيها مَنْ هو أولى منه بالتحديث فهو أحمق».

وقال الصُّعْلوكي: «من قال لشيخه: لِمَ - على سبيل الاستهزاء - لم يفلح أبدًا».

وتأدب ابن عباس - رضي الله عنه - مع عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - حيث مكث سنة وهو يُريد أن يسأله عن مسألة من مسائل العلم، فلم يفعل.

وقال طاووس بن كيسان: «من السُّنة أن يُوَقَّر العالمُ».

وقال الزهري: «كان سَلَمةُ يماري ابن عباس؛ فحُرِم بذلك علمًا كثيرًا».

وقال البخاري: «ما رأيت أحدًا أوقر للمحدثين من يحيى بن مَعين».

وقال المغيرة: «كنَّا نهاب إبراهيم كما نهاب الأمير».

وقال عطاء بن أبي رباح: «إن الرجل ليحدثني بالحديث، فأنصتُ له، كأني لم أسمعه أبدًا. وقد سمعته قبل أن يُولد».

وقال الشافعي: «ما ناظرتُ أحدًا قط إلا تمنيت أن يُجريَ الله الحق على لسانه».

وذُكِرَ أحدُ العلماء عند الإمام أحمد بن حنبل ـ وكان مُتَّكئًا من علة ـ فاستوى جالسًا وقال: لا ينبغي أن يُذْكر الصالحون فنتكىء.

وقال الجزري: «ما خاصم ورعٌ قط».

وبمثل هؤلاء يحسن الاقتداء ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾. [سورة الأنعام، الآية: ٩٠].

٢ ـ أن نعلم أنه لا معصوم إلا من عصم الله وهم الأنبياء[١] والملائكة:

وعلى ذلك فيجب أن ندرك أن العالم معرَّضٌ للخطأ، فنعذره حين يجتهد فيخطىء، ولا نذهب نتلمس أخطاء العلماء ونحصيها عليهم.

ولقد كان سلف الأمة ـ رحمهم الله ـ يستحضرون هذا الأمر، ويفقهونه حقَّ الفقه.

قال الإمام سفيان الثوري: «ليس يكاد يثبُتُ من الغلط أحد».

وقال الإمام أحمد: «ومَنْ يَعْرَى من الخطأ والتصحيف!!».

---

(١) لا تخفى عقيدة أهل السنة في موضوع عصمة الأنبياء وفي حدود هذه العصمة فليعلم، ومن أراد مزيد بيان فليرجع إلى شرح العقيدة الطحاوية.

وقال الترمذي: «لم يَسْلَم من الخطأ والغلط كبيرُ أحدٍ من الأئمة مع حفظهم».

وقال ابن حبان: «وليس من الإنصاف تركُ حديث شيخٍ ثبتَ صحةُ عدالته بأوهام يَهِمُ في روايته، ولو سلكنا هذا المسلك، تُرِكَ حديث الزهريّ وابن جُريج والثوريّ وشعبه؛ لأنهم أهل حفظ وإتقان، ولم يكونوا معصومين حتى لا يَهِموا في رواياتهم».

٣ - أن ندرك أن الخلاف موجود منذ عهد الصحابة، إلى أن تقوم الساعة:

لذلك يجب أن تتسع صدورنا للخلاف بين العلماء[١] فلكل واحد منهم فهمه، ولكل واحد اطلاعه على الأدلة، ولكل واحد نظرته في ملابسات الأمور؛ فمن الطبيعي أن يوجد الخلاف بينهم، وانظر ما ذكره كثير من العلماء في هذا الموضوع، ككتاب «رفع الملام عن الأئمة الأعلام»، لشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -.

٤ - أن نفوت الفرصة على الأعداء، وننتبه إلى مقاصدهم وأغراضهم، وأن ندافع عن علمائنا، لا أن نكون من وسائل تمرير مخططات الأعداء من حيث لا نشعر.

٥ - أن نحمل أقوال علمائنا وآراءهم على المحمل الحسن، وألا نسيء الظن فيهم، وإن لم نأخذ بأقوالهم.

---

(١) وأعني به خلاف الفروع لا الأصول، وانظر رسالة الدكتور صالح بن حميد في أدب الخلاف.

حقًّا أننا لسنا ملزمين بالأخذ بكل أقوال العلماء، لكنّ ثمة فرقًا كبيرًا بين عدم الأخذ بقول العالم ـ إذا كان هناك دليل يخالفه ـ والجرح فيه، فلا يعني عدم اقتناعنا برأي العالم أن نستبيح عِرضَه، ونأكل لحمه. ولقد كان الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ يقول: «إذا صحّ الحديث فهو مذهبي». ونُقل ذلك عن غير واحد من الأئمة؛ فقد كانوا يدركون أنه ليس أحد متعبدًا بقول عالم، فقد يكون قوله مخالفًا للدليل، لأنه لم يبلغه ـ مثلاً ـ لكن تبقى حرمةُ العالم مصونة من الطعن والوقيعة.

قال عمر ـ رضي الله عنه ـ: «لا تظنَّ بكلمةٍ خرجت من أخيك المسلم سوءًا وأنت تجد لها في الخير محملاً».

٦ ـ أن ننتبه إلى أخطائنا وعيوبنا نحن، وننشغل بها عن عيوب الناس عامة، وعن أخطاء العلماء خاصة.

يا واعظ الناس قد أصبحتَ مُتَّهمًا
إن عِبْتَ منهم أمورًا أنت تأتيها
وأعظمُ الإثم بعد الشرك نعلمُهُ
في كل نفسٍ عماها عن مَساويها
عرّفتَها بعيوب الناس تُبصرُها
منهم، ولا تبصر العيبَ الذي فيها

وما مَثَلُ مَنْ يقع في أعراض العلماء وينسى نفسه إلا كما قال الشاعر:

كناطحٍ صخرةً يومًا ليُوْهِنها
فلم يَضِرْها، وأوهى قرنه الوَعِلُ

أو كما قال الآخر:

يا ناطحَ الجبلِ العالي ليثلمَهُ
أشفِقْ على الرأس لا تشفق على الجبل

قد يقصّر العالم، ولكن هل يعني تقصيرهُ أن نترك علمه وعمله؟!

اعمَلْ بعلمي وإن قصَّرتُ في عملي
ينفعْكَ علمي، ولا يضرُرْك تقصيري

خامسا: السبيل السليم لبيان الحق، بدون الوقوع في العلماء:

بعض النـاس اليوم وقعوا بين إفراط وتفريط، ففريق يطعنون في العلماء ويتهمونهم كلما قالوا شيئًا.

وفريق آخر، إذا سمعوا عالمًا أو طالبَ علم يُبيِّن الحق بدليله قالوا: إنه يقع في أعراض العلماء، ويُحدث فتنة.

وكلا الفريقين مجانب للمنهج الصحيح في هذا الباب.

فما المنهج الصحيح الذي نجمع فيه بين بيانِ الحق وحمايةِ أعراض علمائنا، غير ملتزمين بقولٍ إلا إذا كان مقرونًا بالدليل؟

يمكن توضيح ذلك المنهج كما يلي:

١ - التثبت من صحة ما ينسب إلى العلماء:

فقد يُشاع عن العلماء أقوال؛ لأغراض لا تخفى، فيجب التأكد مما يُنقلَ عن العلماء، فقد يكون غير صحيح، ولا أساس له، وكم سمعنا من أقوالٍ نُسبت إلى كبار علمائنا، ولما سألناهم عنها تبيَّن أنهم بُرَآءُ منها. هناك غير قليل من النـاس يجلس أحـدهم في المجلس ويقـول: الشيخ فلان - هداه الله - فيه كَيْت وكيت. فتسـألـه: لماذا؟ فيقول: إنه يقول: كذا وكذا. حتى إذا ذهبت إلى ذلك الشيخ وسألته عن صحة ما نُقل عنه؛ قال: والله ما قلت شيئًا من هذا!!

إذن، فالتحقُّقُ من صحـة ما يُعْزى إلى العالم يُعدُّ خطوة أولى في المنهج الصحيح، الذي نحن بصدده.

٢ ـ أن نعرف أن عدم الأخذ بقول العالم، وأن مناقشته، والصدع ببيان الحق، يختلف تماما عن الطعن في العلماء. فالفرق بين الأمرين عظيم جدًّا. يجوز لنا ألّا نأخذ بالفتوى، إذا لم توافق الدليل، لكن لا يجوز لنا الطعن في العلماء.

٣ ـ أن يقصد المتحدث بكلامه وجه الله ـ جل وعلا ـ

فيستحضر الإخلاص، ويحذر من الأغراض الشخصية العارضة كالهوى، والتشفي، وحب الظهور، ﴿**فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحًا ولا يُشركْ بعبادة ربه أحدًا**﴾. [سورة الكهف، الآية: ١١٠].

ولينتبه فإنه قد يكون ردُّه في الأصل بإخلاص وتجرد لله، ثم تدخل عليه أعراضٌ يوسوس إليه بها الشيطانُ، من حبِّ البروز وغيره من الآفات المفسدة للنية.

٤ ـ الإنصاف والعدل:

المتأمل في واقع بعض طلاب العلم يجدهم إمّا أن يأخذوا كلَّ ما يقوله العالم، أو يردُّوا كلَّ ما يقوله، وهذا خلاف ما أمر الله ـ تعالى ـ به من العدل والإنصاف، قال ـ تعالى ـ: ﴿**ولا يَجْرِمَنَّكم شَنَآنُ قومٍ على ألاّ تعدلوا اعدلُوا هو أقرب للتقوى**﴾. [سورة المائدة، الآية: ٨]. والعدل والإنصاف هو منهج أهل السنة والجماعة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «أهل السنة أَعْدَلُ مع المبتدِعَةِ من المبتدعة بعضهم مع بعض».

والعدل والإنصاف مع العلماء يتضمن أمورًا:

(أ) الثناء على العالم بما هو أهل له.

(ب) عدم التجاوز في بيان الخطأ الخي وقع فيه. فإذا وقع أحد العلماء في خطأ، وأردت أن تبيّن خطأه، فلا تذهب تُحصي جميع أخطائه،

وتستطيل في عرضه، وإنما احصرْ حديثك في القضية التي تُريد بيان الحق فيها، ولا تتجاوزها، وإيّاك أن يستجرك أحد إلى تجاوزها.

٥ - أن نسلك منهج رجال الحديث في تقويم الرجال:

إنّ على مَنْ يتصدى لبيان الحق في مسألة أخطأ فيها أحد العلماء، أن يسلك المنهج الدقيق المنصف الذي رَسَمَهُ رجال الحديث - رحمهم الله - وثمة رسالة جميلة مختصرة، صغيرة في حجمها، كبيرة في قيمتها، تبيّن هذا المنهج، وعنوانها: **منهج أهل السنة والجماعة في تقويم الرجال ومؤلفاتهم** للشيخ أحمد الصويان. فأحيل القارىء الكريم إليها، ففي النهر ما يغني عن الوشل.

٦ - أن نعلم أن خطأ العالم على نوعين: خطأ في الفروع، وخطأ في الأصول:

أما مسائل الفروع فهي مسائل اجتهادية، يجوز فيها الخلاف، فإذا أخطأ فيها العالم؛ بينّا خطأه فيها، بدون تعرُّضٍ لشخصه.

وأما مسائل الأصول (العقيدة)، فيبين القول الصحيح فيها، ويُحذر من أهل البدع في الجملة، ويُنبه إلى خطورة الداعي إلى بدعته، بدون إفراط ولا تفريط. يقول شيخ الإسلام: «**أهل السنة أعدل مع المبتدعة من المبتدعة بعضهم مع بعض**». فالمبتدعة يأكل بعضهم لحوم بعض، وكل فئة تغمط الأخرى حقها، وأما أهل السنة فينصفون، حتى مع الكفار، فضلاً عمَّن كان مخطئًا خطأ دون الكفر.

إن بعض النـاس اليوم يميلون ميلاً عظيمًا عن طريق أهل السنة والجماعة في هذا الباب، فقد استمعتُ منذ فترة إلى قصة مؤلمة محزنة، وهي

أن نفرًا اتهموا أحد الدعاة بأخطاء في العقيدة، ولم يقتصروا على بيان أخطائه العقدية، بل مضوا يذكرون عنه قصصًا شخصية في بيته: عن زوجته، وعن بنته، وعن أولاده. سبحان الله! لماذا الحديث عن زوجته وبنته وأولاده؟! ما الداعي للطعن في شخصه؟! حقًا إننا لا نحث على السكوت عن الخطأ، ولكننا ندعو إلى الأسلوب الصحيح، لبيان الحق، وتوضيح الخطأ.

٧ - أخيرا، إذا أمكن الاتصال بمن وقع منه الخطأ - سواء في الأصول أو الفروع - لعله يرجع إلى الصواب، فهذا أولى:

لأن الحق هو المقصود، وفي رجوع المخطىء بنفسه عن قوله وإعلانه ذلك للناس خير كثير، لأنك إن رددت عليه، وبينت الحقّ؛ فقد يقتنع نصف الناس، أما إذا رجع هو بنفسه بعد مناصحتك له، وتخويفك إياه بالله؛ فيسقتنع كل الناس الذين أخذوا بقوله.

ومما يذكر في هذا المقام أن اثنين من العلماء اختلفا في مسألة، فلم يذهب كل واحد منهما يخطىء صاحبه عند الناس، بل اجتمعا وتناظرا، فكانت نهاية المناظرة أن أَخَذَ كل واحد منهما بقول الآخر؛ لأن مرادهما هو الحق.

سادسا: أمور لابد من بيانها:

١ ـ أننا لا ندعو إلى تقديس الأشخاص، أو التغاضي عن الأخطاء، أو السكوت عن الحق. بل ندعو إلى المنهج الصحيح في بيان الحق، بدون انتهاك لأعراض العلماء. فلا إفراط ولا تفريط، ولا غلوَّ ولا جفاء.

٢ ـ لماذا تبرز أخطاء العلماء أكثر من غيرهم؟

السبب في ذلك هو أن العلماء هم صفوة الأمة، وخيارها، وقدوتها، وأحمدُها سيرةً، فإذا وقع منهم خطأ كان واضحًا جليًّا؛ لأنه بمثابة النقطة السوداء في صفحتهم الناصعة البيضاء. ولذلك قيل: زلة العالم مضروبٌ بها الطبل.

وما مثلُ العالم إلا كمثلِ الثوب الأبيض، إذا أصابته نقطة ـ مهما كان صِغرُها ـ برزتْ فيه وظهرت. ومِنْ هنا وجب على العلماء أن يتنبَّهوا لذلك الأمر؛ بأن يتفقدوا أنفسهم، ويتفطنوا لأعمالهم وتصرفاتهم وأقوالهم. كما وجب ـ كذلك ـ على الناس ألا يضخِّموا هفوات علمائهم، ولا ينفخوا فيها.

٣ ـ احذر من الذم الذي يشبه المدح:

بعض الناس يُسْهب في الثناء على شيخ من المشايخ، ويخلع عليه من نعوت الفضل وألقاب التوقير شيئًا كثيرًا، ثم يقول ـ مثلاً ـ (لكن الشيخ حبيب) أو طيب القلب، وهو يقصد أنه قد يُستغفل، أو غير ذلك من الأساليب المغلَّفة بغلاف المدح، وهي للتنقُّص. وإنَّ على هؤلاء الذين يستخدمون هذه الأساليب، أن يخافوا الله ويتقوه، وأن يدركوا خطورة ما

يقولون، وأن يتوبوا إلى الله، ويستغفروه، وأن يعتذروا ممن انتقصوه.

٤ ـ أن مَنْ أساء الأدب مع العلماء فسيلقى جزاءه، عاجلاً أو آجلاً:

قال الإمام الذهبي في ترجمة ابن حزم: «وصنف كتبًا كثيرة، وناظر عليه، وبسط لسانه وقلمه، ولم يتأدب مع الأئمة في الخطاب. بل فجَّج العبارة، وسب وجدَّعَ، فكان جزاؤه من جنس فعله، بحيث إنه أعرض عن تصانيفه جماعة من الأئمة، وهجروها، ونفروا منها، وأُحرقت في وقته».

والواقع يشهد أن الذي يسب العلماء، ويتجرأ عليهم، يسقط من أعين العامة والخاصة.

ويقول الحافظ ابن رجب: «والواقع يشهد بذلك، فإن من سَبَرَ أخبار الناس، وتواريخ العالم؛ وقف على أخبار مَنْ مكر بأخيه، فعاد مكره عليه، وكان ذلك سببًا لنجاته وسلامته». أي: سببًا لنجاة الممكور به وسلامته.

٥ ـ على العلماء وطلاب العلم الذين يُبتلون بالتعرض للطعن، وكلام الناس فيهم؛ عليهم أن يصبروا ويتقوا الله، وأن يعلموا أنهم ليسوا أفضل من الأنبياء والمرسلين، فالرسول، صلى الله عليه وسلم، لم يَسْلَم من الكلام فيه، وطعن حتى في أهله؛ في حادثة الإفك. فللعلماء أسوة في رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فليقتدوا به، وليعلموا أن العاقبة للمتقين، قال ـ تعالى ـ: ﴿**قال أنا يوسفُ وهذا أخي قد منَّ الله علينا إنه من يتّقِ ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين**﴾. [سورة يوسف،

الآية: ٩٠]. وقال ـ جلّ وعلا ـ عن موسى: ﴿قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرضَ لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبةُ للمتقين﴾. [سورة الأعراف، الآية: ١٢٨]. وقال ـ سبحانه ـ: ﴿ولا يحيقُ المكر السيىءُ إلا بأهله﴾. [سورة فاطر، الآية: ٤٣].

وصدق من قال:

ولستُ بناجٍ من مقالة طاعنٍ
ولو كنت في غارٍ على جبلٍ وعْرِ
ومن ذا الذي ينجو من الناسِ سالمًا
ولو غاب عنهم بين خافِيَتَيْ نسرِ

٦ ـ أخيرًا أقول للمتحدثين في العلماء: اتقوا الله، توبوا إلى الله، أنيبوا إلى الله، اثنُوا على العلماء بمقدار غيبتكم لهم، وإلا فأنتم الخاسرون، والعاقبة للمتقين. وما مَثَلكم إلا كما قال الأول:

كناطح صخرة يومًا ليوهنها
فلم يضِرْها، وأوهى قرنه الوَعِلُ

وقول الآخر:

يا ناطحَ الجبل العالي ليثْلِمَه
أشفق على الرأس لا تُشفق على الجبلِ

فتنبهوا، وصحّحوا المنهج، وانظروا في العواقب، واحفظوا حرمات الله، يحفظكم الله، ويغفر لكم.

التقوى
وامتحان القلوب

الموضوع الثالث:

التقوى وامتحان القلوب:

من أبرز ما ورد في السورة، الأمر بالتقوى، حيث جاء ذلك في عدة مواضـع، وكـذلـك جاء الحـديث عن القلب في مواضـع كثيرة في هذه السورة، وقد جاء مصرحًا به أو ما يدل عليه.

فالآيات التي جاءت في موضوع التقوى هي:

جاء في الآية الأولى: ﴿واتقوا الله إن الله سميع عليم﴾. وفي الآية الثـالثـة: ﴿أولئـك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى﴾. وفي العاشرة: ﴿واتقوا الله لعلكم ترحمون﴾. وفي الآية الثانية عشرة: ﴿واتقوا الله إن الله تواب رحيم﴾. وفي الثالثة عشرة: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾.

أما الآيات التي جاءت للحديث عن القلب فهي على قسمين:

١ ـ آيات صرَّحت بذكر القلب.

٢ ـ أخرى جاءت دالة على معناه دون تصريح.

فالآيات التي جاءت مصرحة بذكر القلب هي:

في الآية الثالثة قال ـ سبحانه ـ: ﴿أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى﴾. وفي الآية السابعة: ﴿ولكن الله حبَّب إليكم الإيمان وزيَّنه في قلوبكم﴾. وفي الآية الرابعة عشرة: ﴿ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾.

أما الآيات التي جاءت وفيها دلالة على معنى القلب فهي:

في الآية الثانية: ﴿أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون﴾. والشعور مكانه القلب، وفي الآية الرابعة قال سبحانه: ﴿أكثرهم لا يعقلون﴾.

وفي هذا دلالة على القلب[١]. وفي الآية السادسة: ﴿**فتصبحوا على ما فعلتم نادمين**﴾. والندم مكانه القلب، وإن كان يظهر على الجوارح، بل كل أمر يكون مكانه القلب ولا يظهر على الجوارح فلا أثر له، ولذلك لا يؤاخذ الله المؤمنين بما كسبته قلوبهم إذا لم يظهر على جوارحهم، كما ثبت ذلك في الكتاب والسنة[٢]. وفي الآية الثانية عشرة: ﴿**اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعضَ الظنّ إثم**﴾. والظن مكانه القلب. وفي الآية الخامسة عشرة: ﴿**ثم لم يرتابوا**﴾. والريبة شك يصيب القلب.

مع ما ورد من آيات أخرى لها علاقة بالقلب كالنهي عن السخرية واللمز والمنة، والتفاخر، فهذه الأمور لا تظهر على الجوارح إلا لتمكنها من القلب أولاً، ومثل ذلك الصدق والرشد.

ولذلك سأتحدث عن التقوى وعن القلوب جميعًا وذلك للأسباب التالية:

١ - ما ورد فيهما من آيات كما سبق.

٢ - العلاقة الوثيقة بين التقوى والقلب، بل إن التقوى مكانها القلب كما سيأتي.

٣ - أن مدار ما ورد في هذه السورة مرتبط بالتقوى وبالقلوب ارتباطًا وثيقًا، ولذلك كثر ورودهما، فالتقوى وسلامة القلب ضمانة

---

(١) هناك خلاف هل العقل هو القلب أو غيره، ولكن على أي القولين فإن هناك تلازمًا بينهما، ويطلق أحدهما على الآخر كثيراً.

(٢) انظر: تفسير آخر سورة البقرة الآيتان: ٢٨٤ - ٢٨٦، وأسباب نزولها.

أساس[١] لعلاج هذه الأمراض التي ذكرها الله سبحانه.

٤ ـ أن الله أمر بالإيمان في هذه السورة في أكثر من موضع[٢]، والإحسان درجة أعلى من الإيمان، كما أن الإيمان أعلى من الإسلام، والتقوى هي الإحسان، حيث قد فسرها العلماء بذلك كما سيأتي، فإذا تحقق الإحسان ـ التقوى ـ تحقق الإيمان من باب أولى، فتحقق المراد في هذه السورة.

٥ ـ أن الله ربط بين التقوى والقلب في قوله ـ تعالى ـ: ﴿**أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى**﴾. [الحجرات، الآية: ٣]. فالقلب إناء للتقوى، كما يفهم من تفسير العلماء لهذه الآية، وفساد الشيء يؤثر فيما يوضع فيه، كما يؤثر الإناء المتسخ في الماء الزلال إذا وضع فيه.

لذلك كله سأتحدث عن هذين الموضوعين، وسأبدأ بالحديث عن التقوى ثم بالحديث عن القلوب حيث قسمتها إلى موضوعين، عنونت لهما بـ:

١ ـ حقيقة التقوى.

٢ ـ امتحان القلوب.

مع الإشارة إلى أنني سأختصر فيما يتعلق في موضوع التقوى، وأفصّل في موضوع امتحان القلوب[٣]. وذلك لأن الحديث عن القلب

---

(١) لا يعني هذا نفي تأثيرهما في بقية الذنوب، ولكن أثرهما هنا أبرز من غيرهما.

(٢) جاء ذلك في عدة أساليب تدل على الإيمان.

(٣) وانظر: رسالة امتحان القلوب للمؤلف.

وأدوائه وسبل شفائه حديث عن التقوى وحقيقتها، والتفصيل بعد الإجمال أولى من الإجمال بعد التفصيل، وإن كان ما سأذكره في موضوع التقوى لن أعيده في الموضوع الثاني تحاشيًا للتكرار، عدا جزئيات متداخلة يصعب إغفالها أو تجاوزها في أي من الموضوعين.

أولا: حقيقة التقوى:

تعريف التقوى:

التقوى لغة: على وزن دعوى، اسم بمعنى الحذر. وأصل التقوى: تقيا، قلبوا الواو إلى الياء فرقًا بينه وبين صديا وخزيا من الصفات، لأن التقوى اسم وليس بصفة.

وأما تاء تقوى فإنها مبدلة من الواو، وأصلها: وقوَى.

والوقاء والوقاية: كل ما وقيت به شيئًا وصنته.

قال حسان:

فإن أبي ووالده وعرضي ... لعرض محمدٍ منكم وقاء

والخلاصة أن التقوى لغة: الصيانة والحذر والحماية والحفظ(١).

وشرعًا: كمال توقي الإنسان عمّا يضره يوم القيامة. وذلك بفعل المأمورات، وتجنّب المحرمات والمنهيات(٢).

ومزيدًا من إلقاء الضوء على معنى التقوى نذكر هذه التعريفات:

---

(١) انظر: لسان العرب مادة (وقي).

(٢) انظر: غرائب القرآن للنيسابوري ١/١٤٣، وانظر: فتح القدير ١/٣٣، وتفسير روح المعاني للألوسي ١/١٠٨.

قيل: التقوى: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك. (وهذا تعريف الإحسان كما ورد في الحديث)[١].

وقال علي ـ رضي الله عنه ـ: التقوى: ترك الإصرار على المعصية، وترك الاغترار بالطاعة[٢].

وقيل: التقوى: أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية[٣].

وقيل: التقوى: ألا يراك حيث نهاك، ولا يفقدك حيث أمرك[٤].

وقال طلق بن حبيب: التقوى: أن تعمل بطاعة الله على نور من الله، ترجو ثواب الله. وأن تترك معصية الله، على نور من الله، تخاف عقاب الله[٥].

وقال سيد قطب ـ رحمه الله ـ: التقوى: حساسية في الضمير، وشفافية في الشعور، وخشية مستمرة، وحذر دائم، وتوقّ لأشواك الطريق[٦].

وقال بعض السلف: لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع ما لا بأس به حذرًا مما به بأس[٧].

---

(١) انظر: تهذيب مدارج السالكين ٢/٧٦٣.

(٢) انظر: تفسير الرازي ٢/٢١.

(٣) انظر: المحرر الوجيز ١/١٤٤.

(٤) انظر: تفسير روح المعاني للألوسي ١/١٠٨.

(٥) انظر: جامع العلوم والحكم ص (١٣٨) ومصنف ابن أبي شيبة (٧/١٨٢).

(٦) انظر: في ظلال القرآن ١/٤١.

(٧) تهذيب مدارج السالكين ١/٤٦٣.

وقد سأل عمر - رضي الله عنه - أبيّ بن كعب - رضي الله عنه - عن التقوى؟ فأجاب أبيّ: أما سلكت طريقًا ذا شوك؟ قال: بلى، قال: فماذا عملت؟ قال: شمرت واجتهدت. قال فذلك التقوى[1].

وعبر عن هذا المعنى ابن المعتمر فقال[2]:

خل الذنوبَ صغيرها وكبيرها ذاك التقى
واصنع كماش فوق أر ض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

قال أحد العلماء: جماع التقوى في قوله - تعالى -: ﴿**إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظُكم لعلكم تذكَّرون**﴾. [سورة النحل، الآية: ٩٠].

وقد رُوي عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أنه قال في معنى قوله - تعالى -: ﴿**اتقوا الله حق تقاته**﴾. [سورة آل عمران، الآية: ١٠٢]. «**أن يُطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا يُنسى، وأن يشكر فلا يكفر**»[3].

---

(١) ذكره ابن رجب في جامع العلوم والحكم ص (١٣٨) وعزاه لأبي هريرة وذكره القرطبي في تفسيره ١/١٦١ وعزاه لعمر - رضي الله عنه -.
(٢) جامع العلوم والحكم ص (١٣٨).
(٣) ذكره ابن رجب في جامع العلوم والحكم موقوفًا عن ابن مسعود - رضي الله عنه - ثم قال: وخرجه الحاكم مرفوعًا، والموقوف أصح. انظر: جامع العلوم والحكم ص (١٣٨).

آيات التقوى

وردت كلمة (وقى) - بتصاريفها المتعددة - في القرآن الكريم أكثر من مائتين وخمسين مرّة[1].

وآيات التقوى كثيرة جدًا، يصعب ذكرها - هنا - ولكن أذكر بعضها وبخاصة مما ورد فيها الأمر بالتقوى:

قال - سبحانه -: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حقَّ تقاته ولا تموتُن إلا وأنتم مسلمون﴾. [سورة آل عمران، الآية: ١٠٢].

وقال - جل وعلا -: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا﴾. [سورة التغابن، الآية: ١٦].

وقال: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفسٍ واحدةٍ وخلق منها زوجَها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله﴾. [سورة النساء، الآية: ١].

وقال - جل ذكره -: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديدًا﴾. [سورة الأحزاب، الآية: ٧٠].

وقال - سبحانه -: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾. [سورة التوبة، الآية: ١١٩].

وقال: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم﴾. [سورة الحج، الآية: ١].

---

(١) قيل إنها (٢٥٦) ولكن منها ما ليس في التقوى كقوله - تعالى -: ﴿إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه﴾. فإن التقوى الواردة هنا ليست هي التقوى التي نتحدث عنها، ومثلها: ﴿سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم﴾.

وقال ـ تعالى ـ: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفسٌ ما قدَّمت لغدٍ واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾. [سورة الحشر، الآية: ١٨].

وقال ـ جل وعلا ـ: ﴿وإذا قيل له اتق الله أخذته العزةُ بالإثم فحسبه جهنّمُ ولبئس المهاد﴾. [سورة البقرة، الآية: ٢٠٦].

وقال ذو الجلال والإكرام: ﴿ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله﴾. [سورة النساء، الآية: ١٣١].

والآيات كثيرة معلومة.

أحـاديث في التقـوى

وردت أحاديث كثيرة تحث على التقوى وتأمر بها، منها:

قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئةَ الحسنةَ تمحُها، وخالق الناس بخلق حسن»[١].

وقــال، صلى الله عليه وسلم، كما روى العـربـاض بن سارية: «أوصيكم بتقـوى الله ـ عز وجل ـ والسمع والطاعة، وإن تأمَّر عليكم عبد» الحديث[٢].

وقــال، صلى الله عليه وسلم: «إن الدنيا حُلوة خَضِرة، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء»[٣].

---

(١) أخـرجـه الـترمذي (٤/٣١٢، ٣١٣) كتاب البر والصلة، رقم (١٩٨٧). وأحمد (٥/١٥٣)، والدارمي (٢/٤١٥)، كتاب الرقاق، رقم (٢٧٩١)، قال الترمذي: حسن صحيح وحسنه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (٩٧).

(٢) أخرجه أبو داود (٤/٢٠١) كتاب السنة، رقم (٤٦٠٧)، والترمذي (٥/٤٣) كتاب العلم، رقم (٢٦٧٦)، وابن ماجـه (١/١٥) في المقـدمـة، رقم (٤٢). وأحمـد (٤/١٢٦، ١٢٧)، وهذا حديث صحيح صححه غير واحد من الأئمة.

قال الترمذي: حسن صحيح.

وقال الهروي: وهذا من أجود حديث في أهل الشام.

وقال البزار: حديث ثابت صحيح.

وقال ابن عبدالبر: حديث ثابت.

وصححه الألباني كما في إرواء الغليل رقم (٢٤٥٥).

(٣) أخرجه الترمذي (٤/٤١٩) كتاب الفتن، رقم (٢١٩١)، وابن ماجه (٢/١٣٢٥) كتـاب الفتن، رقم (٤٠٠٠)، وأحمد (٣/٢٢)، قال الترمذي: حسن صحيح، وصحـح الألبـاني إسنـاد أحمـد على شرط مسلم، كما في السلسلة الصحيحـة رقم (٩١١).

وقال، صلى الله عليه وسلم، لأبي هريرة: «اتق المحارم تكن أعبد الناس، وارضَ بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمنًا، وأحبّ للناس ما تحب لنفسك تكن مسلمًا، ولا تكثر الضحك، فإن كثرة الضحك تميت القلب»[١].

وقال، صلى الله عليه وسلم: «ألا وإن لكل مَلِك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صَلَحت صَلَحَ الجسدُ كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»[٢].

وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «لا تحاسدوا ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانًا، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يكذبه، ولا يحقره، التقوى ههنا، ويشير إلى صدره ثلاثة مرات، بحسب امرىء من

---

(١) أخرجه الترمذي (٤/٤٧٨) كتاب الزهد، رقم (٢٣٠٥)، وأحمد (٢/٣١٠)، قال الترمذي: هذا حديث غريب، ثم ذكر علة ذلك أن الحسن لم يسمع من أبي هريرة، قال الألباني: والصواب أنه سمع منه في الجملة كما بينه الحافظ في «تهذيب التهذيب» غير أنه ـ أعني الحسن ـ مدلس فلا يحتج بما رواه عنه ـ أي عن أبي هريرة ـ معنعنًا كما في هذا الحديث. اهـ. وقد ذكر الألباني علة أخرى لهذا الحديث وهي جهالة أبي طارق ـ أحد الرواة ـ قال الذهبي: لا يعرف.

قال الألباني بعد أن تتبع طرق هذا الحديث: وبالجملة فالحديث بهذه الطرق حسن على أقل الأحوال. اهـ. انظر: السلسلة الصحيحة رقم (٩٣٠)، صحيح الجامع رقم (١٠٠).

(٢) أخرجه البخاري (١/١٩) كتاب الإيمان، ومسلم (٣/١٢١٩) كتاب المساقاة، رقم (١٥٩٩).

الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه»[١].

وورد عنه، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: «لا تصاحب إلّا مؤمنًا، ولا يأكل طعامك إلا تقي»[٢].

---

(١) أخرجه مسلم واللفظ له (١٩٨٦/٤) كتاب البر والصلة، رقم (٢٥٦٤)، وأبو داود (٢٧٠/٤)، كتاب الأدب، رقم (٤٨٨٢)، والترمذي (٢٨٦/٤) كتاب البر والصلة رقم (١٩٢٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٥١٩/٤) كتاب الزهد، رقم (٢٣٩٥) وأحمد (٣٨/٣) والدارمي (١٤٠/٢) كتاب الأطعمة رقم (٢٠٥٧)، قال الترمذي: حديث حسن، ووافقه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (٧٣٤١).

صفات المتقين

هناك صفات كثيرة يتصف بها المتقون، واختلال هذه الصفات، اختلال في حقيقة التقوى، وسأذكر أهم تلك الصفات وهي مستمدة من كتاب الله - جل وعلا - وسنة رسوله، صلى الله عليه وسلم:

١ - القيام بأركان الإسلام والإيمان، لأن الإحسان درجة أخص منهما، وأعلى، ولا يتم الأعلى إلا بعد أن يتم ما هو دونه، فلا يتصور الإيمان بدون الإسلام، ولا يتصور الإحسان دونهما، والإحسان هو التقوى.

٢ - الوفاء بالوعد والعهد والصدق مع الله والناس.

٣ - أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

٤- كفُّ الأذى عن المسلمين.

٥ - العدل في الغضب والرضى.

٦ - كظم الغيظ والعفو عن الناس والإحسان.

٧ - التوبة والاستغفار.

٨ - تعظيم شعائر الله.

٩ - الصبر في البأساء والضراء.

١٠ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

١١ - ألا تأخذه في الله لومة لائم.

١٢ - تجنب الشهوات والشبهات ومزالق الشيطان والهوى.

هذه أهم صفات المتقين، وبمقدار تخلف هذه الصفات تقل تقواه وتضعف، وتقد يخرج من عداد المتقين.

الوسائل المعينة على التقوى

هناك وسائل تعين المسلم على تحقيق معنى التقوى، وأهمها:

١ - مراقبة الله والإكثار من ذكره، وخوفه ورجاؤه.

٢ - الالتزام الكامل بالإسلام عقيدة وشريعة.

٣ - صدق الاقتداء والانتماء، الاقتداء بسلف الأمة والانتماء لهذا الدين.

٤ - العلم ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾. [سورة فاطر، الآية: ٢٨].

٥ - صحبة الأخيار، والابتعاد عن جلساء السوء، كما قال، صلى الله عليه وسلم: «مثل الجليس الصالح والجليس السوء كبائع المسك ونافخ الكير»(١) الحديث.

٦ - قراءة القرآن مع التدبر والاعتبار والعمل: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تُليت عليهم آياتُه زادتهم إيمانًا وعلى ربهم يتوكلون﴾. [سورة الأنفال، الآية: ٢]. ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾. [سورة محمد، الآية: ٢٤].

٧ - المحاسبة، واستشعار عظمة الله - جل وعلا -، والوقوف بين يديه، والخلوة كالاعتكاف ونحوه.

٨ - البعد عن الموبقات، من الشهوات والشبهات، وقطع أمل

---

(١) أخرجه البخاري (٣/١٦) كتاب البيوع. ومسلم (٤/٢٠٢٦)، كتاب البر والصلة، رقم (٢٦٢٨).

النفس في ذلك، وأخذها بالعزيمة، وغضّ الطرف عما حرم الله.

٩ ـ الدعاء والخشوع، والبكاء بين يدي الله ـ جل وعلا ـ وكثرة العبادة مع حسن المتابعة والبعد عن الابتداع.

١٠ ـ إطابة المطعم والملبس والمشرب.

١١ ـ قصر الأمل والزهادة في الدنيا.

ثمرات التقوى وآثارها:

هناك ثمرات يحصل عليها الفرد إذا كان متقيًا، وأخرى من نصيب المجتمع الذي يكون أهله والقائمون عليه من المتقين.

أولاً: في جانب الفرد:

١ ـ محبة الله له ﴿إن الله يحبُّ المتقين﴾. [سورة التوبة، الآية: ٤].

٢ ـ معية الله ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾. [سورة النحل، الآية: ١٢٨].

٣ ـ الانتفاع بالقرآن ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هُدىً للمتقين﴾. [سورة البقرة، الآية: ٢].

٤ ـ الحفظ من الشيطان ووساوسه ﴿إن الذين اتقوا إذا مسَّهم طائفٌ من الشيطان تذكّروا فإذا هم مبصرون﴾. [سورة الأعراف، الآية: ٢٠١].

٥ ـ انتفاء الخوف والحزن ﴿فمن اتقى وأصلح فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون﴾. [سورة الأعراف، الآية: ٣٥].

٦ ـ قبول العمل ﴿إنما يتقبَّلُ الله من المتقين﴾. [سورة المائدة، الآية: ٢٧].

٧ - اليسر بعد العسر، والمخرج بعد الضيق: ﴿ومن يتَّقِ الله يجعل له مخرجًا﴾. [سورة الطلاق، الآية: ٢]. ﴿ومن يتَّقِ الله يجعل له من أمره يسرًا﴾. [سورة الطلاق، الآية: ٤].

٨ - الفراسة والحكمة والنور ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانًا﴾. [سورة الأنفال، الآية: ٢٩].

٩ - دخول الجنة ﴿وجنةٍ عرضُها السماواتُ والأرضُ أُعِدَّت للمتقين﴾. [سورة آل عمران، الآية: ١٣٣].

١٠ - النجاة من النار ﴿ثم ننجّي الذين اتقوا ونذَرُ الظالمين فيها جثيًّا﴾. [سورة مريم، الآية: ٧٢].

١١ - حسن العاقبة والمآب ﴿والعاقبة للمتقين﴾. [سورة الأعراف، الآية: ١٢٨]. ﴿وإنَّ للمتقين لحسنَ مآب﴾. [سورة ص، الآية: ٤٩]. ﴿الأخلاّءُ يومئذٍ بعضُهم لبعضٍ عدوٌّ إلا المتقين﴾. [سورة الزخرف، الآية: ٦٧].

١٢ - المنزلة العالية يوم القيامة ﴿والذين اتقوا فوقَهم يوم القيامة﴾. [سورة البقرة، الآية: ٢١٢].

ثانيا: أثر التقوى على المجتمع:

١ - الأمن ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمنُ وهم مهتدون﴾. [سورة الأنعام، الآية: ٨٢]. ﴿وما كان ربُّك ليهلك القرى بظلم وأهلُها مصلحون﴾. [سورة هود، الآية: ١١٧].

٢ - رغد العيش والصحة والعافية ﴿لئن شكرتُم لأزيدَنَّكم﴾. [سورة إبراهيم، الآية: ٧].

٣ ـ المهابة أمام الأعداء «نصرتُ بالرعب مسيرة شهرٍ»(١).

٤ ـ السعادة.

٥ ـ تولي الأخيار.

ثالثا: أثار ضعف التقوى:

يصعب حصر آثار ضعف التقوى، ولكن أكتفي بأهمها وبخاصة آثارها على المجتمع.

١ ـ ضعف الأمة وسقوطها من أعين أعدائها، وتسلطهم عليها.

٢ ـ انتشار الضغائن والحسد والعداوة وكثرة المشكلات.

٣ ـ اختلال الموازين، وانتشار الظلم، كالواسطة المحرمة، وسوء تقييم الناس، وعدم إنزالهم منازلهم.

٤ ـ تولي الأشرار، ونزول العذاب ﴿**وإذا أردنا أن نهلك قريةً أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقَّ عليها القولُ فدمَّرناها تدميراً**﴾. [سورة الإسراء، الآية: ١٦].

٥ ـ القحط ومنع المطر وغلاء الأسعار وخوف الطريق: ﴿**ولئن كفرتم إن عذابي لشديد**﴾. [سورة إبراهيم، الآية: ٧].

٦ ـ كثرة الأمراض وانتشارها وبخاصة المستعصية، كالضغط، والسكر، والهربز، والربو، والإيدز، والسرطان.

---

(١) أخرجه البخاري (١/٨٦) كتاب التيمم، وأخرجه أيضًا في الاعتصام (٨/١٣٨)، ومسلم (١/٣٧٠، ٣٧١) كتاب المساجد رقم (٥٢١).

وبعد:

فإن هذا المبحث عن التقوى على وجازته يساهم مساهمة فعالة في تحقيق التقوى التي أمرنا الله بها في عدة آيات من سورة الحجرات، ذلك أننا ونحن نقرأ مثل هذه الآيات ندرك مدلولها وأثرها والسبيل إلى تحقيقها.

ثانيا: امتحان القلوب:

معنى امتحان القلوب:

قلوبنا تمتحن، في كل لحظة من لحظات حياتنا، قال ـ تعالى ـ: ﴿**وليبتلي الله ما في صدوركم وليُمحّص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور**﴾. [سورة آل عمران، الآية: ١٥٤]. وقال ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿**أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم**﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٣].

فمن هؤلاء الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى؟

هذه الآية نزلت في الصحابيين الجليلين أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ عندما رفعا صوتيهما عند رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقد روى البخاري عن عبدالله بن الزبير ـ رضي الله عنه ـ أنه «قدم ركب من تميم على النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال أبو بكر: أمِّر القعقاع بن معبد بن زرارة، فقال عمر: بل أمِّر الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي، قال عمر: ما أردت خلافك، فتماريا

(١) انظر رسالة امتحان القلوب للمؤلف.

حتى ارتفعت أصواتهما فنزلت في ذلك: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدّموا بين يدي الله ورسوله﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١]. حتى انقضت»[1]*.

نعم! لا مجاملة في هذا الدين ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض﴾. ثم ماذا؟ ﴿أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٢].

سبحان الله! موقف في نظر الكثيرين لا يستحق.

من الذي يهدَّد في هذه الآية؟ أبو بكر الذي قال فيه الرسول، صلى الله عليه وسلم: «لو كنت متَّخذًا خليلاً من أمتي لاتَّخذت أبا بكر»[2].

وعمر الذي قال فيه الرسول، صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان قط سالكًا فجًا (أي طريقًا) إلا سلك فجًا غير فجِّك»[3] لكنهما - رضي الله عنهما - تابا، وأنابا، واستغفرا، وأقسم أحدهما ألا يكلِّم الرسول، صلى الله عليه وسلم، إلا سرًّا كأخي السِّرار.

هنا خرجت النتيجة: ﴿أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٣]. أي أخلص قلوبهم

---

(١) أخرجه البخاري (٦/٤٧) كتاب التفسير، وقيل نزلت في الصحابي ثابت بن قيس بن شماس - رضي الله عنه -.

(٢) أخرجه البخاري (٤/١٩١) كتاب فضائل الصحابة. ومسلم (٤/١٨٥٥) كتاب فضائل الصحابة رقم (٢٣٨٣).

(٣) أخرجه البخاري (٤/١٩٩) كتاب فضائل الصحابة. ومسلم (٤/١٨٦٤) كتاب فضائل الصحابة رقم (٢٣٩٦).

للتقوى، حتى أصبحت لا تصلح إلا له[١].

موقف واحد يسير في نظرنا لرجلين هما أفضل أمة محمد، صلى الله عليه وسلم، وامتحان يسير لغفلة بدرت منهما.

ولكن! ماذا نقول عن أحوالنا؟

كم من امتحان رسبنا فيه ونحن لا نشعر؟!

وهنا سر بديع في هذه الآية: ﴿**وأنتم لا تشعرون**﴾. لأنه قد يحبط عمل الإنسان وهو لا يشعر، فهو لا يتصور أن يحبط عمله بذلك العمل، أو لا يلقي لعمله بالاً.

وكم من عمل أو كلمة أودت بصاحبها وهو لا يشعر.

وإذا كان رفع الصوت عند رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كاد أن يحبط عمل أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - فما سيكون حال من يرفع صوته فوق صوت الحق؟ أولئك الذين يقدمون شريعة الطاغوت على شريعة الله، أولئك الذين يعادون ويوالون في سبيل الشيطان.

وحتى نزيد في إيضاح معنى (**امتحان القلوب**) لنتأمل هذا الحديث العظيم الذي رواه حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه - عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: «**تعرض الفتن على القلوب عرض الحصير عودًا**

---

(١) قال الألوسي في تفسير الآية: والمراد أخلصها للتقوى، أي جعلها خالصة لأجل التقوى، أو أخلصها لها، فلم يبق لغير التقوى فيها حق، كأن القلوب خلصت ملكًا للتقوى. انظر روح المعاني، تفسير سورة الحجرات.

عودًا(١)، فأي قلب أشربها(٢) نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها(٣) نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين: على أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مُرْبَادًّا(٤) كالكُوز مُجَخيًّا(٥)، لا يعرف معروفًا، ولا ينكر منكرًا، إلا ما أشرب من هواه»(٦).

ففي الحديث التعبير بالفعل المضارع (تعرض)، وهو هنا يدل على استمرار البلاء والامتحان: كما أن هذه الفتن لا تأتي دفعة واحدة، وإنما شيئًا فشيئًا حتى يصبح القلب أسود ـ والعياذ بالله ـ أو يسلمه الله فينجح في الامتحان فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض.

يقـول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «فالنفس تدعو إلى الطغيان، وإيثار الحياة الدنيا. والرب ـ جل وعلا ـ يدعو عبده إلى خوفه، ونهي النفس عن الهوى، والقلب بين الداعيين». وهذا هو موضع الفتنة والابتلاء.

ونختم هذه المقدمة في معنى امتحان القلب وابتلائه بهذه الدعوة الربانية للمؤمنين متضمنة تحذيرًا مخيفًا: **﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحولُ بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون﴾**. [سورة الأنفال، الآية: ٢٤].

---

(١) عودًا عودًا أي: تعاد وتتكرر شيئًا بعد شيء.

(٢) أشربها أي: دخلت فيه ولزمته.

(٣) أنكرها أي: ردّها.

(٤) مربادا أي: شديد السواد في بياض.

(٥) مُجَخيًا أي: كالكأس المنكوس، لا يعلق به خيرًا وحكمة.

(٦) رواه مسلم (١/١٢٨ ـ ١٢٩)، كتاب الإيمان، رقم (١٤٤).

أنواع ما يطرأ على القلب من العلل والأدواء:

وهذه المضغة الصغيرة (القلب) أمرها عجيب، وما شبه هذا القلب إلا بالبحر، نراه في الظاهر رؤية سطحية، لكنه في الحقيقة عالم بحد ذاته، ففيه من أنواع الحيوانات والنباتات العجيبة ما حيّر علماء البحار.

وهكذا القلب، فإن من تأمّله حق التأمل وجد أن أمره مثير للعجب بما يحصل له من أحوال وانفعالات، وبما يتباين فيه الناس من أحوال ومقامات وصفات، وهذا غيض من فيض في عالم هذا القلب الصغير الكبير.

وهذه إشارات قرآنية لبعض ما يطرأ على القلب من علل وأدواء، فمن ذلك: الغفلة، العمى، الزيغ، التقلب، الاشمئزاز، الإقفال، القسوة، اللهو، الرياء، النفاق، الحسد.. وهلم جرّا.

سبحان الله! كل هذا على القلب؟ نعم، وأعظم من ذلك بكثير.

والنتيجة: أن يتعرض هذا القلب للطبع والختم والموت بعد نزول هذه الأمراض، وعدم مدافعة الإنسان لها، فيكون قلبه أسود.

من أحوال القلب السليم وأوصافه:

وكما أن القلب يتعرض للأمراض والعلل، فإن هذا القلب يحصل له من الأحوال الإيمانية، والمقامات التعبدية من الصفات المحمودة مثل: اللين، والإخبات، والخشوع، والإخلاص، والحب لله، والتقوى، والثبات، والخوف، والرجاء، والإنابة، وغيرها كثير.

والنتيجة: السلامة ﴿إلا من أتى الله بقلب سليم﴾. [سورة الشعراء، الآية: ٨٩]. والحياة، والإيمان، وصفة قلب صاحبه أبيض.

مواطن امتحان القلوب:

ومواطن امتحان القلوب كثيرة، وحسبنا أن نشير إشاراتٍ سريعةٍ إلى جملة منها، وإنما أشرنا إلى هذه المجالات لأن كثيرًا من الناس يتصور أن القلب إنما يمتحن بالشهوات والمعاصي، ولكننا سوف نرى أن هذا من المواطن التي يمتحن فيها القلب، والله ـ سبحانه وتعالى ـ يقول: ﴿**ونبلوكم بالشر والخير فتنة**﴾. [سورة الأنبياء، الآية: ٣٥].

فمن المواطن التي يمتحن فيها القلب[1]:

١ ـ العبادة:

فالعبادة مثل: الصلاة، والصدقة، والصيام، والحج وغيرها موضع امتحان وابتلاء، ففيها ابتلاء في تحقيق الإخلاص لله، وعدم مراعاة الناس بها، يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿**وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثورًا**﴾. [سورة الفرقان، الآية: ٢٣]. وفي الحديث المرفوع: «**إياكم وشرك السرائر** قالوا: يا رسول الله، وما شرك السرائر؟ قال: **يقوم الرجل فيصلي جاهرًا لما يرى من نظر الرجل إليه، فذلك شرك السرائر**»[2].

وفي العبادة ابتلاء بتصحيحها، وأدائها كما جاءت عن النبي الأمين، وابتلاء بتحقيق التقوى فيها، يقول ـ تعالى ـ: ﴿**ولكن يناله**

---

(١) المواطن غير الأسباب، فهي أعم من ذلك، فالعلم موطنًا وليس سببًا، والشهوات موطنًا وسببًا.

(٢) صححه ابن خزيمة رقم (٩٣٧) وحسنه الألباني كما في صحيح الترغيب (١ / ٨٩).

التقوى منكم﴾. [سورة الحج، الآية: ٣٧]. وهذا جزء يسير من الابتلاء الذي يحدث في هذا الموطن.

٢ ـ العلم(١):

وهذا موطن خصب لامتحان القلوب، وكم فشل أناس في هذا الامتحان، فطائفة طلبوا العلم لله، ثم تحولت النية إلى الشهوة الخفية، حب الرئاسة، الشهرة، التصدر، التعالى على الأقران، المراء والجدل، القدح في الخصوم.. وغيرها.

وفي الحديث: «**من تعلم علمًا مما يُبْتغى به وجه الله، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضًا من الدنيا، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة**» يعنى: ريحها(٢).

٣ ـ الدعوة:

وهذا المجال من أشد مجالات امتحان القلوب، وأصحاب الدعوة المشتغلون بها من أشد الناس معاناة لهذا الامتحان. فشهوة توجيه الآخرين، والشهرة، والتعالي على الخلق كلها امتحانات قد تجعل الدعوة وبالاً على صاحبها ـ والعياذ بالله ـ وفتنة النكوص عن الدعوة، أو توجيهها إلى غير رضى الله داء عُضَال.

---

(١) انظر رسالة التعالم للعلامة بكر أبو زيد.

(٢) أخرجه أبو داود (٣/٣٢٣) كتاب العلم، رقم (٣٦٦٤). وابن ماجه (١/٩٣) في المقدمة، رقم (٢٥٢). وأحمد (٢/٣٣٨) وصححه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (٦١٥٩).

الخلاف والجدل:

وهو مرتع من مراتع الشيطان، ومزرعة من مزارعه، ولذلك نبهنا الله - جل وعلا - إلى الأسلوب الأمثل في المجادلة فقال: ﴿**وجادلهم بالتي هي أحسن**﴾. [سورة النحل، الآية: ١٢٥]. ولأنه قد يكون الباعث للجدال هو الانتصار للحق، ثم يتحول إلى انتصار للنفس، وهنا مكمن الداء قال - سبحانه -: ﴿**ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن**﴾. [سورة العنكبوت، الآية: ٤٦].

وصدق ابن مسعود - رضي الله عنه - حيث قال: إن الخلاف شر كله.

٥ - الشهوات:

وإنما أخرتها قصدًا؛ لأن كثيرًا من الناس يقصر امتحان القلوب على الشهوات: المال، والمركب، والنساء، والبنين، والبنيان، وهذه لا شك أنها فتنة وابتلاء ﴿**إنما أموالكم وأولادكم فتنة**﴾. [سورة التغابن، الآية: ١٥]. والرسول، صلى الله عليه وسلم، يقول: «**إن الدنيا حلوة خضرة، وأن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن فتنة بني إسرائيل كانت في النساء**»(١)، لكن ما سبق أعظم أثرًا وأوقع في أمراض هذا القلب، وسلبه عافيته.

٦ - الشبهات والفتن:

وهما مجال رَحْبٌ من مجالات مرض القلب وسبب لكثير من العلل كما سيأتي بيانه.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٩٨/٤) كتاب الذكر، رقم (٢٧٤٢).

٧ ـ الرياسة والمناصب:

فكم تغيرت من نفوس، وتباغضت من قلوب بسبب هذا الموطن الذي قل أن يسلم منه أحد، فالحسد والغيرة والحقد والغل أمراض مبعثها هذا الأمر في غالب الأحوال والأحيان.

٨ ـ النسب والحسب والجاه:

وهو أرض مثمرة لأمراض القلوب وأدوائه، فالتعالي والتفاخر والكبر وغيرها من أمراض القلوب تنطلق من هذه الأرض، ففيها تنبت ومنها تثمر.

ولعلنا الآن نبين شيئًا من الأمراض والأدواء التي يكثر امتحان القلب بها.

أمراض القلوب وأسبابها:

أولا: أسباب أمراض القلوب:

هناك أسباب كثيرة لأمراض القلوب وفسادها، من أهمها[١]:

١ ـ الجهل.

٢ ـ الفتن.

٣ ـ الشهوات والمعاصي.

٤ ـ الشبهات.

٥ ـ الغفلة عن ذكر الله.

٦ ـ الهوى.

٧ ـ الرفقة السيئة.

٨ ـ أكل الحرام كالربا والرشوة وغيرهما.

٩ ـ إطلاق البصر فيما حرم الله.

١٠ ـ الغيبة والنميمة.

١١ ـ الانشغال بالدنيا وجعلها جل همه وقصده.

ثانيا: أمراض القلوب:

١ ـ النفاق:

وهو من أخطر هذه الأمراض، وأشدها فتكًا بالإنسان، وأفظعها عاقبة في الآخرة.

ولا يتصور أحد أن النفاق قد انتهى بنهاية عهد النبي، صلى الله

---

(١) أجملت فيها، لأنه جاء وسيأتي بيانها في مواضع أخرى ـ متفرقة ـ فتحاشيت التكرار.

عليه وسلم، ونهاية شخصياته البارزة كعبدالله بن أبي بن سلول وغيره، بل إن النفاق الآن لا يقل خطورة عنه في الماضي.

ولقد كان السلف الصالح من أشد الناس خوفًا من النفاق، وهذا عمر بن الخطاب - وهو مَنْ هو صحبة وعلمًا وعملاً وإخلاصًا - يناشد حذيفة: هل عدّني رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من المنافقين؟ فقال: لا، ولا أزكي أحدًا بعدك(١).

وهذا ابن أبي مليكة - رحمه الله - وهو سيد من سادات التابعين يقول: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي، كلهم يخشى النفاق على نفسه(٢).

٢ - الرياء:

وهذا مرض جدّ خطير لخفائه، ولأثره في إفساد العمل، وقلة من يسلم منه، وقد جاء في الحديث يقول الله - تعالى -: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**»(٣).

وفي الحديث الآخر: «**من سمّع سمّع الله به، ومن يرائي يرائي الله به**»(٤)، وقد ذكر الله من صفات المنافقين ﴿**يراءون الناس ولا يذكرون الله**

(١) نسبه في كنز العمال (١٣/ ٣٤٤) إلى رسته.

(٢) أخرجه البخاري تعليقًا عنه (١/ ١٧) كتاب الإيمان، وقال ابن حجر في الفتح (١/ ١٣٦): وهذا التعليق وصله ابن أبي خيثمة في تاريخه، لكن أبهم العدد، وكذا أخرجه محمد بن نصر المروزي مطولاً في كتاب الإيمان له.

(٣) أخرجه مسلم (٤/ ٢٢٨٩) كتاب الزهد، رقم (٢٩٨٥).

(٤) أخرجه البخاري (٧/ ١٨٩) كتاب الرقاق، ومسلم (٤/ ٢٢٨٩)، كتاب الزهد، رقم (٢٩٨٦).

إلا قليلاً﴾. [النساء، الآية: ١٤٢].

وهو أدق من الشعرة السوداء على الصخرة السوداء في الليلة الظلماء: ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عملٍ فجعلناه هباءً منثورًا﴾. [سورة الفرقان، الآية: ٢٣].

٣ ـ مرض الشبهة والشك والريبة:

يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله﴾. [سورة آل عمران، الآية: ٧].

ويقول ـ سبحانه ـ: ﴿وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون﴾. [سورة التوبة، الآية: ٤٥]. ويقول: ﴿لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قُلوبهم إلا أن تقطع قُلوبُهم﴾. [سورة التوبة، الآية: ١١٠]. وقال: ﴿أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا﴾. [سورة النور، الآية: ٥٠]. ﴿وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورًا﴾. [سورة الأحزاب، الآية: ١٢]. ﴿ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾. [سورة المدثر، الآية: ٣١].

وهو من أخطر الأمراض، وأشدّها فتكًا، ولا يزال بالإنسان حتى يوقعه في الشرك والكفر.

ودواؤه كثرة الاستعاذة بالله من الشيطان، وكراهية هذا الوارد، ومدافعته بالاستعانة بالله، والرجوع إلى الإيمان بالله ورسوله، والاعتراف بوحدانيته وصفاته، وفي الحديث: «لا يزال الناس يتساءلون، حتى يقال: هذا خلقَ الله الخَلْقَ، فمن خلق الله؟ فمن وجد من ذلك شيئًا فليقل:

آمنت بالله ورسوله»[١] وفي رواية: «فليستعذ بالله، ولينته»[٢].

٤ ـ سوء الظن:

وسوء الظن بالله من أعظم أمراض القلب، ولعلنا هنا نقف وقفة يسيرة حوله، للتحذير منه، وبيان خطورته.

فمن الناس من يسيء الظن بالله ـ تعالى ـ حيث يسيء الظن بوعده، ونصره لعباده المؤمنين، ولدعاته المجاهدين.

ومن الناس من يسيء الظن بربه أن يرزقه، فتجده يثق بما في أيدي الناس أعظم من ثقته بما عند الله، ويظن أن رزقه إنما هو بيد الحكومة أو الشركة أو الناس، وتجده يضع لذلك الحسابات، ناسيًا التوكل على الله والثقة به ﴿**وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها**﴾. [سورة هود، الآية: ٦].

وقد ذم الله ـ سبحانه وتعالى ـ من يسيئون الظن به، وجعله من أمر الجاهلية ﴿**يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية**﴾. [سورة آل عمران، الآية: ١٥٤].

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿**وزُيِّن ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قومًا بورًا**﴾. [سورة الفتح، الآية: ١٢]. ﴿**وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين**﴾. [سورة فصلت، الآية: ٢٣]. ﴿**وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا**﴾.

---

(١) رواه مسلم (١/ ١١٩)، كتاب الإيمان رقم (١٣٤).

(٢) رواه مسلم (١/ ١٢٠)، كتاب الإيمان رقم (١٣٤).

[سورة الأحزاب، الآية: ١٠]. ﴿وما يتبع أكثرهم إلا ظنًا إن الظن لا يغني من الحق شيئًا﴾. [سورة يونس، الآية: ٣٦]. ﴿الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء﴾. [سورة الفتح، الآية: ٦]. ﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرًا من الظن إن بعض الظن إثم﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١٢].

ويقول، صلى الله عليه وسلم، ناصحًا أمته: «**إياكم والظن فإنَّ الظنّ أكذبُ الحديث**»(١).

وعلينا أن نحسن الظن بالله، فالله عند ظن عبده به: قال، صلى الله عليه وسلم، فيما يرويه عن ربه ـ جل وعلا ـ: «**أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء**»(٢) الحديث.

٥ ـ الحسد والغيرة:

ومن منا ينجو منها. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «والحسد مرض من أمراض النفس، وهو مرض غالب، فلا يخلص منه إلا القليل من الناس، ولهذا يقال: ما خلا جَسَدٌ من حَسَدٍ. لكن اللئيم يبديه، والكريم يخفيه(٣) ولذلك يقول الله ـ جل وعلا ـ: ﴿أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله﴾. [سورة النساء، الآية: ٥٤]. وأمرنا بالتعوذ صباح مساء ﴿ومن شر حاسد إذا حسد﴾. [سورة الفلق، الآية: ٥].

---

(١) تقدم تخريجه

(٢) أخرجه أحمد (٣/٤٩١) والدارمي (٢/٣٩٥) كتاب الرقاق، رقم (٢٧٣١) والحاكم في المستدرك (٤/٢٤٠) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وصححه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (١٣١٦).

(٣) انظر: رسالة أمراض القلوب وشفاؤها لشيخ الإسلام.

وفي الحديث المتفق عليه «**لا تباغضوا ولا تحاسدوا**»(١). وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال: «**إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب**». أو قال: «**العشب**»(٢).

ويقول الحسن البصري: عَمِّهِ في صدرك، فإنه لا يضرك، ما لم تعتد به يد أو لسان(٣).

وأما عن علاجه، فقد ذكر شيخ الإسلام كلامًا طيبًا في علاجه، حيث يقول: «من وجد في نفسه حسدًا لغيره، فعليه أن يستعمل معه التقوى، والصبر، فيكره ذلك من نفسه»(٤).

ولما كان الحسد لا يسلمُ منه أحد خاصة النساء والعوام، أحببت أن أنبه على الفرق بين الحسد والغبطة، فالأول مذموم كما سبق، والثاني غير مذموم.

فالأول: يتمنى أن تزول النعمة من صاحبه.

وأما الآخر: فهو يحب أن يعطاها دون أن يتمنى زوالها من أخيه، وفي الحديث: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها**»(٥). أخرجاه.

---

(١) أخرجه البخاري (٧/٨٨) كتاب الأدب. ومسلم (٤/١٩٨٣) كتاب البر والصلة، رقم (٢٥٥٩).

(٢)، (٣)، (٤) انظر: رسالة أمراض القلوب وشفاؤها لشيخ الإسلام.

(٥) أخرجه البخاري (١/٢٦) كتاب العلم. ومسلم (١/٥٥٩) كتاب صلاة المسافرين، رقم (٨١٦).

وفي رواية: «لا حسد إلا على اثنتين: رجل آتاه الله هذا الكتاب، فقام به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً، فتصدق به آناء الليل وآناء النهار»(١).

٦ - الكبر والإعجاب بالنفس واحتقار الآخرين والاستهزاء بهم:

يقول الله - عز وجل -: ﴿إن في صدورهم إلا كبرٌ ما هُم ببالغيه﴾. [سورة غافر، الآية: ٥٦].

ويقول - جل وعلا -: ﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق﴾. [سورة الأعراف، الآية: ١٤٦].

ويقول - جل وعلا -: ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوًّا في الأرض ولا فسادًا والعاقبةُ للمتقين﴾. [سورة القصص، الآية: ٨٣]. وقال - سبحانه -: ﴿كذلك يطبعُ الله على كلِّ قلبِ متكبرٍ جبار﴾. [سورة غافر، الآية: ٣٥]. وقال: ﴿إنه لا يحب المستكبرين﴾. [سورة النحل، الآية: ٢٣]. وقال - سبحانه -: ﴿ويوم حُنينٍ إذ أعجبتكم كثرتُكم فلم تُغْنِ عنكم شيئًا﴾. [سورة التوبة، الآية: ٢٥].

ومن وصايا لقمان لابنه: ﴿ولا تمشِ في الأرض مرحًا﴾. [سورة لقمان، الآية: ١٨]. وتزكية النفس بلاء وأي بلاء: قال - جل وعلا -: ﴿فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى﴾. [سورة النجم، الآية: ٣٢].

وقال: ﴿ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكِّي من يشاء﴾.

---

(١) أخرجه البخاري (٨/٢٠٩) كتاب التوحيد. ومسلم (١/٥٥٩) كتاب صلاة المسافرين، رقم (٨١٥).

[سورة النساء، الآية: ٤٩]. ونهى ـ سبحانه ـ عن السخرية فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكنَّ خيراً منهن﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١١]. والاستهزاء مرض مهلك: ﴿قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزءون. لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم﴾. [سورة التوبة، الآيتان: ٦٥، ٦٦]. ﴿إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون. وإذا مروا بهم يتغامزون﴾. [سورة المطففين: الآية: ٢٩].

ويقول، صلى الله عليه وسلم: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»(١). ويقول، صلى الله عليه وسلم: «بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم»(٢).

وقد كثر في زماننا احتقار الآخرين، والتعالي والتكبر عليهم، فتجد أحدهم يحتقر فلانًا لأنه دُونَه في العلم، أو لأنه دونه في المرتبة أو الوظيفة، أو لأنه فقير، أو لأنه من قبيلة كذا.. وهلمَّ جرّا.

وقد ورد عنه، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: «لا يزالُ الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين فيصيبه ما أصابهم»(٣).

ومما ينبغي التنبيه عليه أيضًا قضية الاستهزاء بالصالحين، وهي قضية خطيرة.

---

(١) أخرجه مسلم (١/٩٣) كتاب الإيمان، رقم (٩١).
(٢) أخرجه مسلم (٤/١٩٨٦) كتاب البر والصلة، رقم (٢٥٦٤).
(٣) أخرجه الترمذي (٤/٣١٩) كتاب البر والصلة، رقم (٢٠٠٠) قال الترمذي: حسن غريب، وضعفه الألباني كما في ضعيف الجامع رقم (٦٣٤٤).

يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿**قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزءون. لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم**﴾. [سورة التوبة، الآيتان: ٦٥، ٦٦].

وكـذلك الاستهزاء ببعض الشعائر كاللحية، والحجاب، وتقصير الثوب مما يخشى على من يستهزىء بها من الردة ـ والعياذ بالله ـ.

٧ ـ الحقد والغل:

فمن دعاء المؤمنين التابعين بإحسان: ﴿**والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا**﴾. [سورة الحشر، الآية: ١٠].

ويقـول ـ تعـالى ـ مخبراً عن إكـرامـه لأهل الجنة: ﴿**ونزعنا ما في صدورهم من غلٍّ إخوانًا على سرر متقابلين**﴾. [سورة الحجر، الآية: ٤٧]. ﴿**ونـزعنـا ما في صدورهم من غل تجري من تحتهم الأنهار**﴾. [سـورة الأعراف، الآية: ٤٣].

ولعلنا نقتصر في الحديث عن هذا المرض بهذه القصة المعبِّرة: قصة عبدالله بن عمرو بن العاص، ذلك الشاب الذي ربّاه الرسول، صلى الله عليه وسلم، وأدّبه وعلمه، ربّاه على مواطن العزة والقوة والعلم، لا كحال كثير من شبابنا اليوم ممن استهوتهم الرياضة أو الفن أو غيرها مما لا ينفعهم، بل يضرهم.

روى الإمام أحمد من حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا جلوسًا مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: «**يطلع عليكم الآن رجل من أهـل الجنـة**» فطلع رجـل من الأنصـار، تنطفُ لحيته (أي: تقطر) من وضوئه، قد علق نعليه بيده الشمال، فلما كان الغد قال رسول الله، صلى

الله عليه وسلم، مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى، فلما كان اليوم الثالث قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، مثل مقالته أيضًا، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى، فلما قام رسول الله، صلى الله عليه وسلم، تبعه عبدالله بن عمرو بن العاص، فقال: إني لاحَيْتُ أبي (أي: خاصمت) فأقسمتُ أني لا أدخل عليه ثلاثًا، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي فعلت، قال: نعم. قال أنس: فكان عبدالله يحدث أنه بات معه تلك الليالي الثلاث، فلم يره يقومُ من الليل شيئًا غير أنه إذا تعارّ (أي: استيقظ) وتقلب على فراشه ذكر الله وكبر حتى يقوم لصلاة الفجر. قال عبدالله: غير أني لم أسمعه يقول إلا خيرًا، فلما مضت الليالي الثلاث وكدت أن أحتقر عمله، قلت: يا عبدالله، لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجرة، ولكن سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول لك ثلاث مرات: «يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة» فطلعت أنت الثلاث المرات، فأردت أن آوي إليك لأنظر ما عملك، فأقتدي بك، فلم أرك تعمل كبير عمل، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم؟ قال: ما هو إلا ما رأيت، فلما وليت دعاني، فقال: ما هو إلا ما رأيت، غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشًّا، ولا أحسد أحدًا على خير أعطاه الله إياه. قال عبدالله: فهذه التي بلغت بك، وهي التي لا تطاق»(١).

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣/١٦٦) والنسائي في اليوم والليلة رقم (٨٦٣) وابن السني في اليوم والليلة رقم (٧٠٩). قال ابن كثير في رواية النسائي: هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين. انظر تفسير ابن كثير (٤/٣٣٧) ط: دار المعرفة.

إذن! هذا هو قدرُ امتلاء القلب بمحبة المسلمين، والصفح عنهم، والصبر عليهم.

ولنتدبر أخي المسلم هذا الحديث الذي يرويه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة مرفوعًا: «**تفتحُ أبواب الجنة يوم الاثنين ويوم الخميس، فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئًا، إلا رجل كان بينه وبين أخيه شحناء، فيقال: أنظِروا (أي: أخِّروا) هذين حتى يصطلحا، أنظِروا هذين حتى يصطلحا**»(١).

وقد ذكر الأطباء أن الغل يودي بصاحبه في الدنيا؛ لأثره السيىء على صحة الإنسان وسلامته، وهذه هي العقوبة العاجلة والآجلة أشد وأنكى.

٨ ـ اليأس:

وهو مرض ينشأ عند استحكام البلاء، واستبطاء نصر الله، فييأس بعض الناس من نصر الله ووعده(٢)، بما يؤدي عند بعضهم إلى ترك الدعوة والعمل، وأعظم من ذلك اعتقاد تخلف وعد الله أو وعيده في الدنيا أو الآخرة.

ولا نزال نسمع أن بعض الناس تخلفوا عن الطريق لاعتقادهم ـ مثلاً ـ أنه في ضوء هذا الواقع المر، واستحكام أعداء الله، وقبضتهم على

(١) رواه مسلم (١٩٨٧/٤) كتاب البر والصة، رقم (٢٥٦٥).

(٢) وتحسن الإشارة هنا إلى أن معنى قوله ـ تعالى ـ: ﴿حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم كُذبُوا جاءهم نصرنا﴾. [سورة يوسف، الآية: ١١٠]. أي حتى استيأسوا من قومهم، أي يئسوا من إسلامهم وإجابة دعوتهم، وهذا تفسير عائشة ـ رضي الله عنها ـ كما في صحيح البخاري (٢١٨/٥) كتاب التفسير.

زمام الأمور، وسيطرتهم على الأوضاع السياسية والاقتصادية، لا يمكن أن ينتصر الإسلام أو تقوم له قائمة.

وهذه قصة موسى - مثلاً - تحكي في كل مرحلة من مراحل حياته أو دعوته عناية الله به وبالدعوة، وإملاء الله للظالمين، والتمكين لهذه الدعوة، ولنتأمل قوله - تعالى -: ﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوًا وحزنًا إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين﴾. [سورة القصص، الآية: ٨]. وقوله - تعالى -: ﴿فرددناه إلى أمه كي تقرّ عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾. [سورة القصص، الآية: ١٣]. وقوله - عز وجل -: ﴿وجاء رجل من أقصا المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين﴾. [سورة القصص، الآية: ٢٠]. ولما قال بعض قومه: ﴿إنا لمدركون﴾. [سورة الشعراء، الآية: ٦١]. قال لهم واثقًا: ﴿كلّا إن معي ربي سيهدين﴾. [سورة الشعراء، الآية: ٦٢]. وهكذا قصص الأنبياء تبين حفظ الله لدعوته، وإملاءه للطغاة الظلمة، حتى تتمكن هذه الدعوة الربانية ﴿ونريد أن نمنّ على الذين استُضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾. [سورة القصص، الآية: ٥].

فلننتبه إلى هذا المرض، ولنستشعر قوله - تعالى -: ﴿اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينًا﴾. [سورة المائدة، الآية: ٣].

وأخيرًا فلنتأمل قوله - تعالى -: ﴿ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس

من روح الله إلا القوم الكافرون﴾. [سورة يوسف، الآية: ٨٧].

٩ ـ الهوى ومحبة غير الله:

فإنه آفة الآفات، والسم الزعاف لهذا القلب، يوم أن تكون محبة الشخص لغير الله، وموالاته ومعاداته في سبيل دنياه، وأهوائه، وأطماعه الشخصية، وهذا لا شك موصل صاحبه إلى الهلاك والبوار وتأمل معي في هذه الآيات[١]:

﴿إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾. [سورة النجم، الآية: ٢٣]. ﴿كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران﴾. [سورة الأنعام، الآية: ٧١]. ﴿ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله﴾. [سورة القصص، الآية: ٥٠]. ﴿أفرأيت من اتخذ إلـٰهه هواه وأضله الله على علم﴾. [سورة الجاثية، الآية: ٢١]. ﴿أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم﴾. [سورة محمد، الآية: ١٦]. ﴿وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم﴾. [سورة الأنعام، الآية: ١١٩]. والهوى مرض من أمراض القلب سواء أكان الهوى بمعناه العام أو الخاص.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في بيان كون الحب يُعمي ويصم: «.. ولذلك قال الشاعر:

عدو لمن عادت وسلم لأهلها
ومن قرّبت ليلى أحبّ وأقربا[٢]

فهذا جعل الولاء والبراء في ليلى، وليس في الله.

---

(١) دلالة هذه الآيات أعم مما ذكر فينتبه لذلك.

(٢) انظر: رسالة أمراض القلوب وشفاؤها لشيخ الإسلام.

وذكر شيخ الإسلام أيضًا قصة رجل أحبّ امرأة سوداء حبًّا عجيبًا، أخذت عليه مجامع قلبه، فيقول هذا الرجل:

أحبُّ لحبها السودان حتى أحب لحبّها سودَ الكلاب

والواجب أن يكون حبنا وبغضنا، وعطاؤنا، ومنعنا، وفعلنا، وتركنا لله - سبحانه وتعالى - لا شريك له، ممتثلين قوله، صلى الله عليه وسلم: **«من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان»**[1].

وأسوأ أنواع الحب محبة أعداء الله.

١٠ - الخشية والخوف من غير الله:

يقول - تعالى -: **﴿فلا تخشوا الناس واخشون﴾**. [سورة المائدة، الآية: ٤٤].

ويقول - عز وجل -: **﴿فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين﴾**. [سورة التوبة، الآية: ١٣].

ومن صفات الذين في قلوبهم مرض أنهم يقولون **﴿يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة﴾**. [سورة المائدة، الآية: ٥٢]. ومن صفات الذين سلمت قلوبهم وآمنت **﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانًا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾**. [سورة آل عمران، الآية: ١٧٣].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤/ ٢٢٠) كتاب السنة، رقم (٤٦٨٠) والترمذي (٤/ ٥٧٨) كتاب صفة القيامة، رقم (٢٥٢١). وأحمد (٣/ ٤٨٣، ٤٤٠). والحديث حسنه الترمذي، وصححه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (٥٩٦٥).

وهناك خوف جبلّي لا يقدح في المعتقد كخوف الإنسان من عدوه إنسانًا أو حيوانًا، أما الخشية فلا تكون إلا من الله.

وعدم الخوف دليل على قوة القلب وجسارته، كما أنه دليل على الإيمان، قال الإمام أحمد: «لو صححت لم تخف أحدًا». أي من المخلوقين.

١١ ـ الوسواس:

وهو بلاء عمّ وطمّ، وصار يلعب بكثير من الناس، ويضيع عليهم فرائضهم وعباداتهم، يقول الشيخ السعدي في جواب له عن دواء الوسواس: ليس له دواء إلا سؤال الله العافية، والاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، والاجتهاد في دفع الوساوس، وأن يتلهى عنها ولا يجعلها تشغل فكره، فإنه إذا تمادت فيه الوساوس اشتدت واستحكمت، وإذا حرص على دفعها والتلهي عن الذي يقع في القلب اضمحلت شيئًا فشيئًا، والله أعلم(١).

وقد أمرنا بالتعوذ منه كما في سورة الناس: ﴿**قل أعوذُ بربّ الناس. ملك الناس. إلـه الناس. من شر الوسواس الخناس. الذي يوسوس في صدور الناس. من الجِنَّة والناس**﴾. [سورة الناس، الآيات: ١ ـ ٦].

---

(١) ينصح في هذا المجال الرجوع إلى كتاب العلامة ابن القيم إغاثة اللهفان، وكذلك محاضرة: «رسالة إلى موسوس» للشيخ سلمان العودة.

١٢ - قسوة القلب:

وهو مرض تنشأ عنه أمراض، وتظهر له أعراض، ولا يسلم من ذلك إلا من سلمه الله وأخذ بالأسباب. وتظهر خطورة هذا الداء من خلال هذه الآيات:

﴿ثم قست قلوبُكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة﴾. [سورة البقرة، الآية: ٧٤]. **﴿ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون﴾**. [سورة الأنعام، الآية: ٤٣]. **﴿فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله﴾**. [سورة الزمر، الآية: ٢٢]. **﴿فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم﴾**. [سورة الحديد، الآية: ١٦].

وأبعد القلوب من الله القلب القاسي.

١٣ - التحزب لغير الحق:

وهو مرض خطير، وداء يقتل ويهلك الأفراد والأمة على حدّ سواء، **وهو على نوعين:**

١ - **التحزب لبعض المبادىء الأرضية**: كالقومية والوطنية والعلمانية وغيرها من المبادىء الضالة، وهذه قد راج سوقها وكثر، خاصة في هذه الأيام، ونحن نسمع عمّا يسمى (الوحدة الوطنية) وهي الحب على أساس المواطنة، فما كان من وطنك تحبه سواء كان مسلمًا أو فاسقًا أو كافرًا، فالمهم أنه مواطن مثلك. بينما لا تحمل هذا الشعور لأخ مسلم من غير وطنك، ولو كان من أتقى الناس.

فهي موالاة ومعاداة على أساس الوطن، حتى قال أحدهم ـ فضَّ الله فاه ـ: كل حبّ يذهب ويتلاشى إلا حبّ الوطن. يعني إلا حبّ التراب، حبّ الأرض، ملأ الله جوفه قيحًا وصديدًا، هكذا: كل حبّ يذهب حتى حبّ الله ـ عز وجل ـ ورسوله، صلى الله عليه وسلم، إلا حبّ الوطن، فهو شركٌ من نوع جديد.

وما درى هذا المسكين أننا لا نزال نقرأ في القرآن: ﴿تبّت يدا أبي لهب وتب﴾ وقد نزلت في عمّ النبي، صلى الله عليه وسلم، أبي لهب، ونحن نتبرأ منه ونبغضه. ونحن لا نزال نثني على بلال الحبشي وصُهيب الرومي، وسلمانَ الفارسي، ونترضى عنهم، ونسأل الله أن نحشر في زمرتهم.

ولا يفهم من هذا الكلام أننا لا نحب الوطن، كلا، فهو أمر جبلّي مركوزٌ في النفس، لكن حبّ الوطن لابد أن يكون خاضعًا لحبّ الله ورسوله. وهل هاجر رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من وطنه وأفضل بقاع الأرض (مكة) إلا لما كان في ذلك مرضاة لله ورسوله، وهكذا المهاجرون وغيرهم.

٢ ـ التحزب من بعض المسلمين ضد بعض: فنجد بعض الدعاة يتحزّبون ضدّ بعض، وبعض طلبة العلم يتحزبون ضدّ بعض، فيحب هذا أكثر من هذا لأن الأول من حزبه، ولو كان الثاني أتقى منه وأفضل. وهذا خطأ كبير، وهذا يحب ذاك لأنه يتبع شيخه أو إمامه، ويعادي الآخر لأنه يتبع إمامًا أو شيخًا آخر!!

فالواجب موالاة المسلمين لإيمانهم، ومعاداة الكفار لكفرهم، ولا

يجوز التحزب لغير الحق، فإنه يورث الأمة التفرق والتشتت ﴿ولا تكونوا كالذين تفرَّقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البيناتُ وأولئك لهم عذابٌ عظيم﴾. [سورة آل عمران، الآية: ١٠٥]. وهناك فرق كبير بين التحزب وبين التنافس في الخير فالتنافس مطلوب ومحمود ﴿وسارعوا إلى مغفرةٍ من ربكم وجنة﴾. [سورة آل عمران، الآية: ١٣٣]. ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة﴾. [سورة الحديد، الآية: ٢١]. أما التحزب فمذموم وكم أُوْدَى بأمم وجماعات وأفراد. حتى صار حال بعضهم كما قال الشاعر:

وهل أنا إلا من غزية إن غوتْ غويتُ

وإن ترشد غزيةُ أرشدِ

وعلاج التحزب بالتجرد لله ـ جل وعلا ـ والسلامة من الهوى والتحري في المنهج، وأن نعرف الرجال بالحق، لا الحق، بقول الرجال.

وأذكر الدعاة بقوله، صلى الله عليه وسلم، في الحديث: «إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلّون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم»[1].

---

(١) أخرجه مسلم (٤/٢١٦٦) كتاب المنافقين رقم (٢٨١٢). والترمذي (٤/٢٩١) كتاب البر والصلة وقوله: «ولكن في التحريش بينهم» أي ولكنه يسعى في الإغراء بينهم بالخصومات والشحنات والحروب والفتن.

أولا: علامات صحة القلب وعلامات موته

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في علامات صحة القلب ونجاته:

١ ـ **أنه لا يزال يضرب على صاحبه حتى يتوب إلى الله وينيب.**

٢ ـ **أنه لا يفتر عن ذكر ربه، ولا يسأم من عبادته.**

٣ ـ **أنه إذا فاته ورده وجد لفواته ألمًا أشد من فوات ماله.**

وهنا وقفة! رحم الله ابن القيم، فما عساه يقول فيمن ليس له ورد، بل ما عساه يقول فيمن إذا فاتته الصلاة المفروضة لا يجد ألمًا وحسرة، وكأنه لم يسمع حديث رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «**من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله**»(١) أي: كأنما فقد أهله وماله وهلكوا.

٤ ـ **أنه يجد لذة في العبادة أكثر من لذة الطعام والشراب.** [فهل يجد أحدنا لذة في العبادة؟! أو يجد اللذة إذا خرج منها؟!]

٥ ـ **أنه إذا دخل في الصلاة ذهب غمّه وهمّه في الدنيا.** [ونحن لا تجتمع الأمور والأعمال علينا إلا في الصلاة، حتى قال لي أحد الأخوة: إنه رأى رجلاً بعد أن دخل في الصلاة أخرج فاتورة لحساب، وأخذ يراجع الحسابات ـ وهو في الصلاة ـ إلى قصص كثيرة تبين ذهاب الخشوع، والخضوع بين يدي الله ـ عز وجل ـ في الصلاة].

فأين لذة الصلاة عند هؤلاء؟ وأين الصلاة التي كان الرسول، صلى

---

(١) أخرجه البخاري (١/١٣٨) كتاب المواقيت، ومسلم (١/٤٣٦) كتاب المساجد، رقم (٤٢٦).

الله عليه وسلم، يقول فيها: «**أرحنا بالصلاة يا بلال**»[١]. ويقول: «**وجعلت قرّة عيني في الصلاة**»[٢]، فإن لسان حال كثير من المصلين «أرحنا من الصلاة» وتجد أحدهم لو أطال الإمام القراءة، سرد عليه محفوظاته في الأحاديث التي تأمر برعاية حال المأمومين، بينما لو أخلّ الإمام بأدائها وواجباتها لم يجد من ينبهه - إلا ما شاء الله - والله المستعان.

٦ - **أن يكون همه لله وفي ذات الله**، وهذا مقام رفيع.

٧ - **أن يكون أشح بوقته أن يذهب ضائعًا** أشدّ من شح البخيل بماله.

٨ - **أن يكون اهتمامه بتصحيح العمل** أكثر من اهتمامه بالعمل ذاته[٣]، [وهذه نقطة مهمة جدًّا. فيجب أن يكون اهتمام الإنسان بتصحيح العمل كبيرًا في: تصحيح القصد، وتحقيق المتابعة، وتحقيق العبودية في العمل؛ فإن هذا هو الغاية من العمل].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤/٢٩٦) كتاب الأدب، رقم (٤٩٨٥). وأحمد (٥/٣٦٤، ٣٧١)، وصححه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (٧٨٩٢).

(٢) أخرجه النسائي (٧/٦١) كتاب عشرة النساء، رقم (٣٩٣٩، ٣٩٤٠). وأحمد (٣/١٢٨، ١٩٩)، وصححه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (٣١٢٤).

(٣) انظر: رسالة مرض القلب وصحته لابن القيم حيث ذكر ذلك.

ثانيا: علامات مرض القلب وشقاوته

١ ـ **أنه لا تؤلمه** جراحات القبائح.

فهـل نتألم نحن لجراحات قلوبنا، وما نقترفه من معاص وآثام في الليل والنهار؟

وهل نندم ونعزم على التوبة كلما أذنبنا؟

وهل آلمنا ما نراه في مجتمعنا من معاص ومنكرات؟

وهل عملنا على تغييرها ما استطعنا، وهذا أمر لا شك عظيم، فإن القلب الذي لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا في نفسه ولا في مجتمعه قلب يحتاج صاحبه إلى تدارك نفسه قبل فوات الأوان.

٢ ـ **أنه يجد لذة في المعصية**، وراحة بعد عملها [وإنما حال المؤمن إذا عصى الله أن يندم ويستغفر ويتحسر على ما فات، ويسارع في التوبة إلى الله].

وهنـاك من الناس ـ للأسف ـ من ينطبق عليه كلام ابن القيم، فبعض مشاهدي الأفلام نجده يجد لذة في مشاهدتها، ولا تكاد تفارقه تلك اللذة لمدة طويلة.

وكـذلـك نجـد من متـابعي المبـاريات من يجد لذة في مشاهدتها وحضورها، ولا تفارقه النشوة لفترة ـ خاصة إذا فاز فريقه ـ فهل نعي بعد ذلك خطورة هذا الأمر.

٣ ـ **أنه يقدم الأدنى على الأعلى**، ويهتم بالتوافه على حساب معالي الأمور، فماذا نقول عن بعض المسلمين ممن أصبح لا يهتم بحال إخوانه

وشئون أمته، بينما يعرف من التوافه أكثر مما يعرف عن أمور دينه، وأخبار علماء الإسلام وأئمته.

وكم يتأسف الإنسان على أحوال كثير من شبابنا ممن أغرم بحب الرياضة والفن، ويهتم لها ويحزن ويغتم، أكثر مما يهتم لقضايا إخوانه في أفغانستان، فلسطين، الفلبين، أريتريا.. إلخ، فهل هذا قلبه سليم، بل نقول لهذا:

أدرك قلبك فهو على شفا هلكة.

٤ - أنه يكره الحق ويضيق صدره به، وهذا بداية طريق النفاق، بل غايته.

٥ - أنه يجد وحشة من الصالحين، ويأنس بالعصاة والمذنبين، فتجد من الناس من لا يطيق الجلوس مع الصالحين، ولا يأنس بهم، بل يستهزىء بهم وبمجالسهم، ولا ينشرح صدره إلا في مجالسة أهل السوء وأرباب المنكرات، ولا شك أن هذا دليل على ما في قلب صاحبه من فساد ومرض.

٦ - قبوله الشبهة، وتأثره بها، وحبه للجدل، وعزوفه عن قراءة القرآن.

٧ - الخوف من غير الله، ولذلك يقول الإمام أحمد: لو صححت قلبك لم تخف أحدًا، [وهذا العز بن عبدالسلام يتقدم أمام أحد الملوك الطغاة، ويتكلم معه بكلام شديد، فلما مضى قال له الناس: أما خفت يا إمام، فقال: **تصورت عظمة الله، فأصبح عندي كالهر،** والآن نرى من الناس من يخاف من: المسئول، الضابط وغيرهما أكثر من خوفه من الله،

وهذا لا شك دخن في قلب صاحبه، والعاقل خصيم نفسه].

٨ ـ **وجود العشق في قلبه**، قال شيخ الإسلام: وما يبتلى بالعشق أحد إلا لنقص توحيده وإيمانه، وإلا فالقلب المنيب فيه صارفان يصرفانه عن العشق، إنابته إلى الله ومحبته له، وخوفه من الله.

٩ ـ **أنه لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا، ولا يتأثر بموعظة**[1].

(١) انظر: رسالة مرض القلب وصحته لابن القيم ـ رحمه الله ـ.

عـــلاج القلـــوب

وأخيراً قد يقول قائل: ولكن ما العلاج؟ فأنت شخّصت الداء، فهلّا بينت الدواء، وعلّمتنا طريق النجاة؟

فلا أدعي أنني سوف أحيط بجوانب علاج أمراض القلوب، ولكن حسبي أن أذكر شيئًا من الوسائل لعلاج هذه الأمراض، أختصرها بما يأتي:

أولا: إن أساس صحة القلب وسلامته في إيمانه بالله، ويتفرع عنه ما يأتي:

١ - **كمال محبة الله**: بأن يكون حبه لله، وفي الله، وأن يكون بغضه ومعاداته لله، وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية أن من أعظم وسائل علاج القلب: أن يمتلىء قلب الإنسان بحب الله ﴿**والذين آمنوا أشدّ حبًّا لله**﴾. [سورة البقرة، الآية: ١٦٥]. وأما وسائل محبة الله فكثيرة، منها:

قراءة القـرآن وتـدبره وفهم معانيه، والتقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض، ودوام ذكر الله على كل حال، وإيثار محابّه على هوى نفسك ومحـابّهـا، ومـطالعـة القلب لأسـماء الله وصفاته، ومشاهدتها ومعرفتها، وانكسار القلب بين يدي الله - عز وجل - وغيرها من الوسائل[1].

ثانيا: الإخلاص:

يقول - عز وجل -: ﴿**قل إن صلاتي ونُسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين. لا شريك له وبذلك أُمرتُ وأنا أوّل المسلمين**﴾. [سورة الأنعام، الآيتان: ١٦٢، ١٦٣].

---

(١) انظر: مدارج السالكين (١٨/٣) لابن القيم ج ١ دار النفائس.

أخلِصوا لله - عز وجل - في أعمالكم، وستجدون راحة في صدوركم، ولذلك يقول الله - عز وجل -: ﴿وما أُمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء﴾.

ثالثا: حسن المتابعة: بأن يكون عمله واعتقاده وفق ما أمر الله ورسوله، يقول الله - تعالى -: ﴿قل إن كنتم تحبّون الله فاتبعوني يحببْكم الله﴾. [سورة آل عمران، الآية: ٣١]. ويقول - عز وجل -: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾. [سورة الحشر، الآية: ٧].
﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسولُه أمرًا أن يكون لهم الخِيْرَةُ من أمرهم﴾. [سورة الأحزاب، الآية: ٣٦].

فلو سألنا أنفسنا: هل ننطلق في كل تصرفاتنا وأعمالنا ونياتنا وفق ما شرع الله؟

إن بعض الناس ينطلق في تصرفاته من هوى زوجته، وبعضهم من هوى رئيسه وبعضهم أعراف قبيلته أو نظام جماعته وهكذا ولو خالف أمر الله ورسوله.

ولو ناقشت أحدهم مرَّة، فقلت له: لم يا أخي تعمل هذا العمل؟ لقال: رئيسي هو الذي أمرني به، فقلت: ولكنه حرام، لأجاب: أعرف أنه حرام، ولكن ماذا أعمل؟ لو لم أفعل لما رشحني للترقية، أو لفصلني من الوظيفة أو.. إلخ. فأين المتابعة لله ولرسوله من هذا الذي قدم هوى رئيسه على مرضاة ربه.

إننا بحاجة إلى مراجعة أعمالنا، وتحقيق صدق المتابعة للرسول،

صلى الله عليه وسلم، «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به**»(١).

وفي الحديث الصحيح: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»(٢). ومما يعين على تحقيق هذه الأصول ليسلم القلب، وينمو مهما يعرض له من ابتلاء وامتحان ما يأتي:

١ - ذكر الله:

فإنه يجلو صدأ القلوب، ويذهب ما ران عليها من آثام ومعاص، ويزيد من قرب الإنسان لربه لا سيما إذا كان مستشعرًا للذكر، مصاحبًا له في كل أحواله وحركاته وهيئاته.

يقول الله - عز وجل -: ﴿**ألم يأنِ للذين آمنوا أن تخشع قلوبُهم لذكر الله وما نزل من الحق**﴾. [سورة الحشر، الآية: ١٦]. ويقول - عز وجل -: ﴿**وننزّلُ من القرآن ما هو شفاءٌ ورحمة للمؤمنين**﴾. [سورة الإسراء، الآية ٨٢]. وقد ذم الله المنافقين في كتابه لقلة ذكرهم لله. فذِكْر الله علاج

---

(١) قال الخطيب التبريزي في المشكاة (١/٥٩): رواه في شرح السنة وقال النووي في «أربعينه» هذا حديث صحيح رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح. وعزاه الألباني أيضًا للحسن بن سفيان في «الأربعين» له (ق ١/٦٥) والقاسم بن عساكر في أربعينه وقال: حديث غريب، قال الألباني متعقبًا النووي - رحمه الله -: هذا وهم فالسند ضعيف فيه نعيم بن حماد وهو ضعيف، وأعله الحافظ ابن رجب بغير هذه العلة متعقبًا على النووي تصحيحه إياه.

(٢) أخرجه البخاري (٣/١٦٧) كتاب الصلح. ومسلم (٣/١٣٤٣) كتاب الأقضية رقم (١٧١٨).

حاسم لابتلاء القلب وامتحانه ﴿ألا بذكر الله تطمئنُّ القلوب﴾. [سورة الرعد، الآية: ٢٨].

ومن أعظم أنواع ذكر الله: قراءة القرآن، يقول ـ تعالى ـ: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾. [سورة محمد، الآية: ٢٤]. ونحن نرى كثيراً من المسلمين يستغرق في قراءة الصحف والجرائد، ومطالعة وسائل الإعلام وقتًا طويلاً بلا تعب ولا كلل ولا ملل. بينما تجد الواحد منهم لا يقرأ ولو جزءًا يسيرًا من القرآن، بل لو جلس وقتًا لقراءة القرآن لم يلبث أن يملّ ويعدوه إلى غيره.

يقول أحد السلف: والله لو طهرت قلوبنا ما مللنا من قراءة القرآن.

٢ ـ المراقبة والمحاسبة:

وقد ذكر ابن القيم ـ رحمه الله ـ: أنها من أهم العوامل لعلاج القلب واستقامته.

يقول ابن القيم: وهلاك النفس من إهمال محاسبتها، ومن موافقتها واتباع هواها، ولذلك ورد في الأثر: «**الكيّس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني**»[١] وكان عمر يقول: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا»[٢]. ويقول الحسن: «لا تلقى المؤمن إلا وهو يحاسب نفسه»،

(١) أخرجه الترمذي (٤/ ٥٥٠) كتاب صفة القيامة، رقم (٢٤٥٩) وابن ماجه (٢/ ١٤٢٣) كتاب الزهد، رقم (٤٢٦٠) وأحمد (٤/ ١٢٤). وحسنه الترمذي. وضعفه الألباني كما في ضعيف الجامع رقم (٤٣٠٥).

(٢) ذكره الترمذي في جامعه (٤/ ٥٥٠) وأسنده ابن أبي شيبة في المصنف رقم (٣٤٤٥٩) =

ويقول أيضًا: «إن العبد ما يزال بخير ما كان له واعظ من نفسه، وكانت المحاسبة من همته»، وقال ميمون بن مهران: «إن التقي أشد محاسبة لنفسه من شريك شحيح»(١).

فيراقب الإنسان نفسه قبل العمل: في إخلاصه، ومتابعته. ويراقب قلبه في تحقيقه للمحبة لله وفي الله، ويجاهدها على ذلك. كما يحاسبها بعد العمل على التقصير فيه، وعدم كمال الإخلاص.

ولا ريب أن هذين من أهم الوسائل لعلاج أمراض القلب، يقول ـ تعالى ـ: ﴿**والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا**﴾. [سورة العنكبوت، الآية: ٦٩].

٣ ـ وسائل أخرى:

فمنها العلم، تحقيق التقوى، قيام الليل، كثرة الدعاء خاصة في الثلث الأخير من الليل، فإن سهام الليل لا تخطىء، فليكثر الإنسان فيه من التضرع إلى الله، وسؤاله الصفح والمغفرة والستر والتجاوز، ومنها إطابة المطعم والملبس، وكثرة الصدقة ﴿**خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكّيهم بها**﴾. [سورة التوبة، الآية: ١٠٣]. ومن أعظمها: غض البصر، قال ـ سبحانه ـ: ﴿**قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم وأطهر**﴾. [سورة النور، الآية: ٣٠].

= وفيه رجل لم يسم.

(١) انظر: رسالة مرض القلب وصحته.

خاتمة

لئن كنت قد أطلت في عرض هذا الموضوع، فمرد ذلك إلى أن يستأثر باهتمامكم، فالله الله في قلوبكم، بالرفق بها وحملها على الخير، والعناية بها أو منعها وحمايتها مما يضرها.

وكم يصاب الإنسان بالحزن عندما يعلم أنه مصاب بمرض حسي في قلبه، فهل حزنا مثل ذلك من جراحات القلب وأمراضه، من المعاصي والآثام، من الامتحان الذي يعرض على قلوبنا صباح مساء.

فلنتق الله في قلوبنا، ففي صلاحه النجاة ﴿يوم لا ينفعُ مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾. [سورة الشعراء، الآيتان: ٨٨. ٨٩].

هل راقبنا الله فيما انتشر من الذنوب من: أكل الربا، والمعاونة عليه، وأخذ الرشوة وإعطائها، ومن الولوغ في أعراض الناس بالغيبة والنميمة، في ذنوب لا يحصيها محصٍ ولا يعدها عادّ.

ولنرحم هذه القلوب، ولنحملها على طاعة الله بإكثار قراءة القرآن ومدارسته، وكثرة النوافل والعبادات، وكثرة الصدقة، وذكر الله ـ عز وجل ـ حتى نلقى الله بقلوب سليمة مخبتة أوّاهة أوّابة، وأكرر التحذير من انشغال كثير من الناس بقلوب إخوانهم غافلين عن قلوبهم، فالنجاة النجاة ﴿أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٣].

التثبت في الأخبار

الموضوع الرابع:

التثبت في الأخبار:

قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبيَّنوا أن تصيبوا قومًا بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٦].

هذه الآية أصل في وجوب التثبت في الأخبار، بل هي الأصل في ذلك، وما عداها فهو شارح لها ومبين لدلالتها.

ولأهمية هذا الموضوع فسأقف معه وقفة مناسبة، أبيّن فيها المنهج الصحيح في ذلك دون إفراط أو تفريط.

وسأذكر مقدمة تشتمل على ما يلي:

١ ـ تعريف الخبر والنبأ.

٢ ـ أهمية الخبر.

٣ ـ خطورة الكذب.

وسأتناول هذه المقدمة باختصار، ثم أنتقل إلى بيان المنهج الشرعي في التثبت من الأخبار، دون توسع ممل أو إيجاز مخلّ، ولكن حسب ما يفي بالغرض والقصد(١).

---

(١) يحسن الرجوع إلى رسالة الشيخ أحمد الصويان (نحو منهج شرعي لتلقي الأخبار وروايتها) فقد أفدت منها كثيراً، وهي رسالة قيمة في بابها. (مخطوط) طبعت الرسالة قبل فترة.

أولا: تعريف الخبر:

قال ابن منظور: الخبر ـ بالتحريك ـ: واحد الأخبار.

والخبر: ما أتاك من نبأ عمن ستخبر.

قال ابن سيده: الخبر: النبأ، والجمع أخبار وأخابير: جمع الجمع. وخبّره بكذا وأخبره: نبّأه.

واستخبره: سأله عن الخبر وطلب أن يخبره، ويقال: تخبرت الخبر واستخبرته، والاستخبار والتخبر: السؤال عن الخبر، وفي حديث الحديبية: أنه بعث عينًا من خزاعة يتخبَّر خبر قريش، أي يتعرَّف، يقال: تخبَّر الخبر واستخبر: إذا سأل عن الأخبار ليعرفها[1].

ثانيا: أهمية الخبر:

الحديث عن أهمية الخبر حديث عن البدهيات، ولكن ما حيلتنا إذا كنا في عصر اختلطت فيه الحقائق، وتبدّلت فيه الأمور، وأصبح المعروف منكرًا والمنكر معروفًا، وتبرز أهمية الخبر في ضوء ما يلي:

١ ـ إن الواسطة بين السماء والأرض هو الخبر، فالرسل عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، يخبرون عن الله ـ جل وعلا ـ فيخبرون الإنس والجن بمراد الله قدرًا وشرعًا. ﴿**نبِّيء عبادي أني أنا الغفور الرحيم. وأن عذابي هو العذاب الأليم**﴾. [سورة الحجر، الآيتان: ٤٩، ٥٠]. ﴿**عمَّ يتساءلون. عن النبأ العظيم**﴾. [سورة النبأ، الآيتان: ١، ٢].

٢ ـ القرآن حمل لنا أخبار الأولين والآخرين، من قبل خلق آدم

---

(١) انظر: لسان العرب مادة (خبر).

ـ عليه السلام ـ إلى قيام الدين، خلق السموات والأرض، الملائكة وآدم، آدم وإبليس، قصص الأنبياء وأممهم، قيام الساعة، الجنة والنار ودخول الناس فيهما، خبر أهل الجنة، وخبر أهل النار.

٣ ـ قصة سليمان ـ عليه السلام ـ والهدهد، من أهم معالم الخبر وطرق التثبت ﴿فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين﴾. [سورة النمل، الآية: ٢٢]. فلما أخبره بخبره وقصّ قصته قال سليمان ـ عليه السلام ـ: ﴿قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين﴾. [سورة النمل، الآية: ٢٧]. ثم سلك المنهج الشرعي في التثبت، ثم جاء دور ملكة سبأ، والمنهج الذي اتخذته في تلقي الخبر وتبليغه.

٤ ـ قصة يوسف، وما فيها من عبر وعظات.

٥ ـ إننا أصبحنا في عالم عجيب، يصبح ويمسى على الخبر، فخبر في جنوب الأرض يؤثر في شمالها، ونبأ في غربها يهز شرقها، وحدث في وسطها يثير الأرض كلها، وبحق أضحى الخبر ملكًا غير متوّج، وسلطانًا تهابه الملوك والرؤساء والسلاطين، ولذلك أصبحت وسائل الإعلام هي السلطة الأولى في الأرض بعد أن كانت الرابعة كما يقولون(١).

٦ ـ تعدد وسائل الأخبار، ووسائط الأنباء، فلم تعد الرسالة، أو المشافهة هي الوسائل الوحيدة، وأصبح المرء في حيرة من أمره، ما يؤكده هذا ينفيه ذاك، وما يعلنه الأول يكذبه الثاني، وهذا الأمر له أثره النفسي والعملي على الفرد والمجتمع، وكما عبّر العلامة ابن خلدون عن هذه

---

(١) حديثي عن أمر واقع لا الذي يجب أن يكون، والملك لله من قبل ومن بعد.

الحقيقة فقال: فالتحقيق قليل، وطرْف التنقيح في الغالب كليل، والوهم نسيب للأخبار وخليل، والتقليد عريق في الآدميين وسليل(١).

٧ ـ ومما يعطي الأخبار أهمية خاصة، غريزة حب الاستطلاع، والشغف بنقل الأخبار، والهيام بالسؤال عن كل جديد.

٨ ـ وأخيرًا فإن الإنسان يعيش ويرسم منهج حياته على الخبر ماضيًا وحاضرًا ومستقبلاً، ويعتمد على خبر ماض وحاضر ومتوقع الحدوث(٢)، أو متيقن الوقوع في المستقبل(٣).

والخبر منازل، بين متيقن وظنّي ومكذوب، والمنازل درجات.

ثالثا: خطورة الكذب:

الكذب صفة ذميمة، وخصلة خسيسة، تسقط المروءة، وتظهر الخيانة، وتنبىء عن الجبن ورداءة الطبع. والكذب مظهر لصفات مذمومة، قد لا تبدو للعيان لأول وهلة، كقلة الدين وذهاب الورع، وسوء الطوية، وتفاهة الغاية والمقصد، وهشاشة التربية والمنبت(٤).

والكذب: يغير الأمور، ويقلب الحقائق، يجعل الباطل حقًا، والحق باطلاً، والمعروف منكرًا، والمنكر معروفًا، وينسب للناس خلاف ما قالوا وما فعلوا، وأعظم الكذب الكذب على الله ورسله، وشرّ الكذب

---

(١) انظر: مقدمة ابن خلدون ص ٤.

(٢) كأخبار وتوقعات البشر مما يدخل في الاحتمالات.

(٣) وذلك خاص بخبر السماء، مما أخبر به المصطفى، صلى الله عليه وسلم، عن ربه، قرآنًا أو حديثًا وكله وحي ﴿إن هو إلا وحي يوحى﴾.

(٤) انظر: رسالة (نحو منهج شرعي لتلقي الأخبار) الصويان ص ٧ مخطوط.

كذب الملوك. وأمر هذا شأنه، يصعب حصر خطورته وآثاره، ولكن ذكرى للمؤمنين، وتنبيهًا للغافلين، وتحذيرًا لمن جعل الكذب مطيّته، والتعريض سلعته، والإشاعة غايته ومقصده، أضع هذه الحقائق، ليحيى من حيَّ عن بينة، ويهلك من هلك عن بينة.

١ - قال الله - تعالى -: **﴿إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون﴾**. [سورة النحل، الآية: ١٠٥].

٢ - آية الحجرات **﴿فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾**. [سورة الحجرات، الآية: ٦]. فإذا كان الذي قد صدّق الكاذب، دون أن يعلم بكذبه، سينقلب نادمًا، فكيف بمن كذب متعمّدًا؟

٣ - قالت عائشة - رضي الله عنها - ما كان خُلق أبغض إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من الكذب، ولقد كان الرجل يكذب عند رسول الله، صلى الله عليه وسلم، الكذبة، فما يزال في نفسه عليه حتى يعلم أنه قد أحدث منها توبة[(١)].

٤ - روى ابن مسعود - رضي الله عنه - أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: «**وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرَّى الكذب حتى يكتب عند الله كذَّابًا**»[(٢)].

---

(١) أخرجه الترمذي (٤/٣٠٧) كتاب البر والصلة، رقم (١٩٧٣) وأحمد (٦/١٥٢). وحسنه الترمذي.

(٢) أخرجه مسلم (٤/٢٠١٣) كتاب البر والصلة، رقم (٢٦٠٧).

٥ - وقال، صلى الله عليه وسلم: «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»[١].

٦ - وقال أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - أيَّاكم والكذب فإن الكذب مجانب الإيمان[٢].

٧ - وقد أجمعت الأمة على تحريمه، وتظاهرت نصوص الكتاب والسنة على تحريمه، وكفى بذلك خطرًا[٣].

٨ - كم من حروب قامت، وفتن وقعت، وأرحام قطّعت، وأسر شرّدت، وقلوب تنافرت، ودماء أسيلت، وأموال بالحرام أكلت، كل ذلك بسبب كذبة واحدة، قد تتلوها كذبات.

٩ - لو لم يأت من ثمار الكذب أن من كذب كذبة واحدة، ثم عرفها الناس ردّوا صدقه ولو أقسم الأيمان، وقد تبقى هذه الكذبة علامة تميزه، وخصلة لا تفارقه حتى الممات.

١٠ - قال ابن تيمية - رحمه الله -: الصدق أساس الحسنات وجماعها، والكذب أساس السيئات ونظامها[٤].

١١ - ومما قاله الشعراء في ذلك[٥]:

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ١٤) كتاب الإيمان، ومسلم (١/ ٧٨) كتاب الإيمان، رقم (٥٩).

(٢) أخرجه البيهقي في سننه (١٠/ ١٩٧) ثم قال: هذا موقوف وهو الصحيح وقد روي مرفوعًا.

(٣) انظر: الأذكار للنووي ص ٣٢٤.

(٤) انظر: الفتاوى ٢٠/ ٧٤.

(٥) انظر: جواهر الأدب ٢/ ٤٧٩.

لي حيلة فيمن ينمّ وليس للكذاب حيله
من كان يخلق قوله فحيلتي فيه قليله

وقال آخر:

إذا عرف الإنسان بالكذب لم يزل
لدى الناس كذابًا ولو كان صادقًا
فإن قال لم تصغ له جلساؤه
ولم يسمعوا منه ولو كان ناطقًا

وقال ثالث:

لا يكذب المرء الاّ من مهانته
أو فعلة السوء أو من قلة الأدب

وقبل أن أنتقل من الحديث عن موضوع الكذب أوضح ما يلي:

قال الإمام النووي ـ رحمه الله ـ: اعلم أن مذهب أهل السنة أن الكذب هو الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو، تعمدت ذلك أم جهلته، لكن لا يأثم في الجهل وإنما يأثم في العمد[1].

وما ذكره الإمام النووي صحيح، ولكن هناك أمور قد لا تكون كذبًا، ولكن توصل إليه في النهاية، ولشيوعها وخطورتها، فإني أشير إليها إشارة بما يغني عن العبارة فأقول:

١ ـ المزاح[2] فإن التوسع فيه قد يوصل إلى الكذب، وهذا ما يوحي

(١) انظر: الأذكار للنووي ص ٣٢٦.

(٢) كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يمزح ولكن لا يقول إلا حقًا، ولم يكن يكثر من ذلك عليه الصلاة والسلام.

إليه حديث رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حيث قال: «أنا زعيم بيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقًا، وبيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحًا، وبيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه»[1].

٢ - التورية، والمعاريض[2]، فإذا تعود عليها الإنسان، أكثر منها، وعرف بها، ويصبح في نظر الناس أخو الكذاب، وقد تقوده إلى الكذب.

٣ - نقل الإشاعة، دون تحرٍّ أو تدقيق، وقد يتورط المرء فيها فيسلك مسالك الكذب لإثباتها، حتى لا يظهر أمام الناس كذَّابًا، فيقع في عين الكذب طائعًا مختارًا.

٤ - الحماس غير المنضبط، والعجلة وعدم التأني عند رؤية المنكرات، تؤدي إلى نقل الخبر على غير حقيقته، من مبالغة أو تحريف أو سوء فهم، وما زاد عن الحقيقة فهو كذب.

٥ - عدم التزام المنهج الشرعي في الوعظ والرقائق، توصل صاحبها إلى الكذب عاجلاً أو آجلاً، وما أحاديث القصاص عنّا ببعيد، وكنت أتصور قلّتهم في زماننا، ولكنهم عادوا كأسلافهم أو يزيدون.

٦ - مصلحة الدعوة باب واسع ولج منه الكثيرون، وتأول فيه متأولون، واستمرأ الكذب بسببه آخرون، فعودة إلى منهج السلف الصالح، والتزامًا بالكتاب والسنة، فلسنا أحرص من المشرّع على

---

(١) أخرجه أبو داود (٤/٢٥٣) كتاب الأدب، رقم (٤٨٠٠). وصححه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (١٤٦٤).

(٢) ومنها ما هو جائز ومشروع، ولكن الإكثار منها هو المقصود.

شريعته، ولا من الرسول، صلى الله عليه وسلم، على ملته وأمته، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

٧ ـ الأمور التي ورد فيها جواز الكذب محددة معلومة[١]، وأغراضها وغاياتها بيّنة مرسومة، ولكن هناك من جعلها له سلّمًا وحجّة، فزاد فيها عددًا، وتوسع فيها مددًا، لم يراع في ذلك الضوابط، ولم يفهم الأصول والقواعد. فأصبح كل ما بين مسلم وكافر حربًا، وإن كانا مسلمين فهو صلحًا، وما بين الزوج وزوجته من الكذب لم يجعل له حدًّا، وهلمّ جرّا.

وبعد:

فهذه بعض الأمور التي يجب أن يكون المسلم فيها على حذر، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه، ومن ابتعد عن الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن ترك المكروه سلم من الحرام، والله يعصمنا من الزلل في الأقوال والأفعال.

---

(١) انظر: رياض الصالحين للنووي باب ما يجوز فيه الكذب ص (٥٨٦) وكذلك شروح رياض الصالحين ففيها تفصيل، وآفات اللسان للقحطاني ص ٧٦.

التثبت من الخبر

كثير من الناس يتصور أن التثبّت من صحة الخبر يتعلق بعدالة من رواه، فإذا روى الخبر ثقة سرعان ما يقطع أولئك بصحة الخبر والجزم به، ومن ثم القيام بما يستدعيه ذلك الخبر.

ولذلك عندما تناقش أحد هؤلاء في خبر رواه سرعان ما يقول لك: حدثني فيه الثقة، يقول هذا، وكأن الأمر يجب أن ينتهي عند هذا الحد(١)، فلا مجال للطعن في الخبر بعد ذلك أو التشكيك فيه، أو حتى مجرد محاولة المزيد من البحث والاستقصاء للتثبت والتبين، ولو فعلت ذلك لأصبحت (في نظره) مشككًا في روايته طاعنًا في عدالته، متعديًا لحدود الخلق والأدب تجاهه. ومنشأ هذا الأمر هو الجهل في المنهج الشرعي للتثبت والتبين، وقصره على أحد أفراده، مع عدم إدراك أهمية التثبت والتبين، حيث يعتبر ذلك تنطعًا ومبالغة.

ولذلك سأذكر مقدمة أبين فيها أهمية التثبت من الأخبار، ثم أذكر المنهج الشرعي في ذلك.

أولًا: أهمية التثبّت والتبينّ(٢):

---

(١) الأصل هو قبول خبر العدل، وهذا ما يدل عليه مفهوم المخالفة في الآية كما قال الشيخ الشنقيطي، وهو ما قرره العلماء، ولكن بعض الأخبار تحتاج إلى مزيد تثبت وتبين، وهذا ليس ردًّا للخبر الثقة، كما أن الشهادة كذلك، انظر: أضواء البيان ١٢٧/٧.

(٢) اذكر أحيانًا (التثبت والتبين) مجتمعين وأحيانًا منفردين، والسر في ذلك أنني أرى أن بينهما عمومًا وخصوصًا، حيث إن في كل واحد منهما معنى ليس في غيره عند =

جاء الأمر صريحًا بوجوب التثبّت والتبينّ في الأخبار عند رواية الفاسق لها، حيث جاءت في قراءة سبعية متواترة: ﴿إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٦]. وفي قراءة أخرى سبعية متواترة: ﴿إن جاءكم فاسق بنبأ فتثبتوا﴾.

ولذلك قال الإمام الطبري: هما قراءتان معروفتان متقاربتا المعنى - ولم يقل متحدتا المعنى - فبأيهما قرأ القارىء فمصيب[1].

قال الإمام الحسن البصري - رحمه الله -: المؤمن وقّاف حتى يتبينّ[2].

وقال ابن الجوزي - رحمه الله -: ما اعتمد أحد أمرًا إذا همّ بشيء مثل التثبت، فإنه متى عمل بواقعة من غير تأمل للعواقب، كان الغالب عليه الندم، ولهذا أمر الإنسان بالمشاورة، لأن الإنسان بالتثبت يطول تفكيره، فتعرض على نفسه الأحوال، وكأنه شاور، وقد قيل: خمير الرأي خير من فطيره.

وأشد الناس تفريطًا من عمل مبادرة في واقعة من غير تثبت ولا

= اجتماعهما، فإذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا، وذلك وإن ذكر العلماء أن معناهما واحد، فإنني أرى - وهذا قول لبعض المفسرين - أن التثبت ينصب على السند، أما التبين فهو حول معنى الخبر ومتنه وملابساته، فقد يثبت الخبر سندًا، ولا يصح معنى، وقد يثبت سندًا، ويصح معنى ولكن له ظروفه وملابساته التي قد تشفع لمن حدث منه، وهذا من التبين، ومن ذلك قصة حاطب - رضي الله عنه - في فتح مكة.

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٦/٣٨٣).

(٢) الفتاوى ١٠/٣٨٢.

استشارة، خصوصًا فيما يوجب الغضب، فإنه ينزقه طلب الهلاك واستتبع الندم العظيم، فالله الله، التثبت، التثبت في كل الأمور، والنظر في عواقبها"(١).

إن التثبت منهج شرعي، ونضج عقلي، والعقل الصريح يوافق النقل الصحيح، ولذلك جاء في الأدب الصغير لابن المقفع: «أصل العقل التثبت»(٢) وهذا صحيح، فالعقل سمي عقلاً، لأنه يعقل صاحبه عن فعل ما لا ينبغي.

ولقد تميزت هذه الأمة بميزة فقدتها الأمم السابقة، وهي ميزة وجود المنهج المتكامل الشامل للتثبّت من الأخبار، مما حفظ علينا ديننا، وهو من حفظ الله لهذا الدين إلى يوم الدين.

قال الشيخ العلامة عبدالرحمن السعدي ـ رحمه الله ـ: والتثبت في سماع الأخبار وتمحيصها ونقلها وإذاعتها، والبناء عليها أصل كبير نافع، أمر الله به رسوله، قال ـ تعالى ـ: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قومًا بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين**﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٦]. فأمر بالتثبت، وأخبر بالأضرار المترتبة على عدم التثبت، وأن من تثبت لم يندم، وأشار إلى الميزان في ذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿**أن تصيبوا قومًا بجهالة**﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٦]. وأنه العلم والتحقق في الإصابة وعدمه، فمن تحقق وعلم كيف يسمع، وكيف ينقل

---

(١) انظر: صيد الخاطر ص ٣٧٤.

(٢) انظر: الأدب الصغير ص ١٦٨.

وكيف يعمل، فهو الحازم المصيب، ومن كان غير ذلك فهو الأحمق الطائش الذي مآله الندامة[١].

إن من يتأمل في واقع الناس اليوم، وينظر في الكمّ الهائل من الأخبار التي نسمعها في كل يوم، ويرى الاختلاف والتباين بين مصادر هذه الأخبار، يدرك عظمة هذا الدين، وسموّ هذا المنهج الذي دعا إليه الإسلام، وأمر به القرآن، وحفظته السنة، وحُفظت به السنة.

ولذلك يقول سيد قطب ـ رحمه الله ـ: التثبت من كل خبر ومن كل ظاهرة، ومن كل حركة قبل الحكم عليها، هو دعوة القرآن الكريم، ومنهج الإسلام الدقيق.

ومتى استقام القلب والعقل على هذا المنهج لم يبق مجال للوهم والخرافة في عالم العقيدة، ولم يبق مجال للظن والشبهة في عالم الحكم والقضاء والتعامل، ولم يبق مجال للأحكام السطحية والفروض الوهمية في عالم البحوث والتجارب والعلوم[٢].

وأخيراً، فإن التأمل والتمعن في سبب نزول آية الحجرات كاف لبيان أهمية التثبت والتبين وأثرهما في حياة الفرد والأمة، ومن قرأ قصة داود ـ عليه السلام ـ في سورة (ص) عرف قيمة هذا المنهج وسموّه.

---

(١) انظر: الفتاوى السعدية ص ٦٦، وانظر: رسالة (نحو منهج شرعي لتلقي الأخبار) للصويان ص ٢٢.

(٢) انظر: الظلال ٤/٢٢٢٧ تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿**ولا تقف ما ليس لك به علم**﴾. [سورة الإسراء، الآية: ٣٦].

ثانيا: المنهج الشرعي في التثبت والتبين:

عند ورود الخبر فإنه يجب مراعاة ما يلي[١]:

١ ـ عدالة الراوي وذلك بسلامته من الفسق وخوارم المروءة.

وهذا أمر واضح، وقلّ من يغفل عنه إلّا من لا يعتد به، والآية نص فيه.

٢ ـ ضبط الراوي واتقانه وقوة حفظه.

إن كثيرًا ممن يروون الأخبار ويتلقونها يغفلون عن هذه القضية، أو يتساهلون بها، والأمر عندهم يتوقف على عدالة الراوي وورعه، دون النظر في ضبطه واتقانه، ولذلك رأينا أخبارًا متناقضة تروى عن العدول، والسبب في ذلك عدم مراعاة هذا الأمر عند نقل الأخبار.

ولقد عني السلف بهذا الشرط عناية فائقة، تدل على سمو هذا المنهج وسلامته.

قال ابن أبي الزناد ـ رحمه الله ـ: أدركت بالمدينة مائة كلهم مأمون، ما يؤخذ عنهم الحديث، يقال: ليس من أهله[٢].

وقال الإمام مالك ـ رحمه الله ـ: إن هذا العلم دين فانظروا عمَّن تأخذونه، لقد أدركت سبعين ممن يقول: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، عند هذه الأساطين، وأشار إلى المسجد، فما أخذت عنهم شيئًا،

---

(١) انظر: رسالة نحو منهج شرعي لتلقي الأخبار وروايتها، للصويان وكتاب منهج أهل السنة والجماعة في النقد والحكم على الآخرين لهشام الصيني.

(٢) انظر: صحيح مسلم ١/٥١ (المقدمة).

وإن أحدهم لو ائتمن على بيت مال لكان أمينًا، إلا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن[١].

وقال وكيع بن الجراح ـ رحمه الله تعالى ـ: وذكر حديثًا رواه أحد السلف: «**ذاك رجل صالح . . وللحديث رجال**»[٢].

وليس المقام مقام حصر ما ورد في ذلك، وإنما المراد بيان أهمية مراعاة الضبط والإتقان في الرواية والتلقي.

٣ ـ حسن الفهم ودقة الاستيعاب للمراد:

وهذا يختلف عن الأول والثاني، فكم من ورع حافظ لكنه لا يفقه ما يروي وما يحفظ.

وقد يتصور البعض صعوبة التفريق بين الضبط والاتقان، وبين الفهم والإدراك، وهذا ناشىء من رداءة الفهم وضعف الإدراك، وإلا فإن الطفل يحفظ حفظًا عجيبًا قد يعجز عنه بعض الكبار، ومع ذلك لا يدرك ما يحفظ ولا يفهم ما يروي.

فالحفظ والفهم موهبتان منفصلتان، قد تجتمعان وقد تفترقان، ولا تلازم بينهما.

والحفظ يغلب فيه الجانب الجبلي على الجانب المكتسب، والفهم بعكس ذلك يغلب فيه جانب الاكتساب على جانب الجبلية.

ومما ورد عن السلف في ذلك ما رواه ابن وهب عن مالك: وهذا الشأن ـ يعني الحديث والفتيا ـ يحتاج إلى رجل معه تقىً وورع وصيانة، وإتقان،

---

(١) انظر: ترتيب المدارك (١/١٣٨).

(٢) انظر: شرح علل الترمذي لابن رجب الحنبلي ١/٩٤.

(وعلم وفهم) فيعلم ما يخرج من رأسه وما يصل إليه غدا، فأما رجل بلا إتقان (ولا معرفة) فلا ينتفع به ولا هو حجة، ولا يؤخذ عنه[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: وكثير من الناقلين ليس قصده الكذب، لكن المعرفة بحقيقة أقوال الناس من غير نقل ألفاظهم، وسائر ما به يعرف مرادهم قد يتعسَّر على بعض الناس، ويتعذَّر على بعضهم[٢].

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: صحة الفهم وحسن القصد من أعظم نعم الله التي أنعم بها على عبده، ثم قال: وصحة الفهم نور يقذفه الله في قلب العبد، يميز به بين الصحيح والفاسد، والحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد[٣].

ويقول في موضع آخر: والعلم بمراد المتكلم يعرف تارة من عموم لفظه، وتارة من عموم علته.

والحوالة على الأول أوضح لأرباب الألفاظ، وعلى الثاني أوضح لأرباب المعاني والفهم والتدبر.

وقد يعرض لكل من الفريقين ما يخل بمعرفة مراد المتكلم، فيعرض لأرباب الألفاظ التقصير بها عن عمومها، وهضمها تارة، وتحميلها فوق ما أريد بها تارة.

ويعرض لأرباب المعاني فيها نظير ما يعرض لأرباب الألفاظ.

فهذه أربع آفات هي منشأ غلط الفريقين[٤].

---

(١) انظر: ترتيب المدارك ١/١٣٨.

(٢) انظر: منهاج السنة ٦/٣٠٣.

(٣) انظر: أعلام الموقعين ١/٨٧.

(٤) انظر: أعلام الموقعين ١/٢٢٠.

وفي هذا السياق ـ أيضًا ـ قال الإمام السبكي ـ رحمه الله ـ: فكثيرًا ما رأيت من يسمع لفظة فيفهمها على غير وجهها، فيغير على الكتاب والمؤلف، ومن عاشره واستن بسنته، مع أن المؤلف لم يرد ذلك الوجه الذي وصل إليه هذا الرجل[1].

ويحسن في هذا المقام أن أذكر الحديث الذي رواه الإمام أحمد في المسند حول الضابطين الأخيرين: فقد ورد عن الرسول، صلى الله عليه وسلم، قوله: «**نضّر الله عبدًا سمع مقالتي فحفظها ووعاها، وبلغها من لم يسمعها، فربّ حامل فقه لا فقه له، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه**». رواه أحمد[2].

قال هشام الصيني ـ وفقه الله ـ تعليقًا على هذا الحديث: ففي قوله: «**فحفظها ووعاها**» إشارة إلى الحفظ السليم، والفهم المستقيم.

وفي قوله: «**وبلّغها من لم يسمعها**» إشارة إلى أداء الكلام بنصه.

وفي قوله: «**فرب حامل فقه لا فقه له**» إشارة إلى صاحب الفهم الضعيف.

وفي قوله: «**ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه**» إشارة إلى تفاوت الأفهام، وأن سامع الخبر قد يستنبط مما سمع مالم يستنبطه الراوي، وهذا من جوامع الكلم الذي أوتيه، صلى الله عليه وسلم[3].

٤ ـ **مراعاة اتصال السند** إلى منتهاه، وتوافر العدالة والضبط ـ والفهم إن اقتضى ذلك ـ في جميع رجال السند. وكم تروى من الأخبار، يرويها لك

---

(١) انظر: قاعدة في الجرح والتعديل ص ٩٣.

(٢) انظر: المسند (٤/٨٢) وصحيح الترغيب والترهيب رقم (٨٦).

(٣) انظر: كتاب منهج أهل السنة والجماعة في النقد والحكم على الآخرين لهشام الصيني ص ٥٧.

الثقة، وتقول له من حدثك فيقول لك فلان وهو ثقة ضابط ـ أيضًا ـ ولكن لو سألت عمن حدث هذا الثقة لبان لك سر الوهن، ولا نجلت علة الخبر.

وقد يكون في الخبر انقطاعٌ، أو تدليسٌ، أو غير ذلك من العلل التي لا تخفى.

٥ ـ مقارنة الخبر، وعرض متنه ومدلوله على السنن الإلـهية، والأحوال الجارية، والسير والسياسات المعهودة ونحو ذلك قال العلامة ابن خلدون: إن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل، ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران، والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب منها بالشاهد، والحاضر بالذاهب، فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم، والحيد عن جادة الصدق.

وكثيرًا ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثًّا أو سمينًا، ولم يعرضوها على أصولها، ولا قاسوها بأشباهها، ولا سبروها بمعيار الحكمة، والوقوف على طبائع الكائنات، وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار، فضلوا عن الحق، وتاهوا في بيداء الوهم والغلط[1].

قال أحمد الصويان: وللناس طرائق شتى في تحمل الأخبار ونقلها، ويتفاوتون في ذلك تفاوتًا كبيرًا، فإن نقل الخبر فنٌّ دقيق، لا يحسن الخوض في غماره إلا قلة من الناس، فهو يحتاج إلى فطنة وتيقظ، ثم إلى حفظ وتثبت، ثم إلى صدق وأمانة[2].

٦ ـ أشير إلى ضابط مهم يغفل عنه الكثير، وهو وجوب مقارنة الخبر

---

(١) انظر: مقدمة ابن خلدون ص ٩.

(٢) انظر: رسالة نحو منهج شرعي لتلقي الأخبار ص ٥.

بسيرة من نسب إليه ابتداء، فإن ثبت الخبر ثبوتًا قاطعًا، وكان مما لا يليق بسيرة هذا الرجل وما عرف عنه، بحثنا له عن مخرج وحملناه على المحمل الحسن، واعتذرنا لصاحبه قدر مستطاعنا، دون مجاملة أو مداهنة في الحق(١).

ولازلنا نسمع نسبة بعض الأخبار لبعض من بمثلهم يقتدى، فيتعجل بعض الناس بتصديقها وروايتها، ثم نكتشف الحقيقة، بأن هذا الخبر مكذوب جملة وتفصيلاً. أو قد يكون صحيحًا ولكن روي على غير وجهه، وقد يكون لصاحبه عذر وأنت تلوم.

ومنهج السلف في مثل هذا الأمر واضح ومعلوم.

وقد نقل لشيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ كلام عن الجنيد ـ رحمه الله ـ ظاهره المخالفة، فقال ابن تيمية: فهذا ما أعرفه من كلام الجنيد، وفيه نظر هل قاله؟ ولعل الأشبه أنه ليس من كلامه المعهود، فإن كان قد قال هذا فأراد كذا [وبدأ يلتمس له المحامل والمخارج] ثم قال: فإن الجنيد أجلّ من أن يريد هذا، وهذا الكلام مردود على من قاله.

ثم قال كلامًا لا يحسن تجاوزه: كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وما ثمّ معصوم من الخطأ غير الرسول، صلى الله عليه وسلم، لكن الشيوخ الذين عرف صحة طريقتهم علم أنهم لا يقصدون ما يعلم فساده بالضرورة من العقل والدين(٢).

وقال في موضع آخر لما بلغه كلام عن سهل التستري ـ رحمه الله ـ مما

---

(١) ومثل ذلك ما قد ينسب للهيئات الاعتبارية مما لها مكانة محمودة وسيرة مشهودة أو لبعض المنتسبين إليها، مما يتعدى الأشخاص إلى تلك الهيئات.

(٢) انظر: الفتاوى ١١/٣٩١ ـ ٣٩٣.

فيه مخالفة شرعية: وهذه الحكاية إما كذب على سهل، وهذا الذي نختار أن يكون حقًا، أو تكون غلطًا منه فلا حول ولا قوة إلا بالله[١].

وما أحسن ما قاله السبكي ـ رحمه الله ـ قال: فإذا كان الرجل ثقة مشهودًا له بالإيمان والاستقامة، فلا ينبغي أن يحمل كلامه وألفاظ كتاباته على غير ما تعود منه، ومن أمثاله، بل ينبغي التأويل الصالح، وحسن الظن الواجب به وبأمثاله[٢].

٧ ـ **قد يقول قائل**: إن ما ذكرته من منهج هو ما يراعى مثله عند نقل حديث رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وروايته، فهل تريد أن تجعل الأخبار كحديث المصطفى، صلى الله عليه وسلم؟

أقول: لم أرد ذلك بإطلاق، وإنما الأخبار تتفاوت، فمنها ما يجب أن نطبق فيه ما نقدر عليه من شروط التوثيق، ونسلك جميع السبل الممكنة للتبين والتثبت **﴿أن تصيبوا قومًا بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾**. [سورة الحجرات، الآية: ٦]. وأخرى دون ذلك حسب مدلولها وأثرها، وتخصص راويها أو المروية عنه، فلكل خبر رواته، ولكل حدث فاعلوه، ولكل جهة مصادرها ومخبروها، ويجب أن تقدر كل حالة بقدرها، فلا إفراط ولا تفريط.

٨ ـ **أعيد هنا** ما ذكرته في أحكام هذه الآية مما له صلة بموضوعنا، إكمالًا لهذا المبحث وإزالة لما قد يقع من لبس:

---

(١) انظر: الفتاوى ١٤/٣٦٦، ورسالة الصويان ص ٢٨.
(٢) انظر: قاعدة في الجرح والتعديل ص ٩٣.

(أ) قال ابن العربي: من ثبت فسقه بطل قوله في الأخبار إجماعًا، لأن الخبر أمانة والفسق قرينة تبطلها. فأما في الإنسان على نفسه فلا يبطل إجماعًا(١).

(ب) وقال - أيضًا -: لا خلاف أنه يصح أن يكون رسولاً عن غيره، من قول يبلغه، أو شيء يوصله، أو إذن يعلمه، إذا لم يخرج عن حق المرسل والمبلغ(٢).

(جـ) قال الجصاص: واتفق أهل العلم على جواز قبول خبر الفاسق في أشياء فمنها أمور المعاملات - ثم عدّ بعضها -(٣).

هذا مختصر لبعض ما ذكرته هناك ومن أراد المزيد فليرجع إلى ما سبق.

٩ - وأختم هذا المبحث حول ما يرد من أخبار في وسائل الإعلام العالمية، فأقول: إن هذا يحتاج إلى تفصيل وتفريع ليس هذا مكانه، ولكن أجمل ذلك بما يلي:

١ - ما كان من مصادر الأخبار منسوبًا إلى الجهة التي أعلنته، فإنه مثل خبر الفاسق عن نفسه.

٢ - إذا كان الخبر مما يستحيل فيه التواطؤ على الكذب فيقبل.

٣ - أما إذا كان منسوبًا للأفراد أو جهات أخرى فلابد من التبين والتثبت.

---

(١) انظر: أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٧١٥.

(٢) انظر: أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٧١٦، وتفسير القرطبي ١٥/٣١٢.

(٣) انظر: أحكام القرآن للجصاص ٣/٣٩٩.

وبعد:

فآمل أن يكون موضوع التبين والتثبت اللذين أمر الله بهما في سورة الحجـرات قد اتضـح من خلال هذا البحث، حيث حرصت على أن أعرض لكل النقاط المتعلقة في الموضوع، بأسلوب يناسب المقام، وذلك قناعة مني بأهمية مثل هذا المبحث وبخاصة في عصرنا الحاضر الذي كثر فيه الإرجاف، وأصبح للإشاعة سوق رائجة، وفشا فيه الكذب، مما له أثر سلبي في واقع المسلمين وحياتهم.

إن التـزامنـا بالمنهج الشرعي في التثبت والتبين منجاة لنا ولأمتنا، ووقاية من الأخطار والفتن ﴿**أن تصيبوا قومًا بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين**﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٦].

الأخوة

الموضوع الخامس:

الأخـوة

قال الله ـ سبحـانـه وتعالى ـ: ﴿إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١٠].

هذه الآية أصل من الأصول التي تنظم علاقة المسلم بأخيه المسلم.

وليست هذه الآية هي الـوحيدة فقط في هذه السورة التي تتناول موضوع الأخوة وتقوية الروابط بين المسلمين، بل إن هناك عدة آيات في الموضوع نفسه، ولكن اختلفت الأساليب في تحقيق هذه الغاية، وهي بناء الأخوة الإيمانية، وأوضح ذلك فأقول:

جاءت الآية الأولى في هذا الموضوع آمرة بالصلح بين المسلمين، وإزالة الفتن التي تقع بينهم من خلافات وخصومات، ولو وصل الأمر إلى قتال من يأبى أن يستجيب لذلك، والمنطلق الذي ترسمه السورة، وتذكره سببًا لاستخـدام هذا الحق، حق القتال لإجبار الباغي على العودة إلى الصف، والانتظام في سلك الجماعة المسلمة، هو ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١٠].

وهـذه الآية تدل في منطوقها ومفهومها وسياقها على عدة دلالات أهمها أمران:

١ ـ أن الاقتتال بين المسلمين خروج عن قاعدة الأخوة التي قررها الله بقـوله: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١٠]. فيجب اتخاذ جميع الوسائل المشروعة التي تعيد هؤلاء إلى القاعدة، ولو أدى ذلك إلى قتالهم، صيانة لهذا الأصل ومحافظة عليه.

٢ ـ أن على المؤمنين الذين لم يشاركوا في هذا الخلاف، أن يبادروا بالصلح بين الفريقين المتخاصمين، وإذا لم يجد الصلح مع أحدهما، فيجب عليهم قتاله وإجباره على ذلك.

إن هذا الأمر ـ وهو القيام بالصلح أو القتال ـ ليس أمرًا اختياريًّا أو مندوبًا، بل هو واجب مفروض[1]، تفرضه قاعدة ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١٠]. وليس لأحد أن يلومهم على ذلك[2]، لأن هذه الآية تخولهم القيام بكل وسيلة مشروعة تعيد الأمر إلى نصابه والحق إلى أهله.

وبعد تقرير هذه القاعدة، ورسم المنهج الشرعي في المحافظة عليها، تأتي آيات أخرى متلمسة أسباب حدوث الخلاف والخصومات بين المسلمين، فتبيّن حكم الله فيها، وتحذّر المسلمين من الوقوع في حبائلها، مغلقة أبواب الشر ووسائل الفتنة وحبائل الشيطان.

فجاءت الآيات ناهية عن: السخرية، والتنابز، واللمز، وسوء الظن والتجسس، والغيبة، والتفاخر لأن هذه الآفات من أعظم ما يبث الوشائج، ويثير الضغائن، ويفجر الخصومات، وبخاصة أن منشأها أمور قلبية، وما ظهرت على الجوارح إلا بعد أن عاشت واستوطنت القلوب زمنًا،

---

(١) وهو فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين، وفرق بعض العلماء بين الصلح في حالة الاقتتال، والصلح فيما دونه، فأوجب الصلح في الأول وندب في الثاني، انظر: تفسير الرازي (٢٧/ ١٢٩).

(٢) لأن هناك من يكرر: ما دخلك في هذا الأمر، وما علاقتك به، وقد يعده البعض من تدخل المرء بما لا يعنيه.

والقضاء عليها قضاء على آثارها، ومجرد إيقاف الاقتتال ـ لو حدث ـ لا يكفي لإطفاء نار الفتنة، فقد تشتعل بين لحظة وأخرى، إذا كانت النفوس تنطوي على أسباب الفتنة وجذورها.

وفي ضوء هذا المنهج، وتفاعلاً مع هذه القاعدة، وتلمسًا لأسباب الفتنة للوصول إلى علاجها، وبحثًا عن منطلقات الأخوة ترسيخًا لها ودعمًا لبقائها، وفي ظلال هذه الآيات في سورة الحجرات سأقف مع موضوع ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾. ومن الله أستمد العون والتوفيق.

أولا: علاقة المسلم بغيره:

إن مما يميز المسلمين عن غيرهم أن الإسلام يرسم لهم منهجًا في العلاقة بغيرهم، منهجًا يقوم على العدل والصدق وحسن الخلق.

ومن أبرز معالم هذا المنهج ما يلي:

١ ـ **العدل وتحريم الظلم**، حتى مع الكفار، بل والحيوانات أيضًا، يقول ـ سبحانه ـ: **﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألّا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾**. [سورة المائدة، الآية: ٨].

وفي الحديث القدسي الذي يرويه، صلى الله عليه وسلم، عن ربه ـ جل وعلا ـ: «**يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرّمًا فلا تظالموا**»(١).

إن بناء العلاقة على العدل وتحريم الظلم يستلزم أمورًا كثيرة وبخاصة في باب المعاملات بين المسلمين وغيرهم، فلا كذبًا ولا غشًا، ولا

(١) أخرجه مسلم (٤/١٩٩٤) كتاب البر والصلة، رقم (٢٥٧٧).

سرقة، ولا مماطلة أو تسويفًا في أداء الحقوق والواجبات.

وهذا ما سجله لنا تاريخنا الناصع عن سلفنا الصالح، فرسول الله، صلى الله عليه وسلم، قدوتنا في تعامله مع غير المسلمين.

٢ - **حسن الخلق**: أثنى الله على حبيبه ونبيه وخليله، صلى الله عليه وسلم، فقال: ﴿**وإنَّك لعلى خلق عظيم**﴾. [سورة القلم، الآية: ٤]. وحسن خُلقه، صلى الله عليه وسلم، لم يكن مع المسلمين فحسب، بل مع الكفار - أيضًا - وكم واجه منهم من سوء الخلق وفحش التعامل فقابل ذلك بالخلق الحسن والأسلوب الأحسن، وصفحات السيرة مليئة بذلك، وكتب الشمائل فيها الحجة والبرهان(١).

إن حسن الخلق يجب أن يتعدى الإنسان إلى الحيوان، فقد دخلت امرأة النار في هرَّة حبستها، فلا هي أطلقتها، ولا هي أطعمتها حتى ماتت(٢).

ودخلت امرأة بغي - وفي رواية رجلٌ - دخلت الجنة لعطفها على كلب وجدته عطشانًا فأسقته الماء(٣).

وكما ورد في فضل الإحسان إلى كل نفس رطبة(٤).

---

(١) انظر: كتب الشمائل وأخص كتاب الشمائل المحمدية.

(٢) أخرجه البخاري (٤/ ١٠٠) كتاب بدء الخلق، ومسلم (٤/ ٣٠٢٢) كتاب البر والصلة، رقم (٢٢٤٢).

(٣) أخرجه البخاري (٧/ ٧٧) كتاب الأدب، ومسلم (٤/ ١٧٦١) كتاب السلام، رقم (٢٢٤٤)، (٢٢٤٥).

(٤) أخرجه البخاري (٧/ ٧٧) كتاب الأدب، ومسلم (٤/ ١٧٦١)، كتاب السلام رقم (٢٢٤٤)، (٢٢٤٥).

إن حسن الخلق مفتاح لكل خير ومغلاق لكل شر. ولذا رأينا أثر العدل وحسن الخلق وصدق المعاملة من المسلم مع غيره، حيث دخل كثير من أولئك في الإسلام، لما رأوه من أخلاق النبوة ومعاملة المتقين. كما جرّ سوء المعاملة، والظلم من بعض المسلمين لغيرهم نفورًا وبعدًا عن دين الله، حتى ارتد بعض هؤلاء بعد أن دخلوا في دين الله، وذلك لما رأوه من أخلاق بعض المسلمين.

وقبل أن أنتقل من هذه المقدمة أشير إلى أن هناك خلطًا بين حسن الخلق وصدق المعاملة، وبين مبدأ الولاء والبراء، الذي هو أصل من أصول عقيدة الإسلام. ولذلك ونتيجة لهذا الخلط وعدم التفريق بينهما حدث إفراط وتفريط.

فطائفة باسم حسن الخلق، ودعوة هؤلاء الكفار إلى الإسلام، أضاعوا مبدأ الولاء والبراء بل وميّعوه حتى لم يبق له حقيقة ملموسة، واختلط الحابل بالنابل.

وآخرون حرصًا منهم على هذا الأصل، وتحقيقًا لمبدأ الولاء والبراء، ضاعت معالم حسن الخلق، وأساءوا المعاملة مع غيرهم، فرأينا الجفاء والغلظة في غير موضعها، بل وتكلف بعضهم ذلك مما ليس في طباعهم.

وهناك فرق بين حسن الخلق والالتزام بمبدأ الولاء والبراء، ولكل واحد منهما لوازمه وآثاره، وليس بينهما تعارض أو تنافر أو تضاد[1].

---

(١) لأن هذا الموضوع ليس من شأننا ـ هنا ـ فإني أحيل من أراد التفصيل في ذلك لكتاب الولاء والبراء في الإسلام للدكتور محمد بن سعيد القحطاني فقد أجاد وأفاد.

ثانيا: مكانة الأخوة الإيمانية:

للأخـوة الإيمانية مكـانـة سامية، ودرجة عالية رفيعة، لا تساميها مكانة، ولا تقاربها رابطة من الروابط.

ولقد برزت هذه المكانة من خلال نصوص عدة، ومواقف مشرفة، أكتفي منها بما يلي:

١ - قوله - تعالى -: **﴿إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم﴾**. [سـورة الحجـرات، الآية: ١٠]. وحمـاية لهذا المقـام - مقـام الأخـوة - شرع المحـافـظة عليهـا بوسائل عدة - سيأتي بيانها - ولو وصل الأمر من أجل صيانتها، والذود عنها إلى القتال، ومع من؟ مع المسلمين الذين لم يدركوا خطورة ما يقومون به وما يفعلون، وجعل تحقيق الأخوة والصلح من أسباب الرحمة، ومن رحمه الله فقد فاز فوزًا عظيمًا.

٢ - تقديمها على أخوة النسب:

وهذا الأمر قد قرره القرآن الكريم في أكثر من موضع، نكتفي من ذلك بآيتين:

الأولى: في سورة التوبة وهي قوله - تعالى -: **﴿قل إن كان آباؤكم وأبنـاؤكم وإخـوانكم وأزواجكم وعشـيرتكم وأمـوال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبّ إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربَّصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾**. [سورة التوبة، الآية: ٢٤].

والثانية: في سورة المجادلة: **﴿لا تجد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو**

عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إنَّ حزب الله هم المفلحون﴾. [سورة المجادلة، الآية: ٢٢].

والرجوع إلى أسباب نزول هاتين الآيتين وبخاصة الآية الأخيرة يقرر هذا الأمر ويوضحه.

وسيرة الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ خير شاهد ودليل ومثال.

قال القرطبي: أخوة الدين أثبت من أخوة النسب، فإن أخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين، وأخوة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب[١].

٣ ـ ثبت عن المصطفى، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: «أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله»[٢].

وفي حديث آخر: «وأن يحب المرء لا يحبه إلّا لله»[٣].

ومن السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم القيامة: «رجلان تحابّا في الله، اجتمعا على ذلك وتفرَّقا عليه»[٤].

---

(١) انظر: تفسير القرطبي ١٥/٣٢٢.

(٢) أخرجه أحمد (٤/٢٨٦) وأخرجه أيضًا الطبراني والحاكم والطيالسي، وصححه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (٢٥٣٩).

(٣) أخرجه البخاري (١/١١) كتاب الإيمان، ومسلم (١/٦٦)، كتاب الإيمان، رقم (٤٣).

(٤) أخرجه البخاري (١/١٦١) كتاب الأذان، ومسلم (٢/٧١٥) كتاب الزكاة، رقم (١٠٣١).

والأحاديث كثيرة في هذا الباب، وكلها تدلّ على مكانة الأخوة في الله ومنزلتها عند الله.

٤ ـ ما شرعه الله من أمور تقوّي الأخوة وتحافظ عليها، كالحقوق الست، ونصرة المسلم، والتوادّ والتراحم، وحسن الخلق وقضاء حوائج المسلمين، وستر عوراتهم، وغير ذلك مما يقوي الوشائج ويحمي الروابط بين المسلمين.

٥ ـ تحريم الأمور التي تكون سببًا في إضعاف الأخوة وبترها، ووسيلة لنشوء الخلافات والخصومات، والعداوة، والبغضاء، كالغيبة والنميمة، والسخرية، والهمز، واللمز، وسوء الظن، والتفاخر بالأنساب والأموال والأولاد، وكالغلّ والحسد، والتجسس، والهجر، وغير ذلك مما يدخل في هذا الباب، ويكون ذريعة لاهتزاز مكانة الأخوة وضعف منزلتها.

٦ ـ أنه إذا ذهب الإيمان والإسلام، ومن ثم انتفت الأخوة، تقطعت جميع الروابط والوشائج الأخرى، فالزوجة تطلق من زوجها، والابن لا يرث من أبيه[1]، وإعلان البراء لا مناص منه ﴿**إنّا بُرَءَاءُ منكم ومما تعبدون من دون الله**﴾. [سورة الممتحنة، الآية: ٤]. وسورة الممتحنة ترسم لنا هذا المنهج بما لا لبس فيه ولا غموض، وتحدد لنا كيف تكون العلاقة وحدودها. وهذا التشريع دليل على مكانة الأخوة وآثارها وجودًا وعدمًا.

---

(١) يستثنى من ذلك العلاقة مع الوالدين إذا كانا كفارًا فقد رسم القرآن حدودها ومتى تكون ومتى لا تكون.

وقد ذكرنا قول القرطبي بأن أخوة الدين أثبت من أخوة النسب، لأن أخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين، ولا عكس.

هذه أهم المعالم التي تدل على مكانة الأخوة في الإسلام، ولهذه المكانة والمنزلة، ولما ورد في سورة الحجرات، وبعد هذه المقدمة فإني سأعالج الموضوع من وجهين:

١ - الأمور المشروعة التي تقوي الأخوة بين المؤمنين، بل وتوجدها.

٢ - الأمور المنهي عنها مما يكون سببًا في إضعاف الأخوة أو زوالها.

ولن أطيل في عرض هذه الأمور والأسباب، سوى أنني قد أقف مع الأمور التي وردت في سورة الحجرات، وأتناولها أوسع مما سأتناول غيرها، لأنها هي الأصل في الموضوع وغيرها تبع لها.

أولا: الأمور المشروعة:

شرع الله - جل وعلا - كثيرًا من الأعمال التي تكون سببًا في تآلف المسلمين وصفاء قلوبهم، ووحدة كلمتهم، وبقاء أخوتهم.

وسأذكر أهمّ هذه الأشياء، مستدلاً لها بالكتاب والسنة، دون إطناب أو تفصيل.

١ - الصلح بين المسلمين:

يقول - سبحانه وتعالى - في سورة الأنفال: ﴿**فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم**﴾. [سورة الأنفال، الآية: ١]. وقال: ﴿**إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم**﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١٠].

وفي النساء ﴿**فابعثوا حكمًا من أهله وحكمًا من أهلها إن يريدا إصلاحًا يوفق الله بينهما**﴾. [سورة النساء، الآية: ٣٥].

وفيها أيضًا: ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزًا أو إعراضًا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحًا والصلح خير﴾. [سورة النساء، الآية: ١٢٨].

ومما ورد في القرآن من الآيات التي ترشد إلى الصلح وتحث عليه:

قوله ـ تعالى ـ: ﴿لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجرًا عظيمًا﴾. [سورة النساء، الآية: ١١٤].

وقال: ﴿وبعولتهن أحق بردهنَّ في ذلك إن أرادوا إصلاحًا﴾. [سورة البقرة، الآية: ٢٢٨]. وقال: ﴿فمن خاف من موصٍ جنفًا أو إثمًا فأصلح بينهم فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم﴾. [سورة البقرة، الآية: ١٨٢].

وقال: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾. [سورة الشورى، الآية: ٤٠].

وقال: ﴿فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم﴾. [سورة الأنفال، الآية: ١].

إلى غير ذلك من الآيات التي وردت في الصلح مبينة مكانته وأثره في حياة المسلمين وروابط الأخوة.

والصلح قد يكون بين فريقين وطائفتين كما في سورة الحجرات، وقد يكون بين فردين كما في آيات سورة النساء، وقد يكون بين فرد ومجموعة كما بين المورث وورثته أو من أوصى لهم كما في آية البقرة.

وقد ورد عنه، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: «كل سلامي من

الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل فيه بين اثنين صدقة» الحديث(١).

ومن الأدلة على مكانة الصلح وأثره أن من المواضع التي يجوز فيها الكذب: الصلح بين المتخاصمين، عن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط - رضي الله عنها - قالت: سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس، فينمي خيراً، أو يقول خيراً»(٢).

وفي رواية لمسلم: ولم أسمعه يرخص في شيء مما يقوله الناس إلا في ثلاث: تعني الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته، وحديث المرأة زوجها(٣).

وقال الشيخ عبدالرحمن بن سعدي - رحمه الله - في تفسير قوله - تعالى -: ﴿فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١٠]. قال: إذا حصلت الرحمة حصل خير الدنيا والآخرة، ودل ذلك على أن عدم القيام بحقوق المؤمنين من أعظم حواجب الرحمة(٤).

والمتأمل لواقع المسلمين اليوم يرى ما بينهم من خلاف وتشاحن

---

(١) أخرجه البخاري (٣/١٧١) كتاب الصلح، ومسلم (١/٤٩٩) كتاب صلاة المسافرين، رقم (٧٢٠).

(٢) أخرجه البخاري (٣/١٦٦) كتاب الصلح، ومسلم (٤/٢٠١١) كتاب البر والصلة رقم (٢٦٠٥).

(٣) صحيح مسلم (٤/٢٠١٢) كتاب البر والصلة رقم (٢٦٠٥).

(٤) تفسير ابن سعدي (٧/١٣٤).

وصل في مرات عديدة إلى الاقتتال بينهم، هذا على مستوى القبائل والشعوب.

أما على مستوى الأفراد فحدث ولا حرج، فالمحاكم مليئة بالخصومات والخلافات، ودوائر الشرطة لديها من ذلك الخبر اليقين.

ومع ذلك فإن الذين يندبون أنفسهم للصلح فئة قليلة. بل إن بعض هؤلاء القلة لا يلتزمون بالشرط الذي ذكره الله - تعالى - وهو الصلح بالعدل: ﴿فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا﴾. [سورة الحجرات، الآية: ٩]. والإقساط هو العدل ولكن كرره لأهميته ولأثره، وذلك أن أحد الفريقين إذا شعر أن المصلح لم يلتزم بالعدل فلن يقبل به.

ولذا فعلى المصلح أن يكون حذرًا منصفًا، بعيدًا عن الهوى ونزغات الشيطان.

والدعاة أحوج الأمة إلى أن يصطلحوا فيما بينهم ويوحدوا كلمتهم فإن ذلك من لوازم دعوتهم، ومقتضيات منهجهم، قبل أن يدعوا غيرهم لما هم عنه بعيدون.

٢ - حسن الخلق:

وإذا كان المسلم مأمورًا بحسن الخلق مع غير المسلمين، فإنه من باب أولى أن يحسن خلقه مع المسلمين.

قال الله - سبحانه - آمرًا رسوله، صلى الله عليه وسلم: ﴿واخفض جناحك للمؤمنين﴾. [سورة الحجر، الآية: ٨٨]. وقال فيه: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾. [سورة القلم، الآية: ٤].

ووردت أحاديث عظيمة عن المصطفى، صلى الله عليه وسلم، تبين

منزلة حسن الخلق وأثره:

فقد قال، صلى الله عليه وسلم: «**إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم**»[١]. وقال: «**البرّ حسن الخلق**»[٢]. وقال: «**إن من خياركم أحسنكم أخلاقًا**»[٣]. ورضي الله عن عائشة فقد أجابت عندما سئلت عن خلق الرسول، صلى الله عليه وسلم، بجواب شاف فيه جوامع الكلم، حيث قالت: «**كان خلقه القرآن**»[٤].

وحسن الخلق لا يقوي الروابط ويوثقها فحسب، بل إنه يوجدها ويقضي على خوارمها.

٣ - الحقوق الست:

إن رعاية حقوق المسلم، وقيامك بماله عليك، وقيامه بمالك عليه مما يعتبر قيامًا بحق الأخوة وموجباتها، وقد ثبت عن المصطفى، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: «**حق المسلم خمس: رد السلام، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس**»[٥]. وفي رواية لمسلم: «**حق**

---

(١) أخرجه أبو داود (٤/٢٥٢) كتاب الأدب، رقم (٤٧٩٨) وصححه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (١٩٣٢).

(٢) أخرجه مسلم (٤/١٩٨٠) كتاب البر والصلة رقم (٢٥٥٣).

(٣) أخرجه البخاري (٧/٨١، ٨٢) كتاب الأدب، ومسلم (٤/١٨١٠)، كتاب الفضائل، رقم (٢٣٢١).

(٤) أخرجه مسلم (١/٥١٣) كتاب صلاة المسافرين رقم (٧٤٦).

(٥) أخرجه البخاري (٢/٧٠) كتاب الجنائز، ومسلم (٤/١٧٠٤) كتاب السلام، رقم (٢١٦٢).

المسلم ست، ـ وزاد ـ وإذا استنصحك فانصح له»[١].

وإذا أردنا أن نعلم أثر هذه الحقوق في نفوس الناس، فلنتصور أثرها على نفوسنا، وبخاصة إذا عدمت من جانب بعض الناس تجاهنا، تصور أنك سلّمت فلم يرد عليك أحد السلام، أو أنك دعوت إخوانك إلى وليمة فلم يحضر أحد، أو أصابك ضر ـ لا قدر الله ـ فلم يزرك أحد، أو مات لك قريب فلم يحضر جنازته من كنت تتصور أنه أقرب الناس إليه أو إليك بدون عذر.

٤ ـ نصرة المسلم:

ويكفي فيه الحديث الذي رواه البخاري، وهو من الشهرة بمكان، حيث قال، صلى الله عليه وسلم: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا»[٢].

٥ ـ التواد والتراحم:

قال ـ سبحانه ـ: ﴿واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام﴾. [سورة النساء، الآية: ١]. وقال: ﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾. [سورة الأنفال، الآية: ٧٥]. وقال، صلى الله عليه وسلم: «من لا يرحم الناس لا يرحمه الله»[٣].

وقال: «مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا

---

(١) صحيح مسلم (٤/ ١٧٠٥) كتاب السلام، رقم (٢١٦٢).

(٢) صحيح البخاري (٨/ ٥٩) كتاب الإكراه.

(٣) أخرجه البخاري (٨/ ١٦٥) كتاب التوحيد. ومسلم (٤/ ١٨٠٩) كتاب الفضائل، رقم (٢٣١٩).

اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى»[١].

وقوله: «من لا يرحم لا يُرحم»[٢].

٦ - السعي لقضاء حوائج المسلمين: وهذا أمر غفل عنه كثير من الناس وتساهلوا فيه، مع أنه من أشد الأمور تأثيراً في النفوس، ولذلك قال الشاعر:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم
فطالما استعبد قلب الحرّ إحسان

ولذلك ورد فيه آيات وأحاديث منها:

﴿من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها﴾. [سورة النساء، الآية: ٨٥]. وقال، صلى الله عليه وسلم: «اشفعوا فلتؤجروا»[٣].

والشفاعة الحسنة من قضاء الحوائج المهمة لأن الإنسان لا يطلب الشفاعة إلا عند الضرورة غالبًا.

ومما ورد في قضاء الحوائج:

قوله، صلى الله عليه وسلم: «من كان في حاجة أخيه كان الله في

---

(١) أخرجه البخاري (٧/ ٧٧) كتاب الأدب. ومسلم (٤/ ١٩٩٩) كتاب البر والصلة، رقم (٢٥٨٦).

(٢) أخرجه البخاري (٧/ ٧٥) كتاب الأدب، ومسلم (٤/ ١٨٠٩) كتاب الفضائل، رقم (٢٣١٨).

(٣) أخرجه البخاري (٧/ ٨٠) كتاب الأدب، ومسلم (٤/ ٢٠٢٦) كتاب البر والصلة، رقم (٢٦٢٧).

حاجته»[١]. وقوله: «لئن أمشي في حاجة أخي حتى أثبتها أحبّ إليّ من أن أعتكف في المسجد شهرًا»[٢]. وقوله، صلى الله عليه وسلم: «ذهب المفطرون اليوم بالأجر»[٣].

٧ ـ حفظ السر وستر العورة:

قال، صلى الله عليه وسلم: «لا يستر عبد عبدًا في الدنيا إلّا ستره الله يوم القيامة»[٤].

٨ ـ الوفاء بالعهد وإنجاز الوعد:

قال ـ سبحانه ـ: ﴿وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً﴾. [سورة الإسراء، الآية: ٣٤]. وقال ـ سبحانه: ﴿والموفون بعهدهم إذا عاهدوا﴾. [سورة البقرة، الآية: ١٧٧]. ولأن النذر نوع من أنواع العهد قال، صلى الله عليه وسلم، للذي نذر: «أوفِ بنذرك»[٥].

---

(١) أخرجه البخاري (٨/ ٥٩) كتاب الإكراه، ومسلم (٤/ ١٩٩٦) كتاب البر والصلة، رقم (٢٥٨٠).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٣/ ٢٠٩/ ٢) وابن عساكر في التاريخ (١٨/ ١/ ٢) وابن أبي الدنيا في الحوائج ص (٨٠) وحسن الألباني إسناد ابن أبي الدنيا، انظر السلسلة الصحيحة رقم (٩٠٦).

(٣) أخرجه البخاري (٣/ ٢٢٤) كتاب الجهاد، ومسلم (٢/ ٧٨٨) كتاب الصيام، رقم (١١١٩).

(٤) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٠٢) كتاب البر والصلة، رقم (٢٥٩٠).

(٥) أخرجه البخاري (٢/ ٢٥٦) كتاب الاعتكاف، ومسلم (٣/ ١٢٧٧) كتاب الأيمان، رقم (١٦٥٦).

٩ - أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه:

وقد قدمنا بعض الآثار في ذلك عند بيان مكانة الأخوة، ولكن أذكر قوله، صلى الله عليه وسلم: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[(١)].

١٠ - إفشاء السلام:

وهو أعمّ من ردّ السلام، قال صلى الله عليه وسلم: «**لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابّوا، ألا أدلّكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم، أفشوا السلام بينكم**»[(٢)].

١١ - مراعاة الجوانب النفسية:

من أهم ما يوثق العلاقة بين المسلمين، وينمي الأخوة ويقويها، ويبعد أسباب القطيعة والهجران، مراعاة الجوانب النفسية عند المسلم.

ولقد برز اهتمام الإسلام بهذا الجانب في أمور عدة، أمرًا ونهيًا، وهي أمور يسيرة جدًّا لكنّ تأثيرها عظيم في نفس المرء، سلبًا أو إيجابًا.

وكل ما ذكرته من أفعال أمر بها الإسلام أو حثّ عليها، وكل ما سأذكره من مناهٍ لها آثارها النفسية التي لا تخفى، ولكن يبرز التأثر النفسي في بعض الأمور أكثر من غيرها ومن ذلك:

---

(١) أخرجه البخاري (١/٩) كتاب الإيمان، ومسلم (١/٦٧) كتاب الإيمان، رقم (٤٥).

(٢) أخرجه مسلم (١/٧٤) كتاب الإيمان، رقم (٥٤).

أ - التبسم: قال، صلى الله عليه وسلم: «**وتبسّمك في وجه أخيك صدقة**»(١).

ب - الهدية: والهدية تسل السخيمة، ولذلك كان صلى الله عليه وسلم، يأبى الصدقة ويقبل الهدية(٢)، لما لها من أثر عظيم في نفس المهدي، ونفس المهدى إليه.

ولذلك لما جاء أحد الصحابة وأهدى لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، صيدًا وهو محرم، فردّه الرسول، صلى الله عليه وسلم، فتأثر الصحابي لذلك، فلما رأى، صلى الله عليه وسلم، أثر ذلك عليه قال: «**إنا لم نرده عليك إلّا أنا حرم**»(٣)، وهذا تطييب منه، صلى الله عليه وسلم، لنفسية هذا الصحابي.

جـ - رد السلام وإفشاؤه: ورد السلام واجب وإفشاؤه سنة، وأثر السلام على من يسلم عليه لا ينكر، وأثر رد السلام على من يسلم مشاهد محسوس.

---

(١) أخرجه الترمذي (٤/٢٩٩) كتاب البر والصلة، رقم (١٩٥٦)، قال الترمذي: حسن غريب، وصححه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (٢٩٠٨).

(٢) روى مسلم في الصحيح عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي، صلى الله عليه وسلم، كان إذا أتي بطعام، سأل عنه، فإن قيل: هدية أكل منها، وإن قيل: صدقة لم يأكل منها. انظر صحيح مسلم (٢/٧٥٦) كتاب الزكاة رقم (١٠٧٧).

(٣) أخرجه البخاري (٣/١٣٠) كتاب الهبة، ومسلم (٢/٨٥٠، ٨٥١) كتاب الحج رقم (١١٩٣).

د - **النهي عن التناجي بين اثنين بحضور ثالث:** وقد نهى، صلى الله عليه وسلم، عن ذلك بقوله: «**إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس، من أجل أن يحزنه**»(١).

ولقد ورد في القرآن بعض الآيات التي تدلّ على العناية بالجوانب النفسية، ومن أوضح ما ورد في ذلك قصة يوسف - عليه السلام - مع أخوته، فإنه مع ما صنعوا به، من الإلقاء في البئر، وحرمانه من أبيه - عليه السلام - وتعريضه للاستعباد وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم - كريم سليل كرام - عليهم السلام، ثم السجن وسببه، وبعد ذلك نصره الله، وأصبح عزيز مصر وملكها، ويقولون أمامه - وهم لا يشعرون - ﴿**إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل**﴾. [سورة يوسف، الآية: ٧٧]. يعرضون بيوسف، مع أنه لم يسرق من قبل على القول الصحيح(٢)، فماذا كان ردّ يوسف؟ هل اعتقلهم ويستطيع ذلك؟ هل وبَّخهم وله الحق في هذا؟ بل راعى مشاعرهم ونفسياتهم فقال - سبحانه -: ﴿**فأسرَّها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شرٌّ مكانًا والله أعلم بما تصفون**﴾. [سورة يوسف، الآية: ٧٧]. أرأيتم هذا الكرم وهذا الخلق، إنها أخلاق الأنبياء.

والسنة حافلة بالعناية بهذا الجانب ومراعاته.

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٢/٧) كتاب الاستئذان، ومسلم (١٧١٨/٤) كتاب السلام، رقم (٢١٨٤).

(٢) انظر: تفسير الطبري ٢٩/١٣ وتفسير ابن كثير ٤٨٦/٢ وغيرهما.

ومما لفت نظري أن من أقوى الأشياء تأثيرًا في النفس بعض الأشياء التي لا تكلف كثيرًا، سواء أكانت تكلفة مالية أو حسية أو معنوية، وذلك مثل التبسم، فهل يكلف شيئًا؟

والهدية قيمتها المعنوية أضعاف قيمتها المادية، والدليل على ذلك أنك لو أعطيت إنسانًا مبلغًا من المال فقد لا يقبله منك، بل قد يعدّه البعض إهانة، وبخاصة أمام الناس وحتى لو قبله فإنه لا يؤثر في النفس تأثير هدية قيمتها لا تتعدى ٢٠٪ من مقدار هذا المال.

ثم إن الهدية تؤثر في نفوس جميع الناس: غنيهم وفقيرهم، كبيرهم وصغيرهم، ذكرهم وأنثاهم، قريبهم وبعيدهم. ولا يردها أحد من الأسوياء، حتى لو لم يكن يعرف حكمها الشرعي.

ولهذا فإني أؤكد على العناية بهذا الجانب ورعايته سلبًا وإيجابًا لآثاره العظيمة في نفوس الناس أجمعين.

ثانيا: الأمور المنهي عنها:

ورد النهي عن جميع الأمور التي تكون سببًا للقطيعة والهجران، وفصم عرى الأخوة والإيمان(١)، مما يغلب شره على خيره، إن كان فيه خير، وإن وجد فإنه نزر يسير. وهذه الأشياء كثيرة جدًّا لا أستطيع حصرها وتعدادها، وإنما سأكتفي بما اشتهر منها، وفشا بين الناس، أو كان له من

(١) هناك أمور قد يكون لها تأثير في علاقة الأخوة ومع ذلك فهي مشروعة كالطلاق فإنه جائز وإن كان أبغض الحلال إلى الله، ولكن هذه الأمور تختلف عما سأذكره هنا فإنه منهي عنه لذاته أصلاً.

الآثار أعظم مما لسواه، وبخاصة ما يتعلق بموضوع الأخوة، تعلقًا سلبيًّا.

وسأبدأ بما ورد من ذلك في سورة الحجرات، ثم اتبعه بما يناسب المقام، والله الموفق والمعين:

وحيث قد ورد بعض ما سيرد حيث سبق أن ذكرت بعض هذه الأمور في الحديث عن امتحان القلوب، فسأوجز هنا لذكر ما أغنى عنه هناك.

١ - **الغيبة**: بدأت بالغيبة لشيوعها وانتشارها، وقليل من يسلم منها، حتى كثير من الطيبين والمعروفين بالورع، بل وبعض طلاب العلم، ولذلك قال ابن القيم - رحمه الله - معبرًا عن هذا الواقع:

وكم ترى من رجل متورع عن الفواحش والظلم، ولسانه يفري في أعراض الأحياء والأموات، ولا يبالي ما يقول(١).

وقد وردت الآيات والأحاديث في بيان حرمة الغيبة، وعظم جرمها.

قال الله - تعالى -: ﴿**ولا يغتب بعضكم بعضًا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتًا فكرهتموه**﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١٢].

وقال - سبحانه -: ﴿**والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانًا وإثمًا مبينًا**﴾. [سورة الأحزاب، الآية: ٥٨]. والغيبة من أشد الأذى على المؤمن.

ويقول - جل وعلا - مشنعًا على المنافقين: ﴿**فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد**﴾. [سورة الأحزاب، الآية: ١٩].

---

(١) انظر: الجواب الكافي ص ٢٧٧.

أما الأحاديث فهي كثيرة جدًّا أذكر بعضًا منها:

قال، صلى الله عليه وسلم: «**كل المسلم على المسلم حرام، دمه وعرضه وماله**»(١).

وقال في حجة الوداع: «**إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا هل بلغت**»(٢).

وقال، صلى الله عليه وسلم، مبينًا الغيبة، ومزيلًا لما يتوهمه البعض أن ذكر الإنسان بما فيه ليس غيبة، فقد قال لأصحابه يومًا: «**أتدرون ما الغيبة**»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**ذكرك أخاك بما يكره**»، قيل: أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ فقال، عليه الصلاة والسلام: «**إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتّه**»(٣).

ومن الأمثلة الحية على ذلك، تبيانًا لهذه القاعدة التي ذكرها، صلى الله عليه وسلم، في الغيبة، أن عائشة ـ رضي الله عنها ـ ذكرت صفية عند رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وقالت: حسبك من صفية كذا وكذا ـ تعني قصيرة ـ فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: «**لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته**». قالت: وحكيت له إنسانًا فقال، صلى الله عليه

---

(١) أخرجه مسلم (٤/١٩٨٦) كتاب البر والصلة، رقم (٢٥٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (١/٢٤، ٢٥) كتاب العلم، ومسلم (٣/١٣٠٥) كتاب القسامة رقم (١٦٧٩).

(٣) أخرجه مسلم (٢٠٠١) كتاب البر والصلة، رقم (٢٥٨٩).

وسلم: «ما أحبّ أني حكيت إنسانًا وأن لي كذا وكذا»(١).

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: **«لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس، يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم»** (٢).

ولقد ذكر الإمام ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسير سورة الحجرات عددًا من الأحاديث في تحريم الغيبة، والتحذير الشديد منها(٣).

وأجد أن من المناسب ونحن نتحدث عن الغيبة أن أختم الحديث عنها بأمر له صلة مباشرة بها، مع أنه يقرن بها كثيرًا، وهي النميمة:

٢ ـ النميمة(٤): قال النووي: قال العلماء: النميمة نقل كلام الناس بعضهم إلى بعض على جهة الإفساد بينهم(٥).

والنميمة محرمة بالكتاب والسنة والإجماع، قال ـ تعالى ـ: ﴿**همّاز مشّاء بنميم. منّاع للخير معتد أثيم**﴾. [سورة القلم، الآيتان: ١١، ١٢].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤/ ٢٦٩) كتاب الأدب، رقم (٤٨٧٥)، والترمذي (٤/ ٥٧٠) كتاب صفة القيامة رقم (٢٥٠٢، ٢٥٠٣) قال الترمذي: حسن صحيح، وصححه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (٥١٤٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٤/ ٢٦٩، ٢٧٠) كتاب الأدب، رقم (٤٨٧٨)، وأحمد (٣/ ٢٢٤، وصححه شعيب الأرناؤوط كما في رياض الصالحين ص (٥٧٤).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٢١٣).

(٤) انظر: آفات اللسان لسعيد القحطاني ص ٥٠ وما بعدها.

(٥) انظر: شرح النووي على مسلم ٢/ ١١٢.

وقال ـ تعالى ـ: ﴿ويل لكل همزة لمزة﴾. [سورة الهمزة، الآية: ١].

وعن حذيفة قال: سمعت النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول: «**لا يدخل الجنة قتَّات**»(١).

وقال حذيفة ـ رضي الله عنه ـ: سمعت النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول: «**لا يدخل الجنة نمَّام**»(٢).

والقتَّات هو النمام، وقيل: النمَّام هو الذي يحضر القصة فينقلها، والقتَّات الذي يستمع من حيث لا يعلم به ثم ينقل ما سمعه.

قال ابن حجر: قوله: «**لا يدخل الجنة**» أي في أول وهلة كما في نظائره(٣).

وعن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: إن محمدًا، صلى الله عليه وسلم، قال: «**ألا أنبئكم ما العضة؟ هي النميمة القالّة بين الناس**»(٤).

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: خرج النبي، صلى الله عليه وسلم، من بعض حيطان المدينة، فسمعه صوت إنسانين يعذبان في قبريهما، فقال: «**يعذبان وما يعذبان في كبيرة، وإنه لكبير، كان أحدهما لا يستتر من البول، وكان الآخر يمشي بالنميمة، ثم دعا بجريدة فكسرها**

---

(١) أخرجه البخاري (٧/٨٦) كتاب الأدب، ومسلم (١/١٠١) كتاب الإيمان، رقم (١٠٥).

(٢) أخرجه مسلم (١/١٠١) كتاب الإيمان رقم (١٠٥).

(٣) انظر: فتح الباري (١٠/٤٧٣).

(٤) أخرجه مسلم (٤/٢٠١٢) كتاب البر والصلة، رقم (٢٦٠٦).

بكسرتين - أي اثنتين - فجعل كسرة في قبر هذا، وكسرة في قبر هذا، فقال: **لعله يخفَّف عنهما ما لم ييبسا»** [١].

وذكر ابن عبد البر عن يحيى بن أبي كثير قال: يفسد النمام والكذاب في ساعة ما لا يفسد الساحر في سنة [٢].

ومن الأسباب التي تقوي الروابط وتشدّ الوشائج، وتبني المحبة بين المسلمين وله صلة بموضوع الغيبة والنميمة، وهو: **(الدفاع عن عرض المسلم)**:

وقد ورد في ذلك أحاديث كثيرة منها ما رواه الإمام أحمد في مسنده أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: **«من حمى مؤمنًا من منافق يغتابه بعث الله إليه ملكًا يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم»** [٣].

وروى جابر بن عبدالله وأبو طلحة الأنصاري أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: **«ما من امرىء يخذل امرءًا مسلمًا في موضع تنتهك فيه حرمته، وينتقص فيه من عرضه، إلاّ خذله الله تعالى في مواطن يحبّ فيها نصرته، وما من امرىء ينصر امرءًا مسلمًا في موضع ينتقص فيه من عرضه، وينتهك فيه من حرمته إلا نصره الله عز وجل في مواطن يحب فيها**

---

(١) أخرجه البخاري (٨٦/٧) كتاب الأدب، ومسلم (١/ ٢٤٠)، كتاب الطهارة رقم (٢٩٢).

(٢) انظر: فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ص ٣٢٥.

(٣) أخرجه أبو داود (٤/ ٢٧١) كتاب الأدب، رقم (٤٨٨٣) وأحمد (٣/ ٤٤١) وضعفه الألباني كما في ضعيف الجامع رقم (٥٥٦٤).

نصرته»(١). ومن الآثار العاجلة لهذا الأمر، أن الإنسان إذا علم أن أحد إخوانه ذبّ عن عرضه في مجلس من المجالس أحبه حبًّا لا ينكر، وإذا علم أنه قدح فيه ولم يدافع عنه أخوه وجد في نفسه عليه ولو اعتذر له عن سبب سكوته.

أما بالنسبة للنميمة فقد قال الإمام النووي نقلاً عن الغزالي: كل من حملت إليه نميمة، وقيل له: فلان يقول فيك، أو يفعل فيك كذا فعليه ستة أمور:

الأول: ألّا يصدق، لأن النمام فاسق.

الثاني: أن ينهاه عن ذلك، وينصحه، ويقبح له فعله.

الثالث: أن يبغضه في الله تعالى، فإنه بغيض عند الله تعالى، ويجب بغض من أبغضه الله تعالى.

الرابع: ألّا يظن بأخيه الغائب السوء.

الخامس: ألّا يحمله ما حكي له على التجسس والبحث عن ذلك.

السادس: ألّا يرضى لنفسه ما نهى النمام عنه، فلا يحكي نميمته عنه فيقول: فلان حكى كذا، فيصير به نمّامًا، ويكون آتيًا ما نهي عنه(٢).

والالتزام بما ذكر يقضي على النميمة في مهدها، ولكن: **﴿وما يلقَّاها إلا الذين صبروا وما يُلقَّاها إلا ذو حظٍّ عظيم﴾**. [سورة فصلت، الآية: ٣٥].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤/ ٢٧١) كتاب الأدب، رقم (٤٨٨٤) وأحمد (٤/ ٣٠) وصححه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (٥٦٩٠).

(٢) انظر: شرح النووي على مسلم ٢/ ١١٣ نقلاً عن الغزالي، وآفات اللسان ص ٥٥.

٣ - سوء الظن:

وقد ذكرت هذا الأمر في الحديث عن امتحان القلوب، واستشهدت له من الكتاب والسنة، ولكن لخطورته ولتساهل بعض الناس فيه فإني أزيده إيضاحًا فأقول:

قال - سبحانه -: **﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرًا من الظن إن بعض الظن إثم﴾**. [سورة الحجرات، الآية: ١٢].

وقال: **﴿ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً﴾**. [سورة الإسراء، الآية: ٣٦].

وقال، صلى الله عليه وسلم: **«إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث»**[١].

وقال ابن القيم - رحمه الله -: مبدأ كل علم نظري وعمل اختياري هو الخواطر والأفكار، فإنها توجب التصورات، والتصورات تدعو إلى الإرادات، والإرادات تقتضي وقوع الفعل، وكثرة تكراره تعطي العادة، فصلاح هذه المراتب بصلاح الخواطر والأفكار، وفسادها بفسادها[٢].

وقال أبو حامد الغزالي: أمارة عقد سوء الظن أن يتغير القلب معه عما كان، فينفر عنه نفورًا ما، ويستثقله، ويفتر عن مراعاته وتفقده وإكرامه والاغتمام بسببه، فهذه أمارات عقد الظن وتحقيقه[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٨٨/٧) كتاب الأدب، ومسلم (١٩٨٥/٤) كتاب البر والصلة، رقم (٢٥٦٣).

(٢) انظر: الفوائد ص ٣٠٦.

(٣) انظر: إحياء علوم الدين ٣/

وقال الشيخ أحمد الصويان: ويبدو أن الخلفية النفسية للظن السيىء تنبي بقلب عامر بألوان عديدة من ألوان الفساد، كالأثرة وحبّ الذات، والحسد، والرغبة في الوقيعة بأعراض المسلمين.

قال أبو الطيب:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه
وصدق ما يعتاده من توهم
وعادى محبيه بفعل عداته
وأصبح في ليل من الجهل مظلم[١]

وصدق أبو الطيب (وعادى محبيه بفعل عداته).

ولذلك نصّ العلماء على وجوب تجنّب الظنون السيئة وحمل الناس على المحامل الحسنة، وطرد ما يلج للخاطر من أوهام وظنون.

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: لا تظن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيرًا، وأنت تجد لها في الخير محملاً[٢].

وقال محمد بن سيرين: إذا بلغك عن أخيك شيء فالتمس له عذرًا، فإن لم تجد فقل: لعل له عذرًا[٣].

وقال أبو قلابة: إذا بلغك عن أخيك شيء تكرهه فالتمس له العذر

(١) انظر: نحو منهج شرعي لتلقي الأخبار وروايتها ص ٣١.
(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٤/٢١٢.
(٣) انظر: التوبيخ والتنبيه للأصبهاني رقم (٩٧) ورسالة نحو منهج شرعي للصويان ص ٣٢.

جهدك، فإن لم تجد له عذرًا فقل في نفسك: لعل لأخي عذرًا لا أعلمه[١].

وأحيل الأخوة الكرام على رسالة ذكرها الشيخ عبدالرحمن بن سعدي في الفتاوى السعدية، فهي ثمينة تبتغى ولولا طولها لذكرتها حيث تبين أمثل الأساليب لمواجهة سوء الظن[٢].

٤ ـ التجسس:

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١٢].

وقال، صلى الله عليه وسلم: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تحسسوا ولا تجسسوا» الحديث[٣].

إن التجسس خصلة قبيحة، ولا يتصف بها إلا من في قلبه مرض وفساد طوية.

ولقد تأملت في آية سورة الحجرات، فبدا لي أن وقوع النهي عن التجسس بين النهي عن سوء الظن وبين النهي عن الغيبة له دلالة مهمة.

وذلك أن التجسس يجمع خصالاً متعددة أهمها سوء الظن وتتبع العورات والغيبة.

فإن التجسس أول ما ينشأ عن سوء الظن، ولو لم يحصل سوء ظن لما وقع التجسس، ثم بعد سوء الظن يبدأ التجسس وتتبع العورات، وبعد

---

(١) انظر: حلية الأولياء ٢/٢٨٥، ورسالة الصويان ص ٣٢.

(٢) انظر: الفتاوى السعدية ص ٧١.

(٣) تقدم تخريجه، انظر: الحديث السابق.

ذلك يتحدث المتجسس عما رآه أو سمعه، وهذه هي الغيبة، وكفى بخصلة تجمع هذه الأثافي سوءًا وقبحًا.

وقد روى عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم قال: «**يا معشر من أسلم بلسانه ولم يدخل الإيمان في قلبه: لا تؤذوا المسلمين ولا تعيّروهم، ولا تتبعوا عوراتهم، فإن من تتبَّع عورة أخيه تتبَّع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله**»(١).

وعن معاوية - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: «**إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم، أو كدت أن تفسدهم**»(٢).

قال أبو الدرداء - رضي الله عنه -: كلمة سمعها معاوية - رضي الله عنه - من رسول الله، صلى الله عليه وسلم، نفعه الله - تعالى - بها.

وروي عنه، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: «**إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم**»(٣).

---

(١) أخرجه أبو داود (٤/ ٢٧٠) كتاب الأدب، رقم (٤٨٨٠) والترمذي (٤/ ٣٣١، ٣٣٢) كتاب البر والصلة رقم (٢٠٣٢) قال الترمذي: حسن غريب، وصححه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (٧٩٨٤، ٧٩٨٥).

(٢) أخرجه أبو داود (٤/ ٢٧٢) كتاب الأدب، رقم (٤٨٨٨)، وصححه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (٢٢٩٥).

(٣) أخرجه أبو داود (٤/ ٢٧٢) كتاب الأدب، رقم (٤٨٨٩)، وأحمد (٦/ ٤)، وصححه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (١٥٨٥).

وللسلف كلام كثير عن التجسس وأثره، فهو يثير الضغائن والأحقاد. وقد يعفو المرء ويصفح عمن اغتابه أو ظن به سوءًا، ولكن يصعب أن يعفو عمن تجسس عليه وتتبع عوراته وفضحه.

وما أحسن ما قاله الإمام أبو حاتم ابن حبان، حيث قال: الواجب على العاقل لزوم السلامة بترك التجسس عن عيوب الناس، مع الاشتغال بإصلاح عيوب نفسه، فإن من اشتغل بعيوبه عن عيوب غيره أراح بدنه ولم يتعب قلبه، فكلما اطلع على عيب لنفسه هان عليه ما يرى مثله من أخيه، وأن من اشتغل بعيوب الناس عن عيوب نفسه عمي قلبه، وتعب بدنه، وتعذر عليه ترك عيوب نفسه، وإن من أعجز الناس من عاب الناس بما فيهم، وأعجز منه من عابهم بما فيه، ومن عاب الناس عابوه[1].

وأختم الحديث عن التجسس بما قاله راذان المدايني: رأيت أقوامًا من الناس لهم عيوب فسكتوا عن عيوب الناس فستر الله عيوبهم، وزالت عنهم تلك العيوب، ورأيت أقوامًا لم تكن لهم عيوب اشتغلوا بعيوب الناس فصارت لهم عيوب[2].

٥ ـ السخرية والهمز واللمز والتنابز:

قال الله ـ سبحانه ـ: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا**

---

(١) انظر: روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ص ١٢٥.

(٢) انظر: عيوب النفس لأبي عبدالرحمن السلمي ص ١٢، وله ولما قبله رسالة نحو منهج شرعي للصويان ص ٤٢.

تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١١].

جمع الله بين السخرية واللمز والتنابز في آية واحدة، ومعناها متقارب، وأصلها واحد وإن اختلف أسلوب التعبير عنها.

فلا تنشأ السخرية ولا اللمز ولا التنابز إلا من مرض الاحتقار، فإذا احتقر المسلم أخاه سخر منه ولمزه ونابزه، ولذلك قال، صلى الله عليه وسلم: «**بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم**»(١).

والاحتقار منشؤه إعجاب المرء بنفسه، ولو لم يكن كذلك لما احتقر غيره، وقد ذم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، الكبر فقال: «**الكبر بطر الحق وغمط الناس**»(٢). فانظر كيف جعلهما رسول الله، صلى الله عليه وسلم، مقترنين، وقال عبدالله بن المبارك: لا أعلم في المصلين شرًّا من العجب.

وقد نهى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، عن الاحتقار فقال: «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره ولا يخذله**»(٣) الحديث. وتأمل في هذا الحديث حيث جعل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من لوازم الأخوة انتفاء الظلم والحقران والخذلان، ثم قال، صلى الله عليه وسلم، في نهاية الحديث: «**بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم**».

---

(١) أخرجه مسلم (٤/١٩٨٦) كتاب البر والصلة، رقم (٢٥٦٤).
(٢) أخرجه مسلم (١/٩٣) كتاب الإيمان، رقم (٩١).
(٣) أخرجه مسلم (٤/١٩٨٦) كتاب البر والصلة، رقم (٢٥٦٤).

قال ابن كثير في تفسيره لآية الحجرات: ينهى - تعالى - عن السخرية بالناس وهو احتقارهم والاستهزاء بهم، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: «**الكبر بطر الحق وغمص الناس**»(١). ويروى «**وغمط الناس**»(٢) والمراد من ذلك احتقارهم واستصغارهم، وهذا حرام، فإنه قد يكون المحتقر أعظم قدرًا عند الله - تعالى - وأحبّ إليه من الساخر منه المحتقر له(٣).

والخلاصة أن سخرية الغني من الفقير، والنسيب من المولى، والمتعلم من الأمي، والجميلة من الدميمة، والطويلة من القصيرة، ونحو هؤلاء كل ذلك يسبب الشحناء والبغضاء والتقاطع.

إن القلوب إذا تنافر ودُّها
مثل الزجاجة كسرُها لا يجبر

ولذلك حرمه الله، وجعل لمز المسلم لأخيه المسلم لمزًا لنفسه، بل إن أعظم اللمز والسخرية إذا كان ذلك بسبب خلقة خلق عليها، أو أمر لا حيلة للمرء فيه، كالفقر، والدمامة، والقصر، فهذا من الله، وعيب الإنسان بذلك سوء أدب مع الله واعتراض على خلقه وقدره.

---

(١) الذي في الصحيح «وغمط» أما «وغمص» فقد رواها الترمذي بلفظ «ولكن الكبر من بَطر الحقَّ وغمصَ الناسَ» انظر سنن الترمذي (٣١٨/٤) كتاب البر والصلة، رقم (١٩٩٩) وغمص الناس أي: احتقرهم.

(٢) تقدم أن هذا لفظ الصحيح فكيف يورده الحافظ ابن كثير بصيغة التمريض؟!

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٢١٢/٤).

٦ - التفاخر:

قال - سبحانه -: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١٣]. قال المفسرون: جعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا، لا لتفاخروا إن هذه الآية قد حسمت هذا الموضوع بتأصيل ثلاث ركائز:

١ - إن أصل خلق الناس جميعًا واحد، آدم وحواء، بل إنني أفهم منها معنى آخر[١]، وهو أن كل إنسان خلق من ذكر وأنثى، أي من أبيه وأمه، فليس هناك من خلق من ذكرين أو أنثيين، أو ذكر فقط عدا حواء، أو أنثى فقط (سوى عيسى عليه السلام)، فأين مجال التفاخر، فأبوك كأبيه، وأمك كأمه، أو كما قال المفسرون: فأبوك أبوه وأمك أمه، فلم التفاخر؟!

٢ - أما ما يحتج به الناس بانتسابهم إلى شعب كذا أو قبيلة كذا، فلم يأذن الله بذلك لأجل التفاخر، وإنما لأجل التعارف فحسب، لما يترتب عليه من حقوق وواجبات.

٣ - وهنا يسأل سائل: أليس هناك ميدان للتفاخر والتفاضل؟ فيأتي الجواب: بلى، ولكن ليس هو ما اعتاده الناس ومارسوه، وهو التفاخر بالأنساب والأصول، وإنما يكون التفاضل والتقديم بالتقوى ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١٣]. وقد وردت أحاديث كثيرة

---

(١) وذلك للتنكير الذي يدل عليه التنوين.

في النهي عن التفاخر بالأنساب أذكر بعضها :

فقد سأل الصحابة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أي الناس أكرم؟ قال : «**أكرمهم عند الله أتقاهم**» .

قالوا : ليس عن هذا نسألك؟

قال : «**فأكرم الناس يوسف : نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله**» .

قالوا : ليس عن هذا نسألك؟

قال : «**فعن معادن العرب تسألوني**» ؟

قالوا : نعم .

قال : «**فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا**»(١) .

وقد روى حذيفة عنه ، صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : «**كلكم بنو آدم ، وآدم خلق من تراب ، ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان**»(٢) .

وعندما عيّر أبو ذر ـ رضي الله عنه ـ رجلاً من الصحابة بأمه وكانت أعجمية ، غضب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ونهره قائلاً : «**أعيرته بأمه؟! إنك امرؤ فيك جاهلية**»(٣) .

---

(١) على ألاّ يؤدي إلى الإعجاب أو المنّة، أخرجه البخاري (٤/١١١، ١٢٠، ١٢٢) كتاب الأنبياء، ومسلم (٤/١٨٤٦) كتاب الفضائل، رقم (٢٣٧٨) .

(٢) أخرجه البزار وصححه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (٤٥٦٨) .

(٣) أخرجه البخاري (١/١٣) كتاب الإيمان، ومسلم (٣/١٢٨٢، ١٢٨٣)، كتاب الأيمان، رقم (١٦٦١) .

وقد روى عطاء عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قوله: ثلاث آيات جحدهن الناس، الإذن كله، وقال: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١٣]. وقال الناس: أكرمكم أعظمكم بيتًا، وقال عطاء: نسيت الثالثة (١).

وما أجمل ما قاله سيد قطب ـ رحمه الله ـ في تفسيره لهذه الآية، ومما قال: وهكذا تتوارى جميع أسباب النزاع والخصومات في الأرض، وترخص جميع القيم التي يتكالب عليها الناس، ويظهر سببٌ ضخم للألفة والتعاون، ألوهية الله للجميع، وخلقهم من أصل واحد، كما يرتفع لواء واحد يتسابق الجميع ليقفوا تحته: لواء التقوى في ظل الله.

وهذا هو اللواء الذي رفعه الإسلام لينقذ البشرية من عقابيل العصبية للجنس، والعصبية للأرض، والعصبية للقبيلة، والعصبية للبيت، وكلها من الجاهلية وإليها، تتزيا بشتى الأزياء، وتسمى بشتى الأسماء، وكلها جاهلية عارية من الإسلام (٢).

إن المسلم ليزداد عجبه من إنسان يفتخر بشيء لا جهد له فيه، ويسخر من إنسان في أمر لا حيلة له فيه.

كن ابن من شئتَ واكتسب أدبًا ... يغنيك محموده عن النسب
إن الفتى من يقول ها أنذا ... ليس الفتى من يقول كان أبي

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٦/ ١٤٠).

(٢) انظر: في ظلال القرآن (٦/ ٣٣٤٨).

وإذا سقط التفاخر بالأنساب، فسقوط غيره مما يتفاخر فيه الناس من أمور الدنيا من باب أولى، وتبقى التقوى هي ميدان التنافس والعمل.

وبعد أن ذكرت الأمور التي وردت في سورة الحجرات، مما يكون سببًا في التباغض والتهاجر، ومن ثم ضعف وثاق الأخوة بين المسلمين، أذكر الآن بعض ما نهى الله عنه أو رسوله، صلى الله عليه وسلم، مما يناقض أصل ﴿**إنما المؤمنون أخوة**﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١٠]. وكما أشرت سابقًا: سأذكر ذلك بإجمال.

٦ - **الغل:**

وقد سبق تفصيله والاستدلال له في موضوع الحديث عن القلوب، وقد ورد في ذلك حديث أنس بن مالك في قصة عبدالله بن عمرو والرجل الذي بشّره رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بالجنة[1]. وأعيد هنا حديث جابر لعلاقته بموضوع الأخوة وتأثير الغلّ على هذه الرابطة.

فقد روى جابر - رضي الله عنه - أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: «**إن الشيطان قد آيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم**»[2].

ومن دعاء المؤمنين الذين أثنى الله عليهم ﴿**والذين جاءوا من**

---

(١) أخرجه أحمد ٣/١٦٦) والنسائي في اليوم والليلة رقم (٨٦٣) وابن السني في اليوم والليلة رقم (٧٥٤) وصححه الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (٣/١٨٧).

(٢) أخرجه مسلم (٤/٢١٦٦) كتاب صفات المنافقين، رقم (٢٨١٢).

بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم﴾. [سورة الحشر، الآية: ١٠].

٧ ـ الغش والتدليس والمكر والخداع والغدر:

فقد ثبت في الصحيح قوله، صلى الله عليه وسلم: «**من غشّنا فليس منا**»[١]. وفي رواية أخرى: «**من غشّ فليس مني**»[٢]. وقال، صلى الله عليه وسلم، محذرًا من الغدر ومبينًا خطورته وعقوبته يوم القيامة: «**يرفع لكل غادر لواء يوم القيامة، يقال: هذه غدرة فلان**»[٣].

والأحاديث في ذلك كثيرة فإن من صفات المنافق: أنه إذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر.

٨ ـ التباغض، والتحاسد، والتناجش، والتدابر، وإظهار الشماتة:

وقد ثبت عنه، صلى الله عليه وسلم، قوله: «**لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانًا**»[٤]. وفي رواية أخرى: «**ولا تنافسوا ولا تحاسدوا**»[٥].

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ٩٩) كتاب الإيمان، رقم (١٠١).

(٢) أخرجه مسلم (١/ ٩٩) كتاب الإيمان، رقم (١٠٢).

(٣) أخرجه البخاري (٧/ ١١٥) كتاب الأدب، ومسلم (٣/ ١٣٥٩، ١٣٦٠)، كتاب الجهاد، رقم (١٧٣٥، ١٧٣٦).

(٤) أخرجه البخاري (٧/ ٨٨) كتاب الأدب، ومسلم (٤/ ١٩٨٣) كتاب البر والصلة، رقم (٢٥٥٩).

(٥) أخرجه مسلم (٤/ ١٩٨٥) كتاب البر والصلة، رقم (٢٥٦٣).

٩ ـ أن لا يحقره ولا يظلمه ولا يسلمه ولا يخذله ولا يكذبه ولا يخونه:

قال، صلى الله عليه وسلم: «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره ولا يخذله، التقوى ههنا** ـ ويشير إلى صدره ـ **بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم**»(١).

وقال، صلى الله عليه وسلم: «**المسلم أخو المسلم لا يخونه ولا يكذِبه ولا يخذله**»(٢).

وأنبه إلى خطورة الخذلان وأثر ذلك في تمزيق عرى الأخوة، وقد سبق أن ذكرت بعض الأحاديث الواردة في ذلك بعد الحديث عن الغيبة ووجوب الدفاع عن عرض المسلم.

١٠ ـ التناجي:

إن من مكارم الأخلاق نهي الرسول، صلى الله عليه وسلم، عن التناجي بين اثنين وعندهما ثالث، وذلك في الحديث الذي رواه ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ حيث قال، صلى الله عليه وسلم: «**إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس، من أجل أن يحزنه**»(٣) أي

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٨٦/٤) كتاب البر والصلة، رقم (٢٥٦٤).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٨٧/٤) كتاب البر والصلة، رقم (١٩٢٧). وقال الترمذي: حسن غريب، وصححه الألباني كما في صحيح الجامع رقم (٦٧٠٦).

(٣) أخرجه البخاري (١٤٢/٧)، كتاب الاستئذان ومسلم (١٧١٨/٤)، كتاب السلام، رقم (٢١٨٤).

من أجـل ألاّ يحزن. وفي رواية: «**إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر فإن ذلك يحزنه**»(١).

هذا مع أن التناجي قد يكون في أمر من أمور الخير، فكيف إذا كان بالشر، فقد حذَّر الله منه في عدة مواضع حيث قال ـ سبحانه ـ: ﴿**يا أيها الـذين آمنـوا إذا تناجَيْتُم فلا تتناجَوْا بالإثم والعدوانِ ومعصيةِ الرسول وتناجوا بالبر والتقوى**﴾. [سورة المجادلة، الآية: ٩]. وقال: ﴿**إنما النجوى من الشيطان ليحْزُنَ الذين آمنوا**﴾. [سورة المجادلة، الآية: ١٠].

أرأيتم كيف عني الإسـلام بما يحفظ للمسلمين أخوتهم ووحدتهم وتوادهم وتراحمهم، ويعصمهم مما يؤذيهم ويفرقهم.

١١ ـ البيـع على بيعـه والشراء على شرائه، والخطبة على خطبته ونحو ذلك:

وفي هذا أحـاديث معلومـة مشهـورة صحيحة كقوله، صلى الله عليه وسلم: «**ولا يبع بعضكم على بيع بعض**»(٢).

١٢ ـ الهجر:

وقد قال، صلى الله عليه وسلم: «**لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، من هجر فوق ثلاث فمات دخل النار**»(٣). وباب الهجر باب مهم

---

(١) أخرجه مسلم (١٧١٨/٤) كتاب السلام، رقم (٢١٨٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢٦/٣) كتاب البيوع، ومسلم (١١٥٤/٣)، كتاب البيوع، رقم (١٤١٢).

(٣) أخـرجـه أبـو داود (٢٧٩/٤) كتـاب الأدب، رقم (٤٩١٤). وأحمد (٣٩٢/٢) وصححه الألباني على شرط البخاري ومسلم. انظر: الإرواء (٩٤/٧).

في العقيدة، وقد خلط الناس فيه فهجروا للدنيا وأضاعوا الهجر في الله، كهجر أهل البدع والأهواء ومن يستحق الهجر شرعًا.

بل وجدنا من يهجر إخوانه من الدعاة وطلاب العلم للخلاف في مسائل قابلة للاجتهاد، مع أنه لا يعرف عن هؤلاء هجر أهل البدع والفساق ونحوهم. فلا حول ولا قوة إلا بالله، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا وسيطرة الأهواء والانتكاسة بعد الهدى.

وبعد:

فأجد أن من المناسب أن أختم باب الأمور المنهي عنها مما يفرق المسلمين ويخدش أخوة المؤمنين، بمسائل غفل عنها كثير من الناس مع شيوعها وانتشارها وسوء آثارها:

١ ـ التعصب لمذهب أو شخص ـ سوى رسول الله ـ أو بلد أو لغة.

٢ ـ الحزبية المحرمة، فلم يرد لفظ الحزب في القرآن ـ بالنسبة للمؤمنين ـ إلا مفردًا ﴿**أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون**﴾. [سورة المجادلة، الآية: ٢٢]. وقوله: ﴿**ومن يتولَّ الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون**﴾. [سورة المائدة، الآية: ٥٦].

أما غير المسلمين فقد ورد بالإفراد والجمع: ﴿**أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون**﴾. [سورة المجادلة، الآية: ١٩]. ﴿**فاختلف الأحزاب من بينهم**﴾. [سورة مريم، الآية: ٣٧]. ﴿**جندٌ ما هنالك مهزومٌ من الأحزاب**﴾. [سورة ص، الآية: ١١]. ﴿**ولما رأى المؤمنون**

الأحزابَ قالوا هذا ما وعدنا الله ورسولهُ وصدق الله ورسوله﴾. [سورة الأحزاب، الآية: ٢٢].

وأنبّه إلى الفرق بين التحزب والانتماء لمناهج وجماعات بدعية تخالف منهج أهل السنة والجماعة، وبين تحزب المسلمين ضد الكفار والانتماء لأهل السنة والجماعة، فالأول هو المذموم والمحرم.

أما تحزب المؤمنين ضد الكفر وأهله والانتماء لجماعة أهل السنة والجماعة، والالتزام بمنهج السلف فهذا محمود ومطلوب **﴿واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا﴾**. [سورة آل عمران، الآية: ١٠٣]. «**لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين**» الحديث[١]. **﴿أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾**. [سورة المجادلة، الآية: ٢٢].

٣ ـ جعل الاختلاف في المسائل الاجتهادية والفرعية سببًا للفرقة والشحناء والعداوة والبغضاء[٢].

٤ ـ وأخيرًا تقديم أمور الدنيا على أمور الدين، مما سبب شيوع الخلاف بين المسلمين وضعف هيبتهم وذهاب ريحهم.

وفي ختام هذا المبحث عن الأخوة بين المؤمنين، وبعد أن عشنا وقتًا مناسبًا مع هذا الموضوع فإني أذكّر بما يلي (انسجامًا مع ما ورد في سورة الحجرات) فأقول:

---

(١) أخرجه البخاري (٨/ ١٨٩) كتاب التوحيد، ومسلم (٣/ ١٥٢٣) كتاب الإمارة، رقم (١٩٢٠، ١٩٢١).

(٢) أنصح بقراءة الرسالة القيمة التي كتبها د/ صالح بن حميد بعنوان: «أدب الخلاف» ففيها غنية وكفاية.

١ ـ إن على الدعاة وطلاب العلم مسئولية خاصة في معالجة هذه القضية على مستوى الأمة والأفراد.

٢ ـ لابـد أن يبـدأ الـدعـاة بأنفسهم فيزيلوا ما بينهم، ويوحّدوا صفوفهم على منهج الكتاب والسنة منهج السلف الصالح، وإذا فعلوا ذلك نجوا ونجوا جميعًا.

٣ ـ إن محاولـة الـوحدة بين الدعاة مع إغفال الأسباب الحقيقية للخلاف، لا يمكن أن تحقق الهدف، ولو تحقق ظاهرًا فسرعان ما يذهب ويتلاشى.

إن بعض الـدعـاة يتحـاشى منـاقشـة الأسباب الجوهرية في هذا الشأن، وهي الأمور التي تتعلق بالمنهج، أي بالجوهر لا بالشكل.

وأذكّر بقوله ـ تعالى ـ: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرَّقوا﴾. [سورة آل عمران، الآية: ١٠٣].

وبقـولـه: ﴿وتعـاونـوا على الـبر والتقـوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾. [سورة المائدة، الآية: ٢].

وقوله: ﴿والعصر. إن الإنسان لفي خُسر. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصَوْا بالحقِّ وتواصَوْا بالصبر﴾. [سورة العصر، الآيات: ١ ـ ٣].

وقوله: ﴿إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١٠].

الإسلام والإيمان

الموضوع السادس:

الإسلام والإيمان:

قال الله - تعالى -: ﴿قالت الأعراب آمنّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئًا إن الله غفور رحيم﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١٤].

قضية الإيمان والإسلام من القضايا التي بحثها العلماء قديمًا وحديثًا، وممن وقف مع هذا الموضوع وقفة مستوعبة وناقش جميع أطرافه وفصوله شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه: الإيمان(١)، وكذلك فعل شارح الطحاوية، حيث ناقش الموضوع مناقشة شاملة(٢)، وممن عرض لهذا الموضوع - أيضًا - دون تفصيل طويل ابن كثير في تفسيره لسورة الحجرات(٣)، وابن حجر في فتح الباري(٤)، وغيرهم من المفسرين وشرّاح الحديث.

ونظرًا لطول الموضوع وتشعّبه، وتبعًا لمنهجي في هذا البحث، فسأتناول بعض القضايا مما لها علاقة بآية سورة الحجرات، معتمدًا على المصادر التي أشرت إليها سابقًا، دون إغراق في التفاصيل، أو تشعيب للموضوع، والله الموفق والمعين.

---

(١) انظر: ص ٢٢٥ وغيرها.

(٢) انظر: ٢/ ٤٥٩ وغيرها.

(٣) انظر: ٤/ ٢١٨.

(٤) انظر: ١/ ١١٤.

أولا: تعريف الإسلام والإيمان:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

الإسلام دين، والدين مصدر دان يدين دينًا، إذا خضع وذلّ، ودين الإسلام الذي ارتضاه الله، وبعث به رسله هو الاستسلام لله وحده، فأصله في القلب هو الخضوع لله وحده بعبادته وحده دون ما سواه، فمن عبده وعبد معه إلـهًا آخر لم يكن مسلمًا، ومن لم يعبده بل استكبر عن عبادته لم يكن مسلمًا، والإسلام هو الاستسلام لله، وهو الخضوع له، والعبودية له، هكذا قال أهل اللغة: أسلم الرجل إذا استسلم، فالإسلام في الأصل من باب العمل، عمل القلب والجوارح.

وأما الإيمان فأصله تصديق وإقرار ومعرفة، فهو من باب قول القلب المتضمن عمل القلب، والأصل فيه التصديق، والعمل تابع له(١).

وقال في موضع آخر:

الإيمان إذا أطلق في القرآن والسنة يراد به ما يراد بلفظ البر، وبلفظ التقوى، وبلفظ الدين كما تقدم، فإن النبي، صلى الله عليه وسلم، بيّن أن الإيمان بضع وسبعون شعبة، أفضلها قول لا إلـه إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق.

فكان كل ما يحبه الله يدخل في اسم الإيمان، وكذلك لفظ البر يدخل فيه جميع ذلك إذا أطلق، وكذلك لفظ التقوى، وكذلك الدين أو دين الإسلام(٢).

وقال الطحاوي: الإيمان هو الإقرار باللسان، والتصديق بالجنان(٣).

---

(١) انظر: كتاب الإيمان ص ٢٤٩.

(٢) انظر: كتاب الإيمان ص ١٧٠.

(٣) انظر: شرح العقيدة الطحاوية ٢/ ٤٥٩.

قال شارح الطحاوية بعد كلام الطحاوي: اختلف الناس فيما يقع عليه اسم الإيمان اختلافًا كثيرًا:

فذهب مالك، والشافعي، وأحمد، والأوزاعي، وإسحاق بن راهويه، وسائر أهل الحديث، وأهل المدينة ـ رحمهم الله ـ وأهل الظاهر، وجماعة من المتكلمين إلى أنه: تصديق بالجنان، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان.

وذهب كثير من أصحابنا[١] إلى ما ذكره الطحاوي أنه: الإقرار باللسان والتصديق بالجنان.

ومنهم من يقول: إن الإقرار باللسان ركن زائد ليس بأصلي، وإلى هذا ذهب أبو منصور الماتريدي، ويروى عن أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ[٢].

وذكر أقوال الكرامية والجهمية ثم قال: وحاصل الكل يرجع إلى أن الإيمان: إما أن يكون ما يقوم بالقلب واللسان وسائر الجوارح، كما ذهب إليه جمهور السلف من الأئمة الثلاثة وغيرهم رحمهم الله، أو بالقلب واللسان دون الجوارح، كما ذكره الطحاوي، عن أبي حنيفة وأصحابه ـ رحمهم الله ـ أو باللسان وحده ـ كما تقدم ذكره عن الكرامية ـ أو بالقلب وحده، وهو إما المعرفة ـ كما قال الجهم ـ أو التصديق كما قاله أبو منصور الماتريدي ـ رحمه الله ـ.

وفساد قول الكرامية والجهم بن صفوان ظاهر.

والاختلاف الذي بين أبي حنيفة والأئمة الباقين من أهل السنة

---

(١) أي: الحنفية.

(٢) انظر: شرح العقيدة الطحاوية ٢/ ٢٥٩.

صوري، فإن أعمال الجوارح لازمة لإيمان القلب[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية:

ومما ينبغي أن يعرف أن أكثر التنازع بين أهل السنة في هذه المسألة هو نزاع لفظي، وإلا فالقائلون بأن الإيمان قول[٢]، من الفقهاء كحماد بن أبي سليمان، وهو أول من قال ذلك، ومن اتبعه من أهل الكوفة وغيرهم متفقون مع جميع علماء السنة على أن أصحاب الذنوب داخلون تحت الذمّ والوعيد[٣].

والخلاصة التي نصل إليها هي أن الإسلام يفسر بالأعمال الظاهرة، والإيمان بالأعمال الظاهرة والباطنة.

فالإسلام هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك[٤].

والإيمان هو: القول باللسان، والتصديق بالجنان، والعمل بالأركان[٥].

قال شيخ الإسلام: ولهذا كان القول: إن الإيمان قول وعمل عند أهل السنة، من شعائر السنة، وحكى غير واحد الإجماع على ذلك، وقد ذكرنا عن الشافعي ما ذكره من الإجماع على ذلك قوله في الأم: وكان

---

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية ٢/٤٦٢.

(٢) أي قول اللسان، وقول القلب ـ وهو التصديق ـ وهذا ما يفرقه عن قول الكرامية الذين يقولون بقول اللسان فقط.

(٣) انظر: كتاب الإيمان ص ٢٨١.

(٤) انظر: كتاب الإيمان ص ٢٥٦.

(٥) حيث سبق بيان ذلك، وانظر كتاب الإيمان ص ٢٧١.

الإجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم ومن أدركناهم يقولون: إن الإيمان قول وعمل ونية، لا يجزي واحد من الثلاثة إلّا بالآخر[١].

ثانيا: حقيقة إسلام الأعراب:

هذه من المسائل التي اختلف فيها العلماء، وقد بسط شيخ الإسلام ابن تيمية وابن أبي العز الحنفي الحديث فيها[٢]، وسأذكر مجمل القول في هذه المسألة مع بيان الراجح من هذه الأقوال:

اختلف العلماء هل الإسلام الذي ورد في سورة الحجرات ﴿**ولكن قولوا أسلمنا**﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١٤]. هو إسلام يثابون عليه، أو هو كإسلام المنافقين؟

فقال الحسن، وابن سيرين، وإبراهيم النخعي، وأبو جعفر الباقر، وحماد بن زيد، وأحمد بن حنبل، وسهل التستري، وأبو طالب المكي، وكثير من أهل الحديث والسنة:

إنّه إسلام يثابون عليه، ويخرجهم من الكفر والنفاق.

وقال البخاري، ومحمد بن نصر المروزي: إن هذا الإسلام هو الاستسلام خوف السبي والقتل، مثل إسلام المنافقين، وذلك لأن هؤلاء لم يدخل الإيمان في قلوبهم، ومن لم يدخل الإيمان في قلبه فهو كافر.

ومما احتج به أصحاب هذا القول ـ أيضًا ـ: إن الإسلام هو الإيمان، وكل مسلم مؤمن، وكل مؤمن مسلم، ومن جعل الفساق مسلمين غير مؤمنين لزمه أن لا يجعلهم داخلين في قوله ـ تعالى ـ: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة**﴾. [سورة المائدة، الآية: ٦]. وفي قوله ـ تعالى ـ:

---

(١) انظر: كتاب الإيمان ص ٢٩٢.

(٢) انظر: كتاب الإيمان لشيخ الإسلام ص ٢٢٥، وشرح العقيدة الطحاوية ٢/ ٤٩٠

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة﴾ . [سورة الجمعة، الآية: ٩]. وأمثال ذلك، فإنهم إنما دعوا باسم الإيمان، لا باسم الإسلام، فمن لم يكن مؤمنًا لم يدخل في ذلك[١].

وقد أجاب بعض أصحاب القول الأول بأجوبة هي في حقيقتها أدلة لهم على قولهم، ومن ذلك:

١ - إننا عندما نقول إنهم خرجوا من الإيمان إلى الإسلام، لم نقل: إنه لم يبق معهم من الإيمان شيء، بل هذا قول الخوارج والمعتزلة، ومذهب أهل السنة أن الفساق يخرجون من النار بالشفاعة، وأن معهم إيمانًا يخرجون به من النار، لكن لا يطلق عليهم اسم الإيمان، وهم يدخلون في الخطاب بالإيمان، لأن الخطاب بذلك هو لمن دخل في الإيمان وإن لم يستكمله، فإنه إنما خوطب ليفعل تمام الإيمان.

قال شيخ الإسلام: والتحقيق أن يقال: إنه مؤمن ناقص الإيمان، مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، ولا يعطى اسم الإيمان المطلق، فإن الكتاب والسنة نفيا عنه الاسم المطلق، واسم الإيمان يتناوله فيما أمر الله به ورسوله، لأن ذلك إيجاب عليه، وتحريم عليه، وهو لازم له"[٢].

٢ - إن نفي الإيمان المطلق لا يستلزم أن يكونوا منافقين كما في قوله - تعالى -: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا وعلى ربهم يتوكلون. الذين يقيمون الصلاة ومما

(١) انظر: كتاب الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٢٢٥.
(٢) انظر: كتاب الإيمان ص ٢٢٨.

رزقناهم ينفقون. أولئك هم المؤمنون حقًّا﴾. [سورة الأنفال، الآيات: ٢ - ٤]. ومعلوم أنه من لم يكن كذلك ليس منافقًا من أهل الدرك الأسفل من النار، بل لا يكون أتى بالإيمان الواجب فنفي عنه، كما ينفى سائر الأسماء عمن ترك بعض ما يجب فيها، فكذلك الأعراب لم يأتوا بالإيمان الواجب، فنفى عنهم لذلك وإن كانوا مسلمين، معهم من الإيمان ما يثابون عليه.

٣ - إن السورة تنهى عن جملة من المعاصي التي فيها تعدّ على الرسول وعلى المؤمنين، فالأعراب المذكورون فيها من جنس الباقين أهل السباب والفسوق والمنادين من وراء الحجرات وأمثالهم ليسوا من المنافقين(١).

قال شيخ الإسلام معقبًا على ما ذكر:

فهذا كله يدل على أن هؤلاء من فساق الملة، فإن الفسق يكون تارة بترك الفرائض وتارة بفعل المحرمات، وهؤلاء لما تركوا ما فرض الله عليهم من الجهاد، وحصل عندهم نوع من الريب الذي أضعف إيمانهم، لم يكونوا من الصادقين الذين وصفهم، وإن كانوا صادقين في أنهم في الباطن متديّنون بدين الإسلام.

وقول المفسرين: لم يكونوا مؤمنين نفي لما نفاه الله عنهم من الإيمان، كما نفاه عن الزاني، والسارق، والشارب، وعمن لا يأمن جاره بوائقه، وعمن لا يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وأمثال هؤلاء.

وقد يحتج على ذلك بقوله: ﴿بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان﴾.

---

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية ٢/٤٩١، والإيمان ص ٢٣٧.

[سورة الحجرات، الآية: ١١]. كما قال: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»[١]. فذم من استبدل اسم الفسوق بعد الإيمان، فدل أن الفاسق لا يسمى مؤمنًا، فدل ذلك على أن هؤلاء الأعراب من جنس أهل الكبائر لا من جنس المنافقين[٢].

وأما ما ذكره بعض المفسرين من أنهم أسلموا خوف القتل والسبي[٣]، فهكذا كان إسلام كثير ممن أسلم سوى المهاجرين والأنصار.

فقد أسلم أناس رغبة أو رهبة كإسلام الطلقاء من قريش بعد أن قهرهم النبي، صلى الله عليه وسلم، وكإسلام المؤلفة قلوبهم من هؤلاء ومن غيرهم.

وليس كل من أسلم رغبة ورهبة كان من المنافقين الذين هم في الدرك الأسفل من النار، بل إنهم يدخلون في الإسلام رغبة أو رهبة فيحسن إسلامهم، وليس في قلوبهم تكذيب أو معاداة للرسول، صلى الله عليه وسلم.

وقد ذكر بعض المفسرين أنهم أسلموا بغير قتال[٤]، فهؤلاء كانوا أحسن إسلامًا من غيرهم، ولكن الله ذمهم لكونهم منّوا بالإسلام، وأنزل

---

(١) أخرجه البخاري (١/١٧، ١٨) كتاب الإيمان، ومسلم (١/٨١)، كتاب الإيمان، رقم (٦٤).

(٢) انظر: كتاب الإيمان ص (٢٣٧) وشرح العقيدة الطحاوية (٢/٤٩١).

(٣) انظر: تفسير الطبري ٢٦/١٤٢.

(٤) انظر: تفسير القرطبي ١٦/٣٤٨.

فيهم: ﴿ولا تبطلوا أعمالكم﴾. [سورة محمد، الآية: ٣٣]. من جنس أهل الكبائر.

وأما قوله: ﴿ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١٤]. فإن «لما» إنما ينتفي بها ما ينتظر ويكون حصوله مترقبًا، كقوله: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾. [سورة آل عمران، الآية: ١٤٢]. وأمثالها، فقوله: ﴿ولَمّا يدخل الإيمان في قلوبكم﴾. يدل على أن دخول الإيمان منتظر منهم، فإن الذي يدخل في الإسلام ابتداء لا يكون قد حصل في قلبه إيمان، لكنه يحصل فيما بعد، كما في الحديث: «**كان الرجل يسلم أول النهار رغبة في الدنيا، فلا يجيء آخر النهار إلّا والإسلام أحبّ إليه مما طلعت عليه الشمس**». ولهذا كان عامة الذين أسلموا رغبة أو رهبة دخل الإيمان في قلوبهم بعد ذلك، وقوله: ﴿ولكن قولوا أسلمنا﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١٤]. أمر لهم بأن يقولوا ذلك، والمنافق لا يؤمر بشيء، ثم قال: ﴿وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئًا﴾. [سورة الحجرات، الآية: ١٤]. والمنافق لا تنفعه طاعة الله ورسوله حتى يؤمن أولاً(١).

ومما سبق يتضح أن الراجح هو القول الأول، أي بأنهم مسلمون حقيقة ولكن إيمانهم ضعيف، وليس إسلامهم كإسلام المنافقين الذين لا ينفعهم إسلامهم إلا في الدنيا بعصمة دمائهم وأموالهم، أمّا في الآخرة فهم في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرًا.

ولعل المبحث الآتي يزيد الأمر وضوحًا وبيانًا.

---

(١) انظر: كتاب الإيمان لشيخ الإسلام ص ٢٣٨.

ثالثًا: اجتماع الإسلام والإيمان وافتراقهما:

اختلف العلماء في الإسلام والإيمان، فطائفة ترى أن الإسلام والإيمان شيء واحد، وأنه لا فرق بينهما، قال ابن أبي العز: وطائفة جعلوا الإسلام مرادفًا للإيمان، وجعلوا معنى قول الرسول، صلى الله عليه وسلم: «**الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله وإقام الصلاة**»[١] شعائر الإسلام[٢].

وقال ابن حجر: تقدم أن المؤلف - أي البخاري - يرى أن الإيمان والإسلام عبارة عن معنى واحد[٣]، قال ابن حجر: وقد نقل أبو عوانة الإسفراييني في صحيحه عن المزني صاحب الشافعي الجزم بأنهما عبارة عن معنى واحد، وأنه سمع ذلك منه[٤].

ومما استدل به على ترادف الإسلام والإيمان قوله - تعالى -: ﴿**فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين. فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين**﴾[٥]. [سورة الذاريات، الآيتان: ٣٥، ٣٦].

وقد استدل البخاري على ترادف الإسلام والإيمان بأدلة ذكرها ابن حجر في الفتح، منها: تفسير الإيمان في حديث وفد عبد قيس حيث فسره

---

(١) انظر حديث جبريل أخرجه البخاري مختصرًا (٦/ ٢٠) كتاب التفسير، ومسلم مطولاً (١/ ٣٦ - ٣٨) كتاب الإيمان رقم (٨) ففيه معنى الإسلام.

(٢) انظر: شرح العقيدة الطحاوية ٢/ ٤٨٨.

(٣) انظر: فتح الباري ١/ ١١٤.

(٤) انظر: فتح الباري ص ١/ ١١٤.

(٥) انظر: شرح الطحاوية ٢/ ٤٩٣.

بما فسر به الإسلام في حديث جبريل، وكذلك خبر أبي سفيان أن الإسلام هو الدين[١].

وجمهور السلف على أن الإسلام غير الإيمان، وأن بينهما عمومًا وخصوصًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وقد صار الناس في مسمى الإسلام على ثلاثة أقوال:

قيل هو الإيمان، وهما اسمان لمسمى واحد.

وقيل: هو الكلمة. ولكن التحقيق ابتداء هو ما بينه النبي، صلى الله عليه وسلم، لما سئل عن الإسلام والإيمان، ففسر الإسلام بالأعمال الظاهرة، والإيمان بالإيمان بالأصول الخمسة، فليس لنا إذا جمعنا بين الإسلام والإيمان أن نجيب بغير ما أجاب به النبي، صلى الله عليه وسلم.

وأما إذا أفرد اسم الإيمان، فإنه يتضمن الإسلام، وإذا أفرد الإسلام فقد يكون مع الإسلام مؤمنًا بلا نزاع، وهذا هو الواجب[٢].

وقال ابن حجر: وعن الإمام أحمد الجزم بتغايرهما.

قال الخطابي: صنف في المسألة إمامان كبيران، وأكثرا من الأدلة للقولين، وتباينا في ذلك، والحق أن بينهما عمومًا وخصوصًا، فكل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمنًا[٣].

---

(١) انظر بيان ذلك في فتح الباري ١/ ١١٤.

(٢) انظر: كتاب الإيمان ص ٢٤٦.

(٣) انظر: فتح الباري ١/ ١١٥.

وقال ابن كثير في تفسير آية الحجرات: وقد استفيد من هذه الآية الكريمة أن الإيمان أخصّ من الإسلام، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة ويدل عليه حديث جبريل - عليه الصلاة والسلام - حين سأل عن الإسلام ثم عن الإيمان ثم عن الإحسان، فترقى من الأعم إلى الأخص، ثم للأخص منه [١].

وقال ابن أبي العز: فالحاصل أن حالة اقتران الإسلام بالإيمان غير حالة إفراد أحدهما عن الآخر، فمثل الإسلام من الإيمان كمثل الشهادتين إحداهما من الأخرى، فشهادة الرسالة غير شهادة الوحدانية، فهما شيئان في الأعيان، وإحداهما مرتبطة بالأخرى في المعنى والحكم، كشيء واحد، كذلك الإسلام والإيمان لا إيمان لمن لا إسلام له، ولا إسلام لمن لا إيمان له، إذ لا يخلو المؤمن من إسلام به يتحقق إيمانه، ولا يخلو المسلم من إيمان به يصح إسلامه. ونظائر ذلك في كلام الله ورسوله، وفي كلام الناس كثيرة، أعني في الإفراد والاقتران.

منها لفظ الكفر والنفاق، والبر والتقوى، ولفظ الإثم والعداون، ولفظ التوبة والاستغفار، ولفظ الفقير والمسكين، وأمثال ذلك.

ويشهد للفرق بين الإسلام والإيمان قوله - تعالى -: **﴿قالت الأعراب آمنّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا﴾** [٢]. [سورة الحجرات، الآية: ١٤]. وقال: أما الاحتجاج بقوله - تعالى -: **﴿فأخرجنا من كان فيها**

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٤/٢١٨.

(٢) انظر: شرح العقيدة الطحاوية ٢/٤٩٠.

من المؤمنين. فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين﴾. [سورة الذاريات، الآيتان: ٣٥، ٣٦]. على ترادف الإسلام والإيمان فلا حجة فيه، لأن البيت المخرج كانوا موصوفين بالإسلام والإيمان، ولا يلزم من الاتصاف بهما ترادفهما[١].

قال شيخ الإسلام في الرد على من احتج بترادف الإسلام والإيمان: وجميع ما ذكره من الحجة عن النبي، صلى الله عليه وسلم، فإن فيها التفريق بين مسمى الإيمان والإسلام إذا ذكروا جميعًا، كما في حديث جبريل وغيره.

وفيها ـ أيضًا ـ أن اسم الإيمان إذا أطلق دخل فيه الإسلام[٢].

قلت: وبهذا يجاب عن حديث وفد عبد قيس[٣]، حيث ذكر الإيمان وحده فيدخل فيه الإسلام.

وقد ذكر ابن حجر كلامًا نفيسًا في الجمع بين القولين يحسن ذكره، وأختم به هذه المسألة، حيث قال: والذي يظهر من مجموع الأدلة أن لكل

---

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية ٢/٤٩٣.

(٢) انظر: كتاب الإيمان ص ٣٥٢.

(٣) حديث وفد عبد القيس أخرجه البخاري (١/١٣٣) كتاب مواقيت الصلاة. ومسلم (١/٤٦) كتاب الإيمان. رقم (١٧). ولفظه عن ابن عباس قال: قدم وفد عبدالقيس على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يا رسول الله! إن هذا الحي من ربيعة وقد حالت بيننا وبينك كفَّار مُضر. فلا نخلص إليك إلا في شهر الحرام، فمرنا بأمر نعمل به، وندعو إليه من وراءنا. قال: «آمركم بأربع، وأنهاكم عن أربع، الإيمان بالله، ثم فسرها لهم فقال: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن تؤدوا خمس ما غنمتم». الحديث.

منهما حقيقة شرعية، كما أن لكل منهما حقيقة لغوية، لكن كل منهما مستلزم للآخر بمعنى التكميل له، فكما أن العامل لا يكون مسلمًا كاملاً إلا إذا اعتقد، فكذلك المعتقد لا يكون مؤمنًا كاملاً إلا إذا عمل، وحيث يطلق الإيمان في موضع الإسلام أو العكس، أو يطلق أحدهما على إرادتهما معًا فهو على سبيل المجاز، ويتبين المراد بالسياق، فإن وردا معًا في مقام السؤال حملا على الحقيقة، وإن لم يردا معًا، أو لم يكن في مقام سؤال أمكن الحمل على الحقيقة أو المجاز بحسب ما يظهر من القرائن.

وقد حكى ذلك الإسماعيلي عن أهل السنة والجماعة قالوا: إنها تختلف دلالتها بالاقتران، فإن أفرد أحدهما دخل الآخر فيه.

وعلى ذلك يحمل ما حكاه محمد بن نصر وتبعه ابن عبدالبر عن الأكثر أنهم سووا بينهما على ما في حديث وفد عبدقيس، وما حكاه اللالكائي وابن السمعاني عن أهل السنة أنهم فرّقوا بينهما، على ما في حديث جبريل، والله الموفق(١).

وبهذا يتضح أن الراجح هو القول بتغايرهما عند الاجتماع واتفاقهما عند الافتراق، وأن بينهما عمومًا وخصوصًا، والله الهادي إلى سواء السبيل.

---

(١) انظر: فتح الباري ١/١١٥.

الخاتمة

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته وفضله تتم الصالحات، وأصلي وأسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعه إلى يوم الدين.. **وبعد:**

فبعد عدة سنوات قضيتها مع هذه السورة قارئًا ومتأملاً ودارسًا ومدرّسًا وباحثًا، ها أنا أصل بحمد الله إلى نهايتها، وهي أمنية طالما راودتني، واليوم أراها بفضل الله ومنّه قد تحققت، وإن كنت أطمح إلى أفضل من ذلك وأكمل، ولكنه جهد البشر يعتريه النقص والتقصير، ويأبى الله الكمال إلاّ لنفسه - جل وعلا - ولكتابه، والعصمة إلاّ لرسوله، صلى الله عليه وسلم، وملائكته.

وها أنت أخي القارىء تجد بين يديك أشمل تفسير لسورة الحجرات خرج حتى الآن - حسب علمي واستقرائي - ولا أقول إنّه أفضل تفسير وأجوده، ولأن الفضل أمر نسبي، فقد يكون الشيء فاضلاً من وجه ومفضولاً من وجه آخر، وأسأل الله ألاّ يحرمني أحد أوجه الفضل، التي تقربني إليه. وقد عرفت أخي القارىء ما في هذه السورة من قراءات وأحكام، وكذلك علمت أسباب نزول آياتها، وأوجه إعرابها، وتفسير معانيها، كل ذلك جاء بأسلوب ميسر، لم يجنح إلى التطويل الممل، ولم ينزع إلى الإيجاز المخل، ولكنه كان بين ذلك قوامًا.

واجتهدت ألاّ يرد في ذهنك سؤالٌ ذو بال إلاّ وتجد الإجابة عليه في موضعه، ولا أدّعي الإحاطة والكمال.

وفي القسم الثاني: عشنا مع موضوعات هذه السورة، ورأينا فيها تلك

الوقفات التي ربما لم تكن وقفت عليها من قبل.

سواء أكانت ما يتعلق بأسماء الله وصفاته، والأثر الذي يجب أن يتركه الإيمان بها في حياتنا، دون الوقوف عند مجرد التصديق الذي هو لازم ولا محيد عنه. أو كانت الوقفة عند المنهج الذي ترسمه هذه السورة للدعاة، في وقت نحن أحوج ما نكون إلى منهج القرآن في دعوتنا، حيث تعددت السبل وتفرقت الكلمة **﴿وأن هذا صراطي مستقيمًا فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾** [سورة الأنعام، الآية: ١٥٣].

وكانت الوقفة الأخيرة مع اللسان، وكيف جاءت هذه السورة تعالج خطله، وتقوّم اعوجاجه، وتصحح مساره وهدفه، من أول مقطع فيها إلى آخر موضوع جاءت به.

احفظ لسانك أيها الإنسان
لا يلدغنك إنه ثعبان
كم في المقابر من قتيل لسانه
كانت تخاف لقاءه الشجعان

أمّا موضوعات هذه السورة فقد رأينا فيها ما يصعب إيجازه بكلمات ولكنها إشارات لا تغني عن الذات، فأقول:

١ - اتضح لنا خطورة التقدم بين يدي الله ورسوله، وأن صور هذا التقدم ليست محصورة في معنى دون آخر، بل هو شامل لكل ما يمكن أن نطلق عليه تقدمًا، حسًا أو معنى، وأشد أنواع التقدم بين يدي الله ورسوله، هو الحكم بغير ما أنزل الله، وهو كفر قد يخرج صاحبه من الملة إذا توافرت الأسباب وانتفت الموانع.

٢ ـ الأدب مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، دين يجب أن يلتزم به المسلم في حياة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وبعد وفاته، وقد رسمت لنا هذه السورة شيئًا من ذلك.

ومن الأدب معه، صلى الله عليه وسلم، الأدب مع العلماء وتوقيرهم والاعتراف بفضلهم وسابقتهم، لأنهم هم الذين يحملون ميراث النبوة، لأن العلماء هم ورثة الأنبياء، فإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر، وقد أفضت بهذا الموضوع بما يكفي ويشفي.

٣ ـ لا يمكن أن تستقيم الحياة وتصفو من أكدارها إلا بالتقوى، ولن يحقق المرء مراد ربّه إلا إذا تعاهد قلبه وأخلصه لله، وقد رأينا عناية هذه السورة بالقلوب وتقواها، تصريحًا وإيماءً، عبارة وإشارة: ﴿**أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى**﴾ [سورة الحجرات، الآية: ٣].

٤ ـ الإشاعة داء قاتل، وقالة السوء لا تتوقف عند حد، والكذب قد فشا سوقه وراجت بضاعته، وفي الموضوع الرابع من موضوعات سورة الحجرات وقفنا عند المنهج الشرعي في نقل الأخبار والتثبت منها: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا**﴾ [سورة الحجرات، الآية: ٦]، وتوصّلنا إلى نتائج مهمّة، وقواعد شرعية تقطع دابر الكذب وتلغي أثره، وتردّ أصحابه على أعقابهم خاسرين.

٥ ـ ﴿**إنما المؤمنون أخوة**﴾ [سورة الحجرات، الآية: ١٠] ما أعظمها من آية، إنها البلسم الشافي وسط عالم يموج بالتقاطع والتدابر، ويمسي ويصبح على القتال والتناحر، إن الإخوة الإيمانية منهج رباني متى ما وعاه المسلمون فقد صلحوا وأفلحوا، بيّنت في ذلك المبحث الأسباب المقرّبة والمبعدة،

وفصّلت هناك فيما يحقق الأخوة والمحبة، ويدرأ دابر التنابذ والخصام ﴿فأصلحوا بين أخويكم﴾.

٦ - مبحث الإسلام والإيمان مبحث طويل، تناوله العلماء بالتحقيق والتدقيق، وبيّنوا متى يجتمعان ومتى يفترقان.

وقد اكتفيت من القلادة بما أحاط بالعنق، منسجمًا مع منهجي في هذا الكتاب، وأحلت على مواطن التفصيل والتحليل، وكنت كما قال الأول:

وعن البحر اجتزاء بالوشل.

وكما بدأت أختم فأقول تيمّنًا:

﴿سبحان ربك ربّ العزّة عما يصفون. وسلامٌ على المرسلين. والحمد لله ربّ العالمين﴾ [سورة الصافات، الآيات: ١٨٠ - ١٨٢].

المصادر والمراجع

المراجع والمصادر

١ ـ آداب النصيحة للقرني
٢ ـ آفات اللسان للقحطاني
٣ ـ أحكام القرآن لابن العربي
٤ ـ أحكام القرآن للجصاص
٥ ـ إحياء علوم الدين للغزالي
٦ ـ أدب الخلاف د. / صالح بن عبدالله بن حميد
٧ ـ الأدب الصغير ابن المقفع
٨ ـ الأذكار للنووي
٩ ـ الإرشادات الجلية لمحمد سالم محيسن.
١٠ ـ إرواء الغليل للألباني
١١ ـ أسباب النزول للواحدي
١٢ ـ أضواء البيان للشنقيطي
١٣ ـ الاعتصام للشاطبي
١٤ ـ أعلام الموقعين لابن القيم
١٥ ـ اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية
١٦ ـ الإقناع في القراءات السبع لجعفر بن باذش.
١٧ ـ امتحان القلوب للمؤلف
١٨ ـ الإيمان لابن تيمية
١٩ ـ البحر المحيط لأبي حيان.
٢٠ ـ البداية والنهاية لابن كثير

٢١ - التبصرة لمكي بن أبي طالب .
٢٢ - تحكيم الشريعة وصلته بالعقيدة د . / عبدالرحمن المحمود
٢٣ - تخريج أحاديث الكشاف للحافظ ابن حجر
٢٤ - التدمرية لابن تيمية
٢٥ - ترتيب المدارك
٢٦ - تعظيم قدر الصلاة لمحمد بن نصر المروذي .
٢٧ - تفسير أبي السعود
٢٨ - تفسير الرازي
٢٩ - تفسير السعدي
٣٠ - تفسير القرآن الكريم لابن كثير
٣١ - تفسير القرطبي
٣٢ - تفسير الكشاف للزمخشري
٣٣ - تفسير المراغي
٣٤ - تفسير النسفي
٣٥ - تلخيص الحبير لابن حجر
٣٦ - تهذيب مدارج السالكين عبدالمنعم العزي
٣٧ - التوبيخ والتنبيه للأصبهاني
٣٨ - جامع البيان في تأويل القرآن للطبري
٣٩ - جامع العلوم والحكم لابن رجب
٤٠ - الجواب الكافي لابن القيم
٤١ - جواهر الأدب للهاشمي
٤٢ - حجة القراءات لابن زنجلة

٤٣ ـ الحجة في القراءات السبع لابن خالويه
٤٤ ـ حلية الأولياء لأبي نعيم
٤٥ ـ الدرر السنية جمع عبدالرحمن بن قاسم .
٤٦ ـ الدر المنثور في التفسير المأثور للسيوطي
٤٧ ـ رسالة «إن ربك حكيم عليم» عبدالعزيز الجليّل
٤٨ ـ رسالة تحكيم القوانين لمحمد بن إبراهيم
٤٩ ـ رسالة التعالم لبكر أبوزيد
٥٠ ـ روح المعاني للألوسي
٥١ ـ روضة العقلاء ونزهة الفضلاء لابن حبان
٥٢ ـ رياض الصالحين للنووي
٥٣ ـ زاد المسير لابن الجوزي
٥٤ ـ السلسلة الصحيحة للألباني
٥٥ ـ سنن ابن ماجه
٥٦ ـ سنن أبي داود
٥٧ ـ سنن الدارمي
٥٨ ـ السنن الكبرى للبيهقي
٥٩ ـ سنن النسائي
٦٠ ـ شرح صحيح مسلم للنووي
٦١ ـ شرح العقيدة الطحاوية للطحاوي
٦٢ ـ شرح علل الترمذي لابن رجب
٦٣ ـ صحيح البخاري
٦٤ ـ صحيح الترغيب والترهيب للألباني

٦٥ - صحيح الترمذي
٦٦ - صحيح الجامع وزيادته للألباني
٦٧ - صحيح مسلم
٦٧ - صيد الخاطر ابن الجوزي
٦٨ - عمدة التفسير لأحمد شاكر
٦٩ - عيوب النفس لأبي عبدالرحمن السلمي
٧٠ - غرائب القرآن للنيسابوري
٧١ - الفتاوى لابن تيمية
٧٢ - فتاوى الشيخ ابن باز جمع د. / محمد الشويعر
٧٣ - الفتاوى السعدية عبدالرحمن السعدي
٧٤ - فتح الباري لابن حجر
٧٥ - فتح القدير للشوكاني
٧٦ - فتح المجيد شرح كتاب التوحيد لعبدالرحمن بن حسن آل الشيخ
٧٧ - الفصل في الملل والنحل لابن حزم
٧٨ - الفروق للقرافي
٧٩ - الفوائد لابن القيم
٨٠ - في ظلال القرآن لسيد قطب
٨١ - قاعدة في الجرح والتعديل للسيوطي
٨٢ - كتاب التوحيد لمحمد بن عبدالوهاب.
٨٣ - كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد.
٨٤ - الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي بن أبي طالب.
٨٥ - لحوم العلماء مسمومة للمؤلف

٨٦ ـ لسان العرب لابن منظور
٨٧ ـ مجاز القرآن لأبي عبيدة .
٨٨ ـ مجمع الزوائد للهيثمي
٨٩ ـ المجموع الثمين لابن عثيمين
٩٠ ـ المحرر الوجيز لابن عطية .
٩١ ـ محاسن التأويل للقاسمي
٩٢ ـ مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم
٩٣ ـ مدارج السالكين لابن القيم
٩٤ ـ مرض القلب وصحته لابن القيم
٩٥ ـ المستدرك للحاكم
٩٦ ـ المسند للإمام أحمد بن حنبل
٩٧ ـ مشكل إعراب القرآن لمكي بن أبي طالب .
٩٨ ـ مصنف ابن أبي شيبة
٩٩ ـ مصنف عبدالرزاق
١٠٠ ـ معالم التنزيل للبغوي
١٠١ ـ معاني القرآن وإعرابه للزجاج
١٠٢ ـ معاني القرآن للفراء
١٠٣ ـ المغني لابن قدامة
١٠٤ ـ مفتاح دار السعادة لابن القيم
١٠٥ ـ مقدمة ابن خلدون
١٠٦ ـ المقصد لتلخيص ما في المرشد في الوقف والابتداء لزكريا الأنصاري على حاشية منار الهدى

١٠٧ ـ منار الهدى للأشموني
١٠٨ ـ منهاج السنة لابن تيمية
١٠٩ ـ منهج أهل السنة والجماعة في النقد والحكم على الآخرين لهشام الصيني
١١٠ ـ موطأ الإمام مالك
١١١ ـ نحو منهج شرعي لتلقي الأخبار وروايتها لأحمد الصويان
١١٢ ـ واقعنا المعاصر لمحمد قطب
١١٣ ـ وجوب تحكيم شريعة الله لابن باز

فهرس الموضوعات

معالم التدبر

تدبر جزء تبارك

أ.د. ناصر بن سليمان العمر

تَدَبُّرُ جُزْءِ تَبَارَكَ

معالم التدبر

تدبر جزء تبارك

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

الرياض ـ طريق الملك عبد الله بن عبد العزيز ـ حي المغرَّزات

مبنى رقم ٣٧٧٦ ـ هاتف ٤٥٤٤٧٦٣ ٠١١

الرمز البريدي ١٢٤٨٢ ـ الرمز الإضافي ٦٥٤٠

البريد الحاسوبي: malem@tdabbor.com

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العمر، ناصر سليمان محمد

تدبر جزء تبارك / ناصر سليمان محمد العمر الرياض ـ ١٤٣٩هـ

٢٤٠ ص؛ ١٧ × ٢٢ سم

ردمك: ٩٧٨ـ٦٠٣ـ٠٢ـ٦٣٠١ـ١

١- القرآن - جزء عم - تفسير أ. العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٣٩ / ٤٠٢٤

رقم الإيداع: ١٤٣٩ / ٤٠٢٤

ردمك: ٩٧٨ـ٦٠٣ـ٠٢ـ٦٣٠١ـ١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحابته أجمعين.

أما بعد، فكنتُ قد بدأتُ دروسًا في عام ١٤٣٤هـ، بجامع الراجحي في مدينة الرياض العامرة، زادها ربنا بمنّه وكرمه عمارة بالتقوى، وكان موضوعها تدبُّر قصار السُّوَر، ثم يسَّر الله بفضله أن فرغتُ من جزء عمَّ، ثم تبارك، ثم المجادلة، ثم الذاريات، وأسأل الله أن ييسر التمام ويبلغنا الآمال.

وقد قام المكتب العلمي في (مؤسسة ديوان المسلم) مشكورًا، بإعادة صياغة هاتيك المجالس والدروس، وتحريرها، فأخرج أولًا جزء عمَّ ثم ثنَّى بهذا الجزء؛ (جزء تبارك)، وذلك على ترتيب الأجزاء باعتبار الدروس، وهو المناسب فيما نرى لكون ذلك تدرُّجًا من قصار السُّوَر إلى طوالها، ومما تمسُّ حاجة العامة إليه إلى ما بَعدَه، وذلك أنَّ أكثر الناس يقرؤون المُفصَّل ولا سيما قصاره ثم أوساطه، ثم يتدرَّجون بعده. ثم إنَّ هذا الترتيب أليق برعاية النزول، ولاسيما في جزأي عم وتبارك؛ إذ الغالب عليهما المكيُّ وما نزل أولًا، كما أن الغالب على الطّوال المدنيُّ وما نزل آخرًا، وإن كان في جلّ أجزاء القرآن ما هو مكيّ وما هو مدنيّ.

وقد يسَّر الله ﷻ استئناف جزء الأحقاف، مطلع هذا العام ١٤٣٩هـ، ولعله ما إن ينقضي حتى يتهيأ إخراجُه مع جزأي المجادلة والذاريات.

واللهَ أسألُ أن يبارك في الجهود، ويكتب لهذا العمل القبول.

والشكر موصول لكلّ من ساهم في إخراج هذا المشروع المبارك، ولكلّ من يبدي نصيحةً تفيد في هذا العمل مستقبلًا.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

ناصر بن سليمان العمر

١٤٣٨/١٢/٦هـ

سُورَةُ المُلْكِ

بين يدي سورة الملك

أسماؤها:

تسمى هذه السورة بـ «سورة تبارك»، و«﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾»، و«تبارك الملك»، و«الملك»، و«المنجية»، و«المانعة»، و«الواقية»، و«المنّاعة»، و«المُجادلة»[1].

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كلمها ثلاث مئة وَخمس وَثلاثونَ كلمة، وحروفها ألف وَثلاث مئة وَثلاثة عشر حرفًا، وَهي إحدَى وَثلاثُونَ آية في المدني الأَخير والمكي وَثلاثونَ في عدد الباقينَ؛ اختلافها آية: ﴿قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾، عدها المدني الأَخير والمكي وَلم يعدها الباقُونَ، وعدها شيبَة وَلم يعدها أَبُو جَعفَر»[2].

فضلها وما ورد فيها:

عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**سورة الملك هي المانعة، تمنع عذاب القبر**»[3].

وعَن أَبي هُرَيرَةَ ﷺ، عَن النَّبيّ ﷺ قالَ: «**إِنَّ سُورَةً منَ القُرآن، ثَلاَثُونَ آيَةً،**

(١) يراجع: التحرير والتنوير (٢٩/٥).
(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٥١).
(٣) طبقات الأصبهانيين، ص(٢٦٤)، وهو في السلسلة الصحيحة برقم (١١٤٠).

شَفَعَت لرَجُل حَتَّى غُفِرَ لَهُ، وَهيَ سُورَةُ ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾»(١).

وعن جابر ﷺ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ لا يَنَامُ حَتَّى يَقرأَ ﴿الٓمٓ تَنزِيلُ﴾، وَ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾»(٢).

موضوعاتها:

- الإرشاد إلى تحقيق العبودية لمن خلقنا ليبلونا بعملنا.
- الإرشاد إلى التفكر في خلق الله؛ كالسماء وإحكامها، والأرض وتيسير سبل العيش فيها، وقرب الماء الذي يحتاج إليه الناس من سطحها؛ ليسهل إخراجه، والطير وإمساكه في رحب الفضاء.
- مآل الكافرين وما ينتظرهم من العذاب في النار بسبب تكذيبهم بالبعث والنشور، وحكاية ما يكون منهم من الندم في الآخرة.
- بيان ما في مراقبة الله تعالى من الأجر الكبير، والإخبار بعلم الله المحيط بكل شيء، وهذا مما يحمل على تحقيق مراقبته.
- التخويف من الله بذكر أنواع من العذاب التي حلَّت بساحة بعض الكافرين.
- المقارنة بين حال المستقيمين والمعرضين في الآخرة.

مقصدها:

تأكيد أهمية الإيمان بالله واليوم الآخر؛ ببيان حال المؤمنين، وحال المكذبين بالرسل، وذكر الآيات الدالة على قدرة الله على كل شيء.

---

(١) رواه الترمذي (٢٨٩١)، وهو في صحيح الجامع (٢٠٩١).
(٢) رواه الترمذي (٢٨٩٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥٨٥).

سورة الملك: تأملات ووقفات

الآيات (١-٥)

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥﴾

وردت ﴿تَبَٰرَكَ﴾ في القرآن تسع مرات في سبع سور، وابتدأت بها سورتان: الفرقان، والملك، وتكررت ﴿تَبَٰرَكَ﴾ في سورة الفرقان ثلاث مرات، ووردت مرة واحدة في سورة الأعراف، والمؤمنون، وغافر، والزخرف، والرحمن، والملك.

وهي لفظة لا تقال إلا في حق الله تعالى، فلا يقال: تباركت! وإنما بوركت، أو بارك الله فيك، لأنه لا أحد يتبارك بنفسه إلا الله ﷻ، وأما غيره فإنما يباركه الله تعالى.

والبركة: ثبوت الخير ودوامه وكثرته، فمعنى: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾، أي: كثر خيره وإنعامه، وعم إحسانه وإفضاله ﷻ.

وقـرن ربنـا تباركـه ﷻ بصفـة الملـك، وهـذا يفيـد أن خلقـه وتصرفه فيـه بما شـاء، مـن الأحكام القدريـة، والأحـكام الدينية، كلها خـير صادرة عـن حكمته ﷻ، فالـشر ليـس إليـه، بـل الـشر في حكـم غـيره، وفي بعـض مخلوقاته، الـتي هي تحت قدرتـه، لا تخـرج عنهـا فيمـا تصـدره في الدنيـا وفي عاقبتها يـوم القيامة.

والقـدرة الإلهيـة الـتي ذكـرت في أول آيات هـذه السـورة تبعتها آيـات تؤكدها وترشـد النـاس إلى الإيمـان بهـا، فذكـر الله في السـورة خلق المـوت والحيـاة، وخلق السـماوات والأرض، وتزيـين السـماء بالنجـوم الـتي تُرجَـم بهـا الشـياطين، وخلق الجنـة والنـار، وذكـر فيها صفـة علمه، ومـن قدرتـه ﷻ أن جعل الأرض لنـا ذلولًا، وذكـر فيهـا تعذيبـه للكافريـن، وأخذهـم بجرمهم، ومـن قدرته ﷻ إمسـاك الطير في السماء.

وقدرتـه تعـالى تُفصح عـن المُلـك الذي بيده، فهـو مُلك كامل، أمـا مُلك غيره فناقـص كمـا لا يخفـى، والذي جعلهم ملـوكًا مالك الملك سـبحانه، قـال ربنا: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران].

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾، والله تعـالى خالـق كل شيء لكنه خـصَّ الموت والحياة ليُبـيّن الغايـة التي مـن أجلها أوجـد الخليقـة، ألا وهي الابتلاء والاختبـار، وفي ذيل ذلـك تذكـير؛ لئلا يغفل الإنسـان عـن المصـير الذي ينتظـره، فالحياة ذُكـرت لنعلم أن الغايـة منهـا تحقيـق العبـادة لله، وأتبعهـا بذكـر المـوت، وهو المصـير الذي ينتظر كلَّ حي، فـإذا مـات ابـن آدم فقـد قامـت قيامته، ولهـذا قال بعـد ذلك: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾.

وقـدَّم المـوت على الحياة لأنـه يحمـل على العمل والاسـتعداد لليوم الآخـر، وفيه تنبيـه على أنـه مخلـوق، فيكون أمـرًا وجوديًا.

وقيل: قدم الموت على الحياة؛ لأنه الأصل، قال ربنا: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾ [الإنسان].

وقوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، تكرر في القرآن، قال ربنا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]، وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾ [الكهف]. فالابتلاء هو الغاية من الخلق، وليست العبرة بكثرة العمل، وإنما بحُسنه، وتحسينُه يكون بالإخلاص لله فيه، وموافقة السنة، فكثرةُ العمل خير إذا أُخلص فيه ووافق الشرع، ففي الصحيحين، عن عَبد الله بنِ عَمرو ﷺ، قالَ: أُخبرَ رَسُولُ الله ﷺ، أَنّي أَقولُ: والله لَأَصُومَنَّ النَّهارَ، وَلَأَقومَنَّ اللَّيلَ ما عشتُ، فَقُلتُ لَهُ: قَد قُلتُهُ بِأَبي أَنتَ وَأُمّي، قالَ: «**فإنَّكَ لاَ تَستَطيعُ ذَلكَ، فَصُم وَأَفطر، وَقُم وَنَم، وَصُم منَ الشَّهرِ ثَلاَثَةَ أَيّام، فَإنَّ الحَسَنَةَ بعَشرِ أَمثالها، وَذَلكَ مثلُ صيام الدَّهر**»، قُلتُ: إنّي أُطيقُ أفضَلَ من ذَلكَ، قالَ: «**فَصُم يَومًا وَأَفطر يَومَين**»، قُلتُ: إنّي أُطيقُ أفضَلَ من ذَلكَ، قالَ: «**فَصُم يومًا وَأَفطر يومًا، فَذَلكَ صيامُ داوُدَ ﷺ، وَهُوَ أَفضَلُ الصّيام**»، فَقُلتُ: إنّي أُطيقُ أفضَلَ من ذَلكَ، فَقالَ النَّبيُّ ﷺ: «**لاَ أَفضَلَ من ذَلكَ**»(١).

ويدل لهذا المعنى حديث آخر، قال نبينا ﷺ: «**إذا نَعَسَ أَحَدُكُم وَهُوَ يُصَلّي فَليَرقُد، حَتَّى يَذهَبَ عَنهُ النَّومُ، فَإنَّ أَحَدَكُم إذا صَلَّى وَهُوَ ناعس، لاَ يَدري لَعَلَّهُ يَستَغفرُ فَيَسُبُّ نَفسَهُ**»(٢).

فالإكثار من العمل الصالح مطلوب، لكن بغير مخالفة للسنة، والأَولى إتقان العمل وإن قل، والمداومة عليه.

---

(١) البخاري (١٩٧٦)، ومسلم (١١٥٩).
(٢) البخاري (٢١٢)، ومسلم (٧٨٦).

وأما الإكثار المشروع مع الإحسان فمرتبة أعلى، وقد كان الصحابة مكثرين من فعل الخير، وإمامهم الصديق ﷺ، وأُنبّهُ هنا إلى كلمة تتردد على الألسنة لا تخلو من نظر، وهي: «ما سبقهم أبو بكر بكثرة صيام أو بكثرة صلاة، ولكن بشيء وقر في قلبه»! وقد يروي بعضهم هذا مرفوعًا إلى النبي ﷺ، ولكن الصحيح كما نبه ابن القيم في المنار المنيف أن هذا من كلام أبي بكر بن عياش[1] ؓ، والصحيح أنه سبقهم بكثرة العمل، وكمال الإيمان، ومما يُبينَ ذلك: أن النبي ﷺ سأل يومًا أصحابه: «**من أصبح منكم اليوم صائمًا؟**» قال أبو بكر: أنا. «**من أصبح منكم اليوم تصدق على مسكين؟**» يقول أبو بكر: أنا. يقول: «**من عاد مريضًا؟**» يقول أبو بكر: أنا. يقول: «**من تبع جنازة؟**» يقول أبو بكر: أنا[2]، وبذله في أمور المسلمين وحاجات الناس معروف، وكذلك سبقه ؓ وأرضاه.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ٣﴾، فخلق السماوات خلق بديع، وهذا يرشد إلى أهمية إتقان العمل، فالله كتب الإحسان على كل شيء، ويحب إذا عمل أحدُنا عملًا أن يتقنه.

فتأمل في هذا النظام الدقيق، ومن آثاره: أن علماء الفلك يستطيعون معرفة زمان شروق الشمس بعد مئة عام، لأن الكون يسير بنظام دقيق، لا اختلال فيه بوجه من الوجوه.

ثم يقول: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖ﴾ أي من تباين أو خلل، فلا فوضى في صنع الله تعالى، بل أحسن كل شيء خلقه ﷻ.

---

(١) انظر المنار المنيف ص(١١٥)، وأما المرفوع فمن أحاديث الإحياء قال العراقي: لم أجده مرفوعاً. وعند بعضهم مسند من قول أبي بكر بن عبد الله المزني، انظر المقاصد الحسنة ص(٥٨٤).

(٢) مسلم (١٠٢٨).

﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ٤﴾ وفي هذا الخطاب تقريع للمشركين: أين ذهبت عقولكم؟ أين أفئدتكم؟ أليست مظاهر قدرة الله تعالى بادية في هذه السماوات؟ أليس هذا موجبًا للتصديق والإذعان بالبعث بعد الابتلاء في هذه الحياة؟!

وقوله: ﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ﴾، ليس المقصود بكرتين مرتين، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «مرة بعد مرة»[1]. فيكرر النظر مرارًا ويتأمل ليتحقق اليقين فيما أخبر به الله تعالى.

﴿يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ﴾، الخاسئ: الخائب الذي لم يظفر بما طُلب منه على جهة التحدي، والحسير: الكليل المتعب.

وما أكثر التذكير بآية السماء والأرض في كتاب الله تعالى! ثبت عن عَبد الله بن عَبّاس رضي الله عنهما، أَنَّهُ رَقَدَ عندَ رَسُول الله ﷺ، فاستَيقَظَ فَتَسَوَّكَ وَتَوَضَّأَ وَهُوَ يقول: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠﴾ [آل عمران] فَقَرَأَ هَؤُلاء الآيات حَتَّى خَتَمَ السُّورَةَ[2].

﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾، والنجوم خلقت لثلاثة أشياء: لتكون زينة للسماء، قال ربنا: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ٦﴾ [الصافات]، وهذا يدل على أن من الإتقان المحمود العناية بتزيين الأشياء وتجميلها. وخلقت النجوم كذلك لتكون رجومًا للشياطين، ولهذا قال في هذه الآية: ﴿وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾، وفي موضع آخر: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ٦ وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ٧﴾ [الصافات]. والأمر الثالث: أنها علامات يُهتدَى بها. قال ربنا: ﴿وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ١٦﴾ [النحل].

---

(١) تفسير البغوي (١٧٦/٨).
(٢) البخاري (١٨٣)، ومسلم (٧٦٣).

الآيات (٦-١١)

وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟
فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ
كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ
قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا
فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ
ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾﴾، بعد ذكر آيات ترشد إلى الله ناسب أن يأتي حديث عمن لم ينتفع بها ممن كفر بالله تعالى.

وقوله: ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾﴾ يفيد إهانتهم؛ فدخولهم ليس كدخول الأسوياء وإنما رمي وإلقاء، وقوله: ﴿سَمِعُوا۟﴾ فيه تنبيه على رعب ينتابهم قبل صليّها؛ فهم يرونها ﴿تَفُورُ﴾ أي تغلي، ويسمعون شهيقها، والشهيق صوت يشعر بانغماسهم في دركاتها، بخلاف الزفير الذي يُشعر بصعود وخروج.

وهذه النار التي توعدهم الله بها، قال عنها: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾﴾، وهذا يدل على أن للنار إدراكًا، فإنها تُكلّم ربها، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾ [ق].

﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾، قال ابن كثير ﷺ: «يكادُ ينفصلُ بعضُها من بعض؛ من شدَّة غيظها علَى مَن كَفرَ باللهِ»[١]. فالنار تغتاظ غضبًا لله ﷻ.

﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾، وهذه الآية تدل على أن ربنا سبحانه لا يُعذّب أحدًا إلا بعد بيان الحجة، كما قال سبحانه: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الإسراء]. ولذلك كان الصحيح من أقوال أهل العلم: أن الجهل إذا كان غير ناشئ عن استكبار أو تقصير؛ كالإعراض لهوى، أو إيثار للدنيا، فهو عذر، وقد ثبت عَن أَبي ذَرَ الغفاريَ ﷺ، قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إنَّ اللهَ قَد تَجاوَزَ عَن أُمَّتي الخَطَأَ، والنّسيانَ، وَما استُكرهُوا عَلَيه»[٢]. والجهل يلحق بالخطأ.

وقوله: ﴿ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ ﴾ تصوير لإقرارهم الذليل لمّا عاينوا العذاب الأليم، ولاعترافهم بجنايتهم على الرسل، ولكن بعد فوات الأوان.

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ ﴾، وا لآية دليل على أن للهداية وسيلتين: السمع، والعقل. ولذا قال المشركون في اعترافهم: ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾. قد يقول قائل: أليس للكفار عقول؟ والجواب: لهم عقول ولكن لا يفقهون بها، ولهذا قال الله عنهم: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [الأعراف]، والعقل الذي نَفَوه هنا هو فعلهم، مصدر عَقَلَ يَعقِلُ عَقلًا، فالقوة المدركة كانت عندهم، لكنهم لم يستعملوها في تَفَهُّم ما جاءت به الرسل، بل جعلوها في معاندتهم، والاعتراض عليهم.

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/٩٦).
(٢) ابن ماجه (٢٠٤٣)، وصححه الألباني ﷺ في الإرواء (٢٠٦٢).

﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١١﴾، اعترفوا ولكن بعد فوات الأوان، وجميل أن يعترف المرء بخطئه في زمن المُهلة؛ ليُصلح من حاله قبل أن يأتي أوان لا يفيد فيه الاعتذار، ولا ينفع فيه الندم.

وسُمُّوا بأصحاب السعير لملازمتهم لها، فالمصاحبة الملازمة، فمن لازم كتاب الله فهو صاحب القرآن الذي نطقت كثير من الأحاديث بعلو رتبته، ومن أعرض عنه صاحَبَ غيره من الأغراض المُردية في النار.

الآيات (١٢ـ١٨)

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿١٢﴾﴾، أي: يخشونه إذا غابوا عن أسباب علم الناس.

واشتملت الآية على بيان ثمرتين لمراقبة الله تعالى، وهما: المغفرة، والجنة. ومن ثمرات ذلك أيضًا:

(١) حلاوة الإيمان:

فعن عبد الله بن معاوية ﵁ قال: قال النبي ﷺ: «**ثلاث من فعلهنَّ فقد طَعم طعمَ الإيمان: مَن عَبد اللهَ وحدَه وأنه لا إله إلا الله. وأعطى زكاة ماله طيبةً بها نفسُه، رافدةً عليه كلَّ عام، ولا يعطي الهرمَة، ولا الدَّرنَة، ولا المريضة، ولا الشَّرَط اللئيمة، ولكن من وسط أموالكم، فإن الله لم يسألكم خيره ولم**

يأمركم بشره. وزكـى نفسـه». فقال رجـل: وما تزكيـة النفس؟ فقـال: «أن يعلم أن الله ﷻ معـه حيـث كان»(١).

وعلمُـك بـأنَّ الله معـك يعـني مراقبتـك لله، فمـن فعـل ذلـك وجـد حـلاوة الإيمـان بـالله.

(٢) البعد عن المعصية:

قـال نبيُّنـا ﷺ: «**قالـت الملائكـة: ربِّ! ذاك عبـدك يريـد أن يعمل سـيئة (وهو أبـصر بـه) فقـال: ارقُبُوه، فـإن عملهـا فاكتبوهـا له بمثلهـا، وإن تركهـا فاكتبوها له حسـنة. فإنه تركهـا من جَـرّاي**»، أي: مـن أجلي(٢).

قـال ابـن القيـم ؒ: «وأربـاب الطريـق مُجمعـون على أن مراقبـة الله تعـالى في الخواطـر سـبب لحفظهـا في حـركات الظواهر، فمـن راقـب الله في سره حفظه الله في حركاتـه في سره وعلانيتـه»(٣). وذلـك أنَّ الشـيطان إذا لم يُسـتجب له في أمر معصية فإنـه يدعـو إلى طرقهـا وذرائعهـا، ومبدأ ذلك فكـرة يُلقي بها في رُوعـك، فإذا حرس الإنسـان خاطـره، وألـقى عنـه وسـاوس عـدوّ الله فقـد قطع عليـه السـبيل، وجعل بينـه وبينـه حاجـزًا فلم يحـظ بمراده منـه. وقيل لبعضهـم: متى يهش الـراعي غنمه بعصـاه عـن مراتع الــهَلَكة؟ فقـال: إذا علم أنَّ عليـه رقيبًا(٤).

(٣) تحسين العبادة وأداؤها على أكمل وجه:

فـإن نبينـا ﷺ ذكر تعريف الإحسـان بقـوله: «**أن تعبـد الله كأنك تـراه، فإن لم تكـن تـراه فإنـه يـراك**»(٥). فالمرتبـة الأولى عبادة شـوق وطلـب، فإن تعـذَّر عبدتَ عبـادة خـوف وهرب. فالحديث صريـح في أن مراقبـة الله تدعو إلى تحسـين العبادة.

---

(١) أبو داود (١٥٨٢)، هو في صحيح الجامع (٣٠٤١).
(٢) مسلم (١٢٩).
(٣) مدارج السالكين (٢/٦٦).
(٤) إحياء علوم الدين للغزالي (٤/٣٩٦).
(٥) البخاري (٥٠)، ومسلم (٨).

قال ابن منظور ﷺ: «من راقب الله أحسن عمله»(١).

(٤) الإخلاص:

قال الحسن ﷺ: «رحم الله عبدًا وقف عند همّه، فإن كان لله مضى، وإن كان لغيره تأخَّر»(٢).

(٥) الطهر والعفاف:

ففي حديث الثلاثة الذين سدت الصخرة عليهم مدخل الكهف وتوسَّلوا إلى الله بصالح أعمالهم قال أحدهم: «**اللهُمَّ كانت لي بنت عمّ كانت أحبَّ الناس إليَّ، فأردتُّها عن نفسها فامتنعت مني، حتى ألمَّت بها سنة من السنين فجاءتني فأعطيتها عشرين ومئة دينار على أن تُخلّي بيني وبين نفسها، ففعلت، حتى إذا قَدَرتُ عليها قالت: اتَّق الله ولا تفُضّ الخاتم إلا بحقّه، فتحرَّجتُ من الوقوع عليها، فانصرفتُ عنها وهي أحبُّ الناس إليَّ، وتركتُ الذهب الذي أعطيتُها. اللَّهُمَّ إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك فافرُج عنا ما نحن فيه. فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها...**»(٣).

وإذا ذُكرت مراقبة الله وما تفضي إليه من طُهر وعفاف ذُكر الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم؛ يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام. فلقد راودته امرأةُ العزيز وكانت ذات منصب وجمال ـ على ما قاله أهل التفسير ـ وهي سيدته، وجاء الطلب منها(٤)، وألحفت في مسألتها، وكان المكان خاليًا، ويوسف ﷺ يسكن بيتها، وغلقت الأبواب؛ فأمنا من عامل

---

(١) لسان العرب (١٣/١١٥).
(٢) إغاثة اللهفان لابن القيم، ص (٣٩٢).
(٣) البخاري (٢٢١٥)، ومسلم (٢٧٤٣).
(٤) بعض الفسقة قد يشتهي امرأة معينة، فيصده عنها توقُّعُ رفضها، فهذه أمنها يوسف ﷺ بأن كان الطلب وإبداء الرغبة منها.

المفاجأة فلا يدخل أحد عليهما، وكان الكريمُ ﷺ شابًّا قويًا، والأنبياء من أقوى خلق الله، وكان أعزب لا زوجة له، غريبًا، والغريب لا يحتشم احتشام غيره، والمرأة توعَّدته وهدَّدته، مع ذلك كله: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾[يوسف]. قال ابن الجوزي ﵀: «يوسف ﷺ لو كان وافق هواه، من كان يكون»؟[١].

(٦) الجنة:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١٢﴾.

ولهذه الثمرات قال ابن عطاء ﵀: «أفضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الأوقات»[٢].

وقُدّمت المغفرة على الأجر؛ لأن التخلية قبل التحلية، فتأتي المغفرة، فإذا نُقُّوا من ذنوبهم دخلوا الجنة.

والخشية ثمرة العلم، والغاية منه، فقد «ذُكرَ مَعرُوف عندَ الإمام أَحْمَدَ فَقيلَ: قَصيرُ العلم. فَقالَ: أمسك! وَهَل يُرادُ منَ العلم إلّا ما وَصَلَ إلَيه مَعرُوف؟»[٣].

ثم لما ذكر ما أعده من الثواب لأهل خشيته بالغيب ذكَّر العباد بأنه الرقيب عليهم العليم بما هم عاملون، فقال تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٣﴾، فالسر عند ربنا علانية.

والجهر بالقول معروف، والسر ما يكون بصوت خافت لا يسمعه غير المتحدث ومن يهمس إليه بحديثه، وأما ما هو أخفى من ذلك فحديث النفس، قال ربنا: ﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ٧﴾ [طه].

---

(١) صيد الخاطر، ص (١٣٧).
(٢) الإحياء (٣٩٧/٤).
(٣) سير أعلام النبلاء (٨٦/٨).

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾؟ بلى، قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي ﵀: «﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ الذي لطف علمه وخبره، حتى أدرك السرائر والضمائر، والخبايا والخفايا والغيوب، وهو الذي ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾، ومن معاني ﴿اللَّطِيفُ﴾، أنه الذي يلطف بعبده ووليّه، فيسوق إليه البر والإحسان من حيث لا يشعر، ويعصمه من الشر، من حيث لا يحتسب، ويُرقّيه إلى أعلى المراتب، بأسباب لا تكون من العبد على بال، حتى إنه يذيقه المكاره، ليتوصل بها إلى المحابّ الجليلة، والمقامات النبيلة»(١).

و﴿الْخَبِيرُ﴾: العليم ببواطن الأمور؛ فباطنها وظاهرها في علمه سواء.

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ الذي خلق ماذا؟ خلق الإنسان وجعل فيه المدارك، فهو يعلم أسراره وما يكون فيه، ويعلم بمخالفته لأمره، كما يعلم أن في الأمر مصلحته، وفي النهي خلافها، فالذي خلق أعلم بخلقه وما يصلحهم، فوجب أن يُلتزم أمرُه ويُجتنب نهيُه.

ومما يتعلق بهذا المعنى أن يُعلم أن الإصلاح لا بُدَّ له من علم وخبرة، فإصلاح أحوال نفسك وبيتك والناس تحتاجُ إلى اللطف والخبرة، قال ربنا عن أهل الكهف: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ [الكهف: ١٩]، أي: وليتلطف في شرائه مع البائع حتى لا ينكشف أمرهم، فالأمور تحتاج إلى أن نأخذ فيها بلطف ليسهل علاجها، وإلا عسر ذلك ولم يكن إلى حل إشكالاتها من سبيل.

(١) تفسير السعدي، ص(٨٧٦).

وقال ربنا: ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [يوسف]، ففي التحسس معنى التلطف والرفق. وثبت عن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ، قال: «**إنَّ الرِّفقَ لا يَكُونُ في شَيء إلّا زانَهُ، وَلا يُنزَعُ من شَيء إلّا شانَهُ**»(١). وكم من زوج وقعت مشكلة في بيته، فبدلاً من حلها بعلم وحكمة ورفق وقع فيما هو أسوأ منها! ﴿ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وأذكر أني قابلت رجلًا كان ابنه يصلي أحيانًا في المسجد، وأحيانًا في المنزل، فطرده من البيت بدلًا من أن يرفق به! وهذا ليس سبيل إصلاح، فمثل هذا عُرضة لأن يغرق في بحر المعاصي، فبدلًا من معصية واحدة يُرجى زوالها بالموعظة الحسنة أحاطت الظلمات به - بعد طرده - من كل جانب!

وبلغني أن رجلًا كان يسير في الطريق العام، وصوت الغناء يرتفع من آلة معه، فأنكر عليه أحد بانتهار، فلم يستجب، بل زاد من رفع صوت الغناء! ثم لامته نفسه على عنفه، فرجع إليه، وترفَّق به، فما كان منه إلا أن استجاب لوعظه، ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ [النحل: ١٢٥].

ثم قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾، فمن نعمة الله تعالى أن سخر الأرض صالحة لحياة البشرية على ظهرها، ولو شاء ربك لاضطربت بأهلها فلم تستقر فيها قدم.

---

(١) مسلم (٢٥٩٤).

﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾، والرزق العطاء، دخل في هذا كل متقوم يؤكل، وقد يكون الأكل كناية عن استهلاكه فيدخل سائر الرزق المأكول والملبوس والمنتفع به، والرزق أعم من ذلك، قال ربنا: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢١٢)﴾ [البقرة]، فجعل الله نَيل الرُّتَب العالية في الجنة رزقًا.

﴿وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾، وكل ما أكلت فمن رزق الله، وبهذا تستدل على خطأ قول من يقول: فلان قطع رزقي! فلا يملك أحد ذلك إلا إذا كتب ذلك، ولو قُدّر لك رزق يصيبك لأصابك.

والأمر بالمشي في مناكبها أمر باتخاذ الأسباب، وهذا لا ينافي التوكل على الله، وهنا ثلاث مسائل تتعلق بالأسباب تحسن الإشارة إليها؛ لمناسبتها:

● الأولى: أن اتخاذها لا ينافي التوكل كما مر معنا، وفي الحديث: «**اعقلها وتَوَكَّل**»(١). وفي حديث عمر ﷺ، قال: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لو أَنَّكُم كُنتُم تَوَكَّلونَ عَلَى الله حَقَّ تَوَكُّلِه لَرُزِقتُم كَما يُرزَقُ الطَّيرُ تَغدُو خِماصًا وَتَرُوحُ بِطانًا**»(٢)، فذكر لها غُدوًّا ورَواحًا تبتغي فيه الرزق.

● الثانية: أن عدم اتخاذ الأسباب قدح في العقل، أرأيتم لو قال زيد: أرجو أن يُولد لي بدون زواج، أيكون عاقلًا؟

● الثالثة: يجب ألا يتعلق القلب بالأسباب، بل بمسبّبها سبحانه، فلو شاء الله لحال بين السبب وأثره، فالله تعالى هو الذي حال بين نار إبراهيم ﷺ وبين حرقه بها، وهذا يدل على أن القلب لا ينبغي أن يتعلق إلا بالله تعالى،

---

(١) الترمذي (٢٥١٧)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٠٦٨).
(٢) الترمذي (٢٣٤٤)، وصححه الألباني في السلسلة (٣١٠).

وكم ممن يبذلون الأسباب ثم لا ينالون مبتغاهم، وفي المقابل كم ممن يرزقون من حيث لا يحتسبون، ييسر الله لذلك أسبابًا ما علموها.

ثم قال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦﴾، ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، وهو الله، والسماء العلو، أو هي السماء المخلوقة وتكون في بمعنى على، وقوله: ﴿أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾، أي تضطربُ وتهتز بشدة[1]، وقد يخسف بأهلها كما خسف بقارون، فمَن أمَّنكم من عذاب الله؟ وتوجيه مثل هذه الأسئلة يُحيي ضميرَ العاقل.

﴿أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ١٧﴾، كما فعل بأصحاب الفيل، فقد أرسل عليهم حجارة من السماء، فلا ينبغي أن يأمن أحد مكر الله تعالى، ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩٩﴾ [الأعراف].

ثم أعلمهم ﷺ محققًا باللام أن الأمن من العقوبة غرور، وذلك بتعجيب وسؤال إنكار عن أخذاته السالفة والمَثُلات الخالية، وما حلَّ بالأقوام الماضية من العقوبات بنكير الله عليهم تكذيبَهم أو إعراضهم وعنادهم، فقال: ﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ١٨﴾.

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٨٠/٨).

الآيات (١٩ ـ ٢٤)

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَـٰٓفَّـٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا
الرَّحْمَـٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَـٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ
يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَـٰنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَـٰذَا
الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن
يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾
قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا
مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَـٰٓفَّـٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَـٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾، عاد السياق إلى ذكر مظاهر تدل على قدرة الله، وتأمَّل في تنوُّع أساليب القرآن الكريم، وتصريف الآيات لهداية الناس! وهذا يدلُّك على رحمة الله وإرادته للخير لهم، ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧]، فيضرب الأمثلة، ويُهدِّد بالعقوبة، ويُرغِّب في الخير، كل ذلك بأساليب متنوعة؛ ليؤمنوا، وهو لا يحتاج إلينا، بل هو الغني عن العالمين، فما أرحم ربنا بنا!

ومثل هذه الأساليب في الطرح يجدر بالداعية أن يعنى بها؛ تأدُّبًا بأدب القرآن الكريم، وحرصًا على استجابة الناس إلى الهدى، وإعذارًا إلى الله تعالى.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَـٰٓفَّـٰتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾، وليس خافيًا أن ﴿صَـٰٓفَّـٰتٍ﴾ اسم، والاسم يدل على الاستقرار، فهذا هو الأصل في الطير،

أنها تكون صافةً أجنحتها، والقبض استثناء، والفعل ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ يدل على التجدد، لكنه ليس بأصل، بل الأصل الحال التي دل عليها الاسم.

﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ﴾، أي من رحمته ﷻ خلقُ ذلك وتقدير أسبابه، وهذه آية عجيبة إذا تفكرنا فيها، ولكن الإلف يُبلّد المشاعر كما قيل!

وقوله: ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾، يفيد أن الذي اقتضى ذلك رحمته، فالرحمة: إيصال المسارّ، ودفع المضارّ.

﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾، بصير «بما يصلح كل شيء من مخلوقاته»، كما قال ابن كثير[1] رحمه الله.

وقوله: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (٢٠)﴾، يغرس في النفوس عقيدةً أكدتها آيات أُخر، كقوله تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦)﴾ [آل عمران]. وهذا لا ينافي الأخذ بالأسباب كما مر معنا، فالله تعالى قال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وذكر اسم الرحمن هنا دليل على أن نصره لأوليائه من آثار رحمته بهم، فيدفع عنهم تسلُّط عدوهم بظهورهم ونصرهم، وهذا من رحمته بهم.

﴿إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾، في غرور من الشيطان، يغرهم بقوتهم، ويُمنّيهم النصر.

فالمجاهد العاقل يعلم أن النصر بيد الله، ولا يعتمد على قوته وما بيده من أسباب، أو قوة إخوانه، ولا يغره شيء من ذلك، فالنصر بيد الله، وقد قال ربنا: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦)﴾ [التوبة]. فالصحابة ﷺ أعجبوا بكثرتهم،

(١) راجع تفسيره (٨/١٨٠).

فهُزمـوا في أول الأمـر، وانتصروا في بدر وهم قلـة، ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، كل ذلـك لئـلا يتعلـق القلـب بالكـثرة، ولا بـشيء من الأسـباب التي تُتَّخـذ، مـع وجـوب اتخاذهـا عنـد القـدرة عليهـا، ولكنها تُتَّخـذ مـع الاعتماد على مسـبّبها، لا عليها.

ثم قال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ ﴾، أي: تمادوا في الإعراض عن الحق.

والإعـراض عـن الخير مذموم، ومن شُـكر نعمـة الله على ما رزقنـا أن نُقبل على الحـق علمًـا وعملًا، وينبـغي أن نُقبل على مـن يُذكّرنا بالله في كل وقـت، ما لم يكن للإنسـان شـاغل يمنعـه مـن ذلـك، فبعـض الإخـوة كلما قـام أحـد ليذكـر الناس انـصرف ولـم يجلـس، وهذا ممـا لا ينبغي، فالمرء لـن يَعدَمَ فائـدة ممن يُذَكّـر بالله ولو كان أقـل منـه علمًـا، ولو احتسـب الأجر وبـقي لكان غُنمًـا يُبتغى.

ثـم قـال تعـالى: ﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ ﴾، وهـذه الآيـة تـدل على أن النـاس رجلان: مؤمن يسـير على هـدى من الله مسـتقيم على صراطـه، وآخـر يمـشي مكبّـا على وجهـه، يعـثر كل سـاعة، ويقـع على وجهه كل حـين، وهـذه حـال كل مـن كفـر بالله فـلا يكـون على هدى مسـتقيم. قـال ربنا في آيـة أخرى: ﴿ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [هود].

ولله ﷻ صراطـان: صراط في الدنيـا، وصراط في الآخـرة ينصـب على مـتن جهنـم، فمـن حسُـن سـيره على الصراط المسـتقيم حسـن عبوره على صراط الآخـرة، ومن تنكب الـصراط هنـا كانـت الكلاليـب على جانـبي الجسر أولى بـه، ﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [النبأ].

ثم قال ﷻ مذكرًا بنعمه الموجبة للشكر: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾، وخص السمع والبصر -من جملة نعمه الكثيرة- لأنها أكثرُ الحواس نفعًا، وهي من أسباب الهداية. قال ربنا: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف].

وقدم السمع والبصر على الفؤاد؛ لأنه لا يمكن أن يصل الحق إليه إلا عن طريقهما، وقدم السمع؛ لأنه أكثرُ نفعًا من البصر، فكم من عالم لا يبصر! ولكن لا يكون عالمًا من لا يسمع، إلّا إن كان فقد السمع في كبره.

والسؤال: هل شكرنا هذه النعم؟ أو هل نستخدمها في طاعة خالقها؟ إن من شكر الله طاعته بها، وعدم جعلها أداة للمعصية، وقليل من الناس من يشكر الله تعالى فلا يستعين بها على معصيته، ولذا قال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾. وهذا كقول ربنا: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ].

وتأمل في تربية هذا الآية على الحرص على عدم الولوغ في الأعراض بإطلاق الأحكام الجائرة، ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾، ولم يَنفِ عنهم أصل الشكر، مع أن شكر عامة الخلق ليس بشيء إزاء تلك النعم.

الآيات (٢٥ ـ ٣٠)

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ
عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ
وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ
﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن
يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ
ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾
قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾

لما ذكر ﷻ نعمه العظيمة وآلاءه الجسيمة وأنكر قلة شكرها، أخبر ما يفيد بأن ليس للمشركين حجة في التكذيب إلّا الجهل، والاعتراض بالسؤالات التي ليس وراءها طائل، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾﴾، وهذا سؤال لا يُؤثّر في المطلوب منهم! إذا كان الوعد اليوم أو غدًا أو بعد خمسة آلاف سنة فالواجب أن تُبادر بأداء المطلوب، وهذا الجواب يدل على أن مهمتنا: البلاغ وقول الحق، أما الهداية فهي بيد الله ﷻ، وليس علينا أن نتكلف جواب ما لا نعلم، ولا أن نبحث عما لا فائدة فيه ولا طائل وراءه لمجرد أنا سئلنا عنه!

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، والتعبير بالماضي في مثل هذه الآيات لتحقق وقوع ما جاء فيها، فكأنها صارت واقعًا، ومضى عليها أمد، فكانت صالحة للحديث عنها بالأفعال الماضية.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾، فلكل امرئ أجل، ولا مجير له من عذاب الله تعالى إن بلغه ولم يعمل بما أمر.

وهذه الآية تعزز مبدأ الحوار، والحوارات في كتاب الله تعالى كثيرة مع سخافة اعتراضات المشركين وأقاويلهم، ومع ذلك لم يكن التوجيه بتركهم أو تعنيفهم وعدم الالتفات إليهم، بل بمجادلتهم ومحاورتهم التي تنفع من شاء الله هدايته منهم.

ثم قال تعالى مقررًا الجواب الذي لا يملك كافر دفعه: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾، الذي يجير من العذاب هو من أدعوكم إليه، وسماه باسمه الرحمن تحبيبًا وتأليفًا، فهو يُشعرهم بأنهم إذا عادوا وراجعوا الحق رحمهم. وقد ذكر في معرض هذا التقرير خصلة من خصال الإيمان، وهي: التوكل على الله تعالى، قال ربنا: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة]، والله تعالى وكيل المؤمن الذي صدق بالحق وعمل به، فيهيئ له ما يصلحه ويدفع عنه ما يضره، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾ [النساء].

وبعد أن خوّفهم الله تعالى من العاقبة بعد موتهم، خوّفهم من الأخذ بالعقوبات في الدنيا فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾﴾، وهم يعلمون أنه لا يأتي بالخير غير الله ﷻ، فوجب أن يطيعوه. وهنا لطيفة ذكرها الزمخشري في الكشاف، فقال: إن رجلًا سمع هذه الآية ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾﴾، فقال: تأتي به الفؤوس والأموال، فأذهب الله ماء عينيه[1].

(١) راجع: الكشاف (٥٨٣/٤).

وقـد ذكـر صالـح ابـن الإمـام أحمـد رحمهمـا الله أن أبـاه كان إذا أخـرج المـاء بالدلـو، حَمِـدَ الله، فلمـا تكـرر منه ذلك سـأله ابنه، فقال: ألسـت تقرأ يـا بني: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ۝٣٠ ﴾؟

فهـذه نعمة من نعم الله تعالى، والواجب شـكرها، وشـكر سـائر النعـم بالطاعة والانقيـاد إلى شريعته ﷺ.

سُورَةُ القَلَمِ

بين يدي سورة القلم

هذه السورة المباركة مَلأى بالدروس والعبر والفوائد والاستنباطات والأحكام، وفيها خلاف هل هي مدنية أو مكية؟ والأكثر على أنها مكية[1].

أسماؤها:

سميت بسورة «القلم»، و «﴿نٓ﴾»، و«﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ﴾»[1].

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كلمها ثَلاث مئة كلمة، وحروفها ألف ومئتان وَستَّة وَخَمسُونَ حرفًا، وَهِي خَمسُونَ وآيتان في جَميع العدَد لَيسَ فيها اختلاف»[2].

موضوعاتها:

- إبطال مطاعن المشركين في النبي ﷺ.
- إثبات كمالاته ﷺ في الدنيا والآخرة.
- ذمُّ زعماء المشركين مثل أبي جهل والوليد بن المغيرة بمَذمّات كثيرة، وتوعُّدُهم بعذاب الآخرة، وببلايا الدنيا.

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/٥٧).
(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٥٢).

● بيـان أن آلهـة المشركـين لا تغـني عنهـم شـيئًا مـن العـذاب في الدنيـا ولا في الآخرة.

● بيان حال المؤمنين المتقين، وأن الله اجتباهم بالإسلام.

● أمـرُ رسـوله ﷺ بالصـبر في تبليغ الدعـوة، وألا يضجرَ من ذلـك ضجرًا عاتب الله عليه نبيـه يونس[1] ﷺ.

مقصدها:

نزلـت هـذه السـورة المباركة تأنيسًـا وتسـليةً وتثبيتًا. تأنيسًـا لنبينـا ﷺ بتزكية عقلـه وخلقـه، وبوعد ربه له بالأجر، وتسـليةً له بسـبب ما لقيه مـن أذى المشركين، وتثبيتًا لقلبـه ببيـان أن العاقبة للتقوى.

(١) التحرير والتنوير (٢٩/٥٨ ـ ٥٩).

سورة القلم: تأملات ووقفات

الآيات (١ ـ ١٦)

نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ
لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ
وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن
ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ
﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ
﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ
بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ
ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾

قال تعالى: ﴿نٓ﴾، وهو أحد الأحرف التي افتتحت بها عدد من سُوَر القرآن، وقد اختلف العلماء في هذه الأحرف المقطعة، التي وردت في القرآن في تسع وعشرين سورة، فبدأت: ص، وق، والقلم بحرف واحد. وبدأت تسع سور بحرفين، وهي: طه، والنمل، ويس، وغافر، وفصلت، والزخرف، والدخان، والجاثية، والأحقاف. وفي ثلاث عشرة سورة ثلاثة أحرف، وهي: البقرة، وآل عمران، والعنكبوت، والروم، ولقمان، والسجدة، ويونس، وهود، ويوسف، وإبراهيم، والحجر، والشعراء، والقصص. وبدأت الأعراف والرعد بأربعة أحرف، وبدأت مريم والشورى بخمسة أحرف.

ويجمع هذه الأحرف قولك: «نصُّ حكيمُ قاطعٌ له سرٌّ»، وقد وُفِّق من جمعها في هذه الجملة، فهذا مما تفسر به هذه الأحرف.

قال ابن كثير ﷺ: «لا شك أن هذه الحروف لم ينزلها ﷺ عبثًا ولا سدًى؛ ومن قال من الجهلة: إنه في القرآن ما هو تعبد لا معنًى له بالكلية، فقد أخطأ خطأً كبيرًا، فتعين أن لها معنًى في نفس الأمر، فإن صح لنا فيها عن المعصوم شيء قلنا به، وإلا وقفنا حيث وقفنا، وقلنا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]. ولم يجمع العلماء فيها على شيء معين، وإنما اختلفوا، فمن ظهر له بعض الأقوال بدليل فعليه اتباعه، وإلا فالوقف حتى يتبين. هذا مقام. المقام الآخر في الحكمة التي اقتضت إيراد هذه الحروف في أوائل السور، ما هي، مع قطع النظر عن معانيها في أنفسها؟ فقال بعضهم: إنما ذكرت لنعرف بها أوائل السور. حكاه ابن جرير، وهذا ضعيف؛ لأن الفصل حاصل بدونها فيما لم تذكر فيه، وفيما ذكرت فيه بالبسملة تلاوةً وكتابةً. وقال آخرون: بل ابتدئ بها لتفتح لاستماعها أسماع المشركين، حتى إذا استمعوا له تلي عليهم المؤلف منه. حكاه ابن جرير أيضًا، وهو ضعيف أيضًا؛ لأنه لو كان كذلك لكان ذلك في جميع السور لا يكون في بعضها، بل غالبها ليس كذلك، ولو كان كذلك -أيضًا- لانبغى الابتداء بها في أوائل الكلام معهم، سواء كان افتتاح سورة أو غير ذلك. ثم إن هذه السورة والتي تليها أعني البقرة وآل عمران مدنيتان ليستا خطابًا للمشركين، فانتقض ما ذكروه بهذه الوجوه. وقال آخرون: بل إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور التي ذكرت فيها بيانًا لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، هذا مع أنه تركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها. ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء، وهو الواقع في تسع وعشرين سورةً»(١).

(١) تفسير ابن كثير (١/١٦٠).

﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾، بعد أن أقسم بالقلم وما يسطرون، أي: وما يكتبون، جاء جواب القسم؛ ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾، هذه الجمل كلها جواب للقسم.

فما هو القلم؟ اختلف العلماء في ذلك، فبعض العلماء قال: هو القلم الذي كتبت به المقادير، وقد ثبت في جامع الترمذي قول نبينا ﷺ: «**إنَّ أوَّلَ ما خَلَقَ الله القَلَمَ، فَقالَ: اكتُب، فقالَ: ما أكتُبُ؟ قالَ: اكتُب القَدَرَ؛ ما كانَ وما هُوَ كائن إلَى الأَبَد**»[(١)]. والقول الثاني: أن المراد: جنس القلم الذي نكتب به. وقيل: هو ما تكتب به الملائكة الحفظة[(٢)]. ولا منافاة بين هذه الأقوال، ولا مانع من أن تُحمل الآية عليها كلها، ولعل هذه التفاسير من جملة التفسير بالمثال لجنس القلم الذي يشمل ذلك كله.

● وأشير هنا إلى مسألة حُقَّ لي ولغيري أن نكررها كثيرًا: هل يدل القسم بالقلم هنا على تسويغ الحلف بغير الله؟

الجواب: لا؛ فالله ﷻ يقسم بما شاء من خلقه، أما الخلق فلا يجوز لهم أن يقسموا إلا بالله وبأسمائه وبصفاته، فعن سَعد بن عُبَيدَةَ، أنَّ ابنَ عُمَرَ ﵄ سَمعَ رَجُلًا يَقُولُ: لاَ والكَعبَة، فَقالَ ابنُ عُمَرَ: لاَ يُحلَفُ بغير الله، فَإنِّي سَمعتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**مَن حَلَفَ بغَير الله فَقَد كَفَرَ أَو أَشرَكَ**»[(٣)].

فهل يجوز أن نحلف بآيات الله؟ إذا كان المراد آيات الله الكونية فلا يجوز؛ لأنها مخلوقة، أما إذا أريد بذلك القرآن فلا حرج، ولو كان مخلوقًا ما جاز القسم به، ولكنه كلام الله غير مخلوق.

---

(١) الترمذي (٢١٥٥)، وصححه الألباني في تخريج شرح الطحاوية، ص(٢٧١).
(٢) ينظر: زاد المسير (٣١٩/٤).
(٣) الترمذي (١٥٣٥)، وهو في صحيح الجامع (٦٢٠٤).

وهـل يجـوز القسـم بالمصحـف؟ يقال: مـاذا يُقصـد بالمصحـف؟ إن قصدت به هـذا الكتـاب المطبوع فلا يجـوز، أما إن قصدت بـه كلام الله فيجـوز والتعبير عنه بالمصحف خطـأ يُجتنَب.

﴿وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾، أي يخطـون ويكتبـون بالقلـم، وهذا شـأن كل قلـم، وهو يؤكد التفسـير المختار، والله أعلم.

وقـول ربنـا: ﴿وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾، قسَـم آخـر بالكتابـة، وجنسـها كذلـك شريـف يَشرُف بـه صاحبـه، ففيـه بيـان أهميـة الكتابـة، ونحـن مقـصرون في هـذا الباب. وفوائـد الكتابـة في تقييـد العلـم ونـشره والذب عنـه ظاهـرة، وكذلـك فائدتهـا في حفـظ الحقـوق، والتقصـير حاصـل في الأمرين، فكـم ندمنا على التفريـط في أمور لـم نكتبهـا! وكم نشـأت مـن خلافات بسـبب إهمال بعـض الناس كتابـة الدَّين أو توثيقـه، وهـذا أفـضى إلى ضيـاع الحقـوق، ولذا أُمرنـا في آيـة الدين بكتابتـه. ومن أهـم مـا يكتـب الوصية، وإهمـال ذلك كم أحـدث من نـزاع بين الورثـة! مع أن الوصيـة أعـم من الحقوق الماليّـة، وهي في الحقـوق الشرعية قد تكـون أعظم وأهم.

وربنا يقول: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ١٢﴾ [الانفطار]، فهم حفظة، يكتبون أعمالنا، وهذا يدل على أهمية الكتابة.

وممـا يـدل على أهميتهـا حديـث الصحيحـين، عَـن عَبـد الله بن عُمَـرَ ﭭ: أَنَّ رَسُـولَ الله ﷺ قَـالَ: «**مـا حَـقُّ امـرئ مُسـلم لَهُ شَيء يُـوصي فيـه، يَبيـتُ لَيلَتَـين إلّا وَوَصيَّتُـهُ مَكتُوبَـة عنـدَهُ**»(١). فعـلى كل منا أن يرجع إلى نفسـه بهذا السـؤال: من منـا كتـب وصيتـه؟! كم من إنسـان مـات وذمته مشـغولة بحق لبعـض الورثة لم يُقيّـده، أو بدَيـن ولـم يكتبـه، فانتقـل مـاله إلى ورثته، وضـاع بذلك حـق الدائن؟ والدَّيـن لا تكفـره حـتى الشـهادة في سـبيل الله تعالى.

---

(١) البخاري (٢٧٣٨)، ومسلم (١٦٢٧).

والكتابة صيد العلم، فكم نحضر مجالس العلماء، ولا نكتب؛ لكوننا مستوعبين لقولهم، وما هي إلا أيام وننسى، فمن سمع علمًا ولم يكتبه أو يحفظه ينسى منه قريبًا من ثمانين بالمئة كما قال بعض ذوي الاختصاص.

ولله دَرُّ القائل:

العلمُ صَيدٌ والكتابةُ قَيدُهُ قيِّد صُيودَكَ بالحبالِ الواثقه

فمِنَ الحَماقةِ أن تصيدَ غزالةً وتفكَّها بين الخلائقِ طالقه

ثم بعد ذلك يقول الله ﷻ: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢﴾، أي: «انتفى عنك الجنون بنعمة ربك، كما يقال: أنت بحمد الله عاقل»(١).

● وأُشيرُ إلى مسألة مهمة ذكرها ابن الجوزي(٢) ؒ: من المعلوم أن من أنواع التوسل المشروع: أن تتوسل إلى الله بالطاعة والعمل الصالح، كأن تقول: اللّٰهُمَّ إني أسألك بقراءتي للقرآن الكريم أن يكون كذا وكذا، لكنَّ الأَولى من ذلك أن تتوسل إلى ربك بأن هداك إلى هذا العمل الذي توسلت به، فبدلًا من أن يقال: اللّٰهُمَّ ببرّي لوالدي فرّج عني، تقول: اللّٰهُمَّ بما وفَّقتني إليه من برّ والدي فرّج عني، وليس الأول حرامًا، وقد ورد في حديث الغار، وإنما الكلام على هو أَولى. فكل خير يصيب المرء وكل سوء يدفع عنه فإنما هو بنعمة الله، ولهذا قال ربنا: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢﴾، وقال: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وفي ثناء أهل الجنة على ربهم: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]. وعندما امتنَّ الأعراب على ربهم ردَّ عليهم بقوله: ﴿لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝١٧﴾ [الحجرات]، وفي هذه السورة: ﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٥٠﴾، فصلاحك من الله، وهذا معنًى تنبغي العناية به.

---

(١) فتح القدير (٥/٣١٩).
(٢) يراجع: صيد الخاطر، ص(٣٩٣ ـ ٣٩٥).

﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣﴾، وهـذا مـن أعظـم ما يدل على فضـل الله، يَهدي عبـاده، ويُعينهـم على طاعتـه، ويصطفيهم بـأن يجعلهم في أهل اليمـين، ثم يجزل لهم في العطـاء ويثيبهم على ذلك.

فمـا معنى ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾؟ غـير منقطـع(١). ولمـاذا نعت أجـر نبينـا ﷺ بذلك؟ لأن كل مـن يعمـل عمـلًا صالحًـا مـن أمته، يكـون عملـه في ميزان حسـناته ﷺ؛ فهو الذي أرشـد إلى هذا العمل ودلَّ عليه. قال نبينا ﷺ: «**مَن سَنَّ في الإسلام سُـنَّةً حَسَـنَةً، فَلَـهُ أَجرُهـا، وَأَجـرُ مَن عَمـلَ بهـا بَعدَهُ، مـن غَـير أن يَنقُصَ مـن أُجُورهم شَيء**»(٢). وهـذا ثابـت في حـق كل مـن أرشـد غـيره إلى خـير، فأجـر المهتـدي بـه في ميزانـه مـا دام يعمل به.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾، وهـذا كذلـك من جواب القسـم، ولو شـهد ثلاثة مـن الصادقـين على أحـد بأنـه على خلـق حسـن لوُجد أنه مـن خير النـاس، فكيف بشـهادة الله تعالى؟!

وكل نـبي مـن الأنبيـاء كان على خُلـق عظيم، وقد أمـر النـبي ﷺ أن يقتدي بهم، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام: ٩٠]، فقـام بهـذه الآيـة خـير قيـام، وأخـذ مـن كل نبي سـبقه خُلُقَه، فاجتمعـت في النبي ﷺ أخلاق الأنبيـاء جميعًا، فنال هـذا الثنـاء من الله ﷻ. وفي مسـند أحمد، عَن سَـعد بن هشـام، قالَ: سَـأَلتُ عائشَـةَ ﵂، فَقُلـتُ: أَخبريـني عَن خُلُق رَسُـول الله ﷺ؟ فَقالَـت: «كانَ خُلُقُـهُ القُرآنَ»(٣).

والقـرآن مشـتمل على خلاصـة مـا في الكتـب السـابقة، والنـبي ﷺ إمـام في كل خلـق حسـن ندب إليه ربنـا فيه، فما أعظم أخلاقـه! والواجب على مـن أراد التحقُّق مـن حسـن الخلـق أن يمتثـل القرآن ويقتـدي بالنبي ﷺ، فحسـن الخلق هـو ما كان عليـه ﷺ، لا مـا يظنـه الناس مـن المظاهـر الخاوية الوافـدة من الـشرق أو الغرب.

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (٢٣/٥٢٨).
(٢) صحيح مسلم (٧٠٤).
(٣) أحمد (٢٥٣٠٢)، وصححه شعيب الأرنؤوط ﵀ في حاشيته عليه.

وقول ربنا: ﴿لَعَلَىٰ خُلُقٍ﴾، تدل على تمكُّن النبي ﷺ من الأخلاق الفاضلة، فهو متَّصف بها، متمكّن منها، كمن ركب مركوبًا وتمكَّن عليه، فهو يمضي به في سكينة وطمأنينة.

وثناء الله تعالى على نبينا ﷺ بالخلق العظيم في معرض ذم المكذبين يدل على أن حامل الحق صاحب الخلق الحسن حَريّ أن يُجاب، فأثر الأخلاق الحسنة في الاستجابة للداعية عظيم، والداعية الذي لا يتخلَّق بالأخلاق التي يدعو الناس إليها يكون أثر دعوته ضعيفًا! والدعوة بالفعال أبلغ من الدعوة بالمقال، ومما يدل على هذا المعنى أن نبينا ﷺ لما فَرَغَ من قَضيَّة الكتاب في الحديبية، قالَ لأصحابه: «**قُومُوا فانحَرُوا ثُمَّ احلقُوا**»، قالَ المسور بن مخرمة ﷺ: فَواللهِ ما قامَ منهُم رَجُل حَتَّى قالَ ذَلكَ ثَلاَثَ مَرّات، فَلَمّا لَم يَقُم منهُم أَحَد دَخَلَ عَلَى أُمّ سَلَمَةَ ﷺ، فَذَكَرَ لَهَا ما لَقِيَ منَ النّاس، فَقالَت له: يا نَبِيَّ الله، أَتُحِبُّ ذَلكَ؟ اخرُج ثُمَّ لاَ تُكَلّم أَحَدًا منهُم كَلمَةً، حَتَّى تَنحَرَ بُدنَكَ، وَتَدعُوَ حالقَكَ فَيحلقَكَ، فَخَرَجَ فَلَم يُكَلّم أَحَدًا منهُم حَتَّى فَعَلَ ذَلكَ نَحَرَ بُدنَهُ، وَدَعا حالقَهُ فَحَلَقَهُ، فَلَمّا رَأَوا ذَلكَ قامُوا، فَنَحَرُوا وَجَعَلَ بَعضُهُم يَحلقُ بَعضًا حَتَّى كادَ بَعضُهُم يَقتُلُ بَعضًا غَمًّا[1].

وإننا لنحتاج إلى الأخلاق الكريمة مع أنفسنا، وأهلنا، وأقاربنا، حتى مع أعدائنا، ومع المخالفين لنا، وفي كل شأن لنا، ولقد تأمَّلتُ في أركان الإسلام الخمسة فوجدت تعلُّقًا كبيرًا بينها وبين الأخلاق الحسنة؛ فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله من مقتضياتها الالتزام بأمر الله وأمر الرسول ﷺ، والاقتداء بالنبي ﷺ، وهذا يقتضي أن يكون المسلم على جانب كبير من الأخلاق الحسنة؛ فخلق نبينا ﷺ كان هو القرآن.

والصلاة قال الله تعالى في بيان بعض ثمارها: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. ومن الجدير بالإشارة إليه هنا: أن من أعياه

---

(١) البخاري (٢٧٣١).

أمـر معصيـة، ولم يجد سـبيلًا إلى الخـلاص منها؛ لتعلُّـق قلبه بها، فعليـه بأن يكثر مـن الصـلاة؛ فإنهـا تقـذف بغـضَ هـذه المعصيـة في قلبـه، فـلا يتعلق بـشيء منها. ومعرفـة كـمال الصـلاة يكـون بهـذا المعيـار، فمـن تكامل بعـدُه عن الفحشـاء والمنكـر تمَّـت صلاتـه وكَمُلـت، ومـن لـم تَنهَهُ صلاتـه عنها فـلا صلاة له.

وفي الزكاة قال ربنا: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، أي: تطهرهم بها من ذنوبهم، وتزكّي بها أخلاقهم[1].

وتأمل في ارتباط الصوم بالأخلاق، فعَن أَبي هُرَيرَةَ ﷺ، قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَن لَم يَدَع قَولَ الزُّور والعَمَلَ به، فَلَيسَ لله حاجَة في أَن يَدَعَ طَعامَهُ وَشَرابَهُ»[2].

وفي الحج جاءت الآية: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾ [البقرة]. وأكد النبي ﷺ ما فيها بقوله: «مَن حَجَّ لله فَلَم يَرفُث، وَلَم يَفسُق، رَجَعَ كَيَوم وَلَدَتهُ أُمُّهُ»[3].

ويؤكد هذه المعاني قوله ﷺ: «إنما بُعثتُ لأُتمم مكارمَ الأخلاق»[4].

وقـوله: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾﴾، أي: سـيعلمون مـن الضال، وأيّهـم الذي فـتن، والباء في قـوله ﴿بِأَييِّكُمُ﴾ زائـدة لتحقيق ظهور الحقيقـة إذ ذاك. وهـذه كقـول ربنا سـبحانه: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾ [القمر]. وسـتبصر في الدنيـا كذلـك هزيمـة من كذبك، وسـيبصرون ذلك وسـوف يعلمـون لمن تكون الدائـرة وكذلـك العاقبـة، وقد حـدث ذلك في بـدر وغيرها.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٤/٤٥٤).
(٢) البخاري (١٩٠٣).
(٣) البخاري (١٥٢١)، ومسلم (١٣٥٠).
(٤) رواه البزار ١٥/٣٦٤ (٨٩٤٩)، وفي مسند أحمد ١٤/٥١٣ (٨٩٥٢)، بلفظ: «صالح الأخلاق»، وصححه الأرنؤوط ينظر تخريجه ثمَّ، وهو في مستدرك الحاكم ٢/٦٧٠ (٤٢٢١)، قال الذهبي: على شرط مسلم.

ثم يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾﴾، وفي هذا ما يرشد إلى أنَّ على الإنسان ألا يعبأ بما قيل عنه، فالعبرة بحكم الله لا بحكم غيره، فلو قال أكثر الناس: إنَّ فلانًا صالح ولم يكن كذلك عند الله فإن شهادتهم لا تعني شيئًا، ولو ذمَّ الناس صالحًا، فلا يساوي ذمهم شيئًا إذا كان عند ربه مَرضيًا. فليس مهمًّا ما يقوله الناس عنك، ولكن العبرة بحُكم الله عليك، وإن كان الصالحون من الناس شهداء الله في أرضه.

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾﴾، أي: لا تلتفت إليهم؛ فإنهم كانوا يدعون نبينا ﷺ إلى موافقتهم في دينهم وعبادة آلهتهم وعدم تسفيهها. ويُؤخذ من هذه عدم المجاملة على حساب الدين، وهذا مما يُجلِّي معنى عقيدة البراء من الشرك وأهله، وأن منها عدم موافقتهم في شعائر دينهم.

وهذه قاعدة مُطَّردة، إذا عُرف الإنسان بالكذب فإنه لا يطاع، ولا يلتفت إلى قوله، والإنسان قد يكذب حتى يكتب عند الله كذابًا، ثبت في الصحيحين، عن ابن مسعود ﷺ، عَن النَّبيّ ﷺ قالَ: «**إنَّ الصّدقَ يَهدي إلَى البرّ، وَإنَّ البرَّ يَهدي إلَى الجَنَّة، وَإنَّ الرَّجُلَ لَيَصدُقُ حَتَّى يَكُونَ صدّيقًا. وَإنَّ الكَذبَ يَهدي إلَى الفُجُور، وَإنَّ الفُجُورَ يَهدي إلَى النَّار، وَإنَّ الرَّجُلَ لَيَكذبُ حَتَّى يُكتَبَ عندَ الله كَذَّابًا**»[1].

وما أكثر كذب دول الكفر، وفي بني جلدتنا من يُصدّقهم! وشر منهم في هذا الباب دولة أحفاد المجوس، ومع ذلك تجد فينا من يستأمنهم ويصدق وعودهم! والله تعالى يقول: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾﴾.

ومن تأمَّل في سورة يوسف وجد أن يعقوب ﷺ لما كذب عليه أبناؤه في المرة الأولى لم يُصدّقهم في المرة الثانية، قال ربنا: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يوسف]، هذا في

(١) البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧).

المرة الأولى، وفي المرة الثانية لما أخذ يوسف ﷺ أخاه لم يكذبوا لما أخبروا أباهم بذلك، ولكن ماذا قال لهم أبوهم؟ ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ [يوسف: ٨٣].

إن مما يجعل الكآبة تعتصر القلب أنك تجد بعض الصغار لا يصدقون آباءهم وأمهاتهم، بسبب ما جرَّبوه عليهم من الكذب، ولا يستقيم الظل والعود أعوج!

وقوله: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (٩)﴾، هذا ما تهواه أنفسهم وأنفس المبطلين في كل زمان ومكان مع دعاة الحق، وقد عملوا وبذلوا كثيرًا ـ كما يبذلون اليوم ـ لتحقيقه، والمراد: أنهم أرادوا أن يعبد آلهتهم مدة، فيُوحِّدون الله لذلك مدة(١). فبيَّن لهم نبينا ﷺ أنه لا مداهنة في دين الله تعالى، ونزلت عليه سورة الكافرون: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)﴾.

ومن التنازل الذي نُهي نبينا ﷺ عن تقديمه ما جاء في قول سعد بن أبي وقاص ﷺ: «نَزَلَت: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ [الأنعام: ٥٢]، في ستَّة: أَنا وابنُ مَسعُود منهُم، وَكَانَ المُشركُونَ قالُوا لَهُ: تُدني هَؤُلاء؟!»(٢)، فأرادوا منه أن يطردهم، فنهاه الله عن ذلك. وكم من داعية أو عالم يقدم تنازلات ويدعي أنها مداراة مشروعة! «والفرق بين المدارة والمداهنة: أن المداراة بذل الدنيا لصلاح الدنيا أو الدين أو هما معًا، وهي مباحة، وربما استحبت، والمداهنة: ترك الدين لصلاح الدنيا»(٣).

فعلى الإنسان ألا يجاملَ في دين الله تعالى، ومما أذكره أني في عام ١٤١٢هـ كنت مع شيخنا العلامة ابن عثيمين في بيت أحد المشايخ بمكة، فسألته سؤالًا، فقال لي في أثناء الجواب: والعلماء ثلاثة: عالم دولة، وعالم أمة، وعالم ملة.

---

(١) معالم التنزيل (١٩٢/٨).
(٢) مسلم (٢٤١٣).
(٣) فتح الباري (٤٥٤/١٠).

فعالم الدولة يفتي بما يريده السلطان، وعالم الأمة هو عالم الجمهور، يفتي بما يريده جمهوره منه، والثالث عالم الملة الذي يحفظ به دين الله، فلا يفتي إلا بما يوافق الحق[١]. وكم من عالم دنيا يبيع الفتاوى بأبخس الأثمان!

وربنا سبحانه قال: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾، والجزاء: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء]، هذه لمن؟ لرسول الله ﷺ. وقال: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة]، فالحق لا مجاملة فيه.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾﴾«واختلفوا فيمن نزل هذا على ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الوليد بن المغيرة، قاله ابن عباس، ومقاتل. والثاني: الأخنس بن شريق، قاله عطاء، والسدي. والثالث: الأسود بن عبد يغوث، قاله مجاهد»[٢]. وأيًّا ما كان فالمهم أن نتجنب الصفات التي ذمها الله في هذه الآيات.

وإغفال ذكر اسم المعني، مما يربي على عدم ذكر الأسماء في الخطاب الدعوي، إلا إذا اقتضت المصلحة ذلك، قال ربنا: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾﴾ [القصص]، وقد سمى زيدًا، وكنى عبد العزى بن عبدالمطلب أبا لهب! لكن الأصل: «**ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا؟**»، وهذه تكررت في كثير من أحاديث نبينا[٣] ﷺ.

وفي قوله: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾﴾، ما يُشعر بأن كثرة الحلف تدل على أن الرجل يشك في نفسه، ويؤسفني أنني أجد بعض الطيبين يكثر من ذلك!

---

(١) ثم وجدت من كلامه في الممتع ما يوافق ذلك انظره (٤٦٤/٩) والتي بعدها.
(٢) زاد المسير في علم التفسير (٣٢١/٤).
(٣) انظر على سبيل المثال البخاري مع الفتح (٤٥٦)، (٧٥٠)، (٦١٠١).

وقـد ذكـر بعـض العلمـاء أن جميـع ما أقسـم النـبي ﷺ على ما جـاء به مـن الحق في دواويـن السـنة نحـوٌ من ثمانين قَسَمًا فقـط[١]، وهذا على الحـق الذي لا امـتراء فيه! والقَسَـم جائـز في الأصـل لمقاصـد، لكـن لا ينبـغي الإكثار منـه. ومـن توجيهات ربنـا في كتابـه: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ﴾ [المائدة: ٨٩]، فممـا قيل في معناهـا: لا تحلفوا[٢].

والمَهـين: الذليـل الحقـير، فهـو مع كـثرة حلفـه كاذب لا يصـدق! ومـا أكثر ما يكـون ذلـك في وسـط العامـة والدهمـاء، تجـد الواحـد منهـم يحلف بالطـلاق أن ثمـن سـلعة كـذا وهـو كاذب، فما ذنـب تلـك المسـكينة في بيته؟!

فـلا ينبـغي التهـاون في مسـألة الحلف، وأعـرف تاجـرًا ورعًا خاصمـه رجل في أربعـين مليـون ريـال، وهـذا مبلغ كبـير، وعلَّـق القاضي رجـوع الحق إليـه بيمينه، وهـو يعلـم أنه إذا لم يحلف فسـيكون سـببًا في أن ينال المحتال مـا ليس له، فحلف؛ لئـلا يعـين المحتال على بغيتـه، ورجع الحق إليـه، فجعل هذا المال كله في سـبيل الله؛ لئـلا يكـون حلفه مـن أجل دنيـا! وهـذا ورع عظيم!

و﴿مَّهِينٍ﴾، من المهانة والدناءة والحقارة.

﴿هَمَّازٖ﴾، «قـالَ ابـنُ عَبّـاس وقَتـادَةُ: يَعني الاغتيـابَ»[٣]. ومـا هي الغيبة؟ عَن أَبي هُرَيـرَةَ ﵁، أَنَّ رَسُـولَ الله ﷺ، قـالَ: «أَتَـدرُونَ مـا الغيبَـةُ؟»، قالُـوا: اللهُ وَرَسُـولُهُ أَعلَـمُ، قـالَ: «ذكـرُكَ أَخـاكَ بما يَكـرَهُ». قيلَ: أَفَرَأَيـتَ إن كانَ في أَخي مـا أَقُولُ؟ قالَ: «إن كانَ فيـه مـا تَقُـولُ، فَقَـد اغتَبتَـهُ، وَإن لَم يَكُن فيـه فَقَـد بَهَتَّهُ»[٤].

﴿مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ﴾، بالنميمة، وهي: نقل الكلام على جهة الإفساد.

---

(١) ينظر كلام ابن القيم في إعلام الموقعين (١٦٥/٤)، وهو في صدد جواز الحلف على ثبوت الأمر عند المفتي.
(٢) معالم التزيل (٩٣/٣).
(٣) تفسير ابن كثير (١٩١/٨).
(٤) مسلم (٢٥٨٩).

ويفسد النمام في ساعة ما لا يفسده الساحر في سنة، لماذا؟ لأن الساحر يكون أثر سحره غالبًا في أفراد، أما أثر النميمة فقد يعم ضررها أمة!

وقوله: ﴿مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾، يأتي مثال يبينها في قصة أصحاب الجنة.

والمناع لا ينفق في سبيل الله، ولا يعطي الناس، قال ربنا في سورة الماعون: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾، وقال في ذكر صفات أهل سقر: ﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [المدثر].

ومن في طبعه المنع تراه إذا قام من يسأل صد الناس عن الإنفاق عليه، ومن أدراك أنه كاذب؟ فإذا غلب على ظنك أن السائل محتاج فلا تمنع عنه خيرك؛ فأنت أحوج إلى هذه الصدقة منه. ولو بان بعد ذلك أنه كاذب فقد ثبت أجرك، ففي حديث أبي هُرَيرَةَ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قالَ: «قالَ رَجُل: لَأَتَصَدَّقَنَّ بصَدَقَة، فَخَرَجَ بصَدَقَته، فَوَضَعَها في يَد سارق، فَأَصبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ عَلَى سارق فَقالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الحَمدُ، لَأَتَصَدَّقَنَّ بصَدَقَة، فَخَرَجَ بصَدَقَته فَوَضَعَها في يَدَي زانيَة، فَأَصبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ اللَّيلَةَ عَلَى زانيَة، فَقالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الحَمدُ، عَلَى زانيَة؟ لَأَتَصَدَّقَنَّ بصَدَقَة، فَخَرَجَ بصَدَقَته، فَوَضَعَها في يَدَي غَنيّ، فَأَصبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ عَلَى غَنيّ، فَقالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الحَمدُ، عَلَى سارق وَعَلَى زانيَة وَعَلَى غَنيّ، فَأُتيَ فَقيلَ لَهُ: أَمّا صَدَقَتُكَ عَلَى سارق فَلَعَلَّهُ أَن يَستَعفَّ عَن سَرقَته، وَأَمّا الزّانيَةُ فَلَعَلَّها أَن تَستَعفَّ عَن زناها، وَأَمّا الغَنيُّ فَلَعَلَّهُ يَعتَبرُ فَيُنفقُ ممّا أَعطاهُ الله»[1].

---

(١) البخاري (١٤٢١)، ومسلم (١٠٢٢).

وقوله: ﴿مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾، الاعتداء بالفعل، فيرتكب الحرام بجوارحه، وأثيم في لسانه، فإذا قال كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ذكر أخاه اغتابه وعابه(١).

و﴿عُتُلٍّ﴾، «هُوَ: المُصحَّح الخَلق، الشَّديدُ القَويُّ في المَأكَل والمَشرَب والمَنكَح، وَغَير ذَلكَ»(٢)، وَأَمَّا ﴿زَنِيمٍ﴾ فهو الدَّعيُّ الذي لا يُعرف أبوه.

ثم بين ﷻ سبب ضلاله في الدنيا، وهو اغتراره بالنعمة وكفرانه لها، فقال: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾، وهكذا البنون والأموال كثيرًا ما تُضلُّ وتُطغي، قال ابن تيمية: «الصلاح في الفقراء أكثر منه في الأغنياء. كما أنه إذا كان في الأغنياء فهو أكمل منه في الفقراء، فهذا في هؤلاء أكثر وفي هؤلاء أكثر، لأن فتنة الغنى أعظم من فتنة الفقر؛ فالسالم منها أقل. ومن سلم منها كان أفضل ممن سلم من فتنة الفقر فقط»(٣)، فهذا أفاده الغنى طغيانًا، فتعالى عن اتباع النبي ﷺ وقال: الأمر كله حديث خرافة، وأساطير ما أنزل بها من سلطان.

فجازاه الله بذلك التعالي إهانة فقال: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾؛ أي: الأنف، وكل إنسان حريص على إكرام أنفه ووجهه؛ لأنه أبرز ما فيه، والمراد: أن الله تعالى سيُبيّن أمرَه بيانًا واضحًا، فلا يخفى كما لا تخفى السّمة التي تكون على الأنف. وقيل: وقع ذلك يوم بدر، فخُطم فيها بالسيف. وقيل: نُسوّد وجوه أهل النار، وعَبّر بالأنف عن الوجه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣٥٠/٨).
(٢) تفسير ابن كثير (١٩٣/٨).
(٣) الفتاوى (١٣١/١١).

الآيات (١٧ ـ ٣٣)

إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا
يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ
كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ
﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ
﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ
مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ
رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾
قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا
رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

علاقة هذه القصة بما سبق من آيات لا تخفى، فقد ذم الله قبل ذكرها من كان مناعًا للخير، وهذا نموذج لما ذكر الله، وبيان لعاقبته.

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾، اختبرنا هؤلاء الذين بُعث فيهم رسول الله ﷺ كما اختبرنا أصحاب الجنة، ومن هم؟ وأين هي هذه الجنة؟ هذا مما لا يعرف، نسكت عما سكت الله عنه ورسوله، ولو كان في بيان ذلك خير لبُيّن لنا.

﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾﴾، ليَجُذُّنَّ ثمرها مصبحين قبل أن يحضر المساكين.

﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾، والاستثناء: قول: إن شاء الله، وقد ثبت عَن ابن عُمَرَ رضي الله عنهما، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قال: «**مَن حَلَفَ عَلَى يمين، فَقالَ: إن شاءَ الله فَقَد استثنَى،**

فَلاَ حنثَ عَلَيه»(١). وفي الصحيحين، عَن أَبي هُرَيرَةَ ﷺ، عَن النَّبي ﷺ، قالَ: «قالَ سُلَيمانُ بنُ داوُدَ: لَأَطُوفَنَّ اللَّيلَةَ عَلَى تسعينَ امرَأَةً كُلُّها تَأْتي بفارس يُقاتلُ في سَبيل الله، فَقالَ لَهُ صاحبُهُ: قُل: إن شاءَ اللهُ، فَلَم يَقُل: إن شاءَ اللهُ، فَطافَ عَلَيهنَّ جَميعًا، فَلَم تَحمل منهُنَّ إلَّا امرَأَة واحدَة، فَجاءَت بشقِّ رَجُل، وايمُ الَّذي نَفسُ مُحَمَّد بيَده لَو قالَ: إن شاءَ اللهُ لَجاهَدُوا في سَبيل الله فُرسانًا أَجمَعُونَ»(٢).

وفي الاستثناء في اليمين ثلاث فوائد:

ـ إعمال الآية: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾﴾ [الكهف].

ـ الإعانة على ما حلفت عليه.

ـ لا حنث على المستثني.

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾﴾، ولا يُعلم ما هذا الطائف، ولكنه شيء من جنود الله أهلك به حرثهم، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

ومما رأيته بعيني: أني مررت بمزرعتين بعد ريح ممطرة، وهما متجاورتان تمامًا، فوجدت إحداهما قد هلكت ولم يبق فيها شيء، والثانية فلم تُمَسَّ بسوء، ولعل صاحبها حفظ حقوق الله فحفظ الله تعالى له ثمره.

وقوله: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾، صرم الشيء قطعه، والمراد: صارت أشجارها هشيمًا يبسًا.

﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾﴾، ليذهبوا لجذاذ نخلهم.

﴿أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ أي: إن كنتم تُريدُونَ الصرامَ، وقطع الثمار.

---

(١) الترمذي (١٥٣١)، وصححه الألباني في الإرواء (٢٥٧١).
(٢) البخاري (٢٨١٩)، ومسلم (١٦٥٤).

﴿ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾، يتناجـون بينهـم، ولـم يَخفَ عـن الله قولهـم: ﴿أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ ﴿٢٤﴾ ﴾، ﴿ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ﴿٧﴾ ﴾ [طه]. تقـول أمنـا عائشـة ﵂: «الحمدُ لله الَّذي وَسِـعَ سَـمعُهُ الأَصـواتَ، لَقَد جاءَت المُجادِلَـةُ إلى النَّبيِّ ﷺ، وَأَنـا في ناحيَـة البَيـت، تَشـكُو زَوجَهـا، وَمـا أَسـمَعُ ما تَقُـولُ، فَأَنـزَلَ الله: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا﴾ [المجادلة: ١]»[1].

﴿وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾، أي: على غيـظ مـن المسـاكين، وهم قـادرون عليها في ظنهم.

﴿ فَلَمَّا رَأَوۡهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ ﴾، ضللنا طريقنا إليها، وما هذه بجنتنا.

وذلك من هول ما رأوا، ثم استجمعوا عقولهم واستدركوا فقالوا: ﴿ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾، لم نضل الطريق، ولكن لا حظَّ لنا فيها.

﴿ قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ ﴾؛ أي: خيرهـم. كمـا قـال ربنـا: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا ﴾ [البقرة: ١٤٣]، أي: خيـارًا عـدلًا.

﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾، قـال لهـم: اسـتثنوا ولا تمنعـوا لتكونـوا مـن الشـاكرين[2]، لكنهـم مـا أطاعـوه.

﴿ قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾، رجعـوا إلى قـوله، واعترفـوا بجرمهـم، ولكـن بعـد حلـول العقوبة.

﴿ فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾، يلـوم بعضهـم بعضًـا في تبييـت هـذه النيـة السـيئة. وكل إنسـان إذا نـزل العـذاب بـه علـم أنه كان في ضـلال، وليسـت العبرة بذلـك، وإنمـا العـبرة بالعمـل بطاعـة الله، فماذا يجـدي النـدم بعد فـوات الأوان؟! فالعاقـل مـن تجنـب ما يسـخط ربـه لئـلا يصيبـه بعذابه.

(١) ابن ماجه (١٨٨)، وصححه الألباني في الظلال (٦٢٥).
(٢) انظر: معالم التنزيل (١٩٦/٨).

﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾﴾، معتدين، متجاوزين للحد.

كما قال ربنا: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾ [العلق]، وهؤلاء استغنوا بجنتهم وحرموا المساكين منها، فماذا كانت النتيجة؟

﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾، قيل: أرادوا من الله خيرًا منها في الدنيا، وقيل: أرادوا ثواب الآخرة.

وهؤلاء كان أبوهم صالحًا، وهلك مالهم، وقد قال ربنا في شأن جدار الغلامين: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف]، فحاق بهؤلاء ما لم يذكر أنه أصاب صاحبي الجدار؛ وذلك لمعصيتهم الله تعالى.

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

وذلك لأن حبس المال عن المساكين منع لهم من حقهم فيه، وإضرار بهم كبير، وبذل المال لهم سبب لخيري الدنيا والآخرة، ومما يبين ذلك:

قول الله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾ [البقرة]، وقوله: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنفال]، أي: يوف إليكم أجره يوم القيامة، وقوله: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ [سبأ: ٣٩].

وثبت عن أبي هريرة ﷺ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قالَ: «**قالَ الله ﷻ: أَنفق أُنفق عَلَيكَ**»(١).

(١) البخاري (٤٦٨٤)، ومسلم (٩٩٣).

الآيات (٣٤ ـ ٥٢)

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ
﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ
لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ
إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ
شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن
سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ
تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى
وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ
﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ
مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ
رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن
تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ
فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ
لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾﴾، ويا بُعدَ ما بين هؤلاء وبين من شمل جنتهم العذاب!

﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾، وهذا الإنكار تكرر في مواضع من القرآن، منها:

قال ربنا: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٢٢)﴾ [فاطر]، وقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ (٥٨)﴾ [غافر]، وقال: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠)﴾ [الحشر]، وقال: ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٢]، وقال: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٩)﴾ [الرعد]، وقال: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ (١٨)﴾ [السجدة]، وقال: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٢)﴾ [الملك].

وقوله: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦)﴾، فجعل المسلمين كالمجرمين جَور في القضية.

﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨)﴾ هل عندكم كتاب فيه برهان من الله ﷻ، بأن ما تشتهونه هو لكم!؟ وهذا كذلك سؤال واقع على جهة الإنكار.

وكذلك قوله: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، هل معكم عهود ومواثيق منا، ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩)﴾ أي: إنَّهُ سيحصل ما تريدون؟

﴿سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ (٤٠)﴾، قل لهم: من المتكفل بهذا؟

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾، أي: مما يعبدون من دون الله تعالى، يكفلون لهم السلامة مع الجرم ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٤١)﴾.

وبعد الإنكار انتقل إلى بيان الحال يوم القيامة فقال: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢)﴾، ثبت في الصحيح، عَن أَبي سَعيد ﷺ، قال: سَمعتُ النَّبيَّ ﷺ يقول: **«يَكشِفُ رَبُّنا عَن ساقه، فَيَسجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤمن وَمُؤمنَة، فَيَبقَى كُلُّ مَن كانَ يَسجُدُ في الدُّنيا رياءً وَسُمعَةً، فَيَذهَبُ ليَسجُدَ، فَيَعُودُ ظَهرُهُ طَبَقًا واحدًا»**(١).

---

(١) البخاري (٤٩١٩).

ويحسن التنبيه هنا أنه لا أسلم، ولا أعلم، ولا أحكم، من أن نصف الله تعالى بما وصف به نفسه؛ بلا تحريف، ولا تأويل، ولا تمثيل، ولا تشبيه، ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تفويض للمعنى.

● **وهل في الآخرة تكليف؟**

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ: «والتكليف إنما ينقطع بدخول دار الجزاء وهي الجنة والنار، وأما عَرَصات القيامة فيمتحنون فيها كما يمتحنون في البرزخ، فَيُقالُ لأَحَدهم: مَن رَبُّك؟ وَما دينُك؟ وَمَن نبيُّك؟ وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ الآيَةَ»(١).

ثم وصف الله تعالى حالهم البئيس إذ ذاك فقال: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ وهذا مما يُستدل به على أن الجزاء من جنس العمل، فقد دُعي هؤلاء إلى السجود في الدنيا فلم يستجيبوا لأمر الله تكبُّرًا؛ فحُرموا من السجود في عرصات القيامة، فالمحروم من حرم نفسه من السجود في الدنيا، فحِيلَ بينه وبين السجود في الآخرة.

ثم رجع السياق إلى الوعيد فقال تعالى: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾﴾، «يَعني: القُرآنَ. وَهَذا تَهديد شَديد، أَي: دَعني وَإيّاهُ منّي وَمنهُ، أَنا أَعلَمُ به كَيفَ أَستدرجُهُ، وَأَمُدُّهُ في غَيّه وَأُنظِرُ ثُمَّ آخُذُهُ أَخذ عَزيز مُقتَدر؛ وَلهَذا قالَ: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: وَهُم لا يَشعُرُونَ، بَل يَعتَقدُونَ أَنَّ ذَلكَ مِنَ الله كَرامَة، وَهُوَ في نَفس الأَمر إهانَة، كَما قالَ: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون]، وَقالَ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام]»(٢).

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/٣٠٣ ـ ٣٠٤).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/٢٠٠).

ولو قيل لأحدنا: إن فلانًا يتوعَّدُك، وهو يعلم قدرته على إيقاع ما توعد به لملأ الخوف قلبه، فكيف بالله تعالى الذي لا يُعجزه شيء؟

ودلت الآيات على أن الله تعالى إذا أنعم على عبد وهو يبارزه بالمعاصي فإنما هو استدراج. ثبت عن عُقبَةَ بن عامر ﷺ، عَن النَّبيّ ﷺ قال: «إذا رَأيتَ اللهَ يُعطي العَبدَ مِنَ الدُّنيا عَلَى مَعاصيه ما يُحبُّ، فإنَّما هُوَ استدراج»، ثُمَّ تَلا رَسُولُ الله ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام][1].

﴿وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾؛ أي: أُمهلُهم وأُنظرهم ليغتروا فيصيبهم أعظم الضرر جراء ما جنوا على أنفسهم، وهذا كيد عظيم، أن يترك الكافر حتى يعلق في شبكة لا فكاك له منها، ويقع في ما لا مخرج له منه، وهذه الجملة تتضمن توعدًا رادعًا للعقلاء من عظيم قادر!

وبعد الوعيد يعود السياق إلى الإنكار، في توال يُحرك القلوب، فيقول تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾، والمعنى: لا حجة لهم ولا سبب يتعلقون بذيله في التقاعس عن الإيمان! هل سألتهم جُعلًا على ما جئتهم به ودعوتهم إليه من الدين، فأثقلهم ذلك المغرم الذي تسألهم، فمنعهم ذلك من الإسلام؟

ولم يسأل قط نبيّ قومه أجرًا؛ لئلا يكون لهم عذر في عدم الاستجابة له، قال ربنا: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنعام]، وقال: ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [يوسف]، وقال: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ [الفرقان]، وقال: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [هود]،

(١) أحمد (١٧٣١١)، وصححه الشيخ شعيب الأرنؤوط.

وقال صالح ﷺ: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [الشعراء]، وقال ربنا تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾﴾ [الشعراء]، وقال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الشعراء].

والأجر كلُّ منفعة دنيوية.

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾، والمراد: أعندهم علم الغيب، فهم يكتبون ما يحكمون به لأنفسهم من أنهم أفضل منزلة عند الله من أهل الإيمان به، وأنهم ناجون من عذابه بدون أن يؤمنوا بك؟!

وفي ختام السورة يُرشد سبحانه إلى الواجب تجاه أولئك المُكذّبين، الذين قد تدعو حالهم المعاندة إلى تركهم والإياس منهم، فقال: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾، مهموم وهو في بطن الحوت.

﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾، حذره الله ﷺ كثيرًا من سبيل الكافرين، وفي هذه جاء التحذير عن أن يكون كنبي الله يونس ﷺ في قضية واحدة، في عدم صبره على قومه، أما في غير هذه فإنه مأمور باتباع هديه، قال ربنا: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ

﴿هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام]. فنبي الله يونس ﷺ من جملة من أمر نبينا ﷺ بالاقتداء بهم. قال نبينا ﷺ: «**لا تُفَضِّلُوا بَينَ أَنبياء الله، فَإِنَّهُ يُنفَخُ في الصُّور فَيَصعَقُ مَن في السَّماوات وَمَن في الأَرض إلّا مَن شاءَ اللهُ، قالَ: ثُمَّ يُنفَخُ فيه أُخرَى، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَن بُعثَ، أو في أَوَّلِ مَن بُعث، فَإذا مُوسَى ﷺ آخذ بالعَرش، فَلا أَدري أَحُوسبَ بصَعقَته يَومَ الطُّور، أَو بُعثَ قَبلي، وَلا أَقُولُ: إنَّ أَحَدًا أَفضَلُ من يُونُسَ بن مَتَّى ﷺ**»(١).

﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، أي تداركه نعمة من ربه بأن وفقه للتوبة والاستغفار، ثم أيضًا قَبل منه التوبة، فما أرحم الله! كم من إنسان يريد التوبة فلا يتمكن منها! فإن يسَّرها الله لك فاعلم أنها نعمة، وإن تقبَّلها الله منك فهذه نعمة أخرى.

ونعمة أخرى أنعمها الله تعالى على يونس وهي أنه بقي حيًا في بطن الحوت، فلم يختنق، ولم تؤثر فيه عُصاراته الهاضمة.

﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ٤٩﴾، ولكن تداركته نعمة ربّه فلم يكن مذمومًا.

﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾، أي اصطفاه واختاره، ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٥٠﴾، فما أنت فيه من الخير والهدى لا ينبغي أن تعجب به، فإنما هو نعمة من الله تعالى.

والكلمة التي نجا بها: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾ [الأنبياء]، فما أعظم أثر التوحيد في النجاة من الكروب. ومن تأمَّل في أدعية الكرب لمس ذلك؛ فقد روى مسلم(٢)، عَن ابن عَبّاس ﷺ، أَنَّ نَبيَّ الله ﷺ كانَ يَقُولُ عندَ الكَرب: «**لا إلَهَ إلّا الله العَظيمُ الحَليمُ، لا إلَهَ إلّا الله رَبُّ العَرش العَظيم،**

---

(١) البخاري (٣٤١٤)، ومسلم (٢٣٧٣).
(٢) (٢٧٣٠).

لا إِلَهَ إِلّا اللهُ رَبُّ السَّماواتِ وَرَبُّ الأَرضِ وَرَبُّ العَرشِ الكَريم». وعَن أَسماءَ بنت عُمَيس ﵂، قالَت: قالَ لي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَلا أُعَلِّمُك كَلمات تَقُولينَهُنَّ عِندَ الكَربِ ـ أَو في الكَربِ ـ؟ اللهُ اللهُ رَبّي لا أُشرِكُ بهِ شَيئًا»[1]. وعن أَبي بَكرَةَ ﵁، أن رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «دَعَواتُ المَكرُوب: اللَّهُمَّ رَحمَتَكَ أَرجُو، فَلا تَكلني إِلَى نَفسي طَرفَةَ عَين، وَأَصلح لي شَأني كُلَّهُ، لا إِلَهَ إِلّا أَنتَ»[2].

وهذه الكلمة المباركة التي دعا بها يونس ﵇ قال فيها نبينا ﷺ: «دَعوَةُ ذي النُّون إِذ دَعا وَهُوَ في بَطنِ الحُوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾ [الأنبياء]، فَإِنَّهُ لَم يَدعُ بها رَجُل مُسلم في شَيء قَطُّ إِلّا استَجابَ اللهُ لَهُ»[3].

ثم قال تعالى مُعرّفًا ببعض مصاعب الدعوة التي ينبغي الصبر عليها: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ﴾، قال ابن كثير ﵀: «قالَ ابنُ عَبّاس، وَمُجاهِد، وَغَيرُهُما: ﴿لَيُزۡلِقُونَكَ﴾ لَيُنفذُونَكَ بأَبصارهم، أَي: لَيُعينُونَكَ بأَبصارهم، بمَعنَى: يَحسُدُونَكَ لبُغضهم إِيّاكَ لَولا وقايَةُ اللهِ لَكَ، وَحمايَتُهُ إِيّاكَ منهُم. وَفي هَذه الآيَة دَليل عَلَى أَنَّ العَينَ إصابَتُها وَتَأثيرُها حَق، بأَمر الله، ﷻ، كَما وَرَدَت بذَلكَ الأَحاديثُ المَرويَّةُ من طُرُق مُتَعَدِّدَة كَثيرَة»[4]. والعين حق، وليس معنى ذلك أن يعزو الإنسان كل تَعثُّر في حياته إليها! فالعين حق، وفشلُ مَن لم يأخذ بالأسباب حق، والتحصُّن والأذكار التي تقي منها حق.

﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ٥١﴾، قيل عن نبينا ﷺ: مجنون، وشاعر، وكاهن، وكذاب، وجاء قول ربنا: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣] تسليةً له.

---

(١) أبو داود (٢٩١٥٦)، وصححه الألباني في السلسلة (٢٧٥٥).
(٢) أبو داود (٥٠٩٠) وأحمد (٢٧٨٩٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٣٨٨).
(٣) الترمذي (٣٥٠٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٣٨٣).
(٤) تفسير ابن كثير (٨/٢٠١).

وإذا كانوا صادقين في أنفسهم في دعواهم، فلماذا يريدون أن يزلقوه بأبصارهم؟ أمجنون يُحسَد؟!

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾، ليس لصحابة محمد ﷺ فقط، بل للأمة كلها، وهذا يدل على شيئين: أنه يبقى محفوظًا ليتحقَّق أنه ذكرى لمن يأتي في آخر الزمان. وأن تبقى السنة محفوظة؛ لأنها تُبيّنه، وتُجلّي معانيَه، ويلزم من حفظه أن تبقى محفوظة.

ولا يقال: كيف وقد وضع الكذابون كثيرًا من الأحاديث؟ فالجواب: كما وضع الأفّاكون كثيرًا من التفاسير الباطلة التي تهدف إلى هدم العقيدة، فقيَّض لها من يبين ضلالها، فكذلك قيَّض للسنة من يُبيّن ضعيفها من صحيحها.

وهذه الآية تقذف بسؤال بين أيدينا: هل أوصلنا هذا القرآن إلى العالمين؟ فالواجب: علينا الاجتهاد لتحقيق ذلك.

وهذه العالمية من الخصائص النبوية، فقد ثبت في الصحيحين، عن جابر بن عَبد الله ، أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «**أُعطيتُ خَمسًا لَم يُعطَهُنَّ أَحَد قَبلي: نُصرتُ بالرُّعب مَسيرَةَ شَهر، وَجُعلَت لي الأَرضُ مَسجدًا وَطَهورًا، فَأَيُّما رَجُل من أُمَّتي أَدرَكَتهُ الصَّلاَةُ فَليُصَلّ، وَأُحلَّت لي المَغانمُ وَلَم تَحلَّ لأَحَد قَبلي، وَأُعطيتُ الشَّفاعَةَ، وَكانَ النَّبيُّ يُبعَثُ إلَى قَومه خاصَّةً وَبُعثتُ إلَى النّاس عامَّةً**»(١)، والله المستعان على الدعوة والبلاغ، وعليه التكلان.

---

(١) البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

سُورَةُ الحَاقَّةِ

بين يدي سورة الحاقة

وهي مكية بالاتفاق[١].

أسماؤها:

سميت بسورة «﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾»، و«السّلسلة»، و«الواعية».

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كلمها مئتان وست وَخَمسُونَ كلمة، وحروفها ألف وَأَربَعَة وَثَمانُونَ حرفًا، وَهي إحدَى وَخَمسُونَ آيَة في البَصريّ والشامي، واثنَتان في عدد الباقينَ، اختلافها آيتان؛ ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ١﴾ الأولى، عدها الكُوفي وَلم يعدها الباقُونَ، ﴿كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾، عدها المدنيان والمكي وَلم يعدها الباقُونَ»[٢].

موضوعاتها:

- تهويل يوم القيامة، وتهديد المكذبين بوقوعه.
- تذكيرهم بما حلَّ بالأمم التي كذَّبت به من العذاب.
- تهديد المكذبين لرسل الله تعالى بالأمم التي أشركت وكذَّبت.

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/١١١).
(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٥٣).

● وصف أهوال الآخرة.
● تفاوت الناس يومئذ فيه.
● تنزيه الله تعالى عن أن يُقرَّ من يتقوَّل عليه.
● تنزيه الرسول ﷺ وإثبات صدقه[١].

مقصدها:

تثبيت الرسول ﷺ، والدلالة على الإيمان به وبما أنزل عليه، وإنذار المشركين بتحقيق الوعيد الذي في القرآن.

(١) يراجع: التحرير والتنوير (١١١/٢٩).

سورة الحاقة: تأملات ووقفات

الآيات (١ ـ ٨)

﴿ٱلۡحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٣ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ۝٧ فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ ۝٨﴾

﴿ٱلۡحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٣﴾، هذا المطلع العظيم يسترعي الأسماع، ويشدُّ القلوب، ويستفاد من هذا أن الإنسان إذا أراد أن يتكلَّم بموضوع مُهمّ عليه أن يقدم بمقدمة تحمل الحاضرين على أن يتنبهوا لكلامه.

وسُمّيت القيامة بالحاقة؛ لأن الوعد والوعيد يتحقَّق فيها[١]. ولأن وقوعها متحقَّق لا مريةَ فيه.

﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ۝٤﴾، عاد قوم من العرب كانوا بالأحقاف جنوب الجزيرة، وديار ثمود هي مدائن صالح المعروفة الآن، ومما يؤسف له أن بعض الناس يزورها للتنزُّه! وقد ثبت عن ابن عمر ، أَنَّ النَّبيَّ ﷺ لَمَا مَرَّ بالحجر قالَ: «لا تَدخُلوا مَساكنَ الَّذينَ ظَلَموا أنفسَهم إلاّ أن تَكُونوا باكينَ؛ أن

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم (٨/٢٠٨).

يُصيبَكُم ما أَصابَهُم». ثُمَّ تَقَنَّعَ بردائه وَهُوَ عَلَى الرَّحل[١].

قال النووي ﵀: «فيه: الحث عَلَى المُراقَبَة عند المُرُور بديار الظَّالمينَ، وَمَواضع العَذاب...، فَيَنبَغي للمارّ في مثل هَذه المَواضع المُراقَبَة، والخَوف، والبُكاء، والاعتبار بهم، وَبمَصارعهم، وَأَن يَستَعيذ بالله من ذَلك»[٢].

وقال الحافظ ابن حجر ﵀: «وهذا يتناول مساكن ثمود، وغيرهم، ممن هو كصفتهم، وإن كان السبب ورد فيهم»[٣].

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝٥﴾، قيل: بسبب طغيانهم، كما قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ۝١١﴾ [الشمس]، وقيل: الصيحة[٤]. وفي هذا تنبيه على أن الطغيان سبب للانتقام.

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦﴾، أي: ريح قوية، باردة، شديدة الهبوب. والريح من جند الله التي سُخّرت لنصرة أنبيائه، فسُخّرت لسليمان ﵇، قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ [الأنبياء: ٨١]، وسُخّرت لنبينا ﷺ، قال ربنا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩﴾ [الأحزاب].

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾، وهذا يدلُّ على أن العذاب بدأ بالنهار وانتهى به.

وإذا ذُكر الليل مع اليوم في سياق واحد انصرف معنى اليوم إلى النهار. والحسوم: الدائمة التي لا تنقطع.

---

(١) البخاري (٤٢٣) ومسلم (٢٩٨٠).
(٢) شرح مسلم (١١١/١٨).
(٣) فتح الباري (٣٨٠/٦).
(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٢٠٨/٨).

﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧﴾، وفي موضع آخر: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝١٨ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝١٩ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۝٢٠﴾ [القمر]. فقد كانت الريح تحملهم، وتُسقطهم على رؤوسهم، فتنفصل عن أجسادهم، فيكون الواحد ملقىً كجذع النخل.

خاوية: لا جوف لها، فصار هؤلاء الذين قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥] كجذوع نخل لا جوف لها، ومثل هذا النخل لا يستفاد منه؛ لذهاب قوته بذهاب جوفه.

﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾؟ هل بقي أحد من هؤلاء؟ لم يبقَ سوى ذكرهم بالسوء.

الآيات (٩ ـ ١٢)

﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾

﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾﴾، ﴿وَمَن قَبْلَهُۥ﴾، أي: من سبقه، وهذه قراءة الجمهور، وقُرئ هذا الحرف: ﴿وَمَن قِبَلِهِ﴾، أي من عنده من أتباعه.

والمؤتفكات: قوم لوط، و«ائتفكوا: أهلكوا»[١].

وليس يخفى على المتدبر للقرآن تنوُّع العقوبات التي استأصل الله بها شأفة من كذب بالرسل من الأمم السابقة، ففرعون وقومه أُهلكوا بالغرق، ومما يُبيّن مناسبة هذه العقوبة لهم أنه قال: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ [الزخرف: ٥١]، فأجراها الله من فوقه.

وقوم لوط انتكسوا في فطرتهم، فناسب أن يُعذّبهم الله تعالى بقلب قُراهم، ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود].

﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾﴾، الرابية: ما ارتفع من الأرض، والأخذة الرابية: الشديدة.

---

(١) تفسير البغوي (٨/٢٠٨).

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾، والسؤال: لماذا توجَّه الخطاب إلى هذه الأمة؟ والجواب هو لأن كل من في الأرض ممن جاء بعد إغراق الله تعالى للظالمين هم نَسلُ من كان في السفينة، على خلاف بين العلماء: هل الذين مع نوح ﷺ هم أبناؤه فقط؟ فيكون العالم كله راجعًا إلى نوح كما يرجع إلى آدم عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ؟ أو معه آخرون من المؤمنين به، وهذا هو الراجح. فالنعمة التي حلَّت بالآباء مما يُمتَنُّ بها على الأولاد؛ قال ربنا ليوسف ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [يوسف].

﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾، ولماذا ذكرت الأذن؟ لأنها سبيل الوعي والعقل عن الله تعالى.

﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾، «قال قتادة: أبقى الله السفينة حتى أدركها أوائل هذه الأمة»(١). لأنه قال: ﴿لِنَجْعَلَهَا﴾ أي السفينة. وقال بعض العلماء: المقصود: ذكرها، ونحن لم نرَ السفينة، لكن ذكرها باق(٢). وهذا أصح، بدليل: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾.

وهناك بعض المتاحف يدَّعون أن فيها سفينة نوح ﷺ! وهذا مما لا دليلَ عليه، وإنما المراد من ذلك أكل أموال الناس بالباطل.

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/٢١٠).
(٢) المصدر السابق.

الآيات ١٣ ـ ١٨

فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً
وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ
يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ
يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾

قول ربنا: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾﴾، هذه النفخة الثانية، لأن الله تعالى ذكر بعدها أهوال القيامة. والصحيح أنهما نفختان: نفخة الصعق، ونفخة البعث، قال ربنا: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر]. وثبت عن أبي هُرَيرَةَ ﷺ، عن النبي ﷺ قال: **«لا تُفَضِّلُوا بَينَ أنبياء الله، فإِنَّهُ يُنفَخُ في الصُّورِ فَيَصعَقُ مَن في السَّماوات وَمَن في الأَرض إلّا مَن شاءَ الله، ثُمَّ يُنفَخُ فيه أُخرَى، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَن بُعِثَ، فَإذا مُوسَى** ﷺ **آخذ بالعَرش، فَلا أَدري أَحُوسِبَ بِصَعقَتِه يَومَ الطُّور، أَو بُعِثَ قَبلي»**[1]. ومن الأدلة على ذلك: حديث أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما بين النفختين أربعون»**. قالوا: يا أبا هريرة أربعون يومًا؟ قال: **«أبيتُ»**[2]. قالوا: أربعون شهرًا؟ قال: **«أبيتُ»**. قالوا: أربعون سنة؟ قال: **«أبيتُ. ثم يُنزل الله**

---

(١) البخاري (٢٤١١)، ومسلم (٢٣٧٣).

(٢) قال ابن حجر في الفتح (١١/٣٧٠): «بالموحدة ومعناه امتنعت من تبيينه لأني لا أعلمه فلا أخوض فيه بالرأي. وقال القرطبي في التذكرة يحتمل قوله امتنعت أن يكون عنده علم منه ولكنه لم يفسره لأنه لم تدع الحاجة إلى بيانه ويحتمل أن يريد امتنعت أن أسأل عن تفسيره فعلى الثاني لا يكون عنده علم منه».

من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل، وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظمًا واحدًا، وهو عَجبُ الذَّنَب، ومنه يُركَّب الخلق يوم القيامة»[١].

وقوله: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ١٤﴾؛ أي سُوِّيتا ببعضهما فأصبح وهد الأرض وحدبها سواء، وفي ذلك إشعار بهول اليوم وعظمه.

ثم قال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ١٥﴾، أي تحقق وقوعها، والواقعة من أسماء يوم القيامة لكونها كائنة واقعة لا محالة.

﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ١٦﴾، هذه السماء التي ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ٢٨﴾ [النازعات]، تكون في يوم القيامة واهية ضعيفة.

﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ١٧﴾، على أطرافها. ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ قيل: ثمانية ملائكة أقوياء، وقيل: ثمانية صفوف من صفوف الملائكة، والله أعلم[٢]، والأول أظهر، وأليق بما ورد.

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ١٨﴾، على الجميع، فهل يرضى أحدنا أن يكون ما في قلبه الآن مكشوفا للجميع؟ إن قال: لا، فليتأهب اليوم قبل يوم القيامة حيث يصير السر علانية. قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ٩﴾ [الطارق]، أي: تُختبَر، وتُكشَف. والنجاة من هول هذا الموقف بأن لا يُكنَّ المرء في قلبه إلا الخير.

---

(١) البخاري (٤٦٥١) ومسلم (٢٩٥٥).
(٢) زاد المسير (٣٣١/٤).

الآيات (١٩ ـ ٢٤)

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ
﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ
رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾
كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾﴾، وهـذا يذكـر بمـا يكـون بعـد نجـاح الـولد في الدنيـا، يـأتي مُـسرعًا إلى والديـه، يريد أن تتـم فرحتـه برؤيتهما لشـهادته. أمـا إذا كان راسـبًا فإنـه لا يحـب أن يرى ذلـك أحد.

و﴿هَآؤُمُ﴾: اسم فعل أمر، ومعناه: خُذ[1].

﴿إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾، والظـن هنـا اليقـين، قال قتـادة رحمه الله: «ما كان من ظـنّ الآخرة فهـو علم»[2].

﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾، ولم يقل ربنا عز اسمه: مرضية، فهي ﴿رَّاضِيَةٍ﴾، تحمل أصحابها على أن يكونوا من الراضين بها؛ لكمال نعيمها.

﴿فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾﴾ «أي: رَفيعَة قُصُورُها، حسان حُورُها، نَعيمَة دُورُها، دائم حُبُورُها»[3]، فهي عالية حسًا ومعنى، فهؤلاء لما علت همتهم في الدنيا، وترفَّعت نفوسهم عن مقارفة ما يُسخط الله عليهم، جوزوا بذلك، والجزاء من جنس العمل.

---

(١) الكشاف (٦٠٢/٤).
(٢) تفسير الطبري (٥٨٥/٢٣).
(٣) تفسير ابن كثير (٢١٤/٨).

﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ٢٣﴾، يأتيه ما يشتهيه من الثمار وغيرها، وهو مُتكئ على أريكته، لا يحتاج إلى القيام لتناول ما يريده، بل يُدني له ربه ذلك؛ إكرامًا له.

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ٢٤﴾، وهذا لا يعارض حديث الصحيحين: «**اعمَلُوا، وَسَدِّدوا، وقاربُوا، واعلَمُوا أَنَّ أَحَدًا منكُم لَن يدخل الجنةَ بعمله**». قالُوا: وَلا أَنتَ يا رَسُولَ الله؟ قالَ: «**وَلا أَنا، إلّا أَن يَتَغَمَّدني اللهُ برَحمَة منهُ وَفَضل**»[1]؛ لأن الباء في ﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ﴾ باء السبب، والباء في: «**لَن يدخل الجنةَ بعمله**»، باء العوَض. فالعمل سبب فقط، وليس عوضًا.

و﴿الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾: أيام الدنيا التي مضت، وها نحن نعيشها، فما زالت الفرصة قائمة، فالعاقل من قدّم لنفسه قبل أن يحول الموتُ بينه وبين الأعمال الصالحة.

---

(١) البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦).

الآيات (٢٥ ـ ٣٧)

وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ
مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾
هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي
سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ
ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا
حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾

أتبع ربُّنا ذكرَ حال من أحسن العمل بذكر من خلت أيامه وقد فرَّط فيها وأثبت في صحائف الأعمال ما لا يحب، فقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾﴾، لما يرى فيه من الكفر، والزندقة، والانحلال، وتضييع حدود الله تعالى، فيتمنى أنه لم يُعطَ كتاب الخزي والعار، ولم يعلم جزاءه.

﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾﴾، والقاضية: موت لا حياةَ بعده(١)، فيتمنى أن لو كان موته كذلك. ولا ريب أن الموت خير مما سيلقاه، ولذلك بيَّن ربنا أنهم لن يموتوا بعد دخول النار، قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر].

(١) ينظر: تفسير البغوي (٨/٢١٢).

﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ٢٨﴾، أي: لم ينفعني، وماله الذي جمعه في الدنيا لم ينتفع به، بل يكون وبالًا عليه. قال ربنا: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٤ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ٣٥﴾ [التوبة].

فالمال قد يكون سببًا لرضاء الله عن العبد، إذا عمل فيه بطاعة الله، وقد يكون سببًا للشقاء، إذا كان أداة لمعصية الله تعالى. فالمُتصدّق بالمال في ظل صدقته، والتاجر الصدوق الذي يكسب المال بحلال مع النبيين والصديقين، وإخراج زكاة المال من أسباب الأمن يوم الفزع الأكبر، ونعم المال الصالح للرجل الصالح.

ثبت عن أنس بن مالك ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**يُقالُ للرَّجُلِ من أهل النَّار يومَ القيامَة: أَرَأيتَ لو كانَ لكَ ما عَلَى الأَرض من شَيءٍ أكُنتَ مُفتَديًا به؟ فَيَقُولُ: نَعَم. فيَقُولُ: قَد أَردتُ منكَ أهوَنَ من ذَلكَ، قَد أَخَذتُ عَلَيكَ في ظَهر آدَمَ أَلَّا تُشركَ بِي شَيئًا، فَأَبَيتَ إِلَّا أَن تُشركَ بِي**»[1].

﴿هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ٢٩﴾، أي: ليس لي جاه يدفع عني العذاب[2]. وقد جمعت هذه الآية أعظم أسباب الطغيان: السلطة، والمال.

ثم بيّن ما يلقاه فقال: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ٣٠ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ٣١ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ ٣٢﴾، أي فاجعلوا الأغلال عليه، فيكون في النار مغلولًا، فإنه أبى في الدنيا أن يتقيد بقيود الله والشرع، فجوزي بهذه الأغلال في الآخرة.

ولا بُدَّ من الإشارة هنا إلى أن من رفض قيود الشرع فقد وَضع غُلَّ الشيطان في رقبته، فناسب أن يُعذَّب بالأغلال في الآخرة، جزاء وفاقًا، ولا يظلم ربك أحدًا، فمن أبى أن يكون عبدًا لله، كان عبدًا لهواه.

(١) البخاري (٣٣٣٤)، ومسلم (٢٨٠٥).
(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (٨/٢١٥).

وبعد أن يجعل في القيود يلقى به في النار، ﴿ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾، أي: «اغمروه فيها»[١].

﴿ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ﴾، وتأمل فيما قاله ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية: «تَدخُلُ السلسلة في استه، ثُمَّ تَخرُجُ من فيه، ثُمَّ يُنظَمُونَ فيها كما يُنظَمُ الجَرادُ في العُود حينَ يُشوَى»[٢].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ٣٣﴾، فكفره هو ما قذف به في ساحات الخزي والمهانة.

﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ٣٤﴾، لم يقم بحق الله، ولا بحق عباده.

وهذا الارتباط بين الكفر وعدم الحض على الإطعام تكرر في مواضع، منها: قول ربنا: ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ١٨﴾ [الفجر]، وقوله: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ٣﴾ [الماعون]. وهذا يدل على أهمية القيام بالإطعام والحض عليه، ويشعر بأن من لم يقم بحق الله فهو أجدر بالتفريط في حقوق الناس، وكذلك من كان ديدنه التفريط في حقوق الناس ـ وقد أمر الله بها ـ فرط في حق الله ولا بُدَّ.

وهذه الآيات تدل على أن الكافر مُخاطَب بفروع الشريعة، لكن لا يُقبَل منه عمل إلا بعد الإيمان، وهو مُحاسَب على كفره وتفريطه في واجبات الشرع.

﴿فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ ٣٥﴾، كما قال سبحانه في موضع آخر: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ ١٨﴾ [غافر]. والحميم: القريب.

﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ ٣٦ لَّا يَأۡكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡخَٰطِـُٔونَ ٣٧﴾، اختلفت عبارات المفسرين في بيان المراد بالغسلين، وما نجزم به أنه طعام خبيث، ولا سبيل إلى القول بكيفيته فهو أمر غَيبي لا دليل يُبيّنُه من كتاب أو سنة.

ويدفع هذا الجزاء عن المرء: إيمانه بالله، وإطعامه للطعام، وحضّه عليه.

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/٢١٦).
(٢) المصدر السابق.

الآيات (٣٨ ـ ٥٢)

فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ
كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ
قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا
بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ
ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ
لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

ختم السورة بالعودة إلى المقصود، وهو الدلالة على أن ما جاء به النبي ﷺ حق، وواجب الأخذ به، فقال: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾، أقسم ربنا سبحانه بما نراه، وما لا نراه، وهذا أَعَمُّ قسم في القرآن، فإنه يتناول كلَّ شيء.

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾، وأضيف القرآن في القرآن إلى الرسول البشري في هذه الآية، وإلى الملكي في قول ربِّنا: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [التكوير]، وذلك لأن نبينا ﷺ بلَّغه، وجبريل ﷺ نزل به عليه من ربه.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾، نفي أن يكون القرآن شعرًا، ثم قال: ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾؛ لأن قليلًا من الإيمان يُدرك به صاحبه هذه الحقيقة، ولما نفى أن يكون القرآن قول كاهن، وقولهم نثر، قال: ﴿قَلِيلًا مَّا

﴿تَذَكَّرُونَ﴾؛ فإن أمره قد يُشكل على بعض الكفرة، فلو تأمَّلوا لعلموا أنه ليس بقول كاهن.

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٤٣﴾، وهنا أُضيف القرآن إلى ربنا سبحانه لأنه المتكلم به.

ومما يؤخذ من الآيات أن إبطال العقائد الخَربة يُحتاج بعده إلى بيان الصحيح؛ لئلا تبقى النفوس في أودية الحَيرة والتِّيه.

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ٤٤﴾، والكلام عن نبينا ﷺ، ومعنى تقول: زاد في الرسالة أو نقص منها. ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ٤٦﴾، أي: «لأخذنا منه بالقوة منا والقدرة، ثم لقطعنا منه نياط القلب»[١].

والأخذ باليمن أشدُّ في البطش، ففي الآية إثبات اليمين، والكناية المومئ إليها بها وهي الأخذة الشديدة بالقوة والقدرة البالغة، ولهذا قال: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ٤٧﴾؛ أي: فلا يستطيع أحد أن يحجز بيننا وبينه إذا أردنا البطش به، وفي ذلك توعُّد عظيم لكل مُتقوّل على الشرع، ومن هؤلاء من يفتون بغير شرع الله ويقولون هو من عند الله! جهلًا أو هوى، قال ربنا: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٣٣﴾ [الأعراف].

قال ابن كثير ﷺ: «والمَعنَى في هَذا: بَل هُوَ صادق بارّ راشد؛ لأَنَّ اللهَ، ﷺ، مُقَرِّر لَهُ ما يُبَلِّغُهُ عَنهُ، وَمُؤَيِّد لَهُ بالمُعجزات الباهرات، والدَّلالات القاطعات»[٢].

ثم أخبر بانتفاع صنف من الناس بهذا القرآن، وخسارة قوم آخرين، يكون عليهم وبالًا لتكذيبهم به يوم الدين، فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ٤٨ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ٤٩ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٥٠ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ٥١ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ٥٢﴾،

---

(١) تفسير الطبري (٢٣/٥٩٢).
(٢) تفسير ابن كثير (٨/٢١٨).

واليقين درجات ثلاثة: علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين، فعلم المسلم بوجود الكعبة التي يُصلي إليها: علم يقيني، فإذا رآها فقد بلغ رتبة عين، ولو دخل إلى جوفها أو باشر لمسها فهذ حق اليقين. فكذلك القرآن فإنه حق اليقين، يعرف ذلك من مارسه وعمل به وذاق حلاوته ووجد بركته.

ثم ختم الله ﷻ هذه السورة المباركة بقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾، والتسبيح تنزيه الله تعالى، وناسب الختم به لما سبق من إيراد أقوال المكذبين للقرآن.

سُورَةُ المَعَارِجِ

بين يدي سورة المعارج

وهي مكية بالاتفاق(١).

أسماؤها:

سورة «﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾»، و«﴿ٱلۡمَعَارِجِ﴾»، وسورة «الواقع».

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كلمها مئتان وست عشرَة كلمة، وحروفها ثَماني مئة وَأحد وَستُّونَ حرفا، وَهي أَربَعُونَ وَثَلاث آيات في الشَّامي وَأَربع في عدد الباقينَ، اختلافها آيَة: ﴿خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾، لم يعدها الشَّامي، وعدها الباقُونَ، وَلَيسَ فيها ممَّا يشبه الفواصل شَيء»(٢).

موضوعها:

- تهديد الكافرين بعذاب يوم القيامة.
- وإثبات ذلك اليوم، ووصف أهواله.
- وتهويل دار العذاب وهي جهنم،

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/١٥٢).
(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٣٥٤).

● وذكـر أسـباب اسـتحقاق عذابهـا. ومقابلـة ذلـك بأعمـال المؤمنـين الـتي أوجبـت لهـم دار الكرامـة.

● وصـف كثير مـن خصـال المسـلمين الـتي بثهـا الإسـلام فيهـم، وتحذيـر المشركـين مـن اسـتئصالهم وتبديلهـم بخـير منهـم[1].

مقصدها:

تثبيـت النـبي ﷺ، وتسـليته؛ حـتى لا يكـون في صـدره حـرج مـن تمردهـم وعـدم إيمانهـم، والتذكـير بمـا ينفـع مـن الصفـات والأعمـال في يـوم القيامـة.

(١) التحرير والتنوير (١٥٣/٢٩).

سورة المعارج: تأملات ووقفات

الآيات (١ ـ ٧)

سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ﴿١﴾ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ﴿٢﴾
مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ
إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ﴿٤﴾ فَٱصۡبِرۡ
صَبۡرٗا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ﴿٧﴾

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ﴿١﴾﴾، أُهمل ذكر اسمه؛ لأنه لا يترتب على تعيينه شيء، فالاهتمام يكون بموضوع السؤال، لا بالسائل، ولذا لم يُذكر أحد ممن عاصر نبينا ﷺ سوى زيد، وأبي لهب.

﴿بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ﴿١﴾ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ﴿٢﴾﴾، قال ابن عاشور ﵀: «واللام لشبه الملك، أي عذاب من خصائصهم كما قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة]»[1].

﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ﴿٣﴾﴾: أي هذا العذاب ينزل من الله ﷻ، ﴿ذِي ٱلۡمَعَارِجِ﴾، وهي الدرجات، تعبيرًا عن علوه ﷻ، ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾: أي تصعد الملائكة والروح، والروح جبريل ﵇، فالعطف هنا لا يدلُّ على التغايُر، فهذا من باب عطف الخاص على العام.

---

(١) التحرير والتنوير (١٥٥/٢٩).

وهنا تنبيهان:

● الأول: ليس المراد من الآية أن صعود الملائكة إلى ربها في يوم يكون مقداره خمسين ألف سنة، بل المراد: أن العذاب يكون في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، وذكر المعارج جملة معترضة[١].

● الثاني: ليس هناك تعارض بين هذه الآية، وبين قول ربنا: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحج]، ومثلها آية السجدة، فيوم القيامة مقداره خمسون ألف سنة على الكافر لشدته، أما آية الحج وكذا السجدة فإنها لا تتحدث عن طول يوم القيامة، وإنما تتحدث عن طول الأيام التي عند الله تعالى، التي يحدث فيها التدبير، وقدرها بالنسبة لأيام الدنيا التي نعدها، وهي الأيام التي يحدث الله فيها الخلق والتدبير، فبيّن ﷻ أن اليوم عنده يساوي ألف سنة من أيامنا هذه.

ثبت عن أبي هريرة ﷺ، أن النبي ﷺ قال: «**ما من صاحب ذَهَب وَلا فضَّة لا يُؤَدِّي منها حَقَّها إلّا إذا كانَ يَومُ القيامَة صُفِّحَت لَهُ صَفائحُ من نار، فَأُحمِيَ عَلَيها في نار جَهَنَّمَ، فَيُكوَى بها جَنبُهُ وَجَبينُهُ وَظَهرُهُ، كُلَّما بَرَدَت أُعيدَت لَهُ، في يَوم كانَ مقدارُهُ خَمسينَ أَلفَ سَنَة، حَتَّى يُقضَى بَينَ العباد فَيَرَى سَبيلَهُ إمّا إلَى الجَنَّة وَإمّا إلَى النّار**»[٢].

وثبت عن ابن عباس ﷺ أنه قال: «هذا يوم القيامة، جعله الله تعالى على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة»[٣].

وقول ربنا: ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ دليل على علوه.

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (١٥٧/٢٩).
(٢) مسلم (٩٨٧).
(٣) جامع البيان للطبري (٦٠٢/٢٣).

ثم قال: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥﴾، هذا هدي القرآن: بذل النصيحة، ولو كان المنصوح من الأخيار، ولا يليق بأحد أن يرد نصح الناصحين مهما علت مكانته، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ۝٢٠٦﴾ [البقرة].

قال ابن تيمية ﷺ: «والصَّبر الجميل صَبر بلا شكوى، قالَ يَعقُوب عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]، مَعَ قَوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۝١٨﴾ [يوسف]، فالشكوى إلى الله لا تنافي الصَّبر الجميل»(١).

﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ۝٧﴾، يعُدون وقوعه بعيدًا لا يمكن وقوعه. كما قال ربنا: ﴿ق ۚ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ۝٣﴾ [ق].

﴿وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾، ولذا تحدث عنه ربنا بصيغة الماضي؛ لتحقق وقوعه، قال تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١﴾ [النحل].

وهكذا في كل ما وعد الله به، ثق بوقوعه، ولو استبعد ذلك من لا إيمان له! ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ۝٨٧﴾ [النساء].

---

(١) الزهد والورع والعبادة، ص(٩٩).

الآيات (٨ ـ ١٨)

يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا
يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ
عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى
تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾
نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾

﴿ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾.
المهل: رديء الزيت، والعهن: الصوف. والحميم: القريب[1]. فلا يسأل أحد أحدًا عن شأنه، مع أنه قد بكى لما فارقه، وامتلأ قلبه حزنًا عليه بوفاته! وليس يبعد أن لو وجد سبيلًا يفديه به لفعل، ثم إذا لقيه في الآخرة لا يسأل عنه؛ من هول اليوم الآخر. وهذا المعنى تكرر في القرآن، قال ربنا: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [المؤمنون]. وقال: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [عبس].

وهذا الانشغال ليس بسبب أنه لم يره! بل أثبت الله تعالى الملاقاة والرؤيا بقوله: ﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾.

ثم انتقلت السورة بنا إلى بيان حال هي أدلُّ على شدة اليوم الآخر من هذه الحال؛ وهي: أن الإنسان يودُّ أن يفتدي من العذاب ببنيه، وصاحبته، وأخيه، وأهله كلهم،

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٨/٢٢٤).

وجميع من في الأرض، أي: لو خُيّر بين أن يُعذَّب، وبين عذاب هؤلاء لاختار عذابهم لسلامة نفسه. قال تعالى: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾. فذكر الأبناء أولًا لشدة تعلق القلب بهم، ولم يقل بعدهم: وزوجه؛ لأن الزوجية تثبت بمجرد العقد ولو لم يكن بينهما من لقاء، لكنه قال: ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾؛ للدلالة على العشرة والملازمة وطول المكث بينهما.

ولم يذكر الوالدان هنا، وقد ذكرا في قول ربنا: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس]؛ وذلك مراعاةً لجانب الأدب معهما؛ لأنه لا يليق أن تذكر رغبته في أن يفتدي بوالديه.

ثم قال: ﴿كَلَّآ﴾، أي: ليس الأمر كما تمنّى هذا المجرم. ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾﴾، وسميت النار بذلك لأنها تتلظّى وتلتهب، وتشوي اللحم، وتنزعه نزعًا شديدًا.

﴿تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾، تنادي عليهم بأسمائهم، تناديهم إليها بسبب إعراضهم في الدنيا عن الإيمان والحق، وبسبب كنزهم للذهب والفضة وعدم إعطاء المسكين حقَّ الله فيه(١).

---

(١) ينظر: تفسير البغوي (٨/٢٢٣).

الآيات (١٩ ـ ٣٥)

إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ
ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ
﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ
﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم
مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ
حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ
مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ
هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾
وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾، هذا كشف لطبيعة الإنسان، فهو بطبعه هلوع. فما الهلوع؟ فسَّره بما بعده، قال ربنا: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾، إذا أصيب بشرّ جَزع وقَنط من رحمة ربه، وإذا جاءه الخير منع حقَّ الله فيه، وهذا طبع كثير من الناس.

﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾، وهذا علاج الهلع، لما ذكر ربنا الناجين من الهلع بدأ بالمصلين وختم بهم.

وهذا يدل على كبير أثر الصلاة في الوقاية من ذلك، وفي تحقيق التُّؤَدة، والطمأنينة، والسكينة.

وقد أمر ربنا بالاستعانة بها، قال سبحانه: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ٤٥﴾ [البقرة]. وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾ [البقرة].

وثبت عَن حُذَيفَةَ ﷺ، أنه قال: «كانَ النَّبيُّ ﷺ إذا حَزَبَهُ أَمر، صَلَّى»(١).

وهـذا هـدي الخليـل ﷺ، فإنـه لما أُخـذت منـه سـارة عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ فـزع إلى الصـلاة، قـال نبينـا ﷺ: «لَـم يَكـذب إبراهيـمُ ﷺ إلّا ثَـلاثَ كَـذبات، ثنـتَين منهـنَّ في ذات الله ﷻ، قَـولُهُ ﴿إِنِّي سَقِيمٌ ٨٩﴾ [الصافات]. وَقَـولُهُ: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]. وَقـالَ: بَينـا هُـوَ ذاتَ يَـوم وَسـارَةُ، إذ أَتَى عَلَى جَبّـار مِـنَ الجَبابـرَة، فَقيـلَ لَهُ: إنَّ هـا هُنا رَجُلًا مَعَـهُ امرَأَة من أَحسَـن النّاس، فَأَرسَـلَ إلَيـه فَسَـأَلَهُ عَنها، فَقـالَ: مَـن هَـذه؟ قـالَ: أُخـتي، فَـأَتَى سـارَةَ قـالَ: يـا سـارَةُ: لَيـسَ عَلَى وَجـه الأَرض مُؤمـن غَـيري وَغَـيرَك، وَإنَّ هَـذا سَـأَلَني فَأَخبَرتُـهُ أَنَّـك أُخـتي، فَـلاَ تُكَـذّبيـني، فَأَرسَـلَ إلَيهـا فَلَمّـا دَخَلَـت عَلَيه ذَهَـبَ يَتَناوَلُها بيَـده فَأُخـذَ، فَقالَ: ادعي اللهَ لي وَلاَ أَضُرُّك، فَدَعَـت اللهَ فَأُطلـقَ، ثُـمَّ تَناوَلَهـا الثّانيَـةَ فَأُخذَ مثلَها أَو أَشَـدَّ، فَقالَ: ادعي اللهَ لي وَلاَ أَضُرُّك، فَدَعَـت فَأُطلـقَ، فَـدَعا بَعـضَ حَجَبَتـه، فَقالَ: إنَّكُـم لَم تَأتُوني بإنسـان، إنَّمـا أَتَيتُمـوني بشَـيطان، فَأَخدَمَهـا هاجَـرَ، فَأَتَتـهُ وَهُوَ قائـم يُصَلّي»(٢).

وفي صحيح مسـلم، عَن أَبي هُرَيرَةَ ﷺ، أَنَّهُ قالَ: قال رسـول الله ﷺ: «كانَ جُرَيج يَتَعَبَّـدُ في صَومَعَـة، فَجـاءَت أُمُّهُ، فَقالَت: يا جُرَيـجُ أَنا أُمُّكَ كَلّمـني، فَصادَفَتهُ يُصَلّي، فَقـالَ: اللهُـمَّ أُمّي وَصَـلاتي، فاختـارَ صَلاتَـهُ، فَرَجَعَت، ثُـمَّ عادَت في الثّانيَـة، فَقالَت: يـا جُرَيـجُ أَنا أُمُّـكَ فَكَلّمني، قـالَ: اللهُمَّ أُمّي وَصَـلاتي، فاختارَ صَلاتَـهُ، فَقالَت: اللهُمَّ إنَّ هَـذا جُرَيـج وَهُـوَ ابـني وَإنّي كَلَّمتُهُ، فَـأَبَى أَن يُكَلّمَني، اللهُـمَّ فَلا تُمتهُ حَـتَّى تُريَهُ المُومسـات، وَلَـو دَعَـت عَلَيه أَن يُفـتَنَ لَفُـتنَ. وَكانَ راعي ضَأن يَـأوي إلَى دَيره، قالَ:

(١) سنن أبي داود (١٣١٩)، وهو في صحيح الجامع (٤٧٠٣).
(٢) البخاري (٣٣٥٧).

فَخَرَجَت امرَأَة مِنَ القَريَة فَوَقَعَ عَلَيها الرّاعي، فَحَمَلَت فَوَلَدَت غُلامًا، فَقيلَ لَها: ما هَذا؟ قالَت: مِن صاحب هَذا الدَّير، قالَ فَجاءُوا بفُئُوسهم وَمَساحيهم، فَنادَوهُ، فَصادَفُوهُ يُصَلّي، فَلَم يُكَلّمهُم، قالَ: فَأَخَذُوا يَهدمُونَ دَيرَهُ، فَلَمّا رَأَى ذَلكَ نَزَلَ إلَيهم، قال: ما شَأنُكُم؟ قالُوا: زَنَيتَ بهَذه البَغيّ، فَوَلَدَت منكَ، فَقالَ: أَينَ الصَّبيُّ؟ فَجاءُوا به، فَقالَ: دَعُوني حَتَّى أُصَلّيَ، فَصَلَّى، فَلَمّا انصَرَفَ أَتَى الصَّبيَّ فَطَعَنَ في بَطنه، وَقالَ: يا غُلامُ مَن أَبُوكَ؟ قالَ: فُلان الرّاعي، قالَ: فَأَقبَلُوا عَلَى جُرَيج يُقَبّلُونَهُ وَيَتَمَسَّحُونَ به، وَقالُوا: نَبني لَكَ صَومَعَتَكَ من ذَهَب، قالَ: لا، أَعيدُوها من طين كَما كانَت، فَفَعَلُوا»(١).

والشاهد من القصة: استعانته بالصلاة في وقت المحنة.

وإن مما يُستغرب لمثله: أن بعض طلاب العلم عندما يتكلم عن الصلاة لا يذكر إلا نصوص الترهيب من تركها والتهاون فيها! فأين نصوص الترغيب التي امتلأ بها الكتاب والسنة؟ وهذه بعض الآيات التي تبيّن ذلك(٢):

فالصلاة منهاة عن الإثم. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥].

وأهلها هم الآمنون يوم العرض على الله. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾ [البقرة].

وذُكر في الآية أن الأجر ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾، لفائدتين:

الأولى: ليُعلم أنه كبير، والثانية: ليُعلم أنه لا يضيع.

وهي عبادة الأنبياء السابقين:

---

(١) مسلم (٢٥٥٠).

(٢) وانظر كتابي: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ تجد تفصيلاً لذلك.

قال الخليل ﷺ: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾﴾ [إبراهيم].

وقال عن إسماعيل ﷺ: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم].

وقال ربنا لكليمه موسى ﷺ: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾﴾ [طه].

وقال عيسى ﷺ: ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾ [مريم].

وقال لنبينا محمد ﷺ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه].

وقال عن جملة منهم: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنبياء].

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾، المقصود به الزكاة، ففي المال نصاب معين لذوي الحاجات من السائلين ومن لا يقدرون على التكسب[1].

وبعد أن استثنى الله تعالى من جنس الإنسان الهلوع الجزوع المنوع المداومين على صلاتهم، والمزكين لأموالهم، عطف عليهم أصحاب صفة لا بُدَّ منها في كل مسلم فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾﴾، وهذا يشعر بأن الإيمان باليوم الآخر - وهو يقتضي تصديقًا وعملًا - من أعظم أسباب المداومة على الصلوات، وإخراج الزكوات، وأشار إلى العمل بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾﴾، فهؤلاء قوم مصدقون بيوم الجزاء والحساب، ومع التصديق هم عالمون غير مغترين، بل مشفقون يعلمون تقصيرهم مهما عملوا،

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/٤١٨).

ويعلمـون أن الواجـب في حـق الله أعظـم مـن أن يوفّيـه اجتهـاد، وأنـه لـن يدخل الجنـة أحـد بعملـه، إلّا أن يتداركـه الله برحمتـه، وقـد جـاء في الصحيح عن رسـول الله ﷺ أنـه قـال: «**لن ينجي أحـد منكم عمله**»، قـال رجل: ولا إياك يا رسـول الله؟ قـال: «**ولا إيـاي، إلا أن يتغمـدني الله منـه برحمـة، ولكن سـددوا**»(١).

ومـن كَمُـل إشـفاقه في الدنيـا كمـل أمانـه يـوم القيامة، ومـن خـاف في الدنيا أمّـن الله خوفـه يـوم العـرض عليـه. قـال ربنـا: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ [الطور]. فهـؤلاء خافـوا في الدنيـا وأمنـوا في الآخـرة، وكـم ممـن انقلب حـاله، فأمن في الدنيـا وتجـرأ على مـا حـرم الله، فعوقـب بالخـوف في الآخـرة! قـال ربنـا: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف]. قـال ربنـا في الحديث القـدسي: «**قال الله ﷻ: وعـزتي لا أجمع لعبدي أمنـين ولا خوفين، إن هـو أمنـني في الدنيـا أخفته يـوم أجمع فيه عبـادي، وإن هو خافـني في الدنيا أمنته يوم أجمـع فيه عبـادي**»(٢).

ثـم قـال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾﴾، والعفـة الـتي أثـنى الله تعـالى على أهلهـا في هـذه الآيات لهـا كثير من الفضائـل، مـن ذلك:

● تزكية النفس.

ولذا لمـا أمـر الله بهـا في آيـة غـض البـصر قـال: ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [النور]، فمـن أراد أن يُـزكيَ نفسـه فعليـه بالعفـة.

---

(١) رواه البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦)، ومعناه فيهما من حديث عائشة ﷺ.
(٢) أبو نعيم في الحلية (٦/٩٨).

● ومنها: مغفرة الذنوب.

قال تعالى: ﴿وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب].

● ومنها: نيل معونة الله.

فقد قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثَة حَقّ عَلَى الله عَونُهُم: المُجاهدُ في سَبيل الله، والمُكاتَبُ الَّذي يُريدُ الأَداءَ، والنّاكحُ الَّذي يُريدُ العَفافَ**»(١).

● والعفة من أبرز سمات المؤمنين.

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون].

● ومن ذلك: أن الله تعالى يدافع عن أهلها.

وهذا دليل على صدق إيمانهم؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [الحج].

ولقد تولى الله تعالى الدفاع عن ثلاثة من سادات العفيفين في القرآن الكريم:

- أولهم نبي الله يوسف ﷺ، اتهمته امرأة العزيز بالفاحشة فقالت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [يوسف]. فأوضح كلُّ من له تعلق بهذه القصة براءة يوسف ﷺ ونقاء سريرته، فقد برأ يوسف ﷺ نفسه عما اتُّهم به ونزّه ساحته فقال: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ [يوسف:٢٦]، وقال:

---

(١) الترمذي (١٦٥٥)، وهو في صحيح الجامع برقم (٣٠٥٠).

﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴾ [يوسف:٣٣]. وبرَّأته امرأة العزيز في قولها: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾ [يوسف:٣٢]، وفي قولها: ﴿ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ﴾[يوسف]. وأما تبرئة الشاهد والملك له ففي قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [يوسف]. وشهد على ذلك النسوة: ﴿ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ﴾[يوسف:٥١]. وشهد الله تعالى ـ وكفى بالله شهيدًا ـ على ذلك بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [يوسف].

ـ وتولى الله الدفاع عن مريم عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ، فلقد اتهمت بالفاحشة كما جاء في موضعين في القرآن:

الأول: ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ ﴾ [النساء].

والثاني: ﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ ﴾ [مريم].

وبرَّأها الله في موضعين كذلك:

الأول: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [الأنبياء].

والثاني: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [التحريم].

ورُميت أمنا عائشة ﵂، فبُرِّئت في كتاب الله، ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾[النور]، بل برأها الله تعالى في عشر آيات في سورة النور ابتداء من

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١﴾ [النور].

● ومن ثمار العفة: إغناء الله لأهلها.

قال تعالى: ﴿وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ﴾ [النور: ٣٣].

والإغناء يتحقق بأمور: أن يرزقه ما يتزوج به، أو يجد من ترضى باليسير، وبحاله[1].

● والعفة يستظلُّ الإنسان بها في ظل عرش ربنا يوم تدنو الشمس من الخلائق، فعن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**سَبعَة يُظلُّهم اللهُ في ظلِّه يومَ لا ظلَّ إلّا ظلُّهُ: الإمامُ العادلُ، وَشابٌ نَشَأَ بعبادَة الله، وَرَجُل قَلبُهُ مُعَلَّق في المَساجد، وَرَجُلان تَحابّا في الله اجتَمَعا عَلَيه وَتَفَرَّقا عَلَيه، وَرَجُل دَعَتهُ امرَأَة ذاتُ مَنصب وَجَمال فَقالَ: إنّي أَخافُ اللهَ، وَرَجُل تَصَدَّقَ بصَدَقَة فَأَخفاها؛ حَتَّى لا تعلَمَ يَمينُهُ ما تُنفقُ شمالُهُ، وَرَجُل ذَكَرَ اللهَ خاليًا فَفاضَت عَيناهُ**»[2].

● وأعظم ثمرة للعفة: دخولُ الجنة.

قال تعالى: ﴿وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ٣٥﴾ [الأحزاب]. والأجر العظيم: الجنة. وثبت عن سهل بن سعد ﷺ، عن رسول الله ﷺ قال: «**مَن يَضمَن لي ما بَينَ لَحيَيه وَما بَينَ رجلَيه أَضمَن لَهُ الجَنَّةَ**»[3].

ومن خوارم العفة: الاستمناء، وحكمه مبين في كتاب ربنا، قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ٧﴾ [المؤمنون]، فكل من جعل شهوته في غير ما ذكر الله فهو من العادين.

---

(١) راجع جامع القرطبي (١٢/٢٤٣).
(٢) البخاري (٦٦٠)، ومسلم (٩٢٣).
(٣) البخاري (٦٤٧٣).

ثـم قـال تعـالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝﴾؛ أي: إذا اؤتمنوا لـم يخونوا، وإذا عاهـدوا لـم يغـدروا. والأمانـة في القرآن يـراد بها ثلاثة أشـياء:

● أحدها: الفرائض، ومنه قـوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٧].

● الثـاني: الوديعـة، ومنه قوله تعـالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

● الثالـث: العفة، ومنه قوله تعـالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ۝﴾ [القصص]، فقـد أرادت بهـا العفـة؛ لأنـه كان لا ينظـر إليهـا، ولمـا كشـفت الريح عن شيء منهـا أمرهـا مـوسى ﷺ أن تكون مـن خلفه وتنعـت له الطريـق بالحجر[1].

وكل مـا أمرنـا الله بـه فهـو أمانـة، عـن ابن مسـعود ﷺ قـال: «القتل في سـبيل الله يكفـر الذنـوب كلهـا إلا الأمانـة، يـؤتى العبد يـوم القيامـة وإن قُتل في سـبيل الله فيقـال: أد أمانتـك. فيقـول: أي رب كيـف وقد ذهبـت الدنيا؟! فيقـال: انطلقوا بـه إلى الهاويـة، فينطلـق بـه إلى الهاوية، وتمثـل له أمانتـه كهيئتها يـوم دفعت إليه، فيراهـا فيعرفهـا، فيهـوي في أثرها حتى يدركهـا، فيحملها على منكبيـه، حتى إذا ظن أنـه خـارج زلت عن منكبيـه، فهو يهـوي في أثرها أبـد الآبدين». ثم قـال: «الصلاة أمانـة، والوضـوء أمانـة، والوزن أمانـة، والكيل أمانة، ـ وذكر أشـياء ثم قال: ـ وأشـد ذلـك الودائع»[2].

---

(١) انظر: نزهة الأعين النواظر (١/١٠٥).
(٢) البيهقي في شعب الإيمان (٧/٢٠٧)، برقم (٤٨٨٥)، وهو في صحيح الترغيب (١٧٦٣)، وقد رُوي مرفوعاً لكنه ضعيف. قال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (٩/٦٩) بعد أن ضعَّف رفعه وذكر وقفه على ابن مسعود ﷺ:
وقد أخرجه أبو نعيم من طريق أخرى، عن شريك به موقوفًا على ابن مسعود، وهو الذي رجحه الحافظ المنذري، فقد ساقه في «الترغيب» (٣/٢١ ـ ٢٢) عن ابن مسعود موقوفًا عليه، ثم قال: «رواه البيهقي موقوفًا، ورواه بمعناه هو وغيره مرفوعًا، والموقوف أشبه». وقال الحافظ الناجي فيما كتبه على «الترغيب» (ق ١/١٦٤): «وكذا رواه أحمد، وذكر ابنه عبد الله في «كتاب الزهد» أنه سأله عنه ؟ فقال: إسناده جيد».

ومـن أعظـم مـا يرغـب في أداء الأمانـة: أن لهـا أثـرًا كبـيرًا في النجـاة مـن كلاليـب الـصراط وخطاطيفـه، لحديـث حُذَيفَـة وأبي هريـرة ﷺ، قالا: قالَ رَسُـول الله ﷺ: «يَجمَـعُ اللهُ ﷻ النّـاسَ فيَقـومُ المُؤمنُونَ حَـتَّى تُزلَفَ لَهُمُ الجَنَّـةُ، فَيأتُونَ آدَمَ صَلَـواتُ الله عَلَيـه، فيقُولُـونَ: يا أَبانا استَفتح لَنـا الجَنَّـةَ، فيقُولُ: وَهَـل أخرَجَكُم مِـنَ الجَنَّـة إلّا خَطيئَـةُ أبيكـم! لَسـتُ بصاحـب ذلـكَ، اذهَبُـوا إلَى ابـني إبراهيـمَ خَليـلِ الله. قـالَ: فَيَأتـونَ إبراهيـمَ فَيَقُـولُ إبراهيم: لَسـتُ بصاحب ذلـكَ إنَّما كُنتُ خَليـلًا مـن وَراءَ وَراءَ، اعمَـدُوا إلَى مُـوسَى الَّذي كَلَّمَـهُ الله تَكليمًـا. فَيأتُونَ مُوسَى، فَيَقُـولُ: لسـتُ بصاحـب ذلـكَ، اذهَبُوا إلَى عيـسى كلمة الله ورُوحـه، فيقول عيسى: لسـتُ بصاحـب ذلـكَ، فَيأتُونَ مُحَمَّـدًا ﷺ فَيَقُـومُ فَيُؤذَنُ لَه، وتُرسَـلُ الأَمانَـةُ والرَّحِمُ فَيَقُومـان جَنبَـتَي الـصّراط يَمينًا وَشـمالًا فَيَمُـرُّ أوَّلُكُم كالـبَرق»[1].

﴿وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾، لا يزيـدون عليهـا، ولا ينقصـون منهـا، ولا يكتمـونهـا، ولا يؤجلونهـا.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾﴾، وقال قبلهـا: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾، فمـا الفـرق بينهمـا؟ الجـواب: معـنى دوامهـم عليهـا، أن يواظبـوا على أدائهـا، ولا يشـتغلون عنهـا بـشيء مـن الشـواغل، وأمـا محافظتهـم عليهـا: أن يُراعوا إسباغ الوضـوء لهـا، ومواقيتها، وسـننها، وآدابها، فالدوام يرجع إلى نفـس الصلاة، والمحافظة تعـود إلى أحوالها[2].

---

(١) مسلم (١٩٥).
(٢) انظر: الكشاف للزمخشري (٤/٦١٢).

الآيات (٣٦ ـ ٤٤)

فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ
﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾
كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ
وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ
﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾
يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾
خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾﴾، مهطعين: قيل مسرعين إليك مادّي أعناقهم يتعجبون منك! وقيل مسرعين عنك؛ نافرين فهذا حالهم مع نبينا ﷺ، يفرُّون من مجالسه متفرقين، كما قال ربنا: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾ [المدثر].

وهذه النصوص التي تدل على نفور المشركين من مجالسه يدل على أن ما جاء من الأحاديث التي تبين علمهم بما يدعو إليه من أخلاق أنه كان يكررها كثيرًا حتى علم بها المعرضون عنه، كالعفة والصلة، كما في حديث هرقل مع أبي سفيان لما كان مشركًا، قال له هرقل: بِمَ يَأمُرُكُم؟ فقالَ: يَأمُرُنا بالصَّلاَة والزَّكاة والصّلَة والعَفاف، قالَ: إن يَكُ ما تَقُولُ فيه حقًّا، فإنَّهُ نَبيّ[1].

---

(١) البخاري (٤٥٥٣).

وقوله: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾﴾ استفهام إنكاري يفصح عما يعتمل في نفوس القوم من الطمع الذي بنوه على الأماني، وما معهم مستند ولا قوة تكفل حصول ما يصبون إليه، ولهذا قال زاجرًا ورادعًا: ﴿كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ تذكيرًا لهم بحقيقتهم ومبدأ أمرهم، إشعارًا بضعفهم وهوانهم.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٤٠﴾﴾، وفي آية أخرى قال ربنا: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾ [الرحمن]، وفي ثالثة: ﴿رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [المزمل: ٩]. ولا تعارض بين هذه الآيات، فالمشرق بالإفراد مكان شروق الشمس، والمغرب مكان غروبها، والمراد بالتثنية: مشرق الصيف والشتاء، ومغرب الصيف والشتاء، وفي انتقال الشمس من مشرق الصيف إلى مشرق الشتاء تطلع بمطالع كثيرة، فهذه هي المشارق، ومكان غروبها كل يوم وهي تنتقل إليه من فصل إلى فصل هذه هي المغارب.

وهذه الصيغة ﴿فَلَا أُقْسِمُ﴾ في غير موضع من كتاب الله تعالى وفي المراد بها ثلاثة أقوال:

● الأول: أنه نفي للقَسَم، والمعنى أن هذه المسألة من الظهور بحيث لا تحتاجُ إلى قَسَم عليها.

● الثاني: أن المنفيَّ محذوف يقدَّر بما يناسبُ السياق، ويكون المعنى: لا ليس الأمرُ كما زعمتُم في البعث، أُقسم بيوم القيامة إنه لآت.

● الثالث: أن ﴿لا﴾، جاءت لتأكيد القَسَم، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾﴾، ثم قال بعده: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [الواقعة]، فأثبتَ أنه أَقسَمَ. وهذا هو الصواب.

وقوله: ﴿إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾﴾، قادرون على أن نأتي بخير من أجسامهم هذه بعد أن تأكلها الأرض، كما قال ربنا:

﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾ [القيامة]. وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٦١﴾ [الواقعة].

﴿فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ۝٤٢﴾، يخوضون في باطلهم، وينهمكون في لعبهم، فإذا جاء يوم القيامة ندموا على ما كان منهم، وكم فيها من عزاء لأهل الإيمان الذين كانوا يضحكون منهم في الدنيا!

﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ ۝٤٣﴾، وهذه من السخرية بهم؛ لأنهم في الدنيا يركضون لأصنامهم يبتدرونها للتبرُّك بها، ويوم القيامة يسرعون بغير اختيارهم إلى موطن حسابهم وجزائهم.

وكما كانوا عنه ﷺ مهطعين فهم إلى جزاء ذلك مهطعين.

والله أعلم.

سُورَةُ نُوحٍ

بين يدي سورة نوح

وهي مكية اتفاقًا[١].

أسماؤها:

لهذه السورة المباركة اسمان؛ تعرف بسورة نوح، وبسورة ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا﴾.

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كلمها مئتان وَأَربع وَعشرُونَ كلمة. وحروفها تسع مئة وَتسعَة وَعشرُونَ حرفًا. وَهي عشرُون وثماني آيات في الكُوفي، وتسع في البَصريّ والشامي، وَثَلاثُونَ آيَة في المَدَنيين والمكي. اختلافها أَربع آيات: ﴿وَلَا سُوَاعًا﴾، لم يعدها الكُوفي وعدها الباقُونَ. ﴿وَيَعُوقَ وَنَسۡرًا﴾، عدها المدني الأَخير والكوفي وَلم يعدها الباقُونَ. ﴿وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرًا﴾، عدها المدني الأول والمكي وَلم يعدها الباقُونَ. ﴿فَأُدۡخِلُواْ نَارًا﴾، لم يعدها الكُوفي وعدها الباقُونَ»[٢].

---

(١) التحرير والتنوير (١٨٥/٢٩).
(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٥٥).

موضوعاتها:

● قصة نوح ﷺ، وما اشتملت عليه من الدعوة إلى توحيد الله، ونبذ عبادة الأصنام، وإنذاره قومه بعذاب أليم، واستدلاله لهم ببدائع صنع الله تعالى، وتذكيرهم بيوم البعث، وتصميم قومه على عصيانه وعلى تصلبهم في شركهم.

● تسمية الأصنام التي كانوا يعبدونها.

● دعوة نوح على قومه بالاستئصال.

● الإشارة إلى الطوفان.

● دعاء نوح بالمغفرة له وللمؤمنين، وبالتبار على الكافرين كلهم.

وتخلل ذلك إدماج وعد المطيعين بسعة الأرزاق وإكثار النسل ونعيم الجنة[١].

مقصدها:

زجر الكافرين.

قال في التحرير والتنوير: «أعظم مقاصد السورة: ضرب المثل للمشركين بقوم نوح ﷺ، وهم أول المشركين الذين سلط عليهم عقاب في الدنيا.. وفي ذلك تمثيل لحال النبي ﷺ مع قومه بحالهم»[٢].

(١) التحرير والتنوير (٢٩/١٨٦).
(٢) التحرير والتنوير (٢٩/١٨٥ ـ ١٨٦).

سورة نوح: تأملات ووقفات

الآيات (١ ـ ٤)

إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾﴾، ونوح ﷺ أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض. قال ربنا: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣]، ولم يقل: من قبله. وقد كان بأرض العراق.

وفي حديث الشفاعة: «**وَلَكِن ائتُوا نُوحًا؛ أَوَّلَ رَسُول بَعَثَهُ اللهُ**»(١).

وبدأ بالإنذار؛ لحاجة الكفار إلى ذلك. «والإنذار: الإبلاغ، ولا يكون إلا في التخويف»(٢).

والإنذار: التخويف من شيء تتمكن من النجاة منه، أما إذا لم يتسع الوقت لذلك فهو إشعار.

(١) البخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٣).
(٢) الصحاح للجوهري (٢/٨٢٥).

وأن يكون الرسول من قومه، يعرفون نسبه، ونعته، هذا أدعى لقبول كلامه، قال ربنا: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾ [إبراهيم].

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ﴾، فيها دليل على الترفُّق بالمدعوّ، وتقريبه؛ طمعًا في قبوله، واستجابته.

وهذا الحوار الذي جرى بين نوح ﷺ وبين قومه يدل على أهميته في الدعوة إلى الله، قال ربنا: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ [العنكبوت: ١٤]، وفي هذه السنوات كلها لم يسأم من محاورتهم، ولم يترك هذا الأسلوب إلى غيره.

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ ﴾، وهذا تأكيد لأمر الرسالة التي جاء بها، وإنما احتيج إلى تأكيد كلامه لتوقُّع استغرابهم الذي يحمل على التكذيب، وقد كان ذلك منهم. وقد امتلأ القرآن الكريم بالقسم وبالمؤكدات؛ لأن الله يخاطب به الناس أجمعين، وأكثرهم عن الحق معرضون.

﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ ﴾، تكلَّم معهم بجوامع الكلم؛ لشدة إعراضهم عنه، فأجمل لهم ما جاء به إليهم في هذه الكلمات، وبيَّن لهم ما يترتب عليها فقال:

﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾، وقوله: ﴿ مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾، هذا ترغيب، وهذا دأب المرسلين والصالحين مع أقوامهم، يُرغبونهم في الإيمان بمغفرة الله لذنوبهم، قال ربنا: ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ [إبراهيم: ١٠]، وقال: ﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الأحقاف]. وهو من الترغيب الذي يُذكر

في خطاب الله للمؤمنين، قال ربنا: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١﴾ [آل عمران]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾ [الصف].

و﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾، بيانيَّة، وليست تبعيضية[1]. فإن الإسلام يهدم ما قبله، قال نبينا ﷺ: «**أَما عَلمتَ أَنَّ الإسلامَ يَهدمُ ما كانَ قَبلَهُ؟ وَأَنَّ الهجرَةَ تَهدمُ ما كانَ قَبلَها؟ وَأَنَّ الحَجَّ يَهدمُ ما كانَ قَبلَهُ؟**»[2].

ورسول الله نوح ﷺ جمع في أسلوب دعوته لقومه بين الترغيب والترهيب، وهذا هدي نبينا ﷺ الذي جاء به القرآن، وما أحسن الجمع بينهما في تربية الآباء لأولادهم والمعلمين لطلابهم!

والترغيب الذي دعاهم به مشتمل على أمرين: أمر أخروي، وأمر دنيوي. فالمغفرة تكون في الآخرة، أما في الدنيا فرغبهم بتأخير آجالهم. ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى﴾.

قال ابن كثير ﷺ: «أي: يَمُدُّ في أعماركُم، وَيَدرَأُ عَنكُمُ العَذابَ الَّذي إن لَم تَنزَجِرُوا عَمَّا نَهاكُم عَنهُ، أَوقَعَهُ بكُم. وَقَد يَستَدلُّ بهَذه الآيَة مَن يَقُولُ: إنَّ الطَّاعَةَ والبرَّ وَصلَةَ الرَّحم، يُزادُ بها في العُمر حَقيقَةً؛ كَما وَرَدَ به الحَديثُ: «**صلَةُ الرَّحم تَزيدُ في العُمر**».

---

(١) راجع: فتح القدير (٣/١١٧).
(٢) مسلم (١٢١).

وَقَولُهُ: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٤﴾، أَي: بادرُوا بالطَّاعَة قَبلَ حُلُول النقمَة، فَإِنَّهُ إذا أَمَرَ اللهُ تَعالَى بكَون ذَلكَ لا يُرَدُّ وَلا يُمانَع، فَإِنَّهُ العَظيمُ الَّذي قَهَرَ كُلَّ شَيء، العَزيزُ الَّذي دانَت لعزَّته جَميعُ المَخلُوقات»[1].

فتأخير الأجل بصلة الرحم والبر ثابت في السنة، وهذا التغيير يكون في المكتوب في صحف الملائكة، أما ما في اللوح المحفوظ فلا يتغير، وعلى هذا فُسِّر قول ربنا: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ۝٣٩﴾ [الرعد][2].
والله يقدر الأمور بأسبابها، فعَن أَنَس بن مالك ﷺ قال: سَمعتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «مَن سَرَّهُ أَن يُبسَطَ لَهُ رزقُهُ، أَو يُنسَأَ لَهُ في أَثَره، فَليَصل رَحمَهُ»[3]. وعَن سَلمانَ ﷺ قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لاَ يَرُدُّ القَضاءَ إلّا الدُّعاءُ، وَلاَ يَزيدُ في العُمر إلّا البِرُّ»[4]. فيُقدَّر أن فلانًا يزيد عمره لأخذه بهذه الأسباب، وفلان يقصر عمره لعدم أخذه بها، فيكون التغيير في صحف الملائكة، وما كتب في اللوح المحفوظ فلا يطرأ عليه تغيير أبدًا.

---

(١) تفسير ابن كثير (٢٣١/٨).
(٢) زاد المسير (٥٠١/٢).
(٣) البخاري (٢٠٦٧)، ومسلم (٢٥٥٧).
(٤) الترمذي (٢١٣٩)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٥٤).

الآيات (٥ ـ ٢٠)

قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيَ إِلَّا فِرَارًا
﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ
ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾
ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ
إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ
ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ
وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ
أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾
وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم
مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ
جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾

بعد سنوات طويلة من التكذيب كان منه هذا الدعاء: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾﴾، وكم من الدعاة إلى الله تعالى لا يعطي الدعوة إلا فضول وقته! ومجتمعات المسلمين في حاجة كبيرة إلى تكثيف أنشطة الدعاة، وشدة العناية بها.

وهذا يذكر بنبيّ الله يوسف ﷺ الذي قام بالدعوة إلى الله في كل مكان، حتى في السجن، قال الله عنه: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾ [يوسف].

وقـوله: ﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ ﴾، أي هروبًـا مـن الاسـتجابة لدعـوتي، ﴿ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ﴾، جعلـوا أصابعهـم في آذانهـم، وغطوا رؤوسـهم بثيابهم؛ لئلا يسـمعوا منـه، وأصروا على مـا هـم فيـه، ولـم يقبلوا الحق الذي جـاء به.

وهـذا يـدل على شـدة حرصـه على هدايتهم، وهـذا حـال الأنبياء، ويدل ما سـبق مـن الآيـات على أنـه لا هاديَ لمن أضـل الله، فلا يملـك التوفيق للخـير مَلَك مقرب، ولا نبيّ مُرسـل، ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص: ٥٦].

وفي الآيـات ذكـر لسـبب إعراضهـم، وهـو الكـبر، وهـذا الخُلُـق لا يـأتي بخـير، فالمتكـبر يحتقـر النـاس، ولا يقبـل نصحهـم.

ومـع هـذا الإعراض الشـديد الذي لقيـه من قومه لـم يترك دعوتهـم إلى ما فيه نجاتُهـم، قـال: ﴿ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ ﴾، فمـع عـدم التـواني ووصلـه الليـل بالنهـار، كان سـبيله في ذلـك الجهـر تـارة بالدعـوة في المحافـل، والإسرار تـارة في الخلـوات، وتـارة الجمـع بين الإعـلان والإسرار.

ومـن تأمَّـل في هـذه الآيـات علم أن نـبي الله نوح ﷺ اسـتخدم وسـائل الدعوة كلهـا في مختلـف الأوقـات، والحكيـم العاقـل مـن اختـار لكل قـوم ما يناسـبهم من الأسـاليب المختلفة.

وقصـة نـوح ﷺ تـدل على أن الدعـوة عند الصادقـين لا تنتهي بانتهـاء دوام، أو يتوقـف عنهـا في يـوم عطلـة! بـل إن همها يجـري في عروقهـم ودمائهـم، ولا تطيب حياتهـم إلا بهـا. ومـن هنا تدرك معـنى مقالة العلامـة ابن باز ﷺ: «الحياة في سـبيل الله، أصعـب من الموت في سـبيل الله».

وفي هـذه القصـة المباركـة: أن الداعيـة إذا أدى مـا عليـه فليـس مسـؤولًا عـن إعـراض المعرضـين مـن قومـه، قـال ربنـا: ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾

[المائدة: ٩٩]، وقال: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾ [النحل]، وقال: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: ٤٨].

وما دعا إليه نوح ﷺ وإخوانه من الأنبياء الذين جاؤوا بعده: توحيد الله، ولذا يحق لنا أن نقول: إن كل دعوة يضعف فيها جانب التوحيد فليست على منهاج النبوة. ومما يؤسف عليه أن تسمع من يقول: الدعوة إلى التوحيد تُفرّق! بلى! تُفرّق بين الحق والباطل، وتُفرّق بين الكفر والإيمان، قال ربنا: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان]، فسمي القرآن فرقانًا لذلك. وهل جمع النبي ﷺ أصحابه إلا بلا إله إلا الله؟!

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾﴾ أي: كثير المغفرة لعباده، والمغفرة: ستر الذنب، والتجاوز عنه. فهذه ثمرة من ثمرات الاستغفار.

وقد قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء].

وقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران].

وقال تعالى في الحديث القدسي: **«يا ابن آدم، لو بلغت ذنوبك عَنان السماء، ثم استغفرتَني غفرتُ لك ولا أبالي»**[(١)].

وقال ﷺ: **«إنَّ الشَّيطانَ قالَ: وَعزَّتكَ يا رَبّ، لا أَبرَحُ أُغوي عبادَكَ ما دامَت أَرواحُهم في أَجسادهم. قالَ الرَّبُّ: وَعزَّتي وَجلالي، لا أَزالُ أَغفرُ لَهم ما استَغفَروني»**[(٢)].

(١) الترمذي (٣٥٤٠)، وهو في سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم (١٢٧).
(٢) أحمد (١١٢٣٧)، وحسنه الشيخ شعيب الأرنؤوط ﷺ.

وعن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ فيما يحكي عن ربه ﷻ: «**أَذنَبَ عَبد ذَنبًا فَقَالَ: اللهُمَّ اغفر لي ذَنبي. فَقَالَ ﷻ: أذنَبَ عَبدي ذَنبًا، فَعَلمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغفرُ الذَّنبَ وَيَأخُذُ بالذَّنب. ثُمَّ عادَ فَأذنَبَ، فَقالَ: أي رَبِّ اغفر لي ذَنبي. فَقالَ ﷻ: عَبدي أذنَبَ ذَنبًا فَعَلمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغفرُ الذَّنبَ وَيَأخُذ بالذَّنب. ثُمَّ عادَ فَأَذنَبَ، فَقالَ: أي رَبِّ اغفر لي ذَنبي. فَقالَ ﷻ: أَذنَبَ عَبدي ذَنبًا، فَعَلمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغفرُ الذَّنبَ وَيَأخُذُ بالذَّنب، اعمَل ما شئتَ فَقَد غَفَرتُ لَكَ**»(١).

أي: ما دمت تُذنب وتستغفر فإني أغفر لك، ولو تكرر الذنب منك.

وقال نبينا ﷺ: «**مَن قالَ: أَستَغفرُ اللهَ الَّذي لا إلَهَ إلّا هُوَ الحَيَّ القَيُّومَ وَأَتُوبُ إلَيه، غُفرَ لَهُ، وَإن كانَ قَد فَرَّ من الزَّحف**»(٢).

وعن علي بن أبي طالب ﷺ قال: حدثني أبو بكر الصديق ﷺ - وصدق أبو بكر - قال: سَمعتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**ما من عَبد يُذنبُ ذَنبًا فَيُحسنُ الطُّهُورَ، ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلّي رَكعَتَين، ثُمَّ يَستَغفرُ اللهَ إلّا غَفَرَ اللهُ لَهُ**»، ثُمَّ قَرَأَ هَذه الآيَةَ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِينَ ..﴾ [آل عمران: ١٣٥] (٣).

● ومن ثمرات الاستغفار وفضائله: سعة الرزق.

فقد وعد نوح ﷺ قومه بهذا فقال: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾.

قال ابن كثير ﷺ: «إذا تُبتُم إلَى الله واستَغفَرتُمُوهُ وَأَطَعتُمُوهُ، كَثُرَ الرّزقُ عَلَيكُم، وَأَسقاكُم من بَرَكات السَّماء، وَأَنبَتَ لَكُم من بَرَكات الأَرض، وَأَنبَتَ لَكُمُ الزَّرعَ، وَأَدَرَّ لَكُمُ الضَّرعَ، وَأَمَدَّكُم بأموال وَبَنينَ، أي: أَعطاكُمُ الأَموالَ والأَولادَ، وَجَعَلَ لَكُم جَنّات فيها أنواعَ الثّمار، وَخَلَّلَها بالأَنهار الجاريَة بَينَها.

(١) مسلم (٢٧٥٨).
(٢) أبو داود (١٥١٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢٧٢٧).
(٣) أبو داود (١٥٢١)، وهو في صحيح الجامع (٥٧٣٨).

هَذا مَقامُ الدَّعوَة بالتَّرغيب»(١).

وقال ربنا: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود:٣].

وقال عن هود ﷺ: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ۝٥٢﴾ [هود].

وتأمل فيما ذكره من ثمرات عاجلة للاستغفار؛ فهذا منهج الأنبياء في الدعوة، يُرغبون قومهم بما يجدونه من الخير في الدارين، والنفس مولعة بحب العاجل.

وفي الآية دليل على أنَّ الولد يرجى بالاستغفار، فمن ابتلي بالعُقم فعليه بهذا الذكر المبارك.

● ومن ثمرات الاستغفار: تفريج الهموم.

فعن ابن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجًا، ومن كل همّ فرجًا، ورزقه من حيث لا يحتسب**»(٢).

والملازمة لا تتحقق إلا بأمرين: الإكثار، والاستمرار. فمن أكثر في وقت دون وقت لم يلزم، ومن أدام منه بإقلال لم يلزمه.

والضيق قد يُفضي إلى الهمّ وقد يكون بدونه، ولهذا كان الاستغفار مخرجًا من كل ضيق، منجيًا من كل هم.

● ومن ثمراته: أنه أمان من العذاب.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣﴾ [الأنفال].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/٢٣٣).
(٢) أحمد (٢٢٣٤)، وأبو داود (١٥١٨)، وصححه الشيخ أحمد محمد شاكر في حاشيته على المسند.

قال الطبري ﷺ: «وكان بعض أهل العلم يقول: هما أمانان أنزلهما الله: فأما أحدهما فمضى: نبيُّ الله. وأما الآخر فأبقاه الله رحمة بين أظهركم، الاستغفارُ والتوبةُ»(١).

● والاستغفار أمان من النار.

فعن عبد الله بن عمر ﷺ، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**يا معشر النساء تصدقن، وأكثرن الاستغفار؛ فإني رأيتُكنَّ أكثر أهل النار**»(٢).

ولولا أنَّ الاستغفار يعصم من النار لما أرشدهن النبي ﷺ إليه.

● والاستغفار مجلبة لرحمة الله.

قال صالح ﷺ لقومه: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٤٦﴾ [النمل].

● وبه يفرح الإنسان في أرض المحشر.

وفي ذلك حديثان:

■ الأول: عن الزبير ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «**من أحب أن تسُرَّه صحيفتُه فليكثر فيها من الاستغفار**»(٣).

■ والثاني: عن عبد بن بسر ﷺ، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**طوبى لمن وَجد في صحيفته استغفارًا كثيرًا**»(٤).

قال ابن حجر ﷺ: «وطوبى في الأصل شجرة في الجنة، تقدم تفسيرها في صفة الجنة في بدء الخلق، وتطلق ويراد بها الخير، أو الجنة، أو أقصى الأمنية. وقيل: هي من الطيب، أي: طاب عيشكم»(٥).

● ومن فضائله: الرّفعة في الجنة.

---

(١) تفسير الطبري (١٣/٥١٤).
(٢) مسلم (٧٩).
(٣) أخرجه الضياء في المختارة (١/٢٩٧)، وهو في السلسلة الصحيحة (٢٢٩٩).
(٤) ابن ماجه (٣٨١٨)، والحديث في صحيح الجامع (٣٩٣٠).
(٥) فتح الباري (٧/٤٥٠).

قال ﷺ: «إنَّ الرَّجُلَ لَتُرفَعُ دَرَجَتُهُ في الجَنَّة، فَيَقُولُ: أَنَّى هَذا؟ فَيُقالُ: باستغفار وَلَدكَ لَكَ»(١).

قال ابن كثير رحمه الله: «﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ ﴾، أي: مُتَواصِلَةَ الأَمطار. وَلهَذا تُستَحَبُّ قراءَةُ هَذه السُّورَة في صَلاة الاستسقاء لأَجل هَذه الآيَة. وَهَكَذا رُوِيَ عَن أَمير المُؤمنينَ عُمَرَ بن الخَطّاب: أَنَّهُ صَعدَ المنبَرَ لِيَستَسقِيَ، فَلَم يَزد عَلَى الاستغفار، وقرأ الآيات في الاستغفار. ومنها هَذه الآيَةُ: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ ﴾ ثُمَّ قالَ: لَقَد طَلَبتُ الغَيثَ بِمَجاديح السَّماء الَّتي سَتُنزلُ بها المَطَرَ»(٢).

﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ ﴾، قدم نبي الله ﷺ الترغيب ثم ثنى بالترهيب، والمعنى: لا تخافون من عذابه(٣).

﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ ﴾، وهي التي ذكرها الله في هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الحج]، وتفكُّر الإنسان في خلقه يدفعه إلى الإذعان إلى ربه والتواضع له.

وتوقير الله تعظيمه، وذلك بفعل الأوامر، واجتناب ما نهى عنه سبحانه. قال ربنا: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ [الحج: ٣٠].

---

(١) أحمد (١٠٦١٠)، وصححه الشيخ شعيب الأرنؤوط رحمه الله.
(٢) تفسير ابن كثير (٨/٢٣٣ - ٢٣٤).
(٣) راجع: تفسير ابن كثير (٨/٢٣٣).

فمن توقير الله: توحيده، ومراقبته في السر والعلن، وتعظيم القرآن الكريم، والتدبر في آياته.

ولتوقير ربنا تعالى آثار عظيمة، منها:

● أولًا: تحقيق الإيمان؛ فالذين لم يعظموه قال الله عنهم: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ٣٣﴾ [الحاقة].

● ثانيًا: قوة التوكل على الله؛ فبقدر تعظيم الله والخوف منه يكون اعتماد القلب عليه، قال ربنا: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ١٧٣﴾ [آل عمران].

ولذا قال نوح ﷺ لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ٧١﴾ [يونس]، وما ذاك إلا لامتلاء قلبه بالخوف من الله، فلم يبق فيه مكان للخوف من غيره.

وقد ساق لهم جملة آيات تدعوهم إلى تعظيم الله تعالى فقال:

﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ١٥﴾، وما أكثر التذكير بهذه الآية العظيمة! قال ربنا: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٥٧﴾ [غافر].

﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ١٦﴾، وإنما كانت الشمس سراجًا لأنها مصدر للضوء، والقمر نور لأنه عاكس لضوء الشمس، ولا يضيء بذاته.

ثم ذكّرهم بمبدأ الأمر حيث خلق أباهم من تراب، ثم استدل على الإعادة بالبدء، ثم عاد إلى التذكير بنعم الله عليهم حيث بسط لهم الأرض، وجعل فيها طرقًا واسعة يتوصلون بها إلى مآربهم.

الآيات (٢١ ـ ٢٨)

قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ
إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ
آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا
﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا
خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ
أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ
دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا
كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ
مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾

ثم دعا نوح ﷺ وشكا لربه: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾﴾، شكا لله تعالى بهذه الدعوة، فالأنبياء لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم نفعًا ولا ضرًا، وهداية القلوب ليست إليهم فكيف بغيرهم؟!

وفي الآيـة: أن الـولد والمـال قـد يكونان سـببًا للخسران بين يـدي الله تعالى، فمـن غفـل بهما عن ذكـر الله كانـا سـببًا في هلاكه.

﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾، عظيمـًا[1]، وينبغي أن يكـون في الناس وعي بكيد أعـداء الأمـة لها، ولكـنَّ هذا لا يعـني أن نعـزو كل شيء إلى ذلك، فـفي هذا الأمر تهويـن وتهويل، والحـق بينهما.

(١) تفسير ابن كثير (٨/٢٣٤).

ولـم يُفصّـل ﷺ مكرهـم وأجملـه، وعَلمنـا من السـورة أنـه كانت لهـم حيل في الصـد عن الإيمـان، والانتصـار لآلهتهـم الباطلة.

﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾، ومثـل هذه الآيـات مما يشـحذ همم أهـل الحق لاتبـاع الحق ومناصرتـه، فإذا صبر أهـل الباطل في سـبيل باطلهـم فكيـف بأهل الحـق؟! قـال ربنـا: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُواْ وَاصْبِرُواْ عَلَىٰ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾﴾ [ص].

وهؤلاء جمعوا بين الكفر والصد عن دين الله تعالى.

ثبت عَن ابـن عَبّاس ﷺ أنـه قال: «صـارَت الأَوثـانُ الَّـتي كانَت في قَـوم نُوح في العَـرَب بَعـدُ، أَمّـا وَدّ كانَـت لكَلـب بدَومَـة الجَنـدَل، وَأَمّـا سُـواع كانَـت لهُذَيل، وَأَمّـا يَغُـوثُ فَكانَت لمُـراد، ثُمَّ لبَني غُطَيـف بالجَوف، عندَ سَـبَإ، وَأَمّا يَعُـوقُ فَكانَت لهَمـدانَ، وَأَمّـا نَـسر فَكانَت لحميَرَ لآل ذي الكَلاَع، أَسـماءُ رجال صالحـينَ من قَوم نُـوح، فَلَمّـا هَلَكُـوا أَوحَى الشَّـيطانُ إلَى قَومهـم، أَن انصبُـوا إلَى مَجالسـهمُ الَّتي كانُوا يَجلسُـونَ أَنصابًـا وَسَـمُّوها بأَسـمائهم، فَفَعَلُـوا، فَلَـم تُعبَـد، حَـتَّى إذا هَلَـكَ أُولَئـكَ وَتَنَسَّـخَ العلمُ عُبـدَت»(١).

وهـذا ممـا يؤكـد على أن الشـيطان قـد لا يأمـر بالكبيرة مـن أول وهلـة، وإنما يسـلك بمـن أراد إيقاعَـه فيهـا خطوات حتى يرمي بـه في أوحالها، ولذا نـهى ربنا عن اتبـاع خطوات الشيطان في أربعـة مواضع:

قـال ربنـا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ الشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾﴾ [البقرة]، وقـال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ الشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾ [البقرة]، وقـال: ﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ الشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾ [الأنعام]،

---

(١) البخاري (٤٩٢٠).

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [النور: ٢١].

وثبت في السنة تحذير عن تعليق الصور؛ سدًا لذريعة الشرك بالله، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**إن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه تماثيل أو صورة**»(١).

قال تعالى: ﴿وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًاۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ۝٢٤﴾، فكانت لدعوتهم ولدأبهم في الصد نتيجة، وهي الإضلال الكثير، وفي قوله: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾، أن إضلال العباد زيادة في ضلال المضلّ والضال، وكما أن الإيمان يزداد بالطاعة، فكذلك الكفر والضلال يزيد بالمعصية والإضلال.

ويستفاد من قول نوح عليه السلام من أول السورة إلى هذا الموضع أنه يجوز في الدعاء بيان الحال، إن كان المرء قد أبلغ في الطاعة، أو قد أبلغ الظالم في ظلمه، فله أن يذكر ما فعل توسلًا به إلى حضور القلب وإجابة الرب عز وجل.

ثم قال تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ﴾، فبسبب ذنوبهم وخطيئاتهم أغرقوا، وهذا من شؤم الذنوب والعصيان، فبها دُمّرت الأمم وأُبيدت، قال الله عز اسمه: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝٣٦ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٣٧ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ۝٣٨ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ۝٣٩ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٤٠﴾ [العنكبوت]. فما أهون الخلق على الله تعالى إذا ضيعوا أمره!

---

(١) أحمد (١١٨٥٨)، وهو في صحيح الجامع (١٩٦١).

قال: ﴿أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾، «نُقلُوا من تيّار البحار إلَى حَرارَة النّار»(١).

وهـذه الآية شـاهد على إثبـات عذاب القـبر، فالفـاء على ما هو مقـرر في اللغة: «للتَّرتيـب والتعقيـب، فـإذا قيـل جـاءَ زيـد فعمـرو فَمَعنـاه أَن مَـجيء عَمـرو وَقـع بعـد مَـجيء زيد مـن غير مهلـة، فَهِيَ مفيـدة لثَلاثَـة أُمُـور: التَّشريـك في الحكم، والتَّرتيـب، والتعقيب»(٢).

وفي القرآن آيات تقرر هذه العقيدة، منها:

قوله تعـالى: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر].

قـال ابـن كثـير رحمه الله: «﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾، وهو الغـرق في اليم، ثـم النقلـة منـه إلى الجحيـم، فـإن أرواحهـم تُعـرض على النـار صباحًـا ومسـاءً إلى قيـام السـاعة، فـإذا كان يـوم القيامـة اجتمعـت أرواحهـم وأجسـادهم في النـار، ولهـذا قـال: ﴿تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾، أي: أشـده ألما وأعظمه نـكالًا. وهـذه الآيـة أصـل كبـير في اسـتدلال أهـل السـنة على عذاب الـبرزخ في القبور»(٣).

وعـرض القـوم على العـذاب عـذاب، كمـا في الآيـة، ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾.

ومنهـا: قـول ربنـا: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ [التكاثر].

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/٢٣٦).
(٢) شرح قطر الندى وبل الصدى، ص(٣٠٢).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/١٠٣).

قال ابن جرير ﵀: «﴿حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ﴾: يعني: حتى صرتم إلى المقابر فدُفنتم فيها؛ وفي هذا دليل على صحة القول بعذاب القبر؛ لأن الله ـ تعالى ذكره ـ أخبر عن هؤلاء القوم الذين ألهاهم التكاثر، أنهم سيعلمون ما يَلقَون إذا هم زاروا القبور وعيدًا منه لهم وتهدُّدًا. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل... عن علي، قال: نزلت ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ في عذاب القبر»[(١)].

ومنها: قوله سبحانه: ﴿وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٖ ١٠١﴾ [التوبة]. قال مجاهد ﵀: «﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ﴾، بالجوع، وعذاب القبر. قال: ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٖ﴾، يوم القيامة». وهو قول قتادة، والربيع بن أنس»[(٢)].

ثم قال نوح ﵇: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ٢٦﴾، قال ابن كثير ﵀: «فَدَعا عَلَيهِم نوحُ دَعوَتَهُ الَّتي قالَ اللهُ تَعالَى مُخبرًا عَنهُ أَنَّهُ قالَ: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ٢٦﴾، ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ١٠﴾ [القمر]، فَعِندَ ذَلِكَ أَوحَى اللهُ تَعالَى إِلَيهِ: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾ فَلا تَحزَن عَلَيهِم وَلا يَهُمَّنكَ أَمرُهُم»[(٣)].

ومؤدى هذا أن دعاءه عليهم قبل أن يوحي الله تعالى إليه: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾، والظاهر خلافه، لكونه علل الدعوة هنا بخبر غيبي فقال: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا ٢٧﴾، وهذا حكم على الغيب لا يتكلم فيه النبي ﷺ إلا بوحي، فما دعا عليهم ﵇ إلا بعد الإياس منهم.

وهذا يقود إلى الحديث عن مسألة الدعاء على الكافرين، وفي صحيح البخاري بابان: باب الدعاء للمشركين، وباب الدعاء على المشركين. ودلت النصوص على أمور:

---

(١) تفسير الطبري (٢٤/٥٨٠).
(٢) تفسير الطبري (١٤/٤٤٢).
(٣) تفسير ابن كثير (٤/٣١٩).

● امتناع النبي ﷺ عن الدعاء عليهم. ثبت عن أبي هريرة ﷺ، أنه قال: قيل لرسول الله ﷺ: ألا تدعو على الكفار؟ فقال: «**إن الله بعثني رحمة ولم يبعثني لعانًا**»(١).

● وثبت الدعاء لهم بالهداية. ففي الصحيحين دعاءُ نبينا ﷺ: «**اللهمَّ اهد دوسًا وأت بهم**»(٢)، بعدما امتنعوا عن قبول الدعوة ورفضوها.

● وثبت الاستغفار لهم حال حياتهم. فعَن عَبد الله بن مسعود ﷺ قالَ: كَأَنِّي أَنظُرُ إِلَى رَسُول الله ﷺ يَحكي نَبيًّا من الأَنبياء ضَرَبَهُ قومُهُ وَهُوَ يَمسَحُ الدَّمَ عَن وَجهه وَيَقُولُ: «**رَبِّ اغفر لقومي؛ فإنَّهم لا يَعلَمُونَ**»(٣).

قال القرطبي ﷺ: «وقد قال كثير من العلماء: لا بأس أن يدعوَ الرجل لأبويه الكافرين ويستغفر لهما ما داما حيَّين، فأما من مات: فقد انقطع عنه الرجاء فلا يُدعى له»(٤).

ودليل ما ذكر ﷺ: قول ربنا: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة].

لكن ثبت أيضًا الدعاء على الكفار المحاربين للمسلمين.

فقد دَعا نبينا ﷺ يَومَ الأَحزاب عَلَى المُشركينَ فَقالَ: «**اللهمَّ مُنزلَ الكتاب، سَريعَ الحساب، اللهمَّ اهزم الأَحزابَ، اللهُمَّ اهزمهُم وَزَلزلهُم**»(٥).

وفي الصحيحين أنه ﷺ قنت يدعو عليهم حين يَفرغ من صَلاة الفَجر من القراءَة وَيُكَبِّرُ وَيرفَعُ رَأسَهُ: «**سَمعَ الله لمَن حَمدَهُ، رَبَّنا وَلَكَ الحَمدُ**»، ثُمَّ يَقولُ وَهُوَ قائم: «**اللَّهُمَّ أَنج الوَليدَ بنَ الوَليد، وَسَلَمَةَ بنَ هشام، وَعَيّاشَ بنَ أَبي رَبيعَةَ،**

(١) مسلم (٢٥٩٩).
(٢) البخاري (٢٩٣٧)، ومسلم (٢٥٢٤).
(٣) البخاري (٣٤٧٧)، ومسلم (١٧٩٢).
(٤) تفسير القرطبي (٢٧٤/٨).
(٥) البخاري (٢٩٣٣)، ومسلم (١٧٤٢).

والمُستَضعَفينَ من المُؤمنينَ، اللَّهُمَّ اشدُد وَطأَتَكَ عَلَى مُضَرَ، واجعَلها عَلَيهم كَسني يُوسُفَ، اللَّهُمَّ العَن لحيانَ وَرعلًا وَذَكوانَ وَعُصَيَّةَ عَصَت الله وَرَسُولَهُ»(١).

وسبيل التوفيق بين هذه الأحاديث ما قاله ابن حجر ﵀: «أنه ﷺ كان تارة يدعو عليهم، وتارة يدعو لهم، فالحالة الأولى حيث تشتد شوكتهم ويكثر أذاهم كما تقدم في الأحاديث التي قبل هذا بباب، والحالة الثانية حيث تؤمن غائلتهم ويرجى تألفهم»(٢).

وعليه فلا شك في مشروعية الدعاء على الدول التي جعلت محاربة الإسلام أكبر همها، وذاق المسلمون في مختلف البقاع بأسها.

ولا يقال: كيف ندعو عليها وفيها مسلمون؟! فقد كان العباس بمكة وهو قرشي، وفي مكة مسلمون من قريش كما قال ربنا: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفتح] ومع ذلك دعا النبي ﷺ على قريش، ونحن ندعو على الدول الباغية وندعو للمسلمين بالحفظ، وفي السنة دعاء بإنجاء المسلمين المستضعفين.

وهذا نوح ﵇ قد دعا على القوم لما كثر أذاهم وقل خيرهم وأيس منهم، حتى إنه دعا عليهم باستئصال يعم كافرهم فلا يُبقي منهم ديارًا واحدًا، «والديّار الذي يسكن الديار»(٣).

وفي آخر السورة هذه الدعوة المباركة: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، وهي دليل على مسائل:

---

(١) البخاري (٨٠٤)، ومسلم (٦٧٥).
(٢) فتح الباري (٦/١٠٨).
(٣) تفسير ابن كثير (٨/٢٣٦).

● أن الداعي يقدم نفسه في دعائه على غيره. قال تعالى عن موسى ﷺ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي﴾ [الأعراف: ١٥١]، وعن الخليل ﷺ: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحشر: ١٠]، وعن نوح ﷺ: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾.

● ودلت الآية على أن والدي نوح ﷺ كانا مؤمنين، وإلا لتبرأ منهما كما تبرأ الخليل ﷺ من أبيه بعد أن استغفر له.

● وفيها: الدعاء للوالد المسلم، وهذا من أعظم سبل بره؛ حيًا، وميتًا.

● ودلت على أنّ من دخل بيتك فله مزيد حق عليك، فادعُ له بصفة خاصة كما فعل نبي الله ﷺ.

● وفيها: الدعاء للغير، وهذا مما رغَّبت السُّنَّة فيه، فعن أُمّ الدَّرداء، عَن أَبي الدَّرداء ﷺ قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**ما من عَبد مُسلم يَدعُو لأَخيه بظَهر الغَيب، إلّا قالَ المَلَكُ: وَلَكَ بمثل**»[1].

ودلت قصة نوح ﷺ على أنّ عدم استجابة المدعوّين لا يعني الداعية؛ فالهداية بيد ربنا سبحانه[2].

---

(١) مسلم (٢٧٣٢).
(٢) انظر: رسالة المؤلف (حقيقة الانتصار).

سُورَةُ الجِنِّ

بين يدي سورة الجن

وهي مكية اتفاقًا[1].

أسماؤها:

سورة «﴿الْجِنِّ﴾»، و«﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾»، و«﴿قُلْ أُوحِيَ﴾»[1].

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كلمها مئتان وَخمس وَثَمانُونَ كلمة، ككلم المزمل. وحروفها سبع مئة وَتسعَة وَخَمسُونَ حرفًا. وَهي عشرُون وثماني آيات في جَميع العدَد»[2].

سبب نزولها:

«عَن ابن عَبّاس ﷺ قالَ: ما قَرَأَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى الجنّ وَما رَآهُمُ، انطَلَقَ رَسُولُ الله ﷺ في طائفَة من أَصحابه عامدينَ إلَى سُوق عُكاظ، وَقَد حيلَ بَينَ الشَّياطين وَبَينَ خَبَرَ السَّماء، وَأُرسلَت عَلَيهمُ الشُّهُبُ، فَرَجَعَت الشَّياطينُ إلَى قَومهم فَقالُوا: ما لَكُم؟ قالُوا: حيلَ بَينَنا وَبَينَ خَبَرَ السَّماء وَأُرسلَت عَلَينا الشُّهُبُ. قالُوا: ما ذاكَ إلّا من شَيء حَدَثَ، فاضربُوا مَشارقَ الأَرض وَمَغاربَها فانظُرُوا ما هَذا الَّذي حالَ بَينَنا وَبَينَ خَبَرَ السَّماء. فانطَلَقُوا يَضربُونَ مَشارقَ

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/٢١٦).

(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٥٦).

الأَرض وَمَغارِبَها، فَمَرَّ النَّفَرُ الَّذينَ أَخَذُوا نَحْوَ تهامَةَ - وَهُوَ بنَخل عامدينَ إلَى سُوق عُكاظ وَهُوَ يُصَلِّي بأَصحابه صَلاةَ الفَجر - فَلَمّا سَمعُوا القُرآنَ استَمَعُوا لَهُ، وَقالُوا: هَذا الَّذي حالَ بَينَنا وَبَينَ خَبَر السَّماء فَرَجَعُوا إلَى قَومهم فقالُوا: يا قَومَنا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾. فَأَنزَلَ اللهُ ﷻ عَلَى نَبيِّه مُحَمَّد ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾»[1].

موضوعاتها:

- بلوغ دعوة النبي ﷺ إلى الجن.
- تنزيه المؤمنين من الجن ربَّهم عن الصاحبة والولد.
- ذم إبليس؛ لانتقاصه لربه.
- بيان بطلان عبادة بعض الإنس للجن.
- حراسة السماء من الجن بعد بعثة النبي ﷺ.
- إبطال الكهانة.
- انقسام الجن إلى مؤمن وكافر.
- حسن عاقبة المؤمن بحفظ حسناته وعدم نقصانها.
- بيان أن الكفار حطب جهنم.
- حسن عاقبة الاستقامة على دين الله.
- التأكيد على عدم صرف العبادة لغير الله تعالى.
- بيان أن رسول الله ﷺ لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعًا ولا ضرًا.

مقصدها:

إظهار شرف النبي ﷺ والكتاب الذي أنزل عليه، والدعوة إلى الإيمان بهما والاستقامة؛ فإن النجاة لا تتحقق إلا بذلك لكل مكلف.

---

(١) البخاري (٧٧٣)، ومسلم (٤٤٩).

سورة الجن: تأملات ووقفات

الآيات (١ ـ ٧)

قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾

الجن خَلق لله، خلقهم من نار.

وقد خلقوا قبل آدم ﷺ، قال ربنا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الحجر].

والعلة من خلقهم: عبادة الله تعالى، قال ربنا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات].

وفي الجن المؤمن والكافر، والصالح والفاسق، قال ربنا: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾﴾، وقال: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾﴾.

وسُمُّوا جنًّا؛ لاستتارهم، قال ربنا: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأعراف].

وإبليس من الجن، وليس من الملائكة، وأما قول ربنا: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾ [الكهف]. فالاستثناء في الآية منقطع.

قال العلامة الشنقيطي ﵀: «وقوله في هذه الآية الكريمة، ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾، ظاهر في أن سبب فسقه عن أمر ربه كونه من الجن، وقد تقرر في الأصول في مسلك النص، وفي مسلك الإيماء والتنبيه: أن الفاء من الحروف الدالة على التعليل، كقولهم: سرق فقطعت يده، أي: لأجل سرقته. وسها فسجد، أي: لأجل سهوه، ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا ﴾ [المائدة: ٣٨]، أي: لعلة سرقتهما. وكذلك قوله هنا كان من الجن ففسق أي: لعلة كينونته من الجن، لأن هذا الوصف فرق بينه وبين الملائكة، لأنهم امتثلوا الأمر وعصا هو، ولأجل ظاهر هذه الآية الكريمة ذهبت جماعة من العلماء إلى أن إبليس ليس من الملائكة في الأصل بل من الجن، وأنه كان يتعبد معهم، فأُطلق عليهم اسمهم لأنه تبع لهم، كالحليف في القبيلة يطلق عليه اسمها»(١).

﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ ﴾، فهؤلاء الجن سمعوا النبي ﷺ في صلاة الفجر يقرأ القرآن فآمنوا وتأثَّروا، وكم من المسلمين يسمع القرآن يتلى عليهم ولا يتأثرون!

ومن الوقفات: أن نبينا ﷺ كان يقرأ القرآن، ولا يدري أن الجن يستمعون إليه، وأنهم سيؤمنون بهذه القراءة المباركة؛ فانشر الخير، واصدُق مع الله فيه، فإنك لا تدري من سيهتدي بكلامك، والله يُعطي على الصدق ما لا يُعطي على غيره.

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٣/٢٩٠).

ومن الوقفات: أهمية الاستدلال بالقرآن في الخطاب الدعوي؛ لعظيم تأثيره. وإنك لتعجب من بعض الدعاة حين يملأ كلامه بأنواع البيان من المنظوم والمنثور، ثم لا تجد مساحة فيما يقول لآي القرآن الكريم!

وقد قالت أم هشام بنتُ حارثَةَ بن النُّعمان ﵂: «ما أَخَذتُ ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ١﴾ إلّا عَن لسان رَسُول الله ﷺ، يَقرَؤُها كُلَّ يَوم جُمُعَة عَلَى المنبَر، إذا خَطَبَ النَّاسَ»[1].

وقال ربنا عن الجن في سورة الأحقاف: ﴿قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٣٠﴾ [الأحقاف]، وقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

والقرآن كتاب مبارك، فلا يُذكر شيء منه في خطاب دعوي أو غيره إلا حلَّت البركة فيه، قال ربنا: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢]، وقال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٥٥﴾ [الأنعام]، وقال: ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ٥٠﴾ [الأنبياء]، وقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [ص]، وقد كان رسول الله ﷺ يدعو الناس بالقرآن الكريم، ولذلك قال المشركون: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾ [فصلت]، فقد علموا قوة تأثيره في المدعوِّين، وقد كان شيخنا ابن باز ﵀ يضمن في محاضراته آيات كثيرة، وربما استشهد أحيانًا في المحاضرة الواحدة بالقرآن خمسين مرة! وقد ذكر أحد أكابر الدعاة ممن عاشوا في الغرب زمانًا ذكر أنه ما وجد أبلغ في الدعوة إلى الإسلام ولا أمرًا أدعى للغربيين من الدخول في الإسلام من القرآن.

---

(١) مسلم (٨٧٣).

وقوله: ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾، خبر منهم عن أنفسهم لمّا سمعوا القرآن، والجمع بين الإيمان وعدم الإشراك لأن الإيمان لا يستقيم إلا بإفراد الله تعالى بالعبادة، فلا بدَّ من مخالفة المشركين الذين نزلت فيهم: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ۝١٠٦﴾ [يوسف].

والجمع بين الإيمان وعدم الإشراك كثير في كتاب ربنا، قال سبحانه: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦]، وقال: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾ [مريم].

وقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾، «قال قتادة: تعالى جلاله وعظمته وأمره»[1]. والجَدُّ: «الحَظ والغنىَ في الدُّنيا»[2]. وقد كان نبينا ﷺ يقول دبر كل صلاة: «**لاَ إِلَهَ إِلاّ الله وَحدَهُ لاَ شَريكَ لَهُ، لَهُ المُلكُ، وَلَهُ الحَمدُ، وَهُوَ عَلَى كُلّ شَيءٍ قَديرٍ، اللّهُمَّ لاَ مانِعَ لما أَعطيتَ، وَلاَ مُعطيَ لما مَنَعتَ، وَلاَ يَنفَعُ ذا الجَدّ مِنكَ الجَدُّ**»[3]. أي: «**من كان له حظ في الدنيا لم ينفعه ذلك منه في الآخرة**»[4].

وقال: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾ ولم يقل: ما اتخذ صاحبة وولدًا، فلو قيل ذلك لقال من ينسب الولد إليه: نحن لا ننسب إليه الصاحبة والولد جميعًا، وإنما ننسب إليه الولد فقط، أو الصاحبة فقط، فنفاهما جميعًا؛ حتى لا يبقى لمتأول أي تأول، ولا لمجادل أي باب من المجادلة.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ۝٤﴾، فالسفيه هو الذي كان يدعوهم إلى الشرك، وهو إبليس لعنه الله. وقيل: المراد كفارهم[5]. والشطط: الباطل، قال سبحانه: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ۝١٤﴾ [الكهف].

---

(١) تفسير ابن كثير (٢٣٧/٨).
(٢) لسان العرب (١٠٧/٣).
(٣) البخاري (٨٤٤)، ومسلم (٥٩٣).
(٤) لسان العرب (١٠٧/٣).
(٥) زاد المسير (٣٤٧/٤).

وكل من دعا إلى غير ما دعا الله إليه ففيه سَفَه، وما أكثر السفهاء الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ويعبثون بعقائد الناس وأفكارهم! لا سيما في عصر الانفتاح الإعلامي، فقد أصبحت علاقة بعض أولادنا بهذه الوسائل الإعلامية أكثر من علاقته بأبيه وأمه، ومن علاقته بمجالس الحفظ، والحلقات والعلم!

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾﴾، أي: «ما حسبنا أن الإنس والجن يتمالؤون على الكذب على الله في نسبة الصاحبة والولد إليه. فلما سمعنا هذا القرآن وآمنا به، علمنا أنهم كانوا يكذبون على الله في ذلك»[١]. فهؤلاء كانوا على فطرتهم، ولم يتوقعوا أن أحدًا يكذب على الله. وهذا أفحش الظلم، قال ربنا: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنعام].

ولذا لا بُدَّ من يقين أن كثرة القول بالباطل لا تجعله حقًا، ولا سبيل إلى معرفة الحق إلا بكتاب الله تعالى، وسنة نبيه ﷺ، فما وافقهما فهو الحق وإن قال به بعيد بغيض، وما خالفهما فهو الباطل وإن قال به قريب حبيب.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾، أي: خوفًا[٢]، طلبوا الأمن منهم فأحاط الخوف بهم! فما تعلق أحد بغير الله إلا عوقب بنقيض قصده، وفي الحديث: «**من تعلق تميمة فلا أتم الله له**»[٣].

فعلى المسلم أن يقطع تعلُّقه بغير الله تعالى.

وهذا مما يحمل المرء على أن يكفر بالدجاجلة والكُهّان والسَّحَرة، فإن من تعلَّق بهم وُكل إليهم، وأي خسارة أكبر من خسارة أن يُوكَل أحد إلى من قال الله فيه: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّـٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [يونس]؟!

---

(١) تفسير ابن كثير (٢٣٩/٨).
(٢) انظر: جامع بيان الطبري (٦٥٦/٢٣).
(٣) أحمد (١٧٤٠٤)، وحسنه الشيخ شعيب الأرنؤوط ﷺ في تخريجه.

وقد قال نبينا ﷺ لابن عباس ﷺ: «يا غلام إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»(١).

فالخوف لا يكون إلا من الله، أما الخوف الطبعي من الأمر المخوف فهذا لا ينهى عنه! قال الكليم ﷺ لفرعون: ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ ﴾ [الشعراء: ٢١]، وقال ربنا عن خليله ﷺ: ﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ ﴾ [هود]. فهذا خوف طبعي لا يؤاخذ به الإنسان، أما أن يخاف من غير الله أن يصيبه بما يشاء، من مرض أو فقر أو قتل ونحو ذلك، بقدرة المخلوق ومشيئته، فهذا هو الشرك عياذًا بالله.

وأما الخوف من وعيد الله الذي توعد به العصاة فهو عبادة، قال ربنا: ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ [إبراهيم]، وقال: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الرحمن].

وفي آداب القرآن وتوجيهاته: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

والأمن من الشيطان بالتحصن بذكر الله تعالى، ففي حديث رواه الترمذي، قال نبينا ﷺ: «إن الله أمر يحيي بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، وإنه كاد أن يبطئ بها، فقال عيسى: إن الله أمرك بخمس كلمات لتعمل بها وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، فإما أن تأمرهم، وإما أنا آمرهم، فقال يحيي: أخشى إن سبقتني بها أن يخسف بي أو أعذب، فجمع الناس

(١) الترمذي (٢٥١٦)، وهو في ظلال الجنة (٣١٦ ـ ٣١٨).

في بيت المقدس، فامتلأ المسجد وقعدوا على الشرف، فقال: إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن، وآمركم أن تعملوا بهن: أولهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وإن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبدًا من خالص ماله بذهب أو ورق، فقال: هذه داري وهذا عملي فاعمل وأد إلي، فكان يعمل ويؤدي إلى غير سيده، فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك؟ وإن الله أمركم بالصلاة، فإذا صليتم فلا تلتفتوا فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت، وآمركم بالصيام، فإن مثل ذلك كمثل رجل في عصابة معه صرة فيها مسك، فكلهم يعجبه ريحها، وإن ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك»[1].

والله تعالى يقول: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾﴾ [الناس]، قال ابن عباس ﷺ: «ما من مولود إلا على قلبه الوَسواس، فإذا عقل فذكر الله خَنَس، وإذا غَفَل وسوس، قال: فذلك قوله: ﴿الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾»[2].

وقوله: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾﴾، «يعني أن الرجال من الجنّ ظنوا كما ظنّ الرجال من الإنس أن لن يبعث الله أحدًا رسولًا إلى خلقه، يدعوهم إلى توحيده»[3].

---

(١) الترمذي (٢٨٦٣)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٥٥٢).
(٢) تفسير الطبري (٧٠٩/٢٤).
(٣) تفسير الطبري (٦٥٧/٢٣).

الآيات (٨ ـ ١٧)

وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا
﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ
لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ
بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ
قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا
﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ
بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ
فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟
لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً
غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا
صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾

بعد أن ذكروا حالهم مع القرآن وما دعاهم إليه وما كانوا يعتقدونه، ذكروا إرهاصات كانوا يجدونها تحقق صدق مبعثه ﷺ، ثم الواجب حيال ذلك، فقالوا: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾﴾، وهذه من إرهاصات بعثة النبي ﷺ، كانوا يسترقون السمع، ويأخذون الكلمة ويزيدون عليها ما شاؤوا فيصدقهم الناس، فحمى الله ﷻ السماء، فمُنعت الشياطين من استراق السمع كما في هذه الآية.

وهذا يدل على أن كل أمر عظيم تُوضع له مقدمات؛ تمهيدًا له.

وفي قوله: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾﴾، بيان لمنعهم الاستراق وكيف كان. وفي الآية إشارة إلى أهمية حماية العقيدة، وصيانتها مما يُدنّسها، وأن هذا الدين محفوظ بقدرة الله تعالى.

وواجب علينا أن نصون الدين بما نستطيع؛ فتحمى العقيدة ببيانها، والرد على أهل الأهواء والبدع والعقائد الخَرِبة، وحراسة السُّنة بالذب عن حياضها برد شبهات المنكرين لها، وحراسة الدين بالرد على شبهات الملحدين، والمرتدين، والمنافقين، والعلمانيين، حول كتاب رب العالمين سبحانه، هذا الجهاد العلمي من أعظم الجهاد الذي لا يُدانيه في فضله جهاد ولهذا قال: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [الفرقان]، ومن أشبه بالأنبياء سلوكًا وسبيلًا ممن جعل ذلك همه وشغله؟

والمقصود كما أرسلت الشهب على الشياطين لمنعهم من استراق السمع والزيادة أو النقصان في الدين، فعلينا أن نرسل شُهُب الحق، وحُجَج الوحي على الأفاكين المفترين على الدين.

وقوله: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾، فيه حيرتهم من الأمر الذي قدر قبل أن يسمعوا الوحي.

وتأمل: كيف نسبوا الخير إلى الله تعالى، ولم ينسبوا الشر إليه، ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الجن: ١٠]، ﴿أُرِيدَ﴾، بالبناء على ما لم يُسمَّ فاعله، ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾، بالبناء للمعلوم، فهذا أدب إخواننا من الجن، وهذا وردَ في القرآن في مواضعَ عديدة:

قال خليل الرحمن ﷺ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشعراء]، ولم يقل: وإذا أمرضني الله فهو يشفيني!

والخضر ﷺ لما خرق السفينة قال: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩]، فنسب أمر خرقها إليه، وهو القائل: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [الكهف: ٨٢]، ولكنه حسن الأدب مع الله في الخطاب؛ لنفور النفس من ذكر اسم الجلالة بعد ذكر لفظ العيب.

ولما ذكر ما هو خير في الظاهر والباطن من أمر بناء الجدار قال: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف: ٨٢].

وهذا هدي نبينا ﷺ، الذي قال في ثنائه ودعائه: «والشرُّ ليس إليك»(١)، ولا شك أن ما في الكون كله بقدر الله ﷻ، ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾ [القمر]، ولكنه الأدب في الخطاب مع رب الأرباب.

فلا غرو بعد أن قدموا بهذا الأدب أن أعلنوا الإيمان: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ۝١٣﴾، وذكروا من مصلحته ضمان العدل، فلا بخسَ وهو النقص يلحق المؤمن، ولا رهقَ وهو تحميله تبعة غيره أو أو جزاء فوق جزاء جرمه.

وقوله: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ۝١١﴾ [الجن]، فيهم أصحاب أهواء وبدع ومشارب شتى حداثية وغيرها! قال ابن كثير ﵀: «قال أحمد بن سليمان النجاد في أماليه، حدثنا أسلم بن سهل بحشل، حدثنا علي بن الحسن بن سليمان ـ هو أبو الشعثاء الحضرمي، شيخ مسلم ـ حدثنا أبو معاوية قال: سمعت الأعمش يقول: تروَّحَ إلينا جني، فقلت له: ما أحب الطعام إليكم؟ فقال: الأرز. قال: فأتيناهم به، فجعلت أرى اللقم ترفع ولا أرى أحدًا. فقلت: فيكم من هذه الأهواء التي فينا؟ قال: نعم. قلت: فما الرافضة فيكم؟ قال:

(١) مسلم (٧٧١).

شرُّنـا. عرضت هـذا الإسـناد على شـيخنا الحافـظ أبي الحجـاج المـزي فقـال: هـذا إسناد صحيح إلى الأعمـش»[١].

والصالح: من قام بحق الله تعالى، وحق عباده.

ومـن هدايـات الآيـة: البعـد عـن تزكيـة النفـس، لقولهـم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾، ولـم يشـيروا إلى أنفسـهم بالصـلاح، بـل تحدثـوا عـن الفريقين ولم يجعلـوا أنفسـهم في واحـد منهمـا. وفيمـا قـال الله في كتابـه: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢].

ثـم ذكـروا نتيجـة مـا سـمعوا، ومـا رأوا مـن إرهاصـات، ومـا علمـوا، فقالـوا: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾﴾، عرفـوا أنـه لا يهرب أحد من أمـر الله. ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الرحمن].

ثـم حكمـوا على واقعهـم بعـد أن أخـبروا عنـه فقالـوا: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾. والنـاس فريقـان في الدنيـا وفي الآخـرة، قـال ربنـا: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾ [الشورى].

والمسـلمون أقسـام ثلاثة: سـابق بالخيرات، ومقتصد، وظالم لنفسـه. قـال ربنا: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [فاطر]. فالسـابق بالخـيرات: مـن اجتنـب المحرمات وسـارع إلى الخـيرات، والمقتصد: مـن اقتصر على

(١) تفسير ابن كثير (٨/٢٤٢).

فعل الواجبات وتجنب المحرمات، وظلم النفس يكون بالتفريط في الواجب وارتكاب الحرام. قالت أمنا عائشة ﵂: «كُلُّهم في الجَنَّة»(١). فالله تعالى قال بعد ذلك: ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا ﴾، أي: هؤلاء الثلاثة.

قال العلامة الشنقيطي ﵀: «من أرجى آيات القرآن العظيم قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَا... ﴾ [فاطر: ٣٢]، فقد بيَّن تعالى في هذه الآية الكريمة أن إيراث هذه الأمة لهذا الكتاب دليل على أن الله اصطفاها في قوله: ﴿ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَا ﴾، وبين أنهم ثلاثة أقسام:

● الأول: الظالم لنفسه، وهو الذي يطيع الله، ولكنه يعصيه أيضًا، فهو الذي قال الله فيه: ﴿خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٠٢﴾ [التوبة].

● والثاني: المقتصد، وهو الذي يطيع الله، ولا يعصيه، ولكنه لا يتقرب بالنوافل من الطاعات.

● والثالث: السابق بالخيرات، وهو الذي يأتي بالواجبات ويجتنب المحرمات ويتقرب إلى الله بالطاعات والقربات التي هي غير واجبة، وهذا على أصح الأقوال في تفسير الظالم لنفسه والمقتصد والسابق

ثم إنه تعالى بيَّن أن إيراثهم الكتاب هو الفضل الكبير منه عليهم، ثم وعد الجميع بجنات عدن وهو لا يخلف الميعاد في قوله: ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا ﴾، إلى قوله: ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ٣٥﴾ [فاطر]، والواو في يدخلونها شاملة للظالم، والمقتصد والسابق على التحقيق، ولذا قال بعض أهل العلم: حقّ لهذه الواو أن تكتب بماء العينين»(٢).

---

(١) تفسير البغوي (٤٢٢/٦).

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٤٨٩/٥ ـ ٤٩٠).

ثم قال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾. والقول الصحيح في هذه الآية، أنهم لو استقاموا على الحق لوسَّعنا عليهم في أرزاقهم، وهذه كقول ربنا: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦] وكقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]. فما معنى: ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾؟ «أي: لنختبرهم، كما زيد بن أسلَمَ: ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ﴾ لنبتليهم، مَن يَستمرُّ عَلَى الهدايَة ممَّن يرتَدُّ إلى الغوايَة»؟[1]. وربنا قال عن نبيه سليمان ﷺ: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل].

قال ابن رجب ﷺ تعالى: «أصل الاستقامة استقامة القلب على التوحيد، وقد فسر أبو بكر ﷺ الاستقامة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾، بأنهم لم يلتفتوا إلى غيره»[2]؟

ومن أعظم ثمراتها ما جاء في قول ربنا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت]. «﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، قال مجاهد، والسدي، وزيد بن أسلم، وابنه: يعني عند الموت قائلين: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ﴾، قال مجاهد، وعكرمة، وزيد بن أسلم: أي مما تقدمون عليه من أمر الآخرة، ﴿وَلَا تَحْزَنُواْ﴾، على ما خلَّفتموه من أمر الدنيا، من ولد وأهل، ومال أو دين، فإنا نخلفكم فيه، ﴿وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾، فيبشرونهم بذهاب الشر وحصول الخير»[3].

---

(١) تفسير ابن كثير (٢٤٣/٨).
(٢) جامع العلوم والحكم، ص(١٩٣).
(٣) تفسير ابن كثير (١٧٧/٧).

وقوله: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾، المراد: «ومن يعرض عن استماع القرآن واستعماله، يسلكه الله عذابًا صعدًا: عذابًا شديدًا شاقًا»[(١)]. كما قال ربنا: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه].

ثم ختموا بالتأكيد على الواجب الأهم فقالوا: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾، والمساجد إما مواضع السجود أو المساجد بيوت الله، وكلها لله، ليست لأحد من البشر، فلا تُشغل بما يضاد توحيد الله ﷻ، ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾، أي: لا تصرفوا شيئًا من العبادة لغير الله تعالى.

وحريّ بالقائمين على أمر المساجد أن يطهروها من كل شائبة شرك، ومما يؤسف عليه أن هناك مساجد في بعض بلاد المسلمين فيها القبور، وهناك مساجد يُدرس فيها الشرك، ويؤصَّل فيها له، وتُدرس فيها البدعة! وهذا كله يتنافى مع حرمتها، ويحولها عن حقيقتها.

ولا تدل الآية على منع تسمية المساجد بأسماء الناس أو غير ذلك، فقد أثر ذلك في عهده ﷺ، كمسجد قباء، ومسجد الخيف، ومسجد بني زريق، والمسجد النبوي، وغير ذلك فلا حرج في تسمية المساجد بالأشخاص أو البقاع للتعريف، وهذا لا يعارض ما في هذه الآية الكريمة.

---

(١) جامع البيان (٢٣/٦٦٤).

الآيات (١٩ ـ ٢٨)

وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ
أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا
رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ
مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ
لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ
فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ
أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ
فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ
يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟
رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾

﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾. ولبدًا: أي مجتمعين، ومتزاحمين. وهذه الآية فيها ثلاثة أقوال، أوردها ابن الجوزي عليه رحمة الله بقوله: «والمعنى: أنه لما قام يصلي كاد الجن لازدحامهم عليه يركب بعضهم بعضًا؛ حرصًا على سماع القرآن، رواه عطية عن ابن عباس. والثاني: أنه من قول الجن لقومهم لما رجعوا إليهم، فوصفوا لهم طاعة أصحاب رسول الله ﷺ وائتمامهم به في الركوع، والسجود، فكأنهم قالوا: لما قام يصلي كاد أصحابه يكونون عليه لبدًا. وهذا المعنى في رواية ابن جبير عن ابن عباس. والثالث:

أن المعنى: لما قام رسول الله ﷺ بالدَّعوة تلبَّدت الإنس والجن، وتظاهروا عليه، ليبطلوا الحق الذي جاء به، قاله الحسن، وقتادة، وابن زيد»[١].

ولا منافاة بين هذه المعاني، فالخلاف بينها يسير، واجتماعها وارد، وإذا جاءت الأقوال غير متضادة ويحتملها المعنى فالأخذ بها أولى من إبطال بعضها بدون دليل، وبخاصة إذا قال بها أئمة.

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٠﴾؛ أي: قل للمشركين القائلين على الله الكذب، المكذبين له، المجتمعين على عداوته: لِمَ هذه العداوة وإنما أتيتكم بالحق، وهو عبادة الله وحده؟ كما قال ربنا: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ۝٥٩﴾ [المائدة]، وكما في قوله: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨﴾ [البروج].

والدعاء في الآية العبادة.

ثم قال: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۝٢١﴾، وهذا أمر من الله تعالى لنبينا ﷺ أن يُعلّق القلوب بربها ببيان أن الخير والأمر كله لله، فلا يملك أحد لهم شيئًا مما فيه نفعهم أو ضرهم، حتى لو كان رسول الله ﷺ، حيًّا أو ميتًا، فيا خسارة من يتعلق بالأولياء أحياءً وأمواتًا!

ثم بيَّن كذلك أنه لا يملك له أحد من الله شيئًا فقال: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ۝٢٢﴾، والمعنى: لا ينصرني أحد سوى الله، ولا أجد ملجأ ومهربًا من الله[٢].

---

(١) زاد المسير في علم التفسير (٣٥٠/٤).
(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم (٢٤٥/٨).

﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾، وفي هذه معنى بديع: أي: لا يجيرني ويخلصني منه إلا إبلاغ رسالته سبحانه، فما على الرسول إلا البلاغ، والقيام بالبلاغ سبب للنجاة من عذاب الله تعالى. وهذا مما يبين أهمية القيام بالإصلاح في مجتمعاتنا، فما تواطأ قوم على تركه إلا حلت بهم عقوبة ربهم، ولم يجدوا لهم من دون الله ملتجأ ومهربًا، ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأعراف]، وقال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود].

ولئن كان ذلك الوعيد بعذاب الدنيا فشأن الآخرة أعظم، وقد نبَّه ربنا على ذلك بقوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾، فخلود الكفار في جهنم خلود أبدي، وهذا ما قرره نبينا ﷺ في أحاديث، منها: حديث أَبي سَعيد الخُدريّ رضي الله عنه، قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «يُؤتَى بالمَوت كَهيئَة كَبش أَملَحَ، فَيُنادي مُنادٍ: يا أَهلَ الجَنَّة، فَيَشرَئبُّونَ وَيَنظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَل تَعرفُونَ هَذا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَم، هَذا المَوتُ، وَكُلُّهُم قَد رَآهُ، ثُمَّ يُنادي: يا أَهلَ النّار، فَيَشرَئبُّونَ وَيَنظُرُونَ، فَيَقُولُ: وهَل تَعرفُونَ هَذا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَم، هَذا المَوتُ، وَكُلُّهُم قَد رَآهُ، فَيُذبَحُ ثُمَّ يَقُولُ: يا أَهلَ الجَنَّة خُلُود فَلاَ مَوتَ، وَيا أَهلَ النّار خُلُود فَلاَ مَوتَ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [مريم][1].

ثم نبههم إلى أن ذلك مصير لا عاصم منه، ولا ناصر لهم يمنعهم عن حلول العقوبة بهم، فقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾، أي: إذا رأى الكفار ما يوعدون يوم القيامة فسيعلمون أنه لا أحد ينصرهم، وأنهم أقل عددًا من جنود الله تعالى، وأذل من أن يقوموا لهم.

---

(١) البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩).

ولما كان مثل هذا الوعيد، يسبق إليه التكذيب والسؤال عن الميعاد قال: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾﴾. فعلم وقت الساعة غيب لم يطَّلع الله تعالى عليه أحدًا، ولا يعلمه إلا هو. وفي حديث جبريل عليه السلام لما سأل نبينا ﷺ عن الساعة قال له: «**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل**»(١).

وكذا الغيب لا يُطلع عليه ﷻ عليه أحدًا إلا من شاء الله من رسله، فيوحي إليهم ربهم القدر الذي يريده، ﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾ أي: يَختَصُّهُ بمَزِيد مُعقّبات مِنَ المَلائكَة يَحفَظُونَهُ من أمر الله، وَيُساوقُونَهُ عَلَى ما مَعَهُ مِن وَحي الله(٢)، فيكون خبره صادقًا لا يتطرق إليه بطلان لأجل ذلك.

وقوله: ﴿لِّيَعْلَمَ﴾، أي: نبينا ﷺ أن الرسل بلغت الرسالة وحفظوا بأمر الله تعالى. ومن المحتمل عود الضمير إلى ربنا سبحانه، وَيَكُونُ ذَلكَ كَقَوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وَكَقَوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾﴾ [العنكبوت]، مع علمنا أن علم ربنا أزلي محيط بكل شيء، ولكن يذكر علمه بالشيء بعد وقوعه لأنه الذي يترتب عليه الثواب والعقاب، أما علمه الأزلي فلا تكون المؤاخذة به، والله الموفق.

---

(١) جزء من حديث جبريل الطويل، رواه مسلم في صحيحه برقم (٨).
(٢) تفسير ابن كثير (٨/٢٤٧).

سُورَةُ المُزَّمِّلِ

بين يدي سورة المزمل

وهي مكية، سوى آخر آية منها[١].

أسماؤها:

ليس لهذه السورة سوى اسم واحد، وهو: «سورة ﴿ٱلْمُزَّمِّلُ﴾»[١].

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كلمُهـا مئـة وَتسـعُونَ كلمة، وحروفهـا ثَماني مئـة وَثَمانية وَثَلاثُـونَ حرفًا، وَهي ثَمـاني عـشرَة آيَـة في المدني الأَخير، وتسـع عشرَة في المَـكِّيِّ»[٢].

سبب نزولها:

عَـن ابـن عَبّـاس ﷺ، قـالَ: «لَمـا نَزلَـت أَوَّلُ المُزَّمِّـل، كانُـوا يَقُومُـونَ نَحوًا من قيامهـم في شَـهر رَمَضـانَ، حَـتَّى نَـزَلَ آخرُهـا، وَكانَ بَينَ أَوَّلهـا وَآخرها سَـنَة»[٣].

موضوعاتها:

● أمر النبي ﷺ بقيام الليل، وبيان أنه مما يستعان به على أداء مهمة البلاغ.

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/٢٥٢).
(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٥٧).
(٣) أبو داود (١٣٠٥)، وصححه الشيخ مقبل الوادعي في الصحيح المسند من أسباب النزول، ص(٢٥٦).

- أمـر نبينـا ﷺ بالتـوكل على الله تعـالى، وبالصـبر، والإعـراض عـن تكذيب المشركـين، والإكثـار من ذكـر ربه.
- الثناء على طائفة من المؤمنين حملوا أنفسهم على قيام الليل.
- توعد المشركين بالجحيم.
- ذكر ما حل بفرعون لما كذب نبيه ﷺ.
- الأمر بملازمة تلاوة القرآن على مختلف الأحوال.
- الأمر بإقامة الصلاة، وأداء الزكاة، وإعطاء الصدقات، والاستغفار.

مقصدها:

الإعانة على تحمّل أعباء تبليغ الدعوة.

سورة المزمل: تأملات ووقفات

الآيات (١ ـ ١١)

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ
قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى
عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا
﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ
إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ
وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا
﴿١٠﴾ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾﴾، نداء لطيف، فمن اللطف أن يُنادى المرء ببعض صفاته الجميلة، أو المتلبس بها، يقال: أيها القائم، أيها القاعد، يا أيها المزمل، يا أيها المدثر، فالنداء اللطيف عند التكليف يحمل على أدائه على أكمل وجه وأحسنه.

﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾﴾، أمر الله تعالى نبيَّه ﷺ بقيام الليل، فامتثل النبي ﷺ لأمر ربه، فعن عائشة ؓ قالت: «كانَ نَبيُّ الله ﷺ إذا صَلّى صَلاةً أَحَبَّ أن يُداوِمَ عَلَيها، وَكانَ إذا غَلَبَهُ نَوم أَو وَجَع عَن قيام اللّيل صَلّى من النّهار ثنتَي عَشرَةَ رَكعَةً»[1]. وفي الصحيحين، عَن المُغيرة بن شُعبَةَ ؓ، أَنّ النّبيّ ﷺ صَلّىَ حَتّىَ

(١) مسلم (٧٤٦).

انتفخت قدماه، فقيل له: أتكلف هذا؟ وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال: «أفلا أكون عبدًا شكورًا»(١).

وهذه بعض فضائل هذه العبادة العظيمة التي أمر بها نبينا ﷺ:

فقيام الليل يُعين على تحمل المشاق.

ومدح الله تعالى أهل الإيمان والتقوى بجميل الخصال وجليل الأعمال، ومن أخص ذلك قيام الليل، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ (١٥) تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧)﴾ [السجدة].

ووصفهم في موضع آخر بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤)﴾ [الفرقان]، ثم قال: ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦)﴾ [الفرقان].

وذكر قيام الليل في صفات المتقين في الذاريات، قال ربنا: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨)﴾ [الذاريات].

وأما الترغيب في هذه العبادة في دواوين السنة فكثير، من ذلك:

- قال نبينا ﷺ: «**أفضلُ الصَّلاة بعدَ الفريضَة صَلاةُ اللَّيل**»(٢).
- وقال: «**عَليكُم بقيام اللَّيل؛ فإنَّهُ دَأْبُ الصَّالحينَ قبلَكُم، وَهُوَ قُربَةٌ إلَى رَبّكُم، وَمَكفَرَةٌ للسَّيِّئات، وَمَنهاةٌ للإثم**»(٣).

---

(١) البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٢٨١٩).

(٢) مسلم (١١٦٣).

(٣) رواه الترمذي (٣٥٤٩)، وحسنه الألباني في إرواء الغليل (٤٥٢).

● وعَـن عَلِيّ ﷺ قـالَ: قـالَ النَّـبيُّ ﷺ: «إنَّ في الجَنَّـة غُرَفًـا تُـرَى ظُهورُهـا مِـن بُطُونهـا، وَبُطُونُهـا مـن ظُهورهـا»، فَقـامَ أعرابيّ فَقـالَ: لمَـن هيَ يا رَسُـولَ الله؟ قالَ: «لمَـن أَطـابَ الـكَلامَ، وَأَطعَـمَ الطَّعـامَ، وَأَدامَ الصّيـامَ، وَصَـلَّى لله باللَّيـل والنّـاسُ نيام»[1].

● وعَـن سَـهل بـن سَـعد ﷺ، قـالَ: جـاءَ جبريـلُ ﷺ إلَى النَّـبيّ ﷺ، فَقـالَ: «يـا مُحَمَّـدُ، عـش ما شـئتَ فَإنَّـكَ مَيّـت، وَأحبب مَـن أَحبَبـتَ فَإنَّـكَ مفارقُـهُ، واعمَل مـا شـئتَ فَإنَّـكَ مَجزيّ بـه»، ثُـمَّ قـالَ: «يـا مُحَمَّـدُ شَرَفُ المُؤمـن قيـامُ اللَّيـل وَعزُّهُ اسـتغناؤُهُ عَن النّـاس»[2].

﴿ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ ﴾، أعـرف بعـض المشـايخ العُبّاد يقـوم الليل لخمس سـاعات في الصيف والشـتاء، فـكان يتحرج مـن إجابة دعوات العشـاء في الصيف؛ لقـصر الليـل فيه، فسـأل الشـيخ محمد بن عثيمـين ﷺ، فقال له: لا حـرج أن تعتذر.

ويقـول أحد طـلاب العلم: إن جده إذا جـاء لزيارة والده، ينتظـر الثلث الأخير كل ليلة ليقومه.

وفي الآيـة لـم يذكـر الله تعـالى مـدة القيـام على جهـة التحديـد، وإن كان النبي ﷺ قـد بـيَّن في قصـة عبـد الله بن عمـرو ﷺ أن أفضـل القيـام قيـام داود ﷺ، قال نبينـا ﷺ: «أَحَـبُّ الصَّـلاَة إلَى الله صَلاَةُ داوُدَ ﷺ، وَأَحَبُّ الصّيـام إلَى الله صيامُ داوُدَ، وَكانَ يَنـامُ نصـفَ اللَّيل وَيَقُـومُ ثُلُثَهُ، وَيَنامُ سُدُسَـهُ، وَيَصُـومُ يومًا، وَيُفطـرُ يَومًا»[3].

﴿ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ ﴾، وهنـا أمـر لافـت للنظـر، وهو علاقـة القرآن بالليـل، ففي هذه السـورة: ﴿ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ ﴾، ونـزول القـرآن كان في ليلة القدر، ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾ [الدخان: ٣]، ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ ﴾ [القدر].

---

(١) الترمذي (١٩٨٤)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٩٤٧).
(٢) الحاكم (٣٦٠/٤)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٧٣).
(٣) البخاري (١١٣١)، ومسلم (١١٥٩).

ومدارسة جبريل ﷺ لنبينا ﷺ كان في كل ليلة، فقد ثبت عن ابن عبَّاس ﷺ، قال: «كانَ رَسُولُ الله ﷺ أجوَدَ النّاس، وَكانَ أجوَدُ ما يَكُونُ في رَمَضانَ حينَ يَلقاهُ جبريلُ، وَكانَ يَلقاهُ في كُلِّ لَيلَة من رَمَضانَ فيُدارِسُهُ القُرآنَ، فَلَرَسُولُ الله ﷺ أجوَدُ بالخَير مِنَ الرّيح المُرسَلَة»[١].

ومن أسباب ذلك أن التكليف المشتمل عليه ثقيل لكن تَدبُّره كفيل بالإعانة عليه. ولهذا قال:

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ⁽٥⁾﴾، والمراد: أنه ثقيل على النبي ﷺ، فعن عائشة ﷺ، أنَّها قالت: «إن كانَ لَيُوحَى إلَى رَسُول الله ﷺ وَهُوَ عَلَى راحلَته، فَتَضربُ بجرانها»[٢]. والجران: باطن العنق. هذا قول. وقيل: العمل به ثقيل. وقيل: ثقيل في الميزان[٣]. وكل ذلك له وجه.

ثم قال: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ⁽٦⁾﴾، قال ابن تيمية ﷺ: «وَناشئَةُ اللَّيل في أَصَحّ القَولَين: إنَّما تَكُونُ بَعدَ النَّوم. يُقالُ نَشَأَ إذا قامَ بَعدَ النَّوم؛ فَإذا قامَ بَعدَ النَّوم كانَت مُواطَأَةُ قَلبه للسانه أَشَدَّ؛ لعَدَم ما يَشغَلُ القَلبَ، وَزَوال أَثَر حَرَكَة النَّهار بالنَّوم، وَكانَ قَولُهُ أَقوَمُ»[٤]، وكان أقدر على تدبر القرآن والنظر في معانيه والتأثر به.

ولهذا تجد من نفسك أنك تفهم من قراءة الإمام في الفجر ما لا تفهمه في المغرب أو العشاء؛ لأن المغرب والعشاء يكونان بعد جهد وعمل، فيكون القلب مكدودًا كالبدن، والقلب جزء من البدن يتأثر بما يصيب البدن أحيانًا، لكن في الليل وبخاصة في آخر الليل أو صلاة الفجر يتفتَّح القلب ويتفكَّر.

---

(١) البخاري (٦)، ومسلم (٢٣٠٨).
(٢) أحمد (٢٤٨٦٨)، وصححه الشيخ شعيب الأرنؤوط ﷺ.
(٣) ينظر: زاد المسير (٣٥٤/٤).
(٤) مجموع الفتاوى (٤٩٥/٢٢).

وقُرئ هذا الحرف ﴿وَطْئًا﴾، و﴿وِطَاءً﴾. والفرق بينهما أنه بالفتح يدل على التثبيت والترسيخ، كأنك وطأتَ الشيء فثبته، فعلى هذا يكون المعنى أشد وقعًا على القلب، وقراءة الكسر تعني مواطئة القلب للسان، فيكون المقصود متقاربًا.

﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾، أي هي أقوم، وأضبط وأعدل، تقول: أقم قراءتك، أي: صوّبها وصحّحها.

ومنه يُعلم ـ وهذه فائدة للحفاظ ـ أن أفضل أوقات الحفظ ما كان عقب راحة، وبخاصة في الليل، وليس من المناسب أن يجعل الراغب في الحفظ وقته الذي يكون فيه مجهدًا لذلك، واختيار الأوقات يوفر جهدًا كبيرًا لمن يرغب في إتقان حفظ القرآن.

﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧﴾؛ أي تقلُّبًا في مهماتك وحوائجك وشغلًا بها، وتأمل في تقسيم الأوقات في هذه السورة العظيمة، فوقت للراحة والعبادة، ووقت لطلب الرزق وقضاء الحوائج، «قالَ عَبدُ الرَّحمَن بنُ زَيد بن أَسلَمَ في قَوله: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧﴾، قال: لحَوائجكَ، فَأفرغ لدينكَ اللَّيلَ. قالَ: وَهَذا حينَ كانَت صَلاةُ اللَّيل فَريضَةً، ثُمَّ إنَّ الله مَنَّ عَلَى العباد فَخَفَّفَها وَوَضَعَها»(١).

وفي هذا دليل على عدم إهمال أمور الدنيا، وفي القرآن: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧]، فالسعي على الوالدين والولد والأهل عبادة، وأن يذر الإنسان ورثته أغنياء خير له من أن يذرهم عالة يتكففون الناس.

ثم قال: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨﴾، وانظر إلى واقع كثير من الناس اليوم، تجده إذا انقضت الصلاة لم يمكث للتسبيح بعدها، ويكون هذا ديدنه،

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/٢٥٢).

فما أن يسلم حتى ينصرف، فمتى يتأتى لمن كان هذا حاله أن يكثر من ذكر ربه؟

﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾، أي انقطع لعبادته، فالمطلوب من العبد أن يُكثر من ذكر ربه، وينقطع إليه[1].

ولكثرة ذكره سبحانه شأن في الإعانة على حوائج الدنيا والدين، ولهذا أمر نبينا ﷺ بذلك في غير ما آية، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [الأعراف]. وقال: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ [الإنسان].

وما أكثر ما يذكر الإكثار من ذكر الله تعالى مع الأمر أو الترغيب في ذكر ربنا!

قال ربنا لزكريا ﷺ: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾ [آل عمران].

وقال عن الكليم ﷺ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [طه].

وقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب].

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب].

وقال: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الجمعة].

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/٢٥٥).

وقال ﷻ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج].

وقال ﷻ: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشعراء].

وقال: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب].

وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران ١٩١].

فليس الشأن أن تذكر ربك، وإنما الشأن أن تكثر من ذلك، وهذا هو الفرق بين المنافق والمؤمن، فالمنافق يذكر الله، لكنه مُقلّ منه، ولا يريد به وجهه، أما المؤمن فيكثر منه، ويريد بعمله كله وجه الله، قال ربنا: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء].

وهذا ما أكد عليه نبينا ﷺ، فعَن ابن عَبّاس رَضي الله تعالَى عَنهما، أَنّ رَسُولَ الله ﷺ، قالَ: **«مَن عَجزَ منكُم عَن العَدُوّ أن يجاهدَهُ، وَعَن اللّيل أن يكابدَهُ، فَليُكثر ذكرَ الله»**(١).

وثبت عَن عَبد الله بن بُسر ﷺ أَنّ رَجُلًا قالَ: يا رَسُولَ الله إنّ شَرائعَ الإسلام قَد كَثُرَت عَلَيّ، فَأَخبرني بشَيء أَتَشَبّثُ به، قالَ: **«لا يَزالُ لسانُكَ رَطبًا من ذكر الله»**(٢).

---

(١) الطبراني في الكبير (١١١٢١)، وقال الألباني ﷺ في صحيح الترغيب (١٤٩٦): «صحيح لغيره».
(٢) الترمذي (٣٣٧٥)، وهو في صحيح الترغيب (١٤٩١).

ومن ذلك ما جاء عَن أَبي هُرَيرَةَ ﷺ أنه قال: كانَ رَسُولُ الله ﷺ يَسيرُ في طَريق مَكَّةَ، فَمَرَّ عَلَى جَبَل يُقالُ لَهُ جُمدانُ، فَقالَ: «سيرُوا، هَذا جُمدانُ. سَبَقَ المُفَرِّدُونَ». قالُوا: وَما المُفَرِّدُونَ يا رَسُولَ الله؟ قالَ: «الذّاكِرُونَ الله كَثيرًا والذّاكراتُ»(١). قال المناوي ﷺ: «أي: المنفردون المعتزلون عن الناس، من فرد إذا اعتزل وتخلى للعبادة»(٢).

ثم قال تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾، وفي آية أخرى قال ربنا: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧﴾ [الرحمن]، وفي ثالثة: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠﴾ [المعارج]. ولا تعارض بين هذه الآيات، فالمشرق بالإفراد مكان شروق الشمس، والمغرب مكان غروبها، والمراد بالتثنية: مشرق الصيف والشتاء، ومغرب الصيف والشتاء، وفي انتقال الشمس من مشرق الصيف إلى مشرق الشتاء تطلع بمطالع كثيرة، فهذه هي المشارق.

وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾، أي: توكل على المستحق للعبادة سبحانه، والتلازم بين التوكل وإفراد الله بالعبادة مذكور في مواضع، منها: قول ربنا: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة]، وأعظم الناس توكلًا أكملهم توحيدًا؛ فهؤلاء أقلهم التفاتًا إلى الخلق واعتمادًا على الأسباب.

ثم قال: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠﴾، فمع التوكل لا بُدَّ للعامل ولاسيما الداعية إلى الله من الصبر، قال لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝١٧﴾ [لقمان].

---

(١) مسلم (٢٦٧٦).

(٢) فيض القدير (١٢٢/٤).

ومن أنواع الصبر: الصبر على طاعة الله، ويدخل في ذلك الصبر على تبليغ دين الله تعالى. وأما تحمُّل ما يكون من بعض الناس إذا نصح فهذا من الصبر على البلاء.

وقد ابتلي الرسل في ساحات الدعوة كثيرًا، قال ربنا: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِي الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنعام].

وقيل لنبيّنا ﷺ كثير من الباطل، اتهم بالجنون، والكذب، وبأنه شاعر، وقيل: كاهن وساحر.

وهكذا حال من سلك سبيله، فما يقع الآن في كثير من وسائل الإعلام من الاستهزاء بالدعاة والمصلحين سنة جارية، والواجب العمل بما أرشدت إليه هذه الآية: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾﴾.

وبعض الدعاة وطلاب العلم يصبر على الناس ويتحمل منهم، وقد يؤذونه وهو يبتسم، لكنه إذا انفرد عنهم اشتكى، ووقع في أعراضهم مع أصدقائه! فهذا في الحقيقة لم يسلم، وفي صبره دَخَن، وهذه مسألة دقيقة تجب العناية بها؛ فالسلامة لا يعدلُها شيء.

والهجر الجميل: الذي لا عتابَ معه[1]. أو ما لا إساءة فيه، وبعض الناس يهجر مسلمًا أو قريبًا ويكون هجره سيئًا! وقد نهينا عن الهجر، فقد قال نبينا ﷺ: «لاَ يَحِلُّ لمُسلم أن يَهجُرَ أخاهُ فَوقَ ثَلاثَة أيّام»[2]، والهجر المشروع له ضوبطه، وليس كل هجر مشروعًا، وحال هجر أكثر الناس اليوم داخل في القسم المنهي عنه.

---

(١) تفسير ابن كثير (٢٥٦/٨).
(٢) البخاري (٦٠٦٥)، ومسلم (٢٥٥٨).

﴿ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ﴿١١﴾ ﴾، وفي هـذا التهديـد رسـالة لنبينـا ﷺ، أن لا تشـغل بالـك بهـؤلاء، ولا تأبـه لهـم.

فالداعيـة العاقـل لا يلتفـت إلى المسـيئين إليـه، ولا ينشـغل بهـم عـن دعوته، ومـن النـادر أن ينشـغل أحـد بالـرد على خصومـه ويسـلم مـن حـظ النفـس! ولنا في أنبيـاء الله تعـالى أسـوة، قـال ربنا عن مـوسى ﵇ وفرعـون: ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الشعراء]، فلـم ينتـصر لنفسـه، ولـم تلفته إسـاءته له عـن دعوته.

فالداعيـة إذا صـدق مـع الله وكانـت دعوتـه إليـه لا إلى نفسـه، أو حزبـه، أو جماعتـه، فـلا بُدَّ أن يتـولى الله تعالى الدفـاع عنـه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨].

ثـم إن الخصـوم إذا وجـدوك تتوقـف وتلتفـت إليهـم كلمـا تكلمـوا فيـك، تلاعبـوا بك لإيقـاف دعوتك، وتحقق مقصودهـم، وفي آداب القرآن: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الفرقـان].

ثـم أخـبر ﷻ أن الصـبر عليهم لا يعـني أن الله ﷻ لن يحاسـبهم، فقال: ﴿ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ﴿١١﴾ ﴾، وهـذا كقـوله: ﴿ نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٢٤﴾ ﴾ [لقمـان].

الآيات (١٢ ـ ١٩)

إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا
﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا
﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ
فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا
وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ
شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ
هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾

لما ذكر إمهالَ المكذبين إلى أجل توعَّدهم بما هم لاقون بعده، فقال: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾﴾ فبيَّن ربنا ما ينتظرهم من العذاب، ﴿أَنكَالًا﴾: قيودًا، ﴿وَجَحِيمًا﴾: سعيرًا، كما قال في موضع آخر: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾﴾ [الإنسان].

﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾﴾ قال ابن عباس ﷺ: «يَنشَبُ في الحَلق فَلا يَدخُلُ وَلا يَخرُجُ»[1]. وهذا يرشد إلى شكر نعمة الطعام الذي جعله الله لنا هنيئا مريئًا، فهيأ مجراه، ويسر استقراره في جوف آكله.

وأعد الله لهم عذابًا أليما موجعًا، وأنجع سبيل للنجاة من العذاب في الدنيا والآخرة: الاستغفار، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال].

(١) تفسير ابن كثير (٨/٢٥٦).

ثـم زاد مـن هـول العذاب تهويـل إرهاصاتـه بتهويل يـوم القيامـة فقال: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾، والرجفـة الزلزلـة، قـال ربنـا: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾﴾ [الزلزلة]. و﴿كَثِيبًا﴾: رملًا. و﴿مَّهِيلًا﴾: إذا أخـذت منه شـيئًا تبعـه ما بعده، «يُقـالُ: أَهَلْـتُ الرَّملَ أُهيلُـهُ هَيلًا إذا حَرَّكْـتُ أَسـفَلَهُ حَـتَّى انهالَ من أَعـلاهُ»(١).

ولما ذكر عذاب الآخرة وقدمه لكونه أشد من عذاب الدنيا، عاد فنبَّه إلى أنهم ليسوا بمنأى عن الأخذ في الدنيا والعذاب فيها أيضًا، وضرب لهم مثلًا بمن هو أشد منهم قوة، فقال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾، شاهدًا بالتبليغ، كما قال ربنا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الأحزاب]، وقال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الفتح]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾، وهـذا خـبر يتضمـن تهديـدًا للمشركـين المأمـور بالصـبر عليهـم، وتحذيـرًا لهـم مـن انتهـاء المهلـة في الدنيـا، وفيـه أيضًـا رسـالة تتوجـه إلى كافـة مـن بعـث إليهـم ﷺ، ألا تعصـوا رسـولكم؛ لئـلا يصيبكـم مـا أصـاب فرعـون الذي عـصى رسـوله، كمـا قـال سـبحانه: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾ [القمر]. و﴿وَبِيلًا﴾: شـديدًا.

وفي هـذا مـن الهدايات: أن المعاصي سـبب للهـلاك، ونزول العذاب. قـال ربنا: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ

---

(١) تفسير البغوي (٨/٢٥٦).

وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت].

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ﴾، أي: كيف تتقون عذابَ يوم القيامة إذا كفرتم؟ وهو يوم لهوله تشيب الولدان! ولا أمنَ لكافر في الآخرة، قال ربنا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنعام].

قال نبينا ﷺ: «**يُقَالُ: أَخرجُوا بَعثَ النَّار، فَيُقَالُ: من كَم؟ فَيُقَالُ: من كُلِّ أَلف تسعَمائَة وَتسعَةً وَتسعينَ**، قال: «**فَذاكَ يَومَ يَجعَلُ الولدانَ شيبًا**»[1]. نسأل الله السلامة والعافية.

وليس المقصود من الآية أن ذلك يقع في الدنيا، فبعض الناس ينشر صورا لأطفال شاب شعر رأسهم ويورد هذه الآية! وكثير مما ينشر من مثل هذا كذب لا حقيقة له، والمقصود أن ذلك يقع في القيامة.

﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ ﴾، وانشقاق هذا المخلوق العظيم دليل على عظيم شدة هذا اليوم، فالعاقل من سعى ليكون من الآمنين فيه من عذاب ربه سبحانه.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ﴾، المراد بها: القرآن الكريم، والآية دليل على أن الله جعل للإنسان قدرة واختيارًا، ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [الإنسان]. وفي سورة الإنسان كذلك: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [الإنسان].

---

(١) مسلم (٢٩٤٠).

آخر آية في السورة

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾﴾

هذا تخفيف من الله ﷻ لعباده في أمر قيام الليل، فإنه بنزول هذه الآية صار مستحبًا بعدما كان واجبًا. قال نبينا ﷺ: «**لِيُصَلِّ أَحَدُكُم نَشَاطَهُ**»[1].

ومن هدايات الآية: أنه لا ينبغي أبدًا أن يفرط المؤمن في تلاوة كتاب الله؛ فإنه قال: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾، فقد ذكر ما يشغل الناس، من السفر للتجارة، والمرض، والجهاد، ولم يجعل شيئًا من ذلك مانعًا من تلاوة القرآن، بل قال: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾.

ولقد أدركتُ مشايخ لنا في الجامعة، كان أحدهم إذا كان في الامتحان يراقب الطلاب لا يفتر من قراءة القرآن، وأذكر أن أحد المشايخ كان عنده موعد

---

(١) البخاري (١١٥٠)، ومسلم (٧٨٤).

فتأخـر، فقلـتُ له: أخـروك عـن موعدك، وأضاعـوا وقتك! قـال: الذي معـه القرآن لا يضيـع وقته.

وهكـذا على المسـلم أن يكـون له في القـرآن شـغل، مـع إقامـة الصـلاة وإيتاء الـزكاة المفروضـة ثـم الصدقـة، وليعلـم أنـه إذا قـام بذلـك فإنمـا يقدم لنفسـه، وما قـدم من خـير وجـده عنـد الله تعالى.

وحـتى لا يغـتر من سـعى في تحقيـق ذلـك قـال بنـا: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ﴾، فالعمل لا بُـدَّ أن يشـوبه نقـص، والله غفور يغفـر لمن اسـتغفره، وهو مع ذلك رحيـم، وفي ذلك إشـارة إلى أن مـن وفـق لمـا تقدم فإنمـا هو بفضلـه ورحمته ﷻ.

سُورَةُ المُدَّثِّر

بين يدي سورة المدثر

وهي مكية اتفاقًا[١].

أسماؤها:

لا تعرف إلا بهذا الاسم؛ «﴿ٱلْمُدَّثِّرُ﴾»[١].

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«وكلمها مئتان وخمس وخمسون كلمة، وحروفها ألف وعشرة أحرف، وهي خمسون وخمس آيات في المدني الأخير والمكي والشامي وست في عدد الباقين، اختلافها آيتان؛ ﴿فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ﴾، لم يعدها المدني الأخير وعدها الباقون، ﴿عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، لم يعدها المكي والشامي وعدها الباقون، وفيها مما يشبه الفواصل موضعان؛ ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، ﴿بِهَٰذَا مَثَلًا﴾»[٢].

سبب نزولها:

عن جابر بن عَبد الله الأَنصاريِّ ﷺ، قالَ: قال رسول الله ﷺ ـ وَهُوَ يُحَدِّثُ عَن فَترَة الوَحي ـ: «بَينا أَنا أَمشي إذ سَمعتُ صَوتًا منَ السَّماء، فَرَفَعتُ بَصَري،

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/٢٩١).
(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٥٨).

فَإذا المَلَكُ الَّذي جاءَني بحراء جالس عَلَى كُرسيّ بَينَ السَّماء والأَرض، فَرُعبتُ منهُ، فَرَجَعتُ فَقُلتُ: زَمّلُوني زَمّلُوني، فَأَنزَلَ الله تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥﴾، فَحَميَ الوَحيُ وَتَتابَعَ»[1].

موضوعاتها:

«تكريم النبي ﷺ.

الأمر بإبلاغ دعوة الرسالة.

إعلان وحدانية الله بالإلهية.

الأمر بالتطهر الحسي والمعنوي، ونبذ الأصنام، والإكثار من الصدقات، والأمر بالصبر.

إنذار المشركين بهول البعث، وتهديد من تصدى للطعن في القرآن وزعم أنه قول البشر.

وصف أهوال جهنم، والرد على المشركين الذين استخفوا بها وزعموا قلة عدد حفظتها، وتحدي أهل الكتاب بأنهم جهلوا عدد حفظتها، وتأييسهم من التخلص من العذاب، وتمثيل ضلالهم في الدنيا، ومقابلة حالهم بحال المؤمنين أهل الصلاة والزكاة والتصديق بيوم الجزاء»[2].

مقصدها:

تثبيت قلب نبينا ﷺ، والحث على الإيمان بما أنزل الله واليوم الآخر ببيان حال المكذبين بهما في الآخرة.

---

(١) البخاري (٤)، ومسلم (١٦١).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/٢٩٣).

سورة المدثر: تأملات ووقفات

الآيات (١ ـ ٧)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ٧﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١﴾، هذا تلطُّف في خطاب نبينا ﷺ، والنداء اللطيف عند التكليف يحمل على القيام بما يشتمل عليه من الأمر على أتم وجه.

وقد جاءَ رَسُولُ الله ﷺ بَيتَ فاطمَةَ ، فَلَم يَجِد عَليًّا في البَيت، فقالَ: «**أينَ ابنُ عمّك؟**»، فَقالَت: كانَ بَيني وَبَينَهُ شَيء، فَغاضَبَني فَخَرَجَ، فَلَم يَقل عندي، فَقالَ رَسُولُ الله ﷺ لإنسان: «**انظُر أينَ هُوَ؟**»، فَجاءَ فَقالَ: يا رَسُولَ الله هُوَ في المَسجد راقد، فَجاءَهُ رَسُولُ الله ﷺ وَهُوَ مُضطَجع، قَد سَقَطَ رداؤُهُ عَن شقّه، فَأَصابَهُ تُراب، فَجَعَلَ رَسُولُ الله ﷺ يَمسَحُهُ عَنهُ وَيَقولُ: «**قُم أَبا التُّراب قُم أَبا التُّراب**»(١). وهذا تلطُّف في خطاب أصحابه.

ومن تأمَّل القرآن وجد أن الله تعالى لم يناد نبيه باسمه قط، فنداؤه له بهذا، وبيا أيها المزمل، ويا أيها النبي، ويا أيها الرسول.

وهذه السورة تجد فيها ـ ككثير من سور القرآن ـ فواصل متشابهة، وهذه لها وقع في القلب، واختلف هل تسمى سجعًا أو لا؟ وذلك لأن السجع في العادة

---

(١) البخاري (٤٤١)، ومسلم (٢٤٠٩).

مُتكلَّف تُحمل المعاني عليه، بخلاف الفواصل فلا يتكلف حمل المعاني عليها، والسجع إذا جاء بدون تكلف، فلا شيء فيه، أما تكلُّفُه فلا يُحمد، ولا سيما إذا كان في الدعاء، فعَن عكرمَة، عَن ابن عَبّاس ﷺ أنه قالَ له: «انظُر السَّجعَ منَ الدُّعاء فاجتَنبه؛ فَإنّي عَهدتُ رَسُولَ الله ﷺ وَأَصحابَهُ لا يَفعَلُونَ إلّا ذَلكَ»[1]. يَعني: لاَ يَفعَلُونَ إلّا ذَلكَ الاجتنابَ. قال القرطبي ﷺ ـ وهو يتكلم عن أنواع الاعتداء في الدعاء ـ: «وَمنها أَن يَدعُوَ بما لَيسَ في الكتاب والسُّنَّة، فَيَتَخَيَّرُ أَلفاظًا مُفَقَّرَةً، وَكَلمات مُسَجَّعَةً، قَد وَجَدَها في كَراريسَ لا أَصلَ لَها، وَلا مُعَوَّلَ عَلَيها، فَيَجعَلُها شعارَهُ، وَيَترُكُ ما دَعا به رَسُولُهُ ﷺ؛ وَكُلُّ هَذا يَمنَعُ من استجابَة الدُّعاء»[2].

وقوله: ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢﴾، لم يقل: قم فبشّر، مع أن هذا القرآن بشارة ونذارة، وتُقدَّم البشارة كثيرًا، لكن لأن هذه السورة من أول ما نزل، وكان حال الناس لا يخفى من سيادة الشرك في مجتمعاتهم، فاحتيج للبدء بها، ومنها يُعلم أنه لا بُدَّ أن يُراعى حال الناس، فلا يناسب البداءة بتبشير قوم منغمسين في الآثام، بل اللائق البداءة بإنذارهم.

والمعنى: قم من فراشك، وابدأ بدعوة الناس إلى الله ربهم، وفي هذا إشارة إلى التخلي عن كثير من متع الدنيا لأجل الدعوة إلى الله؛ فلا يصدنَّك عنها فراش وثير، بل لا بُدَّ أن تكون على حساب بعض إجمام البدن.

وفيها أيضًا إشارة إلى الترغيب في إيثار محابِّ الله على الدعة والراحة مطلقًا، فالمُتدثّر بلحافه في فراشه إذا حان وقت الصلاة قام منه مُؤثرًا الاستجابة لأمر الله على نومه وراحته، ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝١٦﴾ [السجدة].

---

(١) البخاري (٦٣٣٧).

(٢) تفسير القرطبي (٢٢٦/٧).

﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ ﴾، أي: عظّم ربك تعظيمًا لا نهاية له[١]، فهو الكبير العظيم ﷻ.

قال الشنقيطي ﵀ في أضوائه: «أي عظّمه تعظيمًا شديدًا، ويظهر تعظيم الله في شدّة المحافظة على امتثال أمره واجتناب نهيه والمسارعة إلى كلّ ما يرضيه»[٢].

قال ربنا: ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ۝١١١ ﴾ [الإسراء]، وقال: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٣٧ ﴾ [الحج: ٣٧].

قال ابن تيمية ﵀: «ولهذا كان شعائرُ الصلاة والأذان والأعياد والأماكن العالية هو التكبير، وهو أحد الكلمات التي هي أفضل الكلام بعد القرآن: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، كما ثبت ذلك في الصحيح عن النبي ﷺ، ولم يجئ في شيء من الأثر بدل قول الله أكبر: الله أعظم، ولهذا كان جمهور الفقهاء على أن الصلاة لا تنعقد إلا بلفظ التكبير، فلو قال: الله أعظم لم تنعقد به الصلاة؛ لقول النبي ﷺ: «**مفتاح الصلاة الطهور، وتحريمها التكبير، وتحليلها التسليم**[٣]»»[٤].

ويذكر ﵀ معناها فيقول: «التكبير يُراد به أن يكون الله عند العبد أكبر من كلّ شيء، كما قال ﷺ لعديّ بن حاتم: «**يا عديّ ما يُفرُّك؟ أيُفرُّك أن يُقال: لا إله إلا الله؟ فهل تعلم من إله إلّا الله؟ يا عديّ ما يفرُّك؟أيُفرُّك أن يقال: الله أكبر؟ فهل من شيء أكبر من الله؟**»[٥]، وهذا يُبطل قولَ من جعل أكبر بمعنى كبير»[٦].

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (٩/٢٣).
(٢) أضواء البيان (٦٣٥/٣).
(٣) أبو داود (٦١)، وصححه الشيخ الألباني في الإرواء (٨/٢).
(٤) مجموع الفتاوى (١١٢/١٦ ـ ١١٣).
(٥) الترمذي (٢٩٣٥)، وهو في صحيح ابن حبان (٧٢٠٦)، وقوله: «**يُفرُّك**»، قال في تحفة الأحوذي (٢٧٢/٧): «بضم الياء وكسر الفاء يقال أفررته أفره أي فعلت به ما يفر منه ويهرب، أي ما يحملك على الفرار. وكثير من المحدثين يقولون بفتح الياء وضم الفاء والصحيح الأول»، وانظر: غريب الحديث لأبي عبيد (١٢٤/٣).
(٦) الفتاوى (٢٣٩/٥).

وفي نعت ربنا بذلك بعد الأمر بالدعوة ما يعين عليها، لأنه بتعظيم الله يصغر في النفس كل عائق وعُتُلّ مُتجبّر، فلا يهابه الداعية إذا ملأ قلبه بتعظيم ربه. ومما يُروى عن العز بن عبد السلام أنه دخل على بعض الملوك الطغاة، وكلَّمه بكلام شديد، فلما مضى قال له الناس: أما خفت يا إمام، فقال: تصورت عظمة الله، فأصبح عندي كالهر. فلا بُدَّ للداعية من تعظيم الله تعالى، وأن يعلم أن طريق الدعوة محفوف بالمخاطر، فإذا لم يتهيأ لها فإنه يتراجع، قال ربنا: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢﴾ [العنكبوت]، وقال: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ۝٢١٤﴾ [البقرة].

وأعظم ما يملأ القلب بعظمة الله تعالى: تَعلُّم أسماء الله تعالى وصفاته، والتعرُّف عليه سبحانه.

ثم قال تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤﴾، قيل المراد: ونفسك فطهر من الذنوب، وقيل: وعملك فأصلح، وقيل: المراد تطهير الثوب من القاذورات، والآية تشمل ذلك كله(١).

فلا بُدَّ لمن أراد هداية قومه أن يكون على طهارة عظيمة من الذنوب، وإلا لما كان لكلامه أثر، قال شعيب ﷺ لقومه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ۝٨٨﴾ [هود]، وقال تعالى: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٤٤﴾ [البقرة]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف].

وقوله: ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥﴾، في الرجز أقوال؛ قيل: الأصنام، والإثم، والشرك، والذنب، والعذاب، وكل ذلك رجز، فيكون المعنى على هذا: اهجر ما يؤدّي إلى

(١) يراجع: تفسير ابن كثير (٢٦٣/٨).

عذاب الله ويسبب سخطه(١).

ومن تأمل في هذه الأقوال لم يجد تعارضًا بينها، فالشرك أعظم إثم، والشيطان يدعو إلى معصية الله، فمن اجتنب الشيطان فقد تجنَّب معصية الله، ونأى بنفسه عن أسباب عذابه.

وقد عصم الله تعالى نبيَّه ﷺ فلم يعبد غير الله قطُّ، وعصمه من الفواحش والمنكرات وسيء الأخلاق، وعُرف بين قومه بمكارم الأخلاق، ولُقِّب قبل البعثة بالصادق الأمين، قال جعفر بن أبي طالب للنجاشي لما هاجروا إلى الحبشة: «أيُّها المَلكُ، كُنّا قومًا أهلَ جاهليَّة نعبُدُ الأَصنامَ، وَنأكُلُ المَيتَةَ وَنأتي الفَواحشَ، وَنَقطَعُ الأَرحامَ، وَنُسيءُ الجوارَ يأكُلُ القَويُّ منَّا الضَّعيفَ، فَكُنّا عَلَى ذَلكَ حَتَّى بَعَثَ اللهُ إلَينا رَسُولًا منّا نعرفُ نَسَبَهُ، وَصدقَهُ، وَأَمانَتَهُ، وَعَفافَهُ، فَدَعانا إلَى الله لنُوَحّدَهُ، وَنَعبُدَهُ، وَنَخلَعَ ما كُنّا نَعبُدُ نَحنُ وَآباؤُنا مِن دُونه مِنَ الحجارَة والأَوثان، وَأَمَرَنا بصدق الحَديث، وَأَداء الأَمانَة، وَصلَة الرَّحم، وَحُسن الجوار، والكَفِّ عَن المَحارم، والدّماء، وَنَهانا عَن الفَواحش، وَقَول الزُّور، وَأَكل مالَ اليَتيم، وَقَذف المُحصَنَة، وَأَمَرَنا أَن نَعبُدَ اللهَ وَحدَهُ لا نُشركُ به شَيئًا، وَأَمَرَنا بالصَّلاة، والزَّكاة، والصّيام»(٢).

فإن قيل: إذا طهَّر الله تعالى نبيه من ذلك كله قبل بعثته فلمَ يأمره باجتنابها وهو مُنزَّه عنها؟

فالجواب: هذا كقول ربنا: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر]، فخطاب الله تعالى له خطاب لأمته، قال ربنا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١]، فالنداء للنبي ﷺ، والخطاب لأمته.

(١) ينظر: زاد المسير (٤/٣٦٠).
(٢) أحمد (٣/٢٦٦)، وحسنه الشيخ شعيب الأرنؤوط في حاشيته عليه.

وقوله: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾، والمراد: لا تمنن على ربك بأعمالك تستكثرها[1]. قال ربنا: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝١٧﴾ [الحجرات].

فالمن يبطل العمل، قال ربنا: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ۝٢٦٣ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ۝٢٦٤﴾ [البقرة].

فالله تعالى لا يقبل الصدقة التي تُتبَع بالمن، ومما ذكره العلماء: أن الماء الذي ستتوضأ به إذا وجد عند منان فإن تيممك بالتراب صحيح مجزئ؛ لئلا تأخذ شيئًا ممن يمن به عليك.

إن بعض الناس قد يتصدق بكثير من أمواله على الفقراء والمحتاجين، ولكنه يقع في خطيئة المن! والله يقول: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾ [الإنسان].

وللعرب في جاهليتهم حكمة بديعة يقولون: «إحياء المعروف بإماتته»، يعني إذا قدّمتَ معروفًا لأحد فامحُهُ من ذاكرتك ولا تذكره؛ ليبقى خيره وأجره.

وبعض الناس يمُنُّ على أولاده، وبعض الناس يمُنُّ على زوجته، وفي المقابل أعرف بعض الموسرين يقول لأولاده وهو يغدق عليهم في العطاء: إنما أعطيتكم من أجلي؛ أي: حتى أسعد بهذا العطاء، فأعطيكم لمصلحة نفسي، وهذا بعيد عن المنّ وهو من حسن الخلق.

ومن المعاني البديعة التي تتعلق بهذا: أن من توسَّل بطاعة فعليه أن يجتهد في منع نفسه من الإعجاب بها، وذلك بالعلم بأن الله تعالى هو الذي وفق إليها،

(١) يراجع تفسير ابن كثير (٨/٢٦٤).

﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]. والأفضل أن يقول: اللَّهُمَّ بما هديتني إليه من الخير والصلاة ـ مثلًا ـ حقق لي كذا وكذا.

بعض الناس يقول: أنا أقوم بفرائض الله وهذا يكفي! وفي هذا نوعُ منَ على الله تعالى، وبعضهم يقع في ذلك ويستدل بحديث الأعرابي الذي رواه طلحة بن عُبَيد الله ﷺ: جاءَ رَجُلٌ إلَى رَسُول الله ﷺ من أَهل نَجد ثائرَ الرَّأس، يُسمَعُ دَويُّ صَوته وَلاَ يُفقَهُ ما يَقُولُ، حَتَّى دَنا، فَإذا هُوَ يَسأَلُ عَن الإسلاَم، فَقالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**خَمسُ صَلَوات في اليَوم واللَّيلَة**». فَقالَ: هَل عَلَيَّ غيرُها؟ قالَ: «**لاَ، إلّا أَن تَطَوَّعَ**». قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**وَصيامُ رَمَضانَ**». قالَ: هَل عَلَيَّ غيرُهُ؟ قالَ: «**لاَ، إلّا أَن تَطَوَّعَ**». قالَ: وَذَكَرَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ الزَّكاةَ، قالَ: هَل عَلَيَّ غيرُها؟ قالَ: «**لاَ، إلّا أَن تَطَوَّعَ**». قالَ: فَأَدبَرَ الرَّجُلُ وَهُوَ يَقُولُ: والله لاَ أَزيدُ عَلَى هَذا وَلاَ أَنقُصُ، قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَفلَحَ إن صَدَقَ**»(١). والسؤال: قال الأعرابي: لا أزيد، ولا أنقص، فمَن يضمن لك أنك صليتَ على الوجه المشروع ولم تنقص منها؟ وقُل مثل ذلك في الواجبات كلها.

وقوله: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾، تنبيه إلى أن ما تقدم الأمر به يحتاج إلى صبر، وقد جاءت هذه الآية تسلية لرسول الله ﷺ لما بين له ورقة بن نوفل ما سيُفعل به، قالت عائشة ﵂: «كانَ أَوَّلَ ما بُدئَ به رَسُولُ الله ﷺ الرُّؤيا الصَّادقَةُ في النَّوم، فَكانَ لاَ يَرَى رُؤيا إلّا جاءَت مثلَ فَلَق الصُّبح، ثُمَّ حُبِّبَ إلَيه الخَلاَءُ، فَكانَ يَلحَقُ بغار حراء فَيَتَحَنَّثُ فيه اللَّيالِيَ ذَوات العَدَد، قَبلَ أَن يَرجعَ إلَى أَهله وَيَتَزَوَّدُ لذَلكَ، ثُمَّ يَرجعُ إلَى خَديجَةَ فَيَتَزَوَّدُ بمثلها، حَتَّى فَجئَهُ الحَقُّ وَهُوَ في غار حراء، فَجاءَهُ المَلَكُ، فَقالَ: اقرَأ، فَقالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**ما أَنا بقارئ**»، قالَ: «**فَأَخَذَني فَغَطَّني حَتَّى بَلَغَ منِّي الجُهدَ، ثُمَّ أَرسَلَني، فَقالَ: اقرَأ، قُلتُ: ما أَنا بقارئ،**

---

(١) البخاري (٤٦)، ومسلم (١١).

فَأَخَـذَني فَغَطَّـني الثّانيَـةَ حَـتَّى بَلَـغَ منّي الجُهـدَ، ثُمَّ أرسَـلَني فَقـالَ: اقـرَأ، قُلتُ: ما أنـا بقـارئ، فَأَخَـذَني فغَطَّـني الثّالثَةَ حَـتَّى بَلغَ مـنّي الجُهدَ، ثُـمَّ أرسَـلَني، فَقالَ: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ ﴾ [العلق]»، فَرَجَـعَ بهـا رَسُـولُ الله ﷺ تَرجُفُ بَـوادرُهُ، حَتَّى دَخَـلَ عَلَى خَديجَـةَ، فَقالَ: «زَمّلُـوني زَمّلُـوني»، فزَمَّلُـوهُ، حَـتَّى ذَهَـبَ عَنـهُ الرَّوعُ، قـالَ لخَديجَـةَ: «أي خَديجَةُ، مـا لي لَقَـد خَشـيتُ عَلَى نَفـسي»، فَأَخبَرَها الخَـبَرَ، قالَت خَديجَـةُ: كَلّا، أبشر، فَوالله لاَ يُخزيـكَ الله أَبَـدًا، فَـوالله إنَّـكَ لَتَصلُ الرَّحِـمَ، وَتَصـدُقُ الحَديثَ، وَتَحمِـلُ الكَلَّ، وَتَكسِـبُ المَعـدُومَ، وَتَقـري الضَّيـفَ، وَتُعـينُ عَلَى نَوائـب الحَـقّ، فانطَلَقَـت بـه خَديجَـةُ حَـتَّى أَتَـت بـه وَرَقَـةَ بـنَ نوفَـل وَهُـوَ ابـنُ عَـمّ خَديجَـةَ أخي أَبيهـا، وَكانَ امـرَأً تَنَـصَّرَ في الجاهليَّـة، وَكانَ يَكتُـبُ الكتـابَ العَـرَبيَّ، وَيَكتُـبُ مـنَ الإنجيل بالعَرَبيَّـة مـا شـاءَ الله أَن يَكتُبَ، وَكانَ شَـيخًا كَبيرًا قَد عَميَ، فَقالَـت خَديجَةُ: يا ابـنَ عَمّ، اسـمَع مـنَ ابن أَخيكَ، قـالَ وَرَقَةُ: يـا ابنَ أَخي، مـاذا تَرى؟ فَأَخـبَرَهُ النَّبيُّ ﷺ خَـبَرَ مـا رَأى، فَقـالَ وَرَقَـةُ: هَـذا النّامُـوسُ الَّذي أُنـزلَ عَلَى مُـوسَى، لَيتَني فيها جَـذَعًا، لَيتَـني أَكُـونُ حَيًّـا حين يخرجـك قومـك، قـالَ رَسُـولُ الله ﷺ: «أَوَمُخرجيَّ هُـم؟»، قـالَ وَرَقَةُ: نَعَـم، لَم يَأت رَجُـل بما جئـتَ بـه إلّا أُوذيَ، وَإن يُدركني يَومُكَ حَيًّا أَنـصُركَ نَصرًا مُـؤَزَّرًا»[1].

فتهيَّأ نبينا ﷺ بكلام ورقة في صنيع قومه معه، وكانت هذه الآية تسلية له.

وفي الآيـة تقديـم وتأخير، فالأصـل تقديـم الفعـل وتأخير المتعلـق مـن الجار والمجـرور، وهـذا يفيد الحـصر، أي: اجعل صـبرك لله وحده لا لغـيره، وإذا لم يكن الصبر لله فـلا بُـدَّ أن يضعف الإنسـان، ولا بُدَّ أن يخـرج من دائرتـه؛ لجهد البلاء، أمـا مـا كان لله وبالله فإنـه يبقى.

---

(١) البخاري (٤٩٥٣)، ومسلم (١٦٠).

الآيات (٨ ـ ١٠)

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾

بعد إرشاده ﷺ إلى الواجب، ذكر بيوم الجزاء، وفي ذكره شحذ لهمة المتقين، وتخويف للمعاندين المعرضين، فقال: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾﴾؛ أي: فإذا نفخ في الصور، وثبت عَن ابن عَبّاس ﷺ في قوله: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾﴾ أنه قال: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**كَيفَ أَنعَمُ وَصاحبُ القَرن قَد التَقَمَ القَرنَ وَحَنَى جَبهَتَهُ، يَسمَعُ مَتَى يُؤمَرُ فَيَنفُخُ؟**». فَقالَ أَصحابُ مُحَمَّد ﷺ: فَما نَقُولُ؟ قالَ: «**قُولُوا: حَسبُنا الله وَنعمَ الوَكيلُ، عَلَى الله تَوَكَّلنا**»[1].

وفي الآيات أن يوم القيامة سيكون على الكافرين عسيرًا، غير يسير، فلمَ جمع بينهما ربنا في الذّكر؟ لأنهم قد يرجون اليسر بعد العسر، فجاءت: ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ قاطعة لآمالهم. وكم من عسير ييسره الله، فبين الله أنه لن يكون يسيرًا عليهم.

في حلية الأولياء[2]، عَن زُرارة بن أَوفَى ـ قاضي البَصرة ـ: أَنَّهُ صَلَّى بهِمُ الصُّبحَ، فَقَرَأَ هَذه السُّورَةَ، فَلَمّا وَصَلَ إِلَى قَوله: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾ شَهقَ شَهقَةً، ثُمَّ خَرَّ مَيِّتًا، ﷺ.

---

(١) أحمد (٣٠٠٨)، قال الشيخ شعيب الأرنؤوط في تخريجه: حسن لغيره.
(٢) (٢/٢٥٨ ـ ٢٥٩).

الآيات (١١ ـ ٣١)

ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾
وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾
كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ
وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾
ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ
﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا
سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ
﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً
لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ
وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ
وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي
مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾

بعد تهويل يوم القيامة بما يدعو للاستعداد له، ذكر حال بعض من أعرض واستكبر فيه، فقال: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾، أي أنَّ الله خلقه وحده لم يشاركه في خلقه أحد، أو خلقته وحيدًا، خرج من بطن أمه ولا شيءَ معه. وهذه نزلت في الوليد بن المغيرة.

وتدل هذه الآيات على أن في إيقاع النكال برؤوس الكفر عبرًا، فأبو جهل

رأس من رؤوس الكفر، جاء فيه قول الله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الدخان][1]، وضرب الكبار ضرب لأتباعهم في الدنيا، ولذلك تجد في الحرب أن القادة مستهدفون.

وقد نزلت هذه الآيات في ذلك الكافر العنيد الذي أنعم الله عليه بنعم كثيرة، أعطاه مالًا وفيرًا، وولدًا كثيرًا، وجعل ولده عنده لا يغيبون عنه، ومكَّنه الله من صنوف المال والنعم، فلما كفر كان الوعيد من الله تعالى: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾﴾، «قالَ قَتادَةُ: عَذابًا لا راحَةَ فيه»[2].

ولو أن إنسانًا هدد إنسانًا وهو يعلم أنه قادر على إنفاذ وعيده لامتلأ قلبه رعبًا، فكيف بالله تعالى القوي الذي لا يغالب.

وفي الآيات مسألة تربوية تتعلق ببر الوالد، فإن الله تعالى ذكر أن مما أنعم به على الوليد: شهود بنيه، فمما يَفرح الوالد به: أن يجد أبناءه معه، لا سيما في المناسبات العامة، فمن بر الابن بأبيه أن يكون معه، يجده متى ما احتاج إليه، وإني لأتعجب ممن يترك والديه في سن الشيخوخة والمرض وليس لهما سواه، ويسافر لطلب الرزق، وقد أوصد في وجه نفسه أبواب الخير والبركة بسوء صنيعه وتقديره!

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾﴾، قال السعدي ﷺ: «﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ﴾ أي: في نفسه، ﴿وَقَدَّرَ﴾ ما فكر فيه، ليقول قولًا يبطل به القرآن. ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾﴾؛ لأنه قدر أمرًا ليس في طوره، وتسوَّر على ما لا يناله هو ولا أمثاله، ﴿ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾﴾ ما يقول، ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾﴾ في وجهه وظاهره؛ نفرة عن الحق وبغضًا له، ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾

(١) تفسير ابن كثير (٧/٢٦٠).
(٢) تفسير ابن كثير (٨/٢٦٦).

أي: تـولى، ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ ٢٣﴾، نتيجـة سـعيه الفكـري والعملي والقـولي، أن قال: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ٢٤ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ٢٥﴾، أي: مـا هـذا كلام الله، بـل كلام البـشر، وليـس أيضـا كلام البشر الأخيار، بـل كلام الفجار منهـم والأشرار، من كل كاذب سـحار. فتبًـا له، مـا أبعـده مـن الصواب! وأحـراه بالخسـارة والتباب! كيـف يدور في الأذهـان، أو يتصـوره ضمير كل إنسـان، أن يكـون أعلى الـكلام وأعظمه، كلام الـرب العظيم، الماجـد الكريم، يشـبه كلام المخلوقين الفقـراء الناقصين؟! أم كيف يتجـرأ هـذا الـكاذب العنيد، على وصفـه هذا لـكلام المبـدئ المعيد»(١).

ونقل لنا ربنا كل ما كان منه، حتى حركة تغير وجهه، ﴿عَبَسَ وَبَسَرَ﴾، أي: قبض ما بين حاجبيه وكلح، كما قال ربنا: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ﴾ [الحج: ٧٢].

هـذه نتيجـة التفكـير الخاطئ الذي يبـنى على غير أسـاس صحيح، وهـذا بينته بتوسـع في رسالتي «أسـس التفكير».

وإن ألقاك فهمُك في مهاو   فليتك ثم ليتك ما فهمتا!

وإنمـا قـال الوليد ذلـك كذبًا وافـتراء، فقد ثبت عَـن عكرمَة، عَن ابـن عَبَّاس ﷺ، أَنَّ الوَليـدَ بـنَ المُغـيرَة جـاءَ إِلَى النَّـبيِّ ﷺ فَقَـرَأَ عَلَيـه القُـرآنَ، فَكَأَنَّـهُ رَقَّ لَهُ فَبَلَـغَ ذَلـكَ أَبـا جَهـل، فَأَتـاهُ فَقـالَ: يـا عَـمّ، قُـل فيمـا يدعي محمـد أنه أنـزل عليه قَـولًا يَبلُـغُ قَومَـكَ أَنَّـكَ مُنكـر لَهُ. قـالَ: وَماذا أَقُـولُ؟ فَوالله مـا فيكُم رَجُـل أَعلَمَ بالأَشـعار مـنِّي، وَلا أَعلَـمَ برَجَـز وَلا بقَصيـدَة مـنِّي، والله إنه مـا يُشـبهُ الَّذي يَقُولُ شَـيئًا مـن هَـذا، وَوالله إنَّ لقَوله الَّذي يَقُـولُ حَـلاوَةً، وَإنَّ عَلَيه لَطَـلاوَةً، وَإنَّهُ لَمُثمر أَعـلاهُ، مُغـدق أَسـفَلُهُ، وَإنَّـهُ لَيَعلُـو وَما يُعـلَى، وَإنَّهُ لَيَحطمُ مـا تَحتَهُ. قـالَ: لا يَرضَى

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص(٨٩٦).

عَنكَ قَومُكَ حَتَّى تَقُولَ فيه. قالَ: فَدَعني حَتَّى أُفَكِّرَ، فَلَمَّا فَكَّرَ قالَ: هَذا سحر يُؤثَرُ، فَنَزَلَت ﴿ ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ۝١١ ﴾ [المدثر][1].

﴿ سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧ لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ۝٢٨ لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ ۝٢٩ عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ۝٣٠ ﴾، توعَّده الله تعالى وكل من كفر بما أنزل الله بسقر، ومعنى ﴿ لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ﴾: «تَأكُلُ لُحُومَهُم، وَعُرُوقَهُم، وعَصَبهم، وَجُلُودَهُم، ثُمَّ تُبَدَّلُ غَيرَ ذَلكَ»[2].

﴿ عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ۝٣٠ ﴾، عليها تسعة عشر ملكًا، ولا يعارض هذا حديث نبينا ﷺ: «**يُؤتَى بجَهَنَّمَ يَومَئذ لَهَا سَبعُونَ أَلفَ زمام، مَعَ كُلّ زمام سَبعُونَ أَلفَ مَلَك يَجُرُّونَهَا**»[3]. فهؤلاء يأتون بها، وخزنتها تسعة عشر كما أخبر ربنا.

وقد نعتهم الله تعالى بالشدة في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۝٦ ﴾ [التحريم].

وهم الزبانية، قال ربنا: ﴿ أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ ۝١٦ فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨ ﴾ [العلق].

وإنما ذكر الله تعالى هذا العدد فتنةً للناس، فأما أهل الكتاب فهو مذكور في كتبهم فيستدلون به على صدق نبوة نبينا ﷺ وأن القرآن حق، ويزداد المؤمنون إيمانًا، فهو غيب، وكل غيب يذكر لهم يعلنون إيمانهم به فيزدادون إيمانًا، ويعترض على ذكر العدد المنافقون وأصحاب القلوب المريضة، وهذه الفتن سبب لإضلال بعض الناس، وإيمان بعضهم.

فذكر كل الأصناف: الكفار والمنافقين والمؤمنين وأهل الكتاب.

وقول ربنا: ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ ﴾، يدل على أن الأمر كله بيد

---

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم (٢/٥٥٠)، وهو في صحيح السيرة، ص(١٥٩).
(٢) تفسير ابن كثير (٨/٢٦٨).
(٣) مسلم (٢٨٤٢).

الله تعالى، وفي القرآن ما يدلُّ على أن ربنا لا يضل أحدًا ابتداءً، فقد بيَّن سبيلي الخير والشر كما قال: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان]، وبين أن من اختار طريق الخير يثبته الله تعالى، قال ربنا: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ۝١٧﴾ [محمد]، ومن اختار طريق الغواية زُيِّن له، قال ربنا: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ [مريم]. وهذا معنى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، فهذه آية واحدة ضل بها قوم فكذبوا، وهُدي بها آخرون عظموا البارئ وعرفوا عظمة خلقه.

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾، وذلك شامل لجنوده الذين يُعذِّب بهم ويُعاقب، والذين يحرس بهم ويحفظ؛ فنار إبراهيم لم تحرقه، وبحر موسى لم يغرقه، وسكين إسماعيل لم تذبحه، وحوت يونس لم يقتله، عليهم سلام الله.

وقد ذكر عن النمرود أنه مات ببعوضة! وهو الذي ادعى الربوبية!

وفرعون الذي قال: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ [الزخرف: ٥١]، أجراها الله تعالى من فوقه فهلك.

فالاعتماد على القوة المادية نقص وخلاف الإيمان، صحيح أنا نسعى لتحصيلها، لكن لا تتعلق قلوبنا بها، ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١٢٦﴾ [آل عمران].

الآيات (٣٢ ـ ٥٦)

كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا
لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ
﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ
يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ
مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ
مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾
فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ
﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ
كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ
ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾
وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾

هـذه آيـات كونيـة نبهـت إليها الآيـات الشرعيـة تقـود إلى الإيمان بـالله، فمن منـا يتفكـر فيهـا؟ والإقـلال مـن ذكـر الله تعـالى سـبب للغفلـة عنهـا، قـال ربنا: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران].

وقـوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾؛ أي: يتقـدم فيقبـل النـذارة أو يتأخر فـلا يقبلهـا، وليـس هناك موقف وسـط! فإمـا تقدم إلى الخـير، وإما تأخُّـر إلى الشرّ.

وقـد أثبـت للمُكلَّـف مشـيئة ثـم بـيَّن أنـه مُؤاخَـذ بهـا بعـد جملـة الأقسـام المتقدمـة، فقـال: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾، والمعنى: «كل نفـس رهـن بكسـبها غـير مفكوكـة، ﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾﴾ فإنهـم لا يرتهنـون بذنوبهـم، بـل يُفكّـون بما أحسـنوا من أعمالهـم»[1].

﴿فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾؛ يتحدثـون، يسـألون، ﴿عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾﴾، ذكـروا أربعـة أعمـال، وفيهـا دليـل على أن الكفـار مخاطَبـون بفـروع الشريعـة، لكنهـا لا تُقبل منهم إلا بالإسـلام، قال ربنـا: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان].

وقولهـم: ﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾، أخـذ منهـا العلمـاء أن تـرك الصـلاة كفـر، وأن الكافـر مخاطـب بفـروع الشريعـة، ولا يُقبـل منـه شيء بـلا إيمـان.

﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾﴾؛ لـم يحسـنوا في عبـادة الله، ولـم يحسـنوا إلى عبـاد الله. وهـذا يـدل على فضـل إطعـام المسـكين، وإذا غُفـر لبَـغيّ بسـقيا كلـب فكيف بإطعـام جائع؟! وربنا يقـول: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء][2]، والآيـة تـدل على أن تـرك بعـض الصدقـة موجب للنار، ولكـن دلت النصوص الأخـرى على أن ذلك ليـس بكفـر، وإنمـا هو تـرك لواجب الـزكاة والبـذل المفروض.

---

(١) فتح القدير للشوكاني (٣٩٩/٥).
(٢) لي محاضرة تتعلق بهذا، عنوانها: ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾، موجودة في التسجيلات.

﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾﴾، نتكلم فيما لا علم لنا به، ونفتري على الله الكذب.

﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾، وهو الموت، وإنما كان يقينًا لأنه حقيقة لم يجرؤ أحد على إنكارها.

ودلت الآية على معنى حديث: «**إنَّ الله يَقبَلُ توبَةَ العَبد ما لَم يُغرغر**»(١).

ثم قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾، فيها: نفيُ الشفاعة للكافر وإثباتها لغيره، والمقصود الشفاعة في دخول الجنة، فالشفاعات التي وردت النصوص بها كثيرة في الآخرة، وأعظمها الشفاعة العظمى التي خُصَّ بها نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وهذه شاملة للناس جميعًا.

ولا بُدَّ من الإشارة إلى مسألة تتعلق بالعقيدة والتوحيد: وهي أن الله تعالى أكرم نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بأنواع من الشفاعات، لكنَّ الشفاعةَ ملك لله، فلا يَسأل أحد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ذلك، فهذا هو الشرك الأكبر، وإنما يقال: اللَّهُمَّ شفّع فينا نبيَّك صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، قال ربنا: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزمر].

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾﴾، فالمشركون إذا تلي عليهم القرآن كانوا كما ذكر ربنا: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾. والحُمُر تنفر من الأسود بطريقة عجيبة، وهذا تشبيه لحال المشركين مع القرآن! فما أكثر ما يكون المرء سببًا في شقاء نفسه!

وهذه الحُمُر أفضل منهم؛ لأنها فرّت مما يهلكها، وهؤلاء يفرون مما فيه نجاتهم وسعادتهم، ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، ولذا جاء فيهم قول الله: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان].

---

(١) الترمذي (٣٥٣٧)، وهو في صحيح الجامع (١٩٠٠).

والمؤمن يفرُّ إلى الله بالإقبال على كلامه، ولا يفرُّ منه، ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥٠﴾ [الذاريات].

ثم قال تعالى مخبرًا عن آفة كفر كثير منهم: ﴿بَلۡ يُرِيدُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ ٥٢﴾، وهي ضرب من الاستكبار، يريد أن يُرسَل إليه رسول وحده! أو يبعث هو ويخاطب بمفرده!

ثم ذكر علة استكبارهم وإعراضهم، فقال: ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ ٥٣﴾، فهم لا يخافونها ولا ينظرون في حجج من يُذكِّرهم ويعظهم بها.

وأبلغ تلك الحجج القرآن، ولهذا قال: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ ٥٤ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ٥٥ وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ ٥٦﴾. وأمر التَّذكُّر به بيد المخاطب؛ فبوسعه أن يتدبر، وبوسعه أن يُعرض، بوسعه أن يصلي، وبوسعه أن يترك! ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ ٣٧﴾، لكن الموفق من وفقه الله وفتح قلبه للحق، والمخذول من وكله الله إلى اختياره، ومشيئته البائسة، ونفسه الأمارة بالسوء، ومن تزكى فإنما يتزكى بتوفيق الله تعالى، الذي هو أهل لأن يُتَّقى، وأهل لأن يغفر، وذكره بهذا الوصف فيه فتح لأبواب الرجاء، مع الامتنان. وعلى الداعية أن يفتح أبواب الرجاء للعُصاة والمعرضين ليعرضهم إلى منّة الله تعالى؛ فالمعرض إذا قنط ازداد حاله سوءًا، ألم تر أن من قتل تسعة وتسعين نفسًا لما قنّطه الراهب من رحمة الله تمادى في غيه وأتم به المئة؟! ولمّا فتح له الآخر باب الرجاء كان سببًا لهدايته، ومن ثم دخول الجنة؟[1].

والله أعلم.

---

(١) القصة في صحيح مسلم (٢٦٧٧).

سُورَةُ القِيَامَةِ

بين يدي سورة القيامة

وهي مكية اتفاقًا(١).

أسماؤها:

سورة «﴿ٱلْقِيَٰمَةِ﴾»، وسورة «﴿لَآ أُقْسِمُ﴾»(١).

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كلمها مئة وتسع وَتسعُونَ كلمة. وحروفها ستّ مئة واثنان وَخمسُونَ حرفا. وَهي أَربَعُونَ آيَة في الكُوفي وتسع وَثَلاثُونَ في عدد الباقينَ»(٢).

سبب نزولها:

عَن ابن عَبّاس ﵄، في قوله ﷻ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾، قال: «كانَ النَّبيُّ ﷺ إذا نَزَلَ عَلَيه جبريلُ بالوَحي كانَ ممّا يُحَرِّكُ به لسانَهُ وَشَفَتَيه فيَشتَدُّ عَلَيه، فكانَ ذَلكَ يُعرَفُ منهُ»(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/٣٣٦).
(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٥٩).
(٣) البخاري (٥)، ومسلم (٤٤٨).

فضلها وما ورد فيها:

عن موسى بن أبي عائشة قال: كان رجل يصلي فوق بيته، وكان إذا قرأ: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ قال: سبحانك فبلى، فسألوه عن ذلك؟ فقال: سمعتُه من رسول الله ﷺ[1].

موضوعاتها:

«إثبات البعث.

التذكير بيوم القيامة وذكر أشراطه.

إثبات الجزاء على الأعمال التي عملها الناس في الدنيا، واختلاف أحوال أهل السعادة وأهل الشقاء وتكريم أهل السعادة.

التذكير بالموت وأنه أول مراحل الآخرة.

الزجر عن إيثار منافع الحياة العاجلة على ما أعد لأهل الخير من نعيم الآخرة»[2].

مقصدها:

التزهيد في الدنيا، والحمل على الإيمان باليوم الآخر ببيان ما أعده للكافرين فيه.

---

(١) قال الألباني في تمام المنة، ص(١٨٦): «أخرجه أبو داود بسند صحيح عن الرجل، وهو صحابي، وجهالته لا تضر كما هو معروف عند العلماء، ولذلك خرجته في صحيح أبي داود رقم (٨٢٧)».

(٢) التحرير والتنوير (٣٣٧/٢٩) بتصرف يسير.

سورة القيامة: تأملات ووقفات

الآيات (١ ـ ٦)

لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾

في المراد بـ ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾ ثلاثة أقوال، سبق ذكرها عند سورة المعارج، عند قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾﴾ [المعارج].

ودلت الآيات على أن النفوس ثلاثة:

● النوع الأول: النفس المطمئنة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر]. وهذه هي النفس الواثقة بربها الساكنة إلى ذكره، المطمئنة غير المضطربة، المطردة في بعدها عن المحرمات، وإذا وقعت في شيء يسير من المعاصي تابت وآبت.

● النوع الثاني: النفس اللوّامة. ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾، وهي التي تلوم صاحبها إذا ألَمَّ بذنب حتى يرعوي ويرجع، لا يطمئن بالذنب ولا يفرح به، بل تُؤنّبه النفس عليه.

● النـوع الثالـث: الأمّـارة بالسـوء، قال ربنـا حكاية عـن امـرأة العزيز: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣﴾ [يوسف].

قـال شـارح الطحاوية ﷺ بعـد أن ذكر أنـواع النفوس: «والتحقيـق: أنها نفس واحـدة لها صفـات، فهي أمّارة بالسُّـوء، فـإذا عارضها الإيمـان صـارت لوّامة تفعل الذنـب ثـم تلـوم صاحبهـا وتلـوم بـين الفعـل والترك، فـإذا قـوي الإيمـان صارت مطمئنـة»[1]، لـكـن مـن نفـوس النـاس مـا تضعـف فيـه صفـة وتقـوى أخـرى فتكـون غالبة.

وقـولـه: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ٣﴾؛ قـد يـرد هنـا سـؤال لمـاذا نـص على العظـام؟ لـم يقـل: ألـن نجمـع بدنـه، ألـن نجمـع لحمـه؟ لأن مَـن يُنكـرون البعـث ينصـون دائمًـا على ذكرها اسـتبعادًا لإعادتهـا بعد أن تكـون رفاتًا، أمـا اللحم فهم يرونـه ينبـت إذا أصيـب ومـع ذلـك لا يعتـبرون! قـال ربنـا: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدًا ٩٨﴾ [الإسراء]، وقـال: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨﴾ [يس].

ثم قال تعالى: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ٤﴾، والبنان: أطراف الأصابع[2].وذكر البنان بعد: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ٣﴾؛ لأنه البنان فيه دقة تحار العقول أمامها، حتى إنه لا يمكن أن تتشابه بصمة اثنين أبدًا، والقادر على تسوية هذا أقدر على ما فوقه من خلق العظام، والقادر على تسوية البنان قادر على جمع العظام.

﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ٥ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ٦﴾، «عَـن ابـن عَبـاس: هُوَ الكافرُ يُكَـذِّبُ بيَـوم الحسـاب»[3]، يعيش ليفجر، ولا يبالي اسـتبعادًا منـه ليوم الجزاء.

---

(١) شرح الطحاوية، ص(٤٤٥).
(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (٢٨٦/٨).
(٣) تفسير ابن كثير (٢٧٦/٨).

الآيات (٧ ـ ١٥)

فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ
﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ
رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾
بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾

يسأل الكافر أيّان يوم القيامة استبعادًا، فيجيء الجواب مصورًا هوله؛ ليدفع العقلاء إلى الإعداد لذلك اليوم أيان كان وقته: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾﴾.

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾﴾، وهذا تهديد من جهة، وإجابة عن السؤال من جهة أخرى.

و﴿بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾: حار في أهوال القيامة، فهو يتنقل من مشاهدة هول إلى هول آخر.

﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾﴾: ذهب ضوؤه.

﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾﴾: كُوِّرا.

وفي الجواب تنبيه بالإجابة عن سؤال: متى الساعة؟ بذكر علاماتها، وهذا السؤال قد يقع من أطفالنا.

وفيه أيضًا: الإجابة بما ينتفعون به ولو لم تكن إجابة مباشرة، كما في الصحيحين، عَن أَنَس ﷺ، أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَن السَّاعَة، فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: «وَمَاذا أَعدَدتَ لَهَا؟». قَالَ: لاَ شَيءَ، إِلّا أَنِّي أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ ﷺ،

فَقالَ: «أَنتَ مَعَ مَن أَحبَبتَ». قالَ أَنَس: فما فرحنا بشَيء، فَرَحنا بقَول النَّبيّ ﷺ: «أَنتَ مَعَ مَن أَحبَبتَ»؛ قالَ أَنَس: «فَأَنا أُحبُّ النَّبيَّ ﷺ وَأَبا بَكر، وَعُمَرَ، وَأَرجُو أَن أَكُونَ مَعَهُم بحُبّي إيّاهُم، وَإن لَم أَعمَل بمثل أَعمالهم»(١).

ومن هدايات هذه الآيات: أنه لا يلزم أحيانًا إذا سألك سائل أن تجيب عما سأل، قد يكون من الحكمة أحيانًا ألا تجيبه، أو تصرف الجواب إلى ما ينفعه، وفيه كذلك أن تميز بين السائلين في الإجابة، ففي آيات أخرى قال: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ [الأعراف: ١٨٧]، فبحسب حال السائل وغرضه من السؤال يكون الجواب، وليس بالضرورة محاكمته إلى ألفاظه إن علم من الحال غرضًا آخر.

والمقصود إذا عاين ابن آدم هذه الأهوال قال: ﴿أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴿١٠﴾﴾؟ قال الله: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾﴾، أي لا نجاة. ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾﴾: المَرجعُ والمَصيرُ(٢).

وفي قوله: ﴿يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾، إشعار بأن موضع القرار مبنيّ على العمل المنبأ به إن كان صالحًا قدمه لنفسه فالجنة، وإن كان سيئًا فبئس القرار.

هذه معان عظيمة. وما أجمل قول أبي العتاهية:

مَثّل لقلبكَ أَيُّها المغرور
يَومَ القيامَة والسَّماءُ تَمُور
قد كُوّرَت شَمسُ النَّهار وَأُدنيَت
حَتَّى عَلَى رَأس العباد تَسير
وَإذا الجبالُ تَقَلَّعَت بأُصُولها
فَرَأَيتَها مثلَ السَّحاب تَسير
وَإذا العشارُ تَعَطَّلَت عن أهلها
خلت الدّيار فَما بها مَعمُور

(١) البخاري (٣٦٨٨)، ومسلم (٢٦٣٩).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢٧٧/٨).

وَإذا النُّجُومُ تَساقَطت وَتَناثَرَت
وَتَبَدَّلَت بَعدَ الضّياء كُـــدُور
وَإذا الجنـــينُ بأُمّه مُتَعَلّق
يومَ الحساب وَقَلبُهُ مَذعُـــور
هَذا بلا ذَنب يَخافُ لهـــوله
كَيفَ المُصرُّ عَلَى الذُّنوب دُهُور

فيوم القيامة يوم عظيم، ونعت بذلك لأسباب، منها:

(١) عظـم أهـواله، قـال ربنـا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١﴾ [الحج].

(٢) ولأن الله يعـذب الكافريـن فيـه عذابًـا عظيمًـا، قـال ربنـا: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٧﴾ [البقرة].

(٣) ولأن الله يعطـي فيـه المؤمنـين أجـرًا عظيمًـا، قال سـبحانه: ﴿وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٧٩﴾ [آل عمران].

ثم قال تعالى: ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ١٤ وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ١٥﴾، عالم بعيوب نفسـه ولـو قـدم الأعذار لهـا! فـإذا كان كل منا بصـيرًا بعيوب نفسـه، وغدراتـه، وفجراته، وزلاتـه، فلـم الانشـغال بعيـوب اللآخريـن؟! هـذا مـن الخـذلان عيـاذًا بـالله. قال بكـر بـن عبـد الله: «إذا رأيتـم الرجل مـوكلًا بعيوب الناس ناسـيًا لعيبـه فاعلموا أنه قـد مُكر بـه»[١].

ومـن هداياتهـا: ألّا تكـترث بمـدح المادحـين، فأنـت أعلـم بحـال نفسـك منهـم.

---

(١) صفة الصفوة (١٤٧/٢).

الآيات (١٦ ـ ١٩)

لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ
﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾

بعد أن حذّر وبيّن ووعد وتوعَّد، يأتي السؤال: كيف النجاة؟ والجواب: بالرجوع إلى القرآن.

وقد يسر الله حفظ هذا الكتاب المبارك، قال ربنا: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر].

فلا بُدَّ من العناية بحفظه. سمعتُ أحد طلاب العلم يقول: تقدمت بي السن، فرأيتُ أحد كبار المشايخ ممن معه القراءات السبع، فقال: هل أنتَ حافظ للقرآن؟ قلتُ: لم أحفظه، وأظنني لا أستطيع أن أحفظه. قال: لماذا؟ قال: تقدمت بي السن، تجاوزت الأربعين. قال: كأني أراك حافظًا، وشجعني. يقول: وجاءت فرصة وبدأتُ أحفظ حتى ختمته، وقد سمعتُ هذا الرجل أكثر من مرة يتحدث أنه منذ سنوات لا يحتاج إلى أن يرجع إلى المصحف أبدًا، فإذا نسيت آية قلت ثلاث دعوات كلها في سورة الكهف:

﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الكهف: ٦٣]، يقول: فأتعوذ من الشيطان.

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤]، فيقول: لا إله إلا الله.

﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾ [الكهف]، فأسأل الله أن يهديني لأقرب من هذا رشدًا، يقول: فما أنتهي من الدعاء إلا أتذكر ما نسيته.

وهذا ذكر وتذكير ببعض ما يدل على فضل حفظ القرآن الكريم، فمن ذلك:

● أنَّ حفظ القرآن سنة مشى عليها من أمرنا الله بالتأسي به.

قال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعلى].

● وحفظة القرآن عباد الله الذين أنجز بهم عهده، وأتم بهم وعده.

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر]، وحفظ القرآن نوعان: حفظ الصدور، وحفظ السطور، وقد كان الأول سبيل الثاني وأصله.

● وحفظ القرآن سبب للإكثار من التلاوة.

فمن جمع القرآن حفظًا كان مكثرًا من تلاوته، وتلاوة الحرف بعشر حسنات كما أخبر نبينا ﷺ.

● وحامل القرآن أحق الناس بإمامة الصلاة.

قال النبي ﷺ: «**يَؤُمُّ القَومَ أَقرَؤُهم لكتاب الله**»(١).

● والنبي ﷺ قدَّم حفاظ القرآن في الدفن يوم أحد.

عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: كان النبي ﷺ يجمع بين الرجلين من قتلى أحد في ثوب واحد ثم يقول: «**أَيُّهم أكثَرُ أخذًا للقُرآن؟**»، فإذا أُشيرَ لَهُ إِلَى أَحَدهما قَدَّمَهُ في اللَّحد، وَقالَ: «**أَنا شَهيد عَلَى هَؤُلاء يَومَ القيامَة**»، وَأَمَرَ بدَفنهم في دمائهم، وَلَم يُغَسَّلُوا، وَلَم يُصَلِّ عَلَيهم(٢).

● ونبي الله ﷺ لا يقدّم إلا المقدَّم عند الله.

● وإكرام حافظ القرآن الكريم إجلال لله.

قال النبي ﷺ: «**إنَّ من إجلال الله إكرامَ ذي الشَّيبَة المُسلم، وَحامل القُرآن غَير الغالي فيه والجافي عَنهُ، وَإكرامَ ذي السُّلطان المُقسط**»(٣). والغلو: التشدد وتتبع ما تشابه منه، والجفاء عكسه، فهو ترك العمل به.

---

(١) مسلم (٦٧٣).

(٢) البخاري (١٣٤٣).

(٣) أبو داود (٤٨٤٣)، وهو في صحيح الجامع (٢١٩٩).

● وحفظ القرآن يعصم العبد من النار.

فعن عُقبَةَ بن عامر ﷺ قال: إنَّ رَسُولَ الله ﷺ قالَ: «**لَو أَنَّ القُرآنَ جُعلَ في إهاب ثُمَّ أُلقيَ في النَّار ما احتَرَقَ**»(١)، وكم من حريق وقع ثم وُجد مصحف لم تلتهمه النار! فاللَّهُمَّ احفظ قلوبًا حفظت كتابك.

● وحفظه من موجبات الجنة.

فعَن عائشَةَ ﷺ، عَن النَّبيِّ ﷺ قالَ: «**مَثَلُ الَّذي يَقرَأُ القُرآنَ وَهُوَ حافظ لَهُ مَعَ السَّفَرَة الكرام البَرَرَة، وَمَثَلُ الَّذي يَقرَأُ وَهُوَ يَتَعاهَدُهُ وَهُوَ عَلَيه شَديد فَلَهُ أَجران**»(٢).

وهذه الآية: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾، كقول ربنا: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه].

قال ابن القيم ﷺ: «ومن أسرارها أنها تضمنت التأني والتثبت في تلقي العلم، وأن لا يحمل السامع شدة محبته وحرصه وطلبه على مبادرة المعلم بالأخذ قبل فراغه من كلامه، بل من آداب الرب التي أدَّب بها نبيَّه أمره بترك الاستعجال على تلقي الوحي، بل يصبر إلى أن يفرغ جبريل من قراءته ثم يقرأه بعد فراغه عليه، فهكذا ينبغي لطالب العلم ولسامعه أن يصبر على معلمه حتى يقضي كلامه»(٣).

وإذا كان الله تعالى نهى نبيه ﷺ عن الاستعجال بقراءة القرآن مع وجود سبب معتبر، وهو أنه كان حريصًا على حفظ القرآن، فمن باب أولى أن ينهى عن الإسراع المخل في قراءته، ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾؛ العجلة قد لا تكون محمودة أحيانًا حتى في مقام الخير. ثبت عَن عَلقَمَةَ، والأَسوَد، قالا:

(١) أحمد (١٧٤٠٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٥٦٢).
(٢) البخاري (٤٩٣٧).
(٣) التبيان في أقسام القرآن، ص(١٥٩).

أَتَى ابنَ مَسعُود ﷺ رَجُل، فَقالَ: إنّي أَقرَأُ المُفَصَّلَ في رَكعَة، فَقالَ: «أَهَذًّا كَهَذ الشِّعر؟ وَنَثرًا كَنَثر الدَّقَل؟»[1].

وقد كان ﷺ حريصًا على حفظه لئلا ينسى منه شيئًا، ولهذا كان يعجل، فأخبر بالواجب، وتكفل الله تعالى له بجمعه في صدره، وتثبيت قراءته في لسانه، وأرشده إلى الطريق الأقوم، وهو اتباع قراءة الملك فإذا فرغ من الإقراء قرأ خلفه، وهو أثبت في الذهن وأدعى إلى عقل المعاني.

(١) أبو داود (١٣٩٦)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٢٦٢).

الآيات (٢٠ ـ ٢٥)

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (٢١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥)﴾

بعد أن بيَّن سبيل النجاة بين العارض وهو إيثار العاجلة على الآجلة، فقال: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (٢١)﴾، وبعد كل هذا البيان لا زلنا نتهافت على هذه الدنيا، وذكر العلماء أن من أعظم أسباب الصدّ عن دين الله وعن الآخرة هو التهافت على الدنيا، وهناك كثيرون خُتمت له بخاتمة سيئة يُقال له عند موته: قل: لا إله إلا الله، فيقول كلامًا من كلام الدنيا؛ لأن قلبه كان معلقًا بها، نسأل الله حسن الخاتمة.

وليست الآفة حب الدنيا وحدها، بل تجتمع إليها آفة أخرى، وهي إغفال الآخرة وإهمالها، وإلّا لو أحب المرء الحياة واستثمرها للحياة الأبدية لم يقدم العاجلة الفانية على الآخرة الباقية لما كان مذمومًا.

وأبلغ علاج للآفتين المذكورتين هي تذكر الآخرة وما أعد الله فيهما لمن أحسن ولمن أساء، ولهذا أتبع ذلك بالترياق فقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢)﴾، والنضرة: البهاء والجمال.

﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)﴾: أي ترى ربها ﷻ، وتأمل كيف هيأها الله قبل أن يشرفها بالنظر إليه.

وإذا كسيت هذه النضرة قبل النظر إلى ربها، فكيف بها بعده!

وإن روح الإنسان لتستمتع بلحظة من جمال إبداع صنع الله تعالى في الكون أو النفس، فكيف بها وهي تنظر إلى وجه الله ﷻ.

وهذه الآية تدل على إثبات رؤية المؤمنين لربهم من وجوه ثلاثة:

● الأول: عُـدّي النظـر بــ(إلى) الدالة على الغايـة، والنظر إذا عُـدي بـ(إلى) دلَّ على المعاينـة بالأبصـار، وإذا عُـدّي بــ(في) كان بمعـنى التفكـر والاعتبـار، كمـا في قول الله تعـالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وإن عُدّي بنفسـه كان بمعـنى التوقـف والانتظـار، قـال تعـالى: ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ [الحديد: ١٣].

● الثـاني: أن النظـر في الآيـة إلى وجـه الله جَلَّجَلَالُهُ، كما جـاء في الأحاديث، ولا يُتصـوَّر في مثل هـذا إلا أن يكون معاينـةً بالبصر.

● الثالـث: خـلا الدليـل مـن قرينة تـصرف اللفـظ عن ظاهـره؛ فوجـب حمله على حقيقتـه وموضوعـه. ولا حجـة للمتأولين مُسـلَّمة!

ومـن الأدلـة القرآنيـة الـتي تُبـيّن ذلـك وتـدل عليـه قـوله ﷻ: ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [المطففين].

قـال الطـبري ﷫: «ينظرون إلى ما أعطاهـم الله من النعيـم»(١). وهذه الآية عامة تشـمل كل شيء يتمتعـون بالنظـر إليـه، ومن ذلك: النظـر إلى وجـه الله الكريم، فهو أكمل النعيم.

ومن الآيات الدالة على صحة هذا الاعتقاد قول الله: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦]، ثبت عن صُهَيب ﷺ، عَن النَّبيّ ﷺ قالَ: «إذا دَخَلَ أَهلُ الجَنَّة الجَنَّةَ، قالَ: يَقُولُ اللهُ ﷻ: تُريدُونَ شَيئًا أَزيدُكُم؟ فَيَقُولُونَ: أَلَم تُبَيّض وُجوهَنا؟ أَلَم تُدخلنا الجَنَّةَ، وَتُنَجّنا منَ النَّار؟ قالَ: فَيَكشفُ الحجابَ، فَما أُعطُوا شَيئًا أَحَبَّ إلَيهم منَ النَّظَر إلَى رَبّهم ﷻ»، ثم قرأ: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾(٢).

---

(١) جامع البيان (١٠٤/٣٠).
(٢) مسلم (١٨١).

ومـن الآيـات الدالة على ذلـك: ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ [ق]، فقد فسر أنـس بن مالـك ﷺ لها المزيـد برؤية الله تعـالى في الجنة(١).

ومـن أدلـة ذلـك: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [المطففين]، قـال الإمـام الشـافعي ﷺ: «لما حجـب الكافريـن حـال السـخط رآه المؤمنـون في الـرضى»(٢).

واسـتدل المخالفـون مـن أهـل الاعـتزال ومـن سـلك طريقهـم على نـفي هـذه العقيـدة بدليلـين:

● الأول:

قول ربنـا: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [الأعراف].

قالوا: الآية فيها نفي رؤية الله تعالى.

والجواب: أن (لن) لا تفيد النفي على التأبيد، كما قال ابن مالك في الكافية:

ومن رأى النفي بـ«لن» مؤبدًا   فقوله اردد، وسواه فاعضدا

ودليل ذلـك من القرآن قـول ربنـا: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [البقرة]، مـع قـوله عنهـم: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الزخرف]، فهاهـم تمنـوه، لكـن النـفي في الدنيـا، والتَّمني في الآخـرة، فكذلك نـفي الرؤية في الدنيـا وإثباتهـا في الآخرة لأهـل الجنة.

والصحيح أن يقال: إن هذه الآية من الأدلة على وقوع الرؤية؛ لوجوه منها:

▪ الأول: أن مـوسى ﷺ سـأل ذلـك، ولا يمكـن أن يسـأل محـالًا على الله تعالى، قـال القرطـبي ﷺ ـ مثبتًـا رؤيـة الله في الآخـرة، مسـتدلًا بهـذه الآيـة ـ: «إذ لـو لم

---

(١) تفسير الطبري (٢٦/١٧٤ ـ ١٧٥).
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم (٨/٣٥١).

تكـن جائـزة ـ أي الرؤية ـ لكان سـؤال موسى ﷺ مسـتحيلًا، ومحـال أن يجهل نبي مـا يجـوز على الله وما لا يجـوز»[١].

■ الثـاني: أن الله تعـالى لـم ينكـر عليـه ذلـك، فلـو كان غـير ممكـن لأنكـر عليـه كما عاتب نوحًـا ﷺ بقـوله تعـالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝٤٦﴾ [هود].

■ الثالث: إذا جاز على الله أن يتجلى للجبل أفلا يتجلى لأوليائه في الآخرة؟!

● وأمـا الآيـة الثانيـة الـتي أرادوا بها نـفي الرؤية فـهي: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ۝١٠٣﴾ [الأنعام].

فالجواب أن الإدراك شيء زائد على الرؤية، فهو يقتضي إحاطة، وتمام معرفة.

وأنـت في الدنيـا قد ترى مخلوقًـا ولا تحيط به إدراكًا كالسـماء، فشـأن الله تعالى أجـلُّ، ونحـن نعلم ربنـا ونؤمن بـه، ومع ذلك لا نحيـط به علمًا سـبحانه.

ومـن أحـب أن يُكرمـه الله بهـذه النعمـة فعليـه أن يحـرص على أداء صلاتي الفجـر والعـصر في جماعـة، فقد قال النـبي ﷺ: «**إِنَّكُـم سَـتَرَونَ رَبَّكُم كَمـا تَرَونَ هَـذا القَمَـرَ لا تُضامُّـونَ في رُؤيَتـه فَإن اسـتَطَعتُم أَن لا تُغلَبُوا عَلَى صَـلاة قَبلَ طُلُوعِ الشَّـمس وَقَبـلَ غُرُوبهـا فافعَلُـوا**»، ثُـمَّ قَـرَأَ: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ۝٣٩﴾ [ق][٢]. والمعـنى: لا تُغلبـوا فتفوّتـوا هاتين الصلاتـين في جماعة[٣].

وبعـد ذكـر حال الفريق الأول ذكـر الآخرين، فقـال: ﴿وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذِۭ بَاسِرَةٞ ۝٢٤ تَظُنُّ أَن يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٞ ۝٢٥﴾، وقـوله: ﴿بَاسِرَةٞ﴾ أي عابسـة مكدرة لما يغشـاها مـن الذل والهوان والخـوف والترقب لأليـم العذاب، كما قال: ﴿تَظُنُّ أَن يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٞ﴾؛ أي عقوبة شـديدة تقصـم فقـار الظهـر، وهـذه كنايـة عـن الداهية الـتي تصيـب فتُقعـد، لايملك من نزلـت بـه فـكاكًا ولا حيلة. نعـوذ بالله من غضبـه وموجبـات عذابه.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٧/٥٥).

(٢) البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣).

(٣) انظر: فتح الباري (٢/٣٣).

الآيات (٢٦ ـ ٤٠)

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾

بعد التذكير بالآخرة وما فيها، ذكَّرهم بحال قريبة لا تُستبعَد فقال الله ﷻ: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾﴾، والتراقي جمع ترقوة، وهي معروفة، عظام في أعلى الكتف.

﴿وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ﴿٢٧﴾﴾، وذلك أن الشدة النازلة تدعو للبحث عن من يخفف عنه، ولا أبلغ بعد الإياس من الطبيب من الرقية، ولن يدفع القدرَ راق أو طبيب إذا بلغت الروح الحلقوم.

وأُشيرُ هنا إلى أدب رفيع ينبغي التخلق به: أنك إذا زرت مريضًا فلا تحوجه إلى طلب الرُّقية؛ إذ قد يتورع عن ذلك أملًا في أن يكون من الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، ولكن بادر برُقيته، فهذا لا يُعرّضه لإشكال الطلب، وفرق بين طلب الرقية وقبولها، فالطلب قد يتنزه عنه بعض ذوي الهمم لحديث عمران بن حصين ﷺ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**يَدخُلُ الجَنَّةَ من أُمَّتي سَبعُونَ أَلفًا بغَير حساب**»، قالُوا: مَن هم يا رَسُولَ الله؟ قالَ: «**هُمُ الَّذينَ لا يَستَرقُونَ، وَلا يَتَطَيَّرُونَ، وَلا يَكتَوُونَ، وَعَلَى رَبّهم يَتَوَكَّلُونَ**»[1]. وأنفع شيء للمريض أن يباشر

(١) مسلم (٢١٨).

رقية نفسه بنفسه، قال ربنا: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل].

﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾﴾، والظن هنا اليقين، وتيقُّنُ المحتضر وأهله أنه مفارق.

﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾، قال ابن عباس ﷺ: «شدة آخر يوم في الدُّنيا، وأَوَّل يَوم من أَيَام الآخرَة، فَتلتَقي الشَّدَّةُ بالشّدَّة»[1].

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾، وهذه تذكرني بقول بعض الناس لأعرابي في احتضاره: إنك ميت. فقال: ثمّ إلى أين؟ قيل له: إلى الله تعالى! قال: والله ما وجدنا الخير إلا من الله. وهذا قول الذي أعد للقاء ربه عدة، أما الآبق فحاله أخرى، كما قال الله تعالى:

﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾﴾، فهذا حال الكافر في الدنيا.

﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾﴾، أي: يختال، عياذًا بالله.

﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾﴾، وهذا وعيد شديد لهذا الكافر؛ وليس فيه تكرار، «قال ابن قتيبة: هو تهديد ووعيد»[2].

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾، لا يؤمر ولا ينهى!

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾، فلمَ التمطي والتكبر عن الطاعة ممن كانت النطفة المستقذرة أصله؟!

﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾، سبحانك فبلى.

وهذه تقال بعد قراءة هذه الآية كما مر معنا. أما حديث: «**كان إذا قرأ:** ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾[التين]، **قال: بلى**»، فضعيف جدًا[3].

والله أعلم.

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/٢٨٢).
(٢) زاد المسير في علم التفسير (٤/٣٧٢).
(٣) سلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني (٤٢٤٥).

سُورَةُ الإِنسَانِ

بين يدي سورة الإنسان

وهي مكية على الصحيح[١].

أسماؤها:

«﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾»، و«﴿ٱلۡإِنسَٰنِ﴾»، و«﴿ٱلدَّهۡرِ﴾»، «والأمشاج»، و«﴿ٱلۡأَبۡرَارَ﴾»[١].

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كلمها مئتان واثنَتان وَأَربَعُونَ كلمة، وحروفها ألف وَأَربَعَة وَخَمسُونَ حرفا، وَهِي إحدَى وَثَلاثُونَ آيَة فِي جَمِيع العدَد لَيسَ فيها اختلاف»[٢].

فضلها وما ورد فيها:

عن أبي ذر ﷺ قال: «قرأ رسول الله ﷺ: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ١﴾ حتى ختمها ثم قال: **«إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع قدر أربع أصابع إلا ملك واضع جبهته ساجدًا لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا، ولبكيتم كثيرًا،**

(١) التحرير والتنوير (٢٩/٣٧٠).
(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٦٠).

وما تلذذتم بالنساء على الفُرُش، ولخرجتم إلى الصُّعُدات تجأرون»[١].

وعَن أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كانَ يَقرَأُ في الصُّبح، يَومَ الجُمُعَة: ب: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ﴾ في الرَّكعَة الأُولَى، وَفي الثّانيَة: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ﴿١﴾﴾»[٢].

وأشير هنا إلى أربعة أمور:

● الأول: أنه لا ينبغي هجر هذه السُّنَّة، فبعض الأئمة تمر عليه الشهور ولا يقرأ هاتين السورتين في فجر الجمعة، وهذا مخالف للسنة.

● الثاني: الحكمة من قراءة هاتين السورتين: أنهما يُذكّران الإنسان بيوم القيامة، ولا يخفى أن الساعة تقوم في يوم جمعة، والسورتان مشتملتان على ذكر الجنة والنار، وهما مأوى كل إنسان في الآخرة.

● الثالث: بعض الأئمة قد يقرأ سورة السجدة فقط، أو يقرأ الإنسان فقط، وهذا لا حرج فيه، لكن لم يأت بالسُّنَّة على وجهها.

● الرابع: بعض الأئمة إذا لم يقرأ هاتين السورتين قرأ سورةً فيها سجدة، وكأنه يتصور أن قراءة سورة السجدة من أجل السجدة التي فيها! وهذا الفهم لا أساس له من الصحة، وقد أنكر ابن القيم ﷺ هذا الفهم[٣].

موضوعاتها:

● إثبات البعث بالتذكير بخلق الإنسان بعد أن لم يكن، فكيف يقضي باستحالة إعادة تكوينه بعد عدمه؟!

---

(١) الحاكم في المستدرك (٥١٠/٢)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٧٢٢).
(٢) مسلم (٨٨٠).
(٣) انظر: زاد المعاد (٢٠٢/١).

● إثبات أن الإنسان محقوق بإفراد الله بالعبادة شكرًا لخالقه، ومحذَّر من الإشراك به.

● إثبات الجزاء للشاكرين والكافرين، والإطناب في وصف جزاء الشاكرين.

● الامتنان على الناس بنعمة الإيجاد، ونعمة الإدراك، والامتنان بما أعطيه الإنسان من التمييز بين الخير والشر، وإرشاده إلى الخير بواسطة الرسل، فانقسم الناس بهم إلى مؤمن وكافر.

● تثبيت النبي ﷺ على القيام بأعباء الرسالة، والتحذير من أن يلين للكافرين، والإشارة إلى أن الاصطفاء للرسالة نعمة عظيمة يستحق الله الشكر عليها بالاضطلاع بما اصطفاه له وبالإقبال على عبادته.

● الأمر بالإقبال على ذكر الله والصلاة[1].

مقصدها:

تثبيت قلب النبي ﷺ والمؤمنين، والدعوة إلى الإيمان بالبعث ببيان حال المؤمنين والكافرين في الآخرة، والدعوة إلى العمل الصالح ببيان عاقبته.

---

(١) يراجع: التحرير والتنوير (٣٧١/٢٩).

سورة الإنسان: تأملات ووقفات

الآيات (١ ـ ٤)

هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾

قيل: سُمي الإنسان إنسانًا لسببين: لأنه يأنس بغيره، ولأنه ينسى. ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طـه].

وكل إنسان كان عدمًا، لم يكن شيئًا مذكورًا قبل ميلاده، وسينتهي إلى عدم، أما الله تعالى فـ ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد].

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾، مَن هو هذا الإنسان؟ قيل: آدم؛ أي أتى وقت لم يكن هناك آدم ﷺ، فالله ﷻ قد خلق كثيرًا من الخلق قبل آدم، كالملائكة والجن، قال ربنا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الحجر].

قال الشوكاني ﷺ: «قيل: أربعون سنة قبل أن ينفخ فيه الروح، وقيل: إنه خُلِقَ من طين أربعين سنة، ثم من حمأ مسنون أربعين سنة، ثم من صلصال أربعين سنة، فتم خَلقُه بعد مئة وعشرين سنة. وقيل: الحين المذكور هنا لا

يعرف مقداره، وقيل: المراد بالإنسان بنو آدم، والحين مدة الحمل»[١]. وقيل المراد به جنس الإنسان فكل مولود مسبوق بعدم.

﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾، أُريد به هنا نسل آدم ﷺ، فالناس أقسام أربعة:

● الأول: من خُلق من تراب بلا ذكر أو أنثى، وهو آدم ﷺ، قال ربنا: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الروم].

● الثاني: من خُلق من ذكر فقط، وهي حواء عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ.

● الثالث: من خُلق من أنثى فقط، وهو عيسى ﷺ، قال ربنا: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران].

● والرابع: من خُلقوا من نطفة من ذكر وأنثى، وهؤلاء عامة الخلق.

﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾، «يَعني: ماءَ الرَّجُل وَماءَ المَرأَة إذا اجتَمَعا واختَلَطا، ثُمَّ يَنتَقِلُ بَعدُ من طَور إلَى طَور، وَحال إلَى حال، وَلَون إلَى لَون»[٢].

﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾، خصَّهما الله تعالى لأنهما أعظم الحواس، وهما طريقا الفهم والعقل عن الله، فلا يصل إلى العقل والقلب شيء إلا عن طريق السمع أو البصر؛ إما أن يسمعَ الحق أو أن يراه، وللإنسان مشاعر أخرى يدرك بها كاللمس والشم، لكنها لا تغني وحدها في الفهم عن الله وعن رسوله ﷺ.

﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾، ﴿كَفُورًا﴾، هذه الصيغة (فعول) دالة على شدة كفر الإنسان وعُتُوِّه! ولم يقل: شكورًا، بل ﴿شَاكِرًا﴾، وسر ذلك: أنه مهما عبد ربه فلن يبالغ في شكره، قد يأتي ببعض القدر الواجب عليه،

---

(١) فتح القدير (٥/٤١٥).
(٢) تفسير ابن كثير (٨/٢٨٥).

لكن لن يبلغ أحد المنتهى في ذلك[1]، ويوجد الشكور في عباد الله، ولكنهم قليل، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ].

وقوله: ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ أي خلقناه لنبتليه، كما قال: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] ، فالخلق والإيجاد والمد بالحياة والعقل نعَم، وهي موضع اختبار وبلاء: ماذا يصنع العبد بها؟

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾﴾، وهذه إن لم تحمل العبد على تجنُّب سبيل الكفار فلن ينتفع بعدها بشيء! ولم يرد في شأن الكافر من الوعيد في هذه السورة سوى هذه، وامتلأت السورة ببيان ما للمؤمنين من الأجر العظيم عند ربّ العالمين.

---

(١) ينظر: تفسير القرطبي (١٩/١٢٢).

الآيات (٥ ـ ٢٢)

إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾
عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ
يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا
وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا
﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ
ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا
﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾
وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ
مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾
وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا
﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا
﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ
خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا
طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾

بعد أن اقتضب ذكر وعيد الكافر أسهب في بيان نعيم المؤمن، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾، ومعلوم ما في الكافور من الرائحة الطيبة، وما سيكون في الجنة لا يقارن بما في الدنيا، ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ [البقرة: ٢٥]، في الاسم، أما في حقيقة الأمر ففرق كبير.

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ أضافهم إليه تشريفًا لهم، وإشعارًا بأن ما هم فيه من النعيم بسبب عبادتهم التي جعلوها لله، ولم يجعلوا لغيره نصيبًا منها.

وأيُّ شرف أعظم من شرف العبودية؟ ولذا نَعَت بها نبينا ﷺ في أسمى مقاماته: قال ربنا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾﴾ [الكهف]، وقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان]، وقال: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]، وقال: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [النجم]، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾﴾ [الحديد].

ومن هم عباده؟ وما صفاتهم؟ ذكر الله ﷻ صفاتهم في آخر الفرقان، ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾ [الفرقان].

وقوله: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ عُدّي الفعل بـ(الباء)، والأصل أن يُعدَّى بـ (من)، فيقال

يشرب من العين، قالوا: ليُضمَّن معنى الإرواء، فهو شراب يبُلُّ الصدى، ويذهب الظمأ، مع ما فيه من طيب الريح والطعم.

ثم قال في وصف بعض أعمالهم، وهذا مشعر بأنها المسببة لذلك الجزاء: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾، والنذر أن يوجب الإنسان على نفسه ما ليس بواجب لأمر ما. وهو مكروه، لحديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تَنذروا؛ فإن النذر لا يغني من القدر شيئًا، وإنما يُستخرَج به من البخيل**»(١). لكن من نذر فيجب عليه الوفاء، ومن وفّ استحق من الله الثناء. وهنا أثنى عليهم بالوفاء، وقرنه بذكر الحامل عليه، وهو قوله: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾﴾؛ أي: فاشيًا شائعًا، قليل السلامُ فيه، فبعثُ النار هم الكثرة الكاثرة من بني آدم.

أما وصفهم الآخر ففي قوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾، وهو بذل الطعام وهم يحبونه، لكنهم يُؤثرون به غيرهم، لا يُنفقون الفَضلات وما فاض، ولا الرديء وما خَبُث، بل المحبوب، وقد قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

ويدخل في هذا سقيا الماء؛ فإنها طعام، قال ربنا: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

ثبت عَن أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قالَ: «**بينما رَجُل يَمشي بطَريق إذ اشتَدَّ عَلَيه العَطَشُ، فَوَجَدَ بئرًا، فَنَزَلَ فيها فَشرِبَ، وَخَرَجَ، فَإذا كَلب يَلهَثُ يَأكُلُ الثَّرَى مِن العَطَش، فَقالَ الرَّجُلُ: لَقَد بَلَغَ هَذا الكَلبَ من العَطَش مثلُ الَّذي بَلَغَ مِنّي، فَنَزَلَ البِئرَ، فَمَلأَ خُفَّهُ، ثُمَّ أَمسَكَهُ بفيه، حَتَّى رَقِيَ، فَسَقَى الكَلبَ، فَشَكَرَ الله لَهُ فَغَفَرَ لَهُ**». فَقالُوا: يا رَسُولَ الله وَإنَّ لَنا في البَهائم لأَجرًا؟ فَقالَ:

---

(١) مسلم (٣٠٩٦).

«في كُلِّ ذي كَبِد رَطبَة أَجر»(١)، وعن سعد بن عبادة وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عن النبي ﷺ: «أفضل الصدقة سقي الماء»(٢).

وتأمل هذه القصة التي أوردها المنذري رحمه الله في الترغيب والترهيب بقوله: «قال البيهقي حكاية عن شيخنا الحاكم أبي عبد الله رحمه الله: إنه قرح وجهه، وعالجه بأنواع المعالجة فلم يذهب، وبقي فيه قريبًا من سنة، فسأل الأستاذ الإمام أبا عثمان الصابوني أن يدعو له في مجلسه يوم الجمعة، فدعا له، وأكثر الناس التأمين، فلما كان يوم الجمعة الأخرى ألقت امرأة في المجلس رقعة، بأنها عادت إلى بيتها واجتهدت في الدعاء للحاكم أبي عبد الله تلك الليلة، فرأت في منامها رسول الله ﷺ كأنه يقول لها: قولي لأبي عبد الله يوسع الماء على المسلمين، فجئت بالرقعة إلى الحاكم، فأمر بسقاية بُنيت على باب داره، وحين فرغوا من بنائها أمر بصب الماء فيها، وأخذ الناس في الشرب، فما مر عليه أسبوع حتى ظهر الشفاء، وزالت تلك القروح، وعاد وجهه إلى أحسن ما كان، وعاش بعد ذلك سنين»(٣).

وقوله: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾، لا نريد مجازاة منكم، ولا أن تشكرونا. فالمنفق المخلص لله لا يريد هذا، وإن كان المنفق عليه يتعيّن عليه أن يشكر من أكرمه، قال نبينا ﷺ: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس»(٤).

ثبت عَن عائشَةَ رضي الله عنها أنها قالَت: «أُهديَت لرَسُول الله ﷺ شاة فَقالَ: «اقسميها»، فكنت إذا رَجَعَت الخادم قلت: ما قالُوا لَك؟ فتقول: بارَكَ اللهُ فيكُم، فأقول: وَفيهم بارَكَ اللهُ، نرد عَلَيهم مثلَ ما قالُوا وَيَبقَى أَجرُنا لَنا»(٥).

---

(١) البخاري (٢٣٦٣)، ومسلم (٢٢٤٤).
(٢) رواه الإمام أحمد (٥/٢٨٤)، وأبو داود (١٦٧٩)، والنسائي (٣٦٦٦)، وابن ماجه (٣٦٨٤)، وهو في صحيح ابن خزيمة (٢٤٩٦)، وابن حبان (٣٣٤٨)، وانظر صحيح أبي داود للألباني (١٤٧٤).
(٣) الترغيب والترهيب (٢/٨٥).
(٤) البخاري في الأدب المفرد (٢١٨)، وصححه الألباني في صحيح الأدب (١٦٠).
(٥) النسائي في الكبرى (١٠٠٦٢)، وقال الألباني في «صحيح الكلم الطيب»، ص(١٧٥): إسناده جيد.

فـلا ينبـغي أن تطلـب دعاء مـن أطعمته! قـال ابن تيميـة ﷺ: «وَمن الجَـزاء أَن يَطلُـبَ الدُّعاءَ، قـالَ تَعـالَى عَمَّـن أثـنَى عَلَيهـم: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾، والدُّعاءُ جَـزاء كَمـا في الحَديث: «من أَسـدَى إِليكُم مَعرُوفًـا فَكافئُوهُ، فَـإن لَـم تَجِدُوا مـا تُكافئُونَهُ به فادعُـوا لَهُ حَـتَّى تَعلَمُوا أَن قَـد كافَأتُـمُـوهُ»[1]»[2].

وتُعلّمنـا الآيـات الإحسـان إلى أسرى أعدائنـا، فدينُنـا يأمرنـا بذلـك. قال أبو هريـرة ﷺ: بَعَـثَ النَّـبيُّ ﷺ خَيلًا قبَـلَ نَجد، فَجاءَت بِرَجُل مـن بَني حَنيفَـةَ يُقالُ لَهُ ثُمامَـةُ بـنُ أُثـال، فَرَبَطُـوهُ بِسـارِيَة مـن سَـواري المَسـجد، فَخَرَجَ إلَيـه النَّبيُّ ﷺ فَقـالَ: «مـا عندَكَ يـا ثُمامَةُ؟»، فَقـالَ: عندي خَير يا مُحَمَّـدُ؛ إن تَقتُلـني تَقتُل ذا دَم، وَإِن تُنعـم تُنعم عَلَى شـاكر، وَإِن كُنـتَ تُريدُ المالَ فَسَـل منهُ ما شـئتَ. فَـتُرِكَ حَتَّى كانَ الغَـدُ، ثُـمَّ قـالَ لَهُ: «ما عندَكَ يـا ثُمامَةُ؟»، قالَ: مـا قُلتُ لَكَ؛ إن تُنعـم تُنعم عَلَى شـاكر. فَتَرَكَـهُ حَتَّى كانَ بَعـدَ الغَد، فَقـالَ: «ما عندَكَ يـا ثُمامَةُ؟»، فَقـالَ: عندي ما قُلـتُ لَكَ. فَقـالَ: «أَطلقُوا ثُمامَـةَ». فانطَلَقَ إِلَى نَخل قَريب من المَسـجد، فاغتَسَـلَ، ثُـمَّ دَخَلَ المَسـجدَ، فَقالَ: أَشـهَدُ أَن لا إِلَهَ إِلّا الله، وَأَشـهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، يا مُحَمَّـدُ والله مـا كانَ عَلَى الأَرض وَجـه أَبغَـضَ إِلَيَّ مـن وَجهـكَ، فَقَـد أَصبَـحَ وَجهُكَ أَحَـبَّ الوُجُـوه إِلَيَّ، والله مـا كانَ من دين أَبغَـضَ إِلَيَّ من دينكَ، فَأَصبَـحَ دينُكَ أَحَبَّ الدّيـن إِلَيَّ، والله مـا كانَ مـن بَـلَد أَبغَضُ إِلَيَّ من بَـلَدكَ، فَأَصبَـحَ بَـلَدُكَ أَحَبَّ البلاد إِلَيَّ، وَإِنَّ خَيلَـكَ أَخَذَتـني وَأَنـا أُريدُ العُمرَةَ فَمـاذا تَرَى؟ فَبَشَّرَهُ رَسُـولُ الله ﷺ وَأَمَرَهُ أَن يَعتَمـرَ. فَلَمّـا قَـدمَ مَكَّـةَ قـالَ لَهُ قائـل: صَبَـوتَ؟ قـالَ: لا، وَلَكـن أَسـلَمتُ مَعَ مُحَمَّـد رَسُـول الله ﷺ، وَلا والله لا يَأتيكُـم مـن اليَمامَـة حَبَّـةُ حنطَـة حَـتَّى يَأذَنَ فيهـا النَّبيُّ ﷺ[3].

---

(١) أبو داود (١٦٧٢)، وصححه الألباني صحيح الأدب المفرد (١٥٨).
(٢) مجموع الفتاوى (١/١٨٨).
(٣) البخاري (٤٣٧٢)، ومسلم (١٧٦٤).

ونهى النبي ﷺ عن التفريق بين الأم وابنها في البيع، قال: «**مَن فَرَّقَ بَيْنَ الوالِدَة وَوَلَدِها فَرَّقَ الله بَيْنَهُ وَبَيْنَ أحبَّته يَوم القيامَة**»(١).

ولا يُكره الأسير على اعتناق دين الإسلام؛ لقول الله: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، لكن يُدعى إلى الإسلام بحكمة وإحسان.

فأي أخلاق هذه التي جاء بها هذا الدين العظيم؟!

وإذا رغَّبت النصوص في الإحسان إلى أسرى الكفار، فكيف بالسعي لاستنقاذ أسرى المؤمنين؟! ثبت عَن أَبي مُوسَى ﷺ، قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**فُكُّوا العانيَ**»(٢). أي: الأسير. وهذا أمر يقتضي الوجوب على من قدر عليه، والله المستعان.

وقوله: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾، خافوا في الدنيا، فأمنوا من عذاب الله في الآخرة. قال ربنا: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ۝٢٤ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٢٥ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۝٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧﴾ [الطور]، وقال نبينا ﷺ: «**قال الله تعالى: وعزتي وجلالي لا أجمع لعبدي أمنَين ولا خوفَين، إن هو أمنني في الدنيا أخفته يوم أجمع عبادي، وإن هو خافني في الدنيا أمَّنته يوم أجمع عبادي**»(٣).

ثم قال: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١﴾، قال الحسن البصري ﷺ: «النَّضرَةُ في الوَجه، والسُّرُورُ في القَلب»(٤)، وبين حال القلب وحال الوجه علاقة، فإن صورة الباطن تنعكس على الظاهر.

ثم قال: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝١٢ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ۝١٣ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ۝١٤﴾، فبشرى للصابرين!

---

(١) الترمذي (١٢٨٣)، وصححه الألباني في المشكاة (٣٣٦١).
(٢) البخاري (٣٠٤٦).
(٣) أبو نعيم في الحلية (٦/٦٨)، وهو في صحيح الجامع (٤٣٣٢).
(٤) صحيح البخاري (٦/١٦٤).

والصبر مثل اسمه مر مذاقتُه لكن عواقبه أحلى من العسل

والحرير لباس أهل الجنة، أما في الدنيا فهو مُحرَّم على الرجال دون الإناث، فعن علي بن أبي طالب ﷺ، قال: إنَّ نَبيَّ الله ﷺ أَخَذَ حَرِيرًا فَجَعَلَهُ في يَمينه، وَأَخَذَ ذَهَبًا فَجَعَلَهُ في شماله، ثُمَّ قالَ: «إِنَّ هَذَين حَرام عَلَى ذُكُور أُمَّتي»(١).

ولما نفى عنهم رؤية الشمس، أتبعه بنفي ما يُتوهَّم من عدم إشراقها وهو البرد الشديد؛ فقال: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ١٣﴾، وقيل الزمهرير القمر بلغة بعض العرب، والصحيح أن الزمهرير هنا هو البرد الشديد، فأفاد ذلك اعتدال هوائها، وأجمل ما يكون الاتكاء في حدائق غناء، عند خضرة وماء، وهواء حسن، فجمع ذلك على أكمل الوجوه لأولئك الخائفين شر ذلك اليوم، وبرهان خوفهم بذلهم الطعام لضعفاء لا يُرجى من ورائهم رفد، وكذلك وفاؤهم بالنذور؛ وهذا دال على غيره، فإن من وفى بما ألزم نفسه به من الطاعة التي لا تجب عليه من حيث الأصل فهو أقرب وفاءً بالطاعة الواجبة عليه أو المفروضة بأصل الشرع.

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ١٥ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ١٦﴾، يكون الشراب عَلَى قدر ريِّهم، هذا معنى: ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾(٢)، وهكذا ينبغي أن يكون شرب المؤمن على قدر ريّه فلا يملأ كأسه بما يفيض عن حاجته فيهدره أو يتكلف شربه، ولا يقصر عن حاجته.

ثم قال: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ١٧ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ١٨﴾، كأسًا؛ أي: خمرًا، فتارة يمزج شرابهم بالكافور، وتارة بالزنجبيل. وأما المُقرَّبون فيشربون منهما صرفًا، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ٢٢ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ٢٣ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ

---

(١) أبو داود (٤٠٥٧)، وصححه الألباني في الإرواء (٢٧٧).
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم (٢٩١/٨).

﴿٢٤ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَامُهُۥ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [المطففين]. فيشرب المُقرَّبون ماء تسنيم صرفًا.

ثـم قـال: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾﴾، ولدان في غايـة الجمـال والبهـاء، يسـعَون في نـواحي الجنـة لخدمـة أهلهـا كاللؤلـؤ المنثور.

فأيـن زوجاتهـم؟ ألا يقمن على خدمتهم؟ الجـواب: لا؛ فهن مُكرَمـات مُنعَّمات، لا يخدمـن فيها.

وإذا كان هذا نعت الخدم: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾، فكيف بمن يخدمونهم؟!

قـال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾، وتأمـل في شـأن أدنى أهـل الجنـة منزلـةً، تعـرف عظمـة مـا هـم فيه! ثبـت عَـن ابـن مَسـعُود ﷺ، أنَّ رَسُـولَ الله ﷺ قـالَ: «آخـرُ مَن يَدخُـلُ الجَنَّـةَ رَجُل، فهوَ يَمـشي مَـرَّةً، وَيَكبُو مَـرَّةً، وَتَسـفَعُهُ النَّارُ مَـرَّةً، فـإذا مـا جاوَزَهـا التَفَتَ إلَيهـا، فقـالَ: تَبـارَكَ الَّذي نَجّاني منك، لَقَـد أعطاني اللهُ شَـيئًا مـا أَعطـاهُ أَحَدًا منَ الأَوَّلينَ والآخريـنَ، فَتُرفَعُ لَهُ شَـجَرَة، فَيَقُولُ: أَي رَبّ، أَدنـي من هَذه الشَّـجَرَة فَلأَسـتَظلَّ بظلّهـا، وَأَشرَبَ من مائها، فَيَقُـولُ اللهُ ﷻ: يا ابنَ آدَمَ، لَعَـلّي إنَّ أَعطَيتُكَهـا سَـأَلتَني غيرَهـا، فيَقُـولُ: لا، يـا رَب، وَيُعاهدُهُ أَن لا يَسـأَلَهُ غَيرَهـا، وَرَبُّـهُ يَعـذرُهُ لأَنَّهُ يَرَى ما لا صَـبرَ لَهُ عَلَيـه، فَيُدنيه منها، فَيَسـتَظلُّ بظلّها، وَيَشرَبُ مـن مائهـا، ثُـمَّ تُرفَـعُ لَهُ شَـجَرَة هيَ أَحسَـنُ مـنَ الأُولَى، فَيَقُـولُ: أَي رَبّ، أَدنـي مـن هَـذه لأَشرَبَ مـن مائهـا، وَأَسـتَظلَّ بظلّهـا، لا أَسـأَلُكَ غيرَها، فيَقُـولُ: يا ابـنَ آدَمَ، أَلَـم تُعاهـدني أَن لا تَسـأَلَني غيرَهـا، فيَقُولُ: لَعَـلّي إن أَدنَيتُكَ منها تَسـأَلُني غَيرَهـا، فَيُعاهـدُهُ أَن لا يَسـأَلَهُ غَيرَهـا، وَرَبُّـهُ يَعـذرُهُ لأَنَّهُ يَـرَى ما لا صَـبرَ لَهُ عَلَيه، فَيُدنيـه منهـا فَيَسـتَظلُّ بظلّهـا، وَيَشرَبُ مـن مائهـا، ثُـمَّ تُرفَعُ لَهُ شَـجَرَة عنـدَ باب الجَنَّـة هيَ أَحسَـنُ مـنَ الأُولَيـين، فَيَقُـولُ: أَي رَبّ، أَدنـي مـن هَذه لأَسـتَظلَّ بظلّها،

وَأَشرَبَ مِن مائِها، لا أَسأَلُكَ غَيرَها، فيَقولُ: يا ابنَ آدَمَ، أَلَم تُعاهدني أن لا تَسأَلَني غَيرَها، قالَ: بَلَى يا رَبّ، هَذه لا أَسأَلُكَ غَيرَها، وَرَبُّهُ يَعذرُهُ لأَنَّهُ يَرَى ما لا صَبرَ لَهُ عَلَيها، فيُدنيه منها، فَإذا أَدناهُ منها فيَسمَعُ أَصواتَ أَهلِ الجَنَّة، فيَقولُ: أَي رَبّ، أَدخلنيها، فيَقولُ: يا ابنَ آدَمَ ما يَصريني منكَ؟ أَيُرضيكَ أَن أُعطيَكَ الدُّنيا وَمثلَها مَعَها؟ قالَ: يا رَبّ، أَتَستَهزئُ منّي وَأَنتَ رَبُّ العالَمينَ؟»، فَضَحكَ ابنُ مَسعُود، فَقالَ: أَلا تَسأَلوني ممَّ أَضحَكُ فَقالُوا: ممَّ تَضحَكُ؟ قالَ: هَكَذا ضَحكَ رَسُولُ الله ﷺ، فَقالُوا: ممَّ تَضحَكُ يا رَسُولَ الله؟ قالَ: «من ضَحك رَبّ العالَمينَ حينَ قالَ: أَتَستَهزئُ منّي وَأَنتَ رَبُّ العالَمينَ؟ فَيَقُولُ: إنّي لا أَستَهزئُ منكَ، وَلَكنّي عَلَى ما أَشاءُ قادر»[(١)].

وأعظم ما جاء في وصف الجنة: عَن أَبي هُرَيرَةَ ﷺ، قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «قالَ الله: أَعدَدتُ لعبادي الصّالحينَ ما لاَ عَين رَأَت، وَلاَ أُذُن سَمعَت، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلب بَشَر»[(٢)].

وما أحسن ما قاله ابن القيم ﷺ في نعتها:

فلله بردُ العيش بين خيامها
وروضاتها والثغر في الروض يبسمُ
ولله أفراح المحبين عندما
يخاطبهم من فوقهم ويسلم
ولله أبصار ترى الله جهرة
فلا الضيم يغشاها ولا هي تسأمُ

---

(١) مسلم (١٨٧).
(٢) البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤).

فيا نظـــرة أهـــدت إلى الوجه نضرةً
أمن بعدها يســـلو المحـــب المتيمُ؟
فـــحي على جنـــات عـــدن فإنهـــا
منازلـــكَ الأولى وفيهـــا المخيـــمُ
ولكننا ســـبيُ العـــدو فهـــل تُرى
نعـــود إلى أوطاننـــا ونســـلمُ؟
وقـــد زعمـــوا أن الغريـــبَ إذا نأى
وشـــطّت به أوطانـــه فهـــو مغرمُ
وأي اغـــتراب فـــوق غربتنـــا التي
لها أضحـــت الأعـــداء فينا تحكم؟
فبينـــا هُـــمُ في عيشـــهم وسرورهم
وأرزاقهـــم تجـــري عليهم وتُقســـمُ
إذا هـــم بنـــور ســـاطع أشرقت له
بأقطارهـــا الجنـــات لا يُتوهـــمُ
تجـــلى لهـــم ربُّ الســـماوات جهرة
فيضحك فـــوق العرش ثـــم يكلمُ
ســـلام عليكم يســـمعون جميعهم
بآذانهـــم تســـليمه إذ يســـلمُ
يقول: ســـلوني ما اشـــتهيتم فكلُّ ما
تريـــدون عنـــدي أنني أنـــا أرحمُ
فقالوا جميعًـــا: نحن نســـألك الرضا
فأنـــتَ الذي تولي الجميـــل وترحمُ[١]

(١) حادي الأرواح، ص(١٢).

ثـم قال تعالى: ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾، والسـندس مـا رقَّ من الحرير، والإسـتبرق: مـا غلظ منـه[1]، وكله ناعـم لين، ولكل موضعـه الملائم له.

ثـم قـال: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾﴾، وهـو خمـر طاهـر من كل قَـذَر، قال ربنـا: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥]، وتأمـل كيف أسـند الله السـقي إليه سـبحانه؛ تشريفًـا لهـم، وذلك كائـن بأمره ﷻ.

﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾، لما تركوا جزاء العباد ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾، جازهم الكريم سبحانه، فمن ترك شيئًا لله عوَّضه الله خيرًا منه.

(١) يراجع: جامع البيان (٢٤/١١٢ ـ ١١٣).

الآيات (٢٣ ـ ٣١)

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا
تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا
﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ
هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ
خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا
﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾
وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾
يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾

لما فصّل نعيم أهل الجنة، أرشد إلى الطريق الموصل إليه فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾، فأمر بالصبر، وأشار إلى ما يُعين عليه، وهو الإقبال على القرآن، فمن أقبل عليه وجد كل ما يُعينه على عبادة الصبر، ففي القرآن بيان لعاقبة الأبرار، وهذا يُحمل على الصبر على الطاعات، وفيه الزجر والنذارة والوعيد، وهذا يُحمل على الصبر عن معصية الله تعالى، وفيه ذكر ما لأهل البلاء من الجزاء، وهذا يُحمل على الصبر على مُرّ القضاء.

ومن جُملة الصبر: الصبر على أعداء الله فلا يُتركون من غير دعوة ولا يُطاعون في مُراداتهم ومُشتهياتهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾،

أَي: «لا تُطع الكافرينَ والمُنافقينَ إن أَرادُوا صَدّك عَمّا أُنزلَ إلَيكَ»(١).

ومما أرشد إليه تعالى أيضًا ـ وهو معين على الصبر وموصل إلى الرضوان ـ الذكر، وأجَلُّه الصلاة، فقال: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾﴾، في أول النهار وآخره، وسبق حديث عند تدبر قول ربنا: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾﴾ [المزمل]، عن الترغيب في الإكثار من ذكر الله تعالى والأمر بذلك، فليس الشأن أن تذكر ربك فقط، وإنما الشأن أن تُكثر من ذلك، فالمنافقون يذكرون الله، لكنهم لا يذكرونه إلّا قليلًا.

وقوله ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾؛ يعني: أول النهار وآخره، وذلك يشمل الصلوات الخمس، وما يتبعها من النوافل، والأذكار، وما يندرج في تلك الأوقات من وظائف اليوم والليلة، فمن حافظ عليها خرج عن حد الغفلة، ودخل في جملة الذاكرين. وبعد أن ذكر ﷺ طرفي النهار وما يشتملان عليه بينهما من الوقت، ذكر وظيفة الليل فقال: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾، والمقصود بالسجود الإكثار من الصلاة، وعبَّر عنها به لكونه من أعظم أركانها، فأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، ولما عبَّر عن الصلاة بالسجود خصَّ بالذكر ما يكون فيه فقال: ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾، وقوله: ﴿طَوِيلًا﴾ مجمل تفصيله في سورة المزمل في قوله: ﴿نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾﴾ [المزمل].

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾؛ أي الكفار: ينهمكون في دنياهم رضا بها وإعراضًا عما سواها، وفي التعقيب بهذه الآية بعد ذكر الصلوات تنبيه على أن سبب كثير من تضييعها هو الإنهماك في الدنيا ولذاتها، مع الإيثار لها، وأن من استحضر ثقل يوم القيامة لم تثقل عليه في الدنيا.

(١) تفسير ابن كثير (٨/٢٩٤).

وقوله: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ إلخ، فيه تقرير للبعث، ولخطر الانغماس في الدنيا، وجعلها الهمَّ كله، بالدليل العقلي، «وهو دليل الابتداء، فقال: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ﴾ أي: أوجدناهم من العدم، ﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ أي: أحكمنا خلقتهم بالأعصاب، والعروق، والأوتار، والقوى الظاهرة والباطنة، حتى تم الجسم واستكمل، وتمكن من كل ما يريده، فالذي أوجدهم على هذه الحالة قادر على أن يُعيدهم بعد موتهم لجزائهم، والذي نقلهم في هذه الدار إلى هذه الأطوار، لا يليق به أن يتركهم سدى، لا يؤمرون، ولا ينهون، ولا يثابون، ولا يعاقبون، ولهذا قال: ﴿بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾؛ أي: أنشأناكم للبعث نشأة أخرى، وأعدناكم بأعيانكم، وهم بأنفسهم أمثالهم»[1].

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾﴾، سبحان ربنا! يعظنا ولا يَأطرنا على الأمر أو يُرغمنا، وهو قادر على إلحاق العذاب بنا! وقد دلت هذه الآية على أن للإنسان قدرة، ولذا فإن ربنا لا يكون ظالمًا له إذا عذَّبه بإعراضه، لأن له قدرة واختيارًا، فلم يكن مكرهًا. وقول أهل السنة في هذه المسألة وسط بين ضلالتين: بين ضلال الجبرية الغلاة الذين ينفون عن العبد الاختيار، ويجعلون أفعالَه كحركات لا إرادية، وبين القدرية الذين يجعلون العبدَ خالقًا لفعله، خارجًا عن قدر مشيئة الله وخلقه، فأهل السنَّة والجماعة يُثبتون أن للعبد مشيئةً واختيارًا، بهما يستحقُّ الثوابَ والعقابَ، ويقولون: إن مشيئتَه تحت مشيئة الله تعالى الحكيم في أفعاله، الذي يوفق كل معدن إلى ما هو حقيق به، قال الله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾، وفي ختم هذه الآية بذكر العلم والحكمة تنبيه على أن قوله بعدها: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾﴾ مبناه على علم تام بمن يستحق الرحمة، ومن لا يستحقها، وحكمة

---

(١) تفسير ابن سعدي، ص(٩٠٣).

بالغة قضت بالتمييز بين القاسط والمقسط، والمسيء والمحسن، وقوله: ﴿فِي رَحْمَتِهِۦ﴾ دون جنته فيه تنبيه آخر على أن استحقاق الجنة فرع عن رحمة الله تعالى الذي وفقه للإحسان، وأثابه على القليل بالكثير. نسأل الله أن يعاملنا برحمته، ويجعلنا أهلًا لجنته.

وختامًا من تأمل في العبادات المتنوعة التي ذكرت في هذه السورة وجد:

● منها ما هو واجب ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾، ومنها المستحب، كقيام الليل.

● ومنها اللازم في كل وقت، وهي عبادة الخوف من الله، ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾، ومنها المؤقت بوقت معين ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾.

● ومنها ما هو قلبي، كعبادة الخوف من الله، ومنها البدني كالصلاة التي عبّر عنها بالسجود ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ۝٢٦﴾، ومنها ما يكون باللسان: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ [الإنسان: ٢٥]، ومنها ما هو مالي: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨﴾ [الإنسان].

● ومنها ما أوجبه الله كالصبر، ومنها ما أوجبه الإنسان على نفسه، وهي النذر، وذلك يُشعر بأن أهل الجنة الذي يتقلبون في النعيم الظاهر والباطن، يتقلبون في هذه الدنيا في منازل العبودية الظاهر والخفية، وذلك فضل الله يمنُّ به على من يشاء، جعلنا برحمته من أهله، وهو المستعان وعليه الجهد والتكلان، ولا حول ولا قوة إلّا بالله.

سُورَةُ المُرْسَلَاتِ

بين يدي سورة المرسلات

وهي مكية عند جمهور المفسرين[١].

أسماؤها:

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾، ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾، المرسلات، والعُرف[١].

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كلمها مئة وَإحدَى وَثمانُون كلمة. وحروفها ثَمان مئة وَستَّة عشر حرفًا. وَهي خَمسُونَ آيَة في جَميع العدَد لَيسَ فيها اختلاف»[٢].

فضلها وما ورد فيها:

عَن عَبد الله بن مسعود ﷺ، قالَ: بَينَما نَحنُ مَعَ النَّبيّ ﷺ في غار بمنًى، إذ نَزَلَ عَلَيه: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾ وَإنَّهُ لَيَتلُوها، وَإنّي لَأَتَلَقّاها من فيه، وَإنَّ فاهُ لَرَطب بها، إذ وَثَبَت عَلَينا حيَّة، فَقالَ النَّبيُّ ﷺ: «**اقتُلُوها**»، فابتَدَرناها، فَذَهَبَت، فَقالَ النَّبيُّ ﷺ: «**وُقيَت شَرَّكُم كَما وُقيتُم شَرَّها**»[٣].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/٤١٨).
(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٦١).
(٣) البخاري (١٨٣٠)، ومسلم (٢٢٣٤).

وعَـن ابـن عَبّـاس ﷺ، أَنَّـهُ قـالَ: إنَّ أُمَّ الفَضـل سَـمعَته وَهُوَ يَقـرَأُ: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (١)﴾ فَقالَـت: «يـا بُـنَيَّ، والله لَقَـد ذَكَّرتَـني بقراءَتـكَ هَـذه السُّـورَة، إنَّهـا لَآخـرُ مـا سَـمعتُ مـن رَسُـول الله ﷺ يَقـرَأُ بهـا في المَغـرب»[١].

وعنـه ﷺ، قـالَ: قـالَ أَبـو بَكـر ﷺ: يـا رَسُـولَ الله قَد شـبتَ، قـالَ: «**شَـيَّبَتني هُـود، والواقعَـةُ، والمُرسَـلاَتُ، وَعَـمَّ يَتَسـاءَلُون، وَإذا الشَّـمسُ كُـوِّرَت**»[٢].

وعَـن عَلقَمَةَ، والأَسـوَد، قالا: أَتَى ابنَ مَسـعُود ﷺ رَجُل، فَقالَ: إنّي أَقـرَأُ المُفَصَّلَ في رَكعَـة، فَقـالَ: «أَهَـذًّا كَهَذّ الشّـعر، وَنَـثرًا كَنَثر الدَّقَـل؟! لَكنَّ النَّـبيَّ ﷺ كانَ يَقرَأُ النَّظائـرَ السُّـورَتَين في رَكعَـة، الرَّحمَـنَ والنَّجـمَ في رَكعَـة، واقتَرَبَت والحاقَّـةَ في رَكعَة، والطُّـورَ والذّاريـات في رَكعَـة، وَإذا وَقَعَت وَنُونَ في رَكعَة، وَسَـأَلَ سـائل والنّازعات في رَكعَـة، وَوَيـل للمُطَفِّفـينَ وَعَبَسَ في رَكعَـة، والمُدَّثّـرَ والمُزَّمّلَ في رَكعَـة، وَهَل أَتَى وَلا أُقسـمُ بيَـوم القيامَـة في رَكعَة، وَعَمَّ يَتَسـاءَلُونَ والمُرسَـلات في رَكعَـة، والدُّخانَ وَإذا الشَّـمسُ كُوِّرَت في رَكعَة»[٣].

موضوعاتها:

«الاستدلال على وقوع البعث عقب فناء الدنيا.

وصف بعض أشراط الساعة.

الاستدلال على إمكان إعادة الخلق بما سبق من خلق الإنسان وخلق الأرض.

وعيد منكريه بعذاب الآخرة.

وصف أهوال الآخرة.

---

(١) البخاري (٧٦٣)، ومسلم (٤٦٢).

(٢) الترمذي (٣٢٩٧)، وهو في صحيح الجامع (٣٧٢٣).

(٣) أبو داود (١٣٩٦)، وصححه الألباني في صفة الصلاة، ص(١٠٥).

التعريـض بعـذاب الله للمكذبـين باليـوم الآخـر في الدنيـا كمـا اسـتؤصلت أمـم مكذبـة من قبـل، ومقابلـة ذلك بجـزاء الكرامـة للمؤمنـين، وإعادة الدعوة إلى الإسـلام والتصديـق بالقـرآن لظهور دلائلـه»[١].

مقصدها:

الدعـوة إلى الإيمـان بالبعث واليـوم الآخر، بذكر مـآل المؤمنـين والكافرين فيه، وبعـض الأدلة على قـدرة الله عليه.

(١) التحرير والتنوير (٢٩/٤١٩).

سورة المرسلات: تأملات ووقفات

هـذه السـورة سـورة قويـة الملامـح، فظيعـة المشـاهد، شـديدة الإيقـاع، كأنها سـياط من نار. يُواجه الكافر فيها سـيلًا من الاسـتفهامات والاسـتنكارات والتهديد، تنفُـذ إليه كالسـهام المسـنونة، تكـرَّر فيهـا قوله تعـالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾

قـد يطـرح بعضنا سـؤالًا: لماذا هـذا التركيز الشـديد على قضية اليـوم الآخر في عـدد من السـور في القرآن؟ والجـواب: لأن من بُعـث فيهم النبي ﷺ كانـوا يُنكرون البعـث إنـكارًا شـديدًا، فالحديـث مـع كل فئـة بمـا يناسـبهم، ومـن أجـل ذلـك امتـلأت السـور المكية بالحديـث عنه.

وإنَّ مـن الأمـارات الـتي تـدل على نجـاح الداعيـة أنه إذا جـاء إلى بلد سـأل: ما الذي يحتـاج إليـه أهل هـذا البلد؟ وهذا منهـج الأنبيـاء، اتفقت دعوتهـم على إفراد الله بالعبـادة، ثـم تمـيز كل واحـد بالدعـوة إلى قضيـة يحتـاج إليهـا قومـه، فنبي الله لـوط ﷺ أكـثر من نهيهـم عن الفاحشـة التي لم يُسـبقوا إليها، وشـعيب ﷺ حدثهم عن خطـر التطفيـف، وهكذا.

ولأنـه بدون الإيمـان بالبعث لن يعمل الإنسـان خيرًا، ولاسـيما مـع طول الأمل وتعاقـب الأجيـال والانهمـاك في الدنيا ولهذا فإنـه لا غناء لأحد عـن التذكير به.

الآيات (١ ـ ١٤)

وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾
فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾
إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ
فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَىِّ
يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾﴾، المرسلات قيل: الريح، قال ربنا: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢]. وقيل: الملائكة وهم رسل الله. وقيل: الرسل. و﴿عُرْفًا﴾، قيل أرسلت بالعُرف ضد النُّكر أي المصلحة والحكمة، وهذا مناسب لحمل المرسلات على الملائكة أو الرسل، وقيل متتابعة من «عُرف الفرس، لأنه طرف مستو، بعضه في إثر بعض، فاستعير للقوم يتبع بعضُهم بعضًا»[1]، وهذا يلائم حمل المرسلات على الرياح ويلائم حملها على الملائكة والرسل أيضًا.

﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾﴾، قطع صحابيان بأنها الريح، وهما: علي بن أبي طالب، وابن عباس،[2] ﵄، يقال: عصفت الريح، إذا سُمع صوتُ هبوبها، وقيل إنها الملائكة تعصف بأجنحتها إذا انتقلت.

﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾﴾، قيل: الملائكة، وقيل: الريح، فإن الله ينشر السحب بها، قال ربنا: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [الروم].

---

(١) زاد المسير في علم التفسير (٤/٣٨٣).
(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم (٨/٢٩٧).

﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾﴾ أي: الملائكة التي تنزل بالوحي المفرّق بين الحق والباطل. ومن فوائد الآية: أن الصدع بالحق يترتب عليه تفرق الناس إلى فريقين، فالقرآن فرق بين الحق والباطل.

﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾﴾، الملائكة التي تنزل بالوحي إلى أنبياء الله ﷺ، فهو ذكر للمتقين، إما إعذارًا وإما إنذارًا.

قلت وهذا الأخير يُقرِّب أن الفارقات والناشرات هي الملائكة، كما أن قوله: ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ﴾ يقرب أن المرسلات هي الرياح العاصفات إذ هو قسم مُستأنَف، والأصل أن يُغاير القسمَ الأول، فالذي يظهر أن المرسلات مراد بها الرياح وكذا العاصفات، وأن الناشرات مراد بها الملائكة وكذا الفارقات.

وقوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾﴾، هذا هو جواب القسم، فهو قسم على تحقُّق وقوع يوم القيامة.

ثم ذكر بعض أهواله وما يكون فيه، فقال: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾﴾، أَي: ذَهَبَ ضَوؤُها، كَقوله: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾﴾ [التكوير]، وَكَقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾﴾ [الانفطار].

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾﴾؛ أي: شُقَّت، وصُدعت وفُتحت، وعندها تصير أبوابًا تنزل من خلالها وتصعد ملائكة وأهوال.

﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾﴾، قال ربنا: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾﴾ [طه]. فإذا قيل: جاء في موضع آخر: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾﴾ [التكوير] وقال: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾ [الكهف]، فهل هناك تعارض؟ فالجواب: لا تعارض؛ فسُيِّرت: زالت عن أماكنها، ونُسفت: لم يبقَ لها أثر، ولا تعارض لاحتمال أن تكون لها حال تنتقل بعدها إلى أخرى.

﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾﴾، من التوقيت، أي: بلغت وقتها الذي كانت تنتظره، وهو يوم القيامة، للقضاء بينهم وبين أقوامهم»[١].

وهذا الوقت مُؤجَّل لزمان معدود، وأجل مكتوب، ولذا قال: ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾﴾. يوم الفصل بين الحق والباطل، وبين الكافر والمؤمن، وبين المحسن والمسيء، وبين الظالم والمظلوم، وفي هذا عزاء للمؤمنين، والمظلومين، ولأهل البلاء، والمحسنين.

(١) تفسير الآلوسي (٢٩/١٧٢).

الآيات (١٥ ـ ٢٨)

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ
الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي
قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ
﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا
﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ
وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾

هذه الآية التي تكررت عشر مرات[١] في هذه السورة ذكرتني قصة حدثني بها أحدُ مشايخنا[٢]، قال: جاء رجل زنديق، وقال: إن القرآن فيه تكرار، ويحتاج إلى شيء من الاختصار.

قالوا: كيف؟

قال: مثلًا في سورة الرحمن: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، وردت إحدى وثلاثين مرة، تكفي واحدة! وفي سورة المرسلات: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾، وردت عشر مرات، وهذا تكرار لا معنى له! تكفي مرة واحدة!

(١) تكررت غير وردت، وكثير من الناس يخلط بينهما، فقد وردت إحدى عشرة مرة، وتكررت عشر مرات.
(٢) وهو شيخنا عبد الله الفنتوخ ﷺ، وكان عميد كلية الشريعة عندما كنا طلابًا فيها بين عام ١٣٩١ ـ ١٣٩٤ هـ.

فبلغ الوالي في ذلك الوقت قولُ هذا الزنديق، فناداه، قال: هل صحيح ما بلغني عنك؟

قال: وما بلغك؟ فذكرَ له ما بلغه.

قال: صحيح.

قال له: لمَ تُحذف؟

قال: مكررة، ولو اختصرنا القرآن لكان أسهل في الحفظ، إلى غير ذلك من سفسطة لا معنى لها سوى الكفر بالله.

فقال: لكن نحن نحتاج إلى اختصار من نوع آخر قبل أن تبدأ بمشروعك، فأنتَ عندك يدان، تكفي واحدة، قال: اقطعوا يده. عندك عينان، فأمر بقلع واحدة. عندك رجلان، فأمر بقطع رجل. عندك أذنان فقطع إحداهما. وهكذا حتى انتهى به الأمر إلى أن قُتل. ولو أن زنادقة عصرنا وجدوا مثل هذا الوالي لانتهى سفههم وكفرهم، ولارتاح الناس من شرهم.

وتكرار هذه الآيات يدل على أهمية التكرار في الخطاب الدعوي، لكن ما الذي يُكرَّر؟ ومتى يكون التكرار؟ وما هو قالب التكرار الذي تقدم المعلومة فيه؟ هذا ما يحتاج إلى الحكمة والفهم الثاقب، كما هو منهج القرآن.

جاء بعضُ طلاب العلم لسماحة والدنا الشيخ عبد العزيز ابن باز ﷺ، فذكروا له منكرًا وطالبوه بتغييره، فقال الشيخ: سأحاول، سأبذل جهدي، وأنتم ابذلوا جهدكم، اكتبوا..

قالوا: يا شيخ، كتبنا.

قال: كم كتبتم؟

قالوا: مرة أو مرتين.

قال: أنا أحيانًا أكتب في المنكر الواحد للمسئولين قرابة خمسين كتابًا. خمسين مرة يكتب في المنكر الواحد! ولا ييأس! لعل الله أن يشحذ همته لتغيير المنكر.

والعجيب أن بعض الناس إذا كان له مطلب من مطالب الدنيا تجده يحاول مرات عديدة، ويبحث عن الشُّفَعاء، ويختار الأوقات، وإذا جاءت فرصة لم يضيعها، هذا لأمر الدنيا، فأمور الآخرة أولى بالصبر عليها.

والمراد بقوله: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾﴾، قوم نوح، وعاد، وثمود، وغيرهم، والسؤال إنكاري؛ لعدم اعتبارهم بهم.

﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ كقوم موسى ﷺ، وفي التعبير بالمضارع ما يفيد أن تلك سُنَّة متجددة حادثة في الأقوام من بعدهم، قال ربنا: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾ [القمر].

﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾﴾، وهذا وعد يُثلج صدور المؤمنين، فأهل الإجرام كثير، لكن: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر].

قُل لأهل الباطل والإجرام في كل عصر ومصر: يقول الله ﷻ: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾﴾.

وكم في المقابر من مجرم مكذب حق عليه العذاب! ثبت في الصحيحين، عن ابن عُمَرَ ﷺ أنه قال: اطَّلَعَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى أَهلِ القَلِيبِ، فَقالَ: «**وَجَدتُم ما وَعَدَ رَبُّكُم حَقًّا؟**»، فَقِيلَ لَهُ: تَدعُو أمواتًا؟ فَقالَ: «**ما أَنتُم بأَسمَعَ منهُم، وَلَكن لاَ يُجيبُونَ**»[1]. وإيمان المؤمن بصنيع الله في المجرمين مما يُعزّي به المظلوم نفسه.

---

(١) البخاري (١٣٧٠)، ومسلم (٢٨٧٤).

ويُطلق الهلاك في كتاب الله على الموت، ولو كان صاحبه صالحًا، قال ربنا: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ [غافر: ٣٤]، وقال: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾ [النساء: ١٧٦].

وقوله: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾، تعنيف للمجرمين المنكرين للبعث، فيمَ الإنكار؟! والله تعالى قد خلقكم من ﴿مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾؟ أفيُعجزه أن يُعيد خلقه! إن في خلق الإنسان عبرةً وآيةً على القدرة، نطفة تُقذف في الرحم فتستقر فيه، ويُمسكها حتى تكون إنسانًا مُستتمَّ الأعضاء، له ثقل وحركة وشؤون! إلى أَجَل الميلاد! ومن تدبَّر ذلك عَلم أن الذي خلق ربّ قدير لا يعجزه شيء.

والأثر المسلكي الذي يترتب على العلم بذلك: التواضع، وعدم التكبُّر، والاستقامة؛ للتحقُّق من تدبر وقوع يوم الجزاء.

وكيف يستكبر من خُلق من ماء مهين؟! يروى أن مُطرّف بن عبد الله بن الشّخّير رأى المُهلَّب وهو يتبختر في جُبَّة، فقال: يا عبد الله هذه مشية يُبغضها الله ورسوله. فقال له المهلب: أما تعرفني؟ فقال: بلى أعرفك، أوَّلُك نُطفة مَذرة، وآخرتك جيفة قَذرة، وأنت بين ذلك تحمل العَذرة! فمضى المهلب وترك مشيته تلك[1].

ثم قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾﴾، فامتنَّ عليهم بعد الميلاد بما أنعم عليهم، من أرض تجمعهم، كفاتًا. «قالَ الشَّعبيُّ: بَطنُها لأَمواتكُم، وَظَهرُها لأَحيائكُم، وَكَذا قالَ مُجاهد وَقَتادَةُ»[2].

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/٣٤٠).
(٢) تفسير ابن كثير (٨/٢٩٩).

واستُدلَّ بهذه الآية على أن القبر حرز للكفن، فمن سرق كفنًا فقد سرقه من حرزه[١].

ومن فوائد الآية وجوب الدفن. قال القرطبي ﷺ: «وهذا يدل على وجوب مواراة الميت ودفنه، ودفن شعره وسائر ما يزيله عنه»[٢].

وأوّل دَفن فيها ورد ذكره في قوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ٣١﴾ [المائدة].

ثم ذكر ما أرسى به الأرض من الجبال نعمةً أخرى، وما أجرى في ظاهرها أو أخرج من باطنها أو أنزل إليها من المياه العذبة التي يشربها الناس.

(١) التلقين في الفقه المالكي (٢/٢٠١).
(٢) تفسير القرطبي (١٩/١٦١).

الآيات (٢٩ ـ ٥٠)

انطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ انطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَـٰثِ شُعَبٍ
﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾
كَأَنَّهُۥ جِمَـٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَـٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ
﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَـٰذَا يَوْمُ
ٱلْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَـٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ
﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ
﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

بعد التقرير بالنعم جاء التحذير بذكر مصير من أصرَّ على التكذيب ولم يعتبر: ﴿انطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾﴾، هذا في الدنيا.

﴿انطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَـٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾﴾، يعني أنَّ دخان جهنم إذا ارتفع منها صار ثلاث شُعَب(١).

﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾: لا يُظلُّ من الحر، ﴿وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾﴾: لا يرد لهيب النار عنهم.

﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾﴾، الشرارة منها كالبناء العظيم، والجمالات:

(١) ينظر: تفسير البغوي (٣٠٦/٨).

بكسر الجيم جمع جمالة وهي اسم جمع طائفة من الجمال، أي تشبه طوائف من الجمال متوزعة فرقًا، والتشبيه الأول في عظم حجمه، والثاني مُركَّب يشمل ما يبدو للناظر من حركته ولونه وثقله، وهو بكل حال مشهد فظيع يحدث الذكرى عند العقلاء.

ثم قال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ٣٥﴾، أطلقوا العنان لألسنتهم في الدنيا في وسائل إعلامهم بالسَّبّ، والنَّيل من أهل الصلاح، وفي الآخرة ﴿لَا يَنطِقُونَ﴾، أسكت الله جارحتهم التي يحاربون بها دينه، كما حشر من عمي عن الهدى في الدنيا أعمىً في الآخرة، ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ٢٦﴾ [النبأ]، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ٤٩﴾ [الكهف]، وعدم نطقهم هو في بعض مقامات القيامة، وفي بعض المقامات الأخرى يتلاومون، ويصطرخون، وفي يوم القيامة مواقف خزي وندامة شتى للمكذبين به.

وفي تسمية يوم القيامة في هذا الموضع بيوم الفصل إشعار بأخذ الحق للمؤمنين المظلومين ممن ظلمهم من أهل الفجور والكفر والخنا، وسبّهم، واحتقرهم، وكاد لهم.

﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ٣٩﴾، تقريع لهم على كيدهم للمؤمنين في الدنيا، وإظهار لعجزهم، وزيادة في ندامتهم، وليعلموا أن ما كادوا به عباد الله ﷺ كان كيدًا بهم ووبالًا في العاقبة عليهم.

وبعد أن توعد المكذبين ذكر نعيم المتقين فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ٤١﴾، لكنها ظلال وارفة ظليلة، ليست كظلال الكفار ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ٣٠ لَّا ظَلِيلٍ﴾، أي لا يظلهم فهو دخان، ولا يغني عنهم من لهيب النار وحرها.

والجنة لا شمس فيها، وينشئ الله الظلال لأهلها، وكان ربك قديرًا.

وقوله: ﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾﴾، فيه إجمال فصل في مواضع، قال ربنا: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١]، فتتعدَّد هذه النعم حسب تعدُّد شهواتهم.

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾، فالعمل الصالح سبب لما هم فيه من النعيم، قال ربنا: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة].

فهذا هو الذي يتفاضل الناس به عند ربهم. قال نبينا ﷺ: «**وَمَن بَطَّأَ به عَمَلُهُ، لَم يُسرع به نَسَبُهُ**»(١).

وفي قوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾، ما يدل على أن العبرة بإحسان العمل، لا بكثرته، قال ربنا: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك]، ما قال: أكثر عملًا، بل: ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾. فلذلك علينا الاهتمام بإحسان العمل، لا بكثرته فقط، وإذا كان العمل كثيرًا صوابًا فهذا خير على خير، ونور على نور. ولهذا المعنى قال أبو سليمان الداراني ﷺ: «إذا وجدت قلبك في القيام فلا تركع، وإذا وجدته في الركوع فلا ترفع»(٢).

ومن تأمَّل القرآن وجد تركيزًا على قضية الإحسان وبيان ما له عند الله من الثواب، قال ربنا: ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [البقرة]، وقال: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة]، وقال: ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [المائدة]، وقال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنعام]، وقال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [التوبة]،

---

(١) مسلم (٢٦٩٩).

(٢) مختصر منهاج القاصدين، ص(٦٥).

وقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٣٧﴾ [الحج].

ثم قال تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٥ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ۝٤٦﴾، مجرمون ولم يحرمهم الله تعالى من الطعام والشراب في الدنيا، كما قال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝١٢٦﴾ [البقرة].

وتدلُّ هذه الآية على أن أيام الدنيا مهما طالت فهي قليلة، وليست بشيء، إذا ما قيست بالآخرة مهما عاش المرء فيها فإنما هو متاع قليل، وتأمَّل قوله: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ [البقرة: ٩٦]، أقصى ما كان يتمناه أولئك الكفار لو يُعمَّر الواحد ألف عام، ولو أن واحدًا من هؤلاء الذين عاصروا التنزيل عُمّر ألف عام لكان أجله قبل أربعمئة سنة، وساعة واحدة في حفرة من نار في قبره تُنسيه كل حلاوة وجدها في الدنيا، ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٢٧﴾ [طه].

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ۝٤٨﴾، لا يركعون في الدنيا، وهم يدعون إلى السجود ولا يستجيبون، وسيُدعَون إليه في الآخرة ولا يستطيعون، ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٤٢﴾ [القلم]، ولو سألت مؤمنًا حيل بينه وبين وضع جبهته على الأرض في سجوده لقال لك: لا أجد أشدَّ علي من ذلك!

وذكر أمر الركوع في ختام هذه السورة مما يدل على أهمية شأن الصلاة، فهي العلامة الفارقة، والفيصل بين أهل النعيم المقيم، وأصحاب العذاب الأليم، الذين لهم الويل جراء تكذيبهم، الذي لا مُسوّغ له فقد جاءهم خير حديث وأعظم بيان، من لم ينتفع به لن ينفعه شيء، ومن لم يهتد به فلن يهتدي أبدًا، إلّا إلى طريق جهنم، وساءت مصيرًا.

فهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

معالم التدبر

تدبر جزء عم

أ.د. ناصر بن سليمان العمر

معالم التدبر

تدبر جزء عم

الطبعة الأولى
١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

الرياض - طريق الملك عبد الله بن عبد العزيز - حي المغرَّزات
مبنى رقم ٣٧٧٦ - هاتف ٤٥٤٤٧٦٣ ٠١١
الرمز البريدي ١٢٤٨٢ - الرمز الإضافي ٦٥٤٠
البريد الحاسوبي: malem@tdabbor.com

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العمر، ناصر سليمان محمد
تدبر جزء عم / ناصر سليمان محمد العمر الرياض - ١٤٣٩هـ
٤٠٠ ص؛ ١٧ × ٢٢ سم
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠٢-٦٣٠٠-٤
١- القرآن - جزء عم - تفسير أ. العنوان
ديوي ٢٢٧،٦ ١٤٣٩ / ٤٠٢٠
رقم الإيداع: ١٤٣٩ / ٤٠٢٠
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠٢-٦٣٠٠-٤

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وآله وصحبه أجمعين.

وبعد، فإن الجزء الثلاثين جزء عظيم، اشتمل على كثير من قضايا الاعتقاد. وجُلُّ سوره مكيُّ النزول، ومما يميّز المكيَّ عن المدني: عناية المكي بأمور العقيدة؛ كأسماء الله وصفاته، والبعث والنشور، ويتميز المدني عن المكي بالحديث عن الأحكام والتشريعات(١). وهذه الميزات عرَفها العلماء بالاستقراء والتتبع، ولا يعني ذلك أن السور المدنية خِلوٌ من مسائل الاعتقاد! إنما المراد الغالب على كلا النوعين، فالمحور الرئيس لهذا الجزء هو الإخبار عن الله ﷻ، وعن البعث والنشور.

والحديث عن اليوم الآخر يكثر في المكي، ولا ينبغي أن نتصور أن هذا الموضوع قد انتهى! بل لا زال هؤلاء المشككون في أمر اليوم الآخر موجودين في عصرنا هذا، يثيرون الشُّبَه في عقول أبنائنا عن طريق ما يعرف بالإعلام الجديد! وأذكر أنه بعد درس قدمتُه جاءني شاب في المرحلة الثانوية -أصلحه الله- يقول: لدينا بعض الطلاب يُشكِّكون في صدق القرآن وفي صدق النبي ﷺ! ويشككون في اليوم الآخر! ويجدون من يؤثرون في عقله من أبنائنا الذين انكب كثير منهم على الإعلام الجديد، وأخذوا من الشبهات التي يبثها أعداء الله ﷻ، وضعفت علاقتهم بالقرآن الكريم؛ فتعجبت كثيرًا! وذكر لي نماذج من هذه الشُّبَه، وليست شُبَهًا، ولكنها كذلك لهؤلاء المفتونين.

(١) انظر: المدخل لدراسة علوم القرآن، ص(٧٥)، د.محمد أبو شهبة.

إذن هذه الموضوعات نحتاج إليها اليوم كثيرًا؛ لكونها تتعلق بتقرير أصول العقيدة، التي يشن عليها العالم المادي اليوم غارات بقصد زعزعتها في نفوس الناس.

وقد أُقيم درس أسبوعي في التدبُّر، بدأنا فيه من سورة الناس، ووصلنا في نهاية العام ١٤٣٨هـ إلى سورة ق، وللحاجة إلى خروج هذه الدروس مطبوعة؛ فقد قام المكتب العلمي في (مؤسسة ديوان المسلم) بإعادة صياغتها ومراجعتها، فستخرج تباعًا بإذن الله، بدءًا بـ (تدبر جزء عم)، الذي هو بين أيدينا الآن. وتتلوه إن شاء الله بقية الأجزاء مع ما يُلقى في الأعوام القادمة؛ إذ إننا سنبدأ في مطلع العام ١٤٣٩هـ إن شاء الله بسورة الحجرات.

نسأل الله أن يبارك في الجهود، ويكتب لهذا العمل القبول.

والشكر موصول لكل من ساهم في إخراج هذا المشروع المبارك، ولكل من يبدي نصيحةً تفيد في هذا العمل مستقبلًا.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

ناصر بن سليمان العمر

١٤٣٨/١٢/٦هـ

سُورَةُ النَّبَإِ

بين يدي سورة النبأ

هي سورة «مكية بالاتفاق»(١).

أسماؤها:

تُعرَف هذه السورة المباركة بسورة النبأ؛ وذلك لوقوع كلمة النبأ في أولها مجملة، وبقيتها كالبيان لذلك النبأ، وسُمِّيت بـ «سورة ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾»؛ وهذه الآية الثانية فيها، ومن العلماء من أطلق عليها اسم: ﴿عَمَّ﴾؛ تسميةً لها بأول كلماتها، وسميت بسورة «التساؤل»؛ لكونها بدأت به، وسُمِّيت بسورة ﴿الْمُعْصِرَاتِ﴾؛ لقول ربنا فيها: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾﴾(٢).

والذي ثبت في السنة من هذه الأسماء: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾، كما سيأتي في الحديث عن فضائلها.

عدد آياتها، وكلماتها، وحروفها:

«كَلِمُها مئة وَثَلاث وَسَبعُونَ كلمة، وحروفها سبع مئة وَسَبعُونَ حرفًا، وَهِي إحدَى وَأَربَعُونَ آية فِي البَصرِيُّ وَأَربَعُونَ فِي عدد الباقِينَ، اختلافها آية: ﴿عَذَابًا قَرِيبًا﴾، عدها البَصرِيّ وَلم يعدها الباقون»(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (٥/٣٠).
(٢) يُنظر: الدر المنثور (٥/٣٠).
(٣) البيان في عدِّ آي القرآن، ص (٢٦٢).

فضلها وما ورد فيها:

عن ابن عباس ، قال: قال أبو بكر : يا رسول الله قد شبتَ! فقال: «**شيَّبتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعمَّ يتساءلون، وإذا الشمسُ كوِّرت**»[(١)].

موضوعاتها:

(١) إقامة الحُجَّة على إمكان البعث بخلق المخلوقات التي هي أعظم من خلق الإنسان بعد موته، وبالخلق الأول للإنسان وأحواله.

(٢) وصف الأهوال الحاصلة عند البعث من عذاب الطاغين، مع مقابلة ذلك بوصف نعيم المؤمنين.

(٣) صفة يوم الحشر؛ إنذارًا للجاحدين[(٢)].

مقصد السورة:

تقرير البعث، ووصف أهواله وبيان مآل الناس فيه إلى فريقين بموجَب أعمالهم.

---

(١) الترمذي (٣٢٩٧)، وهو في السلسلة الصحيحة، برقم (٩٥٥).
(٢) يُراجع: التحرير والتنوير (٣٠/٦).

سورة النبأ: تأملات ووقفات

الآيات (١ ـ ٥)

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ٣ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ٥﴾

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ١﴾، تأملوا هذا المطلع البديع! هؤلاء المتسائلون هل هم صادقون في تساؤلهم أم أرادوا السخرية به؟! أيسألون عما لا يقبل شكًّا، ولا يتطرق إليه ريب؟!

والآية: ﴿عَمَّ﴾ أصلها: عن ما، فهو «مركب من كلمتين هما: حرف (عن) الجار و(ما) التي هي اسم استفهام بمعنى: أي»[١].

والنبأ هو الخبر، قال الراغب الأصفهاني رحمه الله: «النَّبَأُ: خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غَلَبَة ظنٍّ، ولا يقال للخبر في الأصل نَبأٌ حتى يتضمَّن هذه الأشياء الثَّلاثة»[٢].

والنبأ هنا: البعث، وقيل: القرآن، وقيل: النبي ﷺ، وكل هذا مما تحدثت عنه هذه السورة المباركة. والأقرب أن السؤال عن اليوم الآخر[٣].

وقد قال بعض أهل العلم: إنه بقدر انشغال الإنسان في الدنيا عن النبأ العظيم يضعف إيمانه به، وكثير من الناس شُغل بدنياه، فلا همَّ له سوى العبث واللهو، وغفل عن اليوم الآخر بسبب ذلك، وإذا غفل عنه ضعُف عمله، ومما مدح الله به أنبياءه في القرآن الكريم: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ٤٦ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ٤٧﴾ [ص]، ومعنى ذلك: إنا خصصناهم بعظيم، حيث جعلنا ذكرى الدار الآخرة في قلوبهم. وقد سمعت

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٧).
(٢) المفردات في غريب القرآن، ص(٧٨٨ ـ ٧٨٩).
(٣) يُنظر: تفسير القرآن العظيم (١٩٥/٨).

طالب علم يقول كلمة عظيمة! يقول: أجتهد في كل موقف أن أتصور وقوفي أمام الله؛ حتى أتجرد للإخلاص والصدق والحرص على الثواب. وهذا عين العقل، فالغفلة خطرها كبير.

ولكثرة الاهتمام بالدنيا كثرت النقاشات فيها، وقل النقاش فيما يعود على الإنسان بالنفع؛ مما يدل على قلة ذكر الآخرة. فنقاشات كثير من الناس في قضايا لا تستحق الاهتمام، والأخذ فيها مما يُقسِّي القلب، ومثل هذا النوع من النقاش يُورث العداوة والبغضاء بيننا، وليس يخفى علينا قول نبينا ﷺ: **«أَنا زَعِيمٌ بِبَيتٍ فِي رَبَضِ الجَنَّةِ لِمَن تَرَكَ المِراءَ وَإِن كانَ مُحِقًّا»**[1]. قال ابن الأثير رحمه الله: «(ربض الجنة)، هو بفتح الباء: ما حولها خارجًا عنها، تشبيهًا بالأبنية التي تكون حول المدن وتحت القِلاع»[2]. وإنما حُرِّم علينا الجدال في الحج لما يترتب عليه من قسوة القلب، والحج عبادة يجد فيها العبد قلبه، ويأنس بربِّه، فلا يليق أن يقطع طريقَ سيره إلى ربه جدلُه، قال ربنا: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧]. فلا يكون نقاشنا سليمًا من الإثم إلا إذا خُلِّص من ذلك، فما لم يكن كذلك فدعه، فإنه لا خير فيه.

والإيمان باليوم الآخر من الإيمان بالغيب، والإيمان بما يغيب عنك يحتاج إلى بصيرة وتوفيق، وشأنه عظيم، ولذا مدح النبي ﷺ من جاء بعده وآمن به، وسماهم «إخوانه»؛ لإيمانهم به بعد أن غاب عن دنياهم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ أتى المقبرة، فقال: **«السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنّا إن شاء الله بكم لاحقون. وددت أنا قد رأينا إخواننا»**، قالوا: أولسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال: **«أنتم أصحابي، وإخواننا الذين لم يأتوا بعدُ»**، فقالوا: كيف تعرف من لم يأت بعدُ من أمتك يا رسول الله؟ فقال: **«أرأيت لو أن رجلًا له خيل غُرٌّ محجلة بين ظهري خيل دُهمٍ بُهمٍ ألا**

(١) أبو داود (٤٨٠٠)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (١٣٩).
(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر (١٨٥/٢).

يعرف خيله؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «فإنهم يأتون غُرًّا مُحَجَّلينَ من الوضوء، وأنا فَرَطهم على الحوض. ألا لَيُذادَنَّ رجالٌ عن حوضي كما يُذادُ البعير الضال، أناديهم ألا هَلُمَّ! فيقال: إنهم قد بَدَّلوا بعدك؛ فأقول: سُحقًا سُحقًا»[1].

﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾، «عن الضحاك: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾: الكفار، ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾: المؤمنون، وكذلك كان يقرأها»[2].

وقال بعض العلماء: هذا تكرار غرضه التأكيد، فالجملة الثانية تؤكد الأولى من حيث المعنى، وهناك قول آخر قوي حاصله أنّ معناها: كلا سيعلمون في الدنيا، ثم كلا سيعلمون في يوم القيامة، فالعطف بـ «ثم» يدل على التراخي. فسيعلم في الدنيا أولًا قبل الآخرة هؤلاء المكذبون الذين يحاجون وينكرون البعث، وينكرون نبوة النبي ﷺ، وينكرون القرآن، ويقولون عنه: أساطير الأولين! سيعلمون عندما ينتصر النبي ﷺ ويُكتب له الظهور على أعدائه ـ كما حدث في بدر وفي فتح مكة ـ سيعلمون عندها أن أمرهم مبني على ضلال، وأنهم موغلون في طريق الباطل، ثم كلا سيعلمون في قبورهم إذا عُرضوا على النار غدوًّا وعشيًّا وامتلأت بها قبورهم، وكذلك إذا رأوها في الآخرة سيعلمون صدق ما جاءهم في القرآن، وما أُرسل به إليهم نبيهم ﷺ، ولكن لن ينتفعوا بهذا العلم، ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾[الأنعام].

---

(١) مسلم، برقم (٣٩).
(٢) جامع البيان (١٥١/٢٤).

الآيات (٦ ـ ١٦)

أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ
أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا
﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا
﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ
مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾

ذكَّر ربنا في هذه الآيات بكثير من نِعَمه التي يحمل التأمل فيها على الإيمان، وعدم التكذيب بالنبأ العظيم، لئلا يكون للمشركين عذر، فقد دعاهم ربهم إلى أن يتأملوا فيما بين أيديهم، وتقع عليه أبصارهم، وتدركه عقولهم؛ سماء، وأرض، وجبال، وليل، ونهار، وحَب ونبات، ألا تكفي هذه الآيات للإيقان بقدرة الله تعالى؟!

وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنَّه واحدُ

إن الذي أخرج النبات من أرض ميتة، لا حراك فيها، فأنبت زرعًا وشجرًا مختلفًا من حبٍّ لا حياة فيه، قادرٌ على أن يخرج منها مَن أُودع فيها من الأموات.

ومن الآيات التي ذكرها: ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾﴾، أي: أصنافًا. وابتداء الخلق دليل على القدرة على الإعادة.

ومن الأزواج: الذكر والأنثى، تجد كل واحد منهما من قبيلة مغايرة، فإذا تزوجا كان الوفاق والراحة والسكن، والله ﷻ قد جعل الحياة الزوجية سببًا لامتداد الحياة البشرية بالتناسل، وهذه آية عظيمة أعمى عنها إلفُ الناس واعتيادُهم! وإلّا فالذي جعل ماء مهينًا بشرًا تنبعث فيه الحياة، لا يعجزه أن يُعيد ما تفرق من أجزائه! فهذه من آيات الله

التي تدعو إلى الإيمان به، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم].

ومن هذه الآيات: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾﴾. أي: «قطعًا للحركة»[(١)]، ترتفع فيه الروح ويبقى لها تعلُّقٌ بالجسد، ثم تعاد إذا شاء الله أن يُعيدها، قال ربنا: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزمر]، وهذه آية أخرى شاهدة على البعث، فهذا النوم له سلطان عجيب!

وبه يرتاح المرء من العناء والتعب، وتسكن به النفس، ويستجمع البدن قُواه بعده، ولهذا كان مما أيَّد الله تعالى به الصحابة في حروبهم، ليجددوا به نشاطهم، ويستعيدوا قوتهم، قال ربنا: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]. فالخلود للنوم ولو يسيرًا يحصل به السكن والانقطاع عن مشاغل الدنيا، فيكون ذلك سببًا لتجدد النشاط. ولذا ندب النبيُّ ﷺ إلى القيلولة، فقال: «**قيلوا؛ فإن الشياطين لا تقيل**»[(٢)]، والقيلولة تكون قبل الظهر وقد تكون بعده، وتعيين وقتها يرجع إلى عادات الناس، ومن قصد بها الاقتداء والتأسي، أو التقوي على الطاعة، حصل له أجر بذلك.

ومن الملاحظ في هذه الآيات أن الله تعالى يُعظِّم نفسه، فيجيء الخبر فيها عنه سبحانه بصيغة الجمع، وهو سبحانه أهل الثناء والمجد.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/٣٠٢).

(٢) قال الألباني : «أخرجه أبو نعيم في الطب (١/١٢ نسخة السفرجلاني)، وهو حسن» يُنظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٤/٢٠٢)، حديث رقم (١٦٤٧).

الآيات (١٧ ـ ٢٠)

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾

إنَّ يوم القيامة آتٍ لا محالة، وقد دل على ذلك الشرع والعقل، فإنه قد أحسن كثير من الناس في هذه الدنيا، فلا بد من أن يلقوا جزاء إحسانهم، ووقع فيها ظلم وعدوان، فلا بد من عقوبة الباغي.

ولماذا سمِّي بيوم الفصل؟ قال العلماء: إما لأن الله تعالى يفصل فيه بين الخلائق، وإما لأنه أمر لا مِرية فيه[١]. وهذا المعنى جار في خطاب الناس اليوم، فإذا جاء أحد بخبر، ثم أكد الخبر من لا يكذب، أو بما لا يدع مجالًا للشك يقال: جاء بالقول الفصل.

وقد جعل ربنا ليوم الفصل وقتًا معينًا، ولكثير من العبادات في الإسلام أوقات معينة، وفي هذا إشارة إلى أهمية العناية بالوقت، فالصلاة قال الله فيها: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء]. أي: إن الصلاة تجب في أوقات معلومة في الشرع، فإذا أوقع أحدنا صلاته قبل الوقت لبطلت، ولو فعلها بعد الوقت على أكمل الوجوه أَثِمَ بتأخيره! وكذلك الركن الذي بعدها وهو الزكاة، جعل الله له وقتًا؛ فمن شروط أكثر ما تجب فيه الزكاة:

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٣٠/٢٩).

أن يحول الحول على المال الذي بلغ النصاب، وكذلك الحج إنما يكون في وقت معين، ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ [البقرة: ١٩٧]. وأيضًا للصوم وقت معين، ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وقال نبينا ﷺ: «**إذا أذن بلال فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم**»[١]. فهذا كله يَحمِل على الاهتمام بالوقت؛ فإنه الحياة! وينبغي أن تذكرنا هذه الوقوت ذلك الميقات العظيم: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾﴾!

ثم أخبر سبحانه أن الناس يأتون في الآخرة أفواجًا، أممًا وجماعات، وذلك بعد النفخ في الصور، وهو قرن عظيم ينفخ فيه إسرافيل ﷺ.

وأنبِّه هنا إلى مسألةٍ ذكرها أهل العلم ﷺ: وهي أن بعض المفسرين ﷺ يذكرون عن طول الصُّور، وشكله وهيئته، وكيف ينفخ فيه، يذكرون أمورًا لم تَرِد في كتاب أو سنة صحيحة. وهذا الذي سكت الله عنه ورسوله ﷺ مما لا يليق بنا أن نثير مسائله! فلا داعي للخوض فيه. ولو ترتَّب على العلم بها فائدة لما أُغفل ذكرُها في الوحيين.

فالصُّور قرن عظيم حقيقةً، ينفخ فيه، قال نبينا ﷺ: «**كَيفَ أَنعَمُ وَصاحِبُ القَرنِ قَدِ التَقَمَ القَرنَ، واستَمَعَ الإِذنَ، مَتَى يُؤمَرُ بِالنَّفخِ فَيَنفُخُ**». فَكَأَنَّ ذَلِكَ ثَقُلَ عَلَى أَصحابِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقالَ لَهُم: «**قُولُوا: حَسبُنا اللهُ وَنِعمَ الوَكِيلُ عَلَى اللهِ تَوَكَّلنا**»[٢]، فهذا هو المهم أما كيفيته فنفوض علمها إلى الله تعالى.

---

(١) رواه النسائي (٦٣٩)، وصححه الألباني في الإرواء (١/٢٣٦).
(٢) رواه الترمذي (٢٤٣١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٢٠٧٩).

الآيات (٢١ ـ ٣٠)

إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ
فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا
حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا
يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ
أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾

بعد أن ذكر ربنا سبحانه يوم الفصل وحقَّق وقوعه، وبيَّن ما يدل عليه من الآيات الكونية، توعَّد المشركين، فقال: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾﴾. فجهنم أيها المكذبون قد أُعِدَّت لكم، و﴿مِرْصَادًا﴾، أي: تترصَّدكم، وتنتظركم[1]. وهذا من أشد الوعيد والتهديد.

وإن في قول ربنا: ﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾﴾ لزاجرًا، فالطغيان صفة أهلها، وصور الطغيان كثيرة؛ زوجٌ يطغى على زوجه، ووالدٌ على ولده، وجارٌ على جاره، وكلُّ طاغية مُتوعَّد بجهنم. و﴿مَـَٔابًا﴾: مرجعًا.

وهل يُقال: إن قول الله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾ يدل على فناء النار؟ قال القرطبي رحمه الله: «﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾، أي ماكِثِينَ فِي النَّارِ ما دامَتِ الأَحقابُ، وَهِيَ لا تَنقَطِعُ، فَكُلَّما مَضَى حُقُبٌ جاءَ حُقُبٌ. والحُقُبُ بِضَمَّتَينِ: الدَّهرُ والأَحقابُ الدُّهُورُ»[2]. فالنار باقية، وهذا هو القول الصحيح المستند إلى أدلة الكتاب والسنة، التي نصت على خلود من حق عليهم العذاب في النار.

---

(١) راجع: تفسير الطبري (٢٤/١٥٨).
(٢) تفسير القرطبي (١٩/١٧٧).

ثم بيَّن ربُّنا أنَّ أهلَ النار في النار لا يجدون فيها ما يُبرِد جلودهم أو قلوبهم، ولا شرابًا ينفعهم أو يُخفِّف عنهم، فقال: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾﴾. والحميم: الذي بلغ درجة من الحرارة، لا شيء يمكن أن يكون بعدها من الحر، فبلغ في الحرارة منتهاها وغايتها، والغساق: صديد أهل النار ونَتَنُهم[1]. وهذا ما أكَّده الله في مواضع، قال ربنا: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ [محمد]، وقال: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف].

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾﴾، هذا وعيدٌ لهؤلاء الجاحدين، وتذكيرٌ بمحاسبة الله لهم في الآخرة، فكفرهم في كتابٍ ينشر في يوم القيامة، ثم يحاسبون على ما فيه.

وهذه الآية تذكر بأهمية الكتابة، وأطول آية في القرآن الكريم أمر فيها ربنا بكتابة الدين، وفي السنة أمر بكتابة الوصية؛ لئلا يُفرِّط في حق، أو يُضيِّع ما للغير، فعن عَبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَا حَقُّ امرِئٍ مُسلِمٍ لَهُ شَيءٌ يُوصِي فِيهِ، يَبِيتُ لَيلَتَينِ، إِلَّا وَوَصِيَّتُهُ مَكتُوبَةٌ عِندَهُ**»[2]. فمن السنة أن تكتب الوصية، ولا يظُنَّنَّ أحدٌ أن الوصية لا يُراد بها سوى الأمور المالية؛ ما لك، وما عليك! يراد بها هذا وغيره، فيوصي بتحري السنة في تجهيزه وتشييعه ودفنه، وترك ما اعتاد الناس من البدع، ويوصي زوجه وولده من بعده بتقوى الله والثبات على دينه، ونحو ذلك مما يحتاجون إليه؛ إعمالًا لقول ربنا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦]، وتأسِّيًا

---

(١) يُنظر: تفسير القرآ العظيم (٨/٣٠٧).
(٢) البخاري (٢٧٣٨)، ومسلم (١٦٢٧).

بنـي الله يعقـوب ﷺ الذي قـال الله عنـه: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة]. ولا ينـال العلـم إلا بالكتابـة، فـلا بُدَّ مـن تقييـد مسـائله؛ لتثبت.

العِلمُ صَيدٌ والكِتابةُ قَيــــدُهُ ... قَيِّد صيودكَ بالحِبالِ الواثِقَه

فَمِنَ الحَماقَةِ أَن تَصيــدَ غَزالَةً ... وتفكَّها بَينَ الخَلائقِ طالِقـه

وقد أثبتت الدراسات أنَّ من تعلم شيئًا دون أن يحفظه، أو يعمل به، أو يقيده، فإنه ينسى منه ما يقارب السبعين إلى الثمانين بالمئة.

﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾، وهذه أشدُّ آية على أهل النار، فهم في مزيدٍ من العذاب أبدًا[1]. فإنك تجد في الدنيا من يكون في ضيق شديد، لكن مما يخفف عنه ألمه: أملُه في زوال ما به، فإذا انقطع الأمل استحكم الألم.

أعلِّلُ النفس بالآمال أرقبُها ... ما أضيقَ العيشَ لولا فسحةُ الأملِ!

أما أهل النار فلا يزيدهم الله سبحانه إلا عذابًا، فعذابهم لا ينقطع، ولا يقف عند درجة واحدة، بل يزداد عليهم كل يوم، فما أسوأ حالهم!

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/٣٠٧).

الآيات (٣١ ـ ٤٠)

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا
دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً
حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ
مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ
إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن
شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ
يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾﴾، والتقوى أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية بأمرين: بفعل ما أمر، واجتناب ما نهى.

«وَقد قِيلَ: إِنَّ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ ﷺ، سَأَلَ أُبَيَّ بنَ كَعبٍ عَنِ التَّقوى، فَقالَ لَهُ: أَما سَلَكتَ طَرِيقًا ذا شَوكٍ؟ قالَ: بَلَى قالَ: فما عَمِلتَ؟ قالَ: شَمَّرتُ واجتَهَدتُ، قالَ: فَذَلِكَ التَّقوَى.

وَقد أَخَذَ هَذا المَعنَى ابنُ المُعتَزِّ فَقالَ:

خَلِّ الذُّنُوب صَغِيرَها وكبيرَها ذاكَ التُّقَى
واصنَع كَماشٍ فَوقَ أَرضِ الشَّوكِ يَحذَرُ ما يَرَى
لا تَحقِرَنَّ صَغِيرَةً إِنَّ الجِبالَ مِنَ الحَصَى

والمفاز هنا: المتنزه؛ بدليل ما بعدها: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾﴾»[١].

(١) تفسير ابن كثير (٣٠٨/٨).

﴿عَطَآءً حِسَابًا ٣٦﴾، كافيًا كثيرًا، فما كان من الله فلا بُدَّ أن يكون كذلك؛ فإن الله واسع شكور، لا يتعاظمه ما أعطاه، وهو الكريم سبحانه.

﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ٣٧﴾، لا يقدر أحد في ذلك اليوم العصيب أن يتكلم إلا بإذن ربه سبحانه.

ويُكرِم الله أهل الجنة بألا يسمعوا فيها لغوًا، وهو الباطل، قال ربنا: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسًا لَّا لَغۡوٌ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٌ ٢٣﴾ [الطور]، وقال: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمًا﴾ [مريم: ٦٢]، وقال: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا وَلَا تَأۡثِيمًا ٢٥﴾ [الواقعة].

وبيَّن الله تعالى في هذه السورة أن العذاب قريب؛ لأن كلَّ آتٍ قريبٌ، قال ربنا: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ١﴾ [القمر].

﴿يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ﴾، وهذه كقول ربنا: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وَكَقَولِهِ: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ١٣﴾ [القيامة].

وقيل: إن الكافر يتمنى أن يكون ترابًا إذا فُصِل بين الحيوانات وأُمرت بأن تكون ترابًا، فيتمنى أن يصير كذلك، وأنى له ذلك[1]؟

---

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم (٨/٣١١).

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

بين يدي سورة النازعات

هذه السورة مكية بلا خلاف[١]، وسياقها يؤكد ذلك؛ لأنها تتحدث عن البعث واليوم الآخر وهذا ما كان يُنكره الكفار من أهل مكة ونحوهم.

أسماؤها:

تسمى سورة «النازعات»، وتسمى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾، بإثبات الواو على حكاية أول ألفاظها، وسميت بـ «الساهرة»؛ لوقوع هذا الحرف فيها، وتُسمى بسورة «الطامة»؛ للعلة نفسها[٢].

قال ابن عاشور رحمه الله: «ورأيت في مصحف مكتوب بخط تونسي عُنوِنَ اسمها: «سورة فالمدبرات»، وهو غريب، لوقوع لفظ المدبرات فيها ولم يقع في غيرها»[٣].

وأشهر أسمائها: «النازعات»، وهو الذي درج عليه المفسرون، وهو الموجود في المصاحف.

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«وكَلِمُها مئة وتسع وَسَبعُونَ كلمة، وحروفها سبع مئة وَثَلاثَة وَخَمسُونَ حرفًا، وَهِي أَربَعُونَ وست آيات فِي الكُوفِي، وَخمس فِي عدد الباقِينَ، واختلافها آيتان: ﴿وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾،

(١) يُنظر: المحرر الوجيز (٥/٤٣٠).

(٢) يُنظر: التحرير والتنوير (٣٠/٥٩).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/٥٩).

لم يعدها البَصرِيُّ والشامي وعدها الباقُونَ، ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾، لم يعدها المدنيان والمكي وعدها الباقُونَ، وَلَيسَ فِيها مِمّا يشبه الفواصل شَيء»[١].

موضوعاتها:

هذه السورة تتحدث عن اليوم الآخر، وما يكونُ فيه من الأهوال، وشيءٌ من الأدلة العقليَّة على إثباته، وحال الناس فيه، وعن الطغيان، وعاقبته، وأحد أئمته، وما حل به من العقاب.

ولقوةِ ما تناولته كان البدءُ فيها بمقطع يهزُّ القلوب ويأسِر الأفئدة؛ ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ٤﴾.

ويتبينُ لنا من هذه السورة العظيمة أن الإنسان إذا أراد أن يتحدث عن موضوع فينبغي أن يقدِّمَ بمقدمة تناسبُه، فالحديث عن اليوم الآخر يختلف عن الحديث عن الدنيا وزينتها، والحديث عن الكفار يختلف عن الحديث عن حال أهل الإيمان بالله ورسوله، وهذا منهج مُطَّرِد في القرآن، فالداعية، وطالب العلم، والمعلِّم، والمربي، يجب أن يتناسق كلامهم من أوله إلى آخره.

مقصدها:

إثبات اليوم الآخر بذكر أدلته، والتذكير بحال من يكذِّب به.

---

(١) البيان في عدِّ آي القرآن، ص (٢٦٣).

سورة النازعات: تأملات، ووقفات

الآيات (١ ـ ٥)

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ٥﴾

افتتحت السورة المباركة بهذه الأقسام العظيمة: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ١﴾، وهي الملائكة تنزع أرواح الكافرين، وهي تُغرق في نزع أرواحهم من جميع أطراف أبدانهم؛ لأن الروح متفرقة في البدن، وعند الموت تزداد تفرقًا، وتزداد روح الكافر بجسده تعلقًا، فتأتي الملائكة وتنزعها نزعًا شديدًا، فكل عضو من أعضاء الكافر يتعذب بنزع الروح منه؛ قلبه، وبدنه، وقدمه، ورأسه، كما في حديث البراء بن عازب ﷺ في الحديث عن فتنة القبر ونعيمه وعذابه، قال نبينا ﷺ: «**وَإِنَّ العَبدَ الكافِرَ إذا كانَ فِي انقِطاعٍ مِنَ الدُّنيا وَإِقبالٍ مِنَ الآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيهِ مِنَ السَّماءِ مَلائِكَةٌ سُودُ الوُجُوهِ، مَعَهُمُ المُسُوحُ، فَيَجلِسُونَ مِنهُ مَدَّ البَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ المَوتِ، حَتَّى يَجلِسَ عِندَ رَأسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُها النَّفسُ الخَبِيثَةُ، اخرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللهِ وَغَضَبٍ، فَتُفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَنتَزِعُها كَما يُنتَزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ المَبلُولِ، فَيَأخُذُها، فَإِذا أَخَذَها لَم يَدَعُوها فِي يَدِهِ طَرفَةَ عينٍ**»[1].

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند برقم (١٨٥٣٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (١٦٧٦).

﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ٢﴾، هذه الملائكة التي تنشط في قبض أرواح المؤمنين برفق، وانظروا الفرق بين ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ١﴾، وبين ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ٢﴾، أما الكفار فتنزع أرواحهم نزعًا شديدًا، بينما أرواح المؤمنين تقبضها بيسر وسرعة، وما أكثر المقارنات التي عُقدت بين الطائفتين؛ ترغيبًا في سلوك سبيل الإيمان، وترهيبًا من غيره! وقد أكد النبي ﷺ هذا المعنى بقوله في حديث البراء السابق: «**فَتَخرُجُ (أي: روح المؤمن) تَسِيلُ كَما تَسِيلُ القَطرَةُ مِن فِي السِّقاءِ**».

وقد حدثنا أناسٌ ممن حضروا وفاة بعض المؤمنين من آبائهم أو إخوانهم أو غير أولئك، يقولون: إن أرواحهم خرجت بكل يسر وسهولة، وإذا ماتوا كانوا كالنيام، فروح المؤمن تخرج كما تُسَلُّ الشعرة من العجين برفق، وهذه أمارة على حسن الخاتمة، جعلنا الله من أهلها.

﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ٣﴾؛ أي تسبح بين السماء والأرض، وقيل: تسبح حاملة الأرواح، فأرواح الكفار تُرَدُّ إلى أسفل سافلين، وأرواح المؤمنين يُصعَد بها إلى السماء في جنات النعيم، كما في حديث البراء الذي سبق ذكره. وقد قيل بغير ذلك في تأويلها، فقيل في معنى السابحات: السفن، والنجوم، والموت، والخيل[1].

ومما يدل على أنها الملائكة: أن ما ذكر في الأقسام كلّها يصدق عليها، فلا يكون هذا خارجًا عن نسقها.

﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ٤﴾، هي الملائكة السابقة إلى تنفيذ أمر الله، فهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وهذا ما ينبغي أن نتحلّى به؛ فإن الله تعالى مدح الملائكة بذلك، وهم عباد مكرمون، فدل على أن المسارعة في إجابة

---

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم (٨/٣١٢).

الأمـر صفة مدح يحبهـا الله من عباده، قـال ربنا: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ [آل عمران] وقـال: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الحديد: ٢١] وقـال: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ١٤٨] وقـال: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا﴾ [المائدة: ٤٨] وقـال الله تعـالى على لسـان الكليـم ﷺ: ﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ٨٤﴾ [طه].

﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ٥﴾، الملائكـة الـتي تسـعى في تدبـير أوامـر الله في الخلـق، فملـكٌ مُكلَّـفٌ بالمطـر، وآخـرُ مُكلَّفٌ بالجبـال، وثالـثٌ مُكلَّـفٌ بـالأرزاق، ورابـعٌ بالـوحي، وخامـسٌ بقبـض الأرواح، إلى غـير أولئـك ممـن لا يعلـم عددهـم إلا الله سـبحانه.

الآيات (٦ ـ ١٤)

يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ
وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ
فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ
خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾﴾، قيل: إن هذه الآية تضمَّنت جوابَ القسم، أي: إن وعد الله حق، والقيامة يوم يقع هذا الذي تنخلع به القلوب، فاشتمل جواب القسم على تحذير شديد لهم[1]. وهذه الصيحة الأولى.

﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾﴾، أي: الصيحة الثانية، فهما صيحتان أو نفختان.

وقد ثبت عن أُبَيِّ بنِ كَعبٍ ﷺ، قالَ: كانَ رَسُولُ الله ﷺ إذا ذَهَبَ ثُلُثا اللَّيلِ قامَ فَقالَ: «**يا أَيُّها النّاسُ، اذكُرُوا اللهَ، اذكُرُوا اللهَ، جاءَتِ الرّاجِفَةُ، تَتبَعُها الرّادِفَةُ، جاءَ المَوتُ بِما فِيهِ، جاءَ المَوتُ بِما فِيهِ**»[2].

ولأن الحديث في السورة عن اليوم الآخر بدأ ربنا بذكر الملائكة التي تنزع أرواح الكافرين والمؤمنين، فقال: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾﴾، فهذه أول مراحلها.

﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾﴾، المراد بهذه الآية: الكفار، فقلوبهم

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٣٠/٦٦).
(٢) رواه الترمذي برقم (٢٤٥٧)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب برقم (١٦٧٠).

واجفة: مضطربة غير مطمئنة، وتأمَّل: ما قال ربنا بعد ذلك: أبصارهم خاشعة! بل: ﴿أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ﴾، فأسند الأبصار إلى القلوب؛ لأن ما يحدث في القلوب يظهر للأعين.

﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾﴾، أي: يقول أصحاب هذه القلوب الذين أنكروا البعث في الدنيا: أنرجعُ إلى الحياة بعد أن نموتَ ونُدفَنَ تحت التراب؟ يقولون ذلك تكذيبًا.

﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾﴾، قالوا كل هذا استهزاءً وسخرية بما جاء به النبي ﷺ من تأكيد البعث.

ثم أخبر ربنا تعالى أن هذا الأمر الذي استبعدوه ونَفَوه يسير عليه، فقال: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ أي: هذا الذي تستبعدونه وتقولون: لا يمكن أن يكون أمرًا سهلًا، يسيرٌ على الله ﷻ، ليس أكثر من زجرة واحدة تُعيد جميع الخلائق من قبورهم. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل]، ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾ [النحل].

والساهرة: الأرض، وسُميت الأرض بالساهرة لأن فيها نوم الحيوان وسهره[1].

وهذه الآيات تتحدث عن اليوم الآخر، وتقرر وقوعه وبعض ما فيه، والإيمان به من أركان العقيدة، فلا بُدَّ من اهتمام الدعاة وطلاب العلم بهذا. فإن قيل: إن المؤمنين لا يحتاجون إلى التذكير بهذا، فهم يؤمنون بالله ﷻ، ويؤمنون باليوم الآخر. فالجواب: المؤمن يذكر باليوم الآخر؛ ليزداد إيمانه، وليكف نفسه عن معصية الله، وينشط في الطاعة، وتزداد قناعته بما رزقه الله، ولئلا يتعلق قلبه بالدنيا، فخطاب الله تعالى الناس بهذه الآيات غير مختص بالكافر.

---

(١) تفسير الطبري (٢٤/١٩٦).

الآيات (١٥ ـ ٢٦)

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾
ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ
إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾
ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾
فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾

اشتملت هذه السورة المباركة على قصة، وما أعظم تأثير القصص في نفوس سامعيها! وأعظم القصص قصص القرآن الكريم، ولعظم أمرها كَثُرت فيه، وسورة يوسف كلها في شأن نبي كريم، حفظت قصته للأجيال، والغرض هنا التنبيه على أهمية القصص فعلينا العناية بهذا الأسلوب، فلولا أن له تأثيرًا كبيرًا لما كثرت القصة في كتاب ربنا، وأبلغ القصص تأثيرًا قصص القرآن والسنة، وسيرة من تربَّوا عليهما، فعلى المربين الاهتمام بهذا بدلًا من القصص الكاذبة التي لا علاقة لها بالواقع، وقد تضر أكثر مما تنفع، ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المرسلات].

وقد استُهِلَّ الشروعُ في خبر موسى هنا بسؤال النبي ﷺ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾؛ وغرضه التشويق والتحقيق، وخبر موسى عليه السلام من أكثر قصص الأنبياء ذكرًا في القرآن، وقد ذكر العلماء لذلك أسبابًا، من أبرزها:

● أنَّ فيها تسلية للنبي ﷺ، فقد ابتلي الكليم ﷺ ابتلاء عظيمًا ببني إسرائيل، ولذلك ثبت في الصحيح، قولُ نبينا ﷺ: «رَحْمَةُ اللهِ عَلَى مُوسَى، لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ»[١]. وقد يكون سبب ذلك أن موسى ﷺ أوذي من أتباعه! أما نبينا ﷺ فأتباعه أشد الناس إعظامًا له، قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح].

● ومن حكم هذا التكرار ما قال ابن تيمية ﷺ: «وثنَّى قصة موسى ﷺ مع فرعون؛ لأنهما في طرفي نقيض في الحق والباطل، فإن فرعون في غاية الكفر والباطل حيث كفر بالربوبية وبالرسالة، وموسى ﷺ في غاية الحق والإيمان من جهة أن الله كلمه تكليمًا لم يجعل الله بينه وبينه واسطة من خلقه، فهو مثبت لكمال الرسالة وكمال التكلم، ومثبت لرب العالمين بما استحقه من النعوت، وهذا بخلاف أكثر الأنبياء مع الكفار، فإن الكفار أكثرهم لا يجحدون وجود الله، ولم يكن أيضًا للرسل من التكليم ما لموسى، فصارت قصة موسى ﷺ وفرعون أعظم القصص وأعظمها اعتبارًا لأهل الإيمان ولأهل الكفر»[٢].

فقول ربنا: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥﴾، فيه تسلية لنبينا ﷺ.

وفي هذا رسالة للداعية أنه قد يُؤذَى من بعض المدعوين، بل من بعض المؤمنين، بسبب تُهَمٍ، أو أخطاء، أو استعجال، وله في الكليمين أُسوة؛ موسى ونبينا صلى الله عليهما وسلم.

● ومن الحكم أيضًا: أنَّ هناك شَبَهًا بين طغيان كفار قريش وبين طغيان فرعون، ففي كفار قريش من سماه النبي ﷺ «فرعون هذه الأُمَّة»؛ لشدة طغيانه وعتوه، فقد قال في أبي جهل: «هَذَا كَانَ فِرْعَوْنَ هَذِهِ الأُمَّةِ»[٣].

---

(١) البخاري (٤٣٣٥).
(٢) مجموع الفتاوى (١٢/٩).
(٣) أحمد (٤٢٤٦).

وهناك شَبَهٌ بين أتباع الكليمين في الكثرة، فقوم موسى ﷺ كانوا قلة ثم كثر عددهم بعد هلاك طاغيتهم. يدل على ذلك آية وحديث، أما الآية فقول ربنا: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [يونس]، فلما مات الطاغية كثُر عددهم، ويدل عليه قول نبينا ﷺ: «**عُرِضَت عَلَيَّ الأُمَمُ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ والنَّبِيّانِ يَمُرُّونَ مَعَهُمُ الرَّهطُ، والنَّبِيُّ لَيسَ مَعَهُ أَحَدٌ، حَتَّى رُفِعَ لِي سَوادٌ عَظِيمٌ، قُلتُ: ما هَذا؟ أُمَّتِي هَذِهِ؟ قِيلَ: بَل هَذا مُوسَى وَقَومُهُ**»(١). وهكذا الحال بعد بعثة النبي ﷺ.

وما هو حديث موسى؟ حديث موسى ﷺ يبدأ منذ أن وضعته أمه رضيعًا، وتربى في بيت فرعون، وحدث له ما حدث بعد ذلك.

وإن من أعجب حديثه: أنه تربى في بيت من كان يقتل الأولاد لئلا يكون موسى، فنشأ موسى ﷺ في بيته! ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾ [الفرقان]، وهذا خبر قد طُوي في هذا الموضع وبُسط في أخرى، إذ الغرض ههنا بيان طغيان فرعون وتَكَبُّره، ثم تكذيبه وتولِّيه، وبيان عاقبته ليعتبروا بها! فقال تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾، وفي سورة طه: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾﴾، فهل هناك فرق؟ لا، فقد أمر الله الكليم بذلك أولًا، ثم لما سأل ربَّه أن يجعل أخاه هارون وزيرًا معه توجه الأمر إليهما. وهذا ما تبينه سورة طه، قال ربنا: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى

(١) البخاري (٥٧٠٥).

وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ﴿٣٩﴾ إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ﴿٤١﴾ ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ﴿٤٢﴾ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ [طه].

﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾، الطغيان: تجاوز الحد، قال ابن القيم ﵀: «الِاسْتِقَامَةَ ضِدُّ الطُّغيانِ، وَهُوَ مُجَاوَزَةُ الحُدُودِ فِي كُلِّ شَيْءٍ»[1].

والسلامة من الطغيان عزيزة، قال ربنا: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾ [العلق]، يطغى الإنسان أحيانًا على من حوله، وعلى من تحت يده، يطغى على الخادم، ولربما طغى على أهل بلد آخر، ورأى أنه أفضل منهم، أو على قبيلة أخرى، ومن صوره: طغيان الوالد على ولده، والزوج على امرأته، والمرأة على أختها، والطغيان يحتاج دفعه وعلاجه إلى مجاهدة، ولذلك عندما نقرأ هذه الآيات لا ينبغي أن نتصور أنه لا سبيل لتسلط طغيان مَن ذُكِر فيها علينا، فالمسألة تحتاج إلى مجاهدة، والمعصوم من أراد الله به خيرًا. ومما جاء في التحذير منه: قول نبينا ﷺ فيما يرويه عنه ربه: «العِزُّ إزارُي، والكِبرِياءُ رِدائي، فَمَن يُنازِعُني عَذَّبتُه»[2]. ومن أنواع الطغيان: الحسد، وقد قيل فيه: «ما خلا جَسَد من حسد، لَكِن اللَّئِيم يبديه، والكريم يخفيه»[3]. يقول أحد طلبة العلم: لما بلغتني هذه الكلمة عن ابن تيمية بدأت أراجع نفسي، فلمست صدقها، فحمدت الله على أني لا أُبديه، وسلكت سبيلًا ناجعًا للخلاص منه، وهو: أنني أدعو لمن أخشى أني أحسده بصدق وإخلاص بأن يبارك الله له فيما أعطاه، وأن يزيده، فإن كان في العلم سألتُ الله أن يجعله للمتقين إمامًا، وأن يجعله من مجددي هذا الدين، وإن كان في المال أدعو الله أن يبارك له في رزقه. فالشيطان إذا رأى أنك تدعو بصدق لمن وسوس إليك لتحسده فلن يدخل إليك من هذا الباب بعد ذلك؛ لأن عداوته تقتضي ألا يعينك على خير!

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٢/١٠٤).
(٢) صحيح مسلم، برقم (١٣٦).
(٣) أمراض القلوب وشفاؤها، لابن تيمية، ص (٢١).

ومـن أعظـم صـور الطغيان: طغيـان الحاكـم، وطغيان المـوسر الغـنيّ. وتأمل مـا قـاله الله في فرعـوني العالـم؛ فـفي فرعون مـوسى ورد قـول الله تعـالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ١٧﴾، وفي فرعـون هـذه الأُمَّـة؛ أبي جهـل، نزلت الآيـة: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ٦﴾ [العلق][1].

ودلت الآية على أن كثرة المال من أسباب الطغيان.

ومن تأمل في هذه الآية: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ١٧﴾، علم ما للدعاة إلى الله من المكانة العالية، والرتبة السامية، فأي شرف أعظم من أن يستعملهم الله تعالى فيما استعمل فيه أنبياءه؟! لكنَّ هذا الشرف لا يُنال إلا إذا كانت الدعوة إلى الله، أما من دعا إلى نفسه، أو إلى شيخه، أو إلى جماعته، أو حزبه، فلا يصدق فيه أنه دعا إلى الله تعالى!

ومـن فقـه الدعـوة الذي أرسـت قواعـده هـذه الآيـة: أن يذهـب الداعيـة إلى المدعـو في مكانـه. وفي سـورة طـه قال ربنـا لمـوسى ﷺ: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ٤٢ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ٤٤﴾ [طه].

وفي علـم الله ﷻ أن فرعـون لـن يتذكـر ولـن يخشى، ولكـن يتعين علينـا أن نبلغ ديـن الله معـذرة إليه، قال عـزَّ اسـمه: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ١٦٤﴾ [الأعراف].

والآية تدعو كل داعية إلى أن يتحلى بالأخلاق الحسنة، فهذا فرعون الذي قال: أنا ربكم الأعلى، يُؤمر الكليم ﷺ أن يلين معه في الخطاب، فكيف بغيره! إنك لتعجب من بعض الدعاة إذا ردّ على بعض إخوانه في مسألة يسوغ الخلاف فيها تحدث عنه بأسلوب مشبَّع بالشِّدَّة والغلظة! وقال فيه ما لم يقله مالك في الخمر كما يُقال! وإلى الله المشتكى.

---

(١) يُنظر: تفسير القرآن العظيم (٨/٤٣٩).

واللين في الدعوة هدي نبينا ﷺ، فقد ثبت أن عُتبَةَ بنَ رَبيعَةَ ـ وَكانَ سَيِّدًا حَلِيمًا ـ قالَ ذاتَ يَومٍ وَهُوَ جالِسٌ في نادِي قُرَيشٍ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ جالِسٌ وَحدَهُ في المَسجِدِ: يا مَعشَرَ قُرَيشٍ أَلا أَقُومُ إِلَى هَذا فَأُكَلِّمُهُ، فَأَعرِضُ عَلَيهِ أُمُورًا لَعَلَّهُ أَن يَقبَلَ مِنها بَعضَها وَيَكُفَّ عَنّا؟ قالُوا: بَلَى يا أَبا الوَلِيدِ. فَقامَ عُتبَةُ حَتَّى جَلَسَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فعَرَضَ عَلَيهِ مِنَ المالِ والمُلكِ وَغَيرِ ذَلِكَ، فَلَمّا فَرَغَ عُتبَةُ قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَفَرَغتَ يا أَبا الوَلِيدِ؟**»، قالَ: نَعَم. قالَ: «**فاسمَع مِنِّي**». قالَ: أَفعَلُ. فَقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ حم (١) تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣)﴾، فَمَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقرَؤُها عَلَيهِ، فَلَمّا سَمِعَها عُتبَةُ أَنصَتَ لَها وَأَلقَى بِيَدَيهِ خَلفَ ظَهرِهِ مُعتَمِدًا عَلَيهِما يَسمَعُ مِنهُ، حَتَّى انتَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى السَّجدَةِ فَسَجَدَ فِيها ثُمَّ قالَ: «**سَمِعتَ يا أَبا الوَلِيدِ؟**»، قالَ: سَمِعتُ. قالَ: «**فَأَنتَ وَذاكَ**». فَقامَ عُتبَةُ إِلَى أَصحابِهِ، فَقالَ بَعضُهُم لِبَعضٍ: نَحلِفُ بِاللهِ لَقَد جاءَكُم أَبُو الوَلِيدِ بِغَيرِ الوَجهِ الَّذِي ذَهَبَ بِهِ! فَلَمّا جَلَسَ إِلَيهِم قالُوا: ما وَراءَكَ يا أَبا الوَلِيدِ؟ قالَ: وَرائِي أَنِّي واللهِ لَقَد سَمِعتُ قَولًا ما سَمِعتُ مِثلَهُ قَطُّ، واللهِ ما هُوَ بِالشِّعرِ، وَلا السِّحرِ، وَلا الكَهانَةِ، يا مَعشَرَ قُرَيشٍ أَطِيعُونِي واجعلُوها بِي، خَلُّوا بَينَ هَذا الرَّجُلِ وَبَينَ ما هُوَ فِيهِ، فواللهِ لِيَكُونَنَّ لِقَولِهِ الَّذِي سَمِعتُ نَبَأٌ[1]. فبدأ معه النبي ﷺ بالملاطفة، ولم يقاطعه، واستمع منه إلى كافة عروض الرشوة لترك دين الحق! ثم ألان له النداء فكنّاه، ثم شرع في موعظته بأبلغ المواعظ ألا وهي موعظة القرآن.

قال معلّى بن أيوب ﷺ: «بينما هارون الرشيد يطوف بالبيت؛ إذ عَرَض له رجل، فقال: يا أمير المؤمنين! إني أريد أن أكلمك بكلام فيه غلظة؛ فاحتمله لي. فقال: لا، ولا نعمةَ عين ولا كرامة، قد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شر مني، فأمره أن يقول له قولًا ليّنًا»[2].

(١) الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد، ص(٢٦٧).
(٢) المجالسة وجواهر العلم (٣/٣٦٤).

ومن هدايات الآيات: أن الله تعالى أعطى موسى وأخاه ﷺ منهجين في الدعوة: الوعظ، وإقامة الحُجَّة. قال ربنا: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾، فبدأ بالموعظة؛ لما لها من تأثير كبير، ثم أقام الحُجَّة عليه بالآية الكبرى، وهذا مما يمكِّن الموعظة من قلب المدعو، فابدأ مع من تدعوه بعلاج القلب، ثم أقم الحُجج عليه.

وبعض الناس قد تكون لديه قدرة على الوعظ، لكن ليست عنده قدرة على إقامة الحُجَّة، والعكس صحيح، فقد يوجد قوي الحُجَّة، لكن ليس عنده قدرة على الوعظ، والصنفان يضران كثيرًا، فإنك تجد بعض طلاب العلم ممن لم تثبت في طريقه قدمه، يُناظِر أصحاب الهوى والبدع، فتُطرَح عليه شبهات لا يتمكن من الرد عليها، فيكون بذلك سببًا في ظهور الباطل، والتلبيس على الجهلاء! وفي المقابل فإن بعض أصحاب الحق عنده من القسوة والغلظة ما يجعل الناس ينفضُّون من حوله!

فهل معنى ما سبق أننا لا نقسو على صاحب الباطل مطلقًا؟ لأنني لاحظت أن كثيرًا من الدعاة وطلاب العلم يحتجون بهذه الآية وبآية طه: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه]، وينادون إلى استخدام اللين مع المدعوين مطلقًا! وأقول: لا تأخذوا بعض القرآن وتتركوا بعضه! فإن موسى ﷺ أغلظ لفرعون لما تمادى في غيه، واتبع هواه، ولم يرفع رأسًا بحُجَج الله التي رآها، قال ربنا سبحانه ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسراء]. أي: هالكًا، ملعونًا، مغلوبًا[1].

﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾؟ ذكر العلماء تحتها أهمية العناية بالقادة والكبار؛ لأنه إذا أسلم القائد أثَّر ذلك في إسلام قومه.

---

(١) يُراجع: تفسير القرآن العظيم (١٢٦/٥).

أخبرني أحد الإخوة في مكاتب دعوة الجاليات أنه إذا أسلم الأب غالبًا تسلم زوجته وولده، كذلك إذا أسلم رئيس دولة أسلم من تحته. قال: ذهبنا إلى المالديف، وكانت الزيارة دعوية علمية، فوجدنا عجبًا؛ ينص دستور المالديف على أن دين الدولة الإسلام، وعلى التقيُّد بمنهج أهل السنة والجماعة، ووجدنا فيها عجائب ذكرتها وكتبت عنها مقالًا، ومما يثلج الصدر: أنه لا يوجد فيها أي دين آخر، ويقام الحد على المرتد، وتغلق الحوانيت للصلاة بدون أن يُراقبهم في ذلك أحد، ولديهم اهتمام كبير بحفظ القرآن، ومما يؤخذ عليهم أن جزرهم السياحية تُرتكَب فيها الموبقات، وقد كلَّمنا المسؤولين عن ذلك. ولما سألتهم عن سبب انتشار الإسلام فيها قالوا: كان آباؤنا وثنيين، حتى جاء إليهم رجل من المغرب، اسمه يوسف المغربي، فعاش في المالديف، فذهب ودعا الملك، وقصة دعوته طويلة، فأسلم الملك، وأصدر أمرًا إلى أهل المالديف أن يُسلموا فأسلموا جميعًا عن بكرة أبيهم، فهذه فائدة الاهتمام بالقادة والزعماء في الدعوة، ولهذا قال نبينا ﷺ: «**لَو آمَنَ بِي عَشَرَةٌ مِنَ اليَهُودِ، لآمَنَ بِي اليَهُودُ**»[1]. لكن لا ينبغي أن يكون ذلك هضمًا من حق الفقراء والضعفاء، كما سيأتي معنا بمشيئة الله تعالى في تأملات سورة عبس.

﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾. تكذيب فرعون كان سريعًا مباشرًا، ولذا قال ربنا: ﴿فَكَذَّبَ﴾، ودلالة الفاء على التعقيب بلا مهلة معروفة.

وحشر فرعون قومه، ليكون نكيرهم أدعى في انهزام داعية الهدى، وهذا يقودني إلى الحديث عن فقه التعامل مع الجماهير، فالجماهير سلاح ذو حدين، إما أن يكون لك، أو يكون عليك. فالجماعة من الناس قد تدفع الداعية إلى تغيير موقفه،

---

(١) البخاري (٣٩٤١).

وقد تكون عونًا له على الثبات على دين الله وما يرضيه عنه. ومن جميل ما قاله الشيخ جعفر شيخ إدريس عافاه الله: «أنتم لا ترضون لي أن أكون بوقًا للسلطان، وأنا لا أرضى أن أكون بوقًا للجماهير»، وهذه الكلمة نقلتها للعلامة ابن عثيمين ﷺ في مكة عام ١٤١٢هـ فاستحسنها. ومما كان يكرره العلامة ابن عثيمين ﷺ قوله: «العلماء ثلاثة: عالم دولة، وعالم أُمَّة، وعالم مِلَّة». فعالم الدولة يرى ما يراه حاكمُه، وعالم الأُمَّة يفتي بما يطلبه الجمهور، وعالم المِلَّة به يُحفَظ الإسلام. والمقصود أن فرعون استخف قومه فأطاعوه، فهل نفعه ذلك؟!

﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾، فيها دليل على أن القرآن نزل للاعتبار بما فيه من الأخبار، والنص على هذا كثير، قال الله ﷻ: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران]، وقال في اليهود: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر: ٢]، وفي ختام قصة يوسف ﷺ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف]، ولذا لا بُدَّ من إمعان النظر فيما يستفاد من القصص من الدروس والعظات.

وفي هذه الآية: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾﴾ قدم الآخرة؛ لأنها أشد عذابًا، ومن صور عذابهم فيهما: الغرق، وعرض أرواحهم على النار في برزخهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر]، وفوق ذلك عذاب يوم الدين، قال ربنا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾ [هود].

وقول ربنا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾﴾ دليل على أن مما ينجي من هذا المآل: خشية الله، فمن بلغ هذه الرتبة فقد أمسك بالخير من ناصيته. ذُكر معروف الكرخي عند الإمام أحمد فقيل: قصير العلم. فقال: «أمسِك! وهل يُراد من العلم إلا ما وصل إليه معروف»؟[1]. وكان إمامًا من أهل الخشية، والعلماء هم أهل خشية الله، قال ربنا: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر]. ولذلك يُراقبون الله في كل ما يصدر عنهم، ولا يتساهلون بتتبُّع الرُّخَص.

ومن دروس هذه القصة: إهلاك الله للطغاة، وكم من طاغيةٍ أهلكه الله، وأخذه أخذ عزيز مقتدرا قال ربنا: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود]. وقد روى أبو مُوسَى ﷺ، أن رَسُول اللهِ ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ لَيُملِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذا أَخَذَهُ لَم يُفلِتهُ**» قالَ: ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود][2]. فهذه نهاية كل طاغية، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشعراء].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٨/٨٦).
(٢) البخاري (٤٦٨٦).

الآيات (٢٧ ـ ٤١)

ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾

في هذه الآيات تقرير للبعث بلفت الأنظار إلى ما في الكون من الآيات الدالة على قدرة الله على الخلق بدءً وإعادة، قال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾﴾، ويحسن بالقارئ أن يقف عند كلمة ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾، ليكون المعنى تامًا، فالمراد: «﴿ءَأَنتُمْ﴾ أيها البشر ﴿أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ ذات الجِرم العظيم، والخلق القوي، والارتفاع الباهر ﴿بَنَىٰهَا﴾ الله»[1]. وهذا خطاب لكل جاحد للبعث، قال ربنا: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر].

﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾﴾ السَّمك هو السقف[2]، وفي ذلك دليل على أن السماوات مبنية، وأن لها سقفًا، والله أعلم بكيفية ذلك.

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص(٩٠٩).
(٢) المصدر السابق.

﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾﴾، وقد كان خلق الأرض سابقًا لخلق السماء، قال ربنا: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصلت]. قال ابن كثير رحمه الله: «فَفِي هَذا دَلالَةٌ عَلَى أَنَّهُ تعالى ابتَدَأَ بِخَلقِ الأَرضِ أَوَّلًا ثُمَّ خَلَقَ السَّماواتِ سَبعًا، وَهَذا شَأنُ البِناءِ أَن يَبدَأَ بِعِمارَةِ أَسافِلِهِ ثُمَّ أَعالِيهِ بَعدَ ذَلِكَ»(١). فإن قيل: لكن يفهم من هذه الآية: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾﴾ أن خلق الأرض وقع بعد خلق السماء؟ فالجواب: أنها خلقت قبل السماء، ولكنها دحيت بعدها، ففي صحيح البخاري، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «خَلَقَ الأَرضَ في يَومَينِ، ثُمَّ خَلَقَ السَّماءَ، ثُمَّ استَوَى إِلَى السَّماءِ فَسَوّاهُنَّ فِي يَومَينِ آخَرَينِ، ثُمَّ دَحا الأَرضَ، وَدَحوُها: أَن أَخرَجَ مِنها الماءَ والمَرعَى»(٢).

﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾﴾، وهذا دحوها.

و«ذكرُ المرعى يدل على لطف الله بالعجماوات، فيعرف منه أن اللطف بالإنسان أحرى، بدلالة فحوى الخطاب، والقرينة على الاكتفاء قوله بعده متاعًا لكم ولأنعامكم»(٣). والمرعى كل ما تخرجه الأرض للإنسان والعجماوات، ولهذا قال: ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾، والواجب أن نعتبر ونتعظ، إذا أنعم الله عليك بلقمة فسل نفسك: من أين جاءت؟ كم من محروم من هذا الذي ساقه الله إليك لا يجده؟! وكم ممن وجده وليست له عافية

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢١٣/١).
(٢) البخاري (١٢٨/٦).
(٣) التحرير والتنوير (٨٧/٣٠).

تمكنه من أكله أو التلذُّذ به؟! وهناك من يجد معاناة من التخلص منه بعد أكله، فلذته به مُنَغَّص عليه فيها، وهذه الحبة التي نرمي بها في باطن الأرض كيف صارت شجرة؟! ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الواقعة]. فهذا كله ينبغي التفكُّر فيه، لكن المألوف يقل فيه الاعتبار، ثبت في الصحيحين[1] عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: بتُّ عند النبي ﷺ ذات ليلة، فقام من آخر الليل، فخرج فنظر في السماء، ثم تلا هذه الآية: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]. فالتفكُّر في مثل هذا المألوف إلينا قليل.

﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾، أي: «قَرَّرَها، وَأَثبَتَها، وأكَّدها فِي أَماكِنِها»[2]، وهي آية كذلك دالة على قدرة عظيمة، وأثرها في النفوس جراء مشاهدتها عظيم.

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾﴾، والطامة الداهية والأمر العظيم الذي لا يُستطاع، ومن وقف على بعض ما في اليوم الآخر من المشاهد والمواقف التي وردت في الوحيين علم مناسبة هذا الاسم لمسماه. وللقيامة كثير من الأسماء، لكن جيء بهذا الاسم هنا لأن السورة تناولت أطغى طاغية، فلا ريب أن يوم الفصل موعده، وسيجد فيه هذا الطاغية وغيره عذابًا عظيمًا، وهذا من معاني هذا الاسم، يقال: طم الفرس إذا استفرغ وسعه في الجري[3].

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾﴾، وفي موضع آخر قال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾﴾ [الفجر].

---

(١) البخاري (١٨٣)، ومسلم (٢٥٦).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٣١٦/٨).
(٣) ينظر: تفسير القرطبي (٢٠٦/١٩).

﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾، أي: «أُظهِرت لِلنّاظِرِينَ، فرآها النّاسُ عِيانًا»[١].

﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ ﴾، ذكر أكبر الطغاة في هذه السورة، وما يلقى من النكال والعذاب، ثم قرنه بذكر من سلك سبيله من إخوانه، فقال: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾، فلا بُدَّ من التنبُّه إلى هذا، وتفتيش النفس أن تضلَّ بسبب شيء من الطغيان فيها.

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ ﴾، دلت على أن في معرفة الله تعالى والخوف منه مزدجرًا عن الطغيان وإيثار العاجلة، فمن حقق ذلك المقام لم يفعل إلا ما يَرضى به عنه ربه.

﴿ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾، إذا سئل بعض المُنكبِّين على معصية الله ومخالفة أمره: لماذا تقع في أوحال هذه الخطيئات؟! لقال: أنا حُرٌّ! وما علم أنه أسيرٌ لهواه والشيطان، فالإنسان خلق ليكون عبدًا، فمن الناس من يكون عبدًا لله، ومنهم من يكون عبدًا للشيطان وهواه! وربنا قال: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [يس]، فهذان خياران لا ثالث لهما، فالحرية الحقيقة في تحقيق العبودية لله رب العالمين.

---

(١) تفسير ابن كثير (٣١٧/٨).

الآيات (٤٢ ـ ٤٦)

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ
﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا
﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾

بعد أن قرر ما سبق من دلائل قدرة الله على البعث، ومآل الطغاة يوم الجزاء، عرض سؤالًا يطرحه المكذبون بالبعث، وقد يصدر عن المؤمن تحسبًا أو استعجالًا للخير على غير وجه سؤال المُكذِّبين، فقال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾﴾، متى إقامتها وثبوتها؟ وهذا السؤال مما استأثر الله تعالى بعلمه، ولم يخبر به عباده وذلك لحكمة، إذ لو كانت الحكمة وكان الصلاح في إخبارهم لأخبرهم! ومنه يعلم أنه لا يتعيَّن على المرء الإجابة عن كل سؤال، فإذا ترتبت على الإجابة مفسدة فالواجب السكوت عنها، كما لو كان الحديث لبعض الناس فتنة، ولذا قال ابن مسعود ﷺ: «ما أنت بمحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم، إلا كان لبعضهم فتنة»[1]. فلا يجب على العالم أن يُخبر بما يخشى أو يقطع بأنه سيكون فتنةً للسائل، وفي صحيح مسلم: «باب النهي عن الحديث بكل ما سمع»[2]. ومما ينبغي الكف عن الإجابة عنه: الأسئلة الافتراضية التي لا يراد من طرحها إلا الجدال الذي لا طائل تحته! ولا تُجِب عما سكت عنه القرآن

(١) مسلم (٩).
(٢) مسلم (١/١١).

والسنة مما لا يترتب على ذكره فائدة، مثال ذلك: قال ربنا: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [يس]، من هذا الرجل؟ هذا سؤال يجاب عنه بآخر: وهل ذُكر اسمه في القرآن أو السنة؟ وماذا يترتب على علمك باسمه؟! فلا نسأل عما لا فائدة فيه.

وقد ثبت عَن عائِشَةَ ﵂ أنها قالَت: «لَم يَزَل رَسُولُ اللهِ ﷺ يُسأَلُ عَنِ السّاعَةِ حَتَّى نَزَلَت: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾»[1]، وليس مهمًا بالنسبة للعبد متى تكون الساعة، بل الشأن أن يعمل لها قبل أن يرحل بالموت الذي ليس له وقت محدد، ولا ميعاد مضروب، ومن مات فقد قامت قيامته.

(١) الحاكم في المستدرك على الصحيحين (٤٦/١)، وصححه الشيخ مقبل الوادعي في الصحيح المسند من أسباب النزول، ص (٢٦٢ ـ ٢٦٣).

سُورَةُ عَبَسَ

بين يدي سورة عبس

أسماؤها:

تُعرَف هذه السورة المباركة بسورة ﴿عَبَسَ﴾؛ للبدء بها، وسميت بسورة: ﴿ٱلْأَعْمَىٰ﴾، وبسورة ابن أم مكتوم؛ لأن أولها نزل فيه كما سيأتي، وتسمى بسورة الصاخة، وسورة السفرة؛ لورودهما فيها[١].

وهي مكية باتفاق[٢].

عدد آياتها:

«كَلِمُها مئة وَثَلاث وَثَلاثُونَ كلمة، وحروفها خمس مئة وَثَلاثَة وَعِشرُون حرفًا، وَهِي أَربَعُونَ آيَة فِي الشَّامي، وَإِحدَى وَأَربَعُونَ فِي عدد أبي جَعفَر والبصري، واثنَتانِ وَأَربَعُونَ فِي عدد الباقِينَ، اختلافها ثَلاث آيات ﴿وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾، لم يعدها البَصرِيُّ والشامي وعدها الباقُون، ﴿إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾، لم يعدها أَبُو جَعفَر وَحده وعدها شيبَة والباقُونَ، ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾، لم يعدها الشَّامي وعدها الباقُونَ»[٣].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/١٠١).
(٢) المصدر السابق.
(٣) البيان في عدِّ آي القرآن، ص(٢٦٤).

سبب النزول:

عن عائشة ﵂، قالت: «أنزل: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾ في ابن أم مكتوم الأعمى، أتى رسول الله ﷺ فجعل يقول: يا رسول الله أرشدني، وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين، فجعل رسول الله ﷺ يُعرِض عنه ويقبل على الآخر، ويقول: «**أترى بما أقول بأسًا؟**»، فيقول: لا، ففي هذا أُنزِل»[1].

موضوعاتها:

«تعليم الله رسوله ﷺ الموازنة بين مراتب المصالح ووجوب الاستقراء لخفياتها»[2]. والإنكار عليه ﷺ في عُبُوسه وتولِّيه عن تعليم ابن أم مكتوم لانشغاله بدعوة بعض المشركين، وبيان مكانة القرآن، والتعريف بشدة كفر كثير من الناس، والاستدلال على البعث، والتذكير ببعض نعم الله في الأكل والزرع، وبشيء من أهوال القيامة، وانقسام الناس بعدها إلى فريقين، كما كانوا في الدنيا.

مقصدها:

إثبات البعث، وأهوال القيامة، وما يكون فيها، وأن الناس في الآخرة فريقان؛ فريق في الجنة، وفريق في السعير.

---

(١) الترمذي (٣٣٣١)، وصححه الألباني في صحيح السيرة النبوية، ص(٢٠٢)، ومقبل الوادعي في الصحيح المسند من أسباب النزول، ص(٢٦٤ ـ ٢٦٥).
(٢) التحرير والتنوير (٣٠/١٠٢).

سورة عبس: تأملات ووقفات

الآيات (١ ـ ١٠)

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴿٢﴾﴾، لم يقل أن جاءه ابن أم مكتوم، بل قال: الأعمى؛ لكون من كان كذلك فإنه الأجدر بالعناية والاهتمام من غيره، ولم يأت في القرآن اسم أحد من الأحياء المعاصرين للنبي ﷺ سوى اثنين، مؤمن وكافر، أما المؤمن فهو زيد ﷺ، ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا ﴿٣٧﴾﴾ [الأحزاب]، وأما الكافر فأبو لهب، ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ﴿١﴾﴾ [المسد]. فيما عدا ذلك فإن القرآن يذكر أوصافهم، وفي هذه إشارة إلى التركيز على الأعمال والصفات لا على الأشخاص، فعليها يترتب الثواب والعقاب، ومما يجلي ذلك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١١﴾﴾ [النور]، فاستحقاق عبد الله المنافق للعذاب بسبب عمله، لا شخصه.

وذُكِرَ نَعتُ ابن أم مكتوم هنا؛ لئلا يلومه أحد، فقد يقال: ما حمله على أن يقطع

حديث النبي ﷺ مع غيره؟ فجاء ذكر وصفه الدالّ على أنه معذور في ذلك، وفيه أيضًا إلماحٌ إلى عذره ﷺ؛ فتقطيب الجبين لا يضر الأعمى.

وفي ذكر نعتِه ما يُشير إلى أهميَّة العناية بكلِّ من كان حالُه كحالِه من الضَعَفة الذين تجشموا عناء التعلُّم، فمثل هذا لا تحمله إلى السعي إلّا الرغبة ومسيس الحاجة.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤﴾، أي تحصل له زكاة وطهارة في نفسه، أو اتِّعاظ[1]، ولا شك أن الراغب المقبل مظنة لمثل ذلك.

ومن دلالات الآيات: أنه قد يحصل من الخير من ذي عاهة ما لا يتوقع حصوله من غيره، فالتوفيق إلى الخير من الله، ولا علاقة له بأمر العافية، صحيح أنها سبب في حصوله، وهي من أعظم نعم الله تعالى، لكن الموفق من وفقه الله، فهذا أعمى حصل منه ما لم ينله كثير من أهل العافية، جاء باحثًا عن الحق، طالبًا للعلم، وهذا مما يُبيِّن أن العمى عمى القلوب وليس عمى الأبصار، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ۝٤٦﴾ [الحج].

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤﴾، و(لعلَّ) من الله تعالى إيجاب، فلا تدل على الترجي، وكم ممن منَّ الله عليهم بالإمامة وعلو الكعب في العلم أو في الدين، وهو من أولي الضرر؛ كابن أم مكتوم ﷺ، والإمام الترمذي، والشيخ محمد بن إبراهيم، والشيخ عبد الله بن حميد، والشيخ ابن باز، رحمهم الله جميعًا، ومن هؤلاء: الشيخ أحمد ياسين ﷺ، كان مقعدًا، وبه كثير من الأمراض، ولكنه ممن ألقى الله بهم الخوف في قلوب اليهود، فالمعاق من قعدت به همته، وأبطأ به عمله.

فالاهتمام بهؤلاء الضعفاء مما أرشدت آيُ القرآن إليه، قال ربنا: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٢﴾ [الأنعام]. وهذه نزلت

(١) يُراجع: تفسير القرآن العظيم (٨/٣١٩).

لما قال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء؛ لا يجترئون علينا، يريدون عددًا من الفقراء والمساكين، فأنزل الله ﷻ هذه الآية[١]. وفي الكهف: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف]، فهؤلاء أتباع المرسلين. ولما عوتب نوح ﷺ في أن يكون هؤلاء الضعفاء من أتباعه قال لهم: ﴿وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الشعراء]. وفي أدعية نبينا ﷺ: «**اللهُمَّ إِنِّي أَسأَلُكَ فِعلَ الخَيراتِ، وَتَركَ المُنكَراتِ، وَحُبَّ المَساكِينِ، وَإذا أَردتَ بِعبادِكَ فِتنَةً فاقبِضنِي إِلَيكَ غَيرَ مَفتُونٍ**»[٢]. وفي سؤالات هرقل لأبي سفيان ﷺ: «وَسَأَلْتُكَ: أَشرافُ النّاسِ اتَّبَعُوهُ أَم ضُعَفاؤُهُم؟ فَذَكَرتَ أَنَّ ضُعَفاءَهُمْ اتَّبَعُوهُ، وَهُم أَتباعُ الرُّسُلِ. وَسَأَلتُكَ أَيَزِيدُونَ أَم يَنقُصُونَ؟ فَذَكَرتَ أَنَّهُم يَزِيدُونَ، وَكَذَلِكَ الإيمانِ حِينَ تُخالِطُ بَشاشَتُهُ القُلُوبَ»[٣].

وقد كان العلامة ابن باز ﷺ إمامًا في رعاية هذا الباب، فكان كثير من هؤلاء الضعفاء يجلسون على مائدته، وفيها أشراف الناس ووجهاؤهم، ومع ذلك كان ينهى عن أن يطرد أحد منهم. وأعرف أحد طلاب العلم لا يأكل غالبًا إلّا بعد أن يأكل عُمّاله، وكم بارك الله له فيما آتاه بسبب ذلك!

قال الشوكاني ﷺ: «ولعل: أصلها الترجي والطمع والتوقع والإشفاق، وذلك مستحيل على الله سبحانه، ولكنه لما كانت المخاطبة منه سبحانه للبشر كانت بمنزلة قولهم»[٤]. فـ ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ شهادة من الله: أن هذا الرجل سيتزكى، وقد كان،

---

(١) مسلم (٢٤١٣).
(٢) الترمذي (٣٢٣٣)، وهو في صحيح الجامع (٥٩).
(٣) البخاري (٧).
(٤) فتح القدير للشوكاني (٥٩/١).

فإنه عاش صالحًا، وقتل شهيدًا، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ٨٧﴾ [النساء: ٨٧]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ١٢٢﴾ [النساء].

فإن قيل: أيعارض هذا اللوم قول ربنا: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ٤﴾ [القلم]؟ فالجواب: ما كان وما يكون ذلك! فعبوس النبي ﷺ لم يره الرجل، وحدث هذا العبوس فجأة بدون قصد له، ولم يُسمع النبي ﷺ صاحبه ما يؤذيه ويزعجه.

سؤال آخر: أليس مما حُرِّم علينا: التنابز بالألقاب؟ فقد ذُكر ابن أم مكتوم بلقبه؟! فالجواب: أنه لم يُرَد بهذا اللقب تنقُّص، وجيء به لفوائد عديدة مضى ذكرها.

وفي هذه الآيات من الفوائد:

أن الأمور بمآلاتها، ولا يعلم أين الخير إلا الله، فإذا أخطأ عليك أحد فينبغي أن تعلم أن ذلك إنما وقع لحكمة، فهذا الرجل عبس في وجهه النبي ﷺ، وكان ذلك خيرًا له، فقد ذكره الله في القرآن الكريم، في آيات تتلى إلى يوم القيامة، فأي شرف أعظم من ذلك؟ ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ٢١٦﴾ [البقرة]. وقد قال نبينا ﷺ: «**عَجَبًا لِأَمرِ المُؤمِنِ، إِنَّ أَمرَهُ كُلَّهُ خَيرٌ، وَلَيسَ ذاكَ لِأَحَدٍ إِلّا لِلمُؤمِنِ، إِن أَصابَتهُ سَرّاءُ شَكَرَ، فَكانَ خَيرًا لَهُ، وَإِن أَصابَتهُ ضَرّاءُ، صَبَرَ فَكانَ خَيرًا لَهُ**»(١).

هذه الآيات التي اشتملت على عتاب لطيف لنبينا ﷺ، ومن الذي بلغنا ذلك؟ إنه نبينا ﷺ، الذي أجَلَّ الله مقامه عن أن يكتم شيئًا من الوحي، وقد ثبت في الصحيحين، عَن أَنَسٍ ﷺ، قالَ: جاءَ زَيدُ بنُ حارِثَةَ يَشكُو، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «**اتَّقِ اللهَ، وَأَمسِك عَلَيكَ زَوجَكَ**». قالَ أَنَسٌ: لَو كانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ كاتِمًا شَيئًا لَكَتَمَ هَذِهِ(٢). وهذه رسالة للعلماء، فهم ورثة الأنبياء، فكيف يُتصور أن يكتم شيئًا مما

---

(١) مسلم (٢٩٩٩).

(٢) البخاري (٧٤٢٠). ومسلم (١٧٧).

أنزله الله؟! قال ربنا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [البقرة]، وقال: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ [آل عمران]. ولهذا تُوُعِّدَ العالم الذي يكتم الحق، فعن أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ، قالَ: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَن سُئِلَ عَن عِلمٍ فَكَتَمَهُ أَلجَمَهُ اللهُ بِلِجامٍ مِن نارٍ يَومَ القِيامَةِ**»(١).

وتدل الآيات على أنَّ العتاب ولو لجليل القدر ينبغي أن يقبل، وعلى من نُصح أن يسمع النصح، فهذه سمة المؤمن الصادق، وردُّه صفة المنافق الكاذب، قال ربنا: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [البقرة]، فقد نُصِحوا بالإيمان، فردوا نُصح الناصحين، ولم يقبلوا! إنَّ مما يُؤسف عليه: أن لا يقبل بعض المسؤولين النقد عندما يُوجَّه إليه من موظف عنده، بل قد يحاول الانتقام منه بفصلٍ ونحوه! وبعض الناس يعد قبول النصح انتقاصًا من الهيبة! وأيُّ هيبة تلك التي تُبنى على العيوب؟ لكن على الناصح أن يتوخى الحكمة واللين؛ لئلا يعين الشيطان على أخيه.

وتأمل! تصحيح المسار لنبينا ﷺ بسبب الإعراض عن الأعمى نزل في قرآن يتلى، وهذا يفيد حكم النصح، وهل يكون سرًّا أو يصح أن يجهر به؟ والصواب أن يقال: إذا كان الخطأ علانية فالنصيحة علانية، وإذا كان الخطأ سرًّا يكون النصح سرًّا، وهذا باب من أبواب الفقه أخطأ فيه أناس ينادون بنصح المسؤولين سرًّا على كل حال، بينما يجهرون بنقد العلماء! والسبيل واحد، فولاة الأمر الذين أمرنا بطاعتهم: الأمراء والعلماء، والتمييز بينهما تناقض! ومما يدل على هذا: حديث طارِقِ بنِ شِهابٍ، قالَ: أَوَّلُ مَن بَدَأَ بِالخُطبَةِ يَومَ العِيدِ قَبلَ الصَّلاةِ مَروانُ. فَقامَ إِلَيهِ رَجُلٌ، فَقالَ: الصَّلاةُ قَبلَ

---

(١) أبو داود (٣٦٥٨)، وهو في صحيح الجامع (٢٧١٣).

الخُطبَةِ، فَقالَ: قَد تُرِكَ ما هُنالِكَ، فَقالَ أَبُو سَعِيدٍ: أَمّا هَذا فَقَد قَضَى ما عَلَيهِ، سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَن رَأَى مِنكُم مُنكَرًا فَليُغَيِّرهُ بِيَدِهِ، فَإِن لَم يَستَطِع فَبِلِسانِهِ، فَإِن لَم يَستَطِع فَبِقَلبِهِ، وَذَلِكَ أَضعَفُ الإِيمانِ**»[١]. فأنت ترى فيه أن الإنكار على الأمير كان علنًا، لأن الخطأ وقع علنًا.

ومن الدروس والتنبيهات المتعلقة بهذه السورة: أهمية تفقد الرعية، والعناية بالأتباع صغيرهم وكبيرهم، فهذا رجل ضعيف كفيف البصر، مع ذلك نزل فيه القرآن؛ دفاعًا عنه، وانتصارًا له، إنك لتلحظ في بعض المؤسسات العناية بالكبار، يأخذون حقوقهم ويُعنى بأمرهم، بخلاف غيرهم من الضعفاء! تجد أناسًا ينالون «الترقيات» في بعض الوزارات قبل أن يكملوا المدة التي تؤهلهم لها، وتجد غيرهم ممن لا يؤبه له يمكث عشر سنوات ولا يعطى حقه من الترقية! ويحدث هذا التفريق أحيانًا في بعض بيوتنا؛ فيُلتفت إلى بعض الأولاد دون غيرهم! وهذا ليس من العدل.

ومن الوقفات أن بعض الدعاة يزعم الانشغال بالأمور الكبرى، وإذا قلت له: لماذا لا تهتم بهذا الموضوع، قال هذه قضية جزئية وأنا مشغول بما هو أهم منها! أنا مشغول بقضايا الأُمَّة، والجهاد، والإصلاح! نقول: هل يعني ذلك أن تهمل غيرها؟! وهل يتعذر الاهتمام بذلك كله وأنت مأمور به؟ وهل ثَمَّ تعارضٌ بين الاهتمام بكل ما يجب عليك أن تبلغه للناس، وربنا يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ [البقرة: ٢٠٨]! ومما يؤسف عليه: أن بعض هؤلاء الذين ينشغلون بما يسمونها القضايا الكبرى ينظرون نظرة دونية لمن يعنى بمسائل يرونها يسيرة، وهذا خطأ آخر! وكم مرة سمعت مَن ينتقص أخاه ممن يشاركه في همِّ الدعوة إلى الله، فيقول عنه: فلان واعظ! وما العيب في ذلك؟ أليس قد قال الله: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣١]! والمرء لا يعلم الحسنة التي تدخله الجنّة

(١) مسلم (٤٩).

أو يُغفر له بها، قال نبينا ﷺ: «بَينَما رَجُلٌ يَمشِي بِطَرِيقٍ، إذ وَجَدَ غُصنَ شَوكٍ عَلَى الطَّرِيقِ، فَأَخَّرَهُ فَشَكَرَ اللهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ»[1]، وعَن أَبِي ذَرٍّ ﷺ، قالَ: قالَ لِـيَ النَّبِيُّ ﷺ: «لا تَحقِرَنَّ مِنَ المَعرُوفِ شَيئًا، وَلَو أَن تَلقَى أَخاكَ بِوَجهٍ طَلقٍ»[2]، وعن عدِي بن حاتِمٍ ﷺ، قالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَو بِشِقِّ تَمرَةٍ»[3]، وعن أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ: «بَينَما رَجُلٌ يَمشِي بِطَرِيقٍ اشتَدَّ عَلَيهِ العَطَشُ، فَوَجَدَ بِئرًا، فَنَزَلَ فِيها فَشَرِبَ، ثُمَّ خَرَجَ فَإذا كَلبٌ يَلهَثُ يَأكُلُ الثَّرَى مِنَ العَطَشِ، فَقالَ الرَّجُلُ لَقَد بَلَغَ هَذا الكَلبَ مِنَ العَطَشِ مِثلُ الَّذِي كانَ بَلَغَ مِنِّي، فَنَزَلَ البِئرَ فَمَلَأَ خُفَّهُ ماءً، ثُمَّ أَمسَكَهُ بِفِيهِ حَتَّى رَقِيَ فَسَقَى الكَلبَ فَشَكَرَ اللهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ» قالُوا: يا رَسُولَ اللهِ وَإِنَّ لَنا فِي هَذِهِ البَهائِمِ لَأَجرًا؟ فَقالَ: «فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطبَةٍ أَجرٌ»[4]. إذًا علينا ألا ندعي أننا مشغولون بالقضايا الكبيرة ونهمل غيرها. قال ابن حجر ﷺ: «فَينبَغِي لِلمَرءِ أَن لا يَزهَدَ فِي قَلِيلٍ مِنَ الخَيرِ أَن يَأتِيَهُ، وَلا فِي قَلِيلٍ مِنَ الشَّرِّ أَن يَجتَنِبَهُ؛ فَإِنَّهُ لا يَعلَمُ الحَسَنَةَ الَّتِي يَرحَمُهُ اللهُ بِها، وَلا السَّيِّئَةَ الَّتِي يَسخَطُ عَلَيهِ بِها»[5]، وفي الغالب حسبما نشاهده في الواقع أن ما يسمونه بالقضايا الكبرى لا يؤثرون فيها بشيء يذكر! وبعضهم قد يفسد فيها أكثر مما يصلح، بخلاف ما أعرضوا عنه من قضايا الأُمَّة.

ومن المعاني: أنه لا يعلم من يهتدي فيستجيب ويتزكّى إلا الله، فأحيانًا قد يُلقي الشيطان في روعك أنه لا فائدة من نصح زيد، ويكون الخير في نصحه، فينتفع بحديثك أكثر من غيره، ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ٣﴾، وغيره ممن يغلب على الظن أنه قريب من الهداية لا يجدي معه نصح، ولا ينتفع بعظة، ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ٧﴾.

---

(١) البخاري (٦٥٢)، ومسلم (١٩١٤).
(٢) مسلم (٢٦٢٦).
(٣) البخاري (١٤١٧)، ومسلم (١٠١٦).
(٤) البخاري (١٧٣)، ومسلم (٢٢٤٤).
(٥) فتح الباري (١١/٣٢١).

﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ (٦)﴾ أي أنَّ من استغنى عن هديك وإرشادك، فلا يجدر بك أن تنتصب له، وتبذل وقتك لأجله. وههنا وقفة مهمة: تجد أحيانًا واعظًا يقوم فيتكلم، فيرى بعض الناس أنه ليس بحاجة إليه، وتحدثه نفسه بأن هذا المتحدث لا شيء عنده، ولن يضيف إليه جديدًا! فيترك المجلس دون أن يكون عنده شغل صارف، وهذا نوع من الاستغناء والاستعلاء! ولن يعدم المرء خيرًا في مجالس ذكر الله تعالى، والذكرى ينتفع بها المؤمن.

وأعرف واعظًا قام في مسجد كبير في إحدى المدن، وكان في المسجد أحد الملوك، فأراد الملك أن يقوم، فقال له: يا فلان اجلس، أنا جئت إليك أنت، أما هؤلاء الناس فأجدهم في أي مسجد! فجلس الملك حتى انتهت كلمته.

والمقصود أن تحذر الاستعلاء والشعور بالاستغناء عن التذكير بالله ولو للحظة واحدة، مهما كان مقامك.

﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧)﴾ وهذا من جملة العتاب، يقول الله ﷻ لنبينا ﷺ: هؤلاء تتصدى وتتعرض لهم لعلهم يهتدون، وما عليك إذا لم يؤمنوا، لن يضروك شيئًا، وإنما الضرر على أنفسهم.

وهنا فائدة تتعلق بواجب البلاغ، قال ابن كثير ﵀: «وَمِن ها هُنا أَمَرَ اللهُ ﷻ رَسُولَهُ ﷺ أَلّا يَخُصَّ بِالإنذارِ أَحَدًا، بَل يُساوِي فِيهِ بَيْنَ الشَّرِيفِ والضَّعِيفِ، والفَقِيرِ والغَنِيِّ، والسّادَةِ والعَبِيدِ، والرِّجالِ والنِّساءِ، والصِّغارِ والكِبارِ. ثُمَّ اللهُ يَهدِي مَن يَشاءُ إلَى صِراطٍ مُستَقِيمٍ، وَلَهُ الحِكمَةُ البالِغَةُ والحُجَّةُ الدّامِغَةُ»[1]. فإذا ظهر فساد كشيء من ربا، فعلى العلماء بيان الحق لجميع من مِن شأنهم التأثر به، فإذا لم يستجب لهم فقد أدوا الذي عليهم، وهذه المعاني تغيب عن بعض الدعاة، فتجد أحدهم في هم وغم، يلاحق المعرض، ويتوسل للعاصي! وربنا يقول:

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/٣١٩).

﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر: ٨]، ويقول: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ [الكهف]، ويقول: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾ [المائدة].

﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾﴾، انشغل نبينا ﷺ عن ابن أم مكتوم بدعوة غيره إلى الله، ودعوة قريش التي شغلته واجبة، وكان العتاب من الله، فكيف بمن ينشغل عن الدعوة بأمور الدنيا! فهذه رسالة لبعض طلاب العلم ممن ينشغل كثيرًا عن الدعوة بحظوظ نفس أو دنيا! قال سلمان ﷺ: «إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيكَ حَقًّا، وَلِنَفسِكَ عَلَيكَ حَقًّا، وَلِأَهلِكَ عَلَيكَ حَقًّا، فَأَعطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ»، فقال النبي ﷺ: «صَدَقَ سَلمانُ»(1).

وفي الآية: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾﴾، قدم التزكية على التذكير، والتزكية هي التطهير، والتذكير هو العمل، ومعروف أن التخلية تقدم على التحلية، فأنت إذا أردت أن تضع شيئًا في كأس مليء فإنك تفرغه مما فيه ثم تضع فيه ما شئت. والتزكية مع التذكرة مهمة الرسل، وقد جاء ذلك في آيات كثيرة، قال ربنا: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران]. وتأمل في تقديم التزكية على التعليم، وأطول قسم في القرآن الكريم في سورة الشمس، قال الله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس]. جواب القسم: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾،

---

(١) البخاري (١٩٦٨).

وهــذا يــدلُّ على أهميــة التزكيــة، فلا بُــدَّ مــن العناية بهــا، فمهمتنــا أن نبــدأ بتزكية أنفســنا، لأنــه إذا لــم نُــزَكِّ الأنفــس فتأثــير الــكلام ســيكون ضعيفًا!

والتزكية المطلوبة هي أولًا للنفس من خصال السوء، ومن الدَّغَل الذي يعتريها، ثم للجوارح من أن يطلب بها صاحبها حرامًا. ومن أعظم جوانب التزكية التي يجب الاهتمام بها: تزكية المال، وقد وجدت أن من أعظم أسباب المشكلات البيتية والأسرية المال الحرام، وعندما وصلت إلى هذه الحقيقة كنت أبدأ في علاج المشكلة بين زوجين، أو بين الأب وأولاده أو إخوانه بسؤالهم عن مصادر أموالهم، فقد يكون في المال شبهة، وللداخل من الأموال أثر على النفوس، ولهذا كان من تزكية النفس وتطهيرها ببذل المال، قال ربنا: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

ذهبــت للمشــاركة في مناســبة في مدينــة من المــدن، فدخلنــا اســتراحة جميلة، فقالــوا هذه لأحــد طلاب العلم، لأســتاذ في الجامعــة، وعلمت أن لــوالده ثلاثة عشر ولدًا، وكلهــم مــن خيــار الصالحــين، نحســبهم كذلــك والله حســيبهم، ولا نــزكي على الله أحــدًا، فقلــت: لا بــد أن في الأمــر سرًّا! فقالــوا: والدهم رجل صالــح، كان يعمل في ســيارة لنقــل الــتراب، فــكان قبــل التحــرك بالــتراب إلى الجهــة الــتي ترغــب فيه يغطيــه؛ لئــلا ينقــص التراب أثناء ســيره! فــرأى أثر عملــه وتحريه للحــلال في ولده، فالتزكيــة مطلوبــة مــن العبد ليحصــل له الخير.

الآيات (١١ - ١٦)

﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾

﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾﴾، أي: القرآن(١)، ومنه ما سلف في العتاب على ما تقدَّم بيانه، وصفه الله بأنه تذكرة، فكل من أراد الاتعاظ والتذكُّر فعليه بالقرآن.

إن من أهمِّ أسبابِ النجاة من الفتن: التمسُّك بالقرآن والسنة، ثبت في حديث ابن عباس ﷺ، أن رسول الله ﷺ خطب الناس في حَجَّة الوَداع فقال: «**إنَّ الشيطانَ قد يَئِسَ أن يُعبدَ بأرضِكم، ولكن رَضِيَ أن يطاعَ فيما سوى ذلك مما تحاقَرون من أعمالِكم، فاحذَروا، إني قد تركتُ فيكم ما إن اعتصمتُم به فلن تضلُّوا أبدًا: كتابَ الله، وسنةَ نبيه**»(٢). وإن مما يحزن ويُستغرب منه: أن ينشغل المسلم عن القرآن بالأخبار، ومتابعة الأحداث، والقيل والقال، فيعنى بها أكثر من العناية بالقرآن الذي ينجيه في الدنيا والآخرة، ويورثه الله به في الجنة أعلى مقاماتها. والواجب هو الإقبال عليه؛ تدبُّرًا، وعملًا، وحفظًا، وتلاوة، ودعوةً، وكم نقصر في الدعوة به! وقد ثبت عَن عَبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو ﷺ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ: «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَو آيَةً**»(٣).

---

(١) يُنظر: تفسير القرآن العظيم (٣٢١/٨).
(٢) الحاكم في المستدرك (٣١٨)، وصححه الألباني في التوسل، ص(١٦).
(٣) البخاري (٣٤٦١).

﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ١٣ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ١٤ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ١٥﴾، القرآن الموصوف بأنه تذكرة، مثبت في صحف، وهي صحف عند الله تعالى، والسفرة هم الملائكة ﷺ، وقيل القراء، حملة القرآن، ومعلموه الناس، قال الطبري ﷺ: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: هم الملائكة الذين يسفرون بين الله ورسله بالوحي»[1]، والذي يظهر أن من يأتي بالوحي إنما هو جبريل، فيحتمل أن يكون المراد معه ملائكة، ويحتمل أن يراد بهم القراء معلمو الناس الخير، وصفهم بأنهم ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ ١٦﴾، والبررة جمع بارٍّ، وهو المطيع.

وأذكر هنا بعض المسائل التي تتعلق بآداب التعامل مع القرآن الكريم:

● **المسألة الأولى: هل يجوز للحائض والجنب قراءة القرآن؟**

فيها ثلاثة أقوال:

القول الأول: أنه لا يجوز للحائض والجنب قراءة القرآن الكريم،ودليلهم حديث علي ﷺ: «أن رسول الله ﷺ كان يُعلِّمهم القرآن، وكان لا يحجزه عن القرآن إلا الجنابة»[2].

والقول الثاني: أنه يجوز للحائض والجنب قراءة القرآن.

والقول الثالث في هذه المسألة: التفريق بين الحائض والجُنُب، فالحائض ليس بيدها أن تُنهي حيضها، فحدثها مستمر إلى أجله، بخلاف الجنب، فيمكنه الاغتسال لقراءة القرآن متى ما شاء، ولا يمكن أن تأمر الشريعة بهجر القرآن أيامًا عديدة قد تطول ببعض النساء، وهذا معنى مهم. وهو قول الإمام مالك، واختاره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمهما الله، وهو أرجح الأقوال[3]. فللحائض أن تقرأ من تطبيق الجوّال، أو من كتب التفسير، أو تقرأ من المصحف بحائل، أو من حفظها.

---

(١) تفسير الطبري (٢٤/٢٢١).

(٢) الترمذي (١٤٦).

(٣) مجموع الفتاوى (٢١/٤٦٠).

● **مسألة أخرى: هل يجوز مس المصحف بدون طهارة؟**

لا يجوز، وهذا مذهب الأئمة الأربعة؛ لما جاء في كتاب عمرو بن حزم الذي كتبه النبي ﷺ إلى أهل اليمن، وفيه: «**ألا يمسَّ القرآنَ إلا طاهرٌ**»(١). قال الحافظ ابن حجر ﵀: «وقد صحَّح الحديث بالكتاب المذكور جماعة من الأئمة لا من حيث الإسناد بل من حيث الشهرة، فقال الشافعي في رسالته: لم يقبلوا هذا الحديث حتى ثبت عندهم أنه كتاب رسول الله ﷺ. وقال ابن عبد البر: هذا كتاب مشهور عند أهل السير، معروفٌ ما فيه عند أهل العلم معرفةً يُستغنى بشهرتها عن الإسناد؛ لأنه أشبَهَ التواترَ في مجيئه، لتلقي الناس له بالقبول والمعرفة»(٢).

وأما الاستدلال بقول ربنا: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الواقعة]، فإنه محلُّ نظر؛ لأن الضمير في ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ ﴾ راجع إلى اللوح المحفوظ.

والقول الثاني في المسألة: جواز مس المصحف بلا طهارة، واستدلوا بإرسال النبي ﷺ لهرقل ـ وهو نصراني ـ رسالة فيها آيات من القرآن. وهذا لا يدل على ما ذهبوا إليه، فالحديث عن مس المصحف، لا عن مس غيره مما اشتمل على آيات منه.

لكن ما هو المراد بالمصحف؟ جاء في الموسوعة الفقهية: «ذهب جمهور الفقهاء من الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة إلى أنه يمتنع على غير المتطهِّر مسُّ جلد المصحف المتصل، والحواشي التي لا كتابة فيها من أوراق المصحف، والبياض بين السطور، وكذا ما فيه من صحائف خالية من الكتابة بالكلية، وذلك لأنها تابعة للمكتوب وحريمٌ له، وحريمُ الشيء تبع له، ويأخذ حكمه، وذهب بعض الحنفية والشافعية إلى جواز ذلك»(٣).

---

(١) مالك (٤٦٨)، وصححه الألباني في الإرواء (١٢٢).
(٢) التلخيص الحبير (١٧/٤).
(٣) (٣٨/٧).

● **وهل كتب التفسير تعدُّ من المصاحف؟**

اختلف العلماء في ذلك، فالقول الراجح أنه ينظر إلى الأغلب، فإن كان الأغلب هو القرآن فإنه مصحف، وإن كان الأغلب كلام المفسر فهو تفسير.

● **وهل يأخذ تطبيق الجوال حكم المصحف؟**

مضى ما يشير إلى أنه لا يأخذ حكمه، فما يظهر على شاشة الجوال وغيره من الأجهزة ليس مصحفًا، والشاشة طبقة زجاجية حائلة عن مس الحرف المتشكل.

● **وهل يجوز للصبيان الصغار مس المصحف بدون وضوء؟**

اختلف العلماء على قولين، فقيل بالجواز، وقيل بالمنع، لكني أقول: نطلب إليهم الوضوء، لا سيما من كان منهم كبيرًا، فهذا هو الأفضل، فالصغير لا يحرم عليه مسُّه بلا طهارة، وإنما الحديث عن الأفضل.

ومن المسائل المهمة أيضًا: أنه لا يجوز دخول دورة المياه والذهاب إلى الخلاء لقضاء الحاجة بالمصحف، إلا إذا خشي الإنسان عليه من السرقة فيجوز له ذلك مع ستره.

ومن الآداب المهمة: عدم الاتكاء عليه، وألا يوضع فوقه شيء، وألا يوضع على الأرض، وألا تمد الأرجل إذا كان المصحف أمامها، وألا يستعين بريقه لتقليب صفحاته، وألا يُصغَّر؛ فلا يقال: «مصيحف»، وألا يوضع مقلوبًا، ولا يحجز به المكان في الصف، ولا يترك مفتوحًا بدون أن يقرأ منه، فيعرضه للهَوامِّ وتقليب الهواء، وألا يأخذه المسلم بشماله.

● **وهل الأفضل للحافظ أن يقرأ من المصحف أم من حفظه؟**

الجواب: أين يجد قلبه؟ يفعل ما هو أنفع وأخشع لقلبه.

لكن بعض السلف كان يكره ألا يرجع الإنسان إلى المصحف أبدًا، فينبغي الرجوع إلى المصحف بعد كل فترة.

وفي بعض البلاد يعلق المصحف في السيارة! ولا شك أن القرآن مبارك، لكن بركته في الإقبال عليه، وتلاوته، وحفظه، وتدبُّره، وتعليمه، والدعوة إليه، وتعظيمه، وليس في تعليقه، وهذا الذي علق المصحف قد يعرِّضه للامتهان، فلربما ارتفع في سيارته صوت الغناء والموسيقى، وليس هذا من توقير المصحف، وربما أثرت فيه الشمس، أو تناوشته أيدي الصغار، وقل مثل ذلك في اللوحات التي تعلق في بيوت بعضنا، فمراعاة ذلك كله من تعظيم كتاب الله، والله يقول: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الحج](١).

(١) ومن أفضل ما كتب في هذا الباب: «جمال القراء، فصول في آداب أهل القرآن الكريم» للأخ الدكتور إبراهيم بن صالح الحميري، فهي رسالة فيها جُهد مبارك.

الآيات (١٧ ـ ٢٣)

قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾

في هذه ذكرٌ لسبب الإعراض عن الأعمى، وهم أولئك المستكبرون، الذين لا ينقادون إلى الحق ولا يتبعونه، فقال تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾﴾، قتل: لعن[1]. واللعن هنا للكافر المُعرض عن الإيمان بالله، والتعجُّب من كفره مع إحسان الله إليه، ولهذا قيل: إن المراد بالكفر هنا: الجحود بنعم الله، بدليل ما سيأتي بعدها من التذكير بها.

وقوله: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾﴾، هذا الاستفهام زيادة في التقرير والتحقير، فهذا المعرض يعلم أنَّه خُلِق من ماءٍ مهين، فلمَ التكبُّر؟ في سير أعلام النبلاء: أن يزيد بن المهلب «كانَ ذا تِيهٍ وَكِبرٍ، رَآهُ مُطَرِّفُ بنُ الشِّخِّيرِ يَسحَبُ حُلَّتَهُ، فَقالَ لَهُ: إنَّ هَذِهِ مِشيَةٌ يُبغِضُها اللهُ. قالَ: أَوَ ما تَعرِفُني؟ قالَ: بَلَى، أَوَّلُكَ نُطفَةٌ مَذِرَةٌ، وَآخِرُكَ جِيفَةٌ قَذِرَةٌ، وَأَنتَ بَينَ ذَلِكَ تَحمِلُ العَذِرَةَ»[2].

(١) يراجع: تفسير الطبري (٢٤/٢٢٢).
(٢) (٤/٥٠٥).

وقول ربنا: ﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾، أي: فقدره أطوارًا، قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾ [الحج]. وقيل: «قدَّر أعضاء رأسه، وعينيه، ويديه، ورجليه»(١). قال ربنا: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين].

﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾﴾، قيل: المراد بالسبيل هو أنه يسَّر خروجه من بطن أمه، وقيل السبيل هو الخير والشر، كما قال ربنا: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد]، وقال: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان]، وقيل: معرفة المضارِّ والمنافع، ومعرفة طرق حياته في الدنيا، والمعنى الجامع لذلك ما قاله الشيخ عبدالرحمن بن سعدي: «يسَّر له الأسبابَ الدنيوية والدينية»(٢). وكلما أمكن حمل الآية على ما قيل في تأويلها وكان السياق يحتمله دون أن يكون تعارض بين الأقوال فهذا هو الواجب.

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾﴾، أي توفاه، وأكرمه بالدفن في الأرض، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾﴾ [المرسلات]. فيدفن في الأرض كل ميت، ثبت عن علي ﷺ، أنه أتى النَّبيَّ ﷺ فقال: إنَّ أبا طالِبٍ ماتَ. فَقالَ لَهُ النَّبيُّ ﷺ: «**اذهَب فَوارِه**»، فَقالَ: إنَّهُ ماتَ مُشرِكًا؟ فَقالَ: «**اذهَب فَوارِه**»(٣). والكافر يحُفَر له ويلقى في الحفرة، أما المسلم فإنه يُلحَد له، ويُوجَّه إلى القبلة.

---

(١) زاد المسير (٤/٤٠١).
(٢) تفسير السعدي، ص(٩١١).
(٣) رواه أحمد (٧٥٩)، وصححه الألباني في أحكام الجنائز ص(١٣٤).

وأول من دفن ابنُ آدم، علَّمه الدفنَ غراب، قال ربنا: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المائدة].

وإذا بُتِر عضوُ آدمي دفن، بدون أن يُصلَّى عليه أو أن يغسل.

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾، أي: ثم أحياه، والمقصود هنا بقوله عزَّ اسمه: ﴿إِذَا شَآءَ﴾، في الزمن الذي يريده، فالبعث حق، ويكون متى ما شاء الله.

﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾ فما استطاع أحد أن يؤدِّيَ ما أمره الله به من الإيمان والطاعات والعمل الصالح! كلنا مقصرون، والناس متفاوتون في ذلك، فمستقل ومستكثر، والله نسأل أن يعفو عنا، وأن يدخلنا الجنة برحمته، قال مجاهد ﷺ في هذه الآية: «لا يَقْضِي أَحَدٌ أَبَدًا كُلَّ ما افتُرِض عَلَيهِ»[1]، وهذا مما يُعين على فهم حديث نبينا ﷺ: «لَن يُنجِيَ أَحَدًا مِنكُم عَمَلُهُ» قالَ رَجُلٌ: وَلا إِيَّاكَ؟ يا رَسُولَ اللهِ قالَ: «وَلا إِيَّايَ، إِلَّا أَن يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ مِنهُ بِرَحمَةٍ، وَلَكِن سَدِّدُوا»[2].

(١) تفسير القرآن العظيم (٣٢٣/٨).
(٢) البخاري (٦٤٦٣)، ومسلم (٢٨١٦).

الآيات (٢٤ ـ ٣٢)

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾

لما كانت هذه السورة تخاطب مُنكري البعث من المشركين ذكر لهم أدلته مما يشاهدون، فقال: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾، وهنا لا بُدَّ من الإشارة إلى مسألة عظيمة، وهي: التفكُّر، ذلك العمل الذي نادت إليه آيات في كتاب الله تعالى، ولي رسالة ألفتها قبل أكثر من عشرين سنة تناولت فيها مسائل هذه العبادة، سميتها بـ «منهج التفكير»، والتفكُّر في آيات القرآن التي تقرؤونها مفتاح التدبُّر، ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص]، ومن قرأ القرآن بتدبُّر فقد أمسك بالخير من ناصيته، ونال حسنتي الدنيا والآخرة.

وكثير من الآباء يُسهم في تعطيل هذه المهارة لدى ابنه! فبعض الآباء والمعلمين يعتبرون الطالب السؤول مشاغبًا! وبدلًا من تشجيع الصغير على السؤال الذي يدلُّ على سير صحيح في طريق إعمال الفكر يقومون بزجرهم، وانتهارهم! لأن أسئلتهم دليل على قلة أدبهم ـ زعموا ـ ! وما علم هؤلاء أن التفكير ينمي ذكاءهم، بل الواجب الحث على التفكُّر، فإن طرأت أسئلة أُجيب عنها بعلم أو أحيلت إلى عالِمٍ بها.

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾، فلينظر بعينه، متعقلًا، لا نظر اعتياد بل نظر تفكُّر واعتبار. فإذا قيل: وما الذي نتفكر فيه في شأن طعامنا؟ فالجواب: أوجه ذلك كثيرة،

منها: كيف نبتت هذه الحبوب الجامدة في تلك الأرض الميتة؟ من الذي جعل الحبة التي أودعتها في باطن الأرض شجرة؟ كيف تأتَّى للجسم أن يستفيد من هذا الطعام؟ كيف يكون هضمه؟ كيف انتفاعك به؟ كيف خلص الله جسمك من فضلاته؟ ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾﴾، فانظر نظر اعتبار، لتعلم المنة وتمام القدرة.

﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾﴾، والحب معروف، كالقمح، والشعير، وغيرهما. والعنب معروف، وأما القضب فقال ابن كثير ﵀: «هُوَ: الفصفصة الَّتِي تَأْكُلُهَا الدَّوَابُّ رَطْبَةً، وَيُقَالُ لَهَا: القَتّ أَيْضًا، قَالَ ذَلِكَ ابنُ عَبّاسٍ، وَقَتادَةُ، والضَّحّاكُ. والسُّدِّيُّ»[(١)]. والقت: البرسيم. والصحيح: أن القضب كل شيء يحصد ثم ينبت[(٢)]، والزيتون معروف أيضًا، ولم يذكر التمر، بل ذكر النخل، فقال: ﴿وَنَخْلًا﴾، وقبله ذكر الثمر لا الشجر، ولعل ذلك لسببين:

● الأول: أن التمر أنواع وأشكال عديدة.

● والثاني: لأن النخل يُنتفع بتمره وبغيره، فمنافعه كثيرة، والناس ينتفعون بكل جزء فيه، ولهذا أرشد الله إلى التفكُّر فيه. وقد ثبت في الصحيحين، عن عبد الله بن عمر ﵄ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لا يَسقُطُ وَرَقُها، وَإِنَّها مَثَلُ المُسلِمِ، فَحَدِّثُونِي ما هِيَ؟**»، فَوَقَعَ النّاسُ فِي شَجَرِ البَوادِي، وَوَقَعَ فِي نَفسِي أَنَّها النَّخلَةُ، فاستَحيَيتُ، ثُمَّ قالُوا: حَدِّثنا ما هِيَ يا رَسُولَ الله؟ فقالَ: «**هِيَ النَّخلَةُ**». قالَ: فَذَكَرتُ ذَلِكَ لِعُمَرَ، قالَ: «لَأَن تَكُونَ قُلتَ: هِيَ النَّخلَةُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِن كَذا وَكَذا»[(٣)].

﴿وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾﴾، أي: بساتين غليظة الأشجار ملتفة الأغصان.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/٣٢٤).
(٢) يُراجع: زاد المسير (٤/٤٠٣).
(٣) البخاري (٦١)، ومسلم (٢٨١١).

﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾﴾، والفاكهة معروفة، وأما الأبُّ فقد سئل عنه الصديق ﷺ فقال: «أَيُّ سَماءٍ تُظِلُّنِي، وَأَيُّ أَرضٍ تُقِلُّنِي، إن قلتُ فِي كِتابِ اللهِ ما لا أَعلَمُ؟»[١].

وروى أنس ﷺ، قالَ: قَرَأَ عُمَرُ بنُ الخَطّابِ ﷺ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾﴾، فَلَمّا أَتَى عَلَى هَذِهِ الآيَةِ: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾﴾، قالَ: عَرَفنا ما الفاكِهَةُ، فَما الأَبُّ؟ ثم قالَ: لَعَمرُكَ يا بنَ الخَطّابِ إِنَّ هَذا لَهُوَ التَّكَلُّفُ[٢]. وهذا يغرس في نفوسنا أدبًا عظيمًا؛ ألا نقول في كتاب الله بدون علم. وفسر الآية ابن عباس ﷺ، فقال: «الكلأ والمرعى»[٣].

﴿مَّتَٰعًا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴿٣٢﴾﴾، تذييل ختم به هذا التذكير بالنعم؛ للحثَّ على الشكر، وما أرحم ربنا بنا! ينعم علينا، وينبّهنا على العِبَر، ويأمرنا بشكره، فإذا شكرناه رضي عنا، وزادنا من واسع فضله، فالحمد لله على آلائه ونعمه.

---

(١) فضائل القرآن، لأبي عبيد، ص (٢٢٧).
(٢) مصنف ابن أبي شيبة (١٨٠/٧).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٣٢٤/٨).

الآيات (٣٣ ـ ٤٢)

فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

تلك النعم وذلك المتاع إلى أجل، والعاقل من اعتبر قبله، فإن الشأن بعده عظيم! ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾﴾، والصاخة اسم من أسماء يوم القيامة، فهي الطامة، والحاقة، والصاخة، والقارعة، فهذه كلها من أسماء يوم القيامة. وسميت بالصاخة؛ لأنها تصخ السمع وتصمُّه؛ لقوتها وشدتها.

﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾، هذا مشهد مهيب من مشاهد يوم القيامة، «ورُتِّبت أصناف القرابة في الآية حسب الصعود إلى من هو أقوى منه؛ تدرجًا في تهويل ذلك اليوم»(٤). وقوله أقوى منه، أي: التصاقًا، لا مكانة وفضلاً.

وإذا كان كل واحد من أولي العزم يقول عندما تُطلب إليه الشفاعة: نفسي نفسي، فكيف بغيرهم؟ قال نبينا ﷺ: «**يَجْمَعُ اللَّهُ يَوْمَ القِيامَةِ الأَوَّلِينَ والآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ واحِدٍ، فَيُسمِعُهُمُ الداعِي، وَيَنفُذُهُمُ البَصَرُ، وَتَدنُو الشَّمسُ فَيَبلُغُ النَّاسَ مِنَ الغَمِّ والكَربِ ما لا يُطِيقُونَ، وَما لا يَحتَمِلُونَ، فَيَقُولُ بَعضُ النَّاسِ لِبَعضٍ: أَلا تَرَونَ ما أَنتُم فِيهِ؟ أَلا تَرَونَ ما قَد بَلَغَكُم؟ أَلا تَنظُرُونَ مَن يَشفَعُ لَكُم إِلَى رَبِّكُم؟**

---

(٤) التحرير والتنوير (١٣٥/٣٠).

فَيَقُولُ بَعضُ النّاسِ لِبَعضٍ: ائتُوا آدَمَ، فَيَأتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: يا آدَمُ، أَنتَ أَبُو البَشَرِ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِن رُوحِهِ، وَأَمَرَ المَلائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، اشفَع لَنا إِلَى رَبِّكَ، أَلا تَرَى إِلَى ما نَحنُ فِيهِ؟ أَلا تَرَى إِلَى ما قَد بَلَغَنا؟ فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي غَضِبَ اليَومَ غَضَبًا لَم يَغضَب قَبلَهُ مِثلَهُ، وَلَن يَغضَبَ بَعدَهُ مِثلَهُ، وَإِنَّهُ نَهانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيتُهُ، نَفسِي نَفسِي، اذهَبُوا إِلَى غَيرِي، اذهَبُوا إِلَى نُوحٍ، فَيَأتُونَ نُوحًا، فَيَقُولُونَ: يا نُوحُ، أَنتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى الأَرضِ، وَسَمّاكَ اللهُ عَبدًا شَكُورًا، اشفَع لَنا إِلَى رَبِّكَ، أَلا تَرَى ما نَحنُ فِيهِ؟ أَلا تَرَى ما قَد بَلَغَنا؟ فَيَقُولُ لَهُم: إِنَّ رَبِّي قَد غَضِبَ اليَومَ غَضَبًا لَم يَغضَب قَبلَهُ مِثلَهُ، وَلَن يَغضَبَ بَعدَهُ مِثلَهُ، وَإِنَّهُ قَد كانَت لِي دَعوَةٌ دَعَوتُ بِها عَلَى قَومِي، نَفسِي نَفسِي، اذهَبُوا إِلَى إِبراهِيمَ ﷺ، فَيَأتُونَ إِبراهِيمَ، فَيَقُولُونَ: أَنتَ نَبِيُّ اللهِ وَخَلِيلُهُ مِن أَهلِ الأَرضِ، اشفَع لَنا إِلَى رَبِّكَ، أَلا تَرَى إِلَى ما نَحنُ فِيهِ؟ أَلا تَرَى إِلَى ما قَد بَلَغَنا؟ فَيَقُولُ لَهُم إِبراهِيمُ: إِنَّ رَبِّي قَد غَضِبَ اليَومَ غَضَبًا لَم يَغضَب قَبلَهُ مِثلَهُ، وَلا يَغضَبُ بَعدَهُ مِثلَهُ، وَذَكَرَ كَذَباتِهِ، نَفسِي نَفسِي، اذهَبُوا إِلَى غَيرِي، اذهَبُوا إِلَى مُوسَى، فَيَأتُونَ مُوسَى ﷺ، فَيَقُولُونَ: يا مُوسَى، أَنتَ رَسُولُ اللهِ فَضَّلَكَ اللهُ بِرِسالاتِهِ، وَبِتَكلِيمِهِ عَلَى النّاسِ، اشفَع لَنا إِلَى رَبِّكَ، أَلا تَرَى إِلَى ما نَحنُ فِيهِ؟ أَلا تَرَى ما قَد بَلَغَنا؟ فَيَقُولُ لَهُم مُوسَى ﷺ: إِنَّ رَبِّي قَد غَضِبَ اليَومَ غَضَبًا لَم يَغضَب قَبلَهُ مِثلَهُ، وَلَن يَغضَبَ بَعدَهُ مِثلَهُ، وَإِنِّي قَتَلتُ نَفسًا لَم أُومَر بِقَتلِها، نَفسِي نَفسِي، اذهَبُوا إِلَى عِيسَى ﷺ، فَيَأتُونَ عِيسَى، فَيَقُولُونَ: يا عِيسَى أَنتَ رَسُولُ اللهِ، وَكَلَّمتَ النّاسَ فِي المَهدِ، وَكَلِمَةٌ مِنهُ أَلقاها إِلَى مَريَمَ، وَرُوحٌ مِنهُ، فاشفَع لَنا إِلَى رَبِّكَ، أَلا تَرَى ما نَحنُ فِيهِ؟ أَلا تَرَى ما قَد بَلَغَنا؟ فَيَقُولُ لَهُم عِيسَى ﷺ: إِنَّ رَبِّي قَد غَضِبَ اليَومَ غَضَبًا لَم يَغضَب قَبلَهُ مِثلَهُ، وَلَن يَغضَبَ بَعدَهُ مِثلَهُ، وَلَم يَذكُر لَهُ ذَنبًا، نَفسِي نَفسِي، اذهَبُوا إِلَى غَيرِي، اذهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ، فَيَأتُونِّي فَيَقُولُونَ: يا مُحَمَّدُ، أَنتَ رَسُولُ اللهِ، وَخاتَمُ الأَنبِياءِ،

وَغَفَرَ اللهُ لَكَ ما تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ، وَما تَأَخَّرَ، اشفَع لَنا إِلَى رَبِّكَ، أَلا تَرَى ما نَحنُ فِيهِ؟ أَلا تَرَى ما قَد بَلَغَنا؟ فَأَنطَلِقُ، فَآتِي تَحتَ العَرشِ، فَأَقَعُ ساجِدًا لِرَبِّي، ثُمَّ يَفتَحُ اللهُ عَلَيَّ وَيُلهِمُنِي مِن مَحامِدِهِ، وَحُسنِ الثَّناءِ عَلَيهِ شَيئًا لَم يَفتَحهُ لِأَحَدٍ قَبلِي، ثُمَّ يُقالُ: يا مُحَمَّدُ، ارفَع رَأسَكَ، سَل تُعطَه، اشفَع تُشَفَّع»(١).

ثم قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ٣٩﴾، والمسفرة: المستنيرة. والمستبشرة: المسرورة، وفيه إشارة إلى أنَّ كرب ذلك اليوم يُسرّى عن أقوام سبقت لهم من الله الحُسنى، فهم من فزعٍ يومئذ آمنون، خوفهم عارض في مواقف كالحال عند السراط، وإلّا فهم في عامة مواقف تلك الأهوال آمنون فرِحون، لا خوف عليهم ولاهم يحزنون، كما قال ربنا:﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ٨٩﴾ [النمل].

وفي الآية إشارة إلى أن الابتسامة خير للوجه، ولو لم تكن كذلك لما أكرمت بها وجوه أهل الجنة، فما أحسن المحافظة عليها وإبداءها عند مقابلة إخواننا! قال نبينا ﷺ: «وَتَبَسُّمُكَ فِي وَجهِ أَخِيكَ صَدَقَةٌ»(٢).

ثم قال تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ٤١ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ٤٢﴾، والغبرة: الظلمة. والقترة: الذلة، وذلك لما جنوا في الدنيا، وهذه خاتمة ملائمة لمن أشير إليهم أول السورة، من الملأ الكبراء، المعرضين عن اتباع الوحي استكبارًا، تلك هي عاقبتهم والمتقدمة عاقبة أمثال ابن أم مكتوم، ﷺ، أسأل الله أن يجعلنا من أهل الجنة.

---

(١) البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤).
(٢) صحيح الأدب المفرد (٦٨٨).

سُورَةُ التَّكْوِيرِ

بين يدي سورة التكوير

أسماؤها:

سورة التكوير، وسميت بـ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾. وتسمى بسورة: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾، فعن عمرو بن حريث ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في الفجر: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾(١). «وأكثر أهل التفاسير يسمونها سورة التكوير، وكذلك تسميتها في المصاحف، وهو اختصار لمدلول ﴿كُوِّرَتْ﴾، وتسمى سورة: ﴿كُوِّرَتْ﴾، تسمية بحكاية لفظ وقع فيها»(٢).

وهي مكية باتفاق(٣).

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُها مئة وَأَربع كَلِمات، وحروفها خمس مئة وَثَلاثَة وَعِشْرُونَ حرفًا، وَهِي عشرُون وتسع آيات فِي جَمِيع العدَد إِلَّا فِي عد أبي جَعفَر فَإِنَّها وثمان، اختلافها آيَة ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾، لم يعدها أَبُو جَعفَر وَحده وعدها الباقُونَ»(٤).

---

(١) مسلم (٤٥٦).
(٢) التحرير والتنوير (٣٠/١٣٩).
(٣) المصدر السابق.
(٤) البيان في عدّ آي القرآن، ص(٢٦٥).

ما ورد فيها:

سبق ذكر حديث عمرو بن حريث ﷺ قال: «سمعت النبي ﷺ يقرأ في الفجر: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾»(١).

وعن عن ابن عباس ﷺ قال: قال أبو بكر ﷺ: يا رسول الله قد شبت؟ فقال: «**شيبتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت**»(٢).

وعن ابن عمر ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن سره أن ينظر إليَّ يوم القيامة كأنه رأي العين فليقرأ:** ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾»(٣).

موضوعاتها:

اشتملت هذه السورة المباركة على ذكر شيء من أهوال يوم القيامة، وبيان مكانة القرآن الكريم الذي نزل من عند الله سبحانه، وعلى مدح الرسولين الأمينين الكريمين جبرائيل ونبينا ﷺ.

مقصدها:

الاستعداد لليوم الآخر الذي ذكَّر الله فيها بأهواله وما يكون فيه.

---

(١) مسلم (٤٥٦).
(٢) الترمذي (٣٢٩٧)، وصححه الألباني في الصحيحة (٩٥٥).
(٣) الترمذي (٣٣٣٣)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٠٨١).

سورة التكوير: تأملات ووقفات

الآيات (١ ـ ١٤)

إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾

أذكر في مبدأ الحديث عن آيات هذه السورة موقفًا حدث قبل سنوات، فقد كنا في قبو الحرم، وقبل إقامة الصلاة تساقطت كثير من حافظات المياه المبردة وكانت قد رُصَّ بعضها فوق بعض، فأحدثت صوتًا مدويًا، ففزع الناس فزعًا شديدًا وتدافعوا عند الأبواب وماجوا في بعض، وإذا كان مثل هذا يحدث في أمور يسيرة، فكيف بأهوال يوم القيامة! وإنك لتجد من الناس فزعًا عظيمًا إذا وقع عندهم زلزال، أو حصل إعصار، أو جاءهم سيل، فكيف بما يقع في الآخرة من أهوال عظيمة امتلأت بذكرها سور القرآن الكريم؟! وهذه السورة اشتملت على كثير من تلك الأهوال، ولذلك: لا بُدَّ أن يكون لها أثر على إيمانك إن تدبَّرتها، ولهذا جاء في الأثر عدها من جملة المشيبات! التي تشيب الرؤوس لما فيها من الأهوال.

قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ١﴾، أي: لُفَّت وذهب ضوءها، قال السعدي رحمه الله: «تجمع، وتُلَفُّ، ويخسف القمر، ويلقيان في النار»[١]، وإنك لتشعر بالرهبة إذا كسفت، أو حجب ضوؤها في النهار بالغبار فكيف بك إذا كورت وقذف بها إلى حيث يشاء الله؟!

﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ٢﴾، أي ذهب ضوءها ونورها.

﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ٣﴾، «زالَت عَن أماكِنِها، ونُسِفت، فَتَرَكَتِ الأَرضَ قاعًا صَفصَفًا»[٢]، ولا كمثل هذا زلزال!

﴿وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ٤﴾، العشار: النوق، التي وصل حملها إلى الشهر العاشر، وهي من أعز أموال العرب، فحرص صاحبها يزداد عليها في تلك المرحلة، وقيل في معنى الآية غير ذلك، والذي يُراد من الآية: الانشغال عن كل ما كانت القلوب تتعلق به في الدنيا، بسبب أهوال الآخرة.

﴿وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ٥﴾، هذه الوحوش المختلفة؛ الأسود، والذئاب، والفهود، والنمور، من المفترسات، والحُمُر والبقر وأصناف الظباء من الوحشيات غير المفترسة، وغير ذلك، تكون في مكان واحد، لا تجري على قوانينها في الدنيا افتراسًا وعدوانًا من هول الموقف. قال ابن كثير رحمه الله: «قالَ ابنُ عَبّاسٍ: يُحشَرُ كُلُّ شَيءٍ حَتَّى الذُّبابُ»[٣]. وقد ثبت عَن أَبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قالَ: **«لَتُؤَدُّنَّ الحُقُوقَ إِلَى أَهلِها يَومَ القِيامَةِ، حَتَّى يُقادَ لِلشّاةِ الجَلحاءِ، مِنَ الشّاةِ القَرناءِ»**[٤]. وإذا اقتص من العجماوات فكيف بالمكلفين! وما أشد أن يكون القصاص من القريب للقريب قبل البعيد! كمن يظلم زوجه! أو يظلم أولاده،

---

(١) تفسير السعدي، ص(٩١٢).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/٣٣٠).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٨/٣٣١).
(٤) مسلم (٢٥٨٢).

أو والديـه، أو جديـه! إن حقـوق العبـاد مبنيـة على المشـاحة، وفي الحديـث عـن أَبِي هُرَيـرَةَ ، أَنَّ رَسُـولَ اللهِ ﷺ، قـالَ: «أَتَـدرُونَ مـا المُفلِـسُ؟»، قالُـوا: المُفلِسُ فِينا مَـن لا دِرهَـمَ لَهُ وَلا مَتـاعَ. فَقـالَ: «**إِنَّ المُفلِـسَ مِـن أُمَّتِي يَأتِي يَـومَ القِيامَـةِ بِصَلاةٍ، وَصِيـامٍ، وَزَكاةٍ، وَيَـأتِي قَد شَـتَمَ هَـذا، وَقَذَفَ هَـذا، وَأَكَلَ مـالَ هَذا، وَسَـفَكَ دَمَ هَذا، وَضَرَبَ هَـذا، فَيُعطَـى هَـذا مِـن حَسَـناتِهِ، وَهَذا مِن حَسَـناتِهِ، فَـإِن فَنِيَت حَسَـناتُهُ قَبـلَ أَن يُقـضَى مـا عَلَيهِ أُخِذَ مِـن خَطاياهُـم فَطُرِحَت عَلَيـهِ، ثُمَّ طُـرِحَ فِي النّارِ**»(١).

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾، أُوقدت، وكانت نارًا، فالماء الذي يُطفئها يصير نارًا؛ لتتجلى مظاهر قدرة الله تعالى للناس كافة.

﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾، كلٌّ مع من سلك سبيله في الدنيا، وعمل عمله، التَّقي مع الأتقياء، والكافر مع الكفرة، وهكذا. جعلنا الله مع خير المتقين.

﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨﴾، المـوؤودة: الوليـدة يدفنونهـا في الـتراب خوفًـا مـن العـار، قـال ربنا فيهـم: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٥٩﴾ [النحل]. ولعـل مـن المناسـب هنـا أن أطـرح سـؤالًا؛ ذبًّـا عـن عـرض الفـاروق وأرضـاه، والسـؤال: هـل ثبت أنـه وأد ابنتـه؟! الجواب: لـم يثبت ذلك، ولـن تجده في مصـدر يُعتـدُّ بـه. وإذا كان الفـاروق يفعـل ذلـك فكيـف وُلدت حفصـة بنت عمر بـن الخطـاب له في الجاهليـة قبل البعثة بخمس سـنوات ولم يئدهـا؟! ومن الأدلة على عـدم وقـوع ذلـك منـه: حديث النعمـان بن بشـير ، قـال: سـمعت عمر بن الخطـاب سـئل عـن قـوله: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨﴾، فقـال: جـاء قيـس بـن عاصـم إلى رسـول الله ﷺ، فقـال: إني وأدت ثمـاني بنات لي في الجاهليـة. قال: «**أعتق عـن كل واحـدة منهـا رقبـة**». فقـال: إني صاحب إبـل. قـال: «**أهد إن شـئت عن كل**

---

(١) مسلم (٢٥٨١).

واحدة منهن بدنة»(١). ولما لم يذكر الفاروق ﷺ عن نفسه ذلك، وإنما رواه من فعل قيس بن عاصم، دلَّ على عدم وقوع الوأد المنسوب إليه ﷺ.

وهل تدلُّ الآية على أن أطفال المشركين في الجنة؟ قيل: إنَّهم في الجنَّة، وبعضهم يقول: إنَّهم على الأعراف، ومقتضى هذا القول أنَّهم في الجنَّة؛ لأن هذا هو حال أهل الأعراف، وهو قول الأكثر من أهل العلم كما نقله عنهم ابن عبد البر(٢). ودليلهم حديث سمرة ﷺ: أنه ﷺ رأى مع إبراهيم ﷺ أولاد المسلمين وأولاد المشركين»(٣). وهذه المسألة مما ينبغي الكف عن الخوض فيها؛ لقول ابن عباس ﷺ: «لا يَزالُ أَمرُ هَذِهِ الأُمَّةِ قِوامًا ما لَم يَتَكَلَّمُوا فِي الوِلدانِ والقَدَرِ»(٤). قال ابن حبان: «الوِلدانُ: أراد به أطفال المشركين»(٥).

﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ١٠﴾، تطايرت، فأصحاب اليمين يأخذونها بأيمانهم، وجاء بيان هذا في قول ربنا: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ١٩ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ٢٠ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ٢١ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ ٢٣ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ ٢٤ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ٢٥﴾ [الحاقة]، وأصحاب الشمال يأخذونها بشمائلهم، نعوذ بالله من حالهم. فإن قيل: ألم يقل الله: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ١٠﴾ [الانشقاق]؟ هل يعارض أنهم يأخذونها بشمالهم؟ الجواب: لا تعارض، فيأخذونها بشمالهم، من وراء ظهورهم. وهذا دليل من أدلة كثيرة على أن طالب العلم إذا أراد أن يخلص إلى حكم صحيح في مسألة ما فعليه أن ينظر في جميع النصوص التي تناولت المسألة؛ ليكون حكمه صوابًا.

وإذا كانت الكتب تسطر اليوم فعلى العاقل أن يودع في كتابه خيرًا يَسرُّه أن يُعرَض على الملأ غدًا، ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ١٩﴾ [الحاقة]،

(١) رواه البزار (٦٠/١).
(٢) التمهيد (٩٦/١٨).
(٣) البخاري (٦٦٤٠).
(٤) رواه عبد الله بن أحمد في كتاب السنة (٤٠١/٢).
(٥) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (١١٩/١٥).

لأنـه أودع فيـه ما يسره في آخرته، ومن أودع فيه سـوءً فضحه الله أمام الأشـهاد، ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحاقة]، فـكل مـا في صدرك سـيخرج ويحصـل، وما تخفيه اليـوم قـد يظهـره الله غـدًا، فإيـاك أن تخـفي مـا تكـره أن يطلع النـاس عليـه، وتذكر قـوله عـز شـأنه: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾﴾ [العاديات].

وقـوله: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾﴾، أُنهيَـت، «قـالَ الضَّحّـاكُ: تَنكَشِـطُ فَتَذهَـبُ»(١).

﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾﴾، أُحميت، وهي كذلك الآن، قال ربنا: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [آل عمران]، والمراد: أنها تزداد إحماء.

﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾﴾، قُرِّبـت للمؤمنـين. قـال ربنـا: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الشعراء].

بعـد ذلـك ذكـر جـواب الـشرط، ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾، مـا عملـت وأحـضر ذلـك لهـا، قـال تعـالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]. وقـال: ﴿يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾ [القيامة]. وفي الانفطـار: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾﴾ [الانفطار]. ولا منافـاة بينهما.

وتكـرار أداة الشرط في الآيات مما يأخذ بمجامع الفكر، ويوقظ القلب، وينأى بالعبد عن الغفلة عما يقرأ، ويشوِّق إلى معرفة جواب الشرط.

والعبرة أن الإنسان الظلوم الجهول يجادل في الدنيا، ويبهرج عمله ويظهره بالمظهر الحسن ويدافع عن باطله، أمّا في الآخرة فسوف تعلم كل نفس علمًا لا مدفع له الخير الذي كان منها، والشَّرَّ الذي أحضرته، فلا يسعها هناك أن تتأول وتجادل بالباطل إلّا أن تدحض.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/٣٣٥).

الآيات (١٥ ـ ٢٩)

فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ
﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ
عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم
بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ
بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾
إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ
﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾

هذا قسم على قضية أخرى، قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾﴾، أي أقسم، بدليل قول ربنا: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [الواقعة]، فأثبت الله أنه قسم عظيم. قال ابن عاشور ﷺ: «فلا أقسم بمعنى: أقسم، و (لا) للتوكيد، وأصلها نافية تدل على أن القائل لا يقدم على القسم بما أقسم به خشية سوء عاقبة الكذب في القسم. وبمعنى أنه غير محتاج إلى القسم لأن الأمر واضح الثبوت، ثم كثر هذا الاستعمال فصار مرادًا تأكيدُ الخبر»(١).

فما معنى الآية؟ قال الشيخ السعدي ﷺ: «الكواكب التي تخنس أي: تتأخر عن سير الكواكب المعتاد إلى جهة المشرق، وهي النجوم السبعة السيارة: الشمس، والقمر، والزهرة، والمشترى، والمريخ، وزحل، وعطارد. فهذه السبعة لها سيران:

(١) التحرير والتنوير (٢٧/٣٣٠).

سير إلى جهة المغرب مع باقي الكواكب والأفلاك، وسير معاكس لهذا من جهة المشرق تختص به هذه السبعة دون غيرها. فأقسم الله بها في حال خنوسها أي: تأخرها، وفي حال جريانها، وفي حال كنوسها أي: استتارها بالنهار، ويحتمل أن المراد بها جميع النجوم الكواكب السيارة وغيرها»[١]. والله تعالى أعلم.

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧﴾، هذا من الأضداد، قيل: أدبر، وقيل: أقبل، وعلى كلٍّ فإنه آية على القدرة وفيه عبرة لمن لم ينظر بعين الاعتياد.

﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨﴾، حلَّ بالأرض، وغطى المكانَ نسيمه وضياؤه، وهذه تحمل على التفاؤل، وتشير إلى أن ظلمة الليل مهما طال أمدها فلا بقاء لها، وكذلك الهمُّ والكرب الذي يأخذ بالنفس، مهما امتد زمانه فلا بُدَّ أن ينجلي، فلا تستغرقنك اللحظة الحاضرة، ولا تبنِ مستقبلك لأجل عارض أو ظرف آني.

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ٢٠﴾، هذا جواب القسم، والمراد بالرسول هنا جبريل ﷺ، وذكر له صفات، أنه رسول كريم، فإنه أعلى الملائكة رتبة عند الله، ونعت بالقوة، ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾، قيل: حمل قُرى سدوم بطرف جناحٍ. والله أعلم.

﴿عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ٢٠﴾، أي: مقرب عند الله، وله مكانة عظيمة.

﴿مُّطَاعٖ ثَمَّ﴾، أي: مطاع في الملأ الأعلى، هناك بين الملائكة.

﴿أَمِينٖ ٢١﴾، حافظ لما ائتمن عليه.

وهذا يشير إلى أن من أهم هذه الصفات التي لا بُدَّ من توفرها في المسؤول: القوة، والأمانة. قالت إحدى ابنتي صاحب مدين: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ٢٦﴾ [القصص]. وقال عفريت من الجن لسليمان ﷺ: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ ٣٩﴾ [النمل]. وقال يوسف ﷺ:

---

(١) تفسير السعدي، ص(٩١٢ ـ ٩١٣).

﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ [يوسف]. والحفيظ الأمين، الذي لا يضع شيئًا عنده في غير ما هو له.

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾، عطف على جواب القسم، والمراد: نبينا ﷺ، فهذا الرسول ليس غريبًا عنكم، لم يأتِ من خارجكم، بل هو صاحبكم، نشأ بينكم، كما قال ربنا: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]. وهذا له أثر في قبول دعوته، ولذا قال ربنا: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، وفي الآية ما يشير إلى معنى نحتاج إليه اليوم، وهو أن الداعية القريب يؤثر في أقربائه أكثر من غيره، ولاسيما إذا كانت سيرته فيهم معروفة بحسنها.

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾، رأى نبينا ﷺ جبريل ﷺ على صورته التي خلقه الله عليها. فعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: سَمِعتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يُحَدِّثُ عَن فَترَةِ ـ أي انقطاع ـ الوَحيِ فَقالَ فِي حَدِيثِهِ: «**فَبينا أَنا أَمشِي إِذ سَمِعتُ صَوتًا مِن السَّماءِ، فَرَفَعتُ رَأسِي، فَإِذا المَلَكُ الَّذِي جاءَنِي بِحِراءٍ جالِسٌ عَلَى كُرسِيٍّ بَينَ السَّماءِ والأَرضِ، فَجَئِثتُ مِنهُ رُعبًا فَرَجَعتُ، فَقُلتُ: زَمِّلُونِي، زَمِّلُونِي، فَدَثِّرُونِي، فَأَنزَلَ اللهُ تَعالَى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾﴾[المدثر]»(١). ولهذا قال بعض أهل العلم: إن هذه السورة نزلت قبل سورة الإسراء. قال ابن كثير ﷺ: «يعني: ولقد رأى محمدٌ جبريل الذي يأتيه بالرسالة عن الله ﷻ على الصورة التي خلقه الله عليها له ستمئة جناح، ﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾، أي: البيِّن، وهي الرؤية الأولى التي كانت بالبطحاء (موضع بمكة)، وهي المذكورة في قوله: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾

---

(١) البخاري (٤٦٤١) ومسلم (١٦١).

فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [النجم]، كما تقدم تفسيرُ ذلك وتقريره، والدليلُ أن المرادَ بذلك جبريل ﷺ. والظاهر والله أعلم أن هذه السورة - يعني سورة التكوير - نزلت قبل ليلة الإسراء؛ لأنه لم يذكر فيها إلا هذه الرؤية، وهي الأولى. وأما الثانية وهي المذكورة في قوله: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [النجم]، فتلك إنما ذكرت في سورة النجم، وقد نزلت بعد سورة الإسراء»[(١)].

وفي الحديث: «**إِنَّما هُوَ جِبرِيلُ، لَم أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيها غَيرَ هاتَينِ المَرَّتَينِ، رَأَيتُهُ مُنهَبِطًا مِنَ السَّماءِ سادًّا عِظَمُ خَلقِهِ ما بَينَ السَّماءِ إِلَى الأَرض**»[(٢)].

﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾﴾، وقرئ هذا الحرف: ﴿بِظَنِينٍ﴾[(٣)]. ومعنى ﴿بِضَنِينٍ﴾: ببخيل، فنبينا ﷺ لا يبخل بشيء مما نزل عليه، بل يبلّغ كلّ ما أوحي إليه، وأما معنى ﴿بِظَنِينٍ﴾، أي: أن هذا الذي جاء به النبي ﷺ ليس ظنًّا، وإنما هو وحي حقيقي يتلى، ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾﴾ [الشعراء].

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾، لما انقطع الوحي عن الرسول ﷺ فترة وحزن النبي ﷺ قال له المشركون: ما نرى إلا أن شيطانك قد جفاك، فرد الله ﷻ عليهم بهذا[(٤)]. وفي موضع آخر قال ربنا: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾﴾ [الشعراء].

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾﴾، فإلى أين تحيدون عن هذه الحُجَج؟ وأين تذهب بكم عقولكم في التكذيب بالقرآن بعد هذه القواطع؟

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾، ليس للعرب فحسب، وكذلك ما في السنة؛

(١) تفسير ابن كثير (٨/٣٣٩).
(٢) مسلم (١٧٧).
(٣) السبعة في القراءات، ص(٦٧٣).
(٤) يراجع: تفسير الطبري (٢٤/٤٨٥).

فخطاب النبي ﷺ للواحد من أصحابه خطاب للأُمَّة كلها، ومما يدل لذلك حديث مُعاوِيَةَ بنِ قُرَّةَ، عَن أَبِيهِ ﷺ: أَنَّ رَجُلًا كانَ يَأتِي النَّبِيَّ ﷺ وَمَعَهُ ابنٌ لَهُ، فَقالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَتُحِبُّهُ؟**»، فَقالَ: يا رَسُولَ اللهِ، أَحَبَّكَ اللهُ كَما أُحِبُّهُ. فَفَقَدَهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَقالَ: «**ما فَعَلَ ابنُ فُلانٍ؟**»، قالُوا: يا رَسُولَ اللهِ، ماتَ، فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَبِيهِ: «**أَما تُحِبُّ أَن لا تَأتِيَ بابًا مِن أَبوابِ الجَنَّةِ، إِلّا وَجَدتَهُ يَنتَظِرُكَ؟**»، فَقالَ رَجُلٌ: يا رَسُولَ اللهِ، أَلَهُ خاصَّةً أَم لِكُلِّنا؟ قالَ: «**بَل لِكُلِّكُم**»[1].

وإذا كان القرآن ذكرًا للعالمين فالسؤال: هل أوصلنا هذا الذكر إلى العالمين؟ يحدثني أحد الإخوة: أن شابًا أمريكيًا أسلم، وجاء يريد العمرة أو الحج، فقال له: ستحاسبون لأنكم لم تبلغوا هذه الدعوة لأبي وأهلي، وقد مات أبوه على كفره. فعلينا أن نسعى بقدر ما أوتينا لتبليغ الإسلام، وانتشار الإسلام كائنٌ لا محالة، لكن المُوفَّق من استعمله الله في طاعته.

﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨﴾، الدعوة إلى الاستقامة تكررت في القرآن، صريحة وضمنًا كما في هذه الآية، وأنبه هنا إلى ملحظ نبه إليه بعض العلماء، وهو: أن قولك «فلان مستقيم»، أولى من «ملتزم»؛ لأنه لفظ القرآن الكريم، قال ربنا: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٢﴾ [هود]، والالتزام مصطلح لا بأس به، ولكن الأولى التزام ما في الكتاب والسنة.

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٩﴾، هناك مشيئة لله تعالى، ومشيئة أخرى للمخلوق، والآية تثبت المشيئتين، وفي أهل البدع من ألغى مشيئة البشر، وهم الجبرية. وفيهم من أنكر مشيئة الله تعالى، وقالوا: إن الإنسان يخلق فعله، وإن الأمر أُنُف؛ أي: لا قدر، وهم القدرية. والصحيح ما دلَّت عليه الآية:

---

(١) أحمد (٢٠٣٦٥)، وصححه الألباني في أحكام الجنائز، ص(١٦٢).

أن للعبد مشيئة وهي تقتضي قدرة واختيارًا، ولذلك يحاسب على صنيعه، وما أكره عليه لا يحاسب به، لكنَّ ذلك لا يخرج عن مشيئة الله النافذة، وما أجمل ما ينسب إلى الإمام الشافعي ﷺ:

فما شئتَ كان وإن لم أشأ   وما شئتُ إن لم تشأ لم يكن

فكل ما شاءه الله كان، وليس كل ما شاءه العبد واقعًا، لكن ما يقع منه من الأفعال الاختيارية يقع بمشيئته التي لا تخالف مشيئة الله تعالى، فربُّه يسَّره لما أراد بسابق علمه، وبحكمته التي تقتضي أن يجعل الأمور في مواضعها ﷻ، والله أعلم.

سُورَةُ الانفِطَارِ

بين يدي سورة الانفطار

وهي مكية بلا خلاف[١].

أسماؤها:

هي سورة الانفطار، وتُعرف في حديث رسول الله ﷺ بسورة ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾، وتسمى بسورة «المنفطرة»، وسورة ﴿انفَطَرَتْ﴾[٢].

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُها إحدَى وَثَمانُونَ كلمة، وحروفها ثَلاث مئة وَسَبعَة وَعِشرُونَ حرفًا، وَهِي تسع عشرَة آيَة فِي جَمِيع العدَد لَيسَ فِيها اختِلاف»[٣].

ما ورد فيها:

عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: **«من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأيُ العين فليقرأ:** ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، و﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾، و﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾»[٤].

---

(١) التحرير والتنوير (١٦٩/٣٠).
(٢) السابق.
(٣) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٦٦).
(٤) الترمذي (٣٣٣٣)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٠٨١).

موضوعاتها:

تناولت السورة المباركة قضيَّة اليوم الآخر، وشيئًا مما يكون فيه من الأهوال، وأن الأمر فيه لا يكون إلا لله تعالى، وبيَّنت تذكُّر الإنسان فيه لكل ما جنته يداه، وقام به، وتكذيب الكافر بيوم الدين، وبيان أن مع كل إنسان ملكًا يحفظ قوله وعمله، فمن كان منهم من أصحاب اليمين فهو في نعيم مقيم، ومن فجر منهم فهو في الجحيم.

مقصدها:

إثبات اليوم الآخر، وبيان سبيل النجاة فيه بالإيمان به، وبمراقبة الله تعالى في القول والعمل.

سورة الانفطار: تأملات ووقفات

الآيات (١ ـ ٥)

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾

هذه السورة تحمل على التأمل في مشهدين:

● الأول: مشهدٌ حاضرٌ نراه وهو إتقان خلق السماء، قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾﴾ [الذاريات]، فربنا أقسم في هذه الآية بالسماء ذات الضبط، والإتقان، والنظام في هيئتها ونجومها وشمسها وقمرها.

● والمشهد الثاني: مشهدٌ سوف يقع، ويؤول إليه المشهد الأول، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾﴾، والحديث فيها عما يلحق بها في الآخرة، وما تؤول إليه من حال، لاستقبال حياة مختلفة عن هذه الحياة التي نعيشها. فالعاقل من جعل هذه الحياة الزائلة مطية للوصول إلى السعادة الأبدية في الحياة الباقية.

وهذه السورة اشتملت على بعض ما اشتملت عليه سورة التكوير، إلا أنه في التكوير كان جلُّ الحديث عما يكون في اليوم الآخر، وفي الانفطار عن حال الإنسان فيه. وقد سبقت التكوير سورة الانفطار في النزول وتقدمت عليها بسور عديدة، ولذا فإنك تشعر بالوعظ في سورة التكوير أكثر منه في سورة الانفطار.

وقوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١﴾، أي: انشقت، كما قال ربنا: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١﴾ [الانشقاق]، وقال: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا ۝١٨﴾ [المزمل]، وهذه هي الحال التي تكون عليها هذه السماء محكمة البناء التي لا نرى لها من فروج.

والسماء خلق عظيم، أقسم الله تعالى بها في مواضع من القرآن، قال ربنا: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ۝١﴾ [البروج]، وقال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١﴾ [الطارق]، وقال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾ [الشمس]. وبدأ بالسماء؛ لأنها أكبر المخلوقات التي نراها، وقيل أيضًا: لأنه إذا أُريد هدم شيء كان البدء بأعلاه.

وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ﴾، الكوكب في اللغة النجم، وليس على هذا يجري اصطلاح الفلكيين، فهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ۝٢﴾ [التكوير]، وهذا يُبيِّن أن انتثارها انصباب إلى سفول، وهذا أمر مهول، هذه الكواكب التي تسعدك إذا نظرت إلى السماء الدنيا بزينتها وبهائها، تكون مصدر رعب إذا تناثرت في كل ناحية.

وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ۝٣﴾، أي: فَجَّرَ اللهُ بَعضَها في بَعضٍ، كما نقل ابن كثير عن ابن عباس ﵄، وَقالَ الحَسَنُ: فَجَّرَ اللهُ بَعضَها في بَعضٍ، فَذَهَبَ ماؤُها. وَقالَ قَتادَةُ: اختَلَطَ مالِحُها بِعَذبِها[١]. ومر معنا في سورة التكوير أنها تصير نارًا تأجج، قال ربنا: ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ۝٦﴾ [التكوير]، وتلك حال أخرى، لعلها بعد حال التفجر هذا.

وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ۝٤﴾، أي تحرَّكت، فأخرجت كلَّ من فيها.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣٤١/٨).

ثم قال تعالى في جواب الشرط: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾، وفي هذه قولان: «ما عملته مقدمًا، وهو ما عملته في أول العمر، والعمل الذي أخرته، أي عملته مؤخرًا، أي في آخر مدة الحياة. أو المراد بالتقديم المبادرة بالعمل، والمراد بالتأخير مقابله وهو ترك العمل»(١).

فإن قيل: ألسنا نعلم الآن ذلك؟ الجواب: بلى، ولكن العلم درجات، والنفس تخدع صاحبها، فتحسن له القبيح، أما في الآخرة فيتحقق العلم، وتزول الظنون، وتنكشف الحقائق.

وقد ورد في الحديث عَن عائِشَةَ ﵂ أَنَّها قالَت: لَمَّا رَأَيتُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ طِيبَ نَفسٍ قُلتُ: يا رَسُولَ اللهِ ادعُ اللهَ لِي. فَقالَ: «**اللهُمَّ اغفِر لِعائِشَةَ ما تَقَدَّمَ مِن ذَنبِها، وَما تَأَخَّرَ، وما أَسَرَّت، وَما أَعلَنَت**». فَضَحِكَت حَتَّى سَقَطَ رَأسُها فِي حِجرِها مِنَ الضَّحِكِ، فقالَ لَها رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَيَسُرُّكِ دُعائِي؟**»، فَقالَت: وَما لِي لا يَسُرُّنِي دُعاؤُكَ؟ فَقالَ ﷺ: «**واللهِ إِنَّها لَدُعائِي لِأُمَّتِي فِي كل صلاة**»(٢).

---

(١) التحرير والتنوير (١٧٣/٣٠).
(٢) رواه ابن حبان في صحيحه، وصححه الشيخ شعيب الأرنؤوط ﵀ (٤٧/١٦).

الآيات (٦ ـ ١٢)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ۝١٢﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦﴾، قال ابن كثير ﵀: «هَذا تَهدِيدٌ، لا كما يتوهمه بعض الناس مِن أَنَّهُ إرشادٌ إِلَى الجَوابِ؛ حَيثُ قالَ: ﴿ٱلۡكَرِيمِ﴾ حَتَّى يَقُولَ قائِلُهُم: غَرَّهُ كَرَمُهُ! بَلِ المَعنَى فِي هَذِهِ الآيَةِ: ما غَرَّكَ يا ابنَ آدَمَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ ـ أَي: العَظِيمِ ـ حَتَّى أَقدَمتَ عَلَى مَعصِيَتِهِ، وَقابَلتَهُ بِما لا يَلِيقُ؟»(١).
والخطاب للكافر والعاصي.

وفي تدبُّر هذه الآية علاج للتسويف والأماني، ومن صفات المؤمن: الجمع بين الإحسان والخوف من الله، بخلاف المنافق؛ فإنه يجمع بين الإساءة وعدم الخوف من ربه، وقد سألت عائشة ﵂ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَن هَذِهِ الآيَةِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، قالت: أَهُمُ الَّذِينَ يَشرَبُونَ الخَمرَ وَيَسرِقُونَ؟ فقالَ: «**لا يا بِنتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ، وَهُم يَخافُونَ أَن لا تُقبَلَ مِنهُم،** ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١﴾ [المؤمنون]»(٢).

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣٤٢/٨).
(٢) الترمذي (٣١٧٥)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٦٢).

فهـذه الآية اشـتملت على مناقشـة تبين الحق وتـدل عليه، ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ٦﴾، كان الواجـب أن تعمـل بمـا يرضيـه عنك، وينجيـك من عذابه، فقد سـبق كرمـه إليـك! أوَ يليـق أن تقابـل إحسـانه بالإسـاءة! والمناقشـة أسـلوب نافع لأولي الألبـاب! تجدهـا في السـنة كثـيرًا، فمن ذلك:

حديـث أَبِي سَـعِيدٍ الخُـدرِيِّ ﷺ قـالَ: لَمّـا أَعطَى رَسُـولُ اللهِ ﷺ مـا أَعطَى مِن تِلـكَ العَطايـا فِي قُرَيـشٍ وَقَبائِـلِ العَـرَبِ، وَلَـم يَكُـن فِي الأَنصـارِ مِنهـا شَيءٌ وَجَدَ هَـذا الـحَيُّ مِـنَ الأَنصـارِ فِي أَنفُسِـهِم، حَتَّى كَـثُرَت فِيهِـمُ القالَةُ حَـتَّى قـالَ قائِلُهُم: لَـقِيَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ قَومَـهُ، فَدَخَـلَ عَلَيـهِ سَـعدُ بنُ عُبـادَةَ، فَقـالَ: يا رَسُـولَ اللهِ، إِنَّ هَـذا الـحَيَّ قَد وَجَـدُوا عَلَيـكَ فِي أَنفُسِـهِم لِما صَنَعـتَ فِي هَـذا الـفَيءِ الَّذِي أَصَبتَ، قَسَـمتَ فِي قَومِـكَ، وَأَعطَيـتَ عَطايـا عِظامًا فِي قَبائِـلِ العَرَبِ، وَلَم يَـكُ فِي هَذا الحَيِّ مِـنَ الأَنصـارِ شَيءٌ، قـالَ: «فَأَيـنَ أَنـتَ مِـن ذَلِـكَ يـا سَـعدُ؟»، قـالَ: يـا رَسُـولَ اللهِ، مـا أَنـا إِلّا امـرُؤٌ مِـن قَـومِي، وَمـا أَنـا؟ قـالَ: «فاجمَـع لِي قَومَـكَ فِي هَـذِهِ الحَظِـيرَةِ». فَخَـرَجَ سَـعدٌ، فَجَمَعَ الأَنصـارَ فِي تِلكَ الحَظِـيرَةِ، قالَ: فَجـاءَ رِجالٌ مِـنَ المُهاجِرِينَ، فَتَرَكَهُـم، فَدَخَلُـوا وَجاءَ آخَـرُونَ، فَرَدَّهُـم، فَلَمّا اجتَمَعُوا أَتاهُ سَـعدٌ فَقالَ: قَـدِ اجتَمَعَ لَـكَ هَـذا الحَيُّ مِـنَ الأَنصـارِ، قـالَ: فَأَتاهُم رَسُـولُ اللهِ ﷺ فَحَمِـدَ اللهَ وَأَثـنَى عَلَيهِ، بِـالَّذِي هُـوَ لَهُ أَهـلٌ، ثُـمَّ قالَ: «يـا مَعـشَرَ الأَنصارِ مـا قالَـةٌ بَلَغَـتـنِي عَنكُـم؟ وَجِدَةٌ وَجَدتُمُوهـا فِي أَنفُسِـكُم؟ أَلَـم آتِكُم ضُـلّالًا فَهَداكُمُ اللهُ؟ وَعالَـةً فَأَغناكُمُ اللهُ؟ وَأَعـداءً فَأَلَّـفَ اللهُ بَـينَ قُلُوبِكُـم؟»، قالُـوا: بَلِ اللهُ وَرَسُـولُهُ أَمَنُّ وَأَفضَـلُ. قالَ: «أَلا تُجِيبُونَـنِي يـا مَعشَرَ الأَنصـارِ؟»، قالُوا: وَبِمـاذا نُجِيبُـكَ يا رَسُـولَ اللهِ، وَلِلهِ وَلِرَسُـولِهِ المَـنُّ والفَضـلُ. قـالَ: «أَما واللهِ لَو شِـئتُم لَقُلتُـم فَلَصَدَقتُـم وَصُدِّقتُم، أَتَيتَنـا مُكَذَّبًا فَصَدَّقنـاكَ، وَمَخـذُولًا فَنَصَرنـاكَ، وَطَرِيـدًا فَآوَينـاكَ، وَعائِـلًا فَآسَـيناكَ، أَوَجَدتُـم فِي أَنفُسِـكُم يـا مَعـشَرَ الأَنصـارِ فِي لُعاعَـةٍ مِـنَ الدُّنيـا، تَأَلَّفـتُ بِهـا قَومًـا لِيُسـلِمُوا،

وَوَكَلْتُكُم إِلَى إِسلامِكُم؟ أَفَلا تَرضَونَ يا مَعشَرَ الأَنصارِ أَن يَذهَبَ النّاسُ بِالشّاةِ والبَعِيرِ، وَتَرجِعُونَ بِرَسُولِ اللهِ فِي رِحالِكُم؟ فَوالَّذِي نَفسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَولا الهِجرَةُ لَكُنتُ امرَأً مِنَ الأَنصارِ، وَلَو سَلَكَ النّاسُ شِعبًا، وَسَلَكَتِ الأَنصارُ شِعبًا لَسَلَكتُ شِعبَ الأَنصارِ، اللهُمَّ ارحَمِ الأَنصارَ، وَأَبناءَ الأَنصارِ، وَأَبناءَ أَبناءِ الأَنصارِ». فَبَكَى القَومُ، حَتَّى أَخضَلُوا لِحاهُم، وَقالُوا: رَضِينا بِرَسُولِ اللهِ قِسمًا وَحَظًّا، ثُمَّ انصَرَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَتَفَرَّقُوا[1].

ومن ذلك: حديث أبي أمامة ﷺ، قال: إن فتًى شابًّا أتى النبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله ائذن لي بالزنا. فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا: مه مه! فقال: «**ادنه**»، فدنا منه قريبًا، فجلس. قال: «**أتحبُّه لأمك؟**»، قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: «**ولا الناس يُحبُّونه لأمهاتهم**». قال: «**أفتحبُّه لابنتك؟**»، قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك، قال: «**ولا الناس يُحبُّونه لبناتهم**». قال: «**أفتُحبُّه لأختك؟**»، قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: «**ولا الناس يُحبُّونه لأخواتهم**». قال: «**أفتُحبُّه لعمتك؟**»، قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال: «**ولا الناس يُحبُّونه لعماتهم**». قال: «**أفتُحبُّه لخالتك؟**»، قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال: «**ولا الناس يُحبُّونه لخالاتهم**». فوضع يده عليه، وقال: «**اللَّهُمَّ اغفر ذنبه، وطهِّر قلبه، وحصن فرجه**». فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء[2].

فإعمال هذا الأسلوب في التوجيه سُنَّة، ومن الخطأ في التربية أن نلجأ إلى أسلوب العقاب دون مناقشة تُقنِع وتَعِظ، أو حوار بيننا وبين أولادنا وتلاميذنا.

وقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾، والفرق بين الثلاثة أن معنى ﴿خَلَقَكَ﴾: أوجدك من العدم، ﴿فَسَوَّىٰكَ﴾: جعل أعضاءك

---

(١) أحمد (١١٧٣٠)، وحسنه العلامة شعيب الأرنؤوط ﷺ في نسخته المحققة (١٨/٢٥٣).
(٢) أحمد (٢٢٢١١)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٧٠).

سوية مهيأة للانتفاع بها، ﴿فَعَدَلَكَ﴾: جعلها متناسقة، فلم يجعل يدًا أطول من يد، وهكذا.

فربنا خلق الإنسان في أحسن تقويم، فهل يتمنى أحد أن يكون في صورة أجمل حيوان؟ أجمل بعير؟ أجمل حصان؟ لا يمكن، فلا أفضل من هذه الصورة التي خلق الإنسان عليها. قال ربنا: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين].

وفي الآية إشارة إلى أن الله تعالى شاء أن يجعل مَن خَلَقَ على ما هم عليه من الخِلقة، ولذا جاء الوعيد في بعض الأحاديث على تحويل هذه الصورة التي شاءها إلى غيرها، لما في ذلك من التسخُّط على قدر الله وعدم الرضا بما قسم، مع تفضيله في تلك القسمة على كثير من خلقه!

ثم بيَّن الله تعالى الآفة التي أُتي منها القوم، واغترَّ بسببها الناس فقال: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾﴾، ليس الأمر كما تقولون من أنكم في عبادتكم غير الله مُحِقون، بل العلة تكذيبُكم بيوم الحساب والجزاء.

ولما لم يكن لهذا التكذيب مستند، لم يعن بمناقشته هنا، وذكر الوعيد الذي يُبيِّن عظيم خطره!

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾﴾، ليس المقصود هنا الحفظ الذي يُبقي على النفس، كما في قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾﴾ [الطارق]، بل المراد المراقبة وإحصاء العمل. فالملائكة تكتب كل شيء، حتى العزم والنية، ثبت عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**إِنَّ اللهَ كَتَبَ الحَسَناتِ والسَّيِّئاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَن هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَم يَعمَلها كَتَبَها اللهُ لَهُ عِندَهُ حَسَنَةً كامِلَةً، فَإِن هُوَ هَمَّ بِها فَعَمِلَها كَتَبَها اللهُ لَهُ عِندَهُ عَشرَ حَسَناتٍ إِلَى سَبعِ مِئَةِ ضِعفٍ إِلَى أَضعافٍ كَثِيرَةٍ، وَمَن هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَم يَعمَلها كَتَبَها اللهُ لَهُ عِندَهُ حَسَنَةً كامِلَةً، فَإِن هُوَ هَمَّ بِها فَعَمِلَها**

كَتَبَهـا اللهُ لَهُ سَـيِّئَةً واحِـدَةً»[١]. وتَكـتـبُ عمـل القلب، وكلَّ شيء، سـوى الوسوسـة والخاطرة وحديـث النفس.

وفي هذا وعيدٌ للمُكذِّبين بيوم الدين، فكل ما يصدر عنهم محفوظ، ويترتب على الحفظ المؤاخذة، فليحذر العاقل.

وعلى المسلم أن يُراقب ربه، وفي الحديث عن عبد الله بن معاوية ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «ثلاثٌ من فعلهنَّ فقد طَعِم طعمَ الإيمان: مَن عَبَدَ الله وحده وأنه لا إله إلا الله. وأعطى زكاة ماله طيبةً بها نفسه، رافدةً عليه كلَّ عام، ولا يعطي الهرِمَة، ولا الدَّرِنَة، ولا المريضة، ولا الشَّرَط اللئيمة، ولكن من وسط أموالكم، فإن الله لم يسألكم خيره ولم يأمركم بشره. وزكـى نفسه». فقال رجل: وما تزكية النفس؟ فقال: «أن يعلم أن الله ﷻ معه حيث كان»[٢].

قال تعالى: ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾، وصفهم الله تعالى بأربع صفات: حافظين، فلا يضل منهم شيءٌ أبدًا. وهم كرامٌ مرتفعٌ محلهم عن الريبة والاعتساف، بل صفتهم أقرب إلى المسامحة، ثم هم كاتبون، يضبطون ما يكتبون، ويعلمون ما يُفعل فلا تكون الكتابة تخرُّصًا بل عن علم.

وهمـا ملـكان في النهـار، وملـكان في الليـل، قال ربنـا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق]. وهـذان وصفـان للملكـين، فملـك باليمـين رقيـب عتيـد، والآخـر كذلـك ينطبق عليـه هـذان الوصفـان، والرقيـب: المراقب، والعتيـد: الحـاضر، والمجمـوع أربـع ملائكـة لكتابـة الأعمـال، كمـا في الحديث: «يَتعاقَبُـونَ فِيكُـم مَلَائِكَـةٌ بِاللَّيـلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهارِ، وَيَجتَمِعُـونَ فِي صَلَاةِ الفَجرِ

(١) البخاري (٦٤١٩)، ومسلم (١٢٨).
(٢) الطبراني في المعجم الصغير، (ص ١١٥)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٠٤٦).

وَصَلاَةِ العَصرِ، ثُمَّ يَعرُجُ الَّذِينَ باتُوا فِيكُم، فَيَسأَلُهُم وَهوَ أَعلَمُ بِهِم كَيفَ تَرَكتُم عِبادِي فَيَقُولُونَ تَرَكناهُم وَهُم يُصَلُّونَ، وَأَتَيناهُم وَهُم يُصَلُّونَ»(١).

فعلى المسلم أن يكرم هذين الملكين بعدم المعصية، وأن يستحي من الله تعالى الذي كلفهما بالرقابة! وهذا المعنى أشارت إليه بعض الأحاديث النبوية، قال نبينا ﷺ لرجل: «**أوصيك أن تستحيَ من الله ﷻ كما تستحي رجلًا من صالحي قومك**»(٢). ولا يستطيع أحد أن يقع في معصية إذا حضر عنده رجل صالح، فكيف به وقد جعل الله عليه ملكين كريمين، فيجب عليه أن يكرم ملائكة ربه.

قال ابن أبي جمرة ﷺ: «إذا أكد حق الجار مع الحائل بين الشخص وبينه، وأمر بحفظه، وإيصال الخير إليه، وكف أسباب الضرر عنه، فينبغي له أن يراعي حق الحافظين اللذين ليس بينه وبينهما جدار ولا حائل، فلا يؤذيهما بإيقاع المخالفات في مرور الساعات، فقد جاء أنهما يُسرّان بوقوع الحسنات ويحزنان بوقوع السيئات، فينبغي مراعاة جنبهما وحفظ خواطرهما بالتكثير من عمل الطاعات والمواظبة على اجتناب المعصية، فهما أولى برعاية الحق من كثير من الجيران»(٣).

وفي الآية ما يشير إلى أهمية العناية بالكتابة وتوثيق معاملاتنا بها، وأن الضبط بالتقييد للأمور مما اقتضته الحكمة.

---

(١) صحيح البخاري (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢).
(٢) أحمد في الزهد ص(٤٦)، وهو في السلسلة الصحيحة (٧٤١).
(٣) فتح الباري (١٠/٤٤٤).

الآيات (١٣ ـ ١٩)

إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾
يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ
مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ
لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾﴾، البر: الطاعة والخير، والبار: الطائع، المستقيم على أمر ربه. قال ربنا: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة]، وقوله: ﴿لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾﴾، في الدنيا والآخرة، فبركة الطاعة حاصلة في الدنيا، نائلة المؤمن يوم القيامة منها أعظم سعادة.

﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾، الفجور يكون بالقلب وبالجوارح. ففجور الجوارح بأن يعمل بجوارحه سوءًا، وفجور القلب الظن السيِّئ بمن هو أهل لحسن الظن، والحسد، والكبر، واحتقار الآخرين، كل هذا نوع من الفجور والعياذ بالله.

﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾﴾، والدين الجزاء، وفيه يجازى كلُّ عامل بعمله، ولهذا سمي بيوم الدين.

﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ ﴾، لا يغيب الكفار عن النار أبدًا، والغياب يتحقق بواحد من أمور ثلاثة: الخروج منها، أو الموت فيها، أو فنائها، وكل ذلك منفي في كتاب الله؛ قال ربنا: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [فاطر]. وقال: ﴿ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴾ [البقرة]. وقال: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ [المائدة]، ﴿ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الزخرف].

ثم فخَّم جل ذكره من ذلك اليوم فقال: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ ﴾، إخبارًا بعظمة ذلك اليوم، الذي يَرحم الله فيه من أثبت الخير في صحائف الكرام الكاتبين، ويعذب المسيئين.

﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾ ﴾، قال ربنا: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ ﴾ [عبس].

والأمر فيه لله وحده، كما قال سبحانه: ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ [غافر]. ففي الدنيا يملِّك الله من يشاء من عباده ما يشاء منها، أما في الآخرة فلا يملك أحد من الأمر شيئًا سوى ربنا سبحانه.

سُورَةُ المُطَفِّفِينَ

بين يدي سورة المطففين

وهي من السور التي اختلف في كونها مدنية أم مكية، قال السيوطي ﷺ: «قِيلَ: مَكِّيَّةٌ إلا سِتَّ آياتٍ مِن أَوَّلِها»(١). وقيل: هي مدنية، وسيأتي في الحديث عن سبب نزولها ما يدل على هذا الثاني.

أسماؤها:

تسمى بسورة ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾، وبسورة «المطففين»(٢).

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُها مئة وتسع وَسِتُّونَ كلمة، وحروفها سبع مئة وَثَلاثُون حرفًا، وَهِي ثَلاثُونَ وست آيات فِي جَمِيع العدَد لَيسَ فِيها اختِلاف»(٣).

سبب نزولها:

عن ابن عباس ﷺ، قال: «لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلًا، فأنزل الله سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾، فأحسنوا الكيل بعد ذلك»(٤). وهذا مما يدل على أنها مدنية.

---

(١) الإتقان في علوم القرآن (٦٧/١).
(٢) التحرير والتنوير (١٨٧/٣٠).
(٣) البيان في عدِّ آي القرآن، ص(٢٦٧).
(٤) ابن ماجه (٢٢٢٣)، وصححه الشيخ مقبل بن هادي في الصحيح المسند من أسباب النزول، ص(٢٦٦).

موضوعاتها:

تمام الكيل والميزان، والاحترازُ عن البَخس والنُّقصان، والتذكير باليوم الآخر الذي يحمل الإيمان به على الكف عن هذه القبائح، وذكر حال الفُجّار، ومآلهم، وذكر حال أَهل الإِيمان.

مقصدها:

السعي إلى النجاة من سبيل الفُجّار ببيان حالهم في الآخرة، والفوزِ بما يكرم الله تعالى به أهل الإيمان.

سورة المطففين: تأملات ووقفات

الآيات (١ ـ ٦)

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾﴾، ويل: عذاب أو هلاك. وهذا أولى من قول بعضهم: وادٍ في جهنم. ولا يثبت هذا عن ابن مسعود ﷺ، ومن ناحية المتن: كيف يقال: لو سيرت فيه جبال الدنيا لذابت من حرارته، والحجارة جعلها الله تعالى وقود النار؟!

وقد افتتحت سورتان بهذا الوعيد، هذه، وسورة ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾﴾ [الهمزة]. والسورتان متعلقتان ببيان عاقبة الاعتداء على حرمة الغير.

وإذا كان هذا لمن يُطفف في شيء من حق الخلق، فكيف بمن يطفف في حق الله تعالى؟ كيف بمن يصرف شيئًا من العبادة لغير الله تعالى، فيعبد الله، ويعبد معه غيره من الآلهة؟! وحق الله: أن يُعبد ولا يشرك به شيئًا.

والتطفيف يدل على أن الحق الذي أخذ يسير، فما حال الذين يأخذون شيئًا كثيرًا؟! قال نبينا ﷺ: «**مَنِ اقتَطَعَ حَقَّ امرِئٍ مُسلِمٍ بِيَمِينِهِ، فَقَد أَوجَبَ اللهُ لَهُ النَّارَ، وَحَرَّمَ عَلَيهِ الجَنَّةَ**» فَقالَ لَهُ رَجُلٌ: وَإِن كانَ شَيئًا يَسِيرًا يا رَسُولَ اللهِ؟ قالَ: «**وَإِن قَضِيبًا مِن أَراكٍ**»[١].

(١) مسلم (١٣٧).

وإذا كان هذا في الحق الخاص فكيف بمن تلاعب في حق عام؟! وجعل أُمَّةً من البشر خصماءه يوم القيامة؟! ثبت عن أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ، قالَ: خَرَجنا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى خَيبَرَ، فَفَتَحَ اللهُ عَلَينا فَلَم نَغنَم ذَهَبًا وَلا وَرِقًا، غَنِمنا المَتاعَ والطَّعامَ والثِّيابَ، ثُمَّ انطَلَقنا إِلَى الوادِي، وَمَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَبدٌ لَهُ، وَهَبَهُ لَهُ رَجُلٌ مِن جُذامٍ يُدعَى رِفاعَةَ بنَ زَيدٍ مِن بَنِي الضُّبَيبِ، فَلَمَّا نَزَلنا الوادِيَ، قامَ عَبدُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَحُلُّ رَحلَهُ، فَرُمِيَ بِسَهمٍ، فَكانَ فِيهِ حَتفُهُ، فَقُلنا: هَنِيئًا لَهُ الشَّهادَةُ يا رَسُولَ اللهِ، قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**كَلَّا والَّذِي نَفسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّ الشَّملَةَ لَتَلتَهِبُ عَلَيهِ نارًا أَخَذَها مِنَ الغَنائِمِ يَومَ خَيبَرَ لَم تُصِبها المَقاسِمُ**»، قالَ: فَفَزِعَ النّاسُ، فَجاءَ رَجُلٌ بِشِراكٍ أَو شِراكَينِ فَقالَ: يا رَسُولَ اللهِ، أَصَبتُ يَومَ خَيبَرَ، فَقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**شِراكٌ مِن نارٍ أَو شِراكانِ مِن نارٍ**»[١]. فلم يشفع له جهاده، ولا خدمته لنبينا ﷺ، ولا قتل اليهود له، وعذب في شملة تُشترَى بثمن بخس.

والتطفيف في حقوق الناس يتجاوز مكاييل الأطعمة والبضائع وموازينهما، قال السعدي ﷺ: «ودلت الآية الكريمة على أن الإنسان كما يأخذ من الناس الذي له، يجب عليه أن يعطيهم كل ما لهم من الأموال والمعاملات، بل يدخل في عموم هذا الحُجَج والمقالات، فإنه كما أن المتناظرين قد جرت العادة أن كل واحد منهما يحرص على ماله من الحُجَج، فيجب عليه أيضًا أن يُبيِّن ما لخصمه من الحُجَج التي لا يعلمها، وأن ينظر في أدلة خصمه كما ينظر في أدلته هو، وفي هذا الموضع يعرف إنصاف الإنسان من تعصبه واعتسافه، وتواضعه من كبره، وعقله من سفهه، نسأل الله التوفيق لكل خير»[٢].

---

(١) البخاري (٤٢٣٤)، ومسلم (١١٥).
(٢) تفسير السعدي، ص(٩١٥).

ونبي الله شعيب ﷺ كان يدعو قومه إلى ترك هذا الذي توعد الله أصحابه في بداية هذه السورة المباركة، قال ربنا: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ٨٥﴾ [الأعراف]. وقال ربنا: ﴿وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ٣٥﴾ [الإسراء]، فنهى عن التطفيف في الكيل، وفي الحقوق عامة ببخس الناس أشياءهم.

وهذا التقرير الذي جاء في هذه السورة يُعلِّمنا تعظيم حرمة الأموال، فالتلاعب بأموال الناس من أسباب دخول النار، وقطع الصلة بالله رب العالمين. وقد ثبت في صحيح مسلم، أن رجلًا سأل نبينا ﷺ، فقال: «أَرَأَيتَ إن قُتِلتُ فِي سَبِيلِ اللهِ، تُكَفَّرُ عَنِّي خَطايايَ؟ فَقالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «نَعَم، إن قُتِلتَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَأَنتَ صابِرٌ مُحتَسِبٌ، مُقبِلٌ غَيرُ مُدبِرٍ»، ثُمَّ قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَيفَ قُلتَ؟»، قالَ: أَرَأَيتَ إن قُتِلتُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَتُكَفَّرُ عَنِّي خَطايايَ؟ فَقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «نَعَم، وَأَنتَ صابِرٌ مُحتَسِبٌ، مُقبِلٌ غَيرُ مُدبِرٍ، إلّا الدَّينَ، فَإِنَّ جِبرِيلَ ﷺ قالَ لِي ذَلِكَ»[1]. فهذا في الدَّين الذي أُخذ برضا صاحبه، فكيف بالتطفيف؟! وكيف بالذي يصدر عنه ذلك ممن لا ينطبق عليه وصف الشهادة؟ ولهذا لا بُدَّ من التحلل من حقوق الناس، قال ﷺ: «مَن كانَت لَهُ مَظلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِن عِرضِهِ أَو شَيءٍ فَليَتَحَلَّلهُ مِنهُ اليَومَ، قَبلَ أَلا يَكُونَ دِينارٌ وَلا دِرهَمٌ، إن كانَ لَهُ عَمَلٌ صالِحٌ أُخِذَ مِنهُ بِقَدرِ مَظلَمَتِهِ، وَإِن لَم تَكُن لَهُ حَسَناتٌ أُخِذَ مِن سَيِّئاتِ صاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيهِ»[2]. فعلى من أخذ شيئًا من إخوانه أن يعلم أن قبول التوبة منوط بإرجاعه.

---

(١) مسلم (١٨٨٥).

(٢) البخاري (٢٤٤٩).

والسورة بدأت بالحديث عن تنظيم المعاملات بين الناس وبيان حكم يتعلق بها، فهذه شريعة الله، لم تترك شيئًا إلا بيَّنت حكم الله فيه.

وينبغي أن تكون لهذه القضية ـ حرمة الأموال ـ مساحة عريضة في اهتمامات الدعاة إلى الله تعالى؛ أمرًا بصيانتها، وزجرًا عن التلاعب بها.

ومما جاء في التحذير من التطفيف حديث عَبدِ الله بنِ عُمَرَ ﷺ، قالَ: أَقبَلَ عَلَينا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقالَ: **«يا مَعشَرَ المُهاجِرِينَ خَمسٌ إذا ابتُلِيتُم بِهِنَّ، وَأَعُوذُ بِاللهِ أَن تُدرِكُوهُنَّ: لَم تَظهَرِ الفاحِشَةُ فِي قَومٍ قَطُّ، حَتَّى يُعلِنُوا بِها، إِلَّا فَشا فِيهِمُ الطَّاعُونُ، والأَوجاعُ الَّتِي لَم تَكُن مَضَت فِي أَسلافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوا، وَلَم يَنقُصُوا المِكيالَ والمِيزانَ، إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ، وَشِدَّةِ المَؤونَةِ، وَجَورِ السُّلطانِ عَلَيهِم، وَلَم يَمنَعُوا زَكاةَ أَموالِهِم، إِلَّا مُنِعُوا القَطرَ مِنَ السَّماءِ، وَلَولا البَهائِمُ لَم يُمطَرُوا، وَلَم يَنقُضُوا عَهدَ اللهِ، وَعَهدَ رَسُولِهِ، إِلَّا سَلَّطَ اللهُ عَلَيهِم عَدُوًّا مِن غَيرِهِم، فَأَخَذُوا بَعضَ ما فِي أَيدِيهِم، وَما لَم تَحكُم أَئِمَّتُهُم بِكِتابِ اللهِ، وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنزَلَ اللهُ، إِلَّا جَعَلَ اللهُ بَأسَهُم بَينَهُم»**(١).

ثم قال تعالى في وصف المطففين المعنيين: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ٢﴾، أي: «اكتالوا مِنَ النَّاسِ، ﴿يَسۡتَوۡفُونَ﴾ أي: يَأخُذُونَ حَقَّهُم بِالوافِي والزَّائِدِ»(٢)، فهذا القسط لا يطففون فيه ولا يتسامحون! لكن آفتهم إذا كالوا أو وزنوا للناس! فهنا يخسرونهم بعض حقهم ويبخسونهم شيئًا مما لهم، ودخل في هذا صنيع بعض المسؤولين في بعض الدول، من أخذهم ما لهم وما ليس لهم من شعوبهم كاملًا زائدًا، تحت مسميات ما أنزل بها الله من سلطان؛ كالضرائب ونحوها، ثم لا يجد هذا الشعب أبسط حقوقه فيها! ودخل في هذه المذمة أيضًا: الموظف الذي يأخذ راتبه وحقه كاملًا، ويُفرِّط في واجبه. ودخل تحتها: صاحب العمل الذي ينجز له العمال ما عليهم، ولا يعطيهم حقهم! قال نبينا ﷺ:

---

(١) ابن ماجه (٤٠١٩)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٠٦).
(٢) تفسير ابن كثير (٨/٣٤٦).

«لا قُدِّسَت أُمَّةٌ لا يَأخُذُ الضَّعِيفُ فِيها حَقَّهُ غَيرَ مُتعتَعٍ»[1]، أي: بدون أذى يزعجه. وقد أورد القاسم بن سلام في كتاب الأموال[2]، عن عمر ﷺ، أنه مَرَّ بِشَيخٍ مِن أَهلِ الذِّمَّةِ يَسأَلُ عَلَى أَبوابِ النّاسِ، فَقالَ: «ما أَنصَفناكَ، أَن كُنّا أَخَذنا مِنكَ الجِزيَةَ فِي شَبِيبَتِكَ ثُمَّ ضَيَّعناكَ فِي كِبَرِكَ»، قالَ: ثُمَّ أَجرَى عَلَيهِ مِن بَيتِ المالِ ما يُصلِحُهُ. وهذا هو العدل.

ثم قال تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾﴾؟ والظن هنا بمعنى اليقين، كما في الآية: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة]. ولو آمنوا باليوم الآخر حق الإيمان لما وقعوا في هذه المعاصي التي تجرجر المرء في الآخرة إلى جهنم! والتذكير باليوم الآخر بعد الأمر بالواجبات والنهي عن المحرمات كثير في النصوص؛ وذلك لأنه يحمل على الامتثال، فمن ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء]، ومنه قول الله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ [النور]، منه قول نبينا ﷺ: «إِنَّ مَكَّةَ حَرَّمَها اللهُ، وَلَم يُحَرِّمها النّاسُ، فَلا يَحِلُّ لِامرِئٍ يُؤمِنُ بِاللهِ واليَومِ الآخِرِ أَن يَسفِكَ بِها دَمًا»[3].

ثم وصف يوم البعث فقال: ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾، ليوم عظيم الهول، قال ربنا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ [الحج].

(١) ابن ماجه (٢٤٢٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٨٥٧).
(٢) برقم (١١٩).
(٣) البخاري (١٠٤)، ومسلم (١٣٥٤).

يقومون فيه لله رب العالمين، منشرين مبعوثين من قبورهم، حفاة، عراة، غُرلًا، بُهمًا، وهذا القيام قيامُ خضوعٍ قهري تشترك فيه المخلوقات.

والقيام تعظيمًا لا ينبغي إلّا لله، فقد ثبت عَن أَبِي مِجلَزٍ، قالَ: خَرَجَ مُعاوِيَةُ عَلَى ابنِ الزُّبَيرِ، وابنِ عامِرٍ فَقامَ ابنُ عامِرٍ وَجَلَسَ ابنُ الزُّبَيرِ فَقالَ مُعاوِيَةُ لِابنِ عامِرٍ: اجلِس فَإِنِّي سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَن أَحَبَّ أَن يَمثُلَ لَهُ الرِّجالُ قِيامًا فَليَتَبَوَّأْ مَقعَدَهُ مِنَ النّارِ**»[1]. فدل هذا الحديث على أن الشخص إذا أحب أن يُفعل به ذلك فلا يُقام له، ويحرُم عليه أن يرغب في ذلك. لكن من قام للسلام فلا شيء في ذلك؛ لأن السلام إكرام مشروع، فيتبعه هذا القيام الذي هو لأجل السلام، وقد دلت على ذلك أحاديث عديدة، منها:

حديث عائِشَةَ أُمِّ المُؤمِنِينَ ﵂، قالَت: ما رَأَيتُ أَحَدًا مِنَ النّاسِ كانَ أَشبَهَ بِالنَّبِيِّ ﷺ كَلامًا وَلا حَدِيثًا وَلا جِلسَةً مِن فاطِمَةَ، وَكانَ النَّبِيُّ ﷺ إذا رَآها قَد أَقبَلَت رَحَّبَ بِها، ثُمَّ قامَ إِلَيها، فَقَبَّلَها، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِها، فَجاءَ بِها حَتَّى يُجلِسَها فِي مَكانِهِ، وَكانَت إِذا أَتاها النَّبِيُّ ﷺ رَحَّبَت بِهِ، ثُمَّ قامَت إليه، فَقَبَّلَتهُ[2]. وكذلك حديث نبينا ﷺ لما قال للأنصار: «**قوموا إلى سيدكم**»[3]، محمول على السلام.

---

(١) أبو داود (٥٢٢٩)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٥٧).

(٢) البخاري في الأدب المفرد (٩٤٧)، وصححه الألباني في صحيحه (٧٢٩).

(٣) أحمد (١١١٦٨)، وصححه الألباني في السلسلة (٦٧).

الآيات (٧ ـ ١٧)

كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾
كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ
ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ
ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟
يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ
إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾

المقصود بالفُجّار: الكفار، وقوله: ﴿لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾﴾ من السجن وهو الحبس والتضييق، فكتابهم قاض بحبسهم والتضييق عليهم في جهنم، وهو كذلك مطروح في مكان ضيق موحش، فالكتاب وأصحابه في سجين.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾﴾: الاستفهام للتهويل والتعظيم.

﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾﴾: أي مسطور مكتوب بَيِّن الكتابة، مثبت فيه أسماء وأعمال أولئك الفُجّار، وقد نص بعض أهل العلم كابن كثير على أن قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾﴾ ليس تفسيرًا لسجِّين[1]، فإما أن يكون كلامًا مستأنفًا في شأن الكتاب لا الموضع؛ لأنه لا تعلق له بسؤال التعظيم، أو يكون متصلًا بتقدير، والتقدير إما في السؤال فيكون: وما أدراك ما كتاب سجين، أو في الجواب فيكون: موضع كتاب مرقوم، فسجين على ما تقدم: موضع الكتاب وهو أيضًا مكان الكفار، وهؤلاء في أسفل سافلين، حيث يُعذَّبون ويُضيَّق عليهم ويُسجَنون.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/٣٥٠).

وقد ذكر بعض العلماء أن هناك علاقة بين مطلع السورة ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ١﴾، وبين هذه الآيات المبتدأة بـ ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ٨﴾، فقد ذكر ربنا أن من أعمالهم التطفيف، فكان عقابهم الويل، ثم ذكر الله نوعًا من التطفيف الذي تلبَّسوا به، وهو أن الله تعالى أنعم عليهم بنعم عظيمة فلم يؤدوا حق الله ﷻ فيها، فهذا نوع من التطفيف العظيم، وهو أعظم من تطفيف المكاييل والموازين، ولهذا فخَّمه فقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾، ونحو هذا الاستفهام المراد به التعظيم كثير في القرآن، قال ربنا: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ٣﴾ [الحاقة]. وقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ٢٧ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ٢٨﴾ [المدثر]. وقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ١٤﴾ [المرسلات]. والمقصود كما تَوَعَّد المطففين للمكاييل بالويل، فقد توعَّد المطففين للدين المُكذِّبين بما حقُّه أن يعتقد فقال تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ١١﴾، ونصَّ على التكذيب بيوم الدين بعد توعُّد عموم المُكذِّبين، تفظيعًا للتكذيب به، والتعبير بالفعل المضارع: ﴿يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ١١﴾، يفيد أن تكذيبهم به متجدد، ويوم الدين المعروف أنه يوم القيامة، وهو يوم الجزاء والحساب، بعد البعث والنشور.

وقد استنبط بعض العلماء من هذه الآية: أن التعذيب لا يكون إلا على من قامت عليه الحُجَّة، لأن معنى التكذيب رد الخبر، فيفهم منها: أن هؤلاء جاءتهم رسلهم، وأخبروهم ببعث الناس فكذبوهم، وهذا معنى صحيح، فالله يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ١٥﴾ [الإسراء]. وفي الحديث: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لا يَسمَعُ بِي أَحَدٌ مِن هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ، وَلا نَصرانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَم يُؤمِن بِالَّذِي أُرسِلتُ بِهِ، إِلّا كانَ مِن أَصحابِ النّارِ**»(١). ومن لم تبلغه الدعوة كأصحاب الفترة يُمتحَنون في الآخرة. وهذا مقتضى العدل.

---

(١) مسلم (١٥٣).

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾﴾، معتد على الرسل بتكذيب الحق، كثير اقتراف عظائم الآثام، ولا غرو؛ فمن كذَّب بالبعث لم يبال بجزاء، وفَقَدَ أعظمَ وازع.

والتكذيب بيوم الدين محض عدوان؛ فإنه قد قامت البراهين على صدق من أخبر به، ولا حُجَّة عند من يكذب به، قال الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت]، وتكذيب المُكذِّبين به إنما هو تكذيب دفعهم إليه الإعراض والتعالي عن التفكُّر في الحُجج والآيات، أو الجحود، كما قال ربنا: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل]. وقال: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام].

ثم وصف المُكذِّب الكافر فقال: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾، والأسطورة: الأكذوبة. أي يزعمون أن القرآن أحاديث كاذبة كالتي تحكى عن الغابرين! قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾[النحل]. والمؤمن يؤمن بما أنزل على رسول الله ﷺ، قال ربنا: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا﴾ [النحل: ٣٠]. وأذكر أني لما كنت أقرأ على شيخي صالح الأنصاري سنة (١٤١٢هـ) في مكة في النحو طرح علي هذا السؤال: في الكفار جاءت الآية: ﴿قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، وأما إجابة المؤمنين فقال الله عنها: ﴿قَالُوا۟ خَيْرًا﴾، فلم رُفعت الأولى ﴿أَسَٰطِيرُ﴾، وجاءت إجابة المؤمنين منصوبة ﴿خَيْرًا﴾ والسؤال واحد؟ فقلتُ له: إن الكفار لا يقولون هو من عند الله، ولو قال في حكاية إجابتهم: أساطيرَ لكان مقتضاه إقرارهم بإنزاله مع تنقصه وهذا تناقض؛ لأن التقدير حينها: أنزل أساطير، وهم يكذبون بإنزاله، أما المؤمنون فقالوا: ﴿خَيْرًا﴾ لاعتقادهم أن الله أنزله، فخيرًا يعني: قال ربنا خيرًا، أو أنزل ربنا خيرًا؛ لأنهم يعلمون أنه نزل من عند الله العزيز الحكيم، أما الكافر فتقدير قوله: هو أساطير.

وإنكار الوحي موجود في عصرنا هذا، فمن يلقَّب بعميد الأدب العربي - زورًا - ادّعى أن قصة الخليل ﷺ ضربٌ من الخيال! وفي الأُمَّة من يدَّعي الإسلام ويقول: عصا موسى أسطورة! ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾ [الكهف].

﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾، ﴿كَلَّا﴾، أي: ليس الأمر كما قال، وبل تأتي للإضراب والانتقال من معنى إلى معنى، فالقرآن من عند الله، والآخرة حق لا ريب فيها، و﴿رَانَ﴾ أي غطى، قال الطبري ﷺ: «غلب على قلوبهم، وغمرها، وأحاطت بها الذنوب فغطتها، يقال منه: رانت الخمر على عقله، فهي ترين عليه رينًا، وذلك إذا سكر، فغلبت على عقله»[1]، فما اكتسبوه من ذنوب غطى قلوبهم، فلا يخلُص إليها بعده شيء من الحق ينتفعون به. قال حُذَيفَةُ بن اليمان ﷺ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**تُعرَضُ الفِتَنُ عَلَى القُلُوبِ كالحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلبٍ أُشرِبَها، نُكِتَ فِيهِ نُكتَةٌ سَوداءُ، وَأَيُّ قَلبٍ أَنكَرَها، نُكِتَ فِيهِ نُكتَةٌ بَيضاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلبَينِ، عَلَى أَبيَضَ مِثلِ الصَّفا فَلا تَضُرُّهُ فِتنَةٌ ما دامَتِ السَّماواتُ والأَرضُ، والآخَرُ أَسوَدُ مُربادًّا كالكُوزِ مُجَخِّيًا، لا يَعرِفُ مَعرُوفًا وَلا يُنكِرُ مُنكَرًا، إِلّا ما أُشرِبَ مِن هَواهُ**»[2]. ولذا لا ينبغي التساهل في أمر المعاصي وإن كانت صغائر؛ فإنها إذا كثرت كان الهلاك بسببها، وفي الحديث: «**إيّاكم ومحقراتِ الذنوب، كقوم نزلوا في بطن وادٍ، فجاء ذا بعود وجاء ذا بعود حتى أنضجوا خبزتهم، وإنَّ مُحقَّرات الذنوب متى يُؤخذ بها صاحبها تُهلكه**»[3]، فلا يزال العبد يقع في هذه الصغائر حتى تغطي ظلمة المعصية نور قلبه، فلا ينتفع بعلم، ويتثاقل في أمر الطاعة، ولا يُوفَّق إلى خير.

---

(١) تفسير الطبري (٢٨٦/٢٤).
(٢) مسلم (١٤٤).
(٣) أحمد (٣٨١٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٨٩).

﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥﴾، والجزاء من جنس العمل، فإنهم لما حجبوا قلوبهم عن الله بأعمالهم، حُجبت عنه أبصارهم، وهذه الآية من الأدلة التي استدل بها أهل السنة على إثبات أن المؤمنين يرون في الآخرة ربهم، فإذا حُجب عنه المشركون نظر إليه المؤمنون، وأنكر ذلك الخوارج والمعتزلة، ووجودهم قليل، ولذا فإن من حكمة العلامة ابن باز ﷺ أنه دُعي في فضائية إلى مناظرة أحد كبار الإباضية ممن ينكر هذه العقيدة فامتنع، وقال: لو أتى إليَّ ناقشته، أمّا والحال أن من ينكر هذه العقيدة قليل وربما كان ألحن بحجته مني فهذا قد يكون سببًا في رواج باطله.

والأدلة على تقرير هذه العقيدة كثيرة في القرآن الكريم، قال ربنا: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ٢٣﴾ [القيامة]، وناضرة: جميلة، هيأها للنظر إلى وجهه الكريم.

أما الكفار فليسوا أهلًا لذلك النعيم العظيم، ﴿ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ ١٦﴾، وهذا الصَلِيُّ على التأبيد، وقد دلت عليه الآية السابقة؛ لأن أهل الجنة يرون ربهم، فلو دخلوها يومًا لنظروا إليه، ولما صدق فيهم أنهم محجوبون عن ربهم.

﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ١٧﴾، هذا جزاء التكذيب بالحق، يقال لهم ذلك تبكيتًا وإذلالًا، جزاء وفاقًا؛ لتعاليهم عن الحق وإعراضهم عنه.

ثم أخبر الله ﷻ عن أهل كرامته، فقال:

الآيات (١٨ ـ ٢٨)

كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ
﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرۡقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِى
نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعۡرِفُ فِى وُجُوهِهِمۡ
نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخۡتُومٍ ﴿٢٥﴾
خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٌۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾
وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيۡنًا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾

والأبرار جمع بار، والبِر: عمل الخير، والمقصود بهم هنا المؤمنون الموحدون؛ لأن ذكرهم كان في مقابل الفُجّار الكفار.

﴿لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾﴾، أي في مكانٍ عال، موضعًا وقدرًا.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرۡقُومٌ ﴿٢٠﴾﴾، يقال فيها ما تقدم عند قوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرۡقُومٌ ﴿٩﴾﴾: ليس المراد تفسير عليين بأنها كتاب مرقوم، وتقدير الكلام على ما قُرِّر هناك.

﴿يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾، قيل: يعني أن عليين مكان عالٍ عنده الملائكة الذين اختارهم الله ﷻ، وهم المقرَّبون الأصفياء. وقيل: إنهم يشهدونه يوم القيامة، أي: يشهدون بما فيه من الأعمال، ولا مانع من دلالة الآية على المعنيين؛ فإنه لا تعارض بينهما.

﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ٢٢﴾، لما ذكر حال الفُجّار ثنّى بذكر حال الأبرار، والقرآن مشتمل على كثير من هذه المقابلات، ترهيبًا وترغيبًا، فصلاح النفوس يكون بمجموع ذلك.

ونعيم الأبرار نعيمان: نعيم الأنس بالله في الدنيا، ونعيم الجنة في الآخرة. قال ابن القيم ﷺ: «سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة. وقال لي مرة: ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، إن رحت فهي معي لا تفارقني، إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة. وكان يقول في محبسه في القلعة: لو بذلت ملء هذه القلعة ذهبًا ما عدل عندي شكر هذه النعمة. أو قال: ما جزيتهم على ما تسببوا لي فيه من الخير، ونحو هذا. وكان يقول في سجوده وهو محبوس: اللَّهُمَّ أعني على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك. وقال لي مرة: المحبوس من حبس قلبه عن ربه تعالى، والمأسور من أسره هواه. ولما دخل إلى القلعة وصار داخل سورها نظر إليه وقال: ﴿فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ١٣﴾ [الحديد]، وعلم الله ما رأيت أحدًا أطيبَ عيشًا منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش، وخلاف الرفاهية والنعيم، بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشًا، وأشرحهم صدرًا، وأقواهم قلبًا، وأسرهم نفسًا، تلوح نضرة النعيم على وجهه. وكنا إذا اشتد بنا الخوف، وساءت منا الظنون، وضاقت بنا الأرض، أتيناه، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله، وينقلب انشراحًا وقوة ويقينًا وطمأنينة. فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فآتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها. وكان بعض العارفين يقول: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف. وقال آخر: مساكين

أهل الدنيا، خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها؟ قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله تعالى ومعرفته وذكره»(١).

وقد قيل لشيخنا الشيخ عبد العزيز ابن باز ﷺ: إنك يا شيخ تعمل يوميًّا ست عشرة إلى ثمان عشرة ساعة مع تقدم العمر؟ فقال: هذه إعانة من الله ﷻ. قالوا: نعرف أنها إعانة من الله ﷻ، لكن هل هناك سبب؟ فقال: «إذا ارتاحت الروح لم يتعب الجسد».

ودلالة الآية في هذا السياق أظهر في إرادة نعيم الآخرة، وإنما القصد ذكر التلازم. ولهذا قال: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾؛ أي: إلى الله، وإلى ما أعده لهم من النعيم، فإنه لم يذكر فيها منظورًا إليه؛ ليعم كل خير تتمتع بالنظر إليه وجوههم، قال ربنا: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإنسان]. وأجل ذلك: النظر إلى وجه الله تعالى. قال نبينا ﷺ: «**إِذا دَخَلَ أَهلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، يَقُولُ اللهُ ﷻ: تُرِيدُونَ شَيئًا أَزِيدُكُم؟ فَيَقُولُونَ: أَلَم تُبَيِّض وُجُوهَنا؟ أَلَم تُدخِلنا الجَنَّةَ، وَتُنَجِّنا مِنَ النّارِ؟ قالَ: فَيَكشِفُ الحِجابَ، فَما أُعطُوا شَيئًا أَحَبَّ إِلَيهِم مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِم ﷻ**»(٢).

﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾، كما كانت وجوههم في الدنيا يظهر عليها رهق الطاعة في السحر، وعند القيام إلى الفجر، وكما كانت تنصب في الطاعة والنسك، وكما كانت تتمعر غضبًا لمحارم الله التي تنتهك! يكرمها الله في الآخرة بأن يُضفي عليها نضرةً، ونعيمًا، وجمالًا، وبهاءً.

﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾، أي مغلقٌ مختوم عليه، أو المراد: عاقبة ريحه مسك ختم به(٣)، والغرض التنويه بذكر بعض نعيمهم وما أعده الله لهم من الخير.

---

(١) الوابل الصيب، ص(٨١).

(٢) مسلم (١٨١).

(٣) زاد المسير (٤/٤١٧).

﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ٢٦ ﴾، أي في هذه الجوائز العظيمة، والمغانم الكريمة، لا في حطام الدنيا! الذي قد يتنافس فيه الناس ثم يحصلونه على كدر وقد لا يحصلونه! فقد يتقدم لوظيفة ما مئة كفء، لكن لا يحصل عليها أكثرهم.

أما التنافس في أمر الآخرة فلا يضيع فيه أجر عامل، ومن المنافسة في أمر الآخرة أن تنافس في أمر دنيوي وتنوي بها خيرًا، فهذه النية تحيل المباح إلى عمل بر يثاب الإنسان عليه. قال معاذ بن جبل رضي الله عنه: «**أمَّا أَنا فَأَنامُ وَأَقُومُ، وَأَرجُو فِي نَومَتِي ما أَرجُو فِي قَومَتِي**»[1].

﴿ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ٢٧ ﴾، أي: هذا الشراب الذي مضى ذكره خلط ومُزج بتسنيم، وهو «أَشرَفُ شَرابِ أَهلِ الجَنَّةِ وَأَعلاهُ، ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ٢٨ ﴾، يَشرَبُها المُقَرَّبُونَ صِرفًا، وتُمزَجُ لِأَصحابِ اليَمِينِ مَزجًا»[2]، قالوا: وعُدِّي ﴿ يَشْرَبُ ﴾ بالباء والأصل أن يعدى بمن؛ لتضمينه معنى الإرواء.

ثم بعد أن فرغ من حال هؤلاء المكرمين وهم أهل البر والطاعة، عاد إلى ذكر حال الفُجّار المجرمين تحذيرًا من الاغترار بهم فقال:

---

(١) مسلم (١٧٣٣).
(٢) تفسير ابن كثير (٨/٣٥٣).

الآيات (٢٩ ـ ٣٦)

إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩ وَإِذَا
مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ
٣١ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ٣٢ وَمَآ أُرۡسِلُواْ
عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ٣٣ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ
٣٤ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٣٥ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٣٦

ذكر للمجرمين أربع صفات:

● الأولى: أنهم درجوا على الضحك من المؤمنين، وهذا سبيل بعض مجري الإعلام اليوم، يسخرون كثيرًا من المؤمنين ومن شعائر دينهم وسنن نبيهم ﷺ، وقد نص الله تعالى على هذا الجرم لشناعته، فهو تعد على حق الله تعالى، وعلى حقِّ عباده، وقد ذكر التوبيخ عليه في آية أخرى فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٠٩ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ١١٠ إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ١١١﴾ [المؤمنون].

● الثانية: التغامز، وكل فعل أفهم قدحًا في شخص فهو غمز، فقد يكون ذلك باللسان، أو الحاجب، أو اليد.

● الثالثة: إذا رجع هؤلاء المجرمون إلى أهلهم وذويهم تفكهوا معهم بالسخرية من المؤمنين، وهذه جريمة ثالثة في حق المؤمنين.

● الرابعة: نعت المؤمنين بالضلال، والجهر بالآراء الجائرة فيهم، وإساءتهم بها في وجوههم.

فهذه ظلمات بعضها فوق بعض، وفصّل ربنا في ذكرها؛ تعظيمًا لحقوق أولياء الله، وليعلم المؤمن أنه لن يضيع من حق المؤمن شيء، وسوف يقتصُّ له من أعداء الله أبلغ القصاص، وفي هذا تسلية وعزاء.

وقول ربنا: ﴿فَكِهِينَ﴾، يدل على تلذُّذ المجرمين بما هم فيه من الإجرام، يتلذذون بالسخرية بالمؤمنين! وهذا مرض في بعض الناس، تجده يتلذذ بالخوض في أعراض إخوانه، والواجب على من سمع غيبة أن يذب عن عرض أخيه، لا أن ينشرح لسماع قالة السوء فيه فضلًا عن أن يتفكه بذلك! وإن كان المذكور بالسوء مذنبًا، فإنَّ النبي ﷺ لما رجم ماعزًا ﷺ، قال رجلان أحدهما للآخر: انظُر إِلَى هَذا الَّذِي سَتَرَ اللهُ عَلَيهِ، فَلَم تَدَعهُ نَفسُهُ حَتَّى رُجِمَ رَجمَ الكلبِ. فَسَكَتَ رسول الله ﷺ عَنهُما ثُمَّ سارَ ساعَةً، حَتَّى مَرَّ بِجِيفَةِ حِمارٍ شائِلٍ بِرِجلِهِ[١]، فَقالَ: «**أَينَ فُلانٌ وَفُلانٌ؟**»، فَقالا: نَحنُ ذانِ يا رَسُولَ اللهِ. قالَ: «**انزِلا فَكُلا مِن جِيفَةِ هَذا الحِمارِ**». فَقالا: يا نَبِيَّ اللهِ مَن يَأكُلُ مِن هَذا؟ قالَ: «**فَما نِلتُما مِن عِرضِ أَخِيكُما آنِفًا أَشَدُّ مِن أَكلٍ مِنهُ، والَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ إِنَّهُ الآنَ لَفِي أَنهارِ الجَنَّةِ يَنغَمِسُ فِيها**»[٢]. قال النووي ﷺ: «هذا دليل لرد غيبة المسلم الذي ليس بمتهتك في الباطل، وهو من مهمات الآداب، وحقوق الإسلام»[٣]. ومن سبل وقاية المجالس عن هذا الداء: أن نملأها بالحديث النافع، فهذا مما يضيق مداخل الشيطان في إغواء أصحابها بالغيبة.

والمعروف عن شيخنا عبد العزيز ابن باز ﷺ أنه إذا دخل بيتًا لمناسبة أمر بعض الجالسين بقراءة آيات، ثم يشرع في تفسيرها، وتذكير الناس بما فيها من الآداب.

---

(١) ارتفعت رجله بسبب انتفاخ بطنه.
(٢) أبو داود (٤٤٢٨).
(٣) شرح النووي على مسلم (٨٩/١٧).

وشيخنا ابن عثيمين ﷺ لا تخلو مجالسه من الإفتاء وتذكير الناس بما يحتاجون إليه من أمور دينهم. وهذا منهج درج عليه كثير من العلماء، فلنقتد بهم؛ فالنفس غالبًا إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ٣٣﴾، أي: وما أرسلوا وكلاء على المؤمنين ملزمين بحفظ أعمالهم، حتى يحرصوا على رميهم بالضلال ويشيعون فيهم قالة السوء، وممن لهم شبه بهؤلاء: الذين يتصيدون أخطاء الدعاة، ويتتبعون عورات الهداة، فيُشِيعون عنهم ما يعدونه خطأ! ويزعمون أنَّهم على منهج السلف، في حين منهج السلف بريء من هؤلاء! وقد بيَّنتُ خطر الوقوع في أهل العلم والفضل في رسالتي التي قدم لها العلامة ابن باز ﷺ «لحوم العلماء مسمومة».

فعلى العاقل أن يصون لسانه عن الولوغ في الأعراض ولا سيما أعراض أهل الفضل، والمخذولُ من زُيِّن له سوء عمله، والموفق من وفقه الله.

أعرف أحد المشايخ تجاوز عمره التسعين عامًا، لا تجده في غالب أحواله إلا تاليًا لكتاب الله تعالى، أو يستمع لتلاوته، فسألت ابنًا له مرةً: هل سمعت أن والدك قد اغتاب أحدًا يومًا؟ فقال: اغتاب؟! والله لا يسمح لنا في مجلسه أن نغتاب أبدًا، يقول: انظروا في عيوبكم، ودعوا عباد الله! ﴿قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٢٥﴾ [سبأ].

﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ٣٤﴾، فكما تدين تُدان، ضحكوا منهم في الآخرة كما كانوا يضحكون منهم في الدنيا.

﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٣٥﴾، يجلسون على الأرائك المرتفعة، وينظرون إلى ما أعده الله لهم من النعيم، ويرون ما أعده الله لمن كانوا يهزؤون منهم بالأمس من النكال.

﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾، قيل هذه الجملة متعلقة بـ: ﴿يَنظُرُونَ﴾، وقيل هو سؤال تقريري مستأنف، وعلى كلا المعنيين هو تقرير وسؤال جوابه نعم! جُزوا بما كانوا يعملون جزاءً من جنس عملهم وعذابًا أليمًا، والثواب أغلب ما يطلق في الخير لكنه قد يطلق على غير ذلك مقابلةً.

وهذا يدل على أن العاقبة للمتقين، وأن الأمور بمآلاتها، قال ربنا: ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف]. وقال سبحانه: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران].

سُورَةُ الانشِقَاقِ

بين يدي سورة الانشقاق

وهي مكية اتفاقًا[١].

أسماؤها:

تُسمَّى هذه السورة المباركة بسورة: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ١﴾، وسورة «انشقت»، و«الانشقاق»[١].

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُها مئة وتسع كَلِمات، وحروفها أَربع مئة وَثَلاثُونَ حرفًا، وَهِي عشرُون وَثَلاث آيات فِي البَصرِيِّ والشامي، وَخمس فِي عدد الباقِينَ»[٢].

ما ورد فيها:

عن ابن عمر ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأيُ العين فليقرأ:** ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾»[٣].

وعن أبي هريرة قال: سجدنا مع النبي ﷺ في: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾، و﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾»[٤].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٢١٧).
(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٦٨).
(٣) الترمذي (٣٣٣٣)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٠٨١).
(٤) مسلم (٥٧٨).

موضوعاتها:

اليوم الآخر، وشيء مما يقع فيه، وانقسام الناس فيه إلى فريقين كما كانوا في الدنيا.

مقصدها:

الدعوة إلى الفوز في اليوم الآخر، وذلك ببيان حال الكافرين والمؤمنين فيه.

سورة الانشقاق: تأملات ووقفات

الآيات (١ ـ ٥)

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ١ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ٢ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ٣ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ٤ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ٥﴾

في مطلع هذه السورة تصوير بياني لمشاهد تبين هول يوم القيامة، وتدعو العاقل إلى الاستعداد قبل حلول الخزي والندامة.

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ١﴾، يعني جنس السماء، فالحديث في هذه الآية ليس عن سماء واحدة، بل عن السماوات، قال ربنا: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ﴾ [الطلاق: ١٢]، فهذا مصير السماوات كلها. و﴿ٱنشَقَّتۡ﴾: تصدعت. قال ربنا: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ٣٧﴾ [الرحمن]. وقال ربنا: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]. «وهذا التبديل تبديل صفات، لا تبديل ذات، فإن الأرض يوم القيامة تُسوَّى وتُمدُّ كمَدِّ الأديم، ويُلقى ما على ظهرها من جبل ومعلم، فتصير قاعًا صفصفًا، لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا، وتكون السماء كالمهل، من شدة أهوال ذلك اليوم ثم يطويها الله تعالى بيمينه»[١].

قال: ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ٢﴾، أذنت: أطاعت أمر ربها لها بالانشقاق فانفطرت، وحق لها انقيادها لخالقها. وهذا حال كل مخلوق، قال ربنا:

---

(١) تفسير السعدي، ص(٤٢٨).

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ١١٧﴾ [البقرة]، وقال: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٤٧﴾ [آل عمران]، وقال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٥٩﴾ [آل عمران]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾ [الأنعام: ٧٣]، وقال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٤٠﴾ [النحل]، وقال: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٣٥﴾ [مريم]، وقال: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ [يس]، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٦٨﴾ [غافر]. وهذه آيات تبعث على تعظيم الرغبة فيما عند الله، والزهد في غيره.

﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ٣﴾، تمد مدًّا عظيمًا تذهب معه كل هذه الجبال، والأودية، والبحار.

﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ٤﴾، من الأموات، والكنوز، والمعادن، وغير ذلك مما نعلمه وما لا نعلمه. والسؤال الذي ينبغي إعمال الفكر فيه: أين سنكون بعد ذلك؟ وما مصيرنا الذي ينتظرنا؟ هذا المعنى لا يليق أن نتغافل عنه، بل يجب أن نديم التفكير فيه.

والواجب أن نعتبر بانقياد السماء! ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ٥﴾، قال ابن كثير ﷺ: «وَحُقَّ لَهَا أَن تُطِيعَ أَمرَهُ؛ لِأَنَّهُ العَظِيمُ الَّذِي لا يُمانَع وَلا يُغالَب، بَل قَد قَهَرَ كُلَّ شَيءٍ وَذَلَّ لَهُ كُلُّ شَيءٍ»[1].. فإذا كان هذا شأنها أفيليق أن يُعرِض العبد المكلَّف؟!

وها هنا سؤال: أين جواب الشرط؟ قال ابن الجوزي ﷺ: «واختلفوا في جواب هذه الأشياء المذكورات على أربعة أقوال: أحدها: أنه متروك، لأن المعنى معروف قد تردَّد في القرآن. والثاني: أنه يا أَيُّها الإنسانُ، كقول القائل: إذا كان كذا وكذا فيا أيها الناس تَرَون ما عملتم، فيجعل: يا أَيُّها الإنسانُ هو الجواب، وتضمر فيه الفاء، فكأنّ المعنى: ترى الثواب والعقاب إذا السماء انشقّت، ذكر القولين الفراء. والثالث: أن في الكلام

(١) تفسير ابن كثير (٨/٣٥٦).

تقديمًا وتأخيرًا، تقديره: يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحًا فملاقيه إذا السماء انشقت. قاله المبرد. والرابع: أن الجواب مدلول عليه بقوله ﷻ: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾. فالمعنى: إذا كان يوم القيامة لقي الإنسان عمله، قاله الزَّجّاج»[1]. والمعنى قريب على كل التقديرات، والمهم الاعتبار بأحوال هذا الخلق العظيم وما يؤول إليه.

وإنك لتعجب من انقياد هذه المخلوقات لربها، وخضوعها لأمره. قال عز اسمه: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت]. فهذه المخلوقات أكبر وأعظم من الإنسان الذي يتمرد كثيرًا على ربه مع شدة ضعفه! فلو سُلِّط عليه أحقر فيروس أضعفه وأرداه! ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر].

---

(١) زاد المسير في علم التفسير (٤١٩/٤).

الآيات (٦ ـ ١٥)

يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا
مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا
﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ
﴿١٠﴾ فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ﴿١١﴾ وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ
مَسۡرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓۚ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرٗا ﴿١٥﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾﴾، أي: إنك عامل عملًا تلقى بعده ربك، وملاق نتيجة هذا السعي الذي سعيته[(١)].

فكل إنسان يسعى ويتعب في هذه الحياة الدنيا مهما كان منعمًا، كما قال ربنا: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾ [البلد]، أي: في شدة وعناء من مكابدة الدنيا. فلا يخرج من عموم هذه الآية فرد من أفرادها، من حين ولادته وما يلاقيه إلى حين النزع وما يعانيه، وما تتقلب به الأحوال بين ذلك من صحة وسقم، وأقدار كونية عامة كالحر والبرد، أو خاصة كالشوكة والجرح. فالمشقة في الجملة حاصلة. فكل الناس يسعى كما قال نبينا ﷺ: «**كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو؛ فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا**»[(٢)]. فمن الناس من يبيع نفسه لله، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ

---

(١) يراجع: زاد المسير (٤/٤٢٠).
(٢) مسلم (٢٢٣).

﴿وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة]، ومنهم من يبيعها للشيطان! فالسعي حاصل من كل حي، لكن السؤال: هل يكون سعيه في موازين حسناته أم سيئاته؟ ولهذا ورد عن أَبِي وَهبٍ الجُشَمِيِّ ﷺ، قال: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَحَبُّ الأَسماءِ إِلَى اللهِ عَبدُ اللهِ، وَعَبدُ الرَّحمَنِ، وَأَصدَقُها حارِثٌ، وَهَمّامٌ، وَأَقبَحُها حَربٌ وَمُرَّةٌ**»[١]؛ وذلك لأن كل إنسان كاسب، ولكل إنسان هم وعزم. فلا ينبغي الكف أبدًا عما ينفعنا في آخرتنا، وربنا يقول لنبينا ﷺ: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ﴿٧﴾﴾ [الشرح]، أي: فإذا فرغت من أمور الدنيا وأشغالها فَجِدَّ في العبادة، وإلى ربك وحده فارغب فيما عنده.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾، ثبت في الصحيحين، عَن عائِشَةَ ﷺ قالَت: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَن حُوسِبَ يَومَ القِيامَةِ، عُذِّبَ**». فَقُلتُ: أَلَيسَ قَد قالَ اللهُ ﷻ: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾؟ فَقالَ: «**لَيسَ ذاكِ الحِسابُ، إِنَّما ذاكِ العَرضُ، مَن نُوقِشَ الحِسابَ يَومَ القِيامَةِ عُذِّبَ**»[٢].

والآية فيها دليل على إكرام اليمين، فينبغي أن تجعل لكل طيب، كالسلام على الناس، والأكل، والشرب، وتجعل اليسرى لإزالة القذر ونحوه. وقد وردت أحاديث تحث على هذا الأدب، منها:

- حديث الصحيحين: «**إذا أَتَى الخَلاَءَ فَلاَ يَمَسَّ ذَكَرَهُ بِيَمِينِهِ، وَلاَ يَتَمَسَّح بِيَمِينِهِ**»[٣].

---

(١) البخاري في الأدب المفرد (٨١٤)، وصححه الألباني في صحيحه (٦٢٨).
(٢) البخاري (٤٩٣٩)، ومسلم (٢٨٧٦).
(٣) البخاري (١٥٣)، ومسلم (٢٦٧).

● ومنها: حديث عائشة ﵂، قالت: «كان النبي ﷺ يحب التيمُّن ما استطاع في شأنه كله؛ في طهوره، وترجُّله، وتنعُّله»[١].

● وعن سلمة بن الأكوع ﵁ قال: أَكَلَ رجل عِندَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِشِمالِهِ، فَقالَ: «**كُل بِيَمِينِكَ**»، قالَ: لا أَستَطِيعُ، قالَ: «**لا استَطَعتَ**»، ما مَنَعَهُ إِلّا الكِبرُ، قالَ: فَما رَفَعَها إِلَى فِيهِ[٢].

● وقال عمر بن أَبِي سَلَمَةَ ﵄: كُنتُ فِي حجرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكانَت يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّحفَةِ، فَقالَ لِي: «**يا غُلامُ، سَمِّ اللهَ، وَكُل بِيَمِينِكَ، وَكُل مِمّا يَلِيكَ**»[٣].

﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ٩﴾، لما أشفقوا في الدنيا من عذاب الله أمَّن الله خوفهم، فانقلبوا إلى أهليهم مسرورين، قال ربنا: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ ٢٤ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ٢٥ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ٢٦﴾ [الطور]، أما المجرم الذي أعرض عن الله في الدنيا فإن الله يملأ قلبه خوفًا يوم العرض عليه، ﴿فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ٤٩﴾ [الكهف]. وثبت عن شداد بن أوس ﵁، أن رسول الله ﷺ قال: قال الله ﷻ: «**وعزتي لا أجمع لعبدي أمنين ولا خوفين، إن هو أمنني في الدنيا أخفته يوم أجمع فيه عبادي، وإن هو خافني في الدنيا أمنته يوم أجمع فيه عبادي**»[٤].

و﴿أَهۡلِهِۦ﴾: زوجه، وذريته المؤمنة، وزوجه من الحور العين، قال ربنا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ [الطور: ٢١].

---

(١) البخاري (١٦٨)، ومسلم (٢٦٨).
(٢) مسلم (٢٠٢١).
(٣) البخاري (٥٣٧٦)، ومسلم (٢٠٢٢).
(٤) أبو نعيم في الحلية (٦/٩٨)، وصححه الألباني في الصحيحة (٧٤٢).

ثـم قـال في حـال البؤسـاء الأشـقياء: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾﴾، يعطـى كتابـه وراء ظهـره بشـماله، قـال ربنـا: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾﴾ [الحاقة].

﴿فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴿١١﴾﴾، يدعو بالهلاك والثبور.

﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾، يدخلها، يُقاسي حرها. والإصلاء يطلق على إيقاد النار، وعلى دخولها والعذاب بها. ومن منا يحتمل نار الدنيا؟ فكيف بنار عظيمة لا يقارن حرها بحرِّ هذه! ولذا كان الناجي منها فائزًا، قال ربنا: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران ١٨٥].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾﴾، إنه كان في أهله في الدنيا مسرورًا مغرورًا، لا يفكر في العواقب، فلما أمن في الدنيا خاف في الآخرة، بخلاف من كان خائفًا من ربه في الدنيا فلا يجمع الله له بين خوفين.

﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾﴾، أي: يرجع، ويبعث.

﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾، عليمًا بحاله، لا يخفى عنه شيء من أمره، عليم بكل جزء تلاشى من بدنه واختلط بهذه الأرض وغاص في أعماقها.

الآيات (١٦ ـ ٢٥)

فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ
﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا
قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ
﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾
إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾

قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾﴾، أقسم سبحانه هنا ببعض مخلوقاته، وليس يخفى أنه لا يجوز أن يحلف العبد إلا بالله تعالى، وأما الله فيفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

والشفق: الحمرة التي تكون بعد مغيب الشمس، وبانتهائها ينتهي وقت صلاة المغرب ويبدأ وقت العشاء.

وتلاه القسم بما يتلوه وهو الليل إذا جمعت ظلمته أنواع الدواب وغيرها، فوسق: أي: جمع وحوى، ثم تلاه القسم بما يكون فيه، فقال: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾﴾؛ أي: اكتمل، فكان بدرًا، ثم جاء بجواب القسم بعد ذلك.

﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾﴾، والمراد الأحوال والأطوار التي يمر الإنسان بها، قال ربنا: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾ [الكهف]، وقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٥ ﴾ [الحج]، وقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٦٧ ﴾ [غافر].

وانظر إلى هذا التناسب بين هذه الأطوار التي يمر كل آدمي بها أو ببعضها، وبين ما ذكر الله قبلها، من الشفق المقسم به، ثم الليل الذي يعقبه، ثم جعل خاتمة ذلك القمر المكتمل الذي يضيء ظلمة الليل، وفي ذلك ما يشعر بأن هذه الأطوار التي يمر بها المسلم متتالية سريعة، تنتهي به إلى فرح، ونور، وسرور.

ثم قال تعالى: ﴿ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَۤ۩ ٢١ ﴾، وتقلب أطوارهم واختلاف أحوالهم دليل على قدرة الله عليهم، وقرب زوالهم، فكيف لا يعتبرون وما لهم لا يؤمنون! أي علو واستكبار هذا؟! وترك السجود مقرون بالخسارة العظيمة في كتاب ربنا، قال سبحانه: ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٤ ﴾ [البقرة]. أما الساجدون فهم أهل الجنان والدرجات العلا فيها، قال ربنا: ﴿ إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْۤ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ۩ ١٥ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ١٦ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧ ﴾ [السجدة]. ولما سأل ربيعة الأسلمي رسول الله ﷺ أن يكون مرافقًا له في الجنة قال له: «أَعِنِّي عَلَى نَفسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ»(١).

---

(١) مسلم (٤٨٩).

ولعل من المناسب أن أذكر هنا بشيء مما يتعلق بسجود التلاوة:

● **حكمه**: سنة مؤكدة، ومر معنا حديث أبي رافع، قال: صليت مع أبي هريرة ﷺ العَتَمة، فقرأ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾، فسجد. فقلت: ما هذه؟! قال: «سجدتُ بها خلف أبي القاسم ﷺ؛ فلا أزال أسجد بها حتى ألقاه»[١].

وقد «اتَّفَقَ الفُقَهاءُ عَلَى أَنَّ سُجُودَ التِّلاوَةِ يَحْصُلُ بِسَجدَةٍ واحِدَةٍ»[٢].

وهذه السجدة ليست صلاة على الصحيح، فيجوز أن تكون إلى غير جهة القبلة، وبدون وضوء.

● **وصفته**: أنه يكبر، ويسجد على الأعضاء السبعة، ويقول في سجوده سبحان ربي الأعلى ثلاثًا، لعموم ما جاء في وصف السجود، ثم يرفع، وقيل: يسجد بدون تكبير، ولا تسليم، وهو الراجح إلّا إن كان في صلاة فيكبر في كل رفع وخفض.

ولا ينبغي وضع المصحف على الأرض إذا أراد السجود، لكن على حائل أو نحوه إكرامًا له.

وسجود التلاوة يصح في أوقات النهي؛ لكونه ليس صلاة.

ومواضعه خمسة عشر موضعًا على الراجح هي:

(١) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ٢٠٦﴾ [الأعراف].

(٢) ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ١٥﴾ [الرعد].

(٣) ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ٤٩﴾ [النحل].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٦٨)، ومسلم (٥٧٨).
(٢) الموسوعة الفقهية (٢٢١/٢٤).

(٤) ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾﴾ [الإسراء].

(٥) ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾ [مريم].

(٦) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾ [الحج].

(٧) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾﴾ [الحج].

(٨) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَـٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾﴾ [الفرقان].

(٩) ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [النمل] .

(١٠) ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾ [السجدة].

(١١) ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعٗا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾﴾ [ص].

(١٢) ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت].

(١٣) ﴿فَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ وَٱعۡبُدُواْ ۩ ﴿٦٢﴾﴾ [النجم].

(١٤) ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَۤ ۩ ﴿٢١﴾﴾ [الانشقاق].

(١٥) ﴿كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾ [العلق].

ثم قال تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾﴾، إضراب يُبيِّن أن تكذيبهم بالقرآن المخبر بما تقدم في أول السورة بأحوال القيامة هو الذي صدهم، ثم توعدهم فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾﴾، أي: بما يكتمون في صدورهم من التكذيب وما يُضمرونه من السوء، وعلمه تعالى به يقتضي محاسبتهم عليه.

﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، قال ابن كثير ﷺ: «﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾﴾ أي: فأخبرهم - يا مُحَمَّدُ - بأَنَّ اللهَ ﷻ قد أَعَدَّ لَهم عذابًا أَلِيمًا. وَقولُهُ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ هَذا استِثناءٌ مُنقَطِعٌ، يَعني لَكِنَّ الَّذينَ آمَنوا - أَي: بِقُلُوبِهِم - وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ بِجوارِحِهِم ﴿لَهُمۡ أَجۡرٌ﴾ أَي: في الدَّارِ الآخِرَةِ. ﴿غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ ﴿٢٥﴾﴾ قالَ ابنُ عَبَّاسٍ: غَيرُ مَنقُوصٍ. وَقالَ مُجاهِدٌ، والضَّحَاكُ: غَيرُ مَحسُوبٍ»[١].

(١) تفسير ابن كثير (٨/٣٦٢).

سُورَةُ البُرُوجِ

بين يدي سورة البروج

هي مكية اتفاقًا[(١)].

أسماؤها:

سورة «السماء ذات البروج»، و«سورة ﴿ٱلْبُرُوجِ﴾»[(٢)].

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُها مئة وتسع كَلِمات، وحروفها أَربع مئة وَثَلاثُونَ حرفًا، وهي اثنَتانِ وَعِشرُونَ آيَة فِي جَمِيع العدَد»[(٢)].

ما ورد فيها:

كانَ مُعاذ بن جبل ﷺ يُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ثُمَّ يَرجِعُ إِلَى قَومِهِ فَيُصَلِّي بِهِم، فأخَّر النَّبِيُّ ﷺ الصَّلاةَ ذاتَ لَيلَةٍ، فَرَجَعَ مُعاذٌ فأمَّهُم فَقَرَأَ بِسُورَةِ البَقَرَةِ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ رَجُلٌ مِنَ القَومِ انحَرَفَ إِلَى ناحِيَةِ المَسجِدِ فَصَلَّى وَحدَهُ فَقالُوا: نافَقتَ! قالَ: لا، وَلَآتِيَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَلَأُخبِرَنَّهُ. فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقالَ: إِنَّ مُعاذًا يُصَلِّي مَعَكَ، ثُمَّ يَرجِعُ فيؤُمُّنا، وَإِنَّكَ أَخَّرتَ الصَّلاةَ البارِحَةَ، فَجاءَ فأمَّنا، فَقَرَأَ بِسُورَةِ البَقَرَةِ، وَإِنِّي تَأَخَّرتُ عَنهُ فَصَلَّيتُ وَحدِي يا رَسُولَ اللهِ، وَإِنَّا نَحنُ أَصحابُ نَواضِحَ، وَإِنَّا نَعمَلُ بِأَيدِينا.

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٢٣٦).
(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٦٩).

فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يا مُعاذُ أفتّانٌ أنتَ؟ اقرأ بهم سورة: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾، و﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾، ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ﴾»[1].

والقصة التي وردت الإشارة إليها في مطلع هذه السورة المباركة فيها بضعة أقوال، أصحها ما جاء مفصلًا في الصحيح عن صهيب بن سنان ﷺ: أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «كانَ مَلِكٌ فيمَن كانَ قبلَكم وكانَ لَهُ ساحِرٌ فلَمّا كَبِرَ قالَ للمَلِكِ: إنِّي قد كَبِرتُ فابعَث إليَّ غُلامًا أُعلِّمهُ السِّحرَ؛ فَبعثَ إليهِ غُلامًا يُعلِّمُهُ، وكانَ في طريقِهِ إذا سَلَكَ راهِبٌ، فَقعدَ إليه وسَمِعَ كَلامَهُ فأعجَبَهُ، وكانَ إذا أتَى السّاحِرَ، مَرَّ بالرّاهِبِ وقَعدَ إليه، فإذا أتَى السّاحِرَ ضَرَبَهُ، فَشَكا ذلِكَ إلى الرّاهِبِ، فَقالَ: إذا خَشيتَ السّاحِرَ، فَقُل: حَبَسَني أَهلِي، وإذا خَشيتَ أهلَكَ، فَقُل: حبَسَني السّاحِرُ[2]، فَبَينما هُوَ على ذلِكَ إذ أتى عَلَى دابَّةٍ عَظِيمَةٍ قد حَبَسَتِ النّاسَ، فقالَ: اليَومَ أعلَمُ السّاحرُ أفضَلُ أم الرّاهبُ أفضَلُ؟ فَأَخَذَ حَجَرًا، فقالَ: اللهُمَّ إن كانَ أمرُ الرّاهِبِ أَحبَّ إلَيكَ مِن أمرِ السّاحِرِ فاقتُل هذِهِ الدّابَّةَ حَتَّى يَمضِي النّاسُ، فَرماها فَقتَلَها ومَضَى النّاسُ، فَأَتَى الرّاهبَ فَأَخبَرَهُ. فَقالَ لَهُ الرّاهبُ: أَي بُنَيَّ أَنتَ اليَومَ أفضَل منِّي قَد بَلَغَ مِن أَمرِكَ ما أَرَى، وإنَّكَ سَتُبتَلَى، فَإن ابتُلِيتَ فَلاَ تَدُلَّ عَلَيَّ؛ وَكانَ الغُلامُ يُبرىءُ الأَكمَهَ والأَبرَصَ، ويداوي النّاسَ مِن سائِرِ الأَدواء. فَسَمِعَ جَليسٌ لِلملِكِ كانَ قَد عَمِيَ، فأتاه بِهَدايا كَثيرَةٍ، فَقالَ: ما ها هُنا لَكَ أَجمعُ إن أنتَ شَفَيتَنِي، فَقالَ: إنّي لا أشفِي أَحَدًا إنَّما يَشفِي اللهُ تَعالَى، فَإن آمَنتَ باللهِ تَعالَى دَعَوتُ اللهَ فَشفاكَ، فَآمَنَ باللهِ تَعالَى فَشفاهُ اللهُ تَعالَى، فَأَتَى المَلِكَ فَجَلَسَ إلَيهِ كَما كانَ يَجلِسُ، فَقالَ لَهُ المَلِكُ: مَن رَدّ عَلَيكَ بَصَرَكَ؟ قالَ: رَبِّي، قالَ: وَلَكَ رَبٌّ غَيري؟ قالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ، فَأَخَذَهُ فَلَم يَزَل يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الغُلامِ، فَجِيء بالغُلامِ، فَقالَ لَهُ المَلِكُ: أي بُنَيَّ، قَد بَلَغَ مِن سِحرِكَ ما تُبرىء الأَكمَهَ والأَبرَصَ،

---

(١) ابن حبان في صحيحه (١٨٣٧)، وصححه الألباني في الإرواء (٢٩٥).

(٢) «جاز ذلك إن قيل بإسلامه واستقامته؛ لأنه رأى أن مصلحة تخلفه عنده تزيد على مفسدة تلك الكذبة، فهو نظير الكذب لإصلاح الخصمين، أو أنه من باب الكذب لإنقاذ المحترم من التعدي عليه بالضرب» [دليل الفالحين (١/١٨٧)].

وتَفعَلُ وتَفعَلُ! فقالَ: إنِّي لا أَشفي أحَدًا، إنَّما يَشفِي الله تَعالَى. فأَخَذَهُ فَلم يَزَل يُعذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهبِ؛ فَجِيء بالرَّاهبِ فَقيلَ لَهُ: ارجِع عَن دِينك، فَأَبَى، فَدعا بِالمِنشارِ فَوُضِعَ المِنشارُ في مَفرق رَأسِهِ، فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِجَليسِ المَلِكِ فقيل لَهُ: ارجِع عَن دِينِكَ، فَأَبَى، فَوضِعَ المِنشارُ في مَفرِق رَأسِهِ، فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بالغُلامِ فقيلَ لَهُ: ارجِع عَن دِينكَ، فَأَبَى، فَدَفَعَهُ إلَى نَفرٍ مِن أصحابهِ، فَقالَ: اذهَبُوا بِهِ إلَى جَبَلِ كَذا وَكَذا فاصعَدُوا بِهِ الجَبَل، فَإِذا بَلَغتُم ذِروَتَهُ فَإِن رَجَعَ عَن دِينِهِ وَإلّا فاطرَحُوهُ. فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الجَبَلَ، فَقالَ: اللهُمَّ اكفنيهم بِما شِئتَ، فَرَجَفَ بِهِمُ الجَبلُ فَسَقَطُوا، وَجاءَ يَمشي إلَى المَلِكِ، فَقالَ لَهُ المَلِكُ: ما فَعَلَ أصحابُكَ؟ فَقالَ: كَفانِيهِمُ الله تَعالَى، فَدَفَعَهُ إلَى نَفرٍ مِن أَصحابِهِ فَقالَ: اذهَبُوا بِهِ فاحمِلُوهُ في قُرقُورٍ وتَوَسَّطُوا بِهِ البَحرَ، فَإِن رَجعَ عَن دِينِهِ وإلاّ فاقذِفُوهُ. فَذَهَبُوا بِهِ، فَقالَ: اللهُمَّ اكفِنيهم بما شِئتَ، فانكَفَأَت بِهِمُ السَّفينةُ فَغرِقُوا، وَجاء يَمشي إلَى المَلِكِ. فَقالَ لَهُ المَلِكُ: ما فعلَ أصحابُكَ؟ فَقالَ: كَفانيهمُ الله تَعالَى. فَقالَ لِلمَلِكِ: إنَّكَ لَستَ بقاتلي حَتَّى تَفعَلَ ما آمُرُكَ بِهِ. قالَ: ما هُوَ؟ قالَ: تَجمَعُ النّاسَ في صَعيدٍ واحدٍ وتَصلُبُني عَلَى جِذعٍ، ثُمَّ خُذ سَهمًا مِن كِنانَتي، ثُمَّ ضَعِ السَّهمَ في كَبدِ القَوسِ ثُمَّ قُل: بسم الله ربِّ الغُلامِ، ثُمَّ ارمِني، فَإِنَّكَ إذا فَعَلتَ ذلِكَ قَتَلتَني، فَجَمَعَ النّاسَ في صَعيد واحدٍ، وَصَلَبَهُ عَلَى جِذعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهمًا مِن كِنانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهمَ في كَبِدِ القَوسِ، ثُمَّ قالَ: بِسمِ اللهِ ربِّ الغُلامِ، ثُمَّ رَماهُ فَوقَعَ في صُدغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ في صُدغِهِ فَماتَ، فَقالَ النّاسُ: آمَنّا بِرَبِّ الغُلامِ، فَأُتِيَ المَلِكُ فقيلَ لَهُ: أَرَأَيتَ ما كُنتَ تَحذَرُ قَد والله نَزَلَ بكَ حَذَرُكَ. قَد آمَنَ النّاسُ. فَأَمَرَ بِالأُخدُودِ بأفواهِ السِّكَكِ فَخُدَّت، وأُضرِمَ فيها النِّيرانُ وَقالَ: مَن لَم يَرجع عَن دِينِهِ فَأقحِمُوهُ فيها، أَو قيلَ لَهُ: اقتَحِم فَفَعَلُوا حَتَّى جاءت امرَأةٌ وَمَعَها صَبيٌّ لَها، فَتَقاعَسَت أَن تَقَعَ فيها، فَقالَ لَها الغُلامُ: يا أُمه اصبِري فَإِنَّكِ عَلَى الحَقِّ!»(١).

---

(١) مسلم (٣٠٠٥).

موضوعاتها:

اشتملت على قصة ثلة مؤمنة عادتها فئة باغية أرادت صدها عن دينها بالحرق والتعذيب، فصبرت الجماعة المؤمنة، ولم تأبه لعدوان قومها. وبيَّنت السورة أن العاقبة للمؤمنين، وأن الله منتقم ممن عادى أولياءه، وضرب مثالين على ذلك، ثم ختمت السورة ببيان مكانة القرآن العظيم.

مقصدها:

تثبيت المؤمنين، قال ابن عاشور ﷺ: «ابتدئت أغراض هذه السورة بضرب المثل للذين فتنوا المسلمين بمكة بأنهم مثل قوم فتنوا فريقًا ممن آمن بالله، فجعلوا أخدودًا من نار لتعذيبهم؛ ليكون المثل تثبيتًا للمسلمين وتصبيرًا لهم على أذى المشركين وتذكيرهم بما جرى على سلفهم في الإيمان من شدة التعذيب الذي لم ينلهم مِثلُه ولم يصدهم ذلك عن دينهم»[١].

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٢٣٦).

سورة البروج: تأملات ووقفات

الآيات (١ ـ ٩)

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩)﴾

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١)﴾، البروج: منازل الشمس والقمر، وهي اثنا عشر برجًا، وقيل: الخَلق الحسن، وقيل: الكواكب العظيمة[1]. وهذا الاختلاف يُعَدُّ من اختلاف التنوع، لأن اللفظ يشمل ذلك كله، وفسر ببعض أفراده.

وبمناسبة ذكر البروج يحسن التنبيه على ما انتشر في المجلات والصحف ومواقع التواصل، مما يسمى بمعرفة حظ الإنسان من خلال برجه! وبعضهم يرسل إلى القائمين على أمر تلك المنصات الإعلامية: برجي كذا، فيقال له: ستجد كذا وكذا، ولا ريب أن تصديق هذا كفر بالله، فعن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ قالَ: «**مَن أَتَى كاهِنًا، فَصَدَّقَهُ بِما يَقُولُ فَقَد بَرِئَ مِمّا أُنزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ**»[2].

قال الشيخ ابن عثيمين ﷺ: «الذي يأتي إلى الكاهن ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

(١) يراجع تفسير ابن كثير (٨/٣٦٤).
(٢) أبو داود (٣٩٠٤)، وهو في السلسلة الصحيحة (٣٣٨٧).

● القسم الأول: أن يأتي إلى الكاهن فيسأله من غير أن يصدقه، فهذا محرم، وعقوبة فاعله ألا تقبل له صلاة أربعين يومًا، كما ثبت في صحيح مسلم، أن النبي ﷺ قال: «**مَن أَتَى عَرّافًا فَسَأَلَهُ عَن شَيءٍ لَم تُقبَل لَهُ صَلاةٌ أَربَعِينَ لَيلَة**».

● القسم الثاني: أن يأتي إلى الكاهن فيسأله ويصدقه بما أخبر به، فهذا كفر بالله ﷻ، لأنه صدقه في دعوى علمه الغيب، وتصديق دعوى علم الغيب تكذيب لقول الله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل ٦٥]. ولهذا جاء في الحديث الصحيح: «**من أتى كاهنًا فصدّقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ**».

● القسم الثالث: أن يأتي الكاهن فيسأله ليُبيِّن حاله للناس، وأنها كهانة وتمويه وتضليل، وهذا لا بأس به، ودليل ذلك أن النبي ﷺ أتى ابن صياد، فأضمر له النبي ﷺ شيئًا في نفسه، فسأله النبي ﷺ ماذا خَبَّأ له؟ فقال: الدُّخ. يريد الدُّخان»[1].

فالغيب لله، لا يعلمه سواه، ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل ٦٥].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ۝٢﴾، قسم بيوم القيامة.

وقوله: ﴿وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ۝٣﴾، سَأَلَ رَجُلٌ الحَسَنَ بنَ عَلِيٍّ ﷺ عَن: ﴿وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ۝٣﴾، فقال: «الشَاهِدَ مُحَمَّدٌ ﷺ. ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ۝٤١﴾ [النساء]، والمَشهُودُ يَومُ القِيامَةِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ۝١٠٣﴾ [هود]»[2].
وقيل غير ذلك. والآيات إجمالًا تشير إلى موعد القصاص العادل من الظالم، فمن خدَّد الأخاديد وأضرم النيران فيها، وحرق بنارها المؤمنين، أنى له أن يفلت من بأس الله وحسابه!

---

(١) مجموع فتاوى ورسائل الشيخ ابن عثيمين (١٨٤/٢).
(٢) تفسير الطبري (٨٣/٣٠).

﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ﴾، أي: لُعِن. واللعن الطرد والإبعاد من رحمة الله، واللعن على جهة العموم جائز لا شيء فيه، وجنسه في القرآن الكريم كثير، فيُلعن الظالمون، والكافرون، ومن ورد لعنهم في النصوص، وأما اللعن على جهة التعيين فإن ورد في حقه نص؛ كإبليس، فلا إشكال في جوازه، أما لعن من لم يرد في حقه نص، كزيد شارب الخمر فلا يجوز؛ لحديث الفاروق ﷺ، أن رجلًا على عهد النبي ﷺ كان اسمه عبد الله، وكان يلقب حمارًا، وكان يُضحِك رسول الله ﷺ، وكان النبي ﷺ قد جلده في الشراب، فأُتي به يومًا فأمر به فجُلد، قال رجل من القوم: اللَّهُمَّ العنه، ما أكثر ما يؤتى به! فقال النبي ﷺ: **«لا تلعنوه؛ فو الله ما علمتُ إلا أنه يحب الله ورسوله»**[(١)]. قال ابن تيمية ﷺ: «واللعنة تجوز مطلقًا لمن لعنه الله ورسوله، وأما لعن المعيَّن فإن علم أنه مات كافرًا جازت لعنته، وأما الفاسق المعين فلا تنبغي لعنته؛ لنهي النبي ﷺ أن يلعن عبد الله بن حمار الذي كان يشرب الخمر، مع أنه قد لعن شارب الخمر عمومًا»[(٢)]. ولا ينبغي أن يُعوِّد الإنسان لسانه ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ ﴾، أشعلوا النيران، وجعلوا فيها ما يزيدها اشتعالًا؛ لتعذيب المؤمنين، وحرقهم، والتخلص منهم ومن دينهم، وقد بيَّن الله تعالى في آيات أن ديدنَ المشركين بسطُ أيديهم بالسوء للمؤمنين تنكيلًا وتعذيبًا إذا ظهروا عليهم، وفي هذه السورة مشهد من تلك المشاهد، وفي صفحات التاريخ القديم والحديث مشاهد أخرى مؤلمة.

﴿ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ ﴾، جلسوا حولها؛ ليشهدوا عند الملك أنهم أدَّوا المطلوب كله.

---

(١) البخاري (٦٧٨٠).

(٢) مجموع الفتاوى (٦/٨١١).

﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧﴾، شهود ولا يحرك فيهم ذلك ساكنًا، كما يشهد العالم اليوم إبادة فئام من المسلمين، ولا يحرك ذلك ساكنًا! وشهود: يشهد بعضهم لبعض عند طاغوتهم أنهم حضروا حرقهم!

فهذه حال الطغاة الظالمين، وليس ذلك بغريب على الكافرين، فقد أخبرنا ربنا عن عداوتهم في آيات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ۝١١٨ هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝١١٩ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ۝١٢٠﴾ [آل عمران]. وواقعنا أصدق شاهد، فما فعله الكفار في أفغانستان، والعراق، والشيشان، وسوريا، وإفريقيا الوسطى، وبورما، وغيرها من البلاد، صور تحكي ذلك التاريخ المُثبت في هذه الآيات.

﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٩﴾، هذه جريمتهم؛ أنهم آمنوا بالله ربًّا، وانقادوا لشريعته، واستسلموا له، كما قال ربنا: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ۝٥٩﴾ [المائدة]. أي: لم يعذَّبوا لشيء سوى أنهم آمنوا بالله تعالى. هذه جريمتهم الكبرى عند الكافرين: أن يوحدوا الله! كما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ۝٢٠ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٢١ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢٢ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ۝٢٣

﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٤ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ٢٥ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧﴾ [يس].

وفي قوله ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ إشارة إلى انتصاره من الظلمة، فهو القوي الذي لا يُغالَب، وفي قوله: ﴿ٱلۡحَمِيدِ﴾، إشارة إلى إكرامه أولياءه بما يوجب الحمد له، فهو المحمود لذاته ولأفعاله، الذي يحمده أولياؤه، والحمد: هو وصف المحمود بصفات الكمال على جهة المحبة والتعظيم.

ثم قال: ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٩﴾، وهذه فيها أيضًا عزاء للثلة المؤمنة، فلن يضيع فعل قومهم معهم سدى، بل لا بُدَّ أن يأخذ الله الحق لهم ممن ظلمهم، فإن الله لا يعجزه شيء، له ملك السماوات والأرض، وهو سبحانه على كل شيء شهيد، لا يخفى عليه شيء، مطَّلع على ما حلَّ بأوليائه.

الآيات (١٠ ـ ٢٢)

إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ
جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ
﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ
ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ
ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ
مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾، الفتنة هنا التحريق بالنار، وكان غرضها الفتنة عن الدين، وأخطر فتنةٍ الصدُّ عن دين الله بإثارة الشبهات حوله، قال ربنا: ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩]، أي: يصدوك. وهذا المقصود قد يُتذرَّع إليه بالقتل والفتك، وقد يُتذرَّع إليه بأساليب ناعمة، قد تكون أشد فتكًا، فالقتل قد يصبر عليه المؤمن، ومهما يكن من شيء فلن يغتر أحد بالقاتل، أما الأساليب الأخرى فقد تخدع كثيرًا، كم من قنوات تنفق عليها المليارات ليس لها همٌّ سوى فتنة الناس! قنوات أنشأها أقوام من بني جلدتنا! ويتكلمون بألسنتنا! لا همَّ لها سوى إشاعة الفاحشة، والله يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [النور]،

وقول نبينا ﷺ: «**مَن دَعا إلَى هُدًى، كانَ لَهُ مِنَ الأجرِ مِثلُ أُجُورِ مَن تَبِعَهُ، لا يَنقُصُ ذَلِكَ مِن أُجُورِهِم شَيئًا، وَمَن دَعا إلَى ضَلالَةٍ، كانَ عَلَيهِ مِنَ الإثمِ مِثلُ آثامِ مَن تَبِعَهُ، لا يَنقُصُ ذَلِكَ مِن آثامِهِم شَيئًا**»(١).

وكم في قول ربنا: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ من عبرة! «قال الحسن البصري رحمه الله: انظر إلَى هَذا الكَرَمِ والجُودِ، قَتَلُوا أولياءَهُ وَهُوَ يَدعُوهُم إلَى التَّوبَةِ والمَغفِرَةِ! والآياتُ فِي هَذا كَثِيرَةٌ جِدًّا»(٢). فما أوسع رحمة الله تعالى! فلقد فتح باب التوبة للكافرين، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴿٥﴾ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٦﴾﴾ [الفرقان]. وقال: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنفال].

وفتح باب التوبة لمن قال: أنا ربكم الأعلى! قال سبحانه: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه].

وفتحه للنصارى، فقال: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٤﴾﴾ [المائدة].

وللمنافقين، فقال: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿١٤٦﴾﴾ [النساء].

ومن نصوص هذا الباب حديث أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ: «**يَضحَكُ اللهُ إلَى رَجُلَينِ يَقتُلُ أَحَدُهُما الآخَرَ يَدخُلانِ الجَنَّةَ، يُقاتِلُ هَذا فِي سَبِيلِ اللهِ، فَيُقتَلُ، ثُمَّ**

---

(١) مسلم (٢٦٧٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/١٠٧).

يَتُوبُ اللهُ عَلَى القاتِلِ فَيُستَشهَد»(١).

وهـذا يعلمنـا الحـرص على هداية الناس جميعًا، والسـعي إلى حملهـم على الرجوع إلى ربهـم من باب التوبة الذي لا يُسَـدُّ إلى أن تطلع الشـمس من مغربهـا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ١١﴾، وأي فوز أعظم من الفوز برتبة الشهداء؟! ولم يرد نعت الفوز بكونه كبيرًا إلا في هذه الآية.

وفي الآيات ما يدل على أن النصر يكون بظهور المنهج، والثبات على المبدأ، ولو ذهبت الأنفس، ومات أصحابها.

والعطف في الآية لا يدل على التغاير، فالعمل داخل في مسمى الإيمان، وعطفه عليه من باب عطف الخاص على العام.

﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ١٢﴾، أي: أخذه وانتقامه لأوليائه. ولذا يجب على المسلم أن يحذر من الظلم؛ لئلا يعرض نفسه للنقمة في الدنيا والآخرة.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ١٣﴾، وفي موضع آخر: ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١١﴾ [الروم: ١١]، فالمعنى: «أي: مِن قُوَّتِهِ وَقُدرَتِهِ التامَّةِ يُبدِئُ الخَلقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ كَما بَدَأَهُ، بِلا مُمانِعٍ وَلا مُدافِعٍ»(٢)، وفي هذا ما يحقق ما قبله من تمام قدرته على الانتصار من الظالمين والبطش الشديد بهم.

﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ١٤﴾، الغفور: الذي يكثر من أن يغفر ذنوب عباده، فيعفو عنهم، ويستر عليهم. والودود: الذي يُحِب ويُحَب.

﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ١٥﴾، أي: صاحب العرش. و﴿ٱلۡمَجِيدُ﴾ قرئ بالخفض والرفع، وهو بالخفض نعت للعرش، وبالرفع نعت للرب ﷻ، و﴿ٱلۡمَجِيدُ﴾: العظيم،

---

(١) البخاري (٢٨٢٦)، ومسلم (١٨٩٠).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/٣٧٢).

ونعت خلق الله بالعظيم دليل على عِظَمِ عظمة العظيم. وفي الحديث: «**ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة**»[(١)]. والمجد: سعة الأوصاف وعظمتها، فالمجيد: العظيم الذي له الكمال المطلق في العظمة، وقراءة الرفع تدل على نعت الله تعالى بذلك تصريحًا، وقراءة الخفض اقتضاءً وتلويحًا.

﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ١٦﴾، لا يعجزه شيء سبحانه. ثم ذكر من دلائل ذلك في الدنيا فقال: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ١٧ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ١٨﴾، أهلكهم الله بذنوبهم، قال ربنا: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ١٧﴾ [فصلت: ١٧]. فالدلائل على قدرة الله وانتصاره من المُكذِّبين حاصلة لكن الإعراض عن الآية آفة تردي القرون اللاحقة وتلحقها بالمهلكة الغابرة:

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ١٩﴾، ﴿فِى﴾، تدل على أنهم أوغلوا في هذا الطريق، ومرنوا عليه، فهم غارقون في التكذيب.

﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ٢٠﴾، أحاط بهم علمًا وقدرة، لا يخفى عليه منهم ومن أعمالهم وأحوالهم شيء، متى شاء أخذهم، وإنما هم في المُهلة، وفي ذلك تهديد شديد؛ فالقوم إنما يضرون بالتكذيب أنفسهم، أما القرآن فمحفوظ ظاهر الحُجَّة.

﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ٢٢﴾، قرآن عظيم، لا يحرف ولا يغير.

---

(١) رواه محمد بن أبي شيبة في كتاب العرش (١/١١٤)، وهو في السلسلة الصحيحة برقم (١٠٩).

سُورَةُ الطَّارِقِ

بين يدي سورة الطارق

وهي مكية اتفاقًا(١).

أسماؤها:

سورة «السماء والطارق»، و﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾، و«سورة الطارق»(١).

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُها إِحدَى وَسِتُّونَ كلمة، وحروفها مئتان وَتِسعَة وَثَلاثُونَ حرفًا، وَهِي سِتَّ عشرَة آيَة فِي المدنِي الأول وَسبع عشرَة فِي عدد الباقِينَ، اختلافها آيَة: ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا﴾، لم يعدها المدنِي الأول وعدَّها الباقُونَ»(٢).

موضوعاتها:

«إثبات إحصاء الأعمال والجزاء على الأعمال، وإثبات البعث بنقض ما أحاله المشركون ببيان إمكان إعادة الأجسام، والتذكير بدقيق صنع الله وحكمته في خلق الإنسان، والتنويه بشأن القرآن»(٣).

مقصدها:

تثبيت النبي ﷺ، ووعده بأن الله منتصر له، وبث روح المراقبة بالتذكير بالحَفَظة والبعث بعد الموت.

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٢٥٧).
(٢) البيان في عدِّ آي القرآن، ص(٢٧٠).
(٣) التحرير والتنوير (٣٠/٢٥٧) بتصرف يسير.

سورة الطارق: تأملات ووقفات

الآيات (١ ـ ١٠)

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾
إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ
مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَىٰ
رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾﴾، أقسم ربنا باثنين من مخلوقاته في هذه الآية، بالسماء، والطارق، وعرَّف الطارق بالآية التي تلتها.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾﴾، أي: المُتَّقد، المضيء. قال ابن كثير رحمه الله: «قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ: المُضِيءُ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: يَثقُبُ الشَّيَاطِينَ إذا أُرسِلَ عَلَيها. وَقَالَ عِكرِمَةُ: هُوَ مُضِيءٌ وَمُحرِقٌ لِلشَّيطانِ»[1]. كما قال ربنا: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحجر]. وقال: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾ [الصافات]. وفي هذه الآيات تنبيه على أن لغة العرب -التي أنزل بها القرآن، وفهمها به السلف من أهل اللسان- قد لا يجري فيها إطلاق اسم النجم على الاصطلاح الفلكي المعاصر، فليُتفطَّن لهذا.

(١) تفسير ابن كثير (٨/٣٧٥).

وللنجوم وظيفتان سوى ما ذُكر، الأولى: هداية الناس، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنعام]. والثانية: تزيين السماء. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَجَعَلْنَـٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَـٰطِينِ﴾ [الملك: ٥].

والطارق يُطلق على ما يطرق في الليل، وفي الحديث عن أَنَسِ بنِ مالِكٍ رضي الله عنه، «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كانَ لا يَطرُقُ أهلَهُ لَيلًا»(١). وقد أمر جبريلُ نبيَّنا ﷺ أن يقول: «**أَعُوذُ بِكَلِماتِ اللهِ التَّامَّةِ، مِن شَرِّ ما خَلَقَ، وَذَرَأَ، وَبَرَأَ، وَمِن شَرِّ ما يَنزِلُ مِنَ السَّماءِ، وَمِن شَرِّ ما يَعرُجُ فِيها، وَمِن شَرِّ فِتَنِ اللَّيلِ والنَّهارِ، وَمِن شَرِّ كُلِّ طارِقٍ إلّا طارِقًا يَطرُقُ بِخَيرٍ، يا رَحمَنُ**»(٢).

ثم قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾﴾، هذا جواب القسم. أي: لكل نفس مَلَكٌ يحفظ عليها أعمالها، ثم يحاسبون عليها. كما قال ربنا: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار].

وهذا يحمل على مراقبة الله فيما نأتي ونذر.

● **فكيف يتأتى للمسلم أن يحسن في مراقبته لله؟**

الجواب يكون ذلك بأمور، منها:

(١) التعرُّف على الله تعالى:

فالإيمان بأسماء الله تعالى وصفاته؛ كالرقيب، والحفيظ، والعليم، والسميع، والبصير، والتعبد لله تعالى بمقتضاها يورث مراقبته. فالرقيب الذي يرصد أعمال عباده، والحفيظ الذي يحفظ عباده المؤمنين، ويحصي أعمال العباد، والعليم الذي لا تخفى عليه خافيةٌ من أمور عباده، والسميع المدرك للأصوات، والبصير الذي يرى كل شيء.

(١) البخاري (١٨٠٠)، ومسلم (١٩٢٨).
(٢) أحمد (١٥٤٦٠)، وهو في السلسلة الصحيحة (٨٤٠).

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾ [النساء]، وقال: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ۝٥٧﴾ [هود]، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٧﴾ [المجادلة]، وقال: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝١﴾ [الإسراء].

والإيمانُ بأنَّ الله تعالى سميع يمنع من أن يصدر عن المسلم كلامٌ يُسخط الله، إنَّ عائشة ﵂ لمّا جاءت المجادِلةُ إلى رسول الله ﷺ في غرفتها تشكو زوجها غاب عن سمعها كثير من كلامها، فلما نزلت السورة قالت: «الحَمدُ لِلهِ الَّذِي وَسِعَ سَمعُهُ الأَصواتَ، لَقَد جاءَت المُجادِلَةُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَنا فِي ناحِيَةِ البَيتِ تَشكُو زَوجَها وَما أَسمَعُ ما تَقُولُ، فَأَنزَلَ الله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ..﴾»(١).

قال رجل للجنيد: بم أستعين على غض البصر؟ فقال: «بعلمك أن نظر الناظر إليك أسبق من نظرك إلى المنظور إليه»(٢).

(٢) العلم بشهادة الجوارح في الآخرة:

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٢٠ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢١ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢٢ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ۝٢٣ فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ۝٢٤﴾ [فصلت]،

وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٢٣ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٢٤﴾ [النور]، وقال: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝٦٥﴾ [يس].

---

(١) ابن ماجه (١٨٨)، وصححه الألباني صحيح سنن ابن ماجه، وفي الظلال (٢٠٦٣).
(٢) إحياء علوم الدين للغزالي (٤/٢٩٧).

(٣) العلم بشهادة الأرض بما عُمِل فوقها من المعاصي:

قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤﴾ [الزلزلة]، ومعنى ذلك كما هو ظاهر: أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها، أن تقول: عمل كذا وكذا في يوم كذا وكذا.

(٤) كثرة العبادة:

فكلما أكثر الإنسان من الطاعات عسُر عليه أن يأتي المحرمات.

ومعلوم أن الراهب في قصة الذي قتل تسعةً وتسعين نفسًا لما سأله القاتل: هل لي من توبة؟ قال الراهب: لا. وليس خافيًا على أحد أن هذه فُتيا لم تقم على علم، ولكن مما يستفاد من ذلك: أنه ما قال مقالته إلا ببُغضه العظيم للمعصية، وما بغَّض إليه معصية الله إلا كثرة عبادته.

● **فكيف نربي أولادنا على رقابة الله؟**

بأن نغرس في قلوبهم الإيمان بأسماء الله وصفاته؛ كالتي مر ذكرها.

ولله در معلم أعطى كل تلميذ عنده طائرًا قائلًا: ليذبح كل منكم طائره في مكان لا أحد فيه معه. فذبحوا جميعًا سوى واحد. قال: مالك. قال: إن الله معي في كل مكان. فقرَّبه وكافأه.

والمقصود استحضار أن كل نفس عليها حافظ يرقبها ويكتب ما لها وما عليها.

ثم قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥﴾، والإنسان هنا ليس هو الكافر كما قال بعض المفسرين، بل هو كل إنسان؛ الكافر والمسلم، قال ابن كثير ﷺ: «تَنبِيهٌ لِلإِنسانِ عَلَى ضَعفِ أَصلِهِ الَّذِي خلق مِنهُ، وَإِرشادٌ لَهُ إِلَى الِاعتِرافِ بِالمَعادِ؛ لِأَنَّ مَن قَدَرَ عَلَى البَداءة فَهُوَ قادِرٌ عَلَى الإِعادَةِ بِطَرِيقِ الأَولَى، كَما قالَ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]»(١).

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/٣٧٥).

﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ٧﴾.

﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ٧﴾، أي: من موضع العمودِ الفِقرِيِّ وأضلاعِ الصدرِ التي تضعُ المرأةُ القِلادةَ عليها.

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ٨﴾، أي على إرجاعه بعد أن يموت، وينتهي، ولا يبقى إلا عَجبُ الذنَب، وقد يكرم الله من يشاء من عباده بأن يبقى جسده في الأرض سالمًا، كالأنبياء. فربنا قادر على إعادته، والمقصود أن أصل الخِلقة دليل على القدرة وإمكان البعث، وفي القرآن قصص تدل على قدرة الله على إحياء الموتى، قال ربنا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥٨ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ٢٥٩ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٦٠﴾ [البقرة].

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ٩﴾، أي: إنَّ اللهَ يقدر على بعثه وإعادته، وذلك كائنٌ يومَ تُختبرُ ضمائرُ الناسِ وما يخفونَه، فتظهرُ هذه المخفيات. كما قال تعالى: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ١٠﴾ [العاديات]. ومن أقر بهذا فليجمع في صدره خيرًا ولينوِ خيرًا وليفعل خيرًا، وإلّا فإنها الفضيحة على رؤوس الأشهاد! وقد ثبت عَن عَبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قالَ: «**لِكُلِّ غادِرٍ لِواءٌ يَومَ القِيامَةِ يُعرَفُ بِهِ**»(١).

---

(١) البخاري (٦٩٦٦)، ومسلم (١٧٣٥).

ولهذا لا تسر في نفسك إلا ما تحب أن تلقى الله به، وهذا من سلامة القلب، قال ربنا عن خليله: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء]. وفي يوم القيامة أناس يفرحون بكتبهم ويودون أن يتعرف الناس على ما فيها، قال ربنا: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾﴾ [الحاقة].

ثم قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾﴾، فما له، أي: للإنسان في يوم القيامة، ما له من قوة يخلِّص بها نفسه من العناء والعذاب، ولا أحد ينصره ويدفع عنه ذلك.

الآيات (١١ ـ ١٧)

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ﴿١١﴾ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ﴿١٧﴾﴾

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ﴿١١﴾﴾، تكرَّر القسم بالسماء، وهذا يدل على أنه ينبغي التأمل في هذه الآية العظيمة التي تكرر قسم الله بها في كتابه، قال ربنا: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ ﴿٧﴾﴾ [الذاريات]، وقال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ﴿١﴾﴾ [البروج]، وقال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾﴾ [الشمس]، وأقسم بها هنا مرتين. وما أكثر الآيات التي ذكَّر الله فيها عباده بها! قال سبحانه: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ [البقرة]، وقال: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنعام]. وفي السماء آيات على قدرة الله تعالى ووحدانيته.

والرجع: المطر. ويخطئ من يقول: إن كلمة المطر لا تستخدم إلا فيما نزل وكان عذابًا! ففي السنة: عَن زَيدِ بنِ خالِدٍ الجُهَنِيِّ ﷺ، قالَ: صَلَّى بِنا رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلاةَ الصُّبحِ بِالحُدَيبِيَةِ فِي إِثرِ السَّماءِ كانَت مِنَ اللَّيلِ، فَلَمّا انصَرَفَ أَقبَلَ عَلَى النّاسِ فَقالَ: «**هَل تَدرُونَ ماذا قالَ رَبُّكُم؟**»، قالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعلَمُ. قالَ: قالَ: «**أَصبَحَ مِن عِبادِي مُؤمِنٌ بِي وَكافِرٌ، فَأَمّا مَن قالَ: مُطِرنا بِفَضلِ اللهِ وَرَحمَتِهِ**

فَذَلِكَ مُؤمِنٌ بِي كافِرٌ بِالكَوكَبِ، وَأَمّا مَن قالَ: مُطِرنا بِنَوءِ كَذا وَكَذا فَذَلِكَ كافِرٌ بِي مُؤمِنٌ بِالكَوكَبِ»[١].

فإن قيل: لماذا سمي المطر رجعًا؟ لأن بخار الماء يتبخر من الأرض، ثم يتكثف، ثم يرجع إلى الأرض مطرًا بإذن الله.

﴿وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ١٢﴾، أي: التشقق، فالأرض يخرج منها نباتها.

وهذه الأقسام بالمخلوقات العظيمة كثيرة في القرآن، ولله أن يُقسم بما شاء من خلقه، ومعلوم أنه لا يسوغ لأحد أن يحلف بغير ربه، فعن سَعدِ بنِ عُبَيدَةَ، أَنَّ ابنَ عُمَرَ رضي الله عنهما سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: لا والكَعبَةِ، فَقالَ ابنُ عُمَرَ: لا يُحلَفُ بِغَيرِ اللهِ، فَإِنِّي سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَن حَلَفَ بِغَيرِ اللهِ فَقَد أَشرَكَ**»[٢].

وجواب القسم: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ١٣﴾، أي: القرآن الكريم. وفصل: حق[٣]. والسؤال الذي لا بُدَّ أن يسأله كلٌّ منا لنفسه: هل نرجع إلى القرآن لنجد الحكم الفصل في أمورنا الخاصة والعامة؟ كيف بمن يترك القرآن ويرضى بتحكيم حثالات أفكار البشر؟! وربنا يقول: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، ومن أراد أن يتعرف على شيء مما تستوعبه هذه الآية فليراجع تفسير العلامة الشنقيطي وما كتبه حولها في أضوائه. وقد قال نبينا ﷺ: «**تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما إن تمسكتم بهما: كتاب الله وسنتي**»[٤].

﴿وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ١٤﴾، حق لا هزل فيه، مُنزَّه عنه، ولا يجوز الهزل به، وكم ممن يهزل بآياته من أبناء المسلمين!

---

(١) البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١).
(٢) الترمذي (١٥٣٥)، وصححه الألباني في الإرواء (٢٥٦١).
(٣) راجع ـ غير مأمور ـ تفسير القرآن العظيم (٣٧٦/٨).
(٤) رواه الحاكم (١٧٢/١)، (٣١٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٩٣٧).

والسنة صنو القرآن في ذلك، قال نبينا ﷺ: «لا أُلفِيَنَّ أحدَكم مُتَّكِئًا على أريكتِهِ يأتيهِ أمرٌ مِمّا أَمَرتُ بِهِ أو نَهيتُ عَنهُ فيقولُ: لا أدرِي، ما وَجَدنا في كِتابِ اللهِ اتَّبعناهُ، ألا إنِّي أُوتِيتُ الكِتابَ وَمِثلَهُ مَعَهُ، ألا وَإنَّ ما حَرَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِثلُ ما حَرَّمَ اللهُ»(١).

والآيات التي بيَّنت مكانة السنة وحجيتها أربعة أقسام:

● **القسم الأول:**

آيات أمرت بطاعة رسول الله ﷺ.

ومنها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٤﴾ [الأنفال].

● **القسم الثاني:**

آيات رغَّبت في طاعة رسول الله ﷺ.

ومنها ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ [النساء: ٦٩].

● **القسم الثالث:**

آيات نهت عن مخالفة أمر رسول الله ﷺ.

ومنها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [أول الحجرات].

● **القسم الرابع:**

آيات توعَّدت من خالف أمر رسول الله ﷺ.

ومنها: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٦٣﴾ [النور].

---

(١) رواه أحمد (١٧١٧٤)، وصححه العلامة شعيب الأرناؤوط ﷺ (٢٨/٤١٠).

ومن حقِّ هذا القول الفصل علينا: العنايةُ به، والتحاكم إليه، والإكثار من قراءته، والاهتمام بحفظه، والعمل به، والدعوة إليه. ومما يُوصَى به طالب العلم أن يبدأ بذلك قبل أن يقبل على غيره، فيكون البدء بالقرآن: قراءة، وحفظًا، وفهمًا، وعملًا، ثم يقرأ غيره، ومن المعيب أن يبدأ بشيء قبل القرآن الكريم.

ومن الملاحظ هنا القسم بالسماء ذات الرجع، والأرض ذات الصدع، على أن القرآن قول فصل، فما المناسبة؟

● **والجواب:**

القسم ينبئ بأن ما ينزل من السماء من ماء فيه حياة للأرض، وجواب القسم له ارتباط بقَسَمه، فما ينزل من الوحي منها فيه حياة للقلوب، كما قال ربنا: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام].

ومن أوجه العلاقة بين القسم وجوابه: أن القرآن كالمطر، فهو آيات شرعية عظيمة، والمطر آية كونية عظيمة، ولا ينتفع بالقرآن كل قلب، كما أن المطر تنتفع به الأرض الخصبة دون غيرها، قال تعالى في بيان ذلك: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [البقرة]، وفي آية أخرى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤]، فهؤلاء من ينتفعون به، وكذلك المطر، لا تنتفع به إلا الأرض الخصبة. قال نبينا ﷺ: «**مَثَلُ ما بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الهُدَى والعِلمِ، كَمَثَلِ الغَيثِ الكَثيرِ أَصابَ أَرضًا، فَكانَ مِنها نَقِيَّةٌ، قَبِلَتِ الماءَ، فَأَنبَتَتِ الكَلَأَ والعُشبَ الكَثيرَ، وَكانَت مِنها أَجادِبُ، أَمسَكَتِ الماءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِها النّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوا وَزَرَعُوا، وَأَصابَت مِنها طائِفَةً أُخرَى، إِنَّما هِيَ قِيعانٌ لاَ تُمسِكُ ماءً وَلاَ تُنبِتُ كَلأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَن فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ، وَنَفَعَهُ ما بَعَثَنِي اللهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَن لَم يَرفَع بِذَلِكَ رَأسًا، وَلَم يَقبَل هُدَى اللهِ الَّذِي أُرسِلتُ بِهِ**»(١).

(١) البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢).

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦﴾، أي يكيد الكفار لرسولنا ﷺ، ولأتباعه، ولديننا كيدًا عظيمًا، ويمكرون مكرًا كُبّارًا، كما قال ربنا: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ۝٣٠﴾ [الأنفال]، وقال: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ۝١٢٧ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ۝١٢٨﴾ [النحل].

﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ۝١٧﴾، أنظِرهم، ولن تنتظر كثيرًا، بل ﴿رُوَيْدًا﴾ أي قليلًا، وبعدها سوف يظهر أمر نبينا ﷺ، ويعلو دينه، وذلك لن يكون بعيدًا، وقد وقع ذلك كما أخبر ربنا. وسيقع كلما مكر القوم وظهروا، وذلك إلى قيام الساعة.

سُورَةُ الأَعْلَى

بين يدي سورة الأعلى

وهي مكية على الصحيح، قال ابن عاشور بعدما حكى خلاف العلماء في ذلك: «وما اشتملت عليه من المعاني يشهد لكونها مكية، وحسبك بقوله تعالى: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ٦﴾»[١].

أسماؤها:

سورة ﴿سَبِّحِ﴾، ولم تبدأ سورة بالأمر بالتسبيح سواها، ولهذا اختصت به، وسميت بسورة ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾، وبـ ﴿ٱلۡأَعۡلَى﴾؛ لوقوع هذه الصفة فيها دون غيرها[٢].

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«وكَلِمُهـا اثنَتـانِ وَسَـبعُونَ كلمة، ككلـم العلق، وحروفهـا مئتان وَأحد وَسَـبعُونَ حرفًـا، وَهِي تسـع عـشرَة آيَـة فِي جَمِيع العدَد لَيـسَ فِيهـا اختِلاف»[٣].

ما ورد فيها:

عَن جابِرٍ ﷺ قالَ: كانَ مُعاذٌ، يُصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ يَأتِي فَيَؤُمُّ قَومَهُ، فَصَلَّى لَيلَةً مَعَ النَّبِيِّ ﷺ العِشاءَ ثُمَّ أَتَى قَومَهُ فَأَمَّهُم فافتَتَحَ بِسُورَةِ البَقَرَةِ فانحَرَفَ رَجُلٌ فَسَلَّمَ ثُمَّ

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٢٧٢).
(٢) السابق.
(٣) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٧١).

صَلَّى وَحدَهُ وانصَرَفَ فَقالُوا لَهُ: أَنافَقتَ يا فُلانُ؟ قالَ: لا. واللهِ وَلآتِيَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَلأُخبِرَنَّهُ. فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقالَ: يا رَسُولَ اللهِ، إنا أَصحابُ نَواضِحَ نَعمَلُ بِالنَّهارِ وَإِنَّ مُعاذًا صَلَّى مَعَكَ العِشاءَ، ثُمَّ أَتَى فافتَتَحَ بِسُورَةِ البَقَرَةِ فَأَقبَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى مُعاذٍ فَقالَ: «**يا مُعاذُ أَفَتّانٌ أَنت؟ اقرأ بـ**: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾، ﴿وَالضُّحَى﴾، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾، ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾»[1].

وعن النعمان بن بشير ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيدين وفي الجمعة بـ ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، و﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾»[2].

وعن عقبة بن عامر ﷺ، قال: لما نزلت: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾، قال رسول الله ﷺ: «**اجعلوها في ركوعكم**»، فلما نزلت: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، قال رسول الله ﷺ: «**اجعلوها في سجودكم**»[3].

وعن ابن عباس ﷺ، قالت: «كان رسول الله ﷺ يقرأ في الوتر في الأولى بـ ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، وفي الثانية بـ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، وفي الثالثة بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾»[4].

وعن ابنِ عَبّاسٍ ﷺ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ: كانَ إذا قَرَأَ: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، قالَ: «**سُبحانَ رَبِّيَ الأَعلَى**»[5].

موضوعاتها:

قال ابن عاشور ﷺ: «اشتملت على تنزيه الله تعالى، والإشارة إلى وحدانيته لانفراده بخلق الإنسان وخلق ما في الأرض مما فيه بقاؤه، وعلى تأييد النبي ﷺ

(١) البخاري (٧٠٥)، ومسلم (٤٦٥).
(٢) مسلم (٨٧٨).
(٣) أبو داود (٨٦٩)، وحسنه الألباني في تخريج المشكاة (٨٧٩).
(٤) الترمذي (٤٦٢)، وصححه الألباني في صفة صلاة النبي ﷺ (٢/٥٤٠).
(٥) أبو داود (٨٨٣)، وصححه الألباني في صفة صلاة النبي ﷺ (١/٤٠٧).

وتثبيتـه على تلـقي الـوحي، وأن الله معطيـه شريعـة سـمحة وكتابًـا يتذكـر بـه أهل النفـوس الزكيـة الذين يخشـون ربهـم، ويعرض عنهـم أهل الشـقاوة الذيـن يؤثرون الحيـاة الدنيـا ولا يعبـؤون بالحيـاة الأبديـة، وأن مـا أوحي إليـه يصدقه مـا في كتب الرسـل مـن قبلـه وذلك كلـه تهوين لمـا يلقـاه من إعـراض المشركـين»[1].

مقصدها:

تعظيم الله، والإرشاد إلى تزكية النفس ببيان ما لأهله في الآخرة، والتزهيد في الدنيا.

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٢٧٢).

سورة الأعلى: تأملات ووقفات

الآيات (١ ـ ٥)

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾﴾

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾، التسبيح: تنزيه الله عن النقائص، وشأن التسبيح عظيم، وقد ذكر الله ﷻ التسبيح في مُفتتح ثمان سُوَر من القرآن الكريم، فقال تعالى في أول الإسراء: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، وقال تعالى في أول سورة النحل: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، وقال تعالى في أوّل سورة الحديد: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، وقال تعالى في أوّل سورة الحشر: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، وقال تعالى في أول سورة الصف: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، وقال تعالى في أول سورة الجمعة: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾، وقال تعالى في أول سورة التغابن: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، وقال تعالى في أول سورة الأعلى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾﴾.

والتسبيح ذكر عظيم، ومما ورد في فضله:

قول نبينا ﷺ: «أحبُّ الكلام إلى الله أربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلّا الله، والله أكبر»(١).

وعن أبي هريرة ﷺ، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن قال: سبحان الله وبحمده في يوم مئة مرَّة حُطَّت خطاياه وإن كانت مِثلَ زَبَدِ البحر»(٢).

وعن سعد بن أبي وقّاص ﷺ قال: كُنّا عند رسول الله ﷺ فقال: «أيَعجِزُ أحدُكم أن يكسب كلَّ يومٍ ألفَ حسنةٍ؟»، فسأله سائلٌ من جلسائِه: كيف يكسب أحدُنا ألفَ حسنة؟ قال: «يسبِّح مئة تسبيحة فيُكتبُ له ألفُ حسنةٍ أو يُحطُّ عنه ألفُ خطيئةٍ»(٣)، وقال ﷺ: «كلمتانِ خَفيفَتانِ على اللِّسانِ ثَقيلَتانِ في المِيزانِ حَبِيبَتانِ إلَى الرَّحمَنِ سُبحانَ اللهِ وَبِحَمدِهِ سُبحانَ اللهِ العَظِيمِ»(٤).

قوله: ﴿ٱلْأَعْلَى﴾، «اسم يفيد الزيادة في صفة العلو»(٥).

والأدلة على إثبات هذه الصفة كثيرة في القرآن الكريم، قال ربنا: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨]، وقال: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ٥٠﴾ [النحل]، وقال: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ٥﴾ [السجدة]، وقال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ١٦ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ١٧﴾ [الملك]. وقد ناظر أحد من أهل السنة والعقيدة الصحيحة أحدًا ممن ينكرها، فلما استدل بهذه الآية على علو الله قال المُنكر له: المراد: الملائكة. فقال له: لو سلَّمنا بقولك فإن الله يقول عنهم: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ٥٠﴾ [النحل]، فلم يجد جوابًا صوابًا.

---

(١) مسلم (٢١٣٧).
(٢) البخاري (٦٤٠٥)، ومسلم (٢٦٩١).
(٣) مسلم (٢٦٩٨).
(٤) متفق عليه من حديث أبي هريرة، صحيح البخاري (٦٦٨٢)، ومسلم (٢٦٩٤).
(٥) التحرير والتنوير (٣٠/٢٧٤).

وقد قال نبينا ﷺ لجارية: «أَينَ اللهُ؟»، قالَت: فِي السَّماءِ، قالَ: «مَن أنا؟»، قالَت: أَنتَ رَسُولُ اللهِ. قالَ: «أَعتِقها؛ فَإِنَّها مُؤمِنَةٌ»(١).

فهذا ما نعتقده: أن ربنا استوى على العرش فوق خلقه، والاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

وقوله: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢﴾؛ أي: «خَلَقَ الخَلِيقَةَ وسَوّى كُلَّ مَخلُوقٍ فِي أَحسَنِ الهَيئاتِ»(٢).

﴿وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾، كما قال ربنا إخبارًا عَن مُوسَى أَنَّهُ قالَ لِفِرعَونَ: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه]، قدر قدرًا وهدى الخلق إليه بعلمه وحكمته تعالى.

﴿وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ۝٤﴾، فأخرج من الأرض نباتًا، وجعله صالحًا للرعي.

﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ۝٥﴾، والغثاء الذي لا قيمة له، والأحوى الذي يميل إلى السواد، كما تلاحظون من شأن النبات إذا ترك ثم جاءته الريح والشمس وانقطع المطر فإنه يسوَدُّ، وكما أن النبات يخرج، ويقوى، ويمتلئ خضرة، ثم يصفر ويزول، فكذلك الدنيا، قال ربنا: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢٤﴾ [يونس]. وكذلك الإنسان، قال ربنا: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ ۝٥٤﴾ [الروم]، وبعدها يموت، ولا يبقى منه إلا عَجبُ الذنب، سوى الأنبياء فإن الله قد حرم على الأرض أن تأكل أجسادهم، وقد يكرم الله تعالى بذلك من شاء من خلقه، وقد يبقيه لا كرامة له ولكن ليكون عبرة وآية.

---

(١) مسلم (٥٣٧).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٣٧٩/٨).

الآيات (٦ ـ ١٣)

﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ ٨ فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ١١ ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ١٣﴾

﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾، هذا وعدٌ من الله تعالى أنه لن ينسى إلا ما شاء الله تعالى أن ينساه لرفعه ونسخه. أو ما شاء أن ينساه ثم يتذكره. وذلك أن النبي ﷺ يحرك لسانه بالقراءة خوفًا من نسيانها، فنزلت: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ١٦ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ١٧﴾ [القيامة]، أي: إن علينا جمعه في صدرك، ثم أن تقرأه بلسانك متى شئت، كما قال أيضًا: ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ١١٤﴾ [طه]، وحرص النبي ﷺ على ذلك يدل على فضل جمع القرآن وحفظه، وكم من رجل بلغ من العمر عتيًا، وربما نسي كثيرًا مما كان يباشره ويعمل له، ولكنه لم ينسَ القرآن الكريم! وقد ذكر لي بعض الإخوة أنَّ شخصًا ممن أكرمه الله بقوة حفظ القرآن كان بالمشفى وقد بلغ من الكبر عتيًا، ولا يرد على أحد لذهاب ذاكرته، وكان مغمى عليه، أو كالمغمى عليه ولكن إذا أخطأ شخص عنده في القرآن رد عليه!

وقد سأل سائل أحد المقرئين: متى أتقن القرآن؟ قال: من الناس من يتقن القرآن الكريم بعد ثمانين ختمة، ومنهم من يتقنه بعد مئة وخمسين ختمة، وهذا متوسط الحفظ، وأضعفهم من يتقنه بعد ثلاثمئة ختمة.

وأذكر أن شيخًا ممن جمع القرآن بقراءاته العشر، قال: من النادر أن يحفظ الشخص الآيات ويستحضر ما قبلها، فلا يُحسن كل حافظ أن يُسأل عن الآية وما قبلها فيجيب بلا تردد، هذا قليل، لكني أعرف أن هذا تحقق لشاب يكنى بأبي موسى، وقصته: أنه سمع امرأة تقول لابنها: قم واحفظ القرآن ولا تكن كأبي موسى! فقال: لقد صرت مضرب مثل! فعزم على حفظه، وصدق الله في ذلك، فصدقه ربه، فأصبح يأتي بالآية وما قبلها وما بعدها.

وشيخي الشيخ: عبد الستار فتح الله السعيد، بلغني عنه أنه كان يحفظ القرآن بأرقام الآيات، وهذا شيء نادر! وكان من الصعب عليَّ أن أسأله عن ذلك، وكنت أعد بحثًا فقلت له: يا شيخ هل بالإمكان أن تساعدني في مواضع آيات في بحث كتبته؟ فقال: نعم. ثم بدأ يذكر بعض الآيات مع ذكر رقمها في السورة! فقلت له: يا شيخ بلغني هذا عنك، لكن ما هو سر حفظك للقرآن بأرقام آياته؟ فقال لي: كنت طالبًا في الأزهر في المرحلة المتوسطة أو الثانوية، وفي يوم من الأيام سألني فلاح في قريتنا عن آية، فقال: في أي سورة؟ فأخذت المصحف ـ وكنّا في المسجد ـ فقال لي: عيب عيب! ثم قال لي: أنا فلاح، لو سألتني عن أي شجرة أخبرتك عن مكانها، فأنت ينبغي أن تتقن حفظك للقرآن، فهذه فلاحتك! فأقبلت على حفظ القرآن بأرقام الآيات بعد كلامه. والمقصود أن الله تعالى ضمن لنبيه ﷺ تثبيت الحفظ بمجرد فراغ الوحي، وقد كان النبي ﷺ حريصًا على ذلك. ومن اجتهد في حفظه يسر الله له ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر].

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾﴾، أي: «يَعلَمُ ما يَجهَرُ بِهِ العِبادُ وَما يُخفُونَهُ مِن أَقوالِهِم وَأَفعالِهِم، لا يَخفَى عَلَيهِ مِن ذَلِكَ شَيءٌ»[1]، ومن ذلك علمه بتحريك النبي ﷺ شفتيه، وهذا مما يحمل على مراقبة الله فيما نأتي ونذر،

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/٣٨٠).

فالإيمانُ بأنَّ الله تعالى سميع عليم يعلم حتى ما تهمس به وما تتمتم به شفتاك يمنع من أن يصدر عن المسلم كلام يسخط الله، عن عائشة ﵂. أنها قالت: لمّا جاءت المجادِلة إلى رسول الله ﷺ في غرفتها تشكو زوجها غاب عن سمعي كثير من كلامها، فلما نزلت السورة قالت: «الحَمدُ لِلهِ الَّذِي وَسِعَ سَمعُهُ الأَصواتَ، لَقَد جاءَت المُجادِلَةُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَنا فِي ناحِيَةِ البَيتِ تَشكُو زَوجَها وَما أَسمَعُ ما تَقُولُ، فَأَنزَلَ الله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا ...﴾»[1].

وإذا خلوت بريبةٍ في ظلمة ... والنفس داعية إلى الطغيانِ
فاستحي من نظر الإله وقل لها ... إن الذي خلق الظلام يراني

وقال آخر:

إذا ما خلوتَ الدهرَ يومًا فلا تقل: ... خلوتُ، ولكن قل: عليَّ رقيبُ
ولا تحسبنَّ الله يغفل ساعةً ... ولا أن ما تُخفيه عنه يغيبُ

ثم قال تعالى: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ٨﴾، النون للتعظيم، وربنا أهل لأن يُعظَّم، والعظيم إذا أعطى كان عطاؤه جزيلًا كثيرًا، فالله لا يتعاظمه ما أعطاه. والعطاء الأجلُّ عطاء الدِّين والأخلاق والمكارم، فبعض النّاس سهل العشرة، هيِّن مع أهله، ليِّن مع الناس، ميسِّر لليسرى، وهذا قد أعطي من خير العطاء، وأولى الناس بأن يبذل لهم منه أوفر نصيب والداه، وزوجه وولده، وهناك والعياذ بالله من هو ميسر للعسرى، شَرِس شَكِس! يحاذره الناس ويتقونه.

والمراد: أن الله تعالى ييسر أعمال الخير لمن عُرِف الخير من قبله، وتلك رحمته يصيب بها من يشاء من خلقه.

وقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ٩﴾، قال ابن الجوزي ﵀: «وفي ﴿إِن﴾ ثلاثة أقوال:

- أحدها: أنها الشَّرطية.

---

(١) ابن ماجه (١٨٨)، وصححه الألباني في الإرواء (١٧٥/٧).

● والثاني: أنها بمعنى (قد)، فتقديره: قد نفعت الذِّكرى، قاله مقاتل.

● والثالث: أنها بمعنى (ما) فتقديره: فذكر ما نفعت الذّكرى، حكاه الماورديُّ»[1].

والصحيح أن الشرط معتبر، فقد تنفع الذكرى وقد لا تنفع، وقد تَحسُن وقد لا تحسن، وبعض الناس يذكر على كل حال، ويقول: أريد أن تبرأ ذمتي! وإبراء الذمة بموافقة الشرع، فإذا كان الشرع يحكم بألا تفعل فلا تفعل، فإن فعلت لم تبرأ ذمتك؛ لما قد يترتب من مفسدة. فلا بُدَّ أن يكون أمرك بالمعروف بالمعروف، ونهيك عن المُنكر بلا مُنكر، وعليك أن تتحرى بالذكرى ما يكون أرجى للانتفاع من الأوقات والأحوال، فإن فعلت ذلك برئت ذمتك وإن لم يسمع لك، وستظفر بمن يخشى فيسمع، وتلك هي الحكمة ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة]، والحكمة كما عرَّفها ابن القيم ﷺ: فعل ما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي[2].

﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾، السين للمستقبل، فالتذكر والانتفاع بالذكرى يحتاج إلى تربية وصبر وتحمل حتى يتذكر الإنسان، فلا تكتفِ بإلقاء الكلمة، فالمسألة تحتاج إلى معاهدة ليتحقق نفعها.

﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾﴾، أي: ويبتعد عن الذكرى الأشقى، الذي لا يخشى ربَّه، الذي سيدخل نار جهنم العظمى يقاسي حرَّها، وقد مر معنا في سورة ﴿عَبَسَ﴾ أن رد النصح وعدم الانتفاع به من خصال المنافقين.

﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾، فالنار تحرق وتعذب، ولا يعقب ذلك راحة يهنؤون بها، ولا موت يُتخلص به من عذابها، ويزاد لهم من عذابها ما داموا فيها، قال ربنا:

---

(١) زاد المسير (٤/٤٣٢) بتصرف يسير.
(٢) انظر مدارج السالكين ٢/٤٧٩.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر]، وقال: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل]، وقال: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [الإسراء]، وثبت عن أبي سعيد الخدري ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤتَى بالموتِ كهيئةِ كبشٍ أملَحَ، فيُنادي مُنادٍ: يا أهلَ الجنَّةِ، فيَشرَئِبُّونَ ويَنظُرونَ، فيقولُ: هل تعرِفونَ هذا؟ فيقولونَ: نعم، هذا الموتُ، وكُلُّهم قد رآهُ، ثُمَّ يُنادي: يا أهلَ النّارِ، فيَشرَئِبُّونَ ويَنظُرونَ، فيقولُ: وهل تعرِفونَ هذا؟ فيقولونَ: نعم، هذا الموتُ، وكُلُّهم قد رآهُ، فيُذبَحُ ثُمَّ يقولُ: يا أهلَ الجنَّةِ خُلودٌ فلا موتَ، ويا أهلَ النّارِ خُلودٌ فلا موتَ»، ثُمَّ قرأ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [مريم][1].

---

(١) البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩).

الآيات (١٤ ـ ١٩)

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾

ثم قال تعالى مخبرًا عن حال المنتفع بالذكرى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾، من زكَّى نفسه، وطهَّرها، لا من تزكية النفس التي هي مدحها والثناء عليها، فهذا منهيٌّ عنه كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾ [النجم].

﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾، هي الصلوات الخمس كما قال ابن عباس[١] رضي الله عنهما. وهي أفضل الأعمال، وقد جاء بيان ذلك في أحاديث كثيرة، منها:

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، أن رجلًا أتى رسول الله ﷺ فسأله عن أفضل الأعمال، فقال رسول الله ﷺ: «**الصلاة**». قال: ثم مه؟ قال: «**ثم الصلاة**». قال: ثم مه؟ قال: «**ثم الصلاة**». قال: ثم مه؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**»[٢].

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾﴾، بعد الخبر عن حال الفريقين؛ من أعرض عن الذكرى وحاد عنها، ومن تذكر فخشي وزكى نفسه، أخبر بهذه الحقيقة! فالفرق بين المآلين شاسع، لا يختار الردى لنفسه عاقل، ولكن الآفة جاءت من قِبَل إيثار هذه الدنيا العاجلة الفانية، بداعي الهوى والظلم والجهل.

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم (٣٨١/٨).

(٢) رواه ابن حبان (١٧٢٢)، وحسنه شعيب الأرنؤوط رحمه الله.

في صحيح مسلم، عَن جابِرِ بن عَبدِ اللهِ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّ بِالسُّوقِ، داخِلًا مِن بَعضِ العالِيَةِ، والنّاسُ كَنَفَتَهُ، فَمَرَّ بِجَدي أَسَكَّ مَيِّتٍ، فَتَناوَلَهُ فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ، ثُمَّ قالَ: «أَيُّكُم يُحِبُّ أَنَّ هَذا لَهُ بِدِرهَمٍ؟»، فَقالُوا: ما نُحِبُّ أَنَّهُ لَنا بِشَيءٍ، وَما نَصنَعُ بِهِ؟ قالَ: «أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُم؟»، قالُوا: واللهِ لَو كانَ حَيًّا، كانَ عَيبًا فِيهِ، لِأَنَّهُ أَسَكُّ، فَكَيفَ وَهُوَ مَيِّتٌ؟ فَقالَ: «فَواللهِ لَلدُّنيا أَهوَنُ عَلَى اللهِ، مِن هَذا عَلَيكُم»[1]. أبعد هذا تُقدم على الآخرة! والميل إلى الدنيا آفة لا يسلم منها بالكلية إلّا من عصمه الله تعالى. ومن أمارات ذلك: أننا في صلاتنا التي يجب أن نقبل فيها على ربنا، تجد كثيرًا منّا ينصرف تفكيره فيها إلى الدنيا، وهذه آفة تعرض لعامة الناس والعلاج في الذكرى، ولعموم البلاء بها قال:

﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ١٨ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ١٩﴾، هذا الذي مرَّ من الأوامر والأخبار لفي صحف إبراهيم وموسى ﷺ، وذكر الله هذين الكتابين لأنهما من كتب أولي العزم من الرسل؛ إبراهيم وموسى عليهما سلام الله، أما الإنجيل فهو مكمل للتوراة، لأن التوراة كتاب أحكام والإنجيل كتاب مواعظ، فكتاب موسى وعيسى ﷺ يكمل كل منهما الآخر، فكتاب التوراة أحكام لبني إسرائيل وأمر ونهي وتهديد، والإنجيلِ موعظة وتذكير وفيه تخفيف وتخويف.

(١) مسلم (٢٩٥٧).

سُورَةُ الغَاشِيَةِ

بين يدي سورة الغاشية

وهي مكية اتفاقًا[١].

أسماؤها:

سورة ﴿ٱلۡغَـٰشِيَةِ﴾، و﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَـٰشِيَةِ﴾، و﴿هَلۡ أَتَىٰكَ﴾.

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُها اثنَتانِ وَتسعُونَ كلمة، وحروفها ثَلاث مئة وَأحد وَتسعُونَ حرفًا، وَهِي سِتٌّ وَعِشرُونَ آيَة فِي جَمِيع العدَد لَيسَ فِيها اختِلاف»[٢].

ما ورد فيها:

عن النعمان بن بشير ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيدين وفي الجمعة بـ ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾، و﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَـٰشِيَةِ﴾»[٣].

«وكان ﷺ يقرأ في الظهر والعصر بـ ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾، و﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَـٰشِيَةِ﴾»[٤].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٢٩٣).
(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٧٢).
(٣) مسلم (٨٧٨).
(٤) البزار (٤٢٦٠)، وصححه الألباني في السلسلة (١١٦٠).

موضوعاتها:

(١) تهويل يوم القيامة.

(٢) صور من العذاب الذي سينال الكافر فيه.

(٣) إكرام المؤمنين، وبيان شيء مما أُعد لهم من النعيم في الجنة.

(٤) الدلالة على بعض آيات الله الكونية.

(٥) المهمة التي عُهد بها إلى نبينا ﷺ: البلاغ.

(٦) تأكيد البعث والحساب.

مقصدها:

«تثبيت النبي ﷺ على الدعوة إلى الإسلام، وأن لا يعبأ بإعراضهم»[١].والدعوة إلى الإيمان بالله واليوم الآخر ببيان حال المؤمنين والكافرين فيه.

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٢٩٤).

سورة الغاشية: تأملات ووقفات

الآيات (١ ـ ٧)

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ (١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ (٢)
عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ (٣) تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ (٥)
لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ (٦) لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ (٧)﴾

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ (١)﴾، الغاشية من أسماء القيامة، وما أكثر أسماء الآخرة التي وردت في القرآن! وكلها أسماء تدل على شدة عظيمة: الغاشية، والحاقة، والقارعة، والصاخة، والطامة، والآزفة، وغير ذلك، ومجرد التسمية فيها عبرة تدعو إلى العمل.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ (٢)﴾، عبَّر بالوجوه لسببين: الأول: لأن الوجه أشرف ما في الإنسان، ولذلك نُهي عن ضرب الوجه، قال نبي الله ﷺ: «وَلا تَضرِبِ الوَجهَ»[١]. والثاني: لأن مشاعر الإنسان تظهر على الوجه، ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠)﴾ [عبس]، فعبَّر بالوجه لظهور ذلك عليه.

ومعنى خاشعة هنا: ذليلة، فبعد التجبر والطغيان الذي كانت أماراته باديةً عليهم في وجوههم حلَّت الذلة محلَّ ذلك.

(١) أبو داود (٢١٤٢)، وصححه الألباني في الإرواء (٢٠٣١).

﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾، اختلف العلماء فيها على ثلاثة أقوال:

● الأول: يكون ذلك في الآخرة، إذا علموا فيها أنهم خاسرون اجتهدوا في إيجاد مهرب لهم.

● والثاني: المراد: من كان مجتهدًا في العبادة من الرهبان وأهل الصوامع، ولم يؤمن بنبينا ﷺ. وكل من كان مجتهدًا في بدعةٍ وشَرعٍ لم يأذن به الله فيُخشى عليه من هذا الوعيد، كالخوارج، الذين يُكفِّرون أئمة الهدى، ومصابيح الدجى، وقد جاء في السنة أنهم أهل عبادة، وأن الإنسان يحقر عمله إلى عملهم، ولكنه لا يُقبَل منهم.

● والثالث: عاملة ناصبة في النار بمعالجة السلاسل والأغلال[1]. وأنى لهم أن يخرجوا منها! قال ربنا: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۝١٩ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ۝٢٠﴾ [البلد]، وقال: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۝٩﴾ [الهمزة].

ولا تعارضَ بين هذه الثلاثة، فتحمل الآية عليها كلِّها، فمدلول الآية يشملها، وهذه قاعدة نافعة في التفسير.

﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ۝٥﴾، وآنية: حامية، وزنًا ومعنى، كانوا من أهل النعيم في الدنيا، فكفروا بالذي أنعم عليهم، فعوقبوا بنقيضه في الآخرة، ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ۝٢٠﴾ [الأحقاف].

﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧﴾، والضريع: طعام لا يحصل به مقصود، ولا يندفع به محذور[2].

---

(١) زاد المسير في علم التفسير (٤/٤٣٤).
(٢) تفسير ابن كثير (٨/٣٨٥).

الآيات (٨ ـ ١٦)

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ۝١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ۝١٦﴾

بعد ذكر حال أهل النار ذكر حال أهل الجنة الذين كانوا يؤمنون بالآخرة ويعدون لها، فقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨﴾، فهذه وجوه أهل الجنة الذين رضي الله عنهم، ظهر على وجوههم البهاء وأثر النعيم من رحمة الله بهم، قال ربنا: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝١٠٦ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝١٠٧﴾ [آل عمران]، وقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢﴾ [القيامة]، وقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨﴾ [عبس]، وقال: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ۝٢٤﴾ [المطففين].

﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩﴾، راضية عما كانت عليه في الدنيا، فقد أورثها هذا العمل دار الكرامة، وفي الآية إشارة إلى إحسان العمل، فليس كل عمل يرضاه، وإنما يرضى ما أحسنه.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠﴾، في جنان وشجر وبساتين مرتفعة، وذلك أنهم ترفعوا في الدنيا عن مقارفة الفواحش، والمحرمات، والسفاسف؛ فرفع الله مكانتهم في دار كرامته، والجزاء من جنس العمل.

﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ۝١١﴾، لا تسمع فيها لغوًا، وهو الكلام الباطل، كما قال ربنا: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا﴾ [مريم: ٦٢]، وقال: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥﴾ [الواقعة]،

وقال: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ۝٣٥﴾ [النبأ]، وقال: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾ [يونس]. وهم في أنفسهم لا يصدر عنهم اللغو إنما هو الحمد والذكر والتسبيح. فإن قيل: كيف يذكرون ويسبحون والجنة لا تكليف فيها؟ الجواب: عَن جابِرٍ ﷺ، قالَ: سَمِعتُ النَّبِيَّ ﷺ، يَقُولُ: «**إِنَّ أَهلَ الجَنَّةِ يَأكُلُونَ فِيها وَيَشرَبُونَ، وَلا يَتفُلُونَ وَلا يَبُولُونَ وَلا يَتَغَوَّطُونَ وَلا يَمتَخِطُونَ**» قالُوا: فَما بالُ الطَّعامِ؟ قالَ: «**جُشاءٌ وَرَشحٌ كَرَشحِ المِسكِ، يُلهَمُونَ التَّسبِيحَ والتَّحمِيدَ، كَما تُلهَمُونَ النَّفَسَ**»[1]. وليس هذا تكليفًا، بل يفعلونه تلذذًا، فيتلذذون به كما يتلذذون بسائر النعيم فيها، والله أعلم.

﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ۝١٦﴾، أي: فيها عيون، عُبِّر بالمفرد، والمراد الجنس. جارية لا تُحوِج إلى قصدها، بل يُصرِّفها صاحبها كيف يشاء، فهي قريبة النزع حسنة المنظر، وسُرُرُها مرتفعة بما عليها من الفُرُش اللينة والوسائد، يتكئون عليها ينظرون إلى ما في الجنة من النعيم، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ۝٥٥ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ۝٥٦﴾ [يس]، وقال: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣﴾ [المطففين]، واتكاؤهم فيها ليس لتعب، وإنما لزيادة الترفُّه والنعيم، وأكواب الشرب مهيأة مُعدَّة لذلك عندهم. والنمارق: الوسائد، قد جُعلت كل واحدة بجوار أختها، وفيها بُسُط متناثرة هنا وهناك.

---

(١) مسلم (٢٨٣٥).

الآيات (١٧ ـ ٢٦)

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ
رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ
سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم
بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ
ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾

هذا كلام مستأنَفٌ غرضه تقرير ما ذكر أولًا من حديثِ الغاشيةِ ومآل الناس يوم القيامة إلى فريقين، والتقرير هنا لقدرة الله تعالى على ذلك بأدلة مشاهدة لا يسع إنكارها، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾، ذكَّرهم بما لا يغيب عنهم، فما ذكره يتأتى للإنسان أن يراه في لحظة واحدة.

ولي وقفة هنا يحتاج إليها الدعاة كثيرًا، وهي مخاطبة الناس بما يفهمون، فلا تُغرِب في حديثك، فهذه الآيات التي لُفت النظر إليها يراها كل واحد منا، فعلى الداعية وطالب العلم إذا تكلم مع الناس أن يختار العبارة السهلة التي يفهمها جميع من يخاطبهم، وربنا قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، فالغرض هو البيان لا الاستعراض بالمعرفة وخطاب النُّخَب.

وهذه الآيات تدعو إلى التفكُّر في خلق الله تعالى؛ الإبل، والسماء، والجبال، والأرض، مخلوقات عظيمة دالة على تمام قدرة الخالق ﷻ.

والدعوة إلى التفكُّر كثيرة في القرآن، قال ربنا: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ۝٥٠﴾؟ [الأنعام]، وقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٦٤﴾ [البقرة]، وقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٩١﴾ [آل عمران].

وقدرة البشر على التفكير محدودة، كالبصر والسمع وغيرهما؛ فلا يجاوز الإنسان حده، ويفضي به تفكيره وتفكُّره إلى ما يخالف الكتاب والسنة. والفكر السديد لا يعارض نقلًا أبدًا، ويعبر بعض علمائنا عن ذلك بقولهم: العقل الصريح لا يعارض النقل الصحيح، والشريعة لا تأتي بمحالات العقول، لكن قد تأتي بما تحار فيه العقول ولا تدرك غوره.

ثم قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢﴾، وهذا المعنى تكرر كثيرًا في القرآن الكريم، وفيه بيان أن مهمة الداعية هي الدلالة والإرشاد، وتبليغ رسالة الله للعباد، وهذه حقيقة الانتصار، أما هداية التوفيق فهي إليه ﷻ، قال ربنا: ﴿فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۝٢٠﴾ [آل عمران]، وقال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝٩٢﴾ [المائدة]، وقال: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [المائدة: ٩٩]، وقال: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ۝٤٠﴾ [الرعد]، وقال: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝٣٥﴾ [النحل]، وقال: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝٨٢﴾ [النحل]، وقال: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝٥٤﴾ [النور]، وقال: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝١٨﴾ [العنكبوت]، وقال:

﴿قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ١٦ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ١٧﴾ [يس]، وقال: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى ٤٨]، وقال: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ١٢﴾ [التغابن].

﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ٢٢﴾، بجبار، لست تكرههم على الإيمان، وليس الإكراه مرادًا شرعيًا أصلًا، وإلّا فقد قال الله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ٤﴾ [الشعراء].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ٢٣﴾ استثناء منقطع، والمعنى: لكن ﴿مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ٢٣ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ٢٤﴾.

ولماذا قال العذاب الأكبر، ما قال الكبير؟ لأنهم عذبوا بعذاب كبير في الدنيا، الجوع، والخوف، والأسقام، والجدب، والقتل، والسبي، وغير ذلك، لكن عذاب الآخرة أشد وأبقى وأكبر.

فإن قيل: أليس الجهاد إكراهًا للآخرين على اعتناق دين الإسلام؟

الجواب: لا، فالمجاهدون لا يُكرِهون أحدًا على الدخول في الدين، ولكن لا بُدَّ من الخضوع لأحكام الإسلام بدفع الجزية إذا رفضوا الإسلام، فيخضع للإسلام ليكون الدين كله لله. فقد كانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إذا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيشٍ، أَو سَرِيَّةٍ، أَوصاهُ فِي خاصَّتِهِ بِتقوَى اللهِ، وَمَن مَعَهُ مِنَ المُسلِمِينَ خَيرًا، ثُمَّ قالَ: «**اغزُوا بِاسمِ اللهِ، فِي سَبِيلِ اللهِ، قاتِلُوا مَن كَفَرَ بِاللهِ، اغزُوا وَلا تَغُلُّوا، وَلا تَغدِرُوا، وَلا تَمثُلُوا، وَلا تَقتُلُوا وَلِيدًا، وَإِذا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ المُشرِكِينَ، فادعُهُم إِلَى ثَلاثِ خِصالٍ ـ أَو خِلالٍ ـ فَأَيَّتُهُنَّ ما أَجابُوكَ فاقبَل مِنهُم، وَكُفَّ عَنهُم، ثُمَّ ادعُهُم إِلَى الإِسلامِ، فَإِن أَجابُوكَ، فاقبَل مِنهُم، وَكُفَّ عَنهُم، ثُمَّ ادعُهُم إِلَى التَّحَوُّلِ مِن دارِهِم إِلَى دارِ المُهاجِرِينَ، وَأَخبِرهُم أَنَّهُم إِن فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُم ما لِلمُهاجِرِينَ، وَعَلَيهِم ما عَلَى المُهاجِرِينَ، فَإِن أَبَوا أَن يَتَحَوَّلُوا مِنها، فَأَخبِرهُم أَنَّهُم يَكُونُونَ كَأَعرابِ المُسلِمِينَ، يَجرِي عَلَيهِم حُكمُ اللهِ الَّذِي يَجرِي**

عَلَى المُؤمِنِينَ، وَلا يَكُونُ لَهُم فِي الغَنِيمَةِ والفَيءِ شَيءٌ إلّا أَن يُجاهِدُوا مَعَ المُسلِمِينَ، فَإن هُم أَبَوا فَسَلهُمُ الجِزيَةَ، فَإن هُم أَجابُوكَ فاقبَل مِنهُم، وَكُفَّ عَنهُم، فَإن هُم أَبَوا فاستَعِن بِاللهِ وَقاتِلهُم»[1]. فغرض الجهاد إعلاء كلمة الله، وإزالة ما يحول بين النَاس وبين دين الله تعالى، وليس غرضه أن يدخل الناس في الإسلام كَرهًا، ولو كان المراد إكراه الناس على الإسلام لما أقرَّت الشريعة الصلح بأخذ الجزية، ولا جوَّزت فداء الأسير ولا المنَّ عليه.

ثم قال تعالى بعد أن بيَّن وظيفة الرسول وأنها البلاغ: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ٢٦﴾، أي: إن رجوعهم إلى الله، وسيحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم.

---

(١) مسلم (١٧٣١).

سُورَةُ الفَجْرِ

بين يدي سورة الفجر

وهي مكية[١].

أسماؤها:

تعرف بـ «سورة الفجر»، و«سورة ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾».

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُها مئة وَسبع وَثَلاثُونَ كلمة، وحروفها خمس مئة وَسَبعَة وَتسعُونَ حرفًا، وَهِي تسع وَعِشرُونَ آيَة فِي البَصرِيِّ وَثَلاثُونَ فِي الكُوفِي والشامي واثنَتانِ وَثَلاثُونَ فِي المَدَنِيين والمكي. اختلافها أَربع آيات ﴿فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾، و﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾، عدهما المدنيان والمكي وَلم يعدهما الباقُونَ. ﴿يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾، لم يعدها الكُوفِي والبصري وعدها الباقُونَ. ﴿فِى عِبَٰدِى﴾ عدها الكُوفِي وَلم يعدها الباقُونَ»[٢].

موضوعاتها:

«حَوَت من الأغراض: ضرب المثل لمشركي أهل مكة في إعراضهم عن قبول رسالة ربهم بمثل عاد وثمود وقوم فرعون، وإنذارهم بعذاب الآخرة، وأنهم أضاعوا شكر الله على النعمة فلم يواسوا ببعضها الضعفاء، وما زادتهم إلا حرصًا

(١) راجع: زاد المسير (٤٣٧/٤).
(٢) البيان في عدّ آي القرآن، ص(٢٧٣).

على التكـثُّر منهـا. وأنهـم يندمـون يـوم القيامـة على أن لـم يقدمـوا لأنفسـهم مـن الأعمـال مـا ينتفعون به يـوم لا ينفع نفسًـا مالهـا ولا ينفعها إلا إيمانهـا وتصديقها بوعـد ربهـا. وذلك ينفـع المؤمنـين بمصيرهم إلى الجنـة»[١].

مقصدها:

تثبيت النبي ﷺ والمؤمنين مع وعدهم باضمحلال أعدائهم، وإبطال غرور المشركين من أهل مكة؛ إذ يحسبون أن ما هم فيه من النعيم أن الله أكرمهم، وأن ما فيه المؤمنون من الخصاصة علامة على أن الله أهانهم[٢].

(١) التحرير والتنوير (٣١١/٣٠) بتصرف يسير.
(٢) يراجع: التحرير والتنوير (٣١١/٣٠).

سورة الفجر: تأملات ووقفات

الآيات (١ ـ ١٤)

وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ
﴿٤﴾ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ
إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٧﴾ ﴿٨﴾
وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾
ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ
عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾

﴿وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾﴾، قَسَمٌ عظيم من الله ﷻ، والفجر أول النهار الذي يعقب الليل.

والنبي ﷺ قد دعا فقال: «**اللهُمَّ بارِك لِأُمَّتي في بُكُورِها**»[1].

قيل المراد بالقسم: صلاة الفجر[2]. قال ربنا: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾ [الإسراء]، وقد ثبت في السنة أن الملائكة تشهدها. فعن أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ: «**يَتعاقَبُونَ فِيكُم مَلائِكَةٌ بِاللَّيلِ وَمَلائِكَةٌ بِالنَّهارِ، وَيَجتَمِعُونَ فِي صَلاةِ الفَجرِ وَصَلاةِ العَصرِ، ثُمَّ يَعرُجُ الَّذِينَ باتُوا فِيكُم، فَيَسأَلُهُم وَهُوَ أَعلَمُ بِهِم: كَيفَ تَرَكتُم**

(١) أبو داود (٢٦٠٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٣٠٠).
(٢) يراجع: زاد المسير (٤/٤٣٧).

عِبادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكناهُم وَهُم يُصَلُّونَ، وَأَتَيناهُم وَهُم يُصَلُّونَ»[١].

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾، هي العشر من ذي الحجة، وقيل: العشر الأخيرة من رمضان، لقوله: ﴿وَلَيَالٍ﴾، ولأن في هذه ليلة القدر، قال الإمام الطبري ﷺ: «والصواب من القول في ذلك عندنا: أنها عشر الأضحى؛ لإجماع الحُجَّة من أهل التأويل عليه»[٢]. ولقائل أن يقول: لماذا أطلق عليها ليالٍ مع أنها أيام؟ والجواب: أن العرب تطلق الأيام على الليالي، والليالي على الأيام. وهي أيام يتضاعف فيها ثواب العمل، لما ثبت عند البخاري عَن ابنِ عَبّاسٍ ﷺ، عَن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قالَ: «ما العَمَلُ فِي أَيّامٍ أَفضَلَ مِنها فِي هَذِهِ». قالُوا: وَلا الجِهادُ؟ قالَ: «وَلا الجِهادُ، إِلّا رَجُلٌ خَرَجَ يُخاطِرُ بِنَفسِهِ وَمالِهِ، فَلَم يَرجِع بِشَيءٍ». وللترمذي: «ما مِن أَيّامٍ العَمَلُ الصّالِحُ فِيهِنَّ أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِن هَذِهِ الأَيّامِ العَشرِ». فَقالُوا: يا رَسُولَ اللهِ وَلا الجِهادُ فِي سَبِيلِ اللهِ؟ فَقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَلا الجِهادُ فِي سَبِيلِ اللهِ، إِلّا رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفسِهِ وَمالِهِ فَلَم يَرجِع مِن ذَلِكَ بِشَيءٍ»[٣].

ومن أراد أن يستشعر فضل هذه الأيام ويتصوَّر ذلك فليتدبر حديث أبي هُرَيرَةَ ﷺ قالَ: جاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقالَ: دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يَعدِلُ الجِهادَ؟ قالَ: «لا أَجِدُهُ». قالَ: «هَل تَستَطِيعُ إِذا خَرَجَ المُجاهِدُ أَن تَدخُلَ مَسجِدَكَ فَتَقُومَ وَلا تَفتُرَ، وَتَصُومَ وَلا تُفطِرَ؟»، قالَ: وَمَن يَستَطِيعُ ذَلِكَ؟[٤]. ومع ما للجهاد من هذه المكانة يُبيِّن النبي ﷺ أن الطاعة في العشر ـ التي هي دون الجهاد في غير العشر ـ أفضل منه، أما الجهاد فيها فلا شيء يعدله.

قال الحافظ ابن حجر ﷺ: «والذي يظهر أن السبب في امتياز عشر ذي الحجة

---

(١) البخاري (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢).
(٢) تفسير الطبري (٢٤/٣٩٧).
(٣) البخاري (٩٦٩).
(٤) البخاري (٢٧٨٥)، ومسلم (١٨٧٨).

لمكان اجتماع أمهات العبادة فيه، وهي: الصلاة، والصيام، والصدقة، والحج، ولا يأتي ذلك في غيره»[١].

وقال ابن رجب : «وهذا يدل على أن العمل المفضول في الوقت الفاضل يلتحق بالعمل الفاضل في غيره، ويزيد عليه لمضاعفة ثوابه وأجره»[٢].

﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ٣﴾، اختلف المفسرون في المراد بذلك، فقيل: هي الشفع في الصلاة. وقيل: الوتر: يوم عرفة، والشفع: يوم الحج الأكبر. ولعل الصواب: أنَّ كل شفع ووتر ذا شأن يعرفه الناس في العدد أو في الخلق يندرج في هذا القسم. ﴿وَالْوِتْرِ﴾، ﴿وَالْوَتْرِ﴾ قراءتان سبعيتان.

﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ٤﴾، يجري، وفيها إشارة؛ فكما أنَّ ظلمة الليل لا تمتد، فإن أمد الظلم لا يستمر، ولكل ليل نهاية، وكما أن الفجر يشق بضيائه ظلمة الليل، فلا بد أن تولد المِنَحُ من رحم المحن، ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ٦﴾ [الشرح].

﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ٥﴾، «﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ أي: لذي عقل؟ نعم، بعض ذلك يكفي، لمن كان له قلبٌ، أو ألقى السمع وهو شهيد»[٣].

فأين جواب القسم؟ «الظاهر أن المقسم به، هو المقسم عليه، وذلك جائز مستعمل، إذا كان أمرًا ظاهرًا مهمًا، وهو كذلك في هذا الموضع. فأقسم تعالى بالفجر، الذي هو آخر الليل ومقدمة النهار، لما في إدبار الليل وإقبال النهار، من الآيات الدالة على كمال قدرة الله تعالى، وأنه وحده المدبر لجميع الأمور، الذي لا تنبغي العبادة إلا له»[٤]. وقيل: جوابه: والله لتبعثن، كما جاء في آخر السورة. وقيل: لنهلكن الظالمين. وقيل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ١٤﴾[٥].

(١) فتح الباري (٢/٤٦٠).
(٢) لطائف المعارف، ص(٤٥٩).
(٣) تفسير السعدي، ص(٩٢٣).
(٤) تفسير السعدي، ص(٩٢٣).
(٥) زاد المسير في علم التفسير (٤/٤٣٩).

والحِجر: العقل، وسمي العقل بذلك من الحَجر، وهو المنع، فالعقل يمنع من ارتكاب القبيح.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦﴾، هم قوم هود، وعاد اسم جدهم، وإرم أبوه، على ما قالوا. والله أعلم.

والرؤية هنا علمية. وقيل: بصرية؛ لأن آثارهم كانت موجودة، فعادٌ في الأحقاف، وهي من بلاد جنوب الجزيرة العربية، كما بيَّن الله ﷻ، وثمود في شمال المملكة، في الطريق من المدينة إلى تبوك، وقد مر بها نبينا ﷺ، وهي الآن معروفة بمدائن صالح في محافظة العلا، وأما فرعون ففي مصر وأهراماتهم شهيرة معروفة، لكن النبي ﷺ لم يرها، وهذا مما يقرب أن الرؤية علمية.

﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧﴾، المراد القوم أو القبيلة، وقيل لهم ذلك لطولهم وقوتهم، قال ربنا: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ۝١٥﴾ [فصلت]. وقيل: لأن أعمدة البناء التي يقيمونها كانت شاهقة، وهذا يدل على طولهم وضخامة أجسامهم.

﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨﴾، أي في زمانهم، وأزمنة متطاولة قبلهم.

﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩﴾، هؤلاء قوم صالح ؑ، قال ربنا: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف ٧٣]، كانوا يقطعون الصخر، وينحتون الجبال، كما قال ربنا: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ۝٨٠ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٨١ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ۝٨٢﴾ [الحجر].

والوادي هو وادي القرى، وهو معروف. واختلف العلماء: هل يجوز الذهاب إلى أماكن المعذَّبين أم لا؟ والقول الراجح أنه يحرم الذهاب إليها إلا للاعتبار،

فعن ابن عمر ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا مَرَّ بِالحِجرِ قال: «**لا تَدخُلُوا مَساكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُم إِلَّا أَن تَكُونُوا باكِينَ؛ أَن يُصِيبَكُم ما أَصابَهُم**». ثم تَقَنَّعَ بِرِدائِهِ وَهُوَ عَلَى الرَّحلِ[١]. قال النووي ﷺ: «فِيهِ: الحَثُّ على المُراقَبَة عِند المُرُور بِدِيارِ الظَّالِمِين، ومَواضِع العَذاب... فَيَنبَغِي للمارِّ فِي مِثلِ هَذِهِ المَواضِع المُراقَبَة، والخَوف، والبُكاء، والاِعتِبار بِهِم، وَبِمَصارِعِهِم، وَأَن يَستَعِيذ بِاللهِ مِن ذَلِكَ»[٢]. وقال الحافظ ابن حجر ﷺ: «وهذا يتناول مساكن ثمود وغيرهم ممن هو كصفتهم»[٣].

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠﴾، اختُلِف في الأوتاد، ولا يبعد أن يكون المراد: أهراماتهم؛ لأن الله سمى الجبال أوتادًا، وهي في هيئتها كالجبال. وهي على هذه الهيئة من سنوات بعيدة! وقيل غير ذلك.

﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١١﴾، تمردوا، وظلموا. فماذا حدث لما طغوا؟ قال: ﴿فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢﴾؛ شركًا، وظلمًا، حضارات أنتجت الطغيان، والطغيان أنتج فسادًا، والفساد أنتج عذابًا، ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣﴾.

﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣﴾، أي: أنزل عليهم عقوبة من السماء. وبعض مُنكري الرجم قال: إن الرجم بالحجارة لا يسمى عذابًا في القرآن! ويرد عليه بآيتين:

● الأولى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]. قال القرطبي ﷺ: «معنى ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾، الرجم، والحجارة، والطُّوفانُ، والصَّيحَةُ، والرِّيحُ»[٤]. فالرجم عذاب بنص الآية.

(١) البخاري (٤٢٣)، ومسلم (٢٩٨٠).
(٢) شرح مسلم (١١١/١٨).
(٣) فتح الباري (٣٨٠/٦).
(٤) تفسير القرطبي (٩/٧).

● والثانيـة: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾. والحديـث عـن: عاد، وثمـود، وفرعـون. وقد قـال ربنـا في عاد: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦﴾ [الحاقة]. ريـح فيها حصبـاء[1].

فصب عليهم العذاب، أي: أنزله بهم. وعبر بالسوط لأن الضرب يتكرر به.

فعلينا أن نخشى من هذه العاقبة، وإنما تكون بسبب المعاصي، فمن سلك سبيل هؤلاء لم يأمن أن يصاب بما أصيبوا به، قال ربنا: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ۝٨٣﴾ [هود]، وقال: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ۝٨٩﴾ [هود]، وقال: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ۝٤٣﴾ [القمر]. فالمعاصي سبب هذا البلاء، قال الله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ [يونس: ١٣]، وقال: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ۝٥٩﴾ [الكهف].

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝١٤﴾، قال ابن عباس ﷺ: «يَسمَعُ وَيَرَى. يَعني: يَرصُدُ خَلقَهُ فِيما يَعمَلُونَ، وَيُجازِي كُلًّا بِسَعيِهِ فِي الدُّنيا والأُخرَى، وَسَيُعرَضُ الخَلائِقُ كُلُّهُم عَلَيهِ، فَيَحكُمُ فِيهِم بِعَدلِهِ، وَيُقابِلُ كُلًّا بِما يَستَحِقُّهُ. وَهُوَ المُنَزَّهُ عَنِ الظُّلمِ والجَورِ»[2].

ومما يلفت النظر في هذه السورة أنه ليس فيها من أسماء الله سوى (الرب)، والرب الذي يدبر الأمر، ففيها تثبيت لقلب نبينا ﷺ بأنه منصور على عدوه، ولن يَخلُصَ إليه شر منهم، فربه يرعاه ويحفظه.

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/٢٧٨).
(٢) تفسير ابن كثير (٨/٣٩٧).

الآيات (١٥ ـ ٢٠)

فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ
أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ
أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ
عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ
أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾

لما ذكر ﷻ أممًا بما أنعم الله عليها وبما آل إليه حالهم، ذكر الحال الغالب على الجنس البشري في أقواله وأفعاله فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾، وهذه موازين جاهلية ليست موازين إيمانية ولذلك ختمها بقوله: ﴿كَلَّا﴾، وهي كلمة ردع وزجر، فربنا قال: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]. وقول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾﴾، فهذا يدل على أن الإنسان يُبتلى بالخير، كما يُبتلى بالشر لينظر كيف عمله.

فيا صاحب النعمة! يا صاحب الصحة! يا صاحب المال! يا صاحب المنصب! يجب أن تتعامل مع ما أعطاك الله على أنه ابتلاء، والابتلاء اختبار، والاختبار قد ينجح الإنسان وقد يفشل، قال ربنا: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون].

فلا تحسبن أن الخير الذي أمدك الله به بسبب مكانتك عند الله! قال نبينا ﷺ: **«إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا**

من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا من أحب»[١].

وما قسم اليوم لعبده سوف يسأله عنه غدًا: هل أدى شكره؟ وهل استعمله وفق ما شرعه؟ أو كان سبب طغيان وكفران؟ فالحذر الحذر.

ثم قال: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ﴾، أي ضيَّق رزقه، إذا حدث هذا ظن أن ربه أهانه.

﴿كَلَّا﴾، ليس الأمر كذلك، فهذه موازين لا قيمة لها عند الله تعالى، قارون كان من أغنى الناس، فهل كانت له مكانة عند الله! قال الله: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦﴾ [القصص]. وأيوب ﷺ ابتلي ابتلاء عظيمًا، فهل أهانه الله بذلك؟! كلا.

﴿كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ١٧﴾، هذا انتقال بعد بيان سوء الأقوال إلى سوء الأفعال! واليتيم: من فقد أباه ولم يبلغ. والإكرام شيء، والإنفاق والكفالة شيء، فمن الإكرام أن لا تشعره بأن لك يدًا عنده، فيجب أن يكون اليتيم في بيتك مكان الإكرام، وعامة الناس لا يُكرِمون إلَا من له حظٌّ وجِدةٌ وجاهٌ، ويكون ذلك في الغالب من قبل الأب.

ثم ذكر من أفعالهم القبيحة: ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ١٨﴾، لا يحث بعضهم بعضًا على الإحسان إلى الفقراء. وطعام المسكين تشعر بأنه طعامه، أسنده إليه؛ تأكيدًا لحقِّه فيه، فإذا أعطيته فأشعره أنه حقه، ولا تشعره بالمِنَّة.

﴿وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ١٩﴾، أي: الميراث، ولما: «أَي: مِن أَيِّ جِهَةٍ حَصَلَ لَهُم، مِن حَلالٍ أَو حَرامٍ»[٢].

---

(١) الإسماعيلي في المعجم (١/١١٤)، وصححه الألباني في السلسلة (٢٧١٤).
(٢) تفسير ابن كثير ت سلامة (٨/٣٩٩).

﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾، كثيرًا، فاحشًا. وكم قتل قريب قريبه بسبب هذا المال الذي تعلقت به القلوب!

وقد ثبت عَن أَنَسٍ ﷺ أنه قالَ: دَخَلتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ يومًا، وَما هُوَ إِلَّا أَنا وَأُمِّي وَأُمُّ حَرامٍ خالَتِي، إِذ دَخَلَ عَلَينا، فَقالَ لَنا: «أَلا أُصَلِّي بِكُم؟»، وَذاكَ فِي غَيرِ وَقتِ صَلاةٍ، فَقالَ رَجُلٌ مِنَ القَومِ: فَأَينَ جَعَلَ أَنَسًا مِنهُ؟ فقال: جعله يَمِينِهِ، ثُمَّ صَلَّى بِنا، ثُمَّ دَعا لَنا - أَهلَ البَيتِ - بِكُلِّ خَيرٍ مِن خَيرِ الدُّنيا والآخِرَةِ، فَقالَت أُمِّي: يا رَسُولَ اللهِ! خُوَيدِمُكَ؛ ادعُ اللهَ لَهُ؛ فَدَعا لِي بِكُلِّ خَيرٍ، كانَ فِي آخِرِ دُعائِهِ أَن قالَ: «اللهُمَّ أَكثِر مالَهُ وَوَلَدَهُ، وَبارِك لَه»[1]. وهذا يدل على أن السعي إلى كثرة المال لا محظور فيه، لكن ينبغي أن يكون هذا المال في يدك، لا في قلبك، وأن تستعمله فيما يرضي عنك ربك، ولا يؤدي بك إلى الطغيان كحال كثير من أهل الدنيا.

---

(١) صحيح الأدب المفرد(٦٥).

الآيات (٢١ ـ ٣٠)

كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ
صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ
ٱلْإِنسَـٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ
لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ
أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ
رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾

عرضت هذه الآية العاقبة؛ تحذيرًا من الاغترار بحال أكثر الناس، ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾﴾، وهذا ليس تكرارًا، وليس تأكيدًا، إنما المقصود بيان أنها تُدَكُّ مرة بعد مرة.

﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾، ومجيء الله ﷻ مجيء يليق بجلاله، لا نعلم كنهه، ونؤمن به، بل لا نعلم كيف تجيء الملائكة، فكيف بالله ﷻ؟

لكن مجيء الملائكة يدل على النظام والضبط: ﴿صَفًّا صَفًّا﴾.

﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾﴾، هذا الكافر. ويقول: لحياتي، فالحياة الحقيقية هي حياة الآخرة وليست في الدنيا. لكنه لا يتذكر ويتعظ إلّا بعد فوات الأوان!

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾، وهذا تهويل شديد تذهب فيه الألباب كل مذهب، يُقلِق قلوب المؤمنين، فيسكّنها قوله بعد ذلك:

﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾، ففي عباد الله أناس ينادون بهذا النداء. قيل: يكون ذلك عند الوفاة. وقيل: يوم القيامة. والقولان صحيحان.

والنفس المطمئنة التي اطمأنت في الدنيا بالرضا عن الله، والمطمئنة إلى ذِكر الله والإيمان به.

﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾، راضية بإكرام الله لها، والله رضي عنها، وهذا أعظم نعيم، فعَن أَبِي سَعِيدٍ الخُدرِيِّ ﷺ، قالَ: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ ﷻ يَقُولُ لِأَهلِ الجَنَّةِ: يا أَهلَ الجَنَّةِ؟ فَيَقُولُونَ: لَبَّيكَ رَبَّنا وَسَعدَيك، فَيَقُولُ: هَل رَضِيتُم؟ فَيَقُولُونَ: وَما لَنا لاَ نَرضَى وَقَد أَعطَيتَنا ما لَم تُعطِ أَحَدًا مِن خَلقِكَ، فَيَقُولُ: أَنا أُعطِيكُم أَفضَلَ مِن ذَلِكَ، قالُوا: يا رَبِّ، وَأَيُّ شَيءٍ أَفضَلُ مِن ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيكُم رِضوانِي، فَلاَ أَسخَطُ عَلَيكُم بَعدَهُ أَبَدًا**»[1]. فأكبر نعيم أن يرضى عنك ربك، والله يقول: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة]، فبعد أن نعت نعيم الجنة بيَّن أن رضاءه عن عباده أكبر مما فيها من النعيم.

﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ﴿٢٩﴾﴾، وأضافهم إليه تشريفًا لهم.

﴿وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾، وإضافتها إليه سبحانه إضافة تشريف وتفخيم.

---

(١) البخاري (٦٥٤٩)، ومسلم (٢٨٢٩).

سُورَةُ البَلَدِ

بين يدي سورة البلد

وهي مكية اتفاقًا(١).

أسماؤها:

سورة ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾، وسورة ﴿ٱلۡبَلَدِ﴾.

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُها اثنَتانِ وَثَمانُونَ كلمة، وحروفها ثَلاث مئة وواحد وَثَلاثُون حرفًا، وَهِي عشرُون آيَة فِي جَمِيع العدَد لَيسَ فِيها اختِلاف»(٢).

موضوعاتها:

«التنويه بمكة، وبمقام النبي ﷺ بها، وبركته فيها وعلى أهلها، والتنويه بأسلاف النبي ﷺ من سكانها الذين كانوا من الأنبياء؛ مثل إبراهيم وإسماعيل، أو من أتباع الحنيفية؛ مثل عدنان ومضر، وذم سيرة أهل الشرك، وذم إنكارهم البعث وما كانوا عليه من التفاخر المبالغ فيه، وما أهملوه من شكر النعمة على الحواس، ونعمة النطق، ونعمة الفكر، ونعمة الإرشاد، فلم يشكروا ذلك بالبذل في سبل الخير، وما فرطوا فيه

(١) تفسير القرطبي (٢٠/٥٩).
(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٧٤).

من خصال الإيمان وأخلاقه، ووعيد الكافرين وبشارة الموقنين»[١].

مقصدها:

تثبيت شكر الله في القلوب، وإرساخ الإيمان به، وباليوم الآخر، ببيان حال المؤمنين والمُكذِّبين به.

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٣٤٥).

سورة البلد: تأملات ووقفات

الآيات (١ ـ ٧)

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ
۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ
۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧﴾

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١﴾، مكة المشرَّفة التي يُعظِّمها المشركون، ومعروف عنهم أن الواحد منهم لو وجد فيها قاتل أبيه لم يتعرَّض له، ومع ذلك يؤذون فيها نبيَّ الله ﷺ وصحبه، وهذا تناقض كبير.

ومر معنا أن هذا التعبير يراد به القسم[١].

﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢﴾، أي: وأنت حالٌّ بهذا البلد، وأنت مقيم فيه. وقيل: ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢﴾ أي: إن كفار قريش يستحلون أذاك ومن معك في هذا البلد. وقيل: ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢﴾، أي: حل لك ما ستصنع في هذا البلد. قال نبينا ﷺ بعد الفتح بيوم: «**إِنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللهُ، وَلَم يُحَرِّمها النَّاسُ، فَلاَ يَحِلُّ لِامرِئٍ يُؤمِنُ بِاللهِ واليَومِ الآخِرِ أَن يَسفِكَ بِها دَمًا، وَلاَ يَعضِدَ بِها شَجَرَةً، فَإِن أَحَدٌ تَرَخَّصَ لِقِتَالِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِيها، فَقُولُوا: إِنَّ اللهَ قَد أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَم يَأذَن لَكُم، وَإِنَّما أَذِنَ لِي فِيها سَاعَةً مِن نَهارٍ، ثُمَّ عادَت حُرمَتُها اليَومَ كَحُرمَتِها بِالأَمسِ، وَليُبَلِّغ الشَّاهِدُ الغائِبَ**»[٢]. فالمراد: أقسم بالبلد الحرام، وأقسم بحلوله

---

(١) عند تأملات سورة التكوير.

(٢) البخاري (١٠٤)، ومسلم (٦٨٨٠).

ﷺ بـه، وذلـك ممـا يزيـده شرفًـا، وفي التعبـير بشـارةٌ بإشـارةٍ إلى أن البـلد الحـرام سـيكون حـلالًا لـك يومًـا مـا، وقـد كان يوم فتـح مكة.

وفي بداية سورة التين نعت البلد بالأمين، ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾، وهذا ما لم يذكر هنا؛ لأن المقام مقام تعريف بأذيتهم للنبي ﷺ والمؤمنين.

﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣﴾، قيل: آدم ﷺ وما ولد. وقيل: كل والد وما ولد. وقيل: إبراهيم ﷺ وما ولد[١].

والتناسل الذي يكون بين المخلوقات آية من آيات الله، قال ربنا: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٥٩﴾ [الواقعة].

ومعلـوم أن اسـم الموصـول (مـا) يسـتعمل لغـير العاقل، فلمـاذا جيء بهـا هنا؟ قـال بعضهم: لأن أكـثر الخلق ليسـوا بمؤمنـين، ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ۝١٠٣﴾ [يوسف]، وغـير المؤمـن ليـس عاقـلًا في الحقيقـة، وذلـك بإقرارهـم: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠﴾ [الملك]، فالعاقـل هو الذي يؤثر سـبيل النجـاة؛ وهـو سـبيل المؤمنين على غـيره. ومر معنـا في سـورة الفجر أن العقل سُـمِّي بالحِجـر؛ لحجـره ومنعـه من ارتـكاب كل قبيح، وأقبـح القبائـح الإشراك بالله، ولا يسـلك سـبيل الإشراك إلا سـفيه، قال ربنـا: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠].

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾، و﴿فِى﴾، تدل على أنه مُلابس للشدة لا ينفكُّ عنها، فالكَبَد وعاؤه، والشدائد والمواجع تحيط به من كل جانب. فلا تقلق إذا تعثرت بها في طريقك، لأن هذه طبيعة العيش في هذه الدنيا، ولا راحة لمؤمن إلا بعد أن تطأ قدماه الجنة. لكن هذا الكبد يكون للبدن بالنسبة للمؤمن الذي لا ينقطع عن ذكر

---

(١) زاد المسير (٤/٤٤٧).

ربه، أما قلبه فمنعم مطمئن، ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد].

فالمؤمن في الدنيا يعيش غريبًا، ويكابد التكليف، وهو في جهاد دائم، فقد أخرج من موطنه بخروج أبيه منه، إلى دار كثير أعداؤه فيها، ولا راحة له إلا بعد العودة إلى مقره الأول..

فَحَيَّ عَلَى جَنَّاتِ عَدنٍ فَإِنَّها
مَنازِلُكَ الأُولَى وَفِيها المُخَيَّمُ
وَلَكِنَّنا سَبيُ العَدُوِّ فَهَل تَرَى
نَعُودُ إِلَى أَوطانِنا وَنُسَلِّمُ؟

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾﴾، أيحسب هذا الكافر أنه لا يقدر عليه أحد؟ فهو يفعل ما يشاء ولا يبالي برسالة ولا أمر أو نهي! قد أعمى ماله وجاهه بصيرته، فظن ذلك، ولو أيقن أن الله قادر عليه لما كفر به، وآذى أولياءه وخالف أمره. فالعلم بقدرة الله والإيمان بذلك يحجز عن الظلم والعدوان. قالَ أَبُو مَسعُودٍ البَدرِيُّ ﷺ: كُنتُ أَضرِبُ غُلامًا لِي بِالسَّوطِ، فَسَمِعتُ صَوتًا مِن خَلفِي، «**اعلَم، أَبا مَسعُودٍ**»، فَلَم أَفهَمِ الصَّوتَ مِنَ الغَضَبِ، قالَ: فَلَمّا دَنا مِنِّي إذا هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَإِذا هُوَ يَقُولُ: «**اعلَم، أَبا مَسعُودٍ، اعلَم، أَبا مَسعُودٍ**»، قالَ: فَأَلقَيتُ السَّوطَ مِن يَدِي، فَقالَ: «**اعلَم، أَبا مَسعُودٍ، أَنَّ اللهَ أَقدَرُ عَلَيكَ مِنكَ عَلَى هَذا الغُلامِ**»، قالَ: فَقُلتُ: لا أَضرِبُ مَملُوكًا بَعدَهُ أَبَدًا[1].

والطغيان المعنوي أخطر على صاحبه من الحسي، فالحسي قد يزول بتأديب السلطان وغير ذلك، أما المعنوي الذي يكون بازدراء الناس واحتقارهم فهذا كيف الخلاص منه؟ ومما يؤسف له: أن يتصور بعضنا أن هذا الطغيان محصور في الكافر، بينما كم من شخص يعامل زوجه، وولده، وخادمه، وسائقه، وموظفه، بطغيان كبير!

(١) مسلم (١٦٥٩).

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥﴾، وفيها تهديد أيضًا لأهل مكة الذين يؤذون النبي ﷺ ومن آمن به من أصحابه.

﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦﴾، يقول الكافر: أهلكت مالًا لبدًا كثيرًا متراكمًا، بعضه فوق بعض؛ لكثرته. وليس الشأن أنك أنفقت، الشأن فيم أنفقته؟ عن ابنِ مَسعُودٍ ﷺ، قالَ: سَمِعتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**لاَ حَسَدَ إِلا فِي اثنَتَينِ: رَجُلٍ آتاهُ اللهُ مالًا، فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ، وَرَجُلٍ آتاهُ اللهُ حِكمَةً، فَهُوَ يَقضِي بِها وَيُعَلِّمُها**»[١]. وما أنفق في سبيل الله لا بُدَّ أن يجد الإنسان بركته في الدنيا والآخرة، وإنما قيل: (هلكته) هنا لبيان كثرة ما أنفق منه. قال ربنا: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ۝٦٠﴾ [الأنفال].

وواقـع الكافريـن أنهـم ينفقـون أموالهـم للصـدِّ عـن سـبيل الله، وفي أوجـه الباطـل، ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ۝٣٦﴾ [الأنفال]، ولـو أنفقوهـا في أوجـه الخير لـم يقبل منهـم، ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٥٤].

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧﴾، أيظن هذا الكافر أن فعله خافٍ عن الله، وأن الله لم يطَّلع عليه؟ قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤﴾ [العلق]، فهو يرى صنيعه ويعلم غرضه، وسيجازيه على ذلك، وعلى المؤمن أن يعتبر بذلك.

قال ابن المبارك لرجل: «راقِب الله تعالى»؛ فسأله عن تفسيرها فقال: «كن أبدًا كأنك ترى الله ﷻ»[٢]. وسئل الحارث المحاسِبي عن المراقبة فقال: «عِلمُ القلب بقُرب الله تعالى»[٣].

---

(١) البخاري (١٤٠٩)، ومسلم (٨١٦).
(٢) إحياء علوم الدين للغزالي (٤/٢٩٧).
(٣) إحياء علوم الدين للغزالي (٤/٢٩٧).

وواجب على المسلم أن يُراقب ربه أبدًا، ويتأكد ذلك عليه في مواطن ثلاثةٍ:

● الأول: قبل التلبس بطاعة الله؛ ليكون العمل خالصًا.

● الثاني: أثناء القيام بالطاعة؛ لأداء العبادة في أحسن صورة وأكمل حال.

● الثالث: قبل المعصية؛ للكفِّ عنها.

وقد قال نبيُّنا ﷺ: **«قالت الملائكة ربِّ! ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة (وهو أبصر به) فقال: ارقُبُوه، فإن عملها فاكتبوها له بمثلها، وإن تركها فاكتبوها له حسنة؛ فإنه تركها من جرّاي»**[١].أي: من أجلي.

وقد قال أحدهم لبعض العلماء: عظني. فقال: «لئن كنت إذا عصيت خاليًا ظننت أنَّه يراك لقد اجترأت على أمر عظيم، ولئن كنت تظن أنه لا يراك فلقد كفرت». وقال ابن القيم ؒ: «وأرباب الطريق مجمعون على أن مراقبة الله تعالى في الخواطر سبب لحفظها في حركات الظواهر، فمن راقب الله في سره حفظه الله في حركاته في سره وعلانيته»[٢]. وذلك أنَّ الشيطان إذا لم يُستجب له في أمر معصية فإنه يدعو إلى طُرقها وذرائعها، ومبدأ ذلك فكرة يلقي بها في رُوعِك، فإذا حرس الإنسان خاطره، وألقى عنه وساوس عدوِّ الله فقد قطع عليه السبيل، وجعل بينه وبينه حاجزًا فلم يحظ بمرادِهِ منه. وقيل لبعضهم: متى يهش الراعي غنمه بعصاه عن مراتع الـهَلَكة؟ فقال: إذا علم أنَّ عليه رقيبًا[٣]. فخير للوالد أن يغرس هذه المعاني في نفس طفله، فالطفل إذا رُبِّـي على الوعيد والضرب تأتَّى له أن يعصي ربه إذا غاب عن نظر والده، ولكن من يغيب عن نظر ربه؟! فلو عرَّفناه بذلك لاستقام حاله.

---

(١) مسلم (١٢٩).

(٢) مدارج السالكين (٢/٦٦).

(٣) إحياء علوم الدين للغزالي (٤/٣٩٦).

الآيات (٨ ـ ٢٠)

أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾، ألم نجعل له عينين يبصر بهما؟ ولسانًا وشفتين للنطق؟ وبيَّنّا له طريق الخير وغيره؟ قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الإنسان]. ومن أراد أن يشعر بعظم نعمة العين فليغمضهما مدة وجيزة، وليحاول فيها مباشرة ما كان يقوم به من أعمال!

ثم بيَّن تعالى كفران الإنسان إذ لم يسخر تلك النعم فيما أراد فقال: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾﴾، أي مع ما سبق لم يقتحمها، وكلمة الاقتحام ذات وقع شديد، وهذه السورة جاءت فيها مثل هذه الألفاظ القوية في مدلولها، الشديدة في وقعها؛ لتهز النفوس، وتحرك مشاعر المخاطبين. والعقبة: المكان المرتفع في الجبل. والمراد: الحث على سلوك سبيل العمل الصالح.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾﴾، تهيئة للمؤمن لمعرفة الطريق، كأنه قال: أمامك طريق صعب كالعقبة يحتاج إلى اقتحام وصبر، وبهذا تتهيأ النفوس لاجتياز

عقباته. كما قال ربنا: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة]، وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران].

﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾، عتق المسلم من الرق. وشريعتنا تشوَّفت إلى التخلُّص من الرق.

ومن اقتحام العقبة بذل الإحسان ومن أهمه الإطعام لأن قوام الحياة به، ولهذا قال: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾، والمسغبة المجاعة، فالإطعام عند شدَّةِ الجوع لليتيم الذي فقد أباه وهو من الأقارب، وللمسكين ذي المتربة، من أعظم الأعمال الصالحة، وفي ذلك تنبيهٌ على أن للمستحق القريب مزية بسبب القرب. وأما المسكين ذو المتربة فهو كما «قالَ ابنُ عَبّاسٍ ﵄: ﴿ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾ هُوَ المَطرُوحُ فِي الطَّرِيقِ، الَّذِي لا بَيتَ لَهُ، وَلا شَيءَ يَقِيهِ مِنَ التُّرابِ»[1]. وقيل غير ذلك، وهذا مقدَّم لشدة حاجته. وقد ثبت عَن عَبدِ اللهِ بنِ سَلامٍ ﵁ أنه قالَ: لَمّا قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ المَدِينَةَ انجَفَلَ النّاسُ إلَيهِ، وَقِيلَ: قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ. فَجِئتُ فِي النّاسِ لِأَنظُرَ إلَيهِ، فَلَمّا استَثبَتُّ وَجهَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَرَفتُ أَنَّ وَجهَهُ لَيسَ بِوَجهِ كَذّابٍ، وَكانَ أَوَّلُ شَيءٍ تَكَلَّمَ بِهِ أَن قالَ: «**أَيُّها النّاسُ؛ أَفشُوا السَّلامَ، وَأَطعِمُوا الطَّعامَ، وَصَلُّوا والنّاسُ نِيامٌ، تَدخُلُوا الجَنَّةَ بِسَلامٍ**»[2].

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾﴾، ﴿ثُمَّ﴾ هنا للترتيب الذكري لا الترتيب الزماني، لأنه لا يمكن أن تقبل صدقة إلا مع الإيمان بالله، قال ربنا: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٥٤]. فالمعنى: ثم كان هذا المقتحم قبل أن يقتحم هذه

(١) تفسير ابن كثير (٨/٤٠٨).
(٢) الترمذي (١٨٥٥)، وصححه الألباني في الصحيحة (٥٦٩).

الخصال من الذين آمنوا، وأوصى بعضهم بعضًا بالصبر على مُرِّ القضاء، وبالصبر عن المعصية، وعلى الطاعة، وكان ممن أوصى بعضهم بعضًا بالتراحم فيما بينهم. فهؤلاء أصحاب الجنة.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾﴾، أي: أصحاب الشمال.

﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ ﴿٢٠﴾﴾، مغلقة عليهم، لا يخرجون منها. كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة]، وتأمل كيف قيل في حق أهل النار: ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ﴾؛ لرغبتهم في الخروج منها، أما أهل الجنة فلما فيها من النعيم فإنه لا يرغب في الخروج منها أحد، بل ولا التحول عن موضعه فيها! قال تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الكهف]، لتمام رضاهم، فكان وعده لهم بأنه لن يخرجهم منها أحد؛ لئلا يخافوا من ذلك، قال الله تعالى: وقال: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الحجر].

نسأل الله من فضله.

سُورَةُ الشَّمْسِ

بين يدي سورة الشمس

وهي مكية اتفاقًا[(١)].

أسماؤها:

سورة «الشمس»، وسورة «﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾»[(١)].

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُها أَربع وَخَمسُونَ كلمة، وحروفها مئتان وَسِتَّة وَأَربَعُونَ حرفًا، وَهِي سِتَّ عشرَة آيَة فِي المدنِي الأول، وَيُقال فِي المَكِّيِّ كَذَلِك، وَخمس عشرَة فِي عدد الباقِينَ، اختلافها آيَة ﴿فَعَقَرُوهَا﴾، عدها المدنِي الأول والمكي بِخِلاف عَنهُ، وَلم يعدها الباقُونَ»[(٢)].

ما ورد فيها:

قال جابِر بن عَبدِ اللهِ الأَنصارِي ﷺ، قالَ: أَقبَلَ رَجُلٌ بِناضِحَينِ وَقَد جَنَحَ اللَّيلُ، فَوافَقَ مُعاذًا يُصَلِّي، فَتَرَكَ ناضِحَهُ وَأَقبَلَ إِلَى مُعاذٍ، فَقَرَأَ بِسُورَةِ البَقَرَةِ، فانطَلَقَ الرَّجُلُ وَبَلَغَهُ أَنَّ مُعاذًا نالَ مِنهُ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَشَكا إِلَيهِ مُعاذًا، فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يا مُعاذُ، أَفَتّانٌ أَنتَ؟ - ثَلاثَ مِرارٍ - فَلَولاَ صَلَّيتَ بِـ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ﴾،

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٣٦٥).
(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٧٥).

﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾، ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾، فَإِنَّهُ يُصَلِّي وَراءَكَ الكَبِيرُ والضَّعِيفُ وَذُو الحاجَةِ»[١].

موضوعاتها:

«تهديد المشركين بأنه يوشك أن يُصيبهم عذاب بإشراكهم وتكذيبهم برسالة محمد ﷺ، كما أصاب ثمودًا بإشراكهم وعُتوِّهم على رسول الله ﷺ الذي دعاهم إلى التوحيد، وقدم لذلك تأكيد الخبر بالقسم بأشياء معظمة، وذكر من أحوالها ما هو دليل على بديع صنع الله تعالى الذي لا يشاركه فيه غيره، فهو دليل على أنه المنفرد بالإلهية والذي لا يستحق غيره الإلهية، وخاصة أحوال النفوس ومراتبها في مسالك الهدى والضلال والسعادة والشقاء»[٢].

مقصدها:

الحث على تزكية النفس، والتحذير من التفريط في ذلك بموافقة المعرضين عن الله ورسوله ببيان عقوبة بعض من سلف.

---

(١) البخاري (٧٠٥).
(٢) التحرير والتنوير (٣٠/٣٦٦).

سورة الشمس: تأملات ووقفات

الآيات (١ ـ ١٠)

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا
﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ
وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا
﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾﴾، بدأ ربنا هذه السورة بالقسم بهذا المخلوق المتوهِّج المضيء، قال ربنا: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾﴾ [النبأ]، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]، وقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾ [إبراهيم]، والمنة بها على العباد كبيرة، ما أكثر فوائدها للنبات والإنسان!

قال: ﴿وَضُحَاهَا﴾، «وفي المراد بضُحاها ثلاثة أقوال:

- أحدها: ضوؤها، قاله مجاهد، والزجّاج. والضحى: حين يصفو ضَوءُ الشمس بعد طلوعها.
- والثاني: النهار كلُّه، قاله قتادة، وابن قتيبة.
- والثالث: حرُّها»(١).

ثم قال: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾﴾، أي إذا تبعها، فهما جرمان يجريان يتلو هذا هذا،

---

(١) زاد المسير (٤/٤٥٠).

فإذا غابت الشمس ظهر القمر، والعكس، ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ٤٠﴾ [يس].

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ٣﴾، وهذا قسم بالنهار إذا أظهر البسيطة[1]. وقيل: أظهر الشمس، فالضمير في ذلك كلّه يعود إلى الشمس[2].

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ٤﴾، يغشى الشمس حين تغيب، فيظلم الأفق.

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ٥﴾، إذا جعلنا ﴿ما﴾ مصدرية كان معنى الآية: والسماء وبنائها، وإذا كانت بمعنى (مَن)، كانت بمعنى: والسماء وبانيها[3].

﴿وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ٦﴾، ويقال في معنى ﴿ما﴾ هنا ما قيل فيما قبلها. والمراد: والأرض وبسطها، أو: ومن بسطها.

﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧﴾، خلقها سوية على الفطرة، كما قال: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠].

﴿فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ٨﴾، ثبت في الصحيحين، عن أبي هريرة ﷺ، قال: قالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**ما مِن مَولُودٍ إلّا يُولَدُ عَلَى الفِطرَةِ، فَأَبَواهُ يُهَوِّدانِهِ أَو يُنَصِّرانِهِ، أَو يُمَجِّسانِهِ، كَما تُنتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمعاءَ، هَل تُحِسُّونَ فِيها مِن جَدعاءَ؟**»، ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيرَةَ ﷺ: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَا﴾ [الروم: ٣٠] الآيَةَ»[4].

﴿فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ٨﴾، بيّن لها الخير والشر، كما قال ربنا: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ٣﴾ [الإنسان]، وقال: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ١٠﴾ [البلد]. والصحيح أن المراد ما قاله ابن زيد: «جعل ذلك فيها بتوفيقه إياها للتقوى، وخذلانه إياها للفجور»[5].

---

(١) تفسير ابن كثير (٤١٠/٨).
(٢) السابق.
(٣) تفسير ابن كثير (٤١١/٨).
(٤) البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨).
(٥) زاد المسير (٤٥١/٤).

ثـم بعـد أن قـدم ﷻ بذلـك القسـم الطويـل وهو أطـول قسـم في القـرآن جاء الجـواب: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾، ومناسـبة ذلك للقسـم بالشـمس وضيائها ما في الاسـتقامة والتزكيـة مـن الراحـة والضيـاء والإشراق واطمئنـان النفـس. والتزكية: تطهـير النفـس من المعـاصي، وإصلاحهـا بالصالحات. وعرَّفهـا نبينا ﷺ لما سـئل: ما زكى نفسـه؟ فقـال: «**أن يعلـم أن الله ﷻ معـه حيـث كان**»[1]. فهـذه حقيقـة التزكية: مراقبـة الله، وهـذا يقتـضي اتبـاع الرسـول ﷺ والعمـل بشريعته ومجانبـة مخالفته.

﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾، والدس إخفاء فطرة الخير، والمعنى: خاب من دسَّ نفسه، قال ابن كثير ﵀: «أي: أَخمَلَها، وَوَضَعَ مِنها بِخِذلانِهِ إِيّاها عَنِ الهُدَى، حَتَّى رَكِبَ المَعاصِيَ وَتَرَكَ طاعَةَ اللهِ ﷻ»[2].

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الصغير، ص(١١٥)، وصححه الألباني في السلسلة (١٠٤٦).
(٢) تفسير ابن كثير (٤١٢/٨).

الآيات (١١ ـ ١٥)

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾

بعد أن بيَّن ربنا سبحانه أن الفلاح في تزكية النفس باتباع النبي ﷺ، والتزام شرعه، والخسران في خلاف ذلك، ضرب لهم مثلًا بقوم لم يزكوا أنفسهم! فقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾﴾، أي بسبب طغيانها، وثمود من الأمم التي أهلكها الله بذنوبها، جمعوا إلى الشرك وتكذيب رسولهم صالح ﷺ أنواعًا من الذنوب، جماعها العناد والإصرار والاستكبار، وكان من آخر أمرهم أنهم عقروا الناقة التي جعلها الله لهم آية على صدق نبوة نبيهم لما سألوه الآية! فأخذتهم الصيحة والرجفة، فأصبحوا في دارهم جاثمين.

فهؤلاء أشقياء بُعَداء، لكنَّ قُدَارًا الذي عقرها كان أشقى القوم، ولهذا قال: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾﴾.

﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾﴾، حذرهم من التعرُّض إلى الناقة، وسقياها، ونهوا عن الشرب في يوم شربها، كما قال سبحانه: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾﴾ [الشعراء].

﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾، كذبوا نبيهم، قال ابن كثير ﷺ: «﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ﴾ أي:

غَضِبَ عَلَيهِم، فَدَمَّرَ عَلَيهِم، ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ أي: فَجَعَلَ العُقُوبَةَ نازِلَةً عَلَيهِم عَلَى السَّواءِ»[١]. ولا يخاف الله عاقبة أخذهم بالعذاب. ومن ذا الذي يسأله وهو الفعال لما يريد سبحانه؟

والسؤال: لماذا عمهم الله بالعذاب والذي عقرها واحد منهم؟ والجواب: لأنهم أقروه ولم ينكروا عليه، بل هم من نادوه، ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾ [القمر]، ولا فرق عند الله بين من فعل المُنكر ومن دعا إليه ومن أقره، فعن عرس بن عميرة الكندي ﷺ، أن النبي ﷺ قال: «**إذا عُمِلت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فأنكرها كمن غاب عنها، ومن غاب عنها فرضيَها كان كمن شهدها**»[٢]. ومن أدلة ذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الحجرات]. فالذي نادى على رسول الله ﷺ واحد فقط، فتأمل كيف أشرك الله معه غيره في الذم مع أنهم لم يباشروا النداء، لكنهم لم ينكروه، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ﴾، ولم يقل: إن الذي يناديك! وأوضح منها في الدلالة على ذلك ما نحن فيه: فإن الذي عقر ناقة صالح ﷺ واحد، قال تعالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾ [القمر]، وهو قُدار بن سالف المذكور سلفًا كما قال بعضهم، ولما سكت من معه وأقروه على باطله أشركهم الله في الحكم والعقوبة، قال ربنا: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأعراف]، وقال: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾﴾. فترك الإصلاح سبب لنزول العقاب، ولا نجاة بعد نزوله إلا للمصلحين، فعن النعمان بن بشير ﷺ، عن النَّبيّ ﷺ، قال: «**مَثَلُ القائِمِ في حُدودِ اللهِ والواقعِ فِيها كَمَثَلِ قَومٍ استَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَصارَ بَعضُهم أعلاها وَبَعضُهم أَسفَلَها، وَكانَ الَّذِينَ في أَسفَلِها إِذا استَقَوا مِنَ الماءِ مَرُّوا عَلَى مَن فَوقَهُم، فَقالُوا: لَو أَنَّا خَرَقنا في نَصِيبِنا خَرقًا**

(١) تفسير ابن كثير (٨/٤١٤).
(٢) أبو داود (٤٣٤٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٨٩).

وَلَم نُؤذِ مَن فوقَنا، فَإِن تَرَكُوهُم وَما أرادُوا هَلَكُوا جَميعًا، وَإن أخَذُوا عَلَى أيدِيهِم نَجَوا وَنَجَوا جَميعًا»[1]. والقائِمُ في حُدُودِ اللهِ تَعالىَ: القائم في دفعِ مخالفتها بإنكار المُنكرات وإزالتِها، والمُرادُ بالحُدُودِ: ما نَهَى اللهُ عَنهُ. وعن زينب بنت جحش ، أن النبي ﷺ دخل عليها فزعا يقول: **«لا إله إلا الله! ويل للعرب من شر قد اقترب، فُتِح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه»**، وحلق بين أصبعيه الإبهام والتي تليها، قالت: فقلت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: **«نعم إذا كَثُر الخَبَث»**[2]. وعن جرير بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ما من رجل يكون في قوم يعمل فيهم بالمعاصي يقدرون على أن يغيروا عليه ولا يغيرون إلا أصابهم الله منه بعقاب قبل أن يموتوا»**[3]. وربنا يقول: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [هود]. ويقول في شأن من اعتدى من يهود في السبت: ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [الأعراف].

---

(١) البخاري (٢٤٩٣).
(٢) البخاري (٣٣٤٦)، ومسلم (٢٨٨٠)
(٣) أبو داود (٤٣٣٩)، وحسنه الألباني في سلسلته (٣٣٥٣).

سُورَةُ اللَّيْلِ

بين يدي سورة الليل

وهي مكية في قول الجمهور[(١)].

أسماؤها:

سورة «الليل»، وسورة «﴿وَٱلَّيۡلِ﴾»، وتسمى بسورة «﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾»[(١)].

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُها إِحدَى وَسَبعُونَ كلمة، وحروفها ثَلاث مئة وَعشرَة أحرف، وَهِي إِحدَى وَعِشرُونَ آيَة فِي جَمِيع العدَد لَيسَ فِيها اختِلاف»[(٢)].

ما ورد فيها:

قال جابِر بن عَبدِ اللهِ الأَنصارِي ﷺ، قالَ: أَقبَلَ رَجُلٌ بِناضِحَينِ وَقَد جَنَحَ اللَّيلُ، فَوافَقَ مُعاذًا يُصَلِّي، فَتَرَكَ ناضِحَهُ وَأَقبَلَ إِلَى مُعاذٍ، فَقَرَأَ بِسُورَةِ البَقَرَةِ، فانطَلَقَ الرَّجُلُ وَبَلَغَهُ أَنَّ مُعاذًا نالَ مِنهُ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَشَكا إِلَيهِ مُعاذًا، فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«يا مُعاذُ، أَفَتانٌ أَنتَ؟ - ثَلاثَ مِرارٍ - فَلَولاَ صَلَّيتَ بِـ ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾، ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾، ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾، فَإِنَّهُ يُصَلِّي وَراءَكَ الكَبِيرُ، والضَّعِيفُ، وَذُو الحاجَةِ»**[(٣)].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٣٧٧).
(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٧٦).
(٣) البخاري (٧٠٥).

موضوعاتها:

«احتوت على بيان شرف المؤمنين، وفضائل أعمالهم، ومذمة المشركين، ومساويهم، وجزاء كل، وأن الله يهدي الناس إلى الخير، فهو يجزي المهتدين بخير الحياتين، والضالين بعكس ذلك. وأنه أرسل رسوله ﷺ للتذكير بالله وما عنده، فينتفع من يخشى فيفلح، ويصدف عن الذكرى من كان شقيًا فيكون جزاؤه النار الكبرى، وأولئك هم الذين صدهم عن التذكر إيثار حب ما هم فيه في هذه الحياة، وأدمج في ذلك الإشارة إلى دلائل قدرة الله تعالى وبديع صنعه»[1].

مقصدها:

الترغيب في خصال البر؛ من العطاء، والتصديق بموعود الله، والتقوى، ببيان ما يترتب عليها في الآخرة من الفوز بدار الكرامة والنجاة من النار، والتحذير من ضد ذلك.

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٣٧٨).

سورة الليل: تأملات ووقفات

الآيات (١ ـ ١١)

وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ
﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ
﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ
بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴿١١﴾

عجبًا لمن يقرأ هذه السورة ويدَّعي أن الأمور قد تعثرت عليه! وسأبدأ الحديث عنها بحادثة عجيبة!

يقول أحد طلاب العلم: كنا قبل سنوات في مجلس من المجالس، والحضور فيه من طلاب العلم، فطُلب من أحد الحضور أن يقرأ شيئًا من القرآن، فقرأ سورة والليل، يقول: ولديَّ مشاريع، قال: فلما قرأ سورة الليل المشتملة على هذا القسم العجيب، قلت لشركائي في تلك المشاريع: أسمعتم هذه السورة؟ قالوا: نعم، وماذا تريد؟ قلت: أليس لدينا مشاريع؟ قالوا: بلى، أليست أمامنا صعوبات تعرض أحيانًا؟ قالوا: بلى، قال: بعد هذا اليوم إذا صدقتم مع الله وحققتم هذه الشروط بعد هذه الأقسام العظيمة ﴿أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾﴾، فلن يقف أمامنا عائق. ثم استرسل في النقاش معهم قائلًا: أرأيتم لو كان لدينا مشروع من هذه المشاريع فجاء أحد الأثرياء (وذكر رجلًا لا يعلم الناس عنه إلا خيرًا)، وقال لنا: سأتكفل بنفقات هذا المشروع، ولكن بشرط، ونفذنا شرطه، أكان يخذلنا؟ قالوا: لا. قال: فكيف إذًا بوعد الله ﷻ؟! ومرت

سنوات، وسمعت هذا الأخ يقول مرارًا: والله منذ تلك الليلة لم تواجهني أي مشكلة إلا العارض الذي ما يلبث أن يزول سريعًا.

يقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١﴾ يقسم الله ﷻ بالليل إذا يغشى، أي: يغطي الأرض بظلامه.

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ٢﴾، بضيائه. وهكذا لا بُدَّ أن يتبع الليلَ النهار، ويمحو الضوء الظلمة، وفيه إشارة إلى أن غُمَّة صدر المؤمن، وكرب نفسه، لا بُدَّ أن يتبعهما فرج، وانشراح صدر، فليتفاءل، ولا ييأس أو يقنط من رحمة ربه.

وبدأ بالليل؛ لأن الليل هو الأصل والنهار طارئ، قال ربنا: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ٣٧﴾ [يس].

ثم قال: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣﴾، والمراد: ومن خلق الذكر والأنثى، أي: يقسم بنفسه، هذا إذا كانت ﴿مَا﴾، بمعنى (مَن)، أو كانت موصولة، وأما إذا كانت (ما) هنا مصدرية فيكون المراد القسم بخلق الذكر والأنثى، وهو قسم بفعله تعالى.

وقوله: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ٤﴾، هو جواب القسم المتقدم، أي: إنَّ عملكم لمختلف، فمنكم من يعمل بطاعة الله، ومنكم من يعمل بالمعصية، في كل ساعة من الناس من يعمل بالطاعة، ومنهم من يكون في معصية، ومنهم من يعمل عملًا مباحًا أو مكروهًا، أو مندوبًا. أعمال متباينة، كتباين الليل والنهار، والرجل والمرأة، فسل نفسك: في أيِّ مسعىً أقمتَها؟ ومن أراد أن يعرف في الآخرة مقامه فلينظر في مقامه الذي أقام فيه نفسه في الدنيا.

﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٦﴾، أي: «﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ﴾، ما أمر به من العبادات المالية، كالزكوات، والكفارات والنفقات، والصدقات، والإنفاق في وجوه الخير، والعبادات البدنية كالصلاة، والصوم ونحوهما، والمركبة منهما، كالحج والعمرة

ونحوهما، ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ ما نهي عنه، من المحرمات والمعاصي، على اختلاف أجناسها»[١].

﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾، صدق بالمجازاة على العمل الصالح بدخول الجنة. والتصديق بهذا من الإيمان بالغيب الذي مدح الله أصحابه في القرآن كثيرًا، ﴿الٓمٓ ١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ٥﴾ [البقرة].

وهذا الوعد الكريم دخل فيه الصدِّيق الذي أنفق ماله كله في سبيل الله، وعُمر الذي أنفق نصفه، وعثمان الذي جهز جيش العسرة، ومن اشترى للأيتام نخلًا، ﷺ، وقول المفسرين: نزلت في فلان، هذا كثيرًا ما يكون من باب التفسير، أي هي شاملة لحال فلان، وقد لا يكون المقصود بها بيان سبب النزول، كما نص عليه ابن تيمية في أصول التفسير[٢].

﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ٧﴾، قال ترجمان القرآن: للخير[٣]. وفي الآية قول ثانٍ، وهو: للجنة، وليس خافيًا أنه لا تعارض بينهما، قال ربنا: ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ٧٧﴾ [الحج]، أي: بدخول الجنة.

ومما دلت الآيات عليه: أن من صدق الله صدقه الله، وفي هذا قصة عجيبة:

عَن شَدّادِ بنِ الهادِ ﷺ، أَنَّ رَجُلًا مِنَ الأَعرابِ جاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَآمَنَ بِهِ، واتَّبَعَهُ، ثُمَّ قالَ: أُهاجِرُ مَعَكَ، فَأَوصَى بِهِ النَّبِيُّ ﷺ بَعضَ أَصحابِهِ، فَلَمّا كانَت غَزوَةٌ غَنِمَ النَّبِيُّ ﷺ سَبيًا، فَقَسَمَ وَقَسَمَ لَهُ، فَأَعطَى أَصحابَهُ ما قَسَمَ لَهُ، وَكانَ يَرعَى ظَهرَهُم، فَلَمّا جاءَ دَفَعُوهُ إِلَيهِ، فَقالَ: ما هَذا؟، قالُوا: قِسمٌ قَسَمَهُ لَكَ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَخَذَهُ فَجاءَ بِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقالَ: ما هَذا؟ قالَ: «قَسَمتُهُ لَكَ»، قالَ: ما عَلَى هَذا اتَّبَعتُكَ، وَلَكِنِّي اتَّبَعتُكَ عَلَى

---

(١) تفسير السعدي، ص(٩٢٦).
(٢) في مجموع الفتاوى (١٣/٣٤٠).
(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٨/٤١٧).

أَن أُرمَى إِلَى هاهُنا، وَأَشارَ إِلَى حَلقِهِ بِسَهمٍ، فَأَمُوتَ فَأَدخُلَ الجَنَّةَ فَقالَ: «إِن تَصدُقِ اللهَ يَصدُقكَ»، فَلَبِثُوا قَلِيلًا ثُمَّ نَهَضُوا فِي قِتالِ العَدُوِّ، فَأُتِيَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ يُحمَلُ قَد أَصابَهُ سَهمٌ حَيثُ أَشارَ، فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَهُوَ هُوَ؟»، قالُوا: نَعَم، قالَ: «صَدَقَ اللهَ فَصَدَقَهُ»، ثُمَّ كَفَنَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي جُبَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ قَدَّمَهُ فَصَلَّى عَلَيهِ، فَكانَ فِيما ظَهَرَ مِن صَلاتِهِ: «اللهُمَّ هَذا عَبدُكَ خَرَجَ مُهاجِرًا فِي سَبِيلِكَ فَقُتِلَ شَهِيدًا أَنا شَهِيدٌ عَلَى ذَلِكَ»[1].

وهذا دليل على شكر الله، فمن اختار طريق الصالحات أعانه الله، وبسر له الخير، كما قال ربنا: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾ [يونس].

ثم قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾، هذا ضد الأول، بخل بماله، وبخل بجاهه، وبعمله، واستغنى بالدنيا عن الآخرة، وكذب بالجزاء في الآخرة، فهذا ييسر لطريق الشر، ولا يظلم ربك أحدًا، فربنا لا يضل أحدًا إلّا إن كان أهلًا للضلالة، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٥]، وقال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]. قال ابن كثير ﵀: «والآياتُ فِي هَذا المَعنَى كَثِيرَةٌ دالَّةٌ عَلَى أَنَّ اللهَ، ﷻ، يُجازِي مَن قَصَدَ الخَيرَ بِالتَّوفِيقِ لَهُ، وَمَن قَصَدَ الشَّرَّ بِالخِذلانِ. وَكُلُّ ذَلِكَ بِقَدَرٍ مُقدَّر، والأَحادِيثُ الدّالَّةُ عَلَى هَذا المَعنَى كَثِيرَةٌ»[2].

﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴿١١﴾﴾، إذا كان من أهل النار لن يفيده ماله بشيء، ولن يكون معه شيء منه في الآخرة، وليس ما تركه مالًا له، بل ينتقل هذا المال إلى ورثته، فالمراد: المال الذي جمعه وتركه وحازه غيره، وكان سببًا في ضلاله، لن ينفعه في الآخرة إذا تقحم النار. قال ربنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [المائدة]، وقال:

(١) النسائي (١٩٥٣)، وصححه الألباني في أحكام الجنائز، ص(٦١).
(٢) تفسير ابن كثير (٨/٤١٧).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ
فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ
أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠ ﴾ [المنافقون]، وقال عن أبي لهب:
﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ٢ ﴾ [المسد].

الآيات (١٢ ـ ٢١)

إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾، هذا وعد من الله تعالى، ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾، وفي المراد به قولان:

● الأول: بيان الحق من الباطل، والحلال من الحرام، فالهداية هنا هداية إرشاد.

● والثاني: من سلك طريق الهدى وصل إلى الله، وألهمه الهدى، كما قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩](١)، وقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت].

﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾، يعني الآخرة والأولى ملك لله، يحكم فيهما بما يشاء كونًا وشرعًا، وقدم الآخرة لأن ملكه فيها أظهر؛ إذ لا ينازعه منازع أو يخالف أمره أحد، فيوم القيامة يظهر أن الملك حقًا لله وحده، ويظهر أن الذين خالفوا حكمه في الدنيا لم يكن ذلك من حقهم بل هم مؤاخذون عليه مجزيون به محاسبون على مخالفتهم، ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر].

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾﴾، نارًا توهّج عياذًا بالله. ثبت عَن النُّعمانِ بنِ بَشِيرٍ

---

(١) يراجع: تفسير ابن كثير (٨/٤٢١).

ﷺ، قالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَخطُبُ فَقالَ: «أَنذَرتُكُمُ النّارَ، أَنذَرتُكُمُ النّارَ، أَنذَرتُكُمُ النّارَ» فَما زالَ يَقُولُها حَتَّى لَو كانَ فِي مَقامِي هَذا، لَسَمِعَهُ أَهلُ السُّوقِ، حَتَّى سَقَطَت خَمِيصَةٌ كانَت عَلَيهِ عِندَ رِجلَيهِ[1]. فالإنذار من النار مطلب تحتاجه النفوس لتستقيم.

﴿لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ١٥ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ١٦﴾، والأشقى: الشقي، «قال أبو عبيدة: والأَشقَى بمعنى الشقيّ. والعرب تضع (أَفعَل)، في موضع (فاعل)، قال طرفة:

تَمَنَّى رِجالٌ أَن أَمُوتَ وإن أمت فتلك سبيلٌ لستُ فيها بأوحدِ

فالشقي: الكافر. قال ربنا: ﴿وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ١٠٣ تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ١٠٤ أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٠٥ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ١٠٦﴾ [المؤمنون].

﴿ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾، تعريف بالأشقى الذي سلف ذكره. وتولى: أعرض.

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ١٧﴾، أي: التقي كما مر معنا، فلا يدخل النار تقي. وقد قال ابن كثير في تفسير هذه الآية كلمة يجدر بنا أن نثبتها، ونشيعها، قال: «وَقَد ذَكَرَ غَيرُ واحِدٍ مِنَ المُفَسِّرِينَ أَنَّ هَذِهِ الآياتِ نَزَلَت فِي أَبِي بَكرٍ الصِّدِّيقِ، ﷺ، حَتَّى إِنَّ بَعضَهُم حَكَى الإِجماعَ مِنَ المُفَسِّرِينَ عَلَى ذَلِكَ. وَلا شَكَّ أَنَّهُ داخِلٌ فِيها، وَأَولَى الأُمَّةِ بِعُمُومِها، فَإِنَّ لَفظَها لَفظُ العُمُومِ، وَهُوَ قَولُهُ تَعالَى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ١٧ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ١٩﴾، وَلَكِنَّهُ مُقَدَّمُ الأُمَّةِ، وَسابِقُهُم فِي جَمِيعِ هَذِهِ الأَوصافِ وَسائِرِ الأَوصافِ الحَمِيدَةِ؛ فَإِنَّهُ كانَ صِدِّيقًا، تَقِيًّا، كَرِيمًا، جَوادًا، بَذّالًا لِأَموالِهِ فِي طاعَةِ مَولاهُ، وَنُصرَةِ رَسُولِ اللهِ، فَكَم مِن دَراهِمَ وَدَنانِيرَ بَذَلَها ابتِغاءَ وَجهِ رَبِّهِ الكَرِيمِ، وَلَم يَكُن لِأَحَدٍ

---

(١) الدارمي (٢٨٥٤)، وصححه الألباني في المشكاة (٥٦٨٧).

مِـنَ النَّـاسِ عِندَهُ مِنَّةٌ يَحتـاجُ إِلَى أَن يُكـافِئَهُ بِهـا، وَلَكِـن كانَ فَضلُهُ وَإِحسـانُهُ عَلَى السَّـاداتِ والرُّؤَسـاءِ مِن سـائِرِ القَبائِـلِ؛ وَلِهَذا قـالَ لَهُ عُروَةُ بنُ مَسـعُودٍ ـ وَهُوَ سَـيِّدُ ثَقِيـفٍ، يَـومَ صُلـحِ الحُدَيبِيَـةِ ـ : أَمـا واللهِ لَـولا يَـدٌ لَكَ كانَت عِنـدِي لَم أَجـزِكَ بِها لَأَجبتُـكَ. وَكانَ الصِّدِّيـقُ قَـد أَغلَـظَ لَهُ فِي المَقالَـةِ، فَـإِذا كانَ هَـذا حالُهُ مَعَ سـاداتِ العَـرَبِ وَرُؤَسـاءِ القَبائِـلِ، فَكَيـفَ بِمَـن عَداهُـم»؟[1]، وإذا نظرنـا إلى قوله سـبحانه: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحجرات: ١٣]. فيكـون أبـو بكـر هـو أتقى هـذه الأُمَّة، وأكرمهـا عنـد الله تعـالى بعد رسـول الله ﷺ.

﴿ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾، ينفـق؛ ليتطهـر مـن الذنوب، قال تعـالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]. وهـذا يـدل على كبـير أثر الصدقـة في التطهير مـن الذنوب.

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٠ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ٢١﴾، تصـدق، وليـس بينـه وبين مـن أنفق عليهم منفعـة، وإنما يتصدق لا يريد شـيئًا سـوى وجه الله. أولئـك مـن أوجـب الله على نفسـه أن يرضيهـم بعطائـه، نسـأل الله مـن فضله وإحسانه.

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/٤٢٢).

سُورَةُ الضُّحَىٰ

بين يدي سورة الضحى

وهي مكية اتفاقًا[١].

أسماؤها:

«سورة الضحى»، و«سورة ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾»[١].

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُها أَربَعُونَ كلمة ككلم والعادِيات، وحروفها مئة واثنانِ وَسَبعُونَ حرفًا، وَهِي إِحدَى عشرَة آيَة فِي جَمِيع العدَد لَيسَ فِيها اختِلاف»[٢].

سبب نزولها:

عن جُندَبِ بنِ عَبدِ الله ﷺ، قالَ: احتَبَسَ جِبرِيلُ ﷺ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقالَتِ امرَأَةٌ مِن قُرَيشٍ: أَبطَأَ عَلَيهِ شَيطانُهُ، فَنَزَلَت: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ٣﴾»[٣].

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٣٩٣).
(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٧٧).
(٣) البخاري (٤٩٨٣).

ما ورد فيها:

قال جابِر بن عَبدِ اللهِ الأنصارِي ﷺ: **أَقبَلَ رَجُلٌ بِناضِحَينِ وَقَد جَنَحَ اللَّيلُ، فَوافَقَ مُعاذًا يُصَلِّي، فَتَرَكَ ناضِحَهُ وَأَقبَلَ إِلَى مُعاذٍ، فَقَرَأَ بِسُورَةِ البَقَرَةِ، فانطَلَقَ الرَّجُلُ، وَبَلَغَهُ أَنَّ مُعاذًا نالَ مِنهُ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَشَكا إِلَيهِ مُعاذًا، فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يا مُعاذُ، أَفَتَّانٌ أَنتَ؟ - ثَلاثَ مِرارٍ - فَلَولاَ صَلَّيتَ بِـ ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ﴾، ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾، فَإِنَّهُ يُصَلِّي وَراءَكَ الكَبِيرُ، والضَّعِيفُ، وَذُو الحاجَةِ»**[1].

موضوعاتها:

«إبطال قول المشركين؛ إذ زعموا أن ما يأتي من الوحي للنبي ﷺ قد انقطع عنه. وزاده بشارة بأن الآخرة خير له من الأولى على معنيين في الآخرة والأولى. وأنه سيعطيه ربه ما فيه رضاه، وذلك يغيظ المشركين. ثم ذكره الله بما حفه به من عنايته في صباه وفي فتوته وفي وقت اكتهاله. وأمره بالشكر على تلك النعم بما يناسبها من نفع لعبيده وثناء على الله بما هو أهله»[2].

مقصدها:

تثبيت قلب النبي ﷺ، بعدما قلق لانقطاع الوحي.

---

(١) البخاري (٧٠٥).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/٣٩٤).

سورة الضحى: تأملات ووقفات

الآيات (١ ـ ٥)

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥﴾

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١﴾، هذا قسم من الله ﷻ، وفي المراد بالضحى أقوال، «قيل: ضوء النهار. وقيل: صدر النهار. وقيل: أول ساعة من النهار. وقيل: النهار كلُّه»[1]، والضحى يستعمل في ذلك كله.

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾، أقسم بالليل إذا غطى الكونَ ظلامُه وسكن.

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾، هذا جواب القسم، و﴿مَا وَدَّعَكَ﴾: ما هجرك. ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾: ما أبغض.

وانقطاع الوحي عن النبي ﷺ لم يكن من جراء أمر بدر منه، ومع ذلك حزن حزنًا شديدًا، فكيف بمن ينقطع عن القرآن بمحض اختياره! تجد في الناس من يمكث أيامًا وأسابيع وأشهرًا ولم يقرأ وِرده من القرآن! سألت يومًا أحد حُفّاظ كتاب الله: متى تختم؟ قال: أختم كل ثلاثة أشهر! أما يخشى الإنسان أن ينزع منه القرآن؟ والله يقول: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم

(١) زاد المسير (٤/٤٥٧).

مَرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ ﴿٢٠﴾ ﴾ [المزمل]، هذه بعض أهم الأسباب التي يمكن أن تصرف عن القرآن، المرض، والسفر لطلب الرزق، والجهاد في سبيل الله، ومع الانشغال بهذه الأمور قال ربنا لأهلها: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُ﴾، فأي شيء بعد ذلك يسوغ هجر القرآن؟! ألا يخشى هاجر القرآن أن يكون خصمًا لرسول الله ﷺ يوم يشكو إلى ربه ﷺ: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴿٣٠﴾ ﴾ [الفرقان]؟

وإن مما يؤسف عليه أن يُضيِّع بعض الناس ساعات طويلة مع الجوال، والفضائيات، والإعلام الجديد، ولا يقدر أن يُنفق عشر هذا الوقت مع كتاب الله! فأي خذلان وحرمان هذا؟!

ولستُ أشكُّ أن بعض الناس لو أنفق وقته الذي يقضيه في مواقع التواصل الاجتماعي على تلاوة القرآن الكريم لختم كل ثلاث ليالٍ!

ومن النكات التي يحسن ذكرها هنا: هو أن هذه السورة نزلت لإيناس رسول الله ﷺ، ولمحو آثار همه الذي أحاط بقلبه، فبدأ بالضحى، وفيه الإشراق، والنور، وذلك يبعث التفاؤل، ثم ثنَّى بحالٍ تكون فيها السكينة، ثم أعقب ذلك بالكلمة اللطيفة.

وقوله: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٤﴾ ﴾، المراد به أن ما أعده الله تعالى لنبيه ﷺ في الآخرة خير له من الدنيا وما فيها. ومما دلت الآية عليه: أن له في الدنيا خيرًا، لكن ما أُعد له في الآخرة أفضل بما لا يخطر على بال، وهذا ما يدل اسم التفضيل عليه. قال ربنا: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل].

وقد دلت السنة على أن المؤمن إذا دُفن فإنه لا يُحبُّ أن يعود إلى الدنيا؛ لما يكرمه الله به في قبره، فكيف بما أعده الله له في الجنة؟ وكيف بما للنبي ﷺ فيها؟! فعن أنس

بن مالك ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قالَ: «ما مِن عَبدٍ يَموتُ، لَهُ عِندَ اللهِ خَيرٌ، يَسُرُّهُ أن يَرجِعَ إلَى الدُّنيا، وَأَنَّ لَهُ الدُّنيا وَما فِيها، إلّا الشَّهِيدَ؛ لِما يَرَى مِن فَضلِ الشَّهادَةِ، فَإِنَّهُ يَسُرُّهُ أَن يَرجِعَ إلَى الدُّنيا، فَيُقتَلَ مَرَّةً أُخرَى»(١).

وقد أكَّد ربنا هذا المعنى في مواضعَ من القرآن، قال ربنا: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٧٧]، وقال: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ٣٥﴾ [الزخرف]، وقال: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ١٧﴾ [الأعلى].

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ٥﴾، والعطاء في الآية لم يحدَّد، لكن ما يكون من الله فلا بُدَّ أن تقر العين به؛ فإنه الكريم، الغني.

وبيَّن ربنا أن هذا العطاء سيُدخل الرضا في قلب النبي ﷺ.

وليس من دليل يدل على أن هذا العطاء خاص بالآخرة، بل سيعطيه في الدنيا وفي الآخرة ما يكون سببًا لخلوص الرضا إلى قلبه.

(١) البخاري (٢٧٩٥)، ومسلم (١٨٧٧).

الآيات (٦ ـ ١١)

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ
﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾
وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

بعد أن طمأن ربنا نبينا ﷺ ذكَّره بنعمه التي تدل على رعايته، وإحاطته بعنايته، فقال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾﴾، فالنبيُّ ﷺ تُوفِّي أبوه وهو في بطن أمه، وتوفيت أمُّه وله من العمر ست سنوات، فهو ﷺ يتيم ولطيم، واللطيم الذي مات أبواه، فكفله بعدهما جده عبد المطلب، ولما تُوفِّي كفله عمه أبو طالب، وبقي معه حتى بعثه الله، وكان عمه يحوطه بعد بعثته.

فقوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾؛ أي: آواك، وأيدك بمن يكفلك، ورباك فأحسن تربيتك.

ومن أمعن النظر في سيرة نبينا ﷺ المباركة علم أنَّه ابتلي ابتلاء شديدًا منذ الصغر، وتجرع من أنواع المرارات كلها؛ ليجد أهل البلاء جميعًا فيه الأسوة الحسنة.

ثـم قـال تعـالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾، هـذه الآيـة تفسرها آيـة أخرى، وهي قـول ربنـا: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢]. ومعلـوم أن النـبي ﷺ كان على التوحيـد، يعبد الله وحـده، فقد قالت أمنا عائشـة ...: «كانَ أَوَّلُ مـا بُـدِئَ بِهِ رَسُـولُ اللهِ ﷺ مِنَ الوَحيِ الرُّؤيـا الصَّادِقَةَ فِي النَّومِ، فَـكانَ لا يَـرَى رُؤيـا إلّا جـاءَت مِثلَ فَلَقِ الصُّبحِ، ثُمَّ حُبِّـبَ إِلَيـهِ الخَـلاءُ، فَكانَ يَخلُو بِغـارِ حِـراءٍ يَتَحَنَّـثُ فِيـهِ ـ وَهُوَ التَّعَبُّـدُ ـ اللَّيـالِيَ أُولاتِ العَـدَدِ، قَبـلَ أَن يَرجِعَ إِلَى

أَهلِـهِ وَيَـتَزَوَّدُ لِذَلِـكَ، ثُمَّ يَرجِـعُ إِلَى خَدِيجَـةَ فَيَـتَزَوَّدُ لِمِثلِها»[١]. ولم يسـجد ﷺ لصنم قـط. لكـن لـم يكـن له علـم بالشرائـع الـتي تقـرب إلى الله، وتفاصيـل الأعمال الـتي يحبهـا الله ويرضاها، وهـذا يدلنـا على أن العقل وحده لا يمكـن أن يغني عن الشرائـع، وأنـه لا بُـدَّ للبشرية منهـا لتتحقـق الهداية لهم.

ثم قال: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغۡنَىٰ ٨﴾، أي: فقيرًا فأغناك. وممن سخره الله لذلك أم المؤمنين خديجة ؓ وأرضاها، فقد ثبت عن عائشة ؓ، قالت: كانَ النَّبِيُّ ﷺ إذا ذَكَرَ خَدِيجَةَ أَثنَى عَلَيها، فَأَحسَنَ الثَّناءَ، قالَت: فَغِرتُ يومًا، فَقُلتُ: ما أَكثَرَ ما تَذكُرُها حَمراءَ الشِّدقِ! قَد أَبدَلَكَ اللهُ ﷻ بِها خَيرًا مِنها! قالَ: **«ما أَبدَلَنِي اللهُ ﷻ خَيرًا مِنها، قَد آمَنَت بِي إِذ كَفَرَ بِي النّاسُ، وَصَدَّقَتنِي إِذ كَذَّبَنِي النّاسُ، وَواسَتنِي بِمالِها إِذ حَرَمَنِي النّاسُ، وَرَزَقَنِي اللهُ ﷻ وَلَدَها إِذ حَرَمَنِي أَولادَ النِّساءِ»**[٢]. وهذا وفاء كريم لا يستغرب من معدنه ﷺ! فأين خديجة ؓ من هذا الحوار بينه وبين أحب الناس إليه؟ وكم مضى عليها! ولا يزال يذكر يدها، ولا يذكر ما أصلحه لها من مالها ﷺ.

وفي الآية من اللطائف: أن الخير يُنسب إلى الله، وأما غيره فلا ينسب إليه، مع إيماننا بأنه لا يقع في الكون شيء إلا بقدره، قال ربنا: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾، ولم يُنسب ذلك إلى ربنا، أما الخير فنسب إليه، فقال: ﴿فَهَدَىٰ﴾، وهذا ما جاء على لسان الجن كما أخبر الله عنهم: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ١٠﴾ [الجن]، وعلمنا خليل الرحمن هذا الأدب لما قال: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ٨٠﴾ [الشعراء]، فنسب المرض إلى نفسه، والشفاء إلى ربه.

وتأمل في أسلوب الإقناع الذي اشتملت عليه هذه السورة، فلإبطال دعوى المشركين كانت هذه الأسئلة المقنعة: ألم أحسن إليك؟ ألم أجبر كسر قلبك قبل نزول الوحي عليك؟ ألم أرحم يُتمك؟ ألم أُغنِك؟ وهذا قبل نزول الوحي عليك، أفأخذلك

(١) مسلم (١٦٠).
(٢) أحمد (٢٤٨٦٤)، وصححه شعيب الأرنؤوط في تخرج المسند (٣٥٦/٤١).

بعده؟! فما أحسن هذا الأسلوب! وما أحوجنا إليه مع أولادنا وزوجاتنا!

وفي الآية: تعداد نعم الله، فلا يقال: نعم الله علينا لا تعد ولا تحصى، يمكنك أن تحاول عد بعضها، فالنفي للإحصاء لا للعد، ألست تقول: أنعم الله عليَّ بالإيمان، والصحة، والعافية، والمال؟ فهذا تعداد لبعضها، وهذا من شكرها، لكن مهما حاولت إحصاءها فلا سبيل إلى ذلك، قال ربنا: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، فالمنفي فيها: إحصاؤها، لا عدُّها.

وقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ٩﴾؛ أي: «لا تُـذِلَّهُ، وَتَنهَـرهُ، وَتُهِنهُ، وَلَكِن أحسِـن إلَيـهِ، وَتَلَطَّـف بِهِ. قـالَ قَتادَةُ: كُـن لِليَتِيـمِ كالأَبِ الرَّحِيمِ»(١).

لكن: هل معنى ذلك أنه لا يضرب لو كانت المصلحة في ضربه؟ لا، وفي الحديث: **«مُرُوا أَولادَكُم بِالصَّلاةِ وَهُم أَبناءُ سَبعِ سِنِينَ، واضرِبُوهُم عَلَيها، وَهُم أَبناءُ عَشرٍ، وَفَرِّقُوا بَينَهُم فِي المَضاجِعِ»**(٢). فالتأديب شيء، والقهر شيء آخر.

وقد ثبت عَن أَنَسِ بنِ مالِكٍ ﷺ، قالَ: كَثِيرًا ما كُنتُ أَسمَعُ النَّبِيَّ ﷺ يَدعُو بِهَؤُلاَءِ الكَلِماتِ: **«اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الهَمِّ، والحَزَنِ، والعَجزِ، والكَسَلِ، والبُخلِ، وَضَلَعِ الدَّينِ، وَقَهرِ الرِّجالِ»**(٣). فكيف لو وقع هذا الذي استعاذ منه النبي ﷺ على يتيم ضعيف؟!

وقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ١٠﴾، يشمل كل سائل معروف، سواء سأل مالًا أو سأل عن علم، أو شفاعة فيما تقدر عليه، وقد تعتذر عن تحقيق طلبه لكن لا تنهره، ولو أساء في طلبه، بل ترفق به وتلطف.

والمراد بقوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ١١﴾، الإخبار بها على سبيل شكر الله عليها. ومن الشكر أيضًا إعمال ما جاء في حديث الترمذي: **«إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَن يَرَى أَثَرَ نِعمَتِهِ**

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/٤٢٧).
(٢) أبو داود (٤٩٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٨٦٢).
(٣) صحيح الأدب المفرد (٥٢٢).

عَلَى عَبدِهِ»[١].

ومن هدايات هذه السورة: أن الأزمات والشدائد من أخصب ميادين تخريج القادة والعظماء والمصلحين، تأمل في المعاناة التي مر بها يوسف ﷺ حتى أصبح عزيز مصر، والشدائد التي عانى منها موسى ﷺ حتى أصبح من أولي العزم من الرسل، والمعاناة الكبرى التي عانى منها نبي الله ﷺ فأصبح سيد البشر، إذًا: الشدائد والمعاناة من أبرز ما يصقل مواهب القادة، وإن كانت النبوات وبعض المواهب لا تكتسب غير أن الله ﷻ ييسر لها أسبابًا تجعل المحل لائقًا للموهبة الربانية، وعلى المسلم أن يظن بربه الخير في كل ما قدَّر له.

(١) الترمذي (٢٨١٩)، وهو في السلسلة الصحيحة (١٢٩٠).

سُورَةُ الشَّرْحِ

بين يدي سورة الشرح

وهي مكية اتفاقًا(١).

أسماؤها:

تسمى بسورة: «﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ﴾»، و«﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ﴾»، و«الشرح»، و«الانشراح»(١).

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُها سبع وَعِشرُونَ كلمة، وحروفها مئة وَثَلاثَة أحرف، وَهِي ثَمانِي آيات فِي جَمِيع العدَد لَيسَ فِيها اختِلاف»(٢).

موضوعاتها:

«احتوت على ذكر عناية الله تعالى لرسوله ﷺ بلطف الله له وإزالة الغم والحرج عنه، وتيسير ما عسر عليه، وتشريف قدره لينفس عنه، فمضمونها شبيه بأنه حُجَّة على مضمون سورة الضحى؛ تثبيتًا له بتذكيره سالف عنايته به وإنارة سبيل الحق وترفيع الدرجة ليعلم أن الذي ابتدأه بنعمته ما كان ليقطع عنه فضله، وكان ذلك

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٤٠٧).
(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٧٨).

بطريقة التقرير بماض يعمله النبي ﷺ، وأتبع ذلك بوعده بأنه كلما عرض له عسر فسيجد من أمره يسرًا كدأب الله تعالى في معاملته فليتحمل متاعب الرسالة ويرغب إلى الله طلبًا لعونه»[1].

مقصدها:

تثبيت النبي ﷺ، ووعده بالمخرج عند كل ضيق يمر به.

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٤٠٨).

سورة الشرح: تأملات ووقفات

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ
أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ
مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾

قوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ١﴾، المراد: صدر النبي ﷺ، وفُسّر هذا بما كان من شق صدره، وفُسّر أيضًا بالشرح المعنوي. فعَن أُبَيِّ بنِ كَعبٍ ﷺ قال: إن أَبا هُرَيرَةَ كانَ جريئًا عَلَى أَن يَسأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَن أَشياءَ لا يَسأَلُهُ عَنها غَيرُهُ، فَقالَ: يا رَسُولَ اللهِ، ما أولُ ما رَأَيتَ مِن أمرِ النُّبُوَّةِ؟ فاستَوَى رَسُولِ اللهِ ﷺ جالِسًا وَقالَ: «لَقَد سألتَ يا أَبا هُرَيرَةَ، إِنِّي لَفِي الصَّحراءِ ابنُ عَشرِ سِنِينَ وَأَشهُرٍ، وَإِذا بِكَلامٍ فَوقَ رَأسِي، وَإِذا رَجُلٌ يَقُولُ لِرَجُلٍ: أَهُوَ هُوَ؟ قالَ: نَعَم. فاستَقبَلانِي بِوُجُوهٍ لَم أَرَها لِخَلقٍ قَطُّ، وَأَرواحٍ لَم أَجِدها مِن خَلقٍ قَطُّ، وَثِيابٍ لَم أَرَها عَلَى أَحَدٍ قَطُّ. فَأَقبَلا إِلَيَّ يَمشِيانِ، حَتَّى أَخَذَ كُلُّ واحِدٍ مِنهُما بعَضُدي، لا أَجِدُ لِأَحَدِهِما مَسًّا، فَقالَ أَحَدُهُما لِصاحِبِهِ: أَضجِعهُ. فَأَضجَعانِي بِلا قَصر وَلا هَصر. فَقالَ أَحَدُهُما لِصاحِبِهِ: افلِق صَدرَهُ. فَهَوَى أَحَدُهُما إِلَى صَدرِي فَفَلَقَهُ فِيما أَرَى بِلا دَمٍ وَلا وَجَعٍ، فَقالَ لَهُ: أَخرِجِ الغِلّ والحَسَد. فَأَخرَجَ شَيئًا كَهَيئَةِ العَلَقَةِ ثُمَّ نَبَذَها فَطَرَحَها، فَقالَ لَهُ: أَدخِلِ الرَّأفَةَ والرَّحمَةَ، فَإِذا مِثلُ الَّذِي أَخرَجَ شِبهُ الفضة، ثم هز إِبهامَ رِجلِي اليُمنَى فَقالَ: اغدُ واسلَم. فَرَجَعتُ بِها أَغدو،

رِقَّـةً عَلَى الصَّغِـيرِ، وَرَحمَـةً لِلكَبِـيرِ»(١). قال ابن كثـير ﵀: «﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ١﴾ يَعـنِي: أَمـا شَرَحنا لَـكَ صَـدرَكَ، أَي: نَوَّرنـاهُ وَجَعَلنـاهُ فَسـيحًا رَحِيبًا واسِـعًا كَقَولِهِ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]. وَكَمـا شَرَحَ اللهُ صَـدرَهُ كَذَلِكَ جَعَلَ شَرعه فَسِـيحًا واسِـعًا سَـمحًا سَـهلًا لا حَـرَجَ فِيـهِ وَلا إِصرَ وَلا ضِيق. وَقِيـلَ: المُـرادُ بِقَـولِهِ: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ﴾ شَرحُ صَـدرِهِ لَيلَـةَ الإِسراءِ... وَلَكِن لا مُنافـاةَ، فَـإِنَّ مِن جُملَـةِ شَرحِ صَـدرِهِ الَّذِي فُعِل بِصَدرِهِ لَيلَـةَ الإِسراءِ، وَما نَشَـأَ عَنهُ مِـنَ الـشَّرحِ المَعنَـوِيِّ أَيضًـا، واللهُ أَعلَمُ»(٢).

فالمراد: وسَّعتُ صدرك، وملأتُه انبساطًا ورضًى، وأول ذلك الشرح الأول الحسي لصدره ﷺ.

﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ٢﴾، الوزر: الذنب. قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀: «إن القول بأن الأنبياء معصومون عن الكبائر دون الصغائر: هو قول أكثر علماء الإسلام، وجميع الطوائف... وهو أيضًا قول أكثر أهل التفسير والحديث والفقهاء، بل لم يُنقل عن السلف والأئمة والصحابة والتابعين وتابعيهم إلا ما يوافق هذا القول»(٣).

ولا يظنَّنَّ أحدُ أنهم قد يخطئون في أمر يتعلق بتبليغ الرسالة! قال شيخ الإسلام ﵀: «فإن الآيات الدالة على نبوة الأنبياء دلت على أنهم معصومون فيما يخبرون به عن الله ﷻ، فلا يكون خبرهم إلا حقًّا، وهذا معنى النبوة، وهو يتضمن أن الله ينبئه بالغيب، وأنه ينبئ الناس بالغيب، والرسول مأمور بدعوة الخلق وتبليغهم رسالات ربه»(٤).

وقـوله: ﴿ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ٣﴾؛ أي: أقضَّـه، وأتعبـه. وهـذا يـدل على أن الذنوب ثقيلـة، وإذا كانـت هـذه المعـاصي الصغيرة تـكاد تثقله، حتى يسـقط، فمـاذا نقول

---

(١) زوائد المسند (١٣٩/٥) وقال الهيثمي في المجمع (٢٢٢/٨) «رجاله ثقات، وثقهم ابن حبان».
(٢) تفسير ابن كثير (٤٢٩/٨).
(٣) مجموع الفتاوى (٣١٩/٤).
(٤) مجموع الفتاوى (٧/١٨).

للذين يرتكبون الكبائر، ولا يحسون بها؟! وقد قال ابن مسعود ﷺ: «إِنَّ المُؤمِنَ لَيَرَى ذَنبَهُ كَأَنَّهُ تَحت صَخرَةٍ يَخافُ أَن تَقَعَ عَلَيهِ، وَإِنَّ الكافِرَ لَيَرَى ذَنبَهُ كَأَنَّهُ ذُبابٌ مَرَّ عَلَى أَنفِهِ»[١].

ولا إخال أحدًا لم يجرِّب ثقل الذنب، كم من عاصٍ استلذَّ بالمعصية، فإذا زالت لذتها أثقل ظهره حسرتها والندم بسببها!

ثم قال: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ٤﴾، وهذه فيها معانٍ تحمل الآية عليها كلها، فمن ذلك: أنه يُذكر بالخير على ألسنة كثيرة، وأن الله قرن اسمه باسمه في مواضع عديدة.

قال حَسّان بن ثابتٍ ﷺ:

أَغَرّ عَلَيهِ لِلنُّبُوَّةِ خاتَمٌ ... مِنَ اللهِ نُورٌ يَلوحُ وَيشهَد

وَضَمَّ الإِلهُ اسمَ النَّبِيِّ إِلَى اسمِهِ ... إِذا قالَ فِي الخَمس المؤذنُ: أشهدُ

وَشَقَّ لَهُ مِن اسمِهِ لِيُجِلَّه ... فَذُو العَرشِ محمودٌ وهَذا مُحَمَّدُ[٢]

فقرن اسمه مع اسم الله في النداء، وفي الذكر الذي يقال بعد الفراغ من الوضوء، وفي الشهادتين بوابة الدخول إلى الإسلام. ودخل في معنى الآية: أن الله رفع ذكره بالنبوة، ويراد بها كذلك: ثناء الله عليه في كتابه وفي الكتب السابقة[٣].

ورفع الذكر شرف مطلوب، ووراءه خير كثير، ولهذا كان من دعاء الخليل ﷺ: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ٨٤﴾ [الشعراء]. أي: واجعل لي ثناء حسنًا، وذكرًا جميلًا في الذين يأتون بعدي إلى يوم القيامة.

وأقول: مساكين هؤلاء الذين يتصورون أن بإمكانهم خفض من رفعه الله تعالى!

جاءَت سَخينةُ كي تُغالِبَ رَبَّها ... فَلَيُغلَبَنَّ مُغالِبُ الغَلاَّبِ!

وفي قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ٥﴾ «بشارة عظيمة، أنه كلما وُجِد عسرٌ

---

(١) النسائي في الكبرى (١١٨٤٦).
(٢) معالم التنزيل للبغوي (٨/٤٦٤).
(٣) زاد المسير (٤/٤٦١).

وصعوبة، فإن اليسر يقارنه ويصاحبه، حتى لو دخل العسر جحر ضب لدخل عليه اليسر، فأخرجه؛ كما قال تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾ [الطلاق]. وكما قال النبي ﷺ: «**وإن الفرج مع الكرب، وإن مع العسر يسرًا**»(١). وتعريف (العسر) في الآيتين، يدل على أنه واحد، وتنكير (اليسر) يدل على تكراره، فلن يغلب عسرٌ يسرين. وفي تعريفه بالألف واللام، الدالة على الاستغراق والعموم يدل على أن كل عسر -وإن بلغ من الصعوبة ما بلغ- في آخره التيسير ملازم له»(٢).

فعلى المكروب أن يثق في الله تعالى، ويحسن الظن به. ثبت عن أبي هريرة ﷺ أنه قال: قال النبي ﷺ: «**يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي**»(٣). والمعنى: «أعاملُه على حسب ظنه بي، وأفعل به ما يتوقعه مني من خير أو شر»(٤).

وقد قال عبد الله بن مسعود ﷺ: «والذي لا إله غيرُه ما أُعطي عبدٌ مؤمن شيئًا خيرًا من حسن الظن بالله ﷺ، والذي لا إله غيره لا يحسن عبد بالله ﷺ الظن إلا أعطاه الله ﷺ ظنَّه؛ ذلك بأنَّ الخيرَ في يده»(٥).

ومن الأسباب التي يتحقق بها اليسر بعد العسر: الدعاء، وكثرة ذكر الله تعالى. ومن أسباب ذلك: التيسير على الناس، فالجزاء من جنس العمل، وفي الصحيح، عن أبي هُرَيرَةَ ﷺ قالَ: قامَ أَعرابِيٌّ فبالَ فِي المَسجِدِ، فَتناوَلَهُ النَاسُ، فَقالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ: «**دَعُوهُ، وَهَرِيقُوا عَلَى بَولِهِ سَجلًا مِن ماءٍ، أَو ذَنُوبًا مِن ماءٍ، فَإِنَّما بُعِثتُم مُيَسِّرِينَ، وَلَم تُبعَثُوا مُعَسِّرِينَ**»(٦). فيسلك المرء سبيل التيسير في معاملاته مع والديه وزوجه وولده وصديقه والناس جميعًا؛ ليبسر الله أمره.

---

(١) أخرجه الخطيب في التاريخ (١٠/٢٨٧)، وهو في السلسلة الصحيحة (٢٣٨٢).
(٢) تفسير السعدي، ص(٩٢٩).
(٣) البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).
(٤) تحفة الأحوذي (٧/٥٣).
(٥) ابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله، ص(٨٣).
(٦) البخاري (٢٢٠).

ومن أعظم أسباب ذلك: الصلاة.

قال ربنا: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة]. وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة].

وإن الصبر لمفتاح عظيم لذلك، ومن عجائب الأخبار في ذلك حادثة ذكرها الطبري فقال: «كنت بمكة فِي سنة أربعين ومائتين فرأيت خراسانيًا ينادي: معاشر الحاج من وجد هِميانًا[1] فيه ألف دينار فرده علي أضعف الله لَهُ الثواب. فقام إلَيهِ شيخ من أهل مكة كبير من موالي جعفر بن محمد، فَقالَ لَهُ: يا خراساني، بلدنا فقير أهله، شديد حاله، أيامه معدودة، ومواسمه منتظرة، فلعله بيد رجل مؤمن يرغب فيما تبذله لَهُ حلالًا يأخذه ويرده عليك. قالَ الخراساني: وكم يريد؟ قالَ العُشر؛ مئة دينار. قالَ: لا والله لا أفعل، ولكن أحيله عَلَى الله ﷻ. قالَ: وافترقا. فوقع لي أن الشيخ صاحب القريحة والواجد للهميان فاتبعته، فكان كما ظننت، فنزل إلَى دار خلقة الباب والمدخل، فسمعته يقول: يا لبابة! قالت لَهُ: لبيك يا أبا غياث. قالَ: وجدت صاحب الهميان ينادي عَلَيهِ مطلقًا فقلت لَهُ: قيِّده بأن تجعل لواجده شيئًا، فَقالَ: كم؟ فقلت: عشره، فَقالَ: لا، ولكنا نحيله عَلَى الله ﷻ، فأي شيء نعمل؟ ولا بد لي من رده، فقالت لَهُ: نقاسي الفقر معك منذ خمسين سنة ولك أربع بنات، وأختان، وأنا، وأمي، وأنت تاسع القوم، استنفقه واكسنا، ولعل الله يغنيك فتعطيه، أو يكافئه عنك ويقضيه. فَقالَ لها: لست أفعل، ولا أحرق حشاشي بعد ست وثمانين سنة. ثم سكت القوم وانصرفت. فلما كانَ من الغد عَلَى ساعات من النهار سمعت الخراساني يقول: يا معشر الحاج! وفد الله من الحاضر والبادي، من وجد هميانًا فيه ألف دينار فرده أضعف الله لَهُ الثواب. فقام إليه الشيخ وقال: يا خراساني! قد قلتُ لك بالأمس ونصحتُك، وبلدنا والله فقير قليل الزرع والضرع، وقد قلتُ لك أن تدفع إلَى واجده

(١) الهيمان: الكيس الذي تُجعل فيه الدراهم والنفقة ويُشدُّ على الوسط. انظر: القاموس مادة (همين)، ولسان العرب: مادة (همي).

مئة دينار، فلعله أن يقع بيد رجل مؤمن يخاف الله ﷻ فامتنعتَ، فقل لَهُ عشرة دنانير منها، فيرده عليك، ويكون لَهُ فِي العشرة دنانير ستر وصيانة. قالَ: فَقالَ لَهُ الخراساني: لا نفعل ولكن نحيله عَلَى الله ﷻ، قالَ: ثُمَّ افترقا. فلما كانَ من الغد سمعتُ الخراساني ينادي ذلك النداء بعينه، فقام الشيخ فَقالَ له: يا خراساني، قلت أول أمس العشر منه، وقلت لك عشر العشر أمس، واليوم أقول لك عشر العشر يشتري بنصف دينار قربة يستقي عَلَيها للمقيمين بمكة بالأجرة وبالنصف الآخر شاة يحلبها ويجعل ذلك لعياله غذاء، قالَ: لا نفعل، ولكن نحيله عَلَى الله ﷻ، قالَ: فجذبه الشَّيخ وقال: تعال خذ هميانك، ودعني أنام الليل، وأرحني من محاسبتك. فَقالَ لَهُ: امش بين يدي. فمشى الشيخ وتبعه الخراساني وتبعتُهما، فدخل الشيخ، فما لبث أن خرج وقال: ادخل يا خراساني، فدخل ودخلت، فأخرج له الهميان، وقال: هَذا هميانك؟ فنظر إليه وقال: هَذا همياني، قالَ: ثم حل رأسه من شد وثيق، ثم صب المال في المنتظم في حجر نفسه وقلبه مرارا، وقال: هَذِهِ دنانيرنا، وأمسك فم الهميان بيده الشمال ورد المال بيده اليمين فيه، وشده شدًّا سهلًا ووضعه عَلَى كتفه، ثم أراد الخروج، فلما بلغ باب الدار رجع، وقال للشيخ: يا شيخ! مات أبي رحمه الله، وترك من هَذا ثلاثة آلاف دينار، فَقالَ لي أخرج ثلثها ففرقه عَلَى أحق الناس عندك، وبع رحلي، واجعله نفقة لحجك! ففعلت ذلك وأخرجت ثلثها ألف دينار وشددتها فِي هَذا الهميان، وما رأيت منذ خرجت من خراسان إِلَى ها هنا رجلًا أحق به منك، خذه بارك الله لك فيه، ثم ولى وتركه. فوليتُ خلف الخراساني، فعدا أبو غياث فلحقني وردني، وَكانَ شيخًا مشدود الوسط بشريط معصب الحاجبين، ذكر أن لَهُ ستًّا وثمانين سنة، فَقالَ لي: اجلس، فقد رأيتك تتبعني فِي أول يوم وعرفت خبرنا بالأمس واليوم، سَمِعتُ أَحمَدَ بنَ يُونُسَ اليَربُوعِيَّ يَقُولُ: سَمِعتُ مالِكًا يَقُولُ: سَمِعتُ نافِعًا يَقُولُ: عَن عَبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال لعمر وعلي: **«إذا أتاكما بهدية بِلا مَسأَلَةٍ وَلا استِشرافِ نَفسٍ فاقبَلاها وَلا تَرُدّاها فَتَرُدّاها**

عَلَى اللهِ ﷻ»، وَهَذِهِ هَدِيَّةٌ مِنَ اللهِ والهَدِيَّةُ لِمَن حَضَرَ، ثُمَّ قالَ: يا لُبابَةُ، الهِميان وادعِي فُلانَةَ وَفُلانَةَ وصاح ببناته وأخواته، وقال: ابسطوا حُجُورَكُم. فَبَسَطتُ حِجرِي، وَما كانَ لَهُنَّ قَمِيصُ لَهُ حِجرٌ يَبسُطُونَهُ فَمَدُّوا أَيدِيَهُم، وَأَقبَلَ يَعُدُّ دِينارًا حَتَّى إِذا بَلَغَ العاشِرَ إِلَيَّ قالَ: ولك دينارا، حَتَّى فَرَغَ الهِميانُ، وَكانَت أَلفًا، فَأَصابَنِي مِائَةُ دِينارٍ، فَتَداخَلَنِي مِن سُرُورِ غِناهُم أَشَدَّ مِمّا داخلني مِن سُرُورٍ أَصابَنِي بِالمِائَةِ دِينارٍ، فَلَمّا أَرَدتُ الخروج قال لي: يا فَتَى، إِنَّكَ لَمُبارَكٌ، وَلا رَأَيتُ هَذا المالَ قَطُّ، وَلا أَمَّلتُهُ، وَأَنِّي لأَنصَحُكَ أَنَّهُ حَلالٌ فاحتَفِظ بِهِ، واعلَم أَنِّي كُنتُ أَقُومُ وَأُصَلِّي الغَداةَ فِي هَذا القَمِيصِ الخَلِقِ، ثُمَّ أَنزِعُهُ فَتُصَلِّي واحِدَةٌ واحِدَةٌ، ثُمَّ أَكتَسِبُ إِلَى ما بَينَ الظُّهرِ والعَصرِ، ثُمَّ أَعُودُ فِي آخِرِ النَّهارِ بِما قَد فَتَحَ اللهُ ﷻ لي من أقط وتمر وكرات، وَمِن بُقُولٍ نُبِذَت، ثُمَّ أَنزِعُهُ فَيَتَداوَلنَهُ فَيُصَلِّينَ فِيهِ المَغرِبَ وَعِشاءَ الآخِرَةِ، فَنَفَعَهُنَّ اللهُ بِما أَخَذنَ، وَنَفَعَنِي وَإِيّاكَ بِما أَخَذنا، وَرَحِمَ اللهُ صاحِبَ المالِ فِي قَبرِهِ، وَأَضعَفَ ثَوابَ الحامِلِ لِلمالِ وَشَكَرَ لَهُ. قالَ ابن جرير الطبري: فودعته وكتبت بِها العلم سنين أتقوت بِها، وأشتري منها الورق، وأسافر وأعطي الأجرة، فلما كانَ بعد سنة ست وخمسين سألت عن الشيخ بمكة فقيل إنه قد مات بعد ذَلِكَ بشهور، ووجدت بناته ملوكًا تحت ملوك، وماتت الأختان وأمهن، وكنت أنزل عَلَى أزواجهن وأولادهن، فأحدثهم بذلك، فيستأنسون بي ويكرموني، ولقد حدثني محمد بن حيان البَجَلِيّ فِي سنة تسعين ومائتين أنه لم يبق منهم أحد. فبارك الله لهم فيما صاروا إليه ورحمة الله عليهم أجمعين»[١].

فصبر عن الحرام، وعفَّ عن دينار واحد لا حق له فيه، فعوضه الله ألفًا وخيرًا عظيمًا، وهذه عاقبة الصبر التي وعد الله بها، وإن مع العسر يسرًا.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧﴾، والنبي ﷺ ما كان ينشغل بأمور الدنيا، فمن أي شيء يفرغ؟ من أمور الآخرة، كلما انتهى من عبادة شرع في عبادة أخرى.

---

(١) المنتظم في تاريخ الأمم والملوك (١١/٢٩٠ ـ ٢٩٣).

قال ربنا: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢﴾ [الأنعام]. فإذا فرغت أيها الحريص على آخرتك من عمل فلا تجلس، ابدأ عملًا آخر مما يبلغ بك رضاء الله. كما قال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩﴾ [الحجر].

﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ٨﴾، اطلب الخير الذي يرغب فيه من الله لا من غيره، واجعل رغبتك إلى الله وحده. ثبت عَنِ ابنِ مَسعُودٍ رضي الله عنه، أنه قالَ: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مَن أَصابَتهُ فاقَةٌ، فَأَنزَلَها بِالنّاسِ، لَم تُسَدَّ فاقَتُهُ، وَمَن أَنزَلَها بِالله فَيُوشِكُ اللهُ لَهُ بِرِزقٍ عاجِلٍ أَو آجِلٍ»**[1].

---

(١) الترمذي (٢٣٢٦)، وهو في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢٧٨٧).

سُورَةُ التِّينِ

بين يدي سورة التين

وهي مكية على الصحيح[١]. ومما يؤيده: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾؛ لأنها لو كانت مدنية لقيل: وذاك البلد الأمين، فلما أشير إلى مكة باسم الإشارة (هذا)، علمنا أنها مكية؛ لأنه يشار به إلى القريب. ولأن موضوعها موضوع السور المكية.

أسماؤها:

تسمى بسورة «﴿وَٱلتِّينِ﴾»، وسورة «التين»، بدون واو[١].

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُها أربع وَثَلاثُونَ كلمة، وحروفها مئة وَخَمسُونَ حرفًا، وَهِي ثَمانِي آيات فِي جَمِيع العدَد لَيسَ فِيها اختِلاف»[٢].

ما ورد فيها:

عن البَراء بن عازِبٍ ﷺ قالَ: «سَمِعتُ النَّبِيَّ ﷺ قَرَأَ فِي العِشاءِ بِالتَّينِ والزَّيتُونِ، فَما سَمِعتُ أَحَدًا أَحسَنَ صَوتًا مِنهُ»[٣].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٤١٩).
(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٧٩).
(٣) البخاري (٧٥٤٦)، ومسلم (٤٦٤).

موضوعاتها:

«احتوت هذه السورة على التنبيه بأن الله خلق الإنسان على الفطرة المستقيمة؛ ليعلموا أن الإسلام هو الفطرة، كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، وأن ما يخالف أصوله بالأصالة أو بالتحريف فساد وضلال، ومتبعي ما يخالف الإسلام أهل ضلالة. والتعريض بالوعيد للمُكذِّبين بالإسلام. والإشارة بالأمور المقسم بها إلى أطوار الشرائع الأربعة، إيماء إلى أن الإسلام جاء مصدقًا لها، وأنها مشاركة أصولها لأصول دين الإسلام. والتنويه بحسن جزاء الذين اتبعوا الإسلام في أصوله وفروعه. وشملت الامتنان على الإنسان بخلقه على أحسن نظام في جثمانه ونفسه»[1].

مقصدها:

بيان أنه لا نجاة في الآخرة إلا لأهل الإيمان والتقوى.

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٤٢٠).

سورة التين: تأملات ووقفات

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣)
لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ
(٥) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٦)
فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (٧) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ (٨)﴾

بُدئت السورة بالقَسَم، فقال الله تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣)﴾، وهذا قسم بمخلوقات أربعة، ولا يجوز لأحد أن يقسم بغير الله تعالى كما مر آنفًا. وبين هذه الأربعة علاقة؛ ففي القسم بشجرتي التين والزيتون إشارة إلى بلدهما، وهو الشام، والشام بلد الأنبياء، والطور كلَّم الله فيه موسى ﷺ، ومكة بلد نبينا ﷺ. فجمع الله بين أماكن هؤلاء الأنبياء ﷺ.

ونعتُ مكة بالأمن يدل على أهمية هذه النعمة، ومما يدل لذلك أمور، منها:

أنَّ نعمة الأمن أعظم من نعمة الرزق:

ولذلك قُدمت عليها في الآية الكريمة: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦)﴾ [البقرة]. فبدأ بالأمن قبل الرزق لسببين:

● الأول: لأن استتباب الأمن سبب للرزق، فإذا شاع الأمن واستتبَّ ضرب الناس في الأرض، وهذا مما يدرُّ عليهم رزق ربهم ويفتح أبوابه، ولا يكون ذلك إذا فُقد الأمن.

● الثاني: لأنه لا يطيب طعام ولا يُنتفع بنعمة رزق إذا فقد الأمن.

فمَن مِنَ الناس أحاط به الخوف من كل مكان، وتبدد الأمن من حياته ثم وجد لذة بمشروب أو مطعوم؟!

وامتنَّ الله في القرآن على عباده بهذه النعمة:

فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [القصص: ٥٧].

وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [العنكبوت]. وقال: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥].

وامتنَّ الله بها على أصحاب نبيه ﷺ، فقال: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنفال].

والأمن مطلب الناس جميعًا:

فإبراهيم عليه السلام دعا الله أن يجعل بلده آمنًا، قال ربنا: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ [إبراهيم].

ويوسف عليه السلام طلب من والديه دخول مصر مخبرًا باستتباب الأمن بها، ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يوسف].

ولما خاف موسى أعلمه ربه أنه من الآمنين ليهدأ رُوعه، وتسكن نفسه: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴿٣١﴾﴾ [القصص].

ولما رحم النبي ﷺ أهل مكة يوم فتحها ذكرهم بما ينالون به الأمن؛ مما يدل على أهميته لدى المؤمنين والكافرين، فقال: «**من دخَل دارَ أبي سفيان فهو آمن، ومن ألقَى**

السِّلاحَ فهو آمن، ومن دخل المسجدَ فهو آمن»(١).

والعبادة لا يتأتى القيام بها على وجهها إلا في ظل الأمن:

فالصلاة قال الله عنها: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾ [البقرة]، وقال: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء]، فقوله: ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، أي: أدوها بكمالها وصفتها التامة. ومن شروط وجوب الحج: الأمن، فإذا وجد الإنسان نفقة الحج ولم يكن الطريق إليه آمنًا فلا يجب عليه الحج قولًا واحدًا، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ [البقرة: ١٩٦]. ولما أخبر الله نبيَّه ﷺ بأنهم سيدخلون البيت الحرام ويؤدون نسكهم بعدما صدهم المشركون عنه قرن ذلك بالأمن فقال: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفتح].

وإن انتشار الدعوة الإسلامية المباركة يكون في وقت الأمن أكثر من غيره من الأوقات، قال الله تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [يونس].

(١) مسلم (١٧٨٠).

ولكن لما أغرق الله فرعون ودمَّر ما كان يصنعه وقومه دخل كثير من الناس في دين الله، ففي حديث السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب لما رأى النبي ﷺ في منامه سوادًا عظيمًا قال: «**وَرَأَيتُ سَوادًا كَثِيرًا سَدَّ الأُفُقَ، فَرَجَوتُ أَن تَكُونَ أُمَّتِي، فَقِيلَ: هَذا مُوسَى وَقَومُهُ**»(١).

وتأمل كيف أن النبي ﷺ لما خرج إلى الحديبية كان معه خمسمئة وألف من أصحابه، فلمّا انعقد الصُّلح وكان من بنوده: وقف الحرب عشر سنوات يأمن فيها الناس، دخل كثير منهم في دين الله، فبعد عامين وبضعة أشهر خرج مع النبي ﷺ لفتح مكة عشرة آلاف من المسلمين.

ونعمة الأمن أعظم من نعمة الصحة. قال الرازي ﷺ: «سُئل بعض العلماء: الأمن أفضل أم الصحة؟ فقال: الأمن أفضل، والدليل عليه أن شاة لو انكسرت رجلها فإنها تصح بعد زمان، ثم إنها تقبل على الرعي والأكل. ولو أنها ربطت في موضع وربط بالقرب منها ذئب فإنها تمسك عن العلف ولا تتناوله إلى أن تموت، وذلك يدل على أن الضرر الحاصل من الخوف أشد من الضرر الحاصل من ألم الجَسَد»(٢).

ومما يدل على أهميته قول نبينا ﷺ: «**مَن أَصبَحَ مِنكُم آمِنًا فِي سِربِهِ، مُعافًى فِي جَسَدِهِ، عِندَهُ قُوتُ يَومِهِ فَكَأَنَّما حِيزَت لَهُ الدُّنيا**»(٣).

ولأهمية الأمن أكرم الله به أولياءه في دار كرامته؛ لأنه لو فقد فُقد النعيم معه، قال رب العالمين: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ٤٦﴾ [الحجر]. وقال: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ٥٥﴾ [الدخان]، وقال: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ٣٧﴾ [سبأ].

---

(١) البخاري (٥٧٠٥)، ومسلم (٢٢٠).
(٢) التفسير الكبير (١٠٤/١٩).
(٣) الترمذي (٢٣٤٦)، وهو في الصحيحة (٢٣١٨).

ثـم قـال تعـالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾، هـذا جـواب القسـم، أي: خلقنـا الإنسـان في أحسـن هيئـة، كمـا قـال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠﴾ [الإسراء].

﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾، وهـذه فيها قولان: قيل: المراد بذلك أرذل العمر، كمـا قـال ربنـا: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٠]. وقيل: النـار. فخلـق الإنسـان في أحسـن تقويم، ثـم خسر ذلـك التقويـم والهيئة الحسـنة بدخـول النار التي تفسـد كل شيء فيـه[١]. وهذا الثاني هو الراجـح، وعلى القول الأول يكـون المعنى: إلا الذين عملوا الصالحـات فأجرهم يمضي لهـم وإن تركوا كثيرًا من العبـادات بسـبب تقدُّم العمر، فأجرهم ثابت، كما قال نبينـا ﷺ: «**إذا مَرِضَ العَبدُ، أَو سـافَرَ، كُتِـبَ لَهُ مِثلُ مـا كانَ يَعمَلُ مُقِيمًـا صَحِيحًا**»[٢]، فأجرهـم لا ينقطع، ولذا قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾. أي: مقطوع.

ثـم قـال: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧﴾، والخطـاب للكافـر المكـذب: بعـد أن خلقـه الله في أحسـن تقويـم مـا الذي يدعـوه ليكفـر بـه ويجحـد نعمتـه؟

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾، أليـسَ اللهُ بأحكـم مـن فصَـلَ بـين عبـادِه وقـضى بينهـم؟ والحديـث الذي فيـه قـول: بـلى، بعـد هـذه الآيـة لا يثبـت[٣].

ومـن علـم أن الله أحكم الحاكمـين انقاد إليـه، وعمل بشرعه، وسـلم له أمره، فلـم ينزعـج ممـا قـدره عليـه، لأنـه يعلـم أن عاقبـة أمـره لا تكـون إلا خـيرًا، قال نبينـا ﷺ: «**عَجَبًـا لِأَمـرِ المُؤمِـنِ، إِنَّ أَمرَهُ كُلَّـهُ خَيرٌ، وَلَيسَ ذاكَ لِأَحَـدٍ إِلّا لِلمُؤمِنِ،**

---

(١) يراجع: زاد المسير (٤/٤٦٤ ـ ٤٦٥).
(٢) البخاري (٢٩٩٦).
(٣) ضعيف الجامع (٤٤٤٦).

إن أَصابَتـهُ سَرّاءُ شَـكَرَ، فَـكانَ خَـيرًا لَهُ، وَإِن أَصابَتـهُ ضَرّاءُ، صَـبَرَ فَـكانَ خَـيرًا لَهُ»[١].
ولذا قـال ربنـا: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾، وهـذه آيـة تكـررت أربـع مـرات في القـرآن الكريـم، في البقـرة (٢١٦)، و(٢٣٢)، وفي سـورة آل عمـران (٦٦)، وفي النـور (٢٤). ومـن علـم ذلـك أيقـن أن خـيرة الله له خـير، وإن لـم يعلـم، فـإن الله يعلـم. فبعـض الأشـياء نكرههـا وهي خـير، مما يوضـح ذلك: قوله تعـالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ [البقرة]. فهـذا حـال المجاهد قبـل أن يخوض غمار الحـرب، فمـا حـاله بعـد أن يخوضهـا ويفـوز بالشـهادة في سـبيل الله؟ قـال أنس بن مالـك ﷺ أن رسـول الله ﷺ قـال: «**مـا مِـن عَـبدٍ يَمـوتُ لَهُ عِنـدَ اللهِ خَيرٌ يَسُرُّهُ أَن يَرجِـعَ إِلَى الدُّنيـا وَأَنَّ لَهُ الدُّنيـا وَمـا فِيهـا، إِلّا الشَّـهِيدَ لِمـا يَـرَى مِـن فَضلِ الشَّـهادَةِ، فَإِنَّـهُ يَـسُرُّهُ أَن يَرجِـعَ إِلَى الدُّنيـا فَيُقتَـلَ مَرَّةً أُخـرَى**»[٢]. عجيب! كان يكـره القتال، فلمـا نظـر إلى إكـرام الله للشـهداء تمـنى أن يعـود إلى الدنيـا ليُقتل مـرة أخرى!

(١) مسلم (٢٩٩٩).
(٢) البخاري (٢٧٩٥)، ومسلم (١٨٧٧).

سُورَةُ العَلَقِ

بين يدي سورة العلق

وهي مكية اتفاقًا[١].

أسماؤها:

سورة «﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾»، وسورة العلق، وسورة ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، و«﴿اقْرَأْ﴾»، و«اقرأ والعلق». وسماها بعض المفسرين بسورة «القلم»، ولا يخفى أنه اسم لسورة «ن»[١].

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُها اثنَتانِ وَسَبعُونَ كلمة، وحروفها مئتان وَثَمانُونَ حرفًا، وَهِي ثَمانِي عشرَة آيَة فِي الشَّامي وتسع عشرَة فِي الكُوفِي والبصري وَعِشرُونَ فِي المَدَنِيين والمكي، واختلافها آيتان ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾، عدها المدنيان والمكي وَلم يعدها الباقُونَ، و﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ﴾، لم يعدها الشَّامي وعدَّها الباقُونَ»[٢].

سبب نزولها:

عَن أَبِي هُرَيرَةَ ، قالَ: قالَ أَبُو جَهلٍ: هَل يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجهَهُ بَينَ أَظهُرِكُم؟ فَقِيلَ: نَعَم، فَقالَ: واللّاتِ والعُزَّى لَئِن رَأَيتُهُ يَفعَلُ ذَلِكَ لَأَطَأَنَّ عَلَى رَقَبَتِهِ، أَو

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٤٣٣).
(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٨٠).

لَأُعَفِّرَنَّ وَجهَهُ فِي التُّرابِ، قالَ: فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي، زَعَمَ لِيَطَأَ عَلَى رَقَبَتِهِ، قالَ: فَما فَجِئَهُم مِنهُ إِلّا وَهُوَ يَنكُصُ عَلَى عَقِبَيهِ وَيَتَّقِي بِيَدَيهِ، قالَ: فَقِيلَ لَهُ: ما لَكَ؟ فَقالَ: إِنَّ بَينِي وَبَينَهُ لَخَندَقًا مِن نارٍ وَهَولًا وَأَجنِحَةً، فَقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَو دَنا مِنِّي لاختَطَفَتهُ المَلائِكَةُ عُضوًا عُضوًا» قالَ: فَأَنزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ٨ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ١٠ أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ١١ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ١٢ أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ١٣﴾ يَعنِي أَبا جَهلٍ(١).

ما ورد فيها:

عن أبي هريرة ﷺ قال: «سجدنا مع النبي ﷺ في: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾، و﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾»(٢).

وقال عُروَةُ بنُ الزُّبَيرِ ﷺ: إِنَّ عائِشَةَ، زَوجَ النَّبِيِّ ﷺ أَخبَرَتهُ أَنَّها قالَت: كانَ أَوَّلَ ما بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الوَحيِ الرُّؤيا الصّادِقَةَ فِي النَّومِ، فَكانَ لا يَرَى رُؤيا إِلّا جاءَت مِثلَ فَلَقِ الصُّبحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيهِ الخَلاءُ، فَكانَ يَخلُو بِغارِ حِراءٍ يَتَحَنَّثُ فِيهِ - وَهُوَ التَّعَبُّدُ - اللَّيالِيَ أُولاتِ العَدَدِ، قَبلَ أَن يَرجِعَ إِلَى أَهلِهِ وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثلِها، حَتَّى فَجِئَهُ الحَقُّ وَهُوَ فِي غارِ حِراءٍ، فَجاءَهُ المَلَكُ، فَقالَ: اقرَأ، قالَ: «ما أَنا بِقارِئٍ»، قالَ: «**فَأَخَذَنِي، فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهدَ، ثُمَّ أَرسَلَنِي، فَقالَ: اقرَأ، قالَ: قُلتُ: ما أَنا بِقارِئٍ، قالَ: فَأَخَذَنِي، فَغَطَّنِي الثّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهدَ، ثُمَّ أَرسَلَنِي، فَقالَ: اقرَأ، فَقُلتُ: ما أَنا بِقارِئٍ، فَأَخَذَنِي، فَغَطَّنِي الثّالِثَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهدَ، ثُمَّ أَرسَلَنِي، فَقالَ:** ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥﴾»(٣).

---

(١) مسلم (٢٧٩٧).
(٢) مسلم (٥٧٨).
(٣) البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

وعَـن جابِـرٍ ﷺ أَنَّهُ قـالَ: صَـلَّى مُعاذُ بـنُ جَبَـلٍ الأَنصـارِيُّ لِأَصحابِهِ العِشـاءَ. فَطَـوَّلَ عَلَيهِـم؛ فانـصَرَفَ رَجُـلٌ مِنّـا. فَصَـلَّى فَأُخـبِرَ مُعاذٌ عَنـهُ؛ فَقـالَ: إِنَّـهُ مُنافِقٌ، فَلَمّـا بَلَـغَ ذَلِـكَ الرَّجُـلَ دَخَلَ عَلَى رَسُـولِ اللهِ ﷺ فَأَخبَرَهُ مـا قالَ مُعاذٌ؛ فَقـالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «أَتُرِيـدُ أَن تَكُـونَ فَتّانًـا يـا مُعـاذُ؟ إِذا أَمَمـتَ النّاسَ فاقـرَأ بِـ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾، وَ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ وَ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾»(١).

موضوعاتها:

«تلقـين محمـد ﷺ الكلام القـرآني وتلاوتـه؛ إذ كان لا يعرف التـلاوة من قبل. والإيمـاء إلى أن علمـه بذلـك مُيسَّر لأن الله الذي ألهـم البشر العلـم بالكتابة قادر على تعليـم من يشـاء ابتداء. وإيماء إلى أن أمته سـتصير إلى معرفة القـراءة والكتابة والعلـم. وتوجيهـه إلى النظـر في خلـق الله الموجـودات وخاصة خلقه الإنسـان خلقًا عجيبًـا مسـتخرجًا مـن علقـة فذلـك مبـدأ النظـر. وتهديـد مَـن كـذَّب النبي ﷺ وتعـرض ليصـده عـن الصـلاة والدعـوة إلى الهـدى والتقـوى. وإعلام النـبي ﷺ أن الله عالـم بأمـر من يناوئونـه وأنه قامعهـم وناصرٌ رسـولَه»(٢).

مقصدها:

«تثبيت الرسول ﷺ على ما جاءه من الحق، والتقرب إلى الله، وأن لا يعبأ بقوة أعدائه؛ لأن قوة الله تقهرهم»(٣).

---

(١) مسلم (٤٦٥).
(٢) التحرير والتنوير (٣٠/٤٣٤).
(٣) التحرير والتنوير (٣٠/٤٣٤).

سورة العلق: تأملات ووقفات

الآيات (١ ـ ٥)

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١)﴾، معلوم أن نبينا ﷺ لا يقرأ ولا يكتب، ومعنى لا يقرأ: لا يتهجى الحروف، وإلا فهو يقرأ ما حفظه بالتلقين، كما قيل له: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. ومما يعضد ذلك: أن النبي ﷺ قال لعلي ﷺ: «اكتُب يا عَلِيُّ: هَذا ما صالَحَ عَلَيهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ»، قالُوا: لَو نَعلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ ما قاتَلناكَ! فَقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «امحُ يا عَلِيُّ، اللهُمَّ إِنَّكَ تَعلَمُ أَنِّي رَسُولُكَ، امحُ يا عَلِيُّ واكتُب: هَذا ما صالَحَ عَلَيهِ مُحَمَّدُ بنُ عَبدِ اللهِ»، فأبى ذلك علي، فقال: «أرني مكانها»، فمحاها[1]. ورفض علي ﷺ، وذلك يدل على أن الأدب قد يقدم على الطاعة، وهو أسُّها.

قال ربنا ﷻ: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقال: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨)﴾ [الأعراف]. وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨)﴾ [العنكبوت]، فالأمية في حقه ﷺ كمال؛ لأنها دافعة لتهمة التلقي عن كتب أهل الكتاب، وما يعتري الأمي من نقص مدفوع عنه ﷺ بما هو أبلغ، ألا وهو الوحي.

---

(١) أحمد (٣١٨٧)، وحسنه الشيخ شعيب الأرنؤوط (٢٦٣/٥).

قال ابن كثير رحمه الله: «وَهَكَذا كانَ، صَلَواتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ دائِمًا أَبَدًا إِلَى يَومِ القِيامَةِ، لا يُحسِنُ الكِتابَةَ وَلا يَخُطُّ سَطرًا وَلا حَرفًا بِيَدِهِ، بَل كانَ لَهُ كُتّابٌ يَكتُبُونَ بَينَ يَدَيهِ الوَحيَ والرَّسائِلَ إِلَى الأَقالِيمِ، وَمَن زَعَمَ مِن مُتَأَخِّرِي الفُقَهاءِ كالقاضِي أَبِي الوَلِيدِ الباجِيِّ وَمَن تابَعَهُ أَنَّهُ ﷺ كَتَبَ يَومَ الحُدَيبِيَةِ: «هَذا ما قاضَى عَلَيهِ مُحَمَّدُ بنُ عَبدِ اللهِ»، فَإِنَّما حَمَلَهُ عَلَى ذَلِكَ رِوايَةٌ فِي صَحِيحِ البُخارِيِّ: «ثُمَّ أَخَذَ فَكَتَبَ»، وَهَذِهِ مَحمُولَةٌ عَلَى الرِّوايَةِ الأُخرَى: «ثُمَّ أَمَرَ فَكَتَبَ»، وَلِهَذا اشتَدَّ النَّكِيرُ بَينَ فُقَهاءِ المَغرِبِ والمَشرِقِ على من قال بقول الباجي، وتبرؤوا مِنهُ، وَأَنشَدُوا فِي ذَلِكَ أَقوالًا وَخَطَبُوا بِهِ فِي مَحافِلِهِم: وَإِنَّما أَرادَ الرَّجُلُ ـ أَعنِي الباجِيَّ، فِيما يَظهَرُ عَنهُ ـ أَنَّهُ كَتَبَ ذَلِكَ عَلَى وَجهِ المُعجِزَةِ، لا أَنَّهُ كانَ يُحسِنُ الكِتابَةَ، وَما أَورَدَهُ بَعضُهُم مِنَ الحَدِيثِ أَنَّهُ لَم يَمُت، ﷺ حَتَّى تَعَلَّمَ الكِتابَةَ، فَضَعِيفٌ لا أَصلَ لَهُ»[1]، ولذلك لا يلتفت إلى قول من يزعم أنه يكتب، أو يتكلم بأكثر من لغة، فكل هذا باطل مردود بالكتاب والسنة، وأقوال السلف من الصحابة رضي الله عنهم وأكابر من بعدهم.

والرب: الخالق، المالك، المدبر. والربوبية: إفراد الله بأفعاله.

ومما دلت الآية عليه بإشارتها: أهمية قراءة القرآن، فهذا أول ما نزل، وقد قال نبينا ﷺ: «**لاَ حَسَدَ إِلاَّ فِي اثنَتَينِ: رَجُلٌ آتاهُ اللهُ القُرآنَ، فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آناء اللَّيلِ وَآناءَ النَّهارِ، وَرَجُلٌ آتاهُ اللهُ مالًا، فَهُوَ يُنفِقُهُ آناءَ اللَّيلِ وَآناءَ النَّهارِ**»[2].

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾، والعلق: الدم المتجمد العالق بالرحم.

ووُصف الله تعالى في هذه الآيات بالكرم، ومن كرمه وإفضاله: تعليمه لنا الوحي وما تضمنه من المعارف والعلوم.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/٢٨٥ ـ ٢٨٦).
(٢) البخاري (٥٠٢٦)، ومسلم (٨١٥).

الآيات (٦ ـ ١٩)

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾
أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ
أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا
لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ
﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾﴾؛ أي: لا يجوز أن يكون الإنسان هكذا، أن يكفر بمن أنعم عليه، وعلَّمه ما لم يكن يعلم، قال ربنا: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل].

والطغيان: مجاوزة الحد.

﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾، ذكر سببًا من أسباب الطغيان في هذه الآية، وهو ظن الاستغناء، وهذا وهم في حق أولئك، ولهذا قال: ﴿أَن رَّءَاهُ﴾، فالكافر يعد نفسه كذلك وليس ذا بصحيح، فاستغناؤهم عن الله ليس متحققًا، ولا يزال العبد مفتقرًا إلى ربه في كل حركة وسكنة، لكن كثير من الخلق كفور، فإذا ضُيِّق عليه ارعوى، ولهذا كان المشركون يلجؤون إلى الله تعالى في الملمات، ويزول عنهم الطغيان! كما قال سبحانه: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت]، فإذا جاء الأمن عادوا إلى سيرتهم السيئة الأولى! وكم من إنسان إذا وجد مالًا ظنَّ أنه قد استغنى به عن ربه، فتولد في نفسه طغيان عريض! قال ربنا عن إمام

من أئمة هذا الباب: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص].

ومن أسباب الطغيان:

● إيثار الحياة الدنيا والرضا بها، ونسيان الآخرة، والتغافل عنها، قال ربنا: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النازعات].

● ومن الأسباب: الإعراض عن أحكام الله وتشريعاته، فهذا مما يورث الطغيان، والانحراف، قال تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة: ٦٤].

فعلينا أن نفتّش قلوبنا لئلا يكون فيها شيءٌ من الطغيان، وأن نعلم أن الافتقار إلى الله هو أخص خصائص العبودية.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴿٨﴾﴾، تهديد للطغاة؛ فهم صائرون إلى الله تعالى، والله مجازيهم بطغيانهم.

ومن فوائد هذه الآية: أن تذكُّرَ الآخرة مما يمنع النفس من السير في طريق الطغاة، وتذكُّرها عاصم من ذنوب كثيرة، ولهذا فإنك تجد أن الله تعالى إذا نهى عن كثير من الأشياء ذكَّر باليوم الآخر الذي يحمل تذكره على اجتنابها، قال ربنا: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وقال: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة: ٢٣٢]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، وقال: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [التوبة].

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾﴾، وهذه نزلت في أبي جهل كما مر معنا. والعبد نبينا ﷺ، وهذا يدل على شرف من انتسب إلى عبودية الله تعالى، فربنا سبحانه نعت نبينا ﷺ بنعت العبودية في أسمى أحواله، وأرفع مقاماته، قال ربنا تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١]، وقال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الجن]، وقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾﴾ [الكهف]، وقال: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [النجم]، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الحديد: ٩]. وفي الحديث: «**لَا تُطرُونِي، كَما أَطرَت النَّصارَى ابنَ مَريَمَ، فَإِنَّما أَنا عَبدُهُ، فَقُولُوا: عَبدُ اللهِ، وَرَسُولُهُ**»(١).

ثم قال: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾﴾، أرأيت إن كان مستقيمًا على دين الله، آمرًا غيره بذلك، أينهى هذا عن الصلاة ويمنع منها؟ وهذا تعجيب من صنيع فرعون هذه الأُمَّة بنبينا ﷺ.

---

(١) البخاري (٣٤٤٥).

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ١٤﴾، إن كذب من يأمر بالحق، وكفر، وأعرض عنه، ألا يعلم أن الله مطلع عليه! وفي هذا تحذير من العقوبة، فالله تعالى مطلع شاهد سوف يحاسبه بعلم على ما بدر منه.

ومن أهم دروس هذه الآية: أن لمراقبة الله تعالى أثرًا كبيرًا في البعد عن معصية الله، ولهذا زجر هنا عن الحرام بما يفيد اطلاعه ومراقبته.

ومما يدل على ذلك قصة رواها نبينا ﷺ، قال: «انطَلَقَ ثَلاثَةُ نَفَرٍ مِمَّن كانَ قَبلَكُم حَتَّى آواهُمُ المَبيتُ إلى غارٍ فَدخلُوهُ، فانحَدرَت صَخرَةٌ مِنَ الجَبَلِ فَسَدَّت عَلَيهِمُ الغارَ، فَقالُوا: إنَّهُ لاَ يُنجِيكُم مِن هذِهِ الصَّخرَةِ إلاَّ أَن تَدعُوا اللهَ بصالِحِ أعمالِكُم. قالَ رجلٌ مِنهُم: اللهُمَّ كانَ لِي أَبَوانِ شَيخانِ كبيرانِ، وكُنتُ لا أغبِقُ قَبلَهُما أهلًا ولاَ مالًا، فَنَأى بِي طَلَب الشَّجَرِ يومًا فلم أَرِح عَلَيهما حَتَّى ناما، فَحَلَبتُ لَهما غَبُوقَهُما فَوَجَدتُهما نائِمَينِ، فَكَرِهتُ أَن أُوقِظَهُما وَأَن أغبِقَ قَبلَهُما أهلًا أو مالًا، فَلَبَثتُ ـ والقَدَحُ عَلَى يَدِي ـ أَنتَظِرُ استِيقاظَهُما حَتَّى بَرِقَ الفَجرُ والصِّبيَةُ يَتَضاغَونَ عِندَ قَدَمَيّ، فاستَيقَظا فَشَرِبا غَبُوقَهُما. اللهُمَّ إن كُنتُ فَعَلتُ ذلِكَ ابتِغاء وَجهِكَ فَفَرِّج عَنَّا ما نَحنُ فِيهِ مِن هذِهِ الصَّخرَةِ، فانفَرَجَت شَيئًا لا يَستَطيعُونَ الخُرُوجَ مِنهُ. وقالَ الآخر: اللهُمَّ إنَّهُ كانَت لِيَ ابنَةُ عَمٍّ، كانَت أَحَبَّ النّاسِ إلَيَّ ـ وفي رواية: كُنتُ أُحِبُّها كأَشَدِّ ما يُحِبُّ الرِّجالُ النساءَ ـ فأَرَدتُها عَلَى نَفسِها فامتَنَعَت مِنِّي، حَتَّى أَلَمَّت بها سَنَةٌ مِنَ السِّنِينَ فَجاءَتنِي فَأَعطَيتُها عِشرِينَ وَمئَةَ دينارٍ عَلَى أَن تُخَلِّيَ بَيني وَبَينَ نَفسِها فَفعَلَت، حَتَّى إذا قَدَرتُ عَلَيها قالت: اتَّقِ اللهَ وَلاَ تَفُضَّ الخاتَمَ إلَا بِحَقِّهِ، فانصَرَفتُ عَنها وَهيَ أَحَبُّ النّاسِ إلَيَّ وَتَرَكتُ الذَّهَبَ الَّذِي أعطَيتُها. اللهُمَّ إن كُنتُ فَعَلتُ ذلِكَ ابتِغاءَ وَجهِكَ فافرُج عَنّا ما نَحنُ فيهِ، فانفَرَجَتِ الصَّخرَةُ، غَيرَ أَنَّهُم لا يَستَطِيعُونَ الخُرُوجَ مِنها. وَقالَ الثالِثُ: اللهُمَّ استَأجَرتُ أُجَراءَ وأَعطَيتُهُم أجرَهُم غيرَ رَجُل واحدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهَبَ، فَثَمَّرتُ أجرَهُ حَتَّى كَثُرَت مِنهُ الأموالُ، فَجاءَنِي بَعدَ حِينٍ، فَقالَ: يا عبدَ اللهِ، أَدِّ إِلَيَّ أجرِي،

فَقُلتُ: كُلُّ ما تَرَى مِن أجرِكَ: مِنَ الإبلِ والبَقَرِ والغَنَمِ والرَّقيقِ، فقالَ: يا عبدَ اللهِ، لاَ تَستَهزِىء بِي! فَقُلتُ: لاَ أستهزِئُ بِكَ، فَأَخَذَهُ كُلَّهُ فاستاقَهُ فَلَم يترُك مِنهُ شَيئًا. اللَّهُمَّ إن كُنتُ فَعَلتُ ذلِكَ ابتِغاءَ وَجهِكَ فافرُج عَنّا ما نَحنُ فِيهِ، فانفَرَجَتِ الصَّخرَةُ فَخَرَجُوا يَمشُونَ»[1]. فانظر إلى أثر مراقبة الله تعالى في العصمة من الذنب، وفي تحقيق الفرج واليسر بعد العسر، ومن ترك شيئًا لله عوَّضه الله خيرًا منه.

ومن فوائد الآيات أيضًا أن الصد عن العبادات سبيل من لا خلاق له في الآخرة، وقد ذم الله تعالى المنافقين لما زهدوا في الطاعة فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٩﴾ [التوبة].

﴿كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ١٥ نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ ١٦﴾، أي: لن يتحقق له مراده، ولن يجد سبيلًا إلى رسول الله ﷺ. وقوله: ﴿لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ لنأخذن بها أخذًا شديدًا، والناصية: مقدم الرأس. فيؤخذ بها إلى النار، ويفعل ذلك بناصيته؛ إذلالًا له.

ومن اللطائف في هذه الآيات فتح باب التوبة لهذا الكافر العنيد، ﴿لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ﴾، فإن انتهى غفر له، كما قال ربنا: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٣﴾ [المائدة]، وقال: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٨ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٣٩ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٤٠﴾ [الأنفال].

---

(١) البخاري (٢٢١٥)، ومسلم (٢٧٤٣).

﴿ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾، والمراد: صاحبها، فهو كاذب مذنب، والناصية مجمع الفكر خيرًا أو شرًّا.

﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ١٨ ﴾، ثبت عَنِ ابنِ عَبّاسٍ ﷺ: كانَ النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي، فَجاءَ أَبُو جَهلٍ فَقالَ: أَلَم أَنهَكَ عَن هَذا؟ أَلَم أَنهَكَ عَن هَذا؟ أَلَم أَنهَكَ عَن هَذا؟ فانصَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ فَزَبَرَهُ، فَقالَ أَبُو جَهلٍ: إِنَّكَ لَتَعلَمُ ما بِها نادٍ أَكثَرُ مِنِّي، فَأَنزَلَ اللهُ: ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ١٨ ﴾ فَقالَ ابنُ عَبّاسٍ: واللهِ لَو دَعا نادِيَهُ لأَخَذَتهُ زَبانِيَةُ اللهِ»[1]. فالزبانية «مَلائِكَةُ العَذابِ»[2].

ويحسن التنبيه هنا إلى أن بعض الناس يطلق هذه الكلمة على طغاة البشر! وهذا لا يليق، فيقولون: اللَّهُمَّ دمر فلانًا وزبانيته! والزبانية ملائكة كرام، فيقال: دمِّره وجنوده، أو وحزبه، ونحو ذلك.

﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ١٩ ﴾، أي: ليس الأمرُ كما يظنُّ أبو جهلٍ فيما قاله من اعتزازِه بكثرةِ من ينصره. ثم أرشده إلى ما يحقق القرب من الله، ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾، فالصلاة من أعظم ما يقرب إلى الله تعالى. وفي الحديث: «**أَقرَبُ ما يَكُونُ العَبدُ مِن رَبِّهِ، وَهُوَ ساجِدٌ**»[3]، وهي كذلك من أعظم ما يستعان بها على الطغاة، وفي التخلص من الهموم والأحزان، وضيق الصدر، ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ٩٧ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٩٨ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ٩٩ ﴾ [الحجر].

---

(١) الترمذي (٣٣٤٩)، وهو في السلسلة الصحيحة (٢٧٦).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/٤٣٨).
(٣) مسلم (٤٨٢).

سُورَةُ القَدْرِ

بين يدي سورة القدر

«وهي مكية في قول الجمهور، وهو قول جابر بن زيد ويروى عن ابن عباس. وعن ابن عباس أيضًا والضحاك أنها مدنية، ونسبه القرطبي إلى الأكثر. وقال الواقدي: هي أول سورة نزلت بالمدينة، ويرجحه أن المتبادر أنها تتضمن الترغيب في إحياء ليلة القدر وإنما كان ذلك بعد فرض رمضان بعد الهجرة»(١).

أسماؤها:

تعرف باسمين: «سورة ﴿ٱلْقَدْرِ﴾»، و«سورة ﴿لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾»(٢).

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُها ثَلاثُونَ كلمة، وحروفها مئة واثنا عشر حرفًا، وَهِي سِتُّ آيات فِي المَكِّيّ والشامي، وَخمس فِي عدد الباقِينَ، واختلافها آيَة ﴿لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ الثَّالِث، عدها المَكِّيّ والشامي وَلم يعدها الباقُونَ»(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٤٥٥).
(٢) التحرير والتنوير (٣٠/٤٥٥).
(٣) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٨١).

موضوعاتها:

«التنويه بفضل القرآن وعظمته بإسناد إنزاله إلى الله تعالى، والرد على الذين جحدوا أن يكون القرآن منزلًا من الله تعالى، ورفع شأن الوقت الذي أنزل فيه، ونزول الملائكة في ليلة إنزاله، وتفضيل الليلة التي توافق ليلة إنزاله من كل عام، ويستتبع ذلك تحريض المسلمين على تحيُّن ليلة القدر بالقيام والتصدُّق»[1].

مقصدها:

رفعُ همة المؤمنين للعناية بكتاب رب العالمين.

(١) التحرير والتنوير (٤٥٥/٣٠).

سورة القدر: تأمُّلاتٌ ووقفات

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ﴿٢﴾ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ﴿٥﴾﴾

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ﴿١﴾﴾، المراد: القرآن، وفي هذا أربع فوائد:

● الأولى: فضل ليلة القدر؛ لأن الله أنزل فيها القرآن.

● الثانية: فضل القرآن الكريم.

وذلك من وجهين:

(١) أنه أسند إنزاله إليه سبحانه.

(٢) أنه جاء بضميره دون اسمه لاشتهاره.

● الثالثة: أنَّ ليلة القدر في رمضان خلافًا لمن زعم غير ذلك، قال تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ [البقرة:١٨٥].

● الرابعة: علوُّ الله تعالى، فنزول الأشياء منه وصعودها إليه دليل على علوه على خلقه.

ومعلوم أن القرآن نزل مفرقًا كما قال ربنا: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء]، فما معنى أنه نزل في ليلة القدر؟ قال ابنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «أُنزِلَ القُرآنُ جُملَةً إِلَى سَماءِ الدُّنيا فِي لَيلَةِ القَدرِ، ثُمَّ نَزَلَ بَعدَ ذَلِكَ فِي عِشرِينَ سَنَةً،

قال: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ۝٣٣﴾ [الفرقان]، وقال: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ۝١٠٦﴾ [الإسراء]»[1].

وقيل: ابتداء نزول القرآن كان في ليلة القدر، ثم نزل مفرقًا بعد ذلك، ولا منافاة بين القولين.

فإن قيل: لماذا سُميت بليلة القدر؟

فالجواب: لما يكون فيها من التقدير، قال تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾ [الدخان].

قال ابن كثير ﷺ: «وقوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾ أي: في ليلة القدر يُفصل من اللوح المحفوظ إلى الكَتَبة أمرُ السنة، وما يكون فيها من الآجال والأرزاق، وما يكون فيها إلى آخرها. وهكذا روي عن ابن عمر، وأبي مالك، ومجاهد، والضحاك، وغير واحد من السلف»[2].

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢﴾، وسبق معنا أن كل سؤال بـ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾، فإجابته مبيَّنة، وهو سؤال غرضه التفخيم.

﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣﴾، وليس كألف شهر كما يكتب بعض الناس، بل خير من ألف شهر، وألف شهر تعادل ثلاثة وثمانين سنة وأربعة أشهر. فالعبادة في ليلة القدر خير من العبادة في ألف شهر خلت منها، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ [القصص: ٦٨].

أما وقت هذه الليلة فقد ثبت في السنة ما يدل على أنها ليلة إحدى وعشرين، وأنها ليلة ثلاث وعشرين، وخمس وعشرين، وسبع وعشرين، وتسع وعشرين، وآخر ليلة من رمضان. وثبت في الصحيح، عَن عائِشَةَ ﵂، قالَت: كانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ

---

(١) النسائي في الكبرى (١١٣٧٢).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/٢٤٦).

يُجاوِرُ فِي العَشرِ الأَواخِرِ مِن رَمَضانَ وَيَقُولُ: «**تَحَرَّوا لَيلَةَ القَدرِ فِي العَشرِ الأَواخِرِ مِن رَمَضانَ**»[١]. وهذا يدل على أنها متنقلة في العشر الأخيرة من رمضان كما يقول المحققون من أهل العلم، وهناك من قال: إنها ثابتة في ليلة سبع وعشرين وهو قوي، لكن الأول أرجح.

فعلى المسلم أن يجتهد في العشر كلها أكثر من غيرها كما كان يفعل رسول الله ﷺ.

وقد ثبت في صحيح البخاري، عن عُبادَة بن الصَّامِتِ ﷺ أنه قال: إنَّ رَسُولَ الله ﷺ خَرَجَ يُخبِرُ بِلَيلَةِ القَدرِ، فَتَلاحَى رَجُلانِ مِن المُسلِمِينَ، فَقالَ:«**إِنِّي خَرَجتُ لِأُخبِرَكُم بِلَيلَةِ القَدرِ، وَإِنَّهُ تَلاحَى فُلانٌ وَفُلانٌ فَرُفِعَت، وَعَسَى أَن يَكُونَ خَيرًا لَكُم، التَمِسُوها فِي السَّبعِ والتِّسعِ والخَمسِ**»[٢].

وتلاحى: تخاصم، وفيه شؤم الخصومات، وحرص النبي ﷺ على الخير لأمته، وعدم علمه الغيب، وعدم الكفر بالمعصية، وأنَّ الخير فيما يختاره الله.

قال الرازي ﷺ في تفسيره: «المسألة الخامسة: أنه تعالى أخفى هذه الليلة لوجوه أحدها: أنه تعالى أخفاها، كما أخفى سائر الأشياء، فإنه أخفى رضاه في الطاعات حتى يرغبوا في الكل، وأخفى الإجابة في الدعاء ليبالغوا في كل الدعوات، وأخفى الاسم الأعظم ليعظموا كل الأسماء، وأخفى في الصلاة الوسطى ليحافظوا على الكل، وأخفى قبول التوبة ليواظب المكلف على جميع أقسام التوبة، وأخفى وقت الموت ليخاف المكلف، فكذا أخفى هذه الليلة ليعظموا جميع ليالي رمضان. وثانيها: كأنه تعالى يقول: لو عينت ليلة القدر، وأنا عالم بتجاسركم على المعصية، فربما دعتك الشهوة في تلك الليلة إلى المعصية، فوقعت في الذنب، فكانت معصيتك مع علمك أشد من معصيتك لا مع علمك، فلهذا السبب أخفيتها عليك»[٣].

(١) البخاري (٢٠٢٠)، ومسلم (١١٦٩).
(٢) البخاري (٤٩).
(٣) التفسير الكبير للرازي (٣٢/٢٢٩).

وأما علامات ليلة القدر فقد ثبت في معجم الطبراني الكبير عَن واثِلَةَ بن الأَسقَعِ ﷺ، عَن رَسُولِ الله ﷺ، قالَ: «**لَيلَةُ القَدرِ بَلجَةٌ**[١]**، لا حارَّةٌ وَلا بارِدَةٌ، وَلا يُرى فِيها بنجِمٍ، وَمِن عَلامَةِ يَومِها تَطلُعُ الشَّمسُ لا شُعاعَ لَها**»[٢]، لكن هل هذه العلامات مطردة في كل ليلة أو في ليلة معينة مضت؟ ثم هل هي مختصة بليلة القدر أو قد تحصل في غيرها؟ كل ذلك محتمل فالتعويل بعد توفيق الله تعالى على الاجتهاد والعمل في عامة ليالي العشر.

ومن أهم ما ينبغي فعله فيها:

(١) القيام:

لحديث أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**مَن قامَ لَيلَةَ القَدرِ إِيمانًا واحتِسابًا؛ غُفِرَ لَهُ ما تَقَدَّمَ مِن ذَنبِهِ**»[٣].

(٢) الدعاء:

لقول عائشة ﷺ: يا رَسُولَ اللهِ أَرَأَيتَ إن عَلِمتُ أَيُّ لَيلَةٍ لَيلَةُ القَدرِ ما أَقُولُ فِيها؟ قالَ: «**قُولِي: اللهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ العَفوَ؛ فاعفُ عَنِّي**»[٤].

وهذا الحديث دليل على أن الله قد يكرم بعض عباده بأن يعرفهم ليلة القدر.

(٣) المحافظة على الفرائض:

والمحافظة على الفرائض مطلوب في كل وقت، ولما كانت الفرائض أحب الأعمال إلى الله كانت المحافظة عليها في ليلة القدر من آكد الأعمال، قال الله تعالى في الحديث القدسي: «**وَما تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبدِي بِشَيءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمّا افتَرَضتُ عَلَيهِ**»[٥].

---

(١) مشرقة.
(٢) الطبراني في الكبير (٥٩/٢٢)، وهو في صحيح الجامع (٥٤٦٩).
(٣) البخاري (١٩٠١).
(٤) الترمذي (٣٥١٣)، وهو في السلسلة الصحيحة (٣٣٣٧).
(٥) البخاري (٦٥٠٢).

(٤) المحافظة على الفجر والعشاء في جماعة:

لحديث مسلم الذي حدث به عثمان بن عفان ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**مَن صَلَّى العِشاءَ فِي جَماعَةٍ فَكَأَنَّما قامَ نِصفَ اللَّيلِ، وَمَن صَلَّى الصُّبحَ فِي جَماعَةٍ فَكَأَنَّما صَلَّى اللَّيلَ كُلَّهُ**»(١).

(٥) الاجتهاد في العبادة عمومًا:

فعن عائِشَةَ ﷺ قالَت: «كانَ النَّبِيُّ ﷺ إذا دَخَلَ العَشرُ شَدَّ مِئزَرَهُ، وَأَحيا لَيلَهُ، وَأَيقَظَ أَهلَهُ»(٢).

(٦) الاعتكاف:

وبه يتمكن الإنسان من التشمير عن ساعد الجد في طاعة الله، ولذا «كانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعتَكِفُ فِي كُلِّ رَمَضانٍ في العشر الأخيرة»(٣).

وقوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾﴾، الروح هو جبريل ﷺ، وعطفه على الملائكة من باب عطف الخاص على العام؛ لبيان مكانته.

ولم يُبَيِّن لنا هذا الأمر الذي تنزل به الملائكة، فمِن هنا بمعنى الباء، ولكن ما كان من الله فلا بُدَّ أن يكون خيرًا وبركةً.

﴿سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾﴾، «وفي معنى السلام قولان: أحدهما: أنه لا يحدث فيها داءٌ ولا يُرسَل فيها شيطان، قاله مجاهد. والثاني: أن معنى السلام: الخير والبركة، قاله قتادة. وكان بعض العلماء يقول: الوقف على ﴿سَلَٰمٌ﴾، على معنى تنزَّل الملائكة بالسلام»(٤).

---

(١) مسلم (٦٥٦).
(٢) البخاري (٢٠٢٤)، ومسلم (١١٧٤).
(٣) البخاري (٢٠٢٥).
(٤) زاد المسير في علم التفسير (٤/٤٧٣).

وختامًا أنبه إلى ما أحدثه بعض أهل العدِّ! ومن ذلك ادعاء بعضهم بأن كلمة ﴿هِيَ﴾ السابعة والعشرون في السورة، ولذلك فإن ليلة القدر هي ليلة سبع وعشرين فهذا مما لا ينبغي الالتفات إليه، ولا دليل في كونها كذلك على أن الليلة هي السابعة والعشرون! بل ترتيب هذا على هذا مجرد تحكم،كمن يزعم أن ﴿لَيْلَةِ﴾ هي الكلمة الرابعة فتكون الليلة هي ليلة أربع وعشرون! أو يقول هي تسع وعشرون لأن لفظ ﴿لَيْلَةِ﴾ الثاني هو التاسع! فكل ذلك تحكُّم، والله تعالى لم يجعل لأرقام الكلمات اعتبارًا أو دلالة في الشريعة.

سُورَةُ البَيِّنَةِ

بين يدي سورة البينة

«اختلف في أنها مكية أو مدنية»[١]، وقد جزم غير واحد من المحققين بأنها مدنية وهو الأظهر.

أسماؤها:

لها ستة أسماء: لم يكن، والقيِّمة، والبيِّنة، وأهل الكتاب، والبرية، والانفكاك[١].

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُها أَربع وَتسعُونَ كلمة، وحروفها ثَلاث مئة وَسِتَّة وَتسعُونَ حرفًا، وَهِي تسع آيات فِي البَصرِيِّ والشامي بِخِلاف عَنهُ وثمان فِي عدد الباقِينَ، اختلافها آيَة: ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، عدها البَصرِيُّ والشامي على خلاف عَنهُ فِي ذَلِك وَلم يعدها الباقُونَ»[٢].

ما ورد فيها:

عَن أَنَسٍ ﷺ، قالَ: قالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأُبَيٍّ: «إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَن أَقرَأَ عَلَيكَ القُرآنَ» قالَ أُبَيٌّ: آللهُ سَمَّانِي لَكَ؟ قالَ: «اللهُ سَمَّاكَ لِي». فَجَعَلَ أُبَيٌّ يَبكِي، قالَ قَتادَةُ: فَأُنبِئتُ أَنَّهُ قَرَأَ عَلَيهِ: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾[٣]، وهذا مما يدل على أن السورة مدنية.

(١) التحرير والتنوير (٤٦٧/٣٠).
(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٨٢).
(٣) البخاري (٤٩٥٩)، ومسلم (٧٩٩).

موضوعاتها:

«توبيخ المشركين وأهل الكتاب على تكذيبهم بالقرآن والرسول ﷺ، والتعجيب من تناقض حالهم إذ هم ينتظرون أن تأتيهم البينة فلما أتتهم البينة كفروا بها، وتكذيبهم في ادعائهم أن الله أوجب عليهم التمسك بالأديان التي هم عليها، ووعيدهم بعذاب الآخرة،وا لتسجيل عليهم بأنهم شر البرية، والثناء على الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ووعدهم بالنعيم الأبدي، ورضى الله عنهم، وإعطائه إياهم ما يرضيهم، وتخلَّل ذلك تنويهٌ بالقرآن وفضله على غيره باشتماله على ما في الكتب الإلهية التي جاء بها الرسول ﷺ من قبل وما فيه من فضل وزيادة»[١].

مقصدها:

تحذير المؤمنين من سلوك سبيل المغضوب عليهم والضالين؛ فإنه لا يورث إلا العذاب في الآخرة.

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٤٦٨).

سورة البينة: تأملات ووقفات

الآيات (١ ـ ٥)

لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، هذه الآية تتحدث عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى، يخبر ربنا عن حالهم قبل بعثة نبينا ﷺ، أنهم لا ينفكون عما هم فيه من الكفر إلا إذا جاءتهم البينة، والبينة العلامة الجلية الواضحة، وهي رسولٌ من الله تعالى، وقد كانوا في انتظار خروجه.

﴿يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾﴾، يتلو ما اشتملت عليه الصحف من المكتوب فيها، والمراد: القرآن الكريم، قال ابن الجوزي رحمه الله: «يدل على ذلك أنه كان يتلو القرآن عن ظهر قلبه، لا من كتاب»[1]. وهي مطهرة من كل باطل، والظاهر أنها المكتتبة في الملأ الأعلى لا المصاحف فإنها لم تجمع بعد، ولم تكن أول الأمر صحفًا.

(١) زاد المسير (٤/٤٧٥).

﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ٤﴾، ولما جاءت البينة تفرق أهل الكتاب في أمر نبينا ﷺ، فمنهم من آمن به كعبد الله بن سلام ﷺ، ومنهم من كفر، كما قال ربنا: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٨٩﴾ [البقرة]. ومن كفر منهم اختلفوا في أمره، فمنهم من يقول: ساحر، ومنهم من يقول: مجنون، وبعضهم قال: إنما يُعلِّمه بشر، فاختلفوا فيه اختلافًا عريضًا. قال ربنا: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ٧ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ٩﴾ [الذاريات].

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ٥﴾، أي: إنما جاءهم هذا الرسول الكريم الذي كفروا به بما أمرهم الله به في كتبهم، من توحيد الله، وصرف العبادة له دونما سواه، والصلاة، والزكاة، فهذا هو الدين المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، أُمروا به، وبُعث بمثله من كفروا به.

قال ابن كثير ﷺ: «وَقَدِ استَدَلَّ كَثِيرٌ مِنَ الأَئِمَّةِ، كالزُّهرِيِّ والشَّافِعِيِّ، بِهَذِهِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ عَلَى أَنَّ الأَعمالَ داخِلَةٌ فِي الإِيمانِ؛ وَلِهَذا قالَ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ٥﴾»(١).

والشرائع الربانية جميعها جاءت بالتوحيد والصلاة والزكاة ومما يدل على ذلك:

قول ربنا: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل ٣٦]، وقول ربنا لموسى ﷺ: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ١٤﴾ [طه]، وقول عيسى ﷺ: ﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ٣١﴾ [مريم].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/٤٥٧).

وقد أخبر الله تعالى بأن الدين القويم هو التوحيد وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ولهذا قال: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾، والإسلام دين قويم وسط، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١٤٣﴾ [البقرة].

قال الإمام الطبري رحمه الله: «وأرى أن الله تعالى ذِكره إنما وصفهم بأنهم وسَط؛ لتوسطهم في الدين، فلا هُم أهل غُلوٍّ فيه، غلوَّ النصارى الذين غلوا بالترهُّب، وقيلهم في عيسى ما قالوا فيه، ولا هُم أهلُ تقصير فيه، تقصيرَ اليهود الذين بدَّلوا كتابَ الله، وقتلوا أنبياءَهم، وكذبوا على ربهم، وكفروا به، ولكنهم أهل توسط، واعتدال فيه، فوصفهم الله بذلك، إذ كان أحبَّ الأمور إلى الله أوسطُها»[1].

وقال ابن القيم رحمه الله: «فدين الله بين الغالي فيه، والجافي عنه، وخير الناس: النمط الأوسط، الذين ارتفعوا عن تقصير المفرطين، ولم يلحقوا بغلوِّ المعتدين، وقد جعل الله سبحانه هذه الأُمَّة وسطًا، وهي الخيار، العدل؛ لتوسطها بين الطرفين المذمومين، والعدل هو: الوسط بين طرفي الجور، والتفريط، والآفات إنما تتطرق إلى الأطراف والأوساط محمية بأطرافها، فخيار الأمور أوساطها»[2].

والوسطية افترى عليها كثير من الناس في هذا الزمان، فادعى كثيرون أن التقصير وسطية، وأطلقها بعضهم على من تنازل عن مبادئ الإسلام وما جاء به، ومن المهم أن يقال: معيار الوسطية نصوص الشرع، فمن تمسك بها فهو الوسطي، ومن قصر فيها فهو المفرط، ومن زاد فهو الغالي.

---

(١) تفسير الطبري (١٤٢/٣).
(٢) إغاثة اللهفان (١٨٢/١).

الآيات (٦ ـ ٨)

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾

بعد أن بيَّن تفرُّق أهل الكتاب، وبيَّن الدين القويم، ذكر مآل من خالفه فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾﴾، شرُّ من خلق الله تعالى، شرٌّ من الخنازير، والكلاب، والحيات. قال ربنا: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾ [المائدة]، وقال: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال]، وقال: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنفال]. فهؤلاء شر البرية لشركهم بالله، مسالمهم ومحاربهم. وفي المقابل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾﴾، بإيمانهم وأعمالهم، فالرفعة إنما تنال بالعمل الصالح، قال ربنا: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾، وعدهم الله بجنته ورضوانه، والثاني أجل من الأول، فلا شيء يعدل نيل رضوانه تعالى، فما النجاة من النار، وما دخول الجنة إلّا أثر

من آثاره، ولا البقاء فيها إلّا لذلك. قال ربنا: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة]. أي: ورضوان من الله أكبر وأعظم مما هم فيه من النعيم. وعَن أَبِي سَعِيدٍ الخُدرِيِّ ﷺ، قالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ ﷻ يَقُولُ لِأَهلِ الجَنَّةِ: يا أَهلَ الجَنَّةِ؟ فَيَقُولُونَ: لَبَّيكَ رَبَّنا وَسَعدَيك، فَيَقُولُ: هَل رَضِيتُم؟ فَيَقُولُونَ: وَما لَنا لاَ نَرضَى وَقَد أَعطَيتَنا ما لَم تُعطِ أَحَدًا مِن خَلقِكَ، فَيَقُولُ: أَنا أُعطِيكُم أَفضَلَ مِن ذَلِكَ، قالُوا: يا رَبِّ، وَأَيُّ شَيءٍ أَفضَلُ مِن ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيكُم رِضواني، فَلاَ أَسخَطُ عَلَيكُم بَعدَهُ أَبَدًا»(١).

و ربنا يقول: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾ [التوبة]، والمعنى: يحلف المنافقون الأيمان الكاذبة، ويقدمون الأعذار الملفقة؛ ليُرضُوا المؤمنين، والله ورسوله أحق وأولى أن يُرضُوهما بالإيمان بهما وطاعتهما، إن كانوا مؤمنين حقًّا، ففي الآية دليل على أن المؤمن عليه أن يبذل جهده لنيل رضوان ربه. وكذلك قوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد]، فعلى المسلم أن يجتهد في طلب مرضاة الله تعالى، وسبيل ذلك ما جاء في آخر السورة: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾، قال ابن كثير ﷺ: «هَذا الجَزاءُ حاصِلٌ لِمَن خَشِيَ اللهَ واتَّقاهُ حَقَّ تقواهُ، وَعَبَدَهُ كَأَنَّهُ يَراهُ، وَقَد عَلِمَ أَنَّهُ إِن لَم يَرَهُ فَإِنَّهُ يَراهُ»(٢)، وأحق الناس بأن يخشوا ربهم هم العلماء، لما لخشيتهم من أثر في صلاح البلاد والعباد، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، والله المستعان.

---

(١) البخاري (٦٥٤٩)، ومسلم (٢٨٢٩).
(٢) تفسير ابن كثير (٤٥٨/٨).

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

بين يدي سورة الزلزلة

وهي مكية على الصحيح من قولي العلماء[١].

أسماؤها:

«الزلزلة»، و«﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾»، و«الزلزال»، و«﴿زُلْزِلَتِ﴾»[١].

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُها خمس وَثَلاثُونَ كلمة، وحروفها مئة وَتِسعَة وَأربَعُونَ حرفًا، وَهِيَ ثَمانِي آيات فِي المدنِي الأول والكوفي وتسع فِي عدد الباقِينَ، اختلافها آيَة ﴿أَشْتَاتًا﴾؛ لم يعدها المدنِي الأول والكوفي وعدها الباقُونَ»[٢].

ما ورد فيها:

عَن مُعاذِ بنِ عَبدِ اللهِ الجُهَنِيِّ، أَنَّ رَجُلًا، مِن جُهَينَةَ أَخبَرَهُ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ «يَقرَأُ فِي الصُّبحِ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ﴾ فِي الرَّكعَتَينِ كِلتَيهِما»[٣].

ولا يقال: نسي؛ فالأصل في أفعاله أنها للتشريع.

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٤٨٩).

(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٨٣).

(٣) أبو داود (٨١٦)، وصححه الألباني في صفة الصلاة (٢/٤٣٥).

وعن أبي أمامة ﷺ قال: «كان رسول الله ﷺ يوتر بتسع، حتى إذا بَدُنَ وكَثُرَ لحمه؛ أوتر بسبع، وصلى ركعتين وهو جالس، فقرأ بـ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾، و ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾»(١)، ووردت فيها أخبار أخرى لكن في ثبوتها نظر.

موضوعاتها:

«إثبات البعث، وذكر أشراطه وما يعتري الناس عند حدوثها من الفزع. وحضور الناس للحشر وجزائهم على أعمالهم من خير أو شر».

مقصدها:

التحريض على فعل الخير واجتناب الشر.

(١) أخرجه أحمد (٢٢٣١٣)، وصححه الشيخ شعيب الأرنؤوط (٦٥١/٣٦).

سورة الزلزلة: تأملات ووقفات

إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا
﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾
بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا
لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا
يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾﴾، أي: رُجَّت رجًّا شديدًا. وهو زلزال عام، ليس كزلازل الدنيا التي تكون في ناحية دون أخرى، والتي تخضع للقياس بمقياس ريختر!

﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾﴾، أخرجت الموتى، وكلٌّ في تلك الساعة سيطرح هذا السؤال: ما لها؟!

وذكر الله تعالى هذا المشهد في آية أخرى، قال ربنا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ [الحج].

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾﴾، تخبر بما عُمل عليها من خير أو شر، وتشهد على كل أحد بما عمل، وهذا يدعو لتحقيق مراقبة الله تعالى، فالأرض تشهد، وتشهد الجوارح، وتشهد الصحف، فأين المفر من ذلك؟

﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾، تصرفها ذلك بأمر الله ووحيه إليها، وهو أمرها أن تنشق عنهم، وأن تشهد عليهم[١]. كما قال ربنا: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝١١٧﴾ [البقرة]، وقال: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٧﴾ [آل عمران]، وقال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٠﴾ [النحل]، وقال: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يس]، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٦٨﴾ [غافر].

وتأمل في استجابة الأرض لوحي الله، ونحن نقرأ أمره الشرعي، وبين أيدينا ما أوحاه إلى نبينا ﷺ، فأين نحن من أمره ونهيه؟

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦﴾، يرجعون من موقف الحساب متفرقين، لينظروا إلى أعمالهم وما ترتب عليها من الجزاء. ولذلك ختمت السورة بترغيب: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧﴾، وتهديد: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾، والذرة النملة الصغيرة.

ودلت هذه الآية على أن العمل يوزن في الآخرة، والنصوص قاضية بوزن العمل، والعامل، وصحائف الأعمال.

أما وزن العمل فللآيتين الأخيرتين من هذه السورة.

وبدليل حديث أبي هريرة ﷺ، قال النبي ﷺ: «كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ: سُبحانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبحانَ اللهِ الْعَظِيمِ»[٢].

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/٤٦١).
(٢) البخاري (٦٤٠٦)، ومسلم (٢٦٩٤).

وحديث أبي الدرداء ﷺ، قال نبينا ﷺ: «**ما مِن شَيءٍ أَثقَلُ فِي المِيزانِ مِن حُسنِ الخُلُقِ**»(١).

ويوزن: العامل.

ودليل ذلك: حديث أبي هريرة ﷺ أن النَّبي ﷺ قال: «**إِنَّهُ لَيَأتِي الرَّجُلُ العَظِيمُ السَّمِينُ يَومَ القِيامَةِ لا يَزِنُ عِندَ اللهِ جَناحَ بَعُوضَةٍ**»(٢).

وحديث ابنِ مَسعُودٍ ﷺ، أَنَّهُ كانَ يَجتَنِي سِواكًا مِنَ الأَراكِ، وَكانَ دَقِيقَ السَّاقَينِ، فَجَعَلَتِ الرِّيحُ تَكفَؤُهُ، فَضَحِكَ القَومُ مِنهُ، فَقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مِمَّ تَضحَكُونَ؟**»، قالُوا: يا نَبِيَّ اللهِ، مِن دِقَّةِ ساقَيهِ، فَقالَ: «**والَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ، لَهُما أَثقَلُ فِي المِيزانِ مِن أُحُدٍ**»(٣).

وتوزن: صحف الأعمال.

لحديث عَبدِ اللهِ بنَ عَمرِو بنِ العاصِ ﷺ، قال: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ ﷻ يَستَخلِصُ رَجُلًا مِن أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الخَلائِقِ يَومَ القِيامَةِ، فَيَنشُرُ عَلَيهِ تِسعَةً وَتِسعِينَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مَدَّ البَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: أَتُنكِرُ مِن هَذا شَيئًا؟ أَظَلَمَتكَ كَتَبَتِي الحافِظُونَ؟ قالَ: لا يا رَبِّ. فَيَقُولُ: أَلَكَ عُذرٌ، أَو حَسَنَةٌ؟ فَيُبهَتُ الرَّجُلُ، فَيَقُولُ: لا، يا رَبِّ. فَيَقُولُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِندَنا حَسَنَةً واحِدَةً، لا ظُلمَ اليَومَ عَلَيكَ، فَتُخرَجُ لَهُ بِطاقَةٌ، فِيها: أَشهَدُ أَن لا إِلَهَ إِلّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: أَحضِرُوهُ، فَيَقُولُ: يا رَبِّ، ما هَذِهِ البِطاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلّاتِ؟ فَيُقالُ: إِنَّكَ لا تُظلَمُ. فَتُوضَعُ السِّجِلّاتُ فِي كِفَّةٍ، والبطاقة في كفة، فَطاشَتِ السِّجِلّاتُ، وَثَقُلَتِ البِطاقَةُ، وَلا يَثقُلُ شَيءٌ**»(٤).

---

(١) أحمد (٢٧٥١٧)، وصححه الشيخ شعيب الأرنؤوط في تخريجه.
(٢) البخاري (٤٧٢٩)، ومسلم (٢٧٨٥).
(٣) أحمد (٣٩٩١)، وحسنه الشيخ شعيب الأرنؤوط.
(٤) أحمد (٦٩٩٤)، وقال الشيخ شعيب ﷺ: إسناده قوي.

والعلم بوزن الأعمال وإحصاء مثاقيل الذر يدعو إلى الحرص على كل طاعة والحذر من كل سيئة، يقول أحد طلاب العلم: نفعني الله بهذه الآية: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧)﴾، فإذا ضعفت عن عمل طاعة، وتثاقلت لكونها نافلة، قلت: ربما تكون هذه هي الذرة التي يرجح بها ميزاني في الآخرة، فأنشط وأعملها، وإن كانت معصية قلت: أخشى أن تكون هي الذرّة التي يرجح بها ميزان السيئات؛ فأخاف وأتركها.. وقد أحسن في تدبُّره الآية، وفقه الله وسدده وجزاه خيرًا.

سُورَةُ العَادِيَاتِ

بين يدي سورة العاديات

وفي كونها مدنية أو مكية قولان[١].

أسماؤها:

«العاديات»، و«﴿وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ﴾»، بإثبات الواو، وبحذفها[١].

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«وكَلِمُها أَربَعُونَ كلمة ككلم ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾، وحروفها مئة وَثَلاثَة وَسِتُّونَ حرفًا، وَهِي إحدَى عشرَة آيَة فِي جَمِيع العدَد لَيسَ فِيها اختِلاف»[٢].

موضوعاتها:

«ذم خصال تفضي بأصحابها إلى الخسران في الآخرة، وهي خصال غالبة على المشركين والمنافقين. ووعظ الناس بأن وراءهم حسابًا على أعمالهم بعد الموت ليتذكره المؤمن ويهدد به الجاحد. وأكد ذلك كله بأن افتتح بالقسم، وأدمج في القسم التنويه بخيل الغزاة أو رواحل الحجيج»[٣].

---

(١) التحرير والتنوير (٤٩٧/٣٠).
(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٨٤).
(٣) التحرير والتنوير (٤٩٨/٣٠).

مقصدها:

التحذير من بعض خصال الكافرين[٣].

سورة العاديات: تأملات ووقفات

وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا
﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ
لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ
ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ
﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾﴾، «الضبح: الصَّوتُ الَّذي يُسمَعُ مِنَ الفَرَسِ حِينَ تَعدُو»[1]، وقيل: هذا قسم بالخيل التي تعدو في سبيل الله.

﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾﴾، قسم بالخيل التي يخرج من حوافرها شرر بسبب احتكاكها بالأرض والحصى.

﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾﴾، قسم بالخيل حال إغارتها صبحًا في سبيل الله تعالى.

﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾﴾، قسم بها إذا جرت وأثارت الغبار.

﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾﴾، قسم بالخيل التي يقتحم راكبها وسط العدو بها.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾﴾، هذا جواب القسم، والكنود: الجحود، ومناسبة ذكر الخيل قبلها لأن فيها وفاءً، فكأنه قيل: أفتكون الخيل مع صاحبها أحسن من حالك منك مع ربك أيها الجحود!

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤٦٥/٨).

﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ٧﴾، «قالَ قَتادَةُ وَسُفيانُ الثَّورِيُّ: وَإِنَّ اللهَ عَلَى ذَلِكَ لِشَهِيدٌ. وَيُحتَمَلُ أَن يَعُودَ الضَّميرُ عَلَى الإنسانِ، قالَهُ مُحَمَّدُ بنُ كَعبٍ القُرَظِيُّ، فَيَكُونُ تَقدِيرُهُ: وَإِنَّ الإنسانَ عَلَى كَونِهِ كَنُودًا لَشَهِيدٌ، أَي: بِلِسانِ حالِهِ»[1].

﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ٨﴾، يحب المال حبًّا جمًّا، وواجبنا أمام الغرائز أن نوجهها ولا نكبتها، فلو جمعت مالًا ثم أنفقت منه في سبيل الله أصابك خير كثير. فأن يسعى الإنسان لجمع المال ليعف نفسه ووالده وزوجه ولده فهذا سعي مبارك، وهو في سبيل الله. وقد ثبت عَن عامِرِ بنِ سَعدِ بنِ أَبِي وَقّاصٍ، عَن أَبِيهِ ﷺ، قالَ: كانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعُودُنِي عامَ حَجَّةِ الوَداعِ مِن وَجَعٍ اشتَدَّ بِي، فَقُلتُ: إِنِّي قَد بَلَغَ بِي مِنَ الوَجَعِ وَأَنا ذُو مالٍ، وَلاَ يَرِثُنِي إِلّا ابنَةٌ، أَفَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثَي مالِي؟ قالَ: «لاَ» فَقُلتُ: بِالشَّطرِ؟ فَقالَ: «لاَ» ثُمَّ قالَ: «**الثُّلُثُ وَالثُّلُثُ كَبِيرٌ - أَو كَثِيرٌ - إِنَّكَ أَن تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغنِياءَ، خَيرٌ مِن أَن تَذَرَهُم عالَةً يَتَكَفَّفُونَ النّاسَ، وَإِنَّكَ لَن تُنفِقَ نَفَقَةً تَبتَغِي بِها وَجهَ اللهِ إِلّا أُجِرتَ بِها، حَتَّى ما تَجعَلُ فِي فِي امرَأَتِكَ**»[2]. فديننا لا يحارب المال، قال نبينا ﷺ: «**نِعمَ المالُ الصّالِحُ لِلمَرءِ الصّالِحِ**»[3]. ولا يمنع المسلم من تملك المال، وإنما الممنوع أن يملكك المال، فيكنزه ولا ينفق منه حقَّه المفروض، بل يحبسه ولعًا به، فهذا هو مذموم متوعد صاحبه، ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ٢﴾ [الهمزة].

ثم قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ٩﴾، أخرج ما فيها من الأموات للبعث والحساب.

﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ١٠﴾، أبرز ما كانوا يخفونه في أنفسهم.

﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ١١﴾، عليم بأمرهم، وسيجازون على فعلهم.

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/٤٦٧).

(٢) البخاري (١٢٩٥)، ومسلم (١٦٢٨).

(٣) أحمد (١٧٧٦٣)، وصححه الشيخ شعيب الأرنؤوط ﷺ.

وبمناسبة القسم بأحوال الخيل في هذه السورة، قد قال نبينا ﷺ: «**الخَيلُ معقُودٌ فِي نَواصِيها الخَيرُ؛ الأَجرُ والمَغنَمُ إِلَى يَومِ القِيامَةِ**»(١)، وهذا كناية عن بقاء الجهاد، وفيه فضل آلته، ومن أنفسها الخيل في الماضي ولعله يكون لها في القابل شأن.

وثبت عَن أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ: «**الخَيلُ لِثَلاثَةٍ: لِرَجُلٍ أَجرٌ، وَلِرَجُلٍ سِترٌ، وَعَلَى رَجُلٍ وِزرٌ، فَأَمّا الَّذِي لَهُ أَجرٌ: فَرَجُلٌ رَبَطَها فِي سَبِيلِ اللهِ، فَأَطالَ فِي مَرجٍ أَو رَوضَةٍ، فَما أَصابَت فِي طِيَلِها ذَلِكَ مِنَ المَرجِ أَوِ الرَّوضَةِ كانَت لَهُ حَسَناتٍ، وَلَو أَنَّها قَطَعَت طِيَلَها فاستَنَّت شَرَفًا أَو شَرَفَينِ كانَت أَرواثُها وَآثارُها حَسَناتٍ لَهُ، وَلَو أَنَّها مَرَّت بِنَهرٍ، فَشَرِبَت مِنهُ وَلَم يُرِد أَن يَسقِيَها كانَ ذَلِكَ حَسَناتٍ لَهُ، وَرَجُلٌ رَبَطَها فَخرًا وَرِئاءً، وَنِواءً لِأَهلِ الإِسلامِ فَهِيَ وِزرٌ عَلَى ذَلِكَ**»(٢).

ومن الأحاديث التي رغبت في اتخاذ خيل الجهاد حديث تَمِيمٍ الدّارِيِّ ﷺ، قالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنِ ارتَبَطَ فَرَسًا فِي سَبِيلِ اللهِ، ثُمَّ عالَجَ عَلَفَهُ بِيَدِهِ، كانَ لَهُ بِكُلِّ حَبَّةٍ حَسَنَةٌ**»(٣).

ولا ريب أن هذه الأقسام دليل على فضل عبادة الجهاد، فما نالت الخيل شرف القسم بها إلا لخوضها غمار الحرب والقتال في سبيل الله، وهذا دليل على فضل هذه العبادة.

وقد قال الله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [التوبة]. وسبب نزولها عَن زَيدِ بنِ سَلّامٍ أَنَّهُ سَمِعَ أَبا سَلّامٍ قالَ: حَدَّثَنِي النُّعمانُ بنُ بَشِيرٍ قالَ: كُنتُ عِندَ مِنبَرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقالَ رَجُلٌ: ما أُبالِي أَن لا

---

(١) البخاري (٣١١٩)، ومسلم (١٨٧١).
(٢) البخاري (٢٨٦٠).
(٣) ابن ماجه (٢٧٩١)، وهي في صحيح الجامع (٦٠٠٨).

أَعمَلَ عَمَلًا بَعدَ الإسلامِ إلّا أن أُسقِيَ الحاجَّ، وَقالَ آخَرُ: ما أُبالِي أن لا أَعمَلَ عَمَلًا بَعدَ الإسلامِ إلّا أن أَعمُرَ المَسجِدَ الحَرامَ، وَقالَ آخَرُ: الجِهادُ فِي سَبِيلِ اللهِ أفضَلُ مِمّا قُلتُم. فَزَجَرَهُم عُمَرُ وَقالَ: لا تَرفَعُوا أَصواتَكُم عِندَ مِنبَرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَومُ الجُمُعَةِ، وَلَكِن إذا صَلَّيتُ الجُمُعَةَ دَخَلتُ فاستَفتَيتُهُ فِيما اختَلَفتُم فِيهِ. فَأَنزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآيَةَ إلَى آخِرِها...»(١).

والجهاد دليل صدق الإيمان، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات].

وهو فعل الأنبياء، وأولياء الله الصالحين، ﴿لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [التوبة].

وفي الحديث: «إذا تَبايَعتُم بِالعِينَةِ، وَأَخَذتُم أَذنابَ البَقَرِ، وَرَضِيتُم بِالزَّرعِ، وَتَرَكتُم الجِهادَ، سَلَّطَ اللهُ عَلَيكُم ذُلًّا لا يَنزِعُهُ حَتَّى تَرجِعُوا إلَى دِينِكُم»(٢).

---

(١) مسلم (١٨٧٩).
(٢) أبو داود (٣٤٦٢)، وهو في السلسلة الصحيحة برقم (١١).

سُورَةُ القَارِعَةِ

بين يدي سورة القارعة

وهي مكية اتفاقًا[١].

أسماؤها:

ليس لها سوى اسم «﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴾»[١].

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُها سِتٌّ وَثَلاثُونَ كلمة، وحروفها مئة واثنانِ وَخَمسُونَ حرفًا، وَهِي ثَمانِي آيات فِي البَصرِيِّ والشامي وَعشر فِي المَدَنِيين والمكي وَإِحدَى عشرَة فِي الكُوفِي، اختلافها ثَلاث آيات: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴾ الأولى، عدها الكُوفِي وَلم يعدها الباقُونَ، ﴿ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾، و﴿خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾، لم يعدهما البَصرِيُّ والشامي وعدهما الباقُونَ»[٢].

موضوعاتها:

«ذكر فيها إثبات وقوع البعث وما يسبق ذلك من الأهوال. وإثبات الجزاء على الأعمال، وأن أهل الأعمال الصالحة المعتبرة عند الله في نعيم، وأهل الأعمال السيئة

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٥٠٩).
(٢) البيان في عدّ آي القرآن، ص(٢٨٥).

التي لا وزن لها عند الله في قعر الجحيم»[١].

مقصدها:

الترغيب في الفوز في الآخرة، والتحذير من الكفر الذي هو سبب لخسارتها.

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٥٠٩).

سورة القارعة: تأملات ووقفات

ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ
﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾
وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا
مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ
﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ
﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾

﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾﴾، وسميت القيامة بالقارعة لأنها تقرع القلوب بأهوالها.

﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾﴾، وهذا الاستفهام يشوِّق لمعرفة حقيقتها، ويهوِّل من شأنها؛ فإذا ذكر ما بعده كان أرسخ في الذهن مما لو ذكر بدونه، وهو أسلوب قرآني نبوي مستخدم في الأمور المهمة التي يراد تقريرها، مثال ذلك: ما ثبت عَن أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ: «**أَلا أَدُلُّكُم عَلَى ما يَمحُو اللهُ بِهِ الخَطايا، وَيرفَعُ بِهِ الدَّرَجاتِ؟**» قالُوا: بَلَى يا رَسُولَ اللهِ، قالَ: «**إِسباغُ الوُضُوءِ عَلَى المَكارِهِ، وَكَثرَةُ الخُطا إِلَى المَساجِدِ، وانتِظارُ الصَّلاةِ بَعدَ الصَّلاةِ، فَذَلِكُمُ الرِّباطُ**»[١]. فهذا يرسَخ في أذهانهم أكثر مما لو قيل لهم ابتداء: إسباغ الوضوء كفارة للسيئات، ورفعة في الدرجات.

---

(١) مسلم (٢٥١).

﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ٤﴾، «أي: فِي انتِشارِهِم وَتَفرُّقِهِم، وَذَهابِهِم وَمَجِيئِهِم، مِن حَيرَتِهِم مِمّا هُم فِيهِ، كَأَنَّهُم فَراشٌ مَبثُوثٌ. كَما قالَ فِي الآيَةِ الأُخرَى: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ٧﴾ [القمر]»(١). وهذه الآية تبطل قول من قال: القارعة الصاعقة، لأن الحديث عن أهوال يوم القيامة.

والمرء في هذه الدنيا لو قام من نومه وقد ضج أناس حوله لحادث قام فزعًا، ولم يعد إليه اتزانه إلا بعد حين، فكيف بأهوال الآخرة؟

فإن قيل: هذا حال من يخرج من قبره، يقوم على تلك الحال، فكيف بمن أكلته السباع، وحرقته النيران، وابتلعته البحار؟ كلهم يجتمعون لا يضيع منهم أحد. قال ربنا: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ٤٧﴾ [الكهف]، يحشر المأكول وينشأ مرة أخرى كما يحشر آكله وينشأ.

وسبق معنا أن كل سؤال بـ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾، فإن إجابته مبيَّنة.

وبيانها هنا من أول قوله: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾، إلى آخر السورة. أما إذا جاء السؤال بلفظ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾، فلا يُبيِّن جوابه، ويكون ما موضوعه من الجملة الغيب الموكول علمه إلى الله تعالى.

وقوله: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ٥﴾، العهن الصوف، والمنفوش البالي الذي أصبح ضعيف التماسك، كما قال ربنا: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ٧٨﴾ [الأنبياء]، أي: عَدَت غنم أحدهما على زرع الآخر، وانتشرت فيه ليلًا فأتلفت الزرع. والصوف المنفوش يكون أكبر حجمًا وأخف وزنًا من المتراكب المتروك دون نفش.

ثم أخبر أنه في ذلك اليوم المهول تثقل موازين أناس وتخف موازين آخرين! ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ٧﴾، أي تحقق لهم الرضا بحالهم،

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤٦٨/٨).

وقرَّت به أعينهم. كما قال ربنا: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ٩﴾ [الأعراف]، وقال: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ١٠٢ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ١٠٣ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ١٠٤﴾ [المؤمنون].

فماذا يثقل الموازين من الأعمال؟

من ذلك: تعظيم لا إله إلا الله، ومحبتها، والقيام بما تقتضيه وتدل عليه.

فعن عَبدَ اللهِ بنَ عَمرِو بنِ العاصِ ﵄ قالَ: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إنَّ اللهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِن أُمَّتي عَلَى رُءُوسِ الخَلائِقِ يَومَ القِيامَةِ فَيَنشُرُ عَلَيهِ تِسعَةً وَتِسعِينَ سِجِلًّا كُلُّ سِجِلٍّ مِثلُ مَدِّ البَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنكِرُ مِن هَذا شَيئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الحافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لا يا رَبِّ، فَيَقُولُ أَفَلَكَ عُذرٌ؟ فَيَقُولُ: لا يا رَبِّ. فَيَقُولُ: بَلَى إِنَّ لَكَ عِندَنا حَسَنَةً؛ فَإِنَّهُ لا ظُلمَ عَلَيكَ اليَومَ، فَتَخرُجُ بِطاقَةٌ فِيها: أَشهَدُ أَن لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبدُهُ وَرَسُولُهُ. فَيَقُولُ: احضُر وَزنَكَ. فَيَقُولُ يا رَبِّ ما هَذِهِ البِطاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ؟ فَقالَ: إِنَّكَ لا تُظلَمُ. فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كَفَّةٍ، والبِطاقَةُ فِي كَفَّةٍ، فَطاشَت السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَت البِطاقَةُ، فَلا يَثقُلُ مَعَ اسمِ اللهِ شَيءٌ**»[1].

ومنها: ذكر الله تعالى.

فعَن أَبِي هُرَيرَةَ ﵁، عَن النَّبِيِّ ﷺ قالَ: «**كَلِمَتانِ خَفِيفَتانِ عَلَى اللِّسانِ، ثَقِيلَتانِ فِي المِيزانِ، حَبِيبَتانِ إِلَى الرَّحمَنِ: سُبحانَ اللهِ العَظِيمِ، سُبحانَ اللهِ وَبِحَمدِهِ**»[2].

وثبت عَن جُوَيرِيَةَ ﵂، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ مِن عِندِها بُكرَةً حِينَ صَلَّى الصُّبحَ وَهِيَ فِي مَسجِدِها، ثُمَّ رَجَعَ بَعدَ أَن أَضحَى وَهِيَ جالِسَةٌ، فَقالَ: «**ما زِلتِ عَلَى الحالِ الَّتِي فارَقتُكِ عَلَيها؟**»، قالَت: نَعَم. قالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَقَد قُلتُ بَعدَكِ أَربَعَ كَلِماتٍ ثَلاثَ**

---

(١) أحمد (٦٦٩٩)، وصححه الشيخ شعيب الأرنؤوط في تخريج المسند.
(٢) البخاري (٦٤٠٦)، ومسلم (٢٦٩٤).

مَرّاتٍ لَو وُزِنَت بِما قُلتِ مُنذُ اليَومِ لَوَزَنَتهُنَّ: سُبحانَ اللهِ وَبِحَمدِهِ عَدَدَ خَلقِهِ، وَرِضا نَفسِهِ، وَزِنَةَ عَرشِهِ، وَمِدادَ كَلِماتِهِ»(١).

وقال ﷺ: «والحمد لله تملأ الميزان»(٢).

وفي حديث آخر: «بَخٍ بَخٍ خَمسٌ ما أَثقَلَهُنَّ فِي المِيزانِ: لا إِلَهَ إِلّا اللهُ، واللهُ أَكبَرُ، وَسُبحانَ اللهِ، والحَمدُ للهِ، والوَلَدُ الصّالِحُ يُتَوَفَّى فَيَحتَسِبُهُ والِداهُ»(٣).

ومنها: حسن الخلق.

لحديث أبي الدرداء ﷺ، قال نبينا ﷺ: «ما مِن شَيءٍ أَثقَلُ فِي المِيزانِ مِن حُسنِ الخُلُقِ»(٤).

ومنها: اتباع الجنائز.

فعَن أُبَيٍّ ﷺ، عَن النَّبِيِّ ﷺ قالَ: «مَن تَبِعَ جَنازَةً حَتَّى يُصَلَّى عَلَيها وَيُفرَغَ مِنها فَلَهُ قِيراطانِ، وَمَن تَبِعَها حَتَّى يُصَلَّى عَلَيها فَلَهُ قِيراطٌ، والَّذِي نَفسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَهُوَ أَثقَلُ فِي مِيزانِهِ مِن أُحُدٍ»(٥).

ثم قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾﴾، خفت: لم ترجح في الميزان، وهذا يجعلنا نتأمل في كل عمل نقوم به: هل ينفع في ميزان الله أم لا؟ وأعظم ما يخف به الميزان، ويذهب قيمة العمل الكثير: الرياء، وضعف الإخلاص، ودخول الشرك على العمل.

وسميت النار أمه؛ لملازمته لها، كما يلازم الطفل أمه لا ينفك عنها. وهي هاوية سحيقة بعيد قعرها، وهو يهوي إلى ما شاء الله تعالى من قعرها بحسب عمله.

---

(١) مسلم (٢٧٢٦).
(٢) مسلم (٢٢٣).
(٣) أحمد (١٥٦٦٢)، وقال عنه محقق المسند الشيخ شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.
(٤) أحمد (٢٧٥١٧)، وصححه الشيخ شعيب الأرنؤوط في تخريجه.
(٥) أحمد (٢٠٢٥٦)، وصححه الشيخ شعيب الأرنؤوط في تخريجه.

ومدة الهُوِيّ بينت في السنة، فعَن أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ، قالَ: كُنّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، إذ سَمِعَ وَجبَةً، فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**تَدرُونَ ما هَذا؟**»، قالَ: قُلنا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعلَمُ، قالَ: «**هَذا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النّارِ مُنذُ سَبعِينَ خَرِيفًا، فَهُوَ يَهوِي فِي النّارِ الآنَ، حَتَّى انتَهَى إِلَى قَعرِها**»[1].

ثم قال تعالى منذرًا من تلك الهاوية ومعرفًا بها: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ١٠ نَارٌ حَامِيَةُۢ ١١﴾، نار حارة، شديدة الحر، نسأل الله السلامة منها.

---

(١) مسلم (٢٨٤٤).

سُورَةُ التَّكَاثُرِ

بين يدي سورة التكاثر

وهي مكية على الصحيح[١].

أسماؤها:

لها ثلاثة أسماء: ﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾، و﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾، والمقبرة[٢].

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُها ثَمان وَعِشرُونَ كلمة، وحروفها مئة وَعِشرُونَ حرفًا، وَهِي آيات ثمانية فِي جَمِيع العدَد لَيسَ فِيها اختِلاف»[٣].

ما ورد فيها:

قرأ النبي ﷺ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾، ثم قال: **«يقول ابن آدم: مالي مالي، وإنما لك من مالك ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت»**[٤].

---

(١) التحرير والتنوير (٥١٧/٣٠).
(٢) التحرير والتنوير (٥١٧/٣٠).
(٣) البيان في عدّ آي القرآن، ص(٢٨٦).
(٤) صحيح ابن حبان (٦٩٩).

موضوعاتها:

«اشتملت على التوبيخ على اللهو عن النظر في دلائل القرآن ودعوة الإسلام، بإيثار المال والتكاثر به، والتفاخر بالأسلاف، وعدم الإقلاع عن ذلك إلى أن يصيروا في القبور كما صار من كان قبلهم، وعلى الوعيد على ذلك. وحثهم على التدبُّر فيما ينجيهم من الجحيم. وأنهم مبعوثون ومسؤولون عن إهمال شكر المنعم العظيم»[١].

مقصدها:

التحذير من التشاغل عن الآخرة بالدنيا وملهياتها.

---

(١) التحرير والتنوير (٥١٨/٣٠).

سورة التكاثر: تأملات ووقفات

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ
تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ
عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا
عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾، في الأموال والأولاد[1]. وقد ألهيا أكثر الناس عن الله تعالى والدار الآخرة، بل ألهيا كثيرًا من المسلمين عما ينفعهم في آخرتهم، كالقرآن الكريم تلاوة وتدبُّرًا وتعلمًا، ففسدت دنياهم وما ينتظرهم بعدها أشد! قال ربنا: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ۝١٢٦ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٢٧﴾ [طه].

والتكاثر صيغة مفاعلة، فكان بعضهم يكاثر بعضًا، يقول ما قاله الكافر صاحب الجنتين: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ۝٣٤﴾ [الكهف].

وفي زمننا هذا هناك من يُكاثر بعدد السيارات، أو بعدد البيوت، وكم ممن شغل في هذا الزمان عما ينفعه في آخرته بمشاغل الدنيا؛ بالإنترنت، والإعلام الجديد، ومواقع التواصل، وبالألعاب، وبغير ذلك!

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/٤٧٣).

والإلهاء يكون بالقلب، فإذا انشغل أحد بشيء بجوارحه وقلبه فهذا هو الإلهاء، أما إذا حصل ذلك بالجوارح دون القلب فهو انشغال وليس إلهاءً، وقد يطلق على كل ذلك إلهاء.

ولا ينبغي التلهي بشيء من أمور الدنيا عن ذكر الله تعالى، قال ربنا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَـٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون ٩]. وللعلماء في المقصود من ذكر الله هنا أقوال: قيل: الصلاة، والفرائض، والجهاد، وقيل: حضهم بذلك على إدامة الذكر[1].

فمطلوب من المسلم ألا ينشغل عن الإكثار من ذكر الله، فليس الشأن أن تذكر الله، وإنما أن تكثر منه ولا تتلهى عنه بشيء من صوارف الدنيا، والقِران بين الذكر والإكثار منه في القرآن كثير، قال ربنا: لزكريا ﷺ: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَـٰرِ ٤١﴾ [آل عمران]. وقال الكليم ﷺ: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ٢٥ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ٢٦ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ٢٨ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَـٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ٣٣ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ٣٥﴾ [طه]. وقال ربنا تعالى لنبينا ﷺ: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٢٠٥﴾ [الأعراف]. وقال: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٢٥﴾ [الإنسان]. وقال: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١﴾ [الأحزاب]. وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٤٥﴾ [الأنفال: ٤٥]. قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٤٢ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ٤٣﴾ [الأحزاب]. وقال: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠﴾ [الجمعة]. وقال: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ

---

(١) زاد المسير (٤/٢٨٩).

وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج]. وقال: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشعراء]. وقال: ﴿وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب]. وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وإنما جاء الأمر بالإكثار منه لأنه سبيل المؤمنين، فالمنافق يذكر الله، ولكنه مقلٌّ منه، وقد لا يريد به وجه ربه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء].

فكل من شُغل عن آخرته بشيء فإنه يخشى عليه من هذه الآية. قال ابن عبد البر ﵀: «سَمِعتُ أَبا مُحَمَّدٍ عَبدَ اللهِ بنَ مُحَمَّدِ بنِ أَسَدٍ، ﵀ يَقُولُ: سَمِعتُ حَمزَةَ بنَ مُحَمَّدِ بنِ عَلِيٍّ الكِنانِيَّ قالَ: خَرَّجتُ حَدِيثًا واحِدًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِن مِائَتَي طَرِيقٍ أَو مِن نَحوِ مِائَتَي طَرِيقٍ، شَكَّ أَبو مُحَمَّدٍ قالَ: فَداخَلَنِي مِن ذَلِكَ مِنَ الفَرَحِ غَيرُ قَلِيلٍ وَأُعجِبتُ بِذَلِكَ قالَ: فَرَأَيتُ لَيلَةً مِنَ اللَّيالِي يَحيَى بنَ مَعِينٍ فِي المَنامِ فَقُلتُ لَهُ: يا أَبا زَكَرِيّا خَرَّجتُ حَدِيثًا واحِدًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِن مِائَتَي طَرِيقٍ قالَ: فَسَكَتَ عَنِّي ساعَةً ثُمَّ قالَ: أَخشَى أَن يَدخُلَ هَذا تَحتَ ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾». لأن طريقًا واحدًا يكفي[1]؛ أي طريقًا صحيحًا. وقد حضرت مناقشة رسالة علمية، وكان الطالب قد خرَّج حديثًا من عدة طرق، فقال له أحد المناقشين: لماذا فعلت هذا مع أنَّ الحديث في الصحيح؟ هل الغرض استعراض القدرة على التخريج؟! فأُحرج الطالب.

﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾﴾، أي: حتى قُبرتم فيها. ومما يدل لذلك حديث عن ابن عباس ﭭ، أن رسول الله ﷺ دخل على أعرابي يعوده، فقال: «**لا بأس عليك، طهور إن**

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (١٠٣٤/٢).

شاء الله». فقال الأعرابي: ذاك طهور؟! كلا؛ بل هي حمى تفور، على شيخ كبير، كيما تُزِيره القبور! فقال النبي ﷺ: «**فنعم إذًا**»[1].

ومن دلالات هذه الآية: أن مكث الناس في قبورهم قليل، كالزيارة، والزائر لا يطيل المكث، ولا بُدَّ أن يرتحل عن المكان، وبعد زيارة القبور البعث والنشور، ثم القرار إما في جنة وإما في نار، نسأل الله السلامة منها.

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ٤﴾، ما كان ينبغي أن يلهيكم التكاثر عن طاعة الله تعالى، والثانية توكيد، متضمن زيادة وعيد وتهديد.

قال ابن جرير ﵀: «﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾: يعني: حتى صرتم إلى المقابر فدُفِنتم فيها؛ وفي هذا دليل على صحة القول بعذاب القبر؛ لأن الله تعالى ذكره، أخبر عن هؤلاء القوم الذين ألهاهم التكاثر، أنهم سيعلمون ما يلقون إذا هم زاروا القبور وعيدًا منه لهم وتهدُّدا. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل»... عن علي، قال: نزلت ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ في عذاب القبر»[2]. لأنه جعل المراد: كلا ستعلمون عاقبة ذنبكم إذا دفنتم في المقابر وعذبتم فيها. فهذه من أدلة القرآن على عذاب القبر.

وإن مما يؤسف عليه أن يقال: لم يرد ذكر عذاب القبر في القرآن الكريم! وقد تبيَّن لك أن هذه السورة دليل عليه، ومن أدلة القرآن الكريم على ذلك أيضًا:

قوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ٤٥ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ٤٦﴾ [غافر].

قال ابن كثير ﵀: «﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾، وهو الغرق في اليم، ثم النقلة منه إلى الجحيم، فإن أرواحهم تعرض على النار صباحًا ومساءً إلى قيام الساعة، فإذا

(١) صحيح الأدب المفرد (٣٩٩).
(٢) تفسير الطبري (٢٤/٥٨٠).

كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار، ولهذا قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾، أي: أشده ألمًا وأعظمه نكالًا. وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور»[١].

وعرض الروح على العذاب عذاب، كما في الآية، ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾.

وفي حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال: «**إن أحدكم إذا مات عُرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة**»[٢].

والغُدوَة ما بين صلاة الغَداةِ وطُلُوع الشَّمس.

والعَشِيُّ: من زوال الشَّمس إلى المغرب، أَو من صلاة المغرب إلى العَتَمَةِ.

ومن الأدلة في القرآن على عذاب القبر قول ربنا: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ١٠١﴾ [التوبة].

قال مجاهد رحمه الله: «﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾، بالجوع، وعذاب القبر. قال: ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾، يوم القيامة». وهو قول قتادة، والربيع بن أنس»[٣].

ومن أدلة القرآن على العذاب في البرزخ قوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ٢٥﴾ [نوح].

والفاء العاطفة تدل على الترتيب والتعقيب كما لا يخفى.

ثم قال تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ٥﴾، أي: لو علمتم حقَّ العلم أنكم مبعوثون لما ألهاكم التكاثر عن طلب الآخرة.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١٠٣/٤).
(٢) البخاري (١٣٧٩)، ومسلم (٢٨٦٦).
(٣) ينظر: تفسير الطبري (٤٤٢/١٤).

وعلم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين، درجات للإدراك تتفاوت في قوتها، وهذا مثال يوضح الفرق بينها: لو أن كافرًا سمع بالنار وصدق لكنه لم ينقد، فتصديقه بها علم اليقين، فإذا رآها فهذا عين اليقين، وإذا دخلها فهذا حق اليقين. ولهذا قال ابن كثير ﷺ: «لما قال الخليل للنمروذ: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾، أحب أن يترقى من علم اليقين في ذلك إلى عين اليقين، وأن يرى ذلك مشاهدة فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾»[1].

ثم قال: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ٧﴾، وهذا قسم بأن الناس سيرون النار في الآخرة بأعينهم، أما المؤمن فيجتازها على الصراط، وأما الكافر فله بعد رؤيتها ملابسة وملازمة لها.

﴿لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ٨﴾، فنعيم الدنيا ابتلاء ليتزود به العبد إلى آخرته، فهو مسؤول عما أوتي فيها، وعن النعم التي تيسرت له وتهيأت؛ ماذا عمل فيها؟

عَن أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ، قالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ذاتَ لَيلَةٍ، فَإذا هُوَ بِأَبِي بَكرٍ وَعُمَرَ، فَقالَ: «**ما أَخرَجَكُما مِن بُيُوتِكُما هَذِهِ السّاعَةَ؟**» قالا: الجُوعُ يا رَسُولَ اللهِ، قالَ: «**وَأَنا، والَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ، لَأَخرَجَنِي الَّذِي أَخرَجَكُما، قُومُوا**»، فَقامُوا مَعَهُ، فَأَتَى رَجُلًا مِنَ الأَنصارِ فَإذا هُوَ لَيسَ فِي بَيتِهِ، فَلَمّا رَأَتهُ المَرأَةُ، قالَت: مَرحَبًا وَأَهلًا، فَقالَ لَها رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَينَ فُلانٌ؟**» قالَت: ذَهَبَ يَستَعذِبُ لَنا مِنَ الماءِ، إذ جاءَ الأَنصارِيُّ، فَنَظَرَ إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَصاحِبَيهِ، ثُمَّ قالَ: الحَمدُ للهِ ما أَحَدٌ اليَومَ أَكرَمَ أَضيافًا مِنِّي، قالَ: فانطَلَقَ، فَجاءَهُم بِعِذقٍ فِيهِ بُسرٌ وَتَمرٌ وَرُطَبٌ، فَقالَ: كُلُوا مِن هَذِهِ، وَأَخَذَ المُديَةَ، فَقالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إيّاكَ، والحَلُوبَ**»، فَذَبَحَ لَهُم، فَأَكَلُوا مِنَ الشّاةِ وَمِن ذَلِكَ العِذقِ وَشَرِبُوا، فَلَمّا أَن شَبِعُوا وَرَوُوا، قالَ رَسُولُ اللهِ

(١) تفسير ابن كثير (٦٨٩/١).

ﷺ لِأَبِي بَكرٍ، وَعُمَرَ: «والَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ، لَتُسأَلُنَّ عَن هَذا النَّعِيمِ يَومَ القِيامَةِ، أَخرَجَكُم مِن بُيُوتِكُمُ الجُوعُ، ثُمَّ لَم تَرجِعُوا حَتَّى أَصابَكُم هَذا النَّعِيمُ»[1].

فالواجب شكر الله على نعمه، والعمل فيها بطاعته، والله المستعان.

(١) مسلم (٢٠٣٨).

سُورَةُ العَصْرِ

بين يدي سورة العصر

وهي مكية في قول الجمهور(١).

أسماؤها:

لها اسمان: سورة «العصر». وسورة «﴿وَٱلْعَصْرِ﴾»(١).

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُها أَربع عشرَة كلمة، وحروفها ثَمانِيَة وَسِتُّونَ حرفًا، وَهِي ثَلاث آيات فِي جَمِيع العدَد. واختلافها آيتان: ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾؛ لم يعدها المدنِي الأَخير وعدها الباقُونَ، ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ﴾؛ عدها المدنِي الأَخير وَلم يعدها الباقُونَ»(٢).

ما ورد فيها:

عن أبي مدينة الدارمي ، قال: « كان الرجلان من أصحاب النبي ﷺ إذا التقيا لم يفترقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر: ﴿وَٱلْعَصْرِ ١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ ٢﴾، ثم يسلم أحدهما على الآخر»(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٥٢٧).
(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٨٧).
(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (٢/١١)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٦٤٨).

وقد قال الإمام الشافعي ﷺ: «لو تدبر الناس هذه السورة، لوسعتهم»[١].

موضوعاتها:

«اشتملت على إثبات الخسران الشديد لغير المؤمنين، وعلى إثبات نجاة وفوز الذين آمنوا وعملوا الصالحات، والداعين منهم إلى الحق، وعلى فضيلة الصبر على تزكية النفس ودعوة الحق»[٢].

مقصدها:

الحث على التمسك بالإيمان وخصاله التي يتحقق الفوز بها.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/٤٧٩).
(٢) التحرير والتنوير (٣٠/٥٢٧ _ ٥٢٨) بتصرف يسير.

سورة العصر: تأملات ووقفات

﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾

قوله: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١﴾، قسم، واختلف المفسرون في المراد بذلك، فقيل: الدهر، وقيل: المراد وقت العشي، من الزوال إلى الغروب، وقيل: المراد صلاة العصر[١].

وهذا يدل على أهمية هذه الصلاة المباركة، وقد ثبت عَن عَبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ: «**الَّذِي تَفُوتُهُ صَلاَةُ العَصرِ، كَأَنَّما وُتِرَ أَهلَهُ وَمالَهُ**»[٢]. أي: كأنما فقد أهله وماله.

ويدل على أهمية العناية بالوقت، وكم من الأوقات تضيع منا ونحن لا نشعر! ونحن مسؤولون عنها في آخرتنا، فعن أَبِي بَرزَةَ الأَسلَمِيِّ رضي الله عنه، قالَ: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لاَ تَزُولُ قَدَما عَبدٍ يَومَ القِيامَةِ حَتَّى يُسأَلَ عَن عُمُرِهِ فِيما أَفناهُ، وَعَن عِلمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَن مالِهِ مِن أَينَ اكتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنفَقَهُ، وَعَن جِسمِهِ فِيمَ أَبلاَهُ**»[٣]. فعلى العاقل استثمار هذه النعمة، فالفراغ، والصحة التي تعين على استغلاله، نعمتان عظيمتان، فعَنِ ابنِ عَبّاسٍ رضي الله عنهما، قالَ: قالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**نِعمَتانِ مَغبُونٌ فِيهِما كَثِيرٌ مِنَ النّاسِ:**

---

(١) يراجع: زاد المسير (٤/٤٨٧).
(٢) البخاري (٥٥٢)، ومسلم (٦٢٦).
(٣) الترمذي (٢٤١٧)، وهو في السلسلة الصحيحة (٩٤٦).

الصِّحَّةُ والفَراغُ»[١].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾، المراد: جنس الإنسان. والخسر: الخسارة والهلاك. قال شيخنا ابن عثيمين رحمه الله: «﴿لَفِي خُسْرٍ﴾ أبلغ من قولك: (لخاسر)؛ وذلك أن (في) للظرفية، فكأن الإنسان منغمس في الخسر، والخسران محيط به من كل جانب»[٢].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، والقاعدة أن المستثنى يكون أقل من المستثنى منه، وهذا ما تؤكده آيات في كتاب الله تعالى، منها: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣﴾ [سبأ]. فالمؤمنون قلة، وأكثر الناس ممن كفر بالله، قال ربنا: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ۝١٠٢﴾ [الأعراف]، ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ۝١٠٣﴾ [يوسف].

وبدأ بالإيمان لأن العمل بدونه لا يكون مقبولًا، فهو الأساس الذي يبنى عليه. قال ربنا: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٣٩﴾ [النور]، وقال: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٥٤].

وفي تعريف الإيمان تذكر نونات خمس: اعتقاد بالجنان، وقول باللسان، وعمل بالأركان، يزيد بطاعة الرحمن، وينقص بطاعة الشيطان.

وعطف العمل عليه لا يعني خروجه منه، بل العمل من الإيمان، ولا يقال: شرط؛ لأن الشرط خارج عن ماهية الشيء، بل نقول ما قاله أسلافنا: العمل من الإيمان، وعطفه عليه من باب عطف الخاص على العام.

---

(١) البخاري (٦٤١٢).
(٢) تفسير جزء عم، ص(٣٠٨).

﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾، أي أوصى بعضهم بعضًا بالحق، وهو ما جاء به الشرع وأمر به.

وذكر العمل الصالح قبل التواصي بالخير؛ لأن هذا هو المطلوب من المؤمن، أن يعمل قبل أن يأمر، قال ربنا: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٤٤)﴾ [البقرة]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣)﴾ [الصف]. وقال شعيب ﷺ لقومه: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨].

وبعد العمل فلا بُدَّ من العناية بالتواصي بالحق؛ أمرًا بالمعروف، ونهيًا عن المُنكر، ونصحًا للناس؛ طلبًا للنجاة في الآخرة.

وإعمال هاتين الشعيرتين من أمارات الإيمان، قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١].

والقيام بهما سنة نبينا ﷺ، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

والخيرية إنما تنال بالقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المُنكر، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقال: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١١٤)﴾ [النساء].

والإصلاح فلاح في الدارين، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُو (١٠٤)﴾ [آل عمران].

وهذا العمل من أسباب دخول الجنة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [التوبة].

وثبت عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**الإسلام أن تعبد الله لا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج، والأمر بالمعروف والنهي عن المُنكر، وتسليمك على أهلك، فمن انتقص شيئًا منهن فهو سهم من الإسلام يدعه، ومن تركهن فقد ولى الإسلام ظهره**»(١).

ومصلحة الأمر بالمعروف والنهي عن المُنكر تربو على مفسدة الجلوس في الطرقات، ولذا أذن النبي ﷺ للصحابة في ذلك بشرط القيام بهما، ففي الصحيحين، عن أبي سعيد الخدري ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**إياكم والجلوس على الطرقات**»، فقالوا: ما لنا بد، إنما هي مجالسنا نتحدث فيها. قال: «**فإذا أتيتم إلى المجالس فأعطوا الطريق حقها**». قالوا: وما حق الطريق؟ قال: «**غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، وأمرٌ بالمعروف ونهيٌ عن المُنكر**»(٢).

وثبت في صحيح مسلم(٣)، عن تميم بن أوس الداري ﷺ، أنه قال: قال النبي ﷺ: «**الدين النصيحة**»، قال: قلنا لمن يا رسول الله؟ قال: «**لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم**».

---

(١) الحاكم (٥٣)، وهو في السلسلة الصحيحة برقم (٣٣٣).
(٢) البخاري (٢٤٦٥)، ومسلم (٢١٢١).
(٣) مسلم (٥٥).

فمما أرشدت هذه السورة إليه: الحرص على دعوة الناس وهدايتهم، ونشر العلم، وتأمل فيما قاله ربنا سبحانه لنبينا ﷺ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [الشعراء]. أي: لعلك ـ أيها الرسول ـ من شدة حرصك على هدايتهم مُهلِكٌ نفسك؛ لأنهم لم يصدِّقوا بك ولم يعملوا بهديك، فلا تفعل ذلك، والمقصود لا بُدَّ من الحرص على التواصي بالحق، فبذلك يثبت المؤمن، ويرشد الجاهل، ويكف المخالف.

ثم قال: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾، وأُخِّرت هذه؛ لأن التواصي بالحق والأمر بالمعروف يحتاج إلى صبر، ولهذا ذكرها بعدها، فمن أمر ونهى وأوصى فلا بُدَّ أن يناله شيء من أذى فكان مناسبًا أن يؤمر بالصبر عليه، كما قال لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان].

وللصبر ثمار عديدة، منها:

تحقيق الإيمان، قال ربنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟﴾ [آل عمران: ٢٠٠]. وكل ما أمر الله به بعد النداء للمؤمنين يدل على أن له أثرًا كبيرًا في تحققه، وزيادته.

ومن ثمراته: تحقيق الإخبات، والإخبات الخضوع، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الحج].

ومنها: تحقيق البر الصدق والتقوى، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة].

ومنها: تحقيق الهداية، قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١].

ومنها: نيل رحمة الله، قال ربنا: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة].

ومنها: الأجر الجزيل، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر].

والصبر تنال به معية الله، قال ربنا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣، الأنفال: ٤٦].

وتنال به محبة الله، قال عز اسمه: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [آل عمران].

سُورَةُ الهُمَزَةِ

بين يدي سورة الهمزة

وهي مكية اتفاقًا[١].

أسماؤها:

سورة «الهمزة»، و«﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ﴾»، وسورة «﴿ٱلۡحُطَمَةِ﴾».

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُها ثَلاث وَثَلاثُونَ كلمة، وحروفها مئة وَثَلاثَة وَثَلاثُونَ حرفًا، وَهِي تسع آيات فِي جَمِيع العدَد لَيسَ فِيها اختِلاف»[٢].

موضوعاتها:

«وعيد جماعة من المشركين جعلوا همز المسلمين ولمزهم ضربًا من ضروب أذاهم؛ طمعًا في أن يلجئهم الملل من أصناف الأذى، إلى الانصراف عن الإسلام والرجوع إلى الشرك»[٣].

مقصدها:

تثبيت المؤمنين بتهديد أعدائهم بالنار.

---

(١) التحرير والتنوير (٥٣٥/٣٠).
(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٨٨).
(٣) التحرير والتنوير (٥٣٥/٣٠).

سورة الهمزة: تأملات ووقفات

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾
يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾
وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ
عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾﴾

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾﴾، والهمز: الطعن في الشخص أمامه، واللمز: غيبته[1]، وقيل: الهمز بالإشارة، واللمز بالعبارة، وتقدم أنَّ ﴿وَيْلٌ﴾: كلمة توعُّد. قال ابن كثير ﷺ: «والويل: الهلاك والدمار، وهي كلمة مشهورة في اللغة»[2]. ووردت هذه الكلمة في القرآن أربع عشرة مرة، وافتتحت بها سورتان: هذه، والمطففين. فتوعدت الآية من يغتاب الناس بالنار، وقد ورد كثير من النصوص التي تحذر من الغيبة، فالغيبة ضرب الله لأصحابها أسوأ الأمثلة، قال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحجرات].

أي: « فكما أنكم تكرهون أكلَ لحمه ـ وخصوصًا إذا كان ميتًا فاقد الروح ـ فكذلك فلتكرهوا غيبته، وأكل لحمه حيًا»[3]. ومعلومٌ أن مما أباحه الله تعالى أكل

(١) تفسير القرآن العظيم (٤٨١/٨).
(٢) تفسير ابن كثير (٣١١/١).
(٣) تفسير السعدي، ص(٨٠١).

الميتة للمضطر، والعقل يتصور حدوث ذلك، ولكن لا يمكن أبدًا أن يقدم إنسان على أكل أخيه ولو مات بالجوع، فكما ينفر المرء من ذلك ويبغضه وتأباه نفسه؛ فعليه أن ينفر من الغيبة ويبغضها.

وقد وقع رجل في عرض أخيه بمجلس رسول الله ﷺ، فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**تَخَلَّل**»[(١)]. قالَ: وَما أَتَخَلَّلُ يا رَسُولَ الله، أَكَلتُ لَحمًا؟! قالَ: «**إِنَّكَ أَكَلتَ لَحمَ أَخِيكَ**»[(٢)].

والغيبة صفة الفاسقين، قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات]. «قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة، ومقاتل بن حَيّان: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: لا يطعُن بعضكم على بعض»[(٣)]. ومعنى الآية: أنَّ من فعل ذلك فقد استحق اسم الفسق وانتقل إلى دائرته بعد أن كان مؤمنًا.

والدليل على أنَّ الغيبة معصية لا يمكن صدورها عمن كان قلبُه عامرًا بالإيمان قول رسول الله ﷺ: «**يا مَعشَـرَ مَن آمَنَ بِلِسانِهِ وَلَم يَدخُلِ الإيمانُ قَلبَهُ، لا تَغتابُوا المُسلِمِينَ، وَلا تَتَّبِعُوا عَوراتِهِم؛ فإِنَّه مَن يَتَّبِع عَوراتِهِم يَتَّبِعِ الله عَورَتَه، وَمَن يَتَّبِعِ الله عَورَتَهُ يَفضَحهُ فِي بَيتِهِ**»[(٤)].

ولا أكره ولا أنتن من رائحة الذين يغتابون المؤمنين، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كنا مع النبي ﷺ، فارتفعت ريح منتنة، فقال رسول الله ﷺ: «**أتدرون ما هذه الريح؟ هذه ريح الذين يغتابون المؤمنين**»[(٥)].

والغيبة عظيمة ولو كانت بكلمة يسيرة، قالت عائشة رضي الله عنها: قلت للنبيِّ ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا؟ ـ قال بعض الرواة: تعني قصيرة ـ فقال لها: «**لقد قلتِ**

(١) التخلل: إخراج بقايا الطعام من بين الأسنان.
(٢) الطبراني في الكبير (١٠/١٠٢)، وصححه الألباني في غاية المرام (٤٢٨).
(٣) تفسير ابن كثير (٧/٣٧٦).
(٤) أحمد (١٩٨٠١)، وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.
(٥) صحيح الأدب المفرد (٥٦٦).

كلمةً لو مُزِجت بماء البحر لمزجته»(١).

والمعنى: أنَّ الله تعالى لو جعل هذه الكلمة مادة محسوسة، وجعل لها لونًا، وأُلقي بها في بحر لتغيَّر لونُه بها!

والمغتاب مستحق للهجر، فزينب ﵂ قالت يومًا للنبي ﷺ: أنا أُعطي تلك اليهودية؟ - تريد صفية ﵂، بسبب ما يكون بين الضرائر - قالت عائشة ﵂: «فغضب رسول الله ﷺ، فهجرها ذا الحجة، والمحرم، وبعض صفر»(٢).

والغيبة من أسباب عذاب القبر، ودليل هذا حديث أنس ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لَمّا عُرِجَ بِي مَرَرتُ بِقَومٍ لَهُم أَظفارٌ مِن نُحاسٍ، يَخمُشُونَ وُجُوهَهُم وَصُدُورَهُم، فَقُلتُ: مَن هَؤُلاءِ يا جِبرِيلُ؟ قالَ: هَؤُلاءِ الَّذِينَ يَأكُلُونَ لُحُومَ النّاسِ، وَيَقَعُونَ فِي أَعراضِهِم»**(٣).

ثم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢﴾، أي: لا همَّ له سوى جمعه وحسابه، «قال محمد بن كعب: ألهاه ماله بالنهار، هذا إلى هذا، فإذا كان الليل، نام كأنه جيفة»(٤)، وفي هذه الآية إشارة إلى أن من أسباب همز الناس ولمزهم التكثُّر بالمال، وأنه دافع إلى الطغيان على عباد الله وتنقصهم.

﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣﴾، وهذا من فرط الجهل يظن أن ماله سيخلده في الدنيا ذكرًا وشرفًا.

﴿كَلَّا﴾؛ أي: ليس الأمر كذلك، بل سيموت هذا الذي صدَّه ماله عن الله، ولن يحمد ويرفع له ذكر، بل العكس، وسوف يخلد يوم القيامة لكن في النار يقاسي حرها.

---

(١) أبو داود (٤٨٧٥)، وصححه الألباني في غاية المرام (٤٢٧).
(٢) أبو داود (٤٦٠٢)، وهو في صحيح الترغيب والترهيب للألباني (٢٨٣٥).
(٣) أحمد (١٣٣٤٠)، وقال محقق المسند العلامة شعيب الأنؤوط: إسناده صحيح.
(٤) تفسير ابن كثير (٤٨١/٨).

﴿لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ٤﴾، أي: ليطرحن فيها، وسميت النار حطمة لأنها تحطم ما يلقى فيها.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ٦﴾، لما شغله عن الله حطام الدنيا، جعل حطامًا وجمع إلى حطام النار، وأي نار! نار موقدة؛ والموقدة: شديدة الاشتعال، كثيرة الوقود، عظيمة الحرارة.

﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ٧﴾ ومعلوم أن كل جريمة وقعت سبقتها جريمة فؤادية؛ عزم وإرادة وقصد، ثم تخطيط لها. واطلاعها على الأفئدة إما أن يكون معنى ذلك أنها تصل إلى قلوبهم فتحرقها، أو يكون المعنى: يبلغها ألمها[١].

﴿إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ ٨ فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ ٩﴾، مطبقة فدخولهم فيها لا خروج منه، قد سُدَّت بعمد طوال، أو أنهم يعذبون في هذه الأعمدة. وإذا علموا أنهم آيسون من الخروج ازداوا ألمًا وحسرةً.

---

(١) زاد المسير (٤/٤٨٩).

سُورَةُ الفِيلِ

بين يدي سورة الفيل

وهي مكية اتفاقًا(١).

أسماؤها:

سورة «﴿أَلَمْ تَرَ﴾»، و«﴿الْفِيلِ﴾»(١).

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«وكَلِمُهـا ثَـلاث وَعِـشرُونَ كلمـة ككلم المسـد والفلق، وحروفها سِـتَّة وَتسـعُونَ حرفًـا، وَهِي خمـس آيـات فِي جَمِيـع العدَد لَيـسَ فِيها اختِـلاف»(٢).

موضوعاتها:

«التذكير بأن الكعبة حرم الله، وأن الله حماه ممن أرادوا به سوءًا، وأظهر غضبه عليهم فعذبهم؛ لأنهم ظلموا بطمعهم في هدم مسجد إبراهيم وهو عندهم في كتابهم، وذلك ما سماه الله كيدًا. ولم يتكرر في القرآن ذكر إهلاك أصحاب الفيل خلافًا لقصص غيرهم من الأمم لوجهين:

أحدهما: أن إهلاك أصحاب الفيل لم يكن لأجل تكذيب رسول من الله.

(١) التحرير والتنوير (٥٤٣/٣٠).
(٢) البيان في عدِّ آي القرآن، ص(٢٨٩).

وثانيهما: لئلا يتخذ منه المشركون غرورًا بمكانة لهم عند الله»[١].

مقصدها:

«تذكرة لقريش بأن فاعل ذلك هو رب ذلك البيت، وأن لا حظ فيه للأصنام التي نصبوها حوله، وتنبيه قريش أو تذكيرهم بما ظهر من كرامة النبي ﷺ عند الله إذ أهلك أصحاب الفيل في عام ولادته. ومن وراء ذلك تثبيت النبي ﷺ بأن الله يدفع عنه كيد المشركين، فإن الذي دفع كيد من يكيد لبيته لأحق بأن يدفع كيد من يكيد لرسوله ﷺ ودينه، ويشعر بهذا قوله: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾﴾. ومن وراء ذلك كله التذكير بأن الله غالب على أمره، وأن لا تغر المشركين قوتهم ووفرة عددهم، ولا يوهن النبي ﷺ تألب قبائلهم عليه، فقد أهلك الله من هو أشد منهم قوة وأكثر جمعًا»[٢].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٥٤٤)، بتصرف يسير.
(٢) التحرير والتنوير (٣٠/٥٤٤).

سورة الفيل: تأملات ووقفات

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ﴿٥﴾

وردت قصة هلاك أبرهة في كثير من الكتب، منها: البداية والنهاية لابن كثير رحمه الله[1]، وحاصلها إهانة العرب لقُلَّيسه الذي بناه، فنقم وأراد الانتقام بترويع الناس وهدم البيت العتيق الذي جعله الله مثابة للناس وأمنًا، فكان من أمره ما قصه الله تعالى في هذه السورة.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾﴾، ألم تعلم بما حلَّ بأبرهة وقومه لما أرادوا هدم الكعبة؟

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾﴾، جعل سعيهم هباء في هواء، لا فائدة فيه، ولا شيء وراءه!

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾، والأبابيل: الجماعات المتتابعات، التي يتبع بعضها بعضًا.

﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾﴾، والسجيل: الشديد الصلب.

﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ﴿٥﴾﴾، أي: صاروا كبقايا الزرع المأكول[2].

---

(١) (٢/١٧٠ ـ ١٧٣).
(٢) ينظر لهذه المعاني: تفسير ابن كثير (٨/٤٨٧).

وهـذا الذي وقـع يـدل على حرمـة البيت الحـرام، وقد قـال عَبـدُ اللهِ بـنُ عُمَرَ ﷺ: رَأَيـتُ رَسُـولَ اللهِ ﷺ يَطُـوفُ بِالكَعبَـةِ، وَيَقُولُ: «مـا أَطيَبَكِ وَأَطيَـبَ رِيحَكِ! ما أَعظَمَـكِ وَأَعظَـمَ حُرمَتَـكِ! والَّذِي نَفـسُ مُحَمَّـدٍ بِيَـدِهِ، لَحُرمَـةُ المُؤمِنِ أَعظَـمُ عِندَ اللهِ حُرمَـةً مِنـكِ؛ مالِهِ، وَدَمِـهِ، وَأَن نَظُـنَّ بِـهِ إِلَّا خَيرًا»(١).

ويدلُّ كما سبق معنا: على قدرة الله على حفظ نبيِّه ﷺ، فالسورة تخاطبه: إنَّ الذي حمى بيته من عدوِّه قادر على أن يمنعك منهم، فحرمة المؤمن أعظم من حرمة الكعبة، فكيف برسول الله ﷺ؟ ولهذا قال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾، فالذي أوقع بهم هذا العذاب هو ربك أنت، أفيعقل أن يتخلى عنك وقد أرسلك بدينه؟!

ودلت القصة على أن الله محيط بأعدائه، وأن العاقبة للمتقين.

وتولى ربنا أمر حماية بيته، ولم يعهد بذلك إلى قريش، لئلا تكون لهم يد في ذلك وهم مشركون.

وفيما وقع دليل على أن أصنام قريش لا خير فيها، فقد أحاط بالكعبة ثلاثمئة وستون صنمًا، فماذا فعلت بهذا العدو الذي أراد هدم البيت؟! ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء].

وفيهـا: أن عاقبـة الظلـم وخيمة، والظالـم لا بُدَّ أن تنـاله عقوبة الله. قـال ربنا: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود ١٠٢]، وقـال: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأنبياء]، وقال: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الحج]. وقـال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [الحج].

(١) ابن ماجه (٣٩٣٢)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٤٢٠).

وهذا الذي وقع كان في العام الذي ولد فيه النبي ﷺ، فهذا من الإرهاصات التي سبقت خروجه ﷺ. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ولد النبي ﷺ عام الفيل»(١). وذكر الحافظ ابن عساكر، عن ابن المنذر أنه قال: «لا يشك أحد من علمائنا: أن رسول الله ﷺ ولد عام الفيل، وبعث على رأس أربعين سنة من الفيل»(٢). وهذا يدل على أن الأمر العظيم ينبغي أن يهيأ له قبل وقوعه.

ولما بلغ أبرهة مكة واستقر بها، قال له بعض جنوده: «أيها الملك هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك وهو صاحب عين مكة، وهو الذي يُطعم الناس بالسهل، والوحوش في رؤوس الجبال، فأحسن إليه. فأذن له أبرهة، وكان عبد المطلب أوسم الناس، وأعظمهم وأجملهم، فلما رآه أبرهة أجله وأكرمه، وكره أن تراه الحبشة يجلسه معه على سرير ملكه، فنزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جانبه، ثم قال لترجمانه قل له: حاجتك؟ فقال له ذلك الترجمان فقال: حاجتي أن يرد علي الملك مائتي بعير أصابها لي. فلما قال له ذلك، قال أبرهة لترجمانه: قل له لقد كنت أعجبتني حين رأيتك ثم قد زهدت فيك حين كلمتني! أتكلمني في مائتي بعير أصبتُها لك، وتترك بيتًا هو دينك ودين آبائك قد جئتُ لأهدمه لا تكلمني فيه؟ فقال له عبد المطلب: إني أنا رب الإبل، وإن للبيت ربًّا سيمنعه. فقال: ما كان ليمتنع مني. قال: أنت وذاك. فرد على عبد المطلب إبله»(٣). ولما خرج منه أمر أهل مكة بأن يصعدوا على الجبال، ثم قام عبد المطلب، فأخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده(٤). وينقل أنه قال بفناء البيت:

يا ربِّ إن العبد يمنع رحله فامنع رحالك

---

(١) البيهقي في دلائل النبوية (١/٧٥ ـ ٦٧)، وهو في السلسلة الصحيحة (٣١٥٢).
(٢) تاريخ دمشق (١/٤٠١).
(٣) البداية والنهاية (٢/٢١٤).
(٤) انظر: البداية والنهاية (٢/٢١٥).

فانظر إلى ثقة هذا في الله وهو مشرك! والموحد أولى بهذه الثقة منهم.

ومما أرشدت السورة إليه: الكلمة الطيبة. فقد قال ابن زيد، في قوله: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ «ورق الزرع وورق البقل، إذا أكلته البهائم فراثته، فصار روثًا»[1]. وعلى هذا فالتعبير عنه بالعصف المأكول دليل على عدم ذكر ما يستقذر، بل يكني ولا يذكر القبيح.

وفي القرآن الكريم الأمر بالقول المعروف، والقول السديد، والقول الميسور، والقول الحسن، والقول الكريم، والقول اللين، والقول الطيب.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٨﴾﴾ [النساء]، وقال: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾ [الإسراء]، وقال: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، وقال: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء]، وقال: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴿٤٤﴾﴾ [طه]، ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحج].

وأما القول البليغ الزاجر الرادع المانع المرهب فهو للمنافقين وعتاة المجرمين، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾ [النساء]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [التوبة].

والسورة دليل على أنه لا يعلم جند الله أحد سواه، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

---

(١) تفسير الطبري (٢٤/٦٤٥).

سُورَةُ قُرَيْشٍ

بين يدي سورة قريش

وهي مكية اتفاقًا(١).

أسماؤها:

سورة «﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾»، وسورة «﴿قُرَيْشٍ﴾»(١).

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُها سبع عشرَة كلمة، وحروفها ثَلاثَة وَسَبعُونَ حرفًا، وَهِي أَربع آيات فِي الكُوفِي والبصري والشامي وَخمس فِي المَدَنِيين والمكي، اختلافها آيَة: ﴿مِّن جُوعٍ﴾، عدها المدنيان والمكي وَلم يعدها الباقُونَ»(٢).

ما ورد فيها:

عن أم هانئ رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «**فضل الله قريشًا بسبع خصال: فضلهم بأنهم عبدوا الله عشر سنين لا يعبده إلا قرشي، وفضلهم بأنه نصرهم يوم الفيل وهم مشركون، وفضلهم بأنه نزلت فيهم سورة من القرآن لم يدخل فيهم غيرهم: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾، وفضلهم بأن فيهم النبوة، والخلافة، والحجابة، والسقاية**»(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (٥٥٣/٣٠).
(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٩٠).
(٣) البخاري في التاريخ الكبير (٣٤١/١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٩٤٤).

موضوعاتها:

«أمر قريش بتوحيد الله تعالى، وتذكيرهم بنعمة أن الله مكن لهم السير في الأرض للتجارة برحلتي الشتاء والصيف لا يخشون عاديا يعدو عليهم، وبأنه أمَّنهم من المجاعات، وأمنهم من المخاوف؛ لما وقر في نفوس العرب من حرمتهم لأنهم سكان الحرم وعمار الكعبة»(١).

مقصدها:

التأكيد على أن الإقرار بربوبية الله المنعم المتفضل يقود إلى الإيمان بالله تعالى.

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٥٥٤) بتصرف.

سورة قريش: تأملات ووقفات

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ٤﴾

«﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ١﴾ أي: لائتلافهم واجتماعهم في بلدهم آمنين. وقيل: المراد بذلك ما كانوا يألفونه من الرحلة في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام في المتاجر وغير ذلك، ثم يرجعون إلى بلدهم آمنين في أسفارهم؛ لعظمتهم عند الناس، لكونهم سكان حرم الله، فمن عَرَفهم احترمهم، وكان من سار معهم أمن بهم، هذا حالهم في أسفارهم ورحلتهم في شتائهم وصيفهم. وأما في حال إقامتهم في البلد، فكما قال الله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت:٦٧]»(١). فالمعنى: من الواجب على أهل مكة أن يخلصوا العبادة لله تعالى لأنه سبحانه هو الذي جمعهم بعد تفرق، وألف بينهم، وهيأ لهم رحلتين فيهما ما فيهما من النفع والأمن.

﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ٣﴾، أي: فليفردوا ربهم بالعبادة شكرًا على نعمه عليهم. فالمشركون من قريش وغيرهم كانوا يعبدون الله، لكن عبادتهم تلك في حكم اللغو باطلة لِما أُشيبت به من الشرك، وإلّا فالقوم كانوا يدعونه،

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٨/٤٩٢).

قال ربنا: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت]، وقال: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾ [لقمان]، وكانوا يصومون عاشوراء، ويعتمرون، ويحجون، ويطعمون الطعام، ويصلون الأرحام، وكل هذه عبادات، فليس الشأن أن تعبد الله، وإنما أن تفرده بالعبادة وحده لا شريك له.

وذكَّرهم فيها بربوبيته للبيت الذي يعظمونه؛ لأنه أحق بتعظيمهم له، ومن تعظيمه: أن يفرد بالعبادة.

وامتنان الله عليهم بنعمة اجتماعهم يدل على أن هذه النعمة من أعظم ما يكرم به عباده، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنفال].

والجماعة رحمة، فعن النُّعمانِ بنِ بَشِيرٍ ، قالَ: قالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**الجَماعَةُ رَحمَةٌ، والفُرقَةُ عَذابٌ**»(١).

وبها تكون الغلبة والظهور على الأعداء، ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]، ولله در القائل:

تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسرًا ... وإذا افترقن تكسرت آحادًا

والجماعة سمة بارزة يتميز بها المجتمع الإسلامي، قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة].

---

(١) أحمد (١٨٤٤٩)، وصححه الألباني في الصحيحة (٦٦٧).

ونهت نصوص الشرع عن التفرق، قال تعالى: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ [آل عمران: ١٠٣]. وقال: ﴿ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢) ﴾ [الروم]. أي: ولا تكونوا من المشركين وأهل الأهواء والبدع الذين بدَّلوا دينهم، وغيَّروه، فأخذوا بعضه، وتركوا بعضه؛ تبعًا لأهوائهم، فصاروا فرقًا وأحزابًا، يتشيعون لرؤسائهم وأحزابهم وآرائهم. وقال: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) ﴾ [آل عمران]. وقال: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣) ﴾ [الأنعام]. وقال: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣].

وتأمل! جاء في سنن ابن ماجه أنَّ النبي ﷺ بعث جيشًا من المسلمين إلى المشركين، فحاصر مسلم كافرًا، فقال الكافر: إني مسلم. فطعنه فقتله، فأتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، هلكت، قال «**وما الذي صنعت؟**»، فأخبره بالذي صنع، فقال رسول الله ﷺ: «**فهلا شققت عن بطنه فعلمت ما في قلبه؟**».

قال: يا رسول الله لو شققت بطنه لكنت أعلم ما في قلبه.

قال :«**فلا أنت قبلت ما تكلم به، ولا أنت تعلم ما في قلبه**»!

فسكت عنه رسول الله ﷺ، فلم يلبث إلا يسيرًا حتى مات، قال عمران: فدفناه، فأصبح على ظهر الأرض. فقالوا: لعل عدوًا نبشه! فدفناه. ثم أمرنا غلماننا يحرسونه، فأصبح على ظهر الأرض! فقلنا لعل الغلمان نَعَسُوا! فدفناه ثم حرسناه بأنفسنا فأصبح على ظهر الأرض! فألقيناه في بعض تلك الشعاب فأخبر النبي ﷺ فقال : «**إن الأرض لتقبل من هو شر منه، ولكن الله أحب أن يريكم تعظيم حرمة لا إله إلا الله**»[1].

---

(١) صحيح ابن ماجه (٣٩٣٠).

ومع ذلك كله فقد أذن النبي ﷺ بقتل من أراد أن يفرق جمعنا، لأن حرمة اجتماع المسلمين أعظم من حرمة المسلم.

ثم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ﴾، ولم يقل أشبعهم، فالشبع ليس محمودًا، قال النبي ﷺ: «**ما ملأ آدمي وعاءً شرًا من بطن، بِحَسبِ ابنِ آدَمَ أُكُلاَتٌ يُقِمنَ صُلبَهُ، فَإن كانَ لاَ مَحالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعامِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ**»[١].

قال المباركفوري رحمه الله: «جعل البطن أولًا وعاءً كالأوعية التي تُتخذ ظروفًا لحوائج البيت؛ توهينًا لشأنه، ثم جعله شرَّ الأوعية ... والبطن خُلق لأن يتقوم به الصلب بالطعام، وامتلاؤه يفضي إلى الفساد في الدين والدنيا»[٢].

وجعل النبي ﷺ قلة الأكل صفة للمؤمن، قال ابن عمر رضي الله عنهما: سمعت رسول الله يقول: «**المؤمن يأكل في مِعىً واحدٍ، والكافر يأكل في سبعة أمعاء**»[٣].

قال النووي رحمه الله: «قال العلماء: ومقصود الحديث التقليل من الدنيا، والحث على الزهد فيها والقناعة، مع أن قلة الأكل من محاسن أخلاق الرجال، وكثرة الأكل بضدِّه»[٤].

وقال القرطبي رحمه الله: «وقد كانت العرب تمتدح بقلة الأكل، وتذم بكثرته»[٥].

ثم قال: ﴿وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ٤﴾، وقد سبق حديث عن نعمة الأمن وأهميتها في الحديث عن سورة التين، عند قول رب العالمين: ﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ٣﴾.

---

(١) الترمذي (٢٣٨٠)، وهو في الصحيحة (٢٢٦٥).
(٢) تحفة الأحوذي (٤٣/٧ ـ ٤٤).
(٣) البخاري (٥٣٩٣)، ومسلم (٢٠٦٠).
(٤) شرح صحيح مسلم (٢٤/١٤ ـ ٢٥).
(٥) الجامع لأحكام القرآن (١٩٣/٧).

وأعظـم أسـباب حصول الأمن مـا ذكر الله في هذه السـورة من الأمـر بتوحيده، فـإن الله يقـول: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ٨٢﴾ [الأنعام]، وقـد بـيَّن ربنـا أن الإشراك بـه سـبب للابتـلاء بالخـوف والجـوع، قال عـز اسـمه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ١١٢﴾ [النحل]. قـال ابن كثـير ﵀: «﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ أي: أَلبَسَـها وَأَذاقَهـا الجُـوعَ بَعـدَ أَن كانَ يُجبى إِلَيهِـم ثَمَـراتُ كُلِّ شَيءٍ، وَيَأتِيها رِزقُهـا رَغَدًا مِن كُلِّ مَـكانٍ، وَذَلِـكَ لَمّـا اسـتَعصَوا عَلَى رَسُـولِ اللهِ ﷺ وَأَبَـوا إِلَا خِلافَـهُ، فَـدَعا عَلَيهِم بِسَـبعٍ كَسَـبعِ يُوسُـفَ، فَأَصابَتهُم سَـنَةٌ أَذهَبَـت كُلَّ شَيءٍ لَهُـم، فَأَكَلُوا العِلهِـز، وَهُوَ: وَبَـرُ البَعِيرِ، يُجعَـلُ بِدَمِهِ إِذا نَحَـرُوهُ»(١).

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/٦٠٨).

سُورَةُ المَاعُونِ

بين يدي سورة الماعون

وهي مكية في قول أكثر العلماء(١).

أسماؤها:

لها ستة أسماء: «﴿ٱلۡمَاعُونَ﴾»، و«﴿أَرَءَيۡتَ﴾»، و«﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي﴾»، و«الدين»، و«التكذيب»، و«اليتيم»(١).

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُها خمس وَعِشرُونَ كلمة ككلم أم القُرآن، وحروفها مئة وَخَمسَة وَعِشرُونَ حرفًا، وَهِي سبع آيات فِي الكُوفِي والبصري وست فِي عدد الباقِينَ، واختلافها آيَة: ﴿يُرَآءُونَ﴾، عدها الكُوفِي والبصري وَلم يعدها الباقُونَ»(٢).

موضوعاتها:

«التعجيب من حال من كذبوا بالبعث، وتفظيع أعمالهم، من الاعتداء على الضعيف واحتقاره، والإمساك عن إطعام المسكين، والإعراض عن قواعد الإسلام من الصلاة والزكاة»(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٥٦٣).
(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٩١).
(٣) التحرير والتنوير (٣٠/٥٦٤).

مقصدها:

بيان أن التكذيب بيوم البعث يفضي إلى كل عمل سيئ، وخلق مرذول.

سورة الماعون: تأملات ووقفات

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾﴾، الاستفهام للتعجيب، ويوم الدين هو يوم الجزاء والبعث والحساب. والبدء بهذا السؤال مما يلفت الانتباه، وتقدم أنه يستفاد من ذلك أن من أراد التحدث في مهمات الأمور فيحسن به أن يلفت انتباه مستمعيه بمثل هذه الأساليب.

﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾﴾، واليتيم: من فقد أباه ولم يبلغ الحلم، وذلك يشار به للبعيد، والبعد هنا معنوي، فهم بعيدون عن سبيل الله، وعن الله تعالى، ولذا أشير إليهم به.

ودلَّت الآيات على أن عدم الإيمان باليوم الآخر يحمل على كل خلق سيئ، ولذلك لما توعَّد الله المطففين قال: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾﴾ [المطففين]؟

ويدعُّ اليتيم: يقهره[١].

وقد أمر الله تعالى ونبيه ﷺ بالإحسان إلى الأيتام، فقرن الله سبحانه حقه

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/٤٩٣).

بحقهم آمرًا هذه الأُمَّة والأمم السابقة بالإحسان إليهم، قال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ﴾ [النساء: ٣٦]، وقال: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٨٣].

وندب ربنا إلى مراعاة مشاعر اليتيم؛ لينشأ موفور الكرامة، عزيز النفس، قوي الشخصية، فقال ﷻ: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٢٠﴾ [البقرة].

قال ابن سعدي ﵀: «لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ١٠﴾ [النساء]، شقَّ ذلك على المسلمين، وعزلوا طعامهم عن طعام اليتامى؛ خوفًا على أنفسهم من تناولها ولو في هذه الحالة التي جرت العادة بالمشاركة فيها، وسألوا النبي ﷺ عن ذلك، فأخبرهم تعالى أن المقصود إصلاح أموال اليتامى، بحفظها وصيانتها، والاتجار فيها، وأن خلطتهم إياهم في طعام أو غيره جائز على وجه لا يضر باليتامى؛ لأنهم إخوانكم، ومن شأن الأخ مخالطة أخيه، والمرجع في ذلك إلى النية والعمل، فمن علم الله من نيته أنه مصلح لليتيم، وليس له طمع في ماله، فلو دخل عليه شيء من غير قصد لم يكن عليه بأس، ومن علم الله من نيته، أنَّ قصدَه بالمخالطة التوصل إلى أكلها وتناولها، فذلك الذي حرج وأثم»(١).

ولا يخفى ما في انعزاله بطعامه من أثر سيئ على نفسه، فلم يجعل الله من حرج بمخالطته، وهذا من الإحسان إليه.

---

(١) تفسير السعدي، ص (٩٩).

وأمـر الله تعـالى بإعطـاء اليتيـم مـن مـال الإرث إذا حـضر قسـمته؛ تطييبًـا لخاطـره، ومـراعاةً لحاجتـه، فقـال: ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ ﴾ [النساء]. أي: أعطوهـم مـا تيـسَّر مـن هـذا المـال الذي جاءكـم بغـير كـدٍّ ولا تعبٍ مـا لا يضرُّكـم وهو نافعُهـم.

وأمـر الله سـبحانه بالنفقـة عليهـم فقـال: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ ﴾ [البقرة]. والسـؤال في الآيـة عـن مسـألتين: المنفـق، والمنفـق عليـه. أمـا المنفـق فأعلـم الله أنَّـه يقبله سـواء قـلَّ أو كـثُر. وأما المنفـق عليهـم فذكر من جملتهـم الأيتـام، الذيـن هـم مـن أولى الناس بالإحسـان.

وجعـل الله تعـالى لهـم في الـفيء والمغنـم حقًّـا معلومًا فقـال: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ ﴾ [الأنفال: ٤١]، وقـال: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ﴾ [الحشر: ٧].

وهـذا العمـل مـن صفـات الأبـرار، قـال العزيـز الغفـار: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقـد أعلمنـا ربنـا بمـآل الأبـرار، فقـال: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [المطففين].

والإحسان إلى اليتامى يتحقق به الأمن في يوم الفزع الأكبر، قال تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١﴾ [الدهر].

وكفالة اليتيم من موجبات دخول الجنة، فعن سهل بن سعد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا**» وأشار بالسبّابة والوسطى وفرّجَ بينهما[١].

قال النووي ﷺ: «كافلُ اليَتيم: القائِمُ بِأمُوره»[٢].

وقال ابن بطال ﷺ: «حق على من سمع هذا الحديث أن يعمل به ليكون رفيق النبي ﷺ في الجنة، ولا منزلة في الآخرة أفضل من ذلك»[٣].

وكما أمر ربنا بالإحسان إلى اليتيم، فقد نهى نهيًا شديدًا وزجر زجرًا أكيدًا عن أذيته والإساءة إليه، فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩﴾ [الضحى]، وقال هنا في هذه السورة: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣﴾.

وقال نبينا ﷺ: «**إني أُحرِّج حق الضعيفين: اليتيم والمرأة**»[٤].

وأفضل أنواع الكفالة أن يكون ببيتك، شأنه شأن ولدك، وما تقوم به كثير من الجمعيات العاملة في هذا الميدان عمل مبارك، لكن لا بُدَّ من التنبه إلى أمر، وهو أن هذه المبالغ الزهيدة التي يعلنون أن الكفالة تتحقق بها هي جزء من الكفالة، وسهم فيها، لكنها ليست بكفالة تامة.

---

(١) البخاري (٥٣٠٤)، ومسلم (٢٩٨٣).
(٢) رياض الصالحين، ص(٢٦٢).
(٣) فتح الباري (١٤٢/١٧).
(٤) ابن ماجه (٣٦٧٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٠١٥).

ومن التنبيهات التي ينبغي أن يلتفت إليها في هذا: أن الكفالة مادية وتربوية، وهذه الثانية آكد، فعلى الجمعيات المعنية بذلك أن تكثف لهم الأنشطة التربوية، فتقيم لهم مسابقات حفظ القرآن ومعاني كلماته، ونحو ذلك.

ثم قال تعالى في وصف المكذب بالدين: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝﴾، لا يحث نفسه ولا غيره بإطعام المسكين. كما قال ربنا: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝١٨﴾ [الفجر]. بل واقعهم قديمًا التزهيد في ذلك: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٤٧﴾ [يس]!

ولما ذم الذين لا يبالون باليتيم، ولا يحضون على إطعام المساكين، وهؤلاء فرطوا في حقوق عباد الله تعالى، انتقل لصنف آخر جدير بالذم، ممن فرط في حق الله تعالى فقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾، قال ابن كثير ﵀: «قَالَ عَطَاءُ بنُ دِينَارٍ ﵀: «الحَمدُ للهِ الَّذِي قَالَ: ﴿عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ وَلَم يَقُل: فِي صَلاتِهِم ساهُونَ، والسهو إمَّا عَن وَقتِها الأَوَّلِ فَيُؤَخِّرونَها إِلَى آخِرِهِ دائِمًا أَو غالِبًا. وَإِمَّا عَن أَدائِها بِأَركانِها وَشُرُوطِها عَلَى الوَجهِ المَأمُورِ بِهِ. وَإِمَّا عَنِ الخُشُوعِ فِيها والتدبُّر لمعانيها، فاللفظ يشمل هذا كله، ولكن مَن اتَّصَفَ بِشَيءٍ مِن ذَلِكَ فله قِسطٌ مِن هَذِهِ الآيَةِ. وَمَنِ اتَّصَفَ بِجَمِيعِ ذَلِكَ، فَقَد تَمَّ نَصِيبُهُ مِنها، وَكَمُلَ لَهُ النِّفاقُ العَمَلِيُّ. كَما ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَينِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**تِلكَ صَلاةُ المُنافِقِ، تِلكَ صَلاةُ المُنافِقِ، تِلكَ صَلاةُ المُنافِقِ، يَجلِسُ يَرقُبُ الشَّمسَ، حَتَّى إذا كانَت بَينَ قَرنَيِ الشَّيطانِ قامَ فَنَقَرَ أَربَعًا لا يَذكُرُ اللهَ فِيها إلّا قَلِيلًا**»»(١).

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/٤٩٣)، والحديث المذكور في مسلم (٦٢٢).

ولو قال الله تعالى: الذين هم في صلاتهم ساهون، لما نجا من الوعيد أحدٌ! فمن منّا لا يسهو فيها!

وقد أُمرنا بالمحافظة على هذه الصلوات، قال ربنا: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨﴾ [البقرة]، وهذه الصلاة إن حافظ العبد عليها جعلت بينه وبين الحرام سدًّا منيعًا، ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ٤٥﴾ [العنكبوت]. وهذا معيار عظيم للتعرف على كمال صلاتنا، فكلما وقعت في حرام فاستدِل بذلك على تقصيرٍ في الصلاة، فإنها إن أديت على الوجه المطلوب لم تأنس النفس بمعصية أبدًا.

ثم قال تعالى فاضحًا بعض المظاهر التي تجد فيها من يكذب بالدين ويطعم! ومن ينافق ويصلي! فقال: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ٧﴾، فويل لهم وإن كانوا يصلون رياء! والمرائي لا يبتغي بعمله وجه الله تعالى، ولا حظ له في ثواب الطاعة، وليت الأمر يقتصر على بطلان الثواب! بل يكون رياؤه سببًا لدخوله النار، فعن أبي هريرة ﷺ، قال: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقضَى يومَ القِيامَةِ عَلَيهِ رَجُلٌ استُشهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فعرَفَها، قالَ: فَما عَمِلتَ فِيها؟ قالَ: قاتَلتُ فِيكَ حَتَّى استُشهِدتُ، قالَ: كَذَبتَ، وَلَكِنَّكَ قاتَلتَ لِأَن يُقالَ: جَرِيءٌ، فَقَد قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجهِهِ حَتَّى أُلقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ العِلمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ القُرآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فعرَفَها، قالَ: فَما عَمِلتَ فِيها؟ قالَ: تَعَلَّمتُ العِلمَ، وَعَلَّمتُهُ وَقَرَأتُ فِيكَ القُرآنَ، قالَ: كَذَبتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمتَ العِلمَ لِيُقالَ: عالِمٌ، وَقَرَأتَ القُرآنَ لِيُقالَ: هُوَ قارِئٌ، فَقَد قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجهِهِ حَتَّى أُلقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيهِ، وَأَعطاهُ مِن أَصنافِ المالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فعرَفَها، قالَ: فَما

عَمِلتَ فِيها؟ قالَ: ما تَرَكتُ مِن سَبِيلٍ تُحِبُّ أَن يُنفَقَ فِيها إِلّا أَنفَقتُ فِيها لَكَ، قالَ: كَذَبتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلتَ لِيُقالَ: هُوَ جَوادٌ، فَقَد قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجهِهِ، ثُمَّ أُلقِيَ فِي النّارِ»(١).

وقوله: ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾، إظهار لقبيح حالهم، فلاهم «أَحسَنُوا عِبادَةَ رَبِّهِم، وَلا أَحسَنُوا إِلَى خَلقِهِ حَتَّى وَلا بِإِعارَةِ ما يُنتَفَعُ بِهِ وَيُستَعانُ بِهِ، مَعَ بَقاءِ عَينِهِ وَرُجُوعِهِ إِلَيهِم. فَهَؤُلاءِ لِمَنعِ الزَّكاةِ وَأَنواعِ القُرُبات أُولَى وَأُولَى»(٢).

نسأل الله العافية والسلامة والهداية إلى الاستقامة.

---

(١) مسلم (١٩٠٥).

(٢) تفسير ابن كثير (٨/٤٩٥).

سُورَةُ الكَوْثَرِ

بين يدي سورة الكوثر

وهي مكية في قول الجمهور[١]. واستدل من قال بأنها مدنية بهذا الحديث: عَن أَنَسٍ ﷺ، قالَ: بَينا رَسُولُ اللهِ ﷺ ذاتَ يَومٍ بَينَ أَظهُرِنا إِذ أَغفَى إِغفاءَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأسَهُ مُتَبَسِّمًا، فَقُلنا: ما أَضحَكَكَ يا رَسُولَ اللهِ؟ قالَ: «**أُنزِلَت عَلَيَّ آنِفًا سُورَةٌ**» فَقَرَأَ: بِسمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ٣﴾، ثُمَّ قالَ: «**أَتَدرُونَ ما الكَوثَرُ؟**» فَقُلنا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعلَمُ، قالَ: «**فَإِنَّهُ نَهرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي** ﷻ، **عَلَيهِ خَيرٌ كَثِيرٌ، هُوَ حَوضٌ تَرِدُ عَلَيهِ أُمَّتِي يَومَ القِيامَةِ، آنِيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ، فَيُختَلَجُ العَبدُ مِنهُم، فَأَقُولُ: رَبِّ، إِنَّهُ مِن أُمَّتِي فَيَقُولُ: ما تَدرِي ما أَحدَثَت بَعدَكَ**»[٢].

وهى أقصر سورة في القرآن.

أسماؤها:

لها ثلاثة أسماء: «﴿ٱلۡكَوۡثَرَ﴾»، و«﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾»، و«النحر»[١].

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُها عشر كَلِمات، وحروفها اثنان وَأَربَعُونَ حرفًا، وَهِي ثَلاث آيات فِي جَمِيع العدَد لَيسَ فِيها اختِلاف»[٣].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٥٧١).

(٢) مسلم (٤٠٠).

(٣) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٩٢).

موضوعاتها:

«اشتملت على بشارة النبي ﷺ بأنه أُعطي الخير الكثير في الدنيا والآخرة. وأمره بأن يشكر الله على ذلك بالإقبال على العبادة. وأن ذلك هو الكمال الحق لا ما يتطاول به المشركون على المسلمين بالثروة والنعمة وهم مغضوب عليهم من الله تعالى»(١).

مقصدها:

تطمين النبي ﷺ بخيبة سعي مبغضيه وانقطاع ذكرهم، وما يقتضيه ذلك من واجب الشكر.

(١) التحرير والتنوير (٥٧٢١/٣٠).

سورة الكوثر: تأملات ووقفات

﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ۝٣﴾

﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١﴾، فسره النبي ﷺ، حيث قال: «إِنَّهُ نَهرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي ﷻ، عَلَيهِ خَيرٌ كَثِيرٌ، هُوَ حَوضٌ تَرِدُ عَلَيهِ أُمَّتِي يَومَ القِيامَةِ، آنِيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ، فَيُختَلَجُ العَبدُ مِنهُم، فَأَقُولُ: رَبِّ، إِنَّهُ مِن أُمَّتِي فَيَقُولُ: ما تَدرِي ما أَحدَثَت بَعدَكَ»[١].

وقال أَنَسُ بنُ مالِكٍ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قالَ: «بَينَما أَنا أَسِيرُ فِي الجَنَّةِ، إِذا أَنا بِنَهرٍ، حافَتاهُ قِبابُ الدُّرِّ المُجَوَّفِ، قُلتُ: ما هَذا يا جِبرِيلُ؟ قالَ: هَذا الكَوثَرُ، الَّذِي أَعطاكَ رَبُّكَ»[٢]، وللمفسرين أقوال أخرى كثير منها يعود إلى هذا المعنى.

والعطية من الله تعالى لنبينا ﷺ خير خلقه لا بُدَّ أن تكون شيئًا يليق بالله الواسع الكريم، وبالمكرم الذي هو خير عباده الله أجمعين.

ومن صفات نهر الكوثر الذي في الجنة:

ما رواه البخاري في صحيحه عن أنس ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**بينا أنا أسير في الجنة، إذا أنا بنهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك. قال: فضرب الملك بيده، فإذا طينه أو طيبه مسك أذفر**»، وقد سبق تخريجه قبل قليل.

---

(١) مسلم (٤٠٠).
(٢) البخاري (٦٥٨١).

وعن أنس ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «**أعطيتُ الكوثر، فإذا هو نهر يجري على ظهر الأرض، حافتاه قباب اللؤلؤ، ليس مسقوفًا، فضربت بيدي إلى تربته، فإذا تربته مسك أذفر، وحصباؤه اللؤلؤ**»[١].

وثبت عن ابن عمر ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**الكوثر نهر في الجنة، حافتاه من ذهب، ومجراه على الدر والياقوت**»[٢].

وسئل النَّبِي ﷺ عَن الكَوثَرِ فقالَ: «**ذاك نهر أعطانيه الله -يعني في الجنة- أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل، فيه طير أعناقها كأعناق الجزر**». أي: الإبل. فقال عمر ﷺ: **إنَّ تِلكَ لَطَيرٌ ناعِمَةٌ!** فقال رسول الله ﷺ: «**أَكَلَتُها أَنعَمُ مِنها يا عُمَر**»[٣].

والكوثر يصب منه ميزابان في الحوض المورود، والحوض هو: مجمع الماء، ففي الحديث: «**الحوض يشخب فيه ميزابان من الجنة**»[٤]. ويشخب: يصب. قال ابن حجر ﷺ: «وظاهر الحديث أن الحوض بجانب الجنة لينصب فيه الماء من النهر الذي داخلها»[٥].

ولكلِّ نبي حوض، والدليل: قول رَسُول اللهِ ﷺ: «**إنَّ لكل نَبِيٍّ حَوضًا، وَإِنَّهُم يَتَباهَونَ أَيُّهُم أَكثَرُ وارِدَةً، وَإِنِّي أَرجُو أَن أَكُونَ أَكثَرَهُم**»[٦].

ومن صفات حوض الكوثر:

ما جاء عن عبد الله بن عمرو ﷺ أنه قال: قالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**حَوضِي مَسِيرَةُ شَهرٍ، وَزَواياهُ سَواءٌ، ماؤُهُ أَبيَضُ مِنَ اللَّبَنِ، وَرِيحُهُ أَطيَبُ مِنَ المِسكِ، وَكِيزانُهُ كَنُجُومِ السَّماءِ،**

---

(١) أحمد (١٢٠٨٤)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٥١٣).
(٢) الترمذي (٣٢٨٤)، وصححه الألباني كما في صحيح سنن الترمذي (١٣٥/٣).
(٣) أحمد (١٢٨٢٨)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٧٤٠).
(٤) مسلم (٤٢٥٥).
(٥) فتح الباري (٤٦٦/١١).
(٦) الترمذي (٢٣٦٧)، وهو في السلسلة الصحيحة (١٥٨٩).

مَن شَرِبَ مِنها فَلا يَظمَأُ أَبدًا»(١).

وعن أَنَس ﷺ، قالَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ: «**تُرَى فِيهِ أَبارِيقُ الذَّهَبِ والفِضَّةِ كَعَدَدِ نُجُومِ السماء**»، وفي رواية: «**أَكثَرُ مِن عَدَدِ نُجُومِ السَّماءِ**»(٢).

وعن ثوبان ﷺ، أن النبيَّ ﷺ سُئِلَ عَن شَرابِهِ؛ فَقالَ: «**أَشَدُّ بَياضًا مِن اللَّبَنِ، وَأَحلَى مِن العَسَلِ، يَغُتُّ فِيهِ مِيزابانِ، يَمُدّانِهِ مِن الجَنَّةِ، أَحَدُهُما مِن ذَهَبٍ، والآخَرُ مِن وَرِق**»(٣). ويغتُّ: يصبُّ، الوَرِق الفِضَّة.

وفي عرصات القيامة من يُدفعُ عن الحوض ولا يمكَّن منه، فمن هم؟

عَن أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَتَى المَقبُرَةَ فَقالَ: «**السَّلامُ عَلَيكُم دارَ قَومٍ مُؤمِنِينَ، وَإِنّا إِن شاءَ اللهُ بِكُم لاحِقُونَ، وَدِدتُ أَنّا قَد رَأَينا إِخوانَنا**». قالُوا: أَوَلَسنا إِخوانَكَ يا رَسُولَ اللهِ؟ قال: «**أَنتُم أَصحابِي وَإِخوانُنا الَّذِينَ لَم يَأتُوا بَعدُ**». فَقالُوا: كَيفَ تَعرِفُ مَن لَم يَأتِ بَعدُ مِن أُمَّتِكَ يا رَسُولَ اللهِ؟ فَقالَ: «**أَرَأَيتَ لَو أَنَّ رَجُلا لَهُ خَيلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ، بَينَ ظَهرَي خَيلٍ دُهمٍ بُهمٍ، أَلا يَعرِفُ خَيلَهُ؟**»، قالُوا: بَلَى يا رَسُولَ اللهِ. قالَ: «**فَإِنَّهُم يَأتُونَ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِن الوُضُوءِ، وَأَنا فَرَطُهُم عَلَى الحَوضِ، أَلا لَيُذادَنَّ رِجالٌ عَن حَوضِي كَما يُذادُ البَعِيرُ الضّالُّ، أُنادِيهِم: أَلا هَلُمَّ! فَيُقالُ: إِنَّهُم قَد بَدَّلُوا بَعدَكَ، فَأَقُولُ سُحقًا سُحقًا**»(٤).

والغرَّة: بياض في وجه الفرس، والتحجيل: بياض في قوائمه، والدهم البهم: سوداء، وسواده خالص لا يخالطه غيره.

قال القرطبي ﷺ: «قال علماؤنا رحمهم الله أجمعين: فكل من ارتدَّ عن دين الله، أو أحدث فيه ما لا يرضاه الله ولم يأذن به، فهو من المطرودين عن الحوض المبعدين عنه،

(١) البخاري (٦٠٩٣) ومسلم (٤٢٤٤).
(٢) مسلم (٤٢٦١).
(٣) مسلم (٤٢٥٦).
(٤) مسلم (٣٦٧).

وأشدهم طردًا من خالف جماعة المسلمين وفارق سبيلهم كالخوارج على اختلاف فرقها، والروافض على تباين ضلالها، والمعتزلة على أصناف أهوائها، وكذلك الظلمة المسرفون في الجور والظلم وتطميس الحق وقتل أهله وإذلالهم، والمعلنون بالكبائر المستخفون بالمعاصي، وجماعة أهل الزيغ والأهواء والبدع»[1].

ثم قال تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾، أي: اشكر ربك بالعمل الصالح، وفي هذه إجابة لمن ينعم الله عليه بنعم كثيرة، فيمتلئ قلبه رضًى عن الله، ويقفز سؤال إلى ذهنه: كيف أشكر ربي؟ فيقال له: بالعمل الصالح، ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣﴾ [سبأ].

والصحيح: أن الصلاة هنا عامة، لا يراد بها صلاة بعينها، والنحر كذلك، فيشمل النحر في العيد وغيره؛ إذ لا دليل على التخصيص.

وقد تضمنت الآيات أن أعظم ما يشكر به العبد ربه من جنس العبادات البدنية الصلاة، ومن جنس العبادات المالية النحر والإطعام.

ومما دلت عليه السورة أيضًا: إخلاص العمل لله، فتقديم الجار والمجرور وتوسيطه بين الأمرين مفيد للحصر، ولهذا قال العلماء: المعنى: «أَخلِص لَهُ صَلاتَكَ وَذَبِيحَتَكَ؛ فَإِنَّ المُشرِكِينَ كانُوا يَعبُدُونَ الأَصنامَ وَيَذبَحُونَ لَهَا»[2]. كما قال ربنا: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٦٣﴾ [الأنعام].

وأخذ العلماء من هذه أن النحر يوم الأضحى ـ وهو أحد أفراد النحر الداخلة في عموم الأمر به هنا ـ يكون بعد الصلاة، وقد قدم الصلاة على النحر وهذا مما دلت السنة عليه، فعن البَراءِ بنِ عازِبٍ ﷺ، قالَ: قالَ رَسُولُ اللهِ

(١) التذكرة، ص(٣٠٦).
(٢) تفسير ابن كثير (٣/٣٨١).

ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ ما نَبدَأُ بِهِ فِي يَومِنا هَذا نُصَلِّي، ثُمَّ نَرجِعُ فَنَنحَرُ، فَمَن فَعَلَ ذَلِكَ، فَقَد أَصابَ سُنَّتَنا، وَمَن ذَبَحَ، فَإِنَّما هُوَ لَحمٌ قَدَّمَهُ لِأَهلِهِ لَيسَ مِنَ النُّسُكِ فِي شَيءٍ»[١].

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ٣﴾، قال ابن كثير رحمه الله: «إِنَّ مُبغِضَكَ - يا مُحَمَّدُ - وَمُبغِضَ ما جِئتَ بِهِ مِنَ الهُدَى والحَقِّ والبُرهانِ السَّاطِعِ والنُّورِ المُبِينِ، هُوَ الأَبتَرُ الأَقَلُّ الأَذَلُّ المُنقَطِعُ ذِكرُه»[٢]. وهذه فيها تسلية وعزاء للنبي ﷺ، فقد أُظهر شنآنه وتكلم بسبِّه أقوامٌ. وهنا أنبه إلى أن سب النبي ﷺ، يشمل كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية: «الكلام الذي يقصد به الانتقاص والاستخفاف، وهو ما يفهم منه السب في عقول الناس على اختلاف اعتقاداتهم؛ كاللعن، والتقبيح، ونحوه»[٣]. وسب النبي ﷺ كفر مخرج من الملَّة بالإجماع، يجب قتل مقارفه[٤].

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة فيها سلوان لنبينا ﷺ بشأن ما وجِّه إليه من سب وإساءة، فمن ذلك:

قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٨٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام: ٣٤].

وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ١١٢﴾ [الأنعام]. أي: وكما ابتليناك أيُّها الرسول بأعدائك من المشركين ابتلينا جميع الأنبياء عليهم السلام بأعداء

---

(١) البخاري (٩٦٥)، ومسلم (١٩٦١).
(٢) تفسير ابن كثير (٥٠٤/٨).
(٣) الصارم المسلول، ص (٥٦٣).
(٤) انظر الأوسط لابن المنذر (٦٨٢/٢)، والإجماع له ص (١٥٣)، والشفا للقاضي عياض (٢١٥/٢)، والمجموع للنووي (٤٢٧/١٩)، والصارم المسلول ص (٣)، وفتاوى السبكي (٥٧٣/٢)، وغيرها.

مِـن مــردة قومهــم وأعــداء مــن مــردة الجن، يُلـقي بعضهـم إلى بعـض القـول الذي زيّنـوه بالباطـل؛ ليغـترَّ بـه سـامعه، فيضـل عن سـبيل الله، ولـو أراد ربـك ﷻ لحال بينهـم وبـين تلـك العـداوة، ولكنـه الابتـلاء مـن الله، فدعهـم ومـا يختلقـون مِن كـذب وزور.

وقـال تعـالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الفرقان].

قال ابن كثير ﷺ: «﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾، أي: لمن اتبع رسوله، وآمن بكتابه، وصدقه، واتبعه، فإن الله هاديه وناصره في الدنيا والآخرة»[١].

وقـال له: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ [فصلت].

قال السعدي ﷺ: «﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [الحجر] بك وبما جئت به، وهذا وعد من الله لرسوله، أن لا يضره المستهزئون، وأن يكفيه الله إياهم بما شاء من أنواع العقوبة، وقد فعل تعالى؛ فإنه ما تظاهر أحد بالاستهزاء برسول الله ﷺ جاء به إلا أهلكه الله وقتله شر قتلة»[٢]. وقوله في هذه السورة: ﴿هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾، بأسلوب القصر متضمن معنى كفايته، فسابُّه ﷺ أو شانئه مجازًى في الدنيا من الله أو بأيدي عباد الله، كما حصل من الجيل الأول انتصارًا لرسول الله ﷺ.

فمـا كان الصحابـة رضـوان الله تعـالى عليهم يتهاونـون مع من سـب النبي ﷺ وأسـاء إليـه، فلقد كان ﷺ أحـبَّ إلى أحدهم مـن كلِّ شيء.

فهـذا خُبيـب بـن عـدي الأنصـاري ﷺ، لمـا بعثـه النبـي ﷺ ومعـه اثنـان من أصحابـه عيونًـا بمكـة واعترضتهـم بنـو لحيـان مـن هذيـل كان مـن أمـر خبيـب

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/٣١٨).
(٢) تفسير السعدي، ص (٩٥).

أنـه قـال بعـد أن أخرجـوه لقتلـه: «اللَّهُمَّ إني لا أجـد رسـولًا إلى رسـولك فبلغه مني السـلام»، فـنزل جبريـل يحمـل سـلامه إلى الرسـول ﷺ، ثـم صلبـوه، فقـال: «اللَّهُمَّ أحصهـم عـددًا، واقتلهـم بـددًا، ولا تُبـق منهـم أحـدًا». فقالـوا له ـ وهـو مصلـوب نـادوه وناشـدوه ـ: أتحبُ أنَّ محمـدًا مكانَـك؟ فقـال: «لا والله العظيـم مـا أحبُّ أن يَفدِيَـني بشـوكة يُشـاكها في قدمـه»[١]. أي حـب هـذا لرسـول الله ﷺ؟!

وهذا عبد الرحمن بن عوف ﷺ يقول: «بَينا أَنا واقِفٌ فِي الصَّفِّ يَومَ بَدرٍ نَظَرتُ عَن يَمِينِي وَشِمالِي فَإذا أَنا بَينَ غُلامَينِ مِن الأَنصارِ حَدِيثَةٍ أَسنانُهما، تَمَنَّيتُ لَو كُنتُ بَينَ أَضلَعَ مِنهُما، فَغَمَزَنِي أَحَدُهُما فَقالَ: يا عَمِّ هَل تَعرِفُ أَبا جَهلٍ؟ قُلتُ: نَعَم، وَما حاجَتُكَ إِلَيهِ يا ابنَ أَخِي؟ قالَ: أُخبِرتُ[٢] أَنَّهُ يَسُبُّ رَسُولَ الله ﷺ، والَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ لَئِن رَأَيتُهُ لا يُفارِقُ سَوادِي سَوادَهُ حَتَّى يَمُوتَ الأَعجَلُ مِنّا. قالَ: فَتَعَجَّبتُ لِذَلِكَ، فَغَمَزَنِي الآخَرُ فَقالَ مِثلَها قالَ، فَلَم أَنشَب أَن نَظَرتُ إِلَى أَبِي جَهلٍ يَزُولُ فِي النّاسِ فَقُلتُ: أَلا تَرَيانِ؟ هَذا صاحِبُكُما الَّذِي تَسأَلانِ عَنهُ، قالَ: فابتَدَراهُ فَضَرَباهُ بِسَيفَيهِما حَتَّى قَتَلاهُ، ثُمَّ انصَرَفا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَأَخبَراهُ، فَقالَ: «**أَيُّكُما قَتَلَهُ؟**»، فَقالَ كُلُّ واحِدٍ مِنهُما: أَنا قَتَلتُ، فَقالَ: «**هَل مَسَحتُما سَيفَيكُما؟**»، قالا: لا، فَنَظَرَ فِي السَّيفَينِ فَقالَ: «**كِلاكُما قَتَلَهُ**»، وَقَضَى بِسَلَبِهِ لِمُعاذِ بنِ عَمرِو بنِ الجَمُوحِ، والرَّجُلانِ مُعاذُ بنُ عَمرِو بنِ الجَمُوحِ، وَمُعاذُ بنُ عَفراءَ»[٣].

وعَن عَلِيٍّ ﷺ: «أَنَّ يَهُودِيَّةً كانَت تَشتُمُ النَّبِيَّ ﷺ وَتَقَعُ فِيهِ، فَخَنَقَها رَجُلٌ حَتَّى ماتَت، فَأَبطَلَ رَسُولُ الله ﷺ دَمَها». وفي رواية: أَنَّ رَجُلًا أَعمَى كانَت لَهُ أُمُّ وَلَدٍ تَشتُمُ النَّبِيَّ ﷺ، وَتَقَعُ فِيهِ، فَينهاها فَلا تَنتَهِي، وَيَزجُرُها فَلا تَنزَجِرُ، فَلَمّا كانَت ذاتَ لَيلَةٍ

(١) الطبراني في الكبير (٥٢٨٤).
(٢) أخبرت، لم يسمع بنفسه! فكيف لو سمع الإساءة إليه بنفسه؟
(٣) البخاري (٣١٤١)، ومسلم (١٧٥٢).

جَعَلَت تَقَعُ فِي النَّبِيِّ ﷺ وَتَشتُمُه، فَأَخَذَ المِغوَلَ(١) فَوَضَعَهُ فِي بَطنِها واتَّكَأَ عَلَيها فَقَتَلَها. فَلَمّا أَصبَحَ ذُكِرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ الله ﷺ فَجَمَعَ النّاسَ فَقالَ: «**أَنشُدُ اللهَ رَجُلًا فَعَلَ ما فَعَلَ لِي عَلَيهِ حَقٌّ إِلّا قامَ**». فَقامَ الأَعمَى فَقالَ: يا رَسُولَ الله أَنا صاحِبُها، كانَت تَشتُمُكَ وَتَقَعُ فِيكَ فَأَنهاها فَلا تَنتَهِي، وَأَزجُرُها فَلا تَنزَجِرُ، وَلِي مِنها ابنانِ مِثلُ اللُّؤلُؤَتَينِ، وَكانَت بِي رَفِيقَةً، فَلَمّا كانَ البارِحَةَ جَعَلَت تَشتُمُكَ وَتَقَعُ فِيكَ، فَأَخَذتُ المِغوَلَ فَوَضَعتُهُ فِي بَطنِها واتَّكَأتُ عَلَيها حَتَّى قَتَلتُها. فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَلا اشهَدُوا أَنَّ دَمَها هَدَرٌ**»(٢). فمن سبه قُتل ولو تاب.

فإن قيل: إن النبي ﷺ عفا عن عكرمة، وابن أبي السرح، وابن عمه، وابن عمته، ألا يدل هذا على أن العفو أفضل إذا تاب الساب من بعد سبِّه وأنه لا يقتل؟

فالجواب: للنبي ﷺ أن يسقط حقه، وأن يعفو عمن شاء، لكن من يملك بعد نبي ﷺ أن يتجاوز عن حقه نيابة عنه؟ لو كان هذا في آحاد الناس ما ساغ! فالنبي ﷺ يعفو عمن شاء، ولكن ليس لأحد أن يعفو بعد رسول الله ﷺ عن حق رسول الله ﷺ.

فإن قيل: أليست التوبة تهدم ما قبلها؟

فالجواب: بلى، ومن سبَّ النبيَّ ﷺ تنفعه توبته ديانةً، ولا تنفعه قضاءً، كتوبة القاتل، تنفعه عند الله ويقتص منه في الدنيا لحق المقتول وأوليائه، فحق رسول الله ﷺ أولى بالرعاية وأجدر.

وسبُّ النبي ﷺ يتعلق به حقان، حق لله، وحق له، وحق الله يسقط بالتوبة، وأما حق النبي ﷺ فإنه يحتم علينا قتل الساب.

---

(١) سيف قصير.

(٢) أبو داود (٤٣٦٢)، وهو في الإرواء (١٢٥٠)، قال الألباني: «وإسناده صحيح على شرط مسلم»، وانظر صحيح وضعيف سنن النسائي له (٤٠٧٠).

سُورَةُ الكَافِرُونَ

بين يدي سورة الكافرون

وهي مكية اتفاقًا[1].

أسماؤها:

«سورة ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾»، و﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، وتسمى هي وسورة ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، بالمقشقشتين؛ لأنهما تقشقشان من الشرك، أي تبرئان منه. وتسمى أيضًا «سورة الإخلاص»، فيكون هذا الاسم مشتركًا بينها وبين سورة ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، وقد ذكر في سورة براءة أن سورة براءة تسمى بالمقشقشة لأنها تقشقش، أي تبرئ من النفاق، فيكون هذا مشتركًا بين السور الثلاث فيحتاج إلى التمييز. وتسمى بـ «سورة العبادة»، و«سورة الدين»[1].

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُهَا سِتٌّ وَعِشرُونَ كلمة، وحروفها أَربَعَة وَتسعُونَ حرفًا، وَهِي سِتُّ آيات فِي جَمِيع العدَد لَيسَ فِيهَا اختِلاف»[2].

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٥٧٩).
(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٩٣).

فضلها وما ورد فيها:

عن ابن عمر ، قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، تعدل ربع القرآن»(١).

وعَن فَروَةَ بنِ نوفلٍ، عَن أبيهِ ، أنَّ النَّبيَّ ﷺ، قالَ له: «اقرأ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ثُمَّ نَم، عَلَى خاتِمَتِها، فإنَّها بَراءةٌ مِنَ الشِّركِ»(٢).

وعَن أَبِي هُرَيرَةَ ، «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَرَأَ فِي رَكعَتَي الفَجرِ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وَ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾»(٣). وقال ﷺ: «**نعمت السورتان يقرأ بهما في ركعتين قبل الفجر**: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾»(٤).

وعَن عَبدِ اللهِ بنِ مَسعُودٍ ، أَنَّهُ قالَ: «ما أُحصِي ما سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقرَأُ فِي الرَّكعَتَينِ بَعدَ المَغرِبِ وَفِي الرَّكعَتَينِ قَبلَ صَلاةِ الفَجرِ بِـ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وَ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾»(٥).

وفي صحيح مسلم، أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا فرغ من طوافه بالبيت «يَقرَأُ فِي الرَّكعَتَينِ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وَ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾»(٦).

وعَن عَبدِ العَزِيزِ بنِ جُرَيجٍ، قالَ: سَأَلنا عائِشَةَ ، بِأَيِّ شَيءٍ كانَ يُوتِرُ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ قالَت: «كانَ يَقرَأُ فِي الأُولَى: بِـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، وَفِي الثَّانِيَةِ بِـ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وَفِي الثَّالِثَةِ بِـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، والمُعَوِّذَتَينِ»(٧).

---

(١) الحاكم في المستدرك (٢٠٧٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥٨٦).
(٢) أبو داود (٥٠٥٥)، وصححه الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (٧٨٦).
(٣) مسلم (٧٢٦).
(٤) ابن خزيمة في صحيحه (١٢١/١)، وهو في السلسلة الصحيحة للألباني (٦٤٦).
(٥) الترمذي (٤٣١)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٨٥١).
(٦) مسلم (١٢١٨). وقد نبَّه الحُفاظ إلى أن هذه اللفظة مدرجة في حديث جابر من رواية جعفر بن محمد عن أبيه. يُنظَر: الفصل للوصل المدرج للخطيب البغدادي (٦٧١/٢).
(٧) الترمذي (٤٦٣)، وصححه الألباني في المشكاة (١٢٦٩).

وعَـن أَبِي أُمامَـةَ ﷺ: «أَنَّ النَّـبِيَّ ﷺ كانَ يُصَلِّيهِمـا بَعـدَ الوِتـرِ وَهُوَ جالِـسٌ يَقرَأُ فِيهِمـا: إِذا زُلزِلَـتِ الأَ رضُ، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾»[١]. أي: يصـلي الركعتـين.

وعن علي بن أبي طالب ﷺ قال: لدغتِ النبيَّ ﷺ عقربٌ وهو يصلي، فلما فرغ قال: «**لعن الله العقرب؛ لا تدعُ مُصليًا ولا غيرَه**». ثم دعا بماء وملح، وجعل يمسح عليها ويقرأ بـ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾[٢]».

وإنمـا يجمع بين سـورتي الإخلاص كثيرًا لأنهما اشـتملتا على توحيـد ربنا، فـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ مشـتملة على التوحيـد العلمي، و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ مشـتملة على التوحيد العملي.

موضوعها:

البراءة من الشرك وأهله، وهي أدخل في التوحيد العملي، وسورة الإخلاص أخص بالتوحيد العلمي.

مقصدها:

تيئيس الكفار من أن يوافقهم النبي ﷺ في شيء من دينهم، وبيان أنه لا سبيل إلى ذلك بوجه ألبتة.

---

(١) أحمد (٢٢٢٤٦)، وحسنه الألباني في أصل صفة الصلاة (٢/٥٤٤).
(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير، ص(١١٧)، وهو في سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٥٤٨).

سورة الكافرون: تأملات ووقفات

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾، الآمر هو الله تعالى، والمأمور هو النبي ﷺ، فلا معنى بعد ذلك لسفاهة من يزعم أن إطلاق اسم الكافر على الكافر يجب أن يتجنب ويحاذر تلطفًا ورفقًا، وبدلًا من ذلك يُعبر عنه بالآخر ونحوه من الألفاظ التي لا تميزه عن المسلم، وهذا ضرب من الضعف أو الهزيمة النفسية.

ومن أسباب وصفهم بالكفر لا بالجهل: أن المقصود هو البراءة من الكفر وهو دينهم، وبيان حكمهم وهو شنيع مستبشع عند المؤمن، والمسلم إذا استبشع هذا الوصف تحاشاه وتركه.

﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾، لا أعبد ما تعبدون من دون الله، من الآلهة.

﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾، وأنتم لا تفعلون ذلك، لأن عبادتكم لله لاغية لا عبرة بها مع شركـكم.

﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤﴾، أي: لا أفعله مستقبلًا. وهذا أفضل من أن يقال: التكرار للتأكيد؛ فحمل الكلام على التأسيس أولى من حمله على التأكيد، وفيه تيئيس من المساومة في المستقبل.

﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٥﴾، وهذا تأكيد للأول تحقيقًا لكون ما يتقربون به إلى الله حال شركهم لم ينفعهم ولا ينفعهم، وقيل هو تأسيس لنفي إيمانهم في المستقبل، فإن من نزلت في شأنهم ماتوا على الإشراك بالله، ولم يؤمنوا، وتحقق فيهم وعد الله، والأول أقرب، ويقربه ما علم من إسلام بعضهم.

﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ٦﴾، تأكيد للمفاصلة، وأنه لا التقاء بيننا وبينكم أبدًا.

وهذا يدل على أنه لا دين حق سوى دين الإسلام. فمن الخطأ أن يقال: الاعتراف بالأديان؛ يعنون شرعيتها، أو احترام الأديان، فإن كل دين سوى دين الإسلام باطل، فكيف تجعل للباطل حرمة! قال ربنا: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٨٥﴾ [آل عمران]. ولا بد أن نفرق بين الاحترام الذي هو أن تجعل لدينهم الباطل حرمة، فلا يُنتقد ولا يُبيَّن ما فيه من الخلل ويعلن ما فيه من الباطل، وبين عدم الاعتداء أو السب إذا ترتبت عليه مفسدة أكبر، قال ربنا: ﴿تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، وترك السب المجرد لا يعني الاحترام.

فالواجب مع الباطل أن يبطل ويحذر منه، وتتفرع عن هذه الفائدة فائدة أخرى: وهي أنه لا يجوز أن نهنئهم بشيء من شعائر دينهم. قال ابن القيم ﵀: «وَأَمَّا التَّهنِئَةُ بِشَعائِرِ الكُفرِ المُختَصَّةِ بِهِ فَحَرامٌ بِالِاتِّفاقِ مِثلَ أَن يُهَنِّئَهُم بِأَعيادِهِم وَصَومِهِم، فَيَقُولَ: عِيدٌ مُبارَكٌ عَلَيكَ، أَو تَهنَأُ بِهَذا العِيدِ، وَنَحوَهُ، فَهَذا إِن سَلِمَ قائِلُهُ مِنَ الكُفرِ فَهُوَ مِنَ المُحَرَّماتِ، وَهُوَ بِمَنزِلَةِ أَن يُهَنِّئَهُ بِسُجُودِهِ لِلصَّلِيبِ، بَل ذَلِكَ أَعظَمُ إِثمًا عِندَ اللهِ وَأَشَدُّ مَقتًا مِنَ التَّهنِئَةِ بِشُربِ الخَمرِ وَقَتلِ النَّفسِ وارتِكابِ الفَرجِ الحَرامِ وَنَحوِهِ. وَكَثِيرٌ مِمَّن لا قَدرَ لِلدِّينِ عِندَهُ يَقَعُ فِي ذَلِكَ، وَلا يَدرِي قُبحَ ما فَعَلَ، فَمَن هَنَّأَ عَبدًا بِمَعصِيَةٍ أَو بِدعَةٍ أَو كُفرٍ فَقَد تَعَرَّضَ لِمَقتِ اللهِ وَسَخَطِه»[١].

---

(١) أحكام أهل الذمة (١/٤٤١).

وأعظم ما يستفاد من هذه السورة المباركة: تقرير عقيدة البراء من المشركين، ومما يُبيِّن أهميتها:

(١) أنَّ الإيمان لا يتحقق إلا بها:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾ [المائدة].

والحديث عن اليهود الذين اتخذوا المشركين أولياء.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ: «وهذه جملة شرطية إذا وُجِد الشرط وُجد المشروط... ولا يجتمع الإيمان واتخاذهم أولياء، فمن اتخذهم أولياء ما فعل الإيمان الواجب»[(١)].

(٢) تحقيقها أوثق عُرى الإيمان[(٢)]:

سأل النبيُّ ﷺ أبا ذر ﷺ: «**أتدري أيُّ عُرى الإيمان أوثق؟**»، قال: الله ورسوله أعلم. قال: «**الموالاة في الله، والمعاداة في الله، والحب في الله، والبغض في الله ﷻ**»[(٣)].

(٣) يجد المسلم إذا حققها حلاوة الإيمان:

فعَن أَنَسِ بنِ مالِكٍ ﷺ، عَن النَّبِيِّ ﷺ قالَ: «**ثَلاثٌ مَن كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمانِ: أَن يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيهِ مِمّا سِواهُما، وَأَن يُحِبَّ المَرءَ لا يُحِبُّهُ إِلّا لِلَّهِ وَأَن يَكرَهَ أَن يَعُودَ فِي الكُفرِ كَما يَكرَهُ أَن يُقذَفَ فِي النّارِ**»[(٤)].

فالحب والبغض من المعاني التي تجري على كل أحد، لكنَّ الموفَّق من أخضعها للشَّرع؛ فلا يحب إلا لله، ولا يبغض إلا لله، وما يُلقّاها إلا ذو حظٍّ عظيم.

---

(١) كتاب الإيمان، ص (١٤).
(٢) أكثرها وثاقة، أي: قوة وثباتًا.
(٣) الطبراني (٣/١٢٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٩٨).
(٤) البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣).

(٤) ومما يوضح هذه الأهمية حديث جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه، قال: قلت يا رسول الله اشترط علي. فقال: **«تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتصلي الصلاة المكتوبة، وتؤدِّي الزكاة المفروضة، وتنصح للمسلم، وتبرأُ من الكافر»**[1].

(٥) وقد أعلمنا القرآن الكريم أن التبرؤ من الكافرين دأب الأنبياء عليهم الصلاة والتسليم، ونحن مأمورون بالسير على طريقهم، فهذا أبو الأنبياء، خليل الرحمن، إبراهيم عليه السلام يقول الله تعالى عنه: ﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الشعراء]. وقال: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الزخرف].

ومع شدة بره بأبيه الذي يلمسه كل من قرأ سورة مريم أظهر التبرؤ منه لما وضح له أنه من أعداء رب العالمين، ومات على ملة المشركين؛ ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾ [التوبة].

وهذا هود عليه السلام قال الله تعالى عنه: ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ ﴾ [هود]. وقد جمع بين إظهار هذه العقيدة وبين القوة والحزم في ذلك، وقد ذُكر لنا سرُّ قوته هذه في قوله: ﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ﴾، فصدق التوكل على الله سبب حفظه ورعايته: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق: ٣].

ونبينا صلى الله عليه وسلم أعلن للمشركين براءته من دينهم وطريقتهم بعبارات صريحة لا لَبسَ يكتنفها ولا غموض يلحقها، فنزلت عليه هذه السورة المباركة؛ الكافرون، وأعلمهم بها.

---

(١) أحمد (١٩٢٣٣)، وصححه شعيب الأرنؤوط رحمه الله.

(٦) عنايته ﷺ بغرس هذه العقيدة في نفوس أصحابه:

ومما يدل على عنايته ﷺ بإرساخ هذه العقيدة في نفوس أصحابه أنهم ضربوا في تطبيقها أروع الأمثلة في غزوة بدر، وغزوة بدر في السنة الثانية من الهجرة، فهذا دليل على أن إرساء عقيدة الموالاة والمعاداة في نفوسهم كان من أولويات دعوته. قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة].

ولما قبل النبي ﷺ الفداء من المشركين يوم بدر كان رأي عمر بن الخطاب ﷺ أن يُمكن كل أحد من قريبه فيضرب عنقه؛ ليعلم الكفار أنه لا محبة عند المؤمنين لهم، ونزل القرآن الكريم مؤيدًا لقوله، ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنفال]. والكتاب الذي سبق: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد:].

والمقصود: لا بُدَّ أن نتدبر هذه السورة، وننظر في حالنا منها، وقد شرع الله قراءتها في مواطن كثيرة تمر بالمسلم في كل يوم وليلة، فلا يجوز أن يكون العبد مع ذلك غافلًا عما فيها، ومخالفًا له، والله المستعان.

سُورَةُ النَّصرِ

بين يدي سورة النصر

وهي مدنية إجماعًا[١].

أسماؤها:

تسمى بسورة: «﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾»، وسورة «النصر»، وسورة «التوديع»[٢].

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُها تسع عشرَة كلمة، وحروفها سَبعَة وَسَبعُونَ حرفًا كحروف المسد، وَهِي ثَلاث آيات فِي جَمِيع العدَد لَيسَ فِيها اختِلاف»[٣].

فضلها وما ورد فيها:

عَنِ ابنِ عَبّاسٍ ﷺ، قالَ: «كانَ عُمَرُ يُدخِلُنِي مَعَ أَشياخ بَدرٍ، فَقالَ بَعضُهُم: لِمَ تُدخِلُ هَذا الفَتَى مَعَنا وَلَنا أَبناءٌ مِثلُهُ؟ فَقالَ: «إِنَّهُ مِمَّن قَد عَلِمتُم» قالَ: فَدَعاهُم ذاتَ يَومٍ وَدَعانِي مَعَهُم قالَ: وَما رُئِيتُهُ دَعانِي يَومَئِذٍ إِلَّا لِيُرِيَهُم مِنِّي، فَقالَ: ما تَقُولُونَ فِي إذا جاءَ نَصرُ اللهِ والفَتحُ، وَرَأَيتَ النّاسَ يَدخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ

(١) زاد المسير (٥٠١/٤).
(٢) التحرير والتنوير (٥٨٧/٣٠).
(٣) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٩٤).

أَفواجًا حَتَّى خَتَمَ السُّورَةَ، فَقالَ بعضُهُم: أُمِرنا أَن نَحمَدَ اللهَ وَنَستَغفِرَهُ إذا نُصِرنا وَفُتِحَ عَلَينا، وَقالَ بَعضُهُم: لاَ نَدرِي، أَو لَم يَقُل بَعضُهُم شَيئًا، فَقالَ لِي: يا ابنَ عَبَّاسٍ، أَكَذاكَ تَقُولُ؟ قُلتُ: لاَ، قالَ: فَما تَقُولُ؟ قُلتُ: هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَعلَمَهُ اللهُ لَهُ: إذا جاءَ نَصرُ اللهِ والفَتحُ فَتحُ مَكَّةَ، فَذاكَ عَلاَمَةُ أَجَلِكَ: فَسَبِّح بِحَمدِ رَبِّكَ واستَغفِرهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّابًا. قالَ عُمَرُ: ما أَعلَمُ مِنها إلّا ما تَعلَمُ»[١].

وعَن عائِشَةَ ﵂، قالَت: ما صَلَّى النَّبِيُّ ﷺ صَلاَةً بَعدَ أَن نَزَلَت عَلَيهِ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [النصر] إلّا يَقُولُ فِيها: «سُبحانَكَ رَبَّنا وَبِحَمدِكَ اللهُمَّ اغفِر لِي». وفي رواية لها: «كانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُكثِرُ أَن يَقُولَ قَبلَ أَن يَمُوتَ: «سُبحانَكَ وَبِحَمدِكَ، أَستَغفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيكَ». قالَت: قُلتُ يا رَسُولَ اللهِ، ما هَذِهِ الكَلِماتُ الَّتِي أَراكَ أَحدَثتَها تَقُولُها؟ قالَ: «جُعِلَت لِي عَلامَةٌ فِي أُمَّتِي إذا رَأَيتُها قُلتُها، ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ٣﴾»[٢].

وعَن عُبَيدِ اللهِ بنِ عَبدِ اللهِ بنِ عُتبَةَ، قالَ: «قالَ لِي ابنُ عَبّاسٍ: تَعلَمُ آخِرَ سُورَةٍ نَزَلَت مِنَ القُرآنِ، نَزَلَت جَمِيعًا؟ قُلتُ: نَعَم، ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾، قالَ: صَدَقتَ»[٣].

موضوعاتها:

«الوعد بفتح مكة، والبشارة بدخول خلائق كثيرة في الإسلام، والأمر بكثرة ذكر الله تعالى وحمده وتسبيحه واستغفاره إذا كان ذلك»[٤].

---

(١) البخاري (٤٢٩٤).
(٢) البخاري (٤٩٦٧)، ومسلم (٤٨٤).
(٣) مسلم (٣٠٢٤).
(٤) التحرير والتنوير (٣٠/٥٨٩).

مقصدها:

البشارة بانتشار دين الإسلام بعد فتح مكة، والإيماء إلى أنه حين يقع ذلك فقد اقترب انتقال رسول الله ﷺ إلى الآخرة [١].

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٥٨٩).

سورة النصر: تأملات ووقفات

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ٣﴾

«في هذه السورة الكريمة، بشارة وأمر لرسوله عند حصولها، وإشارة وتنبيه على ما يترتب على ذلك. فالبشارة هي البشارة بنصر الله لرسوله، وفتحه مكة، ودخول الناس في دين الله أفواجًا... وأما الأمر بعد حصول النصر والفتح، فأمر رسوله أن يشكر ربه على ذلك، ويسبح بحمده ويستغفره، وأما الإشارة، فإن في ذلك إشارتين: إشارة لأن يستمر النصر لهذا الدين... وأما الإشارة الثانية، فهي الإشارة إلى أن أجل رسول الله ﷺ قد قرُب ودنا»[1]، والبشارة في الحقيقة ليست بدخول الناس في الدين، ولكن باكتمال أمره، وظهور سلطانه، وبزوغ شمسه بزوغًا لا يمكن بعده حبسه أو كبته، أما دخول الناس في دين الله أفواجًا فهذا قد رآه ﷺ قبل نزول السورة فهي متأخرة، ودخول الناس في الدين أفواجًا قبلها ولا تكون البشارة على أمر مضى بل بما هو آت.

وقد ذكر بعض أهل العلم أن سورة الكافرون وسورة النصر بينهما نحو من عشرين سنة، فما هي مناسبة أن تكون سورة النصر بعدها؟ الجواب: أن سورة الكافرون سورة الثبات على المبادئ مهما كانت الشدائد، فهذا ما يحقق النصر للأُمَّة، ولهذا أتبعت بسورة النصر. وهذا معنى لطيف يستأنس به، أشار إليه بعضهم.

---

(١) تفسير السعدي، ص(٩٣٦).

وأسند النصر إلى الله لأنه المنعم به، ولا يملك ذلك غيره سبحانه، قال ربنا: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١٢٦﴾ [آل عمران].

ومن أنواع النصر: الثبات على المبادئ، فربنا قال في كتابه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ٥١﴾ [غافر]، وفي أنبياء الله من قتل، ولكن بقي دينُه، فمن ثبت وقتل في سبيل الله فلا شك أن الله قد نصره بذلك[1].

وقوله: ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢﴾، بشارة لنبينا ﷺ بتمام أمر هذا الدين وامتداده في مشارق الأرض ومغاربها، وقد ثبت في الصحيحين، عَنِ ابنِ عباس ﷺ قالَ: النَّبِيُّ ﷺ: «**عُرِضَت عَلَيَّ الأُمَمُ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ والنَّبِيّانِ يَمُرُّونَ مَعَهُمُ الرَّهطُ، والنَّبِيُّ لَيسَ مَعَهُ أَحَدٌ، حَتَّى رُفِعَ لِي سَوادٌ عَظِيمٌ، قُلتُ: ما هَذا؟ أُمَّتِي هَذِهِ؟ قِيلَ: بَل هَذا مُوسَى وَقَومُهُ، قِيلَ: انظُر إِلَى الأُفُقِ، فَإِذا سَوادٌ يَملأُ الأُفُقَ، ثُمَّ قِيلَ لِي: انظُر ها هُنا وَها هُنا فِي آفاقِ السَّماءِ، فَإِذا سَوادٌ قَد مَلأَ الأُفُقَ، قِيلَ: هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَيَدخُلُ الجَنَّةَ مِن هَؤُلاَءِ سَبعُونَ أَلفًا بِغَيرِ حِسابٍ**»، ثُمَّ دَخَلَ وَلَم يُبَيِّن لَهُم، فَأَفاضَ القَومُ، وَقالُوا: نَحنُ الَّذِينَ آمَنّا بِاللهِ واتَّبَعنا رَسُولَهُ، فَنَحنُ هُم، أَو أَولاَدُنا الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الإِسلاَمِ، فَإِنّا وُلِدنا فِي الجاهِلِيَّةِ، فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فَخَرَجَ، فَقالَ: «**هُمُ الَّذِينَ لاَ يَستَرقُونَ، وَلاَ يَتَطَيَّرُونَ، وَلاَ يَكتَوُونَ، وَعَلَى رَبِّهِم يَتَوَكَّلُونَ**» فَقالَ عُكّاشَةُ بنُ مِحصَنٍ: أَمِنهُم أَنا يا رَسُولَ اللهِ؟ قالَ: «**نَعَم**» فَقامَ آخَرُ فَقالَ: أَمِنهُم أَنا؟ قالَ: «**سَبَقَكَ بِها عُكّاشَةُ**»[2]. وهذه رؤية علمية.

والرؤية في الآية تفسر بالرؤية البصرية، فقد رأى النبي ﷺ ذلك في عام الوفود، في السنة التاسعة من هجرته المباركة[3]، ولهذا لم يتمكن من الحج إلا في العام العاشر؛ لاستقبال الوفود، وليتطهر البيت من المشركين قبل حجه.

---

(١) للاستزادة انظر (حقيقة الانتصار) للمؤلف.
(٢) البخاري (٥٧٠٥)، ومسلم (٢٢٠).
(٣) تنظر: سيرة ابن هشام (٥٦٠/٢).

وقوله: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ﴾، أي: أكثر من ذكر الله، ومن تسبيحه وتنزيهه، ومن تحميده، واستغفاره. وهذا يدل على أن شكر الله تعالى يكون بالعمل الصالح وبذكره.

ودلَّت الآية على تقديم الثناء على الله تعالى قبل سؤاله، فالاستغفار دعاء، وقبل الدعاء أمر بالتسبيح بحمده، فالثناء قبل الدعاء، وهذا أدب من آداب سؤال الله ﷻ. وقد ثبت في حديث فَضالَةَ بنِ عُبَيدٍ ﷺ، قال: سَمِعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَجُلًا يَدعُو فِي صَلاتِهِ لَم يُمَجِّدِ اللهَ تَعالَى، وَلَم يُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**عَجِلَ هَذا**»، ثُمَّ دَعاهُ فَقالَ لَهُ: ـ أَو لِغَيرِهِ ـ «**إِذا صَلَّى أَحَدُكُم، فَليَبدَأ بِتَمجِيدِ رَبِّهِ جَلَّ وَعَزَّ، والثَّناءِ عَلَيهِ، ثُمَّ يُصَلِّي عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ يَدعُو بَعدُ بِما شاءَ**»(١).

وفي فاتحة الكتاب ما يشير إلى هذا الأدب؛ فإن السؤال فيها ورد بعد ثناء بديع على ربنا، ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، حمد وثناء، ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، ثناء وثناء، ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾، تمجيد وثناء، ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ٱهْدِنَا ﴾، دعاء بعد حمدٍ وتمجيدٍ وثناء.

والمأمور بالاستغفار من بشره العزيز الغفار بقوله: ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح: ٢]، فكيف بنا؟

وفيها أنه ينبغي للذاكر ألا يهمل شيئًا من ذكر الله، فهذا أولى من الاقتصار على نوع بعينه، ففي نصوص الوحي أمر بالتسبيح، والتحميد، والاستغفار، والتهليل، وغير ذلك من الذكر، فأقبل على أنواعه كلها؛ فإنه أبرك لعملك، وأسلم لقلبك.

وفيها: إعلام النبي ﷺ بدنو أجله، والآجال غيب لا يعلمه إلا الله، لكن الآية قد يؤخذ منها أنَّ الطبيب إذا استدل بحال مريضه على قرب موته فإن في التعريض

---

(١) أبو داود (١٤٨١)، وصححه الألباني في أصل الصفة (٣/ ٩٩٠).

له بذلك خيرًا، فبمعرفته ذلك يؤدي الحق لأهله، ويوصي بما يجب أن يفعله أهله به بعد موته، ويجتهد في الطاعة في آخر عمره، ولا بُدَّ أن يكون ذلك بأسلوب مناسب، ويختلف هذا من مريض إلى آخر، علمًا بأن الأمر كله بيد الله، وفي التنزيل: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ ﴾[البقرة: ١٨٠]، أي علاماته وقرائنه.

والسورة تجذر معاني التفاؤل في نفوس المؤمنين بأن العاقبة لهذا الدين، قال ربنا: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [التوبة]، وقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الفتح]، وقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الصف].

وجل الآيات التي وعد الله فيها بإظهار دينه تحفها آيات الجهاد في سبيله، وهذا يدل على أنَّ الجهاد أعظم وسائل إظهار هذا الدين.

فالآية الأولى قال الله قبلها: ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [التوبة]، وقال بعدها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ [التوبة].

والآية الثانية جاء قبلها: ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ [الفتح: ١٨]، وكانت المبايعة على الموت في سبيل الله، وجاء بعدها: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ ﴾ [الفتح: ٢٩]، أي: في معامع القتال ومواقع النزال.

والآية الثالثة قال ربنا قبلها: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الصف]، وبعدها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الصف].

ولكنه الجهاد الشرعيُّ الصحيح البعيد عن مسالك الغلو والتنطع والتعدي وتكفير المسلمين، كما حدث في هذا العصر ومن قبله، كالذي صنعه الخوارج وأشباههم.

وفي السورة: أن الأعمال بالخواتيم، والحرص على أن يختم الإنسان عمره بعمل صالح تَقَرُّ به في الآخرة عينه، ولأن الآجال لا يعلمها إلا الله، فلا سبيل لنيل ذلك إلا بتثبيت الأقدام في طرق الخير وسبل المعروف، وفي حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: سَمِعتُ النَّبِيَّ ﷺ، يَقُولُ: «**يُبعَثُ كُلُّ عَبدٍ عَلَى ما ماتَ عَلَيهِ**»[1]. وقد قال ربنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [آل عمران]، ويتحقق ذلك بالثبات على الدّين حتى الممات، كما قال سبحانه: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩﴾ [الحجر]، ثبتنا الله على الإسلام.

(١) مسلم (٢٨٧٨).

سُورَةُ المَسَدِ

بين يدي سورة المسد

وهي مكية اتفاقًا[١].

أسماؤها:

«سورة ﴿تَبَّتْ﴾»، و«سورة المسد»، و«سورة أبي لهب»[١].

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُها ثَلاث وَعِشرُونَ كلمة ككلم الفِيل والفلق، وحروفها سَبعَة وَسَبعُون حرفًا كحروف النَّصر، وَهِي خمس آيات فِي جَمِيع العدَد لَيسَ فِيها اختِلاف»[٢].

سبب نزولها:

عَنِ ابنِ عَبّاسٍ رضي الله عنهما، قالَ: «لَمّا نَزَلَت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ٢١٤﴾ [الشعراء]، صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الصَّفا، فَجَعَلَ يُنادِي: «**يا بَنِي فِهرٍ، يا بَنِي عَدِيٍّ**» - لِبُطُونِ قُرَيشٍ - حَتَّى اجتَمَعُوا، فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذا لَم يَستَطِع أَن يَخرُجَ أَرسَلَ رَسُولًا لِيَنظُرَ ما هُوَ، فَجاءَ أَبُو لَهَبٍ وَقُرَيشٌ، فَقالَ: «**أَرَأَيتَكُم لَو أَخبَرتُكُم أَنَّ خَيلًا بِالوادِي تُرِيدُ أَن تُغِيرَ عَلَيكُم، أَكُنتُم مُصَدِّقِيَّ؟**»، قالُوا: نَعَم، ما جَرَّبنا عَلَيكَ إِلّا صِدقًا، قالَ: «**فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُم بَينَ يَدَي عَذابٍ شَدِيدٍ**». فَقالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ سائِرَ اليَومِ، أَلِهَذا جَمَعتَنا؟

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٥٩٩).
(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٩٥).

فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ٢﴾»[١].

ما ورد فيها:

عن ابن عباس ﷺ قال: لما نزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ جاءت امرأة أبي لهب إلى النبي ﷺ ومعه أبو بكر فلما رآها أبو بكر قال: يا رسول الله إنها امرأة بذيئة وأخاف أن تؤذيك فلو قمت قال: «**إنها لن تراني**»، فجاءت فقالت: يا أبا بكر إن صاحبك هجاني قال: لا، وما يقول الشعر. قالت: أنت عندي مصدق، وانصرفت فقلت: يا رسول الله لم ترك؟! «**لا، لم يزل ملك يسترني عنها بجناحه**»[٢].

موضوعاتها:

زجر أبي لهب على قوله: تبًّا لك ألهذا جمعتنا؟ ووعيده على ذلك، ووعيد امرأته على انتصارها لزوجها، وبغضها النبي ﷺ.

مقصدها:

بيان أن النار مآل المُكذِّبين لنبينا ﷺ، المبغضين لدينه قربوا أو بعدوا، فلا محاباة في الأحكام أو الولاء والبراء.

---

(١) البخاري (٤٧٧٠)، ومسلم (٢٠٨).
(٢) صحيح ابن حبان (٦٤٧٧).

سورة المسد: تأملات ووقفات

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا
كَسَبَ ٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ
حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ٥ ﴾

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ١ ﴾، أي: «خَسِرَت، وَخابَت، وَضَلَّ عَمَلُهُ وَسَعيُهُ، ﴿ وَتَبَّ ﴾ أَي: وَقَد تَبَّ تَحَقُّقُ خَسارَتِهِ وَهَلاكِهِ»[1]. وقد قال ربنا عن فرعون: ﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ٣٧ ﴾ [غافر]، أي: خسارة وبوار.

ومن عادة العرب الذين نزل القرآن بلسانهم التعبير بالجزء عن الكل، فالمراد: خسر أبو لهب، كما قال ربنا: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ١٠ ﴾ [الحج]. واسمه عبد العزى، وقد ذكر بكنيته دون اسمه؛ لأنه عرف بها، ولئلا يعبَّد في القرآن أحد لغير الله، ولأن كنيته هي الأنسب لختام الآيات التي تلتها.

﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ٢ ﴾، ومن كسبه ولده، ففي حديث عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ مِن أَطيَبِ ما أَكَلَ الرَّجُلُ مِن كَسبِهِ، وَوَلَدُهُ مِن كَسبِهِ**»[2]. قال ربنا: ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ ﴾ [سبأ: ٣٧].

﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ٣ ﴾، وجيء بالسين هنا التي تدل على القرب للدلالة على وقوع هذا الأمر، وأنه كائن لا محالة.

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/٥١٥).
(٢) أبو داود (٣٥٢٨)، وصححه الألباني في أحكام الجنائز، ص(١٧١).

قال ابن كثير ﵀: «قالَ العُلَماءُ: وَفِي هَذِهِ السُّورَةِ مُعجِزَةٌ ظاهِرَةٌ وَدَلِيلٌ واضِحٌ عَلَى النُّبُوَّةِ، فَإِنَّهُ مُنذُ نَزَلَ قَولُهُ تَعالَى: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥﴾، فَأَخبَرَ عَنهما بِالشَّقاءِ وَعَدَمِ الإيمانِ، لَم يُقَيِّض لَهُما أَن يُؤمِنا، وَلا واحِدَ مِنهُما لا ظاهِرًا وَلا باطِنًا، لا مُسِرًّا وَلا مُعلِنًا، فَكانَ هَذا مِن أَقوَى الأَدِلَّةِ الباهِرَةِ عَلَى النُّبُوَّةِ الظّاهِرَةِ»[١].

وقوله: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥﴾، فيه مثال للأزواج الأشقياء المتظاهرين على الإثم والعدوان، وامرأته هي أم جميل، واسمها أروى بنت حرب، وهي أخت أبي سفيان ﵁، ومعنى حمالة الحطب أنها «تَحمِلُ الحَطَبَ فَتُلقِي عَلَى زَوجِها، لِيَزدادَ عَلَى ما هُوَ فِيهِ، وَهِيَ مُهَيَّأَة لِذَلِكَ مُستَعِدَّةٌ لَه ... وَعَن مُجاهِدٍ، وَعِكرِمَةَ، والحَسَنِ، وَقَتادَةَ، والثَّورِيِّ، والسُّدِّيِّ: ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ كانَت تَمشِي بِالنَّمِيمَةِ، واختارَهُ ابنُ جَرِيرٍ. وَقالَ العَوفِيُّ عَنِ ابنِ عَبّاسٍ، وَعَطِيَّةَ الجَدَلِيِّ، والضَّحّاكِ، وابنِ زَيدٍ: كانَت تَضَعُ الشَّوكَ فِي طَرِيقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، واختارَهُ ابنُ جَرِيرٍ. قالَ ابنُ جَرِيرٍ: وَقِيلَ: كانَت تُعَيِّرُ النَّبِيَّ ﷺ بِالفَقرِ، وَكانَت تَحتَطِبُ، فَعُيِّرَت بِذَلِكَ. كَذا حَكاهُ، وَلَم يَعزُهُ إِلَى أَحَدٍ. والصَّحِيحُ الأَوَّلُ، واللهُ أَعلَمُ»[٢]، قلت: والاحتطاب ليس عيبًا يعيَّر به فاعله، بل دلَّ النبي ﷺ عليه وأرشد إليه بدلًا من سؤال الناس، قال ﷺ: «**والَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ لَأَن يَأخُذَ أَحَدُكُم حَبلَهُ فَيَحتَطِبَ عَلَى ظَهرِهِ خَيرٌ لَهُ مِن أَن يَأتِيَ رَجُلًا فَيَسأَلَهُ أَعطاهُ أَو مَنَعَهُ**»[٣].

وقوله: ﴿جِيدِهَا﴾؛ أي: عنقها، والمسد: كل ما فُتل وضفِّر من الليف وغيره، وهذا الحبل تعذب به في النار[٤]، على نحو لا يعلمه إلا الله تعالى.

---

(١) تفسير ابن كثير (٥١٧/٨).
(٢) تفسير ابن كثير (٥١٥/٨).
(٣) صحيح البخاري (١٤٧٠).
(٤) ينظر: زاد المسير (٥٠٣/٤).

وأعمام النبي ﷺ ماتوا قبل بعثته، وقد أدرك منهم أربعةً، أبا طالب وأبا لهب، ولم يؤمنا به، وحمزة والعباس، ﷺ.

وقد كان أبو لهب يمشي خلف النبي ﷺ في أسواق الحجاز وغيرها، ويحذر الناس منه، وكان وقع ذلك شديدًا عليه، ولم يرد عليه النبي ﷺ بكلمة، فقد قال نبينا ﷺ: «**عَمّ الرَّجُلِ صِنوُ أَبِيهِ**»[1]، لكن تولى الله تعالى الدفاع عنه، وكفى بهذه السورة ردًا ودفاعًا عن النبي ﷺ، من قبل ربّه ومولاه ﷻ.

وفي القرآن الكريم ذكر لبعض الكفار بوصفهم وعملهم، ولبعضهم بأسمائهم؛ كهامان، وقارون، وأبي لهب، وهذه وإن كان كنية فإنها تجرى مجرى الاسم، وهذا يدل على أن المصلحة إذا اقتضت التحذير من معين باسمه فلا حرج، وإلّا فالأولى إغفال ذلك، لما قد يترتب عليه من المفاسد، وأذى الأحياء، ولذلك فليس في القرآن ذكر كافرٍ حي معاصر إلّا أبا لهب، ولا يوجد في القرآن تصريح باسم منافق واحد.

وفي السورة سجع كما في كثير من آي القرآن، ومراعاة الفواصل مطردة في القرآن الكريم، وذلك يجعل للكلام وقعًا شريطة ألا يقع متكلفًا، وكتاب ربنا منزه عن التكلف. وعلى هذا يفهم حديث الصحيحين: «**إِنَّما هَذا مِن إِخوانِ الكُهّانِ**»، مِن أَجلِ سَجعِهِ الَّذي سَجَعَ[2]. وسجع الكهان متكلف ثقيل بغيض ولا يعدهم العرب في الفصحاء.

والسورة دالة على أنه لا ينتفع أحد بنسبه، ولو كان عم رسول الله ﷺ، وفي الحديث: «**ومَن بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَم يُسرِع بِهِ نَسَبُهُ**»[3].

ودلت السورة على أن الهداية بيد الله تعالى، والله ولي التوفيق.

---

(١) مسلم (٩٨٣).
(٢) البخاري (٥٧٥٨)، ومسلم (١٦٨١).
(٣) مسلم (٢٦٩٩).

سُورَةُ الإِخْلَاصِ

بين يدي سورة الإخلاص

وهي من السور المختلف في كونها مدنية أو مكية[١].

أسماؤها:

«سورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾»، و«سورة الإخلاص»، و«التوحيد»، و«الأساس». ويطلق اسم «الإخلاص» عليها وعلى الكافرون، واسم «المقشقشة»، عليها وعلى الكافرون والتوبة[١].

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُها خمس عشرَة كلمة، وحروفها سَبعَة وَأَربَعُون حرفًا، وَهِي خمس آيات فِي المَكِّيِّ والشامي، وَأَربع فِي عدد الباقِينَ، واختلافها آية: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾، عدها المَكِّيّ والشامي وَلم يعدها الباقُونَ»[٢].

فضلها وما ورد فيها:

● **حب سورة الإخلاص سبب لمحبة الله للعبد:**

فقد ثبت عَن عائِشَةَ ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعَثَ رَجُلًا عَلَى سَرِيَّةٍ، وَكَانَ يَقرَأُ لِأَصحابِهِ فِي صَلاتِهِم فَيَختِمُ بِـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فَلَمَّا رَجَعُوا ذُكِرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٦١١).
(٢) البيان في عدّ آي القرآن، ص(٢٩٦).

اللهِ ﷺ، فقالَ: «سَلُوهُ لأيِّ شيء يَصنَعُ ذَلِكَ؟»، فَسَأَلُوهُ، فقالَ: لِأَنَّها صِفَةُ الرَّحمَنِ؛ فَأَنا أُحِبُّ أَن أَقرَأَ بِها. فَقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَخبِرُوهُ أَنَّ اللهَ يُحِبُّهُ»[1].

وهنا تنبيهان ذكرهما بعض أهل العلم:

الأول: حب الله تعالى له ليس بسبب قراءته لها في كل ركعة وختمه الركعات بها، وإنما لحبِّه لها.

الثاني: هذا الإقرار دليل على المشروعية لمن شابهت حالُه حالَه لا الاستحباب، ولذلك لم يقرأ بها النبي ﷺ، ولا أكثر الصحابة، لكن لا ينكر على من فعل ذلك لمقتض من نحو ما قام بذلك الصحابي، إلّا إذا سبب ذلك تشويشًا أو فتنة عند العوام فينهى عن ذلك درءًا للمفسدة.

● **وسورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن الكريم:**

فعن أبي الدرداء ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**أيعجِز أحدُكم أن يقرأ في ليلة ثلث القرآن**». قالوا: وكيف يقرأ ثلث القرآن؟ قال: «﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ **تعدل ثلث القرآن**»[2].

وعَن قَتادَةَ بنِ النعمان ﷺ، أَنَّ رَجُلًا قامَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ يَقرَأُ مِن السَّحَرِ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، لا يَزِيدُ عَلَيها، فَلَمّا أَصبَحنا أَتَى الرَّجُلُ النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، وَكَأَنَّ الرَّجُلَ يَتَقالُّها، فَقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**والَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ إِنَّها لَتَعدِلُ ثُلُثَ القُرآنِ**»[3].

ولمسلم[4]: «**إن الله ﷻ جَزَّأَ القرآن بثلاثة أجزاء، فجعل** ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ **جزءًا من أجزاء القرآن**».

وعَن أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ قالَ: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**احشُدُوا؛ فَإِنِّي سَأَقرَأُ عَلَيكُم ثُلُثَ**

---

(١) البخاري (٧٣٧٥)، ومسلم (٨١٣).
(٢) البخاري (٥٠١٥).
(٣) البخاري (٥٠١٣).
(٤) (٨١١).

القُرآنِ». فَحَشَدَ مَن حَشَدَ، ثُمَّ خَرَجَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ فَقَرَأَ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، ثُمَّ دَخَلَ، فَقالَ بَعضُنا لِبَعضٍ: إِنِّي أُرَى هَذا خَبَرٌ جاءَهُ مِن السَّماءِ، فَذاكَ الَّذِي أَدخَلَه. ثُمَّ خَرَجَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ فَقالَ: «**إِنِّي قُلتُ لَكُم: سَأَقرَأُ عَلَيكُم ثُلُثَ القُرآنِ، أَلا إِنَّها تَعدِلُ ثُلُثَ القُرآنِ**»[1].

فما معنى أنها تعدل ثلث القرآن؟ قال النووي رحمه الله: «قال القاضي: قال المازري: قيل: معناه أن القرآن على ثلاثة أنحاء: قصص، وأحكام، وصفات لله تعالى، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، متضمنة للصفات. فهي ثلث، وجزء من ثلاثة أجزاء. وقيل: معناه أن ثواب قراءتها يضاعف بقدر ثواب قراءة ثلث القرآن بغير تضعيف»[2].

هذا قولان حكاهما النووي رحمه الله.

والصحيح أنها تعدل ثلث القرآن الكريم في الأجر؛ لحديث ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، **تعدل ربع القرآن**»[3]. فإذا جعلنا القرآن ثلاثة أجزاء؛ خبرًا عن الله، وخبرًا عن عباد الله، وخبرًا عن أحكام الله؛ لنفهم معنى أن الإخلاص تعدل ثلث القرآن، فكيف سنقسمه إلى أربعة أجزاء لنفهم أن الكافرون تعدل ربعه؟!

ولا بُدَّ من الإشارة إلى أنها تعدل ثلث القرآن في الجزاء لا في الإجزاء، وهذا كما قال النبي ﷺ: «**مَن قالَ: لاَ إِلَهَ إِلّا اللهُ، وَحدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلكُ وَلَهُ الحَمدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ، فِي يَومٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، كانَت لَهُ عَدلَ عَشرِ رِقابٍ، وَكُتِبَت لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيَت عَنهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكانَت لَهُ حِرزًا مِنَ الشَّيطانِ يَومَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمسِيَ، وَلَم يَأتِ أَحَدٌ بِأَفضَلَ مِمّا جاءَ بِهِ، إِلّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكثَرَ مِن ذَلِكَ**»[4]. فهل يجزئ ذلك عن إعتاق

---

(١) مسلم (٨١٢).
(٢) شرح مسلم (٦/٩٥).
(٣) الحاكم في المستدرك (٢٠٧٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥٨٦).
(٤) البخاري (٣٢٩٣)، ومسلم (٢٦٩١).

عشر رقاب ممن وجب عليه ذلك وقال هذا الذكر مرة واحدة؟ لا يجزئ. أما في الجزاء فيعدل ذلك.

● **قراءتها سبب لدخول الجنة:**

فعَن أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَمِعَ رَجُلا يَقرَأُ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فَقالَ: «**وَجَبَت**». قالُوا: يا رَسُولَ اللهِ ما وَجَبَت؟ قالَ: «**وَجَبَت لَهُ الجَنَّةُ**»[١].

● **ومن قرأها عشر مرات بني له قصر في الجنة:**

قال رسول الله ﷺ: «**مَن قَرَأَ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ حَتَّى يَختِمَها عَشرَ مَرّاتٍ بَنَى اللهُ لَهُ قَصرًا فِي الجَنَّةِ**». فقال عمر: إذًا أستكثر يا نبي الله؟ فَقالَ رسول الله ﷺ: «**الله أكثر وأطيب**»[٢].

● **ومن فضائلها:**

أنها مع المعوذتين سبب في حفظ العبد، وكان ﷺ يقرأ بها مع المعوذتين وينفث إذا اشتكى، وإذا أوى إلى فراشه عند النوم[٣]. وكان ﷺ يقرأ بها في الوتر[٤]، وفي ركعة سنة الفجر الأخيرة[٥]، وفي ركعتي الطواف[٦]، وفي مواطن أخرى، ويأتي بعض ذلك.

فائدة:

دلَّ ما سبق من نصوصٍ على أنَّ القرآن يتفاضل، وإنما يتفاضل باعتبار موضوعاته، فإنَّ المتكلم به واحد، وهو الله سبحانه.

فالفاتحة أعظم سورة في القرآن، وآية الكرسي أعظم آية في القرآن، وقد صحَّ بذلك الحديث عن رسول الله ﷺ. وخير كتاب عُني بهذا الباب كتاب (فضائلُ القرآن

(١) أحمد (٨٠١١)، وصححه الشيخ شعيب الأرنؤوط في تخريجه.
(٢) أحمد (١٥٦١٠)، وهو في السلسلة الصحيحة (٥٨٩).
(٣) ينظر صحيح البخاري (٥٠١٧)، (٥٧٤٨).
(٤) ينظر حديث ابن عباس ﷺ في سنن الترمذي (٤٦٢)، وحديث أبي ﷺ عند أحمد (١٢٣/٥) وغيره، وجاء من حديث آخرين.
(٥) ينظر صحيح مسلم (٧٢٦).
(٦) ينظر صحيح مسلم (١٢١٨).

ومعالمه وآدابه)، لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي، وليس كل سورة من سور القرآن ورد لها فضل يخصها في السنة، بل كثير مما ذكر في كتب فضائل القرآن عن فضائل بعض السور إما ضعيف أو موضوع.

موضوعاتها:

«إثبات وحدانية الله تعالى. وأنه لا يقصد في الحوائج غيره وتنزيهه عن سمات المحدثات. وإبطال أن يكون له ابن.

وإبطال أن يكون المولود إلهًا مثل عيسى ﷺ»[1].

مقصدها:

تنزيه الربِّ ﷻ.

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٦١٢).

سورة الإخلاص: تأملات ووقفات

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١)﴾، الواحد في ألوهيته، وربوبيته، وأسمائه، وصفاته.

﴿اللَّهُ الصَّمَدُ (٢)﴾، السيِّد الكامل الذي يُصمَدُ إليه في الحوائج[1] أي يُقصَد.

﴿لَمْ يَلِدْ﴾، وفي هذا رد على اليهود الذين قالوا: إن عزيرًا ابن الله، وعلى النصارى القائلين بأن المسيح ابن الله، وعلى المشركين القائلين بأن الملائكة بنات الله! ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥)﴾ [الكهف].

﴿وَلَمْ يُولَدْ (٣)﴾، قال ربنا: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣)﴾ [الحديد]. والمخلوق يولد، ثم يولد له، وقدم ربنا نفي كونه أبًا ردًّا على من زعم ذلك، وليس في الناس من قال بالثانية في حقه سبحانه. ولكنه ذُكر لأنه إذا لم يُنف فقد يتبادر إلى بعض الأذهان سؤال بشأنه، وهذا من جملة بلاغة القرآن ونظمه العجيب.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾، أي: ليس لله مثيل يكافئه في شيء من صفاته، ولا في أسمائه. قال ربنا: ﴿رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥)﴾ [مريم]، وقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١)﴾ [الشورى].

(١) زاد المسير في علم التفسير (٤/٥٠٦).

وهذه السورة المباركة تتأكد قراءتها في مواطن، وهي:

(١) عند النوم:

فعن عائشة ﵂: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كانَ إذا أَوى إِلَى فِراشِهِ كُلَّ لَيلَةٍ جَمَعَ كَفَّيهِ، ثُمَّ نَفَثَ فِيهِما، فَقَرَأَ فِيهِما: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، وَ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، وَ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، ثُمَّ يَمسَحُ بِهِما ما استطاعَ مِن جَسَدِهِ، يَبدَأُ بِهِما عَلَى رَأسِهِ وَوَجهِهِ وَما أَقبَلَ مِن جَسَدِهِ، يَفعَلُ ذَلِكَ ثَلاثَ مَرّاتٍ»(١).

(٢) في الوتر:

لحديث عبد الرحمن بن أبزى ﵁، عَن رَسُولِ اللهِ ﷺ كانَ يُوتِرُ بِـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، وَ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وَ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، فَإِذا فَرَغَ قالَ: «**سُبحانَ المَلِكِ القُدُّوسِ**» ثَلاثًا، وَيَمُدُّ فِي الثّالِثَةِ(٢).

والإخلاص والفلق والناس: المعوِّذات، وأما الأخيرتان فهما المعوِّذتان.

(٣) في الصباح والمساء:

ففي المسند عَن عُقبَةَ بنِ عامِرٍ ﵁ قالَ: لَقِيتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقالَ لِي: «**يا عُقبَةُ بنَ عامِرٍ أَلا أُعَلِّمُكَ سُوَرًا ما أُنزِلَت فِي التَّوراةِ وَلا فِي الزَّبُورِ ولا فِي الإِنجِيلِ وَلا فِي الفُرقانِ مِثلُهُنَّ؟ لا يَأتِيَنَّ عَلَيكَ لَيلَةٌ إِلا قَرَأتَهُنَّ فِيها: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾**». قالَ عُقبَةُ: «فَما أَتَت عَلَيَّ لَيلَةٌ إِلا قَرَأتُهُنَّ فِيها، وَحُقَّ لِي أَن لا أَدَعَهُنَّ وَقَد أَمَرَنِي بِهِنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ»(٣).

وعن عَبدِ اللهِ بنِ خُبَيبٍ ﵁ قال: خَرَجنا فِي لَيلَةِ مَطَرٍ وَظُلمَةٍ شَدِيدَةٍ نَطلُبُ رَسُولَ اللهِ ﷺ لِيُصَلِّيَ لَنا، فَأَدرَكناهُ، فَقالَ: «**أَصَلَّيتُم؟**»، فَلَم أَقُل شَيئًا. فَقالَ: «**قُل**». فَلَم أَقُل شَيئًا. ثُمَّ قالَ: «**قُل**». فَلَم أَقُل شَيئًا. ثُمَّ قالَ: «**قُل**». فَقُلتُ: يا رَسُولَ اللهِ ما أَقُولُ؟

---

(١) البخاري (٥٠١٧).

(٢) النسائي (١٧٠١)، وصححه الألباني في أصل صفة الصلاة (٢/٥٣٩).

(٣) أحمد (١٧٤٥٢)، وصححه الشيخ شعيب الأرنؤوط.

قالَ: «**قُل: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، والمُعَوِّذَتَينِ حِينَ تُمسِي وَحِينَ تُصبحُ ثَلاثَ مَرّاتٍ تَكفِيكَ مِن كُلِّ شَيءٍ**»(١).

(٤) في ركعتي الفجر:

فعَن أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ، «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَرَأَ فِي رَكعَتَي الفَجرِ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وَ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾»(٢). وقال ﷺ: «**نعمت السورتان يقرأ بهما في ركعتين قبل الفجر ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾**»(٣).

(٥) في الركعتين بعد المغرب:

فعَن عَبدِ اللهِ بنِ مَسعُودٍ ﷺ، أَنَّهُ قالَ: «ما أُحصِي ما سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقرَأُ فِي الرَّكعَتَينِ بَعدَ المَغرِبِ وَفِي الرَّكعَتَينِ قَبلَ صَلاَةِ الفَجرِ بِـ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وَ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾»(٤).

(٦) في ركعتي الطواف:

ففي صحيح مسلم، أَنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا فرغ من طوافه بالبيت «يَقرَأُ فِي الرَّكعَتَينِ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وَ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾»(٥).

● **وهنا سؤال: لماذا كان النبي ﷺ يقرن بين الكافرون والإخلاص في هذه الصلوات؟**

والجواب: «لأنهما قد اشتملتا على أنواع التوحيد الثلاثة، فسورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ اشتملت على توحيد الربوبية والأسماء والصفات، فأثبتت أن الله تعالى إله واحد، ونفت عنه الولد والوالد والنظير، وهو مع هذا فـ ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ الذي اجتمعت له صفات الكمال كلها. وسورة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، تضمنت توحيد العبادة، وأن العبد لا يعبد إلا الله، ولا يشرك به في عبادته أحدًا، فلذلك كان الرسول ﷺ يفتتح

(١) أبو داود (٥٠٨٢)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.
(٢) مسلم (٧٢٦).
(٣) ابن خزيمة في صحيحه (١٢١/١)، وهو في السلسلة الصحيحة للألباني (٦٤٦).
(٤) الترمذي (٤٣١)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٨٥١).
(٥) سبق تخريجه في سورة الكافرون.

بهما النهار في سنة الفجر، ويختم بهما في سنة المغرب، وفي السنن أنه كان يوتر بهما، فيكونان خاتمة عمل الليل كما كانا خاتمة عمل النهار»[١].

(٧) في الرقية:

ففي الصحيحين عَن أمنا عائِشَةَ ﵂: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كانَ إذا اشتَكَى يَقرَأُ عَلَى نَفسِهِ بِالمُعَوِّذاتِ وَيَنفِثُ، فَلَمَّا اشتَدَّ وَجَعُهُ كُنتُ أَنا أَقرَأُ عَلَيهِ وَأَمسَحُ عَلَيهِ بِيَمِينِهِ رَجاءَ بَرَكَتِها»[٢].

(٨) بعد الصلوات المكتوبات:

قال عقبة بن عامر ﵁: «أَمَرَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ أَن أَقرَأَ بِالمُعَوِّذاتِ دُبُرَ كُلِّ صَلاةٍ»[٣].

وتكرارها ثلاث مرات بعد صلاتي الفجر والمغرب محل خلاف، للخلاف في صحة الدليل.

وكثير من الأحاديث وضعت على لسان رسول الله ﷺ في فضل هذه السورة المباركة لم يقلها! منها:

حديث: «مَن قَرَأَ كُلَّ يَومٍ مِائَتَي مَرَّةٍ: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، مُحِيَ عَنهُ ذُنُوبُ خَمسِينَ سَنَةً إِلَّا أَن يَكُونَ عَلَيهِ دَينٌ».

ومنها حديث: «من قرأ: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ مرة بورك عليه، فإن قرأها مرتين بورك عليه وعلى أهله، فإن قرأها ثلاثًا بورك عليه وعلى أهله وعلى جيرانه، وإن قرأها اثنتي عشرة مرة بنى الله له بها اثني عشر قصرًا في الجنة. وتقول الحفظة: انطلقوا بنا ننظر إلى قصور أخينا، فإن قرأها مئة مرة كفر عنه ذنوب خمس وعشرين سنة؛ ما خلا الدماء والأموال، فإن قرأها مائتي مرة كفر عنه ذنوب خمسين سنة؛ ما خلا الدماء والأموال، وإن قرأها ثلاث مئة

(١) بدائع الفوائد لابن القيم (١/١٤٥ ـ ١٤٦).
(٢) البخاري (٥٠١٦)، ومسلم (٢١٩٢).
(٣) صحيح أبي داود (١٣٦٣).

مـرة كتـب له أجـر أربـع مئة شـهيد، كل قـد عقر جـواده وأهريـق دمـه، وإن قرأها ألـف مـرة لـم يمت حـتى يـرى مكانه مـن الجنـة أو يـرى له» وهـذا موضوع.

وفي الباب أحاديث أخرى فيها بعض الاختلاف في الأعداد، ففي بعضها قراءة سورة الإخلاص خمسين مرة، وفي أحاديث أخرى مئة مرة، وليس لها أسانيد ثابتة.

ومنها: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ألف مرة فقد اشترى نفسه من النار».

كل هذا لم يثبت عن النبي ﷺ. والله أعلم.

سُورَةُ الفَلَق

بين يدي سورة الفلق

وهي مكية على الصحيح[١].

أسماؤها:

سورة «﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾»، وسورة «﴿الْفَلَقِ﴾»، وسميت بـ«المُعَوِّذة الأولى». وتسمى مع الناس بالمُعَوِّذتين، والمُعوِّذات: الإخلاص، والفلق، والناس[١].

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُها ثَلاث وَعِشْرُونَ كلمة ككلم الفِيل والمسد، وحروفها تِسعَة وَسَبعُونَ كحروف النَّاس، وَهِي خمس آيات فِي جَمِيع العدَد لَيسَ فِيها اختِلاف»[٢].

ما ورد فيها:

يراجع ما كتب تحت سورة الإخلاص، ففيه الأحاديث التي بيَّنت فضل المعوذات، والمواطن التي تتأكد قراءتها فيها.

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٦٢٤).

(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٩٧).

موضوعاتها:

«تعليم النبي ﷺ كلمات للتعوذ بالله من شر ما يتقى شره من المخلوقات الشريرة، والأوقات التي يكثر فيها حدوث الشر، والأحوال التي يستر أفعال الشر من ورائها لئلا يرى فاعلوها بتبعاتها، فعلم الله نبيَّهُ هذه المعوذة ليتعوذ بها، وقد ثبت أن النبيء ﷺ كان يتعوذ بهذه السورة وأختها ويأمر أصحابه بالتعوذ بهما، فكان التعوذ بهما من سنة المسلمين»[١].

مقصدها:

التحرز بها من شَرِّ السَّحر والحسد، ومن شرِّ كلِّ ذي شرٍّ من طوارق الليل أو النهار.

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٦٢٥).

سورة الفلق: تأملات ووقفات

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾، الفلق: الصبح، قال ربنا: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦]، والفجر يفلق ظلام الليل أي يشقه ويمزق أستاره إذا انتشر.

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾، ما موصولة فهي استعاذة من شر المخلوقات. وقد ثبت عن أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كانَ يَقُولُ إذا أَوَى إِلَى فِراشِهِ: «اللهُمَّ رَبَّ السَّمواتِ، وَرَبَّ الأَرضِ، وَرَبَّ كُلِّ شَيءٍ، فالِقَ الحَبِّ والنَّوَى، مُنَزِّلَ التَّوراةِ، والإِنجِيلِ، والقُرآنِ، أَعُوذُ بِكَ مِن شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ، أَنتَ آخِذٌ بِناصِيَتِهِ، أَنتَ الأَوَّلُ فَلَيسَ قَبلَكَ شَيءٌ، وَأَنتَ الآخِرُ فَلَيسَ بَعدَكَ شَيءٌ، وَأَنتَ الظَّاهِرُ فَلَيسَ فَوقَكَ شَيءٌ، وَأَنتَ الباطِنُ فَلَيسَ دُونَكَ شَيءٌ، اقضِ عَنِّي الدَّينَ، وَأَغنِنِي مِنَ الفَقرِ»(١).

﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾، وهذه فسرها نبي الله ﷺ، كما في الحديث عن عائِشَةَ ﷺ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَظَرَ إِلَى القَمَرِ، فَقالَ: «يا عائِشَةُ، استَعِيذِي بِاللهِ مِن شَرِّ هَذا، فَإِنَّ هَذا هُوَ الغاسِقُ إذا وَقَبَ»(٢)، وقد فُسِّر ذلك بوقت بزوغ القمر وظهوره، وهو يقوى سلطانه إذا دخل الليل واشتدت ظلمته، وفُسِّر بوقت كسوفه والغاسق إذا اسود ودخل في ساهوره أي الظل الصنوبري الذي يعتريه.

---

(١) أبو داود (٥٠٥١)، وصححه الألباني في صحيح الكلم الطيب (٤١).
(٢) الترمذي (٣٣٦٦)، وهو في السلسلة الصحيحة (٣٧٢).

﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ٤ ﴾، أي: النفوس النفاثات، والنفث: تفل به ريق يسير، تفعل ذلك لتصنع السحر، وقد تكون النفس النافثة لرجل، وقد تكون لامرأة.

﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ٥ ﴾، والحسد كراهة أن ينعم الله على أخيك. فإن تمنى زوال النعمة فهي ظلمات بعضها فوق بعض.

والغبطة تمني الخير، قال نبينا ﷺ: **«لاَ حَسَدَ إِلّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتاهُ اللهُ مالًا فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ، وَرَجُلٌ آتاهُ اللهُ الحِكْمَةَ فَهُوَ يَقضِي بِها وَيُعَلِّمُها»**[1]. والحسد هنا بمعنى الغبطة، ولا حرج فيها، لكن ليحذر المسلم أن يقع الحسد المذموم في قلبه متصورًا أنه غبطة!

والحسد سبب شر عظيم، وأول قتل وقع كان بسبب الحسد، قال ربنا: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٧ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٣٠ ﴾ [المائدة].

والحسد هو الذي أخرج إبليس من الجنة، وحمله على معصية أمر ربنا، قال الله: ﴿ إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ٧١ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٧٢ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ٧٣ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧٤ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ٧٥ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ٧٦ ﴾ [ص].

ومن هدايات الآيات أن للسحر حقيقة وتأثيرًا، ولولا ذلك لما أمرنا الله ﷻ بالتعوذ منه.

---

(١) البخاري (٧٣)، ومسلم (٨١٥).

سُورَةُ النَّاسِ

بين يدي سورة الناس

وهي مكية على الصحيح[١].

أسماؤها:

«سورة ﴿النَّاسِ﴾»، و«﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾»، و«المُعوِّذة الثانية»[١].

عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

«كَلِمُها عشرُون كلمة، وحروفها تِسعَة وَسَبعُونَ حرفًا كحروف الفلق، وَهِي سبع آيات فِي المَكِّيَ والشامي وست فِي عدد الباقِينَ، واختلافها آية: ﴿الْوَسْوَاسِ﴾ ،عدها المَكِّيُّ والشامي وَلم يعدها الباقُونَ»[٢].

فضلها وما ورد فيها:

سبق ذكر ذلك في تأملات سورة الإخلاص.

موضوعاتها:

«إرشاد النبي ﷺ لأن يتعوذ بالله ربه من شر الوسواس الذي يحاول إفساد عمل النبي ﷺ وإفساد إرشاده الناس، ويلقي في نفوس الناس الإعراض عن دعوته. وفي

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٦٣١).
(٢) البيان في عد آي القرآن، ص(٢٩٨).

هذا الأمر إيماء إلى أن الله تعالى معيذه من ذلك فعاصمه في نفسه من تسلط وسوسة الوسواس عليه، ومتمم دعوته حتى تعم في الناس. ويتبع ذلك تعليم المسلمين التعوذ بذلك، فيكون لهم من هذا التعوذ ما هو حظهم من قابلية التعرض إلى الوسواس، ومع السلامة منه بمقدار مراتبهم في الزلفى»[١].

مقصدها:

التحرز بها من شر الشيطان، والتخلص من وسواسه الذي ابتلي به كثير من الناس.

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٦٣٢).

سورة الناس: تأملات ووقفات

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾، أعوذ: أي أتحصن وألتجئ وأعتصم وأستجير بك يا الله، وفي التعوذ بهذه الصيغة توسل بالربوبية المقتضية للحفظ والكلاءة والرعاية.

﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢﴾، أي سيد الناس ومالكهم وحاكمهم، ومن تمام الاستعاذة أن تتصرف تصرف المملوك فتصدر عن حكم الملك المالك ﷻ.

﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ أي معبودهم بحق وحده ﷻ.

﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «الشَّيطانُ جاثِمٌ عَلَى قَلبِ ابنِ آدَمَ، فَإذا سَها وَغَفَلَ وَسوَسَ، فَإذا ذَكَرَ اللهَ خَنَس»[1]. وهذا يدل على عظيم أثر الذكر في الوقاية من الشيطان، وفي الصحيحين، أن رسول الله ﷺ قال: «**لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم الله، جنِّبنا الشيطان، وجنِّب الشيطان ما رزقتنا؛ فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضرَّه الشيطان أبدًا**»[2].

﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾، أي في صدور بني آدم وفي صدور الجن، فدلت على دخول الجن في كلمة ﴿ٱلنَّاسِ﴾.

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/٥٤٠).
(٢) البخاري (٣٢٧١)، ومسلم (١٤٣٤).

قال ابن كثير ﷺ: «هَل هُوَ تَفصِيلٌ لِقَولِهِ: ﴿يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ ثُمَّ بَيَّنَهم فَقالَ: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾... وَقِيلَ قَولُهُ: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾، تَفسِيرٌ لِلَّذِي يُوسوِس فِي صُدُورِ النّاسِ، مِن شَياطِينِ الإنسِ والجِنِّ، كَما قالَ تَعالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ١١٢﴾ [الأنعام]»[1]، وهذا الأخير يدل على أن الموسوس بالشر من الإنس كذلك يخنس ويخسأ إذا ذكرت الله تعالى وهو معنى حق.

والوسوسة تبدأ بالأمر الحقير؛ ليجر بعده إلى العظيم والخطير، ولذا نُهينا عن اتباع خطوات الشيطان، قال ربنا: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ١٦٨﴾ [البقرة]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱدْخُلُوا فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ٢٠٨﴾ [البقرة]، وقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ١٤٢﴾ [الأنعام]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢١﴾ [النور].

ومن الملاحظ في هذه السورة أن الله تعالى أرشد العباد إلى الاستعاذة بثلاث صفات مضمنة في أسمائه: الرب، والملك، والإله، من الشيطان الذي يوسوس في صدور الناس، وهذه الصفات هي الربوبية المقتضية للخلق والتدبير والرعاية، والملك المقتضي للقدرة والقوة والسلطان، والإلهية المقتضية إفراده تعالى بالعبادة، فتضمنت التوسل إليه بصفاته المناسبة للمنعة والإعاذة، وبتوحيده المؤهل لرحمة العبد وإعاذته.

ومن الملاحظ أيضًا أنه تعالى لما شرع الاستعاذة من شر عموم الخلق في سورة الفلق جاء السؤال باسم واحد: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، ولما شرع الاستعاذة من الشياطين في سورة الناس جاءت الاستعاذة بثلاثة أسماء، لأنه لا سبيل إلى دفع شر شياطين

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/٥٤٠).

الجن إلّا بالالتجاء إلى الله والاعتصام به تعالى، أما غيرهم من الخلائق فتمكن مداراته. وأيضًا لما كان المستعاذ منه في سورة الفلق شرًّا خارجيًا، استعاذ بالرب تعالى، ولما كان الوسواس داخليًّا ممن يجري من ابن آدم مجرى الدم، في سورة الناس، استعاذ بالرب الملك الإله ﷻ؛ لأن العدو الداخلي أشد خطرًا من العدو الخارجي، وكلاهما عدو خطير، لذا شرعت الاستعاذة منهما في اليوم والليلة مرات.

هذا وفي السورة من التنويه بخطر الوسوسة ما لا يخفى، أصلح الله الصدور، وحفظ القلوب، ووفق لمرضاته، والحمد لله رب العالمين.

فهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

تمَّ بحمد الله